

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
علم النفس
في التراث الإسلامي
الجزء الأول
د. إبراهيم شوقي عبد الحميد
د. أسامة سعد أبو سريع
د. الحسين محمد عبد المنعم
د. جمعة سيد يوسف
د. شعبان جاب الله رضوان
د. طريف شوقي محمد
د. عبد اللطيف محمد خليفة
د. عبد المنعم شحاتة محمود
د. محمد أحمد شابي
د. محمد نجيب الصبوة
د. معتز سيد عبد الله
إشراف وتقديم
أ.د. محمد عثمان نجاتي
أ.د. عبد الحليم محمود السيد
الجزء الأول
الجزء الثاني
الجزء الثالث
علم النفس في التراث الإسلامي
دار السلام

الطبعة الأولى
لدار السلام
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

علم النفس في التراث الإسلامي / إبراهيم شوقي عبد الحميد ... [وآخ] ؛ إشراف وتقديم / محمد عثمان نجاتي ، عبد الحليم محمود السيد . ط١ . - القاهرة ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ؛ المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ٢٠٠٨م .
٣ مج ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٥ ٦٥٠ ٣٤٢ ٩٧٧
١ - علم النفس الإسلامي .
٢١٠,١٩

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

عِلم النفس في التراث الإسلامي

الجزء الأول

د. إبراهيم شوقي عبد الحميد — د. طريف شوقي محمّد
د. أسامة سعد أبو سريع — د. عبد اللطيف محمّد خليفة
د. الحسين محمّد عبد المنعم — د. عبد المنعم شحاتة محمود
د. جمعة سيّد يوسف — د. محمّد أحمد شابي
د. شعبان جاب الله رضوان — د. محمّد نجيب الصبوة
د. معتز سيّد عبد الله

إشراف وتقديم

أ. د. محمّد عثمان نجاتي — أ. د. عبد الحليم محمود السيّد

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

١٤٠١ هـ — ١٩٨١ م
1401AH — 1981AC

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس محتويات الجزء الأول

الموضوع [1] | الصفحة

(١) رتبت الأسماء تبعًا لتاريخ الوفاة .

- ابن سينا (ت ٤٢٨هـ)

* * *

تصدير

الحمد للّه ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول اللّه وآله وصحبه ، وبعد :

فمنذ أوائل القرن التاسع عشر وإلى يومنا هذا اكتشف الإنسان واخترع كمًّا هائلًا من المكتشفات والمخترعات التي غيَّرت تغييرًا جذريًّا حياة الإنسان ، ولم تجعله يعيش أمسه في يومه كما كان يفعل قبل ذلك ، فنشأت بذلك أحوال جديدة ، وبيئة مختلفة ، ولدت أفكارًا وسلوكًا غير الذي كان ، ووضعت الإنسان في بيئة يغلب فيها أن يسبق العمل والنشاط الفكرَ والمتأمل ، وأثر هذا في العلاقات بين الأفراد وبين الأمم ، وفي النفس البشرية وكيفية تعاملها مع الواقع وأحدث أزمات كثيرة في جوانب شتى ، فاحتاج المسلم في هذه الحالة إلى أن يحدِّد طرق التعامل مع مصدري المعرفة عنده ، وهما : الوحي والوجود تحديدًا يجعله قادرًا على التفاعل مع عصره في إطار كلمة اللّه للعالمين التي تبيِّن مراد اللّه من خلقه ، وترسم المثال الذي ينبغي أن يصل إليه الإنسان .

وهذا إنما يتم بمجموعة عمليات فكرية ومعرفية ، وأخرى بحثية وعلمية ، تستهدف إعادة تشكيل العقل المسلم ، وتبني نسقًا فكريًّا ونموذجًا معرفيًّا يستفيد من نتاج الفكر البشري ، سواء قد صدر هذا النتاج من خلال التزام منهجي بالوحي خلال القرون المتتالية وهو ما نسميه بالتراث الإسلامي ، أم صدر من نتاج فكر بشري غير ملتزم بهذا الوحي بل يهتم اهتمامًا أساسيًّا يكاد يكون وحيدًا بالواقع ؛ كالفكر الإنساني عامة ونتاج الفكر الغربي على وجه الخصوص ، خاصة ما يتعلق بالعلوم الاجتماعية والإنسانية ، ومن هنا كان مشروع إسلامية المعرفة يحتاج إلى ممهدات يبيِّن فيها المفكر المسلم موقفه من كيفية التعامل مع كتاب اللّه باعتباره « المطلق » الذي هو خارج الزمان والمكان والأشخاص ، والذي هو كلمة اللّه للعالمين في كل زمان ومكان ، وأن يحدد أيضًا كيفية التعامل مع صحيح السنة المشرَّفة باعتبارها التطبيق المعصوم لكلام اللّه المطلق في الواقع النسبي ، ذلك التطبيق الذي أمرنا باتباعه ، والذي نستنبط منه المنهج والطريق لإيقاع المطلق على « النسبي » في كل الأحوال ، وأن يحدد أيضًا كيف يتعامل مع التراث الإسلامي ، وكيف يتعامل مع التراث الإنساني بمناهج عادلة تتأبَّى الوقوع في الرفض المطلق لهذا النتاج أو ذاك ، أو القبول المطلق كذلك ، أو الانتقاء العشوائي ؛ حيث تعد هذه المواقف ساذجة

وتؤدي إلى التقليد الأعمى ، أو إلى اتباع الهدى ، وينبغي عليه أيضًا أن يحدد للنموذج المعرفي في إطاره الإسلامي ، وأن يحدد المنهجية التي يستطيع بها التعامل مع الأفكار ، وتوليد العلوم المختلفة ؛ لإدراك الواقع ، إن هذه المحاور الستة لازمة للبَدْء في إسلامية المعرفة باعتبارها عملًا فكريًّا ومعرفيًّا لا نهاية له ، بل هو مستمر أبدًا .

وعلى محور كيفية التعامل مع التراث نجد أنفسنا في احتياج إلى أدوات يستطيع الباحث والمفكر بها أن يبدأ نشاطه في هذا المجال ، فطبيعة التراث الإسلامي أنه واسع في مساحته الزمانية والمكانية ، وفي مجاله ومدارسه ، فلو اعتبرنا أن التراث هو النتاج البشري المنقول شفويًّا وكتابيًّا للأمة الإسلامية قبل مائة عام من الآن لوجدنا أنفسنا أمام تراث كبير في مساحته الزمانية يشمل أكثر من ثلاثة عشر قرنًا ، ومساحة مكانية من الأندلس غربًا إلى الهند شرقًا ، ومن شمال إفريقيا إلى جنوبها ، ونجده متشعب الجوانب في فنونه المختلفة ، وعلومه المتعددة ، وفي مدارسه ومذاهبه الكثيرة ، بل وفي أنماط تفكير الناس ، ونجده أيضًا ذا نموذج معرفي متميز نحاول أن نلتمس مفاتحه ، وأن نضع أداة نستطيع بها أن نقرأ النص التراثي فنفهمه أولًا ، ونناقشه ثانيًا ، ونقبله أو نرفضه عن وعي واجتهاد ثالثًا ، لا عن مجرد الرفض أو عن الجهل بمعناه ، وذلك كله بعد أن نقوم بعملية توثيق للنص التراثي ، كل هذا يكون مقدمة للتأمل فيه ؛ لاستنباط منهاجه ، والتجاوز عن مسائله التي قد تكون زمانية مرتبطة بظرفها الذي نشأت فيه ، أو أن نضيف إلى ما استنبطناه من مناهج مناهج أخرى ، أو أن نطوِّر تلك المناهج حتى نستفيد الفائدة المرجوة من التراث ويكون دافعًا وباعثًا لمجموعة العمليات الفكرية والمعرفية المتعلقة بمجال معين .

ومن هنا ظهرت فكرة تكشيف التراث كخطوة أولى من خطوات الخدمة التي نتحدث عنها ، ونعني :

١ - توثيق التراث .

٢ - فهم التراث .

٣ - حجية التراث .

٤ - تواصل التراث .

والتكشيف نعني به الدلالة عن مواطن الأفكار المختلفة المتعلقة بموضوع واحد ، وكيف انتقلت من مدرسة إلى أخرى ، أو من شخص إلى آخر ، أو من نموذج معرفي إلى نموذج معرفي مختلف عنه ، وهذه الخطوة هي خطوة لبناء الأداة ، وليست عملية

فكرية ، ومن هنا فإن عمليات التكشيف ليست من عمليات إسلامية المعرفة بل من العمليات الأوَّلية التي توفِّر الجهد وتيسِّر المعلومة .

من خلال هذه النظرة قام المعهد العالمي للفكر الإسلامي بمكتب القاهرة بتكوين فريق علمي من أساتذة علم النفس والمختصِّين فيه لتكشيف ما في التراث الإسلامي من المفاهيم النفسية حتى يكون دليلًا للباحثين في هذا المجال ، وتمَّ تتبع أكثر من مائتي كتاب لاستخراج ما فيه من مفاهيم تتعلق بموضوعات علم النفس وما يثار فيهما لتبيِّن الآراء المختلفة حول هذه الموضوعات ، وكيفية معالجتها ، فالعلوم تتكوَّن من مسائل هي عبارة عن جملة مفيدة ، والجملة المفيدة هي عبارة عن مبتدأ وخبر أو فعل وفاعل بما يسميه البلاغيون المسند إليه والمسند ، فهناك ما نضعه موضوعًا نتكلم إليه ونخبر عنه ، وهو المبتدأ أو الفاعل ، وهناك ما نخبر به ، وهو الخبر والفعل ، والذي يجعلنا نسند الخبر إلى المبتدأ قد يكون هو الحس والمشاهدة ؛ مثل قولنا : السماء فوقنا ، والأرض تحتنا ، وقد يكون هو التجربة والتكرار ؛ مثل قولنا : النار محرقة ، وقد يكون هو التفكير العقلي ؛ مثل قولنا : ١ + ١ = ٢ ، وقد يكون هو الوحي ؛ مثل قولنا : الصلاة واجبة ، وقد يكون هو العرف الذي تعارف عليه الناس ، وقد يكون هو اللغة ، أو نقل اللغة ؛ مثل قولنا : الفاعل مرفوع ، وفي كل هذا يمثل النموذج المعرفي ، والإطار الذي يحدد الباعث لإنشاء الجملة المفيدة ، والذي جعل مصدر معرفته الوجود فقط سينشئ جملًا مختلفة عن ذلك ، جعل مصدر المعرفة الوحي والوجود معًا ، ومع وجود هذا الاختلاف فإن تلك الفقرات التي تم تكشفها من هذا العدد الكبير من الكتب سيختلف حتى ولو اتفقت ظاهريًّا في نقاط تقاطع الدوائر المختلفة ، فإن هذا الاتفاق لا يعدو أن يكون اتفاقًا في الصورة ، حيث يختلف النموذج المعرفي الإسلامي عن النموذج الغربي اختلافًا بيِّنًا ومن هنا فلا ينبغي أبدًا ركوب طريق المقاربات أو المقارنات ، فالأول يحاول أن يجعل كل ما توصل إليه العلم الغربي مذكورًا في تراث المسلمين ، بل وفي كتابهم وسنة نبيهم ، والثاني يحاول أن يدعي الفرق دائمًا بينهما ، وهي مناهج غير علمية ، بل الذي ينبغي أن يكون إنما هو قضية التأصيل بأن يخبر العالم أو المفكر المسلم في جمله المفيدة بما يراه الحق في إطار مصادر معرفته التي آمن بها ، وفي إطار نموذجه المعرفي .

وكان ينبغي أن يتم هذا المشروع على المطبوع والمخطوط معًا من التراث الإسلامي ، إلا أن ذلك قد تعذر ؛ لاحتياجه إلى إمكانيات ليست في طاقتنا وإلى زمن وفرق عمل ليست في مقدورنا ، فاكتفينا بالمطبوع أو قل ما تيسَّر منه عملًا بقولهم : ما لا يدرك

كله لا يترك جله .

ولقد تمت طبعة تجريبية في مائة نسخة وُزِّعت على المختصين والعلماء ؛ لإبداء الرأي فيما ورد فيها منهجًا وتفصيلًا إلا أننا - بعد ست سنوات من تلك الطباعة التجريبية ومع المتابعة - لم نتلق من هؤلاء المائة إلا ردَّين أحدهما قاصر على المجلَّد الأول من المجلدات الثلاث ، ولا يخفى ما في ذلك من دلالة تبيِّن حالة الهمم في عصرنا الحاضر ، وهذا ما دفعنا الآن إلى أن نخرج الكتاب على ما فيه ليُستفاد منه حيث قوبلت طبعته التجريبية بترحاب كبير بين أوساط الباحثين والمثقفين .

ونأمل أن تكون هذه خطوة أولى في بناء الأدوات اللازمة لتيسير محور التراث وكيفية التعامل معه الذي هو واحد من ستة محاور يعد النشاط فيها متعلقًا بعملية إسلامية المعرفة باعتبارها عملية معرفية دائمة ومستمرة .

ونسأل اللَّه أن ينفع به وأن يجازي من قاموا عليه خير الجزاء ، والحمد للَّه في المبدأ والختام ...

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
مكتب القاهرة

* * *

تقديم

أ . د / محمد عثمان نجاتي

يلاحظ القارئ لكتب تاريخ علم النفس التي يؤلفها علماء النفس الغربيون أنهم يغفلون عادة الإشارة إلى إسهام العلماء المسلمين السابقين في تطور الدراسات النفسية وتقدمها ، وما وصلوا إليه من آراء ونظريات جديدة في علم النفس ، لم يسبقهم إليها أحد من العلماء قبلهم ، وما أحدثوا من تأثير كبير في تفكير العلماء الأوروبيين في العصور الوسطى ، حيث كانت مؤلفات العلماء المسلمين تترجم إلى اللغة اللاتينية ، وتدرس في الجامعات الأوروبية ، وتقوم بدور كبير في تشكيل تفكيرهم العلمي خلال عدة قرون طويلة امتدت حتى قبيل عصر النهضة الأوروبية الحديثة .

ومن الواضح أن إغفال مؤرخي علم النفس الغربيين الإشارة إلى إسهام علماء النفس المسلمين في تطور علم النفس وتقدمه إنما يرجع إلى جهلهم بتراث المسلمين العلمي ، وبما يحتوي عليه من دراسات نفسية مهمة ، ولعل مسؤولية ذلك إنما ترجع إلى عدم اهتمامنا نحن - علماء النفس المسلمين المحدثين - بدراسة تراثنا العلمي ، ونشر المباحث حوله ، والتعريف به .

ولقد قام بعض الباحثين المسلمين المحدثين في السنوات الأخيرة ببعض المباحث حول بعض الدراسات النفسية للعلماء المسلمين السابقين ، توضح آراءهم في بعض الموضوعات النفسية ، غير أن هذه المباحث لا زالت قليلة العدد ، ولا زال كثير من الآراء النفسية للعلماء المسلمين السابقين غير معروف لمعظم علماء النفس المسلمين المحدثين ، مما يشكِّل

فجوة كبيرة في معلوماتنا حول سير تطور الدراسات النفسية عبر عصور التاريخ المختلفة ، ونحن نشعر إزاء هذا الأمر بشيء من الالتزام بضرورة الاهتمام بدراسة تراثنا في علم النفس دراسة جادة تهدف إلى إبراز الدور المهم الذي قام به علماء النفس المسلمون السابقون في تطور علم النفس وتقدمه ، وتوضيح القيمة العلمية الكبيرة لما قدموا من آراء حول بعض موضوعات علم النفس .

ولعله من المفيد هنا أن نذكر بعض الأمثلة لبعض آرائهم التي سبقوا بها علماء النفس المحدثين بعدة قرون ؛ فابن سينا مثلًا ، قد اكتشف طبيعة عملية الإشراط Conditioning منذ حوالي عشرة قرون قبل إيفان بافلوف الفسيولوجي الروسي المشهور الذي يعتبره مؤرخو العلوم أنه أول من اكتشف ظاهرة الإشراط التي كانت لها أهمية كبيرة في علم النفس الحديث ، وعلم الفسيولوجيا ، وقد توصل ابن سينا إلى اكتشافه لطبيعة عملية الإشراط عن طريق الملاحظة الدقيقة لسلوك الحيوان والإنسان ، والتفكير بذكاء في محاولة تفسير نتائج ملاحظاته دون أن يقوم بتجارب معملية مثلما فعل بافلوف فيما بعد .

لقد لاحظ ابن سينا أن بعض المدرَكات الحسية تقترن ببعض الاستجابات عند الحيوان والإنسان . فمثلًا : « إذا كان تناول الطعام مقترنًا باللذة ، والضرب بالعصا مقترنًا بالألم ، فإن الحيوان والإنسان يحتفظان في ذاكرتهما بصورة الطعام مقترنة باللذة ، وبصورة العصا مقترنًا بالألم ، فتصبح رؤية الطعام فيما بعد مثيرة للشعور باللذة ، كما تصبح رؤية العصا مثيرة للشعور بالألم ؛ ولذلك تخاف الطلاب العصا ، وتتجنبها إذا رأتها ، وهذه هي الاستجابة الشرطية التي قال بها بافلوف فيما بعد ، والتي تبناها بعض علماء النفس المحدثين كإحدى طرق التعلم المهمة ... ، ويرى ابن سينا أن أغلب أفعال الحيوان والإنسان تقوم على هذا الأساس ، أي تقوم على أساس الاستجابات الشرطية المتعلمة من الخبرات والتجارب التي مر بها الحيوان والإنسان من قبل ، وقد سبق ابن سينا في ذلك علماء النفس المحدثين من المدرسة السلوكية التي تفسر سلوك الحيوان والإنسان على أساس تعلم أنواع معينة من الارتباطات بين بعض المنبهات (أو المثيرات) وبعض الاستجابات » [١] .

وفيما يلي مثال آخر : لقد كان علماء النفس المحدثون يفسرون النسيان بأنه راجع إلى زوال الآثار التي يتركها التعلم السابق نتيجة عدم الاستعمال . واستمر هذا التفسير شائعًا

(١) محمد عثمان نجاتي : الإدراك الحسي عند ابن سينا ، مبحث في علم النفس عند العرب ، الطبعة الثالثة ، القاهرة : دار الشروق ، (١٩٨٠م) ، (ص ١٧٧ ، ١٧٨) .

بين علماء النفس المحدثين مدة طويلة من الزمن حتى قام جينكيز Jenkins و د/ النباخ Dollenboch في عام (١٩٢٤م) بدراسة تجريبية (١) بينت أن النسيان لا يحدث بسبب مجرد مُضِي الزمن دون استعمال المعلومات ، وإنما يحدث بسبب كثرة نشاط الإنسان وانشغاله بأمور كثيرة تؤدي إلى تداخل معلوماته الجديدة وتعارضها مع معلوماته السابقة ، وسميت هذه الظاهرة بالتداخل الرجعي Retroactive Interference ، أو الكف الرجعي Retroactive Inhibition ، وقد بينت بعض الدراسات التجريبية الحديثة الأخرى أن النسيان قد يحدث أيضًا نتيجة تداخل المعلومات السابقة مع المعلومات الحديثة ، وسميت هذه الظاهرة بالتداخل اللاحق Proactive Interference .

والقارئ لكلام ابن سينا عن التذكر في كتاب الشفاء يلاحظ أنه سبق علماء النفس المحدثين بعشرة قرون في تفسيره للنسيان على أساس تداخل المعلومات . يقول ابن سينا في هذا الصدد : « .. وأكثر من يكون حافظًا هو الذي لا تكثر حركاته ، ولا تتفنن همه ، ومن كان كثير الحركات لم يذكر جيدًا .. ولذلك كان الصبيان مع رطوبتهم يحفظون جيدًا ؛ لأن نفوسهم غير مشغولة بما تشغل به نفوس البالغين ، فلا تذهل عما هي مقبلة عليه بغيره » (٢) .

وقد وصل كل من الفارابي وابن سينا في دراستهما للأحلام إلى آراء لا زالت صحيحة حتى الآن ، فقد ذكر كل منهما أن بعض الأحلام تحدث نتيجة لتأثير بعض المؤثرات الحسية التي تقع على النائم ، سواء كانت هذه المؤثرات الحسية صادرة من الخارج أم من داخل البدن (٣) ، وقد أشارا كذلك إلى دور الأحلام في إشباع الدوافع والرغبات ، وهي الفكرة التي اهتم بها سيجموند فرويد والمحللون النفسيون فيما بعد في تحليلهم للأحلام وتفسيرها (٤) .

ويلاحظ كذلك أن الغزالي في أثناء تناوله لموضوع « رياضة النفوس » في الجزء الثالث من كتاب « إحياء علوم الدين » قد استخدم في علاج الأخلاق والعادات السيئة أساليب

---

(١) Jenkins , J.G Dallenenboch , K.M. Obliviscence during Sleep and Waking American Journal of Psychology , 1924 , Vol. 35 , pp. 605-612.

(٢) ابن سينا : الشفاء ، كتاب النفس ، تحقيق الأب جورج قنواتي وسعيد زايد ، ومراجعة د. إبراهيم بيومي مدكور ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (١٩٧٥م) ، (ص ١٦٥ ، ١٦٦) ، انظر أيضًا : محمد عثمان نجاتي : المرجع السابق ، (ص ١٩١ ، ١٩٢) .

(٣) الفارابي : آراء أهل المدينة الفاضلة ، (ط ٢) ، القاهرة : مكتبة الحسين التجارية ، (١٩٤٨م) ، (ص ٧٣ - ٧٦) ، ابن سينا : المرجع السابق ، (ص ١٥٩ ، ١٦٠) .

(٤) الفارابي : المرجع السابق . ابن سينا : المرجع السابق .

مبتكرة تقوم أساسًا على فكرة التخلص من الأخلاق والعادات السيئة بتعليم الفرد أخلاقًا وعادات حسنة مضادة لها ، تحل محلها بالتدريج حتى ينتهي الأمر إلى التخلص النهائي من الأخلاق والعادات السيئة واكتساب الأخلاق والعادات الحسنة المضادة (١) ، وقد سبق الغزالي بهذا الأسلوب في العلاج علماء النفس والمعالجين النفسيين السلوكيين المحدثين الذين يستخدمون هذا الأسلوب في التخلص من العادات السيئة وفي علاج القلق .

إن معرفتنا لتراثنا العلمي في ميدان علم النفس لا تفيدنا فقط في اكتساب الإسهامات المهمة التي قام بها العلماء المسلمون السابقون ، والتي ذكرنا أمثلة لها سابقًا ، وإنما تفيدنا كذلك في مدِّنا بنموذج لتناول بعض موضوعات علم النفس من وجهة نظر إسلامية ، مما يمكِّن الباحثين المعاصرين من أن يحذوا حذوهم في التوجه الإسلامي للدراسات الحديثة في علم النفس ، وسوف أذكر مثالاً لذلك ، تناول العلماء المسلمين السابقين لموضوع الصحة النفسية ، فهم لا يرون - مثل علماء النفس الغربيين المحدثين - أن أهم مقومات الصحة النفسية هي فقط النجاح في حياة الإنسان المادية والدنيوية ، وقدرته على تحمل مسؤوليات الحياة ، ومواجهة ما يقابله من مشكلات ، وتوافقه مع نفسه ومع غيره من الناس ، وإنما هم يرون أن أهم مقومات الصحة النفسية توافق الفرد مع ربه ، والتمسك بعبادته وتقواه ، الأمر الذي يغفله علماء النفس الغربيون المحدثون إغفالاً تامًّا ؛ فنجد مثلاً أن ابن حزم قد تناول هذا الموضوع في كتابه « الأخلاق والسير في مداواة النفوس » (٢) ، وبيَّن في شيء من التفصيل أن الإيمان بالله تعالى ، واتباع منهجه الذي رسمه للإنسان في القرآن الكريم ، وبيَّنته سنة الرسول ﷺ هو السبيل الوحيد للتخلص من الهم والقلق ، والتمتع بالصحة النفسية والشعور بالسعادة والأمان النفسي .

وقد أكَّد هذا المعنى أيضًا ابن تيمية في كلامه عن « أمراض القلوب وشفائها » (٣) ، وبيَّن أن الإيمان بالله تعالى ، والتمسك بعبادته وتقواه ، واتباع المنهج الذي رسمه الله تعالى للإنسان في القرآن الكريم ، هو سبيل الشفاء من أمراض القلوب .

---

(١) أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين . الجزء الثالث . بيروت : دار المعرفة (د . ب) ، (ص ٤٨ - ٢٧٤) .

(٢) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب : الأخلاق والسير في مداواة النفوس ، بيروت : دار الآفاق الجديدة ، (١٩٧٩م) ، (ص ١٥ ، ١٦) .

(٣) أحمد بن تيمية : أمراض القلوب وشفاؤها . المجلد العاشر من مجموعة فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية . السعودية : الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين ، (د . ت) ، (ص ٩١ - ١١٠) .

وقد تناول ابن قيم الجوزية هذا الموضوع أيضًا في شيء من التفصيل في كتاب « رسالة في أمراض القلوب » وأكّد فيه آراء أستاذه أحمد بن تيمية في أهمية الإيمان بالله تعالى ، والتمسك بعبادته وتقواه في شفاء أمراض القلوب (١) .

وقد بدأ بعض علماء النفس الغربيين المحدثين يدركون أخيرًا أهمية الإيمان بالله تعالى في صحة الإنسان النفسية ؛ إذ إنه يمده بطاقة روحية تعينه على تحمُّل مشاق الحياة ، وتساعده على التخلص من القلق والمرض النفسي ، وقد أشرت إلى ذلك في شيء من التفصيل في موضع آخر (٢) .

ومن الأمثلة الأخرى في هذا الصدد كان - أيضًا - تناول العلماء المسلمين السابقين لموضوع الرؤيا الصادقة أو الصالحة ؛ إذ استمدوا معلوماتهم عنها من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، فقد ذكر القرآن الكريم رؤيا إبراهيم عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢- ١٠٥] ، ورؤيا يوسف عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾ [يوسف : ٤] ، ورؤيا الرسول ﷺ أنه والمؤمنين يدخلون محلِّقين ومقصِّرين ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ٢٧] ، ورؤيا ملك مصر عن البقرات السبع السمان التي تأكلن سبع بقرات عجاف ، والسنابل السبع الخضر والسنابل السبع اليابسات ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ [يوسف ٤٧- ٤٩] ، وقد أشار الرسول ﷺ أيضًا في أحاديث كثيرة عن الرؤيا الصادقة ، وقال : « **إنها بشرى من الله تعالى** » (٣) .

---

(١) ابن قيم الجوزية : رسالة في أمراض القلوب ، تحقيق محمد حامد الفقي ، الرياض : دار طيبة للنشر والتوزيع ، (١٤٠٣هـ) .

(٢) محمد عثمان نجاتي : القرآن وعلم النفس ، (ط ٣) ، القاهرة : دار الشروق (١٩٧٨م) ، (ص ٢٤٧، ٢٤٨) .

(٣) انظر بعض الأحاديث النبوية التي تناولت الرؤيا الصادقة في : منصور علي ناصف : التاج الجامع للأصول =

وقد أخذ العلماء المسلمون السابقون من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف آراءهم عن الرؤيا الصادقة الصالحة عندما تناولوا موضوع الأحلام والرؤى وتفسيرها ، وهو أمر يغفله علماء النفس الغربيون المحدثون إغفالًا تامًّا في دراستهم لموضوع الأحلام .

وفضلًا عن ذلك ، فإن العلماء المسلمين السابقين حينما يتعرضون لتفسير رموز الأحلام فإنهم يستمدون مادة تفسيرهم مما جاء في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف من أمثال وتشبيهات [1] ، يتضح لنا مما ذكرناه سابقًا أهمية معرفة تراثنا في مجال الدراسات النفسية . ومما يؤسف له أن الغالبية العظمى من علماء النفس المعاصرين في العالم العربي والإسلامي يجهّلون هذه الدراسات ؛ بسبب نوع التعليم السائد في أقسام علم النفس في الجامعات الحديثة في البلاد العربية والإسلامية ؛ حيث يهمل هذا التعليم المعرفة بالتراث إهمالًا تامًّا . ولقد قام المعهد العالمي للفكر الإسلامي الذي يعنى بموضوع إسلامية المعرفة بجهود مشكور من أجل التعريف بتراثنا الزاخر بكثير من الدراسات النفسية المهمة ؛ فقام بتكليف مجموعة من السادة الأساتذة بحصر ما في التراث من كتب ودراسات تتعلق بالنفس الإنسانية ، ثم قامت مجموعة أخرى من السادة الأساتذة الباحثين بقراءة هذه الكتب والدراسات ، وتلخيص ما جاء فيها من آراء ومفاهيم نفسية ، وقد قام مكتب القاهرة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي بمجهود كبير مشكور في إنجاز هذا العمل المهم ، والإشراف على تنظيم وتبويب تقارير التعريف بكتب التراث ، وقام بنشرها في هذا المجلد القيِّم ؛ لتكون تحت يد الباحثين من علماء النفس المحدثين الذين يريدون الرجوع إلى التراث لمعرفة ما جاء فيه حول بعض موضوعات علم النفس ، ولا يسعني أمام إنجاز هذا العمل الضخم المهم إلا أن أتقدم بجزيل الشكر والتقدير لكل من ساهم في إنجازه ، وأخص بالشكر الأستاذ الدكتور طه جابر العلواني رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، والأستاذ الدكتور جمال عطية رئيس مكتب القاهرة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي ، وجميع السادة الأساتذة الأفاضل الذين قاموا بقراءة كتب التراث ، وتلخيص ما جاء فيها من آراء ومفاهيم نفسية في هذه التقارير التي يتضمنها هذا المجلد ، كما أتقدم بجزيل الشكر والتقدير أيضًا لجميع السادة الأساتذة الأفاضل من المشرفين والإداريين الذين ساهموا في إنجاز هذا العمل الكبير .

= في أحاديث الرسول ﷺ ، القاهرة : دار الفكر ، (١٩٥٧م) ، (٣٠٤/٤) ، ومصطفى سعيد الخن وآخرون : نزهة المتقين ، شرح رياض الصالحين للإمام أبي زكريا محيي الدين يحيى النووي ، (ط ٧) . بيروت : مؤسسة الرسالة ، (١٩٨٥م) ، (٦٥٥/١) .

(١) محمد بن سيرين : كتاب تفسير الأحلام الكبير . القاهرة : مطبعة محمد صبيح وأولاده ، (١٩٦٣م) ، (ص ٤- ١٩) .

ولا شك في أن هذا العمل سوف يكون مفيدًا لعلماء النفس العرب المعاصرين الذين ليس لديهم إلمام كاف بكتب التراث ؛ حيث إنه سيرشدهم إلى أهم الكتب التي يمكن الرجوع إليها لدراسة ما ورد في التراث حول الموضوعات العلمية التي يدرسونها ، وسوف يكون هذا العمل مفيدًا أيضًا لمن يهتم بإعادة كتابة تاريخ علم النفس ، بحيث يبرز دور العلماء المسلمين السابقين في تطور دراسات علم النفس وتقدمها ، كما أنه سيكون مفيدًا للباحثين الذين يهتمون بالتوجه الإسلامي لعلم النفس .

والله ولي التوفيق ...

* * *

تقديم

أ . د/ عبد الحليم محمود السيد

يسعدني أن أقدِّم هذا العمل العلمي الضخم - الذي أنجزه عدد كبير من الباحثين المحققين تحت الرعاية المادية والأدبية والفنية للمعهد العالمي للفكر الإسلامي - إلى الباحثين المهتمين بالدراسات النفسية الحديثة .

ويخدم هذا الدليل - الذي بين أيدينا - المهتمين بالثقافة العربية الإسلامية بوجه عام ، والباحثين في مجال الدراسات النفسية بوجه خاص .

ويتضمن هذا العمل تلخيصًا لموضوعات الاهتمام التي وردت في حوالي ثلاثمائة كتاب ومقال من أمهات التراث العربي والإسلامي ، مما أسهم في إنجازه ١١٤ مفكرًا إسلاميًا على امتداد العصور .

وتمتد الفترة التاريخية التي تنتمي إليها هذه الكتب والمقالات من القرن الأول الهجري حتى القرن الرابع عشر من الهجرة ، كما يمتد اهتمام الموضوعات التي تتناولها هذه المؤلفات التي تم عرضها وتلخيصها ، على مساحة عريضة من الموضوعات التي تشتمل على مختلف جوانب الثقافة العربية الإسلامية من الآداب ، والفنون ، والفلسفة ، والتصوف ، والأخلاق ، والفقه ... إلخ . حيث كانت موضوعات علم النفس تتداخل مع هذه المجالات .

وتبرز قيمة هذا العمل بالنسبة للمشتغلين بعلم النفس على مستوى العالم العربي والإسلامي المعاصر ، في كل من :

١ - الإلمام في سفر واحد - يضم ثلاثة مجلدات ، وفهارسها - بمضمون الموضوعات

ذات الطابع النفسي التي وردت في الكتب والمقالات المنشورة والمخطوطة في التراث العربي ، التي تمتد تاريخيًا عبر قرون ، وموضوعيًا عبر عدد كبير من موضوعات الاهتمام ، وهو أمر لم يكن متاحًا قبل الآن .

٢ - يلخص هذا الدليل الذي بين أيدينا أغلب مصادر التراث العربي والإسلامي المتاحة ، مع عناية خاصة بالمضمون النفسي من خلال قراءة متأنية قام بها باحثون نفسيون حاولوا خلالها إبراز :

أ - أهم موضوعات الاهتمام العام والخاص في هذه المصادر .

ب - أهم المفاهيم ذات الطابع النفسي ، كما وردت في التراث ، مما يزودنا بالمفاهيم التراثية المتصلة بموضوعات علم النفس .

ج - أهم مفاهيم علم النفس الحديث ، أو موضوعات اهتمامه التي تتصل بها موضوعات التناول في كل كتاب أو مصدر من مصادر التراث .

٣ - يمكن فهرس الموضوعات والمفاهيم ، الذي أعد لهذا العمل الباحثين المحدثين من حصر مواضع الفصول والفقرات والمفاهيم التي يحتاجون إلى الرجوع إليها (ملخصة أو في مصادرها الأصلية إن أمكن) .

وهذا يعني تيسير عملية التكشيف التراثي للمصطلحات النفسية في مختلف فروع الاهتمام في علم النفس . ولم يكن هذا الأمر ميسرًا قبل إعداد هذا الدليل ، حيث كان مجرد حصر ما يتضمنه التراث العربي والإسلامي من موضوعات ومفاهيم ذات طابع نفسي ، يعد أمرًا شديد الصعوبة ؛ لاعتماد معظم التصنيفات على مجرد الصدفة ، أو جمع المتوفر من المراجع ، أو الرجوع إلى أكثر المراجع شهرة ، دون الإحاطة بهذا التراث ؛ لأن الإحاطة بمضمون ومفاهيم الكتب التراثية - رغم حيويتها - تخرج عن وسع الباحثين الأفراد ، وهذا العمل خطوة بارزة في هذا الطريق (انظر أهم عقبات الإحاطة بكتب التراث في محاولة تكشيف مصطلحات علم نفس النمو والارتقاء لغويًا وتراثيًا ، التي قامت تحت رعاية المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ١٩٨٩م .

٤ - علم النفس بوصفه علمًاناميًا متجددًا ، في حاجة شديدة إلى التكشيف التراثي عن المصطلحات النفسية ؛ لأن من شأن هذا التكشيف أن يُسدي خدمة عظيمة للمشتغلين بعلم النفس في البلاد العربية ويساعد على حل مشكلات المصطلح في علم النفس المعاصر ، التي قد تبدو في عدة أشكال منها :

أ - استخدام أكثر من كلمة عربية - من مؤلفين مختلفين - للإشارة إلى مصطلح أجنبي واحد ، دون التنبيه لاختلاف ظلال المعنى بين كل منها ، كما ورد في التراث .

ب - تداخل معاني بعض المصطلحات ، والحاجة إلى استخدام المصطلح الواحد بمعنى واحد ، أو تمييز الفروق الدقيقة في معاني بعض المصطلحات .

ج - صعوبة التوصل لمقابل عربي للمصطلح الأجنبي ، مع إمكان التوصل لهذا المقابل ، بل ودرجات منه ، عند الرجوع إلى التراث .

د - اكتشاف مفاهيم التراث لم ترد في المراجع الأجنبية ، مما يثري وسائل التعبير العلمي عن الظواهر النفسية في اللغة العربية .

٥ - من شأن تمكين الباحثين العرب المحدثين من الإحاطة بموضوعات التراث العربي والإسلامي ، أن يشجع على تنمية اهتمام الباحثين المعاصرين بموضوعات للبحث ، نابعة من صميم الثقافة العربية الإسلامية ، في تفاعلها مع موضوعات الاهتمام الحديثة من ناحية ، ومحاولة إخضاعها لأساليب ومناهج حديثة من ناحية أخرى ، مما يجعل الباحث العربي يواصل طريق العلم ، من خلال الجمع بين التراث العربي - الذي يجهله الغرب - والتراث الغربي والعالمي الحديث ، كخطوة لتنمية هوية عربية في علم النفس المعاصر .

٦ - لهذا الدليل أهمية خاصة ، بالنسبة لعملية التأريخ لعلم النفس ؛ إذ إنه يساعد على ملء ثغرة كبيرة ، افتقدها التاريخ الموضوعي لعلم النفس على مستوى العالم ، حيث كان المؤرخون الغربيون يتجاهلون أو يجهلون - غالبًا - الإسهام العلمي للعلماء والمفكرين العرب والمسلمين في مجال الدراسات النفسية ، فهم يبدؤون التاريخ باليونان ، ثم العصور الوسطى المسيحية ، ثم عصر النهضة الأوروبية ، ثم يؤرخون للفكر النفسي في العصر الحديث مع عدم ذكر إسهام المفكرين والعلماء العرب والمسلمين ، رغم ما كان لهم من فضل في تنمية وتطوير موضوعات الاهتمام والدراسة النفسية .

٧ - كما يمكن لهذا الدليل أن يسهم إسهامًا فعالًا في تتبع الباحثين لنمو الاهتمام ببعض الموضوعات أو نمو بعض المصطلحات ، مما يسد ثغرة في كل البحوث والدراسات وخاصة رسائل الماجستير والدكتوراه التي يقتصر أصحابها في التأريخ لموضوعاتها ومفاهيمها على الاعتماد على المصادر الغربية ، مما يفقد معظم البحوث صلتها بالتراث العربي ، ويقلل من إمكان تنمية هذا التراث .

ولا يسعني إلا أن أقدِّم التحية والتقدير للمعهد العالمي للفكر الإسلامي والسادة الباحثين المحققين الذين قاموا بإنجاز هذا الدليل تلخيصًا لأعماله وفهرسة لها ، مما جعل التراث ميسرًا للمثقفين عامة وللباحثين النفسيين خاصة .

ونأمل أن يضاف في الطبعات التالية المزيد من الكتب والمقالات التراثية المرتبطة بعلم النفس من المطبوعات أو المخطوطات التي لم يتيسر جمعها في هذا السفر ، بحيث يصبح أكثر تمثيلًا للتراث النفسي العربي الإسلامي .

كما نأمل أن نرى مثل هذا العمل في تلخيص قراءات للتراث المتصل بكلٍ من : الفلسفة ، علم الاجتماع ، والتربية ، والاقتصاد ، والتشريع ، والفقه .. مما يمكن الباحثين من الإحاطة بالجوانب الأساسية للثقافة الإسلامية تيسيرًا للباحثين المحققين ، ووصلًا لحلقات الثقافة الإسلامية على امتداد العصور ، بجوانب الاهتمام العلمي الجاد لدى العلماء والمفكرين المعاصرين .

* * *

عِلْمُ النَّفْسِ

فِي التُّرَاثِ الإِسْلَامِي

ابن سيرين (ت ١١٠هـ)
تعبير الرؤيا [١]

عرض : د . محمد نجيب الصبوة

التعريف بالمؤلف [٢] :

محمد بن سيرين البصري ، ، الأنصاري بالولاء ، أبو بكر : إمام وقته في علوم الدين بالبصرة ، تابعي من أشراف الكتاب ، مولده ووفاته بالبصرة ، نشأ بزازًا ، في أذنه صمم ، وتفقه وروى الحديث ، واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا ، واستكتبه أنس بن مالك بفارس ، وكان أبوه مولى لأنس بن مالك ، ينسب له كتاب « تعبير الرؤيا - ط » ذكر ابن النديم ، وهو غير « منتخب الكلام في تفسير الأحلام » المطبوع ، المنسوب إليه أيضًا وليس له .

عرض الكتاب :

هذا الكتاب تعبير الرؤيا ، لابن سيرين ، من القطع الصغير ، ويقع في أربع وستين صفحة ، ومكتوب على مسافة واحدة بين كل سطرين ، وهو مطبوع وليس مخطوطًا ، وكشأن كل الكتب ، هناك اختلاف وتباين واضح في عدد الصفحات التي يستغرقها تفسير الرؤيا في كل باب من أبوابه الخمسة والعشرين ، وهذا أمر مشروع تقتضيه الضرورة العلمية ، وتقتضيه طبيعة الموضوعات التي يتم التعرض لها .

---

(١) القاهرة : مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح (د . ت) ، (٦٤ ص) .

(٢) مصدر الترجمة : خير الدين الزركلي ، الأعلام ، بيروت : دار العلم للملايين ، (١٩٨٦م) .

وكعادة كل كتب التراث التي كتبها مؤلفون مسلمون ، بدأ الكتاب بابه الأول بخطبة تبينٌ أهمية الموضوع وحدوده والمعايير التي سيلتزم بها المؤلف عند تعرضه لتعبير الرؤى ، والغالب على هذا الكتاب أنه لا يشتمل على كثير من المفاهيم التي يمكن معاملتها من المنظور السيكولوجي ، اللَّهم إلا الحديث عن تفسير الأحلام من المنظور الفرويدي ، ولكن شتان بين ما ورد لدى سيجموند فرويد ، وربما ألجأنا ذلك إلى عرض وتلخيص الكتاب كله أولًا ، ثم يلي ذلك التحدث عن المفاهيم السيكولوجية ، على غير عادتنا في عرض الكتب الأخرى ، لإتاحة الفرصة للقارئ إذا أراد أن يعقد مقارنة بين تعبير ابن سيرين للرؤيا وتفسير فرويد للأحلام .

وفيما يلي عرض مختصر لأبواب الكتاب الخمسة والعشرين :

الباب الأول : استغرق هذا الباب الصفحات من ص : ٣ إلى : ٦ ، وجاء بعنوان : في آداب المعبر وتمييز الرؤيا ومعرفة أصولها ، وتحدث فيه المؤلف عن الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها الشخص الذي يقوم بتأويل أو تعبير الرؤيا ، فقال إنه لابد إنه يكون حافظًا وعالمًا بكتاب اللَّه ، حافظًا لحديث رسول اللَّه ﷺ ، خبيرًا بلسان العرب ، واشتقاق الألفاظ ، عارفًا بهيئات الناس ، ضابطًا لأصول التعبير ، عفيف اللسان ، طاهر الأخلاق ، صادق اللسان .

أما الرؤيا ومعرفة أصولها ، فهي تختلف من وجهة نظر ابن سيرين باختلاف أحوال الأزمنة والأوقات ، وَقد يتم التعبير عنها من كتاب اللَّه ، أو من أحاديث رسول اللَّه ﷺ ، أو من الأمثال السائرة الشائعة بين الناس الآن أو قديمًا ، أو من لفظ الاسم أو من معناه ، أو من ضده ، أو من اشتقاقه ، أو من الزيادة فيه أو من نقصانه ، وضرب لكل مصدر من هذه المصادر أمثلة عديدة توضح كيفية التأويل انطلاقًا منها .

وذكر المؤلف أن أصدق أوقات الرؤيا أواخر الليل ، أو في القيلولة ، أو عند إدراك الثمرة وبيعها ، وأضعف الرؤيا ما وقع منها في زمان الشتاء ، ومجيء المطر .

أما الباب الثاني فقد جاء بعنوان : في تأويل رؤية اللَّه تبارك وتعالى ، وفيه يعرض المؤلف لحال الشخص الذي يرى اللَّه في المنام ، حيث تختلف هذه الأحوال باختلاف حال الرؤيا ، وحاول المؤلف أن يضع وصفًا لأحوال الرائي أو صاحب الرؤيا ، وهي من قبيل الحديث عن حال القبول بالبشرى والسرور والإقبال على اللَّه (ص ٦ ، ٧) .

وفي **الباب الثالث** الذي جاء بعنوان : في رؤية الملائكة والأنبياء والصالحين والعلماء

والكعبة والأذان والصلاة والحج (ص ٧ - ٩) ، تحدث المؤلف هنا أيضًا عن كيفية تأويل رؤيا الملائكة والأنبياء والصالحين والعلماء والكعبة والأذان والصلاة والحج ، فقال مثلًا : من رأى ملكًا من الملائكة ؛ فإنه ينال شرفًا في دنياه وفرحًا ونصرًا لأهل تلك البلد ، ورؤية أشرف الملائكة ؛ تدل على البشارة بالخير والشهادة والخصب وكثرة الأمطار وسعة الأرزاق ورخص الأسعار ، ومن رأى النبي ﷺ (ص ٧) في منامه فإنه بشارة بالخير ، أما رؤية باقي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في النوم فإنهم مثل الملائكة في حالتهم من كثرة الخصب والأمطار ورخص الأسعار ، ورؤية الكعبة تعني أن الرائي إمام المسلمين ، أو نوع من الأمن والأمان له ولأهل بلدته ، وعلى هذا النحو وردت تعبيرات عديدة لرؤيا القبلة والصلاة فيها ، وكذلك الأذان في وقت أشهر الحج .

وفي الباب الرابع (ص ٩ - ١٣) تحدث المؤلف عن تأويل الرؤى الخاصة بالسماء والشمس والقمر والنجوم والقيامة والجنة والنار وغير ذلك من نيران الدنيا ، فصعود السماء رمز يدل على الشهادة والكرامة ، وجواز الصراط والشمس رمز للملك والسلطان ، أما القمر فهو رمز لوزير الملك أو زوجة أو ولدًا حسنًا ، أما النجوم فهي تأويل لشرف الناس أو أشرافهم أو رمزًا للعلم والعلماء ، وأما النار فهي رمز لكل الشرور والآثام والمصائب والرزايا والمنايا وكل ما لا ينتفع به ، علمًا بأن البرد فقر ، والحر غنم ، ولكن الحر غير النار .

وتحدث المؤلف في الباب الخامس (ص ١٣ - ١٧) عن تأويل رؤيا الأمطار والرعد والبرق ومياه الآبار والبحار والسواقي والأنهار والسفن والطواحين والحمامات والرياح وغيرها ، فعنده المطر غيث ورحمة ، أما الرعد مع الريح سلطان جائر ، والبرق للمسافر خوف وللمقيم طمع ، والسحاب حكمة وعلم ورحمة وهو دين الإسلام ، أما البرد والثلج والجليد فهو غم وعذاب ، أما البئر فهي رأس مال الإنسان ومعيشته .. ، أما النهر فهو وجل على قدر حال النهر من الصغر والكبر . أما الحمام فهو رمز للغم والهم بقدر شدة الحرارة وقوتها ، والرَّحى رمز للدنيا وهمومها وللعيشة والرزق ، أما الرياح فهي رمز للبشرى إن كانت طيبة ، ورمز للغم إن كانت مظلمة سوداء .

وفي الباب السادس الذي كان بعنوان : في رؤية الأرض والجبال والمفاوز والتلال والأبنية والحصون والحوانيت والدور والهدم والزلزال وما شابه ذلك (ص ١٧ - ٢٠) : يرى المؤلف أن الأرض تنصرف إلى المرأة إذا كانت حدودها مدركة ، وكذلك المفازة التي تدل على الهداية والخير ، وترمز الجبال إلى الرجال . وترمز الدار إلى الآخرة إن كانت

غير واضحة المعالم . هذا على سبيل المثال لا الحصر .

أما الباب السابع (ص ٢٠ - ٢٢) فقد تحدث فيه المؤلف عن تعبير رؤية الأشجار والثمار والحبوب والزروع والخضرة والبقول والبساتين ، فالأشجار ترمز للرجال الذين تكون أحوالهم على أحوال جوهر هذه الأشجار ، أما الرمان في وقته فيرمز للمال المجموع ، والتفاح يرمز لرؤيا صفة الرجل وهمته ومكسبه ، أما الزرع فهو عمدة الإنسان في دينه ودنياه إذا كان له ... أما الرياحين فهي الدنيا حين تقبل على المرء ، والبستان امرأة جميلة يتزوجها الرائي والعكس بالعكس .

دار الحديث في الباب الثامن (ص ٢٢ ، ٢٣) حول تأويل رؤيا الأشربة والألبان ، فاللبن عمومًا يشير إلى فطرة الإسلام وسنة النبي ﷺ ، وإن كان حامضًا أشار إلى الغم والهم والضرر والحزن ، أما الخمر فيشير إلى المال الحرام والنبيذ مال مكروه ، أما العسل والشهد فهو مال ورزق طيب وشفاء من الأمراض .

ودار الحديث في الباب التاسع (من ص ٢٣ إلى ص ٣٠) حول تأويل رؤية النساء والرجال وأعضاء جسم الإنسان وأرواث الحيوان ؛ فالرجل رمز للرزق ، والمرأة العجوز هي السنة الحالية على قدر حال المرأة ، والجارية سرور وفرح ، والغلام هو غم وحزن ومؤنة .

وفي الباب العاشر (من ص ٣٠ إلى ص ٣٢) قام المؤلف بتأويل رؤية التزويج والنكاح وخروج النساء والحمل والولادة والرضاع وشبهه ؛ فالنكاح والزواج رمز للفخر والنيل والشرف والسلطان والدنيا ، وكل ذلك الشرف والفخر يكون على قدر تلك المرأة التي تزوج بها أو نسبت إليه ، كذلك الذي يتزوج بامرأة ميتة يظفر بأمر ميئوس منه . ومن رأى لامرأة ذكرًا فإن كانت حاملًا رزقت بغلام .

دار الحديث في الفصل الحادي عشر (من ص٣٢ إلى ص٣٤) حول تأويل رؤية الموت والموتى وأخبارهم وغيرهم ، فالموت في النوم فساد في الدين وعلو شرف في الدنيا ، أما الموت دون دفن وصراخ وعويل ولا هيئة الأموات فيرمز إلى هدم جزء من داره أو حائط ، ورؤية الميت مستبشرًا فرحًا فهذا يدل على صلاح حاله في الآخرة .

وفي الباب الثاني عشر (من ص ٣٤ إلى ص ٣٦) دار الحديث حول تأويل رؤية الكسوة واللباس والبسط وغيرها من الملبوس ؛ فالكسوة في التأويل تختلف باختلاف جوهرها وأجناسها وقماشها فما كان فيها من حرير وديباج فهو سلطان يناله ومال

حرام ، ومن رأى أنه يلبس الصوف ينال مالًا كثيرًا ودنيا صالحة ، أما الشعر والوبر والقطن فهو دون الصوف والكتان ، والبياض والنقاء في الثوب يدلان على حسن حال صاحبهما ، ووصل الثوب بعضه في بعض أشد الفقر والحاجة ... ، وهكذا عبَّر المؤلف عن كل الرؤى الأخرى .

وفي الباب الثالث عشر دار الحديث حول تأويل رؤية الجواهر والحلي والذهب والفضة والدنانير والدراهم والفلوس وغيرها (من ص ٣٦ إلى ص ٣٨) ، وهي أيضًا أي الجواهر تختلف باختلاف أجناسها وأقرانها في الرؤيا ، وبالجملة إن عرف عددها فهي نساء وأولاد وخدم ، وإن كانت مجهولة وكثيرة العدد فهي قرآن وعلم وتسبيح وذكر .

ودار الحديث في الباب الرابع عشر (من ص ٣٨ إلى ص ٣٩) حول تأويل رؤية الأواني والمواعين وغيرها ؛ فالأواني في التأويل خدم وغلمان إلا الكانون والقدر والسفرة المسرجة والسراج ؛ فإن ذلك في التأويل رؤيا هم وغم لصاحب البيت .

وفي الباب الخامس عشر (من ص ٣٩ إلى ص ٤١) دار الحديث حول تأويل رؤية السلاح وأنواعه ، فالسلاح كله في التأويل عز وسلطان وشرف يناله صاحبه على قدر مبلغه في الجودة والاشتهار فمهما حدث فيه من إصلاح فهو سلطان يناله ، ومن رأى أن سلاحه قد انتزع منه أو قهر عليه أو أرمى به أو وهبه أو باعه أو سرق منه أو انكسر أو ضيَّعه أو أعاره فإن ذلك نقصان في سلطانه ... إلخ .

وفي الباب السادس عشر (من ص ٤٢ إلى ص ٤٤) دار الحديث حول تأويل رؤيا الخيل والبغل والحمير وألوانها ، وفيه بيَّن المؤلف أن الفرس عمومًا في التأويل هي جاه الرجل وعزه وسلطانه وشرفه ، فإن رأى فيها زيادة فهي زيادة فيما ذكرناه ، ومن رأى أنه ركبه وهو يسير به رويدًا وذات الفرس كاملة ؛ فإنه يصيب سلطانًا وعزًّا وشرفًا .

ودار الحديث في الباب السابع عشر (من ص ٤٤ إلى ص ٤٧) حول تأويل رؤيا الإبل والبقر والغنم والمعز ولحومها وألوانها ، وأشار المؤلف إلى أن الإبل في التأويل قد يكون سفرًا وقد يكون حزنًا وقد يكون رجلًا ضخمًا عربيًّا وعجميًّا ، والناقة امرأة إذا كان الرائي لها عزبًا ؛ ومن رأى أن له إبلًا كثيرة يسوقها أو يملكها ؛ فإنه يلي على قوم ولاية ... ، وعلى نفس الغرار أوَّل باقي الحيوانات الأخرى ولحومها .

ودار الحديث في الباب الثامن عشر (من ص ٤٦ إلى ص ٤٧) حول رؤية الوحوش

المأكولة من الحمر والبقر والوعول والظباء ولحومها وألبانها ، وانتهى إلى أن الوحوش كلها رجال لا دين لهم قد فارقوا جماعة المسلمين وارتكبوا أهواءهم ، هذا إن لم يكن قصده منها الصيد ، وإناث الوحوش إن كان يقصد صيدها فهي نساء ورجال وزواج ، ومن رأى أنه يصيد ظبيًا ؛ فجارية حسناء أو يتزوج امرأة جميلة ... إلخ .

ودار الحديث في الباب التاسع عشر (من ص ٤٧ إلى ص ٥٠) حول تأويل رؤيا الفيل والسباع الضارية وفروعها ، وانتهى المؤلف إلى أن الفيل في التأويل رجل مسلط عظيم ذو قهر وهيبة وهو عجمي ، فمن رأى أنه راكبه أو مالكه أو حائزه أو متصرف فيه من غير الحرث ؛ فإنه يصيب سلطانًا وقهرًا وغلبة أو يتمكن من سلطان أعجمي ، ومن رأى أنه يأكل لحم فيل ؛ فإنه يصيب مالًا من سلطان بقدر ما أكل منه ، أما الذئب فهو سلطان ظلوم أو رجل لص ، والضبع امرأة سوء قبيحة ، والقرد عدو مغلوب قد تغيرت نعمة اللَّه عليه ؛ لأجل معصيته ، والخنزير رجل شديد الشوكة خبيث الطبيعة والدين ، والكلب عدو غير بالغ في عداوته وينقلب صديقًا ويكون دنيء النفس قليل المروءة ... إلخ .

وفي الباب العشرين (من ص ٥٠ إلى ص ٥٢) دار الحديث حول تأويل رؤيا الحيات والعقارب وهوام الأرض وما ينسب إليها ؛ فالحية في التأويل عدو كاتم العداوة مبالغ فيها بقدر عظمها وهيئتها في المنظر ، فمن رأى أنه يقاتل حية ؛ فإنه يعالج عدوًّا ، فإن رأى أنه ظفر بالحية ؛ ظفر بالعدو والعكس صحيح ، أما العقرب فهو عدو مكايد لا يجارى بلسانه وهو يلسع عدوه وصديقه بلسانه وليس له دين ولا قول ، والزنبور كلام يسمعه من غوغاء الناس ، والنمل رؤيا تدل على رجل كسوب كثير البركة نفاع لمن صحبه ... إلخ .

وفي الباب الحادي والعشرين (من ص ٥٢ إلى ص ٥٥) انتهى المؤلف إلى تأويل رؤيا حيوان الماء والسمك الطري وغيره ؛ فالسمك الطري الكبار إذا كان كثيرًا فهو غنيمة وأموال لمن أصابها أو شيئًا منها ، أما الصغار فهو هموم وأحزان ، أما إذا كانت سمكة أو سمكتان ؛ فامرأة أو امرأتان ، ولحوم السمك أموال وغنيمة لمن أكلها أو ملكها ... إلخ .

وحاول المؤلف في الباب الثاني والعشرين (في نفس الصفحات) تأويل رؤية السباع من الطيور ؛ كالنسر ، والعقاب ، والشاهين ، والباشق وغير ذلك من طيور ، وانتهى إلى أن سباع الطير هي شرف ورفعة السلطان ، والعقاب سلطان ظلوم صاحب حرب وبأس شديد وكذا الباز والشاهين ، أما الحدأة فهي ملك خامل الذكر ومتواضع ، والبومة إنسان لص ضعيف ، والغراب إنسان فاسق كذاب ليس له دين ، أما النعامة فهي امرأة غريبة بدوية ، والديك رجل عجمي أو مملوك أو منادي أو مؤذن ، والدجاجة امرأة مباركة ،

الدراجة امرأة غدارة ليس لها عقيدة ولا خير فيها ، والورشان امرأة ذات لهو وطرب وفرح ، والبغبغان جارية أو غلام يتيم ، والطاووس الذكر أعجمي أو مال أو جماع أو جمال أو أتباع ، والحمامة امرأة زوجة أو ابنة ، والفاختة امرأة قليلة الحياء والدين ... إلخ .

وانتهى المؤلف في الفصل الثالث والعشرين إلى أن تأويل رؤيا الحرف والصناعات والملاهي تختلف باختلاف الأحوال والظروف (ص ٥٥ إلى ص ٥٦) ، فالوزان والكيال في التأويل يعني القاضي إذا كانا مجهولين ، فإن رآهما يصفقان ؛ فالقاضي جائر في حكمه ، وإن كانا يرقصان ؛ فالقاضي عدل في حكمه وقضائه ، والخطيب فقيه في الدين ، وكذلك الصيرفي رجل عالم ، والبزاز رجل صاحب خطر عظيم في دنياه شاعر أو حكيم ، والخزان رجل عظيم شاعر يمزق أعراض الناس ، والخياط رجل بائع دينه بدنياه ، والإسكافي رجل يؤلف بين الناس وبين النساء والرجال ، والنحاس صاحب أخبار السلطان ، والنجار رجل يقهر الرجال ، والحداد رجل صاحب ملك وسلطنة ... وهكذا أورد تأويلات لمعظم الحرف والصناعات .

ودار الحديث في الباب الرابع والعشرين (من ص ٥٦ إلى ص ٥٨) حول تأويل أشياء متفرقة ؛ مثال ذلك : النور تأويل للهداية ، والظلمة ضلال ، والطريق طريق الحق ، والميل عنها ميل إلى الباطل والضلال ، الخراب من الأرض ضلال لمن رأى أنه فيها ، والحصن صيانة في الدين لمن رأى أنه داخلها ، والكتب المطوية خبر مسطور ، والكتاب المنشور خبر ظاهر ، والختم تحقيق الأمر ، وكتب العلوم والفقه علوم وحكمة ، وكتب الشعر غواية ومكر وكذب ، والمصحف حكمة ينالها الرجل ... إلخ .

ومسك الختام الباب الخامس والعشرون حيث دار فيه الحديث عن تأويل قراءة سور القرآن الكريم (من ص ٥٨ إلى ص ٦٤) ، وانتهى فيه الشيخ رحمه اللّٰه تعالى ونفعنا به إلى أن الفاتحة الكريمة من قرأها ؛ فإنه يدعو بدعوات يجاب فيه ، وينال فائدة يسر بها ، وقيل : يتزوج تسع نسوة متفرقات ويكون مستجاب الدعوة ، والبقرة من تلاها من نومه أو شيئًا منها أو تليت عليه ؛ فإنه يرزق طول العمر ، وصلاح الدين ، أما آل عمران من تلاها في نومه يكون منحوس الحظ بين أهله ، ويرزق في كبره ، ويكون كثير الأسفار ، أما النساء من تلاها يكون معه في آخر عمره امرأة جميلة لا تحسن العشرة معه ، ويكون قوي الاحتجاج قوي الكلام والفصاحة ، ومن تلا سورة المائدة ؛ يكون كريم النفس بالإطعام غير أنه يبلى بقوة جفاة ، ومن تلا الأنعام في منامه ؛ يكون متوجهًا لحفظ الدين وحسن الرزق ، أما الأعراف ؛ فينال تاليها من كل علم حظًا ، وربما يموت في أرض

الغربة ، واستمر المؤلف في تتبع سور القرآن الكريم جميعًا مؤولًا إياها حتى وصل إلى آخر سور القرآن وهي سورة الناس ، فإن تاليها في منامه أعيذ بالله من الشيطان الرجيم .

وهذا آخر ما يسّره الله من جمع واختصار المنقول من الروايات الصحيحة عن سيدنا محمد ابن سيرين وغيره رحمهم الله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بخصوص ربط ما ورد في هذا الكتاب بالتخصصات الدقيقة في علم النفس ، فما ورد من حديث في ص ٤ ، ٥ عن التفكر الحدسي Intuitive Thinking بمعنى الإلهام والوصول إلى الحقيقة فجأة دون مقدمات ، فهذا مما يدخل ضمن موضوعات التفكير الإنساني وعلم النفس المعرفي Cognitive Psychology ، كذلك الحديث عن خصال المعبر ، في نفس الصفحات وما بعدها ، هو حديث مرادف تمامًا للحديث عن سمات الشخصية الإنسانية الخاصة بالمعبرين للرؤى ، كذلك مفاهيم مثل الفهم والتأويل والإدراك ، كلها مما يدخل ضمن موضوعات علم النفس العام General Psychology الخاصة بالإدراك الحسي Sensory Perception وغير الحسي (وهو الفهم) ، فهناك الإدراك (أو الفهم) ، ثم يأتي التأويل بعد ذلك .

ورد في الباب الثاني حديث يصف المؤلف فيه أحوال الرائي ، وهي مما يندرج تحت دراسات علم النفس العام ، وبصفة خاصة موضوع الانفعالات Emotions والمشاعر الوجدانية Feelings من قبيل السرور والفرح والغضب والحب والكراهية والإقبال على الله وتقبل البشر ... إلخ .

أما ما يمكن أن يرجى من فائدة لهذا الكتاب ، فهو محاولة وضع معايير عملية قاسية لكيفية تفسير الأحلام في علم النفس ، فلا تظل هذه المسألة أمرًا خاضعًا للأهواء كما هو الحال لدى سيجموند فرويد وتابعيه ، كذلك يعد هذا الكتاب درسًا عظيمًا في كيفية تربية التفكير الإنساني القائم على أساس الاستقراء ، فالتأويل نوع من الاستقراء العلمي القائم على أساس من قواعد وأصول لتأويل الرؤى (انظر الصفحات : ٢ ، ٤ ، ٥ من أول هذا الكتاب) .

ولا حاجة بنا أن نشير إلى أن هذا الأمر - تأويل الرؤى وتعبيرها - شاق على غير أهله ولا يستطيعه كل الناس حتى ولو كانوا علماء ؛ لأن متطلبات القيام به كثيرة وصعبة . وميزة هذا الكتاب أنه لم يخلط بين الأحلام ، وأضغاثها ، والرؤى وميز فيما بينها تمييزًا سليمًا ، على عكس الحال لدى صاحب تفسير الأحلام في مجال المرض النفسي وتحليل الصراعات ، وهو سيجموند فرويد ، الذي لم يميز بين أنواع الأحلام ،

واعتبرها كلها نوعًا واحدًا ، ومال عند تفسيره لها جميعًا بالشهوات التي تريدها النفس ولا تستطيع الحصول عليها ، وخاصةً الرغبات الجنسية المكبوتة منها على وجه الخصوص ، ولم ينته إلى قواعد ثابتة يمكن الانطلاق منها في التفسير ، كما هو الحال عند شيخنا الجليل ابن سيرين ؛ ولذا جاءت كل تفسيراته متعارضة . هذا وبالله التوفيق

* * *

ابن المقفع (ت ١٤٢هـ)
الأدب الصغير (١)

عرض : د . محمد شلبي

التعريف بالمؤلف (٢) :

عبد اللّه بن المقفع : من أئمة الكتاب ، وأول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق ، أصله من الفرس . وُلِد في العراق مجوسيًا (مزدكيًا) ، وأسلم على يد عيسى بن علي (عم السفاح) ، وولي كتابة الديوان للمنصور العباسي . وترجم له كتب أرسطوطاليس الثلاثة في المنطق ، وكتاب « المدخل إلى علم المنطق » المعروف بإيساغوجي ، وترجم عن الفارسية كتاب « كليلة ودمنة » وهو أشهر كتبه ، وأنشأ رسائل غاية في الإبداع منها : « الأدب الصغير » و « الأدب الكبير » و « الصحابة » و « اليتيمة » .

عرض الرسائل :

تقع رسالة ابن المقفع ضمن عدد من رسائل أخرى لمؤلفين آخرين في كتاب واحد يقع في ٥٣٠ صفحة ، ومن بين هذه الرسائل ما تم عرضه من قبل في كتب أخرى كتهذيب الأخلاق ليحيى بن عدي ، على سبيل المثال . ولذلك سوف نركز في عرضنا هنا على رسائل ابن المقفع فقط .

الأدب الصغير :

تقع رسالة الأدب الصغير في ٣٣ صفحة من القطع المتوسط ، ويعتني فيها ابن المقفع :

---

(١) بيروت : دار صادر (١٩٨٩م) ، (١٣٩ص) .

(٢) المصدر : الأعلام - للزركلي .

أولًا : بتنمية العقول :

« فغاية الناس وحاجاتهم صلاح المعاش والمعاد ، والسبيل إلى دركها العقل الصحيح ، وأمارة صحة العقل اختيار الأمور بالبصر ، وتنفيذ البصر بالعزم ، وللعقول سجيات وغرائز بها تقبل الأدب ، وبالأدب تنمو العقول وتزكو » (ص ٤) .

ويذكر ابن المقفع أن « إحياء العقل الذي يتم به ويستحكم خصال ست (ص ٦ - ٨) : وهنا إشارة إلى وسائل تنمية الذكاء المعرفي والذكاء الاجتماعي .

١ - **الإيثار بالمحبة** : فإنما يبلغ المرء مبلغ الفضل في كل شيء من أمر الدنيا والآخرة ، حين يؤثر بمحبته ، فلا يكون شيء أمرأ ولا أحلى عنده منه .

٢ - **المبالغة في الطلب** : فإن الناس لا يغنيهم حبهم ما يحبون ، وهو أهم ما يهوون ، عن طلبه وابتغائه ، ولا يدرك لهم بغيتهم نفاستها في أنفسهم دون الجد والعمل .

٣ - **التثبت والتخير** : فإن الطلب لا ينفع إلا معه وبه . فكم من طالب رشد وجده والغي معًا ، فاصطفى منهما الذي منه هرب والغي الذي إليه سعى ، فإذا كان الطالب يحوي غير ما يريد ، وهو لا يشك بالظفر ، فما أحق بشدة التبين ، وحسن الابتغاء .

٤ - **الاعتقاد للخير** : اعتقاد الشيء بعد استبانته ، فهو ما يطلب من إحراز الفضل بعد معرفته .

٥ - **حسن الوعي** : أما الحفظ والتعهد ، فهو تام الدرك ؛ لأن الإنسان موكل به النسيان والغفلة ، فلابد له إذا اجتبى صوابه قول أو فعل من أن يحفظه عليه ذهنه لأوان حاجته .

٦ - **التعهد لما اختير واعتقد** : البصر بالموضع ؛ فإنها تصير المنافع كلها إلى وضع الأشياء مواضعها . وبنا في هذا كله حاجة شديدة ؛ فإننا لم نوضع في الدنيا موضع غناء وخفض ، لكن موضع فاقه وكد ، على العاقل أن يعلم أن الناس مشتركون ، مستوون في الحب لما يوافق ، والبغض لما يؤذي ، وأن هذه منزلة اتفق عليها الحمقى والأكياس ، ثم اختلفوا بعدها في ثلاث خصال ، هي جماع الصواب وجماع الخطأ ، وعندهن تفرقت العلماء والجهال والحزمة والعجزة (ص ٩ - ١١) .

أ - فضل الرأي الجامع الذي تصلح به الأنفس والأعقاب على حاضر الرأي الذي يستمتع به قليلًا ثم يضمحل ، وأن العاقل ينظر فيما يؤذيه وفيما يسره ، فيعلم أن أحق

ذلك بالطلب ، إن كان ما يحب ، وأحقه بالاتقاء ، إن كان مما يُكره ، أطوله وأدومه وأبقاه .

ب – أن ينظر فيما يؤثر من ذلك ، فيضع الرجاء ولا خوف فيه موضعه ، فلا يجعل اتقاءه لغير المخوف ، ولا رجاءه في غير المدرك ، فيترك عاجل اللذات طلبًا لآجلها ، ويتحمل قريب الأذى توقيًا لبعيده ، فإذا صار إلى العاقبة بدا له أن فراره كان تورطًا ، وأن طلبه كان تنكبًا .

ج – تنفيذ البصر بالعزم بعد المعرفة الذي هو أدوم ، وبعد التثبت في مواضع الرجاء والخوف ، فإن طالب الفضل بغير بصر تائه حيران ، ومبصر الفضل بغير عزم ذو زمانه محروم .

وعلى العاقل مخاصمة نفسه ، ومحاسبتها ، والقضاء عليها ، والإثابة لها والتنكيل بها (ص ١٠ ، ١١) ، ونجد هنا إشارات عن مفهوم الذات Self concept وعلى العاقل أن يحصي على نفسه مساويها في الدين ، وفي الرأي وفي الأخلاق وتعديل السلوك والمنهج العلمي والموضوعية . وفي الآداب ، فيجمع ذلك كله في صدر أو في كتاب ، ثم يكثر عرضه على نفسه ، ويكلفها إصلاحه ، ويوظف من إصلاح الخلة أو الخلال (الخصال) (ص ١١) .

على العاقل إذا اشتبه عليه أمران فلم يدر في أيهما الصواب أن ينظر أهواهما عنده فيحذره (ص ١٤) .

ثانيًا : الولاية (ص ١٤ - ١٦) :

ولاية الناس بلاء عظيم ، وعلى الوالي أربع خصال هي أعمدة السلطان وأركانه التي بها يقوم وعليها يثبت :

١ – **الاجتهاد في التخير للعمال والوزراء** : فإن نظام الأمر ووضع مؤونة البعيد المنتشر فإنه عسى أن يكون بتخيره رجلًا واحدًا قد اختار ألفًا ؛ لأنه من كان في العمال خيار فسيختار كما اختير .

٢ – **التقديم والتوكيل** : فإنه ليس كل ذي لب أو ذي أمانة يعرف وجوه الأمور والأعمال ، ولو كان بذلك عرفًا لم يكن صاحبه حقيقًا أن يكلل ذلك إلى علمه دون توقيفه عليه ، وتبيينه له ، والاحتجاج به عليه .

٣ - **التعهد** : فإن الوالي إذا تفقد وتحفظ كان سميعًا بصيرًا ، وإن العامل إذا فعل ذلك به كان متحصنًا حريزًا .

٤ - **الجزاء** : فإن تثبيت المحسن والراحة من المسيء .

ويورد ابن المقفع بعد ذلك نصائح وأبواب حكمة في مواضيع شتى نختار منها ما يلي :

• أشد الفاقة عدم العقل ، وأشد الوحدة اللجوج (شدة المخاصمة) ، ولا مال أفضل من العقل ، ولا أنس آنس من الاستشارة (ص ١٧) .

• أحق الناس بالسلطان أهل الرأفة ، وأحقهم بالتدبير العلماء ، وأحقهم بالفضل أعودهم على الناس بفضله ، وأحقهم بالعلم أحسنهم تأديبًا ، وأحقهم بالغنى أهل الجود ، وأقربهم من اللَّه أنفذهم في الحق علمًا ، وأكملهم به عملًا (ص ٢٠) .

• فصل ما بين الدين والرأي أن الدين يسلم بالإيمان ، وأن الرأي يسلم بالخصومة ، فمن جعل الدين خصومة فقد جعل الدين رأيًا ،ومن جعل الرأي دينًا فقد صار شارعًا ومن كان هو يشرع لنفسه فلا دين له (ص ٢١) .

• من حاول الأمور احتاج إلى ست وهن أزواج ، فالرأي والأدب زوج ، ولا يكمل الأدب إلا بالرأي ، ولا يكمل الرأي بغير الأدب ، والأعوان والفرصة زوج ، لا تنفع الأعوان إلا عند الفرصة ، ولا تنفع الفرصة إلا بحضور الأعوان ، والتوفيق والاجتهاد زوج ، فالاجتهاد سبب التوفيق ، وبالتوفيق ينجح الاجتهاد (ص ٢٩) .

• الرجال أربعة : جواد ، وبخيل ، ومسرف ، ومقتصد (ص ٣٠) .

• الحازم لا يأمن عدوه على كل حال : إن كان بعيدًا لم يأمن من معاودته ، وإن كان قريبًا لم يأمن مواثبته ، وإن رآه متكشفًا لم يأمن استطراده وكمينه ، وإن رآه وحيدًا لم يأمن مكره (ص ٣٣) .

* * *

كليلة ودمنة
الأدب الكبير [1]

عرض : د . محمد شلبي

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٣٨٤ صفحة من القطع الكبير ، ويهدف إلى تناول آثار ابن المقفع ذات القيمة الأدبية الرفيعة باعتبارها نثرًا عربيًّا وأدبيًّا جيدًا ، يضاف إلى ذلك قيمتها السياسية والأخلاقية ، حيث تقدم صورة دقيقة تصف الفساد الذي استشرى في أواخر الدولة الأموية والذي امتد لأول العصر العباسي .

وعن آثار ابن المقفع فهي : كليلة ودمنة ، والأدب الكبير والأدب الصغير ، والدرة اليتيمة ، ورسالته في الصحابة ، وآثار أخرى ، وهي تمثل أعمالًا أدبية لها قيمتها الفنية في تراثنا العربي . وفيما يلي نعرض لتفاصيلها :

١ - كتاب كليلة ودمنة :

ألفه الفيلسوف الهندي بيدبا لحاكم هندي عرف بالظلم يسمى دبشليم ، وترجمه ابن المقفع ، وهناك من يقول إنه اقتبس بعضه وترجم البعض الآخر ، ويحتوي هذا الكتاب على مجموعة من القصص الأخلاقية وضعت على ألسنة الحيوانات والطيور تتناول بالنقد الصريح سياسة الضغوط والإرهاب والفساد السائد وقت ذلك ، وهي في ظاهرها هزل وفي باطنها دعوة إلى الإصلاح والإعمار .

---

(١) بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة (١٩٧٨م) ، ٣٨٤ ص - (من التراث العربي) .

ورد بالكتاب أن من الأمور التي اختص بها الإنسان من بين سائر الحيوان أربعة أشياء، وهي :

- جماع ما في العالم ، الحكمة والعفة والعقل والعدل .
- فالعلم والأدب والروية داخلة في باب الحكمة .
- والحلم والوقار داخلة في باب العقل .
- والحياء والكرم والصيانة والأنفة داخلة في باب العفة .
- والصدق والإحسان والمراقبة وحسن الخلق داخلة في باب العدل .

وهذه هي المحاسن وأضدادها هي المساوئ .

ونذكر أن هذا القول يشير إلى القيم الأخلاقية Moral Values والمزاج Temperament (ص ٤٤) .

كما يورد أقوالًا للملوك تحثهم على التروي وعدم الاندفاع ، ويتصل هذا بمفهوم الاندفاعية Impulsivity (ص ٤٥) .

ثم يعرض لخصال لا ينبغي توفرها في الملوك ، وهي : الغضب ، والبخل ، والكذب ، والعنف ، وهو ما يتصل بخصال القادة Leaders Characteristics مجال علم النفس الاجتماعي ، وعلم النفس المهني (ص ٤٨) .

كما يعرض لمظاهر السلوك الأخلاقي Moral Behavior Mainifestation كالرفق والتلطف والطاعة للملوك ، حفظ السر ... إلخ (في ص ٦١) .

ويدعو أيضًا إلى التحلي بالأخلاق ، والموضوعية ، والتروي ، والإيمان بالقضاء والقدر وحب الناس (في ص ٧٥) ، وهي أيضًا من مظاهر السلوك الأخلاقي وخصائص واجب توفرها لدى القادة .

وفي فصل عن برزويه الطبيب الفارسي الزاهد - (الذي كلفه ملك الفرس بأن يأتي بكتاب كليلة ودمنة سرًّا من الهند ويترجمه وقد وفِّق في هذه المهمة رغم العقبات التي صادفته) - في هذا الفصل يعرض لزهده وهو ما يشير إلى قمع أو كف الدوافع الفطرية Innate Motives Suppression (ص٨١ - ٨٤) .

ويتحدث أيضًا عن المروءة وعلاقتها بمنزلة الفرد ، فيذكر أنها ترفع منزلة الفرد في حين أن عدم المروءة يحط منها ، وإن لكل إنسان منزلة وقدرًا .

ويتصل هذا الموضوع بمفهوم المكانة Status وكذلك مفهوم سمات الشخصية Personality Traits (ص ٩٩ - ١٠٢) .

ويشير أيضًا إلى أسلوب للتوافق الاجتماعي والشخصي Social & Personal Adjustment وهو النظر فيما مضى من الضر والنفع ، والنظر فيما هو مقيم فيه من المنافع والمضار ، ثم النظر في المستقبل لما يرجو من نفع أو يخافه من ضر (ص ١١٣) .

وعن أسباب فشل القائد Leaders Failure يذكر أن ما يؤخذ على القائد ويفسد أمره ستة أشياء هي : الحرمان ، والفتنة ، والهوى ، والفظاظة ، والزمان (الكوارث والأزمات) ، والخرق (أعمال الشدة في موضع اللين والعكس) ، (ص ١١٤) .

وتشير قصة القرد والغيلم (ذكر السلحفاة) إلى أن طلب الحاجة أهون من الاحتفاظ بها ، ويتصل موضوعها بمفهوم الحاجة Need (ص ٢١٠ - ٢١٦) .

أما في قصة الناسك وابن عرس ، فهي تحث على التروي وعدم الاندفاع في السلوك ؛ لذا فهي تتصل بمفهوم الاندفاعية Impulsivity (ص ٢١٧ - ٢٢٠) .

وفي مجال العدوان Aggression والعداوة Hostility تشير قصة الجرذ والسنور (الهر) إلى أن العداوة قد تصير مودة ، وأن المودة قد تصير عداوة (ص ٢٢١ - ٢٢٦) ، ويشير ذلك إلى مفهوم ثنائية المشاعر أو التناقض الوجداني Ambivalence .

كما تعرض لمعنى الصداقة Friendship ومتطلباتها وواجباتها (ص ٢٤) .

وعن الصفات اللازمة للتوافق الاجتماعي Social Adjustment يذكر أنها كف الأذى ، وحسن الأدب ، ومجانبة الريب ، وكرم الخلق ، والنبل في العمل ، (ص ٢٣٢) .

وتشير قصة (الأسد وابن آوى الناسك) إلى ضرورة مراجعة الحاكم لمن عاقبه بدون ذنب ، ويذكر الآتي : « يسلم العاقل من الندامة بترك العجلة والتثبت ، والعجلة لا يزال صاحبها يجتني ثمرة الندامة بسبب ضعف الرأي .

يتصل هذا بمفهوم الشعور بالذنب Feeling of Guilt ، وكذلك مفهوم الاندفاعية Impulsivity (ص ٢٤٠ ، ٢٤١) .

ثم يحث على عقاب المخطئ وعدم التساهل معه حتى لا يتجرأ على ما هو أعظم مما ارتكبه ، وفي ذلك إشارة إلى أهمية العقاب Punishment (ص ٢٤٢) .

وفي قصة (اللبؤة والأسوار والشعهر) ، يحث الإنسان على عدم إيذاء الآخرين ،

وفي ذلك دعوة إلى عدم ممارسة العدوان Aggression (ص ٢٤٤ - ٢٤٦) .

وفي فصل (إيلاذ وبلاذ وإيراخت) يحث الكتاب على التحكم في انفعالات الغضب Anger Control أو Emotions Control . وعدم التعجل بالعقوبة ، أي عدم الاندفاع Impulsivity ، وضرورة مشاورة أهل المودة والرأي ، Consultation . وذلك عند اتخاذ القرار Decision Making Process (ص ٢٤٧ - ٢٦٠) .

٢ - الأدب الكبير :

يعرض هذا الكتاب لعلاقة الراعي بالرعية ، وعلاقة الرعية بعضها ببعض من منظور أخلاقي ، أي أنه كتاب في السلوك الأخلاقي Moral Behavior (ص ٢٧٩- ٣١٤) .

يحث الكاتب على إرضاء الخالق ﷻ ، وإرضاء السلطان وإرضاء التابعين الصالحين ، ويتصل هذا الكلام بمفهوم الإرضاء Satisfaction (ص ٢٨٢) .

كما يحث على انتقاء الصحبة ، ويقدم نصائح للتعامل معهم ، وهو ما يتصل بمفهوم الصداقة Friendship في علم النفس الاجتماعي (ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٧ ، ٣٠١) .

وفي دعوته إلى الحلم وكف الغضب إشارة إلى مفهوم ضبط الانفعال Emotional Control (ص ٢٨٥ ، ٢٩١) .

وهو ما يتصل أيضًا بالدعوة إلى الحلم والصبر على جار وعشيرة السوء (ص ٣٠٢) ، وضبط مشاعر العداوة (ص ٣٠٣ ، ٣٠٤) ، وضبط الشهوة الجنسية (ص ٣٠٦) وتجنب معارضة السفهاء بالسفه (ص ٣٠٩) .

وفي الحث على مجالسة الأفراد وفقًا لطرائقهم يذكر : (إذا أردت لقاء الجاهل بالعلم والجافي بالفقه ، والعيي بالبيان لم يزد على أن تضيع عقلك ، وتؤذي جليسك بحملك عليه ثقل ما لا يعرف وغمك إياه بمثل ما يغتم به الرجل الفصيح من مخاطبة الأعجمي الذي لا يفقه) ، كما يذكر أيضًا : (اتق الفرح عند المحزون) .

ويتصل هذا بمفهوم المرونة التكيفية Adaptive Flexibility والتوافق الاجتماعي Social Adjustment وكذلك مفهوم التعاطف sympathy (ص ٣١٠ ، ٣١١) ، وفي مجال آداب الاستماع يقول ابن المقفع : (تعلم الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ، ومن حسن الاستماع إمهال المتكلم حتى يقضي حديثه ، وقلة التلفت إلى الجواب والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم والوعي لما يقول) .

كما يحث على عدم التطاول بالبلاغة أو الفصاحة لمن هم ليسوا بلغاء ... ، ويتصل هذا الجانب بمفهوم التواصل Communication ، والتواصل اللفظي Verbal Communication والكلام Speech (ص ٣١٢ ، ٣١٣) .

الأدب الصغير :

يتعرض هذا الجزء إلى حاجة العقل إلى الأخلاق وتأثير الأخلاق في تنمية العقل Moral & Mind (ص ٣١٦ - ٣٤٣) .

وعلى وجه الخصوص ، يحث على ترك عاجل اللذات طلبًا لآجلها ، وتحمل قريب الأذى توقيًا لبعيده ؛ ولذا يختص الجزء الأول بالتحكم في إشباع الحاجة Need Satisfaction ، بينما يتصل الجزء الثاني بالمثابرة Persistance وكلاهما يتصلان بمفهوم النضج النفسي Psyco - Maturity (ص ٣٢١) .

ويذكر الكاتب حاجة العقل إلى محاسبة نفسه ، والقضاء عليها إذا ساءت ، والإثابة لها إذا أحسنت ، أي يحتاج العاقل إلى الضمير Conscience والموضوعية Objectivity (ص ٣٢٢ ، ٣٣٦) .

كما يتصل أيضًا الحث على عدم اتباع الآراء التي تلائم الهوى بمفهوم الموضوعية (ص ٣٢٤) ، حيث يتصل بعلاقة الرأي بالوجدان Opinion, Affection (ص ٣٢٤) .

وعن دور العقل وأهميته في توجيه السلوك يذكر أن : (أشد الفاقة عدم العقل ، وأشد الوحدة وحدة اللجوج ، ولا مال أفضل من العقل) ، وهو ما يتصل بمفهوم الذكاء Intelligence (ص ٣٢٦) .

ثم يتحدث عن أهمية ودور العلم والمعرفة في تهذيب عقل وأخلاق الإنسان ، وهو ما يتصل بمفهوم المعرفة Coqnition وكذلك يشير إلى دور التربية Education وأهميتها في هذا التهذيب (ص ٣٢٨ ، ٣٢٩) .

كما يعرض لأخلاق وآداب المتعلمين والعلماء (ص ٣٣١ ، ٣٣٢) وفضل العلم والتعليم (ص ٣٣٠) وهو ما يتصل بعملية التربية التي سبق لنا الإشارة إليها Education والقيم الأخلاقية Moral Values .

ثم يعرض لمختلف النصائح والحكم حول المال والعقل والحاجة والفقر ... إلخ (ص ٣٣٨ - ٣٤٣) .

يتيمة السلطان [1]

عرض : د . محمد شلبي

عرض الرسالة :

تقع في ٢٦ صفحة في كتاب محمد علي كرد ، رسائل البلغاء من (ص ١٤٦ - ١٧٢) ، وتجمع جوامع الحكم والبيان .

وسنعرض لمختارات ، منها : « من زرع الخير حصد الغبطة » ، « لذة الدنيا في أربعة أشياء : البناء والنساء والطلاء والغناء » ، « أربعة من جهد البلاء : كثرة العيال ، وقلة المال ، وجار السوء ، والزوجة الجائرة » ، « شدائد الدنيا أربعة : الشيخوخة مع الوحدة ، والمرض في الغربة ، وكثرة الدين مع القلة ، وبعد المسافة مع الرحلة » ، « المرأة الصالحة عماد الدين ، وعمارة البيت ، وعون على الطاعة » ، « ثلاث ليس للعاقل أن يتشاءم منهن : فناء الدنيا ، وتصرف أحوالها ، والآفات التي لا أمان منها » ، « ثلاث لا تدرك بثلاث : الغنى بالمنى ، والشباب بالخضاب ، والصحة بالأدوية » (ص ١٤٨) .

« ثمان خصال من طبائع الجهال : الغضب في غير شيء ، والعطاء في غير حق ، وإتعاب البدن في الباطل ، وقلة معرفة الرجل بصديقه من عدوه ، ووضعه السر في غير أهله ، وثقته بمن لم يجربه ، وحسن ظنه بمن لا عقل له ولا وفاء ، وكثرة الكلام من غير نفع » (ص ١٤٩) .

---

(١) اختيار وتصنيف محمد كرد علي - (ط ٣) . القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩٤٦م) . في : رسائل البلغاء / اختيار وتصنيف محمد كرد علي .

« على الملك أن يعمل بخصال ثلاث : تأخير العقوبة عند سلطان الغضب ، وتعجيل مكافأة المحسن ، والأناة فيما لا يخاف فوته ؛ فإن له في تأخير العقوبة إمكان العفو ، وفي تعجيل المكافأة بالإحسان المسارعة بالطاعة من الرعية ، وفي الأناة انفساح الرأي وإيضاح الصواب » (ص ١٥٠) .

« من جهل قدر نفسه فهو بقدر غيره أجهل – من أنف من عمل نفسه اضطر إلى عمل غيره – من استنكف من أبويه انتفى من الرشد – من لم يتضع عند نفسه لم يرتفع عند غيره » (ص ١٥١) .

« إذا صلح صنفان صلح الناس كلهم : العالم والسلطان ، والعلم أجل الأشياء ، تدرك به وهو لا يدرك بالأشياء » (ص ١٥٣) .

« ينبغي أن يكثر الإنسان المقابسة وينتفع بالتجارب ، فإذا أصابه شيء يكرهه حذره وأشباهه وقاس بعضه على بعض » ، « إن الأعمال لا يستعان عليها إلا بالصبر ، ولا يتم الصبر إلا بالعقل ، وإنما يتم العقل مع التجربة ، ويحفظه ويجمعه الاجتهاد والتقدم » ، « وعقل الرجل يستبين في ثماني خصال : **الأولى** : الرفق واللين ، **والثانية** : حفظ الرجل لنفسه ومعرفته بها ، **والثالثة** : طاعة الملوك والتحري لمرضاتهم ، **والرابعة** : معرفة الرجل موضع سره وكيف ينبغي أن يطلع عليه صديقه ، **والخامسة** : أن يكون على أبواب الملوك أديبًا حمولًا ملقًا ، **والسادسة** : أن يكون لسره وسر غيره حافظًا ، **والسابعة** : أن يكون على لسانه قادرًا محتاطًا مقسطًا ، **والثامنة** : أن يكون إذا كان في محفل لا يجيب عما لا يسأل عنه ولا يقول ما لا يستيقن ، ولا يظهر ما يندم عليه » (ص ١٥٤، ١٥٥) .

وقال : « إنما يؤتى السلطان من قبل ست خلال (خصال) : الحرمان والفتنة والهوى والفظاظة والزمان والخرق : فأما الحرمان ، أن يحرم الإخوان والنصحاء والساسة من أهل الرأي والنجدة والأمانة فيفقد بعض من هو كذلك ، أما الفتنة ، فوقوع الحرب ، وأما الهوى ، فالغرام بالنساء والحديث والشراب والصيد ، وما أشبه ذلك ، وأما الفظاظة ، فإفراط الشدة حتى يجمع اللسان بالشتم واليد بالبطش في غير موضعه ، وأما الزمان ، فهو ما يصيب الناس من السنين والموتان ونقص الثمرات والغرق ، وما أشبه ذلك ، وأما الخرق ، فإعمال الشدة في موضع اللين ، واللين في موضع الشدة » (ص ١٥٧) .

وقال : « لا شيء أشد من الفقر ، وهو رأس كل بلاء ، وداع لصاحبه إلى مقت الناس، وهو مسبلة للعقل ، ومدهشة للفطنة ، ومنقصة للمروءة ، ومذهبة للعلم

والأدب ، ومظنة للنهمة ، ومقطعة للحياء ، ومجمعة للبلاء » . « والرجل إذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمنًا ، وأساء به الظن من كان ظنه به حسنًا ، فإن أذنب غيره ظنوه به وصار للتهمة موضعًا » (ص ١٥٩) .

وقال : « إن العلم وحسن التدبير أبلغ في هلاك العدو من النجدة والمحاربة ؛ لأن الرجل النجد إذا اجتهد قتل عشرة من أعدائه ، والرجل العالم الحسن التدبير مهلك بحيلته وتدبيره أهل العسكر الكبير الشديد الشوكة » (ص ١٦٤) .

وقال : « ثلاثة يزداد بها الإخاء : الزيادة في الرجال ، والمواكلة والمشاربة ، ومعونة الأهل والحشم » .

وقال : « يستدل على جودة الذهب بالنار ، وعلى قوة الدواب بالأحمال ، وعلى أهل الأمانة بالأخذ والعطاء ، ولا يستدل على أقصى علم النساء بشيء من الأشياء » (ص ١٦٥) .

الحكم والتجارب والبيان الذي عرضه ابن المقفع يتناول فيه كثيرًا من أحوال الدنيا ، منها : الحياة الخاصة ، والحياة العائلية ، والصداقة ، والولاية ، والعقل وهي ما تدخل في نطاق علم النفس الاجتماعي Social Psychology ، والشخصية Personality ، والذكاء Intelligence .

* * *

الدرة أو الأدب الكبير [1]

عرض : د . محمد شلبي

عرض الكتاب :

كتب عبد اللّه بن المقفع درته هذه ؛ لكي يفتح بابًا من العلم ، مماثل لمن سبقوه من أهل الفضل من العلماء : « فمنتهى علم علمائنا في هذا الزمان أن يأخذ من علمهم ، وغاية إحسان محسننا أن يقتدي بسيرتهم ، وأحسن ما يصيب من الحديث محدثنا أن ينظر في كتبهم فيكون كأنه إياهم يحاور ، ومنهم يستمع » ، « ذلك أن الرجل منهم كان يفتح له الباب من العلم ، والكلمة من الصواب ، وهو بالبلد غير المأهول ، فيكتبه على الصخور مبادرة منه للأجل ، وكراهية لأن يسقط ذلك من بعده ، فكان صنيعهم في ذلك صنيع الوالد الشفيق على ولده ، الرحيم بهم » ، « فلم يبق في جليل الأمر لقائل بعدهم مقال ، وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور فيها مواضع لصغار الفطن مشتقة من جسام حكم الأولين وقولهم ، ومن هذا بعض ما أنا كاتب في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الناس » .

يقسم ابن المقفع كتابه إلى أبواب ، تبدأ بباب في وصف أصول الأدب في الدين وغير ذلك : « يا طالب الأدب اعرف الأصول ، ثم اطلب الفصول (الفروع) ، فإن كثيرًا من الناس يطلبون الفصول مع إضاعة الأصول ، فلا يكون دركهم ، ومن أحرز

---

(١) اختيار وتصنيف محمد كرد علي - (ط ٣) . القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩٤٦م) . في رسائل البلغاء / اختيار وتصنيف محمد كرد علي .

الأصول اكتفى بها عن الفصول ، وإن أصاب الفصل بعد إحراز الأصل ، فهو أفضل » . فأصل الأمر في الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب ، وتجتنب الكبائر ، وتؤدي الفريضة » ، « وأصل الأمر في إصلاح الجسد ألا تحمل عليه من المآكل والمشارب والباه إلا خفافًا » ، « وأصل الأمر في الكلام أن تسلم من السقط بالتحفظ » (ص ٤٠ - ٤٣) .

باب (في وصف الحذر إذا تقلدت شيئًا من أمر السلطان وغيره) :

يورد ابن المقفع عددًا كبيرًا من النصائح لمن يتولى الإمارة : « إن ابتليت بالسلطان فتعوذ بالعلماء » ، « إياك إذا كنت واليًا أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية ، وأن يعرف الناس ذلك منك ، فتكون ثلمة من الثلم (خلل) » (ص ٤٤ ، ٤٥) .

« لتكن حاجتك في الولاية إلى ثلاث خصال : رضا ربك ، ورضا سلطان إن كان فوقك ، ورضا صالح من تلي عليه » .

باب (في المشورة) :

« لا تقذفن في روعك أنك إذا استشرت الرجال ظهر منك الحاجة إلى رأي غيرك » ، والأفضل أن يقال : « لا ينفرد برأيه دون استشارة ذوي الرأي » (ص ٤٦) .

باب (في التماس رضا الناس) :

« إنك إن تلتمس رضا جميع الناس تلتمس ما لا يدرك » ، « لا تمكن أهل البلاء (الحسن عندك) من التذلل ، ولا تمكن من رعيتك أبوابك التي لا ينال ما عندك من الخير إلا بها ، والأبواب التي لا يخافك خائف إلا من قبلها - احرص الحرص كله على أن تكون خبيرًا بأمور عمالك ، فإن المسيء يفرِّق من خبرتك قبل أن تصيبه عقوبتك ، وإن المحسن يستبشر بعلمك قبل أن تأتيه معروفك » ، « ليعرف الناس فيما يعرفون من أخلاقك أنك لا تعاجل بالثواب ولا بالعقاب ، فإن ذلك أدوم لخوف الخائف ، ورجا الراجي » (ص ٤٦ ، ٤٧) .

باب (موعظة جامعة) :

« عوِّد نفسك الصبر على من خالفك من ذوي النصيحة ، والتجرع لمرارة قولهم وعذلهم ، ولا تسهلن سبيل ذلك إلا لأهل العقل والسن ، والمروءة ؛ لئلا ينتشر من ذلك ما يجترئ به سفيه ، أو يستخف به شانئ » .

« لا تتركن مباشرة جسيم أمرك ، فيعود شأنك صغيرًا ، ولا تلزم نفسك مباشرة الصغير ، فيصير الكبير ضائعًا » .

« اعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء ، ففرغه للمهم ، وأن مالك لا يغني الناس كلهم ، فاختص به ذوي الحقوق » .

« واعلم أنك ما شغلت من رأيك في غير المهم أزرى بالمهم » .

« اعلم أن من الناس ناسًا كثيرًا يبلغ من أحدهم الغضب أن يحمله ذلك على الكلوح (العبوس) والتقطيب في غير من أغضبه ، وسوء اللفظ لمن لا ذنب له ، والعقوبة لمن لم يكن يهم بعقوبته ، وشدة المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك ، ثم يبلغ به الرضا إذا رضي أن يتبرع بالأمر ذي الخطر لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ، ويعطي من لم يكن يريد إعطاءه ، ويكرم من لا حق له ولا مودة » (ص ٤٧ ، ٤٨) .

باب (في أصناف الملوك) :

الملوك ثلاثة : ملك دين ، وملك حزم ، وملك هوى (ص ٤٩) .

باب (في التحذير عند جدة دولة بغير حزم) :

« إذا كان سلطانك عند جدة دولة ، فرأيت أمرًا استقام بغير رأي ، وأوانًا جزوًا بغير نيل ، وعملًا أنجح بغير حزم فلا يغرنك ذلك » ، « ولا تطمئن إليه ؛ لأن أمور الدولة ستظهر حقائقها وأصولها بعد ذلك » فما كان من الأمر بني على غير أركان وثيقة ، ولا عماد محكم ، أوشك أن يتداعى أو يتصدع (ص ٥٠) .

باب (في النهي عن الأصحاب غير الثقات) :

« إذا لم تثق في أعوانك ، فعليك أن تصلح من شأنهم ، أو أن تستبدلهم » ثم يعرض ابن المقفع نصائح لمن صارت له الإمارة :

- « ليس للملك أن يغضب ؛ لأن القدر من وراء حاجته » .
- « وليس له أن يكذب ؛ لأنه لا يقدر أحد على استكراهه على غير ما يريد » .
- « لا عيب على الملك في تعيشه وتنعمه ، إذا تعهد الجسيم من أمره ، وفوض من دون ذلك إلى الكفاة » .
- « ليتفقد الوالي فيما يتفقد من أمور الرعية فاقة الأحرار منهم ، فليعمل في سدها ، وطغيان السفلة منهم ، فليقمعه ، وليستوحش من الكريم الجائع ، واللئيم الشبعان ، فإنما

يصول الكريم إذا جاع ، واللئيم إذا شبع » .

- « لا يولعن الوالي بسوء الظن لقول الناس ، وليجعل لحسن الظن من نفسه نصيبًا موفورًا يروح به عن قلبه ، ويصدر به أعماله » .

- « جماع ما يحتاج إليه الوالي (من أمر الدنيا) رأيان : رأي يقوي سلطانه ، ورأي يزينه في الناس ، ورأي القوة أحقهما بالبداءة وأولاهما بالأثرة ، ورأي التزيين أحضرهما حلاوة ، وأكثرهما أعوانًا ، مع أن القوة من الزينة ، والزينة من القوة لكن الأمر ينسب إلى أعظمه » (ص ٥٠ - ٥٤) ، (ولعل الكلام في الجزء السابق يمكن أن يقابل موضوع القيادة Leadership في علم النفس الحديث .

باب (صحبة السلطان) :

« إن شغلت بصحبة الملوك فعليك بطول المرابطة في غير معاتبة ، ولا يحدثن لك الاستئناس غفلة ولا تهاونًا » .

« لا يعرفنك الولاة بالهوى في بلدة من البلدان ، ولا قبيلة من القبائل ، فيوشك أن تحتاج فيهما إلى حكاية أو مشاهدة ، فتتهم في ذلك » .

« وأحق من احترست منه ، من أن يظن بك خلط الرأي بالهوى ، الولاة ؛ فإنها خديعة وخيانة وكفر عندهم » .

« إن ابتليت بصحبة والٍ لا يريد صلاح رعيته ، فاعلم أنك قد خيرت بين خليتين (خصلتين) ، ليس منهما خيار : إما ميلك مع الوالي على الرعية وهذا هلاك الدين ، وإما الميل مع الرعية على الوالي ، وهذا هلاك الدنيا ، ولا حيلة لك إلا الموت أو الهرب » (ص ٥٤ ، ٥٦) .

« ولا يكونن طلبك ما عند الوالي بالمسألة ، ولا تستبطئه وإن أبطأ » .

« لا تخبرن الوالي أن لك عليه حقًّا ، وأنك تعتد عليه ببلاء » .

« اعلم أن أكثر الناس عدوًّا مجاهرًا حاضرًا جريئًا واشيًا ، وزير السلطان ذو المكانة عنده » ، « فاعرف هذا الحال والبس لهؤلاء القوم الذين هم أعداؤك سلاح الصحة والاستقامة ولزوم الحجة فيما تسر وتعلن ، ثم روح من قلبك ؛ كأنك لا عدو لك ولا حاسد » ، « وإن ذكرك ذاكر عند ولي الأمر بسوء في وجهك أو في غيبك ، فلا يرين منك الوالي ولا غيره اختلاطًا لذلك ولا اغتياظًا » (ص ٥٧ ، ٦٠) .

« جانب المسخوط عليه والظنيين (المشكوك والمتهم) به عند الولاة ، ولا تظهرن له عذرًا ، ولا تثني عليه خيرًا عند أحد من الناس » .

« ليعلم الوالي أنك لا تستنكف عن شيء من خدمته ، ولا تدع مع ذلك أن تقدم إليه القول ، عند بعض حالات رضاه وطيب نفسه » .

« إذا أحببت الجاه والخاصة عند الملك ، فلا يحدثن لك ذلك تغيرًا على أحد من أهله وأعوانه ، ولا استغناء عنهم ؛ فإنك لا تدري متى ترى أدنى جفوة أو تغير فتذل لهم فيها » .

« ليكن مما تحكم من أمرك أن لا تسار (تناجي) أحدًا من الناس ، ولا تهمس إليه بشيء عند السلطان ، فإن السرار يخيل إلى كل من رآه (من ذي سلطان أو غيره) ، أنه المراد به ، فيكون ذلك في نفسه حيلة ووغرًا » .

« إن سأل الوالي غيرك فلا تكونن أنت المجيب عنه ، فإن استلابك (أخذ) الكلام خفة بك ، واستخفاف منك بالمسؤول والسائل » ، « لا تسابق الجلساء تواثب الكلام مواثبة ؛ فإنك إذا سبقت القوم إلى الكلام ، صاروا لكلامك خصماء ؛ فيتعقبونه بالعيب والطعن » ، « وإذا أنت لم تعجل بالجواب وخليته (تركته) للقوم اعترضت أقاويلهم على عينك ، ثم تدبرتها وفكرت فيما عندك ، ثم هيأت من تفكيرك ومحاسن ما سمعت جوابًا راضيًا » .

« إن كلمة واحدة من الصواب تصيب موضعها خير من مائة كلمة تقولها في غير فرصها ومواضعها ، مع أن كلام العجلة والبدار موكل به الزلل وسوء التقدير ، وإن ظن صاحبه أنه قد أتقن وأحكم » .

« إن كلمك الوالي فاصغ إلى كلامه ، ولا تشغل طرفك عنه بنظر (إلى غيره) ، ولا أطرافك بعمل ، ولا قلبك بحديث نفسك » (ص ٦١-٦٣) . ونجد هنا مقدمات تنتمي لموضوعي التخاطب Communication والصداقة Fiendship في علم النفس الحديث .

« أرفق بنظرائك من وزراء السلطان ودخلائه واتخذهم إخوانًا ، ولا تتخذهم أعداء ، ولا تنافسهم في الكلمة يتقربون بها » .

« إذا أصبت عند الوالي لطف منزله لغناء (كفاية) يجده عندك ... فلا تزين لك نفسك المزايلة (مفارقة ، مباعدة) له عن أليفه وموضع ثقته وسره قبلك ، تريد أن تقلعه

وتدخل دونه ؛ فإن هذه خلة من خلال السفه » (ص ٦٤ ، ٦٥) .

« اعلم أنه يكاد يكون لك رجل غالبه حديث (ما يغلب على حديثه) ، أما عن بلد من البلدان ، أو ضرب من ضروب العلم ، أو صنف من صنوف الناس ، أو وجه من وجوه الرأي ، وعندما يغرم به الرجل من ذلك يبدو من السخف ويعرف منه الهوى ، فاجتنب ذلك في كل مواطن ، ثم عند أولي الأمر خاصة » .

« لا تكونن صحبتك للملوك إلا بعد رياضة (تعويد) منك لنفسك على طاعتهم في المكروه عندك ، وموافقتهم فيما خالفك ، وتقدير الأمور على ميلهم دون ميلك » (ص ٦٩) .

باب (في معاملة الصديق) :

« لا تخلطن بالجد هزلًا ولا بالهزل جدًّا ؛ فإنك إن خلطت بالجد هزلًا هجنته ، وإن خلطت بالهزل جدًّا كدرته » .

« تحفظ في مجلسك ولكلامك من التطاول على الأصحاب » .

« لا تكثرن ادعاء العلم في كل ما يعرض بينك وبين أصحابك ... ؛ لأنهم إما ينازعونك فيما ادعيت .. أو ينكشف منك التصنع » .

« استحي الحياء كله من أن تخبر صاحبك أنك عالم وأنه جاهل ، مصرحًا أو معرضًا » .

« إذا رأيت رجلًا يحدث حديثًا قد علمته ، أو يخبر خبرًا قد سمعته ، فلا تشاركه فيه ، ولا تتعقبه عليه ، حرصًا على أن يعلم الناس أنك قد علمته ؛ فإن في ذلك خفة وشحًّا وسوء أدب وسخفًا » .

« اجعل غاية نيتك في مؤاخاة من تؤاخي ، ومواصلة من تواصله ، توطين نفسك على أنه لا سبيل لك إلى قطيعة أخيك ، وإن ظهر لك منه ما تكره » .

« إذا نظرت في حال من ترتئيه لإخائك ، فإن كان من إخوان الدين فليكن فقيهًا ليس بمراء ولا حريص ، وإن كان من إخوان الدنيا فليكن حرًّا ليس بجاهل ولا كذاب ولا شرير » (ص ٧٧) .

« اعلم أن انقباضك عن الناس يكسبك العداوة ، وأن تفرشك لهم يكسبك صديق السوء » (ص ٧٨) .

« احترس من سورة الغضب ، وسورة الحمية ، وسورة الحقد ، وسورة الجهل ، واعدد لكل شيء من ذلك عدة تجاهده بها ، من الحلم والرويَّة وذكر العاقبة وطلب الفضيلة » (ص ٨١) .

« ذلِّل نفسك بالصبر على جار السوء ، وعشير السوء ، وجليس السوء ؛ فإن ذلك ما لا يكاد يخطئك » (ص ٨٢) .

« ليكن مما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسودًا ، فإن الحسد خلق لئيم » (ص ٨٤) .

« إن كنت مكافئًا بالعداوة والضرر ، فإياك أن تكافئ عداوة السر بعداوة العلانية ، وعداوة الخاصة بعداوة العامة ؛ فإن ذلك هو الظلم والعار » (ص ٨٥) .

« من الحيلة في أمرك مع عدوك أن تصادق أصدقاءه ، وتؤاخي إخوانه فتدخل بينه وبينهم في سبيل الشقاق ولا تجافي ؛ فإنه ليس رجل ذو طرق يمتنع من مؤاخاتك إذا التمست ذلك منه ، وإن كان إخوان عدوك غير ذوي طرق عدو لك » ، « أحصِ معايب ومثالب عدوك من غير أن تشيع ذلك عليه فيتقيك به ، ويستعد له » .

« إن أردت أن تكون داهيًا فلا تحبن أن تسمى داهيًا ؛ فإنه من عرف بالدهاء خاتل (خادع) علانية وحذره الناس ، حتى يمتنع منه الضعيف » (ص ٨٦) .

« فإن من أرب (دهاء) الأريب دفن ما استطاع ، حتى يعرف بالمسامحة في الخليقة والاستقامة في الطريقة » (ص ٨٦) .

« أحصِ عيوبك وعوراتك كما تحصي عيوب عدوك ، وبادر بإصلاح عيوبك ، وتحصين عوراتك قدر استطاعتك ، فإن لم تستطع فاعلم أنك سهل المنال من عدوك » .

وهو كلام مباشر لموضوع الصداقة أحد موضوعات علم النفس الاجتماعي الحديث .

باب (غير مبين ...) :

« اعلم أن من أوقع الأمور في الدين ، وأنهكها للجسد ، وأتلفها للمال ... الغرام بالنساء » (ص ٨٩) .

« إنما النساء أشباه ... بل كثير مما يرغب عنه الراغب أفضل عنده مما تتوق إليه نفسه منهن » (ص ٩٠) .

« إذا تراكمت الأعمال عليك ؛ فلا تلتمس الروح في مدافعتها بالروغان منها ؛ فإنه

لا راحة لك إلا في إصدارها ، وإن الصبر عليها هو الذي يخففها عنك ، وإن الضجر منها هو الذي يراكمها عليك » (ص ٩٢) .

« فتعهد من ذلك في نفسك خصلة قد رأيتها تعتري بعض أصحاب الأعمال ، وذلك أن الرجل يكون في أمر من أمره فيرد عليه شغل آخر ، ويأتيه شاغل من الناس يكره تأخيره ، فيكدر ذلك بنفسه تكديرًا يفسد ما كان فيه ، وما ورد عليه ، حتى لا يحكم واحدًا منهما ، فإن ورد عليك مثل ذلك فليكن معك رأيك (وعقلك) اللذان تختار بهما الأمور ، ثم اختر أولى الأمرين يشغلك فاشتغل به حتى تفرغ منه ، ولا يعظمن عليك فوت ما فات وتأخير ما تأخر ، إذا أعملت الرأي معمله ، وجعلت شغلك في حقه » (ص ٩٢ ، ٩٣) .

« انظر الأخبار الرائعة وتحفظ منها » ... « فأكثر الناس من يحدث بما سمع ولا يبالي ممن سمع ، وذلك مفسدة للصدق ، ومزارة بالرأي » (ص ٩٤) .

« إذا بدهك أمران لا تدري أيهما أصوب ، فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه ، فإن الصواب في خلاف الهوى » (ص ٩٨) .

« لا تجالس امرءًا بغير طريقته ؛ فإنك إن أردت لقاء الجاهل بالعلم ، والجافي بالفقه ، والعيي بالبيان ، لم تزد على أن تضيع عقلك ، وتؤذي جليسك » (ص ٩٩) .

« اتق الفرح عند المحزون » ، « ولا تستخف شيئًا مما يأتي به جليسك » (ص ١٠٠) .

« تعلم حسن الاستماع ، كما تتعلم حسن الكلام ، ومن حسن إمهال المتكلم ، والوعي لما يقول » (ص ١٠١) .

أوجه الاستفادة من هذا الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس الاجتماعي (خاصة موضوع الصداقة) .

* * *

رسالة في الصحابة [1]

عرض : د . محمد شلبي

عرض الرسالة :

رسالة ابن المقفع في الصحابة تقع في ١٧ صفحة من ص١١٧ إلى ص١٣٤ من كتاب محمد كرد علي ، رسائل البلغاء ، وهي مقال سياسي ناصح لأمير المؤمنين ، ولا ينطبق عليها اسمها ، وإنما هي مقال سياسي مماثل لما نقرأه اليوم في الجرائد والمجلات السيارة .

ونعرض فيما يلي لمقتطفات تمثل الإطار العام للمقالة : « وفي الذي قد عرفنا من طريقة أمير المؤمنين ما يشجع ذا الرأي على مبادرته بالخير فيما ظن أنه لم يبلغه إياه غيره وبالتذكير بما قد انتهى إليه ، ولا يزيد صاحب الرأي على أن يكون مخبرًا أو مذكرًا ، وكلٌّ عن أمير المؤمنين مقبول إن شاء اللّٰه » (ص ١١٨) .

« والذي يقول أهل القصد من المسلمين هو أقوى للأمر ، وأعز للسلطان ، وأقمع للمخالف ، وأوصى للموافق ، وأثبت للعذر عند اللّٰه ﷻ » (ص ١٢٠) .

« فإنا قد سمعنا فريقًا من الناس يقولون : لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق ، بنوا قولهم هذا بناءً معوجًا ، فقالوا : إن أمرنا الإمام بمعصية اللّٰه فهو أهل أن يعصى ، وإن أمرنا الإمام بطاعة اللّٰه فهو أهل أن يطاع ... وهذا قول معلوم يجده الشيطان ذريعة إلى خلع الطاعة والذي فيه أمنيته ؛ لكي يكون الناس نظائر ، ولا يقوم بأمرهم إمام ، ولا

---

(١) اختيار وتصنيف محمد كرد علي - (ط ٣) . القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩٤٦م) . في رسائل البلغاء / اختيار وتصنيف محمد كرد علي .

يكون على عدوهم منهم ثقل » (ص ١٢٠) .

ويقرر إنه الإمام لا يطاع في معصية اللّٰه (ص ١٢١) .

وينصح ابن المقفع أمير المؤمنين بشأن الجند : « مما ينظر فيه لصلاح هذا الجند ألا يولى أحدٌ منهم شيئًا من الخراج ؛ فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة » (ص ١٢٢) ، « ومن ذلك تعهد أدبهم في تعلم الكتاب ، والتفقه في السنة ، والأمانة والعصمة ، والمباينة لأهل الهوى ، وأن يظهر فيهم من القصد والتواضع واجتناب رأي المترفين وشكلهم مثل الذي يأخذ به أمير المؤمنين وقتًا يعرفونه في كل ثلاثة أو أربعة أو ما بدا له ، وأن يعلم عامتهم العذر في ذلك ... ويعلموا الوقت الذي يأخذون فيه ، فينقطع الاستبطاء والشكوى ؛ فإن الكلمة الواحدة تخرج من أحدهم في ذلك أهل أن تستعظم ، وإن باب ذلك جدير أن يحسم ، مع أن أمير المؤمنين قد علم كثرة أرزاقهم ، وكثرة المال الذي يخرج لهم » (ص ١٢٣) .

ومما ينظر أمير المؤمنين فيه أمر هذين المصرين (البصرة والكوفة) وغيرهما من الأمصار اختلاف الأحكام التي قد بلغ اختلافها أمرًا عظيمًا في الدماء والفروج والأموال ، فيستحل الدم والفرج بالحيرة ، وهما يحرمان بالكوفة ، ويكون مثل ذلك الاختلاف في جوف الكوفة ، فيستحل في ناحية منها ما يحرم في ناحية أخرى » (ص ١٢٦) .

« فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسير المختلفة فترفع إليه في كتاب ، ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة أو قياس » (ص ١٢٦ ، ١٢٧) .

وينتقد ابن المقفع صحابة أمير المؤمنين : « وإن أمر هذه الصحابة قد كان فيه أعاجيب دخلت فيه مظالم ... ، فقد سمعنا من الناس من يقول : ما رأينا أعجوبة قط أعجب من هذه الصحابة ، ممن لا ينتهي إلى أدب ذي نباهة ، ولا حسب معروف ، ثم هو مسخوط الرأي ، مشهور بالفجور في أهل مصره » (ص ١٣٠) .

ويقدم النصح لأمير المؤمنين فيمن ينبغي أن يضمه لصحبته : « هي مكرمة سنية ، حرية أن تكون شرفًا لأهلها ، له عند أمير المؤمنين خاصة بقرابة أو بلاء » (ص ١٣١) .

تدخل هذه الرسالة في نطاق علم النفس الاجتماعي Social Psychology ، باب الصداقة Friendship .

أوجه الاستفادة من هذه الرسالة في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذه الرسالة في مجال علم النفس الاجتماعي .

وكيع بن الجراح (ت ١٩٨هـ)
كتاب الزهد [١]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف :

هو وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي بن فرس بن جمجمة ، قيل : إن أصله من قرية من قرى نيسابور ، وقيل : بل أصله من السُّغد ، وفي تاريخ ولادته على أقوال : منها أنه ولد سنة تسع وعشرين ومائة ، وأنه ولد سنة ثمانٍ وعشرين ومائة ، وأنه ولد سنة تسع وعشرة ومائة .

نشأ الإمام وكيع بن الجراح وتربى في أسرة عريقة في العلم والدين ؛ حيث كان والده الجراح بن مليح من رواة الحديث ، وأمه : أم وكيع هي بنت عمارة بن شداد بن ثور بن رؤاس ، كانت ثرية حيث تركت لابنها مائة ألف درهم ، وأولاده هم : سفيان ومليح وأحمد ويحيى وعبيد وإبراهيم ، وروى منهم عن أبيه : عبيد ، ومليح ، وسفيان .

ولد الإمام وكيع بن الجراح (١٢٩هـ - ١٩٧هـ) في أواخر العهد الأموي حينما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة وقضت عليه الحركات السياسية المعارضة ، وانتهى الأمر إلى الإطاحة بالدولة الأموية على أيدي دعاة الدولة العباسية بخراسان والعراق .

وقد برز في عصره عدد كبير من العلماء الأجلاء الذين ساهموا في حركة التدوين حفظًا للسنة ومنعًا للتلاعب فيها ؛ منهم الإمام وكيع بن الجراح الذي نحن بصدد

---

(١) حققه وقدَّم له وخرَّج أحاديثه وآثاره عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي (ط ١) . المدينة المنورة : مكتبة الدار (١٩٨٤م) . ٣ مج في (٩٤٣ ص) .

التعريف به ، والزهري ، والأعمش ، وابن جريج ، وابن إسحاق ، ومعمر بن راشد .

وقد توجه وكيع إلى تحصيل العلم مبكرًا ، وكان له نشاط ملموس في الرحلات العلمية حيث رحل إلى مدن كثيرة ، وأخذ العلم من علمائها ، كما روى لهم ما تجمع لديه من أحاديث وآثار ، ونشر عقيدة السلف ، ورد على أصحاب الزيغ والضلال .

ولقي وكيع بن الجراح من أهل العلم حفاوة وتكريمًا بالغين ، فكانوا يهتمون بالأخذ عنه . ومن تلاميذه : شيخه الثوري ، وابن المبارك ، صاحب « الزهد » ، و « البر والصلة » ، وابن معين ، صاحب « التاريخ » ، والحميدي ، صاحب « المسند » ، وابن أبي شيبة ، صاحب « المصنف » و « الأدب » و « الإيمان » .

ومن مؤلفاته : المصنف ، والسنن ، والمسند ، والتفسير ، والمعرفة والتأريخ ، وكتاب الهبة ، وكتاب الأشربة ، وكتاب الزهد (الذي نعرض له) .

عرض الكتاب :

يتكون الكتاب من ثلاثة أجزاء ، نعرض لها على النحو التالي :

الجزء الأول : من كتاب الزهد :

ويستهله المؤلف ببيان أهمية الزهد ، فإذا أراد اللَّه بعبد خيرًا زهده في الدنيا ، وفقهه في الدين ، وبصره عيوبه ، ومن أوتيهن ، أوتي خير الدنيا والآخرة ، ثم عرض بعد ذلك لعدد من الموضوعات أو الأبواب ، على النحو التالي :

١ - **باب موعظة النبي ﷺ في الزهد** ، ويشير مضمونه إلى أن الزهد ليس معناه الفراغ والانقطاع للعبادة فقط ، ولكن لابد أن يشغل الإنسان وقته في العمل والعبادة معًا .

٢ - **باب من قال : عد نفسك في الموتى** : حيث يجب على الإنسان أن يعيش في الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيل ، وأن يعد نفسه مع الموتى .

٣ - **باب الاستعداد للموت** : فمن شرح اللَّه صدره للإسلام ، تجافى عن دار الغرور واستعد للموت قبل نزول الموت .

٤ - **باب قلة الضحك** : وفيه إشادة واضحة لأن يقلل المرء قدر الإمكان من الضحك . قال رسول اللَّه ﷺ : « **لو تعلمون ما أعلم ، لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا** » .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع الانفعالات Emotions ، (ص ٢٤٢ - ٢٤٨) .

٥ - **باب في البكاء** : وفيه إشارة واضحة إلى البكاء ، البكاء مع ذكر الخطيئة ،

البكاء خشية للّه ﷻ . سأل أحد الصحابة رسول اللّه ﷺ ما نجاة المؤمن قال : « **احفظ لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك** » .

٦ - **باب الضحك** : فبعد نزول الآية الكريمة : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ [النجم: ٥٩، ٦٠] لم يضحك الرسول ﷺ إلا تبسمًا ، ولا يلفت إلا جميعًا (ص ٢٦٧) .

● ويرتبط ما ورد في البابين السابقين (٥ ، ٦) - أيضًا بموضوع سيكولوجية الانفعالات ، فالبكاء يعكس الشعور بالندم والحزن ، أما الضحك فيعكس غالبًا الشعور بالسعادة (ص ٢٦٦ ، ٢٦٨) .

٧ - **باب الموت وصفته** : يتضمن مجموعة من الأقوال والأحاديث النبوية الشريفة عن طبيعة الموت وصفته ، قال رسول اللّه ﷺ : « **جاءت الراجعة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه** » ، ففي الموت كما قال اللّه ﷻ : ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ [القيامة: ٢٩] أي : الدنيا بالآخرة .

٨ - **باب الحديث عن بني إسرائيل** : والأحاديث والآثار الواردة تحت هذا الباب غالبها تتعلق بالموت وصفته كالباب السابق .

٩ - **باب الدنيا ومثلها** : وفيه إشارة إلى أن الدنيا زائلة ومتاعها زائل ، فهي كما قال رسول اللّه ﷺ : « **ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب** » .

١٠ - **باب هوان الدنيا** : فقد قال أحد الصحابة : من أراد الدنيا أضر بالآخرة ، ومن أراد الآخرة أضر بالدنيا يا قوم ، فأضروا بالفاني للباقي .

١١ - **باب رد النفس وقلة الأكل** : ويتضمن مجموعة من الأقوال والأحاديث التي تحث على ضبط رغبات وحاجات المرء ، كالحاجة للطعام .

● ويرتبط هذا الباب بحديث علماء النفس عن مفهوم ضبط النفس Self - Control والدافع إلى الطعام أو الجوع ، وضرورة تحكم الفرد فيه (ص ٣٠١ - ٣٠٨) .

١٢ - **باب فضل المؤمن** : وفيه بيان بفضل المؤمن عند اللّه ﷻ .

١٣ - **باب راحة المؤمن** : حيث ترتبط راحة المؤمن بلقاء اللّه ﷻ ، فكما قال سفيان عن أبيه : ما من غائب ينتظره المؤمن خير له من الموت ، وكما قال رسول اللّه ﷺ : « **من أحب لقاء اللّه أحب اللّه لقاءه ، ومن كره لقاء اللّه ، كره اللّه لقاءه** » والموت قبل لقاء اللّه يعني قدّر اللّه عليه الموت قبل لقائه .

١٤ - **باب ما يجزى به المؤمن** : ومنه الدعوة إلى تقوى اللَّه ﷻ ، ومعاملة حسنة ، وشكر اللَّه في كل الأحوال .

١٥ - **باب معيشة آل محمد** ﷺ : وفيها التقشف والاعتدال في المأكل والملبس وغير ذلك من الأمور .

١٦ - **باب ذكر معيشة رسول اللَّه** ﷺ : وفيه إشارة لحياة رسول اللَّه ﷺ ، التي تسمت بضبط النفس وقمع الشهوات والدوافع الفطرية .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع الدوافع Motives ، وخاصة قمع الدوافع الأولية أو الفطرية (كالطعام والشراب ... إلخ) (ص ٣٤٤ - ٣٥٠) .

١٧ - **باب التواضع ولبس الصوف** : وفيه إشارة واضحة إلى التواضع وأهميته في حياة الإنسان ، التواضع في اللبس مثلًا ، حيث كان الأنبياء لا يستحون من أن يلبسوا الصوف ويركبوا الحمير ، ويحلبوا الغنم . ويجب أن نقتدي بهؤلاء الأنبياء ونجعلهم مثلنا الأعلى في تصرفاتنا .

١٨ - **باب ذكر الفقر** : ويشير مضمونه إلى تفضيل حالة الفقر وعدم الشهرة ، وقل الأهل والمال . وأوضح دليل على ذلك قول رسول اللَّه ﷺ : « **إن أغبط أوليائي عندي : مؤمن خفيف الحاذ ذو حفا من صلاة ، أحسن عبادة ربه ، وكان غامضًا في الناس لا يشار إليه بالأصابع ، تعجلت منيته ، وقل تراثه ، وقلت بواكيه** » .

١٩ - **باب ذكر منزلة الفقر** : وتكشف مجموعة الأقوال والأحاديث النبوية الشريفة تحت هذا الباب أن للفقر منزلة كبيرة عند اللَّه ﷻ ، ورسوله محمد ﷺ ، وقال الرسول ﷺ في ذلك : « **انظروا إلى من هو أسفل منكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ؛ فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة اللَّه** » .

٢٠ - **باب الاجتهاد في العمل** : وفيه إشارة واضحة إلى الجدية في العمل وتحمل المسؤولية ، والعمل هنا ليس المقصود به العمل الدنيوي الزائل ، ولكن العمل من أجل الآخرة ، الصلاة ، الصوم ، العبادات بكل فروعها وأقسامها .

٢١ - **باب من قال : « ليتني لم أخلق »** : ويتضمن دعوة من بعض الصحابة ﷺ ، بقولهم : « ليتنا لم نخلق » ؛ مثلًا : قالت عائشة : « وددت أني كنت نسيًا منسيًا » ، وقال البعض الآخر : « وددت أني كنت طيرًا في منكبي ريش » .

الجزء الثاني : من كتاب الزهد

٢٢ - **باب من كره المال والولد** : حيث قال البعض في دعائه : اللَّهم ارزقني الإيمان والعمل ، وامنعني المال والولد . ودعى البعض الآخر بكثرة الأولاد . فهم كما قال عنهم رسول اللَّه ﷺ : « **ثمرة القلوب ، وقرة الأعين** » ، وأنهم مع ذلك لمجبنة ، مبخلة محزنة .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع الدوافع Motives سواء الاجتماعية المكتسبة (كالدافع إلى التملك) والدوافع الفطرية الأولية (كدافع الأمومة) (ص ٤١٥ - ٤٢٤) .

٢٣ - **باب ذكر الغنى** : فليس الغنى عن كثرة العرض ، وإنما الغنى المقصود هو غنى النفس ؛ فكما قال رسول اللَّه ﷺ : « **اللَّهم اجعل غنانا في أنفسنا** » .

٢٤ - **باب ذكر الحرص على المال** : وهو من الأشياء التي يسعى الإنسان إليها مهما طال عمره ؛ فكما قال رسول اللَّه ﷺ : « **يهرم ابن آدم ، ويبقى منه اثنتان : الحرص والأمل** » ، فالمرء حريص على جمع المال وطول الحياة .

● يرتبط هذا الباب بالدوافع المكتسبة كحب المال (ص ٤٣٠ - ٤٣٦) .

٢٥ - **باب الأمل والأجل** : فهناك خوف على الإنسان من اثنين : طول الأمل واتباع الهوى ؛ فأما طول الأمل فينسي الآخرة ، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، ويجب على الإنسان أن يكون من أبناء الآخرة ، لا من أبناء الدنيا .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع الدوافع وتأثيرها في التفكير ، حيث تؤثر دوافعنا وميولنا في تفكيرنا ، وتعطل وصول التفكير إلى الحق (ص ٤٣٦ - ٤٤١) .

٢٦ - **باب الأثر الحسن** : فاللَّه ﷻ يحب أن يرى أثر نعمته على عبده حسنًا ، ويكره البؤس والتباؤس .

٢٧ - **باب فضل الصبر** : فالصبر كما قال علي ﷺ : من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فالصبر مطلوب عند كل بلاء ، وكل لقاء ، من رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط ، فالصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله .

٢٨ - **باب الحزن وفضله** : فالسكوت والحزن مطلوب في بعض المواقف ؛ كالجنازة مثلًا ؛ فالرسول ﷺ إذا كان في جنازة أكثر السُّكات وحدث نفسه .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع الانفعالات Emotions (انفعال الحزن) والقدرة على الضبط والتحكم في انفعالاتنا (ص ٤٥٩ - ٤٦٣) .

٢٩ - **باب التواضع** : وهو كما قال الصحابة من أفضل العبادات ، قال رسول الله ﷺ : « **إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ، ولا يفخر أحد على أحد** » .

٣٠ - **باب الاجتهاد والورع** : وفيه إشارة واضحة إلى فضل الاجتهاد والورع ، فكما قال رسول الله ﷺ : « **فضل العلم خير من فضل العبادة ، وملاك دينكم الورع** » .

٣١ - **باب التفكر** : وفيه دعوة إلى التفكر في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، وذلك لما فيه من ذكر الحق وقوة الإيمان والعقيدة .

٣٢ - **باب فضل الفقه** : فمن يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين ، ويلهمه رشده فيه .

٣٣ - **باب الاقتصاد في العمل** : فيجب على المرء أن يعمل حسب مقدرته واستطاعته ، فكما قال رسول الله ﷺ : « **ليأخذ أحدكم من العمل ما يطيق ؛ فإن أحدكم لا يدري ما قدر أجله** » ، فكان أحب الأعمال إلى رسول الله ﷺ الدائم وإن قل .

٣٤ - **باب محاسبة الرجل نفسه والإنصاف من نفسه** : فلا يكون الرجل تقيًا حتى يحاسب نفسه محاسبة شريكه ، وحتى يعلم من أين ملبسه ، ومطعمه ومشربه .

٣٥ - **باب فضل عمل السر** : فهناك أجر لمن يعمل في سر وصمت ؛ جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله : إني أعمل العمل فأستره ، فيطلع عليه فيعجبني ؟ قال : « **لك أجران : أجر السر ، وأجر العلانية** » .

٣٦ - **باب من كان يحب الخلوة** : ففي الخلوة والعزلة راحة من خلاط السوء .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع الصداقة Friendship وهو ما يقع في مجال بحوث ديناميات الجماعة أو بحوث الجماعات الصغيرة Group Dynamics (ص ٥١٤-٥٢١) .

٣٧ - **باب من كره التسويف في العمل** : فالتؤدة في كل شيء خير ، إلا ما كان في أمر الآخرة ، قال رسول الله ﷺ : « **بادروا بالأعمال سِتًا : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض ، ويأجوج ومأجوج ، وخويصة أحدكم** » .

٣٨ - **باب من يخالف قوله عمله** : فمن وافق قوله فعله فذلك أصاب حظه ، ومن خالف قوله فعله ، فإنما يوبخ نفسه .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع العلاقة بين الاتجاه والسلوك The Relation between

وهو أحد الجوانب المهمة في مجال سيكولوجية الاتجاهات Attitudes and Behaviour ، وتغيير الاتجاهات ، فأحيانًا يعبر الفرد عن اتجاهه لفظيًا ، بشكل يخالف الواقع أو السلوك الفعلي (ص ٥٢٧ - ٥٣٣) .

٣٩ - **باب قلة الذنوب** : فيجب على الإنسان أن يقلّل ذنوبه كلما أمكنه ذلك ، فكما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : « أقلوا الذنوب ، فإنكم لن تلقوا اللَّه بشيء أفضل من قلة الذنوب » .

٤٠ - **باب التوبة وحفظ اللسان** : فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، ويجب على الإنسان أن يحفظ لسانه ويعفه عن كل معصية ، وأن لا يتحدث إلا في الخير لنفسه والآخرين .

● ويرتبط هذا الباب بضبط النفس Self Control وبالشعور بالذنب وعلاجه عن طريق التوبة (ص ٥٤٢ ، ٥٦٠) .

٤١ - **باب التنظف** : وفيه دعوة إلى ضرورة النظافة وأهميتها في حياة الفرد ، وقال رسول اللَّه ﷺ : « **نظِّفوا أفنيتكم ، فإن اليهود أنتن الناس** » .

٤٢ - **باب الترتيل في الخطبة** : **قال الصحابة** رضي الله عنهم : كان كلام رسول اللَّه ﷺ : ترتيلًا وترسيلًا ؛ أي ضرورة الحديث بشكل منتظم في الإلقاء حتى يسهل التخاطب والتواصل والفهم بين الأفراد .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع سيكولوجية التخاطب Communication وكيف يكون المرسل أو المصدر Source مؤثرًا وقادرًا على إقناع الآخرين وتقديم رسالته بشكل يضمن وصولها إلى جمهور المستقبلين أو المستمعين بشكل أفضل (ص٥٦٧ - ٥٧٦) .

٤٣ - **باب الرياء** : وهو من الأشياء المكروهة ؛ فاللَّه لا يسمع من مسمع ولا مراءٍ ولا داعٍ إلا داعٍ ثبتًا من قلبه ، وَلا يقبل إلا الناخلة من الدعاء ، أي المنخول الخالص .

٤٤ - **باب السمعة** : فمن يسمع الناس بعمله ، سمع اللَّه به سامع خلقه ، وحقره .

٤٥ - **باب من قال البلاء موكل بالقول** : وتسير مجموعة الأحاديث التي يشتمل عليها هذا الباب إلى أن البلاء موكل بالقول ، وما قال عبد لشيء : لا ، واللَّه لا أفعله أبدًا إلا ترك الشيطان من كل عمله ، وولع بذلك حتى يؤثمه .

٤٦ - **باب السمت الحسن والخشوع** : وهي من الأمور المفضلة التي يجب أن

يتصف بها المرء . قال أحد الصحابة : الهدي الصالح ، والسمت الصالح ، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة ، وقوله ﷻ : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح : ٢٩] ، أي الخشوع والتواضع .

• ويرتبط هذا الباب بموضوع سمات الشخصية Personality Traits (ص ٥٩٥ - ٥٩٩) .

٤٧ - **باب الحب في الله** : فمن أوثق روابط الإيمان الحب في الله والبغض فيه ، قال رسول الله ﷺ : « **إن المتحابين في الله على منابر من نور يوم القيامة** » .

٤٨ - **باب إخفاء الدعاء** : قال رسول الله ﷺ : « **خير الذكر الخفي وخير الرزق ما يكفي** » ، فالدعاء مطلوب ومستحب ولكن في همس وبشكل ضمني أو خفي .

٤٩ - **باب من يحبب الرب إلى خلقه** : فمن أحب عباد الله إلى الله ، الذين يحبون الله ، ويحببون الله إلى خلقه ، فكما قال أبو الدرداء : لئن سألتم لأقسمن لكم إن أحب عباد الله إلى الله رعاة الشمس والقمر والنجوم والأظلة لذكر الله .

٥٠ - **باب النية** : فالأعمال كما قال الرسول ﷺ بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى .

• ويرتبط هذا الباب بمفهوم النية أو المقصد Intention أحد المفاهيم الأساسية في مجال سيكولوجية الاتجاهات ، والعلاقة بين الاتجاهات والسلوك ؛ فقد استعان به المختصون في علم النفس الاجتماعي لتفسير التناقض في تفسير العلاقة بين اتجاه الفرد وسلوكه الفعلي .

٥١ - **باب من ترك الشيء لله تعالى** : فما من عبد ترك شيئًا لله إلا أبدله الله به ما هو خير منه من حيث لا يحتسب ، ولا تهاون به عبد فأخذ به من حيث لا يصلح إلا أتاه الله بما هو أشد عليه .

٥٢ - **باب البراءة من الكبر والهم في الدنيا** : فمن وضع جبينه لله ساجدًا ، فليس بمتكبر ، وقد برئ من الكبر ، قال رسول الله ﷺ : « **براء من الكبر ركوب الحمار ولبس الصوف واعتقال العنز ، ومجالسة فقراء المسلمين المساكين ، أما الهم في الدنيا فهو مكروه وفي الآخرة مطلوب ومحبوب** » ، وذلك كما يشير حديث الرسول ﷺ : « **من كانت الآخرة همه ، جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت الدنيا همه ، جعل الله الفقر بين عينيه ، وفرق عليه شمله ولم يأته منها إلا ما قدر له** » .

٥٣ - **باب الحساب** : وفيها حديث عن مشاهد يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ وَكُلَّ

إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١٣] ، وقال الرسول ﷺ : « **يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات : فأما عرضتان : فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي ، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله** » .

٥٤ - **باب السخاء والبخل** : فالبخل من الأشياء الكريهة في حياة وتصرفات الفرد ، ذكر لرسول الله ﷺ امرأة متعبدة ، وقيل : إنها بخيلة ، قال : فما خيرها إذًا ؟ فلا ينبغي للمؤمن أن يكون بخيلًا ولا جبانًا .

٥٥ - **باب الحياء** : قال رسول الله ﷺ : « **الحياء خير كله** » ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « **لكل دين خلقًا ، وإن خلق الإسلام الحياء** » .

الجزء الثالث : من كتاب الزهد

٥٦ - **باب من أتى مسجد قباء** : قال رسول الله ﷺ : « **من أتى مسجد قباء ، فصلى فيه ركعتين أو أربعًا كانت له كعمرة** » ، وكان رسول الله ﷺ يأتي مسجد قباء راكبًا وماشيًا .

٥٧ - **باب الكذب والصدق** : فالكذب من الصفات المذمومة والكريهة ، ولا يصلح في هزل ولا جد ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩] ، فيجب على المسلم أن يتحرى الصدق في كل شيء ، حتى لا يكون للفجور في قلبه موضع إبرة يستقر فيه .

● ويرتبط هذا الباب بالقيم الأخلاقية Moral Values (كالصدق والأمانة) التي يكتسبها الطفل من البيئة والمجتمع الذي يعيش فيه ، وتنعكس هذه القيم في أفكاره أو تصوراته وأفعاله أثناء تفاعله مع الآخرين (ص ٦٩٥ - ٧٠٢) .

٥٨ - **باب صلة الرحم** : فالرحم معلقة في العرش تنادي : اللّهم صل من وصلني ، واقطع من قطعني . قال الرسول ﷺ : « **الرحم معلقة بالعرش ، تقول : من وصلني وصله الله ، ومن قطعني قطعه الله** » ، وقال الله ﷻ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٢٢] .

● ويرتبط هذا الباب بالتفاعل الاجتماعي Social Interaction بين الأفراد ، (ص ٧٠٢ - ٧٢٥) .

٥٩ - **باب الحلم** : قال تعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] ، أي حلماء لا يجهلون ، وإن جهل عليهم حلموا ، فالحلم من أكثر الأشياء نفعًا .

٦٠ - **باب الخلق الحسن** : وهو من الصفات الإيجابية والمفضلة التي يجب أن يتصف بها الفرد ، قال الرسول ﷺ : « **أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا** » .

٦١ - **باب البغي** : وهو من الأشياء المذمومة ، والذنوب التي يحاسب عليها الفرد ، قال رسول اللَّه ﷺ : « **ذنبان معجلان لا يؤخران : البغي وقطيعة الرحم** » ، كما قال : « **لو أن جبلًا بغى على جبل لدك الباغي منهما** » .

● وترتبط هذه الأبواب الثلاثة السابقة بالتفاعل الاجتماعي بين الأفراد (ص ٧٢٥ - ٧٤٦) .

٦٢ - **باب الغيبة** : قال رسول اللَّه ﷺ : « **الغيبة أن يذكر الرجل بما فيه من خلْقه أو خُلقه** » أما ما ليس فيه من خلقه فذلك هو البهتان ، وهذا من الأشياء المذمومة ، قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة : ١] .

٦٣ - **باب الحسد** : قال رسول اللَّه ﷺ : « **لا حسد إلا في اثنتين : رجل أتاه اللَّه مالًا ، فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل أتاه اللَّه حكمة ، فهو يقضي بها ويعلمها** » ، وهو من الشيطان .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع ؛ كالانفعالات وبخاصة انفعال الحسد (ص ٧٥٣ - ٧٥٦) .

٦٤ - **باب النميمة** : قال رسول اللَّه ﷺ : « **لا يدخل الجنة قتات** » ، أي : النمام الذي يمشي بين الناس بالنميمة ، فمن الخيانة أن يحدث الرجل بسر أخيه .

٦٥ - **باب الستر** : فمن سمع بفاحشة ، فأفشاها ؛ كان فيها كالذي بدأها ، وقد أمر الرسول ﷺ بستر العيوب والمساوئ التي يظهرها الآخرون .

٦٦ - **باب الرفق** : فالرفق رأس الحكمة . وقال رسول اللَّه ﷺ : « **إن اللَّه رفيق يحب الرفق ، ويعطي ما لا يعطي على العنف** » ، ومن يعطى الرفق في الدنيا نفعه في الآخرة .

● ويرتبط هذا الباب بمفهوم الشدة - اللين Toughmindedness - Tendermindedness كأحد الأبعاد الأساسية في تفسير الاتجاهات الاجتماعية (ص ٧٧٦ - ٧٨٥) .

● كما ترتبط الأبواب الثلاثة السابقة بسمات الشخصية ، وبالعلاقات الاجتماعية بين الأفراد (ص ٧٥٦ - ٧٨٥) .

٦٧ - **باب صفة النفاق** : من تعريفات المنافق أنه : هو الذي يصف الإسلام ولا

يعمل به ؛ وقد اعتبروا المنافق منافقًا بثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وقال رسول الله ﷺ : « **أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ، وإن كانت فيه خصلة منهن لم تزل فيه خصلة من نفاق ، حتى يدعها : إذا وعد أخلف ، وإذا حدث كذب ، وإذا خاصم فجر ، وإذا عاهد غدر** » .

٦٨ - **باب النظرة** : فكل نظرة يهواها القلب فلا خير فيها ، وقال رسول الله ﷺ : « **لا تتبع النظرة بعد النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة** » .

● ويرتبط هذا الباب بالتخاطب غير اللفظي Non - Verbal Communication وذلك من خلال نظرة العين Eye Contact ، والإشارات ، والرموز Symbols ... إلخ (ص ٧٩٣ - ٨٠١) .

٦٩ - **باب الخدمة والتواضع** : وفيه إشارة واضحة إلى أن يكون المرء خدومًا لنفسه وللآخرين متواضعًا في كل أعماله وتصرفاته .

٧٠ - **باب الرحمة** : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله يرحم عبده المؤمن يوم القيامة برحمته العصفور** » فالرحمة من الأمور المطلوبة في تعاملنا مع الآخرين لما فيها من خير وتواد بين الأفراد ، ورحمة الأفراد بعضهم لبعض مرتبطة برحمة الله لعباده .

٧١ - **باب الخرب** : وهو من الأشياء التي تؤدي إلى هلاك وفساد الأفراد .

● والخَرِب : واحدتها الخَرِبة موضع الخراب (المعجم الوسيط) .

٧٢ - **باب الإنصات** : قال أحد الفقهاء : اغد عالمًا أو متعلمًا أو منصتًا أو محبًّا لذلك ، ولا تكن الخامس فتهلك ، فالإنصات واجب في اثنتين : الصلاة والإمام يقرأ ، وفي الجمعة والإمام يخطب .

● وفيه إشارة واضحة لمفهوم التعلم Learning وأهميته في اكتساب المرء للمعرفة وتحصيل العلم (ص ٨٢٥ - ٨٤٣) .

٧٣ - **باب كتاب أهل الخير بعضهم إلى بعض** : فالعبد إذا عمل بطاعة الله أحبه الله ، وإذا أحبه الله حَبّبهُ إلى خلقه ، وإن العبد إذا عمل بمعصية الله أبغضه الله ، وإذا أبغضه الله بغضه إلى خلقه ، فمن أصلح بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس ، ومن أصلح الله سريرته ، أصلح الله علانيته .

* * *

الهرثمي (ت ٢٣٤هـ)
مختصر سياسة الحروب [(١)]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف :

هو أبو سعيد الشعراني الهرثمي كما في فهرست (ابن النديم) ويبدو أنه منسوب بالولاء إلى هرثمة بن أعين الجيلي (الذي كان من أبرز قادة الرشيد العباسي) فاستعان به على إخضاع الثائرين ببلاد المغرب ، فلما ظهر نجاحه بها ولاه عليها ، ثم ولاه بعدها على خرسان ، فأقام بها حتى كانت الفتنة بين الأخوين (المأمون والأمين) فكان قائد جيوش الأول ، ثم عاش إلى ما بعد سنة (٢٣٤هـ) في خلال حكم الخليفة (المتوكل) فقد ذكر الكندي في كتابه (الولاة والقضاة) ، (ص ١٣٤) - طبعة لندن سنة (١٩١٢م) - أن المتوكل كتب إلى هرثمة في جمادى الآخرة من تلك السنة ، يأمره بترك الجدول في القرآن .

وقد كانت عادة كبار القادة أن يتخذوا لهم غلمانًا من غير العرب ، ينشئونهم على الفروسية وأعمال القتال ، فيحملون لهم اللواء في معاركهم ، ويقومون فيها على خدمتهم ، وذكر الكندي من هؤلاء الأتباع (منصور بن زياد) كما ذكر رجلًا آخر يسمى (محمد بن سويد) فمن الجائز أن يكون الهرثمي أحد أبناء هرثمة ، أو أحد هؤلاء الأتباع من الموالي الذي نسب إليه بالولاء .

« **المصدر** : الكتاب الذي نعرض له : مختصر سياسة الحروب للهرثمي صاحب

(١) القاهرة : وزارة الثقافة . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، [د . ت] ، (٧١ ص) .

المأمون (ص ٨ ، ٩) » .

عرض الكتاب :

يشتمل كتاب (سياسة الحروب) على أربعين بابًا نعرض لها على النحو التالي :

الباب الأول : في أن نظام الأمر تقوى اللّه والعمل بطاعته ؛ فيجب على من يحارب أن يجعل رأس سلاحه في حربه تقوى اللّه وحده وكثرة ذكره ، والاستعانة به ، والتوكل عليه .

الباب الثاني : في حسن سياسة الرئيس أصحابه . فالغرض الذي يجري إليه السائس الكامل في سياسة أصحابه ثلاث خصال : المحبة ، والهيبة منهم له ، والمحبة من بعضهم لبعض .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع سيكولوجية القيادة Leadership وكيف يتعامل القائد مع أتباعه (ص ١٦ - ١٧) .

الباب الثالث : في ذكر فضائل الرئيس وأصحابه . فأفضل الرؤساء في الحرب أكملهم عقلًا ، وأطولهم تجربة ، وأبعدهم صوتًا ، وأبصرهم بتدبير الحرب ومواضعها ، ومواضع الفرص والحيل والمكايدة ، وأحسنهم تعبئة لأصحابه ، وإدخال الأمن عليهم والخوف على عدوهم ، مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو ، وأن يكون حسن السيرة ، عفيفًا ، صارمًا ، حذرًا ، شجاعًا ، متيقظًا ، سخيًّا .

● ويرتبط هذا الباب من حديث علماء النفس في مجال القيادة عن الصفات أو الخصال التي يجب أن يتسم بها القائد ، وتلك التي يتصف بها المرؤسين أو التابعين ، (ص ١٧ ، ١٨) .

الباب الرابع : في ذكر الحذر ، فأول العمل في الحرب ورأس التدبير فيها ألا يظهر عدوك على عوراتك ولا تستر عنك عوراته ، ولن تحكم ذلك في نفسك إلا مع شدة الحذر ، وكتمان السر ، ولن تعرفه مع عدوك إلا مع التيقظ والتلطف وإذكاء العيون والجواسيس .

الباب الخامس : في ذكر الأناة والرفق ، وتتطلب ظروف الحرب الصبر وعدم العجلة ، حتى تحين الفرصة الملائمة للحرب ومعرفة مواطن ضعف العدو .

الباب السادس : في الاستشارة وترك الاستبداد بالرأي . وفيه حث على وجوب وأهمية الاستشارة من ذوي الرأي والمعرفة والثقة ؛ وذاك لما فيها من منافع .

● ويرتبط هذا الباب - خاصة (الاستبداد بالرأي) - من حديث علم النفس

الاجتماعي عن مفهوم الجمود Dogmatism (ص ٢١) ، والتسلط Authoritarianism .

الباب السابع : في حفظ السر وصيانته ، فيجب كتمان السر في الحروب ، ففي ذلك حسن التدبير وقطع مكيدة العدو .

الباب الثامن : في ذكر النصحاء والمتنصحين ، ويشير المؤلف إلى ضرورة الاستعانة بتوجيهات ونصائح الآخرين - أثناء الحرب - خاصة من أولئك الذين يمثلون مصدر ثقة ونواياهم طيبة .

الباب التاسع : في العيون والجواسيس ، حيث يجب أن يحكم القائد أمر جواسيسه ؛ لأن ذلك رأس أمر الحرب ، وتدبير مكايدة العدو ، ويجب أن يكون هؤلاء الجواسيس ممن يثق فيهم القائد ، فيتوفر فيهم الصدق والأمانة .

الباب العاشر : في الأمر بتعجيل الأهبة والتعبئة ، قالوا : إذا كان العدو منك على خمس مراحل أو نحوها ، فلا يكونن مسيرك ونزولك إلا على تعبئة .

الباب الحادي عشر : في تسمية أصول أجزاء التعبئة : أصول أجزاء التعبئة ثلاثة : القلب ويسمونه الجهود ، والميمنة والميسرة ويسمونها الجنين ، وطرفا كل جزء من هذه الأجزاء جناح وقد يجزأ من كل جزء منها ثلاثة أجزاء : قلبًا وميمنة وميسرة .

الباب الثاني عشر : في تسمية الجيوش ، وما دونهم ومبلغ عددهم ؛ فالسرايا هي ما بين الثلاثمائة نفر إلى الخمسمائة ، وهي التي تخرج بالليل ، وأما التي تخرج بالنهار فتسمى السوارب ، وما زاد عن الخمسمائة فهو جيش ، وما زاد عن الثمانمائة إلى الألف فهو الحسحاس (أي الجيش المبيد المهلك) ، وما بلغ الألف فهو الجيش الأذلم (الذي يقطع أعداءه) ، وما بلغ أربعة آلاف فهو الجيش الجحفل وما بلغ اثنا عشر ألفًا فهو الجيش الجرار .

الباب الثالث عشر : في التحرر عند الترحل وفي المسير ؛ فإذا أردت الرحيل من منزل إلى منزل ، فقدم بعض طلائعك وصاحب مقدمتك ، ومُر بعض من توجه من الطلائع أن ينصرف إليك من المنزل يتلقاك بنزول صاحب مقدمتك ، ولا تقترب من المنزل حتى يتلقاك بذلك .

الباب الرابع عشر : في التعبئة عند وقوع الخوف في المسير ، فإذا كان الخوف في المسير أمام المعسكر ، فليسر نصف الميسرة أمام الصفوف ، ونصف الميمنة بالأثر ، ثم القلب بالأثر ، ثم نصف الميسرة بالأثر ، ثم نصف الميمنة بالأثر .

• ويرتبط هذا الباب بموضوع الانفعالات Emotions (ص ٣٠) .

الباب الخامس عشر : في التحرز عند النزول والمقام ؛ فلا تنزل من عدوك منزلًا حتى تعرفه ، وأن تكون هناك مسافة بين جيوشك وجيوش عدوك ، وأن تسند ظهور أصحابك إلى الجبال والتلول والأنهار وما أشبهها ، تأمن من الكمين والبيات .

الباب السادس عشر : في اختيار مواضع المصاف للقاء الزحف ؛ قالوا : احرص على أن تسند ظهور أصحابك في مصاف اللقاء إلى الموضع الذي تأمن أخذ العدو منه ، وخروج الكمين عليه ، وأن يكون موضع القلب على جبل أشرف وما أشبه ذلك من أرض صلبة ، وأن تكون الريح والشمس من وراء ظهرك .

الباب السابع عشر : في ذكر أشكال الصفوف للقاء ؛ ومنها الصف المستوي ، وهو الصف المستحب والصف الهلالي وهو الخارج الجناحين الداخل الصدر ، والصف المعطوف - وهو الداخل الجناحين ، الخارج الصدر - مكروه ولا يكون إلا عن ضرورة .

الباب الثامن عشر : في تعبئة العدد القليل للحرب ؛ فأقل ما ينبغي أن يلقى الحرب تسعة نفر ، ليكون للقلب قلب وميمنة وميسرة ، وكذلك يكون للميمنة ويكون للميسرة ، ويجوز أن يلقى الحرب سبعة نفر ، أو خمسة نفر ، أو ثلاثة نفر ، وإن لم يلق الحرب إلا اثنان فليصر أحدهما في ظهر الآخر ردءًا له .

الباب التاسع عشر : في تسمية الأحيان الخمسة ؛ والحين هو الخط الحربي المؤلف من قلب وميمنة وميسرة ، والهدف منه تعبئة الزحف الأعظم ، وهناك خمسة أنواع من هذه الأحيان أو الخطوط : الحين الأول مثلًا هو القلب والميمنة والميسرة ، ويسمى ردء القلب ...

الباب العشرون : فيمن يوضع من الفرسان في كل حين من الأحيان الخمسة ؛ فمثلًا : يوضع أهل التحارب والبأس والنجدة في القلب ، أما الصفوف وأهل التجارب وأصحاب الرمي والمشاركة والمبارزة في الميمنة أمام الصفوف ، أهل التجارب والمعرفة بموضع المعركة والكمين .

الباب الحادي والعشرون : فيمن يوضع من الأصناف في مواضعهم من الأحيان الخمسة ، حيث يتم وضع كل رجل من الرجال في مكانه الخاص به والملائم لتأدية واجبه ، فصاحب الجيش في حماته وثقافته المنتخبة أمام فرسان القلب ، وصاحب القلب مع من يليه من وراء صاحب الجيش ردءًا له في القلب ... وهكذا .

الباب الثاني والعشرون : في وضع الخيل المعدة مواضعها من الأحيان الخمسة ، فيقف كردوس من الخيل المانعة في طرفي جناحي الميمنة والميسرة الخارجية ، يمنعان من أراد أن يجور من العدو إلى ناحية الأثقال ، لنقض الصفوف أو الحيلة على أحد منهم .

الباب الثالث والعشرون : في الحركة عند ترائي العدو في الزحف للقاء ، فإذا زحف العدو وتراءى ، وأتت عيون الطلائع بخبرهم ، فلتضرع خيل القلب والروابط ورجالتها إلى مضرب وإلى الجيش ، وسائر الناس إلى مراكزهم ، إلى أن يتحرك وإلى الجيش فيتحركوا معه على تعبئتهم .

الباب الرابع والعشرون : في العمل عند التقاء الزحفين ؛ قالوا : إن لم يكن من اللقاء بد فأخره ما استطعت إلى آخر النهار ، إلا أن ترى فرصة قبل ذلك فتنتهزها ، واعلم أنك تملك أمرك وأصحابك ما لم تلتف الخيل بالخيل .

الباب الخامس والعشرون : في العمل عند استعلاء العدو في الزحف : ويتضمن الحديث عن الظروف المختلفة التي يجب اتخاذها في حالة وصول العدو ، ومجيء الليل ، وتقدم العدو بالهجوم ، وغير ذلك .

الباب السادس والعشرون : في العمل عند انهزام العدو ؛ فإن استحكمت الهزيمة على العدو فالميمنة والميسرة هما الحاملتان والطالبتان ، ويتقدم صاحب القلب شاهرًا للوائه ، وعلمه يسير على رسله فإذا انتهى إلى الموضع الذي ينبغي أن يقف فيه وقف وركز لواءه وعلمه واقف فيمن معه من القلب .

الباب السابع والعشرون : في ذكر الطلائع وتجبيرهم ؛ فينبغي لصاحب الطلائع أن يكون رجلًا مذكورًا ، بعيد الصوت ثقة ناصحًا عاقلًا مدبرًا ، نجدت جسورًا حاضر الحذر وينبغي لجميع الطلائع أن يكونوا من أهل النصيحة والتجربة للحرب .

الباب الثامن والعشرون : في ذكر الكمناء وتدبيرهم ؛ فيجب ألا يكون بأحد من الكمناء ولا بدابته علة ولا لدابته خلق يستدل به العدو على مكانهم في المكمن وأن يكون موضعهم خفيًا مستورًا ، ولا يؤذن الطير والوحش فيما حولهم ، ولتكن ساعة ظهورهم من المكمن بالغدوات في حالة الغفلة من عدوهم .

الباب التاسع والعشرون : في ذكر البيات وتدبيره ؛ ففي الحرب يختار من الوقت للبيات الليلة الظلماء ، وليلة الريح ، يتحرى أن يكون بجنب نهر له دوي وخرير .

الباب الثلاثون : ويتناول فيه المؤلف الحديث عن التأهب لخوف البيات ، والدفع له .

الباب الحادي والثلاثون : في معرفة الرئيس مقادير أصحابه في الحرب ؛ فكان أهل المعرفة يحبون أن يعرف الرئيس من استطاع معرفته من أصحابه وجنده ، رجلًا رجلًا بخاصته في الشجاعة والجبن مع سائر أحواله ؛ ليضع كل رجل منهم موضعه .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع الدوافع Motives ، حيث يتضمن الإشارة إلى دوافع الحرب أو القتال (ص ٥٣ ، ٥٤) يقاتل الرجل إذا : غضب ، طمع ، يقاتل للشهوة ، للحياء ، للكرم ، للتدين ... إلخ .

● كما يرتبط هذا الباب بسمات القائد وما يتميز به من خصائص ؛ ومنها معرفته بكل مرؤوسيه شخصيًّا وبسمات شخصياتهم المختلفة حتى يستطيع أن يضع كل فرد منهم في موضعه . ويرتبط هذا بموضوع اختيار الأفراد في علم النفس المهني .

الباب الثاني والثلاثون : فيما يحتاج الرئيس إلى معرفته من مذاهب أصحابه قالوا احفظ العارف للسر ، المساعد على الأمر ، ذا الرأي الأصيل ، الناصح ، السامع ، المطيع ، المحب ، الذكي الوفي ، الصدوق اللهجة ، الصبور على الشدة .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع القيادة والصداقة ؛ حيث الإشارة إلى الصفات أو الخصال التي يجب توفرها في الآخرين من المرؤوسين (ص ٥٤ ، ٥٥) .

الباب الثالث والثلاثون : في الذنوب والجرائم التي يستوجب بها الأدب والعقوبة ، وهي المبكر بغير إذن ، والمطبل بغير إذن ، المتقاعس عن الخروج إلى الحرب ، السالك في غير طريقه ، النازل في غير موضعه ، التارك لما يوكل به ، الناقم على رئيسه ظالمًا ، الطاعن على رئيسه كاذبًا ، الواصف لأصحابه بالضعف ، الواصف للعدو بالقوة ... إلخ .

الباب الرابع والثلاثون : في ممارسة الحصون ؛ والحصون هي القلاع والمطامير (وهي الحفيرة تحت الأرض) ، والجبال ، والمدن ، والخنادق ، والرمال ، والبحار ، كل هذه وما أشبهها حصون ومعاقل ، فإن أمكنك ستر قصدك للحصن ، والحيلة لأن تفجأه خيلك على غرة ، فهو أكبر التدبير فيه ، وإن أمكنك المكيدة لأن تخرج مقاتلة الحصن منه وتفجأه وهو خلو فهو الظفر بإذن اللّٰه . وأول عمل الحصار أن تحصر أهله من ساعة تنزل عليهم ، حصرًا لا يقدرون معه على أن يخرج منهم أحد ، ولا يدخل إليه أحد .

الباب الخامس والثلاثون : في المدافعة عن الحصون ؛ فأول ما يحتاج إليه صاحب الجيش هو أن يكون في حال الأمن - وقبل أن يفجأه عدوه - قد حصن نفسه ، وأحكم مواضع المقاتلة فيه والمدافعة عنه .

الباب السادس والثلاثون : في أمور شتى من الحرب ؛ فمثلًا إن سبقك عدوك إلى الماء وأصبحت إلى قتالهم عليه ، فاعرف الساعة التي يكونون فيها قد سقوا دوابهم وأخذوا حاجتهم منه ، فواقعهم فيها ودافعهم عنه ، وإن أمرح العدو دوابهم فلا تعبأ بذلك ، ولا تعجلوا إليهم حتى تستبينوا حالهم وتراجعوا الظفر بهم أو النيل منهم ، وإن اشتد غضب الجند فدس لهم رجلًا من كبار قرابتك وأصحابك ، تثق بنصيحته ورأيه .

• ويرتبط هذا الباب بموضوع الانفعالات وخاصة انفعال الغضب Anger وكيفية التحكم أو السيطرة عليه من خلال أسلوب التوجيه والإرشاد Counseling وتقديم النصائح (ص ٦٦ ، ٦٧) .

الباب السابع والثلاثون : في مذاهب الناس وشيمهم في الحرب ؛ فيختلف المحاربون في بلدانهم وأصنافهم ومذاهبهم في الحرب ، فيختلف التدبير والعمل في المحاربة على حسب اختلافهم في ذلك ، وقد تختلف غايات أهل الحرب وهممهم : فتكون همة بعضهم المغورة بياتًا ، أو صباحًا ، واستلاب ما أمكنه والفوز به ، وقد يكون همة بعضهم أن يدين له العالم ... إلخ . ويكون اختلاف التدبير والعمل والمكايدة فيه على حسب ذلك .

الباب الثامن والثلاثون : في التنبيه على المعاني التي يختلف فيها التدبير في الحرب ؛ وتتضمن هذه المعاني : الشجاعة والجبن ، الحذق وعدمه ، والبصيرة والعمى ، والمعرفة وعدمها ، والعقل والجهل ؛ فالعقل هو المسيطر على سائر أمور الحرب ، والمدبر لها بعون اللّه .

• ويرتبط هذا الفصل بسمات الشخصية Personality Traits وخاصة الخصال أو الصفات التي يجب توفرها في الجنود المحاربين (ص ٦٨) .

الباب التاسع والثلاثون : في التنبيه على اشتباه الخطأ والصواب وخلافها ؛ فعلى صاحب الحرب الاجتهاد في اجتناب الخطأ الذي يقع منه الذم ، والتعمد للصواب الذي يقع منه الحمد ، وأن يلجأ في ذلك كله وفي جميع أموره إلى اللّه والتوكل عليه ، ومسألته التوفيق والنصر والتأييد بمنته وقدرته .

الباب الأربعون : في الاعتذار من التقصير في بلوغ موافقة الجميع ؛ فيحتاج الرئيس في الحرب خصلتين هما : حسن السياسة لأصحابه ، والتدبير للحرب ، أي حسن المعرفة والدراية بشؤون الحرب ، وأن تتوفر الخبرة والتجربة الفعلية ، وهذه أمور عامة ، ذكرها المؤلف ، موجهًا اعتذاره عن عدم موافقة جميع الآراء عليها ، وعن عدم ذكره

لبعض الأشياء والأمور المهمة في هذا الصدد .

● ويرتبط هذا الباب الأخير من الكتاب – بموضوع سيكولوجية القيادة Leadership خاصة الصفات التي يجب توفرها في القائد (ص ٧٠ ، ٧١) .

* * *

أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)
كتاب الورع [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف [2] :

أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد اللَّه الشيباني الوائلي إمام المذهب الحنبلي ، وأحد الأئمة الأربعة ، أصله من مرو ، وكان أبوه والي سرخس ، وولد ببغداد فنشأ منكبًّا على طلب العلم ، وسافر في سبيله أسفارًا كبيرة إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والثغور والمغرب والجزائر والعراقين وفارس وخراسان والجبال والأطراف .

وصنف المسند ستة مجلدات يحتوي على ثلاثين ألف حديث ، وله كتب في التاريخ والناسخ والمنسوخ والرد على الزنادقة فيما ادعت به من متشابه القرآن ، والتفسير ، وفضائل الصحابة ، والمناسك ، والزهد ، والأشربة ، والمسائل ، والعلل والرجال .

وكان أسمر اللون حسن الوجه طويل القامة يلبس الأبيض ويخضب رأسه ولحيته بالحناء ، وفي أيامه دعا المأمون إلى القول بخلق القرآن ومات قبل أن يناظر ابن حنبل .

وتوفي المعتصم فسجن ابن حنبل ثمانية وعشرين شهرًا لامتناعه عن القول بخلق القرآن ، وأطلق (٢٢٠هـ) . ولم يصبه شر في زمن الواثق باللَّه - بعد المعتصم - ولما توفي الواثق وولي أخوه المتوكل بن المعتصم أكرم الإمام بن حنبل وقومه ومكث مدة لا يوالي أحدًا إلَّا بمشورته .

---

(١) ط ١ - القاهرة : محيي الدين صبري الكردي (١٩٢٢م) ، (١٢٦ ص) . يتضمن : عقيدة الإمام الطحاوي ، نسخة مصورة .

(٢) الأعلام للزركلي (٢٠٣/١) .

وتوفي الإمام وهو على تقدمه عند المتوكل ومما صنف في سيرته « مناقب الإمام أحمد » لابن الجوزي و « ابن حنبل » لمحمد أبي زهرة من معاصرينا .

عرض الكتاب :

ويشتمل الكتاب على جزأين نعرض لهما على النحو التالي :

الجزء الأول : يتضمن الأبواب التالية :

باب ما يكره من ترك السوق والعمل ، وباب ما يستحب من الكسب ، وباب ما يستحب من عمل اليدين ، وباب ما يكره العزلة عن الناس إلا بيقين ويرتبط الباب الأخير بموضوع العزلة Isolation (ص ١٤ ، ١٥) .

باب ترك الكبر ولزوم العمل (ويرتبط بسمات الشخصية Personality Traits ص ١٥) ، وباب في الشراء من الموضع الذي يكره ، والتنزه عن معاملة من يكره ، ومعاملة من يكره ناحيته وأهل البدع ، وباب في من يكره من المساجد في الطريق والصلاة فيها ، وما يكره من الحدث في طريق المسلمين ، وما يكره من الشرب من الآبار التي في الطريق ، أو التي احتفرها من يكره ، وباب من المشي على العبادة ، وباب ما كره من القعود على بارية المسجد خارج المسجد ، وما يصنع بما فضل من لواري المسجد ، وباب الصلاة داخل المسجد الجامع وفضل الاتباع ، والتنزه عن أمر المقسم والفضل منه ، وما يفسد الطيب من الخبيث ، وما يكره من أمر الربا ، وترك الشبهات ، وباب في الورع ، وباب في الوالدة والمواراة لها في الشبهة ، وباب ما كره من عون القرابة إذا كان ممن يكره ، وباب من كره مبايعة نساء من تكره ناحيته .

وباب الرجل يحجر على والده ، والرجل يريد الصيد ، وباب ما يكره من التجارة في الأرض التي تكره ، وباب تعظيم المساجد وما كره من عمل الدنيا فيها ، وباب ما كره من عمل الدنيا في المقابر ، وباب علم البايع والمشتري في البيع ، وباب كسب الحجام ، وباب الرجل يتخذ الغلة في السواد ، وباب الرجل يعطي الشيء فيتبين أنه يكره .

باب ما يكره من الصدقة لبني هاشم ، وباب في الصبر وخراب الدنيا ، ويرتبط بسمات الشخصية (ص ٤٠) ، وباب من كره طعامًا من شبهة فاستقاءه .

- وترتبط معظم الأبواب السابقة بالقيم الدينية والخلقية والعلاقات الاجتماعية والأسرية .

الجزء الثاني : ويشتمل على ما يأتي :

باب التقلل وترك الشهوات ، ويرتبط هذا الباب بموضوع سيكولوجية الدوافع Motives (خاصة ما يتعلق بقمع الدوافع والشهوات) (ص ٦٠ ، ٦٣) .

ثم تحدث بعد ذلك عن الورع ، وباب السراج والنار والحطب ، وباب الرجل يأمره والده أن يشتري له الثوب أو الحاجة بدراهم يكرهها وما للرجل من مال ابنه ، وباب رجل وهب لابنته جارية وأراد شراءها ، وباب الهبة ، وباب الرجل يتزوج أو يشتري الجارية من مال والده ، وباب ما يحل للرجل من مال أبيه وللمرأة من مال زوجها ، وباب نظر الفجأة وما كره من النظر .

- ويرتبط بموضوع التخاطب غير اللفظي Non-Verbal Communication (ص ٦٨– ٧٠) ، وباب المرأة المريضة يعالجها الرجل والخادم ، والأمر بالتزويج وما فيه من الفضل ، وباب ذكر بعض العلماء الورعين .

باب الغزو في شدة البرد أو الحر ، وباب الوالي يحرَّج من ذبح أو حلب ، وباب القاتل إذا تاب ، وأجور بيوت مكة ، وترك بعض الحلال مخافة الحرام ، وباب من ورث مالًا فيه شبهة ، وباب من أي شيء يخرج من الوليمة ، وباب كراهة شراء اللعب وما في الصور ، وباب ما جاء في قبلة اليد ، باب اللصوص متى يتقاتلون ، وباب الذرية يسبون إذا نقضوا العهد ، وباب المريض من المسلمين يجدوه في الغزو ، وباب الأسير في أيدي العدو وباب تواضع الرجل وذم نفسه إذا مدح (ويرتبط بسمات الشخصية) (ص ٩١) .

باب كيفية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وباب تحريم السكر ، ويرتبط بتعاطي المسكرات أو الكحوليات Alcoholism (٩٣ – ٩٥) ، باب من أوجب الحد في الربح والعقوبة ، وما كره من بيع العصير وما أشبهه وباب من كره أن يحضر وليمة فيها مسكر ، وباب من كره الصدقة على من يشرب المسكر .

- وترتبط الأبواب السابقة جميعها بموضوع تعاطي المسكرات أو الكحوليات والتفاعل أو علاقة الأفراد بهذه الفئة من الأشخاص (ص٩٣ – ١٠٠) ، وكذلك بالقيم الدينية والخلقية والعلاقات الاجتماعية داخل الأسرة وخارجها .

باب في الخياطة ، وفي لبس النعال السندية ، وكراهة صبغ الحمرة ، وخضاب النساء وما يكره في ذلك ، وما يكره من التحذيف وحلق القفا ، وحلق الرأس ، وما كره من الجص ، وزخرفة المساجد ، وما كره من التزاويق في السقف ، وما كره من الغيبة ،

وباب ذكر النعيم .

أوجه الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجالي الشخصية وعلم النفس الاجتماعي .

* * *

المحاسبي (ت ٢٤٣هـ)
الرعاية لحقوق الله [١]

عرض : د . معتز سيد عبد الله

التعريف بالمؤلف :

هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي ، البصري المولد ، البغدادي المنزل والوفاة ، الإمام العارف ، أحد الزهاد والمتكلمين في العبادة والزهد والوعظ ، عرف بالمحاسبي لكثرة محاسبته لنفسه ، من أوائل مفكري الإسلام ومن أبعدهم سُحقًا وغورًا في عالم المعرفة والخبرة بالنفس البشرية ، ومن أصدقهم مسلكًا ، وأنقاهم طوية ، وأخلصهم سبيلًا ، وأخفاهم عن الشهرة على هذا المدى الطويل من الزمن .

لقد عاش المحاسبي بين مغريات عصره ، بل ومغريات بيته غريبًا ، لا تستهويه نزوة ولا تقهره شهوة ، ولا يتجاوب في أرجاء قلبه شيء غير الحق والعدل مع نفسه ومع غيره ، والبحث عنه بين مناهج العلم وقواعد السلوك ، فهو غني الباطن ، متين الذات ، ليس بمحتاج إلى ما يحتاج إليه فارغ الباطن المهتز الذات من وسائل التكميل لشخصية ممزقة ، بل هو سعيد بالفقر ، شديد الحبور بالجوع ، عظيم الثقة بالله .

لم يرض المحاسبي في شبابه عن مناهج التعليم التقليدية التي كانت سائدة في عصره وبدأ يزنها بميزان الحق ؛ ليدرك مدى صلاحيتها ، دون أن يمضي فيما مضى فيه الناس وهو مغمض البصيرة والبصر ، وكانت أولى دراساته لمناهج التعليم في عصره مقرونة بحالة من الانطواء والضيق والحيرة تشبه أن تكون أزمة نفسية ، أو شخصية جديدة

---

(١) تحقيق عبد القادر أحمد عطا . (ط ٤) . بيروت : دار الكتب العلمية (١٩٨٥م) . (٥٥٠ص) .

لا تمارس شيئًا ، ولا تسلم بمقولة إلا بعد الفحص التدقيق .

ومن أقوال العلماء في المحاسبي ، ما قاله السبكي في طبقات الشافعية : « كان إمام المسلمين في الفقه والتصوف والحديث والكلام ، وكتبه في هذه العلوم أصول لمن يصنف فيها » . ومن أقوال المحاسبي : خيار هذه الأمة الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم ، ولا دنياهم عن آخرتهم .

ومن مؤلفات المحاسبي : أحكام التوبة ، ورسالة التصوف ، والتنبيه على أعمال القلوب والجوارح ، والخصال العشرة التي جربها أهل المحاسبة ، وشرح المعرفة وبذل النصيحة ، ومختصر المعاني ، المراقبة والمحاسبة ، وهي كلها من المخطوطات ؛ أما المطبوعات فمنها : بدء من أناب إلى اللّه ، والتوبة ، والتوهم ، ومعاتبة النفس ، وآداب النفوس ، والرعاية لحقوق اللّه ، والوصايا ، وفهم القرآن ، وكتاب العلم ، وتوفي سنة (٢٤٣هـ) .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٥٥٠ صفحة من القطع الكبير ، وهو مصنف إلى مجموعة من الكتب النوعية هي : كتاب الرعاية لحقوق اللّه والقيام بها ، وكتاب الرياء ، وكتاب الأخوان ومعرفة النفس ، وكتاب التنبيه ، وكتاب العجب ، وكتاب الكبر ، وكتاب الغرة ، وكتاب الحسد ، وكتاب تأديب المريد وسيرته تحذيره الفتنة بعد هدايته ؛ وجميعها يدور حول كيفية رعاية الإنسان لحقوق اللّه تعالى والعمل بها ، وينهي المحقق الكتاب بعرض فهرس مفصل للموضوعات وآخر للأحاديث وثالث للآثار ، وهو ما نعرض لتفصيله على النحو التالي :

كتاب الرعاية لحقوق الله :

قال الحارث رحمه الله : وأما ما سألت عنه من الرعاية لحقوق اللّه عز وجل والقيام بها ، فإنك سألت عن أمر عظيم أصبح عامة أهل زمانك له مضيعين ، وهو الأمر الذي تولى اللّه عليه أنبياءه وأحباءه ؛ لأنهم رعوا عهده وحفظوا وصيته ، فقد قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : « **كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته** » ؛ فعلى العباد أن يقوموا بما أوجب اللّه عليهم في أنفسهم ، وفيمن استرعوه ، ولقد ذم اللّه تعالى بني إسرائيل ، ابتدعوا رهبانية لم يؤمروا بها ، فلم يرعوها حق رعايتها ؛ فذمهم اللّه تعالى بترك رعاية ما لم يَفرض ، ولم يوجب عليهم ، فكيف بمن ضيع رعاية حقوقه الواجبة التي أوجب في تضييعها غضبه

وعقابه ! وجعل القيام بها مفتاحًا لكل خير في الدنيا والآخرة ، وهي التقوى ، ولأهلها أعد الجنة ، ولأهلها جعل الأمن في الآخرة ، وإياهم وعد قبول الأعمال ، وإياهم سمى بالولاية ، وإياهم رفع عنهم الخوف والحزن في يوم المخافة والأحزان ، وقد ركزت أبواب الكتاب في هذا الاتجاه الذي يوفي بحقوق اللّٰه ﷻ وهي : اتقاء الشرك فما دونه من كل ذنب نهى اللّٰه عنه أو تضييع واجب مما افترض اللّٰه ، ومعرفة الحذر ، ومما تخوف النفوس حتى تحذر وتجانب وتباين الهلكات ، ومعرفة ما يبدأ به العبد من العدة للمقام بين يدي اللّٰه تعالى ، وشرح التقوى ، ومعرفة الورع ، وتعريف المغتر بنفسه وطول غرته ، وما يجب على العبد معرفته والفكر فيه ، ومحاسبة العبد نفسه في أعماله ، واختلاف الناس في طلب التقوى وفي رعاية الأعمال للّٰه تعالى ، وما يبعث العبد على التوبة وترك الإصرار ، وما ينال به خوف وعيد اللّٰه تعالى ، وما يحل به المصر إصراره ، ووصف ثقل الفكر على القلب ، وما تخف به الفكرة على القلب ، وما ينال به اجتماع الهم ، ووصف منازل المصرين وبِمَ يقوى العزم على التوبة وترك الإصرار ، ومعرفة التذكر بمعرفة أحواله ، ومعرفة متى يفرغ العبد إلى اللّٰه تعالى فيفتقر إليه ، ومعرفة الرجوع إلى اللّٰه والتوكل عليه ، وما يعرض من العجب من الشيطان والنفس باستعظام المقامات ، ومعرفة التنبيه والتيقظ ومن مَنَّ اللّٰه عليه باليقظة ونبهه للخطر العظيم ، وما يجب أن يلزم القلب من معرفة النفس ومعرفة الخلال التي يكون عنها نقص العزم عن الطاعة ، والاهتمام بالتيقظ والحذر بتصحيح التوبة ، ومعرفة هل يعطى الحذر والاهتمام فيما يستقبل والدليل على ذلك ، ومعرفة التثبت وعند ماذا يثبت ، ومعرفة حقوق اللّٰه بأسبابها (وأوقاتها) وإرادتها وترتيبها في القيام بها ، والرعاية لها ، ورعاية حقوق اللّٰه تعالى عند الخطرات في اعتقاد القلوب (والمعرفة بحركات الجوارح) ، والتثبت وحبس النفس عند الفعل ، وصفة الراغبين لحقوق اللّٰه تعالى في رد الخطرات وقبولها في أعمال القلوب والجوارح على قدر منازل أهل القوة والضعف ، وما يبدأ به من الفرائض ، وشرح ما يبتدأ به من أداء الفرائض ، ومعرفة من يطلب النوافل بالاستعانة بما يفسد عمله وما يلحقه من الآفات ، وما يخاف على المريد من النوافل من غير تضييع الواجب ، ومعرفة ما يعرض للعبد من الآفات وتركه طلب العلم الذي هو به جاهل ، وما يعرض للنفس من الآفات في الصوم ، ومعرفة التمييز بين الفضلين وكيف تدعوه نفسه إلى ذلك ، ومعرفة ترك الأعمال للآفة وكيف يقطع به ويخدعه ، وما يعرض للعبد في صلاته من حديث النفس وغيره ، وأي الأمرين من أمور اللّٰه تعالى التي تعرض يجب البدء به

ومنازل أهل الرعاية لحقوق اللّٰه تعالى ، وبيان منازل المصرين المقيمين على الذنوب وذكر ما يبعثهم على التوبة ، وقطع التسويف ، والاستعداد للموت وقصر الأمل ، وما يهيج على معرفة كراهية الموت وكربه .

• أما المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الكتاب فهي :

الخوف Fear (ص ٣٤ - ٣٦ ، ٧٢ - ٧٤ ، ١١٤- ١١٦) ، والحذر (ص ٤٢، ٨٠ - ٨٣) ، والغرور (ص ٤٢ ، ٤٣) ، والتفكير Thinking (ص ٤٤ ، ٤٥) ، والفروق الفردية Individual Differences (ص ٥٥ - ٦٠) ، وتعديل السلوك Behaviour Modification (ص ٦٠ - ٦٣) ، والحزن (ص ٦٩ - ٧١) ، والتذكر Memory (ص ٤٧ - ٧٦) ، والاعتماد Dependence (ص ٧٨) ، والوساوس Obsession (ص ٧٩) ، والتنبيه Stimulation (ص ٧٩) ، والتيقظ Vigilance (ص ٧٩ ، ٨٠) ، والمثابرة Persistences (ص ٨٤ ، ٩٠ - ٩٤) ، والانفعالات Emotions (ص ٩٢ - ١٠١) ، والصفات Characteristics (ص ٨٠ - ٨٢) ، والتميز Discrimination (ص ١١٨) ، والكراهية Hate (ص ١٣٨ - ١٥١) ، والقيم الدينية Religious Values ، وضبط النفس Self - Control .

كتاب الرياء :

ويتكون من عدة أبواب يعرض المؤلف فيها لصفة الرياء وذكره ، وحض العاصي على الإخلاص في عمله ، وشرح الرياء : ماهيته والدليل عليه ، ومعرفة أن الرياء على وجهين : أحدهما أعظم والآخر أهون وكلاهما رياء ، وهيجان الرياء والدواعي إليه ، ووصف خوف المذمة والطمع في أيدي الناس ، وما يكسر به دواعي الرياء والحمد والطمع ، وشرح ما يراءى به من العمل واللباس وغير ذلك ، وما ينفى به الرياء ، وما ينال به الحذر من الرياء ، ومعرفة قوة الإخلاص على منازعة النفس عند العارض ، والنفي له ، والحذر له ، ووصف الحذر من العدو إبليس ، والغلط في الحذر من العدو إبليس ، ومنازل الرياء وأوقاته ، ووصف أعظم الرياء وأدناه ، وما يورث من الرياء من الأخلاق المذمومة وشرحها ، وعلامة المرائي في نفسه ، وما يجب أن يلزمه المريد نفسه عند عمل السر والعلانية ، وسرور العبد عندما يظهر عليه من عمله قبل فراغه ، وذم الرياء والعجب ، وما يجزئ من النية عند ابتداء العلم ، والنية في العمل ، وما يجوز للعبد أن يقطع أنه أخلص فيه للّٰه وما لا يجوز له منه ، وكيفية أن العبد يدخل العمل يريد اللّٰه ﷻ

وحده ، ثم يجد من نفسه نشاطًا للزيادة وما يجزئه من النية في ذلك ، ووصف النية وماهيتها ، ومعنى قوله : لا تحضرني النية في العمل ، ومن يدخل في العلم لا يريد إلا الله بذلك ثم يندم ، كيف يكون عمله بعد الندامة ، وباب في الرجل يدع بعض النوافل إشفاقًا على الناس أو يعصوا الله ﷻ فيه ، وإظهار العمل ليقتدي به ، وباب العبد يحدث إخوانه ببعض ما يقوى عليه من العمل ؛ ليحضهم على ذلك ، وعمل السر والضعف عن إظهار العمل خوف العدو وحذر الشهرة ، وهل يجوز ترك العلم من أجل الرياء ، وما يجوز للعبد من حبه لمحبة الناس له ، وما يصح للعبد من غمه عندما يظهر للخلق من ذنوبه ، وباب في ستر المعاصي عن العباد وإن اطلع الله عليها ، وما يستحب فيه الحياء ، وما يكره فيه ، ومن أين ينبغي للعبد أن يكره ذم المسلمين له ، ومن أن لا يكرهه ، وكيف يكون قلب العبد والفرق بين حبه لنفسه ولربه ﷻ ، وباب في الرياء للوالدين ؛ ليرضيا وللعلماء ؛ ليستفيد به علمًا ، وباب الرجل يحضر القوم يصلون فتحضره نية للعمل وإن لم يكن يفعل ذلك في خلوة أو يكون فلا يجد البكاء ، وفصل فيما ينفي به التصنع للمخلوقين في التصنع والحزن ، وما قالوا في علاقة صدق الخاشع لله ﷻ إذا رمقته أبصار العباد ، وباب الرجل يكون له صاحبان أحدهما غني والآخر فقير ، فيكثر زيارة الغني وبره دون الفقير ، كيف السلامة من ذلك كله ، ومن أين فساده ؟

● **أما المفاهيم السيكلوجية التي اشتمل عليها هذا الكتاب فهي** : سمات الشخصية Personality Traits (ص ١٥٣ ، ١٥٦) ، وقيمة الإخلاص (ص ١٥٦ - ١٥٨ ، ١٩٣ ، ٢٠٢) ، والخوف Fear (ص ١٦٩ - ١٧٣) ، وبنية الجسم Constitution (ص ١٧٩) ، والحذر (ص ١٩٠ ، ١٩٣) ، والصراع Conflict (ص ١٩٣ ، ٢٠٢) ، والوساوس Obsessions (ص ٢٠٢ ، ٢٠٨) ، وسوء الخلق (ص ٢٢٣ ، ٢٢٨) ، والسيطرة Dominance (ص ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨) ، والسرور Happiness (ص ٢٣١ ، ٢٣٧) ، والنية أو المقصد Intention (ص ٢٤١ - ٢٥٢ ، ٢٩٤ - ٣٠٠) ، والقدوة Modelling (ص ٢٥٨ ، ٢٦١) ، والصداقة Friendship (ص ٢٦١ - ٢٦٦ ، ٣٠٥ - ٣٠٦) ، والمحبة Liking (ص ٢٧٦ - ٢٧٧ ، ٢٨٨ - ٢٩٠) ، والحزن Sadness (ص ٢٧٧ - ٢٧٨ ، ٣٠١ - ٣٠٣) ، والحياء Shame (ص ٢٨٨ ، ٢٩٠) . وحب الذات (ص ٢٩٠ - ٢٩٢) ، والخضوع Submission (ص ٣٠٣ - ٣٠٤) .

كتاب الإخوان ومعرفة النفس :

ويتكون من عدة أبواب يعرض المؤلف فيها لعزم العبد على التوبة ، ثم تراجعه ، وخروج الرجل في الحاجة أو مجالسة بعض إخوانه ممن يدعي إخوتهم في الله ﷻ وهو يعلم أنه لا يسلم له دينه معهم ، وما يستعان به على ترك لقاء الإخوان الذين يتخوف من لقائهم قلة السلامة في الدين .

● **أما المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها الكتاب فهي** : اللذات والشهوات (ص ٣٠٧ - ٣١١) ، والمقصد أو النية Intention (ص ٣٠٧ - ٣١١) ، واختيار الأصدقاء (ص ٣٠٧ - ٣١١) ، والصداقة Friendship (ص ٣١١ - ٣٢٤) ، والقيم الدينية .

كتاب التنبيه على معرفة النفس وسوء أفعالها ودعائها إلى هواها :

ويتكون من بابين اثنين يعرض المؤلف فيهما للتحذير من هوى النفس ، وبم يعرف سوء رغبة النفس .

● **أهم المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الكتاب** : معرفة الإنسان لنفسه (ص ٣٢٥ - ٣٣٤) ، والرغبة Desire (ص ٣٢٧ ، ٣٣٤) ، وسوء السلوك (ص ٣٢٥ ، ٣٣٤) .

كتاب العجب :

ويتكون من عدة أبواب يعرض المؤلف فيها لما يؤدي إليه معرفة النفس وشرح العجب والإدلال بالعمل ، والعجب بالدين ، وإضافة العمل إلى النفس ، والإدلال بالعمل ، وباب العجب بالرأي الخطأ ، وما ينفي به العجب بأعمال الطاعة ، وما ينفي به العجب بالرأي الخطأ ، والعجب بالدنيا والنفس ، والعجب بالحسد ، والعجب بكثرة العدد ، والعجب بالمال .

● **أما أهم المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الباب فهي** : العجب بالنفس والتفاخر (ص ٣٢٥ - ٣٧٢) ، والطاعة Obedience (ص ٣٤٨ - ٣٥٤) .

كتاب الكبر :

ويتكون من عدة أبواب يعرض المؤلف فيها لوصف الكبر وشعبه وشرح جوهره ،

وباب الكبر (يكون) عند العجب وتفسير الكبر بالعلم ، وما يكون من الكبرياء عن الرياء وما يورث من الأعمال المذمومة ، والكبر بالدنيا ونفي الكبر وتعريف العبد قدره ، والتكبر بالعلم والعمل خاصة ، وبم يعلم العبد أن نفسه قد تركت الكبر على الصدق والخدعة منها ، وما يجب من التواضع للمطيعين والعاصين لينفي به العجب والكبر ، وفي بيان الكبر على أهل البدع وغيرهم من أهل الكفر والشرك .

● **أما أهم المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الباب فهي** : الكبرياء والتواضع (ص ٣٧٣ - ٤٢٦) ، والتفسير (كأحد أهداف العلم) (ص ٣٨٣ - ٣٩٠) .

كتاب الغرة :

ويتكون من عدة أبواب يعرض المؤلف فيها للغرة بالله ﷻ ، والغرة من عوام المسلمين وعصاتهم ، والتمييز بين الرجاء والغرة ، والغرة من أهل النسك وأصنافهم واختلافهم وغرة أهل العلم ، والغرة بالفقه ، والغرة بعلم العمال لله تعالى من علم الصدق والإخلاص ونفي الرياء والأخلاق المذمومة ووصف الخوف والرجاء والحب ، والغرة بحفظ كلام المذكرين والقصص وأحاديث الزهد ، والغرة بالجدل وحسن البصر بالاحتجاج والرد على أهل الأديان ، والغرة بالعبادة والعمل ، والغرة بالورع في المطعم والملبس دون سائر الأشياء في أعماله الباطنة والظاهرة ، والغرة بالعزلة والفرار من الناس ، والغرة بالغزو والحج وقيام الليل وصيام النهار والغرة ممن أمَّ التقوى وأحسن التفقد لظاهره وداخله ، والغرة بتقديم العزوم بإخلاص الأعمال والعزم على الرضى والتوكل ومجانبة دناءة الأخلاق ، والغرة بطول ستر الله تعالى وإمهاله للعبد .

● **أما أهم المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الباب فهي** : الرجاء (ص٤٣٣ - ٤٤١ ، ٤٢٩ - ٤٥٥) ، والغرور (ص ٤٢٧ - ٤٧٢) ، والالتزام Commitment (ص ٤٦٥) ، والعزلة Isolation (ص ٤٦٥ - ٤٦٨) ، والفرق بين الرجاء والغرور (ص ٤٣٣ - ٤٤١) ، والقيم الأخلاقية والدينية Moral and Religious Values (ص ٤٧١ - ٤٧٢) ، والمقصد والنية (ص ٤٧١ ، ٤٧٢) ، وقيمة الإخلاص (ص ٤٧١ - ٤٧٢) ، والخوف Fear (ص ٤٤٥ - ٤٤٩) ، والمحبة (ص ٤٤٩ - ٤٥٥) .

كتاب الحسد :

ويتكون من عدة أبواب يعرض المؤلف فيها للحسد ووصفه وتفسير محرمه من مباحه، وباب من الحسد وليس بالحسد بعينه ، وما يكون من الحسد على الرياسة وحب المنزلة ، وما يكون من الحسد عن الحقد والعداوة والبغضاء وما يكون من الحسد عن حب ظاهر الدنيا ، وما يكون من الحسد عن العجب ، ومتى يعلم العبد أنه قد نفى الحسد ، والرد على من قال إن الحسد بالجوارح وإنه لا يضر إذا كان في القلب ما لم يده بفعل جارحه وبيان خلافه للعلم ، وهل على الحسد مظلمة كالمحسود عند الحاسد إذا أصابه ما تمناه ؟ وهو ذنب بينه وبين الله ﷻ .

● **أما أهم المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الكتاب فهي** : الحقد والحسد (ص ٤٧٥ - ٥٠٢) ، والسيطرة Dominance (ص ٤٨٤ - ٤٨٥) ، والعداوة Hostility (ص ٤٨٥ - ٤٨٦) ، والكراهية Hate (ص ٤٨٥ - ٤٨٦) ، وضبط النفس Self - Control .

كتاب تأديب المريد وسيرته وتحذيره الفتنة بعد هدايته :

ويتكون من بابين اثنين يعرض المؤلف فيهما لسيرة المريد في الليل والنهار ، وما يخاف العبد على نفسه بعد قيامه لله بحسن الرعاية ظاهرًا وباطنًا ، أما المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الكتاب فهي : القيم الأخلاقية والدينية Moral and Religious Values (ص٥٠٣ - ٥١٩) ، والخوف Fear (ص٥١٥ - ٥١٩) ، والتحذير (ص٥٠٣ - ٥١٩) .

أوجه الاستفادة من هذا الكتاب :

يستفاد من هذا الكتاب في مجال علم النفس الاجتماعي .

* * *

العقل وفهم القرآن [1]

عرض : د . طريف شوقي

عرض الكتاب :

يحوي هذا المجلد كتابين للمحاسبي هما : ماهية العقل ومعناه ، وفهم القرآن ومعانيه ، ويقع هذا المجلد في ٥٣١ صفحة من القطع المتوسط ، ويضم بالإضافة إلى الكتابين توثيق نسبة فهم القرآن إلى المحاسبي ، وفهرس المصادر والمراجع ، وفهرس الأعلام ، ثم فهرس الموضوعات ، وفيما يلي عرض الكتاب الأول .

كتاب ماهية العقل ومعناه :

صيغ الكتاب في شكل سؤال يطرحه المريد (الجنيد) ويتولى الإمام المحاسبي الإجابة عنه ، ويبدأ الكتاب بسؤال يوجهه المريد عن حقيقة العقل ومعناه ، ويفصل المحاسبي القول في هذه المسألة مشيرًا إلى أن للعقل ثلاثة معانٍ أحدها هو معناه ، لا معنى له غيره في الحقيقة ، والآخران اسمان جوزتهما العرب ، لا يكونان إلا به ومنه ، وقد سماهما اللَّه تعالى في كتابه وسمتهما العلماء عقلًا ، وفيما يلي نعرض للمعاني الثلاثة كما يقدمها المحاسبي على نحو أكثر تفصيلًا .

١ – **المعنى الحقيقي للعقل** : إنه غريزة وضعها اللَّه سبحانه في أكثر خلقه لم يطلع عليها العباد بعضهم من بعض ، ولا اطلعوا عليها من أنفسهم برؤية ، ولا بحس ،

---

(١) قدم له وحقق نصوصه حسين القوتلي – (ط ٣) [د . ت] : دار الفكر ، دار الكندي (١٩٨٢م) . (٥٣١ ص) .

ولا ذوق ، ولا طعم ، وإنما عرفهم اللَّه إياها بالعقل منه (ص ٢٠١ - ٢٠٢) ، والعقل هو الوسيلة التي يُعرف بها اللَّه ، ويُسلك بها في طريقه ، فهو يعقل النفس عن الهوى (وتقترب هذه الوظيفة من التعريف اللغوي للعقل حيث قال تغلب : أصله الامتناع ، يقال : عَلقت الناقة ، إذا منعتها من السير) ، المحقق (ص ١٤٠) ؛ ويتحدث عما يُلم بالعقل من المرض العقلي The Nature of Mental Illness وكيف أنه مرض مؤقت يشبه النوبات الدورية حيث يقول : « فإن كان له وقت تزول أفعال العقل عنه بصعق ، أو تقلب للأمور في القول والفعل سموه مجنونًا في ذلك الوقت ، عاقلًا إذا أفاق ، وتجلى ذلك عنه وعاد لهيئته الأولى » (ص ٢٠٣) ، ويشير إلى دور البيئة والمران في تنمية العقل بقوله : « فالعقل غريزة يولد العبد بها (القدر الوراثي) ، ثم يزيد فيه معنى بعد معنى بالمعرفة بالأسباب الدالة على المعقول » (ص ٢٠٥) .

٢ - **الفهم لإصابة المعنى** : « وهو البيان لكل ما سمع من الدنيا والدين أو مس أو ذاق ، أو شم ، فسماه الخلق عقلًا ، وسموا فاعله عاقلًا ، والفهم والبيان سمي ؛ لأنه عن العقل كان ، والعرب إنما سمت الفهم عقلًا ؛ لأن ما فهمته فقد قيدته (سجلته) بعقلك » (ص ٢٠٨ - ٢٠٩) ، وقريب من هذا الحديث من التصور المعاصر لوظائف المخ Brain Functions والتي يُسأل عنها الجهاز العصبي المركزي (الشم ، التذوق ، اللمس) والقشرة المخية (التذكر والتفكر) .

٣ - **البصيرة والمعرفة** : « تعظيم قدر الأشياء النافعة والضارة في الدنيا والآخرة ، ومنه العقل عن اللَّه تعالى » . وقد يستخدم العقل في معرفة اللَّه وقد يسخر لعلم الدنيا فكما قال الحسن البصري في تفسيره لقول اللَّه ﷻ : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم : ٧] ، قال : لا جرم واللَّه لقد بلغ من علم أحدهم بدنياه أنه يَقلب الدرهم على ظفره ويخبرك بوزنه ، وما يحسن يصلي (ص ٢١٤) ، ويشير في معرض حديثه عن مسألة إقرار العقل وعدم تصديق الجوارح إلى فرقة من الناس « عقلت قدر اللَّه في تدبيره وتفرده بالصنع فأقرت وآمنت ، ولم تعقل عظيم قدر اللَّه في هيبته ، فعصت وغفلت » (ص ٢١٦) ، ونخاله بهذه المقولة يقترب من مشكلة سيكولوجية مهمة وهي التناقض بين الاعتقاد والسلوك - تلك التي حاول الإمام الغزالي فيما بعد معالجتها في رسائله - ويتحدث في هذا الصدد أيضًا عن الذي « بعد عَقله قدر الإيمان يزداد معرفة بقدر الغضب والوعيد والوعد ، فإذا ازداد طائفة قام بطائفة من الفروض ، وترك بعض المعاصي من أجل الهوى ، ومعه عقل البيان والإقرار ، فعقل أنه سيىء ، ولم

يرجع عن إساءته لغلبة الهوى » (ص ٢١٦ - ٢١٧) .

ويرى أن كمال العقل يحدث حين يجتمع للعبد ثلاث خصال هي : « فإذا اجتمع الخوف منه (اللّه) ، وقوة اليقين به وبما قال ووعد وتوعد ، وحُسن البصر بدين اللّه والفقه في الدين فقد كَمل قوة عقله » (ص ٢٢٠) ، ويفسر ضرورة الجمع بين الخصال الثلاث معًا ؛ « لأنه قد يكون قوي اليقين وليس يُحسن البصر بالدين ، ويكون بصيرًا بالدين لا خائفًا ولا قوي اليقين » (ص ٢٢١) .

وينتقل إلى لطيفة أخرى من لطائف الأمور حين يتناول التوحيد من المنظور الصوفي ذي المذاق الخاص ؛ لأنه إذا كان الفقهاء يشيرون إلى مكانة التوحيد في العقيدة وضرورته ، ويعني المتكلمون بصياغة أدلته العقلية وإجلائها ، فإن المتصوفة - والمحاسبي منهم - يصفون الباب الذي يلج منه العبد إلى حقيقة التوحيد وكيف يجد حلاوته في نفسه ، وكيف يتحول إلى طاقة فعالة تُغير من سلوك الفرد في حياته اليومية بحيث يصبح اعتقادًا مرتبطًا بالعمل ، ويبينّ ذلك بقوله : « إذا تم عقل المؤمن من ربه أفرده ﷻ بالتوحيد له في كل المعاني ، فعلم أنه مالك له لا غيره ، وأنه عتيق ممن سواه ، فتواضع لعظمته ، واستعبد ، وخضع لجلاله ، ولم يذل لمن سواه ، وعقل عنه أنه الكامن بأحسن الصفات ، المتنزه من كل الآفات ، المنعم بكل الأيادي والإحسان فاشتد حبه له ، لما يستأهل لعظيم قدره وكريم فعاله ، وحسن أياديه ، وعقل عنه أنه لا يملك نفعه ولا ضره في دنياه وآخرته إلا هو ، فأفرده بالخوف ، والرجاء وحده وآمن به ، وآيس من جميع خلقه ، فإذا كان كذلك زايل الكِبر على العباد لخضوعه لجلالة اللّه مولاه فتواضع للحق ولم يحقر مسلمًا لشدة معرفته ، وصغر قدر نفسه ، ولما جنى من الذنوب على نفسه » (ص ٢٢١ ، ٢٢٢) ، ويربط بين التصوف والعلم ، وكيف أن المضي في طريق اللّه يقتضي من السالك الاستزادة الدائمة من العلم ؛ فالعبد يجب أن يكون « غير تارك ولا منقطع عن طلب الازدياد من العلم بربه ، والتزيد من الفقه عنه أعلى في قلبه ، وأعظم عنده قدرًا من الازدياد في كثير من أعمال النوافل ؛ إذ عقل عن ربه أن أقل قليل المعرفة يورث التعظيم والهيبة ، ويبعث على الاجتهاد ، ويورث الطاعات ، والشغل عن جميع العباد » (ص ٢٢٦) ، ويشير إلى أهمية صفة الرحمة للداعية وضرورة اتسامه بها ويضرب بعض الأمثال من سير حياة الأنبياء مثل سيدنا نوح الذي كان قومه يُخبتونه حتى يُغشى عليه فإذا أفاق قال : « رب اغفر لقومي إنهم لا يعلمون » (ص ٢٢٧) . ويطالب الداعية أن يعتبر من يؤذونه « أن يعدهم جميعًا كأقرب الخلق منه ، كبيرهم مثل

أبيه ، وصغيرهم كولده، وقرينُه كأخيه ، فكل هؤلاء يُحب الإحسان إليهم ، وأن لا يفارق قلبه الشفقة عليهم » (ص ٢٢٨) .

ثم ينتقل إلى الحديث في بعض المسائل التطبيقية المتصلة بالعقل في فصل عنوانه « مسألة في العقل » حيث يتحدث عن الاستدلال ، والعقل كالمستدل ، ويشير إلى الموضوعية وعوامل التحيز التي تعوق الاستدلال الصحيح بقوله : « والحب والبغض إذا أفرطا أنقصا الاعتدال ، وأفسدا العقل ، وصورا الباطل في صورة الحق » (ص ٢٣٣) ، وعن موانع الفهم والتي تجعل من الصعب إقناع الفرد بتغيير اتجاهه حول موضوع معين حيث يقول : « والذي يمنع من الفهم الأنفة التي تمنع من الخضوع للحق ، وحب الغلبة الذي يبعث على الجدل ، والجزع من التخطئة التي تمنع من الإذعان بالإقرار بالصواب » (ص ٢٣٤) .

ويشير إلى أهمية التفكير ، والنظر ، والاعتبار ، والعلم ، والمعرفة كوسائل تعمل مجتمعة على تصحيح الإيمان وآرائه مما يشوبه من شوائب مرجعها الجهل والغفلة .

* * *

شرف العقل وماهيته [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

عرض الكتاب :

يشمل الكتاب على جزأين نعرض لهما على النحو التالي :

الجزء الأول : شرف العقل وماهيته للمحاسبي :

باب : ماهية العقل وحقيقة معناه ؛ للعقل أكثر من معنى منها أن العقل « غريزة » وضعها اللَّه ﷻ في أكثر خلقه ، فالعاقل هو الذي يعرف ما ينفعه وما يضره في أمر دنياه ؛ أما الأحمق أو المجنون فهو شخص لا يستطيع أن يبين الضار والنافع من الأشياء والأمور ، كما يتميز الشخص العاقل بمعرفة إدراك العواقب ، فالعقل غريزة وضعها اللَّه سبحانه في الممتحنين من عباده ، أقام به على البالغين للحلم الحجة ، فهو غريزة لا يعرف إلا بفعاله في القلب والجوارح ، لا يقدر أحد أن يصفه في نفسه ولا في غيره بغير أفعاله ، ولا يقدر أن يصفه لا بطول ولا بعرض ولا لون ولا يعرف إلا بأفعاله .

وهناك من قال بأن العقل هو صفوة الروح ، أو هو معرفة خلقها الإله ووضعها في العبد ، يزيد ويتسع بالعلم المكتسب الدال على المنافع والمضار .

ويرى الإمام المحاسبي أن العقل غريزة ، والمعرفة عنه تكون ، وكذلك الحمق والجنون لا يسمى نكرة ، إلا أنه لو كان العقل هو المعرفة ، لسمي الجنون نكوة ، والحمق نكرة ،

---

(١) تحقيق مصطفى عبد القادر عطا - (ط ١) . بيروت : دار الكتب العلمية (١٩٨٦م) . (٧١ص) .

فرأى المحاسبي أن المعرفة نتيجة للعقل وليست هي العقل كما زعم البعض .

ويرى المحاسبي أن الدليل على أن العقل هو الغريزة ، معرفة الرجل أباه وأمه ونفسه ، والسماء والأرض ، وكافة الأشياء التي يعرفها برؤيته ، ولم يعرفها باسم ولا تفاصيل تبين معانيها ، وتحدث عن معاني العقل على النحو الآتي :

المعنى الأول : العقل هو الفهم والبيان ؛ فكل بالغ من الجن والإنس من الذكور والإناث حجة العقل لازمة به ، ومن الآيات القرآنية قوله تعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٤٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ [فصلت : ١٧] ، يعني بيانًا لهم ما يعقلونه بعقولهم ، إن تدبروا ذلك ، ولولا البيان لكان الإنسان مثل الحيوان والجماد ، وقد سمى العرف الفهم عقلًا ؛ لأن ما فهمته فقد قيدته بعقلك وضبطه .

المعنى الثاني : هو البصيرة ، والمعرفة بتعظيم قدر الأشياء النافعة والضارة في الدنيا والآخرة . ومن ذلك تعظيم قدر اللَّه تعالى ، وتقدير نعمه ، وإحسانه ، وقدر ثوابه وعقابه . وقد وصف اللَّه ﷻ في كتابه رجالًا وسمى لهم عقلًا ، فقال تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ [الحج : ٤٦] ، ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً ﴾ [الأحقاف : ٢٦] يعني عقولًا .

وعن العقل وطاعة الله تحدث المؤلف عن أربع فرق هي :

١ – فرقة عرفت عن اللَّه تعالى عظيم قدره وقدرته ، فأطاعت وخشعت .

٢ – فرقة عرفت البيان ، ثم جحدت كبرًا وعنادًا لطلب الدنيا .

٣ – فرقة طغت وقلدت ، فعميت عن الحق أن تبينه .

٤ – فرقة عرفت اللَّه ﷻ في تدبيره وتفرده بالصنع ، وعرفت قدر الإيمان في النجاة بالتمسك به ، وقدر العقاب في ضرره بمجانبة الإيمان ، فلم يجحدوا كبرًا ولا طلب دنيا ، فعاجل الدنيا يفنى ، وعذاب الآخرة لا يفنى ، فأقرت وآمنت .

العقل عند اللَّه تعالى : يسمى المرء عاقلًا عند اللَّه تعالى ، إذا توفرت مجموعة من الخصال هي : الخوف من اللَّه ، البصر بالدين ، وقوة اليقين ، ولهذه الخصال حقائق من الفعل بالقلب والجوارح ؛ لأنه إذا تم عقل المؤمن عند ربه أفرده ﷻ بالتوحيد له في كل المعاني ، فعقل عنه أنه الكامل بأحسن الصفات ، وأنه وحده الذي يملك ضره ونفعه في دنياه وآخرته .

مسائل في العقل : يتحدث المحاسبي عن الحجة بأنها نوعان : عيان ظاهر أو خبر قاهر ، وأن العقل مضمن بالدليل ، والدليل مضمن بالعقل ، والعيان والخبر هما علة الاستدلال وأصله وذكر أن الإفراط في الحب والبغض يفسد العقل ، وأنه لا غنى للفرد من أن ينظر ويتذكر ويتفكر ؛ ليكثر اعتباره ويزيد علمه ويعلو في الفضل ، فمن قل تفكيره قل اعتباره ومن قل اعتباره قل علمه ، ومن قل علمه كثر جهله .

أما عن علاقة هذا الجزء من الكتاب بعلم النفس فيتمثل في الآتي : يشير مضمون هذا الجزء صراحة إلى ارتباطه بأحد الموضوعات الأساسية في علم النفس وهو موضوع « الذكاء الإنساني » Human Intelligence والقدرات العقلية Mental Abilitics مثل الفهم Understanding والمعرفة Knowledge والاستدلال Reasoning ، والاستبصار Insight ، كما أن هناك إشارة لما يطلق عليه علماء النفس السلوك الذكي Intelligent Behaviour ، كما يرتبط هذا الجزء بمجال التأخر العقلي Mental Retardation والمرض العقلي Mental Illness (ص ١٧ - ٤٧) .

الجزء الثاني : شرف العقل وماهيته للغزالي :

في العقل وشرفه : فالعقل منبع العلم ، وأساسه ، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة ، والرؤية من العين ، وشرف العقل ما يدرك بالضرورة ، وقد سماه اللَّه نورًا في قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ [النور : ٣٥] ، وسمى العلم المستفاد روحًا ووحيًا وحياة وعرض المؤلف لعدد من الآيات والأحاديث النبوية التي تشير إلى حسن الأخلاق لا يتم حتى يكتمل نضج العقل ، وأن العقل هو المرشد لطاعة اللَّه ، حيث اتباع أوامره واجتناب نواهيه .

بيان حقيقة العقل وأقسامه : **الأول** : الوصف الذي يختلف فيه الإنسان عن سائر الكائنات ، وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية ، وهذا ما أراده المحاسبي حين قال عن العقل : « إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية » .

الثاني : هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز ، بجواز الجائزات ، واستحالة المستحيلات ؛ كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد .

الثالث : علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال ، فمن حنكته التجارب وهذبته المذاهب ، يقال عنه : عاقل في العادة ، ومن لا يتصف بهذه الصفة ، فيقال عنه : غبي جاهل .

فرأى المحاسبي أن المعرفة نتيجة للعقل وليست هي العقل كما زعم البعض .

ويرى المحاسبي أن الدليل على أن العقل هو الغريزة ، معرفة الرجل أباه وأمه ونفسه ، والسماء والأرض ، وكافة الأشياء التي يعرفها برؤيته ، ولم يعرفها باسم ولا تفاصيل تبين معانيها ، وتحدث عن معاني العقل على النحو الآتي :

المعنى الأول : العقل هو الفهم والبيان ؛ فكل بالغ من الجن والإنس من الذكور والإناث حجة العقل لازمة به ، ومن الآيات القرآنية قوله تعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٤٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ [فصلت : ١٧] ، يعني بيانًا لهم ما يعقلونه بعقولهم ، إن تدبروا ذلك ، ولولا البيان لكان الإنسان مثل الحيوان والجماد ، وقد سمى العرف الفهم عقلًا ؛ لأن ما فهمته فقد قيدته بعقلك وضبطه .

المعنى الثاني : هو البصيرة ، والمعرفة بتعظيم قدر الأشياء النافعة والضارة في الدنيا والآخرة . ومن ذلك تعظيم قدر اللَّه تعالى ، وتقدير نعمه ، وإحسانه ، وقدر ثوابه وعقابه . وقد وصف اللَّه ﷻ في كتابه رجالًا وسمى لهم عقلًا ، فقال تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج : ٤٦] ، ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ﴾ [الأحقاف : ٢٦] يعني عقولًا .

وعن العقل وطاعة الله تحدث المؤلف عن أربع فرق هي :

١ - فرقة عرفت عن اللَّه تعالى عظيم قدره وقدرته ، فأطاعت وخشعت .

٢ - فرقة عرفت البيان ، ثم جحدت كبرًا وعنادًا لطلب الدنيا .

٣ - فرقة طغت وقلدت ، فعميت عن الحق أن تبينه .

٤ - فرقة عرفت اللَّه ﷻ في تدبيره وتفرده بالصنع ، وعرفت قدر الإيمان في النجاة بالتمسك به ، وقدر العقاب في ضرره بمجانبة الإيمان ، فلم يجحدوا كبرًا ولا طلب دنيا ، فعاجل الدنيا يفنى ، وعذاب الآخرة لا يفنى ، فأقرت وآمنت .

العقل عند اللَّه تعالى : يسمى المرء عاقلًا عند اللَّه تعالى ، إذا توفرت مجموعة من الخصال هي : الخوف من اللَّه ، البصر بالدين ، وقوة اليقين ، ولهذه الخصال حقائق من الفعل بالقلب والجوارح ؛ لأنه إذا تم عقل المؤمن عند ربه أفرده ﷻ بالتوحيد له في كل المعاني ، فعقل عنه أنه الكامل بأحسن الصفات ، وأنه وحده الذي يملك ضره ونفعه في دنياه وآخرته .

مسائل في العقل : يتحدث المحاسبي عن الحجة بأنها نوعان : عيان ظاهر أو خبر قاهر، وأن العقل مضمن بالدليل ، والدليل مضمن بالعقل ، والعيان والخبر هما علة الاستدلال وأصله وذكر أن الإفراط في الحب والبغض يفسد العقل ، وأنه لا غنى للفرد من أن ينظر ويتذكر ويتفكر ؛ ليكثر اعتباره ويزيد علمه ويعلو في الفضل ، فمن قل تفكيره قل اعتباره ومن قل اعتباره قل علمه ، ومن قل علمه كثر جهله .

أما عن علاقة هذا الجزء من الكتاب بعلم النفس فيتمثل في الآتي : يشير مضمون هذا الجزء صراحة إلى ارتباطه بأحد الموضوعات الأساسية في علم النفس وهو موضوع « الذكاء الإنساني » Human Intelligence والقدرات العقلية Mental Abilitics مثل الفهم Understanding والمعرفة Knowledge والاستدلال Reasoning ، والاستبصار Insight ، كما أن هناك إشارة لما يطلق عليه علماء النفس السلوك الذكي Intelligent Behaviour ، كما يرتبط هذا الجزء بمجال التأخر العقلي Mental Retardation والمرض العقلي Mental Illness (ص ١٧ - ٤٧) .

الجزء الثاني : شرف العقل وماهيته للغزالي :

في العقل وشرفه : فالعقل منبع العلم ، وأساسه ، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة ، والرؤية من العين ، وشرف العقل ما يدرك بالضرورة ، وقد سماه اللّٰه نورًا في قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ [النور : ٣٥] ، وسمى العلم المستفاد روحًا ووحيًا وحياة وعرض المؤلف لعدد من الآيات والأحاديث النبوية التي تشير إلى حسن الأخلاق لا يتم حتى يكتمل نضج العقل ، وأن العقل هو المرشد لطاعة اللّٰه ، حيث اتباع أوامره واجتناب نواهيه .

بيان حقيقة العقل وأقسامه : **الأول** : الوصف الذي يختلف فيه الإنسان عن سائر الكائنات ، وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية ، وهذا ما أراده المحاسبي حين قال عن العقل : « إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية » .

الثاني : هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز ، بجواز الجائزات ، واستحالة المستحيلات ؛ كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد .

الثالث : علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال ، فمن حنكته التجارب وهذبته المذاهب ، يقال عنه : عاقل في العادة ، ومن لا يتصف بهذه الصفة ، فيقال عنه : غبي جاهل .

الرابع : أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ، فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلًا ، من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب ، لا بحكم الشهوة العاجلة .

بيان تفاوت النفوس في العقل : وفيه ذكر أن التفاوت يتطرق إلى الأقسام الأربعة السابقة ، سوى القسم الثاني ، وهو العلم الضروري بجواز الجائزات ، واستحالة المستحيلات ، أما الأقسام الثلاثة الأخرى ، فالتفاوت يتطرق إليها ، فالقسم الرابع مثلًا لا يخفى تفاوت الناس فيه ، بل تفاوت الشخص الواحد فيه ، ويرجع هذا إلى التفاوت أحيانًا لتفاوت الشهوة ، إذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات دون بعض ، فقد يكون العالم أقدر على ترك المعاصي من الجاهل ، وذلك لقوة علمه بضرر المعاصي ، أما القسم الثالث ، وهو علوم التجارب ، فتفاوت الناس فيه واضح لا ينكره أحد ، وسببه إما تفاوتًا في الغريزة - فالتفاوت فيه واضح إلى أن يتكامل قرب سن الأربعين .

ويرتبط الجزء الثاني من الكتاب بالموضوعات والمفاهيم السيكولوجية التالية :

القدرات العقلية Mental Abilities ، والفروق الفردية والعوامل المؤثرة في ذلك كالعوامل البيئية والوراثية (ص ٥٨ ، ٦٥) .

ارتقاء القدرات العقلية وربطها بالارتقاء الأخلاقي Moral Development ، فهناك إشارة واضحة إلى أن النضج المعرفي يصاحبه النضج والارتقاء الأخلاقي ، وهذا ما تشير إليه بعض النظريات الارتقائية مثل نظرية جان بياجه J.Piaget والذي ربط بين ارتقاء معارف وأفكار الفرد ، وارتقاء مفاهيمه وتصوراته الأخلاقية (ص ٥٣ - ٥٥) .

هناك أيضًا إشارة لمفهوم الإدراك Perception ، ومفهوم الانفعالات Emotions ، فقد أوضح المؤلف - في هذا الجزء الثاني من الكتاب - أن الشخص العاقل هو الذي يمكنه التحكم في انفعالاته وقمع شهواته (ص ٦٦) .

هناك أيضًا إشارة - بشكل غير مباشر - لمبدأ التكامل والتمايز في الارتقاء Integration - Differentiation حيث تكون خصال وقدرات الفرد في البداية عامة وغير مميزة ، ثم تتجه مع نمو الفرد نحو المزيد من التحديات والتمييز (ص ٦٧ - ٦٨) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام ،

التوبة [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

وصف الكتاب :

يقع الكتاب في ٨٦ صفحة من القطع الصغيرة ، ويشتمل على مقدمة المحقق التي كتبها عن المحاسبي ؛ نشأته ، وشخصيته وأزمته النفسية ، وعلاقته بالعلماء وأهل الأهواء ، ومؤلفاته ، وبعد ذلك يقدم موضوعات الكتاب وهي : بداية العودة إلى اللَّه ، والعزم على تأديب النفس ، وبداية الهداية وصراع النفس ، ودلائل الصدق في التوبة ، وعزة مقام التائبين ، ودلائل صدق الشاكرين ، ثم ملحقين أولهما خاص بأحكام التوبة ، والثاني في بعض الأحاديث الواردة في التوبة ، ثم فهرس الكتاب .

عرض الكتاب :

يبدأ المحاسبي حديثه بعنوان بداية العودة إلى اللَّه ، فيحدد هذه البداية بأنها لمن أقبل على ربه وعمل لطلب مرضاته ، وكذلك معرفة اللَّه وما أوعد ، ومما توعد ، ومعرفته بنفسه ، كما يحدد معرفة اللَّه بأنها من اللَّه ﷻ الذي يخطر بقلب عبده العارف ذكره ، وذكر آخرته ، وحرَّكه للفكر والتذكر لعظيم قدر مولاه ، وقدر رضاه وسخطه ، وما وعد وتوعد فاستنار قلبه بذلك (ونجد هنا يمر مرورًا عابرًا على بعض المفاهيم السيكولوجية ؛ مثل : الفكر والتذكر ص ١٨) .

---

(١) دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا . (ط ١) . القاهرة : دار الاعتصام ؛ (١٩٧٧م) . (٨٤ ص) .

وفي إطار الموضوع الأول ينتقل ليتحدث عن أخلاق النفس الأمارة بالسوء ، وما تجره على صاحبها من البلاء والذنوب التي تسجل في صحيفة العبد ، ولذا من الواجب عليه دائمًا أن يتذكر ما سلف منه ، وعليه أن يتذكر أن نفسه كانت في جميع ما جنت عليه من سالف عمره تأتيه بسرور ونشاط ، لم تزل مترددة بين الشهوات ، راغبة ، متيقظة فطنة متلحظة إلى ما يهلكها في آخرتها ، مسرورة متنعمة بما يسخط مولاها (ونجده أيضًا يذكر بشكل غير مباشر مفاهيم سيكولوجية كالدوافع ، والذكاء أو التفكير والانتباه ص ١٨ ، ١٩) .

وبعد أن يتبين العبد أن طاعة نفسه فيها هلاكه ، وسوء عاقبته في المعاد ، وأن في عصيانها نجاته في آخرته ، وأنها قد اعتادت سلوك طريق هلكته ، وأنه لا شك ميت ، والموت يأتي بغتة ، ألزم قلبه العزم على تأديب نفسه الأمارة بالسوء ، والمواظبة على توقيفها والإلحاح على معاقبتها والدوام على موعظتها وتذكيرها بربها ، وأول الطرق التي يسلكها في ذلك عزل النفس عن مواطن المعصية ؛ لتفهم وتعقل ما ألقي إليها ، ثم أدمن معاتبتها وتخويفها (ومن هذا الحديث نستنتج بعض مبادىء تعديل السلوك وهو الأخذ بمبدأ الثواب والعقاب ، كما أنه يلحق - في ثنايا الحديث - الفهم والتعقل بوظائف النفس ، وهو موضوع يدرس في علم النفس الحديث ، أعني الجانب العقلي للإنسان (ص ٢١ ، ٢٣) .

وبرغم ذلك فإن النفس تأبى مفارقة الشهوات التي كانت تنال بها معاصيها من الأصحاب ومن الأهل ، ومن القرابة والخلطاء الذين كانوا يعاونونها على الشهوات (وهذا الحديث يذكرنا ببعض نتائج ودراسات علم النفس الحديث خاصة في مجال الاعتماد على المخدرات على اختلاف أنواعها ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه ينبهنا إلى ضرورة التدقيق في اختيار الأصدقاء والخلطاء وهو ما يدرس في إطار موضوع الصداقة أحد موضوعات علم النفس الاجتماعي (ص ٢٣) ، وأمام هذا العصيان وهذا النشوز ، يأخذ العبد نفسه بالشدة فيعالجها بالصوم والجوع والتذكير (ويشير هنا إلى ضبط النفس والسيطرة على الدوافع ص ٢٤) ، ومن الملاحظ مع كل ذلك أن النفس تحن - بعد الشدة معها - إلى بعض الشهوات دون بعض ، لذلك تقطع أسباب بعض المعاصي ، وتأبى أن تقطع باقي أسباب معاصيها - ولما قطعت بعض أسبابها واستبدلت بها أضدادها ؛ من صاحب مرشد بدلًا من الصاحب المغوي ، ومن تيقظ وتذكر بعد سهر وغفلة ، ومن تثبت وفكر بعد طيش وعجلة ، والإدمان على مناجاة

الرب جل ذكره (تلاحظ هنا استخدامه لكلمة الإدمان استخدامًا حسنًا) ، والنظر في العلم من آثار نبيه ﷺ وآداب الصالحين بعده ، بعد كثرة الخوض والاستراحة إلى محادثة المفسدين واستبدال بعد كثرة الكلام صمتًا ، وبكثرة اللحظ إلى ما لا يحبه مولاه غضًا ، وبادر إلى ترك الكثير من شهواته التي تباعده من ربه ، وتوقى كثيرًا مما خبث من مكاسبه وما لا يطيب من غذائه . فلما بلغ هذا اجتمعت أنوار ذلك في قلبه ، واستنارت مواريث الطاعة في عقله ، وأيده اللّٰه تعالى بمعونته ، وهو الذي ابتدأ تنبيهه ، وحرك قلبه للنظر إلى نفسه وعرفه سوء رغبتها ، وقلة مبالاتها بآخرتها ، فلما استقر في قلب ما وهبه اللّٰه سبحانه من نور طاعته ، والسرور بما هم به ، حيا قلبه ، وقوى عزمه ، وقهرت أنوار الطاعة هواه (ونجد المحاسبي هنا يمر مرورًا رقيقًا على بعض موضوعات علم النفس مثل الصداقة والأصدقاء ، والنصيحة والإرشاد ، والانتباه (التيقظ) والتذكر ، والتروي والاندفاعية Reflectivity ، Impulsivity والانفعالات والدوافع وضبط النفس وتعديل السلوك (ص ٢٥ - ٢٦) .

ثم ينتقل المحاسبي بعد ذلك ليحدثنا عن موضوع بعنوان « بداية الهداية » ، ويرى أن النفس عندما تنظر إلى لذة المعصية التي نالتها وتجدها قد ذهبت ، وإلى العقوبة التي حلت بها وإلى ما أصابه من نور في قلبه من جراء هذه العقوبة ، وما أدت إليه من نشاط التقرب إلى ربه ، ولذلك يقوى على نفسه ويتمكن من زجرها ووعظها ، وبعد أن تؤتي هذه المحاولات نتائجها ، ويبدو على النفس الاستقامة في طاعة اللّٰه ، يخفف عنها العقوبة ، كأن يخفف عنها بعض ما يقوي طبعها الذي يهيج منه هواها ، ويمنعها من بعض لذاتها مثل كثرة الطعام الذي ألفته (وهو هنا يدعونا إلى ضبط النفس Self-Control وهي إحدى سمات الشخصية ، كما ينطوي هذا الحديث على ضرورة الاعتدال في إشباع الدوافع ، ص ٢٨ - ٢٩) .

ويطرق المحاسبي موضوعًا آخر هو خداع النفس ، يتناول فيه بعض العناوين الفرعية يلفت فيها النظر إلى بعض نقاط الضعف في النفس البشرية كالحنين إلى الشرف بين الناس ، وحب الثناء والتبجيل على ما ظهر من طاعتها ، وكذلك العجب والمن ، وتوهم فضلها على سائر الناس ، واعتقادها بأنها مصطفاة وصادقة (وهي كلها يمكن أن تمثل بعض سمات الشخصية غير المقبولة ، وهي على وجه عام ، تعتبر أعراضًا لسوء التوافق (ص ٣١ ، ٣٣) .

ويتجه المحاسبي بعد ذلك ليحدد دلائل الصدق في التوبة ويرى أنها الجد في الطاعة

(من تعظيم اللّه في قلبه ، وإطالة المناجاة ، وشدة الشوق إلى مولاه) .

والحزن والخوف (وهما نوعان من الانفعالات التي تحظى بعناية علماء النفس العام ص ٣٤ - ٣٥) .

وسقوط الكلفة في الطاعة حيث ترتفع عن السآمة ، وتزيل عنه الملالة ، وتصبح عبادته خالصة لوجه اللّه (ص ٣٦ ، ٣٨) ، ومن هذه الدلائل العلم بطريق التوبة واتباعه ، وعلم الرجاء والشكر والخوف - وبهذه الدلائل كلها تتحقق التوبة وتكتمل - لذلك كان للتائبين عزة عند ربهم ، فنراهم يتقللون من الدنيا ويظهرون الخشوع والذلة للّه ، ينفضون عن أبناء الدنيا ومحبيها ؛ فيعطيهم اللّه من فضله ويعفو عنهم ويغفر لهم .

ويشير المحاسبي بذلك إلى أسلوب خاص في تعديل السلوك على أساس تقوية إيمان الفرد وتقواه وزيادة تقربه إلى اللّه تعالى بالتوبة والعبادات .

ويزيد المحاسبي على دلائل صدق التوبة ، دلائل صدق الشاكرين ؛ لأن الشكر على نعمة التوبة واجب ، وعلامة الشاكر هم القيام بالشكر وسؤال اللّه الشكر ، والرضا بالقليل من الدنيا والقناعة بما يؤتيه ، ويصبر على هذا القليل حتى يكتب من الصابرين .

وأضيف إلى هذا الكتاب ملحقين الأول منهما في أحكام التوبة ويبدأ بتحديد معناها وحدودها ، ويرى أن العلماء اختلفوا في تحديد معنى التوبة ؛ فمنهم من قال : إنها الندم ، ومنهم من قال : إنها العزم على عدم العودة للمعصية ، وآخرون قالوا : إنها الإقلاع عن الذنب ، ومنهم من جمع المعاني الثلاثة ، وهو أكمل المعاني وأصحها فهي الندم على ما مضى ، والعزم على عدم العودة ، والإقلاع عن الذنوب ، ومن شروط التوبة الصحيحة أن يهجر التائب الذنوب ؛ لأنها معاصي يغضب منها اللّه ورسوله ، فإن أقلع عن الذنب ؛ لأنه ضار بصحته أو ماله فليس ذلك بتوبة ، ومن الغريب أن كثيرًا من الناس يظنون أن العمل الصالح مع البقاء على الذنوب ينفع الإنسان عند اللّه وليس الأمر كذلك ، وقد عنى المحاسبي بهذه القضية عناية شديدة في كتابه آداب النفوس ، وخلاصة ما قاله : إن تطهر النفس من السيئات بالتوبة أفضل وأولى بالعبد من عمل النوافل ، وأعمال البر الأخرى ، مع الإصرار على المعصية ؛ لأن الإصرار على عمل الذنوب استهزاء باللّه وبرسوله . ويرى أن التوبة ينبغي أن تكون عامة من الذنوب الصغيرة والكبيرة .

ويحدد المحاسبي الحكم لمن تاب وعاد للذنوب ويقسم الناس في ذلك إلى قسمين :

١ - قسم صادق في توبته الأولى ولم يصر على ذنبه ، وليس في نيته العودة إليه عند إعلان التوبة ، فإذا عرض له ذنب وعمله ، وجب عليه المسارعة بالتوبة بشروطها وصحت توبته الأولى والثانية .

٢ - قسم تاب من ذنبه الأول مع حب له ، ثم عرض له الذنب وهذا مستهزئ بربه وتسمى توبته توبة الكذابين .

واختتم بالملحق الثاني وهو في بعض الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ بشأن التوبة .

* * *

المسائل في أعمال القلوب والجوارح [1]

عرض : د . أسامة سعد أبو سريع

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٤٣ صفحة من القطع الصغير ويهدف إلى بيان كيف يكون التوازن بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح (الأعضاء) في إطار الدين الإسلامي ، فالإسلام هو النطق بالشهادتين ويصبح الإنسان مسلمًا بمجرد النطق باللسان ولو لم يتخذ طريقه إلى القلب رغم أنه لا يخلو من عمل قلبي ، أما الإيمان باللّه ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، وكلها قمة الإيمان ومعناه أن تعبد اللّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

وكانت دعوة الرسول ﷺ قائمة على التوازن بين القلب والجوارح حتى تستمر حركة العمران دون إفراط في عمل الجوارح حتى لا تفسد القلوب ويضيع الإسلام ، وقد أوصى بترويح النفوس قليلًا ثم العودة مرة أخرى إلى التفكير في متعة الآخرة .

واستمر التوازن بين القلب والجوارح في عهد أبي بكر ثم عمر رضي الله عنهما ، ثم بدأت الفتنة وشهوة الرئاسة وحب الدنيا وتطلع الأمويين إلى الثروات وإلى الحكم وضعفت رقابة القلب على الجوارح وغلبت الشهوة وشاع الشذوذ بكل أشكاله .

وفي هذا الجو برز المحاسبي على رأس مدرسة تهتم بالعمل القلبي إلى جانب عمل الجوارح وسميت بمدرسة « الزهاد » ، ثم « الصوفية » ، وقد تبنى المحاسبي موقف أهل

(١) تحقيق مصطفى عبد القادر عطا . القاهرة : مكتبة التراث الإسلامي (١٩٨٦م) . (١٤٣ ص) .

السنة مراعيًا التوازن بين القلب والجوارح دون تطرف إلى روحانية مفرطة وتكاسل عن الدنيا أو استغراق في الشهوات ، ومن هنا تأتي أهمية الكتاب وفيه يحاول المحاسبي إبراز سيرة الصحابة ومدى حرصهم على أعمال القلب والوجدان محذرًا من خطر المال على الدين إذا سيطر على القلب وأصبح المرء عبدًا له .

ويتضمن الكتاب إجابة الحارث المحاسبي عن خمسة عشر سؤالًا تتناول موضوعات مختلفة تتعلق بفقه القلوب والجوارح نوجزها فيما يلي :

١ - **الحسبة في إدخال السرور على المؤمن** : يجيب المحاسبي على عدة أسئلة حول بر المؤمن بغيره وكيف تكون النية فيه صحيحة ويكشف وجوه البر المختلفة ويفاضل بينها من حيث درجة الوجوب ، وهنا يذكر المحاسبي أن إدخال السرور أوجب على المؤمن التقي ، أما بر المسلم العاصي فقد يشجعه على التمادي في المعصية ، ويمكن مع ذلك وعند شدة الحاجة إعطائه من الزكاة أو التصدق عليه ؛ لأن الصدقة جائزة لأهل الحاجة ، ولكن منع البر أولى عن الظالمين والمعتدين على أمة الإسلام ، ويشير المحاسبي إلى أن الأقربين أولى بالمعروف في معظم الأحيان ويحذر المحاسبي من بر غير المحتاج خاصة إذا ترتب على ذلك الضرر بعيال المتصدق ، ويجيز البر على العالم ؛ إعظامًا لعلمه وعلى المتعلم ؛ لتشجيعه على طلب العلم ، ويحذرنا المحاسبي من بر الأعداء ؛ خوفًا من ضياع المنزلة والمهانة أمام الناس وإنما يكون البر عليهم حماية للدين ، كما يجيز البر على من يُخشى عليه من الارتداد عن دين الحق أو الخروج عن جماعة المسلمين .

• ومن هنا نرى أن في هذا القسم دلالات ترتبط بمفاهيم نفسية منها التدعيم المادي Financial Reinforcement (ص ٣٤ - ٤٤) ، والإثابة Reward (ص ٣٤ - ٤٤) ، والمكانة Status (ص ٤٠) ، وتماسك الجماعة Group Cohesiveness (ص ٤٢) .

٢ - **الإسرار بالعمل** : يجيب المحاسبي هنا عن أسئلة حول كيفية إخفاء العمل عن العباد حتى يكون للخالق وحده ، ويرى أن لهذا الإخفاء سبيلين : أولهما : إخفاء عمل الجوارح عن عيون وأسماع الخلائق ، وثانيهما : إخفاء مشاعر القلب عن العباد وأبصارهم ، ويرى أن بعض الأعمال يمكن عملها سرًا ولكن إظهارها أدعى إلى حث الآخرين وإظهار القدوة الحسنة حتى يقتدوا بها ، ويضيف المحاسبي أنه ليس كل شخص يصلح لأن يكون قدوة وتقتصر القدوة على الجدير بها وعلى مقاومة التصنع والتظاهر في نفسه ، ولكن لا يجوز أن يبالغ الشخص في إظهار عمل الجوارح بما يزيد عما يخفى

ويستر تصنعًا للعباد ورغبة في الشهرة والمنزلة عندهم .

• وفي هذا القسم أفكار تقترب من مفاهيم نفسية منها الصدق Truth (ص ٤٥) ، والمكانة الاجتماعية Status (ص ٤٦) ، والسلوك الصريح Overt - Behaviour (ص ٤٥ - ٤٨) ، والسلوك الضمني Explicit Behaviour (ص ٤٥ - ٤٨) ، والقدوة Model (ص ٤٥) ، والتعلم بالعبرة Vicarious Learning (ص ٤٥) .

٣ - **الشهرة** : يعرف المحاسبي الشهرة بأنها أي فعل ، أو زي يميز فاعله أو مرتديه عن عامة الناس في فعلهم أو زيهم ، ومنها أيضًا حلق الشعر أو تطويله وجهر الصوت بالذكر . ويبين المحاسبي المنهي عنه من الشهرة والمكروه منها ، فيقول : إن الشهرة المحرمة هي الشهرة التي تتأتى من خلال أداء ما حرم اللّٰه من زي أو غيره كلبس الذهب ، أو تطويل الشارب وكل ما يخالف الكتاب والسنة ومنها تشبه الرجال بالنساء أو النساء بالرجال ، ويحذر المحاسبي المؤمن من الانسياق ومجاراة ما يستحسنه الناس ولكن على المؤمن أن يلتزم بما فيه صالح قلبه وعيشه قاصدًا وجه اللّٰه تعالى ، ويرى المحاسبي أن الشهرة محرمة عمومًا إذا كان فيها مصلحة للقلب أو عظة للعامة أو تميزًا عن الفاسقين أو السلطان أو الفقراء المخادعين مع ضرورة تجنب التصنع والرغبة في الشهرة عند العباد .

• ونجد في قسم الشهرة مفاهيم نفسية من بينها الشعبية Popularity (ص ٤٩ - ٥٩) ، والمجاراة Conformity (ص ٤٥) مع إيماءات عن تأثير المظهر الخارجي في الآخرين وهو ما يسمى بالتخاطب غير اللفظي Non - Verbal Communication (ص ٤٩) .

٤ - **من أم قومًا فألزم قلبه الحذر** : يعرض المحاسبي رأيه في الشخص الذي يؤم غيره في الصلاة فيراعي الحذر الشديد حتى لا يخطئ في القراءة ، ويرى المحاسبي أن على الإمام أن يسعى إلى أداء الصلاة على الوجه الأكمل إذا كان هدفه هو محبة الرب وخشيته ، والأعظم من ذلك أن يعي كل حرف يقرأه بلسانه وقلبه وبفهم وتعقل ، ويحذر من أن يكون هدف الإمام من إحسان القراءة هو الخوف من مذمة من خلفه أو الرغبة في الشهرة عند العباد بحسن تلاوة القرآن حتى يصل به الأمر إلى التصنع والتظاهر وتمثيل الخوف والتضرع في الصلاة .

• ويتضمن هذا القسم مفاهيم نفسية منها الدقة Accuracy (ص ٦٠) ، والعائد Feedback (ص ٦٢) . والصدق Truth .

٥ - **إزالة الخوف** : يتحدث المحاسبي هنا عن الخوف والقنوط أو العزة والعجب باليسير من العمل واستكثار القليل منه ثم التكاسل بعد ذلك ، وقد نهى اللّٰه عن القنوط الذي يشعر به العبد بعد ارتكاب ذنب عظيم فيمسك عن عمل البر في سبيل اللّٰه ، ويضيف المحاسبي أن الرجاء أولى في مواضع ثلاثة هي ارتكاب الذنوب أو تذكر الذنوب ، أو التكاسل عن عمل صالح ، وهنا يشجع الرجاء وانتظار الثواب على العمل .

● ويتضمن هذا القسم مفاهيم نفسية منها الإثابة Reward (ص٧٠) ، والانفعالات Emotions (ص ٦٩ - ٧٣) خاصة الخوف Fear (ص ٦٩ - ٧٣) .

٦ - **النوافل** : يشرح المحاسبي خصال ومزايا تطوع العبد بالنوافل غير المفروضة وهي ست خصال :

١ - تكفير الذنوب وتكميل الفرائض .

٢ - شكر النعم .

٣ - تجديد القلوب وإحيائها بذكر اللّٰه .

٤ - الحرص على ألا تمضي ساعة من العمر دون ذكر اللّٰه .

٥ - الاشتغال بذكر اللّٰه ودوام الصلة به كما يرتبط الحبيب بمحبوبه .

٦ - الرغبة في تخفيف الحساب وعلو الدرجات .

● ويتضمن هذا القسم علاقة غير مباشرة بمفاهيم نفسية منها انفعال الحب Liking (ص ٨٠) ، وقضاء وقت الفراغ Leisure Time (ص ٨٠) .

٧ - **من أعمال القلوب** : يوضح المحاسبي أن الحقوق التي أوجبها اللّٰه على القلب دون الجوارح هي :

١ - الاعتقاد في الإيمان والبعد عن الكفر .

٢ - اعتقاد السنة ونبذ البدعة .

٣ - اعتقاد الطاعة والبُعد عن المكروهات .

ومن أعمال القلوب أيضًا التواضع والنصح للعباد وحب الخير والصبر والرضا والزهد ونبذ الخوف والرجاء من المخلوقين .

● ويكشف هذا القسم عن علاقة بالمفاهيم النفسية الآتية : الإرشاد النفسي Counseling (ص ٨٨) ، والقيم Values (ص ٨٤) ، ومنها الحب Liking (ص ٨٧) ، والصداقة

Friendship (ص ٩١) ، والرضا Satisfaction (ص ٨٧) ، والتواضع Modesty (ص ٨٤) ، وسمات الشخصية Personality Traits (ص ٨٤) .

٨ - **الصمت والكلام في الوعظ والبلاغة** : يتناول المحاسبي موضوع الصمت والكلام ويوضح متى يكون الصمت أو الكلام أفضل فيذكر أن الصمت أسلم وإن كان أفضل إذا أريد به وجه اللَّه دون إفراط في الصمت أو الكلام ، فالإفراط في الصمت يؤدي إلى الضجر ، والبلادة ، واختلال العقل ، ولكن يحسن الصمت عن المحرمات أو ما لا يعرفه العبد ، وينبغي أن يكون الكلام في موضعه وأوانه ولمن ينتفع به دون ثرثرة أو إطناب .

• وفي هذا القسم إشارات واضحة إلى مفاهيم نفسية منها التفاعل الاجتماعي - Social Interaction (ص ٩٢ - ١٠٢) ، والتخاطب اللفظي Verbal Communication (ص ٩٢ - ١٠٢) ، والإفصاح عن الذات Self - Discolsure (ص ٩٢ - ١٠٢) ، والملل Boredom (ص ٩٢) ، والاضطراب العقلي Mental Disorder (ص ٩٢) .

٩ - **الجدال في أسباب الدنيا** : يبين المحاسبي أن الجدال الممدوح هو الجدال عن المظلوم عند الحاكم ، وكذلك الجدال عن المكذوب عليه والمظنون فيه السوء دون حق ، وأيضًا الجدال عن النفس في كل المواضع السابقة ، أما الجدال المذموم فهو الادعاء فوق الحق المعلوم أو شتم الظالم بما لا يجوز أو الاستعانة بشهود الزور وكذلك الجدال عن الظالم أو الكاذب أو المغتاب ، أما عندما لا يتضح الظالم من المظلوم فينبغي أن يكون الجدال محايدًا بلا ميل إلى قرابة أو صحبة أو هوى .

• ويرتبط هذا القسم بالمفاهيم النفسية الآتية : التفاعل الاجتماعي Social Interaction ، والدفاع عن الذات Self - Defense (ص ١٠٣) ، والعدالة Justice (ص ١٠٣) ، والموضوعية Objectivity (ص ١٠٣) .

١٠ - **التفويض** : يشرح المحاسبي معنى التفويض إلى اللَّه ﷻ ، ويؤكد أن التفويض يؤدي إلى زوال الهموم وإبعاد الخوف والطمع مع راحة القلب والبدن . التفويض هو الإلجاء من قلب المؤمن إلى اللَّه تعالى في الأمور كلها مع تسليم القلب بقدرة اللَّه .

• ويتضمن هذا القسم علاقة بمفهومي التأييد Support (ص ١٠٧ - ١١٣) والتخفيف النفسي Psychological Relief (ص ١٠٧ - ١١٣) .

١١ - **معرفة النفس** : هنا يعرف المحاسبي الازدراء على النفس بأنه معرفة قدرها وسوء رغبتها وأفعالها وإبعادها عن ملذات الدنيا وترغيبها في ثواب الآخرة ، وأن يضع المؤمن نصب عينيه دائمًا القول التالي : « حُفت الجنة بالمكارم وحُفت النار بالشهوات » ، ثم الحذر من الله طول الوقت .

● ويرتبط هذا القسم بمفاهيم مثل الذات Self (ص ١١٤) ، وضبط الذات Self - Control (ص ١١٥) ، والدوافع Drives (ص ١١٤) ، وطلب اللذة Sensation Seeking (ص ١١٤) .

١٢ - **الغفلة والنسيان** : يذكر المحاسبي أن الغفلة أو النسيان تنقسم إلى قسمين : أولهما : غفلة غير معتمدة يصحبها النسيان وسببها قلة العناية ، وثانيها : غفلة المجترئ على الله دون نسيان وهي غفلة من تعظيم قدر الله وشدة عقوبته .

● ويرتبط هذا القسم بمفهوم النسيان Forgetting (ص ١٢٣ - ١٢٧) .

١٣ - **ما يُحل من النظر** : يذكر المحاسبي أنه يحل النظر إلى ما يحل للحرة أن تبديه وهما الوجه والكفان ولكن لغير شهوة ولا يحل النظر إلى ما عليها أن تخفيه ؛ لأنه عورة ومنهي عن النظر إلى ما عليها أن تبديه أو تخفيه لشهوة ، وقد فرق المحاسبي بين النظر لما يجوز نكاحه وما لا يجوز نكاحه مبينًا حرمة النظر إلى ما يصلح للنكاح ومنها ملابس النساء التي تغري بالنكاح .

١٤ - **نظر الفجأة** : يقصد المحاسبي بنظر الفجأة النظرة التي لم يقصدها القلب أو النظرة غير التعمدة ولا يحاسب عليها الشخص وعليه أن يصرف البصر بعدها ، إما بسرعة تغميض العينين أو بشغل البصر حتى وإن كانت العين مفتوحة ، ويحذرنا المحاسبي من النظر إلى ما نهى الله عنه بحجة الاعتبار والتفكير في حسن خلق الله .

● ومن القسم السابق « ما يحل من النظر » والقسم الحالي « نظر الفجأة » يتبين أن لهما صلة بالمفاهيم الآتية : الدوافع خاصة الدافع الجنسي Sexual Drive (ص ١٢٨ - ١٣٦) أو الغرائز Instincts (ص ١٢٨ - ١٣٦) ، وكذلك القيم وحسن الخلق Morals (ص ١٣٠ - ١٣٦) .

١٥ - **النذور** : في النهاية يحدثنا المحاسبي عن أنواع النذور ويحددها فيم يلي :

١ - نذر لا يُسمى وفيه لا يذكر المرء طبيعة النذر الذي ينبغي عليه الوفاء به كأن يقول : عَليَّ نذر إن شفيت وهنا ينبغي عليه كفارة يمين .

٢ - النذر الذي لا يُطاق مثل نذر الشخص أن يمشي إلى البيت الحرام حافيًا راجلًا وعليه كفارة يمين .

٣ - النذر في معصية ؛ مثل : ذبح الابن وعليه كفارة يمين دون عصيان .

٤ - نذر مُسمى ويفوت وقت الوفاء به ، كنذر صوم يوم معين ويمرض فيه الشخص وعليه أيضًا كفارة يمين .

٥ - نذر مُسمى ويُطاق ولا معصية فيه كنذر صلاة أو صوم ويجب الوفاء به .

● ويتضمن هذا القسم علاقة بمفهوم الالتزام Commitment (ص ١٣٧ - ١٤١) ، وكبح انفعال الغضب Anger وما يسببه من اندفاع إلى قسم أو نذر لا يُطاق . (ص ١٣٧ - ١٤١) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجالي علم النفس العام وعلم النفس الاجتماعي .

* * *

الوصايا :
النصائح - بدء من أناب إلى الله - فهم الصلاة - التوهم (1)

عرض : د . معتز السيد عبد اللّه

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٤٤٨ صفحة من القطع الكبير ، وهو مصنف إلى مجموعة من الكتب النوعية هي : كتاب النصائح ، وكتاب القصد والرجوع إلى اللّه ، وكتاب بدء من أناب إلى اللّه ، وكتاب فهم الصلاة ، وكتاب التوهم ، وجميعها يدور حول تقديم العديد من الوصايا والنصائح الدينية والنفحات القدسية التي من شأنها أن تجنب الإنسان البُعد عن الصراط المستقيم وعوامل الانحراف النفسي ، وينتهي الكتاب بعرض فهرس مفصل للموضوعات التي يشمل عليها كل كتاب من الكتب النوعية ، وهو ما نعرض لتفاصيله على النحو التالي :

كتاب النصائح :

ويتكون من واحد وأربعين بابًا يعرض المؤلف خلالها للعديد من النصائح التي تُعرف الإنسان حدوده وأين هو وما يجب عليه وجوانب تقصيره في دينه .

فيعرض لدلائل التقوى ، وفساد الدين ، وأن أهم هذه الدلائل هي الورع عن محارم اللّه والقيام بحدوده وتصفية القلوب من مكارهه ، وأنه من الضروري على الإنسان إحراز ما يستطيعه من الخير ، والاعتراف بأن المال أصل عظيم من أصول الفساد يؤدي

---

(١) تحقيق وتعليق وتقديم عبد القادر أحمد عطا . (ط ١) . بيروت : دار الكتب العلمية (١٩٨٦م) . (٤٤٨ ص) .

بأصحابه إلى المهالك ، وضرورة وجوب القناعة وترك الفضول ، ووجوب الورع في اكتساب القوت ، والاقتصاد في الرزق من غير إقتار ولا إسراف ، والتحذير من البخل ، والتحذير من مخالطة الناس ؛ لأنها أجزل ثوابًا ، والرضا بقضاء اللَّه والصبر على بلائه ، والحذر من مكائد الشيطان في الطاعة ، والحذر من الإعجاب بالأعمال ، والحذر من الكبر ، وأهمية تفقد سرائر الأنفس وخفايا الصدور ، وضروة أن نطهرها من الغل والحسد والحقد والشماتة وسوء الظن والعداوة والبغضاء ، والحذر من الخلاف ووجوب الاشتغال بما أجمع عليه الأئمة ؛ لأن الدخول في الخلاف فتنة ، والعمل على رعاية الجوارح والقلوب والتشبث بذلك في الأحوال كلها ، ومعرفة أن النفس الأمارة مجمعة عل تضييع أمر اللَّه ﷻ ؛ لذا يجب أن نراقب اللَّه ولا نهملها ، وإن أفضل العلم هو ما عُمِل به لوجه اللَّه تعالى وهو العلم النافع ، وأن العقل هو طريق الصلاح والرشاد ، فإن أفضل ما نستفيده من العقل أن نطيع اللَّه فيما افترض علينا ، ونتجنب ما حرم اللَّه تعالى ، فالعاقل من أطاع اللَّه ولا عقل لمن عصاه .

وإن علينا أن نراقب اللَّه تعالى ونكون على خلاف الناس الذين يبغضون ما يحب اللَّه ويكرهون منافعهم في الآخرة ، أي أنه يجب أن نعلم أصناف الناس في محاب اللَّه تعالى ، وكذلك أصناف الناس في حب ما يبغضه اللَّه تعالى ، فإنهم يفرحون بما أضر بدينهم ، ومن ثم يجب أن نكون بخلافهم وإنه يجب أن نقوم للَّه مقام العبيد بين يدي أربابه بخشوع وهيبة واستكانة وتعظيم أثناء الصلاة ، أي ضرورة أن يكون خشوع القلوب مع الأبدان ، وأنه يجب على الصائم أن يقوم بالابتعاد عن الآثام المضرة بالصيام حتى يصح صومه ، والإشارة إلى وجوب نية النوافل لإتمام نقص الفرائض ، ووجوب نية العمل لمحو السيئات ، ووجوب الإنابة من الآثام ، ووجوب الإسرار بالدعاء ، ووجوب الدعاء بالقلب واللسان ، وأهمية النية الصحيحة لبذل المال ، ووجوب شكر العبد لربه في كل نعمة على حالها ، فإذا شكر الناس ربهم بالألسن ، وضيعوا حدود النعم ، وفرَّطوا في آداب الشكر ، فذلك مذموم ، وأهمية تصحيح السلوك العلمي ، فإذا رأيتم الناس يبدون ما عندهم من العلم وفي ذلك يزدري بعضهم على بعض وقلوبهم متنافرة والنفوس متباينة فأسروا أموركم بمجهودكم وكونوا للشهرة والجدال مبغضين والخمول للذكر محبين ، وبالوحدة والانفراد آنسين ، وبين الملأ مستوحشين ، وفي الخلوة والصمت راغبين فليس من أحد بخطيئته إلا واللَّه يسأل عنها ما أراد بها ، ووجوب الإسرار بأعمال البر ، والتنبيه إلى أخطار المدح فالشيطان يذيق الممدوح حلاوة المدح

وأن الرضا إن شاء اللّه تعالى ، ووجوب تفقد القلوب ، والتقرب إلى اللّه بمحاب اللّه وبغض مكارهه والرضى والغضب له وفيه ، وأخيرًا عرض المؤلف لبعض النصائح في آفات العلم وخمول الذكر وإخفاء أعمال البر .

• أما أهم المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الكتاب فهي :

الإرشاد والتوجيه النفسي Counseling (ص ٥٩ - ٢١٥) ، والرغبة Desire (ص ٦٦ - ٦٧) ، والقيم العلمية Scientific Values (ص ٧١ - ٧٦ ، ١٦٨ - ١٧٠ ، ٢٠٥ - ٢١٠) ، والقيم المادية (ص ٧٦ - ٩٣) ، والرضا النفسي (الإشباع Satisfaction) (ص ٩٤ - ٩٧) والعزلة Isolation (ص ١٠٤) ، والسرور (ص ١٠٥- ١٠٦) ، والوسواس Obsession (ص ١٠٧ - ١٠٨ ، ١٣٧ ، ١٧٣ - ١٧٤، ٢٠٨) ، والإعجاب بالذات Self-Admiration (ص ١٠٩ - ١١٠) ، والغرور (ص ١١١ - ١١٢) ، والتحذير (ص ١١٥ - ١١٧ ، ١٧٨ - ١٧٩) والصراع Conflict (ص ١١٥ - ١١٧) ، الانفعالات Emotions (ص ١٢٠ ، ١٩٧ - ٢٠٤) ، والفروق الفردية (ص ١٢٤ ، ١٣٢ - ١٣٥) ، والنية أو المقصد Intention (ص ١٢٤ - ١٢٦ ، ١٤٤ - ١٤٩ ، ١٥٩ - ١٦٢) ، والتفكير Thinking (ص ١٢٩ ، ١٣١) ، والخضوع Submission (ص ١٣٦) ، والنسيان Forgetting (ص ١٣٨ - ١٤٠) ، والرجاء (ص ١٥٠ - ١٥١) ، والخوف Fear (ص ١٧٨ - ١٧٩) والحذر (ص ١٧٨ - ١٧٩) ، وضبط النفس Self - Control، والقيم الدينية والخلقية .

كتاب بدء من أناب إلى الله :

وفيه يعرض المؤلف لمجموعة من الموضوعات تدور حول بداية العودة إلى اللّه ومعرفة اللّه وخلائق النفس الأمارة بالسوء ، والعزم على تأديب النفس ، وكيفية عزل النفس عن مواطن المعصية ، وإدمان معاتبتها وتخويفها ، والعقوبات المشروعة للنفس ، وبداية الهداية : بين عقوبتها والتخفيف عنها ، وخداع النفس ، وتوهم فضلها على غيرها من الناس ، ودلائل الصدق في التوبة ، وعزة مقام التائبين ، ودلائل صدق الشاكرين .

• **أما المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الكتاب** : فهي مفهوم الدوافع البيولوجية Biological Motives (ص ٣٣٦ - ٣٣٧) ، والاعتقاد Belief (ص ٣٤٣)، وقيمة الصدق (ص ٣٤٤ - ٣٤٨) ، والطاعة Obedience

(ص ٣٤٤ - ٣٤٧) ، والحزن Sadness (ص ٣٤٤ - ٣٤٥) ، والخوف Fear (ص ٣٤٤ - ٣٤٥ ، ٣٤٧ - ٣٤٨) ، الرجاء (ص ٣٤٧ - ٣٤٨) ، وضبط النفس والشعور بالذنب والعزم على عدم العودة إلى ارتكاب الذنوب (التوبة) ، وتهذيب وتأديب النفس Self Discipline .

كتاب فهم الصلاة :

وفيه يعرض المؤلف لكل الجوانب الخاصة بالصلاة والتي تعين الإنسان على أدائها بأفضل صورة يرتضيها اللَّه تعالى ، وأول مراحل الصلاة هو الوضوء ، ثم المشي للصلاة بالخشوع والإجلال للَّه تعالى ، ثم الدخول في الصلاة ، وأخيرًا الفراغ منها .

• **أما أهم المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الكتاب** : فهو مفهوم الخضوع Submission (ص ٣٦٤ - ٦٧٨) ، والطاعة ، والقيم الدينية .

كتاب التوهم :

وفيه يعرض المؤلف لآلام الموت ولقاء ملك الموت وسؤال الملكين ورؤية الجنة والنار ، والنداء للعرض وما يكتنفه من زحام مريع ، وأهوال القيامة ، والشفاعة ، والفرار من جهنم وسؤال الرسل ، وتطاير الكتب ونصب الموازين ، ويوم العرض والوقوف أمام اللَّه تعالى ، وعذاب الكافرين ، وكيف أن عذاب جهنم كرب لا يهدأ ، وتجاوز الصراط ، ونعيم الجنة وموكب الصالحين إلى الجنة وفتح باب الجنة ، ولقاء الرحمن ، وإكرام ضيوف الرحمن ، ورفع الحجاب .

• **أما المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الكتاب فهي** : التخيل Imagination (ص ٣٨٩ - ٤٤٣) ، والانفعالات Emotions (ص ٣٨٩ ، ٤٤٣) .

أما بالنسبة لكتاب القصد والرجوع إلى اللَّه ، فسوف نعرض له تفصيلًا في الجزء التالي .

* * *

القصد والرجوع إلى الله [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

عرض الكتاب :

يشتمل الكتاب على مقدمة و ٣٤ مسألة ، نعرض لها على النحو الآتي :

مسألة (١) : في شرح بيان ابتداء التوبة والقصد إلى اللّه ﷻ بالإنابة ، ويتحدث فيه عن أن التوبة هي بداية الرجوع إلىاللّه ﷻ ، وتعني التوبة الندم على ما كان من الفعل القبيح والعزم على ألا تعود إلى ما كانت عليه ، وطلب التوبة يرتبط بثلاث خصال : **أولها** : ذكر الذنوب السالفة ، وقلة المطعم والمشرب مع ترك الكثير من الشهوات ، **والثانية** : جمع الهم لما تطلب مع دوام ذكر الموت ، **والثالثة** : لزوم العلم بذكر ما قدمت ، وهو الذي يطوي عليك ذكر ما ذكرت ، ثم تحدث المؤلف بعد ذلك عن علامات الصادق في توبته ، ومنها دوام الأسى على العمر الذي انقضى منه في البطالة واللعب ... إلخ .

مسألة (٢) : في صفة الفترة وشرحها وبيان معانيها ، فالرجوع الفترة مرحلة تالية للتوبة ، وهي أن تعرض دواعي الهوى فتستجيب له النفس فتستريح إلى الفترة ، بروح ترك الكد والاجتهاد .

مسألة (٣) : في محاسبة النفس أو دفع الهوى من ضمائر القلوب ، وتعني المحاسبة

---

(١) تحقيق ودراسة عبد القادر أحمد عطا . (ط ١) . القاهرة : دار التراث العربي (١٩٨٠م) . (١١٨ص) .

قيام العقل على حراسة النفوس من خيانتها ، لتتفقد منها زيادتها من نقصانها ، ويقوى العبد على محاسبة النفس بثلاث خصال هي : قطع العلائق التي تشغله عن جمع الهم على المحاسبة ، والتفرد لها من غيرها والخوف من اللّه ﷻ أن يسأله عما فرط فيما بلغه على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام .

● ويرتبط هذا الجزء من موضوع الدوافع الأولية Primary Motives (ص ٤٠ - ٤٢) . وضبط النفس Self-Control والتحكم في الدوافع والشهوات .

مسألة (٤) : في مخالفة العدو ، ودفع نزعاته ، وتحدث فيه عن أسباب مخالفة العدو إبليس ومنها فرض اللّه اللازم الذي أمر بمحاربته ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر : ٦] ، وهذا دليل على أن اللّه ﷻ فرض عداوته وأمر بمحاربته وهو الذي يقويك على مخالفته ، لخوف التخلف عما أمرك به .

مسألة (٥) : في بيان الورع ومعناه ، والورع يعني وقوف القلب عند هجومه للفعل ، حتى يفرق بين الحق والباطل ، وأن جميع الورع في ترك ما يريبك إلى ما لا يريبك ، والورع مشتق من الخوف كما تقول العرب ، وعلامة الورع ترك عداوة القلوب وأحقادها ويزيد من قدر الورع : علم مشاهدة القلب لسطوات اللّه ﷻ ونقمته .

● ويرتبط هذا الجزء بموضوع الانفعالات Emotions خاصة انفعال الورع والخوف (معناه وطبيعته) ، (ص ٤٦ - ٤٧) . والسيطرة على الدوافع والانفعالات .

مسألة (٦) : في بيان الزهد ومعناه ، ويعني الزهد العزوف عن الدنيا ولذاتها وشهواتها ، ويقوي على ترك الدنيا معرفة القلب بسوء عواقبها وكثرة الوقوف للحساب على ما أخذ منها ، مع دوام الاشتغال بها عن خالقها ، وخوف العقاب على مثاقيل الذر منها .

● ويرتبط ذلك بموضوع الدوافع Motives خاصة قمع الدوافع والرغبات أو الشهوات (ص ٤٨ - ٥٠) .

مسألة (٧) : في بيان ما يفسد الزهد وفرض الزهد ، وتحدث المؤلف عن أن ما يفسد الزهد هو استرواح النفس وميلها لرخص التأويل من سماع العلم والأقاويل في أخذ ما لا يضر فقده ، ودوام السعي في فضول المباح ، ويبين المؤلف أن الزهد على وجهين : فرض وفضيلة . فالفرض منك ترك الحرام ورفضه ، وأما الفضيلة فهو الزهد في الحلال .

مسألة (٨) : في بيان الزهد في الحياة تبرمًا بالدنيا ، وبالبقاء فيه ، والنظر إلى أهلها وأبنائها في دار العاصين ، وحب القدوم إلى الله ﷻ ورغبة في جواره مع المقربين .

مسألة (٩) : في الزهد في الناس وحب المنزلة والرئاسة والشرف وبيان تفاوت الناس في الزهد ، فإذا استوطنت المعرفة في قلوب العارفين بترك الدنيا ؛ فإنهم يزهدون في الناس والمنزلة والرئاسة ، وفي إقامة الجاه والشرف ، ويختارون التواضع ، والفرار من حب الدنيا ، وذكر المؤلف بعد ذلك أن الناس يتفاوتون في الزهد على قدر صحة العقول ، وقوة العلم الذي يبعث على الهجوم على العزوف عن الدنيا ، وعلى قدر معرفتهم بسوء عواقبها ، وسرعة فنائها وكثرة ضررها .

● ويرتبط هذا الجزء بالسيطرة على دوافع الإنسان وأهوائه الدنيوية مثل دوافع السيطرة وحب الرياسة والسلطة (ص ٥٤ – ٥٥) .

مسألة (١٠) : في معنى الدنيا ، وشرح بيان المحمود منها والمذموم ، فالدنيا منها ظاهر وباطن ، ومنها عرض وجسم ، ولها أول وآخر ، ولها شاهد وغائب وذكر الصفات المصاحبة لكل جانب من هذه الجوانب : فالباطن منها مثلًا اتباع الهوى الذي بطن في النفوس واتبعته القلوب مثل الكبر والغل والحسد والرياء وسوء الظن ، وحب جمع المال ، والتفاخر ، وحب الشرف ، والظاهر منها : الدينار والدرهم والثوب والدابة والخادم والمركب ، كما تحدث عن المحمود والمذموم في الدنيا .

● ويرتبط هذا الجزء بدوافع الإنسان التي تتعلق بإشباع حاجاته الدنيوية ، وبدوافعه التي تتعلق بإشباع حاجاته الأخروية (ص ٥٦ – ٥٨) .

مسألة (١١) : في بيان العقل وصفته ، فللعقول أنوار بصيرة أسكنها الله ﷻ القلوب ، يفرق بها العبد بين الحق والباطل في جميع ما يرد عليه من خطرات قلبه ، ونزعات عدوه ، ووساوس نفسه ، وما تعهد برعايته .

● ويرتبط هذا الجزء بكل من موضوع القدرات العقلية Mental Abilities ومعنى العقل ، وكذلك بكل من أثر الوراثة والبيئة ودورهما في تشكيل واكتساب القدرات العقلية (ص ٥٨ – ٥٩) .

مسألة (١٢) : في الصدق وبيانه ، فالصدق قول باللسان مع اختيار القلب حالة واحدة ، لا يخالف أحدهما صاحبه ، وهناك صدق النية وصدق اللسان وصدق العمل ، وذكر المؤلف أن المعرفة أصل الصدق والصدق أصل لسائر أعمال البر وعلى قدر

قوة الصدق يزداد العبد في أعمال البر .

● ويرتبط هذا الجزء بموضوع الانفعالات Emotions ، وكذلك من معنى الصدق كإحدى القيم الأخلاقية Moral Values (ص ٦٠ - ٦٢) .

مسألة (١٣) : في صفة الصادق وسيرته بين الخلق ، فالصادق لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه ، ولا يحب اطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله ، ولا يكره أن يطلع الناس على السيء من عمله .

● ويرتبط هذا الجزء بسمات الشخصية .

مسألة (١٤) : في الإخلاص وبيانه ، فالإخلاص هو خروج الخلق عن معاملة الرب ﷻ ، والنظر إلى ثواب اللّٰه تعالى ، لا يريد بذلك حب محمدة ، ولا كراهية مذمة ، والإخلاص سمي هكذا ؛ لأنه خلص العمل من الآفات كما تقول العرب .

● ويرتبط هذا الجزء بالقيم الأخلاقية Moral Values حيث به بيان لمعنى الصدق ومظاهره (ص ٦٤ - ٦٥) .

مسألة (١٥) : في الرياء وبيانه ، ويعني حب المحمدة من الناس على الفعل الحسن ، وعلامات المرائي ثلاث : أن ينشط في الملأ ، ويكسل في الخلاء ، ويحب أن يحمد على جميع أموره .

● يرتبط ذلك بما يسمى بالحاجة إلى الظهور أو الحصول على الاعتراف والتقدير الاجتماعي من قبل الآخرين Social Recognition ، (ص ٦٦) .

مسألة (١٦) : في صفة الإعجاب وبيانه ، فالإعجاب الذي يجب الخوف والحذر منه هو النظر إلى نفسك بالعمل ، واستكثاره عند نفسك مع نسيان النعم من اللّٰه ﷻ . واستكثار الشيء هو الإعجاب ، قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾ [التوبة: ٢٥] .

مسألة (١٧) : في صفة الفرح بالعمل .

● ويرتبط ذلك بانفعال الفرح والسرور (ص ٦٩) .

مسألة (١٨) : في صفة الشكر للّٰه ﷻ ، وأوضح فيه المؤلف أهمية شكر العبد لربه ﷻ .

مسألة (١٩) : في صفة الصبر وبيانه ، فالصبر يعني : المقام على ما يرضي

المولى ﷻ بترك الجزع ، فالصبر هو حبس النفس في موضع العبودية من الصبر ، مع نفي الجزع ؛ لأنه ضد الصبر .

مسألة (٢٠) : في صفة الرضا وبيانه ، فالسبيل إلى مقام الرضا علم القلب بأن الله ﷻ عدل في قضائه ، أما مخرج الرضا فهو من حسن الظن بالله وأنه غير جائر في حكمه ، ويسهل الرضا في حالة معرفة عواقب الأمور .

● ويرتبط هذا الجزء بموضوع الرضا Satisfaction عن الحالة أو الظروف التي يعيشها الإنسان (ص ٧٥ - ٧٧) .

مسألة (٢١) : في صفة ورود المعرفة إلى قلوب العارفين ، وعرض فيه المؤلف لورود المعرفة إلى القلوب ساكنة أو متحركة .

● ويرتبط هذا الجزء بسمات الشخصية Personality Traits والحالة الانفعالية وعلاقتها بتحصيل المعارف (ص ٧٨ - ٨٢) ، ويتكلم المؤلف هنا عن نوع خاص من المعرفة التي لا تكسب عن طريق الحواس والفكر ، وهي التي يدرسها علماء النفس المحدثون ، وإنما هي معرفة تحصل للإنسان عن طريق الإلهام الإلهي .

مسألة (٢٢) : ويتحدث فيه عن معنى المعرفة وبيانها ، فالمعرفة أن تعرف الله ﷻ بما عرفك به نفسه ﷻ ، وأن تعلم أن الله عفو قدير ، عظيم حليم ، الأول قبل كل شيء ، والآخر بعد كل شيء وغير ذلك من الصفات .

مسألة (٢٣) : في بيان معنى الاعتبار ، وهو الاستدلال بالشيء على الشيء وهو أن تنظر بقلبك إلى الشيء المتقن ، فليحق قلبك التعجب من نفاذ القدرة ، وإتقان الصنع ، وحسن التدبير فيه ، ثم لم تقع عينك على شيء إلا ذلك الشيء على غيره ، والناس متفاوتون في الاعتياد على قدر صحة العقول واتساع المعرفة ومهارة القلوب .

● ويرتبط ذلك بمعنى الاستدلال Reasoning كأحد القدرات العقلية الأولية Primary Mental Abilities والفروق الفردية في هذه القدرة حسب القدرات العقلية والمستوى المعرفي للفرد (ص ٨٥ - ٨٦) .

مسألة (٢٤) : في طهارة القلب ، وذلك من خلال قطع الشهوة وعدم الميل إلى الرخصة ، والفرار من تأويل الغرة ، مع التقلل من المطعم والمشرب ، وإصلاح القوت أي : تحري الحلال الخالص منه .

مسألة (٢٥) : في شرح الحكمة وبيانها ، وفيه بيان لمعنى الحكمة والحث على

مصاحبة الحكماء لما يترتب على ذلك من فوائد .

مسألة (٢٦) : في اعتقاد القلوب وبيانه .

● ويرتبط هذا الجزء بمفهوم النية أو القصد Intention (ص ٩٣) ، ومفهوم الاعتقاد Belief (ص ٩٢) .

مسألة (٢٧) : في حديث النفس وبيانه .

● ويرتبط بهذه المسألة خواطر النفس ، وأحلام اليقظة والوساوس .

مسألة (٢٨) : في صفة الحزن وبيانه ، وذكر فيه أن السبيل إلى مقام الحزن ثلاث خصال : الفكر في الذنوب السالفة ، وأخذ القلوب بحقوق اللّٰه ﷻ الواجبة ، والفرائض اللازمة ، ومعرفة الخلاف على اللّٰه ﷻ .

● ويرتبط ذلك بانفعال الحزن ومعناه ومظاهره (ص ٩٦ - ٩٧) .

مسألة (٢٩) : في شرح محبة اللّٰه ﷻ للعبيد ، فمن علامة محبة اللّٰه ﷻ للعبد : أن يتولى سياسة همومه ، فتكون جميع همومه هو ﷻ المسيِّر لها ، فهي الهموم التي لا تعترض عليها حوادث القواطع ولا سبيل لها إلى التوقف .

مسألة (٣٠) : في خوف المحبين للّٰه ﷻ .

● ويرتبط ما ورد في هذه المسألة بموضوع الانفعالات Emotions (ص ١٠١ - ١٠٤) ، وبخاصة انفعال الخوف .

مسألة (٣١) : في شرح المراقبة وبيانها ، وتعني دوام علم القلب بعلم اللّٰه ﷻ في وَجَلٍ في سكونك وحركتك علمًا لازمًا للقلب بصفاء اليقين وكشف غطاء حجب الظلم غير قاطع عن النظر بمشاهدة الغيب .

مسألة (٣٢) : في معنى الحياء وبيانه ، ويعني حظر القلب وقصره وحصره عن الانبساط ، والامتناع من كل خلق رديء لا يرضاه اللّٰه ﷻ .

● ويرتبط ذلك بصفة الحياء كسمة للشخصية (ص ١٠٧ - ١٠٨) .

مسألة (٣٣) : ويتحدث فيها عن معنى الظرف ، وهو ترك أخلاق الريب مع دوام السخاء والكرم طاهر الأخلاق ، صافي الهم ، حسن اللفظ ، كثير الصمت ، دائم الفكر ، الغالب عليه الخوف والحياء .

مسألة (٣٤) : في صفة الخوف ، ومعناه ومظاهره .

● ويرتبط ما ورد في ذلك بموضوع انفعال الخوف ، مظاهره وأسبابه (ص ١١٠ - ١١٦) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس العام وعلم النفس الاجتماعي .

* * *

التوهم [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

هذا الكتاب يقع ضمن كتاب آخر هو آداب النفوس ، ويمثل كتاب التوهم حوالي ٥٤ صفحة من بين ٢١٦ صفحة هي إجمالي الكتابين معًا .

كتاب التوهم – كما ورد في مقدمته – كتاب نفيس ليس له نظير ، والتوهم كما قصده المحاسبي وفهمناه عنه ، أن « يتخيل » الإنسان عددًا من المواقف والصور وكلها مرتبطة بالآخرة ، وهو بالطبع يختلف عن مفهوم التوهم بمعنى الاعتقاد بوجود شيء غير موجود ، وقد استخدم المحاسبي لفظ « توهم » كفعل أمر ، في بداية فقرات تدل على مواقف متعددة حوالي ٢٦ مرة على وجه التقريب .

وهو يبدأ بوصف نزع الموت وكربه وسكراته ، ومعاينة وجه ملك الموت وما يحمله من بشرى بالثواب والعقاب ، ثم يصف لنا الجلوس لسؤال الملكين وانفراج القبر عن الجنة أو النار ليعلم كل فرد مكانه في الآخرة ، وبعد ذلك يأخذ وصف الحشر ، ونداء المنادى للعرض على الله ﷻ ، وانشقاق السماء واجتماع حر الشمس ، وفيضان العرق ، وانشغال الفرد بنفسه وفرار الإنسان من أهله الذين كانوا يؤنسونه في دنياه ، وفراره من أولاده الذين كانوا قرة عينه في الدنيا ، وذلك لما يحمله هذا اليوم من أهوال عظيمة

---

(١) دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا . (ط ١) . بيروت : مؤسسة الكتب الثقافية (١٩٨٨م) . (٢١٦ ص) .

يشيب لهولها الولدان .

ثم يحدثنا عن توجه الخلائق لسيد الخلق أجمعين ، سيدنا محمد ﷺ وتعلقهم به ليشفع لهم عند بارئهم ، بعد أن لم يجدوا ضالتهم عند بقية الأنبياء ، ويصف لنا وقوف العبد بقلب مرعوب خائف وجوارح مرتعدة بين يدي رب رحيم عظيم .

وينتقل بعد ذلك إلى وصف المرور على الصراط ، وعذاب جهنم ، واستغاثة أهل جهنم (وأنى لهم من مغيث) ، ويصف لنا في مقابل ذلك ما أعده اللّٰه لعباده المؤمنين من الجنات والمساكن الطيبة ، واجتماع الأهل والولدان ومواكب الحور العين ، والخيام وفرشها وزرابيها ، والأرائك ، والإستبرق والديباج ، واكتمال المسرات ، والاشتغال بالنعيم والتمتع به ، وما أعد اللّٰه لأهل عباده ، وأحبائه من خلقه ، ووصف مائدة الرحمن ، ورفع الحجاب ، وظهور المولى ﷻ بكماله على صفوته وخاصته ، وأثر ذلك في مضاعفة حسن وإشراف من اختصهم اللّٰه بحبه وقربه .

وهو في ذلك يصف وصفًا ترغيبًا وترهيبًا ، مصورًا هذه المشاهد تصويرًا دقيقًا يفزع منها الكافرون والعاصون ، ويشتاق لها المؤمنون الصالحون الذين وثقوا بربهم واشتاقوا للقائه . (جعلنا اللّٰه منهم) .

وللمحاسبي كتاب آخر باسم « التوهم » ، تحدث فيه عن شعور أهل النار وما يلقون قبلها وبعد الدخول فيها من أهوال وعذاب (نسأله السلامة والعافية) ، كما تحدث فيه عن شعور أهل الجنة وما يلقون قبلها وبعد الدخول فيها من تكريم وجزيل الثواب .

* * *

آداب النفوس [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

الكتاب – في الواقع – عبارة عن كتابين ، يقع في ٢١٦ صفحة من القطع المتوسط يضم بين دفتيه مقدمة الطبعة الثانية لفقه أعمال القلوب ، ثم مقدمة الطبعة الأولى وهي عن الإمام المحاسبي ومدرسته ، وهي دراسة وافية عن نشأته وعصره ، ثم تحليل لملامح شخصيته ومحاولات تشويهه ، ومقامه في العلم والمعرفة بالإضافة إلى نبذة عن كتاب آداب النفوس وتشمل أهميته ومنهج التحقيق ، وبعد ذلك الموضوعات التي تناولها في هذا الكتاب وتحتل ١٤٦ صفحة ، ثم يلي ذلك كتاب التوهم للمحاسبي من صفحة ١٤٧ وحتى صفحة ٢٠١ وبقية الكتاب تحوي فهرسًا تحليلًا لكتاب التوهم ، ثم مجموعة فهارس ، منها فهارس للآيات القرآنية وفهرس للأحاديث النبوية والآثار وفهرس للأعلام ومراجع التحقيق ، وأخيرًا فهرس لمحتوى الكتاب .

الموضوع الرئيسي في الكتاب كما ورد في المقدمة التي كتبها المحقق ، هو الإحسان ومناهجه ، حيث تعرض فيه المحاسبي لبعض القضايا الخافية على العلماء والطلاب ومنها :

١ – علاج المشكلات من أصولها ؛ لأن الأصل يأتي على الفرع .

٢ – وجوب تطهير النفس من خلائق السوء .

---

(١) دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا . (ط ١) . بيروت : مؤسسة الكتب الثقافية (١٩٨٨م) . (٢١٦ ص) .

٣ - وجوب التفرقة بين العدل والفضل .

٤ - أن أكثر ما في الحياة بلاء واختبار للإنسان .

٥ - الكشف عن عقد النفس ، وقوامها حب الدنيا وعشقها واتخاذها غاية .

٦ - جماع الإيمان كله في ذكر الآخرة والميعاد والموت وما بعده .

فإذا نظرنا إلى الموضوعات بشيء من التفصيل وجدنا أن هذا الكتاب يضم ٢٨ موضوعًا رئيسيًّا بخلاف بعض الموضوعات الفرعية التفصيلية .

وفي بداية الموضوعات يحدثنا المحاسبي في موضوع معاملة اللَّه عن أعمدة هذه المعاملة فيرى أنها تركز على تقوى اللَّه ، والإيمان به ، والشكر له ، والصدق في القول والفعل والتوكل على اللَّه ، والخوف منه ، والقيام بفرائضه ، واتباع سنة نبيه ، وكذلك يحدثنا عن حقيقة التوسل بالصالحين ، وهو موضوع يطرقه أكثر من مرة ، ثم يرسم لنا استراتيجية لسياسة النفس ، وسياسة القلب ، فسياسة النفس تكون بتصحيح السرائر ، واستقامة الإرادة ، وصدق النية ، ومفاتشة الهمة ، ونقاء الضمير ؛ وسياسة القلب تكون بالقناعة والرضا ، والزهد ، والبُعد عن الطمع ، ومراقبة اللَّه تعالى ؛ لأنها الأعمال التي يزكو بها القلب ولا يستغني عنها وكذلك الإخلاص ، والثقة ، والتواضع ، والاستسلام ، والحب في اللَّه ، والبغض فيه ، والصبر ؛ ويحثنا المحاسبي على معرفة النفس وتفقد أحوالها باستمرار ، وقهرها على طلب الآخرة ، وتحصيل الخوف من اللَّه تعالى ، ثم يقارن بين عمل اللسان والقلب ويحذرنا من خطر اللسان ، وينبهنا إلى وجوب الخوف منه .

● وهو في حديثه هذا يطرق بشكل غير مباشر كثيرًا من الصفات والخصال الإيجابية والسلبية ، والتي تشكل في جملتها ما يمكن أن نسميه إطارًا عامًّا للشخصية Personality (أحد الفروع التي تدرس في علم النفس الحديث) فهو يحدثنا بشكل غير مباشر عن سمات كالمثابرة ، والرضا ، والثقة بالنفس (وباللَّه) ، وضبط النفس بالتحكم في اللسان ، ويحدثنا عن الانفعالات كالخوف ، والحزن والغضب ، وهي أيضًا موضوع من موضوعات علم النفس العام (ص ٣٤ - ٤٤) .

كما يحدثنا المحاسبي أيضًا عن العدل والفرق بينهما ، وصفات أهل العدل هي العلم ، والفعل ، والصبر ، ويربط بين التطهير والعمل ، وأهمية التطهر من الآفات قبل العمل ... ، ويرى أن التطهير هو الانتقال من الشر إلى الأساس الذي يبنى عليه الخير ، ولذا ينبغي أن يسبق العمل ، ويحذرنا كذلك من الشيطان الذي يضل الناس بالشر

والخير ، ويحدد الخصال التي يطلب منها الخير ، كالصواب والصدق ، والشكر ، والرجاء بأنواعه الثلاثة ، ويشير إلى مبدأ التفاوت في الشكر (وهو بذلك يقر مبدءًا مهمًّا هو مبدأ الفروق الفردية ، وهو أحد المبادىء المبكرة التي التفت إليها علماء النفس في دراساتهم) (ص ٤٥ - ٥٣) .

وينتقل بنا المحاسبي بعد ذلك إلى الحديث عن البلوى والاختبار ، ويركز الحديث على شهوات المطعم والملبس ، وأشكال الفتن الأخرى ، سواء كانت في الناس أو في العمل ، ويحذرنا من فتنة البر والإثم جميعًا . وهو مع ذلك لا يزهد الناس في طلب أعمال البر ، وإنما يريد التحذير من خداع الشيطان ، وهوى النفس الأمارة بالسوء ، ويستعين في ذلك بعدد غير قليل من الآيات القرآنية ، ولعل حديثه عن الشهوات كالمطعم والمشرب والنكاح يمثل مقدمات مبكرة وغير مباشرة لما يدرس في علم النفس الحديث تحت موضوع الدوافع Motives أو الدافعية Motivation خاصة الدوافع الفطرية أو الأولية (ص ٥٤ - ٥٦) ؛ كما أن حديثه عن أشكال الابتلاء والاختبار من الفتن المختلفة يقابل - بشكل غير مباشر - ما يدرس الآن في علم النفس ، تحت موضوع المشقة Stress ، ومثيراتها Stressors وما تسببه للإنسان من سوء التوافق (ص ٥٥ - ٥٩) .

ويعود بنا مرة أخرى للحديث عن مراجعة النفس ، فيرى أن الإنسان عند معرفة عيب نفسه أبله ، وذلك عكسه عند معرفة عيوب الناس (ولعل لفظ أبله هو أحد المفاهيم التي كانت تطلق على فئات التأخر العقلي Mental Retardation ، وتصنيف المتأخرين عقليًا ، وإن كانت هذه المفاهيم قد اختفت تدريجيًا ، وأصبح المفضل الآن استخدام أوصاف كمية - لا كيفية - على أساس درجات الذكاء Intelligence) (ص ٦٠) .

ويؤكد المحاسبي في توجيهاته القيمة سلوك المراجعة والتفتيش للوقاية من الزلل ؛ ولأنها أساس السلوك الصحيح ، ويرى أن من لوازمها الانتباه وعدم الغفلة ، وحديثه هنا يلقى ظلالًا مبكرة على أحد الموضوعات النفسية - ولو بشكل غير مباشر - ألا وهو موضوع التروي والتأمل Reflectiveness كمقابل للصفة الاندفاعية Impulsivity والذي يدرس ضمن سمات الشخصية ، ويدرس أيضًا في الجانب المعرفي (كما أن موضوع الانتباه Attention يدرس في علم النفس العام) ويعود مرة أخرى وفي موضع آخر للحديث عن كظم الغيظ وهو ترجمة سلوكية واضحة للتروي أو عدم الاندفاع (ص ٦٠ - ٦٤ ، ٨٣ - ٨٤) .

وفي موضوع آخر يحدثنا المحاسبي عن اليقين والعز ، ويرى أن العز في النفس أصل مرض القلوب من قبيل الكبر ، والفخر ، والغضب ، والحسد ، والحقد ، والحمية ، والعصبية ، وهي صفات إن زادت عن حدود معينة عُدت اضطرابات نفسية وجب علاجها ، ولذلك يقدم المحاسبي من جانبه وسائل علاج العز ، وهي وسائل أخروية في مجملها ، ويقول تحت عنوان فقه التجارب والعناية بالنفس : « إن من أهمل العناية بنفسه ، ورزق فهم التجربة ، بلغ معرفة الخير والشر ، وفهم ، وفطن ، ونطق بالحكمة ، وكان ما يسمع من الموعظة زيادة له في فهمه ومعرفته ، ودقائق مظنته ، وسر حاجته » ، وهي كلها صفات حسنة ، وفوائد جمة ، وجب اكتسابها والتحلي بها .

وينتقل بنا المحاسبي بين عدد من الموضوعات فيحدثنا عن الغفلة واليقظة ويرى أن الغفلة من أكثر الخصال ضررًا ، أما التيقظ فهو أصل كل خير ، ويزلف بنا كذلك إلى الإخلاص والرياء، وعلوم النجاة ، والإرادة والصدق والهوى ، ودلائل وعلامات ، وعلم الخوف والشوق ، ومراتب العمل للّٰه ، وفي كثير من هذه الموضوعات نرى إرهاصات مبكرة لمفاهيم تمثل الآن موضوعات تدرس في علم النفس الحديث مثل : حديثه عن التيقظ (ص ٨٥ - ٨٨) وكذلك حديثه عن الصداقة والأصدقاء وهو ما يدرس في علم النفس الاجتماعي Social Psychology تحت المهارات الاجتماعية Social Skills (ص ٩٢) ، أو الدوافع ، والانفعالات (ص ٩٣ - ٩٤) ، (وقد سبقت الإشارة إليها) وكذلك موضوع التذكر والنسيان (ص ٩٣) ، ثم النصح وهو يقترب إلى حد كبير من أحد موضوعات علم النفس الحديث وهو الإرشاد Counseling (ص ٩٣ - ٩٤) .

ومن الموضوعات المهمة التي يتطرق إليها المحاسبي ، موضوع محاسبة النفس ويركز فيه على اختبار النفس في المعرفة والسلوك ، وهو هنا يحدد موضوع علم النفس كما يعرف الآن ، بأنه علم السلوك ، بل إنه يشير إلى أحد أهم الموضوعات التي يشملها وهو موضوع المعرفة Cognition (ص ٩٥ - ١٠٢) ، والذي أصبح أكثر تبلورًا الآن فيما يسمى بعلم النفس الحديث خاصة فيما يتصل بمناهج البحث فيه Methodology ألا وهو « الاختبار » والاختبارات Testing & Tests والقياس Measurement بصفة عامة ، فهو يقول : « اختبر نفسك حتى تعلم ما فيها ، وإن أردت ذلك فعاملها بالموافقة لها ، والمفاتشة لهمتها في وقت الهمة ... » (ص ٩٥ - ٩٨ ، ١٢٥ ، ١٣٦) .

ويختتم كتابه هذا بموضوعين في غاية الأهمية ، هما السلوك السلفي ، وفرائد

الحكمة ، وفيهما يقدم عددًا من الهوايات وأشكال السلوك ، والتوجيهات الغالية ، التي تدل على قدر علمه ومعرفته وتمثل خلاصة لفكره ورؤيته وبصيرته النافذة .

* * *

رسالة المسترشدين [1]

عرض : د . طريف شوقي

عرض الكتاب :

تقع الرسالة في ٢١٩ صفحة من القطع المتوسط ، ويشمل تقدمة الطبعة الثانية ، ثم تقريظ الكتاب للطبعة الأولى من الشيخ حسنين مخلوف ، وتقدمة الطبعة الأولى ، وترجمة المؤلف ، ومؤلفاته ثم الرسالة ، ويليها مجموعة من الفهارس .

يبدأ الكتاب بحمد اللّٰه والثناء عليه ، ثم ينتقل ليصف عباد اللّٰه أولي الألباب العالمين به ، وأن من رغب الوسيلة إليه عليه بالتزام منهجهم القائم على اتباع حدود الشريعة والسنة والإجماع ، ويفيد هذا الكلام في أن المحاسبي يرى أن أمر الاهتداء إلى اللّٰه تعالى وصلاح النفس لا يتوقف على التزام شيخ وبيعة ، وإنما يتوقف على التزام العلم والعمل الذي أمر اللّٰه به وتضمنه الكتاب والسنة وسلوك سلف الأمة ، وأهمية هذه المقولة في أنها تضع المحاسبي في موقعه الصحيح وينفي ما يشاع عن الصوفية من ضرورة اشتراط أن يتخذ السالك إلى اللّٰه تعالى شيخ طريقة وتربية يسلك على يديه [2] .

---

(١) حققه وخرج أحاديثه عبد الفتاح أبو غدة . (ط ٦) . مزيدة . حلب : مكتب المطبوعات الإسلامية (١٩٨٥م) . (٢١٩ ص) .

(٢) يذكر المحقق أن ابن عباد النفري خطيب جامع القرويين بفاس في القرن السابع الهجري قدم توضيحًا لهذه المسألة ردًا على سؤال موجه من الفقيه أبي إسحاق الغرناطي حول ضرورة وجود شيخ يرشد السالك ، حيث أجاب عليه بأن الشيخ المرجوع إليه في السلوك ينقسم إلى قسمين :

شيخ تربية : وهو ليس بضروري لكل سالك ، وإنما يحتاج إليه من فيهم استعصاء نفسي ، فحجب أنفسهم =

ويمضي المحاسبي في موعظته البليغة تلك فيتحدث عن النية وضرورة فحصها ، والخطرة ومحاسبة النفس عليها ، ويسوق المحقق كلامًا في غاية الدقة والنفاسة للإمام ابن القيم في كتابه « الفوائد » حول الخطرة والفكرة هذا نصه « دافع الخطر ، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة ، فإن لم تدافعها صارت فعلًا ، فإن لم تتداركه بضده صار عادة ، فيصعب عليك الانتقال عنها ، واعلم أن مبدأ كل علم اختياري هو الخواطر والأفكار ؛ فإنها توجب التصورات ، والتصورات تدعو إلى الإرادات ، والإرادات تقتضي وقوع الفعل ، وكثرة تكراره تعطي العادة » (ص ٤٧) .

نلمس في هذه السلسلة المتعاقبة من المفاهيم التي تبدأ بالخطرة ، ثم الشهوة ، فالفعل فالعادة ، ذلك التصور المعاصر لمكونات السلوك وتفسير نشأة العادات ، حيث يبدأ بالإدراك ، فالوجدان ، فالنزوع ، فالعادة ، وتتوالى نصائح الإمام المحاسبي لما يجب على المسترشد أن يتحلى به من مناقب فيذكر نقلًا عن الإمام علي بن أبي طالب كرم اللّٰه وجهه : « لا يستحي الذي لا يعلم أن يسأل حتى يعلم ، ولا يستحي من يُسأل عما لا يعلم أن يقول : لا أعلم » (ص ٤٩) .

ويمثل لب هذه الحكمة ما يطلق عليه في بحوث السلوك التوكيدي : معرفة قدر النفس والتي تتضمن : الاعتراف بعدم المعرفة ، والقدرة على طلب استفسارات من الآخر ، وتعد من بين المهارات الأساسية في السلوك التوكيدي .

ويوجه كلامه للسالك قائلًا : « اشتغل بإصلاح نفسك عن عيب غيرك » (ص٥٠) وفي هذا الصدد يذكر عبد اللّٰه بن وهب القرشي المهري في كتابه ترتيب المدارك للقاضي عياض : « جعلت على نفسي كلما اغتبت إنسانًا صيام يوم ، فهان عليَّ ، فجعلت عليها كلما اغتبت إنسانًا صدقة درهم فثقل عليَّ وتركت الغيبة » (ص ٥١) .

ونلمس في هذا الأسلوب ملامح عملية التصحيح الذاتي والتي تقع فيها مسؤولية تعديل السلوك على الفرد نفسه من خلال فرض غرامات تحثه على الكف عن سلوك معين .

= كثيفة ، وهم بمنزلة من به علل مزمنة ، فإنهم لا محالة يحتاجون إلى طبيب ماهر يعالج عللهم بالأدوية القاهرة .

شيخ تعليم : وهو لازم لكل سالك ، ومنه يقتبس العلم ، ويصلح الحال بطريقة الصحبة والمؤاخاة (الاقتداء) (المحقق ص ٤٠) . حين ننظر إلى مصطلح التربية عند النفري نخاله ينطوي على عملية تعديل سلوك مستمرة يقوم بها الشيخ ليضع مريده في الاتجاه المطلوب ، وهذا مما يتسق مع التعريف المعاصر لعملية التربية حيث تعني : « التغيرات التي تطرأ على معارف الشخص واتجاهاته وسلوكه كنتيجة لتعرضه لخبرات منتظمة » .

ومن بين نصائح المحاسبي : « جُل في الحشر بقلبك » ، (ص٧٣) أي استحضر ما يخفى من أحوال يوم القيامة ، حتى يكون لك في ذلك عظة ودافعًا على الصلاح ومخافة الله واتقاء معاصيه ، وجدير بالذكر أن للمؤلف كتابًا كاملًا في هذا المعنى سماه « التوهم » تحدث فيه عن شعور أهل النار وأهل الجنة ، حتى كأنك تراهما رأي العين (ص ٧٣) .

حين ندقق النظر في مفهوم الاستحضار من منظور الدراسات النفسية يبرز إلى الأذهان مفهوم التخيل Imagination الذي يُعرف بأنه « معالجة الأفكار أو الصور ذهنيًا دون أن يكون الأصل الواقعي للموضوع ماثلًا في دائرة إحساس التخيل » .

وينادي المحاسبي بضرورة « أن يحذر الفرد ضراوة الشهوة وأن ينظر في عاقبتها » .

ويُفصِّل ابن القيم في كتابه « الفوائد » ذلك التوجيه بقوله : « اعلم أن الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة ، فإن الشهوة : إما أن توجب ألمًا وعقوبة ، وإما أن تقطع لذة أكمل منها ، وإما أن تضيع وقتًا إضاعته حسرة وندامة ، وإما أن تُطرق لوضيع إليك طريقًا لم يكن يجدها قبل ذلك ، وإما أن تشمت عدوًّا ، وتحزن وليًّا ، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة » (ص ٨١) .

وهذا الكلام قريب الشبه بمفهوم توقع عواقب السلوك Anticipation of Consequence ، والذي يعرف بأنه « القدرة على الاستبصار بما سيحدث كنتيجة مباشرة لتنفيذ فعل معين » ويفترض أن الفرد يزن العواقب التي يتوقع أن تنتج عن سلوكه ، وأنه يزن في الوقت نفسه آثار الأفعال البديلة ، قبل أن يقرر كيف سيتصرف . ويوصي المسترشد قائلًا : « خذ بحظك من العفو والتجاوز » أي إذا وقعت خصومة مع إنسان فالعفو والتجاوز خير من الاستمرار واللدد في الخصومة ، فالخصومة تمحق الدين ، وتشغل العقل ، وتقتل طمأنينة القلب والخاطر ، وتقض المضاجع » (ص ٩٠) .

وتذكرنا هذه المقولة بأساليب تخفيض التوتر والقلق النفسي التي يصطنعها الباحثون في الإرشاد النفسي لخفض التوتر .

ويدعو إلى « غض البصر عن المحارم ، وترك التطلع فيما حجب وستر » وينادي بضرورة لزوم الجماعة ، ويقدم أبو شامة في كتاب « الحوادث والبدع » تفصيلًا لطيفًا لمفهوم الجماعة حيث ينقل قول عبد الله بن مسعود إلى عمرو بن ميمون أتدري ما الجماعة يا عمرو ؟

قلت : لا ، قال : الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك ، وقال نعيم بن حماد : إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد وإن كنت وحدك ، فإنك أنت الجماعة حينئذ ، وكذلك قال ابن القيم في إعلام الموقعين إن كان الناس كلهم إلا واحدًا خالفوا الحق فهم الشاذون ، وذلك الواحد هو الجماعة (ص ١٢٦ - ١٣٠) .

حين نفحص هذه التصورات في ضوء المفاهيم النفسية الحديثة في مجال بحوث ديناميات الجماعة نجدها على صلة وثيقة بمفهوم الجماعة السيكولوجية Psychological Group ، وهي التي تلتزم بالمعايير والأهداف التي يرغبها الفرد والتي يتمنى إليها حتى وإن لم يكن لها وجود فعلي في ذلك الوقت ، أو لم تتح له فرصة الانضمام إليها بعد ، وكذلك يشير إلى مفهوم مواجهة ضغوط الجماعة Group Pressure ويتطرق إلى بيان قيمة الوقت حين يقول : « حصل الأوقات ، واعرف ما يذهب به ليلك ونهارك » .

فالوقت رأس مال الفرد وعليه أن يكسبه ولا يضيعه من غير استفادة أو إفادة ، ويذكر المحقق بعض الوقائع التراثية التي تفصح عن مدى إدراك الأولين لقيمة لا وقت وتبينهم لها كقيمة جوهرية ، فيذكر أن المؤرخ الخطيب البغدادي كان يمشي وفي يده جزء يطالعه ، كسبًا للوقت حتى في أثناء المشي ، وإن ابن عقيل الحنبلي كان يقول : إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة ، وبصرى عن مطالعة ، أعملت فكري في حال راحتي ، وأنا منطرح ، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره ، وأنا أقصر بغاية جهدي أوقات أكلي ، حتى اختار صنف الكعك وتحسيه بالماء على الخبز لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ ، توافرًا على مطالعة ، أو تسطيرًا لفائدة لم أدركها فيها (أي أنه لا يريد أن يطيل مدة طعامه حتى يوفر الوقت لأداء شيء آخر) .

ويقول ابن الجوزى في كتابه « صيد الخاطر » : « أعددت أعمالًا لا تمنع من المحادثة ، لأوقات لقائهم (الثقلاء الذين يطلبون الزيارة ويكثرون منها) ؛ لئلا يمضي الزمان فارغًا فجعلت للاستعداد للقائهم قطع الكاغد (الورق) وبري الأقلام وحزم الدفاتر ، فإن هذه الأشياء لابد منها ، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب ، فأرصدتها لأوقات زيارتهم ؛ لئلا يضيع من وقتي شيء » ، (ص ١٤٤ - ١٤٦) ، ثم يتحدث عن الذنوب « وكيف تورث الغفلة » ، ويذكر المحقق أقوالًا طيبة لابن الجوزي في كتابه « صيد الخاطر » في الدعوة إلى ترك الذنوب حيث يقول : « لا ينال لذة المعاصي إلا دائم الغفلة ، فأما المؤمن

اليقظان فإنه لا يلتذ بها ؛ لأنه عند التذاذه يقف بإزائه علمه بتحريمها ، وحذره من عقوبتها ، فإن قويت معرفته رأى بعين علمه قرب الناهي - وهو اللّٰه - فيتنغص عيشه في حال التذاذه ، فإن غالبه سكر الهوى كان القلب متنغصًا بهذه المراقبات ، وإن كان الطبع في شهوته فما هي إلا لحظة ، ثم خزي دائم ، وندم ملازم ، وبكاء متواصل ، أسف على ما كان ، ومع طول الزمان ، حتى إنه لو تيقن العفو وقف بإزائه حذر العقاب » (ص ١٥٩ - ١٦٠) .

تشير عبارات ابن الجوزي إلى ما يطلع عليه في بحوث تعديل الاتجاه عدم الاتساق بين المكون المعرفي والسلوك ، وكيف أن إثارة مثل هذا التناقض بين ما يعتقد الفرد ويعرفه ، وبين سلوكه الحالي الذي يتعارض مع مقتضيات هذه المعرفة من شأنه أن يسهم في إثارة حالة من عدم الارتياح والقلق تعمل على كف الاستجابة ، ويستفاد بهذه العملية - الحد من عدم الاتساق أو تعميقه - في تعديل السلوك في الوجهة المرغوبة .

ومن هذا المنطلق نستطيع أن نفهم قول المحاسبي : « من ألف هواه قل أدبه » ، (ص ١٦٠) حيث إن هذا الإحساس بالتناقص يتناقص مما يجعله يستمرئ ما يفعل من سلوك غير مرغوب ويقيم عليه .

* * *

الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)
البيان والتبيين : الكتاب الثاني [(١)]

عرض : د . طريف شوقي

التعريف بالمؤلف :

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ، وسمي بالجاحظ لجحوظ عينه ، وهو ينسب إلى كنانة ، وكان جده « محبوب » يعمل حمالًا لأحد سادات بني كنانة من أهل البصرة .

ولد الجاحظ سنة (١٦٠هـ ، ٧٧٧م) وتوفي سنة (٢٥٥هـ ، ٨٦٨م) ، وكانت مدة حياته قرابة قرن من الزمان ، وهو أزهى عصور اللغة العربية ، حيث نضجت فيه العلوم العربية والإسلامية ، وتمت ترجمة العلوم .

وقد نشأ الجاحظ بالبصرة ، وكان يتكسب بيده ، وأقبل على العلم واللغة والأدب بأخذها عن أئمة البصريين ، وبلغ في سعة ثقافته ، وعمقها حدًّا لم يبلغه أحد في عصره ، فقد شملت أكثر معارف زمانه على اختلاف ألوانها وتعدد منابعها .

وتميز الجاحظ بذكاء نافذ وصبر غريب وذهن لاقط وحافظة أمينة ، فأخذ عن علماء عصره كل في فنه ، أخذ اللغة والأدب عن الأصمعي ، وأبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري ، والنحو على الأخفش ، والحديث عن حجاج بن محمد وأبي يوسف صاحب أبي حنيفة .

وتثقف الجاحظ ثقافة الاعتزال وكان أهم أستاذ له في ذلك إبراهيم بن سيار النظام ،

---

(١) تحقيق عبد السلام محمد هارون - (ط ٥) . القاهرة : مكتبة الخانجي (١٩٨٥م) .

وكان الاعتزال يتطلب من رجاله علمًا واسعًا بالديانات الأخرى ؛ لأن المعتزلة نصبوا أنفسهم للدعوة إلى الإسلام .

كما اندمج الجاحظ في الحياة الواقعية واستفاد من كل شيء يقع تحت حسه موضعًا للدراسة ، فالحيوانات والنباتات والصناع والفكاهات والرحلات والكرماء والبخلاء والأذكياء والأغبياء - كذلك كله كان موضعًا لدرسه وكتابته ، ثم تنقل في أوساط اجتماعية مختلفة نمت معارفه وزادت تجاربه فقد خالط الباعة والمجانين وجالس الشعراء والأدباء ونادم الملوك والوزراء وغيرهم .

وتميز الجاحظ بسهولة العبارة وتقطيعها جملًا قصارًا متعادلة ، وكان يستطرد إلى ما له صلة بالموضوع من لذيذ الأخبار وطريف الأحاديث وممتع النوادر تنشيطًا للقارئ وترفيهًا عن نفسه ، وبدأ ذلك موضحًا في كتبه المطولة كالحيوان ، كما كان يميل إلى الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف والاستشهاد بالشعر والأخبار ، وتميز كذلك بدقة الاستقصاء في وصف ما يريد .

وفيما يتعلق بمؤلفات الجاحظ ، فليس هناك اتفاق على عددها ، فالبعض يذهب إلى أنها تصل إلى مائتين وخمسين كتابًا ، ويرى البعض الآخر أنها تصل إلى مائة وسبعين مؤلفًا ، ومن أشهر هذه المؤلفات : « الفرق بين النبي والمتنبي » ، « دلائل النبوة » ، « البيان والتبيين » ، « البخلاء » ، « كتاب الطفيليين » ، « الحيوان » .

ترجمة الجاحظ في : كتاب الحيوان للجاحظ - تحقيق : عبد السلام محمد هارون .

عرض الكتاب :

يقع هذا الكتاب في أربعة أجزاء يضمها مجلدان إجمالي صفحاته ١٤٩٦ صفحة ولكل جزء فهرس مستقل ، كما يضم في نهاية الجزء الرابع عدة فهارس منها فهرس البيان والبلاغة ، وفهرس الخطب ، وفهرس الرسائل ، وفهرس الوصايا ، وفهرس الأشعار، وفهرس الأرجاز ، وفهرس الأمثال ، وفهرس اللغة وهو ينقسم إلى قسمين ، وفهرس الأعلام ، وفهرس القبائل والأمم والطوائف ، وفهرس البلدان والمواضع والمياه ، وفهرس أيام العرب ، وفهرس الحضارة ، وفهرس الكتب ، وفهرس مراجع الشرح والتحقيق وأخيرًا فهرس عام .

الجزء الأول :

يركز في هذا الجزء على تعريف البيان والبلاغة وأبرز من نبغ فيهما ، ويقدم نماذج

في الاتفاق ، ويسرف في التهمة ، فالأول يزيد في حقه للذي له في نفسه ، والآخر ينقصه من حقه لتهمته في نفسه ولإشفاقه أن يكون مخدوعًا في أمره ، فإذا كان الحب يعمي عن المساوئ فالبعض أيضًا يعمي عن المحاسن (ص ٩٠) .

ويتحدث عن الإشارة وأهميتها بقوله : الإشارة واللفظ ، وعن الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير ومعونة حاضره ، في أمور يسترها بعض الناس عن بعض ، يخفونها عن الجليس ، وغير الجليس ، ولولا الإشارة لم يتفهم الناس معنى خاص الخاص ، ولجهلوا هذا الباب ألبتة (ص ٧٩) .

والحديث عن الإشارات الاجتماعية Social Signs وأهميتها يندرج في أحد المباحث التي تكتسب أهمية خاصة في علم النفس الاجتماعي ألا وهو : أساليب التخاطب غير اللفظي ، وكيف أن تدريب الفرد وتنمية مهاراته في استخدامها تجعله يمارس عملية التخاطب على نحو أكثر كفاءة أو على حد قول الجاحظ : « وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان واللسان (ص ٧٩) ، ثم ينتقل إلى مجال آخر شديد الصلة بالأول وهو :

٢ – **باب البلاغة والبلغاء** : يُفرد الجاحظ فصلًا للحديث عن البلاغة ويقدم تعريفات متنوعة لها كل منها يحوي أحد عناصرها ، بيد أنه بالإمكان أن تتكامل تلك التعريفات معًا لتقدم تعريفًا شاملًا للبلاغة ، ويعرض أيضًا سيرة مجموعة من الفصحاء والبلغاء الذين شاع ذكرهم في التراث الإسلامي ويقدم نماذج من أعجب أقوالهم مثل : القاضي إياس بن معاوية وربيعة الرأي ، والحسن بن سهل ، ويتحدث عن بعض الظروف والشروط التي يجب أن يراعيها المتحدث (المصدر) حتى يكمل تأثيره ، ومنها :

١ – مراعاة حالة المتلقين ، حيث يقول مطرف بن عبد اللّٰه : « لا تقبل بحديثك على من لا يقبل عليك بوجهه » وقال عبد اللّٰه بن مسعود : « حدث الناس ما حدجوك بأبصارهم ، وأذنوا لك بأسماعهم ، وإذا رأيت منهم فترة فأمسك » (ص ١٠٤) .

٢ – أن يصيب عين المعنى بالكلام الموجز : وفي هذا الصدد يقول جعفر بن يحيى لكتابه : « إن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا » (ص ١١٤) أي كالبرقيات في الاختصار في توصيل المعنى .

٣ – اختيار الألفاظ الملائمة ، فكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميًا وساقطًا ، وكذلك لا ينبغي أن يكون غريبًا ووحشيًا ، فالاستعانة بالغريب – كما قال أبو داود –

عجز (ص ٤٤) .

٤ – عدم التكرار : ويسوق في هذا المقام الحديث التالي : « جعل ابن السمال يومًا يتكلم ، وجارية له حيث تسمع كلامه ، فلما انصرف إليها قال لها : كيف سمعت كلامي ؟ قالت : ما أحسنه ، لولا أنك تكثر ترداده . فقال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه . قالت : إلى أن يفهمه من لا يفهمه قد مله من فهمه » (ص ١٠٤) .

وقيل للعتابي : ما البلاغة ؟ قال : كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حسبة ، ولا استعانة فهو بليغ ، فقيل له : قد عُرفت الإعادة ، والحسبة ، فما الاستعانة ؟ قال : أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : ويا هذا ، واسمع مني ، واستمع إليَّ ، وافهم عني ، وألست تعقل . فهذا كله وما أشبهه عي وحصار (ص ١١٣) ، ويعن لنا أن نشير إلى أن التكرار سلاح ذو حدين فإن أكثر منه المتحدث ليُفهم الجمهور غير المتجانس في مستوى الذكاء والقدرة على الاستيعاب ، ومدى الاهتمام ، والانتباه ؛ فإنه – على سبيل المثال – سيجعل الأكثر ذكاء أسرع مللًا والأقل ذكاء أكثر فهمًا ، أي أن التكرار ليس مشكلة في حد ذاته ، ولكن تأثيره يتوقف على طبيعة الجمهور .

ويبدو أن الجاحظ يتبنى موقفًا يقترب من هذا التصور الذي تطرحه الدراسات النفسية الحديثة حيث يقول : « وجملة القول في الترداد ، أنه حد ينتهي إليه ، ولا يؤتى على وصفه ، وإنما ذلك على قدر المستمعين ، ومن يحضره من العوام والخواص » (ص ١٠٥) ، ويذكر كلامًا مفيدًا لبشر بن المعتمر في تعليم فنون الخطابة (ص ١٣٥ ، ١٣٩) ، ويسوق نماذج سلبية لمن لا يحسنوا الخطابة ويلحنون في القول والناشئ عن غلبة الأجناس غير العربية الذين دخلوا الإسلام ولم يفقهوا لغته وأثر ذلك على صعوبة الفهم والإفهام ، ويذكر بعض المفردات غير العربية التي تسللت إلى اللغة .

٣ – **باب ذكر ما قالوا في مديح اللسان** : وفيه يتحدث عن أهمية الاختصار في الكلام ، والبعد عن الفضول ، وفي فوائد الصمت وكلام الحكماء ، والأخبار المروية في هذا الشأن مثل قول أبي العتاهية :

والصمت أجمل بالفتى ... من منطق في غير حينه

ويحض على تنمية القدرة على البيان والخطابة بقوله :

« أنا أوصيك ألا تدع التماس البيان والتبيين إن ظننت أن لك فيهما طبيعة ، وأنهما يناسبانك بعض المناسبة ويشاكلانك في تعلم المشاكلة : ولا تهمل طبيعتك فيستولي

الإهمال على قوة القريحة ، ويستبد بهما سوء العادة ، وإن كنت ذا بيان وأحسست من نفسك بالنفوذ في الخطابة والبلاغة وبقوة المنة يوم الحفل ، فلا تقصر في التماس أعلاها سورة (المنزلة الرفيعة) وأرفعها في البيان منزلة ، ولا يقطعنك تهيب الجهلاء ، وتخويف الجبناء » (ص ٢٠٠) .

ويعرج إلى سيكولوجية الإبداع الفني لدى الشعراء حيث يقول : « فالشاعر قد تختلف حالاته ، وقال الفرزدق : أنا عند الناس أشعر الناس وربما مرت عليَّ ساعة ونزع ضرس أهون عليَّ من أن أقول بيتًا واحدًا ، ويقول العجاج : لقد قلت أرجوزتي وأنا بالرمل في ليلة واحدة ، فانثالت عليَّ قوافيها انثيالاً ، وإني لأريد اليوم دونها في الأيام الكثيرة ، فما أقدر عليه » (ص ٢٠٩) .

٤ - **باب في الخطب القصار من خطب السلف ، وتأديب من أدب العلماء** : حيث يسوق بعض الكلمات المأثورة عن العلماء والحكماء التي تعكس وعيًا دقيقًا ، مثل قول الخليل : « تَكثر من العلم لتعرف ، وتقلل منه لتحفظ » (ص ٢٥٨) وكيف أنه يميز بين التعرف والتذكر وكيف أن الأول أيسر وأكثر سعة ومجالاً من الثاني وقول بعضهم - بكر ابن عبد اللّه المزني - : « لا تكدوا هذه القلوب ولا تهملوها فخير الفكر ما كان عقب الحمام أي الراحة (فالاستيعاب والتذكر يكونان أفضل عقب فترات الراحة حيث يكون تأثير الكف السابق Retroactive Inhibition الناتج عن تعلم أو التعرض لمواد سابقة محدودًا) ، ومن أكره بصره عشى ، وعاودوا الفكر عند نبوات القلوب ، وأشحذوها بالمذاكرة (المراجعة الدورية) ، ولا تيأسوا من إصابة الحكمة إذا امتحنتم ببعض الاستغلاق ، فإن من أدام قرع الباب ولج » (المثابرة) Persistence (ص ٢٧٤) . ومثل قول أسلم بن الأحنف للوليد بن عبد اللّه قبل أن يستخلف : « أصلح اللّه الأمير ، إذا ظننت ظنًّا فلا تحققه ، وإذا سألت الرجال فسلهم عما تعلم فإذا رأوا سرعة فهمك لما تعلم ظنوا ذلك بك فيما لا تعلم ، ودُس من يسأل لك عما لا تعلم » (ص ٣٩٦) .

الجزء الثاني :

يورد الجاحظ في هذا الجزء مجموعة من خطب الصحابة والتابعين ورسالاتهم ، وبعض خطب للخوارج ، ويفرد أبوابًا للحديث عن الحمقى ، وأخطاء العلماء ، ونوادر المتكلمين ، ويبدأ ببيان فضل خطباء العرب وملوكهم ، ومدى جودة مقالاتهم ، وما تتصف به من محاسن الخصال ، ودقيق المعنى ، ويفصل القول في مراتب الشعراء

وطبقاتهم ، ومدى ما يعانوه من الكد لنظم أشعارهم ، ويذكر بعض أمثال العرب ويسوق بذكر طائفة من أحاديث رسول الله ﷺ وما جرى منه مجرى الأمثال ، ويسرد بعض كلام سيدنا أبي بكر الصديق ، ورسائل سيدنا عمر سواء في الحكم أو القضاء لولاته وقضاته ، وسيدنا علي كرم الله وجهه ، وبعض الصحابة ، والتابعين ، ويورد الجاحظ في هذا السياق حديث عتبة بن أبي سفيان لمؤدب ولده وهو ذو قيمة خاصة للمهتمين بمجال التعلم الاجتماعي حيث يقول : « ليكن ما تبدأ به إصلاحك بني إصلاحك نفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينك (التعلم بالاقتداء) Modeling . فالحسن عندهم ما استحسنت ، والقبيح عندهم ما استقبحت ، علمهم كتاب الله ، ولا تكرههم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، ثم روهم من الشعر أعفه ، ومن الحديث أشرفه ، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه ، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم » (ص ٧٣) .

ويسوق أحاديث متنوعة نرى فيها منظومة من القيم التي تبنتها الحضارة الإسلامية والتي كانت سببًا مباشرًا في بلوغ تلك الحضارة ما بلغته من مجد ، ونذكر فيما يلي طائفة من تلك القيم كما تعبر عنها أقوال أبناء تلك الحضارة .

١ - تحصيل العلم واحترام العلماء كان العرب يقولون أربع لا ينبغي لأحد أن يأنف منهن وإن كان شريفًا أو أميرًا : ومنها خدمته للعالم (ص ٧٤) ، وقول الحسن : إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول (ص ٢٩٠) .

٢ - قيمة تقدير العمل : يقول زياد : لو أن لي ألف ألف درهم ولي بعير أجرب لقمت عليه قيام من لا يمتلك غيره ، وقال علي بن أبي طالب : قيمة كل امرئ ما يحسن ، وقال عمر بن الخطاب : حرفة يعاش بها خير من مسألة الناس (ص ٧٧ - ٨١) .

٣ - الاجتهاد والتفتح العقلي : قيل لعثمان البري : دلني على باب الفقه ، قال : اسمع الاختلاف ، ويقول أيوب السختياني : لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف (ص ٩٨) .

ثم يدلج إلى السياسة وينقل بعض خطب أهل المعارضة من الخوارج مثل خطب قطري بن الفجاءة ، وأبي حمزة الخارجي ، واتهامهم فيها لخلفاء بني أمية بالاستبداد السياسي والفساد ، ويبدي الجاحظ تعجبه من موقف الناس من هؤلاء المعارضين وطعنهم فيهم رغمًا من حسن فعلهم وشدة تقواهم وينقل خطب من الجانب الآخر ؛

مثل : خطب للحجاج بن يوسف الثقفي والتي تعد نموذجًا لأدب الديكتاتورية أو أدب الطواغيت إذا جاز لنا أن نقول ذلك (انظر ص ١٣٧ - ٢٤٠ ، ٣٠٧ - ٣١٠) ، وتعكس هذه الخطب المناخ السياسي المتلاطم بالفتن في تلك العصور ، والذي شهد تدهورًا لقيم كثيرة حض عليها الإسلام وبعد عن عهد الإصلاح والاستقرار السياسي النابع من اتباع أصول الإسلام الرشيدة .

ولا ينسى الجاحظ أن يحدثنا عن دار الاستخراج أساسًا (التعذيب) وكيف كانت تستخدم في تعذيب المعارضين ، على الرغم من أنها كانت معدة لجباة الخراج لاستخلاص أموال الدولة من المتهمين باختلاسها من بين الوزراء والولاة .

باب أن يقول كل إنسان على قدر طبعه : ويقدم فيه تعريفات متعددة لبعض المفاهيم مثل : السرور ، والمروءة ، والزهد ، وبعض الأخبار الطريفة والملح التي كانت شائعة حينذاك (يلاحظ أننا نسمعها الآن ولكن بألفاظ مختلفة) .

باب النوكى (الحمقى) : وفيه يورد بعض أخبار الحمقى ونماذج من سلوكهم ، ويذكر أسماء أشهرهم ، وبعضًا من أخطاء العلماء سواء في الكلام أو الفتيا ، ونماذج من الكلام الغامض ، والعجز عن التعبير عن المراد ، ويقدم نماذج لما يحب أن يكون عليه الحديث من آداب تتناسب مع مكانة الموجه إليه .

وبالباب قصة طريفة عن العجز في اتخاذ القرار الناتج عن اللوائحية ، كان عمر بن عبد العزيز يكتب إلى عبد الحميد عامله على المظالم فيراجعه ، فكتب إليه : « إنه يخيل إليَّ أني لو كتبت إليك أن تعطي رجلًا شاة لكتبت إليَّ : أضان أم ماعز ؟ وإن كتبت إليك بأحدهما كتبت إليَّ : أذكر أم أنثى ؟ وإن كتبت إليك بأحدهما كتبت إليَّ : أصغير أم كبير ؟ فإذا أتاك كتابي في مظلمة فلا تراجعني والسلام » (ص ٢٨٠) .

وما هو السبيل الذي سلكه سيدنا عمر بن عبد العزيز في محاربة هذه البيروقراطية وهي الداء الذي تعاني منه الإدارة الحديثة .

الجزء الثالث :

يبدأ الجاحظ الجزء الثالث بقوله : « هذا أبقاك الله الجزء الثالث من القول في البيان والتبيين ، وما شابه ذلك من غرر الأحاديث ، وشاكله من عيون الخطب ، ومن الفقر المستحسنة ، والنتف المستخرجة ، والمقطعات المتميزة » ويفرد في هذا الجزء بابًا للحديث عن العصا ، وآخر عن الزهد والزهاد ، وثالث عن خطباء الخوارج .

١ - **باب العصا** : ويخصص الفصل الأول للحديث عن الشعوبية [1] ، ويذكر مطاعنها على خطباء العرب والتي تتمثل في : أخذ المخصرة (العصى) عند مناقلة الكلام ، ومساجلة الخصوم بالموزون والمقفى ، واستعمال المنثور في مقامات الصلح وسل السخيمة (الأحقاد) ، والإشارة بالعصى ، والتماسح بالأكف ، وأن العرب حديثي عهد بالتحضر ؛ لذا فإنهم يستخدمون العصى لقرب عهدهم باستعمالها مع الإبل في البادية وأنهم يجهلون فنون الحرب وأدواتها الحديثة .

ويرد الجاحظ عليهم داحضًا حججهم بالاستعانة بالشعر ، وبالتحليل المنطقي من خلال الاستعانة بشواهد وأحداث تنفي عن العرب ذلك ، كان يرد على كل مأخذ على حدة ويفند حججهم حجة بعد أخرى .

وفي ثنايا ذلك نجده يمارس النقد الذاتي ويتحدث بموضوعية عن بعض مواطن قوة الفرس والعجم ، ويتجلى ذلك في معرض حديثه عن مفهوم تراكمية العلم ، حيث يقول : « إن كل كلام للفرس ، وكل معنى للعجم ، فإنما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهاد في الرأي ، وعن مشاورة ، ومعاونة ، وعن طول التفكير ، ودراسة الكتب ، وحكاية (محاكاة) الثاني في علم الأول ، وزيادة الثالث في علم الثاني ، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكرة عند آخرهم وفي المقابل ، وككل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ، ولا مكابدة ، ولا إحالة فكر ، ولا استعانة » (ص ٢٨) (الاقتصار على الجهود الفردية المتفرقة) ، ثم يمضي في المناقشة ، والرد على المطعن الأول للشعوبية على العرب ، وهو اعتمادهم على العصى فيفرد بابًا كاملًا عن الحديث عن العصا ويسميه « كتاب العصا » .

يتحدث فيه عن العصا ، واستخداماتها ، وفوائدها ، ونوادر من استعملوها في تلك الاستخدامات ، وما ورد فيها من أمثال ، لبيان أهميتها ، ولا علة في تمسك العرب بها ، وأشكال العصى ، والمواد المصنوعة منها ، وأنواعها .

حين نقرأ مع الجاحظ هذا الفصل عن العصا تبرز إلى الذاكرة تلك الآية من القرآن التي يسأل الله فيها موسى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ١٧] ، فيجيب :

---

(١) هم فريق من الناس لا يرون للعرب فضلًا على غيرهم ، بل يبالغون في ذلك فيذهبون إلى تنقصهم والحط من قدرهم ، حتى ألفوا في ذلك الكتب ، وهم فئة من أبناء الطوائف غير العربية في الدولة الإسلامية ، وكان لهم من وراء ذلك مآرب سياسية .

﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ١٨] ، ونخال الجاحظ يفصل القول في هذا الفصل في هذه المآرب ، فيذكر مقتطفات من أقوال العرب في فوائد العصا مثل قول عمر بن سعد « ومعي عصاي إن لقيت عدوًّا قاتلته ، وإن لقيت حية قتلتها » ويسرد قصة طريفة لأحد الأعراب عن استخدامات العصا والذي يلخصها فيما يلي : يساق بها الدابة ، يتوكأ عليها في المسير ، يقتل بها هوام الأرض ، يستعان بها في صيد الحيوانات البحرية ، تستخدم في إشعال النار ، وفي التنظيف ، وفي تعليق الثياب ، والطرق على الأبواب (ص ٤٣ - ٤٨) ، وحين تبلى يستفاد بها مقطعة فيصنع من أجزائها أوتارًا ومغازل ، وتنوب العصا للأعمى عن قائده ، ويستعين بها الدباغ ، والحراث والمحراك للتنور (الفرن) ، ويتخذها كل راكب لمركبه ، وتكون إن شئت وتدًا في الحائط ، وإن شئت جعلتها مظلة ، وتكون سوطًا وسلاحًا ، (ص ٦٧ - ٦٩) .

٢ - **باب الزهد** : يورد الجاحظ في الكتاب شيئًا من كلام النساك في الزهد ، وشيئًا من ذكر أخلاقهم ومواعظهم ، والذي يشكل ملامح البرنامج الإسلامي في صياغة الرجال مثل مورق العجلي « لقد سألت الله حاجة منذ أربعين سنة ، ما قضاها ولا يئست منها فقيل لمورق : ما هي ؟ قال : ترك ما لا يعنيني » (ص ١٢٦) .

ويذكر بعض خطب الحسن البصري في الزهد ، والحث على التقوى ، والتحلي بالإيمان ، والتخفي عن شواغل الدنيا ، وعن أبرز ما فيها قوله : كان أهل الدنيا يبذلون دنياهم لأهل العلم رغبة في علمهم ، فأصبح أهل العلم اليوم يبذلون علمهم لأهل الدنيا رغبة في دنياهم ، فرغب أهل الدنيا بدنياهم عنهم ، وزهدوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم (ص ١٣١ - ١٣٧) ، وقول مطرف بن عبد الله : ولا تنظروا إلى خفض عيشتهم ، ولين لباسهم (أهل الجاه والسلطان) ولكن انظروا إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم (ص ١٥٣) .

وقول الحسن البصري : ما أعطي رجل من الدنيا شيئًا إلا قيل له خذه ومثله من الحرص ، والحرص كما يقول عنه أبو بكر الصديق أذل أعناق الرجال .

دخل علي بن أبي طالب ﷺ المقابر فقال : « أما المنازل فقد سكنت ، وأما الأموال فقد قسمت ، وأما الأزواج فقد نكحت ، هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم ؟ ثم قال : والذي نفسي بيده لو أذن لهم في الكلام لأخبروا أن خير الزاد التقوى » (ص ١٥٥) .

من القيم التي يشجعها الإسلام عدم الانشغال الزائد بجمع المال وتكثيره ، ويسوق البيان هذه القيمة قول عيسى عليه السلام : « في المال ثلاث خصال أو بعضها ، قالوا : وما هي يا روح الله ؟ قال : يكسبه من غير حله ، قالوا : فإن كسبه من حله ؟ قال : يمنعه من حقه ، قالوا : فإن وضعه في حقه ؟ قال : يشغله إصلاحه عن عبادة ربه » (ص ١٩١) .

ويقدم قائمة لأشهر نساك العصر وزهاده ، أعلام التقى ، ويسوق نماذج من أشعارهم ، وينتقل إلى ذكر حروف من الأدب من حديث بني مروان وغيرهم ، وأخلاط من نوادر وأحاديث لأناس آخرين في مجالات متعددة : مثل قول شيخ الأطباء في السخرية من المنافس غير المتكافئ : الحمد لله ، فلان يزاحمنا في الطب ولم يختلف إلى البيمارستانات (المستشفيات) تمام خمسين سنة (ص ٢٥٢) .

وقول يونس بن عبد الأعلى في أهمية الأصدقاء ، والأخلاء كأحد عناصر الصحة النفسية ، وقيامهم بالدور الذي يقول به المرشد النفسي في الحضارة الغربية حاليًا حيث يقول : لا يزال الناس بخير ما داموا إذا تخلج (اضطرب) في صدر الرجل شيء وجد من فرج عنه (ص ٢٥٣) .

٣ - **باب خطباء الخوارج** ويذكر فيه أشهر خطبائهم ، وأئمتهم ، ثم يعرض لمفهوم شائع لديهم ، هو الاستعراض : « حيث إنهم كانوا يتعرضون للناس ، ولا يبالون من يقتلون ، فالدار دار كفر ، والاستعراض فيها جائز » . ما أشبه هذا المفهوم بمفاهيم سائدة حاليًا في هذا المجال . ثم يتطرق إلى ذكر نماذج من دعاء الصالحين ، والسلف المتقدمين ، ومن دعاء الأعراب ، وبعض دعاء الملهوفين ، والنساك المتبتلين .

وجريًا على عادة الجاحظ في التنقل بين موضوعات شتى في الفصل الواحد ، قد لا يربطها رابط ، فإنه ينتقل للحديث عما يسمى حاليًا علم النفس البيئي ، وكيف أن البيئة تؤثر في السلوك حين يقول : « العرب كلهم شيء ؛ لأن الدار والجزيرة واحدة ، واللغة واحدة ، وما بينهم من التصاهر والتشابك ، ثم المناسبة التي بنيت على غريزة التربة ، وطباع الهواء ، والماء فهم بذلك شيء واحد في الطبيعة واللغة ، والهمة والشمائل ، والمرعي والراية ، والصناعة والشهوة (ص ٢١٩) .

وكذلك قوله : « قالوا الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، وقد رأينا اختلاف الحيوان على قدر اختلاف طبائع الأماكن ، وعلى قدر ذلك شاهدنا اللغات والأخلاق والشهوات » (ص ٢٩٤) ، ويدلي برأي حول العلاقة بين الوراثة والبيئة ودورها في تحديد السلوك حيث يقول : والمشاكلة من جهة الاتفاق في الطبيعة والعادة ، ربما كانت

أبلغ وأوغل من المشاكلة من جهة الرحم (ص ٢٩٢) .

وينتقل للحديث عن معوقات فيقول : « إنما يمتنع البالغ من المعارف (معوقات التعلم) من قبل أمور تعرض من الحوادث (عوامل خارجية) ، وأمور في أصل تركيب الغريزة (عوامل داخلية) ، ومن الموانع ما يكون من جهة سوء العادة ، وإهمال النفس ، فعندها سيتوحش من الفكرة ، ويستثقل النظر ، ومن ذلك ما يكون من الشواغل العارضة ، ومن ذلك ما يكون من خُرْق المعلم ، وقلة رفق المؤدب ، وسوء صبر المُثقف ، فإذا صفى اللَّه ذهنه ونقحه ، وهذبه وثقفه ، وفرغ باله ، وكفاه انتظار الخواطر ، لم يلبث أن يعلم » (ص ٢٩٣ - ٢٩٤) .

ويسوق الجاحظ محاجة مهمة بين المأمون وأحد المرتدين نستشف من خلالها فقه الاختلاف ، حيث قال المأمون للمرتد الخراساني : قد كنت مسلمًا بعد أن كنت نصرانيًا ، فاستوحشت عما كنت به آنفًا ، ثم لم تلبث أن رجعت عنا نافرًا ، فخبرنا عن الشيء الذي أوحشك من الشيء الذي صار آنس لك من إلفك القديم ، وأنسك الأول . قال المرتد : أوحشني كثرة ما رأيت من الاختلاف فيكم !

قال المأمون : لنا اختلافان : أحدهما كالاختلاف في الأذان وتكبير الجنائز ووجوه القراءات ، وما أشبه ذلك ، وليس هذا باختلاف وإنما هو تخيير وتوسعة ، فمن أذن مثنى وأقام لم يؤثم ، والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل الحديث عن نبينا ، مع إجماعنا على أصل التنزيل ، واتفاقنا على عين الخبر ، فإن كان الذي أوحشك هذا حتى أنكرت من أجله هذا الكتاب ، فقد ينبغي أن يكون اللفظ بجميع النصارى واليهود اختلاف في شيء من التأويلات (وهو ما لم يحدث) وينبغي لك (في هذه الحالة) أن لا ترجع إلى لغة لا اختلاف في تأويل ألفاظها (ص ٣٧٥ - ٣٧٦) فاقتنع الرجل .

وفي ظل هذا الفهم الواعي للخليفة المأمون لطبيعة الفتن يبرز تساؤل تعجبي مفاده : كيف انبعثت الفتن العاتية وانساق إليها الخلفاء ، ومن بينهم المأمون ، وهي في الأساس خلافات في تأويل بعض معاني وألفاظ القرآن مثل : فتنة خلق القرآن ؟!

الجزء الرابع :

ويذكر في هذا الجزء ، وهو أصغر أجزاء الكتب الأربعة ، بقية كلام النوكى (الحمقى) والموسوسين ، والحفاة ، والأغبياء ، وما ضارع ذلك .

ويسوق في ثنايا ذلك بعض الرويات عن الأذكياء ، كذلك الرجل الذي أتاه قوم ، فقالوا له : « تحب أن تسلف فلانًا ألف درهم وتؤخره سنة ؟ فقال : هاتان حاجتان ، وسأقضي لكم إحداهما ، وإذا فعلت ذلك أنصفت ، أما الدراهم فلا تسهل عليَّ ، ولكني أؤخره سنتين » (ص ٦) .

وسئل بعض الأعراب : ما العقل ؟ قال : الإصابة بالظنون ، ومعرفة ما لم يكن بما قد كان (ص ٦٥) ، ويضرب نموذجًا لسرعة البديهة بذلك الحوار : قال معاوية لرجل من أهل سبأ : ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة !

فقال : بل قومك أجهل ! قالوا حين دعاهم رسول اللَّه ﷺ إلى الحق وأراهم البينات : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ألا قالوا : اللَّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له (ص ٧١) .

وفي تحليل بعض آفات النفس ، وهو الكبر والغرور ، قال سيدنا عمر بن الخطاب ما وجد أحد في نفسه كبرًا إلا من مهانة يجدها في نفسه (ص ٧٥) وقال معاوية : « ما رأيت أحدًا يرفع نفسه فوق قدرها إلا من ذلة يجدها » (ص ٧٠) .

وفي التعليم السلبي والإيجابي بالاقتداء قالت أعرابية لابنها : « مثل لنفسك مثالًا (قدوة) فما استحسنته من غيرك فاعمل به (التعلم الإيجابي) ، وما كرهته منه فدعه واجتنبه » (التعليم بالنفور أي أن يتعلم الابتعاد عن سلوك معين لقبحه) (ص ٧٢) . وينتقل للحديث عن كلام من عزى بعض الملوك في فقد عزيز لديهم ، ويسوق بعض المواقف والعبارات التي تفيد في تقليل حجم الأسى والحزن الذي يلم بأهل المصاب ، ويمكن من خلال تحليل المضمون الذي يُعمد عليه في تعزية أهل المصاب تصميم أساليب لمواجهة الحزن ، وتقليل الأسى والذي يعد من بين المشكلات التي يعاني منها الأفراد ، ويعني بها في مجال العلاج السلوكي ، ونذكر فيما يلي بعضًا من هذه العبارات : « اعلم إنما ابتلاك المنعم ، وأخذ منك المعطي وما ترك أكثر ، وأفضل الأشياء عند المصائب الصبر ، واعلم أن من المصيبة سوء الخلف منها ، قد جاء ما لا يرد ، فما الجزع مما لا بد منه ، وما الطمع فيما لا يرجى » (ص ٧٤) .

مات ابن سليمان بن علي فجزع عليه جزعًا شديدًا ، وامتنع عن الطعام والشراب ، وجعل الناس يعزونه فلا يحفل بذلك ، فدخل عليه يحيى بن منصور ، فقال : عليكم

نزل كتاب اللّه فأنتم أعلم بفرائضه ومنكم كان رسول اللّه فأنتم أعرف بسنته ، ولست ممن يعلم من جهل ، ولا يقوم من عوج ، ولكنني أعزيك ببيت من الشعر ، قال هاته قال :

وهون ما ألقى من الوجد أنني أساكنه في داره اليوم أو غدا

قال : أعد . فأعاد ، فقال : يا غلام ، الغذاء (ص ٩٧) ، ويتحول إلى الكلام عن الهجائين من الشعراء ، وأشهرهم في الجاهلية والإسلام ، ويقدم نماذج من الرسائل المتبادلة بين الملوك ، ومن خرجوا عليهم .

* * *

البخلاء [1]

عرض : د . أسامة سعد أبو سريع

عرض الكتاب :

يتكون الكتاب من جزأين ، ويقع الجزء الأول في ١٩١ صفحة من القطع الكبير ، بينما يقع الجزء الثاني في ٢٥٩ صفحة من نفس القطع ، وفيما يلي نعرض لجزئي الكتاب :

الجزء الأول :

يذكر الجاحظ في مستهل كتابه أنه سيعرض نوادر البخلاء والقصص والتي حُكيت عنهم وما يدخل من ذلك في باب الهزل ؛ وذلك لأن قسطًا من الهزل يريح العقل حتى يسترد نشاطه عندما يعود للجد مرة أخرى ، ويضيف أنه سيتناول سفسطة البخلاء ، وكيف يحولون الأمور عن معناها الصحيح فيسمون البخل صلاحًا والشح اقتصادًا ، ويصفون المنع بالحزم ، والمواساة بالتصنع ، والجود بالإسراف ، والإيثار بالجهل ، وينسبون القوة إلى من لا يميل إلى الثناء على الآخرين ، وكيف أنهم يرغبون في الكسب ويزهدون عن الإنفاق ويخشون زوال النعمة في كل وقت ، ثم يبدي الجاحظ تعجبه ممن يتمسك بالبخل رغم تقبيح المجتمع له كما يعبر عن تعجبه ممن يعرف عيوبه وما به من شح ، ثم يعجز عن معالجة نفسه وإصلاح مزاجه وتغيير عاداته .

وفي بداية الرسالة يقرر الجاحظ أن البكاء مفيد ومحمود إذا كان في موضعه الصحيح

(١) ضبطه أحمد العوامري ، علي الجارم . بيروت : دار الكتب العلمية (١٩٨٣م) . ٢ ح في ١ مج .

وبالمقدار المعتدل ؛ وذلك لأنه دليل على رقة الطبع وشدة الوفاء ، أما دوام البكاء فهو بلاء يسبب فقدان البصر وأوجاع الدماغ ، أما الضحك فهو غير مذموم ؛ لأنه من أصل الطباع وعلامة على السواء ، فهو أول خير يظهر من الصبي وبالضحك يُمدح الإنسان ويذم من لا يضحك بأنه عبوس وكالح وقطوب ومكفهر وكريه ومقبض الوجه وحامض الوجه ، ولكن للضحك موضعًا ومقدارًا لا يجوز أن يزيد أو ينقص عنه ، ثم إن المزاح الذي يحقق الفائدة ويلائم الموقف لا يقل عن الجد والوقار .

ويبدأ الجاحظ بعد ذلك في استعراض نوادر البخلاء مستفتحًا برسالة سهل بن هارون إلى بني عمه من آل هارون ردًّا على اتهاماتهم له بالبخل ، وفيها يفند سهل تلك الاتهامات ، فعندما اتهموه على سبيل المثال بأنه سد بالطين على الفاكهة والرطب حتى لا تنال منه زوجته أو خدمه أو أولاده أخبرهم بأنه ليس من الأدب أن يتساوى السيد والمسود في نفس المأكل أو المشرب أو الملبس تمامًا كما لا ينبغي أن يستوي التابع والمتبوع أو القائد والمقود في مواضعهم من المجلس وترتيب ذكر أسمائهم وما يستقبلونه من تحيات ، وعندما عابوا عليه ترقيع حذاءه رد عليهم بأن إصلاح النعل بالخياطة والترقيع دليل على التواضع وعدم الإسراف وفيه تشبه بالنساك ، كما أن النعل المرقع أريح للقدم ويغني عن شراء الجديد ، كما عابوا عليه قوله بأنه لا يحب أن يغتر أحد بطول عمره وبشيخوخته فيظهر الكرم ويخرج ماله من يده فرد عليهم بأنه قد يكون هذا الشخص معمرًا وهو لا يدري وقد يُرزق بالولد بعد اليأس أو تحدث له نكبات لم تخطر على باله مما يضطره إلى الشكوى وسؤال الناس .

وعابوا عليه أيضًا تفضيله للمال على العلم وهنا يرد عليهم بأن المال في رأيه يُغاث به العالم وبه تحيا النفوس قبل أن تعرف فضيلة العلم والأصل أفضل من الفرع ، كما أن العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتي الأغنياء أبواب العلماء ، ويحتاج الجميع إلى المال ، أما العلم فيغني البعض فيه عن الكل ، ويذكر سهل بن هارون أن كثرة الأموال مرغوبة حتى ولو لم ينفق منها ويشبه الأموال بالآلة التي تستعمل إذا كانت هناك حاجة إليها أو تحفظ كعدة إذا استغني عنها وكثرة المال عز في قلب من يملكه وذل في قلوب من يحتاجون إليه .

ويعرض الجاحظ بعد ذلك قصصًا ونوادر تبين مبلغ بخل أهل خراسان خاصة بلدة هناك تسمى « مرو » ومن تلك النوادر أنهم إذا أتاهم ضيف وطال الجلوس سألوه هل تغذيت فإن أجاب بنعم قالوا : « لولا إنك تغذيت لغديتك بغذاء طيب » ، وإن أجاب

بالنفي قال صاحب الدار : « لو كنت تغذيت لسقيتك خمسة أقداح » حتى الديكة أصابها بالبخل فيروي الجاحظ أن الديكة في كل بلد يأخذ الحب بمنقاره ويلقيه للدجاج أما في « مرو » فإن الديك يسلب الحب من مناقير الدجاج وهو يريد بذلك أن البخل طبع عم الإنسان والحيوان ، حتى الأطفال يتطبعون بالبخل فقد حكى بعضهم قصة تبين ذلك فعندما نزل رجل في ضيافة شيخ من شيوخ « مرو » وجد لدى الشيخ صبيًّا فأراد أن يعبث معه أو يختبره فطلب منه أن يطعمه من خبزهم ، فقال له الصبي : « لا تريده إنه مر » فطلب منه أن يسقيه من مائهم ، فقال له : « لا تريده إنه مالح » وهكذا كلما سأل الضيف شيئًا أبغضه الصبي حتى قال الشيخ صاحب الدار : إن البخل طبع فيه وفي أعراقهم .

ومن القصص التي تكشف بخل أهل خراسان ، أن مجموعة منهم ترافقوا في منزل فأرادوا أن يستغنوا عن المصباح ما أمكن فلما عجزوا عن الإقامة اتفقوا على المشاركة في ثمن المصباح إلا واحدًا منهم فكانوا إذا أحضروا المصباح شدوا المنديل على عينيه حتى لا ينتفع به فإذا ناموا وأطفأوا المصباح رفعوا المنديل عن عينيه .

كما أنهم لا يردون الجميل فقد اعتاد رجل منهم النزول عند رجل عراقي كلما سافر إلى العراق فيكرمه العراقي ويتحمل عنه كل نفقاته فيعبر الخرساني عن تمنيه أن يرى العراقي في خرسان حتى يكافئ العراقي على جميله وتمر الأيام وتشاء الظروف أن يسافر العراقي إلى مرو فأخذ يسأل عن الرجل الخرساني حتى عثر عليه ، فإذا الخرساني ينكر سابق معرفته به فظن العراقي أن الخرساني لم يتعرف عليه في ملابس السفر ، فأخذ يتخفف منها شيئًا فشيئًا والخرساني مصرّ على ادعاء عدم معرفته به حتى قال له في النهاية : « لو خرجت من جلدك لم أعرفك » .

أما حالهم في الأكل فهو أعجب ؛ فإنهم إذا أرادوا شراء اللحم اشتركوا فيه ، ثم قسموه قبل الطبخ ويأخذ كل منهم نصيبه ويشبكه بخيط ويُعلم خيطه بعلامة ، ثم يرسل كل منهم خيطه في الخل والتوابل فإذا نضج شد كل منهم خيطه وقسموا المرق بينهم ويأخذون في سل اللحم من الحبل القطعة بعد الأخرى حتى يفرغ الحبل عندئذ يجمعون الخيوط فإذا اشتركوا في اللحم مرة أخرى أعادوها ؛ لأنها قد تشبعت بالدسم .

وهم لا ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة اللّٰه فإذا أنفقوا انتظروا الثواب العاجل ، فقد سمع أحدهم الحسن وهو ينصح الناس بقوله : « ما نقص مال قط من زكاة » ويعدهم

سرعة الخلف ، فتصدق الخرساني بماله كله فافتقر وانتظر سنة فلم ينل خلفًا أي عوضًا عن ماله فأسرع إلى الحسن البصري واشتكى له أنه أنفق ماله ولم ينل الثواب الذي وعد به الحسن قائلًا له : إن اللص ما كان ليفعل بي أكثر مما فعلت . ويعلق الجاحظ أن الخلف يكون معجلًا ومؤجلًا وأنه لا يجوز للمتصدق أن يشترط الشروط لو كان الخلف كله معجلًا لترك الناس التجارة واشتغلوا بالصدقة .

وفي قصة أهل البصرة من المسجديين يذكر نوادر مجموعة من الرفقاء اشتهروا بالبخل وكونوا جماعة مقرها أحد المساجد كانوا يجتمعون فيه لتبادل الآراء والخبرات في الاقتصاد والشح وتنمية الأموال ومن القصص التي طرحوها في اجتماعاتهم للاعتبار نذكر قصة شيخ منهم كان له بئر ماؤها ملحي لا يشرب منه الحمار وكان النهر عنهم بعيد فكانوا يسقون الحمار من ماء عذب ممزوج بماء البئر فاعتل الحمار مما اضطرهم إلى سقيه بالماء العذب ، وكان الشيخ يغتسل هو وزوجته بالماء العذب خشية أن يصابوا بما أصيب به الحمار فعز عليه أن يضيع هذا الماء بدون الانتفاع منه فلجأ الشيخ إلى حيلة وهي عمل حفرة ملساء يصوب إليها ماء الاغتسال حتى يشرب منه الحمار .

وقال شيخ آخر : إنه اشتكى من سعال فنصحه البعض بنوع من الحلوى يصنع من النشا والسكر ودهن اللوز فاستكثر ثمنها ، وفضل أن يعاني من السعال دون تكلفة فلما ثقل عليه المرض نصحه آخرون باحتساء ماء نخالة الدقيق فلما احتساه وجده طيب الطعم علاوة على أنه يمنع الشعور بالجوع ، فخطر بباله أن يأمر زوجته أن تطبخ النخالة لعياله لما فيها من جلاء الصدور وقتل الشعور بالجوع ، كما أن النخالة بعد أن تجف تعود كما كانت فتباع كما يباع الدقيق بعد الانتفاع من النخالة فسعدت زوجته بأفكاره وبسعاله الذي جعل اللّه فيه مصالح جمة .

ويمضي الجاحظ ليقدم قصصًا أخرى منها قصة زبيدة بن حميد وهو يماطل في سداد ديونه ، وقصة ليلى الناعطية التي كانت ترقع قميصها حتى يذهب أثر القميص ، وقصة الكندي الذي كان يستجدي جيرانه وسكانه بحجة أن في البيت امرأة حاملًا تشتهي طيب الطعام ويجب إشباع شهوتها وإلا فإن الوحمى ربما تؤدي إلى الإجهاض ، وكان ينذر من لا يستجيب له بدفع دية للجنين الميت ، وكان يردد أن حفظ المال أشد من جمعه وأن المال لمن حفظه ، والحسرة لمن أتلفه ، أما محمد بن المؤمل فكان يزعم أن الناس يزهدون في الماء ويتكالبون على الخبز لرخص الماء وغلاء الخبز أي أن الناس لا يشتهون إلا ما ارتفع ثمنه وندر وجوده وإن معظم الناس يفعلون ذلك على سبيل التقليد أو العادة .

• يتضح من الجزء السابق إلمام الجاحظ وتبصره بعدد من المفاهيم والمبادئ السيكولوجية نذكر منها :

١ - أهمية الموازنة بين الجد والهزل من أجل صحة نفسية Psychological Health تقوم على الجدية في إنجاز الأعمال ، ثم الترويح Recreation لتنشيط Activation القدرة العقلية Mental Ability (الجزء الأول ص ١٦) ويبين الجاحظ أيضًا أهمية أن يكون الضحك بالقدر المعتدل وفي الموقف Situation المناسب ، وهو يدرك أن دوام البكاء والاكتئاب Depression يسبب أضرارًا جسيمة ونفسية منها فقدان البصر والشعور بالصداع (الجزء الأول ص ٢٩ - ٣٠) .

٢ - تمايز الأشخاص في مراكزهم الاجتماعية أو ما يطلع عليه المكانة الاجتماعية Social Status وتتمثل في مقدار التقدير والاحترام والتقويم الإيجابي من جانب الآخرين ، فبعض الأفراد يتمتعون بمكانة مرتفعة بحكم أعمالهم أو طبقتهم الاجتماعية Social Class أو القرابة أو النسب مع أشخاص مرموقين في المجتمع ، ويحقق البعض الآخر مكانة محترمة اعتمادًا على دافعيتهم Motivation العالية وذكائهم Intelligence . ويختلف أسلوب التعامل مع الأشخاص باختلاف مكانتهم وقد تبين من الكتاب أن أصحاب المكانة المرتفعة والقادة Leaders يحظون بقدر أكبر من الاحترام Respect والتواصل Communication ذي المضمون الإيجابي Positive Content من قبيل المجاملة والثناء ، كما يحتلون مواضع متميزة في البيئة الفيزيقية Physical Environment إذ يجلسون في مواقع تبرز علو شأنهم (الجزء الأول ص ٣٦) .

٣ - اتجاه الأشخاص إلى تفضيل الأشياء النادرة أو مرتفعة الثمن ، والسبب وراء ذلك - كما يظهر من الكتاب - هو الميل إلى مجاراة Conformity الآخرين والرغبة في التقليد Imitation (الجزء الأول ص١٨٠ - ١٨١) .

وعلاوة على هذا يكشف الجاحظ سمات شخصية Personality Traits البخلاء والقيم Values التي تحرك سلوكهم Behavior ومن تلك السمات التي يمكن أن نستشفها من القصص التي عرضناها تبرز السمات الآتية :

١ - المغالطة وخداع النفس Self - Deception والتبرير (ص ١٧ - ١٩) .

٢ - الخوف Fear والتوتر Tension والقلق Anxiety من المستقبل فهم يرغبون في الكسب ويزهدون عن الإنفاق ويخشون زوال النعمة في كل وقت كما أنهم يحسبون

في كل وقت حساب الكوارث ويسيئون الظن بالله ، وبكل ما هو آت مما يزيدهم حرصًا (الجزء الأول ص ٣٩) .

الجزء الثاني :

وتتولى نوادر البخلاء في الجزء الثاني من الكتاب فيضيف الجاحظ قصصًا أخرى منها قصة عبد الرحمن الثوري الذي كان يحث أولاده على ابتلاع نوى الرطب ويدعي أنه يدفئ الكليتين وعلى أكل الشحم ويزعم أنه يفرح القلب وينبض الوجد وعلى أكل الفول بقشوره وكان يردد أن الفول يقول : « من أكلني بقشوري أكلني ومن أكلني بغير قشوري فأنا الذي أكله فما حاجتكم إلى أن تصيروا طعامًا لطعامكم وأكلًا لما جعل أكلًا لكم ؟! ومن أقواله : « مدمن اللحم كمدمن الخمر » وقصة أبي المدائني إمام البخلاء في البصرة وكان له مال عند أحد الناس فكان عندما يذهب إليه ليطالبه بماله يجلس بالساعات يتناول الطعام والشراب في بيته ؛ ثم يروي الجاحظ قصة أخرى تكشف سوء ظن البخيل ، فعندما أتى غلام إلى خالد بن صفوان بطبق خوخ كهدية فيما وضعه بين يديه قال له ابن صفوان : « لولا أني أعلم أنك أكلت منه لأطعمتك واحدة » ، وبعض البخلاء يحب أن يتفاخر بما ليس عنده كما يتضح محبًا للافتخار رد عليه قائلًا : « والله لو ملكت ألف ألف درهم لوهبت لك خمسمائة ألف درهم ، يا هؤلاء فرجل يهب في ضربة واحدة خمسمائة ألف درهم يقال له بخيل ؟! ويتهرب البخلاء عمومًا من نجدة الملهوف فقد قال أحدهم عندما أتاه رسول يخبره بأن صديقًا له قد قُطع عليه الطريق وسرق ماله يطلب منه المعاونة ببعض المال : « ليس عليه قُطع الطريق بل عليَّ قُطع » .

● ومن المفاهيم السيكولوجية التي ترتبط بالجزء الثاني : الاستبصار بخطورة التعود Habituation أو إدمان Addiction أو الاعتماد Dependence على الخمور أو الكحوليات Alcholism فقد شبه أحد البخلاء مدمن اللحم كمدمن الخمر ، مما ينم عن إدراك لخطورة الخمور طبعًا مع ما في التشبيه من فكاهة ومبالغة (الجزء الثاني ، ص ١٨) .

كما أنه يمكن الكشف عن بعض سمات شخصية البخلاء في الآتي :

١ - يتميز بعضهم بخفة الظل وتفسير ذلك أن اتجاههم للمداعبة والفكاهة إنما هو لتقليل ردود الأفعال السلبية الناتجة عن تجاهلهم للآخرين ومنعهم المساعدة ولتخفيف مشاعر العداوة Hostility والكراهية Hate كما يتضح من قصة الأخ البخيل الذي وعد أخاه بخمسمائة ألف درهم إذا رزق بألف ألف درهم (الجزء الثاني ص ١٧٣) .

٢ - يحرص أغلب البخلاء على إنكار ثرواتهم والتقليل من شأنها حتى يصرفوا الآخرين عن السؤال وطلب المساعدة منهم ويميل القليل منهم إلى الافتخار بما ليس لديهم (الجزء الثاني ، ص١٧٣) .

* * *

التاج في أخلاق الملوك [1]

عرض : د . أسامة سعد أبو سريع

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٩١ صفحة من القطع المتوسط ويتكون من مجموعة من الأبواب ، بالإضافة إلى المقدمة يتناول المؤلف فيها آداب التعامل مع الملوك وتفصيل ذلك هو :

المقدمة :

يشرح فيها الجاحظ دواعي تأليفه لهذا الكتاب ، فيذكر منها أن الملوك يحظون بمكانة متميزة نظرًا لتمتعهم بالسلطان وتوليهم أمر العباد ؛ ولذا وجب تقديرهم واحترامهم ، ورغم هذا يجهل كثير من العامة آداب التعامل مع الملوك ، ولهذا يقدم الجاحظ كتابه لتوضيح تلك الآداب ، والاقتداء بها حتى يستقيم الأمر ويستقر المجتمع عندما يدرك العامة حق الملوك ويقومون بواجبات الطاعة كما ينبغي .

باب الدخول على الملوك : يستعرض الجاحظ آداب الدخول على الملوك فيميز بين دخول الأشراف ودخول الأوساط ودخول الملوك ، فالأشراف ينبغي أن يقفوا أمام الملك في موضع وسط بين القرب والبُعد ، أما إذا كان الداخل من الطبقة الوسطى فعليه أن يقف إذا رأى الملك فإذا دعاه الملك للدخول اقترب خطوتين أو ثلاثًا ولا يزيد عنها ، أما إذا استقبل الملك ملكًا آخر يساويه في السلطان فعلى الملك المضيف أن يقوم للضيف ويعانقه ويأخذ بيده ويجلسه ، وعند وداعه يقوم الملك المضيف ، ويأمر بإحضار دابة

---

(١) حققه وقدم له فوزي عطوة . بيروت : الشركة اللبنانية للكتاب [١٩٧٠ مقدمة] . (١٩١ ص) .

الضيف ، ثم يشيعه ماشيًا قبل ركوبه بخطوات قليلة ويأمر بالسعي أمامه .

• وتقترب أفكار الجاحظ هنا من مفهوم المسافة الاجتماعية Social Distance وهي المسافة المكانية Spatial Distance التي ينبغي على الأفراد ألا يتعدوها وهم يتكلمون ويتفاعلون مع بعضهم البعض وهي تختلف باختلاف الموقف والمكانة والدور والجنس ، فعلى سبيل المثال كلما اتسعت الفروق بين مكانة الأفراد اتسعت المسافة بينهم عند التخاطب ، فإذا تجاوز الشخص الأقل مكانة تلك الحدود فيعد ذلك اعتداء على الحيز الشخصي Personal Space للأعلى مكانة وعلى خصوصيته Privacy ويترتب على ذلك التعدي ردود أفعال سلبية صريحة Explicit أو ضمنية Implicit وقد بيَّن الجاحظ أهمية أن يقف ندماء الملك على مسافة وسط بين القرب والبعد ولا يتعدونها (ص ١٥، ١٦) وكذلك مفهوم المكانة Status (ص ١٥ - ١٨) .

باب في مطاعمة الملوك : إذا بسط الملك مع واحد من رعيته حتى دعاه إلى تناول الطعام معه فيجب على الضيف ألا ينبسط في مطعمه فيكثر الأكل ومن مد اليد والحركة أمام الملك مما يدل على الشراهة وسوء الأدب والجرأة ، فتناول الطعام مع الملوك تعظيم « لشأن المرء ، وهو أيضًا اختبار » لقدرته على ضبط نفسه عما لذ وطاب ومن لا يراعي ذلك فيفرط في الطعام يتحول في نظر الملك وحاشيته من التعظيم إلى التصغير ومن الجد إلى الهزل حتى إن أحد الملوك طرد أحد رعيته لما رأى نهمه في الطعام قائلًا له : « من شره بين يدي الملك إلى الطعام ، كان إلى أموال الرعية والسوقة والوضعاء أشد شرهًا » .

ومن حق الملك أيضًا ألا ينظر إليه أحد وهو يأكل ، ولا يتناول معه أحد الطعام في صفحة واحدة ، ولا يغسل مع يديه أي من خاصته إلا من يساويه في الجاه والسلطان ، ومن حق الملك ألا يتحدث الحضور على مائدته بحديث جد أو هزل ، فإذا تكلم هو وجب على الآخرين الإنصات إليه ولا يتكلمون إلا بإيماءة .

• ويرتبط الباب السابق بمفهومي المعايير Norms والمجاراة Conformity (ص ١٩- ٢٤) وكذلك بمفهوم بناء الاتصال Communication Structure (ص ٢٦) ، والبناء الهرمي للجماعة (ص ٣١ ، ٣٢) .

باب في المنادمة : يبيِّنُ الجاحظ أولًا طبقات الندماء ، فيشير إلى أن من أخلاق الملوك أن يشمل مجلسهم كل الطبقات ، فهم يحتاجون الوضيع لِلهْوِهِ ، والشجاع لبأسه ، والمضحك لحكايته ، والواعظ لعظته ، وكذلك الزامر المطرب ، والعالم المتقن . هكذا يتحول مجلس الملك بين الجد والهزل .

وينقسم ندماء الملك إلى ثلاث مراتب وهي :

١ - طبقة أبناء الملوك ويجلسون على بُعد عشرة أذرع من الستارة التي تحجب الملك عن الرعية .

٢ - بطانة الملك وندماؤه وأهل الشرف والعلم ويجلسون على بُعد عشرة أذرع من الطبقة الأولى .

٣ - أهل الهزل والطرب والمضحكون ويجلسون على بُعد عشرة أذرع من الطبقة الثانية ، وينبغي أن يخلو أفراد الطبقة الثالثة من العيوب الخلقية وخسة الأصل وسوء السمعة .

ومن حق الملك وحده أن يأمر لجلسائه بكمية وكيفية ما يُشرب مع مراعاة الاعتدال في الشرب (ويقصد شرب الخمور) ، ومن حقه ألا يخرج أحد من مجلسه أو يعود إليه إلا بإذنه .

ثم يستعرض الجاحظ بعضًا من أخلاق الملك السعيد فيذكر أن خلقه العفو عن ندمائه لا سيما إذا غلب أحدهم السكر حتى لا يستطيع أن يعقل ما يقول ولا ما يقال له ، وقد يضر نفسه إذا تُرك وحده ، وإذا أخذ أحد ثيابه لم يمنعه أو لا يغضب إذا شُتم ، وتكثر أخطاؤه في الكلام ، ومن واجب الملك أن يعاقب من يرتكب ذنبًا بالعقوبة المناسبة كما جاءت في الشرع أو الإجماع ، ومن حق الملك أن ينفرد بمس الطيب وبارتداء الزي والتاج أو العمامة ، ومن أخلاق الملوك ألا يمن الملك على الرعية بعطية إلا إذا خرج المُنعَم عليه من الطاعة إلى المعصية ، حتى يكشف له عدم وفائه واستحقاقه للعقوبة ، ومن أخلاق الملك ألا يعاقب وهو غضبان خشية التجاوز ، ومن حقه أن تنصت الرعية لحديثه وتظهر السرور وتجاهد في فهمه ويجب على الرعية أيضًا مراعاة حرمة الملك في حضوره وغيابه مع إدراك أن أخلاق الملوك ليست على نظام ؛ ولذا ينبغي إظهار الإجلال والتعظيم للملك حتى وإن سبق معه هزل أو مضاحكة اتقاء لغضبه وسخطه .

● ومن المفاهيم السيكولوجية التي وردت في الباب السابق الدور Role (ص ٥٩ ، ٦٠) ، والمسؤولية (ص ٥٩ ، ٦٠) ، والقوة الاجتماعية Social Power (ص ٥٩ ، ٦٠) .

باب في صفة ندماء الملك : يذكر الجاحظ أن من الخصال الواجب توافرها في ندماء الملك ما يلي : سلامة الجوارح والبدن والأخلاق الحسنة ، والاستقامة ، والنصح للملك ، واعتدال المزاج ، والبُعد عن الاكتئاب والسأم ، والعلم بالنادر من الشعر والحديث ، وقلة

التثاؤب والنعاس والسعال ، وإجادة الألعاب الرياضية والذهنية ، ومنها الكرة والصيد والرمي والشطرنج ، ومن حق المُلاعب أن يقوم بكل دواعي المنافسة في تلك الألعاب دون قذف أو صياح أو خروج عن الآداب .

ثم يعود الجاحظ إلى تناول حقوق الملك فيذكر أحقيته بإمامة الصلاة ولو حضرها أعلم الخلق وأكثرهم زهدًا ؛ وذلك لأنه المولى والإمام ، ثم يوضح آداب الركوب وحقوق الملك إذا مشى الناس في ركبه ، ومنها حق في ألا تسبق دابته دابة أخرى ، ومن حق الملك ألا يُسمى أو يُكنى في جد أو هزل وإنما ينبغي مخاطبته بصفة ومنها : « يا خليفة اللّٰه ، ويا أمين المؤمنين ، ويا أمير المؤمنين » ومن حق الملك أن ينفرد بالحجامة والفصد وشرب الدواء ، فإذا أتى فعلًا من تلك الأفعال لا ينبغي أن يأتيها أحد من رعيته في هذا اليوم ، بل الأولى - في رأي الجاحظ - أن ينشغل الناس بأمر الملك وطلب السلامة له ، ولا يجب التأمين على دعاء الملك أو تشميته إذا عطس ؛ لأن دعاء الملك الصالح أقرب إلى اللّٰه من دعاء الرعية ، ومن حقه ألا يعزيه أحدًا من حاشيته أو أهل بيته وإنما يعزيه من لم يحضر المصيبة أو من يوازيه في الجاه والسلطان ، ومن أخلاق الملوك سرعة الغضب ؛ نظرًا لاعتيادهم على الطاعة ؛ ولأنهم لا يسمعون ما يكرهون ؛ ولذا فإن أقل لفظ غير مستحب يؤذي نفوسهم ؛ لأنهم ألفوا العز ، ومن أخلاقهم أيضًا بطء الرضا لما فيه من استخذاء يجعله ثقيلًا على نفوسهم ، علاوة على هذا فإن غضب الملوك يترك أثرًا لا يمحوه الدهر ، ومن أخلاق الملك ألا يلقي بأسراره إلا إذا أيقن - وبعد تحقق - أن جليسه أمين وحافظ للسر .

ويمضي الجاحظ في تفصيل أخلاق الملك فيضيف إليها إكرام أهل الوفاء ، والوفاء هو أن يذكر الرجل من أنعم عليه من الخلق في حضرة الملك حتى ولو كان الملك لا يرضى عن هذا المُنعَم وإلا سكت عن ذكره بخير أو سوء إذا خاف غضب الملك عليه ، المهم أن الشخص المتصف بالوفاء لا يعزز الرأي السيء للملك فيمن سبق أن أنعم عليه إرضاء الملك ، والوفاء أيضًا إرضاء الصاحب بالمال والملبس والحافظ على عياله في حياته ومماته وهو أيضًا الشكر باللسان وبالجوارح .

ومن أخلاق الملك الاحتياط وعدم إطلاع الآخرين على مكان نومه ، ومن الواجب على أبنائه أن يعاملوه كما تعامله رعيته وألا يدخلوا عليه إلا بإذنه ، ومن خصال الملوك أن يصيبهم الملل وتسيطر عليهم شهوة الاستبدال ؛ ولذا تتفنن الرعية في أساليب معالجة الملل والحفاظ على المنزلة عند الملك ، ويرى الجاحظ أن المواضع المتوسطة بين الرضا والسخط والأخذ والمنع أقرب إلى الاستقرار وقلة التنافس ودوام النعمة .

ويجب على الملك أن يقسّم يومه بين العبادة ورعاية مصالح العباد واللهو ، وعليه أن يحدِّد مواعيد ثابتة للهوه وشربه ، ثم يبيِّن حال الشرب ، وموعده عند كثير من الملوك ، ورأيهم في شرب الخمر ؛ إذ ينسبون إليه مزايا ، منها : خفة البدن ، وذكاء العقل ، وقوة الذاكرة .

ومن أخلاق الملوك استقصاء أحوال الرعية ، وهي خصلة من أربع خصال يدوم بها الملك ، والخصال الأخرى هي :

١ - ألا يرضى الملك لرعيته إلا ما يرضاه لنفسه .

٢ - الحذر من الأفعال التي يخاف عقابها .

٣ - أن يولي على رعيته من يرضونه .

وأخيرًا يذكر أن من أخلاق الملوك الانشغال بالأمور الجلية إذا طرأت ، والمكايدة والخداع قبل الحرب حفظًا للأموال والأنفس ، أو اللجوء إلى الحرب إذا لم تنجح محاولات المكايدة والخداع .

• ومن المفاهيم النفسية الاجتماعية الواردة هنا بخلاف البناء الاجتماعي بكل عناصره ، وأنماطه ، ترد مفاهيم أخرى منها تأثير الصراع Conflict على السلطة والمنافسة Competition للحفاظ على المكانة المحترمة والقرب من الملك ، وقد بين الجاحظ الحيل النفسية والتصرفات التي يلجأ إليها الأفراد لتحقيق ذلك الهدف باختلاف مراتبهم (ص ١٣١ - ١٣٩) وقد أشار الجاحظ إلى أن المواضع المتوسطة بين القُرب أو البعد من الملك هي أفضل من حيث الاستقرار Stability والبُعد عن المنافسة (ص١٤١) .

• ومن المفاهيم النفسية الاجتماعية كذلك : بين الجاحظ أهمية القيم الخلقية Moral Values التي ينبغي أن يتصف بها ندماء الملك ومنها الصدق والوفاء والإخلاص Loyalty (ص ١١١ - ١١٧) .

وكذلك تأثيرات المكانة المرتفعة Effects of High Status في سلوك أعضاء الجماعة (ص ٩١ - ٩٢ ، ١١٧ - ١١٩) .

كما تقترب أفكار الجاحظ من مفاهيم متصلة بدراسة الشخصية Personality في تحليليه لشخصية الملك عندما بين أن الملك يكون سريع الغضب بطيء الرضا نظرًا للتعود Habituation على المعاملة الحسنة والاستخذاء من ضعف الاعتذار (ص ٩٥ - ٩٨) ، ومن سماته Traits أيضًا الجاذبية Attraction وحسن المظهر والنظافة ، والكرم Generosity

والتوازن Balance بين الجد والهزل (ص ١٥٣) ، بالإضافة إلى الذكاء Intelligence والقدرة على اتخاذ القرار Decision - Making (ص ١٧٣ – ١٧٥) . وعلى جانب آخر يبين أن المزاج السوداوي يرتبط بالحزن ويفسد المزاج ، والبلغي يطيل النوم والتثاؤب ، وأمَّا الصفراوي فهو سريع القلق كثير الحركة ، أما المزاح الدموي فهو أنسبها لمنادمة الملك ؛ نظرًا لأن من يتسمون به يتمتعون بالطاقة والنشاط والمرح والانطلاق (ص ٧٩) وهي أفكار وثيقة الصلة بمفاهيم أبعاد الشخصية Dimension of Personality خاصة الانبساط / الانطواء Extraversion / Introversion وفي مجال الشخصية أيضًا عرض الجاحظ لخطورة الانفعال على الأحكام ؛ ولذا يحذر الملك من تقرير عقوبة وهو غضبان خشية الإفراط والتجاوز .

بالإضافة إلى المفاهيم النفسية الاجتماعية والشخصية تقترب أفكار الجاحظ من مفاهيم إكلينيكية ، منها الإدمان Addiction والإفراط في شرب الكحوليات ويطلق عليها الاعتماد الكحولي Alchoholic Dependance ، وقد تفاوت رأي الجاحظ في تأثير الخمر ففي أحد المواضع يدعو الملك إلى الاعتدال في الشرب وطلب الشراب لندمائه تفاديًا لضرره على البدن (ص ٣٠) ، وفي موضع آخر يبيِّن أن شرب الكحوليات له مزايا منها صحة البدن ويقظة الفكر وقوة الذاكرة (ص ١٥٤) ، ولا مجال هنا لاستعراض الأضرار الجسمية والنفسية للخمور ويكفي أن نذكر أن أضرارها أكيدة فضلًا عن أنها محرمة .

أوجه الاستفادة من هذا الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في علم النفس الاجتماعي .

* * *

الحيوان [1]

عرض : د . شعبان جاب الله رضوان

عرض الكتاب :

يقع هذا الكتاب في سبعة أجزاء من القطع المتوسط صفحاتها ٣٨٣ ، ٤٢٨ ، ٥٠٣ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥٤٨ ، ٦١١ على التوالي ، هذا بالإضافة إلى جزء ثامن مخصص للفهارس وفيما يلي عرض لكل جزءٍ من هذه الأجزاء :

الجزء الأول :

يبدأ الجاحظ هذا الجزء بتقسيم الكائنات إلى ثلاثة أقسام : مختلف ومتفق ومتضاد ، وهي إما جماد أو نامي ، وينقسم النامي بدوره إلى حيوان ونبات ، والحيوان على أربعة أقسام : يمشي ويطير ، يسبح ، ينساح أي يمشي على بطنه ، فما يمشي منه ينقسم إلى أربعة أقسام كذلك : الناس والبهائم والسباع والحشرات ، ومن حيث البيان ينقسم الحيوان إلى فصيح وهو الإنسان ، وأعجم وهو كل ذي صوت لا يفهم إرادته أو معناه إلا من كان من نفس جنسه .

وبعد أن يضرب الجاحظ أمثلة لما يطير ويسبح وينساح من الحيوان ، يعقد مقارنة بين الإنسان والحيوان حيث إن الأخير قد فطر على أشياء يعجز عنها الحذاق من البشر . ولكن الإنسان متى أحسن شيئًا ، كان كل شيء دونه في الغموض عليه أسهل . أما سائر الحيوان – وإن كان يحسن أحدها ما لا يحسن أحذق الناس – متى أحسن

---

(١) حققه عبد السلام محمد هارون . بيروت : دار الجيل ، القاهرة : دار الفكر (١٩٨٨م) . ٨ مج .

شيئًا عجيبًا لم يمكنه أن يحسن ما هو أقرب منه في الظن وأسهل منه في الرأي ، بل ولا يحسن ما هو أقرب منه في الحقيقة .

ويمكن أن يتصل هذا الحديث للجاحظ بموضوع انتقال أثر التدريب أو التعليم لدى كل من الإنسان والحيوان ، وذلك في إطار سيكولوجية التعلم Learning (ص ٣٦) .

ويتطرق الجاحظ إلى توضيح أهمية خلط الجد بالهزل ، وأن المزاح إذا جاء علة للجد فهو جد ، ثم يعرض للكتاب وصفًا بمعناه العام ، مشيرًا إلى كونه وعاء مليئًا بالعلم ، ينطق عن الموتى ويترجم كلام الأحياء .

ويذكر أن حاجة الناس بعضهم إلى بعض أمر ضروري ، فحاجتهم إلى ما غاب عنهم كحاجتهم إلى التعاون على ما لا يضرهم ، فلم يخلق اللّه أحدًا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض من سخر له ، فأدناهم مسخر لأقصاهم ، وأجلهم ميسر لأدقهم ، ثم يشير إلى ضرورة البيان وأهميته لاجتماع الناس ، ويقسم البيان إلى اللفظ ، والخط ، والإشارة ، والعقد ؛ ويتناول فضل الخط ونفع الحساب وفضل الكتابة والقلم واليد والكتاب وحرص الزنادقة على تحسين كتبهم ، وفضل التعلم والتخصص لضروب العلم وجمع الكتب ، وأنواع الخطوط ، والكتابات القديمة ، وأهمية الكتابة في حفظ وتسجيل المعاهدات والمخالفات ، مشيرًا إلى أن الأرقام لا تقل أهمية عن الخطوط ، وكذلك اللسان وما يصدر عنه من أصوات ذات معان ، ويوضح الجاحظ علاقة الخط بالحضارة ، وأن لكل أمة نمطًا معينًا في تخليد مآثارها ، حيث كانت العرب في الجاهلية تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام والمقفى .

ويتناول بعد ذلك عددًا من الموضوعات المتفرقة منها تاريخ الشعر العربي ، وقيمة الترجمة وخصائص الترجمان وما تتعرض له الكتب المترجمة من إفساد أثناء عملية الترجمة ، والكتب المنسوخة أثناء عملية النسخ ؛ وفي ترغيب الجاحظ لتأليف الكتب يشير إلى أنها أفضل في إرشاد الناس من تلاقيهم حيث يشتد مع التلاقي التصنع والتظالم والعصبية والحمية وحب الغلبة وشهوة المباهاة والرياسة مع الاستحياء من الرجوع والأنفة من الخضوع ، وبذلك تمتنع القلوب من التعرف وتعمى عن مواضع الدلالة ، أما الكتب فيها علة تمنع من درك البغية .

ويتضمن هذا المعنى إشارة غير مباشرة لسيكولوجية الجماعات الصغيرة (جماعات المواجهة) ، وذلك عند الحديث عن تلاقي الأفراد وما يحدث من تصنع وتظالم وعصبية

أثناء تفاعلهم ، كما ينطوي هذا المعنى أيضًا على مفهوم تأكيد الذات Self-Assertiveness عند الحديث عن حب الغلبة وشهوة المباهاة والرياسة والأنفة من الخضوع ، ويتصل موضوع الجماعات الصغيرة ودينامياتها وتأكيد الذات بعلم النفس الاجتماعي (ص ٨٤) .

ويستطرد الجاحظ حديثه عن « الكتاب » إلى أنه قد يفضل صاحبه ، وإلى وجوب مواصلة السير في خدمة العلم والعناية بتنقيح المؤلفات ، كما تناول أيضًا عملية تداعي المعاني والأفكار أثناء التأليف ، فقد يبدأ المؤلف وهو يريد سطرين فيكتب عشرة وتتصل هذه الإشارة الأخيرة « عملية تداعي المعاني والأفكار » بموضوع سيكولوجية التفكير Thinking في علم النفس العام (ص ٨٨ ، ٨٩) .

ويتعرض المؤلف بعد ذلك للمقايسة بين الولد والكتاب ، وما ينبغي أن تكون عليه لغة الكتب من حيث الإيجاز والإسهاب ، ونفع الكتب في نشر الأخبار وروايتها . وينتقل إلى الحديث عن الكلب وأنه بين البهيمة والسبع ، وأن شر الطباع ما تجاذبته الأعراق المتضادة مثل الراعبي من الحمام ، والبغل ، وابن المذكرة من النساء والمؤنث من الرجال ، كما أن الشيات في الحيوان ضعف ونقص (والشية : كل لون دخل على لون ص ١٠٤) .

ويبدأ الجاحظ بعد هذه المقدمة المطولة عرضه لأبواب هذا الجزء بباب حول ما يعتري الإنسان بعد الخصاء وكيف كان قبله ، فمما يطرأ عليه بعد الخصاء أن يصبح ريحه ذا رائحة نتنة أكثر من ذي قبل ، وصنانه أحد ، ويدق عظمه ، ويترخى لحمه ، ويحدث له طول في الأقدام واعوجاج في الأصبع ، كما أن الخصي تصير طباعة مقسومة على طباع الذكر والأنثى .

ويتضمن هذا الحديث إشارة للفروق بين الجنسين (الذكور والإناث) في سمات الشخصية Personality Traits (سيكولوجية الشخصية) (ص ١٠٦ - ١٠٨) .

ويتناول كذلك طلب النسل باعتباره من حاجات النفوس وشهواتها ، وأن الأفراد يختلفون في ذلك من حيث الهدف فمنهم من يطلبه للكثرة أو بقاء الذكر أو المباهاة ، أما الحيوان فغايته قضاء الشهوة فقط ولا يطلب الولد .

ويتصل هذا الحديث عن طلب النسل بموضوع الدوافع Motives وبخاصة البيولوجية أو الأولية (دافع الجنس) في إطار علم النفس العام (ص ١٠٨ - ١١٠) .

ويكمل الجاحظ حديثه عن الخصي ، حيث يذكر أنه لا يفقد القوى الجنسية ولكنها تتحول إلى قوة المطعم وبذلك تجتمع له قوتان في المطعم فيصير شرهًا ، ويشبه في شرهه

هذا النساء ، فهن آكل من الرجال ، كما يعرض للخصي أيضًا تغير واضح في الصوت ، وإذا حدث الخصاء قبل إنبات الشعر في الأماكن المعروفة لدى الرجال فإنه لا ينبت .

وعن أثر الخصاء في الذكاء يذكر أن الخصي يكون أذكى عقلًا ، ولكن مع جودة آلاتهم ووفرة طباعهم لم تر أحدًا منهم قط فذ في صناعة تنسب إلى بعض المشقة وتضاف إلى شيء من الحكمة مما يعرف ببعد الرؤية والغوص بإدامة الفكر .

ويشير المؤلف هنا إلى أن ذلك يتعلق بخصيان الصقالبة ، أما خصيان الحبشة والنوبة والسودان فإن الخصاء يأخذ منهم ولا يعطيهم .

وعلى الرغم من افتقاد الحديث - عن الذكاء وعلاقته بالخصاء - للبرهان العلمي ، إلا أنه يندرج تحت موضوع الذكاء Intelligence في علم النفس العام (ص ١١٦ - ١١٨) .

وينتقل الجاحظ إلى الحديث عن عدد من الموضوعات المتفرقة منها خصاء البهائم والديكة والإبل وأخلاق الخصي والنتاج المركب من الحيوان ، والحكمة في اختلاف النزعات والميول ، وزواج الأجناس المتباينة من الناس ، وكذلك خصاء الإنسان من حيث المنع والإباحة ، ومحاسن الخصي ومساوئه ، وبعض ميول الخصيان من التلوط وإتيان البهائم وهذه الإشارة تتصل بموضوع اضطراب السلوك الجنسي Sexual Behavior ، (ص ١٧٢ ، ١٧٣) .

ثم يتناول صفات كل من الديك والكلب ، وأكل الهرة لأولادها ، وكذلك أكل الضب لأولاده ، واختلاف دلالة ذلك لدى كل منهما ، حيث يدل لدى الهرة على الحب ، ويشير لدى الضب إلى البغض .

ويختتم الجاحظ هذا الباب بإشارة حول إمكانية تنوع الملكات وقوتها لدى الإنسان ، حيث يوجد لدى كل إنسان استعداد فطري لإتقان صنعة بعينها .

وهذا الحديث يتضمن إشارة لمفهوم الاستعدادات الفطرية Initial Aptitudes في علم النفس العام (ص ٢٠١ ، ٢٠٢) .

ويتحدث الجاحظ في باب آخر عن ذم صاحب الديك للكلب ، والرد عليه ، ويورد في هذا الصدد الأشعار والآراء وأشار الجاحظ إلى الفروق الفردية في الاستعدادات والمواهب (ص ٢٠١) ، ثم يذكر أطيب الأشياء وأخبثها رائحة ، وعما قيل من الضربان من شعر وآراء ، كذلك أشعار العرب بشأن هجاء الكلب ، وما ورد في

الكلاب من أمثال ، ثم يختتم هذا الباب بذكر من قتل بواسطة الكبش والعنز وما قيل في ذلك من أشعار .

ويفرد الجاحظ بعد ذلك بابًا يدور حول من هُجي بأكل لحوم الكلاب والناس ويورد في هذا عددًا من أقوال الشعراء ، وكما يورد بعض الأمثال التي قيلت في شأن الكلب ، وتأويل رؤيا الكلب ، ثم يتحدث عن لؤم وجبن الكلب ، حيث يدلل على لؤمه بأنه إذا أسمنه الإنسان أكله ، وإذا أجاعه أنكره ، وأنه يتبع من أهانه ويألف من أجاعه ، ويتسم بالجبن والجراءة معًا ، وأنه ينام بالنهار ويصخب بالليل .

ويتصل هذا الحديث عن سلوك الكلب بفرع سيكولوجية الحيوان Animal Psychology أو دراسات سلوك الحيوان Animal Behavior (ص ٢٨٠ - ٢٨٦) .

ويتطرق المؤلف للحديث عن نوم الملوك ، وسبب اختيارهم الليل للسهر ، والنهار للنوم ، وعما ينبغي للأم في سياسة رضيعها عند بكائه ، فيجب عليها ألا تتركه ينام على فزع وقلق ، ولكن عليها أن تسري عنه وتجعله مسرورًا قبل نومه .

ويتصل هذا الحديث بموضوع التنشئة الاجتماعية Socialization في إطار علم النفس الاجتماعي (ص ٢٨٧) .

ثم يذكر ما ورد من الحديث والخبر في قتل الكلاب ، وبعض شؤونها الأخرى وأشار إلى المسخ في الحيوان ، وعمن خنقته الجن ، وفائدة الكلب في الحراسة والإنذار بالمخاطر ، وقتل الحيوانات الضارة مقارنًا تلك بالقصاص وإقامة الحدود على الإنسان الفاسق ، كما يتناول أصناف الكلاب ، وما قيل من الشعر فيه ، وهجاء ضروب من الحيوان ، مشيرًا إلى قول صاحب الكلب بأن الهجاء لم يقتصر على الكلب فقط وإنما عم الأصناف كلها ، وأن الهجاء بين الناس يكون لمن كثر خيره وكثر شره ، أما من ليس له فضل لا يثير الشعراء بالهجاء أو المدح .

ويتحدث الجاحظ هنا أيضًا عن الحلف (التحالف) عن العرب ، وأثر الهجاء في القبائل ، وبكاء العرب منه ، وما قيل من شعر في النباح والاستنباح ، وهنا يورد بعض القصص التي تتعلق بالأشخاص الذين يجامعون الكلاب ، وأغلبهم من الحراس ، ويشير إلى أنهم يجدون في جماعها لذة ومتعة أكثر من جماع النساء ، كما يحنون إلى هذا السلوك بعد تركه .

وفي نهاية هذا الجزء يعرض الجاحظ لبعض المسائل المتفرقة ، منها الحديث عن

جنايات الديك مثل نقره لأعين بعض الأطفال ، ويدلل بهذه الإشارة على أن الكلب ليس هو الوحيد الجاني من الحيوانات ، ثم يذكر عواء الكلب وما قيل فيه من الشعر ، وأن هجاء الكلب قد يكون مقصودًا به هجاء صاحبه وليس هو ، ويستشهد على ذلك بكثير من الأشعار .

الجزء الثاني :

يبدأ الجاحظ هذا الجزء بحديث طويل حول الكلب ، حيث يورد احتجاج صاحب الكلب بالأشعار المعروفة والأمثال السائرة والأخبار الصحيحة والأحاديث المأثورة ، وما أجد العيان فيها ، وما استخرجت التجارب منها من أصناف المنافع والمرافق وعن مواضع أخلاقها المحمودة وأفعالها المرادة ، فيبدأ بقول العرب : « إن دماء الملوك شفاء من داء الكلاب » ، ويسوق بعض الأشعار الواردة في هذا المعنى ، والذي يدل على أن العرب يزعمون أن دماء الأشراف والملوك تشفي من عضة الكَلب ، ومن الجنون أيضًا ، ويستشهد بقول الفرزدق في هذا المعنى وهو :

ولو تشرب الكلبى المراض دماءنا . شفتها وذو الخبل الذي هو أدنف

ثم يوضح الجاحظ أن بعض هؤلاء العشراء يزعم أن قولهم دماء الملوك شفاء من الكلب على معنى أن الدم الكريم هو الثأر المنيم ، وأن داء الكلب على معنى قول الشاعر :

كَلِب من حس ما قد مسه وأفانين فؤاد مختبل

وعلى معنى قوله : كلِب بضرب جماجم ورقاب .

فإذا كلب من الغيظ والغضب فأدرك ثأره فذلك هو الشفاء من الكلب ، وليس أن هناك دمًا في الحقيقة يشرب . ومع ذلك ، يسوق الجاحظ من الأشعار ما يدحض هذا التأويل ، ويمكن أن يتصل هذا الحديث ، وما يتضمنه من معاني تتصل بالثأر والغيظ والغضب ، بموضوعي العدوان Aggression ، والانفعالات Emotions (ص ٥ - ٩) .

ويتحدث الجاحظ أيضًا عن طباع الديك مقارنة بطباع الكلب ، ويورد قول صاحب الكلب بأن الكلب أعجب إلقاحًا وأثقب وأقوى وأبعد بالمقارنة بالديك ، كما أن الكلب إذا عض إنسانًا ، فأول ذلك أن يحيله نباحًا مثله وينقله إلى طباعه ، وهنا يشير إلى أسرة الأسود بن أوس بن الحمرة وابنه قدامة بن الأسود ، والتي توارثت دواء الكَلِب عبر أجيالها ، وعن أعراض الكلب يورد قول أبي الصهباء بأن من يعضه الكلب يعطش ويطلب الماء أشد الطلب فإذا أتوه به هرب منه أشد الهرب ، ويرد الجاحظ على ما

زعموا من أعراض الكلب بذكر واقعة رآها بنفسه حيث رأى كلبًا يعض صبيًا في وجهه وقد خرق اللحم وخرج منه الدم ، ثم رآه بعد ذلك بشهر وليس في وجهه من الشتر (القطع) إلا موضع الخيط فلم ينبح إلى أن برئ ، ولا هر ، ولا دعا بماء ثم يرده ، ولا أصاب مما يقولون قليل أو كثير ، ثم يورد الجاحظ مجموعة من الأشعار التي تتضمن بعض أسماء الكلاب ومنها ضبار ، ودرواس ، والأحدل ، ووثاب وغيرها .

ويكمل الجاحظ حديثه عن الكلب ، فيتحدث عن حرصه ، وتخريقه أذنيه حتى يدميها عندما يضبع وهو أن يمد ضبعه كله فيفترش ذراعيه ويبسط رجليه حتى يصيب قَصُّهُ الأرض أكثر من الفرس (ص ٢٦) كما يشير إلى معرفة أبي نواس بالكلاب وجودة شعره ، ويذكر أن من تعترض عليه العصبية ؛ فإنه لا يبصر الحق من الباطل ، ويستشهد بالأشعار الواردة في هذا المعنى (ص ٢٧) .

ويمكن أن يتصل هذا الحديث بمفهوم التعصب Prejudice أو الاتجاهات التعصبية في إطار علم النفس الاجتماعي .

وينتقل إلى الحديث عن أمارات البلوغ في الغلمان والجواري ، فيقول : إن احتلام الغلمان يعرف بأمور منها انفراق طرف الأرنبة ، وتغير ريح الإبط ، وغلظ الصوت ، ومنهم من لا يحتلم . كما أن في الجواري جوارٍ لا يحضن وذلك عيب في النساء وليس مثله في الرجال عيبًا (ص ٣٢) .

ويتضمن هذا الحديث بعض المفاهيم ذات الصلة بعلم النفس الارتقائي Developmental Psychology أو علم نفس النمو ، وهي البلوغ والاحتلام Puberty والحيض Menarche .

ويستطرد الجاحظ حديثه عن الكلب ، مشيرًا إلى بعض صفاته ؛ ومنها سرعة عدوه وجودة سيره ، مستشهدًا ببعض الأشعار الواردة في هذا الصدد ، وكذلك صفاته الجسمية التي تشير إلى فراهيته أي حذقه وجودة سيره ، ويتحدث أيضًا عن غذائه وشرابه ، وعلاجه إذا مرض .

وينتقل إلى الحديث عن عداوة بعض الحيوان لبعض ، حيث تأكل العُقاب الحيات لما بينهما من العداوة ، كما أن الغداف يقاتل البومة والحدأة ، وبين العنكبوت والعظاية عداوة ، وعصفور الشوك يعبث بالحمار ؛ وعبثه ذلك قتال له ، وهناك مظاهر أخرى لعداوة بعض الحيوان لبعض .

ويتصل هذا الحديث بموضوع سيكولوجية العدوان Aggression (ص ٥٠ ، ٥٤) .

ويتناول أيضًا أنواع الأطعمة التي يأباها بعض الحيوان ، ويقارب الكلب بالأسد في النهم ، والرجيع ، ويشير إلى كونهما متشابهين في ذلك .

ثم يتحدث عن عظال الكلاب (التلقيح) ، مشيرًا إلى أنه ليس هناك في الأرض شيئان متشابكان من فرط إرادة كل واحد منهما لطباع صاحبه ، حتى يلتحم عضو الذكر بعضو الأنثى ، وحتى يصير التحامها التحام الخلقة والبنية لا كالتحام الملامسة والملازمة - إلا كما يوجد من التحام قضيب الكلب بثغر الكلبة ، ويزعم البعض أن الذباب في ذلك كالكلب .

ومن أعاجيب الكلاب أنه إذا سفد الكلبة كلب أبقع ، وكلب أسود ، وكلب أبيض وكلب أصفر ، فتؤدي إلى كل سافد شكله وشبهه في أكثر ما يكون ذلك .

ويتصل ذلك بموضوع السلوك الجنسي Sexual Behavior أو الغرائز Instincts وموضوع الوراثة Heredity (ص ٥٧ ، ٥٨) .

وقد زعم فهد الأحزم أن الكلب إنما عرف مخرج ذلك الشيء المؤذي له حتى نبحه بالقياس ؛ لأنه إنما نبحه بعد أن توالى عليه الأذى من تلك الجبهة ، ويتضمن هذا المعنى إشارة لمفهوم التشريط Conditioning في موضوع التعلم Learning (علم النفس العام) (ص ٧٤ ، ٧٥) .

ولكن يشير الجاحظ هنا إلى أن « فهد » كان يتعصب للكلب ، ويمكن أن توحي هذه الإشارة بإمكانية وجود نوع من التعصب يمكن تسميته : « التعصب للحيوان » ، بما يمكن أن يندرج تحت موضوع التعصب Prejudice في إطار سيكولوجية الاتجاهات (علم النفس الاجتماعي) (ص ٧٤) .

وعن خير الكلاب والسنانير ، يذكر أن خير الكلاب ما كان لونه يذهب إلى ألوان الأسد من الصفرة ، والحمرة والتبقيع هجنة ، وأن خير السنانير الخلنجية ، كما أن خير كلاب الصيد البيض .

ويستطرد مشيرًا إلى أن كل شيء من الحيوان إذا أسود شعره أو جلده أو صوفه كان أقوى لبدنه ، وأن الحمام الهداء (الزاجل) إنما هو الخضر والنمر ، ويراد بالنمر ما فيه نمرة بيضاء وأخرى سوداء ، فإذا أسود الحمام صار مثل الزنجي الشديد البطش والقليل المعرفة .

ويعود الجاحظ مرة أخرى للحديث عن الكلب ، ويورد الدليل الذي يسوقه صاحب الكلب على قدره ، وهو ذكره في القرآن بالمدح والذم ، وكذلك في الحديث والأشعار

والأمثال ، وأن ما قيل فيه من الخير أكثر ومن الخصال المحمودة أشهر .

ثم ينتقل إلى الحديث عن سياسة الحزم قائلًا : إن أي رئيس كان خيره محضًا عدم الهيبة ، ومن لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة ، وقتل في موضع القتل ، وأحيا في موضع الإحياء ، وعفا في موضع العفو ، وعاقب في موضع العقوبة ، ومنع ساعة المنع ، وأعطى ساعة الإعطاء ، فإنه يكون قد خالف في تدبيره ، كما أن الناس لا يهابون ولا يصلحون إلا على الثواب والعقاب (ص ٨٧ ، ٨٨) .

وهذا الحديث عن سياسة الحزم تصل بموضع القيادة Leadership في علم النفس الاجتماعي ، ويتضمن إشارة لمفهوم الثواب Reward والعقاب Punishment .

ويتناول الجاحظ أيضًا موضوع السعادة حيث يذكر أنه ليس هناك شيء ألذ ولا أسر من عز الأمر والنهي ، ومن الظفر بالأعداء ، ومن عقد المنن في أعناق الرجال ، والسرور بالرياسة وبثمرة السيادة ؛ لأن هذه الأمور هي نصيب الروح ، وحظ الذهن ، وقسم النفس . فأما المطعم والمشرب والمنكح والمشمة ، وكل ما كان من نصيب الحواس ، فقد علمنا أن كل ما كان أشد نهمًا وأرغب كان الطعم أتم للوجدان ، وذلك قياس على مواقع الطُعم من الجائع ، والشراب من العطشان (ص ٩٨) .

ويتضمن هذا الحديث عن السعادة إشارة لمفهوم الانفعالات Emotions ومفهوم الدوافع Motives في إطار علم النفس العام .

ويشير هنا إلى تشابه طباع العامة في كل بلدة وفي كل عصر ، وهذه الإشارة منه تتصل بما يسمى حاليًا « الشخصية القومية » National Character (ص ١٠٥ ، ١٠٦) .

ويتطرق الجاحظ بعد ذلك لعدد من الموضوعات المتفرقة منها حديثه عن مبالغة الإنسان في تقدير ما ينسب إليه ، ودلالة الخلق على الخالق ، وتفسير قوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨] ، ثم يورد النماذج من الحيوان والحشرات والتي تدعو إلى التفكر وشحذ الأذهان لما فيها من الغرابة ، والعجب ومن ذلك ديدان الخل والملح وفأرة البيش والسمندل (طائر يسقط في النار فلا يحترق ريشه) .

ويتحدث عن الفروق بين الحيوان في الطباع ، وما يحسن الكلب مما لايحسنه الإنسان ومن ذلك خبرة الكلب في الصيد ، وكذلك ما يعتري الحيوان عند الفزع مثل : سلس البول والتقطير أو احتباسه .

ويواصل الجاحظ حديثه عن الكلب ، حيث يتناول ذكاءه ومهارته في الاحتيال للصيد ، وانتباهه الغريزي ووفاءه ، ومعرفته صاحبه وفرحه به حيث يفرق بين وجه صاحبه ووجه الزائر ، ويتحدث أيضًا عن أدب الكلب ، فعندما يعاقب على فعل معين مرات متعددة تتكون لديه عادة جديدة وهي عدم إصدار هذا الفعل .

هذا الحديث عن الكلب يتضمن إشارات لبعض المفاهيم النفسية وهي مفهوم الذكاء Intelligence والانتباه Attention ، والغريزة Instinct (ص ١٢٠) والعادة Habit وكذلك مفهوم التعلم Learning (ص ١٣٠) ، وذلك على الرغم من عدم الدقة في استخدام بعض هذه المفاهيم في سياق الحديث عن الحيوان مثل الذكاء والانتباه ، ولكن من الممكن أن يستفاد بهذه الإشارات عند محاولة تتبع تطور استخدام هذه المفاهيم .

وينتقل إلى الحديث عن بعض الموضوعات المتفرقة منها الحديث عن العين والحسد (ص ١٣٣) واختيار الأشياء والموازنة بينها لدى العارفين الذين متى أحيت أبدانهم بأصناف المكروه والمحبوب وازنوا وقابلوا وعايروا وميَّزوا بين أتم الخيرين وأنقص الشرين (ص ١٤٥) .

ثم يتطرق للحديث عن الإلهام لدى الحيوان ، ويتصل بمفهومي الغريزة والتعلم (ص ١٤٧) .

ويتناول أيضًا إطعام الفراخ الصغيرة لدى كل من الحمام والطائر المسمى بكاسر العظام وهو من سباع الطير بين النسر والعقاب .

ويعود للحديث عن الكلب ، فيتحدث عن أنفته ، ومن مظاهرها أنه يرضى بالنوم على عفر التراب وهو يرى ظهر البساط ، ولا يرضى بالبساط وهو يجد الوسادة ، كما أنه يتخير أنبل موضع في المجلس ، كما يتناول هراش الكلاب ، حيث يذكر أنه من بين أنواع الهراش التي يقع فيها القمار وينفق عليها ، هنا يشير أيضًا إلى التحريش بين الجرذان ؛ حيث إن الجرذ لا يقاتل الجرذ حتى يشد رجل أحدهما في طرف خيط ويشد الجرذ الآخر بالطرف الآخر ويكون بينهما من المساواة والالتقاء والعض والخمش إراقة الدم وفري الجلود ما لا يكون بين شيئين من الأنواع التي يهارش بها .

وينتقل الجاحظ إلى باب آخر حول ما يُشبه بالكلب وليس هو منه ، فيذكر أنه إذا جرى الفرس المحجل شبهوا قوائمه بقوائم الكلب إذا ارتفعت في بطنه ، فيصير تحجيلها كأنه أكلب صغار تعدو .

كما يتحدث عن بعض خصال الكلاب ؛ ومنها الكرم والصبر ، والنوم نهارًا ، وإلفها للإنسان ، ويتناول كذلك تعليم الكلب والقرد ، ويتضمن ذلك إشارة لمفهوم التعلم Learning لدى الحيوان ، ويورد بعض الأحاديث والآيات القرآنية التي ذكر فيها اسم الكلب (ص ١٤٧ ، ١٤٨) .

ثم ينتقل إلى الحديث عما يحلم من الحيوان وما يحتلم ، ومن ذلك الكلب والفرس والحمار فهي تحلم وتحتلم ، أما الصبي فيحلم ولا يحتلم ، والثور في هذا كله كالصبي (ص ٢١٦) .

ويتناول أيضًا الحديث عن الغريزة الجنسية والحمل ومدته والحيض والوضع لدى الحيوان ، والحديث عن الصرع عند كل من الحيوان والإنسان ، وكذلك تباين درجات الشكر لدى كل منهما ، ثم يشير إلى سرعة التعلم لدى بعض الحيوان (ص ٢١٦ - ٢٣٣) .

ويتضمن هذا الحديث إشارات لمفهوم الغريزة Instinct ، ومرض الصرع Epilepsy ومفهوم الإدمان Addiction ، ومفهوم التعلم Learning .

ويشير الجاحظ في هذا الباب أيضًا إلى صفات الديك ومنها الشجاعة ، والصبر والجولان وهو ضرب من الروغان ، والانتصاب إذا قام ، ومعرفة ساعات الليل ، ومقادير الأوقات ، ويورد الأحاديث النبوية التي قيلت في شأن الديك ، ومنها أن رسول اللَّه ﷺ نهى عن سب الديك وقال : « **إنه يؤذن للصلاة** » (ص ٢٣٣) .

ثم يتحدث عن كيفية معرفة الديك من الدجاجة إذا كان صغيرًا ، وما قيل من الشعر في حسن الدجاجة ونبل الديك ، وطعن صاحب الكلب في الديك مشيرًا إلى قوله : بأن الأشياء التي تألف الناس لا تريد سواهم كالعصفور والخطاف والكلب والسنور ، وأن الديك مما يتخذه الناس وليس مما يحن إليهم فيقطع البلاد نزعًا ويكون كالقواطع من الطير التي تريدهم كالخطاف ، وليس هو كالكلب الذي لا يعرف سواهم ، كما أن الديك لا يحن إلى دجاجة ولا يألف منزله ولا يشتاق إلى ولده .

كما يسوق المؤلف قول صاحب الكلب في السنور والهرة بأن السنور يعرف ربة المنزل ويألف فرخ الحمام ، ويعابث فراريج الدار ، وأنه إذا سرق وربط شهرًا عاد عند انفلاته وانحلال رباطه ، وأما الهرة فهي تعرف ولدها وإن صار مثلها ، وإن أطعمت شيئًا حملته إليه وآثرته به .

وينطوي هذا القول على مفهومي التعلم والدوافع (دافع الأمومة) .

ويختتم هذا الباب بالحديث عن استخدام الخناقين - وهم من المنصورية أصحاب أبي منصور الكسف - للكلب ، ويورد بعض الخبر والشعر بشأنهم ، وكذلك بشأن رثاء بعض الحيوان .

وينتقل الجاحظ إلى باب آخر يدور حول بعض المسائل اللغوية المتفرقة كالمؤنث والمذكر من الحيوان (ص ٢٨٤ - ٢٨٨) .

ثم يتحدث عن بدء الإبصار لدى أولاد السباع وبخاصة جرو الكلب الذي يظل أعمى عشرة أيام وأكثر بعد ولادته .

ويتعلق ذلك بموضوع النمو الحسي عقب الولادة عند الكلاب .

كما يتناول أيضًا عدد من الموضوعات المتفرقة منها الحديث عن خبث الثعلب وحيله ، والتقامر بالبيض ، وقتل الحيات والكلاب ، وهديل الحمام ، وعما يصيح من الطير مع الفجر والصبح كالبوم والضوع والعصافير ، ويتحدث كذلك عن صوت الديك وما قيل فيه من الشعر ، وعن الطيور التي تخرج من وكرها بالليل كالخفافيش والوطواط ، ثم يسوق مجموعة من الأشعار التي وردت في الهامة والصدى والدجاج وهجائها .

ومن هذه الموضوعات أيضًا حديثه عن لؤم الغراب وضعفه وألوان الغربان وأنواعها والتشاؤم بالغراب والتعاير بأكل لحمه ، ويورد هنا روايات من أحاديث العرب وأشعار لأمية بن أبي الصلت عن الغراب والديك والحمامة .

وكذلك الحديث عن العصافير وتحننها وتعطفها على أولادها ، ووفائها وحذرها ، وهدايتها إلى الطريق الذي تريده ، وسفادها وأثره في عمرها ، فليس في الطير أكثر سفادًا من العصافير ، ولذلك يقال إنها أقصر الطير أعمارًا .

ويتصل هذا الحديث عن العصافير وتحننها على أولادها ، وسفادها بموضوع الدوافع Motives وبخاصة الدوافع الأولية (ص ٢٦٢ ، ٢٦٣) .

ويشير في حديثه عن العصافير إلى ما يطلق عليه نقزان العصفور أي (الوثب) ؛ إذ إنه لا يقدر على المشي وليس عنده إلا النقزان ، وليس يسمى النقاز ، فهو يجمع رجليه ، ثم يثب في جميع حركاته .

ويعود الجاحظ مرة أخرى للحديث عن الديك وسماجة صوته ، وصغر قدر الدجاج ، ويورد بعض الأشعار في هذا المعنى .

ويتحدث عن حضن الدجاج بيض الطاووس ، وحضن الحمام بيض الدجاج ، ويذكر صفات بيض كل من الدجاج والطاووس .

ثم يذكر بعد ما ورد من الحديث والخبر في الديك ، وبعض الموضوعات الأخرى ، ومنها الحديث عن الكف والركبة لدى الإنسان وذوات الأربع ، وأسنان الإنسان ، والتفاؤل بالدجاجة .

ويورد هنا أيضًا جزءًا من وصية عثمان الخياط للشطار ، وجزءًا من قصيدة أحمد بن زيادة بن أبي كريمة في الكلب والفهد .

ويختتم الجاحظ هذا الجزء بحكاية طريفة رواها دعبل الشاعر عندما أقام سهل بن هارون وذلك بهدف استنشاط القارئ ودفعًا لسآمته .

الجزء الثالث :

يتضمن هذا الجزء عددًا من الأبواب المختلفة ، يبدأها الجاحظ بباب ذكر الحمام ، حيث يتناول فيه الحمامة وما أودعها الله ﷻ من ضروب المعرفة ومن الخصال المحمودة حتى يدري القارئ حكمة الصانع وإتقان صنع المدبر .

ويبدأ بسرد مجموعة من الأخبار والروايات والمواقف الهزلية التي تتضمن حججًا وعللًا طريفة بهدف استنشاط القارئ وإدخال السرور في نفسه ، ويورد أيضًا مقتبسات من نوادر الشعر ومن شعر الغزل والحكم والزهد والتشبيه .

ثم ينتقل إلى باب آخر يدور حول صدق الظن وجودة الفراسة ، ويسوق بعض الأشعار التي تتحدث عن جودة الظن وصدق الفطنة ، ومن ذلك قول أوس بن حجر :

الألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

وأشعار أخرى حول الاتعاظ والزهد والغزو والسيادة والمجد وهجاء السادة والرثاء .

وفي باب آخر حول المديح بالجمال وغيره ، ويورد مجموعة من الأشعار التي قيلت في مدح الجمل والأشخاص والقبائل والكرم وتمجيد الأقارب (ص ٩١) ، ثم يتحدث في باب آخر عن الغضب والجنون في المواضع التي يكون فيها محمودًا ، فيورد أيضًا مجموعة من الأشعار في هذا المعنى (ص ١٠٥ - ١٠٩) ؛ ويتصل الحديث عن الغضب بموضوع الانفعالات Emotions ، كما يرتبط مفهوم (الجنون) بمصطلح المرض العقلي أو الذهان Psychosis ، ثم يورد مقتطفات متفرقة من الشعر والأقوال المأثورة ، منها ما جاء - على سبيل المثال - في الخصب والجدب (ص ١١٤) .

وينتقل إلى باب آخر يدور حول الفطن الرطانات والكنايات والفهم والإفهام عمومًا ، ويورد في هذا الصدد أخبارًا وروايات تتضمن معنى الفهم .

ويتصل الحديث عن الفهم بموضوع الذكاء Intelligence في علم النفس العام (ص ١٢٢ - ١٢٥) .

ويورد بعد ذلك أشعارًا متفرقة في صفة الخيل والجيش وتعظيم الأشراف ، والحلف والعقد (ص ١٢٦ - ١٣٤) .

ثم ينتقل إلى باب آخر حول خصال الحرم والمدينة ، فمن خصال الحرم أن الذئب يصيد الظبي ويريغه ويعارضه فإذا دخل الحرم كف عنه ، كما لا يسقط على الكعبة حمام ما دام غير عليل ، ومن ذلك أيضًا أنه إذا أصاب المطر الباب الذي من شق العراق كان الخصب والمطر في تلك السنة في شق العراق ، وإذا أصاب الذي من شق الشام كان الخصب والمطر في ذلك السنة في شق الشام ، وإذا عم جوانب البيت كان المطر والخصب عامًّا في سائر البلدان ، أما المدينة فمن خصالها أنها تتميز برائحة طيبة عطرة تعادل أضعاف ما يوجد في غيرها من البلدان .

وفي باب آخر ، يعود الجاحظ للحديث عن الحمام ، الذي أشار إليه في بداية هذا الجزء ولم يتناوله ، فيتحدث عن أجناس الحمام ؛ ومنها الوحش ، والأهلي ، والبيوتي والطوراني ، ويشير إلى مناقبه ومنها حبه للناس ، وأنس الناس به ، وصدق رغبته في النسل ، فإذا علم الذكر أنه قد أودع رحم الأنثى ما يكون منه الولد تقدمًا في إعداد العش في الموضع الذي قد رضياه واتخذاه واصطنعاه بقدر جثمان الحمامة ، كما يعتني الذكر والأنثى بالبيض والفراخ ، فالحمام : يخرج الحب من حوصلته إلى حوصلة ولده وهو ما يعرف بزق الحمام ، ويتحدث عن القوة التناسلية لدى الحمام ، مشيرًا إلى أنه يفوق في ذلك جميع الحيوان (ص ١٤٩ - ١٥٩) .

ويتصل الحديث عن رعاية الحمام ؛ لولده ، وعن القوة التناسلية لديه بموضوع الدوافع Motives في علم النفس العام .

ويذكر بعض عجائب الحمام ؛ ومنها أنه يقلب بيضه حتى يصير الذي كان منه يلي الأرض يلي بدن الحمام من بطنه وباطن جناحه حتى يعطي جميع البيض نصيبها من الحضن ، ومن مس الأرض ؛ لمعرفته أن خلاف ذلك يفسده ، ويتناول بعض أوجه الشبه بين الحمام والناس ، ومن ذلك أن ساعات الحضن أكثرها على الأنثى ، والأنثى كالمرأة

التي تكفل الصبي فتفطمه وتمرضه وتتعهده بالرعاية ، وهنا يشير إلى قول مثنى بن زهير بأنه لم ير شيئًا قط في رجل وامرأة إلا وقد رأى مثله في الذكر والأنثى من الحمام ، ومن ذلك أن أي حمامة لا تريد إلا ذكرها كالمرأة لا تريد إلا زوجها .

ويتحدث أيضًا عن المدة التي يبيض فيها كل من الحمام والدجاج ، وهي عشرة أشهر في العام ، ويسوق المعارف والمعلومات المتعلقة بالبيض لدى الطيور عمومًا ، وبتربية الطيور فراخها واختلافها في ذلك .

وينتقل إلى الحديث عن إحساس الحيوان بعدوه ، فيذكر أن النعجة ترى الفيل والجاموس فلا يهزها ذلك ، ولكنها ترى الأسد فتخافه ، وليس عن تجربة وإنما نتيجة لما طبعت عليه من تمييز الحيوان ، ويتصل هذا الحديث عن الخوف لدى الحيوان بموضوع الانفعالات Emotions والغرائز Instincts (ص ١٨٧) .

ويشير الجاحظ إلى اختلاف الناس في الحكم على بلاهة الحمام أو خرقه ، فمنهم من يذكر : (كونوا بلهًا كالحمام) ، ومنهم من يقول : (أخرق من حمامة) ، ويتصل هذا الحديث عن بلاهة الحمام بموضوع الذكاء Intelligence ، كما يشير إلى ما وصف به الحمام من الإسعاد ، وحسن الغناء والنوح ، وهو ما يتصل بموضوع الانفعالات Emotions (ص ١٨٩ - ٢٠٩) .

ويذكر بعض خصائص الحمام ، ومنها : حسن الاهتداء ، وجودة الاستدلال ، وثبات الحفظ والذكر ، وقوة النزاع إلى أربابه والإلف لوطنه ما ليس لشيء غيره .

ويتضمن هذا الحديث عن خصائص الحمام إشارات لبعض المفاهيم هي : الاستدلال Reasoning والحفظ أو الذاكرة Memory لدى الحمام (ص ٢١٤) ، ثم يتحدث عن سرعة طيران الحمام ، والوقت الملائم لتمرين فراخها وهو وقت جوعها ، وقبل المغرب ، وانتصاف النهار ، ويمكن أن تتصل هذه الإشارة عن تمرين فراخ الحمام بموضوع التعلم (ص ٢٢٠ - ٢٢٥) .

وينتقل الجاحظ إلى باب آخر حول كرم الحمام ، مشيرًا إلى أن من علامات ومظاهر هذا الكرم لدى الحمام الألف والأنس والنزاع والشوق ، وأن ذلك يدل على ثبات العهد وحفظ ما ينبغي أن يحفظ وهو خلق صدق في بني آدم فكيف إذا كان ذلك الخلق في بعض الطير ! (ص ٢٢٧ - ٢٢٩) .

وينطوي هذا المعنى على مفهوم العادة Habit ، ويتحدث في هذا الباب أيضًا عن

بعض الموضوعات المتفرقة منها قص جناح الحمام وأثر ذلك على طيرانه ، وأجنحة الملائكة ، وأعضاء المشي لدى كل من الحيوان والإنسان ، واستعمال الإنسان رجليه فيما يعمله في العادة بيديه ، وقيام بعض الناس بأعمال دقيقة في الظلام ، واختلاف أحوال الناس عند سماع الغرائب ، ثم يورد بعض ما قيل من الشعر في نوح الحمام وفي بيوتها .

وفي باب آخر حول الحمام أيضًا ، يتحدث الجاحظ عن لؤم الحمام وقسوته ، والتي من مظاهرها أنه إذا رأى في البيت طائرًا ذكرًا ضعيفًا ، فإن الذكر الأشد ينقر رأسه ، ثم يافوخه حتى ينقب عنه ويظل ينقر هذا المكان بعد النقب حتى يخرج دماغه فيموت بين يديه ، ويتضمن هذا المعنى إشارة لمفهوم العدوان Aggression (ص ٢٥٥ ، ٢٥٦) .

كما يتطرق للحديث عن تلهي الناس بالحمام ، واتخاذه وسيلة للهو واللعب ، والحديث عن قواطع السمك ومجيئها إلى البصرة ، ومعرفة العرب والأعراب بالحيوان ، وانتخاب الحمام أو الخصائص والعلامات التي يجب أن تتوفر فيه ، والحديث أيضًا عن أمراض الحمام وعلاجها ، ثم يتحدث عن تعليم الحمام ، وتدريبه على الطيران ، وورود الماء ، وترتيب الزجل .

ويتصل ذلك بموضوع التعلم Learning لدى الحيوان ، ويشير كذلك إلى كيفية علاج الحمام الفزع أي المصاب بالخوف والذعر والفزع .

ويتصل هذا الحديث عن فزع الحمام وخوفه بموضوع الانفعالات Emotions ، ويختتم هذا الباب ببعض الروايات والأخبار والنوادر التي وردت بشأن الحمام .

وينتقل إلى باب آخر يدور حول الذبان (جمع كلمة ذباب) حيث يذكر أن هناك من الخلق ما هو دقيق وصغير ، ويدل على اللّٰه تعالى دلالة العظيم والجليل ، ويتناول أيضًا عددًا من الموضوعات المتفرقة ذات الصلة بالذبان ، ومن ذلك الحديث عن نفوره من بعض الأشياء ، والخوف على من عضه الكلب الكَلِب من الذبان ، والحديث عن سفاد الذباب وأعمارها ، وبعض خصالها ومنها قرب الحيلة لصرف أذاها ودفع مكروهها ، وأكل الذبابة للبعوضة (ص ٢٩٨ - ٣٠٤) .

ويسوق بعض المعارف المتفرقة عن الذباب ، ومنها : أن سكان بلاد الهند لا يطبخون قدرًا ولا يعملون حلوى ولا يكادون يأكلون إلا ليلًا لما يتهافت على طعامهم من الذباب ، كما أن الذبان ليس له قائد ولا أمير ، ويتحدث عن الأصوات المكروهة ، ومنها غطيط النائم ، وعما يقتات بالذباب كالخفافيش والعنكبوت .

وينتقل بعد ذلك للحديث عن تقليد الحيوان للحيوان وتعلمه منه ، ويتصل مفهوم التقليد بموضوع التعلم لدى الحيوان (ص ٣٣٩) ، كما يشير إلى خلق بعض الحيوان من غير ذكر وأنثى (ص ٣٦١) ، ثم يذكر أن هناك بعض أجناس من الحيوان توصف بالغناء ؛ ومنها الحمام والبعوض ، ويعود للحديث عن الذبان ، فيذكر بعض الأمور العجيبة فيه ، وأذاه للدواب ، وألوانه ، وجهله حيث يغشى النار من تلقاء نفسه حتى يحترق ، ويختتم القول في هذا الباب بالحديث عن النوم وعجائبه لدى الحيوان مشيرًا إلى أن هناك بعض الحيوان لا ينام .

وينتقل بعد ذلك إلى القول في الغربان ، فيشير إلى ذكر الغراب في القرآن الكريم ، وأن له فضيلة وأمرًا محمودًا ليس لغيره من جميع الطير ؛ لما وضعه اللّٰه تعالى في موضع تأديب الناس ، ولما جعله الواعظ والمذكر بذلك وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ [المائدة : ٣١] (ص ٤٠٩ - ٤١٤) .

ويسوق مجموعة من الأشعار والأمثال تدور حول موضوعات مختلفة تتعلق بالغربان ، ومنها تعرض الغربان للإبل ، ونقر الغراب للعيون ، ويتحدث بعد ذلك عما يسمى بغراب البين ؛ حيث إن كل غراب يقال له غراب البين إذا أرادوا به المشؤم ، ولكن غراب البين نفسه هو غراب صغير .

ويمكن أن يتصل الحديث عن التشاؤم بالغراب بموضوع المعتقدات Beliefs ، ثم يذكر الدليل على أن الغراب من شرار الطير ، ويتحدث عن صوت الغراب ، وأسمائه ، وشدة نقره وما يتفاءل به من الطير والنبات ، وعداوة الحمار للغراب ، والأنواع الغريبة من الغربان وكيفية تسافدها .

ويتضمن هذا الحديث عن التفاؤل والتشاؤم إشارة لمفهوم المعتقدات ، كما يتضمن الحديث عن عداوة الحمار مفهوم العدوان لدى الحيوان .

ويختتم هذا الباب بمجموعة من الأشعار المستحسنة في موضوعات متفرقة كالزهد والحكمة (ص ٤٧٣) .

وينتقل الجاحظ إلى باب آخر فيمن يُهجى ويُذكر بالشؤم من الأشخاص ، ومنهم - على سبيل المثال - صالح الأفقم ، الذي قال فيه دعبل بن علي إنه كان لا يصحب رجلًا إلا مات أو قتل أو سقطت منزلته ، ويسوق أشعارًا متفرقة في المديح والهجاء ،

وفي عين الرضا وعين السخط (ص ٤٨١) .

ومن الممكن أن يتصل هذا الحديث عن المدح والهجاء ، والرضا والسخط بموضوع الانفعالات Emotions ، نظرًا لما يعكسه ذلك من حالات شعورية تتسم بالسرور في حالة المدح والرضا ، وتتسم بالحزن في حالة الهجاء والسخط .

وفي باب آخر ، يتحدث الجاحظ عن مديح الصالحين والفقهاء ، فيسوق بعض الأشعار الواردة في هذا الصدد ، ومن ذلك قول ابن الخياط في مدح مالك بن أنس ، وقول الحسن ابن مالك الشامي في رثاء الأصمعي (ص ٤٩١) .

ثم ينتقل إلى باب آخر عن الجعلان والخنافس ، حيث يشير إلى أعاجيبها ، وأن الأعراب تزعم أن هناك تسافدًا بين ذكور الخنافس وإناث الجعلان ، ويؤدي هذا إلى خلق ينزع إليها جميعًا ، وأن من عادات الجعل حرسه للنيام (ص ٤٩٦) .

وفي باب آخر يتحدث الجاحظ عن الهدهد مشيرًا إلى أنه طائر منتن الريح والبدن من جوهره وذاته ، ومن غير عرض يعرض له ، ولكن الأعراب يجعلون ذلك النتن شيئًا خامره بسبب تلك الجيفة التي كانت مدفونة في رأسه ، كما يشير الجاحظ إلى زعمهم بأن الهدهد هو الذي كان يدل سليمان عليه السلام على مواضع المياه في قعور الأرضين إذا أراد استنباط شيء منها ، ثم يذكر أن الهدهد لا يتخذ عشه إلا من الزَبل (ص ٥١٠ - ٥١٤) .

ويختتم الجاحظ هذا الجزء بالحديث عن الرخَم والخفاش ، فيقارن بين الغراب والرخمة من حيث القوة ، ويذكر أن الرخمة تلتمس لبيضها المواضع البعيدة ، والأماكن الوحشية ، والجبال الشامخة ، وصدوع الصخر .

أما الخفاش فهو طائر شديد الطيران ، كثير التكفي في الهواء ، سريع التقلب فيه ، ولا يجوز أن يكون طعمه إلا من البعوض ، وقوته إلا من الفراش ، وهو مع ذلك ليس بذي ريش ، وإنما هو لحم وجلد ؛ ولذلك فإن طيرانه بلا ريش عجب ، وكلما كان أشد كان أعجب ، ومن أعاجيب الخفاش أيضًا أنه لا يطير في ضوء النهار ، ولا في ظلمة الليل ، ولذلك يلتمس وقت الغروب للبحث عن رزقه وقوته ، ويتسم الخفاش بأنه طائر ضعيف وقوي البصر ، وليس له منقار مخروط ، وله فم فيما بين مناسر السباع وأفواه البوم ، وأسنانه حادة وصلبة ، وفي هذا الباب أيضًا يتحدث الجاحظ عن علاقة الأذن بنتاج الحيوان ، وعما يحيض من الحيوان كالأرانب والضباع .

ويعود الجاحظ للحديث عن أعاجيب الخفافيش مشيرًا إلى أنها تترك ذرى الجبال ، وبسيط الفيافي ، وأقلاب النخل ، وأعالي الأغصان ، ودغل الغياض ، والرياض وصدوع الصخر ، وجزائر البحر ، ومجيئها تطلب مساكن الناس وقُربهم ، ثم تقصد أرفع مكان وأحصنه .

وأخيرًا يشير إلى أن الخفاش موصوف بطول العمر ، وأن بصره يصلح على طول عمره ، كما أن له صبرًا على فقد الطُّعم .

الجزء الرابع :

يتضمن هذا الجزء عدة أبواب ، ويبدأها الجاحظ بباب حول النمل ، فيتناول خصائص النملة ، ومنها أنها تدخر للشتاء في الصيف ، وتخاف على الحبوب التي ادخرتها للشتاء في الصيف أن تعفن أو تسوس ، كما تتميز النملة بصدق الشم لما لا يشمه الإنسان الجائع ، وبعد الهمة والجراءة على محالة نقل شيء في وزن جسمها مائة مرة ، ويستشهد على كلام النمل من القرآن ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [النمل : ١٨] .

ويورد بعض الأمثال والأشعار والأحاديث ، والآثار الواردة في النمل ، ثم ينتقل للحديث من أجناس الحيوان التي تدخر قوتها ومنها الذر والنمل والفأر والجرذان والعنكبوت والنحل وفي نهاية هذا الباب يتحدث عن أجنحة النمل حيث يذكر أنها من أسباب هلاكه .

وفي باب آخر ، يتحدث الجاحظ عن القرد والخنزير ، فيبدأ بسرد ما ذكر في القرآن عن الحيوان ، ثم يتحدث عما ذكر منها بالذم والنقص والهوان ، وما ذكر منها بأمور محمودة ، وهنا يشير إلى بعض مساوئ الخنزير ، ومنها قبح المنظر والصوت واللواط المفرط ، وأنه يشترك مع القرد في المسخ .

ويذكر بعض الأنواع التي تؤكل من الحيوان ، والأقوام التي اعتادت ذلك ، ويشير إلى ما يقبل الأدب من الحيوان مثل الفهود والبوازي والشواهين والصقورة والعقاب ، وتتصل هذه الإشارة عن قابلية بعض الحيوان للأدب بموضوع التعلم Learning .

ومن طباع الخنزير أن الذكر يقاتل في زمن الهيج فلا يدع خنزيرًا إلا قتله ، وتتصل هذه الخاصية عند الخنزير بموضوع العدوان ، كما أن من خصائص الخنزير أنه إذا قلعت عين واحدة منه هلك ، ويصل عمره إلى حوالي خمسة عشر عامًا .

ويعود الجاحظ للحديث عن الهدهد ، مشيرًا إلى مسألته مع سليمان ﷺ ، وأن هذا الهدهد ليس كغيره من الهدهد ، وإنما كان مسخرًا وميسرًا من اللّه تعالى .

ثم يكمل القول في الخنزير ، مشيرًا إلى تحريم لحمه ، وإلى قوته وشدة احتماله ، وأنه من أقوى الفحول على السفاد ، وشبه صوته عندما يضرب بصوت الصبي المضروب .

وبعد ذلك يتحدث عن القرد وطباعه ، ومنها أن يضحك ويطرب ، ويتناول الطعام بيديه ويضعه في فيه ، ويأنس الأنس الشديد ، وإذا سقط في الماء غرق ولم يسبح ، كما يحكى عنه من شدة الزواج ، والغيرة على الأزواج مالا يحكى مثله إلا عن الإنسان .

ويتصل هذا الحديث عن ضرب القرد وضحكه وغيرته على الأزواج بموضوع الانفعالات ويختتم الجاحظ هذا الباب بالحديث عن هجرة السمك .

وينتقل إلى باب آخر حول الحيات ، فيتحدث عن احتيالها لصيد صغار الطير ، وإعجابها باللبن والبطيخ ، وعن قوة بدنها ، ويتناول أيضًا خصائص الأفعى وعجائبها وسمومها ، وعداوة الورل للحيات حيث إنه يأكلها ، وكذلك شراهة الحية والأسد ، وأنواع الحيات وعمرها وفزع الناس منها وعُتله ، ويتصل هذا الحديث عن فزع الناس من الحيات بموضوع الانفعالات .

ويتناول الجاحظ في هذا الباب أيضًا عددًا من الموضوعات المتفرقة منها الحديث عن جسم الحية وبيضها وسفادها ، وآثارها في الرمال ، وروعة جلدها ، وأنواعها ، ثم يورد بعض أقوال الشعراء ، والمتكلمين في رق الحيات .

كما يشير إلى التأثيرات المختلفة للأصوات في السلوك لدى كل من الإنسان والحيوان ، ويختتم هذا الباب بالحديث عن العقرب وسمها ، وسلخ الحيوان ، وأنواع العيون ، وألوانها لدى الإنسان والحيوان .

وفي باب آخر عن الحيات أيضًا ، يورد الجاحظ بعض الأمثال والأشعار والروايات والأخبار الواردة في الحيات والأفاعي والأوزاغ ، ويسوق بعض المعلومات عن جلد الحية ، ونفعها وسلخها ، وأكل الأعراب لها .

ثم يتحدث في باب آخر عن عدد من الموضوعات المتفرقة ، منها شبه النعامة بالبعير والطائر ، وتقليد الغراب للعصفور .

كما يتحدث عن عظام النعامة وبيضها ، وما قيل فيها من الشعر ، وضررها حيث إنها إذا رأت في الجارية قرط خطفته لتأكله ، ويتناول أيضًا مسكن النعامة ، فهي تسكن

السهل ولا ترقى الجبال ، ثم يورد أشعارًا في النعام .

وينتقل الجاحظ بعد ذلك للحديث عن الصم من الحيوان ، مشيرًا إلى قول العرب بأن هناك ضربين من الحيوان لا يسمعان الأصوات هما الأفاعي والنعام ، ولكن الناس انقسموا في شأن صمم النعام إلى فريقين يذهب أحدهما إلى القول بالصمم ، ويذهب الآخر إلى القول بالسماع ، ويورد الأشعار التي يحتج بها كل فريق منهما ، كما يسوق الآيات والأخبار والأمثال التي وردت في الصمم ومعناه ، كما تحدث عن الشم لدى بعض الحيوانات ، ومن ذلك النعامة والفرس والذئب والذر .

ويتحدث كذلك عن الإنسان الأخرس ، وقول المتكلمين في صممه ، فالأخرس أصم وأنه لم يؤت من العجز عن النطق لشيء في لسانه ولكنه إنما أبى في ذلك ؛ لأنه حين لم يسمع صوتًا قط مؤلفًا أو غير مؤلفٍ لم يعرف كيفيته فيقصد إليه ، والصم يتفاوتون في مقدار الصمم فهم ليسوا بدرجة واحدة ، كما يشير الجاحظ إلى الأعمى من ولد الحيوان مثل الجرو (ولد الكلب) الذي لا يفتح عينيه إلا بعد عشرة أيام أو أكثر ، وأنه قد يعرض شبيه بذلك لكثير من السباع .

ثم يتحدث عن الشم ودرجاته لدى بعض الناس والحيوان كالنعام والسباع والفأر والذر ، ويتطرق إلى مسألة من يرون أن صيد الحيوان وذبحه وقتله يعد قسوة ، وأنه يؤدي إلى التهاون بدماء الناس ؛ لأن الرحمة شكل واحد ، فمن لم يرحم العصفور لم يرحم الصبي ، ثم يرد على هذا الزعم بالحجج والبراهين التي تدحضه وتدل على تناقض أصحابه في القول والسلوك ، وفي نهاية هذا الباب يورد أشعارًا متفرقة .

ويختتم الجاحظ هذا الجزء بالحديث عن النيران وأجناسها ومواضعها ، ومن ذلك : نار القربان ، ونار الاستمطار ، ونار التحالف والحلف ، ونار المسافر ، والزائر الذي لا يحبون رجوعه ، ونار الحرب ، ونار الصيد والبيض وهي التي توقد للظباء وصيدها ، والتي يطلب بها بيض النعام ، وغير ذلك من أنواع النيران .

كما يتحدث عن نيران الديانات ، وعمن عظم النار ، وعمن استهان بها ، وعمن أفرط في تعظيمها حتى عبدها كالمجوس ، والمواضع التي عظم فيها شأن النار ، وتنويه القرآن الكريم بشأنها .

الجزء الخامس :

يبدأ الجاحظ هذا الجزء بتمام القول في النيران ، والذي قد بدأه في الجزء الرابع ،

فيتحدث عن نيران العرب والعجم ، ونيران الديانة ، ومبلغ أقدارها عند كل ملة ، وما يكون منها مفخرًا ، وما يكون منها مذمومًا ، وما يكون صاحبها بذلك مهجورًا .

ثم ينتقل إلى الحديث عن المجاز والتشبيه بالأكل ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا ﴾ [النساء : ١٠] ، وكذلك الحديث عن مجاز الذوق ؛ كقول الرجل إذا بالغ في عقوبة عبده : ذق ، وكيف ذقته ؟ وكيف وجدت طعمه ؟ .

وهنا يتطرق الجاحظ إلى قول النظام في علاقة الذكاء بالجنس ، بأن الأمة التي لم تنضجها الأرحام ، ويخالفون في ألوان أبدانهم ، وأحداق عيونهم ، وألوان شعورهم سبيل الأعتدال ، لا تكون عقولهم وقرائحهم إلّا على حسب ذلك كون أخلاقهم وآدابهم وشمائلهم (ص ٣٥ ، ٣٦) .

وتجدر الإشارة إلى أن النظام يقصد بالأمة التي لم تنضجها الأرحام الجنس الأبيض وهم سكان الإقليم السادس والسابع في التقسيم البلداني القديم .

ويتصل قول النظام هذا عن علاقة الذكاء بالجنس ، بموضوع الفروق الحضارية في الذكاء والأخلاق ، وينطوي تحت ما يسمى بالدراسات الحضارية المقارنة - Cross Cultural Studies .

ويتحدث الجاحظ بعد ذلك عن أركان العالم ، فيورد قول الدهرية في ذلك ، حيث إن منهم من قال بأن العالم يتكون من أربعة أركان هي : حر وبرد ويُبس وبلةَ ، كما أن منهم من زعم أن هذا العالم من أربعة أركان هي : أرض وهواء وماء ونار ، ويورد أيضًا قول الديصانية بأن العالم من ضياء وظلام ، وأن الحر والبرد واللون والطعم والصوت والرائحة إنما هي نتائج على قدر امتزاجها ، ثم يورد رد النظام على هذا الزعم ، ونقده لبعض مذاهب الفلاسفة (ص ٤٠ - ٥٢) .

ويشير الجاحظ في باب آخر إلى أن الصفرة متى اشتدت صارت حمرة ، ومتى اشتدت الحمرة صارت سوادًا ، وكذلك الخضرة متى اشتدت صارت سوادًا (ص ٥٨ - ٥٩) .

ويعود للحديث عن النار وألوانها ؛ حيث يذكر أن النار تتغير في ألوانها في العين على قدر جفوف الحطب ورطوبته ، وعلى قدر أجناس العيدان والأوهان ، فنجدها شقراء وخضراء إذا كان حطبها مثل الكبريت الأصفر ، ويسوق من الأشعار ما قيل في ألوان النار وعلة اختلافها .

ويذكر الجاحظ هنا أيضًا تعظيم المجوس للنار ، ويورد بعض الأخبار والأشعار التي

قيلت في البرودة والثلج وصفة الحر والصواعق ، ويتناول ما قيل في النار وحسنها وتعظيم الله لشأنها .

ثم يتحدث عن الماء ، وما قيل فيه ، وزعم أصحاب الأعراض بأن الهواء سريع الاستحالة إلى الماء ، والعكس ، ويشير إلى قول أحد المتكلمين في النفس بأنها من جنس النسيم الذي بفساده تفسد الأبدان ، وبصلاحه تصلح ، كما أنها - أي النفس - القائمة في الهواء المحصور عرضة لهذه النفس المتفرقة في أجرام جميع الحيوان (ص ١١٢ - ١١٣) .

ويعود الجاحظ مرة أخرى للحديث عن النار وما لها من الخصال المحمودة ، مشيرًا إلى أن الطفل لا يناغي شيئًا كما يناغي المصباح ، وأن تلك المناغاة له في تحريك النفس وتهييج الهمة والبعث على الخواطر وفي فتق اللهاة وتسديد اللسان وفي السرور الذي له في النفس أكرم أثر (ص ١١٩) .

ويمكن أن يعكس هذا الحديث بعض المفاهيم ذات الصبغة النفسية ، حيث يتضمن إشارة للغة عند الطفل (المناغاة) ، ومفهوم الانعكاس Reflex عند نظر الطفل للمصباح ، ومفهوم الانفعال Emotion والذي يبدو في سرور الطفل عند نظره للمصباح .

كما يتطرق للحديث عن قول الأديان في النار ، وكذلك ما قيل من الآيات والأخبار والأشعار في الماء وصفته وفضله .

ثم يستأنف الجاحظ حديثه عن الحيوان والطير بالقول في العصافير ، حيث يجمع ما ذكر فيها في مواضع متفرقة في هذا الباب ، فيذكر أن العصافير من بين أجناس الطير التي تألف دور الناس فهي لا تفارقهم ، وإن وجدت دار مبنية لا تسكنها حتى يسكنها إنسان ، ومتى سكنتها لم تقم فيها إذا خرج منها ذلك الإنسان ، فبمفارقته تفارق وبسكناه تسكن ، وقد يدرب العصفور ويثبت فيستجيب من المكان البعيد ، أي أنه يعود منه مع التدريب ، وهذه فضيلة للعصفور ، حيث نجد أن الحمام مثلًا لا يقيم معهم في دورهم إلَّا بعد أن يعلموه ويرتبوا حاله ويدرجوه .

ويتصل هذا الحديث عن تدريب كل من العصفور والحمام بموضوع التعلم Learning في إطار علم النفس العام (ص ٢٠٣ - ٢٠٥) .

ويذكر ضروب الطير والفراخ والأجناس التي تعايش الناس كالكلب والنسور والفرس والبعير ، والحمار ، والبغل ، والحمام ، والخطاف ، والزرزور ، والخفاش ، والعصفور ، ثم

يذكر الأجناس الفاضلة من الحيوان ، وهي التي تتميز فيها الذكورة من الأنوثة في الشكل ، كالرجل والمرأة ، والديك والدجاجة ، والعصفور والعصفورة ؛ لأن العصفور الذكر له لحية سوداء .

ويتناول بعد ذلك حب العصافير لفراخها مشيرًا إلى أنه ليس في الأرض طائر وسبع ولا بهيمة أحنى على ولده ولا أشد به شغفًا وعليه إشفاقًا من العصافير (ص ٢١٠ - ٢١٢) .

ويتضمن هذا الحديث إشارة لمفهوم الدوافع Motives وبخاصة دافع الأمومة ، كما يتناول أجناس الحيوان التي لا يستطيع أن يُسمح له بالمشي ومنها الضبع ؛ لأنها خلقت عرجاء ، وكذلك الذئب والظبي . وأما ما يجيد المشي من الحيوان والطير فمنه الذباب والقطاة ، ويتحدث الجاحظ هنا أيضًا عن بعض الخصال في العصافير ، ومنها كثرة عدد السفاد ، وأن العصفور لا يستقر ما كان خارجًا من وكره ، ويصبح مع الصبح ، كما أن الناس يضربون المثل بأحلام العصافير لأحلام السخفاء ، وتلجأ العصافير إلى حجرة الضباب عند شدة الحر .

وعند صيد العصافير يشير إلى أنها تصاد بأهون حيلة ، فيصيد الرجل منها في اليوم الواحد المائتين وهو وادع .

وينتقل بعد ذلك للحديث عن العقارب والفأر والسنانير مشيرًا إلى وجود عداوة بين الفأر والعقارب ، وكذلك بين السنانير والفأر ، وهنا يتطرق للحديث عن مظاهر العدوان لدى بعض الحيوان كالديكة والكلاب والكباش والجرذان (ص ٢٤٥ - ٢٤٨) .

ثم ينتقل للحديث عن السنور وما له فيه فضيلة على جميع أصناف الحيوان ما خلا الإنسان ، حيث يزعم الجاحظ هنا أن السنور يستطيع نطق عدد من الحروف ، ويدلل على ذلك بسماع تجاوب السنانير وتوعد بعضها لبعض في جوف الليل ؛ ومع ذلك فإن الدراسات الحديثة تنفي وجود اللغة لدى الحيوان ، كما يوضح العلة في صعوبة بعض اللغات ، منتهيًا إلى أن من أعون الأسباب على تعلم اللغة فرط الحاجة إلى ذلك ، وعلى قدر الضرورة إليها في المعاملة يكون البلوغ فيها والتقصير عنها .

وتتصل هذه الإشارة عن تعلم اللغات بموضوع سيكولوجية التعلم ، كما تتضمن مفهوم « الدافع للإنجاز » ويتصل بموضوع الدافعية .

وفي باب آخر يفصل القول في الفأر ، فيتحدث عن فأر المسك ، وفأر البيش ،

والسمندل ، وبيت الفأر ، كما يتحدث عن هيج الحيوان ، مشيرًا إلى أن كل أنثى من جميع الحيوان - ما خلا المرأة - فلابد لها من هيج في زمان معلوم ، ثم لا يعرف ذلك منها وفيه إلا بالدلائل والآثار أو ببعض المعاينة .

ويتصل هذا الحديث عن هيج الحيوان بموضوع الدوافع وبخاصة الدافع الجنسي (ص ٣١٢) .

ثم ينتقل إلى الحديث عن أثر البيئة في العقيدة ، مشيرًا إلى دور عملية التنشئة والتقليد في اكتساب العقيدة وانتقالها عبر الأجيال (ص ٣٢٦ - ٣٢٨) .

وتتضمن هذه الإشارة عن كيفية اكتساب العقيدة مفهوم التعلم الاجتماعي Social Learning في موضوع التعلم ، ومفهوم التنشئة الاجتماعية Socialization ومفهوم التقليد Imitation .

ويتحدث أيضًا عن الهرة وحملها وإيثارها على نفسها ونقلها لأولادها في المواضع من الخوف عليها (ص ٣٤٥ ، ٣٤٦) .

ويتضمن هذا الحديث عن الهرة مفهومي الدوافع (دافع الأمومة) ، والانفعالات وبخاصة انفعال الخوف .

ثم يعود للحديث عن العقرب ، مشيرًا إلى نفعها وأعاجيبها ومنها أنها لا تسبح ولا تتحرك إذا ألقيت في الماء سواء كان الماء ساكنًا أو جاريًا ، كما أنها تطلب الإنسان وتقصده نحوه ، فإذا قصد نحوها فرت وهربت ، كما يذكر أن هناك اختلافًا بين سموم العقارب ، واختلاف علاجها ؛ ثم ينتقل الجاحظ إلى عدة أبواب أخرى يتحدث فيها عن القمل والصؤاب والبراغيث والبعوض ، والبق والجرجس والشران ، والعنكبوت ونسجها ، والقراد ، والحبارى ، ويورد أشعارًا في ذلك كله ، كما يتناول أيضًا الحديث عن النحل ونظامه في تقسيم العمل في الخلية ، وعن نفع العسل مستشهدًا بما ورد فيه من آيات قرآنية وأحاديث ، ويتحدث كذلك عن الضأن والماعز مشيرًا إلى ما يفضل به منهما الآخر من حيث الصفات والخصال والمنافع .

ويورد خلال هذا الحديث ما ذكره له المكي من أن زوجته كانت ذات صُنان وأنه - أي المكي - كان معجبًا بذلك منها ، ونهاها عن إزالة هذه الرائحة لارتباطها بشهوته الجنسية ، وتتضمن هذه الحكاية عن المكي وزوجته إشارة لموضوع الاضطرابات الجنسية Sexual Disorders (ص ٤٦٧ ، ٤٦٨) .

كما يسوق الجاحظ هنا بعض الأحاديث والأخبار الواردة في الغنم ويورد مفاخرة بين صاحب الضأن وصاحب الماعز .

وينتقل الجاحظ بعد ذلك إلى القول في الضفادع ، فيذكر بعض الأعاجيب والمعارف عنها ، ومن ذلك أن الضفدع لا يصيح ولا يمكنه الصياح حتى يدخل حنكه الأسفل في الماء فإذا صار في فمه بع الماء صاح ، كما أن الضفادع تعيش في الماء وتبيض في الشط ، وليس لها عظام وهي من أجحظ الخلق عينًا .

ويختتم باب الضفادع بذكر بعض الأشعار والآثار الواردة فيها .

ويتحدث بعد ذلك عن الجراد مشيرًا إلى بعض المعارف عنه ، ويذكر بعض المعتقدات عما يضر من الأشياء ، كالقول بأن شرب الماء في الليل يورث الخبل ، وأن النظر إلى المحتضر يورث ضعف القلب ، ويمكن أن يتصل هذا الحديث عما يضر من الأشياء بموضوع المعتقدات Beliefs .

وينتقل بعد ذلك للحديث عن القطا ، حيث يذكر أعجوبة لها ، وهي أنها لا تضع بيضها إلا أفرادًا ، ويورد بعض الأشعار فيها ، وفي تشبيه مشي المرأة بمشيها .

ويختتم الجاحظ هذا الجزء بذكر نوادر وأشعار وأحاديث حول موضوعات ومواقف متفرقة كالمدح والهجاء .

الجزء السادس :

يبدأ الجاحظ هذا الجزء بمقدمة عامة يتناول فيها الخطوط ومنافعها وضرورة وضعها ، والحاجة إلى المنطق ، ثم يسرد الأبواب السابقة واللاحقة من هذا الكتاب ، ويذكر علة عدم إفراد باب للسمك ، وهي عدم وجود شعر يستشهد به على ما قيل فيه ، والشك في أخبار البحريين والسماكين ، ويتحدث كذلك عن معرفة العرب للآثار الأنواء والنجوم ، والشك واليقين .

ويبدأ أبواب هذا الجزء بالقول في الضب وجحره وما قيل فيه من الشعر ، والموضع الذي يختاره الضب لعمل جحره فيه ، حيث يتخذه عند أكمة أو صخرة أو شجرة ؛ لأنه يتسم بالنسيان ، ومن ثم فهو يتخذ من هذه الأشياء علامة ترشده إلى موضع جحره وتسهل عليه العودة إليه عندما يخرج للطعم (ص ٤٢) .

وتتصل هذه الإشارة عن موضوع جحر الضب بمفهوم الذاكرة Memory .

ويتحدث عن أكل الضب ولده ، ويورد الأشعار التي قيلت في هذا الصدد ، وقول

من ينكره ، ويسوق بعض الأعاجيب والغرائب عن الضباب ؛ ومنها طول الذماء وهو بقية النفس وشدة انعقاد الحياة والروح بعد الذبح وهشم الرأس ، ومنها أيضًا طول العمر واتخاذه الجحر في الصلابة والارتفاع .

وعن صفات بعض الحيوان يشير الجاحظ إلى أن الضب يتصف بالخبث والمكر كما أن الثور والجمل الفحل والناقة تتصف بالكبر ، وهنا يذكر أسماء بعض القبائل العربية التي تتصف بالكبر ، كما يشير إلى أن الكبر في الأجناس الذليلة من الناس أرسخ وأعم ، ولكن الذلة والقلة مانعتان من ظهور كبرهم .

وهذه الإشارة عن الكبر لدى الناس يمكن أن تتصل بسيكولوجية الأخلاق Morality (ص ٧٠ - ٧٢) .

ويكمل الجاحظ حديثه عن الضب فيورد بعض أقوال العلماء في تناسلها ، وقول العوام وأهل الكتاب في المسخ ، والقول فيمن استطاب أكل لحم الضباب ومن عافه ، كما يتحدث عن بيض الضبة وعدده ، وعداوتها للحية ، ثم يورد أشعارًا وأمثالًا وردت في الضب .

وينتقل بعض ذلك للحديث عن الجن ، وتزاوجه من الأنس ، وما قيل في الجن من الآيات القرآنية والأخبار والأشعار ، كما يتحدث حول من ادعى من الأعراب والشعراء أنهم يرون الغيلان ويسمعون غزيف الجان ، وحول ما يشبهون بالجن والشياطين وبأعضائهم وبأخلاقهم وأعمالهم .

ويتطرق الجاحظ هنا لعدة موضوعات حول الجن منها الحديث عن مواضع الجن ومراتبه ، وزواج الأعراب له ، ورؤيته ، وطعام الجن وشرابهم ورؤوس الشياطين .

وينتقل إلى الحديث عن تعليل ما يتخيله الأعراب من عزيف الجان ، وتغول الغيلان حيث يذكر أن الوحدة والخلوة والبُعد عن الناس يؤدي إلى الخوف والهم ، وأن الفكر ربما كان من أسباب الوسوسة ، وإذا استوحش الإنسان تمثل له الشيء الصغير في صورة الكبير وارتاب وتفرق ذهنه فرأى ما لا يرى وسمع ما لا يسمع .

وينطوي هذا الحديث عن تعليل الجاحظ لما يتخيله الأعراب من عزيف الجان ، على بعض المفاهيم ذات الصلة بالمرض النفسي وهي مفهوم الوسوسة Obsession ومفهوم الهلاوس Hallucination (البصرية والسمعية) ، ومفهوم الانفعال Emotion (وبخاصة انفعال الخوف) ومفهوم اضطراب التفكير Thought disorder وذلك من خلال إشارة

الجاحظ عن تفرق الذهن وحدوث الهلاوس البصرية والسمعية (ص ٢٤٨- ٢٥٢).

ويتحدث الجاحظ بعد ذلك عن نزول العرب بلاد الوحش والحشرات والسباع مستشهدًا بالأشعار الواردة في هذا المعنى ، ثم يتطرق للجد من أمر الجن فيشير إلى مسألة استراق الشياطين السمع ، والقائلين بهذا والرد عليهم بالأدلة العقلية والنقلية من القرآن ؛ والتي تشير إلى أن من يحاول استراق السمع فإنه سيتعرض للإحراق بالنار والقذف بالشهب ، ومن ذلك الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الجن .

ويورد الجاحظ بعد ذلك أشعارًا متفرقة ، منها قصيدتان مطولتان لأبي سهل بشر بن المعتمر وردتا في شأن أصناف بعض الحيوان والطير والحشرات ، كما يورد تفسيرًا لهما ، وهما قد جمعتا كثيرًا من الغرائب والفرائد ، ونبه من خلالهما على وجوه كثيرة من الحكمة العجيبة والموعظة البليغة المستخلصة من ذكر هذه الأصناف وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأصناف من الحيوان والطير والحشرات قد ورد الحديث عنها عبر أبواب الأجزاء السابقة من هذا الكتاب .

وخلال ذلك يتطرق الجاحظ إلى الحديث عن الأرانب وصفاتها وبعض أعاجيبها .ومن ذلك أنها تحيض ، وتنام مفتوحة العين ، كما يتحدث عن منافعها من جلد ووبر ولحم وطيب ، وفي باب آخر يتحدث عن الجبن ووهل الجبان ، ويورد أشعار متفرقة في هذا المعنى ، ويتصل الحديث بمفهوم الانفعالات Emotions وبخاصة انفعال الخوف (ص ٢٤٨ - ٢٥٢) . ويعود للحديث عن أصناف من الحيوان كالضبع والقنفذ والحرقوص والورل وما قيل فيها من الشعر ، وكذلك خصال الذئب والفهد ومنها أن الذئب ينام بإحدى عينيه كما تزعم الأعراب ، وأن الفهد أنوم الخلق ، ونومه مصمت أي خالص ، ثم يورد بعض الأشعار التي قيلت في الذئب والفهد ، كما يشير الجاحظ هنا إلى أن من الحيوان الذي يدرب فيستجيب ويكيس وينصح العقعق ، وأنه إذا زجر عرف ما يراد منه ، وتتصل هذه الإشارة بموضوع التعلم لدى الحيوان .

ويختتم الجاحظ هذا الجزء بذكر بعض المتفرقات من النوادر والأشعار والأحاديث ، ومن ذلك أحاديث عن أعاجيب المماليك ، وأشعار في إنقاص الصحة والحياة ، وفي المرض والموت والرثاء ، ومقتطفات شعرية متفرقة .

الجزء السابع :

يبدأ الجاحظ هذا الجزء باستعراض ما قد فصله في الأجزاء الستة السابقة فيما يتعلق بأحاسيس أجناس الحيوان المختلفة ، ثم ينتقل إلى إجمال ما سوف يفصله في هذا الجزء

من موضوعات ، ويلي ذلك حديثه عن اتباع الرخم والنسور والعقبان للجيوش ، وتوقعها القتال وحصولها على الجيف ، وكذلك تتبعها للحجاج للحصول على كسير الدواب ، ويشير الجاحظ هنا إلى أن هذا السلوك يدل على ذكاء هذه الطيور .

وعلى الرغم من عدم استخدام مفهوم الذكاء في دراسات علم النفس الحيواني المعاصرة ، إلا أن هذه الإشارة منه يمكن أن تصنف في إطار تاريخ تطور مفهوم الذكاء Intelligence (ص ٢٢) في علم النفس الحيواني ، وينتقل بعد ذلك للحديث عن عدد من الموضوعات المتفرقة منها حديثه عن قتل المكاء للثعبان ، وحزم فرخ العقاب ، واختلاف عادات صغار الحيوان ، وكذلك حديثه عن الختان لدى الرجال والنساء ، وظمأ الإبل إذا أكلت الحيات ، وتعلق رؤوس الحيات في بدن الإبل ، ونصول قرن الوعل ، وبيوت الزنابير ، وصيد الظربان للضب ، وبعض خصائص الدب والعقاب ، وما قيل حول حمق الأجناس المائية وفطنتها ، وحيلة الضب واليربوع ، وبعض خصائص الإبل ومنها أن الناقة تعرف الكلمات المراد بها الزجر ، ويتصل هذا الحديث عن معرفة الناقة لكلمات الزجر بموضوع التشريط Conditioning في إطار سيكولوجية التعلم Learning ضمن موضوعات علم النفس العام (ص ٤٤ - ٥٨) .

كما يتحدث الجاحظ عن قدرة الحيوان على رفع اللبن والتحكم في عدم إنزاله ، وعن حشر الحيوان في اليوم الآخر ، وما جاء من القرآن الكريم في ذكر الطير ، وأسماء ما في النجوم والبروج والناس وغير ذلك - من أسماء الطير - كما يشير هنا إلى أن الطير لها منطق تتفاهم به فيما بينها ، وأنها تعقل في حدود حاجاتها ، وربما يتعلق ذلك بمفهوم الذكاء Intelligence وتطوره كما سبق أن أشرنا (ص ٥٦ - ٥٨) .

ويتناول أيضًا ما جاء في الشعر من إحساس الحيوان والطير ، وهنا يشير إلى أن الحيوان لديه ما يمكن أن نطلق عليه الانفعالات Emotions ، حيث يضرب مثلًا بالحباري وأنها إذا تحسرت فأبطأ نبت ريشها نبت ولم تتزامن مع صويحباتها في الطيران تموت كمدًا من الحزن (ص ٦٠) .

وفي باب حول اختلاف طبائع الحيوان وما يعتريها من الأخلاق يذكر المؤلف أن الذئب لا يطمع في صاحبه ولكنه إذا دمى وثب عليه فأكله ، وأن الغنم تتسم بالعجز والجبن أمام الذئاب ، والحمار إذا دمى ألقى نفسه على الأرض لا يبرحها ، ولكنه يمتنع عمن يريده بالعض وكل ما يقدر عليه ، وتلخيص ذلك أن الحيوانات تختلف في ردود أفعالها عندما تصاب بأذى .

ويمكن أن يندرج هذا الحديث عن طبائع الحيوان تحت موضوع سيكولوجية السلوك العدواني Aggressive Behavior لدى الحيوان (ص ٦٣ - ٦٥) .

وينتقل إلى باب آخر حول ما يستدل به في شأن الحيوان على حسن صنع الله ﷻ ، ويتطرق هنا إلى ذكر أنواع الحيوان والطير التي تبيض وتلك التي تلد وترضع ، وكيفية حدوث ذلك لدى كل نوع منها على حدة ، ويشير إلى أسماء مواضع الفراخ والبيض ، وأكثر الحيوان بيضًا مثل السمك والجراد والعقارب ، وأن الحمام من أقل الحيوان بيضًا ويشير إلى حكمة ذلك ؛ كما يذكر أثر الإلقام والزق في الحيوان ، فالذي يلقم فرخة يكون أقوى من الطائر الزاق ، وكذلك ما يتزاوج من الحيوان ؛ كالعصافير والحمام والنعام .

ويتناول بعد ذلك بعض صفات الفيل ومنها شدة قلبه وأسراره وجرأته على ما هو أعظم بدنًا ، وأشد قلبًا ، وهربه ممن هو أصغر جرمًا ، ويذكر هنا أن الفيلة تطيع سواسها وتفهم ما يطلب منها كأن يطلب منها ضرب إنسان باستخدام ضروب معينة من الكلام .

ويتصل ذلك بموضوع سيكولوجية التعلم Learning في علم النفس العام (ص ٧٥ - ٨٧) .

ويستطرد الجاحظ حديثه عن الفيل مشيرًا إلى أن الفيلة تضع لسبع سنين ولدًا مستوي الأسنان ، وأن الموت للذكور أسرع ، ويذكر ما جاء في الفيلة من الشعر ، وما ورد في كليلة ودمنة من الأمثال في شأنها ، ويتحدث عن قوة الفيلة وسباحتها وأعضائها التناسلية .

ثم ينتقل الحديث عن أنواع العداوات لدى كل من الإنسان والحيوان ، فمن عدوات الإنسان ما هو بسبب المشاكلة في الصناعة أو التقارب في الجوار أو النسب ، أما عدوات الحيوان فمنها عداوة الغراب للحمار وعداوة البوم للغراب .

ويتصل هذا الحديث عن العدوات بسيكولوجية العدوان Aggression .

كما يعرض الجاحظ في هذا الجزء أيضًا لبعض الموضوعات المتناثرة منها مبارزة الجاموس للأسد ، وخوف الفيل من السنور ، وتداوي أهل الحبشة والنوبة بأضراس خيل الماء وأعجافها ، وقتال الفرس للفرس ، ومصاولة الجمل للجمل ، وهياج الفيل وقتاله في الحرب ووصف خرطومه ، ويشير إلى مثالب الفيل ومنها عدم الانتفاع بلحمه ولبنه ، وسمنه ، على الرغم من أنه عظيم المؤنة ومرتفع الثمن ، وإلى بعض صفاته ومنها أنه

أفقم ، قصير العنق ، مقلوب اللسان ، ضئيل الصوت .

ويعرض الكتاب كذلك لتدريب الفيل على السجود للملوك ، وفهمه للغة الهندية ، ومحاكاة الببغاء لكلام الناس ، وفهم بعض الحيوان له ، ويتصل هذا الحديث عن تدريب الفيل بموضوع التعلم Learning لدى الحيوان (ص ٢١٨) .

ويواصل الجاحظ حديثه عن الفيل ، حيث يذكر أن الفيلة لا تلد التوائم ، وأن أمراضها أقل من أمراض غيرها من الحيوانات ، كما أنها تأنس وتلقن سريعًا ، وأن الفيل لا يعاود الأنثى للضراب إذا لقحت ، وهو في ذلك سواء مع الجمل .

ثم ينتقل إلى باب آخر حلو « الظلف » وهي الظباء وهي ماعز ، والماعز أجناس ، كما أن البقر الوحشي ذات أظلاف ، وهي بالماعز أشبه منها بالبقر الوحشي ، وهي في ذلك تسمى نعاجًا ؛ ومن الظلف كذلك الوعل والثيتل والتامور والإبل والخنازير والجواميس ، وفي هذا الباب يتحدث عن الزرافة ، وما قيل من أنها نتاج مشترك من النمرة والجمل ، وعن تسافد الأجناس المختلفة ، وما ينتج عنها من نسل مشترك منها ، وأنواع القرون ، وأنها لدى الفيلة تكون من الذكور فقط دون الإناث ، وكذلك السفاد لدى الخنازير ، ويلي هذا حديثه عن تعليم الذئب وتأليفه ، وأنه قد يعلم ويدرب بحيث يكون صيادًا ، وأورد في هذا حكاية من فعل ذلك ودرب الأسد أيضًا .

ويدخل هذا الحديث عن التعليم والتدريب في إطار سيكولوجية التعلم .

ويختتم الجاحظ هذا الجزء بالحديث عن بعض الأمور المتفرقة منها حديثه عن الضب والأرضة والورل ، ويورد بعض النوادر من الشعر والخبر .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجالي علم النفس العام ، وعلم النفس الاجتماعي .

* * *

الكندي (ت ٢٥٦هـ)
رسائل الكندي [١]

عرض : د . عبد المنعم شحاته محمود .

التعريف بالمؤلف [٢] :

أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي ، من قبيلة كندة ، إحدى قبائل الحجاز وكان أبوه واليًا على الكوفة في خلافة المهدي والرشيد العباسيين ، وقد ولد عام (١٨٥هـ ، ٨٠١م) وتوفي عام (٢٥٦هـ ، ٨٧٠م) ، ونشأ بالبصرة وتعلم في بغداد ، وكان مترجمًا ومتبحرًا في علوم الطب والفلسفة والمنطق والحساب والهندسة والكيمياء والموسيقى والفلك (علم النجوم) ، ويعد أول من نقل فلسفة اليونان إلى الثقافة العربية ، وقد فقدت معظم رسائله الفلسفية ، ونشر ما بقي منها في مجلدين بعنوان : « رسائل الكندي الفلسفية » يتضمن أولها اثني عشرة رسالة ، وثانيهما إحدى عشرة رسالة .

عرض رسالة (الحيلة لدفع الأحزان) :

يتناول الكندي في هذه الرسالة أسباب الحزن وكيفية التغلب عليه ، معتبرًا أن الحزن ألم نفسي (نفساني) ناتج عن فقد المحبوب وفوت المطلوب ، وحتى لا نحزن علينا ألَّا

---

(١) تحقيق عبد الرحمن بدوي - (ط٣) . بيروت : دار الأندلس (١٩٨٣م) . المحتويات : في العقل - الحيلة لدافع الأحزان في : رسائل فلسفية للكندي والفارابي ... تحقيق عبد الرحمن بدوي .

(٢) المصدر : تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، د. محمد علي أبو ريان ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية (١٩٨٠م) . (ص ٣٣٩ - ٣٤٢) .

نرغب فيما هو حسي ، ونكتفي منه بالمشاهدة ، والتخيل العقلي ؛ لأن كل محسوس معدوم بطبعه ، وحتى لا نعدم ما نحب نكتفي برسم صورته في الذهن ، فهذه الصورة غير موقوتة ، بعكس أصلها ، ولا تنالها الآفات أو الفوات ، وعلينا ألَّا نطلب ما ليس في طبعه الدوام ؛ لأنه ليس موجودًا ، ومن أراد ما ليس موجودًا شقي ، ويجب ألا نكون أشقياء بأن نطلب ما تهيأ لنا فقط من المحسوسات ، ونكتفي من ما لا يتهيأ لنا ويتمتع به الناس ، بتثبيت صورته في العقل بالقدر الذي يمتعنا ، ونعوِّد أنفسنا على الاستغناء عنه ، فالاستغناء من أخلاق الملوك ، أما الشره فمن أخلاق صغار العامة ، وحري بذوي العقول أن يختاروا أخلاق الملوك وأن يريدوا ما هو كائن ، فمن أراد ما لا يكون دام حزنه ، والحزن والسرور ضدان لا يثبتان معًا في النفس ، فمن كان محزونًا لم يكن مسرورًا ، وينبغي ألا نحزن على ما فات حتى نظل مسرورين .

ويؤكد الكندي أن المحبوب الحسي ليس محبوبًا بذاته ، وإنما بالعادة وكثرة الاستعمال ، ويضرب الأمثلة على استمتاع الناس بأمور منفرة ؛ فالمقامر يحزن إذا لم يقامر مع أن المقامرة تفقده الأموال ، والمبارز يحزنه عدم المبارزة التي تؤدي إلى القتل ... إلخ ؛ لأن كلًّا منهما تعود الاستمتاع بهذا الفعل ، أي أننا يمكننا تعود السرور بالمشاهدة دون التملك ، والسلوة عما فات ، وإذا كنا نهتم بعلاج الجسد ، فالأجدر أن نفضل علاج النفس ، فالنفس سائس وباق ، والجسد مسوس ودائر ، والحزن من آلام النفس ، فعلاجه أفضل وأوجب ، ويكون بتعود طلب ما تهيأ لنا فقط وعدم الأسف على ما فات ، أي أنه عزم على المصلح لنا والتزام النفس العادة المحمودة ، مع مراعاة التدرج من الأصغر إلى ما هو أكبر منه ، فإذا اعتادت ذلك ، ترقى إلى ما هو أكبر منه ، بذلك تسهل العادة ، ويسهل الصبر على الفائتات .

ويقدم الكندي نصائحه (حيله) حتى لا نحزن وهي :

أولًا : نحدِّد أسباب الحزن ، فإذا كانت نتيجة فعل نصدره بإرادتنا ، فنحن إذًا نريد (الفعل المسبب للحزن) ما لا نريد (الحزن) وليس عاقلًا من يريد ما لايريد ، وينبغي ألَّا نكون كذلك ؛ أما إذا كان الحزن نتيجة فعل آخرين فهذا الفعل إما باستطاعتنا دفعه عنا فندفعه ولا نحزن ، وأما لا نستطيع دفعه ، حينئذ علينا بالصبر فقد يدفعه عنَّا من سببه ، فإذا لم يحدث ذلك ، ينبغي أن نجتهد في تقصير مدته وتلطيفه .

ثانيًا : ومن أفضل الحيل لذلك ، أن نتذكر محزناتنا التي سلونا عنها قديمًا ومحزنات

غيرنا وسلوتهم عنها ، والمقارنة بينهما وبين محزناتنا الآن ، سنجد أن المحزنات القديمة كانت أكبر ، ومع ذلك سلونا عنها ، ومن هذا يكتسب قوة عظيمة على السلو .

ثالثًا : وأن نتذكر أن كل ما فاتنا وفقدناه قد فات آخرين وفقده الكثيرون ، وكلهم قنع بقوته ولم يحزن ، فالحزن وضع لا طبع ، وينبغي ألا نضع لأنفسنا شيئًا رديئًا ، فمن فعل ذلك غير عاقل .

رابعًا : ونذكر أنفسنا أن الكون لن يخلو من المصائب ؛ لأنها ناتجة عن الفساد ، والفساد من طبائع الأشياء جميعها ، ولن يسلم منها شيء أو فرد ، ولا يعقل أن نطلب شيئًا خارج الطبع ، فلن تناله ، وشقي من يطلب ما لا يناله .

خامسًا : وكل ما هو محسوس ملك الناس جميعًا ، ولا نحصل عليه إلا بالتغلب ، ويجب ألا نحزن إذا فشلنا في الحصول عليه ، وألا نحسد من حصل عليه ؛ لأن من حقه الحصول عليه مثلنا تمامًا .

سادسًا : وكل ما هو محسوس مشترك بين الناس ، وهو معنا بالإعارة ، يعود إلى طالبه متى شاء وعلى يد من أحب ، وعلينا رده عن طيب خاطر ، وقليل الشكر من يحزن على رد ما استعار ، وعلينا ألا نكون كذلك .

سابعًا : ولكي نقلِّل مصائبنا علينا بالتقليل مما نمتلك من قنيات ؛ لأن فقدانها يسبِّب الحزن ، ووجودها يضَيِّق المحل ويتطلب الحرص والحراسة والحفظ ويزيد من القلق والمخاوف عليها والتعلق بها ، والحزن إذا أصابها العطب .

ثامنًا : ينبغي أن نكره ما هو رديء ، ويعتقد أن ليس هناك بد من الموت ، والموت من تمام طباعنا ، وليس برديء أن نكون ما نحن ، فالموت إذًا ليس برديء ، وإذا كان مايظنه الناس أردأ الأشياء ليس برديء ، فما هو دونه من المفقودات الحسية ليس برديء .

تاسعًا : وعلينا أن نتشاغل عند فقد شيء ما ، بتذكر ما بقي لنا من قنياتنا الحسية والعقلية وتعدادها ، ففي ذلك سلوى عن فقد الشيء المفقود .

عاشرًا : وعلينا أن نتذكر أن فقد الشيء ليس مصيبة وإنما نعمة ؛ لأن من لم يقتن الخارجات عنه مَلَكَ مسترقى الملوك أي الغضب والشهوة .

هذه وصايا التخلص من الحزن .

يقدم الكندي في هذه الرسالة إرهاصات جيدة لأساليب العلاج السلوكي المعاصرة ، فهو يكرس رسالته لعلاج الحزن الناتج عن الفشل في الحصول على المرغوبات أو فقدها ،

أي طبقًا لمصطلحات علم النفس لعلاج الإحباط Frustration ، ويوظف في ذلك عددًا من المبادئ التي لا تختلف عما هو منشور حديثًا ، مثال ذلك :

أولًا : يشير الكندي إلى أن السعادة والحزن مكتسبان ؛ إذ يقول : « إن المكروه والمحبوب الحسي ليس شيئًا في الطبع لازمًا ، بل بالعادات وكثرة الاستعمال » (ص ١٠) ، متفقًا بذلك مع نظرة « سيكنر » في التعلم الشرطي الأدائي Operant التي تعتبر أن السلوك يكتسب إذا تكررت نتائجه الإيجابية أو أوصل إلى تحقيق مرغوب ، وينطفئ إذا ترتب عليه عقاب أو مكروه .

ثانيًا : يقول الكندي إن علاج الحزن يتم بـ « التزام النفس العادة المحمودة في الأمر الأصغر الذي لزومه سهل علينا ، ثم نرتفع من ذلك إلى لزوم ما هو أكبر منه ، فإذا اعتادت ذلك ترقى بها إلى ما هو أكبر في ذلك في درج متصلة حتى تلزمها العادة » (ص ١٢) . أي أن تعلم العادات يجب أن يتم على خطوات متصلة ولا يكون الانتقال من خطوة إلى أخرى إلا بعد تعلمها جيدًا ، وهذا التدرج لا يختلف كثيرًا عن مبدأ التشكيل Shaping ، حيث يقسم السلوك المراد أن يكتسبه الفرد إلى خطوات متتابعة ، ويدرب الفرد على اكتساب كل خطوة منها ، حتى يكتسبها ، فيتم الانتقال إلى الخطوة التالية ، وهكذا يتم اكتساب السلوك .

ثالثًا : يبدأ الكندي علاجه للحزن بتحديد أسبابه ؛ إذ يقول : « فينبغي أن نبين ما الحزن وأسبابه ، لتكون أشفيته ظاهرة الوجود ، سهلة الاستعمال » (ص ٦) ، « ومن أدويته السهلة : أن نفكِّر في الحزن ونقسِّمه إلى أقسامه » (ص ١٢) متفقًا في ذلك مع المبدأ الأول والأساسي للعلاج النفسي الحديث وهو : « فهم دقيق ونوعي لأسباب السلوك المرضي » .

رابعًا : يعتبر الكندي أن تخيل ما لا نناله وسيلتنا للتغلب على الحزن الناتج عن بُعد مناله ؛ إذ يقول : « بل تكون إذا شاهدنا الأشياء التي يتمتع بها الناس من المحبوبات في العقل أعني قدر ما بالنفس إليه في متناول يديه ، ويستمتع بهذا التخيل أكثر من الاستمتاع بالشيء الأصلي ؛ لأن الشيء الأصلي معدوم بطبعه ، أما الصورة الذهنية فهي في العقل دائمًا لا تنتزع ، وقد استخدم التخيل في أكثر من أسلوب للعلاج النفسي منها : التسكين المنظم .

خامسًا : تماثل الوصايا العشر التي ذكرها الكندي لعلاج الحزن الأسلوب الذي اتبعه

أليس Ellis في العلاج النفسي مستندًا إلى أن كثيرًا من الاضطرابات ناتجة عن معتقدات فكرية خاطئة ، لذا يَعلم مرضاه طرق جديدة للتفكير وإدراك المواقف ولا تختلف هذه الطريقة عن الأسلوب الذي اتبعه الكندي .

* * *

ابن سحنون (ت ٢٥٦هـ)
رسالة آداب المعلمين [١]

عرض : د . الحسين عبد المنعم

التعريف بالمؤلف [٢] :

هو محمد بن عبد الإسلام بن سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي أبو عبد الله – فقيه مالكي مناظر ، كثير التصانيف من أهل القيروان ، لم يكن في عصره أحد أجمع لفنون العلم منه ، رحل إلى المشرق سنة (٢٣٥هـ) ، وتوفي بالساحل سنة (٢٥٦هـ) ، ونقل إلى القيروان فدفن فيها ، ورُثِيَ بثلثمائة مرثية ، كان كريم اليد وجيهًا عند الملوك عالي الهمة .

ومن مؤلفاته : « آداب المعلمين » صدرت بترجمة حسنة له من إنشاء حسن حسني عبد الوهاب ، « أجوبة محمد بن سحنون في الفقه » ، « الرسالة السحنونية » ، « رسالة في فقه المالكية » ، « الجامع في فنون العلم والفقه » ، « السير » عشرون جزءًا ، « التاريخ » ستة أجزاء ، « آداب المتناظرين » جزآن ، « الحجة على القدرية » .

عرض الرسالة :

تقع الرسالة في سبع عشرة صفحة من القطع المتوسط ، وهي ملحقة بكتاب التربية

(١) القاهرة : دار المعارف ، (١٩٦٨م) . (١٦ص) . (دراسات في التربية) . ضمن : التربية في الإسلام / أحمد فؤاد الأهواني .

(٢) المصدر : معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، بيروت ، مكتبة المثنى (١٠/١٦٩) ، الأعلام : للزركلي (٦/٢٠٤ ، ٢٠٥) ، دار العلم للملايين ، (١٩٨٦م) .

في الإسلام أو التعليم عند القابسي ، تأليف الدكتور / أحمد فؤاد الأهواني ، الأستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة (ص٣٥١ - ٣٦٧) - القاهرة (١٩٥٥م) .

١ - تبدأ الرسالة بالبسملة والحمدلة ، ثم يورد لنا أحاديث نبوية شريفة في فضل ما جاء في تعليم القرآن الكريم لحديث : « **خيركم من تعلم القرآن وعلمه** » (ص ٣٥١، ٣٥٢) .

٢ - ثم يؤكد بالأدلة الشريفة على ضرورة العدل بين الصبيان .

٣ - كما قدم لنا بابًا فيما يكره محوه من ذكر اللَّه تعالى ، وما ينبغي أن يفعل من ذلك - ونهى عن مسح الألواح بالأرجل ، وقدم لنا نماذج من عهد الأئمة لصبيان كانوا يمحون كلام الألواح بالماء ، ثم يحفرون حفرة في الأرض ، فيصبون ذلك الماء فيها فينشف .

٤ - ثم قدم لنا بابًا آخر في الأدب وما يجوز من ذلك وما لا يجوز - وخلاصته أنه لابد من الرفق بالصبيان ؛ وخاصة اليتامى والمساكين - وأن لا يَضرب المعلم الصبيان وهو في حالة غضب - وأن يؤدبهم على اللعب والبطالة ، كما يؤدبهم على تصبرهم في قراءة القرآن وحفظه - وأن أدب الرجل لولده خير من التصدق - وأن يكون الأدب على قدر الذنب .

● ويرتبط الحديث هنا بأساليب الثواب والعقاب ، وإن كانت هناك إشارة إلى موضوع السيطرة على الانفعال (ص ٣٥٤) .

٥ - وبعدها حدثنا ابن سحنون عن ما جاء في الختم وما يجب في ذلك للمعلم : وتلزم بعد الانتهاء من حفظ القرآن ، أو قراءته وتجويده ، وهي على قدر يسر الرجل وعسره ، وله أن يعطي المعلم إن شاء ، وإن شاء لم يعطه .

٦ - وعطية العيد لا يقضي بها ، وإنما هي على سبيل التطوع ، ولا يحل للمعلم أن يكلف الصبيان فوق أجرته شيئًا من هدية وغير ذلك .

٧ - وعما ينبغي أن يخلي الصبيان فيه ، قال ابن سحنون : يؤذن للصبيان في الأعياد الفطر يومًا واحدًا ولا بأس أن يأذن لهم ثلاثة أيام ، والأضحى ثلاثة أيام ، ولا بأس أن يأذن لهم خمسة أيام .

● ولا يجوز للصبيان أن يرسل بعضهم في طلب بعض إلا بإذن من آبائهم أو أوليائهم .

● وأحب للمعلم ألا يولي أحدًا من الصبيان الضرب ، ولا يجعل لهم عريفًا منهم إلا أن يكون الصبي الذي قد ختم وعرف القرآن ، وهو مستغن عن التعليم .

٨ - ثم يقدِّم لنا ابن سحنون بابًا آخر فيما يجب على المعلم من لزوم الصبيان .

• لا يحل للمعلم أن يشتغل عن الصبيان إلا أن يكون في وقت لا يعرضهم فيه . فلا بأس أن يتحدث وهو في ذلك ينظر إليهم ويتفقدهم .

• وليلزم الاجتهاد ويتفرغ لهم .

• ولا يجوز له ضرب الصبي على رأسه ، ولا أن يمنعه طعامه وشرابه .

• ولا بأس من أن يعلمهم كتابة الرسائل .

• وينبغي أن يعلمهم الحساب ، وليس ذلك بلازم له إلا أن يُشترط ذلك عليه ، وكذلك الشِّعر ، والغريب ، والعربية ، والخط وجميع النحو ، وهو في ذلك متطوع .

• وينبغي أن يعلِّمهم إعراب القرآن - وذلك لازم له - والشكل والهجاء ، والخط الحسن ، والقراءة الحسنة ، والتوقيف والترتيل ، يلزمه ذلك ، ولا بأس أن يعلِّمهم الشعر الحسن من كلام العرب وأخبارها ، وليس ذلك بواجب عليه .

• على المعلم أن يكسب الدرة والفلقة وليس على الصبيان ، وعليه كراء الحانوت وليس على الصبيان ، ويجعل لعرض القرآن وقتًا معلومًا .

• ولا بأس أن يعلمهم الخُطب ، والأدب فإنه من الواجب للَّه عليه النصيحة وحفظهم ورعايتهم .

• ولا بأس أن يجعلهم يملي بعضهم على بعض ؛ لأن ذلك منفعة لهم . ولا ينقلهم من سورة إلى أخرى حتى يحفظوها بإعرابها وكتابتها .

• ولا يجوز للمعلم أن يرسل الصبيان في حوائجه ، ويلزمه أن يعلِّمهم الوضوء والصلاة ؛ لأن ذلك دينهم ، وليتعاهدهم بتعليم الدعاء ليرغبوا إلى اللَّه ، ويعرفهم عظمته وجلاله ، كما يعلمهم سنن الصلاة ، ولا يمس الصبي المصحف إلا على وضوء .

• ويساوي بين الصبيان في التعليم ، ولا يعلِّم الصبيان في المسجد ؛ لأنهم لا يتحفظون من النجاسة ، ولم يُنصب المسجد للتعليم .

• ولا يستحب قراءة القرآن للماشي إلا أن يكون متعلمًا ، ولا في الحمام .

• ولا يسجد الرجل إذا مر بصبي يقرأ سجدة ، وكذلك المرأة إذا قرأت السجدة على الرجل ، لم يسجد معها ؛ لأنها ليست بإمام .

• ويرى ابن سحنون ضرورة الفصل بين الجواري والغلمان في التعليم ، وعلى المؤدِّب أن يؤدبهم إذا آذى بعضهم بعضًا ، وهنا يتحدث عن شخصية القائم بالاتصال

Communication وأثرها في نفوس التلاميذ ، كما يؤكد على أسس ومبادئ عملية التطبيع الاجتماعي Socialization وهي من أهم مفاهيم التربية الحديثة في إطار علم التربية وعلم النفس التربوي (ص٣٥٧ - ٣٦٢) .

٩ - وبعد ذلك يقدِّم لنا ابن سحنون بابًا فيما جاء في إجارة المعلم ومتى تجب :

- إذا مرض أحد الصبيان أو خرج إلى سفر لزمت آباءهم الإجارة للمعلم .
- كذلك إذا مات الأب انتقض ما بقي من الإجارة وكان ما بقي في مال الصبي .
- وإن مات الصبي أخذ الأب باقي الإجارة .
- ولا بأس للمعلم أن يشتري لنفسه ما يصلحه من حوائجه إذا لم يجد من يكفيه .
- ولا بأس أن ينظر في العلم في الأوقات التي يستغني الصبيان عنه .
- ويجب للمعلم الختمة على قدر يسر الرجل وعسره ، يجتهد في ذلك ولي النظر للمسلمين .
- وإذا مات المعلم انفسخت الإجارة ، وكذلك إذا مات أحد الصبيان انفسخ من الإجارة بقدر ما بقي من إجارة مثل الصبي .
- وقالوا إذا استظهر الصبي القرآن كله كان له أكثر في العطية للمعلم ممن إذا قرأه نظرًا ، وإذا لم يتهجَّ الصبي ما يملى عليه ، ولا يفهم حروف القرآن لم يعط المعلم شيئًا ، وأُدِّب المعلم ومُنع من التعليم إذا عُرِف بهذا ، وظهر تفريطه ، ونلمح هنا إشارة إلى عملية الإشراف والمتابعة التي يقوم بها الموجهون في المدرسة (ص ٣٦٤) .
- وأخيرًا قدَّم لنا ابن سحنون بابًا فيما جاء في إجارة المصحف وكتب الفقه وما شابهها . وقد أجاز الفقهاء بيع المصحف لأن ما يباع هو الحبر والورق والعمل .
- وكذلك أجاز ابن سحنون بيع كتب الفقه ، وقال أيضًا : لا بأس أن يستأجر الرجل المعلم على أن يعلم أولاده القرآن بأجرة إلى أجل معلوم أو كل شهر .
- وإذا أدب المعلم الصبي - الذي يجوز له - فأخطأ ، ففقأ عينه ، أو أصابه فقتله كانت على المعلم الكفارة في القتل ، والدية على العاقلة إذا جاوز الأدب ، وإذا لم يتجاوز الأدب وفعل ما يجوز له ، قال : دية عليه .
- ولا بأس بالرجل يستأجر الرجل أن يعلم ولده الخط والهجاء .
- ويرى بعض أهل الأندلس أنه لا بأس بالإجارة على تعليم الفقه والفرائض والشعر

والنحو وهو مثل القرآن ، إلا أن مالكًا كره ذلك ، وقال : كيف يشبه القرآن والقرآن له غاية ينتهي إليها ، وما ذكر ليس له غاية ينتهي إليها . فهذا مجهول ، والفقه والعلم أمر قد اختلف فيه ، والقرآن هو الحق الذي لا شك فيه ، والفقه ليس مثل القرآن فهو لا يشبهه ، ولا غاية له ، ولا أمد ينتهي إليه .

أوجه الاستفادة من الرسالة في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذه الرسالة في مجالي علم النفس العام وعلم النفس الاجتماعي والتعليمي .

* * *

ابن أبي الربيع (ت ٢٧٢هـ)
سلوك المالك في تدبير الممالك [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف :

هو أحمد بن محمد بن أبي الربيع ، شهاب الدين ، أديب ، كان من رجال المعتصم العباسي .

له تصانيف منها « رسالة سلوك المالك في تدبير الممالك » [2] . وهو الكتاب الذي نعرض له الآن .

عرض الكتاب :

ويتضمن ثلاثة جوانب :

الجانب الأول : وهو تمهيد أولي في دراسة الكتاب ، ويعرض فيه المحقق باختصار ما تشير إليه فصول كتاب سلوك المالك في تدبير الممالك ، موضحًا الفلسفة السياسية لابن أبي الربيع من خلال كتابه هذا .

الجانب الثاني : وهو دراسة تحليلية مقارنة في إعادة تقويم الكتاب ، وفيه إشارة لوضع ومكانة الفلاسفة الأخلاقيين في الإسلام « مثل الكندي ، وأبي بكر الرازي ، والفارابي ، وابن مسكويه ، وابن سينا ، وابن أبي الربيع) .

---

(١) تحقيق ناجي النكريتي . (ط ٣) منقحة ومزيدة . بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة (١٩٨٧م) . (٢٤٨ ص) .

(٢) المصدر : الأعلام قاموس تراجم لخير الدين الزركلي المجلد الأول (ص ٢٠٥) .

الجانب الثالث : ويشتمل على فصول الكتاب الأربعة :

الفصل الأول : في مقدمة الكتاب :

وبدأ فيه بتذكير الإنسان أن يعلم ويعتقد أن لهذا العالم صانعًا ، وأن أفضل جزء من العالم من هو ذو نفس ، وأن أفضل ذوي الأنفس الذي له الاختيار والإرادة والحركة عن روية ، وأفضل ذوي الإرادة والحركة عن روية ، الذي له النظر البديع في العواقب ، وهو الإنسان الفاضل ، وأن هناك تفاضلًا بين الناس في عقولهم وقوى نفوسهم ؛ حيث إن الواحد منهم يفوق بالفن الواحد جميع ذوي جنسه ويعجز الباقون عنه ؛ ولذا فعلى الإنسان أن يهتدي بنور اللَّه وهديه الذي اهتدى بمعرفته رسول اللَّه ﷺ وعليه أن يقدم على سياسة أحواله بقلب قوي ونية صادقة وصدر واسع ، ويثق بأن ما يأتيه - وإن قل - يجدي عليه نفعًا كبيرًا .

ويختتم ابن الربيع الفصل الأول ناصحًا بسياسة الناس بالدين القيم والسنة العادلة ، وتوجيه رئيس واحد تكون له أكمل المراتب الإنسانية ، ويعدد له ثلاث عشرة فضيلة يجب أن تتوفر فيه : وهي :

الأولى : أن يكون له قدرة على جودة التخيل .

الثانية : أن يكون صحيح الأعضاء .

الثالثة : أن يكون جيد الفهم .

الرابعة : أن يكون جيد الحفظ .

الخامسة : أن يكون جيد الفطنة ذكيًا .

السادسة : أن يكون حسن العبادة .

السابعة : أن يكون محبًا للعلم .

الثامنة : أن يكون محبًا للصدق .

التاسعة : أن لا يكون شرهًا على الشهوات .

العاشرة : أن يكون كبير النفس .

الحادية عشرة : أن يكون محبًا للعدل .

الثانية عشرة : أن يكون قوي العزيمة .

الثالثة عشرة : أن يهون عنده المال وسائر الأعراض الدنيوية الفانية .

ويمزج ابن أبي الربيع الأخلاق بالسياسة ، كمزجه للدين بالفلسفة ، فبعد أن ينصح باتباع الفضائل ، واجتناب الرذائل ، واتباع السنة العادلة ، تراه يذكر صفات رئيس المدينة .

● ويرتبط هذا الفصل بموضوعين رئيسين في مجال الدراسات النفسية وهما :

الأول : سيكولوجية الفروق الفردية (في القدرات العقلية ، وسمات الشخصية) Individual Differences (ص ٨٩ - ٩٣) .

الثاني : سيكولوجية القيادة Leadership ، وأهم ما يتصف به القائد والسمات أو الخصال التي تميزه من غيره من الأفراد ، بشكل يجعله شخصية مؤثرة وفعالة في مجال قيادة الأفراد (ص ٩٣ - ٩٨) .

الفَصِلُ الثَّانِي :

وبدأه المؤلف بتذكير الإنسان أنه من بين سائر الحيوان ذو فكر وتمييز ؛ ولهذا يجب أن يروِّض نفسه على مكارم الأخلاق ، ويتحلى بالصفات الحسنة ، ويجتنب الصفات القبيحة ، وأن على الإنسان أن ينمي الأخلاق الجميلة حتى نعَود أنفسنا على الوسط ؛ لأن الخلق عند ابن أبي الربيع لا يخلو من ثلاثة أحوال : الوسط والمائل عنه والمائل إليه ، ولما كان الغرض هو السعادة الخلقية فعلينا أن نوازن أفعالنا فكلما وجدنا أنفسنا مالت إلى جانب عودناها الجانب الآخر ، ولا نزال نفعل ذلك حتى نبلغ الوسط أو نقاربه ، ويعرف ابن أبي الربيع الخلق فيقول : « إن الخلق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من فكر وروية » ، ثم يقول بعدها : إن الخلق إما أن يكون طبيعيًّا من أصل الخلقة أو مستفادًا بالعادة ، ثم ينصح بعدها بأن يتبع الإنسان قواه العقلية ويضعف من قواه البهيمية حتى تصلح نفسه ، ثم يقول : إن الفلاسفة قد اجتمعت على أن جميع أجناس الفضائل التي لا تحتاج في اقتناء كمال النفس إلى غيرها هي أربعة : الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة .

ويفصل ابن أبي الربيع قوى النفس ويعرفها ، فالقوة الفكرية عنده هي العاقلة ومسكنها الدماغ ، وبها يكون الفكر ويختص بها الإنسان ، والقوة الغضبية هي الحيوانية ، ويشارك الإنسان بها الحيوان ومن قواها حب الغلبة والرياسة ، والقوة الشهوية وهي المغذية النباتية ومسكنها الكبد ، ويشارك بها الحيوان والنبات ، وبها يبقى التناسل ، وبها يطلب الموافق من الأغذية .

ويشير ابن أبي الربيع إلى أن الحكماء قد اختلفوا في فضائل الأخلاق هل ترد لذواتها أو للسعادة الحادثة عنها على نوعين ، فذهب بعضهم إلى أن المراد بفضائل ذواتها

لا لكونها المكتسبة للسعادة ، وذهب آخرون إلى أن المراد بها السعادة الحادثة عنها ؛ لأنها الغاية المقصودة بها .

- **ويرتبط الفصل الثاني بالموضوعات والمفاهيم التالية :**

١ – موضوع القيم الأخلاقية Moral Values تعريفها وأنواعها وكيفية تعديلها نحو الأفضل (ص ٩٩ – ١٧٦) .

٢ – موضوع الدوافع Motives سواء الفطرية الأولية ، كالدافع الجنسي ، أو الدوافع المكتسبة ، كالدافع إلى السيطرة والتملك (ص ٩٩ – ١٣٦) .

٣ – موضوع الانفعالات Emotions (كالغضب والسعادة ... إلخ) وكيفية التحكم فيها (ص ٩٩ – ١٣٦) .

٤ – القدرات العقلية Mental Abilities (ص ١٠٩ – ١١١) .

٥ – سمات الشخصية Personality Traits (ص ٩٩ – ١٣٦) .

الفَصِلُ الثَّالِثُ : في أصناف السيرة العقلية الواجب على الإنسان اتباعها والعمل بها :

وفيه نجد تكرارًا للكثير من النصائح التي أوردها ابن أبي الربيع في الفصلين السابقين – في اتباع طريق الفضيلة التي يحث عليها العقل ، وبدأ هذا الفصل بالاتجاه إلى اللّٰه تعالى داعيًا منه التوفيق في الأعمال مشيرًا بعدها إلى أن بعض العلماء ذكر أن المخلوقات بأسرها على أربعة أقسام : الأول : الذي له عقل وحكمة وليس له طبيعة وشهوة وهم الملائكة . الثاني : الذي له طبيعة وشهوة وليس له عقل ولا حكمة وهو الحيوان غير الإنسان . القسم الثالث : الذي ليس له عقل ولا حكمة ولا طبيعة ولا شهوة وهو الجماد والنبات . أما الرابع : فهو الذي يكون له عقل وحكمة وطبيعة وشهوة وذلك هو الإنسان .

وسياسة الإنسان لنفسه عند ابن أبي الربيع هي أن يأتي الأعمال الصالحة من ناحية سيرته ، مع أهله وماله وولده وبني جنسه من بني الإنسان ، فسيرته مع نفسه بأن يجتهد في بلوغ الكمال ، أما سيرته مع بدنه فهو أن يلزم الاعتدال في الطعام والشراب وباقي الشهوات ، فأما مع ماله فإنه بالمال يتمكن من التوصل إلى مآربه ، وأما زوجته فهي ربة المنزل وشريكته فيه ، وأما الولد فهم الخلف وهم قوام الإنس ، أما تدبيره للأمور فهو إجراء أموره على الصواب ، ويرى ابن أبي الربيع أننا لا يمكن أن نجد إنسانًا كاملًا من جميع الجهات ، فكل إنسان إذا لاحظ الآخرين وجد نفسه في حالة يشركه فيها .

وكذلك وجد طائفة منهم أعلى بجهة أو جهات ، ووجد دونها طائفة هم أوضع منه . ولهذا إذا تأمل الإنسان أخلاق الأخرين توجب عليه أن ينتفع بالسيرة الصالحة لمن هو أعلى منه فيرتفع إلى مرتبتهم ، كما يجب على الإنسان في ماله أن يعرف أبواب الجميل ولا يقصد الإنفاق على شهواته ولذاته ، وأن يحسن التعامل مع الزوجة ، والأبناء والأصدقاء ، وأن يحترس من أعدائه .

● **ويرتبط الفصل الثالث بالموضوعات النفسية التالية :**

١ - الاقتداء Modeling ، أو التعلم من خلال مشاهدة سلوك وأفعال الآخرين (ص ١٣٧ - ١٧٢) .

٢ - التفاعل الاجتماعي Social Interaction : مع الزوجة (ص ١٥٣ - ١٥٥) ، مع الأبناء (ص ١٥٥ - ١٥٨) ، مع الأصدقاء (ص ١٦٦ - ١٦٨) ، مع الأعداء (ص ١٦٨ - ١٦٩) ، مع الرؤساء (ص ١٦٤ ، ١٦٥) .

٣ - التنشئة الاجتماعية وأساليب تربية الأبناء (ص ١٥٥ - ١٥٨) .

٤ - كما أن به إشارة لمفهوم الصداقة (ص ١٦٦) ، والعدوان (ص ١٦٨) وهي من المفاهيم السيكولوجية التي تقع في مجال علم النفس الاجتماعي .

الفصل الرابع : في أقسام السياسات :

وذكر فيه السبب الموجب لاتخاذ المدن والداعي إلى إقامة السياسة في العالم ، ثم أشار إلى التعاون بين الناس ؛ لأن الإنسان الواحد - في رأيه - لا يمكنه أن يعمل الصنائع كلها ؛ ولهذا افتقر بعض الناس إلى بعضهم لاسيما وأن الإنسان محتاج إلى الغذاء واللباس والمسكن والجماع والعلاج ، ولهذا السبب اجتمع كثير من الناس في موضع واحد فاتخذوا المدن لينالوا الملك والرعية والعدل والتدبير ، فرئيس المدينة عنده الذي يصلح لرئاسة المدينة هو المالك الفاضل ، أما الرعية فمنهم الزهاد الذين انقطعوا للعبادة ، والحكماء الذين اتجهوا للعلوم كالطب والحساب والهندسة ، ويجب على الرعية تجاه الملك أن يجتهدوا في تحسين العدل عند الملك وتزيينه وتقبيح الجوار وتهجينه ، وأن يظهروا سرورهم بسرور الملك ، ويشاركوه حزنه ولا يخالفوا له أمرًا ، أما العدل فيعرفه ابن أبي الربيع أنه حكم اللّٰه تعالى في أرضه ، ويستدل المؤلف على شرف العدل إجماع الأمم عليه مع اختلاف مذاهبهم ، أما التدبير فيعني عنده عمارة البلدان ، وبناء المدن ، وحراسة الرعية بواسطة تدبير الجند وتقويتهم ، وتقدير الأموال

ليكون معينًا في النوائب .

ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى أركان الدولة أو ما يخص الملك من الأتباع ، والأنواع الذين لا يستغني عنهم ، ويسميهم ابن أبي الربيع : وزير عالم ، وكاتب عارف ، وحاجب عاقل ، وقاضي ورع ، وحاكم عادل ، وعامل جلد ، ومال متوفر ، ورب شرطة ، وجند أقوياء ، وحكيم مجرب ، وجليس صالح ، صاحب الطعام والشراب .

ويعطي ابن أبي الربيع أهمية كبيرة للوزير ، فهو – في رأيه – الشريك في الملك ، المدبر فيه يحفظ أركانه ، المدبر بالقول والفعل ، وأنه لابد لمن تقلد الخلافة والملك من وزير منظم للأمور ، ومعين على حوادث الدهر ، ويكشف له صواب التدبير .

● ويرتبط هذا الفصل بموضوع سيكولوجية القيادة Leadership والصفات أو الخصائص التي يجب توفرها في القائد أو الرئيس ، وكذلك في المرؤوسين وهو ما يدخل ضمن سيكولوجية السياسة Psychology of Politics أحد المجالات الأساسية في علم النفس الاجتماعي (ص ١٧٣ – ٢٠٥) .

* * *

أبو سعيد الخراز (ت ٢٧٧هـ)
الطريق إلى الله ، أو كتاب الصدق [1]

عرض : د. شعبان جاب الله رضوان

التعريف بالمؤلف :

هو أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز ، ولقب بأبي سعيد الخراز وقد ولِد في بغداد في أوائل القرن الثالث الهجري تقريبًا ، ويقول عنه صاحب طبقات الصوفية : إنه من أئمة القوم وجلة مشايخهم ، وهو أول من تكلم في علم الفناء ، وقد صاحب ذا النون المصري وسريا السقطي ، وبشر بن الحارث ؛ وبالنسبة لتاريخ وفاته فقد اختلف المؤرخون فيه فيذكر صاحب الرسالة القشيرية أنه سنة سبع وسبعين ومائتين هجرية .

وفيما يتعلق بمؤلفاته فيذكر الدكتور عبد الحليم محمود أن كتاب الصدق هو الوحيد الذي بقي من آثاره ، وكان من الكتب التي يتوارثها الصوفية ، ويحيطونها بالكتمان ، ويضنون بها على غير أهلها .

عرض الكتاب :

يقع هذا الكتاب في ٦٩ صفحة من القطع المتوسط ، ويشتمل مقدمة المحقق ، ومقدمة المؤلف ، وموضوعات الكتاب ، ثم فهرس الموضوعات .

يتناول هذا الكتاب عددًا من الموضوعات التي تدور حول الصدق والتي ترسم الطريق إلى الله في دقة ووضوح .

فيعرض المؤلف في بداية هذا الكتاب للصدق في الإخلاص ، والذي يعني به أنه

---

(١) حققه وقدم له وعلق عليه عبد الحليم محمود . القاهرة : دار الكتاب الحديثة (١٩٧٥م) . (٩٤ص) .

يكون العبد يريد الله ﷻ بجميع أعماله وأفعاله ، قائمًا بعقله وعلمه على نفسه وقلبه قاصدًا إلى الله تعالى بجميع أمره .

ثم يتحدث عن الصدق في الصبر ، ويشير هنا إلى عدة معاني للصبر ، ومنها الصبر على أداء الفرائض في الشدة والرخاء ، والصبر عن كل ما نهى الله تعالى عنه ، والصبر على النوافل ، والصبر على قبول الحق ممن جاء به من الناس ، وأما حقيقة الصبر في احتمال مكروه النفس ويتناول بعد ذلك معاني الصدق منها الصدق في الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح ، وصدق التوبة ومنه ترك الأصحاب الذين أعانوا على تضييع أمر الله ، وخروج المآثم من القلب ، والصدق في معرفة النفس والقيام عليها ، حيث إن من صفة الصادق في القصد إلى الله أن يدعو نفسه إلى طاعته وطلب مرضاته .

وكذلك الصدق في معرفة إبليس وهو عدو الإنسان ؛ إذ يجب مخالفة هوى النفس بالعزيمة ، والحذر من إبليس عند الغضب والحدة . وينتقل المؤلف إلى الحديث عن الصدق في الورع واستعمال التقية ، ويذكر أن الصدق في الورع هو الخروج من كل شبهة والترك لكل ما اشتبه على الإنسان من الأمور ، والصدق في الحلال الصافي ، وهو أن يأخذ الإنسان منه ما لابد منه على قدر المعرفة بنفسه وما يقيم ميلها بالتقتير أو إسراف في الطعام والملبس والمسكن ، والصدق في الزهد ؛ لأن الحياة الدنيا هي النفس وما هويت ؛ وإذا ترك العبد ما تهواه النفس ترك الدنيا ، فأول درجات الزهد هو الزهد في اتباع هوى النفس ، ثم يتوهم العبد فناء الدنيا ويقصر فيها أمله ويتوقع الموت ويتطلع إلى الآخرة ، ويتشوق إلى النزول في دار البقاء ، ولذلك قالت طائفة من الناس : أن الزاهد في الدنيا هو الراغب في الآخرة التي قد جعلها نصب عينه كأنه يرى عقابها وثوابها فهو عازف عن الدنيا .

ثم يلي ذلك الصدق في التوكل على الله ﷻ ، ويقصد بالتوكل التصديق لله ، والاعتماد عليه والسكون إليه والطمأنينة إليه في كل ما ضمن ، وإخراج الهم من القلب بأمور الدنيا والرزق وكل أمر تكفل الله به ، والعلم بأن كل ما احتاج إليه العبد من أمر الدنيا والآخرة فالله مالكه والقائم به ، واليقين الثابت أن يد الله المبسوطة إليه الموفية له من كل ما طلب فلا يصل إليه معروف إلَّا من بعد أمره ولا يناله مكروه إلَّا من بعد إذنه ، والصادق واثق ، متوكل على ربه ، حين علم أنه حسبه من جميع خلقه .

ويتطرق المؤلف بعد هذا إلى الصدق في الخوف من الله ﷻ ، وهنا يستشهد بعدد

من الآيات القرآنية التي تدعو إلى الخوف والرهبة من اللّه ، ويشير إلى أن ما يهيج الخوف حتى يسكن القلب وهو دوام المراقبة للّه ﷻ في السر والعلانية ؛ وذلك من خلال العلم بأن اللّه يرى العبد ولا يخفى عليه شيء من حركاته الظاهرة والباطنة .

ويتصل الجزء السابق بموضوع الانفعالات Emotions وبخاصة انفعال الخوف وذلك في إطار علم النفس العام (ص ٥٤) .

ثم يتناول الصدق في الحياء من اللّه ، ويسترشد بأحاديث الرسول ﷺ في هذا الصدد ، ومن قوله ﷺ : « **إن الحياء من الإيمان** » ، وقوله ﷺ : « **استحيوا من اللّه حق الحياء ، من استحيا من اللّه حق الحياء فليحفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى وليذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا** » .

وهناك ثلاثة خصال تهيج الحياء هي :

الأولى : التفكير في دوام إحسان اللّه تعالى مع تضييع الشرك ودوام التفريط .

الثانية : أن يعلم المرء أنه بعين اللّه من منقلبه ومثواه .

الثالثة : ذكر العبد لوقوفه بين يدى اللّه ﷻ ومساءلته إياه عن الصغير والكبير .

ويزداد الحياء ويقوى بالخوف للّه عند الهوى الخاطر الواقع في القلب ، فيفزع القلب ويستوحش عندما يعلم أن اللّه تعالى يرى ما فيه ، فيثبت الحياء من اللّه ، كذلك فإن ما يضعف الحياء هو ترك المحاسبة وترك الورع .

ويمكن أن يتصل مفهوم الحياء بموضوع سيكولوجية الشخصية Personality ، كما يشير أبو سعيد الخراز إلى أن الناس يتفاوتون في الحياء على قدر قُرب اللّه تعالى منهم وقُربهم منه ، وتتصل هذه الإشارة بمصطلح الفروق الفردية Individual Differences في علم النفس (ص ٥٥ - ٥٧) .

وينتقل المؤلف بعد هذا إلى الحديث عن الصدق في معرفة نعم اللّه تعالى والشكر له ، وهنا يشير إلى أن نعم اللّه كثيرة ولا تحصى ويجب على الإنسان أن يفكِّر وينظر إليها وإلى تكاملها قديمًا وحديثًا ، فمن نعمه القديمة ذكره للإنسان قبل أن يك شيئًا وما خصه به من التوحيد والإيمان به والمعرفة له .

وهذه النعم توجب شكر اللّه عليه بالقلب واللسان والبدن .

ثم يتناول الصدق في المحبة ، ويذكر أن من مظاهر صدق المحبة اتباع الرسول ﷺ في

هديه وزهده وأخلاقه والتأسي به في الأمور والإعراض عن الدنيا وبهجتها ؛ لأن اللّٰه تعالى جعل محمدًا ﷺ علمًا ودليلًا وحجة على أمته ، كذلك فإن من صدق المحبة للّٰه تعالى إيثار محبة اللّٰه ﷻ في جميع الأمور على النفس والهوى ، والبدء في الأمور كلها بأمره قبل أمر النفس ، فالمحب للّٰه قد جعل ذكر اللّٰه تعالى بقلبه ولسانه فرضًا على نفسه .

كما أن علاقة المحب الموافقة للمحبوب ، ومتابعة طرقاته في كل الأمور والتقرب إليه بكل حيلة ، والهرب من كل ما لا يعينه على مذهبه .

ويتصل الحديث عن المحبة بموضوع الانفعالات وخاصة انفعال الحب في إطار علم النفس العام (ص ٦٠ - ٦٣) .

ويتناول أيضًا الصدق في الرضا عن اللّٰه ﷻ ، ذلك أن الرضا بحكم اللّٰه ورسوله ﷺ يعد أحد الركائز الرئيسية للإيمان ، من علامات الرضا في القلب سروره بمر القضاء ، حيث يذهب البعض إلى أن الرضا هو تلقي المصائب بالرجاء والبشر ، ويتصل مفهوم الرضا Satisfaction ومظاهره من فرح وسرور بموضوع الانفعالات Emotions وبخاصة انفعال الفرح في علم النفس العام (ص ٦٤ - ٦٦) ؛ ويلي ذلك حديث عن الصدق في الشوق إلى اللّٰه ﷻ ، فالمشتاق إلى اللّٰه تعالى هو المتبرم بالدنيا والبقاء فيها وهو محب للموت وانقضاء المدة والأجل ؛ ومن علامته النفور من الخلق ولزوم العزلة والانفراد بالوَحدة ، ومن شأنه : القلب والحنين والحزن والنحيب (البكاء) والكمد (الحزن المكتوم) والغصة المنكرة في الصدر بشدة الشغف والكلف والهذيان بذكر المحبوب والارتياح إليه ، وطوفان الروح في الغيوب لطلب اللقاء ، والدهش والحيرة عند توهم الظفر بالأمل من المأمول ، ونسيان حظه من الدنيا والآخرة إلا رؤية من هو إليه مشتاق والخوف ألا يصل إلى محبوبه .

ويتصل هذا الحديث عن صفات المشتاقين بموضوع الانفعالات أيضًا ، وبخاصة انفعال الحب وانفعال الحزن ومظهرهما وذلك في إطار علم النفس العام (ص ٦٧ ، ٦٨) .

وينتهي المؤلف من هذه الموضوعات التي تدور جميعها حول الصدق ، وذلك بتناول الصدق في الأنس باللّٰه تعالى وبذكره وقُربه ، حيث يشير إلى أن من علامة المستأنس باللّٰه تعالى وبقربه أن يكون واجدًا لذكر اللّٰه ﷻ في قلبه ، واجدًا لقربه منه ، لا يفقده على كل حال وفي كل وقت وكل موطن ويكون اللّٰه وقربه قبل الأشياء ؛ وذلك إذا سكن قلبه نور قرّب اللّٰه تعالى منه ، فبه ينظر إلى الأشياء وبه يستدل على الأشياء .

ومن صفات المستأنس أن يكون متبرمًا بالأهل والخليقة كلهم ، مستعذبًا للخلوة والوَحدة تذهب عنه الوحشة في المواطن التي يفزع فيها الناس ، فيستوي عنده العمران والخراب والقفار ، والجماعة والوحدة ، وذلك للذي استولى عليه من قرب الله وعذوبة ذكره ، ويغلب ما سواه من العوارض الظاهرة والباطنة .

* * *

ابن المدبر (ت ٢٧٩هـ)
الرسالة العذراء [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

عرض الكتاب :

ويعرض فيه المؤلف لما يأتي :

١ – ضمير الكاتب وحرصه على الحكمة : فيجب أن يتسم الكاتب بالنزاهة وعدم التحيز فإن تقاضتك نفسك علمَها ، ونازعتك همتك إلى طلبها فاتخذ البرهان دليلًا شاهدًا والحق إمامًا قائدًا يسهل عليك سبل مطالبها ، واستعن باللَّه ﷻ ، وتأمل الصواب في قولك وفعلك ، ولا تستخف بالحكمة ولا تصغرها حيث وجدتها .

● ويرتبط هذا الجزء بموضوع سيكولوجية التخاطب Communication وأحد الخصائص التي يجب أن يتسم بها المرسل أو المصدر Source سواء كان كاتبًا أو مخاطبًا وهي خاصية الموضوعية Objectivity (ص ٦) .

٢ – ثقافة الكاتب وما يجب تحصيله : فالاكتساب يتم بالتعلم والتكلف ، والاطلاع على رسائل المتقدمين والمتأخرين ، فيساعد ذلك على تنمية المعلومات . والخبرة هي تقديم أفكار الكاتب بشكل دقيق .

● ويرتبط ذلك بمبادئ التعلم الأساسية ، فالاكتساب يتم من خلال عدة وسائل أهمها التعلم Learning ، وتكوين الخبرات لدى الفرد (ص ٧) .

(١) مصحح وشارح ومقدم زكي مبارك – (ط ٢) القاهرة : دار الكتاب المصرية (١٩٣١م) ، (٥٢ ، ٣٢ ص) . يحتوي على : نص بالفرنسية .

٣ - وعن تضمين الشعر والأمثال في الكتابة : يشير المؤلف إلى وجوب ذكر الأمثال في أماكنها ، وانتقاء الألفاظ الجزلة ، والشعر الجيد وعلم العروض ، وذلك ما لم تخاطب خليفة أو ملكًا جليل القدر ، فإن اجتلاب الشعر في كتاب الخلفاء والرؤساء عيب واستهجان للكتب ، إلَّا أن يكون الكاتب هو القارض للشعر والصانع له ؛ فإن ذلك يزيد في أبهته ويدل على براعته .

• ويرتبط هذا الجزء من حديث علماء النفس الاجتماعي عن الخصائص أو الشروط التي يجب أن تتصف بها الرسالة Message حسب نوع الجمهور الموجهة إليه (ص ٧) .

٤ - ومن الصفات التي يجب أن يتصف بها الكاتب ، أن يكون صحيح القريحة (في الكلام التفات من المخاطب إلى الغائب) حلو الشمائل ، عذب الألفاظ ، دقيق الفهم ، حسن القامة ، بعيدًا من الفدامة ، خفيف الروح ، حاذق الحس ، محنكًا بالتجربة ، عالمًا بحلال الكتاب والسنة وحرامها ، حسن الإشادة ، وشرح المعنى بمثله من القول ، وقد اشترط الحكماء في صفات الكاتب : طول القامة ، صغر الهامة ، خفة اللهازم ، كثافة اللحية ، صدق الحس ، لطف المذهب ، حلاوة الشمائل ، وملاحة الزي ، فمن كمال آلة الكاتب أن يكون بهي الملبس ، نظيف المجلس ، طاهر المروءة ، عطر الرائحة ، دقيق الذهن ، صادق الحس ، حسن البيان ، رقيق حواشي اللسان ، حلو الإشارة ، مليح الاستعارة ، لطيف المسلك ، مستفره المركب ، ولا يكون مع ذلك فضفاض الجثة ، متفاوت الأجزاء ، طويل اللحية ، عظيم الهامة ، فإنهم زعموا أن هذه الصورة لا يليق بصاحبها الذكاء والفطنة .

• ويرتبط هذا الموضوع بالخصائص التي يجب أن يتصف بها المرسل أو المصدر Source كأحد العناصر الأساسية في عملية التخاطب أو التواصل (ص ٩) .

٥ - وعن طبقات الكلام ، يشير المؤلف إلى ضرورة مخاطبة كل فئة أو فرد على قدر منزلته وتفطنه وانتباهه ، فهناك ثماني طبقات للكلام : أربعة منها للطبقة العلوية ، وأربعة دونها .

فالطبقة العليا الخلافة التي أعلى اللّٰه شأنها عن مساواتها بأحد من أبناء الدنيا ، والطبقة الثانية الوزراء والكُتَّاب الذين يخاطبون الخلفاء ، الثالثة الأمراء وقواد الجيوش ، الرابعة القضاة .

وأما الطبقات الأربع الأخرى فهي : الملوك ، ووزراؤهم ، وكتابهم ، والعلماء أهل

القدر والجلالة .

● ويرتبط هذا الموضوع بسيكولوجية اللغة والتخاطب (ص ١٠ ، ١١) ، وبالفروق الفردية بين الناس في القدرات العقلية والذكاء وسمات الشخصية .

٦ - ولكل طبقة من الطبقات السابق ذكرها معانٍ ومذاهب يجب مراعاتها عند التخاطب معها ، فيجب أن تزن كلامك عند مخاطبة كل فئة من الأشخاص ، وأن تنظم جوهر كلامك ، فلا تعتد بالمعنى الجزل ما لم تسلبه لفظًا جزلًا لائقًا بمن كاتبته ، ومشابهًا لمن راسلته .

● ويرتبط ذلك أيضًا بموضوع سيكولوجية التخاطب ، وخاصة الرسالة Message ، والأسلوب أو الكلمات التي تكتب بها - وفقًا لخصائص الجمهور أو المتلقين لهذه الرسالة (ص ١١ - ١٤) .

٧ - وأما عن صدور السلف : فكانت عن فلان بن فلان ، كذلك جرت كتب رسول اللّٰه ﷺ إلى العلاء بن الحضرمي والي اليمن ، وإلى كسرى وقيصر ، وكتب أصحابه والتابعين كذلك ، حتى استخلص الكتاب هذه المحدثات من بدائع الصدور ، واستنبطوا لطيف الكلام .

٨ - بعض التعبيرات والكلمات المنتقدة ، فلكل مكتوب إليه قدر ووزن ينبغي الكاتب ألَّا يتجاوز به عنه ، ولا يقصر به دونه - فما يُمدح به العامة لا يُمدح به الخاصة من الملوك والرؤساء ، فالعامة من الناس لا يلتفتون إلى معنى الكلمة إلَّا إلى حيثُ جرت منها العادة في استعمالها في الظاهر .

● ويرتبط هذا بموضوع سيكولوجية التخاطب - فالمستقبِل أو المتلقي أحد العناصر التي يجب مراعاتها عند توجيه الرسالة إليه - من حيث اللغة التي تكتب بها وفقًا لخصائصه ، وسمات شخصيته ، ومستوى ذكائه .. إلخ (ص ١٥ - ١٧) .

٩ - تفقد الألفاظ والمعاني ، فيجب على الكاتب أن يحرص على اختيار الألفاظ والكلمات في صدور كتبه وفصولها أو افتتاحها ، وختامها ، وأن يضع كل معنى في موضع يليق به .

١٠ - هل تجوز محاكاة القرآن في الحذف والإيصال ،؟والإجابة بالنفي ؛ وذلك لأن اللّٰه ﷻ إنما خاطب بالقرآن أقوامًا فصحاء فهموا عنه جل ثناؤه - أمره ونهيه ومراده ، والرسائل إنما يخاطب بها قوم دخلاء على اللغة لا علم لهم بلسان العرب .

١١ - ولا يجوز في الرسائل ما يجوز في الشعر ؛ لأن الشعر موضع اضطرار فاغتفروا فيه الأغراب وسوء النظم والتقديم والتأخير .

١٢ - وفيما يتعلق بصدور الرسائل وخواتيمها ، يشير المؤلف إلى أنه يجب أن يكون في صدر الكتاب دليل واضح على المراد والهدف ، وأن لا تكون المقدمة طويلة .

١٣ - ثم يعرض المؤلف بعد ذلك لإصلاح الدواه ، وهنا يتحدث عن أدوات الكتابة وكيفية إعدادها ، فيختار الكاتب أدوات الكتابة وأنابيب القلم الذي يصلح لكتابة القراطيس ، أقله عقدًا وأكنفه لحمًا ، وأصلبه قشرًا ، وأعدله استواء .

١٤ - ثم يشير إلى ضرورة أن يجعل الكاتب لقلمه براية حادة ، سكينًا طواويسيًا ، مذلق الحد ، وميض الطرف ، فأهمية القلم للكاتب كأهمية الرمح من الفارس .

١٥ - كما يجب أن يلتزم الكاتب في كتابه بوضع النقط والشكل (أي يُشكل الحرف) .

١٦ - ولا تغفل الصلاة على النبي ﷺ أثناء الكتابة ، فيجب الإشارة إلى ذلك صراحة .

١٧ - كما يجب توثيق المعلومات بالتاريخ ؛ فإنه يدل على تحقيق الأخبار وقُربها وبُعدها .

١٨ - ولا تجعل سحاة الكتب (ما شد به الكتاب من خيط) غليظة إلا في العهود والسجلات التي تحتاج إلى خواتمها وطوابعها .

١٩ - وعن تضمين الأسرار يشير المؤلف إلى أن تضمين الأسرار حتى لا يقرأها غير المكتوب إليه ففيه أدب .

• ومن ذلك مثلًا أن تبدل الحروف تبديلًا يخفى ، أو أن تأخذ لبنًا حليبًا فتكتب به في قرطاس فيذر على المكتوب عليه رمادًا حارًا من رماد القراطيس فإنه يظهر ، وإن أحببته لا يقرأ بالنهار ويقرأ بالليل فاكتبه بمرارة السلحفاة .

٢٠ - اختيار الألفاظ : فيجب عند كتابة الرسالة انتقاء اللفظة بميزان دقيق ووضعها في مكانها الملائم .

• ويرتبط ذلك بأسلوب الرسالة Style of Message كأحد الجوانب المهمة في موضوع سيكولوجية التخاطب (ص ٢٩ ، ٣٠) .

٢١ - ويجب أن تتوفر عدة ظروف لدى الكاتب ، منها : فراغ القلب ، والنشاط ، وسماحة النفس ، جود الأذهان بمخزونها ، وغير ذلك .

● ويرتبط بالحالة المزاجية أو الانفعالية Emotional والعقلية Mental التي يجب توافرها لدى الكاتب ، وتتيح له مناخًا ملائمًا لذلك (ص ٣٠) .

٢٢ - ويتحدث المؤلف عن صعوبة اختيار الألفاظ - نظرًا للتشابه فيما بينها ، وأن الأسلوب الكتابي يعكس شخصية الكاتب ومستواه العقلي .

ويقترب ذلك بما يتبعه بعض علماء النفس ، حيث الاستعانة بتحليل سمات شخصية الكاتب ، وحالته الانفعالية من خلال تحليل مضمون كتابات ورسائل هؤلاء الكتاب (ص ٣١ - ٣٢) .

٢٣ - المعاني والألفاظ : شبهت الحكماء المعاني بالغواني ، والألفاظ بالمعارض ؛ فإذا كسا الكاتب المعنى الجزل لفظًا رائقًا ، وأعاده مخرجًا سهلًا ، كان للقلب أحلى وللصدر أملى .

٢٤ - عرض الكتابة على العلماء : فإذا منيت بحب الكتابة وصناعتها ، والبلاغة وتأليفها ، أو الشعر ، أو النثر ... إلخ ؛ فلا تدعونك الثقة بنفسك ، والعجب بتأليفك ولكن يجب أن تعرض ذلك على البلغاء والشعراء والخطباء لمعرفة رأيهم ؛ حيث يؤدي ذلك إلى تقييم العمل وإبراز إيجابياته وسلبياته ، وتحسين مستوى الكتابة .

٢٥ - اختيار الألفاظ والكلمات الملائمة لنوع الجمهور أو المتلقين والمراد مخاطبتهم فلا تخاطب خاصًّا بكلام عام ، ولا عامًّا بكلام خاص .

● ويرتبط ذلك بأسلوب الرسالة Style of Message (ص ٣٥ - ٣٦) .

٢٦ - الرقة والجزالة : وكلما اتسم الكلام بالرقة والعذوبة ، وسهولة المخارج ، كان أسهل ولوجًا في الأسماع ، وأشد اتصالًا بالقلوب ، وأخف على الأفواه .

● ويرتبط هذا الموضوع بالأسلوب الذي يجب أن تكتب به الرسالة Message وعلاقته بتقبل هذه الرسالة أو الإقناع بتغيير الاتجاه Atttitude Change (ص ٣٧ - ٣٩) .

٢٧ - المعاني والألفاظ : فالكلام سياسته صعبة ، وتأليفه شديد إلَّا على جهابذته وفرسانه أمراء الكلام ، والكلام منه ما هو واضح المعاني ، وما هو كامن المعنى أو الدلالة .

● ويرتبط ذلك بموضوع اللغة . خاصة مفهوم المعنى الإشاري Denotative Meaning

والمعنى الدلالي Connotative Meaning (ص ٣٩ ، ٤٠) .

٢٨ - الدال على المعنى أربعة أصناف هي : اللفظ ، والإشارة ، والعقد ، والخط .

● ويرتبط هذا الكلام بموضوع التخاطب - سواء اللفظي أو غير اللفظي Verbal & Non Verbal Communication (ص ٤٠ ، ٤١) .

٢٩ - بقاء الكتابة على الزمان : وللخط صورة معروفة ، وحيلة موصوفة ، وفضيلة بارعة ليست لهذه الأوصاف ؛ لأنه ينوب عنها في الإيضاح عند المشهد ، ويفضلها في المغيب ، وكفى بفضيلة القلم والخط قول الله ﷻ : ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ٤ ، ٥] ، ومن فضيلة الخط أنه لسان اليد ، ورسول الضمير ، ودليل الإرادة ، والناطق عن الخواطر ، وسفير العقول ، ووحي الفكر ، وسلامة المعرفة ، والمعبِّر عن النفوس ، والمخبر عن الخواطر ، والمفصح عن الأبكم ، والمتكلم عن الأخرس .

٣٠ - فضل البلاغة : فقد وقعت البلاغة من العلم علو القدر وباذخ العز ، كأبي مسلم صاحب الدولة ، فرقت شمله ، وبددت جمعه ، ونقصت برمه ، وأفسدت صلاحه ، وضعضعت بنيانه ، مع ذكائه وتفطنه ، ومكايده ودهائه ، وأصالة رأيه ، وشدة شكيمته ، واقتناعه على أبي جعفر ونفاره عنه ، كيف استفزه ابن المقفع وصالح ابن عبد القدوس وجبل بن يزيد واستمالوه بسحر ألفاظهم ، وبلاغة أقلامهم حتى وقع الشَّرَكُ المصوب له ، فتفرق جمعه ، وانطفأ نوره .

٣١ - ماهية البلاغة : هناك تعريفات عديدة لمعنى البلاغة ، منها تعريف الرومي بأنها : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة ، وتعريف الفارسي بأنها هي : معرفة الفصل من الوصل - تعريف آخر بأنها : هي البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة ؛ فالبليغ هو رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللَّحْظ ، متخير اللفظ لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة ، كما يُعرف البعض البلاغة بأنها : التقرب من المعنى البعيد ، والتباعد عن خسيس الكلام ، والدلالة بالقليل على الكثير .

أوجه الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس :

ويمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجالي علم النفس الاجتماعي ، وسيكولوجية الشخصية .

* * *

ابن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ)
كتاب الشكر [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف :

عبد اللّٰه بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس أبو بكر القرشي الأموي مولاهم البغدادي الحنبلي ، المشهور بابن أبي الدنيا ، ولد ببغداد سنة (٢٠٨هـ = ٨٢٣م) ، في عهد الخليفة المأمون (ت ٢١٨هـ) آخر العصر العباسي الأول ، في عهد الحضارة الإسلامية الذهبية ، في هذه المدينة العامرة الزاخرة (بغداد) نشأ ابن أبي الدنيا ، حيث المحدث والفقيه والمؤدب والزاهد هم أبناء هذا المجتمع ومادته ، وكان لظاهرة العلم والزهد أبلغ الأثر في بناء شخصية ابن أبي الدنيا وتكوينه العلمي .

وكانت أسرة ابن أبي الدنيا أسرة خير وفضل ، وبيت علم وصلاح ؛ فأبوه من العلماء المهتمين بالحديث وروايته ، مما ساهم في نشأته العلمية ، وتكوينه في وقت مبكر ، فحببته أسرته في العلم والعلماء ، ودفعت به إلى حلقة العلم ، فأقرأته القرآن والفقه ، وحببته في سماع الحديث وكتابته ، وبحكم أن والده كان أحد العلماء فقد مكّنه ذلك من السماع من أعلام العصر وحفاظه ، وسنه دون البلوغ ، ومن هؤلاء الحُفاظ سعيد بن سليمان الواسطي - سعدويه - (ت ٢٢٩هـ) وأبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) وخالد بن خداش البصري (ت٢٢٣هـ) فأدرك بهؤلاء وطبقتهم إسنادًا عاليًا ، وشارك أصحاب الكتب الستة في كثير من شيوخهم ، وقد دلت بعض الروايات على أنه استقل

(١) ط ١ . القاهرة : محمد أحمد رمضان الكتبي [١٩٣٠م] . (٤٢ ص) . نسخة مصورة .

وأخذ يطوف على المشايخ بنفسه ، وسنه دون العاشرة .

وبهذه العناية المركزة والمبكرة من أسرة ابن أبي الدنيا ، وبما كان له من الهمة والإقبال الكبير استطاع أن يجمع علمًا غزيرًا ، ويتتلمذ على مئات المشايخ من أئمة العصر وحفاظه . قال الذهبي : « وقد جمع شيخنا أبو الحجاج الحافظ أسماء شيوخه على المعجم ، وهم خلق كثير » ، ثم ذكر الذهبي جزءًا منهم فبلغ عددهم أربعة وتسعين شيخًا ، وبلغ عدد شيوخه في كتاب الصمت وحده أكثر من مائتي شيخ .

وبهذا تكوَّنت شخصية ابن أبي الدنيا العلمية ، فهو حنبلي المذهب ، سلفي العقيدة ، زهدي المشرب ، وعمل على بث هذه الروح الأخلاقية الإيمانية ، ورصد نفسه لها ، وأنشأ في تقعيدها وإذاعتها ما يزيد على مائة مصنف . وقد توفي ابن أبي الدنيا يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة (٢٨١هـ = ٨٩٤م) .

ومن مؤلفاته ما يلي :

في القراءات : « حروف خلف » ، « المصاحف » ، « الوصل والفصل » ، « الوقف والابتداء » .

في الحديث : « تخريجات أهل الحديث » ، « السنة » .

في العقائد : « البعث والنشور » ، « دلائل النبوة » ، « صفة الصراط » ، « صفة الميزان » ، « صفة النار » ، « صفة النبي ﷺ » .

في أصول الفقه : « الفتوى » .

في الفقه : « الأضاحي » ، « ذم الربا » ، « ذم السكر » ، « الرخصة في السماع » .

في الزهد والرقائق : « الآيات ومن تكلم بعد الموت » ، « الأحزان » ، « أخبار القبور » ، « الإخلاص » ، « اصطناع المعروف » ، « إصلاح المال » ، « ذم الغضب » .

عرض الكتاب :

ويبدأ المؤلف في كتابه « الشكر » بذكر من الأحاديث النبوية الشريفة التي تبيِّن أهمية الشكر . ومنها قول رسول الله ﷺ : « **لا يرزق الله ﷻ عبدًا الشكر فيحرمه الزيادة** » ؛ لأن الله ﷻ يقول : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧] ، ومن دعاء

رسول الله ﷺ : « **اللّهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك** » ، فاللّه ﷻ أنعم على عباده بالكثير من النعم والخيرات ، وكلفهم الشكر على قدرها ، فقد سمى نوح ﷺ عبدًا شكورًا والشكر معلق بالمزيد ، وهما مقرونان في قرن ، فلن ينقطع المزيد من اللّه حتى ينقطع الشكر من العبد ، والشكر يعني ترك المعاصي ، والشكر والصبر على ترك المعاصي من السمات التي يجب أن يتصف بها المسلم .

وعن بيان أهمية الشكر يرد المؤلف قول رسول اللّه ﷺ : « **أربع من أعطيهن فقد أعطي خير الدنيا والآخرة : قلب شاكر ، ولسان ذاكر ، وبدن على البلاء صابر ، وزوجة لا تبغيه خونًا في نفسها ولا ماله** » ، كما قال رسول اللّه ﷺ : « **إن اللّه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في مأكله ومشربه** » ، فمن عرف نعم اللّه بقلبه ، وحمده بلسانه لم يستتم ذلك حتى يرى الزيادة لقول اللّه ﷻ : ﴿ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ ﴾ [إبراهيم : ٧] ، والشكر كما ورد : نصف الإيمان ، والصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله .

ثم عرض المؤلف بعد ذلك لأقوال الرسول ﷺ فيما يتعلق بالشكر في بعض المواقف ، كالشكر عند الشراب مثلًا ، بقوله : « **الحمد للّه الذي جعله عذبًا فراتًا برحمته ولم يجعله ملحًا أجاجًا بذنوبنا** » .

وقد ورد عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « **أفضل الدعاء لا إله إلا اللّه ، وأفضل الذكر الحمد للّه** » .

ويرتبط ما سبق ذكره بأحد موضوعات علم النفس الأساسية وهو : موضوع سيكولوجية الشخصية : سمات الشخصية الإنسانية Traits of Human Personality ومنها : « الصبر والشكر » على نعم اللّه ﷻ (ص ٣ - ٢٣) .

وينبغي للعَالِم أن يحمد اللّه ﷻ على ما زوى عنه من شهوات الدنيا ، كما يحمده على ما أعطاه وأين يقع ما أعطاه ، والحسنات تأتي عليه إلى ما عافاه ، فلم يبتله به فيشغل قلبه ويتعب جوارحه فيشكر اللّه على سكون قلبه وجمع بدنه .

ويقترب - ذلك بشكر غير مباشر - من موضوع ارتقاء الحاجات والدوافع Development of Needs & Motives ، فالعَالِمُ مشغول - بحكم عمله أو تخصصه - بالحاجة إلى المعرفة والفهم ، وتحقيق الذات وهي مرحلة من أرقى مراحل الارتقاء وأسماها ، في حين تقع الحاجات البيولوجية الأولية في أدنى مدرج ارتقاء الحاجات (ص ٢٣) .

ثم أورد المؤلف بعد ذلك حديثًا عن أبي الحواري في موضوع الشكر على نعم الله ﷻ ، وتضمن ذلك ذكرًا لبعض الأحاديث النبوية الشريفة التي تتناول موضوع الشكر . قال رسول الله ﷺ : « **إن نوحًا** عليه السلام **لم يقم عن خلاء قط إلا قال : الحمد لله الذي أذاقني لذته وأبقى منفعته في جسدي وأخرج عني أذاه** » . وكان الرسول ﷺ إذا جاءه أمر يسره خر ساجدًا ، شكرًا لله ، كما كان رسول الله ﷺ إذا رأى صاحب بلاء قال : « **الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به ، وفضَّلني عليك وعلى جميع من خلق تفضيلًا** » فقد أدى شكر تلك النعمة .

أوجه الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجالي علم النفس العام وسيكولوجية الشخصية .

* * *

محاسبة النفس والإزراء عليها [1]

عرض : د . معتز سيد عبد اللّه

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٣٩ صفحة من القطع المتوسط ، ويتكون من عدة أبواب تدور في مجموعها حول كيفية محاسبة الإنسان لنفسه والإزراء عليها .

فلما كانت الدنيا الغرورة تحاول إغراء المؤمنين بربهم الكريم ؛ ولما كثرت الفتن وأشرفت إلى القلوب ، ولما ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ولما ابتلي بالدنيا الناس ؛ فمنهم من صبر ، ومنهم من تحطم ، وجد (المؤلف) أنه لِزامًا على النفس أن تقف وتتأمل إلى أين المسِير ؟ ولم تسير ؟ وكيف إذا لقت ما لابد أن تلاقيه إن عاجلًا أو آجلًا ؟ كيف برز إليها الموت بغتة ؟ ووضعت في قبرها ؟ وتولى عنها كل ما لها إلَّا عملها ؟ كيف بها إذا تسألها الملائكة وهي في القبر ؛ كيف بها إذا وقفت يوم الحشر؟ كيف وهي تساق إلى مآلها ؟ كيف بها إذا لم يرحمها ربها ؟ فرب نفس تذكرها الذكرى ؛ فيتغير حالها إلى اليقظة بعد الخمود فتهب مستجيبة لأمر اللّه تعالى ناصرة لدينه فتفوز بالسعادتين بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة . ذلك أنه يجب علينا أن نقف جميعًا ونحاسب أنفسنا ليؤول أمرنا إلى الفلاح في الدنيا والآخرة ، وهذا ما نعرض له على النحو التالي :

باب ذم النفس : وهو بمثابة دعوة لذم الإنسان لنفسه ، ومقتها مرضاة اللّه تعالى ، وتجنبًا

---

(١) تحقيق أبي هريرة مصطفى بن علي بن عوض - (ط ١) . بيروت : دار الكتب العلمية (١٩٨٦م) . (١٣٩ ص) .

لعقابه وعذابه ، وهناك أقوال مأثورة عديدة تقر ذلك وتدعو له وتحث عليه ، فقد قال أبو بكر الصديق ﷺ : « من مقت نفسه في ذات اللّه أمنه اللّه من مقته » ، وعن أحمد ابن عاشم العباداني عن سعيد بن عامر عن وهيب بن خالد قال : قال أيوب السختياني : (إذا ذكر الصالحون كنت منهم بمعزل) .

● وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب مفهوم الكراهية (المقت) Hate (ص ٧٢) ، والعقاب Punishment (ص ٧٧ ، ٨١) ، والتسامح Tolerance (ص ٨١) ، والرجاء أو التوقع (ص ٨٧) ، والشك Supiciousness (ص٧٦) ، والحزن Sadness (ص ٧٦) .

باب معاقبة النفس : وهو بمثابة دعوة لكيفية محاسبة الإنسان لنفسه على أخطائها أولًا بأول حتى لا تتمادى في ذلك ، خشية أن ينال عقاب اللّه تعالى ، فقد حدثنا المثني بن معاذ العنبري ثنا أبي عن شعبة عن منصور عن إبراهيم أن رجلًا من العُبَّاد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ، فوضع يده في النار حتى نشت ، وعن محمد بن عبد اللّه بن محمد بن عبد الجبار بن النضر السلمي قال : مر حيان بن أبي سنان بغرفة فقال : متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عما لا يعنيك لأعاقبنك بصوم سنة ، فصامها .

● وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب هي : النفس (ص ٩٠ - ٩٥) ، والعقاب الذاتي Self - Punishment (ص ٩٠ - ٩٥) .

باب جهاد النفس ومنعها من شهواتها : وهو بمثابة دعوة لكيفية جهاد الإنسان لنفسه ومنعها من شهواتها ، والتحكم فيها ، فعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **إن الشديد ليس الذي يغلب الناس ولكن الشديد من غلب نفسه** » ، كما قال فضالة بن عبيد إنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول : « **المجاهد من جاهد نفسه في اللّه** ﷻ » .

● وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب : ضبط النفس Self - Control (ص ٩٦ - ١٠٩) ، والرغبة Desire (ص ٩٦) ، والتروي في مقابل الاندفاعية Reflectivity - Impulsivity (ص ٩٦ - ١٠٩) ، والدوافع البيولوجية Biological Motives (ص ٩٦ - ١٠٩) .

باب الحذر على النفس مخافة سوء المنقلب والمقت : وهو بمثابة دعوة لكيفية حذر الإنسان على نفسه مخافة سوء المنقلب والمقت ، فعن محمد بن عباد المكي أبو عبد اللّه ثنا

سفيان عن مالك بن مغول قال : كان رجل يبكي فتقول له أهله : لو قتلت قتيلًا ثم جئت لأهله لعفوا عنك فيقول : إنما قتلت نفسي - وعن محمد بن كثير أنه كان يقول : اللّهم إنك سألتنا من أنفسنا ما لا نملك فأعطنا من أنفسنا ما يرضيك عنّا حتى تأخذ رضى نفسك من أنفسنا إنك على كل شيء قدير .

● وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب هي : الخوف Fear (ص ١١٠ - ١١٧) ، الكراهية (المقت) Hate (ص ١١٠ - ١١٧) ، والحزن Sadness (ص ١١٠ - ١١٧) .

باب إجهاد النفس في الأعمال طلبًا للراحة يوم المعاد : وهو بمثابة دعوة لإجهاد الإنسان لنفسه في الأعمال التي يقوم بها طلبًا للراحة يوم المعاد ، فعن المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ صلى حتى انتفخت قدماه ، فقيل له : أتكلف هذا ؟ وقد غفر اللّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال : أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟ وعن عبد الرحمن القرشي عن عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن موسى الجهني قال : قال عون بن عبد اللّه ويحيى : كيف لا أفتك نفسي من قبل أن يعلق بي رهني .

● وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب : الحزن (البكاء) Sadeness (ص ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٢٧) ، والخوف Fear (ص ١٢١) ، والسرور والفرح (ص ١٢٧) ، والرغبة Desire (ص ١٢٦) ، والوساوس Obsessions (ص ١٢٦) .

* * *

الإخوان : المتحابون في الله ، بشاشة الأخ لأخيه [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

عرض الكتاب :

يتضمن الكتاب الأول الأبواب التالية :

باب ذكر المتحابين في الله ﷻ وفضل منزلتهم عند الله ﷻ :

ويتضمن مجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة التي تدور حول المتحابين في اللّه ، وأن ذلك دليل على قوة الإيمان ، فقد قال رسول اللّه ﷺ : « **أوثق عرى الإيمان أن تحب في اللّه ، وتبغض في اللّه ﷻ** » ، كما قال رسول اللّه ﷺ : « **يقول اللّه تبارك وتعالى – أين المتحابين بجلالي ؟ اليوم أظلهم بظلي يوم لا ظل إلّا ظلي** » . فالمتحابون في اللّه بصدق هم قوم تحابوا بروح اللّه على غير أموال ولا أنساب ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، هذا كما أوضح الرسول ﷺ ، وهؤلاء المتحابون في اللّه لهم منزلة عظيمة فهم – كما روى رسول اللّه ﷺ عن ربه تبارك وتعالى قال : « **حقت محبتي على المتحابين ، هم في ظل العرش يوم القيامة لا ظل إلّا ظلي** » . كما أن لهم منزلة كبيرة في الجنة حيث قال رسول اللّه ﷺ : « **إن للّه ﷻ عبادًا على منابر من نور في ظل العرش يوم القيامة ، يغبطهم النبيون والشهداء ، هم المتحابون في اللّه ﷻ** » . كما يتضمن هذا الباب الإشارة إلى أن حب العبد للعبد من علامات الإيمان ، وقوة العلاقات بين الأفراد .

---

(١) تحقيق وتعليق محمد عبد الرحمن طوالبه ، إشراف ومراجعة نجم عبد الرحمن خلف . القاهرة : دار الاعتصام (١٩٨٨م) . (٣٠١ ص) .

● ويرتبط هذا الباب بموضوع العلاقات ، والتفاعل الاجتماعي Social Interaction السوي أو الصحي بين الأفراد ، حيث حبهم لبعضهم البعض ، وحبهم لله ﷻ ، وهو ما يؤدي إلى ما يمكن تسميته بحالة الرضا Statisfaction والاتزان الوجداني Emotional Stability (ص ٨٥ - ١٠٧) .

باب الرغبة في الإخوان ، والحث عليهم : وتشير مجموعة الأحاديث المتضمنة فيه إلى ضرورة تكوين العلاقات ، وإقامة الصداقات بين الأفراد ، فقد قال لقمان لابنه : يا بني لا تعد بعد تقوى الله من أن تتخذ صاحبًا صالحًا . كما قال رسول الله ﷺ : « **ما أحب رجل أخًا في الله ﷻ إلَّا بنى الله له بيتًا في الجنة** » . كما قال - سليمان بن داود ﷺ لابنه : يا بني لا تستكثر أن يكون لك ألف صديق ، ولا تستقل أن يكون لك عدو واحد .

● ويرتبط ما جاء في هذا الباب بموضوع الصداقة Friendship وسيكولوجية العلاقات الوثيقة بين الأفراد ، وهو موضوع يقع في دائرة ديناميات الجماعة أو بحوث الجماعات الصغيرة Small Groups كأحد أقسام علم النفس الاجتماعي Social Psychology (ص ١٠٩ - ١١٧) .

باب من أمر بصحبته ورغب في اعتقاد مودته : وتشير مجموعة الأحاديث التي يشتمل عليها إلى ضرورة النظر بدقة إلى من نتخذه صديقًا ، ونجالسه ، ونتحدث معه ، ونأكل معه ... إلخ ذلك من الأمور ، فقال رسول الله ﷺ : « **المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل** » ، كما قال أيضًا : « **لا تصحب إلَّا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلَّا تقي** » ، وعن شروط الصداقة يقول رسول الله ﷺ إجابة على سؤال أي الأصحاب خير ؟ فقال : « **صاحب إذا ذكرت الله - تبارك وتعالى - أعانك ، وإذا نسيته ذكرك** » . كما قال عثمان بن حكيم الأودي : « أصحب من هو فوقك في الدين ودونك في الدنيا » . كما قال البعض : أصحب من ينسى معروفه عندك .

● ويرتبط هذا الباب أيضًا - كما سبق القول - بموضوع سيكولوجية الصداقة Psychology of Friendship ، وشروط اختيار الأصدقاء وكيفية التفاعل معهم (ص ١١٩ - ١٣٤) .

باب إعلام الرجل أخاه بشدة مودته إياه : قال رسول الله ﷺ : « **إذا أحب أحدكم أخاه فيخبره أنه يحبه** » . كما قال أيضًا : « **إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره ، ليقل : إني**

أحبك في الله إني أودك في الله » . وتشير الأحاديث إلى أن من كان يحب أخاه ولا يخبره بذلك فهو في حكم الخائن له .

● ويرتبط ذلك أيضًا بموضوع الصداقة ، وكيفية تقوية الصداقة بين الإخوة ، أو الأفراد ، وذلك من خلال ما يسمى بالإفصاح عن الحب للآخرين ، وهذا ما يطلق عليه علماء النفس بالمهارات الاجتماعية Social Skills وعمليات التخاطب Communication والتفاعل بين الأفراد (ص ١٣٥ - ١٤٢) .

باب اتفاق القلوب على المودة : قال رسول الله ﷺ : « **الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف** » . فهناك شعور متبادل بين الأرواح .

باب في شدة الشوق إلى لقاء الإخوان والتسلي بمحادثتهم عن الهموم والأحزان : ويتضمن مجموعة من الأحاديث والجوانب التي تشير إلى أن لقاء الإخوة معًا يؤدي إلى تقوية الروابط والعلاقات بينهم ، كما يساعدهم على حل المشاكل والهموم التي يعانون منها ، وكأنهم وسيلة لعلاج هذه المشاكل والتخفيف من حدتها .

● ويرتبط ذلك الباب بأحد أساليب العلاج النفسي ، وهو أسلوب العلاج الجمعي Group Psychotherapy ، حيث يلتقي مجموعة من الأفراد وفق خطة معينة وبرنامج معين ، ويتحدثون أو يتناقشون معًا حول المشاكل التي تواجههم في حياتهم (ص ١٤٩- ١٥٦) .

باب في زيارة الإخوان : وتدور الأحاديث التي اشتمل عليها حول ضرورة زيارة الإخوان لبعضهم البعض ، بحيث يكون ذلك لا لشيء إلَّا حبًا في الله ﷻ . قال رسول الله ﷺ : « **إن المسلم إذا عاد أخاه أو زاره في الله يقول الله** ﷻ **طبت وطاب ممشاك وبوأت في الجنة منزلًا** » .

باب في إغباب الزيارة [1] : ويدور حول تنظيم العلاقات بين الأفراد من حيث ترتيب أو تنظيم عمليات الزيارة بين الأفراد ، فتكون على فترات متقطعة ، كأن تكون كل أسبوع مثلًا ، فالغياب والبُعد يؤدي غالبًا إلى حسن اللقاء وجودة العلاقات .

باب في ذكر مصافحة أهل المودة : ويشير إلى ضرورة المصافحة بين المسلمين ، فقال رسول الله ﷺ : « **ما من مسلم يلقى أخاه فيصافح أحدهما صاحبه إلَّا غفر لهما قبل أن يتفرقا** » .

---

(١) الإغباب في الزيارة أن تكون كل أسبوع - وقيل : أن تزور يومًا وتدع الزيارة يومًا آخر .

• ويرتبط هذا الباب بموضوع التواصل أو التخاطب Communication بين الأفراد - سواء اللفظي منه Verbal (بالكلام) أو غير اللفظي Non - Verbal (من خلال الإشارات والعلامات - كالابتسامة مثلًا) ويؤيد ذلك حديث رسول الله ﷺ فقال : « **إن المسلمين إذا التقيا وتبسمًا بلطف وتؤده تناثرت خطاياهما بين أيديهما** » (ص ١٧١- ١٧٦) .

باب مصافحة أهل المودة : فمن تمام التحية - كما ورد في هذا الباب - المصافحة ، فكان أصحاب النبي ﷺ إذا التقوا تصافحوا ، فالمصافحة تزيد المودة .

باب في معانقة الإخوان : وهو أمر مرغوب فيه ، فسئل النبي ﷺ عن معانقة الرجل الرجل إذا هو لقيه ؟ فقال : « **كانت تحية الأمم وخالص ودهم ، وأول من عانق إبراهيم** عليه السلام » . فكان أصحاب الرسول ﷺ إذا تقدموا من سفر تعانقوا .

• ويرتبط ذلك الباب أيضًا بموضوع التفاعل بين الأفراد ، وخاصة مجال الإشارات الاجتماعية والتخاطب غير اللفظي ، والذي يختلف من مجتمع لآخر حسب الإطار الحضاري والثقافي ، فقد تبين اختلاف طريقة التحية والسلام من مجتمع لآخر (ص ١٨٣ - ١٨٨) .

باب في بشاشة الرجل لأخيه ، وطلاقة وجهه إليه إذا لقيه : فمن الأمور المفضلة عند لقاء المرء لأخيه أن يكون بشوش الوجه ، فمن الصداقة أن يلقي المرء أخاه ووجه منطلق منبسط . وكان النبي ﷺ إذا لقي الرجل فرأى في وجهه البِشْر صافحه ، وقال أبو جعفر : أول المودة طلاقة الوجه ، والثانية التودد ، والثالثة قضاء حوائج الناس .

• ويرتبط ما ورد في هذا الباب بموضوع الانفعالات ، والمظاهر الخارجية للانفعالات Emotions ، كالتعبيرات الوجهية من الحزن أو الفرح ، من السرور أو الكآبة ، وهي مظاهر تساعد على التخاطب والتفاعل ، وتعكس المشاعر والاتجاهات بين الأفراد (ص ١٨٩ - ١٩٦) .

باب في تقبيل الإخوان : ويشير إلى أن هناك من الصحابة من كان يُقبل يد الآخر ، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يقبلون يده .

باب في سخاء النفس بالبذل للإخوان : وتوصي مجموعة الأقوال والأحاديث النبوية الشريفة الواردة في هذا الباب بالحث على البذل بين الإخوان ، بشرط أن يكون ذلك لله ﷻ - قال رسول الله ﷺ : « **إن الله** ﷻ **يقول : حقت محبتي للذين يتباذلون من**

أجلي » فمن حسن خلق المرء أن يكون كريمًا سخيًا على إخوانه بما هو متاح له من مال أو طعام أو ملبس ... إلخ ، فقضاء حوائج الآخرين له ثواب كبير عند الله ﷻ وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ : « **لأن أعطي أخًا لي في الله درهمًا أحب إليّ من أن أتصدق بعشرة ، ولئن أعطي أخًا لي في الله عشرة أحب إليّ من عتق رقبة** » .

باب في إطعام الطعام ، وفضل ذلك والحث على الرغبة فيه : وفيه دعوة وحث على دعوة الإخوان لتقديم الطعام للأتقياء ، والمعروف للمؤمنين . وقال رسول الله ﷺ : « **أضف بطعامك من تحب في الله** ﷻ » . فلذلك ثواب كبير عند الله ، فكما قال الرسول ﷺ : « **إن أسرع صدقة تصل إلى السماء ، أن يصنع الرجل طعامًا طيبًا ، ثم يدعو إليه إناسًا من إخوانه** » . ويتضمن هذا الباب أيضًا الإشارة إلى أن الحديث الحسن والطعام الطيب من الفضائل التي يجب أن يتسم بها المسلم ، وقال رسول الله ﷺ : « **لأن أطعم أخًا في الله** ﷻ (**لقمة**) **أحب إليّ من أن أتصدق بدرهم** » .

- ويرتبط هذا الباب بما يسمى بسلوك المساعدة Helping Behaviour وتقديم العون للآخرين ، وهو ما يدخل في إطار علم النفس الاجتماعي Social Psychology (ص٢٢٥ - ٢٣٦) .

باب في تعاهد الإخوان بالكسوة : وفيه حث ودعوة إلى تقديم العون للإخوان عن طريق الملبس أو الكسوة ، قال رسول الله ﷺ : « **من كسا مؤمنًا على عرى كساه الله من إستبرق الجنة** » .

- ويرتبط هذا الباب أيضًا - بما سبق ذكره في الباب السابق - بسلوك المساعدة Helping Behaviour (ص ٢٣٧ - ٢٤١) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس الاجتماعي .

* * *

مجموعة الرسائل (1)

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الرسائل :

مجموعة الرسائل لابن أبي الدنيا تقع في ١٤٩ صفحة من القطع المتوسط يضم بين دفتيه كلمة لجمعية النشر والتأليف الأزهرية ، ثم تعريفًا مختصرًا بصاحب الرسائل ، كتبه أحد طلاب العلم بالأزهر الشريف ، ثم الرسائل ذاتها وهي : كتاب التوكل على اللَّه ، وكتاب الحلم ، وكتاب حسن الظن باللَّه تعالى ، وكتاب قضاء الحوائج ، وكتاب الأولياء ، وأخيرًا فهرسًا لهذا الجزء من الرسائل .

بالنسبة للكتاب الأول ، فهو مخصص للحديث عن التوكل على اللَّه تعالى : وفيه يركز ابن أبي الدنيا على فوائد التوكل ، فيرى أنه مصدر القوة للمتوكل على اللَّه ، كما أنه يزيل الهم والحزن والاكتئاب (ص١٤ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢١) وهو هنا يقدِّم لنا أسلوبًا لعلاج أحد الأمراض النفسية والعقلية التي شاعت وانتشرت وهو الاكتئاب Depression وهو موضوع عناية وبحث من علماء النفس الإكلينيكيين والأطباء النفسيين ، ويلفت الأنظار إلى أحد أنواع العلاج التي لا غنى عنها ، خاصة أن الكثيرين يهملون هذا الأسلوب ويركِّزون على الأساليب الأخرى ، وكذلك من فوائد التوكل على اللَّه ، أنه يكفي المتوكل ويحفظه ، ويجعل الشيطان يتنحى عن طريقه ، ومما لا شك فيه أن فوائد التوكل على اللَّه كثيرة ولا تحصى سواء في الدنيا أو في الآخرة .

---

(١) ط جديدة - بيروت دار الندوة الإسلامية . القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية (١٩٨٨م) . (١٤٩ص) .

وبعد ذلك يحدِّد مكان التوكل على اللَّه بين أبعاد العبادة ، فيرى أن الصمت أول العبادة ، ثم التوكل على اللَّه ، والتواضع ، والزهد في الدنيا ، والملاحظ أن التوكل يحتل مرتبة متقدمة ، كما يفرِّق كذلك بين التوكل والاتكال ، حتى لا يحدث الخلط بينهما ، ويذكر من معاني التوكل : حسن الظن باللَّه ، والرضا عن اللَّه ، والثقة باللَّه ، والرضا بحكمه في الخير والشر ، ثم يقسم التوكل إلى ثلاث درجات ، أولها ترك الشكاية ، والثانية الرضا ، والثالثة المحبة ، فترك الشكاية درجة الصبر ، والرضا سكون القلب بما قسم اللَّه له وهي أرفع من الأولى ، والمحبة أن يكون حبه لما يصنع اللَّه به ، فالأولى للزاهدين ، والثانية للصادقين ، والثالثة للمرسلين .

وفي حديثه عن كل هذه الجوانب يستعين بعدد كبير من الأحاديث النبوية الشريفة والآيات القرآنية الكريمة ، وبعض أقوال العارفين وأشعارهم ، وذلك ليدلل على فائدة التوكل ومعانيه ودرجاته .

ومن هذا الحديث نجد مقدمات مبكِّرة للحديث عن أحد الموضوعات التي تدرس الآن - مباشرة - في علم النفس ، ونقصد بذلك حديثه عن المحبة ، التي تدرس تحت موضوع الانفعالات Emotions في علم النفس العام (ص ١٤) . أما حديثه في التوكل بصفة عامة (ص ١١ - ٢٢) ، فيمكن أن نجد له صدى غير مباشر ، فيما يدرس الآن في علم النفس الاجتماعي أو الشخصية أو حتى في علم النفس الإكلينيكي ونقصد بذلك دراسة بعض خصال الشخصية ؛ مثل : « الاعتماد - في مقابل - الاستقلال » Dependence - Independece ، وإذا كان علماء النفس يرون أن الاعتمادية صفة تدل على قدر من عدم النضج في الشخصية ، ومن ثم يشجعون الاستقلال ؛ فذلك لأنهم يركِّزون على الاعتماد على البشر أو الجمادات ؛ ولأن الاعتمادية في هذه الحالة تحد من الإبداعية والمسؤولية واتخاذ القرار ؛ أما إذا كان الاعتماد على اللَّه ، فهو شيء واجب ومستحب ، وآثاره كلها إيجابية ونافعة بشرط أن يكون توكلًا حقًّا ، ومن المفاهيم التي وردت أيضًا الرضا Satisfaction (ص ١٤ - ٢٠) والتحمل Tolerance (ص١٤ - ٢٠) .

وفي كتابه الثاني بعنوان « الحِلْم » يحدثنا ابن أبي الدنيا - من خلال الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وبعض أشعار العرب وأقوالهم الحكيمة - حديثًا قيمًا عن الحلم وفضله وفائدته - فالحلم من الخلال التي ترضي اللَّه ﷻ ، وهو يجمع لصاحبه شرف الدنيا والآخرة ، ومن اتصف بالحلم وجد له أعوانًا يعينونه على الجاهل ، وساعده حلمه

على التغلب على شهوته - والحِلْم قرين كل خِصال الخير ، فدائمًا يقرن الحلم بالعلم وفي حديث نبوي شريف : « **إن العلم بالتعلم ، والحِلْم بالتحلم ، ومن يتحر الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه** » ؛ وذلك رفعًا لشأن العلماء ومنزلتهم . وقد ورد في حديث رسولنا الكريم ﷺ أحد المفاهيم التي تمثل الآن فرعًا مهمًّا في دراسات علم النفس وهو موضوع التعلم Learning وما قدم فيه من نظريات وأساليب وبحوث (ص ٢٥) .

كذلك فإن اقتران العلم بالحلم يدلنا على أحد الخصائص المهمة للدراسات العلمية الحديثة وهي الموضوعية Objectivity بمعنى التخلص من التحيزات الشخصية ، والعالم الحليم لا يسارع إلى استنتاجات قد يثبت خطأها فيما بعد لمجرد تحمسه لها أو رغبته فيها (ص ٢٥ - ٣٤) ، ومن الخصال الطيبة التي تقترن بالحلم كذلك الحكمة ، والتقوى والعافية ، وصلة الرحم ، وإعطاء المحروم ، والصبر على الجاهل ، والحلم خصلة من خصال العقل ، لكنه أرفع من العقل ؛ لأن اللَّه ﷻ تسمى به .

ومن أهم الخصال التي تلتصق بالحلم الأناة ، ومن العجيب ألَّا يلتفت العرب والمسلمون لمثل هذا السبق العلمي ، ثم ينبهرون بما يقدمه الغرب في الوقت الحاضر ، فمن محددات السلوك التي حظيت باهتمام بالغ في هذا الوقت ، ما يسمى ببعد الاندفاعية - التروي - (ص ٢٧ ، ٢٨) Impulsivity - Reflectiveness . « ويعني ميلًا متسقًا لدى الفرد في إصدار استجابة سريعة أو بطيئة عند حل المشكلات » ، وما نراه إلَّا صدى لحديث ابن أبي الدنيا المستفيض في الحلم ، وما استشهد به من آيات وأحاديث وأشعار ، كما نجد أيضًا في هذا الكتاب إشارات عن العقل والتفكر والتدبر وهي تمثل موضوعات جوهرية في علم النفس الحديث ، وقد جمع بعض الحكماء ذلك في قول بليغ نورده لعظمته : « زين المرء الإسلام ، وزين الإسلام العقل ، وزين العقل الحلم ، وزين الحلم الكظم ، وزين الكظم التدبر والتفكر ، وزين التدبر والتفكر التصبر ، وزين التصبر الوقوف عند الطاعة والمعصية » .

وأخيرًا ، ومن الأقوال التي يذكرها ابن أبي الدنيا على لسان لقمان الحكيم في تحذيره من مجالسة السفهاء ، وحفظ اللسان ، يعطينا دروسًا مبكرة في بعض الموضوعات التي تدرس الآن في علم النفس الحديث وهي الصداقة Friendship وكيفية اختيار الأصدقاء ، ويدرس في علم النفس الاجتماعي تحت عنوان المهارات الاجتماعية Social skills ، وكذلك التخاطب وحسن المخاطبة وترويض اللسان مما يمكن أن يدخل في الدراسات النفسية للغة ، أو يمكن أن يدخل في مجال الشخصية تحت سمات الشخصية « كضبط النفس » Self control أو

أبعادها العامة كالاتزان الوجداني Emotional Stability (ص ٤) .

والكتاب الثالث هو كتاب حسن الظن بالله تعالى : وفيه يفتح الأمل والرجاء أمام المؤمنين ، ويرغبهم في اللجوء إليه والاحتماء به ، ويؤكد ذلك من خلال الآيات القرآنية الدالة على رحمة الله ومغفرته لكل الذنوب التي يرتكبها العبد ما عدا الشرك بالله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨] ، وأن رحمة الله واسعة لا حدود لها ، ادخرها الله لمن يشاء من عباده : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٣] ، وأن رحمة الله قد سبقت غضبه ، وينبغي علينا أن نظن بالله الخير ، فحسن الظن من العبادة . ويسرد لنا ابن أبي الدنيا عددًا من أحاديث الرسول الكريم ﷺ التي تؤكد كل هذه المعاني ، كما توضح فضل الرسول ﷺ وشفاعته لأمته يوم القيامة ، ويدعم كلامه عن حسن الظن بالله بعدد من الروايات والقصص التي وردت على ألسنة الصحابة والصالحين ، وكلها تمد المؤمن شعور بالتفاؤل والأمل ، وتحثه في نفس الوقت على العمل والاجتهاد ؛ لأن من يحسن الظن بالله تعالى ينبغي أن يحسن العمل ، ومن تلك القصص ؛ قصص تحدثنا عن مدى رحمة الأمهات بأبنائهن ، وكيف أن رحمة الله بعباده أكبر من رحمة الأم بوليدها ، ونجد في هذه القصص حديثًا عن عاطفة الأمومة أو دافع الأمومة ، وهو من الموضوعات التي لقيت عناية في علم النفس العام تحت موضوع الدوافع Motives والتمييز بين الدوافع الأولية ، والدوافع الثانوية ، والجدل الذي أثير حول دافع الأمومة (سواء لدى الإنسان أو الحيوان) وهل هو أولي (فطري) أم ثانوي (مكتسب) ؟ (ص ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩) .

● ومن المفاهيم النفسية أيضًا السعادة Happiness والآمن Safety والتفاؤل Optimism والانفعالات Emotions والمشاعر الطيبة التي تترتب على حسن الظن بالله في مقابل الاكتئاب Depression والخوف Fear والتشاؤم Pessimism والشعور بالعجز Helplesness والتي تنجم عن سوء الظن .

ويجد ابن أبي الدنيا – كما وجد ويجد غيره – في السنة النبوية المطهرة نبعًا لا يغيض من العلم والمعرفة والحكمة – ومن السنة المطهرة يستقي مادة كتابه الرابع « قضاء الحوائج » وقد قسم هذا الكتاب إلى أبواب ؛ وهو ما لم يفعله في الكتب الثلاثة السابقة ، ويبدأه بما يمكن أن نعتبره مقدمة ، يحدثنا فيها عن المعروف وقيمته ، فكل معروف صدقة ، والمعروف يقي سبعين نوعًا من البلاء ، ويقي ميتة السوء ، والمعروف

والمنكر خلقان منصوبان للناس يوم القيامة ، فالمعروف لازم لأهله يقودهم ويسوقهم إلى الجنة ، والمنكر لازم لأهله يقودهم ويسوقهم إلى النار ، والمعروف - أيضًا - خُلُق من أخلاق اللَّه وعليه جزاؤه .

والباب الأول في قضاء الحوائج : ويذكر فيه أن رأس العقل بعد الإيمان باللَّه مداراة الناس ، ثم يعدد بعد ذلك أنواع الصدقات التي يمكن أن يتصدق بها الإنسان سواء أكانت مادية (طعام ، ثياب ... إلخ) أم معنوية (الكلمة الطيبة) ، ثم يدلنا على فائدة صدقة السر فإنها تطفئ غضب اللَّه ، وبعد ذلك يؤكد فضل قضاء حوائج المسلمين والتفريج عن كربهم ، وما يعود على المفرج في الدنيا والآخرة ، ويذكر بعض الأحاديث التي تحث على إغاثة الملهوف وفضل ذلك كله ، وفي هذا الجزء نجد سبقًا لأحد أنواع السلوك التي تدرس الآن في علم النفس الحديث ، خاصة في الثمانينيات ، وفي علم النفس الاجتماعي على وجه الخصوص ، وهو ما يسمى سلوك المساعدة Helping Behavior سواء طلب المساعدة ، أو تقديمها (ص ٨٨ - ٩٢) .

والباب الثاني من الكتاب في طلب الحوائج إلى حسان الوجوه : حيث حثنا الرسول ﷺ على أن نطلب حوائجنا من حسان الوجوه ؛ لأنهم يعطون ما يُطلب منهم ، وإن لم يعطوا ردوا بوجه طليق لا يسبب أذى ولا حرجًا للطالب .

والباب الثالث والأخير من هذا الكتاب في « شكر الصنيعة » : حيث يجب على من أديت له خدمة أو قضيت له حاجة أن يشكر من أداها أو قضاها له ؛ لأن من لا يشكر الناس لا يشكر اللَّه ، وعدم شكر اللَّه جحود لنعمه وعطاياه ، كما ينبهنا إلى أن يكون الشكر على القليل والكثير ، وأن حدوث الشكر قد يكون بمجرد ذكر النعمة أو قضاء الحاجة .

وآخر الكتب في هذه المجموعة من الرسائل هو كتاب « الأولياء » : ويبدؤه بعدد من آيات القرآن الكريم ، والأحاديث القدسية التي تؤكد ولاية اللَّه لبعض عباده المؤمنين ، حيث ورد عن الرسول الكريم محمد ﷺ ، أن للَّه خواصَّ من خلقه يحييهم في عافية ، ويميتهم في عافية ، ويدخلهم الجنة في عافية ، واختصاص اللَّه لهؤلاء العباد إنما يقوم على علمه سبحانه بأحوال عباده ؛ ولذا فهو يعطيهم على أساس هذا العلم ، ثم يحدد بعد ذلك بعض خصائص أولياء اللَّه ؛ فهم الذين يتقربون إلى اللَّه بالنوافل حتى يحبهم ، فإذا أحبهم كان سمعهم وبصرهم وأيديهم فلا يفعلون إلا خيرًا . والولي هو الذي يتمتع

بحلم أصيل يدفع سفه السفيه عن نفسه ، وورع صادق يحجزه عن معصية اللّٰه ، وخلق حسن يداري به الناس ؛ كما أن أولياء اللّٰه هم الذين يحبون في اللّٰه ، ويبغضون في اللّٰه ، والحامدون له على كل حال ، والمكثرون من ذكره وشكره ، ويتميزون أيضًا بأيدي تربة ، وقلوب طاهرة ، ويسبغون الوضوء على المكاره ، مشغولون بحب اللّٰه ، ويغضبون لمحارمه إذا استحلت ، ولهذا كله وغيره من الخصائص الكثيرة فضلهم اللّٰه ، واختصهم برحمته ومغفرته وكثير من نعمه في الدنيا والآخرة ، وهم بالطبع نماذج طيبة ، وأسوة حسنة (كما أن رسولنا أسوة حسنة) لكل راغب في رضا اللّٰه والقرب منه والفوز بنعيمه .

ولعل الحديث عن القدوة أو النموذج Model يذكرنا بأحد الأساليب المهمة التي درست في علم النفس الحديث ، في إطار نظريات التعلم Learning Theories ، فيما يسمى التعلم بالنمذجة أو الاقتداء أو المحاكاة ؛ حيث يؤكد أصحاب هذا الاتجاه ضرورة وجود نموذج أو قدوة ينبغي على المتعلم الاقتداء بها أو محاكاتها حتى يكتسب نوع السلوك المرغوب تعلمه (ص ١١٤ - ١٤٦) .

وبهذا ينتهي الجزء الأول من مجموعة رسائل ابن أبي الدنيا .

أوجه الاستفادة من هذه الرسائل في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذه الرسائل في مجالات علم النفس الاجتماعي ، والشخصية ، وعلم النفس العام .

* * *

التواضع والخمول [1]

عرض : د. إبراهيم شوقي عبد الحميد

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في حوالي سبعين ومائتي صفحة ، تغطي سبعة أبواب في الخمول والشهرة والتواضع وحسن الخلق والكبر والاختيال تضم ٢٥١ نصًّا للرسول ﷺ وللصحابة والتابعين من أئمة وشيوخ وشعراء .

وفيما يلي نعرض لتفصيل ذلك :

الباب الأول : باب ما جاء في الخمول Obscurity . بدأ المصنف بهذا الباب لأهمية اتصاف المؤمن المخلص بهذا الخلق الكريم ، وهو ليس الخمول الذي يعني الكسل أوإهمال المواهب ، وإنما هو خمول الذكر والعمل والعبادة بصمت ، أي كراهية الشهرة ، ويعرض لأحاديث وأقوال تبين أهمية الخمول وفضله .

الباب الثاني : باب ما جاء في الشهرة Reputation, Fame ، والشهرة نقيض الخمول تُذْهِب الدين وتسبب الفسق في الدنيا والحسرة في الآخرة ، ويعرض أحاديث للرسول ﷺ وللصحابة والتابعين تعرض كراهيتهم للشهرة وكل ما يسببها (من فعل أو قول أو زي) .

- ويرتبط هذا الباب بمفهوم الشخصية غير الناضجة (ص ١١٦ - ١٣١) .

الباب الثالث : باب التواضع Humility, Modesty ، ويعرض فيه لأحاديث وأقوال

---

(١) تحقيق وتعليق لطفي محمد الصغير ، إشراف نجم عبد الرحمن خلف . القاهرة : دار الاعتصام (١٩٨٨م) . (٢٨٩ ص) .

تحث على التواضع وتذم الكبر بذكر ثواب المتواضعين وجزاء المتكبرين .

● ويرتبط هذا الباب بمفهوم تقدير الذات Self - Estimation (ص ١٣٣ - ١٥٩) ، وبمفهوم صورة الذات Self - Image (ص ١٣٣ - ١٥٩) .

الباب الرابع : باب التواضع في اللباس . وهو يتبع الباب السابق في مضمونه ، وإن كان أقرب إلى الخاص منه إلى العام ، حيث يدعو فيه إلى التواضع في الزي والاقتصاد منه ، وعدم الإفراط في زينة مؤقتة زائلة .

● ويرتبط الجزء السابق باثنين من القيم الأخلاقية للإنسان Ethical, Moral Values وهما التواضع والخمول ، ونقصد بالقيم مجموعة معتقدات الإنسان عما يراه غايات أو أشكالًا مفضلة من السلوك ؛ ولذلك نرى أن هذا الكتاب قريب الصلة بالتربية Education لاهتمامه ببيان فضل قيمتي التواضع والخمول والحث على تبني كل منهما في القول والفعل (ص ٩٧ - ١١٥ ، ١٣٣ - ١٥٩) .

الباب الخامس : باب حسن الخلق Good Temper, Good Nature ، ويعرض لأحاديث وروايات عن فضل حسن الخلق ووجوب التحلي به ، ويحث على ذلك بذكر مترتباته في الدنيا والآخرة .

● ويرتبط هذا الجزء بمفهوم القيم الأخلاقية (ص ١٧٩ - ١٩٣) .

الباب السادس : باب في الكبر Arrogance, Insolence ، ويضم عددًا من النصوص لذم الكبر والغرور ؛ لأن المتكبرين هم معتدون على مقام الألوهية ، فالكبر والعظمة لله وحده ، ولا يجوز لعبد أن يتصف بهما أو بأحدهما .

● وهنا يشر المؤلف إلى دوافع التكبرْ - وهي مسألة تمس الدوافع الإنسانية Human Motives ويرجع لأسباب ، ومن أهمها الحسب والنسب والقوة والسطوة لمال أو جاه أو جمال أو علم .

كما يشير ابن أبي الدنيا أن من أهم أسباب الكبر ضعف العقل ونقص الإيمان وهو تحليل سيكولوجي لشخصية المتكبر وسلوك الكبر ، حيث يقترب هذا التحليل من أحد ميكانزمات التوافق النفسي Mechanisms of Psychological Adjustment الذي كشفت عنه نظرية التحليل النفسي وهو التعويض والإحلال Compensation & Replacement ووفقًا لذلك فإن الكبر أسلوب تعويضي للتوافق مع شعور بالنقص Feeling of Inferiority أو شعور بالعجز .

وبذلك يقترب هذا الجزء من مجال اضطرابات الشخصية والطباع ؛ فالكبر وحب الشهرة بعض خصال الشخصيات غير الناضجة Immatured Personality ، فالشخصية الهستيرية Hysterical personality مثلًا تتسم بالمبالغة في القول والفعل والميل إلى حب الظهور ، ولفت الانتباه ؛ كذلك الشخصية البانويدية Paranoid التي تميل إلى تقدير مفرط للذات Self Estimation والميل إلى لوم الآخرين وقد يفضي الأمر في بعض الحالات إلى مرض يسمى داء العظمة Paranoia وهو أحد الأمراض العقلية التي يصحبها تكبر مع الشعور بالاضطهاد ؛ نظرًا لأهمية الشخصية (وهو يتوهم ذلك) ، وكذلك يرتبط مفهوم الكبر بمفهوم نفسي وهو صورة الذات Self Concept ، أو الاتجاه نحو الذات Attitudes Toward the Self ، أو تقدير الذات Self - Estimation .

الباب السابع والأخير : باب الاختيال Swagger strut . ورد فيه أحاديث ونصوص في ذم المختال سواء بنفسه أو بمظهره وملبسه .

● ويرتبط هذا الباب ببعض المفاهيم النفسية وهي الشخصية غير الناضجة Immature Personality واضطرابات الشخصية والطباع (ص ٢١٣ - ٢٢١) .

* * *

مكارم الأخلاق [1]

عرض : د . معتز سيد عبد الله

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٣٠٧ صفحة من القطع المتوسط ، ويتكون من مجموعة من الأبواب التي يدور مضمونها حول مجموعة من القيم الخُلقية التي يحث عليها القرآن الكريم والسنة ، وهو ما نعرض لتفاصيله على النحو التالي :

باب ما جاء في مكارم الأخلاق : ويعرض المؤلف فيه لمجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة التي تحث على مكارم الأخلاق منها على سبيل المثال الآتي : عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله كريم يحب الكرم ، ومعالي الأخلاق ، ويبغض سفسافها** » . وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه : « **اللّهم اهدني لأحسن الأخلاق ، فإنه لا يهدي لأحسنها إلّا أنت ، واصرف عني سيئها ، لا يصرف عني سيئها إلّا أنت** » ، وعن أبي هريرة ، قال رسول الله ﷺ : « **بُعثت لأُتمم صالح الأخلاق** » .

● ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم القيم الأخلاقية Moral Values (مثل الكرم والمروءة) (ص ٣ - ٦١) ، والتسامح Tolerance (ص ٢٧ - ٣٥) ، والتعاون Cooperation (ص ٢٧ - ٣٥) .

---

(١) تحقيق محمد عبد القادر أحمد - (ط ١) . بيروت : دار الكتب العلمية (١٩٨٩م) . (٣٩٩ ص) . مع مكارم الأخلاق / الطبراني .

باب ذكر الحياء وما جاء فيه : ويعرض المؤلف فيه لمجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة ، وبعض الأقوال المأثورة والأشعار التي أكدت فضل الحياء وقيمته ، ومنها على سبيل المثال الآتي : عن سالم بن عبد اللّه بن عمر ، عن أبيه ، قال : سمع النبي ﷺ رجل يعظ أخاه في الحياء يقول : إنك لتستحي حتى كأنه يقول : قد أضرَّ بك ، فقال النبي ﷺ : « **دعه فإن الحياء من الإيمان** » ، كما قالت أم المؤمنين رضي الله عنها : « رأس مكارم الأخلاق الحياء » .

● ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم الانفعالات ، وبخاصة انفعالي الخوف والخجل من فعل ما هو مذموم ومستقبح (ص ٦٢ - ٩٥) .

باب في الصدق وما جاء في فضله ، وذم الكذب : ويعرض المؤلف فيه لمجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة وبعض الأقوال المأثورة والأشعار التي أكدت فضل الصدق ، وذم الكذب ، ومنها على سبيل المثال الآتي : عن عبد اللّه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند اللّه صديقًا ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند اللّه كذابًا** » ؛ كما قال علي رضي الله عنه : « زين الحديث الصدق ، وأعظم الخطايا عند اللّه عز وجل اللسان الكذوب ، وشر العذيلة عذيلة أحدكم نفسه عند الموت ، وشر الندامة ندامة يوم القيامة » .

● ويرتبط مضمون هذا الكتاب بمفهوم قيمة الصدق (ص ٩٦ - ١٠٣) ، ومفهوم الكذب Lie (ص ٩٦ - ١٠٣) .

باب في صدق البأس وما جاء فيه : ويعرض المؤلف فيه لمجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة والأقوال المأثورة والأشعار التي أكدت قيمة الشجاعة وصدق البأس ، ومنها على سبيل المثال الآتي : عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال علي رضي الله عنه للمقداد : أعطني فرسك أركبه ، فقال له النبي ﷺ : « **أنت راجلًا خير منك فارسًا** » . كما قال خالد بن الوليد : « ما ليلة أبشر فيها بغلام أو تهدى إليَّ فيها عروس أحب إليَّ من ليلة قرة باردة في سبيل اللّه » .

باب ما جاء في صلة الرحم : ويعرض المؤلف فيه لمجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة ، والأقوال المأثورة ، والأشعار التي أكدت فضل ودلالة وأهمية صلة الرحم ، ومنها على سبيل المثال الآتي : قال عبد الرحمن بن عوف : سمعت رسول اللّه ﷺ

يقول : « **إن اللّٰه تبارك وتعالى يقول : أنا اللّٰه ، وأنا الرحمن ، خلقت الرحم فشققت لها من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها بتته** » . وعن يحيى بن سعيد قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « **البر والصلة وحسن الجوار عمارة في الدنيا وزيادة في الأعمار** » .

● ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم المودة Intimacy (ص ١٥٥ - ١٨٩) ، ومفهوم العلاقات بين الأشخاص Interpersonal Relations وبخاصة العلاقات الأسرية (ص ١٥٥ - ١٨٩) .

باب ما جاء في الأمانة : ويعرض المؤلف فيه لمجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة ، والأقوال المأثورة ، والأشعار التي أكدت فضل الأمانة ، ومنها على سبيل المثال الآتي : عن عبد اللّٰه بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال : « **ثلاث إذا كن فيك لم يضرك ما فاتك من الدنيا : صدق الحديث ، وحفظ أمانة ، عفة في طعمة** » . كما قال ابن مسعود : « أول ما تفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تبقى الصلاة ، وليصلين قوم لا دين لهم » .

● ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم قيمة الأمانة (ص ١٩٠ - ١٩٨) .

باب ما جاء في التذمم للصاحب : ويعرض المؤلف فيه لمجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة والأقوال المأثورة والأشعار التي أكدت فضل التذمم للصاحب ، ومنها على سبيل المثال الآتي : عن عبد اللّٰه بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال : « **إن خير الأصحاب عند اللّٰه** ﷻ **خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند اللّٰه خيرهم لجاره** » ، عن أبي إياس قال : إذا اصطحب الرجلان فتقدم أحدهما صاحبه فقد أساء الصحبة .

● ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم الصداقة Friendship (ص ١٩٩ - ٢١٤) ، ومفهوم العلاقات بين الأشخاص (ص ١٩٩ - ٢١٤) .

باب ما جاء في التذمم للجار : ويعرض المؤلف فيه لمجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة ، والأقوال المأثورة التي أكدت فضل التذمم للجار ، ومنها على سبيل المثال الآتي : عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول اللّٰه ﷺ : « **ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه** » ، وعن أبي شُريح قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « **من كان يؤمن باللّٰه واليوم الآخر فليكرم جاره** » .

● ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم العلاقات بين الأشخاص (ص ٢١٥ - ٢٢٢) ، ومفهوم المودة (ص ٢١٥ - ٢٢٢) .

باب ما جاء في المكافأة بالصنائع : ويعرض المؤلف فيه لمجموعة من الأحاديث النبوية

الشريفة ، والأقوال المأثورة التي أكدت أهمية المكافأة بالصنائع ، ومنها على سبيل المثال الآتي : عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **تهادوا فإن الهدية تذهب وَحَرَ الصدر ، ولا تحقرن جارة لجارتها وإن كان شق فرسن شاة** » ، وعن عائشة قالت : « كان رسول اللّه ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها » .

● ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم المحبة Liking (ص ٢٣٣ - ٢٤٣) ، ومفهوم العلاقات بين الأشخاص (ص ٢٣٣ - ٢٤٣) .

باب الجود وإعطاء السائل : ويعرض المؤلف فيه لمجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة والأقوال المأثورة التي أكدت أهمية الجود وإعطاء السائل ، ومنها على سبيل المثال الآتي : عن أنس قال : « كان رسول اللّه ﷺ أحسن الناس وكان أجود الناس وكان أشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة فانطلقوا قبل الصوت ، فتلقاهم رسول اللّه ﷺ قد سبقهم وهو على فرس لأبي طلحة عُرى ما عليه سرج ، وفي عنقه السيف وهو يقول : لم تراعوا ! لم تراعوا ثم قال : وجدناه بحرًا - أو إنه لبحر - وكان يُبَطأ وما سُبق بعد يومئذ » .

● ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم قيمة الغيرية Altruism ومساعدة الآخرين (ص ٢٣٣ - ٢٤٤) .

* * *

العقل وفضله [1]

عرض : د . معتز سيد عبد الله

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٩٦ صفحة من القطع المتوسط ، يدور مضمونها حول أهمية العقل وفضله على الإنسان ، وينهي المحقق الكتاب بعرض مجموعة من الفهارس العامة للآيات ، وللأحاديث المرفوعة ، وللآثار ، وللأعلام ، وللأشعار ، وللفرق والمذاهب ، وأخيرًا فهرس للمصادر والمراجع .

وبوجه عام يعرض هذا الكتاب كما يقول المحقق صورًا مشرقة لتوجيهات الأئمة من السلف الصالح في القرون الثلاثة الأولى الفاضلة ، والتي تمثل انطباعاتهم وتأثرهم بالجو الإسلامي العام الذي كان يدور مع الكتاب والسنة حيث دارا ، وبالتالي فهذه النصوص المحفوظة في هذا السفر التراثي تعالج قضية خطيرة وهي قضية « العقل » في الرؤية الإسلامية ، وقد استغل الكثير من أصحاب الأهواء والفرق الضالة هذه القضية ، واعتمدوا عليها في تنفير المسلمين من جماعة السنة والحديث ، وشنوا عليهم ، وأشاعوا حولهم بأنهم « حشوية » وأنهم زوامل أخبار « وبأنهم قوم قد ألغوا عقولهم ، وعطلوا طاقاتهم الفكرية الإبداعية » .

وكانت هذه المذاهب والأهواء ، وعلى رأسها المعتزلة وفي جملتها الخوارج ، والمرجئة ، والإسماعيلية ، وغيرهم قد تضع العقل - في بعض الأحيان - في مرتبة الوحي ، والعياذ

---

(١) حققه وعلق عليه لطفي محمد الصغير ، أشرف عليه وترجم لمؤلفه نجم عبد الرحمن خلف - (ط ١) . الرياض : دار الراية للنشر والتوزيع (١٩٨٩م) . (٩٦ ص) .

بالله ، فجاءت محاولة الحافظ ابن أبي الدنيا في تسجيل مواقف أهل السنة من العقل واعتنائهم به ، وتركيزهم عليه ، صفعة قوية في وجوه أهل الأهواء والبدع كما حاول أن يعالج الإفراط والتفريط في هذا الجانب المهم من تركيبة المسلم ، فنراه يضع العقل في الذروة من الملكات والطاقات بعد معرفة الله ﷻ فيروي بسنده المتصل إلى عبيد الله قوله : « ما أوتي رجل - بعد الإيمان بالله ﷻ - خيرًا من العقل » ، كما يروى عن عروة أنه قال : « أفضل ما أعطي العباد في الدنيا العقل ، وأفضل ما أعطوه في الآخرة رضوان الله ﷻ » ، وعن الحسن : « ما تم دين الرجل حتى يتم عقله » .

وأكد أن العقل عقلان : عقل طبيعة ، وعقل تجارب ، ثم راح يحشد النصوص التربوية التي تعالج قدح زناد الفكر ، وتعمل على نضوج العقل وتطويره وإثرائه ، كالحرص على مجالسة العقلاء وأهل الفضل من العلماء والنبلاء ، وحفظ التجارب وتخزينها ، والاتعاظ بتجارب الغير ، واستعمال المجاهدة لعقل النفس وضبطها على الأهواء ، والعناية بالعلم والتعلم فهو دليل العقل ومرشده ، والحرص على استشارة أهل الرأي والفطنة ، فهو بذلك يجمع عقلين في شخصه ، وكذا يضع رأيه مع رأي الجماعة ولا يشذ عنها ، فرأي الجماعة باجتماع عقولهم مبرمة لصعاب الأمور .

أما أهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في الجزء السابق فهي : العقل Mind (ص ٢٩- ٥٣) ، والتفكير Thinking (ص ٢٩ - ٥٣) ، والقيم الدينية والخلقية Moral and Religious Values (ص ٣١) ، وجماعات الأقران Peers (ص ٥٤ - ٥٥) .

ولم يغفل ابن أبي الدنيا الوسائل السلبية التي تشوش العقل وترديه ، وتهبط به ، فانبرى للتنبيه عليها ، وحذر من أصحابها ، وساق العديد من النصوص الموضحة لذلك ، وبهذه النصوص ونظائرها حاول المؤلف أن يعالج - بتوجيهاتها ودلالتها - جانب التفريط في طاقة العقل ، وأعمال الفكر ، وهي نصوص جليلة في بابها تكشف عن الفكر المنهجي عند المحدثين ، وتميط اللثام عن عنايتهم الوافرة بهذا الجانب الحيوي من تركيبة المسلم ، فالإسلام قد عني بالعقل والفكر عنايته بالروح والجسد ، والمحدثون هم أول الناس انطباعًا وتأثرًا بالتوجيهات الإسلامية ، لما عُلم من حرصهم وتجاوبهم مع نصوص الكتاب والسنة ، وآيات التفكر والتدبر وأعمال العقل تمتلئ بها آيات القرآن الكريم وكذا بالنسبة للسنة المبينة المفصلة لهذه التوجيهات الكريمة .

وهو ما عرض له المؤلف باستفاضة ، فعن معاوية رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **الناس يعملون بالخير على قدر عقولهم** » ، وعن سعيد بن المسيب قال : قال

رسول الله ﷺ : « **رأس العقل بعد الإيمان بالله ﷻ مُداراة الناس** » ، (ص ٣٧) .

وحدثنا ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩] قال : أولى العقل والفقه في دين الله ﷻ ، أما أهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في الجزء السابق فهي العقل Mind (ص ٥٦ - ٧٦) ، والتفكير (ص ٥٦- ٧٦) ، والتخلف العقلي (ص ٦٩ ، ٧٠) ، والذكاء Intelligence (ص ٦٩ ، ٧٠) .

* * *

كتاب الصمت وآداب اللسان [1]

عرض : د . عبد المنعم شحاته

عرض الكتاب :

يشتمل الكتاب على ٧٥٩ نصًا (منها ٢٥٣ حديثًا ، والبقية إما آثار الصحابة والتابعين أو آيات وقطع من شعر قاله السلف الصالح) مسندًا إلى قائليها إسنادًا حسنًا يدل على سعة علم المصنف (أي ابن أبي الدنيا) وتمكُّنه من علم الحديث ، وتتناول جميعها موضوعًا واحدًا هو « آداب اللسان » (أي ما يجب على المسلم أن يقوله ، وما يجب عليه ألَّا يقوله) ، وقد أحسن ترتيبها وتصنيفها إلى ستة وعشرين بابًا يتناول بعضها فضل الصمت ، فالكلام لا يكون إلَّا بذكر أو بخير ، والأمر بالقول الحسن ، وحفظ السر ، وفضل التحفظ في الكلام ، وفضل الصدق فيه ، وفضل الوفاء بالوعد ، وينهى بعضها الآخر عن الكلام فيما لا يعني المرء ، وعن الجدال والتقعر في الكلام ، وعن الخوض في الباطل وعن الذم وعن الكذب وعن المدح وعن السخرية وعن البذاء وعن اللعان وعن المزاح أو المخاصمة أو النفاق أو النميمة ونقل الكلام بين الأطراف المتخاصمة ، كما ينهى عن الغيبة موضحًا ما هي وما يحل منها وما يحرم وكفارة الغيبة المحرمة ، ثم اختتم الكتاب بباب يجمع كل ما سبق .

يدور الكتاب حول عدد من الأبعاد القيمة الأخلاقية مثل : الصدق - الكذب ، الوفاء - الغدر ، الأمانة - الخيانة ، فيأمر المسلمين بالقطب الإيجابي للقيمة كالصدق ،

---

(١) دراسة وتحقيق نجم عبد الرحمن خلف - (ط ١) . بيروت : دار الغرب الإسلامي (١٩٨٦م) . (٧٥٤ص) .

وينهاهم عن القطب السلبي كالكذب ، وللقيم دور بارز في الممارسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المختلفة ؛ إذ توجه السلوك بالتفضيل بين البدائل المتاحة . من هنا يكتسب كتاب « الصمت وآداب اللسان » أهميته التربوية .

ورد في كتاب « الصمت وآداب اللسان » حديثان شريفان في النصين (٩ ص ١٨٣، ١٢ ص ١٨٥) والقولان مؤثران في النصين (٥٨ ، ٥٩ص ٢٢٤) وتشير جميعها إلى « أن اللسان قوام البدن وأميره ، فإذا استقام استقامت الجوارح كلها وإذا عف عفت ، وإن اعوج واضطرب اعوجت ، ولا يستقيم الإيمان حتى يستقيم قلب المرء ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » .

والمقصود باللسان هو أقوال الفرد التي تعبر عن حقيقة مشاعره ومعتقداته ، ولهذه الأقوال دورها الحيوي في سلوك الإنسان ، ويمكن من خلال تعبيرات معينة التأثير في سلوك الأفراد والشعوب ، فعمليات مثل : الدعاية Propaganda والإقناع Persuasion والحرب النفسية Psychological Warefare وغسيل المخ Brain Washing تعتمد جميعها على أقوال ، وتترتب عليها أفعال شديدة الأهمية ، وقد وضع علماء النفس نظرية تصف المسار الذي يترجم به الفرد أقواله إلى أفعال وخطوات أو عمليات هذه الترجمة ، وهي نظرية « الفعل المتعقل » Reasoned Action التي وضعها « فيشباين » Fishbein وأجزن Ajzen (١٩٧٥ ، ١٩٨٠) وطورها « أجزن » (١٩٨٥) و« باجوزي » Bogozzi (١٩٨٦) ، ومجملها أن معلومات الفرد (صحيحة أو خاطئة) – وهي معلومات يحصل عليها من أقوال مسموعة أو مقروءة – عن موضوع ما تحدد معتقدات الفرد عنه وعن مترتبات أداء فعل معين وعن توقعات الآخرين لهذا الأداء ، وتحدد هذه المعتقدات – بدورها – اتجاه الفرد نحو الموضوع والمعايير التي توجه أفعاله نحو هذا الموضوع ، واللذان يحددان – بدورهما – نية الفرد لأداء هذه الأفعال ، تلك النية التي تعد محددًا مباشرًا للفعل ، بمعنى آخر ، فإن الفرد يتبنى – من خلال تلقيه معلومات معينة وتقويمها – حكمًا عن موضع ما هو عبارة عن معتقداته ومعارفه وتقويمته الانفعالية لهذا الموضوع ، والتي تؤدي بالتفاعل مع خصال الشخصية والمعايير الأخلاقية وبواسطة عمليات تعلم شرطي أيضًا إلى تكوين استجابات إقدام / إحجام عن فعل معين .

وهكذا تصبح الكلمة يطلقها اللسان مؤثرًا في اليد أو القدم ، فتحركها حيث تشير الكلمة ، ويصبح اللسان أميرًا على الجوارح كلها .

ويقول النص (٨٤ ص ٢٤٤) إن اللّه تعالى يوحي إلى الحافظين مع ابن آدم ألّا تكتبا على عبدي في ضجره شيئًا مشيرًا إلى أن العبد يخطئ عند الضجر ، أو بتعبير أمير الشعراء :

مالي غضبت فضاع أمري من يدي   والأمر يخرج من يد الغضبان

فالغضب أو الضجر انفعال Emotion والانفعال يشير إلى اضطراب حاد يفقد المرء القدرة على حسن مواجهة الموقف ، فيقع في الأخطاء وتنتج نتائج ضارة وسلبية .

ورد في النص رقم (١٣٣ ص ٢٧٦) ، والمنسوب إلى عيسى ابن مريم عليه السلام أن : « من كثر همه سقم جسمه » وهو قول يتسق مع مُسَلمَة يؤمن بها الطب النفسي الحديث وهي أن معظم الأمراض الجسدية (سقم جسمه) يلعب فيها العامل النفسي (كثر همه) دورًا قويًّا سواء في نشأتها أو استمرارها أو إثارتها أو ضعف مقاومة الفرد لمهاجمة المرض لدرجة أن بعض الأبحاث الحديثة تفيد بوجود ترابط بين السرطان والعوامل النفسية .

وقد دأبت جمعيات الطب النفسي في الدول المختلفة على أن يتضمن دليلها لتشخيص الأمراض النفسية فئة : الاضطرابات النفسفسيولوجية أو النفسجسمية Psychosomatic للإشارة إلى الاضطرابات العضوية التي يلعب فيها العامل الانفعالي دورًا أساسيًّا .

* * *

الفريابي (ت ٣٠١هـ)
صفة النفاق وذم المنافقين [1]

عرض : د. أسامة سعد أبو سريع

التعريف بالمؤلف :

هو أبو بكر جعفر بن محمد بن الحسن بن المستفاض الفريابي ، ولد أبو بكر الفريابي في عام (٢٠٧هـ = ٨٢٢م) وهو تركي الأصل ، نشأ في فرياب إحدى ضواحي بلخ بتركيا ، تنقل بين مصر وبغداد ، وقد تولى القضاء مدة طويلة ، عندما ذهب إلى بغداد استقبله أهلها بالطبول ؛ تقديرًا لمكانته ، وعلمه ، كان يأتي إلى مجلسه في بغداد حوالي عشرة آلاف .

من أهم كتبه : « رسالة في دلائل النبوة » ، و « فضائل القرآن » والكتاب الذي بين أيدينا الآن وهو « صفة النفاق وذم المنافقين » .

توفي أبو بكر الفريابي في عام (٣٠١هـ = ٩١٣م) ، عن واحد وتسعين عامًا .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٧٢ صفحة من القطع المتوسط ، ويهدف إلى إيضاح خصائص المنافقين ، وتوعية المسلمين بخطرهم على الإسلام ووحدة الصف ؛ علمًا بأن الإسلام حرم قتل المنافقين على الرغم من التأكد من جحود قلب المنافق وكذبه في دعوى الإسلام ما دام ينطق بالشهادة ويحضر الصلاة أمام جمع المسلمين ، أملًا في إصلاح حاله عندما يعايش جو الإسلام السمح .

(١) تحقيق محمد عبد القادر عطا - (ط ٢) . بغداد : دار الكتب العلمية (١٩٨٧م) . (٧٢ ص) .

ومع ذلك يوجب الإسلام علينا ضرورة الحذر من المنافقين ، ويفرض جهادهم حتى لا يفسدوا جمع المسلمين حتى إن رسولنا الكريم ﷺ حذر المسلمين من الصلاة على موتاهم أو طلب الرحمة لهم .

وبالإضافة إلى مقدمة المحقق ، والتي عرضنا لها في الفقرة السابقة تشمل رسالة الفريابي نفسها قسمين رئيسين هما :

١ - صفة المنافق .

٢ - من كان يخاف النفاق ، ويشفق منه ، ولا يأمن على نفسه .

وفيما يلي نلخص المعاني التي أوردها الفريابي في كل قسم منهما مع الدلالات النفسية التي تنطوي عليها تلك المعاني :

صفة النفاق :

يبدأ الفريابي بذكر حديث رسول الله ﷺ والذي يكشف صفات المنافق وهو : « **آية المنافق ثلاث : إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان ، فمن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها** » ومن ذلك يتضح بجلاء أن صفات المنافق الأساسية هي الكذب ، وعدم الالتزام بالعهود ، وخيانة الأمانة ، وهناك أحاديث أخرى تضيف إلى الصفات السابقة صفات أخرى تفضح المنافقين منها : « **وإذا خاصم فجر ، وإذا عاهد غدر** » ومنها أيضًا : « **إذا غل ثَمل ، وإذا أمر عصى ، وإذا لقي جبن** » ويستشهد الفريابي بالآيات من (٧٥ - ٧٧) من سورة التوبة لإثبات كذب المنافقين ، ونقضهم للعهد ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ ، وعلى النقيض يذكر الفريابي من الأقوال ، والأحاديث ما يبين أن الصفات المميزة للمؤمن هي صدق الحديث ، وإنجاز الوعد ، وأداء الأمانة .

ويورد الفريابي أحاديثًا وأقوالًا مأثورة تحذر من المنافق طلق اللسان ، منها : « **أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان** » .

ويعني بالمنافق عليم اللسان المنافق ، واسع المعرفة مع جهل القلب ، وسوء العمل ، ويضيف إلى صفات المنافق العليم قراءة القرآن قراءة صحيحة دون خطأ في أي حرف ، وتسخير تلك المعرفة في إضلال الناس بادعائهم العلم ، ويجسد عمر بن الخطاب ذلك

المعنى بقوله : « يهدم الإسلام ثلاث : زلة عالم ، وجدال المنافق بالقرآن ، وأئمة مضلون » .

ومن الأقوال المأثورة التي ذكرها الفريابي في وصف المنافق علاوة على ما سبق : « المنافق لا يهوى شيئًا إلَّا ركبه » و « المنافق يعبد هواه ، لا يهوى شيئًا إلَّا ركبه » وهو قول يدل أبلغ دلالة على انسياق المنافق وراء ملذاته وشهواته دون تروي ، ويضيف الفريابي إلى تلك الصفات اغتياب الآخرين ، والخوض في أعراضهم في غيابهم ، والثناء عليهم في حضرتهم ، ومنها أيضًا أن المنافق يرائي بصلاته ، ويتعمد إعلام الناس أنه يصلي ، ثم لا ييأس أو يأسف لما يفوته منها ، ويمتنع عن أداة الزكاة .

ويكشف أبو بكر الفريابي عن التناقض الذي يعايشه المنافق عندما يسوق لنا قول بلال بن سعد : « المنافق يقول بما يعرف ، ويعمل بما ينكر » وحديثًا إلى بكر بن شيبة « المنافق هو الذي يصف الإسلام ولا يعمل به » .

● ومن استعراض القسم الخاص بصفة المنافق يتبين أن له صلة واضحة بعديد من المفاهيم النفسية الحديثة ، ومن أبرزها سمات الشخصية Pesonality Traits (ص ٢٢- ٥٤) ، والقيم Values الخاصة التي يتبناها الشخص (ص ٢٢ - ٥٤) ومن بينها الصدق Truth، والأمانة Honesty ، والإخلاص Loyalty ، والصداقة Friendship ، وذلك في معرض حديث أبي بكر الفريابي عن سمات المؤمن ، ويقابلها السمات التي تميز المنافق .

ويحوي القسم دلالات تتصل بمفاهيم أخرى في مجال القدرات Abilities مثل الطلاقة اللفظية Verbal Fluencey (ص٣٥ - ٣٨) ، والقدرة على الإغراء Persuasion ، أو الإقناع To Convince (ص ٣٩ - ٤٥) ، وهي سمات يتصف بها المنافق ويستغلها في إضلال الآخرين ، بالإضافة إلى مفاهيم مرتبطة بالدافعية Motivation ، والحاجات Needs، وتتمثل في ميل المنافق إلى طلب اللذة Sensation Seeking (ص ٤٦ ، ٤٧) ، علاوة على مفاهيم مرتبطة بالتناقض المعرفي Cognitive Dissonance (ص٤٩ - ٥٠) ، وعدم الاتزان Instability (ص ٤٩ ، ٥٠) ، والتطرف Extremeness (ص ٢٧) ، وكلها سمات سلبية يظهرها المنافق في سلوكه ، ويمكن تطويعها لخدمة مفهوم القياس النفسي Psychometry ، إذا أردنا تصميم اختبارات نفسية Psychological Tests تكشف عن المنافقين .

من كان يخاف النفاق ، ويشفق منه ، ولا يأمن على نفسه :

يبين الفريابي في هذا القسم مبلغ كراهية المسلمين للنفاق ، ونفورهم منه ، وخوفهم

من أن تلتصق بهم خصلة منه تخرجهم عن دينهم ، ويعكس ذلك المعنى قول أحد السلف الصالح وهو يقسم باللّه تعالى : « ما مضى مؤمن قط ولا بقي إلّا وهو من النفاق مشفق ، ولا مضى منافق إلّا وهو من النفاق آمن » وأيضًا قوله : « من لم يخف النفاق فهو منافق » و « واللّه ما أصبح ولا أمسى مؤمن إلّا وهو يخاف النفاق على نفسه » . ويضيف الفريابي من الأقوال المأثورة ما يوضح أن أبعد المؤمنين عن النفاق أشدهم خوفًا منه ، وأقربهم إليه من يحبون أن يمدحوا بما ليس فيهم : « أبعد الناس عن النفاق أشدهم خوفًا على نفسه منه ، والذي لا يرى أنه ينجيه منه شيء ، وأقرب الناس منه الذي إذا ذكره أحد بما ليس فيه ارتاح قلبه » .

ويمضي الفريابي مشجعًا المؤمن على مواجهة المواقف التي قد تسوقه إلى النفاق وأخطرها موقف يُمدح فيه المؤمن بما ليس فيه ، وهنا ينصح المؤمن بترديد الدعاء التالي : « اللّهم اغفر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون ، فإنك تعلم ولا يعلمون »

ويعود الفريابي إلى الكشف عن السمات التي تميّز بين المؤمن الحق وبين المنافق فيذكر أن المؤمن حسن الظن بربه ؛ ويدفعه ظنه الحسن إلى إحسان العمل ، بخلاف المنافق الذي يكثر كلامه ويقل عمله ، ويضيف أن المنافق لا يحب المؤمن أبدًا ، وأنه يتربص بالمؤمن ليوقع به الضرر وينشر عنه الأقاويل ؛ ويشجع الفريابي المؤمن على مواجهة هذا الموقف أيضًا ذاكرًا قول أحد السلف : « إذا عرفت نفسك لم يضرك ما قيل فيك » .

ويشير الفريابي إلى زمان يأتي وقد تزايدت أعداد المنافقين بصورة مؤسفة عندما يورد قول عبد اللّه بن عمرو : « ليأتين على الناس زمان يجتمعون في مساجدهم ليس فيهم مؤمن » ، كما يبين كيف يُساق المرء إلى النفاق ، وهو يسجل قولًا مأثورًا عن أبي مليكة النماري : « إن الرجل ليدخل على الإمام فما يخرج إلا مشركًا أو منافقًا ، إن أعطاه حمده ، وإن منعه خرج يذمه ويعيبه ، فإذا فعل هذا بالإمام فقد نافق أو أشرك ، وإنما يعطي ويمنع اللّه » .

● ويكشف القسم الثاني أيضًا عن صلة بعدد من المفاهيم النفسية أوضحها الاتجاهات Attitudes (ص ٥٥ - ٧١) كما تتمثل في الكراهية Hate التي يشعر بها المؤمن نحو النفاق وحرصه على تجنبه ، بالإضافة إلى مفاهيم مثل الدافعية Motivation (ص ٥٥ - ٧١) والانفعالات Emotions (ص ٥٥ - ٧١) وتتضح في رغبة المؤمن في تجنب النفاق والخوف Fear منه .

هذا في معرض حديث للفريابي عن كراهية النفاق ، ومن ناحية أخرى يقدِّم عددًا من الأساليب تمكن المؤمن من مقاومة النفاق ، ومفاهيمه هنا أقرب إلى الإرشاد النفسي Counseling (ص ٦٤ - ٦٦) ، وتعكس الأساليب التي ذكرها المفاهيم النفسية الآتية :

صورة الذات Self - Image (ص ٦٤) أو الاستبطان Introspection (ص ٦٤) ومركز التحكم في التدعيم Locus of Control (ص٦٤) وكلها مفاهيم تعكس ميل المؤمن إلى فهم نفسه وتأملها ورغبته في أن يستمد الرضا عن نفسه وقبوله ذاته Self - Acceptance من خلال علاقته بربه ، وليس انتظارًا لإثابات Rewards يحصل عليها من الآخرين .

* * *

زكريا الرازي (ت ٣١٣هـ)
النفس والروح [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف :

هو محمد بن زكريا الرازي ، أبو بكر ، فيلسوف ، من الأئمة في صناعة الطب ، ولد في « الري » عام (٢٥١هـ = ٨٦٥م) ، ومات ببغداد وقيل بالري سنة (٣١٣هـ = ٩٢٥م) ، وفي رواية أخرى ولد عام (٢٣٦ هـ = ٨٥٠م) ، وتوفي سنة (٣٢٠هـ = ٩١٠م) ، ولد وتعلم بالري ، وسافر إلى بغداد بعد سن الثلاثين ؛ يسميه كتاب اللاتينية « رازيس » Rhazes أولع بالموسيقى والغناء ونظم الشعر في صغره واشتغل بالكمياء ، ثم عكف على الطب والفلسفة في كبره ، فنبغ واشتهر . ظل حجة في الطب حتى القرن السابع عشر، وتولى تدبير مارستان الري ، ثم رياسة أطباء البيمارستان المقتدى في بغداد . عمي في آخر عمره ، ومات ببغداد ، ويمكن تحديد عدد الكتب التي ألفها العلامة أبو بكر الرازي بشكل تقريبي على النحو : (٥٦) كتابًا في الطب ، (٣٣) كتابًا في العلوم الطبيعية ، (٨) كتب في المنطق ، (١٠) كتب في الرياضيات ، و (١٧) كتابًا في الكمياء . ومن مؤلفاته « الحاوي – خ » في صناعة الطب ، « الطب المنصوري – خ » ، و « الفصول في الطب » ويسمى « المرشد – ط » ، « والجدري والحصبة – ط » و « براءة الساعة » و « رسالة الكافي » ، و « الطب المملوكي » ، ومقالة في « الحصى والكلى والمثانة – ط » ... إلخ .

---

(١) ضبطه وقدم له سليمان سليم البواب . دمشق ، بيروت : منشورات دار الحكمة (١٩٨٦م) . (٩١ص) .

ويأتي كتابه « الطب الروحاني » في المرتبة الثالثة بعد كتابيه الحاوي والمنصوري وقد ألفه وهو مقيم بمدينة السلام ؛ وقد عرف غيته من التأليف بأنها إصلاح أخلاق النفس وضمنه عشرين فصلًا ، ويوجد من هذا الكتاب نسخة في المتاحف البريطانية برقم (١٥٣٠) ، ورقمها في الإضافات الشرقية (٢٥٧٥٨) ونسخة في مكتبة الفاتيكان برقم (١٨٢) من المخطوطات العربية ، ونسخة في دار الكتب المصرية قسم التصوف والأخلاق الدينية برقم (٢٢٤١) .

عرض الكتاب :

يتضمن الكتاب ما يأتي :

١ – **في شرح مرتبة الإنسان من مراتب الموجودات** . يمكن وصف الموجودات بوجوه كثيرة . وذلك على النحو التالي :

التقسيم الأول : تقسيم المخلوقات على أربعة أقسام :

الأول : الذي له عقل وحكمة ، وليس له طبيعة ولا شهوة ، وهم الملائكة .

الثاني : الذي ليس له عقل ولا حكمة ، وله طبيعة وشهوة ، وهو سائر الحيوانات سوى الإنسان .

الثالث : الذي ليس له عقل ولا حكمة ولا طبيعة ولا شهوة ، وهي الجمادات والنباتات .

الرابع : وهو الذي يكون له عقل وحكمة ، ويكون له طبيعة وشهوة ، وذلك هو الإنسان .

التقسيم الثاني : أن نقول : الموجود إما أن يكون موجودًا لا أول له ولا آخر له ، وهو الخالق تعالى وتقدس ، أو موجودًا له أول وله آخر وهو الدنيا ، أو موجودًا له أول ولا آخر له ، وهو الأرواح البشرية والدار الآخرة ، وأما الرابع وهو الذي لا أول له وله آخر ، فهذا ممتنع في الوجود ؛ لأن ما ثبت قدمه امتنع عدمه .

التقسيم الثالث : المخلوقات على ثلاثة أقسام : إما كاملة لا يتطرق النقصان إليها ، وهم أصحاب العالم العلوي ، أجسادهم السموات وقلوبهم الكواكب ، وأرواحهم الملائكة المقربون الطاهرون المطهرون ، وإما ناقصة لا يتطرق إليها الكمال ، وهي الحيوانات ، سيما الجن والشياطين والنبات والمعادن ، والقسم الثالث : وهم الذين يكونون تارة كاملين وتارة ناقصين ، فإن صاروا في حد الكمال ، كانوا مع الملائكة

المقربين ، مواظبين على ذكر جلال اللّه ، وتارة ينزلون إلى أفق البهائم ومقامي الشهوة والغضب .

• ويرتبط ما ورد في هذا الجزء بموضوع الغرائز Instincts ، والدوافع الفطرية أو الأولية Primary Motives ، كالدافع إلى الطعام ، والدافع إلى الشراب ، والدافع الجنسي وهي دوافع تميز الإنسان عن سائر الموجودات ، كما أن هناك إشارة إلى الانفعالات Emotions ، وخاصة انفعال الغضب ، كما يشير إلى استعداد الإنسان إلى تحقيق كماله الذاتي عن طريق ذكر اللّه تعالى والتقرب إليه ، كما أن فيه استعداد النزول إلى مستوى البهائم إذا أغفل ذكر اللّه وعبادته والتقرب إليه (ص ٢٥ - ٣٦) .

٢ - **في تقرير ما سلف بطريق آخر أقرب إلى التحقيق** : تنقسم الموجودات - حسب القسمة العقلية - إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : وهو الذي يؤثر ولا يتأثر ألبتة ، فهو الحق ﷻ ؛ لأنه واجب الوجود لذاته ولحقيقة هويته ، وكلما كان واجبًا لذاته ، كان واجب الوجود من جميع اعتباراته .

القسم الثاني : وهو الموجود الذي يتأثر ولا يؤثر ، فهو الهيولي (عيني الأصل أو المادة) فهيولي العالم الجسماني هو الأجزاء التي لا تتجزأ .

أما القسم الثالث : وهو الذي يؤثر ويتأثر معًا ، فهو عالم الأرواح والنفوس ؛ وذلك لأنه لما ثبت أن واجب الوجود ليس إلّا الواحد ، ثبت أنه كل ما سوى الواحد ممكن لذاته ، وكلما كان ممكنًا لذاته ، فإنه لا يوجد إلا بإيجاد غيره ، وذلك الشيء فقد قبل الأثر من ذلك الغير ، فثبت أن الأرواح قابلة للأثر من الغير ، وأما أنها مؤثرة ، فمنهم من قال لا مؤثر إلّا الواحد ؛ وذلك لأن الممكنات مشتركة في معنى الإمكان ، ومعنى الإمكان محوج إلى المؤثر .

وأما القسم الرابع : وهو الموجود الذي لا يؤثر أو لا يتأثر ألبتة ، فهذا ممتنع الوجود في العقول ؛ لأنا لما دللنا على أن ما سوى الواحد الأحد الحق ممكن الوجود لذاته ، واجب لغيره لزم أن كل ما سوى ذلك الواحد أنه قبل الأثر عنه ، ووجد به ، فيكون عنه ، فكان هذا القسم ممتنعًا .

٣ - **في بيان مراتب الأرواح البشرية** : ويشير مضمونه إلى أنه هنلك من الأشياء ما هو محبوب لذاته ، أو مكروه لذاته ، أو محبوبًا لاشتماله على شيء آخر ، أو مكروهًا

لاشتماله على شيء آخر .

ولا يوجد شيء محبوب لذاته سوى اللذة والكمال وفي الحقيقة لا فرق بينهما ، والكمال إما أن يعزّ في الذات أو في الصفات ، أما الكمال في الذات فهو أن يكون واجبًا لذاته ، من حيث هو غير قابل للعدم والفناء بوجه ألبتة ، إلا أن تحصيل هذا الكمال محال ؛ لأن الشيء إما أن يكون واجبًا لذاته أو لا يكون ، فإن كان واجبًا لذاته ؛ كان الوجوب للذات حاصلًا ، والحاصل لا يمكن تحصيله ، وإن لم يكن واجبًا لذاته ، امتنع أن ينقلب واجبًا لذاته ، وما يمتنع وجوده لا يكون مطلوبًا ، ولما كان الحق ﷻ واجب الوجود لذاته كان محبًا لذاته ومحبوبًا لذاته ، ولما كان من لوازم ذاته فيضان الممكنات عنه ، كانت أفعاله محبوبه ، ولهذا السبب قال : « يحبهم ويحبونه » .

وتناول هذا الجزء الحديث عن الأرواح البشرية ، فهي قابلة ، أو فعالة ، فإذا توجهت إلى العالم الإلهي كانت قابلة ، وإذا توجهت إلى العالم الهيوالاني الجسماني كانت فاعلة .

والنفوس على ثلاثة أقسام : أعلاها درجة المتوجهين إلى العالم الإلهي ، المستغرقين في تلك الأنوار الصمدية ، والمعارف الإلهية ، وهم المسمون في القرآن تارة بالسابقين ، وتارة بالمقربين ؛ والدرجة الوسطى هي النفوس التي لها التفات إلى العالمين ، فتارة تترقى إلى العالم الأعلى بالعبودية والخضوع ، وتارة تنزل إلى العالم الأسفل بسبب التدبير والتصرف ، وهم أصحاب الميمنة والمتقصدون ، والدرجة الثالثة هم المتوجهون إلى العالم الأسفل ، المتوغلون في طلب لذاته ، وهم أصحاب الشمال الظالمون .

● ويرتبط مضمون هذا الجزء - بشكل غير مباشر - بموضوع الانفعالات Emotions كالسعادة ، والحب ، والشعور باللذة ، كما يرتبط بموضوع القيادة Leadership (ص ٤٥ - ٥٢) .

٤ - **في البحث عن ماهية جوهر النفس** : فالنفس واحدة ، ومغايرة للبدن ، فمن ناحية العلم البديهي ، المراد بالنفس ما يشير إليه كل أحد إلى ذاته ، المخصوصة بقوله « أنا » . أما من ناحية الاستدلال ، والذي يدل على توحد النفس - فهناك حجج عديدة منها :

١ - إن الغضب عند بقائه ، يحدث عند محاولة دفع المنافي ، أو طلب الملائم ، مشروط بالشعور بكون الشيء ملائمًا ومنافيًا ، التي هي قوة دافعة للمنافي ، على سبيل الاختيار والقصد ؛ لأن القصد إلى الجذب تارة ، إلى الدفع أخرى ، مشروط بالشعور

بالشيء ، وثبت بالبرهان أن الإدراك والغضب والشهوة صفات ثلاث لذات واحدة .

٢ - إن الأمور الثلاثة : الفكر والغضب والشهوة صفات مختلفة لجوهر واحد .

٣ - حقيقة الحيوان أنه جسم دون نفس ، حساسة متحركة بالإرادة ، فالنفس لا يمكن أن تتحرك بالإرادة إلَّا عند حصول الداعي ، ولا معنى للداعي إلَّا الشعور بخير يرغب في تحصيله ، أو شر يرغب في دفعه ، فهذا يقتضي أن يكون المتحرك بالإرادة هو بعينه حاسًّا بالخير والشر والمؤذي والمضر ؛ إذن فالنفس الإنسانية شيء واحد وهي المبصرة والسامعة والشامة والذائقة واللامسة ، وهي الموصوفة بالتخيل والفكر والتذكر وتدبير البدن وإصلاحه ، كما أن النفس ليست هي البدن ، ولا شيئًا من أجزائه ، والدليل على ذلك - اختلاف النفس عن البدن - أن كل ما هو سبب لحياة النفس وقوتها ، هو سبب لموت البدن وضعفه ، كما أن سعادة البدن غير سعادة النفس ، كما يختلف كل منهما عن الآخر ، فالإنسان أثناء النوم بصير ضعيف البدن قوي النفس ، فهو في النوم يطلع على ما يعجز عن الاطلاع عليه حالة اليقظة .

● ويرتبط هذا الجزء بعدد من المفاهيم والموضوعات السيكولوجية ، وخاصة موضوع الانفعالات Emotions ، ومفهوم الذات Self-Concept ، والتفكير Thinking ، والتخيل Imagination ، كما يرتبط أيضًا بشكل مباشر وواضح بسيكولوجية الإحساس والإدراك Sensation & Perception ، وكذلك بموضوع سيكولوجية الأحلام (ص ٥٣ - ٦٩) .

٥ - في بيان أن اللذات العقلية أشرف وأكمل من اللذات الحسية : فالغالب على الطبائع أنفاسها ، وإن أقوى اللذات وأكمل السعادات لذة المطعم والمنكح والمسلك ، وهذا القول يزول عند المحققين وأرباب المجاهدات ويدل عليه وجوه منها ما يأتي :

الحجة الأولى : لو كانت سعادة الإنسان معلقة بقضاء الشهوة وإمضاء الغضب لكان الحيوان الذي هو أقوى في هذا الباب ألذّ وأقوى من الإنسان .

الحجة الثانية : لو كان قضاء شهوة البطن والفرج سببًا لكمال حالة الإنسان وسعادته ، لكان الإنسان كلما أكثر اشتغالًا بقضاء الشهوات البطنية والفرجية ، كان أكمل إنسانية وأعلى درجة ، لكن التالي باطل ، فقضاء الشهوات ليس من السعادات والكمالات بل من دفع الحاجات .

الحجة الثالثة : لو كانت سعادة الإنسان مرتبطة بهذه اللذات الحسية لوجب أن يكون

الإنسان أخس الحيوانات .

الحجة الرابعة : إن هذه اللذات الحسية لا حاصل لها إلا دفع الألم ، والسعادة الحقيقية للإنسان أمر مغاير لهذه الأحوال .

الحجة الخامسة : العلم ضروري حاصل بأن بهجة الملائكة وسعادتهم أشرف من بهجة الحيوانات ، والملائكة ليس لها لذة الأكل والشرب .

الحجة السادسة : كل شيء يكون في نفسه كاملًا وسعادة ، وجب أن لا يستحي من إظهاره ، بل يجب أن يفتخر بإظهاره ، وينجح بفعله ، ونحن نعلم بالضرورة أن أحدًا من العقلاء لا يفتخر بكثرة الأكل ولا الشراب ولا المناكح .

● ويقترب ما ورد في هذا الجزء بالنظرية الإنسانية Human Theory المفسرة للدوافع Motives وخاصة ما أشار إليه ماسلو Maslow بارتقاء الحاجات « مدرج الحاجات » Hierarchy of Needs ، ففي أدنى المدرج توجد الحاجات الفسيولوجية الأولية (الطعام والشراب ... إلخ) ، ثم يليها الحاجة للأمن ، ثم الحاجات الاجتماعية (الحب والانتماء ، وتقدير الذات) ، ثم الحاجات العقلية والفكرية (تحقيق الذات ، والمعرفة والفهم) وتقع في أعلى المدرج ، وهي أسمى وأرقى الحاجات التي تميز الكائن البشري ، (ص٧١ - ٧٨) ، كما أن هناك إشارات لعدد من المفاهيم مثل الدافع إلى التمسك والسيطرة ، والدافع إلى الجنس ، وتعاطي المسكرات (ص ٧١ - ٧٨) .

٦ - في شرح ما في اللذات الحسية من وجوه الذم والنقصان : فالشيء يكون مذمومًا لذاته أو لغيره ، واللذات الحسية تشتمل على الوجهين ، أما كونها مذمومة لذاتها ، فيدل على ذلك ما يأتي :

أولًا : إن اللذات الحسية ليست في الحقيقة بلذات ، بل حاصلها يرجع إلى دفع الآلام ، فلا معنى للذة الأكل إلّا دفع ألم الجوع ، ولا معنى للذة الملابس سوى دفع ألم الحر والبرد .

ثانيًا : إن الشيء كلما كانت الحاجة إليه أشد ، كان الالتذاذ به أقوى إذا وجد ، وبالعكس كلما كانت الحاجة إليه أقل وأضعف ، كان الالتذاذ به إذا وجد أقل .

ثالثًا : حتى إذا افترضنا أن هذه اللذات لذاتها - إلّا أن الالتذاذ بها لا يحصل إلّا في أول زمان حدوثها فقط ، أما بعد ذلك ، فهو حال الاستمرار والاستقرار ، حيث لا يحصل شعور ولا يحصل التذاذ (ص ٨٠) .

رابعًا : إن الإنسان إذا أشبع هذه اللذات ، فإنه لا يلتذ بعد ذلك بما يستعمله منها بل يملها ويسأم منها .

خامسًا : إن استعمال هذه اللذات ينافي معنى الإنسانية ؛ وذلك لأن الإنسان إنما يكون إنسانًا لحصول نور العقل واطلاعه على عالم الغيب والأنوار الإلهية .

سادسًا : إن انشغال الإنسان بهذه اللذات الجسدانية والطيبات الحسية ، يمنعه من عبودية اللّه ويصده عن ذكر اللّه .

أما الوجوه الدالة على كونها مذمومة لأمور لازمة لها ، فمنها ما يأتي :

أولًا : إنها سريعة الزوال قريبة الانقضاء .

ثانيًا : إن لذاتها غير خالصة ، بل هي ممزوجة بالآلام والحسرات ؛ وذلك لعدة وجوه منها أن الضرر منها ما هو في الماضي والحال والمستقبل ، كما أن عادة الإنسان أن كل ما كان حاصلًا له وموجود بالفعل عنده فإنه لا يلتذ به ولا يميل قلبه إليه ، بل لا يلتذ إلَّا بوجدان المفقود ، وطلب المعدوم ، ومن موجبات استيلاء الغم والحزن على الإنسان أن يعيش مختلطًا بالناس فينشأ عن ذلك النزاع ، أو يكون بعيدًا عنهم يعيش منفردًا فتنشأ الكآبة والوحشة .

ثالثًا : من الأسباب الخارجية لكون الدنيا مذمومة ، هو أن الغالب أن الإنسان الذي يكون خسيسًا في نفسه وقوته وحسبه ونسبه ، يكون راجحًا في السعادات الجسمانية على من كان شريفًا في نفسه وعقله وحسبه ونسبه ودينه .

رابعًا : تتميز اللذات الجسمانية بأن الفرد في حاجة مستمرة إلى تزايد الحد المطلوب منها لإشباع حاجته .

● ويرتبط ما جاء في هذا الجزء أيضًا بما سبق ذكره في الجزء السابق ، بما قدمه ماسلو في نظريته لارتقاء الدوافع البشرية The Development of Human Motives ، كما يرتبط بموضوع الانفعالات Emotions ، كالشعور باللذة ، والحزن ، والسعادة ، ومفهوم حد الإشباع أو الرضا Level of Satisfaction (ص ٧٩ - ٩٠) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام .

* * *

من لا يحضره الطبيب [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب

هذا الكتاب عبارة عن مخطوطة كتبت باليد ، تقع في ٩٨ صفحة من القطع المتوسط ، وليس للمخطوطة مقدمة أو فهرس أو أي تقسيم داخلي .

يبدأ المؤلف كتابه بحمد اللّٰه والثناء عليه والصلاة على رسوله ﷺ ، ثم يذكر السبب في إخراجه لهذا الكتاب فيقول : « لما رأيت الفضلاء أطنبوا في تصانيفهم وذكروا من الأدوية والأغذية التي لا تكاد توجد إلا في خزائن الملوك ، أحببت أن أجعل مقالة وجيزة في علاج الأمراض بالأغذية والأدوية المشهورة الموجودة عند العام والخاص ؛ ليكون أحرى أن ينتفع بها أكثر الناس في حلهم ومرتحلهم ، وقد تتبعت سنة مشايخنا شكر اللّٰه سعيهم في النزول من أعلى البدن إلى أسفله ذاكرًا علة ، وعلاجًا .

ويبدأ الرازي بالرأس ، ويذكر آلامها وأولها الصداع Headache (ص ٢) ويقسمه إلى الصداع حار المصحوب بالحرارة ، والتمدد في العروق ، والحرة في الوجه ، ثم يذكر أنواع العلاج التي تصلح له وهي كثيرة ، ويمكن أن نصفها بأنها علاجات ظاهرية جسمية ، كما يصف علاجات أخرى للصداع الحار غير المصحوب بمثل هذه الأعراض ويقدِّم بدائل كثيرة لكل نوع ، كما يقدم أيضًا صفة « طلاء » للصداع الحار (نظرًا لأن الكتاب مخطوط فلا ندري أيقصد « الحار » أم « الحاد » وإن كنا نرجح الحار ؛ لأنه

(١) [د . م] ، [د . ن] ، [د . ت] . نسخة عن مخطوطة من المكتبة المركزية لجامعة القاهرة .

سيذكر بعد ذلك الصداع البارد) ، يؤخذ من الأفيون (ص ٧) ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الصداع البارد (الذي لا حرارة معه) ويقدم له علاجات تختلف عن سابقتها (ص ٧) .

ويعود بنا في موضوع تالٍ (ص ٨) ليحدثنا عن علاجات الصداع المزمن (ولعله يفرِّق بين الصداع الحار والبارد ، كما يفرِّق بين الصداع الحاد والمزمن ، وهو ما يزيل الغموض الذي أشرنا إليه آنفًا) .

وبغض النظر عن العلاجات التي يصفها الرازي للصداع فإن هذا الموضوع مما يدخل في اهتمامات علماء النفس المحدثين ، وقد تعرض الرازي في هذا السياق للأفيون كإحدى المواد المستخدمة في علاج الصداع .

ويذكر لنا بعد ذلك بعض الأوصاف الطبية (العلاجات) لعلل الدماغ إذا كان مع برودة ، وكذلك علاجات الفالج والرعشة والخدر سواء في عضو من الأعضاء أو جميع البدن ، وعلاجات أخرى للتشنج والصرع Epilepsy كما يحذر مريض الصرع من أكل بعض المأكولات (ص ١٤ ، ١٥) .

ومن الأمراض الأخرى التي يتعرض لها الرازي ، ويحاول أن يصف لها بعض العلاجات الكابوس ، والمانخوليا (وهو يقابل ما يعرف الآن بالاكتئاب سواء كان عصابيًا أو ذهانيًا) ؛ كما يذكر لنا علاجات لأمراض التوحش وحديث النفس ، ثم التفزع وحديث النفس ، والسبات ، وفساد الذكر (ص ١٦ - ٢١) .

ورغم أن الرازي لم يشرح ما يقصده بهذه الأمراض ، وإنما هو يكتفي بذكر علاجاتها فحسب ، فإننا نرى أن هذه الأمراض والأعراض Symptoms مما يدخل في باب الأمراض والاضطرابات النفسية ، وهي بذلك تدخل في اهتمامات الباحثين في علم النفس الإكلينيكي .

(فالكابوس عرض نفسي يظهر في كل الأعمار ، ويكثر في الأطفال ، وهو منتشر وغير ضار وعندما يصيب الطفل يستيقظ باكيًا ، ويتذكر الكابوس ويرويه لأهله ، ويستجيب لتهدئة الوالدين ، ثم يعود للنوم سريعًا) ؛ والتفزع (يمكن أن يكون المقابل للفزع بصفة عامة أو للفزع الليلي بصفة خاصة ، وهو ينتشر في الأطفال ويختفي بعد سن البلوغ ، ويصحو الطفل صارخًا مشدوهًا ، ويبدو عليه الرعب والفزع والخوف ولا يستجيب لأي تهدئة ، ويصاحب ذلك شحوب اللون ، والعرق الغزير ، وينسى

الطفل كل ما حدث بعد استيقاظه ، وأحيانًا يتكرر في الليلة الواحدة ، ويؤثر على صحة أفراد العائلة ، وقد يحدث الفزع الليلي بسبب أمراض عضوية كالصرع ، وصعوبة التنفس ، ونقص السكر في الدم ، وقد يظهر لدى الأطفال الذين ينغمس آباؤهم في تعاطي الخمور والمخدرات ، ثم يعودون لمنازلهم في ساعة متأخرة من الليل) .

والمالينخوليا كما قلنا هي المقابل لما يُعرف بالاكتئاب Depression (وهو يظهر إما كمرض أساسي ، وينقسم إلى اكتئاب عصابي أو تفاعلي (خفيف) واكتئاب ذهاني أو ذاتي Endogenous (شديد) وهذا الأخير قد يأتي إما منفردًا أو دوريًا مع الهوس Mania ويسمى في هذه الحالة ذهان الهوس الاكتئابي Manic - Depressive Psyhosis، وإذا تأخر حتى سن ٤٥ في الرجال ، ٥٥ في النساء فيعرف باكتئاب سن اليأس Involutional Melancholy ، وقد يظهر الاكتئاب كعرض ثانوي لأمراض نفسية أو عقلية أخرى) .

أما حديث النفس فيمكن أن يقابل الوسواس القهري (وهو نوع من الأمراض العصابية ضئيلة الانتشار يتميز بوجود أفكار أو اندفاعات أو مخاوف أو طقوس حركية مستمرة أو دورية ، يعتقد المريض بتفاهتها ، ولا معقوليتها ، لكنه لا يستطيع التخلص منها) .

وأخيرًا فإن الحديث عن السبات (قد يعني الغيبوبة Coma أو قد يكون عرض نفسي لبعض الأمراض يأخذ شكل النوم العميق لفترات زمنية طويلة ، أما فساد الذكر (فقد يعني ما يصيب الذاكرة من اضطرابات كلية أو جزئية ، سواء كان لأسباب عضوية أو أسباب وظيفية) .

وعلى أية حال فهذه الفئة الأخيرة من الأمراض التي ذكرها الرازي ، والتي قدمنا لها بعض التعريفات والشروح المختصرة باعتبارها من الأمراض النفسية أو العقلية ، أو باعتبارها أعراضًا نوعية لأمراض نفسية وعقلية ، وظيفية أو عضوية هي من الأمراض التي تدخل في دائرة اهتمام علماء النفس الإكلينيكين إما لتشخيصها أو التعرف على أسبابها ، أو المساعدة في علاج المرضى بها (علاجًا نفسيًا أو علاجًا سلوكيًا Behavior Therapy) ، والمساعدة كذلك في تأهيل المرضى بعد العلاج أو في تدابير الوقاية لمن يحتمل إصابتهم بمثل هذه الأمراض ، وهذه الأمراض تمثل مجالًا مشتركًا بين دراسات الطب النفسي ، ودراسات علم النفس الإكلينيكي (ص ١٢ - ٢١) .

وينتقل الرازي بعد ذلك ليقدِّم لنا علاجاته للرمد ، وعلاجًا لأمراض الأذن من ثقل في السمع والدوي والطنين (وتعني علماء النفس فقط من ناحية تأثيرها في الإدراك البصري Visual Perception والإدراك السمعي Auditory باعتبار الإدراك من الموضوعات التي يعتنون بها (ص ٢١ - ٣٤) ، ثم يقدم علاجاته للأنف ، والزوائد الأنفية (ص ٣٥ ، ٣٦) ، ويزلف بعد ذلك للفم ، فيذكر حمر الفم وتشقق الشفة ، وثقل ورم اللسان ، واللثة ، وتشقق اللسان (ص ٣٥ - ٤١) ، (واهتمام علماء النفس هنا ، اهتمام غير مباشر ، فالمهتمون بدراسة إدراك الكلام Speech Perception أو اضطرابات الكلام Speech Disorders ، أو إنتاج الكلام Speech Production هم الذين يهتمون بسلامة الجهاز النطقي وهو يدخل إلى حد كبير في اهتمامات علم النفس المعنيين بسيكولوجية اللغة) .

ويستمر بعد ذلك في تناول بقية الأمراض التي تصيب أجزاء الجسم كالزكام ، والسعال ، وأمراض المعدة ، وأوجاع الكبد ، وهزال البدن ، وأمراض الأمعاء ، والعظام والمفاصل ، والبواسير ، والقولون ، وأوجاع الكلى والمثانة والحصاة في الكلى ، وأوجاع الأرحام واحتباس الحيض ، وما يعين على الحمل ، والأمراض الجلدية ، وسقوط الشعر .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس الإكلينيكي .

* * *

رسائل فلسفية مضافاً إليها قطع من كتبه المفقودة (١)

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

عرض الكتاب :

ويشتمل الكتاب على ما يأتي :

(مجموعة من الكتب والمقالات التي ألفها الطبيب والفيلسوف الإسلامي الكبير أبو بكر محمد بن زكريا الرازي) .

١ – **كتاب الطب الروحاني** : وسبق عرضه مفصلًا .

٢ – **كتاب السيرة الفلسفية** : وبدأ فيه الرازي الحديث عن نظرة الناس لحياة الفيلسوف « سقراط » : بأنه كان لا يخشى الملوك ، ولا يأكل لذيذ الطعام ، ولا يلبس فاخر الثياب ، ولا يبني ولا يقتل ولا ينسل ولا يأكل لحمًا ولا يشرب خمرًا ولا يشهد لهوًا ، ويقول المؤلف إن ذلك صَحيح ولكنهم جهلوا منه أشياء كثيرة ، وذلك أن هذه الأمور التي ذكرها وأثروها عن سقراط كانت لديه في ابتداء أمره إلى مدة طويلة من عمره ، ثم انتقل عن كثير منها حتى إنه مات عن بنات وحارب العدو ، وحضر مجالس اللهو ، وأكل الطيبات إلَّا من اللحم ، ويشرب يسير المسكر في حياته المبكرة كان فيها شديد الإعجاب بالفلسفة ، فحرص على البُعد عن الشهوات والانشغال باللذات .

ووجه نظر الرازي في ذلك أنه من الفضل عدم الانغماس في الشهوات ، ولكن يجب الاعتدال والأخذ من كل حاجة بمقدار .

---

(١) تحقيق لجنة إحياء التراث . (ط ٥) . بيروت : دار الآفاق الجديدة (١٩٨٢م) . (٣١٦ ص) .

● ويرتبط هذا الكتاب بموضوع سيكولوجية الدوافع Psychology of Motives ، الدوافع الفطرية الأولية Primary Motives ، والدوافع الثانوية أو الاجتماعية المكتسبة Social Motives ، كما أن هناك إشارة إلى كف الدوافع وقمعها (ص ٩٧ - ١١١) .

٣ - **مقالة فيما بعد الطبيعة** : وهناك شك في نسبتها إلى الرازي ، ومن أكثر المسائل التي يبحث عنها الرازي فيها تدور حول الطبيعيات وليس فيها إلَّا قليل مما يدخل فيما يعتبر علم ما بعد الطبيعة ، وفيها يقول الرازي : إن أرسطوطاليس زعم أن الطبيعة لا تحتاج إلى دليل لظهورها ، واعتراف الناس بها وإقرارهم بوجودها ، وزعم من شاهدنا من الفلاسفة أن الدليل على وجودها أفعالها وقواها المنبثة في العالم الموجبة للاتصال ؛ كذهاب النار والهواء من المركز وذهاب الماء والأرض إليه ، فيعلم أنه لولا قوى فيها أوجبت تلك الحركات وكانت مبدأ لها ، وكذلك قالوا فيما يوجد في النبات والحيوان من قوة الغذاء وقوة النمو .

فأما قولهم إنهم لم يدلوا على وجود الطبيعة لإقرار الناس بها فالشيء لا يصح لإقرار الناس به كما لا يفسد لاختلافهم فيه ، ولو كان حقًّا لإقرار من أقر به لكان فاسدًا باطلًا لامتناع من امتنع منه ، فيكون الشيء فاسدًا صحيحًا في حال وباطلًا حقًّا في حال وهذا محال ، وأما استدلالهم بالقوى التي ادعوها فيقول لهم الرازي : إن ذلك نكران منهم أن يكون اللَّه ﷻ هو الموجب بذاته لقوى سائر الأفعال ولطبائع الأشياء .

٤ - **مقالات في أمارات الإقبال والدولة** : فمن أمارات الإقبال والدولة اتساق الأمور واطرادها ومجيئها ووقوعها على موافقة التنقل ولو في دقائق الأشياء وخسائسها فضلًا عن جلائها وعظائمها ، وكان قدماء الملوك يستدلون بما يقدم إليهم الطباخون من الأطعمة التي كانت تقع بوقوع شهواتهم على ثبات الإقبال والدولة ومن أمارات الإقبال والدولة ما يحدث من أخلاق النفس الموافقة للرياسة المعنية المقوية عليها بعلو الهمة والنبل والجود وقلة مهابة الأكفاء وفضل الرأي وإجادته ، ومن أمارات ذلك أيضًا عشق الرياسة وفرط محبته لها ، والميل إلى موافقة الخلطاء والأصحاب والأعوان والمحبة لصلاح أمورهم باستجلاب مودتهم وإقبال الخدم والأصحاب وفضل إجلالهم ومهابتهم له ، وميل النفس إلى العدل وكراهيتها الجور .

● ويرتبط ذلك بموضوع سيكولوجية القيادة Leadership بوجه خاص ، وسيكولوجية السياسة Psychology of Politics بوجه عام (ص ١٣٦ - ١٣٨) .

٥ - **من كتاب اللذة** : للرازي مذهب مشهور في اللذة ، أوضحه في كتاب الطب الروحاني ، فاللذة ليست بشيء سوى إعادة ما أخرجه المؤذي عن حالته إلى حالته التي كان عليها ، ويخطئ من يتصور اللذة على أنها بعيدة من الألم والأذى ، كما هو الحال لدى العشاق ومن كلف بشيء وأغرم به فهم يحزنون من حيث يظنون أنهم يفرحون ، ويألمون من حيث يظنون أنهم يلذون ؛ وذلك لأنهم لا ينالون من ملاذهم شيئًا إلا بعد أن يمسهم الهم والجهد ، فاللذة لدى الرازي هي دفع الألم والعودة إلى الحالة الطبيعية .

• ويرتبط ذلك بموضوع سيكولوجية الإحساس والانفعالات Psychology of Emotions & Senstation وكالشعور بالألم والسعادة ، والحزن ، والفرح ... إلخ (ص ١٣٩ - ١٤٨) .

٦ - **من كتاب العلم الإلهي** : أما الأقسام (العناصر) الأربعة التي للجسم فما كان منها أصلب وأشد فهو الأرض التي في المركز ، وأما الماء فهو أكثر تخلخلًا منها ؛ لأنه أعلى ، والريح أكثر تخلخلًا من الماء ؛ لأنه أعلى منه ، ثم إن النار أكثر تخلخلًا من الهواء ؛ لأنه أعلى من الهواء .

ويقول محمد بن زكريا الرازي في كتابه : « شرح العلم الإلهي » : إن هذه الجواهر تحصلت هذه الصور من تركيب الهيولى المطلقة مع جوهر الخلاء . أما النار فيمتزج فيها جوهر الهيولى بجوهر الخلاء إلّا أن الخلاء فيها أكثر من الهيولى ، وأما الهواء فيقول فيه إن الخلاء فيه أقل من الهيولى ، ويقول في الماء إن الخلاء فيه أقل منه في جوهر الهواء ؛ وأما الأرض فالخلاء فيها أقل منه في جوهر الماء ، وسوف يتحدد معنى ذلك في باب الهيولي والخلاء .

٧ - **القول في القدماء الخمسة** : حكى محمد بن زكريا الرازي عن أوائل اليونانيين قدمه خمسة أشياء منها الباري سبحانه ، ثم النفس الكلية ، ثم الهيولى ، ثم المكان ، ثم الزمان المطلقان ، وبنى على ذلك الرازي مذهبه الذي تأصل عنه ، وفرق بين الزمان وبين المدة بوقوع العدد على أحدهما دون الآخر ؛ بسبب ما يلحق العددية من التناهي ، كما جعل الفلاسفة الزمان مدة لما له أول وآخر والدهر مدة لما لا أول له ولا آخر ، وذكر أن الخمسة في هذا الوجود اضطرارية ، فالمحسوس فيها هو الهيولى المتصورة بالتركيب ، وهي تمكّن فلابد من مكان ، واختلاف الأحوال عليه من لوازم الزمان فإن بعضها متقدم وبعضها متأخر ؛ وبالزمان يعرف القدم والحدث والأقدم والأحدث ومعًا فلابد منه .

وأثبت الحرنانيون خمسة من القدماء : أثنان حيان فاعلان وهما الباري والنفس ، وواحد منفعل غير حي وهو الهيولى ، واثنان لا حيان ولا فاعلان ولا منفعلان وهما الدهر والفضاء .

• ويرتبط هذا الجزء بمفهوم النفس (ص ٢٠٤) ، والعقل والإدراك (ص ٢٠٦) ، والإحساس بالسعادة (ص ٢٠٦) .

٨ - **القول في الهيولى** : ذكر أصحاب الهيولى مثل الإيرانشهري ، ومحمد بن زكريا الرازي وغيرهما أن الهيولى جوهر قديم ، وأثبت الرازي خمسة قدماء أحدهما الهيولى ، والثاني الزمان ، والثالث المكان ، والرابع النفس ، والخامس الباري سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا وكبرًا ، وقال : إن الهيولى المطلق ليس سوى أجزاء لا تتجزأ ، بحيث يكون لكل واحد من تلك الأجزاء عظم بوجوده مع الأجزاء الأخرى ، وأن الهيولى قديمة ؛ لأنه لا يجوز أن شيئًا يقوم بذات غيره - لا سيما إذا كان جسمًا - يحدث من لا شيء ؛ لأن العقل لا يقبل مثل هذا القول ، وقال : إن ما صار من أجزاء الهيولى مستجمعًا جدًّا كان منه جوهر الأرض ، وما صار أكثر تفرقًا كان منه جوهر الماء ، ثم إن ما صار أكثر تفرقًا من جوهر الماء كان من جوهر الهواء ، وما صار أكثر تفرقًا من جوهر الهواء كان منه جوهر النار .

وقال : إن ما صار من الماء أكثر تجمعًا مما هو عليه تحول أرضًا ، وما صار منه أكثر تفرقًا مما عليه جوهره تحول هواء ، وكذلك ما صار من جوهر الهواء أكثر تجمعًا مما هو عليه تحول ماء ، ما صار منه أكثر تفرقًا مما هو عليه تحول نارًا ، ولذلك تظهر النار عند ضرب الحجر بالحديد ؛ لأن الهواء الذي يكون بينهما يتفرق ويتمزق .

ثم تحدث بعد ذلك عن حدوث الأفلاك ، وأنها جزء من أجزاء الهيولى .

٩ - **القول في المكان والزمان** : عالج الرازي هذين الموضوعين في كتابه العلم الإلهي ؛ إذ فرق بين المكان والمطلق الذي هو الخلاء وبين المكان المضاف [1] الذي لابد له من متمكن ، وفرق بين الزمان المطلق الذي هو الدهر أو المدة ، وبين الزمان المضاف الذي يقدر بحركات الفلك ، ثم تحدث بعد ذلك عن إثبات الدليل بأن المكان غير متناهٍ ، وقول الإيرانشهري في قِدَم الهيولى والمكان ، والبحث عن ماهية الزمان ، وتتبع سائر

---

(١) هو السطح الباطن من الجسم الحاوي المماس للسطح الظاهر من الجسم المحوي كما يذهب إليه أرسطوطاليس .

المذاهب والأقول في ذلك .

• ويرتبط هذا الجزء بشكل غير مباشر بمفهوم الزمن Time conception (ص ٢٤١) وكذلك بمفهوم المكان .

١٠ - القول في النفس والعالم : كان للرازي في كتاب العلم الإلهي وغيره من الكتب بحث في قدم النفس الكلية واشتياقها إلى الهيولى وهبوطها وتشبثها بها ، وادعى أن في هذا الاعتقاد برهانًا قاطعًا فلسفيًا على حدوث العالم إذا كان العالم ليس سوى نتيجة تعلق النفس بالهيولى وتصورها فيها ، وذكر الرازي أن العالم يصدر عن الصانع الحكيم إما بالطبع وإما بالإرادة ، وعلة تعلق النفس بالهيولى ، فالنفس بسبب جهلها افتتنت بالهيولى وتعلقت به وصنعت منه صورًا لكي تحصل منه على اللذات الجسمانية .

١١ - المناظرات بين أبي حاتم الرازي وأبي بكر الرازي (مقتبسة من كتاب أعلام النبوة لأبي حاتم الرازي) ، يرد أبو حاتم في كتاب أعلام النبوة على فيلسوف طبيب معاصر له أنكر النبوات ونقض الأديان وقال في فلسفته الإلهية بقدم الخمسة .

ويظهر أن هذا الشخص المسمى بالملحد هو « محمد بن زكريا الرازي » غير أن مقدمة الكتاب التي ذكر أبو حاتم فيها اسم خصمه قد سقطت من النسخ المخطوطة بفقدان الصفحة الأولى مما يدعو إلى الشك في نسبة الفصول المذكورة باسم الملحد إلى الرازي ، وعلى الرغم من ذلك فهناك بعض الأدلة التي تشير إلى صحة ذلك .

• وترتبط هذه المناظرات ببعض المفاهيم السيكولوجية مثل : مفهوم الفروق الفردية Individual Differences (ص ٢٩٦ ، ٢٩٧) ، ومفهوم الذكاء Intelligence (ص ٢٩٧ - ٢٩٩) .

* * *

الترمذي (ت ٣٢٠هـ)
رسالة مكر النفس [1]

عرض : د . الحسين محمد عبد المنعم

التعريف بالمؤلف :

هو أبو عبد اللّه محمد بن علي الحكيم الترمذي ولد في ترمذ ، من بلاد ما وراء النهر ، كما يتضح ذلك من نسبته قريبًا من مطلع القرن الثالث الهجري ، ولا يعرف على وجه التحقيق وقت مولده أو وفاته وإن روى بعضهم أنه عاش حتى بلغ الثمانين أو التسعين .

ويذكر الترمذي في الترجمة التي كتبها لنفسه أنه ابتدأ الدرس في الثامنة ، وأنه درس « علم الآثار » و « علم الرأي » ، فلما بلغ السابعة والعشرين اعتزم على الحج ، ومر بالعراق في طريقه طالبًا الحديث ، ولما وصل إلى مكة وقع على قلبه ، كما يقول ، « تصحيح التوبة والخروج مما دق وجل » ، وسأل اللّه أن « يصلحه ويزهده في الدنيا » ، ثم ألقى عليه وهو عائد إلى وطنه « حرص التحفظ للقرآن ، فبدأ ذلك في طريقه ، ولما رجع نشد شيخًا يدله على طريق التقوى ولكنه لم يهتد إليه حتى سمع « كلام أهل المعرفة » ووقع إليه « كتاب الأنطاكي » وتعلم منه شيئًا من « رياضة النفس » ، وكان في أثناء ذلك يقضي الساعات الطوال وحيدًا في الصحراء ، فكشف له عن كثير من المعاني والتجليات . .

---

(١) تحقيق وتقديم عبد الفتاح عبد اللّه بركة . مجلة معهد المخطوطات - س ٢ . ع ٢ - (١٩٧٤م) . (ص ١٣١ - ١٥٩) .

ويذكر الهجويري ، المتوفَّى سنة (٤٦٩هـ) في كتابه « كشف المحجوب » ، أسماء ثمانية كتب للترمذي من بينها تفسير للقرآن يقول إن الترمذي مات ولم يتمه ، كما يذكر أن الترمذي تتلمذ على شيخ من أصحاب أبي حنيفة الأقربين ، وأن أبا بكر الوراق كان تلميذًا له ، وينسب الهجويري إليه فرقة صوفية تسمى « الحكيمية » ويخصها بفصل كامل من كتابه ويقول إن مأخذ قولها في الولاية هو الترمذي .

ويروي الذهبي في كتابه « تذكرة الحفاظ » عن السلمي أن الترمذي نفي من ترمذ بسبب كتابين ألفهما هما : « ختم الولاية » و « علل الشريعة » ؛ ولأنه كان يذهب إلى أن للأولياء خاتمًا كما أن للأنبياء خاتمًا ، فقالوا : إنه فضل الولاية على النبوة واحتج بقول رسول الله ﷺ : « **يغبطهم النبيون والشهداء** » ، ثم يذكر أنه ذهب إلى بلخ فأكرموه لموافقته في المذهب ، وأنه رحل إلى نيسابور سنة خمس وثمانين ومائتين ، وأنه عاش حتى بلغ الثمانين .

أما عن كتب الترمذي وأثره ، فإن تأثيره على الصوفية بعده عن طريق مؤلفاته أوضح من تأثيره عليها بوساطة مريديه وتلاميذه ، وقد درس المتأخرون كثيرًا من مؤلفات الترمذي واستفادوا منها ، وقد ذكر الأستاذ ماسينيون أن أسئلة الترمذي الخمسة والخمسين والمائة التي أوردها الترمذي في كتابه : « ختم الأولياء » قد استفاد منها ابن عربي في كتابه : « الفتوحات المكية » ، وكذلك الغزالي استفاد من : « كتاب الأكياس والمغترين » في آخر الربع الثالث من « الإحياء » .

ومن مؤلفات الترمذي المخطوطات ومنها : « أبواب مختلفة » ، « وإثبات العلل » ، « وأجوبة مسائل » ، « والاحتياطات » ، « وأدب النفس » ، « والأكياس والمغترون » ، « الأمثال » ، « أنواع العلوم » ، « بيان آداب المريدين » ، « بيان العلم » ، « وبيان الكسب » ، « بيان المعرفة والصفاء » ، « تاريخ المشايخ » ، « التوحيد » ، « الحج وأسراره» ، « وختم الأنبياء » ، « رياضة النفس » ، « شرح الصلاة » ، « طبقات الصوفية » ، « عذاب القبر » ، « العقل والهوى » ، وغير ذلك .

عرض الكتاب :

تقع الرسالة في إحدى عشرة صفحة من القطع المتوسط ، بالإضافة إلى ثماني عشرة صفحة ترجمة للمؤلف وتحقيق الرسالة .

وتعد الرسالة من الرسائل القصيرة للحكيم الترمذي ، والتي وردت في ثنايا رسالة

أخرى بعنوان « الرسائل المكنونة » .

ويهدف الترمذي من هذه الرسالة إلى تحذير المريدين والسالكين على طريق الصدق من مكائد النفس وحيلها ومكرها ، وهي تصوير للمعركة التي تقوم بين المريد ونفسه ، فالنفس تزين له مسألة من المسائل على أنها نعمة من اللَّه استحقها لجهد بذله أو طاعة قام بها ، فإذا اقتنع بكلامها ، سقط في حبائلها ، ونالت منه بغيتها وشهوتها من التمتع بشعور العزة والرفعة والجاه ، فانقطع به طريقه إلى اللَّه ووكله إلى نفسه فهلك معها ، ويجعل المعركة بين طرفين في نفس الإنسان مكر النفس وكياسة المعرفة ، ويرتبط هذا الحديث بمفهوم الصراع النفسي داخل الفرد Conflict (ص ١٣٩) .

وابتدأ الرسالة بالبسملة والحمدلة ، ثم يحدد مكان مكر النفس وهو الكليتان وكياسة المعرفة في القلب ، ويتدرج الحكيم في الرسالة موضحًا للمريد كيف يتخلص من حيلها حيلة حيلة ، وذلك بالصبر والثبات على الطريق ، ومراقبة أحوال النفس في مكرها حتى لا تخدعه ، وحتى تيأس فتستسلم لربها .

فقد تأتيه النفس من قبل سبوغ نعمة اللَّه عليه ، وأن ذلك علامة على علو منزلته عند اللَّه ؛ لكن ذلك خطأ ؛ لأن سبوغ النعمة هو امتحان صعب ؛ لأنه سوف يحاسب على هذه النعم ، وكيف حصلها ، وكيف تصرف فيها ، وهل كان ذلك لوجه اللَّه ، أو لشيء سواه ، وفي ذلك خطر عظيم ، وليست شرفًا أو جاهًا أو منزلة كما تصوره النفس لصاحبها ، وإذا ارتقى عن ذلك مرحلة وارتفعت نظرته إلى النعم ، أتته النفس فزينت له الدنيا مرة ثانية ، لا بوصفها معونة على الدين ، وعلى المريد أن يكون كيسًا منتبهًا إلى أن تحصيلها بهذا الوصف سيكون حجة عليه كيف تناولها بوصفها معونة على الدين ولا تقيم الدين ، وإذا لم يستطع أن يبلغ بكياسته هذا المعنى يلزمها بذكر الموت الذي لا تبقى معه نعمة ، ويقترب هذا الحديث أيضًا من مفهومي ضبط النفس وتأنيب الضمير في علم النفس الحديث (ص ١٤٠) .

وإذا ارتقى عن ذلك مرحلة ، وأصبح ممن جاوزوا عتبة الطريق فتبادلتهم الأحوال العلوية الإلهية ، فقد تغره نفسه بذلك ، وتزين له التمتع بهذه الأحوال التي يتمتع بها الخاصة من الأولياء ، وعلى المريد أن يواجهها بما يجب عليه في مقابل ذلك من أنواع الشكر ، وإلَّا فكيف يلقى اللَّه غدًا مع أثقال الشكر والحياء من اللَّه ؟ وفي هذا الحديث أيضًا نلمح إشارة إلى مفهوم « ضبط النفس » ومحاولة قمع الدوافع وأهواء النفس (ص ١٤١) .

وقد يناله من جزاء سلوكه سمعة طيبة وشهرة لدى الناس بحيث يصبح ذا جاه وقدر ومنزلة ، فتحاول نفسه أن تلهيه بذلك وتخيل إليه أن هذا هو غاية ما يصبو إليه ، وعلى المريد أن يتنبه إلى أن هذا الجاه والقدر والمنزلة أمور دنيوية ، ولا غرض له فيها ، وأن المقصود هو جاه الآخرة والقدر والمنزلة عند العرض على اللّه يوم القيامة . (ويقترب الحديث هنا أيضًا من مفهوم « مراتب الهدف » في علم النفس التربوي) (ص ١٤٢) .

وقد تطمئن به حياته صحة وعافية واستقرارًا ، وقد ينال في دنياه دولة وسلطانًا وثروة ، فتغريه بالركون إلى ذلك ، والاسترواح به ، والتوقف عن بذل المزيد من الجهد ، فعليه أن يعرف أنه لا يمكن الاطمئنان إلى شيء دون اللّه ولا التعويل على شيء غير اللّه فالعافية تزول ، والدَّوْلَةُ تَدُولُ بين الخلق ، ويرتبط هذا الحديث بمفهوم الدافعية Motivation أو النشاط العام General Activity المتجه إلى القيام بالأعمال الصالحة بنية الحصول على رضا اللّه ﷻ (ص ١٤٢) .

وإذا زَينت له أمره معتمدة على أن الأمور تجري على محابه ، بعد أن ارتقى مرحلة أخرى في الطريق ، وأصبحت أموره ميسورة ، فعليه أن يرجع نفسه ويحاسبها ؛ هل تجري الأمور على محابه ؛ لأنه أرضى اللّه خالقه ؟ ولكن كيف يمكن الاطمئنان إلى ذلك فربما يكون الأمر على سبيل الامتحان ، ويرتبط ذلك بمفهوم محاسبة النفس ومراقبتها (ص ١٤٢) .

وإذا ارتقى درجة أخرى ، وأصبح لا يقترب من المعاصي ، ويقوم بالطاعة في يسر وسهولة ، فقد تزين له أنه وصل إلى الغاية فعليه أن يذكرها بأثقال الشكر ؛ لأن الشكر على العصمة وعلى يُسر الطاعة ، أثقل من الشكر على النعم الدنيوية .

وقد يرتفع درجة أخرى فيتجاوز الطاعات إلى الاستكثار من أعمال البر ، وتجنب أعمال البغي ، فعليه أن يبين لها أن الأمر ليس بكثرة العمل وزينته ؛ بل بصحة القلب وسلامته ، وهنا إشارة إلى السيطرة على الانفعالات وقمع الدوافع (ص ١٤٣) .

وإذا ارتقى درجة وأتاه اللّه علمًا فعليه أن يدرك أنه كلما ازداد علمًا كان عذره أقل ، ويقترب هذا الحديث من مفهوم الشعور بالمسؤولية Reponsibility (ص ١٤٣) .

وقد يرتقي بعد ذلك إلى مستوى يصبح فيه أهلًا أن يأخذه اللّه من نفسه إلى محل ولايته ؛ فتتوارد عليه العطايا والأنوار الإلهية ، تقوية له في شأنه ، وهذه العطايا والأنوار من نصيب القلب خاصة ليستعملها في السير إلى اللّه ، دون أن يلتفت إلى شيء سواه .

فإذا التفت إلى أعمال البر من أنواع التطوع وطاب به نفسًا ألهاه ذلك عن مطلبه وهدفه وشغله ، وتزين له النفس أعمال العطاء وأعمال البر ، ولما كان العطاء يستعمل في سير القلوب إلى الله فقط واستعمل في غير ذلك ، فقد أسرف وأعطى النفس حظًّا منه تفرح به وتطمئن له وتحقق به بعض شهواتها .

وفي هذه الحالة يحبس عنه مدد العطاء ، وهذا الحبس باب من أبواب عقوبته على التفريط في العطاء ، فإن عاد وأناب ، ورحمه الله فعليه أن يبدأ جهاد نفسه من جديد .

ويضرب الحكيم الترمذي مثلًا لهذا المريد ، يعطينا به معنى جديدًا من معاني الولاية ، فيمثله برجل دعاه أمير المؤمنين من بين الرعية ليتخذه « وليًّا » ويكون أمينًا من أمنائه وأرسل إليه نفقة الطريق في كل مراحله ، فإن أنفقها في التزين والتجميل بما يتناسب مع لقاء أمير المؤمنين قبله وولاه وخلع عليه الولاية ، وائتمنه على الخزائن ؛ أما إذا وقف هذا الرجل في الطريق يبعثر نفقة أمير المؤمنين ، ولو كان في شراء الطرف والهدايا ، فإن أمير المؤمنين يرده خاسرًا ، ويعيده كسائر الرعية عاملًا أو أجيرًا ؛ لأنه قد ثبت أنه لا يصلح للولاية أو السياسة ، ونجد في هذا معنى من معاني الولاية العامة المرتبطة روحيًّا بالمملكة الإلهية ، حيث يولي الله من يشاء من عباده ، ومن يرتضهم لهذه الولاية ، فيعطيهم سلطانًا من سلطانه يتصرفون به في مملكته كيفما يرضى ، وينفذ أحكامهم التي يصدرونها من قلوب صافية علوية ، ونفوس خلت من تأثير الهوى والشهوة ، فتعمر بهم البلاد ، ويعز الحق ، وينصر الدين ، ويكونون بعين الله يرعاهم ويؤيدهم ، ونلمح من خلال الحديث السابق إشارة إلى مفهوم « مواصلة الاتجاه » Maintaining Direction ، (ص ١٤٣ - ١٤٥) من خلال السير إلى الله على الدوام ، وكذلك نجد إشارة إلى مفهوم « إشباع الرغبات » والعقاب ، وفي مثال أمير المؤمنين نجد نوعًا من « المحاكاة للمواقف » .

وفي النهاية يشير الحكيم الترمذي إلى من نالوا مثل هذه المكانة من السلف ، وهم أئمتنا من الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعلي وعثمان ، فقد جمعوا هذا المنصب من وجوهه الدنيوية والروحية فكانوا بذلك مثلًا يحتذى ، وبين الحكيم أيضًا أن الأمر لم يتوقف على الصحابة والخلفاء رضوان الله عليهم بل لا يزال يخلفهم طائفة منهم في كل جيل « كلهم صديقون ، حكماء علماء الله وأحباؤه ، وخلفاء الأرض ، بهم تقوم الأرض » ، وفي هذا الحديث نوع من التعلم عن طريق « العبرة » Vicarious باعتبار أحد مفاهيم نظرية التعلم الاجتماعي Social Learning والامتداد بنماذج مثالية Modeling ، (ص ١٤٧) .

وهذه الرسالة القصيرة توضح لنا دقة الحكيم الترمذي في معرفة مسارب النفس البشرية ومسالكها لكي تفسد على المريد وقته وحاله ، وتحبط جهده وعمله ، وتستحوذ بحيلتها ودهائها ، على كل ما يحصله من نعم روحية ، لكي تحولها إلى مغانم دنيوية ، ولذائذ حسية ؛ ولذلك يحذر المريدين حيلها ، فيذكرها لهم بهذا الإجمال ، ويضرب الأمثلة التي تصلح للمريد في كل مرحلة من مراحل سلوكه وسيره في جهاد النفس .

ومن الواضح أن ذلك قائم في حق من يسير إلى اللّٰه عن طريق الصدق ومكابدة جهاد النفس ورياضتها في انتظار أن تخرج لهم المنة الإلهية من باب الرحمة ، بعد أن يستفرغوا منتهى طاقتهم ، ويستنفذوا غاية جهدهم .

* * *

بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١١١ صفحة من القطع الصغير ، وينقسم إلى ٦ فصول ويضم بالإضافة إليها مقدمة وهي ترجمة للمؤلف ، وبعض مؤلفاته ، وما نسب إليه من كتب ، ثم فهرس الموضوعات وفهرس الأحاديث .

كتاب « بيان الفرق » وصَف سيكولوجية للقلب ، ومقاماته الأربعة الداخلة فيه ، وكل واحد في هذه المقامات مرتبط بأحد أنوار اللّٰه ؛ فالصدر أو المقام الخارجي مرتبط بنور الإسلام ، والقلب وهو من داخل الصدر مرتبط بنور الإيمان ، والفؤاد وهو المقام الثالث مرتبط بنور المعرفة ، واللب وهو آخر المقامات من داخل ، مرتبط بنور التوحيد .

وهذه المقامات الأربعة مرتبطة كذلك بمنازل العبد الأربع : المسلم ، والمؤمن ، والعارف ، والموحد ، وهي مرتبطة أيضًا بحالات النفس الأربع المذكورة في القرآن : النفس الأمارة بالسوء ، والنفس اللوامة ، والنفس الملهمة ، والنفس المطمئنة .

الفصل الأول : في مقامات القلب :

فاسم القلب اسم جامع يقتضي مقامات الباطن كلها ، واسم القلب أشبه باسم العين ، فالعين اسم يجمع ما بين الشفرتين من البياض والسواد والحدقة والنور الذي في الحدقة ، وكل واحد من هذه الأشياء يرتبط بالآخر وبينهم تعاون ومنافع متصلة ، وقوام

---

(١) تحقيق نقولا هير . القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية ، [د . ت] . (١١ ص) .

النور بقوامهن .

والصدر في القلب هو في المقام من القلب بمنزلة بياض العين في العين ، وهذا الصدر موضع دخول الوساوس والآفات ، والغلل والشهوات والـمُنَى والحاجات ، وهو موضع نور الإسلام ؛ أما المقام الثاني فهو القلب ، وهو داخل الصدر وهو كسواد العين داخل العين ، والقلب يهيج منه اليقينُ والعلم والنية حتى يخرج إلى الصدر ؛ فالقلب هو الأصل ، والصدر هو الفرع ، وإنما يتأكد بالأصل الفرعُ .

أما الفؤاد فهو المقام الثالث ، وهو كمثل الحَدَقَة في سواد العين ، وهذا الفؤاد موضع لمعرفة الخواطر والرؤية .

ومثل اللب في الفؤاد ؛ كمثل نور البصر في العين وهذا اللب موضع نور التوحيد ، ونور التفريد ، وهو النور الأتم والسلطان الأعظم .

وذكر المؤلف أن الإسلام إنما يقام بالنفس ؛ والنفس هي عمياء عن إدراك الحق ومشاهدته ، ولم يكلف النفس إدراك الحقائق ، والعبد أمر بالإيمان بالقلب ولم يكلف بإدراك ما آمن من جهة الكيفية ، إنما عليه الاتباع والفرار من الابتداع .

● ويرتبط هذا الفصل بعدد من المفاهيم السيكولوجية ، فقد ورد ذكر مفهوم الوساوس Obsessions (ص ٣٥) ، والحاجات Needs (ص ٣٥) ، والنية القصد Intention (ص ٣٦) ، والإدراك أو الفهم Understanding (ص ٣٩) .

الفصل الثاني : في الصدر :

ابتلي المؤمن بالنفس وأمانيها ، وأعطيت ولاية التكاليف بالدخول في الصدر . والنفس معدنها الجوف وموضع القرب ، وهيجانها من الدم وقوة النجاسة ، فيمتلئ الجوف من ظلمة دخانها وحرارة نارها ، ثم تدخل في الصدر بوسوستها وأباطيل أمانيها ابتلاء من اللّه إياه حتى يستعين العبد باللّه ﷻ ، فيجيبه اللّه تعالى ويصرف عنه شرها ، كما يدخل الشيطان بوسوسته في صدر العبد ، وهو آخر ولاية حد النفس .

وصدر المؤمن يضيق أحيانًا من كثرة الوسواس والغم والشغل ، وتتابع الحوائج ، وبلوغ الحوادث ، وإصابة المصائب ، ويضيق إذا سمع باطلًا ؛ لأن اللّه تعالى وسع صدره بنور الإسلام ، وأما صدر الكافر المنافق فإنه امتلأ من ظلمات الكفر والشرك والشك ، واتسع لها ، فلم يبق فيه مكان لنور الإسلام .

والصدر أيضًا موضع الغلل ، والجناية ؛ لأن النفس ذات غل وجناية ولها ولاية في

الصدر بالدخول ، وهو من جهة الابتلاء ، قال تعالى : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف : ٤٣] حتى يدخلوا الجنة بلا غل ، وقلب المؤمن محفوظ من الغل ؛ لأنه موضع الإيمان .

• ويرتبط هذا الفصل بعدد من المفاهيم السيكولوجية مثل مفهوم الرغبات والحاجات Needs & Desires ، والوسواس Obsession (ص ٤٠ - ٤٧) ، والانفعالات .

الفصل الثالث : في القلب :

يضاف العمى والبصر إلى القلب ولا يضاف إلى الصدر . قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] : وكل علم تحمله النفس ويعيه الصدر فإن النفس تزداد به تكبرًا وترفعًا وتأبى قبول الحق ، وكلما ازدادت علمًا ازدادت حقدًا على الإخوان ، وتماديًا على الباطل والطغيان ، قال رسول الله ﷺ : « **إن لهذا العلم طغيانًا كطغيان المال** » ، والقلب هو مَعْدِنُ نور الإيمان ، قال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ [المجادلة : ٢٢] ، وقال : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : ٧] ، فالصدر موضع يصدر إليه علم العبادة ، والقلب معدن الذي تحت علم العبادة ، وهو علم الحكمة والإشارة ، وعلم العبادة حجة على الخلق ، وعلم الإشارة محجة العبد إلى الله .

الفصل الرابع : في الفؤاد :

فالفؤاد وإن كان موضع الرؤية فإنه يرى ويعلم القلب ، وإذا اجتمع العلم والرؤية صار الغيب عند صاحبه عيانًا ، ويستيقن العبد بالعلم والمشاهدة وحقيقة رؤية الإيمان .

وهناك فرق آخر بين القلب والصدر يتمثل في أن نور الصدر له نهاية ونور القلب لا نهاية له ولا غاية ولا انقطاع وإن مات العبد ، ويسمى القلب قلبًا لسرعة تقلبه ، والإسلام كما أوضح رسول الله ﷺ علم وعمل ، والإيمان علم ومستقره القلوب .

وقد ربط الرسول ﷺ الإحسان بالرؤية ، ومَعْدِنُ الرؤية هو الفؤاد ، قال تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم : ١١] ، والفؤاد مشتق من الفائدة ؛ لأنه يرى من الله ﷻ فوائد حبه ، فيستفيد الفؤاد بالرؤية ويتلذذ القلب بالعلم .

ويذكر المؤلف أن اسم الفؤاد أدق معنى من اسم القلب ، ومعناهما قريب كقُرب معنى الاسمين الرحمن الرحيم ، فحافظ القلب هو الرحمن ؛ لأن القلب معدن الإيمان والمؤمن توكل بصحة إيمانه على الرحمن ، وحافظ الفؤاد هو الرحيم ، قال تعالى :

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ... ﴾ [الأعراف : ١٥٦] .

● وهناك إشارة بهذا الفصل إلى موضوع التخاطب أو الاتصال Communication حيث يجب مراعاة مستوى ذكاء وعقول من تخاطبهم (ص ٦٧) .

الفصل الخامس : في اللب :

وهو الجبل الأعظم والمقام الأسلم وهو كالقطب لا يزول ولا يتحرك وبه قوام الدين ، والأنوار كلها راجعة إليه حافة حوله ، ولا تتم هذه الأنوار ولا ينفذ سلطانها إلَّا بصلاح اللب وقوامه ، ولا تثبت هذه الأنوار إلَّا بثبوته ، ولا توجد إلَّا بوجوده ، وهو مَعْدِنُ نور التوحيد ومشاهدة التفريد ، واللب لا يكون إلا لأهل الإيمان ، الذين هم من خاصة عباد الرحمن ، والذين أقبلوا إلى طاعة المولى ، وأعرضوا عن النفس والدنيا ، فألبسهم لباس التقوى ، وصرف عنهم أنواع البلاء ؛ فسماهم اللَّه أولي الألباب .

ويرى الكثير من أهل الأدب واللغة أن اللب هو العقل - ولكن بينهما فرق (كما بين نور الشمس ونور السراج ، فكلاهما نور) - لأنك لا تكاد ترى عاقلين يستوي سلطان عقلهما ونورهما ؛ بل يتفوق أحدهما على الآخر ، والعقل يعبر به عن العلم على وجه المجاز في اللغة ، ولكن أولوا الألباب هم العلماء باللَّه ، وليس كل عاقل عالمًا باللَّه ، وللعقل أسماء أخرى ، فهو يسمى حلمًا ، ونُهْيَةً وحِجْرًا ، وحِجَى . قال اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ [طه : ٥٤] ، وقال : ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ [الفجر : ٥] .

● ويرتبط هذا الفصل من حديث علماء النفس عن معنى القدرات العقلية Mental Abilities ، ومعنى العقل والفروق الفردية في القدرات العقلية Individual Differences (ص ٧٠ - ٧٩) .

الفصل السادس : في أنوار القلب :

ويذكر فيه المؤلف أن الأنوار التي وصفها في صدر الكتاب مثل نور الإسلام ونور الإيمان ونور المعرفة ونور التوحيد ، وإن كانت أسماؤها مختلفة فهي أشكال غير أضداد ، ولكل منها فوائد خاصة به ، فنور الإسلام يتولد منه خوف ورجاء ، ونور الإيمان يتولد منه خوف ، ونور المعرفة يتولد منه خوف ورجاء ، وكذلك سائر الأحوال التي تهيج من القلب وتتولد من أنوار الباطن مثل الشكر والصبر والمحبة والحياء والصدق والوفاء وغيرها ، ونور التوحيد يتولد منه خوف الحقائق ، ورجاء الحقائق ، وهذا النوع

يرجع خوفه إلى مشاهدة الربوبية وهو أن يخاف اللّٰه تعالى ولا يخاف سواه ، ويرجوه ولا يرجو سواه (ص ٦٩ - ٨٠) .

وتحدث المؤلف عن حالات النفس كما ورد ذكرها في القرآن الكريم ، فهناك النفس المطمئنة أو النفس اللوامة ، والنفس الأمارة بالسوء ، وأضاف لها المؤلف النفس المهملة ، (ص ٨٦) .

والحياة التي يفهمها العامة على وجوه : منها حياة النفس بالروح وهي حياة الدواب والبهائم ، ومنها حياة القلب من ظلمة الكفر بنور الإيمان ، ومنها حياة النفس بالعلم ، ومنها حياة العبد بنور الطاعة من ظلمة المعصية ، ومنها حياة التائب بنور التوبة من ظلمة الأضرار .

ثم تحدث عن عجز العقل عن إدراك الحقائق ، عن إدراك اللّٰه ﷻ : فالعقل حجة من اللّٰه تعالى على العبد ، وهو آلة مركبة لإقامة العبودية لا لإدراك الربوبية .

الصواب هو التسليم للحكم والاستسلام للرب والرجوع إلى الحق .

● وبهذا الفصل إشارة إلى مصادر الانفعالات Emotions (ص ٧٩ ، ٨٠) ، حالات النفس (ص ٨٠ - ٨٢) .

أوجه الاستفادة من هذا الكتاب :

في مجال علم النفس العام .

* * *

كتاب الرياضة وأدب النفس [1]

عرض : د . معتز سيد أحمد

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٦٨ صفحة من القطع المتوسط ، يتكون من كتابين نوعيين هما : كتاب الرياضة ، وكتاب أدب النفس . وينهي المحقق الكتاب بتقديم فهرس للموضوعات ، وآخر للأعلام ، وثالث للمواضع ، وهو ما نعرض لتفاصيله على النحو التالي :

كتاب الرياضة :

وفيه يبدأ المؤلف بعرض أجزاء الجسم الإنساني وعمل كل جزء من هذه الأجزاء ووظيفته ، وحدد موضع الشهوة ، وموضع الفرح ، وأصل الهوى على أساس أنه من نفْس نار الشهوة . فإذا خرج ذلك النَّفَس من النار ، احتمل من ذلك الحفوف من الشهوات بباب النار فيها الزينة والأفراح ، فأورد على النفس ، فإذا نالت النفس ذلك الفرح والزينة ؛ هاجت بما فيها من الفرح والزينة الموضوعة إلى جانبها في ذلك الوعاء ، وهي ريح حارة ، فدبت في العروق فامتلأت العروق منها في أسرع من الطَّرفة ، والعروق مشتملة على جميع الجسد ، من القرن إلى القدم ، فإذا دبت في العروق ، ولذت النفس دبيبها وانْفِشَاشها في الجسد ، وامتلأت النفس لذة ، وهَشَّت إلى ذلك الشيء فتلك شهوتها ولذتها ، فإذا تمكنت النفس بتلك الشهوة واللذة من جميع الجسد ، فصارت تلك الشهوة نهْمَة على القلب ، والنهْمَة غلبة الشهوة وغليانها ، فإذا

---

(١) عني بإخراجه أ . ج أربري ، علي حسن عبد القادر . القاهرة : مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، (١٩٤٧م) . (١٦٨ ص) .

غلت الشهوة غلبت على القلب ، فيصير القلب منهومًا وهو أن تقهر القلب حتى تمتهنه ، فتستعمله بذلك ، فيصير سلطان الهوى والشهوة مع النفس ومسكنها في البطن ، وسلطان المعرفة والعقل والعلم والفهم والحفظ والذهن في الصدر ، وجعل المعرفة في القلب ، والفهم في الفؤاد ، والعقل في الدماغ ، والحفظ والذهن في الصدر ، والحفظ قرينه ، وجعل للشهوة بابًا من مستقره إلى الصدر ، فيفور دخان تلك الشهوات التي جاء بها الهوى ، حتى يتأدى ذلك إلى الصدر ، فيحيط بفؤاده ، وتبقى عينا الفؤاد في ذلك الدخان ، وذلك الدخان اسمه الحمق (ص ٣٨ ، ٣٩) .

ويعرض المؤلف للكِبْر في النفس ، وأنه أصل الغضب ؛ وهذه صفة ظاهر الأدمي وباطنه ، فوقعت الجباية من الله تعالى والخيرة على هذا الموحد ، من كل ألف واحد ، وبقي تسعمائة وتسعة وتسعون ، رفع البال عنهم ، وجعل باله لواحد من كل ألف من الآدميين ، فقسم الحظوظ يوم المقادير بالبال ، ورفض من لم يبال به ، فخابوا عن الحظوظ ، فلما استخرجهم ذرية من الأصلاب استنطقهم ، فاعترف له أهل الحظوظ من باله طوعًا لقوله ﷻ حين قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، واعترف من خاب عن المحظوظ ومن لم ينل من باله بقوله : ﴿ بَلَىٰ ﴾ كرهًا ، فذلك قوله ﷻ : ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [آل عمران : ٨٣] . فيصير منهم فريقان : أحدهما في الجنة والآخر في النار ، ثم ردهم إلى صلب آدم عليه السلام ، فيخرجهم في أيام الدنيا للأعمال وإقامة الحجة ، فكل من وقعت عليه جبايته واختياره له ، وصبغ قلبه ، أي غمس قلبه في ماء الرحمة حتى طهره به ، ثم أحياه بنور الحياة ، وقد كان قبل ذلك بضعة من لحم جوفاء ، فلما أحياه بنور الحياة تحرك وفتح عينيه اللتين على الفؤاد ، ثم هداه بنوره وهو نور التوحيد ونور العقل (ص ٤٠ ، ٤١) .

فلما نالت النفس تلك الزينة كرهت الكفر والفسوق والعصيان ، فالمؤمن إذا أذنب فإنما يعصى بالشهوة والنَّهْمَة وهو كاره للفسوق والعصيان ، ومع الكراهية يفسق ويعصى بغفلة ، ولا يقصد الفسق والعصيان ، كما قصد إبليس ، فتلك الكراهية موجودة فيه ، والشهوة غالبة عليه ، ولما كان العبد بهذه الصفة ، فقد أمر بالمجاهدة ، ثم لما علم أن المجاهدة تشتد وتصلب على العباد ، أخبرهم عن منته وحسن صنيعه ، وبره ولطفه بهم ، فقال ﷻ : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] . فكل شهوة منعنا الله عنها أطلق لنا من بعضها فوضع على كل جارحة من الجوارح السبع حدًّا ، والجوارح السبع هي : اللسان ، والسمع ، والبصر ، واليدان ، والرجلان ، والبطن

والفرج (ص ٤٢ ، ٤٣) .

وأدب النفس أن يمنعها الحلال حتى لا تطمع في الحرام ، وذلك بالنسبة للجوارح السبع ، مع ملاحظة أن للقلب سلطانًا على الجوارح ، فلو خشع القلب لخشعت جوارحه ، ويخشع القلب بما يتجلى له من عظمة اللَّه عز وجل وجلاله ، ويهيج من النفس الخوفُ والخشية والحياء منه ، فيوْجَل القلب ، فإذا خافت النفس وخشيت ، فوجل القلب واستحيا ، سكنت الجوارح ، وملك القلب جوارحه ، ووقف بها على الحدود ، فإذا ترك الرياضة أحاطت بالقلب فَوْرات الشهوات ، وحلاوتها وزينتها كالدخان والغيم ، وإذا فرح العبد بما فضله اللَّه ﷻ على سائر العبيد ، فمَنَّ عليه بالمعرفة والعقل ، فاستنار قلبه ، وطابت نفسه ، فتعاونا على الشكر والحمد ، فاستوجب المزيد ، فقال ﷻ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧] ، (ص ٤٥ - ٤٩) .

فالرائضون راضوا أنفسهم وأدبوها ، بمنعها الشهوات التي أطلقت لهم ، فلم يمكّنوها من تلك الشهوات إلا ما لابد منه ، كهيئة المضطر ، حتى ذبلت النفس ، وطفئت حرارة تلك الشهوات ، ثم زادوها منعًا حتى ذبلت واسترخت ، فكلما منعوها شهوة آتاهم اللَّه على منعها نورًا في القلب ، فقوي القلب ، وضعفت النفس ، وحيى القلب باللَّه جل ثناؤه ، وماتت النفس عن الشهوات ، حتى امتلاء القلب من الأنوار ، وخلت النفس من الشهوات ، فأشرق الصدر بتلك الأنوار (ص ٥١) .

وجوارحنا السبع أمانة عندنا ؛ لأن كل جارحة ذات شهوةٍ ، ومجمع الشهوات في النفس ، فإذا استعمل هذه الشهوات بإذنه اللَّه تعالى ، وبلغ بها الحد الذي حده له ، فهو مطلق له ، وإذا تعدى إلى المحظور صار مَلُومًا ، والبداية الحقيقية لوقاية النفس هي الصوم ، فعلى المبتدئ أن يبدأ بالصوم ، فيصوم شهرين متتابعين ، توبة من اللَّه ﷻ ، وينبغي أن ينفي كل فرح للنفس فيه نصيب ، حتى يصل إلى ربه تعالى ، فإذا وصل إلى ربه ﷻ امتلأ قلبه به فرحًا وسرورًا ويقينًا .

ويشير المؤلف بعد ذلك إلى أن الورع سيد العمل ، فعن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « **المؤمن من أمن الناس بَوَائقه** » والورع سيد الأعمال ، من لم يكن له ورع يرده عن معصية اللَّه ﷻ إذا خلا بها ، لم يعبأ بسائر عمله شيئًا .

كما أكد أهمية الإحسان ، وعرض لأصناف الأعمال ، وأهمية اتقاء الفرح وحسن النية ، وانتهى بتقديم وصف شامل لرياضة النفس .

• وأهم المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الكتاب هي : الدوافع البيولوجية Biological Motives (ص ٣٤ - ٨٨) ، والرغبات Desires (ص ٣٤ - ٨٨) ، والانفعالات (ص ٣٤ - ٨٨) ، والفرح (ص ٣٧ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ٧٣ - ٧٦) ، والحزن Sadness ، (ص ٦٦ ، ٦٧) ، والمعرفة Knowledge (ص ٣٩) ، الغرور (ص ٤٠) ، وضبط النفس Self - control ، (ص ٤٢ - ٤٨) ، والقصد والنية Intention ، (ص ٨٢) ، والقيم الأخلاقية والدينية Moral and Religious Values (ص ٦٨) .

كتاب أدب النفس :

قال الترمذي رحمه الله : إن اللّٰه أنشأ خلقه لإظهار ربوبيته ، ولبروز آثار وتدبير حكمته ، وليكون ذكره ومدحه مرددًا على القلوب ، وعلى ألسنة الخلق والخليقة ، لما علم في غيبه ، فأنبأنا في تنزيله ، فقال جل ذكره : ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الجاثية : ٢٢] ، ودعا سبحانه الخلق إلى التوحيد ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، وبالإضافة إلى ذلك ركب اللّٰه الشهوات والهوى في الإنسان ، وجعل للشياطين فيه وساوس يجرون فيه مجرى الدم ، ويغوصون غوص النون في البحر ، وجعل القلب ملكًا على الجوارح ، وجعل مستقر الإيمان واليقين في القلب .

وقد أوضح المؤلف ما لرياضة النفس من آثار إيجابية في قبول أحكام اللّٰه ﷻ ، وفي مجاهدة النفس عن الشهوات والهوى وكيفية تحقيق ذلك ، وعرض لطبيعة فرح الأنبياء وحزنهم ، وفرح المتقين ، وكيفية رياضة النفس ، فقد قال له القائل : وما رياضة النفس ؟ كيف يكون ذلك ؟ قال : يسير على من يسره اللّٰه ووفقه ، فأما الرياضة فهي مشتقة عربيتها من الرَّضّ ، وهو الكسر ؛ وذلك أن النفس اعتادت اللذة بالشهوة ، فيحتاج إلى أن يفطمها ، فإذا فطمها عن العادة انفطمت ، فرياضة النفس هي الطريق إلى اليقين وطهارة القلب ، ورياضة النفس تمثل رياضة البازي والدابة .

كما أوضح المؤلف أن الطريق إلى اللّٰه ﷻ هو النوافل ، فعن عائشة رضي الله عنها ، عن رسول اللّٰه ﷺ قال : **حدثني جبريل عن اللّٰه** ﷻ **- أنه قال : « ما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء فرائضي ، وإن عبدي ليتقرب بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي به يسمع ، وبصره الذي به يبصر ، ويده التي بها يبطش ، ورجله التي بها يمشي ، ولسانه الذي به ينطق ، وفؤاده الذي به يعقل »** ، فما ظننا بعبد يعقل باللّٰه ، ويسمع باللّٰه ،

ويبصر بالله ، ويبطش بالله ، ويمشي بالله ، كيف يكون سعيه وآثاره منقلبة في الدنيا ، إن رياضة النفس صَقل للقلوب وتصفية لها ، وعلينا أن نحذر الغفلة عن رياضة النفس ، فإذا غفلت عن النفس بعد رياضتها ، فلا تأمن أن تعود إلى بعض عاداتها ما دامت الشهوة منها حية ، والهوى قائمًا ، فعلينا أن نجاهد النفس ، فقد قال تعالى : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ [الحج: ٧٨] .

● وأهم المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الكتاب هي : ضبط النفس (ص ٩٠ – ١٥٩) ، والانفعالات (ص ٩٠ – ١٥٩) ، والرغبات (ص ٩٠ – ١٥٩) ، والفرح (ص ١٠٢ – ١٠٣) ، والنسيان (ص ١٢٠) ، والقيم الخلقية والدينية ، وتربية النفس وتهذيبها عن طريق ضبط الشهوات ومجاهدة النفس بالتقرب إلى الله تعالى بالعبادات (ص ٩٠ – ١٥٩) .

* * *

البلخي (ت ٣٢٢هـ)
مصالح الأبدان والأنفس [١]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف [٢] :

ولد أبو زيد أحمد بن سهل البلخي حوالي (٢٣٦هـ = ٨٥٠م) وكان من كبار العلماء في عصره ، ألف في الفلسفة والرياضيات والتاريخ والجغرافيا والطب والأدب والنحو وغيرها ما يقرب من ستين كتابًا لم يبق منها إلّا القليل ، ومنها كتاب الأمد الأقصى في الحكمة ، ومنها كتاب بيان وجوه الحكمة في الأوامر والنواهي الشرعية وسماه كتاب الإبانة عن علل الديانة ، ومنها كتاب في الخلاف ، ومنها كتاب في السياسة ؛ إن ما وصل إلينا على قلته يعطينا انطباعًا واضحًا أن أبا زيد البلخي فيلسوف الطبيعة ، واسع المعرفة ، طريف الرأي ، موجز الأسلوب ، وقد لفت إيجازه في الأسلوب نظر الأسلاف حيث قالوا : اتفق أهل صياغة الكلام أن متكلمي العالم ثلاثة : الجاحظ وعلي بن عبيدة الريحاني وأبو زيد البلخي ، فمنهم من يزيد لفظه على معناه وهو الجاحظ ، ومنهم من يزيد معناه على لفظه وهو علي بن عبيدة ، ومنهم من توافق لفظه ومعناه وهو أبو زيد . وقد توفي في عام (٣٢٢هـ = ٩٣٤م) .

---

(١) معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت . (١٤٠٥هـ = ١٩٨٤م) .
(٢) مصدر الترجمة : ما ورد في مقدمة ناشر السلسلة فؤاد سزكين التي وردت في مطلع كتاب مصالح الأبدان والأنفس .

عرض الكتاب :

هذا الكتاب طبع بالتصوير عن مخطوطة أيا صوفيا (٣٧٤١) الموجودة في مكتبة السليمانية في إستانبول ، ويحوي مقدمة الناشر ، ثم الكتاب ذاته الذي ليس له بداية واضحة وينتهي ترقيمه عند (ص ٣٦١) .

يبدأ المؤلف كتابه بحمد اللَّه والثناء عليه ، ثم يوضح العلة من وراء تأليف هذا الكتاب وأنه قسَّمه إلى مقالتين ؛ إحداهما في تدبير مصالح الأبدان ، والأخرى في تدبير مصالح الأنفس ، ثم يبدأ بعد ذلك في بيان الأبواب التي تحتوي عليها المقالة الأولى ؛ وهي أربعة عشر بابًا ؛ الباب الأول في الإخبار عن مبلغ الحاجة إلى تعهد الأبدان ومنفعة ذلك وعائدته ، والباب الثاني في وصف أوائل الأشياء وبدء طبيعة الإنسان وخلقته وتركيب أعضائه ، والباب الثالث في تدبير المساكن والمياه والأهوية ، والباب الرابع في تدبير ما يقي الحر والبرد من الأكنان والملابس ، والباب الخامس في تدبير المطاعم ، والباب السادس في تدبير المشارب ، والباب السابع في تدبير المشحومات ، والباب الثامن في تدبير النوم ، والباب التاسع في تدبير الباه ، والباب العاشر في تدبير الاستحمام ، والباب الحادي عشر في تدبير الحركات الرياضية التي يُحتاج إلى استعمالها في حفظ الصحة ، والباب الثاني عشر في تدبير ما يتبع الحركات الرياضية من غمز البدن ودلكه ، والباب الثالث عشر في تدبير السماع ، والباب الرابع عشر في تدبير إعادة الصحة .

أما المقالة الثانية من كتاب مصالح الأبدان والأنفس فهي ثمانية أبواب ؛ الباب الأول في الإخبار عن مبلغ الحاجة إلى تدبير مصالح الأنفس ، والباب الثاني في تدبير حفظ صحة الأنفس عليها ، والباب الثالث في تدبير إعادة صحة الأنفس إذا فقدت إليها ، والباب الرابع في ذكر الأعراض النفسانية وتقديرها ، والباب الخامس في تدبير صرف الغضب وقمعه ، والباب السادس في تدبير تسكين الخوف والفزع ، والباب السابع في تدبير دفع الخرق والخرع ، والباب الثامن في الاحتيال لدفع وساوس الصدر وأحاديث النفس .

ويبدأ المؤلف بعد هذا الإجمال في تفصيل أبواب هذه المقالة ، والباب الأول مخصص للإخبار عن مبلغ الحاجة إلى تدبير مصالح الأنفس ، والإنسان مركب من بدن ونفس وصار يوجد له من قبل كل منهما صلاح وفساد وصحة ومرض وسقم وأعراض تعرض له في صحتها فتفسدها عليه ، والأعراض التي تعرض للبدن فتفسد صحته هي

مثل : الحمى والصداع وسائر الأوجاع ، والأعراض النفسانية هي مثل الغضب والغم والخوف والجزع ؛ فأما الأعراض النفسانية فإن الإنسان مدفوع في أكثر أوقاته إلى ما يتأذى به منها ؛ إذ ليس يخلو في كافة أحواله من استشعار غم أو غضب أو حزن وما أشبهها من الأعراض النفسانية . إلّا أنه ليس قدر ما يصل منها إلى كل واحد من الناس قدرًا واحدًا فإنهم مختلفون فيما يحصل إليهم من هذه الأعراض ، من أجل ذلك لا يستغني أحد من الناس عن تقديم العناية بمصالح الأنفس والاجتهاد فيما ينفى عنه ما يعتريه منها فيؤديه إلى القلب وتنغص العيش وتكون تلك الأعراض نظيرة الأمراض الجسمانية التي تعرض له فتؤلمه وتسقمه وتؤديه إلى الحالة المكروهة ، ويؤكد البلخي في هذا الباب أن إضافة تدبير مصالح الأنفس إلى تدبير مصالح الأبدان أمر صواب بل هو مما تمس الحاجة إليه ومعظم الانتفاع لاشتباك أسباب الأبدان بأسباب الأنفس (ص ٢٦٩ - ٢٧٥) ولأن الأعراض البدنية المؤذية تمنع قوى النفس من الفهم والمعرفة .

● ويتبين من استعراض ما قدَّمه المؤلف في هذا الباب أنه يرتبط بعدد من المفاهيم والموضوعات السيكولوجية مثل موضوع الانفعالات Emotions ومنها الغضب Anger والغم (لعل المؤلف يعني بذلك القلق Anxiety أو الاكتئاب Depression) والحزن Sadness والخوف Fear ، كذلك هناك إشارة إلى بعض الأعراض التي يمكن تصنيفها تحت أعراض الأمراض النفسية سواء الحزن أو الخوف ، أو القلق ، أو الجزع Anxiety . كما يشير كذلك إلى الفروق الفردية Individual Differences في الاستعداد للمرض والإصابة به ، ويؤكد أيضًا العلاقة بين النفس والجسم وتأثير كل منهما في الآخر ، وتأثير الأمراض البدنية على الفهم Comperhension والمعرفة Knowledg .

والباب الثاني في تدبير حفظ صحة الأنفس ؛ فلنفس الإنسان صحة وسقم كما أن لبدنه صحة وسقمًا ، وصحة نفسه أن تكون قواها ساكنة ولا يهيج به شيء من الأعراض النفسانية ولا يغلب عليه كالغضب أو الفزع أو الجزع ، وتحفظ صحة النفس من وجهين أحدهما أن تصان عن الأعراض الخارجية التي هي ورود ما يرد عليها من الأشياء التي يسمعها الإنسان أو يبصرها فتقلقه وتضجره وتحرك منه قوة غضب أو فرح أو غم أو خوف ، والآخر أن تصان عن الأعراض الداخلة التي هي التفكير فيما يؤديه إلى شيء مما وصفنا من هذه الأعراض (ص ٢٧٥ - ٢٧٧) ، ويمكن أن نجد في الحديث السابق ما يتصل بالبحث في أسباب الأعراض النفسية من ناحية ، والوقاية منها Prevention من ناحية أخرى .

ويستمر المؤلف في تقديم نصائحه حيث يرى أن على الفرد ألّا يعود نفسه أن يضجر لكل صغير من الأمور التي يسمعها أو يبصرها ويسير من الحوادث التي تقع بكراهته فإذا عود نفسه احتمال الصغير وصبر النفس عليه صار ذلك عادة في احتمال ما هو أجل شأنًا وأعظم خطبًا من المهمات التي تَبْدَهُهُ والمكاره التي ترد عليه ، وعليه أيضًا أن يعرف بنية نفسه ومبلغ ما عندها من الاحتمال للأمور الملمة الواردة عليه فإن لكل إنسان مقدارًا من قوة القلب أو ضعفه وسعة الصدر أو ضيقه ، وإذا التزم الإنسان هذه النصائح طابت عيشته ، ودامت راحته ، وحصل الحظ الأوفر من سلامة نفسه وحفظ عليها صحتها واستكمل بذلك السعادة الدنيا ، ومتى خالف هذه الطريقة في مطالبه ومقاصده تنغصت عليه حياته ، وتكدرت عيشته ، واجتلب إلى نفسه الأمراض النفسانية التي تضجره وتقلقه ، (ص ٢٧٨ - ٢٨١) .

● ويذخر النص السابق بعدد من المفاهيم التي تنتمي إلى علم النفس ، وخاصة الأمراض النفسية Mental Disorders وكذلك التحمل Tolerance ، وأحداث الحياة Life Events ، والسعادة Happiness .

والباب الثالث في تدبير إعادة صحة النفس إذا فقدت إليها ؛ فحفظ سلامة النفس عليها أمر ليس يتهيأ في كل الأوقات والأحوال ، فمن غير الممكن في طبيعة الإنسان أن يحفظ قوى نفسه على سبيل السكون والهدوء حتى لا يهيج به هايج من أعراض الغضب والفزع والجزع وما أشبهها من الأعراض النفسانية وهو من دنياه في دار الهموم والأحزان ومحل نوايب ونكبات ، وتكون معالجة النفس إذا عرض لها عارض هيمان من إحدى قواها إنما يكون لشيء روحاني يجانسها ؛ وكما أن العلاج البدني إما أن يكون بشيء من داخل كالاحتماء والامتناع عما لا يجب تناوله ومد اليد إليه ، وإما أن يكون بشيء من داخل وهو فكرة يثيرها الإنسان من نفسه فيقمع بها ذلك العارض ، وإما أن يكون بشيء خارج وهو كلام يعظه به غيره (ص ٢٨١ - ٢٨٦) .

● وفي هذا الباب أيضًا عدد من المفاهيم النفسية وهي أحداث الحياة ، والعلاج النفسي Psychotherapy .

والباب الرابع في ذكر الأعراض (أو الأمراض) وتعديدها . ويرى المؤلف أن الأشياء التي تنسب إلى النفس كثيرة ؛ ومنها قوى فاضلة كالعقل والفهم والحفظ ، والأخرى مسترذلة هي أضداد لها ؛ ومنها أخلاق محمودة كالعفة والسخاء والكرم ، والأخرى

مذمومة مضادة لها ؛ ومنها أشياء عارضة تقع وترتفع سريعًا كالغضب والفزع وما أشبهها وما يضاف إلى الأنفس إنما هو الشيء الأخير أي الأعراض التي تحدث وتزول ؛ لأنها هي التي تتصل أسبابها بأسباب البدن فتقلقه وتغيره أو تؤثر فيه آثارًا كثيرة ، وذلك مثل ما يفعله الغضب الشديد في بعض الأحيان من الاختلاط والارتعاش للبدن واصفرار اللون وشبيه بذلك ما يفعله الفزع والخوف ، والغم أقوى أسباب مرض النفس ، والرسور أقوى أسباب صحتها ، ومن أعراض قوى النفس التي تتولد من الغم الغضب ، الذي قد يؤدي إلى اضطراب الحركات بما يشبه الجنون ، ومن قوى أعراض النفس الفزع ، والخوف مقدمة للفزع ، وإذا قوي ربما وقع على الإنسان منه القلق ، وربما يقع الفزع من شيء يفكر فيه ويَرُوعه تخيله في نفسه أو شيء ينظر إليه فيهوله منظره أو من شيء يسمعه كصوت شديد تأدى إلى سمعه فلا يحتمله لشدته ، ومن قوى أعراض النفس الجزع وهو عرض يعتري الإنسان من فقد محبوب من أهل أو مال أو شيء عزيز عليه ويعتريه لذلك حزن شديد ويشتد ذلك الحزن حتى يصير جزعًا ، ومن قوى أعراض النفس الوسواس الذي يعتلج في صدر الإنسان وتثير منه الخواطر الردية (ص ٢٨٧ - ٢٩٣) .

● الباب السابق في تصنيف الأمراض النفسية ، ورغم خلطه بين الأمراض والأغراض إلَّا أن هذه محاولة مبكرة في تصنيف الاضطرابات النفسية التي ذكر من بينها صراحة القلق Anxiety والوسواس Obsession ، وبشكر غير مباشر الاكتئاب Depression ، كما ذكر بعض الأعراض كالخوف والفزع والغضب ، وتعرض كذلك لأسباب هذه الأمراض ، والأمراض السكوسوماتية ، والجنون (أو بلغة الطب النفسي الحديث الفصام Schizophrenia) ومثيرات المشقة Stressors كأحداث الحياة ومنها فقد عزيز أو مال ، وأشار أيضًا إلى مفاهيم أخرى تدخل في صميم اهتمام علماء النفس المحدثين كالعقل Mind ، والفهم Comprehension ، والحفظ (أو التذكر) Remembering ، وسمات الشخصية Personality Traits سواء الإيجابية كالعفة والسخاء والكرم أو سلبية كالبخل والشح .

والباب الخامس من هذه المقالة في تدبير صرف الغضب ، وقد بدأ به المؤلف ؛ لأنه عرض كثيرًا ما يعتري الإنسان وينال أذاه حتى ربما عرض له في أوقاته المتقاربة من أيامه بسبب معاشرته لخدمه وأتباعه وحاشيته ، وأحوج الناس إلى التحرز من فلتات الغضب والعناية برياضة نفسه ودفعه عنها الملوك ، ويحتاج المَغْنِيُّ بقمع آفة الغضب لمعاونة من خارج ولمعاونة من داخل ، والمعاونة التي هي من خارج هي المَوعظة من غيره ، والمعاونة

التي يستظهر بها من داخل فهي الحيل من الفكر التي يعدها ليخطرها بباله فيتعظ بها ، وتعينه على ضبط النفس ، ومن هذه الحيل التفكير في فضيلة الحلم وموقعه من الفضائل الإنسانية (ص ٢٩٣ - ٣٠٤) .

● وينطوي الحديث هنا على إشارات سبق التعرض لها في أبواب سابقة ، تنتمي إلى دراسات علم النفس كانفعال الغضب ، وضبط النفس Self-Control ، والحيل الدفاعية Defensive Mechanismes .

والباب السادس في تسكين الخوف والفزع ، وهما من الأعراض النفسانية ينال البدن من أذاهما ويخاف عليه من ضررهما ، ومن أسباب الخوف والفزع التفكير في شيء يسمع به أو يقع بصره عليه ، كالتفكير في الهرم والفناء ، والأشياء التي يخافها الإنسان كثيرة وأجناسها مختلفة ؛ مثل : خوف ذي سلطان من العزل ، وخوف ذي مال من الفقر ، وخوف الإنسان على نفسه من حدوث حادث يتوقع نزوله بها كالتلف والألم الشديد ، فهذا هو الخوف الذي يقلق ويفزع ويغيِّر الإنسان عن هيئته ، وقد يخاف من منظر القتلى والجرحى ، ومن خبر مكروه يتوهمه ، ومن الحيل التي قد تعين على التغلب على الخوف ، والتفكير في أن توقع كثير من المكاره ربما كان أشد من وقوعه ، وأن يأخذ العبرة من أحوال غيره في المكاره التي نالت أقوامًا فاحتملوها ، وأن يستعين بقوة الأنفة ، ومحاولة العلم بالشيء المخيف (ص ٣٠٤ - ٣١٤) .

● ويمتلئ هذا الباب بعدد من المفاهيم النفسية كالخوف Fear وهو أحد الانفعالات ، وتأثير الانفعالات على الجسم ، وأحداث الحياة Life Events ، والألم Pain ، والقلق Anxiety ، والمشقة Stress ، وكذلك الحيل الإيجابية للتوافق ؛ مثل : التحكم في الأفكار المأساوية ، ومفاهيم أخرى مثل التمرين Training ، والإدراك Perception ، والفهم Comprehension ، والتمييز Discrimination .

والباب السابع في تدبير دفع الحزن والجزع ، فموقع الحزن والجزع في الأعراض النفسانية موقع جليل عظيم الشأن فيما يرجع من ضررهما على الإنسان إذا تمكنا من قلبه ، والجزع هو فرط الحزن وشدته وهو أعمل شيء في نَهْك البدن وتغيير قوى الشهوات من النفس ويفعل الحزن ضد ما يفعل السرور ، وقد يتولد من التفكير في فقد محبوب أو تَعَزُّز مطلوب ويحتال لصرفه بحيلتين إحداهما من خارج ، والأخرى من داخل ، والتي من خارج فوعظ الواعظين وتذكير المذكرين ، وأما التي من داخل فأبواب

من الفكر يَرُوضُ بها الإنسان نفسه (ص ٣١٤ - ٣٢٣) .

● ومن مفاهيم هذا الباب انفعال الحزن Sadness ، والأسى Sorrow ، والسرور Pleasure ، والدوافع Motives ، وأحداث الحياة Life Events ، والتفكير التأملي Meditation ، والعلاج النفسي Psychotherapy .

والباب الثامن في الاحتيال لدفع وساوس الصدر وأحاديث النفس . وهي من أقواها تأثيرًا في الإنسان وأكثرها إيذاءً له ، وهذا العَرض وإن كان أحد الأعراض النفسانية فإنه ليس من خالصها بل فيه شركة للأعراض البدنية ، وهذا العَرض عَرض خاص وربما سلم منه كثير من الناس ، وهذا العرض قد يوجد مرة في الإنسان من قبل الطبع وما يقع في المولد من دلالة تدل عليه وتوجد فيه مرة أخرى كالشيء العارض الذي لا يكون له به عهد ثم يحدث عليه في وقت من الأوقات غريبًا .

ويحاول البلخي أن يصف لنا سبب الوساوس وما تتولد عنه ، وهو طبيعة المرة السوداء ؛ لأنها هي التي تولد الفكر الردية ، وأحاديث النفس المؤذية ، وتهيج على الإنسان ضروب الخواطر والوساوس ، ويعرف مزاج السوداء الأصلية في الإنسان بعلامات تدل عليها ؛ وتلك العلامات هي أن تكون في خلقة جسده مُكْتَنِز العظم ، يابس العصب ، قَحِل الجلد ، غليظ الدم ، حاسي الشعر ، مُلَزَّز التركيب ، كَمِد اللون ، ويكون في أخلاقه شرس ، عبوس الوجه ، دائم الإطراق ، كثير السكوت ، بطيء الحركات ، ليس سريع الغضب إلَّا إنه إذا غضب لم يزل عنه غضبه سريعًا (ص ٣٢٣ - ٣٢٨) .

ويعود المؤلف ليؤكد أن أحاديث النفس ووساوسها عَرض ليس بمعروف السبب ، وليس بالحقيقة علة توجبه ؛ وإنما هو شيء يقع في طباع بعض الناس من قبل مولده فيوجد فيه دلالة على أن صاحبه يكون متأذيًا بفكر دويمة لا يكون لها حقيقة فتسمى هذه العلة حديث النفس ؛ وذلك لأن نفسه لا تزال تحدثه بالأشياء التي هي وساوس القلب ؛ وتلك الأحاديث والوساوس ربما وقعت في جنس ما يحب ويتمنى وربما وقعت في جنس ما يخاف ويخشى (ص ٣٢٩ - ٣٢٥) .

الحيل التي بها يندفع هذا العَرض ؛ منها أشياء يحتال بها من خارج النفس ، ومنها أشياء يحتال بها من داخل النفس ؛ فأما التي يستعان بها من خارج فأن يتجنب صاحبه الوَحدة والانفراد ؛ لأن من شأن الوَحدة أن تهيج على الإنسان الفكر وأحاديث النفس ، ومنها أن يتجنب الفراغ ، وأما الحيل التي يحتاج إلى أن يستعين بها من داخل فإعداده

فكرًا يقابل به تلك الخطرات والوساوس إذا عرضت له (ص٣٣٦ - ٣٥٩) .

● يدور هذا الباب حول موضوع أساسي من موضوعات الطب النفسي وعلم النفس الإكلينيكي وهو الوسواس القهري Obsessive - Compulsive ، أسبابه وعلاجه وأعراضه والعلاقة بين بنية الجسم وسمات الشخصية Personality Traits ، والخصال الجسمية وارتباطها بالمرض ، والانفعالات كالغضب ، والانطواء Introversion ، والحيل الإيجابية للتوافق Adjustment ، ومنها مقاومة الأفكار المأساوية هذا بالإضافة إلى مفاهيم أخرى ؛ مثل : الدوافع البيولوجية كالجوع Hunger ، والعطش Thirst أو Trust ، والجنس Sex ، والإعاقة الحسية Sensory Handicaps ، وأحلام النوم Night Dreams ، وأحلام اليقظة Day Dreams .

أوجه الاستفادة من هذا الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجالي العلاج النفسي ، وعلم النفس الإكلينيكي .

* * *

الخرائطي (ت ٣٢٧هـ)
المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف :

هو أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي ، السامري . والخرائطي نسبة إلى الخرائط ، والسامري نسبة إلى بلده على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخًا ، ويقال لها : سُر من رأى ، وحففها الناس وقالوا : سامرة .

ولا نجد في كتب التراجم التي تحدثت عن الخرائطي وصفًا لبداية حياته العلمية ، ونستطيع أن نحدِّد نسبة ولادته ، وذلك أن وفاته كانت سنة (٣٢٧هـ) وعاش ما يقارب التسعين سنة فتكون ولادته في حدود سنة (٢٣٧هـ) ، وأكثر الخرائطي من التلقي من علماء بلده (سُرَّ من رأى) ، وبغداد كالمبرد ، وصالح بن أحمد بن حنبل ، والأصمعي وإبراهيم بن جنيد وغيرهم .

ولم يكتف الخرائطي بالأخذ عن علماء بلدته وما جاورها ، وإنما انتقل إلى بلدان بعيدة كدمشق ، وقد تميز الخرائطي بصفات جليلة ، فكان محدثًا حافظًا ثبتًا ، لغويًا متقنًا ، أديبًا مشهورًا ، وصاحب التصانيف ، ومن يبحث في مصنفاته تبدو له في معظمها أنها تجمع بين الحديث والأدب والتاريخ واللغة الشعر .

ومن تلامذته الذين أخذوا عنه محمد بن أحمد بن عثمان السلمي ، أبو العباس الكندي ، وأبو علي الحسن بن محمد بن درستويه ، وأبو بكر أحمد النحوي ،

---

(١) تحقيق محمد مطيع الحافظ ، غزوة بدير . (ط ١) . دمشق : دار الفكر (١٩٨٦م) . (٣٢٦ص) .

وأبو هاشم المؤدب وغيرهم .

ومن مؤلفاته : « مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها ومرضيها » ، « ومساوئ الأخلاق ومذمومها » ، « واعتلال القلوب في أحاديث المحبة والمحبين » ، « وهواتف الجَنان وعجيب ما يحكى عن الكهان » ، « فضيلة الشكر للّه على نعمه وما يجب من الشكر للمنعم عليه » ، « وتعاليق لابن عيسى المقدسي » ، « وقمع الحرص بالقناعة » ، « وكتاب القبور » ، « والأجواد » .

أما بالنسبة للحافظ أبي طاهر السَّلِفي (١) نسبة إلى جد جده إبراهيم الذي كان يطلق عليه سلفة ، ولد في سنة (٤٧٥هـ) بأصبهان ، في بيت علم وتقوى ، طلب الحديث وكتب الأجزاء ، وقرأ بالروايات ، وسمع القاسم بن الفضل الثقفي وطائفة من جلة العلماء ، وتصدى للتدريس وهو فتى يناهز السابعة عشر من عمره وارتحل في رمضان سنة ٤٩٣هـ في طلب الحديث ، فدخل بغداد وأخذ عن مجموعة من العلماء ، ثم زار مكة والمدينة ، وقدم الشام في سنة (٥٠٩هـ) ، وسمع من علي بن المسلم السلمي كتاب المنتقى في شهر ربيع الآخر سنة (٥١١هـ) ، وفي سنة (٥١١هـ) خرج إلى صور ، وغادرها إلى الإسكندرية ، ولم يغادرها إلَّا إلى القاهرة سنة (٥١٧هـ) ، وبقي إلى يوم الجمعة خامس عشر ربيع الآخر سنة (٥٧٦هـ) ، وقد جاوز المائة ، وكان منقطعًا للعلم زاهدًا ، وكان واسع الآفاق ، أوحد زمانه في علم الحديث والرواية ، له مؤلفات من أشهرها معجم شيوخه الأصبهانيين ، والمشيخة البغدادية ، وسؤالاته لخميس الجوزي ، والأربعين البلدانية ، ومعجم السفر ، والسواسيات ، وشروط القراءة على الشيوخ وغيرها .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٣٢٦ صفحة من القطع المتوسط ويحتوي على مقدمة المحققين ، وترجمة المؤلف ، وتراجم رواة الكتاب ، وصفحات من مخطوطة الكتاب الأصلية ، ثم موضوعات الكتاب .

وأخيرًا المراجع ، ومجموعة الفهارس ويضم فهرس الفهارس (فهرس عام للكتاب)

(١) صاحب المنتقى فهو الحافظ أبو طاهر ، أحمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم ، السلفي الأصبهاني . عُرِفَ بالحافظ السلفي نسبة .

وفهرس الآيات ، وفهرس الأحاديث ، والأقوال ، والأفعال ، وآثار موقوفة ، والأقوال المأثورة والأخبار ، وفهرس الشعر ، وفهرس أسماء الشيوخ ، وفهرس الأسانيد ، وأصحاب الأخبار ، وأخيرًا فهرس الموضوعات .

الجزء الأول : في هذا الكتاب يدور حول الحث على الأخلاق الصالحة والترغيب فيها ويدعم المؤلف وجهة نظره من خلال استعراض الآيات القرآنية ، والسنن النبوية وهو في مجمله يفيد المهتم بالتربية Education والأخلاق ، كما أن حسن الخلق قرين الصحة النفسية الجيدة (ص ٢٧) . ويستمر المؤلف بعد ذلك في ذكر عدد من الخصال الحميدة وآثارها ، فيشير في الباب التالي عن ثواب حسن الخليقة وجسيم خطرها ، وكذلك كرم السجية وكف الأذية وجميل العشرة ، ويذكر بعض ما جاء في اصطناع المعروف من الفضل ، ومنه إغاثة الملهوف وثوابه ، ونجد لها مقابلًا في علم النفس الاجتماعي الحديث فيما يسمى بسلوك المساعدة Helping behavior (ص ٣٧، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٥) .

وينتقي لنا الحافظ الأصبهاني من مكارم الأخلاق لدى أبي بكر الخرائطي من باب ما يستحب من لين الكلام ، وخفض الجناح ، وحفظ الأمانة ، وذم الخيانة وفيها أحاديث كثيرة وآيات قرآنية كريمة ، وهي صفات حسنة وجب على المؤمن التحلي بها وتعليمها لأبنائه وأحفاده (ويمكن النظر إليها باعتبارها من سمات الشخصية التي يمكن أن تكون محل دراسة ، وكذلك تشكل جانبًا من الخصال المهمة التي ينبغي البحث عنها عند اختيار الأصدقاء ، وهذان الموضوعان من الموضوعات التي تحظى بالدراسة في الوقت الحاضر (ص٤٦ – ٥٢) .

ولعل هذا الكلام ينسحب على عدد آخر من الصفات التي تحدث عنها المؤلف مثل الوفاء بالوعد وكراهية الخلف به ، وحفظ الجار وحُسن مجاورته ، وفي هذا الجانب – أعني حفظ الجوار – وضع الرسول الكريم ﷺ دستورًا أخلاقيًا راقيًا ينظم فيه العلاقة بين الجيران ، وينظم أشكال التفاعل بينهم ، وفي الحديث الشهير الذي ورد عنه أصول تربوية عظيمة الفائدة (ص ٥٩) ، وبعد ذلك يقدِّم لنا مقتطفات مما جاء في صلة الرحم والعطف عليهم والصدقة عليهم ، ويختتم الجزء الأول من كتاب (مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها) ببعض ما ورد في فضيلة الحياء وجسيم خطره ، باعتبار أن الحياء من الإيمان ، وأن الإيمان هو عنوان المؤمن ودليله ، كما أن الحياء من أخلاق الأنبياء .

ويبدأ **الجزء الثاني** ببعض ما جاء في إكرام الضيف ، والإحسان إليه ، وتقديم الطعام

له ولغيره من أبناء السبيل ، ومراعاة حقوق الضيافة ، وتوفيتها ، وما يستحب من اتخاذ الفراش للضيف ، ووداعه إلى باب الدار ، وهي كلها آداب عظيمة ، وأخلاق كريمة .

وينتقل بعد ذلك إلى إكرام الشيوخ ، وتوقيرهم ، وكيف حث الإسلام على ذلك ، مما يدعو لِلاهتمام بكبار السن ؛ لضعفهم ، وحاجتهم للعون ، وباعتبارهم منابع للحكمة والإرشاد (ص ٧٧ - ٨٠) .

ويعود بعد ذلك ليقدِّم لنا مقتطفات من بعض الصفات الحسنة ، والأخلاق الكريمة ؛ مثل : العدل (إنصاف الرجل من نفسه) ، والعفو ، الصفح وفضله ، والسعي في الإصلاح بين الناس ، وما يعود على الفرد من جزيل الثواب ، كما يحثنا على كف الأذى عن الناس من اللسان واليد ، وما يستوجبه ذلك من حفظ اللسان ، وترك المرء الكلام فيما لا يعنيه (وهو يرسي بعض مبادئ حسن التخاطب ، وأدب الحوار ، ولعل ذلك قد يفيد المهتمين بدراسة التخاطب Communication (ص٩٢ - ٩٧) .

ومما انتقاه الحافظ الأصبهاني أيضًا : بعض ما ورد في باب ما يستحب للحليم أن يدفع عن نفسه سوء الظن ، وما يستحب للمرء التحرز من أن يساء الظن به ، وما يستحب للحليم أن لا يضع كلامه إلَّا في موضعه ، وأن يتكلم بما لا يتعذر منه ، أو يمسك عنه ؛ لأن ذلك أسلم له ، وأعود نفعًا ، ولعل التركيز على الشخص المتصف بالحلم يجعلنا نستنتج ظلالًا نفسية لهذه الأوصاف ، فالحليم يتصف برجاحة العقل ، والقدرة على ضبط النفس ، وهي جوانب تجد من الأهمية الكثير في علم النفس الحديث (ص ١٠٤- ١٠٩) ، كذلك يتحدث عن السؤدد وشريطته ، وخصائص السيد ، وهو الذي لا يغلبه غضبه ، وهو حليم تقي ، حسن الخلق ، وسخي النفس ، وهي صفات يمكن أن تشكِّل أساسًا مهمًّا لاختيار القائد أو الموجه ، ونعتقد أن لذلك مماثلًا في اهتمامات علم النفس الحديث خاصة في موضع القيادة Leadership (ص ١١٢ - ١١٦) ، وآخر ما اختتم به هذا الجزء هو ما جاء في فضيلة صدق الحديث ، وهي من خصال الخير ، ودليل على صلاح المرء ، وعادة ما تكون مقرونة بكثير من الخصال الطيبة ، ويمكن أن تضاف كذلك لسمات الشخصية ، كما تم تناولها في صفات الصديق والصداقة (ص ١١٦ ، ١١٧) .

ويبدأ **الجزء الثالث** من المنتقى من كتاب (مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها) ببعض ما ورد في السخاء ، والكرم ، والبذل من الفضل ، وفيه أقوال ، وقصص كثيرة تروى عن عرب الجزيرة العربية ، وهي أيضًا من الخصال الطيبة ، التي

يجب التحلي بها ، ويختتم هذا الجزء بمقتطفات من عدة أبواب تدور حول حسن المجالسة ، وواجب حقها ، وقد كان رسول اللّه يحدث أصحابه عن أمر الآخرة ، فإذا رآهم قد كسلوا فعرف ذلك فيهم ، أخذ بهم في بعض أحاديث الدنيا ، حتى إذا نشطوا ، وأقبلو أخذ بهم في حديث الآخرة ، وكذلك فعل عمر بن الخطاب ﷺ وكثير من الصحابة ، ونلمح هنا مبدأ هامًّا يأخذ به الكثير من علماء النفس المحدثين ، المهتمين بدراسة التعلم ، والتذكر ، وهو تنويع مادة الحفظ ، والعمل على تبديد الكف ؛ لتحقيق أكبر قدر ممكن من التعلم (ص ١٥٠ - ١٥٢) ، كما يقدم أيضًا بعض آداب التعلم لمن هو في بدايته ، ويوصي بضرورة الإنصات ، وحسن الاستماع ، وعدم المقاطعة (ص١٥٥) ، ولعل مما يستحب في المجلس وغيره ، التواضع ، وحسن الاختيار في مجالسة من نجالس ، ونخادن ، وهي جملة دروس في اختيار الأصدقاء ، والزملاء ، وهو من الموضوعات ذات الصلة بعلم النفس الاجتماعي الحديث ، كما سلفت الإشارة (ص ١٥٦ - ١٥٩) .

ويستأنف في الجزء الرابع ما انتهى به في الجزء الثالث ، فيحدثنا عن الظروف التي تكون فيها الوحدة خير من جليس السوء ، والتي يكون فيها الجليس الصالح خير من الوحدة . ويحثنا كذلك على أداء النصيحة للإخوان ، وعدم الشح عليهم ، باعتبار أن هذا من حقهم ، وأنه يولد الحب ، والنصح واجب لكل مسلم ، كما أمر رسول اللّه ﷺ ... وتقديم النصيحة وطلبها ، تطورت وأصبح لها قواعد معروفة ، وأساليب متعددة فيما يعرف بالإرشاد Counseling (ص ١٦٧ - ١٧٠) .

ومن الواجبات التي تلقى على عاتق المرء ، أن يُحسن الاختيار لمن يشاور ، وأن لا يفعل شيئًا إلَّا عن مشاورة ، ويجب على المستشار أن يؤدي الأمانة التي اؤتمن عليها (ص ١٧١ - ١٧٤) ، ويسوق لنا الحافظ الأصبهاني في بقية هذا الجزء عدد كبير من الآداب الإسلامية الرفيعة التي تنظم التعامل بين الناس ؛ كأن يسلم المرء على أهل بيته عند دخول البيت وعند الخروج منه ، في صباحه ومسائه ، وضرورة اختيار الصحبة الحسنة عند السفر ، والمسارعة في الرجوع إلى الأهل إذا ما انقضت المهمة ، وضرورة التحبب إلى خيار الناس واستجلاب موداتهم ، والواجبات التي للصحابة والرفاق .

وعلى غرار ما ورد في الأجزاء السابقة يسير المؤلف (ومِن بعده المنتقى) فيبدأ بذكر بعض الحِكَم فيما يستحب للمرء من استعمال الحزم والأخذ بالثقة ، والنظر في عواقب الأمور قبل كونها ، وهو حض على البحث والتجريب للتنبؤ بالأحداث والظواهر قبل

وقوعها ، وهو من سمات العلماء والحكماء ، وهذه الوصية تنطوي على جانب منهجي في البحث العلمي ، ونرى العلماء قد التفتوا إليها الآن (ص ٢١١ - ٢٢٠) ، ولعل من رجاحة العقل ، وشدة الذكاء أن يتعلم المرء ألَّا يُنكَب من سبب واحد نكبتين خاصة الشخص المؤمن ؛ فالمؤمن كيس فطن .

والمتبقى من هذا الجزء عبارة عن عدد من الوصايا والنصائح ذات الصيغة العملية والفوائد الكثيرة ؛ مثل ما يستحب للمرء أن يقوله إذا أوى إلى فراشه ، وإذا استيقظ من نومه ، وإذا طنت أذنه ، وإذا غشى أهله ، وعندما تعصف الريح ، وعند سماع صوت الرعد ، وعند نزول المطر ، وكذلك استخدام الرقى والعوذ (وهي من الأساليب العلاجية التي استخدمها رسول الله ﷺ والصحابة) وكانت تؤدي إلى إزالة الوحشة ، وتفريج الكروب ، والإحساس بالسكينة ، وشفاء الأمراض والآلام والأوجاع .

* * *

الفارابي (ت ٣٣٩هـ)

آراء أهل المدينة الفاضلة [(١)]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف :

هو أبو النصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ من مدينة فاراب (في إقليم خراسان التركي) حيث وُلِدَ سنة (٢٥٩هـ = ٧٨٠م) .

دخل العراق واستوطن بغداد ، وقرأ بها العلم الحكمي على يوحنا بن حيلان المتوفى بمدينة السلام ، واستفاد منه وبرز في ذلك على أقرانه ،، وأربى عليهم في التحقيق ، واشتهرت تصانيفه ، وكثرت تلاميذه ، وصار أوحد زمانه ، وشرح الكتب المنطقية ، وأظهر غامضها ، ويعتبر الفارابي – فيما يذكر ابن خلكان – أكبر فلاسفة المسلمين على الإطلاق ، وأنشأ مذهبًا فلسفيًا كاملًا ، وقام في العالم العربي بالدور الذي قام به أفلوطين في العالم الغربي ، وهو الذي أخذ عنه ابن سينا ، وعدَّه أستاذًا له ، كما أخذ عنه ابن رشد وغيره من فلاسفة العرب . وقد لقب بحق « المعلم الثاني » على اعتبار أن أرسطو هو المعلم الأول .

وفي سنة (٣٣٠هـ – ٩٤١م) انتقل إلى دمشق ، ثم اتصل بسيف الدولة الحمداني صاحب حلب ، فضمه إلى علماء بلاطه واصطحبه في حملته على دمشق ، حيث توفي الفارابي سنة (٣٣٩هـ = ٩٥٠م) وله من العمر ثمانون عامًا .

ويذكر القفطي قائمة بمؤلفات الفارابي ، يتضمن القسم الأكبر منها شروحًا وتعليقات

---

(١) قدم له وعلق عليه ألبير نصري نادر – (ط ٥) . بيروت : دار المشرق (١٩٨٥م) . (١٧٨ ص) .

على فلسفة أرسطو وأفلاطون وجالينوس ، تناول فيها الفارابي كتب المنطق والطبيعيات والنواميس والأخلاق وما بعد الطبيعة .

اشتهر الفارابي كشارح لأرسطو ، وقد ذكر ابن سينا أنه طالع كتاب « ما بعد الطبيعة » لأرسطو أربعين مرة ولم يفهمه حتى وقع على كتاب للفارابي في « أغراض ما بعد الطبيعة » ، فلما قرأه فتح له ما كان مغلقًا منه ، ومع ذلك فقيمة الفارابي الحقة تقوم على ما صنف من كتب أشهرها :

كتاب « الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون الإلهي وأرسطوطاليس » ، كتاب « تحصيل السعادة » ، كتاب « السياسات المدنية » ، كتاب « الموسيقى الكبير » ، « إحصاء العلوم » و « آراء أهل المدينة الفاضلة » الذي نحن بصدده ، و « رسالة في العقل » و « رسالة فيما ينبغي أن يقدم قبل تعلم الفلسفة » و « عيون المسائل » و « ما يصح وما لا يصح من أحكام النجوم » .

مصدر الترجمة : كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٨٧ صفحة من القطع المتوسط ، ويشتمل على تمهيد ، ثم ترجمة للمؤلف ، وأهم مؤلفاته ، ومكانته ، وفلسفته الفيضية ، ثم مقدمة تحليلية للدكتور ألبير نادر الذي قدم له ، وعلق عليه ، وبعد ذلك اختصار لفصول كتاب المدينة الفاضلة ، وبعد ذلك فصول الكتاب وهي سبع وثلاثون فصلًا ، ويوجد في نهاية الكتاب معجم بأهم الكلمات التي وردت في الكتاب .

ينقسم كتاب (آراء أهل المدينة الفاضلة) إلى قسمين كبيرين : قسم فلسفي ، وقسم سياسي اجتماعي ، والقسم الأول بمثابة تمهيد للقسم الثاني ، والقسم الأول يمكن أن نقسمه إلى ثلاثة أجزاء فرعية سنعرض للجزأين الأول والثاني عرضًا مجملًا ، ثم نتوقف عند الجزء الثالث لصلته - في كثير من المواضع - بعلم النفس ، ثم ننتقل بعد ذلك للقسم الثاني (المدينة الفاضلة) .

الجزء الأول في القسم الأول : عن اللّٰه وصفاته ، ولم يحاول الفارابي فيه أن يقدم براهين على وجود اللّٰه ، بل يسلم بوجوده تسليمًا بديهيًا ويسميه ﷻ « الأول » أي سبب وجود باقي الكائنات كلها ، والأول خال من كل نقص ، وهو قديم ، موجود بذاته ، لا بعلة خارجة عنه وهو غير مادي ، ليست له صورة ؛ لأن الصورة لا تقوم إلّا

في المادة ، والأول لا يتحرك نحو غاية وإلَّا أصبحت هذه الغاية علة له ولحركته ، والأول لا يوجد مِنْ ، ولا عن كائن سابق له ، ولا أدنى منه ، والأول واحد ، يوجد تباين بينه وبين سائر الكائنات الأخرى ووجوده خاص به فقط ، وليس بينه وبين الكائنات الأخرى أي شيء مشترك فليس له شبيه ، وليس للأول ضد ، والأول لا يمكن تحديده أو تعريفه ؛ إذ إنه في غاية البساطة وهو ليس بجسم وهو وَحدة مطلقة غير منقسم ، ولما كان الأول غير مادي فهو بجوهره عقل بالفعل ، والأول يعقل ذاته ، فهو عقل وعاقل ومعقول ؛ ولكن كل ذلك جوهر واحد غير منقسم ولا متكثر .

ولما كان الأول يعقل ذاته فهو علم ، وعلمه هو جوهره ، وهو حق لأنه موجود ، وهو حياة ، وقيمة معرفتنا للأول تتناسب ودرجة كمال الشيء الذي نعقله ، ولما كان الأول كمالًا مطلقًا ، وكانت عقولنا متصلة بالمادة ، فلا نستطيع أن نعقله على حقيقته ولا يكون ذلك إلَّا إذا تحررت عقولنا من المادة تمامًا .

أما الجزء الثاني في هذا القسم عن صدور بقية الكائنات عن الأول - فوجود باقي الكائنات يتبع حتمًا وجود الأول ، وهو فيض منه ، وهذا قديم ، وهي لا تنقص شيئًا من الأول ولا تزيد إليها كمالًا . والكائنات الفائضة منه متصلة بعضها ببعض ، وصادرة بعضًا عن بعض ، فمن الأول يفيض الثاني الذي هو أيضًا جوهر لا مادي ، وعقل خالص ، يعقل ذاته ويعقل الأول ، ومن هذا التعقل المزدوج تصدر باقي العقول ، والأفلاك الثابتة والمتحركة .

والجزء الثالث في هذا القسم فهو الذي ينبغي أن نقف أمامه وقفة متأنية لنستقرأه ونتبين ما له من صلة بعلم النفس ، هذا الجزء (الذي يمثل الفصول من العشرين إلى الخامس والعشرين) خاص بالإنسان أو بقوى الإنسان على وجه التحديد ، والإنسان في جزء منه - أعني السلوك - موضوع لعلم النفس .

والفصل العشرون في أجزاء النفس الإنسانية وقواها ، ومن هذه القوى ؛ القوة التي يتغذى بها (وهي بداية للحديث عن بعض الدوافع البيولوجية كالجوع والعطش وهي موضوع للدراسة في علم النفس العام) ، والقوة التي بها يحس الملموس ، والتي يحس بها الطعوم والتي يحس بها الروائح ، والتي يحس بها الأصوات ، وكذلك الألوان والمبصرات ، ويحدث مع الحواس بها نزوع إلى ما يحسه فيشتاق إليه ويكرهه ، ومن القوى أيضًا ، قوة أخرى يحفظ بها ما ارتسم في نفسه من المحسوسات بعد غيابها وهي

القوة المتخيلة ، وبعد ذلك تحدث القوة الناطقة التي بها يمكن أن يعقل المعقولات ، وبها يميِّز بين الجميل والقبيح ، ويحوز الصناعات والعلوم ، ويدرك بها الموجودات .

ومن ثنايا الحديث في هذا الفصل نلمح تعرضه لعدد من المفاهيم والموضوعات التي تدرس في علم النفس كالحواس الخمس أو موضوع الإحساس Sensation ، والإدراك Perception ، والانفعالات Emotions كالحب والشوق والكراهية ، والذاكرة Memory التي تحفظ الأشياء والتي يسميها القوة المتخيلة ؛ وإن كان الفارابي يرى أن مركزها في القلب لا في المخ ، وكذلك التفكير أو العقل وهي كلها موضوعات درست وما زالت تدرس حتى الآن في علم النفس من عدة وجوه كارتقائها ، صياغة القوانين التي تحكم هذا الارتقاء ، وكيفية قياسها ، وتشخيص اضطراباتها وغير ذلك (ص ٨٧ - ٩٠) .

والفصل الحادي والعشرون في كيف تصير هذه القوى والأجزاء نفسًا واحدة ، ففي الإنسان تتلاقى العناصر (القابلة للكون والفساد) مع العقل وهو أسمى ملكة ، أما الجسم فالعضو الرئيس فيه هو القلب ، مركز الإحساس والمخيلة ، والشهوة أو الغريزة ، وهو مصدر الحرارة التي تتصل بباقي الأعضاء ، كما أنه مصدر الروح الحيواني الذي ينقل هذه الحرارة ، ثم يليه المخ ، وهو عضو بارد ورطب ، ووظيفته تلطيف الحرارة الحيوانية وتوزيعها على مختلف الأعضاء حسب حاجتها ؛ لذلك لم تتصل الأعصاب الحاسة والمحركة بالقلب مباشرة ، بل بالمخ وبالنخاع المتصل بالمخ ومن أجل ذلك تحتفظ الأعصاب بالرطوبة التي تضمن لها حركاتها ، ثم إن الأعصاب منسقة ورتبة بحيث يخضع بعضها لبعض ، وذلك ما يثبته تكوين الجنين ، (وهو هنا يعيد النظريات القديمة في تكوين الأجنة) .

ونجد في هذا الفصل تعرضًا لبعض الموضوعات التي يتم تناولها في إطار علم النفس الحديث ، وإن اختلف هذا التناول عما يصفه الفارابي ، فهو قد تعرض لتحديد مواضع أو مراكز بعض الوظائف الجسمية والنفسية ، فهو يرى أن الدماغ مركز الفكر والحفظ والذكر (ص٩٢) ، وهذا يلتقي مع دراسات علم النفس العصبي Neuropsychology في تحديده لمراكز الوظائف النفسية في المخ ، كما يشير أيضًا إلى أن مركز الحرارة الغريزية في القلب ، ومفهوم الغريزة شاع استخدامه في علم النفس لفترة طويلة وتم التخلي عنه نهائيًا ، واستخدام مفهوم الدوافع بدلًا منه وذلك لغموضه (ص ٩٣) ؛ كما يثير في هذا العمل قضية الفروق بين الذكور والإناث في القوى النفسية ، حيث يرى أنهما يختلفان في الانفعالات ؛ كالغضب والقسوة ، والعواطف ؛ كالرأفة والرحمة (ص ٩٩) ، بينما لا يختلف الذكور عن الإناث في القوة الحاسة ، والمتخيلة ، والناطقة (ص ١٠٠) .

وبغض النظر عن هذه الاختلافات ، فإن قضية الفروق بين الجنسين مازالت محل اختبار إلى يومنا هذا وذلك بالنسبة لكثير من الوظائف والعمليات النفسية .

وفي الفصل الثاني والعشرين ، والثالث والعشرين يتحدث عن القوة الناطقة والتي يعنى بها العقل ، فالعقل البشري ملكة ؛ هي بالقوة مهيأة لتقبل آثار المعقولات ، سواء كانت معقولات مفارقة أو معقولات لأشياء مادية ما يجعلها معقولات بالفعل ، وليس في عقلنا ما يجعل هذه المعقولات معقولة بالفعل ؛ لذلك لزم وجود فاعل يجعل المعقولات بالقوة تصبح معقولات بالفعل ويجعل عقلنا يمر من حال القوة إلى حال الفعل ، هذا الفاعل هو العقل الفعَّال (وقد تناوله الفارابي بالتفصيل في رسالته في العقل التي عرضنا لها) . ويرى الفارابي أن للإنسان إرادة حرة بجانب العقل ، وظيفتها تحصيل السعادة له بواسطة أعماله العاقلة ، والسعادة البشرية هي في أن تبلغ النفس درجة من الكمال تجعلها تقوم دون مادة ، فتصبح جوهرًا مفارقًا وتبقى أبدًا في هذه الحال ، ولكن مهما بلغت النفس من السمو ، فإنها تبقى أدنى من العقل الفعَّال ، والعقل - كما سبق أن ذكرنا - يمثل أحد أهم الموضوعات التي يعنى بها علماء النفس من عدة وجوه سواء من حيث ارتقاء الجانب العقلي ، أو من حيث التعرف على مكوناته (القدرات العقلية Mental Abilities) وكيفية قياسها ، وتشخيصها في حالة الاضطراب ، وكيفية تنميتها في حالة الضعف (ص ١٠١ - ١٠٧) . ويقسم الفارابي القوة الناطقة إلى نظرية وعملية ، وعلماء النفس يقسمون الذكاء Intelligence - وهو من العمليات العقلية العليا - إلى ذكاء لفظي Verbal أو أدائي Performance (ص ١٠٦) . كذلك يتحدث الفارابي عن الإحساس ، والتخيل ، والإدراك البصري وهي من المفاهيم التي تحظى باهتمام كبير في علم النفس (ص ١٠٢ ، ١٠٦) ، وأخيرًا يتحدث عن السعادة ، والسعادة أو رفاهية البشرية هي أحد مهام علماء النفس في الوقت الحاضر ، وقد بدأت بعض الدراسات عن السعادة في الظهور ومن أمثلة ذلك كتاب ميشيل أرجايل Argyle سيكولوجية السعادة Psychology of Happiness (ص ١٠٥ - ١٠٧) .

ويتعرض في الفصلين الرابع والعشرين ، والخامس والعشرين - للقوة المتخيلة التي هي وسط بين الحواس والعقل ، وهي تابعة للحواس وتمد العقل والشهوة وعندما تكون الحواس والعقل في حالة سكون ، كما هو الحال أثناء النوم ، تصبح المخيلة حينئذ متحررة ، فترجع إلى الآثار الحسية فتحللها وتركبها ، وللمخيلة وظيفة أخرى خلاف حفظها للصور واسترجاعها لها ، أنها تحاكي المحسوسات والمعقولات وحتى المزاج .

والمخيلة تحاكي أيضًا المعارف الصادرة عن العقل الفعَّال أي المعقولات والمحسوسات الحاضرة والمتقبلة ، فهي تحاكيها إما في حالة النوم وإما في حالة اليقظة والحالة الأخيرة نادرة ، ولا تحدث إلَّا عند القليل من ذوي المخيلة القوية ، (ويتعرض الفارابي في هذين الفصلين لعدد من المفاهيم التي تم تناولها بشكل أو بآخر في دراسات علم النفس ومنها النوم واليقظة ص ١٠٨ - ١١٤) ، وقد درست في علم النفس الاجتماعي ، وفي نظريات التعلم ، وفي علم النفس المعرفي والذكاء الاصطناعي Artificial Intelligence (ص ١٠٨) ، والدوافع والانفعالات والأحلام وهي من موضوعات علم النفس العام (ص ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٦) ، كما ذكر أيضًا لفظ الجنون (ص ١١٦) ، وهو استخدام دارج لمرض عقلي له اسم علمي هو الفصام Schizophrenia وهو موضع عناية من الأطباء النفسيين وعلماء النفس الإكلينيكيين .

ونصل بذلك إلى القسم الثاني من كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة وهو القسم السياسي الاجتماعي والذي يبدأ من الفصل السادس والعشرين وحتى السابع والثلاثين ، ويرى الفارابي أن الإنسان لا يستطيع أن يبقى وأن يبلغ أفضل كمالاته إلَّا في المجتمع . والمجتمعات البشرية منها ما هو كامل ومنها ما هو غير كامل ، فالكامل منها ثلاثة : العظمى (وهي المعمورة) ، والوسطى (وهي الأمة) ، والصغرى (وهي المدينة) وغير الكاملة هي القرية والمحلة والسكة والمنزل ، والمدينة الفاضلة شبيهة بالجسم الكامل التام الذي تتعاون أجزاؤه لتحقيق الحياة والمحافظة عليها ، وكما أن مختلف أجزاء الجسم الواحد مرتب بعضها لبعض وتخضع لرئيس واحد ، كذلك يجب أن تكون المدينة الفاضلة ، والرئيس هو إنسان تحققت فيه الإنسانية على أكملها ، اكتسب عقله جميع المعقولات وأصبح عقلًا بالفعل ، ومخيلة الرئيس يجب أن تكون بحيث تتقبل ما يشرقه عليها العقل الفَعَّال ، وتعبِّر عنه بلغة محسوسة ، ومثل هذا الرجل يكون رئيس المدينة والأمة والمعمورة الفاضلة ويكون متصفًا باثنتي عشر خصلة منها ما يخص الجسم وهي أن يكون تام الأعضاء يقوم كل عضو بوظيفته ، ومنها ما يخص العقل وهي أن يكون جيد الفهم ، جيد الحفظ ، ذكيًا ، حسن العبارة ، محبًّا للتعلم ، ومنها ما يخص الأخلاق ، وهي أن يكون غير شره ، محبًّا للصدق كبير النفس ، غير متمسك بأعراض الدنيا ، قوة العزيمة ؛ واجتماع مثل هذه الخصال في شخص واحد أمر عسير ، ولا يحدث إلا قليلًا ، وإذا لم يوجد إنسان واحد اجتمعت فيه هذه الخصال ، ولكن وجد اثنان ، كانا هما رئيسين ، وإذا تفرقت هذه الخصال في جماع من ستة أشخاص

كانوا هم الرؤساء بشرط أن توجد الحكمة في أحدهم .

وتضاد المدينة الفاضلة مدن غير فاضلة ، أجملها الفارابي في أربعة أقسام كبيرة وهي : المدينة الجاهلة التي لم يعرف أهلها السعادة الحقيقية ، والمدينة الفاسقة التي عرف أهلها السعادة ، ولكن جاءت أفعالهم أفعال أهل المدن الجاهلة ، والمدينة المبدَّلة هي التي كانت آراء أهلها آراء المدينة الفاضلة ولكن تبدلت فيما بعد وأصبحت آراء فاسدة ، والمدينة الضالة هي التي يعتقد أهلها آراء فاسدة في الله والعقل الفعَّال ، ويكون رئيسها ممن أوهم أنه يوحى إليه وهو ليس كذلك .

وتكون سعادة الأنفس بتأملها الحقائق الأزلية في العقل الفعَّال ، فهي سعادة عقلية محضة ، وتتصل أنْفُس كل طائفة من طبقات أهل المدن الفاضلة بعضها ببعض وتصير كنفس واحدة وكلما كثرت الأنفس المتشابهة واتصل بعضها ببعض زادت سعادتها ، وكذلك الأمر بأنفس أهل المدن الفاسقة ، كلما أتت طائفة جديدة اتحدت بمن سبقها من الأنفس وأصبحت كنفس واحدة وزاد شقاؤها .

ونجد هذا القسم يذخر بعدد كبير من المفاهيم التي درست كموضوعات في علم النفس ، أولها تأكيده أن الإنسان كائن اجتماعي ، وكأنه يرسي دعائم علم النفس الاجتماعي الذي يدرس سلوك الأفراد كما يتشكل من خلال المواقف الاجتماعية ، ومحدِّدات هذا السلوك من تعاون وتفاعل ، وتنظيم (ص ١١٧ – ١١٩) ، ويركز الحديث بعد ذلك على موضوع القيادة Leadership ، ومواصفاتها ومن يكون القائد (ص ١٢٠) . ويفصل الحديث في خصال القائد (أو رئيس المدينة الفاضلة) ومعظمها خصال ذات طبيعة نفسية ، فهو يتحدث عن جودة الفهم والتصور (أو التفكير) وجودة الحفظ لما يُرى ويُفهم ويُسمع ويُدرك (أو التذكر ، والإدراك السمعي والبصري) ، (ص ١٢٧) وأيضًا الذكاء والفطنة (ص ١٢٧) ، وطلاقة التعبير ، وحسن العبارة (أي إنتاج اللغة وفهمها وهي صلب سيكولوجية اللغة ص ١٢٨ ، ١٥٥، ١٧٢ ، ١٧٣) . ويعدد بقية خصال الشخصية أو سماتها من قبيل الصدق ، والأمانة ، والإيثار ، وحب الكرامة ، والقناعة ، والرضا ، وحب العدل (ص١٢٨ ، ١٤٠) ، ويتطرق أيضًا لموضوع الدوافع خاصة الدوافع البيولوجية كالجوع والعطش ، والجنس (ص ١٣٣) ، ويعود مرة أخرى لموضوع الانفعالات ويركز على انفعال الغضب (ص ١٦٨ – ١٦٩) . ويتعرض كذلك في ثنايا الحديث لمرضى النفس (ص ١٤٠)، وبعض أعراضهم كعدم الاستبصار (ص ١٤١) ، (أي عدم الاعتراف بالمرض وإنكاره)، والاكتئاب

(الغم والحزن) كمرض من الأمراض النفسية (ص ١٤٣) ؛ بالإضافة إلى ذلك فإنه يركز على العقل وأنواعه ، والنفس وهيئاتها ، وقواها ولا تكاد تخلو صفحة من ذكر هذين المفهومين ، وهي كما نرى من الموضوعات المهمة التي درست ومازالت تدرس في علم النفس حتى يومنا هذا .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس الاجتماعي .

* * *

كتاب تحصيل السعادة [1]

عرض : د . عبد المنعم شحاته محمود

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٣٣ صفحة من القطع المتوسط ، ويعرض المؤلف فيه لرأيه في قيام المجتمع الإنساني الكامل ، الذي يعد غاية الإنسان ، والمحقق لسعادته ، والتي يتطلب وصوله إليها أربعة أجناس من الفضائل ، تكون على الترتيب حسب الأهمية كما يلي :

الفضائل النظرية : أي العلوم التي من خلالها نعرف طبائع الأشياء ، ومبادئ وجودها ؛ لذا يجب البدء بمعرفة « المقدمات الأولى » ، وهي فطرية ، أي حاصلة في ذهن المرء منذ ولادته ، ولكنه يستكشفها عن طريق التعلم ، والذي به يستطيع الفرد الوصول إلى علة الشيء ومعلوله بواسطة الاستدلال ؛ إما من العلة إلى المعلول ، أو من المعلول إلى العلة ؛ ولذلك يقترح الفارابي - حتى لا يضطرب ذهننا - البدء بدراسة ما هو مجرد ، أو الكميات العددية والعلاقات بينها ، والكميات الفراغية والعلاقات بينها (أي الرياضيات) والتي تعطينا المقادير والأشكال والأوضاع وجودة الترتيب وإتقان التأليف وحسن النظام ، فإذا ما علم المرء مبادئ وجود ما هو مجرد ، احتاج إلى فحص مبادئ وجود ما هو محسوس ، أي المعرفة بالعلوم الطبيعية ، أو دراسة الأجسام السماوية ، ثم الأرض والماء والهواء وما جانس ذلك من نار وبخار ، وكذلك المعادن والنباتات والحيوانات ، فإذا علم مبادئ وجود كل جنس من الأجسام المحسوسة ، بل

---

(١) قدم له وعلق عليه جعفر آل ياسين - (ط ٢) . بيروت : دار الأندلس (١٩٨٣م) . (١٣٣ ص) .

وكل نوع من أنواع كل جنس ، اضطره النظر في هذه المبادئ أن يطلع على مبادئ وجود أشياء ليست هي طبيعية ولا طبيعية ، واحتاج في ذلك إلى علم وسط بين علمين : علم الطبيعة - علم ما بعد الطبيعة (الميتافيزيقا) ، أي احتاج إلى علم يتعامل مع النفس ، ويطلع من أمرها وأمر العقل على مبادئ وجودهما ، وعلى الغابات والكمال الأقصى الذي لأجله خلق الإنسان ، الذي فطر على الارتباط بالآخرين واجتماعه معهم ، ففي هذا الاجتماع والمجاورة يتحقق الكمال الذي تيسره الفضائل والحسنات ، وتعوّقه النقائص والسيئات .

الفضائل الفكرية : ثم ينتقل الفارابي إلى وصف أعراض الأمم وأحوالها ، مشيرًا إلى أنها لا تدوم ، وإنما تتبدل لكن بعضها يتبدل في مدد طويلة ، ولها قوانين ، وبعضها الآخر يتبدل دائمًا ، وفي مدد صغيرة ، ولا قوانين لها ، وجميع هذه الأعراض والأحوال تخضع للفاعل من جهة ، وللإرادة من جهة أخرى ، كما لا تحيط بها العلوم النظرية ، وهنا تظهر الحاجة إلى الفضائل الفكرية التي لها القدرة على استنباط ما هو أنفع لكل من الفرد والمدينة والأمة .

الفضائل الخلقية : ولضمان هذا النفع ، ينبغي البحث عن الفضيلة الكاملة التي تضاهي قوتها قوة الفضائل كلها ، وهي الفضائل الخلقية ؛ التي تستعمل فيها أفعال الفضائل الكائنة في مدن كل أمة ، أو في أقسام كل مدينة ، أو في أجزاء كل قسم .

الصناعات العملية : وترتبط بالفضائل الخلقية صناعات عملية ، وتماثلها في التدرج ، فهناك صناعة رئيسة (كصناعة رياسة الأمة) لا تتقدمها صناعة أخرى ، وهي الصناعة التي يتطلب أداؤها استعمال أفعال الصنائع كلها ، يلي الصناعة الرئيسة صناعات أقل قوة ، كصناعة قيادة الجيش ، وكالصناعة التي ترأس صناعات اكتساب الأموال ، يلي ذلك صناعات جزئية في كل قسم من الأقسام ، ثم في كل جزء من الأجزاء .

وهناك ارتباط بين هذه الأجناس الأربعة ، فصناعة الرياسة (الصناعة الرئيسة) لا تفارق الفضيلة الخلقية الرئيسة ، التي بدورها لا تفارق الفضيلة الفكرية الرئيسة جدًّا ، التي تكون تابعة للفضيلة النظرية ، التي فطر عليها المرء ، فالملوك ملوك بالطبيعة أولًا ، ثم بالإرادة ، وكذلك الخدم ، وبالتالي تحصل كل هذه الفضائل لمن أعد لها ، ويتم ذلك بطريقين :

١ - التعليم ، أي الإقناع بالأقوال والتخيل ، ومن خلاله توجد الفضائل النظرية في الأمم .

٢ – التأديب من خلال إنهاض العزائم نحو فعل شيء ما ، ويكون هذا الإنهاض إما بالأقوال – سواء كانت إقناعية أو انفعالية – لمن يمكن أن يقوموا به طوعًا ، وإما بالانفعال للمتردين من أهل المدن الذين لا ينهضون طوعًا من تلقاء أنفسهم ، ولا بالأقوال .

ويعد الملك (رئيس الأمة) مؤدب الأمم ومعلمها ، ويستعمل في ذلك طائفتين من أهل الفضائل والصنائع : طائفة لتأديب من يؤدب طوعًا ، وأخرى لتأديب من لا يؤدب إلَّا كرهًا ، ويكون هذا الملك من خاصة الناس (فالناس فئتان : خاصة – عامة) ، أي الفئة التي أعدت لتعلم الفضائل النظرية أو العلوم ، ليس هذا فقط ، بل وتعلم أعظم هذه العلوم قوة (الفضيلة النظرية الرئيسة) أي الفلسفة .

هنا يؤكد الفارابي أن للرئيس (الملك) وللإمام وللفيلسوف معنى واحد ؛ لأن الرئيس أو الملك يأخذ بيد أمته إلى تحصيل السعادة القصوى ، ويجب أن يكون قادرًا على ذلك ، وهذا لا يتأتى إلَّا إذا تحلى بالفضائل النظرية والفكرية والخلقية الرئيسة ، وعلَّم أمته ذلك أي أن يكون فيلسوفًا .

وأخيرًا ؛ يميز الفارابي بين الفلاسفة ، فمنهم مَنْ هو حق ، ومنهم مَنْ هو باطل أو زور أو بهرج ، والصنف الأول له استعداده الذاتي لتحصيل الفضائل الرئيسة ، إذا يتمتع بالصفات التي ذكرها أفلاطون في كتابه « في السياسة » ، أما الصنف الثاني فيشرع في تعلم العلوم النظرية من غير أن يكون معدًّا بفطرته لذلك ، أو كان تابعًا لهواه وشهواته .

ويحصي الفارابي صفات الصنف الأول والذي يعتبره الفيلسوف بحق وبصدق ، وإذا كان رئيسًا أو ملكًا ، فهو الرئيس العادل بصدق .

ومن أبرز ما يلفت نظر المتخصص المعاصر في علم النفس عند قراءته لهذا الكتاب من كتب الفارابي :

١ – يقول الفارابي في (ص ٦١) : « وإن فطرة كل إنسان أن يكون مرتبطًا ، فيما ينبغي أن يسعى له ، بإنسان أو ناس غيره ، وكل إنسان من الناس بهذا الحال ، وأنه كذلك يحتاج كل إنسان فيما له أن يبلغ من هذا الكمال إلى محاورة ناس آخرين واجتماعه معهم » .

ومن الملاحظ أن الفارابي يتفق مع نتائج البحوث المعاصرة في علم النفس والتي تؤكد

ميل الأفراد إلى الانتظام في جماعات ؛ إما إرضاء لحاجتهم إلى الانتماء لآخرين يشاركونهم الاهتمامات والميول ، أو تحقيقًا لهدف لا يسهل تحقيقه إلَّا من خلال الانضمام لجماعة (ص ٦١ - ٦٢) .

٢ - يعرف الفارابي عملية التأديب - في (ص ٧٨) - بأنها : « إنهاض العزائم نحو فعل الشيء » متفقًا في ذلك مع البحوث النفسية المعاصرة التي تبرز أهمية تنمية دافعية Motivation الفرد نحو أداء الفعل ، بمعنى آخر ، إثارة نشاطه بشكل منظم وموجه لتحقيق هدف محدد .

ويرى الفارابي - في (ص٧٩) - أن ذلك يتم من خلال « الأقاويل الإقناعية والأقاويل الانفعالية » ، أي من خلال تغيير اتجاه Attitude Change الفرد المستهجن للفعل والذي يدفعه إلى رفض أدائه باتجاه آخر محبذ للفعل ويدفعه لأدائه ، ويتم هذا التغيير من خلال تخاطب (اتصال) بالمواجهة Face to Face Communication الذي يتضمن إما مناشدة منطقية (أقاويل انفعالية) Emotional Appeals وتشير إلى جاذبية المترتبات الناتجة عن تقبل ما يدعو إليه التخاطب ، Reinforcement أو التلويح بالمترتبات المؤلمة (Fear Appeals) لرفض ما يدعو إليه .

ويأتي تمييز الفارابي بين النوعين ، وبين التوقيت المناسب لاستعمال أي منهما ، وكذلك الجمهور الذي يلائمه استخدام أي منهما ، يأبى تمييزه متفقًا مع نتائج البحوث الحديثة التي تتناول الفاعلية النسبية لنوعي المناشدة (ص ٨٨ - ٩٠) .

٣ - وإذا كان الفارابي يجعل من الفيلسوف أصلح القوم لرئاستهم ولرئيس الفيلسوف - عنده - معنى واحد ، فإن صفات الفيلسوف الحق - والتي نقلها عن « أفلاطون » في : (ص ٩٥) - تعد صفات المدير الناجح ، أو القائد الفعال ، أي : الذي يأخذ بيد جماعته نحو تحقيق أهدافها ، ويتفق في ذلك مع نتائج البحوث الحديثة لموضوع القيادة والتي تبرز خصالًا لهذا القائد لا تختلف عن صفات الفيلسوف الحق التي أوردها الفارابي (ص ٩٤ - ٩٥) .

٤ - وإذا كان الفارابي يجعل من الفيلسوف أصلح القوم لرئاستهم ، وأن رئيس القوم هو معلمهم ومؤدبهم ؛ إذ يقول في : (ص ٨٠) : « والملك هو مؤدب الأمم ومعلمها » ، وإذا اعتبرنا عملية التأديب هذه هي عملية تغيير الاتجاه من خلال التخاطب ، فإن الصفات التي ذكر ضرورة توفرها في الفيلسوف الحق ، هي نفس

صفات المؤدب الذي يحسن التأديب ، أي : مصدر Source التخاطب الفعال ، وتبرز بحوث تغيير الاتجاه أن للمصدر خصالاً إذا ما اتسم بها زادت قدرته على إقناع المتلقي ، ومن أهم هذه الخصال : المصداقية Credibility أي : أن يراه المتلقي صادقًا أهلًا للثقة خبيرًا بما يقول أو يفعل ، بعيدًا عن الهوى أو الإغراء ، قادرًا على التحكم في إثابة المتلقي وعقابه ، عادلًا في فعل ذلك .

ونلاحظ أن هذه الخصال لا تتعارض مع الصفات التي ذكرها الفارابي في : (ص ٩٠) ، مما يعني اتفاقه مع بحوث علم النفس المعاصر .

* * *

رسالة العقل [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في حوالي ٧٢ صفحة من القطع المتوسط ، وينقسم إلى جزئين ، الأول عبارة عن رسالة في العقل باللغة الفرنسية ، والثاني الرسالة باللغة العربية مع شروح وإشارات ، واختصارات في الهوامش (ويحتل كل هامش نصف الصفحة تقريبًا) باللغة العربية ، والفرنسية ، (ولغة أجنبية أخرى) ، وفي نهاية الكتاب يوجد فهرس بالمصطلحات والأسماء التي وردت بالكتاب وبيان بالصفحات التي وردت فيها .

ويبدأ الفارابي رسالته ببعض ما ورد لدى السابقين عن معنى العقل ، فيذكر ثلاثة معاني ، ثم يعيد شرحها وتفصيلها بعد ذلك ، وأول هذه التعريفات أن العقل هو الشيء الذي به يقول الجمهور في الإنسان إنه عاقل ، والثاني أن العقل الذي يردده المتكلمون على ألسنتهم فيقولون هذا مما يوجبه العقل أو ينفيه العقل .

أما الثالث فهو مجموعة المعاني التي ذكرها أرسطاليس في كتاب البرهان ، وفي المقالة السادسة من كتاب الأخلاق ، والذي ذكره في كتاب النفس ، وفي كتاب ما بعد الطبيعة .

والمقصود في المعنى الأول هو الإشارة إلى التعقل ، فالعقل يحتاج إلى دين ، والدين عند بعض الجمهور هو الفضيلة ، وبالتالي فالعاقل من كان فاضلًا جيد الروية في استنباط ما ينبغي أن يؤثر أو يُجتنب ، ويطلق البعض على من يجيد استنباط الشر الداهية .

---

(١) ط ٢ . بيروت : دار المشرق (١٩٨٦م) . مع : نص بالإنجليزية .

ولذلك يرى بعض الناس أن الإنسان إن بلغ جودة الروية في استنباط الشرور ما بلغ، لم يسمَّ عاقلًا .

وأما العقل الذي يردده المتكلمون على ألسنتهم فيقولون في الشيء هذا مما يوجبه العقل أو ينفيه العقل أو يقبله العقل أو لا يقبله ؛ فإنما يعنون به المشهور في بادئ رأي الجميع ، فإن بادي الرأي المشترك عند الجميع أو الأكثر يسمونه العقل ، وهو ما يتضح من استقراء كلامهم الذي يتخاطبون فيه وبه أو مما يكتبونه في كتبهم ويستعملون فيه هذه اللفظة . (والتخاطب أو التواصل Communication أحد الموضوعات التي تحظى الآن باهتمام واسع في علم النفس الاجتماعي ص ٨) .

أما العقل كما ورد عند أرسطو في كتابه البرهان فيعني به قوة النفس التي بها يحصل للإنسان اليقين بالمعتقدات الكلية الصادقة الضرورية بالفطرة ، وهو وسيلة النفس في تحصيل المعرفة التي هي مقدمات للعلوم النظرية ، ونلمح هنا استخدام الفارابي لكلمة النفس التي أضيفت لعلم فأصبح علم النفس ، الذي يدرس السلوك في مختلف أشكاله ، ويرى أن العقل هو السبيل إلى تحصيل المعرفة ، ومفهوم المعرفة Cognition أصبح في حد ذاته أحد الموضوعات أو التخصصات الدقيقة التي تدرس في علم النفس بما يسمى علم النفس المعرفي Cognitive Psychology بما يحويه من نظريات وأساليب (ص ٨ - ٩) .

والعقل كما تناوله أرسطو في المقالة السادسة من كتاب الأخلاق ، يريد به جزء النفس الذي يحصل فيه بالمواظبة على اعتياد شيء مما هو جنس من الأمور ، وطول تجربة شيء ما ، هذا الجزء من النفس أسماه العقل ، والقضايا التي تحصل للإنسان بهذا الوجه في ذلك الجزء من أجزاء النفس هي مبادئ المتعقل والداهي وسبيله لما يستنبط من الأمور الإرادية التي من شأنها أن تؤثر أو تتجنب ، وهذا العقل يتزايد مع الإنسان طول عمره ، وتتمكن فيه تلك القضايا (وهنا نجده يشير إلى مبدأ مهم من المبادئ التي درست في علم النفس الارتقائي Developmental Psychology وهو الارتقاء العقلي والمراحل التي يمر بها وهناك نظريات كثيرة تعرضت لهذا الموضوع لعل من أشهرها نظرية بياجيه Piaget ص ١٠ - ١١) . كما يركز في هذا الجزء على عملية البرهان والتجربة كوسيلة من وسائل العقل في إدراك القضايا المختلفة (والتجريب يعتبر الآن أحد الأعمدة الرئيسة لنمو علم النفس ، ويوجد من بين تخصصات علم النفس الحديث ما يسمى بعلم النفس التجريبي Experimental Psychology ص ١١) .

والعقل الذي يذكره في كتاب النفس ، جعله على أربعة أنحاء : عقل بالقوة ، وعقل

بالفعل ، وعقل مستفاد ، وعقل فعال ؛ فالعقل الذي هو بالقوة ، هو نفس أو جزء من نفس ، أو قوة من قوى النفس ، وإذا كانت الذات التي سماها أرسطو في كتاب النفس عقلًا بالقوة ليس فيها شيء من صور الموجودات فهي عقل بالقوة ؛ فإذا حصلت فيها صور الموجودات صارت تلك الذات عقلًا بالفعل .

وهذا العقل بالفعل متى عقل المعقولات التي هي صور له من حيث هي معقولة بالفعل ؛ صار العقل الذي كنا نقول أولًا إنه العقل بالفعل هو الآن المستفاد .

إن العقل بالقوة عند الفارابي يقابل ما نسميه الآن الاستعداد الطبيعي عند الإنسان لتقبل المعقولات أو لتقبل المعرفة العقلية .

أما العقل الفعال الذي ذكره أرسطو في المقالة الثالثة من كتاب النفس هو صورة مفارقة لم تكن في مادة ولا تكون أصلًا ، وهو بنوع ما هو عقل بالفعل قريب الشبه من العقل المستفاد الذي جعل تلك الذات التي كانت عقلًا بالقوة عقلًا بالفعل ، وجعل المعقولات التي كانت معقولات بالقوة معقولات بالفعل .

ونسبة العقل الفعال الذي بالقوة كنسبة الشمس إلى العين التي هي بصر بالقوة مادامت في ظلمة ، فإن البصر إنما يكون بصرًا بالقوة مادام في ظلمة .

ويواصل بعد ذلك شرحه وتفصيله للعقل الفعال ، فيرى أنه نوع من العقل المستفاد ، وصور الموجودات المفارقة التي فوقه هي فيه لم تزل ، ولا تزال ، إلّا أن وجودها فيه على ترتيب غير الترتيب الذي هي موجودة عليه في العقل الذي بالفعل ، وتكون الصور فيه غير منقسمة بينما هي في المادة منقسمة ، ومتى حصل العقل الفعال المستفاد يصير عند ذلك جوهر الإنسان أو الإنسان بما يتجوهر به أقرب شيء إلى العقل الفعال ، وهذه هي السعادة القصوى والحياة الآخرة وهي أن يحصل للإنسان آخر شيء يتجوهر به ، وأن يتحصل له كماله الأخير .

والظاهر أن الموضوعات التي فيها يفعل العقل الفعال هي إما أجسام ، وإما قوى في أجسام فتكون فاسدة ، وقد تبين في كتاب الكون والفساد أن الأجسام السمائية هي الأقسام الفاعلة الأول لهذه الأجسام فيها ؛ إذ إنها تعطي العقل الفعال المواد والموضوعات التي فيها يفعل .

أوجه الاستفادة من هذا الكتاب :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في علم النفس العام وخاصة موضوع الذكاء والتفكير .

التنبيه على سبيل السعادة [1]

عرض : د . شعبان جاب الله رضوان

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١١١ صفحة من القطع الصغير ويتضمن الأهداف ، والمقدمة وتحوي تعريفًا عامًّا بالكتاب ، وهوية الكتاب ، ومنهج التحقيق ، والمخطوطتان ، والهوامش والرموز ، ثم نص الكتاب ، وتعليقات على النص ، وثبت بدلالات فقرات النص ، وفهرس المراجع والمصادر وفهرس المصطلحات الواردة في النص .

ويتناول هذا الكتاب إيضاح الوسائل والسبل التي ينبغي أن يسلكها الإنسان حتى تتحقق له السعادة ، ويشير الفارابي في هذا إلى أن الكمال هو الغاية الأصلية التي يتشوقها الإنسان في تطلعه نحو حياة أكثر سعادة وسلامة ، فالسعادة الحقيقية هي أكثر أنواع الخير إيثارًا وتفضيلًا ، وتتصف أفعال السعادة في ضوء تطبيقاتها العملية بكونها إما أفعال محمودة ، أو أفعال مذمومة ، وهذه الأفعال تأخذ ثلاثة أنماط هي :

١ - أفعال يحتاج الإنسان فيها إلى استعمال أعضاء بدنه وآلاته كالقيام والقعود والنظر والسماع .

ويتصل هذا النمط من الأفعال بموضوع السلوك الحركي Motor Behavior (ص ٥٠) ، ومفهوم الإحساس بالإدراك الحسي والمعرفة Sensation , Perception and Cognition (ص ٥٠ ، ٧٧ ، ٧٩) .

---

(١) تحقيق جعفر آل ياسين (ط ٢) . بيروت : دار المناهل ، (١٩٨٧م) . (١١ ص) .

٢ – أفعال مصدرها عوارض النفس كاللذة والغضب والشوق والفرح والخوف . وتتصل هذه المفاهيم بموضوع الانفعالات Emotions (ص ٥٠) .

٣ – أفعال تخص في قيامها لعامل التمييز الذهني عند الإنسان .

ويتصل مصطلح التمييز الذهني بمفهوم الذكاء Intelligence والتفكير Thinking (ص ٥٠ – ٥٣) ، وينطوي ذلك كله تحت فرع علم النفس العام General psychology .

وهذه الأفعال – من الوجهة الأخلاقية – يمكن الحكم عليها بجودة التمييز أو رداءته وامتلاك جودة التمييز هو الغاية في مبحث التنبيه على سبيل السعادة ، ولكي ينال الإنسان السعادة لابد أن تكون الأفعال الجميلة التي يقوم بها هادفة ومتحققة بصناعة معينة ، ويقصد بتلك الصناعة الفلسفية بشقيها النظري والعملي ، بحيث يصبح لدى الإنسان القدرة على التمييز في أفعاله الاختيارية ، والتي يمتلك استعدادًا فطريًّا لها ، ولكنه يكتسب هذه القدرة على التمييز من خلال التعلم والخبرة .

ويرتبط مفهوم الاكتساب والتعلم والخبرة بسيكولوجية التعلم Learning (ص ٥٤– ٥٦) في إطار علم النفس العام .

وبتحقيق هذه القدرة يميز الإنسان بين الصواب والخطأ ، وبين الجميل والقبيح وتنقسم حال التمييز المكتسبة إلى صنفين :

الأول : ويتم التمييز به إلى جيد ورديء ، وتحدث جودة التمييز بقوة الذهن ، إما رداءته فتحدث بضعف الذهن والبلادة ، ويتصل مفهوم قوة الذهن بمصطلح الذكاء ، أما ضعف الذهن فيتصل بمفهوم الضعف أو التأخر العقلي Mental Retardation (ص٥٤) .

الثاني : وتكون أفعال وعوارض النفس ، إما جميلة وإما قبيحة ، ويسمى هذا الصنف الثاني الخلق ، وهو الذي تصدر به عن الإنسان الأفعال القبيحة والحسنة ، وتخضع الأفعال والتمييز للثوابت ، بما يجعل تمييز الإنسان واضحًا في كل شيء ، وذلك حتى يدوم فعل الجميل وجودته معًا ، وبحيث تصبح قوة الذهن مَلَكة لا يمكن زوالُها باعتبار أن قوة الذهن والخلق الجميل هما الفضيلة الإنسانية ، ولكي نحقق هذه الغاية ينبغي أن نسلك طريقين :

الأول : محاولة أن تصبح الأخلاق الجميلة ملكة لنا بحيث لا يزول الصواب إلّا بمشقة وعسر .

الثاني : أن تكون لدينا القدرة على إدراك الصواب إدراكًا سليمًا .

والوسيلة التي يمكن أن نحقق بها الوصول إلى الطريق الأول هي وسيلة الاعتياد ، ويقصد بها تكرار الفعل مرات متعددة ولمدة طويلة وفي أوقات متقاربة حتى يتحقق الفعل الجميل وينمو .

وتتصل هذه الفكرة (الاعتياد من خلال التكرار) بسيكولوجية التعلم Learning والتدريب Training .

ولكي نصل إلى الفعل الجميل حقًّا ينبغي أن نستخدم آلة الوسط الأخلاقي ، فالأفعال متى كانت متوسطة حصل الخلق الجميل ، ويمكن للإنسان أن يقف على الوسط في الأفعال الخلقية من خلال تعرفه على زمان الفعل ومكانه ، ومن منه الفعل ، ومن إليه الفعل ، وما منه الفعل ، وما به الفعل ، وما من أجله وله الفعل ، وأن يجعل الفعل على مقدار كل واحد من هذه .

ونظرًا لاختلاف مستويات الأفعال الخلقية ، نجد أن الوسط الأخلاقي يختلف قوة وضعفًا ، سلبًا وإيجابًا حسب أفعاله وغاياتها .

وهناك أمثلة ونماذج لأفعال الوسط الأخلاقي ، ومنها مثلًا أن الشجاعة تُعرَّف على أنها خلق جميل يحصل بتوسط في الإقدام على الأشياء المفزعة والإحجام عنها ، فالزيادة في الإقدام تكسب التهور ، والنقصان في الإقدام يكسب الجبن وهو خلق قبيح .

كذلك فإن السخاء يحدث بتوسط في حفظ المال وإنفاقه ، فالزيادة في الحفظ والنقصان في الإنفاق يكسب التقتير وهو قبيح ، والزيادة في الإنفاق والنقصان في الحفظ يكسب التبذير .

وهنا أيضًا إشارة لأوساط أفعال أخرى كالعفة والظرف والهزل والمجون والتودد وغيرها .

ويتصل مفهوم « الوسط » على هذا النحو بعدد من المفاهيم في علم النفس ؛ مثل : مفهوم السواء Normality ، ومفهوم التطرف Extremeness (ص ٥٨ - ٦٦) ، والاعتدال والأخلاق Morality (ص ٥٠ ، ٥٤ ، ٥٦) .

ويشير الفارابي بعد ذلك إلى أن الميزان الحقيقي للحكم على الفعل الأخلاقي هو أن نحصي الأخلاق خلقًا خلقًا ، ونحصي الأفعال الكائنة عن خلق خلق ، ثم يجب أن نتأمل وننظر أي خلق نجد أنفسنا عليه ، بمعنى أن الإنسان السوي يجب أن يمتلك الآلة التي يسير بها غور أفعاله ، فإذا وجد الفعل يتصف بالجمال واللذة وأنه غير مؤذ

اعتبره خلقًا سليمًا ، والعكس بالعكس .

وبذلك يمكن القول بأن مراقبة النفس لكل فعل تقوم به ، واختيار الوسط من الأفعال المختلفة هي عملية يتميز بها الإنسان في تطبيقاته الخلقية بموازنة دقيقة بين إفراط وتفريط ، أو نقصان وزيادة ، وتجنب الوقوع في أحد طرفي المعادلة ؛ لأن الحدين المستقطبين يتصفان معًا بالرذيلة ، بينما الفضيلة منهما وسط لا يميل إلى هذه ولا إلى تلك .

كما يشير الفارابي إلى أن الوقوف على الوسط يُعدّ عملية عسيرة جدًا ، ولا سبيل إلى تحقيق هذا الوسط إلّا التعود والممارسة ، فعندما يجد الإنسان نفسه تميل إلى جانب عودها أفعال الجانب الآخر ، ويظل يفعل ذلك حتى يبلغ الوسط أو يقاربه جدًا ، ويرى أن وسيلة الكشف عن ذلك تتحقق من خلال النظر إلى سهولة الفعل الكائن عن النقصان ، هل يتأتى أم لا ؟ فإذا كان تَأتِّي الفعل أو عدمه على السواء من السهولة أو كانا متقاربين ، علم الإنسان أنه قد وقف على الوسط ، وامتحان سهولة الفعلين تتم من خلال النظر إليهما جميعًا ، فإن كان الإنسان لا يتأذى بواحد منهما أو يلتذ بكل واحد منهما أو يلتذ بأحدهما ولا يتأذى بالآخر أو كان الأذى عنه يسيرًا جدًا ، عندئذ يكون الفعلان في السهولة على السواء ومتقاربين .

ونظرًا لأن الوسط بين طرفين ، ومن الممكن أن يوجد في الأطراف ما هو شبيه بالوسط ؛ لذلك وجب التحرز من الوقوع في الطرف الشبيه بالوسط ؛ ومثاله : التهور فإنه شبيه بالشجاعة ، والتبذير شبيه بالسخاء ، والمجون شبيه بالظرف .

ويذهب الفارابي بعد ذلك إلى أن الناس يختلفون فيما بينهم ، فهناك من له جودة الرَّوِيَّة وقوة العزيمة ويمثل هذا الجانب الإنسان الحر ، أما من افتقر إليهما فهو البهيمي ، أو من كانت له جودة الروية فقط دون قوة العزيمة فهو الإنسان العبد بطبعه ، ويتميز الأحرار بأنهم متى أرادوا أن يسهلوا على أنفسهم فعل الجميل وترك القبيح باستعمال اللذة والأذى فإن الأخفى منها والأظهر عندهم بمنزلة واحدة .

ويمكن أن يتصل مفهوم جودة الروية وقوة العزيمة بموضوع سمات الشخصية Personality Traits (ص ٧٠) .

وتنقسم جودة التمييز إلى صنفين ، أحدهما ينبغي أن يعلم فقط وليس شأنه أن يفعله إنسان في الوجود ؛ مثل العلم بأن اللّٰه واحد ، أما الثاني فشأنه أن يعلم ويفعل مع تلازم فيه بين العلم والعمل معًا ؛ مثل العلم بأن بر الوالدين حسن ، ويحصل الصنف الثاني

بصنائع تكسبه علم ما يعمل القوة على عمله ، ويتصف له قصده الإنساني الذي يتمثل في ثلاث شُعب هي : اللذيذ والنافع والجميل ، والنافع إما ينفع في اللذة وإما ينفع في الجميل .

والصنائع صنفان أيضًا : صنف مقصوده تحصيل الجميل ، وصنف مقصوده تحصيل النافع ، والصناعة التي مقصودها تحصيل الجميل فقط هي الفلسفة وتسمى الحكمة على الإطلاق ؛ وهذا الجميل يتفرع إلى قسمين :

أ – علم فقط وهو الفلسفة النظرية وتشمل علم التعاليم (مثل علم العدد وعلم الهندسة) وعلم الطبيعة ، وعلم ما بعد الطبيعة .

ب – علم وعمل وهو الفلسفة العملية والمدنية والسياسية .

ويتمسك الفارابي بالصنف الذي تصدر عنه الأفعال الجميلة والقدرة على أسبابها وهو ما يطلق عليه الصناعة الخُلُقية ، مشيرًا إلى أن الطريق إلى هذه الصناعة الخُلقية يمر عبر الفلسفة ، والفلسفة تحصل بجودة التمييز ، وجودة التمييز تحصل بقوة الذهن على إدراك الصواب ، ولا يتحقق الأمر الأخير بصناعة المنطق ، والتي يجب أن يسبقها صناعة النحو ، وهو ما ينبغي على دارس الفلسفة أي الباحث عن السعادة الحقة أن يسلكه ؛ وعندئذ يكون الإنسان قد بلغ السبيل التي ستقوده إلى السعادة المرغوبة التي من أول مراتبها تحصيل صناعة المنطق ، وآخر غاياتها بلوغ القدرة على تأمل الخير المطلق .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس الاجتماعي Social Psychology .

* * *

ابن الأعرابي (ت ٣٤٠هـ)
الزهد وصفة الزاهدين [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف :

هو أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم ، الإمام المحدث ، يكنى أبا سعيد ويعرف بابن الأعرابي ، نزيل مكة وشيخ الحرم ، ولد سنة نيف وأربعين ومائتين ، أخذ علمه عن كثير من العلماء والشيوخ نذكر منهم الزعفراني ، والمخزمي والدقيقي والعبسي وغيرهم ، وأخذ عنه كثير من التلاميذ نذكر منهم : ابن النحاس ، وابن خفيف ، وابن المقرئ ، وابن مفرج ، الأصبهاني ، والطرسوسي ، وغيرهم .

ومن مؤلفاته « رسالة من المواعظ والفوائد » ، « وكتاب رؤية اللّٰه تبارك وتعالى » ، « وكتاب المعجم من الحديث » ، « وطبقات النساك وتاريخ البصرة » ، وقد كان ابن الأعرابي ثقة ، حسن الأداء ، وكثير الروايات كثير التأليف ، توفي في مكة في شهر ذي القعدة سنة (٣٤٠هـ) عن عمر يناهز أربعًا وتسعين عامًا .

مصدر هذه الترجمة : ما ورد في بداية هذا الكتاب .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٩٥ صفحة من القطع المتوسط ، ويحوي تقديمًا وترجمة للمؤلف ، وإسهام المحقق ومخطوطة الكتاب ، وثلاثة فهارس أولها للآيات ، والثاني للأحاديث النبوية ، والثالث فهرس الأعلام ، وموضوع الكتاب يدور عن الزهد وهو مقسم إلى

---

(١) تحقيق مجدي فتحي السيد - (ط ١) . طنطا : مكتبة الصحابة (١٩٨٨م) . (٩٥ ص) .

أربعة موضوعات بعضها من وضع المحقق (نعني بعض العناوين) .

والموضوع الأول عن الزهد وصفة الزاهدين ويحتل بضعة أسطر يؤكد فيها على بدء الأعمال بالحمد والثناء لله ﷺ والصلاة والسلام على رسوله الكريم ، ثم يقدم للموضوع الثاني فيذكر اختلاف أهل العلم في معنى الزهد ، ويَزْلُفُ بنا ابن الأعرابي مباشرة للحديث عما قيل عن الزهد ، ويذكر ستة وأربعين معنى أو قولًا في الزهد (وهي في الحقيقة ٤٥ قولًا فقط ؛ لأن القول السادس عشر غير موجود بالكتاب) . ومن المعاني التي ذكرها أن الزهد يكون في ترك الثمين المترف من الثياب أو الامتناع عن تناول الطعام الشهي ؛ وكذلك أن الزهد في الدنيا يكون باليقين ، واليقين بالتفكير ، والتفكير بالاعتبار ، ويرى البعض أن الزهد يكون في الرضا عن اللّه تعالى . ويحدده البعض بأنه عدم اليأس على ما فاتنا من الدنيا ، وعدم الفرح بما آتانا اللّه فيها ؛ ثم يصنف الزهد إلى ثلاثة أنواع : زهد فرض وهو الزهد في الحرام ، وزهد فضل وهو الزهد في الحلال ، وزهد سلامة وهو الزهد في الشبهات . ويحاول بعد ذلك أن يزيد أفكاره وضوحًا من خلال تقديم المتضادات . فيقول : إن الزهد في الدنيا هو الزهد في لقاء الناس ويقابله حب الدنيا ، وهو حب لقاء الناس (ولعل الحديث عن الاقتراب من الناس والاختلاط بهم ، وهو أحد المظاهر التي نبحث عنها إذا ما أردنا قياس ما نسميه بالانبساط Extraversion ، والعزلة والابتعاد عن الناس هو أيضًا أحد المظاهر المهمة في تقييمنا للطرف المقابل للانبساط هو الانطواء Introversion (ص ٢٥) .

وموضوع الانبساط - الانطواء يمثل أحد الأبعاد الأساسية للشخصية Personality كما تدرس في علم النفس الحديث ، واستمرار في هذا الاتجاه يرى أن القناعة من الرضا ؛ بمنزلة الورع من الزهد (ومفهوم الرضا من المفاهيم التي تم توظيفها في علم النفس الحديث خاصة في علم النفس الصناعي Industrial Psychology ، تحت مسمى الرضا عن العمل Job Satisfaction . وكذلك في علم النفس العام تحت مسمى (إشباع الدوافع) (ص ٢٦) .

ثم يعود ابن الأعرابي ليصنف الزهد ، فيرى أنه على ثلاثة أوجه ؛ الأول منها أن تخلص العمل للّه ، وكذلك القول فلا يراد بشيء منه الدنيا . والثاني ترك ما لا يصلح والعمل بما يصلح . والثالث هو الزهد في الحلال ، وهو تطوع . وفي القول التاسع والعشرين عن معاني الزهد ، نلمح في ثنايا حديثه تطرقًا لموضوع صراع الدوافع Motives Conflict (ص ٣٠) . وهو من الموضوعات التي ترسخت في علم النفس

العام حيث يتحدث الباحثون عن ثلاثة أنواع من الصراع هي : صراع الإقدام - إقدام Approach - Approach ، وصراع الإقدام - إحجام Approach - Avoidance ، وصراع الإحجام - إحجام Avoidance - Avoidance . ومن المعاني التي يذكرها ابن الأعرابي للزهد ، والتي نقلها عن بعض المحدثين الآخرين أنه مكافئ للعلم . وهنا يبين قيمة العلم ؛ وأن من يهب نفسه للعلم ؛ يزهد فيما سواه من أمور . ثم يزيد على ذلك أنه مما يميز عمل الزاهد أيضًا ترك إعمال الفكر في شيء من الدنيا (ص ٣١) ، والفكر والتفكير من الموضوعات التي درست وتدرس إلى الآن في فروع شتى من فروع علم النفس سواء من حيث أنواع التفكير أو اضطرابه لدى بعض الفئات المرضية ، كما أن إعمال الفكر أو ما يسميه البعض « التفكير المتأمل » Meditation أحد أساليب خفض الاستشارة Lowering Arousal الناتجة عن تزايد المشقة Strees ، (وجوهر هذا الأسلوب هو إطلاق العنان للفكر ليتأمل ما حوله من آيات الخالق وبالتالي يتخلص جزئيًا من القلق الناتج عن المشكلة التي يعاني منها) .

وقبل أن يختتم الأقوال في الزهد يذكر لنا أن بعض الزهاد جزَّأ الدنيا أربعة أجزاء : المال والنساء والنوم والطعام ، والنظرة الفاحصة تكتشف حديثًا مبكرًا عما يدرس الآن في علم النفس الحديث تحت مسمى الدوافع والدافعية Motives & Motivation وعلى وجه الخصوص الدوافع الأولية أو الفسيولوجية (أو البيولوجية) (ص ٣٦ - ٣٨) .

وبعد ذلك ينتقل بنا إلى الموضوع الثالث وهو درجات الزهد ، ويرى أن الزهد يمكن أن يكون في الرئاسة ، والمجالسة ، والمحادثة ، والمعاشرة ، وأول الزهد يكون في الحرام ، ثم الزهد في المباح ، وأعلى مراتب الزهد أن تزهد في الفضول ، والفضل كل ما للإنسان غنى عنه ، وكأن الإنسان ينبغي أن يزهد في كل شيء إلَّا ما أمره اللَّه به ، ويستثنى من ذلك الأمور التي إن تركها خشي عليه الخروج إلى غيرها مثل الغذاء والنوم واللباس والنساء . (وهي ما سبق أن أشرنا إلى أنه حديث عن الدوافع الأولية) (ص ٤٠) ، ويورد بعد ذلك بعض الاختلافات في الزهد في المباح ويستدل فيما يقول بكثير من الأقوال المأثورة ، والأحاديث النبوية الشريفة ، والآيات القرآنية ، ويستكمل حديثه في الموضوع الرابع والأخير تحت عنوان : « التقلل من الدنيا وأخذ الكفاف » عن الزهد في الدنيا ، فيحدد حاجات ابن آدم وهي مسكن ومطعم وكساء ، وذلك من خلال الأحاديث والآيات ، ويختتم كلامه بعدد من الوصايا القيمة ؛ كالصبر على المكاره ، وترك الشهوات ، والتحذير من النظرة ؛ لأنها مقدمة لزرع الشهوة ، وإثارة

الفتنة ، ويحذر من الركون للدنيا ، وكثرة الخطايا ، وكثرة الكلام في غير ذكر اللّٰه ، ويوصي بالرحمة لأهل البلاء ، ويحذر كذلك من علماء السوء ، ويلوم من تركوا العلم واستهانوا به وداسوه بأقدامهم ، وهي كما نرى درر غالية ونصائح عظيمة .

* * *

ابن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ)
روضة العقلاء ونزهة الفضلاء [١]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف :

هو أبو حاتم محمد بن حبان بن معاذ بن معبد بن سعيد بن شهيد التميمي ، وأضاف له أبو عبد الله بن أحمد بن محمد البخاري في نسبه ، فقال ابن هدية بن مرة بن سعد ابن يزيد بن مرة بن يزيد بن عبد الله بن درام بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة ابن تميم بن مرة بن أُدبن بن طانجة بن إلياس بن مضر .

وهو إمام علامة فاضل متقن ، كان مكثرًا من الحديث والرحلة ، والشيوخ ، عالمًا بالمتون والأسانيد ، أخرج من علوم الحديث ما عجز عنه غيره ، ومن تأمل تصانيفه تأمل منصف علم أن الرجل كان بحرًا في العلوم .

سافر ما بين الشام والإسكندرية ، وأدرك الأئمة والعلماء ، والأسانيد العالية ، وأخذ فقه الحديث والفروض على معانيه عن إمام الأئمة أبي بكر بن خزيمة ، ولازمه وتتلمذ له ، وصارت تصانيفه عدة لأصحاب الحديث ، غير أنها عزيزة الوجود سمع عن الفقهاء في ثلاث وأربعين مدينة تقريبًا بين مصر والعراق وبلاد الشام ، وروي عنه أنه كان من أوعية العلم في اللغة والفقه والحديث ، والوعظ ، ومن عقلاء الرجال ؛ صنف فخرج له من التصنيف في الحديث ما لم يسبق إليه ، وولي القضاء بسمرقند وغيرها من المدن ، وله عدد كبير من الكتب معظمها يتألف من عدة أجزاء ؛ ومنها : الصحابة ، وكتاب

---

(١) تصحيح وتحقيق محمد حامد الفقي . القاهرة : مكتبة السنة المحمدية (١٩٨٨م) . (٢٨٩ ص) .

التابعين ، وكتاب الفصل بين النقلة ، وكتاب العلل ، علل أوهام أصحاب التواريخ ، وكتاب وصف المعَدِّل والمعَدَّل ، وكتاب وصف العلوم وأنواعها وغيرها كثير ، وتوفي البستي ليلة الجمعة لثمان ليال بقين من شوال سنة (٣٥٤هـ) ، ودفن بعد صلاة الجمعة في الصُّفة التي ابتناها بمدينة بُست بقرب داره .

استمدت هذه الترجمة : مما ورد في بداية الكتاب الحالي .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٢٨٩ صفحة من القطع المتوسط ، بخلاف الفهرس ، ويضم ترجمة الإمام ابن حيان ، ومسند الكتاب ، ثم مقدمة ، وبعد ذلك بقية أجزاء الكتاب ، وهو مقسم إلى موضوعات تبدأ كلها بذكر الحث على ... ولا يلتزم فيها المؤلف بالتقسيم إلى فصول أو أبواب .

والموضوع الأول في هذا الكتاب عن ذكر الحث على لزوم العقل وصفة العاقل اللبيب ، ويبدأه بتبرير عدم الاستناد إلى الأحاديث النبوية الشريفة في العقل نظرًا لضعف روايتها ، ثم يتحدث عن العقل فيذكر أن به يكون الحظ ، ويؤنس الغربة ، وينفي الفاقة ، ولا مال أفضل منه ، ولا يتم دين أحد حتى يتم عقله ، ويعرفه بأنه اسم يقع على المعرفة بسلوك الصواب ، والعلم باجتناب الخطأ ، وإذا كان المرء في أول درجته يسمي أديبًا ، ثم أريبًا ، ثُمَّ لبيبًا ثم عاقلًا ، ويقسم العقل إلى عقل مطبوع ومسموع ، ثم يبيِّن فوائد العقل ويرى أنه دواء القلوب ، ومطية المجتهدين ، وبذر حراثة الآخرة ، وتاج المؤمن في الدنيا ، وعدته في وقوع النوائب ، ومن عدم العقل لم يزده السلطان عزًّا ، ولا المال يرفعه قدرًا ، ويذكر بعض صفات العاقل بأنه قليل الكلام ، ولا يكثر المحاورة ، ولا يسارع بالجواب إلَّا عند التثبت ، كما أنه لا يستحقر أحدًا ، ولا يخفى عليه عيب نفسه . وهو يبذل لصديقه نفسه وماله ، ولمعرفته رفده ومحضره ، ولعدوه عدله وبره ، وغير ذلك من الصفات التي وجب التحلي بها ، وموضوع العقل والقدرات العقلية Mental Abilities يمثل أحد أهم موضوعات علم النفس الحديث (ص ١٦ - ٢٦) .

ويواصل حديثه عن العاقل ويرى أن أحد لوازمه إصلاح السرائر وهي من تقوى اللَّه .

ولأن موضوع الكتاب عن العقلاء ؛ فيبدأ في تفصيل بعض خصالهم ومحاسنهم ، فيحدثنا في الموضوع الثاني عن الحث على لزوم العلم والمداومة على طلبه ، ويذكر بعض أحاديث رسولنا الكريم ﷺ التي تحث على طلب العلم ، ومنزلة العلماء ، ثم يذكرنا بعد

ذلك ما ورد في فضل العلم والتعلم من الشعر ، وأقوال الحكماء ، وما يمكن أن تستشفه من هذا الجزء ، باعتبار صلته بعلم النفس الحديث ، هو موضوع التعلم Learning على أساس أنه الطريق الذي ينبغي أن نسلكه لكي نحصل العلم (وإن كان المقصود هنا التعلم بمعناه العام) (ص ٣٣ - ٤٠) .

ومن الخصال التي يفرد لها ابن حبان البستي جزءًا في حديثه ، لزوم الصمت وحفظ اللسان ، ويتبع في بيان ذلك نفس مسلكه ، فيذكر أحاديث الرسول ﷺ وقطوفًا من الشعر وأقوال الحكماء ، ويوضح فوائد الصمت بأنه يكسب المحبة والوقار ، وأن من يحفظ لسانه يريح نفسه ، والرجوع من الصمت أحسن من الرجوع عن الكلام ، والصمت منام العقل ، والمنطق يقظته ، ويحذرنا من اللسان ويحدد خصاله وهي عشر خصال يجب على العاقل أن يعرفها ويضع كل خصلة منها في موضعها : فهو أداة يظهر بها البيان ، وشاهد يخبر عن الضمير ، وناطق يرد به الجواب ، وحاكم يفصل به الخطاب ، وشافع تدرك به الحاجات ، وواصف تعرف به الأشياء ، وحاصد تذهب الضغينة ، ونازع يجذب المودة ، ومُسلٍّ يذكي القلوب ، ومُعز ترد به الأحزان . ومن هذا الحديث نستنتج بشكل غير مباشر ما يمكن أن ينتمي لعلم النفس الحديث ، فهو يعلمنا آداب الحديث أو التخاطب Communication ويذكر بعض خصال الشخصية Personality كما أن حديثه عن أن اللسان هو أداة الكلام ينتمي لسيكولوجية اللغة Psycholinguistics (ص ٤١ - ٥١) .

ويستمر بعد ذلك في ذكر الخصال الطيبة والرديئة فيحث على لزوم الصدق ويحذر من الكذب ، مما للأول من فوائد ، وللثاني من مضار ، وهو من خصال الشخصية التي تحظى بعناية علماء النفس ، ومن الخصال الأخرى التي يمكن أن ينطبق عليها ما سلف من قول ما يوصينا به من لزوم الحياء وترك القحة ، ولزوم المداراة وترك المداهنة مع الناس ، وهو هنا يقدم لنا بعض المبادئ التي تصلح كأطر لقيام التفاعل الاجتماعي السليم Social Interaction وهو من موضوعات علم النفس الاجتماعي أو على وجه الخصوص ديناميات الجماعة Group Dynamics (ص ٥٦ ، ٦٣ ، ٧٠) .

وفي نفس الاتجاه - وإن بدا مناقضًا لما سبق - يحثنا على الاعتزال من الناس بصفة عامة . وهذا التناقض الذي نلمحه إنما هو تناقض ظاهري ؛ لأن اجتناب الناس يكون اتقاء للشر ، والتقرب منهم ابتغاء الخير ، وبناءً على ذلك يحدثنا في الموضع التالي مباشرة عن استحباب المؤاخاة للمرء مع الخاصة ، فالإخوان هم عدة الفرد على النوائب ، وسلواه عن

الهموم والغموم ، وكأنه هنا يرشدنا إلى كيفية اختيار أصدقائنا . والحديث عن الصداقة Friendship والأصدقاء (الإخوان) يدخل تحت موضوع المهارات الاجتماعية Social Skills أحد موضوعات علم النفس الاجتماعي (ص ٨١ - ٩٣ ، ٩٩ - ١٠٣) .

ولعل ما قدمناه من قول يصدق عندما نجده يعول مرة أخرى ليحذر من معاداة الناس وعدم كراهيتهم . كما يعود مرة أخرى ليذكر كراهية التلون في الوداد بين المتآخين ، ويحدد شروط الصداقة والتآخي وواجباتهما وأهمها التطابق بين السر والعلن ، ويحذر من مصادقة المتلون ، أو مؤاخاة المتقلب ، وهذا الحديث امتداد للحديث في موضوع الصداقة الذي سبق ذكره (ص ١٠٣ - ١٠٧) . كما يشير أيضًا إلى أسباب الائتلاف والاختلاف ، وعلى كل فرد أن يختار أصدقاءه من بين الذين يجد بينه وبينهم تآلف وارتياح ، ثم يحثنا على زيارة الإخوان وإكرامهم باعتبارها من شيم الصالحين (ص ١١٤ - ١١٧) ، ويرتبط هذا الجزء بمفهومي الكراهية والعدوان وبمفهومي المحبة والصداقة .

وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن صفات الأحمق والجاهل ، وما نجنيه من مجاورته . ولذا فهو يحثنا على ترك صحبة الأحمق ، ولزوم صحبة العاقل ، وعشرة الفطين اللبيب ، ويحدد صفات الحمق وعلاماته بأنها سرعة الجواب ، وترك التثبت ، والإفراط في الضحك ، وكثرة الالتفات ، والوقيعة في الأخيار ، والاختلاط بالأشرار . وهذا الحديث يمكن أن ينتمي لعلم النفس الحديث من زاويتين : الأولى يدخل في باب العقل والقدرات العقلية كما سلفت الإشارة ، والثانية في كيفية اختيار الأصدقاء وهي تنتمي لموضوع الصداقة أيضًا (ص ١١٨ - ١٢٤) .

ويقدم لنا بعد ذلك عددًا من النواهي ، فيحذرنا من التجسس وسوء الظن ، ويحث على مجانبة الحرص للعاقل (وهو الحرص على الدنيا ؛ لأن الحرص والحيطة من الخصال الطيبة اللازمة والتي يجب التحلي بها) ، كما ينهانا عن التحاسد والبغضاء لآثارهما السيئة ولأنهما من الأخلاق المذمومة . ونحن نرى أنها من الاضطرابات النفسية ، أو هي على الأقل من مقدمات الأمراض النفسية ؛ ولذا وجب التخلص منها لنحيا حياة هادئة وصحية (ص ١٣٢) .

وفي نفس الإطار يحدثنا عن مجانبة الغضب وكراهية العجلة ؛ لأنهما من أعمال الشيطان .

والحديث عن الغضب يدخل في باب الانفعالات Emotions وهي من موضوعات علم النفس العام ، كما أن العجلة يمكن أن تماثل بشكل غير مباشر مفهوم الاندفاعية Impulsivity ، والذي يدرس كسمة من سمات الشخصية ، أو كمقابل لقطب التروي Reflectivity كخاصية للأسلوب المعرفي Cognitive Style (ص ١٣٨ - ١٤١) .

ومن الفضائل التي يعتبرها من شيم العقلاء ويحثنا عليها لزوم القناعة والرضا بما قسمه اللّه لعباده (ومفهوم القناعة يمكن أن يقابل مفهوم الرضا Satisfaction سواء الرضا عن العمل ، أو الرزق أو الصحة ، ويعتبر مفهوم الرضا من أسس الصحة النفسية Mental Health ص ١٤٨ - ١٥٣) . كما يحثنا أيضًا على التوكل على من ضمن الأرزاق ، فالتوكل هو نظام الإيمان ، وقرين التوحيد ، وهو السبب المؤدي إلى نفي الفقر ووجود الراحة .

ومن علامات التوكل على اللّه والإيمان به الرضا بالشدائد والصبر عليها ، فما قدَّره اللّه كائن ولن يفيد في دفعه الجزع . ولعل أقرب مفهوم لمعنى الصبر هو مفهوم الرضا ومفهوم الاحتمال (أو التحمل) .

كما أن مفهوم الرضا بالشدائد ينتمي إلى ما يعني به بعض علماء النفس الحديث ويطلقون عليه مثيرات المشقة Stressors كأحداث الحياة Life Events وغيرها ، وهي مما يصيب قدرة الفرد على التوافق Adjustment أو التكيف Adaptation (ص١٥٧ - ١٦٥) .

ومن الخصال التي يتعرض لها أيضًا العفو عن الجاني ، وهو خصلة طيبة ، ومن أفضل أخلاق الدين والدنيا ، وحث عليه اللّه ﷻ في كتابه الكريم ، فقال : ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ صدق اللّه العظيم [آل عمران : ١٣٤] وهو أقرب ما يكون إلى ضبط النفس Self-Control أحد خصال أو سمات الشخصية التي تنتظم في إطار بُعد الاتزان الوجداني Emotional Stability وهو من أبعاد الشخصية الرئيسية (ص ١٦٦- ١٧٦) . ويضيف لهذه الخصلة خصالًا أخرى كتجنب الوشاة ، وقبول الاعتذار وهي من صور العفو أو ضبط النفس (ص ١٨٢) .

ويوجه ابن حبان الحديث وجهة أخرى فيتحدث عن لزوم النصيحة للمسلمين كافة وترك الخيانة لهم بالإضمار والقول والفعل معًا . والنصيحة هنا يمكن أن تدخل في الإرشاد النفسي Counseling وهو من فروع علم النفس الحديث (ص ١٩٤ - ١٩٨) .

ويعود مرة أخرى لموضوع ضبط النفس فيحثنا على لزوم الحلم عند الأذى ، فالحلم

عظيم الشأن ، رفيع المكان ، محمود الأمر ، مرضي بالفعل ؛ والحلم يشتمل على المعرفة والصبر والأناة والتثبت (ص ٢٠٨ - ٢١٥) ، كما يوصينا أيضًا بالرفق في بعض الأمور وكراهية العجلة منها (أي التروي : وهو من الموضوعات التي تدرس في علم النفس الحديث كما سبق أن أشرنا / ص ٢١٥ - ٢١٨) .

ومن الوصايا التي يقدمها ، ونجد لها مقابلًا في دراسات علم النفس الحديث ، استحباب التفريج عن الناس بقضاء الحوائج ، وهو يقارب سلوك المساعدة Helping Behavior أحد موضوعات علم النفس الاجتماعي Social Psychology (ص ٢٤٦- ٢٥٢) .

ومن الموضوعات التي تطرق لها أيضًا الحث على سياسة الرياسة ، ورعاية الرعية . ويستدل على ذلك بحديث الرسول الكريم ﷺ : « **كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته** » ، وهو هنا يحدِّد العلاقة بين البشر سواء كانوا رؤساء ومرؤوسين ، علماء ومتعلمين ، آباء وأبناء ، ويركز على تعاهد الرعية للملوك ، ويحدد علاقتهم بهم ، ويحدِّد تدرج السلطة أيضًا . والحديث المستفيض الذي يقدمه هنا ينتمي لعلم النفس الحديث من الزاويتين ، الأولى ما يمكن أن يدخل في إطار موضوع القيادة Leadership ، وبناء الجماعات وهي من موضوعات علم النفس الاجتماعي وديناميات الجماعة ، والزاوية الثانية هي موضوع التنشئة الاجتماعية Socialization وكيف يمكن الاستفادة من هذه العلاقة في تربية النشء وحُسن سياسته وتوجيهه .

أوجه الاستفادة من هذا الكتاب :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجالي علم النفس المعرفي Cognitive Psychology وعلم النفس الاجتماعي .

* * *

الآجري (ت ٣٦٠هـ)
أخلاق أهل القرآن [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف :

هو الإمام الحافظ المحدِّث الفقيه أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد اللَّه الآجري ، و « آجري » في الأصل اسم منسوب للآجرة وهو ما يُسمى الآن بالطوب وهو نسبة إلى بلدة في العراق ، وقد وِلد الإمام الآجري في هذه القرية « الآجرة » ولم تشر المصادر التي ترجمت له إلى السنة التي وِلد فيها .

وقد بدأت دراسته في بغداد عند كبار مشايخها وحدَّث بها أولًا قبل ثلاثين وثلاثمائة ، ثم انتقل منها إلى مكة فاستوطنها ، وذكر ابن الجوزي في (صفة الصفوة) ، (والمنتظم) ، وابن العماد في (الشذرات) ، وابن خلّكان في (وفيات الأعيان) ، والسبكي في (طبقات الشافعية) ، وأن الإمام الآجري لما دخل مكة أعجبته ، فقال : اللَّهم ارزقني الإقامة سنة ، فهتف بها هاتف : بل ثِلاثين سنة ، فعاش بها ثلاثين سنة .

ومن شيوخه : أبو مسلم الكجي أو الكشي إبراهيم بن عبد اللَّه (ت ٢٩٢هـ) ، وأحمد بن عمر بن موسى بن زنجويه أبو العباس القطان (ت ٣٠٤هـ) ، وأبو شعيب الحداني وخلف بن عمرو العكبري ، وأبو خليفة الفضل بن حباب ، والمفضل بن حباب الجندي أبو سعيد الحافظ (ت ٣٠٨هـ) ، وهارون بن يوسف بن زياد ، وأحمد بن حسين ابن عبد الجبار الصوفي ، وقاسم بن زكريا المطرز البغدادي (ت٣٠٥هـ) ... إلخ .

(١) تحقيق وإخراج محمد عمرو بن عبد اللطيف . (ط ٢) . بيروت : دار الكتب العلمية (١٩٨٧م) . (٢٠٧ ص) ، ٢٤ سم ببلوجرافية (ص ١٧٥ - ٢٠٧) .

ومن تلاميذه : أبو نعيم أحمد بن عبد الله الحافظ الأصبهاني (صاحب الحلية) ، (ت ٤٠٤ هـ) ، ومحمد بن الحسين بن المفضل القطان وأبو الحسن الحمامي ، وعبد الرحمن ابن عمر بن النحاس ، وعلي بن أحمد المقرئ ، ومحمد بن عمر العكبري ، وأبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بشران .

وقد أجمع المحدثون والمؤرخون على توثيق الإمام الآجري وشهد له غير واحد من أهل العلم بالفضل والسبق في خدمة الإسلام . وقال « السمعاني » في « الأنساب » : كان الآجري ثقة صدوقًا دينًا ، وله تصانيف كثيرة ، وترجم له الإمام ابن الجوزي في « المنتظم » و « صفة الصفوة » ، فقال : كان الآجري ثقة ، دينًا ، عالمًا مصنفًا . وترجم له الإمام الذهبي في كتبه الثلاثة « تذكرة الحفاظ » ، و « العبر في خبر من غبر » ، و « العلو للعلي الغفار » ، فقال في « التذكرة والعبر » : الإمام المحدث القدوة ، مصنف كتاب الشريعة والأربعين ، وغير ذلك إلى أن قال : وكان عالمًا عاملًا ، صاحب سنة واتباع ، وقال في « العلو » : كان الآجري أثريًا حسن التصانيف .

أما بخصوص مذهب الإمام الآجري فقد اختلف المؤرخون فيه ، فقال ابن خلّكان في وفيات الأعيان : إنه كان شافعي المذهب ، وذهب النابلسي في مختصر طبقات الحنابلة بأن الإمام الآجري كان حنبلي المذهب .

ومن مؤلفاته : « الأربعين في الحديث » ، و « أخبار عمر بن عبد العزيز » ، و « أخلاق حملة القرآن » ، و « أحكام النساء » ، و « أخلاق العلماء » ، و « التصديق بالنظر إلى الله ﷻ وما أعد لأوليائه » ، و « الشريعة » ، و « الغرباء في المؤمنين » ، و « أدب النفوس » .

اتفق المؤرخون على وفاة الإمام الآجري في سنة ستين وثلاثمائة (٣٦٠ هـ) بمكة المكرمة . وكان قد بلغ من العمر ٩٦ سنة أو نحوها .

عرض الكتاب :

بدأ المؤلف كتابه ببيان أهمية قراءة القرآن والاستماع إليه في الوعظ والإرشاد وإلى طريق الهدى والخير والاستقامة ، وذلك من خلال الاستعانة ببعض الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية الشريفة . من ذلك قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر : ١٧، ١٨] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] .

ويمكن الاستفادة من ذلك في عمليات التوجيه والإرشاد النفسي (ص٣١ - ٤٣) .

ثم تحدث المؤلف بعد ذلك عن فضل حملة القرآن ليرغبوا في تلاوته والعمل به والتواضع لمن تعلموا منه أو تعلموه ، ثم تحدث عن أخلاق أهل القرآن وما ينبغي أن يتأدبوا به . وذلك على النحو الآتي :

١ - **باب فضل حملة القرآن** : وقد أوضح المؤلف ذلك من خلال ذكر بعض الأحاديث النبوية الشريفة ؛ حيث قال رسول الله ﷺ : « **لله من الناس أهلون** » ، قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : « **أهل القرآن هم أهل الله وخاصته** » . وقال رسول الله ﷺ : « **تعلموا هذا القرآن واتلوه فإنكم تؤجرون على تلاوته بكل حرف عشر حسنات ، أما أني لا أقول « ألم » حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف** » ، إن هذا النور المبين ، والشفاء النافع ، ونجاة من اتبعه ، وعصمة من تمسك به لايعوج فيقوم ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد (ص ٤٥ - ٥٧) .

وهذا ما يمكن الاستفادة منه في توجيه الآباء والقائمين على تربية الطفل وتنشئته اجتماعيًا ونفسيًا ، وبيان أهمية تعليم القرآن للأطفال منذ المراحل المبكرة من العمر .

٢ - **باب فضل من تعلم القرآن وعلمه** : حيث قال رسول الله ﷺ : « **خيركم من تعلم القرآن وعلمه** » . وتعلم القرآن يدخل فيه حفظه وتجويده وإقامة حروفه وإعرابها ويدخل فيه كذلك مدارسته وتفهم معانيه وتدبر آياته ومعرفة المقاصد الأساسية التي نزل من أجلها ومعرفة أحكامه وحلاله وحرامه (ص ٦١ - ٦٨) .

٣ - **باب فضل الاجتماع في المسجد لدرس القرآن** : قال رسول الله ﷺ : « **ما تجالس قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلّا حفت بهم الملائكة - وذكرهم الله فيمن عنده ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه** » .

كما قال رسول الله ﷺ : « **ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله** ﷻ**يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلّا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفت بهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده** » .

ويشير ذلك إلى الحالة الانفعالية والنفسية المصاحبة لقراءة القرآن وتلاوته ؛ حيث الهدوء والسكينة ، وهو ما يمكن الاستفادة منه في علاج حالات القلق النفسي .

٤ - **باب ذكر أخلاق أهل القرآن** : فينبغي على من ختم القرآن وحفظه أن يجعل القرآن ربيعًا لقلبه ، يعمر به ما خرب من قلبه ، يتأدب بآداب القرآن ، ويتخلق بأخلاق

شريفة ، وأن يستعمل تقوى اللَّه في السر والعلانية باستعمال الورع في مطعمه ومشربه وملبسه ومسكنه ، بصيرًا بزمانه وفساد أهله ، فهو يحذرهم على دينه ، مقبلًا على شأنه مهمومًا بإصلاح ما فسد من أمره ، حافظًا للسانه مميزًا لكلامه ، إن تكلم : تكلم بعلم إذا رأى الكلام صوابًا ، وإذا سكت : سكت بعلم إذا كان السكوت صوابًا ، قليل الخوض فيما لا يعنيه ، يخاف من لسانه أشد مما يخاف من عدوه ، قليل الضحك إن مر بشيء مما يوافق الحق تَبسم ، يكره المزاح خوفًا من اللعب ، طيب الكلام ، لا يمدح نفسه بما فيه ، لا يغتاب أحدًا ، ولا يحتقر أحدًا ، ولا يسب أحدًا ، ولا يشمت بمعصية ، ولا يسيء الظن بأحد إلَّا لمن يستحق ، حافظًا لجميع جوارحه ، يجتهد ليسلم الناس من لسانه ويده ، يكظم غيظه ليرضي ربه ، متواضع في نفسه ، يطلب الرفعة من اللَّه ، يقتنع بالقليل . يصحب المؤمنين بعلم ويجالسهم بعلم ، صبور على تعليم الخير ، يأنس به المتعلم ويفرح به المجالس ، ويصلي بعلم ، ويتصدق بعلم ، ويحج بعلم ، ويجاهد بعلم ، ويكتسب بعلم ، وينفق وينبسط في الأمور بعلم ، وينقبض عنها بعلم ، قد أدبه القرآن والسنة .

وقال رسول اللَّه ﷺ : « **من قرأ القرآن وعمل بما فيه ألبس والديه تاجًا يوم القيامة ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا ولو كانت فيه فما ظنكم بالذي علم بهذا** » .

ويرتبط هذا الباب بالقيم الأخلاقية Moral Values التي يجب أن يتحلى بها الإنسان بوجه عام وحافظ القرآن بوجه خاص (ص ٧٧ - ٨٦) .

كما يمكن الاستفادة منه في مجال التخاطب Communication وتغيير الاتجاهات Attitude Change ، حيث الإشارة إلى الرفق مع المتلقي (المستقبل) ، فلا يعنف المرسِل المستقبِل إذا أخطأ ولا يخجله ، وأن يصبر عليه ، وأن يَأنَس به المتعلم أو المتلقي ... إلخ (ص ٧٩) .

٥ - **باب أخلاق من قرأ القرآن لا يريد به اللَّه ﷻ** : فأما من قرأ القرآن للدنيا أو لأبناء الدنيا ؛ فإن من أخلاقه أن يكون حافظًا لحروف القرآن مضيعًا لحدوده متعظمًا في نفسه متكبرًا على غيره قد اتخذ القرآن بضاعة يتأكل به الأغنياء ويستقضي به الحوائج ويعظم أبناء الدنيا ويحقر الفقراء إن علّم الغني رفق به طمعًا في دنياه ، وإن علم الفقير زجره وعنّفه ؛ لأنه لا دنيا له يطمع فيها ، إن كان حسن الصوت أحب أن يقرأ للملوك ويصلي بهم طمعًا في دنياهم وإن سأله الفقراء الصلاة بهم ثقل ذلك عليه لقلة الدنيا في أيديهم . يفخر على الناس بالقرآن ، متكبرًا كثير الكلام ، متعاظمًا في تعليمه لغيره ،

ليس للخشوع في قلبه موضع ، كثير الضحك والخوض فيما لا يعنيه ، لا يخشع عند استماع القرآن لا يبكي ولا يحزن ولا يأخذ نفسه بالفكر فيما يتلى عليه ، لا يأخذ نفسه بالعمل بما أوجب عليه القرآن والسنة ... إلخ .

ومن كانت هذه صفاته فقد تعرض لسخط مولاه الكريم ، وصار فتنة لكل مفتون ، وقد قال الفضيل بن عياض في ذلك : ينبغي لحامل القرآن أن لا يكون له حاجة إلى أحد من الخلق ، فحامل القرآن هو حامل راية الإسلام لا ينبغي له أن يلغو مع من يلغو ولا يسهو مع من يسهو ، ولا يلهو مع من يلهو .

٦ – باب أخلاق المقرئ إذا جلس يقرأ ويُلقن لله ﷻ ماذا ينبغي (له) أن يتخلق به :

قال محمد بن الحسين : ينبغي لمن علمه اللّٰه كتابه أن يستعمل الأخلاق الشريفة مما يدل على فضله وصدقه ، وهو أن يتواضع في نفسه إذا جلس في مجلسه ، ولا يتعاظم في نفسه وأحب له أن يستقبل القبلة في مجلسه ، ويتواضع لمن يلقنه القرآن ويقبل عليه إقبالًا جميلًا ، وأن يعتقد الإنصاف إن كان يريد اللّٰه بتلقينه القرآن فلا ينبغي له أن يُقرب الغني ويُبعد الفقير ، أن يكون متواضعًا للفقير مقربًا لمجلسه متعطفًا عليه يتحبب إلى اللّٰه بذلك .

وقد استعان المؤلف في هذا بقوله ﷻ : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ [لقمان : ١٨] ، أن يكون الغني والفقير في العلم سواء .

وأحب لمن يلقن إذا قرئ عليه أن يحسن الاستماع إلى من يقرأ عليه ولا يشتغل عنه بحديث ولا غيره ، فالأحرى أن ينتفع به من يقرأ عليه ، وكذلك ينتفع هو أيضًا ويتدبر ، يسمع من غيره ، وربما كان سماعه للقرآن من غيره فيه زيادة منفعة وأجر عظيم ، قال اللّٰه ﷻ : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٤] .

ولعل ذلك يمكن الاستفادة منه في مجال عمليات التخاطب والاتصال بين الأشخاص (ص ١١١ – ١١٨) .

ويشير المؤلف بعد ذلك إلى أنه في حالة قراءة القرآن ينبغي أن تقتصر الجلسة على شخص واحد فقط ، فهذا أنفع للجميع ، وأما التلقين فلا بأس به أن يلقن الجماعة . وينبغي لمن قرأ عليه القرآن فأخطأ عليه أو غلط أن لا يعنفه ، وأن يرفق به ، قال رسول اللّٰه ﷺ : « **علموا ولا تعنفوا ، فإن المعلم خير من المعنف** » ، كما قال رسول اللّٰه ﷺ : « **يسروا ولا تعسروا وسكنوا ولا تنفروا** » .

ويرتبط ذلك بشكل مباشر بطرق التعليم والتدريس في عمليات التربية والتعليم ، والتفاعل بين المعلم وتلاميذه .

٧ – **باب ذكر أخلاق من يقرأ على المقرئ** : قال محمد بن الحسين : من كان يقرأ على غيره ويتلقن فينبغي له أن يحسن الأدب في جلوسه بين يديه ويتواضع في جلوسه ، ويكون مقبلًا عليه فإن ضجر عليه احتمله ورفق به واعتقد له الهيبة والاستحياء منه ، فهناك ضرورة وأهمية لطاعة العلماء وسماع نصيحتهم .

وفي ذلك قال رسول اللَّه ﷺ : « **اللَّهم لا يدركني زمان ولا أدركه لا يتبع فيه العالم ولا يستحيا فيه من الحليم قلوبهم قلوب العجم ألسنتهم ألسنة العرب** » .

ويرتبط هذا الباب بخصائص موقف التخاطب أو الاتصال بين المرسل والمستقبل والشروط التي يجب توافرها لنجاح التخاطب وإتمامه بدقة وكفاءة ، وخاصة بين المعلم وتلاميذه (ص ١٣٥ – ١٤٤) .

٨ – **باب آداب القراء عند تلاوتهم القرآن مما لا ينبغي لهم جهله** : قال محمد بن الحسين : أحب لمن أراد قراءة القرآن أن يتطهر وأن يستاك ذلك تعظيمًا للقرآن ، لأن يتلو كلام الرب ﷻ ؛ وذلك لأن الملائكة تدنو منه عند تلاوته للقرآن ويدنو منه الملك فإن كان متسوكًا وضع فاه على فيه فكلما قرأ آية أخذها الملك بفيه وإن لم يكن تسوك تباعد عنه .

ويفضل القراءة من المصحف ، ولا ينبغي للشخص قارئ القرآن أن يحمل المصحف إلَّا وهو طاهر ، ولا يقرأ الجنب ولا الحائض القرآن ولا آية ولا حرفًا واحدًا فإن سبح أو حمد أو كبر فلا بأس بذلك ، وأحب للقارئ أن يأخذ نفسه بسجود القرآن كلما مرَّ بسجدة سجد فيها .

وقد قال رسول اللَّه ﷺ : « **إذا تسوك أحدكم ثم قام يقرأ طاف به الملك يستمع القرآن حتى يجعل فاه على فيه فلا تخرج آية من فيه إلَّا في في الملك ، وإذا قام يقرأ ولم يتسوك ، طاف به الملك ، ولم يجعل فاه على فيه** » .

ثم تناول المؤلف بعد ذلك طريقة قراءة القرآن من خلال ذكر حديث رسول اللَّه ﷺ : « **زيِّنوا القرآن بأصواتكم** » ، أي حسنوه ، وقال رسول اللَّه ﷺ في هذا : « **أحسن الناس صوتًا بالقرآن الذي إذا سمعته يقرأ حسبته يخشى اللَّه** » .

كما قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن هذا القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فابكوا فإن لم**

تبكوا فتباكوا وتغنوا به فمن لم يتغن به فليس منّا » .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس الاجتماعي .

* * *

ابن عدي (ت ٣٦٤هـ)
تهذيب الأخلاق [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف [2] :

اسمه أبو زكريا يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا ، ولد في تكريت سنة (٢٨٠هـ) . (٨٩٤م ويحدد المحقق مولده بسنة ٨٩٣م) ، وهو سرياني ينتمي إلى طائفة اليعاقبة . انتقل إلى بغداد وهو في عمر الشباب وقرأ على الفارابي وانتهت إليه الرياسة في علم المنطق في عصره ، وترجم عن السريانية كثيرًا إلى العربية ، وتوفي ببغداد سنة (٣٦٤هـ = ٩٧٥م) ودفن في بيعة القطيعة . وكان ملازمًا لنسخ الكتب بيده ، كتب نسختين من تفسير الطبري ، وأهداهما إلى بعض الملوك ، ونسخ كثيرًا من كتب المتكلمين ، وقال عنه أبو حيان : كان شيخًا لين العريكة ، فروقه ، مشوه الترجمة ، رديء العبارة ، ولم يكن يلوذ بالإلهيات ، كان ينبهر فيها ويضل في بساطها ، من كتبه : « شرح مقالة الإسكندر في الفرق بين الجنس والمادة » ، « ومقالة في الموجودات » ، « ومقالة أرسطو في علم ما بعد الطبيعة » ، « والرد على ما تعتقده الفرق الثلاث : اليعقوبية ، والنسطورية ، والملكية » ، « والمسائل » ، « ومقالة في أن حرارة النار ليست جوهرًا للنار » ، « ورسالة في الرد على القائلين بتركيب الأجسام من أجزاء لا تتجزأ » ، « ورسالة في تحليل القياسات » ، « ورسالة فيما تحقق من اعتقاد الحكماء » . ومما ترجم عن السيريانية إلى العربية « النواميس

---

(١) بيروت : دار المشرق (١٩٨٥م) . (١٣٤ ص) . (الفلاسفة والمتكلمون العرب المسيحيون – العصر الوسيط) . يشتمل على كشاف .

(٢) الأعلام : للزركلي ، مجلد ٨ ، دار العلم للملايين بيروت .

لأفلاطون » ، « وما بعد الطبيعة » ، « والكلام على الشعر » . وله تفسير الألف الصغرى فيما بعد الطبيعيات ، نفى القول بأن الأفعال للّه والاكتساب للعبد .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٣٤ صفحة من القطع الصغير ، ويشتمل على تمهيد ، ثم الفصل الأول وهو تقديم يحيى بن عدي وكتابه في تهذيب الأخلاق ، والفصل الثاني في جدلية قوى النفس ، ومشكلة الشر بقلم المحقق ، ثم المراجع التي استخدمها في هذا البحث ، وبعد ذلك نص كتاب تهذيب الأخلاق ويشتمل على مقدمة وخاتمة وثماني نقط أخرى ، وأخيرًا فهرس المفردات .

يقدم هذا الكتاب في جملته دروسًا ونصائح قيمة ، جامعة شاملة ؛ وإذا نظرنا له من وجهة نظر علم النفس نجد أن مضمونه يخدم محاور ثلاثة هي : التنشئة الاجتماعية وأصولها Socialization ، والتربية Education ، وسمات الشخصية Personality Traits سواء كان ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر ، وتوجد – بالطبع – موضوعات فرعية يمكن استنتاجها في ثنايا الحديث ، ولم يلتزم المؤلف بتقسيم كتابه إلى أبواب أو فصول ؛ وإنما هي مجموعة من العناوين سنعرض لها حسب ترتيبها في الكتاب لنستخلص منها ما له صلة بعلم النفس .

يبدأ المؤلف كتابه بمقدمة ، يشير فيها إلى أن الإنسان يتميز عن الحيوان بالتميز والتفكير ومن تمام الإنسان وكماله أن يكون جامعًا لمكارم الأخلاق ومحاسنها ، ومنتزهًا عن مساوئها ومقابحها آخذًا في جميع أحواله بقوانين الفضائل ، عادلًا في كل أفعاله عن طريق الرذائل . ولذا وجب على الإنسان أن يجعل مقصده اكتساب كل شيمة سليمة ، وأن يبذل جهده في اجتناب كل خصلة مكروهة رديئة ، ويقدم المؤلف في الكتاب حديثًا يبيِّن فيه ما الخلق وما علته وكم أنواعه ، وأقسامه ، وما المرضي منه ، المغبوط صاحبه ، والمتخلق به ، وما المستثنى منه ، الممقوت فاعله ، والمتوسم به ، وذلك ليدل على طرق اكتساب المحمود منه والتدرب عليه (وفي هذا الاستهلال يذكر المؤلف عددًا من المفاهيم التي يشيع استخدامها في علم النفس الحديث ؛ وأولها التفكير وقد درس بأشكال مختلفة ، ثم التمييز Discrimination وهو أحد مبادئ نظريات التشريط Conditioning في مجال التعلم ، ثم الاكتساب Acquisition عندما تفرق بين المهارات والعادات وأنماط السلوك وما إذا كانت فطرية أم مكتسبة (خاصة ما دار من

جدل حول اكتساب اللغة) ويضيف لكل ذلك التدريب (أو قل التدريب) وهو أحد المبادئ الأساسية من مبادئ التعلم أيضًا ، (ص ٤٥ - ٤٦) .

١ - **تعريف الأخلاق** : وهذا هو الجزء التالي حسب ترتيب المؤلف ، وفيه يعرف الخُلق بأنه حال للنفس به يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار ، والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعًا ، وفي بعض الناس لا يكون إلا بالرياضة المذمومة كالبخل والجبن ، والتشرر ، وهذه العادات غالبة على أكثر الناس مالكة لهم ، ولكن الناس يتفاضلون في ذلك (وفي هذه الفقرة أيضًا عدد من المفاهيم التي يمكن اعتبارها مفاهيم سيكولوجية وإن كان بعضها قد اندثر كالغريزة وحل محله مفاهيم أخرى كالدافع Motive ، بالإضافة إلى عدد من خصال الشخصية الجيدة والرديئة ، وكذلك يقدم مفهومًا استُخدم في نظريات التعلم هو مفهوم العادة Habit خاصة نظرية كلارك هل Hull ، ويقرر أيضًا مبدأ مهمًا من المبادئ المعروفة في تراث علم النفس هو مبدأ الفروق الفردية Individual Differences (ص ٤٧) ومن الناس من إذا نُبه إلى عيوبه ونقائصه عدل عنها ، ومنهم من إذا رغب في ذلك تعذر عليه ، ولم يطاوعه طبعه ، وهذه الطائفة تحتاج إلى أن ترشد إلى طريق التدريب ، والتعمل للعادات المحمودة ، وهناك طائفة ليس إلى تهذيبها طريق إلّا بالقهر والتخويف والعقوبة إن لم يردعها الترهيب (وهنا أيضًا مفاهيم سبقت الإشارة إليها كالتدريب والعادة ، وأخرى جديدة كفكرة الإرشاد ، ومن المعروف أن الإرشاد النفسي Counselling أحد فروع علم النفس الحديث ، كما أن أسلوب التخويف أحد الأساليب التي تستخدم في دراسات تغيير الاتجاه من خلال التخاطب الجماهيري كما في دراسات تغيير الاتجاه نحو تعاطي المخدرات ، علاوة على أن العقوبة أو مبدأ العقاب والثواب من المبادئ التي وظفت في ميدان تجارب التعلم Learning ولها تطبيقات عديدة في الحياة ص ٤٨) .

٢ - **العلة الموجبة لاختلاف الأخلاق** : العلة الموجبة لاختلاف الأخلاق هي النفس ، وللنفس ثلاث قوى (وتسمى أيضًا نفوسنا) وهي : النفس الشهوانية ، والنفس الغضبية ، والنفس الناطقة ، وجميع الأخلاق تصدر عن هذه القوى . والنفس الشهوانية تكون بها جميع اللذات والشهوات الجسمانية ؛ كالمأكل والمشرب والمباضعة . (وهذا يقابل في علم النفس الحديث الدوافع البيولوجية أو الأولية ص ٤٩ ، ٥٠) . أما النفس الغضبية فيشترك فيها الإنسان وسائر الحيوان وهي التي يكون بها الغضب والجرأة ومحبة الغلبة وهذه النفس أقوى من النفس الشهوانية وأضر بصاحبها إذا ملكته وانقاد لها (وهذا يقابل بعض الانفعالات

في دراسات علم النفس العام ص ٥١ ، ٥٢) . أما النفس الناطقة فهي التي يتميز بها الإنسان عن جميع الحيوانات وهي التي بها يكون الفكر والذكر والتمييز والفهم ، وهي التي عظم بها شرف الإنسان ، وعظمت همته فأعجب بنفسه ، وهي التي بها يستحسن المحاسن ويستقبح المقابح ، وبها يمكن للإنسان أن يهذب النفس الشهوانية ، والنفس الغضبية ويضبطها (والنفس الناطقة والتي يمكن أن تقابل الجانب العقلي في مكوناته ؛ كالتفكير ، والتذكر ، والتمييز ، والفهم ، وهي جوانب محل الدراسة والاهتمام من علماء النفس بالإضافة إلى أن الفهم يدرس أيضًا في إطار سيكولوجية اللغة ص ٥٢ - ٥٤) .

٣ - **الأخلاق الحسنة** : ومن الأخلاق الحسنة التي وجب اتصاف جميع الناس بها العفة : وهي ضبط النفس عن الشهوات (وضبط النفس أحد سمات الشخصية الدالة على بُعد الاتزان الوجداني Emotional Stability ص ٥٤) ومنها القناعة وهي الاقتصار على ما سنح من العيش والرضا بما تسهل من المعاش (والرضا من المفاهيم التي تم توظيفها في علم النفس الصناعي في مجال الرضا عن العمل ص ٥٥) ، ومنها التصون وهو التحفظ من التبذل ، ومنها الحلم وهو ترك الانتقام عند شدة الغضب مع القدرة على ذلك (وهو يقابل سمة ضبط النفس التي سبقت الإشارة إليها ص ٥٥) . ومنها كذلك الوقار وهو الإمساك عن فضول الكلام ، والعبث ، وكثرة الإشارة ، والحركة فيما يستغنى عن التحرك فيه (وهنا يُرسي أسس إدارة التخاطب بشقيه اللفظي Verbal وغير اللفظي Non - Verbal وهو من موضوعات علم النفس الاجتماعي ص٥٦) . ومنها الود وهو المحبة المعتدلة من غير اتباع الشهوة (وهو من أشكال الانفعالات موضوع عناية علم النفس العام) ، ومنها أيضًا الرحمة وهو خلق مركب من الود والجزع وهي محبة للمرحوم مع جزع من الحال التي من أجلها رحم (ص ٥٦) ، ومنها الوفاء وهو الصبر على ما يبذله الإنسان من نفسه ويرهن به لسانه (ص ٥٦) ، ومنها أداء الأمانة وهو التعفف عما يتصرف الإنسان فيه من مال غيره (ص ٥٧) ، ومنها كتمان السر وهو خلق مركب من الوقار وأداء الأمانة ، ومنها التواضع وهو ترك الرياسة ، وإظهار الخمول ، وكراهية التعظيم ، والزيادة في الإكرام (ص ٥٧) ، ومنها البِشر وهو إظهار السرور لمن يلقاه الإنسان من إخوانه وأولاده وأصحابه وأوليائه ومعارفه ، والتبسم عند اللقاء (وهذه المعاني تشير إلى موضوعين من موضوعات علم النفس هما الانفعالات ، والمهارات الاجتماعية خاصة في مجال الصداقة ص ٥٧) . ومن الأخلاق الحسنة أيضًا صدق اللهجة وهو الإخبار عن الشيء على ما هو به

(والصدق فضلًا عن أنه من السمات التي يمكن أن تدرس في نطاق سمات الشخصية ، يمكن أن يدرس كقيمة Value في مجال القيم وهي من موضوعات علم النفس الاجتماعي Social Psychology ص ٥٨) . ومنها أيضًا سلامة النية أي اعتقاد الخير بجميع الناس ، والبُعد عن الخبث والغيلة والمكر والخديعة (ص ٥٨) ، ومنها السخاء وهو بذل المال من غير مسألة ولا استحقاق ، (ص ٥٨) ، ومنها الشجاعة وهي الإقدام على المكاره والمهالك عند الحاجة إلى ذلك وثبات الجأش عند المخاوف والاستهانة بالموت (ص ٥٨) ، ومنها المنافسة (وهي منازعة النفس إلى التشبه بالغير فيما يراه له ويرغب فيه لنفسه والاجتهاد في الترقي إلى درجة أعلى من درجته) ، وهذا الكلام عن المنافسة Competition أو التنافس وجد عناية من الباحثين في علم النفس الاجتماعي المهتمين بالسلوك الجماعي ، أو جماعات العمل معًا وأثرها على الفرد ، وهذا الكلام يشبه - ضمنيًا على الأقل - ما قدمه علماء النفس تحت عنوان مستوى الطموح Level of Aspiration (ص ٥٩) . ومنها الصبر عند الشدائد وهو خلق مركب من الوقار والشجاعة ، ومنها أيضًا عظم الهمة وهو استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور وطلب المراتب السامية (ص ٥٩) . وآخر هذه الأخلاق الحسنة ، العدل وهو التقسط اللازم للاستواء واستعمال الأمور في مواضعها وأوقاتها ووجوهها ومقاديرها من غير سرف ولا تقصير ولا تقديم ولا تأخير (ص ٦٠) .

٤ - **الأخلاق الرديئة** : وهي ما ينبغي للفرد أن يجتنبه ومنها الفجور وهو الانهماك في الشهوات والاستكثار منها والتوفر على اللذات والإدمان عليها (وهو هنا يحدثنا عن الإسراف في إشباع الدوافع للحد الذي يصبح إدمانًا ، وإشباع الدوافع من موضوعات علم النفس العام ص ٦٠) ، ومنها الشره وهو الحرص على اكتساب الأموال وجمعها وطلبها من كل وجه ، ومنها أيضًا التبذل وهو طرح الحشمة ، وترك التحفظ والإكثار من الهزل واللهو ومخالطة السفهاء وحضور مجالس السخف ، ومنها السفه وهو ضد الحلم ويعني سرعة الغضب ، والطيش من يسير الأمور، والمبادرة في البطش والإيقاع بالمؤذي والسرف في العقوبة (وهو هنا يعني عدم القدرة على ضبط النفس ، وعدم المقدرة على السيطرة على الانفعالات وهي تعكس حالة عدم اتزان وجداني أو شكل من أشكال العصابية وهو ما درس في إطار نظريات الشخصية ص ٦٠) . ومن الأخلاق الرديئة الْخَرَق وهو كثرة الكلام ، والتحرك من غير حاجة ، وشدة الضحك ، والمبادرة إلى الأمور من غير توقف ، وسرعة الجواب (وهذه الأوصاف يمكن النظر إليها سيكولوجيًا على أنها تعكس المبالغة في الانبساط ، وهو أحد أبعاد الشخصية التي حظيت

بالدراسة ، أو الاندفاعية وهي أيضًا إحدى سمات الشخصية ، أو أنه يعكس حالة مرضية أقرب ما تكون إلى المرض العقلي المعروف بالهوس Mania ص ٦١) . والعشق أيضًا من الأخلاق الرديئة ويعني إفراط الحب والسرف فيه ، (والعشق يقع في إطار دراسة الانفعالات ص ٦١) . ومنها القساوة وهو خلق مركب من البغض والشجاعة ، ويعني التهاون بما يلحق الغير من الألم والأذى ، ومنها الخيانة وهي الاستبداد بما يؤتمن الإنسان عليه من الأموال والأعراض والحرم ، ومنها إفشاء السر وهو مركب من الخرق والخيانة ويعني عدم ضبط اللسان ، وعدم اتساع الصدر لحفظ الأسرار ، ومنها الكبر وهو استعظام الإنسان نفسه ، واستحسان ما فيه من الفضائل والاستهانة بالناس واستصغارهم (ص ٦٢) . ومنها العبوس وهو التقطيب عند اللقاء ، وقلة التبسم ، وإظهار الكراهية (وهو ما يكشف عن الانفعالات البغيضة الكامنة بالنفس ص ٦٢) ، ومنها الكذب وهو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو به (وهو عكس الصدق الذي سبق الإشارة إليه ص ٦٣) . ومنها الخبث وهو إضمار الشر للغير وإظهار الخير له ، واستعمال الغيلة والمكر ، والخديعة في المعاملات ، ومنها الحقد وهو إضمار الشر للجاني إذا لم يتمكن من الانتقام منه فأخفى تلك الأحقاد إلى وقت إمكان الفرصة (ص ٦٣) .

ومنها كذلك البخل ، وهو منع العطاء مع المقدرة عليه ، والجبن وهو الجزع عند المخاوف ، والإحجام عما تحذر عاقبته ، والحسد وهو التألم بما يراه الإنسان لغيره من الخير أو الفضائل والاجتهاد في إعدام ذلك الغير ما يملكه (ص ٦٤) ، ومنها صغر الهمة ، وهي ضعف النفس عن طلب المراتب العالية وقصور الأمل عن بلوغ الغايات (وهي درجة منخفضة من مستوى الطموح الذي سبقت الإشارة إليه (ص ٦٤) .

٥ - **الأخلاق التي تكون في بعض الناس فضيلة وفي بعضهم رذيلة** : ومنها حب الكرامة ، وهي محمودة في الأحداث والصبيان ، ومذمومة من أفاضل الناس ، ومنها حب الزينة وهو مستحسن من الملوك والعظماء والأحداث والظرفاء والمتنعمين والنساء ، مستقبح من الرهبان والزهاد ، والشيوخ وأهل العلم ، ورجال الدين . ومنها المجازاة على المدح وهو مستحسن من الملوك والرؤساء ، غير مستحسن من أصاغر الناس ، ومنها الزهد وهو مستحسن جدًا من العلماء والرهبان ورجال الدين والواعظين ، غير مستحسن من الملوك والعظماء (وفي هذه الفقرة يقدم لنا عددًا من الصفات التي تندرج تحت سمات الشخصية ، ويلفت نظرنا لمبدأ من مبادئ التعامل مع هذه السمات وهو النظر إليها على أنها تمثل متصلًا Continuum وكل فرد يقع على نقطة معينة منه فيتقرب من

هذا القطب أو ذاك ص ٦٤ - ٦٦) .

٦ - **تهذيب الأخلاق** : لا يخلو إنسان من عيب أو نقيصة ، وحقيق بالإنسان أن يسوس نفسه السياسة المستحسنة ويسلك بها الطريقة المحبوبة ، فإنه بذلك يكون محببًا إلى الناس ، مقبولًا عندهم معظمًا في نفوسهم ، مفضلًا على غيره ، موقرًا عند الرؤساء والملوك ، مقبول القول ، عريض الجاه . وصلاح الأخلاق يكون بتذليل النفس الشهوانية ، والنفس الغضبية وتمييز عادات النفس الناطقة واستعمال المحمود من أفعالها ، وطريق التدرب لاستعمال العادات الجميلة والعدول عن العادات المستقبحة هو التدرج في تذليل هاتين القوتين ، ويقدم المؤلف في هذا الجزء وصفًا لعدد من الأساليب التي ينبغي اتباعها لقمع هذه الأنفس والتخلص من سيطرتها ، وهي نصائح وإرشادات لا بأس بها . ونلخصها بأن من أراد سياسة أخلاقه أن يجعل غرضه من كل فضيلة غايتها ونهايتها ولا يقنع منها بما دون الغاية ، ولا يرضى إلَّا بأعلى درجة ، فإنه إذا جعل ذلك غرضه ، كان حريًّا أن يتوسط في الفضائل ويبلغ منها رتبة مرضية إن فاتته الدرجة العالية . والدروس المقدمة هنا تصلح دروسًا للتربية ، والتنشئة الاجتماعية السليمة ، كما تعد من العوامل المعينة على تعديل السلوك وتغيير العادات ، وقد ذكر ابن عدي في ثنايا هذا الوصف عددًا من الموضوعات التي تدخل في إطار علم النفس منها ما عرضنا له ومنها ما لم نتعرض له من قبل ؛ مثل : مبدأ الانتقال التدريجي في تغيير الأخلاق وهو من مبادئ العلاج السلوكي (ص ٦٨) التذكر (ص ٦٩) ، وأثر المسكرات على السلوك والانفعال (ص ٧٠) ، التيقظ Vigilance (ص ٧١) ، الفكر (ص ٧٣) ، التعلم بالاقتداء Modeling (ص ٧٤) .

٧ - **الإنسان التام** : الإنسان التام هو الذي لم تفته الفضيلة ، ولم تَشْنَعْه الرذيلةُ . وقلما يصل إنسان إلى ذلك فإذا انتهى إلى ذلك كان للملائكة أقرب ، لكن الإنسان مضروب بأنواع النقص ، إلَّا أن التمام وإن كان عزيزًا بعيد التناول ؛ فإنه ممكن ، وهو غاية ما ينتهي إليه الإنسان وإذا صدقت عزيمة الإنسان وأعطى الاجتهاد حقه ، كان قمينًا بأن ينتهي إلى غايته التي هو مهيأ لها ، ويصل إلى بغيته التي تسمو نفسه إليها . وأوصاف الإنسان التام أن يكون متفقدًا لجميع أخلاقه ، متيقظًا لجميع معايبه ، متحرزًا من دخول نقص عليه ، مستعملًا لكل فضيلة ومجتهدًا في بلوغ الغاية ، عاشقًا لصورة الكمال ، مستلذًّا لمحاسن الأخلاق ، متيقظًا في الأصل ، مبغضًا لمذموم العادات ، معتنيًا بتهذيب نفسه ، غير مستكثر لما يقتنيه من الفضائل ، مستعظمًا اليسير من الرذائل ،

مستصغرًا للرتبة العليا ، مستحقرًا للغاية القصوى ، يرى التمام دون محله والكمال أقل أوصافه . (وفي هذا الجزء من ص ٧٦ - ٨٤ يقدم لنا عددًا كبيرًا من السمات الحسنة التي وجب أن نتحلى بها ، والسيئة التي وجب علينا أن ننبذها لنصل إلى مرحلة الكمال المنشود ، كما يرسم لنا السبل التي يمكن أن نسلكها لنحقق هذه الأهداف ، وهو خلال هذا الوصف يتعرض لعدد من المفاهيم التي يمكن أن تنتمي لدراسات علم النفس وقد سبق أن ذكرناها مثل العقل والفطنة ، والانفعالات ، وإشباع الدوافع ، والتعلم ، واختيار الأصدقاء ، وسمات الشخصية وهي كثيرة ومتنوعة) .

* * *

القيرواني (ت ٣٦٩هـ)
سياسة الصبيان وتدبيرهم [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف :

هو أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن خالد المعروف بابن الجزار ، وقد ولد ابن الجزار بالقيروان في أواخر القرن الثالث الهجري ، وينتسب لعائلة وطيدة الصلة بالثقافة والطب ، ولا توجد معرفة يقينية بتاريخ ميلاده ، ولكن هناك من يرجح أنه ولد سنة (٢٨٥هـ = ٨٩٥م) ، وهذا التاريخ ترجحه المعلومات التي احتوتها تراجمه ، وتتلمذ ابن الجزار في الطب على يد عمه ، وإسحاق بن سليمان الإسرائيلي ، واتفق المترجمون لابن الجزار على أنه كان حاذقًا من أهل الحفظ والتطلع والدراسة للطب وسائر العلوم ، وتميز بحسن الفهم لها ، كما اتسم بالذكاء والمهارة ، ولذلك فإنه يعد ذا قيمة في ميدان الطب وفي ميادين أخرى ، فألف في التاريخ والأدب والفلسفة ، ومن مؤلفاته : الاعتماد في الأدوية المفردة - البغية في الأدوية المركبة - الخواص - طب المشايخ وحفظ صحتهم .

وعن أخلاق ابن الجزار ، يقال : إنه كان يتسم بالوقار والأخلاق الرفيعة ، وتوفي ابن الجزار عن عمر يناهز الثمانين عامًا ، ولم تذكر المصادر الأساسية تاريخًا محددًا لوفاته ، والمرجح أنه توفي سنة (٣٦٩هـ = ٩٨٠م) [2] .

---

(١) تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة (ط ٢) منقحة ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، (١٩٨٤م) . (١٧٤ص) .

(٢) (كتاب سياسة الصبيان وتدبيرهم لابن الجزار القيرواني ، تحقيق الدكتور / محمد الحبيب الهيلة) .

عرض الكتاب :

يشتمل على ٢٢ بابًا نعرض لها على النحو التالي :

يتعرض ابن الجزار في الأبواب الستة الأولى من هذا الكتاب لتدبير الصبيان ، ويقصد بذلك حفظ صحتهم .

فيتناول في الباب الأول منها صفات المرأة التي يرجى منها الولد ، فيرى وجوب أن تكون صحيحة البدن والنفس ؛ حيث إن صحة الأم وسلامة بدنها ينشأ عنه صحة القريحة وقوة الذهن وتهذيب الخاطر .

ويرتبط مفهوم القريحة وقوة الذهن بموضوع الذكاء Intelligence والقدرات العقلية Mental Abilities (ص ٤٧) .

كما أن انتقال الصفات العقلية من الأم إلى الطفل يتضمن إشارة لدور عامل الوراثة Heridity في السلوك ، ويعد ذلك أحد مباحث علم النفس الحديث تحت موضوع : علاقة الوراثة بالسلوك (ص ٤٧) .

وينتقل ابن الجزار بعد ذلك إلى عرض أسلوب العناية بالطفل منذ لحظة الميلاد ، فيشير إلى العناية به بعد الولادة مباشرة وقطع سرته وتمليحه والتقطير في عينه وإخراج ما به من فضلات ، ثم يتحدث عن غذاء الطفل ويذكر أن أفضل غذاء له هو لبن الأم ، ويصف كيف يكون مضجعه وكيف يُغسل وينظف ، وأنه لا يجب إرضاعه بعد الحمام مباشرة ، وأن البكاء اليسير قبل الرضاعة ذو فائدة للطفل ، ويشير إلى أن أفضل وقت لتغذية الطفل بأطعمة غير لبن الأم هو الخريف حيث يعد أنسب الأوقات للبدء في إطعام الطفل بأنواع أخرى من الطعام .

وعن جلوس الطفل ، يشير ابن الجزار إلى ضرورة إجلاس الطفل إذا اشتد بدنه وصلبت أعضاؤه وقوي على الحركة ، كما يجب تدريبه على المشي تدريجيًا .

ويتصل موضوع تدريب الطفل على (الجلوس) و (المشي) بمفهوم النمو الحركي Motor (ص ٥٣) في علم النفس الارتقائي Developmental Psychology وأما مفهوم التدريب فقط Training (ص ٥٣) فيتصل بسيكولوجية التعلم Learning ، وضرورة أن يكون التدريب تاليًا لعملية النضج العصبي والعضلي لدى الطفل حتى يأتي بنتيجة إيجابية ، وهو ما يتفق مع رأي المحدثين من علماء النفس ، فالسلوك محصلة لعاملي النضج والتعلم .

ويذكر ابن الجزار أن كثرة البكاء تعرض الطفل لما يسمى بالإبلمسيا (الصرع) ، ولذلك يشير إلى أهمية تنعيم الطفل بالأصوات الجميلة والحمل الرفيق والتحريك ، وألا يفزع بما يخيفه .

ويتصل بمفهوم (الإبلمسيا) وهو ما يعرف بمرض الصرع Eplipsy ، (ص ٥٤) بمجال علم النفس العصبي Neuro - Psychology ، كما يرتبط بكاء الطفل وخوفه بمفهوم الانفعالات Emotions (ص ٥٤) .

ويتناول **الباب الثاني من هذا الكتاب** صفات المرضعة التي تُحتاج لرضاعة الصبيان فيجب أن تكون شابة لا تتعدى سن الخامسة والثلاثين ، وأن تكون سليمة البدن ، حسنة الخلق ، وأن تختار من بيت عقل وأدب وعفة وسخاء ونجدة ، وأن يكون جسدها صالحًا للرضاعة ، وأن تكون قد ولدت مع الطفل المراد إرضاعه .

كما يتطرق في هذا الباب إلى ذكر صفات الحاضنة ، حيث يجب أن تكون فطنة ذات تجربة وتدبير وسياسة ورفق وتثبت .

ويتصل هذا الباب بموضوع تأثير البيئة الاجتماعية (ص ٥٧) Social Enviornment على الطفل ، وذلك في إطار علم النفس الاجتماعي Social Psychology .

ويدور **الباب الثالث** حول خصائص لبن المرضعة من حيث كونه محمودًا أم مذمومًا فيجب أن يكون اللبن معتدلًا لا ثخينًا ولا رقيقًا ، ولا كثيرًا ولا قليلًا ، كما يجب ألا يكون متغير اللون ، وألا يسرع للحموضة ، ولا يكون في طعمه مرارة أو ملوحة ، ولا تكون له رغوة .

أما الباب الرابع فيتناول الأطعمة والأشربة التي يجب أن تتناولها المرضعة ليكون لبنها صحيحًا ، فيرى ابن الجزار أنه يلزم ألا تجوع وألا تمتلئ ، وأن تكثر من السوائل والأغذية المفيدة ، وأن تتجنب تناول الأطعمة الحريفة ، وذات الرائحة الكريهة .

وفي الباب الخامس يتعرض لسبب قلة اللبن وتغير لونه ، حيث يذكر أنه إما أن تكون المرأة بطبيعتها قليلة اللبن ، أو أن يكون ذلك بسبب قلة غذائها ، أو نتيجة لبعض الأعراض المَرَضية .

أما الباب السادس ، فيتناول كيفية العناية بالمرضع قليلة اللبن وإصلاحها ، وهنا يشير إلى عدد من الأدوية والأعشاب والخُضَر التي تفيد في علاج كل حالة على حدة .

وأما الأبواب من السابع إلى الحادي والعشرين ، فيتعرض ابن الجزار فيها للأمراض

التي تصيب الصبيان حيث يتناولها بترتيب أعضاء الجسم من الرأس إلى أسفل ، فيذكر العديد من الأمراض ودواءها ، ومنها السَّعفة والرية ، وهما مرضان جلديان يحدثان في الرأس والوجه ، كذلك مرض الدواس وهو كبر أو صغر الرأس ، وورم اليافوخ ، وانتفاخ البطن ، وداء العطاس وهو ورم في الدماغ وطبقاته ، وداء الصرع المسمى بالإبلمسيا المشار إليه آنفًا . ويتصل مفهوم الصرع بعلم النفس العصبي وعلم النفس الإكلينيكي Clinical Psychology (ص ٨٧ - ٩٠) .

كما يشير كذلك إلى تشخيص وعلاج السهر لدى الأطفال والرطوبة السائلة من آذان الأطفال والحول وانتفاخ العين والوجع الناتج عن خروج الأسنان ، والقروح العارضة في أفواه الصبيان ، مثل : القلاع والسعال والقيء ، والطفيليات والديدان في أمعاء الصغار ، وورم السرة ، والحصى المتولدة في مثانات الأطفال والبثر والقروح والحكة .

أما الباب الثاني والعشرون ، فقد خصصه ابن الجزار لموضوع تأديب الأطفال ، حيث يعتقد بأهمية تأديب الأطفال منذ الصغر رغم اختلافهم في السمات الشخصية وطبائعهم المحمودة والمذمومة ؛ لأن التأديب ينقل الطفل من الطبع المذموم إلى المحمود ، إذا كان ذلك في الصغر قبل أن يعتاد الصبي الأشياء المذمومة ويصعب عليه مفارقتها ، ويرى أن العادة صِنْو للطبيعة فإن كانت الطبيعة جيدة ، وتم تعويد الطفل الأخلاق الحميدة فإن الخصال المحمودة لا تفارقه ؛ لاكتسابه إياها من جهتين .

كما يشير ابن الجزار في هذا الصدد إلى أن أسلوب التأديب يكون بالمدح والذم للبعض ، والبعض الآخر يلزم له الإرهاب والتخويف والضرب ، ويتصل هذا الحديث عن تأديب الأطفال بموضوع التنشئة الاجتماعية Socialization (ص١١٣ - ١١٦) في إطار علم النفس الاجتماعي ، وأهمية هذه العملية في مرحلة الطفولة ، حيث يتم بمقتضاها إكساب الطفل العادات والتقاليد والأعراف السائدة في المجتمع ، وتحتوي هذه الإشارة عن تأديب الأطفال على عدد من المفاهيم التي تنضوي تحت سيكولوجية التعلم مثل مفهوم العادة Habit (ص ١١٤ ، ١١٥) ، والمدح كأسلوب للتدعيم Reinforcement (ص١١٣ - ١١٦) لتثبيت السلوك الإيجابي المرغوب ، والذم أو الضرب كأنواع من العقاب (المعنوي أو البدني) لكف السلوك المذموم وغير المرغوب ، ومفهوم العادة والتدعيم والعقاب تندرج تحت موضوع التعلم Learning ، أما مفهوم الطبع فيتصل بسيكولوجية الشخصية Personality (ص ١١٣ - ١١٦) .

* * *

السمرقندي (ت ٣٧٥هـ)
قرة العيون ومفرح القلب المحزون [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف [2] :

نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي ، أبو الليث ، الملقب بإمام الهدى : علامة من أئمة الحنفية ، من الزهاد المتصوفين ، له تصانيف نفسية ، منها : « تفسير القرآن » وله « تفسير صورة الحاقة » أو « عمدة العقائد » و « بستان العارفين » و « خزان الفقه » و « فضائل رمضان » ، و « المقدمة في الفقه » ، و « شرح الجامع الصغير » ، و « عيون المسائل » ، و « دقائق الأخبار في بيان أهل الجنة وأهوال النار » ، و « مختلف الرواية » ، و « شريعة الإسلام » ، و « النوازل من الفتاوى » ، و « تفسير جزء عم يتساءلون » ، و « رسالة في أصول الدين » .

عرض الكتاب :

يشتمل الكتاب على عشرة أبواب ، يبدأ المؤلف كتابه بحمد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على رسوله الكريم .

ثم ينتقل إلى الباب الأول وهو في عقوبة تارك الصلاة ، مسترشدًا بآيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ﷺ ، وقد حدد الرسول ﷺ للمتهاون بالصلاة خمس

---

(١) القاهرة : المطبعة الأزهرية ، (١٩٢٨م) . (١٥٦ ص) . مع مختصر تذكرة الإمام القرطبي ، عبد الوهاب الشعراني . نسخة مصورة .

(٢) الأعلام : للزركلي ، (٢٧/٨) .

عشرة عقوبة من الله ﷻ ، منها ست في الدنيا وثلاث في القبر وثلاث عند خروجه من القبر ، وهي كلها عقوبات شديدة تقشعر منها الأبدان ، وهي تدل على عظم قدر الصلاة وأهميتها كركن أساسي من أركان الإسلام ودعائمه .

كما يوضح الرسول ﷺ جزاء من يصلي الصلاة في جماعة ، خاصة صلاة الصبح (ولنا في ذلك - كعلماء نفس - فائدة عظيمة ، باعتبار أن الإنسان كائن اجتماعي ، يتشكل سلوكه من خلال التفاعل مع الآخرين في المواقف الاجتماعية المختلفة ، وهو ما يهتم به علماء النفس الاجتماعيون ، وباعتبار أن المسجد مؤسسة اجتماعية تشارك في عملية التنشئة الاجتماعية Socialization مع بقية المؤسسات ، (ص ٥ ، ٦) .

ويستمر بعد ذلك في ذكر أحاديث الرسول ﷺ ، وما ورد من سيرته في عذاب تارك الصلاة وما يصيبه في الدنيا والآخرة من أهوال يشيب لهولها الولدان ، ثم يختتم هذا الباب بدعوة إلى تارك الصلاة كي يتوب مدعمًا كلامه ببعض الشعر .

والباب الثاني في عقوبة شارب الخمر ، ومن أحاديث رسول الله الكثيرة حديث يقول : إنه يجيء شارب الخمر يوم القيامة مسودًّا وجهه مزرقة عيناه مندلعًا لسانه على صدره يسيل بصاقة مثل الدم يعرفه الناس يوم القيامة ، فلا تسلموا عليه ولا تعودوه إذا مرض ، ولا تصلوا عليه إذا مات فإنه عند الله ﷻ كعابد الوثن ... وقال أيضًا : « **كل مسكرٍ خمر وكل خمرٍ حرام ، فمن شرب الخمر في الدنيا حرم الله عليه خمر الآخرة في الجنة** » ، ويستمر المؤلف بعد ذلك في ذكر أحاديث أخرى للرسول ﷺ ، وبعض ما ورد عن الصحابة في عذاب شارب الخمر ، وكلها أهوال تقشعر منها الأبدان .

وإذا كان المؤلف هنا قد عُني بالخمر من باب التحريم ، وبيان عذاب شارب الخمر يوم القيامة ، فإن علماء النفس يهتمون - أيضًا - بالخمر ، غير أن اهتماماتهم تأخذ وجهة أخرى - وإن كانت تعضد الأولى - فهم يهتمون بآثار المواد النفسية المؤثرة في الأعصاب (ومن أهمها الخمر) على السلوك ، على أساس أن هذه المواد الكيميائية عندما تدخل الجسم تترك آثارها في عدد من الوظائف الفسيولوجية تنعكس بعد ذلك في السلوك الظاهر كالإدراك Perception والانتباه Attention والذاكرة Memory ، والسلوك النفسي الحركي Psychomotor Behavior ، كذلك فإن التمادي في تعاطي الكحوليات لفترات طويلة قد يؤدي إلى الإصابة بما يسمى الذهان الكحولي حيث تظهر بعض أعراض التدهور العقلي المعروفة ، والتي تظهر على مرضى الذهان من مدمني الكحوليات والعقاقير الأخرى .

والباب الثالث في هذا الكتاب هو في عقوبة الزنى ، ويحذر منه الرسول ﷺ ؛ لأن فيه ست خصال ؛ ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة ، فأما الثلاث التي في الدنيا فإنه يذهب البهاء من الوجه ، ويورث الفقر ، وينقص العمر ، أما التي في الآخرة فإنه يوجب سخط اللَّه وسوء الحساب والخلود في النار ، وهناك أحاديث في هذا المقام .

ويتتبع هذا الباب الرابع وهو في عقوبة اللواط ، وهو من الأفعال المحرمة في الإسلام ، وقد قال تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦] ، وقال رسول اللَّه ﷺ : « **من عمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به** » وإذا كان الدين قد حرم اللواط ونهى عنه أشد النهي ، فإن للأطباء النفسيين ، وعلماء النفس الإكلينيكيين اهتمامًا بهذا السلوك ، باعتباره من أوجه السلوك الشاذة التي تعبِّر عن اضطراب نفسي أو انحراف سلوكي يستوجب العلاج ، باستخدام كافة الأساليب المتاحة وخاصة العلاج السلوكي Behavior Therapy كالعلاج بالتنفير Aversive Therapy .

والباب الخامس في عقوبة آكل الربا ، ويسير فيه المؤلف على نهجه في الأبواب السابقة ، فيذكر الآيات القرآنية التي تنهى عن أكل الربا وتوضيح عقاب آكلي الربا ، ثم يذكر ما رواه الرسول ﷺ من أحاديث وما شاهده ليلة الإسراء والمعراج ، والأحاديث في هذا المقام كثيرة وكلها عقوبات مغلظة ، ونواهي زاجرة لمن أراد الاعتبار . (وربما كان حرض الإسلام على تحريم الربا ، حفاظًا على العلاقات بين الناس ، وصيانة لأموالهم وحقوقهم ، وتشجيعهم على المحبة والإيثار والتكامل) .

والباب السادس في عقوبة النائحة ، وهو سلوك مذموم في الإسلام ، وقال رسول اللَّه ﷺ : « **لعن اللَّه النائحة والمستمعة** » ؛ وذلك لأن النياحة إنما هي بمثابة الاعتراض على حكم اللَّه ، الذي له الأمر والنهي ، وقد أمر المسلمون بالصبر والامتثال عند المصائب والبلايا (ولعل من التكنيكات الحديثة التي شاعت في كتب علم النفس الحديث ، للتعامل مع مثيرات المشقة Stressors كوفاة شريك الحياة ، أو المرض أو غير ذلك ، ما يسمى بالتحكم في الأفكار المأساوية Catastrophizing Thoughts ومقاومتها ، ويمكن الاستفادة بتعاليم الإسلام وتوظيفها كأساليب علاجية ناجحة لمثل هذه المواقف) ، ومما ورد في هذا الباب أيضًا الحث على كظم الغيظ والتحكم في الغضب (وهو يمكن أن يقابل ضبط النفس Self - Control كإحدى سمات الشخصية أو المؤشرات الدالة على الاتزان الوجداني Emotional Stability ص ٦٥) .

وينتقل في الباب السابع للحديث عن عقوبة مانع الزكاة ، ومن المعلوم أن إيتاء الزكاة من أركان الإسلام الخمسة ، وبالتالي فالامتناع عن أدائها هدم لركن أساسي من أركان الإسلام ، وبالتالي استحق فاعل ذلك أشد العقاب .

والباب الثامن في عقوبة قاتل النفس وقاطع الرحم ، ويقول الله ﷻ : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] ، وقتل النفس إما يكون قتل نفس إنسان آخر ، أو قتل الإنسان لنفسه هو (أي الانتحار) وفي الحالتين يجد علماء النفس - في أحيان كثيرة - مبررًا لتناولهم لهذه الجرائم بالدراسة ، فكثيرًا ما يدعى علماء النفس للبحث عن الأسباب وراء تكرار أو ارتكاب بعض جرائم القتل ذات الطبيعة الخاصة ، كما يدرسون الانتحار باعتباره من الأعراض Symptoms المميزة لأمراض نفسية وعقلية من أشهرها الاكتئاب الذهاني Endogenous Depression .

وفي هذا الباب أيضًا فصل على غير ما جرت العادة في الأبواب السابقة ، يتحدث فيه عن ضرورة حسن قيام الرجل بزوجته وأولاده وما ملكت يمينه ، فيلزمه إطعامهم وكسوتهم وتعليمهم أمور الدين ، ويكون ذلك كله من وجه حلال ولا يحل له التفريط في شيء من ذلك بوجه من الوجوه (وهنا خص لكل رجل أن يحسن تربية أبنائه ومن يعولهم ، أو شئنا التعبير بلغة علم النفس قلنا إن هذا حث على ضرورة القيام بعملية التنشئة الاجتماعية Socialization على خير وجه وأكمل صورة .

أما الباب التاسع ، وقبل الأخير فهو عن عقوبة عاق والديه ، وعقوق الوالدين من أشد الذنوب ، وأعظم الجرائم لما فيه من استهانة بالوالدين ، وعدم الوفاء لهما ، وإنكار لأفضالهما ، ورغم كل ما قدماه ، وما لاقياه من المشقة والاحتمال ، وإذا كان لعلماء النفس أن ينفذوا لهذا الميدان ، فعليهم تناوله باعتباره يدل على اضطراب في السلوك ، واضطراب في الخلق ، ويبحثوا أسبابه ، ويدرسوا عملية التنشئة الاجتماعية ودورها في ذلك .

ونصل إلى الباب العاشر والأخير وهو في النهي عن المزامير والمغاني ، ويروى عن الرسول ﷺ أنه قال : « **ملعون الزامر والمستمع ، فمن سمع المطربات في الدنيا لا يسمع مطربات الجنة أبدًا** » ، لحكمة عظيمة نهى الرسول الكريم عن إتيان هذا السلوك .

العامري النيسابوري (ت ٣٨١هـ)
الأمد على الأبد [1]

عرض : د . معتز سيد عبد الله

التعريف بالمؤلف [2] :

هو أبو الحسن محمد بن يوسف العامري النيسابوري (ت ٣٨١هـ = ٩٩١م) ، عالم بالمنطق والفلسفة اليونانية ، من أهل خراسان ، أقام بالري خمس سنين واتصل بابن العميد (الوزير الكاتب) فقرءا معًا عدة كتب ، وأقام ببغداد مدة ، وعاد إلى بلده ، له شروح على كتب أرسطو ، و « مجموعة – خ ») تشتمل على « إنقاذ البشر من الجبر والقدر » و « التقرير لأوجه التقدير » ، ومن كتبه « النسك العقلي » وشرحه ، و « الإبصار والمبصر – خ » ، و « الإعلام بمناقب الإسلام – ط » ، و « السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية – ط » .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٦٥ صفحة من القطع المتوسط ، ويتكون من عشرين فصلًا يدور مضمونها حول تقديم بعض المعلومات والمعارف العقلية التي تساعد على معرفة الإنسان بحاله بعد موته وعقيب مفارقة روحه لجسده إلى أن يحشر في القيامة ويبعث في النشأة الآخرة ، حتى لا يُعذر العاقل في جهله ، وهو ما نعرض لتفاصيله على النحو التالي :

---

(١) تصحيح وتقديم أرون ك روش (ط ١) . بيروت : دار الكندي ، (١٩٧٩م) . (١٦٥) ، (٤٢ص) ، (٢٤ سم) .

(٢) الأعلام : للزركلي ، (١٤٨/٧) .

الفصل الأول : وفيه يوضح المؤلف أنه بالعلم والمعرفة ، سواء كانت حسية أو عقلية يمكن أن يزداد إيمان الإنسان بخالقه ﷻ ، فالعلم هو الطريق الصحيح الذي يبينٌ اليقين من الضلال ، والحق من الباطل ، حيث أشار المؤلف إلى مشكلة فلسفية هي أن البعض يرى أن للمدرَك الحسي حقيقة ، والبعض الآخر يرى أنه ليس له حقيقة ، وكذلك اختلفوا بالنسبة للمتصوَّر العقلي ، فبعضهم رأى أن له حقيقة ، والبعض الآخر رأى أنه ليس له حقيقة ، ويذهب المؤلف إلى أنه لكل من المدرَك الحسي والمتصوَّر العقلي حقيقة . ويرتبط مضمون هذا الفصل بمفهومي الإدراك الحسي Perception ، (ص ٥٩ - ٦١) ، والتصور العقلي (ص ٥٩ - ٦١) .

الفصل الثاني : وفيه يعرض المؤلف لأنواع التواريخ التي يتم في ضوئها التأريخ للأرض والحياة وعمر الدنيا وذلك بشكل اختلف فيه الناس ، فالمسلمون والصابئون والنصارى واليهود مجمعون على أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة على عدد الكواكب السيارة ، وزعم المجوس أن عمرها اثنا عشر ألف سنة على عدد الروج ... إلخ ، إلا أن اللّٰه تعالى قال في محكم كتابه : ﴿ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴾ [المعارج : ٤] .

الفصل الثالث : وفيه يعرض المؤلف للحكمة وأهميتها ، ومن وصف بها ، ويبينٌ أن أول من وصف بها هو لقمان ، ثم بعد ذلك أنباذقليس ، وفيثاغورس ، وسقراط ، وأرسطاطاليس ، وجالينوس ، وغيرهم .

الفصل الرابع : وفيه يعرض المؤلف لمذهب كل من أنباذقليس وسقراط وأفلاطون وارسطاطاليس في الحكمة .

الفصل الخامس : وفيه يوضح المؤلف أن العقل وإن صلح لتدبير عامة ما تحته من الموهومات الحسية ولإمساك كافة ما فوقه من المقولات البديهية ، فإنه ليس يصلح لهما إلا بالقوة الإلهية المستعملة عليه ، وكما أن الطبيعة محيطة بالأجسام إحاطة التدبير لها ، والعقل محيط بالنفس إحاطة الهداية لها ، كذا الأول الحق محيط بالأشياء كلها إحاطة التقدير لها ، فإذا الجسم بجبلته طائع للطبيعة ، والطبيعة بجبلتها طائعة للنفس ، والنفس بجبلتها طائعة للعقل ، والعقل بجبلته طائع للبارئ تعالى ، وبهذا يُعلم أن كل واحد من مُبدعات العالم وإن كان بالإضافة إلى خاص غرضه كاملًا له ، فإنه في جبلته مقصور ناقص الذات ، وأن الكمال المطلق للأحد الحق ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت

في هذا الفصل هي تصنيف الوظائف النفسية إلى حسية وعقلية (نطقية) ، كما تكلم المؤلف عن الوظائف الحسية فذكر القوة الشهوية والقوة الغضبية وذكر الإدراك الحسي والتخيل ، (ص ٨٧ - ٩١) .

الفصل السادس : وفيه يوضِّح المؤلف أن اللّٰه جل وعز قد شرف جوهره بنور العقل ليتعاطى به خلافته على عمارة العالم السفلي فيتدرج به إلى أن يصير زينة للعالم العلوي ؛ فإنه متى دنس جوهره واستهلك ذاته فقد خسر الدنيا والآخرة ، بل بتحقق أن اللّٰه جل جلاله أوله وآخره ، فلا ينقطع عنه ولا يَؤم سواه ، ويتبرأ ممن عدل عنه وآثر صحبة غيره عليه ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفصل هي المعتقد Belief (ص ٩٢ - ٩٥) .

الفصل السابع : وفيه يوضح المؤلف أن المتدينين والحكماء والإلهيين يتفقون على النفس متى تدنست بشهوات بدنها ، وأبطلت سلطان عقلها ، فقد استوجبت عقوبة اللّٰه عز اسمه بالآفات الحسية والآلام الطبيعية ، ثم لن تتفادى عن عقوبته إلا برفض شهواته أولًا ، ثم بالتضرع إليه تعالى في تكفير المُجتَرح من سيأته ثانيًا ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفصل هي : الدوافع البيولوجية Biological Motives والدوافع الروحية ، وأن التدين يساعد الإنسان على التغلب على دوافعه وشهواته البدنية ، (ص ٩٦- ٩٩) .

الفصل الثامن : وفيه يوضح المؤلف أنه إذا استخلصت العقيدة ، واستمسكت بالعبودية ، ولازمت الابتهال إلى رب العزة ، فوفرت عليها الإلهية والمواد الملكية ، فإن الشيء النقي لن يليق إلا بالمعدن النقي ، والمعنى الأبدي لن يألف إلا الجوهر الأبدي ، وإذا كان هذا غير مشكوك فيه ، ثم أيقنا أن موت الإنسان ليس له حقيقية غير فراق النفس للقالب ، فبالأحرى أن تكون علامة كمالها في الفضيلة أن تكون مستحبة له غير مغتمة لوروده ، ومهما اغتمت له دل ذلك على نقصان ذاتها ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفصل هي العلاقة بين النفس والجسم (ص ١٠٠ - ١٠٤) .

الفصل التاسع : وفيه يوضح المؤلف أن من نظر إلى الحكمة والعفة بعين الشنآن والتقلي ، ونظر إلى المال والرياسة بعين العشق والمحبة - وقد علم أن أكثر دواعي الحرب والقتال هو فرط الحرص على الرياسة والمال - فجدير أن يشقى بالجولان والحية ويُبتلى بالاضطراب واللوثة ، فيكون قد باع النعيم الأبدي بالتراب السفلي ، واستبدل المَشُوق العرض بالعز الحقيقي ، وذلك هو الخسار المبين والبوار المهين ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفصل هي : التعارض (أو الصراع) بين الدوافع

البدنية والملذات الدينية على الدوافع البدنية والدنيوية ، (ص ١٠٥ - ١٠٧) .

الفصل العاشر : وفيه يوضح المؤلف أن المدركات الحسية وإن كانت مباينة للصور العقلية ، فلا مانع من أن تكون سببًا لانتباه العقل عليها ؛ إذ هي في الحقيقة تحاكيها وإن كانت أنقص منها ، وأن تكون سببيتها بالإضافة إلى النفس قريبة الشبه في الحركة الموقظة للحيوان عن النومة - أي أنه متى استيقظ بالحركة اللاحقة من خارج ، فقد كمل لتعاطي الحركات الاختيارية من ذاته ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفصل هي الصور العقلية Mental Images ، (ص ١١٠ - ١١٢) ، والانفعالات (وبخاصة الألم واللذة) ، (ص ١١١) .

الفصل الحادي عشر : وفيه يوضح المؤلف أن الأسباب المولدة للحركات الحيوانية هي الانفعالات المتولدة من الأشكال الفلكية ، إما في القوة الشوقية بوساطة القوة الخيالية ، وإما في القوة الخيالية بوساطة القوة الشوقية ، وإما في كليهما بحسب اتحادهما - أعني إذا كانت الحركات طوعية ، ثم النفس النطقية تصير مدبرة لها ومستولية عليها ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفصل الذات Self والإحساس ، والتخيل Imagination ، والدافعية (ص ١١٥ - ١١٧) والصور العقلية (ص ١١٦ ، ١١٧) ، والانفعالات (ص ١١٦ ، ١١٧) .

الفصل الثاني عشر : وفيه يوضح المؤلف أن الجمهور الأعظم من أرباب الملل يتواصون بالدعاء ، ويستعيذون من السحر ، وينسبون من جحد الدعاء إلى الخلاعة ، وخصوصًا من جحد بركات الأدعية الصالحة ، هذا بينما يذهب الإلهيون من الحكماء في شأن الدعاء والسحر إلى أنهما في طرفي التضاد ، فإن أحدهما يتعلق بالإخلاص الصادق لخالق البرية ، والآخر يتعلق بالاختصاص البالغ للشياطين المردة .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفصل هي حديث المؤلف عن تأثير القوى النفسية والروحية في الإنسان على نفوس الناس الآخرين ، بل وعلى الأجسام (ص ١١٨ - ١٢٢) .

الفصل الثالث عشر : وفيه يعرض المؤلف لطريقة الطبيعيين في إيراد الأمثلة - لتقرير المعاني الإلهية والدلائل المختلفة التي يقدمونها في هذا الجانب للبرهنة على كلامهم .

الفصل الرابع عشر : وفيه يعرض المؤلف للعلاقة بين النفس الناطقة والروح الحسية والبدن في الحياة والموت ، فإن كان موت الحيوان في الحقيقة هو زوال الروح الحسية عن

بدنه وقد عُمل أنها متى زايلته لم تصلح لتأدية شيء من الأفعال دونه ، فبالأحرى أن يكون استحالة البدن عن طباع الحيوانية بورود الموت عليه سببًا لانطفاء الروح الحسية ، فإنها لو وجدت دون البدن لكان وجودها عبثًا ؛ إذ ليست تصلح لتأدية شيء من الأفعال دونه ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفصل هي العلاقة بين النفس والجسم (ص ١٢٧ - ١٣٠) .

الفصل الخامس عشر : إذا كان الغرض الأخص من النفس النطقية هو أن يصير الإنسان صالحاً لخلافة الله تعالى في عمارة العالم السفلي مدة من الزمان ، ثم يصير زينة للعالم العلوي على الأبد ، فبالأحرى أن تكون مجبولة على سِنْخٍ هو في الحقيقة خلاصة هذا العالم وكدر ذلك العالم ، وأن يكون جوهرها أول المعاني الروحانية وآخر المعاني الجسمانية ، كالمتلاحم لكلا العالمين ، وكالصالح لمجموع الكمالين ، وكالشيء القائم بذاته من وجه والقائم بغيره من وجه ، وكالفرخ المتفقئ عن البيضة ، الذي هو كمال من وجه ومستعد للكمال من وجه ، وتعرض المؤلف في هذا الفصل إلى التعارض بين الناحية البدنية والناحية الروحية في الإنسان وأن الإنسان لا يستطيع أن يسيطر على ملذاته الحسية واتجاهه نحو الناحية الروحية إلا عن طريق العبادة والتمسك بالتقوى والحكمة العقلية (ص ١٣١ - ١٣٥) .

الفصل السادس عشر : وفيه يعرض المؤلف لزبدة ما شرحه العلماء من جبلة العالم العلوي بقدر ما استقاموا في التقرير لصورة الثواب الأبدي ، ومعلوم أن هذا المأخذ منهم ليس بقادح فيما حققه القرآن من أصول المعاد .

الفصل السابع عشر : وفيه يعرض المؤلف للآراء المختلفة حول طبيعة النفس الناطقة ومن أين تتولد ، وما هو مصيرها بعد الموت ، ثم يخلص إلى أنها لو كانت تتلاشى عند الموت كما يذهب بعض أصحاب الملل ، ثم كانت الأبدان تعاد في القيامة كهيئة ما هي عليه من البنية لكان الموت المتوسط بين الحياتين عبثًا ، فإن القادر على استبقائها ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفصل هي المعتقد (ص ١٤١ - ١٤٥) ، وبنية الجسم Constitution (ص ١٤١ - ١٤٥) ، والعلاقة بين النفس والجسم (ص ١٤١ - ١٤٥) ، والإحساس Sensation (ص ١٤٤ ، ١٤٥) .

الفصل الثامن عشر : وفيه يوضح المؤلف أنه ليس هناك شك أن أفضل حالات النفس الناطقة بحسب قوتها العالمة هو التحري لصدق اليقين في معتقداتها ، وأفضل

حالاتها بحسب قوتها العاملة هو التحري للجميل الحقيقي في مطلوباتها ، ويعرض بعد ذلك لأشكال مختلفة من النفوس منها بهيمة السُّوس (الطبع) وسبعية السُّوس ، ومَلَكِية السُّوس ، وهذه محاولة من المؤلف لتصنيف شخصيات الناس إلى عدة أنماط متميزة على أساس درجة قربها من اللّه تعالى ، وبعدها عن الانغماس في ملذات وأهواء الدنيا (ص ١٤٦ - ١٥٠) .

الفصل التاسع عشر : وفيه يعرض المؤلف للثواب والعقاب يوم القيامة ، وأوضح أنه ليس أحد ممن أقر بالصانع جل جلاله إلا وهو يقر بالثواب الأبدي ، وإنما يجحده أوساخ الدهرية ، الذين استثقلوا مثل العبادة وانسلخوا عن أهل الملة ، ولم يسندوا ضلالتهم إلى حجة ، بل سلكوا في دعواهم إلى مسلك الحيرة ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفصل هي : الثواب (ص ١٥١ - ١٥٧) ، والعقاب (ص ١٥١ - ١٥٧) ، وبنية الجسم (ص ١٥١ - ١٥٧) .

الفصل العشرون : وفيه يوضح المؤلف أن الإيمان في الحقيقة هو الاعتقاد الصادق اليقيني ، ومحله من القوى التمييزية هو القوة العاقلة ، والكفر في الحقيقة هو الاعتقاد الكاذب الظني ، ومحله من القوى التمييزية هو القوة المتخيلة ، بالإضافة لذلك يفرق بين الإيمان والكفر ، والتقوى والفسوق ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفصل هي : القيم الخلقية (ص ١٥٨ - ١٦٥) ، والقيم العلمية (ص ١٥٩) ، والاعتقاد (ص ١٥٨) ، والاعتقاد الخاطئ (ص ١٥٨) .

* * *

التنوخي (ت ٣٨٤هـ)
الفرج بعد الشدة [١]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف :

هو أبو علي المحسن بن أبي القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم داود بن إبراهيم بن تميم التنوخي ، ولد ليلة الأحد لأربع بقين من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين وثلاثمائة بالبصرة ، وسمع بها من أبي العباس الأشرم وأبي بكر الصولي والحسين بن مسعود بن عثمان ، ونزل بغداد وأقام بها وحده إلى حين وفاته وكان سماعه صحيحًا ، وأول سماعه الحديث في سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وكان من العلماء الحفاظ ، والشعراء المجيدين ، وله ديوان شعر أكبر من ديوان أبيه ، ومن مؤلفاته - غير هذا الكتاب الذي بين أيدينا - كتاب نشوان المحاضرة ، وكتاب المستجاد في فعلات الأجواد . وتولى القضاء من قبل أبي السائب عتبة بن عبيد اللّه في بابل والقصر ، ثم ولاه الإمام المطيع للّه القضاء بعسكر مكرم وأيذج ورامهرمز وتقلد بعد ذلك أعمالًا كثيرة في أماكن مختلفة ، وكانت وفاته رحمه اللّه تعالى ببغداد ليلة الاثنين لخمس بقين من المحرم سنة أربع وثمانين وثلاثمائة .

استمدت هذه الترجمة للمؤلف من المقدمة التي كتبها عنه الناشر نقلًا عن ابن خلكان .

عرض الكتاب :

يقع هذا الكتاب في جزأين ، الأول يتكون من ١٨٨ صفحة من القطع المتوسط ،

---

(١) القاهرة : محمود أفندي رياض ، (١٩٠٣ ، ١٩٠٤م) . ٢مج . نسخة مصورة .

ويضم ترجمة المؤلف وفاتحة الكتاب وستة أبواب ، والثاني يتكون من ٢٢٠ صفحة من القطع المتوسط - أيضًا - ويضم الأبواب من السابع وحتى الرابع عشر .

يبدأ هذا الكتاب بفاتحة للمؤلف يحمد اللَّه تعالى فيها ويثني عليه ، ثم يتحدث عن كتابه ويقارنه بكتاب ابن أبي الدنيا الذي يحمل نفس الاسم ، ثم يبدأ في ذكر أبواب الكتاب .

الجزء الأول :

الباب الأول : فيما أنبأ اللَّه تعالى به في القرآن من ذكر الفرج بعد البؤس والامتحان ويذكر فيه عددًا من الآيات القرآنية التي توضح هذا المعنى ، ثم يحللها تحليلًا دقيقًا .

وقد روي عن الحسن البصري أنه قال : من لزم قراءة هذه الآيات في الشدائد كشفها اللَّه تعالى عنه ؛ لأنه قد وعد وحكم فيهن بما جعله لمن قالهن وحكمه تعالى لا يبطل ووعده لا يخلف ، وقد ذكر ﷻ فيما قصه من أخبار الأنبياء شدائد ومحنًا استمرت على جماعة منهم ، وضروبًا جرت عليهم من البلاء فأعقبها بفرج وتخفيف ، وأول الممتحنين آدم ﵇ ، ثم نوح ، ثم إبراهيم ، ولوط ، ويعقوب ، ويوسف ، وأيوب ، وموسى بن عمران ، وكذلك الشدة التي جرت على سيدنا محمد ﷺ .

وإذا كان اللَّه ﷻ يبتلي الأنبياء والرسل بالاختبارات والشدائد لحكمة يعلمها هو ، فإن الأنبياء ذوو صفات خاصة يتفردون بها عن سائر البشر ، وهم يمثلون نماذج وجب الاقتداء بها . والبشر في كل عصر وحين ، ومهما اختلفت درجاتهم وصفاتهم عرضة لأنواع متباينة من المشقة وأنواع البلوى والاختبار ، وقد كثر حديث علماء النفس المحدثين عما يسمى بأنواع المشقة Stress والمثيرات أو الأحداث التي تثيرها Stressors ، ونتائجها على الأفراد وكيف يستجيبون لها ويتعاملون معها ، وأساليبهم في ذلك ، والآثار القريبة والبعيدة المترتبة عليها ، ولعل نظرة في تاريخ السلف الصالح على امتداد التاريخ تهوّن من وقع المشقة علينا .

والباب الثاني : فيما جاء في الآثار من ذكر الفرج بعد اللأواء ، وما يتوصل به إلى كشف الشدة والبلاء ، وقد روي عن الرسول ﷺ قوله : « **إن أفضل أعمال أمتي انتظارها فرج اللَّه** » ، **وقوله أيضًا** : « **واعلم أن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرًا** » ، وأحاديث أخرى كثيرة ، كلها توضح طرق كشف البلاء ، ومنها حضة ﷺ المسلم على مساعدة أخيه المسلم في شدته للتغلب عليها (ونجد علماء النفس المحدثين يهتمون بما يسمونه سلوك المساعدة Helping Behavior والذي يدرس في علم

النفس الاجتماعي ص ٢٧) ، ومن طرق كشف البلاء - أيضًا - الإكثار من الاستغفار، وقول لا حول ولا قوة إلا باللَّه ، ودعاء ذي النون : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ، وكذلك التوجه إلى اللَّه بالدعاء الخالص ليرفع الغمة ويزيل البلاء .

كما يحدد بعض الصالحين كعبد اللَّه بن مسعود أن الفرَج والرَّوْح في اليقين والرضا ، والهم والحزن في الشك والغضب (وعلاوة على أنه يصف الداء والدواء ، فإنه يذكر بعض المفاهيم التي حظيت باهتمام علماء النفس المحدثين تحت موضوع الانفعالات Emotions في علم النفس العام ص ٣٩) .

وهذا الباب في جملته يحدد عدة طرق للتعامل مع المشقة ، وهي تدور في مجملها حول الرجوع إلى اللَّه ، وطلب العون منه ، وهي طرق أغفلها كثير من المعالجين ، وإن كانت هناك محاولات في الوقت الراهن لإدخال الدين والإيمان في عملية العلاج النفسي .

والباب الثالث : فيمن بشر بالفرج فنجا من محنة بقول أو دعاء أو ابتهال ، ولكي يؤكد فعالية الأساليب التي سردها في الباب السابق لتفريج الكرب ، وكشف الشدة والبلاء - يخصص هذا الباب لذلك ، فيروي الكثير من القصص والحكايات التي حدثت له أو لغيره من الصالحين ، التي توضح كيف أنهم استعانوا باللَّه وبالأعمال الصالحة ، فانكشفت عنهم الغمة وزال عنهم الهم وانقلبوا فائزين .

والباب الرابع : من استطفأ غضب السلطان بصادق لفظ ، واستوقف مكروهًا بموقظ بيان ، أو وعظ .

ومن خلال منهج الحكايات ، والقصص ، الذي يعتمد عليه في هذا الكتاب ، يمكن أن نستشف بعض المفاهيم ، والاصطلاحات ، التي دخلت مجال علم النفس الحديث ، وهو استنباط من هذه الحكايات ، حيث لم تتعرض لها بشكل مباشر ، ومن هذه الاصطلاحات ، والموضوعات ، وجوب النصح ، والإخلاص فيه للحاكم (مما يقترب من موضوع الإرشاد النفسي من بعض زواياه ، وهو من موضوعات علم النفس الحديث ص ٦٦) ، وكذلك المحبة ، والود (وهو يدرس تحت موضوع الانفعالات في علم النفس ص ٦٨) .

ويتعرض - أيضًا - لما يسميه المحنة والبلوى في النفس (وبنوع من التجريد يمكن تصور بلايا النفس ، الأمراض النفسية العقلية ، التي تصيب الفرد وتدرس في علم النفس

الإكلينيكي ، وكذلك بعض الاضطرابات السلوكية ، وما يمكن أن يدخل تحت ما يسمى بصورة الذات Self-Image ص ٦٩) . وكذلك شرب الخمر ، وما تفعله في شاربها (ويدرس علماء النفس الإكلينيكيون ، وعلماء النفس الاجتماعيون ، موضوع المخدرات والمسكرات من زوايا متعددة ، منها الآثار النفسية والسلوكية ، التي يتركها التعاطي الحاد ، والتعاطي طويل المدى على المتعاطين ص ٨٠ ، ٨١) .

ومن المفاهيم التي يمكن استنتاجها أيضًا ضبط النفس Self-Control كإحدى سمات الشخصية Personality Traits الدالة على الاتزان الوجداني ، أو الانفعالي Emotional Stability ص ٨٢) .

والباب الخامس : يشبه سابقه إلى حد كبير حيث يدور حول من خرج من حبس ، أو أسر ، أو اعتقال إلى سراح وسلامة وصلاح حال ، ويضيف إلى أسلوب الحكايات الشعر وما روي فيه ، ومما ورد في ثنايا هذا الباب : حديثه عن ذهاب النوم بسبب الهموم ، وتوارد الأفكار على الذهن (وهو حديث عن الأرق Insomnia وهو أحد الأعراض التي تصيب الإنسان السوي في حالة كونه مهمومًا ، كما أنه يعتبر عرضًا مرضيًا يصحب بعض الأمراض النفسية كالقلق Anxiety ، والاكتئاب Depression ص ٩٤) .

ويتعرض كذلك للعقل والكلام ، والفرق فيهما بين الخاصة والعامة (وهنا نجد عدة موضوعات من موضوعات علم النفس ، مثل العقل وما يتصل به من ذكاء وتفكير ، وقدرات معرفية Cognitive Abilities ، والكلام كمظهر لغوي ، وما يترتب عليه ، ويرتبط به كجزء من سيكولوجية اللغة Psycholinguistics ، والعلاقة بين الفكر واللغة ، والفروق الفردية Individual Differences كمبدأ حاكم للوظائف والعمليات النفسية ص٩٦) .

والباب السادس : فيمن فارق شدة إلى رخاء بعد بشرى منام ، ولم يشب صدق تأويله كذب الأحلام ، وفي هذا الباب يستفيض في ذكر الأحلام والرؤى ، التي تحدث في المنام ، ويقص بعض ما حدث له ، ولغيره ، وكان شاهده ، أما ما روي له ، وتأويلات هذه الأحلام ، أو الرؤى ، وصدق هذه التأويلات ، وتحققها ، وموضوع الأحلام ، وتفسيرها فهي من الموضوعات التي شغلت حيزًا كبيرًا في بعض نظريات علم النفس في فترة مبكرة ، ونقصد نظرية التحليل النفسي الفرويدي ، حيث تشكل الأحلام رموزًا

مهمة في الكشف عن أغوار النفس البشرية ، وتعين في دراسة علم نفس الأعماق ، ولفرويد كتب في تفسير الأحلام ، والنظريات الأكثر حداثة في علم النفس لا تهتم بالأحلام من حيث تأويلها أو تفسيرها وتعتبرها مما يدخل في غير اهتماماتها ، وإن كان بعض علماء النفس المشتغلين بعلم النفس الفسيولوجي يهتمون بما يحدث أثناء النوم واليقظة من تغيرات عضوية فسيولوجية ، كالتغير في الموجات الكهربائية للمخ ، ودلالتها على أعراض أو تغيرها أثناء الأحلام وأشكالها في المراحل المختلفة للنوم ، كالنوم الخفيف والعميق .

الجزء الثاني :

ويبدأ هذا الجزء **بالباب السابع** ، وهو فيمن استنقذ من كرب وضيق خناق ، بإحدى حالتي عمد أو اتفاق ، وهو استكمال للأبواب السابقة ، مع اختلاف بسيط في نوع البلاء الذي يصاب به المرء ، ثم يفرج عنه ، وهو - أيضًا - مليء بحكايات ، وقصص تؤيد ما سلف ذكره من ضرورة الاستعانة بالله ، والتوكل عليه ، وطلب العون منه ، فهو الكفيل بتذليل الصعاب ، وكشف البلاء (ولم نجد في هذا الباب جديدًا يمكن أن نضيفه إلى ما سبق) .

والباب الثامن : من أشفى عليه أن يقتل ، فكان الخلاص إليه أعجل ، وفيه يذكر العفو وكظم الغيظ (وهو يقابل سمة ضبط النفس التي سبق أن أشرنا إليها في موضوع سابق ص ٤٤) ، وكذلك يذكر الغضب والهم (وهي من الانفعالات التي تدرس في علم النفس العام ص ٤٦) ، وهذا الباب يدور كله حول أشخاص كانوا عرضة للقتل لأسباب متعددة ، ثم عفي عنهم ونجوا من القتل بفضل الله ورحمته ، ولا يكاد يزيد عن ذلك شيئًا ، وفي ثنايا كلامه وحكاياته يذكر العشق (وهو إحدى درجات الحب كما يصنفه علماء اللغة ، والحب من الانفعالات التي تدرس في علم النفس العام كما سبق ص ٥٤) .

والباب التاسع : فيمن شارف على الموت بحيوان مهلك رآه ، فكفاه الله سبحانه ذلك بلطفه ونجّاه ، ويكاد هذا الباب يكون صورة طبق الأصل من الباب السابق ، وكل ما بينهما من اختلاف هو سبب الموت - الذي هو البلاء أو الاختبار الذي حل بالفرد - ففي هذا الباب سبب الهلاك هو حيوان مفترس أو ضال ، وفي الباب السابق كان بسبب حكم بالقتل وقع على الفرد من شخص أو حاكم ، (وفيما يرويه من قصص ما يقترب من الخيال الذي يملأ الأساطير والحكايات القديمة وإن كان يقصها باعتبارها

من القصص الواقعية التي حدثت بالفعل ، وإن كان القصد من ورائها لا يخفى على كل ذي فطنة ، فإنما أوردها ليحض على الاستعانة بالله ، واللجوء إليه في قضاء الحوائج ، فهو نعم المولى ونعم النصير ، وهي من هذه الزاوية تؤدي الغرض الذي سيقت من أجله تمام الأداء) .

وينتقل إلى **الباب العاشر** وفيه يذكر نوعًا آخر من البلاء ، وهذا الباب مخصص لمن اشتد بلاؤه بمرض ناله ، فعافاه اللّٰه سبحانه بأيسر سبب وأقاله ، ونلمح هنا أنه أضاف سببًا لأسباب البلاء السابقة وهو المرض ، هو كذلك يعتمد على الروايات والحكايات .

ومن الحكايات التي يقصها : ما روي عن أبي بكر الرازي الطبيب المشهور بالحذق ، وكيف كان يعالج المرضى ، وكل الأمراض التي ذكرها في هذا الباب هي من عداد الأمراض الجسمية ، خاصة الأمراض المتصلة بالمعدة والجهاز الهضمي ، ولم يذكر شيئًا عما يمكن اعتباره أمراضًا نفسية مما يدخل في اهتمامات علم النفس الإكلينيكي .

وما قيل عن الأبواب السابقة ينطبق على **الباب الحادي عشر** ، فهو فيمن امتحن من لصوص بسرقة أو قطع ، فعوض عن الخلق بأكمل صنع ، وهو نوع من البلاء يضاف إلى ما سبق من أنواع البلاء والاختبار .

والباب الثاني عشر : عمن ألجأه الخوف إلى هرب واستتار ، فأُدْرِكَ بأَمْنٍ وَمُسْتَجَد نِعَمٍ ومَسَار . وبرغم أن هذا الباب نسخة مما سبقه في أسلوبه وموضوعه فإنه يختلف عن بعض الأبواب السابقة في أن موضوعه بصفة عامة وهو الخوف Fear يعتبر أحد الموضوعات التي يتم تناولها في دراسات علم النفس الحديث كأحد الانفعالات التي تدرس ضمن موضوعات علم النفس العام ، ويمكن أن يدرس من زاوية أخرى في علم النفس الفسيولوجي وهي الوقوف على التغيرات الفسيولوجية الداخلية ، المترتبة على الخوف وما يرتبط بها من مظاهر سلوكية خارجية ، ويدرس الخوف المرضي (الفوبيا Phobia) في الطب النفسي وفي علم النفس الإكلينيكي أيضًا (ص ١٠٤ - ١٤٨) ، وينطبق هذا الكلام على موضوع **الباب الثالث عشر** وهو فيمن نالته شدة في هواه ، فكشفها اللّٰه تعالى وملكه من يهواه ، والموضوع المقصود هنا هو (الحب) أو (العشق) أحد مراتبه ودرجاته ، ويدرس ضمن موضوع الانفعالات في علم النفس العام كما سلفت الإشارة (ص ١٤٨ - ١٩٠) .

ونصل إلى **الباب الرابع عشر** والأخير في هذا الكتاب ، وهو فيما اختير من مُلَح

الأشعار ، في أكثر معاني ما تقدم من الأمثال والأخبار ، والباب كله أبيات شعر لشعراء كثيرين تعضد المعاني السابقة التي وردت في أنواع البلايا والهموم وقد ساقها المؤلف دون شرح أو تعليق أو تحليل .

أوجه الاستفادة من هذا الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال الإرشاد النفسي .

* * *

أبو طالب المكي (ت ٣٨٦هـ)
قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد (١)

عرض : د . محمد نجيب الصبوة

التعريف بالمؤلف :

هو محمد بن علي بن عطية الحارثي ، أبو طالب المكي ، الزاهد ، الواعظ ، الفقيه ، من أهل الجبل (بين بغداد وواسط) ولكنه نشأ واشتهر بمكة ، ورحل إلى البصرة فاتهم بالاعتزال ، وروى بالإجازة عن عبد اللّٰه بن جعفر بن فارس وسمع صحيح البخاري من ابن يزيد المروزي ، وله أربعون حديثًا أخرجها لنفسه ، وكان على مذهب أبي الحسن بن سالم ، وذكره النديم في مصنف المعتزلة ، وسكن بغداد فوعظ فيها ، فحفظ عنه الناس أقوالًا هجروه من أجلها .

حدَّث عن علي بن أحمد المصيصي والمفيد وكان مجتهدًا في العبادة ، حدَّث عنه عبد العزيز الأزجي وغيره ، وقال الخطيب : ذكر في القوت أشياء منكرة في الصفات وهو أشياء مستشنعة ، وكان من أهل الجبل ونشأ بمكة ، قال لي أبو طاهر العلاف : إن أبا طالب وعظ ببغداد وخلط في كلامه وحفظ عنه أنه قال ليس على المخلوقين (أضر) من الخالق فبدعوه وهجروه فبطل وعظه . مات عام (٣٨٦هـ) .

من المؤلفات : له « قوت القلوب » : جزآن « ط » في التصوف ، « وعلم القلوب » - « خ » ، و « أربعون حديثًا » أخرجها لنفسه .

---

(١) القاهرة : مكتبة المتنبي ، [د . ت] ، (٢ ج) في (١) مجلد ، مع سراج القلوب وعلاج الذنوب / لأبي علي زين الدين المعيري ، حياة القلوب في كيفية الوصول للمحبوب / عماد الدين الأموي .

عرض الكتاب :

هذا الكتاب مؤلف في التصوف من تصنيف الشيخ أبي طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي ﷺ ، يشتمل على ثمانية وأربعين فصلًا ، موزعة على جزأين .

عرض كتاب قوت القلوب وتلخيصه ، وبيان ما ورد فيه من مفاهيم سيكولوجية :

بدأ المؤلف ، كعادة كل المؤلفين المسلمين ، التقديم لكتابه بخطبة حمد اللَّه فيها وأثنى عليه وصلى على سيدنا محمد بن عبد اللَّه ، وذكر أن كتاب قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد ، يشتمل على ثمانية وأربعين فصلًا ، ثم بدأ عرض الفصول تباعًا على النحو التالي :

الجزء الأول :

الفصل الأول : أورد فيه المؤلف جميع أو معظم ما ورد في القرآن الكريم من آي الذكر الحكيم في شأن المعاملات والسعي في الأرض ورفع الهمة للإقبال على العبادة والمجاهدة ، ولم ترد فيه مفاهيم سيكولوجية يمكن استنباطها إلا أن القرآن كله هداية وطريق بل وأفضل الطرق لجلب الصحة النفسية والبدنية ، (ص ٤) .

الفصل الثاني : ذكر فيه المؤلف الآيات التي فيها أوراد الليل والنهار ، مثال ذلك : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا ﴾ [المزمل : ٧ ، ٨] ، يمكن أن يستنبط من هذه الآيات بعض المفاهيم السيكولوجية وقوانين تكوينها مثل قانون التكرار في التعلم والاكتساب ، والتكرار يورث تكوين العادة Habit السلوكية الحميدة ، (ص ٥) .

الفصل الثالث : حاول المؤلف أن يسرد لنا ما يعمله المريد في اليوم والليلة من فرائض الأمور وفضائل النداثب أو النوادب من قبيل صلاة ركعتي الفجر ، ثم الاستغفار سبعين مرة ، ثم يسبح اللَّه ويهلله مائة مرة ... إلخ ، أما من ناحية المفاهيم السيكولوجية ، فقد ورد في هذا الفصل ما يمكن استنباطه كطريقة أو كمنهج من مناهج تربية النفس الإنسانية على الطريق المستقيم ، ووصفه في نهاية هذا الفصل ، (ص ٥ ، ٦) لحال المصلي هي بالضبط سمات شخصية الإنسان الذكي الألمعي العبقري .

الفصل الرابع : أورد المؤلف ما يستحب من الذكر وقراءة الآيات المندوبة بعد التسليم من صلاة الصبح وحتى مطلع الشمس وقبل غروبها وإلى أن تغرب ، وهي مجموعة من الأدعية والأوراد ، وليس في هذا الفصل مفاهيم سيكولوجية جديدة غير ما تقدم ذكره .

الفصل الخامس : وفيه ذكر المؤلف مجموعة من الأدعية المختارة التي يستحب للمريد أن يقرأها بعد صلاة الصبح ، وكلها أوراد للمجاهدة وكبح جماح النفس الإنسانية للبُعد بها عن الرذائل ، وهذا من وجهة نظر علم النفس الحديث نوع من العلاج النفسي القائم على أساس من المنهج الروحي الإلهي ، ولكنه في حاجة عند تنفيذه لصاحب الهمة (ص ٨ ، ٩) .

الفصل السادس : حدثنا المؤلف عما ينبغي للمريد عمله وأداؤه بعد صلاة الغداة كتلاوة القرآن والذكر والتسبيح والحمد والثناء والتفكر في عظمة اللَّه ﷻ وآلائه ، وهنا نجد أسلوبًا آخر من أساليب تربية التأمل وإطالة التفكير وهنا نجد مفهومين جديدين من مفاهيم علم النفس الحديث هما : المثابرة ، وهو مواصلة الجهد والنشاط رغم وجود عقبات مختلفة ، والتفكير طويل المدى ، وهو إحدى القدرات العقلية العليا لدى الإنسان (ص ١٦ ، ١٧) .

الفصل السابع : حدثنا المؤلف عن ذكر أوراد النهار وبين أنها سبعة أوراد ، **وفي الفصل الثامن** : ذكر المؤلف أوراد الليل وهي خمسة تبدأ بعد المغرب حتى مطلع الفجر ، **وفي الفصل التاسع** أورد المؤلف صلاة الفجر وحكم ركعتيه وحكم الوتر ووقت القضاء له ، ومرة أخرى من ناحية علم النفس نقول : إن معظم مناهج الصوفية – وهذا أحد كتب التصوف – هي أساليب في رياضة النفس والمجاهدة حتى تتوفر لها الصحة النفسية ، ولكن لا يقوى ذلك إلا القليل من عباد اللَّه المخلصين (ص ٢٢) .

الفصل العاشر : شرح لمعرفة الزوال وزيادة الظل ونقصانه واختلاف ذلك في الصيف والشتاء ، وما يستنبط بطريقة غير مباشرة من هذا الفصل وهو تربية وتنمية القدرة على الاستدلال Reasoning لدى الإنسان المسلم ، ونحن أحوج ما نكون لتنمية هذه القدرات في هذا الزمان الذي نُعتنا فيه بالتخلف والتأخر (ص٢٤ ، ٢٥) .

الفصل الحادي عشر : كتاب فضل الصلاة في الأيام والليالي ، وفيه يبين المؤلف كيفية كل صلاة من صلوات النهار في كل أيام الأسبوع ، وكيفية صلاة الليل في كل يوم من أيام الأسبوع أيضًا ، ومن ناحية علم النفس ، إذا وقفنا وتأملنا حجم الثواب الذي يُعطى لمن يؤدي هذه الصلوات النافلة في أي يوم من أيام الأسبوع لعلمنا أن هذا أفضل أساليب تربية الهمة ودفع النشاط ورفع الدافعية لدى الإنسان Motivation بطريق الترغيب والإغواء ، وإذا كانت الدافعية تدخل ضمن موضوعات علم النفس

العام ، فإن الترغيب والإغواء من أساليب التخاطب في علم النفس الاجتماعي وعلم النفس اللغوي Psyoholingustic (ص ٢٨ ، ٢٩) .

أما الفصلان الثاني عشر والثالث عشر : فقد أورد المؤلف فيهما فضل صلاة الوتر ، وفضل صلاة القيام بالليل عمومًا ، وما يستحب أن يقوله العبد إذا استيقظ من نومه للتهجد وفي يقظته عند الصباح .

الفصل الرابع عشر : تحدث عن تقسيم الليل ونومه وتحدث عن أحوال القائمين والمتهجدين وأوصافهم وجزاؤهم ، وورد في هذا الفصل حديث عن الخوف والرجاء من جانب أهل قيام الليل ، وهذا يرادف أنواع من الانفعالات التي تندرج ضمن موضوعات علم النفس العام (ص ٣٥) ، وعمومًا كل هذا الكتاب إذا حللنا مضمونه بجزئيه سنجد أنواعًا من العواطف والوجدانات Emotions المتدفقة وكلها يدخل في موضوعات الانفعالات ، وهو كما سبق بيان ذلك من أهم موضوعات علم النفس العام .

الفصل الخامس عشر : حدثنا المؤلف عما يجب على العبد من أوراد للتسبيح والذكر والصلاة في اليوم والليلة ، وفضل صلاة الجماعة وذكر فضل الأوقات المرجو فيها الإجابة وذكر صلاة التسبيح وفضلها .

الفصل السادس عشر : تحدَّث المؤلف عن معاملة العبد في التلاوة ووصف التالين للقرآن حق تلاوته ، وأنسب زمن (أسبوع) لختم القرآن ، ويستحب ختمه بالليل مرة وبالنهار مرة حتى تستغفر الملائكة للعبد بالليل والنهار ، وورد في هذا الفصل كلام كثير عن التأمل والتدبر والفهم والإدراك والتفكر ، وهذه كلها تندرج ضمن ما يعرف في علم النفس الحديث بالقدرات العقلية الأولية والعليا ، أو تعرف باسم القدرات المعرفية ، وورد ذلك في (ص ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨) .

الفصل السابع عشر : عرض المؤلف للمفصل من الكلام وفيه مدح العالمين وذم الغافلين عنه وتفسير الغريب والمشكل من القرآن باختصار الأصول الدالة على المعنى ، فأما ظاهر الكلام فعلى معنيين عجيبين وهو مجمل مختصر ومكرر ، فإجماله وانتصاره للبلاغة والإيجاز ومكرر وتفصيله للإفهام والتذكار ، وعرض كذلك للمختصر المحذوف ، وهو في كل ما ذكر في هذا الفصل يضع حلولًا لفهم المشكل من كلام القرآن الكريم .

أما من ناحية المفاهيم السيكولوجية في هذا الفصل ، فهو يعد بكامله فصلًا في الدلالات الرمزية والنفسية للغة ، (ص ٥٠ ، ٥١) ، وكذلك درس مفيد في دراسة

أحد أنواع التفكير وهي « التفكير المجازي بالألفاظ » Metaphor Thinking أو التفكير البلاغي (ص٥١ ، ٥٢) ، والمعنى الاصطلاحي أو الإشاري للغة والمعنى الدلالي لها ، وكلها بحوث تجري في علم النفس المعرفي وفي دراسة النفسية للغة .

الفصل الثامن عشر : فيعرض للأوصاف المكروهة للغافلين عن ذكر اللّٰه ، مثال ذلك : السهو والغفلة والعمى (عمى البصيرة) والحيرة ، وحديثه لنفسه .

وسماعه لوساوس الشيطان واتباعه الهوى وسيره خلف الظنون وعدم سيره خلف اليقين بأنواعه ، وعرض بعد ذلك لتلاوة القرآن والهدف منها ، وهو العمل به واتباع أوامره من الألف إلى الياء فهذا هو الطريق المستقيم ، وهذه كلها سمات شخصية العابد غير الغافل ، والعكس فيها بالعكس (ص ٥٨) .

الفصل التاسع عشر : وأردف فذكر نيات القارئ ونيات الجهر بالقراءة ، وفضل قراءة السر على قراءة العلانية كما تفضل صدقة السر على صدقة العلانية ، وفي هذا الفصل درس في النية والقصد Intention من الفعل أو السلوك الذي يقوم به الشخص ، ودرس في اليقين وعدم مراءاة الناس ، مما يدخل ضمن دروس وموضوعات علم النفس الاجتماعي في النية واليقين والاعتقاد (ص ٦٠ ، ٦١) .

الفصل العشرون : ذكر المؤلف ضرورة إحياء الليالي المرجو فيها الفضل وذكر مواصلة الأوراد في الأيام الفاضلة وهي خمس عشرة ليلة موزعة على المحرم ورجب وشعبان ورمضان وذي الحجة وليلة العيدين .

الفصل الحادي والعشرون : عرض لفضل يوم الجمعة ، وما يجب فيه من آداب ، وما ينبغي على المريد عمله ليلتها ويومها ، وبيَّن أنها فرض على أناس وتسقط على أناس هم الصبية والمملوكين والمرأة والمسافر والمريض .

الفصل الثاني والعشرون : عرض المؤلف للصيام كفريضة وفضائله ووصف الصائمين ووصف صوم الخواص وصوم العوام من الناس ، وذكر أن الصوم هو الصبر ، والصبر هو الصوم ، والصبر هنا في هذا الصدد يوازي في علم النفس المثابرة واستمرار الاجتهاد رغم الصعاب (ص ٧٣) ، وهذا يعلم النفس المجاهدة ويحثها على أمر المولى جل وعلا .

الفصل الثالث والعشرون : عرض المؤلف لطرق محاسبة النفس ومراعاة الوقت ، انطلاقًا من قول اللّٰه ﷻ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] ، ولقوله : ﴿ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] ، وأفضل طرق تربية النفس

أن تعيش ما بين الخوف والرجاء ، والإقبال على اللّٰه وفعل الخيرات ، واتباع الحق ولو كان مرًّا أو ترك الباطل ولو كان محببًا ، ومراجعة الأعمال التي تصدر عن النفس أولًا بأول ، وأعلاه مراقبة النفس .

وعلاقة كل ذلك بعلم النفس الحديث أن هذه الطرق تجسد المقالة الشهيرة أن الوقاية خير من العلاج أكثر من ذلك تقوية الضعفاء ورسم الطريق لهم وهؤلاء جماعة يقابلون ما يسمى في علم النفس المرضي : الجماعات الهشة التي تقع على حافة المرض النفسي High - Risk Groups (ص ٧٥ ، ٧٦) ، وتثبيت المذبذبين على الطريق السليم ، وحاول المؤلف أن يسوق عددًا من الأصول والقواعد التي تعد أساسًا لعلم الصحة النفسية ، (ص ٧٦ وما بعدها) .

الفصل الرابع والعشرين : أوقفنا المؤلف على ماهية الورد وعرفه بأنه اسم لوقت من ليل أو نهار يرد على العبد مكررًا فيقطعه في قربة إلى اللّٰه ويورد فيه محبوبًا يرد عليه في الآخرة ، والقرابة اسم لأحد معنيين أمر فرض عليه أو فضل ندب إليه وقد يكون الورد من الصلاة أو الذكر أو القرآن .. إلخ ، والهدف من الورد المكرر هو التقرب إلى اللّٰه والثبات على المبدأ وعدم سقوط النفس رقيقة للعادة السيئة ، فهدف العبادة النهائي هو تخليص الإنسان من رق العادات السيئة ومن عبودية البدع والاستقامة على الطريقة المثلى .

الفصل الخامس والعشرون : ذكر المؤلف تعريف النفس وتصريف مواجيد العارفين ، وبيَّن أن سبب النقصان أو الخلل في السلوك الإنساني سببه الغفلة (ص ٨٤) ، والغفلة تنشأ من اضطرابات النفس (آفات النفس) ، وفضلًا عن أن النفس مجبولة على الحركة رغم أنها أمرت بالاستقلال والسكون عن الهوى .

وعلاج ذلك صرف الهمة إلى ما يرضي اللّٰه ، والمفروض أن يخالف الإنسان كل ما تشتهيه النفس ، وهذا كلام يرادف ما ورد في علم النفس من أن النفس مجموعة من القوى والوظائف الحيوية التي تحرك الإنسان ، فإذا وافقت حركة النفس معايير المجتمع وأخلاقياته كان سلوكها حسنًا ، وإذا حدث العكس ، حدث نوع من الصراع على مستويات عديدة ، بين الفرد وذاته أو بينه وبين الآخرين (العلاقات الشخصية المتبادلة) ، أو بينه وبين المجتمع بأسره ، ثم أورد المؤلف أنواعًا وأخلاطًا وسمات تتصف بها هذه الأنفس المختلفة وهذا يرادف حديثنا عن سمات الشخصية الإنسانية سواء كانت سمات حسنة أو سيئة ، وذكر المؤلف (ص ٨٧ ، ٨٨) أن علاج النفس من كل شرورها

ووساوسها هو تقوى اللَّه وهي مخافته في السر والعلن .

الفصل السادس والعشرون : حدثنا المؤلف فيه عن المراقبة ، فمن كان مقامه المراقبة كان حاله المحاسبة ، وخير الأمور مراقبة اللَّه في السر والعلن ، وطريق المراقبة هو ذكر اللَّه الدائم وحساب النفس على ما فات ، وكل ما ذكره المؤلف في هذا الفصل يدور حول إنشاء طريقة أو منهج يحفظ للنفس استقرارها وعدم وقوعها في المعاصي والزلل .

ومن ناحية المفاهيم السيكولوجية حديث المؤلف عن شهوات النفس الذي يرادف حديثنا عن الدوافع والوجدانات والعواطف والمشاعر الإنسانية التي قد تكون حسنة وقد تكون سيئة (ص ٨٩ ، ٩٠) .

الفصل السابع والعشرون : وبيَّن فيه المؤلف الكيفية التي يمكن للشخص أن يكون بها عارفًا باللَّه أو مريدًا ، وعلة ذلك تنحصر في تنازله عن هذه الشهوات الثلاث : حب الدرهم ، وطلب الرياسة ، وطاعة النساء ، وذكر بعض العلماء أن الذي يقطع العبادة ، قلة الصدق في الإرادة والجهل بالطريق ونطق علماء السوء بالهوى ، فإذا ما فعل أي شخص عكس ذلك ، واستقام على الأوراد التي أثرت عن النبي ﷺ ، لأمكنه أن يكون عارفًا باللَّه ، وكان من الطبيعي بعد أن بين لنا المؤلف صفات العارف باللَّه وكيف يكون مريدًا ، أن يسوق لنا الكيفية التي تكون عليها مراقبة المقربين للَّه ومقامات المقربين ، وهذا ما دار حوله **الفصل الثامن والعشرون** .

واليقين كما سبق بيان ذلك هو في علم النفس رسوخ العقائد Beliefs أو الاعتقادات ، وهي مجموعة القيم التي تصبح معايير أخلاقية يسلك الفرد وفقًا لها (ص ١٠٠ – ١٠٥) ، ودرجات اليقين ومستوياته وأنواعه ، هي تدريج متصل من القيم والاعتقادات الفردية وصولًا إلى الاعتقادات المركبة .

ووفقًا لقوة اليقين والاعتقاد في اللَّه ﷻ ، تكون مقامات المقربين وتمييزهم عن أهل الغفلة المبعدين ، وهذا جوهر **الفصل التاسع والعشرين** فهو يبين ما لهم من درجات عُلا ، في مقابل أهل الفكر الذين لهم الدركات السفلى من جهنم ، وما ورد في هذا الباب من كلام يدور حول غل الكافرين وغيرتهم من المؤمنين في الجنة وغير ذلك من وجدانات ؛ ليندرج تحت موضوع الانفعالات في علم النفس العام (ص ١١١ ، ١١٢) .

على أن المؤلف حينما أراد أن يتحدث عن خواطر أهل القلوب وصفة القلب وتمثيله بالأنوار والجواهر ، خلط بين مفهوم النفس والعقل والقلب ، فالنفس أعم من كل ذلك فهي

تضم الجوانب المزاجية والبيولوجية والعقلية أو المعرفية ، فقد يستنير العقل وبنوره يستنير الوجدان ، وقد يظلم العقل لانسياقه خلف الوجدان ، فنظرة علم النفس الحديث ترى أن القلب هنا مقصود به العقل والجهاز العصبي المركزي عمومًا ؛ لأنه تصريف كل شؤون النفس بإعطاء الأوامر واستقبال التنبيهات (ص ١١٣) ، وهذا ما ورد في الفصل الثلاثين .

كذلك الحديث الذي ورد عن الحواس الخاصة بالجسم يرادف موضوع الحواس والإحساس في علم النفس العام ، أما الحديث عن الروح (ص ١١٤) فلا علاقة لعلم النفس به من قريب أو من بعيد ؛ لأنها أمر غيبي لا يعرف حقيقتها إلا اللّٰه .

أما الحديث عن علاقة النفس بالعقل فهو حديث عن العلاوة بين حاجات النفس ودوافعها وبين العقل وتأثره بذلك ، (ص ١٢٢) ، فإذا قاد العقل النفس أشبع حاجاتها بالطرق المشروعة المقبولة اجتماعيًا وأخلاقيًا ، وإذا حدث العكس تلوث العقل وخضع لكل رغباتها ، وهذا أمر يلخصه السؤال الآتي : إلى أي مدى تكون للجوانب العقلية بطانة مزاجية وجدانية ، وهل تتغلب الجوانب العقلية على الجوانب الوجدانية ، أم العكس ؟ وكل ذلك يهيئ المناخ الذي يأتي السلوك الإنساني نتاجًا له فإما أن ينشرح العقل بفعل المنكرات والشهوات (إذا ما خضع لحاجات النفس) ، وإما أن يقودها بحيث يأتي سلوكها قويمًا .

ونتيجة لما سبق إذا تحكم العقل كانت النتيجة التوصل إلى معارف وعلوم لا حدود لها ويصبح الإنسان فاضلًا وعالمًا ، ولذلك كان من الطبيعي أن يأتي الفصل التالي :

الفصل الحادي والثلاثون : متحدثًا عن العلم وأوصاف العلماء وفضل علم المعرفة على سائر العلوم وأردف متحدثًا عن الفروق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة ، وعلم الظاهر وعلم الباطن ، وكل هذا مبني على الأساس السابق ، حركة النفس ووسوستها أم حركة العقل وضبطه لنزعات النفس ، وانتهى من ذلك إلى أن العلم النافع ، هو العلم الذي يوصل إلى المعرفة باللّٰه ، وهوَ علم التوحيد .

ويؤدي معرفة التوحيد واليقين باللّٰه إلى التوكل عليه وهذا هو موضوع الفصل الثالث والثلاثين ، وأول الجزء الثاني من كتاب قوت القلوب .

الجزء الثاني :

من كتاب قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد ، للشيخ أبي طالب محمد بن أبي الحسن علي بن عباس المكي ، وفي مقام التوكل ذكر

المؤلف أحوالًا وعلاقات عديدة بين التوكل وبين أحوال المتوكلين ، وبينه وبين الأخذ بالأسباب التي خلقها اللّٰه ، وبينه وبين التكسب والتصرف في المعايش ، وبينه وبين الادخار ، وبين التداوي وتركه للمتوكل ، فإذا تركه المتوكل كان زاهدًا ، وهنا حاول المؤلف أن يشبه التوكل بالزهد .

بعد ذلك بيَّن أن المسلم يمكن أن يكتم الأمراض ويصبر على ذلك ، ويمكن أن يظهرها إذا لم يستطع الصبر لكن ينبغي ألا يجزع ، وبين فضل التارك للتكسب ، وبين حكم المتوكل إذا كان ذا بيت ، وذكر أحكام مقام الرضا عن اللّٰه والرضا عن الرزق ، وذكر أحكام المحبة ووصف أهلها ، وفي باب مطول حدثنا عن مخاوف المحبين ومقاماتهم في الخوف (ص ٥٨ - ٨٣) ، وينبغي أن نشير هنا إلى أن الخوف وتعلمه خوف إرادي .

والفرق بين الخوف الإرادي والخوف المرضي ، أن الأول يتعلمه المرء ويتدرب عليه ولا يسبب له سوى مزيد من اليقين واستقرار النفس ، أما الجزء الثاني فهو من وجهة نظر علم النفس الحديث نوع من الرهاب بحيث يخاف الإنسان من أمور ليست موضوعًا للخوف مثل القطط والفئران والأماكن الواسعة ، ولهذا يسمى مخاوف مرضية Phobias وهي من الأمراض النفسية (ص ٥٨ ، ٦٥ ، ٨١ ، ٨٣) .

وفي الفصل الثالث والثلاثين : ذكر المؤلف دعائم الإسلام الخمس التي بني عليها ، وهي شهادة أن لا إله إلا اللّٰه وأن محمدًا رسول اللّٰه ، وهنا بين المؤلف شهادة الرسول ﷺ وصفتها وذكر فضائل هذه الشهادة ، ثم بين فضائل شهادة التوحيد ووصف توحيد الموحدين ، والفرق بينهم وبين ضعاف الهمة في صرف هممهم لإحراز مقتضياته .

وفي الصفحات من (ص ٩٠ - ١٢٢) ، نجد أنفسنا أمام أحد كتب الفقه الذي يشرح الركن الثاني ثم الثالث والرابع والخامس التي بُني عليها الإسلام ، فنجده يتحدث عن مسائل مهمة لا يستقيم الدين والإسلام إلا منها فرائض الاستنجاء حتى تصح الصلاة، وفرائض الوضوء ، وفرائض الطهارة وسنن الوضوء ، وفضائل الطهارة ، وصفة الغسل من الجنابة ، ثم تحدث بعد ذلك عن فرائض الصلاة قبل الدخول فيها ، مثل استقبال القبلة والنية والإقامة ... إلخ ، وتحدَّث عن سنة الصلاة وأحكام الصلاة في الفهم والإدراك ، وهيئات الصلاة وآدابها ، وفضائل الصلاة وأداء هذه الفضائل بكل ما لها من آداب ، والحث على المحافظة على الصلاة وطريقة المصلين من الموقفين ، وهنا يجب أن نشير إلى أن ما ذكر من فضائل وآداب للصلاة (ص ٩٣) وما بعدها ما هو إلا حديثنا في علم النفس الحديث عن إستراتيجيات

التدعيم والثواب والعقاب التي ترد في طرق التعلم والاكتساب .

وفي باب الصلاة تحدث المؤلف عما يجول بخاطر المصلي ، وأحكام الخواطر في الصلاة ، الصدقة وآداب العطاء ، وفي كتاب الزكاة حدثنا عن فرائض الزكاة ، والفرق بينهما وبين الصدقات وذكر فضائل الصدقة وآداب العطاء ، وعن علاقة هذه الآداب بمفاهيم علم النفس الحديث ، لوجدنا أن مفهوم الآداب يرادف المعايير التي تقوم عليها عملية التنشئة الاجتماعية Socialization في علم النفس الاجتماعي ، وهي العملية النفسية التي بمقتضاها يتحول الإنسان من كائن بيولوجي إلى كائن نفسي (ص ٩٩) اجتماعي متحضر .

وفي كتاب الصوم ، حدثنا عن فقه فضائل الصوم ووصف الصائمين وأحوالهم وفي كتاب الحج ، ذكر فرائض الحج وفضائله وآدابه وهيئاته وفضائل الحجاج وطريق ومنهج السلف في ذلك ، ثم تحدث عن فضائل البيت الحرام وما جاء فيه ، وعرض في النهاية لمن كره المقام بمكة بلد الله الحرام ، وبهذا اكتملت أركان الإسلام الذي سرعان ما يرقى باليقين والأداء الدائم الملتزم إلى درجة الإيمان ؛ ولذا كان من المشروع والمنطقي أن يحدثنا في الفصل التالي عن الإسلام والإيمان .

الفصل الخامس والثلاثون : ورد فيه تفصيل الإسلام والإيمان وعقود السنة واعتقاد القلوب وشرح معاملة الناس من العلم الظاهر وذكر دعائم الإسلام وأركان الإيمان واتصال الإيمان والإسلام ، وشرح لنا معاملة القلب من العلم الظاهر ، وتحدث بعد ذلك عن مباني الإسلام وأركان الإيمان ، وإذا كنا قد تحدثنا مسبقًا عن مباني الإسلام وأركانه الخمس ، فإن الإيمان ينصرف إلى أسماء الله وصفاته وكتبه وأنبيائه ورسله والملائكة والشياطين والجنة والنار والبعث بعد الموت ، والقضاء والقدر خيره وشره حلوه ومره .

وفي نظر علم النفس الإرشادي Counseling psychology هذه أركان الإرشاد النفسي والصحة النفسية (ص ١٢٨ ، ١٢٩) ، ثم تحدث المؤلف بعد ذلك عن علاقة الإسلام بالإيمان وانتهى إلى أنها علاقة عضوية لا تنفصم عراها أبدًا ، والفرق بينهما فرق في الدرجة ، درجة اليقين ، وليس فرق في النوع أو الكيف وكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمن ، وتحدث بعد ذلك عن أوجه التفضيل لبيان ما نقل عن المحدثين ، وبين درجات الاستثناء في الإيمان والإشفاق من النفاق وطريقة السلف في ذلك ، وانتهى إلى صحابة رسول الله ﷺ الذين تعلَّموا في مدرسة النبوة خير من يُنقل عنهم ويؤخذ منهم

الإسلام والإيمان ، ومن ثم كان من الطبيعي أن يكون حديث المؤلف بعد ذلك منصبًّا على فضائل الصحابة .

الفصل السادس والثلاثون : جاء موضحًا فضائل أهل السنة والجماعة والطريقة ، وبيَّن لنا طرق السلف من الأئمة ، فالسنة هي من أسماء الطريق وهو اسم الطريق الأقوم ، ومن فضائلها التقلل من الدنيا في كل شيء والقناعة من اللَّه تعالى بأدنى شيء والتواضع للَّه بكل شيء ، وورد في هذا الفصل (ص ١٤٠) حديث عن شهوات النفس والعادات ، وهذا يرادف حديثنا في علم النفس العام عن مفاهيم الحاجات والرغبات في نظرية الدافعية والدوافع ، وتكوين العادات في نظرية التعلم والاكتساب .

وإذا كان هذا الفصل قد تحدث عن خصال المسلم وواجباته نحو أخيه المسلم فإن **الفصل السابع والثلاثين** قد تناول عرضها للكبائر التي تحبط الأعمال وتُوبقِ العمال وبين أن اللَّه اشترط لتكفير الصغائر من السيئات اجتناب الكبائر الموبقات وهي الشرك باللَّه والسحر والقتل والزنى ورمي المحصنات واليمين الغموس وشهادة الزور والربا وأكل مال اليتيم بالباطل وعقوق الوالدين والسرقة والفرار من الزحف وفعل قوم لوط .. ، ولابد للمؤمن من توبة ، وتحدث هذا الفصل عن عرى الإيمان وجمل الشريعة ، وتحدث عن سنن الجسد وما يجب على المرء من أداء للنوافل كزكاة لأعضاء الجسد .

الفصل الثامن والثلاثون : شرح لنا الإخلاص والنيات والأمر بتحسينها في تصريف الأحوال والتحذير من دخول الآفات عليها في الأفعال ، وبيَّن أنه لابد لكل عمل أو قول أو فعل نية ؛ لأن ذلك سيسأل عنه العبد في الآخرة أمام اللَّه فإن كانت النية للَّه وضعت في ميزان الحسنات وإن كانت لإشباع هوى وضعت في ميزان سيئاته ، ولا يتوفر الإخلاص إلا بنية صادقة خالصة لوجه اللَّه .

والنية والقصد تحدثنا عنهما مسبقًا من حيث علاقة ذلك بعلم النفس الحديث .

الفصل التاسع والثلاثون : وعرض المؤلف فيه لترتيب الأقوات بالنقصان منها أو بزيادة الأوقات ، أما الأقوات فقد كان بعض السلف ينقص منها حتى يرد النفس إلى أقل قوامها ، فمن أراد هذا الطريق فينقص في أكله ربع سبع رغيف فيكون تاركًا رغيفًا في كل الشهر برياضة وتمهل فلا يؤثر النقصان عليه شيئًا حتى تقف النفس على الأكل في ثلث بطنها وهو ثلث أكله المعتاد ، وهذا طريق المريدين ، وهناك طريق آخر يتبعه العلماء وهو طريق زيادة الأوقات فيؤخر أكله وقتًا بعد وقت حتى ينتهي إلى أكثر طاقة

النفس لحمل الجوع فلا يضعف الجسم عن الغرض أو خشية اضطرابات العقل ، فمن أراد هذا الطريق أخرَّ فطره كل ليلة إلى نصف ربع الليل حتى يكون قد طوى ليلة في نصف شهر (ص ١٦٤) ، وهذا طريق من أراد تأخير أكله السبع والعشر وخمس عشرة يومًا إلى الأربعين ؛ لأنه يعمل في تجويعه على مزيد الأيام ولا يعمل في نقصان الطعام حتى لا يؤثر ذلك نقصًا في عقله ولا ضعفًا عن أداء الفرائض إذا كان على صحة قصد وحسن نية وصدق عقل .

ومادمنا نتحدث عن تأخير الطعام والإقلال منه ، فكان لابد أن يتحدث **الفصل الأربعون** عن الأطعمة وسنن تناول الطعام وما ينبغي أن يجتمع من الأطعمة على مائدة واحدة ، وما يشتمل على الطعام من الكراهة والاستحباب ، ولقد أفاض المؤلف في ذلك وجمع كل آداب الخاصة بتناول الطعام ، وما يستحب للمرء أن يفعله إذا كان ضيفًا أو إذا كان مضيفًا ، وآداب تقديم الطعام والإقبال عليه والرفع عنه والبدء بالفاكهة ، ثم الطعام واللحوم بالذات وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون ، وذكر في الأثر أن تناول الطعام مع الإخوان له ثلاث فضائل : طيلة الجلسة فإن ساعة الطعام لا تحسب من العمر وتصلي الملائكة على الفرد ما دامت مائدته منصوبة وموضوعة بين يديه حتى ترفع ، والنفقة على الإخوان إذا أنفقها عليهم صاحبهم لا يحاسبه اللَّه عليها يوم القيامة ؛ لأنه يستحي من ذلك (ص ١٨١ ، ١٨٢) .

والدرس المستفاد هنا بطريق غير مباشر هو حض الإسلام على الجماعة في كل أمر حتى في الأكل ، وهذا ما يوافق دروس علم النفس وموضوعاته في علم ديناميات الجماعة البشرية Group Dynamics وعلم النفس الاجتماعي وهو العلم الذي يدرس سلوك الأفراد كما يتشكل من خلال المواقف والتنبيهات الاجتماعية (ص ١٨١ ، ١٨٢).

الفصل الحادي والأربعون : فقد أفرده المؤلف لشرح فرائض الفقر وفضائله ونعت عموم الفقراء وخصوصهم ، وتفصيل قبول العطاء ورده وطريقة السلف فيه ، فالفقراء أولياء اللَّه إذا كانوا راضين عن أحوالهم .

الفصل الثاني والأربعون : تحدث عن المقاصد في الأسفار وأحكام المسافر وربط السفر بالعبادة والإيمان باللَّه ، فقال : إذا سنح للمريد سفر فليسافر فالأرض أرض اللَّه وسكانها ، فإذا وجد رزقًا فليربح منه وليغتنم فهذه تجارة الآخرة ، وعليه أن ينظر حين السفر في آلاء اللَّه وآياته حتى يزداد إيمانًا ، وفصل الخطاب في السفر (ص ٢٠٧) ، ومن لم يكن

له في سفره حال يشغله وهم يجمعه ووقت يحسبه ومأوى يظله ومسكن يؤنسه وزاد من باطنه وعلم من عالمه فإن الحضر أرفق به لحاله وأصلح لقلبه وأسكن لنفسه من السفر ؛ لأنه يكون في السفر مشتت السر مفرق الهم تارة بوجود معلوم يخاف عليه ومرة بفقد معتاد يحن إليه ، ومرة باستشراف إلى خلق يطمع فيه ، فمرة يضعف قلبه مع العدم وتارة يقوى بالاستطلاع إلى البشر ومرة يفزع بفقد ما عنده ، والسفر يجمع هَمَّ الأقوياء ويشتت قلوب الضعفاء ويذهب أحوال أهل الابتداء ، ثم إن من لم يصلح قلبه ولم يستقم حاله في الحضر فإنه لا يصلح حاله ولا يستقيم قلبه في السفر .

وجملة القول : إن السفر عمل من الأعمال يحتاج إلى نية وإخلاص فمنه فرض وهو ما هرب به من معصية ، ومنه فضل وهو ما طلب به طاعة ومنه مباح وهو ما ضرب به في تجارة ومنه معصية وهو ما سعى به في الفساد .

الفصل الثالث والأربعون : حديث مطول عن وصف الإمامة والمأموم وهنا إذا كان المريد إمامًا لقومه فعليه شروط لابد أن يؤديها ، لابد أن يكون مجتنبًا للكبائر والفسوق والعصيان وغير مصر على الصغائر قارئًا لكتاب اللَّه ﷻ أو لما يحسن منه بغير لحن ولا إحالة معنى ، عالمًا بفرائض الصلاة وسننها وما يفسدها وما يوجب سجود السهو وما لا يوجبه منها ، وإن حدثت عليه حادثة في الصلاة لابد أن يخرج منها فورًا ويستخلف غيره من المأمومين .

الفصل الرابع والأربعون : وعقده المؤلف لدراسة الأخوة في اللَّه تبارك وتعالى والصحبة والمحبة للإخوان فيه وأحكام المؤاخاة وأوصاف المحبين ، وقد كانت المؤاخاة في اللَّه تعالى والصحبة لأجله والمحبة له في الحضر والسفر طرائق للعاملين في كل طريق فريق لما في ذلك من الفضل ، ولما جاء فيه من الأمر والندب إذ كان الحب في اللَّه ﷻ من أوثق عرى الإيمان وكانت الصحبة والألفة لأجله والمحبة والتزاور من أحسن أسباب المتقين ، وقد كثرت الأخبار في تفضيل أحسن أسباب المتقين ، وقد كثرت الأخبار في تفضيل ذلك والحث عليه ، والدرس المستفاد من هذا الفصل وعلاقة ذلك بالمفاهيم السيكولوجية أنه وضع لنا كثيرًا من الأسس التي ترادف ما وضعه علم النفس الحديث من معايير وأسس تحكم بناء الجماعة من ناحية وتحكم العلاقات الشخصية المتبادلة بين الأفراد من ناحية أخرى ، وكلاهما يدرس في علم ديناميات الجماعة الذي سبق الحديث عنه (ص ٢١٥ وما بعدها) .

الفصل الخامس والأربعون : تحدث فيه المؤلف عن الزواج وأحكامه ومختصر أحكام النساء في ذلك ، فالنكاح فرض مع الحاجة وسنة على الكفاية ، ومن أهم فوائد الزواج التي وعد اللَّه بها عباده أن يغنيه ويكفيه الضياع والشتات وفقد المنزل والأثاث ، ومن أهداف الزواج العفة والعصمة والتقرب إلى اللَّه بذلك ، وإذا قلنا في الدين طريقان : طريق الأقوياء وهو أهل النكاح والصبر على أحكامه وعلى معاشرة النساء ، وطريق آخر للأقوياء بالصبر عنهن ووجود العصمة منهن والتفرغ للآخرة ، وكفى بها شغلًا ، وطريق آخر من وجود الوسوسة وخوف العنت لقوة الطبع وضعف الحال بوجود الاختلاط فيبدأ بالنكاح طلبًا للاستقامة والصلاح ، وللَّه الأمر من قبل ومن بعد ، والحمد للَّه وحده .

الفصل السادس والأربعون : أوقفه المؤلف على ذكر أحكام وآداب دخول الحمام ، فالزواج وقضاء الحاجة تقتضي دخولنا الحمام ، فقد حرم رسول اللَّه ﷺ دخول النساء الحمام وحرمه على الرجال إلا بمئزر ، فإن دخلت المرأة الحمام ضرورة من علة أو حيض أو نفاس أو في شتاء فلا بأس ، وقد دخلت عائشة رضي الله عنها من سقم كان بها . ولكن لا بد أن ينهى الرجل زوجته وأهله عن دخول الحمام ؛ فإن لم يقبلن لم يحل له أن يعطيهن أجرة الحمام أن يليها للخدمة ذمية ، فقد نهى عمر وأبو عبيدة رضي الله عنهما عن ذلك ، وأكره للرجل أن يعطي امرأته أجرة الحمام فيكون معينًا لها على الإثم فإن نهاها فخالفته كان الإثم عليها .

الفصل السابع والأربعون : حدثنا فيه عن سبب المعاش والرزق ، وما يجب على التاجر من شروط العلم وشكر النعمة ، وفي هذا الفصل حث على السعي لكسب الرزق تعففًا عن المسألة وسعيًا على العيال ، وتعطفًا على الجار والمسكين والفقير والأرملة .

الفصل الثامن والأربعون : وهو الفصل الأخير ، فقد عقده المؤلف كما لو كان كتابًا في الفقه ؛ إذ شرح فيه تفصيل الحلال من الحرام وما بينهما من الشبهات ، وبيَّن كذلك فضل الحلال وذم الشبهة وتمثيل ذلك بصور مختلفة ، وتعريف ذلك للعقول والأفهام ، ولم يرد فيه ولا في سابقه مفاهيم سيكولوجية يمكن استنباطها غير التي سبق اشتقاقها .

أما عن فائدة هذا الكتاب من وجهة نظر السيكولوجيين ، أنه كتاب هداية للنفس وصقل لها ومساعدتها على الاتزان ، وهو منهج للطريق القويم ، ولكن له من الأسس ما يجعلنا نرشحه كتابًا في الإرشاد النفسي والتربوي ، وكتابًا في تعلم العادات الحسنة الجديدة ، وهو كتاب يقي من وقوع الإنسان فريسة للمرض النفسي .

* * *

البُستي (ت ٣٨٨هـ)
العزلة [١]

عرض د . عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف :

الإمام العلامة المفيد المحدث الرحال أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم خطاب البُستي الخطابي صاحب التصانيف ، سمع أبا سعيد بن الأعرابي بمكة ، وإسماعيل بن محمد الصفار وطبقته ببغداد وأبا بكر بن داسة بالبصرة ، وأبا العباس الأصم وطبقته بنيسابور ، روى عنه الحكام وأبو حامد الإسفراييني وأبو نصر محمد بن أحمد البلخي الغزنوي وأبو مسعود الحسين بن محمد الكرابيسي وأبو عمرو محمد بن عبد اللّٰه الرزجاهي وأبو ذر عبد بن أحمد الهروي اللغوي وأبو الحسين عبد الغفار الفارس ، وخلق سواهم .

وهم أبو منصور الثعالبي في اليتيمة حيث سماه أحمد بن محمد أقام مدة بنيسابور يصنف فعمل غريب الحديث وكتاب معالم السنن وكتاب شرح الأسماء الحسنى وكتاب العزلة - والذي نعرض له الآن - وكتاب الغنية عن الكلام وأهله وغير ذلك ، وكان ثقة ثبتًا من أوعية العلم قد أخذ اللغة عن أبي عمر ببغداد ، والفقه عن أبي علي بن أبي هريرة والقفال ، وله شِعر جيد . توفي الخطابي ببست في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة .

عرض الكتاب :

ويتضمن سبعة عشر بابًا نعرض لها على النحو التالي :

(١) خرج أحاديثه : عبد الغفار سليمان البنداري . بيروت : دار الكتب العلمية ، [د . ت] . (١١٩ص) .

١ – **باب : في حكاية ما احتج به من أنكر العزلة** : ويتضمن بعض الأحاديث والآيات التي تحث على الجماعة وتنفر من الفرقة بين المسلمين ، وقد قسمت العزلة إلى فرقتين ، الأولى : عزلة أو فرقة الآراء والأديان ، والثانية : عزلة الأشخاص والأبدان ، فالأولى محظورة في العقول محرمة في قضايا الأصول وتؤدي إلى الآراء المتناقضة وظهور طوائف شتى وأديان متباينة ، والثانية حكمها أن تكون تابعة للحاجة وجارية مع المصلحة ، بمعنى أنه إذا كانت مصلحة الفرد مرتبطة بمن حوله واعتزال الناس تضرر بوَحدته ، أما إذا كانت نفسه مستقلة فله الاختيار في اعتزال الناس ومفارقتهم إذا كان في مجانبتهم سلامة ، وفي التباعد عنهم راحة ، ولكن لا يجب هدم الحقوق الواجبة لهؤلاء الناس (كإفشاء السلام) والعادات المستحسنة فيما بينهم ؛ لأنها مستثناة من العزلة .

يقترب ذلك من مجال ديناميات الجماعة Group Dynamics إحدى فروع علم النفس الاجتماعي ، ويعنى أساسًا بالدراسة النفسية لسلوك الجماعات الصغيرة ، حول حياة الجماعة ، والعلاقات بين الأفراد داخل الجماعة الواحدة . كما يرتبط مضمون هذا الباب من حديث علماء النفس عن دوافع الأفراد لتكوين الجماعات الصغيرة سواء في نطاق الأسرة أو الفصل الدراسي أو محل العمل أو في اللعب والترفيه ... إلخ .

فالفرد ينضم إلى الجماعة لعدة أهداف بعضها داخلي (كإشباع حاجات معينة) ، وبعضها خارجي (فقد ينضم الفرد لجماعة معينة اعتقادًا منه في إمكانية عمل علاقات اجتماعية مستغلًّا عضويته في تلك الجماعة) .

٢ – **باب : ما جاء في العزلة** : وذكر فيه عزلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وموسى عليه الصلاة والسلام ، وأصحاب الكهف ، وكذلك عزلة سيدنا محمد ﷺ لقومه لما جفوه وآذوه فأمر أصحابه بالاعتزال في شعب أبي طالب والهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، والعزلة هي سنة الأنبياء وعصمة الأولياء عند حدوث الفتنة في أي زمان فإذا لم يستطع أن يعيش إلا بمعاصي الله ﷻ وجبت العزلة ، كما حدث عند حدوث الفتنة بين علي ﷺ ومعاوية ، وقد ذكر فيها أحاديث كثيرة .

• ويقترب مضمون هذا الباب من تماسك الجماعة Group Cohesiveness ودرجة جاذبيتها ، فقد ذكر الباحثون في مجال ديناميات الجماعة أنه من العوامل المؤدية إلى نقص جاذبية الجماعة ، اكتساب الجماعة لخصائص كريهة وغير سارة ، كما تبينَّ أن من

يفضلون العزلة يخشون الجماعة نتيجة لنقص الثقة بالنفس .

٣ - **باب : في ذكر أسباب تسهل على المرء العزلة** : وتفطمه عن صحبة كثير من ذوي الخلطة ، ففي العزلة لا تجد أعوانًا على الغيبة ، وتسلم من آفة الرياء والنفاق ، وفيها السلامة من آفة النظر إلى زينة الدنيا وزهرتها والتطلع إلى مباهجها ، كما أنها بها السلامة من الطمع ، والتطلع إلى ملك الدنيا الزائل ، وفيها الدفاع عن النفس - أيضًا - إذا كان من حولك كلهم أشرارًا ، وفيها السلامة من ذل الهوان ، كما أنها تستر الفاقة وتكشف جلباب التجمل ، بمعنى أنك لا تظهر عورة في جسمك قد تشمت عدوك فيه ، كما أنها تعين على العلم والرأي الرزين واستنباط الحكمة ، كما أن فيها السلامة من حتمية الضيف أو الصديق الثقيل ، وهو ما يسمى بالعمر الأصغر .

• ويرتبط هذا الباب بموضوع أو مفهوم جاذبية الجماعة Group Attraction ومدى ما يتحقق له من مكسب وخسارة نتيجة الانضمام إلى الجماعة ، فالفرد - كما أوضح الباحثون في ديناميات الجماعة - يحاول الابتعاد والتخلص من عضويته في الجماعة إذا أصبحت محصلة الجاذبية أقل من صفر ، ولكنه يتخلى فعلًا عن الجماعة إذا زادت القوى التي تبعده عن الجماعة عن مجموع القوى الجاذبة ، وبوجه عام يشير مضمون هذا الباب إلى مزايا العزلة Isolation مقابل التفاعل مع الجماعة وتكوين الصداقات .

٤ - **باب : في خفة الظهر ، وقلة العيال والأهل** ، وفيه مدح لقليل المال وخفيف العيال ؛ لأنه إذا اعتزل الناس فلا ينشغل بما تركه وراءه من مال أو عيال ؛ ولأن كثير المال يمكن أن يفتن به ، ومن ليس له مال يكون في حاجة إلى الناس ، أما كثير العيال والأهل فإنه يكون مشغولًا بالكسب لهم .

• ويشير ذلك إلى اهتمامات الأفراد Interest ، كمؤشر يعكس قيمهم Values ، فالشخص كثير المال يتبنى القيمة الاقتصادية بدرجة كبيرة ، أما من ليس له مال ، أو ماله قليل فإنه يتبنى قيمًا أخرى كالصداقة Friendship والتفاعل مع الآخرين وكأن اهتمامات الفرد تؤدي به إلى احتضان قيم ودوافع دون غيرها .

٥ - **باب : في ترك الاستكثار من الأصدقاء وما يستحب من قلة الالتقاء** ، ويتضمن عددًا من الأحاديث التي تشير إلى الإقلال من صحبة الناس ؛ لأن كثرة أصدقاء المرء من سخافة دينه ، والرجل صلب الدين لا يصاحب إلَّا الأتقياء ، وهم قلة .

كما أنه به إشارة إلى الإقلال من الالتقاء بالأصدقاء حيث ذكر أن بعض الأصدقاء لا يلتقون إلا مرة كل سنة ؛ لأن تقارب القلوب لا يغيره تباعد الأجسام .

• ويرتبط ذلك بموضوع الصداقة Friendship وشروط اختيار الأصدقاء ، وعددهم ، فكلما قلَّت صداقات الفرد وانحصرت في عدد محدود كانت أفضل وأكثر تفاعلًا ، وأصبح الشخص قادرًا على اختيارهم بأفضل ما يمكن ، بحيث تتوفر فيهم الصفات والقيم الإيجابية .

٦ - باب : في ترك ما لا يعني ، ورفض الاشتغال بما لا يجدي ، ويشير إلى أن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه وعدم الكلام في ما لا يعنيه والصمت عن الأمور والقضايا التي لا تهمه وترك الغيبة وعدم المجادلة سواء مع الحليم أو السفيه ؛ لأنها ليست من الدين . أيضًا يجب عدم الاشتغال بما لا يعود عليك بفائدة ، كما أن من صفات المسلم الحق الشورى (الاستشارة) ولكن عليه أن يستشير من لا يتدخل في أموره فيما بعد .

٧ - باب : في التحذير من قرناء السوء وحسن اختيار الجليس والصاحب ، وينبهنا إلى أن نختار الأصدقاء والأخلاء من المسلمين ذوي الأخلاق الحميدة التي دعا إليها الإسلام ، ومصاحبة من تستفيد من فضائله وعلمه وأدبه ، فإن لم تجد فالوحدة خير من جليس السوء ؛ لأنه سوف يصيب من يصاحبه بالرذائل ويحط من هيبته ومنزلته عند الناس .

• ويقترب ذلك من الشروط التي يجب توافرها في الأصدقاء ، والقيم أو الفضائل الأخلاقية Moral Values التي يجب أن يتصفوا بها (كالصدق ، والأمانة ، والتدين ، والعلم ، والعقل ، والحكمة ... إلخ) ، وذلك كما يرى الكثير من علماء النفس ، وخاصة أصحاب نظرية التعلم الاجتماعي Social Learning Theory ، والذين يؤكدون التعلم واكتساب أنماط ومظاهر السلوك من خلال وجود النموذج Model والتعلم بالعبرة ، Vicarious Learning أو المشاهدة لسلوك وتصرفات الآخرين .

٨ - باب : في اختلاف طبقات الناس ، فالناس أصناف وطبقات وبينهم تفاوت في الطباع والأخلاق ، فمنهم الخير والفاضل ، ومنهم الرديء والناقص والخبيث ، مثلهم مثل المعادن ، والمحن تكشف عن أسرارهم وبواطن أمورهم ، وقد شبه الناس في صفاتهم بالأنعام ، وقد أخبر الحق تبارك وتعالى عن وجود المماثلة بين الناس والدواب والطيور ، وهذه المماثلة تكمن في الطباع والأخلاق وليس من جهة الخلقة والصورة .

● ويقترب ذلك في علم النفس من مفهوم الفروق الفردية Individual Diffrences في الطباع والخصال بين الأشخاص باختلاف العمر وسمات الشخصية والإطار الحضاري وغير ذلك من العوامل الفسيولوجية والبيولوجية والاجتماعية والنفسية ، وكذلك من ارتقاء السلوك البشري Development of Human Behaviour عن السلوك الحيواني في جوانب وصفات تميز الإنسان عن الحيوان (في الطباع والأخلاق) .

٩ - **باب : في ذكر أخلاق العامة ، وما يوجد فيهم من قلة الاستفاضة** ، وفيه ذكر أن الشر في الناس طبيعة ، وحب الخلاف والمجادلة عندهم عادة ؛ ولذلك يؤذون من لا يؤذيهم ويظلمون من لا يظلمهم ويخالفون من ينصحهم ، والإنسان يسلم من ذلك كله إذا مات فقط .

● ويرتبط ذلك بمفهوم الغريزة Instinct ، غريزة الشر والعدوان في النفس البشرية ، وهو مفهوم أكدت عليه بعض النظريات المفسرة لسيكولوجية الشخصية مثل ماكدوجل وفرويد .

١٠ - **باب : في التحذير من عوام الناس والتحرز منهم بسوء الظن وقلة الثقة بهم ، وترك الاستنامة إليهم** ، وفيه تحذير أو نصيحة في معاملة الناس بأن نسيء الظن بهم ولا نثق بهم تمام الثقة سواء في معاملتهم أو في كلامهم ، فقد قال عمر بن الخطاب ﷺ : « احترسوا من الناس بسوء الظن » .

● ويرتبط هذا الباب بكيفية التخاطب والتفاعل مع الآخرين Communication and Interaction فلكي يكون مصدر Source التخاطب جيدًا يجب أن يتسم بعدد من الصفات التي تكسبه مصداقية ، كالنزاهة والموضوعية والخبرة ، وغير ذلك .

١١ - **باب : في فساد الزمان وأهله** ، قال رسول الله ﷺ : « **يذهب الصالحون الأول فالأول وتبقى حثالة كحثالة الشعير** » ، وحثالة الشعير رذالته وما لا فائدة فيه ، وهي تعبير عن فساد الزمان وأهله ، وقد قل الناس وبقي من إذا استنصرتهم خذلوك ، وإن كنت رفيعًا حقروك ، وإن كنت عالمًا ضللوك ، فالناس طبقات : منهم السفيه الذي يجاهر بالشتم ، ومنهم من يشجو أخاه بغمز العين ، ومنهم من لا يعاجل بالسوء ولا يؤاخذ بالذنب ... إلخ .

● ويقترب ذلك من حديث بعض الباحثين عن موضوع التغير الاجتماعي Social Change والذي يصاحبه تدهور وانهيار في القيم الأخلاقية مع اختلاف العصور والأزمنة .

١٢ - باب : فيمن يتمنى الموت ، وآثر المرض والعمى على لقاء الناس ، ويشير إلى أن بعض الناس يتمنى الموت والعمى خوفًا من رؤية الآخرين من الإخوة والأصدقاء وقد هلكوا وتغير حالهم نحو الأسوأ .

١٣ - باب : في ترك الاعتداد بعوام الناس ، وقلة الاكتراث بهم والتحاشي لهم ، فيجب عدم الاهتمام بما يقوله الناس عنك وألا تغتر بكلام العوام وثنائهم ومدحهم لك وألا تثق بعهودهم وإخائهم .

١٤ - باب : في فساد الخاصة ، وما جاء في علماء السوء وذكر آفاتهم ، قال رسول الله ﷺ : « **إن آفة العلم ذهاب أهله ، وانتحال الجهال وترؤسهم على الناس باسمه** » ، وحذر الناس أن يقتدوا بمن كان من أهل هذه الصفة ، وأخبر أنهم ضلال مضلون ، وأنذر به ﷺ في حديث آخر . وقد صُنف طلاب العلم إلى ثلاث : صنف تعلموه للمراء والجهل ، وصنف تعلموه للاستطالة والانتهازية ، وصنف تعلموه للتفقه والعقل .

● ويقترب هذا الباب من مفهوم الاقتداء Modeling في مجال علم النفس الاجتماعي وخاصة لدى أصحاب نظرية التعلم الاجتماعي ، كما يرتبط - أيضًا - بموضوع القيادة Leadership ، فهناك إشارة لضرورة أن يكون القائد والرئيس من العلماء الذين يعملون بعلمهم .

١٥ - باب : في آفات القراء ، وفيه تحذير من القراء الذين لا علم لهم ؛ لأنهم إن لم يرضوا عنك دبروا لك المكيدة والمؤامرة ، فهم يتميزون بسوء الخلق والجهل الذي يحملهم على الإعجاب بأنفسهم ، وظواهرهم تدعو الجهال من العامة إلى تعظيمهم والتعصب لهم ، ولكن هم والعلم على تضاد وخلاف ، وقد يتمكّن الشيطان منهم فيفعلون عملًا خاطئًا وهم يظنون أنهم على صواب ، لذلك فالعزلة تنفع العلماء العقلاء ، وهي من أضر الأضرار على الجهال .

١٦ - باب : في فساد الأئمة ، حذر الرسول ﷺ من إمارة السفهاء الذين لا يهتدون بهديه ولا يستنون بسنته ، ووعد من يصدقهم بألا يشفع له يوم القيامة ، ومن لا يصدقهم فأولئك أصحابه . فأفضل الجهاد عند رسول الله ﷺ كلمة عدل عند سلطان ظالم ، فهناك تحذير من صحبة السلاطين ومجاراتهم في أهوائهم ، ونصيحة بالبعد عن مجالستهم .

● ويرتبط هذا الباب بمفهوم المجاراة أو المسايرة Conformity في علم النفس

الاجتماعي ، وكذلك مفهوم القيمة الأخلاقية كالصدق والأمانة (ص١٠٦ - ١١٠) .

١٧ - **باب : في لزوم القصد ، في حالتي العزلة والخلطة** . عاب الرسول ﷺ الإفراط في عبادة الخالق ﷻ ، والحمل على النفس مما يؤدي إلى قتلها ولكن يجب الدخول في الدين برفق ، فالإغراق في كل شيء مذموم وخير الأمور أوسطها .

● ويرتبط هذا الباب بشكل غير مباشر بظاهرة التطرف الديني والاتجاهات الدينية كموضوع يقع في دائرة اهتمام علم النفس الاجتماعي .

أوجه الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس الاجتماعي .

* * *

إخوان الصفا (القرن الرابع)
رسالة إخوان الصفا وخلان الوفا [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف
د . معتز سيد عبد اللّه
د . عبد اللطيف خليفة

التعريف بالمؤلفين :

تألفت جماعة إخوان الصفا في القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي) وكان موطنها البصرة ، ولها فرع في بغداد ، ولم يُعرف من أشخاصها سوى خمسة يتغشاهم الغموض والشك ، ولا يسفر اليقين عن حقيقة أمرهم بما يطمئن إليه الخاطر وينشرح له الصدر لما كانوا عليه من التستر والاكتتام ، فقد ذكرت أسماؤهم وكأنها لم تذكر ، لجهل أخبارهم وأحوالهم ، فقيل إن أحدهم هو أبو سليمان محمد بن معشر البستي المعروف بالمقدسي ، والآخر أبو الحسن علي بن هارون الزنجاني ، ثم أبو أحمد المهرجاني ، ويسميه المستشرق دي بور محمد بن أحمد النهرجوري ، فأبو الحسن العوفي ، فزيد بن رفاعة ، ويؤخذ من كلام لأبي حيان التوحيدي أثبته أحمد ذكي باشا في مقدمته لرسائل الإخوان ، أن زيد بن رفاعة كان متهمًا بمذهبه .

وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعِشرة وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهبًا زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان اللّه وذلك أنهم قالوا إن الشريعة قد دُنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ؛ لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة

(١) بيروت ، دار صادر ، ٤ ج في ٤ مج .

الاجتهادية وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية ، والشريعة العربية فقد حصل الكمال .

وتتألف جماعة الإخوان من أربع مراتب :

١ – مَن يملكون صفاء جوهر نفوسهم وجودة القبول وسرعة التصور . ولا يقل عمر العضو فيها عن خمسة عشر عامًا ؛ ويُسمَّوْن بالأبرار والرحماء ، وينتمون إلى طبقة أرباب الصنائع .

٢ – مَن يملكون الشفقة والرحمة على الإخوان . وأعضاؤها من عمر ثلاثين فما فوق ؛ ويُسمَّون بالأخيار الفضلاء . وطبقتهم ذوو السياسات .

٣ – مَن يملكون القدرة على دفع العناد والخلاف بالرفق واللطف المؤدّي إلى إصلاحه . ويمثل هؤلاء القوة الناموسية الواردة بعد بلوغ الإنسان الأربعين من العمر ، ويُسمَّون بالفضلاء الكرام ، وهم الملوك والسلاطين .

٤ – المرتبة الأعلى هي التسليم وقبول التأييد ومشاهدة الحق عيانًا . وهي قوة الملكية الواردة بعد بلوغ الخمسين من العمر ، وهي الممهّدة للصعود إلى ملكوت السماء ؛ وإليها ينتمي الأنبياء .

فمن النظر إلى هذه المراتب الأربع نرى بُعد أنظار الإخوان في بث دعوتهم في مختلف الطبقات لتعميم آرائهم وعقائدهم ؛ واعتمدوا في المرتبة الأولى على الشبان خصوصًا لسلامة صدورهم وشدة اندفاعهم في تأييد ما تستمال إليه قلوبهم ، مع ما هم عليه من مزية الارتياض بالطاعة وقبول العلم والإرشاد ، ونجدهم في رسائلهم يبعثون مندوبين من قبلهم إلى أشخاص من ذوي الرئاسة والجاه والمال ، ويوصونهم أن يتلطفوا في دعوتهم واستمالتهم إلى مذهبهم ليكونوا لهم سندًا تشتد به قواهم ، لما نالهم من الاضطهاد وسوء القالة ، فاستتروا تقية من السلطان ورجال الدين ؛ لئلا يتعرضوا لأخطار تؤذيهم ، فإنهم وإن كانوا من أهل الدعوات الباطنية ، ولهم قرابة بالقرامطة أو الإسماعيلية – فلقد خالفوهم في عقيدة الخروج على أولي الأمر ، والاستنصار بالفتك والترويع والاستيلاء على البلدان لبلوغ غايتهم ، وأحمدوا الإخلاد إلى السكينة ، وانتظار الوقت الملائم للثورة والعصيان . وتداعوا إلى العمل الصالح في تثقيف العقول والنفوس بمذهب يجمع بين الفلسفة والدين موفقًا بينهما من طريق المحبة وصفاء الأخوة فيزول ما علق بالشريعة من الجهالات والضلالات ، ويحصل الكمال للإنسان .

وكان عصرهم ، بحياتيه السياسية والفكرية ، يساعدهم على بث آرائهم في المجتمع الإسلامي ، فإن ضعف الدولة العباسية شجع العلويين على طلب الاستقلال وموالاة الثورات والفتن ، فظهر دعاتهم في المغرب والعراق واستولوا على النواحي القاصية ،

وأسسوا لهم ممالك فيها ، فكان منهم الأدارسة في المغرب الأقصى ، والعبيديون أو الفاطميون بالقيروان ، ثم بمصر ، والقرامطة بالبحرين ، والدواعي بطبرستان ، ثم فيها من بعدهم الديلم والأطروش ، وانبسط سلطان البويهيين على فارس والعراق ، وسلطان الحمدانيين على سورية الشمالية يضم إليه الجزية ما بين دجلة والفرات ، إلى العاصي في حماة وحمص ، فخروج العلويين المتواصل مكّن لهم في كثير من الولايات فسيطروا واستقلوا حتى غلبوا العباسيين على أمرهم في بغداد وصار الأمر لبني بُويه . ورافقتهم في ثوراتهم وفتنهم الدعوات الباطنية تنتشر في الأمصار داعية للرضا من أبناء علي ، أو مبشرة الناس بظهور المهدي ليطهر الأرض من الجور والفساد ، حتى باتت الخواطر على تنظّر دائم لرسول تبعثه السماء ، ولخارجي مغامر يملك الأرض ويحتل مكان مالك آخر .

والواقع أن ادعاءات الإخوان وراءها أسرار إذا انكشفت ظهرت حقائقها ، فإنها مدعاة للشك في إسلامهم ، فكلامهم على يسوع أنه عن ميمنة عرش الرب قد قرب مثواه كما يقرب ابن الأب ، ينطبق على العقيدة المسيحية لا على العقيدة الإسلامية ، ثم ما ذكروا بعده من أسماء يونانية وفارسية ، يكتنفها النور السماوي ، يدخل بهم إلى هيكل الوثنية ، ويحمل المسلمين على اتهامهم ، وإساءة الظن بهم ، وجاء تكتمهم في اجتماعاتهم مساعدًا على الريبة بهم .

ويرجع الإخوان مصادر علومهم إلى أربعة كتب : أولها المصنفة على ألسنة الحكماء من الرياضيات والطبيعيات ، وثانيها الكتب المنزلة ؛ كالتوراة والإنجيل والقرآن وغيرها من صحف الأنبياء ، وثالثها الكتب الطبيعية وهي صور أشكال الموجودات بما هي عليه الآن من تركيب الأفلاك وأقسام البروج وحركات الكواكب ومقادير أجرامها ... إلخ ، ورابعها الكتب الإلهية التي لا يمسها إلا المطهرون الملائكة ، وهي جواهر النفوس وأجناسها وأنواعها وجزئياتها وتصاريفها للأجسام ... إلخ .

مصدر الترجمة : المجلد الأول من رسائل إخوان الصفا للمحقق بطرس البستاني ، بيروت : دار صادر .

عرض الرسائل :

قدم إخوان الصفا رسائلهم في أربعة أقسام أساسية هي القسم الرياضي ، والقسم الطبيعي ، وقسم النفسانيات والعقليات ، وقسم الآراء والديانات ، وقد قدمت هذه الأقسام من خلال أربعة مجلدات نعرض لتفاصيلها على النحو التالي :

المجلد الأول : القسم الرياضي :

ويقع المجلد في ٤٦٣ صفحة من القطع المتوسط ، ويشتمل على أربع عشرة رسالة في العدد ، وفي الموسوعة بجو مطريا في الهندسة وبيان ماهيتها ، والموسوعة بالأسطر ، ونوميا في علم النجوم وتركيب الأفلاك ، وفي الجغرافيا ، وفي الموسيقى ، وفي النسبة العددية والهندسية في تهذيب النفس وإصلاح الأخلاق ، وفي الصنائع العلمية والغرض منها ، وفي الصنائع العملية والغرض منها ، وفي بيان الأخلاق وأسباب اختلافها وأنواع عللها ، ونكت من آداب الأنبياء وزبد من أخلاق الحكماء ، وفي إيساغوجي ، وفي المتوالات العشر التي هي قاطيغورياس ، وفي معنى بارامانياس ، وفي معنى أنولوطيقا الأولى والثانية ، وفيما يلي نعرض للرسائل الثلاث التالية لما تشتمل عليه من بعض الدلالات النفسية :

رسالة في الصنائع العلمية والغرض منها : وتشتمل على مجموعة من الفصول ، الأول في مثنوية الإنسان ، وفيه يوضح المؤلفون أنه لما كان الإنسان هو جملةً مجموعةً من جسد جسماني ونفس روحانية ، وهما جوهران مُتباينان في الصفات متضادان في الأحوال ، ومشتركان في الأفعال العارضة والصفات الزائلة ، صار الإنسان من أجل جسده الجسماني مريدًا للبقاء في الدنيا ، متمنيًا للخلود فيها ، ومن أجل نفسه الروحانية صار طالبًا للدار الآخرة ، متمنيًا للبلوغ إليها ، وهكذا أكثر أمور الإنسان وتصرف أحواله مثنوية متضادة ؛ كالحياة والممات ، والنوم واليقظة ، والعلم والجهالة ، والتذكر والغفلة ، والعقل والحماقة ، والمرض والصحة ، والفجور والعفة ، والبخل والسخاء ، والجبن والشجاعة ، والألم واللذة ، وهو متردد بين الصداقة والعداوة ، والفقر والغنى ، والشبيبة والهرم ، والخوف والرجاء ، والصدق والكذب ، والحق والباطل ، والصواب والخطأ ، والخير والشر ، والقبح والحسن ، وما شاكلها من الأخلاق والأفعال المتضادة المتباينة التي تظهر من الإنسان الذي هو جملةٌ مجموعةٌ من جسد جسماني ونفس روحانية . والمفاهيم السابقة تعبِّر عن مجموعة من سمات الشخصية يبرز خلالها مفهوم البعد أو المتصل ، كما أنها تشير إلى التكامل بين مفهومي النفس والجسم (ص ٢٥٨ ، ٢٥٩) .

وتلا ذلك الفصل الثاني في الصفات المختصة بالجسد والنفس ، وفيه أوضح المؤلفون أن الصفات المختصة بالجسد بمجرده هي أن الجسد جوهر جسماني طبيعي ذو طعم ولون ورائحة وثقل وخفة وسكون ولين وخشونة وصلابة ورخاوة وقوة ، وهو متكون من الأخلاط الأربعة التي هي الدم والبلغم والمرتان المتولدة من الغذاء الكائن من الأركان

الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض ذوات الطبائع الأربع التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، وهو منفسد (أعني الجسد) ومتغير ومستحيل وراجع إلى هذه الأركان الأربعة بعد الموت الذي هو مفارقة النفس الجسد وتركها استعماله ، وأما الصفات المختصة بالنفس بمجردها فهي أنها جوهرة روحانية سماوية نورانية حية بذاتها علّامة بالقوة ، فعّالة بالطبع ، قابلة بالطبع ، قابلة للتعاليم ، فعالة في الأجسام ، ومستعملة لها ، ومتممة لأجسام الحيوانية والنباتية إلى وقت معلوم ، ثم إنها تاركة لهذه الأجسام ومفارقة لها ، وراجعة إلى عُنصُرها ومعدنها ومبدئها كما كانت ، إما بربح وغبطة أو ندامة وحُزن وخُسران ، ويرتبط مضمون هذا الفصل بمفهوم أنماط الشخصية Personality Types ، ومفهوم العلاقة بين النفس والجسم (ص ٢٦٠) .

وتلا ذلك فصل في مثنوية الإنسان ومثنوية الأعمال ، وفيه يبيِّن المؤلفون أن قُنْيَة الإنسان نوعان : جسمانية كالمال ومتاع الدنيا ، وروحانية ، كالعلم والدين ، وذلك **أن العلم قُنْيَة للنفس ، كما أن المال قنية للجسد .**

وتلا ذلك فصل في العلم والمعلوم والتعلم والتعليم وأوجه السؤال ، وفيه يبيِّن المؤلفون أن العلم هو صورة المعلوم من نفس العالم ، وضده الجهل وهو عَجم تلك الصورة من النفس ، وأن أنفُس العلماء علّامة بالفعل ، وأنفس المتعلمين علامة بالقوة ، وأن التعلم والتعليم ليسا شيئًا سوى إخراج ما في القوة (يعني الإمكان) إلى الفعل ، (يعني الوجود) ، فإذا نسب ذلك إلى العالم سمي تعليمًا ، وإن نُسِب إلى المتعلم سمي تعلمًا . ويعد ذلك إشارة إلى مفهوم التعلم Learning (ص ٢٦٢) .

وتلا ذلك فصل في أجناس العلوم ، وأخيرًا أنهى المؤلفون الرسالة بفصل في العلوم الإلهية ، وهي خمسة أولها : معرفة الباري ، والثاني : علم الروحانيات ، والثالث : علم النفسانيات ، وهي معرفة النفوس والأرواح السارية في الأجسام الفلكية والطبيعية ، والرابع : علم السياسة وهي خمسة أنواع ، أولها : السياسة النبوية وهي معرفة كيفية وضع النواميس المَرضية والسنن الزكية بالأقاويل الفصيحة ، ومداواة النفوس المريضة من الديانات الفاسدة ، والآراء السخيفة ... إلخ ، والثاني السياسة الملوكية وهي معرفة حفظ الشريعة على الأمة ، وإحياء السنة في الملة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والثالث : السياسة العامة التي هي الرياسة على الجماعات ، ويرتبط هذا الجزء السابق بمفهومي سيكولوجية السياسة Psychology of Politics (ص ٢٧٣ ، ٢٧٤) ومفهوم القيادة Leadership (ص ٢٧٣ ، ٢٧٤) ، والنوع الرابع هو السياسة الخاصة التي هي معرفة

كل إنسان كيفية تدبير منزله وأمر معيشته ، ومراعاة أمر خدمه وغلمانه وأولاده ومماليكه ... إلخ ، وأخيرًا السياسة الذاتية وهي معرفة كل إنسان نفسه وأخلاقه ، وتفقد أفعاله ، وأقاويله في حالة شهواته وغضبه ورضاه ، والنظر في جميع أموره ، ويرتبط ذلك بمفهوم الوعي بالذات Self - Awareness (ص ٢٧٤) ، أما النوع الأخير من أنواع العلوم الإلهية فهو علم المعاد .

رسالة في الصنائع العملية والغرض منها : وتشتمل على مجموعة من الفصول ، أحدها في الصورة والهيولى والأداة ، والثاني في أن موضع الصناع نوعان ، والثالث في الحاجة إلى الآلات والأدوات ، والرابع في أن النار من الأدوات المفيدة في الصناعة ، والخامس في مراتب الصناعات ، وفيه إشارة صريحة إلى مفهوم العائلات أو الفصائل المهنية في علم النفس الصناعي (ص ٢٨٦ ، ٢٨٧) ، والسادس في شرف الصنائع ، وفيه يوضح المؤلفون أن أكثر الصنائع أهلها متفاوتون في منافعها كاختلافهم في الملبوسات والمأكولات والمشروبات ، وهو ما يعد إشارة إلى مفهوم الفروق الفردية Individual Differences (ص ٢٨٨) .

وتلا ذلك الفصل السابع وهو في قابلية الإنسان الصنعة ، فقبول الصبيان تعلم الصنائع يختلف بحسب طباعهم المختلفة ، واختلاف طباعهم بحسب مواليدهم ، ويرتبط مضمون هذا الفصل بمفهوم القابلية للتعلم (ص ٢٩٠ - ٢٩٢) .

وتلا ذلك الفصل الثامن وهو في الغرض من الملك ، وأخيرًا الفصل التاسع وهو في أن الجسم لا يتحرك من ذاته ، وفيه إشارة إلى مفهوم القدوة أو النموذج الاجتماعي Social model في التعلم ، حيث أوضح المؤلفون أن كل صانع من البشر لا بد له من أستاذ يتعلم منه صنعته أو علمه وذلك الأستاذ من أستاذ له قبلُ ، هكذا حتى ينتهى إلى واحد ليس عِلْمه من أحد من البشر ... إلخ (ص ٢٩٤) .

رسالة في بيان الأخلاق وأسباب اختلافها وأنواع عللها ونكت من آداب الأنبياء وزبد من أخلاق الحكماء : وتشتمل على مجموعة من الفصول ، يبدأها المؤلفون بفصل في قابلية الإنسان جميع الأخلاق ، ثم فصل في وجوه اختلاف الأخلاق ، فأخلاق الناس وطبائعهم تختلف من أربعة وجوه ، أحدها : من جهة أخلاط أجسادهم ومزاج أخلاطها ، والثاني : من جهة تربة بلدانهم واختلاف أهويتها ، والثالث : من جهة نشوئهم على ديانات آبائهم ومعلميهم وأساتيذهم ومن يربيهم ويؤدبهم ، والرابع : من

جهة موجبات أحكام النجوم في أصول مواليدهم ، ومساقط نطفهم ، وهي الأصل وبقايا فروع عليهم .

وتلا ذلك فصل في اختلاف الأخلاق من جهة الأخلاط ، وفصل في خلق آدم عليه السلام ، كما وجد في بعض كتب بني إسرائيل ، وفصل في تأثير طبيعة البلدان في الأخلاط فاختلاف البلدان في العديد من الخصائص يؤدي إلى اختلاف أمزجة الأخلاط ، واختلاف أمزجة الأخلاط يؤدي إلى اختلاف إخلاف أهلها وطباعهم وألوانهم ولغتهم وعاداتهم وآرائهم ومذاهبهم وأعمالهم وصنائعهم وتدابيرهم وسياستهم ، لا يشبه بعضهم بعضًا ، بل تنفرد كل أمة منها بأشياء من هذه التي تقدم ذكرها لا يشاركها فيها غيرها ، ويرتبط مضمون هذا الجزء بموضوع الدراسات الثقافية المقارنة . Cross - Cultural Studies والفروق الثقافية بين مختلف البلدان في مختلف المتغيرات النفسية والاجتماعية (ص ٣٠٢ - ٣٠٥) .

وتلا ذلك فصل في ماهية الأخلاق ، والشيء المهم في هذا الفصل هو الحديث عن مطلب في التربية ، فالعادات الجارية بالمداومة فيها ، تقوي الأخلاق المشاكلة لها ، كما أن النظر في العلوم والمداومة على البحث عنها ، والدرس لها ، والمذاكرة فيها ، يقوي الحذق بها والرسوخ فيها ، وهكذا جميع الأخلاق والسجايا ، والمثال في ذلك أن كثيرًا من الصبيان إذا نشأوا مع الشجعان والفرسان وأصحاب السلاح ، وتربوا معهم ، تطبعوا بأخلاقهم ، وصاروا مثلهم ، وهكذا - أيضًا - كثير من الصبيان إذا نشأوا مع النساء والمخانيث والمعيوبين ، وتربوا معهم ، تطبعوا بأخلاقهم ، وصاروا مثلهم ، إن لم يكن في كل الخلق ففي بعض ، وعلى هذا القياس تجري سائر الأخلاق والسجايا التي يتطبع عليها الصبيان منذ الصغر ، إما بأخلاق الآباء والأمهات أو الإخوة والأخوات والأتراب والأصدقاء والمعلمين والأساتذة المخالطين لهم في تصاريف أحوالهم ، وهذا الجزء على علاقة وثيقة بمفهوم التنشئة الاجتماعية (ص ٣٠٧) .

وتلا ذلك فصل في أن من الناس من يكون اعتقاده تابعًا لأخلاقه ، ومنهم من تكون أخلاقه تابعة لاعتقاده ، وذلك أن من يكون مطبوعًا على طبيعة مِريخية فإنه تميل نفسه إلى الآراء والمذاهب التي يكون فيها التعصب والجدال والخصومات أكثر ، وهكذا - أيضًا - من يكون مطبوعًا على طبيعة مشترية ، فإنه تكون نفسه مائلة إلى الآراء والمذاهب التي يكون فيها الزهد والورع واللين أكثر ، وعلى هذا القياس توجد آراء الناس ومذاهبهم تابعة لأخلاقهم . وأما الذي تكون أخلاقه تابعة لاعتقاده فهو الذي إذا اعتقد

رأيًا أو ذهب مذهبًا وتصوره وتحقق به ، صارت أخلاقه وسجاياه مشاكلة لمذهبه واعتقاده ؛ لأنه يصرف أكثر همه وعنايته إلى نُصرة مذهبه ، وتحقيق اعتقاده في جميع مُتصرفاته ، فيصير ذلك خلقًا له وسجية وعادة يصعب إقلاعه عنها وتركه له .

ويرتبط هذا الجزء بمفهوم التنشئة الاجتماعية (ص ٣٠٧ ، ٣٠٨) ومفهوم المعتقد Belief (ص ٣٠٧ - ٣١٠) ، ومفهوم الأخلاق Morality (ص ٣٠٧ - ٣١١) ، ومفهوم الرأي Opinion (ص ٣٠٧) .

وتلا ذلك فصل في مراتب الأنفس ، وهي ثلاثة أنواع ، فمنها مرتبة الأنفس الإنسانية ، ومنها ما هي فوقها ، ومنها ما هي دونها ، وبعد ذلك أوضح المؤلفون بأن من الأخلاق والقوى ما هي منسوبة إلى النفس النباتية الشهوانية ، ومنها ما هي منسوبة إلى الحيوانية الغضبية ، ومنها ما هي منسوبة إلى النفس الإنسانية الناطقة ، ومنها ما هي منسوبة إلى النفس العاقلة الحكيمة ، ومنها ما هي منسوبة إلى النفس الناموسية الملكية ، فأما المنسوبة إلى النفس الشهوانية من الخصال والقوى التي تخصها ، فأولها شهوة الغذاء، وهي النزوع والشوق نحو المأكولات والمشروبات والمشهيات والرغبة فيها ، والحرص في طلبها ، واحتمال المشقة والذل من أجلها ، والفرح والسرور بوجدانها ، والراحة واللذة في تناولها ، والملل والشبع عند الاستكفاء منها ، والنفور من الضار منها والبغض له ، وأما المنسوبة إلى النفس الحيوانية المختصة بها من الخصال المركوزة في الجبلة زيادة على ما تقدم فهي شهوة الجماع ، وشهوة الانتقام ، وشهوة الرياسة ، ولها - أيضًا - الهياكل اللحمية ، والأعضاء المختلفة للأغراض العجيبة ... إلخ ، وأما المنسوبة إلى النفس الناطقة المختصة بها زيادة على ما تقدم ذكره ، فهي شهوة العلوم والمعارف والتبحُّر والاستكثار منها ، وشهوة الصنائع والأعمال والحذق فيها والافتخار بها ، وشهوة العز والرفعة والترقي في غايات نهايتها ، والشوق إليها والرغبة فيها ، والحرص في طلبها ، واحتمال الذل والمشقة من أجلها ، والفرح والسرور من وجدانها ، واللذة والراحة عند الوصول إليها ، والغم والحزن من فقدانها .

ويرتبط هذا الجزء بمفهومي الدوافع Motives وبخاصة الدوافع البيولوجية ، والانفعالات Emotions (ص ٣١٣ - ٣١٥) .

وتلا ذلك فصل في اختلاف مناهج النفوس ، فقد أعطيت النفس الناطقة من نعم اللّٰه تعالى وخُصت به من إحسانه ، من بين نفوس سائر الحيوانات ، وأعينت به على البلوغ

إلى أقصى مدى غاياتها ، وأيدت للوصول إلى تمام نهايتها ، هذا الهيكل العَجيب البنية ، المحكم الصورة ، المتقن الصنعة الذي قد عجزت الحكماء عن كنه معرفته ، وتركيب بنيته من غرائب الصنعة مما قد وصف طرفًا منه في كتاب منافع الأعضاء وكتاب التشريح من كيفية انتصاب قامته من بين سائر الحيوانات ، وما خص به - أيضًا - من فصاحة لسانه وغرائب لغاته وفنون أقاويله وحسن بيانه من بين سائرها ، وما خص به - أيضًا - من طريق شكل يديه ، وما يتأتى له بهما من الصنائع المحكمة والأعمال المتقنة من بين سائرها ، وما خص به - أيضًا - من طرائف أدوات حواسه وغرائب طرقات إدراكها للمحسوسات ويرتبط الجزء السابق بمفهوم الإحساس Sensation والإدراك الحسي Perception ، (ص ٣١٥) .

ومما خُصت به - أيضًا - النفس الناطقة الإنسانية من نعم اللَّه تعالى وإحسانه العقل الغريزي وكثرة أعوانه وجنوده وخصاله المحمودة ، وهو ما يرتبط بمفهوم التفكير Thought ومفهوم العقل Mind (ص ٣١٦) .

وتلا ذلك فصل في ترتيب الأخلاق على بعضها وكونها فضيلة أو رذيلة ، وفصل في مراتب الناس في الأخلاق حسب الأعمال ، وهذا الفصل يرتبط بمفهوم الفروق الفردية Individual Differences (ص ٣٢١ - ٣٢٣) .

وتلا ذلك فصل في السعادة أربعة أقسام ، فالناس ينقسمون في سعادة الدنيا والآخرة وشقائها أربعة أقسام : فمنهم سعداء في الدنيا والآخرة جميعًا ، ومنهم أشقياء فيها جميعًا ، ومنهم أشقياء في الدنيا سعداء في الآخرة ، ومنهم سعداء في الدنيا أشقياء في الآخرة .

فأما سعداء أبناء الدنيا وأشقياء أبناء الآخرة فهم الذين وفُر حظهم من متاعها ومكنوا منها وارتقوا فيها ، فتمتعوا وتلذذوا وتفاخروا وتكاثروا ، ولم يتعظوا بزواجر الناموس ، ولم ينقادوا له ولم يأتمروا لأمره ، وتعدوا حدوده ، وتجاوزوا المقدار ، وطغوا وبغوا وأسرفوا .

فأما السعداء في الدنيا والآخرة جميعًا فهم الذين وفر حظهم في الدنيا من المال والمتاع والصحة ، ومكنوا فيها ، فاقتصروا منها على البُلغة ورضوا بالقليل ، وقنعوا به ، وقدموا الفضل إلى الآخرة ذخيرة لأنفسهم .

وأما أشقياء الدنيا وسعداء الآخرة فهم الذين طالت أعمارهم فيها ، وكثرت مصائبهم في تصاريف أيامها ، واشتدت عنايتهم في طلبها ، وفنيت أبدانهم في خدمة أهلها ، وكثرت همومهم من أجلها ، ولم يحظوا بشيء من نعيمها ولذاتها ، وائتمروا بأوامر الناموس ، ولم يتعدوا حدوده .

وأما أشقياء الدنيا والآخرة فهم الذين بخسوا حظهم من الدنيا ولم يتمكنوا منها وشقوا في طلبها ، فعاشوا فيها طول أعمارهم بأبدان مُتعبة ونفوس مهمومة ، ولم ينالوا خيرًا ، ثم لم يأتمروا بأوامر الناموس ، ولم ينقادوا لأحكامه ، وتجاوزوا حدوده ، ولم يتعظوا بزواجره ، ولم يعملوا في عمارة بنيانه ولا في حفظ أركانه ، فهم الذين خسروا الدنيا والآخرة جميعًا . ويرتبط الجزء السابق بمفهوم السعادة Happiness كأحد أشكال الانفعالات الأولية (ص ٣٣١ ، ٣٣٢) .

ويتبين مما سبق أنه لا يخلو أحد من الناس من أن يكون داخلًا في أحد تلك الأقسام الأربعة ، وبالتالي نذكر أن أخلاق أبناء الدنيا وطباعهم تختلف عن أخلاق أبناء الآخرة وسجاياهم ، وهو ما يرتبط بمفهومي القيم الخلقية Moarl Values (ص٣٣٢ - ٣٣٨) ، والفروق الفردية Individual Differences (ص ٣٣٢ - ٣٣٨) .

وتلا ذلك فصل في طلب العلم ، فاللّه تعالى فرض على المؤمنين أشياء كثيرة يفعلونها ، ونهاهم عن أشياء كثيرة يتركونها ، ولكن ليس من فريضة من جميع مفروضات الشريعة وأحكام الناموس أوجب ولا أفضل ولا أجل ولا أشرف ولا أنفع لعبد ، ولا أقرب له إلى ربه - بعد الإقرار به ، والتصديق لأنبيائه ورسله فيما جاءوا به وخبروا عنه - من العلم وطلبه وتعليمه ، وهو ما يرتبط ارتباطًا مباشرًا بمفهوم العلمية Scientific Values (ص ٣٤٦ ، ٣٤٧) .

ويحتاج طالب العلم إلى سبع خصال ، أولها السؤال والصمت ، ثم الاستماع ، ثم التفكر ، ثم العمل به ، ثم طلب الصدق من نفسه ، ثم كثرة الذكر أنه من نعيم اللّه ، ثم ترك الإعجاب بما يحسنه ، كما أن العلم يكسب صاحبه ثماني خصال محمودة أولها الشرف وإن كان في الدنيا ، والعز وإن كان حقيرًا ، والقرب وإن كان بعيدًا ، والقدر وإن كان ناقصًا ، والجود وإن كان بخيلًا ، والحياء وإن كان صلفًا ، والمهابة وإن كان وضيعًا ، والسلامة وإن كان سقيمًا وهي مجموعة من الخصال لها علاقة بسمات الشخصية Personality Traits (ص ٣٤٨) .

كما أن للعلماء ، مع كثرة فضائل العلم ، آفات وعيوبًا وأخلاقًا رديئة تحتاج أن تتجنبها وتحذرها ، فمنها الكبر والعُجب والافتخار ، ومن آفات العلماء الخوض في المشكلات والترخيص في الشبهات ، وترك العمل بموجبات العلم ، ومن آفات العلماء - أيضًا - كثرة الرغبة في الدنيا وشدة الحرص في طلبها .

كما أن هناك خصالًا ثلاثًا من أخلاق الشياطين ، هي كبر إبليس ، وحرص آدم ، وحسد قابيل ، وهي خصال من أمهات المعاصي وأصول الشرور ، ولها أخوات مُشكلات لها ، وفروع أغصان ومتفننات منها ، ويرتبط هذا الجزء بمفهوم العجب بالذات والتكبر (ص ٣٥١ - ٣٥٥) ، ومفهوم الحسد (ص ٣٥١ - ٣٥٥) .

وتلا ذلك فصل في الحرص والزهد ودرجات الناس ، ويرتبط مضمونه ارتباطًا مباشرًا بمفهوم الفروق الفردية (ص ٣٥٦ - ٣٥٨) ، ثم فصل في آفات الشبع وكثرة الأكل وخصال الزهاد ، ثم فصل في بيان علامات أولياء اللَّه ﷻ وعباده الصالحين ، ويرتبط مضمون هذا الفصل بسمات الشخصية (ص ٣٦٢ - ٣٦٤) ، ثم فصل فيما حكاه ولي من أولياء اللَّه عن كيفية معرفة مكايد الشيطان ومحاربته معهم ومخالفته جنود إبليس أجمعين ، ثم تلا ذلك فصل في حكاية أخرى .

وتلا ذلك فصل في فضل التوبة والاستغفار والدعاء ، فاللَّه ﷻ لم يذكر ذنوب أنبيائه وخطاياهم في القرآن شنعة عليهم ، ولا تقبيحًا لآثارهم ، ولا لسوء الثناء عليهم ، ولكن ليكون للباقين قدوة بهم في التوبة والندامة والرجوع عن الذنوب والاستغفار للَّه ﷻ ، والإنابه إليه ، كما أمر اللَّه بقوله : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [النور : ٣١] ، وقال اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، وعلى ذلك يمثل الاستغفار والدعاء والتقرب إلى اللَّه أحد أشكال العلاج النفسي الديني (ص ٣٧٣ - ٣٨٤) .

وأنهى المؤلفون هذه الرسالة بفصل في حسن التكليف وفصل آخر في أن الرغبة في الدنيا مع طلب الآخرة لا يجتمعان ، وفصل في عظات مختلفة .

المجلد الثاني من رسائل إخوان الصفا في الجسمانيات الطبيعية :

يقع هذا المجلد في ٤٨٦ صفحة من القطع المتوسط ويبدأ بالرسالة الخامسة عشرة وينتهي بالرسالة السادسة والعشرين من رسائل إخوان الصفا ، وهي : الرسالة الأولى : في بيان الهيولي والصورة والحركة والزمان والمكان وما فيها من المعاني إذا أضيف بعضها إلى بعض . والرسالة الثانية : الموسومة بالسماء والعالم في إصلاح النفس وتهذيب الأخلاق . والرسالة الثالثة : في بيان الكون والفساد . والرابعة : في الآثار العلوية . والخامسة : في بيان تكوين المعادن . والسادسة : في ماهية الطبيعة . والسابعة : في أجناس النبات . والثامنة : في كيفية تكوين الحيوانات وأصنافها . والتاسعة : في تركيب الجسد . والعاشرة : في الحاسد والمحسود . والرسالة الحادية عشرة : في مسقط النطفة .

والرسالة الثانية عشرة والأخيرة في هذا المجلد : في قول الحكماء إن الإنسان عالم صغير .

ومن بين هذه الرسائل انتقينا الرسالة العاشرة التي تقع في الصفحات من (٣٩٦-٤١٦) وهي في الحاسد والمحسود في تهذيب النفس وإصلاح الأخلاق .

إن علم الإنسان بالمعلوم يكون من ثلاثة طرق : أحدها طريق الحواس الخمس الذي هو أول الطرق ، ويكون جمهور علم الإنسان ، ويكون معرفته بها من أول الصبا ، ويشترك الناس كلهم فيها وتشاركهم الحيوانات . والثاني طريق العقل الذي ينفصل به الإنسان دون سائر الحيوانات ومعرفته به تكون بعد الصبا عند البلوغ . والثالث طريق البرهان الذي ينفرد به قوم من العلماء دون غيرهم من الناس (ص٣٩٦ ، ٣٩٧) .

والحواس هي آلات جسدية وهي خمس : العين ، والأذن ، واللسان ، والأنف ، واليد ؛ وأما القوى الحساسة فهي قوًى روحانية نفسانية يختص كل منها بعضو من أعضاء الجسد ، وأما المحسوسات فالأشياء المدركة بالحواس والمدركة بالحواس هي أعراض حالة في الأجسام الطبيعية مؤثرة في الحواس مغيرة لكيفية مزاجها ، والحس هو تغييرات مزاج الحواس عن مباشرة المحسوس لها ، والإحساس هو شعور القوى الحساسة لتغييرات كيفية أمزجة الحواس (ص ٤٠١) ، والحديث هنا يمس عددًا من الموضوعات والمفاهيم السيكولوجية ، ومنها الإحساس Sensation باعتباره مقدمة للإدراك الحسي Sensory Perception ، والبلوغ Puberty والتنبيهات الحسية Sensory Stimulus .

ويلي ذلك فصل في كيفية إدراك القوة اللامسة للحرارة والبرودة ، ويوضح المؤلفون أن مزاج بدن الحيوان في دائم الأوقات يكون على قدر ما من الحرارات والبرودات ، فإذا لاقاه جسم آخر فلا يخلو من أن يكون ذلك الجسم أشد حرارة من البدن أو أشد برودة منه أو مساويًا له في ذلك ، فإن كان أشد حرارة منه ، زاد سخونةً ما عند ملاقاته إياه ، وإن كان أبرد منه زاد برودة ما ، فتحسن القوة اللامسة بذلك التغيير والاستحالة ، فتؤدي خيرها إلى القوة المتخيلة التي مسكنها مقدم الدماغ ، وإن كان مساويًا لمزاج البدن في الحرارة والبرودة جميعًا فلا يغير منه شيئًا ولا يؤثر فيه ولا تحس القوى بشيء (ص ٤٠٣) ، والحديث هنا يتصل بإحدى الحواس وهي حاسة اللمس Touch ، وبه إشارة إلى دراسة لموضوع Localization الوظائف النفسية والجسمية في المخ وهو موضوع عناية علماء النفس العصبي Neuropsychology وعلم النفس الفسيولوجي Physiological Psychology .

ويلي ذلك فصل في كيفية إدراك الذائقة لمحسوساتها التي هي الطعوم ، وهي تسعة

أنواع : أولها : الحلاوة الملائمة لمزاج اللسان ، والثاني : المرارة المنافرة لمزاج اللسان ، والثالث : الملوحة ، والرابع : الدسومة ، والخامس : الحموضة ، والسادس : الحرافة ، والسابع : العفوصة ، والثامن : العذوبة ، والتاسع : القبوضة ، وإدراكها هو أن تتصل رطوبة هذه الطعوم برطوبة اللسان فتمتزجان فيتغير مزاج اللسان بحسب ذلك الطعم إن كان حلوًا فحلوًا ، وإن كان مرًّا فمرًّا وغير ذلك ، وأما كيفية إدراك القوة الشامة لمحسوساتها التي هي الروائح وهي نوعان : طيب ومنتن - فهو أن الأجسام ذوات الروائح يتحلل منها في دائم الأوقات بخارات لطيفة تمتزج مع الهواء مزجًا روحانيًّا ، ويصير الهواء مثلها في الكيفية ، إن كان طيبًا فطيبًا وإن كان منتنًا فمنتنًا (ص ٤٠٥ - ٤٠٦) ، ويتطرق الحديث هنا إلى حاستين أخريين هما التذوق والشم وكيفية الإدراك لهما .

ويضيف المؤلفون بعد ذلك فصلًا في إدراك القوة السامعة ، ومحسوسات القوة السامعة هي الأصوات ، والأصوات نوعان : حيوانية وغير حيوانية ، وهي نوعان : طبيعية وآلية ، والحيوانية نوعان : منطقية وغير منطقية ، وغير المنطقية هي أصوات سائر الحيوانات غير الناطقة ، والمنطقية هي أصوات الناس وهي نوعان : دالة وغير دالة ، وغير الدالة كالضحك والبكاء ، أو كل صوت لاهجاء له ، والدالة هي كالكلام والأقاويل التي لها هجاء ، (ص ٤٠٧) .

ويتعلق الحديث هنا بواحد من الموضوعات المهمة في دراسات علم النفس وهو الإدراك السمعي Auditory Perception ، وله تضمينات - أيضًا - في بعض دراسات سيكولوجية اللغة Psycholinguistics كاكتساب الأصوات وارتقائها إنتاجًا وفهمًا .

وعلى غرار الفصول السابقة نضيف فصلًا في إدراك القوة الباصرة لمحسوساتها وهي عشرة أنواع ، أولاها الأنوار والظُّلَم والألوان والسطوح والأجسام أنفسها وأشكالها وأبعادها وحركاتها وسكونها وأوضاعها (ص ٤٠٨ ، ٤٠٩) ، ويتصل هذا الحديث - أيضًا - بالإدراك البصري Visual Perception .

وينتقل المؤلفون بعد ذلك إلى فصل في كيفية وصل آثار المحسوسات إلى القوة المتخيلة التي مجراها مقدم الدماغ ، فيوضحون أنه ينتشر من مقدم الدماغ عصبيات لطيفة لينة تتصل بأصول الحواس وتتفرق هناك وتنسج في أجزاء جرم الدماغ كنسج العنكبوت ، فإذا باشرت كيفية المحسوسات من أجزاء الحواس وتغير مزاج الحواس عندها وغيرتها عن كيفيتها وصل ذلك التغيير في تلك الأعصاب التي في مقدم الدماغ والتي منشؤها من

هناك كلها ، فتجتمع آثار المحسوسات كلها عند القوة المتخيلة ، التي تدفعها إلى القوة المفكرة التي مسكنها وسط الدماغ لتنظر فيها وترى في معانيها وتعرف حقائقها ومضارها ومنافعها ، ثم تؤديها إلى القوة الحافظة لتحفظها إلى وقت التذكار (ص ٤١١) ، ونجد هنا - كما سبقت الإشارة - فصلًا مبكرًا في تقسيم الوظائف والقدرات العقلية Mental Abilities ودراسة لموضعها في الدماغ Localization وهو من بين اهتمامات علم النفس العصبي Neuropsychology وعلم النفس الفسيولوجي Physiological Psychology .

ويلي ذلك فصل في ماهية اللذة والألم والتعب والراحة وكيفية إدراك الحواس ، فكل محسوس يخرج المزاج من الاعتدال ، فإن الحاسة تكرهه وتتألم منه ، وكل محسوس يرد المزاج إلى الاعتدال فإن الحاسة تحبه وتتلذذ به ، والراحة هي العقاب على الصحة والاعتدال ، والتعب هو التردد بين الألم واللذة ، (ص ٤١٣) .

وهنا عدد آخر من المفاهيم المستخدمة في علم النفس كالألم Pain ، والراحة Relief ، والتعب Fatigue ، واللذة أو المتعة Pleasure .

المجلد الثالث : الجسمانيات الطبيعيات والنفسانيات العقليات :

ويقع في ٥٤٤ صفحة من القطع المتوسط ويشتمل على بقية رسائل المجلد الثاني والخاصة بالجسمانيات الطبيعيات بدءًا من الرسالة الثالثة عشرة وحتى الرسالة السابعة عشرة ، وكذلك الرسائل الخاصة بجزء النفسانيات العقليات وعددها عشر رسائل ، وأخيرًا يشتمل المجلد على الرسالة الأولى من القسم الرابع والخاص بالعلوم الناموسية الإلهية والشرعية ، وهو ما نعرض لتفاصيله على النحو التالي :

الجسمانيات الطبيعيات : وفيه عرض المؤلفون لبقية رسائل الجزء الثاني (الجسمانيات الطبيعيات) وهي الرسالة الثالثة عشرة في كيفية نشوء الأنفس الجزئية في الأجساد البشرية الطبيعية ، والرسالة الرابعة عشرة في خاصية اللذات وفي حكمة الحياة والموت وماهيتهما ، والرسالة السابعة عشرة في علل اختلاف اللغات ورسوم الخطوط والعبارات ، وفيما يلي نعرض للرسالة السادسة عشرة لما لها من أهمية ودلالة نفسية .

رسالة في خاصية اللذات وفي حكمة الحياة والموت وماهيتهما : بدأ المؤلفون الرسالة ببيان أن اللذة والألم نوعان : جسمانية وروحانية ، وهكذا حُكم أخواتها ، فأما اللذات الجسمانية فهي الراحة التي تُحس بها النفوس الحيوانية عند زوال الآلام ، وأما الآلام التي تُحس بها النفوس الحيوانية عند خروج المزاج عن الاعتدال من الأمر الطبيعي إلى أحد

الطرفين من الزيادة والنقصان بسبب من الأسباب ، فهي كثيرة لا يحصي عددها إلا الله تعالى ، ولكن نذكر منها طرفًا لتعلم ماهية الآلام واللذة وكيفية حدوثهما ، وبعد ذلك إشارة صريحة لمفهومي اللذة والألم (ص ٥٢ ، ٥٣) .

ومن ذلك ماهية لذة الأكل والشرب ، وهو ما يرتبط بدافعي الجوع والعطش كشكلين من أشكال الدوافع البيولوجية ، وكذلك لذة الجماع ، وهو ما يرتبط بالدافع الجنسي كدافع بيولوجي أيضًا (ص ٥٣ ، ٥٤) ، وكذلك اللذة والراحة التي يجدها الحيوان عند السكون والهدوء والنوم ، وهو ما يرتبط بدافع التعب والحاجة للراحة (ص ٥٤) .

والحيوانات في دائم الأوقات تتفرج وتستريح تارة من ألم الحرارة إلى ضده ، وتارة من ضده إليه ، وإن اللذات الجسمانية إنما هي من خروج الألم ، فهو خروج من الاعتدال إلى أحد الطرفين إما إلى زيادة أو إلى نقصان ، أو من حر إلى برد ، أو من برد إلى حر ، أو من حركة إلى سكون ، أو من سكون إلى حركة ، أو من جوع وعطش إلى شبع وري ، أو من شبع وري إلى جوع وعطش ، وعلى ذلك المثال والقياس يوجد حُكم سائر اللذات والآلام ، ويرتبط ذلك بإحدى خصائص الدافعية وهي الطابع الدوري Cyclic Character وبدورة كاملة تبدأ بالحاجة الشديدة إلى إشباع الدوافع ، ثم الإشباع وخفض التوتر ، ثم الحاجة مرة أخرى (ص ٥٤ - ٥٦) .

وتلا ذلك فصل في ما العلة في وصول الآلام والأوجاع إلى النفوس الحيوانية دون سائر ماهية الألم واللذة وكيفيتهما ، وفيه يبين المؤلفون أن اللذات والآلام التي تحفظ أجسادها من التلف ، وتحثها على صيانتها نوعان : جسماني وروحاني ، فاللذات الجسمانية التي تجدها النفس عند الخروج من الألم ، والآلام التي تُحسها النفس عند خروج مزاج الأجساد عن الاعتدال الطبيعي إلى حد الطرفين من الزيادة والنقصان بسبب من الأسباب هي كثيرة لا يحصى عددها ، مثال ذلك : الجوع أحد الآلام التي تحس به النفس عند خلو المعدة من الطعام ، وذلك أن الحرارة الغريزية التي تنضح الطعام في المعدة إذا لم تجد هناك طعامًا تكون مشتغلة ، فإذا اشتغلت في جرم المعدة فنيت رطوبتها المعدة هناك لمصالحها ، فإذا فنيت تلك الرطوبة انفسد جرم المعدة ، فإذا أحست النفس بالآلام انتهض الجسد في طلب القوت ليزيل عنه الفساد وعن ذاتها الألم ، فإذا وصل ذلك إلى المعدة رجعت تلك النار عن جرم الجسد ، واشتغلت عن ذلك الطعام ، وسكن الالتهاب عن جرم المعدة ، فتجد النفس لذلك راحة ، فتسمى تلك الراحة لذة ، والأمر نفسه

بالنسبة للعطش وغيره ، ويرتبط ذلك بمفهوم إشباع الدوافع (ص ٥٩ ، ٦٠) ، وبمفهوم الطابع الدوري للدوافع (ص ٥٩ ، ٦٠) ، وبمفهوم الدوافع البيولوجية عمومًا (ص ٥٩ ، ٦٠) .

وأعقب ذلك فصل في كيفية وجدان اللذة والألم معًا في وقت واحد ، فالإنسان في دائم الأوقات لا يخلو من ألم ولذة جسمانية وروحانية من عدة وجوه ، مثال ذلك : العاشق يرى معشوقه وهو على خيانة ، فتسره رؤيته له ويلتذ بها ، وتغمه خيانته له وتؤلمه ، ويعد ذلك إشارة إلى مفهوم اللذة والألم (ص ٦٦) .

واللذات أربعة أنواع : شهوانية طبيعية ، وحيوانية حسية ، وإنسانية فكرية ، وملكية روحانية ، فاللذات الشهوانية الطبيعية هي التي تجدها النفس عند تناول الغذاء من الطعام والشراب وهي مشتركة بين الإنسان والحيوان والنبات ، وأما اللذات الحيوانية أيضًا فهي نوعان : إحداهما ما تجدها النفس عند الالتئام ، وهي لذة الجماع ، والأخرى ما تجدها عند الانتقام وهي شهوة تهيج عند الغضب ، واللذات الحيوانية الحسية مشتركة بين الإنسان والحيوان دون النبات . واللذات الفكرية هي ما تجدها النفس من اللذة عند تصورها معاني المعلومات ، ومعرفتها بحقائق الموجودات ، وهي مشتركة بين الإنسان والملائكة دون الحيوان ، أما الملكية الروحانية فهي ما تجده النفس من الراحة واللذة بعد مفارقتها الجسد التي هي الروح والريحان ، وهي مختصة بالنفوس المفارقة للأجسام الناجية من بحر الهيولي ، ويرتبط هذا الجزء بمفهومي اللذة والدوافع البيولوجية (ص ٦٨- ٩٦) .

وتلا ذلك فصل في أن من الآراء والاعتقادات ما هو مؤلم لنفوس معتقديها ومُؤْذٍ لها ، ومثلها ما هو مفرح ومسر وملذ لها (ص ٧١ - ٧٨) يرتبط هذا الجزء بمفهوم الانفعالات Emotions (ص٧١ - ٧٨) ، ومفهومي اللذة والألم (ص٧١ - ٧٨) .

وتلا ذلك فصلان في كيفية وصول الآلام إلى النفوس الشريرة بعد مفارقة أجسادها ، وكيف تكون من جنود إبليس وحزب الشياطين ، وفي ماهية الشياطين وجنود إبليس أجمعين ، ويرتبط هذا الجزء بمفهوم الوساوس Obsessions (ص ٧٩ - ٨٣) .

رسالة في العقل والمعقول : إن العقل اسم مشترك يقال على معنيين : أحدهما ما تشير به الفلاسفة إلى أنه أول موجود اخترعه الباري جل وعز ، وهو جوهر بسيط روحاني محيط بالأشياء كلها إحاطة روحانية ، والمعنى الآخر ما يشير به جمهور الناس إلى أنه

قوة من قوى النفس الإنسانية التي فعلها التفكر والروية والنطق والتمييز والصنائع وما شاكلها .

ولما كان العقل الذي نحن في ذكره قوة من قوى النفس الإنسانية هو - أيضًا - قوة من قوى النفس الكلية ، والنفس الكلية هي فيض من العقل الكلي الذي هو أول فيض فاض من الباري جل وعز ، وهي كلها تسمى موجودات أولية ، احتجنا أن نذكر أولًا أقسام الموجودات وما معنى الموجود ، ومعنى الوجود والعدم ، وطرق العلم بها ، فلفظة الموجود مشتقة من وجد يجد وجدانًا فهو واجد ، وذاك موجود ، فالموجود يقتضي الواجد ؛ لأنهما من جنس المضاف .

وإن كل واجد من البشر شيئًا - إذا وجدنا شيئًا - فإن وجدانه له لا يخلو من إحدى الطرق الثلاث : إما بإحدى القوى الحساسة ، وإما بإحدى القوى العقلية التي هي الفكرة والروية والتمييز والفهم والوهم الصادق والذهن الصافي ، وإما بطريق البرهان الضروري .

وأما معنى العدم فهو ما يقابل كل نوع من هذه الطرق الثلاث : فيقال معدوم من درك الحس له ، ومعدوم من تصور العقل ، ومعدوم من إقامة البرهان عليه ، وأما علم الباري جل ثناؤه بالأشياء فليس من هذه الطرق الثلاث ، بل أشرف وأعلى من هذه كلها .

كما أن الموجودات كلها نوعان : جسماني وروحاني ، فالجسماني ما يدرك بالحواس ، والروحاني ما يدرك بالعقل ويتصور بالفكر ، فأما الجسماني فهو على ثلاثة أنواع : منها الأجرام الفلكية ، ومنها الأركان الطبيعية ، ومنها المولدات الكائنة ، والروحاني - أيضًا - على ثلاثة أنواع : منها الهيولي الأولي الذي هو جوهر بسيط ، منفعل ، معقول ، قابل لكل صورة ، والثاني : النفس التي هي جوهرة بسيطة ، فعالة ، علامة ، والثالث : العقل الذي هو جوهر بسيط ، مدرك حقائق الأشياء ، ويرتبط الجزء السابق بمفهوم العقل Mind والتفكير Thought ومفهوم الإحساس Sensation (ص ٢٣١ - ٢٣٧) .

وللنفس الإنسانية قوًى كثيرة لا يحصي عددها إلا اللّه جل ثناؤه ، وإن لها بكل قوة في عضو من أعضاء الجسد فعلًا خلاف عضو آخر ، وإن نسبة القوى الحساسة إلى النفس فيما يأتون به إليها من أخبار محسوساتها كنسبة أصحاب الأخبار للملك قد ولى

كل واحد منهم ناحية من ممتلكاته ليأتوه بالأخير من تلك النواحي ، كما أن لها خمس قوًى أخرى نسبتهن إليها كنسبة الندماء إلى الملك ، وهي القوة المفكرة ، والقوة المتخيلة ، والقوة الحافظة ، والقوة الناطقة ، والقوة الصانعة .

وإن القوة المفكرة التي مسكنها وسط الدماغ من بين هذه القوى ، كالملك ، وسائرها لها كالجنود والأعوان والخدم والرعية ، يتصرفون بأمرها ونهيها فيما يفعلون في أعضاء الجسد من الحركات ، وما يظهرون من الصنائع والأعمال ، وإن موضعها من بين مواضع سائر القوى في أشرف عضو من الجسد وأخص مكان منه ، وإن أفعال هذه القوى الخمس أشرف وأكرم من أفعال سائر القوى ، وإن القوة المتخيلة التي مسكنها مقدم الدماغ ، نسبتها إلى القوة المفكرة بما تجمع إليها من أخبار المحسوسات ، كنسبة صاحب الخريطة إلى الملك ، ونسبة القوة الحافظة التي مسكنها مؤخر الدماغ ، ونسبتها إلى المفكرة كنسبة الخازن الحافظ ودائع الملك ؛ ونسبة القوة الناطقة التي مجراها على اللسان إلى المفكرة كنسبة الحاجب والترجمان إلى الملك ، ونسبة القوة الصانعة التي مجراها اليدان والأصابع إلى المفكرة كنسبة الوزير المعين له في تدبير مملكته ، والمساعد له في سياسته لرعيته ، ويرتبط هذا الجزء بمفهوم وظائف المخ وتمركز الوظائف العقلية فيه (ص ٢٤١ ، ٢٤٢) .

كما أنه إذا أوصلت القوة المتخيلة رسوم المحسوسات إلى القوة المفكرة ، بعد تناولها من القوى الحساسة ، وغابت المحسوسات من مشاهدة الحواس لها ، بقيت تلك الرسوم المصورة فيها كالهيولي ، وهي فيها كالصورة ، ويرتبط هذا الجزء بمفهوم الإحساس Sensation ، ووصول المعلومات إلى المخ عن طريق الحواس ، وكذلك مفهوم التذكر ، وبخاصة الذاكرة البصرية Visual Memory (ص ٢٤٣) .

رسالة في ماهية العشق : يرى بعض الحكماء أن للعشق مساوئ ، وزعموا أنه رذيلة ، ويرى البعض الآخر أن العشق فضيلة نفسانية ، ومدحه وذكر محاسن أهله ، وزعم البعض أنه مرض نفساني ، ومنهم من قال إنه جنون إلهي .

ومن الحكماء من زعم أن العشق هو إفراط المحبة وشدة الميل إلى نوع من الموجودات دون سائر الأنواع ، وإلى شخص دون سائر الأشخاص ، وكثير من الحكماء والأطباء يسمون هذه الحالة ماليخوليا ، ومن الحكماء من قال إن العشق هو هوًى غالب في النفس نحو طبع مُشاكل في الجسد ، أو نحو صورة مماثلة في الجنس .

وتضمنت هذه الرسالة - أيضًا - الحديث عن أنواع النفوس وأنواع معشوقاتها وعلل تلك وأسبابها ، فالنفوس ثلاثة أنواع : النباتية والشهوانية والغضبية أو الحيوانية ، وتكلم المؤلف عن الاتحاد بأنه هو خاصية الأمور الروحانية والأحوال النفسانية ، ثم تحدث عن مبدأ العشق ومراحله المختلفة ، فأوله نظرة أو التفات نحو شخص من الأشخاص ، ثم ينمو ذلك على مرِّ الأيام حيث القرب من ذلك الشخص ، ثم الخلوة والمجاورة ، ثم الدخول في ثوب واحد ، والالتزام بجميع الجوارح أكثر ما يمكن .

ومن شأن النفس أن تتبع مزاج البدن في إظهار أفعالها وأخلاقها . ثم عرض المؤلف بعد ذلك لماهية علة فنون المعشوقات ، وقد يظن البعض أن العشق لا يكون إلا للأشياء الحسنة فحسب ، ولكن الأمر ليس كما ظنوا ، والعلة في ذلك هي الاتفاقات التي بين العاشق والمعشوق ، وهي كثيرة لا يحصي عددها إلا الله ﷻ .

كما تضمنت الرسالة الإشارة إلى أنواع من المحبة ، كمحبة النساء للرجال ، وأن الغرض منها بقاء النسل ، وحفظ الصورة في الهيولي بالجنس والنوع ، كما أن هناك أنواعًا من المحبوبات كمحبة الحيوانات الازدواج والنكاح والسفاد ، لما فيه من بقاء النسل، ومحبة الأمهات والآباء للأولاد ، ومحبة الرؤساء للرياسات ، ومحبة التجار لتجاراتهم ، ومحبة البر والإحسان ، وذكر المؤلف مراتب النفوس وما يليق بها من المعشوقات ، فلا تجد نفسًا تحب وتعشق وتشتاق إلا لأبناء جنسها ، وأن الغرض الأقصى من وجود العشق هو تنبيه النفوس من نوم الغفلة ، ورياضته لها ، وترقية من الأمور الجسمانية المحسوسة إلى الأمور النفسانية المعقولة ، ثم تحدث المؤلف بعد ذلك عن النفوس الناقصة بأنها قصيرة الهمم ، لا تحب إلا زينة الحياة الدنيا ولا تتمنى إلا الخلود فيها ؛ لأنها لا تعرف غيرها ، ولا تتصور سواها ، وذُكر - أيضًا - في هذه الرسالة أن الله هو المعشوق الأول ، وأن كل الموجودات إليه تشتاق ، وإليه يرجع الأمر كله .

ويرتبط ما جاء في رسالة العشق بعدد من الموضوعات السيكولوجية ، وهي موضوع الانفعالات Emotions ، وخاصة انفعال الحب ، ومستويات الانفعالات وفوائدها ومضارها ، وموضوع العلاقات بين الجنسين ، والدوافع وخاصة الدافع الجنسي Sexual Motive (ص ٢٦٩ - ٢٨٦) .

المجلد الرابع : من رسائل إخوان الصفا في العلوم الناموسية الإلهية والشرعية الدينية :

يقع هذا المجلد في ٤٦٩ صفحة من القطع المتوسط ويضم الرسائل من الثالثة والأربعين

إلى الثانية والخمسين من رسائل إخوان الصفا ، والرسالة الثانية (يبدأ بها هذا المجلد) في ماهية الطريق إلى اللّه ﷻ ، والثالثة في بيان اعتقاد إخوان الصفا ومذهب الربانيين ، والرابعة في كيفية معاشرة إخوان الصفا وتعاون بعضهم مع البعض وصدق الشفقة والمودة في الدين والدنيا جميعًا ، والخامسة في ماهية الإيمان وخصال المؤمنين المحققين ، والسادسة في ماهية الناموس الإلهي وشرائط النبوة وكمية خصالهم ومذاهب الربانيين والإلهيين ، والسابعة في كيفية الدعوة إلى اللّه ، والرسالة الثامنة في كيفية أحوال الروحانيين ، والتاسعة في كيفية أنواع السياسات وكميتها ، والعاشرة في كيفية نقد العالم بأسره ، والرسالة الحادية عشرة والأخيرة في هذا المجلد في ماهية السحر والعزائم والعين .

وسوف ننتقي منها ما له صلة بموضوعات علم النفس .

الرسالة الثانية في ماهية الطريق إلى اللّه ﷻ : تبدأ هذه الرسالة بمقدمة قصيرة في حمد اللّه والثناء عليه ، ويليها الفصل الأول وهو في الحث على تهذيب النفس وإصلاح الأخلاق ، ويبيِّن المؤلفون أن من الناس أقوامًا استغرقت نفوسهم في نوم الجهالة ، لذلك ينبغي للمذكر لهم أن يكون طبيبًا رفيقًا يحسن أن يداويهم بأرفق ما يقدر عليه من التذكار بآيات الكتب الإلهية وما في أيديهم من أخبار أنبيائهم ، فإن ذلك كله إشارات للنفس بتذكرها ما قد غفلت عنه من أمر معادها ومعاشها ، وقد وجب على الحكماء ، إذا أرادوا فتح باب الحكمة للمعلمين وكشف الأسرار للمريدين أن يروضوهم أولًا ، ويهذبوا نفوسهم بالتأديب كيما تصفو نفوسهم وتطهر أخلاقهم (ص ٥ - ١٣) .

ويرتبط الحديث في الجزء السابق - بصفة عامة - بموضوعين في علم النفس ، وهما : القيم الأخلاقية Moral Values والتخاطب Communication في علم النفس الاجتماعي .

الرسالة الخامسة : وتقع هذه الرسالة بين صفحتي (٦١ و ١٢٣) من المجلد الرابع ، وهي مقسمة إلى فصول بعضها بعنوان وبعضها من غير عنوان ، ويبدأونها بحمد اللّه والثناء عليه ، ثم يوضحون سبب وضعهم للتفرقة بين العلم والإيمان ، ويلي ذلك فصل يؤكد أن نعم اللّه على الخلق كثيرة لا تحصى وما يخص الإنسان منها نوعان : أحدهما من خارج الجسد كالمال والقرين والولد ومتاع الدنيا ، والآخر داخلي ، فهو نوعان : أحدهما في الجسد كالصحة وحسن الصورة وكمال البنية والقوة والجلد ، والآخر في النفس وهو نوعان : أحدهما حُسن الخلق والآخر ذكاء النفس وصفاء جوهرها (ص ٦٢ ، ٦٣) ،

ويرتبط هذا الكلام – أيضًا – بالقيم الأخلاقية Moral values في علم النفس الاجتماعي .

وينتقل المؤلفون بعد ذلك إلى فصل في ماهية الإيمان موضحين أن الإيمان خصلة تجمع الخيرات كلها ، وفضائل الملائكة ، والإيمان يقال على نوعين : ظاهر وباطن ، والإيمان الظاهر هو الإقرار باللسان بخمسة أشياء ، أحدها : هو الإقرار بأن للعالم صانعًا واحدًا حيًّا قادرًا حكيمًا ، وهو خالق الخلق كلهم ، ومدبرهم لا شريك له ، والثاني : هو الإقرار بأن له ملائكة صفوة اللَّه من خلقه ، والثالث : الإقرار بأنه قد اصطفى طائفة من بني آدام ، والرابع : الإقرار بأن هذه الأشياء التي جاءت بها الأنبياء مأخوذة معانيها من الملائكة إلهامًا ووحيًا ، والخامس : الإقرار بأن القيامة لا محالة كائنة .

وأما الإيمان الذي هو باطن فهو إضمار القلوب باليقين على تحقيق هذه الأشياء المقر بها اللسان (ص ٦٧ ، ٦٨) ، ويعتبر الإيمان من المفاهيم التي تشيع في دراسة المعتقدات Believes في علم النفس الاجتماعي .

ويلي ذلك فصل في ماهية التوكل ، وهو إحدى شرائط الإيمان وخصال المؤمنين ، كما أمر اللَّه ﷺ بالتوكل ، فقال : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٢٣] ، والتوكل هو الاعتماد على الغير عند الحاجة بأن ينوب عنك فيها ، والناس كلهم متوكلون ، ولكن أكثر توكلهم على غير اللَّه ، من ذلك توكل الصبيان على آبائهم فيما يحتاجون إليه من الطعام والشراب واللباس وغيرها من الحاجات ، والأغنياء متوكلون على ذخائرهم وأموالهم .

ولكن الحرص والرغبة في الزيادة يحثانهم على الطلب (ص ٦٨ ، ٦٩) وتبرز هنا عدة مفاهيم ترتبط بدراسات علم النفس ، مثل الحاجة Need والرغبة Desire ، وأمثلة للدوافع الأولية كالجوع Hunger والعطش Thirst والطاعة Obedience .

ويأتي بعد ذلك فصل في ماهية الإخلاص ، وهو من شرائط الإيمان أيضًا وخصال المؤمنين الإخلاص في العمل والدعاء ، كإخلاص الوالدين في تربية الأولاد دون انتظار الأجر ، وهناك أمثلة كثيرة لذلك ، ومنها كل ما يصيب الناس من الجهد والبلاء فيضطرهم ذلك إلى الدعاء والتضرع إلى اللَّه ، مثل الغلاء والوباء وآلام الأطفال ومصائب الأخيار (ص ٧٠ ، ٧١) ، ويمكن الخروج من هذا الفصل بعدد من المفاهيم ذات الدلالات النفسية مثل الإخلاص ، وينتمي إلى موضوع القيم Values والتنشئة Socialization ، ومثيرات المشقة Stressores كأحداث الحياة Life Events .

وهناك - أيضًا - فصل في ماهية الصبر ، فالصبر - أيضًا - أحدث شرائط الإيمان وخصال المؤمنين ، وكما قيل : « الصبر رأس الإيمان » والناس أكثرهم يصبرون في الشدائد ، ولكن لا يكون صبرهم بالله ولا لله ، ويخفى على كثير من الناس ما في الشدائد من ضروب المصلحة لهم فلا يصبرون (ص٧٢ ، ٧٣) ويرتبط هذا الحديث بمفهوم التحمل Tolerance والمثابرة Persistence في علم النفس .

ويضيف المؤلفون لذلك - أيضًا - فصلًا في الخوف ، ويرون أن الخوف ينبغي أن يكون من الله فقط (ص ٧٥) والخوف Fear واحد من الانفعالات التي تدرس في علم النفس العام ، ويناقش المؤلفون - أيضًا - التشابه في الألفاظ وما يثيره ذلك من مشكلات ؛ ولذلك ينبغي إذا سمع شخص لفظة محتملة للمعاني ألا يحكم عليها حكمًا دون أن يتبين بعقله كل المعاني التي تحتملها تلك اللفظة ، لعله يفهم الغرض منها ، (ص ٧٨) وهذا الحديث يرتبط بشكل غير مباشر باهتمامات بعض علماء النفس المحدثين لسيكولوجية اللغة Psycholinguistics .

إن الإنسان إنما هو جملة مجموعة من جسد جسماني في أحسن الصور ومن نفس روحانية من أفضل النفوس ، وأعلى رتبة ينالها الإنسان بجسده وأشرف رتبة يبلغها ببدنه هي سرير الملك والسلطان على أجساد أبناء جنسه والقهر والغلبة بالقوة العصبية (ص ٨٣) وهنا إشارة إلى الجانب الانفعالي Emotional في الإنسان ، ويدرس في علم النفس العام ، وكذلك إشارة إلى العلاقة بين النفس والجسد .

ويناقش المؤلفون - بعد ذلك - بشيء من الاستفاضة المنام والرؤيا وما يحدث فيها ، ويدللون بها على وجود النفس وشرف جوهرها (ص ٨٧ - ١٠٢) والأحلام Dreams كانت موضعًا لاهتمام علماء النفس في مرحلة معينة من تاريخ علم النفس ، كذلك يتعرض في ثنايا حديثه عن الرؤيا والأحلام للوساوس وحديث النفس ، والوسواس مرض عصبي يلقى عناية من علماء النفس الإكلينيكيين ، والأطباء النفسيين .

ويذكر المؤلفون قصة رجل من المنهمكين في الشهوات وطلب اللذات كان أكولًا شريبًا ، فمن كثرة ما كان يأكل ويجامع حرقت معدته وضعفت قوته الهاضمة واسترخت آلته من كثرة الجماع ، وكان ممكنًا من شهواته ولكن آلات الجسد وأدوات الفعل لم تكن تواتيه ، ولا قوة النفس الشهوانية تطاوعه في ترك الطلب ؛ لأن الشهوات ضارة عادة لها لكثرة الدراية فيه ، وجبلة مركوزة فيها (ص ١١٤) ونجد هنا إشارة إلى

الدوافع البيولوجية كالجوع والعطش والجنس Sex وضرورة السيطرة عليها والاعتدال في إشباعها .

الرسالة التاسعة في كيفية أنواع السياسات وكميتها : وبها عدة فصول ، منها فصل في السياسة النفسانية وفيها يخاطب المؤلفون الإنسان قائلين فيكون أخلاقك رضية وعاداتك جميلة ، وأفعالك مستقيمة ، تؤدي الأمانة إلى أهلها كائنًا من كان ، وتحسن مجاورة جارك ، وتصفي مودة صديقك وتخلص المحبة لمحبك (ص ٢٥٨ ، ٢٥٩) وفي هذا الحديث إشارة إلى عدد من موضوعات علم النفس وهي القيم الأخلاقية Moral Values ، وسمات الشخصية الإيجابية Positive Personality Traits ، والمحبة Liking ، والمودة Intimacy .

وهناك فصل آخر في سياسة الأصحاب ، وسياسة الأصحاب لا تكون إلَّا بعد المعرفة بهم والاطلاع عليهم ومعرفة أحوالهم وألَّا يخفي من أهم صغيرة ولا كبيرة . ويعدد المؤلفون عددًا من الصفات التي ينبغي أن نتعامل بها مع الأصدقاء كاللين والأنس والكرم والانبساط (ص ٢٦٠) ويرتبط هذا بموضوع الصداقة Friendship في علم النفس الاجتماعي .

* * *

أبو حيان التوحيدي (ت ٤٠٠ هـ)
المقابسات [1]

عرض : د . طريف شوقي

التعريف بالمؤلف [2] :

هو علي بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدي ، وهو من أصل فارسي ولد في بغداد سنة (٣١٢هـ) ، ونشأ بها ، ويقال : إن لقبه « التوحيدي » نسبة إلى التمر الذي كان أبوه يتاجر فيه في بغداد ، ويقال نسبة إلى توحيد الدين حيث كان المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، وهو فيلسوف ، متصوف ، معتزلي ، وصفه ياقوت بأنه : « شيخ الصوفية وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ومحقق المتكلمين ومتكلم المحققين وإمام البلغاء ، فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم في كل فن حفظه واسع الدراية والرواية » .

جمع بين الثقافة اليونانية والثقافة العربية ، وبرز في كل علوم عصره ، وهي النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام والمنطق والحديث والتفسير .

وقد سلك في كل مؤلفاته مسلك الجاحظ في مزج الأدب بالحكمة ، والتصوف بالفلسفة مع الاعتماد على الأسلوب القصصي في سرد الأحاديث والحوادث التاريخية ومحاولة التأثير في العقل والوجدان من خلال المسامرة والتحاور .

ومن مؤلفاته نذكر : « الإمتاع والمؤانسة » ، « البصائر والذخائر » ، « الصداقة

---

(١) تحقيق وشرح حسن السندوبي ، القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى (١٩٢٩م) . (٣٩٩ ص) .

(٢) مصدر الترجمة : كتاب الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي .

والصديق » ، « المقابسات » ، « مثالب الوزيرين ابن العميد وابن عباد » ، « الإشارات الإلهية » ، « المحاضرات والمناظرات » ، « تقريظ الجاحظ » ، « الرد على ابن جني في شعر المتنبي » ، « رياض العارفين » ، « في أخبار الصوفية » ، « الحنين إلى الأوطان » ، « الرسالة البغدادية » ، « الرسالة الصوفية » ، « في ثمرات العلوم » ... ومؤلفات أخرى .

اختلف الرواة في الحكم على مدى صلاح دينه ، فوصفه ابن الجوزي بأنه من أشر زنادقة الإسلام ، ووصفه آخرون ومنهم ابن النجار بأنه كان صحيح العقيدة .

وقد يرجع ذلك الاختلاف إلى تاريخ حياة أبي حيان ، فقد صاحب الوزيرين أبا الفضل ابن العميد ، والصاحب ابن عباد فترة ولم يرضياه فكتب كتابه « مثالب الوزيرين ابن العميد وابن عباد » وفيه تحامل عليهما وعَدَّد نقائصهما مما أثار عليه غضب الوزيرين ، وساق عليه الصاحب ابن عباد من تصدوا له ورموه بالإساءة والزندقة ، ثم وشُي به إلى الوزير المهلبي فطلبه فاستتر منه أبو حيان ومات في استتاره ، ويُقال إنه بعد أن ساءت معيشته شعر أن كتبه لم تنفعه وضلت من يعرض قدرها فجمعها وأحرقها ولم يصل إلينا إلَّا ما أنقذ من الحريق .

لا تُعلم سنة وفاته على وجه التحديد ، ومن الروايات التي ذكرت أنها سنة (٣٨٠هـ) ، (٤٠٠هـ) ، أو (٤٠٣هـ) عن نيف وثمانين عامًا ، ويقال : إنه جاوز التسعين .

عرض الكتاب :

يتضمن هذا الكتاب مجموعة من المقابسات (١٠٦ مقابسة) ، وهذه المقابسات عبارة عن مقتطفات من مناظرات ومحاورات جرت في موضوعات شتى بين طائفة من العلماء والحكماء ومجالسيهم ، تحوي مجموعة من محاسن الكلام ودرر الحكم والأمثال ، ونقدم فيما يلي موجزًا لتلك المقابسات وما يمكن أن نستخلصه منها من عبر وأحكام ، ويلاحظ أن الغالبية العظمى منها تتناول موضوعات ذات طابع فلسفي وهي على النحو التالي :

١ - **المقابسة الأولى : في تطهير النفس وتجردها من الشوائب البدنية** . وفيها يقول أبو سليمان المنطقي : « اعلم أنك لا تصل إلى سعادة نفسك وكمال حقيقتك وتصفية ذاتك ، إلَّا بتنقيتها من درن بدنك ، وصفائها من كدر جملتك ، وصرفها عن جملة هواك ، وفطامها من ارتضاع شهوتك ، وحسمها عن الضراوة على سوء عادتك » ، (ص ١١٩) .

٢ - **المقابسة الثانية : وفيها يدور الحديث حول فوائد العلوم** : كالنحو ، والفقه ، والشعر ، والحساب ، والطب الذي يُعَرف بأنه يقصد بالطب استدامة الصحة مادامت الصحة موجودة (علم الصحة وخاصة الطب الوقائي) Hygiene وصرف العلة إذا كانت العلة عارضة (الطب العلاجي) ، (ص ١٢٠) ، وعلم النجوم الذي قيل عنه لم خلا علم النجوم من الفائدة والثمرة ؟ وليس علم من العلوم كذلك ؟ وتدور المحاورة بين المؤيدين والمعارضين لهذا القول ، ويسوق كل فريق الحجج المدعمة لرأيه .

وفي ثنايا هذه المحاورة يشير أبو حيان لرأي قيل في ما يطلق عليه في علم النفس التنبؤ من السلوك الحالي بالسلوك المستقبلي ، والاستدلال من السمات على السلوك : Traits and Prediction of Behavior اللاحق حين يقول : « فلو وقف رجل له من الحزم نصيب من الفطنة قسط على هذا الملك العظيم ، وعلى المُلك الجسيم ، وسدد فكره ، وحدد همه ، وصرف ذهنه ، وتصفح حالًا حالًا ، وحسب شيئًا شيئًا ، وقدَّر أمرًا أمرًا ، وتأمل بابًا بابًا ، وتخلل شيئًا شيئًا ، لأمكنه أن يعلم ما يتم له هذا النظر ، ويسره هذا القياس ، ويصدره هذا الحدس ، ويقع عليه هذا الإمكان ، لما سيعلمه هذا الملك غدًا ، أو يسديه بعد غد ، وما يتقدم به إلى شهر ، وما يكاد يكون منه إلى سنة أو سنتين ؛ لأنه على الأحوال مَليا ، ويجلوها جلوًا ، ويقايس بينها قياسًا ، ويلتقط من الناس لفظًا لفظًا ، ولحظًا لحظًا ، ويقول في بعضها : يترك كذا وكذا ، ويفعل كذا وكذا ، وإنما جرأ هذه الجرأة على الحكم والبت ؛ لأنه قد ملك لحظ الملك ولفظه ، حركته وسكونه ، وتعريضه وتصريحه ، وجده وهزله ، وسجيته وتجعده ، ووجومه ونشاطه ، وانقباضه وانبساطه ، وغضبه ومرضاته ، ونادره ومعتاده » ، (ص ١٣٠) .

٣ - **المقابسة الثالثة** : وتدور حول موضوع مهم وهو قابلية الأخلاق والعادات والسلوك للتغيير ، وكيف أن هذه القابلية نسبية بمعنى وجود سلوكيات يسهل تعديلها ، وأخرى تستعصي على هذا التعديل (تفاوت السلوك في القابلية للتعديل) Variance of Behavior in Modifiability ويوضح هذا المعنى بقوله : « قطب هذه المذاكرة في الأخلاق ، على أن تهذيبها وتطهيرها وردها إلى مقارها ، وتسويتها وتعديلها من الصعب المتعسر ، والممتنع المتعذر ، لكنها مع هذا كله ممكنة من نفسها في أشياء خاصة ، وفي مواضع معلومة ، بعض الإماكن وضامنة الاستحالة فيها بعض الضمان ، فعلى هذا لا ينبغي أن يطمع في إصلاحها كل الطمع ، ولا يقطع الرجاء عن إصلاح الممكن منها كل القطع » ، (ص ١٤٠) .

وتتسق هذه النظرة مع التصورات الحديثة في مجال تعديل السلوك ، والقائلة بأن بعض السلوكيات ، والقيم ، والاتجاهات تكون أسهل نسبيًا ، وأكثر قابلية للتغيير من الأخرى ؛ كمثل أن الآراء أكثر قابلية للتغيير من الاتجاهات ، والقيم أقل قابلية للتغيير من الاتجاهات ، وداخل الفئة الواحدة من الاتجاهات ثمة اتجاهات أكثر قابلية للتغيير من أخرى وهكذا .

٤ – **المقابسة الرابعة** : ومحورها الناموسي الإلهي وفوائده الدنيوية للمجتمعات والأفراد .

٥ – **المقابسة الخامسة** : في أهمية علم التنجيم ، ومواطن تفضيل بعض البشر على بعض .

٦ – **المقابسة السادسة** : في علة تفاوت وقع الألفاظ في السمع ، والمعاني في النفس ، ويجيب أبو بكر القومسي عن هذا السؤال بطريقة فلسفية تتفق مع ثقافته حيث كان كما وصفه أبو حيان كبير الطبقة في الفلسفة .

٧ – **المقابسة السابعة** : وفيها يتحدث أبو سليمان المنطقي عن السر وضرورة ظهوره يومًا ما .

٨ – **المقابسة الثامنة** : وفيها كلام لأبي القاسم الأنطاكي المهندس المحاسب في مسألة أن الأسباب التي هي مادة الحياة في وزن الأسباب التي هي علة الموت .

٩ – **المقابسة التاسعة** : ويناقش فيها عيسى بن الوزير مسألة التعصب للتخصص ، وعلة ولوع كل ذي علم بعلمه ، ودعواه أن ليس في الدنيا أشرف من علمه .

١٠ – **المقابسة العاشرة** : وتدور حول فعل اللّه البارئ ، هل هو ضرورة أو اختيار ؟

ويجيب أبو سليمان المنطقي : « أنه قد صح البرهان أن فعل اللّه تقدس وعلا ليس باضطرار ، وليس باختيار أيضًا ، فلم يبق بعد هذا إلّا أنه على نحو عال شريف يضيق عنه الاسم مشارًا إليه ، والرسم مدلولًا عليه » ، (ص١٤٩ ، ١٥٠) .

١١ – **من المقابسة الحادية عشرة إلى العشرين** : تدور المقابسات العشرة التالية حول موضوعات متنوعة تترواح بين دور الطبيعة (العوامل الوراثية والفيزيقية) في تخالف الناس على المذاهب ، والمقالات ، والآراء ، والنِّحَل ؛ حيث يقول أبو سليمان : « إن للخواطر والألفاظ والآراء والمقالات نسبة قوية ، وعلاقة شديدة ، ورباطًا متينًا إلى المزاج والطبيعة والهواء وإلى العناصر بالجملة » ، (ص١٥١) ، (١١)[1] .

---

(١) يشير الرقم داخل القوسين على السطر إلى رقم المقابسة .

ويرتبط ذلك بموضوع أثر كل من الوراثة والبيئة في السلوك وهو من الموضوعات التي اهتم بدراستها علم النفس الحديث ، وكيف أن إنشاء الكلام الجديد أيسر على الأدباء من توقيع القديم ؟ ويجيب أبو إسحاق الصابي مُعزيًا ذلك للدافعية بقوله : « كل مبتدئ شيئًا فقوة البدء فيه تفضي به إلى غاية ذلك الشيء » (١٢) ، ومناقشة قضية العلة والمعلول وأيهما يأتي أولًا (١٣) . ومسألة كيف أن مبدأ الجوهر (الصورة والمادة) ، ومبدأ الحركة (النقطة والوحدة) ، ومبدأ الكيف (السكون والحركة) ، (١٤) . ومسألة الكيفية والكيف (١٥) ، وكيف أن الارتجال أيسر من التسميع (١٦) . وكيف أن الحق لا يصير حقًّا بكثرة معقديه ، ولا يستحيل باطلًا بقلة منتحليه ، وكذلك الباطل (١٧) ، وفي التفرقة بين النفس والبدن (١٨) ، وأثر الغناء في النفس ، (١٩) ، والنظر في حال النفس بعد الموت وكيف أن النفس التي هي عنصر مغاير للحس لا تخضع لقوانين الحس (٢٠) .

١٢ – **من المقابسة الحادية والعشرين حتى الثلاثين** : تدور المحاورات في هذه المقابسات حول الموازنة بين النفس والأصل (الحسب) ، (٢١) . وتجري مناقشة حول العلاقة بين المنطق ، والنحو ، وكيف أن النحو منطق عربي ، والمنطق نحو عقلي ، وأن الأول يعنى بالمعاني ، والثاني بالألفاظ ، ويقدم أبو سليمان تعريفًا لكليهما : « فالنحو يرتب اللفظ ترتيبًا يؤدي إلى الحق المعروف أو إلى العادة الجارية ، والمنطق يرتب المعنى ترتيبًا يؤدي إلى الحق المعترف به من غير عادة سابقة ، والشهادة في المنطق مأخوذة من العقل ، والشهادة في النحو مأخوذة من العرف » ، (ص١٧١) ، (٢٢) . والفرق بين ظرف الزمان وظرف المكان (٢٣) ، وفي تعريف الطبيعة عند أهل النحو واللغة ومرادفاتها (٢٤) وأقسام معارف الناس (٢٥) ، وأهمية الفلسفة ومكانتها (٢٦) . وكيف أن الإنسان لا يكون إنسانًا إلّا بالنفس (٢٧) . والفرق بين المعقول والمحسوس (٢٨) . ومناقشة قضية التوحيد من منظور فلسفي حيث يبين أبو سليمان المنطقي كيف أن الفاعل الأول هو علة المحسوسات والمعلولات (٢٩) . وفي ضرورة تنزيه اللَّه عن الصفات البشرية وعدم جواز نسبتها إليه (٣٠) .

١٣ – **من المقابسة الحادية والثلاثين حتى الأربعين** : وتجري تلك المقابسات حول قضايا تتصل بالبعث وكيف أن مثل هذه الأمور تجري تبعًا لمشيئة (٣١) . وفي علة امتناع الرؤيا في المنام (٣٢) . وعن الحركة والسكون ، وفي هذا السياق يشير أبو محمد العروضي إلى كيفية حركة العالم (الأرض) حين يقول : « لو كان متحركًا الحركة المعروفة لقلق

ومال وتهافت ، ولو كان ساكنًا لبقي ذلك على حال ، ولكنه متحرك حركة استدارة فلذلك ما يظن به السكون ، وساكن سكون قابل للفيض ، فلذلك يظن به الحركة » ، (ص ١٩٢) ، (٣٣) . وقضية الموجود بالحس والموجود بالعقل ، (٣٤) . وعن عجيب أحوال أهل الجنة ، وكيف لا يملون النعيم والأكل ، ذلك لأنهم يدركون هذا من جهة العقل (٣٥) . وبعض الأدلة العقلية على أن اللَّه البارئ مصدر الأشياء ومنبعها (٣٦) . وبعض أقوال لأرسطو في النفس وعواقب الانجراف وراء أهوائها وشهواتها (٣٧) . وفي الحسن والقبيح ، وموقف العقل إزاءهما (٣٨) . ولماذا يفعل الإنسان ما يندم عليه (٣٩) . وعن قيمة العلم وكيف أنه حياة الحي في حياته ، والجهل موت الحي في حياته (٤٠) .

١٤ – **من المقابسة الحادية والأربعين حتى الخمسين** : من بين الموضوعات التي تم التطرق إليها في هاتيك المقابسات : قيمة العلماء وقدرهم حيث يقول العامري : « إن المغمض من أرباب الحكمة يدرك بفكره ما لا يدركه المُحدق ببصره من غيرهم » ، (ص٢٠٢) ، (٤١) . وفي معرفة اللَّه ، وكيف أنها كما يقول أبو الخير : « ضرورة من ناحية العقل ، واستدلال من ناحية الحس » ، (ص ٥ – ٢) ، (٤٢) . وأوجه الشبه بين الطبيب ، والمنجم (٤٣) . وآراء الفلاسفة في مفهوم الممكن ، والفرق بينه وبين مفاهيم مُثل الواجب ، والممتنع ، (٤٤) . وحول مسائل المبدأ الأول ، والأصل ، والعلة ، (٤٥) . وعن أقسام الموجود ، وعن العقل ، والشهوات ، وكيف أن الإنسان تقوده شهواته – في الغالب – حتى إن بعض الإلهيين يقول : « الإحسان من الإنسان زلَّة ، والجميل منه فلتة ، والعدل منه غريب ، والعفة فيه عرض ضعيف » ، (ص ٢١٧) ، (٤٦) . ويرتبط هذا بمفهوم ضبط النفس Self-Control والتغلب على شهواتها كما يرتبط مفهوم الصراع النفسي Conflict بين شهوات النفس ومقاومة الجانب الخيِّر والعاقل في الإنسان لها ، وعن العقل وعلو مكانته (٤٧) . وفي الفرق بين طريقة المتكلمين وطريقة الفلاسفة ، ويظهر فيها مدى انحياز أبو سليمان المنطقي إلى معسكر الفلسفة (٤٨) . وعن مظاهر الحركة في الموجودات وكيف أنها واحدة ، ولكن بصورة مختلفة ، فالحركة كما يقول يحيى بن عدي : « في النار لهب ، وفي الهواء ريح ، وفي الماء موج ، وفي الأرض زلزلة ، وفي العين طرف ، وفي الحاجب اختلاج ، وفي اللسان منطق ، وفي النفس بحث ، وفي القلب فكر ، وفي الإنسان استمالة ، وفي الروح تشوق » ، (ص٢٢٥) (٤٩) . وعن

الكهانة وما يلحق بها من أمور الغيب ، (٥٠) .

١٥ – **من المقابسة الحادية والخمسين حتى الستين** : وتدور حول أمور متباينة ؛ مثل : الجحود والجهل (٥١) ، والأفلاك والقمر (٥٢) ، وإن اختلاف الأجوبة في المسائل العلمية يرجع إلى اختلاف زاوية النظر (٥٣) . وفضائل العقل (٥٤) ، وعن الروية والبديهة وكيف لا يجتمعان في إنسان واحد (٥٥) ، وعن مراتب الإضافة (٥٦) ، والحظوظ والأرزاق وكيف أن اللّٰه يقسمها وفق نظام معين (٥٧) . وعن الجبر والاختيار (٥٨) ، والحس والنفس (٥٩) ، والنثر والنظم وأيهما أشد أثرًا في النفس ، (٦٠) .

١٦ – **من المقابسة الحادية والستين حتى السبعين** : من المسائل التي تتطرق إليها تلك المقابسات : كيف أن النفس قابلة للفضائل والرذائل (٦١) ، وتحوي تعريفات للطبيعة ، والعقل وهو « رقيق يحفظ ، وشاهد يؤدي ، وثقة يُؤمَن فمن استشاره منتصحًا أصاب ، ومن أضرب عنه مغترًّا طاح وخرج عن إصابة الحق » (ص ٢٤٨) ، والعلم الذي هو « ثمرة العقل ، والعقل سلم إلى اللّٰه » (ص ٢٥٠) ، والفلسفة (٦٢) . والتوحيد وعمق مسائله واستغلاقها على بعض النفوس (٦٣) ، وإن الحق لم يصبه الناس في كل وجوهه ولا أخطأوه في كل وجوهه ، بل أصاب منه كل إنسان جهة (٦٤) . ونوادر مفيدة في الفلسفة ؛ مثل قوله : « إنما تظهر النار من الحجر بالقدح ، وإنما تستبان النجابة من الإنسان بالتعليم » (ص ٢٩٠) ، (٦٥) . وعن العالم العامل ، والعالم غير العامل ، والجاهل (٦٦) . وأقوال بعض الفلاسفة في الألوان والحركة (٦٧) . وعن الوسط وكيف أن فيه الطرفان كالماء الفاتر الذي يوجد فيه الحرارة والبرودة (٦٨) . وعن الموقف من بعض التُّـرَّهات الشائعة (٦٩) ، وعن الفرق بين المعرفة والعلم .

١٧ – **من المقابسة الحادية والسبعين إلى الثمانين** : وتتناول موضوعات مثل الضحك « قوة ناشئة بين قوتي النطق والحيوانية » (ص ٢٧٤) ، (٧١) . وحديث النفس في أمور مثل الموت ، وأحوال الرسول ﷺ ، واللّٰه (٧٢) . وحقيقة الدهر (٧٣) . والفرق بين الوحدة والنقطة (٧٤) ، والفرق بين الفعل والعمل (٧٥) . والعلاقة بين النفس والبدن (٧٦) ، (والعلاقة بين النفس والجسم ، وتأثير كل منهما في الآخر من الموضوعات التي شغلت بعض الباحثين في علم النفس وفي الطب النفسي) . والعقل والحس (٧٧) ، والسلب والإيجاب (٧٨) ، وتعريف الطبيعة (٧٩) ، والمادة والصورة (٨٠) .

١٨ - من المقابسة الحادية والثمانين حتى التسعين : وفيها تدور المحاورات حول موضوعات متعددة مثل الخير ، (٨١) . وتعريف الواحد (٨٢) . وأقسام معاني العقل (٨٣) ، والخلاء (الفراغ) ، ومدى أهميته لحركة الأجسام فيه (٨٤) . والفرق بين الكلي والكل (٨٥) ، وتعريف الجوهر وأقسامه (٨٦) . ومناظرة منامية بين أبي سليمان وبين ابن العميد في أقسام الموجودات (٨٧) ، وفي ماهية البلاغة والخطابة (٨٨) . وكلمات في الزهد ذات طابع فلسفي (٨٩) ، وحكم فلسفية من كلام أبي الحسن العامري ؛ مثل : « انحلال النفس يكون على أربعة أوجه : أولها الكسل ، ثم الغباوة ، ثم القحة ، ثم الانتهاك ، وعلاجه استشعار التقوى ، والمحافظة على العبادات ، والاتفاق في سبل الأنفس » (ص٣٠٤) ، (٩٠) . وفي هذا الكلام إشارة إلى ما يصيب الإنسان من اضطرابات نفسية بسبب خضوعه لملذاته وميوله ، أو بسبب عدم تمسكه بالقيم الخلقية والدينية ، ويشير المؤلف إلى علاج هذه الاضطرابات وهذا الانحلال عن طريق العبادات والتقوى والتماسك بالقيم الدينية .

١٩ - من المقابسة الحادية والتسعين حتى السادسة بعد المائة : وفيها ينقل تعريفات لبعض المفاهيم المهمة ؛ مثل : الشعر ، والغناء ، والنغم ، والجدل ، والكون ، والفساد ، والحقيقة ، والشر ، والذكاء : Intelligence « سرعة الانقداح نحو المعارف » ، (ص ٣١١) ، والتخيل : Imagination « حصول صور المحسوسات بعد مفارقتها وزوالها عن الحس » ، والإدراك : Perception « تصور نفس المدرِك بصورة المدرَك » . والحفظ : Retention « ثبات صورة المعقولات والمحسوسات في النفس » ، (ص ٣١٢) . ويشير المؤلف إلى علاج هذه الاضطرابات وهذا الانحلال عن طريق العبادات والتقوى والتمسك بالقيم الدينية (ويرتبط هذا الكلام بما يدرس في علم النفس الحديث تحت مفاهيم الإدراك الحسي والتخيل والذاكرة ، والعمليات المعرفية بصفة عامة) . والجوهر ، والهيولى والعلة الأولى ، والحركة والسكون (٩١) ، وأن الندرة هي سبب شرف العلم ، والمعرفة ، والفضائل (٩٢) . وفي القول بقدم العالم ، وحدوثه (٩٣) . وبعض الوصايا التي يجب على العبد أن يجتهد في القيام بها ، والعمل بموجبها لصلاح أمره في الدنيا ، والآخرة (٩٤) ، وكلام لبعض الصوفية لم يُرَق لأبي سليمان فجاء بخير منه (٩٥) ، وكلمات في الحكمة منقولة عن المشايخ في مجالات شتى كالهندسة حيث يقولون فيها : « التعليم الهندسي صناعة من الصناعات العقلية والأسية ، ويقع بحثها على المقادير والأبعاد (الطول ، العرض ، والعمق) والأشكال والزوايا ، وما يقع تحت كل

مقدار ويُعد من الزوايا الخطية والسطحية والجسمية » (ص٣٢٨) ، (٩٦) . وفي عيون من كلام الأوائل المنقولة بالترجمة ، ومنه كلام لأرسطو ونورفوريوس (٩٧) . وضرورة البعث ، والحساب (٩٨) ، وإن المتضادات في هذا العالم مرجعها إلى أصل واحد (٩٩) . وتفسير قولهم إن فلان ملء العين ، والنفس (١٠٠) . وإن العلم أحسن خصلة يحسن الإنسان فيها إلى نفسه (١٠١) . والفرق بين النوم واليقظة (١٠٢) ، والاتصال بين العلة والمعلول ، وأنواع العلل (١٠٣) . وقضية الحركة والسكون كإحدى القضايا التي يستمد منها بعض أدلة التوحيد (١٠٤) . وفي تفسير كيف أن النوم شبيه بالموت (١٠٥) ، وفي تعريف الصديق حيث يعرف أرسطو الصديق بأنه : « آخر هو أنت » (ص ٣٥٩) ، وحقيقة الصداقة ، والفرق بين الصداقة والألفة ، وتعريف العشق ، والمحبة ، والمروءة ، والروح ، والحكمة ، والسعادة ، (١٠٦) . ويرتبط موضوع العشق والمحبة والسعادة بموضوع الانفعالات في علم النفس الحديث .

* * *

ثلاث رسائل [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

الرسائل :

تقع المجموعة من الرسائل في ٨٨ صفحة من القطع المتوسط ، وتضم ثلاث رسائل هي : السقيفة (ص ٥ - ٢٦) ، ورسالة في علم الكتابة (ص ٢٩ - ٤٨) ، ورسالة الحياة (ص ٥١ - ٨٠) ، ويسبق هذه المجموعة من الرسائل مقدمة المحقق ، وبيان بالرموز المستعملة في طبع هذه المجموعة وصورة خطية من رسالة السقيفة ، ورسالة الحياة ، ويلي الرسائل مجموعة فهارس منها فهرس الأعلام ، وفهرس الأمم والفرق والجماعات ، وفهرس الأمكنة والبلدان ، وفهرس أسماء الكتب الواردة في الرسائل ، والمصادر المعتمدة في نشر رسائل التوحيدي .

أول هذه الرسائل رسالة السقيفة وهي تمثل جانبًا من النضال بين السنة والشيعة في عصر بني بويه ذلك العصر الذي اشتدت فيه المنازعات المذهبية والسياسية والفكرية واشترك فيها الناس على اختلاف عقائدهم وأعراقهم وتفاوت حظوظهم من العلم والمعرفة .

ولم يفت التوحيدي أن يُسهم في هذه الحركة فألف هذه الرسالة تحت تأثير عاملين : الأول : الحوادث الدامية التي وقعت في زمنه بين السنة والروافض ، والثاني : العداوة الشخصية التي تأججت نارها بين التوحيدي من جهة وابن العميد والصاحب ابن عباد

---

(١) تحقيق إبراهيم الكيلاني . دمشق : المعهد الفرنسي للدراسات العربية (١٩٥١م) . (٨٨ ص) . المحتويات : رسالة السقيفة ، رسالة في علم الكتابة ، رسالة الحياة .

من جهة أخرى ، وهذان الوزيران كانا من أكابر الشيعة في زمانهما ، ولا ريب في أن التوحيدي قصد في تأليف رسالته إغاظتهما والانتقام منهما ؛ لأنهما أساءا إليه وحرماه رغدهما .

ويبدأ أبو حيان في شرح الظروف والملابسات التي جرى فيها حديث السقيفة والذي يدور حول رسالة أبي بكر الصديق ﷺ لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، ثم جواب علي له ومبايعته إياه عقب تلك المناظرة ، وكيف تدل الرسالة على علم ، وحلم وفصاحة ، وفقاهة ، ودهاء ، ودين من كتبها . ويتعرض أبو حيان لعدد من المفاهيم المهمة التي أصبحت من الموضوعات المهمة في دراسات علم النفس الحديث وتدور حول العقل والذكاء (ص ٦ ، ٧) .

وفي موضع آخر يتعرض لحديث أبي بكر إلى أبي عبيدة بن الجراح ، ويعدد فيه خصائصه ومزاياه ، وعلاقاته الطيبة بالناس ، وهي صفات وخصائص تصلح لأن تكون صفات قائد محنك وقد درس علماء النفس خِصال القائد ، وموضوع القيادة في علم النفس الاجتماعي كما درسوا أيضًا التفاعل الاجتماعي وحبذا لو أنهم اهتدوا بهذه الصفات (ص ٨ ، ٩) . كما يحمله رسالة لعلي بن أبي طالب يعلمه فيها بعض الآداب في المعاملة ، ويوصيه بالنصح ويحدد له شروطه ؛ وقياسًا على ذلك يمكن الاستفادة منه في تقديم الإرشاد والنصح للذين يعانون من مشكلات سوء التوافق وهي من بين اهتمامات علماء النفس في الوقت الحاضر (ص ٨) . كما يشير إليه بالتحرز من وسوسة الشيطان . والوسواس كمرض - أيًا كان سببه ومصدره - من الأعراض والأمراض التي يُعنى بها علماء النفس الإكلينيكيون (ص ٩) وورد أيضًا في الرسالة التي حملها له إلى علي ابن أبي طالب الشروط الأساسية للصداقة وموضوع الصداقة أيضًا من موضوعات علم النفس الاجتماعي التي تدرس في باب المهارات الاجتماعية Social Skills (ص ١٠) . ويستحثه أيضًا على أن يفصح عما يعترك بداخله من مشاعر وآراء ، ويتعجب من سبب سكوته ، ويقول له : أعجمة بعد إفصاح ، أتلبيس بعد إيضاح ! وهنا نجد متضمنات سيكولوجية لغوية ، فالشخص الذي امتلك لغته وتمكّن منها ، لكنه لا يستطيع التعبير بكفاءة نقول : إن هناك تفاوتًا - لديه - بين الكفاءة Competence والأداء Performance وهي من المصطلحات اللغوية التي تناولها علماء نفس اللغة بالدراسة في الوقت الراهن (ص ١٠) .

وفي وصف بليغ يحدد أبو بكر عددًا من المشكلات والأزمات التي تحيط بالمسلمين

(وكأنه يتحدث عما يسميه علماء النفس في الوقت الراهن مثيرات المشقة Stressors ص ١١).

وفي رسالة من عمر بن الخطاب ﷺ لعلي أيضًا يتعرض للقرابة من رسول الله ﷺ ويميز بين القُرْبَة (المنزلة) والقارابة ويتعرض للروح والنفس (وهي من المسائل التي شغلت بعض المفكرين في فترات مبكرة للتمييز بينهما، غير أنها لم تعد ذات بال الآن)؛ كما يوضح فضل الجماعة والانخراط فيها وقد درست الجماعة؛ تكونها، وقواعد تكوينها، ونظم القيادة فيها، في ديناميات الجماعة Group Dynamics، وأيضًا في علم النفس الاجتماعي (ص ٢٠).

وفي رد على هاتين الرسالتين، يتعرض للحزن والشجن: وهو من الانفعالات التي تدرس في علم النفس العام (ص ٢٢). كما يذكر مفهوم الحاجات Needs ويربطه بالنفس: وهو من المفاهيم التي يتناولها علماء النفس، خاصة عند التعرض لمفهوم الدوافع Motives (ص ٢٢)، وكذلك يقابل بين مفهومي «البله»، و«الفطنة»، وقد شاع في دراسات علم النفس - لفترة طويلة - استخدام أوصاف كيفية لوصف القدرات العقلية أو الذكاء، وإن كان علماء النفس قد تخلوا عن هذه الأوصاف الكيفية، وتحولوا إلى الأوصاف الكمية (ص ٢٥).

أما الرسالة الثانية: فهي في علم الكتابة ونرى أنها بعيدة عن الموضوع الذي نحن بصدده هنا.

والرسالة الثالثة، فهي رسالة الحياة: ويبدأها بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله الكريم، ثم يُتبع ذلك بمقدمة عامة، ثم يورد قولًا لسقراط يحث على معرفة مواقع النطق والصمت، وهي - أي المعرفة - نتاج للفكر الصحيح؛ وهذا الكلام له تضمينات سيكولوجية مباشرة، فبالنسبة لمعرفة مواقع النطق والصمت تدل من ناحية على إجادة في التخاطب Communication، وهو من موضوعات علم النفس الاجتماعي، ومن موضوعات سيكولوجية اللغة، ومن ناحية أخرى يربط بين المعرفة والتفكير وهو ما يدخل مباشرة في ما يسمى الآن بعلم النفس المعرفي Cognitive Psychology، كما يدخل في اهتمامات علماء النفس الإكلينيكيين المعنيين باضطرابات الوظائف المعرفية Cognitive Abnormalities (ص ٥٣).

وبعد ذلك يصنف الحياة إلى عشرة أصناف، الأول يقال له: حياة الحس والحركة. والصنف الثاني يقال له: حياة العلم والبصيرة، والصنف الثالث يقال له: حياة العمل

والكدح ، والصنف الرابع يقال له : حياة الخُلق والسجية ، والصنف الخامس يقال له : حياة التدين والسكينة ، والصنف السادس يقال له : حياة الكمال الأول ، والصنف السابع يقال له : حياة الظن والتوهم ، ويقال له أيضًا حياة الذكر ، والصنف الثامن يقال له : حياة الكمال الثاني وهي حب العافية ، والصنف التاسع حياة الملائكة ، والعاشر ما يقال له إن الله ﷻ حي .

وإذا نظرنا إلى الحياة الأولى نجد أنها حياة الإنسان التي بها يحيى ويتحرك ويلد وينعم ويشتكي ويتألم وهذه مشتركة بين الإنسان والحيوان ؛ والملاحظ هنا أن عناصر هذه الحياة مما يدخل في دراسات علم النفس ، فدراسة الإحساس Sensation والحواس وسلامتها أو اضطرابها ، ومراكزها ، وكذلك دراسة السلوك الحركي Motor أو النفسي Psychomotor في سوائه يدرس في علم النفس العام ، كما يدرس اضطرابه في علم النفس الإكلينيكي ، كما يدرس الألم Pain وما يترتب عليه والعوامل التي تسهم فيه في علم النفس الطبي Medical Psychology ، وكذلك إشباع الدوافع Motives خاصة الدوافع الأولية المتصلة بحفظ الحياة وبقاء النوع ، في علم النفس العام (ص ٥٥) .

أما الحياة الثانية فهي حياة العلم والمعرفة والفهم والدراية والحفظ والروية والحكمة والبحث والاستنباط والمسألة والجواب وهذه الحياة تستفاد بالتأييد الإلهي والاختيار البشري ، مع النية الحسنة ، والسعي الدائم ، والمحبة النفسية ، واللطافة الروحية ، والرقة المزاجية ؛ وتذخر هذه الحياة - كما قدمها التوحيدي - بالمضامين السيكولوجية فالعلم بمعنى تحصيله المعرفة ، والمعرفة Cognition والفهم Comperhension أو Understanding وكذلك الدراية ، والحفظ كجزء من الذاكرة والروية كسمة للأسلوب المعرفي أو الأداء بصفة عامة والحكمة والبحث والاستنباط كدلائل على التفكير ، والمسألة والجواب كأسس للمنهج العلمي ، كلها من الموضوعات الأصلية في دراسات علم النفس الحديث (ص ٥٦) .

وأما الحياة الثالثة فهي حياة العمل الصالح بالرفع والوضع والأخذ والعطاء والعِشرة والصداقة والوداعة والرعاية وحسن العهد وصدق الوعد ، وهذه الحياة إذا انضمت إلى الحياتين الأوليين كمَّلت الإنسان وزادت في قيمته ، وعلَّت من درجته ، وأفادته شرفًا أبديًّا وعزًّا سرمديًّا ، وألبسته جلباب البقاء ، وسلكته إلى كنف السعادة ، وخلطته بزمرة الملائكة . وكما في أنواع الحياة السابقة ، نجد بعض المفاهيم والموضوعات التي لها مقابل في دراسات علم النفس الحديث ؛ مثل بعض سمات الشخصية الجيدة أو ما يدرس في الشخصية Personality ، وكذلك موضوع الصداقة Friendship وهو من موضوعات

علم النفس الاجتماعي حيث يدرس تحت باب أوسع هو باب المهارات الاجتماعية Social skills (ص ٥٧) .

وإذا كانت الحياة الرابعة هي حياة الديانة والسكينة ، فإن الحياة الخامسة هي حياة الأخلاق ، التي من هذبها ، ومن تهذب بها ، ونفى خبيثها ، وتحلى بطيبها ، هنأ عيشه وعيش من يعايشه ، وصفيت سريرته من الكدر ، وبر سعيه في كل ما حلا وأمر ، والخُلق تابع للخَلق بالمضارعة اللفظية وهو يتقسم بين ما يزول بالرياضة كل الزوال ، أو يقل بعض الإقلال ، وبين ما يكون صورة للنفس لا يطمع في البراءة منه والطهارة عنه ؛ ونجد في الحديث عن الأخلاق ما يدخل تحت عباءة علم النفس من ناحيتين : الأولى : في موضوع التربية أو التنشئة الاجتماعية Socialization أو القيم Values وهما من موضوعات علم النفس الاجتماعي . والثانية : ما يدخل في باب سمات الشخصية ، كما أن ما أحاط بهذا الحديث يدل بشكل غير مباشر على بعض أساليب الراحة النفسية ، أو علاج التغيرات المزاجية Mood swigns (ص ٥٧ ، ٥٨) .

والحياة السابعة هي حياة الظن والتوهم ، أي ما يغلب على الإنسان من الذكر والصيت والشهرة بأي وجه كان ، كما طلب الثناء والخلد في كل وجه ، وحلم به في كل نعاس وتمناه في كل انتباه ، وكل أحد يتوهم نوعًا غير نوع صاحبه بقدر مزاجه ونقصه وزيادته وعقله ورأيه ، وبديهته ورويته ؛ ونظرة فاحصة لهذا الكلام نجده يحتوي على موضوعات تدخل ضمن موضوعات علم النفس ؛ فطلب الشهرة والصيت من قبيل الدوافع المكتسبة التي تدرس في علم النفس العام ، والأخلاق تدرس في علم النفس الفسيولوجي ، وأحلام اليقظة إحدى حيل التوافق التي تدرس في علم النفس العام ، والفروق الفردية في السمات المزاجية ، والقدرات العقلية من المبادئ الأساسية التي تراعى عند دراسة هذه الموضوعات (ص ٥٨ ، ٥٩) ، كما يتعرض أيضًا للحس والعقل ، والعلاقة بينهما (ص ٦٠ ، ٦١) .

ويحدد في ذلك سُبل الوصول للحياة الثامنة أو الحياة العاقبة (التي تنال بعد الموت) ، وهي الاجتهاد والسعي والكدح والدوب والاعتماد والتجمل والتكلف والقيام والقعود والعبادة والزهادة والتعب والمشقة والقلق والسؤال والجواب والاستعانة ، ونلمح هنا بعض المفاهيم السيكولوجية كالتعب ، والمشقة Stress والقلق Anxiety (ص ٦١) .

أوجه الاستفادة من الرسائل في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذه الرسائل في علم النفس الاجتماعي ، وعلم النفس الإكلينيكي .

البصائر والذخائر [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٣٠٣ صفحة من القطع المتوسط ، ويشتمل على تصدير بقلم أحمد أمين ، ثم نماذج من مخطوطة الكتاب الأصلية ، ثم الكتاب مجملًا دون تقسيم ، ثم مجموعة الفهارس وتضم فهرس الأعلام ، وفهرس القبائل والأمم والعشائر والأرهاط والطوائف ، وفهرس الأماكن ، وفهرس الاستدراكات ، وفهرس الأشعار ، وفهرس أنصاف الأبيات ، وفهرس أيام العرب ، وفهرس الأمثال ، وفهرس الكتب .

قبل أن ندخل في تفاصيل هذا الكتاب ، نود أن نشير إلى أن هذا الكتاب يمثل وَحدة واحدة ، من أوله لآخره ، حيث لم يضع المؤلف عناوين رئيسية أو فرعية تعين على تنظيم عرضه . وسوف نبحث في طياته عما له علاقة بعلم النفس .

ويبدأ المؤلف كتابه بمقدمة ، تحوي دعاء وابتهالًا للَّه ﷻ أن يوفقه في مهمته ويشير إلى الكتب التي طالعها ككتب الجاحظ ، وكتاب النوادر لمحمد بن زياد الأعرابي ، وكتاب الكامل لأبي العباس الثمالي ، وكتاب العيون لابن قتيبة وغيرها . وقبل هذا وذاك كتاب اللَّه ﷻ وسنة نبيه ﷺ ، ثم يعتمد بعد ذلك على حجة العقل .

وبعد هذه المقدمة يبدأ وصاياه ، مستمدًّا أولاها من حديث للرسول الكريم ﷺ يبينٌ

(١) حققه وعلق عليه أحمد أمين ، السيد صقر . القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩٥٣م) . نسخة مصورة

منزلة العقل وفوائده ، ويطالب الحفاظ عليه ؛ وموضوع العقل من موضوعات علم النفس ويدرس تحت مسميات عدة كالتفكير Thinking ، والذكاء Intelligence ، والقدرات العقلية Mental Abilities ، والوظائف المعرفية Cognitive Functions (ص ١٣) .

وفي موضع آخر نستشف من حديث رسول الله ﷺ بعض المعاني التي يمكن أن نجد لها مقابلًا في علم النفس الحديث ؛ مثل : بعض سمات الشخصية كالإخلاص ، والقصد ، والعدل ، والعفو ، وبعض الانفعالات كالغضب ، وضرورة التفكر (أو التفكير) والاعتبار (ص ٢٧) .

ومن الوصايا التي وردت بالكتاب وإن لم تكن تنتمي لعلم النفس على وجه الخصوص ، وصية الحث على تعلم العلم ، وإتقانه (ص ٤٠) .

ومن قول بعض الفلاسفة ، نجد تعرضًا لمفهوم النفس ، وذكر لأجزائها ، وخاصة العقل باعتباره أشرفها ، والحديث عن النفس - بغض النظر عن المقصود بها في هذا المقام والعقل مما يدخل في صميم علمنا الحديث (ص ٤١) .

ومن خلال ما روي عن ابن سيرين في تفسير الأحلام ، يمكن القول بأنها بداية سبقت محاولات فرويد في تفسير الأحلام ؛ والتي تمثل حجر الزاوية في نظرية فرويد وكتاباته في ذلك ؛ وإن كانت مدارس كثيرة من مدارس علم النفس الحديث لا تعطي لتفسير الأحلام الوزن الذي أعطاه لها فرويد وأتباعه (ص ٤٦ ، ٤٩) .

ويسوق أبو حيان التوحيدي في ثنايا كتابه بعضًا مما قاله بعض اليونانيين ؛ فقد قال بعضهم : « مقدم الرأس للفكرة ، ومؤخر الرأس للذكر ، والدليل على ذلك التفكر والتذكر ؛ لأن المتفكر يطأطئ رأسه ، والمتذكر يرفع رأسه » وبرغم سذاجة هذا الاستدلال ، فإن هذا القول تعرض لبعض قضايا علم النفس الحديث ، فالتفكير والتذكر في موضوعات علم النفس العام General Psychology أو - كما يحب البعض - علم النفس المعرفي Cognitive Psychology ، أما البحث عن تموضع Localization لهذه القدرات في الدماغ مما يبحث في علم النفس الفسيولوجي Physiolocial Psychology وعلم النفس العصبي (ص ٥٥) .

ومن كلام عمر بن عبد العزيز ، عن كيفية اختيار الولاة ، نلمح حديثًا غير مباشر في موضوع القيادة وخصائص القائد . وهي من موضوعات علم النفس الاجتماعي Social Psychology (ص ٦٣) .

ويتعرض المؤلف كذلك لقيمة الصدق وفضلها ؛ وهي من الصفات التي درست تحت موضوع القيم Values في علم النفس الاجتماعي ، كما درست باعتبارها من سمات الشخصية النوعية .

ويقول إسحاق الموصلي : « أول العشق النظر ، وأول الحريق الشرر » ، والعشق إحدى درجات الحب ، والحب درس كأحد أنواع الانفعالات Emotions في علم النفس العام ، كما أن النظر يمكن أن يدخل في باب الإشارات الاجتماعية Social signals أحد موضوعات علم النفس الاجتماعي (ص ٧٤) .

وينقل لنا كذلك وصايا بعض الحكماء في كيفية انتقاء الصديق ؛ وموضوع الصداقة Friendship من الموضوعات التي درست في علم النفس الاجتماعي تحت مسمى المهارات الاجتماعية Social skills (ص ٨٩) ، ومن خلال بعض الروايات الأخرى ينقل لنا صورة لبعض الأمراض والاضطرابات - أعني الاضطرابات الجنسية Sexual Disorders وهي نوع من الانحراف له متضمنات نفسية ، ويرد في كتب الطب النفسي ، ويهتم به المختصون في علم النفس الإكلينيكي ، والمعالجون السلوكيون Behavior Therapistes ، (ص ٩٠) ، وإن كان هو قد أطلق على هذه الاضطرابات لفظ الجنون ، ثم يعود مرة أخرى لموضوع الصداقة والأصدقاء الذي سبق أن أشرنا له (ص ١٠٧ - ١٠٨) .

ومن كلام علي بن أبي طالب كرم اللّه وجهه يذكر قوله : « من كفارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف ، والتنفيس عن المكروب » . وقد تحورت هذه المعاني وأصبحت تدرس في علم النفس الاجتماعي الحديث تحت مسمى سلوك المساعدة Helping Behavior (ص ١١١) .

ويتعرض أبو حيان التوحيدي للحديث في الفرق بين النفس والروح ؛ لكنه يتركه جانبًا ولا يخوض فيه ، لأنه صعب شاق (ص ١١٦ ، ١١٧) .

ويسوق لنا من كلام أبي حامد القاضي شيخ أصحاب الشافعي ، كلامًا بليغًا موجزًا ربط فيه بين الثواب والعقاب وبين الفعل ، ومبدأ الثواب والعقاب من المبادئ التي درست في علاقتها بالتعلم Learning (ص ١٤٣) كما تعرض للعقل (ص ١٤٣ ، ١٤٤) .

وينقل لنا عن معاوية بعض أقواله التي تحدد الخصال التي ينبغي أن يتخلى عنها الملك (أو القائد) فلا توجد فيه وهي الكذب ، والبخل ، والحسد ، والجبن ، وهي من خِصال الشخصية السلبية ، والتي تؤخذ في الحسبان عند دراسة الصداقة ، ويوجد في

تراث علم النفس الحديث مقاييس تحمل اسم الصداقة لها عدة أغراض (ص ١٧١) . ويتصل بهذا الكلام ما ذكره أيضًا عن عبد الملك بن مروان فيما كتبه للحجاج (ص ١٧٤) .

ويذكر كذلك في موضع آخر بعض كلام النحويين الذي يحمل في طياته فائدة لا تنكر للمهتمين بدراسة سيكولوجية اللغة Psycholinguistics (ص ١٧٥) .

* * *

الصداقة والصديق [1]

عرض : د . أسامة سعد أبو سريع

عرض الكتاب :

يقع هذا الكتاب في ٤٧٥ صفحة من القطع المتوسط ويضم مقدمة الناشر ، ثم الكتاب نفسه دون تفسير أو تصنيف .

يذكر أبو حيان في مستهل كتابه ؛ أنه أقدم على كتابته بعد أن سمع الناس منه في بغداد كلامًا عن الصداقة والمؤاخاة والأُلفة والمساعدة والنصيحة إلى غير ذلك من خصال الصداقة ، وخشي أن يتفرق كلامه ويضيع ، ودعاه بعض الناس إلى جمعه وإثباته حفاظًا عليه ، ورغبة في أن يفيد منه الناس لما فيه صالح دنياهم وآخرتهم .

ويبدأ أبو حيان مبينًا أن دوام الصداقة والمساعدة ، وتبادل الثقة يؤدي إلى التشابه في الاختيار والغايات رغم تعارض أعمال وتبعات الصديقين في الحياة ، علاوة على هذا يؤدي الحب بين الصديقين إلى امتصاص الغضب بينهما ، وسهولة التفاهم حتى يكفهما التعبير عن العتاب بلمحة أو إشارة أو كناية لا يفهمها غيرهما .

وهنا نجد أنه يتحدث عن التأثيرات بعيدة المدى أو طويلة المدى للصداقة ، فقد ذكر أبو حيان أن دوام الصداقة يؤدي إلى أعلى درجات الموافقة واتفاق الغايات والاختيارات بين الصديقين ، وهي أفكار على صلة واضحة بمفاهيم نفسية منها التشابه Similarity والتقمص أو التوحد Identification (ص ٢ - ٣) .

---

(١) شرح وتعليق علي متولي صلاح . القاهرة : المطبعة النموذجية (١٩٧٢م) . (٤٧٥ ص) .

ويذكر في موضع آخر أن الصداقة لا يمكن أن تجتمع مع الرهبة ؛ ولذا لا يمكن مصادقة الملوك ، فأساس الصداقة الرغبة وليس الرهبة ، كما لا تجتمع الصداقة مع الطمع وعلى هذا لا يمكن مصادقة التجار لفرط حرصهم على طلب المال ، كذلك لا تصلح صداقة قليل الذمة لسوء خلقه ولؤم طباعه ، وفي المقابل ينصح بصداقة أهل الدين ؛ لحرصهم على التقوى ومراعاة الآخرين ، ويمكن مصادقة أهل العلم إذا نبذوا الحسد والتنافس والشك والخصومة ولو أنها صداقة قليلة الحدوث .

ونجد هنا حديثًا عن التجاذب بين الأشخاص Inter - Personal Attractivenss وهي السمات التي يتمتع بها أحد الأشخاص والتي تُرغِّب الآخرين في بدء صداقة معه ؛ ومن هذه السمات التي ذكرها أبو حيان الصدق Truth ، وحسن الخلق Moral ، والتواضع Modesty ، والكرم Generosity ، والتشابه Similarity (ص ٥ ، ٦) .

ويورد أبو حيان أقوالًا توضح أهمية الصداقة في حياة الفرد منها : « أن الغريب من لم يكن له حبيب » وأيضًا قول أحدهم : « إذا مات لي صديق سقط لي عضو » ، وأقوالًا أخرى تفصح عن خوف الأصدقاء من عدم اللقاء ، وحرصهم على التجاور حتى إن بعضهم عبر عن رغبته في أن يشتري دارًا بجوار دار صديقه حتى يلقاه كل وقت ، كما عبر عن فرط الثقة بين الصديقين كما اتضحت من قول أحد الأصدقاء لصديقه : « إذا كان إخوان الثقة كثير فأنت أولهم ، وإن كانوا قليلًا فأنت أوثقهم ، وإن كانوا واحدًا فأنت هو » .

ويمكن لهذا الحديث أن يدخل تحت وظائف الصداقة : وهي المتغيرات التي تحدد أهمية الصداقة من خلال التأثير النفسي الذي تحدثه الصداقة ، وقد ذكر أبو حيان من تلك الوظائف الشعور بالارتياح النفسي ، واستبعاد الشعور بالوحدة كما أنها تمهد فرصًا للحصول على التأييد والمساعدة بكافة أشكالها المادية والمعنوية (ص ١٢) .

ويمضي أبو حيان مبينًا أهمية التدقيق في اختيار الصديق ؛ فيروي قصة يحيى بن زياد الحارثي الذي أرسل إلى عبد الله بن المقفع يطلب صداقته فيرد عليه ابن المقفع بما معناه أن الصداقة رق وعبودية ، وأنه يكره أن يسلم نفسه لشخص قبل أن يتأكد من حسن خصاله (ص ٢١) .

وفي مجال حسن معاملة الصديق يذكر قصة رسول الله ﷺ ، وهو يأكل التمر مع جليس له ، وكان الرسول ﷺ إذا رأى تمرة رديئة (حشفة) عزلها فقال جليسه : « يا رسول الله أعطني الحشفة حتى آكلها » فرد عليه الرسول : « **لا أرضى لجليسي إلّا ما أرضاه**

لنفسي » (ص ٢) .

ويعرض أبو حيان بعد ذلك لخصال الصديق المخلص ؛ فيذكر أنه الصديق الذي يحرص على نفع صديقه ، وأن شر الأصدقاء هو من يرمي إلى مصلحة شخصية من الصداقة عملًا بالقول الآتي : « خير إخوانك المعين لك على دهرك ، وشرهم من هو لك لسوق يوم » (ص ٢٣) . ويذكر أيضًا « صديق لا تنفعك حياته لا يضرك موته » ويسترسل أبو حيان في وصف الشخص القادر على الحفاظ على الصداقة ؛ بأنه من يعاشر أهل الرأي والفضيلة ، ويعامل الناس بخلق حسن ، ويقتصد بغير بخل .

ويضيف أبو حيان أقوالًا أخرى تُفصِّل حق الصديق على صديقه ؛ ومنها القيام بأعبائه في غيابه ، وحفظه ومعاونته عند حضوره ، وملاطفته إذا جفى ، ومكافأته إذا وُفق في عمل ، والحديث عنه الحديث الطيب مع الأصدقاء الآخرين ، ودفع الظلم عنه والابتهاج لرؤيته والحفاظ على سره .

ويعكس هذا الحديث مهارات الصداقة Skills of Friendship وتتضمن التصرفات والأساليب التي يُدرب عليها الشخص حتى يتمكن من الدخول في علاقة صداقة عندما يكون راغبًا في بدء صداقة بالإضافة إلى مهارات مواصلة الصداقة ، وقد ذكر أبو حيان من تلك المهارات إظهار الاهتمام بالآخرين ويتجلى في صور مختلفة ؛ مثل : المشاركة الوجدانية ، والسؤال عن الصديق ، وتقديم المساعدة أو ما نسميه بالتدعيم ، ويشمل أشكال الإثابة Reward التي يقدمها الشخص المدعم إلى الطرف الآخر الذي يرغب في التأثير فيه ؛ ومن المدعمات التي وردت في الكتاب : التعبير عن الحب Love ، والتقدير والاحترام Respect والمال ، والخدمات ، والمعلومات ، وكلها مدعمات قائمة في إطار النظريات الحديثة في مجال التدعيم الاجتماعي (ص ٢٧ ، ٥٤ ، ١٢٩) .

ومن الأقوال التي ذكرها أبو حيان يتبين أن الصداقة قد تسمو على القرابة وهنا يستشهد بإجابة ابن المقفع على سؤال وجه إليه وهو : الصديق أحب إليك أم القريب ؟ فأجاب : القريب أيضًا يجب أن يكون صديقًا .

ويمضي أبو حيان ويتناول آداب التعامل مع الصديق فيحث على الصدق ، ويحذر من المكر كما يوصي بطاعة الصديق ، ومعاملته باللين ، والثقة فيه ، وعدم تصديق ما يُقال عنه وإلى معاتبته إذا وقع خلاف معه بدلًا من قطع الصلة به نهائيًا .

ويحث أبو حيان على تجنب صديق السوء ويبرر ذلك بأن تصرفه مع صديقه يوجب

نبذه ويذكر من تصرفات أصدقاء السوء ما يلي :

إذا عمل الإنسان عملًا قالوا إنه يريد التظاهر والتفاخر أمام الناس ، وإذا قصر عن العمل قالوا لقد وقع في الإثم ، وإذا بكى قالوا إنه فضح نفسه ، وإذا ضحك قالوا إنه أحمق ، وإذا نطق قالوا إنه متكلف ومدعي ، وإن سكت قالوا إنه عاجز عن النطق ، وإذا تواضع قالوا لقد افتقر وضعف ، وإذا أنفق قالوا لقد أسرف ، وإن اقتصد في حاله قالوا لقد بخل ، ثم يقدم دليلًا آخر ورد في كليلة ودمنة عن قيمة الصداقة الطيبة ومغبة صداقة السوء وهو : « صحبة الأخيار تورث الخير ، وصحبة الأشرار تورث الشر ، كالريح إذا مرت على التبن حملت تِبنًا ، وإذا مرت على الطيب حملت طيبًا » . علاوة على هذا تختلف الصداقة الطيبة عن الصداقة السيئة في سرعة الاتصال والانقطاع على النحو التالي : « المودة بين الصالحين بطيء انقطاعها ، سريع اتصالها كآنية الذهب بطيئة الانكسار هينة الإعادة ، والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بعيد اتصالها كآنية الفخار التي يكسرها أدنى شيء ولا جبر لها » .

وهذا الجزء من الكتاب - وأجزاء أخرى - تحوي معلومات قيمة عن أساليب التمييز بين الصديق الحسن وصديق السوء (ص ٤١ - ٤٢ ، ١٠٩ - ١١٢) مع تفرقة مستفيضة بين مكونات الصداقة ، ومكونات العشق (ص ١١٣ - ١١٤ ، ١٢٩ - ١٣٠ ، ١٤١ ، ١٧١) .

ويعود أبو حيان فيتناول حق الصديق على صديقه كما يراها أبو بكر ﷺ في قوله : « حق الجليس إذا دنا أن يُرحب به ، وإذا جلس أن يُوسع له ، وإذا حدث أن يقبل عليه ، وإذا عثر (أي ذل وسقط) أن يُقال (أي يصفح عنه) ، وإذا أنقص أن يُنال (أي الإحسان إليه إذا ضاق رزقه) وإذا جهل أن يُعلم » ، ويضيف إليها علي بن الهيثم : « كتمان حديث الخلوة والمواساة عند الشدة » .

وهنا يمكننا أن نتحدث عن مكونات الصداقة - كما وردت لدى أبي حيان والتي نقصد بها تحليل السلوك الذي يكوّن مفهوم الصداقة ، ومن المكونات التي ذكرها أبو حيان : كرم العهد ، بذل المال ، الوفاء ، المودة ، رعاية الغيب ، كظم الغيظ ، الحلم ، تجنب الأخلاق ، تقديم المعونة ، طلاقة الوجه ، لطف اللسان ، الصبر على الضراء (ص ١٢٩) .

وفي مجال تعريف الصديق يذكر أبو حيان تعريف أرسطو : « الصديق إنسان هو

أنت إلَّا إنه بالشخص غيرك » ، وفي تفسير التعريف يوضح أبو حيان أنه يتضمن الوصول إلى أقصى درجات الموافقة بين الصديقين ، عندما تصير عادة كل منهما إلى عادة واحدة وتتحول الإرادتان إلى إرادة واحدة ويستشهد هنا ببيت من الشعر :

روحه روحي ، وروحي روحه إن يشأ شئت وإن شئت يشأ

ويضيف أن أغلب الناس لا يصلون في صداقاتهم إلى تلك الدرجة من الموافقة ؛ لأنهم لم يجربوا الصداقة الحقيقية ، بل يمكن وصف أغلب علاقاتهم بأنها مجرد تعارف أساسه تشابه المنشأ أو الصناعة أو النسب أو الجوار في السكن ؛ كما أن صِلَاتهم يشوبها الحسد والتنافس والتعادي الذي يجهض الصداقة .

ونجد هنا عودة للحديث عن التأثيرات طويلة المدى للصداقة (ص ٦٦ ، ٦٧) كما تحدث عن الظروف الميسرة لبدء صداقة ، وهي العوامل التي تزيد من خلالها فرص عقد الصداقات وبخلاف سمات الشخصية ، وهي متغيرات ميسرة بمعنى أنها تسهل عقد الصداقة ؛ وإن كانت بذاتها غير كافية لبدء صداقة وتسمى أيضًا بالمتغيرات الثانوية ، ومن المتغيرات التي ذكرها أبو حيان القرابة Kinship والجوار أي التقارب المكاني Proximity وتشابه المهنة أو البلد (ص ٦٧) .

ثم يتعرض بعد ذلك لطرق اختبار الصديق فيذكر أن الأصدقاء يُعرفون بالشدائد ؛ وذلك لأن كل الناس أصدقاء للشخص وقت الرخاء ، ويذكر أيضًا أن الصديق هو « الذي صرت إليه في حاجة ووجدته أشد مسارعة إلى قضائها مني إلى طلبها منه » . ويضيف - علاوة على ذلك - أن الصديق السيئ هو الذي يحتاج في معاملته دائمًا إلى الملاينة كما تحتاج أن تذكِّره بأن يدعو لك في سره (أي أنه لا يدعو لصديقه من تلقاء نفسه) ، وهو أيضًا من يضطر صديقه إلى الاعتذار له عن كل صغيرة وكبيرة لبُعده عن التسامح ، وهنا يبين أن العتاب ضروري بين الصديقين ولكن بدرجة معتدلة ، فالإسراف فيه يُعد إلحاحًا ، أما صرف النظر عنه فيعد استهانة وتجاهلًا للصديق .

وفي مجال التمييز بين الأصدقاء يذكر أن من الأصدقاء من لا يحسنون التعبير عن حبهم لأصدقائهم ولكنهم يحسنون العمل ، وفي المقابل هناك أصدقاء يحسنون التعبير بألسنتهم ويبالغون في المجاملة ؛ ولكنهم يبخلون ويحجمون عن العطاء إذا سئلوا ، وهنا يذكر هذا القول الطريف ملخصًا خبرة أحد المخضرمين مع أصدقائه : « أدركت أقوامًا كان الرجل منهم لا يلقى أخاه شهرًا أو شهرين فإذا لقيه لم يزده على : كيف أنت

وكيف الحال ، ولو سأله شطر ماله لأعطاه ، ثم أدركت أقوامًا لو كان أحدهم لا يلقى أخاه يومًا سأله عن الدجاجة في البيت ولو سأله حبه من ماله لمنعه » وهنا يورد قولًا طريفًا يصف الصداقة التي تخلو من البذل بأنها : « أخوة هذا الزمان ؛ مثل : مرقة الطباخ من السوق طيبة الريح لا طعم لها » .

أما عن معنى كلمة صديق فيذكر أن لفظ « صديق » أُخذ من الصدق وهو خلاف الكذب ، أو من الصدق حيث يقال : رمح صَدْق أي صلب وعلى الوجهين يكون الصديق صادقًا (أي غير كاذب) إذا تحدث ، ويكون صَدقًا (أي صلبًا ، جادًا) إذا عمل .

وينتقل أبو حيان بعد ذلك إلى المقارنة بين العشق والصداقة ؛ فيبين أن الصداقة تتسم بالعقل والمروءة ، والبُعد عن الشهوة والغرض ، كما تتميز بالتوقير والرشاد والبُعد عن الجهل والغرور الذي يتصف به صغار السن ، أما العشق فيقوم على الولع وشدة الشغف والتهيم والشجن والحزن ، وكلها أعراض أقرب إلى المرض ولا يدخل فيها العقل ، كما تمنع الشخص من الإفادة من التجارب وتتعارض مع مكارم الأخلاق ؛ ولذا فإن العشاق في أشد الحاجة إلى الزجر والوعظ حتى يرجعوا إلى الاعتدال ، أما مقومات الصداقة فهي كرم العهد ، وبذل المال ، والوفاء ، ورعاية الغيب ، وكظم الغيظ ، والحلم ، وتجنب الخلاف ، وتقديم المعونة ، وطلاقة الوجه ، ولطف اللسان ، والاستئناس ، والصبر على الضراء ، والمشاركة في البأساء ، والعشق وإن توفرت فيه بعض تلك المقومات إلّا أنها ليست من شروطه أو أساسياته ، وبينما تقوم الصداقة على التشابه وتلاقي الأخلاق لا نلمح تشابهًا بين العشاق . ويضيف أبو حيان أن الأُنس بالصديق أقوى من الأنس بالعشيق ؛ لأن الصديق يصلح لكل الأحوال في الجد والهزل وللقليل والكثير ، دون عزول ولا طاعن أو مُعيب ، وهو متعة للعقل والروح معًا ، أما العشيق فإنه متعة للعين ولكنها متعة محفوفة بالشك والريب علاوة على هذا يؤدي التعلق بالمعشوق إلى إثارة الشجن والحزن ، وفي نهاية الأمر لا تدوم العلاقة بين العاشق والمعشوق في معظم الأحيان .

ومرة أخرى يتكرر الحديث عن مكونات الصداقة (١٢٩) كما يفرق أبو حيان بين مكونات الصداقة ، ومكونات العشق (ص ١٤١ ، ١٧١) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في علم النفس الاجتماعي .

الإشارات الإلهية [1]

عرض : د . محمد شلبي

عرض الكتاب :

يتناول الكتاب في مجمله محاورات بين الكاتب إلى نفسه ، وبين الكاتب والخالق ﷻ ، ويتناول ذلك في عبارات قوية ، والكتاب مزيج رائع من المشاعر والأفكار المتناقضة لشخص تتصارع أفكاره وأمنياته مع سلوكه الفعلي ويبدو أن ذلك هو سر اغترابه واضطرابه .

يصف الدكتور عبد الرحمن بدوي « أبا حيان التوحيدي » بأنه وجودي وهي نظرة متوقعة من أستاذ للفلسفة .

ويبدو أن منظور علم النفس يختلف عن منظور الفلسفة ، فما يطلق عليه د . عبد الرحمن بدوي على أنه إشارات وجودية ، تصلح نفسها مادة بحث في موضوع الاغتراب Alienation .

هناك إشارات وعبارات كثيرة تؤيد مشاعر أبي حيان التوحيدي بالاغتراب ، يبدو أنه أول من سطر بوضوح عبارات الاغتراب بشاعرية ، فيقول : « ليس الغريب من هو في غربته غريب ، بل الغريب من ليس له نسيب ، بل الغريب من ليس له من الحق نصيب ، يا هذا ! الغريب من غربت شمس جُمانه ، واغترب عن حبيبه وعذاله ، وأغرب في أقواله وأفعاله ... الغريب من إن حضر كان غائبًا .. هذا الغريب لم يتزحزج عن مسقط

---

(١) حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي . القاهرة ، جامعة فؤاد الأول (١٩٥٠م) ، (ج ١) في (٤١٠ص) . (دراسات إسلامية ، ١٢) .

رأسه ، ولم يتزعزع عن مهب أنفاسه ، وأغرب الغرباء من صار غريبًا في وطنه .. الغريب من إذا قال لم يسمعوا قوله ، وإذا رأوه لم يدوروا حوله ! » .

تتردد بين جنبات الكتاب محاورات ناصحة للنفس ومحاورات أخرى تدينها وتستنكرها ، وتتردد أيضًا محاورات نصح وإنارة للقارئ ، وهناك نوع ثالث يبتهل فيها الكاتب لله وتمثل المحور الرئيسي للعمل .

ومن محاورات الكاتب الفاضحة للنفس رسالته المرقمة بـ (كط) التي يقول فيها : « ظاهرك أعبث من باطنك ، وباطنك أخبث من ظاهرك ، وإشارتك أغبر من عبارتك ، وعبارتك أفسد من إشارتك ، وكلك مستغيث من بعضك ، وبعضك هارب من كلك » .

ثم هو يحاول رد نفسه إلى صواب الإيمان من بعد غربة (ص ٣٨٠) . « حتى متى إلى الشيطان سكونك ، وإلى الدنيا وعمارتها ركونك ، وعلى حطامها وسقامها جنونك ، أما تعتبر بمن مضى من أسلافك » .

ثم يبتهل إلى اللّٰه في عبارات أخرى (ص ٣٩٢) وكأنه ملاك طاهر ، « حرام على قلب استنار بنور اللّٰه أن يفكر في غير عظمة اللّٰه ، حرام على لسان تعود ذكر اللّٰه أن يذكر غير اللّٰه ، حرام على نفس طهرت من أدناس الدنيا للّٰه أن تُدنس بشيء من مخالفة اللّٰه » ، ونلاحظ هنا كيف جمع الكاتب من تناقضات بين طلب المغفرة لكثرة الذنوب والادعاء بالطهر من أدناس الدنيا .

وإشارات أبي حيان التوحيدي عن الاغتراب ، رغم أهميتها البالغة إلّا أن إشارته عن النفس كانت بالغة الأهمية والتحديد إلى حد محاولته وضع ما يشبه التعريف الإجرائي Operational Definition .

ويذكر أبو حيان التوحيدي (ص ٣٩٥) أن النفس ذات قوى ثلاث هي :

١ - الناطقة مسكنها الدماغ .

٢ - الغضبية مسكنها القلب .

٣ - الشهوية مسكنها الكبد .

أولًا : النفس الناطقة : للنفس الناطقة ثلاث وظائف هي :

١ - التخيل والإحاطة بالأشياء المبصرة والمسموعة على ما هي عليه وهو المقدَّم منه (يتضمن ذلك مفاهيم نفسية ؛ مثل : التخيل ، والانتباه ، والإدراك البصري والسمعي) .

٢ - التمييز لهذه الأشياء ومعرفة حقها من باطلها ، وصحيحها من سقيمها ، وحسنها من قبيحها ، وممكنها من مستحيلها وهو الوسط (ويتضمن ذلك مفاهيم نفسية ؛ مثل : التجريد والاستنباط والاستنتاج والتقويم والتفاضل) .

٣ - الحفظ لما وقع عليه التمييز (ويتضمن ذلك مفاهيم نفسية ؛ مثل : الذاكرة ، ومعالجة المعلومات Information Processing) .

فكأن الأوسط هو الأشرف ؛ إذ منزلته منزلة الحاكم الذي ترفع إليه الرفائع وتصدر عنه القضايا ، ومنزلة المقدم منزلة الشاهد الصادق الذي ينتهي إليه ما يرى ويسمع .

ومنزلة المؤخر منزلة الخازن الحافظ يستودعه علم ما ميزها وحصله ، فمتى احتاج إلى شيء منه استدعاه من خزانته ، فهذه حال النفس الناطقة .

ثانيًا : النفس الغضبية : منها تكون الأنفة من العار ، والأناة من الضيم ، وطلب الاقتصاص من الظلم ، والانتقام عند الغضب .

ثالثًا : النفس الشهوية : فيها يكون حب المطاعم والمشارب واللذات ، ويشرح أبو حيان التوحيدي المكونات الثلاثة بقوله : إن مثال الناطقة مثال الملك المستولي ، وأفضل أحواله أن يكون عادلًا سائسًا مهيبًا مطاعًا قويًا في غير غلظة ورؤفًا في مهابة .

ومثال الغضبية ؛ مثال جنده الذين يسدون ثغوره ويدفعون أعداءه ، ويقومون رعيته ، وينفذون أمره ، وأفضل أحوالها أن تكون عزيزة الجانب في نفسها ، سليمة الانقياد والطاعة لسلطانها المستخدم لها .

ومثال الشهوية ؛ مثال رعيته الذين يجب أن تكون عريكتهم لينة مواتية ، ورهبتهم منه ومن جنده تامة مستحكمة .

ويذكر التوحيدي أن الشهوية والغضبية يجذبان النفس الناطقة إلى الخلط ، وأنها - أي النفس الناطقة - لا تسلم من معارضتهما إلَّا بالصرامة ، ويجب أن تكون النفسان الشهوانية والغضبية كلاهما تحت طاعة الناطقة وسلطانها لتجريهما مجرى المركوب .

* * *

الإمتاع والمؤانسة [1]

عرض : د . معتز سيد عبد اللّه

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ثلاثة أجزاء ، تتناول مجموع مسامرات في فنون شتى من الأدب واللغة والتاريخ والسياسة والفلسفة ؛ حاضر المؤلف بها الوزير أبا عبد اللّه العارض في أربعين ليلة ، وقد قسم أبو حيان كتابه إلى ليال ، فكان يدوّن في كل ليلة ما دار فيها بينه وبين الوزير على طريقة قال لي وسألني وقلت له وأجبته ، وكان الوزير يقترح أولًا موضوعًا حسبما اتفق وينتظر الإجابة ، فإذا أجاب أبو حيان أثارت إجابته أفكارًا ومسائل عند الوزير فيستطرد إليها ويسأله عنها ، فقد يسأله سؤالًا يأتي في أثناء الإجابة عند ذكر لابن عباد أو ابن العميد أو أبي سليمان المنطقي ، فيسأله الوزير عنهم وعن رأيه فيهم ، وهكذا يستطرد من باب لباب ، حتى إذا انتهى المجلس كان الوزير يسأله غالبًا أن يأتيه بطرفة من الطرائف يسميها غالبًا « مُلحة الوداع » . وفيما يلي نعرض لمضمون ما دار في كل ليلة من الليالي الأربعين على النحو التالي :

الجزء الأول :

ويقع في ٢٢٦ صفحة من القطع المتوسط ، ويتناول مجموع مُسامرات في فنون شتى حاضر بها المؤلف الوزير أبا عبد اللّه العارض في ست عشرة ليلة ، نعرض لها كما يلي :

---

(١) صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين ، أحمد الزين . بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة ، [د . ت] . ٣ج في مج .

الليلة الأولى : رحب الوزير في بدايتها بالمؤلف وأوضح له مطالبه فيما سيسأل فيه وأهمها الصراحة والفصاحة والصدق ، وأثنى أبو حيان على الوزير حُسن خلقه وتواضعه من أجل العلم والمعرفة ، فقد قال بعض السلف الصالح : « ما تعاظم أحد على من دونه إلَّا بقدر ما تصاغر لمن فوقه » ، وبعد ذلك بدأ الوزير في توجيه أسئلة عديدة لأبي حيان ، فسأله عن الفرق بين الحادث والمُحْدث والحديث ، فكان من الجواب أن الحادث ما يُلحظ نفسه (والمُحْدَث ما يلحظ) مع تعلُق بالذي كان محدثًا ، والحديث كالمتوسط بينهما مع تعلق بالزمان ومن كان منه ، وههنا شيء آخر ، وهو الحَدَثان والحِدثان ، فأما الأول فكأنه لما هو مضارع للحادث ، وأما الحِدثان فكأنه اسم للزمان فقط ، ثم سأل الوزير عن الفرق بين حَدُث وحَدث ، فأجاب المؤلف بأنه لا فرق بينهما إلَّا من جهة أن حَدُث تابع لقَدُم ؛ لأنه يقال : أخَذَه ما قُدم وما حَدُث ، فإذا قيل لإنسان : حدث يا هذا ، فكأنه قيل له : صل شيئًا بالزمان يكون به الحال ، لا تقدُّم له من قبل .

الليلة الثانية : فيها طلب الوزير من أبي حيان أن يذكر أهم خصال مجموعة من العلماء ؛ هم : أبو سليمان المنطقي ، وأبو زرعة ، وابن الخمار ، وابن السمح ، والقومسي ، ومسكويه ، ونظيف ، ويحيى بن عدي ، وعيسى بن علي .

الليلة الثالثة : فيها واصل المؤلف الحديث عن مجموعة أخرى من العلماء والفنانين والوزراء ، منهم : ابن بقية ، وابن جبلة الكاتب ، وابن برموية ، وابن الناظر أبو منصور وأخوه ، وأبو سليمان وبندار المغني ، وغزال الرقص ، وابن الطاهر ، وابن شاهويه ، وبهرام وغيرهم .

الليلة الرابعة : أجاب المؤلف عن مجموعة من الأسئلة النوعية عن مدى رضاه عن أبي الوفا ، وعن هروب نصر غلام خواشاذه ، وعن السبب في امتناعه من النفوذ مع ابن موسى إلى الجبل ، وعن مدى علمه بابن عباد ، ثم طلب الوزير بعد ذلك أن ينسخ له الرسالة من المسودة التي كتبها عن ابن عباد وابن العميد ، وفي هذا الجزء أشار إلى أن بعض الحكماء قال : إن للنفس أمراضًا كأمراض البدن ، إلَّا أن فضل أمراض النفس على أمراض البدن في الشر والضر ؛ كفضل النفس على البدن في الخير ، وهو ما يمثل إشارة صريحة إلى مفهوم المرض النفسي (ص ٦٣) .

الليلة الخامسة : طلب الوزير في البداية إتمام ما بدأ المؤلف فيه في الليلة السابقة ، فتحدث عن أبي إسحاق وأهم خصاله ، ثم أوضح أنه كان في زمان هؤلاء العلماء

والفلاسفة السابق الإشارة إليهم من يلحق بهم ، ويدخل في زمرتهم ؛ مثل أبي طالب الجراحي من آل علي بن عيسى وأبي الحسن الفلكي .

الليلة السادسة : أجاب المؤلف عن تساؤل مؤداه : هل يفضل العرب على العجم أم العجم على العرب ، وبدأ إجابته بتوضيح أن الأمم عند العلماء أربع : الروم ، والعرب ، وفارس ، والهند ، وأن ثلاثًا من هؤلاء عجم ، ومن ثَم صعب أن يقال : العرب وحدها أفضل من هؤلاء الثلاثة ، مع جوامع ما لها ، وتفاريق ما عندها ، ثم عرض المؤلف بعد ذلك كلام ابن المقفع ، وهو أصيل في الفُرس عريق في العجم ، مفضل بين أهل الفضل ، وذلك في تحديده لصفات ، ومميزات كل أمة من الأمم الأربع ، وكذلك آراء بعض العلماء الآخرين في نفس الموضوع ؛ مثل : الجيهاني ، والقاضي أبو حامد المَرورذي ، وأبي الحسن الأنصاري وغيرهم ، ويرتبط مضمون هذا الجزء بمفهوم الشخصية القومية National Personality (ص ٧٠ - ٩٦) .

الليلة السابعة : ذكر المؤلف أنه كان يتناقش مع ابن عبيد حول كلامه أن كتابة الحساب أنفع وأفضل وأعلق بالمُلك ، والسلطان إليه أحوج ، وهو بها أغنى من كتابة البلاغة والإنشاء والتحرير ، فإذا الكتابة الأولى جد ، والأخرى هزل ، وأن التشادُق والتفيهُق والكذب والخداع فيها أكثر ؟ وليس كذلك الحساب والتحصيل والاستدراك والتفصيل ، ثم عرض المؤلف بعد ذلك لفضل كل من البلاغة والحساب في تنمية الفكر وتهذيب العقل ، ويرتبط مضمون هذا الجزء بمفهوم القيم العلمية (ص ٩٦ - ١٠٤) .

الليلة الثامنة : عرض المؤلف لرسالة وهبُ بن يعيش الرقي اليهودي ، التي كتبها إلى الملك السعيد سنة سبعين بعد الثلاثمائة ، وتقرب بها ، ونفعته بالمسألة والتفقد له ، فإنه شديد الفقر ، ظاهر الخصاصة ، لاصق بالدقعاء ، وللذي قاله وادعاه ، وقصد وانتحاه ، وجه واضح وحجة .

الليلة التاسعة : أوضح المؤلف فيها أن أخلاق أصناف الحيوان الكثيرة مؤتلفة في نوع الإنسان ؛ وذلك أن الإنسان صفو الجنس الذي هو الحيوان ، والحيوان كدر النوع الذي هو الإنسان ، والإنسان صفو الشخص الذي هو واحد من النوع ، وما كان صفو ومُصاصًا بهذا النظر انتظم فيه من كل ضرب من الحيوان خُلق وخُلقان وأكثر وظهر ذلك عليه وبطن أيضًا بالأقل والأكثر والأغلب والأضعف ، كالكمون الذي في طباع السبع والفأرة ، والثبات الذي في طباع الذئب ، والتحرز الذي في طباع الجاموس من

بنات الليل ، والحذر الذي في طباع الخنزير ، والتقدم الذي في طباع الفيل أمام قطيعه تمثلًا بصاحب المقدمة .... إلخ .

الليلة العاشرة : قرأ المؤلف فيها نوادر الحيوان ، وغرائب ما سمعه ووجده حتى يكون تذكرة وفائدة .

الليلة الحادية عشرة : واصل المؤلف فيها الحديث السابق عن نوادر الحيوان وغرائبه .

الليلة الثانية عشرة : بدأ الوزير الحديث متعجبًا لما سمعه في الليلتين السابقتين ، وقال : ما أوسع رحمة اللَّه ، وما أكثر جُند اللَّه ، وما أغرب صنع اللَّه ، ثم طلب من المؤلف أن يجري كلام في النفس ، وتم الاتفاق على أن يكون ذلك في الليلة التالية ؛ نظرًا لأن النعسة قد حدثت في العين .

الليلة الثالثة عشرة : وتحدث فيها المؤلف عن النفس ، وأشار إلى قول بعض الفلاسفة : « إذا تصفحنا أمر النفس لحظناها تفعل بذاتها من غير حاجة إلى البدن ؛ لأن الإنسان إذا تصور بالعقل شيئًا فإنه لا يتصوره بآلة كما يتصور الألوان بالعين والروائح بالأنف ، فإن الجزء الذي فيه التنفس من البدن لا يسخن ولا يبرد ولا يستحيل من جهة إلى أخرى عند تصوره بالعقل ، فيظن الظان منّا أن النفس لا تفعل بالبدن ؛ لأن هذه الأمور ليست بجسم ولا أعراض جسمية » ، (ص ١٩٨) .

وقد تعرف النفس أيضًا الآن من الزمان والوَحدة واليقظة ، وليس لأحد أن يقول : إن النفس تعرف هذه الأشياء بحس من الإحساس ، ففعل النفس إذن يفارق البدن ، وتأليف البرهان أن يكون على أن يقال : للنفس أفعال تخصها خلو البدن ؛ مثل : التصور بالعقل ، وكل ما له فعل يخصه دون البدن فإنه لا يفسد بفساد البدن عند المفارقة ، وقال أيضًا : النفس لا تموت ؛ لأنها أشبه بالأمر الإلهي من البدن ؛ إذ كان يدبر البدن ويرأسه .

واللَّه ﷻ المدبر لجميع الأشياء ، والرئيس لها ، والبدن أشبهُ شيء بالشيء الميت من النفس إذا كان البدن إنما يحيا بالنفس ، وقال أيضًا : النفس قابلة للأضداد فهي جوهر فالفائدة أن النفس جوهر ، وقال : النفس ليست بهيولى ، فلو كانت هيولى لكانت قابلة للعظيم ، فليست النفس إذًا بهيولى ، وقال : ليست النفس بجسم ؛ لأن النفس نافذة في جميع أجزاء الجسم الذي له نفس ، والجسم لا ينفذ في جميع أجزاء الجسم ، ولا هيولى ؛ لأن النفس لو كانت هيولى لكانت قابلة للمقادير والعظم ، وفائدة هذا أن النفس جوهر على طريق الضرورة ، ويرتبط مضمون هذا الجزء بمفهوم العلاقة بين النفس

والجسم (ص ١٩٨ - ٢٠٣) .

وأوضح المؤلف بعد ذلك أن الناس أصناف في عقولهم : فصنف عقولهم مغمورة بشهواتهم ، فهم لا يبصرون بها إلَّا حظوظهم المعجَّلة ، فلذلك يكدون في طلبها ونيلها ، ويستعينون بكل وُسْع وطاقة على الظفر . وصنف عقولهم منتبهة ، لكنها مخلوطة بسُبات فهم يحرصون على الخير واكتسابه ، ويخطئون كثيرًا . وصنف عقولهم ذكية ملتهبة ، لكنها عَمِية عن الآجلة ، فهي تدأب في نيل الحظوظ بالعلم والمعرفة والوصايا اللطيفة والسمعة الربانية ، وهذا نعت موجود في العلماء الذين لم تَثْلُجْ صدورهم بالعلم . وصنف عقولهم مضيئة بما فاء عليها من عند اللَّه تعالى باللطف الخفي والاصطفاء السني ، والاجتباء الزكي ، وكل صنف من هؤلاء مراتبهم مختلفة ، وإن كان الوصف قد جمعهم باللفظ ، ويرتبط مضمون هذا الجزء بمفهوم العقل Mind (ص ٢٠٤ - ٢٠٥) ، ومفهوم الفروق الفردية (ص ٢٠٤ ، ٢٠٥) .

الليلة الرابعة عشرة : أجاب المؤلف خلالها عن سؤال مؤداه : ما السكينة ؟ وأوضح أن السكائن كثيرة : طبيعية ، ونفسية ، وعقلية ، وإلهية ؛ ومجموعة من هذه بأنصباء مختلفة ، ومقادير متفاوتة ومتباعدة ، والسكينة الطبيعية اعتدال المزاج بتصالح الاسطقساة ، تحدث به لصاحبه شارة تسمى الوقار ، ويكون للعقل فيها أثر باد ، وهو زينة الرواء المقبول . والسكينة النفسية مماثلة الروية للبديهة ، ومواطأة البديهة للروية ، وقصد الغاية بالهيئة المتناسبة ، تحدث بها لصاحبها سمت ظاهر ورنو دائم وإطراق لا وجوم معه ، وغيبة لا غفلة معها ، وشهامة لا طيش فيها . والسكينة العقلية حُسن قبول الاستفاضة بنسبة تامة إلى الإفاضة ، ومعنى هذا : أن القابل مستغرق بقوة المقبول منه ، وبهذه الحال يحدث لصاحبها هدى يشتمل على وزن الفكر في طلب الحق مع سكون الأطراف في أنواع الحركات . والسكينة الإلهية لا عبارة عنها على التحديد ؛ لأنها كالحلم في الانتباه وكالإشارة في الحلم ، وليست حلمًا ولا انتباهًا في الحقيقة ، ويرتبط الحديث السابق بمفهوم اعتدال المزاج (ص ٢٠٦ ، ٢٠٧) .

الليلة الخامسة عشرة : دار فيها الحديث عن الممكن والواجب ، والعقل ، وذكر المؤلف : أن العقل لا غناء له في الأشياء التي تغلب عليها الحيلولة والسيلان والتطول ؛ كما أن الحس لا ينفذ في الأمور التي لا تطور لها بالحيلولة والتطور ؛ ولذلك عرفت الحكمة في الكائنات الفاشيات ، وخفيت العِلل والأسباب في بدوها وخُفْيتها وتبددها وتآلفها ، لكن هذا الفرق والخفاء مسلمان للقدرة المستعلية والمشيئة النافذة ، وهو

ما يرتبط بمفهوم العقل Mind (ص ٢١٩ - ٢٢٠) .

الليلة السادسة عشرة : عرض المؤلف فيها لمضمون كتاب العامري : « إنقاذ البشر من الجبر والقدر » .

الجزء الثاني :

ويقع في ٢٠٥ صفحة من القطع المتوسط ، ويتناول مجموع مُسامرات في فنون شتى حاضر بها المؤلف الوزير أبا عبد اللّه العارض في عدة ليالٍ ، تكملة لما بدأه في الجزء الأول من هذا الكتاب وذلك على النحو التالي :

الليلة السابعة عشرة : وبدأ الحديث فيها عن الفرق بين تَفعال وتِفعال ، ثم عرض لمكان الدين من الفلسفة والفرق بينهما ، وأين الشيء المأخوذ بالوحي النازل ، من الشيء المأخوذ بالرأي الزائل ، أو بمعنى آخر النبي والفيلسوف ، وعرض لرأي البخاري والمقدسي وغيرهما في هذا الشأن ، وعرض بعد ذلك لمفاهيم البصيرة ، الحكمة ، والتجربة وغيرهما ، وعرض لحقيقة الكيمياء ، ويرتبط مضمون الحديث في هذا الجزء بمجموعة من المفاهيم السيكولوجية هي : الفروق الفردية Individual Differences وخاصة في التفكير (ص ١٠) ، والعقل Mind (ص ١٠ ، ١٩) ، والقيمة العلمية (ص ١٩- ٢٠) ، والعلاقة بين النفس والجسم (ص ٣٤) ، والنفس (ص ٤١) ، والإحسان Sensation (ص ٤١ - ٤٢) ، والانفعالات Emotions (ص ٤٧) .

الليلة الثامنة عشرة : وفيها عرض المؤلف لبعض الأقوال والأشعار الهزلية بناء على رغبة الوزير .

الليلة التاسعة عشرة : كتب المؤلف فيها أشياء كان يسمعها من أفواه أهل العلم والأدب على مرِّ الأيام في السفر والحضَر ، وفيها قرع للحِس ، وتنبيه للعقل ، وإمتاع للروح ، ومعونة على استفادة اليقظة ، وانتفاع في المقامات المختلفة ، وتمثل للتجارب المخلفة ، وامتثال للأحوال المستأنفة ، ويرتبط مضمون الحديث في هذا الجزء بمفهوم الإرشاد النفسي Counselling (ص ٦١ - ٦٢) .

الليلة العشرون : عرض المؤلف في هذه الليلة لمجموعة من الأحاديث الفصيحة المفيدة .

الليلة الحادية والعشرون : أجاب المؤلف عن أحد الأسئلة بخصوص المُغني إذا راسله آخر ولم يجب أن يكون ألذ وأطيب ، وأحلى وأعذب ؟ ويرتبط مضمون هذا الجزء ببعض المفاهيم السيكولوجية هي الإحساس (ص ٨٢ - ٨٣) ، والعقل Mind (ص ٨٣)

والانفعالات (ص٨٣) .

الليلة الثانية والعشرون : وعرض المؤلف في هذه الليلة لبعض كلام أبي الحسن العامري . ويرتبط مضمون هذا الجزء ببعض المفاهيم السيكولوجية هي : البساطة - التركيب Simplicity - Complexity كأحد الأساليب المعرفية (ص ٨٤ - ٨٦) ، والعقل Mind (ص ٨٤ - ٨٦) ، والعاقل (ص ٩٠) ، والعادة Habit (ص٩٠ - ٩١) ، والإحساس (ص ٨٤ - ٨٥) ، والمعنى (ص ٨٦) ، وبناء الجسم Constitution (ص ٨٧) ، والرغبة Desire (ص ٩١) .

الليلة الثالثة والعشرون : وعرض المؤلف في هذه الليلة لمجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة ، ويرتبط مضمون هذا الجزء ببعض المفاهيم السيكولوجية منها التسامح Tolerance (ص ٩٤) ، والغيرية Altruism (ص ٩٦) .

الليلة الرابعة والعشرون : وتحدث المؤلف في هذه الليلة عن الحيوان ، وعن الفرق بين الروح والنفس ، ويرتبط مضمون الحديث في هذا الجزء بمفهوم المعنى الدلالي (ص ١٠٥- ١١١) ، ومفهوم النفس ، (ص ١١٣ - ١١٥) ، والقيمة العلمية ، (ص ١٢٣ ، ١٢٤) .

الليلة الخامسة والعشرون : وتحدث المؤلف في هذه الليلة في مراتب النظم والنثر ، وإلى أي حد ينتهيان ، وعلى أي شكر يتفقان ، وأيهما أجمع للفائدة ، وأرجع بالعائدة ، وأدخل في الصناعة ، وأولى بالبراعة ، ومبررات تفضيل النظم على النثر ، ودلائل تفضيل النثر على النظم .

الليلة السادسة والعشرون : وتحدث المؤلف في هذه الليلة عن أمثلة للكلمات القصار التي أومأ فيها الشيخ ابن المراغي .

الليلة السابعة والعشرون : وتحدث المؤلف في هذه الليلة في كُنه الاتفاق وحقيقته ، وذلك على أساس أنه مما يَحارُ العقل فيه ، ويَزِل حزم الحازم معه .

الليلة الثامنة والعشرون : واصل المؤلف في هذه الليلة الحديث السابق .

الليلة التاسعة والعشرون : وتحدث المؤلف في هذه الليلة في تفسيره قول الله ﷻ : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [الحديد : ٣] . ويرتبط مضمون هذا الحديث بمفهوم العقل Mind (ص ١٩٠ - ١٩١) ، ومفهوم الحس (ص ١٩٠ - ١٩١) ، والشك (ص ١٩١) .

الليلة الثلاثون : أجاب المؤلف في هذه الليلة عن تساؤل حول : سراويل يذكر أم يؤنث ، ويصرف أم لا ؟

الليلة الحادية والثلاثون : وتحدث المؤلف في هذه الليلة عن الحرب والحزم والتيقظ وقلة الاستهانة بالخصم ... إلخ ، ويرتبط مضمون هذا الحديث بمفهوم العقل Mind (ص ٢٠٣ - ٢٠٥) ، ومفهوم اضطراب التفكير (ص ٢٠٣ - ٢٠٥) .

الجزء الثالث :

ويقع في ٢٣٠ صفحة من القطع المتوسط ، ويتناول مجموع مُسامرات في فنون شتى حاضر بها المؤلف الوزير أبا عبد اللّٰه العارض في عدة ليال ، وذلك تكملة لما بدأه في الجزء الثاني من هذا الكتاب وذلك على النحو التالي :

بقية الليلة الحادية والثلاثين : وتحدث المؤلف في هذا الجزء عن أمر المطعمين والطاعمين ، الذين يشهون عند المائدة ، والذين يعبثُون ويجمعون ويطرقون ، والذين يصخبون ويغلطون ، ويضجرون ويغتاظون .

الليلة الثانية والثلاثون : وواصل المؤلف حديثه السابق ، مستشهدًا بالعديد من الأحاديث والأشعار التي دارت حول هذا النوع من الفنون (إعداد الطعام) .

الليلة الثالثة والثلاثون : وعاد المؤلف في هذا الجزء إلى ما سبق تناوله من حديث الممالحة ، بعد أن طلب منه الوزير الاستزادة فكتب له بعض الوريقات وقرأها عليه .

الليلة الرابعة والثلاثون : قال الوزير في بعض الليالي : قد واللّٰه ضاق صدري بالغيظ لما يبلغُني عن العامة من خوضها في حديثنا ، وذكرها أمورنا ، وتتبعها لأسرارنا وتنقيرها عن مكنون أحوالنا ، وكتوم شأننا ، وما أدري ما أصنع بها ، وإني لأهم في الوقت بعد الوقت بقطع ألسنة وأيد وأرجل وتنكيل شديد ، لعل ذلك يطرح الهيبة ، ويحسم هذه الأمور ، ويقطع هذه العادة ، أو يحل هذه المشكلة ، ورد المؤلف على ذلك بأن لديه جوابين : أحدهما ما سمع من الشيخ أبي سليمان ؛ وهو من تفوق في الفضل والحكمة والتجربة ، ومحبة هذه الدولة ، والشفقة عليها من كل هبة ودية ، والآخر مما سمعه من شيخ صوفي ، وفي الجوابين فائدتان عظيمتان ، ولكن الجملة نهشناء ، وفيها بعض الغلظة ؛ وذلك لأن الحق مُر ، ومن توخى الحق احتمل مرارته ، وبعد ذلك عرض المؤلف لتفاصيل هذين الجوابين ، ويرتبط مضمون هذا الجزء بمفهوم القيادة Leadership (ص ٨٦ - ٩٦) .

الليلة الخامسة والثلاثون : وأجاب المؤلف في هذا الجزء عن التساؤل الخاص بالفرق بين الإرادة والاختيار ؟ فكان من الجواب أن كل مُراد مختار ، وليس كل مختار مرادًا ؛ لأن الإنسان يختار شرب الدواء الكريه ، وضرب الولد النجيب وهو لا يريد ، ويختار طرح متاعه في البحر (إذا ألجئ) وهو لا يريد ، وهما وإن كانا انفعالين ؛ فأحدهما - وهو الاختيار - لا يحدث إلَّا من جولان وتنقير وتمييز ، والآخر - وهو الإرادة - يفجأ ويبغت وربما حمل على طلب المراد بالكره الشديد ، وفي عرض الاختيار سعة للتمكن ، وليس ذلك في عُرض الإرادة . وعرض كذلك للفرق بين المحبة والشهوة ، وماهية النفس ، والإنسان ، والطبيعة ، والعقل والمعاد ، والفرق بين الأنفس ... إلخ ، ويرتبط مضمون هذا الجزء بمجموعة من المفاهيم السيكولوجية هي الإرادة (النزوع) ، (ص ١٠٥ - ١٠٦) ، والرغبة Desire (ص ١٠٥ - ١٠٦) ، والانفعالات (ص ١٠٥ - ١٠٦) ، والنفس (ص ١٠٦ - ١١٥) ، والعقل Mind (ص ١١٥ - ١٢٢) .

الليلة السادسة والثلاثون : أجاب المؤلف في هذا الجزء عن تساؤل مؤداه : كيف تقول عند مُهَل الشهر شيئًا آخر من لفظه قائلًا : حكى العالم : عن هُلوك الشهر ومستهله (وَهله) وإهلاله واستهلاله .

الليلة السابعة والثلاثون : وتحدث المؤلف في هذه الليلة عن بعض المعاني الأخلاقية ؛ منها أحاديث الشجعان ، وأخبار الكرام ، وفرق بين مجموعة من المفاهيم ، وحددها بدقة ، ومنها الحلم الذي هو ضبط الفكر بكف الغضب ، والعدل الذي هو القسط القائم على التساوي ؛ وحكي عن جالينوس قوله : إن الناس لشدة حبهم لأنفسهم يظنون أن لهم ما يحبون ، فمن أجل ذلك وقعوا في العُجب ؛ فينبغي أن تكون محبتك لنفسك حقيقة ، ويتم ذلك لك إذا أنت صيرت نفسك على الحال التي يرى من يرى أنك عليها ، وقال : المُعجَبُ يُحب نَفسَه ؛ ولكن بالعدل ، فإن أراد أن يحبها جدًّا فيجب أن يجعلها من أهل المحبة ، ثم يحبها من بعد .

وبعد ذلك قال : إن الحسد شدة الأسى على شيء يكون لغيره ، والكآبة إفراط الحزن ؛ وإن الحزن الغم والهم والأسى والجزع ، والخور من شجرة واحدة ؛ ومن تعاطى وصف أغصان شجرة طال عليه ، ولم يحظ بطائل ، ويكفي أن نعرف شجرة التفاح من شجرة المشمش ، وشجرة الكمثرى من شجرة السفرجل ، فإن عواقب المعارف نكرات ؛ كما أن فواتح المعارف جهالات .

ثم قال : إن الشجاعة هي الإقدام في موضع الفرصة من جميع الأمور ، ثم قال : إن من توابع الأخلاق المذمومة الغضب ، والكذب ، والجهل ، والجور ، والدناءة ؛ وإن الغضب لا يكون مذمومًا إلَّا إذا أُعمل في غير أوانه ، ثم عرف العُجب بأنه وزن النفس بأكثر من مثقالها ، وقال أيضًا : والعجب هو النظر في النفس بعين ترى القبيح جميلًا ، ثم قال : إن الوفاء قضاء حق واجب ، وإيجاب حق غير واجب ، مع رقة أُنسية وحفيظة مرعية .

ثم قال : إن الرغبة حركة تكون من شهوة يرجى بها منفعة ، وقال : إن الرغبة إذا كانت نُطقية كانت مبعثة على التحلي بالفضائل ، وإذا كانت سَبعية أو بهيمية كانت ملهجة بمواقعة أضدادها من الرذائل .

وقيل : ما المهنة ؟ قال : حركة يتعاطاها الإنسان بلا حفز ولا استكراه ، وقال علي. ابن عيسى : المهنة صناعة ؛ ولكنها إلى الذل أقرب ، وفي الضعة أدخل ، والصناعة مهنة ؛ ولكنها ترتفع عن توابع المهنة ، وفي الصناعات ما يتصل به الذل أيضًا ، ولكن ذل ليس من جهة حقيقة الصناعة ، ولكن من جهة العَرَضِ الذي بين الصناعة والصناعة ، والمرتبة والمَرْتبة .

وقيل : فما العادة ؟ قال : حال يأخذ بها المرء نفسه من غير أن تكون مسنونة يَجْرِي عليها مَجرى ما هو مألوف طبيعي ، ثم تحدث بعد ذلك عن حركة الإبداع ، والفرق بين الصورة الإلهية والصورة العقلية .

ويرتبط هذا الجزء السابق بمجموعة من المفاهيم السيكولوجية هي : القيم الخلقية Moral Values (ص ١٢٧ - ١٢٩) ، وضبط النفس Self - Control ، والاكتئاب Depression (ص ١٣٠) ، والإعجاب بالذات Self - Admiration (ص ١٣٠) ، وقيمة العدل (ص ١٢٩ ، ١٣٠) ، والغضب Anger (ص ١٣١) ، وقيمة الصدق (ص ١٣١) ، والرغبة Desire (ص١٣٢) ، والمهنة Occupation (ص١٣٢) ، والعادة Habit (ص ١٣٢) ، والإبداع Creativity (ص ١٣٣ ، ١٣٤) ، والصور العقلية Mental Images (ص ١٣٦ - ١٤٧) .

الليلة الثامنة والثلاثون : وفيها واصل المؤلف حديثه في بعض الأمور التي شملت حديث ابن يوسف وما هو عليه من غثاءته ورثاءته ، وعيارته وحساسته ... إلخ .

الليلة التاسعة والثلاثون : قال الوزير في هذه الليلة : يعجبني الجواب الحاضر ، واللفظ النادر ، والإشارة الحلوة والحركة الرضية ، والنغمة المتوسطة ، لا نازلة إلى قعر الحلق ،

ولا طافحة على الشفة ، فكان من الجواب : اقتراح الشيء على الكمال سهل ، ولكن وجدانه على ذلك صعب ؛ لأن التمني صفو النفس الحسية ، ونيل المتمني في الفرصة المحسوة بالحيلولة . وقد قال المدائني : أحسن الجواب ما كان حاضرًا مع إصابة المعنى وإيجاز اللفظ وبلوغ الحجة ؛ وقال أبو سليمان شارحًا لهذا : أما حضور الجواب فليكون الظفر عند الحاجة ، وأما إيجاز اللفظ فليكون صافيًا من الحشو ، وأما بلوغ الحُجة فليكون حسمًا للمعارضة ، وقد سار الحديث خلال هذا الجزء في هذا الاتجاه .

الليلة الأربعون : قال الوزير مرة أخرى : حدثني عن اعتقادك في أبي تمام والبحتري ، فكان الجواب : إن هذا الباب مختلف فيه ، ولا سبيل إلى رفعه ، وقد سبق هذا من الناس في الفرزدق وجرير ، ومن قبلهما في زهير والنابغة ، حتى تكلم على ذلك الصدر الأول ، مع علو مراتبهم في الدين والعقل والبيان ، لكن حدثنا أبو محمد العروضي عن أبي العباس المبرد : قال : سألني عبيد الله بن سليمان عن أبي تمام والبحتري ، فقلت : أبو تمام يعلو عُلوًّا رفيعًا ، ويسقط سقوطًا قبيحًا ، والبحتري أحسن الرجلين نمطًا ، وأعذب لفظًا . ويرتبط مضمون هذا الجزء بمفهوم القيم الخُلقية (ص ٢٠٠) .

* * *

القابسي (ت ٤٠٣ هـ)
الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين [1]

عرض : د . الحسين محمد عبد المنعم

التعريف بالمؤلف :

هو أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعروف بالقابسي الفقيه القيرواني ، والقابسي هي النسبة التي اشتهر بها في الكتب نسبة إلى مولده ببلدة قابس عام (٣٢٤هـ) ، وتوفي بمكة عام (٤٠٣هـ) .

وتتلمذ القابسي على أيدي فقهاء من الأندلس وإفريقية - كما يذكر لنا القاضي عياض - وسمع منه الكثير ، وكان إمامًا في علم الحديث ، بصيرًا بالرجال ، عارفًا بالأصلين ، دارسًا في الفقه ، ضريرًا ، زاهدًا ، وورعًا .

وذكر له ابن فرحون خمسة عشر كتابًا ، وعياض أربعة عشر ، وعبد الرحمن عشرة - واتفق المترجمون الثلاثة على تسعة كتب نذكرها كما جاءت في ترتيب المدارك للقاضي عياض وهي :

« كتاب المهد في الفقه وأحكام الديانة » ، « والمنبه للفطن عن غوائل الفتن » ، « والرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين » ، « وكتاب الاعتقادات » ، « وكتاب مناسك الحج » ، « وملخص الموطأ » ، « والرسالة الناصرية » ، « وكتاب الذكر والدعاء » .

---

(١) القاهرة : دار المعارف (١٩٦٨م) . - (دراسات في التربية) . في : التربية في الإسلام / أحمد فؤاد الأهواني .

عرض الرسالة :

تقع الرسالة في إحدى وثمانين صفحة من القطع المتوسط ، وتتكون من ثلاثة أجزاء – والرسالة ملحقة بكتاب : التربية في الإسلام أو التعليم في رأي القابسي – تأليف الدكتور / أحمد فؤاد الأهواني ، الأستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة – القاهرة سنة (١٩٥٥م) . (ص ٢٦٧ – ٣٤٧) .

الجزء الأول :

وتبدأ الرسالة بالبسملة والحمدلة ، وذكر آيات من القرآن الحكيم توضح فضل العلم ومنزلته عند اللَّه ﷻ . ويضم الجزء الأول من الرسالة الإجابة على سؤالين مهمين :

الأول : يدور حول تفسير الإيمان والإسلام والإحسان وعن الاستقامة ، ما هي وكيف صفة الصلاح ، وقدم لنا القابسي أدلة عديدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة تفسر هذه المفاهيم .

أما الإيمان : فهو أن تؤمن باللَّه وملائكته وكتبه ورسله ، وتؤمن بالبعث الآخر .

والإسلام : أن تعبد اللَّه لا تشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، أي : أن الإسلام هو عمل الجوارح بما افْتُرِض عليها .

والإحسان : هو أن تعبد اللَّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك – ويعني إحسان عبادة اللَّه في كل ما تعبد ، من الشهادة له بالألوهية وحده ، ومن كل ما أمر به من عمل بطاعته .

والاستقامة : هي القيام بما أمر اللَّه به ، والاستقامة في الدين هي مداومة المقام فيه ، على استوائه واعتداله ، وتحدث المؤلف عن خصال تجتمع لمن يتأس برسول اللَّه ﷺ مثل : القصد ، والتؤدة ، وحسن السَمت .

ويقترب هذا الحديث عن الاستقامة والتأسي برسول اللَّه ﷺ بمفهوم التعلم عن طريق القدوة (ص ٢٧٥ ، ٢٧٦) .

أما عن صفة الصلاح : فهي أن نوفي بجميع ما سبق وفاءً حسنًا من الإيمان والإسلام والإحسان والاستقامة ، ودلل المؤلف على ذلك بآيات قرآنية ، وأحاديث نبوية شريفة .

أما السؤال الثاني : فيدور حول ما جاء في فضائل القرآن ، ولمن تعلمه وعلمه وما يصحب به القرآن ، وعن آداب حامله ، ومن ضيعه حتى نسيه ، وما لمن علمه

ولده ، وأهل ذلك في الصغير واجب على أبيه أو على غيره ، ومن يعلم الإناث .

ويجيب القابسي بمنهجه الخاص الذي يثبت أنه اتبع منهج أصحاب الحديث ، ومنهج المالكية على وجه الخصوص ؛ وإذا لم يجد نصًا في القرآن أو حديثًا في السنة أو إجماعًا في الرأي أو قياسًا على أصل من الأصول السابقة ، فإنه يحكم في المسألة بما يرى فيه فائدة .

ثم يحدثنا عن فضل القرآن بأنه كلام الله ﷻ ، وكلام الله غير مخلوق ، ثم ثناء الله على هذا القرآن في غير موضع منه ، والاستشهاد على تعظيمه بما جاء في أوائل بعض السور القرآنية .

وأما ما لمن تعلمه وعلمه من الفضل ؛ فذكر لنا أحاديث شريفة توضح هذا المعنى مثل قوله ﷺ : « **خيركم من تعلم القرآن وعلمه** » .

ومن آداب حامل القرآن أن يعلمه ويعمل بما جاء فيه .

كما يحدثنا القابسي عن من تعلم القرآن ونسيه ، فهو كمن كفر بنعمة ربه – وإذا كان تشاغله عنه بعمل من أعمال السفهاء فعقابه أشد – وقد وصى الرسول عليه السلام أهل القرآن بالمحافظة على استذكاره ، وأخبرهم أنه أشد تفصيًا من صدور الرجال من النعم ، ويرتبط هذا الحديث بشكل غير مباشر بموضوع « التذكر والنسيان » في علم النفس العام (ص ٢٨٤) .

وأما عن السؤال : من يقرأ القرآن : الماشي أو الراكب أو الواقف أو من في السوق أو من في الحمام ، وذلك في غير الصلاة ، فلم يستحب مالك من ذلك شيئًا ، وإنما أقره من وجه التحفيظ للمتعلمين ليقوا حفظه بدراسته ؛ أما ما كان على وجه التفوق على الآخرين ، فقال مالك : يقرأ القرآن في المساجد ، وفي الصلاة ، وعلى حالي التفرد بقراءته ، أو في السفر ، فيقرأه ماشيًا أو راكبًا في سفره ، إلَّا أنه إن مر بسجدة تلاوة ، لم يقم بها وهو راكب ، ولكن ينزل فيسجدها إذا كان على طهارة .

ويرى القابسي أن من واجبات المعلم : الأخذ بقاعدة الرفق بالصبيان ، والعدالة في العقاب ، وبعدم المغالاة في الضرب – ونهى عن عقوبة الانتقام بنهي المعلم عن ضرب الصبيان وهو في ساعة غضب حتى لا يكون الضرب لراحة نفسية ، وقد أحاط القابسي عقوبة الضرب بسياج من الشروط حتى لا يخرج الضرب من الزجر والإصلاح إلى التشفي والانتقام ، وهنا نلمح إشارة مبدئية إلى أساليب العقاب ، ومحاولة ضبط النفس

أثناء الثورات الانفعالية ، وهي من مبادئ عملية التنشئة الاجتماعية التي هي لب عملية التربية الحديثة (ص ٣١٣) .

ومن واجباته أيضًا أن لا يمنعهم الطعام والشراب ، ومن حقهم عليه أن يعدل بينهم في التعليم ، ولا يفضل بعضهم على بعض ، وإن تفاضلوا في الجعل ، وإن كان بعضهم يكرمه بالهدايا والإرفاق ، ألَّا يخلطوا بين الذكور والإناث ؛ أما عن الرذائل عند الأطفال - فيشير القابسي إلى التبايع بين الأطفال بالربا وعلى المعلم أن ينهاهم عن ذلك ، ينبغي للمعلم أن يحترس بعضهم من بعض إذا كان فيهم من يخشى فساده يناهز الاحتلام أو يكون له جرأة بالإضافة إلى لهو الأطفال الذي يمنعهم من التعليم .

وفي الحديث عن الرذائل نجده يقترب من موضوع الاضطرابات السلوكية لدى الأطفال في طب نفس الأطفال Child Psychiatry وعلم النفس التربوي (ص ٣١٤) .

ومن واجباته أيضًا أن يؤدبهم إذا آذى بعضهم بعضًا ، ومن واجباته ألَّا ينقلهم من سورة إلى أخرى حتى يتم حفظها وإعرابها وكتابتها - ويرتبط الحديث هنا بسيكولوجية التعلم . لكل صبي لوح يكتب فيه ، وإذا أهمل الصبي أو انصرف إلى اللعب والعبث أو الهروب عاقبه المعلم بالنصح تارة ، والعزل والتهديد مرة أخرى ، والضرب تارة ثالثة ؛ إذا لم تفلح النصائح ، ويرتبط هذا الحديث أيضًا بموضوع الثواب والعقاب كأحد موضوعات التعلم في علم النفس الحديث .

كما حدثنا القابسي عن نظام التعليم في الكتاتيب : يذهب الصبي مبكرًا إلى الكتاب ، فيبدأ بحفظ القرآن ، ثم يتعلم الكتابة ، وعند الظهر يعود إلى المنزل لتناول الغذاء ، ثم يرجع بعد الظهر ويظل حتى آخر النهار - وبطالة الصبيان من بعد ظهر الخميس وسحابة يوم الجمعة ، ثم يعودون صباح السبت .

وتعلم الصبي مدة دراسته التي تستمر إلى وقت البلوغ أو بعده ، القرآن والكتابة والنحو والعربية ، وقد يتعلم الحساب والشعر وأخبار العرب ، وحفظ القرآن يكون على الطريقة الفردية أو الجماعية ؛ إذ يبدأ المعلم بآية يرددها الصبيان من بعده .

ويقترب هذا الحديث من مفهوم المدرسة ودورها في التربية الحديثة ، وعلم النفس التربوي Educational Psychology (ص ٣١٧) .

أما عن السجدة عند القراءة للمعلم والمتعلم ، فاستحب لهما مالك أن يسجدا في أول مرة إذا تكررت السجدة بعينها ؛ وذلك للتخفيف .

وعما ذُكر من أن القرآن في صلاة خير من القرآن في غير صلاة ، والقرآن في غير صلاة خير من الذكر ، والذكر خير من الصدقة ، فقد دلل على أن قراءة القرآن في الصلاة والدعاء بها هي زيادة فضل .

كما أوضح لنا المؤلف فضل من عَلم القرآن أو استأجر له من يعلمه .

الجزء الثاني :

ويحدثنا القابسي في الجزء الثاني من رسالته عن الآتي :

١ - أن ما قدمه في الجزء الأول ما هو إلَّا ترغيب للوالد في تعليم ولده الطفل ، الذي لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا . وأمرنا بتعليم أبنائنا القرآن .

٢ - ثم يحدثنا في هذا المقام عما لو ظهر على أحد أنه ترك أن يعلم ولده القرآن تهاونًا بذلك ، لجهل ونقص حاله ، ووضع عن حال أهل القناعة والرضا ، ولكن قد يخلف الآباء عن ذلك قلة ذات اليد ، فيكون معذورًا حسب ما يتبين من صحة عذره (ص ٢٩٢) .

٣ - ويوضح ضرورة تعليم الأنثى للقرآن والعلم ، وقد أقر القابسي بهذا المبدأ لهن واعترف بحقهن في التعليم - وهو يقرر ذلك في سبيل الدين ؛ لأن المؤمنين والمؤمنات مكلفون جميعًا بنص القرآن ولا تتيسر معرفة الدين إلَّا بنوع من التعليم .

٤ - أما عن أجر المعلم ، فهو ضروري في نظر القابسي ووجه الضرورة أنه لو اعتمد الناس على التطوع ، لضاع كثير من الصبيان .

٥ - كما أجاز كتابة المصاحف وبيعها حفاظًا على القرآن ؛ لأن بيع المصاحف إنما هو بيع للرقوق والخط والصنعة ، وليس بيعًا لما فيها .

٦ - كما أجاز أيضًا تعلم الفقه والشعر والنحو والحساب ، أي : حض على تعلم العلوم الدنيوية بجانب العلوم الدينية .

٧ - كما ينبغي للمعلم أن يأمر تلاميذه بالصلاة إذا كانوا بني سبع سنين ، ويضربهم عليها إذا كانوا بني عشر ؛ كما يعلمهم سنن الصلاة ، والصلاة على الجنائز ، والدعاء عليها ؛ لأن في ذلك تربية خلقية .

٨ - وقد نهى القابسي عن تعليم غير المسلمين في الكتاتيب الإسلامية .

٩ - أما عن الاستذكار فقد ذكرها القابسي على ثلاث مراحل أساسية ، وهي :

الحفظ ، والوعي ، والاسترجاع ؛ ويرى أن طرق الحفظ ثلاث وهي : التكرار والميل والفهم . ويتحدث هنا بشكل مباشر عن قواعد عملية الاكتساب Acquisition والتذكر Memory لب عملية التعلم Learning في علم النفس الحديث (ص ٣٠٨ ، ٣٠٩) .

الجزء الثالث :

كما يحدثنا القابسي في الجزء الثالث من رسالته عن بعض القواعد التي يجب أن يتبعها المعلم أثناء أداء رسالته :

لا يحل للمعلم أن يكلف الصبيان فوق أجرته شيئًا من هدية أو غير ذلك .

لا بأس أن يملي بعضهم على بعض ؛ لأن في ذلك منفعة ، وليتفقد إملاءهم .

يجب أن يعودهم على كتابة الرسائل .

لا يجوز للمعلم أن يرسل الصبيان في حوائجه .

أحب للمعلم ألَّا يولي أحدًا من الصبيان الضرب ، ولا يجعل لهم عريفًا منهم ، إلَّا أن يكون الصبي الذي قد ختم القرآن .

لا يحل له أن يأمر أحدًا أن يعلم أحدًا منهم ، إلَّا أن يكون فيما يعينه منفعة للصبي في تحريمه ، أو يأذن والده في ذلك ، (ص ٣٢١) .

لا يجوز للمعلم أن يشتغل عن الصبيان إلَّا أن يكونوا في وقت لا يعرضهم فيه فلا بأس بأن يتحدث ، ولا يترك عمله مع الصبيان لأي سبب من الأسباب (ص٣٢١) .

وإذا غلبه النوم في وقت التعليم ، فليغالبه إن استطاع ، وإن غلب فليقم بينهم من يخلفه عليهم ، إذا كان في مثل كفايته ، بإجارة يستأجره ، أو بتطوع له إذا كان من غير الصبيان .

وإذا مرض أو كان عليه شغل فهو يستأجر لهم من يكون بينهم بمثل كفايته لهم .

ولا يحل للمعلم أن يأمر الصبيان بأن يأتوا بطعام من بيوتهم مثلًا ، ولا يقبل أن أتى به .

وشراء العصا والفلقة على المعلم ، وليس على الصبيان .

وكان بعض المسلمين يقوم بمهمته في المساجد ، ولكن عبث الصبيان الذين لا يتحفظون من النجاسة جعل الفقهاء يمنعون تعليم الصبيان في المسجد ، وظهرت الكتاتيب منفصلة عن المساجد . كما أمروا المتعلمين بألَّا يمسكوا المصحف إلَّا وهم وضوء .

وعن السؤال عن ختمة القرآن – متى تجب للمعلم ؟ وعلى أي وجه تجب له .

وهي على وجهين :

١ - أن يستظهر القرآن حفظًا من أوله إلى آخره .

٢ - أن يكون الصبي استكمل قراءة القرآن في المصحف نظرًا ؛ لا يخفى عليه شيء من حروفه ، مع ما فهمه الصبي مما ينضاف إلى ذلك ، من ضبط الهجاء والشكل وحسن الخط .

ويقترب الحديث هنا من مفاهيم : التذكر ، والحفظ الآلي ، والفهم والتجويد ، وهي من مفاهيم تدخل في إطار سيكولوجية التعلم (ص ٣٢٥) .

ويرى القابسي مكافأة المعلم على وجه التكارم على حسن تعليمه للصبي .

ويسوق لنا القابسي أمثلة توضح ضرورة الرضا من جانب المتعلمين والمعلم عن مكان الكتاب ، وعن أحوال موت المعلم أو المتعلم أو موت أبيه .

كما سئل وأجاب عن الأمور التي يؤدي فيها الضرب المبرح إلى الموت ، وعن تأديب الزوج لزوجته ، وعن عقوق الولد لوالديه ، كما حدثنا عن تفسير نزول القرآن على سبعة أحرف .

* * *

النيسابوري (ت ٤٠٦ هـ)
عقلاء المجانين [1]

عرض : د . إبراهيم شوقي عبد الحميد

التعريف بالمؤلف :

الحسن بن محمد بن حبيب بن أيوب النيسابوري ، لا يعرف تاريخ مولده ، لكنه توفي في ذي الحجة عام (٤٠٦هـ = ١٠١٦م) ، وكان أديبًا ونحويًّا وعارفًا بالمغازي والسير ، وصنف في القراءات والآداب .

عرض الكتاب :

يقع هذا الكتاب في ١٦٠ صفحة من القطع المتوسط ، ويضم مقدمة ، وترجمة المؤلف ، وخطبة الكتاب ، ثم موضوعاته ، وفهرس للمحتويات .

يبدأ الكتاب بمقدمة في الجنون ، وما ورد فيه في الكتاب العزيز وما احتالت به قريش على الرسول صلوات اللّٰه عليه من نسبته إلى الجنون لمّا دعاها إلى الحق ، شأن كل قبيلة ينسب كل عاقل للجنون عندما يخالف قولها وفعلها .

كما يعرض في المقدمة تصورات بشأن الجنون ، وطبيعة المجنون :

منها أنه الذي يخرب آخرته بدنيا غيره ، وفي ذلك على سبيل المثال إشارة إلى اضطراب سلوك المريض عقليًا وما لذلك من آثار تدمر سعادة الآخرين ممن يحيطون به أو يتعاملون معه .

---

(١) تحقيق : أبو هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول . بيروت : دار الكتب العلمية ، [د . ت] . (١٥٩ص) .

وبعد تلك المقدمة يعرض الكتاب عددًا من الموضوعات - ليست بفصول ولا أبواب ، ويمكن عرضها على النحو الآتي :

١ - **أصل الجنون في اللغة** : وفيه يعرض لمعاني الجنون في اللغة العربية ، ومنه يستخلص أن الجنون هو استتار العقل ، والمجنون هو المستور العقل (ص ١٦ - ١٨) .

٢ - **أسماء المجنون في اللغة** : ومنها يذكر : الأحمق والمعتوه ، والأخرق ، والمائق ، والرقيع ، والممسوس ، والأنوك ، والبوهة ، والذول العرهاه إلى غير ذلك من المسميات التي يذخر بها تراثنا العربي (ص ١٩ - ٢٣) .

٣ - **الأمثال المضروبة في الحمق والحمقى** : ويعرض فيه لأمثلة تصف عيوب الأحمق ؛ مثل : خرقاء عيابة [١] .

ولأمثلة أخرى تشير إلى مزايا قد يتمتع بها الأخرق رغم خرقه ؛ منها : أحمق بلغ[٢] ، خرقاء ذات نيقة [٣] .

كما يعرض لأمثلة تضرب فيمن يشتد حمقه ويتجاوز حدوده ؛ منها : أحمق من رجله ، أحمق من ترب العقد ، أحمق من نعامة .

ومن خلال هذه الأمثلة ؛ نجد أنها تتعرض لخصائص المرضى العقليين كما تشير إلى إمكانية المريض عقليًا جمع إحدى أو بعض الخصائص الجيدة رغم حالته المرضية ، وكثيرًا ما نجد أحد المرضى العقليين بارع في الرسم أو العزف الموسيقي مثلًا (ص٢٤ ، ٢٥) .

٤ - **أسماء جنون الدواب** : (ص ٢٦) .

٥ - **ضروب المجانين** : وفيه يتعرض لفئات من المرضى العقليين ؛ منها مثلًا : المعتوه : الذي يولد مجنونًا ، والعته هو أحد فئات التأخر العقلي وهو بطبيعته عبارة عن تأخر في الارتقاء العقلي عن معدله السوي أثناء فترة الارتقاء ، التي تبدأ من الحمل هو بذلك حالة يولد بها المريض (إن سمي التأخر العقلي مرضًا) . وتلك الحالة « المعتوه » ترادف مصطلح Moron .

ومن ضروب المجانين أيضًا العاشق ؛ وهو الذي تيمه الحب فأجنه وهي إحدى حالات الانهيار نتيجة صدمة عصبية أثارتها أحداث مؤثرة ومهددة للفرد Stressful Events ؛ منها صدمة الحب أو صدمة السفر والغربة (ص ٢٧) .

---

(١) أي مع حمقها تظلم غيرها وتعيب غيرها . (٢) أي أنه مع حمقه يبلغ حاجته .
(٣) أي أنها حمقاء وهي مع ذلك تتأنق في الأمور .

ويتناول المؤلف عددًا من آثار خبرة الحب الوجداني على سلوك وشخصية المحب وتبدأ هذه الآثار من الاندفاع والتلهف إلى الذهول والجنون ؛ ولذا يوجز هذا الشعور بقول إحدى نساء العرب إن الحب داء وجنون ، وبعد ذلك يعرض الكتاب لعدد من الفصول نعرض لها على النحو الآتي :

فصل : من اعتقد بدعة وارتكب كبيرة فأدركه شؤمها فجن : يروي أخبارًا في هذا المجال تشير إلى دور ارتكاب المعصية في إثارة الشعور بالذنب Guilt Feeling وعدم الرضا عن الذات وربما تحقيرها Self-Depreciation والذي قد يزداد فيحدث أن ينفصل الإنسان عن واقعة تجنبًا لتلك الآلام التي لا يحتملها ؛ ولذا سمي المرض العقلي من هذا النوع بالفصام Schizophrenia حيث يعيش المريض في حياة ذاتية تفتقر إلى المنطق الواعي ؛ كما يعيش في حالة من الرخاء والتوافق حتى وإن كان مريضًا (ص ٢٩) .

فصل : من جن من خوف الله ﷻ : وفيه يعرض لأخبار عن أحداث من هذا النوع ، وهي تشير أيضًا إلى دور الانفعال الشديد بخبرة الخوف في إثارة الجنون لدى بعض الشخصيات التي لا تتحمل درجة عالية من المشقة Stress أو التوتر البالغ ، مما يجعله يتجه للمرض أو الجنون ؛ كمحاولة مرضية في التوافق النفسي مع تلك الخبرة غير المحتملة .

وبذلك يعرض الكتاب لعدد من الأسباب التي تحدث قبل المرض مباشرة فتؤدي إلى حدوثه ، وهي أسباب يشار إليها في مجال علم النفس الإكلينيكي ، والطب النفسي Psychiatry بالأسباب المرسبة في إثارة الاستعداد للمرض Percipitator Causes (أو ما يسمونه بالأسباب المهيئة) التي لا تكفي وحدها لإثارة هذا المرض (ص٣٠) .

ثم يعرض الكاتب لأربعة فصول متتالية عن ادعاء الجنون ؛ وهي من تجان وتحامق وهو صحيح العقل ، من تحامق لينال غنى ، من تحامق ليمضي وقتًا طيب العيش ، من تحامق لنجو من بلاء وآفة .

وتتناول هذه الفصول إمكانية ادعاء الجنون ، وعددًا من الدوافع النفعية لهذا الادعاء .

ومن دوافع التظاهر بالجنون ، الإنكار والإخفاء لحالة ما ، لا يريد الشخص إظهارها للناس ؛ ولكسب غنى أو فائدة ما ؛ منها جمع المال أو جلب عطف الآخرين ، أو ذياعة أمره للملوك والإشراف لقضاء حاجة ما ، وكذلك الرغبة في تحقيق عيشة سهلة طيبة فيها يتحرر سلوكه عن قيود العقل والمنطق ، وينعم إلى جانب ذلك بعطف الآخرين

(ص ٣٣ - ٣٧) .

فصل : ضروب الجد والعقل ، ودولة الحمق والجهل : وفيه يعرض أشعارًا عن طيب عيش الأحمق ، وبؤس اللبيب ، ثم يحذر من مصاحبة الحمقى ؛ نظرًا للضرر الناجم عن صحبتهم .

وبعد ذلك يعرض الكتاب لكثير من مشاهير عقلاء المجانين ؛ من ذاك مثلًا : أويس القرني ، وسعدون ، وبهلول ، وعليان وغيرهم ، كما يتناول للعديد من طرائفهم ، وأشعارهم ونثرهم ، وأنماط من سلوكياتهم كل حسبما يروى عنه ، فمنهم من اشتهر بالتزهد والإيمان ، أو نظم الشعر أو إبداع النصح والوصايا السديدة .

على هذا النحو يعرض الكتاب لتفاصيل هذه الشخصيات ؛ بحيث تعكس خصائصهم النفسية والسلوكية والفكرية ، باعتبارهم فئة خاصة عادة تعيش في عزلة عن الناس ؛ ولذا تجهل العامة كثيرًا عنهم ، ومن هنا كان لهذا الكتاب أهمية في إلقاء الضوء على هذه الفئة الخاصة من المجانين .

وإلى جانب ما تعرض له الكتاب عن عقلاء المجانين بكل خصائصهم الحسنة ، نجده يشير أيضًا بشكل غير مباشر إلى شذوذ العباقرة ؛ فمنهم من لا يمكنه التوافق في إقامة علاقات سوية مع الآخرين ، ويظهرون سلوكًا غريبًا يتسم بعدم الاستقرار والتوتر الزائد إلى جانب أنهم قد يهملون في الخط ، ويتسمون بعدم الدقة لعدم صبرهم في أداء التفاصيل . هذا في ضوء ما كشفت عنه دراسات شخصية المبدعين في مجال علم النفس الحديث ؛ مثل تلك المشكلات الخاصة بالتوافق النفسي الاجتماعي للعباقرة ، جعلت الناس يتهمونهم بالجنون أو بإقامة علاقات بينهم وبين الجن أو بممارسة السحر أو بغير ذلك من أسباب لا تتصل بهم مباشرة .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في علم النفس الإكلينيكي Clinical Psychology ، والطب النفسي Psychiatry .

* * *

القرطبي (ت ٤٠٧هـ)
الزهد [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف :

محمد بن يوسف بن أحمد بن معاذ الجهني الأندلسي أبو عبد الله القرطبي ، عالم بالقراءات ؛ من تصنيفه البديع في معرفة ما رسم في مصحف عثمان بن عفان - خ في بروسة وروضة خيري ، مات بمصر .

عرض الكتاب :

يتضمن الكتاب مقدمة المحقق ، الذي يعرض فيها للنقاط التالية :

١ - **بين يدي الكتاب** : وفيه مقارنة بين العهد النبوي والعصر الحديث ، ففي العهد النبوي انتصر أصحاب النبي ﷺ على الفرس والروم ، وصاروا سادة الدنيا ، ومع ذلك كانت الدنيا عندهم لا تساوي شيئًا ، فهي قناة توصلهم إلى جنة الله ؛ أما العصر الحديث ، فيسعى الإنسان إلى الترف والتنعم ، والانشغال بهموم الدنيا ، وهذا ليس من الإسلام في شيء ، ويتناول هذا الكتاب الزهد ليس بمعنى أن لا تملك شيئًا في الدنيا ، ولكن بمعنى أن لا يوجد شيء يسيطر علينا إلَّا منهج الله تبارك وتعالى .

٢ - **الزهد بين الاتباع والابتداع** : فالزهد خلاف الرغبة ، فيقال : فلان يرغب في كذا أو فلان يزهد فيه ، والزهد في الشيء يعني بالدرجة الأولى عدم إرادته ، وقد تزهد

---

(١) تحقيق مجدي فتحي السيد - (ط ١) . طنطا : مكتبة الصحابة (١٩٨٨م) . (٨٤ ص) - (من صفات عباد الرحمن) الكتاب هو القسم الثالث من كتاب : قصر الحرص بالزهد .

النفس في الشيء مع امتلاكها له ؛ وذلك لأنها في الحقيقة لا تريده ، ولكن ذلك لا يعني أنها تحبه أو أنها تنفر منه ، والزهد المحمود شرعًا هو ترك ما لا ينفع العبد في الآخرة . والزهد لا يعني بالضرورة أن يكون الزاهد فقيرًا أو مسكينًا ، فقد يكون الزاهد غنيًا وصاحب جاه يمتلك الكثير ، ومع ذلك يزهد فيه ؛ أما الزهد المذموم فهو الابتعاد أو الانقطاع عن الدنيا بترك الأهل والمال والأولاد فهذا ليس من الإسلام في شيء ، ولكنه اتباع الهوى .

٣ – **علامات الزهد** : هي خمس فئات : **الأولى** : أن العبد لا يفرح بشيء موجود ولا يحزن على مفقود . **الثانية** : أن يستوي لدى العبد منًّا ذامه ومادحه . **الثالثة** : أن يكون انشغاله وأنسه باللَّه تعالى . **والرابعة** : قصر الأمل في العيش على الدنيا . **والخامسة** : أن العبد يسخو ويجود بما لديه ، ولا يبخل على عباد اللَّه .

٤ – **كيفية الزهد وأقسامه** : أما كيفيته ، فهو أن لا يترك الفرد الدنيا كلية ولا يقمع الشهوات بالكلية ؛ أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد ، وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع ، ولا يتبع كل شهوة ولا يترك كل شهوة بل يتبع العدل ؛ أما أقسام الزهد فأربعة أقسام : **أحدهما** : فرض على كل مسلم وهو الزهد في الحرام . **الثاني** : زهد مستحب ، وهو الزهد في المكروه وفضول المباحات . **الثالث** : زهد الداخلين في هذا الشأن ، وهم المشمرون في السير إلى اللَّه ، وهو نوعان : (أحدهما) الزهد في الدنيا جملة وليس المراد تخليها من اليد ؛ وإنما إخراجها من قلبه كلية ويصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء :

١ – علم العبد أنها ظل زائل .

٢ – علمه أن وراءها – أي الدنيا – دار أعظم منها قدرًا وهي دار البقاء .

٣ – معرفته أن زهده فيها لا يمنعه شيئًا كتب له منها ؛ أما النوع الثاني الزهد في نفسك ، وهو أصعب الأقسام ، وأشقها جميعًا .

٥ – **درجات الزهد** : ثلاث درجات : **الأولى** : هو ترك ما يشتبه على العبد ، هل هو حلال أم حرام ؟ **الثانية** : الزهد في الفضول ما يفضل عن قدر الحاجة والاشتغال بما يقرب إلى اللَّه . **الثالثة** : الزهد في الزهد ، أي احتقار ما زهد فيه .

٦ – **المؤلفات في الزهد** : وهي كثيرة العدد مما يدل على أهمية الموضوع ؛ ومنها كتاب الزهد للإمام الحافظ ، الشيخ الإمام عبد اللَّه بن المبارك ؛ ومنها تصنيف المعافي في

السنن والزهد وغير ذلك للإمام العامل المعافي بن عمران الموصلي ... إلخ .

ونعرض فيما يلي لمضمون الكتاب :

الباب الثامن والعشرون : (في الزهد وبيانه . فالزهد في كلام العرب : هو الإضراب عن المال والجاه فهو خلاف الرغبة ، تقول : زهد في الشيء ، وعن الشيء ، يزهد زهدًا ، وزهد يزهد لغة فيه ، وفلان يتزهد أي : يتعبد ، والتزهد في الشيء وعن الشيء خلاف الترغيب ، وهناك العديد من التعريفات التي تناولت مفهوم الزهد تجتمع جميعًا حول حديث رسول اللَّه ﷺ في قوله : « **ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ، ولا في إطاعة المال ، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يديك أوثق منك بما في يد اللَّه تعالى ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها ، أرغب منك فيها لو أنها أبقيت لك** » فقد أشار رسول اللَّه ﷺ إلى ما بين عظيمين : أحدهما : التوكل ، الثاني : وهو الرضا ، رضا عام وهو لا يجد غير اللَّه ربًا ، ولا غير الإسلام دينًا ، ولا غير محمد رسولًا . ورضا خاص : هو الذي تكلم فيه أرباب القلوب ، وهو سرور القلوب عند القضاء ، وهو غاية الرضا ، فيظهر العبد التحمل عند أول مصيبة ويرضى ثواب اللَّه عوضًا عما أخذ منه .

● ويرتبط مضمون هذا الباب في علم النفس بموضوع الدوافع Motives وإشباع الدوافع والحاجات Needs والرغبات Desires . مفهوم الزهد يقترب إلى حد كبير من حديث علماء النفس عما يسمى بقمع الدوافع والرغبات سواء الفطرية (كالدافع الجنسي) أو الاجتماعية (كالدافع إلى التملك) ، وقد فسر أصحاب التحليل النفسي ذلك بأنه يرجع إلى أحد مكونات الشخصية الرئيسية وهو الأنا الأعلى Super Ego ، حيث يعمل على كف الدوافع ذات الطابع الجنسي أو العدواني (ص ٢٩ - ٣٤) .

الباب التاسع والعشرون : (فيما يحمل على التملك من الدنيا والزهد فيها) وهو ثلاثة أشياء : قصر الأمل ، وذكر الموت ، وزيارة القبور ؛ وهي ثلاثة أمور ضرورية يوصي بها رسول اللَّه ﷺ وصحابته على أنها السبيل إلى تذكرة الإنسان بأن الحياة زائلة وماضية ، ولا تستحق الاهتمام بها كثيرًا ؛ وإنما هي وسيلة لغاية أبعد هي الآخرة .

الباب الموفي الثلاثين : في (فضل الزهد وثمرته) ، ويتضمن مجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة التي يتلخص مضمونها أو دلالتها في أن للزهد نتائج إيجابية كثيرة ؛ منها حب اللَّه وحب الناس والحكمة ، فقد قال رسول اللَّه ﷺ : « **إذا رأيتم الرجل قد**

أعطي زهدًا في الدنيا ، وقلة منطق ، فاقتربوا منه ، فإنه يلقي الحكمة » .

● ويقترب هذا الفصل بشكل غير مباشر بما يشير إليه علماء النفس من سمات الشخصية السوية Normal Personality ، والصحة النفسية ، فالصراع في الحياة والانشغال بهمومها يؤدي إلى اضطراب شخصية الفرد ؛ أما الاعتدال والزهد فيها يؤدي إلى ما يمكن تسميته بالشخصية السوية المتزنة (ص ٣٩) .

الباب الحادي والثلاثون : (في أحوال من زهد في الدنيا) وهي ست : المقال ، اللباس ، المطعم ، والصبر على الفاقة والحاجة ، وترك السؤال ، الخمول ؛ فأما المقال ، فيقصد به أن يكون قوله يوافق فعله . الثانية : لباسه ، فلا يجوز أن يعظ الإنسان الناس وعليه ثياب الفساق . الثالثة : مطعمه يكون متوسطًا . الرابعة : صبره على الحاجة والفاقة ، وهي الرضا بحكم المولى . الخامسة : إذا كان عنده ما يكفيه فلا يسأل اللَّه إلَّا قوت يومه . السادسة : أن يكون خاملًا لا يعرف ؛ أي : يكون مطيعًا للَّه في السر والخفاء ، والغموض أمام الناس .

● ويقترب مضمون هذا الفصل من خصائص المصدر Source أو القدوة Model المؤثر ؛ وهو موضوع يقع في دائرة اهتمام علم النفس الاجتماعي (وخاصة نظرية التعلم الاجتماعي Social Learning كما يقترب أيضًا من موضوع العلاقات بين الاتجاهات والسلوك Attitudes and Behavior) خاصة عندما تحدث المؤلف عن صفة من صفات الزاهد وهي الاتساق بين القول والفعل (ص ٤٠ - ٤٣) . كما يتعلق أيضًا بالسيطرة على الدوافع والرغبات .

الباب الثاني والثلاثون : ويتضمن الإشارة إلى زهد النبي ﷺ في عيشه ، ومطعمه ، وملبسه ، ومركبه ، فكان رسول اللَّه ﷺ في كل هذه الأمور يتسم بالزهد والتقشف ؛ لأنها ليست متاحة ؛ ولكن لأنه لا يريد الانشغال بأمور الدنيا الزائلة ، ويسعى للآخرة ، وأن يكون نموذجًا يقتدي به أهل أمته من بعده .

● ويقترب هذا الفصل من حديث علماء النفس عن مدرج الحاجات Hierarchy of Needs حيث تقع الحاجات الفسيولوجية الأولية ، الحاجة للطعام ، والشراب ، والملبس في بداية المدرج ، وكلما ارتقى الفرد ونمت شخصيته كلما انشغل بأمور أخرى أكثر أهمية مما يقع في المجال المعرفي وتحقيق الذات Self - Actualization (ص ٤٤ - ٤٧) .

الباب الثالث والثلاثون : ويتضمن الحديث عن زهد الصحابة رضي اللَّه تعالى عنهم

وزهد هؤلاء الصحابة والخلفاء - لم يكن على اضطرار ؛ وإنما كان ذلك منهم اخيار ، وإيثارًا للأفضل من الحال وتواضع لله ﷻ ، واقتداء بنبيهم ، فقد قال رسول الله ﷺ : « **من ترك اللباس تواضعًا لله وهو يقدر عليه ، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، حتى يخيره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها** » .

الباب الرابع والثلاثون : (في فضل من أخذ المال بحقه وأنفقه في حقه) وعن فضل المال وخبثه قال علماؤنا رحمة الله عليهم - إن صاحبه إذا أنفقه في حقه ووضعه في حقه ، كان في أرفع المنازل والدرجات ، وأعلى المقامات كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ : ٣٧] ، والآيات في مدح المال كثيرة لمن تأمل كتاب الله ؛ وذلك مما يدل على كسبه واتجاره وجمعه ، وقد قال عمرو ابن العاص : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » ، وقد أباح الله تعالى كسب المال ليوصل به إليه من جهاد وعَدْو وإعانة فقير ، وإطعام مسكين ، وعون مظلوم ، وإغاثة ملهوف ، ومتى صح القصد فيه فجمعه أفضل ، بلا خلاف عند العلماء .

• ويقترب ذلك من حديث علماء النفس عما يسمى بالحاجات الوسيلية Instrumental Needs والحاجات الغائية Ultimote needs فالمال هنا وسيلة لغايات أخرى أسمى وأرقى (ص ٥٧ - ٦١) .

الباب الخامس والثلاثون : في بيان قوله ﷺ : « **لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال** » ، وبيان قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ [طه : ١٣١] ، فكل الأمم افتتنوا ، بعضهم افتتنوا عن توحيده بعبادة الأصنام ، وقوم بالشمس فتألهوها ، وقوم بالقمر ، والنصارى افتتنوا بعيسى فقال قوم منهم هو الإله ، والمال إذا شغل عن ذكر الله ، وعن القيام بحقوقه فبئس المال ، وإذا لم يمنع عن ذلك فنعم المال ؛ كما قال رسول الله ﷺ والصحابة ﷺ .

الباب السادس والثلاثون : (في حقارة الدنيا وهوانها) : فالدنيا لا تستحق من العبد الاهتمام الزائد والانشغال المفرط بها ، فقال رسول الله ﷺ : « **لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقي منها كافرًا شربة ماء** » ، وقد قال علماؤنا معنى هوان الدنيا على الله هو : إنه لم يجعلها مقصودة لنفسها بل جعلها طريقًا موصلًا إلى غيرها ، وإنه لم يجعلها دار إقامة ولا جزاء ؛ وإنما جعلها دار رحلة وبلاء - فالدنيا كما قال رسول الله ﷺ : « **ملعونة ما**

فيها إلّا ذكر اللَّه ، وما والاه وعالم أو متعلم » .

الباب السابع والثلاثون : (في بيان الدنيا وفيما جعل مثلًا لها) قال اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ [يونس : ٢٤] ، وقال علماؤنا : في ضرب اللَّه تعالى المثل في الدنيا بالماء المنزل من السماء بدائل تسع : **الأولى** : أن المطر لا يستنزل بالحيلة ، كذلك الدنيا لا تنال إلّا بالغنيمة . **الثانية** : أنه وإن كان المطر لا يجيء إلّا بتقدير ؛ فإنه يستنزل بالرغبة والسؤال ، كذلك الرزق يلتمس من اللَّه . **الثالثة** : أن الماء إذا جاء به نفع وإذا زاد على الحاجة ضر ؛ كذلك المال إذا كان بقدر الكفاية فصاحبه في نعيم ، وإذا زاد فصاحبه في طغيان . **الرابعة** : أن الماء إذا كان جاريًا كان طيبًا ، وإذا اختزن تغير كذلك المال إذا أجراه صاحبه في مجاريه فطاب وإذا احتجبه حيث عليه وغاب . **الخامسة** : أن الماء إذا كان طاهرًا صلح للثياب والعبادات ، كذلك المال إذا كان حلالًا استقام به المعاش . **السادسة** : أن الماء إذا أثار عنه النبات وخرجت به الأشجاء لا يأمن أن تصيبه آفة من غير أسباب ، وكذلك المال . **السابعة** : قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ [الكهف : ٤٥] . **الثامنة** : أن المال إذا أخذ منه العبد حاجته في المعاش ، وأرسل باقيه في الشهوات كان معدومًا في حق الدنيا هشيمًا ، صار به صاحبه ملومًا . **التاسعة** : اختلاف أحوال الزرع من حين خلقه ، كذلك المرء لا يطيب عمله إلّا إذا راض نفسه قبل أن يرد إلى أرذل العمر وهو حال الضعف في القوة .

الباب الثامن والثلاثون : (في أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) ، فالدنيا سجن ؛ لأن المؤمن فيها مقيد بقيود التكاليف ، فلا يقدر على حركة ولا سكون إلّا أن يفسح له الشرع ، فيفك قيده ويمكنه من الفعل أو الترك ، ثم هو في هذا السجن على غاية الخوف والوجل إذا لا يدري بما يختم له من عمل ، والكافر منفك عن تلك التكاليف ، آمن تلك المخاوف ، مقبل على لَذَّاته ، منهمك في شهواته ، يأكل ويتمتع كما تفعل الأنعام .

الباب التاسع والثلاثون : في قوله ﷺ : « **من أراد الآخرة ترك زينة الدنيا** » فالدنيا مستطابة في ذوقها ، معجبة بمنظرها ، كالتمر المستحلى للرائي ، فابتلى اللَّه بها عباده ؛ لينظر من أحسن عملًا ، أي من هو أزهد فيها ، وأترك لها على ما تقدم ، ولا سبيل للعباد إلى بعض ما زين اللَّه إلّا بقوته على ذلك .

الباب الموفي أربعين : في بيان قوله ﷺ : « **من رغب عن سنتي فليس مني** » . ويكشف هذا الباب والأبواب السابقة أنه ليس من الزهد ترك المباحات ولا تحريم الطيبات ، قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ﴾ [المؤمنون : ٥١] . وقد ضرب رسول اللَّه ﷺ والصحابة ﷺ في ذلك المثل والريادة والقدوة الحسنة . ولذا يجب الاقتداء بهم ؛ لأن ذلك هو ملاك الدين . وعن أخذ الأرزاق من الأئمة الظلمة ؛ فلذلك كما قال أبو عبد اللَّه محمد المالكي في أحكام القرآن - ثلاثة أحوال : **الأولى** : إن كان جميع ما في أيديهم مأخوذا على موجب الشريعة فجائز أخذه . **الثانية** : وإن كان مختلطًا حلالًا وظلمًا كما في أيدي الأمراء اليوم فالورع عدم الأخذ ، ويجوز للمحتاج أخذه هو خلص في يده . **الثالثة** : وإن كان ما في أيديهم ظلمًا حرامًا فلا يجوز أن يؤخذ من أيديهم .

* * *

الكرماني (ت ٤١١هـ)
مجموعة رسائل الكرماني [1]

عرض : د . محمد شلبي

التعريف بالمؤلف :

كان أحمد حميد الدين الكرماني من كبار الإسماعيلية في جزيرة العراق ، واسمه كما ورد في المصادر الإسماعيلية : هو سيدنا الشيخ أحمد حميد الدين الكرماني صاحب التآليف العديدة في أصول وأحكام المذهب الإسماعيلي .

وصفه الداعي إدريس عماد الدين القرشي المؤرخ الإسماعيلي ، فقال : « ... حتى ورد إلى الحضرة الشريفة النبوية الإمامية ، ووفد على الأبواب الزاكية الحاكمية باب الدعوة الذي عنده فصل الخطاب ، ولسانها الناطق بفضل الجواب ، ذو البراهين المضيئة ، حجة العراق أحمد عبد اللّٰه الملقب بحميد الدين الكرماني قدس اللّٰه روحه ورضي عنه .. مهاجرًا عن أوطانه ومحله ، وواردًا كورود الغيث إلى المرعى بعد محله ، فجلى ببيانه تلك الظلمة المدلهمة ، وأبان بواضح علمه ونور هداه فضل الأئمة ... والداعي حميد الدين أحمد بن عبد اللّٰه هو أساس الدعوة التي عليه عمادها ، وبه علا ذكرها ، واستقام منارها ، وبه استبانت المشكلات ، وانفجرت المفصلات .

يبدو أن الكرماني من أصل فارسي ومن مدينة « كرمان » تلقى علومه في المدارس الفكرية الإسماعيلية ، وتتلمذ على الفيلسوف « أبو يعقوب السجستاني » الذي قتل في

---

(١) تحقيق مصطفى غالب . (ط ١) . بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر (١٩٨٣م) . (٢١١ ص) . المحتويات : ثلاث عشرة رسالة منها : الدراية في معنى التوحيد والموحد . النظم في مقابلة العوالم . الموسومة بالرمزية . الموسومة بالزهرة .

تركستان سنة (٣٣٢هـ) ، ومن ثم ارتحل إلى القاهرة للتزود من العلم .

وبعد أن بلغ درجة علمية كبيرة عين حجة العراقين - فارس والعراق - فعرف منذ ذلك الحين بحجة العراقين ، وتمكن من استمالة والي الموصل المقلد بن يوسف فاعتنق الإسماعيلية وخطب للإمام العزيز الفاطمي على منبر الموصل سنة (٣٨٢هـ) .

وتشير النصوص الفاطمية إلى أن الكرماني قد استدعي إلى القاهرة سنة (٤٠٨هـ) من قبل الصادق المأمون (ختكين الضيف) داعي الدعاة عندما اشتد وطيس المعارك الدينية ، وقامت الدعوة « الدرزية » فراح يلقي المجالس ، وينشر الرسائل التي يرد فيها على الدعوة الجديدة .

ويتجلى فضل الكرماني على الفلسفة الفاطمية بما أعطاها من مرد علمي وفكري وإنتاج خصب في نواحي المعرفة الإنسانية ، ترك آثارًا غنية بالفكر والمعرفة في جميع المواضيع الفاطمية ، كما عُني العناية الفائقة في مسألة التوحيد والتجريد والتنزيه ، والنبوة والإمامة والمعاد ، وإثبات العصمة الذاتية للأنبياء والأئمة ، بما يتصل بهذه الأمور من مباحث عقلية كثيرة .

ومن مصنفاته : « راحة العقل » ، « المصابيح في إثبات الإمامة » ، « تنبيه الهادي والمستهدي » ، « الأقوال الذهبية » ، « معاصم الهدى » ، « الإصابة في تفضيل علي على الصحابة » ، « فضل الخطاب » ، « المحصول » ، « الرسالة الوضية » ، « كتاب الرياض » ، « ثلاث عشرة رسالة فلسفية توحيدية متنوعة » ، وكانت وفاة الكرماني سنة (٤١١هـ) .

عرض الكتاب :

يشتمل هذا الكتاب على ثلاث عشرة رسالة كتبها الكرماني لمواجهة التفكك والاضطراب اللذين أصابوا الدعوة الفاطمية في عهد الإمام الحاكم بأمر اللّٰه ، وقد دعاه « ختكين الضيف » إلى القاهرة لإنقاذ الدعوة من موجة الغلو ، وطلب منه أن يساهم في المجادلات والمناظرات ، وكل رسالة من هذه الرسائل هي إجابة عن مسألة من الأسئلة التي طرحت في المجادلات .

في الرسالة الأولى يحاول الكرماني شرح رأي الفاطميين في التوحيد إجابته عن سؤال .. ما التوحيد ؟ فاللّٰه تعالى هو واحد لا إله إلَّا هو لا مثل له ، وأنه لا ينال بصفة من الصفات ، وأنه ليس بجسم (ص ١٩ - ٢٦) .

اهتم الكرماني في رسالته الثانية (ص ٢٧ - ٣٤) بموضوعات فلسفية تتعلق بطبيعة الأعداد ، وأن لكل عدد خاصية ، وأن لكل نوع من الموجودات عدد مخصوص محدد ، وأن الموجودات عدد مخصوص ، وأن الموجودات بحسب طبيعة العدد وخواصه ، ولابد من مقابلة الأعداد بالموجودات ، ومطابقة هذه الموجودات على الأمور الدينية ، ومقابلة ذلك مع صنع اللَّه ، وهو يحاول تفسير قدسية رقم ١٢ لدى الإسماعيلية ، فأقسام الفلك اثني عشر ، وشهور السنة اثني عشر ... إلخ .

ويشرح في رسالته الثالثة « الرضية عن موضوعات فلسفية » كقدم الجوهر وحدوث الصورة ، وأن الفعل لا يصح إلا بوجود مادة تقبل الفعل فهو يقسم الموجودات إلى ما هو جوهر وإلى ما هو عرض ، والجوهر ينقسم إلى ما هو جسم مثل السماء وما فيها من كواكب وإلى ما هو غير جسم مثل النفس ، وأن الجسم ينقسم إلى ما هو طبيعي وهو الذي تحركه الصورة المحركة المكانية مثل حركة الدوران ، وإلى ما هو نفساني كالقوة المحركة لليمين واليسار ، وينقسم النفساني إلى ما هو حيوان مثل الإنسان والحيوان والطيور ، وإلى ما هو نبات مثل النجم والشجر .

وينقسم الحيوان إلى الحيوانات الناطقة كالإنسان وغير الناطقة كالحيوان ، وتنقسم الناطقات إلى الملائكة والأنبياء والأئمة ، (ص ٣٥ - ٤٢) .

وتكلم الكرماني عن الفرق في حركات الأنفس الثلاث التي هي النامية والحسية ، والناطقة ... (ص ٣٨) وذكر أن النفس الناطقة تختلف عن الحسية بأنها تفعل بغير آلة ، أما الحسية فتفعل بآلة ... وأشار الكرماني إلى ظاهرة التكييف الحسي حيث قال : « ... إن الآلة الجسمانية التي بها تدرك المحسوسات تكل عن إدراك محسوساتها ما يكون في نهاية الإفراطية والتمامية من الكيفية ؛ مثل : العين إذا نظرت إلى عين الشمس التي هي النهاية في الضياء تكل عن البصر ... » (ص ٣٨) . « والتغير الجسماني بخلاف ذلك ، فإنه كلما أدرك ما هو أدق وأعظم من العلوم كانت قوته أنفذ في الإدراك ... » (ص ٣٨) . ثم تكلم الكرماني بعد ذلك عن مراحل نمو الإنسان ؛ ونفوسه الثلاث التامة والحسية والناطقة منذ تكوين النطفة حتى يكون الإنسان بعد الميلاد إلى مرحلة البلوغ ، وتمام نمو ونضج نفسه الناطقة (ص ٣٨ ، ٣٩) .

ويشرح في رسالته الرابعة : « المضيئة في الأمر والآمر والمأمور » التي كتبها لتنوير وتبصير عقول الباحثين بمناقشة قضايا فلسفية ، فالكلمة هي العلة وجدت أولًا « من المتعالي سبحانه ، ولم يكن في الوجود من المتعالي سبحانه سواها ، كانت لعلة بعينها هي

المعلول ، وصح القول بأن ذات المعلول هي ذات العلة ، وذات العلة هي ذات المعلول » (ص٤٣ - ٦٠) .

ويشرح في رسالته الخامسة : « اللازمة في صوم شهر رمضان » أسباب صوم الطائفة لشهر رمضان سنة (٤٠٠هـ) قبل رؤية الهلال بيومين ، ويذكر أن رؤية الهلال ؛ إنما هي رؤيتان ، الأولى طبيعية والثانية نفسية ، والرؤية الطبيعية هي من جهة العين لا تدرك من الأشياء إلا ما كان جسمانيًا واقعيًا تحت الحد والزمان ؛ مثل : الألوان والأشكال ، وأن الرؤية النفسانية تكون من جهة الفؤاد والعلم ، تدرك ما لا تدركه الرؤية الطبيعية ، وما تعجز عن إدراكه مما يغيب عن الأبصار .

ويذكر أن رؤية البصر قد يقع من جهتها خطأ في رؤيته الأشياء ؛ فترى الصغير كبيرًا ، والكبير صغيرًا ، وأن الرؤية النفسانية أصلح من الرؤية الطبيعية لوجود موانع طبيعية وحسية ، ويفسر الصيام المبكر في ضوء قول النبي ﷺ : « **صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته** » إنما يتضمن وجهتي نظر ؛ أما أن يكون الصيام من وقت رؤية الهلال أو أن يرى الهلال عيانًا والأمة صائمة (ص ٦١ - ٨٠) .

ويشرح في رسالته السادسة : « الروضة » معاني الأزل والأزلي والأزلية ؛ فإذا كان اللفظ كليًا عامًا كان ما دل عليه في ذاته كليًا وعامًا ، وإذا كان اللفظ جزئيًا كان ما دل عليه جزئيًا ، ويفند الكرماني آراء الداعي « أبو يعقوب السجستاني » في كتابه « المقاليد » وفي ذلك يقول : « إن العقل أزلي الغاية ، ليعلم كونه باقيًا على حالته غير متناه لا أزلي الأول ليعلم كونه مبدعًا ، ثم إن الأزلية تفيد من المعنى ، إلَّا أن الهاء في الأزلية الدالة على التأنيث يوجب أنه في عالم العقل مما يجمعه وإياه سمة الأزل الذي يقوم لعنصرهما ، وهما من جهته واحدة ما هو دونه في المرتبة ، وهو بالإضافة إليه كالأنثى من الذكر اللذين هما من جهة الجسمية واحد ، ومن جهة الصورة اثنان ، مثل جوهر العقل الثاني المسمى نفسًا ، الذي هو الصورة المجردة الواقعة تحت الإبداع زوجًا للعقل الأول ... ولما كان القول في الأزل والأزلي اقتناعيًا ، لزم أن تدل على العلة فيما قلناه ليصير دليلنا » ، (ص ٨١- ٩١) .

ويجيب الكرماني في رسالته السابعة : « الموسومة بالزاهرة » عن ست مسائل ، تتعلق الأولى بأن الأسامي لا تفي بالمعاني ؛ لذلك لابد من استعارة الألفاظ لمن أراد العبارة ، ويجيب بأن هذا قول محال ؛ لأن كل اسم يؤدي من المعنى في المسمى ما هو مختص به ، ولا يوجد معنى واحد عبر عنه اسمين ، بل من الأسماء ما يؤدي من المعاني المسميات

ما يوفي معناه على لفظه ، فيكون ذلك نتيجة لإيجاب معنى آخر وشيء آخر ؛ مثل قولنا : المكان فإنه اسم موف معناه لأعلى ذاته حتى يزاد عليه ، ووجب به شيء آخر وهو المتمكن ، فالمكان يصير مكانًا بالتمكن (ص ٩٢ - ١٠١) .

ويجيب الكرماني في رسالته الثامنة : « الحاوية في الليل والنهار » عن أولئك الذين سألوه عن الليل والنهار وأيهما أسبق ؟ فيقول : « إن بالنهار وضيائه يتبين كل ذي لون وصورة وشكل ، وبه يقع التمييز بين الأشياء ، والظلام يستر الأشياء ويمنع البصر ... » ، (ص ١٠٢ - ١١٢) .

ويجسد الكرماني في رسالته التاسعة : الموسومة « برسالة مباسم البشارات » حيرة الناس في مصر الفاطمية حين بدأت بدعة تأليه الحاكم بأمر اللّٰه فوجدهم : « تتلاعب بهم الأفكار الردية ، وتتداولهم الوساوس المردية ... فصار البعض منهم في الغلو مرتقين إلى ذراه ، والبعض في النكص على أعقابهم تاركين عصم الدين وعراه ، والقليل منهم قد تزعزع أركان اعتقادهم » .

وبين إمامة الإمام الحاكم بأمر اللّٰه وأنه إمام وقته وزمانه فقط (ص ١١٣ - ١٢٣) .

ويرد الكرماني في رسالته العاشرة : الموسومة « بالواعظة » على أحد دعاة التأليه المسمى الحسن الفرغاني المعروف بالأحزم ، موجهًا رده على رقعته : « إني وجدت رقعتك أولًا خرساء عمياء جذماء بتراء ، بإسقاطك منها اسم اللّٰه ربك ورب العالمين » . ورد على أسئلته الساذجة ؛ كقوله : إن من عرف إمام زمانه حيًا فهو أفضل ممن مضى من الأمم من نبي أو إمام ، أو أن من عبد « اللّٰه » من المخلوقات إنما يعبد شخصًا لا روح فيه ؛ لأن اللّٰه له اسم ، أو هل الشريعة محدثة أم قديمة ؟ ... إلخ ، ويفند الكرماني رقع الأحزم ويحذره من نكال الدنيا والآخرة من هذه المقالات الشنيعة (ص ١٣٤ - ١٤٧) .

يرد الكرماني في رسالته الحادية عشرة : الموسومة « بالكافية » على الهاروني الحسني الزيدي الذي ادعى الإمامة ، ورد الكرماني مفندًا لأفكار الهاروني معتمدًا على القرآن والأحاديث النبوية ؛ خاصة ما يتعلق بظاهر الفرائض وبواطنها ، وأن ادعاء الباطن ضلالة تدعو إلى إهدار دمهم ، ويسر الكرماني على ذلك بقوله : « إن هذا الرجل ، والقائلين بقوله ، إنما تسرعوا إلى دفع الباطن لاشتباه الأمر عليهم في ما عندنا من معنى هذين اللفظين ؛ فالأشياء كلها على ما هي عليه في أعيانها شيئان : شيء محسوس ظاهر الذات تدركه الحواس أو شيء خفي لا يدركه البشر بالعقل والعلم ، وإذا قلنا الظاهر

فمرادنا فيه الفرائض الشرعية ، وإذا قلنا الباطن فمرادنا فيه العلم على ما ينقسم إليه من العلم بوجود الشيء وعنصره ، وبكونه من الأشياء الظاهرة ، أو الخفية ، وبمقداره ، وبصورته ، وبسبب وجوده ، وبالغرض في إيجاده الذي هو غير محسوس ولا يدرك بحواس ، بل معلوم بالخواطر ، والأوهام ، والأنفس ، والعقول ، مثل المعرفة بالتوحيد ، والرسالة ، والحشر ، والجنة ، والنار » ، (ص ١٤٨ - ١٨٢) .

الرسالة الثانية عشرة : في الرد على من أنكر العالم الروحاني ويحاول فيها الإجابة عن من سأل عن العالم الروحاني « ليس لخلفاء العالم الروحاني خفاء عنا ، لكن لعجزنا نحن عن دركه » (ص ١٨٣ - ١٨٩) .

الرسالة الثالثة عشرة : الموسومة « بخزائن الأدلة » تتضمن ثماني وعشرين خزانة ، تشمل كل خزانة نوعين من الأسلحة ، متى أراد المبارز استلامها ، أسهل عليه وجودها ، وهذه الخزائن هي براهين لقضايا دينية وفلسفية ؛ مثل إثبات المبدع نفي العلة والجوهرية والزمان والمكان والشيئية والصفة والحد والأيسية عن اللّه ، وإثبات أن المبدع ثابت ، وفي إثبات العقل وعالمه ، وجوهرها وفي إثبات الرسالة والوصاية والإمامة والبعث (ص ١٩٠ -٢٠٩) .

وبالكتاب إشارات نفسية عديدة ففي (ص ٦٦) إشارات عن أجهزة الحس ، وماهية الإدراك Senses & Perception ، وكذلك في (ص ٧٠ ، ٧١ ، ٨٣ ، ٨٦) .

يذكر الكرماني (ص ٦٦) : « أن هناك إدراكًا بواسطة الحواس الخمسة ؛ كإدراكها الألوان ، والأشكال من جهة البصر ، والأصوات ، والأصوات الدالة وغير الدالة من جهة السمع ، وغير ذلك مما يتعلق إدراكه بالحواس الأخرى ، وهو الذي منه يقع استدلالها من إدراك ما لا تدركه الحواس ، وإدراك بذاتها من طريق الاستدلال الذي يقوم مما تدركه من جهة الحواس ، كإدراكها حدث العالم بعد إدراكها إياه من جهة الحواس ، ومما تدركه بذاتها من طريق الاستدلال فلا طريق للحواس إليه ... » ، ويميز الكرماني هنا بين الإدراك المباشر Perception ، وبين الإدراك غير المباشر أو ما يطلق عليه علماء النفس الاستدلال Reasoning .

ويذكر الكرماني في صفحات (٨٢ - ٨٤) بعض الإشارات في مجال علم اللغة والمعاني Semantics فهو يقول : إن الألفاظ والأسماء التي هي الأدلة ، وبين معانيها التي هو المدلول له ... فصار كل من الاسم ومعناه مثل الآخر ، وقام بشاكلتهما اتحاد الأول

بالآخر ... ثم يستطرد (ص ٨٣) أنه ليس كل اسم إذا دل على معنى أو شيء ، قلنا تناسب بينهما وتشاكل ... فاسم الكلب يطلق على حيوان معين ، ويطلق في ذات الوقت على كوكب معين ولا يعني ذلك أنهما واحد ...

ويذكر الكرماني (ص ٨٦) أن رؤية البصر Sensation قد يقع من جهتها الخطأ في رؤية الأشياء على حقائقها من أعراضها فيرى الصغير كبيرًا ، والكبير صغيرًا ، والرقيق غليظًا ، وربما لا يرى إلَّا من قريب ، أو لا يرى إلَّا من بعيد .

ويدخل ذلك كله باب الانتباه والإدراك Attention & Perception وهي من حقائق علم النفس .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس العام .

* * *

الأقوال الذهبية [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

عرض الكتاب :

يشتمل الكتاب على بابين ، نعرض لهما على النحو الآتي :

الباب الأول : ويتضمن ستة أقوال :

القول الأول : فيما جرى بين الشيخ أبي حاتم الرازي وابن زكريا المتطيب من الكلام على النبوة والإمامة ، والجواب عما أهمل أبو حاتم عنه الجواب من سؤال ابن زكريا الرازي ؛ حيث سأل محمد بن زكريا الرازي الشيخ أبا حاتم الرازي سؤالًا مؤداه : من أين أوجبتم أن اللّه اختص قومًا بالنبوة دون قوم ، وفضلهم على الناس وجعلهم أئمة لهم ، وأحوج الناس إليه ؟ ومن أين أجزتم في حكمته أن يختار لهم ذلك ، ويؤكد بينهم العداوة ويكثر المحاربات ، ويهلك بذلك الناس ؟ وأنه أجاب فقال له : فكيف يجوز عندك في حكمته أن يفعل ؟ فقال : الأولى بحكمة الحكيم ، ورحمة الرحيم ، أن يُلهم عباده أجمعين معرفة منافعهم ومضارهم في عاجلهم وآجلهم ، ولا يفضل بعضهم على البعض ؛ فلا يكون بينهم تنازع واختلاف فيهلكوا ، وذلك أحوط من أن يجعل بعضهم أئمة بعض ، فرد عليه قائلًا : لو اجتهدوا واشتغلوا بما يعنيهم لاستووا في الهمم والعقول ، وتستمر المحاورة بينهم في هذا الإطار .

---

(١) تقديم وتحقيق مصطفى غالب - (ط ١) . بيروت : دار محيسو للنشر والطباعة (١٩٧٧م) . (٢٠٠ ص) .

● ويرتبط هذا الجزء بمفهوم الفروق الفردية Individual Differences في الخصال أو خصائص الشخصية والقدرات العقلية (ص ٣٧ - ٣٩) .

القول الثاني : في ذكر هذا الخطأ المستمر على محمد بن زكريا الرازي فيما وسم كتابه المنسوب إليه بالطب الروحاني ، فقد أطلق عليه الرازي هذا الاسم ليكون قرينًا للكتاب المنصوري في الطب الجسماني - إلَّا أنه غير مشابه له لا في التأليف ولا في الترتيب ؛ ولذا فالمقارنة بينهما غير جائزة ، فالتسمية بالطب الروحاني خطأ كبير ، ثم إن المعلوم من صناعة الطب أنها تنقسم إلى العلم معرفة بالأعلال على أنواعها ، وبالأدوية على ترتيبها في حرارتها وبرودتها وإلى العمل استعمالًا للأدوية في دفع أعلال باطن الأجسام وظاهرها والدلالات المعينة على ذلك ، فكتاب الطب الروحاني يخلو من ذكر الأمراض النفسية وأنواع الأدوية المستخدمة في علاجها ، وهذا ما نجده في كتاب الطب الجسماني .

● ويرتبط هذا الجزء بمفهوم المرض النفسي Mental Illness والفرق بينه وبين المرض الجسمي أو العضوي ، (ص ٣٩ - ٤١) .

القول الثالث : فيما ذكره الرازي في الفصل الأول من كتاب الطب الروحاني من فضل العقل ومدحه وبيان ما استمر عليه من الخطأ فيه وإصلاحه ، وبيان ما ينطوي فيه من إثبات النبوة ، وفيه يقول : إن اللَّه ﷻ إنما أعطانا العقل وحبَانا لننال ونبلغ به المنافع العاجلة والآجلة غاية ما في جوهر مثلنا نيله وبلوغه ، وأنه أعظم نعم اللَّه عندنا ، وأنفع الأشياء لنا ، فالعقل فضَّلنا على الحيوان ، وبالعقل أدركنا جميع ما يرفعنا ويحسن ويطيب به عيشنا .

إلَّا أن المؤلف يرد على ذلك بقوله : وإذا صح وثبت أن المَحْبُو من العقل الذي هو أعظم نعم اللَّه عندنا وبه ننال خيرات الدنيا والآخرة ، لا عقولنا بل عقول الأنبياء صلوات اللَّه عليهم أجمعين ، كان القول على عقولنا القائمة بالقوة بما هو صفة للعقول الكاملة المعلمة بالوحي والتأييد والاعتماد بأنها حق ، ضلالًا عن الحق في بحره غرق من غرق من القائلين بالاستدلال والمكتفين بذوات عقولهم في الاستكمال لعدولهم في الاستفادة عن الفاضل الكامل نبيًا وجيهًا ، وإذا كان القول على عقولنا بما هو صفة لعقول الأنبياء صلوات اللَّه عليهم ضلالًا عن الحق ، فقد ظهر الخطأ في قول من يرى ويعتقد إن العقل المحبو لنا الذي هو أعظم نعم اللَّه عندنا هو عقولنا .

• وورد في هذا الجزء إشارة لمفهوم التنشئة الاجتماعية Socialization وأساليب العقاب والتربية (ص ٥٤) ، وفيه إشارة إلى فضل العقل والتفكير اللذين تميز بهما الإنسان عن سائر الحيوان .

القول الرابع : فيما ذكره محمد بن زكريا الرازي في كتابه الطب الروحاني عن ذم الهوى وقمعه (١) فجعله طِبًّا روحانيًا ، وبيان بطلان كونه كذلك .

• ويرتبط هذا الجزء بموضوع الدوافع Motives (خاصة الدوافع الفطرية الأولية كالدافع الجنسي) وكذلك بموضوع الانفعالات Emotions كالشعور باللذة ، والسعادة .

القول الخامس : في بيان ذكر ما أورده الرازي في الفصل الثاني من كتابه الطب الروحاني ، وبيان فساد قول أفلاطون في تقسيمه للإنسان إلى ثلاث أنفس هي : النفس النامية ، والنفس الحسية ، والنفس الناطقة ، ويعترض المؤلف على هذا التقسيم وأن هناك خلافًا على ذلك ؛ ويذكر مثلًا أن هناك من الفلاسفة من يرى أن النفس بعد مفارقتها شخصها فانية ، وأن منهم من يرى أنها باقية ، وغير ذلك من الآراء ، ويستطرد المؤلف قائلًا : إن ما قدمه الرازي في كتابه يدل على قلة المعرفة بما تصدى له (٢) .

القول السادس : فيما تضمنه فصول كتاب الرازي مما جعله طِبًّا ، والكلام عليه بما يبينّ كونه غير طب .

فالفصل الثالث : عن ذكر عوارض النفس الردية والتلطف لإصلاحها ؛ وفيه قصور في تناول الموضوع .

والفصل الرابع : عن معرفة المرء عيوب نفسه ، ويرى المؤلف أن جالينوس تكلم عن ذلك في كتابين وأن هذا الموضوع ليس بجديد .

والفصل الخامس : في العشق والألف واللذة ، ويرى المؤلف أن اللذة ليست شيئًا سوى إعادة ما أخرجه المؤذي عن حالته تلك التي كان عليها ؛ وأما قولهم : إن العشق يدعو إلى النظافة واللباقة والزينة فما يصنع بجمال الجسد مع قبح النفس ، وهل يحتاج إلى الجمال الجسدي إلَّا النساء والخنث من الرجال .

والفصل السابع : تحدث عن الحسد ، وأنه يتركب من البخل والشره ؛ وأن الحاسد المطلق هو من اغتم من خير يناله غيره من حيث لا مضرة عليه ، ويسمى بليغ الحسد من

---

(١) ثم يشرح مضمون هذا الفصل ضمن كتاب الطب الروحاني « للرازي » .

(٢) ورد ذكر علاقة هذه الفصول بعلم النفس أثناء عرضنا لكتاب الطب الروحاني .

اغتم من خير يناله غيره ، وإن كان له في ذلك نفع ما ، ويرتبط ببعض المفاهيم النفسية (كالعجب والحسد والغضب) كما يشير إلى بعض أساليب العلاج النفسي ، وبخاصة عندما يتعرض لمحاولة التحكم في الغضب (ص ١١٢ - ١١٤) .

وفي الفصل الثامن : يتناول الحديث عن الغضب ، وما يترتب عليه من آثار صحية خطيرة على المرء ، وكيفية التحكم في ذلك من خلال تذكر ومعرفة الفرد للأحوال والظروف المؤدية إلى حالات الغضب .

أما الفصل التاسع : فيتناول الكذب ، **والفصل العاشر** : عن البخل ، **والفصل الحادي عشر** : عن دفع الفضل الضار من الفكر والهم ، **والثاني عشر** : عن الهم ، **والفصل الثالث عشر** : في الشره ، **والرابع عشر** : في السُّكر ، **والخامس عشر** : في الجماع ، **والسادس عشر** : في الولع والعبث ، **والسابع عشر** : في الاكتساب والاقتناء ، **والثامن عشر** : في طلب الرتب والمنازل الدنياوية ، **والتاسع عشر** : في السيرة الفاضلة ، **والعشرون** : في الخوف من الموت .

ويذكر المؤلف عددًا من الملاحظات على هذه الفصول منها ما يأتي :

أ - هناك خطأ في تسمية الرازي للنفس بأنها عقل ؛ حيث يقال على النفس عقل لا لأنها عاقلة لذاتها بل لكونها بالقوة عقلًا .

ب - أن حديثه في الكذب والغضب لا فائدة من تكراره .

ج - أما حديثه عن الفكر والهم ، فيذكر المؤلف أن ذلك حث على عمارة الجسد وهو معلق بالطب الجسماني وليس بالطب الروحاني .

أما قوله في الفصل الرابع عشر في السُّكر فهو خارج عما يكون طِبًّا روحانيًّا ؛ وكذلك الحال بالنسبة لحديثه عن الجماع ، أو الاكتساب والاقتناء والإنفاق .

الباب الثاني : في إنارة الحق المستمر فيما هو حق الطب النفساني .

ويجمع ستة أقوال ، نعرض لها على النحو الآتي :

القول الأول : في شرف صناعة الطب النفساني ؛ فالطب الروحاني مناسب في مبانيه لأمر الطب الجسماني ، فالقطبان اللذان عليهما يدوران نفس البشر وجسمه . وقد نبه اللَّه ﷻ عباده على الأخذ في معرفة أحوال النفس بالموجود عليه حال جسمها ، بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الواقعة : ٦٢] ، ثم ذكر أن صناعة الطب النفساني من أشرف الصناعات وأعلاها درجة وأسماها قدرًا .

• ويرتبط هذا العلاج بالعلاج النفسي Psychotherapy وخاصة ما يسمى بالاضطرابات النفسية – الجسمية Psychosomatic disorders (ص١٢٩ – ١٣٥) .

القول الثاني : في وجود النفس التي هي العليلة والمحتاجة إلى الطبيب ، والأدوية وأحوالها في ذاتها ، وماهيتها ، وأنها حياة وحي ، وأنها ناقصة في ذاتها ، وأنها ليست بجسم ولا عرض ، وأنها قائمة بالقوة ، وأنها واحدة في ذاتها لا ثلاث كما يرى البعض .

القول الثالث : في منافسة النفس جسمها في أحوالها وما تلك المناسبة ، وأنها في وجودها من جسمها كالولد من والده ، وأنها المعلول الأخير من الموجودات الواقعة تحت الاختراع ؛ لكون جسمها معلولًا أخيرًا في الجسمانيات ، وأن وجودها عن أمور أربعة كوجود جسمها كذلك ، وأن ما لجسمها من الأمور فلها مثله على توازن لا يغادر منه شيئًا ، لا في الذات ولا في الأحوال ؛ فالتوازن والتعادل بين النفس والجسم ثابت مِصداقًا لقول اللّه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الواقعة : ٦٢] .

• ويرتبط هذا الجزء بموضوع العلاقة بين النفس والجسم ، كما يرتبط هذا الجزء بموضوع اكتساب العادات Habits (ص ١٥١) ، واعتدال الصحة الجسمية والنفسية (ص ١٥٤) .

القول الرابع : فيما يحدث فيها من الأمور التي تجري منها مجرى الأعلال من جسمها ؛ فإذا كانت الأفعال والتصرفات في غاية الاعتدال كان الحادث فيها فضائل ، وإن كانت (أي النفس) ناقصة عن الاعتدال أو زائدة عليه كان الحادث فيها رذائل ، ككون ما يحدث فيها عن فعلها المسمى الشهوانية باعتدال فضائل ؛ كالقناعة وقوة الرجاء والعفة ، وبالنقصان عن الاعتدال رذائل كسقوط الشهوة والقنوط ، وبالزيادة عن الاعتدال كذلك ؛ كالشره والطمع ، وكون ما يحدث فيها عن فعلها المسمى الغضبية الحسية باعتدالها فضائل ؛ كالشجاعة التي هي بذل الوجد بحسب الإمكان وأمثالها .

• ويرتبط هذا الجزء بشكل واضح بموضوع سيكولوجية الشخصية أو سمات الشخصية Personality Traits وخاصة بعد التطرف – الاعتدال Extremeness Moderation (ص ١٥٩ – ١٦٤) ، وتوافق الشخصية وسوء توافقها .

القول الخامس : فيما يجري من النفس مجرى الأدوية في إزالة عللها ، وذكر المؤلف أن ذلك إنما يعتمد في المقام الأول على الإرشاد والتوجيه ، وذكر اللّه ﷻ واتباع أوامره واجتناب نواهيه ، ويتم توجيه المريض من خلال الترغيب في جنة النعيم ، والترهيب

بالعذاب ومر الجحيم .

● ويرتبط هذا الجزء بموضوع الإرشاد والتوجيه الديني Religious Counseling وكذلك بموضوع القيم الأخلاقية Moral Values وكيفية تغييرها (ص١٦٧ - ١٨٨) .

القول السادس : فيما يجري للنفس مجرى الصحة من جسمها ؛ ويتمثل ذلك في امتناع النفس عن اتباع هواها ، من خلال تقديم المواعظ والإرشادات ، والوقوف عند الأوامر والنواهي ، بالتالي يختلف ذلك عن قول ابن زكريا الرازي في تفويض الأمر إلى النفس في إصلاح ذاتها بمجردها .

● ويرتبط هذا الجزء أيضًا بموضوع التوجيه والإرشاد Counseling وأثره في تغيير اتجاهات الفرد (ص ١٩١ - ١٩٩) .

* * *

راحة العقل [1]

عرض : د . محمد شلبي

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٥٩١ صفحة من القطع المتوسط ، وقد حققه د . مصطفى غالب وكتب له مقدمة وافية تقع في ٩٦ صفحة .

ترتكز عقيدة الإسماعيلية على ظاهر الدين وباطنه ؛ والظاهر عندهم يتعلق بأداء فروض الدين وهي الصلاة والزكاة والطهارة والصوم والحج والجهاد والولاية .

والولاية بنظرهم أفضل هذه الدعائم ، وعدم الإقرار بها يؤدي للوقوع في المعصية وغير مقبول منه باقي فروض الدين .

وما جاء في آيات القرآن إنما هو ظاهر الدين ، ولكل فريضة من فرائض الدين تأويلًا باطنًا ، يعلمه الأئمة وكبار الدعاة فقط .

وقد نزل القرآن على محمد ﷺ بلفظه ومعناه الظاهر للناس ؛ أما أسراره الباطنية فقد خص اللّه بها الإمام علي رضي الله عنه والأئمة من بعده .

ويتضمن الكتاب سبعة أسوار « أو فصول » ويتضمن كل سور « فصل » على سبعة مشارع « أو أقسام » ، وأكبر فصول الكتاب هو الفصل السابع والأخير .

السور الأول : ويهتم بتهيئة القارئ لما ينبغي عمله قبل قراءة الكتاب ، ولماذا رتب الكتاب على هذا النحو ، وأهمية قراءته .

(١) تحقيق وتقديم مصطفى غالب - (ط ٢) . بيروت : دار الأندلس (١٩٨٣م) . (٥٩١ ص) .

السور الثاني : يهتم بمفاهيم فلسفية بأن اللّه واحد ، وبطلان كونه ليسًا وفي بطلان كونه أيسًا ، وأنه لا يجسم في جسم وأنه لا صورة ولا مادة .

السور الثالث : يهتم بإثبات أن اللّه هو الموجود الأول ، وأن وجوده لا من ذاته ؛ وإنما هو علة تنتهي إليها الموجودات ، وأنه خارج عن عالم الأجسام ، وأنه عين الإبداع ، وأنه الموجود الأول ، الكامل والمحرك الأول لجميع المخلوقات .

السور الرابع : في كيفية الانبعاث ، وأن المنبعث الأول الذي هو العقل الثاني مسمى للقلم ، وأنه في الكمال الأول .

السور الخامس : في ماهية الطبيعة ، وأن جوهرها واحد ، بينما أفعالها كثيرة .

السور السادس : في الموجود عن الأجسام العالية والسفلية وأحوالها .

السور السابع : وهو أكبرها وأهمها وأكثرها اشتمالًا على الجوانب النفسية ، خاصة المشروع التاسع وحتى الرابع عشر .

ويستخدم الكرماني ألفاظًا عربية قديمة ؛ مثل الأيس للدلالة على الوجود والموجود ، والليس للدلالة على العدم والمعدوم .

ويبحث الكرماني في النفس البشرية (انظر بداية من المشروع التاسع : (ص٤٥١) وما بعدها) ويعتقد الكرماني أن النفس الإنسانية خالية - منذ خلقها - من المعلومات ، والصور والمعارف ؛ ككون جسمها دون ملابس ، وتحتاج النفس إلى الاكتساب والمعرفة كحاجة الجسم إلى الملابس ، وتسعد النفس بالقصور والاكتساب بما يتفق معها ، وأن النفس خالية ؛ مثل الورق الأبيض الخالي من الكتابة ، المهيأ لقبول ما يكتب عليه ، وليس لها معرفة إلَّا بما توجبه طبيعتها مما يتعلق بأمر بدنها ، والنفس تشتاق إلى علتها ، تبغي بلوغ الكمال ، والكمال في اكتساب العلوم والمعارف .

ويتساءل الكرماني عن النفس البشرية وهل للإنسان ثلاثة أنفس هي : الناطقة والحسية والنامية ؛ كما يقول الأولون (فلاسفة اليونان) وهل هذه النفوس جوهر أم عرض ؟ .

ويعتقد الكرماني أن نفس البشر نفس واحدة ، وأن تقسيم النفس إلى ماهية وحسية وناطقة إنما يعود إلى ظهور الأفعال ، فلأنه يتغذى قالوا إن له نفسًا نامية ، وبإحساسه الذي يحس به قالوا إن له نفسًا حسية ، ولتعلقه وخياله قالوا إن له نفسًا عاقلة ، ويؤكد على أن النفس واحدة ، ولكن أفعالها كثيرة (انظر : (ص ٤٨٣) ، المشروع العاشر) .

توجد إشارات قليلة في هذا المرجع للجوانب النفسية للإنسان ، ويعتقد المؤلف أن

للإنسان ثلاث أنفس هي :

١ - النفس النامية . ٢ - النفس الحسية . ٣ - النفس الناطقة .

١ - النفس الحسية : (ص ٤٦٨) النفس التي لديها إحساس وطلب للغذاء والحاجات .

٢ - النفس النامية : باستمداد الغذاء الذي هو مصدر النمو ، أوجب أن تكون النفس نامية ومتطورة .

٣ - النفس العاقلة : أي لديها القدرة على التمييز والفطنة .

٤ - النفس الغضبية : (ص ٣٨) وهو قريب من مفهوم « العصابية » أو يتصل بالانفعالات في علم النفس الحديث .

ويبدو أن مفهوم النفس الحسية قريب من مفهوم فرويد عن « الهو » Id وهي كل ما يتعلق بإشباع الحاجات والغرائز .

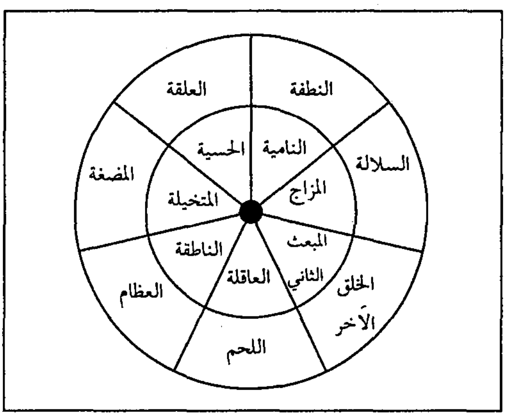
كما أن مفهوم النفس النامية قريب من مفهوم « فرويد » عن « الأنا » Ego الذي يستفيد من الواقع ويتعامل معه .

ومفهوم « الكرماني » الثالث عن النفس العاقلة قريب من مفهوم « فرويد » عن « الأنا الأعلى » Super Ego الذي يستطيع أن يتحكم في الأنا الهو ؛ كما أن لديه القدرة على التمييز والفطنة الاجتماعية للمرغوب وغير المرغوب اجتماعيًا .

كما أن مفهوم النفس الغضبية قريب الشبه لمفهوم العصابية لدى أيزنك وكاتل .

علمًا بأن الكرماني يعتقد أن النفس العاقلة والنامية تنفصل عن الحسية بأنها تسكن القوة الغضبية ؛ وبينما الحسية تدرك الألوان واللمس بأجهزة الحس لا بذاتها .

كما يذكر « الكرماني » أن للشيخ سبع مراتب ، يعرضها في الشكل التالي (ص٤٨٢) .



١ - السلالة ــــــــ المزاج

٢ - النطفة ــــــــ النامية

٣ - العلقة ــــــــ الحسية

٤ - المضغة ــــــــ المتخيلة

٥ - العظام ــــــــ الناطقة

٦ - اللحم ــــــــ العاقلة

٧ - الخلق الآخر ــــــــ المبعث الثاني (أو الكمال)

وهذا التصور هو تصور فريد من نوعه ؛ فإن « الكرماني » يعرض له صورة نمو تراكمي Accumulative فلا يكون إحداها إلَّا بما يسبقها .

ويماثل ذلك « نظرية جان بياجيه المعرفية » في إطارها العام لا في التفاصيل .

والسور السابع والأخير أهم أجزاء الكتاب من الوجهة النفسية ، فهناك إشارات نفسية عن المعارف Cognitions (ص ٤٥١) ، ومكونات الشخصية Personality وتكاملها (ص ٤٨٣) ، وكذلك نمو الشخصية Personality Development (ص ٤٨٢) .

* * *

أبو عبد الرحمن السلمي (ت ٤١٢هـ)
طبقات الصوفية [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف :

هو الزاهد أبو عبد الرحمن محمد الحسين بن محمد بن موسى النيسابوري الصوفي الأزدي السلمي : الأزدي من جهة أبيه ، والسلمي إلى جده لأمه ، وُلد في رمضان سنة (٣٣٠هـ) ، في بيت علم وزهد ، وفي هذا البيت نشأ ، وأخذ عن أهله علوم التصنيف والحديث ، وقد عكف منذ حداثة سنه على القراءة والدرس وجمع الكتب حتى أصبح لديه منها مكتبة عظيمة ، وقد سمع لعدد كبير من شيوخ عصره - وأكثر ما عرف به السلمي مؤلفاته في التصوف - والتأليف في التصوف كان همه الأول - فلم يُعن بالتفسير والحديث إلَّا بمقدار ما يستعين بها على خدمة التصوف ، ومن تلاميذه : القشيري ، والبيهقي ، وأبو صالح المؤذن ، ومحمد بن يحيى المزكي ، وأبو عبد اللَّه الثقفي ، وعلي بن أحمد الأخرم المؤذن ، ومحمد بن إسماعيل التفليسي ، وخلق سواهم، وتوفي السلمي سنة (٤١٢هـ) .

مؤلفاته وتصانيفه : حيث كان السلمي من أوائل مؤرخي التصوف ومصنفي الطبقات - ولكنه لم يكن مؤرخًا للتصوف ورجاله فحسب ، بل كتب أيضًا في مسائل التصوف ذاتها عددًا غير قليل من الكتب ضاع للأسف بعضها - كما أنه انفرد بوضع كتب في بعض فرق الصوفية « كرسالته في الملامتية وأصول تعاليمهم » - ويذكر الحافظ عبد العزيز أنه ألف في

---

(١) يسره ورتبه أحمد الشرباصي . القاهرة : مطابع الشعب (١٩٦٠م) . (١٢٧ ص) - (كتاب الشعب ؛ ٩٢) .

علوم التصوف ما لم يسبق إلى ترتيبه حتى بلغ فهرس تصانيفه المائة وأكثر .

ومن أبرز مؤلفاته : « كتاب طبقات الصوفية » ، « تاريخ الصوفية » ، « تفسير صوفي للقرآن يعرف بتفسير أهل الحق » ، « رسالة الملامتية » ، « رسالة غلطات الصوفية » ، « جوامع الصوفية » ، « جوامع آداب الصوفية » ، « منهج العارفين » ، « كتب السنن » ، « تاريخ أهل الصُّفَّة » ، « كتاب السماع » ، « عيوب النفس ومداولتها » ، « درجات المعاملات » ، « أدب الصحبة وحسن العشرة » ، « سلوك العارفين » .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٢٨ صفحة من القطع الكبير ، ويحتوي على مقدمة المحقق ، ثم ترجمة المؤلف ، ونبذة عن الكتاب ، ومقدمة المؤلف ، ثم بقية موضوعات الكتاب وهي عبارة عن خمس طبقات ، بكل طبقة عدد من الشيوخ ، ثم فهرس الكتاب .

يسير المؤلف في عرضه لطبقات الصوفية على طريقة تكاد تكون ثابتة ، فهو يبدأ بذكر اسم الشيخ ولقبه ، ومحل ميلاده ومعيشته ، وتاريخ وفاته (إن وجد) ، ثم يذكر مقتطفات مختصرة من كلامه في شكل نقاط منفصلة .

الطبقة الأولى : ويتحدث فيها عن عشرين شيخًا هم : الفضيل بن عياض ، وذو النون المصري ، وإبراهيم بن أدهم ، وبشر الحافي ، وسري السقطي ، والحارث المحاسبي ، وشقيق البلخي ، وأبو يزيد البسطامي ، وأبو سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي ، وحاتم الأصم ، وأحمد بن أبي الحواري ، وأحمد بن خضروية ، ويحيى بن معاذ الرازي ، وأبو حفص النيسابوري ، وحمدون القصار ، ومنصور بن عمار ، وأحمد ابن عاصم الأنطاكي ، وعبد الله بن خبيق الأنطاكي ، وأبو تراب النخشبي .

وبتأمل المقتطفات التي ذكرها نجد أن بعض هؤلاء المتصوفين تعرضوا في ثنايا أقوالهم لما يمكن أن نجد له مقابلًا في دراسات علم النفس الحديث ، فإذا بدأنا بالفضيل بن عياض نجد لديه مفاهيم ؛ مثل : الرضا Satisfaction ، والإخاء (ويقابلها الصداقة Friendship) ، والغضب والود (الانفعالات Emotions) ، والعدوانية (من سمات الشخصية) ، (ص ٩) . ونجد لدى ذي النون المصري دعوة لضرورة تدبر النفس ورؤيتها ؛ أي : معرفتها (وأنه يدعو إلى قيام علم النفس) والمحبة (انفعال الحب) وعلاج السكران (علاج الإدمان) والاقتداء Modeling (من أساليب التعلم) وبعض خِصال الشخصية كالتواضع ، والصدق ، والتفكير (أو التفكر) ، (ص ١٠ - ١١) .

كما نجد عند بشر الحافي حديثًا عن الحمق والكياسة (وهي تقابل الجانب العقلي أو الذكاء) والصبر وضبط النفس والتحكم في شهواتها (ص ١٣) وهناك إشارة إلى أهمية علاج النفس من عيوبها (ص ١٤) والرضا (١٣ ، ١٤) . أما سري السقطي فقد تعرض لمفاهيم ؛ مثل : الدوافع الفسيولوجية (ص ١٥) . والنصيحة (الإرشاد) والعقل وماهيته ، وخصال الشخصية وتحمل الشدائد (أو تحمل المشقة Stress ص ١٥) وضبط النفس والسيطرة على شهواتها (ص ١٥) وشروط الصداقة وحسن الخلق وانفعالات الخوف ، والرجاء والحب والسيطرة على الغضب (ص ١٦) .

وقد تحدث المحاسبي عن الشدائد (تحمل المشقة) ، وانفعالات الخوف ، والحزن والغضب ، وكذلك عن حسن التخاطب ، والرضا (ص ١٦ ، ١٧) . ونجد عند شقيق البلخي إشارة إلى مفاهيم الخوف والحب والرضا (ص ١٧ ، ١٨) ونجد لدى أبي يزيد البسطامي كلامًا عن الشهوات (الدوافع الأولية) ، والمحبة (انفعال الحب) ، وشروط الصداقة ، والمعرفة (ص ١٩ ، ٢٠) ونجد كذلك لدى أبي سليمان الدراني مفاهيم ؛ مثل : الخوف (انفعالات) ، والشهوات (دوافع) ، والصدق (من خصال الشخصية) وتربية النفس (التنشئة الاجتماعية Socialization) والرضا (ص ٢٠ ، ٢١) . أما مفاهيم الإيثار (سلوك المساعدة Helping Behavior) والمحبة فنجدها لدى معروف الكرخي (ص ٢٢) . ونستنتج من كلام حاتم الأصم ما يدخل في تربية النفس (التنشئة) والعجلة (الاندفاعية) والتروي Reflectivity والصبر (التحمل) والحب والخوف (انفعالات) ، والكبر ، والحرص والحسد (من أمراض القلوب) والنصيحة (الإرشاد) والشهوات (الدوافع الأولية) ، (ص ٢٢ ، ٢٣) . وقد تعرض أبو حفص النيسابوري للحب (الانفعالات) والإيثار (سلوك المساعدة) والعقل (ص ٣٩) . ويذكر منصور بن عمار كلامًا في أسباب سوء التوافق وكيفية التغلب عليها ، وكذلك الرضا ، وخصال الشخصية (ص ٣٢) .

الطبقة الثانية : ومنها : أبو القاسم الجنيد ، وأبو الحسين النوري ، وأبو عثمان الحيري النيسابوري ، وأبو عبد الله بن الجلاء ، ورويم بن أحمد البغدادي ، ويوسف بن الحسن الرازي ، وشاه الكرماني ، وسمنون بن حمزة الحب ، وعمرو بن عثمان المكي ، وسهل ابن عبد الله التستري ، ومحمد بن الفضل البلخي ، ومحمد بن علي الترمذي ، وأبو بكر الوراق ، وأبو سعيد الخراز ، وعلي بن سهل الأصبهاني ، وأبو العباس بن مسروق الطوسي ، وأبو عبد الله المغري ، وأبو علي الجوزجاني ، ومحمد وأحمد

ابنا أبي الورد ، وأبو عبد اللّه السجزي .

ونجد لدى أبي القاسم الجنيد كلامًا في الصداقة أو الصحبة ، والرضا ، وانفعال الحب ، (ص ٣٧) . كما يتحدث أبو عثمان الحيري النيسابوري عن العداوة (العدوانية) Hostility وخصال الشخصية والعقل ، والصبر - (التحمل) والفراسة (الذكاء) وكلام في السعادة Happiness والتعلم بالاقتداء (ص ٣٩ - ٤١) . ومن مقتطفات رويم بن أحمد البغدادي نجد مفاهيم ؛ مثل : الصبر (التحمل) والرضا ، والحب والشوق .

ويركز يوسف بن الحسين الرازي على العقل ، وصفات العاقل (ص ٤٤) ، ويتكلم عن حب الناس ويشير إلى بعض سمات الشخصية ؛ مثل : الطمع ، والتواضع ، والتكبر ، كما يشير إلى تأثير الأهواء في الإدراك (ص ٤٤) .

ومن مقتطفات كلام عمرو بن عثمان المكي نجد إشارة خفية إلى الوسواس ، والتوهم وأصل المعرفة ، وخصال الشخصية من قبيل الصدق ، والاعتدال ، وكذلك كيفية التغلب على المشقة Stress ، وانفعال الحب والخوف والرضا ، وضبط النفس والسيطرة على الأهواء والشهوات (ص ٤٧ ، ٤٨) . ونجد لدى سهل بن عبد اللّه التستري كلامًا في الرياسة (القيادة Leadership) ، والمشقة (البلوى) Stress ، والوساوس (ص ٤٩) . وأشار محمد بن الفضل البلخي إلى ضبط النفس والسيطرة على أهوائها ، وذكر بعض سمات الشخصية الإيجابية ؛ مثل : الصدق ، والصبر ، والعلم ، والمعرفة ، وبعض سمات الشخصية السلبية ؛ مثل : الكذب والجهل (ص ٥٠) وتكلم عن مفاهيم الحب للّه والخوف من اللّه . ومن مقتطفات كلام محمد بن علي الترمذي ما يدخل في الانفعالات (الحب) والخوف ، والعقل (ص ٥١) .

ولأبي بكر الوراق كلام في العقل ، والاقتداء ، واختيار الأصدقاء ، والتمركز حول الذات Ego - Centrism (عشق الذات) أو النرجسية (ص ٥٣) . ولدى أبي سعيد الخراز كلام في التعلم Learning ، والحب (ص ٥٤) . ونجد لدى أبي عبيد اللّه السجزي كلام عن بعض خصال الشخصية ، والتعلم بالاقتداء (ص ٦٠) .

الطبقة الثالثة : ومنها أبو محمد الجريري ، وأبو العباس بن عطاء الآدمي ، ومحفوظ بن محمود النيسابوري ، وطاهر المقدسي ، وأبو عمرو الدمشقي ، وأبو بكر بن حامد الترمذي ، وأبو إسحاق إبراهيم الخواص ، وعبد اللّه بن محمد الخراز الرازي ، ونبان بن محمد الحمال ، وأبو حمزة البغدادي البزاز ، وأبو الحسين الوراق النيسابوري ، وأبو بكر

الواسطي ، والحسين بن منصور الحلاج ، وأبو الحسين بن الصائغ الدينوري ، وممشاذ الدينوري ، وإبراهيم القصار خير النساج ، وأبو حمزة الخراساني ، وأبو عبد اللّٰه الصبيحي ، وأبو جعفر بن سنان .

ومن كلام أبي عمرو الدمشقي نجد تعرضًا لخصال الشخصية ، والمحبة (ص٦٦) . ونجد لدى أبي إسحاق إبراهيم الخواص حديثًا عن الصبر (التحمل) ، وطرق التعلم ، والاقتداء وبعض أسس الصحة النفسية (ص ٩٨) والتغلب على المشقة (أو البلوى) (ص ٦٩) . ويذكر أبو حمزة البغدادي البزاز كلامًا في الصبر ، والسخاء (سلوك المساعدة) ، وطرق التعلم (ص ٧٠) . ويتحدث أبو بكر الواسطي عن درجات الحب ، والخوف ، والرضا (ص ٧٣) . ويذكر أبو الحسين بن الصائغ الدينوري في كلامه طرق التغلب على الهموم (التغلب على المشقة) ، وشروط الصداقة والمحبة (ص ٧٥) .

الطبقة الرابعة : ومنها أبو بكر الشبلي ، وأبو محمد المرتعش النيسابوري ، وأبو علي الروذباري ، وأبو علي الثقفي ، وعبد اللّٰه بن محمد بن منازل ، وأبو الخير الأقطع التينافي ، وأبو بكر الكتاني ، وأبو يعقوب النهر جوري ، وأبو الحسن المزين ، وأبو علي ابن الكاتب ، وأبو الحسن بن بنان ، وأبو بكر بن طاهر الأبهري ، ومظفر القرمسيني ، وأبو الحسين بن هند الفارسي ، وإبراهيم بن شيبان القرمسيني ، وأبو بكر بن يزدانيار ، وأبو إسحاق إبراهيم المولد ، وأبو عبد اللّٰه بن سالم البصري ، ومحمد بن عليان النسوي ، وأبو بكر بن أبي سعدان .

ويتحدث أبو بكر الشبلي عن الفرح ، والحزن ، وضبط النفس (ص ٨٣) وذكر أبو محمد المرتعش النيسابوري الوسوسة ، والحب ، وخصال الشخصية (الإخلاص والتواضع) والتحمل (الصبر) وقوة الإدراك (ص ٨٦) . ونجد لدى أبي علي الروذباري حديثًا عن الإشارات Singals (وتستخدم الإشارات في دراسات الانتباه والإدراك ، والإشارات الاجتماعية في علم النفس الاجتماعي) والرضا ، والصبر (ص ٨٧) . ومن المفاهيم التي ذكرت في أقوال أبي علي الثقفي : الصدق ، والصداقة ، والتنشئة الاجتماعية ، والتيقظ (أو الانتباه) Vigilance or Attention وطلب النصح (الإرشاد) والاقتداء (ص ٨٩) .

ومما تعرض له أبو بكر الكتاني : الانتباه ، والدوافع (أو الشهوات) ، والمساعدة والإرشاد (النصيحة) وضبط النفس والسيطرة على أهوائها (ص ٩٢) . ولأبي يعقوب النهرجوري كلام في تعريف الصدق ، والتحكم في الدوافع والسيطرة عليها (ص ٩٢) .

وأشار أبو الحسن المزين إلى الوساوس (ص ٩٣) وأشار إلى بعض الانفعالات المذمومة مثل : العُجب بالنفس ، والغرور (ص ٩٤) . وأشار أبو علي بن الكاتب إلى الصحبة وأثر الصحبة السيئة وانفعال الخوف والحب (ص ٩٤) . وتكلم أبو بكر بن يزدانيار عن انفعال الحب ، وعن الصراع النفسي بين الهوى والعقل (ص ٩٩) .

الطبقة الخامسة : ومنها : أبو سعيد بن الأعرابي ، وأبو عمرو الزجاجي ، وجعفر بن محمد الحذي ، وأبو العباس القاسم السياري ، وأبو بكر محمد بن داود الدقي ، وأبو محمد عبد اللّه بن محمد الشعراني ، وأبو عمرو إسماعيل بن نجيد ، وأبو الحسن علي ابن أحمد البوشنجي ، وأبو عبد اللّه محمد بن خفيف ، وبندار بن الحسين الشيرازي ، وأبو بكر الطمستاني ، وأبو العباس أحمد بن محمد الدنيوري ، وأبو عثمان سعيد بن سلام المغربي ، وأبو القاسم إبراهيم بن محمد النصرابازي ، وأبو عثمان سعيد بن سلام المغربي ، وأبو القاسم إبراهيم بن محمد النصرابازي ، وأبو الحسن علي بن إبراهيم الحصري ، وأبو عبد اللّه التروعبذي ، وأبو عبد اللّه الروذباري ، وأبو الحسن علي بن بندار الصيرفي ، وأبو بكر محمد بن أحمد الشبهي ، وأبو بكر محمد بن أحمد الفراء ، وأبو عبد اللّه بن أحمد المقرئ ، وأبو القاسم صفر بن أحمد المقرئ ، وأبو محمد بن عبد اللّه ابن محمد الراسبي ، وأبو عبد اللّه محمد بن عبد الخالق الدينوري .

ونجد لدى هؤلاء المتصوفين ما سبق أن ردده من قبلهم في الطبقات السابقة ؛ فها هو ذا جعفر بن محمد الخلدي يتحدث عن العقل ، والمحبة (ص ١٠٦) . ويذكر أبو العباس القاسم السياري طريق ترويض النفس أو تربية النفس ؛ ومنها الصبر على الأوامر (المثابرة) واجتناب النواهي ، وصحبة الصالحين (الاقتداء) وكذلك الوسوسة (ص ١٠٨ ، ١٠٩) . وقد ذكر بندار بن الحسين الشيرازي بعض الانفعالات كالفرح والخوف ، والمحبة (ص ١١٤) . ونجد لدى أبي محمد عبد اللّه بن محمد الراسبي كلامًا في المحبة ودرجاتها ، والبلاء (أو المشقة) ، (ص ١٢٦ ، ١٢٧) .

* * *

ابن مسكويه (ت ٤٢١هـ)
الفوز الأصغر [1]

عرض : د . معتز سيد عبد الله

التعريف بالمؤلف :

أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه ؛ أبو علي : مؤرخ بحاث ، أصله من الري وسكن أصفهان وتوفي بها ، اشتغل بالفلسفة والكيمياء والمنطق مدة ، ثم أولع بالتاريخ والأدب والإنشاء ، وكان قيمًا على خزانة كتب ابن العمير ، ثم كتب لعضد الدولة ابن بويه فلقب بالخازن ، ثم اختص ببهاء الدولة البويهي وعظم شأنه عنده ، قال أبو حيان في جملة وصفه : « لطف الألفاظ ، سهل المأخذ ، مشهور المعاني ، شديد التوقي ، ضعيف الترقي ، يتطاول بهذه ، ثم يقصر ، وله مآخذ وغرائب عن الكذب - كذا - وهو حائل العقل لشغفه بالكيمياء » .

ألف كتبًا نافعة ؛ منها : « تجارب الأمم وتعاقب الهمم » ، « وتهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » ، و (طهارة النفس) ، « وآداب العرب والفرس » ، و « الفوز الأصغر (في علم النفس) » ، « وترتيب السعادات » ، « ورسالة في ماهية العدل » ، « ونديم الأحباب وجليس الأصحاب » ، « والحكمة الخالدة » .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١١٣ صفحة من القطع المتوسط ، ويتكون من ثلاث مسائل أساسية ، يتكون كل منها من مجموعة من الفصول النوعية ، يدور مضمونها حول الطريق إلى

---

(١) تحقيق عبد الفتاح أحمد فؤاد . بنغازي : دار الكتاب الليبي (١٩٧٤م) . (١١٣ ص) .

الإيمان بالله تعالى متمثلًا في إثبات الصانع ، والنفس وأحوالها ، والنبوات ، وأنهى المحقق الكتاب بتقديم فهرس مفصل للموضوعات التي اشتمل عليها ، وتفصيل ذلك على النحو التالي :

المسألة الأولى : في إثبات الصانع : وفيها يحاول المؤلف تقديم العديد من الدلائل لإثبات وجود اللَّه تعالى ، وذلك من خلال عشرة فصول ؛ الفصل الأول : وفيه يوضح أن المطلوب في هذا الصدد سهل جدًّا من وجه وصعب جدًّا من وجه آخر ، ويتناول في الفصل الثاني مدى اتفاق الأوائل على إثبات الصانع جل ذكره ، وأنه لم يمتنع أحد منهم من ذلك ، ويعرض في الفصل الرابع أن كل متحرك إنما يتحرك من محرك غيره ، وأن الأشياء غير متحركة ، ويبين في الفصل الخامس أنه واحد ، فلو كان الفاعلون أكثر من واحد ، لزم أن يكونوا مركبين وذلك أنهم اشتركوا في أنهم فاعلون ، واختلفوا في الذوات ، ولابد من أن يكون الشيء الذي به خالف أحدهم الآخر غير ما وافقه به ، فيجب أن يكون كل واحد منهم مركبًا من جوهر وفصل ، والتركيب حركة ؛ لأنه أثر ، ولابد له من مؤثر على ما بين من قبل فيجب على ذلك أن يكون للفاعل فاعل ، وهذا يمر بلا نهاية ، فبالضرورة يرتقي إلى فاعل واحد ، ويبين في الفصل السادس أنه ليس بجسم ، فقد تبيَّن أن الجسم يلزمه الكثرة والتركيب والحركة ، وكل واحد من هذه يستحيل أن يطلق على الواحد الأول ، ويبيِّن في الفصل السابع أنه تعالى وتقدس أزلي ؛ فالوجود ذاتي للمبدع الأول ، وأنه واجب الوجود ، وهذا حال الأزلي . وبمعنى آخر : أن المحرك الأول ليس بمتحرك ، وكل متحرك متكون محدث ، فما ليس بمحدث فهو غير متكون ؛ لأن التكون لا يكون إلَّا بحركة ، وما لم يكن متكونًا فليس بمحدث ، فلا أول له ، فهو أزلي ، ويبين في الفصل الثامن أنه يعرف بطريق السلب دون الإيجاب ، فالبراهين المستقيمة الموجبة يحتاج فيها إلى إثبات مقدمات موجبة للمبرهن عليه ، ذاتيه له أولية ، وهي التي يوجد الشيء بوجودها ويرتفع بارتفاعها ؛ أما برهان الخلف على طريق السلف ، فإنه إنما يحتاج فيه إلى إزالة الأسباب والمعاني ، ويبيِّن في الفصل التاسع أن وجود الأشياء كلها إنما هي بالله ﷻ ، وينهي الحديث عن هذه المسألة في الفصل العاشر بتوضيح أن اللَّه تعالى أبدع الأشياء كلها لا من شيء ، فقد ظن قوم لا دربة لهم بالنظر ، أنه لا يكون شيء من الأشياء إلَّا من شيء وذلك لما رأوه أن الإنسان لا يكون إلَّا من إنسان والفرس لا يكون إلَّا من فرس حكموا أنه لا يكون شيء إلَّا من شيء ، ولجالينوس الطبيب فيه كلام ، وللإسكندر في نقضه كتاب مفرد ،

بيِّن فيه أن المتكون إنما يكون لا من شيء .

• وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذه المسألة هي : القيم الدينية (ص ١٥ - ٣٦) ، والإيمان Faith (ص ١٥ - ٣٦) ، والاعتقاد Belief (ص ١٥ - ٣٦) ، والإدراك Perception (ص ٢٤ - ٢٧) ، والاستدلال Reasoning (ص ٢٢- ٢٤) .

المسألة الثانية : في النفس وأحوالها : وفيها يعرض المؤلف لبعض الأمور الخاصة بطبيعة النفس وأحوالها ، وذلك من خلال عشرة فصول ؛ الفصل الأول : ويبين فيه كيفية إثبات النفس ، وأنها ليست بجسم ولا عرض ؛ ويبين في الفصل الثاني : أن النفس تدرك الموجودات كلها : غائبها وحاضرها ، معقولها ومحسوسها ؛ فالنفس تدرك الأمور البسائط من المركبات ، وتدرك من المركبات أنواعها وأشخاصها ، والموجودات منقسمة إلى هذه الأشياء ، وليس يفوت النفس منها شيء ؛ ويبين في الفصل الثالث : كيفية إدراك النفس للمدركات المختلفة ، وهل ذلك منها بأجزاء كثيرة أم بأنحاء مختلفة ، أم هناك مدركات بعدد المركبات ؟ أما أنه ليس للنفس أجزاء كأجزاء الجسم ، فهو بين ما قدمناه ، وذلك أن التجزؤ والانقسام إنما يكون للجسم ؛ ويبين في الفصل الرابع الفرق بين الجهة التي تعقل بها النفس ، والجهة التي تحس بها ، والأشياء التي تشترك فيها والأشياء التي تتباين فيها ، وأن هاتين الجهتين يعمهما الانفعال ، وذلك أنهما جميعًا ينفعلان من مدركهما ؛ إذ كانا يستحيلان إلى ما أدركاه ويستكملان به ، ويخرجان إلى الفعل بعد أن كانا بالقوة ؛ لأن كل واحد منهما ، قبل أن يدرك ما يختص به ، لم يكن عقلًا ولا حسًا إلَّا بالقوة ، فإذا أدركاه صار هذا عقلًا بالفعل ، وذلك حسًا بالفعل ، ولذلك قلنا إن انفعالهما كمال لهما ، ويبين في الفصل الخامس أن النفس جوهر حي باق لا يقبل الموت ولا الفناء وأنها ليست الحياة بعينها ، بل تعطي الحياة كل ما توجد فيه ، ويبين في الفصل السادس اقتصاص مذاهب الحكماء والوجوه التي أثبتوها في أن النفس لا تقبل الموت ، وبوجه خاص الحجج التي ساقها أفلاطون في هذا الخصوص ، وعرض في الفصل السابع لماهية النفس والحياة التي لها ، وما تلك الحياة التي تحفظها عليها حتى تكون دائمة البقاء سرمدية ، وأوضح في الفصل الثامن أن للنفس حـالًا من الكمال يسمى سعادة ، وآخر من النقصان يسمى شقاوة ، وبين في الفصل التاسع كيفية تحصيل السعادة والسبيل التي تؤدي إليها ، وأوضح في الفصل العاشر كيفية حال النفس بعد مفارقتها البدن ، وما الذي يحصل لها بعد موت الإنسان .

• وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذه المسألة هي مفهوم النفس Psychic (ص ٣٩ - ٧٩) ، والإدراك الحسي Perception (ص ٤١ - ٤٦) ، والانفعال (ص ٤٧ - ٥٢) ، والعقل Mind (ص ٤٧ - ٥٢) ، والسعادة (ص ٦١ - ٧٩) ، والعلاقة بين النفس والجسم (ص ٧٠ - ٧٩) .

المسألة الثالثة : في النبوات : وفيها يعرض المؤلف لطبيعة النبوات من خلال عشرة فصول ؛ يتناول في الفصل الأول مراتب موجودات العالم ، واتصال بعضها من بعض وببعض ، ويوضح في الفصل الثاني أن الإنسان عالم صغير ، وقواه متصلة ذلك الاتصال ، ويبين في الفصل الثالث كيفية ارتفاع الحواس الخمس إلى القوة المشتركة ، ومنها إلى ما فوقها بمنة اللّه تعالى ، وبين في الفصل الرابع كيفية الوحي ، وأوضح في الفصل الخامس أن العقل ملك مطاع بالطبع ، وأوضح في الفصل السادس طبيعة المنام الصادق وأنه جزء من النبوة ، وبين في الفصل السابع الفرق بين النبوة والكهانة ، وميز في الفصل الثامن بين النبي المرسل وغير المرسل ، فالنبي المرسل ؛ يتميز عن الناس بخصال كثيرة أحدها أن للمرسل من الفضائل ما لا يحتاج إلَّا فيه ، ويتميز بها عن غيره ، ولا تكون مجتمعة في سواه ، فأما النبي غير المرسل ، فإنه يلوح له من حقائق الأمور ، ويتجلى له في الأفق الذي ينتهي إليه ، ما يكون فيضًا عليه من فوق ، ولا يكون مرتقيًا إليه من أسفل بالتعليم والتدريج ، ولا يكون مأمورًا بأمر يتحمله ، ولا يبلغ من قوته ، فيما يلوح له من الأمور ، أن يتجاوز القوة الفكرية ، ويتأدى إلى الخيالية ، وما يليها . ويعرض في الفصل التاسع لأصناف الوحي ، ويوضح أن أصناف الوحي يجب أن تكون بعدد أصناف قوى النفس ، وذلك أن الفيض الذي يأتي النفس إما أن تقبله بجميع قواها أو ببعضها ، ويبين في الفصل العاشر الفرق بين النبي والمتنبي ؛ موضحًا أن هذا الفرق ، وإن كان بينًا جدًّا عند أهل الحكمة والنظر الصحيح ، فإنه خفي عند العوام من الناس ، ومن أشبه العوام ، ممن يدعي الخصوص .

• وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذه المسألة هي : النفس Psychie (ص ٨٣ - ١١٠) ، والعقل Mind (ص ٩٩ ، ١٠٠) ، وأحلام النوم والرؤيا الصادقة (ص ١٠١ - ١٠٣) ، والإحساس Sensation (ص ٩٣ - ٩٥) ، والإدراك الحسي Perception . (وهو ما يعبر عنه ابن مسكويه بالقوة المشتركة) ، والإلهام الإلهي والوحي ؛ وهما مصدر المعرفة التي تفيض على الإنسان من اللّه تعالى ، ولا يكتسبها الإنسان عن طريق الحواس أو التعلم (ص ٨٣ - ١٠٨) .

السعادة في فلسفة الأخلاق [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد

عرض الكتاب :

المقدمة :

تحتوي مقدمة الكتاب على بيان أهمية السعادة للفرد ، فهي مطلوبة بالنسبة له حتى لا تكون حياته ضائعة بين همٍّ وغم وخيالات وأمراض وأوجاع وبسط وقبض وعسر ويسر وفقر وغنى ، وقد وفاها حقها في الشرح (أي السعادة) الكتاب الذي نعرض له الآن - كما يقول كاتب هذه المقدمة الشيخ سيد علي الطوبجي السيوطي .

ويشير إلى أن السعادة ليست كما يتصور البعض في كنز الأموال وحشدها ، والقصور الشامخة ، والخدم والحشم ، وإنما أحسن الطرق الموصلة إلى السعادة التحلي بصفات الربوبية والتخلي عن الصفات الشيطانية والبُعد عن الهوى ، ثم أوضح كاتب المقدمة ضرورة الاهتمام بالنظافة والحفاظ على المظهر الخارجي ؛ وإن كان ذلك ليس غاية في ذاته وإنما هو من السبل التي تؤدي إلى سعادة ورفاهية الفرد ، كما أشار إلى أهمية الاقتداء برسول الله ﷺ .

ثم عرض بعد ذلك لأنواع الذات ويقول إنه : « إذا اتفق الإنسان كريم النفس التعارض بين اللذة الحسية مع الذلة والدناءة ، والألم الحسي مع العزلة فإنه يرجح الألم على اللذة

---

(١) تقديم سيد علي الطوبجي . القاهرة : سيد علي الطوبجي (١٩١٧م) . (٧٣ ص) . مع : كشف الغمة عن الصورة الإنسانية .

فإن كبير النفس يستصغر الجوع والعطش عند المحافظة على ماء الوجه ... » فظهر أن اللذات الباطنة متغلبة على اللذات الحسية ، وليس ذلك في العاقل فقط بل وفي العجم من الحيوانات ، ثم تحدث كاتب المقدمة بعد ذلك عن الروح والنفس وهل هما شيء أم شيئان ، حيث يرى البعض أنهما شيء واحد ، حيث يطلق كل منهما على الآخر . أخرج البزار بسند صحيح عن أبي هريرة أن المؤمن ينزل به الموت ويعاين ما يعاين يود لو خرجت نفسه ، والله تعالى يحب لقاءه وأن المؤمن لتصعد روحه إلى السماء فتأتيه أرواح المؤمنين فيستخبرونه عن معارفه من أهل الدنيا الحديث ظاهر في ذلك ، وقال ابن حبيب هما شيئان فالروح هي النفس المتردد في الإنسان والنفس أمر غير ذلك بها يدان ورجلان ورأس وعينان وهي التي تتلذذ وتتألم وتحزن وتخرج وتسرح وترى الرؤيا ويبقى الجسد دونها بالروح فقط لا يتلذذ ولا يفرح حتى تعود واحتج بقوله : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر : ٤٢] . وذكر البعض الآخر في التفرقة بينهما أن النفس ناسوتية والروح لاهوتية ؛ فالنفس هي الأصل في الإنسان فإذا صقلت بالرياضة وأنواع الذكر والفكر صارت روحًا تترقى إلى أن تصير سرًّا من أسرار الله ﷻ .

ثم عرض بعد ذلك لاختلاف الناس في الروح هل هي مخلوقة قبل البدن أو بعده أو معه ؟ فيرى ابن القيم مثلًا أن القول الصحيح الذي عليه الشرع والعقل إنها مخلوقة مع الأجساد وإن الملك ينفخ الروح أي يحدثه بالنفخ في الجسد إذا مضى على النطفة أربعة أشهر ودخلت في الخامس (ص ٢٥) .

ثم تحدث بعد ذلك عن النفس الأمارة والنفس اللوامة ؛ فالنفس الأمارة هي التي تميل إلى الطبيعة البدنية ، وتأمر باللذات والشهوات الحسية ، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية فهي مأوى الشر ومنبع الأخلاق الذميمة والأفعال السيئة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف : ٥٣] . أما النفس اللوامة فهي التي تنورت بقدر ما تنبهت من سِنَة الغفلة وتيقظت وبدأت بإصلاح مترددة بين جهتي الربوبية والخلقية ، وكلما صدرت منها سيئة بحكم جبلتها الأصلية الظلمانية تداركها النور التنبيهي الإلهي فأخذت تلوم نفسها وتتوب مستغفرة راجعة إلى باب الغفور الرحيم ، ولهذا نوه الله بذكرها بالإقسام في قوله : ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة : ٢] . والنفس المطمئنة هي التي تنورها بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة ، وتخلقت بالأخلاق الحميدة وتوجهت إلى جهة القلب بالكلية مسابقة في الترقي إلى جانب عالم القدس متنزهة عن جانب الرجس مواظبة على الطاعات ساكنة إلى حضرة رفيع الدرجات ، وهي المشار إليها بقوله ﷻ :

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر : ٢٧ - ٣٠] .

• أما عن علاقة هذه المقدمة بعلم النفس فتتمثل في ارتباط ما جاء بها بموضوع سيكولوجية الانفعالات Emotions خاصة الشعور بالسعادة Happiness ، واللذة أو المتعة (ص ٤ - ١٠) .

وكذلك بموضوع الاقتداء برسول الله ﷺ Modeling (ص ١٢) وارتقاء الدوافع والحاجات Needs or Motives (ص ١٤) ، ومفهوم النفس Psyche والروح (ص ٢٢- ٢٥) . وبداية ظهور الروح في الجنين (ص ٢٥) .

وكذلك بتقسيم حالات النفس إلى النفس الأمارة ، والنفس اللوامة ، والنفس المطمئنة (ص ٣٠) .

كتاب السعادة :

يوضح فيه المؤلف السعادة الموضوعة للإنسان ما هي وكيف وما السعادة التي يشترك فيها الناس من جنسهم ؟ وما الذي يصل إليه منها المجتهدون منهم بضروب الاجتهادات ؟ وهل هي مختلفة أو متفقة ؟ وهل بعضها تحت بعض حتى نرتقي إلى واحد هو أسماها مرتبة ؟ وإن كانت مرتقية إلى واحد فما هو ؟ وهل وراءها سعادة أخرى غير منتظرة للإنسان أم تتناهى السعادة كلها إليه حتى نقف عنده وقوف المتناهي الذي لا غاية بعده ؟

وتحدث بعد ذلك عن أفعال الإنسان وتصرفاته ؛ بأن لها غاية معينة تختلف من فرد لآخر ، وهذه الغاية يسميها الفرد سعادة كمن يسعى للذة أو للثروة أو للصحة أو للغلبة أو للعلم ، وهذه هي السعادة على المستوى القريب ، أم السعادة القصوى أو البعيدة ففيها الكمال والرقي إلى المستوى الرفيع .

ويرتبط ذلك بموضوع الانفعالات وارتقاء مدرج الحاجات والدوافع مع نمو الفرد وتزايد عمره وخبراته ومعارفه (ص ٤٠ ، ٤١) .

وهناك من الأشياء ما يمكن أن نسميه سعادة على المجاز ؛ ومنها ما هو سعادة على الحقيقة ، ومنها ما هو مظنون سعادة وليس بسعادة ألبتة ، ومن هذه السعادات ما هو عام لجميع الناس ومنها ما هو خاص ، وهو الذي إليه ترتقي السعادات وهو الغرض الأخير والكمال الأقصى .

فعلى سبيل المثال بعد المأكل والمشرب وضروب الراحات من اللذات بالنسبة لكثيرين

إلَّا أن هذا ليس سعادة ولا هو كمال الإنسان وغايته الذي خلق له ولأجله ، فهي أشياء أو حاجات يشترك فيها الإنسان والحيوان .

ثم عرض المؤلف بعد ذلك لاختلاف السعادة حسب حالة الفرد ، فسعادة الفقير تظهر في الصبر والتحمل على ما ينبغي ؛ كما أن سعادة الطبيب تختلف عن سعادة الكاتب ، أو سعادة العالم ... إلخ .

وتختلف السعادة حسب حالة الفرد ؛ فالمريض يرى أن السعادة تتمثل في الصحة ، وصاحب الصحة إذا أصابه ذلك رأى أن السعادة هي الكرامة ، وقد رتب أرسطو أجناس السعادات .

ويرتبط ذلك بنسق القيم Value System الخاص بالفرد وعلاقته بالحالة النفسية والاجتماعية للفرد (ص ٤٧) فالمريض يعطي لقيمة الصحة أو الشفاء أهمية كبيرة في أعلى مدرج القيم Hierarchy of Values .

ويرتب أرسطو أجناس السعادات ؛ فسعادة في النفس ، وسعادة في البدن ، وسعادة في خارج البدن ؛ أما التي في النفس فهي العلوم والمعارف والحكمة وهي أفضلها ؛ لأنها تراد لذاتها لا لشيء آخر ، وأما التي في البدن فمثل الجمال واعتدال الصحة وصحة المزاج وهذه تراد لنفسها وقد تراد لغيرها ، وأما التي من خارج البدن ؛ فمثل الأولاد والأصدقاء وشرف النفس والكرمات .

والحكيم السعيد الكامل السعادة هو من قوي ذهنه وصح تمييزه ؛ فحصلت له حقائق الأمور في الموجودات كلها وقويت عزيمته في إنقاذ ما عَلِمه عملًا ، ثم دامت طريقته في هذين أعني العلم والعمل ، وقد تبين أن جزء النظر مقدم على جزء العمل إذا كان بجودة التمييز وقوة التمييز يدرك الصواب في كل ما يقصد معرفته ، ولما كانت المعارف صنفين أحدهما يعلم ولا يعمل ، والآخر يعلم ثم يعمل صارت الصنائع أيضًا صنفين بحسبهما وأعني بما يعلم ولا يعمل ؛ مثل : العلم بأن اللَّه ﷻ واحد وأنه أزلي مبدع للعالم . وأما ما يعلم ويعمل ؛ فمثل السيرة الجميلة في المعاملات والبراعة في الصناعات .

ومن أراد أن تكمل إنسانيته ، ويبلغ إلى الأمر الذي إياه قصد بخلق الإنسان ليتم ذاته ويشارك الحكماء فيما آثروه وقصدوه فليحصل هاتين الصناعتين أي جزئي الحكمة النظري والعملي ليحصل له حقائق الأمور بالجزء النظري ومحاسن الأفعال بالجزء العملي .

* * *

تهذيب الأخلاق المسمى
تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق [1]

عرض : إبراهيم شوقي عبد الحميد

عرض الكتاب :

يقع هذا الكتاب في ٢٣٠ صفحة من القطع الصغير ، وهو مقسم إلى موضوعات ، يضمها فهرس وضع في آخر الكتاب .

يهتم الكتاب بمجالي علم النفس والأخلاق ؛ ففيه نجد الاهتمام بتعريف مفهوم النفس وقواها وفضائلها ، ثم مفهوم الخلق كما يعرض لعدد من الآداب العامة والخاصة والعلاقات الاجتماعية ، ثم ينتهي الكتاب بجزء يختص بعرض بعض الأمراض النفسية وعلاجها ، ولأن الكتاب يألف من عدة مقالات ، فسوف نعرض لها على التوالي :

المقالة الأولى : في النفس : يعرض الكاتب في هذا المقال خصائص النفس - مقارنة بالأجسام - من حيث إنها تقبل صور الأشياء كلها دون أن تفارقها الصورة الأولى ، وإنها تتشوق إلى العلوم ولا تنجرف وراء اللذات البدنية ، وإنها أيضًا تعرف العلوم من خلال الحواس ، وإنها تدرك المحسوسات كما تدرك أسباب الاتفاق والاختلاف فيما بينها (ص ٤ - ١٠) .

- من ذلك نجد أنه يعرف النفس من خلال قدرتها على الإدراك Perception ، والإحساس Sensation ، وكذلك القدرة على التعلم Learning Ability يضاف إلى ذلك أنه يشير إلى الأخطاء البصرية التي تتضح فيما نراه من قُرب أو بُعد ، أو في إدراك

(١) القاهرة : مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح (١٩٥٩م) . (٢٣٠ ص) .

الأشياء الغائصة في الماء ؛ مثل تلك الأخطاء التي تتصل بمفهوم الخداع الإدراكي Illuison (ص ٨ - ٩) كما يحدد دور العقل في تصحيح هذه الإحساسات الخاطئة .

يعرض الكتاب لقوى النفس (ص ١٦) على النحو الآتي :

١ - قوة الفكر والتمييز ، وهي تشير إلى الذكاء والقدرات العقلية Mental Abilities .

٢ - قوة الغضب والنجدة والإقدام على الأهوال ، وتشير إلى الانفعال Emotion والدافعية Motivation .

٣ - قوة الشهوة واللذات الحسية وتشير إلى الدوافع الفطرية أو الفسيولوجية Innate or Physiological Motives .

ثم يعرض لعدد من الفضائل التي تتزايد بتزايد هذه القوى (ص ١٨ - ١٣٠) وهذه الفضائل هي :

١ - الحكمة : وهي تشير إلى الذكاء والقدرات العقلية Intellectual Abilities .

٢ - العفة : وتشير إلى ضبط الدوافع الأولية Primary Motives Control .

٣ - الشجاعة : وتشير إلى التوافق الاجتماعي مع الوسط المحيط Social Adustment .

٤ - السخاء أو العفة : ويشير إلى التعاون وسلوك المساعدة Helping Behavior .

٥ - العدالة : وهي فضيلة تتصل بمجال العلاقات الاجتماعية Social Relations .

يضاف إلى ذلك أن لكل فضيلة عددًا من الفضائل النوعية التي تندرج تحتها ، وهي في مجملها ذات صلة كبيرة بمجال السلوك الأخلاقي Moral Behavior .

ويعرض أيضًا الكاتب لفكرة أن الفضائل أوساط بين أطراف (ص ٢٤ - ٢٨) وهي تشير إلى فكرة البُعد Dimension أو المتصل الذي يصل بين طرفين (ص ١٩٤ - ١٩٥) . فمثلًا :

الحكمة وسط بين السفه والبله .

العفة وسط بين الشره وخمود الشهوة .

الشجاعة وسط بين الجبن والتهور .

السخاء وسط بين التبذير والتقتير .

العدالة وسط بين الظلم والانظلام .

المقالة الثانية : يقدِّم الكاتب تقسيمًا ثنائيًا للخلق أي الطباع Temperament حسب نشأته على النحو التالي :

١ - إما أن يكون طبيعيًا من أصل المزاج ، أي وراثيًا Genetic .

٢ - إما أن يكون مستفادًا بالعادة أو التدريب ، أي مكتسبًا Acquired (ص ٣١ ، ٣٢) .

ثم يعرض لقضية أصل الإنسان خير أم شر بطبيعته (ص ٣٢ - ٣٦) وفي ثنايا هذا الموضوع يشير إلى مفهوم التنشئة الاجتماعية Socialization ودورها في تعديل وتهذيب أخلاق الإنسان .

ثم يعرض إلى أن كمال الإنسان في اللذات المعنوية (ص ٤٣ - ٤٧) ويذم الإفراط في اللذات الحسية أي الدوافع الفطرية الأولية .

كما يعرض لقوى النفس الثلاث البهيمية والسبعية والناطقة (ص ٤٧ - ٤٩) وعلى أساسها يعرض لمقارنة بين الإنسان والحيوان ليحدد مراتب كل منها من العلو أو الدنو ، كما يحدد مدى قابلية كل منها للتأديب ، وهو ما نجده في فصل في تأديب الأحداث والصبيان ، وهو ما يتصل بمفهوم التنشئة الاجتماعية Socialization (ص ٥٥ - ٦٧) .

كما يعرض في ثنايا هذا العرض إلى الارتقاء المعرفي والاجتماعي للوليد إلى أن يصير صبيًا Cognitive & Social Development وهو ما يتصل بمجال ارتقاء الطفل Child Development (ص ٥٧ - ٥٨) .

كما يورد المؤلف أفكارًا عن مراتب الحيوان وفقًا لرعايتها لأولادها وقابليتها للتأديب وقدرتها على التصرف وذكائها وقدرتها على التعلم والتميز (ص ٧٠ - ٧٣) .

المقالة الثالثة : **الخير والسعادة** . وفيها يعرض لمعنى الخير والسعادة وأقسام كل منها (ص ٧٨ - ٨٠) ويلخص أن السعادة هي أحد الخيرات التامة وهي غاية في حد ذاتها وهي تمثل موضوعًا مهمًا في علم النفس Happiness وكذلك في الفلسفة والأخلاق .

ثم يعرض لخصائص الشخص السعيد (ص ٨١) وهو ما يشير إلى خصائص التوافق الشخصي والاجتماعي Personal & Social Adjustment .

المقالة الرابعة : يشير الكاتب إلى أنه بالرغم من أن السعادة تكمن في فضائل النفس (الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة) فقد تظهر الفضائل ممن ليس بسعيد ولا فاضل . ويعرض لخصائص ودوافع هؤلاء الأفراد ، وهو أمر يتصل بالشخصية

Personality والدافعية Motivation .

كما يعرض لفكرة الحاجة إلى المال وأحوال مكتسبيه ومنفقيه في الحلال والحرام . كما يشير إلى سبيل كسب الأموال ودوافع إنفاقها (ص ١١٢ - ١١٣) . ويتصل هذا الجانب بموضوع العمل الأجور Wages في علم النفس المهني والحاجات Needs في علم النفس العام .

وتحت عنوان مسألة عويصة أولى (ص ١٢٩ - ١٣١) يعرض الكاتب لدوافع البشر عند ارتكاب المعاصي والأخطاء ، وهو ما يتصل بدوافع السلوك غير الأخلاقي Immoral Behavior .

ثم يعرض في « مسألة عويصة ثانية » (ص ١٣٢ - ١٣٤) المقارنة بين العدالة باعتبارها مساواة والتفضل باعتباره زيادة في العدالة ، والأخير خُلق غير مذموم ، ويتصل هذا الجانب بموضوع القيم الأخلاقية Moral Values .

المقالة الخامسة : التعاون والاتحاد : تختص هذه المقالة بموضوع العلاقات الاجتماعية Social Relations يشير ابن مسكويه إلى أن لكل إنسان نقصًا أو حاجة يسعى لإشباعها أو لإتمامها بالتعاون مع الآخرين ، وهو إشارة تختص بدوافع تكوين العلاقات الاجتماعية (ص ١٣٨) .

ثم يعرض لبعض أشكال العلاقات الاجتماعية وهي الصداقة (ص ١٤٠ - ١٤٣) ، والمودة والعشق والمحبة (ص ١٤٣ - ١٤٩) .

ثم يعرض للخصائص الاجتماعية والأخلاقية للشخص الخير الفاضل (ص ١٥٤ ، ١٥٥) ويليه عرض لأنواع من الأصدقاء وأهمية الأصدقاء (ص ١٥٩ - ١٦١) ، وكيفية اختيار الصديق (ص ١٦١ - ١٦٤) ، وآداب الصداقة (ص ١٦٥ - ١٧٣) .

كما يعرض في هذا الجزء رأي أرسطوطاليس في السعادة التامة (ص ١٧٣ - ١٧٧) وهو أن السعادة التامة تكمن في الفضائل والخلق الحسن وليس للراحة البدنية علاقة بأسباب السعادة .

المقالة السادسة : وتبدأ بعرض العلاقة بين الجسد والنفس في الصحة والمرض ، وهو ما يشير إلى فكرة الأمراض النفسجسمية (أو السكوسوماتية) Psychosomatic Disorders (ص ١٧٨ ، ١٧٩) .

ثم يقسِّم الطب النفسي إلى نوعين يشار لهما حديثًا بالطب النفسي العلاجي

والطب النفسي الوقائي .

كما يعرض لتوجيهات من أجل تحقيق تعلم فعال ؛ منها ترييض النفس على الأمور الفكرية من الصغر والحث على الاجتهاد وفضل العلم ، وتجنب النسيان ، ويتصل هذا الموضوع بمفهومي التعلم والتربية Learning & Education (ص ١٨١ - ١٨٣) .

وتحت عنوان القناعة يحث الكاتب على ضرورة الاكتفاء بإشباع الحاجات الضرورية دون إفراط ، وهو ما يتصل بمفهوم الرضا Satisfaction والحاجات Needs (ص ١٨٦- ١٨٩) .

ثم يحث المرء على معرفة عيوب النفس (ص ١٩١ - ١٩٣) حتى لو استعان بخصم له في هذا الأمر ، ويتصل هذا الموضوع بمفهوم الوعي بالذات Self Awareness أو التقييم الذاتي Self Evaluation .

المقالة السابعة : رد الصحة على النفس : يقسم ابن مسكويه الأمراض النفسية وفقًا للتطرف الإيجابي والسلبي للفضائل الأربع على النحو التالي :

التهور والجبن طرفان للوسط الذي هو الشجاعة .

الشره والخمود طرفان للوسط الذي هو العفة .

السفه والبله طرفان للوسط الذي هو الحكمة .

الجمود والمهانة (الظلم والانظلام) طرفان للوسط الذي هو العدالة (ص ١٩٦) .

ثم يعرض لأسباب بعض الحالات الانفعالية Emotional States كالتهور أو الغضب Anger (ص ١٩٦ - ٢٠٥) . وهو بإيجاز : العجب والافتخار ، والمزاح والتيه والاستهزاء والغدر والضيم ، وأيضًا المقتنيات والجواهر النفسية ؛ فهي تثير الغضب عند فقدها أو تلفها .

ثم يعرض للمظاهرة السلوكية للغضب ؛ ومن خلالها يشير إلى ارتباط الغضب Anger بالشره Opesity .

(حيث إذا تعذر على الشره ما يشتهيه غضب) كذلك ارتباط الغضب بالبخل (فإذا فقد البخيل شيئًا غضب) . ثم يعرض لعلاقة الغضب بالعمر (فالصبيان والشيوخ أسرع غضبًا من الراشدين) (ص ٢٠٥ - ٢٠٨) .

ثم يتعرض الكاتب لموضوع الخوف وأسبابه وعلاجه (ص ٢١٠ - ٢١٢) كما

يعرض أيضًا لعلاج الخوف من الموت (ص ٢١٢ - ٢٢١) وفي هذا المقام نجد مفهومين من علم النفس :

١ - مفهوم المخاوف المرضية Phobias .

٢ - مفهوم العلاج النفسي المعرفي Psycho - Cognitive Therapy .

كما يعرض ابن مسكويه علاج الحزن (ص ٢٢١ - ٢٢٦) والذي يشير إلى مرض الاكتئاب Depression وعلاوة على ذلك يعرض لعلاجه من منظور نفسي معرفي .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام والإرشاد النفسي والخلقي والديني .

* * *

ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ)
كتاب النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعة الإلهية [١]

عرض : د . عبد المنعم شحاته

التعريف بالمؤلف [٢] :

هو أبو الحسن بن عبد اللّه بن الحسن بن علي بن سينا ، وقد وُلِد سنة (٣٧٥هـ) ، وكان والده من أهل « بلخ » وانتقل منها إلى بخارى في أيام نوح بن منصور ، واشتغل بالتصوف وتولى العمل في أثناء أيامه بقرية يقال لها « خرمبثن » من ضياع بخارى وبجوارها قرية « أفشنة » والتي تزود منها وقطن بها وسكن ، وبعد أن وُلِد ابن سينا بها رحل والده وأسرته إلى بخارى ، وهناك بدأ ابن سينا يتعلم القرآن والآداب ، وقد حفظ القرآن كله وهو في العاشرة من عمره ، ثم تعلم الفقه على إسماعيل الزاهد ، وكان من أجود السالكين ، كما أحكم علم المنطق والطبيعي وكتاب إقليدس ، واشتغل بتحصيل الكتب من النصوص والشروح من الطبيعي والإلهي ، ورغب بعد ذلك في علم الطب وصار يقرأ الكتب المصنفة فيه .

وتوفي ابن سينا في سنة (٤٢٨هـ) وهو في الثالثة والخمسين من العمر ، وقد ألف ابن سينا العديد من الكتب والتي تعتبر مراجع أساسية في علوم النفس والطب والمنطق وغيرها ، وفيما يلي نذكر بعضًا من هذه المؤلفات :

---

(١) تقديم ماجد فخري . (ط ١) . بيروت : دار الآفاق الجديدة (١٩٨٥م) . (٣٤٤ ص) .
(٢) مراجع الترجمة : الإشارات والتنبيهات لابن سينا ، تحقيق د . سليمان دنيا ، القسم الأول ، دار المعارف (١٩٦٠م) ، (ص ١٢٥ - ١٤٥) .

« المجموع » ، « الحاصل والمحصول » ، « الإنصاف » ، « البر والإثم » ، « الشفاء » ، « القانون في الطب » ، « الأرصاد الكلية » ، « النجاة » ، « الهداية » ، « الإشارات والتنبيهات » ، « المختصر الأوسط » ، « العلائي » ، « القولنج » ، « لسان العرب » ، « الأدوية القلبية » ، « الموجز » ، « بعض الحكمة المشرقية » ، « بيان ذوات الجهة » ، « المعاد » ، « المبدأ والمعاد » ، « المباحثات » .

بالإضافة إلى هذه الكتب ، هناك عدد من الرسائل لابن سينا ؛ ومنها : « القضاء والقدر » ، « الآلة الرصدية » ، « المنطق بالشعر » ، « القصائد في العظمة » ، « الحكمة في الحروف » ، « تعقب المواضع الجدلية » ، « الإشارات إلى علم المنطق » ، « حي بن يقظان » ، « الأجرام السماوية » .

عرض الكتاب :

يشتمل الكتاب على ثلاثة أقسام رئيسة تتناول : المنطق – الحكمة الطبيعية – الحكمة الإلهية .

ويتضمن القسم الأول منها – أي المنطق – أربعة كتب :

يتناول أولها – (من ص٤٣ إلى ص٦٧) – الألفاظ المفرد منها (سواء كان اسمًا أم فعلًا أم أداة) ، والمركب أي القضايا الحملية والشرطية بأنواعها .

يتناول ثانيها – (ص ٦٩ – ٩٥) – القياس ، الكامل منه وغير الكامل ؛ والاقتراني منه و الاستثنائي ، موضحًا أشكال كل قياس منها وشروط كل شكل منها ، وصوره .

ويتناول ثالثها – (ص ٩٧ – ١٢٣) – كيفية البرهان ، بادئه بالكلام عن المقدمات التي هي أساس القياس أو البرهان موضحًا أنواعها التسعة وعلاقة كل منها بالتصور والتصديق ، ثم يبين شروط البرهان وكيفية اكتساب الحد ومعناه ويبين ماهية الأجناس العشرة أو المقولات .

ويتناول رابع كتب المنطق – (ص ١٢٥ – ١٣١) – المغالطة في القياس ومواضعها .

ويتضمن القسم الثاني من « النجاة » – أي الحكمة الطبيعية – ست مقالات .

تعرف الأولى – (ص ١٣٥ – ١٤١) – منها الحكمة الطبيعية بأنها صناعة نظرية ، موضوعها الأجسام الموجودة بجواهرها وأعراضها بموادها وصورها .

وتتناول المقالة الثانية – (ص ١٤٢ – ١٧٠) – لواحق هذه الأجسام من حركة

وسكون وزمان ومكان وخلاء وتناهي ولا تناهي وتماس والتحام واتصال وتوالي ، مختتمًا هذه المقالة بكلام عن الجهات .

وتتناول المقالة الثالثة – (ص ١٧١ – ١٨٠) – القضايا الخاصة بهذه الصناعة النظرية ؛ مثل : أن العالم واحد لا يقبل العدد ، وأن لكل جسم حيزًا طبيعيًا وشكلًا طبيعيًا ، وأن الفلك يتحرك حركة مستديرة ، ثم يختتم هذه المقالة بحديث عن الأجسام المتكونة وصورها وكيفياتها والفرق بينهما .

ثم يتكلم في المقالة الرابعة – (ص ١٨١ – ١٨٩) – عن قوى الأجسام الأولى وأحيازها ، وعن التخلخل والتكاثف ويبين آثار الحرارة والبرودة على الجسم .

ويتكلم في المقالة الخامسة – (ص ١٩٠ – ١٩٥) – عن الاختلاف في طبيعية العناصر الأربعة ، وما ينتج عنه من مركبات وطبقاتها .

ويفصل في المقالة السادسة – (ص ١٩٦ – ٢٣١) – الحديث عن النفس ، منشئها وأحوالها ، وظائفها وقواها النظرية والعملية ، ويقسم النفس على أساس مستوى هذه الوظائف إلى : نباتية وحيوانية وإنسانية ، موضحًا كيفية إدراك النفس الإنسانية وتعلم العلوم واكتسابها .

ويقدم ابن سينا – (ص ١٩٦ – ٢٠٧) نموذجًا تصوريًا لوظائف النفس البيولوجية والنزوعية والمعرفية ، معتبرًا هذه الوظائف متدرجة ؛ أي أن كل مستوى من وظائف النفس يخدمه المستوى – أو المستويات – التي تسبقه ؛ فالنفس الإنسانية تخدمها النفسان الحيوانية والنباتية ، والنفس الحيوانية تخدمها النفس النباتية ، وفي كل فئة من الفئات الثلاث تخدم المستويات الوظيفية المستوى الذي يليها .... وهكذا (انظر نموذج وظائف النفس عند ابن سينا الآتي) .

وفي (ص ٢٠١) يشير إلى الإدراك الحسي باعتباره وظيفة النفس الوهمية التي يعتبرها إحدى الحواس الباطنة أو الداخلية ، ويتمثل الإدراك الحسي في « عملية إضفاء معنى للأشياء المحسوسة » إذ يقول : « المعنى هو الشيء الذي تدركه النفس من المحسوس من غير أن يدركها الحس الظاهر أولًا ؛ مثل إدراك الشاة لمعنى المضاد من الذئب ، وهو المعنى الموجب لخوفها إياه وهربها منه ، من غير أن يكون الحس يدرك ذلك ألبتة » .

وفي (ص ٢٠١) أيضًا يربط ابن سينا وظائف النفس النظرية والحيوانية بأجزاء

الدماغ ؛ فالوظائف المعرفية يقوم بها المخ ، فالحس المشترك ، أي الصور الآتية من الحواس تكون في أول التجويف المقدم من الدماغ ، والخيال أي حفظ ما جاء من الحواس فترة بعد غيبة المحسوسات ، يكون في آخر التجويف المقدم من الدماغ ؛ أما القوة المفكرة أي القدرة على التحليل والتركيب ، فتكون في أول التجويف الأوسط . وتكون القوة الوهمية ؛ أي : إدراك المعاني غير المحسوسة في المحسوسات تكون في نهاية التجويف الأوسط ، والذاكرة ، أي : حفظ ما تدركه القوة الوهمية ، ففي التجويف المؤخر من الدماغ .

ويدرك ابن سينا - (ص ٢٠٥ ، ٢٠٦) - أن هناك مبدأً عامًّا يحكم أداء النفس الإنسانية لوظيفتها المعرفية ، هذا المبدأ هو « الفروق الفردية » فالأفراد يتفاوتون في قدراتهم « واعلم أن التعلم ، سواء حصل من غير المتعلم أو من نفس المتعلم متفاوت ، فأي من المتعلمين قد يكون أقرب إلى التصور ؛ لأن استعداده ... أقوى ... وهذا الاستعداد قد يشتد في بعض الناس » و « هذا التفاوت ليس منحصرًا في حد ، بل يقبل الزيادة والنقصان دائمًا ، وينتهي في طرف النقصان إلى من لا حدس له ألبتة ، فيجب أن ينتهي أيضًا في طرف الزيادة إلى من له حدس في كل المطلوبات أو أكثرها أو إلى من له حدس في أسرع وقت وأقصره » .

والعبارة السابقة تقدم مبدأ آخر يحكم التصور المعاصر لعلم النفس ، والذي في ضوئه تطور القياس النفسي ، هذا المبدأ هو البُعد Dimension ، فأية قدرة معرفية أو خصلة مزاجية ... إلخ يمكن التعبير عنها كميًّا على أساس أنها بُعد يمتد من عدم القدرة إلى القدرة الفائقة ، والأفراد يحتلون مواقع - أي درجات - مختلفة على هذا البُعد ؛ فالحدس يمتد من فقدان القدرة على الحدس إلى قدرة فائقة فيه ، كذلك الاستعداد ... إلخ

وقال ابن سينا بالفروق الفردية في القدرات العقلية ، ففي (ص ٢٠٦) يشير إلى فروق فردية في كم الحدس ، أي : عدد الحدود الوسطى التي يتوصل إليها الذهن دون قياس أو تعليم ، كما توجد في كيفه أي : سرعة الحدس عند البعض وبطئه عند آخرين . وفي نفس السياق يقدم تعريفًا للذكاء بأنه قوة الحدث أي سرعة الذهن في استنباط الحد الأوسط بذاته ، وقدرته على ذلك ، وهو بهذا التعريف يسبق علماء « الجشطلت » الذين يعتبرون الذكاء قدرة على الاستبصار Insight الذي يقترب من معنى الحدس إلى حدٍّ ما .

ويؤكد ابن سينا أن الاستعداد Aptitude شرط رئيسي للتعلم ، فلا تعلم دون استعداد له ، والتفاوت في التعلم يرجع لتفاوت في هذا الاستعداد (ص ٢٠٥) .

نموذج وظائف النفس عند ابن سينا

النفس

- نباتيـة (وظيفتها النمو)
  - غاذية (توريد الغذاء للأعضاء)
  - منمية (تزيد في جوهر الأعضاء الأصلية)
  - مولدة (تعطي المادة صورة الشيء)
- حيوانيـة (وظيفتها الإدراك والحركة)
  - محركة
    - باعثة (نزوع)
      - شهوية (إقدام)
      - غضبية (إحجام)
    - فاعلة (تحريك العضلات)
  - مدركة
    - قوى تدرك من خارج (الحواس)
    - قوى تدرج من داخل
      - [illegible]
      - [illegible]
      - [illegible]
      - [illegible]
      - [illegible]
      - [illegible]
- نفس إنسانية (ناطقة) وظيفتها الاختيار والاستنباط
  - نفس عاملة (قوى عملية لاستنباط التدابير والصناعات)
  - نفس عالمة (قوى نظرية لاكتساب المعرفة)
    - عقل هيولاني (استعداد لتقبل المعرفة)
    - عقل بالملكة (يعقل الأشياء بالقياس)
    - عقل بالفعل (الصور مخزونة فيه فيعقل بلا اكتساب)
    - عقل مستفاد (حضور المعقولات فيه : كالكتابة بالنسبة للكاتب)

ويشير ابن سينا - (ص ٢٢٠) - إلى صعوبة اجتماع انفعالين معًا في النفس ، فأحدهما يتغلب على الآخر « فإن الخوف يشغل عن الجوع ، والشهوة تصد عن الغضب ، والغضب يصرف عن الخوف ، والسبب في جميع ذلك واحد ، وهو انصراف النفس بالكلية إلى أمر واحد » . وهذا المبدأ هو الذي يحكم أساليب العلاج السلوكي المعاصرة ؛ فالتدريب على الاسترخاء لعلاج الخوف والتوتر ، والانشغال بأمور ما تصرف الفرد عن تعاطي المخدرات والمسكرات ، وترسيخ مشاعر منفرة نحوها يمنع تعاطيها ... وهكذا .

ويتضمن القسم الثالث من « النجاة » - إلى الحكمة الإلهية - مقالتين :

يبدأ في الأول منها - (ص ٢٣٥ - ٢٦٠) - بإبراز الفروق بين الإلهيات والطبيعيات والرياضيات ، ثم يبيِّن معاني كل من الموجود (بجوهره وعرضه وأقسامهما) والوَحدة والمادة والصورة ، وأنواع كل منها ، منتقلًا - بعد ذلك - بالحديث عن أقسام العلل وأحوالها ، وعن معاني القوة والقدم والحدوث والكلي والتام والناقص والتقدم والتأخر والوحدة والكثرة .

ثم يتحدث - في المقالة الثانية (ص ٢٦١ - ٣١١) - عن الواجب وصفاته ، والممكن وعلته وانتهائه ليخلص إلى أن واجب الوجود مستوف لجميع شروط الكمال والوحدة ، وأن الموجودات كلها تصدر عنه عن طريق الفيض ، وأنها تأتي على الترتيب : العقول العشرة ، ثم نفوس الأفلاك ، ثم الأجرام السماوية فالكائنات الفاسدات .

ويختتم ابن سينا كلامه في الحكمة الإلهية - وكتابه « النجاة » (ص ٣٢٠ - ٣٤٣) بقول في المبدأ والمعاد وإثبات النبوة والإلهام والدعاء المستجاب ، ومنافع العبادات في الدنيا والآخرة .

* * *

أحوال النفس : رسالة في النفس وبقائها ومعادها [1]

عرض : د. شعبان جاب الله رضوان

عرض الكتاب :

يبدأ ابن سينا هذه الرسالة في النفس وبقائها ومعادها بفصل حول (حد النفس) حيث يقسم القوى الفعالة في الأجسام بذاتها إلى أربعة أقسام :

١ - قوله تفعل فعلها في الجسم بقصد واختيار .

٢ - قوله تفعل فعلها بالذات وعلى سبيل التسخير .

وتنقسم الأولى إلى قسمين :

١ - إما أن تكون متكثرة القصد والاختيار .

٢ - وإما أن تكون وحدانية القصد والاختيار .

كما تنقسم الثانية إلى قسمين أيضًا هما :

١ - إما أن تكون وحدانية جهة الفعل كالقوة الفاعلة لحركة النار إلى فوق .

٢ - أو تكون متكثرة الفعل كالقوة الفعالة لامتداد أعضاء الحيوان وأجزاء النبات في الجهات المختلفة والمحركة للغذاء المتشابهة فيه إلى أطراف متقابلة .

وبذلك تكون جملة القوى الفعالة في الأجسام أربعة ، وكل واحدة من هذه القوى جنس يعم أنواعًا ، ولكن لكل واحد منها في طبيعته اسم يخصه ؛ فالقوة الفاعلة

---

(١) حققه وقدم له أحمد فؤاد الأهواني . (ط ١) . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية (١٩٥٢م) . (٢٠٣ص) . نسخة مصورة .

بالتسخير فعلًا إحدى الجهة مخصوصة باسم الطبيعة ، والقوة الفاعلة بالتسخير فعلاً متكثر الجهة والنوع مخصوصة باسم النفس النباتية ، والقوة الفاعلة بالقصد والاختيار المختلف الموجب لاختلاف ما يقع عليها من الفعل مخصوصة باسم النفس الحيوانية ، كما أن القوة الفاعلة بالقصد والاختيار الأحدي الجهة والنسبة مخصوصة باسم النفس الملكية .

ويشير ابن سينا بعد ذلك إلى أن النفس قوة بالقياس إلى فعلها وصورة بالقياس إلى المادة الممتزجة إن كانت نفسًا منطبعة في المادة ، وكمال بالقياس إلى النوع الحيواني أو الإنساني .

وينتقل ابن سينا بعد ذلك إلى تعريف القوى النفسانية ؛ حيث يشير إلى أن هذه القوى تنقسم بالقسمة الأولى إلى ثلاثة أقسام جنسية هي :

١ - النفس النباتية : وهي الكمال الأول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يتولد وينمو ويتغذى .

٢ - النفس الحيوانية : وهي الكمال الأول لجسم طبيعي آلي من جهة ما هو يدرك الجزئيات ويتحرك بالإرادة .

٣ - النفس الإنسانية : وهي كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يفعل الأفاعيل الكائنة بالاختيار الفكري والاستنباط بالرأي ، ومن جهة ما يدرك الأمور الكلية .

كما يذكر ابن سينا أن هناك ثلاث قوى للنفس النباتية هي : الغاذية والمنمية والمولدة كما أن للنفس الحيوانية قوتين : محركة ومدركة .

والمحركة قسمان : إما محركة بأنها باعثة ، وإما محركة بأنها فاعلة . والمحركة على أنها باعثة هي القوة النزوعية الشوقية ولها شعبتان :

١ - قوة شهوانية : وهي قوة تبعث على تحريك يقرب به من الأشياء المتخيلة ضرورية أو نافعة طلبًا للذة .

٢ - قوة غضبية : وهي قوة تبعث على تحريك يدفع به الشيء المتخيل ضارًا أو مفسدًا طلبًا للغلبة .

وأما القوة المحركة على أنها فاعلة : فهي قوة تنبعث في الأعصاب والعضلات من شأنها أن تشنج العضلات فتجذب الأوتار والرباطات المتصلة بالأعضاء إلى نحو جهة المبدأ أو ترخيها أو تمددها طولًا فتصير الأوتار والرباطات إلى خلاف جهة المبدأ .

وأما القوة المدركة ؛ فتنقسم إلى قوة مدركة من خارج وهي الحواس الخمس : (البصر والسمع والشم والتذوق واللمس) . وإلى قوة مدركة من باطن ، وتنقسم إلى قوى تدرك صور المحسوسات ، وإلى قوى تدرك معاني المحسوسات .

ويتصل هذا الحديث عن قوى النفس الحيوانية بعدد من موضوعات علم النفس حيث يرتبط الحديث عن القوة الشهوانية ، والقوة الغضبية بموضوع الدوافع Motives (ص ٥٨) ، والانفعالات Emotions (ص ٥٨) . كما يتناول الحديث عن القوة المدركة موضوع الإحساس Sensation (ص ٥٩ ، ٦٠) ، والإدراك Perception (ص ٥٩ ، ٦٠) ، وذلك في إطار علم النفس العام ، ويتعلق الحديث عن القوة المحركة الفاعلة بموضوع الأساس الفسيولوجي للسلوك الحركي (ص ٥٨) Motor Behavior في علم النفس الفسيولوجي .

ويتحدث ابن سينا بعد ذلك عن مواضع القوى المدركة في الدماغ ؛ حيث يشير إلى أن من القوى المدركة الباطنة قوة تسمى (قوى فنطاسيا) وتقع في التجويف الأول من الدماغ ، وهي تقبل بذاتها جميع الصور المنطبعة في الحواس الخمس ، وهي الحس المشترك (ص ٦١) .

وهناك أيضًا الخيال والقوة المصورة وهي قوة تقع أيضًا في آخر التجويف المقدم من الدماغ ، ومهمتها حفظ ما تقبله الحس المشترك من الحواس الجزئية الخمس ، وتبقى فيها بعد غيبة المحسوسات ، ثم القوة التي تسمى متخيلة بالقياس إلى النفس الحيوانية ومفكرة بالقياس إلى النفس الإنسانية ، وتقع في التجويف الأوسط من الدماغ ، وتقوم بتركيب بعض ما في الخيال مع بعض ، كما تقوم بفصل بعضه عن بعض بحسب الاختيار .

ثم القوة الوهمية وتقع في نهاية التجويف الأوسط من الدماغ ، وتدرك المعاني غير المحسوسة الموجودة في المحسوسات الجزئية ؛ كالقوة الحاكمة بأن الذئب مهروب عنه وأن الولد معطوف عليه .

ثم القوة الحافظة الذاكرة ، وتقع في التجويف المؤخر من الدماغ وتحفظ ما تدركه القوة الوهمية من المعاني الغير محسوسة الموجودة في المحسوسات الجزئية ؛ ونسبة القوة الحافظة إلى القوة الوهمية كنسبة القوة التي تسمى خيالًا بالقياس إلى الحس . ونسبة تلك القوة إلى المعاني كنسبة هذه القوة إلى الصور المحسوسة ، وهذه هي جملة قوى النفس الحيوانية (ص ٦٢) .

ويتضمن الحديث السابق عن القوى المدركة الباطنة ومواضعها في الدماغ إشارة لمفهوم الإدراك الحسي Perception ، والتخيل Imagination ، والذاكرة Memory . كما يتصل الحديث عن مواضع هذه القوى في الدماغ بعلم النفس العصبي Neuro Psychology (ص ٦١ - ٦٢) .

وأما النفس الناطقة الإنسانية ؛ فتنقسم قواها إلى قوة عاملة ، وقوة عالمة ، وكل واحدة من القوتين تسمى عقلًا باشتراك الاسم ؛ فالعاملة هي مبدأ حركة لبدن الإنسان إلى الأفاعيل الجزئية الخاصة بالروية ولها اعتبار بالقياس إلى قوة الحيوانية النزوعية ، واعتبار بالقياس إلى القوة الحيوانية المتخيلة والمتوهمة ، واعتبار بالقياس إلى نفسها ، فقياسها إلى القوة الحيوانية النزوعية أن تحدث عنها فيها هيئات تخص الإنسان يتهيأ بها لسرعة فعل وانفعال ؛ مثل الخجل والحياء والضحك والبكاء .

وتتصل هذه الإشارة بمفهوم الانفعال Emotion (ص ٦٣) في علم النفس العام ، وأما قياسها إلى القوة الحيوانية المتخيلة والمتوهمة هو أن تستعملها في استنباط التدابير في الأمور الكائنة والفاسدة واستنباط الصناعات الإنسانية ، ومن حيث قياسها إلى نفسها هو أن فيما بينها وبين العقل النظري تتولد الآراء الذائعة المشهورة كالقول بأن الكذب قبيح .

فهذه القوة العملية هي القوة التي لها بالقياس إلى الجنبة التي دونها وهي البدن وسياسته .

وأما القوة النظرية فهي القوة التي لها بالقياس إلى الجنبة التي فوقها لتنفعل وتستفيد منها وتقبل عنها ، فكأن للنفس وجهين : وجه البدن ، ووجه إلى المبادئ العالية .

ويشير ابن سينا إلى أن لفظ « القوة » له ثلاثة معانٍ ؛ منها : أن القوة هي الاستعداد المطلق الذي لا يكون قد خرج منه إلى الفعل شيء ولا أيضًا حصل ما به يخرج ؛ ومثال ذلك قوة الطفل على الكتابة ، وتجدر الإشارة إلى أن هذا المعنى للقوة يتصل بمفهوم الاستعداد Aptitude (ص ٦٥) .

كما يذكر أن هذه القوى النفسانية يحكمها نظام هرمي ، وذلك من حيث إن بعضها رئيسي يسيطر على بعض آخر ويحكمه ، وأن هناك قوى خادمة لهذه القوة المسيطرة ؛ فالعقل هو الرئيس الذي تخدمه كل القوى الأخرى ، كما أن القوة النزوعية تخدمها الشهوة والغضب ، واللتان تخدمهما القوة المحركة في العضل ، وهذه القوى الحيوانية بالجملة تخدمها القوى النباتية وهكذا .

وينتقل ابن سينا بعد هذا العرض لتعريف القوى النفسانية إلى الحديث عن اختلاف أفاعيل القوى المدركة من النفس ؛ حيث يشير إلى أن الخيال أو التخيل يبرئ الصورة المنزوعة من المادة تبرئة أشد ، بمعنى أن الصورة الموجودة في الخيال يتم تجريدها من اللواحق المادية تجريدًا تامًّا ، وذلك على الرغم من أن الحس لم يجردها من المادة تجريدًا تامًّا ، كما أن الوهم يدرك أمورًا ليست مادية في طبيعتها ؛ مثل الخير والشر ، والموافق والمخالف .

ويذكر ابن سينا في هذا السياق أيضًا أن كل ما كان من القوى مدركًا فليس يدرك إلَّا بآلة .

ويتعلق هذا الحديث بموضوعي الخيال والإدراك الحسي Perception (ص ٦٩ - ٧٩) .

ويتحدث بعد ذلك عن علاقة النفس بالبدن ، حيث يبيِّن كيف أن النفس تستعين بالبدن ، وكيف تستغني عنه بل يضرها .

ويمكن أن يتصل هذا الحديث عن علاقة النفس بالجسم بفرع علم النفس الفسيولوجي Physio - Psychology (ص ٨٧ - ٨٩) .

ثم يقدم البراهين والدلائل على صحة استغناء النفس عن البدن ، كما يبرهن أيضًا على أن حدوث النفس مع حدوث البدن ، وأن النفس باقية ، فهي لا تموت بموت البدن ولا تفسد ألبتة ؛ لأن كل شيء يفسد بفساد شيء آخر متعلق به نوعًا من التعلق ، وكل متعلق بشيء نوعًا من التعلق ، فأما أن يكون تعلقه به تعلق المكافئ في الوجود ، وإما أن يكون تعلقه به تعلق المتأخر عنه في الوجود ، وإما أن يكون تعلقه به تعلق المتقدم له في الوجود الذي هو قبله بالذات لا بالزمان .

ويقدم ابن سينا البرهان على صحة الفرض الأول من هذه الفروض الثلاثة ، ويدحض الفرضين الثاني والثالث ، ويخلص من هذا إلى أن النفس لا تفسد بفساد البدن .

وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن إبطال التناسخ ، مقدمًا البرهان على ذلك ، والذي ينتهي منه إلى أن النفس الواحدة لا تتناسخها أبدان مختلفة ؛ كما يشير إلى أن جميع قوى النفس عن مبدأ واحد في البدن ، أي لنفس واحدة ، ويتحدث كذلك عن خروج العقل النظري إلى الفعل مشيرًا إلى أن الشيء لا يخرج من ذاته إلى الفعل بشيء يفيد الفعل ، وهذا الفعل الذي يفيده هو صور المعقولات .

ويتناول بعد ذلك موضوع إثبات النبوة ؛ حيث يتحدث عن طبقات النبوات المتعلقة بالقوة العقلية العملية والخيالية ، مشيرًا إلى أن الاستعدادات تختلف للقبول جميعًا في الأنفس ، وخصوصًا الاستعداد لقبول الجزئيات بالاتصال بهذه الجواهر النفسانية . فبعض الأنفس يضعف فيها ويقل هذا الاستعداد أصلًا لضعف القوة المتخيلة وترك شغله بما تورده عليه ؛ كما أن القوة المتخيلة لما فيها من الغريزة المحاكية ، والمنتقلة من شيء إلى غيره ، تترك ما أخذت وترود شبيهه أو ضده أو مناسبه ، وهنا يذكر ابن سينا أن المجانين قد يشاهدون ما يتخيلون .

ويتضمن هذا الحديث إشارة لمفهوم التخيل Imagination ، وأيضًا مفهوم الهلاوس البصرية Visual Hallucinations عند الإشارة إلى أن المجانين قد يشاهدون ما يتخيلون (ص ١١٧ - ١٢١) .

وتجدر الإشارة إلى أن مفهوم الحدس يتصل بمفهوم الاستبصار Insight في علم النفس الحديث ، كما يتضمن الحديث عن ذكاء النفس إشارة لمفهوم الذكاء Intelligence ، ومفهوم التعلم Learning وذلك في إطار علم النفس العام (ص ١٣٢) .

ثم ينتقل ابن سينا إلى الحديث عن سعادة النفس وشقاوتها بعد الفراق ، موضحًا معنى السعادة والشقاوة والحقيقة من خلال ما أخبرت به الشريعة وصدقته النبوة ، حيث يشير إلى أن السعادة الحقيقية لا تتم إلَّا بإصلاح الجزء العملي من النفس ، كما أن لكل قوة نفسانية لذة وخيرًا يخصها ، وأذى وشرًّا يخصها ؛ ومثال ذلك : أن لذة الشهوة وخيرها أن يتأدى إليها كيفيات محسوسة ملائمة من الحواس الخمس ، ولذة الغضب الظفر ، ولذة الوهم الرجاء ، وكذلك لذة الحفظ تذكر الأمور الموافقة الماضية ، وأن أذى كل واحدة منها فيما يضادها .

وفي سياق الحديث عن سعادة النفس وشقاوتها يذكر ابن سينا أيضًا أن الخلق ملكة تصدر بها عن النفس أفعال ما بسهولة من غير تقدم روية ، وأنه قد أمر في كتب الأخلاق بأن يستعمل التوسط بين الخلقين الضدين ، لا بأن تفعل أفعال التوسط دون أن تحصل ملكة التوسط ؛ وملكة التوسط كأنها موجودة للقوة الناطقة وللقوى الحيوانية معًا .

ويتصل هذا الحديث عن الخلق بسيكولوجية الأخلاق Morality ، ويتضمن إشارة لمفهوم التوسط والاعتدال Normality (ص ١٣٦ - ١٣٧) .

ويختم ابن سينا حديثه في هذه الرسالة عن النفس وبقائها ومعادها ، بذكر محل هذه الرسالة مشيرًا إلى أنه قد ترك الكلام في الأمور الظاهرة من علم النفس إلّا ما لم يكن منه بد ، وأنه قد كشف الغطاء ورفع الحجاب ودل على الأسرار المخزونة في بطون الكتب والمضنون بالتصريح بها .

ويورد المحقق في هذا الكتاب أيضًا ثلاث رسائل أخرى لابن سينا ؛ حيث يذكر أنه قد أضاف هذه الرسائل الثلاث لكي تتم الفائدة نظرًا لأنها في علم النفس وهي مما يعز الحصول عليه .

وفيما يلي نعرض بإيجاز لهذه الرسائل الثلاث :

الرسالة الأولى : مبحث عن القوى النفسانية : يبدأ ابن سينا هذه الرسالة بمحاولة إثبات القوى النفسانية ، ثم يتناول تقسيم هذه القوى حيث يفصل القول في القوى إلى أقسام القوى النباتية والحيوانية والواردة في رسالة أحوال النفس السابقة ، ومشيرًا إلى الحاجة إلى كل واحدة منها ، ويتكلم عن القوى الحاسة الخارجية والداخلية وكيفية إدراكها (تشمل الحواس الداخلية الإدراك الحسي والتذكر والتخيل) . ويتحدث أيضًا عن النفس الناطقة من مرتبة بدئها إلى مرتبة كمالها مشيرًا إلى أن نوع الحيوان الناطق يتميز عن غير الناطق بقوة يتمكن بها من تصور المعقولات ، وهذه هي القوة المسماة بالنفس الناطقة (العقل الهيولاني أي العقل بالقوة) وهي موجودة في النوع الإنساني ، ثم يقيم البراهين على جوهرية النفس وغناها عن البدن .

● وتجدر الإشارة إلى أن هذه الرسالة عن القوى النفسانية لا تعدو عن كونها رسالة مفصلة لأقسام القوى النفسانية الواردة في رسالة أحوال النفس ، وبذلك فهي تتضمن الموضوعات السيكولوجية التي سبق ذكرها عند عرض رسالة أحوال النفس ، وبخاصة الإحساس Sensation والإدراك الحسي Perception والذاكرة Memory ، والتخيل Imagination ، والدوافع Motives ، والانفعالات Emotions ، والسلوك الحركي Motor Behavior ، ذلك في إطار علم النفس العام (ص١٥٢ – ١٦٧) .

الرسالة الثانية [١] : **في معرفة النفس الناطقة وأحوالها** : يبدأ ابن سينا هذه الرسالة بمحاولة إثبات أن جوهر النفس مغاير لجوهر البدن ، ويذكر أن المراد بالنفس هو ما يشير إليه أحد بقوله (أنا) ، كما يتناول في هذه الرسالة أيضًا مسألة بقاء النفس بعد بوار

---

(١) عرض هذه الرسالة تفصيلًا في تقرير منفصل .

البدن وأنها لا تفنى بفنائه ، وهو ما تحدث عنه في رسالة أحوال النفس التي عرضنا لها من قبل .

ويختم هذه الرسالة بتناول مراتب النفوس في السعادة والشقاوة بعد المفارقة عن الأبدان ، مشيرًا إلى أن النفس الإنسانية لا تخلو عن ثلاثة أقسام هي :

١ - كاملة في العلم والعمل .

٢ - ناقصة فيهما .

٣ - كاملة في أحدهما وناقصة في الآخر ، وهذا القسم يتضمن نوعين ؛ أحدهما أن تكون كاملة العلم ناقصة في العمل ، والثاني عكس ذلك .

الرسالة الثالثة : في الكلام على النفس الناطقة : تختص هذه الرسالة بالحديث عن النفس الإنسانية الناطقة وحدها ؛ حيث يشير فيها إلى أن الإنسان مختص من بين سائر الحيوانات بقوة داركة للمعقولات تسمى تارة نفسًا ناطقة ، وتارة نفسًا مطمئنة ، وتارة نفسًا قدسية ، وتارة روحًا روحانية ، وتارة سرًّا إلهيًّا ، وتارة قلبًا حقيقيًّا وهي موجودة بكل واحد من الناس طفلًا كان أو كبيرًا ، مراهقًا أو بالغًا ، مجنونًا أو عاقلًا ، مريضًا أو سليمًا ، وتكون هذه القوة في بدء وجودها عارية من صور المعقولات ، وتسمى حينئذ بذلك الاعتبار عقلًا هيولانيًّا ، ثم تحصل فيها صور المعقولات الأولية وهي معان متحققة من غير قياس وتعلم واكتساب وتسمى بداية العقول وآراء عامية وعلومًا أولية غريزية ، وهي مثل العلم بأن الكل أعظم من الجزء .

ويستطرد ابن سينا قائلًا : إن النفس الناطقة جوهر قائم بذاته غير منطبع في بدن الإنسان ولا في غيره من الأجسام ، بل هو مفارق للمواد والأجسام مجرد عنها وله علاقة ببدن الإنسان مادام حيًّا ، وليس تلك العلاقة كتعلق الشيء بمحله ، بل كتعلق مستعمل الآلة بالآلة ، وهو حادث مع البدن لا قبله ، وليس يفسد بفساد البدن وموته بل يبقى كما كان إلَّا أنه تحصل له حالة تسمى عندما تنقطع علاقته عن البدن ، أي بعد انقطاع العلاقة بالموت ، سعادة ولذة أو شقاوة وألما .

وسعادته بتكميل جوهره وذلك بتزكيته بالعلم بالله والعمل لله ، وتزكيته بالعمل لله هو تطهيره عن الأخلاق الرذيلة الردية ، وتحليته بالعادات الحسنة ، والأخلاق الحميدة ، وأما تزكيته بالعلم بالله فتحصيل ملكة له ، بحيث يتهيأ لإحضار المعقولات كلها متى شاء من غير افتقار إلى اكتساب ، فتكون المعقولات كلها حاصلة له بالفعل أو بالقوة

القريبة غاية القرب من الفعل ؛ فتصير النفس كمرآة تنطبع فيها صورة الأشياء كما هي عليه من غير اعوجاج .

وفي نهاية هذه الرسالة يشير ابن سينا إلى أنه قد تبين في العلوم الطبيعية أن الأخلاق والعادات تابعة لمزاج البدن ، فمن استولى البلغم على مزاجه استولى عليه السكون والوقار والحلم ، ومن استولت الصفراء على مزاجه استولى عليه الغضب ، ومن استولت عليه السوداء استولى عليه سوء الخلق ، وأن المزاج قابل للتبديل ، ومن ثم تكون الأخلاق قابلة للتبديل بواسطة تبديل المزاج .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الرسالة قد تضمنت بعض المفاهيم ذات الدلالة السيكولوجية ومنها مفهوم الذكاء Intelligence (ص ١٩٥) ، وذلك عند الحديث عن القوة المدركة للمعقولات (العقل) والتي يتميز بها الإنسان ، وكذلك مفهوم الأخلاق Morality (ص ١٩٧) . وتتصل الإشارة الخاصة بالعلاقة بين المزاج وكل من الأخلاق والعادات بموضوع سيكولوجية الشخصية Personality ، كما تضمنت هذه الإشارة مفهوم تعديل السلوك Behavior - Modifiacation وبذلك تنتهي الرسالة الثالثة (ص ١٩٧) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام .

* * *

القانون في الطب [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

يتألف الكتاب من ثلاثة أجزاء من القطع الكبير ، الجزء الأول يقع في ٤٨٣ صفحة منها مقدمة مختصرة بقلم المؤلف ، ثم موضوعات الكتاب وفصوله وأخيرًا فهرس مفصل ، وكذلك يقع الجزء الثاني في ٦٥٣ صفحة ويمضي على غرار الجزء الأول ، أما الجزء الثالث فيقع في ٤٧٣ صفحة ، ويسير فيه ابن سينا بنفس الطريقة التي أخرج بها الجزأين الأول والثاني ، ويقسم ابن سينا كلامه في كل جزء إلى فنون (الفن الأول أو الثاني وهكذا) ثم إلى تعاليم ، ويقسم التعاليم إلى فصول وجمل .

والكتاب كما يدل عليه اسمه كتابه في الطب ، وهو كتاب جامع عظيم الفائدة ، ونظرًا لارتباط علم النفس ، وخاصة علم النفس الإكلينيكي بالطب ، والطب النفسي والعصبي على وجه الخصوص ، فإن هناك موضوعات كثيرة مما ذكر في هذا الكتاب ، يمكن أن يكون لها جذور ، وتم تناولها في علم النفس بشكل أو بآخر ، ونظرًا لضخامة الكتاب الذي بين أيدينا (حيث يبلغ عدد صفحات أجزائه مجتمعة ١٦٠٩ صفحة) ، والتفصيلات الشديدة في تناول موضوعاته من ناحية ، وتناوله لموضوعات تخص بني البشر بالدرجة الأولى (الذين هم موضوعات علم النفس من جهة السلوك) من ناحية أخرى ، فإننا سننتقي منه ما كان متصلًا بعلم النفس اتصالًا مباشرًا أو غير مباشر ، وبنفس الترتيب الوارد في الأجزاء الثلاثة .

---

(١) ط جديدة عن ط بولاق . بيروت : دار صادر ، [د . ب] . ٣مج .

الجزء الأول :

الفن الأول من الكتاب الأول في حد الطب وموضوعاته من الأمور الطبيعية ويشتمل على ستة تعاليم .

ونقف في هذا الفن أمام التعليم الثالث وهو في الأمزجة ويتكون من ثلاث فصول ، وما يلفت أنظارنا هنا هو كلمة « المزاج » ، والتي تم تناولها في علم النفس تحت مسمى الخصال المزاجية Temperamental Characteristics أو سمات الشخصية Personality Traits غير أن ابن سينا يتناول بهذا المفهوم تناولًا عامًّا فيقارن بين المتضادات كالبرودة والحرارة والرطوبة واليبوسة ، وملاءمة كل من هذه الأمزجة للأعضاء ، وملاءمتها للأمم والشعوب ويبينٌ أن لكل شخص مزاج لا يشاركه فيه أحد ، ونود أن نشير إلى أن كلمة المزاج عند ابن سينا وعند الأطباء والفلاسفة القدماء بعامة ، تشير إلى معنى يختلف كل الاختلاف عن معنى كلمة المزاج التي تستخدم حديثًا ترجمة للكلمة الإنجليزية Temperament التي تعني حاسية الفرد للمواقف الانفعالية وقابليته لإظهار التغيرات في حالته النفسية . أما المزاج عند ابن سينا ، وعند الأطباء بعامة ؛ فهو كيفية حاصلة عن تفاعل القوى الأولية في الأركان الأساسية للبدن وهي : الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، ولذلك يمكن أن يتكلم الأطباء عن مزاج البدن بأكمله أو عن مزاج عضو معين من أعضاء البدن فإذا انحرف عضو معين عن الاعتدال والتوازن ، بأن زادت حرارته أو رطوبته أو يبوسته أو برودته ، طرأت على هذا العضو بعض الأعراض المرضية (ص ٦ - ١٠) .

ويتحدث ابن سينا في الفصول من الحادي عشر إلى الرابع عشر عن الجملة الثانية من التعليم الخامس ، عن تشريح عضو الحنجرة ، وعضو الحلقوم ، وعضل العظم اللامي ، وعضل اللسان ، والمعلومات التي يقدمها في هذه الأجزاء تهم - دون شك - مجموعة غير قليلة من علماء النفس المحدثين الذين يعنون بدراسة سيكولوجية اللغة ، خاصة الجزء الخاص بالأصوات والكلام ، باعتبار أن هذه الأجهزة من مكونات الجهاز النطقي ، وذلك كمقدمة لدراسة إنتاج الأصوات الكلامية ، ودراسة عيوب النطق والكلام ، ثم الاهتمام بكيفية تقويمها (ص ٤٣ - ٤٥) .

وفي الفصول من السابع عشر إلى العشرين يحدثنا عن تشريح عضلات الحركة في العضد والساعد ، والرسغ ، والأصابع ؛ ويفرد الجملة الثالثة للحديث عن العصب ،

وتضم ستة فصول ، والفصل الثاني على وجه الخصوص يتحدث عن تشريح العصب الدماغي ومسالكه (ص ٥٤) . وفي هذا الجزء يتكلم ابن سينا بالتفصيل عن الجهاز العصبي ويشرح الأعصاب المختلفة الصادرة من الدماغ والواردة إليه ، وكذلك الأعصاب الصادرة من النخاع الشوكي والواردة إليه ، وإذا قارنا ما يقوله ابن سينا بما يقوله علماء التشريح والفسيولوجيا في العصر الحديث لوجدنا كثيرًا من التشابه ، مما يدل على معرفة ابن سينا الدقيقة بالجهاز العصبي (ط ١) ، (ص ٥٣ - ٥٨) [1] .

وينتقل بعد ذلك إلى التعليم السادس للحديث عن القوة والأفعال ويقسم القوى إلى قوة طبيعية وهي بدورها تنقسم إلى قوى طبيعية مخدومة ، وقوى طبيعية خادمة ، ثم القوى الحيوانية ، وبعدها القوى النفسية ؛ وتنقسم إلى قوى نفسية مدركة ، وتتكون من قوة مدركة في الظاهر وهي الحواس ؛ كالسمع والإبصار والشم ، والتذوق ، واللمس وقوة مدركة في الباطن ؛ ومنها القوة المفكرة والمتخيلة والناطقة ، وكذلك القوى النفسية المحركة ، وهي التي تشنج الأوتار وترخيها فتتحرك بها الأعضاء والمفاصل وتبسطها أو تثنيها وتنفذها في العصب المتصل بالعضل ؛ وأخيرًا يتحدث عن الأفعال ويركز حديثه على طلب الطعام والإخراج (وهي بعض الدوافع الأولية التي يهتم بها علماء النفس) وكلامه في القوى النفسية والأفعال هو كلام مباشر في علم النفس ، وقد تناوله بالتفصيل في كتابه « النفس » من أجزاء كتب « الشفاء » (ص ٦٦ - ٧٢) .

وبعد أن انتهى ابن سينا من الفن الأول انتقل إلى الفن الثاني وهو في ذكر الأمراض والأسباب ، والأعراض الكلية ؛ وينقسم إلى ثلاثة تعاليم ، أولها في الأمراض : أسبابها وأنواعها وأعراضها ، والحديث في المرض عمومًا يجد حيزًا لا بأس به في دراسات علم النفس سواء في علم النفس الإكلينيكي (الأمراض النفسية والعقلية) ، أو في علم النفس الطبي Medical Psychology (بعض الأمراض الجسمية ذات المترتبات النفسية كالسرطان ، والسكر ، والربو الشعبي وغيرها) وبالتالي فإن دارسي السلوك سيجدون في هذه الفصول فوائد جمة ، ومنافع عديدة (ص ٧٣ ، ٧٤) .

كما يحدثنا في الفصول من الثاني عشر إلى الرابع عشر عن موجبات الحركة والسكون والنوم واليقظة ، والحركات النفسانية ، وهي موضوعات درست في علم النفس الحديث بأشكال مختلفة ، ويمثل حديث ابن سينا فيها إسهامات مهمة مبكرة في هذا الصدد (ص ٩٣ - ٩٥) .

---

(١) وانظر أيضًا الإدراك الحسي عند ابن سينا للدكتور / محمد عثمان نجاتي .

وفي الجملة الثامنة من هذا التعليم يتحدث عن أسباب زيادة العظم والغدد ونقصها (ص ١٠٧) ، ومن المعروف أن علم النفس الفسيولوجي (أحد الفروع الأساسية لعلم النفس الحديث) يهتم بدراسة العلاقة بين المتغيرات السيكولوجية وبين المتغيرات العضوية الفسيولوجية ؛ ومن أهم موضوعاته العلاقة بين نشاط الغدد الصماء Endocrines وبين الحالات النفسية بوجه عام ، والحالات الانفعالية بوجه خاص ، ومن الثابت علميًا أن اضطراب الهرمونات التي تفرزها الغدد الصماء (كالغدة الدرقية ، أو الغدة النخامية) بالزيادة أو النقص تؤدي بدورها إلى اضطرابات نفسية وسلوكية عديدة .

ويتابع ابن سينا حديثه في الأعراض ، فيحدثنا عن بعض العوارض النفسية ، ويذكر منها الغضب ، والغم ، والفزع ؛ وهي من أنواع الانفعال التي تدرس في علم النفس العام تحت مسمى الانفعالات Emotions (ص ١٣٤) . كما يفرد جزءًا خاصًا للحديث عن الارتقاء والتربية ؛ والارتقاء يمثل أحد فروع علم النفس الحديث هو علم النفس الارتقائي الذي يركز على الوصف الدقيق لشكل الوظائف النفسية المختلفة ، وعلى مستوى أدائها في مراحل العمر المختلفة من الولادة (أو حتى من الحمل) إلى الشيخوخة (ص ١٥٠ - ١٥٨ ، ١٧٧ - ١٧٩) هذا بالإضافة إلى الأمراض التي تظهر في مرحلة الطفولة ، وتلك التي تظهر في مرحلة الشيخوخة ، والتي يشترك في دراستها علم النفس مع علوم أخرى كالطب النفسي ، والعصبي ، وطب الأطفال وغيرها (ص ١٥٤ ، ١٧٩) . وأما موضوع التربية فيمكن أن يقابل موضوع التنشئة الاجتماعية Socialization ، وهو أحد الموضوعات التي تدرس في علم النفس الاجتماعي ، وهي عملية تقوم بها المؤسسات الاجتماعية المختلفة ابتداء من الأسرة (ص ٦٧٠ ، ٦٧١) كعلاج انقطاع الصوت ، وبحة الصوت وخشونته وعلاجه ، والصوت القصير ، والصوت الغليظ ، والصوت الدقيق ، والمرتعش ، والمظلم الكدر ... إلخ .

ونحن نرى أن هذه الفنون الأربعة الأخيرة مجتمعة تشكل مبحثًا هامًّا لا غنى عنه لكثير من علماء النفس ، خاصة المعنيين بدراسة سيكولوجية اللغة ، سواء من حيث إدراك الكلام أو إنتاجه بالتعرف بداية على تركيب الجهاز السمعي والنطقي ، وكيفية خروج الصوت وطبقاته ، وانتقاله في الهواء على شكل موجات ، وحتى استقبال طبلة الأذن لهذه الموجات وإعطائها معنى ، كي تؤلف مفردات وجمل اللغة ، والمرحلة الثانية هي دراسة عيوب النطق ، واضطرابات الصوت ، والخلل في الكلام ، ثم كيفية تقويمها

وعلاجها (ص ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٧٥ - ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٨ ، ٢٢٥ - ٢٢٨) .

الجزء الثالث :

وهذا الجزء يتكون من كتابين ، أولهما يختص ببقية الأمراض التي لم تُسير في الجزأين الأول والثاني ، والكتاب الثاني في الأدوية المركبة ، والفن السادس من الكتاب الأول يدور حول السموم ؛ كالسموم المعدنية ومنها الزئبق ، والرصاص ، والزرنيخ وغيرها والسموم النباتية والسموم الحيوانية المشروبة ، الطعام الفاسد ، والسموم الناتجة عن النهش ، واللدغ ، واللسع ، وعلاج كل نوع من هذه السموم ، ولعل اهتمام علماء النفس بهذا الجانب يكون من زاويتين (ص ٢١٧ - ٢٢١) .

الأولى : أن بعض هذه الأنواع من السموم تؤدي إلى أعراض نفسية وعقلية ، فيما يسمى بالذهان العضوي Organic Psychosis : وبرغم أن هذا الموضوع يعتبر من الموضوعات التي يهتم بها الأطباء النفسيون أساسًا ، فإن علماء النفس يتناولون بعض جوانبها في إطار تناولهم للأمراض النفسية والعقلية (أو العصابية والذهانية) سواء من حيث التعرف على أسبابها ، وأعراضها ، وطرق علاجها ومآلها ، وكيفية الوقاية منها . هذا بالإضافة إلى أن العمل في مجال الأمراض النفسية يقتضي التعاون بين فريق عمل Team Work يضم الطبيب النفسي ، والأخصائي النفسي الإكلينيكي والأخصائي لاجتماعي ، والممرضة ، وبعض التخصصات الأخرى .

أما الزاوية الثانية : فإن بعض ما يدخل الجسم من مواد سُمية تؤثر فيه وتؤدي إلى لهور أعراض سلوكية واضطراب للوظائف النفسية ، وتتضح هذه النقطة أكثر من لال ما يتناوله ابن سينا في الكتاب الثاني ، وأعني به الأدوية (أو العقاقير Drugs) ن المعروف أن هناك بعض العقاقير التي يتم تعاطيها تعاطيًا غير مشروع (مثل المخدرات طبيعية Natural Narcotics ، والكحوليات والعقاقير المخلقة Synthetic Drugs) . سبب هذا التعاطي أعراضًا نفسية وسلوكية عديدة - وهو ما بيّنته دراسات كثيرة ، قام ا علماء النفس ، وقد سبق أن أشرنا في تناولنا للأدوية المفردة ، أن علم النفس سيولوجي (أحد الفروع الأساسية لعلم النفس) يهتم من بين ما يهتم بالتغيرات ارماكولوجية الناتجة عن دخول مواد ذات خصائص كيميائية معينة ، وبين التغيرات ركية والحسية والعقلية المصاحبة ، وبالتالي فإن معرفة هذه العقاقير ، واستخدامها

الطبي أو غير الطبي لا يخلو من فائدة لعلماء النفس ، ولذلك فهم يعتنون به من هذه الزاوية التي أشرنا إليها .

أوجه الاستفادة من الكتاب :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في فرعي علم النفس الإكلينيكي Clinical Psychology ، وعلم النفس العصبي Neuropsychology .

* * *

الشفاء : الطبيعيات : ٦ - النفس [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٣١٥ صفحة من القطع الكبير ويحتوي على فهرس الكتاب ، وتصدير بقلم الدكتور إبراهيم مدكور ، وتعريف بطبعات الكتاب ونشراته بقلم الأب قنواتي وكذلك المخطوطات المستعملة في التحقيق ، ومخطوطات كتاب النفس الموجودة في العالم ، كما يضم أيضًا مقدمة الفن السادس من الطبيعيات وهو كتاب النفس وبعد ذلك المقالات الخمس (كما سيأتي في العرض) ، وفي نهاية الكتاب يوجد معجم عربي لاتيني لأهم المصطلحات الفلسفية خاصة المتصلة بعلم النفس ، وفهرس بالفرنسية وترجمة بالفرنسية للتصدير وطبعات الكتاب ، والمخطوطات المستعملة في التحقيق ومخطوطات الكتاب الموجودة في العالم .

وسوف نعرض لهذه المقالات بنفس ترتيبها :

المقالة الأولى : المقالة الأولى في هذا الكتاب تحتوي على خمسة فصول ، وهي بعنوان : « من الفن السادس من الطبيعيات » ويدور الفصل الأول حول إثبات النفس وتحديدها من حيث هي نفس ، ويرى أن ذات النفس ليس بجسم ، بل هي جزء للحيوان والنبات ، وهي صورة أو كالصورة أو كالكمال ويجوز أن يقال لنفس قوة

(١) تصدير ومراجعة إبراهيم بيومي مدكور ، تحقيق الأب جورج قنواتي ، سعيد زايد . القاهرة : المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، الهيئة المصرية للكتاب (١٩٧٥م) . (٢٦١ ، [٢٢] ص) . يشتمل على نص بالفرنسية . يشتمل على كشاف بالعربي والفرنسي .

أو صورة ، ويصح أن يقال لها كمال ، ويؤكد أن القول في تعريف النفس إنها كمال أدل على معناها ، وهو يتضمن جميع أنواع النفس من جميع الوجوه ، وبالتالي فإن تعريف النفس بأنها كمال أولي من تعريفها بأنها قوة ؛ وذلك لأن الأمور الصادرة عن النفس ، منها ما هو من باب الحركة ، ومنها ما هو من باب الإحساس والإدراك (والإحساس والإدراك من موضوعات علم النفس الحديث ، ومعظم أجزاء هذا الكتاب تدور حولها) . والنفس - كما يرى ابن سينا - كمال أول ؛ ولأن الكمال للشيء ، فالنفس كمال الشيء ، وهذا الشيء هو الجسم ، ويجب أن يؤخذ الجسم بالمعنى الجنسي لا بالمعنى المادي ، ويستمر بعد ذلك في مناقشة وجود نفس للنبات والحيوان (ص ٥-١٣) .

ويخصص ابن سينا الفصل الثاني من هذه المقالة لذكر ما قاله القدماء في النفس وجوهرها ونقضه ، وقد اختلف الأوائل في جوهر النفس اختلافًا كبيرًا ، وربما كان ذلك ؛ لأنهم اختلفوا في المسالك إليه ، فمنهم من سلك إلى علم النفس من جهة الحركة ، ومنهم من سلك إليه من جهة الإدراك ، ومنهم من جمع بين المسلكين ، ومنهم من سلك طريق الحياة دون تفصيل ، وبعد أن يستعرض ابن سينا هذه الآراء ، ينتقدها ويخلص إلى أنها كلها باطل (ص ١٤ - ٢١) . ثم ينتقل إلى الفصل الثالث وهو بعنوان « أن النفس داخلة في مقولة الجوهر » ، وفيه يوضح أن النفس واحدة ، وأن لها قوى تنبعث عنها في الأعضاء ، ويتأخر فعل بعضها ويتقدم بحسب الاستعداد والنفس جامعة لقوى الإدراك واستعمال الغذاء ، كما أنها مكملة للبدن التي هي فيه ، وحافظة على نظامه ؛ فالنفس إذًا كمال لموضوع ، ذلك الموضوع متقوم به ، وهو أيضًا مكمل النوع وصانعه ، والخلاصة أن النفس ليست من الأعراض التي لا تختلف بها الأنواع ، ولا يكون لها مدخل في تقويم الموضوع ، وهي بذلك كمال كالجوهر ولا كالعرض (ص ٢٢ - ٢٦) .

أما الفصل الرابع فيركز على توضيح أن اختلاف أفعال النفس لاختلاف قواها ؛ فالنفس لها أفعال مختلفة ، يختلف بعضها بالشدة والضعف ، وبعضها بالسرعة والبطء (ص ٢٧) ، (وخاصة السرعة أو البطء Speed or Retardation من الخصائص المحددة للأداء البشري سواء كان حركيًا أم عقليًا أم إدراكيًا ، وقد نالت اهتمامًا كبيرًا في دراسات علم النفس الحديث) ، أو قد تختلف بالنسبة إلى أمور متضادة ؛ مثل الإحساس بالأبيض والأسود ، وإدراك الحلو والمر ، وقد تختلف بالجنس (إدراك اللون ، وإدراك الطعم) ، والقوى من حيث هي قوى إنما تكون مبادئ لأفعال معينة ، ويجوز أن تكون القوة الواحدة

مبدأ لأفعال كثيرة ، وبعد ذلك يقوم ابن سينا بتقسيم أفعال النفس إلى عدة أقسام ، وأولها يتكون من ثلاثة أفعال يشترك فيها الحيوان والنبات كالتغذية ، والتربية والتوليد ، وثانيها : أفعال تشترك فيها الحيوانات ؛ مثل : الإحساس والتخيل والحركة الإرادية ، وثالثها : أفعال تختص بالناس ؛ مثل تصور المعقولات واستنباط الحلول ، والروية في الكائنات ، والتفرقة بين الجميل والقبيح (ص ٢٧ - ٣١) .

والفصل الخامس والأخير من هذه المقالة في تعديد قوى النفس على سبيل المثال التصنيف ، ويبدأ بتقسيم القوى النفسية إلى ثلاثة أقسام ، أحدها النفس النباتية ، والثاني النفس الحيوانية ، والثالث النفس الإنسانية ، وللنفس النباتية ثلاث قوى هي : الغاذية ، والمنمية ، والمولدة ؛ أما النفس الحيوانية فلها قوتان هي : المحركة والمدركة ، والمحركة قسمان : إما محركة بأنها باعثة على الحركة ، وإما محركة بأنها فاعلة ؛ والقوة المدركة تنقسم قسمين : قوة تدرك من خارج ، وقوة تدرك من داخل ، والمدركة من خارج هي الحواس الخمس ، أما المدركة من داخل فبعضها قوى تدرك صور المحسوسات ، وبعضها تدرك معنى المحسوسات ، ومن المدركات ما يدرك ويفعل معًا ، ومنها ما يدرك ولا يفعل ، ومنها ما يدرك إدراكًا أوليًا ، ومنها ما يدرك إدراكًا ثانويًا (وكما سبق أن أشرنا ، يحدثنا ابن سينا حديثًا مفصلًا ومتعمقًا في الإدراك ولا يكتفي بذلك ، بل يقدم تحديدًا لمواضع المدركات في المخ Localization وهي جزء مهم من علم النفس العصبي Neuropsychology في الوقت الحاضر) . أما النفس الناطقة الإنسانية فتنقسم إلى قوة عاملة وقوة عالمة ، وكل واحدة من القوتين تسمى عقلًا باشتراك الاسم أو تشابهه ، والعاملة هي مبدأ محرك للبدن ليصدر الأفعال الجزئية (أو بمفاهيم علم النفس الحديث الاستجابات Responses التي تشكل السلوك Behavior وهو موضوع علم النفس على إطلاقه) ، والقوة العالمة توجه إلى المبادئ العالية العقول بالفعل وتسمى القوة النظرية ، ويلاحظ أن هذه القوى يرأس بعضها بعضًا ، ويخدم بعضها بعضًا ، والعقل هو رئيسها جميعًا وهي تخدمه (ص ٣٢ - ٤١) .

المقالة الثانية : وتتألف أيضًا من خمسة فصول ؛ أولها في تحقيق القوى المنسوبة إلى النفس النباتية ، ويستعرض القوى الخاصة بها ويعرفها قوة تلو أخرى من جهة أفعالها وفي الفصل الثاني من هذه المقالة ، يتحدث عن تحقيق أصناف الإدراكات التي لنا ، وهنا يتحدث عن الإدراك والحس والخيال والتخيل ، والوهم ثم يقارن بينهما ، ويفرق بين إدراك الحاكم الحسي ، وإدراك الحاكم الخيالي ، وإدراك الحاكم الوهمي ، وإدراك الحاكم

العقلي ، وانتهى إلى أن الإدراك أعم من الحس (ص ٥٠ - ٥٧) ، وبعد ذلك يبدأ في تفصيل حديثه عن أنواع الحواس ؛ ففي الفصل الثالث يخصص الحديث عن الحاسة اللمسية ، وهي أول الحواس الذي يصير بها الحيوان حيوانًا ، ويشرح لنا كيف نحس ، وكيف تنتقل الإحساسات من العصب إلى اللحم ، ولعل من أهم خواص اللمس أن جميع الجلد الذي يحط بالبدن حساس باللمس ولم يفرد له جزءًا منه ، ويتميز اللمس بالمباشرة أي ضرورة الاحتكاك المباشر بالجلد ، وذلك عكس الحواس الأخرى ، (ص ٥٨- ٦٣) .

ويفرد ابن سينا الفصل الرابع لحاستي الذوق والشم ، والذوق تالٍ للَّمس ، ومنفعته في الفعل الذي به يتقوَّم البدن ، وهو تشهية الغذاء واختياره ؛ أما الشم فإنه يثير الروائح من خلال الدلك ، وهو غير متاح لغيره ، فالإنسان أبلغ حيلة في التشمم من سائر الحيوانات الأخرى ، وفي بقية الفصل يفاضل بين الروائح في كيفية الشم ، ويقارن بين دور البخار ، والدخان ، والهواء في نقل الروائح (ص ٦٤ - ٦٩) . وفي الفصل الخامس والأخير من هذه المقالة يحدثنا عن حاسة السمع حديثًا مفصلًا ، ويرى أن الكلام عن السمع يقتضي الكلام عن الصوت وماهيته فيزيد الأمر تفصيلًا ، خاصة في الكلام عن الصدى (والكلام والسمع أحد مباحث علم اللغة ، وعلم اللغة النفسي ، خاصة علم الأصوات Phonology ، والعلاقة بين إنتاج الكلام Production ، وإدراكه Perception وهو من التيارات المعاصرة في علم النفس) ، ومن الملاحظ أن السمع يدرك التضاد الذي بين الصوت الثقيل والحاد ، وبين الصوت الخافت والجهير ، والأصلب والأملس ، والمتخل والمتكالف وغير ذلك ، وكل واحدة من هذه الإحساسات تحس لذاتها لا بسبب آخر (ص ٧٠ - ٧٦) .

المقالة الثالثة : فهي في الإبصار ويتألف كذلك من ثمانية فصول ، يناقش ابن سينا في الفصل الأول الضوء والشفيف واللون ، ويتحدث عن كيفية الاتصال الواقع بين الحاس والمحسوس البصري ، كما يفرق بين الضوء ، والنور ، والشعاع ، كما يفرق بين الأجسام من حيث الشفافية ؛ وهي قسمان : أحدهما ليس من شأنه الحجب ، والثاني من شأنه الحجب (ص ٧٩ - ٨٢) . وينتقل في الفصل الثاني ليتناول مذاهب وشكوكًا في أمر النور والشعاع وفي أن النور ليس بجسم ، بل هو كيفية تحدث فيه ، ويناقش بعض الآراء في هذا الصدد ويفندها (ص ٨٣ - ٨٧) . وزلف بعد ذلك إلى الفصل الثالث ويستأنف المناقشة في تمام مناقضة المذاهب التي تعترض على أن يكون النور شيئًا غير

اللون الظاهر بالإضافة إلى كلام عن الشفاف واللامع ، ويذكر بعض الآراء فيما يتعلق بالضوء واللمعان ، وعملية الإبهار وعلاقتها بالإبصار (ص ٨٨ - ٩٤) . أما في الفصل الرابع فهو في تأمل مذاهب قيلت في الألوان وحدوثها ويستعرض فيه الآراء الخاصة بتكون الألوان كالأبيض والأسود ، ويلخص رأيه في أن الألوان موجودات ، وليس وجودها لأنها أضواء فقط ، ولا الأضواء مظاهر لها ومع ذلك فلا يمكن أن تكون كما هي بالفعل بغير الأضواء (ص ٩٥ - ١٠١) ، وفي الفصول الخامس والسادس والسابع يتناول اختلاف المذاهب في الرؤية وإبطال المذاهب الفاسدة بحسب الأمور نفسها ، أو من الأشياء التي وردت في مذاهبهم ، ويختتم هذه المقالة بالفصل الثامن وهو في أسباب رؤية الشيء الواحد كشيئين ، ويحلل هذه الأسباب ويوضحها ، ويعطي الأمثلة . (وحديثه هنا يمس موضوعًا مهمًّا تناولته تجارب علم النفس في موضوع الإدراك وهو « الخداعات Illusions » كخداع أرسطو ، وخداع موللر - لير ، وغيرها من الخداعات ؛ وهي عبارة عن إدراك حسي خاطئ لا ينطبق على حقيقة الشيء المدرك إذا قيس بطريقة موضوعية ، وبعض هذه الخداعات عامة بين الأفراد جميعًا ، ويعتبرها البعض من التنظيمات الفطرية للإدراك الحسي ص ١٣٢ - ١٤١) .

المقالة الرابعة : وهي في الحواس الباطنة ، وهي مقسمة إلى أربعة فصول ، ويحتوي الفصل الأول على كلام عام عن الحواس الباطنة لدى الحيوان ؛ ويعرف فيه الحس المشترك بأنه القوة التي تنتهي إليها المحسوسات كلها ، والقوة التي تسمى الحس المشترك ، وهي مركز الحواس ، ومنها تتشعب الشعب ، وإليها تؤدي الحواس ، وهي التي تحس . ثم يقارن بين مدرك الحس ، ومدرك الوهم ، ويوضح موضعها من الدماغ ؛ أما الفصل الثاني فهو في أفعال القوة المصورة والمفكرة من هذه الحواس الباطنة ، ويتحدث عن النوم واليقظة والرؤيا الصادقة والكاذبة ، وضرب من حواس النبوة ، ثم يفصل القول في القوة المصورة التي هي الخيال ، وهي آخر ما تستقر فيه المحسوسات ، وبعد ذلك يحاول الربط بين الحلم والمزاج (ص ١٥١ - ١٦١) ، (والحديث عن النوم واليقظة وما يرتبط بهما ، يدخل في بعض الدراسات الحديثة التي تنتمي إلى علم النفس الفسيولوجي Physiological Psychology ، والمزاج كذلك ينتمي إلى دراسات الشخصية أو الجانب المزاجي منها) . وبعد الحديث عن القوة المصورة والمفكرة ، يتحدث في الفصل الثالث عن أفعال القوى المتذكرة والوهمية ، وفي أن أفعال هذه القوى كلها تتم بآلات جسمية ، كما تحدث عما بين القوة المتذكرة والمفكرة ، وتحدث في حال الوهم ، وفرق

بين الذكر والتذكر ؛ فيرى أن الذكر يوجد في سائر الحيوانات ، أما التذكر فلا يوجد إلَّا في الإنسان ، ويتناول بعد ذلك التعلم والتذكر ويشرحها شرحًا وافيًا وكيف يختلف الناس فيهما ، وكيف يختلفون في مظنتهم للإشارات وفهمها ، وكيف يعرض مع التذكر الغضب والحزن والغم ، ثم يفرق في النهاية بين الرجاء والتمني (ص ١٦٢ - ١٧١) . ونجد هنا دروسًا مباشرة في موضوعات معاصرة من موضوعات علم النفس وهي موضوع التذكر أو الذاكرة Memory ، وعلاقتها بالتعلم Learning بالإضافة إلى الحديث عن الإشارات Signals وهو من موضوعات علم النفس الاجتماعي ، كما أن حديثه عن الغضب والحزن والغم يدخل في دراسة الانفعالات وهي إحدى موضوعات علم النفس العام ، ويتحدث ابن سينا في الفصل الرابع عن أصول القوى المحركة ، والقوى المدركة وقد سبقت الإشارة إليهما (ص ١٧٢ -١٧٨) .

المقالة الخامسة : والفصل الأول فيها عن خواص الأفعال والانفعالات التي للإنسان ، وبيان قوى النظر والعمل للنفس الإنسانية ، ويخصص الحديث هنا عن قوى الإنسان ؛ باعتبار أن للإنسان خواص أفعال تصدر عن نفسه ليس موجودة لسائر الحيوانات ، ومن هذه الخواص تصدر المعاني الكلية العقلية المجردة عن المادة والتوصل إلى معرفة المجهولات تصديقًا وتصورًا من المعلومات العقلية وهذه الأحوال والأفعال المذكورة هي مما يوجد للإنسان ، ويفرق في هذا الفصل بين الاعتقاد Belief ، والاتجاه Attitude ، والرأي Opinion ، وكلها موضوعات تدخل في صميم دراسات علم النفس الاجتماعي (ص ١٨١ - ١٨٦) . وفي الفصل الثاني يحاول إثبات أن قوام النفس الناطقة غير منقطع في مادة جسمية ، ويلخص ذلك بقوله : إن الإنسان فيه شيء وجوهر ما يتلقى المعقولات بالقبول ، والجوهر الذي هو محل المعقولات ، ليس بجسم ولا قائم بجسم على أنه قوة فيه أو صورة له ، ويشتمل الفصل الثالث على مسألتين : إحداهما كيفية انتفاع النفس الإنسانية بالحواس ، والثانية إثبات حدوثها ؛ فالنفس الإنسانية تستعين بالبدن لتحصيل هذه المبادئ للتصور والتصديق ، كما أن النفس الإنسانية لم تكن قائمة مفارقة للأبدان ، ثم حصلت في الأبدان ، فالنفس الإنسانية متفقة في النوع والمعنى ؛ لذا فوجودها ليس حادثًا مع حدوث في الأبدان ، بل هو وجود منفرد ، والنفس ليست واحدة ، فهي كثيرة بالعدد ونوعها واحد ، ويحاول في الفصل الرابع أن يبرهن على أن النفس الإنسانية لا تفسد ولا تتناسخ ؛ لأنها لا تموت بموت البدن ، وهي لا تفنى مطلقًا ، وقد قدم ابن سينا في الفصل الخامس رؤيته في العقل الفعال في أنفسنا ، والعقل

المنفعل عن أنفسنا ؛ فالنفس الإنسانية قد تكون عاقلة بالقوة ، ثم تصير عاقلة بالفعل ، وتصور العقل يختلف بحسب وجود الأشياء ؛ فالأشياء القوية الوجود قد يقتصر العقل عن إدراكها لسيادتها ، والأشياء الضعيفة الوجود جدًّا كالحركة والزمان قد يصعب تصورها ؛ ولذا لا يتصورها العقل . وفي الفصل السادس يتناول مراتب أفعال العقل ويرى أن أعلى مراتبها هو العقل القدسي ، ويقدم ذلك من خلال مناقشة مستفيضة للعقل والمعقولات ، وتصورها ، ويحصي في الفصل السابع المذاهب الموروثة عن القدماء في أمر النفس وأفعالها ، وهل هي واحدة أو كثير وتصحيح القول الحق فيها وهذه المذاهب مختلفة ؛ فمن الناس من يرى أن النفس ذات واحدة ، وأنها تعقل جميع الأفعال بنفسها باختلاف الآلات والوسائل ، ومنهم من زعم أن النفس عالمة بذاتها تعلم كل شيء ، وإنما تستعمل الحواس والآلات المقربة للمدركات فيها لتنبه به لما في ذاتها ، ومنهم من يقول إن النفس ليست واحدة ، بل عدة ، وإن النفس التي في البدن ما هي إلّا مجموع أنفس ؛ نفس حساسة داركة ، ونفس غضبية ، ونفس شهوانية (ص ٢٢١- ٢٣١) .

ويختتم ابن سينا هذه المقالة ، والكتاب بالفصل الثامن في بيان الآلات التي للنفس ؛ فالقوى النفسية البدنية مطيتها الأولى جسم لطيف نافذ في المنافذ ، روحاني ، ذلك الجسم هو الروح ، وتتعلق النفس بالقلب ، ثم تفيض قوى الأفعال الأخرى من القلب إلى الأعضاء الأخرى ، ويكون الدماغ هو الذي يتم فيه مزج الروح الذي يصلح لأن يكون حاملًا لقوى الحس والحركة إلى الأعضاء مما لا يصلح معه أن تصدر عنها أفعالًا ، وبعد ذلك يعدد القوى الدماغية كالبصر والشم ، والذوق ، والسمع واللمس ، ويحدد مواضعها في الدماغ فيرى أن مركز الحس في الأمام ، ومركز الحركة في مؤخرة الدماغ (ص ٢٣٢ – ٢٣٧) ، وهو هنا يقدم فصلًا مبكرًا في علم النفس العصبي - Neuro Psychology .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في علم النفس العام .

* * *

النجاة : مختصر الشفاء [1]

عرض : د . معتز عبد الله

عرض الكتاب :

يتكون الجزء الثالث من كتاب النجاة « مختصر الشفاء » من مقالتين يدور مضمونهما حول الحكمة الإلهية ، وهما ما نعرض لهما على النحو التالي ذكره :

المقالة الأولى من إلهيات كتاب النجاة : وفيها يريد المؤلف أن يحصر جوامع العلم الإلهي ، فيقول : إن كل واحد من علوم الطبيعيات وعلوم الإلهيات إنما يفحص عن حال بعض الموجودات ، وكذلك سائر العلوم الجزئية وليس لشيء منها النظر في أحوال الموجود والمطلق ولواحقه ومباديه ، فظاهر أن ههنا علمًا باحثًا عن أمر الموجود المطلق ولواحقه التي له بذاته ومباديه ، ولأن الإله تعالى على ما اتفقت عليه الآراء كلها ليس مبدأ لموجود معلول دون موجود معلول آخر بل هو مبدأ للوجود المعلول على الإطلاق فلا محالة أن العلم الإلهي هو هذا العلم ، فهذا العلم يبحث عن الموجود المطلق وينتهي إلى التفصيل حيث تبتدئ منه سائر العلوم فيكون في هذا العلم بيان مبادئ سائر العلوم الجزئية .

وقد اشتملت هذه المقالة على مجموعة من الفصول التي يحاول المؤلف خلالها إثبات فروضه في هذا الجانب ، فيبدأ بفصل في مساوقة الواحد للموجود باعتبار ما ، وأنه بذلك يستحق لموضوعية هذا العلم ، ثم يعرض للأعراض الذاتية والغريبة ، ويبيِّن أقسام الموجود وأقسام الواحد ، ثم يتناول كيفية إثبات المادة وبيان ماهية الصورة

---

(١) القاهرة : مصطفى المكاوي ، محيي الدين صبري الكردي (١٩١٣م) . (٥١٢ص) . نسخة مصورة .

الجسمية ، ويوضح بعد ذلك أن الصورة الجسمية مقارنة للمادة في جميع الأجسام عمومًا ، وأن المادة لا تتجرد عن الصورة ، ثم يعرض لإثبات التخلخل والتكاثف ، ويعرض لترتيب الموجودات ، ويبينّ أن الكيفيات المحسوسة أعراض لا جواهر ، وأن الوَحدة من لوازم الماهيات لا من مقوماتها ، ثم يتناول أقسام العلل وأحوالها ، ويبينّ أن علة الحاجة إلى الواجب هي الإمكان لا الحدوث على ما يتوهمه ضعفاء المتكلمين ، ثم يعرض لمعاني القوة والاستطراد لإثبات الدائرة والرد على المتكلمين .

ويختتم المؤلف المقالة بمجموعة أخرى من الفصول التي يعرض فيها للقديم والحديث ، وأن كل حادث زماني فهو مسبوق بالمادة لا محالة ، وكيفية الحدوث الذاتي ، وأنواع الواحد والكثير .

• وأهم المفاهيم السيكولوجية التي ترتبط بمضمون هذه المقالة هي : بنية الجسم Constitution (ص ٣٢٧ - ٣٣٠) ، ومفهومي الزمان والمكان (ص ٣٢٩ - ٣٤٠) ، والعلية Causality (ص ٣٤٣ - ٣٤٧) ، والقوة Power (ص ٣٤٩ - ٣٥٢) .

المقالة الثانية من الإلهيات : وتشتمل على مجموعة من الفصول يتناول المؤلف فيها بيان معاني الواجب ومعاني الممكن ؛ فالواجب الوجود هو الموجود الذي متى فرض غير موجود عرض منه محال ، وأن الممكن الوجود هو الذي متى فرض غير موجود أوموجود لم يعرض منه محال ، والواجب الوجود هو الضروري الوجود والممكن الوجود هو الذي لا ضرورة فيه بوجه أي لا في وجوده ولا في عدمه ، ثم يوضح المؤلف في الفصل التالي لذلك أن الواجب بذاته لا يجوز أن يكون واجبًا بغيره ، وأن الواجب بغيره ممكن ، فلا يجوز أن يكون شيء واحد واجب الوجود بذاته وبغيره معًا ، وأن ما لم يجب لم يوجد .

ويعرض المؤلف بعد ذلك لفصل في كمال وحدانية واجب الوجود وأن كل متلازمين في الوجود متكافئين فيه علة خارجة عنهما ، فلا يجوز أن يكون اثنان يحدث منهما واجب وجود واحد ولا أن يكون في واجب الوجود كثرة بوجه من الوجوه ولا يجوز أن يكون شيئًا اثنان ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا وكل واحد منهما واجب الوجود بذاته وبالآخر ، ويلي ذلك فصل في بساطة الواجب ، وفصل في أن الواجب تام وليس له حالة منتظرة ، وأن واجب الوجود بذاته خير محض وكمال محض ، وأن واجب الوجود بذاته حق بكل معاني الحقيقة ؛ لأن حقيقة كل شيء خصوصية وجوده الذي

يثبت له فلا حق إذا أحق من الواجب الوجود ، كما أن نوع واجب الوجود لا يقال على كثيرين ؛ إذا لا مثل له ولا ضد ، فلا يجوز أن يكون نوع واجب الوجود لغير ذاته ؛ لأن وجود نوعه له بعينه إما أن تقتضيه ذات نوعه أو لا تقتضيه ذات نوعه بل تقتضيه علة فإن كان معنى نوعه لم يوجد إلّا له وإن كان لعلة فهو معلول ناقص وليس واجب الوجود .

ويأتي بعد ذلك فصل في أنه واحد من وجوه ، وفصل آخر في البرهان على أنه لا يجوز أن يكون اثنان واجبي الوجود ، أي أن الوجود الذي يوصف به ليس هو لغيره وإن لم يكن من جنسه ونوعه ، ويلي ذلك فصل في إثبات واجب الوجود ، وفصل في أنه لا يمكن أن يكون من جنسه ونوعه ، ويلي ذلك فصل في إثبات واجب الوجود ، وفصل في أنه لا يمكن أن يكون الممكنات في الوجود بعضها علة لبعض في سبيل الدور في زمان واحد وإن كانت عددًا متناهيًا ، وفصل آخر في التجرد لإثبات واجب الوجود ، وبيان أن الحوادث تحدث بالحركة ولكن تحتاج إلى علل باقية وبيان أن الأسباب القريبة المحركة كلها متغيرة ، وفصل في إثبات انتهاء مبادئ الكائنات إلى العلل المحركة لحركة مستديرة .

ويأتي بعد ذلك فصل في أن واجب الوجود بذاته عقل وعاقل ومعقول وعاشق ومعشوق ولذيذ ومتلذذ وأن اللذة هي إدراك الخير الملائم ، وفصل آخر في أن واجب الوجود كيف يعقل الأشياء ، وفصل في تحقيق وحدانية الأول بأن علمه لا يخالف قدرته وإرادته وحياته في المفهوم بل ذلك كله واحد ولا تتجزأ لأحد هذه الصفات ذات الواحد الحق ، وفصل في صدور الأشياء عن المدبر الأول ، وفصل في إثبات دوام الحركة بقول مجمل ، ثم بعده بقول مفصل .

ويأتي بعد ذلك فصل في أنه لا يجوز تعليق أحداث العالم بمجيء وقت ، وفصل آخر في أنه يلزم على قول المخالفين أن يكون اللّٰه تعالى سابقًا على الزمان والحركة بزمان ، وفصل آخر في أن المخالفين يلزمهم أن يضعوا وقتًا قبل وقت بلا نهاية وزمانًا ممتدًا في الماضي بلا نهاية وهو بيان جدلي إذا استقصى مال إلى البرهان ، وفصل في أن الفاعل القريب للحركة الأولى نفس لا عقل ، وأن حركة السماء مع أنها نفسانية كيف يقال إنها طبيعية .

ويأتي بعد ذلك فصل في أن المحرك الأول كيف يحرك وأنه محرك على سبيل

التشويق إلى الاقتضاء بأمره الأولي ، لاكتشاف تشبه بالعقل ، وفصل آخر في أن لكل فلك جزئي محركًا أولًا مفارقًا قبل نفسه يحرك على أنه معشوق ؛ فإن المحرك الأول للكل مبدأ لجميع ذلك ، وفصل آخر في إبطال رأي من ظن أن اختلاف حركات السماء لأجل ما تحت السماء ، وفصل في أن المعشوقات التي ذكرنا ليست أجسامًا ولا أنفس أجسام ، وفصل في ترتيب وجود العقول والنفوس السماوية والأجرام العلوية ، وفصل آخر على إثبات العقل المفارق ، وفصل في طريق ثالث للبرهنة على العقول المفارقة ، وفصل في كيفية تكون الإسطقسات عن العلل الأول ، وفصل في العناية وبيان دخول الشر في القضاء الإلهي ، وفصل في معاد النفس الإنسانية .

ويختتم المؤلف هذه المقالة بفصلين : أحدهما في المبدأ والمعاد بقول مجمل ، وفي الإلهيات والدعوات المستجابة والعقوبات السماوية وذكر الأحوال ، والثاني في إثبات النبوة وكيفية دعوة النبي إلى الله والمعاد

● ويرتبط مضمون المقالة السابقة بمجموع المفاهيم السيكولوجية هي : مفهوم العلية Causality (ص ٣٨٦ - ٣٩٧) ، والعقل Mind (ص ٣٩٨ - ٤٠٠) . و (ص ٤٥٦ - ٤٥٨) . واللذة (ص ٤٠٠ - ٤٠٢) ، والإدراك (ص ٤٠٠) ، والإدراك الزمني Time perception (ص ٤١٩ - ٤٢٠) والنفس (ص ٤٧٧ - ٤٩٠) ، والانفعالات (وخاصة السعادة) (ص ٤٧٨ - ٤٩٠) .

* * *

الإشارات والتنبيهات [1]

عرض : د . عبد المنعم شحاته محمود

عرض الكتاب :

يصف « ابن سينا » كتابه هذا بأنه « إشارات إلى مطالب هي الأمهات ، وتنبيهات على مباحث هي المهمات » (ص١١١) ، لذلك يتسم بالإيجاز الشديد ، على أساس أن كتبه الأخرى (مثل : الشفاء والحكمة المشرقية والأدوية القلبية) تتناول هذه المطالب والمباحث بالتفصيل الشديد والمطلوب ؛ لذلك يأتي تصنيفه للكتاب مختلفًا ، فالكتاب مكون من جزأين - وهناك جزء ثالث غير منشور - يختص الأول بالمنطق وهو مقسم إلى عشرة أنهاج (نهج) أي أبواب ، كل نهج مكون من عدة فصول ، ويختص الثاني بـ « الطبيعة » ومقسم إلى ثلاثة أنماط .

ويبدأ « ابن سينا » كتابه بالكلام عن المنطق لأهميته كآلة تعصم الفكر من الخطأ (ص ١١٥) ، فيبيِّن في نهجه الأول - المكون من ستة عشر فصلًا (ص ١١٧ - ١٨٦) - طرق النظر إلى معاني الألفاظ التي هي صور يصاغ فيها الفكر ، مبينًا العلاقة بين اللفظ والمعنى (ص ١٣٠) ، خصوصًا في ظل الاحتياج الشديد لمعرفة المعاني للألفاظ المفردة حتى يمكن التأليف بينها على أساس التصور والتصديق ، وكذلك التعلم والاكتساب بمعرفة مجهول من معلوم من خلال القياس (ص ١٣٣ - ١٣٦) ، لذلك

---

(١) تحقيق سليمان الدنيا . (ط ٣) . القاهرة : دار المعارف ، [د . ب] . ج١ في (٥١٨ ص) - (ذخائر العرب ، ٢٢) ، مع شرح لنصر الدين الطوسي . (ج ٢) نشر دار إحياء الكتب العربية .

بدأ (ص ١٣٨) بتعريف الألفاظ ، المفرد منها والمركب (ص ١٤٣) ، الجزئي منها والكلي ، (ص ١٤٩) الذاتي منها والعرضي (ص ١٥١) ، ودلالتها على المعاني .

كما يبينُ نهجه الثاني - المكون من أحد عشر فصلًا تحتويها الصفحات (١٨٧ - ٢٢١) - كلًا من الرسم والحد والجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام .

ثم ينتقل حديثه في النهج الثالث - المحتوي على عشرة فصول (ص ٢٢٢ - ٢٥٩) - إلى القضايا الخبرية التي تحتمل الصدق والكذب مبينًا أشكالها وأنواعها التي تتبع شكل العلاقة بين الموضوع والمحمول وصفاتهما .

ثم يتحدث نهجه الرابع - ويشتمل عشرة فصول من (ص ٢٦٠ - ٢٩٨) - عن كيفية تركيب القضية وشروطها . أما نهجه الخامس - (ص ٢٩٩ - ٣٤٠) - فيتحدث عن شكل التناقض بين القضايا وأسبابه وطرق عكس القضايا ، منتقلًا بعد ذلك في نهجه السادس - (ص ٣٤١ - ٣٦٤) إلى الحديث عما يصدق في القضايا ، والإشارات النفسية في هذا الجزء تتركز في النهج ، ففي (ص ٣٤٢) يتحدث ابن سينا عن المعتقدات Beliefs وأنواعها باعتبارها أحكام يصدرها العقل على الأشياء فإذا كان الحكم مطابقًا لما في الخارج فهو معتقد واجب القبول ، إذا لم يكن فهو من الوهميات أو المشهورات .

وفي (ص ٣٤٥) يتحدث عن أسباب الفروق الفردية فيقول : « فهي إما لنقصان الغريزة كما يكون للبله أو الصبيان ، أو بتدنيس الفطرة بالعقائد المضادة للأوليات كما يكون لبعض العوام والجهال » .

وفي (ص ٣٤٦) يؤكد معنى الإدراك الحسي عنده بأنه إضفاء معنى على المحسوسات ، وذلك عندما يعرِّف المشاهدات « القضايا التي إنما نستفيد التصديق بها من الحس ؛ مثل حكمنا بوجود الشمس وكونها مضيئة ، وحكمنا بكون النار حارة » .

ويؤكد في (ص ٣٦٣) أن الناس يسلكون في ضوء معلوماتهم ، فيقول : « أكثر الناس يقدمون أو يحجمون على ما يفعلونه وعما يذرونه إقدامًا وإحجامًا صادرًا عن النحو (يقصد « الميل والظن ») من حركة النفس » .

وابتداء من المنهج السابع - (ص ٣٦٥) - يفصل ابن سينا الكلام عن تركيب الحجج أو القياس - الاقتراني والاستثنائي - والاستقرار والتمثيل ، فيصنف القضايا التي تتشكل منها الحجج ، ويستطرد حديثه - في النهج التاسع - إلى أنواع البرهان وأهميته

الناتجة عن غلط في القياس لعدم شروطه السابق توضيحها على مدار هذا الجزء من « الإشارات » .

يقسم ابن سينا الجزء الثاني من الإشارات إلى ثلاثة أنماط - أو أبواب - يتناول أولها والمشتمل على اثنتي عشر مسألة أو فصل من (ص ١٣ - ١٣١) - حقيقة الأجسام ناقضًا الآراء التي سبقته حولها ، والخاصة بعدم قابلية الجسم للتجزئة ، موضحًا أن الجسم مؤلف من أجزاء ، أي أن له امتدادًا ويقبل الانقسام لكنه يدرك ككل ، ولذلك ينتقل إلى الحديث عن المقدار ، فما دام الجسم يقبل الانقسام ، فمعرفة المقادير ضرورية (ص٢٩) موضحًا أحكام هذه المقادير (ص ٩٥) وامتناع تداخلها (ص ١١١) ، وطالما هناك أجسام متعددة ومقادير مختلفة ، فهناك جهات (ص ١٢٢) ، (أمام وخلف ، شمال ويمين ...) مختلفة .

ويفصل في النمط الثاني - المكون من خمس عشرة مسألة (ص ١٣٢ - ٣٠٤) - الحديث عن هذه الجهات ، مؤكدًا أنها نسبية طبقًا لحركة الجسم ، مبرهنًا على أن للجهة وجودًا محسوسًا يعتمد على اتجاه الحركة ونهايتها ، والكلام عن الجهات وأنواع الحركات ينتهي بالكلام عن الفلك وكيفية حركة الأجسام الفلكية .

ويفرد ابن سينا أكثر من مائة وأربعين صفحة - هي مجموع صفحات النمط الثالث بمسائله الاثنتي عشر - للحديث عن النفس الإنسانية وكيفية إدراك الموجودات ، موضحًا علاقة ما يدركه الفرد بسلوكه إزاء الموضوع المدرك ، وعارضًا لنظرية في اكتساب المعرفة وارتقاء هذا الاكتساب .

وفي هذه الصفحات نرى ابن سينا علام نفسي معاصر ، لا تختلف آراؤه عن المبادئ النفسية المستدل عليها واقعيًا وتجريبيًا ، فنراه يشير إلى معنى النفس في أكثر من موضوع (الصفحات ٣٠٥ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٤ ، ٣٣٢ ، ٤٠٥ ، ٤٤٦) ويقصد بها « الذات » وهي غير البدن وغير مزاج البدن ؛ إنما هي الحركة والإرادة التي هي انفعال وتأثير .

ومن هذا المعنى « للنفس » يطور « ابن سينا » نظرية في السلوك لا تقل في صياغتها ودقتها عن النظريات النفسية المعاصرة ؛ فالسلوك عنده - وعند علماء النفس المعاصرين - معرفي المنشأ ، أي عبارة عن معلومات تلقاها الفرد وعالجها معالجة خاصة أدت إلى إصدار ضرب سلوكي مغين ، يقول « ابن سينا » ، (ص ٣٣٠) : « وإذا أحسست بشيء من

أعضائك شيئًا أو تخيلت (يقصد معلومات عن طريق الحواس أو الخيال) أو اشتهيت أوغضبت (انفعال) ألقت العلاقة التي بين النفس وبين فروعها (القوى الغضبية والشهوية ...) هيأة فيه ، حتى تفعل بالتكرار ، إذعانًا ما ، بل عادة وخلقًا يتمكنان من النفس » . يقصد أن المعرفة تؤدي إلى انفعال يترتب عليه سلوك ، إذا تكرر أصبح عادة ، ويفصل هذا المعنى عازم مجمع مذعًا ومنفعلًا عن خيال أو وهم أو عقل ، تنبعث عنه قوة غضبية دافعة للضار أو قوة شهوية حالية ، للضروري أو النافع .... فيطيع ذلك ما انبث في العضل من القوى المحركة ... أي معلومة تحدث في النفس انفعالًا يترتب عليه سلوك استجابة لأمر هو العزم أو النية ، وقد قال ذلك صراحة حينما قال : « خير النية ما ينفرج عن جناب علم » ، (انظر : الجزء الأول ص ٩٩) .

ولأهمية المعرفة والمعلومة أفرد « ابن سينا » قسمًا كبيرًا لتوضيح كيفية اكتسابها عارضًا لنظريته في تطور القوة العقلية النظرية أو العقل النظري ، وهي نظرية متكاملة عن التفكير الإنساني وعملياته المختلفة ، بادئًا بالحديث عن « الإدراك » Perception أي العملية النفسية الأولى بعد الإحساس Sensation ، فيعرفه (ص ٣٣٣) « إدراك الشيء هو أن تكون حقيقته متمثلة عند المدرك شاهدها ما به يدرك » ويفصل المعنى (ص ٣٣٥) « أو تكون مثال حقيقته مرتسمًا في ذات المدرك » .

ويقسم ابن سينا المدركات إلى مراتب على أساس بعد العيانية - التجريد (ص٣٣٨ - ٣٣٩) . فمنها الحسي « الشيء قد يكون محسوسًا عندما يشاهد » ، ثم خيال ، « ثم يكون متخيلًا عند غيبته » ، ثم عقل ، « وقد يكون معقولًا عندما تتصور معي الإنسان في زيد أو غيره » . وارتبط هذا التقسيم بما يقوله علماء النفس المعاصرون من أن الإدراك يتضمن عمليات حسية ورمزية وانفعالية .

ويشير « ابن سينا » إلى تأثير عدة عوامل في عملية الإدراك ؛ مثل : حركة الجسم (ص ٣٤٦) ، « أليس قد تبصر القطر النازل خطًا مستقيمًا والنقطة الدائرة بسرعة خطًا مستديرًا » ، والخبرة السابقة المتعلمة (ص ٣٥١) « فإن الحيوانات - ناطقها وغير ناطقها - تدرك من المحسوسات الجزئية معاني جزئية غير محسوسة ولا متأدية من طريق حواس ؛ مثل إدراك الشاه معنى في الذئب غير محسوس » .

ويشير « ابن سينا » إلى عمليات معرفية أخرى (ص ٣٨٩ - ٤٩١) مثل التعلم أو الاكتساب والذاكرة والنسيان ، « وأنت تعلم أن شعور القوة بما تدركه هو ارتسام

صورته فيها (إدراك) .. فإذا زالت زوالًا ما (نسيان) قد يكون عنها وعن قوة أخرى إن كانت كالخزانة لها (ذاكرة) هنا لا تعود للوهم إلَّا بتجشم كسب جديد (إعادة تعلم) ، أو تزول عنها زوالًا ما ، وتنحفظ في قوة أخرى هنا قد تعود وتلوح له بمطالعة الخزانة والالتفات إليها من غير تجشم كسب جديد » .

ويقدم « ابن سينا » تصورًا للنفس الإنسانية العاقلة (أي القادرة على اكتساب المعرفة) حيث يرى أن هناك جانبين لهما :

١ - العقل العملي المختص - بالاستعانة بالعقل النظري - بفعل الأمور الإنسانية الجزئية .

٢ - العقل النظري ويختص بتكميل جوهر النفس عن طريق تلقي العلوم والحقائق ، وهذا العقل النظري متضمن قوى هي :

أ - استعداد مطلق لتقبل المعرفة ويسميه « عقلًا هيولانيًا » ويشبه بالمشكاة التي وردت في الآية الكريمة (ص ٢٤ - ٣٥) .

ب - تهيؤ لاكتساب المعرفة إما بالفكر ، أي القياس ويشبهه « بالشجرة الزيتونة » أو بالحدس ويشبهه « بالزيت » ، وهذا التهيؤ يسميه « عقلًا بالملكة » ويشبهه « بالزجاجة » .

ج - ثم يحصل لها بعد ذلك قوة وكمال ؛ فأما الكمال فإن تحصيلها المعقولات بالفعل مشاهدة متمثلة في الذهن ، ويسميه « العقل المستفاد » ويشبهه « نور على نور » وأما القوة فأن يكون لها أن تحصل المعقول المكتسب المفروغ ، ويسميه « العقل بالفعل » ويشبهه « بالمصباح » ، (ص ٣٥٦ - ٣٧٥) ، والذي يخرج من الملكة إلى الفعل التام ، ومن الهيولاني « والعقل الفعال » وهو « النار » (ص ٣٧٧) .

ويجب أن يكون هناك اتصال بين هذه المكونات حتى تكتسب النفس المعرفة بالحقائق الكونية .

وقد تتسق بعض هذه المكونات (التي أوردها ابن سينا في الصفحات ٣٦١ - ٤٠٠ من الجزء الثاني) مع عمليات نفسية أثبتتها البحوث الحديثة وقد يكون بالقياس أو التحصيل كما يرى السلوكيون ، ويظل هذا التصور لابن سينا قائمًا طالبًا إجراء المزيد من البحوث .

ويقدم ابن سينا في الصفحات (ص ٣٥٣ - ٣٥٨ من الجزء الثاني) إرهاصًا بعلاقة

المخ بالعقل ، وعلاقة مكونات أو أجزاء من المخ بعمليات عقلية ذهنية ، حيث يقسم الرأس إلى ثلاثة تجاويف : الأول يتعلق مقدمه بالحس المشترك ومؤخره بالخيال ، والأوسط هو مركز « الوهم » أو « التخيل » و « التركيب » و « التفصيل » ، أما التجويف الثالث فيختص بالذاكرة .

وأخيرًا يشير - (ص ٣٨٦) - إلى ظاهرة « الفروق الفردية » بقوله : « ألست تعلم أن الناس مراتب (في الحدس والتفكير) فمنهم غبي ، ومنهم من له فطانة إلى حدٍّ ما ... ومنهم من هو أثقف من ذلك ... وتلك الثقافة غير متشابهة في الجميع ، بل ربما قلّت وربما كثرت » .

وفي نهاية كتابه ، وكلما بدأ بالحديث عن الأجسام الفلكية ، ختم به في تكملة النمط الثالث من خلال أربع مسائل من الصفحات (٤٤٣ إلى ٤٦١) - مقارنًا بين الحركات الفلكية والحركات النفسانية الإدارية ، معتبرًا حركات الأفلاك حركات غرادية ومقسمًا الإرادة إلى إرادة حسية وأخرى عقلية .

* * *

رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها [1]

عرض : د . معتز سيد عبد الله

ثانيًا : عرض الرسالة :

تتكون رسالة في معرفة النفس الناطقة وأحوالها من ثلاثة فصول وخاتمة ، نعرض لها على النحو التالي :

الفصل الأول : في إثبات أن جوهر النفس مغاير لجوهر البدن :

فنقول : المراد بالنفس ما يشير إليه كل أحد بقوله : « أنا » وقد اختلف أهل العالم في أن المشار إليه بهذا اللفظ هو هذا البدن المشاهد المحسوس أو غيره ، أما الأول فقد ظن أكثر الناس وكثير من المتكلمين أن الإنسان هو هذا البدن ، وكل أحد فإنما يشير إليه بقوله : « أنا » فهذا خطأ ، والقائلون بأنه غير هذا البدن المحسوس اختلفوا : فمنهم من قال إنه غير جسم ولا جسماني بل هو جوهر روحاني فاض على هذا القالب وأحياه واتخذه إله في اكتساب المعارف والعلوم حتى يستكمل جوهره بها ويصير عارفًا بربه عالمًا بحقائق معلوماته فيستعد بذلك للرجوع إلى حضرته ويصير ملكًا من ملائكته في سعادة لا نهاية لها ، وهذا هو مذهب الحكماء الإلهيين والعلماء الربانيين ، ووافقهم في ذلك جماعة من أرباب الرياضة وأصحاب المكاشفة ، فإنهم شاهدوا جواهر أنفسهم عند انسلاخهم عن أبدانهم واتصالهم بالأنوار الإلهية .

وقد قدم المؤلف ثلاثة براهين على صحة هذا المذهب ، ويرتبط مضمون هذا الفصل

(١) نشرها وعلق عليها محمد ثابت أفندي . القاهرة : المعلق ، [د . ب] . (١٦ ص) . نسخة مصورة .

بمجموعة من المفاهيم السيكولوجية هي النفس Psycle (ص ٦ – ٩) ، ومفهوم بنية الجسم Constitution ، والعلاقة بين النفس والجسم (ص ٦ – ٩) ، والإدراك الحسي Perception (ص ٨) .

الفصل الثاني : في بقاء النفس بعد بوار البدن :

يوضح المؤلف أن الجوهر الذي هو الإنسان في الحقيقة لا يفنى بعد الموت ولا يبلى بعد المفارقة عن البدن ، بل هو باقٍ لبقاء خالقه تعالى ؛ وذلك لأن جوهره أقوى من جوهر البدن ؛ لأنه محرك هذا البدن ومدبره ومتصرف فيه ، والبدن منفصل عنه تابع له ، فإذن لم يضر مفارقته عن الأبدان وجوده ، وإذ البدن موجود باق بعد الموت فلأن لا يُضر وجود النفس وبقاؤه كان أولى ؛ ولأن النفس من مقولة الجوهر ، ومقارنته مع البدن من مقولة المضاف ، والإضافة أضعف الأعراض ؛ لأنه لا يتم وجودها بموضوعها ، بل يحتاج إلى شيء آخر وهو المضاف إليه ، فكيف يبطل الجوهر القائم بنفسه ببطلان أضعف الأعراض المحتاج إليه ، ويرتبط مضمون هذا الفصل بمجموعة من المفاهيم السيكولوجية هي النفس (ص ٩ ، ١٠) ، وبنية الجسم (ص ٩ ، ١٠) ، والعلاقة بين النفس والجسم (ص ٩ ، ١٠) .

الفصل الثالث : في مراتب النفوس في السعادة والشقاوة بعد المفارقة عن الأبدان :

يوضح المؤلف في هذا الفصل أن النفس الإنسانية لا تخلو من ثلاثة أقسام : لأنها إما أن تكون كاملة في العلم والعمل ، وإما أن تكون ناقصة فيهما ، وإما أن تكون كاملة في أحدهما ناقصة في الآخر ، وهذا القسم الثالث على قسمين : لأنها إما أن تكون كاملة في العلم ناقصة في العمل أو بالعكس ، فتكون أصناف النفوس بحسب القسمة الأولى ثلاثة كما ورد في القرآن : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ [الواقعة : ٧- ٩] ، ثم قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة : ١٠، ١١] ، ويشير هذا الفصل إلى تفاوت النفوس في مقدار كمالها في العلم والعمل ؛ فمنها ما هو كامل في العلم والعمل ، ومنها ما هو ناقص في العلم والعمل ، ومنها ما هو ناقص في أحدهما فقط .

خاتمة الرسالة :

وذكر المؤلف فيها العوالم الثلاثة التي هي : عالم العقل ، وعالم النفس ، وعالم الجسم وترتيب الوجود من لدن الحق الأول إلى أقصى مراتب الموجودات على الترتيب

النازل من عنده تعالى ؛ ليكون الناظر في هذه الرسالة مطلعًا على جُمل من أجناس المخلوقات وشطر من أنواعها ، ويرتبط مضمون خاتمة الرسالة بمجموعة من المفاهيم السيكولوجية هي العقل Mind (ص ١٢ - ١٦) ، والنفس (ص ١٢ - ١٦) ، وبنية الجسم (ص ١٢ - ١٦) ، والعلاقة بين النفس والجسم (ص ١٢ - ١٦) ، وقيمة العدالة (ص ١٤ ، ١٥) ، والانفعالات ، والدافعية (ص ١٢ - ١٦) .

* * *

دفع المضار الكلية عن الأبدان الإنسانية بتدارك أنواع خطأ التدبير [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمود خليفة

عرض الكتاب :

يشتمل الكتاب على سبع مقالات نعرض لها على النحو الآتي :

المقالة الأولى : في تعديد أنواع الخطأ : ويتحدث فيه عن الصحة وأنها تابعة لاعتدال المزاج واستواء التركيب ، وحفظ الصحة يكون بتعديل أمور واجتناب أمور ، أما تعديل الأمور فتعديل الهواء والطعام والشراب ، والحركة ، واليقظة والنوم ، وتعديل الحركة النفسانية ، وأما اجتناب ما يكسر ويقطع ويخمد ويحرق ويعفن ... إلخ .

ويرتبط ما ورد في هذا الفصل بمفهوم الصحة الجسمية والنفسية (ص ٣٢٢) والطرق إلى الوقاية وتعديل السلوك ، كما يرتبط أيضًا بمفهوم المزاج Mood والحالة الانفعالية للفرد .

ثم تحدث بعد ذلك تفصيلًا عن تعديل الهواء ، وقسمه إلى الهواء العام ، والهواء الخاص ؛ أما العام فهو الهواء المشترك ، والخاص هو الحمام ، ثم تحدث بعد ذلك عن تعديل الطعام ، والمناسب منه ، وعمليات الهضم وما إلى ذلك ، وكذلك تحدث عن تعديل الماء من حيث الطعم والرائحة ... إلخ ، ويرتبط ما ورد في هذا الجزء بمفهوم الغريزة Instinct والانفعالات Emotions والدوافع الأولية (الجماع) ، (ص ٩) . كما تحدث المؤلف عن تعديل النوم واليقظة ، ويرتبط ما ورد من حديث علماء النفس

---

(١) القاهرة : المطبعة الخيرية ، ١٨٨٨ . ٦٨ ورقة . مع : منافع الأغذية ودفع مضارها / لأبي بكر الرازي .

عن الظروف والعوامل الجسمية والبيئية وعلاقتها بالحالة الانفعالية (ص ١٣) .

المقالة الثانية : في الهواء المسخن للقلب : وأنه يخلخل الجلد ، ثم هو مكثف له مهيئ لعفونة المرار والرعاف والصداع والحميات الحادة قليل الضرر للأبدان التي مزاجاتها الطبيعية حادة أو مزاجاتها الخارجة عن الطبيعة باردة كثيرة الضرر لمن هو بالصدر وللاجتراس منه بالاكتنان منه والمخامر وغير ذلك ؛ وأما الأبدان الحارة اليابسة المهزولة فيعرض لهم من ذلك حمى عفونة وربما عرض لهم الدق والصداع والرعاف . وأما أصحاب الأبدان الباردة الرطبة فيعرض لهم صداع لين وضيق نفس وضعف المفاصل وتعذر الحركة ، ثم ذكر علاج ؛ مثل هذه الحالات من خلال وصفه لبعض الأساليب أو الطرق الشعبية « أو الوصفات » السائدة .

المقالة الثالثة : في الحمام (في مضار الحمام) : تتحدث عن تعديل هواء الحمام ؛ فيكون ليس شديد الحرارة ولا ببارد يتعذر فيه العرق ، ويرتبط ما جاء في هذه المقالة بمفهوم المزاج Mood (ص ٣٦) .

المقالة الرابعة : (في مضار الإكثار من الطعام والامتلاء) : وتحدث فيها عن أضرار الإكثار من الطعام ؛ كإنهاك القوى الجسمية والربو والحميات والعفونة وعرق النسا ، والنقرس وأوجاع المفاصل ... إلخ ، كما تحدث أيضًا عن أضرار الإقلال من الطعام وما يترتب عليه من ضعف عام وأمراض تلحق بالإنسان .

المقالة الخامسة : في الماء والمشروبات ، وإكثار شرب المشروبات : وأنه له ثلاثة أضرار ، أحدها أنه يضعف الحرارة الغريزية في الأعضاء ، والثاني أن القوة المميزة في الكبد تضعف عن تمييز المائية عن الدم ، والثالث يسهل الطعام ويحدره قبل الوقت .

ويرتبط ما ورد في هذه المقالة بالأمراض النفسية والجسمية (أو السيكوسوماتية) Psychomatic Diseases (ص ٥٤) .

المقالة السادسة : في الحركات : فالحركات الكثيرة من مضارها الأولى التعفين ونقل المواد الرديئة إلى أعماق الأعضاء ، ومن مضارها الثانية وأمراض العصب الباردة وسقوط القوة وربما أورث الخفقان والغشى ، أما السكون الكثير فينشأ عن امتناع الأوتار عن طاعة العضل في الحركات وبلادة الحواس .

ويرتبط ذلك - بشكل غير مباشر - بموضوع الحرمان الحسي Sensory Deprivation .

المقالة السابعة : في أمر الاستفزاع فيمن أضر به الفصد : ويعالج بما عولج به من أضر

به الجماع (فيمن قصد على شرب ماء كثير) هذا يخاف عليه الاستسقاء لاندفاع الماء منحدرًا مع الدم إلى أغوار الأعضاء ، فينبغي أن يشتغل بإدراره إن كان حار المزاج .

ويرتبط ما جاء بهذه المقالة بمفهوم الأمراض العصبية (ص ٦٧) .

* * *

كتاب السياسة [1]

عرض : د . معتز سيد عبد اللّه

عرض الكتاب :

يعرض المؤلف في كتابه لأهمية السياسة على أساس أن الإنسان حيوان مدني محتاج للعيش في مجتمع من أجل قضاء حاجاته الأساسية ، وقد بدأ الكتاب بافتراض أن الناس يتفاوتون فيما بينهم في الصفات والرتب ، ثم عرض للزوم التدبر والسياسة لجميع الناس ، وعرض لأقوال تبيِّن وجوب السياسة والحاجة إليها ، ثم ذكر أصناف هذه السياسة ، وهو ما نعرض لتفاصيله على النحو التالي ذكره :

التفاوت بين الناس في الصفات والرتب : وقد أوضح في بداية الكتاب أن هناك تفاوتًا بين الناس في الصفات والرتب ، حيث أقر أن اللّه تعالى منَّ على جميع الناس بفضل رأفته منًّا مستأنفًا بأن جعلهم في عقولهم وآرائهم متفاضلين كما جعلهم في أملاكهم ومنازلهم ورتبهم متفاوتين لما في استواء أحوالهم وتقارب أقدارهم من الفساد الداعي إلى فنائهم ، لما يُلقى بينهم من التنافس والتحاسد ويثير من التباغي والتظالم ، فقد علم ذوو العقول أن الناس لو كانوا جميعًا ملوكًا لتفانوا عن آخرهم ، ولو كانوا كلهم سوقة لهلكوا عيانًا بأسرهم ، كما أنهم لو استووا في الغنى لما مَهَنَ أحدٌ لأحد ، ولا رفد حميمٌ حميمًا ، ولو استووا في الفقر لماتوا ضرًّا وهلكوا بؤسًا .

---

(١) تحقيق هشام نشابة . بيروت : دار العلم للملايين (١٩٨٨م) . ضمن كتاب : التراث التربوي في خمس مخطوطات / جمع وتحقيق هشام نشابة .

ويرتبط الجزء السابق بمفهوم الفروق الفردية Indvidual Differences في علم النفس (ص ٢٨) .

لزوم التدبر والسياسة لجميع الناس : ويوضح ابن سينا في هذا الجزء أن أحق الناس وأولاهم بتأمل ما يجري عليه تدبير العالم من الحكمة وحسن إتقان السياسة وإحكام التدبير ، الملوك الذين جعل اللّه - تعالى ذكره - بأيديهم أزمة العباد ، وملَّكهم تدبير البلاد ، واسترعاهم أمر البرية ، وفوض إليهم سياسة الرعية ، ثم الأمثل فالأمثل من الولاة الذين أعطوا قياد الأمم ، واستُكفوا تدبير الأمصار والكور ، ثم الذين يلونهم من أرباب النعم وسواس البطانة والخدم ، ثم الذين يلونهم من أرباب المنازل ورواض الأهل والولدان ، فإن كل واحد من هؤلاء راع لما يحوزه كنفه ويضمه رَحْله ، ويصرفه أمره ونهيه ومن تحت رِعْيته ، ويحتاج أصغرهم شأنًا ، وأخفهم ظهرًا ، وأرقهم حالًا ، وأضيقهم عَطَنًا ، وأقلهم عددًا من حسن السياسة والتدبير ، ومن كثرة التفكير والتقدير ، ومن قلة الإغفال والإهمال ، ومن الإنكار والتأنيب والتعنيف والتأديب والتعديل والتقويم ، إلى جميع ما يحتاج إليه الملك الأعظم .

ويرتبط الجزء السابق بمفهوم القيادة Leadership (ص ٢٨ - ٣٠) ، وسمات القائد (ص ٢٨ - ٣٠) .

أهل الإنسان : وعرض في هذا الجزء لأقوال مجملة في وجوب السياسة والحاجة إليها تمهيدًا لتناوله لسياسة الرجل مع نفسه ، ودخله وخرجه ، وأهله ، وولده ، وخدمه بالشكل التالي ذكره .

من سياسة الرجل مع نفسه : وبين هنا أن أول ما ينبغي أن يبدأ به الإنسان من أصناف السياسة سياسة نفسه ؛ إذ كانت نفسه أقرب الأشياء إليه ، وأكرمها عليه ، وأولاها بعنايته ؛ ولأنه متى أحسن سياسة نفسه لم يَعْيَ بما فوقها من سياسة المِصْر .

ومن أوائل ما يلزم من رامَ سياسة نفسِه أن يعلم أن له عقلًا هو السائس ، ونفسًا أمارة بالسوء ، كثيرة المعايب ، جمة المساوئ في طبعها ، وأصل خلقها ، هي المسوسة ، وأن يعلم أن كل من رام إصلاح فاسد لزمه أن يعرف جميع فساد ذلك الفاسد ، معرفة مستقصاة حتى لا يغادر منه شيئًا ، ثم يأخذ في إصلاحه ، وإلَّا كان ما يصلحه غير حريز ولا وثيق ، كذلك من رام سياسة نفسه ورياضتها وإصلاح فاسدها لم يجز له أن يبتدئ في ذلك حتى يعرف جميع مساوئ نفسه معرفة محيطة فإنه إن أغفل بعض تلك

المساوئ وهو يرى أنه قد عملها بالإصلاح ، كان كمن يُدْمِل ظاهر الكَلْم وباطنه مشتمل على الداء ، ولما كانت معرفة الإنسان غير موثوق بها لما في طباع الإنسان من الغباوة عن مساوئه وكثرة مسامحته نفسه عند محاسبتها ؛ ولأن عقله غير سالم من ممازجة الهوى إياه عند نظره في أحوال نفسه ، كان غير مستغن في البحث عن أحواله والفحص عن مساوئه ومحاسنه عن معونة الأخ اللبيب الواد الذي يكون منه بمنزلة المرآة فيريه حسن أحواله حسنًا وسيئها سيئًا ، وأحق الناس بذلك وأحوجهم إليه الرؤساء .

وينبغي لمن عني بتعرف مناقبه ومثاليه أن يفحص عن أخلاق الناس ، ويتفقد شيمهم وخلائقهم ، ويتبصر مناقبهم ومثالبهم ، فيقيسها بما عنده منها ، ويعلم أنه مثلهم وأنهم أمثاله فإن الناس أشباه ، بل هم سواء كأسنان المشط ، فإذا رأى المنقبة الحسنة فليعلم أن فيه مثلها ، إما ظاهرة وإما مغمورة ، فإن كانت ظاهرة فليراعيها ، وليواظب عليها حتى لا تبيد ولا تضمحل ، وإن كانت مغمورة فليثرها وليُحيها وليحافظ على استدعائها فإنها تجيب بأهون سعي وأسرع وقت ، وإذا رأى المثلبة والعادة السيئة والخلق اللئيم فليعلم أن ميلها راهن لديه ، إما باد وإما كامن ، فإن كان باديًا فليقمعه وليقهره وليُمِتْه بقلة استعماله وشدة نسيانه ، وإن كان كامنًا فليحرسه لئلا يظهر وينبغي للإنسان أن يعد لنفسه ثوابًا وعقابًا يسوسها به ، وحسُنت طاعتها وسلس انقيادها لما يسومها من قبول الفضائل وترك الرذائل .

ويرتبط الجزء السابق بمفهوم التربية Education (ص ٣٢ - ٣٥) ، ومفهوم الوعي بالذات Self - Awareness (ص ٣٢ - ٣٥) .

في سياسة الرجل دَخْلَه وخرجهُ : ويوضح المؤلف في هذا الجزء أنه ليس شيء أزين بالرجل من رزق واسع وافق منه استحقاقًا ، ثم ليطلب معيشته بصناعة على أعف الوجوه وأرفها وأبعدها عن الشره والحرص ، وأناها من الطمع الفاحش والمأكل الخبيث ، وليعلم أن كل فضل نيل بالمغالبة والمكابرة وبالاستكراه والمجاهدة ، وكل ربح حيز بالإثم والعار ومع سوء القالة وقبح الأحدوثة ، أو ببذل الوجه ونزف الحياء ، أو بثلم المروءة وتدنيس العرض .. زهيد وإن عظم قدره ، نزر وإن غزرت مادته ، وبيل وإن ظهرت هناءته ، وخيم وإن كان في مرآة العين مرايا ، وأن الصفو الذي لا كدر فيه والعفو الذي لا كدح معه ، وإن قل مقداره وخف وزنه ، أطيب مذاقًا وأسلس مساغًا وأنمى بركة وأزكى ريقًا .

فإذا حاز الإنسان ما اكتسبه فإن من السيرة العادلة في ذلك أن يكون بعضه مصروفًا في الصدقات والزكوات وأرباب المعروف وبعضه مستبقى مدخرًا لنوائب الدهر وأحداث الزمان .

في سياسة الرجل أهله : يوضح المؤلف أن جماع سياسة الرجل أهله بحسم وسط (كذا) ثلاثة أمور لا تدعه وهي : الهيبة الشديدة ، والكرامة التامة ، وشغل خاطرها بالمهم .

ويرتبط مضمون هذا الجزء بمفهوم العلاقات الأسرية وبخاصة علاقة الرجل بزوجه (ص ٣٨ ، ٣٩) .

في سياسة الرجل ولده : إن من حق الولد على والديه إحسان تسميته ، ثم اختيار ظئره كي لا تكون حمقاء ولا ورهاء ولا ذات عاهة ، فإن اللبن يعدي كما قيل ، فإذا فطم الصبي عن الرضاع بُدئ بتأديبه ورياضة أخلاقه ، فإذا اشتدت مفاصل الصبي واستوى لسانه وتهيأ للتلقين ووعي سمعه أخذ في تعليم القرآن وصور له حروف الهجاء ولُقن معالم الدين ، وإذا فرغ الصبي من تعلم وحفظ أصول اللغة نظر عند ذلك إلى ما يُراد أن تكون صناعته موجهة لطريقه ، فإذا وغل الصبي في صناعته بعض الوغول فمن التدبير أن يعرض للكسب ، ويُحمل على التعيش منه .

ويرتبط مضمون هذا الجزء ببعض المفاهيم السيكولوجية هي التنشئة الاجتماعية Socialization والعلاقات الأسرية وبخاصة علاقة الرجل بأولاده ، وتهذيب الأولاد وتوجيههم وإرشادهم (ص ٤٠ – ٤٢) .

في سياسة الرجل خدمه : طريق اتخاذ الخدم أن لا يتخذ الإنسان خادمًا إلا بعد المعرفة والاختبار له ، وإلا بعد سَبْرِهِ وامتحانه ، فينبغي أن تُعمل فيه التقدير والفراسة والحدس والتوسم ، وأن تضرب عن الصور المتفاوتة والخلف المضطربة ، فإذا فرغ من ذلك فلينظر لأي أمر يصلح الخادم الذي يتخذه ، وأي صناعة ينتحل .

ويرتبط الجزء السابق بمفهوم العلاقات بين الأشخاص Interpersonal Relationship ، (ص ٤٣ – ٤٥) .

* * *

رسائل متفرقة

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

هذه المجموعة من الرسائل ، تقع ضمن مجموعة أخرى لمفكرين آخرين كأبي شامة الشافعي والغزالي ، وابن عربي ، والرازي وغيرهم ، والمجموعة كلها تقع في كتاب ضخم ينقسم إلى قسمين عدد صفحاته ٦٣٥ صفحة من القطع الصغير تحتل مجموعة رسائل ابن سينا الصفحات من (١٨٩ - ٢٩٠) متصلة ، وتضم علم الأخلاق ، ورسالة العهد ، والقوى الإنسانية وإدراكاتها ، وأقسام العلوم العقلية ، ورسالة سر القدر ، ورسالة المبدأ والمعاد ، وبيان الجوهر بالنفيس .

عرض الرسالة الأولى : (في علم الأخلاق) : ويبدأها بضرورة استكمال المرء لقوته النظرية بالعلوم ، وتكميل قوته العملية بالفضائل التي أصولها الفقه والشجاعة والحكمة والعدالة المنسوبة إلى كل قوة من قواه ، وتجنب الرذائل فيها ، ويرى أن كل صفة من هذه الصفات تنتمي إلى قوة من القوى ؛ فالعفة إلى الشهوانية ، والشجاعة إلى الغضبية ، والحكمة إلى التمييزية ، والعدالة إليها مجموعة ، وينبثق عن كل قوة من هذه القوى أيضًا عدد من الصفات ؛ فالسخاء والقناعة راجعان ومنسوبان إلى القوة الشهوانية ، والصبر والحلم والكرم والعفو والصفح ، والتجاوز ، ورحب الباع وكتمان السر راجعة ومنسوبة إلى القوة الغضبية ، والحكمة والبيان والفطنة وإصابة الرأي ، والحزم والصدق والوفاء والود والرحمة والحياء ، وعظم الهمة وحسن العهد والتواضع راجع إلى القوة التمييزية .

ويستطرد الشيخ الرئيس ليعرف كل صفة من هذه الصفات تعريفًا محكمًا ، والكلام الذي يسوقه ابن سينا هنا يفيد فائدة مباشرة في علم النفس ، فحديثه عن القوى وتقسيمها يقابله تقسيم السلوك إلى قدرات أو وظائف نفسية بعضها عقلي Mental وبعضها مزاجي Temperamental ؛ كما أن الصفات التي ذكرها مرتبطة بكل قوة من هذه القوى هي أيضًا سمات ووظائف نفسية تنتمي إلى القدرات العقلية أو إلى سمات الشخصية فالعفة وهي الإمساك عن الشهوات وتصريفها بحسب الرأي الصحيح هو أقرب إلى السيطرة على الدوافع ، والصبر أقرب إلى ضبط النفس وكذلك الحلم ، والبيان (وهو حسن العبارة عن المعاني التي تهجس في ضميره فيحتاج إلى نقل صورها المتخيلة أو المعقولة إلى ضمير من يخاطبه) وهو أقرب إلى سيكولوجية اللغة أو التخاطب ، والفطنة أقرب إلى الذكاء ... وهي كلها مما يدرس في علم النفس الحديث (ص ١٩١ - ١٩٦) .

ويتابع ابن سينا حديثه فيبين أن كل إنسان مفطور على قوة بها يفعل الأفعال الجمية ، وتلك القوة بعينها تفعل الأفعال القبيحة والأخلاق كلها الجميل منها والقبيح وهي مكتسبة (وهنا نلمح الإشارة إلى التفرقة بين الوراثة والاكتساب وهي قضية يتعرض لها الدارسون في شتى موضوعات علم النفس الحديث ، كما تحمل في ثناياها الإشارة إلى قدرة الإنسان على التعلم Learning ودور العادة في ذلك التعلم ص ١٩٧) .

وفي موضع تالٍ يتعرض للعلاقة بين أخلاق أصحاب السياسات الجيدة ، وأصحاب السياسات الرديئة وبين أهل المدن (وهذا الحديث له متضمنات سيكولوجية فهو يمس موضوع القيادة Leadership ودور القائد Leader وهو من موضوعات علم النفس الاجتماعي أو كما يرى البعض علم النفس التنظيمي Organizational Psychology ومن ناحية أخرى يمس موضوع التعلم بالاقتداء Modeling (ص١٩٨ ، ١٩٩) أو المحاكاة .

ويلفت النظر إلى أن النفس الإنسانية لا يقتصر فعلها على إدراك المعقولات فقط ، بل تشارك البدن في أفعال أخرى يحصل بسببها لها سعادات ، وهنا يوجه الحديث مباشرة إلى أفعال النفس أو قل أنماط السلوك كالإدراك وغيره ، كما يناقش العلاقة بين النفس والبدن ، وهو كلام يدور مضمونه في فلك موضوعات نفسية يتناولها علم النفس الحديث (ص ٢٠٠ - ٢٠٣) .

عرض الرسالة الثانية : رسالة العهد : وهي رسالة مختصرة يواصل الحديث فيها عن

النفس وتزكيتها وإخراجها من القوة إلى الفعل عالمًا من عوالم العقل ، فيه الهيئة المجردة عن المادة وتحصيل كمالها من جهة العلم والحكمة ، وأن تتصف بالأخلاق الطيبة وتطلب الاستعلاء ، وتترك الغضب والشهوة ، وتحسن الفكرة وتهجر الكذب قولًا وتخيلًا ، وأن تجعل حب الخير للناس والمنفعة فضلًا إليهم ، وعشق الأخيار وحب تقويم الأشرار (وهذا الحديث أيضًا له متضمنات سيكولوجية كثيرة ، كالعقل (الذكاء والتفكير والقدرات العقلية النوعية) والانفعالات (الغضب) والدوافع ، وسمات الشخصية الجيدة ، وانتقاء الأصدقاء (ص ٢٠٠ - ٢٠٩) .

عرض الرسالة الثالثة : رسالة في القوى الإنسانية وإدراكاتها : وتحتوي على فصول أولها في أن قوى روح الإنسان تنقسم إلى قسمين ، قسم موكل بالعمل ، وقسم موكل بالإدراك ، والعمل ثلاثة أقسام النشئي وإنساني وحيواني ، والإدراك قسمان : حيواني وإنساني ، وإذا تجاوزنا العمل النشئي والحيواني ، ووقفنا عند العمل الإنساني سنجد أن ما يميزه وجود عقل يفيده التجارب و يفيده التأديب فيؤتيه العيش بعد صحة العقل الأصيل (وهنا نعرض لأهم ما يميز العمل الإنساني وهو العقل ، والعقل من موضوعات علم النفس ، كما أن فكرة الاستفادة من التجارب ، هي مما يميز دراسات علم النفس الحديث ص ٢١٣) .

ويناقش ابن سينا أيضًا موضوعًا من أهم موضوعات علم النفس الحديث وهو الإدراك الحسي Perception ، ثم يربطه بموضوع آخر هو الذاكرة Memory أو كما يسميه هو الذكر ، ثم يفصل الحديث بعد ذلك عن الحواس الخمس ، بل يتجاوز ذلك محاولًا تحديد مواضع إدراكات الحواس في الدماغ ، ومن القوى أيضًا ما يسميه بالقوة المفكرة ، فإذا استعملها الوهم تسمى متخيلة (وهذا الحديث يصب مباشرة في بعض فروع علم النفس العام كالإدراك الحسي والتخيل والتذكر والتفكير ، كما أن البحث عن مواضع الوظائف النفسية في الدماغ ينتمي لدراسات علم النفس الفسيولوجي من جهة وعلم النفس العصبي Neuropsychology من جهة أخرى (ص ٢١٢ - ٢١٦) .

وفي فصل تال يميز بين الحس والعقل ؛ فالحس تصرفه فيما هو من عالم الخلق والعقل تصرفه فيما هو من عالم الأمر . وما هو فوق الخلق والأمر فهو محتجب عن الحس والعقل وليس حجابه غير انكشافه (ص ٢١٩) .

وفي الفصلين المتبقين يتحدث في الأول عن الملائكة وذواتها ، والثاني عن القلم

واللوائح والكتابة (ص ٢٢٠ - ٢٢٤) .

عرض الرسالة الرابعة : عن أقسام العلوم العقلية (ص٢٢٥ - ٢٤٣) : ويتناول فيها ماهية الحكمة ، وأول أقسام الحكمة ، ثم تفصيل الحكمة النظرية والحكمة العملية ، وفصل في أقسام الحكمة الطبيعي ، ثم أقسام الحكمة الفرعية الطبيعية ، ويتحدث كذلك عن الأقسام الأصلية للحكمة الرياضية ، والأقسام الفرعية للعلوم الرياضية ، والأقسام الأصلية للعلم الإلهي ، وفروع العلم الإلهي ، ويختتم هذه الرسالة بالأقسام التسعة للحكمة التي هي المنطق ، ويتحدث في القسم الأول عن أقسام الألفاظ والمعاني من حيث هي ثلاثة ومفردة ، والقسم الثاني يتبين فيه عدد المعاني المفردة الذاتية الشاملة بالعموم لجميع الموجودات من جهة ما هي تلك المعاني من غير شرط تحصلها في الوجود أو قيامها بالعقل . (والكلام هنا ينتمي بشكل غير مباشر لبعض اهتمامات علماء النفس المعنيين بسيكولوجية اللغة Psycholinguistics وهي إحدى التخصصات الحديثة في علم النفس ص ٢٤٠ ، ٢٤١) .

عرض الرسالة الخامسة : رسالة سر القدر : وهي رد على بعض السائلين عما يريده الصوفيون من قولهم : من عرف سر القدر فقد ألحد ، وأوضح في جوابه أن هذه المسألة فيها أدنى غموض ، وهي من المسائل التي لا تدور إلا مرموزة ولا تعلم إلا مكنونة لما في إظهارها من إفساد العالم . (وجل الكلام هنا يتعلق بالآخرة والحساب والثواب والعقاب ص ٢٤٥ - ٢٤٩) .

عرض الرسالة السادسة : رسالة المبدأ والمعاد : وتدور حول أربع مسائل من تصانيف الشيخ الرئيس أبي علي بن سينا في أمر المعاد ، والسؤال الأول فيها من أي موضع جئنا إلى هذا العالم ؟ والثاني لأي شيء جئنا ؟ والثالث عندما نخرج من هذا العالم إلى أين مرجعنا ؟ والسؤال الرابع ما يكون حالنا بعد مفارقة الدنيا عند حصولها في البرزخ ؟ .

عرض الرسالة الأخيرة : في بيان الجوهر النفيس : ويقول فيها ابن سينا : إن هذه رسالة أَبَنْتُ فيها عن خالص رأي الأقدمين في حقائق الأجرام العلوية حسبما استخلصته من كلامهم المعرب الواصل إلينا .

ويقسمها إلى فصول ، الأول فيها حول تقسيم الأجسام إلى مركب وبسيط ، والثاني حول أصول ومبادئ أخرى لاحت للطبيعيين في مسألة البسيط والمركب ، والثالث في علاقة القوة الطبيعية أو الطبيعة بالتباسط والمركبات ، والرابع توضيح بأن الفلك ليس من

عالم الكيان وأنه موجود على سبيل الإبداع والاختراع وأنه لا ضد لصورته ، وأن طبيعته وذاتيته لا يمكن أن تتخيل ، وإن أمكن تخيل الشكل والاستنارة والإشفاف والاستمساك ولذلك ، فالفلك - في رأي الشيخ الرئيس - جوهر جسماني مستدير الشكل والحركة غير متزحزح عن موضعه الطبيعي ولا ساكن عن وضع واحد .

ثم يختتم هذه الرسالة بخاتمة مهمة جدًا - كما يقول - تبين أن العلم الحق لا يؤخذ من الحواس كما هو شأن كثير من الناس الذين انخدعوا عن الثوابت بخداع المشعر الحاس وقوة الوسواس .

* * *

الطبعة الأولى
لدار السلام
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

علم النفس في التراث الإسلامي / إبراهيم شوقي عبد الحميد ... [وآخ] ؛ إشراف وتقديم / محمد عثمان نجاتي ، عبد الحليم محمود السيد . ط١ . - القاهرة ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ؛ المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ٢٠٠٨م .
٣ مج ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٥ ٦٥٠ ٣٤٢ ٩٧٧
١ - علم النفس الإسلامي .

٢١٠,١٩

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس محتويات الجزء الثاني

(١) رتبت الأسماء تبعًا لتاريخ الوفاة .

* * *

ابن الهيثم
أبو علي الحسن (ت ٤٣٢هـ)
مقالة عن ثمرة الحكمة [(١)]

عرض : د. جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف :

تقع حياة ابن الهيثم بين حوالي عام (٣٥٤هـ و ٤٣٢هـ) ، وهذه فترة ازدهار علم الكلام المعتزلي وبلوغه ذروة عالية في مؤلفات القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني (ت ٤١٥هـ أو ٤١٦هـ) ، والمرحلة الأولى من ازدهار علم الكلام الأشعري على يد القاضي أبي بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) .

وكان ابن الهيثم معاصرًا لابن مسكويه (ت ٤٢١هـ) وابن سينا (ت ٤٢٨هـ) وأبي الريحان محمد بن أحمد البيروني (ت ٤٤٠هـ) لكنه كان في أول أمره بالبصرة ، وأقام في الشام حينًا ، ثم استقر في مصر على عهد الحاكم بأمر اللَّه الفاطمي (ت ٤١١هـ) ، وفيها توفي إلى رحمة اللَّه ، ولا يوجد بين أسماء مؤلفاته الكثيرة ما يدل على اهتمامه بمذاهب فلاسفة الإسلام المعاصرين له ، ومن الواضح أنه وجَّه كلَّ اهتمامه - رغم كل شروحه وتلخيصاته لمؤلفات اليونان - إلى علوم الرياضيات والفلك والهيئة وفيها تجلَّى نبوغه .

لكن ابن الهيثم لم يكن منقطع الصلة بحياة الفكر الإسلامي في عصره من ناحية معينة ، هي ناحية العقيدة ومنهج إثباتها ، فرغم قوة الفكر الديني عند المتكلمين والفلاسفة ، إلا أنه كانت هناك اتجاهات مغايرة ، عُني باتخاذ موقف إزاء هذه

---

(١) تحقيق وتقديم محمد عبد الهادي أبو ريدة ، القاهرة ، د.ن ، (١٩٩١م) ، (ص ٣٧) .

الاتجاهات ، فألف في الرد على ابن الراوندي وعلى الرازي (الطبيب محمد بن زكريا) وآرائه في العلم الإلهي وفي النبوات ، كما ردَّ على المعتزلة في بعض آرائهم .

يذكر من بين مصنفات ابن الهيثم « مقالة في حساب الخطأين » وفي الرسالة التي نقدمها ذكر هذا النوع من الحساب (مصدر الترجمة : مقالة عن ثمرة الحكمة ، تحقيق محمد بن عبد الهادي أبو ريدة ، القاهرة ، ١٩٩١م) .

عرض المقالة :

تقع المقالة في ٣٧ صفحة من القطع الكبير ، وبدأ الحسن بن الهيثم مقالته بقوله : « الحكمة علم كل حق ، وعمل كل نافع ، وعمل النافع عسير جدًّا إلا لمن لطف حِسهُ ، واعتدلت قوة النفس الناطقة بحركتها فيه ؛ وذلك أن بدن الإنسان آلة لثلاث قوى نفسانية :

قوى النفس :

إحداها : القوة المنسوبة إلى الذات ، وهي القوة التي يشترك فيها جنس النامي ، وهو نوعان : النبات والحيوان ، وبها تكون الشهوة في الحيوان ، فهي تسمى القوة الشهوانية ، وترتبط هذه القوة بمفهوم الدوافع البيولوجية (ص ١٧) .

والأخرى : هي القوة المنسوبة إلى الظفر والغلبة ، وتلك القوة هي التي ينفرد بها جنس الحيوان وهو فصلان : غير ناطق ، وناطق ، وتسمى القوى الغضبية ، وترتبط هذه القوة بمفهوم الانفعالات والدوافع وبخاصة العدوان والغلبة (ص ١٧) .

والثالثة : (القوة) المنسوبة إلى السعادة ، وهي القوة التي يحس بها الناطق من الحيوان ، وتسمى القوة الناطقة ، وترتبط هذه القوة بمفهوم التفكير أو العمليات العقلية (ص ١٧) .

وكل واحد من هذه القوى لها في الحركة وسط وطرفان ؛ لأن الشوق إنما هو حركة إلى المتشوق إليه ، كحركة الحديد إلى الهرقلي ، والهرقلي هو الحجر الذي تسميه العامةُ المغناطيس .

وكل واحد من القوى الثلاث المقدم ذكرها هي تستعمل بدن الإنسان بإحدى الحركات الثلاث : إما بالوسط ، وهو الاعتدال ، وإما بأحد الطرفين وهو الإفراط والضعف .

فالشهوانية : اعتدال حركتها في الإنسان يسمى عِفة ، وإفراط حركتها فيه يسمى

شرهًا ، وضعفها يسمى كلال الشهوة .

والغضبية : اعتدالُ حركتها فيه يسمى شجاعة ، وإفراطها يسمى هوجًا ، وضعفها حُمقًا (ص ١٧) .

أصول الحكمة وقواعدها :

وللحكمة أصول موضوعة وقواعد مقررة يحتاج الطالب للحكمة إلى النظر فيها ، والارتياض بها وأخذ نفسه بأن يتصورها ، وإقامتها في فكره والصبر على ما اعتاص منها في فهمه حتى يظهر ، بمواصلة النظر في ذلك والتفهم له ، ما خفي عليه بأمر ، ومتى استعمل هذا ولم ينفر عنه عند خفائه كان واصلًا إليه لا محالة ؛ وذلك حتى تظهر ثمرة الحكمة على أصولها ، ويتمكن الجميع ، وبخاصة المبتدئين من الاستفادة بملابستها (ص ١٨) .

النفس الناطقة وقواها :

وذلك أن الإنسان هو نوع من أنواع الحيوان الأرضي المخصوص بالنفس الناطقة ، والنفس الناطقة هي ثلاث قوى : تخيل ، وذكر ، وفكر ، فأما التخيل فهو : بقية الحس وذلك أن تصور الإنسان ما أحسه أو ما أحس مثله من غير حضور ذلك المحسوس كالذي يشاهد مِصْرًا من الأمصار ، وهذه القوى من قوى النفس الناطقة يقال لها القوة المصورة وبها تستعمل النفس الناطقة بدن الإنسان في حال نومه .

نظرية الأحلام :

فتصور له الأشياء بحسب ما عليه مزاج ذلك البدن من الاعتدال المخصوص به ، والخروج عن ذلك الاعتدال إلى أحد طرفيه ، أريد : أن القوة المصورة إذا صادفت مزاج البدن على حال الاعتدال المخصوص به أمكنها أن تصور له الأشياء الماضية والآتية على ما هي عليه فيثبتها ؛ ولأن الاعتدال في الأمزجة يكون على رتب متفاضلة فكلما كان الاعتدال أفضل كان فعل القوة المصورة أبين وأصح وأوضح حتى ينتهي فعلها إلى الحال التي تسميها العوام : الوحي .

فإذا صادفت مزاج البدن زائلًا إلى أحد الطرفين كان من الممكن لها فيه ثلاثة أفعال :

أحدها : فيما هو أقربها إلى الاعتدال ، وهو أن يرى من له تصور الأشياء الماضية والآتية ، كالذي يرى في منامه أنه يطير ، فإن ذلك رمز له بالسفر .

والآخر : فيما هو أبعد من ذلك عن الاعتدال ، وهو أن تُصورَ له الأشياء الماضية

والآتية بأضدادها ، كالذي يرى في منامه أنه في أمر يحزنه فيأتيه ما يفرحه .

والثالث : فيما هو بعيد في الغاية عن الاعتدال ، وهو على رُتب مختلفة تكون أفعال القوة المصورة في ذلك مختلفة ؛ كتصورها الأشياء المفزعة والأشياء الملهية والأشياء الممتنعة ، كالذي يرى نفسه كأنه قد مات أو قُتِل أو صار بهيمة وما شاكل ذلك .

والذكر : هو إحضار ما تقدم وجوده في النفس .

والفكر : هو سلوك النفس الناطقة في إدرَاك حقائق الموجودات ، وهو الذي يختص باسم العقل .

والإدراك : هو تَصوُّر نفس المدرِك لصورة المدرك ، ويرتبط الجزء السابق بمجموعة المفاهيم السيكولوجية هي : تفسير الأحلام (ص ١٨ ، ١٩) ، والاعتدال (ص ١٩) ، والتخيل (ص ١٨) ، والتذكر (ص ١٩) ، والتفكير (ص ١٩) ، والإدراك (ص ١٩) .

العقل وقواه :

وللعقل ست قوى ذاتية وثلاث قوى عرضية .

فقوى العقل الذاتية : هي التصور العقلي ، والحفظ ، والذهن ، والذكاء ، والرأي ، واليقين فالتصور العقلي : هو حضور صورة الموجودات في النفس ملخصة ، والحكم على كل واحد منها بما هو كذلك .

والحفظ : هو ثبات صورة المعقولات والمحسوسات في النفس .

والذهن : هو جودة التمييز بين الأشياء .

والذكر : هو سرعة المعرفة والعلم بما يلابسه الفكر .

وذلك أن المعرفة : هي تصورٌ ما حسيّ ، والعلم هو تصورٌ ما عقليّ ، والمعرفة هي إدراك صورة الأشياء بما تتميز به عن غيرها ، والعلم هو إدراك حقائق الأشياء .

والرأي : هو نهاية الفكر .

واليقين : هو مطابقة العقل معقوله .

أما قوى العقل العرضية ، فهي الظن والتوهم والشك : فأما الظن فهو تحاذي الرأيين .

التوهم : هو موافقة الظن من غير إثبات الحكم .

والشك : هو تردد النفس بين الإثبات والنفي .

وهذه الثلاث إنما تكون للعقل بتوسط ضعفه عن الوقوف على حقيقة مطلوبه ، ويرتبط الجزء السابق بمجموعة مهمة من المفاهيم السيكولوجية التي قدم المؤلف تعريفات تقترب إلى حدٍّ كبير من التعريفات الحديثة (ص ١٩) .

والعقل هو الذي من شأن الجزء منه أن يصير كُلًّا ، أريد : أن من شأن عقل شخص واحد من أشخاص الناس ، الذي هو جزء العقل الكلي ، أن يدرك جميع المعقولات إذا سَلِم من الموانع العرضية .

الإنسان والخير والسعادة :

والإنسان بقوة العقل معرَّض مهيأ لطلب السعادة ، وهي إدراك الخير على الحقيقة ، والخير على الحقيقة هو ما يؤثر لذاته ؛ لأن الخير على المجاز هو ما يؤثر لأجل ما يؤثر لذاته .

والشيء المأثور لذاته هو الذي لا يُكره في حال من الأحوال ؛ فإذن السعادة : هي إدراك الذي لا يكره في حال من الأحوال .

والمأثور الذي لا يُكره في حال من الأحوال هو الراحة من غير ألم ؛ وذلك أن الإنسان له راحتان : راحة من ألم وراحة من غير ألم (ص ١٩) .

نظرية اللذة والألم :

فالراحة من الألم : هي التي يشترك فيها الحيوان الأرضي الناطق وغير الناطق ؛ مثل الشبع ؛ فإنه راحة من ألم الجوع ، والرِّي ؛ فإنه راحة من ألم العطش ، وكذلك سائر ما يفيده الإنسان بالقوتين الشهوانية والغضبية إنما هو لذيذ بالإضافة إلى المؤلم ، كالفرح : إنما هو لذيذ بالإضافة إلى الحزن ، والأمن : إنما هو لذيذ بالإضافة إلى الخوف ، والحزن والخوف مؤلمان .

وذلك أن الراحة إنما تؤثر مع وجود ضدها الذي هو الألم ، فإذا عدم الألم فليست مما يؤثر ، ولكن هي مكروهة ، فإن الإنسان إنما يؤثر الطعام مع وجود الجوع ، فأما مع عدمه فهو مكروه لا محالة ، لكن يكره أن يزداد طعامًا مع وجود الشبع ، كذلك سائر ما ذكرناه . ويرتبط الجزء السابق بمفاهيم اللذة والألم والانفعالات ؛ (مثل : الفرح والحزن والخوف (ص ٢٠) .

الراحة الإنسانية :

والراحة من غير ألم هي ما يختص به الحيوان الناطق فقط ، وهو العلم بكل حق بعد الجهل به والعمل لكل نافع بعد الإلغاء له ، أي بعد اعتقاده أنه لغو ؛ لأن العلم والعمل إنما هما علم وعمل بالإضافة إلى الجهل والإلغاء ، والجهل والإلغاء ليسا بمؤلمين .

والعلم بكل حق ، والعمل لكل نافع هما جزءا الحكمة ، فإذًا إدراك الحكمة هو الراحة من غير ألم ؛ وذلك أن هذه الراحة هي التي تؤثر مع وجود ضدها وعدمه جميعًا ، فهي لا تكره في حال من الأحوال ؛ فإن الإنسان الجاهل يؤثر أن يعلم ، والعالم يؤثر أن يزداد علمًا ، فلذلك لزم أن يكون الإنسان فقط مُهيئًا لطلب المأثور الذي لا يُكره في حال من الأحوال ، وهو العلم بكل حق ، والعمل لكل نافع .

فواجب أن يكون إدراك هذا هو السعادة ؛ لأن الإنسان يتميز عن سائر الحيوان الأرضي بالعقل ، فالعقل لا بد أن يتميز عن سائر غيره من الحيوان بما لا يشاركه سائر الحيوان الأرضي فيه ، وما لا يشارك الإنسان غيره من الحيوان الأرضي فيه هو إدراك الحكمة ، ويرتبط الجزء السابق بمفهوم الراحة النفسية أو الاستقرار الانفعالي ، وكذلك مفهوم القيم العلمية (ص ٢٠ - ٢١) .

الإنسان الحقيقي :

وقد لزم من هذا الشرح أن يكون الإنسان الجاهل بعلم كلِّ حقٍّ ، الملْغى لعلم كل نافع إنما هو إنسان بالقوة ، أريد : أنه يمكن أن يكون إنسانًا ، فإذن الإنسان الذي ليس بحكيم هو إنسان ناقص ؛ لأنه غير مميز من الحيوان الذي ليس بناطق بما أفرده به العقل .

والإنسان الحكيم هو الإنسان بالفعل ، أريد به : الإنسان التام ؛ لأنه تميز عن الحيوان الذي ليس هو بناطق بما أفرده من العقل (ص ٢١) .

أقسام الفلسفة وفوائدها :

الحكمة جزءان مركبان هما علم كل حق ، وعمل كل نافع ، فجزء العلم منها ينقسم ثلاثة أقسام : رياضي ، وطبيعي ، وإلهي ، بينما ينقسم جزء العمل إلى قسمين : أحدهما : حفظ الصحة ، والآخر : حيلة البُرء (ص ٢١) .

الإنسان التام بالسعادة مع الحكمة :

وهنا يوضح المؤلف أن الإنسان يتم معنى الإنسانية فيه باستكماله إنسانًا ، وهو أن يدرك ما إليه تشوق النفس الناطقة ، وهو السعادة التي ذكرنا أنها الراحة من غير ألم ، وهذا إنما هو الحكمة ، يكون ثمرة ذلك له : أن يعلم حقائق الموجودات ومبادئها وعللها وأسبابها وتشبه من أفعاله بالله تعالى ذكره ، وهو استعمال فعل العدل الذي هو الخير المحض ؛ ولذلك حُدَّت الحكمة فقيل : الحكمة هي التشبه بالله (تعالى ذكره) في أفعاله بمبلغ طاقة الإنسان ، ويرتبط الجزء السابق بمفهوم الانفعالات وبخاصة السعادة (ص ٢١) .

فوائد الحكمة وفضائلها :

يستفيد بالحكمة معنيين : أحدهما في ذاته ، وهو الفضل ، والآخر فيما يعانيه ، وهو العدل ، وفضائل الحكمة ثلاث : **نظرية** : وهي استعمال البرهان في إدراك حقائق الموجودات ، **وخُلقية** : وهي تهذيب الأخلاق ، واستعمال التلطف والتأني في الحكم في جميع الأمور **وسياسية** : وهي تهذيب أمور العوام وضبطهم عن فعل القبيح ، وكفِّهم عن التغالب ، وقمعهم عن التجاهل بأبلغ صنع يؤدي إلى إصلاحهم ، وردع قويهم عن ضعيفهم ، والإنصاف لمظلومهم من ظالمهم ، وما شاكل ذلك .

المنهج للوصول إلى الحكمة :

والسلوك إلى إدراك الحكمة ، وهي علم الحقائق ، وعمل النافع ، طريق شرعها الحكماء وأوضحوها وشيدوا أعلامها ، وأصول ومبادئ رتبوها وأحكموا ترتيبها ترتيبًا يتلو بعضها بعضًا ، لا يمكن الوقوف على الثاني منها حتى يُوقف على الأول ، وجعلوا مبدأها والمدخل إليها صناعتين : صناعة الهندسة والأخرى صناعة المنطق ، والهندسة : هي صناعة يعلم بها خواص المقادير علمًا برهانيًا ، والمنطق : هو صناعة يُميز بها بين الصدق والكذب في الأقاويل والحق ، والباطل في الاعتقادات ، والخير والشر في الأفعال ، وقد قدم المؤلف على مدار بقية الرسالة تفصيلًا شاملًا لكل صناعة من هاتين الصناعتين (ص ٢٢ - ٣٤) .

أوجه الاستفادة من المقالة في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذه الرسالة في مجال علم النفس العام .

* * *

الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ)
طيف الخيال [1]

عرض : د. جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف :

هو أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى الملقب بالمرتضى ، ولد ببغداد (٣٥٥هـ) ، وبدأ حياته الدراسية بحفظ القرآن على يدي أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد الطبري الفقيه المالكي ، ثم درس على أبي عبد الله محمد بن النعمان الفقيه الإمامي ، الملقب بالشيخ المفيد ، وبابن المعلم بمسجده بالكرخ .

وكان المفيد المتوفى (سنة ٤١٣هـ) فقيه الشيعة الإمامية في عصره ، متبحرًا في كثير من العلوم ، مبجلًا محترمًا ، صاحب منزلة رفيعة عند الملوك ، والأمراء البويهيين ، ومن تلاميذه : الرضي ، والمرتضى ، وأبي جعفر الطوسي .

وتلقى المرتضى الاعتزال على يد قاضي القضاة ، عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار ، أحد شيوخ المعتزلة في عصره ، ومؤلف كتاب « المغني » الذي عرض فيه لتاريخ أبي بكر وعمر وعثمان ، وقد ألف كتابًا أسماه « الشافي » ردًّا على كتاب « المغني » وقد تضمن هذا الكتاب ، فيما يروى ، مطاعن فاحشة في الخلفاء الثلاثة بلغت حد إخراجهم من زمرة المسلمين .

أما النحو وعلوم اللغة فقد تلقاها عن أبي علي الفارسي المتوفى (سنة ٣٧٧هـ) ، وابن

---

(١) تحقيق محمد سيد كيلاني ، ط. ١ ، القاهرة ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، (١٩٥٥م) ، (ص ١٢٣) .

السيرافي المتوفى سنة ٣٨٥هـ ، وابن جني المتوفى سنة ٣٩٣هـ ، وعلي بن عيسى الربعي المتوفى سنة ٤٢٠هـ .

وكان المرتضى على جانب من الثراء ، مكن له من التفرغ للعلم ، وقد آلت إليه نقابة الطالبين بعد وفاة أخيه الرضي ، وقد ذكر ياقوت عن أبي جعفر الطوسي أنه قال : توحد المرتضي في علوم كثيرة ، مجمع على فضله ، مقدم في العلوم مثل علم الكلام ، والفقه وأصول الفقه ، والأدب ، والنحو ، والشعر ، ومعاني الشعر ، واللغة ، وله ديوان شعر يزيد عن عشرة آلاف بيت .

ومن مؤلفات المرتضى التي وصلت إلينا ، الأمالي وهو أشهر كتبه ، والشهاب في الشيب والشباب (طبع في الأستانة سنة ١٣٠٢هـ ، والكتاب الذي بين أيدينا استمدت هذه الترجمة مما ورد في مقدمة محقق الكتاب الحالي) .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٢٣ صفحة من القطع الصغير ، ويحتوي على إهداء الكتاب للدكتور طه حسين من المحقق ، ومقدمة المحقق ، ومقدمة المؤلف ، ثم ما جاء في طيف الخيال في شعر أبي تمام والبحتري ، وما أخرجه المؤلف من شعر أخيه الشريف الرضي في طيف الخيال ، وما أخرجه المؤلف من شعره هو في طيف الخيال . وخاتمة ، ثم فهرس الموضوعات ، وفهرس الأعلام ، وفهرس الأماكن ، وفهرس القوافي .

وكتاب طيف الخيال ، منشور عن نسخة شمسية محفوظة بدار الكتب المصرية ، مأخوذة عن نسخة خطية بمكتبة الأسكوريال ، وقد سجلته دار الكتب في فهارسها على أنه للشريف الرضي ، غير أن المحقق يجزم بأنه للشريف المرتضى .

موضوع هذا الكتاب هو « طيف الخيال » الذي أكثر الشعراء من ذكره في قصائدهم الغزلية ، وهو موضوع طريف حقًّا ، وقد كان الشاعر العاشق الولهان ، الذي حالت الظروف بينه وبين محبوبته ، يظل مشغولًا بهذه المحبوبة ، دائم التفكير فيها ؛ فلذلك كان يراها في النوم ، وينال منها ما يشاء ، ثم يتحدث عن ذلك في شعره ، فالحديث عن طيف الخيال ، هو حديث عن أحلام كل شاعر بمحبوبته ، وقد كثر هذا في الشعر العربي ، حتى صار موضوعًا يحتاج إلى دراسة مستقصية منظمة ، ولعل المرتضى أول من تناول هذا الموضوع في كتاب مستقل ، ولكنه لم يستقص كل ما ورد في الشعر عن طيف الخيال ، بل قصر كلامه على شعر أبي تمام ، والبحتري ، وشعره ، وشعر أخيه

الرضي ، وإن كان قد أشار إلى أبيات قليلة لبعض شعراء آخرين ؛ مثل قيس بن الخطيم ، والنمر بن تولب ، ووازن بين معاني هذه الأبيات وبين ما ورد عند البحتري وأبي تمام .

ويبدو في ذلك كله محللًا ومعقبًا ، مستعينًا على توضيح ما يريد بالأمثلة ، ولا يقتصر تحليله على المعاني والصور ، وإنما يمتد للعبارة والكلمة ، أو بالأحرى للجملة اللغوية .

ويلفت المرتضى النظر إلى مبررات إخراجه لهذا الكتاب ، ويرى أن من فوائده أن « الطيف » قد يوصف بالمدح تارة ، وبالذم تارة أخرى ، ولمدحه وجوه متشعبة ، فمما يمدح به : أنه يعلل المشتاق المغرم ، ويمسك رمق المَغنِي المُسْقَم ، ويكون الاستمتاع به ، والانتفاع به ، وهو زور وباطل ، كالانتفاع لو كان حقًّا يقينيًا .

ومما يمدح به ، أنه زيارة من غير وعد يخشى مطله ، ويخاف لَيُّهُ وفوته ، واللذة التي لم تحتسب ، ولم ترتقب ، يتضاعف بها الالتذاذ ، والاستمتاع ، وأنه وصل من قاطع ، وزيارة من هاجر ، وعطاء من مانع ، وبذل من ضنين ، وجود من بخيل ، وللشيء بعد ضده من النفوس موقع معروف غير مجهول (ص ١٤ – ١٥) .

ومن مليح مدحه وغريبه أنه لقاء واجتماع لا يشعر الرقباء بهما ، ولا يخشى منع منهما ، ولا اطلاع عليهما ، والتهمة بهما زائلة ، والريبة عنهما عادلة ، وأنه تمتع وتلذذ لا يتعلق بهما تحريم ، ولا يقترب منهما تأثيم ، ولا عيب فيهما ولا عار (ص ١٥) .

ويوضح الشريف المرتضى أنه سابق لغيره في تقديم هذه المعاني لـ « طيف الخيال » ؛ حيث لم يسبقه أحد إلى ذلك ، سواء في لغة الشعراء أو في لغة النثر ، ثم يفسر بعد ذلك سبب تعجب الشعراء كثيرًا من زيارة الطيف على بُعد الدار ، وشَحْط المزار ، ووَعْرَة الطرق واشتباه السبل ، واهتدائه إلى المضاجع من غير هادٍ يرشده ، وعاضد يعضده ، وكيف قطع بعيد المسافة بلا حافر ولا خف في أقرب مدة ، وأسرع زمان والسبب – كما يراه الشريف المرتضى – لأن الشعراء فرضوا أن زيارة الطيف حقيقة ، وأنها في النوم كاليقظة .

أما ذم الطيف ، فإنه قد يذم بأنه باطل وغرور ، ومحال وزور ، ولا انتفاع بما لا أصل له ، وإنما هو كالسراب اللامع ، وكل تخيل فاسد . وربما ذم بأنه سريع الزوال ، وشيك الانتقال ، وبأنه يهيج الشوق الساكن ، ويضرم الوجد الخامد ، ويذكر بغرام كان صاحبه عنه لاهيًا وساهيًا .

وهذه المعاني في مدح وذم الخيال قد تتشعب ، وتتركب وتمتزج ، فيتولد بينها من المعاني ما لا ينحصر ، ولا يمكن خطه ، بحسب قوة طباع الشاعر ، وصحة قريحته ، وصفاء ذهنه .

ومن خلال استعراض الشريف المرتضى لأبيات الشعر وتحليلها ، يرد على الآمدي عند تعرض الأخير للنفس ، ويرى أنها في اللغة العربية عبارة عن أشياء كثيرة منها الدم ، وسميت النفساء بهذا الاسم لأجل الدم ، ويُعَبَّر بالنفس عن الذات ، ويقال : فعلت ذلك بنفسي ، وجاء زيد نفسه ، ونفسي تتوق إلى كذا وكذا ، أي أنا تائق إليه . ثم ينتقد أيضًا قول الفلاسفة بأن النفس جوهر بسيط ونسبة الأفعال إليها . ويبين أن الفاعل المميز الحي الناطق هو الإنسان الذي هو هذا الشخص المشاهد ، دون جزء فيه أو جوهر بسيط يتعلق به (ص ٣٨ ، ٣٩) .

ولن نناقش بالطبع آراءه في النفس ، وإنما ما يلفت النظر هنا أنه كان ذا رأي في النفس وأحوالها ، وما يدل على أخذه ذلك مأخذ الجد التصدي للفلاسفة محاولًا تفنيد أقوالهم فيها .

ورغم أن موضوع الكتاب يقتصر على تحليل لأبيات شعرية لمؤلفين عدة ، لاستخراج ما يتعلق بطيف الخيال ومعانيه وما قيل فيه ، فإن الفائدة التي يمكن تحصيلها هنا بالنسبة لعلم النفس ، هي فائدة غير مباشرة ، فقد أصبح لعلماء النفس في الوقت الحاضر اهتمام مباشر بدراسة الخيال دراسات علمية تجريبية ، بل إن هناك كتبًا كاملة خصصت لمناقشة هذا الموضوع سواء في اللغة العربية (وهي قليلة إلى حدٍّ ما) أو في بعض اللغات الأجنبية هذا مع تحفظ نذكره هنا ، وهو أن معنى الخيال يدرس في إطار دراسات الإبداع ، وكيف تؤدي عمليات التخيل إلى إنتاجات إبداعية . وتُعَرَّف الصور الخيالية بأنها النشاط الخاص بالتصور التخطيطي الداخلي للأشياء ، وكذلك عملية تحويل هذه التصورات الداخلية وإنتاجها ، وللصور العقلية ارتباط بالمخ خاصة نشاط النصف الأيمن من المخ .

وبالتالي فإن هذا الكتاب يكشف عن اهتمام مبكر بالخيال ، وإن لم يكن هذا الاهتمام اهتمامًا علميًّا كما هو في الوقت الراهن .

* * *

ابن بطلان البغدادي (ت ٤٤٤هـ)
رسائل ابن بطلان البغدادي (١)

عرض : د. جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف :

هو أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان ، نصراني من أهل بغداد ، وكان قد اشتغل على أبي الفرج عبد اللّه بن الطيب ، وتتلمذ له وأتقن عليه قراءة كثير من الكتب الحكيمة وغيرها ، ولازم أيضًا أبا الحسن ثابت بن إبراهيم بن زهرون الحراني الطبيب ، واشتغل عليه وانتفع به في صناعة الطب وفي مزاولة أعمالها ، وكان ابن بطلان معاصرًا لعلي بن رضوان الطبيب المصري وكانت بين ابن بطلان وابن رضوان المراسلات العجيبة ، والكتب البديعة الغريبة ، ولم يكن أحد منهم يؤلف كتابًا ولا يبتدع رأيًا إلا ويرد الآخر عليه ويسفه رأيه فيه .

وقد زار ابن بطلان مصر لمشاهدة علي بن رضوان ؛ والاجتماع به ، وقد مكث في مصر ثلاث سنين ، وكان ابن بطلان أعذب ألفاظًا ، وأكثر ظرفًا ، وأميز في الأدب ، وما يتعلق به ، وكان ابن رضوان أطلب وأعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق بها ، وقد سافر ابن بطلان من مصر مُغْضِبًا على ابن رضوان وورد أنطاكية (وفي رواية أخرى ذهب إلى القسطنطينية وأقام بها سنة وعرضت في زمنه أوباء كثيرة) ونزل بعض أديرة أنطاكية ، وترهب وانقطع إلى العبادة شهور إلى أن توفي بها سنة أربع وأربعين وأربعمائة .

---

(١) القاهرة ، الجامعة المصرية ، كلية الآداب ، (د.ت) ، (ص ٩١) ، سلسلة كلية الآداب ، المؤلف رقم (١٣) ، نسخة مصورة ، رسائل ابن بطلان من مجموعة رسائل ابن بطلان وابن رضوان ؛ تقديم : يوسف شخت .

ولابن بطلان من الكتب : كناس الأديرة والرهبان ، وشراء العبيد وتقليب المماليك والجواري ، وتقويم الصحة ، ومقالة في شرب الدواء المسهل ، ومقالة إلى علي بن رضوان ، وكتاب دعوة الأطباء ، ووقعة الأطباء ، ودعوة القسوس ، ومقالة في مداواة صبي عرضت له حصاة .

(هذه الترجمة مما ورد في مقدمة المحققين نقلاها عن تاريخ الحكماء لابن القفطي ، وعن كتاب عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة) .

ولابن بطلان في هذه الرسائل الخمس ، رسالتان ، الأولى في أن الفرُّوج أحر من الفرخ (ولا نجد لها فائدة مباشرة بما نبغيه هنا وبالتالي سنتجاوزها ونركز على رسالته الثانية) .

نص الرسائل :

هذه المجموعة من الرسائل عبارة عن خمس رسائل ؛ اثنتين منها لابن بطلان وثلاث لابن رضوان .

وتقع هذه المجموعة كلها في حوالي ٤٤ صفحة ، طبعت معًا ، والرسالة الأولى لابن بطلان في أن الفروج أحر من الفرخ (وليس لها فائدة مباشرة بما نبغيه هنا وبالتالي سنتجاوزها) ، والثانية هي رسالة في مناقضات علي بن رضوان وأسماها المقالة المصرية ، وسوف نعرضها فيما يلي .

وقد سميت هذه الرسالة بهذا الاسم ؛ لأن صاحبها صنفها بالفسطاط في سنة إحدى وأربعين أربعمائة ، أودع فيها مسائل ومحاورات هي أجوبة عما فعله ابن رضوان في رسالته التي ناقضه بها .

ويستهل مقالته هذه ببيان سبب وضعها فيقول : (الانتساب إلى الصنائع والاشتراك في البضائع مُرُوَّات وذمم ، وحرمات وعِصَم ، أدنى حقوقها بذل الإنصاف ، وأحد فروضها اجتناب الحيف والإشراف ، ويتصل بي عن مولاي الشيخ الفاضل (أدام اللَّه توفيقه ، وأوضح إلى الحق طريقه) ، بلاغات إذا قايستها بما ألفته من حدة طباعه ، كدت أصدق بها وإن عزوتها إلى ما خصه اللَّه به من العلم قطعت بكذبها) . وهذه المقالة تضم سبعة فصول :

الفصل الأول : في العلل التي لأجلها صار المتعلم من أفواه الرجال أفضل وأسهل من المتعلم من الصحف إذا ما كان قبولهما واحدًا ؛ وعلة ذلك أن وصول المعاني يجري من النسيب إلى النسيب والنسيب الناطق ، وهو المتعلم والمعلم ، وغير النسيب جماد وهو

الكتاب ، وبعد الجماد من الناطق مطيل لطريق الفهم وقرب الناطق من الناطق مسهل للفهم ، فالفهم من المعلم أسهل (ص ٥٠) كذلك فإن المتعلم إذا استعجم عليه ما يفهمه المعلم من اللفظ نقله إلى لفظ آخر ، والكتاب لا ينقل من لفظ إلى غيره (ص ٥٠) .

من علل ذلك أيضًا أن النفس العالمة علامة بالفعل وصدور الفعل عنها يقال له تعليم ، والنفس المتعلمة علامة بالقوة وقبول التعليم فيها يقال له تعلم (ص ٥٠ - ٥١) ، والعلم موضوعه اللفظ ، واللفظ على ثلاثة ضروب ، قريب من العقل : وهو الذي صاغه العقل مثالاً لما عنده من المعاني ، ومتوسط : وهو المتلفظ به بالصوت ، وهو مثال لما صاغه العقل ، وبعيد : وهو المثبت في الكتب (ص ٥١) ، ومن العلل أيضًا أن قراءة المتعلم الكتاب على المعلم يوصل إليه العلم من حاسة السمع بلفظ المعلم ومن حاسة البصر من خط الكتاب (ولعل ابن بطلان في حديثه السابق قد مسَّ بعض موضوعات علم النفس مسًّا مباشرًا أولها ما ينطوي تحت ما يسمى بسيكولوجية اللغة Psycholinguistics سواء من حيث فهم اللغة أو إنتاجها ، وكذلك موضوع التخاطب ، خاصة التخاطب اللفظي Verbal Communication ويدخل ضمن اهتمامات علم النفس الاجتماعي ، ويقترب كذلك من موضوع التعلم Learning وهو أحد الموضوعات الرئيسية الواسعة في علم النفس الحديث ، والتي تدرس مستقلة وفيها نظريات كثيرة وأساليب متعددة ، كما تناول أيضًا موضوع العلاقة بين الفكر (العقل وما به من معانٍ) وبين اللغة ، وهي قضية قديمة حديثة ما تزال تشغل بال علماء النفس اللغويين ، وأخيرًا يلفت النظر إلى موضوع الإدراك السمعي Auditory Perception والإدراك البصري Visual Perception والتآزر بينهما ودورهما في عملية التعليم (ص ٤٨ - ٥٣) .

وبعد ذلك يَعبُر ابن بطلان (أو الناقل عنه) الفصلين الثاني والثالث ، ثم يحدثنا في الفصل الرابع في أن من عادات الفضلاء إذا قرأوا كتابًا من كتب القدماء أن لا يقطعوا في علمائها بظن دون معرفة الأمر على الحقيقة ، ويستدل على التأني في الطلب ، وعدم التسرع برصد أرسطو للقوس الكائن عن القمر أكثر عمره ، وجالينوس واظب على طلب السكون الذي بعد الانقباض سنين كثيرة إلى أن أدركه ، ثم يحاول تبرئة نفسه مما نسب إليه بسبب بعض ما اقترحه من علاجات لبعض الأمراض سيرًا على الطريقة البيقراطية (كما سماها) ، وأن هذه الأدوية إن كانت تصلح في بغداد فإنها لا تصلح في مصر لاختلاف الجو (ص ٥٣ - ٥٤) ؛ ولذلك يعرض ابن بطلان ليصف بغداد وصفًا

دقيقًا ، وكيف أنها تختلف عن مصر ، وأن أهلها يختلفون كذلك عن أهل مصر .

والفصل الخامس : في مسائل مختلفة صادرة عن براهين صحيحة من مقدمات صادقة ، ويلتمس أجوبتها بالطريقة البرهانية ، والمسألة الأولى وهي تتعلق بالبلاد والأهوية ، والمسألة الثانية تتعلق بالسماع .

والفصل السادس : في تصفح مقالته (يقصد ابن رضوان) التي طلب من ابن بطلان فيها أن يسأله ألف مسألة على أن يسأله ابن رضوان مسألة واحدة (كنوع من التحدي) ويرد ابن بطلان على ذلك التحدي ويفرق بين طريق الخطباء والأطباء والفلاسفة في المحاورة ، وبين طريق الشعراء في الذم والهجاء . وكيف أن ابن رضوان أخرج نقده وهو تحت تأثير القوة الغضبية دون الناطقة (وهو هنا يبدو متأثرًا بابن سينا في التمييز بين قوى النفس) والقوة الغضبية تقابل انفعال الغضب والدافعية .

(وهو من موضوعات علم النفس العام) والقوة الناطقة وتقابل العقل أو التفكير ويدرس في علم النفس العام ، كما يدرس في علم النفس الإكلينيكي حال اضطرابه (ص ٦٣) ، ويتعرض في ثنايا هذا الرد كذلك للأخلاط الرديئة التي تتبع رداءة المزاج ؛ لأن النفس تابعة للمزاج (وهنا إشارة إلى الجانب المزاجي من الشخصية ، وهو جانب مهم في اهتمامات علماء النفس المحدثين (ص ٦٤) ، كما يذكر مرض الماليخوليا (وهي تقابل ما يسمى في الطب النفسي الحديث بمرض الاكتئاب Depression وهو من الأمراض النفسية والعقلية التي يعنى بها علماء النفس الإكلينيكيون من بعض الوجوه (ص ٦٤) . ويذكر أيضًا ، حديثًا سريعًا ومختصرًا عن الحواس المختلفة ، وعلاقتها بالإدراك (وهو باب من أبواب علم النفس العام وأعني الإحساس Sensation والإدراك الحسي Sensory Perception (ص ٦٦) .

والفصل السابع : في تتبع مقالته في النقطة الطبيعية ، وكشف ما دخل عليه فيها من الشبهة . ويذكر فيها - بشكل عابر - بعض المفاهيم ذات الخلفية السيكولوجية مثل القوة الناطقة (أو العقل وقد سبقت الإشارة إليها) والغضب ، والغباء (وهو يقابل ضعف الذكاء وإن كان علماء النفس المحدثون قد تخلوا عن استخدامه) وفساد العقل بمواصلة السكر (وهو من موضوعات علم النفس الحديث ذات الأهمية القصوى (ص ٩٩) .

* * *

الماوردي (ت ٤٥٠هـ)
أدب الدنيا والدين [1]

عرض : د. إبراهيم شوقي عبد الحميد

التعريف بالمؤلف :

- هو علي بن محمد بن حبيب البصري المعروف بالماوردي ، نسبةً إلى بيع ماء الورد .
- فقيه وأصولي ومفسر وأديب وسياسي .
- فقيه شافعي ، يميل إلى مذهب الاعتزال .
- أخذ الفقه عن أبي القاسم الصيمري بالبصرة ، ثم عن الشيخ أبي حامد الإسفراييني ببغداد .
- وولي بالقضاء ببلدان كثيرة ، وبلغ منزلة عند الملوك وكبار الأمراء ورقي لمنصب « أقضى القضاة » في أيام القائم بأمر اللّه العباسي .
- توفي في آخر سنة ٤٥٠هـ ببغداد ، وعمره ست وثمانون سنة .
- من تصانيفه في الفقه والأدب :

الحاوي الكبير في فروع الفقه الشافعي .

أدب الدنيا والدين .

قانون الوزارة .

قوانين الوزارة .

---

(١) الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية (١٩٨٧م) ، (ص ٣١٨) .

سياسة الملك .

نصيحة الملوك .

تفسير القرآن الكريم .

النكت والعيون .

الأحكام السلطانية .

(انظر معجم المؤلفين لكحالة ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، والأعلام للزركلي) .

عرض الكتاب :

يقع هذا الكتاب في ٣١٨ صفحة من القطع المتوسط ، ويشمل خطبة الكتاب ، ثم أبواب الكتاب وفصوله ، وفهرس موضوعاته .

● **الباب الأول : في فضل العقل وذم الهوى :**

وفيه ينقسم العقل إلى نوعين ؛ عقل غريزي وهو ذكاء بالطبع ، ومكتسب وهو ذكاء بالخبرة ، ويعرض للفروق والعلاقات التي تسود بينهما (ص ٦ - ١٢) ، ثم يعرض لفضائل العقل ورذائل الحمق (ص ١٢ - ١٦) ويشير بعد ذلك إلى الهوى وماهيته ومضاره ووجوب جهاده (ص ١٧ - ٢٣) .

وينفرد هذا الباب بدلالة مهمة ، تتمثل في تقسيم العقل إلى غريزي ومكتسب ، ويشير الذكاء الغريزي إلى الاستعداد Aptitude الذي نمي بالخبرة والتجربة فصار قدرة Ability أو ذكاء بالخبرة ، بعد أن كان ذكاء بالاستعداد ، ونجد في أن الذكاء Intelligence محصلة لإسهامات كل من الوراثة والبيئة ، كذلك نجد في نفس الباب أن وظيفة العقل كف الدوافع الفطرية ، ويقصد بها الغرائز .

● **الباب الثاني : باب أدب العلم :**

وفيه يعرض لفضل العلم على المال ، وفضل العلماء على الأغنياء والأمراء . كما يفاضل بين العلوم . فمن أفضلها علوم الدين ، خاصة الفقه ؛ لأن العبادة دون علم بها قد لا تكون عبادة . ثم يعرض لكيفية طلب العلم ووسائله كالتدرج واستخدام الرموز بين العلماء ، ثم يعرض لمشكلات التواصل بينهم وأسبابها كوجود علة في الرسالة ذاتها ، أو علة في المستمع كالبلادة أو عدم صبره على طلب الفهم ، أو عدم القدرة على الحفظ ، والتي يمكن علاجها بكثرة الدرس وإدامة النظر ، كما يشير إلى أهمية تسجيل العلم كتابة لعدم

نسيانه . ثم يعرض للأسباب التي تحول دون فهم معنى الكلام سواء أكان لفظًا أو خطًا .

كما يتناول أهم واجبات المتعلم نحو معلمه (الخضوع والطاعة والتوقير لمعلمه) ؛ لذلك يعرض لآداب العالم كعدم التفاخر بما تعلمه وعدم الفتوى دون علم (ص ٥٩ - ٦١) وهو ما يمثل بعض أشكال السلوك الأخلاقي للمعلم Moral Behavior كما يحث على مراعاة قدرات المتعلمين حتى لا يثار الملل لدى الأذكياء أو الضجر في عقول البلداء الجاهلين ، وهو ما يؤكده علماء النفس التربوي Educational Psychology (ص ٤٣ - ٤٤) .

وفي هذا الباب نلمح فكرة التدرج في طلب العلم والمران Training (ص ٣٦ - ٣٨) . ودور الاستبصار كطرق للتعلم Learning ، كما يعرض لمشكلات التواصل Communication ومنها عيوب أو اضطرابات الذاكرة والدافعية للتواصل والبلادة (انخفاض الذكاء ص ٤٢ - ٤٦) ويشير إلى علاج مشكلات الذاكرة بكثرة الدرس ، وإدامة النظر وهي نصيحة تختص بعملية تثبيت المعلومات Fixation في الذاكرة حتى يسهل استدعاؤها Recall (ص ٤٥) كما يحث في نفس الباب على إثارة دافعية التعليم عن طريق الامتناع عن استخدام العقاب Punishment أو التوبيخ أو التعنيف للمتعلمين (ص ٦٩) كذلك نجده يذم المتعلم دون فهم ، ويشار إليه حديثًا بالذاكرة الصماء Rote Memory (ص ٤٥) .

- **الباب الثالث : باب أدب الدين .**

ويعرض لجوانب التكليف الإلهي للعباد التي تشمل الأوامر والنواهي ، سواء على مستوى الاعتقاد أو الفعل . كما يعرض للفرائض وفقًا لأولوية فرضها ، وأهمية كل فريضة والمفاضلة فيما بينها . كما يشير لفكرة التدرج في التكليف ، والحث على الصبر وعلى فعل الطاعات ، والصبر عن فعل المعاصي .

ثم يعرض لأقسام موقف الإنسان من العبادات : وهي الاكتمال أو التقصير أو الزيادة فيما كلف . وبعد ذلك يحذر من الافتتان بالدنيا والانشغال بملذاتها . ثم يعرض لأفكار نظرية ونماذج من الصحابة الذين لا يخشون الموت ويتوقعونه في أي لحظة ، فتوقع الموت ينم عن عدم الاكتراث بالدنيا والإعداد للآخرة .

ويلاحظ أن المؤلف يشير إلى أن البعض يمارس العبادة بالزيادة عما كلف اقتداءً بغيره من الأخيار (ص ٨٧ ، ٨٨) وفي ذلك إشارة إلى مفهوم الاقتداء أو النمذجة Modeling

وهي أحدث أساليب التعلم الاجتماعي Social Learning ، كذلك في الحث على كف الشهوات نجد الإشارة إلى قمع الشهوات والسيطرة عليها . كما نجد إشارة صريحة إلى الخوف من الموت وهو يمثل أحد أنواع القلق ويسمى قلق الموت Anixety Of Death أما عن مظاهره السلوكية والوجدانية فقد وردت في هذا الباب (ص ٩٥ - ١٠٦) .

● الباب الرابع : أدب الدنيا :

وفي هذا الباب يشير المؤلف إلى أن الإنسان مخلوق عاجز بالنسبة لبقية المخلوقات ، لديه العديد من الحاجات التي تتطلب الإشباع ، وهو بالتالي أكثر حاجة إلى خالقه . ويعرض أيضًا لقواعد صلاح الدنيا هي : الدين المتبع ، وسلطان قاهر ، وعدل شامل ، وأمن عام ، وخصب دائم وأمل فسيح ، ثم يعرض لقواعد صلاح حال الإنسان وهي النفس المطيعة والألفة الجامعة (المؤاخاة) والمادة الكافية : ويقصد بها أن الإنسان قوامًا أو مادة يلزمها الكسب لكي تدوم له حياته ويستقيم له دينه ، ويلي ذلك عرض لمصادر الكسب وأنواع الصناعة ، ودواعي الإفراط في طلب المال .

وفي هذا الباب نجد الإشارة إلى عجز الإنسان وكثرة حاجاته Needs ودوافعه Motives (ص ١٠٧) ، ويشير أيضًا إلى الحاجة إلى الأمن Needs Of Security وهي أحد الحاجات النفسية التي تتطلب إشباعًا ، كما يشير إلى تباين شدة هذه الحاجات بين الأفراد (ص ١١٠) . وهي ظاهرة عامة يشار إليها بالفروق الفردية Individual Differences . أما بالنسبة لأفكاره عن أسباب الألفة والمؤاخاة (الدين - النسب - المصاهرة .. إلخ) (ص ١٤١ - ١٤٣) . فهي ترتبط بمجال العلاقات الاجتماعية بين الأفراد Interpersonal Relationship أما بالنسبة للخصائص الإيجابية والسلبية للبشر ومحكات اختيار الأصدقاء (ص ١٤١ - ١٤٣) فهي تشير إلى سمات الشخصية Personality Traits وفي ثنايا الحديث عن البِرِّ نلمح أفكارًا عن سيكولوجية العطاء (الكرم وحسن الثقة) وسيكولوجية البخل (الشره وسوء الظن) وهو ما يتصل بدافع التملك Possessiveness كما يعرض لدوافع جمع المال ويحث على القناعة Satisfaction ويعرض لمستوياتها (ص ١٥٥ - ١٧٨) . كما يشير إلى طرق الكسب ، ومنها المهن والصناعة فيعرض لأنواعها ودرجاتها ، وهو تقسيم يهم دارسي علم النفس الصناعي والمهني Occupationals Industrial Psychology (ص ١٧٩ - ١٨٩) .

• الباب الخامس : أدب النفس :

يعرض الماوردي لنوعين من التأديب ؛ هما :

١ - تأديب الوالد لولده في صغره وهو ما يتصل بمفهوم التنشئة الاجتماعية Socialization .

٢ - أدب يلزم الإنسان عند نشأته وكبره (ص ١٩٨ ، ١٩٩) .

ويعرض للنوع الأخير في شقين ؛ هما :

أ - أدب المواضعة والاصطلاح : أي اتباع ما استقر عليه العقلاء واستحسنه الأدباء .

ب - أدب الرياضة والاستصلاح : وهو أدب لا يختلف العقلاء في صحته أو خطئه ؛ لأنه يقوم على صحة الدليل والحجة . ويلاحظ أن هذا النوع من التأديب يتصل بمفهوم المجاراة الاجتماعية Social Conformity التي قد تهدف إلى تحقيق التوافق الاجتماعي Social Adjustment (ص ١٩٩ ، ٢٠٠) .

ويعرض الماوردي لأدب الرياضة والاستصلاح من خلال ستة فصول على النحو التالي :

الفصل الأول : في مجانبة الكبر والإعجاب :

وفيه يذم الكبر والمدح ويعرض لأحاديث وروايات وحكايات وأشعار عن مضار الكبر ، ويتصل ما ورد في ذلك بمفهوم صورة الذات Self Image (ص ٢٠٢ - ٢٠٧) .

الفصل الثاني : في حسن الخلق :

وفيه يعرض لمترتبات حسن الخلق أو سوئه ثم للأسباب التي تغير من الخلق أو الطباع كالولاية والعزل والغنى والفقر والهموم والأمراض وكبر السن ، باعتبار أنها التي تساعد على تغير المزاج والطباع وهو ما يتصل بتغير الشخصية (ص ٢٠٧ - ٢١١) .

الفصل الثالث : في الحياء :

وفيه يحث المؤلف على الحياء ؛ لأنه رادع لأهواء النفس ، ويقسم الحياء إلى حياء من الله ، وحياء من الناس ، وحياء من النفس . ونجد في هذا الفصل بعض الدلالات التي تتصل بعدد من الأرجاع الانفعالية Emotional Reactions كالشعور بالذنب Guilty Feeling والخجل Shame (ص ٢١١ - ٢١٥) .

الفصل الرابع : في الحلم والغضب :

وفيه يحث على الحلم باتخاذ أفضل أسبابه وهي رحمة الجهال ، والقدرة على

الانتصار ، وحسن الثقة ، والترفع عن السباب والاستهانة بالمسيء ، والاستحياء من جزاء الجواب ، والخوف من العقوبة ، والوفاء ، والمكر وغيرها .

كذلك يذم فقدان الغضب في الأشياء المغضبة ، ثم يعرض لمقارنة بين الحزن والغضب ، يتبعه ذكر لوسائل تسكين الألم كذكر اللّٰه ، والخوف منه ، والطاعة له ، وتذكر مترتبات الغضب ، وتذكر ثواب العفو والصفح .

ويتصل ما ورد في هذا الفصل بالاضطرابات الانفعالية Emotional Reactions مثل التبلد الانفعالي Blunting or Flattening Emotion وشدة الانفعال والذي يشار إليه حديثًا بعدد من المفاهيم النفسية ؛ مثل سرعة الانفعال Irritability or Nervousnees وطاقة الاستثارة Excitatory Potential (ص ٢١٥ - ٢٢٣) .

الفصل الخامس : في الصدق والكذب :

وفيه يعرض لدواعي الصدق (وهي العقل والدين) ودواعي الكذب (اجتلاب النفع واستدفاع الضر والتشفي من عدو) ويذكر علامات الكذاب يتبعه حديث عن الصدق الذي يقوم مقام الكذب في القبح كالغيبة والنميمة والسعاية (ص ٢٢٤ - ٢٣١) ويتصل ما ورد في هذا الفصل بالسلوك غير الأخلاقي Immoral Behavior .

الفصل السادس : في الحسد والمنافسة :

ويعرض فيه لمضار الحسد وأسبابه ، كفضل المحسود على الحاسد وبغض المحسود ، أو شح في الحاسد وبخله . كما يعرض لطرق مقاومة الحسد (ومن أهمها اتباع الدين والعقل) ثم يذكر مترتبات الإخفاق في مقاومة الحسد ، كسقام الجسد ، وانخفاض المكانة بين الناس ومقتهم له ، إلى جانب اجتناب الأوزار في مخالفة اللّٰه تعالى ، ومعارضته لقضائه .

وتعد الغيرة Tealousy والحسد Covetousness من الانفعالات المركبة التي تشتمل على عديد من الانفعالات كالغضب والخوف ، بجانب الشعور بالنقص والكآبة ، وللحسد مترتباته النفسية والاجتماعية تعرض لذكرها الماوردي في فصل الحسد والمنافسة ، ويتعرض المؤلف إلى طرق علاج اضطرابات الانفعال كالحسد عن طريق الدين والعقل ، ويقترب ذلك من أسلوب العلاج السلوكي المعرفي الذي يتبعه المعالجون السلوكيون المحدثون (ص ٢٣١ - ٢٣٦) .

● **الباب السادس : أدب المواضعة :**

ويضم ثمانية فصول ؛ هي :

الفصل الأول : في الكلام والصمت :

وفيه يعرض لأهمية الكلام كوسيلة للتعبير عن مستودعات الضمائر ، ويعرض أيضًا لشروط الكلام وهي : أن الكلام لداعٍ يدعو إليه ، وأن يأتي في موضعه ، وأن يقتصر منه على قدر حاجته ، وأن يتخير اللفظ الذي يتكلم به .

ثم يعرض لأوجه صحة المعاني ، ويليها أوجه فصاحة الألفاظ ، ثم يختتم هذا الفصل بذكر آداب الكلام ، كعدم التجاوز في المدح وفي الذم ، وعدم الاسترسال في وعد أو وعيد ، وأن يكتمل القول بالفعل والعمل .

وفي هذا الفصل نجد الإشارة إلى دور الكلام Speech كأحد وسائل التخاطب في توصيل المعاني بين الأفراد ، ويشير أيضًا إلى دوافع سلوك الكلام ، ومنها أن يكون الكلام لداع ، فإن لم يكن لداعٍ فقد معناه (ص ٢٣٧) وهو ما يسمى اللغو وقد يسمى بالإنجليزية Verfegeration وفي عرضه لأوجه صحة المعاني ، يشير إلى علم دراسة المعنى أو الدلالة Semantics وهو أحد فروع علم اللغة الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرموز حتى تكتسب القدرة على نقل المعنى وهو الهدف الأساسي للغة (ص ٢٣٧ - ٢٤٧) .

الفصل الثاني : في الصبر والجزع :

وفيه يعرض لأقسام الصبر ؛ وهي . الصبر على الأوامر ، والصبر على المكاره ، والصبر على ما فات إدراكه ، والصبر فيما يخشى حدوثه ، والصبر فيما يتوقعه من رغبة (ص ٢٤٨ - ٢٥٢) ويجدر بالذكر أن بعض أنواع الصبر كالصبر على الأوامر والصبر على المكاره تتصل بمفهوم نفسي وهو المثابرة Persistence وإن كان مفهوم الصبر أكثر عمومية من المثابرة ، فليس كل صبر مثابرة ، وإنما المثابرة تعد بعض أقسام الصبر .

ثم يعرض بعد ذلك لأسباب تسهيل المصائب وتخفيف الشدائد ، ومنها العلم بأن الحال لا يدوم وأن الشدائد ستنجلي وأنها لا تقصر بجزع ، ولا تطول بصبر ، وهو ما يتصل بطرق العلاج السلوكي المعرفي لتحقيق التوافق النفسي والاجتماعي (ص ٢٥٢ - ٢٦٠) .

الفصل الثالث : في المشورة .

وفيه يحث على مشورة ذوي الرأي الناصح ، والعقل الراجح ؛ خشية الندامة

أو الملامة بعد اتخاذ قرار ما . ثم يذكر خصال أهل المشاورة الواجب استشارتهم ومنها العقل الكامل ، والدين ، والتقوى ، والنصح ، والود ، وسلامة الفكر من الهم ، والحياد ، يلي ذلك عرض لواجبات أهل الشورى ، كالإخلاص في تقديم النصح وعدم تقديم المشورة إلا بعد طلبها (ص ٢٦٠ - ٢٦٦) .

أما الفصل الرابع .

يحث فيه الماوردي على كتمان الأسرار لما له من فوائد ، ويذم مَن لا يكتمون سرًّا ؛ حيث يكون لهم ثلاثة أحوال ؛ هي : ضيق الصدر وقلة الصبر ، والغفلة عن تحذير العقلاء ، والسهو عن يقظة الأذكياء ، وما ارتكبه من الغرر واستعمله من الخطر . ثم يعرض للمقارنة بين حفظ الأموال الخاصة بالغير ، وحفظ الأسرار ، ويستخلص أن الأول أيسر من الثاني ؛ ولذا فإن الأخير يتسم بالندرة بالمقارنة بالأول . كما يعرض لصفات أمناء السر ، ومنها العقل ، والتدين ، والود والكتمان بالطبع ، ثم يحذر بعد ذلك من كثرة المستودعين لسر الشخص ، فكثرتهم سبب الإذاعة وطريق الإشاعة (ص ٢٦٦ - ٢٦٩) .

ويتصل الفصلان السابقان بعملية التشاور Consultation وهي أحد أساليب اتخاذ القرار في مجال علم النفس الصناعي والإداري ، كما يلاحظ أن الصفات التي ذكر الماوردي أنه يجب أن يتحلى بها الشخص الذي يقدم المشورة هي نفس الصفات التي يجب أن يتحلى بها المرشد النفسي (ص ٢٦٠ - ٢٦٦) .

الفصل الخامس : في المزاح والضحك .

وفيه يذكر أن المزاح إزاحة عن الحقوق ، ويؤدي إلى القطيعة والعقوق ، وينصح بأن يكون المزاح في حدود إيناس المصاحبين ، والتودد إليهم بجميل القول ، ومستحسن الفعل ؛ لأن الإكثار في الضحك يفقد الهيبة والوقار ، ويورد بعض الأحاديث النبوية والأشعار والحكايات التي تتصل بهذا الجانب ، ويتصل هذا الفصل بمجال السلوك الأخلاقي خاصة في السياق الاجتماعي (ص ٢٧٠ - ٢٧٤) .

الفصل السادس : في الطيرة والفأل .

وفيه يعرض لحكايات عن الطيرة لدى الفرس والعرب بجانب عدد من الأحاديث النبوية ، والروايات التي تستهجنها ، ويشير إلى الفأل بأنه : تقوية للعزم وباعث على الجد ، ومعونة على الظفر ، ويحث لذلك على التفاؤل وحسن الظن ، ويقترب ما ورد

في هذا الفصل بمفهوم التشاؤم Pessimism والتفاؤل Optimism ؛ وهما : أنواع من المعتقدات Beliefs ، فالتشاؤم : هو الاعتقاد بأن جميع الأشياء تنزع بطبيعتها إلى الشر ، أو الاعتقاد بأن كفة الشر والشقاء أرجح من كفة الخير والسعادة ، عكس التفاؤل والذي يبعث على تقوية العزم والاجتهاد (ص ٢٧٤ - ٢٧٧) .

الفصل السابع : في المروءة :

ويقصد بالمروءة :

مراعاة الأحوال إلى أن تكون النفس على أفضلها حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد ، ولا يتوجه إليها ذم باستحقاق ، ويذكر أن شروط المروءة التعفف عن الحرام ، والتصلف عن الآثام ، والإنصاف في الحكم ، والكف عن الظلم إلى آخره من الصفات الحميدة ، كما يذكر أن من دوافع المروءة علو الهمة وشرف النفس . ثم يعرض لشروط مروءة العبد في نفسه ، وهي العفة عن المحارم والآثام ، والنزاهة عن المطامع والصيانة (صيانة النفس عن تحمل المنن) ، أما شروط المروءة في غيره فهي : المؤازرة (وهي الإسعاف بالجاه في النوائب) والمياسرة (العفو عن الهفوات والمسامحة في الحقوق) والإفضال (إفضال اصطناع وإفضال استكفاف ودفاع) .

ويذكر الماوردي أن الكتاب كله في شروط المروءة وحقوقها ، وهو ما يقترب من مفهوم السلوك الأخلاقي (٢٧٧ - ٣٠٥) .

الفصل الثامن : في آداب منثورة :

ويختص بتناول عدد من الآداب كآداب الملبس : ومنها التوسط والاعتدال في الزي حسب القدرة المالية والمنزلة والحال ، وآداب النوم : حيث يذم نوم الصبح ، ونوم العشي فهو يحث على تصفح ما صدر عن الصبر في نهاره قبل نومه . كما يعرض لدوافع سلوك الأكل والشرب وهي الحاجة والشهوة . كذلك لدوافع الحاجة إلى الملبس وهي ستر العورة والتجمل والزينة . كما يحث على تصفح أحوال الغير ، والاقتداء بمحاسنهم وتجنب عيوبهم . كما ينصح بالتفكير في عاقبة السلوك قبل القيام به . ويلاحظ أن هذا الفصل يقدم عددًا من الإرشادات النفسية التي تخدم غرضًا توافقيًا ، وهو ما يتصل بمجال علم النفس الإرشادي والصحة النفسية .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام ، والشخصية .

نصيحة الملوك [1]

عرض : د. معتز سيد عبد اللّه

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٦٩٣ صفحة من القطع الكبير ، ويتكون من عشرة أبواب ، يشتمل كل منها على مجموعة من الفصول ، ويدور مضمون الكتاب حول تقديم مجموعة من النصائح للملوك ، على أساس أنهم أولى الناس بأن تهدى إليهم النصائح ، وأحقهم بأن يخولوا بالمواعظ ؛ إذ كان في صالحهم صلاح الرعية ، وفي فسادهم فساد البرية . وقد أنهى المحقق كتابه بعرض فهرس مفصل للآيات القرآنية الكريمة ، وآخر للأحاديث النبوية الشريفة ، وآخر للأبيات الشعرية ، وآخر للأعلام . وأخيرًا فهرس للموضوعات وهو ما نعرض لتفاصيله على النحو التالي :

- **الباب الأول : الحث على قبول النصائح :**

ويتكون من فصلين يوضح فيهما أن الملوك أحق بالمواعظ من غيرهم لخلال عدة ؛ أهمها : أن يترفعوا به عن مشاكلة أهل الغباوة والجهالة ، وسوء النشوء والعادة ، وأن يرغبوا في نتائج النصائح ؛ لأن النصيحة هداية إلى سبيل الرشاد . وأنهم أكثر الناس أشغالًا وأعظمهم أثقالًا ، وأبعدهم عن ممارسة أمورهم بأنفسهم . وليس كل مستعان به معين ، ولا كل والٍ يستقل بما يلي ، ثم يأتي على نصيحة العلماء للخلفاء ، فيذكر

(١) تأليف أبي الحسن علي بن محمد الماوردي البصري ، تحقيق محمد جاسم الحديني ، بغداد ، وزارة الثقافة والإعلام ، دار الشؤون الثقافية العامة ، (١٩٨٦م) ، (٦٩٣ ص) .

مواعظ سفيان الثوري ، وعمرو بن عبيد ، وابن السماك ، لأبي جعفر المنصور ، وهارون الرشيد ، في شأن قيمة الملك .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الباب ؛ هي : مفهوم التوجيه والإرشاد النفسي Counselling (ص ٥١ - ٦١) وسمات الشخصية Personality Traits (ص ٥١ - ٥٣) ، والانفعالات Emotions (ص ٥١ - ٦١) .

• الباب الثاني : في فضائل الملوك في علو مراتبهم ، وما يجب عليهم أن يأخذوا به أنفسهم من اجتلاب الفضائل واجتناب الرذائل :

ويتكون من ثلاثة فصول تعرض لفضائل الملوك ، في علو مراتبهم ، وما يجب عليهم أن يأخذوا به أنفسهم من اجتلاب الفضائل ، واجتناب الرذائل ، ويستشهد بالآيات القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة في تفضيل الملوك على سائر البشر ، وكونهم أمناء على عباد اللّٰه في أرضه ورعاة لهم . ثم يدعو الملك إلى تجنب ما يخل بجلالة المكانة ورفعة المنزلة ، وأن يعمل على تغليب العقل على الطبع ، والرأي على الهوى ، ويؤثر ما يشير إليه الرأي على ما يصبو إليه الهوى .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب ؛ هي :

الارتقاء Development (ص ٧١) ، والفروق الفردية (ص ٨٠ - ٨١) ، والقيم الخلقية Moral Values (ص ٨٣ - ٨٨) ، الطباع Character (٨٨) ، والتفكير Thought (ص ٨٨ - ٩٣) ، والانفعال (ص ٨٨ - ٩٣) ، والعادة Habit (٩٤ - ٩٥) ، والحاجة Need (ص ٩٤ - ٩٥) والخصال Characteristics (ص ١٠١ - ١٠٧) ، وضبط النفس والسيطرة على الدوافع والأهواء .

• الباب الثالث : الإبانة عن الأسباب التي من جهتها يعرض الاختلال والفساد في الممالك وفي أحوال الملوك :

ويتكون من ثلاثة فصول تفرض أن أحوال الأمم متقاربة متشابهة ، ثم لم تكن مملكة إلا كان أساسها ديانة من الديانات ، وأصلها ملة من الملل ، عليها بنيت شرائطها وفروضها ، وجرت أحكامها وحدودها ، ثم يبين أنه لا يخلو دين من الأديان ، ولا ملة من الملل من منافقين فيها ، ومعادين لها ، وكيفما يكون المملوك فإنه يقتدي بأفعالهم ، ويقتفي آثارهم في سيرهم ، ثم يحث الملك الحازم والسائس الصارم ، على أن يتعهد قلبه سماع آثار الملوك السابقين .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب ؛ هي :

الانفعال Emotion (ص ١١٢ - ١١٦) ، والعداوة Hostility (ص ١١٧ - ١١٨) ، والاقتداء Modelling (ص ١١٨ - ١١٩) ، والمجاراة Conformity (ص ١٢١ - ١٢٢) ، والخصال Characteristics (ص ١٢٨ - ١٣٠) ، والطاعة (ص ١٣١ - ١٤٤) .

● **الباب الرابع : في المواعظ التي تبصر غرور الدنيا وتذكر بالآخرة ، وتنفع من نظر فيها ، واستمع لها وتهديه إلى العدل في ملكه :**

ويتكون من سبعة فصول يبين فيها المؤلف أن الوعظ والتذكير فريضتان ، ويحذر من الغرور ويؤكد أهمية الاعتبار ، وأن باب الأمن مستور بالخوف ، وعلى الملك أن لا يكون في حال غير متوقع لأضدادها ، وأن الإنسان أيام معدودة ، والعمر أمس واليوم وغدًا ، ويؤكد أن الملك لا ينال إلا بالخدمة الطويلة ، والرياضة الصعبة الشديدة ، والمخاطر العظيمة ، والأشكال الكثيرة ، والآمال البعيدة ، التي ربما أتت دونها المنية ؛ لأن الملك محنة وابتلاء .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب ؛ هي : التوجيه والإرشاد Counselling (ص ١٤٧ - ١٦٣) ، والخوف (ص ١٦٣ - ١٦٥) ، والمخاطرة Taking Risk (ص ١٧٩ - ١٨١) ، والمشقة Stress (ص ١٨٣ - ١٩٢) ، والرجاء (ص ١٩٢ - ١٩٣) .

● **الباب الخامس : في سياسة النفس ورياضتها :**

ويتكون من خمسة فصول ، يتكلم فيها المؤلف عن سياسة النفس ورياضتها ، ويستبعد الكلام في هذا الباب عن مراسم الجلوس واللباس والركوب والطعام والأزياء ، وإنما يقتصر فيه على معاد الملوك ومعاشهم ، ونظام ممالكهم وأحوالهم ، فيلزمهم بتقوى الله ؛ لأنها عصمة للملك ، وحرزٌ لمن تمسك بها ، وهي رأس النجاح ومفتاح الفضائل ، ثم يؤكد على واجب الملك ، دون غيره ، في إقامة أمر الدين والأخذ بآدابه ، لأن الدين والصلاح جلالة في النفوس ، ثم يحث الملك على اقتناء العلم باعتباره من أجل الفضائل شأنًا وأعلاها مرتبةً ثم يشير على الترفع عن الطمع ، والأخذ بالحزم والعزم ، والتأني والتؤدة في الأمور المشكلة .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب ؛ هي : الطاعة Obedience (ص ٢٠١ - ٢٠٥) ، والاقتداء Modelling (ص ٢٠٤ - ٢٣٩) ، وقيمة العمل

(ص ٢١٤ - ٢١٥) ، وقيمة العلم (ص ٢١٥ - ٢١٨) ، والبلوغ (ص ٢١٧) ، والعداوة (الأعداء) Hostility (ص ٢٣٣ - ٢٣٧) ، والالتزام Commitment (٢٣٩ - ٢٤٢) ، والعقاب Punishment (ص ١٤٣) ، والتسامح Tolerance (ص ٢٤٤ - ٢٤٧) والحذر (ص ٢٤٧) ، وقيمة الصدق (ص ٢٥١) ، والقيم الخلقية (ص ٢٥٢- ٢٥٤) ، والمكافأة Reward (ص ٢٥٥ - ٢٥٦) ، والمثابرة Persistence (ص ٢٦٤ - ٢٦٦) ، وضبط النفس Self Control (ص ٢٧٥ - ٢٧٧) .

● **الباب السادس : في سياسة الخاصة :**

ويتكون من ثلاثة فصول ، يتكلم فيها عن سياسة الخاصة ، فيوصي الملك بالعناية في أمر خاصته وترويضهم على الطاعة . ويقسم خاصة الملك إلى طبقات ، فأخصهم به ولده وخدمه وقرابته ، ثم وزراؤه ، ثم جنده وقواده ، ثم عماله الذين يستعين بهم في إصلاح مملكته ، ثم يحدد عشر خصال يمكن الاستعانة بها على تقويم الخاصة .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب ؛ هي : الطاعة Obedience (ص ٢٨٩ - ٢٩٦) ، والفروق الفردية Individual Differences (ص ٢٩٧) ، والطفولة المبكرة (ص ٣٠٣ ، ٣٠٤) ، والعلاقات الوثيقة Close Relationships (ص ٣١٥ - ٣١٩) ، والخصال Characteristics (ص ٣٢١ - ٣٤٨) .

● **الباب السابع : في سياسة العامة :**

ويتكون من فصلين ، يتكلم فيها عن سياسة العامة ، فيحث الملك الفاضل ، والسائس الكامل بالتزام العدل بين الرعية ؛ لأن العدل ميزان اللّه في الأرض ، يأخذ به للضعيف من الشديد ، وللمحق من المبطل ، وأنه بالوالي تصلح الرعية ، فإذا صلحت كانت زينة للملك ، ثم يحدد عشر خصال يمكن الاستعانة بها على صلاح العامة .
وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب ؛ هي :

قيمة العدل (ص ٣٥١ - ٣٥٣) ، والمسؤولية Responsibility (ص ٣٥٣ - ٣٦٠) ، وسيكولوجية السياسة Psychology of Politics (ص ٣٥٩ - ٣٦٠) ، والقيادة Leadership ، والتعصب Prejudice (ص ٣٦٦ - ٣٦٧) ، والغضب Anger (ص ٣٦٦ - ٣٦٧) ، والأعداء (عدوان) (ص ٣٩٧ - ٣٩٨) ، واتجاهات الشدة - اللين - Tough mindedness - Tender mindedness - (ص ٤٠٢ - ٤٠٥) .

● **الباب الثامن : التدبير في الأموال :**

ويتكون من أربعة فصول تتناول كيفية تدبير الأموال ، وفيه يحث المؤلف على عدم الطمع في أموال الرعية ، ويذم التبديد والتقتير ، ثم يبسط معنى البخل والتبذير مستشهدًا بقول اللّه ﷻ وأحاديث رسوله ﷺ ، وآثار الملوك والحكماء ، وأقوال الشعراء . ثم يتكلم عن السخاء وصنع المعروف ، وكيفية إتمامه وعدم انتظار الجزاء عليه ، وأن الابتداء به نافلة .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب ؛ هي : القيم المادية (ص ٤٠٩ - ٤٦٦) ، والقيم الخلقية .

● **الباب التاسع : في تدبير الأعداء وأهل الجنايات .**

ويتكون من فصلين ، خصصهما المؤلف لتدبير الأعداء وأهل الجنايات ، فتكلم عن إباحة دم المشركين والباغين ، وعقوبة قطاع الطريق ثم تحدث عن خصال من السياسة ، وتدابير المناجزة ، ثم يوصي الملك بأن لا يلقى حربًا بنفسه ، ويذكر ما يستعمله الملك إذا دفع للقتال بنفسه ، وما هو الواجب عليه بعد الظفر بعدوه .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب ؛ هي : العدوان Aggression (ص ٤٥٧ - ٥٢٠) ، والعقاب Punishment (ص ٤٦٣ - ٤٦٩) ، وسيكولوجية السياسة (ص ٤٧١ - ٥٢٠) ، وخصال الشخصية (ص ٤٧١ - ٥٢٠) ، والتيقظ Vigilance (ص ٤٧٩ - ٤٨٤) .

● **الباب العاشر : في تقديم النيات ، وطلب التأويلات لكثير مما يجري في أيدي الملوك والأمراء مما اختلف فيه كثير من العلماء وكرهه كثير من الفقهاء :**

ويتكون من فصلين ، يعرض فيهما المؤلف لاختلاف العلماء في الخصال التي يشتغل بها الملوك والأمراء ، من تحليل وتحريم الأشياء ، وأحوال الناس في الحلال والحرام وكراهيته ، ثم يختتم الكتاب بخصال مأثورة ، وخلال مذكورة عن الملوك الأولين والخلفاء الراشدين ، والحكماء المتقدمين ، وذوي التجارب والحِجَى ، والأحلام والنهى ، هي أعمدة السلطان وأركان الدول ، وأساس السياسة وجمال المُلك والخلافة .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب ؛ هي : الفروق الفردية Individual Differences (ص ٥٢٣ - ٥٢٥) ، وخصال الشخصية (ص ٥٢٣ - ٥٢٥ ، ص ٥٣٩ - ٥٦٣) ، والكراهية Hate (ص ٥٢٩ - ٥١٣) ، والنية (المقصد) Intention (ص ٥٢٣ - ٥٦٣) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام وعلم النفس الاجتماعي .

* * *

ابن بختشيوع (ت ٤٥٣هـ)
الروضة الطبية [1]

عرض : د.عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف :

عبد اللّه بن جبرائيل بن عبيد بن بختشيوع ، أبو سعيد ، طبيب باحث ، من أهل ميافارقين ، له تصانيف ؛ منها : « مناقب الأطباء » ، و « الروضة في الطب » ، و « التواصل إلى حفظ التناسل » ، و « طبائع الحيوان وخواصها ومنافع أعضائها » ، و « الخاص في علم الخواص » ، و « عقد الجمان في طبائع الإنسان والحيوان » .

عرض الكتاب :

يشتمل الكتاب على خمسين بابًا نعرض لها على النحو الآتي :

- **الباب الأول** : في ما الجنس ؟ وهو المقول على كثيرين مختلفين في النوع ، فهو شيء يعم أشياء مختلفة الصور .
- **الباب الثاني** : في ما النوع ؟ وهو المحمول على كثيرين مختلفين بالشخص من طريق ما ، فهو شيء يعم أشياء مختلفة الأشخاص يعمها صورة واحدة .
- **الباب الثالث** : في ما الفصل ؟ وهو المقول على كثرة مختلفة بالنوع من طريق أي شيء .
- **الباب الرابع** : عن الخاصة ، وهي المحمول على كثرة مختلفة بالشخص متفقة

---

(١) عبيد اللّه بن جبرائيل بن بختشيوع ، تصحيح بولس سباط ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية ، (١٩٢٧م) ، (٧٣ ص) .

بالصورة فقط منابة عن أنية الشيء الذي هو لها خاصته وليست بجزء له .

ويقترب ذلك من مفهوم الخاصة Characteristic أو السمة Trait (ص ١١ - ١٢) .

• **أما الباب الخامس** : فهو عن العرض ، ويقصد به كل محمول على الجوهر .

• **والباب السادس** : في الجوهر ، وهو القائم بنفسه ، ويوصف بأنه ليس في موضوع وهو في موضوع الأجسام القابلة للكون والفساد ، وهو المحل الذي يتم فيه وجود الأعراض .

• **الباب السابع** : في الكم ، وهو صفة تختص بمقادير الأشياء وأعدادها .

• **والباب الثامن** : في الكيف ، وهو صفة تكون للموصوف وتعسر مفارقتها ، والفرق بينها وبين العرض أن العرض يطرأ ويزول من غير فساد الموضوع .. والكيفية ليست كذلك .

• **الباب التاسع** : في الطبيعة ، وهي ابتداء الحركة ، ويقصد بذلك الحركة التي في ابتداء كون الجسم والسكون الذي ينتهي إليه اضمحلال ذلك الجسم .

• **الباب العاشر** : في الجثة ، وهي الموصوفة بالطول والعرض والسمك .

• **الباب الحادي عشر** : في الأسقطس ، وهو الشيء الذي في الغاية ، والشيء الذي في الغاية لا ينحل ؛ لأنه غير مركب .

• **الباب الثاني عشر** : في المزاج ؛ وهو اختلاط الممتزجين لكي يستحيلا إلى هيئة المزاج .

• **الباب الثالث عشر** : في الخلط ، وهو أسطقس للبدن ثابت موجود فيه .

• **الباب الرابع عشر** : العضو ، وهو جزء من بدن الإنسان يحتاز بحيز خاص ، وأعد لفعل ما .

• **الباب الخامس عشر** : القوة ، وهي سبب فاعل وقد توصف بصفة مأخوذة من جهة العقل .

ويرتبط هذا الفصل بموضوع التفكير Thinking ، والتخيل Imagination ، والإحساس Sensation (ص ٢٦ - ٢٨) .

• **الباب السادس عشر** : في الفعل ، وهو تأثير في موضوع ، وتختلف الأفعال بسبب اختلاف الشيء الفاعل .

ويرتبط هذا الباب بمفهوم النفس Psyche (ص ٢٨) .

• **الباب السابع عشر** : الروح ، وهي جسم لطيف هوائي تسري في الأعضاء وتعين

القوى على أفعالها .

• **الباب الثامن عشر** : النفس ، وهي – على مذهب أرسطاطاليس – نماء لجسم طبيعي ذي حياة بالقوة . وعلى مذهب أفلاطون – أنها جوهر بسيط عقلي يتحرك من ذاته كما عرضها المؤلف في ضوء عدد من المذاهب ، ويرتبط بمفهوم النفس Psyche (ص ٣١ – ٣٢) .

• **الباب التاسع عشر** : في تعريف العقل ، فهو على مذهب أرسطاطاليس جوهر بسيط لا يشبهه شيء من الأشياء التي من جوهر الهيولي المزكبة ، وعلى مذهب فيثاغورث جوهر بسيط نووي مختلط بكل شيء ، ورسمه من جهة الطباع ، أنه الدال على حقائق الأشياء .

• **الباب العشرون** : في الشهوة واللذة .

ويرتبط بالدافعية ، وكذلك بالإحساس (ص ٣٣ ، ٣٤) .

• **الباب الحادي والعشرون** : ويتحدث فيه عن العشق وهو تجاوز الحد في المحبة ، وأنه يختص بالنفس الناطقة وهو يؤدي إلى فساد التخيل والفكر .

ويرتبط بموضوع الانفعالات Emotions ، وكذلك بموضوع الخيال Imagination (ص ٣٥ – ٣٩) .

• **الباب الثاني والعشرون** : الحس ، وهو قوة للنفس مدركة للمحسوسات والحاسة آلة لها تدرك بها محسوساتها .

ويرتبط بموضوع الإحساس Sensation (ص ٣٩ ، ٤٠) .

• **الباب الثالث والعشرون** : التخيل ، وهو ثبات صور المحسوسات في النفس بعد مفارقتها ، ويرتبط بمفهوم الاحتفاظ Retention (ص ٤١) .

• **الباب الرابع والعشرون** : في الفكر ، وهو التسبب والنظر إلى المعارف والوقوف على حقائق الأشياء المتخيلة ، ويكون بالجزء الأوسط من الدماغ .

ويرتبط بموضوع التفكير Thinking (ص ٤١) .

• **الباب الخامس والعشرون** : في الذكر ، وهو إحضار ما قد سبق وجوده في الذهن ، أي ما سبق اكتسابه والاحتفاظ به .

ويرتبط بمفهوم التذكر Memorizing (ص ٤١ ، ٤٢) .

• **الباب السادس والعشرون** : في الخُلق ، وهو حالة للنفس داعية الإنسان إلى أن

يفعل أفعال النفس بلا روية ولا اختيار ، ونسب المتأخرون الخُلق إلى النفس الناطقة .

ويرتبط هذا الباب بموضوع الاتجاهات وسمات الشخصية (ص ٤٢ ، ٤٣) .

• **الباب السابع والعشرون** : في الغضب ، وهو غليان دم القلب لإرادة الانتقام وأيضًا هو الحركة لقهر ما أخذه .

ويرتبط هذا الباب بموضوع الانفعالات Emotions (خاصة انفعال الغضب Anger معناه وأنواعه) ، (ص ٤٣ ، ٤٤) .

• **أما الأبواب الثامن والعشرون ، والتاسع والعشرون ، والثلاثون ، والحادي والثلاثون ، والثاني والثلاثون** : فتتناول بالترتيب : الحركة ، والزمان والمكان ، والكون والفساد والعلم .

• **الباب الثالث والثلاثون** : في المعرفة ، وهي الوقوف على الشيء وقوفًا حقيقيًا ، ولها نوعان : معرفة خاصة تصح بالبرهان (لمعرفة الهندسة والحساب) ، والمعرفة العامة وهي التي يداخلها الحواس .

ويرتبط هذا الباب بمفهوم المعرفة knowledge (ص ٤٧) .

• **أما الأبواب الخامس والثلاثون ، والسادس والثلاثون ، والسابع والثلاثون ، والثامن والثلاثون** : فتتناول القياس ، والبرهان ، والعلة والنوم .

• **الباب التاسع والثلاثون** : في الرؤيا ، وتكون بحضور أمثلة الأشياء عند النوم .

وترتبط بسيكولوجية النوم والأحلام (ص ٥٠ - ٥٧) .

• **أما الباب الأربعون** : فهو عن النبض ، والباب الحادي والأربعون : عن البُحران ، وهو تغيُّر يعرض للأمراض فجأة .

• **والباب الثاني والأربعون** : عن المرض .

• **والباب الثالث والأربعون** : عن السبب .

• **والباب الرابع والأربعون** : عن العلامة .

• **والباب الخامس والأربعون** : عن الصحة .

ويرتبط بمفهوم الصحة النفسية (ص ٦٥) .

• **أما الباب السادس والأربعون** : فهو عن الغذاء .

• **والباب السابع والأربعون** : عن الدواء .

- **والباب الثامن والأربعون** : عن الغاذي والمغتذي .
- **والباب التاسع والأربعون** : الأبصار ، ويرتبط بموضوع الإدراك Perception (ص ٦٩) .
- **أما الباب الخمسون** : فهو عن الصوت .

* * *

ابن رضوان (ت ٤٥٣هـ)
خمس رسائل لابن بطلان البغدادي ولابن بطلان المصري [(١)]

عرض : د. جمعة سيد يوسف

التعريف المؤلف :

هو أبو الحسن علي بن رضوان بن علي بن جعفر الطبيب ، كان عالم مصر في أوانه في الأيام المستنصرية في وسط المائة الخامسة ، وكان في أول أمره منجمًا يقعد على الطريق ويرتزق ، ثم قرأ شيئًا من الطب وشيئًا من المنطق وكان من المعلقين لا المحققين ، ولم يكن حسن المنظر ولا الهيئة ، ومع هذا فتتلمذ له جماعة من الطلبة وأخذوا عنه وسار ذكره ، ولابن بطلان معه مجالس ومحاورات وسؤالات .

ويُذكر أن ابن رضوان تغير عقله في آخر عمره ، وكان السبب في ذلك أنه عند حدوث الغلاء في مصر ، أخذ يتيمة ورباها وكبرت عنده فلما كان في بعض الأيام خلا لها الموضع وكان قد ادخر أشياء نفيسة ، ومن الذهب نحو عشرين ألف دينار فأخذت الجميع وهربت ولم يظفر منها على خبر ولا عرف أين توجهت ، ويذكر أيضًا أنه كانت عنده سفاهة في بحثه وتشنيع على من يريد مناقشته .

وكانت وفاة علي بن رضوان في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة بمصر ، وذلك في خلافة المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر لإعزاز عبد اللّه بن الحاكم .

---

(١) ابن رضوان المصري ، ابن بطلان البغدادي ؛ تقديم يوسف شخت ، القاهرة ، الجامعة المصرية ، كلية الآداب (د.ت) ، (سلسلة كلية الآداب المؤلف رقم ١٣) ، نسخة مصورة ، (طبعت هذه الرسائل في مجموعة واحدة مع رسائل ابن بطلان البغدادي) .

ومن كتبه : شرح كتاب الفرق لجالينوس ، وشرح كتاب الصناعة الصغيرة لجالينوس ، وشرح كتاب الإسطقسات لجالينوس ، وكتاب الأصول في الطب ، ورسالة في علاج الجزام ، وكتاب النافع في كيفية تعليم صناعة الطب ، وكتاب دفع المضار عن الأبدان بمصر ، وتفسير مقالة الحكيم فيثاغورث في الفضيلة ، وتفسير ناموس الطب لأبقراط ، وكلام في الأدوية المسهلة ، وكتاب في عمل الأشربة والمعاجين وغيرها كثير (وقد بلغ ما أحصاه ابن أبي أصيبعة من مؤلفات ١٠٢ مؤلفًا) ، (استمدت هذه الترجمة مما ذكره ابن القفطي ، وابن أبي أصيبعة وساقه المحققان في مقدمة هذه الرسائل) .

ولابن رضوان ثلاث رسائل أو مقالات من الرسائل الخمس المشار إليها في عنوان هذا الكتاب وهي شديدة الإيجاز وسنعرض لها فيما يلي :

رسائل ابن رضوان :

تشمل هذه المجموعة من الرسائل ثلاث رسائل لابن رضوان جمعت مع رسائل ابن بطلان في شكل محاورات بينهما ، وقد طبعت رسائل ابن رضوان مع رسائل ابن بطلان وهي جميعًا تقع في حوالي ٤٤ صفحة ، ورسائل ابن رضوان ؛ هي : **الأولى** في التنبيه على ما في كلام ابن بطلان من الأغاليط ، **والثانية** في أن ما علمه يقين وما ظنه ابن بطلان غلط وسفسطة ، **والثالثة** هي رسالة ابن رضوان إلى أطباء مصر والقاهرة المعزية يشكو فيها حاله وما جرى بينه وبين ابن بطلان .

وهو يضعها تحت اسم مقالات ونعرضها على النحو التالي :

المقالة الأولى : في التنبيه على ما في كلام المختار بن الحسن بن عبدون البغدادي (المعروف بابن بطلان) من الأغاليط ، ويبدأها بذكر قول جالينوس إن الطبيب فيلسوف كامل وإنه من قصر عن ذلك فهو متطبب لا طبيب ، والفيلسوف الكامل هو الذي حصل له العلم التعليمي والطبيعي والإلهي والمنطقي ، فالطبيب هو الذي حصل كل واحد من هذه على الكمال أي بلغ فيه الكمال ، ثم يذكر أن ابن بطلان ليس فيه شيء من هذه وإنما هو مدع ، كما يفرق بين علوم القول والعمل أخذًا عن جالينوس كذلك . ويتعرض لمناقشة ما ذكره ابن بطلان في أن الفروج أحر من الفرخ ، ثم يتعرض في ثنايا هجومه على ابن بطلان لاختبار العقل ، وعدم القدرة على الفهم ، وقصور المعرفة ، والهذيان في الكلام (وهو مس غير مباشر للعقل وما يمكن أن يدخل تحته من فهم ، ووظائف معرفية ، واضطرابات التفكير الذي يتبدى في اضطرابات الكلام ، وهي

موضوعات اهتم بها علماء النفس المحدثون اهتمامًا مباشرًا (ص ٤٣ ، ٤٤) .

والمقالة الثانية : لابن رضوان في أن ما علمه يقين وحكمة وما ظنه مختار بن الحسن البغدادي غلط وسفسطة ، وهي رسالة شديدة الإيجاز والاختصار ، ويواصل ابن رضوان فيها رده على خصمه ابن بطلان ، وكيف أنه - أي ابن رضوان - قد لزم في رده العلم والحكمة فأورد فيه منافع و فوائد كثيرة من الفلسفة النظرية والعملية ويهاجم بشدة خصمه ابن بطلان ، ويصفه بأنه مريض النفس وليس لهذا المرض دواء (ولعل مصطلح مرض النفس أو الأمراض النفسية من المصطلحات ذات الدلالة البالغة عند الأطباء النفسيين وعلماء النفس الإكلينيكيين في الوقت الراهن (ص ٧٣) ، ويرى أيضًا أن الاجتهاد في التماس الحق والمواظبة عليه هو الطريق إلى السعادة ، وكذلك فإن تحقيق الفهم والمعرفة هي من طرق السعادة أيضًا (ونلاحظ أن مفهوم السعادة Happiness من المفاهيم التي تلقى اهتمام علماء النفس) .

والمقالة الثالثة : والأخيرة بالنسبة لابن رضوان فهي موجهة إلى أطباء مصر والقاهرة المعزية يشكو فيها حاله وما جرى بينه وبين العلامة المختار بن الحسن البغدادي الطبيب . وفيها يسوق بعضًا من كلام ابن بطلان ، ثم يحاول تفنيده أو بيان الخطأ فيه ، تبصيرًا للأطباء المصريين الذين يخصهم برسالته أو مقالته . وجميع الأقوال التي اختارها أو علق عليها ذات طبيعة طبية تتعلق بصناعة الطب والدوار ، وكلها تتركز حول الأمراض الجسمية ، غير أنه في ثنايا ذلك يعرض لمفهوم مهم من المفاهيم الحديثة التي ابتكرها علماء القياس النفسي ونقلها عنهم واستخدمها المشتغلون بالعلاج السلوكي Behavior Therapy ، ألا وهو مفهوم التدرج في الانتقال من حالة لحالة مثل الأسلوب المعروف بالتحصين التدريجي Gradual Desensitization أو التسكين المنظم (ص ٨٣) .

وكما نلاحظ من هذه الرسائل الثلاث أنها موجزة ، وأن ما ورد بها من مفاهيم أو مصطلحات ذات صلة بعلم النفس قليلة ، وغير مباشرة ، وهو عكس ما لاحظناه في رسالة ابن بطلان التي تعرض ناقلها لبعض فصولها بشيء من التفصيل ، وإنما أوردنا رسائل ابن رضوان باعتبارها ردًا على ابن بطلان وذلك حتى تكتمل الصورة لدى القارئ .

* * *

ابن حزم الأندلسي (٤٥٦هـ)
طوق الحمامة [1]

عرض : د. شعبان جاب اللّٰه رضوان

التعريف بالمؤلف :

هو الإمام الجليل أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الفارسي الظاهري ، من قرطبة بالأندلس ، المولود سنة ٣٨٤هـ ، والمتوفى سنة ٤٥٦هـ ، وقد اهتم بنشر العلم وتحصيله رغم ما اعترضه من الموانع في هذا السبيل ، وقال عنه القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد ، كان أبو محمد بن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفةً وبخاصة في البلاغة والشعر والسير والأخبار ، وقال عنه أبو عبد اللّٰه الحميدي : إنه كان عالمًا حافظًا بعلوم الحديث وفقهه ، وذكر صاعد بن أحمد أن أبا رافع الفضل بن علي (ابن المترجم له) أخبره أنه قد اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف صفحة ، ومن هذه المؤلفات التي ذكرها المؤرخون ما يلي :

١ - الفصل بين أهل الأهواء والنحل .

٢ - الصادع والرادع على من كفَّر أهل التأويل من فرق المسلمين والرد على فرق التقليد .

٣ - الجامع في حد صحيح الحديث .

٤ - التلخيص والتخليص في المسائل النظرية وفروعها التي لا نص عليها في الكتاب والحديث .

---

(١) ابن حزم الأندلسي ، بيروت ، مؤسسة ناصر للثقافة (د.ت) ، (٢٣٩ ص) ، (خزانة الفكر العربي ٢٦) ، (المرجع : الأخلاق والسير لابن حزم) .

٥ – منتقى الإجماع .

٦ – الإمامة والخلافة في سير الخلفاء ومراتبهم .

٧ – كتاب أخلاق النفس .

٨ – كتاب في الإجماع ومسائله على أبواب الفقه .

٩ – كتاب في مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض .

١٠ – كتاب فهم السنن في الملل والنحل .

١١ – حجة الوداع .

١٢ – المحلى بالآثار في شرح المجلى بالاختصار .

١٣ – الإحكام لأصول الأحكام .

عرض الكتاب :

يقع هذا الكتاب في ٢٣٩ صفحة من القطع الصغير ، ويحتوي على ثلاثين بابًا بالإضافة إلى مقدمة الناشر ، وتوطئة المؤلف ، وخاتمة ، وفهرس الموضوعات .

وفيما يلي عرض لهذه الأبواب :

● **الباب الأول : الكلام في ماهية الحب .**

ويدور حول مفهوم الحب وأنواعه ، ومنها الحب غير النفعي ، أي المجرد عن الأهداف الشخصية ، وهو الحب في اللّه وهو أفضل أنواع الحب ، ويتسم بالاستمرار وعمق المشاعر نحو المحبوب ، وهناك محبة القرابة والألفة ، ومحبة الطمع في جاه المحبوب ، ومحبة بلوغ اللغة ، ومحبة العشق ، وينقضي الحب المعلل بانقضاء علته .

أما البغض وهو ضد المحبة فقد لا يكون له سبب أو علة ، ويؤثر الحب في إدراك الأشياء ؛ فهو يزين للمرء ما كان يأنف منه ، ويسهل عليه ما كان يصعب عنده ولا يود المرء الإفاقة منه . ويتصل هذا الباب بموضوع الانفعالات Emotions (انفعال الحب) في علم النفس العام (ص ١٧ – ٢٥) .

● **الباب الثاني : علامات الحب .**

ومنها النظر بالعين ، والحديث بالكلام ، والإسراع بالسير نحو مكان المحبوب ، وتعمد القعود بقربه والتباطؤ عند القيام عنه ، والبهت والروعة عند رؤية المحبوب فجأة والانبساط

الكثير ، ويحدث القلق عند رجاء لقاء المحبوب ، ويتتبع المحب أخبار المحبوب ويهتم بحركاته ، ومن علامات الحب أيضًا البكاء ، وهو من مظاهر الانفعال ، كما يتصل ذلك بموضوع التواصل أو التخاطب Communication في علم النفس الاجتماعي (ص ٢٦ - ٣٦) .

● **الباب الثالث : باب من أحب في النوم .**

يشير إلى الحب الذي يحدث من خلال الأحلام ويتوهمه الإنسان ويتمسك به . ويتصل ذلك بسيكولوجية الأحلام Dreams والتوهم .

● **الباب الرابع : باب من أحب بالوصف .**

يتناول انفعال الحب الذي يتم من خلال سماع المحب لوصف المحبوب ، ويتخيل المحب صورة المحبوب .

ويتصل هذا بسيكولوجية الخيال Imagination (ص ٣٩ - ٤١) .

● **الباب الخامس : باب من أحب من نظرة واحدة .**

ويدور حول تكون انفعال الحب لدى الإنسان من نظرة واحدة للمحبوب ، وهذا الحب ينقضي بسرعة ، ويتصل ذلك بموضوع الانفعالات (ص ٤٢ - ٤٤) .

● **الباب السادس : باب من لا يحب إلا مع المطاولة .**

ويهتم بالحب الذي لا ينشأ إلا بعد فترة طويلة من مشاهدة ومؤانسة المحبوب ، وهذا الحب يتسم بالاستمرار ، وهو يتصل أيضًا بباب الانفعالات (ص ٤٥ - ٤٩) .

● **الباب السابع : باب من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها .**

يتناول أثر الحب في الحكم على الأشياء ، فالذي يحب صفة في محبوبه يسيطر عليه هذا الحب ، ويقتصر حبه على هذه الصفة دون غيرها . ويرتبط هذا الجزء بتأثير الانفعال في التفكير وفي إصدار الأحكام (ص ٥٠ - ٥٣) .

● **الباب الثامن : باب التعريض بالقول .**

يدور حول الكلام ، كأداة للتعبير عن الحب ، ويتصل هذا المعنى بمفهوم التواصل اللفظي Verbal Communication في علم النفس الاجتماعي (ص ٥٤ - ٥٦) .

● **الباب التاسع : باب الإشارة بالعين .**

يتناول النظر بالعين كأحد وسائل التعبير غير اللفظي عن الحب ، وأيضًا الإشارات والإيماءات وهذا هو الجانب غير اللفظي Non-Verbal من التواصل (ص ٥٧ - ٥٩) .

● **الباب العاشر : باب المراسلة .**

يشير إلى المراسلة كوسيلة التواصل بين المحب والمحبوب ، وهي وسيلة لإثارة مشاعر الحب لدى طرفي علاقة الحب .

● **الباب الحادي عشر : باب السفير .**

فعندما تحل الثقة بين المحب والمحبوب يمكن أن يتم التواصل بينهما من خلال سفير (رسول) يتسم بالذكاء والفطنة .

● **الباب الثاني عشر : باب طي السر .**

يتناول كتمان أسرار الحب ومظاهره ؛ وذلك لإبقاء المحب على محبوبه ، ويعتبر من دلائل المحب من محبوبه انحرافًا ، ويكون ذا نفس أبية فيستتر بما يجد لكي لا يشمت به عدو ، ويمكن أن يتصل ذلك بموضوع سمات الشخصية Personality Traits (ص ٦٤ - ٦٨) .

● **الباب الثالث عشر : باب الإذاعة .**

ويتناول كشف الحب وإظهاره وإذاعة أسراره مما يؤدي إلى عواقب سيئة على الإنسان ، وربما يكون بسبب غلبة الحب والميل نحو الجهر أكثر من الحياء ، ويشير هذا إلى خصائص وسمات الشخصية (ص ٦٩ - ٧٢) .

● **الباب الرابع عشر : باب الطاعة .**

يتناول أثر الحب في تغيير شخصية المحب التي قد تتسم بالشراسة والطباع القوية إلى شخصية طائعة لينة مستسلمة ، ويرتبط هذا المعنى بمفاهيم وسمات شخصية ؛ مثل التسلطية والخضوع (ص ٧٣ - ٧٨) .

● **الباب الخامس عشر : باب المخالفة .**

ويدور حول تحقيق رغبات المحب ولو خالف ذلك هوى المحبوب ، ويعني هذا عدم تطابق وجداني Affective Incongruency بينهما (ص ٧٩) .

● **الباب السادس عشر : باب العاذل .**

ويهتم هذا الباب بأنواع الأصدقاء الذين يقومون بالحث والحض والزجر لإنهاء علاقة بين طرفين ، فأحيانًا يتسم هذا الصديق برفق القول والنصح الأمين وهو يفيد في تهذيب النفس ، وقد يتسم بالزجر وكثرة الملامة وذلك عبء ثقيل على النفس . ويدخل النوع الأول في إطار التوجيه والإرشاد النفسي Counselling Psychology (ص ٨٠ ، ٨١) .

• **الباب السابع عشر : باب المساعدة من الإخوان .**

يتناول هذا الباب صفات وخصائص الصديق الوفي الذي يقف مع المحب في شدائده ، ويصون أسراره ويؤانسه ، ويدخل ذلك في موضوع سيكولوجية الصداقة Friendship في علم النفس الاجتماعي (ص ٨٢ – ٨٥) .

• **الباب الثامن عشر : باب الرقيب .**

وهو عن أنواع الأشخاص الذين يقومون بعملية الرقابة على المحب ومحبوبه ، سواء الرقابة المتعمدة لمعرفة حقائق عنهما ، أو رقابة غير متعمدة لعدم فطنة الرقيب ، ويتصل ذلك بموضوع سيكولوجية العلاقات الاجتماعية Social Relationships في علم النفس الاجتماعي ، وأيضًا سمات الشخصية (ص ٨٦ – ٨٩) .

• **الباب التاسع عشر : الواشي .**

ويدور حول الشخص الواشي الذي يريد أن يوقع ويفرق بين المتحابين بأساليب مختلفة ، منها ذكر صفات سيئة عن المحب للمحبوب ليست فيه . ويدخل ذلك في سمات الشخصية ، وسيكولوجية العلاقات الاجتماعية (ص ٩٠ – ٩٨) .

• **الباب العشرون : باب الوصل .**

ويتناول العلاقة المباشرة بين المحب والمحبوب أو العلاقة اللاحقة للهجر أو الفراق ، ومظاهر هذه العلاقة الدالة على شدة الحب بينهما ، وهو يتصل بموضوع الانفعالات (ص ٩٩ – ١٠٩) .

• **الباب الحادي والعشرون : باب الهجر .**

يتحدث المؤلف في هذا الباب عن مظاهر الهجر وأنواعه ؛ ومنها الهجر نتيجة ذنب يقع من المحب ، أو نتيجة التدلل ، فيظهر المحبوب هجرانًا ليرى صبر محبه . وهناك هجر بسبب الوشاة أو الملل أو جفاء المحبوب . ويتصل هذا بسيكولوجية العلاقات الاجتماعية

والانفعالات (ص ١١٠ - ١٢٤) .

• **الباب الثاني والعشرون : باب الوفاء .**

يدور هذا الباب حول خاصية مهمة في العلاقة بين المحب والمحبوب ، وهي خاصية الوفاء ، والتي تعتبر فرضًا لازمًا وحقًّا واجبًا على المحب والمحبوب ، ولا يحول عنها إلا الخبيث الذي لا خلاق له ولا خير عنده ، ويتصل هذا بموضوع سيكولوجية العلاقات الشخصية وسمات الشخصية (ص ١٢٥ - ١٣٢) .

• **الباب الثالث والعشرون : باب الغدر .**

ويدور حول خاصية ذميمة ومكروهة تفسد العلاقة بين المحب والمحبوب ، وهي الغدر ، وبخاصة الغدر الذي يقع من السفير بينهما ، فيغدر على المحب ويستأثر بالمحبوب دونه ، ويتصل هذا المعنى بموضوع العلاقات المتبادلة في علم النفس الاجتماعي Interpersonal Relationships (ص ١٣٣ - ١٣٤) .

• **الباب الرابع والعشرون : باب البين .**

ويتناول الفراق بين طرفي علاقة الحب وأنواعه ، ومنها الفراق المؤقت لسبب معين ، أو الفراق بسبب منع المحبوب نفسه من أن يراه محبه ، ومظاهره الحزن والأسف . أو المتعمد من المحب بعدًا عن قول الوشاة ، أو الفراق الناتج عن الرحيل وتباعد الديار وهو خَطْب موجع ، ويشير المؤلف هنا أيضًا إلى مواقف الوداع ومظاهرها وآثارها على النفس ، وإلى الفراق بسبب الموت ، وهو فراق قاطع لكل رجاء ، ويتصل بموضوع انفعال الحب ، والعلاقات الشخصية بين المحب والمحبوب (ص ١٣٥ - ١٤٩) .

• **الباب الخامس والعشرون : باب القنوع .**

ويتضمن موضوع الرضا والقنوع في حالة الحرمان من الوصل الحقيقي والمباشر بين المحب والمحبوب ، بهدف راحة النفس . وهذا القنوع به درجات متباينة ؛ منها القنوع بالنظر إلى الجدران التي يسكنها المحبوب ، أو الراحة لمن رأى المحبوب أو أتى من بلاده . ويتصل بموضوع الانفعالات ومظاهرها : انفعال الحب (ص ١٥٠ - ١٦٠) .

• **الباب السادس والعشرون : باب الضنى .**

يهتم هذا الباب ببيان بعض المظاهر أو الآثار السلبية المترتبة على عدم الوصل بسبب

الفراق أو الهجر ، وذلك كالاختلاط العقلي أو الانشغال الذهني بدرجة عالية أو الجنون ، وينضوي ذلك تحت علم النفس الإكلينكي أو المرضي Clinical psychology (ص ١٦١ - ١٦٥) .

● **الباب السابع والعشرون : باب السلو .**

ويتناول السلوّ كعاقبة للحب ، وهو أنواع منها السلوّ الذي يعقب الهجر وهو كاليأس ، وهناك أيضًا السلو الطبيعي المسمى بالنسيان ، وهنا يبدو الإنسان كأنه لم يحب قط ، والسلو التطبعي وهو التصبر ويبدي فيه الإنسان التجلد رغم ولع قلبه . ومن أسباب السلو الملل والاستبدال والحياء وكلها من المحب ، وهناك أيضًا الهجر والجفاء والغدر والنفار وهي من المحبوب .

● **الباب الثامن والعشرون : باب الموت .**

ويدور حول شدة الحب والولع بالمحبوب ، والذي قد يؤدي إلى الموت ومفارقة الدنيا . وهذا إشارة إلى شدة الانفعال (ص ١٨١ - ١٨٩) .

● **الباب التاسع والعشرون : باب قبح المعصية .**

يتحدث المؤلف في هذا الباب عن طبيعتين متعارضتين خلقهما اللّه تعالى في الإنسان هما قُوَّتا العقل والغرائز ، فيحث العقل على الخير والحسن ، وتقود الغرائز إلى المعصية والإثم كفعل الزنا واللواط ، ومفهوم الغريزة يتصل بموضوع الدوافع Motives في علم النفس العام ، كما أن اللواط يشير إلى اضطراب جنسي Sexual Disorder هو الجنسية المثلية Homosexuality ويتعلق بعلم النفس المرضي (ص ١٩٠ - ٢١٦) .

● **الباب الثلاثون : باب فضل التعفف .**

يشير المؤلف في هذا الباب الأخير من الكتاب إلى فضل العفة ، وترك المعصية ، وتجنب الفواحش كالزنا واللواط وجزاء ذلك في الآخرة من ثواب عظيم .

ويمكن أن يتصل هذا المعنى بمفهوم توجيه وضبط الدافع Motive الجنسي ويدخل في علم النفس العام (ص ٢١٧ - ٢٣٦) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام ، وخاصة الانفعالات .

الأخلاق والسير في مداواة النفوس [1]

عرض د. جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

الكتاب يقع في ٦٩ صفحة من القطع المتوسط ويضم الكتاب - بالإضافة إلى ترجمة المؤلف ، ومؤلفاته ، وخطبته - أحد عشر موضوعًا .

والموضوع **الأول** : هو مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق ، وفيه يميز المؤلف بين مصادر اللذة لصنوف من البشر ، فلذة العاقل بتمييزه ، ولذة العالم بعلمه ، ولذة الحكيم بحكمته ، ولذة المجتهد لله باجتهاده ، وهي تختلف عن مصادر اللذة في الدنيا والأكل والشرب واللعب .

ويحث المؤلف على العمل للآخرة فهو الأبقى ، وعاقبته السرور في العاجل والآجل . والسرور في الآجل هو دخول الجنة ، والسرور في العاجل هو قلة الهم ، وطرده ، وهو ما يستوي الناس في استحسانه ، وهو مذهب اتفقت الأمم كلها في السعي إليه . ويحاول من جانبه البحث عن سبيل موصلة إلى طرد الهم ، الذي هو مطلب النفس ، واهتدى إلى أنه موجود في التوجه لله ، والعمل للآخرة .

ونلمح من هذا الحديث بداية أولية مبكرة لأحد الموضوعات التي تهم الدارسين في مجال علم النفس الإكلينكي والصحة النفسية والطب النفسي ، وهو الاكتئاب Depression

(١) ابن حزم ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، ط. ٣ ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة (١٩٨٠م) ، (٦٩ ص) .

خاصة ما يسمى بالاكتئاب التفاعلي أو تغيرات المزاج ، وكيفية تشخيصها ومعرفة أسبابها وعلاجها (ص ١٣ - ١٦) .

والموضوع الثاني : بعنوان العقل والراحة ، ويعرفه باطراح المبالاة بكلام الناس ، والمبالاة بكلام الخالق ، ويحذر من الاستماع لكلام الناس مدحًا وذمًّا ، سواء كان بالحق أو بالباطل ؛ لأن ذلك قد يورث الإنسان العجب والغرور ، فيفسد فضائله ، أو يضله ويخدعه ، وذلك نقص شديد أحرى بالعاقل ألا يتخلق به . وعليه أيضًا أن يربي نفسه على التمييز بين الفضائل والرذائل ، وبين الطاعات والمعاصي حتى يسعد في دنياه وأخراه ، ويحاول أن يبصر البشر بالابتعاد عن مصادر المغرور والكبر كالإعجاب بالقوى والصفات الجسمية والبدنية ؛ لأن سعادة الإنسان بقوة تمييزه ، واتساع علمه ، وحسن علمه . ويحذر من « الغضب » مسترشدًا في ذلك بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية . ولعل حديثه عن الغضب يعد سبقًا لدراسة أحد الموضوعات التي تدرس الآن في إطار علم النفس العام وهو موضوع الانفعالات Emotions (ص ١٩ ، ٢٠) .

وينتقل بنا ابن حزم ليحدثنا في الموضوع الثالث عن العلم وأسباب طلبه ، وفضله على طالبه في الدنيا والآخرة . ويحذر من الجهل وسوء عاقبته ، ويرى أن من أهم فوائد الاشتغال بالعلم قطع المشتغل به عن الوساوس المضنية ، وكف الأفكار المؤلمة للنفس ، والتخلص من الآمال التي لا تفيد غير الهم ، ثم يرسم طريق نشر العلم وإذاعته ، على أن يكون ذلك بين من يبجلون العلم ، وحذر في نفس الوقت من البخل في العلم . ويلفت ابن حزم النظر إلى نقطة أصبحت الآن حقيقة واقعة ألا وهي (التخصص في العلم) ، أي أن يختار الإنسان علمًا معينًا فيفضله على غيره من العلوم ، وأن يبحث كل طالب علم له عن قدوة ومثل أعلى يطمح في الوصول إليه (وهو أحد الموضوعات التي تدرس في علم النفس الحديث داخل ما يسمى بسمات الشخصية خاصة ما يعرف بمستوى الطموح Level of Aspiration . أو التعلم بالاقتداء Modeling كما في ميدان التعلم (ص ٢١ - ٢٥) ويختتم هذا الموضوع بالتحذير من الدخلاء على العلم وما يمكن أن يسببوه من إفساد له .

وتحت عنوان الأخلاق والسير ، يقدم ابن حزم عددًا من الإرشادات والنصائح والوصايا القيمة ، والتي تقوى بها الأخلاق ، وتصلح بها النفوس ، فهو يوصي بمعرفة عيوب النفس ، وعدم الاندماج في مخالطة الناس ؛ لأن ذلك يجر الذنوب والهموم (وينهى في نفس الوقت عن الانعزال العام) ، ويدعو إلى الهمة وعدم تأجيل عمل اليوم

إلى الغد . ويوصي بعدم الاستماع إلى الوشاية ، ويحث على الشجاعة والإيثار والعفة والعدل والكرم والتواضع ، وأن نتوقع ما لا نحب حتى نحتمله عندما يحدث . (وهو هنا يشير إلى موضوع يدرس في علم النفس الحديث تحت ما يسمى بالتوافق Adjustment ، وكيف يوصي العلماء بتوقع المشقة Stress حتى نقلل من وقعها علينا عند حدوثها) ، (ص ٢٦ - ٢٨) ويعلي من قدر المتدينين وإن لم يكونوا على ديننا .

وفي مقابل ذلك يحذر من الثأر والانتقام ، والغدر ، وشهادة الزور ، والسكر (ويدرس ذلك الآن تحت مسميات الاعتماد Dependence أو الإدمان Addiction) ، (ص ٢٨) وينهى عن البخل والشح ، والظلم والجور ، والغضب والحقد ، وحب الذكر .

ويختتم نصائحه بأنه لا يوجد مخلوق يخلو من عيب ، وأن من عَلِم - نقصه كان كاملًا ، وهذه الموضوعات تدخل فيما يعرف في علم النفس الحديث بالقيم الأخلاقية والانفعالات .

وفي **الموضوع الخامس** ، وتحت عنوان الإخوان والصداقة والنصيحة : يحدد ابن حزم إطارًا للصداقة الحقة ، ويرسم معالمها ، فيحبذ العتاب بين الأصدقاء ، وينهى عن إفشاء الأسرار ، وألا نقابل إساءة الصديق بالإساءة ، وأن نتحلى بالعفو ، وبذل الفضل لمن سأل ومن لم يسأل (وهو من أحدث الموضوعات التي تدرس الآن في علم النفس الاجتماع Social Psychology تحت مسمى سلوك المساعدة Helping Behavior (ص ٤١ ، ٤٢) وأن نقدم النصيحة والشفاعة بلا شروط ، ثم يحدد حدود الصداقة وغاياتها ، وحد النصيحة ومراتبها ، ويقدم بعض الهدايات التي ينبغي أن نسترشد بها في معاملة الأصدقاء ، ويختتم هذا الجزء بتقسيم الناس إلى سبع مراتب : أهل الثقافة ، وأهل الملق والطمع ، وأهل الخط والحمق ، وأهل السلاطة والوقاحة ، والعيابون ، وأهل الفضل ، وأهل السلامة .

والموضوع في مجمله يدخل في أحد موضوعات علم النفس الاجتماعي الحديث وهو المهارات الاجتماعية Social Skills ومنها الصداقة Friendship وكذلك موضوع الإرشاد النفسي (ص ٤٠ - ٥٠) .

واستكمالًا للحديث السابق ، يحدثنا في الموضوع السادس عن المحبة وأنواعها ، ويرى أن المحبة كلها من جنس واحد ، ولكنها تختلف باختلاف الأغراض فيها . ومن

أنواعها المحبة للَّه ، وللأب وللابن ، وللقرابة ، والصديق ، وللسلطات .. وغير ذلك . ويحدد أدنى أطماع المحبة ممن تحب ، وأقصى أطماع المحب ممن يحب ، ويورد عددًا من الأقوال في المحبة فيقسمها إلى عدة مراتب : هي الاستحسان ، والألفة ، والكلف والشغف ، ويقسم كذلك الصور إلى أنواع ؛ فمنها : الحلاوة ، والقوام ، والروعة ، والحسن ، والملاحة . وهذا الموضوع كما قدم على هذا النحو يدخل ضمن موضوع الانفعالات Emotions الذي يدرس في علم النفس العام (ص ٥١ - ٥٦) .

وفي الموضوع السابق يحدثنا عن الأخلاق والعادات ، فيلفت النظر إلى عادات الرسول الكريم ﷺ وأخلاقه . ويبدأ بعد ذلك تقديم عدد من الأخلاق والعادات المحببة ، وعدد آخر من العادات والأخلاق الذميمة ، وذلك من خلال تقديم المتضادات والنقائض ليبرز محاسن الأولى ومساوئ الثانية : فهو يوضح حد العقل في أنه استعمال الطاعات والفضائل ، وحد الحمق في استعمال المعاصي والرذائل ، وحد السخف هو العمل والقول بما لا تحتاجه الدنيا أو الدين ، وحد الوقار هو وضع الكلام في موضعه ، والتوسط في تدبير المعيشة ، والمسالمة ، وهي كلها ضد السخف ، كما يحذرنا من الدهاء ، والتعدي ، والتخليط في القول والكذب ، ومخالطة جلساء السوء ، والمساعدة فيما يعود علينا بالضرر ، ويحثنا على القناعة والوفاء ويرى أن أصول الفضائل أربعة هي : العدل ، والفهم ، والنجدة ، والجود . وأن أصول الرذائل أربعة هي : الجور ، والجهل ، والجبن ، والشح . ثم يدعونا إلى التأسي بخلق الرسول ﷺ .

وبعد ذلك ، وفي الموضوع الثامن ، وهو وثيق الصلة بسابقه : يتحدث عن أدواء الأخلاق الفاسدة ومداواتها ، وهنا يبدو ابن حزم كالطبيب البارع الذي يشخص الداء ويصف الدواء . ويرى أن مصدر الداء يمكن في العجب والغرور ، وعدم إدراك عيوب النفس . ويعدد مصادر العجب ؛ كالعجب بالآراء ، والعلم ، والعجب بالمال ، والعجب بمدح الآخرين وثنائهم ، والعجب بالنسب ، وهو في كل مرة يفند حجة المعجب بمصدر إعجابه ، فكل مصادر العجب وهبنا اللَّه إياها ، ويمكنه أن يسلبها منا إن لم نحسن استخدامها ، وينهانا في الوقت نفسه عن الخوض في عيوب الآخرين ، وعن التعسف وسوء التصرف فيمن تحت أيدينا ، ولا نتطاول على من لا يملك المعارضة ، ويجعل أسباب ذلك كله في نقص العقل ؛ لأن من نقص عقله توهم أنه أوفر الناس عقلًا وأكملهم تمييزًا . ويرى أيضًا أن أشد آلام الناس هي الخوف والهم والمرض والفقر . وهو في كل مرة يصف فيها داء يقدم معه علاجه ، ويرى أن رياضة النفس وترويضها ،

وتذكرها لنقائصها ، والتمسك بالفضيلة ونبذ الرذيلة من أهم دعائم العلاج .

والموضوعات الثلاثة المتبقية صغيرة نسبيًا ، لكنها لا تقل من حيث الأهمية . ففي الموضوع التاسع يحدثنا عن غرائب النفس ، فيذكر منها التروي في إصدار الحكم ، وعدم الأخذ بالظاهر المرئي ، بغية الإنصاف ، ومن عجائب الأخلاق - أيضًا - أن الغفلة مذمومة وأن استعمالها محمود وقد يبدو هذا القول متناقضًا إلا أن ابن حزم يقدم الدليل على اختفاء التناقض ، ويستدل على ذلك بإظهار الجزع وإبطانه ، وفي إظهار الصبر وإبطانه أيضًا ، ثم ينتقل بعد ذلك لمواصلة الحديث في الموضوع العاشر عن تطلع النفس إلى ما يستر عنها من كلام مسموع ، أي شيء مرئي ، أو إلى المدح وبقاء الذكر . وهي من الأمور التي لا يخلو منها أحد ، أي الفضول وحب الاستطلاع ، ويبين كيف أن الانشغال بهاتين الصفتين قد يجر على الإنسان الهم ، كما أنه لم يجن من وراء ذلك الشيء الكثير ، فكم من ملوك وعلماء ، وأخيار الأمم ذهبوا أو لم يبق لهم أثر ولا لأحد بهم علم . وبدلًا من ذلك يجب أن نشتغل بشكر المنعم ، والاهتمام بأموره وحسن الدفاع عنه والوفاء له ، ونشر محاسنه ، وأن تفعل ما هو أكثر من ذلك مع المنعم الأعظم ﷺ ، فهو أساس كل نعمة ، والمجزي عن كل خير .

وفي الموضوع الأخير - الحادي عشر - يقدم ابن حزم وصية غالية يحض فيها على حضور مجالس العلم ، وآداب هذا الحضور ، فيكون الحضور حضور المستزيد من العلم والسؤال سؤال المتعلم ، والمراجعة مراجعة العالم ، وأن من تعلم فليتعلم الخير ، وليعمل به ، وفي ذلك جمع لعدد من الفضائل .

* * *

الجرجاني ، عبد القاهر (ت ٤٧١هـ)
أسرار البلاغة في علم البيان [1]

عرض : د. طريف شوقي

التعريف بالمؤلف :

ولد الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني سنة (٤٠٠هـ - ١٠١٠م) بمدينة جرجان ، ولقب بإمام علوم اللغة في عصره .

وقد اهتم بتدوين علم البلاغة ، ووضع قوانين للمعاني والبيان لما تحكمت في عصره دولة الألفاظ ، واستبدت على المعاني ، وطال الوقوف على مدلول الألفاظ المفردة والجمل المركبة ، والانصراف عن المعاني للأساليب ، ومغازي التراكيب .

ومثل عبد القاهر في أسرار بلاغته ودلائل إعجازه (أشهر كتابين له) كمثل ابن خلدون في مقدمته .

فعبد القاهر يعد أول من أسس من هذا الفن (البلاغة) قواعده ، وأوضح براهينه ، وأثبت فوائده ، ورتب أفانينه كما يقول يحيى بن حمزة الحسيني الذي كتب (الطراز في علوم حقائق الإعجاز) وهو أحسن ما كُتِب في البلاغة بعد عبد القاهر .

وكان عبد القاهر بجانب شهرته في علوم اللغة ، مشتغلًا بعلوم الكلام وفقيهًا ، وقد توفي رحمه الله (٤٧١هـ) .

---

(١) تأليف عبد القاهر الجرجاني ، صححها محمد رشيد رضا ، ط. ١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، (١٩٨٨م) ، (ص ٣٧٢) .

عرض الكتاب :

مقدمة الكتاب :

يتحدث فيها عن وظيفة اللغة وأهميتها ، ومكانة المعنى والدلالة فيها ، وكيف أن اللغات تتفاضل في حقيقتها بالبيان ، وهو تأدية المعاني التي تقوم بالنفس تامة ، على وجه يكون أقرب إلى القبول وأدعى إلى التأثير ، فالحسن والقبح لا يتوقف على اللفظ والجرس ، ولكن العبرة بالمعنى .

كالتجنيس فإنك لا تستحسن فيه تجانس اللفظين إلا إذا كان موقع معنيهما من العقل موقعًا (حميدًا) ، فالألفاظ خدم المعاني ، فمن نصر اللفظ على المعنى ، ربما طمس بكثرة ما يتكلفه المعنى وأفسده ، فاللفظ لا يجتلب من أجل السجع ، فالمتكلم لم يقد المعنى نحو التجنيس والسجع ، بل قاده المعنى إليهما (ص ٤ ، ١٠) ويردف قائلًا : اعلم أن غرضي في هذا الكلام الذي ابتدأته ، أن أتوصل إلى بيان أمر المعاني ، وأفصل أجناسها وأنواعها ، وأبين أحوالها في كرم منصبها من العقل ، وقرب رحمها منه ، وأن من الكلام ما هو كما هو شريف في جوهره كالذهب الإبريز (لأنه محمل بالمعنى الجلي) ، وجل المعول على شرفه على ذاته ، وإن كان التصوير قد يزيد في قيمته ويرفع من قدره ، ومنه ما هو (ما لا يحتوي على قدر كافٍ من المعنى) كالمصنوعات العجيبة من مواد غير شريفة ، فلها قيمة تغلو ، ومنزلة تعلو ، حتى إذا خانت الأيام فيها أصحابها ، وفجعتهم فيها بما سلب حسنها المكتسب بالصنعة ، فلم يبق منها إلى المادة العارية من التصوير ، والطينة الخالية من التشكيل سقطت قيمتها ، وانحطت رتبتها ، وعادت الرغبات التي فيها زهدًا (ص ١٩ ، ٢٠) .

يجدر الإشارة إلى هذه الزاوية من النظر من حيث التركيز على المعنى في اللغة ، كانت موضع اهتمام باحثي علم اللغويات النفسية .

ثم ينتقل بعد ذلك ليعرض أهم مباحث هذا العلم ، ويرى أن الاستعارة والتشبيه والتمثيل أصول ، وأن جل محاسن الكلام - إن لم تقل كلها - متفرعة عنها وراجعة إليها ، وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في منصرفاتها ، ويبدأ في عرضها على نحو مفصل فيما يلي :

١ - تعريف الاستعارة :

أن يكون لفظ الأصل (المشبه به) في الوضع اللغوي معروفًا ، تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ، ثم يستعمل في غير ذلك الأصل ، وينقل إليه نقلًا غير لازم ،

فيكون هناك كالعارية وتنقسم إلى قسمين :

أ – **الاستعارة غير المفيدة** : هي اللفظ الذي استعمل في غير الجنس الذي وضع له في اللغة ، كأن نضع للعضو الواحد أسماء كثيرة بحسب اختلاف الأجناس نحو ، وضع الشفة للإنسان ، المشفر للبعير ، فإذا استعمل الشاعر شيئًا منها في غير الجنس الذي وضع له ، كأن يستعمل الشفة للبعير ، فقد استعار منه (ص ٢٢ ، ٢٣) .

ب – **الاستعارة المفيدة** : ما بان لك باستعارته فائدة ومعنى من المعاني ، وغرض من الأغراض لولا مكان تلك الاستعارة لم يحصل لك ، مثال قولنا : رأيت أسدًا ، لتعني رجلًا شجاعًا (ص ٢٤) .

والاستعارة تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ ، كما أنها تبرز البيان في صورة مستجدة تزيد من قدره نبلًا ، وتوجب له الفضل فضلًا (ص ٣٢ ، ٣٣) .

٢ - أقسام الاستعارة :

اعلم أن كل لفظة دخلتها الاستعارة المفيدة فإنها لا تخلو من أن تكون اسمًا أو فعلًا ، فإذا كانت اسمًا فإنه يقع مستعارًا في قسمين .

أ – أن تنقله من مسماه الأصلي إلى شيء آخر ثابت ومعلوم وذلك قول : رنت لنا ظبية وأنت تعني امرأة (استعارة حقيقية) .

ب – أن يؤخذ الاسم عن حقيقته ويوضع موضعًا لا يبين منه شيء يشار إليها ، فيقال : هذا هو المراد بالاسم ، والذي استعير له وجعل خليفة لاسمه الأصلي ونائبًا منابه (الاستعارة التخيلية) فالتشبيه في الأول مباشر ، وفي الثاني يتراءى لك بعد أن تخرق إليه سرًا ، وتعمل تأملًا وفكرًا ، فهو أمر تخيلي كأن تقول : كلمتني عيناه عما يحوي قلبه ، فثبت الكلام للعين وهو أمر متخيل (ص ٣٤ ، ٣٥) .

٣ - دلالة الحال :

يروي الشيخ عبد القاهر حديثًا للجمحي عن لغة العيون هذا وصفه : قال أحدهم أتيت للجمحي استشيره في امرأة أردت التزوج بها فقال : أقصيرة هي أم غير قصيرة ؟ قال : فلم أفهم ذلك ، فقال لي : كأنك لم تفهم ما قلت ، إني لأعرف عين الرجل إلا عرف ، وأعرف فيها إذا أنكر ، وأعرف إذا لم يعرف ولم ينكر ، أما إذا عرف فإنها تخاوص (إذا غض من بصره قليلًا مع تحديق) وإذا لم يعرف ولم ينكر فإنها تسجو

(تسكن) وإذا أنكر فإنها تجحظ (إذا عظمت مقلتها) ، (ص ٣٩) .

وهذا الحديث يتضمن إشارة إلى أحد الموضوعات المهمة في علم النفس الاجتماعي وهو التخاطب غير اللفظي ، وأهمية عنصر التقاء العيون Eye Contact في إقامة تفاعل اجتماعي أكثر فعالية مع الطرف الآخر ، وكيف يمكن استخدام وسائل التخاطب غير اللفظي في توضيح المعنى للطرف الآخر ، وزيادة إمكانية التأثير فيه .

٤ - طرق الاستعارة :

ويفصل القول في ضروب الاستعارة وهي عنده تتمثل في :

أ - الاستعارة المتحدة في الجنس المختلفة الأنواع ومثاله : استعارة الطيران لغير ذي الجناح إذا أردت السرعة .

ب - الاستعارة القريبة من الحقيقة كقول المتنبي مادحًا سيف الدولة :

نثرتهم فوق الأحيدب نثرة كما نثرت فوق العروس الدراهم

جـ - الاستعارة فيما وجه الشبه فيه حقيقي : أي يكون الشبه مأخوذًا من صفة هي موجودة في كل واحد من المستعار له .

د - وجه الشبه العقلي في الاستعارة : حيث يكون الشبه مأخوذًا من الصور العقلية ، وذلك كاستعارة النور للبيان ، والحجة الكاشفة عن الحق المزيلة للشك النافية للريب ، ويشير إلى أهمية ذلك الضرب من الاستعارة بقوله : إن هذا الضرب هو المنزلة التي تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها ، وهي على أصول ثلاثة :

أ - أن يؤخذ الشبه من الأشياء المشاهدة المدركة بالحواس على الجملة للمعاني المعقولة مثل استعارة القسطاس للعدل فهذا شبه أخذ من محسوس (عياني) لمعقول (مجرد) .

ب - أخذ الشبه من المحسوس للمحسوس ثم الشبه عقلي مثل قول الرسول ﷺ : « **إياكم وخضراء الدمن** » الشبه مأخوذ للمرأة من النبات ، وكلاهما جسم إلا أنه لم يقصد بالتشبيه خصائص النبات من شكل ولون وطعم ، بل القصد شبه عقلي بين المرأة الحسناء من المنبت السوء ، وبين تلك النابتة على الدمنة (الموضع الذي فيه النفايات) وهو ما كان حسن الظاهر في رأي العين مع فساد الباطن .

جـ - أخذ الشبه من المعقول للمعقول : كأن نصف الجهل بالموت (ص ٤٩ - ٥١) .

٥ - حقيقة التشبيه والتمثيل :

الشيئان إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين :

أ - التشبيه : وذلك بأن يكون من جهة أمر بيِّنٍ لا يحتاج منه إلى تأويل ؛ مثل : تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة ، والشكل نحو أن يشبه الشيء إذا استدار بالكرة .

ب - التمثيل : الشبه الذي يحصل بضرب من التأويل ، وذلك كأن ترجع وجه الشبه إلى معنى يتحقق في الطرفين بشيء من الحيلة والتلطف ، أي أنه تشبيه عن طريق العقل ، والمقاييس التي تجمع بين الشيئين من حكم تقتضيه الصفة المحسوسة لا في نفس الصفة ، كقولهم في صفة الكلام : ألفاظه كالماء في السلاسة .

ثم يعقد تفرقة بين التشبيه والتمثيل فيبين أن التشبيه عام ، والتمثيل أخص منه ، فكل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيل ، وأن التشبيه أقوى من التمثيل في وجه الشبه ، ثم يتحدث على نحو من التفصيل عن الشبه العقلي .

٦ - مواقع التمثيل وتأثيره في النفس :

إن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني ، أو برزت هي باختصار في معرضه رفع من أقدارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، فإن كان حجاجًا كان برهانه أنور وبيانه أبهر ، وإن كان وعظًا كان أدعى للفكر وأبلغ في التنبيه والزجر (ص ٩٢ ، ٩٣) .

فقابل بين أن تقول : إن الذي يعظ ولا يتعظ يضر بنفسه من حيث ينفع غيره - وتقتصر عليه - وبين أن تذكر المثل فيه على ما جاء في الخبر من أن النبي ﷺ قال : « **مثل الذي يعلم الخير ولا يعمل به كمثل السراج الذي يضيء للناس ويحرق نفسه** » ، (ص ١٠١) .

٧ - أسباب قوة تأثير التمثيل وعلله النفسية :

أ - أول ذلك وأظهره أن أُنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي (مجرد) إلى جلي (عياني) ، وتأتيها بصريح بعد مكني ، وأن تردها إلى الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم وثقتها به في المعرفة أحكم ، فكما قالوا : ليس الخبر كالمعاينة (ص ١٠٢) .

ب - ضرب آخر من الأُنس : وهو ما يوجبه تقدم الأُلف ، ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أولًا عن طريق الحواس والطباع ، ثم من جهة النظر والروية ، فهو إذن أمس

بها رحمًا ، وإذا نقلتها في الشيء بمثله عن المدرك بالفعل المحض إلى ما يدرك بالحواس أو يعلم بالطبع ، فأنت كمن يتوسل إليها للغريب بالحميم (ص ١٠٢ ، ١٠٣) .

جـ - إننا نعلم أن المشاهدة تؤثر في النفوس مع العلم بصدق الخبر ، فأنت إذا قلت للرجل : « أنت مضيع للحزم في سعيك ، وطالبًا لما لا تناله » ، ثم عقبته بقولك : « وهل يحصل في كف القابض على الماء بشيء مما يقبض عليه ؟ » ، ولو كان الرجل على طرف نهر في وقت مخاطبة صاحبه وإخباره له بأنه لا يحصل له سعيه على شيء ، فأدخل يده في الماء وقال : انظر ، هل حصل في كفي من الماء شيء ؟ كذلك أنت في أمرك « كان ذلك ضرب من التأثير زائد على القول والنطق بذلك دون العمل مما يدل على أن التمثيل بالمشاهدة يزيد أنسًا (ص ١٠٤ - ١٠٧) .

إن الجرجاني يلخص أسباب تأثير التمثيل في أنه يجسد للفرد المعاني التي يصعب عليه إدراكها ، ويجعله على ألفة بها ؛ لأنه ينقلها إليه عن طريق مألوف لديه ، ويقدم نموذجًا عمليًا للفرد ، وهذه العناصر مجتمعة من شأنها أن تزيد من القدرة على الإقناع Persuasion والذي يعد من بين الوسائل الرئيسية لتغيير اتجاهات الأفراد حيال موضوع ما .

٨ - خصائص التمثيل الجيد :

أ - دقة المعنى : ويريد المعنى الدقيق الذي أتاك ممثلًا فهو في الأكثر يتجلى لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكر وتحريك الخاطر والهمة في طلبه « إن خير الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك » ، (ص ١١٨) .

ب - البعد عن التعقيد : فالتعقيد إنما كان مذمومًا لأجل أن اللفظ لم يرتب الترتيب الذي يمثله تحصل الدلالة على الغرض ، ويعثر فكرك في متصرفه ، ويشيك طريقك إلى المعنى فيه ، بل وربما قسم فكرك ، وشعب ظنك حتى لا تدري من أين تتوصل إليه وكيف تطلبه (ص ١٢٠ - ١٢٥).

جـ - أن يتم فيه تقرير الشبه بين الأشياء المختلفة ، فإن الأشياء المشتركة في الجنس ، متفقة في النوع ، تستغني بثبوت الشبه بينها ، وقيام الاتفاق فيها ، عن تعمل وتأمل في إيجاب ذلك لها ، وأنها لصفة تستدعي جودة القريحة أن تجمع أعناق المتنافرات المتباينات في ربقة ، ويقتضي ذلك إيجاد الائتلاف بين المختلفات ، وذلك بين لك فيما تراه من الصناعات التي تنتسب إلى الدقة فإنك تجد الصورة المعمولة فيها كلما كانت أجزاؤها أشد اختلافًا في الشكل والهيئة ، ثم كان التلاؤم مع ذلك أتم ، والائتلاف

أبين ، كان شأنها أعجب ، وإذا كان هذا ثابتًا ومعلومًا في حال الصورة المصنوعة والأشكال المؤلفة ، فاعلم أنها القضية في التمثيل واعمل عليها ، واعتقد صحة ما ذكرت لك من أخذ الشبه للشيء مما يخالفه في الجنس ، وينفصل عنه من حيث ظاهر الحال (ص ١٢٧ ، ١٢٨) .

واعلم أني لست أقول لك أنك متى أَلَّفت الشيء ببعيد عنه في الجنس على الجملة فقد أصبت ، بل أقوله بعد تقييد ، وبعد شرط ، وهو أن تصيب بين المختلفين في الجنس ، وفي ظاهر الأمر شبهًا صحيحًا معقولًا ، وتجد للملاءمة والتأليف السوي بينهما مذهبًا ، وحتى يكون إتلافهما الذي يوجبه تشبيهك من حيث العقل والحدس ، في وضوح اختلافهما من حيث العين والحس ، فأما أن تستكره الوصف وتروم أن تصوره حيث لا يتصور فلا (ص ١٣٠) .

د - إدراك المشابهات الخفية التي يدق المسلك إليها ، والتي لا تنجلي إلا بعد التألق في استحضار الصور وتذكرها وعرض بعضها على بعض ، وتجريدها من سائر ما يتصل بها ، نحو أن يشبه الشيء بالشيء في هيئة الحركة ، فتطلب الوفاق بين الهيئة والهيئة ، والهيئة مجردة من الجسم وسائر ما فيه من أوصاف (ص ١٣١) . أي كما يشير علماء النفس إدراك أوجه الشبه الجوهرية المجردة بين أشياء تبدو مختلفة ، وهي من بين القدرات المهمة التي تقيسها اختبارات الذكاء ، ويطلق عليها القدرة على التجريد ، وكمثال على ذلك إدراك أوجه الشبه بين الشجرة ، والذبابة ، ويعد الفرد مدركًا لوجه الشبه المجرد بينهما حين يقول : إنهما كائنات حية تنمو وتموت .

٩ - الجملة والتفصيل في ضروب التشبيه والتمثيل :

أ - إن الجملة أبدًا أسبق إلى النفوس من التفصيل ، وإنك تجد الرؤية نفسها لا تصل بالبديهة إلى التفصيل ، ولكنك ترى بالنظر الأول ، والوصف على الجملة ، ثم ترى التفصيل عند إعادة النظر ، فالجمل أبدًا هي التي تسبق إلى الأوهام (الأذهان) وتقع في الخاطر أولًا ، وتجد التفاصيل مغمورة فيما بينها ، وتراها لا تحضر إلا بعد إعمال الروية واستعانة التذكر (ص ١٣٨) ، وهذا التصور يعبر عما هو معروف من حقائق علمية في مجال سيكولوجية الإدراك : من أن الفرد يدرك الشكل على نحو إجمالي أولًا ثم يبدأ في إدراك التفاصيل ، وأما قوله : « إن معرفة الشيء عن طريق الجملة غير معرفته عن طريق التفصيل » فهو قريب الشبه بالمبدأ الإدراكي السائد في مدرسة الجشتطالت من أن

الكل لا يساوي مجموع الأجزاء .

ب - من شأن اعتبار كثرة من التفاصيل في التمثيل أن يزيد التأثير في النفس ، وخاصة حين يكون الشبه منطبق عبّر هذه التفاصيل ، وكذلك كلما كان الشبه يرجع إلى صورة غريبة نادرة وبعيدة عن النظر ، وقليلة التردد عليه كلما كانت أبدع على عكس تلك التشبيهات المبتذلة التي يكثر رؤيتها أبدًا (ص ١٣٩ - ١٤٣) .

ويمضي الإمام الجرجاني في تناوله لمسائل دقيقة في التشبيه ، والتي من شأنها أن تزيده دقةً وتأثيرًا ؛ مثل : الجمع بين الشكل وهيئة الحركة في التشبيه ، والتشبيه المركب والفرق بينه وبين التشبيه المتعدد ، وقلب التشبيه أو العكس في طرفي التشبيه ، والفرق بين التشبيه والتمثيل ، والاستعارة والتمثيل .

ويعرج إلى موضوع آخر وهو السرقات الأدبية وكيفية الحكم فيها أو الفرق بين التخيل والاستعارة ، ويختم كتابه بالحديث عن الحقيقة والمجاز ، والفرق بين المجاز العقلي والمجاز اللغوي والفرق بين المجاز والاستعارة ، وكيف أن المجاز أعم من الاستعارة ، ونلمس في سياق استعراضنا لما كتبه عن المجاز اللغوي والمعنوي ذلك التصنيف الأساسي للمعنى في اللغة ، من حيث إن لكل كلمة معنى إشاري ومعنى دلالي ، ومدى اهتمامه بالتعامل مع المعنى الدلالي للغة وبيان مدى تأثيره في المتلقي ، وهي من نقاط الاهتمام الرئيسية في بحوث سيكولوجية المعنى Semantic Psychology .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس الاجتماعي .

* * *

دلائل الإعجاز في علم المعاني (١)

عرض : د. عبد المنعم شحاتة

عرض الكتاب :

يقدم (دلائل الإعجاز) نظرية في اللغة تعتمد على ائتلاف اللفظ والمعنى ، وتتفق في كثير من مبادئها مع أحدث ما كتبه علماء لغة أو علم نفس معاصرون .

ويسعى الجرجاني في كتابه هذا إلى التفرقة بين مستويات الكلام ، فمنها ما هو عادي على ألسنة العوام ، ومنها ما هو بليغ أو فصيح على ألسنة الخواص (ومنهم الشعراء) ومنها ما هو معجز يفوق طاقة البشر كالقرآن الكريم ، ودراسة الشعر العربي وتحديد شواهد الفصاحة والبلاغة فيه وسيلة لمعرفة هذا الإعجاز ؛ لذا يبدأ الجرجاني كتابه (ص ٩) بالدفاع عن الشعر ، فهو ديوان العرب ، ثم يدافع (ص ٢٣) عن النحو وأهميته كعلم ، وكميزان لتحديد الكلام الفصيح من غيره ، بل وكوسيلة لتحديد مستويات مختلفة من الفصاحة من خلال تحديده للعلاقات الممكنة والمحتملة بين الألفاظ ، سواء كانت أسماء أو أفعال أو حروف ، والفصاحة - في رأيه (ص ٤٠ - ٤٠١) هي نظم للكلام بحسب معانيه أو ترتيب معاني الكلام أولًا ثم ترتيب الألفاظ على حذوها ، وبهذا يرفض الجرجاني (ص ٤٥ - ٣٠٦ ، ص ٣٠٨ - ٣٦٧) ربط الفصاحة بالقدرة على الأداء الصوتي كما فعل الجاحظ ، أو اعتبارها صفة للفظ ، مستشهدًا على صحة رأيه بعرض

(١) نسخة بيروت : دار المعرفة (١٩٨٢م) . وعدد صفحاته ٤٢٨ صفحة من القطع المتوسط . صحح أصله كل من الإمام الشيخ محمد عبده ، واللغوي الشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي ، وصحح طبعته وعلق حواشيه السيد محمد رشيد رضا (منشئ المنار) .

نموذجين من الشعر - عبر ذكر عدد من الأبيات لعديد من الشعراء البارزين - يتفقان في المعنى ويختلفان في اللفظ ، ومع ذلك نصف أحدهما - دون الآخر - بالفصاحة ، مما يعني أن الفصاحة تتصل بالمعنى (ص ٦٩ - ٣١٢) ، فلا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون في صاحبتها ، بمعنى آخر ، ففصاحة اللفظ تعود إلى معناه لا إلى ترتيب حروفه (ص ٤٠) والكلام معان ينشئها الإنسان في نفسه ، ويصرفها في فكره ، ويناجي بها قلبه ، ويراجع فيها عقله ، وتوصف بأنها مقاصد وأغراض ، وأعظمها شأنًا الخبر، الذي لا يكون إلا بمخبر به ومخبر عنه ، ويمكن إثباته ونفيه ؛ ولهذا الكلام ضربان : أحدهما : تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، وثانيهما : تصل منه إلى معنى المعنى ، أي يدلك اللفظ على معناه ، ولهذا المعنى دلالة ثانية تصل به إلى الغرض ، من هذا الاستعارة والكناية ، أي أن أهم ما يوجب الفصاحة هو المجاز (بما فيه من استعارة) والإيجاز . (ص ٥٣ - ٦٣ ، ص ٩٩ - ١٥١) . ويقدم الجرجاني أمثلة من القرآن الكريم ، ومن الشعر العربي ، تعد نماذجًا من المجاز والاستعارة ، وضروبًا من التقديم أو التأخير (ص ٨٣ - ١١١) ، التنكير والحذف (ص ١١١ - ١٦٩) ، الفصل والوصل (ص ١٧٠ - ١٨٧) العطف (ص ١٨٧ - ١٩١) والإثبات والنفي والقصر (ص ٢٥٢ - ٢٧٣) ، تبرز لنا مواضع كل منها التي فيها لطف وفصاحة ، ومواضعها التي تخلو من البلاغة ، على أساس أن معنى الفصاحة في أصل اللغة هو الإبانة عن المعنى ، مؤكدًا أن لا يصح فيها التقليد أو الاحتذاء (ص ٢٧٨- ٣٤٢) ، فقد يغير ترتيب الكلمات من معناها ، كما للمتكلم دور في هذا الترتيب (ص ٢٧٦) ، أي في صنع أسلوبه الذي هو ضرب من النظم أو طريقة فيه ، وأي تحول في الأسلوب يؤثر فى المعنى لا محالة ؛ إذ يتصل النظم - في جوهره - بالمعنى ، وتكتسب الكلمة حسنها من وضعها في سياق معين أو ترتيب يقتضيه علم النحو (ص ٢٨٢ ، ٣١٤ ، ٣٤٩) ، وتوجيه قوانينه وأصوله . ولا يكون ترتيبًا حتى يكون هناك قصد إلى صورة وصنعة ، إن لم يقدم فيها ما قدم ، ولم يؤخر ما أخر ، وبدئ بالذي ثني به ، وثني بالذي ثلث به ، لم تحصل لك تلك الصورة وتلك الصنعة .

ويختتم الجرجاني كتابه (ص ٤١٨ - ٤٢٨) بتوضيح أهمية تذوق البلاغة أو الفصاحة ، وضرورة تعلمها ، وهذا لا يكون دون توفر الاستعداد لدى الفرد لتذوقها ، أي لا يكون مهيئًا لإدراكها ، وتكون فيه طبيعة قابلة لها ، ويكون له ذوق وقريحة يجد لهما في نفسه إحساسًا بأن من شأن هذه الوجوه والفروق - في معاني النحو - أن تعرض فيها المزية على الجملة ، فيعرف لطف الحذف - أو التنكير أو القصر .... إلخ -

في موضع أو عدم لطفه في موضع آخر .

ويأتي تأكيد الجرجاني على أن النظم يكون بترتيب المعاني في الذهن أولًا ، ثم تحذو الألفاظ حذوها في الترتيب (ص ٤١ - ٤٥) متفقًا مع ما تكشف عنه البحوث من أن الإنسان يخلق أفكارًا وتصورات ، ثم يربطها معًا ، ثم يبدع رموزًا معبرة عنها .

ويؤكد الجرجاني أن اللفظة تكتسب حسنها من ضمها إلى لفظة أخرى في نسق يستوجب تقديم هذا وتأخير ذاك (ص ٣٩ ، ٤٠ ، ص ٢٧٨ - ٣٦٠) يأتي هذا متمشيًا مع نظرية (الجشطالت) في الإدراك حيث تدرك المنبهات - والألفاظ منبهات - على أنها تدخل في علاقات فيما بينها ، كما أننا لا ندركها في مستوى واحد من الوضوح ، بل تحتل بعضها بؤرة الانتباه ، ويحتل معظمها بؤرة الانتباه ، ويحتل معظمها هامشه ، وعلى هذا يؤثر السياق في معنى اللفظ وفي تحديد مدى حسنه .

ويتصل بهذه النقطة رفض الجرجاني (ص ٢٧٨ - ٣٤٢) التقليد أو الاحتذاء في الشعر ؛ لأن أي تغيير في الأسلوب يغير في المعنى ، ولكل فرد طريقته الخاصة في النظم أي الأسلوب أو ترتيب المعاني فالألفاظ ، وبمصطلحات علم النفس : لكل فرد بؤرته الانتباهية ، وهامش الانتباه لديه اللذان يحكمهما عوامل شخصية و موقفية تنعكس - بالضرورة - في ترتيب الفرد للمعاني والألفاظ أي النظم ، وبالتالي لا يصح التقليد وتندرج هذه النقطة تحت ما يسمى في علم النفس بالفروق الفردية Individual Differences .

ثم يؤكد الجرجاني أن البلاغة لا يستحسنها إلا من لديه القدرة على تذوقها ، وهذا يتطلب علمًا وفهمًا ، وهو ما لا يتم دون أن يكون الفرد مهيئًا لإدراكها ، وتكون فيه طبيعة قابلة لها ، ويكون له ذوق وقريحة يجد لها في نفسه إحساسًا بأن من شأن الفروق في النظم - أو في معاني النحو - مزية ، فالحذف - مثلًا - يكون لطيفًا في موضع وغير لطيف في آخر (ص ٢٢٥ - ٤٢٠) .

أي أن تعلم البلاغة يستوجب استعدادًا ، هذا ما يؤكده علماء النفس ، فبين الأفراد فروق في الاستعدادات والاهتمامات ، تترجم واقعيًا في اختيار موضوعات معينة لدراستها وأعمال معينة للاشتغال بها .

ويبدو أن الجرجاني كان باحثًا محنكًا ، يتضح ذلك من نقده لطريقة البلغاء الأولين في تناول الفصاحة ، فهم يصفون الكلام الحسن (بنهزالة اللفظ) و (وقوع النظم على

طريقة مخصوصة ، وعلى وجه دون وجه) ثم لا تجدهم يفسرون الجزالة بشيء ، أو يقولون في المراد بالطريقة والوجه ما يحلى منه السامع بطائل (ص ٣٥٠) ، أي أن الجرجاني ينتقد في الأوليين بعدهم عن الوصف الإجرائي Operational وهي نصيحة يوجهها أيضًا علماء مناهج البحث المعاصرون ، فحينما أتحدث عن (الذكاء) أو (التعصب) فيجب أن أحدد ما أعينه بلفظ (ذكاء) ويكون هذا التحديد في شكل وصف للإجراءات التي يمكن بها التمييز بين من يتوافر فيه الذكاء ومن لا يتصف به ، أو التمييز بين المتعصب وغير المتعصب .

نقطة أخرى مهمة هي قول الجرجاني : (إن الكتابة أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح (ص ٥٥) وعلى الرغم من صحة هذا القول من وجهة نظر علماء اللغة ، إلا أن الدراسة النفسية لهذه النقطة لم تظهر بعد ، فنحن بحاجة إلى دراسات تحدد الفعالية النسبية للأساليب التعبيرية المختلفة ، والمتغيرات التي قد تؤثر في هذه الفعالية ولهذه البحوث قيمة كبيرة ، فاللغة وسيلة تخاطب ومقوِّم لوحدة الشعوب ، وإذا عرفنا أي الأساليب أكثر تأثيرًا في استمالة الناس لفكرة معينة أو لتصرف معين ، سهل اتباعه والاعتماد عليه ، وقد سبقنا الغرب إلى هذا ، فظهرت دراسات تقارن بين ورود أخطاء نحوية في المخاطبة (أو الرسالة الإعلامية) وبين خلوها من هذه الأخطاء كما ظهرت بحوث أخرى تقارن بين فعالية الأسئلة التعجبية Rhetorical Questions وبين الجمل التقريرية Statements وتفتقد المكتبة العربية مثل هذه البحوث على الرغم من ثراء لغتنا .

وهنا يظهر التكامل بين علماء اللغة وعلماء النفس ، فدور علماء اللغة هو تحديد الخصائص الأسلوبية للرسائل الاتصالية ، ودور علماء النفس هو اختبار مدى الأثر الذي تحدثه إحدى هذه الخصائص بالمقارنة بالأخريات ، وبهذا التكامل يمكن معرفة أي الأساليب أكثر تأثيرًا في نفوس المتلقين .

* * *

الشيرازي (ت ٤٧٦هـ)
الطب الروحاني [1]

عرض : د. طريف شوقي فرج

التعريف بالمؤلف :

ولد إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي الشيرازي - أبو إسحاق - في فيروز آباد (بفارس) عام (٣٩٣هـ - ١٠٠٣م) .

وانتقل إلى البصرة ومنها إلى بغداد في (٤١٥هـ) فأتم ما بدأ به من الدرس والبحث ، وظهر نبوغه في علوم الشريعة الإسلامية ، فكان مرجع الطلاب ومفتي الأمة في عصره ، واشتهر بقوة الحجة في الجدل والمناظرة ، وبنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية على شاطئ دجلة ، وكان يُدِّرس فيها ويديرها .

عاش فقيرًا صابرًا ، وكان فصيحًا مناظرًا ينظم الشعر ، فقيهًا أصوليًا وله تصانيف كثيرة منها : التنبيه ، المهذب في الفقه ، التبصرة في أصول الشافعية ، طبقات الفقهاء ، اللمع في أصول الفقه ، الملخص ، المعونة في الجدل .

وسنعرض في الصفحات التالية ملخصًا موجزًا لكتابه (الطب الروحاني) والذي يشير الإمام في بدايته إلى أن : « أفضل العلوم ما كان ذريعة (وسيلة) للإنسان إلى السعادة الأبدية والبهجة الحقيقة ، ولا يكون ذلك إلا بتزكية الباطن عن الأوصاف المذمومة وتحليته بالأخلاق المحمودة ، والعلم الكافل ببيان قواعد التزكية والتحلية هو علم

---

(١) الشيرازي ، ط ١ ، مطبعة المفيد ، (١٣٩٩هـ) ، (٥٠ ص) .

تهذيب الأخلاق المسمى بالطب الروحاني .

وهذا مختصر في هذا العلم كافٍ في ضبط أصوله وقواعده ، وافٍ يربط فروعه وأوابده ، جمعت فيه عيون أقوال الحكماء في مكارم الأخلاق وغررها ، وشذور أمثال الفضلاء في محاسن الأدب ودرها » ، (ص ٢ ، ٣) .

عرض الكتاب :

يشتمل الكتاب على ثلاثة أقسام نعرض لها على النحو التالي :

أولًا : في الأصول الكلية لعلم الأخلاق :

في بداية هذا القسم يتحدث عن التصنيف الثلاثي للنفس الإنسانية ؛ وهي :

١ - القوة العاقلة المدركة للكليات بداية وتسمى النفس الملكية .

٢ - القوة الغضبية الباعثة لدفع المؤذيات وتسمى نفس سبعية .

٣ - القوة الشهوانية الطالبة للمشتهيات الحسية التي بها بقاء الشخص والنوع وتسمى النفس البهيمية .

حين نتناول هذا التقسيم بالفحص نخال أنفسنا إزاء الجوانب الثلاثة للشخصية الإنسانية التي يُعنى بدراستها حاليًا ولكن تحت مسميات أخرى ، فالقوة الغضبية يقابلها في علم النفس الحديث جانب (.انفعالي دافعي) (الغضب ودوافع الغلبة والعدوان) والقوة الشهوانية يقابلها الجانب الدافعي الفسيولوجي .

وهناك تفاعل مستمر بين الجوانب الثلاثة للنفس الإنسانية وتمثل نتيجة ذلك التفاعل الحال الذي يكون عليه سلوك الإنسان .

وفي هذا الصدد يقول الإمام : « وهيئة استيلاء النفس الناطقة (العاقلة) على النفسين الأخريين (الجانبين الأخريين) تسمى فضيلة ، وهيئة استيلائهما عليها تسمى رذيلة ، وإذا ثبتت هذه الهيئة في النفس واستقرت تسمى ملكة ، وإذا عرضت تسمى حالًا » ، (ص ٦) .

أي أنه يفرق بين السمة (الملكة) والتي يُعد الدوام النسبي حجر الزاوية في تعريفها ، وبين الحالة (الحال) التي تتسم بأنها مؤقتة .

وأصول الفضائل أربعة : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدالة .

وأصول الرذائل سبعة : الجربزة ، والبله وهما طرفا الحكمة ، والتهور والجبن وهما طرفا الشجاعة ، والشره والجمود وهما طرفا العفة ، والسابع الجور وهو مقابل العدل ؛ لأن طرفي العدالة جور (ص ٧) .

هنا نلاحظ اهتمامه بالمفهوم التكميمي والتعامل مع تلك الصفات في ضوء أحد المفاهيم السائدة في علم النفس حاليًا وهو مفهوم البعد .

وثمة جانبًا آخر لأسلوب تناول الإمام لتلك الصفات ، وهو التعامل مع المكونات الفرعية لها ويتجلى ذلك في قوله : « أما عن فروع الفضائل ولوازمها :

فلوازم الحكمة : اللب ، وثقابة الرأي ، وجودة الذهن ، وسرعة الفهم .

ولوازم العفة : الحرية ، والحياد ، والخيرية ، والسخاء .

ولوازم التهور : التكبر ، والترفع ، والصلف ، والقساوة .

ولوازم الشر : الوقاحة ، والشرارة ، والتبذير .

ولوازم العدالة : هي جملة لوازم الفضائل كلها .

ولوازم الجور : هي لوازم هذه الرذائل كلها (ص ٧) .

أي أنه يتعامل مع الصفات على أنها تنتظم في ثلاثة مستويات : عامة ، وطائفية ، ونوعية ، فالصفات العامة المركزية (كالعدالة) تتكون من مجموعة من الصفات الطائفية (العفة والحكمة) والتي تتكون بدورها من مجموعة من الصفات النوعية (فالحكمة تتكون من ثقابة الرأي ، جودة الذهن ، سرعة الفهم) .

ثم يقدم تعريفًا لتلك المفاهيم كل على حدة :

« فالشجاعة - على سبيل المثال - هي : مطاوعة القوة الغضبية للقوة العاقلة في الإقدام والإحجام على مقتضى الرأي الصحيح .

والعفة : قلة شوق القوة الشهوية إلى اللذات البدنية بحيث يسهل عليها الصبر عما يذم عقلًا وشرعًا .

والحلم : أن يكون الإنسان غير منفعل من المغضبات انفعالًا يحمله على سرعة الانتقام .

والتهور : أن تكون مطاوعة النفس في الإقدام أشد من مطاوعتها في الإحجام بحيث يقوم على ما لا يجوز الإقدام عليه شرعًا وعقلًا .

والشره : شدة الشوق والشَّبَق إلى اللذات الحسية » ، (ص ٨ ، ٩) .

ثم يقدم تعريفًا لعلم الأخلاق حيث يقول : « اعلم أن المقصود من علم الأخلاق هو علاج الأخلاق الفاسدة (تعديل السلوك) وحفظ الأخلاق الفاضلة (العلاج التحفظي الوقائي) كما أن المقصود من علم الطب الجسماني هو علاج المرض وحفظ الصحة ؛ ولذلك سمي علم الأخلاق طب روحاني ، وكما أن للطب قوانين يُعرف بها حفظ الصحة وإزالة المرض ؛ فكذا لهذا العلم قوانين يعرف تحصيل الفضائل وإزالة الرذائل « قوانين التعلم وتعديل السلوك » ، (ص ١٠) .

وفي طب الأبدان يميز بين المرض والسبب ، والعرض والعلاج فيعرف المرض والسبب بالعرض ، ثم يعالج بالضد ليزول السبب فيزول المرض . وكذا يفصل قوانين طب النفوس إلى المرض والسبب والعلاج تفصيلًا كليًا على النحو التالي :

١ – أما المرض فهو شدة ميل النفس إلى البدن ومحبتها له وهذا الميل وهذه المحبة هو أصل سائر الأمراض النفسانية (ص ١١) .

٢ – أما السبب فهو الإدراك والشعور بالإدراك أولًا ، ثم يلزم من الشعور حكم النفس بأنه خير مع أنه ليس بخير ، وهذا الحكم إما أن يلزم من تقليده ، وإما أن يلزم من رأي فاسد ، ثم إذا ثبت هذا الحكم في النفس اعتقادًا ، وإذا ثبت الاعتقاد لزم منه الخلق ، وإذا تحرك الخلق لزم منه الانفعال ثم صدر منه الأفعال المذمومة كالحسد مثلًا : إنه يثبت في نفس الحاسد اعتقادًا أن الخير لا يجوز أن يكون لغيره ، ويغتم لحصوله لغيره ، ثم إذا عرض بسبب من الأسباب المحركة إلى الفعل يحصل الانفعال في النفس الحاسدة وهو المحاسدة ، ولزم منه الفعل وهو التوجه نحو خير الغير وقصد دفعه عنه ، ومنعه بأفعال مذمومة عقلًا وشرعًا ؛ فهذا هو تحقيق أسباب المرض (ص ١٢) .

نلاحظ أنه يتعامل مع تلك السلسلة السلوكية التي تنتهي بالفعل ، ولكنها تبدأ بالاعتقاد والانفعال والسلوك .

٣ – وأما العَرَض : فهو العلامات الصادرة عن تلك الانفعالات من الأفعال المذكورة المذمومة كالسعي في صرف الغير عن الخير . (ص ١٢) .

ويتحدث عن المظاهر الداخلية والخارجية للانفعالات بقوله :

أ – وأما الانفعالات (المظاهر الداخلية) فهي أيضًا : أعراض خفية في النفس يعرفها أصحاب تلك الانفعالات .

ب – وأما الأفعال (المظاهر الخارجية للانفعالات) فهي : الأعراض الظاهرة الصادرة

من النفس المناسبة لتلك الانفعالات فتكون هذه الأفعال دلائل على تلك الانفعالات (ص ١٢) .

٤ - وأما العلاج : فهو استعمال الأضداد لأن الضد يُقمع بالضد الآخر وذلك إنما يكون بإثبات الأحكام اللازمة عن الرأي الصحيح في النفس بأن إرادة البدن وتوابع البدن من الملائمات الجسمية ، إنما هي أمراض للنفس مضرة في الحال (مؤلم لصاحبه ويجعله في الهم والغم) والمآل (في الدنيا والآخرة) .

وإذا ثبتت هذه الأحكام لزمه منه ترك الإرادة الأولى وترك الإرادات التابعة لها ، ثم إذا تحققت هذه الأحكام في نفس وجب أن يُخطرها بالبال ويقررها .

(نلمح ثمة إشارة إلى العلاج المنطقي باستخدام الحوار الداخلي لتغيير السلوك) . ويكررها في النفس دائمًا إلى أن تصير مَلَكَات (عادات) ، وكلما تكرر خطورها بالبال ، لا تزال تنفسخ تلك الإرادات إلى أن تضعف . وكلما انفسخت تلك الإرادات التي هي الرذائل لا تزال تثبت مقابلاتها بالتدريج ، وهي الفضائل ، وهذا هو القانون الكلي لإزالة أمراض النفس (ص ١٣ ، ١٤) ، ينطوي هذا الوصف على اقتراح أسلوب لتعديل السلوك يعتمد على استخدام كل من المنطق الاستدلالي العقلي ، والحوار الداخلي مع الإحلال التدريجي للسلوك المضاد ، وشبيه بهذا الأسلوب ما يطلق عليه حاليًا الأسلوب المنطقي الانفعالي في تعديل السلوك .

وأما حفظ صحتها (الوقائية) وهو محافظة الفضائل : فهو أن يتعهد النفس أبدًا لمراعاة الأخلاق الفاضلة ، والمحافظة عليها بالآراء الصحيحة ، ويجعل هذه الآراء في تعهد الأخلاق ملكة دائمة ، ويجب أن لا يغفل عن صدمة إهمال النفسين (الشهوانية ، والانفعالية) فإنهما إن أهملتا عادتا إلى طبيعتهما (أي خمود العادة الجديدة : الفضيلة ، وعودة العادة القديمة : الرذيلة) الخاصة بهما . وأن لا يحركهما بالتخيل والتفكر والتذكر (هاديات الفعل إلى العادة القديمة) في شيء من أسباب حركتهما وهيجانهما . وإذا اتفق أن خطر شيء من أسباب هيجانهما بالبال فيجب أن يُخطر نقائضهما بالبال حتى تكرهها النفس وتتركها .

ومن الأمور المعتبرة في حفظ النفس : المواظبة على الوظائف العملية والعلمية ، ومجالسة الأبرار، ومجانبة الفجار ، وقد قيل : بليد نشأ في العلماء أفضل من اللبيب الذي نشأ في الجهلاء (ص ١٤) .

وينتقل إلى قضية أخرى : وهي أهمية أن يراعي القائم بالاتصال أن يتناسب مضمون الاتصال (ص ١٦) أو الرسالة الإعلامية مع خصال وطبيعة المتلقين حتى يصبح تأثيره فيهم أعظم حيث يقول : « واعلم أن دعوة العلماء (كتلقين) إلى الفضائل الخلقية بالبراهين الدالة على وجوب التخلق بمكارم الأخلاق ، ودعوة الأوساط إليها بالجدليات والإقناعات الدالة على وجوب التخلق بها ، ودعوة النسوة والصبيان ومن في مراتبهم ممن لا يفهم الحجة والبرهان بمدح الأفعال الجميلة ، وتحسينها لهم ، وذم الأفعال الرديئة ، وتهجينها ، وتكريهها لهم ، وحكاية شمائل الأخبار من السلف الصالح ، وحسن سيرتهم ، ومحاسن عواقبهم ، وسوء خاتمة الأشرار ، وما يلحقهم من تبعات أفعالهم في الدنيا والآخرة (ص ١٥) .

ثانيًا : القسم الثاني : في الفروع الجزئية لمحاسن الأخلاق :

يجب على صاحب الكمال أن يعرف أصول الأمور وفروعها ويتقدم لإحراز الأصول ، فإن أصاب الفروع بعد إحراز الأصول فهو أفضل ، وأصل الأمر في الدين الإيمان ، واجتناب الكبائر وأداء الفرائض ، ثم إن تجاوز هذا إلى الفقه والعبادة فهو أفضل .

واعلم أن لكل شيء سببًا وعلة ، فسبب العفة : غض البصر ، وسبب الفجور : الخلوة ، وسبب المحبة : الهدية ، وسبب القطيعة : كثرة المعاتبة ، وسبب الأخوة : البشاشة ، وسبب البلاء : المراء ، وسبب المذلة : المسألة ، وسبب الخير كله : غلبة العقل على الهوى (ص ١٨) .

ويذكر جملة من آداب السلوك الاجتماعي والتي تعتبر أساليب التفاعل مع الآخرين وتعد مؤشرات أو مكونات فرعية للمهارات الاجتماعية Social Skills ؛ حيث يقول : « وقر من فوقك ، ولِنْ لمن دونك ، وأحسن موافاة أكفائك فإن هذا يشهد لك بأن إجلالك لمن فوقك ليس بخضوع ، وأن لينك لمن دونك ليس بطمع فيهم ، وليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك ، واعلم أن دواعي الشهوات إذا اتصلت بها حاجاتها كانت كالحطب للنار وإذا منعتها عنها وحلت ما بينها وبين ما تهوى انطفأت كانطفاء النار عن فقدان الحطب » (ص ١٩) .

« ولا تستفسد صديقًا لهفوة تصدر منه ، ولا تلم أحدًا على ما يكون في مثله العذر حتى تعلم ما اعتذاره ، ولا تعد لكل فارطة عتابًا ، وليكن عتابك تأديبًا لا تأنيبًا » (ص ٢٠) .

« وعذب حسادك بالإحسان إليهم ، وعود نفسك الصبر على من خانوك من ذوي

النصيحة ، وإن ابتليت من سفيه سفاهة ، فإياك أن تحتذي مثله وتعارضه بسفهٍ » (ص ٢١) .

« ولطفك بصاحب صاحبك أحسن موقعًا عنده من لطفك به نفسه ، واتق الفرح عند المحزون ، واعلم أنه يحقد على المنطلق ويسكن للمكتئب ، واجتنب اللجاج والمراء مع الإخوان . وإن كنت لَسِنًا فلا تكثر من ادعاء العلم في كل ما يعرض » (ص ٢٢) .

« ولْتَعْرِف العلماءُ منك إذا اجتمعت معهم أنك على أن تسمع أحرص منك على أن تقول ، وإذا رأيت الرجل يحدث حديثًا قد علمته ، أو يخبر خبرًا قد سمعته فلا تشاركه فيه ، ولا تقبحه عليه حرصًا منك أن تعلم الناس أنك قد علمته ؛ فإن في ذلك خفة وسوء أدب وشحًا ، ولا تحدث إلا من يرى حديثك مَغْنَمًا ؛ فمن لم يَبْسُط لحديثك فارفع عنه مؤونة الاستماع ما لم يغلبك الاضطرار ، وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ، ومن حسن الاستماع إمهالك المتكلم حتى يقضي كلامه ، وقلة التلفت إلى الغير ، والإقبال والنظر إلى المتكلم حتى يقضي كلامه بتمامه » (ص ٢٣) .

ويشير إلى ظاهرة يمكن أن نطلق عليها الخداع الإدراكي الاجتماعي (١٧) .

وذلك في معرض تحذيره من الزنا ، والنهي من الوقوع فيه وخاصة للمحصن ؛ حيث يدرك الفرد ما عند الناس خير مما عنده حيث يقول : « واعلم أن أوقع الأمور في الدين وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار الإغراء بالنساء ، ومن البلاء على الغرور بهن أنه لا يزال يكره ما عنده ويطمع فيما عند الناس ، وإنما النساء أشباه وما يظهرن في العيون والقلوب من فضل مجهولاتهن على معروفاتهن باطل وخدعة ، وكثير مما يرغب فيه الراغب ما عنده أفضل مما تتوق إليه نفسه ، وإنما المرتغب عما في رحله منهن إلى ما في رحال غيره كالمرتغب من طعام بيته إلى ما في بيوت الناس من الأطعمة ، بل النساء أشبه من الطعام بالطعام ، فاحذر من هذه الرذيلة أشد الحذر » (ص ٢٦) .

وينصح بضرورة محاسبة النفس كل مساء ، والوفاء بالوعد والتواضع ، وتبني نظرة إيجابية للحياة ، والابتعاد عن السلبية والابتلاء . (ص ٢٧ - ٢٩) .

ثم يذكر مجموعة من الأمثال الشهيرة والأقوال السائرة التي تحض على المكارم وتنهي عن المثالب ؛ مثل : الحر عبد إذا طمع ، والعبد حر إذا قنع ، من اكتفى بالكفاف اكتسى بالعفاف ، لقاء الإخوان جلاء الأحزان (ص ٣٠ ، ٣١) .

من رضي عن نفسه أكثر الساخطين عليه ، لا خير في من لا تعظه التجارب (ص ٣٢) .

لا داء أعيى من الجهل ، إذا تم العقل نقص الكلام . (ص ٣٣) .

ثالثًا : القسم الثالث : فيما يتعلق بمكارم أخلاق الملوك وآداب أتباعهم :

ويتحدث فيه عن أهمية الرئاسة ودورها في صلاح المجتمع ، وعن أولى الناس بالملك ويقول : (أولى الناس بالملك أشدهم سلطانًا على هواه ، وأقرهم له فيما يتعلق بمصالح المملكة ، وأقدرهم على بسط العدل فيها ورفع الظلم عنها » (ص ٣٥) .

ويشير إلى الكيفية المثلى لاستثمار وقت الملوك بما يعود بالنفع على العامة والخاصة ، ويشجعهم على تقريب العلماء واستشارتهم ، وقد قيل : إن المستشير متحصن ، والمستبد متهور في الغلط (ص ٣٦ - ٣٧) .

ويقدم نصائح عديدة للملك تفيده في اختيار عماله وإدارة أعماله ، ويوجه نصيحة مهمة تندرج تحت موضوع الاختيار المهني (١٨) والذي يعنى بتوجيه الفرد إلى العمل الذي يتناسب مع قدراته حيث يقول : « وليعلم الملك أن تمهيد قواعد المملكة لا تتم إلا بحسم بوائق الأشرار وحسن رعاية الأخيار ، وصلاح الأعوان ، والاجتهاد في انتقاء صالحي العمال ؛ لأن أعمال الملك كثيرة ، ولا يمكن أن يجتمع استعداد جميع الأعمال في واحد ، فالوجه في ذلك أن يكون الملك عارفًا شرائط كل عمل ، واستعداد كل واحد معرفة تامة حتى يفوض إلى كل عامل عملًا يليق به ويشتهر بالكفاية والأمانة فيه » (ص ٣٨) .

ويشدد على أهمية متابعة من تم اختيارهم للتأكد من صدق الاختيار على محك الممارسة ، ويشجعه على تفويض السلطة (١٩) معتمدًا على المنطق التالي « وإنما الأمور كلها أمران : صغير لا ينبغي أن يباشره بنفسه ، وكبير لا ينبغي أن يكله إلى غيره ، فمتى باشر صغار الأمور شغلته عن كبارها ، ومتى وكل كبارها إلى غيره أضاع أكثر مما حفظ » (ص ٤٠) .

وضرورة التذرع وألا ينفذ حكمًا عند غضبه ، وعدم الفرح بالمدح ، وأن يقمع الحزن بالصبر ، ويتفكر في أحوال من سبقه ، وأن يكون للفقير والضعيف أشد نظرًا وأتم رعاية ، وليبدأ بإصلاح نفسه إن رغب في إصلاح رعيته ، وعليه بالتأمل والتأني فقد قيل : « أصاب المتأمل أو كاد وأخطأ المستعجل أو كاد » (ص ٤١ - ٤٤) .

ويختتم كتابه بجملة من الآداب التي على من يتعامل مع الملك أن يلتزم بها في مجالات شتى كالملبس ، والكلام ، والحركة ، والتصرفات ؛ حتى ينال القرب ويحافظ على المكانة (ص ٤٥ - ٥٠) .

عبد الله بن محمد الأنصاري ، أبو إسماعيل (ت ٤٨١هـ) منازل السائرين إلى الحق عزَّ شأنه (١)

عرض : د. الحسين محمد عبد المنعم

التعريف بالمؤلف :

هو عبد اللَّه بن محمد علي الأنصاري الهروي ، وكنيته أبو إسماعيل ، وُلِد سنة (٣٩٦هـ) الموافق لسنة ١٠٠٦م ، وهو من كبار الحنابلة ، وكان شيخ خراسان في عصره ، وينتسب إلى ذرية أبي أيوب الأنصاري ، وكان الهروي بارعًا في اللغة حافظًا للحديث ، عارفًا بالتاريخ والأنساب مظهرًا للسنة ، داعيًا لها ، امتحن وأوذي ، وسُمِعَ يقول : « عرضت على السيف خمس مرات ، لا يقال لي ارجع عن مذهبك ، لكن يقال لي اسكت عمن خالفك ، فأقول لا أسكت » .

وتوفي الهروي سنة (٤٨١هـ) ، الموافق لسنة (١٠٨٩م) ؛ ومن كتبه :

١ - ذم الكلام وأهله .

٢ - الفاروق في الصفات .

٣ - « الأربعين » في التوحيد .

٤ - « الأربعين » في السنة .

٥ - منازل السائرين .

٦ - سيرة الإمام أحمد بن حنبل .

---

(١) لأبي إسماعيل عبد اللَّه بن محمد الأنصاري ، القاهرة ، دار الكتب العربية (د.ت) .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٣٥ صفحة من القطع الصغير ، ويتكون من عشرة أقسام ؛ هي قسم البدايات ، وقسم الأبواب ، قسم المعاملات ، قسم الأخلاق ، قسم الأصول ، قسم الأدوية ، قسم الأحوال ، قسم الولايات ، قسم الحقائق ، وقسم النهايات .

- **القسم الأول** : البدايات : ويتضمن عشرة أبواب نعرض لها على النحو الآتي :

١ - **باب اليقظة** : اليقظة ثلاثة أشياء : **الأول** : لحظ القلب إلى النعمة مع اليأس من عدها ، والوقوف على حدها ، والعلم بالتقصير في حقها ، والتفرغ إلى معرفة المنة بها . والثاني : مطالعة الجناية والوقوف على الخطر فيها ، وتداركها وطلب النجاة بتمحيصها . والثالث : الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان من الأيام ، والتنصل من تضييعها ، والنظر إلى الضن بها لتدارك فائتها وتعمير باقيها .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي يرتبط بها هذا الباب : مفهوم اليقظة Vigilance والانتباه Attention (ص ٤) .

٢ - **باب التوبة** : وشروطها ثلاثة أشياء ؛ هي : الندم ، والاعتذار ، والإقلاع ، وحقائقها ثلاثة أشياء أيضًا ؛ هي : تعظيم الجناية ، واتهام النفس في التوبة ، وطلب إعذار الخلقية ، وسرائر حقيقة التوبة ثلاثة أشياء ؛ هي : تمييز الأشياء من الغرّة ، ونسيان الجناية ، والتوبة من التوبة أبدًا .

ويرتبط هذا الباب بموضوع الانفعالات Emotions حيث يعتبر الشعور بالندم Remorse أحد أنواع الانفعالات (ص ٥) .

٣ - **باب المحاسبة** : ولها ثلاثة أركان ؛ أحدها : أن تقيس بين نعمته وجنايتك ، وهذا يشق على من ليس له ثلاثة أشياء هي : نور الحكمة ، وسوء الظن بالنفس ، وتمييز النعمة من الفتنة . والثاني : أن تميز ما للحق عليك مما لك أو منك . والثالث : أن تعرف أن كل طاعة رضيتها منك فهي عليك وكل معصية عيرت بها **أخاك** فهي إليك .

٤ - **باب الإنابة** : وهي ثلاثة أشياء ؛ الرجوع إلى الحق إصلاحًا كما رجع إليه اعتذارًا ، الرجوع إليه وفاءً كما رجع إليه عهدًا ، والرجوع إليه حالًا كما رجع إليه إجابةً . والرجوع إليه إصلاحًا يتم بثلاثة أشياء : بالخروج من التبعات ، والتوجع للعثرات ، واستدراك الفائتات . والرجوع إليه وفاءً يتم أيضًا بثلاثة أشياء هي : التخلص من لذة الذنب ، وترك استهانة أهل الغفلة ، والاستقصاء في رؤية علل الخدمة . أما الرجوع إليه

حالًا فيستقيم بأنه : لا يأس من عملك ، وبمعاينة اضطرارك وبشيم برق لطفه بك .

٥ – **باب التفكر** : التفكر هو تلمس البصيرة لاستدراك البغية ، وهو ثلاثة أنواع : فكرة في عين التوحيد ، وفكرة في لطائف الصنع ، وفكرة في معاني الأعمال والأحوال .

ويرتبط هذا الباب بمفهوم التفكير Thinking ، والعمليات المعرفية Cognitive Processes والاستبصار Insight (ص٦) .

٦ – **باب التذكر** : التذكر فوق التفكر ، فالتفكر طلب والتذكر وجود ، وأبنية التذكر ثلاثة أشياء : الانتفاع بالعظة ، والاستبصار للعبرة ، والظفر بثمرة الفكرة .

ويرتبط هذا الباب بمفهوم التذكر Memory (ص ٦) .

٧ – **باب الاعتصام** : الاعتصام بحبل اللَّه هو المحافظة على طاعته مراقبًا لأمره ، والاعتصام باللَّه هو الترقي عن كل موهوم والتخلص عن كل تردد .

٨ – **باب الفرار** : والفرار هو الهروب مما لم يكن إلى ما لم يزل . وله ثلاث درجات : فرار العامة من الجهل إلى العلم ، وفرار الخاصة من الخبر إلى الشهود ، ومن الحظوظ إلى التجريد ، وفرار خاصة الخاصة مما دون الحق إلى الحق ، ثم من شهود الفرار إلى الحق ، ثم الفرار من الفرار إلى الحق .

٩ – **باب الرياضة** : الرياضة هي تمرين النفس على قبول الصدق ، وهي على ثلاث درجات : الأولى : رياضة العامة ، وهي تهذيب الأخلاق بالعلم ، وتصفية الأعمال بالإخلاص . والثانية : رياضة الخاصة ، وهي : حسم التفرق ، وقطع الالتفات إلى المقام الذي جاوزه ، وإبقاء العلم يجري مجراه . والثالثة : رياضة خاصة الخاصة ، وهي : تجريد الشهود ، والصعود إلى الجمع ، ورفع المعارضات .

ويرتبط بهذا الباب مفاهيم التعلم Learning وتعديل السلوك Behavior Modification (ص ٢٧) .

١٠ – **باب السماع** : السماع حقيقة الانتباه ، وهو على ثلاث درجات : الأولى : سماع العامة ، والثانية : سماع الخاصة ، والثالثة : خاصة الخاصة سماع يغسل العلل ويصل الأبد والأزل ، ويرد النهايات إلى الأول .

ويرتبط هذا الباب بشكل غير مباشر بمفهوم الإحساس Sensation والانتباه Attention (ص ٧) ، والتعلم Learning وتعديل السلوك (ص ٧) .

- **القسم الثاني : الأبواب** : ويتضمن عشرة أبواب نعرض لها على النحو الآتي :

١ - **باب الحزن** : وهو توجع لفائت أو تأسف على ممتنع وله ثلاث درجات :

الأولى : حزن العامة على التفريط في الخدمة ، والثانية : حزن أهل الإرادة ، وهو حزن على تعلق القلب بالتفرقة ، والثالثة : التحزن للمعارضات دون المخاطر .

ويرتبط هذا الباب بمفهوم الانفعالات Emotions وبخاصة انفعال الحزن (ص ٨) .

٢ - **باب الخوف** : وهو الانخلاع عن طمأنينة الأمن بمطالعة الخبر ، وهو على ثلاث درجات : الأولى : الخوف من العقوبة ، والثانية : خوف المكر في حال جريان الأنفاس المستغرقة في اليقظة ، والثالثة : هيبة تعارض المكاشف أوقات المناجاة ، وتصون المشاهد أحيان المسامرة ، وتقصم المعاين بصدمة العزة .

ويرتبط هذا الباب أيضًا بمفهوم الانفعالات وبخاصة انفعال الخوف (ص ٨) .

٣ - **باب الإشفاق** : وهو دوام الحذر مقرونًا بالترحم .

٤ - **باب الخشوع** : وهو خمود النفس وخمود الطباع لمتعاظم أو مفزع ، وله ثلاث درجات الأولى : التذلل للأمر والاستسلام للحكم ، والثانية : ترقب آفات النفس ، والثالثة : حفظ الحرمة عند المكاشفة .

٥ - **باب الإخبات** : والإخبات من أوائل مقام الطمأنينة ؛ وهو ورود المأمن من الرجوع والتردد ، وترتبط بهذا الباب مفاهيم ضبط النفس Self - Control والتحكم في شهواتها ولوم النفس أو الشعور بالذنب Feeling of Guilt والإرادة Will (ص ٩) .

٦ - **باب الزهد** : الزهد : إسقاط الرغبة عن الشيء - وهو للعامة قربة ، وللمريد ضرورة وللخاصة خشية ، ويرتبط بهذا الباب مفهوم ضبط النفس والتحكم في شهواتها (ص ٩) .

٧ - **باب الورع** : وهو آخر مقام الزهد للعامة ، وأول مقام الزهد للمريد . ويرتبط بهذا الباب مفهوم ضبط النفس والتحكم في شهواتها (ص ٩) .

٨ - **باب التبتل** : وهو التجريد المحض والانقطاع إلى اللّٰه ﷻ كلية ، ويرتبط بهذا الباب أيضًا مفهوم ضبط النفس والتحكم في شهواتها (ص ٩ ، ١٠) .

٩ - **باب الرجاء** : الرجاء أضعف منازل المريد ؛ لأنه معارضة من وجه واعتراض من وجه ، وهو وقوع في الرعونة في مذهب هذه الطائفة إلا ما فيه من فائدة ، فهو يغني

حرارة الخوف حتى لا يعدو إلى اليأس .

١٠ - **باب الرغبة** : الرغبة إلى الحق بالحقيقة من الرجاء وهي فوق الرجاء ؛ لأن الرجاء طمع يحتاج إلى التحقيق ، والرغبة هي سلوك على التحقيق .

ويرتبط هذا الباب بمفهوم الرغبة Desire (ص ١٠) .

- **القسم الثالث** : **قسم المعاملات** ويتضمن عشرة أبواب :

١ - **باب الرعاية** : وهي صون بالعناية ، ولها ثلاث درجات ؛ رعاية الأعمال ، ورعاية الأحوال ، ورعاية الأوقات .

٢ - **باب المراقبة** : وهي دوام ملاحظة المقصود ، ولها ثلاث درجات : مراقبة الحق في السير له على الدوام ، ومراقبة نظر برفض المعارضة ، ومراقبة الأزل .

٣ - **باب الحرمة** : وهي التحرج من المخالفات و المجاسرات .

٤ - **باب الإخلاص** : وهو تصفية العمل من كل شوب .

٥ - **باب التهذيب** : وهو محبة أرباب البدايات ، وهو شريعة من شرائع الرياضة .

٦ - **باب الاستقامة** : وهي روح تحيا بها الأحوال كما تربو للعامة عليها الأعمال ، وهي برزخ بين وِهَاد التفرق وَرَوَابي الجمع .

- وترتبط الأبواب ٤ ، ٥ ، ٦ بموضوع القيم الأخلاقية Moral Values (ص ١١ - ١٢) .

٧ - **باب التوكل** : التوكل وَكْلُهُ إلى مالكه ، والتعويل على وكالته ، وهو من أصعب منازل العامة عليهم ، وأدهى السبل عند الخاصة ؛ لأن الحق قد وكل الأمور كلها إلى نفسه .

٨ - **باب التفويض** : وهو ألطف إشارة وأوسع معنى من التوكل ، فإن التوكل بعد وقوع السبب ، والتفويض قبل وقوعه وبعده .

٩ - **باب الثقة** : الثقة سواد عين التوكل ، ويقظة دائرة التفويض ، وسويداء قلب التسليم .

١٠ - **باب التسليم** : وفي التسليم والثقة والتفويض ما في التوكل من الاعتلال - وهو من أعلى درجات سبل العامة .

القسم الرابع : قسم الأخلاق : ويتضمن الأبواب العشرة التالية :

١ - **باب الصبر** : وهو حبس النفس على جزع كامن عن الشكوى ، وهو من أصعب المنازل على العامة ، وأوحشها في طريق المحبة ، وأنكرها في طريق التوحيد .

٢ - **باب الرضا** : وله ثلاث درجات : الأولى : رضا العامة وهو الرضا بالله ربًّا ، والثانية : الرضا عن الله تعالى ، والثالثة : الرضا برضا الله تعالى .

٣ - **باب الشكر** : وهو اسم لمعرفة ؛ لأنها السبيل إلى معرفة المنعم ، ومعاني الشكر ثلاثة أشياء : معرفة النعمة ، ثم قبول النعمة ، ثم الثناء بها .

٤ - **باب الحياء** : وهو أول مدارج أهل الخصوص يتولد من تعظيم منوط بود .

٥ - **باب الصدق** : وهو اسم لحقيقة الشيء حصولًا ووجودًا .

ويرتبط هذا بمفهوم الصدق إحدى القيم الأخلاقية (ص ١٥) .

٦ - **باب الإيثار** : الإيثار . هو تخصيص واختيار ، والأثرة تحسن طوعًا وتصح كرهًا ، ويقترب هذا الباب من مفهوم الغيرية أو الإيثار Altruism (ص ١٥) .

٧ - **باب الخُلق** : الخُلق هو ما يرجع إليه المكلف من نعته - ويرتبط بمفهوم التصورات الأخلاقية Moral conceptions (ص ١٥) .

٨ - **باب التواضع** : وهو أن يتواضع العبد لصوت الحق .

٩ - **باب الفتوة** : وهي أن لا تشهد لك فضلًا ، ولا ترى لك حقًّا .

١٠ - **باب الانبساط** : وهو إرسال السجية والتحاشي عن وحشة الحشمة ، وهو السير مع الجبلة ، ويقترب هذا الموضوع من موضوع سيكولوجية الشخصية ، وخاصة بعد الانبساط Extraversion أحد الأبعاد الأساسية للشخصية الإنسانية (ص ١٦ - ١٧) .

القسم الخامس : قسم الأصول ، ويتضمن الأبواب العشرة التالية :

١ - **باب القصد** : وهو الإزماع على التجرد للطاعة من مفهوم القصد أو النية (ص ١٧) .

٢ - **باب العزم** : وهو القصد طوعًا أو كرهًا .

٣ - **باب الإرادة** : وهي الإجابة لدواعي الحقيقة طوعًا ، ويرتبط بمفهوم الإرادة (ص ١٧) .

٤ - **باب الأدب** : وهو حفظ الحد بين الغلو والجفاء بمعرفة ضرر العدوان ، ويرتبط بمفهوم العدوان aggression ، والانفعالات Emotions (ص ١٧ ، ١٨) .

٥ – **باب اليقين** : وهو على ثلاث درجات : الأولى : علم اليقين ، والثانية : عين اليقين وهو الغنى بالاستدراك عن الاستدلال ، والثالثة : حق اليقين .

٦ – **باب الأنس** : وهو إشارة إلى روح القرب .

٧ – **باب الذكر** : وهو التخلص من الغفلة والنسيان – ويرتبط بمفهوم الذاكرة memory والنسيان Forgetting (ص ١٨) .

٨ – **باب الفقر** : وهو على ثلاث درجات : الأولى : فقر الزهاد ، والثانية : الرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل ، وهو يورث الإخلاص ، والثالثة : فقر الصوفية وهو صحة الاضطرار ، والوقوع في يد المنقطع الوحداني في بيداء التجريد .

٩ – **باب الغنى** : وهو اسم للملك التام ، الدرجة الأولى منه : غناء القلب ، والثانية : غناء النفس ، والثالثة : الغنى بالحق .

١٠ – **باب المراد** : أكثر المتكلمين في هذا جعلوا المراد والمريد اثنين – جعلوا مقام المراد فوق مقام المريد – وأشاروا باسم المراد إلى الضنائن الذين ورد فيهم الخبر .

القسم السادس : قسم الأدوية :

١ – **باب الإحسان** : وهو اسم جامع لجميع أبواب الحقائق ، وهو أن تعبد اللّه كأنك تراه .

٢ – **باب العلم** : وهو ما قام بدليل ورفع الجهل .

٣ – **باب الحكمة** : اسم لإحكام وضع الشيء في موضعه .

٤ – **باب البصيرة** : وهو ما يخلصك من الحيرة ، ويقترب من مفهوم الاستبصار Insight أحد المفاهيم الأساسية في نظرية الجيشطالت ، والمفسرة لعملية الإدراك والتعلم (ص ٢٠) .

٥ – **باب الفراسة** : والتوسم التفرس وهو استئناس حكم غيب ، يشي بلا استدلال بشاهد ولا اعتبار بتجربة ، ويقترب مما يطلق عليه البعض : « الذكاء اللماح » .

٦ – **باب التعظيم** : التعظيم ، هو معرفة العظمة مع التذلل لها .

٧ – **باب الإلهام** : وهو مقام المحدَّثين ، وفوق مقام الفراسة ؛ لأن الفراسة ربما وقعت نادرة أو استصعبت على صاحبها وقتًا واستعصت عليه ، والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد .

٨ – **باب السكينة** : وهي حالة من الرضا والخشوع ومحاسبة النفس – ويرتبط هذا

الباب بموضوع الانفعالات Emotions (ص ٢٢) .

٩ – **باب الطمأنينة** : وهي سكون يقويه أمن صحيح شبيه بالعيان ، وبينه وبين السكينة فرقان ؛ أحدهما : أن السكينة تورث جمود الهيبة أحيانًا ، والطمأنينة سكون أمن فيه استراحة .

ويقترب هذا المفهوم من مفهوم الأمن النفسي Feeling of Security (ص ٢٢) .

١٠ – **باب الهمة** : وهي ما يملك الانبعاث إلى المقصود .

ويقترب هذا الباب من مفهومي الباعث Dr.Drive والدافع Motive (ص ٢٢) .

القسم السابع : قسم الأحوال : ويندرج تحته ما يلي :

١ – **باب المحبة** : وهي تعلق القلب بين الهمة والأنس في البذل والمنع على الأفراد .

٢ – **باب الغيرة** : وهي سقوط الاحتمال ضنًّا والضيق عن الصبر .

٣ – **باب الشوق** : وهو هبوب القلب إلى غائب .

وترتبط الأبواب الثلاثة السابقة بأنماط الانفعالات Type of Emotions .

٤ – **باب القلق** : وهو تحريك الشوق بإسقاط الصبر .

ويرتبط بموضوع القلق النفسي Anxiety (ص ٢٣) .

٥ – **باب العطش** : وهو كناية عن غلبةِ ولوعٍ بمأمول .

٦ – **باب الوجد** : وهو لهب يتأجج من شهود عارض تعلق .

٧ – **باب الدهشة** : والدهشة بهتة تأخذ العبد إذا فاجأه ما يغلب عقله أو صبره أو علمه .

٨ – **باب الهيمان** : وهو ذهاب عن التمالك تعجبًا أو حيرة ، وهو أطول نسبيًّا من الدهشة .

٩ – **باب البرق** : وهو باكورة تلمع للعبد فتدعوه إلى الدخول في هذا الطريق .

١٠ – باب الذوق وهو أبقى من الوجد وأجلى من البرق .

وبوجه عام ترتبط أبواب القسم السابع بسيكولوجية الانفعالات : أنماطها ودرجاتها (ص ٢٢ – ٢٥) .

القسم الثامن : الولايات :

١ – **باب اللحظ** : وهو لمع مسترق .

٢ – **باب الوقت** : اسم لظروف الكون .

٣ – **باب الصفا** : اسم للبراءة من الكدر .

٤ – **باب السرور** : وهو اسم لاستبشار جامع وهو أصفى من الفرح ؛ لأن الأفراح ربما شابتها الأحزان .

ويقترب هذا الباب من موضوع الانفعالات Emotions (ص ٢٦) .

٥ – **باب السر** : أصحاب السر هم الأخفياء الذين ورد فيهم الخبر .

٦ – **باب النفس** : سمى النفس نفسًا لترويح المتنفس به ، وهو على درجات مختلفة .

٧ – **باب الغربة** : وهي اسم يشار به إلى الانفراد عن الأكفاء .

٨ – **باب الغرق** : وهو اسم يُشار به إلى من توسط المقام وجاوز حد التصرف .

٩ – **باب الغيبة** .

١٠ – **باب التمكن** : وهو فرق الطمأنينة وإشارة إلى غاية الاستقرار .

القسم التاسع : الحقائق :

١ – **باب المكاشفة** : وهي مهاداة السر بين متباطنين ، وهي في هذا الباب بلوغ ما وراء الحجاب وجودًا .

٢ – **باب المشاهدة** : وهي سقوط الحجاب يتهاوى فوق المكاشفة .

٣ – **باب المعاينة** : وهي ثلاثة أنواع ، معاينة الإبصار ، ومعاينة القلب ، ومعاينة عين الروح .

٤ – **باب الحياة** : فيها حياة العلم من موت الجهل ، وحياة الجمع من موت التفرقة ، وحياة الوجود .

٥ – **باب القبض** : وهو اسم يشار به إلى مقام الضنائن الذين ادخرهم الحق ﷻ .

٦ – **باب البسط** : البسط أن يرسل شواهد العبد في مدارج العلم .

٧ – **باب السكر** : وهو سقوط التمالك في الرطب ، وهذا من مقامات المحبين . ويرتبط بموضوع سيكولوجية الحب Love (ص ٣٠) .

٨ – **باب الصحو** : وهو فوق السكر ، وصاعد عن الانتظار ؛ يغني عن الطلب ، طاهر من الحرج .

٩ ، ١٠ - بابا الاتصال والانفصال .

القسم العاشر : التوحيد :

١ - **باب المعرفة** : وهي إحاطة بعين الشيء كما هو ؛ وهي على ثلاث درجات : الأولى : معرفة الصفات ؛ والثانية : معرفة الذات ؛ والثالثة : معرفة مستغرقة لا يوصل إليها الاستدلال ولا يدل عليها شاهد .

ويرتبط هذا بمفهوم المعرفة Knowledge (ص ٣١) .

٢ - **باب الفناء** : وهو اضمحلال ما دون الحق علمًا ثم جحدًا ثم حقًّا .

٣ - **باب البقاء** : وهو اسم لما بقى قائمًا بعد فناء الشواهد وسقوطها .

٤ - **باب التحقيق** : التأكد من الأشياء بإثبات الدليل والشواهد .

٥ - **باب التلبيس** : وهو تورية بشاهد معار عن موجود قائم .

٦ - **باب الوجود** : وهو اسم للظفر بحقيقة الشيء .

٧ - **باب التجريد** : وهو إخلاع عن شهود الشواهد .

٨ - **باب التفريد** : وهو اسم لتخليص الإشارة إلى الحق ، ثم بالحق ، ثم عن الحق .

٩ - **باب الجمع** : وهو ما أسقط التفرقة وقطع الإشارة ، وشخص عن الماء والطين بعد صحة التمكين والبراءة من التلوين .

١٠ - **باب التوحيد** : وهو تنزيه اللّه ﷻ عن الحدث ؛ وهو على ثلاثة أوجه : الأولى : توحيد العامة ويصح بالشواهد ؛ الثانية : توحيد الخاصة ويثبت بالحقائق ؛ والثالثة : هو توحيد خاصة الخاصة ؛ وقد اختصه الحق تعالى لنفسه واستحقه لقدره .

أوجه الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام .

* * *

المبشر بن فاتك (ت ٤٨٧هـ)
مختار الحكم ومحاسن الكلم (١)

عرض : د. جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف :

هو المبشر بن فاتك الآمري وكنيته أبو الوفاء محمود الدولة الأمير ، وأصله من دمشق ولكنه استوطن مصر حتى صار يعد من أعيان أمراء مصر وأفاضل علمائها ، وكان في الدولة المصرية في أيام الظاهر والمستنصر وأحد أدباء مصر العارفين بالأخبار والتواريخ المصنفين فيها . ولم تذكر المصادر التي أرخت له تاريخ مولده ووفاته ، وإنما اكتفى القفطي بالقول : وكان في آخر المائة الخامسة للهجرة ، ويمكن تحديد سني حياته عن طريق من تتلمذ لهم وتتلمذوا عليه ، فأبو الوفاء المبشر بن فاتك ألف كتابه « مختار الحكم » سنة ٤٤٥هجرية ، وبالتالي يفترض أنه ولد في السنوات العشر الأولى من القرن الخامس فيما بين سنة ٤٠٠ ، وسنة ٤١٠هـ . وتبعًا لهذا يكون قد تتلمذ على ابن الهيثم فيما بين سن الخامسة عشرة والخامسة والعشرين . وأن ملازمته لابن رضوان كانت وهو في سن بين الخامسة والثلاثين والخمسين ، ومهما عمر فلن يتجاوز ٤٨٧ هجرية (وإذن فليس بصحيح ما زعمه القفطي من أنه كان في آخر المائة الخامسة للهجرة) ، وقد أخذ عن أساتذته علوم الهيئة والعلوم الرياضية ، وفروع الفلسفة ، والعلوم الحكمية ، والطب .

وله مؤلفات في علوم الأوائل نذكر منها : البداية في المنطق ، والوصايا والأمثال ،

---

(١) لأبي الوفاء المبشر بن فاتك ، تحقيق عبد الرحمن بدوي ، ط. ٢ ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، (١٩٨٠م) .

والموجز من محكم الأقوال ، وكتاب في الطب ، والكتاب الذي نحن بصدده . ومن مؤلفاته في التاريخ كتاب سيرة المستنصر (٣ مجلدات) .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٣٧٢ صفحة من القطع المتوسط ، ويشتمل على تصدير عام يضم نبذة عن كتاب مختار الحكم ، وترجمة للمؤلف ، ثم ما نقل عن كتاب مختار الحكم وما نشر منه ، والمخطوطات العربية له ، وكتاب مختار الحكم في الإسبانية ، والترجمة اللاتينية ، والفرنسية ، والبروفنصالية ، والإنجليزية ، والرواية الأصلية في الترجمة الإسبانية ، وبعد ذلك طبعات الترجمة الإسبانية الملفقة ومنها طبعة أشبيلية في ١٦ مايو ١٤٩٥م ، وطبعة طليطلة في ١١ ديسمبر ١٥١٠م وطبعة بلد الوليد في ٢٣ ديسمبر سنة ١٥٣٧م ثم خاتمة ، ورموز المخطوطات ، ويضم الكتاب أيضًا مقدمة للمؤلف ثم الحديث عن إحدى وعشرين شخصية يذكر حياتها ونسبها ، وشيئًا من أدبها أو حكمتها ، ثم باب جامع لأقوال جماعة من الحكماء ، وباب آداب لم يعرف قائلها . ويضم أيضًا مجموعة من الفهارس منها فهرس الأعلام ، وفهرس أسماء الأماكن ، وفهرس الموضوعات .

يبدأ المؤلف كتابه بفصول من كلام شيث النبي وآدابه ، ويذكر فيها أنه ينبغي أن يكون في المؤمن والحنيفي ست عشرة فضيلة ، الأولى : معرفة باللّٰه ، والثانية : معرفة الخير والشر ، والثالثة : السمع والطاعة للملك الذي استخلفه اللّٰه في الأرض ، والرابعة : بر الوالدين ، والخامسة : اصطناع المعروف بقدر الطاعة ، والسادسة : مواساة الفقراء ، والسابعة : التعصب للغريب (ومفهوم التعصب Prejudice) من المفاهيم التي درست وما زالت تدرس في علم النفس الاجتماعي (ص ٤) والثامنة : الشجاعة في طاعة رب العالمين ، والتاسعة : العصمة عن الفجور ، والعاشرة : الصبر بالإيمان واليقين (ص ٥) ، والحادية عشرة : صدق اللهجة ، والثانية عشرة : العدل ، والثالثة عشرة : القنوع في الدنيا ، والرابعة عشرة : تقديم الضحايا والقرابين للّٰه ، والخامسة عشرة : الحلم (وهو يقابل ضبط النفس Self-Control أحد سمات الشخصية كما يدرس في علم النفس) (ص ٥) ، والسادسة عشرة : الحياء وقلة الممار .

كما يحدد أيضًا خصال الملك أو القائد ويركز فيها على لطف العقل ، وصحة الرأي ، والعلم بالحكمة والإعلاء من شأن العلم (وموضوع القيادة – عمومًا – من

موضوعات علم النفس الاجتماعي (ص ٥ ، ٦) كما يحدثنا أيضًا عن الصداقة وهي من موضوعات علم النفس الاجتماعي أيضًا (ص ٦) ، ويلفت النظر إلى ضرورة التجريب وإمعان النظر (ص ٦) ، وأخيرًا يحدد الحكمة بأن بها تنال معرفة الأمور وتحسن النية (ص ٧) .

وبعد ذلك ينتقل إلى حكم آرميس وآدابه ، والذي دعا إلى دين اللّٰه والقول بالتوحيد ، وتخليص النفوس من العذاب ، وحرص على الزهد في الدنيا ، والعمل بالعدل وطلب الخلاص في الآخرة ، والنظر في العاقبة (ص ٧ - ١٠) .

وبعد آرميس ، يتحدث عن مختار مواعيظ هرمس وآدابه ، ويعرفه بأنه إدريس النبي المثلث بالنبوة والحكمة والملك ، ويحدد فيها كيفية شكر اللّٰه ، وكيفية بلوغ العلم وصالح العمل ، وتقوى اللّٰه ، والدعاء الخاص للّٰه ، والسعي للخير ، وإتمام فروض اللّٰه ، والخشوع والخضوع من غير عجب ولا استكبار ، وينهى عن التفاخر والتكاثر ، ومخالطة الخونة والفسقة (وكأنه ينبهنا إلى كيفية اختيار الأصدقاء) (ص ١٢ - ١٥) .

ومن مواعظه أيضًا الحرص على التقوى باعتبارها فاتحة أبواب الفهم والعقل . ويأمرنا كذلك بالتروي في الأمور وعدم العجلة . ومن الموضوعات التي لها صلة بعلم النفس حديثه عن التعلم بالاقتداء Modeling (ص ١٣ ، ١٩ ، ٢٠) وانفعال المحبة (ص ١٤) وانفعال الغضب (ص ١٧ - ٢٢) وسلوك المساعدة Helping Behavior ، وحسن التخاطب ويدرسا في علم النفس الاجتماعي (ص ١٤ - ١٦) .

وسمات الشخصية خاصة ضبط النفس (ص ١٧ - ١٨) والقيادة Leadership وخصال القائد (ص ١٧) ومفهوم الغريزة والشهوة (وهي مفاهيم أهملت وحل محلها الدوافع (ص ١٨ ، ١٩) ، وبعض اضطرابات الإدراك كالخداع البصري Visual Illusion عند حديثه عن السراب (ص ٢١) كما يتحدث عن قوى النفس ، كالنفس المنطقية ، والقوة الشهوانية ، والقوة الغضبية (ص ٢٢) وأخيرًا يحدثنا عن الفهم وعلاماته وخاصة السرور (والفهم Comprehension) يدخل تحت باب الذكاء أو القدرات المعرفية ، ويدرس أيضًا في علاقته باللغة ، أما السرور فيدرس تحت باب الانفعالات (ص ٢٢) .

ويحدثنا بعد ذلك باختصار عن حكيمين ؛ هما : « صاب بن إدريس » الذي يحذرنا من الغضب ، لأنه يفقد العقل (والغضب من الموضوعات التي تدرس في علم النفس العام ، وكذلك العقل إذا نظرنا إليه باعتبار مكوناته كالذكاء والتفكير والعمليات المعرفية

(ص ٢٦) ثم يحدد سمات الشخصية الخاصة بالملك (أو القائد) وهو ما يدخل في موضوع القيادة أحد موضوعات علم النفس الاجتماعي (ص ٢٦) ، ويركز على فوائد الفهم (وهو موضوع ينتمي للجانب العقلي في الإنسان (ص ٢٧) . والثاني : هو إسقلبيوس الذي كان تلميذًا لهرمس . ويركز على الصمت ، والبحث عن المعرفة ، وتحري الصدق (ص ٢٩) .

الحكيم الثاني في هذه السلسلة من الحكماء : هو هوميروس الشاعر الذي عرَّف العاقل بأنه من عقل عن الذم لسانه ، كما يرى أن الحيل فوائد الفكر (وقد سبق أن أشرنا إلى أن الجانب العقلي أو القدرات العقلية حظيت باهتمام كبير في دراسات علم النفس (ص ٣٠ ، ٣١) ، ثم يبدي رأيه في المشورة وطلب النصيحة (وهو مقابل الإرشاد النفسي Counceling أحد فروع علم النفس الحديث (ص ٣٠) ويطالبنا بالاقتداء باللّٰه ، والحلم (أو ضبط النفس وهو من سمات الشخصية (ص ٣٢ ، ٣٣)) .

ويزلف مباشرة بعد ذلك إلى الحديث عن سولون الحكيم الذي رفع قيمة العلم وأعلى شأنه ونصحنا بالأدب والتأديب (أو حسن التنشئة ، والتنشئة أحد موضوعات علم النفس الاجتماعي (ص ٣٦) ويقدم لنا مبدأ من المبادئ المعمول بها الآن في التخلص من سوء التوافق - أعني التحكم في الأفكار المأساوية حيث يأمرنا بدفع الأفكار السيئة (ص ٣٧) ، ويذكر أيضًا بعض سمات الشخصية وأهمها ضبط النفس (الحلم) ، (ص ٣٧) ، ويرسي مبادئ الإرشاد والنصح (ص ٣٧) كما تعرض لموضوع الصداقة (ص ٣٨) ، وتحدث عن بعض الانفعالات كالفرح والحزن (ص ٣٨) وحدد بعض خصال القائد (ص ٣٩) ، وانتهى بالحديث عن التقويم . كما تعرض المؤلف لحكم وآداب زينون باختصار ، وأهم ما جاء بها - من وجهة نظر علم النفس - اختيار الأصدقاء والإخوان لأنهم شفاء النفس (ص ٤٣) ، وقوله إن النفس الناطقة لا تموت . وينقل لنا بعد ذلك أخبار أبقراط الطبيب وحكمه و آدابه وأهمها تركيزه على التجربة ، كما يبين لنا كيفية الاعتدال والتوسط في إشباع الدوافع (خاصة الدوافع البيولوجية) وموضوع الدوافع وإشباعها من موضوعات علم النفس العام ، ويذكر آفات القلب وأهمها الغم والهم (وهي قد تدخل تحت مسمى الانفعالات كالحزن - أو كوصف لبعض أعراض الأمراض النفسية كالاكتئاب Depression وهو موضوع عناية الأطباء النفسيين وعلماء النفس الإكلينيكيين (ص ٤٩) . وتحت باب الانفعالات تحدث عن المحبة ودرجاتها كالعشق (ص ٥٠ - ٥٢) . وتعرض كذلك لموضوع الفكر Thinking (ص ٥٢) .

وتبدأ آداب وحكم فيثاغورث الحكيم بضرورة محبة اللّٰه تعالى من خلال محبة الحكمة ، ثم يأمرنا بالتروي قبل الفعل للنجاة من الخطأ (ص ٦٣) ويتعرض بالحديث أيضًا وكما سبق أن ذكرنا - للاعتدال في إشباع الدوافع (ص ٦٣) ويزيد على ذلك موضوعًا آخر هو التيقظ Vigilance والذي يدخل تحت دراسة الانتباه Attention كموضوع من موضوعات علم النفس العام (ص ٦٣) . كما يحدد أيضًا آداب المخاطبة أو التخاطب Communication (وهو أحد موضوعات علم النفس الاجتماعي (ص ٦٤ - ٦٧) ويستخدم أيضًا مفهوم العادة Habit (وهو من المفاهيم التي استخدمت في نظريات التعلم (ص ٦٤) .

وينهانا عن العجلة أو التواني ، ويأمرنا بضبط النفس (وهو من سمات الشخصية (ص ٦٦ - ٦٨) ، ثم يتحدث عن موضوع الانفعالات Emotions فيذكر منها الغضب ، والحزن والهم (ص ٦٩) . ثم يفرق بين الإحساس ، والشهوات والعقل (وهي ثلاثة موضوعات من موضوعات علم النفس ، غير أن الشهوة يمكن استبدالها ليحل محلها الدوافع (ص ٦٩ - ٧١) .

ولعدد من الموضوعات التي ذكرها فيثاغورث في حكمه وآدابه يتعرض ذيوجانس المتجرد ، ومن هذه الموضوعات ذات الصلة بعلمنا موضوع الدوافع (ص ٧٤) والصداقة (ص ٧٤) والانفعالات كالغضب ، والحب (ص ٧٥ - ٨١) والتعلم Learning (ص ٧٦) والتخاطب (ص ٧٩) ، والأخلاق الحسنة (ص ٨٠) .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى أحد أهم الحكماء الذي تحدث عنهم وهو سقراطيس الزاهد ، الذي ينصحنا بمعرفة حق اللّٰه تعالى وتقواه ، ويوصينا بالتربية ثم يفرق أيضًا بين الأنفس فيذكر منها النفس الزكية ، والنفس الرديئة والنفس الفاضلة ، والنفس الناقصة (وكأنه يصنف الناس على أساس سمات شخصياتهم ، وهنا نجد بداية لأحد موضوعات علم النفس (ص ٩٢ - ٩٨) . ويحضنا كذلك على محاولة معرفة الخطأ والتحرز منه ، ومن الموضوعات التي تعرض لها وتعتبر ذات أهمية خاصة موضوع إدراك الكلام أو فهمه Speech Perception (ص ١٠٠) . ويحذر سقراط من التسرع ، ويربطه بالغضب ففيهما علاقة وثيقة (والتسرع يمكن النظر إليه كسمة من سمات الشخصية ، أو من خصائص الإدراك المعرفي والحركي والإدراكي (ص ١٠٠)) ، أما الغضب فهو يدخل تحت باب الانفعالات وقد أضاف إليه الحزن أيضًا (ص ٩٨ - ١٠٣) . وكسابقيه ومن صابروا بعده يفرد جزءًا من حكمه لبيان أهمية التفكير (ص ١٠٤) .

كما يقدم مجموعة من المواعظ عن الموت وما يتصل به (ص ١٠٥ ، ١٠٦) . ويعدد محاسن الخلق (السمات الجيدة للشخصية (ص ١١٠ ، ١١١) . ويرشدنا إلى الاستعداد للبلاء قبل وقوعه (وهو من المبادئ المعمول بها في دراسات المشقة والتوافق Stress & Adjustment حيث يقلل ذلك من وطأة المشقة على النفس (ص ١١٧) . وأخيرًا يبصرنا بمضار المسكرات وآثارها على العقل وهو من الموضوعات التي تقع على الحدود بين علم النفس الاجتماعي ، وعلم النفس الإكلينكي وأعني الإدمان Addiction أو الاعتماد Dependence (ص ١٢٢) .

وبعد أن انتهى المؤلف من الحديث عن سقراط ، انتقل ليقدم لنا آداب أفلاطون وحكمه . ويوصي أفلاطون بضرورة العناية بقوام البدن ؛ لأنه آلة النفس ، وأن من يطلب فضائل النفس تصح قواه ، ويستمر بعد ذلك في سرد حكمه ومشوراته وآدابه وهي كثيرة جدًّا ، ومنها عدد غير قليل ذو صلة بعلم النفس ؛ فهو يحدثنا عن العادة ، وعن استخدام مبدأ المكافأة المادية والمعنوية (والاثنان من المفاهيم التي شاع استخدامها في نظريات التعلم (ص ١٣١ - ١٦٧) ، ويتعرض بعد ذلك لموضوع العقل وما يدخل تحته كالحفظ أو التذكر (ص ١٣٢) ويحدد معنى العقل وعمله بأنه تمييز الأشياء وتفصيلها وهو - كما نعرف - من أهم موضوعات علم النفس (ص ١٣٣) .

كما يتحدث حديثًا مستفيضًا عن النفس ، ويشير إلى أن هناك عدة قوى للنفس (أو قدرات بمصطلحات علم النفس الحديث (ص ١٤٣) . ولا ينسى أن يذكر لنا عددًا من خصال الشخصية ، سواء كانت حسنة أم سيئة (ص ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١) ويعطينا دروسًا في كيفية سياسة الناس (مما يمكن أن يدخل في إطار موضوع القيادة Leadership (ص ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٥٠ ، ١٦١) ويضيف له أيضًا كيفية اختيار الأصدقاء وكيفية معاملتهم (ويدرس موضوع الصداقة في إطار المهارات الاجتماعية Social Skills ضمن حدود علم النفس الاجتماعي (ص ١٣٣ ، ١٤٤ ، ١٦٥) ، وكما وجدنا عند من سبقه ، فهو يذكر عدة حكم ونصائح في كيفية ضبط النفس والتحكم في الانفعال خاصة الغضب وكيف ومتى نعبر عن انفعال الحب (وهو باب من أبواب علم النفس العام (ص ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٤ ، ١٦٤ ، ١٧١ ، ١٧٥) ، وينعطف بعد ذلك إلى موضوع الشهوة وعلاقتها بالغضب وبقية أخلاق النفس (نحن نرى أن الشهوة يمكن أن تقابل اصطلاح الدوافع البيولوجية في علم النفس الحديث (ص ١٤٩ - ١٦٧) ؛ لذا نجده

يقسم النفس إلى قوة شهوانية وقوة غضبية ، وقوة فكرية ، (وهي من المفاهيم التي ترددت بعد ذلك كثيرًا في فلسفة وحكم بعض العرب والمسلمين كابن سينا ، والفارابي ، والغزالي ... إلخ ويمكن أن نجد لها مقابلًا في دراسات علم النفس الحديث ؛ مثل الدوافع ، والانفعال ، والتفكير (ص ١٥٠ - ١٥٧) . ولا تخلو موسوعة أفلاطون من كلام يفيد الدارسين لسيكولوجية اللغة ، أحد المجالات الحديثة لعلم النفس ، وكذلك المهتمين بالتخاطب فهو يقول : إذا طابق الكلام نية المتكلم ، حرك نية السامع ، وإن خالفها لم يحسن موقعه ممن أريد به (ص ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٦) ، ومن قطوف بستان الحكمة عند أفلاطون مما يتعلق بطلب المشورة وممن نطلبها (وكأنها دروس شديدة التبكير في الإرشاد النفسي Counseling (ص ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٤) ويختتم هذه الحكم النفسية بتحديد منبع الذكاء والفهم الذي يراه في الطبيعة الصافية ومدارسة الحكماء وموضوع الذكاء والفهم من أهم موضوعات علم النفس الحديث (ص ١٧٨) ، ومما يمكن استشفافه من دروس في القياس النفسي حديثه عن الاختيار (ص ١٤٥) وتعريفه للصدق بأنه ثبات الأشياء في مواضعها .

ونأتي إلى ثلث الفلاسفة اليونانيين العظام وهو أرسطوطاليس (أو أرسطو) ولعل أرسطو هو الذي ذكر علم النفس صراحة حيث قال : « إذا كانت النفس هي معدن الحكمة فأول ما ينبغي لطالبها أن يطلب علم النفس ، قيل : وبِمَ يطلب علم النفس ؟ قال : بقوة نفسها (ص ٢٠٧) ونظرًا لأن معظم الموضوعات ذات الصلة بعلم النفس ، والتي استشففناها من حكم أرسطو وآدابه ، قد وردت عند سابقيه فسوف نشير إليها باختصار ، فقد تحدث عن العلاقة بين الحاكم والمحكومين وشروط الرياسة مما يدخل ضمن موضوع القيادة (ص ١٨٧ ، ١٩٢ ، ١٩٣) ، ثم يعرض للعقل والتفكير ، والذكاء وعلاقته بالتحصيل ، وهي نقطة من نقاط البحث في علم النفس والتي لم ترد عند غيره (ص ١٩٢ - ٢٠٤) ، والتحكم في الشهوات (إشباع الدوافع (ص ١٨٨) ، وما يمكن أن يدخل تحت مسمى المشقة Stress وعلاقتها بالتوافق (ص ١٩٤) ، والتعلم (ص ١٨٩) ، وأمراض النفس كالكذب (ص ٢١٧) ، وكيفية علاجها ورعايتها (ص ١٩٨) (وهي من موضوعات علم النفس الإكلينيكي والطب النفسي) ، وتحدث عن الانفعالات كالغضب ، والحزن ، والحب (ص ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١) وعن الصداقة (ص ٢١٣ - ٢١٤) ، ويعني خصال الشخصية كضبط النفس (ص ٢٢١) ،

والاندفاعية (ص ٢٠٨ - ٢١٧) ، وسيكولوجية اللغة (الإنتاج والفهم (ص ٢٠٦ - ٢١٣) وسيكولوجية الاعتماد والإدمان (ص ٢٠٦) .

ومما أمكن استنباطه من آداب ومواعظ الإسكندر : إعلاء شأن العلم ، والعقل واللسان (ص ٢٣٤) ، وخصال الحاكم (موضوع القيادة ص ٢٤٤) واستخدام المكافأة وهي من مبادئ التعلم (ص ٢٤٥) ، وحسن التخاطب ، والشروط الواجب توافرها في الرسالة (ص ٢٤٦) والصداقة (ص ٢٤٧ - ٢٤٩) .

أما بطليموس ، فقد عرَّف الإنسان العاقل ، وبيَّن العلاقة بين العقل والنفس ، وفائدة التفكير ويمكن إجمالها في دراسة القدرات العقلية (ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩) . كما أضاف لها حديثًا عن وظيفة معرفية أخرى هي التذكر (ص ٢٥٥) وذكر بعض الأخلاق الحسنة ، والأخلاق السيئة (وتدخل إما في أصول التنشئة ، أو سمات الشخصية (ص ٢٥٢ - ٢٥٦) ، وحدد أهم سمات الصديق موضوع الصداقة (ص ٢٥٤) ، وأهمية الأمن للإنسان (وهو من الدوافع التي يصنفها البعض باعتبارها دوافع اجتماعية (ص ٢٥٤) ، وأهمية الأمن للإنسان النصيحة والمشورة وممن تطلب (مما يدخل في باب الإرشاد النفسي (ص ٢٥٨) وأخيرًا الهم باعتباره من أمراض الروح أو إن شئت قلت النفس ، وهو يقابل - بشكل غير مباشر - أحد الأمراض النفسية هو الاكتئاب التفاعلي Reactive Depression - كما يرى البعض (ص ٢٥٣ - ٢٥٦) .

ومن آداب لقمان الحكيم الكثيرة ، ومواعظه النافعة ، نستخلص حديثًا عن بعض سمات الشخصية التي تدل على العلم والحكمة (ص ٢٦٥ - ٢٧٩) والخصال العقلية (ص ٢٧١ ، ٢٧٢) والتفكير والفهم (قدرات عقلية ص ٢٧٧ ، ٢٧٨) ، وحسن التخاطب (ص ٢٦٩ - ٢٧٥) والانفعالات كالحب والبغض ، والغضب (ص ٢٧١ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧) ، وقبول النصيحة والإرشاد (ص ٢٧٠ - ٢٧٨) والصداقة (ص ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨) وأخيرًا خصال الرئيس أو القائد وينتمي ذلك لموضوع القيادة (ص ٢٧٩) وعملية التقويم (ص ٢٧٩) .

وأمكننا أن نستخلص من حكم مهادرجيس وآدابه ، ما يمكن أن نجمله في ثلاثة موضوعات تنتمي لدراسات علم النفس الحديث هي الانفعالات كالغضب ، والمحبة (ص ٢٨١ ، ٢٨٢) وإشباع الدوافع والسيطرة عليها (ص ٢٨٢ ، ٢٨٣) وخصال الشخصية كضبط النفس ، والأمانة ، والشكر (ص ٢٨١ - ٢٨٣) .

وإذا انتقلنا إلى باسيليوس الحكيم ، نجده قد تعرض لحسن التخاطب وأصوله (ص ٢٨٣) ، كما تحدث عن أفعال النفس ، وعلاقتها بالبدن وضرورة العناية بأشرفها (أي العقل ، (ص ٢٨٤) وينصحنا بضرورة استشارة من يسميه طبيب النفس حتى في حالة الصحة (ص ٢٨٤ ، ٢٨٥) ، ثم يذكر الحواس النفسانية ويقصد بها الإدراك عن طريق البصيرة أو القوى الروحية في الإنسان (ص٢٨٦) ، وكيف يمكن للإنسان أن يتحكم في الغضب (٢٨٦) ، أما غريغوريوس ، فقد تكلم في اللاهوت ، وما ذكر عنه مختصر جدًّا وتعرض لموضوع واحد هو الصداقة (ص ٢٨٧) .

وآخر هؤلاء الحكماء هو جالينوس الحكيم ، الذي ركز على قيمة العلم والعمل به ، وحدد أمراض القلب وهي الهم والغم (ويمكن أن تماثل ما نسميه الأمراض النفسية وأعراضها كالاكتئاب (ص ٢٩٣) .

ثم تعرض لبعض أنواع الانفعالات وخاصة الحب ودرجاته (ص ٢٩٤) ، ولفت الأنظار إلى ضرورة إصلاح الأخلاق والمعرفة بالنفس (ص ٢٩٥) ، وأخيرًا قسم قوى الدماغ إلى ثلاث : التخيل : وهو مقدم الدماغ ، والفكر : وهو في وسطه ، والذكر : وهو في مؤخره ، وهذا الحديث يقابل الكلام عن القدرات العقلية ، وتحديد مواضعها في المخ مما يدرس في علم النفس العصبي Neuro Psychology (ص ٢٩٤) .

ونصل إلى الباب قبل الأخير ، وهو باب جامع لأقوال جماعة من الحكماء عرفت أسماؤهم ولم يوجد لكل واحد منهم ما يصلح أن يفرد له باب يجمعه في موضع واحد ، وأول النصائح : أن نترك الاستحياء في التعليم (ص ٢٩٨) ، وأن نضبط أنفسنا ، من خلال التحكم في ألسنتنا ، وضبط شهواتنا (ص ٢٩٩ - ٣٠٥) . كما تعرض هؤلاء الحكماء لبعض أنواع الانفعالات كالمحبة (ص ٣٠١) ، والغضب (ص ٣٢١ - ٣٢٢) ومن الوظائف المعرفية التي ورد بشأنها أقوال في هذا الباب التذكر والنسيان أو الذاكرة Memory (ص ٣٠٢ ، ٣٠٣) ، وكذلك بعض خصال الشخصية كالاندفاعية (العجلة) Impulsivity ، أو كخاصية من خصائص الأسلوب المعرفي أو للأداء بصفة عامة (ص ٣٠٣) ، ثم هناك إشارة إلى ما يفسد الفكر وأهمية الشراب (الخمور) كما أن له مضارًّا أخرى (ص ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٢١) . كما جاء ذكر بعض مبادئ التعلم كالمكافأة (ص ٣٠٥) ، والاعتبار بالغير (ص ٣٠١) .

ونصل للباب الأخير ، وهو عن آداب لم يعرف قائلها فجمعت في موضع واحد .

وورد فيها حديث عن فائدة العلم وقيمة الأدب . وكيف نحسن التخاطب (ص ٣٢٣) وأن نقتدي بالعلماء (ص ٣٢٣) وبيان في العقل وماهيته (ص ٣٢٥ - ٣٣٢) ، وبعض أنواع الانفعالات كالمحبة (ص ٣٢٨) والفرح والحزن (ص ٣٣٢ - ٣٣٣) ، والغضب (ص ٣٣٩) وكذلك الذكاء (ص ٣٢٨) وبعض سمات الشخصية كضبط النفس (ص ٣٣٤ ، ٣٣٦) وضبط اللسان (ص ٣٣٧) ، والرضا عن النفس ، والتأني والتواضع (ص ٣٣٥) وبعض اضطرابات الإدراك كالخداعات Illusions (ص ٣٢٨) وأخيرًا طلب المشورة والنصيحة (ص ٣٤٦) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام .

* * *

المرادي الحضرمي ، أبو بكر (ت ٤٨٩هـ)
السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة [(١)]

عرض : د. جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف :

هو أبو بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي ، ويذكر المحقق في مقدمته التي كتبها ، أنه لا يعرف الكثير عن أسرته ولا عن نشأته - وإن كان يرجح أن أصله من القيروان ، ويثبت هذا كلمة القروي المنسوبة إليه ، كما أن ابن الأباد أرخ لابن علي ، وذكر أن أصله من القيروان (كما أننا لم نعثر على ترجمة بقاموس تراجم الأعلام لخير الدين الزركلي ، وهو قاموس جامع لعدد كبير جدًّا من الأعلام) وكان الحضرمي - فيما روي - رجلًا نابهًا وعالمًا وإمامًا في أصول الدين . وله توجهه في علم الاعتقادات والأصول ومشاركة في الأدب وقرض الشعر ، وكان ذا حظ وافر في البلاغة والفصاحة ، أي أنه كان يتقن علوم اللغة إتقانًا كاملًا ، وكان عالمًا بالفقه ، وقد أهله ذلك لتولي منصب القضاء ، وعلى يديه ازدهر علم الكلام في المغرب الأقصى .

انتقل المرادي إلى الصحراء وعاش فيها فترات طويلة ، ويحكى أنه قام برحلة إلى قرطبة سنة ٤٨٧ هجرية ، ثم عاد إلى الصحراء حيث توفي في مدينة « أذكى » سنة ٤٨٧ هجرية وترك مدرسة علمية في المغرب ، وله ابن من كبار علماء المسلمين في علم الكلام ، والحديث ، وهو أبو الحسن علي بن محمد بن الحسن لمرادي الحضرمي ، المعروف باسم المرادي .

---

(١) لأبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي ، تحقيق سامي النشار ، ط. ١٠ ، الدار البيضاء ، دار الثقافة ، (١٩٨١م) .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٧٨ صفحة من القطع المتوسط ، ويشتمل على مقدمة للمحقق ، وصور المخطوطات الأصلية للكتاب ، ومقدمة المؤلف ، وبعد ذلك أبواب الكتاب وعددها ثلاثون ، وفي نهاية الكتاب توجد مجموعة من الملاحق ، وفيها ملحق عن حياة المرادي من الذخيرة لابن بسام ، وملحق عن حياة تلميذ المرادي يوسف بن موسى الكلبي ، وملحق عن ضريح محمد بن الحسن المرادي ، ومصادر مقدمة المحقق ، والمصادر التي اعتمد عليها المحقق ، وأسماء الكتب الواردة في نص الكتاب ، وأسماء الأعلام الواردة في نص الكتاب .

وينقسم الكتاب - كما سبق أن أشرنا - إلى ثلاثين بابًا ، وسوف نتعرض لما كان منها متصلًا بدراسات علم النفس ، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر .

فإذا بدأنا بالباب الأول : نجده في الحض على القراءة والتعلم ؛ فالعقل كما ذهب الحكماء ، هو الذي يميز بين الإنسان والبهائم ، كما أن العلم هو الذي يفرق بين الشريف والخسيس من البشر ، وبالتالي فالعقل المتعلم خير من العقل غير المتعلم ؛ لذا وجب التعلم ، والحرص عليه ؛ لأنه يعين على الفهم ، ويبلغ السرور (ونجده هنا يتعرض لثلاثة مفاهيم مما يدرس في علم النفس الحديث أولها العقل) ، ولدراسته في علم النفس وجوه متعددة كدراسة ارتقائه ، وكشف قدراته وقياسها ، والكشف عن اضطراب هذه القدرات وكيفية تقويمها وتنميتها . والثاني : هو الفهم Comprehension ويدرس أيضًا من زاويتين إما باعتباره قدرة نوعية من قدرات الذكاء ، والتفكير أو عندما يدرس في مجال سيكولوجية اللغة ، وكيف تفهم Language Comprehension . والثالث : هو مفهوم التعلم Learning وهو مجال مستقل نسبيًّا من مجالات علم النفس ، وله نظريات ومناحٍ وتجارب عديدة ، وقوانين مشهورة وُظِّفَت في مجالات تطبيقية عديدة ، كالتربية ، والعلاج السلوكي ، والصناعة وغيرها (ص ٥٧ ، ٥٨) وفي الباب الثاني يستمر في تعميق معنى العقل والتفهم وفوائدهما للبشر (ص ٥٩ ، ٦٠) .

وينتقل بنا لموضوع آخر في الباب الثالث ، فيحدثنا عن الاستشارة وصفة المستشار . فالاستشارة - في رأيه - تفيد المستشير عقلًا يزيده إلى عقله ، وهداية يجمعها مع هدايته . وللاستشارة أربعة أوجه : التقصير عن معرفة التدبير ، والخوف من الغلط في التقدير ، ومحاولة تبين الخطأ من الصواب ، والحصول على مشاركة المستشار ، ومن هنا

وجب انتقاء المستشار من حيث توافر خصائص معينة فيه كأن يكون عاملًا فطنًا ، محبًّا صافيًا ، كاتمًا للسر ، أمينًا ، غير حاسد ... إلخ ، (وهذا الباب يتناول موضوعًا من موضوعات علم النفس ، ألا وهو الإرشاد النفسي Counseling أو الاستشارة النفسية وهو أحد الفروع المستقلة ، وله نظريات كثيرة ، ومناهج لتقديم النصح والإرشاد لمن يطلب هذه الخدمة لتخليصه من المعاناة النفسية (ص ٦١ - ٦٦) . كما يمس موضوعًا آخر في ثنايا الحديث ألا وهو موضوع الاختبار Testing (أو التثبت من خلال التجربة) ، والاختبار أو القياس بصفة عامة أحد الأعمدة التي يقوم عليها علم النفس العلمي في كافة الفروع (ص ٦٢) .

ويوصي المرادي الحضرمي - في الباب الرابع - بالاعتدال في جميع الأحوال سواء في المطعم أو في المشرب أو الملبس أو المنكح ، أو النوم أو اليقظة ، أو التعب أو الراحة ، ثم يصف بعد ذلك الأحوال والصفات التي ينبغي أن يبحث عنها الإنسان لإشباع حاجاته السابقة (وكأنه هنا يحدثنا عن إشباع الدوافع ، وهو موضوع من موضوعات علم النفس العام (ص ٦٧ ، ٦٨) ، كما يلفت النظر أيضًا لتصنيف العلوم وفوائدها (ص٦٩) ويقدم أيضًا عددًا من الصفات التي يجب أن نتحلى بها مع المتوسط منها وعدم الإسراف ، وأهمها عدم الانقباض عن الناس تمامًا ، وعدم الانبساط إليهم كل الانبساط (وبُعد الانطواء - الانبساط Extraversion-Introversion من أبعاد الشخصية الأساسية في نظرية إيزنك Eysenck والتي تلقى رواجًا كبيرًا منذ ظهورها (ص ٧٠) . ومن خلال وصفه لهذه الصفات ، ينهانا عن الانشغال بأمور كثيرة وغير مهمة في ذات الوقت ؛ لأن ذلك يشغل عن اللذات ، ويقطع الراحات (والمتأمل لهذا الوصف يستنتج مقابلته لما يسميه العلماء في الوقت الحاضر بالنمط « أ » من السلوك « A » Type Behavior وهو نوع من البشر ذي خصائص معينة ؛ أهمها الانشغال بعدة أمور في وقت واحد ، وعدم الراحة مما يجعلهم عرضة للمشقة Stress والأمراض الحادة والمزمنة (ص ٧٠) .

والباب الخامس ، في الفرار من سوء العادة ورياضة النفس قبل الحاجة ، فالعادة طبيعة خامسة ، وهي - كما يرى - تسهل الأمور الصعبة ، وتصعب الأمور السهلة ، والعادة السوء إذا استحكمت تكون كالطبع الرديء في الثوب الجديد ، إذا أصابه الوسخ ، وربما سهل إزالة الوسخ واستحال تغيير العادة السيئة ، والتحرز من سوء العادة يكون بوجهين : أحدهما : التدريب على العادة الجميلة قبل اتخاذ القبيحة في سن الحداثة . وإن كان في

السن بقية ، والعادة السوء غير مستحكمة فهنا يرجى الصلاح بالانتقال عنها بالتدريج وهو هنا يقدم لنا درسًا مبكرًا في كيفية تغيير الاتجاهات Attitude Change ، وتعديل السلوك غير السوي أو غير المرغوب كالتدخين مثلًا Behavior Modification كما أن مبدأ الانتقال بالتدريج يقابل أحد طرق العلاج السلوكي Behavior Therapy وهو التحصين التدريجي أو التسكين المنظم Systematic Desensitization (ص ٧١ - ٨٢) ، والثاني : أن يروض المرء نفسه عليها لو نزلت به ؛ لأن ذلك يعين على الدربة ، ويشحذ خواطر قبل الحاجة (وهو هنا يقدم أحد الأساليب التي يدعو إليها علماء النفس المحدثون للتعامل مع المشقة Stress ألا وهو توقع المشقة والتعرف على جوانبها قبل حدوثها ؛ لأن ذلك يقلل من آثارها إذا حدثت بالفعل (ص ٧٥) .

ونأتي إلى الباب السادس ، وهو من الأبواب المهمة ، وهو مخصص للخلطاء ، والأصحاب ، ويحدد فيه الصديق السوء وصفاته كدناءة الطبع ، وسوء اللفظ ، وفساد الأدب ، وإذاعة السر ، وإظهار النقص ، وقلة الدين ، والجبن ، وفي مقابل ذلك يقدم الصديق الفاضل ونفعه وصفاته كالعلم ، والوقار ، والرأي السديد ، والحلم ، والمعاونة على الشدائد ، والكرم وغير ذلك (وهو في ذلك يسوق لنا كلامًا يجد صدى في دراسات علم النفس ، سواء في مجال سمات الشخصية أو الصداقة Friendship والتي تدرس تحت المهارات الاجتماعية Social Skills في علم النفس الاجتماعي (ص ٧٧ ، ٧٨) . كما يتحدث أيضًا في هذا الباب عن أشكال الانفعال كالفرح ، والحزن وهي أيضًا من الموضوعات المطروقة في علم النفس (ص ٨٠) ، أما في الأبواب السابع ، والثامن ، والتاسع ، فيمضي على نفس المنوال ليحدد صفات الأعوان والمساعدين ، وكيفية التعامل مع بقية الناس .

وإذا انتقلنا إلى الباب الرابع عشر ، وهو في أقسام الناس وما تقابل به طبقاتهم ، نجده ينقل عن العلماء المتقدمين تقسيمهم للناس على ثلاثة أجناس : كريم فاضل ، ولئيم سافل ، ومتوسط بينهما ، والناس طبقات في الطباع والأخلاق ، ومذاهبهم شتى في جميع الأحوال (ونلمح هنا نقطتين مهمتين ؛ هما تقسيم الناس على أساس سمات شخصياتهم ، ثم إرساء مبدأ الفروق الفردية Individual Differences ، وهما من النقاط التي تجد عناية من علماء النفس (ص ١١٣ ، ١١٤) .

ويسوق في الباب الخامس عشر الأدلة التي يستدل بها على أهل الفضل والنقيصة والتوسط ، وهم أصناف الناس الذين قسمهم العلماء ، ويرى أن الناس ضربان : منهم

معروف الأصل والأبوة والمنشأ والمروءة ، ومنهم طارئ غير معروف الأصل ، فإذا أشكل على المرء معرفة عقل الرجل يجب أن يشاوره (أو قل يمتحنه) في أمر مهم لم ينزل بعد ، والمرء ليس في حاجة إليه ، أما إذا أشكل عليه كريم الطباع وجب اختباره بلطف المرء ولحظه (أو ملاحظته) (والحضرمي هنا يقدم لنا طرقًا مبكرة لقياس الذكاء واختباره ، وكذلك قياس الشخصية ، والمناهج التي يمكن استخدامها في هذا الغرض ، وهي من الموضوعات الحيوية في القياس النفسي Psychometry (ص ١١٧ ، ١١٨) .

وفي حديثه عن الكلام والصمت ، في الباب السادس عشر ، يقدم المؤلف دروسًا قيمة في كيفية التخاطب وإجادته ، وكيفية إنتاج الكلام الحسن ، السهل ، البسيط ، المنتقى بعناية مع البعد عن الحشو الذي لا يفيد شيئًا ، مع مراعاة الآداب العامة ، والذوق السليم أثناء التخاطب ؛ وأهمها حسن الاستماع ، وعدم المقاطعة ، وعدم الهزل (ويجد علماء النفس في هذا الباب موضوعات مهمة مما يعنيهم وأولها التخاطب Communication وأهم عناصره وهي المرسل (المتكلم) والمستقبل أو المتلقي (المستمع) ، والرسالة أو ما يرغب في نقله للآخرين ، والوسيلة (وأهمها اللغة) ، هذا بالإضافة إلى نقاط تهم على وجه الخصوص علماء النفس المعنيين بسيكولوجية اللغة Psycholinguistics وخاصة ما يعرف بالحشو Redundancy وهي ظاهرة بدأ الاهتمام بها في الوقت الحاضر (ص ١١٩ - ١٢٢) .

ثم يخصص الباب السابع عشر للحديث عن الحلم والصبر : فالصبر محمود عند الحكماء ، وهو نوعان صبر على ما نكرهه ، وصبر على ما نحبه ، أما الحلم فهو الصبر على مكافأة الظالم والسفيه مع القدرة على الانتصار عليه (وهاتان الصفتان - في رأينا - تقابلان سمتين من سمات الشخصية التي درسها علماء النفس ، فالصبر في أحد معانيه - وهو الصبر على أداء نشاط معين حتى يتحقق الهدف المطلوب - يقابل مفهوم المثابرة في دراسات علم النفس الحديث ، أما السمة الثانية التي نقصدها ، والتي تقابل الحلم فهي سمة ضبط النفس Self-Control (ص ١٢٣ ، ١٢٤) .

وننتقل إلى الباب التاسع عشر ، الذي يحدثنا فيه المؤلف عن الغضب والرضا ، وهو يرى أن الحب والبغض والغضب والرضا يَعْدِلْنَ بالفكر عن الإصابة ، ويُصَوِّرْنَ الأشياء على غير الحقيقة ، ولكل واحد منها صورة ينفى معها السقط ، ويخشى منها التناقض والغلط (والموضوعات التي يحدثنا عنها المؤلف هنا تدرس في علم النفس العام تحت مسمى الانفعالات Emotions ، كذلك فإن أحد معاني الرضا - وهو الرضا عن

العمل Job Satisfaction – من المفاهيم كثيرة الاستخدام في علم النفس الصناعي Industrial Psychology (ص ١٢٩ ، ١٣٠) .

وبداية من الباب العشرين يقدم « المرادي الحضرمي » أبعادًا عريضة ، أو سمات نوعية من سمات الشخصية أفرد لكل واحدة منها بابًا مستقلًّا .

في الباب العشرين يحدثنا عن التجبر – الخضوع (ودرس في علم النفس باسم السيطرة – الخضوع إما كبعد من أبعاد الشخصية أو أسلوب من أساليب التنشئة الاجتماعية Socialization (ص ١٣١) .

ثم ينتقل إلى الباب الحادي والعشرين ، ليتحدث عن الحزم والتفريط ، فيعرف الحزم بأنه النظر في الأمور قبل نولها ، وتوقي المهالك قبل الوقوع فيها ، وتدبير الأمور على أحسن ما يكون من وجوهها (وهذا الوصف – كما سبق أن أشرنا في موضوع سابق – يؤكده علماء النفس المحدثون باعتباره وسيلة للتقليل من وقع المشقة Stress على الشخص إذا ما استعد لها قبل حدوثها . كما أنه يقدم بعض السمات الشخصية التي ينبغي أن يتحلى بها الشخص ويوظفها لصالحه ، وهو يذكر كذلك في ثنايا حديثه مفهومًا من مفاهيم علم النفس هو التيقظ Vigilance والذي درس في علم النفس الفسيولوجي أو إطار موضوع الانتباه والإدراك (ص ١٣٠) .

ويستمر بعد ذلك في تقديم عدد آخر من هذه السمات ، كالكتمان والإذاعة ، وهي من الصفات التي ينبغي أن تتوفر في الصديق الحق (وهو هنا يعود لموضوع الصداقة والصديق ، وهو موضوع من موضوعات علم النفس الاجتماعي (ص ١٣٩) .

ويخصص الباب الثالث والعشرين للحديث عن العجلة والتواني والتوسط ، فالعجلة مذمومة من زاويتين ، وممدوحة من زاويتين ، والزاوية الأولى المذمومة : هي العجلة في الأمور قبل تأملها وتدبرها ، والثانية : هي طلب الشيء قبل أوانه ، والزاوية الأولى الممدوحة : هي انتهاز الفرص بعد إحكام المعرفة ، والثانية : العجلة التي هي ضد التواني المذموم ، أي ترك الأمور إلى آخر أوقاتها (وهو هنا يقدم لنا وصفًا لأحد أبعاد ما يسمى بالأسلوب المعرفي Cognitive Style أو كخاصية من خصائص الأداء بصفة عامة وهو بعد الاندفاعية – التروي Impulsivity-Reflectiveness (ص ١٤١ ، ١٤٢) .

وفي إطار الحديث عما يمكن أن نسميه إطار الشخصية ، يقدم المؤلف في الأبواب التالية عددًا منها ، فيتحدث عن الكرم والبخل في الباب الربع والعشرين (ص ١٤٣)

وعن الشجاعة والجبن في الباب الخامس والعشرين (ص ١٤٧) ، وفي الباب السابع والعشرين ، يفصل القول عن التعجب والمواصلة (وهنا يضيف إلى سمات الشخصية ، ما يمكن أن يدخل تحت باب الانفعالات ، وهو ما يدرس في علم النفس العام (ص ١٥٣) وفي البابين الثامن والعشرين والتاسع والعشرين ، يتحدث عن الحيلة والمكر والخديعة (ص ١٥٥) ، وعن التداهي والتغافل (ص ١٥٧) وهو يظهر قيمة العقل ، وما للحيلة من فوائد ، ويرى أنها أكثر من أن تحصى ، وهي مواد للعقل ونتائج الفكر والتجارب (وغني عن البيان أن موضوع العقل ، أو التفكير من الموضوعات الأساسية في علم النفس قديمه وحديثه ، هذا بالإضافة إلى التجربة وهي من أعمدة التقدم في علم النفس الحديث) .

وينهي الحضرمي كتابه القيم بالباب الثلاثين ، فيقدم فيه فنونًا من الحكم والآداب ؛ فالأدب : من أكرم الجواهر طبيعة ، وأنفسها قيمة ، وبه ترتفع الأنساب الوضيعة ، وتقاد الرغائب الجليلة ، وهو المؤنس في الوحشة ، والصاحب في الغربة ، والمجمل في المغيب والحضرة . وأدب النفس أصل أدب الدرس ، فلا ينمي الشيء دون مادته ، ولا يطول الفرع إلا بأصله . (وهذا الختام إنما يمثل دروسًا قيمة في أصول التربية والتنشئة ، وفيها ما ينبغي للمرء أن يتحلى به ، وأن يغرسه في أبنائه وتلاميذه من بعده ، والتنشئة الاجتماعية أحد الموضوعات المهمة في علم النفس الاجتماعي (ص ١٥٩ - ١٦١) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام ، وعلم النفس الاجتماعي .

* * *

السراج ، جعفر بن أحمد (ت ٥٠٠ هـ)
مصارع العشاق [١]

عرض : د. عبد المنعم شحاته

التعريف بالمؤلف [٢] :

جعفر بن أحمد بن الحسن السراج ، الملقب بـ « القارئ » والمكنى بـ « أبي محمد » ، ولد في بغداد عام (٤١٩هـ ، ١٠٢٦م) ، وتوفي بها عام (٥٠٠هـ ، ١١٠٦م) ، كان شاعرًا وراويًا ، وقد وضع عدة تصانيف .

عرض الكتاب :

ديشتمل الكتاب على روايات عن عشاق صرعهم الحب ، منهم من كان عشقه معتادًا أو طبيعيًّا كعشق الرجل امرأة أو جارية ، ومنهم من كان عشقه شاذًّا أو غير سوي Abnormal كعشق الرجل لغلام أو رجل مثله (انظر الروايات التي أوردها أبو محمد القارئ في الصفحات ٢٤٢ ، ٢٤٥ من الجزء الأول ، ١٦٢ ، ٢٢٣ ، ١٥٨ من الجزء الثاني) ، ومنها ما هو غير معقول أو غير واقعي (كالروايات التي أوردها في الصفحات ٨٥ - ٨٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ من الجزء الأول ، وغيرها من روايات العشق التي أبطالها الجن) .

وتتميز الروايات بأنها مسندة إسنادًا جيدًا ، ويكثر فيها الاستشهاد بالشعر ، كما أنها في مجملها تشير إلى عشق عفيف ، يظله الخوف من اللّٰه ومن عذابه في الآخرة ، أو يتبعه توبة نصوح .

---

(١) أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسين ، السراج القارئ ، بيروت ، دار صادر (د.ت) .
(٢) مصارع العشاق ، جعفر بن أحمد ، (١/٥) .

والكتاب بهذه الصورة لا يشتمل على مفاهيم أو تفسيرات يمكن إدراجها في علم النفس المعاصر ، إلا أنه بالإمكان الإشارة إلى ظواهر نفسية ، كان الشعراء المروي عنهم في هذا الكتاب يدركونها ، وعلى استبصار جيد بها ، كما يستدل من تعبيراتهم التي تعد إرهاصات للتفسيرات اللاحقة لهذه الظواهر ، والتي منها :

الظاهرة الأولى والشائعة عبر دفتي الكتاب بجزئيه : هي أن الحب يحدث مرض وسقم الجسم ونحوله وذبوله ، ولا تخلو رواية وردت في الكتاب من هذه العلاقة بين الحب والسقم ، ففي ص ٦٢ من الجزء الأول يقول الشاعر :

ظفر الشوق بقلب دَنِف منك السقم بجسم ناحل
فهما بين اكتئاب وضنى تركاني كالقضيب الذابل

وفي ص ١٧٦ يقول آخر :

ونفس محب اللّه عليلة وأي محب لا تراه عليلاً

وفي ص ٢٦٥ يقول ثالث :

ضاعف وجدي وزاد سقمي أن لست أشكو الهوى إلى أحد

وفي ص ٧٤ من الجزء الثاني يقول رابع :

الحب أسقمني والحب أضناني والحب أنحلني والحب أبلاني

وفي ص ٢٦١ من الجزء الثاني يقول خامس :

أليس شوقي وفيض دمعي وضعف جسمي شهود حبي

هذه بعض الأبيات التي نوردها على سبيل المثال - لا الحصر - عن تبين إدراك العرب لعلاقة الانفعال (الحب) بالجسم (النحول والمرض) والتي تعد إرهاصًا بفئة أساسية في أية دليل تشخيص للأمراض النفسية هي فئة الأمراض النفسجسمية التي تعد نتيجة للقلق والاكتئاب أو كما يقول الشاعر :

فهما بين اكتئاب وضنى تركاني كالقضيب الذابل

ويؤدي التحكم الزائد في الانفعالات ، وعدم التعبير اللفظي عنها إلى إجهاد الجهاز العصبي ، مما يؤثر على إفراز الغدد الصماء ، مما يحدث تغييرات فسيولوجية عدة تصاحب الانفعال ، وكل هذا يسبب نحول الجسم وإرهاقه ، ولعلنا نذكر قول الشاعر :

وزاد نحول سقمي أن لست أشكو الهوى إلى أحد

ويصل السقم - في كثير من الروايات - إلى الموت أو الجنون ، وهذا يمكن قبوله إذا عرفنا أن الحب عند العرب يرادف الإحباط ، فالمحب لا ينال حبيبته أبدًا ، لا بالزواج لأنه قد شهر بها ، ولا دون زواج لأنه يخاف اللَّه وعذابه ، فيحزن المحب لفقد حبيبته ، وقد يصل الحزن إلى الاكتئاب الذي يفضي إلى العزلة والزهد والانطواء وربما الموت .

وتترجم تعريفات العرب للحب والعشق هذه الظاهرة ، فالعشق كما يقول يحيى بن أكثم - (ص ١١) من الجزء الأول - : « سوانح تسنح للمرء فيهتم بها قلبه ، وتؤثرها نفسه » ، أو كما يقول ثمامة : « العشق جليس ممتع أليف مؤنس وصاحب ملك مسالكه لطيفة ، ومذاهبه غامضة ، وأحكامه جائرة ، مَلَك الأبدان وأرواحها ، والقلوب وخواطرها ، والعيون ونواظرها ، والعقول وآراءها ، وأُعطي عنان طاعتها ، توارى عن الأبصار مدخله ، وعُمِّي في القلوب مسلكه » ، أي أن العشق يتضمن « تركيز مشاعر الفرد في المحب ، وتوجيه نشاطه نحو التقرب منه ويؤدي هذا التركيز إلى إدراك متحيز ، أو بالأحرى تشويه إدراكي ، يعبر عنه وصف الأصمعي - ص ٣١ من الجزء الثاني - للعشق بـ : « أن يكون ريح البصل منها أطيب من ريح المسك والعنبر » وهو يرادف ظاهرة نفسية معروفة فنحن غالبًا ما نعزو كثيرًا من الخصال المرغوبة الجذابة إلى من نحبهم ؛ وذلك لأننا ندرك الحبيب بعين خاصة وصفها الشاعر في ص ٣٦ من الجزء الأول كما يلي :

يراك الفؤاد بعين الهوى وعين المحبة لا تخلف

وترجمها شاعر آخر بقوله :

عين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

وتشير الرواية التي أوردها القارئ في الصفحات ٢١ - ٢٣ من الجزء الثاني ، إلى إدراك الدوافع Motives وأهميتها في توجيه السلوك ، ووعي المتقدمين بهذا الدور للدوافع ، فقد أراد « بهرم جور » إعداد ابنه لتولي مسؤولية الملك بعده ، لكنه وجده خاملًا لا يستجيب لأساتذته ومؤدبيه ، وأدرك أنه عشق فتاة ، فدعا والدها وأمره بأن يأمر ابنته بإطماع ابن الملك في نفسها ومراسلته دون أن يراها ، وشجع المؤدب ابن الملك على مراسلتها ، فلما استحكم العشق فيه هجرته البنت ؛ لأنها لا تصلح إلا لملك ، فجد في طلب الحكمة والعلم والفروسية ....إلخ حتى مهر في كل ذلك فزوجه أبوه فتاته .

وهكذا أدرك الملك أهمية الحب كدافع يحث ابنه على أداء أعمال معينة يرغب منه

أداءها ، وتوصله إلى الحصول على حاجته أو الحبيبة .

وهذا الأسلوب له قيمته التربوية العظيمة واستخداماته المتعددة ، وهو مبدأ نفسي معاصر ، أي « الحاجة تخلق التوتر ، الذي يحث الفرد إلى خفضه من خلال إرضاء هذه الحاجة » .

ورد في صفحة ٨٣ من الجزء الأول قول الشاعر :

فإني رأيت الحب في الصدر والأذى   إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

وهو يشير إلى انفعالين متضادين لا يجتمعان في النفس معًا ، وهو مبدأ نفسي صحيح ، ويمكن الاعتماد على أحد الانفعالين لإبعاد الآخر ، كما يمكن الاعتماد على الانفعال المركز حول شخص لإبعاد التركيز حول شخص آخر ، أو كما قال الشاعر في (ص ٢٤٥) من الجزء الأول :

« تبدلت » « قسطًا » بعد « أروي » وحبها كذلك لعمري ، الحب يذهب بالحب .

ورد في صفحة ٨١ من الجزء الأول ، قول الشاعر : « وأدركها ضعف النساء فخرت » وهي تشير إلى الفروق بين النوعين « الرجال والنساء » في التأثر بالأحداث المختلفة ، وهذه الفروق جذبت انتباه الباحثين في مختلف موضوعات علم النفس لمزيد من التفصيل حول الفروق بين النوعين في القدرات المعرفية .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس العام .

* * *

الراغب الأصبهاني ، أبو الحسين (ت ٥٠٢هـ)
تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين [(١)]

عرض : د. عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف :

حياته : هناك غموض حول حياة الراغب الأصبهاني رغم مكانته العلمية وكثرة مؤلفاته وانتشارها ، وقد ترجم له كثير من مصنفي التراجم والطبقات ، ولكن ترجمته جاءت فقيرة فيما يتعلق بأحداث حياته ، كما جاءت متناقضة في بعض ما ذكرت من أحداث .

وقد جاء التناقض ابتداءً من ضبط اسمه ، فهو في بغية الوعاة للسيوطي « المفضل بن محمد » ، وفي فهرس الخزانة التيمورية « الحسين بن المفضل بن محمد » ، ولكن أغلب المصادر التي ترجمت له اتفقت على أنه : أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصبهاني ، الملقب بالراغب .

ولم تذكر المصادر تاريخ مولده ، إلا البيهقي في تاريخ الحكماء ، فقد ذكر تاريخًا موهومًا هو سنة (٤٩٩هـ) .

أما عن نشأته وحياته فلم تأت فيها مصادر ترجمته بشيء ، مما جعل الباحثين يلجأون إلى التخمين في ذلك ، فربما كان متنقلًا في حياته بين أصبهان وبغداد ، وربما كان مشتغلًا بالتدريس .

---

(١) للراغب الأصبهاني أبي القاسم الحسين بن محمد المفضل ، تقديم وتحقيق عبد المجيد النجار ، ط. ١ ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، (١٩٨٨م) ، (٢٣٣ ص) .

وفيما يتعلق بتاريخ وفاته ، وقع خلاف بين المترجمين له أيضًا ؛ فالسيوطي : يذكر أنه توفي في أوائل المائة الخامسة ، ولا شك أنه وهم ، والمقصود أوائل المائة السادسة ، وتشير أغلب الآراء أن وفاته كانت سنة ٥٠٢هـ .

أما فيما يتعلق بتوجهه المذهبي ، فيبدو أن الراغب كان شافعي المذهب في الفقه ، أما مذهبه العقائدي فاختلف مترجموه فيما إذا كان شيعيًا أو معتزليًا .

ثقافته ومكانته العلمية : للراغب مؤلفات عديدة متنوعة ، بعضها موجود وبعضها مفقود ، ومن كتبه الموجودة : الذريعة إلى مكارم الشريعة ، ومفردات ألفاظ القرآن ، وتفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ، ومقدمة التفسير ، أما مؤلفاته المفقودة ؛ فمنها : الأخلاق ، أفانين البلاغة ، وتحقيق البيان في تأويل القرآن ، وتفسير القرآن . وفي ضوء هذه المؤلفات يبدو أن الراغب توفر على ثقافة إسلامية متنوعة ، جمعت العلوم العقلية والعلوم النقلية إلى جانب علوم اللغة وفنون الحكمة ، وهذه العلوم المتنوعة التي برز فيها الراغب كان تنوعها سببًا في إكسابه عقلية واسعة نافذة ، تمكن بفضلها من حسن استخدام المعارف الحاصلة لديه في عرض آرائه . فكان يبدو في طرح قضاياه غير متعصب لمذهب معين ، بل مستفيدًا من سائر المذاهب مع نزعة سنية متفتحة .

وهذه الخصال الثقافية في تأليفه جعلته عالمًا مرموقًا في الوسط الفكري الإسلامي ، وجعلت تأليفه محل اهتمام واسع من قبل المسلمين ، فكان الإمام الغزالي معجبًا بكتابه الذريعة ، وكان يستصحبه معه دومًا ، وما ذكر أن الإمام الرازي كان يقرنه بالغزالي ، وقال عنه الذهبي : « إنه العلامة الماهر ، المحقق الماهر .... كان من أذكياء المتكلمين » .

عرض الكتاب :

ينقسم الكتاب إلى مقدمة وثلاثة وثلاثين بابًا ، انتظمت في ترتيب متصاعد منطقيًا ، بحيث يؤدي الواحد منها إلى الذي يليه بعده ، ابتداءً من أصناف الموجودات التي من بينها الإنسان ومرورًا بحقيقة الإنسان المادية والمعنوية ، وبغاية وجوده ، وبما يحقق تلك الغاية وانتهاءً بالموت وما يحصل بعده . ونعرض لأبواب هذا الكتاب على النحو التالي :

- **المقدمة والباب الأول : فضل معرفة الإنسان نفسه :**

أوضح المؤلف في مقدمة الكتاب ، والفصل الأول منه ، أن الناس كثيرًا ما يخطئون في تصور حقيقة الإنسان ، فيظنون أنه الصورة الحيوانية المخصوصة ، ويغفلون عن جوهر

الإنسان فيه ، وبالتالي يقعدون عن تحقيق ذلك الجوهر فلا يكونون إلا صورًا إنسانية دون حقيقة ، ولذلك فإن أول ما يجب على الإنسان في سبيل تحصيل السعادة الإنسانية ، أن يعرف حقيقة نفسه ، أي حقيقة الإنسان . وفي معرفة النفس فوائد كثيرة ؛ أحدها : أنه بواسطتها يتوصل إلى معرفة غيرها ، والثاني : أن نفس الإنسان مجمع الموجودات ، فمن عرفها عرف الموجودات ، والثالث : أن من عرف نفسه عرف العالم ، ومن عرفه صار في حكم المشاهد للَّه تعالى وهو يخلق السموات والأرض ، والرابع : أنه يعرف بمعرفة روحه العالم الروحاني وبقاءه ، والخامس : أن من عرف نفسه عرف أعداءه الكامنة فيها ، والسادس : أن من عرف نفسه عرف أنه يسومها ، والسابع : أن من عرفها لم يجد عيبًا في أحد إلا رآه موجودًا في ذاته ، والثامن : أن من عرف نفسه فقد عرف اللَّه .

ويرتبط ما ورد في هذا الباب بشكل غير مباشر بما يتبع أساليب العلاج والإرشاد النفسي ؛ حيث تسعى بعض أساليب الإرشاد إلى تنمية وعي الفرد وحل مشاكله عن طريق استبصاره بالمشكلة ، ومعرفته حدود إمكانياته (ص ٦١ - ٦٧) .

• **الباب الثاني : ذكر أصناف الموجودات وموضع الإنسان منها :**

في الوجود طرفان : إله خالق ، وموجودات مخلوقة ، والموجودات نوعان : معقولات علوية ومحسوسات سفلية ، والمعقولات العلوية هي العقول الشريفة ، والروحانيات ، والمحسوسات السفلية هي العناصر والجمادات والنباتات والحيوانات . والإنسان من بين هذه الموجودات ، ينتمي بجسمه إلى المحسوسات السفلية ، ولكن عقله منبعث إلى العقول العلوية .

وهو بذلك مكون من عنصر مادي وعنصر روحي ، وكماله لا يتم إلا بقوة العقل والفكر والمنطق .

• **الباب الثالث : ذكر العناصر التي منها أوجد الإنسان :**

ذكر اللَّه تعالى العناصر التي خلق منها آدم عليه السلام ، ونبه على أنه جعله إنسانًا في سبع درجات ، وأشار إلى ذلك في مواضع مختلفة ، فقال في موضع : (خلقه من تراب) إشارةً إلى المبدأ الأول ، وفي آخر : (من طين) ، إشارةً إلى الجمع بين التراب والماء ... قال تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [الرحمن : ١٤ ، ١٥] ، فنبه على أن الإنسان فيه من القوة الشيطانية بقدر ما في

الفخار من أثر النار ، أما الدرجات السبع لخلق الله آدم فتتلخص في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٢ - ١٤] .

ويرتبط مضمون هذا الفصل من ناحية بمفهوم الغريزة Instinct أحد المفاهيم الأساسية خاصة لدى المحللين النفسيين كفرويد Freud وماكدوجل ، كما يقترب أيضًا من علم النفس الارتقائي Developmental Psychology خاصة فيما يتعلق بنمو وارتقاء الجنين منذ لحظة الإخصاب ثم الميلاد ، وحتى نهاية العمر (ص ٧٢ - ٧٥) .

• الباب الرابع : ذكر قوى الأشياء التي جُمعت في الإنسان :

يجمع التركيب كل العناصر التي يتكون منها العالم ، البسيطة منها والمركبة ؛ ولذلك فإن الإنسان كالمختصر في العالم ، فهو صفوة العالم ولبابه وخلاصته وثمرته ، ومن ثَم قيل : الإنسان عالم صغير والعالم إنسان كبير .

• الباب الخامس : تكون الإنسان شيئًا فشيئًا حتى يصير إنسانًا كاملًا :

ولا يحصل الإنسان باجتماع هذه العناصر دفعة واحدة ، ولكنه يتكون بالتدرج ماديًّا بالنمو الذي تدفع إليه قوة الشهوة ، ومعنويًّا بالعلم والفضيلة ، وهو ما يحصل بقوة العقل ، إلا أن قوة الشهوة قد تكون عائقًا دون الاكتمال بالعلم والفضيلة .

• الباب السادس : ظهور الإنسان في شعار الموجودات ، وتخصصه بقوة شيء فشيء منها :

ولما كان الإنسان خلاصة لموجودات العالم ، فإن فيه قابلية لأن يأخذ من طبائع هذه الموجودات ، وربما تغلبت عليه بعض الطبائع فينحرف عن طبيعته الجامعة ، وإنما يكون إنسانًا إذا وضع كل واحد من هذه الطبائع في موضعه حسبما يقتضيه العقل المستضيء بالشرع .

• الباب السابع : ماهية الإنسان :

للإنسان ماهية خاصة هي التي كان بها إنسانًا ، وهي متكونة من صورته المحسوسة المتمثلة في صورته البدنية التي يتميز بها عن الحيوان ، ومن صورته المعقولة المتمثلة في العقل والفكر والروية .

• **الباب الثامن : كون الإنسان مستصلحًا للدارين :**

وهذه الماهية المزدوجة التي أُعد بها الإنسان ليكون صالحًا للحياة في الدارين : الدنيا والآخرة ، فعندما رشح اللَّه تعالى الإنسان لعبادته وخلافته وعمارة أرضه ، وهيأه لمجاورته في جنته ، اقتضت الحكمة أن يجمع له القوتين معًا في ماهيته ، القوة الحيوانية ، والقوة العقلية والروحية .

• **الباب التاسع : تمثيل ذات الإنسان وتصويره :**

ذكر الحكماء لذات الإنسان وقواها أمثالًا صوروها بها ، فقالوا : ذات الإنسان لما كان عالمًا صغيرًا - كما تقدم - جرى مجرى بلد أو مدينة أحكم بناؤها .

وتضمن الباب أيضًا الصفات التي يجب أن يتسم بها الوالي ، وهي : أن يتبع الحق ولا يصغي إلى الأشرار ، وأن يجاهد أعداء المسلمين ، كما يجب عليه أن يسالم أعاديه إذا لم يقو عليهم ، وأن يكون عادلًا .... إلخ .

ويرتبط هذا الباب بموضوع سيكولوجية القيادة Leadership أحد موضوعات علم النفس الاجتماعي Social Psychology ؛ حيث تضمن الإشارة إلى الصفات التي يجب توفرها في القائد أو الرئيس ، وهي قريبة الشبه إلى حدٍّ كبير بما نجده في نتائج البحوث والدراسات النفسية (ص ٩٢ - ٩٩) .

• **الباب العاشر : كون الإنسان هو المقصود من العالم وإيجاد ما عداه لأجله :**

إن وجود الإنسان هو الغاية من إيجاد العالم كله ، فالمقصود من العالم وإيجاده شيئًا فشيئًا ، هو أن يوجد الإنسان ؛ ولذلك كان كل شيء مسخرًا للإنسان ميسرًا لمنفعته .

ويرتبط هذا الباب بالدراسات النفسية على النحو الآتي :

أوضح هذا الباب قيمة الإنسان ومنزلته في الكون ، وهو أمر خصه القرآن الكريم بالبيان في مواضع كثيرة من التنويه بشأن الإنسان والإعلاء من منزلته بين الكائنات ، وهو جانب جاء في عملية تقدير الإنسان لذاته Self Estimation وتحقيق الذات Self Actualization فمن يستشعر تفاهة ذاته ، لا يكون له نزوع إلى الحركة الفعالة والأداء والإنجاز (ص ١٠٠ - ١٠٣) .

• الباب الحادي عشر : في الغرض الذي لأجله أُوجد الإنسان ، وفي منازل الناس :

الغاية من وجود الإنسان هو أن يعبد الله ويخلفه وينصره ويعمر أرضه ، وقد نبَّه الله ﷻ لذلك بآيات كثيرة في مواضع مختلفة حسبما اقتضت الحكمة ذكره ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

• الباب الثاني عشر : تفاوت الناس واختلافهم :

الإنسان الواحد لا توصل له إلى إعداد جميع ما يحتاج إليه ليعيش المعيشة الحميدة ، ويحقق بالتالي الخلافة ، فلم يكن بد للناس من المشاركة والتعاون ، وهذه الحياة الجماعية التي تتم بها الخلافة تقتضي أن لا يكون الأفراد طرازًا موحدًا ؛ لأن ذلك لا يحصل له بالتعاون ، فاقتضت الحكمة أن تختلف جثثهم وقواهم وهممهم ، فيكون كل ميسر لما خلق له .

ويرتبط هذا الباب ببعض الموضوعات والمفاهيم السيكولوجية ، فهو يرتبط بموضوع الفروق الفردية Individual Differences ، فهناك اختلاف بين الأفراد في الخصال والطباع وسمات شخصيتهم ، ومستواهم العقلي والاجتماعي والاقتصادي ..... إلخ ، كما يرتبط أيضًا بمفهوم النمط Type أحد المفاهيم الأساسية في نظريات الشخصية Personality Theories . وخاصة نظرية إيزنك Eysenk. H . وكذلك بموضوع سيكولوجية الجماعة والتعاون والمشاركة داخل الجماعة (ص ١١١ - ١٤٤) .

• الباب الثالث عشر : سبب تفاوت الناس :

وتتلخص في سبعة أشياء ؛ منها اختلاف الأمزجة ، واختلاف الخلقة ، واختلاف أحوال الوالدين في الصلاح والفساد ، واختلاف ما تتكون فيه النطفة ، واختلاف الطعام والشراب ، والرضاعة ، واختلاف أحوالهم في تأديب وتلقن وتعويد الأبناء العادات الحسنة والقبيحة أو اختلاف من يخالطه ، واختلاف اجتهاده في تزكية النفس بالعلم والعمل .

ويرتبط هذا الباب بموضوع الفروق الفردية وأسبابها ومظاهرها المختلفة ، مثل الفروق في الحالة الانفعالية والمزاجية ، والفروق في ظروف التنشئة الاجتماعية Socialization للأبناء ودورها ، إلى جانب العوامل الوراثية والبيولوجية في تشكيل سلوك الفرد ، كما يرتبط بموضوع التعلم الاجتماعي ودور العوامل البيولوجية في تشكيل سلوك الفرد ، كما يرتبط بموضوع التعلم الاجتماعي Social Learning وأثر القدوة Models الحسنة في تعلم العادات والقيم الإيجابية (ص ١١٥ - ١٢٠) .

• الباب الرابع عشر : بيان الشجرة النبوية وفضلها على جوهر سائر البرية :

الشجرة النبوية هي صنف مفرد ، أو نوع واقع بين الإنسان والملك ، ومشارك لكل واحد منها على وجه ، فالأنبياء كالملائكة في اطلاعهم على ملكوت السموات والأرض ، وكالبشر في أحوال المطعم والمشرب .

• الباب الخامس عشر : هداية الأشياء إلى مصالحها :

كل ما أوجده اللّه تعالى ، فإنه هداه لما فيه مصلحته ، فهدايته للجمادات مثلًا بالتسخير فقط ، وللملائكة بالتسخير والإلهام وببداهة العقل ، فأما الإنسان فهدايته تعالى له بكل ذلك وبالفعل والمعارف ، والاستنباط وغير ذلك من القدرات .

• الباب السادس عشر : سعادة الإنسان ونزوعه إليها :

للإنسان سعادات أبيحت له ، تتمثل في النعم التي منحها اللّه ﷻ له ، وتنقسم هذه النعم أو العادات إلى قسمين : قسم دائم لا يبيد ولا يحول وهو النعم الأخروية ، وقسم يبيد ويحول وهو النعم الدنيوية .

ويرتبط هذا الباب بموضوع الانفعالات ، وخاصة الشعور بالسعادة Happiness ، فالسعادة الدنيوية هي سعادة وسيلية Instrumental تؤدي إلى سعادة غائية End or Ultimate تتمثل في السعادة الأخروية (ص ١٢٨ - ١٣٤) .

• الباب السابع عشر : حال الإنسان في دنياه وما يحتاج أن يتزود منها :

جعل اللّه تعالى للإنسان حرثين مفيدين في الدارين ؛ أحدهما : روحاني كالمعارف والحكم والعبادات والأخلاق الحميدة ، وثمرته الحياة الأبدية والغنى الدائم ، والاستكثار منه محمود . والثاني : جسماني كالمال والأثاث ، وثمرته أن تحصل به الحياة الدنيوية الفانية ، ولا ينتفع منه بشيء إلا بقدر ما استعان به في الوصول إلى الزاد الأخروي .

• الباب الثامن عشر : تظاهر العقل والشرع وافتقاد أحدهما إلى الآخر :

العقل لا يهتدي إلا بالشرع ، والشرع لا يتبين إلا بالعقل ، فهناك علاقة متبادلة بينهما ، فلا يتم أحدهما دون الآخر ، والعقل لا يكاد يتوصل إلا إلى معرفة كليات الشيء دون جزئياته ، أما الشرع فيعرف كليات الشيء وجزئياته .

• الباب التاسع عشر : فضيلة الشرع :

فهو من ناحية : دواء معجون مفروغ عنه تولى اتخاذه من له الخلق والأمر ، وهو دواء مفيد للحياة الأبدية والسلامة الدائمة ، ومن ناحية : تعتبر أحكام الشرع أيضًا ماءً مطهرًا مزيلًا للأنجاس والأرجاس النفسانية ، ومن ناحية : هي نور سراج مزيل لظلمة الحيرة ، كما أنها وسيلة إلى الله تعالى .

• الباب العشرون : البيان في أن مَن لم يتخصص بالشرع وعبادة الله فليس بإنسان :

ويشير مضمونه إلى أن من لم يسترشد إلى غاية وجوده بالشرع المنبي على العقل ، لن يكمل ، بل لا يكون عقلًا إلا بعد اهتدائه بالشرع .

• الباب الحادي والعشرون : فيما يتعلق به الشرع من الأفعال :

للإنسان ضربان من الأقوال : ضرب لا يلحق فيه محمدة ولا مذمة ، ولا في جنسه تكليف (كالعرق والتنفس ، وما يقع على سبيل السهو والخطأ) ، وضرب يلحقه فيه المحمدة والمذمة ، وفي جنسه التكليف ، منها الأفعال المختصة بالجوارح (كالقيام والركوب والمشي) ، وحفظ عوارض النفس كالشهوة والخوف واللذة والغضب والغيرة وما أشبه ذلك . ومنها أيضًا ما يختص بالتمييز والعلم .

وهناك إشارة في هذا الفصل لأنماط الانفعالات Type of Emotions كالخوف ، والغضب ، والشعور باللذة ، والغيرة) (ص ١٥٤ - ١٥٦) .

• الباب الثاني والعشرون : تحقيق العبادة :

ويعرض المؤلف لتعريف العبادة على أنها فعل اختياري منافٍ للشهوات البدنية ، تصدر عن نية يراد بها التقرب إلى الله طاعة للشريعة .

• الباب الثالث والعشرون : أنواع العبادة من العلم والعمل :

العبادة ضربان لا تتحقق الخلافة إلا بهما : علم وعمل ، فالعلم ضربان : نظري : وهو الكافي بذاته ، كمعرفة الله ، وعملي : وهو ما لا يغني حتى يعمل به . أما العمل فثلاثة أضرب : ما يختص بالقلب ، وما يختص بالبدن ، وما يشارك فيه البدن والقلب .

وبالباب إشارة لبعض المفاهيم السيكولوجية ؛ مثل مفهوم التصورات Conecptions والمعتقدات Beliefs (ص ١٥٩ - ١٦٤) .

• الباب الرابع والعشرون : الغرض من العبادة : تطهير النفس واجتلاب صحتها :

أوضح المؤلف في فصل سابق أن غاية الوجود الإنساني هو العبادة ، وفي هذا الفصل بين أن غاية العبادة هي تطهير النفس لتحصيل حياة أبدية وسلامة باقية .

• الباب الخامس والعشرون : بيان الأمراض والأنجاس التي لا يمكن إزالتها إلا بالشرع :

هناك جملة من الأمراض التي تلحق بالإنسان ؛ كالكسل ، والجهل ، والظلم ، والشح وغيرها ، وهي أمراض معوقة لحركة تقدم الإنسان ، ولا يمكن إزالتها إلا بالتوجه إلى اللّٰه .

• الباب السادس والعشرون : في ذكر القوى التي يجب إزالة أمراضها وأنجاسها والمعاني التي تحصل بذلك :

وهي ثلاثة أنواع : قوة الشهوة ، وبإصلاحها تحصل العفة ، وقوة الحمية وبإصلاحها تحصل الشجاعة ، وقوة الفكر وبإصلاحه تحصل الحكمة .

ويرتبط ما ورد في هذا الباب ببعض أساليب التوجيه والإرشاد النفسي ، والتي تهدف إلى تغيير وتعديل السلوك ، وتنمية القيم والدوافع الإيجابية في الفرد (ص ١٧٣ ، ١٧٤) .

• الباب السابع والعشرون : كون الإنسان مفطورًا على إصلاح النفس :

فالإنسان مفطور في أصل الخلقة على أن يُصلح أفعاله وأخلاقه وعلى أن يفسدها ، وميسر له أن يسلك طريق الخير والشر .

ويرتبط هذا الباب بموضوع الدوافع والغرائز Motives & Instincts الفطرية ، كما يقترب من حديث علماء النفس عن أثر الوراثة والبيئة في تحديد وتشكيل سلوك الفرد (ص ١٧٥ - ١٧٧) .

• الباب الثامن والعشرون : سبب رذيلة الإنسان وتأخره عن الفضيلة :

إما أن يكون نقصًا في أصل خلقته ، وعجزًا مركبًا في جبلته ، أو لا يجد هاديًا يرشده ، وإما أن يكون غير عاجز عن ذلك ، لكن لم يساعده على بلوغه عمره ، وإما أن يتفق له مربٍ ومعلم مضل فيضله عن الطريق ، وإما أن تكون ضلالته من جهة نفسه لا من جهة شيء مما سبق . وذلك المتوعد بالعذاب .

• **الباب التاسع والعشرون : أحوال الناس ، ومنازلهم في تعاطي الأفعال المحمودة والمذمومة ، وطرقها :**

الناس في إقامة العبادات على أربعة أضرب ؛ الأول : من له العلم بما يجب أن يفعل ، وله مع ذلك قوة العزيمة على العمل به ، والثاني : من عدمها جميعًا ، والثالث : من له العلم وليس له قوة العزيمة على فعله ، وهو في مرتبة الجاهل ، والرابع : من ليس له علم ، لكن له قوة العزيمة .

• **الباب الثلاثون : ارتداد الإنسان من طريق الخير والشر :**

فالمطلوب من الإنسان أن يسلك ويغلب طريق الخير ، وله من العقل والإرادة ما يمكنه من ذلك ، فإن لم يفعل فهو ملوم ، والمتدرب في فعل الخير ، المتقوي فيه يصير بحيث يكون له من اللَّه تعالى واقية تحفظه من الأفعال القبيحة ، والمتدرب بفعل الشر ، المتقوي فيه يصير بحيث يكون له بما ارتكبه من القبائح باعث يبعثه على الأفعال القبيحة ، ويسد عليه طريق الأفعال الحسنة .

• **الباب الحادي والثلاثون : قدر ما في الوسع من اكتساب السعادات :**

يجب على الإنسان أن يجتهد في أداء ما أمكنه ، وتطهير نفسه بقدر ما تيسر له ، والرغبة إلى اللَّه في تكفير ما قصر فيه ، فإذا فعل ما أمكنه يكون قد ترشح أن يزيل اللَّه عنه باقي السيئات .

ويرتبط مضمون هذا الباب بموضوع العلاج السلوكي الحديث ؛ حيث يشير المؤلف إلى ما يطلق عليه « الإبدال » ، أي إحلال الأفعال والسلوكيات الذميمة بأخلاق وأفعال حميدة (ص ١٩٠ - ١٩٦) .

• **الباب الثاني والثلاثون : إثبات المعاد وفضيلة الموت وما يحصل بعده من السعادة :**

فمصير الإنسان بعد رحلة حياته يكون في حياة أخرى بعد هذه الحياة ، تشهد بأحقيتها شواهد العقل الملزمة بأن الإنسان في بديع تركيبه ، وتصاريف حياته لا بد أن يكون له مصير مخالف لمصير الحيوان ، وهو مصير الخلود ، ومصير الخلود يمر بالموت الذي هو نقطة الانتقال بين الحياتين ، وهو طريق لكمال الإنسان ، والسعادة الحقيقية لا تكون إلا بعده .

• **الباب الثالث والثلاثون : في فضيلة الإنسان إذا شرف على الملائكة :**

فإذا أدى الإنسان دوره في الحياة ، وحقق غاية وجوده ، فإنه يحظى بالنعيم الدائم ، ويكون قد حصل منزلة يفضل بها على كثير من الملائكة .

الذريعة إلى مكارم الشريعة [(١)]

عرض : د. شعبان جاب اللَّه رضوان

عرض الكتاب :

ينقسم الكتاب إلى سبعة فصول أساسية هي على النحو التالي :

الفصل الأول : في أحوال الإنسان وقواه وفضيلته وأخلاقه :

يتناول هذا الفصل عددًا من الأفكار ؛ منها أحوال الإنسان في الدنيا والآخرة وتركيب الإنسان جسمًا ونفسًا ، وقوى الإنسان وصفاته ، فمن قواه قوة الغذاء ، والحس ، والتخيل ، والنزوع والتفكير ، مع إشارة إلى مواقع الفكر ، والخيال ، والحفظ والتذكر في الدماغ ، ويتصل هذا المعنى بفرع علم النفس العصبي (ص ١٩ ، ٢٠) Neuro-Psychology ، كما تتصل بعض المصطلحات مثل الخيال والتفكير والتذكر والحس والدافع بعلم النفس العام وتتعاون قوى الخيال والتفكير والذاكرة معًا لأداء مهمتها ، كما أن هناك فرقًا بين الإنسان والحيوان في التركيب الجسمي والنفسي ، حيث يفضل الإنسان الحيوان في هذا ؛ لأنه يتميز بالعقل ويحتل الإنسان مكانة متوسطة بين الحيوان والملك ؛ لأنه يجمع في تركيبه بين الشهوات والقوى الروحية .

كما يتناول هذا الفصل غاية الإنسان وهي الوصول إلى الجنة ، وتحقيق خلافة اللَّه في الأرض والسياسة التي يستحق بها هذه الخلافة ؛ ومنها طهارة النفس التي تتحقق بالعلم والعبادات ، وتتفاعل مكونات النفس ، ويتلازم الهوى مع العقل ، فالعقل يختار الأفضل

(١) تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مكتبة الكلية الأزهرية ، (١٩٧٣م) ، ٢٣٣ص .

والأصلح في العواقب ، ولكن الهوى على الضد من ذلك ، ويتصل ذلك بسيكولوجية الشخصية (ص ٣١) ويتخذ الخطر مسارًا معينًا حتى يصبح عملًا ، فيبدأ بالسانح ثم الخاطر ثم الإرادة فالعزم ثم العمل ، ويكتسب الخلق المحمود بطهارة النفس التي تتم بإصلاح قوة الفكر والشهوة والحمية والتي تؤدي إلى العدالة والإحسان ، وهنا يشير الكاتب إلى وجود فرق بين الطبع والسجية والخلق والعادة ، ويمكن تغيير الخلق في بعض جوانبه ، وهناك جوانب أخرى لا تتغير ، ومن أصعب القوى في التغير هي قوة الشهوة ، ولكنها أكثرها احتياجًا للقمع والكبت (ص ٣١ - ٤١) .

وهناك إشارة إلى أن ممارسة السلوك تؤدي إلى تثبيته ، ويتصل ذلك بعملية التعلم (ص ٤٣) ، وينقسم التخلق إلى محمود ومذموم ، فالأول إذا كان هدفه التدريب ، والثاني إذا كان هدفه الرياء . ويتباين الناس في أخلاقهم نتيجة للتدريب والفطرة ، ويرتبط ذلك بموضوع الفروق الفردية وأسبابها البيئية والفطرية (ص ٤٦) ، وينبغي على الإنسان أن يكتسب الفضائل الحسنة بقصد العبادة ، وتنقسم نعم اللَّه على الإنسان إلى خمس ؛ هي : السعادة الأخروية ، والفضائل النفسية والفضائل البدنية ، والفضائل المطيفة بالإنسان ، وتوفيق اللَّه ﷻ ، وكلها من عند اللَّه ، ولا دخل للإنسان في اكتسابها إلا فيما هو نفسي فقط ، وتتفاعل هذه الفضائل فيما بينها .

ومن الفضائل المطيفة بالإنسان : كرم العشيرة ، وهذه الفضائل مهمة للوصول إلى السعادة الأخروية ، وكذلك الفضائل الجسمية ، ومنها الجمال الذي يعد مرآة لفضائل النفس .

وأما عن الفضائل النفسية : فيتولد عنها عندما تقوى فضائل أخرى ؛ مثل : جودة الفكر التي تتولد عن قوة العقل ، وتتصل هذه الموضوعات بالقيم وسمات الشخصية .

وهناك بواعث لتحري الخيرات الدنيوية : أدناها الترغيب والترهيب ممن يرجى نفعه ويخشى ضره ، والثاني : رجاء الحمد وخوف الذم ممن يعتد بحمده ، والثالث : تحري الخير وطلب الفضيلة .

وهناك أيضًا بواعث لتحري الخيرات الأخروية : وهي الرغبة في ثواب اللَّه والخوف من عقابه ، ورجاء حمده ومخافة ذمه ، وطلب مرضاته تعالى في المتحريات .

وما يمنع من تحري الفضائل : إما أن يكون قصورًا أو تقصيرًا .

ويرتقي الإنسان في الخيرات بأربع درجات ؛ هي : هجر الآثام ، وإتيان العبادات ،

ومجاهدة الهوى والرضا بقضاء اللّٰه ، كما ينحدر عن الفضائل بأربع درجات ؛ هي : الكسل ، والغباوة ، والوقاحة والانهماك في الباطل .

وفي نهاية هذا الفصل يتطرق المؤلف إلى تصنيف الناس ، ويتبع في ذلك أكثر من أسلوب ، فهم من وجه خاص وعام ، وهم من وجه آخر خاصة وعامة وأوساط ، أو أصحاب شهوات ، وأصحاب كرامات ، وأصحاب حكمة ، وهم من وجه آخر ملكي وشيطاني وإنسي ، أو أبرار وفجار ، ويتصل هذا التصنيف للناس بنظريات الشخصية الإنسانية في فرع سيكولوجية الشخصية (ص ٧٠ - ٧٣) .

الفصل الثاني : في العقل والعلم والنطق وما يتعلق بها وما يضادها :

يتناول هذا الفصل أهمية العقل ؛ حيث إنه أول ما خلق اللّٰه ﷻ ، وبه يهتدي الإنسان إلى تزكية نفسه ، وهو نوعان : أحدهما : غريزي والآخر مكتسب ، وهذه إشارة إلى أن الذكاء محصلة للوراثة والبيئة ، ويتصل ذلك بعلم النفس العام (موضوع الذكاء ص ٧٤ - ٧٦) .

ثم يفْرِق المؤلف بين عدد من المفاهيم هي العلم : وهو إدراك الشيء بحقيقته ، والدراية : وهي المعرفة المدركة بضرب من الحيل ، والحكمة : وهي اسم لكل عمل صالح وعلم حسن ، ويشير بعد ذلك إلى أن هناك توابع للعقل ، حيث ينتج عن العقل : العلم ، والمعرفة ، والدارية ، والحكمة ، والذكاء والذهن ، والفهم ، والفطنة ، وجودة الخاطر ، والتخيل وغيرها ، وتحتوي هذه المفاهيم على بعض العمليات والقدرات العقلية العليا ، وتدخل تحت موضوع الذكاء في علم النفس العام (ص ٨١ - ٩٣) .

وللعقل ثمرات أشرفها : معرفة اللّٰه وعدم معصيته ، وهداية الإنسان إلى الحق ، ويتناول هذا الفصل أيضًا : وجوب بعثة الأنبياء ، وعلامات صحة النبوة ، وأن العلوم النبوية من المتعذر إدراكها ما لم تدرك العلوم العقلية ، ومفهوم الإيمان والتقوى والبر ، ويتطرق بعد ذلك إلى أنواع الجهل ومنها الاعتقاد في رأي فاسد ، وعدم الاعتقاد ، حيث لا يعتقد الإنسان اعتقادًا صالحًا أو اعتقادًا طالحًا في شيء معين .

وبالنسبة لأنواع العلم : منها ما يوجد من غير تعلم بشري كعلم الأنبياء ، ومنها ما يوجد بأدنى تعلم ، ومنها ما يصعب وجوده كحال عوام الناس ، كما يعرف العلم بثمرته .

وهناك أيضًا أنواع من المعلومات : فمنها نوع يتعلق باللفظ ، ونوع يتعلق باللفظ والمعنى ، ونوع ثالث بالمعنى دون اللفظ .

وينبغي على الإنسان أن يعرف معلومات من شتى العلوم بحسب أهميتها له ، ولا يستهين بشيء منها ، كما لا ينبغي تنفير الناس من بعض العلوم ، وعلى الإنسان أن يفيد غيره من العلم الذي اكتسبه ، وأن يطهر نفسه من الأخلاق الرديئة ، ويقلل من الانشغال بالأمور الدنيوية حتى يوفر فراغه للعلوم الحقيقية ، وينبغي على المعلم أن يعامل المتعلمين منه كالأب فتتسم معاملته باللطف ، ويجب منع الجهلة عن حقائق العلوم ، والاقتصار بهم على قدر أفهامهم ، ويجب التصدي لمن يحاول الزعامة دون علم ، كما يجب أن يقتبس الواعظ من الحكماء وعلمهم ، وأن يكون قدوة تحتذى ، وينبغي عدم إباحة الجدال للعامة من الناس ، وفيما يتعلق بالنطق والصمت ، فالنطق من خصائص الإنسان وحده ، والصمت من حيث هو صمت مذموم ، ولكنه يحمد إذا جلب الكلام مضرة .

وبالإضافة إلى ما سبق ، يتناول هذا الفصل أيضًا عددًا من المفاهيم الأخلاقية ؛ مثل : الصدق والكذب وأنواعه ، ومتى يحسن أو يقبح كل منهما . وأيضًا المدح والثناء والشكر ، والغيبة والنميمة والكلام القبيح والمزاح والضحك والحلف .

وتتصل هذه المفاهيم بسيكولوجية العلاقات الشخصية المتبادلة ، والأخلاق في إطار علم النفس الاجتماعي (ص ١٣٤ - ١٤٥) .

• الفصل الثالث : فيما يتعلق بالقوى الشهوية :

يتناول هذا الفصل عددًا من المفاهيم ذات الصلة بالأخلاق وسيكولوجية العلاقات الاجتماعية ، ومنها الحياء الذي يشير إليه المؤلف باعتباره انقباض النفس عن القبائح ، وهو أول ما يظهر من قوة الفهم في الصبيان .

والخجل : هو حيرة النفس لفرط الحياء ، ويحمد في النساء والصبيان ويذم في الرجال .

والوقاحة : هي لجاج النفس في تعاطي القبيح وهي مذمومة .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مفهومي الحياء والخجل يتصلان ببعض المصطلحات الحديثة في سيكولوجية الشخصية كسمة الانطواء (ص ١٤٥ - ١٤٧) .

ويتناول أيضًا : كبر الهمة والذي يعني أن الإنسان لا يرضى بالهمم الحيوانية قدر وسعه ، بل يجتهد أن يتخصص بمكارم الشريعة .

ويتضمن هذا الفصل أيضًا : إشارة لمعنى الوفاء ، والعذر ، والمشاورة ، والنصح ،

وكتمان السر والتواضع ، والكبر ، والفخر ، والعجب ، وهذه المفاهيم تتصل بسيكولوجية العلاقات الاجتماعية أو العلاقات الشخصية المتبادلة في علم النفس الاجتماعي (ص ١٤٨ - ١٥٧) .

ويتناول أيضًا : أنواع اللذات وتفاصيلها ؛ وهي : لذة عقلية كلذة العلم والحكمة ، ولذة بدنية كالمأكل والمشرب ولذة الرياسة والغلبة .

وتصنيف اللذات بهذا الشكل يتصل بموضوع الدوافع في علم النفس العام (ص ١٥٧ - ١٥٩) ، ويتضمن إشارة لما يحسن تناوله من المطعم وما يقبح منه ، وما ينبغي من عدم الإفراط ، وأيضًا ما يحسن من المنكح وما يقبح منه ، فما يحسن منه هو ما شرعه اللَّه تعالى بالوسائل الحلال ، أي بالزواج وينبغي عدم الإفراط ، أما ما يقبح منه فهو الزنا واللواط .

وفي نهاية الفصل يشير المؤلف إلى عدد من الوسائل التي يمكن للإنسان من خلالها أن يهذب نفسه ويوجه دوافعه الفطرية ويضبط القوى الشهوية لديه ، ومنها العفة وهي أُس الفضائل ، وأيضًا القناعة ، والزهد ، والورع .

- **الفصل الرابع : فيما يتعلق بالقوى الغضبية :**

يتناول هذا الفصل ما يتبع من القوى الغضبية ، فعندما تتحرك قوى الغضب يتحرك دم القلب ، وينتج عن ذلك ثلاثة أحوال ؛ هي : الغم ، والغضب ، والحقد .

ويتصل ذلك بموضوع فسيولوجية الانفعالات في علم النفس الفسيولوجي (ص ١٦٧) .

ويتضمن هذا الفصل أيضًا : إشارة لأنواع الصبر ومنها الصبر الجسمي ، والصبر النفسي ، والصبر الجسمي لا يعد فضيلة ولكن الفضيلة للصبر النفسي .

ويتناول الشجاعة باعتبارها فضيلة بين التهور والجبن ، والفرق بين الفزع والجزع ، فالفزع : ما يعتري الإنسان من الشيء المخيف ، وأما الجزع : ما يعتريه من الشيء المؤلم .

وينبغي على الإنسان مداواة نفسه من الغم والخوف ، ويشير المؤلف هنا أيضًا إلى الفرق بين السرور والفرح ، وهو ما يتصل بموضوع الانفعالات في علم النفس العام ، ويميز بين الحلم والعفو ، ويشير إلى فضل كظم الغضب ، ويتصل بمفهوم ضبط الانفعالات (ص ١٠٧ - ١١١) .

ويتحدث المؤلف في نهاية هذا الفصل عن الغيرة وهي ثوران الغضب ، والغبطة ،

والمنافسة والحقد والفرق بينهما ، وهي تتصل بموضوع الانفعالات Emotion (ص ١٨١ - ١٨٣) .

• **الفصل الخامس : في العدل والظلم والمحبة والبغض :**

يتناول هذا الفصل : مفهوم العدل وفضله وأنواعه ، فالعدل يقتضي المساواة ، والعدل نوعان : مطلق ومقيد ، كما أن العدل المحمود هو الذي يتحرى فعله لا رياء ولا سمعة ولا رغبة ولا رهبة وإنما يكون تحريًا للحق عن سجية . ويجب أن يستعمل الإنسان العدل مع اللَّه والناس والسلف وترك العدل إلى الظلم المذموم ، وأما الظلم فهو الانحراف عن العدل .

ويتضمن هذا الفصل كذلك : مفاهيم المكر والخديعة والكيد والحيلة والفرق بينهما ، وتتصل بسيكولوجية العلاقات الشخصية المتبادلة (ص ١٨٨ - ١٩٠) .

كما يتناول هذا الفصل : ماهية المحبة وأنواعها وفضيلتها ، فالمحبة : هي ميل النفس إلى ما تراه وتظنه خيرًا ، وهي نوعان : أحدهما طبيعي والآخر اختياري ، وتتمثل فضيلتها في أن العدل خليفة المحبة ؛ فهو يستعمل حيث لا توجد المحبة ؛ ولذلك عظم اللَّه تعالى المنة بإيقاع المحبة بين أهل الملة .

وتناول المؤلف هنا أيضًا : فضيلة الصداقة ، وذكر أن الإنسان محتاج إلى صديق سواء في سوء الحال أو حسنه ، فمن الصعب الاستغناء عن الصديق الوفي كما أنه لا يوجد بسهولة .

ويتصل بسيكولوجية الصداقة Friendship في علم النفس الاجتماعي (ص ١٩١ - ١٩٢) .

ثم يشير في نهاية هذا الفصل إلى فضيلة التفرد عن الناس ورذيلته ، فهناك اختلاف بين الناس في تفضيلهم للتفرد أو الاختلاط ، والأصل أن اجتماع بعضهم من بعض أمر ضروري لتعلق بعضهم ببعض ، ويتصل هذا المعنى بسيكولوجية العلاقات الشخصية المتبادلة ، وهناك إشارة أيضًا إلى مفهوم العداوة ، وهو يتصل بسيكولوجية العدوان في علم النفس الاجتماعي (ص ١٩٤ - ١٩٦) .

• **الفصل السادس : فيما يتعلق بالصناعات والمكاسب والإنفاق والجود والبخل :**

يتناول هذا الفصل عددًا من الأفكار ؛ أهمها : أن الإنسان كائن اجتماعي ولا بد له

من التعاون مع الآخرين ، كما أن اللَّه تعالى قد سخر همم الناس لصناعات مختلفة ، فكل إنسان مهيأ لصناعة معينة ، وبهذا يحدث التكامل بين الأفراد جميعًا ، كما قسم الأرزاق بينهم بطريقة تسمح بحاجة كل منهم للآخر . وجعل الإنسان دائم السعي مخافة الفقر . ولذلك فإن التكسب واجب ، والسعي نحوه محمود ، والكسل عنه مذموم .

ويتضمن ذلك تقسيم الصناعات ومراتبها وفضيلة بعضها على بعض ، وهي ثلاثة أضرب : إما أصول لا قوام للعالم بدونها كالزراعة والحياكة ، وإما مرشحة وخادمة لكل واحد من ذلك مثل الحلاجة للحياكة ، وقد تكون ثمرة لكل واحد من ذلك مثل الطحانة للزراعة ، وأشرف أصول الصناعات هي السياسة ، ويشير الكاتب إلى أهمية المال وخطورته في المعاملات بين الناس باعتباره أحد أسباب قوام الحياة الدنيوية ؛ ولذلك فإن كنزه مذموم ، ويتناول هذا الفصل بعد ذلك أنواع من يطلبون الدنيا وتفاوتهم في هذا ، وبيان الآيات الواردة في شأن الدنيا ، وكذلك أحوال الناس في مراعاة أمور الدنيا والآخرة ، وبيان حال من يجوز له الاستكثار من أعراض الدنيا ومن لا يجوز له ذلك ، والعقوبات الدنيوية التي ينالها أرباب الدنيا .

ويتطرق المؤلف إلى موضوع الإنفاق المحمود والإنفاق المذموم وفقًا لأحكام الشرع ، وحقيقة السخاء والجود والشح والبخل ، وفضيلة الجود وذم البخل ، وأنواع البخل : وهي بخل الإنسان بماله ، وبخله بمال غيره على غيره ، وبخله بمال غيره على نفسه ، وأنواع الجود هي جود اللَّه تعالى ، وجود الملوك ، وجود السوقة ، وجود الصعاليك ، وجود عوام الناس ، والمحمود من ذلك كله الجود الإلهي .

- **الفصل السابع : في ذكر الأفعال :**

يتناول هذا الفصل : أنواع الأفعال ؛ وهي اثنان : إلهي وإنساني .

والأفعال الإلهية أربعة : إبداع ، وتكوين ، وتربية ، وإحالة ، وكلها تسمى خلقًا .

أما الأفعال الإنسانية فهي ثلاثة : نفساني فقط : كالأفكار والعلوم وما ينسب إلى أفعال القلوب ، وبدني : وهو الحركات التي يفعلها الإنسان في بدنه كالمشي والقيام والقعود ، وأما الثالث فهو صناعي ، ويعني ما يفعله الإنسان بمشاركة البدن والنفس كالحرف والصناعات .

وهذا التصنيف يتصل بمفهوم السلوك وأنواعه في علم النفس العام (ص ٢١٩ - ٢٢٠) .

ويميز بين العمل والفعل والصنع ، فالفعل : لفظ عام يقال لما كان بإجادة أو غير

إجادة أو علم أو غير علم أو قصد من الإنسان والحيوان .

والعمل : يقال لما كان من الحيوان دون النبات وما كان بقصد وعلم .

أما الصنع : فيكون من الإنسان دون سائر الحيوان ولا يقال إلا لما كان بإجادة .

ثم يقسم الصناعات إلى علمية وعملية ، والأفعال إلىَ إرادية وغير إرادية ، وهذا التقسيم للأفعال يتصل بتصنيف السلوك إلى سلوك إرادي وسلوك لا إرادي في علم النفس الفسيولوجي Psychological Psychology (ص ٢٢١) .

وفي نهاية هذا الفصل يشير المؤلف إلى الأفعال التي تستحق اللوم ، والأخرى التي لا تستحق ذلك ، ويتوقف هذا على نتيجة الفعل ، وهل الفعل إرادي أم لا إرادي ، ومدى حرص القائم بالفعل على عدم ارتكاب خطأ أثناء تأدية الفعل .

وأخيرًا : يتناول المؤلف الأسباب التي يمكن نسبة الفعل إليها وهي الفاعل ، والمادة التي تستخدم في الفعل ، والعمل نفسه ، والزمان والمكان ، والآلة ، والهدف البعيد والقريب ، ونموذج يقلد ومرشد يوجه .

* * *

الغزالي ، أبو حامد (ت ٥٠٥هـ)
إحياء علوم الدين [(١)]

عرض : د. شعبان جاب الله رضوان

التعريف بالمؤلف :

هو زين الدين محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، المعروف باسم أبي حامد الغزالي وبلقب حجة الإسلام : فيلسوف ، متصوف ، له نحو مائتي مصنف، مولده ووفاته في الطابران (قصبة طوس ، بخراسان) ، وقد وُلد عام ٤٥٠هـ الموافق ١٠٥٨م في الطابران من مدن طوس من خراسان ، في عصر انتشرت فيه الفتن الدينية والسياسية ، وكان والده فقيرًا صالحًا ، وكان كثير الدعاء لولده بأن يصبح فقيهًا واعظًا ، ولكنه توفي قبل أن يصل الغزالي إلى هذه المكانة من العلم .

عاش الغزالي فترة صباه في مدينة طوس ، وتتلمذ على أيدي عدد من المتصوفين الذين غرسوا البذور الأولى للتصوف في نفسه ، وعند بلوغه سن العشرين رحل إلى جرجان ، وظل فيها فترة من الزمن يتلقى العلم ، ومنها وصل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر ، ثم عاد إلى بلدته طوس مرة أخرى ، واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء والصوفية حتى توفي في عام ٥٠٥هـ الموافق عام ١١١١م .

نسبته إلى صناعة الغزل (على مَنْ يقوله بتشديد الزاي) أو إلى غزالة (من قرى طوس) لمن قاله بالتخفيف .

---

(١) لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي ، القاهرة ، دار نهر النيل ، (د.ب) ٥مج ، مع : المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار/عبد الرحيم بن الحسين العراقي ، يشتمل على ثلاثة كتب أخرى .

ولقد اعتمد الغزالي على الحفظ كوسيلة لاكتساب العلم طيلة حياته ، واشتهر بذلك بين زملائه حينما انتقل إلى نيسابور ، وكانت فيها المدرسة النظامية التي وجد فيها الغزالي ، المعرفة والعلم بأبوابها العريضة ، فأخذ يحصلها بجد وجهد دؤوب ، وبعقل ، وذهن صافٍ مما أعده علميًا ونفسيًا حتى برع في المذهب ، والخلاف ، والجدل ، والمنطق ، والحكمة ، والفلسفة ، وصنف في ذلك كتبًا أحسن تأليفها وأجاد وصفها ، كما سيأتي بيانها في الفقرة التالية ، كان شديد الذكاء ، وعجيب الفطرة ، مفرط الإدراك ، حتى قال عنه إمام الحرمين بأنه « بحر مغرق » .

أما عن مؤلفاته وكتبه فنعرض منها الآتي [1] : إحياء علوم الدين (في أربعة مجلدات) ؛ تهافت الفلاسفة ، وكتاب الاقتصاد في الاعتقاد ، ومحك النظر ، ومعارج القدس في أحوال النفس والفرق بين الصالح وغير الصالح ، ومقاصد الفلاسفة ، والمضنون به على غير أهله ، وهذا الكتاب نسبته إليه فيها كلام ، وكتاب المنقذ من الضلال ، وجواهر القرآن ، والقسطاس المستقيم ، وكيمياء السعادة ، وياقوت التأويل في تفسير التنزيل (٤٠ مجلدًا) وكتاب الوقف والابتداء في التفسير ، وكتاب التبسيط في الفقه وكتاب بداية الهداية ، وفضائح الباطنية : قسم منه ، ويعرف بالمستظهري ، وبفضائح المعتزلة ، وكتاب التبر المسبوك في نصيحة الملوك : كتبه بالفارسية ، وترجم إلى العربية ، والرسالة الوليدية : رسالة أكثر فيها من قوله : أيها الولد . وكتاب منهاج العابدين : وقيل : إن هذا الكتاب هو آخر ما ألفه ، وكتاب إلجام العوام من علم الكلام ، وكتاب الطير : رسالة . والدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة ، وشفاء العليل في أصول الفقه ، والمستصفى من علوم الأصول (في مجلدين) ، والمنخول من علم الأصول ، والوجيز « في فروع الشافعية » ، وأسرار الحج ، والإملاء عن إشكالات الأحياء ، وفيصل التفرقة بين

---

(١) مراجع الترجمة :

- خير الدين الزركلي ، الأعلام : قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، المجلد السابع ، (ص ٢٣) ، بيروت ، دار العلم للملايين ، (١٩٨٦م) .

- مجموعة بيليوجرافيا تشتمل على الآتي : وفيات الأعيان (٤٦٣ : ١) ، طبقات الشافعية (١٠١ : ٤) ، وشذرات الذهب (١٠ : ٤) ، وإشراق التاريخ خ (٧٤٤ : ١) ، Brock ١ : ٥٣٥ (٤١٩) ، S . ، والوفي بالوفيات ٢٧٧ : ١ ، ومفاتح السعادة ١٩١ : ٢ - ٢١٠ ، وتبين كذب المفتري ٢٩١ - ٣٠٦ ، ومعجم المطبوعات ١٤٠٨ - ١٤١٦ ، و Princeton : انظر فهرسته ، وآداب اللغة ٩٧ : ٣ ، والفهرس التمهيدي ١٦٤ ، وفي اللباب ١٧٠ : ٢ ما يستفاد منه أن تخفيف الزاي في الغزالي ، خلاف المشهور ، وقد أشار المؤلف إلى ذلك في ترجمة أخيه أحمد بن محمد المتوفى سنة (٥٢٠هـ) .

الإسلام والزندقة ، وكتاب عقيدة أهل السنة ، وكتاب ميزان العمل ، وكتاب المقصد الأسني في شرح أسماء اللّٰه الحسنى ، وله كتب أخرى كثيرة بالفارسية .

وهناك من المؤلفين ، سواء من العرب أو من الموالي ، من تصدوا للكتابة عن الإمام الغزالي ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ؛ طه عبد الباقي سرور له كتاب عن سيرة الإمام الغزالي باسم : الغزالي ، في سيرته ، ويوحنا قمر : الغزالي في سيرته ، ومثلهما لكل من جميل صليبا ، وكامل عياد ، محمد رضا ، وزكي مبارك لهما كتاب : الأخلاق عند الغزالي ، أحمد فريد الرفاعي كتاب : الغزالي . محمد رضا : الغزالي ، حياته ومصنفاته ، أبو بكر عبد الرازق : في صحبة الغزالي ، سليمان دنيا : الحقيقة في نظر الغزالي . الشيخ محمد الخضري ، رسالة في ترجمته وتعاليمه وآرائه ، ونشرت في المجلد ٣٤ من مجلة المقتطف ، وهناك من كتب عنه بالتركية فهذا هو ، رضاء الدين بن فخر الدين الذي كتب : إمام غزالي ، في تاريخه وفلسفته ، وذلك عبد اللطيف عزام الفيومي الذي كتب : رسالة في « ما للغزالي وما عليه » .

عرض الكتاب :

يقسم الإمام أبو حامد الغزالي كتابه « إحياء علوم الدين » إلى أربعة أجزاء على النحو التالي :

الجزء الأول : العبادات .

الجزء الثاني : العادات .

الجزء الثالث : المهلكات .

الجزء الرابع : المنجيات .

وهو ما نعرض لتفاصيله على النحو التالي :

الجزء الأول : العبادات .

ويشتمل هذا الجزء على عشرة كتب نعرض لها على النحو التالي :

١ - كتاب العلم :

ويتناول : فضل العلم والتعلم والتعليم وشواهده من النقل والعقل ، فيشير إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تبين فضل العلم ، وتحث على طلبه ، وأنه فريضة على

كل مسلم ومسلمة ، ومنزلة العلماء ، ومن ينقل علمه للآخرين ، وثواب ذلك عند اللَّه تعالى ، ثم يسوق الشواهد العقلية التي تدل على أن أصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم ؛ ولذلك فهو أفضل الأعمال ، كما يوضح العلم المحمود والمذموم وأقسامهما وأحكامهما ، وما هو فرض عين ، وما هو فرض كفاية ، فالعلوم تنقسم إلى : شرعية وغير شرعية ، والشرعية : هي ما استفيد من الأنبياء صلوات اللَّه عليهم وهي محمودة ، أما العلوم غير الشرعية : فتنقسم إلى ما هو محمود ، وما هو مذموم ، وما هو مباح ، فالمحمود ما ترتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب وهو فرض كفاية ، والمذموم كالسحر والشعوذة ، والمباح كالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها .

وينقسم علم طريق الآخرة إلى علم مكاشفة : وهو علم الباطن ، وهو نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من الصفات المذمومة ، وإلى علم معاملة : وهو علم أحوال القلب ، وما يُحمد منها ؛ كالصبر والشكر والخوف والرجاء والرضا والزهد والتقوى والقناعة والسخاء وحسن الخُلُق وحسن المعاشرة والصدق والإخلاص وغيرها .

وأما ما يذم منها ؛ كخوف الفقر ، وسخط المقدور ، والغل والحقد والحسد والغدر وطلب العلو وحب الثناء والكبر والرياء والغضب والأنفة والعداوة والبغضاء والطمع والبخل والبذخ ، وعلم الآخرة فقرض عين .

ويوضح الغزالي بعد هذا علة ذم العلم المذموم ؛ وهي ثلاثة :

١ - أن يؤدي إلى ضرر كالسحر والطلسمات .

٢ - أن يكون مضرًا بصاحبه غالبًا كعلم النجوم .

٣ - عدم الاستفادة من العلم كالبحث عن الأسرار الإلهية .

كما يبين ما يدل من ألفاظ العلوم حيث تم تحريف خمسة ألفاظ محمودة ؛ هي الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة إلى معانٍ مذمومة ، ويبين السجع المحذور والشعر المذموم وشطح المتصوفة ، والمقدار المحمود من العلوم المحمودة ، حيث يقسم العلم في هذا إلى :

١ - قسم مذموم قليله وكثيره كعلم السحر والطلسمات .

٢ - قسم محمود قليله وكثيره كالعلم باللَّه تعالى .

٣ - قسم يحمد منه مقدار الكفاية ، ولا يحمد الفاضل عليه كالطب والحساب والسياسة .

ثم يتناول سبب إقبال الخلق على علم الخلاف ، وآفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها ، وشروط وعلامات التعاون على طلب الحق ، ويشير إلى أن المناظرة الموضوعة بقصد الغلبة والإفحام ، وإظهار الفضل والشرف والمباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس هي منبع جميع الأخلاق المذمومة .

وينتقل الغزالي بعد هذا إلى الحديث عن آداب المتعلم والمعلم ، فمن آداب المتعلم ووظائفه : تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ، وأن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ، وألا يتكبر على العلم ، وأن يذعن لنصيحة المعلم ، وألا يصغي إلى اختلاف الناس في بدء تعلمه ، وألا يدع فنًّا من العلوم المحمودة إلا وينظر فيها ، وألا يخوض في فن من فنون العلم دفعة واحدة ، بل يراعي الترتيب ويبدأ بالأهم ، وألا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله في الترتيب ، وأن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم ، ومحك شرف العلم يتمثل في شرف الثمرة ووثاقة الدليل وقوته ، فأشرف العلوم : هو العلم بالله ﷻ وملائكته وكتبه ورسله ، وأن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة ، وأن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد .

وأما وظائف المرشد المعلم فتتمثل في : الشفقة على المتعلم ، وأن يعامله كابنه ، وأن يقتدي بالرسول ﷺ ، فلا يطلب على إفادة العلم أجرًا ، ولا يقصد به جزاءً ولا شكرًا بل يُعلِّمه لوجه الله تعالى ، وألا يدع من نصح المتعلم شيئًا ، وأن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ، ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بالتوبيخ ، وينبغي على المتكفل ببعض العلوم ألا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه ، وأن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، كما ينبغي أن يلقي إلى المتعلم القاصر الجلي اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقًا وهو يدخره عنه ، وأن يكون المعلم عاملًا بعلمه .

ويبين بعد ذلك آفات العلم ، وعلامات علماء الآخرة وعلماء السوء الذي وصفهم الله بأكل الدنيا بالعلم ؛ لأن قصدهم من العلم التنعم بالدنيا ، وشرف العقل وحقيقته وأقسامه ، فالعقل هو منبع العلم ومطلعه وأساسه ، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة ، ويطلق لفظ العقل على أربعة معانٍ ، هي :

١ - الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم ، وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية ، أي بمعنى أن العقل غريزة ، يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية .

٢ – العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد .

٣ – علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال ، فإن مَن حنكته التجارب يقال : إنه عاقل ومَن لا يتصف بهذه الصفة يقال : إنه غبي غَمْر جاهل .

٤ – أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ، ويتفاوت الناس في العقل .

وفي نهاية هذا الكتاب يتناول الغزالي أنواع التذكر ؛ وهما نوعان :

١ – أن يتذكر الإنسان صورة كانت حاضرة الوجود في قلبه ، ولكنها غابت بعد الوجود .

٢ – تذكر صورة كانت مضمنة فيه بالفطرة .

والتذكر من النوع الأول يقابل التذكر الذي يدرسه علماء النفس ، أما التذكر من النوع الثاني فليس له مقابل في علم النفس الحديث .

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الكتاب قد تضمن إشارة لعدد من المفاهيم النفسية ؛ هي : مفهوم الأخلاق Morality (ص ٢١) ، والتعلم Learning (ص ٩ ، ص ٤٩ – ٥٨) ، والذكاء Intelligence (ص ٨٤ – ٨٧) ، والتذكر Memory (ص ٨٦) ، كما يتوصل الحديث عن وظائف المرشد المعلم بسيكولوجية الإرشاد أو علم النفس الإرشادي Counseling Psychology (ص ٤٩ – ٥٨) .

٢ - كتاب قواعد العقائد :

ويتناول ترجمة عقيدة أهل السنة في كلمتي الشهادة ، والتدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد ، وبيان ما تتضمنه كلمتا الشهادة من أركان أربعة ؛ هي :

١ – إثبات ذات الإله : ويدور على عشرة أصول ؛ هي : العلم بوجود اللّه تعالى وقدمه وبقائه وأنه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض وليس مختصًا بجهة ولا مستقرًا على مكان ، وأنه لا يُرى في الدنيا ولكنه يُرى بالأعين والأبصار في الدار الآخرة (ص ٩٩) .

٢ – إثبات صفاته : ويشتمل على العلم بكونه حيًا عالمًا قادرًا مريدًا سميعًا بصيرًا متكلمًا منزهًا عن حلول الحوادث ، وأنه قديم الكلام والعلم والإرادة .

٣ – إثبات أفعاله : ويدور على عشرة أصول ؛ هي : أن أفعال العباد مخلوقة للّه تعالى ،

وأنها مكتسبة للعباد وأنها مرادة للّه وأنه متفضل بالخلق والاختراع ، وأنه له تعالى تكليف ما لا يطاق ، وإيلام البريء ، ولا يجب عليه رعاية الأصلح ، وأنه لا واجب إلا بالشرع ، كما أن بعثة الأنبياء جائزة ، وأن نبوة نبينا محمد ﷺ ثابتة مؤيدة بالمعجزات .

٤ - **السمعيات وتصديق الرسول ﷺ** : ومداره على عشرة أصول ؛ هي : إثبات الحشر والنشر وسؤال منكر ونكير وعذاب القبر والميزان والصراط وخلق الجنة والنار ، وأحكام الإمامة ، وأن فضل الصحابة على حسب ترتيبهم ، ثم شروط الإمامة .

وبعد هذا ، يتناول الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال والانفصال ، فالإيمان هو التصديق بالقلب ، والإسلام هو التسليم والاستسلام بالإذعان والانقياد ، وترك التمرد والعناد ، وهو بالقلب واللسان والجوارح .

٣ - كتاب أسرار الطهارة :

ويتناول مراتب الطهارة ؛ وهي :

١ - تطهير الظاهر من الأحداث والأجناس .

٢ - تطهير الجوارح من الذنوب والآثام .

٣ - تطهير القلب من الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة .

٤ - تطهير السر عما سوى اللّه تعالى ، وهو الغاية القصوى .

وأما إزالة الفضلات فهي نوعان :

١ - أوساخ تزال ؛ كالذي تجمع في الرأس من الوسخ والدرن .

٢ - أجزاء تحذف ؛ مثل قص الشارب والأظافر .

كما يتناول آداب قضاء الحاجة ، وكيفية الاستنجاء ، والوضوء وفضيلته ، وكيفية الغسل والتيمم .

٤ - كتاب أسرار الصلاة ومهماتها :

يتناول هذا الكتاب فضائل الصلاة والسجود ، وصلاة الجماعة ، والأذان ، والخشوع والمسجد ، ويوضح كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة ، والبداءة بالتكبير وما قبله ، وما هو منهي عنه في الصلاة ، وتمييز الفرائض والسنن في الصلاة ، واشتراط الخشوع وحضور القلب فيها ، وبيان الأعمال الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة وهي حضور

القلب ، والتفهم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء ، ثم بيان أسبابها وكيفية اكتسابها .

وينتقل الغزالي بعد ذلك إلى الحديث عن الإمامة ، والقدوة ، وأركان الصلاة وبعد السلام ووظائف الإمام قبل الصلاة وفي القراءة ، وفضل الجمعة وآدابها وسننها وشروطها ، فمن آدابها الاستعداد لها من يوم الخميس ، والتنظيف ، وغسل الثياب ، والاغتسال في يومها ، والتبكير إليها ماشيًا ، وعدم تخطي رقاب الناس ، والإقامة في المسجد حتى صلاة العصر ، والإكثار من الصلاة على النبي ﷺ ، وقراءة سورة الكهف ، والتصدق بما أمكن ، وحسن المراقبة للساعة الشريفة التي يعطي فيها اللَّه مَن يسأله .

ويتناول أيضًا عددًا من المسائل المتفرقة ؛ مثل : كراهية الفعل في الصلاة ، وجواز الصلاة في النعلين ، والبزق في الصلاة ، وصلاة المسبوق ، والوسوسة في نية الصلاة ، وسببها وهو خبل في العقل أو جهل بالشرع ، كما يشير إلى أنه ينبغي ألا يتقدم المأموم على الإمام في الركوع والسجود والرفع منهما أو سائر الأعمال ، ولا ينبغي أن يساويه بل يتبعه ، ويختتم هذا الكتاب ببيان النوافل من الصلوات .

وقد ورد في هذا الكتاب إشارة لمفهوم القدوة Modeling ، وهو أحد مفاهيم علم النفس الاجتماعي (ص ١٧٣ - ١٧٨) ، وأيضًا مفهوم الوسواس Obsession في علم النفس المرضي (ص ١٩١) .

٥ - كتاب أسرار الزكاة :

يتناول هذا الكتاب فريضة الزكاة من حيث أقسام الزكاة وأسباب وجوبها وآدابها وشروطها الباطنة والظاهرة ، وشروط استحقاق القابض ووظائفه ، وفضل صدقة التطوع ، وآداب أخذها وإعطائها .

٦ - كتاب أسرار الصوم :

ويتناول فضل الصوم لمعنيين : أحدهما : أنه سر وعمل باطن لا يراه الخلق ولا يدخله رياء ، والثاني : أنه قهر لعدو اللَّه الشيطان ، ويبين سنن الصوم ومنها السحور ، ويستحب الجود في رمضان وفعل المعروف ، وكثرة الصدقة ، ودراسة القرآن والاعتكاف ، كما يبين أسرار الصوم وشروطه الباطنة ودرجاته ؛ وهي ثلاث :

١ - **صوم العموم** : وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة .

٢ - **صوم الخصوص** : وهو كف النظر واللسان واليد والرجل والسمع والبصر عن الآثام .

٣ - صوم خصوص الخصوص : وهو صوم القلب عن الهمم الدنيئة والأفكار المبْعدة عن اللّه تعالى . ويختتم هذا الكتاب بالحديث عن صوم التطوع .

ويتصل هذا الحديث عن الصوم ، وضبط شهوتي البطن والفرج بموضوع السيطرة على الدوافع Motives وبخاصة الدوافع الأولية في إطار علم النفس العام (ص ٢٣١ - ٢٣٩) .

٧ - كتاب أسرار الحج :

يتناول هذا الكتاب بيان فضائل الحج والبيت الحرام ومكة المشرفة والمدينة الشريفة ، وترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع ، فيبين أن من الواجب على من أراد الحج أن يبدأ بالتوبة ورد المظالم وقضاء الديون ، وإعداد النفقة لكل من تلزمه نفقته إلى وقت الرجوع ، وأن يرد ما عنده من الودائع ، ويستصحب من المال الحلال ما يكفيه ، وينبغي أن يلتمس رفيقًا صالحًا ، وأن يؤمر الرفقاء عليهم أحسنهم خلقًا ، وأن يودع رفقاءه وإخوانه المقيمين .

كما يتناول آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة ، وآداب دخول مكة إلى الطواف ، والأمور التي يجب مراعاتها في الطواف ، والسعي بين الصفا والمروة ، والوقوف بعرفة ، ورمي الجمرات والنحر والحلق وغير ذلك من أعمال الحج ، ثم ينتقل إلى الحديث عن العمرة وصفتها وطواف الوداع ، وزيارة المدينة وآدابها ، وسنن الرجوع من السفر .

ويختتم هذا الكتاب ببيان الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة في الحج ، وتجدر الإشارة إلى أن هذا الكتاب قد تضمن مفهوم الصداقة Friendship (ص ٢٤٧) وهو أحد مفاهيم علم النفس الاجتماعي ، وذلك عند الحديث عن الرفيق .

٨ - كتاب آداب تلاوة القرآن :

ويتناول فضل القرآن وأهله ، وذم المقصرين في تلاوته ، وظاهر آداب التلاوة ؛ ومنها : الوضوء واستقبال القبلة ، وأن الترتيل هو المستحب في هيئة القراءة ؛ ولذلك فإن البكاء مستحب مع القراءة ، مع مراعاة حق الآيات ، والجهر وتحسين الصوت .

كما يتناول الأعمال الباطنة في التلاوة ؛ ومنها : فهم أصل الكلام ، والتعظيم ، وحضور القلب ، والتدبر والتفهم ، والتخلي عن موانع الفهم ، والتخصيص والتأثر والترقي والتبري ، ثم يتناول فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل ، وأن القرآن

مشتمل على إيجاز ، وتطويل ، وإضمار وحذف .

٩ - كتاب الأذكار والدعوات :

ويتناول فضيلة الذكر ومجالسه ، ويسوق الدلائل التي تحث عليه ، وفضيلة التسبيح والتحميد وآداب الدعاء وفضله ، وفضيلة الاستغفار والصلاة على الرسول ﷺ .

فمن آداب الدعاء : أن يترصد الإنسان لدعائه الأوقات الشريفة ، وأن يدعو مستقبل القبلة ، وخفض الصوت بين المخافتة والجهر ، والتوبة ، ورد المظالم ، والإقبال على الله ﷻ .

كما يتناول بعض الأدعية المأثورة وأسبابها وأربابها ؛ ومنها دعاء الرسول ﷺ بعد ركعتي الفجر ، ودعاء السيدة عائشة ، ودعاء فاطمة وأبي بكر ﷺ أجمعين ، وكذلك الأدعية المأثورة عند حدوث كل حادث من الحوادث ، كدعاء الخروج إلى المسجد ، وغير ذلك من المواقف والأحداث .

١٠ - كتاب ترتيب الأوراد وتفضيل إحياء الليل :

ويتناول الإمام الغزالي في هذا الكتاب الأخير من ربع العبادات : فضيلة الأوراد ، وبيان أن المواظبة عليها هي الطريق إلى الله ؛ لأن المحبة والأنس لا تحصل إلا من دوام ذكر المحبوب ، والمواظبة عليه ، كما أن المعرفة به لا تحصل إلا بدوام الفكر فيه وفي صفاته وأفعاله ، ولن يتيسر دوام الذكر والفكر إلا بوداع الدنيا وشهواتها ، ويبين أيضًا أعداد الأوراد وترتيبها في الليل والنهار .

ويختتم الغزالي هذا الكتاب ببيان الأسباب الميسرة لقيام الليل ، والليالي التي يستحب إحياؤها ، وكيفية قسمة أجزاء الليل .

الجزء الثاني : العادات :

يتضمن هذا الجزء عشرة كتب نعرض لها على النحو التالي :

١ - كتاب آداب الأكل :

يتناول الآداب التي تتقدم على الأكل ؛ ومنها : أن يكون حلالًا في نفسه وطيبًا في جهة مكسبه وغسل اليدين ، وإحسان الجلسة على السفرة والرضا بالموجود من الرزق ، وأما آداب حالة الأكل فمنها البدء ببسم الله ، والأكل باليمنى وأن يأكل الإنسان مما يليه ويحمد الله في نهايته ، وهناك من الآداب ما يستحب بعد الطعام ومن ذلك أن يمسك

قبل الشبع وليحمد اللَّه .

كما أن هناك آدابًا أخرى تتعلق بالاجتماع والمشاركة في الأكل ؛ منها :

ألا يبدأ بالطعام ومعه من يستحق التقديم ، وعدم السكوت عليه ، وألا يأكل أكثر من رفيقه إلا برضاه ، وألا يفعل ما يستقذره غيره ، ثم يتناول آداب تقديم الطعام إلى الإخوان والزائرين ، وآداب الزائر والضيافة ومن ذلك ما يتعلق بالدعوة والإجابة والحضور . ويختتم هذا الكتاب بعدد من الآداب والمناهي الطبية والشرعية المتعلقة بالطعام وتناوله ، ويتصل هذا الحديث عن آداب الاجتماع والمشاركة في الأكل ، وآداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين وآداب الضيافة ، وذلك بموضوع سيكولوجية العلاقات الشخصية المتبادلة Interpersonal Relationships (ص ٧ - ١٤) والأخلاق Morality وذلك في إطار علم النفس الاجتماعي (ص ٧ - ١٤) .

٢ - كتاب آداب النكاح :

يتناول هذا الكتاب الترغيب في النكاح والترغيب عنه ، والأدلة من القرآن والسنة التي تحث على النكاح وترغب فيه لفوائده ؛ ومنها : الولد والتحصن من الشيطان بدفع غوائل الشهوة ، وترويح النفس وإيناسها بمخالطة الزوجة ، ومجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل ، وأما آفات النكاح فمنها : العجز عن طلب الحلال ، وأن يكون الأهل والولد شاغلًا له عن اللَّه تعالى ، ويشير الغزالي هنا إلى أن من الأفضل الجمع بين فضل العبادة والنكاح كما فعل الرسول ﷺ .

ثم يتناول عقد الزواج وأركانه وشروطه ، وآداب المعاشرة ، وما على الزوج والزوجة من واجبات ، أما الزوج فعليه مراعاة الاعتدال في عدة أمور ؛ منها : الوليمة والمعاشرة والدعابة والغيرة والتعليم والوقاع . وأما حقوق الزوج على الزوجة فمنها طاعته مطلقًا في كل ما طلب منها في نفسها مما لا معصية فيه ، والستر والصيانة والقناعة وتدبير البيت .

وفيما يتعلق بالمفاهيم السيكولوجية الواردة في كتاب النكاح ، فيمكن القول إن هذا الحديث عن الزواج وما يتعلق به يتصل في مضمونه العام بموضوع سيكولوجية العلاقات الشخصية المتبادلة Interpersonal Relationship (ص ٢٢ - ٦٢) ؛ حيث يتناول الحديث العلاقة بين الزوج والزوجة ، ونظرًا لخصوصية هذه العلاقة فيمكن إدراجها في إطار سيكولوجية العلاقة الزوجية .

٣ - كتاب آداب الكسب والمعاش :

يتناول هذا الكتاب فضل الكسب ، والأدلة النقلية التي تحث على الكسب وتبين فضله ، كما يتناول علم الكسب بطريق البيع والربا والإجارة والقراض والشركة ، فيبين شروط وأركان عقد البيع ، وأقسام الربا ، وأركان عقد الإجارة والقراض ، وأنواع الشركة الباطلة والصالحة .

ثم يبين أنواع الضرر والظلم التي تلحق بالغير ؛ فمنها : ما يعم ضرره كالاحتكار ، وهو منهي عنه لما فيه من غلاء السعر ، ومنها ما يخص المشتري كأن يثني البائع على السلعة بما ليس فيها ، ويكتم بعض عيوبها .

ويتناول أيضًا الإحسان في المعاملة كالمسامحة في البيع ، والحديث عن شفقة التاجر على دينه فيما يخص ويعم آخرته ، فلا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده ، ولكن يجب أن يلازم ذكر اللَّه تعالى في السوق ، وألا يكون شديد الحرص على التجارة ، وأن يتقي مواقع الشبه والريب .

ويتصل هذا الحديث عن البيع والشراء والمعاملات التجارية بموضوع سيكولوجية التسويق Marketing ومراعاة القيم الخُلُقية والدينية في المعاملات التجارية (ص ٦٦ - ٨٨) .

٤ - كتاب الحلال والحرام :

ويتناول فضيلة الحلال ومذمة الحرام ، وأنواع كلٍّ منهما ودرجاته ، وبيان مراتب الشبهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام ، والظروف التي يجب فيها البحث والسؤال وتحري الحلال ، ثم بيان كيفية خروج التائب عن المظالم المالية ، وبيان مصارف إخراج الحرام وتنحصر في ثلاثة أحوال ؛ هي :

١ - أن يكون له مالك فيجب الصرف إليه .

٢ - إن يئس من معرفة المالك فليتصدق به .

٣ - إن كان من الأموال المرصدة لصالح المسلمين ، صرف إلى ما ينفعهم .

ويختتم هذا الكتاب ببيان ما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة وما يحرم ، وحكم غشيان مجالسهم ، والدخول عليهم ، والإكرام لهم .

٥ - كتاب آداب الأُلفة والأُخوة والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق :

يتناول الإمام الغزالي في هذا الكتاب بيان فضيلة الألفة والأخوة وشروطها ودرجاتها وفوائدها ، فيشير إلى أن الألفة ثمرة حسن الخلق ، كم يبين معنى الأخوة في اللَّه ، وتمييزها من الأخوة في الدنيا ، وأنواع الصحبة ، وتنقسم إلى ما يقع بالاتفاق كالصحبة بسبب الجوار ، وإلى ما ينشأ اختيارًا ومنها الأخوة في الدين ، ويوضح معنى الحب في اللَّه تعالى ، وللَّه ومظاهره ، والبغض في اللَّه ومراتبه ، ثم يذكر الصفات المشروطة في اختيار الصاحب ، وهي أن يكون عاقلًا ، حسن الخلق ، غير فاسق ، ولا مبتدع ، ولا حريص على الدنيا .

ويتناول هذا الكتاب أيضًا بيان حقوق الأخوة والصحبة ؛ ومنها : الحق في المال ، والإعانة بالنفس في قضاء الحاجات ، والسكوت عن عيوبه ، والنطق بالمحاسن ، والعفو عن الزلات والهفوات ، والدعاء له في حياته وبعد مماته .

ثم يتناول آداب العشرة والمجالسة ؛ ومنها : أن تتوقر من غير كبر ، وتتواضع في غير مذلة ، وأن تلقى الصديق والعدو بوجه الرضا من غير ذل لهم ولا خوف منهم .

ثم يبين حقوق المسلم على المسلم ؛ ومنها : السلام ، وإجابة الدعوة ، وزيارته في المرض ، وبر قسمه إذا أقسم ، والنصح له إذا طلب النصيحة ، وكذلك حقوق الجار ، والأقارب ، وصلة الرحم .

وهذا الحديث عن الصحبة والأُلفة والأُخوة قد تضمن إشارات لعدة مفاهيم نفسية هي : مفهوم الصداقة Friendship (ص ١٥٩ - ١٨٨) ، ومفهوم العلاقات الشخصية المتبادلة Interpersonal Relationships (ص ١٨٩ - ٢٧٤) ، ومفهوم الانفعالات Emotions وبخاصة انفعال الحب والكراهية (ص ١٦٧ - ١٧٨ ، ص ١٨٤ - ١٨٥) ، ومفهوم الأخلاق Morality (ص ١٥٥ - ٢١٤) ، ثم مفهوم العداوة Hostility (ص ١٦٦ - ١٦٧) .

٦ - كتاب آداب العزلة :

يتناول بيان اختلاف الناس من حيث تفضيل العزلة أو المخالطة ، وحجج كل فريق من وجهة نظره ، وأن لكلٍّ منهما فوائد وغوائل ، فمن فوائد العزلة : الفراغ للعبادة والتخلص عن المعاصي ، والفتن ، والخصومات ، وانقطاع طمع الناس ، والخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى ، وأما آفات العزلة فتبدو من فوائد المخالطة ؛ وهي : التعلم

والتعليم ، والنفع والانتفاع ، والتأديب والتأدب ، والاستئناس والإيناس ، ونيل الثواب في القيام بالحقوق ، واعتياد التواضع ، واستفادة التجارب من هذه الأحوال والاعتبار بها .

كما يتناول آداب العزلة ، ومنها : أنه ينبغي للمعتزل أن ينوي بعزلته كف شرّه عن الناس ، وطلب السلامة من الأشرار ، والخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين ، ثم تجريد الهمة لعبادة اللّه تعالى ، وأن يكون في الخلوة مواظبًا على العلم والعمل والذكر والفكر ، والصبر على أذى الناس ، وأن يكون كثير الذكر للموت .

يتضمن هذا الحديث عن العزلة والمخالطة إشارة لبعض المفاهيم النفسية هي مفهوم الانسحاب الاجتماعي Social withdrawal (ص ٢٢٢ - ٢٤٣) ، وسيكولوجية العلاقات الشخصنية المتبادلة Interpersonal Relationships (ص ٢٢٢ - ٢٤٣) ، ومفهوم التعلم Learning (ص ٢٣٦ - ٢٣٧) ، ومفهوم الخبرة Experience (ص ٢١٤ - ٢٤٢) .

٧ - كتاب آداب السفر :

يتناول الغزالي في هذا الكتاب آداب السفر وفوائده وفضله ونيته ، وفيما لا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر ، وأدلة القبلة والأوقات ، فيشير إلى أن السفر وسيلة إلى الخلاص من مهروب معين ، أو الوصول إلى مرغوب فيه ، وأن السفر سفران أحدهما : بظاهر البدن عن الوطن ، والثاني : بسير القلب من أسفل سافلين إلى ملكوت السموات وهذا أشرف النوعين .

ومن فوائد السفر : الهرب من الولاية والجاه وكثرة العلائق ، وأما آدابه ؛ فمنها : رد المظالم ، وقضاء الديون ، وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته ، ورد الودائع ، واختيار رفيق صالح ، ووداع الأهل والأصدقاء ، ولا بد للمسافر أن يتزود للدنيا بالمطعم والمشرب وما يحتاج إليه ، وأن يتزود للآخرة بالعلم الذي يحتاج إليه في جميع عباداته .

٨ - كتاب آداب السماع والوجد :

ويتناول بيان اختلاف العلماء في إباحة السماع (الغناء والموسيقى) ، وكشف الحق في ذلك ، فالسماع يؤدي إلى حالة في القلب تسمى الوجد ، ويثمر الوجد تحريك الأطراف إما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب ، وإما موزونة فتسمى التصفيق والرقص .

ويبين الدليل على إباحة السماع ومواضع الإباحة ، وما هو محرم من السماع بأدلة

الشرع ، والعوارض المحرمة للسماع ، وحجج القائلين بتحريمه والجواب عنها ، كما يبين آثار السماع وآدابه ؛ ومنها : مراعاة الزمان والمكان والإخوان ، والإصغاء لما يقوله القائل ، والتحرز عن النظر إلى وجوه المستمعين والتماسك عن التصفيق والرقص ، وموافقة القوم في القيام ، فإذا قام واحد منهم في وجد صادق من غير رياء وتكلف ، أو قام باختياره من غير إظهار وجد وقامت له الجماعة ، فلا بد من الموافقة ، فذلك من آداب الصحبة .

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الحديث عن السماع والوجد يتصل بموضوع الانفعالات Emotions (ص ٢٢٦ - ٣٠٢) وبخاصة فيما يتعلق بانفعالات الفرح والسرور وعلاج الحزن بسماع الألحان (ص ٢٦٨) ، كما تضمن إشارة لمفهوم الصداقة Friendship (ص ٣٠١) .

٩ - كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

يتناول هذا الكتاب الحديث عن وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفضيلته ، والمذمة في إهماله وإضاعته ؛ لأنه القطب الأعظم في الدين ، وبيان الدلائل العقلية والنقلية من القرآن والأخبار والآثار التي تحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتوضح فضله ، وبيان أركانه ، وهنا يذكر الغزالي أربعة أركان للحسبة تعد شاملة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ وهي : المحتسب والمحتسب عليه ، والمحتسب فيه ، ونفس الاحتساب ، وأن لكلٍّ منها شروطه ، فشروط المحتسب هي التكليف والإسلام والإيمان والعدالة ، وهنا يشير إلى خمس مراتب للحسبة ؛ هي : التعريف ، والوعظ بالكلام اللطيف ، والسب والتعنيف ، وليس المقصود بالسب الفحش ، بل أن يقول مثلًا : يا جاهل ألا تخاف الله ؟ والمنع بالقهر ككسر الملاهي ، والتخويف والتهديد بالضرب حتى يمنع عما هو عليه .

وأما شروط ما فيه الحسبة : أن يكون منكرًا موجودًا في الحال ظاهرًا للمحتسب بغير تجسس ، معلوم كونه منكرًا بغير اجتهاد .

وبالنسبة لشروط المحتسب عليه : فيكفي في صفته أن يكون إنسانًا ، وبعد ذلك يبين درجات وآداب نفس الاحتساب ، فالدرجات أولها التعرف ، ثم التعريف ، ثم النهي ، ثم الوعظ والنصح ، ثم السب والتعنيف ، ثم التغيير باليد ، ثم التهديد بالضرب ، ثم إيقاع الضرب وتحقيقه ، ثم شهر السلاح ثم الاستظهار فيه بالأعوان وجمع الجنود .

وفيما يتعلق بآداب المحتسب : فجميعها مصدره العلم ، والورع ، وحسن الخلق .

ويختتم هذا الكتاب ببيان المنكرات المألوفة في العادات ؛ ومنها منكرات المساجد ، والأسواق والشوارع ، والحمامات ، ومنكرات الضيافة ، ثم الحديث عن أمر الأمراء

والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

يمكن أن يتصل هذا الحديث عن كيفية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بموضوع الإرشاد النفسي Counseling Psychology (ص ٣٠٢ - ٣٥١) ، كما يتضمن إشارة لمفهوم العادات Habits (ص ٣٣٠ - ٣٣٦) ، ومفهوم الأخلاق Morality (ص ٣٢٨ - ٣٣٥) .

١٠ - كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة :

يتناول هذا الكتاب بيان تأديب اللَّه تعالى حبيبه وصفيه محمدًا ﷺ بالقرآن ، ويسوق جملة من محاسن أخلاقه ؛ ومنها الحلم ، والسخاء ، والحياء ، والعطف ، وأنه ﷺ كان يخدم في مهنة أهله ، ويجيب دعوة المملوك ، ويعوِّد المرضى ، ويمضي وحده ، ويردف خلفه ويقبل الهدية ويكافئ عليها ، ويلبس ما وجد ، ويكرم أهل الفضل ، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمات اللَّه ، وكان يعفو مع المقدرة ، كما كان أصدق الناس لهجةً ، وأفصحهم منطقًا وأوفاهم ذمةً وأكرمهم عشرة ، إلى غير ذلك من الصفات الحميدة والأخلاق الرفيعة التي لخصها قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

وينتقل الإمام الغزالي بعد هذا الحديث عن أخلاق النبوة إلى بيان عدد من المعجزات التي اختص بها الرسول ﷺ ومن أعظمها القرآن الكريم ، وهو المعجزة الخالدة ، وهناك معجزات أخرى ؛ منها : انشقاق القمر ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وإطعامه الخلق الكثير من الطعام اليسير ، وحنين الجذع إليه ، إلى غير ذلك من المعجزات التي شاعت ولم يوجد سبيل إلى كتمانها .

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الحديث عن أخلاق النبوة يتصل بموضوع سيكولوجية الأخلاق Morality وذلك في إطار علم النفس الاجتماعي (ص ٣٥١ - ٣٨٤) .

الجزء الثالث : المهلكات :

يتضمن هذا الجزء عشرة كتب نعرض لها على النحو التالي :

١ - كتاب شرح عجائب القلب :

يتناول الغزالي في هذا الكتاب بيان معنى النفس ، والروح ، والقلب ، والعقل ، فيرى أن لفظ القلب يطلق على معنيين : أحدهما : اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر ، والثاني : هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق ،

وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان .

ويطلق لفظ الروح على معنيين : أحدهما : جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني ، والثاني : هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان ، والنفس كذلك لها معنيان : أحدهما : يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان ، والمعنى الثاني : هو اللطيفة التي هي الإنسان بالحقيقة وهي نفس الإنسان وذاته .

وأما اللفظ الرابع وهو العقل ، فيراد به معنيان أيضًا : أحدهما : أن يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور ، والثاني : يراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب .

ويتناول بعد ذلك ، جنود القلب ؛ وهي ثلاثة : الأول : باعث ومستحث إما إلى جلب النافع الموافق للشهوة ، وإما إلى دفع المضار كالغضب ، والثاني : هو المحرك للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد ، ويعبر عنه بالقدرة والثالث : هو المدرك المتعرف للأشياء ، وينقسم إلى : الحواس الخمس ؛ وهي قوة البصر ، والسمع ، والشم ، والذوق ، واللمس ، ويعبر عن هذا بالعلم والإدراك ، كما ينقسم إلى خمسة أخرى هي : الخيال ، والحفظ ، والتفكير ، والتذكر ، والحس المشترك الذي يجمع جملة معاني المحسوسات في الخيال ، وتقع هذه الخمسة في تجويف الدماغ .

ثم ينتقل إلى الحديث عن خاصية قلب الإنسان ومجامع أوصاف القلب ، وحال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم العقلية والدنيوية والأخروية ؛ حيث يرى أن القلب بغريزته مستعد لقبول حقائق المعلومات ، ولكن العلوم التي تحل فيه تنقسم إلى عقلية وشرعية ، كما تنقسم العلوم العقلية إلى ضرورية ومكتسبة ، وتنقسم المكتسبة إلى دنيوية وأخروية ، وتأخذ العلوم الدينية عن طريق التقليد والمحاكاة من الأنبياء صلوات اللَّه عليهم .

ثم يبين الفرق بين الإلهام والتعلم ، والفرق بين طريق الصوفية في استكشاف الحق وطريق النظار ، وشواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد ، ويبين كذلك تسلط الشيطان على القلب بالوسواس ، ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها ، فيشير إلى أن الغضب والشهوة هما المدخل لتسلط الشيطان بواسطة الهوى .

ويختتم هذا الكتاب ببيان ما يؤاخذ به العبد من وساوس القلوب وهمها وخواطرها ومقاصدها ، وما يعفى عنه ولا يؤاخذ به ، واختلاف العلماء في أن الوسواس هل ينقطع كلية

مع ذكر الله أم لا ؟ ، ثم بيان سرعة تقلب القلب ، وانقسام القلوب في التغير والثبات .

وقد تضمن هذا الكتاب إشارة إلى عدد من المفاهيم النفسية ؛ هي : الإحساس Sensation (ص ٤ - ١٤) والإدراك الحسي Perception (ص ٤ - ١٤) والانفعال Emotion (ص ٤ - ١٤) وبخاصة الدوافع البيولوجية (ص ٢٥ - ٣٧) ، ومفهوم الحافز Incentive (ص ٤ - ١٤) ، والذكاء Intelligence (ص ٤ - ١٤) ، والقدرة Ability (ص ٤ - ١٤) ، والتخيل Imagination (ص ٤ - ١٤) ، والتعلم Learning (ص ١٥ - ١٨) ، والتقليد Imitation (ص ١٦) ، والغريزة أو الفطرة Innate (ص ١٥ ، ١٦) ، والوسواس Obsession (ص ٢٥ - ٣٩ ، ص ٤٢ - ٤٤) .

٢ - كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب :

يتناول بيان حقيقة حسن الخلق وفضيلته ، ومذمة سوء الخلق ، وأن هناك أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق ؛ وهي : قوة العلم ، وقوة الغضب ، وقوة الشهوة ، وقوة العدل .

ويمكن للأخلاق أن تتغير برياضة النفس .

كما يتناول بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق ؛ فحسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة ، واعتدال قوة الغضب والشهوة ، ويحصل هذا الاعتدال على وجهين : أحدهما : بجود إلهي وكمال فطري ، والثاني : اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة ، كما أن اعتدال الأخلاق هو صحة النفس ، ويكون علاج النفس بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها ، وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة ، ويتناول أيضًا بيان علامات أمراض القلوب ، وعلامات عودها إلى الصحة ، والطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه ، والشواهد العقلية والنقلية على أن الطريق في معالجة أمراض القلوب هو ترك الشهوات ، ثم علامات حسن الخلق ؛ ومنها : الحياء ، وصدق اللسان ، وكثرة الصلاح والعمل ، وقلة أذى الغير ، والبر ، والوقار ، والصبر ، والشكر ، والرضا ، والحلم ، والرفق ، والعفة وعدم الغيبة والنميمة والحقد والبخل والحسد ، وحسن الإنصاف ، والتماس المعذرة ، واحتمال الأذى .

وينتقل الغزالي بعد ذلك إلى بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشأتهم ، ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم ، فيجب على الوالد أن يؤدب ولده ويهذبه ويعلمه محاسن

الأخلاق ، ويحفظه من قرناء السوء ، ولا يعوده التنعم ، ولا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة ، وينبغي أن يحسن مراقبته ، ويسمح له باللعب الجميل ؛ لأن إرهاق الطفل في التعلم دائمًا يميت قلبه ويبطل ذكاءه ، وأن يعلمه الطاعة ، وألا يسامحه في ترك الطهارة والصلاة ، ويخوفه من السرقة والكذب ، ويختتم هذا الكتاب ببيان شروط الإرادة ومقدمات المجاهدة ، وتدريج المريد في سلوك سبيل رياضة النفس ومجاهدتها .

تضمن هذا الكتاب إشارة لبعض المفاهيم النفسية ؛ وهي : مفهوم الأخلاق Morality (ص ٤٨ - ٧١) ، والدوافع Motives (ص ٥٢ - ٦٥) ، والانفعالات Emotions (ص ٥٢ - ٦٠) ، وتعديل السلوك Behavior Modification (ص ٥٤ - ٥٦) ، والتعلم Learning (ص ٥٦ - ٥٩) ، ومفهوم السواء Normality (ص ٥٩) ، وصورة الذات Self-Image (ص ٦٢) ، كما يتحدث عن تأديب الصبيان ، وتحسين أخلاقهم بموضوع التنشئة الاجتماعية Socialization في إطار علم النفس الاجتماعي (ص ٦٩ - ٧٢) .

٣ - كتاب كسر الشهوتين :

يدور هذا الكتاب حول شهوتي البطن والفرج ، فيتناول بيان فضيلة الجوع وذم الشبع ، وآفاته ، وطريق الرياضة في كسر شهوة البطن ، وآفة الرياء المتطرق إلى من ترك أكل الشهوات وقلل الطعام ؛ لأنه يعتبر شركًا خفيًا ، ثم يتناول بيان القول في شهوة الفرج ، فيذكر فائدتين لها ؛ وهما : أن يدرك لذته فيقيس به لذات الآخرة ، وبقاء النسل ، ثم يذكر آفاتها ومنها : قهر العقل والدين في الإفراط فيها ، وذلك مذموم ، وفي التفريط فيها بالعنة أو بالضعف ، وهو مذموم أيضًا ، وأما المحمود هو الاعتدال فيها ، وأن تكون للعقل والشرع .

ويختتم هذا الكتاب ببيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين ، فالثواب الجزيل في ترك الزنى خوفًا من اللَّه تعالى مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسر الأسباب .

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الحديث عن شهوتي الفرج والبطن يتصل بموضوع الدوافع Motives (ص ٧٧ - ١٠٣) وبخاصة الدوافع الأولية أو البيولوجية ، ويتناول الحديث هنا الدافع الجنسي ، ودافع الجوع .

٤ - كتاب آفات اللسان :

يتناول الإمام الغزالي هنا بيان خطر اللسان وفضيلة الصمت ؛ حيث يذكر عشرين آفة مَن آفات اللسان ؛ ومنها : الكلام فيما لا يعني الإنسان ، وفضول الكلام ، والخوض في الباطل ، والمراء ، والجدال والتقعر في الكلام بالتشدق وتكلف السجع ، ومنها أيضًا الفحش والسب ، وبذاءة اللسان ، واللعن والغناء ، والشعر ، والمزاح ، والسخرية ، وإفشاء السر ، والوعد الكاذب ، والغيبة ، والنميمة ، والمدح في بعض المواضع .

ويمكن أن يتصل هذا الحديث عن آفات اللسان بموضوع سيكولوجية العلاقات الشخصية المتبادلة Interpersonal Relationships (ص ١٣٨ - ١٥٨) وموضوع الأخلاق Morality في إطار علم النفس الاجتماعي (ص ١٣٨ - ١٥٨) .

٥ - كتاب ذم الغضب والحقد والحسد :

ويتناول بيان الغضب وحقيقته ، وهل يمكن إزالة أصله برياضة النفس أم لا ؟ وبيان الأسباب المهيجة للغضب وكيفية علاجه ، ثم بيان فضيلة كظم الغيظ والحلم ، والقدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام .

ويتناول هذا الكتاب أيضًا بيان معنى الحقد ونتائجه ، وفضيلة العفو والرفق والإحسان ، فيشير إلى أن الحقد ثمرة الغضب ، وأنه يؤدي إلى الحسد ، ثم بيان ذم الحسد وحقيقته وحكمه وأقسامه ومراتبه وأسبابه ؛ ومنها : العداوة ، والتعزز ، والكبر ، والتعجب ، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة ، وحب الرياسة ، وخبث النفس ، ثم يتناول بعد هذا ، السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران ، والإخوة ، والأقارب ، وتأكده وقلته في غيرهم ، والدواء الذي ينفي الحسد عن القلب وهو معرفة الضرر الذي يلحق بالحاسد في الدنيا والدين ، وأن يكلف الإنسان نفسه بنقيض كل ما يتقاضاه الحسد من قولٍ أو فعل وتجدر الإشارة إلى أن هذا الحديث عن الغضب وحقيقته يتصل بموضوع الانفعالات Emotions وبخاصة انفعال الغضب ، وذلك في إطار علم النفس العام (ص ١٦٠ - ١٧٧) ، كما أن الأسلوب الذي استخدمه الغزالي في علاج الغضب والحقد والحسد قد سبق به المعالجين النفسيين السلوكيين المحدثين .

٦ - كتاب ذم الدنيا :

يدور هذا الكتاب حول بيان ذم الدنيا ، والآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية الواردة

في هذا الشأن ، ثم بيان صفة الدنيا وحقيقتها وماهيتها في حق العبد وفي نفسها ، وأشغالها التي استغرقت همم الخَلق حتى أنستهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم وموردهم .

٧ - كتاب ذم البخل وذم حب المال :

ويتناول بيان ذم المال وكراهة حبه ؛ لأنه ينبت النفاق في القلب ، مشيرًا إلى أن المال قد يكون خيرًا كما سماه اللَّه في بعض المواقع في كتابه العزيز ؛ وذلك لما للصدقة والحج من الثواب ؛ إذ لا يمكن الوصول إليهما إلا به ، ثم يبين تفاصيل آفات المال وفوائده ، **فأما فوائده فتنقسم إلى :**

١ - دنيوية : وهي معروفة ومشتركة بين أصناف الخَلق .

٢ - دينية : كالإنفاق منه في العبادة أو الاستعانة عليها ، أو فيما يصرفه إلى الناس ، كالصدقة وفي الخير العام كبناء المساجد .

وأما آفاته فمنها :

أنه يجر إلى المعاصي غالبًا ، ويلهي عن ذكر اللَّه .

ثم يتناول بيان ذم الحرص والطمع ، ومدح القناعة واليأس مما في أيدي الناس ؛ حيث يجر الحرص والطمع إلى مساوئ الأخلاق ، وارتكاب المنكرات ، وأن غنى النفس وهناء العيش في القناعة ، ويبين أيضًا علاج الحرص والطمع ، والدواء الذي تُكتسب به صفة القناعة ، وذلك من خلال ثلاثة أمور ؛ هي : الصبر ، والعلم ، والعمل ، ويتناول بيان فضيلة السخاء عند وجود المال ؛ لأنه من أخلاق الأنبياء وأصل من أصول النجاة ، ويروي مجموعة من حكايات الأسخياء ، ثم بيان ذم البخل ؛ لأنه من المهلكات كما ورد ذلك في القرآن والسنة ، ويسوق عددًا من حكايات البخلاء ، مشيرًا إلى أن الإيثار وهو الجود بالمال مع الحاجة إليه يمثل أرفع درجات السخاء .

وينتقل الإمام الغزالي بعد ذلك إلى بيان حد السخاء والبخل وحقيقتهما ، وكيفية علاج البخل من خلال علاج أسباب حب المال ، ومثال ذلك أن يعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير والصبر ، ويعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت .

ويختتم هذا الكتاب ببيان الوظائف التي على العبد في ماله ؛ ومنها : معرفة مقصود المال ، ومراعاة جهة دخل المال وجهة مخرجه ، ثم بيان ذم الغنى ومدح الفقر .

ونلاحظ مما سبق أن الأسلوب الذي يتبعه الغزالي في علاج الحرص والطمع يقترب

من أساليب المعالجين النفسيين السلوكيين المحدثين في التخلص من العادات السيئة ، وهو بذلك قد سبقهم في استخدام هذه الأساليب .

٨ - كتاب ذم الجاه والرياء :

يتناول هذا الكتاب بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت وهما أصل الجاه ، وفضيلة الخمول وذم حب الجاه ، وبيان معنى الجاه وحقيقته ، فيشير إلى أن الجاه يعني قيام المنزلة في قلوب الناس ، أي اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه ، ثم بيان سبب كون الجاه محبوبًا بالطبع ، حتى لا يخلو عنه قلب بشديد المجاهدة ، ويتناول ما يحمد وما يذم في حب الجاه ؛ إذ لا بد للإنسان من جاهٍ لضرورة المعيشة مع الخلق ، وسلطان يحرسه ورفيق يعينه ، وحب ذلك ليس بمذموم .

أما طلب المنزلة في قلوب الناس باعتقادهم صفة غير موجودة فيه ؛ كالعلم ، والورع ، والنسب فذلك محظور .

ويبين الغزالي هنا أيضًا السبب في حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع إليه ، وبغضها للذم ونفرتها منه ، ومن ذلك شعور النفس بالكمال .

كما يقدم وصفًا لكيفية علاج حب الجاه من خلال العلم والعمل ، وعلاج حب المدح وكراهة الذم من خلال معرفة أسبابهما .

ثم ينتقل المؤلف إلى بيان اختلاف أحوال الناس في المدح والذم ، فمنهم من يفرح بالمدح ومنهم من يكرهه ، وبيان ذم الرياء ، فيشير إلى أن الرياء حرام ، وأن المرائي ممقوت عند اللَّه تعالى ، مستشهدًا على ذلك من القرآن والسنة ، ويبين حقيقة الرياء وما يراءى به ، فيذكر أن الرياء هو طلب المنزلة في القلوب بالعبادات وإظهارها ، وأن المراءى به كثير ومنه : البدن ، والزي ، والقول والعمل ، والأتباع ، كما أن هناك درجات متابينة في الرياء باختلاف أركانه الثلاثة ؛ وهي : المراءى به ، والمراءى لأجله ، ونفس قصد الرياء .

ويقسم الرياء إلى رياء خفي وآخر جلي ، ويبين ما يحبط العمل من الرياء الخفي والجلي وما لا يحبط ، ودواء الرياء وطريق معالجة القلب منه باستئصال أصوله ، ودفع ما يخطر منه في الحال ، ويرى الغزالي هنا أن في الإسرار للأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء ، وفي الإظهار فائدة الاقتداء ، وترغيب الناس في الخير ، ولكن فيه آفة الرياء ، فالسر أحرز

العلمين ، ولكن في الإظهار أيضًا فائدة ؛ ولذلك أثنى اللّٰه تعالى على السر والعلانية .

كما يتناول هذا الكتاب أيضًا الرخص في كتمان الذنوب ، وكراهة اطلاع الناس عليها ، وبيان أن من ترك العمل والطاعات خوفًا من الرياء ودخول الآفات ، يعد موافقًا لمكايد الشيطان ، وبيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح ، ويختتم هذا الكتاب بذكر ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه به قبل العمل وبعده وفي أثنائه ، وهو القناعة بعلم اللّٰه في جميع طاعاته .

تضمن هذا الحديث عن الجاه والرياء إشارة لبعض المفاهيم النفسية هي مفهوم الذات Self-concept أو صورة الذات Self-Image (ص ٢٧٩ – ٢٨٥) عند الحديث عن ارتياح النفس للمدح والثناء وشعورها بالكمال ، وكذلك مفهوم الاقتداء Modeling (ص ٣٠٨ – ٣١٠) والأخلاق Morality (ص ٢٨٦ – ٣٠٧ ، ص ٣١٣ – ٣٢٠) وذلك في إطار علم النفس الاجتماعي . كما أنه مما يجدر الإشارة إليه هو الأسلوب الذي اتبعه الغزالي في علاج الرياء وهو يقرب من أساليب المعالجين النفسيين السلوكيين المحدثين .

٩ - كتاب ذم الكبر والعجب :

ويتناول بيان ذم الكبر والاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب ، مستشهدًا بالآيات القرآنية والأحاديث الواردة في ذم الكبر والمتكبر ، وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة .

ثم يبين فضيلة التواضع وثوابه عند اللّٰه تعالى ، وحقيقة الكبر وآفته ، وأن من شر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم ، وقبول الحق ، والانقياد له ، وقد يكون المتكبر عليه هو اللّٰه تعالى وذلك أفحش أنواع الكبر ، أو رسله أو سائر خلقه .

وأما ما يتكبر به فقد يكون لسبب ديني : وهو العلم والعمل ، أو لسبب دنيوي : وهو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار .

وفيما يتعلق ببواعث الكبر والتكبر فهي ثلاثة :

١ – العجب : ويتعلق بالمتكبر .

٢ – الحقد والحسد : وذلك للمتكبر عليه .

٣ – الرياء : ويتعلق بغيرهما .

ثم يتناول أخلاق المتواضعين ، وما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر من الأقوال والأفعال ، ويبين الطريق في معالجة الكبر ، واكتساب التواضع باستئصال أصله وقطع

شجرته ؛ وذلك بأن يعرف الإنسان نفسه وربه ، ويتواضع للّه وللخلق ، ثم يدفع العارض من الكبر بالأسباب الخاصة التي يها يتكبر الإنسان على غيره ، مشيرًا إلى أن خلق التواضع كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة ، فطرفه الذي يمثل إلى الزيادة يسمى تكبرًا ، وطرفه الذي يمثل إلى النقصان يسمى تخاسسًا ومذلة ، ويسمى الوسط تواضعًا ، والمحمود هو التواضع من غير مذلة ومن غير تخاسس .

وينتقل الإمام الغزالي بعد هذا إلى بيان ذم العجب ، فيعرف العجب بأنه : إعجاب المرء بنفسه ، ويذكر آفاته ومنها أنه يدعو إلى الكبر ونسيان الذنوب ، كما يبين السبيل لعلاجه ، ثم يقسم ما به العجب إلى ثمانية أقسام ؛ هي : العجب بالبدن ، والقوة ، والعقل ، والنسب ، والعجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم ، والعجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب والأنصار والأتباع ، والعجب بالمال ، ثم العجب بالرأي الخطأ ، وهو من أصعب أنواع العجب علاجًا .

يتصل هذا الحديث عن الكبر والعجب بموضوع سيكولوجية الأخلاق Morality (ص ٣٢٧ - ٣٦٧) ، والعلاج النفسي السلوكي لهذه الآفات الخلقية (ص ٣٢٧ - ٣٦٧) .

١٠ - كتاب ذم الغرور :

يدور هذا الكتاب الأخير من ربع المهلكات حول بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثلته ، وأن اللّه تعالى قد ذمه في كتابه العزيز ، فيعرف الغرور بأنه : سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ، ويميل إليه الطبع ، عن شبهة وخدعة من الشيطان ، فمن اعتقد أنه على خير إما في العاجل أو الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور .

ويختلف الناس في أصناف ودرجات غرورهم ، وأشد هذه الأصناف وأظهرها : غرور الكفار وغرور العصاة والفساق .

كما أن هناك أربعة أصناف للمغترين ؛ هي :

١ - أهل العلم .

٢ - أرباب العبادة والعمل .

٣ - المتصوفة .

٤ - الأغنياء .

ويندرج تحت كل صنف من الأصناف الأربعة فرق متعددة ، ويختتم هذا الكتاب بالإشارة إلى أنه يمكن التخلص من الغرور بثلاثة أشياء لا بد منها جميعًا ؛ هي : العقل ، والعلم بكيفية سلوك الطريق إلى اللّٰه ، ومعرفة الإنسان بنفسه وربه وبالدنيا والآخرة .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الحديث عن الغرور يمكن أن يتصل بموضوع سيكولوجية الشخصية Personality (ص ٣٦٨ - ٤٠٢) ، وأن علاج الغرور يدخل في إطار العلاج النفسي السلوكي (ص ٣٦٨ - ٤٠٢) .

الجزء الرابع : المنجيات :

يتضمن هذا الجزء الأخير من إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي عشرة كتب نعرض لها على النحو التالي :

١ - كتاب التوبة :

ويتناول بيان حقيقة التوبة ، وهي أنها عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور ؛ هي :

١ - العلم : وهو معرفة عظم ضرر الذنوب .

٢ - الحال : وهو الندم .

٣ - الفعل : وهو العزم على ترك الذنوب الحالية والمستقبلة .

ويبين وجوب التوبة وفضلها مستشهدًا بالأخبار والآيات ، وأنها واجبة على الفور ، وعلى كل الأشخاص وفي كل الأحوال . كما أن لها شروطًا إذا اجتمعت فإنها مقبولة لا محالة .

ثم يقسم صفات الذنوب إلى أربع صفات ؛ هي :

١ - صفات ربوبية : كالكبر والفخر وحب المدح والثناء ، وهي مهلكة .

٢ - صفات شيطانية : كالحسد والبغي والخداع والنفاق .

٣ - صفات بهيمية : كالحرص على قضاء شهوتي البطن والفرج ، فينتج من ذلك الزنى والسرقة .

٤ - صفات سبعية : وهي الغضب والحقد والقتل وأخذ أموال الناس .

وتنقسم الذنوب إلى ما بين العبد وبين اللّٰه ، وإلى ما يتعلق بحقوق العباد ، فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة والصوم ، وما يتعلق بحقوق العباد كترك الزكاة والقتل وغصب الأموال وشتم الناس .

كذلك تنقسم الذنوب إلى صغائر وكبائر ، فأما الكبائر : فهناك اختلاف في ما يتعلق بعددها ، ولكن منها الشرك باللَّه ، والسحر ، والقتل ، وأكل الربا ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات ، وعقوق الوالدين ، وقول الزور ، وأما أصغر الصغائر من الذنوب فلا سبيل لمعرفته .

ويوضح الغزالي بعد ذلك كيفية توزيع الدرجات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا ، فيذكر أن الناس يتفاوتون في الآخرة كما تفاوتوا في الدنيا ، وينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام : هالكين ، ومعذبين ، وناجين ، وفائزين .

ويتفاوت كل قسم من هذه الأقسام في النعيم والتعذيب بحسب أحوال الناس في كل قسم منها .

ثم يبين ما تعظم به الصغائر من الذنوب ؛ حيث تكبر الصغيرة بأسباب الإصرار والمواظبة على فعلها ، واستصغار الذنوب ، والفرح بالصغيرة والتمدح بها ، والتهاون بستر اللَّه تعالى وحلمه عنه وإمهاله إياه ، والجهر بالذنب ، وأن يكون المذنب عالمًا يقتدى به فإذا علم منه الذنب كبر ذنبه .

كما يتناول هذا الكتاب تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر ، ومن ذلك العزم على عدم العودة مستقبلًا إلى تلك الذنوب وأمثالها ، ويقسم العباد في دوام التوبة إلى أربع طبقات ؛ هي :

١ - تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره ، وهي التوبة النصوح ، وتصبح نفسه مطمئنة .

٢ - تائب قد سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وكبائر الفواحش ، إلا أنه لاينفك عن ذنوب تعتريه بغير عمدٍ ويلوم نفسه عليها ، وهي النفس اللوامة .

٣ - أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه شهوته في بعض الذنوب ويندم .

٤ - أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة ، ثم يعود إلى الذنوب منهمكًا من غير أن يحدث نفسه بالتوبة وهي النفس الأمارة بالسوء .

وفي نهاية هذا الكتاب يشير الغزالي إلى أنه ينبغي للتائب أن يأتي بحسنات تضاد ما عمل من السيئات لتمحوها وتكفرها ، والحسنات المكفرة تكون بالقلب ، واللسان ، والجوارح ، ثم يوضح دواء التوبة وطريق علاج حل عقدة الإصرار ، وذلك من خلال العلم والصبر .

تجدر الإشارة إلى أن هذا الحديث عن التوبة يتصل بمفهوم الشعور بالذنب Guilt (ص ٢ - ٥٩) ، كما يتضمن إشارة لمفهوم تأنيب الذات أو لوم الذات Self-Blame (ص ٤٣ - ٤٤) .

٢ - كتاب الصبر والشكر :

يتناول بيان فضيلة الصبر وحقيقته ومعناه ؛ حيث يعرف الصبر بأنه : عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابل باعث الشهوة ، وهو من خاصية الإنسان ، ويمثل نصف الإيمان .

وينقسم الصبر إلى ضربين : أحدهما : بدني كتحمل المشاق بالبدن ، والثاني : نفسي وهو صبر عن مشتهيات الطبع والهوى .

والعبد لا يستغني عن الصبر في حال من الأحوال ؛ لأن جميع ما يلقى العبد في الدنيا لا يخلو من نوعين :

الأول : ما يوافق هواه من الصحة ، والسلامة ، والمال ، والجاه ، والاتباع وغير ذلك ، والعبد محتاج للصبر في جميع هذه الأمور .

الثاني : المخالف للهوى وهو ثلاثة أقسام :

أ - الطاعات : كالصلاة والزكاة والحج وهي تحتاج للصبر في أدائها .

ب - الصبر عن المعاصي .

جـ - ما لا يدخل تحت الاختيار : كالمصائب ومنها موت الأحبة ، وهلاك الأموال ، والصبر في هذا النوع من أعلى المقامات .

كما يتناول دواء الصبر والاستعانة عليه بالعلم ، والعمل ، ومجاهدة النفس ، وهنا يشير الغزالي إلى أن أشد أنواع الصبر والمجاهدة هو كف البطن من حديث النفس ؛ لأن الوساوس لا تزال تجاذبه .

وبعد ذلك ، ينتقل إلى الحديث عن الشكر وفضيلته وحقيقته ، فيشير إلى أن اللّٰه تعالى قد قرن الشكر بالذكر في كتابه العزيز ، وأنه يعد من جملة مقامات السالكين ، وينتظم من علم ، وحال وعمل ، فأما العلم : فهو معرفة النعمة من المنعم ، والحال : هو الفرح الحاصل بإنعامه ، وأما العمل بما هو مقصود المنعم ومحبوبه : وهو متعلق بالقلب واللسان والجوارح .

ثم يبين تمييز ما يحبه اللّٰه تعالى عما يكرهه ؛ لأن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا

بمعرفة ما يحبه اللّٰه تعالى ، ويتم تمييز ما يحبه اللّٰه عما يكرهه من خلال أمرين : أحدهما : السمع ومستنده الآيات والأخبار ، والثاني : هو بصير القلب ، أي النظر بعين الاعتبار .

كما يوضح حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها ، فيذكر أن كل خير ولذة وسعادة ، بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة ، ولكن النعمة الحقيقية هي السعادة الآخروية وهي النعمة الحقيقية ، وأما الوسائل فهي أربع :

١ - فضائل النفس كالإيمان وحسن الخلق .

٢ - فضائل البدن كالقوة والصحة .

٣ - النعم المطيفة بالبدن من المال والجاه والأهل .

٤ - الهداية والإرشاد والتسديد والتأييد .

كما يبين كثرة نعم اللّٰه تعالى وتسللها وخروجها عن الحصر والإحصاء ، وهنا يعطي مثالًا لصحة البدن كنعمة من النعم الواقعة في الرتبة المتأخرة فمن أسبابها المتعددة : الأكل ، ومن الأسباب التي تتم بها نعمة الأكل : خلق أسباب الإدراك وهي الحواس الخمس ، وخلق الإرادات والقدرة وآلات الحركة ، وخلق أصول الأطعمة ، والأسباب الموصلة للأطعمة إلى الإنسان ، وإصلاحها وطبخها حتى تكون صالحة للأكل ، إلى غير ذلك من الأمور التي لا تحصى ، وليس ذلك إلا قطرة من بحرٍ واحد من نعم اللّٰه تعالى .

وينتقل الغزالي بعد ذلك إلى بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر وهو الجهل والغفلة ، وبيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد ، هو البلاء غير المطلق في الدنيا ، أي الذي قد يكون متضمنًا نعمة من وجه معين ؛ ولذا فهو يقتضي من الإنسان صبرًا عليه ، وشكرًا للّٰه في نفس الوقت ، ويختتم هذا الكتاب ببيان فضل النعمة على البلاء ، وبيان الأفضل من الصبر والشكر ، وينتهي إلى أن لكلٍّ من الصبر والشكر درجات .

ويتضمن هذا الحديث عن الصبر وأنواعه إشارة لمفهوم الوسواس Obsession (ص ٧٣ - ٧٧) ، ومفهوم الإحساس Sensation (ص ١٠٧ ، ١٠٨) ، والإدراك الحسي Perception (ص ١٠٧ ، ١٠٨) ، وكذلك مفهوم الدوافع Motives وبخاصة الدوافع الأولية عند الحديث عن الحاجة إلى الطعام ودافع الجوع (ص ١٠٨ ، ١٠٩) .

٣ - كتاب الخوف والرجاء :

يدور هذا الكتاب حول بيان حقيقة الرجاء وفضيلته والترغيب فيه ، فيعرف الرجاء

بأنه : ارتياح لانتظار ما هو محبوب عنده ، وهو من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين ، وهو محمود لأنه باعث على العمل ، وهنا يسوق الأدلة من الأخبار التي تبين فضيلته ، ثم يتناول دواء الرجاء والسبب الذي يحصل به ، ويتمثل في طريقين : أحدهما : الاعتبار وهو تأمل نعم اللّٰه تعالى التي لا تحصى ، والثاني : هو الأخبار والآيات التي تجتلب بها روح الرجاء إلى قلوب الخائفين واليائسين .

وينتقل الغزالي بعد هذا إلى الحديث عن الخوف وحقيقته ودرجاته وأقسامه ، فيعرف الخوف بأنه : تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال ، وهو سوط اللّٰه يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم ، والعمل ؛ لينالوا بهما رتبة القرب منه ، ويذكر أن الخوف له قصور ، وإفراط ، واعتدال ، والمحمود منه هو درجة الاعتدال والوسط .

ويقوم الخوف بوظيفة أساسية هي : كف الجوارح عن المعاصي وقيدها بالطاعات ، وإذا جاوز الخوف حده وأدى إلى إزالة العقل والصحة ، فهو مرض يحتاج لعلاج .

كما أن مقامات الخائفين تختلف ، فمنهم من يغلب على قلبه خوف الموت قبل التوبة ، ومنهم من يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم ، أو خوف الميل عن الاستقامة ، أو خوف سوء الخاتمة .

كما أن من أقسام الخائفين من يخاف سكرات الموت وشدته وسؤال منكر ونكير ، أو عذاب القبر ، ومنهم من يخاف هيبة الوقوف بين يدي اللّٰه تعالى ، والعبور على الصراط ، والخوف من النار ، أو حرمان الجنة ، أو الحجاب عن اللّٰه ﷻ ، وهو أعلى هذه الأقسام رتبةً ، ويشير الغزالي هنا إلى أن معرفة فضل الخوف تتم من خلال التأمل والاعتبار ، أو بالآيات والأخبار .

كما أن الخوف أصلح لأكثر الخلق من الرجاء ، وذلك لأجل غلبة المعاصي ، وبالنسبة للتقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه ، فالأصلح له أن يعتدل خوفه ورجاؤه .

ويستجلب الخوف إما بمعرفة الضرر أو بالتقليد ، وينقسم الخوف من اللّٰه تعالى إلى مقامين أحدهما : الخوف من عذابه ، وهو خوف عامة الخلق ، والثاني : الخوف منه ، وهو خوف العلماء العارفين ، ويختتم هذا الكتاب ببيان معنى سوء الخاتمة ، وأحوال الأنبياء والملائكة صلوات اللّٰه عليهم في الخوف ، وكذلك أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الحديث عن الخوف ودرجاته وأنواعه يتصل بموضوع

الانفعالات Emotions وبخاصة انفعال الخوف ، وذلك في إطار علم النفس العام (ص ١٥٢ - ١٨٥) .

٤ - **كتاب الفقر والزهد :**

يتناول هذا الكتاب بيان حقيقة الفقر ، واختلاف أحوال الفقر وأساميه ، فيعرف الفقر بأنه : فقد ما هو محتاج إليه ، ويذكر أن هناك خمسة أحوال للإنسان بالنسبة للمال ، فهناك الزاهد فيه ، والراضي ، والحريص عليه ، والقانع ، والمضطر .

ثم يتناول بيان فضيلة الفقر مطلقًا ، وفضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين ، وبيان فضيلة الفقر على الغنى واختلاف الناس في ذلك ، وآداب الفقير في فقره ، ومن ذلك : الرضا بفعل اللّٰه تعالى في ذلك ، والرضا بالفقر والفرح به ، وإظهار التعفف والتجمل ، وبيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال ؛ حيث يجب عليه أن يراعي نفس المال فيجب أن يكون حلالًا ، وأن يراعي غرض المعطي فإذا كان هدية أو صدقة قبله ، وكذلك غرضه في الأخذ فإذا كان محتاجًا إليه وسلم من الشبهة أخذه .

وينتقل بعد ذلك إلى بيان تحريم السؤال من غير ضرورة ، وآداب الفقير المضطر فيه ، ومقدار الغنى المحرم للسؤال ، وأحوال السائلين ، وبيان حقيقة الزهد ، وأنه مقام شريف في الدنيا من مقامات السالكين ، وينتظم من علم ، وحال ، وعمل كسائر المقامات ، وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه .

ثم يتناول بيان فضيلة الزهد ، ويسوق الآيات والأخبار والآثار الواردة في هذا ، ودرجات الزهد وأقسامه ، ويفصل القول في الزهد فيما هو من ضروريات الحياة ؛ مثل : المطعم والملبس والمسكن وأثاثه والمنكح والمال والجاه .

ويختتم هذا الكتاب ببيان علامات الزهد ومنها : استواء الغنى والفقر ، والعز والذل ، والمدح والذم ، وذلك لغلبة الأنس باللّٰه تعالى .

تضمن هذا الكتاب إشارة لمفهوم الدوافع Motives وبخاصة الدوافع الأولية أو البيولوجية والسيطرة عليها ، وقد اقتصر الحديث هنا على الدافع الجنسي ، ودافع الجوع ، وذلك عند الحديث عن المطعم والمنكح (ص ٢٢٥ - ٢٢٦ ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤) .

٥ - كتاب التوحيد والتوكل :

يتناول هذا الكتاب بيان فضيلة التوكل مستشهدًا بالآيات والأخبار والآثار ، وبيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل ، فالتوحيد طبقات ؛ منها : قول « لا إله إلا اللَّه » وتصديق القلب بالوحدانية ، ورؤية الأشياء المختلفة على أنها صادرة عن الواحد ، وأنه لا فاعل سوى اللَّه ، فمنه الخوف ، وله الرجاء ، وبه الثقة ، وعليه التوكل .

ثم يتناول بيان أحوال التوكل وأعماله ، فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الموكل ، ولا يتم إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعًا ، وأما أعمال المتوكلين فتنقسم إلى أربعة :

١ - جلب النافع كالكسب .

٢ - حفظ موجود كالادخار .

٣ - مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف ؛ كالنوم في مجاري السيل ، أي دفع ضرر لم ينزل بعد .

٤ - السعي في إزالة ضرر قد نزل بالفعل كعلاج المرض .

ويختتم هذا الكتاب ببيان أن ترك التداوي قد يحمد في بعض الأحوال ، ويدل على قوة التوكل وأن ذلك لا يناقض فعل رسول اللَّه ﷺ ، ثم بيان الرد على من قال: ترك التداوي أفضل بكل حال ؛ لأن ذلك ليس من شرط التوكل ، وبيان أحوال المتوكلين في إظهار المرض وكتمانه .

٦ - كتاب المحبة (الشوق والأنس والرضا) :

يتناول هذا الكتاب عددًا من المفاهيم المرتبطة فيما بينها ؛ وهي : المحبة ، والشوق ، والأنس ، والرضا . فيبين شواهد الشرع في حب العبد للَّه تعالى ، وإجماع الأمة على أن حب اللَّه تعالى ورسوله ﷺ فرض ، ثم يبين حقيقة المحبة وأسبابها ، وتحقيق معنى محبة العبد للَّه ، مشيرًا إلى أن المحبة لا تتم إلا بعد معرفة وإدراك المحبوب ، وكل ما في إدراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك ؛ إذ إن معنى الحب هو ميل الطبع إلى الشيء الملذ . ومن أسبابه : الإحسان للشخص نفسه أو الناس ، والجمال في ذاته ، والمناسبة بين المحب والمحبوب .

ويتناول أيضًا بيان أن المستحق للمحبة هو اللَّه وحده ؛ لأن أسباب الحب لا تجتمع في جملتها إلا في حق اللَّه ، ولا يوجد في غيره إلا آحادها ، وبيان أن حب

رسول الله ﷺ محمود ؛ لأنه عين حب الله تعالى ، وكذلك حب العلماء والأتقياء ؛ لأن محبوب المحبوب محبوب ، وبيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله ، والنظر إلى وجهه الكريم . ثم بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا ، والأسباب المقوية لحب الله ؛ ومنها : قطع علائق الدنيا ، وإخراج حب غير الله من القلب ، وقوة معرفة الله واتساعها واستيلاؤها على القلب بعد تطهيره من العلائق ، وبيان السبب في تفاوت الناس في الحب ، وهو تفاوتهم في المعرفة وحب الدنيا ، وكذلك السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه ، وبيان معنى الشوق إلى الله ، ومعنى محبة الله للعبد وشواهدها ، وعلامات محبة العبد لله والتي هي نفسها علامات حب الله للعبد ؛ ومنها : حب لقاء الله في الجنة ، وإيثار ما يحبه الله ، وعدم معصيته ، وحب ذكره ، وحب القرآن ، وحب رسوله ﷺ .

وينتقل الغزالي بعد ذلك إلى بيان معنى الأنس بالله تعالى ، فيشير إلى أن الأنس ، والخوف والشوق من آثار المحبة ، وأن الأنس معناه : استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال . وبيان معنى الانبساط والإدلال الذي تثمره غلبة الأنس ، ومعنى الرضا بقضاء الله وحقيقته وفضيلته فالرضا ثمرة من ثمرات المحبة وهو من أعلى مقامات المقربين ، وقد ورد في الآيات والأخبار والآثار ما يدل على فضيلته ، كما أن الدعاء لا يناقض الرضا ، وأن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ومذمتها لا يقدح في الرضا ؛ لأنه ليس فرارًا من القضاء ، بل من القضاء الفرار مما لا بد الفرار منه . ويختتم هذا الكتاب بعرض جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم ثم مجموعة من الأقوال المتفرقة المتعلقة بالمحبة .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الحديث عن المحبة والمعاني المرتبطة به يتعلق بموضوع الانفعالات Emotions وبخاصة انفعال الحب والفرح والخوف (ص ٢٨٦ - ٣٥٠) . كما يتضمن إشارة لمفهوم الانبساط Extraversion (ص ٣٣١ - ٣٣٣) والأخلاق Morality (ص ٢٩١ - ٢٩٢) ، والغريزة Instinct (ص ٢٩٩ - ٣٠٣) ، والخيال Imagination (ص ٣٠٣ - ٣٠٥) ، وكذلك مفهوم الرضا Satisfaction (ص ٣٣٣ - ٣٤٤) .

٧ - كتاب النية والإخلاص والصدق :

يتناول هذا الكتاب بيان فضيلة النية وحقيقتها من خلال الآيات والأخبار والآثار ، فالنية هي عماد الأعمال ، وهي حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران ؛ هما : العلم والعمل . كما يتناول بيان سر قوله ﷺ : « **نية المؤمن خير من عمله** » ، وهو أن النية عبارة عن ميل القلب

إلى الخير وإرادته له ، ثم بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية وهي ثلاثة أقسام : الطاعات ، والمعاصي ، والمباحات ، مشيرًا إلى أنه ليس المقصود بالنية أن يقول المرء : « نويت كذا » ولكن النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها ، إما عاجلًا وإما آجلًا ، وهذا الميل إذا لم يكن ، فلا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة .

ونيات الناس في الطاعات أقسام ؛ إذ منهم من يكون عمله إجابةً لباعث الخوف واتقاءً للنار ، ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء رغبة في الجنة .

ثم ينتقل الغزالي بعد ذلك إلى الحديث عن الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته . ويختتم هذا الكتاب ببيان فضيلة الصدق وحقيقته ومعناه ومراتبه ، ومنها الصدق في القول ، والنية ، والإرادة والعزم ، والوفاء به ، والصدق في الأعمال ، والصدق في مقامات الدين ويمثل أعلى الدرجات ، ومثاله الصدق في الخوف ، والرجاء ، والزهد ، والرضا ، والحب ، والتوكل .

وفيما يتعلق بالمفاهيم النفسية المتضمنة في هذا الكتاب ، يمكن القول أن هذا الحديث عن الإخلاص ، والصدق يتصل بموضوع القيم Values (ص ٣٦٤ - ٣٨٠) ، كما أنه يتضمن إشارة لمفهوم الحافز Incentive وهو من المفاهيم المرتبطة بموضوع الدوافع Motives (ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ص ٣٦٣) ، وكذلك مفهوم الميل Tendency وهو أيضًا من المفاهيم المرتبطة بموضوع الدوافع في علم النفس العام (ص ٣٦٢ ، ٣٦٣) .

٨ - كتاب المراقبة والمحاسبة :

يتناول هذا الكتاب مقامات مرابطة النفس ، فيذكر ستة مقامات ؛ هي :

١ - **المشارطة** : ويقصد بهذا المقام أن العقل يحتاج إلى مشارطة النفس ، فيوظف عليها الوظائف ، ويشرط عليها شروط الطاعة وعدم المعصية ، ويرشدها إلى طريق الفلاح .

٢ - **المراقبة** : فإذا أوصى الإنسان نفسه وشرط عليها ، لم يبق إلا المراقبة لها وملاحظتها قبل العمل وأثنائه ، وهناك مراقبة العبد في الطاعة : وهو أن يكون مخلصًا فيها ، ومراقبته في المعصية : تكون بالتوبة ، والندم ، والإقلاع عنها .

٣ - **المحاسبة بعد العمل** : إذ ينبغي للعبد أن يكون له ساعة يطالب فيها نفسه في آخر النهار ويحاسبها على جميع ما كان منها ، وتعني المحاسبة : النظر في رأس المال ، والربح ، والخسارة ، حتى يتبين الزيادة والنقصان ، فرأس المال هو الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل ، وأما الخسارة فهي المعاصي .

٤ – **معاقبة النفس على تقصيرها** : فإذا حاسب الإنسان نفسه ورأى منها تقصيرًا أو فعلت شيئًا من المعاصي ، فلا ينبغي أن يهملها فإنه يسهل عليه حينئذ مقارفة الذنوب ، بل عليه أن يعاقبها عقوبة مباحة .

٥ – **المجاهدة** : إذا حاسب الإنسان نفسه ، فينبغي عندما يراها قد قارفت معصية أن يعاقبها كما سبق القول ، فإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل ، فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ، وإذا لم تطاوعه على الأوراد فإنه يجاهدها ويكرهها ما استطاع .

٦ – **معاتبة النفس وتوبيخها** : وفي هذا المقام الأخير من مقامات المرابطة تجب ملازمة النفس باللوم والتوبيخ ، وعدم الإغفال عن تذكيرها ، وعندما يقبل الإنسان على نفسه يخاطبها قائلًا مثلًا : « أنتِ جاهلة » أو « أنتِ غبية » حتى تصبح نفسه مطمئنة .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الكتاب وما تضمنه من معانٍ ومفاهيم ، ينطوي على بعض المفاهيم النفسية ذات الصلة بمصطلح الذات self ؛ وهي : مراقبة الذات self Monitoring ثم مفهوم تأنيب أو لوم الذات Self - Blame (ص ٤٠٣ – ٤٠٩) ، مفهوم تهذيب النفس وتعديل السلوك (ص ٤٠٣ – ٤٠٩) .

٩ – **كتاب التفكر** : يتناول فضيلة التفكر ، مشيرًا إلى أن اللّٰه تعالى قد أمر به في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين ، ثم يبين حقيقة الفكر وثمرته ، فيذكر أن التفكر هو : إحضار معرفتين في القلب يستثمر منهما معرفة ثالثة . مثال ذلك من أراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار ، فعليه أولًا أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا ، فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتمادًا على مجرد القول ، ويسمى هذا تقليدًا ولا يسمى معرفة . ثم يعرف بعد هذا أن الأبقى أولى بالإيثار ، ويعرف أن الآخرة أبقى ، ويحصل نتيجة لهاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهي أن الآخرة أولى بالإيثار ، وهذه العملية تسمى تفكرًا .

وأما ثمرة الفكر فهي العلوم ، والأحوال ، والأعمال ، وثمرته الخاصة العلم فقط .

وينتقل الغزالي بعد ذلك إلى بيان مجاري الفكر ، فالفكر قد يرى في أمر يتعلق بالدين ، **أو فيما يتعلق بغيره** – وهو ليس موضع الاهتمام هنا – فأما ما يتعلق بالدين فيجري في أربعة أنواع ؛ هي : الطاعات ، والمعاصي ، والصفات المهلكات ، والصفات المنجيات ، حيث ينبغي أن تكون له جريدة يثبت فيها جملة هذه الأنواع الأربعة ،

ويعرض ذلك على نفسه كل يوم .

ويكفي من المهلكات النظر في عشرة ؛ هي : البخل ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، والحسد ، وشدة الغضب ، وشره الطعام ، وشره الوقاع ، وحب المال ، وحب الجاه . وهي خصال مذمومة .

كما يكفي من المنجيات عشرة : الندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف والرجاء ، والزهد في الدنيا ، والإخلاص في الأعمال ، وحسن الخلق مع الخلق ، وحب اللّه تعالى ، والخشوع . وهي خصال محمودة .

ويختتم الغزالي هذا الكتاب ببيان كيفية التفكر في خلق اللّه ، وأن التفكر في ذاته سبحانه ممنوع منه ، وأما التفكر في نعمه وآياته فهو مطلوب ومحمود ، وقد حث اللّه تعالى عليه في كتابه العزيز .

ويتصل هذا الحديث عن الفكر والتفكر بموضوع التفكير Thinking (ص ٤٠٩ - ٤٣٢) كما يتضمن الإشارة لمفهوم التقليد Imitation (ص ٤١٢) وكذلك مفهوم المعرفة Cognition (ص ٤١٢ - ٤١٣) ، والقيم الدينية (ص ٤٠٩ - ٤٣٢) .

١٠ - **كتاب ذكر الموت وما بعده** : يتناول الغزالي في هذا الكتاب الأخير من ربع المنجيات ، عددًا من الموضوعات المتفرقة والتي تدور حول الموت ، فيبدأ بالحديث عن فضيلة ذكر الموت ، وبيان الطريق في تحقيقه في القلب ، وفضيلة قصر الأمل ، وأن السبب في طول الأمل هو حب الدنيا والجهل . ثم يتناول كيفية علاج ذلك . ويوضح مراتب الناس فيما يتعلق بطول الأمل وقصره ، وأنه لا بد من ضرورة المبادرة إلى العمل ، والحذر من آفة التأخير .

ويتحدث بعد هذا عن سكرات الموت وشدته ، وما يستحب من الأحوال عنده ، كما يتناول أيضًا وفاة الرسول ﷺ ، ووفاة الخلفاء الأربعة ﷺ ، وكلام المحتضرين من الخلفاء ، والأمراء ، والصالحين ، وأقاويل العارفين على الجنائز والمقابر ، وحكم زيارة القبور ، والدعاء للميت وما يتعلق به .

وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن حقيقة الموت ، وكلام القبر للميت ، وعذاب القبر وسؤال منكر ونكير وصورتهما ، وضغطة القبر ، وما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام ، وبيان منامات المشايخ رحمهم اللّه ، ثم يتناول صفات مجموعة من الأشياء

لمتعلقة بالقيامة والحساب ؛ وهي : نفخة الصور ، وأرض المحشر وأهله ، وطول يوم لقيامة ، ومساءلة اللّٰه للعبد ، والميزان ، والخصماء ورد المظالم لهم ، والصراط ، والشفاعة والحوض ، وجهنم وأهوالها وأنكالها ، والجنة وأصناف نعيمها ، وحائطها وأراضيها وأشجارها وأنهارها ، ولباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وطعامهم ، والحور العين والولدان ، وكذلك الرؤية والنظر إلى وجه اللّٰه تبارك وتعالى .

ويختتم الغزالي هذا الكتاب بحديث حول سعة اللّٰه تعالى من أجل غرس التفاؤل في نفوس البشر .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس العام وعلم النفس الاجتماعي ، وعلم النفس التربوي ، وعلم النفس الديني ، وعلم النفس الإكلينيكي .

* * *

معارج القدس في مدارج معرفة النفس [1]

عرض : د. جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٢٠٧ صفحة من القطع المتوسط ويشتمل على خطبة الكتاب ، ثم بيان بترتيب الكتاب ، ومقدمة . وبعد ذلك موضوعات الكتاب الرئيسية ثم تنبيه ، ويختتم الكتاب بقصيدتين أولاهما : القصيدة الهائية ، والثانية : القصيدة التائية ، وأخيرًا فهرس لموضوعات الكتاب .

ويبدأ الغزالي مقدمة الكتاب بتعريف المترادفات المتعلقة بموضع الكتاب ؛ وهي أربعة : النفس ، والروح ، والعقل . ويقدم معنيين للنفس ، الأول : المعنى الجامع للصفات المذمومة ، وهي القوى الحيوانية المضادة للقوى العقلية ، وهو المفهوم عند الصوفية : والمعنى الثاني : يراد به حقيقة الآدمي وذاته ؛ لأن نفس كل شيء حقيقته . أما القلب فيطلق به ويراد به معنيان : أحدهما : اللحم الصنوبري الشكل المودع في جوف الإنسان من جانب اليسار (وهو ما عرف من خلال التشريح) وهو لكل الحيوانات ، وليس للإنسان فقط ، وهو يفنى بالموت ، والثاني : الروح الإنساني المتحمل لأمانة اللّٰه المتجلي بالمعرفة ، ومركز العلم بالفطرة الناطق بالتوحيد . ومفهوم الروح يطلق ويراد به البخار اللطيف الذي يصعد من منبع القلب ويتصاعد إلى الدماغ بواسطة العروق إلى جميع البدن ، فيعمل في كل موضع بحسب مزاجه واستعداده ، وهو مركب الحياة . كما يراد

---

(١) تحقيق لجنة إحياء التراث ، ط. ٥ ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، (١٩٨١م) ، (٢٠٤ ص) .

به أيضًا الروح الذي في مقابلة جميع الملائكة وهو المبدع الأول ، وهو روح القدس . وفي معانٍ أخرى يراد به القرآن . وأخيرًا يطلق العقل ويراد به الفعل الأول ، وهو الذي يعبر عنه بالعقل ، ويعبر عنه أيضًا بالقلم كما ورد في أحاديث الرسول ﷺ ، ويراد به كذلك النفس الإنسانية ، ويراد به صفة النفس ، وهو بالنسبة للنفس كالبصر بالنسبة للعين (وفي هذه الفقرة يعلمنا الغزالي درسًا في مناهج البحث العلمي ، فالمعروف الآن أن المدخل لدراسة أي مفهوم يكون بتعريفاته الإجرائية Operational Definitions الدقيقة ، وهو ما قدمه للمفاهيم الأربعة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يحدثنا عن الإدراك البصري Visual Perception وهو أحد الموضوعات التي تدرس في علم النفس العام ، وعلم النفس التجريبي (ص ١٥ - ١٨) .

وبعد ذلك يحاول الغزالي أن يثبت وجود النفس ، فيؤكد أن النفس لا تحتاج إلى دليل لإثباتها ، فقد ثبت وجودها ، وهي جوهر ، منزه عن المادة والصور الجسمانية . ثم يقدم لنا تقسيمًا يظهر فيه مبادئ الأفعال ، فيقول : إن مبادئ الفعل موجودة في قوى الطبيعة ، وفي النبات ، وفي الحيوان ، ويتميز الإنسان بأنه له تعقل ، ومع التعقل اختيار في الفعل والترك وهو النفس الإنساني ، كما يفرق كذلك بين النفس النباتي والحيواني ، والإنساني ، والفلكي . ويرى أن **النفس الإنساني** هي الكمال الأول لجسم طبيعي آلي يفعل الأفاعيل بالاختيار العقلي ، والاستنباط بالرأي من ناحية ، ويدرك الأمور الكلية من ناحية أخرى ، ويستطرد الغزالي بعد ذلك ليبرهن على أن النفس جوهر ، وليس بعرض ، ويرى أن ذلك ثابت من جهة الشرع والعقل ، فجميع خطابات الشرع ، والعقوبات الواردة في الشرع بعد الممات تدل على أن النفس جوهر . ومن جهة العقل ، يثبت ذلك من وجهتين ، أحدهما : عام يمكن إثباته مع كل فرد ، إذا علمنا أن حقيقة الإنسان ليس عبارة عن الجسم فحسب . والثاني : خاص يلتفت إليه الخاصة والمنصفون ومن لديه دقة الفهم والتصور . ويزيد هذا البرهان وضوحًا من جهة الإدراك ؛ لأننا ندرك ذواتنا في جميع الأحوال . وموضوع الإدراك قد يكون أحد المشاعر الظاهرة ، أو العقل ، أو قوة غير المشاعر (والغزالي هنا يقترب كثيرًا من بعض موضوعات علم النفس أو بالأدق موضوعه الرئيسي ، وهو السلوك Behavior ظاهرًا كان أم غير ظاهر (ص ١٩ - ٢٥) ، والنفس وإن كانت جوهر ، فليس لها مقدار ولا كمية ولا مساحة ، ولا تدرك حسًا ولا يدركها جسم ، وإدراكها لا يكون بآلات جسمانية ، ويبرهن الغزالي على ذلك من خلال براهين عقلية ، وأمثلة من واقع الحياة تدل على اتصال بعلم الهندسة . ثم يناقش مسألة انطباع

النفس في البدن ، ويستدل على عدم انطباعها ، بأنها لا تضعف مع ضعف البدن . بل إنه بعد عمر الأربعين تكون القوة البدنية في انحطاط ، والقوة العقلية في الزيادة والارتفاع (ص ٢٧ - ٣٥) ، (وهو هنا مبدأ من مبادئ الارتقاء التي يعني بها علماء النفس الارتقائي Developmental Psychology في مختلف جوانب السلوك . وبرغم الاتفاق حول المبدأ فإن هناك خلافًا بسيطًا بين كلام الغزالي هنا ، وما توصل إليه علماء النفس المحدثون حول ارتقاء ونمو القدرات العقلية . فهي تخضع لنفس مبدأ الارتقاء وهو النمو المطرد السريع في البداية ، ثم النمو البطيء ؛ فالاستقرار ، فالانخفاض البطيء ، فالتدهور السريع بعد ذلك ، وإن كانوا في نفس الوقت يعترفون بأن الهبوط في القدرات العقلية ليس عامًّا وإنما نوعيًّا Specific أي يصيب بعضها ، بينما يستمر البعض الآخر في النمو ، أو يظل في نفس مستواه) . وينتقل بنا الغزالي - بعد ذلك - ليحدثنا عن القوى الحيوانية التي تنقسم إلى قوى محركة وقوى مدركة ، والمحركة : إما أن تكون محركة على أنها باعثة على الفعل ، أو على أنها فاعلة ، والباعثة : إما أن تكون على جذب النفع (وهو ما يعبر عنه بالشهوة) أو دفع الضرر (وهي التي يعبر عنها بالغضب) ، (ويلاحظ أن الشهوة يمكن أن تقابل الدافع Motive ، والغضب أحد الانفعالات والموضوعات مما يدرس في علم النفس العام) (ص ٣٧) ، أما القوة المحركة كفاعلة : فهي قوة تنبعث في الأعصاب والعضلات (وهي ما يعبر عنه بالقدرة) والباعثة هي الإرادة ، ويقسم القوى المدركة إلى قسمين : مدركة من الظاهر ، وتنقسم بدورها إلى خمسة أقسام ؛ هي الحواس الخمس ، أما القوى المدركة من باطن ؛ فتنقسم إلى ثلاثة أقسام ، منها ما يدرك ولا يحفظ ، ومنها ما يحفظ ولا يعقل ، ومنها ما يدرك ويتصرف . ثم المدرك إما أن يدرك الصورة وتارة في المعنى (ص ٤١ - ٤٨) ، (وهو هنا يحدثنا مفصلًا عما يدخل في دراسات الإدراك بمختلف أنواعه من ناحية ، ويدخل في سيكولوجية اللغة Psycholinguistics خاصة حديثه عن المعنى) ، وينتقل بعد ذلك إلى القوى الخاصة بالنفس الإنسانية ، ويرى أنها تنقسم إلى : قوة عاملة ، وإلى قوة عالمة ، وكل منها تسمى عقلًا ، والعاملة : هي مبدأ تحريك البدن إلى أفاعيل (أو بلغة علم النفس الحديث إلى استجابات Responses أو أنماط السلوك Types Of Behavior (ص ٤٩) . والعالمة : توجه إلى المبادئ العالية والعقول بالفعل ، وإذا كانت النفس الإنسانية متشابهة في النوع ، فهي مختلفة في الشخص والعين بحسب اختلاف العوارض المشخصة . ويبين الغزالي مراتب العقل اشتقاقًا من الآية القرآنية ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾ [النور : ٣٥]

وذلك على سبيل التشبيه . كما يحدثنا عن تظاهر العقل والشرع وافتقار أحدهما إلى الآخر ، فالفعل لا يهتدي إلا بالشرع ، والشرع لم يتبين إلا بالعقل . فالعقل كالأساس ، والشرع كالبناء .

ويعود الغزالي للحديث عن حقيقة الإدراك (وهو موضوع رئيسي في علم النفس الحديث كما أسلفنا القول) ويعرف الإدراك بأنه أخذ صورة المدرك ، ومراتب الإدراك في التجريد ؛ وهي أربع : الأولى : الحس ، والثانية : إدراك الخيال وتجريده ، والمرتبة الثالثة : إدراك الوهم وتجريده ، والرابعة والأخيرة : إدراك العقل ، وهو التجريد الكامل (ص ٦١ - ٦٢) .

وتحت عنوان « سؤالات وانفصالات ، تحتها نفائس من العلوم » يقدم الغزالي إجابات عن ١٦ سؤالًا تدور حول العقل ، والمعقولات ، وملابسة النفس للبدن ، وتفاوت النفوس في قبول المعقولات ، واتصال الفيض الإلهي بها ، وكيف أن النفس الإنسانية تعقل المعقولات مرتبة ، وأن الصورة المعقولة إذا اتصلت بالنفس فهي مدركة ، وعندما تقوى النفس تستغني عن التفكير وتحصيل المقدمات . وأخيرًا وجه تأثير الطاعات ، والمعاصي ، والفضائل والرذائل في النفس . ويعرج بعد ذلك ليحدثنا عن منشأ الفضائل والرذائل . ويرى أن أكثر الفضائل والرذائل إنما تنشأ من ثلاث قوى في الإنسان : قوة التخيل ، وقوة الشهوة ، وقوة الغضب ، وهي معينات للنفس ومثبطات . والقوة المتخيلة ذات وجهين : أحدهما : يلي جانب الحس ، والثاني : يلي جانب العقل . والقوة الشهوية فيها مضرة ومنفعة ، وهي أصعب إصلاحًا من سائر القوى ؛ لأنها أقدم القوى وجودًا في الإنسان . أما القوى الغضبية فهي شعلة نار ، تنزع إلى الشيطان الرجيم ، ومن استفزته نار الغضب فقد قويت قرابة الشيطان (والحديث هنا مقابل بعض موضوعات علم النفس الحديث كالدوافع ، والانفعالات ، والجانب العقلي بصفة عامة) (ص ٦٣ - ٧٥) . وبعد ذلك يذكر لنا أمهات الفضائل وهي الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدالة .

وبعد ذلك يواصل حديثه عن النفس وحاجتها إلى البدن ، ويناقش مسألة ما إذا كانت الأرواح البشرية حادثة أم لا ، والأدلة على ذلك . كما يقدم البراهين المنقولة والمعقولة على بقاء النفس ، وأنها لا تموت بموت البدن ، ولا تفنى مطلقًا .

ويرى الغزالي أن مسألة إثبات العقل المفارق الفعال ، والعقل المنفعل في النفوس الإنسانية ومراتب العقول ، أظهر من أن تثبت شرعًا لورود ذلك واضحًا في النصوص .

ويذكر قاعدة في النبوة والرسالة ، ويحاول أن يبين أن الرسالة لا تقتنص بالجد ، ويبين كذلك ما إذا كانت الرسالة مكتسبة أم أثرة ربانية . ويزلف بعد ذلك إلى عالم ما بعد الموت ، وما به من سعادة أو شقاوة ، وهو ما يعرف من الأنبياء ؛ لأنهم الذين اطلعوا على أحوال الموت وحيًا وإخبارًا . وعلى أي حال ، فإن النفس بعد المفارقة ، إذا كانت قد فارقت الحياة قبل أن تكتسب حقًّا أو باطلًا فهو من أهل النجاة ، لا مستريح منعم ولا معذب . إن كانت متعقدة وهمية فاسدة مضادة للحق ، وأضاف إليها أعمالًا على خلاف الشرع فهو في عذاب مقيم .

ويختتم الغزالي كتابه ببيان حقيقة اللقاء والرؤيا كما ورد في الآيات القرآنية ، ومراتب الناس فيها . ويشرح معرفة الحق ﷻ ، ومعرفة صفاته وأفعاله ؛ لأن المبادئ إنما تراد للنهايات ، والنهايات إنما تظهر للمبادئ ، فكل علم لا يؤدي إلى معرفة الباري ﷻ ، فهو عديم الجدوى والفائدة . ومن عرف صفات اللّٰه وأفعاله ، عرف ترتيب أفعال اللّٰه وأقسامها .

وقد وجدنا في خاتمة الكتاب قصيدتين أحدهما : القصيدة الهائية ، والثانية : القصيدة التائية ، وقد نشرت دون شرح أو تعليق .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام .

* * *

المحبة والشوق والأنس والرضا [1]

عرض : د. معتز سيد عبد اللّه

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٣٥ صفحة من القطع المتوسط ، ويدور مضمونها حول بيان أن محبة اللّه تعالى هي الغاية القصوى من المقامات ، والذروة العليا من الدرجات ، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها ، كالتوبة ، والصبر ، والزهد وغيرها ، وسائر المقامات إن عزَّ وجودها فلم تخلُ القلوب عن الإيمان بإمكانها ، وأما محبة اللّه تعالى فقد عزَّ الإيمان بها حتى أنكر بعض العلماء إمكانها وقال : لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة اللّه . وأما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثال ، ولما أنكروا المحبة ، أنكروا الأنس ، والشوق ، ولذة المناجاة ، وسائر لوازم الحب وتوابعه ، ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر .

وقد بدأ المؤلف الكتاب ببيان شواهد الشرع في حب العبد للّه تعالى ، وأن الحب للّه تعالى ولرسوله ﷺ فرض ، ثم تناول بيان حقيقة المحبة وأسبابها ، وتحقيق معنى محبة العبد للّه تعالى ، ثم تناول أصول المحبة ، حيث أوضح أن أول ما ينبغي أن يتحقق أنه لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك ؛ إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه ، ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماد ، بل هو من خاصية الحي المدرك . أما الأصل الثاني : فيعني أن الحب لما كان تابعًا للإدراك والمعرفة انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات

(١) الطبعة الأولى . القاهرة ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، (١٩٦١م) ، (ص ١٣٥) .

والحواس ، فكل حاسة إدراك ميل إليها فكانت محبوبات عند الطبع السليم ، فلذة العين في الإبصار ، وإدراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة المستلذة ، ولذة الأذن في النغمات الطيبة الموزونة ، ولذة الشم في الروائح الطيبة ، ولذة الذوق في الطعوم ، ولذة اللمس في اللين والنعومة .

أما الأصل الثالث : فيعني أن الإنسان لا يخفي أنه يحب نفسه ، ولا يخفي أنه قد يحب غيره لأجل نفسه ، وهل يتصور أن يحب غيره لذاته لا لأجل نفسه ، هذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنون أنه لا يتصور أن يحب الإنسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حظ إلى المحب سوى إدراك ذاته .

والحق أن ذلك متصور وموجود ، فلنبين أسباب المحبة وأقسامها ، وبيانه أن المحبوب الأول عند كل حي نفسه وذاته . والسبب الثاني : الإحسان ، فإن الإنسان عبد الإحسان ، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها . والسبب الثالث : أن يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته ، بل تكون ذاته عين حظه ، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق بدوامه وذلك كحب الجمال والحسن . أما الأصل الرابع : فهو في بيان معنى الحسن والجمال . وفيه يوضح المؤلف أن المحبوس في مضيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الخلقة والشكل ، وحسن اللون ، وكون البياض مشربًا بالحمرة وامتداد القامة ، إلى غير ذلك مما يوصف به من جمال شخص الإنسان ، فإن الحسن الأغلب على الخلق حسن الإبصار وأكثر التفاهم إلى صور الأشخاص ، فيظن أن ما ليس مبصرًا ولا متخيلًا ولا متشكلًا ولا متلونًا مقدر فلا يتصور حسنه ، وإذا لم يتصور حسنه لم يكن في إدراكه لذة ، فلم يكن محبوبًا وهذا خطأ ظاهر ، فإن الحسن ليس مقصورًا على مدركات البصر ، ولا على تناسب الخلقة ، وامتزاج البياض بالحمرة . فإنا نقول : هذا خط حسن ، وهذا صوت حسن ، وهذا فرس حسن ، بل تقول : هذا ثوب حسن وهذا إناء حسن ، فأي معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصورة ؟

ومعلوم أن العين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن ، والأذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة ، وما من شيء من المدركات إلا وهو منقسم إلى حسن وقبيح ، فما معنى الحسن الذي تشترك فيه الأشياء ، فلا بد من البحث عنه وهذا البحث يطول ، ولا يليق بعلم المعاملة الإطناب فيه ، فنصرح بالحق ونقول : كل شيء مجماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له ، فإذا كانت جميع جمالاته الممكنة حاضرة فهو في

غاية الجمال ، وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر ، فالفرس الحسن هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو ، وتيسر كر وفر عليه ، والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها ، ولكل شيء كمال يليق به ، وقد يليق بغيره ضده ، فحسن كل شيء في كماله الذي يليق به ، فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس ، ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت ، ولا تحسن الأواني بما تحسن به الثياب ، وكذلك سائر الأشياء .

فإن قلت : فهذه الأشياء وإن لم تدرك جميعها بحسن البصر مثل الأصوات والطعوم ، فإنها لا تنفك عن إدراك الحواس لها فهي محسوسات ، وليس ينكر الحسن والجمال للمحسوسات ، ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسنها ، وإنما ينكر ذلك في غير المدرك بالحواس .

ويرتبط هذا الجزء ببعض المفاهيم السيكولوجية هي الانفعالات Emotions وبخاصة انفعال الحب (ص ٤ - ١٧) ، وأسباب الحب (ص ٨ - ١٣) ، والإدراك Perception (ص ٨ ، ٩) والقيمة الجمالية (ص ١٣ - ١٧) .

وبعد ذلك تناول المؤلف بيان أن المستحق للمحبة هو اللّٰه وحده ، وأن من أحب غير اللّٰه لا من حيث نسبته إلى اللّٰه فذلك لجهله وقصوره في معرفة اللّٰه تعالى ، وحب الرسول ﷺ محمود ؛ لأنه عين حب اللّٰه تعالى ، ومحب المحبوب محبوب ، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل فلا يتجاوزه إلى غيره ، فلا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر إلا اللّٰه تعالى ، ولا مستحق للمحبة سواه وبعد ذلك تناول بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة اللّٰه تعالى والنظر إلى وجهه الكريم ، وأنه لا يتصور أن لا يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة ، وبيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا ، وبيان الأسباب المقوية لحب اللّٰه تعالى ، وبيان السبب في تفاوت الناس في الحب ، وبيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة اللّٰه ﷻ ، وبيان معنى الشوق إلى اللّٰه تعالى ، وبيان محبة اللّٰه للعبد ومعناها . ثم تناول بعض الأقوال في علامات محبة العبد للّٰه تعالى .

ويرتبط الجزء السابق ببعض المفاهيم السيكولوجية هي الرغبات Desires (ص ٣٠ - ٤٥) ، والفروق الفردية في الحب Individual Differences (ص ٥٣ ، ٥٤) ، والانفعالات (وبخاصة الحب) ، (ص ١٨ - ٨٩) .

وبعد ذلك تناول معنى الأنس بالله تعالى ، وبيّن أن الأنس ، والخوف ، والشوق من آثار المحبة ، إلا أن هذه آثار مختلفة ، تختلف على المحب بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته ، فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال انبعث القلب إلى الطلب ، وانزعج له وهاج إليه ، وتسمى هذه الحالة في الانزعاج شوقًا وهو بالإضافة إلى أمر غائب ، وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف ، وكان نظره مقصورًا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف ، غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد استبشره القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره أنسًا ، وإن كان نظره إلى صفات العز ، والاستغناء وعدم المبالاة ، وخطر إمكان الزوال والبعد ، تألم القلب بهذا الاستشعار فيسمى تألمه خوفًا ، وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات ، والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها ، فالأنس معناه : استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال ، حتى إنه إذا غلب وتجرد من ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق إليه من خطر الزوال ، عظم نعيمه ولذته ، ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له : أنت مشتاق ، فقال : لا ، إنما الشوق إلى غائب ، فإذا كان الغائب حاضرًا فإلى من يشتاق ؟ وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله ، غير ملتفت إلى ما بقي في الإمكان من مزايا الألطاف ، ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة ، ويرتبط الجزء السابق بمفهوم الانفعالات (وبخاصة انفعال الحب) ، (ص ٩٠ - ٩٢) .

وبعد ذلك تناول المؤلف بيان معنى الانبساط والإدلال الذي تثمره غلبة الأنس ، وبعض الأقوال في معنى الرضا بقضاء الله وحقيقته ، وما ورد في فضيلته على أساس أنه ثمرة من ثمار المحبة وأنه من أعلى المقامات ، ثم بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى ، وبيان أن الدعاء غير مناقض للرضا ولا يخرج صاحب عن مقام الرضا . وبيان أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ومذمتها ، وبيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم . ويرتبط مضمون الجزء السابق ببعض المفاهيم السيكولوجية هي الانفعالات (وبخاصة الحب) ، (ص ٩٣ - ١٣٣) والرضا النفسي (ص ٩٨ - ١١٩) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس العام .

* * *

فاتحة العلوم [1]

عرض : د. عبد اللطيف محمد خليفة

عرض الكتاب :

يشتمل الكتاب على سبعة أبواب نعرض لها على النحو التالي :

● **الباب الأول** : في فضيلة العلم ومذمة علماء السوء . وفيه خمسة فصول :

الفصل الأول : في فضيلة العلم ، ويستشهد فيه المؤلف ببعض الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية الشريفة التي توضح أهمية العلم والعلماء ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

ولعل ذلك يرتبط بقيمة Value العلم وتقدير العلماء ، مما يعطيهم مزيدًا من الثقة وتقدير الذات Self-Esteem (ص ٢ ، ٣) .

الفصل الثاني : في فضيلة طالب العلم . فالعلم غير مختص بالرتبة والفضيلة ، بل طالب العلم وهو يجد في طلب العلم وإن لم يظفر به له من الرتبة والفضل العظيم ما يعظم قدره .

الفصل الثالث : في فضيلة الإرشاد والتعليم ، فقد رفع الله ﷻ درجة العلماء المعلمين الداعين إلى الله ﷻ وإلى طريقه فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت : ٣٣] ، وقال لرسوله : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

---

(١) الطبعة الأولى ، القاهرة ، أحمد ناجي الجمالي ، محمد أمين الخانجي ، (٥ : ١٩) ، (٧٠ ص) .

ويرتبط هذا الفصل بعمليات التوجيه والإرشاد الديني Religious counseling (ص ٤).

الفصل الرابع: في بيان العلم والتعلم من حيث الشواهد العقلية. ويتحدث فيه عن فضل العلم وشرفه على العاقل، والفضل عبارة عن الزيادة، والزيادة تتوجه إلى الكمال، والكمال هو الغاية المطلوبة بالزيادة، والفضل والعلم كمال على الإطلاق لا بالإضافة.

يرتبط هذا الفصل بمفهوم التعلم Learning، والتعليم Teaching (ص ٥ - ٦).

الفصل الخامس: ويتحدث فيه عن مذمة علماء السوء، وسوء حالهم عند اللّٰه تعالى، فعلى الرغم من علو مرتبة العلم وشرفه، فإن له خطورته - خاصة إذا لم يعمل العالم بعلمه، ويرشد ويوجه الآخرين إلى خير الطريق، وقد شبهه اللّٰه تعالى بالحمار وهو أشد الحيوانات حمقًا وبلادة، قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة: ٥].

• **الباب الثاني**: في تصحيح النية في طلب العلم:

وهو أول واجب على المتعلم والمعلم فإن تحصيل العلم عبادة، بل هو أفضل العبادات وأصل العبادات كلها النية، قال رسول اللّٰه ﷺ: « **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى اللّٰه ورسوله فهجرته إلى اللّٰه ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه** ». ويوضح المؤلف في هذا الفصل أهمية طلب العلم لوجه اللّٰه ﷻ، وأن من يطلب العلم لغير اللّٰه، يستوجب العقاب، مستشهدًا في ذلك ببعض الأحاديث النبوية الشريفة.

ويرتبط ما ورد في هذا الباب بمفهوم النية أو المقصد Intention أحد الجوانب أو المتغيرات المهمة في عمليات تغيير الاتجاهات (انظر: ص ٨ - ١٦).

• **الباب الثالث**: في العلامة الفاصلة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة:

ويقسم فيه المؤلف العلماء إلى فئتين؛ هما: علماء الدين وهم الأبرار علماء الآخرة، وعلماء السوء وهم الأشرار علماء الدنيا، ويبين أن من علامات علماء الآخرة: أن لا يطلب الدنيا بعلمه فإن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرافها، وعظم الآخرة وشرفها ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها، ويعلم أنهما متضادان، وأنهما ككفتي الميزان مهما رجحت إحداهما ارتفعت الأخرى فإن من لا يعلم حقارة الدنيا وقرب انصرافها فهو فاسد العقل.

ويرتبط ذلك بشكل غير مباشر بقيمة العلم والنظر إليه من زاويتين: الأولى: العلم كقيمة وسيلية في الحياة الدنيا Instrumental، والثانية: كقيمة غائية End or Terminal

لأهداف بعيدة (الحياة الآخرة) ، (ص ١٧ - ٣٤) .

● **الباب الرابع : في أقسام العلوم :**

الفصل الأول : في أقسام العلوم :

ويوضح فيه أن العلوم تنقسم إلى شرعية وغير شرعية ، ويعني بالشرعية ما يستفاد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مما لا يرشد إليه العقل كالحساب ، ولا التجربة كالطب ، ولا السماع كاللغة . وتنقسم العلوم الشرعية إلى أضرب : الضرب الأول : الأصول وهي أربعة كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ ، وإجماع الأمة ، وآثار الصحابة . الضرب الثاني : الفروع وهو ما فهم من الأصول . الضرب الثالث : المقدمات وهو الذي يجري منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو فإنه آلة لمعرفة كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ . الضرب الرابع : المتممات ، وذلك في علم القرآن مثلًا ينقسم إلى ما يتعلق باللفظ كعلم القراءة ومخارج الحروف ، وإلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير المنقول .

الفصل الثاني : في بيان فروض الأعيان من جملة العلوم :

فقد قال رسول الله ﷺ : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة** » . واتفقت الأمة على أن من العلوم ما هو فرض عين على مسلم ، واختلفوا في تعيينه ، وتحزبوا فيه أكثر من عشرين حزبًا ، ولا نطيل في ذلك ، ولكن ملخصه : أن كل فريق نزل الوجوب على العلم الذي هو بصدده ، ولم تسمح نفسه بأن يكون العلم القائم بأهم العلوم غيره ، والأهم ما هو فرض العين لا محالة ، فقال المتكلمون : هو علم الكلام ، وقال الفقهاء : هو علم الفقه ، وقال المفسرون والمحدثون : هو علم الكتاب والسنة .... إلخ .

الفصل الثالث : فيما هو فرض كفاية من العلوم :

ويوضح فيه المؤلف أن العلوم الدينية التي ذكرنا من الأضرب الأربعة كلها من فروض الكفايات ؛ إذ آحادها قد تصير فرض عين على الآحاد على اختلاف الأحوال فيكون جملتها فرض كفاية ، على معنى أنه لو خلا البلد عمن يقوم بعلم منها عم الحرج أهل البلد كافة .

الفصل الرابع : في تفضيل علوم الآخرة :

فالعلوم تنقسم - كما سبق أن أشرنا - إلى ما يتعلق بمصالح الدنيا كعلم الفقه ، وإلى ما يتعلق بسلوك طريق الآخرة ، والتي تنقسم إلى علم مكاشفة ، وإلى علم معاملة أي ما يراد من علمه العمل ، أما علم المكاشفة : فهو ما يراد منه الكشف والمعرفة فقط دون العمل ، وعلم المكاشفة هو غاية العلوم ومقصدها ، بل هو المراد من جميع العلوم ،

وجميع العلوم إنما يراد للتوسل والتضرع بها إليه .

الفصل الخامس : في بيان العلم الأقصى ، وبيان نسبة العلوم إليه بالموازنة بمثال لكي تعرف مراتب العلوم فلا تؤثر الأدنى على الأرفع والتابع على المتبوع . ويقول فيه : إن العزيز والرفيع إنما يكون عزيزًا بالإضافة إليك وإلى ما يهمك ، ولا يهمك إلا شأنك في الدنيا والآخرة ، فإذا لم يمكن الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة ، فالأهم ما يبقى أبد الآباد وهي السعادة الأبدية ، ومنذ ذلك تصير الدنيا منزلًا ، والبدن مركبًا ، والأعمال سعيًا إلى المقصد ، ولا مقصد إلا لقاء اللّه .

● **الباب الخامس** : في شروط المناظرة وآفاتها وبيان سبب إقبال الخلق عليها :

ويشير فيه المؤلف إلى المناظرة في أحكام الشرع من الدين ، وأن لها شروطًا ووقتًا ومحلًّا ، فمن اشتغل به وقته ومحله وقام بشرطه فقد اقتدى بالصحابة - فإنهم تشاوروا في مسائل - وبالسلف الصالح ، فإنهم ما تناظروا إلا للّه ، ولطلب ما هو حق عند اللّه ، ولكن لمن يتناظر للّه وفي اللّه علامات : الأولى : أن لا يشتغل به وهو فرض كفاية إلا بعد الفراغ من فرض العين ، الثانية : أن لا يترك فرض كفاية آخر أهم من المناظرة ، الثالثة : أن يكون المناظر مجتهدًا يفتي برأيه لا بمذهب غيره ، الرابعة : أن يناظر في واقعة أو في مسألة قريبة من الوقوع ، الخامسة : أن تكون المناظرة في الخلوة ، فهي أجمع للفهم وأحرى بصفاء الذهن ودرك الحق ، والنزاهة ، السادسة : أن يكون في طلب الحق كمنشد ضالة لا يفرق بين أن يظهر على يده أو على يد غيره ، والسابعة : أن ينتقل من دليل إلى دليل ومن سؤال إلى سؤال . هكذا كانت مناظرة أهل الدين .

أما عن آفات المناظرة وما يتولد عنها من مهلكات الأخلاق ، فهي من الأمور المنهي عنها ، فالمناظرة الموضوعة لقصد الغلبة ، والمباهاة ، والتشوق لإظهار الفضل ، هو منبع جميع الأخلاق المذمومة عند اللّه تعالى ، المحمودة عند عدوه إبليس ، ونسبتها إلى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب ، والرياء ، والحسد ، والمنافسة .

● **الباب السادس** : في آداب المعلم والمتعلم :

فمن آداب المعلم :

١ - تقديم طهارة نفس القلب عن رذائل الأخلاق وخبائث الصفات .

٢ - أن يقلل علاقاته من إشغال الدنيا ويبعد عن الأهل والوطن .

٣ - أن لا يتكبر على العلم ولا يتأمر على أهله .

٤ - أن العمر إذا كان يتسع لجميع العلوم فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه .

٥ - أن يعرف السبب الذي به يدرك شرف العلوم .

٦ - أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه بنعوت الكمال ، وفي المآل التقرب إلى حضرة الجلال والترقي وإلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين ، ولا يقصد به الرياسة والمباهاة والتقدم على الأقران .

وعلى المشتغل بالتعلم أن يحفظ آدابه ووظائفه السبع ؛ وهي :

١ - الشفقة على المتعلمين .

٢ - أن يقتدي بصاحب الشرع صلوات اللَّه وسلامه عليه ، فلا يطلب على إفاضة العلم أجرًا ولا يقصد جزاءً ولا شكرًا .

٣ - أن لا يدخر من نصح المتعلم شيئًا .

٤ - أن يزجره عن سوء الأخلاق بالتعريض لا بصريح النهي ، وبطريق اللطف والنصح لا بطريق التوبيخ ؛ فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة .

٥ - أن المتكفل ببعض العلوم لا ينبغي أن يقبح في عين المتعلم ما عداه .

٦ - أن لا يلقي إلى المتعلم ما لا يحتمله .

٧ - أن يكون عاملًا بعلمه فلا يكذب قوله بفعله .

ويرتبط هذا الباب بموضوع سيكولوجية المعلم ، والخصائص أو الصفات التي يجب أن تتوفر به لكي يكون مصدرًا تربويًّا جيدًا في توصيل رسالته (ص ٥٦ - ٦٣) .

● **الباب السابع** : فيما يحل للعلماء أخذه من أموال السلاطين وغيرهم :

ويتحدث فيه المؤلف عن فضل الورع ، وأنواع الورع على أربع درجات ؛ هي : ورع العدول عن المعاصي ، وورع الصالحين ، وورع المتقين ، وورع الصديقين وهو أن يحترز عن جميع ما هو منفك عن الآفات . ثم عرض المؤلف بعد ذلك لما يأخذه العلماء من أموال السلاطين وهو على ثلاثة أقسام : الأول : ما يعلم حله وهو المال المأخوذ من الكفار على سبيل القهر والغلبة . الثاني : ما يقابل هذا وهو الذي يعلم تحريمه . الثالث : وهو ملتبس يجب البحث عنه .

وفي النهاية يختتم المؤلف حديثه عن وجوب رد الحلال على السلاطين الظلمة ولزوم التنزه عن ذلك .

أوجه الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس التربوي ، وعلم النفس الاجتماعي .

الاقتصاد في الاعتقاد [1]

عرض : د. عبد اللطيف محمد خليفة

عرض الكتاب :

يشتمل الكتاب على أربعة تمهيدات تجري التوطئة والمقدمات ، وعلى أربعة أقطاب تجري مجرى المقاصد والغايات .

التمهيد الأول : في بيان أن العلم من المهمات في الدين .

التمهيد الثاني : في بيان أنه ليس مهمًّا لجميع المسلمين بل لطائفة منهم مخصوصين .

التمهيد الثالث : في بيان أنه من فروض الكفايات لا من فروض الأعيان .

التمهيد الرابع : في تفصيل مناهج الأدلة التي وردت في هذا الكتاب .

وأما الأقطاب المقصودة فأربعة وجملتها مقصورة على النظر في اللّٰه تعالى ، فإذا نظرنا في العالم لم ننظر إليه من حيث إنه عالم وجسم وسماء وأرض ، بل من حيث إنه صنع اللّٰه سبحانه .

وإن نظرنا في النبي ﷺ لم ننظر فيه من حيث إنه إنسان شريف وعالم فاضل ، بل من حيث إنه رسول اللّٰه . وإن نظرنا في أقواله لم ننظر من حيث إنها أقوال ومخاطبات ، بل من حيث إنها تعريفات بواسطته من اللّٰه تعالى فلا ننظر إلا في اللّٰه ولا مطلوب سوى اللّٰه ، وجميع أطراف هذا العالم يحصرها النظر في ذات اللّٰه تعالى ، وفي

---

(١) الطبعة الثانية ، القاهرة ، أحمد ناجي الجمالي ، محمد أمين الخانجي ، (١٩٠٩م) ، (١٠٠ ص) .

صفاته سبحانه ، وفي أفعاله ﷻ ، وفي رسول الله ﷺ وما جاء على لسانه من تعريف الله تعالى فهي إذًا أربعة أقطاب :

القطب الأول : النظر في ذات الله :

وأوضح فيه أنه قديم ، وأنه باقٍ ، وأنه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض ولا محدود بحد ، ولا هو مخصوص بجهة ، وأنه مرئي كما أنه معلوم ، وأنه واحد ، وهذه عشرة دعاوى بينها في هذا القطب .

القطب الثاني : في صفات الله تعالى :

وأوضح فيه أنه حي عالم قادر مريد سميع بصير متكلم ، وأن له حياةً وعلمًا وقدرة وإرادة وسمعًا وبصرًا وكلامًا . وذكر أحكام هذه الصفات ولوازمها وما يفترق فيها ، وما يجتمع فيه من الأحكام ، وأن هذه الصفات زائدة على الذات وقديمة وقائمة بالذات ولا يجوز أن يكون شيء من الصفات حادثًا .

القطب الثالث : في أفعال الله تعالى :

وفيه سبعة دعاوى ، وهو أنه لا يجب على الله تعالى التكليف ، ولا الخلق ، ولا الثواب على التكليف ولا رعاية صلاح العباد ، ولا يستحيل منه تكليف ما لا يطاق ، ولا يجب عليه العقاب على المعاصي ولا يجب بعثة الأنبياء عليهم السلام بل يجوز ذلك . وفي مقدمة هذا القطب بيان معنى الواجب والحسن والقبيح .

القطب الرابع : في رسل الله :

وما جاء على لسان رسولنا محمد ﷺ من الحشر والنشر والجنة والنار والشفاعة وعذاب القبر والميزان والصراط ، وفيه أربعة أبواب نعرض لها على النحو التالي :

● **الباب الأول** : في إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ :

حيث توجد ثلاثة فرق تفترق في إثبات النبوة : الأولى : العيسوية وذهبوا إلى أنه رسول إلى العرب فقط لا إلى غيرهم وهذا ظاهر البطلان . الثانية : وهم اليهود الذين أنكروا صدقه لا بخصوص نظر فيه وفي معجزاته ، بل زعموا ألا نبي بعد موسى عليه السلام ، فأنكروا نبوة محمد وعيسى عليهما السلام . الثالثة : وهم مجوزون النسخ ولكنهم منكرون نبوة نبينا من حيث إنهم ينكرون معجزته في القرآن .

● **الباب الثاني** : في بيان وجوب التصديق بأمور ورد بها الشرع وقضى بجوازها

العقل وفيه مقدمة وفصلان .

أما المقدمة : فهو أن ما لا يعلم بالضرورة ينقسم إلى ما يعلم بدليل العقل دون الشرع ، وإلى ما يعلم بالشرع دون العقل ، وإلى ما يعلم بهما . أما الفصل الأول : ففي بيان قضاء العقل بما جاء الشرع به من الحشر والنشر وعذاب القبر والصراط والميزان . والفصل الثاني : فهو في الاعتذار عن الإجلال بفصول شحنت بها المعتقدات .

● **الباب الثالث** : في الإمامة ، النظر فيها على ثلاثة أطراف :

الطرف الأول : في بيان وجوب نصب الإمام . ولا ينبغي أن تظن أن وجوب ذلك فيه فوائد في الدنيا . ولكن تقيم البرهان القطعي الشرعي على وجوبه ولسنا نكتفي بما فيه من إجماع الأمة ، بل ننبه على مستند الإجماع ، ونقول : نظام أمر الدين مقصود لصاحب الشرع عليه الصلاة والسلام وهذه مقدمة قطعية ولا يتصور النزاع فيها .

الطرف الثاني : في بيان من يتعين من سائر الخلق لأن ينصب إمامًا . فالتخصيص على واحد نجعله إمامًا بالتشهي غير ممكن ، فلا بد له من تمييز بخاصية يفارق سائر النزاع فيها .

الطرف الثالث : في شرح عقيدة أهل السنة في الصحابة والخلفاء الراشدين ﵃ .

● **الباب الرابع** : في بيان من يجب تكفيره من الفرق المبتدعة :

فكل من كذب محمد ﷺ فهو كافر ، أي مخلد في النار بعد الموت ومستباح الدم والمال في الحياة - إلَّا أن التكذيب مراتب : الرتبة الأولى : تكذيب اليهود . الرتبة الثانية : تكذيب البراهمة المنكرين لأصل النبوات ، والدهرية المنكرين لصانع العالم . الرتبة الثالثة : الذين يصدقون بالصانع ونبوة النبي ولكن يعتقدون أمورًا تخالف نصوص الشرع . الرتبة الرابعة : وهم المعتزلة والمشبهة والفرق كلها سوى الفلاسفة ، وهم الذين يصدقون ولا يجوزون الكذب لمصلحة وغير مصلحة ، ولا يشتغلون بالتعليل لمصلحة الكذب ، بل بالتأويل ، ولكنهم مخطئون في التأويل ، فهؤلاء أمرهم في محل الاجتهاد ، والذي ينبغي أن يميل المحصل إليه الاحتراز من التكفير ما وجد إليه سبيلًا .

أما فيما يتعلق بعلاقة ما ورد في هذا الكتاب : الاقتصاد في الاعتقاد بعلم النفس فيمكن تحديده إجمالًا وبشكل عام في الآتي :

١ - يرتبط بعدد من المفاهيم التي تدخل في إطار علم النفس الاجتماعي Social Psychology خاصة مفهوم الاعتقاد Belief ، والإيمان Faith ، والتصديق والشك موضحًا مظاهرها وأنواعها ومستوياتها .

٢ - موضوع القيادة leadership وخصائصها خاصة في الباب الثالث عند حديث المؤلف عن الإمامة .

يلاحظ أن الغزالي في تناوله للقطب الثالث ، وأثناء مناقشته للنقطة الثالثة وهي « سبق الوهم إلى العكس فإن ما رؤي مقرونًا بالشيء أيضًا لا محالة أن يكون مقرونًا مطلقًا » ، وقد ذكر الغزالي بعض الأمثلة لتوضيح ذلك فقال : « إن السليم الذي نهشته الحية يخاف من الحبل المبرقش اللون ... وسببه أنه أدرك المؤذي وهو متصور بصورة حبل مبرقش ، فإذا أدرك الحبل سبق الوهم إلى العكس وحكم بأنه مؤذٍ فينفر الطبع تابعًا للوهم والخيال وإن كان العقل غير مكترثٍ به (ص ٦٩) .. ثم يقول الغزالي بعد ذلك : « خلقت قوى النفس مطيعة الأوهام والتخيلات بحكم إجراء العادات ، حتى إذا تخيل الإنسان طعامًا طيبًا بالتذكر أو بالرؤية سال في الحال لعابه .... » . وفي مناقشة الغزالي يلاحظ أنه فطن إلى الاقتران بين شيء ما (مثل الحية أو الطعام) وبين استجابة ما مثل الأذى الذي يسبب النفور والتجنب عند رؤية الحية ، أو سيلان اللعاب لرؤية الطعام ؛ فإنه يحدث بعد ذلك أن يستجيب الإنسان بمثل هذه الاستجابة إذا رأى هذا الشيء أو شيئًا في صورته وهذا هو عملية الاشتراط conditioning التي وصل إليها فيما بعد إيفان بافلوف عن طريق التجارب على الحيوانات ، وقد لاحظ ذلك ابن سينا من قبل ، وأشار إلى ذلك بوضوح أثناء كلامه عن القوة الوهمية ، ويبدو أن الغزالي قد أخذ هذه الفكرة عن ابن سينا ؛ لأن الغزالي يذكر نفس الأمثلة التي قال بها ابن سينا من قبل ، وقد شرحت هذا الموضوع بالتفصيل أثناء كلامي عن القوة الوهمية في كتاب : (الإدراك الحسي عند ابن سينا) ، (من مطبوعات دار الشروق ، الطبعة الثالثة) .

* * *

ميزان العمل [1]

عرض : د. شعبان جاب الله رضوان

عرض الكتاب :

يتناول هذا الكتاب بيان عدد من الموضوعات المتعلقة بالسعادة الأخروية ، والسبل التي تؤدي إليها ، ومعيار العلم والعمل اللذين يحققان هذه السعادة .

يبين الغزالي أولًا أن السعادة الأخروية هي مطلوب الأولين والآخرين ، ولا تنال هذه السعادة إلا بالعلم والعمل ، والفتور على طلبها حماقة ؛ لأنها السعادة الباقية أما لذات الدنيا فهي منقضية ، والعاقل يترك القليل رغبة في الكثير ، ولكن فتور الخَلق عن سلوك طريق السعادة لضعف إيمانهم باليوم الآخر . كذلك فإن فتور الإيمان حماقة أيضًا ، وأن الناس في أمر الآخرة أربع فرق : فرقة اعتقدوا الحشر والنشر والجنة والنار كما نطقت بها الشرائع وهم المسلمون كافة . وفرقة ثانية : هم بعض الإلهيين الإسلاميين من الفلاسفة اعترفوا باللذة العقلية وأنكروا وجود الحسيات من خارج وأثبتوها على طريق التخيل في النوم . وفرقة ثالثة : ذهبوا إلى إنكار اللذة الحسية جملة بطريق الحقيقة والخيال . وفرقة رابعة : وهم جماهير من الحمقى ، ذهبوا إلى أن الموت عدم محض وأن الطاعة والمعصية لا عاقبة لهما .

كما يبين أن العلم والعمل هما طريق السعادة ؛ ولكي يعرف الإنسان ذلك عليه أن يلتفت إلى ما اتفق عليه آراء الفرق الثلاثة وهم أهل الظاهر والصوفية والفلاسفة ؛ حيث

---

(١) ضبطه وقدم له سليمان سليم البواب ، دمشق ، بيروت ، دار الحكمة ، (١٩٨٦م) ، (١٦٨ ص) .

أجمعوا على أن الفوز والنجاة لا يحصلان إلا بالعلم والعمل معًا ، كما يجب على الإنسان أن يتعلم أن سعادة كل شيء ولذته وراحته في وصوله إلى كماله الخاص به ، وأن هذا الكمال الخاص بالإنسان هو إدراك حقيقة العقليات على ما هي عليه دون الحسيات التي يشاركه فيها الحيوانات ، كما أن النفس متعطشة إلى هذا الكمال ومستعدة له بالفطرة ، وما يصرفها عنه هو اشتغالها بشهوات البدن وعوارضه ، وإذا أقبل الإنسان بالتفكر والنظر على مطالعة الكون ومطالعة نفسه فقد وصل إلى كماله الخاص ؛ إذ لا معنى للسعادة إلا نيل النفس كمالها الممكن لها .

ويرتبط مفهوم السعادة بموضوع الانفعالات Emotions (ص ١١ - ٢٣) ، كما يتصل مصطلح الشهوة أو اللذة بموضوع الدوافع Motives وإشباعها (ص ١٤) ، ويقع ذلك في إطار علم النفس العام . ويوضح الغزالي بعد ذلك كيفية تزكية النفس وقواها وأخلاقها ، وهنا يقسم الناس إلى نوعين أحدهما : قانع بالتقليد وهو مستغنٍ عن البحث وينهج السبيل التي رسمها له مقلده ، أما الفريق الثاني : فلا يقلدون تقليد المريض للطبيب بل يتشوقون إلى نيل رتبة الأطباء ، ولكي يرقى الإنسان عن حضيض التقليد ويصل إلى سواء الطريق عليه بالمجاهدة ، ومعرفة نفسه وقواها وخواصها ، فالمجاهدة معالجة للنفس بتزكيتها لتفضي إلى الفلاح ، ومعرفة النفس هي ملاك الأمر كله ؛ لأن العقل والبصيرة هما وسيلة إدراك النفس ، كما أن هذه النفس الإنسانية من الأمور الإلهية ، أما الجسم فهو مدرك بالبصر .

وإجمالًا ، فإن للنفس الحيوانية قوتين ، إحداهما محركة ، والأخرى مدركة . والمحركة قسمان : باعثة ومباشرة للحركة ، فالمباشرة للحركة هي القوة التي تنبت في الأعصاب والعضلات ، وأما الباعثة فهي القوة النزوعية الشوقية التي تبعث على الحركة ، فتحمل القوة المباشرة للحركة على التحريك ، ولهذه الباعثة شعبتان : إحداهما : شهوانية تبعث على تحريك يقرب من الأشياء التي يعتقدها صاحبها ضرورية أو نافعة طلبًا للذة ، والأخرى تسمى غضبية وهي قوة تبعث على تحريك يدفع به الشيء الذي يعتقد فيه أنه ضار أو مفسد طلبه ، ويتصل هذا الحديث عن القوة المحركة بقسميها بعلم النفس ، وعلم النفس الفسيولوجي Physio - Psychology (ص ٢٥ - ٢٧) كما يرتبط مفهوم الشهوة بموضوع الدوافع (ص ١٩ - ٢٢) - كما ذكرنا - كما يشير مفهوم القوة الغضبية إلى مصطلح الانفعالات Emotions ومصطلح الدافعية Motivation (في علم النفس العام) فالقوة الغضبية تدفع إلى البعد عن الأشياء التي يعتقد أنها ضارة

أو مؤذية ، وأما القوة المدركة فهي قسمان : ظاهرة وباطنة ، وتشير الظاهرة إلى الحواس الخمس (وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس) ، ويرتبط موضوع الإحساس Sensation (ص ٢٦) بعلم النفس الفسيولوجي ، وعلم النفس العام . وتنقسم القوة الباطنة إلى خمسة أقسام ؛ هي :

١ - **الخيالية** : وتبقى فيها صور الأشياء المحسوسة بعد غيابها .

٢ - **الحافظة للصور** : وهي التي تحتفظ منها صورة المحسوسات ويتصل هذا بموضوع الذاكرة Memory (ص ٢٦) في إطار علم النفس العام ، وهذه القوة القابلة لمدركات الحواس الخمس والحافظة لها تقع في التجويف الأول من مقدم الدماغ ، وبحلول آفة فيه تختل هذه القوى . وهذه الإشارة إلى موضع الذاكرة في الدماغ تتصل بعلم النفس العصبي (ص ٢٦) Neuropsychology .

٣ - **القوة الوهمية** : وهي قوة مترتبة في نهاية التجويف الأوسط من الدماغ ، وهي تدرك معاني غير محسوسة من المحسوسات الجزئية .

٤ - **الحافظة** لهذه المعاني غير المحسوسة وتسمى ذاكرة ، ويتصل ذلك بموضوع الذاكرة أيضًا وبخاصة ذاكرة المعاني ، ويرى أن هذه الحافظة تقع في التجويف المؤخر من الدماغ ، ويتصل هذا بعلم النفس العصبي .

٥ - **القوة المفكرة** : ومسكنها التجويف الأوسط من الدماغ ، وهي مرتبة بين خزانة الصور وخزانة المعاني ، وتقوم بتركيب بعض ما في الخيال مع بعضه ، وتفصل عن بعض بحسب الاختيار ، يتصل هذا بسيكولوجية التخيل Imagination (ص ٢٦ ، ٢٧) وهذه القوى المذكورة تشارك فيها الحيوانات الإنسان إلا المفكرة ، القوة التي تقوم بتركيب صور المحسوسات التي في الخيال بعضها إلى بعض أو يفصلها بعضها عن بعض لدى الحيوانات تسمى متخيلة : هي تسمى عند الإنسان مفكرة . والمتخيلة عند الحيوانات لا ترقى إلى مستوى المفكرة عن الإنسان (ص ٢٦ - ٢٧) .

وأما النفس الإنسانية من حيث هي إنسانية فتنقسم قواها إلى قوة عاملة وقوة عالمة ، فالعاملة هي قوة ومعنى للنفس هو : مبدأ حركة بدن الإنسان إلى الأفعال المعينة الجزئية المختصة بالفكر والرَّوِيَّة على ما تقتضيه القوة العالمة النظرية .

أما القوة العالمة النظرية ، فهي تنفعل وتستفيد من الملائكة الموكلة بالنفوس الإنسانية لإفاضة العلوم عليها من اللّٰه تعالى . ويعني هذا أن النفس وجهين : وجه إلى البدن ،

ووجه إلى الجنبة الشريفة العالية .

وهذه القوة العالمة هي التي من شأنها أن تتلقى المعاني المجردة عن العوارض التي تجعلها محسوسة جزئية .

ويشير الغزالي إلى أن هذه القوى للنفس مرتبط بعضها ببعض ، وهي متفاوتة في الرتبة فبعضها خادم والبعض الآخر مخدوم ، وقد خلق الإنسان على رتبة بين البهيمية والمَلَك .

ويمكن أن يتصل هذا التقسيم لقوى النفس المختلفة بفرع سيكولوجية الشخصية في إطار موضوع نظريات الشخصية (ص ٢٥ - ٣٣) Personality Theories .

ويبين الإمام الغزالي بعد ذلك نسبة العمل من العلم ، وإنتاجه السعادة التي اتفق عليها المحققون من الصوفية ؛ إذ يجب على الإنسان أن يطهر نفسه أولًا بالعمل ، والمجاهدة بكسر الشهوات حتى يخلصها من الهيئات الخبيثة ، ثم ينظر في الحقائق الإلهية حتى تتحد النفس بها وعندئذ يكون الإنسان قد بلغ سعادة النفس وكمالها .

وما ينبغي على الإنسان تحصيله من العلم نوعان : نظري يتعلق بالعلم بالله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله والسموات والأرض ، وعلم عملي وهو ثلاث شعب :

١ - علم النفس بصفاتها وأخلاقها وهو الرياضة ومجاهدة الهوى (علم النفس) .

٢ - علم النفس بكيفية المعيشة مع الأهل والولد والخدم والعبيد (سيكولوجية العلاقات الاجتماعية Psychology of Social Relationship) ، (ص ٤٥) .

٣ - علم الفقه .

ومجامع القوى التي لا بد من تهذيبها ؛ هي : قوة التفكير ، وقوة الشهوة ، وقوة الغضب . ويشير التفكير إلى مفهوم الذكاء (ص ٤٦) Intelligence ، والشهوة إلى الدوافع (ص ٤٦) Motives ، والقوة الغضبية .

وذلك في إطار علم النفس العام ، ويجب أن تقوم القوة العقلية المفكرة بمهمة ضبط الشهوة والتحكم في القوة الغضبية ، وهذا التصور لقوى النفس يتصل بسيكولوجية الشخصية (ص ٤٦) Personality . وهناك إمكانية ؛ لأن يغير الإنسان من خُلُقه بالتربية . ولكن قوى النفس تتباين في إمكانية تغييرها ، فنجد أن قوة الشهوة هي أصعبها تغييرًا ، كما يتباين الناس في السرعة التي يتغير بها خلقهم ، ويمكن للإنسان أن يغير خُلُقه ويزكي نفسه باعتياد الأفعال الصادرة من النفوس الزاكية الكاملة ، وتكرار هذه الأفعال في أوقات كثيرة حتى تصبح له بالعادة كالطبع .

ويتصل تغيير الخُلق بموضوع تعديل السلوك Behavior Modification (ص ٥٤ - ٦٣) والتعلم Learning وكذلك بعلم النفس الإرشادي Counseling Psychology وعلم النفس الإكلينيكي Clinical Psychology (ص ٥٤ - ٦٣) .

أما الطريق إلى نيل السعادة فيكون بتزكية النفس وتكميلها ، ويحصل تكميلها باكتساب الفضائل التي تنحصر في معنيين : أحدهما : جودة الذهن والتمييز ، والآخر : حسن الخلق . ويحدث كل منهما بالتعلم البشري والجود الإلهي .

ويتصل مفهوم الاكتساب والتعلم بسيكولوجية التعلم ، ويتصل مفهوم جودة الذهن والتمييز بموضوع الذكاء (ص ٥٩ - ٦٠) ، أما حسن الخلق فيشير إلى مفهوم الأخلاق Morality في علم النفس الاجتماعي Social Psychology (ص ٥٩ - ٧٧) .

وقد يدخل مفهوم الجود الإلهي الجانب الفطري والموروث (غير التعلم) من الذكاء والشخصية والذي يصقل بالخبرة والتعلم ، ويسمى الاستعداد Aptitude (ص ٦٠) وكذلك يدخل فيه مفهوم الإلهام الإلهي .

وينتقل الغزالي بعد ذلك إلى بيان كيفية تهذيب الخلق ، فيشير إلى أن الإنسان لكي يهذب خلقه ويصل إلى الخلق الجميل عليه بالاعتدال والتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط ؛ لأن الكمال في الاعتدال ، ومعيار الاعتدال هو العقل والشرع ، فالسخاء وهو المحمود المعتدل وسط بين التقتير والتبذير .

وهناك أربع فضائل أساسية ؛ هي : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدالة ، فالحكمة : فضيلة القوة العقلية ، والشجاعة : فضيلة للقوة الغضبية ، والعفة : فضيلة للقوة الشهوانية ، والعدل : هو حالة للقوى الثلاث في انتظامها على التناسب بحسب الترتيب الواجب في الاستعلاء والانقياد ، فهو ليس جزءًا بمصطلح الذكاء والتفكير (ص ٦٠) والقوة الغضبية تتصل بمصطلح الدافعية والانفعالات (ص ٦٤) ، كذلك يتصل مفهوم القوة الشهوانية بمصطلح الدافعية (علم النفس العام) ، (ص ٦٧ - ٦٩) كما يمكن أن يشير مفهوم الفضائل على النحو الوارد هنا إلى مصطلح القيم Values (ص ٦٤ - ٧٧) أو الأخلاق في علم النفس الاجتماعي ، فيقال : قيمة الشجاعة ، وقيمة العفة وقيمة العدل .

ثم يبين الغزالي بعد ذلك ما يندرج تحت كل فضيلة أو رذيلة ، فأما الحكمة : فيندرج تحت فضيلتها حسن التدبير ، وجودة الذهن ، وثقابة الرأي ، وصوب الظن (الذكاء) وبالنسبة لرذيلتي الحكمة وهما الخب والبله ، فيندرج تحت الخب الدهاء والجربزة ،

ويندرج تحت البله الغمارة والحمق (الضعف العقلي) والجنون .

وتتصل هذه المفاهيم المتعلقة بالحكمة ورذيلتها بموضوع الذكاء Intelligence والتأخر العقلي Mental Retardation (ص ٧٠ ، ٧١) .

وما يندرج تحت فضيلة الشجاعة : هو الكرم والنجدة وكبر النفس والاحتمال والحلم والثبات والنبل والشهامة والوقار (وكلها يتصل بسيكولوجية الشخصية Personality (ص ٧٣ - ٧٦) ، وأما رذيلتا الشجاعة وهما التهور والجبن فيندرج تحتهما البذخ والنذالة والجسارة والنكول والتبجح وصغر النفس والهلع والاستشاطة والانفراك والتكبر والتخاسس والتعجب والمهانة .

وبالنسبة لفضيلة العفة ، فيندرج تحتها الحياء والخجل والمسامحة والصبر والسخاء وحسن التقدير والانبساط والدماثة والانتظام وحسن الهيئة والقناعة والهدوء والورع والطلاقة والمساعدة والتسخط والظرف .

وأما الرذائل المنضوية تحت رذيلتي العفة : (وهما الشره والجمود) فهي الشره وكلال الشهوة والوقاحة والتخنث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والكزازة والمجانة والعبث والتحاش والشكاسة والملق والحسد والشماته ، وهذه المفاهيم المندرجة تحت الفضائل والرذائل تتصل بمفهوم خصائص وسمات الشخصية Personality Traits (ص ٧٣ - ٧٦) .

ويرى الغزالي أن العدالة جامعة لجميع الفضائل ، والجور وهو المقابل لها فجامع لجميع الرذائل .

ثم يوضح البواعث على تحري الخبرات الدنيوية ؛ وهي ثلاثة :

١ - الترغيب والترهيب .

٢ - رجاء المحمدة وخوف المذمة .

٣ - طلب الفضيلة وكمال النفس .

وترتبط البواعث بموضوع الدوافع Motives في علم النفس العام (ص ٧٧ ، ٧٨) .

ويقسم الخيرات والسعادات إلى خمسة أنواع ؛ هي :

١ - السعادة الأخروية .

٢ - الفضائل النفسية : (وهي العقل والعفة والشجاعة والعدالة) .

٣ - الفضائل البدنية : (وهي الصحة والقوة والجمال وطول العمر) .

٤ - الفضائل المطيفة بالإنسان : (وهي المال والأهل والعز وكرم العشيرة) .

٥ - الفضائل التوفيقية : (وهي هداية اللّه ورشده وتسديده وتأييده) .

والسعادة الحقيقية هي السعادة الأخروية .

ويتصل مفهوم الفضائل النفسية الأربعة المشار إليها هنا بموضوع الذكاء ، وسمات الشخصية ، والقيم على نحو ما أشرت إليه من قبل عند الحديث عن كل فضيلة منها على حدة (ص ٨١ ، ٨٢) .

ويشير الغزالي بعد ذلك إلى ما يحمد ويذم من أفعال شهوة البطن ، والفرج ، والغضب . وكما ذكرنا من قبل فإن مفهوم الشهوة (سواء شهوة البطن أو الفرج) يتصل بموضوع الدوافع Motives عمومًا ، والدوافع البيولوجية خاصة Biological ، أما الغضب فيتصل بموضوع الانفعالات Emotions (انفعال الغضب) ودوافع الإحجام عن الشيء المؤذي أو عليه (ص ٩١ - ١٠٠) .

وينتقل إلى بيان العقل ، والعلم ، والتعليم ، ويذكر أن العقل : هو أشرف موجود في هذا العالم وبه تنال سعادة الدنيا والآخرة ؛ وأما العلم : فهو أصل الأصول ، والتعليم ، هو أشرف الأعمال .

ويورد هنا وظائف المتعلم والمعلم في العلوم السعادة ، فمن وظائف المتعلم : أن يقدم طهارة النفس عن الأخلاق ، وأن يقلل علائقه بالأشغال الدنيوية ، وألا يتكبر على العلم وأهله ، وألا يتأمر على المعلم ، وينبغي أن يرتب العلوم ويبدأ بالأهم ولا يترك منها شيئًا ، ويكون مقصده من العلم هو كمال نفسه والتقرب إلى اللّه . وأما وظائف المعلم : فمنها أن يجري المتعلم منه مجرى بنيه ، وأن يقتدي بالرسول ﷺ فلا يطلب على إفادة العلم أجرًا أو جزاءً ، وألا يدخر شيئًا من نصح المتعلم ، وأن يقتصر بالمتعلمين على قدر أفهامهم ، كما يجب أن يكون المعلم العملي (الشرعيات) عاملًا بما يعلمه حتى لا يفر الناس عن الاسترشاد .

وهذا الحديث عن وظائف المعلم والمتعلم بسيكولوجية التعلم Learning (ص ١٠١- ١٢٨) في علم النفس العام ، ويتضمن إشارة لمفهوم القدوة Modeling (ص ١٢٧ ، ١٢٨) في علم النفس الاجتماعي . ويوضح الإمام الغزالي هنا أيضًا ما في كسب المال من الوظائف ، ويقسم المقتنيات إلى ثلاثة : نفسية وبدنية وخارجية . ويعتبر أن المال من المقتنيات الخارجية . ويمكن أن يتصل الحديث عن (المال) بموضوع التدعيم (ص ١٢٨ - ١٣٧)

Reinforcement ، حيث يعتبر المال مدعمًا ثانويًّا أو مدعمًا شرطيًّا ، فهو لا يشبع حاجة Need أساسية في حد ذاته - كما يشبع الطعام الجوع مثلًا - ولكنه وسيلة لإشباع الحاجات لدى الإنسان ؛ ولذلك فهو يعد مدعمًا ثانويًّا ، بينما الطعام مدعم أولي (علم النفس العام) .

ثم يتحدث الغزالي عن الطريق في نفي الغم في الدنيا ويتصل مفهوم الغم بمصطلح القلق Anxiety أو الاكتئاب (ص ١٣٨ - ١٤١) Depression في علم النفس الإكلينيكي ، كما يوضح الطريق في نفي الخوف من الموت . ويتصل مفهوم الخوف بموضوع الانفعالات (ص ١٤١ - ١٤٤) وخاصة انفعال الخوف وذلك في إطار علم النفس العام ، أما إذا أصبح الخوف من الموت ظاهرة مرضية ، فعندئذ يقع في دائرة علم النفس الإكلينيكي Clinical Psychology تحت موضوع المخاوف المرضية Phobias وأما الطرق التي يوضحها الغزالي في نفي الغم والحزن والخوف من الموت فتتصل بعلم النفس الإرشادي Counseling Psychology (ص ١٣٨ - ١٤٤) .

ويشير الغزالي بعد ذلك إلى علامة المنزل الأول من منازل السائرين إلى اللّٰه تعالى ؛ وهما علامتان : الأولى : أن تكون الأفعال الاختيارية موزونة بميزان الشرع ، والثانية : أن يكون حاضر القلب مع اللّٰه في كل حال حضورًا ضروريًّا غير متكلف . ثم يبين في نهاية هذا الكتاب معنى المذهب واختلاف الناس فيه ، ويتصل ذلك بمفهوم المعتقدات (ص ١٥٠ - ١٥٣) Beliefs في علم النفس الاجتماعي ؛ لأن المذهب كما يعرفه البعض هو معتقد ينطق به تعليمًا وإرشادًا مع كل آدمي كيفما اختلف حاله ، وهو الذي يتعصب له كمذهب الأشاعرة أو المعتزلة .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس العام ، والإرشاد النفسي والتربوي .

* * *

المنقذ من الضلال [1]

عرض : د. عبد اللطيف محمد خليفة

عرض الكتاب :

ويشتمل على مجموعة من الأقوال نعرض لها على النحو التالي :

القول الأول : في مداخل السفسطة وجحد العلوم ، فذكر أنه يجب التأمل في المحسوسات والضروريات ، والتأكد من صحتها لا من خلال الرؤية أو المشاهدة العابرة التي تؤدي بنا كثيرًا إلى الإدراك الخاطئ - ولكن من خلال التجربة والمشاهدة الدقيقة وإحكام أو الاستعانة بالعقل في مثل هذه الأمور .

ويرى المؤلف أنه يضاف إلى ذلك نور اللّه الذي يمنحه للبشر ، فالكشف عن الحقائق لا يتم من خلال الأدلة العقلية المجردة ، قال اللّه تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

ويرتبط هذا الجزء بالمنهج العلمي Scientific Method ، خاصة أسلوب المشاهدة العلمية المنظمة Systematic Observation وكذلك بموضوع الخداعات الحسية Illusions (ص ٦ - ٨) .

والقول في أصناف الطالبين : وهم أربع فرق ، الأولى : (المتكلمون) وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر ، الثانية : (الباطنية) وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم ، والمختصون بالاقتباس . والثالثة : (الفلاسفة) ويزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .

(١) تأليف أبي حامد محمد بن محمد الغزالي ، القاهرة ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح (د.ت) ، (٤٨ ص) .

والرابعة : (الصوفية) وهم يدعون أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة . وذكر أن الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة ، وأن هؤلاء السالكين سبل طلب الحق ، فإن شذ الحق عنهم فلا يبقى في دَرْك الحق مطمع .

القول في بيان مقصود علم الكلام وحاصله : ويذكر المؤلف أنه طالع كتب المتقدمين في علم الكلام ، ووجده علمًا وافيًا بمقصوده ، وأما مقصود علم الكلام : فهو حفظ عقائد أهل السنة على أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدع لعقيدة الحق ﷺ ، فقد أنشأ اللَّه طائفة المتعلمين لنصرة السنة المأثورة بكلام مرتب ، يكشف عن تلبيسات أهل البدع المحدثة عن خلاف السنة ، ولكنني أرى (المؤلف) أن كلامهم هذا لم يحصل منه ما يمحو ظلمات الحيرة بالكلية ، نظرًا لاعتمادهم على مقدمات تسلموها من خصومهم اضطرهم إلى تسلمها إما التقليد أو إجماع الأمة .

القول في أحاصيل الفلسفة :

وتحدث المؤلف عن أصنافهم وشمول سمة الكفر فيهم . فهم ثلاثة أقسام :

الصنف الأول : (**الدهريون**) : وهم طائفة من الأقدمين جحدوا المدبر العالم القادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجودًا كذلك بنفسه لا بصانع ، ولم يزل الحيوان من نطفة والنطفة من حيوان كذلك كان وكذلك يكون أبدًا وهؤلاء هم الزنادقة .

الصنف الثاني : (**الطبيعيون**) : وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة أو عن عجائب الحيوان والنبات . وتشريح أعضاء الحيوانات ، واعترفوا بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها ، وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر وإن آمنوا باللَّه تعالى وبصفاته ولذلك فهم أيضًا زنادقة ؛ لأن أصل الإيمان هو الإيمان باللَّه ورسوله واليوم الآخر .

الصنف الثالث : (**الإلهيون**) : وهم المتأخرون منهم : مثل ؛ سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو وأما أقسام علومهم فتشمل ستة أقسام : رياضية ، ومنطقية ، وطبيعية ، وإلهية ، وسياسية ، وخلقية .

القول في مذهب التعليم وغايته :

ويذكر المؤلف في ذلك أنه بعد أن فرغ من تحصيل وفهم الفلسفة ومعرفته ما يزيف منها علم أن ذلك أيضًا غير وافٍ بكمال الغرض ، وأن العقل ليس مستقلًّا بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفًا للغطاء عن جميع المعضلات . وبدأ في البحث في حقيقة

الباطنية والاطلاع على ما في كنانتهم ، ثم ساق الأدلة والبراهين التي تعارض ما يقولونه من شبهات تمس الدين والعقيدة .

وذكر بعد ذلك أهمية التعليم وتحصيل المعرفة في سبيل الدفاع عن الدين ، ومعرفة أصوله وفروعه .

القول في طريقة الصوفية :

وبعد أن فرغت من تحصيل هذه العلوم ، أقبلت على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقهم إنما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير اللّه تعالى وتحليته بذكر اللّه ، وكان العلم أيسر علي من العمل ، فابتدأت لتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ؛ مثل : قوت القلوب لأبي طالب المكي ، وكتب الحارث المحاسبي وغير ذلك .

القول في حقيقة النبوة :

فجوهر الإنسان في أصل الفطرة خلق خاليًا ساذجًا لا خبر معه عن عوالم اللّه تعالى . وخبره عن العوالم بواسطة الإدراك ، وكل إدراك من الإدراكات يطلع الإنسان به على عالم من الموجودات ، فأول ما يخلق به الإنسان حاسة اللمس ، ثم يخلق له البصر ، ثم السمع ، ثم الذوق ، إلى أن يجاوز عالم المحسوسات فيخلق فيه التمييز قرب سبع سنوات ، ثم يرتقي إلى طور آخر فيخلق له العقل فيدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات ، ويستطيع التمييز بعد ذلك وإدراك ما يمكن أن يقع في المستقبل وغير ذلك من الأمور .

وأشار بعد ذلك إلى أن بعض العقلاء قد رفضوا مدركات النبوة واستبعدوها . وذلك عين الجهل ؛ وذلك لأنهم لم يدركوها بالحواس المتعارف عليها .

ويرتبط هذا الجزء ارتباطًا مباشرًا بموضوع الإحساس Sensation والإدراك الحسي Perception ، وارتقاء الإحساس Development of Sensation (ص ٣٢ - ٣٥) ونمو القدرات العقلية والذكاء .

القول في سبب نشر العلم بعد الإعراض عنه :

ويذكر فيه أنه عاش في عزلة بعيدًا عن الناس حوالي إحدى عشرة سنة ، ثم رجع إلى

نشر العلم لوجه الله ﷻ ، وليس انتظارًا لجاهٍ أو أشياء من هذا القبيل ؛ ويقول المؤلف : « أدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه ويعرف به سقوط رتبة الجاه . وأبغي أن أصلح نفسي وغيري ، وأحمد الله الذي هداني وحركني لذلك » .

وأما الذين ادعوا الحيرة بما سمعوا من أهل التعليم فعلاجه ما ذكرنا في كتاب القسطاس المستقيم ، وأما ما توهمه أهل الإباحة فقد أوضحناه في كتاب كيمياء السعادة ، وأما من فسد إيمانه بطريق الفلسفة حتى أنكر أصل النبوة فقد ذكرنا حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة بدليل علم خواص الأدوية والنجوم وغيرها .

* * *

التبر المسبوك [1]

عرض : د. جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

يبدأ الكتاب ببيان نعم الله ، وأهمها نعمة الإيمان الذي هو بذر السعادة المؤيدة والنعمة المخلدة ، ولشجرة الإيمان عشرة أصول وعشرة فروع ، فأصلها : الاعتقاد بالجنان ، وفروعها : العمل بالأركان

ثم يبدأ في تفصيل ذلك موجهًا كلامه لسلطان الإسلام ، ابتداءً بقاعدة الاعتقاد الذي هو أصل الإيمان ، ويعني بها أننا كبشر ، مخلوقون ولنا خلق عظيم . والأصل الثاني : في تنزيه الخالق ﷻ ، الذي ليس له صورة ولا مثل ، وأنه لا ينزل ولا يحل في قالب ، والأصل الثالث : أنه تعالى قدير على كل شيء ومُلْكَه في نهاية الكمال ، والأصل الرابع : في العلم فهو ﷻ عالم بكل معلوم محيط بكل شيء . والأصل الخامس والسادس : في أنه سميع بصير ، أي أنه سميع لكل مسموع بصير لكل مبصر . والأصل السابع : في الكلام فأمره على جميع الخلق نافذ واجب مهما أخبر به من وعد ووعيد فإنه حق وأمره كلامه ، وهو متكلم وكلامه بغير حلق ولا لسان ، ولا فم ولا أسنان . والأصل الثامن : في أفعاله تعالى . وأن جميع ما في العالم مخلوق له تعالى وليس معه شريك ولا خالق بل هو الخالق الواحد . والأصل التاسع : في ذكر الآخرة وأنه تعالى خلق العالم من نوعين ، جسد وروح ، وجعل الجسد منزلا للروح لتأخذ زادًا

---

(١) الغزالي ، القاهرة ، مطبعة الآداب والمؤيد ، (١٩٠٠م) ، (١٣٣ ص) .

لآخرتها من هذا العالم ، وجعل لكل روح مدة مقدرة تكون في الجسد ، فآخر تلك المدة هو أَجَل تلك الروح من غير زيادة ولا نقصان . والأصل العاشر والأخير : في ذكر رسول الله ﷺ .

وينتقل بعد ذلك ليذكر فروع شجرة الإيمان ، ويبدأ بالإشارة إلى أن كل ما في قلب الإنسان من معرفة واعتقاد فذلك أصل الإيمان ، والأعمال التي هي فروع الإيمان هي تجنب المحارم وأداء الفرائض ؛ وهما قسمان ، أحدهما : بين الخلق والخالق كالعبادات والثاني : بين العبد وبقية الخلق وهي العدل في الرعية والكف عن الظلم .

وأصول العدل والإنصاف عشرة . **الأصل الأول** : هو أن نعرف أولًا قدر الولاية ونعلم خطرها ، فإن الولاية نعمة من نعم الله ﷻ ، ومن قام بحقها نال من السعادة ما لا نهاية له ولا سعادة بعده ، ومن قصر عن النهوض بحقها حصل في شقاوة لا شقاوة بعدها إلا الكفر بالله . (ومفهوم السعادة من المفاهيم التي دخلت لميدان الدراسات السيكولوجية حديثًا وأفردت لها مؤلفات خاصة (ص ١٠) . ويتحدث أيضًا في ثنايا هذا الأصل عن العلاقة بين الراعي والرعية (وكأنه يحدد خصال القائد والمسؤول ، وهو من موضوعات علم النفس التنظيمي Organizational Psychology وعلم النفس الاجتماعي Social Psychology (ص ١١ - ١٤) .

والأصل الثاني : أن يشتاق العبد دائمًا إلى رؤية العلماء ويحرص على استماع نصحهم ، وأن يحذر من علماء السوء الذين يحرصون على الدنيا ، ويستعين على توضيح ذلك بالحكايات والنكات ، والحكم (وبرغم عمومية الموضوع وهو طلب العلم ومجالسة العلماء والذي يصلح لكل طالب علم ، فإن علم النفس الحديث يهتم بالمهارات اللازمة للتعلم ، والقوانين التي تحكمه ، وأنواعه (ص ١٥) .

والأصل الثالث : ألا يكتفي العبد برفع يده عن الظلم ، ولكن يهذب غلمانه وأصحابه وعماله ونوابه ، فلا يرضى لهم بالظلم ، فإنه يسأل عن ظلمهم كما يسئل عن ظلم نفسه (ونجد لذلك صدًى في دراسات علم النفس الحديث ، وإن كان بشكل غير مباشر ، فهو من ناحية يدعو إلى حُسن التنشئة Socialization والتربية Education لمن نكون مسؤولين عنهم ، ومن ناحية أخرى يحدد بعض خصال المسؤول أو القائد Leader أيًا كان دوره (ص ١٨ ، ١٩) .

كما يثير في هذا السياق موضوعًا آخر يتصل بالعقل وجوهره ، والشهوة والغضب

ومصدر كل واحد من هذه القوى (والعقل ، والغضب أو الانفعالات Emotions والشهوة أو الدوافع Motives من موضوعات علم النفس العام) (ص ١٩ ، ٢٠) .

أما الأصل الرابع : في أن الوالي في الأغلب يكون متكبرًا ، ومن يتكبر يحدث عليه السخط من الداعين إلى الانتقام ، والغضب غول العقل وعدوه وآفته (ويتحدث بالإضافة إلى ذلك عن القدرة على ضبط النفس Self Control وهو من سمات الشخصية التي تدل على الاتزان الانفعالي وهو مما يدرس في علم النفس الحديث (ص ٢١) .

والأصل الخامس : في أن الوالي في كل واقعة تصل إليه وتعرض عليه يقدر أنه واحد من جملة الرعية وأن الوالي سواه ، فكل ما لا يرضاه لنفسه لا يرضاه لغيره من المسلمين ، فإن رضى لهم بما لا يرضاه لنفسه فقد خان رعيته وغش أهل ولايته .

والأصل السادس : ألا ينتظر الوالي أرباب الحوائج ووقوفهم ببابه ، وأنه متى كان لأحد من المسلمين حاجة إليه فلا ينشغل عن قضائها بنوافل العبادات ؛ لأن قضاء حوائج المسلمين أفضل من نوافل العبادات .

والأصل السابع : أن لا يعود نفسه الاشتغال بالشهوات ، من لبس الثياب الفاخرة وأكل الأطعمة الطيبة ، وأن يستعمل القناعة في جميع الأشياء ؛ لأنه لا عدل بلا قناعة (ونجده هنا يذكر جانبًا من الدوافع البيولوجية التي يعني بها علم النفس العام) (ص ٢٥) . ويرتبط ما يذكره الغزالي عن خصال الوالي بما يدرس في علم النفس الاجتماعي عن خصال القائد أو الزعيم .

والأصل الثامن : أنه متى أمكنه أن يعمل الأمور بالرفق و اللطف فلا يعملها بالشدة والعنف ، والعنف Violence من المفاهيم التي تدرس في إطار دراسات علم النفس الاجتماعي (ص ٢٥) .

والأصل التاسع : أن يجتهد الوالي في إرضاء رعيته بموافقة الشرع .

أما الأصل العاشر والأخير : أن لا يطلب رضا أحد من الناس بمخالفة الشرع فإن من سخط بمخالفة الشرع لا يضر سخطه .

وبعد أن فرغ من هذه الأصول ينتقل إلى بيان العينين اللتين هما مشرب شجرة الإيمان ، العين الأولى : في معرفة الدنيا ولِمَ أوجد فيها الإنسان ، ثم يستطرد ويذكر حال الدنيا على عشرة أمثلة . والعين الثانية : معرفة النَّفَس الأخير ، ويقسم بني آدم إلى طائفتين نظروا إلى شاهد حال الدنيا وتمسكوا بتأمل العمر الطويل ، وطائفة عقلاء جعلوا

النفس الأخير نصب أعينهم لينظروا إلى ماذا يكون مصيرهم ، وكيف يخرجون من الدنيا ويفارقونها وإيمانهم سالم . ويذكر في ذلك خمس حكايات .

(والحكاية الأولى تنطوي على بعض سمات الشخصية غير المحببة ؛ مثل : الكبرياء والخيلاء وتندرج في دراسات علم النفس إما تحت سمات الشخصية أو تحت موضوع الصداقة Friendship وصفات الصديق) (ص ٣٤) .

وينتقل بعد هذا الحديث مباشرة ودون تمهيد إلى **الباب الأول** : وهو في ذكر العدل والسياسة وذكر الملوك وسيرهم ، ويشير إلى أن الله ﷺ اختار من بني آدم طائفتين : وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليبينوا للعباد على عبادته الدليل ، ويوضحوا لهم معرفة السبيل . واختار الملوك لحفظ العباد من اعتداء بعضهم على بعض ، وهو هنا يخوض في تفاصيل كثيرة ، فيحدد أنواع الظلم وهو نوعان ، أحدهما : ظلم السلطان لرعيته وجور القوي على الضعيف والغني على الفقير ، والثاني : ظلم العبد لنفسه ، ويبين العدل وفوائده ويورد في ذلك عددًا كبيرًا من الحكايات التي رويت عن الملوك والخلفاء والصالحين والكلام هنا يدخل بشكل غير مباشر في أحد موضوعات علم النفس الاجتماعي التي سبق أن أشرنا إليها وهو موضوع القيادة Leadership (ص ٤١) ، وكذلك خصال القائد كما حددها بعض الحكماء مثل أرسطاطاليس (ص ٥٩ - ٦٠) .

ويعرج بعد ذلك ليتحدث في فصلٍ مستقل ، عن ضرورة ابتعاد السلطان عن الاشتغال الدائم بلعب الشطرنج والنرد وشرب الخمر وضرب الكرة والصولجان والصيد ؛ لأن ذلك يمنعه ويشغله عن أمور الرعية ، وما يعنينا هنا هو شرب الخمر باعتبارها من المواد التي إذا دخلت جسم الإنسان أثرت في وظائفه الخاصة ، وخاصة السلوك وهو مما يهتم به علماء النفس الإكلينيكيون (٦٤) . كما يتحدث في فصل آخر عن واجبات السلطان متى وقعت رعيته في ضائقة أو حصلوا في شدة وفاقة .

● **والباب الثاني** : في سياسة الوزارة وسير الوزراء ، فالسلطان يرتفع ذكره وعلو قدره بالوزير إذا كان صالحًا عادلًا ، ثم يحدد بعد ذلك العلاقة بين السلطان والوزير وكيف يعامله . كما يحدد للوزير مهامه وخصاله ؛ ومنها : أن يكون عالمًا عاقلًا ، شيخًا (بما له من تجارب) . ويحتاج الوزير إلى خمسة أشياء لتحمد خبرته وتحسن سيرته ؛ وهي : التيقظ (والتيقظ Vigilance أو الانتباه Attention من موضوعات علم النفس الحديث والتي تدرس في حالتي السواء والمرض لصياغة المبادئ الحاكمة لها) (ص ٨٦) .

والعلم والشجاعة ، والصدق ، وكتمان سر السلطان إلى أن يدركه الموت .

● **والباب الثالث** : في ذكر الكُتَّاب وآدابهم ، فقد قال العلماء ليس شيء أفضل من القلم ؛ لأنه يمكن به إعادة السالف والماضي ، وقد أقسم اللَّه تعالى به ، ويرى المؤلف أن الكُتَّاب لا يجوز لهم أن يعرفوا أكثر من حدود الكتابة ليصلحوا لخدمة الأكابر . وينبغي أن يكون الكاتب عالمًا بعشرة أشياء : بُعد الماء وقربه تحت الأرض ، ومعرفة استخراج الإفتاء ، ومعرفة زيادة الليل والنهار ونقصانهما ، وسير الشمس والقمر والنجوم ، ومعرفة الاجتماع والاستقبال ، والحساب بالأصابع ، وحساب الهندسة والتقويم ، واختيارات الأيام وما يصلح للمزارعين ، ومعرفة الطب والأدوية ، ومعرفة ريح الجنوب والشمال ، وعلم الشعر والقوافي ، وأن يكون إلى جانب هذا كله خفيف الروح ، طيب اللقاء عالمًا ببراية القلم .

● **والباب الرابع** : في سمو همم الملك ، وتفسير معنى الهمة ، وأن يرفع نفسه ؛ فإن أنفة القلب من همم الأكابر لأنهم يعرفون قدر أنفسهم فيعزونها ، ولا يرفع أحد قدر أحد حتى يكون هو الرافع لقدر نفسه (ونلمح في هذا الحديث تطرقًا لبعض المفاهيم التي يتناولها علماء النفس المحدثون ويدرجونها تحت سمات الشخصية ، أو تحت ما يسمى بصورة الذات Self Image أو مفهوم الذات Self Concept ونعني بها تقدير الذات Self Esteem ، والثقة بالنفس Self Confidence ، كما أنهم يوفرون المقاييس التي تمكن من قياسها والتعرف عليها بطريقة موضوعية) (ص ٩٣) .

● **والباب الخامس** : في ذكر حلم الحكماء . والحكمة من عطاء اللَّه جلت قدرته ، ويؤتيها من يشاء من عباده ، وثمرة الحكمة الراحة والعلاء . وقد اختصر بعض العلماء الكتب لملوك الهند - فيما روي - في أربع كلمات إحداهما للملوك وهي العدل ، والثانية للرعية وهي الطاعة ، والثالثة للنفس وهي الإمساك عن الطعام إلى وقت الجوع (وهو أحد أنواع الدوافع البيولوجية أو الأولية التي تعرض لها علماء النفس بالدراسة ص ١٠٥) ، والرابعة للإنسان وهي ألا ينظر إلى غير نفسه ، كما يسوق لنا بعض الحكم فيقول : « اتفق أهل الدنيا على أن أعمال الخلائق لها خمسة وعشرون وجهًا : خمسة منها بالقضاء والقدر ؛ وهي : طلب الزوجة والولد والمال والملك والحياة ، وخمسة منها بالكسب والاجتهاد ؛ وهي : العلم والكتابة والفروسية ودخول الجنة والنجاة من النار ، وخمسة منها بالطبع ؛ وهي : الوفاء والمداراة والتواضع والسخاء ، وخمسة منها بالعادة : وهي المشي في الطريق والأكل والنوم والجماع والبول والتغوط ، وخمسة منها بالإرث ، وهي

الجمال وطيب الخلق وعلو الهمة والتكبر والدناءة (ومن هذه الحكمة نجد تعرضًا لعدد من المفاهيم التي تدخل الآن في اهتمامات علماء النفس ؛ مثل : بعض سمات الشخصية الحسنة والسيئة وبعض الدوافع الأولية ، كما نجد استخدامًا لمفهوم العادة Habit وهو من المفاهيم التي تستخدم في ميدان نظريات التعلم Learning Theories ص ١٠٧) . كما يرتبط ذلك بأثر البيئة والوراثة في السلوك .

● **والباب السادس** : في شرف العقل والعقلاء ، فاللّٰه ﷻ خلق العقل على أحسن صورة وقال له : أقبل ، فأقبل ، ثم قال له : أدبر ، فأدبر ، فقال : وعزتي وجلالي ما خلقت في خلقي شيئًا أحسن منك ، بك آخذ وبك أعطي ، وبك أحاسب ، وبك أعاقب ، وهذا دليل على مكانة العقل من البشر ، وقال الحكماء : إن للعاقل أربع علامات يعرف بها ، وهي أن يتجاوز عن ذنب من ظلمه ، وأن يتواضع لمن دونه ، وأن يسابق لفعل الخير لمن هو أعلى منه ، وأن يذكر ربه دائمًا ، وأن يتكلم عن العلم ويعرف منفعة الكلام في موضعه ، وإذا وقع في شدة التجأ إلى اللّٰه تعالى (والعقل صفة عامة من الموضوعات المحورية في علم النفس القديم والحديث سواء كان هذا العقل ذكاءً أو تفكيرًا أو عمليات معرفية) (ص ١١٥ ، ١١٦) ، كما يذكر في هذا السياق بعض الحكايات التي تشير إلى المحبة والعوامل التي تؤدي إليها بين الأفراد (والحب أو المحبة من بين الانفعالات التي يدرسها علم النفس العام) (ص ١١٩) . كذلك يربط في موقف آخر من خلال الحكمة بين العقل والتجربة ، ويذكر أيضًا أن من جنود العقل : التمييز ، والحفظ ، والفهم (وهي كلها وظائف أو عمليات نفسية معرفية درست في علم النفس المعرفي Cognitive Psychology أو في الذكاء Intelligence أو في سيكولوجية اللغة Psycholinguistics أو في نظريات التعلم (ص ١٢١) .

● **والباب السابع** : في ذكر النساء ، وخيرهن وأبركهن وهي الحسناء الولود الخفيفة المهر ، ويدلل على ذلك بالأحاديث والحكايات . ويحث على ضرورة التدقيق في اختيار الزوجة ، ثم يذكر فصلًا في ديانة المرأة وسترها .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس العام ، وعلم النفس الاجتماعي .

* * *

مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب في علم التصوف (١)

عرض : د. شعبان جاب الله رضوان

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٤٨٧ صفحة من القطع المتوسط ، ويضم خطبة الكتاب ثم أبواب الكتاب وعددها ١١١ بابًا ونعرض لها فيما يلي :

تتناول الأبواب من الأول حتى الحادي عشر عددًا من الموضوعات ؛ هي : الخوف من اللّه تعالى وعلاماته ومنها امتناع اللسان عن الكذب والغيبة والنميمة والبهتان وكلام الفضول وانشغاله بذكر اللّه وتلاوة القرآن ومذاكرة العلم ، وخروج العداوة والبهتان وحسد الإخوان من القلب ، وعدم النظر إلى الحرام ، وعدم أكل الحرام ، وعدم مد اليد إلى الحرام ، وعدم المشي في معصية اللّه ، بل يجب المشي في طاعته ورضاه .

ويتصل هذا الحديث عن الخوف بموضوع الانفعالات Emotions وخاصة انفعال الخوف (علم النفس العام) ، (ص ٥ – ٩) ، ثم يتناول الصبر والمرض ، ويبين أن من أراد أن ينجو من عذاب اللّه وينال ثوابه فَلْيَنْهَ نفسه عن شهوات الدنيا وليصبر على الشدائد . والصبر على أوجهٍ منها : الصبر على طاعة اللّه ، وعلى محارمه وعلى المصيبة والمرض .

ثم ينتقل إلى الحديث عن رياضة النفس ومجاهدتها لأنها أعدى من إبليس ، وذلك من خلال اجتناب الشهوات النفسانية وقمعها بالجوع ، وأن يجعل الشيطان عدوًّا له .

ويتصل ذلك بموضوع الدوافع Motives في علم النفس (ص ١٧ – ٢١) .

(١) الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، (١٩٨٢م) .

ويتناول أيضًا الغفلة ، ويروى أنها تزيد الحسرة والحسد والملامة والندامة وتزيل النعمة ، ثم يتحدث عن نسيان اللَّه تعالى والفسق والنفاق وعاقبة ذلك .

ثم ينتقل إلى التوبة وهي من الأمور الواجبة على كل مسلم ومسلمة ، وهي الوسيلة التي يعفو بها اللَّه سبحانه ويتجاوز عن سيئات عباده .

وتنتهي هذه الفصول بحديث عن محبة المؤمنين اللَّه ومظاهر ذلك من اتباع أمره ، وإيثار طاعته وابتغاء مرضاته ، وحب اللَّه للمؤمنين والذي يبدو في ثنائه عليهم وثوابه لهم وعفوه عنهم وإنعامه عليهم برحمته وعصمته وتوفيقه ، ويشير الإمام الغزالي هنا إلى أن علامة المحبة موافقة المحبوب واجتناب خلافه ، ويعرف الحب : بأنه عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء الملذ ، فإن تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقًا ، ويذكر أن محبة اللَّه تقتضي طاعته وطاعة رسوله ﷺ .

ويتصل هذا الحديث عن المحبة والعشق ، بموضوع الانفعالات Emotions وبخاصة انفعال الحب وذلك في إطار علم النفس العام (ص ٣٧ - ٤٦) .

وتدور الأبواب من الثامن عشر حتى العشرين حول موضوعات متفرقة ، فتتناول إبليس وعذابه ، والأمانة بمعنى الطاعة والفرائض التي يتعلق بأدائها الثواب والعقاب ، وإتمام الصلاة بالخضوع والخشوع في أدائها ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واتخاذ الشيطان عدوًّا والحذر منه والتغلب عليه بطاعة اللَّه ، ومعرفة مداخله الكثيرة التي تعد صفات للعبد ومنها الغضب والشهوة والحسد والحرص والشبع من الطعام ، وحب التزين من الأثاث والثياب والدار ، والطمع في الناس والعجلة ، وترك التثبت من الأمور ، والبخل وخوف الفقر ، والتعصب للمذاهب والأهواء والحقد على الخصوم والنظر لهم بعين الاحتقار ، وسوء الظن بالمسلمين .

وتتناول أيضًا الأمانة بمعنى أداء الحقوق لأصحابها وضدها الخيانة ، وكذلك فضل الترحم ، أي رحمة النفس بترك المعاصي والتوبة ، وفعل الطاعات والإخلاص فيها وأيضًا رحمة الغير بعدم إيذائه وثواب ذلك المتمثل في دخول الجنة ، وبيان الغيبة والنميمة وما ورد فيهما من نصوص تحرمهما .

وهناك عدد من المفاهيم الواردة في الأبواب السابقة ذات صلة بمجالات علم النفس ؛ حيث يتصل مصطلح الغضب بموضوع الانفعالات Emotions ، والشهوة بموضوع الدوافع Motives والعجلة الاندفاعية Impulsivity وذلك في علم النفس العام .

ويقع مفهوم التعصب Prejudice في علم النفس الاجتماعي ، أما مفهوم الأمانة

فيتصل بموضوع القيم Values والأخلاق Morality في علم النفس الاجتماعي أيضًا (ص ٥٣ - ٩٥) .

وتهتم الأبواب من الحادي والعشرين حتى الثاني والعشرين ببيان الزكاة وأنواعها وعقوبة من يبخل بأدائها ، والزنى وضرورة حفظ الفرج عن الحرام مخافة العذاب ، ثم بيان حقوق الوالدين وصلة الرحم وبر الوالدين ، وما إلى ذلك من نيل رضا اللَّه تعالى .

كما يتناول الإمام الغزالي هنا أيضًا موضوع الأمل في الدنيا وكيف أن صلاح الأمة بالزهد واليقين ، وهلاكها في طول الأمل والحرص على الدنيا ، وبيان ملازمة الطاعة المتمثلة في القيام بفروض اللَّه تعالى والاجتناب لمحارمه والوقوف عند حدوده ، وضرورة ذكر الموت حتى لا ينهمك الإنسان في لذات الدنيا وشهواتها . ثم يتحدث عن خلق السموات السبع من دخان ، ويبين المقصود بالكرسي والعرش والملائكة المقربين والأرزاق والتوكل ، ويعود إلى الحديث عن ترك الدنيا وذمها والآيات القرآنية الواردة في هذا الصدد والتي تدعو إلى العمل من أجل الآخرة الباقية .

وتدور الأبواب من الثالث والثلاثين حتى الثاني والأربعين حول فضل القناعة بقدر الضرورة من المطعم والملبس والمسكن ، وحول فضل الفقراء الذين يرضون بالكفاف من الطعام وثوابهم عند اللَّه تعالى ، كما تتناول من يتخذ من دون اللَّه سبحانه وليًا ، وكذلك النفخ والحشر من المقابر يوم القيامة ، والقضاء بين الخلائق وإعطاء كل ذي حق حقه ، ثم يبين ذم المال ومن يحبه ويفضله على ما عند اللَّه الذي لا ينفد .

ويذكر الغزالي بعد هذا عملية الحساب ونصب الميزان للحسنات والسيئات وما يعقب ذلك من دخول الجنة أو عذاب النار ، والحال التي يكون عليها الخلائق في هذا الموقف المهيب . ويبين فضل الطاعة التي حث اللَّه عليها في آيات متعددة وأنها جماع الخير كله ، كما يبين جزاء شكر اللَّه على نعمائه وأن هذا الشكر يتم بالقلب واللسان والجوارح في السراء والضراء ، ويشير إلى ذم الكبر وعاقبة المتكبرين في الأرض بغير الحق مستشهدًا بالأحاديث النبوية والآيات القرآنية الواردة في هذا الشأن .

وتتناول الأبواب من الثالث والأربعين حتى السادس والخمسين عددًا من الموضوعات المختلفة ؛ حيث يشير الغزالي فيها إلى ضرورة التفكر والتدبر في تعاقب الليل والنهار ، وخلق السموات والأرض كما أمر اللَّه تعالى بذلك في كتابه العزيز وأثنى على المتفكرين ، ويذكر في هذا الشأن قول الإمام الشافعي ﷺ بأن الفضائل أربعة ؛ إحداها : الحكمة وقوامها الفكرة ،

والثانية : العفة وقوامها في الشهوة والثالثة : القوة وقوامها في الغضب والرابعة : العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس . وهذه المقولة للإمام الشافعي تتضمن بعض المفاهيم النفسية حيث يتصل مفهوم الفضائل الأربعة ؛ وهي : الحكمة ، والعفة ، والقوة ، والعدل بمصطلح القيم Values والأخلاق Morality في علم النفس الاجتماعي ، ومفهوم التفكير .

كما يتصل مفهوم الغضب بموضوع الانفعالات Emotions وخاصة انفعال الغضب ، ويتصل مصطلح الشهوة بموضوع الدوافع Motives وخاصة الدوافع الفطرية وذلك في إطار علم النفس العام (ص ٢٢٧ - ٢٩١) .

ويبين شدة الموت وألمه على الإنسان ، وسؤال القبر له وكيف يكون رحمة لمن كان مطيعًا للَّه ، ونقمة لمن كان عاصيًا له في الدنيا ، والمقصود بعلم اليقين وعين اليقين ، والسؤال يوم العرض على نعيم الدنيا من صحة الأبدان والأسماع والأبصار والمكاسب وملاذ المآكل والمشارب وغيرها . ويتناول أيضًا فضل ذكر اللَّه تعالى وما أعده اللَّه للذاكرين له من ثواب عظيم ومغفرة لذنوبهم ، وفضل الصلوات الخمس المتمثل في تكفيرها لما بينهن من الذنوب والخطايا ، وبيان عقوبة تاركها ، وبيان درجات جهنم وعذابها التي أُعدت للكافرين والمنافقين ، ويبين أيضًا أن أعظم زاجر عن الذنوب هو خوف اللَّه تعالى وخشية انتقامه وسطوته ، وحذر عقابه وغضبه وبطشه .

وينتقل الإمام الغزالي بعد ذلك إلى الحديث عن فضل التوبة والاستغفار وثوابهما ، والنهي عن الظلم وعاقبة الظالمين ونصرة اللَّه تعالى للمظلوم ، والنهي عن ظلم اليتيم - على وجه الخصوص - وأكل ماله . ثم يعود إلى بيان ذم الكبر مرة ثانية نظرًا لسوء عاقبته .

وتتناول الأبواب من السابع والخمسين حتى السبعين مجموعة من الموضوعات المتفرقة بعضها سبق ذكره من قبل كالحديث عن فضل القناعة وفضل الصلوات ، وذم الدنيا وتركها ، وذم الكبر ، وبيان صفة جهنم والميزان ، أما الموضوعات الأخرى فتدور حول فضل الصدقة التي تؤدى من الكسب الطيب ، وكيف أن اللَّه تعالى لا ينقص بها المال ويمحو بها الخطايا ، وحول معاونة المسلم لقضاء حاجة أخيه المسلم ، وما في ذلك من أجر عظيم ، وحول فضل الوضوء وإسباغه على المكاره وما في ذلك من تكفير لسيئات العبد ، وأيضًا بيان أهوال يوم القيامة ، والإحسان إلى اليتيم وثوابه ، والنهي عن أكل الحرام والربا ، ثم يذكر حقوق العبد وهي السلام عليه عند لقائه ، وإجابته إذا دعاه وتشميته إذا عطس ، وزيارته إذا مرض وحضور جنازته إذا مات وبر قسمه إذا أقسم ،

والنصح له إذا طلب النصيحة ، وحفظه بظهر الغيب عند غيابه .

أما الأبواب من الحادي والسبعين حتى الثمانين فتتناول ذم اتباع الهوى ؛ لأنه يضل عن سبيل اللّه ، وهو مفتاح السيئات ، وتبين الزهد ومقاماته الثلاثة ؛ وهي : الكف عن المحارم ، وترك الشبهات والزهد في الحلال ، ثم يتحدث عن صفة الجنة ومراتب أهلها الذين يتكئون على الأرائك ويسقون من رحيق مختوم ويطاف عليهم بأكواب وأباريق وكأس من معين بيضاء لذة للشاربين إلى غير ذلك من أنواع النعيم المقيم .

وتتناول أيضًا فضل الصبر والرضا والقناعة وجزاء ذلك عند اللّه تعالى ، وفضل التوكل على اللّه وفضل بناء المساجد وعمارتها ، وبيان وسائل رياضة النفس ومعرفة عيوبها ؛ وهي :

١ - أن يجلس المرء بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس ، ويحكمه في نفسه ويعرفه بعيوبها وطرق علاجها .

٢ - أن يطلب صديقًا صدوقًا بصيرًا متدينًا فينصبه رقيبًا على نفسه ، ليلاحظ أحواله وأفعاله وينبهه على ما كره من أخلاقه وعيوبه الظاهرة والباطنة .

٣ - أن يستفيد بمعرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه لأن عين السخط تبدي المساوئ .

٤ - مخالطة الناس لرؤية كل مذموم بين الخلق وأن يطالب نفسه به وينسبها إليه .

وينبغي على المرء أن ينزع من قلبه محبة الشهوات ويجاهد نفسه في طاعة اللّه تعالى .

وينتقل الإمام الغزالي بعد ذلك إلى الحديث عن الإيمان والنفاق ، ويذكر أن كمال الإيمان هو التصديق بوحدانية اللّه ، ويبين خطر المنافق وخصاله ، والنهي عن الغيبة والنميمة ، وقد سبق الحديث عنهما ، ثم يشير إلى أن المحبة هي محبة اللّه واتباع رسوله ، وأن محاسبة الإنسان لنفسه قد أمر بها اللّه ﷻ في كتابه الكريم ، وتتصل الطرق الأربعة المذكورة آنفًا لمعرفة عيوب النفس بالإرشاد النفسي Counseling كما يتصل مفهوم المحبة بموضوع الانفعالات Emotions (انفعال الحب) في علم النفس العام (ص ٣٥٣ - ٣٥٧) .

وتدور الأبواب من الحادي والثمانين حتى التسعين حول بيان تلبيس الحق بالباطل ، وفضل صلاة الجمعة وصلاة الليل ، وعقوبة علماء الدنيا الذين يقصدون من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها ، وبيان فضل حسن الخلق وأنه أفضل الأعمال وهو أول ما يوضع في ميزان العبد .

ويتصل الحديث عن حسن الخلق بموضوع الأخلاق Morality في علم النفس الاجتماعي (ص ٣٩٥ - ٣٩٩) . كما تتناول أيضًا الضحك والبكاء واللباس ،

وبخاصة ضحك الاستهزاء من القرآن ، وبكاء الخوف والانزجار لما ورد فيه من الوعيد ، ثم تذكر فضل القرآن والعلم والعلماء ، وكذلك فضل الصلاة والزكاة ، وبر الوالدين وثوابه ، وحقوق الأولاد المتمثلة في حسن التأديب والتربية وحسن التسمية ، وتلبية مطالبهم وإرضائهم عند الغضب ، والرحمة بهم .

وتتصل هذه الإشارة عن حقوق الأولاد بموضوع التنشئة الاجتماعية Socialization في إطار علم النفس الاجتماعي (ص ٤٠٥ - ٤٠٨) .

وتبين كذلك حقوق الجوار ؛ ومنها : الإحسان إلى الجار ، وكف الأذى عنه ، واحتمال الأذى منه ، وعيادته في مرضه ، وعزاؤه في المصيبة ، وتهنئته في الفرح ..... إلخ .

أما الأبواب من الحادي والتسعين حتى الحادي عشر بعد المائة فتتناول ذكر فضائل يوم الجمعة وفضل الجهاد في سبيل الله وفضل شهور رجب وشعبان ورمضان وفضل ليلة القدر وعيدي الفطر والأضحى ، والعشر الأوائل من ذي الحجة ، ويوم عاشوراء ، وفضل ضيافة الفقراء .

كما تتناول هذه الأبواب أيضًا عقوبة شارب الخمر ، ويندرج شرب الخمر تحت موضوع الإدمان Addiction أو الاعتماد Dependence في علم النفس الإكلينيكي .

وتتحدث عن معراج النبي ﷺ ، وحق الزوجة على الزوج ومنه حسن الخلق وكف الأذى عنها ، واحتمال الأذى منها والحلم عند طيشها وغضبها .

وكذلك حق الزوج على الزوجة ومنه طاعة الزوج مطلقًا في كل ما طلب منها في نفسها مما لا معصية فيه . ويتصل هذا الحديث عن الحقوق المتبادلة للزوجين بمفهوم الدور الاجتماعي Social Role ومتطلباته ، وبموضوع العلاقات الشخصية المتبادلة Interpersonal Relationship في إطار علم النفس الاجتماعي (ص ٤٢٣) .

ثم تتناول مكر الشيطان ، وبيان آراء الفقهاء والأئمة في سماع الغناء ، والنهي عن البدعة واتباع الهوى ، والنهي عن وسائل اللهو التي تمنع الإنسان عن ذكر الله .

ويختتم الإمام الغزالي هذا الكتاب بالحديث عن الجنازة وآداب حضورها ، وذكر القبر ، والتخويف من عذاب جهنم ، والميزان والصراط يوم القيامة ، ثم وفاة النبي ﷺ وبيان الظروف المختلفة التي أحاطت بهذا الحديث .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس العام .

المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى [1]

عرض : د. عبد اللطيف محمد خليفة

عرض الكتاب :

ينقسم الكتاب إلى ثلاثة فنون :

الأول : في السوابق والمقدمات .

الثاني : في المقاصد والغايات .

الثالث : في اللواحق والتكميلات .

• الفن الأول : في السوابق والمقدمات :

ويتضمن أربعة فصول :

الفصل الأول : في بيان معنى الاسم والمسمى والتسمية ، وهي ثلاثة أسماء متباينة غير مترادفة . وفي بيان حد الاسم وحقيقته ، يقول المؤلف : « إن للأشياء وجودًا في الأعيان ، ووجودًا في الأذهان ، ووجودًا في اللسان ، والوجود في الأعيان : هو الوجود الأصلي الحقيقي ، والوجود في الأذهان هو الوجود العلمي الصوري ، والوجود في اللسان هو الوجود اللفظي الدليلي ، والاسم هو اللفظ الموضوع للدلالة ، وهو الذي في اللسان دون الذي في الأعيان والأذهان . وكل موضوع لدلالة : له واضع ووضع

---

(١) تأليف أبي حامد محمد بن محمد الغزالي ، بعناية بسام عبد الوهاب الجابي ، الطبعة الأولى ، ليماسول ، قبرص ، الجفان والجابي للطباعة والنشر ، (١٩٨٧م) ، (ص ١٨٣) .

وموضوع له ، يقال للموضوع له : مسمًّى ، وهو المدلول عليه من حيث إنه يدل عليه . ويقال للواضع : المسمي ويقال للواضع : التسمية . يقال : سمى فلان ولده إذا وضع لفظًا يدل عليه ، ويُسمى وضعه تسمية ، وقد يطلق لفظ التسمية على ذكر الاسم والموضوع .

• ويرتبط هذا الفصل بمفهوم المعنى الإشاري Denotative Meaning والمعنى الدلالي Connotative Meaning ومفهوم التخيل Imagination (ص ٢٤ - ٣٩) .

الفصل الثاني : في بيان الأسامي المتقاربة في المعنى . وهنا يذكر المؤلف أن أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين ، وإن كانت متقاربة المعاني (مثل الواحد ، والأحد) و (الغني والملك) فليست مترادفة ؛ وذلك لأن الأسامي لا تراد لحروفها ومخارج أصواتها ، بل لمفهوماتها ومعانيها .

الفصل الثالث : في الاسم الواحد الذي له معان : مختلفة ، وهو مشترك بالإضافة إليها ، كالمؤمن مثلًا ، فإنه قد يراد به المصدق ، وقد يشتق من الأمن ، ويكون المراد إفادة الأمن والأمان ، فهل يجوز أن يحمل على كلا المعنيين حمل العموم على مسمياته ، وقال الشافعي ﷺ : « الاسم المشترك يحمل على جميع مسمياته إذا ورد مطلقًا ما لم تدل قرينة على التخصيص » . فأما التعميم ، فربما خالف وضع الشرع وضع اللسان . ففيما تصرف الشرع فيه من الألفاظ لا يبعد أن يكون من وضعه وتصرفه إطلاق اللفظ لإرادة جميع المعاني ، فيكون اسم المؤمن بالشرع محمولًا على المصدق ومفيدًا الأمن بوضع شرعي لا بوضع لغوي .

• **الباب الرابع** : في بيان أن كمال العبد وسعادته في التخلق بأخلاق الله تعالى والتحلي بمعاني صفاته وأسمائه بقدر ما يتصور في حقه ، فحظوظ المقربين من معاني أسماء الله تعالى ثلاثة : الحظ الأول : معرفة هذه المعاني على سبيل المكاشفة والمشاهدة ، حتى يتضح لهم حقائقها بالبرهان الذي لا يجوز فيه الخطأ ، وينكشف لهم اتصاف الله ﷻ بها ، انكشافًا يجري في الوضوح والبيان مجرى اليقين الحاصل للإنسان بصفاته الباطنة ، التي يدركها بمشاهدة باطنة لا بإحساس ظاهر ، الحظ الثاني : وهو استعظامهم ما ينكشف لهم من صفات الجلال على وجه ينبعث من الاستعظام ، يشوقهم إلى الاتصاف بما يمكنهم من تلك الصفات ، ليقربوا بها من الحق قربًا بالصفة لا بالمكان ، فيأخذوا من الاتصاف بها شبهًا بالملائكة المقربين عند الله ﷻ ، الحظ الثالث : وهو

السعي في اكتساب الممكن من تلك الصفات والتخلق بها والتحلي بمحاسنها ، وبه يصير العبد ربانيًا ؛ أي قريبًا من اللَّه ﷻ .

ويتحدث المؤلف بعد ذلك عن الكمال المطلق الذي يقتصر على اللَّه ﷻ . ثم قسم الموجودات إلى حية وميتة ، وأن الحي أشرف وأكمل من الميت . وأن درجات الأحياء ثلاث : درجة الملائكة ، ودرجة الإنس ، ودرجة البهائم ، ودرجة البهائم أسفل في نفس الحياة التي بها شرفها ؛ لأن الحي هو الدَّراك الفعَّال ، وفي إدراك البهيمة نقص ، وفي فعلها نقص . ونقصان الإدراك لديها ؛ لأنه مقصور على الحواس ، وإدراك الحواس قاصر ؛ لأنه لا يدرك الأشياء إلا بقرب منها ، وأما الملك فدرجته أعلى الدرجات ؛ لأنه عبارة عن موجود لا يؤثر القرب والبعد في إدراكه ، وأما الإنسان فإن درجته متوسطة بين الدرجتين وكأنه مركب من بهيمية وملكية ، والأغلب عليه في بداية أمره البهيمية ؛ إذ ليس له أولًا إلا الحواس التي يحتاج في الإدراك بها إلى طلب القرب من المحسوس بالسعي والحركة ، إلى أن يشرق عليه بالآخرة نور العقل .

ويرتبط ما ورد في الفصل الرابع بالموضوعات والمفاهيم السيكولوجية التالية :

١ - موضوع الإحساس Sensation والإدراك الحسي Perception (ص ٤٧ - ٤٨) ، والتفكير أو الإدراك العقلي .

٢ - مفهوم الغريزة Instinct (ص ٥١) .

٣ - الاقتداء Modeling ، والظروف المهيئة أو الدافعة إليه (ص ٤٦) .

- **الفن الثاني : في المقاصد والغايات :**

ويتضمن ثلاثة فصول ، نعرض لها على النحو التالي :

الفصل الأول : في شرح معاني أسماء اللَّه التسعة والتسعين ، وهي التي اشتملت عليها رواية أبي هريرة ﷺ ؛ إذ قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن للَّه ﷻ تسعة وتسعين اسمًا ، مئة إلَّا واحدًا ، إنه وتر يحب الوتر ، من أحصاها دخل الجنة** » . فاللَّه ﷻ : هو اسم للموجود الحق ، الجامع لصفات الإلهية ، **والرحمن والرحيم** : اسمان مشتقان من الرحمة ؛ والرحمة تستدعي مرحومًا ولا مرحوم إلا وهو محتاج . والرحمن أخص من الرحيم ، ولذلك لا يسمى به غير اللَّه ﷻ . والرحيم قد يطلق على غيره . وأما **الملك** : فهو الذي يستعف في ذاته وصفاته ، ويحتاج إليه كل موجود . **والقدوس** : هو المنزه عن كل وصف يدركه حس ، أو يتصوره خيال ، **والسلام** : هو الذي تسلم ذاته من العيب

وصفاته عن النقص ، وأفعاله عن الشر . **والمؤمن** : هو الذي يعزى إليه الأمن والأمان . **والمهيمن** : تعني أنه القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم . **والعزيز** : هو الذي يقل وجود مثله ، وتشتد الحاجة إليه ، ويصعب الوصول إليه . **والجبار** : هو الذي ينفذ مشيئته على سبيل الإجبار في كل واحد ، كما أنه الخالق البارئ المصور : وهي أسماء مختلفة في معانيها ، فالله ﷻ خالق من حيث إنه مقدر ، وبارئ من حيث إنه مخترع موجد ، ومصور من حيث إنه مرتب صور المخترعات أحسن ترتيب . **والغفار** : يعني الذي أظهر الجميل وستر القبيح ، **والقهار** : الذي يقصم ظهور الجبابرة من أعدائه ، فيقهرهم بالإماتة والإذلال ، **والوهاب** : الهبة هي العطية الخالية من الأعواض والأعراض . **والرزاق** : هو الذي خلق الأرزاق والمرتزقة وأوصلها إليهم ، وخلق لهم أسباب التمتع بها ، **والفتاح** : هو الذي يفتح بعنايته كل منغلق وبهدايته ينكشف كل مشكل ، والعليم أنه يحيط بكل شيء علمًا ، ظاهره وباطنه ، أوله وآخره ، عاقبته وفاتحته ، **والقابض الباسط** : فهو الذي يقبض الأرواح عن الأشباح عند الممات ، ويبسط الأرواح في الأجساد عند الحياة ، **والخافض الرافع** : هو الذي يخفض الكفار بالإشقاء ، ويرفع المؤمنين بالإسعاد ، **والمعز المذل** : هو الذي يؤتي الملك من يشاء ويسلبه ممن يشاء ، والسميع : هو الذي لا يعزب عن إدراكه مسموع وإن خفي ، والبصير : هو الذي يشاهد ويرى حتى لا يعزب عنه ما تحت الثرى ، **والحكم** : هو الحاكم المحكم والقاضي المسلم ، الذي لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه ، **واللطيف** : ويعني اجتماع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك ، **والحليم** : هو الذي يشاهد معصية العصاة ويرى مخالفة الأمر ، ثم لا يستفزه غضب ولا يعتريه غيظ . **والعظيم والغفور** : أي تام المغفرة والغفران ، **والشكور** : الذي يجازي بيسير الطاعات كثير الدرجات ، **والعلي** : الذي لا رتبة فوق رتبته وجميع المراتب منحطة عنه . **والكبير** : هو ذو الكبرياء ، أي كمال الذات . **والحفيظ** : هو الحافظ جدًّا ، **والمقيت** : معناه خالق الأقوات وموصلها إلى الأبدان ، **والحسيب** : هو الكافي ، والذي من كان له كان حسبه . **والجليل** : هو الموصوف بنعوت الجلال ، وهي العز والملك والتقدس والعلم والغنى والقدرة وغيرها من الصفات التي سبق ذكرها . **والرقيب** : هو العليم الحافظ ، **والمجيب** : هو الذي يقابل مسألة السائلين بالإسعاف ، ودعاء الداعين بالإجابة . **والواسع** : بعلمه وإحسانه . **والحكيم** : ذو الحكمة ، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم . وأجل الأشياء هو الله سبحانه . **والودود** : الذي يحب الخير لجميع الخلق ، فيحسن إليهم يثني

عليهم . **والمجيد** : هو الشريف ذاته ، الجميل أفعاله ، **والباعث** : هو الذي يحيي الخلق يوم النشور ، ويبعث من في القبور ، **والشهيد** : عالم الغيب والشهادة ، وهو الحق ، والقوي المتين ، **والولي** : هو المحب الناصر ، **والحميد** : هو المحمود المثنى عليه . والمحصي : هو العالم ، الذي ينكشف في علمه حد كل معلوم وعدده ومبلغه ، وهو المبدىء المعيد ، والمحيي المميت ، والحي القيوم ، والواحد الذي لا يعوزه شيء ، والماجد : بمعنى المجيد ، والواحد الذي لا يتجزأ ولا يثنى ، **والصمد** : هو الذي يصمد إليه في الحوائج ، والقادر المقتدر ، والمقدم والمؤخر ، والأول والآخر ، والظاهر والباطن ، **والبر** : هو المحسن ، **والمنتقم** : هو الذي يقصم ظهور العتاة ويُنَكِّل بالجناة ، والعفو الذي يمحو السيئات ويتجاوز عن المعاصي ، **والرؤوف** : ذو الرأفة ، أي شديد الرحمة . وهو مالك الملك ذو الجلال والإكرام ، والولي : الذي دبر أمور الخلق ووليها ، **والمقسط** : الذي ينتصف للمظلوم من الظالم . **والجامع** : أي الذي يؤلف بين المتماثلات والمتباينات ، والغني المغني ، والمانع ، والضار النافع ، والهادي ، والباقي ، **والوارث** : الذي ترجع إليه الأملاك بعد فناء المُلاك ، والرشيد والصبور : الذي لا تحمله العجلة على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه .

الفصل الثاني : في بيان وجه رجوع هذه الأسامي الكثيرة إلى ذات وسبع صفات على مذاهب أهل السنة ، وقد أشار المؤلف إلى ذلك في عشرة أقسام .

الأول : ما يدل على الذات ، كقول اللّه ، ويقترب منه اسم الحق .

الثاني : ما يدل على الذات مع سلب ، مثل القدوس والسلام والغني والأحد ، ونظائره ، فالسلام مثلًا هو المسلوب عنه العيوب .

الثالث : ما يرجع إلى الذات مع إضافة ، كالعلي والعظيم والأول والآخر ، والظاهر والباطن ، ونظائره ، فالعلي ، هو الذات التي هي فوق سائر الذوات في المرتبة ، فهي إضافة .

الرابع : ما يرجع إلى الذات مع سلب وإضافة ، كالملك والعزيز ، فالملك هو الذي يدل على ذات لا تحتاج إلى شيء ويحتاج إليه كل شيء .

الخامس : ما يرجع إلى صفة ؛ كالعليم والقادر والحي والسميع والبصير .

السادس : ما يرجع إلى العلم مع إضافة ؛ كالخبير والشهيد والحكيم والمحصي فالخبير يدل على العلم مضافًا إلى الأمور الباطنة .

السابع : ما يرجع إلى القدرة مع زيادة إضافة ؛ كالقهار والقوي والمقتدر والمتين . فالقوة هي تمام المقدرة ، والمتانة شدتها .

الثامن : ما يرجع إلى الإرادة مع الإضافة أو مع فعل ؛ كالرحمن الرحيم ، فالرحمة ترجع إلى الإرادة مضافة إلى قضاء حاجة المحتاج الضعيف .

التاسع : ما يرجع إلى صفات الفعل ؛ كالخالق والبارئ والمصور والوهاب والرزاق والفتاح والقابض والباسط والخافض .... إلخ .

العاشر : ما يرجع إلى الدلالة على الفعل مع زيادة ؛ كالمجيد والكريم واللطيف ، فالمجيد يدل على سعة الإكرام مع شرف الذات .

الفصل الثالث : في بيان كيفية رجوع ذلك كله إلى ذات واحدة ، على مذهب المعتزلة والفلاسفة ، وهؤلاء وإن أنكروا الصفات ولم يثبتوا إلا ذاتًا واحدة ، فلم ينكروا الأفعال ولا كثرة السلوب ، ولا كثرة الإضافات ، فما سبق ذكره من الأسامي والأقسام هم عليها مساعدون ، أما الصفات السبع التي هي : الحياة والعلم والقدرة والإرادة ، والسمع والبصر والكلام ، فيرجع ذلك عندهم إلى العلم ثم العلم يرجع إلى الذات ، وبيانه أن السمع عندهم عبارة عن علمه التام المتعلق بالأصوات ، والبصر عبارة عن علمه التام المتعلق بالألوان ، والكلام عندهم يرجع إلى فعله ، وهو ما يخلقه من الكلام في جسم من الجمادات ، عند المعتزلة ، ويرجع عند الفلاسفة إلى سماع يخلقه في ذات النبي ﷺ حتى يسمع هو كلامًا منظومًا من غير أن يكون له وجود من خارج ، كما يسمعه النائم ، ويضاف ذلك إلى اللَّه تعالى على معنى أنه لم يحصل ذلك فيه بفعل الآدميين وأصواتهم ، وأما الحياة فعبارة عندهم عن علمه بذاته ؛ لأن كل ما يشعر بذاته فيقال : إنه حي ، وما لا يشعر بذاته لا يسمى حيًا .

وزعموا أن علمنا إنما يحتاج في تحقيق المعلوم إلى القدرة ، ثم زعموا أيضًا أن العلم أيضًا يرجع إلى ذاته ؛ لأنه يعلم ذاته بذاته ، فيكون العلم والعالم والمعلوم واحدًا . وزعموا أن نسبة علم الواحد ، هو ذاته ، إلى كثرة المعلومات ، كنسبة علم الحاسب مثلًا .

• الفن الثالث : في اللواحق والتكميلات :

ويتضمن ثلاثة فصول :

الفصل الأول : في بيان أن أسماء اللَّه تعالى من حيث التوقيف غير مقصورة على تسعة وتسعين .

ففي رواية أخرى عن أبي هريرة ﷺ ، وردت أسامٍ أخرى قريبة من تلك الأسامي السابق ذكرها (مثل الأحد بدل الواحد ، والقاهر بدل القهار ، والشاكر بدل الشكور) ، كما وردت أسماء أخرى ؛ مثل : الهادي والكافي والدائم والبصير والنور والمبين والصادق والمحيط والقريب والفاطر والعلام والملك والمدبر وغير ذلك .

وقد ورد في القرآن الكريم ما ليس متفقًا عليه في الروايتين صحيحًا ؛ كالمولى والنصير والغالب والقريب والرب والناصر .

الفصل الثاني : في بيان فائدة الإحصاء والتخصيص بتسعة وتسعين ، فالأسامي هي تسعة وتسعون فقط ، سمى اللَّه ﷻ بها نفسه ولم يكملها مئة ؛ لأنه وتر يحب الوتر . ويدخل في جملتها المنان والحنان وغيرهما . ولا يمكن معرفة جمعيها إلا بالبحث في الكتاب والسنة . ثم ذكر المؤلف أن المسألة اجتهادية لا تعلم إلا بتخمين ، فهي خارجة عن مجاري العقول .

الفصل الثالث : في أن الأسماء والصفات المطلقة على اللَّه ﷻ ، هل تقف على التوقيف أم تجوز بطريقة العقل .

وذكر البعض أن ذلك جائز إلا ما منع منه الشرع ، فأما ما لا مانع فيه فإنه جائز . وذهب الأشعري إلى أن ذلك موقوف على التوقيف فلا يجوز أن يطلق في حق اللَّه تعالى ما هو موصوف بمعناه إلَّا إذا أذن فيه .

ويرى المؤلف ، أن كل ما يرجع إلى الاسم فذلك موقوف على الإذن ، وما يرجع إلى الوصف فذلك لا يقف على الإذن ، بل الصادق منه مباح دون الكاذب ، ولا يفهم هذا إلا بعد فهم الفرق بين الاسم والوصف .

* * *

منهاج العابدين [1]

عرض : د. أسامة سعد أبو سريع

عرض الكتاب :

يبين الغزالي في مستهل كتابه « منهاج العابدين » فضل العبادة ، ويصفها بأنها ثمرة العلم وفائدة العمر ، وحاصل العبيد الأقوياء ، وبضاعة الأولياء ، وطرق الأتقياء ، وقسمة الأعزة ، ومقصد ذوى الهمة ، وشعار الكرام ، وحرفة الرجال ، واختيار أولي الأبصار ، وهي سبيل السعادة ، ومنهاج الجنة (ص ٢) ، ومن هنا يدعو الغزالي إلى حسن العبادة نظرًا لقصر العمر وكثرة الانشغال ، ويقدم كتابه حتى يعين المؤمن على استكشاف طريق العبادة القويمة .

ويبدأ الغزالي بتوضيح أن الطاعة ليست بالأمر الهين ، وهي تستلزم مقاومة النفس وإخضاع شهواتها ، ويستشهد هنا بحديث رسول اللَّه ﷺ : « **ألا وإن الجنة حفت بالمكاره ، وإن النار حفت بالشهوات** » ، ويتناول بعد ذلك العوائق والصعوبات التي تواجه العبد في طريق الطاعة ، ويبين كيفية تخطي كل عقبة منها حتى يستقيم على الطريق الرشيد الموصل إلى الجنة ، ويشير الغزالي إلى أنه ألف كتبًا من قبل لتحقيق هذا الغرض ومنها « إحياء علوم الدين » و « القربة إلى اللَّه تعالى » ولكن صعب على بعض الناس فهمها ، وجادل البعض الآخر فيها ؛ ولذا قدم كتابه « منهاج العابدين » راجيًا أن يكون واضحًا ومفيدًا وفائزًا بالقبول .

---

(١) لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، (د.ت) (١٠٨ ص) .

وقبل أن يستعرض الغزالي أصناف العقبات المختلفة ، يبين أن أول طريق الطاعة يبدأ بتوفيق خاص من اللَّه عملًا بالآية الكريمة : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر : ٢٢] ، وفي الحديث الشريف : « **إن النور إذا دخل قلب المؤمن انفسح وانشرح** » ومن علامات ذلك النور الزهد في الدنيا ، والإنابة إلى الآخرة ، والاستعداد للموت قبل نزوله ، ثم يوجز الغزالي بعد ذلك العقبات التي تعترض الطاعة موضحًا أنها سبع عقبات ؛ وهي وفق تصوره لترتيبها :

١ - عقبة العلم والمعرفة . ٢ - عقبة التوبة . ٣ - عقبة العوائق .
٤ - عقبة العوارض الأربعة . ٥ - عقبة البواعث . ٦ - عقبة القوادح .
٧ - عقبة الحمد والشكر .

ثم يتناول كلًّا منها تفصيليًّا موضحًا الظروف التي تنشأ فيها كل عقبة وكيفية التغلب عليها ، وفيما يلي نلخص رأيه في كلٍّ منها .

١ - عقبة العلم والمعرفة :

يحتاج الإنسان في أول طريق الطاعة إلى أن يعرف مَن هو صاحب النعم عليه ، وما هي تلك النعم ، وكيف السبيل إلى شكر المنعم على نعمته ، وهذه هي عقبة العلم والمعرفة ، وهي عقبة يحتاج العبد فيها إلى التأمل والاستدلال وسؤال أهل العلم والمعرفة حتى يعظم اللَّه ويدرك أنه أنعم عليه بالحياة والقدرة والعقل والمنطق ، وسير له الخير وأبعد عنه الشر ثم كلفه بشكر تلك النعم وبطاعته ، وبعد أن يجتاز تلك العقبة يجد نفسه متأهبة للعبادة .

ويبين الغزالي فضل العلم فيذكر أن العلم والعبادة جوهران وأن العلم أفضلهما ، وفي هذا المعنى جاء في الحديث الشريف : « **فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل في أمتي** » والعلم عند الغزالي هو الأصل ، ويستمد الدليل من قول رسول اللَّه ﷺ : « **العلم إمام العمل ، والعمل تابعه** » ، إذ تلزم المعرفة بالمعبود وبصفاته قبل عبادته وهو ما يسمى بعلم التوحيد ، أيضًا لا بد من العلم بالطاعات الواجبة وبالمعاصي المنهي عنها ، بالإضافة إلى علم الشريعة ويختص بالمعرفة بكل الفروض وآدابها ، ويلزم العمل أيضًا بالعبادات الباطنة أي أعمال القلب ؛ وهي : التوكل ، والتفويض ، والرضا ، والصبر ، والتوبة ، والإخلاص ، واجتناب أضدادها وهي السخط والأمل ، والرياء ، والكبر ، ويوضح الغزالي تأثير المساعي الباطنة في الطاعات الظاهرة فهي تصلحها أو تفسدها .

ومن فضائل العلم أنه يسبب خشية اللَّه ؛ ذلك لأن مَن لا يعرف اللَّه حق معرفته

لم يعظمه حق تعظيمه ، ويوضح الغزالي أن عقبة العلم من العقبات الشديدة ، ولكنها عظيمة النفع وقد يقطعها الإنسان في مدة قصيرة وقد يتخبط عمره ، وتخطيها معتمدًا على صدق النية وقوة العزيمة وتوفيق اللّٰه .

ومن المفاهيم النفسية الواردة في جزء « عقبة العلم والمعرفة » يبرز مفهوم الدافعية Motivation خاصة الدافعية للإنجاز Achievement والتعلم Learning وأهمية الإرادة والاجتهاد في التعلم ، ومن المفاهيم ما جاء في سبل التعلم ومنها التأمل ، والاستنباط والسؤال ، والتفكير Thinking (ص ٦ – ٨) .

ومن المفاهيم النفسية أيضًا مفهوم السلوك الضمني Implicit Behavior والسلوك الصريح Explicit Behavior أو الخارجي والذي يمكن إدراكه ؛ حيث يتضح أن التفكير Thinking والمعرفة Cognition ومعالجة المعلومات Information Processing والقيم values التي يتبناها الشخص ومنها الصدق Truth والرضا Satisfaction والإخلاص Loyalty هي التي تحدد الاستجابة Response أو السلوك الصريح حيث بين الغزالي أهمية المعرفة بالمعبود قبل عبادته ، بالإضافة إلى تأثير العلم والتفكير في إحداث الخوف Fear وهو انفعال Emotion متوقف على المعرفة بقوة مصدر الخوف أو الرهبة (ص ٦ – ٨) .

٢ - عقبة التوبة :

عندما ينهض العبد لأداء واجبات الشكر بعد المعرفة بحقوق اللّٰه يجد نفسه مثقلة بالذنوب والخطايا ، ويشعر أن عليه أن يتوب عن تلك الذنوب قبل أن يخلص في العبادة وتلك « عقبة التوبة » ، ويتخطاها العبد بالتوبة النصوح بكل شروطها . ويدعو الغزالي لطلب التوبة لأمرين : أولهما : أن تكاثر الذنوب يؤدى إلى الحرمان ويمنع عن طاعة اللّٰه ، وثانيهما : بالتوبة تقبل العبادة فلا يجوز التبرع بأي عبادة قبل قضاء الدين بالتوبة عن الذنوب .

ويشرح معنى التوبة فيذكر أنها من أعمال القلب وهي تنزيه القلب عن الذنب ، وهي عزم على ترك ارتكاب الذنوب وعلى عدم العودة إلى ذنب سبق ارتكابه أو سبق منه مثله في المنزلة والدرجة ، ومن شروط التوبة أن يكون ترك الذنوب تعظيمًا للّٰه وخوفًا من سخطه وليس لرغبة دنيوية أو ضعف في النفس ، أو رهبة من الناس أو فقر أو غير ذلك .

ويذكر ثلاث مقدمات للتوبة ؛ وهي :

(أ) تذكر قبح الذنوب .

(ب) تذكر شدة عقوبة اللّه .

(جـ) تذكر ضعف العبد وقلة حيائه عندما يخشى ما هو دون اللّه قوة وقدرة .

ويقسم الغزالي أقسام الذنوب التي يجب التوبة عنها إلى ثلاثة أقسام ؛ وهي :

(أ) ترك واجبات اللّه من صوم وصلاة وزكاة أو كفارة وعلى العبد أن يقضي منها ما أمكنه .

(ب) ذنوب بين العبد وبين اللّه كشرب الخمر وأكل الربا ، وعلى العبد أن يندم عليها ولا يعود إليها .

(جـ) ذنوب بين العبد وبين الخلق وهي أصعب الذنوب ، وقد تكون في المال أو العرض أو الحرمة أو في الدين - بالرمي بالبدعة والكفر - وهي ذنوب تحتاج إلى أداء حق العباد أو طلب السماح منهم أو الاستغفار من اللّه ، وعمومًا فإن عقبة التوبة عقبة شاقة وضررها عظيم .

وتبرز هنا بعض المفاهيم النفسية منها الشعور بالذنب Guilt والتفريغ الانفعالي Catharsis وذلك بطرح الصراع Conflict والتعامل معه في الشعور Consciousness بدلًا من تركه في اللاشعور unconsciousness مما يسبب الاضطراب النفسي Psychological disorder (ص ١٠ - ١٤) .

ويوضح الغزالي أهمية أن يتحلى الإنسان بقيم Values مهمة ومنها الصدق Truth لأن اللّه لا يقبل إلا التوبة الخالصة له (ص ١٠ - ١٤) ، وتتضمن التوبة الندم على ارتكاب الذنوب ، والعزم على عدم ارتكابها أبدًا . وهذا يرتبط بمفهوم الندم كحالة انفعالية وجدانية ، كما يرتبط بالإرادة Will وضبط النفس Self Control والسيطرة عليها حتى لا ترتكب هذه الذنوب مرة أخرى ، والتوبة وسيلة ناجحة لعلاج القلق الناشئ عن الشعور بالذنب . كما تقترب أفكار الغزالي من مفهوم التفاعل الاجتماعي Social Interaction وتماسك الجماعة Group Cohesiveness من خلال دعوته إلى أداء حق العباد (ص ١٠ - ١٤) .

٣ - عقبة العوائق :

عندما يشرع العبد في التوبة يجد أن أربعة عوائق تحول بينه وبين إخلاص التوبة وتكون معًا عقبة العوائق ؛ وهي : (أ) الدنيا . (ب) الخلق . (جـ) الشيطان . (د) النفس .

ويتغلب العبد على تلك العوائق بالتجرد من الدنيا والتفرد عن الخلق ومحاربة الشيطان وقهر النفس ، ويرى الغزالي أن النفس هي أشد تلك العوائق ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يخرج عنها ، كما أنها معتادة على اللهو ويطهرها الإنسان بالتقوى حتى يسخرها للطاعة ويبعدها عن الشر .

وعقبة العوائق تظهر فضيلة الزهد في الدنيا والحرص على الآخرة ، كما يتبين من حديث رسول الله ﷺ : « **من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى** » ثم يتناول الغزالي أقسام الزهد فيقسمه إلى قسمين :

أ - الزهد غير المقدور ، وهو برودة الشيء على قلب الزاهد . هو يرى أن الزهد المقدور مقدمة للزهد غير المقدور ، وهو الزهد الصعب والحقيقي ؛ لأنه من السهل على الإنسان أن يترك طلب الشيء مع تعلق قلبه به ، أما ترك إرادته وعدم الرغبة في الشيء فهما أشق على النفس .

أما التفرد عن الخلق فلأنهم يشغلون عن العبادة ويفسدونها ، وإن اضطر الإنسان إلى مخالفة الناس فعليه أن يعاملهم بحرص وأن يستعين بالحلم ، وأن يعاونهم على الخير وينهاهم عن المنكر ويعطيهم أكثر مما يأخذ منهم ، ولا مانع من زيارة الإخوان الصالحين وهي من العبادة وتقرب العبد إلى الله ، ويصيب منها الكثير من الفوائد ولكن بشرطين ، هما : عدم الإكثار وتجنب الرياء واللغو والغيبة .

أما الطريق إلى جهاد النفس فيتمثل في ثلاثة أشياء ؛ وهي : (أ) منع الشهوات ، (ب) حمل أثقال العبادات . (جـ) الاستعانة بالله والتضرع إليه . والتقوى من خير السبل لقهر النفس ؛ ولذا يهتم الغزالي ببيان كيف يحفظ الإنسان أعضاءه الخمسة وهي العين والأذن واللسان والقلب والبطن من الحرام أو الإفراط في الحلال . وفي حفظ القلب يذكر أن هناك أربع آفات تفسد القلب وهي : الأمل ، والاستعجال ، والحسد ، والكبر ويقابلها أربعة مناقب تصلح القلب ؛ وهي قصر الأمل ، والتأني ، والنصيحة للخلق ، والتواضع .

وتقترب أفكار هذا الجزء من مفاهيم نفسية منها الذات Self وضبط الذات Self Control وضبط الدوافع الأولية Primary Motives وقمع Suppression الرغبات والشهوات وتجنب الإفراط أو التشبع Saturation الزائد ، وأهمية التعود Habituation والعادة Habit في التعلم Learning ؛ وذلك لأن الزهد المقدور يعلم الإنسان الزهد غير المقدور ، وفي التعلم

أيضًا يبين أن الإنهاك Exhaustion وهو هنا بكثرة العبادة يؤدي إلى التخلص أو إطفاء Extinction السلوك غير المرغوب وهو هنا اتباع الشهوات (ص ١٤ ، ١٥) .

ومن المفاهيم أيضًا ما يقترب من التفاعل الاجتماعي Social Interaction والصداقة Friendship والتخاطب Communication والمهارة الاجتماعية Social Skill ومستويات العلاقات الاجتماعية Social Relationships وشروط التفاعل فيها ، فمع عامة الناس ينبغي مراعاة الحرص وتقديم المساعدة Help والتعاون Cooperation ، أما مع الأصدقاء فينبغي عدم الإكثار أو الإفراط وتجنب الغيبة والنميمة (ص ١٦ – ٢٢) .

ومن الأفكار التي قدمها لحفظ القلب تبرز مفاهيم الصحة النفسية Psychological Health من خلال قصر الأمل أو الاعتدال في مستوى الطموح Aspulsiveness وتقديم النصيحة Giving Advice والتدعيم الاجتماعي Social Reinforcement ، أي الاهتمام بالآخرين وإثابتهم Rewarding بدلًا من مشاعر الغيرة والحسد (ص ٤٩ ، ٥٠) .

٤ - عقبة العوارض الأربعة :

بعد أن يتخطى العبد عقبة العوائق وينوي الإخلاص في العبادة يجد نفسه أمام أربعة أمور تشغله وتقلقه وتعوقه عن حسن العبادة ؛ وهي :

(أ) الرزق الذي تطالبه نفسه به خاصة بعد أن تجرد من الدنيا وتفرد عن الخلق .

(ب) الأخطار من كل شيء يخافه أو يرجوه ولا يدري هل في هذا الأمر صلاحه أو فساده فينشغل قلبه بعواقب الأمور وهي مبهمة فيقعد عن العبادة .

(جـ) الشدائد والمصائب والتي تنصب عليه وتتكاثر فوقه وهنا تزيد أحزانه .

(د) أنواع القضاء والابتلاء من الله بالحلو والمر خاصة وأن النفس ميالة إلى السخط والتبرم .

ويبين الغزالي أن الطريق إلى قطع العوارض بأقسامها الأربعة يتمثل في السبل الآتية :

(أ) التوكل على الله للتخلص من قلق الرزق بعد التيقن بأن الله الرزاق .

(ب) التفويض إلى الله في موضع الخطر ومنه يتأتي طمأنينة القلب .

(جـ) الصبر عند نزول الشدائد ، بالصبر تزيد قدرة العبد على تحمل المشقات وبه يتحقق فلاح العبد ونجاته ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩] .

(د) الرضا عند نزول القضاء ، وبذلك يتفرغ العبد للعبادة بدلًا من أن يشغل نفسه

بالهموم ، ويتفادى سخط اللّه إذا لم يرضَ بقضاء اللّه .

ومن المفاهيم هنا نذكر القلق Anxiety وهو شعور غامض يصحبه توقع غير سار وتوتر tension وإحساسات جسمية متكررة Frequent بالألم Pain في أجزاء مختلفة من الجسم ، وقد بيَّنَ الغزالي مصادر مختلفة للقلق ؛ منها القلق على الرزق ، وتقترب أفكاره من مفاهيم نفسية أخرى ؛ منها : الاكتئاب Depression والمترتب على المرور بخبرات سلبية Negative Experiences أو مشقة Stress or Fear زائد أو أحداث الحياة Life Events من وفاة أو يشعر به الشخص أمام الحياة التي لا يمكن توقعها ،ويرى الغزالي أن وسائل علاج القلق هي الرضا Satisfaction والصبر بقضاء اللّه عند الشدائد ، فإن من شأن ذلك أن يحقق للإنسان الاتزان الوجداني والتوافق النفسي (ص ٥١ - ٦٩) .

٥ - عقبة البواعث :

بعد أن يقطع الإنسان عقبة العوارض الأربعة ، ينظر إلى نفسه فيجد أن الكسل والفتور قد أقعدها عن واجبات العبادة ، ويلاحظ عليها الميل إلى الراحة والخمول والشر ، وهنا يحتاج إلى تنشيطها بسائق يقودها إلى الخير ، وزاجر ينأى بها عن الشر وهما الرجاء والخوف ، فالرجاء في ثواب اللّه ووعده لعباده الصالحين ينشط النفس للعبادة ويشجعها على تحمل المشقات والخوف من عقوبة اللّه يصرفها عن المعاصي .

ويعرف الغزالي الخوف : بأنه رعدة تحدث في القلب لتوقع مكروه يصيبه والخشية نحوه ، ويقابل الخوف الجراءة أو الأمن ومقدمات الخوف أربع ؛ وهي :

(أ) ذكر الذنوب الكثيرة .

(ب) ذكر شدة العقوبة .

(جـ) ذكر ضعف النفس عن احتمال عقوبة اللّه .

(د) ذكر قدرة اللّه متى شاء وكيف شاء .

أما الابتهاج فهو ابتهاج القلب بمعرفة فضل اللّه ، وتذكر سعة رحمته ، وضده اليأس ومقدمات الرجاء أربع ؛ وهي :

(أ) ذكر سوابق فضل اللّه .

(ب) ذكر ما وعد اللّه به من جزيل الثواب والذي يربو على عمل العبد .

(جـ) ذكر نعم اللّه في الدنيا والدين دون سؤال أو استحقاق .

(د) ذكر سعة رحمة اللَّه .

وتقترب أفكار الغزالي هنا من المفاهيم النفسية الآتية : فقدان الدافعية Lack of Motivation كما تتمثل عنده في الكسل عن العبادة ، وكذلك مفهوم تخيل Imagination المدعمات الإيجابية Positive reinforces ممثلة في الرجاء أو تخيل العقاب Punishment ممثلًا في الخوف ، وتأثير ذلك التخيل في التنشيط Activation وإصدار الاستجابة Response المرغوبة . وتقترب أفكاره أيضًا من مفهوم الانفعالات Emotions ومنها الخوف Fear حيث يعرف الخوف : بأنه رعدة في القلب لتوقع مكروه والخشية منه ويقترب تعريفه للخوف من تعريف القلق الذي قدمناه على أنه شعور عام General Feeling غامض Ambiguous يصحبه توقع غير سار Unpleasant Expectation وتوتر Tension ومتاعب جسمية ترجع لهذا التوتر النفسي . ومن الانفعالات أيضًا الابتهاج أو السرور Pleasure المترتب على الرجاء ويقابله اليأس Hopelessness ، والشعور بالعجز Helplessness (ص ٦٩ - ٧٩) .

٦ - عقبة القوادح :

بعد أن يتخلص العبد من عقبة العوائق وبعد أن ترغب نفسه في العبادة بفعل البواعث ينشط للعبادة فيؤديها في جد وشوق ، فإذا نظر إلى نفسه وجد أن آفتين تفسدان عليه العبادة بعد أن قطع إليها شوطًا بعيدًا ، وهما :

(أ) الرياء فقد يرائي العبد الناس بعبادته فتفسد ، ويحتاج الإنسان هنا إلى الإخلاص وذلك للفوز بثواب اللَّه وحسن قبوله ؛ لأن اللَّه لا يقبل إلا العمل الخالص له ، وعلى هذا يقابل الإخلاص الرياء ، وهو إما رياء محض وهو إرادة نفع الدنيا لا غير بفعل الآخرة ، أو رياء تخليط وهو إرادة نفع الدنيا والآخرة بفعل الآخرة .

(ب) العجب وذلك عندما يعجب العبد بنفسه ويستعظم عمله الصالح وهو يفسد العمل كما جاء في حديث رسول اللَّه ﷺ : « **ثلاث مهلكات ؛ شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه** » . وضد العجب ذكر المنة وتذكر أن ما به من نعمة فمن اللَّه وبتوفيقه .

وتقترب أفكار الغزالي هنا من مفهوم القيم Values التي تحكم حياة الشخص وتوجه سلوكه ومنها الصدق Truth والإخلاص Loyalty والكرم Generosity في مقابل البخل ، والتواضع Modesty في مقابل مشاعر النرجسية Narcissism وحب الذات

وضلالات العظمة Delusions of Grandiose في شكلها المرضي المتطرف عندما يبلغ إعجاب المرء بنفسه إلى أقصى مداه فيختل تصوره لحدوده (ص ٧٩ - ٨٤) ، ومن المفاهيم أيضًا مفهوم القمع Suppression كما يتمثل في ضبط الدوافع الأولية Primary Motives وعدم اتباع الهوى (ص ٨٣) .

٧ - عقبة الحمد والشكر :

بعد أن يقطع الإنسان عقبة القوادح تخلص له العبادة ويستقيم على طريق الطاعة ، فيجد نفسه محاطًا بنعم اللّٰه وفضله وبحراسته وكرمه فيخاف أن يعجز عن شكر النعم فتزول عنه وتقابله هنا « عقبة الحمد والشكر » . وهنا يلزم العبد الحمد والشكر لأمرين هما دوام النعمة وحصول الزيادة فيها .

ويميز الغزالي بين الحمد والشكر فيصف الحمد بأنه من أشكال التسبيح والتهليل ؛ ولذا فهو من الأمور الظاهرة ، أما الشكر فهو من أشكال الصبر والتفويض وهو الطاعة بجميع الجوارح في السر والعلن ، وهو من المساعي الباطنة ، ويقابل الحمد اللوم ويقابل الشكر الكفر ، والحمد أعم وأكثر تكرارًا من الشكر والدليل على ذلك قول اللّٰه تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] .

وتقترب أفكار الغزالي هنا من المفاهيم النفسية الآتية : الخوف Fear من عدم شكر النعمة ، والسلوك الصريح Explicit Behaviour وهو الحمد ، والسلوك الضمني Implicit Behaviour وهو الشكر ، ومفهوم الندرة Rarity كما يتمثل في عدم تكرار الشكر وقلة شيوعه Communality ؛ ولذا يكون أكثر قيمة Value لندرته (ص ٩٤ ، ٩٥) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس العام ، وعلم النفس الاجتماعي ، وعلم النفس المهني .

* * *

بداية الهداية [1]

عرض : د. أسامة سعد أبو سريع

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٦٠ صفحة من القطع الصغير ، ويتكون من مقدمة وقسمين ، ويوضح المؤلف فيها معنى الهداية ويشرح السبل الموصلة إليها ، ويشجع الإنسان على التحلي بمكارم الأخلاق وتجنب المعاصي بكافة أشكالها .

وفيما يلي نلخص أهم الأفكار التي أوردها الإمام في كل قسم منها ، ثم نبين بعد ذلك إلى أي حد ترتبط بالمفاهيم النفسية الحديثة .

• مقدمة : تقسيم طلاب العلم :

يقسم الغزالي الناس وهم يطلبون العلم إلى ثلاثة أقسام :

١ - رجل يطلب العلم لوجه اللّٰه والدار الآخرة حتى يكون زادًا ليوم الحساب ، وأولئك هم الفائزون .

٢ - رجل يطلب العلم حتى يستمد منه العز والجاه والمال ، وهو يشعر في داخله بعدم الرضا عن حاله ، وأولئك هم المخاطرون ؛ لأنه قد يلقى الواحد منهم نهايته قبل أن يعلن توبته .

٣ - رجل يتخذ من العلم سبيلًا إلى جمع المال والتفاخر وكثرة الأتباع ، وهو يظن

---

(١) لأبي حامد الغزالي ، قدم له وعلق عليه محمد الحجار . ط. ٥ (القاهرة) : دار التراث العربي ١٩٨٦م .

نفسه من المحسنين بما حصله من علم ، وهؤلاء هم الهالكون ؛ لأن التوبة ليست واردة في تفكيرهم ولأنهم يدعون الناس إلى الانصراف عن الدنيا بألسنتهم ولكنهم يدعونهم إلى الإقبال عليها بأعمالهم وأهوالهم ، خاصة وأن الأعمال تؤثر في الناس أكثر من الأقوال ؛ ولذا ينصح الغزالي طالب العلم بأن يكون من القسم الأول ، ويحذره من أن يكون من الفريق الثاني ، ثم يحذره شديد الحذر من أن يكون من الفريق الثالث .

وترتبط المقدمة السابقة ببعض المفاهيم النفسية هي التعلم Learning ، وتحديد السلوك المقبول للمعلم والمتعلم ، وأهمية القدوة Model في التعلم مبينًا خطر طلاب العلم والعلماء وتأثيرهم في سلوك الآخرين . وأوضح أن الأفعال Deeds أكثر تأثيرًا من الكلام (ص ١٧ ، ١٨) .

القسم الأول في الطاعات :

يصنف الغزالي أوامر اللّه إلى فرائض ونوافل ويشبه الفرض برأس المال وهو أصل التجارة ، أما النوافل فهي الربح وبه يتحقق الفوز وتتحسن الدرجات ، ويوضح أن أساس التقرب إلى اللّه هو مراقبة القلب والجوارح في كل وقت ، مع التيقن من أن اللّه مطلع على السر والعلن . ثم يقدم الغزالي بعد ذلك الآداب المختلفة ونلخصها على النحو التالي :

آداب الاستيقاظ من النوم :

ينصح الغزالي بالاستيقاظ من النوم قبل طلوع الفجر ثم ارتداء الملابس لستر العورة مع تجنب المبالغة في الثياب .

آداب دخول الخلاء :

ينصح الغزالي المرء بدخول المرحاض بالرجل اليسرى والخروج بالرجل اليمنى . وألا يدخل حاسر الرأس أو حافي القدمين مع البعد عن عيون الناظرين .

آداب الوضوء :

ينصح الغزالي باستعمال السواك – بعد الاستنجاء – ثم شرح كيفية الوضوء الصحيح والدعاء المستحب في كل حركة ثم يوضح ما يطلب اجتنابه في الوضوء ؛ مثل : الإسراف في الماء ولطم الوجه ورش الماء والحديث أثناء الوضوء .

آداب الغسل :

من آداب الغسل غسيل اليدين ثم إزالة القذارة من البدن ، ثم الوضوء وصب الماء على الرأس وبعد ذلك على الشق الأيمن ثم الأيسر مع تدليك اليدين وتخليل شعر الرأس واللحية .

آداب التيمم :

هنا يبين الغزالي الظروف التي تبيح التيمم وكيفية التيمم الصحيح ، موضحًا أن التيمم يصلح به صلاة فرض واحد وأي عدد من النوافل ، وذلك على مذهب الشافعية وهو مذهب الغزالي .

آداب الخروج إلى المسجد ودخوله :

يحث الغزالي على صلاة الجماعة ؛ لأن صلاة الجماعة تفضل عن صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ويوصى بأن يمشى المسلم إلى المسجد في هدوء وسكينة ، ويذكر الأدعية المستحبة في الطريق إلى المسجد ، ويحذر من التجارة في المسجد أو السؤال عن الضالة ، ثم يوصي بصلاة ركعتي التحية ثم صلاة الفجر ، وبعدها ينوي الشخص الاعتكاف ويذكر الأدعية المستحبة وبعد الدعاء لا يشغل المسلم نفسه إلا بذكر أو تسبيح أو قراءة القرآن .

آداب ما بعد طلوع الشمس :

ينصح الغزالي الإنسان أن يشغل نفسه في نهاره بأربعة أمور ؛ وهي :

١ - طلب العلم النافع .

٢ - الانشغال بالعبادة من ذكر وقرآن وتسبيح وصلاة .

٣ - الانشغال بعمل الخير للمسلمين ولإدخال السرور عليهم وتيسير الأعمال الصالحة للصالحين ، وإطعام الفقراء والمساكين والتردد على المرضى والجنائز .

٤ - السعي للكسب لنفسه ولعياله دون إيذاء للمسلمين بلسان أو يد .

وهنا ينصح الغزالي الإنسان بالعزلة إذا لم يستطع الحفاظ على دينه وهو يخالط الناس في نهاره ، ويتناول بعد ذلك آداب الصلوات من الظهر وحتى العشاء .

آداب النوم :

من آداب النوم استقبال القبلة والنوم على الجانب الأيمن وعلى طهارة . وأن تكون الوصية مكتوبة تحت الرأس ، مع التوبة عن الذنوب وطلب الخير لجميع المسلمين ، وبالإضافة إلى عدم التكلف في طلب النوم لأن النوم ؛ تعطيل للحياة ، وينصح بألا تزيد عدد ساعات النوم عن ثماني ساعات وهي ثلث ساعات اليوم وثلث العمر كله .

وفي الصفحات التالية يشرح آداب الصلاة والإقامة وصلاة الجمعة والصيام ، ويحيل القارئ الذي يبغى مزيدًا من المعرفة بالآداب إلى كتابة « إحياء علوم الدين » .

ويرتبط القسم الأول ببعض المفاهيم النفسية هي الدافعية Motivation ، وذلك من خلال تنبيه الغزالي إلى أهمية السعي والنشاط Activity وتقليل عدد ساعات النوم ، وعدم الإلحاح في طلب النوم (ص ٧٨ ، ٧٩) .

● **القسم الثاني : في اجتناب المعاصي :**

يقسم الغزالي الدين إلى قسمين ، أحدهما : ترك المناهي والآخر : فعل الطاعات ، ويرى أن ترك المناهي أشد على النفس ؛ لأن الطاعات يقدر عليها كل الناس ، أما ترك الشهوات فلا يقدر عليها إلا شديد الورع ، ويستشهد بحديث رسول الله ﷺ : « **المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه** » .

ويسترسل الغزالي داعيًا الإنسان إلى حفظ كل جوارحه من المعاصي ؛ لأنها نعمة من اللّه وأمانة لدى الإنسان عليه أن يحفظها حتى تشهد له يوم القيامة ، ثم يوضح الغزالي كيف يحفظ الإنسان أعضاءه السبعة ؛ وهي : العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل على النحو التالي :

١ - **العين** : تحفظ من النظر إلى غير محرم : وإلى صورة جميلة بشهوة ، أو إلى مسلم بعين الاحتقار ، أو الاطلاع بها على عيب مسلم .

٢ - **الأذن** : تحفظ من السماع إلى البدع أو الغيبة والفحش أو الباطل أو عيوب الناس .

٣ - **اللسان** : يحفظ من الكذب وخلف الوعد ، والغيبة والجدال ، وتزكية النفس واللعن والدعاء على الخلق والمزاح والسخرية .

٤ - **البطن** : تحفظ من أكل الحرام والإفراط في الأكل والشراب ؛ لأن الشبع يفسد

الذهن ويقسي القلب ويعطل الحفظ .

٥ - **الفرج** : يحفظ من كل محرم ، ولا يمكن للإنسان أن يحفظ فرجه ما لم يحفظ عينه من النظر وقلبه من الفكر ، وبطنه من الحرام والشبع .

٦ - **اليد** : تحفظ من ضرب المسلمين ، وتناول الحرام ، وخيانة الأمانة ، وكتابة السوء .

٧ - **الرجل** : تحفظ من المشي في الحرام أو السعي إلى سلطان ظالم .

ثم يبين الغزالي بعد ذلك - معاصي القلوب ويذكر منها أمهات الخبائث ؛ وهي : الحسد والرياء (وهو طلب المنزلة في قلوب الخلق) ، والعجب (أي الكبر والفخر) ، ويضيف إليها الشح والبخل واتباع الهوى .

ثم يقدم الغزالي جملة آداب يدعو الإنسان إلى الأخذ بها في معاملته مع ربه ، وعند التعليم أو طلب العلم ، أو الصحبة مع الوالدين والإخوان والأصدقاء نلخص ، بعضها على النحو التالي :

من آداب المعلم : الاحتمال ، والحزم ، والهيبة ، والتواضع ، وترك الهزل ، والرفق بالمتعلم ، والتأني بالمتعجرف ، وإرشاد البليد ، وعدم الأنفة من قول لا أدري ، وتشجيع السائل وفهم سؤاله ، والانقياد للحق ، ومنع المتعلم عن كل ما يضره ، وصده عن شغل نفسه بفرض الكفاية قبل أن يفرغ من فرض العين .

ومن آداب المتعلم : أن يبدأ بتحية العالم ، وأن يقل في كلامه ، ولا يتكلم إلا إذا سأله ، وألا يسأل قبل أن يستأذن ولا يعارض ، ولا يشاور جليسه ، ولا يلتفت إلى جانبه ، ولا يطيل عليه عند ملله ، وإذا قام له ولا يسأله في طريقه إلى أن يبلغ منزله ولا يسيء الظن به .

ومن آداب الولد مع والديه : أن يسمع كلامهما ويمتثل لأمرهما ، ولا يمشي أمامهما ولا يرفع صوته فوق صوتهما ، ويحرص على مرضاتهما ولا يمن عليهما بالخير ولا يسافر إلا بإذنهما .

وفي مجال الصحبة والصداقة يقسم الغزالي الناس إلى ثلاثة أصناف : إما أصدقاء ، أو معاريف ، أو مجاهيل ، فمع الأصدقاء ينبغي التحقق من استيفاء الصديق لشروط الصداقة ؛ وهي خمسة :

١ - العقل .

٢ - حسن الخلق .

٣ - الصلاح .

٤ - الكرم والبعد عن الحرص والبخل .

٥ - الصدق .

أما عن حقوق الصحبة مع الأصدقاء فهي كثيرة ونذكر منها : الإيثار بالمال ، المبادرة بالإعانة ، وكتمان السر ، وستر العيوب ، والسكوت عن تبليغه مذمة الناس وإبلاغه ما يسره من ثناء الناس عليه ، حسن الإصغاء عند الحديث ، وأن يدعوه بأحب أسمائه إليه ، وأن يثني عليه بما يعرف من محاسن أو أن يشكره على صنيعه في وجهه ، وأن يدافع عنه في غيبته ، وأن ينصحه باللطف ، ويعفو عن ذلته ، وأن يدعو له في خلوته في حياته وبعد مماته ، وأن يحسن الوفاء مع أهله ، والتخفيف عنه في المكاره ، وإظهار السرور لرؤيته ، والسلام عليه عند لقائه ، أما المعاريف أو المعارف وهم الأشخاص الذين يتوفر عنهم قدر من المعرفة وتربطنا بهم علاقة سابقة ولكن لا تصل لدرجة الصداقة . ويحذر الغزالي منهم ؛ لأن الأصدقاء يعينون أما المجاهيل فلا يضرون .

ويذكر من آداب معاملة المعاريف : التأدب ، والتواضع والتحمل وعدم الاطمئنان إليهم ، حتى وإن أظهروا المودة ، مع التماس الأعذار لهم ، والهدوء في المجلس ، وحسن الحديث ، وعدم الإلحاح في الحاجات ، والاعتدال في اللبس وفي التزين ، وعدم الإكثار من الالتفات والإشارة باليد أو البصق أو التثاؤب .

ومن آداب التعامل مع المجاهيل : أي الأشخاص الذين لا تتوفر عنهم أية معرفة ولا تربطنا بهم علاقة سابقة وتجمعنا الظروف بهم يذكر الغزالي قلة الإصغاء إلى أحاديثهم ، والتغاضي عن سوء ألفاظهم ، وتجنب كثرة لقائهم ، والحاجة إليهم ، مع التنبيه على ألفاظهم السيئة باللطف والنصح عند توقع القبول منهم .

ومن أهم المفاهيم النفسية التي وردت في القسم الثاني مفهوم التفاعل الاجتماعي Social Interaction ؛ حيث تقترب أفكاره من مفاهيم التخاطب اللفظي Verbal Communication والتخاطب غير اللفظي Non Verbal Communication أثناء تناوله للصحبة أو الصداقة Friendship وفيها يظهر الوعي بوجود مستويات للصداقة Levels of Friendship وللعلاقات الاجتماعية Social Relationship تبدأ من التعامل مع الغرباء Strangers ثم المعارف Acquaintance حتى العلاقة الحميمة Intimate Relationship .

وفي مجال الصداقة أيضًا يبرز مفهوم سمات الصدق Traits وقيمه Values حيث أكد أهمية الذكاء Intelligence والخلق Morals والكرم Generosity والاستقامة Rectitude والصدق Truth وتبرز أيضًا مفهوم التوقعات Expectancies وهو مفهوم يختص بالسلوك المتوقع من الصدق في تعامله مع صديقه وهو يكون ما نسميه بمكونات الصداقة Components of Friendship ومن التوقعات أو المكونات التي ذكرها الغزالي المساعدة Help والتأييد Support والتعاون Cooperation والدفاع Defense وتقديم النصيحة Advice والمجاملة Compliment والإيثار Altruism ويعبر عنه من خلال الجمال Beauty أو الوسامة وحسن المظهر أو السلوكيات غير الفظة والحركات الجسمية التي تجعل الشخص مرغوبًا ومقبولًا من الآخرين ؛ حيث يبين الغزالي أهمية الاعتدال في الملبس ، وتقليل الالتفات والبصق والتثاؤب والإشارة باليدين أيضًا يبرز مفهوم العزلة أو الانسحاب Withdrawal من العلاقات الاجتماعية إذا تبين أن للصداقة أضرار تنجم من مخالطة الصالحين (ص ١٤٣ - ١٥٦) .

كما يرتبط مضمون كلام الغزالي في الجزء السابق بمفهوم التنشئة الاجتماعية Socialization ، عندما يشرح آداب الولد مع والديه أيضًا عندما يبين السلوك المقبول من المعلم أو المدرب Trainer حيث يوضح أهمية الخصال الآتية : الصبر Patience والهيبة والاحترام Respect والتواضع Modesty والجدية Seriousness والإرشاد والتوجيه Guidance والتدعيم Reinforcement وطرح الأسئلة Asking Questions (ص ١٤٠ - ١٤٣) وكذلك مفهوم تأكيد الذات Self-Assertion (ص ١٤٠) ، ومفهوم الانفعالات Emotions والغرائز Instincts (ص ١١٢ - ١٣٠) وذلك كما تبين من دعوته إلى كف شهوات ودوافع أولية ، منها الجوع والعطش والجنس .

* * *

منهاج المتعلم [1]

عرض : د. معتز سيد عبد الله

عرض الكتاب :

يتناول المؤلف في الكتاب مجموعة من المسائل المتعلقة بالعلم والمتعلم ، وذلك من خلال ثلاثة أبواب نعرض لها على النحو التالي :

- **الباب الأول : في العلم :**

وفيه يوضح المؤلف أهمية العلم ودلالته وفضله مستشهدًا بالعديد من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة ، فقال اللّه تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] ، وقال اللّه تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] ، وقال اللّه تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰؤُا ﴾ [فاطر : ٢٨] إلى غير ذلك من الآيات . وقال رسول اللّه ﷺ : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة** » ، وسئل رسول اللّه ﷺ : أي الأعمال أفضل ؟ قال عليه السلام : « **العلم** » . فقيل : أي الأعمال تزيد يا رسول اللّه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « **إن العمل القليل مع العلم ينفع ، وإن العمل الكثير مع الجهل لا ينفع** » . ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم القيم العلمية Scientific Values (ص ٥٧ - ٧٢) .

---

(١) تحقيق هشام نشابة - ط. ١ . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٨م (٣٠ ص) .

• الباب الثاني : في المعلم :

يجب أن يكون المعلم ماهرًا في فن يعلمه ، وأن يكون طاهر القلب واللسان ، وأن يكون نظيفًا عن الغيبة ، وعدلًا في الدين ، وناصحًا في جميع الأمور ، وملائمًا في العيش ، وشريفًا في النسب ، وكبيرًا في السن ، وأن لا يكون غضوبًا ، وأن لا يخالط الشيطان ، ولا يباشر الدنيا تشغله عن أمر دينه . ويجب أولًا على المعلم إذا جيء إليه بطالب علم مبتدئ أن يداعبه ويكرمه ويعزره ، حتى يأنس به ؛ لأن المبتدئ كالطير الوحشي لا يأنس إلا بالتلطف فإن العلم أشق عليه وأمر ، فيجب إصلاحه على ما يقتضيه طبعه . ولا يتعبه حتى لا يسمع كلامه ولا يعمل بأمره . ثم يبدأ ثانيًا بالتأديب ثم بالتعليم ؛ فإن التعليم لا يمكن إلا بعد التأديب ؛ لأن من ليس له أدب ليس له علم . ويجب على المعلم أن يشخص طبيعة المبتدئ من الذكاء والغباوة ، ويعلمه على مقدار وسعه ، ولا يعلم من لا يعظمه ولا يكرمه ، فإن العلم لا يحصل إلا بالتعظيم والتكريم . ومن الواجب على المعلم حسن العبارة عند التكلم ، وتفصيل الكلام ، وإيضاحه بعد ظهوره . فإن المعلم إذا لم يتصف بهذه الأوصاف الحميدة ، لا يستفيد منه المتعلم وإن استفاد لا ينفعه .

ويبدأ المعلم في تعليم المتعلم بأقرب ما يفتقر إليه الطالب ، وأهم ما ينفعه في الدنيا والآخرة ، كما يجب عليه أن يعلم كل نوع من المتعلم بما يبلغ عقله ويدرك ذهنه . ولا يشدد عليه فييأس فإن اليأس كفر ، فلا يحدث الجاهل الآمن واليائس لئلا يوقعه في الكفر ، ولا يكثر على المستمع إكثارًا يورثه الملالة ، ويخبره ما عنده من العلم على وجهه ، أي كما سمعه لا يزيده ولا ينقصه قد يكون كذبًا غير مطابق للواقع فربما يقع بسببه فيما يصير وبالًا ، ويرتبط مضمون هذا الباب شروط التعلم الجيد (ص ٧٣ - ٧٨) وخصال المعلم (ص ٧٣ - ٧٨) .

• الباب الثالث : في المتعلم :

يجب على الآباء تأديب الأبناء وتربيتهم وإرسالهم إلى المعلم إذا بلغ أربع سنين وأربعة أيام ، فإن الأب إذا لم يؤدب ابنه ، ولم يحسن أدبه ، ولم يجلس بين يدي المعلم ، ظهرت آثار الانحراف في جميع أعضائه ، خصوصًا في لسانه ، وذهب استعداده وقابليته ، وحدث الجهل والطغيان وأنواع المعاصي فيه ، فيحصل الأب حصته من سوء عمله ، فيعاقب عليه بمثل ما عوقب ابنه .

ولا ينال المتعلم العلم ولا ينتفع به إلا بتعظيم العلم وأهله وأستاذه . ويطلب المتعلم مسرة المعلم بالتواضع ، والتكلم ، والتملق ، والدعاء ، والخدمة ، والنصرة وغير ذلك . ولايبخل المتعلم بشيء من ماله على أستاذه ، ويحمل ما يسمع من خطاياه على أحسن التأويل . ولا يضحك في العلم وسماعه ولا يلعب فيه فيموت قلبه ، ولا يجادل معه في العلم ، ولا يعارض .

ومن تعظيم العلم تعظيم الشركاء ، وتعظيم أولاد أستاذه ومن يتعلق به . والتملق مذموم إلا في طلب العلم ، فإنه ينبغي أن يتملق أستاذه وشركاءه ليستفيد منهم . ويجب على المتعلم تقديم طهارة النفس من رذائل الأخلاق . ويجب على المتعلم أن لا يختار نوع العلم النافع بنفسه ، بل يفوض أمره إلى أستاذه ، فإن الأستاذ قد حصل له التجارب في ذلك ، فكان أعرف بما ينبغي لكل واحد وما يليق بطبيعته . ويجب على المتعلم الصلاح فإن العلم الحاصل بالفسق والفجور لا ينفع صاحبه ، ولا يخلصه من ظلمات الجهل ، هذا بالإضافة إلى بعض الشروط الأخرى المهمة التي ينبغي توافرها في طالب العلم (ص ٧٩ - ٩٢) ، وكذلك بعض شروط عملية التعلم Learning (ص ٧٩ - ٩٢) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام ، وبوجه خاص في موضوع سيكولوجية التعلم .

* * *

مجموعة رسائل الإمام الغزالي (١) [1]

عرض : د. شعبان جاب الله رضوان

عرض الكتاب :

يتناول هذا الكتاب رسالتين من مجموعة رسائل الإمام الغزالي ، تختص أحدهما : بالحكمة في مخلوقات اللَّه ﷻ ، أما الثانية : فتتعلق بمعراج السالكين . ونعرض لها كالآتي :

عرض الرسالة الأولى : (الحكمة في مخلوقات الله ﷻ) :

تنقسم هذه الرسالة إلى عدة أبواب ، يشتمل كل منها على ذكر وجه الحكمة من النوع المذكور فيه من المخلوقات ، فتبدأ بباب التفكر في خلق السماء وفي هذا العالم ، والكيفية التي يوجد عليها وما يحويه من نجوم وكواكب تسير في نظام دقيق يدل على فاعله وصنعته المحكمة الصمدية ، وفي النظر إلى السماء عشر فوائد : فهي تنقص الهم ، وتقلل الوسواس ، وتزيل الخوف ، وتذكر باللَّه ، وتنشر في القلب التعظيم للَّه ، وتزيل الفكر الرديء ، وتنفع لمرض السوداء ، وتسلي المشتاق ، وتؤنس المحبين وهو قبلة دعاء الداعين .

وبعد ذلك يتطرق الغزالي إلى بيان الحكمة في الشمس ، وفي خلق القمر والكواكب والأرض التي مهدها اللَّه لاستقرار الحيوان والإنسان ، وما حوته من معادن ومنافع للناس ، وكذلك بيان الحكمة في خلق البحر وما فيه من الخير للإنسان ، والماء الذي به حياة كل من على وجه الأرض ، والهواء الذي لولاه لهلك جميع حيوان البر ، والنار وما فيها من النعم .

---

(١) بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٦م (١٥٩ ص) .

وينتقل الغزالي بعد ذلك إلى بيان حكمة خلق الإنسان من ماء مهين يخرج من بين الصلب والترائب ، ويخلق منه الذكر والأنثى وكيف يمر هذا الخلق بعدد من المراحل بدءًا من النطفة ، ثم العلقة ، ثم خلق العظام ، ثم كسو العظام لحمًا ، حتى يكتمل نمو الجنين داخل الرحم ويخرج طفلًا . وتتصل هذه المفاهيم الارتقائية بمراحل النمو والارتقاء في علم النفس الارتقائي Developmental Psychology (ص ٢٦) ويشير إلى أن اللَّه قد خلق أعضاء الإنسان بحكمة ودقة بالغة ؛ حيث يقوم كل منها بوظيفة محددة في نظام متكامل بديع ، فخلق الحواس والعظام والعضلات والشهوات ، والعقل الذي يوجه كل ذلك .

كما خص اللَّه الإنسان بنعم كثيرة ؛ منها : الحفظ ، والنسيان ، والنطق ، والفكر ، والعقل ، والغضب والحياء .

وبعد أن يفصل الإمام الغزالي القول في بيان حكمة خلق الإنسان ، يبين الحكمة في خلق الطير وكيف أن اللَّه خلقه على هيئة تقتضي الطيران ، وتعينه على القيام بوظائفه الأساسية والبيولوجية والحصول على حاجاته الضرورية ، كذلك يبين الحكمة في خلق البهائم ، واختلاف أنواعها وطباعها ، وفي خلق النحل والنمل والعنكبوت ودود القز والذباب والسمك ، والنبات وما جعل الله فيه من ضروب المنافع والمطاعم والروائح والمآرب التي لا تحصى .

وفي نهاية هذه الرسالة يبين الغزالي ما تستشعر به القلوب من العظمة لعلَّام الغيوب ، وذلك من خلال النظر والتفكير في الآيات البينات ، والبراهين الواضحة الدالة على جلال الباري وقدرته ونفوذ مشيئته وظهور عظيمته في حكم المخلوقات ، وهذا هو الباب لمعرفة اللَّه واليقين بما عنده .

عرض الرسالة الثانية : (معراج السالكين) :

تتضمن هذه الرسالة بيان الآراء الفاسدة التي استهوت عقول الناس ، وكذلك بيان الطريق الأسلم والصراط الأقوم وما يقتضيه ذلك من ذكر الطريق المنحطة عنه حتى يكون ذلك معينًا للسالكين .

وتنقسم هذه الرسالة إلى سبعة معارج على النحو التالي :

المعراج الأول : ويدور حول الدلالة الظاهرة التي يتبعها معظم الناس للوصول إلى معرفة اللَّه ، ذلك أن العالم هو السلم إلى معرفة البارئ سبحانه ؛ لأن الإنسان محجوب عن عالم الغيب وهو الغائب عن إدراك الحس ، ولم يتوصل إلى معرفته إلا بجد وتيقظ

وقوة مفكرة ، فيستدل بما شاهد في نفسه على ما لم يشاهد ، وألا يتعدى المحسوس ولا يحمله أكثر مما يحتمل وألا يستعمل الاستدلال به فيما لا يصح ، أي لا يقضى على الغائب بما لا يقطع به على الشاهد وبزعم القطع به ، ويقسم الإنسان في جملته إلى ثلاثة أشياء ؛ هي :

١ - الجسم : وهو الشكل المنتصب ذو الوجه واليدين والرجلين ويتكون من المواد والعناصر الحاملة للروح والنفس .

٢ - الروح : وهي ما يجري في العروق والضوارب والشرايين .

٣ - النفس : وهي الجوهر القائم بنفسه وليس لها موضع .

وهذا الشكل الإنساني تنهض منه الدلالة على بارئه ومصوره . ويمكن أن يندرج هذا التقسيم للإنسان تحت سيكولوجية أو بناء الشخصية Personality (ص ٨٨ ، ٩٨ ، ٩٩) .

المعراج الثاني : ويتعلق بتقرير النفس هل هي باقية أم لا ؟ وهذا المعراج كالقطب لسائل العلوم وله يجتهد المجتهدون ويعمل العاملون ولا فائدة أعظم منه ؛ ذلك أن نبوة الأنبياء والثواب والعقاب ، والجنة والنار ، لا تثبت متى أبطلت هذه المسألة ، فالنفس إذا لم يكن لها بقاء فجميع ما أخبرنا به باطل وحاشا للّه . وتنقسم قوى النفس قسمين :

١ - قوى محركة .

٢ - قوى مدركة .

والمدركة قسمان : (أ) ظاهرة : وهي الحواس الخمس (السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق واللمس) .

(ب) باطنة : وهي ثلاثة : ١ - الخيالية : وتقع في مقدمة الدماغ ، ومهمتها بقاء صور الأشياء المرئية في القوة المبصرة بعد تغميض العين .

٣ - الوهمية : وهي التي تدرك المعاني وتحفظها .

٤ - المفكرة : ووظيفتها تركيب الصور بعضها مع بعض ، وتقع في التجويف الأوسط بين حافظة المعاني والصور ، والخلل في هذه المواضع يؤدى إلى عطب في هذه المدركات المرتبطة بها .

وتشير القوة الظاهرة إلى مفهوم الحواس الخمس ، والذي يتصل بموضوع الإحساس Sensation والإدراك Perception أما القوى المدركة الباطنة فتتصل بسيكولوجية

العمليات العقلية ، كالذاكرة بنوعيها البصرية واللفظية والتخيل (علم النفس العام) (ص ٣٥ - ٣٩) . وتتصل الإشارة إلى موضوع هذه القوى في الدماغ بعلم النفس العصبي Neuro Psychology . (ص ٩٩) .

والقوى المحركة قسمان أيضًا :

١ - باعثة على الحركة ، وهي القوة النزوعية الشوقية ، وتقوم بإرسال إشاراتها للقوة المباشرة للحركة لكي تقوم بها .

٢ - مباشرة للحركة وهي القوة القائمة بها .

وتتصل هذه الإشارة عن الأساس العصبي للسلوك بعلم النفس الفسيولوجي ؛ حيث يرسل المخ إشاراته لكي تقوم أعضاء الحركة بالفعل ، كما يتصل بمفهوم الدافعية Motivation والسلوك Behavior والإرادة Will (ص ٣٤) .

أما تقسيم قوى النفس إلى محركة ومدركة فيتصل بعلم النفس العام وسيكولوجية الشخصية (ص ٩٨ ، ٩٩) ، ويتحدث الغزالي بعد ذلك عن طبيعة النفس ، والتي تتمثل في أن النفس جوهر قائم بذاته وهو جوهر روحاني لطيف ، وتكتسب النفس الكمال في البدن لكي تلحق بالملائكة أو الشياطين وهي حية ، وكونها مع البدن لا يدل على عدمها بعدم البدن لأن عنصريهما مختلفان . ويفصل الغزالي القول في مسألة بقاء النفس ، فيشير إلى رأى أفلاطون وابن سينا في ذلك ، فيرى أفلاطون أن النفس قديمة وباقية ، أما ابن سينا فيرى أن النفس محدثة ولكنها باقية أيضًا ، وينتهي إلى أن البرهان يقوم على أن النفس حادثة ولا تعدم .

المعراج الثالث : ويتناول بيان أن الصور الجسمانية الموجودة في عالم الكون والفساد حادثة ، ويهتم أيضًا بكشف أدلة مَن قالوا بأن السماء حية ولها نفس ، معتمدين في ذلك على حركتها التي هي معلومة بالحس ، وكذلك مَن يزعمون أن السماء ونفوس الأفلاك مستقلة بذلك من جهة إرادتها وعلمها . ويخلص من ذلك إلى القول بأن حركة السموات تابعة لإرادة البارئ سبحانه ، وعلمه في كل دقيقة من الزمان ، وأن اللَّه هو العالم بالمعلومات ، علم واحد لا يتغير ، والدليل على علمه قائم وتشهد به العقول ، كما أن اللَّه هو مريد الكائنات ، فالإرادة الإلهية عبارة عن إيقاعه الفعل مع أنه غير ذاهل عنه ، فالقصد إلى إحداث المحدث والعمد إليه سمى إرادة ، وأن اللَّه تعالى رتب الأسباب على ما جرى به علمه ، فهي مطابقة على ما سبق به العلم ، فإن أي ذرة في السموات والأرض لا تتحرك أو تسكن إلا وهي مقيدة في علم البارئ .

وتنقسم الحركات إلى ثلاثة أنواع : إما على الوسط كتحرك الأفلاك ، وإما الوسط كحركة الحجر إلى أسفل ، وإما من الوسط كالهواء والأبخرة الصاعدة علوًّا ، وهذه الحركة ضربان : ضرورية واختيارية ، ولها نسبتان إلى نفسها ونسبة إلى بارئها ، فمتى أضيف فعلها إلى بارئها فهو مختار لها بأجمعها ، وليس هناك شيء منها إلا بتدبيره وحكمه وقضائه ، وحكمة له اقتضت كونها على جهة مخصوصة وزمان معين وشخص معين ، وأما نسبتها إلى المتحركين فتنقسم إلى مختارة : ويختص بالحيوان ، ومضطرة : ويشمل الجماد والحيوان .

وتتوقف الأفعال المختارة على إشارة النفس وتحركها .

وتقسم الحركة إلى ضرورية واختيارية إلى السلوك الإرادي واللاإرادي ، ويتصل ذلك بعلم النفس الفسيولوجي .

المعراج الرابع : ويتناول معنى أن اللَّه نور السموات والأرض ، ويشير أنه ليس المقصود من كون اللَّه نورًا كونه شعاعًا منبسطًا مرئيًا ، ويقسم النور إلى ستة أشياء ؛ وهي ضوء النيران ، ونور البصر ونور الشمس ، ونور محض هو العقل والنفس ، ويستعار للقرآن والرسول اسم النور ، أما النوع السادس فهو النور المطلق والحق المبين وهو البارئ تعالى .

المعراج الخامس : وهو معقود للنبوة والنبي ، وما يتصل بذلك من معجزات وأفعال غريبة تخرق العادة ، فقد ظهر على يد نبينا محمد ﷺ عدد من المعجزات ؛ كشق القمر وحنين الجذع ، واستدعاء المطر ، وغيرها ، ولكن هناك معجزة باقية له هي القرآن ، وما ينطوي عليه من الصنائع العلمية من الإلهيات ، والمنطقيات ، والجدل ، والخطابة ، وسائر العلوم .

المعراج السادس : ويختص ببيان ما أتى من القول عن طريق الرسول ﷺ وهو قسمان : طلب وخبر . والطلب ضربان : أمر ونهي . وكذلك الخبر فينقسم إلى إخبار عمن مضى كأخبار الأمم ، وعما يأتي كأمور الزمن والآخرة . وكل ما نطق به القرآن وتواتر عن الرسول ﷺ فهو يقين لا شك فيه . وهو منقسم إلى ما يحتمل التأويل وإلى ما لا يحتمل .

المعراج السابع : وهو المعراج الأخير من هذه الرسالة ، ويدور حول بيان معنى الموت وهل هو كمال أو نقصان ، وفي ذلك يشير الغزالي إلى أن الموت فساد المزاج ، وقصور الجسم عن الانفعال للنفس لعدم الحس والحركة . والإنسان يرتقي من الأدنى إلى الأعلى

بسبب الموت ، فهو متردد في أطوار الخلقة من كونه ترابًا وغذاءً ، ثم نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم لحمًا يكسو العظام ، ثم يكون مولودًا رضيعًا ، ثم فطيمًا ، ثم غلامًا ، ثم شابًا ، ثم كهلًا ، وجاهلًا عالمًا وجمادًا ثم حيًّا مدركًا . فكل منزلة من هذه المنازل إذا أضفناها إلى ما قبلها نجدها كمالًا ويعنى هذا أن الموت كمال للأجسام .

وتتصل المراحل المختلفة لنمو الإنسان من مرحلة النطفة حتى الشيخوخة بعلم النفس الارتقائي Developmental Psychology (مراحل النمو والارتقاء) (ص ١٤٣) .

وفي نهاية هذه الرسالة يتناول الإمام الغزالي مفهوم السعادة ، ويرى أن السعادة ضربان : سعادة مطلقة وسعادة مقيدة ، فالمطلقة هي ما اتصلت في الدنيا إلى ما لا نهاية له ، والمقيدة ما كانت مقصورة على حال أو زمان .

وتحصل السعادة المقيدة بأربعة أسباب ؛ هي : إما سفسطة وإما خطابة ، وإما جدل وإما شعر ،كما أن العلوم التي يطلب بها السعادة العلمية النافعة أربعة علوم ؛ هي :

١ - طبيعية : (وهي معرفة العالم وتركيبه وما فيه من نبات وحيوان ومعادن وغيرها) .

٢ - الرياضيات : (الحساب والهندسة والنطق والنجوم) .

٣ - الإلهيات : (العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) .

٤ - السياسة : (وهدفها تهذيب النفس في جلب المنفعة ودفع المضرة) .

وينتهي من ذلك إلى القول بأن الأمور التي تخوض فيها القوة المفكرة ترجع إلى أربعة أقسام ؛ هي :

١ - المعقولات : وهي ما لا يدرك إلا بالعقل .

٢ - المحسوسات : وهي ما يختص بالحواس الخمس والتمييز بينها .

٣ - المشهورات : وهي العادات الراجعة إلى عادات الخلق ، والبلاد ، والأمم ، والأزمنة .

٤ - المقبولات : وهي ما أخذ بطريق الإخبار ، وهو كل ما أخبر به العدل الثقات .

والعقليات لا تتبدل أحكامها عما هي عليه في العقل ، كما أن المحسوسات لا تتبدل وأحكامها عما هي عليه في العقل ، كما أن المحسوسات لا تتبدل ولكن يتطرق إليها الغلط بآفات تحدث في الآلات الجسمية ، وأما المقبولات والمشهورات فغير موثوق بها ، فهي تختلف باختلاف الأمم والبلاد وحالات الأشخاص .

أما الدلالات النفسية لما سبق ، فيمكن القول بأن مفهوم السعادة يندرج تحت موضوع الانفعالات Emotions (ص ١٥٢) ، كما يتصل مصطلح القوة المفكرة بموضوع العمليات العقلية كالتذكر ، والتخيل ، والتفكير ، ويتصل مفهوم المعقولات أو المجردات بموضوع التفكير التجريدي Abstract Thinking ، كما يتصل مفهوم المحسوسات بموضوع الإحساس والإدراك الحسي Perception ، ويقع ذلك كله في إطار علم النفس العام (ص ١٥٢ - ١٥٩)

أما المشهورات فتتصل بموضوعات العادات Habits في علم النفس الاجتماعي (ص ١٥٧) .

* * *

مجموعة رسائل الإمام الغزالي (٢) [١]

عرض : د. إبراهيم شوقي عبد الحميد

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٦٠ صفحة من القطع المتوسط ، ويضم ٤٣ بابًا بالإضافة إلى فاتحة الكتاب للمؤلف ، ومقدمة في تمهيد الكتاب وخاتمة لمعرف الكتاب ، وفهرس الموضوعات .

ويبدأ الكتاب الأول بفصل : في أن ما سوى الحق حجاب عنه ، وفيه ذم لحب الجاه والمال وكذلك ذم لحب الرئاسة والشهرة ؛ لأنهما يورثان الكبر وهو فساد الدين ، وكذلك ينتقد طول الأمل ؛ لأنه يمنع من حسن العمل ويصد عن الحق والتسويف ، ويذكر كذلك أن حجاب الخلق عن الحق أربعة ، هي : النفس ، والهوى ، والشيطان ، والدنيا .

أما عن الباب الأول ، فيتناول أركان الدين ، وأما الباب الثاني : (ففي بيان الأدب) وفيه يقسم الأدب إلى قسمين أولهما أدب ظاهري : وهو اتباع أوامر وأخلاق الرسول ﷺ ، وأدب باطني : وهو حسن المعرفة بالخالق ﷻ . كما يشير إلى أن أنفع الآداب التفقه في الدين ، والزهد في الدنيا والمعرفة بما لله عليك (ص ١٢ - ١٥) .

ويرد في هذا الباب كلام عن السلوك الأخلاقي والضبط السلوكي Behavioral Control أي كف دوافع السلوك غير المرغوب ، وخاصة ما يتصل بالدوافع الفطرية Innate Motives وكذلك الدوافع الاجتماعية كحب السلطة وحب المال والرياسة . كذلك تتصل هذه الموضوعات بسمة المثابرة Persistene وهي درجة تحمل الشخص لضغوط تحول دون إتمام

---

(١) بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٦م (ص ١٦٠) .

مهمة معينة (ص ١٢ - ١٦) .

أما بالنسبة للباب الثالث والفصول التالية له ، فهو : (في بيان معنى السلوك والتصوف) ويعرف السلوك بأنه تهذيب الأخلاق والأعمال والمعارف ، ويذكر أن ما يفسد على السالك سلوكه شيئان : اتباع المرخص بالتأويلات ، والاقتداء بمتبعي الشهوات . وفي فصل : في لزوم العزلة يعرض الغزالي لطرق كبح الشهوات وهي بإيجاز كالتالي :

١ - تقليل الغذاء بالتدريج .

٢ - ترك الاختيار واتباع شيخ مأمون يختار للفرد ما يصلحه .

٣ - عدد من الأفعال كدوام الوضوء ، والصوم ، والسكوت ، ودوام الذكر بالقلب واللسان .

ثم يعرض لمعنى التصوف في فضل التصوف ، وهو قطع الشهوات ، والزهد في الدنيا والتورع عن جميع حظوظ النفس ، ويذكر أيضًا أن أهل التصوف على ثلاث طبقات ؛ هي :

١ - مريد طالب : صاحب وقفة : مقامه المجاهدة والمكابدة وتجرع المرارات ومجانبة الحظوظ .

٢ - متوسط سائر : صاحب حال : ومقامه ركوب الأهوال في طلب المراد ، ومراعاة الصدق والأدب ، وإن كان تغيره الأحوال .

٣ - منته واصل : صاحب يقين : ومقامه الصحو والثبات وإجابة الحق ، ولا تغيره الأحوال (ص ١٦ - ٢٤) .

ثم يعرض للتفرقة بين الملامتي والصوفي من حيث الإخلاص والصدق وغيرهما .

وفي هذا يعرض لطرق كف الشهوات ، ودور ترك جلساء السوء في كف شهوات النفس ، وهو أسلوب يشار إليه حديثًا بالعلاج الاجتماعي Social Therapy .

وعن الباب الرابع : (في بيان معنى الوصول والوصال) ، نذكر أنه يتناول معنى الوصول ، وهو أن ينكشف للعبد حلية الحق ، ويصير مستغرقًا به فينشغل بالله تعالى دون سواه ، ومعنى الوصال : وهو الرؤية والمشاهدة بسر القلب في الدنيا ، وبعين الرأس في الآخرة .

ثم يعرض لما تقوم عليه الصوفية ، وهي أربعة :

أولها : الاجتهاد (التحقق بحقائق الإسلام) .

وثانيها : السلوك (التحقق بحقائق الإيمان) .

وثالثها : السير (التحقق بحقائق الإحسان) .

ورابعها : الطير (الجذبة بطريقة الجود والإحسان إلى معرفة الله ﷻ) . يلي ذلك فصل في الاتصال ، وتعريفه : هو مكاشفات القلوب ، ومشاهدات الأسرار في مقام الذهول ، ويعرض في ثنايا الفصل لدرجات الاتصال والمواصلة (ص ٢٥ ، ٢٦) .

وفي حديثه عن الوصول يشير إلى التوحد مع الحق سبحانه ، وهو ما يطلق عليه التوحد Identification (ص ٢٦ ، ٢٧) .

وفي الباب الخامس : (في بيان معنى التوحيد والمعرفة) ، حيث يعرض لمعنى التوحيد ، ثم يورد فصلًا عن أصول التوحيد وهي خمسة معتقدات يجب على المكلف اعتقادها ؛ وهي :

١ - وجود الخالق .

٢ - وحدانيته تعالى .

٣ - تنزيهه تعالى عن كونه جوهرًا أو عرضًا .

٤ - إبداعه تعالى بقدرته واختياره لكل ما سواه .

٥ - تدبيره تعالى لجميع مبتدعاته .

وبعد ذلك نجد فصلًا عن أن المسلمين اتفقوا على أن الله تعالى موصوف بكل كمال وبريء من كل نقصان .

ثم يعرض لأهل الأهواء المختلفة - في فصل الأهواء ، وهم ست فرق - كل اثنين منها ضدان : التشبيه - التعطيل ، الجبر - القدر ، الرفض - النصب ، ويشير إلى أن الفرقة الناجية هي أهل السنة والجماعة ؛ لأنها توسطت الطرق وسلكت طريقًا معتدلًا .

بعد ذلك يعرض لفصل عن القضاء ، ويقصد أحيانًا الأمر المبرم ، وأحيانًا الإعلام بوجوب الحكم الواجب لله . ويشير إلى أن قضاء الله يتم بمقتضى الحكمة ويتوقف على فعل العبد ، فالله تعالى خلق الأفعال والأقدار ، والعبد كاسبها ومسببها .

يلي ذلك فصل : الفرق بين العلم والمعرفة ، وفيه يعرض لمعنى المعرفة لدى الصوفية وهو العلم الذي لا يقبل الشك إذا كان المعلوم ذات الله تعالى وصفاته ، وأن المعرفة سرها التوحيد ، وعلامتها : حياة القلب مع الله تعالى ، وأن المعرفة الحقيقة في باطن الإرادة ، وأن حب الدنيا يذهب بنور المعرفة من القلب ، ثم يعرض بعد ذلك لمعنى البصيرة ، واليقين ، والإلهام (ص ٢٧ - ٣٦) .

ويتضمن هذا الباب تعريفًا للبصيرة Insight واليقين (ص ٣٨ - ٣٩) وذلك بصفته أرقى مستويات الاعتقاد ، ويشير كذلك إلى حتمية السلوك Deterimination of Behavior وتقسيم السلوك إلى سلوك إرادي Voluntary وسلوك لا إرادي Unvoluntary .

أما الباب السادس وفصوله فهو : (عن بيان معنى النفس ، والروح ، والقلب ، والعقل) وفيه يذكر الغزالي : أن للقلب معنى عضوي مادي ، وآخر معنوي باعتباره لطيفة ربانية روحانية ، وكذلك معنى الروح : كبخار لطيف تنتجه حرارة القلب ، وتشعه في الجسم كله ، وهي أيضًا ذلك الجانب العالم المدرك من الإنسان . ثم يعرض لمعنى النفس ، وهي قوتي الغضب والشهوة في الإنسان ، وهو المعنى الغالب لدى الصوفية . أو أنها ؟ أي النفس ؟ حقيقة الإنسان ونفسه وذاته ، وتوصف بأوصاف مختلفة حسب أحوالها ، وعن تعريفه للعقل ، فله معنيان ، الأول : العلم بحقائق الأمور ، والثاني : المدرك للعلوم وهو القلب .

وبعد ذلك يعرض لجنود القلب ، ويذكر أنها ثلاثة ؛ وهي :

١ - البواعث : ويقصد بها الغرائز .

٢ - القدرة .

٣ - الحواس الخمسة الباطنة (الحس المشترك ، الخيال ، الوهم ، الحافظة والمتصرف) ويحدد الغزالي موضوع كل حاسة في الدماغ .

وبعد ذلك يعرض لفصل يتناول بالتعريف والمقابلة بين الروح الحيواني والروح اللطيفة ، فالأولى جسم لطيف ، والثانية ليست بجسم ؛ لأنها من أمر الله تعالى ، والأولى لا تهتدي للعلم ، في حين الثانية تهتدي إليه ؛ ولذا فهي تميز الإنسان عن سائر المخلوقات . (ص ٣٩ - ٥٠) .

ويتضمن هذا الباب تعريفًا للنفس بأنها الغضب والشهوة وتعريفًا للعقل Mind بأنه العلم بحقائق الأمور (ص ٤١) ، ويتحدث أيضًا عن دوافع السلوك عندما يتحدث عن جنود القلب وهي البواعث Incentives (ص ٤٢ - ٤٣) والقدرة Ability والحواس وهي الإدراك الحسي والتخيل Imagination ثم يعرض لموضع كل حاسة في الدماغ (ص ٤٣) وهو من اهتمامات علم النفس العصبي الحديث Neuropsychology . كما نجده أيضًا يميز بين عملية الإحساس وعملية الإدراك في إشارته إلى أن عملية الإدراك تكتسب الإحساس معنى وتفسره ، وهو رأى يتفق مع ما يشير إليه علم النفس الحديث .

أما الباب السابع : (ففي بيان معنى المحبة) ويعرفها بأنها الميل إلى اللذيذ الموافق ، وهي ميراث التوحيد والمعرفة ، ويلي ذلك عرض لمعاني من المفاهيم ؛ كالذوق ، والصفاء ، والنفس ، والغيبة ، والسكر ، والصحو ، والفناء . (ص ٥١ ، ٥٢) .

وبالنسبة للباب الثامن : (في بيان معنى الأنس بالله تعالى) يعرض لمعنى الأنس وهو استبشار القلب وفرحه لما انكشف له من قرب الله تعالى وجماله وكماله ، ويشير إلى أن الأنس يكون بطاعة الله وذكره ، وأن طهور القلب يزيل الحجاب الذي بين العبد وربه . فيحدث نوعًا من الطمأنينة تصاحب الأنس ، مما يؤدى إلى الانبساط في الأقوال والأفعال . ثم يعرض نوعًا للشوق كأحد ثمار المحبة وهو أفضل من الأنس ؛ حيث يتضمن شدة الطلب لما يحتاج إليه . (ص ٥٣ - ٥٦) .

وفي الباب التاسع : (بيان معنى الحياء والمراقبة) يعرف الحياء على أنه إطراق عين القلب خجلًا من الله تعالى لتقصير في طاعته . ويشير إلى أن العلم الذي يحمل على الحياء هو علم العبد باطلاع الله تعالى عليه . يلي ذلك حديثه عن المراقبة وتعريفها ودرجتها (ص ٥٧ - ٥٩) .

وفي الباب العاشر : (في بيان القرب) : ويشير فيه إلى أن القرب يتم بأداء العبادات والسجود خاصة ، والحياء . (ص ٦٠ ، ٦١) .

أما الباب الحادي عشر : (في بيان شرف العلم) فيحث الغزالي فيه على طلب العلم والعمل به ، ويوصى بتقديم العلم على العبادة ؛ وذلك لسببين ؛ هما : لتصح العبادة ، ولأن العلم يولد الخشية والمهابة لله تعالى في قلب العبد . (ص ٦١ ، ٦٢) .

ويتعرض الغزالي في هذه الأبواب إلى العواطف (أو الوجدان) Affection التي يكنها الإنسان للحق ﷻ كالمحبة ، والأنس ، والشوق (ص ٥١ - ٥٧) .

وفي الباب الثاني عشر : (في بيان معاني الأسماء الحسنى) يقسم الغزالي معاني أسماء الله الحسنى في عشرة أقسام ، ويشير إلى أن معرفة العارفين بالله تعالى تكمن في معرفة أسمائه وصفاته ، وأن كمال العبد وسعادته تكمن في التخلق بأخلاقه تعالى ، والتحلي بمعاني أسمائه وصفاته . (ص ٦٣ - ٦٧) .

وفي الباب الثالث عشر : (في بيان الاعتقاد والتمسك بعقيدة صحيحة) يشير إلى أن الاعتقاد الصحيح هو علم جازم يطابق ، ويخلو من التعطيل ، والإلحاد ، والتشبيه ، والتجسيم وغير ذلك ، وأن يكون معه التنزيه ، والعظمة ، والكبرياء ودليله الكتاب

والسنة وإجماع الأمة (ص ٦٨ ، ٦٩) .

أما الباب الرابع عشر : (في بيان صفات اللّٰه تعالى) فيعرض لكمال صفاته ﷻ والتي تندرج ضمن سبع صفات ؛ هي : الحياة ، والعلم ، والإرادة ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، ويعرض بعد ذلك لصفات ذكرها الأشعرية ومذهب الطبائعية ومذهب أهل الحق . (ص ٧٠ ، ٧١) .

وفي الباب الخامس عشر : (في بيان حقيقة الإخلاص والرياء) حيث يعرض لنوعي الإخلاص : إخلاص العمل وإخلاص طلب الأجر ، ثم التفرقة بين النفاق والرياء وأقسام الأعمال عند بعض العلماء ، يلي ذلك فصل يعرض فيه لعشر خصال تضر العمل يجب على العبد تجنبها ؛ وهي : النفاق ، والرياء ، والتخليط ، والمن ، والأذى ، والندامة ، والعجب ، والحسرة ، والتهاون ، وخوف ملامة الناس . (ص ٧١ ، ٧٢) .

أما الباب السادس عشر : (فهو في الرد على من أجاز الصغائر على الأنبياء صلى اللّٰه عليهم وسلم) يتبعه فصل في حقوق النبي ﷺ على الأنام ، ومنها تصديقه ومحبته وتوقيره ، ثم فصل لما يجب على النبي ، وما يحرم عليه وما يباح له ، وما خص به من فضائل . (ص ٧٧ - ٨٣)

ويذكر الغزالي في هذه الفصول بعض المعاني المتصلة بالسلوك الأخلاقي Moral Behavior في واجبات المريد السالك ، وعند حديثه عن حقيقة الإخلاص والرياء (ص ٧١ - ٧٣) . ويتعرض ذلك لمعتقدات المسلمين في التوحيد ، ويعرف الاعتقاد Belief (وهو أحد موضوعات علم النفس الاجتماعي) (ص ٦٨) . ويورد بعض سمات الشخصية الإنسانية كالإخلاص . (ص ٧١ - ٧٣) .

وبالنسبة الباب السابع عشر : (فهو في معرفة الخواطر وأقسامها ومحاربة الشيطان) والتدبير في رفع شره وأن يستعيذ باللّٰه تعالى منه أولًا ، ثم يحاربه بثلاثة أشياء :

١ - معرفة مكائده وحيله .

٢ - الاستخفاف بدعوته .

٣ - إدامة ذكر اللّٰه تعالى بالقلب واللسان .

ويعرض بعد ذلك لمحكات تمييز خواطر الخير عن خواطر الشر ، منها الشرع ، والاقتداء بالصالحين ، ثم النفس والهوى ، ومدى ثبات أو تردد الخاطر ، ومدى قوته أو ضعفه في التأثير على سلوك العبد . (ص ٧٨ - ٨٠) .

أما الباب الثامن عشر : (في بيان معنى آفات اللسان) فيختص بعرض عشرين آفة تمثل كل آفات اللسان ؛ ومنها الكلام فيما لا يعني ، وفضول الكلام ، والخوض في الباطل ، ثم المراء ، والمجادلة ، والفحش والسب ، واللعن ، والمدح ... إلخ . ويعرض بعد ذلك لدوافع الغيبة ؛ كالغضب ، والحقد ، والحسد وموافقة الرفقاء في الهزل ، والغضب للّٰه تعالى على فاعل المنكر ، ثم دوافع النميمة كإرادة السوء أو التجنب إلى المنقول إليه ، يتبع ذلك ذكر أركان التوبة ؛ منها : العلم ، والندم ، والإقلاع ، والعزم . وواجبات من تنقل إليه النميمة كأن لا يصدقه ، وأن ينهاه ، وأن يبغضه في اللّٰه تعالى ، وأن لا ينم عليه . (ص ٨١ - ٨٥) .

أما الباب التاسع عشر : (في بيان البطن وحفظه) فوهو في ذم آكل الحرام وعقابه ، يتبعه بحث في موضوع حكم الحرام والشبهة ، ثم يعرض لأقسام أحوال المباح . (٨٦ ، ٨٧) .

أما الباب العشرون : (في بيان معرفة حيل الشيطان ومخادعاته) ويتبعه فصل عن التحذير من النفس ؛ لأنها أضر الأعداء ، وعلاجها أعسر الأشياء ، ويذكر أن ثمة طرق للحد من هواها ؛ وهي :

١ - الخاطر وهو حديث النفس .

٢ - الميل وهيجان الشهوة .

٣ - الاعتقاد .

٤ - الهم بالفعل .

وتتناثر المفاهيم النفسية في هذه الأبواب فنجد السلوك الأخلاقي (ص ٨٧ ، ٨٩) عند بيان معنى بعض آفات اللسان ، وما يمكن أن يكون قاعدة للعلاج السلوكي خاصة أسلوب التسكين المنظم Systematic Desensitization (ص ٧٨ ، ٨٩) ، ويتعرض لطرق كف الشهوات (الدوافع) (ص ٧٨ - ٨٠) ، ثم يشير أيضًا إلى دور ترك جلساء السوء في كف شهوات النفس ، وهو أسلوب يشار إليه حديثًا بالعلاج الاجتماعي Social Therapy ويشير إلى أشكال السلوك غير الملحوظ (الباطني) Covert Behavior (ص ٨٩ ، ٩٠) . والخاطر أو حديث النفس ويقصد به حديثًا التفكير Thinking ثم الميل وهيجان النفس إلى الشهوة ، وقد يشير إليها بالرغبة Desire أو الميل Tendency ثم الاعتقاد Belief والهم بالفعل . ويلمح أيضًا إلى أشكال السلوك غير المرغوب Undesirable Behavior حيث تحدث عن آفات اللسان كالغيبة والنميمة ودوافعها (ص ٨١ - ٨٥) .

وفيما يتصل بالباب الحادي والعشرين : (في بيان ما يجب رعايته من حقوق اللّٰه تعالى)

يعرض لحقوق اللّه تعالى على عبده ؛ وهي : فعل الواجبات ، وترك المحرمات ، ثم يعرض فصلًا يتناول فيه أصول العبادة لدى المتقين وهي : التوفيق والتأييد حتى يعمل المتقون ، ثم إصلاح العمل وإتمامه إذا تم .

ويعرض أيضًا لحد التقوى ومنازله ودرجاته ؛ وهي :

١ - ترك المعاصي مع فضول الحلال وهي أدنى درجات التقوى .

٢ - تجنب فضول الحلال (مقاومة الشهوات) .

٣ - الجمع بين الاثنين وهو الورع حيث اكتمال التقوى .

كما يعرض لعدد من آفات النفس ؛ وهي : الأمل ، والاستعجال ، والحسد ، والكبر (ص ٩٠ - ٩٦)

أما الباب الثالث والعشرون : (ففي بيان معنى الفكر) يتناول مراحل عملية التعلم وتحصيل الفكر ؛ وهي : السماع وله شروطه ، والتذكر ، والتفكير . يلي ذلك عرض لأقسام العلم وهي : علوم أصول الإيمان علم العبادات ، وعلم يتعلق بالحواس الخمس (اللسان ، والفرج ، والبطن ، والسمع ، والبصر) وعلم الأخلاق المذمومة وعلم الأخلاق المحمودة (ص ١٠٠ ، ١٠١) .

وفي الباب الرابع والعشرين : (في بيان معنى التوبة) يعرض تعريفًا للتوبة وهي الرجوع من المعصية إلى الطاعة ، ثم أركانها وهي العلم والعزم والترك ، يلي ذلك عرض لمفاهيم مشابهة كالفرار ، والإخبات (ص ١٠٢) .

أما الباب الخامس والعشرون : (في بيان الصبر) ففيه يشير إلى القتال الدائم بين النفس والشيطان والشهوات من جهة ، والمعرفة والملك الملهم للخير من جهة أخرى . ويعتمد محصلة هذا القتال على ثبات باعث الدين في مقابل باعث الهوى والقدر (أي الصبر) . وإلى جانب ذلك يذكر الغزالي أن الرياضة هي تمرين النفس على الخير ، ونقلها من الخفيف إلى الثقيل باللطف والتدريج إلى أن يرتقى إلى حالة يصير ما كان عنده من الأحوال والأعمال شاقًا سهلًا هينًا . (ص ١٠٣ ، ١٠٤) .

وبالنسبة للباب السادس والعشرين : (في الخوف) . يعرف الخوف : بأنه تألم القلب وانزعاجه لتوقع مكروه أو على فائت ، يتبع ذلك تقسيم للخوف بأنه إما أن يكون خوفًا يراد لذاته ، أو خوفًا لغيره (خوف سلب النعمة ، أو خوف من عقوبات معينة) (ص ١٠٤ ، ١٠٥) .

(ثم يعرض لبيان الرجاء) وهو الباب السابع والعشرون ، حيث يعرف الرجاء : وهو ارتياح القلب وانشراحه لانتظار محبوب تقدمت أسبابه ، ويكون الرجاء إما مقصودًا لذاته أو مرادًا لغيره ، ثم يعرض بالتعريف لمفهوم الرغبة ، والبسط (ص ١٠٥ ، ١٠٦) .

ونلمح هنا تعرضًا لما يسمى حديثًا بالعلاج السلوكي Behavior Therapy وهو أحد أساليب العلاج النفسي . من ذلك مثلًا إشارته إلى تنمية الصبر بالرياضة ، أي بقمع الشهوات وتمرين النفس على الخير ونقلها من الخفيف إلى الثقيل بالتدرج ، إلى آخر هذا الكلام الذي يشير بالتحديد إلى أسلوب يسمى التسكين المنظم Systematic Therapy (ص ١٠٣) .

واهتم الغزالي أيضًا بمفهوم التعليم Learning ومراحله وهي السماع ، وفيه يشير إلى دور الانتباه Attention ثم الذكر Memory التفكر (ص ١٠٠ ، ١٠١) ، ويتناول مفهوم الحاجة Need وهي الشعور بنقص لشيء ما يدفع الإنسان إلى إشباعها تفاديًا لتواترات نتيجة الاحتياج (ص ١٠٦) . وتعرض أيضًا في مجال الانفعالات ؟ للخوف (ص ١٠٤) .

يلي ذلك الباب الثامن والعشرون : (في بيان الفقر) ؛ حيث يعرف الفقر بأنه الفقد والاحتياج ، وهو نوعان : فقر مطلق يكون للّه تعالى ، وفقر مقيد ويكون إلى الوسائل التي تقوم بها ذات الإنسان . (ص ١٠٦) .

أما الباب التاسع والعشرون : (ففي بيان الزهد) حيث يبدأ بتعريف الزهد على أنه : انصراف الإرادة عن الدنيا لاستعظام ما عند اللّه . ويشير بعد ذلك أن ثمرة الزهد هي : الإيثار ، والفتوة (عدم الانشغال بالدنيا عن اللّه تعالى) . (ص ١٠٦) .

أما الباب الثلاثون : (ففي بيان المحاسبة) يُبدأ بتعريف المحاسبة على أنها : تفقد ما مضى وما يستقبل ، وهي واجبة ، وتقوم على الإيمان بمحاسبة اللّه تعالى . ويشير أن هذه المحاسبة توجب الاعتصام ، فيعرض للفرق بين الاعتصام والاستقامة . (ص ١٠٧) .

وفيما يتعلق بالباب الحادي والثلاثين : (في بيان الشكر) يعرض لفضيلة الشكر : وهو الفرح والسرور بنعم اللّه ، وهو ثمرة الإيمان بالله تعالى ، وبه تدوم النعم . (ص ١٠٨) .

وفي الباب الثاني والثلاثين : (في بيان التوكل) يعرف معنى التوكل : بأنه اعتماد القلب على اللّه تعالى ، وسكونه وعدم اضطرابه لتعلقه باللّه تعالى . ويقوم التوكل على العلم بأن اللّه قائم بنفسه وأنه مقيم لغيره .

ثم يعرض لمعاني الثقة والرضا . (ص ١٠٩) .

وفي الباب الثالث والثلاثين : (في بيان النية) يعرض لمعاني النية والقصد والعزم والإرادة (ص ١١٠) .

كذلك في الباب الرابع والثلاثين : (في بيان الصدق) يعرف صدق العبد : بأنه استواء السر والعلانية ، ثم يعرض الغزالي للعلاقة بين الصدق والإخلاص في صلتهما بالعبادة (ص ١١٠) .

أما الباب الخامس والثلاثون : (في بيان الرضا) فيتناول لمعنى الرضا : وهو سرور القلب بمر القضاء ، ولأهمية الرضا عن ما اختار اللّٰه لعبده ، وعدم السخط عن الذات (ص ١١١) .

ثم يتناول الباب السادس والثلاثون : (في بيان النهي عن الغيبة) ذم الغيبة والتحذير من عاقبتها . ويعرض لأحاديث وأقوال عن النبي فيها . (ص ١١٣) .

ثم يعرض الباب السابع والثلاثون : (في بيان الفتوة) تعريفًا لمعنى الفتى وخصائصه وخلقه ، يتبعه فصل في السخاء (ص ١١٤ - ١١٦) .

أما الباب الثامن والثلاثون : (في بيان مكارم الأخلاق) فيعرض للخصال التي تنم عن كرم الأخلاق كالعفو ، والسخاء ، والإحسان إلى من أساء . (ص ١١٧) .

ويهتم الغزالي في الباب التاسع والثلاثين : (في بيان القناعة) بعرض لنماذج من الكتاب والسنة للحث على القناعة ، والرضا بالقليل ، ولترك الحرص والحسد (ص ١١٨) .

أما الباب الأربعون : (في بيان السائل) ففيه يذم طلب الدنيا ، ويحث على القناعة وطلب الآخرة ؛ لأن من يسأل غير اللّٰه يجلب لنفسه المذلة . (ص ١١٩) .

ويعرض بعد ذلك للباب الحادي والأربعين : (في بيان الشفقة على خلق اللّٰه تعالى) حيث يعرض لمظاهر الشفقة على خلق اللّٰه كالعطاء ، وعدم تحميلهم ما لا يطيقون ، وأن يسر لما يسرهم ، وأن يحزن لما يحزنهم . (ص ١٢٠) .

أما الباب الثاني والأربعون : (في بيان آفة الذنوب) حيث يشير فيه إلى أن من أطاع اللّٰه تعالى سخر له كل شيء ، ومن عصاه سخره لكل شيء ، وسلط عليه كل شيء ، ويذكر أن عقوبة الذنب تتمثل في ارتكاب ذنب مثله . (ص ١٢٠) .

أما الباب الثالث والأربعون والأخير : (في صفة صلاة أهل القرب) فيشير الغزالي إلى أهمية الخشوع في الصلاة وعدم الانشغال عنها بما في الدنيا . وضرورة تذكر خشية اللّٰه ، ورحمته ، وعظمته وهيبته تعالى . ويعرض لما يحث على ضرورة الانتباه والتركيز

أثناء أداء هذه الفريضة (ص ١٢١) .

وفي هذه الأبواب الأخيرة يتكرر عدد من المفاهيم التي سبق ذكرها في مواضع سابقة كسمات الشخصية ؛ مثل : الرضا والشكر (١٠٨) والقناعة (ص ١١٨) والمروءة والصدق (ص ١١٠ ، ١١١) . والانفعالات كالفرح والسرور (ص ١٠٨) .

أما بالنسبة لكتاب « قواعد العقائد في التوحيد » يعرض الغزالي لعدد من القواعد وهي تمثل صفات الله تعالى : التنزيه - الحياة والقدرة - العلم - الإرادة - السمع والبصر - الكلام - الانفعال .

ومن حيث كتاب (خلاصة التصانيف في التصوف) فهو كتاب موجز كان قد كتبه الإمام الغزالي رحمه الله إلى تلميذ له ، كان قد أتعب نفسه في طلب العلم سنين ، وبعد ذلك بعث لأستاذه كي يستفتيه في عدد من المسائل ، وطلب النصح والإرشاد ليعلم أي العلوم التي تعلمها أنفع لهدايته .

فيرد عليه أستاذه بأن خير العلوم التي تحيي الشريعة ، والدين ، وتهذيب الأخلاق ، ومع ذلك فإن كثرة تحصيل العلم لا تفيد طالما لا يعمل العبد بما تعلمه ؛ لأن العبد يدخل الجنة بعمله وليس بعلمه الذي لم ينفعه ، ويسند نصائحه بالعديد من الحكايات والأمثلة ، يتبعها آيات قرآنية ، وأحادث نبوية .

ثم يحث الغزالي تلميذه على مراعاة الشريعة في أفعاله ، فيكف شهواته وهواه ، ويجاهد نفسه . وبعد ذلك يذكر الغزالي سبعة واجبات لمريد طريق الحق ؛ وهي :

١ - الاعتقاد السليم .

٢ - التوبة النصوح .

٣ - إرضاء الخصماء .

٤ - تحصيل علم الشريعة بقدر ما يعمل بأوامر الله ، ويذكر في ثناياها حكاية عن فوائد تحصيل العلم .

٥ - أن يكون له مرشد ومربٍ ليدله على الطريق ، ويرفع عنه الأخلاق المذمومة ويضع مكانها الأخلاق المحمودة .

ويذكر بعد ذلك شروط المرشد الحقيقي ، وأن حقوقه الاحترام .

٦ - مخالفة سياسة النفس ويتم بترك جلساء السوء .

٧ - اختيار جميع أحوال الفقراء ، لترك الأسباب الدنيوية .

وعن ماهية التصوف ، يعرفه الغزالي : بأنه الجمع بين الصدق مع اللَّه تعالى ، وحسن المعاملة مع الناس .

وكذا يعرف العبودية : بأنها دوام حضور العبد من الحق تعالى بلا شعور الغير ، بل مع الذهول عن كلٍّ ما سواه .

ثم يعرف الإخلاص : بأن تكون الأفعال كلها صادرة للَّه تعالى ، دون التفات لشيء من الخلق أثناء العمل أو بعده .

وبعد ذلك ينصح الغزالي تلميذه بثمانية أشياء (٤ تَرْكِيَّة ، ٤ فِعْلِيّة) ؛ وهي :

١ - ترك المناظرة وإقامة الحجة على كلٍّ مَن يذكر مسألة ، تجنبًا للرياء ، والحقد ، والكبر والعداوة ، والمباهاة وغيرها ، ويتبع هذه النصيحة بعرض لإرشادات لتنظيم المناقشة ثم تحديد أربعة أقسام للجهل .

٢ - الاحتراز من الوعظ والتذكير ، إلا بعد أن يعلم أنه يعمل أولًا بما يقوله ، وتجنب التكلف في الكلام ، وأن يكون الكلام في الزهد والعبودية .

٣ - تجنب مخالطة الملوك والأمراء والحكام .

٤ - عدم تقبل أي هدايا منهم ؛ لأن الطمع في مالهم يكون سببًا لفساد الدين ، والمداهنة والمحاباة .

٥ - أن يؤدي العبد ما أمر اللَّه به ، وهو راضٍ عنه .

٦ - أن يعامل الخلق بما يحب أن يعاملوه به .

٧ - أن يشغل بالعلم النافع لتطهير النفس من الأخلاق الذميمة ، ومن علائق الدنيا .

٨ - أن يدخر لعياله من القوت ما لا يزيد عن السنة .

وفي الختام ينهي الغزالي رسالته بدعاء يُقرأ خصوصًا عقب الصلوات .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجالات علم النفس العام ، وعلم النفس الاجتماعي ، وعلم النفس الإكلينيكي .

مجموعة رسائل الإمام الغزالي (٣) [1]

عرض : د. محمد نجيب الصبوة

عرض الكتاب :

هذا الكتاب عبارة عن مجلد من القطع المتوسط يجمع بين دفتيه خمس رسائل دينية ، وعلمية وأخلاقية ، وتربوية ، تقع في ١٧٤ صفحة مطبوعة ، فقد استغرقت الرسالة الأولى (القسطاس المستقيم) إحدى وستين صفحة ، واستغرقت الثانية (منهاج العارفين) تسع عشرة صفحة ، واستغرقت الثالثة (الرسالة اللدنية) ثمانٍ وعشرين صفحة ، واستغرقت الرابعة (فيصل التفرقة) ستًّا وثلاثين صفحة ، واستغرقت الخامسة (أيها الولد) اثنتين وعشرين صفحة .

وسوف نعرض فيما يلي للرسائل بنفس الترتيب السابق .

أولًا : عرض الرسالة الأولى : (رسالة القسطاس المستقيم) :

يعرض المؤلف في هذه الرسالة لمفهوم المعرفة وجوهرها أو حقيقتها ، ويرى أن حقيقة المعرفة وميزانها هو القسطاس المستقيم ، والتزام ما ورد في القرآن الكريم ، وفي السنة المطهرة عن النبي ﷺ ، ومحاولة تنفيذ ذلك فعلًا وقولًا ، أما ميزان الرأي والقياس فهو أمر ظني وتخميني ، ولا ينبغي الاعتصام به لأنه ميزان الشيطان ، ويرى المؤلف أن هذه دقائق لا تدرك إلا بنور العلم والتعليم المقتبس من إشراق عالم النبوة .

---

(١) بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٦م .

وعرض المؤلف بعد ذلك لمعنى القسطاس المستقيم ، أنه عبارة عن : موازين خمسة ذكرت جميعها في القرآن الكريم ، وعلمها الله أنبياءه وعلمهم كذلك الوزن بها . « فمن تعلم من رسول الله ﷺ ، ووزن بميزان الله فقد اهتدى ، ومن ضلّ عنها إلى الرأي والقياس فقد ضل وتردى » .

أما هذه الموازين الخمسة فهي : ميزان التعادل ، وسمي بهذا الاسم ؛ لأنه فيه أصلين متعادلين كأنهما كفتان متجاذبتان ، وميزان التلازم ، وسماه بهذا الاسم لأن أحد الأصلين يشتمل على جزأين : أحدهما لازم والآخر ملزوم ، كقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢] . فإن قوله : لفسدتا لازم وملزوم قوله : لو كان فيهما آلهة إلا الله ، ولزمت النتيجة من نفي اللازم ، وميزان التعاند ، وسماه بذلك الاسم ؛ لأنه رجع إلى حصر قسمين بين النفي والإثبات يلزم من ثبوت أحدهما الآخر ، ومن نفي أحدهما ثبوت الآخر ، فبين القسمين تعاند وتضاد . وعاد فقسم ميزان التعادل إلى ثلاثة أقسام ؛ هي : الأكبر والأوسط والأصغر ، فصار الجميع خمسة .

وانتهى المؤلف من هذه الرسالة إلى معرفتك بالله وبرسوله ، وتعلمك منهما هو الميزان الحقيقي للمعرفة الحقيقية ، وفي ذلك النجاة في الدنيا والآخرة ، وهذا هو طريق العارفين الصالحين الأتقياء . وانتهى إلى ضرورة توخي الحذر التام من الاعتماد على العقل والمعقول أولًا ، وتأخير المنقول عن الله والرسول ﷺ ، بل يجب أن يحدث العكس .

أما من حيث ما ورد في هذه الرسالة من مفاهيم سيكولوجية ، فقد ورد مفهوم المعرفة Cognition في (ص ٥ ، ٦) وهو مفهوم قديم حتى في المباحث الفلسفية ، ويعد الذكاء Intelligence أحد عناصره الأساسية بما يشتمل عليه من قدرات نوعية ، وهو في علم النفس مفهوم قديم حديث ، قديم بمنظور الدراسات والبحوث التي أجريت على الذكاء الإنساني والحيواني والقدرة العقلية ، وهو مفهوم حديث من منظور علم النفس المعرفي Cognitive Psychology الذي ازدادت كثافة بحوثه كمًّا وكيفًا منذ أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات حتى الآن .

أما مفهوما الرأي والقياس (ص ٦) ، فيوازي الأول وهو الرأي (أي الروية والتفكير) ، الرأي الشخصي المبني على التمحيص وإعمال العقل في علم النفس الحديث ، أما القياس Measurement فيرادف أحد مناهج التفكير التجريدي الأساسية ، وهو منهج الاستنباط المنطقي Deduction Method وهو المنهج الذي تقوم عليه كل

قواعد المنطق الصوري ، لدى أرسطو وأتباعه ، وهو يعني قدرة الفرد على تطبيق المبادئ والقواعد الكلية على جزئياتها كما تشيع في البيئة بمعناها الشامل (ثقافية ، أو حضارية ، أو عقلية ، أو حتى فيزيقية) ، ومفهوم التعليم الذي ورد صفحة (٩) Education يرادف مفهوم التعليم Learning . وإن كان كلاهما وردا في علم النفس الحديث بالنص ، وكل منهما له معناه .

أما مفاهيم التعادل الأكبر والأوسط والأصغر ، والتلازم ، والتعاند ، وكذلك الحديث عن أنواع الموازين التي وردت في صفحة ١٢ ، ١٣ ، وهي القلسطون والطيار ، وهما ميزانان من أنواع الموازين الجسمية ، أو القبان ، والإصطرلاب ، وهو ميزان لمقادير حركات الفلك ، والمسطرة ، وهي ميزان لمقادير الأبعاد في الخطوط ، والشاقول ، وهو ميزان لتحقيق الاستقامة والانحناء ، فهي كلها موازين نعرف بها الزيادة أو النقصان بطريقة تجريبية حسية ، وهي تقابل في علم النفس الحديث ، المقاييس النفسية Psychological Tests or Scales التي ترد عادة في كتب القياس النفسي أو في كتب مناهج البحث في علم النفس عمومًا (وهو تشابه في الوظيفة التي تؤديها كل أداة من هذه الأدوات) .

كذلك ، فإن الحديث عن التجربة Experiment في الصفحات من (٢٠ إلى ٣٠) يشبه الحديث في علم النفس عن التجربة العلمية ودورها في الدراسات النفسية (مع الفارق بين ما يعينه الغزالي بالتجربة وما نقصده من ذكر التجربة العلمية في علم النفس أو العلوم المختلفة) ، والحديث عن التعاند والتضاد (من ص ٢٨ إلى ص ٣٠) يرادف في علم النفس الحديث و القديم ، الحديث عن بعض قوانين الإدراك والترابط في المخ ، والتي تحدث عنها الفلاسفة الترابطيون القدماء والمحدثون Associative Rules أمثال جون لوك ، وديفيد هيوم ، وبير كلي ، ثم هربرت سبنسر ، Associationists وجميس ميل ، وجون ستيوارت ميل ، وأصحاب المذهب الذري أو الجزئي في تفسير الظاهرة النفسية عمومًا ، والقدرات وكيفية أداء العقل لمهامه خصوصًا .

كذلك ورد في صفحتي (٤٥ ، ٤٦) ، الحديث عن مفهومي الثواب والعقاب ؛ وهما مرادفان لمفهومي التدعيم الموجب والسالب في مجال التعلم كما يعالج في علم النفس الحديث . وكذلك ورد في (ص ٤٨) تصنيف الأسوياء من الناس إلى أقسام ثلاثة ، ثم محاولة وضع خصال لقسم الخواص فهم ، ويتمشى ذلك تمامًا مع ما كشفت عنه نظريات وبحوث علم النفس الحديث في الشخصية الإنسانية . كذلك ورد في نفس

الصفحة حديث عن الاعتقاد (في الخصلة الثالثة للخواص) ، ويرادف ذلك البحوث التي على الحدود بين موضوع الاعتقادات في علم النفس الاجتماعي ، والاعتقاد ، باعتباره أحد سمات الشخصية الإنسانية التي تميز الإنسان عن الحيوان ، كذلك الحديث الذي ورد عن البُله في صفحة (٤٨ ، ٤٩) وخصالهم يوازي بحوث علم النفس الحديث في مجال التأخر العقلي Mental Subnormality & Mental Deficiency كما يرد هذا المصطلح الأخير في كتب الطب النفسي والعصبي والعقلي والمتأخرين عقليًا . كذلك ورد كلام عن الاستقراء Induction في (ص ٥٩) ، وهذا المفهوم يرادف أحد مناهج التفكير التجريدي في علم النفس ، وهو الوصول من الجزئيات إلى الكليات ، ويشيع هذا المفهوم في كتابات علم النفس التجريبي ، ومناهج البحث في علم النفس ، وتعتمد عليه كل العلوم التجريبية سواء كانت طبيعية أو اجتماعية وأشار إلى هذا المفهوم وأكد عليه تحديدًا من الطبيعيين والفلاسفة روجر بيكون ومن بعده فرانسيس بيكون .

ثانيًا : عرض الرسالة الثانية : (رسالة منهاج العارفين) :

بدأ أبو حامد الغزالي رحمه الله هذه الرسالة بخطبة مهمة بيّن فيها سمات وخصال العارفين بالله ﷻ ، وتمسكهم بمنهجه ودينه وسنة نبيه ﷺ ، وذكر أنهم ذوو علم يعتبر دواء للذنوب ، وأنهم مصابيح الهدى وأصحاب الحكمة ، وأتباع الرسول ﷺ حقًا ؛ ولهذا فهم يستحقون الاتباع من بعده ﷺ .

بعد ذلك قسم المؤلف الرسالة إلى أبواب ، على غرار تقسيمات كتب الفقه ، تعتبر في مجموعها ، أو منهج إذا اتبعه أي إنسان وأخلص في تنفيذه والحرص عليه ، بشرط أن يكون مسلمًا ، لا بد أن يصل إلى معرفة الله حق المعرفة ؛ وهي : باب البيان نحو المريدين ، وبين فيه ثلاثة أصول لابد للمريد أن يربي نفسه عليها ؛ وهي : الخوف ، والرجاء ، والحب ، وباب الأحكام : وفيه قسم القلوب إلى أربعة أنواع ، القلوب المرفوعة بذكر الله ، والمفتوحة بالرضا عن الله ، والتي لا تشتغل بغير ذكر الله تعالى ، والتي لا تغفل عن ذكر الله وتغفل عن كل ما سواه . وباب الرعاية : ويقصد بها – أي الرعاية – رعاية النفس وصونها عن المفاسد ، وذلك بطلب العلم ، ودوام الافتقار إلى الله ، وذكر الموت ، والتفكير والزهد ، والورع . وباب النية : فصاحب النية نفسه منه في تعب ، والناس منه في راحة ، وليس شيء أصعب على المريد من حفظ النية « فإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى ونية المؤمن خير من عمله » ، وباب الذكر : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] فاجعل قلبك قبلة لسانك ، ففي الذكر حياء

ربه ، ويرى أن أدنى الشكر أن يرى العبد نعم اللّه التي لا تعد ولا تحصى ، أما أعلاه فهو الاعتراف بلسان السر أن الخلق كلهم يعجزون عن أداء شكره على أصغر جزء من نعمه وإن بلغوا غاية المجهود .

وباب اللباس : فاللباس نعمة من اللّه على عبده يستر بها عورته وبشرته عمومًا ، ولكن لباس التقوى خير وأبقى ، وخير اللباس ما لا يشغل السر عن اللّه تعالى . وباب القيام : ويقصد به القيام من الفراش ؛ حيث ينبغي على المرء أن يوقظ النوم عن نوم الجهالة ، والنهوض بكلل والحركة الدائبة في خير ، والصعود بالقلب إلى الملكوت . ويوصي الغزالي بضرورة أن يجعل المؤمن قلبه تابعًا للّه لا للنفس ، فإن النفس تميل إلى الأرض ، بينما يميل القلب إلى السماء ، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر : ١٠] .

أما باب السواك : فيوصي فيه المؤلف بضرورة استعمال السواك ؛ لأنه مطهرة للفم مرضاة للرب ، وضرورة تطهير الباطن والظاهر عن دنس الإساءة . وباب التبرز : يوصي فيه أن يعتبر المريد بهذا الأمر ، ففيه راحة من إزالة النجاسة ، ومن ثم ينبغي عليه أن يغلق باب الكبر ، ويفتح باب الندم ، وأن يغسل شره بترك الغضب ، والشهوة ، واستعمال الرغبة ، والرهبة من اللّه . وباب الطهارة : وفيه ينبغي على المريد العارف باللّه أن يتطهر تمامًا في كل الأوقات ، وأن يفكر في صفوة الماء ورقته وتطهيره وتنظيفه ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾ [ق : ٩] ومن ثم ينبغي أن تكون صفوة المريد مع اللّه كصفوة الماء . وفي باب الخروج من البيت إلى الصلاة فلا بد للمريد أن يلتزم بحدود اللّه وحقوقه عليه من ذلك : التزام السكينة والوقار ، والاعتبار بخلق اللّه برهم وفاجرهم ، وغض البصر ، وإفشاء السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . وعند دخوله المسجد ، عليه بالتفكير في صاحبه الملك القدير العليم ، وأنه ضيفه ، وأنه في حضرته وأمامه ، فاللّه يكرم ضيفه ، ويعطي سائله ، ويبر المعرض عنه ، فكيف بالمقبل عليه ؟

بعد ذلك بين المؤلف في أبواب افتتاح الصلاة ، والقراءة فيها ، والركوع ، والسجود ، والتشهد : ضرورة التخلي عن التفكير في الدنيا ومتاعها ، والنفس وشهواتها ، واستبدال ذلك بالتفكير في الملكوت وآلاء اللّه وإخلاص العبادة له . وفي بابي السلام والدعاء : يذكرنا المؤلف بأسماء اللّه الحسنى والالتفات إليها والدعاء بها حتى يستجيب اللّه الدعاء ، وفي أبواب الصوم والزكاة والحج : ينبغي على المريد أن ينصاع تمامًا لأوامر اللّه ، وإحسان الصحبة ، والتجرد ، والبعد عن الحرام والقرب من الحلال . وفي أبواب

الله ، وإحسان الصحبة ، والتجرد ، والبعد عن الحرام والقرب من الحلال . وفي أبواب السلام ، والسلامة ، والعزلة ، والعبادة ، والتفكير بيَّن المؤلف أن المريد الذي يريد أن يقف على منهج العارفين بالله حق المعرفة لا بد له من الصمت توخيًا للسلامة من كل إثم ، أو الكلام بما ينفع ، ولا بد أن ينعزل بشره عن الناس ، ولا يفتر عن العمل ، ففي العزلة صيانة الجوارح ، وفراغ القلب ، وإغلاق أبواب الدنيا ، وكسر سلاح الشيطان ، ولا بد له من الإقبال على أداء الفرائض والنوافل معًا ، والتفكير في قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان : ١] مع ضرورة المجاهدة والرياضة الروحية ، والزهد في الدنيا بكل ما فيها فهذه هي حياة ومنهاج العارفين بالله ، والله أعلم .

أما من حيث ما ورد في هذه الرسالة من مفاهيم سيكولوجية ، فقد وردت مفاهيم الخوف والرجاء ، والحب ، وهي من منظور علم النفس الحديث تندرج تحت علم النفس العام وبصفة خاصة في موضوع الانفعالات Emotions ، وورد في باب النية Intention (ص ٧٠) مفهوم النية أو القصد ذاته ، وهو يرادف في علم النفس الحديث مفهوم الوجهة الذهنية Mental-Set ، وهو مفهوم عقلي ذو بطانة وجدانية يشير إلى استجماع قوى الشخص ، وحصر أو حبس بؤرة تركيزه على عمل بذاته أو في سياق معين ، طال زمنه أو قصر . وباب الذكر : بمعنى استرجاع أو استحضار أو استعادة أي شيء إلى بؤرة التركيز والشعور ، يرادف تمامًا مفهوم التذكر أو الذاكرة Memory بصفة عامة في علم النفس العام . والنسيان الذي ورد في (ص ٧١) عكس التذكر والذاكرة وله نفس الموضع في علم النفس العام . وورد في (ص ٧٣) الحديث عن الغضب وهو من الانفعالات التي ترد ضمن موضوعات علم النفس العام . وورد الفكر ، والتفكر ، والتفكير في (ص ٧٠ - ٧٣) والتفكير في علم النفس المعرفي وعلم النفس العام وتطبيقاته في مجال المرض النفسي الآن كثيرة . وكل الصفات التي وردت في شأن المؤمنين العارفين ، وبصفة خاصة في الصفحات من (ص ١٧٠ - ١٧٨) ترادف مفهوم الاتجاه Attitude في علم النفس الحديث ومفهوم سمات الشخصية ، وكذلك ما ورد في سمات وصفات المتصوفين من خصال في (ص ٨٣) يرادف ما ورد في علم النفس الحديث من كلام في تصنيف البشر وفقًا لخصائصهم وخصالهم Characteristics وذلك في دروس ونظريات الشخصية .

والفصل في جملته يتضمن أسلوبًا خاصًا في تعديل السلوك وتربية الشخصية .

ثالثًا : أما الرسالة الثالثة فكانت بعنوان : (الرسالة اللدنية) :

بدأ أبو حامد الغزالي هذه الرسالة بخطبة قليلة الكلمات ، ولكنها بليغة العبارات ، حيث أبان أن العارفين بالله فتح الله عليهم باب التوحيد الخالص ، وباب العلم والدراية واللدنية .

بعد ذلك عرض المؤلف للفروق بين العلم الغيبي واللدني ، والعلوم الكونية المكتسبة التي تقوم على التحصيل والاكتساب وتعلم فنونها ، وبين شرف تحصيل العلم لما له من تأثير حسن على السلوك وهداية النفس الإنسانية لأنها لوح العلوم ومقرها ومحلها .

وحاول المؤلف وضع ترتيب لأنواع النفس والفرق بينها وبين الروح ، بهدف بيان قابلية النفس العاقلة بالذات لتعلم كل العلوم ، على عكس النفس الشهوية والغضبية ، التي تميل بسبب ما يسري فيها من أرواح شريرة إلى الإقبال على ملاذ الدنيا وشهواتها ، ثم أورد أبو حامد الغزالي فصلًا في أصناف العلم وأقسامه ، بدأها بالعلم الشرعي الذي يضم كلًّا من الأصول والفروع ، وانتهى فيه إلى الحديث عن العلم العقلي الاستدلالي الذي يقع فيه الخطأ والصواب ، وله ثلاث مراتب ؛ أولها : العلم الرياضي والمنطقي وثالثها : وهو أعلاها علوم النظر في الموجود ، وقسمه إلى : الواجب والممكن ، ثم النظر ، ثم النظر في الصانع وذاته وجميع صفاته وأفعاله ، ثم النظر في العلويات وأحوال الملائكة والشياطين . ثم تحدث بعد ذلك في فصل آخر عن علم الصوفية الذي يجمع بين جميع العلوم السابقة فهو علم مركب .

وأهم ما يميز المتصوفة الوجد ، والشوق إلى الله ، والسكر ، والصحو ، والإثبات ، والمحو ، والفقر ، والفناء ، والولاية والإرادة ، وبين بعد ذلك طرق تحصيل العلم بأنواعه ، وشروط ذلك ومراتب النفس البشرية عند تحصيلها للعلم . وختم هذه الرسالة بوصف حقيقة العلم اللدني ، وأسباب حصوله لدى العارفين بالله ، فهو يرى أن العلم اللدني هو سريان نور الإلهام الذي يحدث بعد تربية النفس البشرية على فعل الخيرات فقط ، وذلك بتحصيل أكبر قدر ممكن من العلوم ، ثم الرياضة الصادقة ، والمراقبة الصحية ، وأخيرًا بالتفكير والتفكر ، فإن النفس إذا تعلمت ، وارتاضت بالعلم ، سلكت طريق الصواب « تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة » .

أما من حيث ما ورد في هذه الرسالة من مفاهيم سيكولوجية : فقد ورد في (ص ٨٨ ، ٨٩) مفهوم العلم بأنه : تصور النفس الناطقة المطمئنة حقائق الأشياء وصورها المجردة عن المراد بأعيانها وكيفياتها وكمياتها وجواهرها وذواتها إن كانت

مفردة ويكاد يتفق هذا التعريف مع ما ورد في كتب مناهج البحث في علم النفس عند تعريفها للعلم بأنه : مجموعة من التصورات أو المفاهيم concepts المترابطة المتكاملة المتراكمة التي تشكل جسم المعرفة لأي فرع من فروعها . وورد مفهوم النفس الإنسانية ، وهو موضوع لعلم مهم يطلق عليه علم النفس بما يصدر عنها من سلوكيات وتصرفات ، وكان يشار إلى هذا المفهوم الفرضي قديمًا بأنها مجموعة من الوظائف الحيوية التي يؤديها الكائن الحي ، كما ورد ذلك في كتابات أرسطو عن النفس ، ثم ورد بعد ذلك أنها مجموعة من القدرات والوظائف ذات الطبيعة المتكاملة من حيث هي بيولوجية حسية ووجدانية ، باطنية وعقلية ومعرفية ، وينظر إليها الآن على أنها مجموعات السلوكيات التي تصدر عن الكائن الحي ، وكذلك هناك من يقول إن النفس لم تعد موضوعًا لعلم النفس ، ولكن السلوك الذي يصدر عنها هو موضوع علم النفس الإنساني والحيواني على الأقل .

وورد نفس المفهوم (النفس) في فصل كامل عن المقارنة بين النفس والروح الإنساني ، ولا تعليق لنا على هذا المفهوم إلا ما أوردناه سلفًا ، فالنفس في نظر الغزالي « ذلك الجوهر الكامل الفردي الذي ليس من شأنه إلا التذكر ، والحفظ ، والتفكر ، والتمييز ، والروية ، ويقبل جميع العلوم ولا يمل من قبول الصور المجردة المعراة عن المواد ؛ ولهذا الجوهر عند كل قوام اسم (ص ٩١ وما بعدها) ، فالحكماء يسمون هذا الجوهر : النفس الناطقة ، والقرآن يسميه : النفس المطمئنة والروح الأمري ، والمتصوفة تسميه : القلب . وعمومًا هذا الخلاف اسمي ، ولكن المعنى خلفها : العقلي المعرفي فقط ، بينما هي في علم النفس الحديث ، وكما قلت : مجموع السلوكيات أو التصرفات الصادرة ردًّا على مؤثرات خارجية (بيئية) أو داخلية (حسية) ، وتأتي هذه السلوكيات نتاجًا للتفاعل الخلاق بين الجوانب الجسمية ، والوجدانية ، والمعرفية التي تضمها الشخصية الإنسانية . وأي نقص في أي جانب منها يحدث اضطرابًا في السلوك النهائي الصادر عن النفس .

كذلك ترادف مفاهيم التذكر ، والحفظ ، والروية ، والتفكير ، والإدراك موضوعات أساسية في علم النفس العام ، والحديث عن الحاجة إلى العلم أو الرغبة والحاجة إلى الطعام والشراب ، والحاجة إلى الشهوات التي وردت في (ص ٩٥ ، ٩٦) ، جميعها ترادف مفاهيم الدوافع البيولوجية في مقابل الدوافع المكتسبة (من البيئة) في علم النفس العام ، وفي علم النفس الحديث عمومًا .

ويقول أبو حامد الغزالي في الرسالة اللدنية كذلك : (إن علم اللغة سلم ومرقاة إلى جميع العلوم ، ومن لم يعلم اللغة فلا سبيل له إلى تحصيل العلوم ، فإن من أراد أن يصعد سطحًا عليه تمهيد المرقاة أولًا ثم بعد ذلك يصعد ، وعلم اللغة وسيلة عظيمة ، ومرقاة كبيرة ، فلا يستغني طالب العلم عن إحكام اللغة ، فعلم أصل الأصول ، وأول علم اللغة معرفة الأدوات ، وهي بمنزلة الكلمات المفردة (ص ٩٨) ، ويرادف هذا المصطلح موضوعًا كاملًا وحديثًا في علم النفس يسمى سيكولوجية في علم النفس ، بل هناك فرع كامل الآن يسمى علم النفس اللغوي أو اللغويات النفسية Psycholinguistics وورد في (ص ٩٩) مفهوم العادات أو أبواب العادات ، ويشيع هذا المفهوم في فرع كامل في علم النفس الحديث يسمى التعلم : مفاهيمه ونظرياته . وورد في (ص ١٠٠) « أن علم الطبيعة يتولد عن دراسته : النظر في أحوال مراتب الموجودات ، وأقسام النفوس والأمزجة ، وكمية الحواس وكيفية إدراكها لمحسوساتها » ، ويرادف المزاج مفهوم السمة Trait في سيكولوجية الشخصية ، أما الحواس والإدراك فهي بذاتها تدخل ضمن موضوعات علم النفس العام الذي هو مدخل لكل فروع علم النفس الأساسية والتطبيقية . وورد في (ص ١٠١ وما بعدها في السطر الأخير من الصفحة) الحديث عن طرق التحصيل العلمي والتعلم ، وهذه مفاهيم تشيع في كتابات علم النفس التربوي كعلم تطبيقي ، وفي طرق ونظريات التعلم كعلم أساسي ، وفي كتب القياس النفسي والتربوي بهدف التقدير والتقويم Assessment & Evaluation . ووردت مفاهيم التفكر ، والفكر ، والحدس (ص ١٠٣) وكلها مفاهيم تشيع كموضوعات قائمة بذاتها في علم النفس العام . وورد في (ص ١٠٤) « وحصلوا بفنون الطرق كثيرًا من العلوم حتى صاروا أعلم المخلوقات وأعرف الموجودات » ، وكذلك فإن مفهوم الإلهام يشيع في كتابات سيكولوجية الإبداع والاختراع والاكتشاف والابتكار Creation ، غير أن معنى الإلهام عند الغزالي يختلف عن معناه في علم النفس الحديث . وورد في (ص ١٠٧) ما نصه « يحتاج الناس إلى التذكير والتنبيه لاستغراقهم في الوساوس ، وانهماكهم في الشهوات » فالتذكير يرادف التذكر والاستدعاء بطريق التعرف على ما مضى ، وكذا التنبيه Stimulation يعد من المفاهيم الأصولية في علم النفس الحديث عمومًا ، وفي علم النفس العام بصفة خاصة . ويشيع مفهوم الوساوس في علم النفس الإكلينيكي والمرضي Abnormal & Clinical Psychology والطب النفسي والعصبي ، أما الشهوات فترادف مفهوم الدوافع الأولية (أو الغرائز) ، كالحاجة إلى الجنس والطعام

والشراب والإخراج في علم النفس العام وفي نظرية الدافعية Motivation Theory عمومًا في علم النفس الحديث .

وورد في (ص ١٠٨) الحديث عن الصور العقلية (أو المعقولة Mental Images وتشيع هذه المفاهيم داخل موضوع الخيال Imagination في علم النفس العام . والنفوس المريضة ترادف مفهوم الاضطرابات النفسية . والنسيان الذي هو التباس العلم المنقوش في الحافظة والذاكرة فيكون كالغمام أو السحاب السائر لنور الشمس عن أبصار الناظرين ، كلها تشيع في كتابات سيكولوجية التذكر والنسيان في علم النفس العام .

رابعًا : أما الرسالة الرابعة التي جاءت بعنوان : (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) .

فقد بدأها المؤلف بخطبة تبين أهمية أن يستجلب المرء الهمة من رب العباد ليستعين بها على إنجاز ما يريد ، ثم عرض أبو حامد الغزالي بعد ذلك للفرق بين الإيمان والكفر ، أو الإسلام والزندقة وذلك في معرض حديثه عن تكفير فرق المتكلمين لبعضهم البعض ، وتكفيرهم عمومًا ، من أشاعرة ومعتزلة وشيعة ، لأهل السنة والجماعة عامة ، والمتصوفة بصفة خاصة : فبين أن الكفر لا يحدث بالوقوع في خطأ أو مخالفة شرعية ، حتى ولو كانت مخالفة جسيمة ما دام المرء متمسكًا بالأصول التي على رأسها التوحيد ، فالكفر هو تكذيب اللَّه والرسول عليه الصلاة والسلام ، بينما الإيمان تصديق اللَّه والرسول ﷺ في كل ما جاء به ؛ ولذلك فاليهودي والنصراني كافران لتكذيبهما للرسول ﷺ ، والبرهمي كافر بالطريق الأولى ؛ لأنه أنكر مع رسولنا المرسل سائر الرسل ، ويلتحق بهم بالقياس الثنوية ، والزنادقة ، والدهرية ، فكلهم مكذبون للرسول ، فكل مكذب للرسول كافر . أما كل فرق المتكلمين والمتصوفة فمجتهدون ولم يكذبوا اللَّه والرسول ، وإن اختلفت آراؤهم ، فهي تختلف في الفروع لا في الأصول ، ناهيك عن المتصوفة العارفين باللَّه وبرسوله حق المعرفة ، كما سبق بيان ذلك . فكيف نتهمهم بالكفر ؟ وكيف يكفرهم المعتزلة ، والأشاعرة ، والشيعة على اختلاف فرقهم ؟!!

ثم بين المؤلف بعد ذلك أمارات وأحوال الزنادقة ، وأحوال أهل الكفر حتى لا يدع مجالًا للظن أو التخمين ، أو يدع مجالًا للخلط بين الإيمان والكفر ، فكلاهما واضح وضوح الشمس حينما تكون في وسط السماء الدنيا . وانتهى من رسالته هذه إلى التحذير من رمي المسلمين بالكفر مخالفة لواقعهم ، أو اعتمادًا على الظن والتخمين ؛ لأن المسلم إن لم يكن كافرًا وقُذِف بالكفر ، ارتدَّ هذا الكفر على القاذف « إذا قذف

أحدكم أو أحد المسلمين صاحبه بالكفر فقد باء به أحدهما » .

أما من حيث ما ورد في هذه الرسالة من مفاهيم سيكولوجية ، فقد ورد في (ص ١١٥) وفي أول صفحة ١١٨ حديث عن الغيرة والحسد ، وهما من الانفعالات التي هي إحدى موضوعات علم النفي العام ، التي تمثل الجانب المزاجي للسلوك الإنساني . وورد كذلك حديث عن مفهوم الاستبصار Insight . وورد في (ص ١٢٤) الحديث عن الوجود الخيالي والتمثيل العقلي Mental Representation ، وهذا مفهوم يشيع في موضوعات حديثة في علم النفس المعرفي وعلم النفس العصبي Neuro-Psychology ، وفي موضوع الخيال والصور العقلية كما سبق ذكر ذلك . وورد في (ص ١٢٧) حديث عن القدرة على التأويل أو التفسير Interpretation ويرادف هذا المصطلح مفهوم التأويل العقلي الذاتي في موضوع الإدراك الحسي والمعرفي في علم النفس الحديث . وورد كذلك في الصفحة ما نصه « وأبعد التأويلات عن الحقيقة وأغربها أن تجعل الكلام مجازًا أو استعارة هو الوجود العقلي والوجود الشبهي » ويرادف الكلام مجازًا أو استعارة مفهوم التفكير المجازي بالألفاظ Metaphor Thinking في علم النفس الحديث . وأحيانًا يسمى Figurative Thinking . وورد مصطلح الكلمات في (ص ١٣٠) ، وهو يرادف مفهوم الرموز والإشارات ، وهي جميعًا تعد ضمن أدوات التفكير الإنساني الذي هو درة موضوعات علم النفس العام وعلم النفس المعرفي .

خامسًا : أما الرسالة الخامسة والأخيرة ، فقد جاءت بعنوان : (أيها الولد) ، بدأها المؤلف بخطبة جامعة كالعادة ، وأكثر في هذه الرسالة من قوله : أيها الولد ، وسبب ذلك وجود واحد من مريديه وتلامذته وأحد الذين تعلموا على يديه ، هذا الطالب كتب إلى الإمام الغزالي يسأله عن نوع العلم النافع في الدنيا والآخرة لكي يلتزم به ، التماسًا للنجاة ، وعملًا بهذه النصيحة مدى العمر . فرد عليه الشيخ الإمام بقوله : من جملة ما نصح به رسول الله ﷺ أمته قوله : « **علامة إعراض الله عن العبد اشتغاله بما لا يعنيه ، وإن امرأ ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لجدير أن تطول عليه حسرته ، ومن جاوز الأربعين ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار** » . وفي هذه النصيحة كفاية لك ولأهل العلم .

وبين بعد ذلك أن المشكلة ليست في كثرة إسداء النصائح والمواعظ ، ولكن المشكلة تكمن في قبول النصيحة والعمل الدائب بها ، فقد كثر الوعظ وقل الاتعاظ . فلا بد من الجمع بين غزارة العلم والعمل به ، وصون الجوارح بالعلم ، كما أوصاه بضرورة قيام

الليل ، والإكثار من الاستغفار ، والشكر لله .

وذكَّره في النهاية بجوهر العبادة قائلًا له : اعلم أن الطاعة والعبادة متابعة الشارع ﷺ في الأوامر والنواهي بالقول والفعل . يعني كل ما تقول ، وتفعل ، وتترك ، يكون باقتداء الشارع والشرع ، كما لو صمت يوم العيد وأيام التشريق تكون عاصيًا ، أو صليت في ثوب مغصوب وإن كانت صورة عبادة تأثم . ولقد وجب على السالك أمور أربعة : اعتقاد صحيح لا تكون فيه بدعة ، وتوبة نصوح لا يرجع بعدها إلى الزلة ، واسترضاء الخصوم حتى لا يبقى لأحد عليك حق ، وتحصيل علم الشريعة قدر ما تؤدى به أوامر اللَّه تعالى ، ثم من العلوم الآخرة ما يكون به النجاة . وفي النهاية أوصاه بضرورة العلم بما ورد إجابة على سؤاله المتقدم ، وباللَّه التوفيق .

أما من حيث ما ورد في هذه الرسالة من مفاهيم سيكولوجية ، فقد ورد في (ص ١٤٥) حديث عن التصديق والاعتقاد والإيمان ، وكلها مفاهيم سيكولوجية تشيع في كتابات علم النفس الاجتماعي وخاصة في موضوعات الاتجاهات والتخاطب اللفظي الاجتماعي Social Verbal Communication والاعتماد والمعتقدات Beliefs والقيم Values ، وورد في نفس الصفحة مفهوم الحافز Incentive ، وهو أي منبه أو مثير خارجي يزيد من قوة الدافع الإنساني ، وهو يدخل ضمن إطار مفاهيم نظرية الدافعية ، كما وصفت في كتب ومراجع علم النفس العام .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجالات علم النفس العام وعلم النفس الاجتماعي والشخصية .

* * *

مجموعة رسائل الإمام الغزالي (٤) [١]

عرض : د. طريف شوقي فرج

عرض الكتاب :

يقع هذا الكتاب في ١٨٦ صفحة من القطع المتوسط ، ويتضمن ست رسائل للإمام الغزالي ؛ وهي :

١ - مشكاة الأنوار .

٢ - رسالة الطير .

٣ - الرسالة الوعظية .

٤ - إلجام العوام عن علم الكلام .

٥ - المضنون به على غير أهله .

٦ - الأجوبة الغزالية في المسائل الأخروية .

ويصوغ الإمام رسائله في صورة إجابة عن سؤال يوجهه إليه أحد السائلين ونعرض فيما يلي الرسائل على نحو موجز .

أولاً : عرض الرسالة الأولى : (مشكاة الأنوار) :

ويجيب فيها عن سؤال حول تفسير الآية الكريمة : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن

---

(١) بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٦م .

شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥] ، ويشير إلى أن للنور معنى عند العوام (البصر) ، ومعنى عند الخواص (العقل) ، ومعنى عند خواص الخواص (اللَّه) ، ثم يعقد مقارنة بين نور البصر ، ونور العقل ، ويبين أن لنور البصر سبعة أوجه من النقصان تعد أوجه قوة للعقل ؛ مثل : أن العين لا تبصر نفسها والعقل يدرك نفسه ، وأن العين لا تدرك ما وراء الحجب ، والعقل ينصرف فيما وراء الحجب ، وأن العين تبصر بعض الموجودات وتقصر عن جميع المعقولات ، في حين أن الموجودات والمعقولات كلها مجال للعقل . ويسوق الغزالي مثالًا في معرض تلك المقارنة ينم عن إدراكه للفارق الجوهري بين عملية الإحساس والإدراك الحسي ؛ حيث يقول : « إن العين الباصرة جاسوس من جواسيس العقل وكلها بأخس خزائنه وهي خزانة الألوان والأشكال لترفع إلى حضرته أخبارها (المحسوسات) ، فيقضي فيها (يدركها) بما يقتضيه رأيه الثاقب وحكمه النافذ » (ص ٨ - ١٠) . وفوق نور البصر ونور العقل تأتي الأنوار السماوية التي منها تقتبس الأنوار الأرضية ، وهي تترتب بحيث يقتبس بعضها من بعض ، ولكنها لا تتسلل إلى غير نهاية ، بل ترتقي لمنبع أول وهو النور لذاته ، وهو النور الأقصى الذي منه ينزل النور إلى غيره وهو اللَّه (ص ١٥) ، ويتحدث عن إيمان العوام وإيمان الخواص ، ويعقد مقارنة بينهما تنم عن مدى تشبعه بالتراث الفلسفي اليوناني . ويشير إلى أحوال القائلين بالفناء في اللَّه ، وهو أعلى مراتب الاتحاد ، وكيف أن سلطان العقل لديهم معطل كالسكارى ، فمن يفنى في اللَّه يفنى عن نفسه ، وعن صفاته ، ولا يشعر بنفسه في تلك الحال ، وتسمى هذه الحال بالإضافة (بالنسبة) إلى المستغرق فيها بلسان المجاز اتحادًا وبلسان الحقيقة توحيدًا ، ووراء هذه الحقائق أيضًا أسرار لا يجوز الخوض فيها (ص ١٩) .

ولبيان مثال المشكاة والمصباح والزجاجة والشجرة والزيت والنار يستدعي تقديم قطبين :

(أ) بيان سر التمثيل ومنهاجه ، ووجه ضبط أرواح المعاني بقوالب الأمثلة ، ووجه كيفية المماثلة بينهما ، وكنه الموازنة بين عالم الشهادة (العالم الحسي) التي منها يتخذ طينة الأمثال ، وبين عالم الملكوت (العالم العقلي) الذي منه تنزل أرواح المعاني (ص ٢٥) . فعلى سبيل المثال علم التعبير (تفسير الرؤى) يعرفك مقدار ضرب المثال : أما ترى الشمس في الرؤيا تعبر عن السلطان لما بينهما من المشاركة والمماثلة في معنى روحاني ، وهو الاستعلاء على المكان مع فيضان الآثار والأنوار على الجميع ، والقمر

تعبيره الوزير لإفاضة الشمس نورها بواسطة القمر على العالم بعد غيبتها ، كما يفيض السلطان آثاره بواسطة الوزير على من يغيب عن حضرة السلطان (ص ٢٨) .

(ب) بيان طبقات أرواح الطينة البشرية ومراتب أنوارها ، فإن هذا المثال مسوق لبيان ذلك ؛ إذ بمعرفتها تعرف أمثلة القرآن ، وهي :

١ - الروح الحساس : الذي يتلقى ما توردە الحواس .

٢ - الروح الخيالي : وهو الذي يكتب ما أوردته الحواس ويحفظه مخزونًا عنده ليعرضه على الروح العقلي فوقه عند الحاجة إليه .

٣ - الروح العقلي : الذي يدرك المعاني الخارجة عن الحس والخيال ، ومدركاته المعارف الكلية الضرورية .

٤ - الروح الفكري : وهو الذي يأخذ العلوم العقلية المحضة ، فيوقع بينها تأليف وازدواجات ويستنتج منها معارف نفسية .

٥ - الروح القدسي النبوة : الذي يختص به الأنبياء والأولياء ، وفيه تتجلى لوائح الغيب وأحكام الآخرة ، وجملة من معارف ملكوت السموات والأرض ، بل من المعارف الربانية التي تقصر دونها الروح العقلي والفكري (ص ٣٤ ، ٣٥) .

ويلقي بإشارة ذات مغزى عن إمكانية وجود ما يسميه علماء النفس المحدثون ما وراء علم النفس بقوله : « لا يبعد أيها المعتكف في عالم العقل أن يكون وراء العقل طورًا وراء التمييز والإحساس ينكشف فيه غرائب وعجائب يقصر عنها الإحساس والتمييز ، ويختص به قوم من الناس ويحرم منه بعضهم » (ص ٣٥) .

وفي نهاية الرسالة يتحدث عن المحجوبين من الخلق ويصنفهم إلى ثلاثة أقسام . ويمضي مفسرًا للآية من خلال الاستعانة بنموذج التصنيف الخماسي للأرواح ، فالمشكاة (الروح الحاسي) والزجاجة (الخيال) والمصباح (العقلي) والشجرة (الفكري) والزيت (القدسي النبوي) (ص ٣٧ ، ٣٨) .

ثانيًا : عرض الرسالة الثانية : (رسالة الطير) :

ويروي فيها قصة رمزية عن الطيور واجتماعها لاختيار ملك لها ، ووقوع الاختيار على العنقاء لعلو شأنها وصعوبة الوصول إليها ، وكيف أنهم هموا في طلبها في شتى الأماكن التي يتوقع وجودها فيها بما ينطوي عليه ذلك من مخاطر . وهي قصة رمزية تعبر عن أحوال الناس مع اللَّه فمنهم الغافل عن قدره وقدرته ، ومنهم من يجد في

البحث عنه والتزام طاعته ، ومنهم الواصل الذي يسعى للفناء فيه ، وأن اللَّه في النهاية هو الداعي والمشوق وحق عليه أن يكرم ضيفه .

ثالثًا : عرض الرسالة الثالثة : (الرسالة الوعظية) :

يتحدث عن الوعظ وأهميته وشروطه ، وكيف أن الوعظ زكاة ونصابها الاتعاظ ، وأن اللَّه أوحى إلى عيسى ابن مريم عليه السلام : عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني .

ويجري الإمام حوارًا مع نفسه ، يعظها ويبين لها ما سيفعله الموت (الواعظ الصامت) بها ويقول لها : اعصي اللَّه بقدر صبرك على النار ، واستعدي للآخرة بقدر بقائك فيها . فقالت : هذا هو الواجب الذي لا يرخص في تركه الأحمق ، ثم استمرت على سجيتها ، ولما رأيتها متمادية في الطغيان غير منتفعة بوعظ الموت والقرآن : - رأيت أهم الأمور التفتيش عن سبب تماديها مع اعترافها وتصديقها ، فطال عليه تفتيشي حتى وقعت على سببه وهو اعتقاد تراخي الموت واستبعاد هجومه على القرب ، فمن يصبح وهو يأمل أن يمسي ، أو يمسي وهو يأمل أن يصبح لم يخل من الفتور والتسويف ، ولم يقدر إلا على يسر ضعيف (ص ٥٦ ، ٥٧) . من خلال هذه المناقشة يتطرق الإمام الغزالي إلى مشكلة مهمة يعني بها علماء النفس ، وهي : عدم الاتساق بين القول والفعل ، أو الاقتناع اللفظي وعدم ترجمته إلى واقع سلوكي ، وهي من بين المشكلات الرئيسية التي يجب تقويمها ومواجهة آثارها .

رابعًا : عرض الرسالة الرابعة : (إلجام العوام عن علم الكلام) :

يقول الغزالي : « إن ما دعاني إلى تأليف هذه الرسالة الرد على بعض الفئات الضالة الذين اعتقدوا في اللَّه وصفاته ما يتعالى ويتقدس عنه من الصورة ، والقدم ، والنزول ، وزعموا أن هذا معتقد السلف » ومن ثم فقد أخذ على عاتقه أن يشرح ما هو اعتقاد السلف في هذه المسائل ، وأن يضع حدودًا للبحث فيها لا يجب تجاوزها .

(١) حقيقة مذهب السلف :

حقيقة مذهب السلف وهو عندنا أن كل من بلغه حديث من هذه الأحاديث من عوام الخلق يجب عليه فيه سبعة أمور :

١ - **التقديس** : تنزيه الرب ﷻ عن الجسمية وتوابعها ، فإذا سمع قوله : إن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ، فينبغي أن يعلم أن اليد تطلق لمعنيين أحدهما : هو الوضع الأصلي وهو عضو مركب من لحم ودم (المعنى الحقيقي) ، وقد يستعار هذا اللفظ لمعنى آخر

ليس ذلك المعنى بجسم أصلًا - كالقدرة - (وهو المعنى المجازي) (ص ٦٢ ، ٦٣) .

٢ - **التصديق** : أن يعلم قطعًا أن هذه الألفاظ أريد بها معنى يليق بجلال اللّه وعظمته .

٣ - **الاعتراف بالعجز** : أن يقر بأن معرفة مراده ليست على قدر طاقته ، وأن ذلك ليس من شأنه وحرفته .

٤ - **السكوت عن السؤال** : « لأنه بالسؤال متعرض لما لا يطيقه ، وخائض فيما ليس له أهلًا فإن سأل - العامي - جاهلًا زاده جوابه ، وربما ورطه في الكفر من حيث لا يشعر ، وإن سأل عارفًا عجز العارف عن تفهيمه كما يعجز عن تفهيم ولده مصلحته في خروجه إلى الكتب (الكتاب) ؛ ولهذا أقول يحرم على الوعاظ على رؤوس المنابر الجواب عن هذه الأسئلة والخوض في التأويل والتفصيل » (ص ٦٨) . والغزالي بهذا المنطق - أي قصر الخوض في هذه المسائل على أهل التخصص في سياقات معينة - يرسخ من قيم البحث الأكاديمي ، والتخصص ووجوب إيجاد قواعد وتقاليد راسخة تعين حدود البحث ومجالاته ، وتمنع دخول من ليس أهلًا له فيها .

٥ - **الإمساك عن التصرف** : في تلك الألفاظ سواء بالتبديل بلغة أخرى أو التأويل أو التعريف ، والتفريع والزيادة منه والنقصان منه ، والجمع ، والتفريق .

٦ - **الكف** : أن يكف باطنه عن البحث والتفكر في هذه الأمور وهي مهمة ثقيلة ، وينبغي أن يعرف الخلق جلال اللّه الخالق وعظمته بآيات القرآن التي يسهل فهمها وليس بقول المتكلمين ومصطلحاتهم التي يصعب إدراك محتواها ومغزاها ، فإن أدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان ، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ويفر منه الأكثرون .

٧ - **التسليم لأهل المعرفة** : وبيانه أنه يجب على العامي أن يعتقد أن ما انطوى عنه من معاني هذه الظواهر وأسرارها ليس منطويًا عن رسول اللّه ﷺ ، وعن الصحابة ، وعن العلماء الراسخين (ص ٨١ - ٩٠) .

(٢) في إقامة البرهان على أن الحق مذهب السلف :

وينقسم البرهان إلى :

١ - **برهان عقلي** : وينقسم إلى برهان كلي وبرهان تفصيلي .

٢ - **برهان سمعي** .

ويفرد الغزالي عددًا من الصفحات لتفصيل القول في هذه البراهين .

(٣) فصول متفرقة وأبواب نافعة في هذا الفن :

يقول الغزالي بأنه مما أدى إلى نشوء مثل ذلك التلبيس ، أن الرسول ﷺ لم يقل تلك الألفاظ دفعة واحدة ، وإنما جمعها من التأثير في الإيهام ، والتلبيس على الأفهام ما ليس لآحادها المتفرقة ، وأنه ما ذكر كلمة منها إلا مع قرائن وإشارات يزول معها إبهام التشبيه وقد أدركها الحاضرون كذلك ، فإذا نقل الألفاظ مجردة عن تلك القرائن يظهر الإبهام (ص ٩٩) (أي إدراك المدلولات المعنوية التي يشير إليها اللفظ بمعزل عن السياق الذي يجب أن يفهم ويدرك من خلاله ، فضلًا عن أنه سعيًا منه لتقريب المعنى للمستمع ؛ كأن يضرب مثالًا عيانيًا ولكنه يقصد المعنى المجازي) . ثم يمضي في مناقشة بعض القضايا الجزئية ؛ مثل : القول بنسبة صفة اليد والفرق للَّه ، والقول بقدم العالم .

ويتحدث عن حقيقة الإيمان ويعرفه : تصديق جازم لا تردد فيه ، ولا يشعر صاحبه بإمكان وقوع الخطأ منه ، ويمضي في محاولة تفسير نشأته وتكوينه ، فيقول : إن هذا التصديق الجازم يحصل على ست مراتب ، وفي ثنايا الحديث عن هذه المراتب نورد إشارة إلى مفهوم مصداقية المصدر حين يشير إلى إمكانية حدوث « التصديق لمجرد السماع ممن حسن الاعتقاد فيه بسبب كثرة ثناء الخلق عليه ، فإن من حسن اعتقاده في أبيه وأستاذه أو في رجل من الأفاضل المشهورين ، قد يخبره عن شيء ما ، فيسبق إليه اعتقاد جازم وتصديق ما أخبره عنه » (ص ١١٥) .

وهذا التصور الذي يطرحه الغزالي حول مفهوم مصداقية المصدر ، يلتقي في كثير من الجوانب مع التصور المعاصر لهذا المفهوم والذي يشار إليه على أنه « الدرجة التي يكون عندها المصدر قابلًا للتصديق Credibility ، وتحدد هذه الدرجة بخصال شخصية المصدر ومكانته وعلاقته بالمتلقي ، وخصال المتلقي ، وطبيعة الاتصال . وسياق تقديمه ، والمصدر مرتفع المصداقية هو الشخص الذي يتمتع بكل من الخبرة والثقة (شحاتة ١٩٨٥م ، ص ٢١) .

ويحدثنا عن خصال المتلقي ، والاعتقاد ، وكيف أن الأول يشكل مناخًا خصبًا فتكون الثاني بقوله :

« أن يسمع القول فيناسب طبعه وأخلاقه ، فيبادر إلى التصديق لمجرد موافقته لطبعه لا من حسن اعتقاده في قائله ، ولا من قرينة تشهد له لكن لمناسبة ما في طباعه ، فالحريص على موت عدوه وعزله يصدق جميع ذلك بأدنى إرجاف ، ويستمر على

اعتقاده جازمًا ، ولو أخبر بذلك في حق صديقه أو شيء يخالف شهوته وهواه ، توقف فيه وأباه كل الإباء » (ص ٦١٦) .

ويتطرق إلى مسألة نشوء الاتجاهات التعصبية ، وما ينتج عنها من كراهية متبادلة بين الجماعات المختلفة فيقول : « أكثر الناس آمنوا في الصبا ، وكان سبب تصديقهم مجرد تقليد الآباء والمعلمين لحسن ظنهم بهم ، وكثرة ثناء غيرهم عليهم ، وتشديد النكير بين أيديهم على مخالفيهم مثل حكايات أنواع النكال النارية بمن لا يعتقد اعتقادهم كقولهم : إن فلانًا الرافضي (المخالف لهم) انقلب في قبره خنزيرًا ، ومن حكايات مقامات وأحوال هذا الجنس يتغرس في نفوس الصبيان النفرة عنه والميل ضده حتى ينزع الشك بالكلية عن قلبه ، فالتعلم في الصغر كالنقش على الحجر ، ثم يقع نشوؤه عليه ولا يزال يؤكد ذلك في نفسه ، فإذا بلغ استمر على اعتقاده الجازم ، وتصديقه المحكم الذي لا يخالجه فيه ريب ؛ ولذلك ترى أولاد النصارى والروافض والمسلمين كلهم لا يبلغون إلا على عقائد آبائهم واعتقاداتهم في الباطل والحق جازمة ، ولو قطعوا إربًا إربًا لما رجعوا عنها ، وهم قط لم يسمعوا عليه دليلًا حقيقيًا ولا رسميًا ، وبهذا يعرف أن التصديق الجازم غير موقوف على البحث وتحرير الأدلة » (ص ١١٧) .

خامسًا : عرض الرسالة الخامسة : (المضنون به عن غير أهله) :

في هذه الرسالة يتناول مسائل متعددة منها الربوبية ، وحقيقة الرؤيا والفرق بين المثل والمثال وأن المثال في حق اللّٰه جائز والمثل مستحيل ، وبين الواحد والأحد ، والفرق بين تكليف اللّٰه تعالى عباده ، وتكليف الإنسان عبده ، وتعريف التقوى ، ويعرج إلى الحديث عن الملائكة والمعجزات وأحوال الأنبياء وشفاعتهم ، والأولياء ومقاماتهم ، وعن أحوال ما بعد الموت والحساب والصراط ، والجنة ، والنار .

سادسًا : عرض الرسالة السادسة : (الأجوبة الغزالية في المسائل الأخروية) :

يفسر في هذه الرسالة قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر : ٢٩] فيعرف التسوية ، والنفخ ، والروح ، ويجيب عن أسئلة متنوعة متصلة بجوانب متعددة لموضوع الروح .

* * *

مجموعة رسائل الإمام الغزالي (٥) [(١)]

عرض : د. عبد المنعم شحاته محمود

أولًا : عرض الرسالة الأولى (بداية الهداية) :

يبدأها بالتمييز بين نوعين من طالبي العلم :

طالب العلم للمباهاة والتفاخر أمام الأقران ، وهذا النوع لا يفضله الغزالي ، حيث يبيع به الفرد آخرته بدنياه .

طلب العلم يقصد الهداية التي هي ثمرة العلم ، والتي لها بداية ونهاية ، وظاهر وباطن ، ولا يكون الوصول لنهايتها إلا بعد إحكام بدايتها . وبداية الهداية – في نظر الغزالي – ونهايتها ظاهرها وباطنها هو التقوى أو امتثال أوامر اللّٰه واجتناب نواهيه .

ويقسم الغزالي هذه الرسالة إلى ثلاثة أقسام ، يتناول في القسم الأول أشكال الطاعات المختلفة ؛ منها : آداب كل من الاستيقاظ من النوم ، ودخول الخلاء ، والوضوء والغسل ، والخروج من المسجد ، ودخول المسجد ... إلخ .

القسم الثاني : آداب اجتناب المعاصي ، وحفظ جميع البدن من المعاصي ، والوسائل التي تحفظ كل عضو من أعضائه . ويتناول الغزالي في هذا القسم بعض معاصي وأمراض القلب وهي الحسد ، والرياء ، والعجب ، والكبر ، والفخر ، وهي أغراض نفسية تشير إلى عدم التوافق النفسي أو المرض النفسي (ص ٦٩ – ٧٧) .

القسم الثالث : القول في آداب الصحبة ، ويتناول فيه الغزالي آداب العالم ، والمتعلم ،

---

(١) تحقيق أحمد شمس الدين . بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٨م (١٩٢ ص) .

وآداب الولد مع الوالدين ، ومجالسة العوام المجهولين ، ومعاشرة الإخوان والأصدقاء . ويدخل ذلك في إطار مفهوم التفاعل الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية في علم النفس الاجتماعي (ص ٧٨ - ٨٤) . كما تحدث الغزالي في هذا القسم عن أسلوبين معاصرين في اكتساب السلوك المرغوب ، أولهما : الممارسة ، كما أوضحته نظريات التعلم . وثانيهما : التعلم من خلال الملاحظة للآخرين ، وهو ما ورد في بعض الفقرات التي عرضها المؤلف ؛ مثل : « فانظر إلى كذب غيرك ، وإلى نفرة نفسك منه ... فإنك لا تدري قبح عيوبك من نفسك ، بل من غيرك ، فما استقبحته من غيرك ، يستقبحه غيرك منك لا محالة » (ص ٦٢) .

كما يقدم الغزالي إشارة لأحدث أساليب تعديل السلوك ، حينما يصف كيفية علاج الغفلة في السهو في الصلاة ؛ إذ يقول : « فإن لم يحضر قلبك ، ولم تسكن جوارحك ، فهذا لقصور معرفتك لجلال اللّه تعالى ، فقدر أن رجلًا صالحًا ينظر إليك ليعلم كيف صلاتك ، فعند ذلك تسكن جوارحك ، ثم ارجع إلى نفسك ، وقل : يا نفس السوء ، ألا تستحيين من خالقك ، وإذ قدرت اطلاع عبد ذليل من عباده عليك ، وليس بيده ضرك ولا نفعك خشعت جوارك وحسنت صلاتك ، أهو تعالى عندك أقل من عبد من عباده ؟ .... فعالج قلبك بهذه الحيل » . (ص ٤٦) .

وتتضمن هذه العبارة إشارة إلى أساليب حديثة في العلاج النفسي ؛ مثل : التخيل ، وترديد عبارات تهدف إلى إثارة النفس انفعاليًا .

كما يندرج أسلوب الغزالي في علاج السهو أثناء الصلاة تحت أسلوب « العلاج الذاتي » من خلال ملاحظة الفرد لسلوكه .

كما يقدم الغزالي عرضًا بصفات المعلم (ص ٧٩) لا تختلف عما تكشف عنه البحوث المعاصرة في العملية التعليمية من أهمية اتسام المعلم بسمات معينة ، حتى يؤدي دوره التعليمي بكفاءة .

كما تتضمن الرسالة عددًا من الآداب مع الوالدين ، والأخوة ، والأصدقاء ، والمعارف ، والمجاهيل من الناس (ص ٧٨ ، ٨٨) ، وهي تشير إلى عدد من المهارات الاجتماعية .

ثانيًا : عرض الرسالة الثانية (الأدب في الدين) :

وتتضمن جملًا من الآداب التي أدبنا بها اللّه تعالى في القرآن بما أرانا فيه من البيان ،

لنتخلق بأخلاق النبيين ، والمرسلين ، والصحابة ، والتابعين ، ويذكر الغزالي هذه الآداب بشكل مختصر ، وتشمل آداب العباد مع اللَّه ، والعالم مع المتعلم ، والمتعلم مع العالم ، والمقرئ ، والقارئ ، ومعلم الصبيان ، والمحدث ، وطالب الحديث ، والكاتب ، والواعظ ، والمستمع ، والناسك ، آداب اعتزال الناس ، الصوفي ، الشريف ، النوم ، التهجد ، الخلاء ، الحمام ، الوضوء ، دخول المسجد ، الاعتكاف ، آداب العيد ، الخشوع ، المشي في الجنازة ، المتصدق ، السائل ، الغنى ، الفقير ، الإهداء ، اصطناع معروف ، دخول مكة والمدينة ، والإحرام ، التجارة ، الصيرفة ، الأكل ، الشرب ، معاشرة الزوجة ، خطبة الرجل للمرأة ، الجماع ، الاستئذان ، الجلوس على الطريق ، آداب الولد مع أولاده ، والوالد مع أبويه ، السيد مع العبد ، العبد مع السيد ، السلطان مع الرعية ، والرعية مع السلطان ، القاضي ، الشاهد ، ثم يختتم الرسالة بآداب جامعة .

تتضمن هذه الرسالة عددًا من صفات مصدر المخاطبة (سواء كان معلمًا أو محدثًا أو كاتبًا أو واعظًا أو إمامًا أو خطيبًا) بسمات معينة كالمصداقية وما تنطوي عليه من صدق وخبرة وموضوعية في التناول « يقصد الصدق ويجتنب الكذب ... ويروي عن الثقات .. » (ص ٩٢) و « اعتقاد فعل ما يقوله لينفع الناس بما يقوله » (ص ٩٥ - ص ١٠٢) ، و « حسن الحظ وحسن اللباس ، طيب الرائحة ... » (ص ٩٤) وهي صفات تؤكد البحوث المعاصرة لزيادة القدرة Model في اكتساب السلوك ، فمعلم الصبيان يجب أن يلتزم بآداب معينة « مما استحسنه فهو عندهم الحسن ، وما استقبحه فهو عندهم القبيح » (ص ٩٢) .

ثالثًا : عرض الرسالة الثالثة (كيمياء السعادة) :

ويقصد بها اجتناب الرذائل واكتساب الفضائل ، وهي صفات الكمال التي لا تطلب إلا من حضرة النبوة ، ومن منابعها الأصلية ، أي القرآن والسنة ، وسرها في الرجوع إلى اللَّه تعالى بمعرفته جلَّ وعلا ، ومفتاح معرفة اللَّه هو معرفة النفس أو باطن الإنسان أو حقيقته ، لم خلق ، وبأي شيء سعادته ، وبأي شيء شقاؤه ؟

والنفس هي القلب أو الروح الذي هو من عالم الغيب ، فيصعب معرفة حقيقته ، ولكن يمكن معرفة صفاته ، وهو ملك النفس ، والعقل وزيرها والقوة الشهوية واليها ، والقوة الغضبية شحنتها ، ويجب أن يشاور القلب العقل ، ويسيطر على القوى الشهوية والغضبية . (ص ١٢٩) .

ثم يبين قوى النفس المختلفة ، ومراتبها ووظائفها ، ويميز بين الأخلاق الحسنة

والأخلاق السيئة ، مفصلًا أنواع كل منهما ، وموقع كل نوع من قوى النفس المختلفة .

ثم يبين أبواب العلوم ، وأحدها للأحلام والآخر لليقظة ، ويفضل الكلام عن الطاقة إلى عالم الملكوت ؛ حيث التعلم بلا واسطة ، للأنبياء والأولياء والمخلصين المجاهدين من العباد .

ويؤكد الغزالي أهمية معرفة النفس « فالواجب أن تعرف نفسك بالحقيقة ، حتى تعرف أي شيء أنت » (ص ١٢٤) ، وهذه المعرفة هي هم علم النفس المعاصر وهدفه .

وفي تعريف الغزالي للنفس يشير إلى وظيفتها الانفعالية ، فيضمنها قوة الشهوة وقوة الغضب ، كما يشير إلى وظيفتها المعرفية ، فيضمنها قوة العلم ، في « تمام السعادة مبني على ثلاثة أشياء : قوة الغضب ، قوة الشهوة ، قوة العلم ، فيحتاج أن يكون أمرها متوسطًا ، فالغضب إذا زاد سهل الضرب والقتل ، وإذا نقص ، ذهبت الغيرة والحمية في الدين والدنيا ، وإذا توسط كان الصبر والشجاعة والحكمة ، وكذا الشهوة إذا زادت كان الفسق والفجور ، وإذا نقصت كان العجز والفتور ، وإن توسطت كانت العفة والقناعة وأمثال ذلك » (ص ١٣٠ ، ١٣١) .

وقد أشار أبو نصر الفارابي إلى هذا التوسط ، ومعنى ذلك ، أن أي فعل نفسي يكون أفضل إذا كان وسطًا ، فالقلق ضار إذا ارتفع ، وإذا انخفض أيضًا ، وكذلك الخوف ، وطلب الطعام .. وما شابه . ويعد هذا التوسط تأكيد لمفهوم « الاتزان الانفعالي » ووسيلة لتحقيق توافق جيد مع الآخرين .

وجدير بالذكر أن تقسيم الغزالي للنفس إلى قوة الغضب ، وقوة الشهوة ، وقوة العلم ، إنما هي ترجمة لتقسيم فلاسفة مسلمين آخرين كأبي نصر الفارابي .

ويأتي قول الغزالي : « الشهوة والغضب ينبغي أن يكونا تحت يد العقل ، فلا يفعلا شيئًا إلا بأمره » (ص ١٣٢) متأثرًا برأي « أفلاطون » في ضرورة أن تأتمر النفسان : الغضبية والشهوة بأوامر النفس العاقلة » .

ويشير الغزالي - وهو بمعرض حديثه عن النفس - إلى أحد موضوعات علم النفس المعاصر ، وهو الدافعية Motivation ، والتي هدفها استعادة « التوازن الحيوي » Homeostasis ؛ إذ يقوم : « الأمر الذي به إذا غضبت طلبت الخصومة ، وإذا اشتهيْت طلبْت النكاح ، وإذا جُعْت طلبت الأكل وإذا عطشت طلبت الشرب .. » (ص ١٢٤) .

معتبرًا هذا الأمر جزءًا من النفس الواجب على الفرد أن يعرفها حتى يعرف من هو .

رابعًا : عرض الرسالة الرابعة (القواعد العشرة) :

يبين الغزالي – في هذه الرسالة – القواعد التي ينبغي أن يلتزمها كل سالك في طريق التصوف ؛ وهي :

١ – النية الصادقة الواقعة من غير التواء .

٢ – العمل للَّه من غير شريك ولا اشتراك .

٣ – موافقة الحق بالاتفاق والوفاق ، ومخالفة النفس بالصبر على الفراق والمشاق .

٤ – العمل بالاتباع لا بالابتداع .

٥ – الهمة العالية عن تسويف يفسدك .

٦ – العجز والذلة ، لا بمعنى الكسل في الطاعات وترك الاجتهاد .

٧ – الخوف والرجاء .

٨ – دوام الوِرد .

٩ – المداومة على المراقبة .

١٠ – علم ما يجب الاشتغال به ظاهرًا وباطنًا اجتهادًا .

تتضمن الرسالة إشارة إلى بعض محددات السلوك الإنساني ، فالنية محدد مباشر للسلوك كما يكشف علماء النفس المعاصرون ، والانفعالات لازمة لضمان أدائه ، والمراقبة الذاتية أساس لدقة هذا الأداء ، وهكذا جعل الغزالي القاعدة الأولى هي النية الصادقة (ص ١٤٧) ، والسابعة هي الخوف والرجاء (ص ١٥٢) والتاسعة هي مداومة المراقبة (ص ١٥٣) .

خامسًا : عرض الرسالة الخامسة (الكشف والتبين) :

في هذه الرسالة ، يقسم الغزالي الخلق إلى حيوان وغير حيوان ، إلى مكلف وغير مكلف ، والمكلف إلى مؤمن وكافر ، والمؤمن إلى طائع وعاصٍ ، وكل منهما إلى عالم وجاهل ، ويرى أن الغرور يلازم كل هؤلاء ، فمن الكفار من غرته الحياة الدنيا ، ومنهم من غره باللَّه الغرور ، ومن العلماء المؤمنين من اغتر بعلمه ، ومنهم من غفل عن قلبه فغلبه النفاق ، ومنهم من تعجب بنفسه ، ومن المؤمنين من اغتر بعبادته أو بماله أو بزيه ومنطقه وهيئته ... إلخ .

وهكذا يصف الغزالي أوجه غرور كل قسم من أقسام البشر مؤمنين كانوا أو كافرين

طائعين أو عاصين ، علماء أو جهلة ، مختتمًا رسالته بأن أنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله لا تحصى في مجلدات .

ويعتبر الغزالي الغرور مرضًا نفسيًّا ، يحاول وصف مظاهره أو أعراضه مبينًا الأسباب التي تؤدي إلى هذه الأعراض ، وأهم الأسباب أنه متعلم « وأن ممثلهم المريض الذي تعلم الداء .... » (ص ١٦٧) وهذه النظرة لا تختلف عن نظرة علم النفس المعاصر للأمراض النفسية ، فهي سلوك غير مرغوب يتم تعلمه ، ويمكن علاجه بإعادة التعلم ، ويذكر الغزالي - في ذات الموضع - أن علاج الغرور قد وصفه في كتابه « إحياء علوم الدين » .

كما يشير الغزالي إلى أحد الفئات المريضة بقوله : « وفرقة أخرى غلبت عليهم الوسوسة في نية الصلاة ... وأخرى غلبت عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة ... » (ص ١٧٣) واصفًا هؤلاء بأنهم « فهذا لا شك أنه تقام عليه السياسة ، ويرد إلى دار المجانين ويحكم عليه بفقد العقل » (ص ١٧٣) .

والوسواس هو : أحد التصنيفات التشخيصية في الطب النفسي المعاصر .

* * *

ابن باجة (ت ٥٣٣هـ)
رسائل جديدة [(١)]

عرض : د. عبد المنعم شحاته محمود

التعريف بالمؤلف [(٢)] :

أبو بكر بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة ، عاش في عصر المرابطين في الأندلس ؛ إذ ولد في « سرقسطة » أواخر القرن الخامس الهجري (غير معروف سنة مولده) ، وغادرها بعد احتلال « الفونس » الأول لها إلى غرناطة ، ثم إلى مراكش حيث صار وزيرًا في فاس ، وتوفي فيها مسمومًا سنة (٥٣٣هـ ، ١١٣٨م) .

تبحر في علوم الطبيعة ، والرياضيات ، والفلك ، والموسيقى .

ومن أشهر رسائله : في الثبات – اتصال العقل بالإنسان – الوداع – تدبير المتوحد – في الغاية الإنسانية – كتاب النفس .

الرسالة الأولى : (في المتحرك) :

عرض الرسالة :

تنسب الحركة إلى المحرك الأول حتى وإن كان لها أكثر من محرك ، والحركة إما عن عارض وإما بالذات ، والثانية تدل على اختيار ، يكون محمودًا أو مذمومًا . ويختص الإنسان دون سائر الحيوانات بالحركة الاختيارية التي توجبها الرؤية ، وتوجهها الغاية التي تكون الخير .

---

(١) ابن باجة ، تحقيق عبد الرحمن بدوي . ط. ٣ ، بيروت : دار الأندلس ، (١٩٨٣م) .

(٢) تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام د. محمد علي أبو ريان ، (١٩٨٠م) ، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، (ص ٥٢٢ – ٥٥٣) .

والمحرك الأول في الحيوان - الإنسان أحد أنواعه - هو النفس النُّزوعية وهي صنفان أولهما : المحبة ، أي الإقدام كطلب الغذاء ، وثانيهما : الكراهة ، أي الترك كالخوف والسأم وما جانس .

ويتميز الإنسان عن الحيوان بأنه يعدل من حركته إذا علم أن الشيء خير ، فيشتهي بعد ما كان يكره ، كما يتميز بأنه يدرك الخير المجرد وليس بالحس .

يتشابه قول ابن باجة « المحبة ومنها يكون الطلب .. والكراهة وبها يكون الهرب » (ص ١٣٨) ، واعتباره لهذا البعد (المحبة - الكراهة) النفس النزوعية المحركة للحيوان والإنسان ، عند الفلاسفة المسلمين بصفة عامة تشير إلى الدافعية في اصطلاح علم النفس الحديث ، وكذلك مفهوم الانفعالات (وبخاصة المحبة والكراهية) ، وهو على علاقة بالدافعية ؛ لأنها تقوم بدور الدافع ، فالمحبة تدفع إلى الطلب ، والخوف والكراهية يدفعان إلى الهرب .

الرسالة الثانية : (في الوحدة والواحد) :

عرض الرسالة :

تعد رسالة في علم المنطق تهدف إلى معرفة صفات « الواحد » الذي يطلق على المعقولات والموجودات ، والصور الروحانية ، بينما تطلق « الوحدة » على « الواحد » الموضوع الذي يوجد متفردًا ، فتدل الوحدة هنا على أنه واحد لأنه لا يستكثر ، أما ما يستكثر من المعقولات والموجودات ، فالواحد منها يدل على موضوع للعدد .

والعقل « واحد » و « وحدة » أيضًا لأنه يدل على المعقول ، ولا يعقل منه غيره ونحن نتصوره إما بحسب طبيعته ، فيكون تامًّا ، أو بحسب طباعنا ، فيكون أتم ؛ إذ لا يمكن أن يكون أنقص ، وما نتصوره من سائر الموجودات ، نتصورها ناقصة إما لأنها ناقصة بطبعها ، أو لأنها كذلك من أجل طباعنا ، وما نتصوره يسمى « مقولات » ، أي تصور لأمور موجودة في أجسام محسوسة ، أي تكوين صورة مجردة عن الشيء مقترنة بصورته في الطبيعة ، ثم بعد ذلك يكون التركيب والتفصيل بين هذه الصور المجردة .

ثم يذكر ابن باجة القواعد المنطقية التي تحكم عملية التركيب هذه ؛ وهي خمس :

يندرج موضوع هذه الرسالة تحت ما يسمى في علم النفس « تكوين المفهوم » Conceptualization ، أي قدرة الفرد على صياغة مبدأ تجريدي عام من خلال الاستقراء ، بالبدء من جزئيات إلى كليات ، ثم تعميم هذا المبدأ التجريدي على كل ما

هو مشترك فيه ، أي يبدأ الفرد بإدراك ما هو مشترك بين الجزئيات التي شاهدها ، ثم يطلق على القاسم المشترك مفهومًا معينًا ، يعممه على كل الجزئيات التي يراها أو يتخيلها .. إلخ .

الرسالة الثالثة : (في الفحص عن القوة النزوعية) :

عرض الرسالة :

لكل حيوان ساعٍ نفس نُزوعية متوسطة ، يشتاق بها الغذاء وما جانس ، فإذا ارتقى أضيف إليها نفس نُزوعية خيالية وبها يتودد ويعشق ويربي ، فإذا كان الإنسان ، أضيف إليهما نفس نُزوعية بالنطق ، وبها يكون التعليم والتعلم .

وكلُّ متحركٍ محرِّكُ غيرُه ، يكون إما بالطبع كالنارِ ، أو خارج عن الطبع كسهم المنجنيق ، والمتحرك يكون كذلك ، فهو إما بالطبع أو خارجًا عنه ، والمتحرك بالطبع إما من ذاته ، وهو ما كان محرِّكه فيه كالحيوان ، وإما عن غيره أو صناعيًا ، كالماء في الفنجان .

وبيّن ابن باجة كيف تحرك الجمادات ، معتبرًا الجسم الطبيعي هو ما يتحرك حركة مستقيمة ، أي في اتجاهين متقابلين ، أو حركة مستديرة ، ويتميز الحيوان بأنه ذو جسم متميز الجهات ؛ لذلك تكون حركته انتقالًا كالصعود والهبوط ، والتقدم والتأخر ، والتيامن والتياسر ، وقد تكون حركته فرجًا بينها ، وقد تميزت في الإنسان الجهات كلها ، وأغلب حركته تكون بالإرادة .

ترادف « القوة النزوعية » عند ابن باجة Motivation في علم النفس المعاصر ، كما ترادف النزوعية المتوسطة عنده « الدوافع الفسيولوجية » في علم النفس ، والتي تساعد الفرد على إشباع حاجاته البيولوجية كالجوع والعطش ، أما « النزوعية الخيالية » فترادف « الدوافع السيكولوجية الاجتماعية » ، أي خارجية المنشأ والتي تهتم بالعلاقات بين الأفراد أما « النزوعية بالنطق » فيها يكون التعلم والتعليم ويشير إلى الرغبة في طلب اللذة العقلية ، والمتعة العقلية عن طريق تحصيل المعرفة والتعلم .

الرسالة الرابعة : (رسالة في القوة النزوعية) :

عرض الرسالة :

يتألف كل جسم من صورة وموضوع أو مادة ويتصف بصفات تخصه ، والحيوان جسم يقال إنه متحرك بذاته ومن ذاته ، أي منفعل وفاعل والمنفعل هو البدن ، والفاعل هو النفس أو النزوع الذي لا يكون إلا بوهم ، فالوهم هو المحرك والمتحرك هو الجسد

الذي يحس ، فالنزوع يكون في المحسوس الذي هو آلة الفعل ، فالقلب مبدأ الحيوان ، وينبوع الحرارة الغريزية التي تكون بها كل حركات البدن وضروب النزوع أحدها . فالمحرك الأول ليس النزوع وإنما القلب أو الحيوان الذي مبدأه القلب . كما أن النزوع مصدر العادات ، أي الحركة الناتجة عن تَعَوُّد فعلها ، فالحركة أو الفعل مثل الخشوع قد تكون بالطبيعة ، أي للكمال وحده ، وقد تكون بالعادة ، أي نتيجة توهم الكمال .

يقول ابن باجة : « الفاعل القريب هو النفس ، وهو النزوع ، ولا يكون نزوع إلا بوهم وقد يكون الوهم ولا يكون نزوع ، والوهم هو المحرك » (ص ١٦٦) ، فالوهم أو القوة الوهمية عند الفلاسفة المسلمين حاسة داخلية تدرك المعاني الجزئية من المحسوسات ، فمثلًا الشاة تدرك شكل الذئب ببصرها ، ولكنها تدرك أنه عدو وأنه سيؤذيها بالقوة الوهمية ، وإدراك العداوة في الذئب لا يتم عن طريق إحدى الحواس الخارجية ، وإنما يتم عن طريق حاسة داخلية ، يسميها الفلاسفة المسلمون الوهم ، أو القوة الوهمية .

* * *

الجيلاني ، عبد القادر (ت ٥٦١هـ)
الفتح الرباني والفيض الرحماني [1]

عرض : د. معتز سيد عبد الله

التعريف بالمؤلف [2] :

عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني ، أبو محمد ، محيي الدين الجيلاني ، أو الكيلاني ، أو الجيلي : مؤسس الطريقة القادرية ؛ من كبار الزهاد والمتصوفين ، ولد في جيلان (وراء طبرستان) ، (عام ٤٧١هـ/١٠٧٨م) ، وانتقل إلى بغداد شابًّا ، سنة (٤٨٨هـ) ، فاتصل بشيوخ العلم والتصوف ، وبرع في أساليب الوعظ ، وتفقه ، وسمع الحديث ، وقرأ الأدب ، واشتهر ، وكان يأكل من عمل يده وتصدر للتدريس والإفتاء في بغداد سنة (٥٢٨هـ) ، وتوفي بها عام (٥٦١هـ/١١٦٦م) له كتب ؛ منها : (الغنية لطالب طريق الحق) ط ، و (فتوح الغيب) ط و (الفيوضات الربانية) ط ، وللمستشرق مرجليوث الإنجليزية رسالة في ترجمته نشرها ملحقة بالمجلة الأسيوية والإنكليزية . ولموسى ابن محمد اليونيني كتاب – مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني – خ) ولعلي بن يوسف الشطنوفي (بهجة الأسرار – ط) في مناقبه ، ولمحمد بن يحيى التاذفي (قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر – ط) ، وترجم عبد القادر بن محيي الدين الأربلي عن الفارسية (تفريخ الخاطر في مناقب الشيخ عبد القادر – ط) .

---

(١) تأليف عبد القادر الجيلاني . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٨٥م .
(٢) الأعلام ، للزركلي ، (٤/٤٧) .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٣٧٩ صفحة من القطع المتوسط ، ويتكون من اثنين وستين مجلسًا يدور مضمونها بوجه عام حول الطريق إلى اللّه ، والفضل الكبير للإيمان باللّه ﷻ من راحة نفسية وثقة في قضاء اللّه وقدره ... إلخ ، وقد عرض المؤلف في المجالس العشرة الأولى لأهمية الثقة باللّه ﷻ وعدم الاعتراض على اللّه تعالى ، وما للفقر والصبر من قيمة ، وعدم تمني المرء للغنى ، وقيمة التوبة النصوحة الخالصة لوجه اللّه تعالى ، وأسباب حب اللّه ﷻ لعبده المؤمن ، كما عرض لبعض النصائح التي يقدمها المؤمن ؛ حيث قال رسول اللّه ﷺ : « **المؤمن مرآة المؤمن** » . فالمؤمن الصادق في نصحه لأخيه المؤمن يبين له أشياء تخفى عليه ، تفرق له بين الحسنات والسيئات ويعرفه لما له وما عليه . وعرض المؤلف بعد ذلك لقيمة الصبر ؛ حيث أوصانا الرسول عليه الصلاة والسلام به ؛ إذ قال : « **اصبروا فإن الدنيا كلها آفات ومصائب ، والنادر منها غير ذلك** » . كما تحدث المؤلف عن قيمة عدم المراءاة ، وابتلاء اللّه سبحانه للمؤمن ، فقد قال رسول اللّه ﷺ : « **واللّه لا يعذب اللّه حبيبه ولكن قد يبتليه في الدنيا** » . كما تحدث عن عدم التكلف ، حيث قال رسول اللّه ﷺ : « **أنا والأتقياء من أمتي براء من التكلف** » .

ومن أهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في المجالس السابقة هي الإيمان Faith (ص ٤ - ١٢) ، والمثابرة Persistence (ص ٤ - ١٠ ، ص ٣٧ ، ٣٨) ، والإرشاد والتوجيه النفسي Counseling (ص ٣ - ٤٨) .

ومن المجالس العشرة التالية ، عرض المؤلف لأهمية معرفة اللّه ﷻ ، وطاعته وموافقته والرضاء بقضائه ، وأهمية النهي عن الطلب من غير اللّه تعالى ، وقيمة تقديم الآخرة على الدنيا حتى نربح في كل شيء ، وحتى لا تغرنا الدنيا بشهواتها ولذاتها وترهاتها ، كما عرض المؤلف لأهمية النهي عن النفاق ، وفي قيمة إيثار المؤمن للمؤمن على نفسه ، فقد قال رضي اللّه تعالى عنه : (المؤمن يتزود والكافر يتمتع ، المؤمن يتزود لأنه على طريق يقنع باليسير من ماله ويقدم الكثير إلى الآخرة ، يترك لنفسه بقدر زاد الراكب يقدر ما يحمله ، كل ما له في الآخرة ، كل قلبه وهمته هناك .. إلخ) كما عرض لأهمية العمل بالقرآن ، وبسنة رسول اللّه ﷺ ، وعرض لعدم الاهتمام بالرزق . فقد قال ﷺ : (لا تهتم بالرزق فإن طلبه لك أشد من طلبك له . إذا حصل لك رزق اليوم فدع عنك الاهتمام برزق غدٍ ، كما تركت أمس مضى ، وغدًا لا تدري هل يصل إليك أم لا .

اشتغل بيومك . لو عرفت الحق ﷻ لاشتغلت به عن طلب الرزق .. إلخ) وعرض لأهمية جهاد النفس ، والهوى ، والشيطان ، وترك الشهوات المحرمات ، والخوف من اللّٰه تعالى ، والنهي عن القول بلا عمل ، وكثرة النفاق وقلة الإخلاص .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في المجالس السابقة هي قيمة الإخلاص (ص ٤٦ - ٦٥ ، ص ٨٩ - ٩٤) ، والقيم الأخلاقية Moral Values (ص ٤٩ - ٥٣) .

والقيم العلمية (ص ٦٢ ، ٦٣) ، وقيمة الغيرية (من ص ٦٩ - ٧٢) ، والنفس (ص ٨١ - ٨٥) ، والوساوس (ص ٨١ - ٨٥) . وضبط النفس Self - Control والإرشاد التوجيه (ص ٤٩ - ٩٤) .

وفي المجالس العشرة التالية (ص ٢١ - ٣٠) عرض المؤلف لقيمة وضرورة عدم الالتفات إلى الخلق ، والعمل على إخراج حب الدنيا من القلب ، حتى نتجنب تقلبها بأربابها وأبنائها ، والعمل على التخلص من صدأ القلوب بقراءة القرآن الكريم ، وذكر الموت ، وحضور مجالس الذكر ، وعدم مشاركة اللّٰه تعالى في تدبيره ، وعلمه بنفوسنا ، وأهويتنا ، وطباعنا ، والزهد في الدنيا وما فيها ، وعدم الشكوى إلى الخلق فقد قال النبي ﷺ : « **من كنوز العرش كتمان المصائب** » .

والنهي عن الكذب ، فالعاقل لا يخاف لومة لائم في جانب اللّٰه ﷻ ، وهو أصم عن كلام غير اللّٰه ﷻ . وأن يحب المسلم أخاه المسلم في اللّٰه ﷻ ، فعن النبي ﷺ : « أنه جاء إليه رجل فقال له : إني أحبك في اللّٰه ﷻ ، فقال له : **اتخذ البلاء جلبابًا** » ، أي اتخذ الفقر جلبابًا . وعدم التواضع لغنى لأجل غناه ؛ لأن هذه إحدى سمات المنافقين ، والاعتراف بنعم اللّٰه .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في المجالس العشرة السابقة ؛ هي : الانفعالات Emotions (ص ٩٧ - ١٠٦) ، والعزلة Isolation (ص ٩٧ - ١٠٦ ، ومن ص ١١٢ - ١١٥ ، ومن ص ١٣٤ - ١٣٦) ، والطاعة Obedience (ص ١٠٧ - ١١١) ، والمحبة Liking (ص ١٢٣ - ١٢٥) ، والاعتراف (ص ١٣٤ - ١٣٦) ، والإرشاد والتوجيه النفسي (ص ٩٥ - ١٣٦) .

وفي المجالس العشرة التالية (ص ٣١ - ٤٠) عرض المؤلف لنوعين من الغضب : محمود ومذموم ، فالغضب إذا كان للّٰه ﷻ فهو محمود ، وإذا كان لغيره فهو مذموم . والعمل على أداء الأوامر واجتناب النواهي ، والصبر على الآفات ، والتقرب إلى اللّٰه

تعالى بالنوافل . كما عرض المؤلف لبعض الدلائل على رؤية اللّٰه تعالى يوم القيامة ، فقد قال النبي ﷺ : « **سترون ربكم كما ترون القمر لا تضامون في رؤيته** » . والنهي عن الكبر . ومخافة اللّٰه ﷻ . والإخلاص في العمل ابتغاء مرضاة اللّٰه ﷻ . والسعي إلى عيادة المرضى ، فقد قال النبي ﷺ : « **عودوا المرضى وشيعوا الجنائز فإنه يذكركم بالآخرة** » . كما عرض المؤلف لفضل لا إله إلا اللّٰه ، وحب الأولياء والصالحين ، والتفقه في الدين .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في المجالس العشرة السابقة هي التوجيه والإرشاد النفسي (ص ١٣٧ - ١٦٨) والغضب Anger (ص ١٣٧ - ١٣٩) ، والطاعة Obedience (ص ١٤٠ - ١٤١) ، والخوف Fear (ص ١٤٥ - ١٥٠) ، وقيمة الإخلاص (ص ١٤٦ - ١٥٠) ، والمودة Intimacy (من ص ١٥١ - ١٥٤) ، والمحبة Liking (ص ١٦٠ - ١٦٢) .

وفي المجالس العشرة التالية (ص ٤١ - ٥٠) عرض المؤلف لقيمة وفائدة المحبة في اللّٰه تعالى ، وتقوى اللّٰه تعالى ، فقد قال رسول اللّٰه ﷺ : « **من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق اللّٰه ، ومن أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على اللّٰه ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن واثقًا بما في يد اللّٰه أوثق على ما في يده** » ، كما عرض للنفس الأمارة بالسوء ، وأنه يجب موافقتها في طاعة اللّٰه ، ومخالفتها في معصيته . والاعتقاد بأن المؤمن غريب في الدنيا ، والزاهد غريب في الآخرة ، والعارف غريب فيما سوى المولى ، فالمؤمن مسجون في ، الدنيا وإن كان في سعة الرزق والمنزل . والعمل على التمسك بالعروة الوثقى ، واتباع رسول اللّٰه ﷺ فيما أقره من تعاليم ومبادئ إنسانية نبيلة ، توصل المؤمن إلى الغاية المرتجاة وبغض الخلق عند الضرر ، والاتجاه إلى العمل الصالح ، وإعطاء السائل والكرم ، ووجوب التفرغ من هموم الدنيا .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في المجالس العشرة السابقة هي المحبة liking (من ص ١٦٧ -٠ ١٧٩) ، والنفس (ص ١٧٠ - ١٧٤) ، والعزلة (١٨٠ - ١٨٣) ، والكراهية (ص ١٩٠ - ١٩٢) ، وقيمة العمل (ص ١٩٣ - ١٩٧) ، والتوجيه والإرشاد النفسي (ص ١٦٧ - ٢٠٩) .

وفي المجالس الاثنى عشر الأخيرة ، عرض المؤلف لأهمية عدم الركون إلى الدنيا ، والنظر إلى الناس بعين الفناء ، وضرورة الاختبار والابتلاء ، والتفكر في الحشر ، والرضا

بقضاء اللَّه تعالى وبقدره حلوه ومره ، ومراقبة اللَّه ﷻ ، والخوف منه ، والصدق ، والإخلاص في العمل ، وعدم المداهنة ، وترك الإنسان ما لا يعنيه . وعرض لخواطر الإنسان ، فقد قال رسول اللَّه ﷺ بعد كلام سأله سائل عن الخواطر : « **ما يدريك ما الخواطر ؟ خواطرك من الشيطان والطبع والهوى والدنيا ، همك ما أهمك ، خواطرك من جنس همك ، ما يعمل خاطر الحق ﷻ ، ولا يجيء إلا إلى قلب خالٍ عما سواه كما قال :** ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ [يوسف : ٧٩] » .

وأنهى المؤلف الكتاب بالمجلس الخاص بالتوحيد باللَّه ﷻ ، فقد قال رسول اللَّه ﷺ : « **وحد الحق ﷻ حتى لا يبقى في قلبك من جميع الخلق ذرة ، لا ترى دارًا ولا ديارًا ، التوحيد يقتل الكل ، كل الدواء في التوحيد للحق ﷻ وفي الإعراض عن حياة الدنيا** » .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في المجالس السابقة هي : العزلة (ص ٢١٣ - ٢٢٧) ، والتفكير (ص ٢٣٣ - ٢٤٠) ، والرضا النفسي (ص ٢٤١ - ٢٤٥) ، والمراقبة الذاتية (ص ٢٤٦ - ٢٥٠) ، وقيمة الصدق (ص ٢٥١ - ٢٥٣) ، وقيمة الإخلاص (ص ٢٥٤ ، ٢٥٥) ، وقيمة العمل (ص ٢٥٤ ، ٢٥٥) ، والتوجيه والإرشاد النفسي (ص ٢١٣ - ٢٨٥) .

* * *

السمعاني ، عبد الكريم (ت ٥٦٢هـ)
المذهب التربوي عند السمعاني (١)

عرض : د. جمعه سيد يوسف

التعريف بالمؤلف :

هو عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي ، وهو من حفاظ الحديث ومؤرخ ورحالة ، فقد كتب في التاريخ والأنساب والرواة ، وقد هاجر في طلب العلم والحديث ، فلاقى العلماء والمحدثين وحاورهم وانتفع منهم ونفعهم ، أما نسبته السمعاني فهي نسبة إلى سمعان ، وسمعان بطن من تميم ؛ إذ يقال له أيضًا التميمي نسبة إلى قبيلة تميم .

وقد ولد السمعاني عام (٥٠٦هـ) الموافق (١١١٣م) في مرو ، وتوفي بها عام (٥٦٢هـ) الموافق (١١٦٧م) .

ومن مؤلفات السمعاني :

١ - تاريخ مرو .

٢ - تذييل تاريخ بغداد للخطيب البغدادي .

٣ - تاريخ الوفاة للمتأخرين من الرواة .

٤ - كتاب الأنساب .

٥ - التحبير في المعجم الكبير .

---

(١) عبد الكريم السمعاني ؛ تحقيق شفيق محمد زيعور.ط. ٢ . بيروت : دار اقرأ ، ١٩٨٦م .

٦ - فرط الغرام إلى ساكني الشام .

٧ - تبيين معادن المعاني .

٨ - كتاب المالي .

عرض الكتاب :

يتضمن هذا المجلد كتابين ؛ يتمثل الأول منها : في المذهب التربوي عند السمعاني ، أما الثاني : فهو النص الكامل لكتاب أدب الإملاء والاستملاء للسمعاني ، ويقع الكتابان في ٢٢٦ صفحة من القطع المتوسط ، يحتل الأول منها ٥٣ صفحة ويحتل الثاني بقية المجلد . وفيما يلي سنقدم عرضًا موجزًا لهذين الكتابين :

الكتاب الأول : المذهب التربوي عند السمعاني :

يعد هذا الكتاب - كما أشرنا - تحليلًا لكتاب الإملاء والاستملاء للسمعاني ، ويقع في قسمين ، يتناول الأول منها : حياة ومؤلفات السمعاني ، والتي عرضنا لها عند التعريف بالمؤلف .

أما القسم الثاني فهو يتضمن عرضًا للمذهب التربوي عند السمعاني ؛ حيث يتناول شروط وآداب الأستاذ المحاضر ، والذي يطلق عليه السمعاني (المملي) ، أي الذي يعطى الأمالي وهي المحاضرات التي تملى على مستمعين يكتبون . فيعرض للآداب الشكلية والتي تتمثل في المظهر الخارجي للأستاذ وكيفية سيره إلى حلقة الدرس ، وجلوسه أمام مستمعيه ، وتقاليد افتتاح الجلسة ، ومقدمات الدرس ، ووصايا متعددة أثناء العمل .

حيث يشير إلى أنه يجب أن يبدأ الأستاذ باستنصات الناس ، وألا يرفع صوته إلا بقدر ما يسمع الحاضرين . ثم ينتقل إلى عرض قواعد التدريس والتي تمثل المنهج ، ومنها ضرورة الكتاب ؛ حيث يجب على المملي ألا يحدث إلا من كتابه فإن الحفظ خوان ؛ إذ لا نستطيع الاعتماد على الذاكرة إلا في حدود معينة والتي تقدر بحوالي مائة حديث .

ومن ذلك أيضًا ضرورة اللجوء إلى أكثر من كتاب واحد ، أي تنويع مصادر المعرفة ، وأفضلية العودة إلى الينابيع ، واستخدام الكتب والمصادر الموثوقة ، والتنبيه إلى قدرات الطلاب المتفاوتة على الاستيعاب ؛ حيث لا يجوز هنا إعطاء الجميع المقدار الواحد عينه ، ولا الجرعة عينها ، وتتصل هذه الإشارة الأخيرة بمفهوم رئيسي في علم النفس ، هو مفهوم الفروق الفردية Individual Differences (ص ٢٨) .

ومن قواعد التدريس أيضًا الاعتدال في الفترة التدريسية بغية تجنب الإملال والإضجار ؛ حيث يقول المؤلف : الإكثار مجلبة للملل ، والإطالة تولد الضجر . ويمكن أن يتصل هذا المعنى بمفهوم التدريب الموزع Distributed Trainin والتدريب المستمر أو المتصل Continual في موضوع التعلم ، أحد موضوعات علم النفس (ص ٢٩) .

ويتناول كذلك شروط وواجبات مساعد المملي ؛ ومنها : أن يكون جهور الصوت ، ومتيقظًا ومحصلًا ، ولا يكون بليدًا مغفلًا ، كما يجب أن يكون أفصح الحاضرين لسانًا ، وأوضحهم بيانًا وأحسنهم عبارةً ، وأجودهم أداءً ، ومن ثم فلا يؤدي هذا الدور إلا الحاذق الحريف لأنه دور الوسيط بين المملي والطلبة ، بين المعلم والمتعلمين .

ويتناول هذا الكتاب أيضًا آداب الطالب ؛ حيث يعرض لعدة قواعد عامة تختص بالسلوك الأمثل ، ومنها أن يتميز في عامة أموره عن العوام ، وأن يبكر في طلب العلم ليجلس في الصف الأول ، وأن يمشي الطالب على تؤدة من غير عجلة .

ثم يعرض لقواعد السلوك الطالبي عند الدخول على المدرس ؛ ومنها طلب الاستئذان وتقديم الأسن في الدخول أي الأكبر سنًّا ، وخلع النعلين . وقواعد الجلوس في الحلقة ، ومنها عدم تقدم الطالب إلى الصفوف الأولى القريبة من الأستاذ إلا إذا استدناه إليه .

وسلوك الطالب إزاء المدرس ؛ حيث يفرض على الطالب أن يجلس في الحلقة الدراسية بشكل يظهر الإجلال والخشوع ، وإظهار أقصى ما يمكن من التقدير والطاعة للمعلم ، كما أن من مبادئ السلوك المثالي أن يكني الطالب أستاذه لا أن يسميه .

ويشير كذلك إلى المستحبات عند دخول الأستاذ ؛ ومنها النهوض ، ثم التوسيع له ، وإلى ضرورة توقير المجلس بالتزام الصمت أثناء الدرس .

وفي نهاية هذا الكتاب يعرض الكاتب لما يحتاج إليه في كتابة الإملاء ، وآلاتها، وكيفية الكتابة ، وهو ما يطلق عليه آدابية أدوات التعليم ، ومن ذلك استعمال الحبر والمحبرة ، والقلم والمقلمة ، والاستعمال الأمثل للخط ، حيث يجب على الطالب أن يبالغ في تحسين الخط وتجويده .

كما يشير إلى التعاون بين الطلاب وآداب إعارة الكتب ، ويوصي الطلاب بأن يعارضوا ما كتبوه ، فالمقارنة والمراجعة ، ومعارضة ما عند هذا بما هو عند ذاك ، طرائق تقرب كل واحد إلى الاتجاه الأصح .

وبعد أن عرضنا للتحليل الذي قام به المحقق لكتاب : أدب الإملاء والاستملاء ،

موضحًا المذهب التربوي عند مؤلفه وهو عبد الكريم السمعاني ، نلاحظ أن هذا التحليل ذو فائدة كبرى في مجال التعلم Learning في إطار علم النفس العام ، وكذلك في مجال علم النفس التعليمي أو التربوي Educational Psychology (ص ٢٢ : ٥٠) .

الكتاب الثاني : أدب الإملاء والاستملاء للسمعاني :

يتضمن هذا الكتاب خمسة فصول على النحو التالي :

الفصل الأول : آداب النفس في طلب العلم ومجالس التعلم :

يتناول هذا الفصل عددًا من الموضوعات المختلفة التي تدور حول آداب طلب العلم ، فيشير إلى ضرورة اقتران الأدب بطلب العلم ؛ حيث إن العلم بلا أدب كنار بلا حطب ، وأن الأدب بلا علم كروح بلا جسد ، ويتطرق المؤلف إلى علم الحديث ، مشيرًا إلى أنه أشرف العلوم بعد العلم بكتاب الله ﷻ ؛ إذ الأحكام مبنية عليها ومستنبطة منها ، ويتحدث عن التحقيق في رواية الحديث من خلال الأستاذ ، فألفاظ رسول الله ﷺ لا بد لها من النقل ، ولا تعرف صحتها إلا بالإسناد الصحيح ، والصحة في الإسناد لا تعرف إلا برواية الثقة عن الثقة . والعدل عن العدل ، مشيرًا إلى أهمية الإسناد في هذا الصدد ، وكذلك أهمية السماع في الحديث .

كما يتناول الإجازة في الحديث ، وإملاء المحدث وكتابة الحديث ، مشيرًا إلى أن النبي ﷺ أملى على علي بن أبي طالب ؓ . وفي نهاية الفصل يتحدث عن الإملاء والكتابة ، ومجالس الإملاء ، ويذكر جماعة ممن حدثوا بالإملاء وعقدوا المجالس .

الفصل الثاني : في أدب المملي :

يتناول المؤلف في هذا الفصل من الجوانب التي تتصل بأدب المملي ، ومن ذلك أنه ينبغي على المحدث أن يصلح هيئته ، ويأخذ لرواية الحديث أهبته مستشهدًا بقول رسول الله ﷺ : « **إن الله جميل يحب الجمال ويحب أن تُرى نعمته على عبده ، ويبغض البؤس والتباؤس** » .

كما يستحب أن يكون المملي في حال الإملاء على أكمل هيئة وأفضل زينة ، ويتعاهد نفسه قبل ذلك بإصلاح أموره التي تجمله عند الحاضرين من الموافقين والمخالفين .

ومن الجوانب التي يجب على المملي العناية بها ليحافظ على مظهره وهيئته ، نظافة الأسنان بالسواك ، وقص الأظافر ، والاعتناء بالشاربين ، وترتيب الشعر المشعث ، وارتداء الثياب البيض والعمامة ، وتسريح اللحية ، واستعمال الطيب ، والنظر في المرآة ،

والاقتصاد في المشي عند قصد المجلس ، والبدء بالسلام ، وأن يعم به كافة المسلمين حتى الصبيان غير البالغين ، وامتناع الجالس عن القيام للقادم .

ومن آداب المملي أيضًا ، يستحب له أن يصلي ركعتين قبل جلوسه ، وأن يجلس متربعًا متخشعًا ، ويستعمل لطيف الخطاب مع أصحابه ، ويحسن خلقه مع أصحابه وأهل حلقته ، كما ينبغي للمملى أن يعين لأصحابه يوم المجلس لئلا ينقطعوا عن أشغالهم ، وليستعدوا لإتيانه ويعد بعضهم بعضًا ، وإذا عين لهم اليوم ووعدهم بالإملاء فيه ، فلا ينبغي له إخلاف موعده إلى أن يقتطعه عن ذلك أمر يقوم عذره به : ويستشهد المؤلف على ذلك كله بأقوال وأفعال رسول الله ﷺ .

وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى الحديث عن عقد المجالس في المساجد وآدابه ، فيشير إلى أن المجالس في المساجد فعل مستحب ، ومن آداب الجلوس فيها الاتجاه نحو القبلة ، كما تجب طهارة البدن ونظافته العامة ، والاستناد إلى المكتوب لا إلى الذاكرة ؛ لأن الحفظ خوان ، والافتتاح بقراءة سورة من القرآن ، واستنصات الجالسين ؛ حيث ينبغي للعالم أن لا يعدو صوته مجلسه ، كما يجوز للمملى القعود على منبر أو موضع مرتفع ، وبخاصة إذا كثر عدد السامعين حتى يبدو للجماعة وجهه ويبلغهم صوته .

ويتناول المؤلف أيضًا في هذا الفصل ، شروط تقديم رواية الحديث وآدابها ، ومن ذلك الافتتاح بالتسمية ثم ذكر النبي ﷺ والصلاة عليه ، فإن اتباع ذكر الله بذكره ﷺ في تلك الحال أمر لازم . وينسب المملي شيخه حيث يقول : حدثنا فلان ، وينسب شيخه الذي يريد أن يروي عنه حتى يبلغ بنسبه منتهاه ، ويترحم كذلك على شيخه ، ولا يروي إلا عن الثقات فقط ، حيث يقول رسول الله ﷺ : « **هلاك أمتي في ثلاثة : في القدرية والعصبية والرواية من غير ثبت** » .

ومن هذه الآداب والشروط أيضًا ، استحباب رواية المشاهير ، والعدول عن الغرائب والمناكير حيث يقول مالك بن أنس : شر العلم الغريب ، وخير العلم الظاهر الذي قد رواه الناس .

كذلك لا يروي ما لا تحتمله عقول العوام ؛ حيث يقول مسعود : إن الرجل ليحدث بالحديث فيسمعه من لا يبلغ عقله فهم ذلك الحديث فيكون عليهم فتنة .

ويتضمن هذا الشرط إشارة إلى مراعاة القدرات العقلية ؛ كالفهم ، والتعلم ، وحدود هذه القدرات لدى المتلقين أو المتعلمين ، ويمكن أن يتصل هذا المعنى بمفهوم الفروق

الفردية في القدرات العقلية ، والذكاء ، والاستعداد لسرعة التعلم في علم النفس العام ، وعلم النفس التربوي Educational Psychology (ص ١٣٢ ، ١٣٣) .

ويشير المؤلف إلى أن من أنفع ما يلي الأحاديث الفقهية التي تفيد معرفة الأحكام الشرعية من العبادات ، وما يتعلق بحقوق المعاملات ، كما يستحب إملاء الأحاديث التي ترغب في فضائل الأعمال وتحث على الخير ، والذكر ، والزهد في الدنيا ، ويجب على المملي أن يفسر الكلام الغريب ويبين المعاني الغامضة ، ولا يجوز له أن يفسر إلا ما عرف معناه ، وأما ما لم يعرفه فيلزمه السكوت عنه . وإذا انتهى المملي في الإسناد إلى ذكر رسول الله ﷺ استحب له الصلاة عليه رافعًا صوته بذلك ، وهكذا يفعل في كل حديث عاد فيه ذكره .

ويستحب للراوي أن يقيم الحديث بعد روايته ، بمعنى أن يصفه بالصحة والثبوت وغير ذلك من الصفات والنعوت .

ويتناول المؤلف في نهاية هذا الفصل الجوانب المتعلقة باختتام المجالس ؛ ومنها تجنب إملال السامع ، واضجاره بطول الإملاء وإكثاره ، ويتصل هذا المعنى عن الملل والضجر بمفهوم التدريب الموزع ، والتدريب المتصل في موضوع التعلم في علم النفس (ص ١٤٣) .

واختتام المجالس بالحكايات والنوادر ؛ حيث يقول الإمام علي بن أبي طالب ﷺ : روحوا القلوب وابتغوا لها ظرف الحكمة فإنها تمل كما تمل الأبدان .

وهذه الإشارة عن اختتام المجلس والملل تتصل بمفهوم الكف Inhibition ومفهوم التعب Fatigue النفسي والبدني ووسائل تبديدهما ص ١٤٥ : ١٤٧ ، ويتبع الحكايات بالأناشيد والأشعار ويختم بها المجلس ، وإذا ذكر كلمة فإلى أن يعيدها المستملي ويكتبها الطلبة يستغفر الله ﷺ كي لا يكون فارغًا ، ويستغفر الله تعالى عند انقضاء المجلس أيضًا كما كان يفعل رسول الله ﷺ .

وعلى المملي مراجعة المكتوب قبل الاختتام لإصلاح ما أفسد منه زيغ القلم وطغيانه ، وليتجنب التكرار والإعادة لما فيها من ثقل على النفس ، وربما يقصد المؤلف هنا التكرار غير المفيد في عملية التعلم ، والذي يأتي بعد تثبيت واستيعاب المتعلم للحقائق والمعلومات المراد تحصيلها ، بما يمكن أن يؤدي إلى الشعور بالملل منه ؛ حيث تذهب نتائج بحوث ودراسات التعلم Learning إلى أن التكرار Frequency يؤدي إلى مزيد من التعلم لدى الكائن (ص ١٥٧ : ١٥٩) (التكرار والتعلم) ، كما أن زيادة التكرار

كثيرًا بعد استقرار العلم ، يؤدي إلى الإضرار بعملية التعلم . وينبغي لمن أراد سماع الإملاء البكور خوفًا من فوات المجلس بتأخير الحضور ، وأن يتعذر عليه مع ذلك إعادته من قِبل شيخ لعل التمنع من عادته .

الفصل الثالث : وظيفة المستملي وأدبه :

يتناول هذا الفصل بيان وظيفة ومهام المستملي وأدبه ، ويقصد المؤلف بالمستملي - كما أشرنا - الشخص الذي يقوم بمساعدة المملي أو المحاضر ، وتتمثل وظيفته في إبلاغ الإملاء عن المملي إلى من بعد عن حلقة الدرس ، كما يقوم المستملي بالإشراف على الناس ، ويستحب له أن يجلس على موضع مرتفع مثل دكة أو كرسي ، فإن لم يجد استملى قائمًا ؛ لأن المقصود من الاستملاء أن يبلغ جميع الحاضرين .

وينبغي أن يكون المستملي جهوري الصوت ، متيقظًا محصلًا ، ولا يكون بليدًا مغفلًا . كما ينبغي أن يتخير للاستملاء أفصح الحاضرين لسانًا ، وأوضحهم بيانًا ، وأحسنهم عبارةً ، وأجودهم أداءً .

وإذا كثر الزحام فينبغي أن يوجد أكثر من مستملٍ واحد في المجلس حتى يبلغ بعضهم بعضًا .

وأول شيء يفعله المستملي أنه يستنصت الناس وهو في هذا مثل المملي ، ويكره منه أن يدعو للشيخ بطول البقاء ، ودوام العمر ، فإن السلف كرهوا ذلك ، وإن عرف اسم الشيخ وكنيته ونسبته ذكره للحاضرين .

وبعد أن يفرغ المستملي من المقدمة السابقة ، أقبل على المملي وقال : من حدثك رحمك اللّٰه ، أو من ذكرت رضي اللّٰه عنك ، فيقول المملي : أخبرنا أبو فلان فلان بن فلان ويروي الحديث ، ويذكر كلمة كلمة ويحاكيه المستملي ويرفع صوته بما يذكره ويمليه ، ويستحب للمستملي أن لا يخالف لفظ المملي في التبليغ عنه بل يلزمه ذلك ، وخاصة إذا كان الراوي من أهل الدراية والمعرفة بأحكام الرواية .

وإذا لم يسمع الكاتب حرفًا سأل المستملي عن ذلك حتى يسمعه ، أو شك في شيء راجعه حتى يستثبته فيجيبه ، فالصلة بين الكاتب والمستملي . ويستحب للمستملي إذا فرغ من الاستملاء أن يدعو للحاضرين ولمن كتب بالرحمة والمغفرة ، ويبدأ بالدعاء لنفسه ثم للحاضرين .

الفصل الرابع : في آداب الكاتب ؛ ومنها أنه ينبغي لطالب الحديث أن يتميز في عامة

أموره عن طرائق العوام باستعمال آثار رسول اللَّه ﷺ ما أمكنه ، وتوظيف السنن على نفسه فإن اللَّه تعالى يقول : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١] ومنها أيضًا البكور إلى مجالس الحديث ، والمشي على تؤدة من غير عجلة ، وتشمير الثياب لكي لا يعثر فيها ، وعدم التكلف في اللباس ، وتقديم الأكبر سنًّا عند الدخول على المملي لأن ذلك من السنة .

وإن قَدم الأكبر سنًّا من كان أعلم منه على نفسه جاز ذلك وكان مستحسنًا ، كما أنه إذا دخل الطالب على المملي فوجد عنده جماعة فيستحب أن يعمهم بالسلام ، وأن يخلع نعليه قبل دخوله عليه ، ويستحب أن يبتدئ بنزع اليسرى من نعله دون اليمنى ، وإذا خلعهما وضعهما عن يساره ، ويجلس حيث ينتهي به المجلس ، وإن كان المجلس غاصًّا بأهله لا يتخطى الرقاب إلا إذا استدناه المملي ، ويدنو منه بمقدار ما يدنيه ، كما أنه إذا أكرمه المملي بمخدة فلا يردها وليجلس عليها ، ويكره أن يقيم رجلًا من مجلسه ويجلس في مكانه ، أو أن يجلس في وسط الحلقة ، وكذلك في صدر المجلس ، ولا يجلس بين اثنين إلا بعد إذنهما (ص ٢١١) .

ويستحب لمن كان جالسًا في الحلقة أن يوسع للداخل ويتزحزح له عن مكانه ، كما يستحب لمن جلس بين اثنين إذا فسحا له وأكرماه بذلك ، أن يجمع نفسه ولا يتربع ، ويجلس الطالب جانبًا على ركبتيه بين يدي الحديث ، ويبالغ في تعظيم المملي وتبجيله . كما أنه إذا خاطب الطالب المملي أو راجعه في شيء عظمه مثل أن يقول له : أيها الأستاذ ، أو أيها العالم ، أو أيها الحافظ ، ونحو ذلك ويكنيه في خطابه ولا يسميه ، ويجوز القيام له وتقبيل يده .

وعلى الطالب توقير مجلس المملي ، ولا ينام فيه ، وأن يحسن الاستماع والإصغاء بين الإملاء ويستقبل المملي بوجهه ويتواضع له ، ويداريه ويرفق به ويحتمله .

ويستشهد المؤلف على ذلك كله بأقوال وأفعال رسول اللَّه ﷺ وأصحابه .

ويورد المؤلف في نهاية الفصل آداب الكتابة ؛ حيث يشير إلى ما يحتاج فيه إلى كتابة الإملاء وآلاتها وكيفية الكتابة ، فيذكر أنه ينبغي للطالب أن يكتب الحديث بالسواد ، ثم بالحبر خاصة دون المداد ؛ لأن السواد أصبغ الألوان ، والحبر أبقاها على مرِّ الدهور والزمان ، وهو آلة ذوي العلم ، وعدة أهل المعرفة والفهم .

وإن حفظ ثوبه عن المداد وصانه عن السواد كان أولى .

الفصل الخامس : في أدوات النسخ وشروط الخط :

يتناول المؤلف في هذا الفصل جانبين من عملية الإملاء والكتابة ، يختص أحدهما بأدوات النسخ ويختص الآخر بشروط الخط ؛ حيث يعرض في القسم الأول ، للمحبرة ، والقلم ، والمقلمة والسكين ، والحبر ، ويرى أن هذه الأدوات من لوازم الكتابة في مجلس الإملاء وينبغي أن تكون جيدة الصناعة لكي تؤدي وظيفتها بفاعلية وكفاءة .

أما القسم الثاني : فيتناول شروط الخط ؛ ومنها : أن يبالغ الطالب في تحسين الخط وتجويده ، ويستحب أن يكتب خطًّا غليظًا ويجتنب الدقيق منه إلا في حال العذر كالفقر والسفر ، وأن يبدأ الإملاء بكتابة « بسم اللّٰه الرحمن الرحيم » ثم يكتب بعد التسمية في السطر اسم الشيخ الذي يسمع منه الإملاء ، أو يكتب عنه وكنيته ونسبه ، ثم يتبع لفظ المملي ويكتب ما يمليه ، مع مراعاة ترك فاصل بين كل حديث وآخر للتمييز بينهما .

ويتناول المؤلف في الفصل موضوع إعارة الكتب ؛ حيث يشير إلى أنه إذا فرغ الطلاب من الكتابة يقرأ المستملي الإملاء ، وهم يعارضون كتابهم ، وإن فات لبعض الطلبة شيء من المجلس ، فيعيره بعض من حضر كتابه حتى ينسخه منه ، ويغتنم الثواب في ذلك ، وعلى المستعير أن يرده عاجلًا وألا يحبسه عنه لكي يعيره ولغيره بعد ذلك . وإذا أراد الطالب أن ينصرف قبل أهل المجلس سلم عليهم فإن ذلك من السنة .

* * *

السهروردي (ت ٥٦٣هـ)
آداب المريدين [١]

عرض : د. أسامة سعد أبو سريع

التعريف بالمؤلف :

هو عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عمويه بن سعد السهروردي القرشي ، الصديقي ، البكري (أبو النجيب ضياء الدين السهروردي) ، وهو فقيه ، شافعي ، واعظ ، من أئمة المتصوفين ، ومحدث ومؤرخ ، وكان يدرس الحديث بالمدرسة النظامية ببغداد .

ولد سنة (٤٩٠هـ - ١٠٩٧م) بسهرورد ، وهي قرية من قرى إقليم الجبال في جنوب زنجان في الطريق إلى همزان ، ثم انتقل إلى بغداد واشتغل بتلقي العلم هناك ، ودرس فقه الإمام الشافعي بالمدرسة النظامية ببغداد ثم اشتغل بالتصوف ، وصحب إمامين من أئمة الصوفية ؛ وهما : الشيخ حماد الدباس ، والشيخ أحمد الغزالي ، واعتزل الناس فترة تفرغ فيها للعبادة ثم خرج من عزلته لوعظ الناس وإرشادهم - وبني له في بغداد رباط للصوفية على شاطئ دجلة سكنه أصحابه . وندب للتدريس في المدرسة النظامية ببغداد في علوم التفسير ، والحديث ، والفقه ، وأصول الحديث ، وولي المدرسة النظامية .

انتقل إلى دمشق لزيارة بيت المقدس ولكن لم تتيسر له الزيارة لانقطاع الهدنة بين المسلمين والفرنج ، فأقام مدة قصيرة في دمشق ، وهناك استقبله الملك العادل نور الدين الشهيد وأحسن ضيافته ، ثم عاد إلى بغداد وكانت له كرامات تكشف عن جلاء

---

(١) تأليف أبي النجيب ضياء الدين السهروردي ، تحقيق محمد فهيم شلتوت . القاهرة : دار الوطن العربي (د.ت) .

بصيرته وشدة تقواه .

ومن تصانيفه : شرح الأسماء الحسنى (غريب المصابيح) ، (طبقات الشافعية) ، و(آداب المريدين) الذي نعرض له في تلك الصفحات .

توفي في بغداد سنة (٥٦٣هـ - ١١٦٨م) ، ودفن برباطه على شاطئ دجلة ويقصد الناس قبره للزيارة

مصادر التعريف بالمؤلف :

١ - مقدمة الكتاب : آداب المريدين وكتبها المحقق فهيم محمد شلتوت .

٢ - خير الدين الزركلي ، الأعلام ، بيروت ، دار العلم للملايين ، المجلد الرابع ، ١٩٨٦م .

٣ - عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، بيروت ، مكتبة المثنى ، المجلد الخامس .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٨٣ صفحة من القطع الصغير ، ويهدف إلى التعريف بالتراث الصوفي وطريقة معالجته لأمور العقيدة ، والآداب ، والسلوك ، وتوضح الأساس الذي يقوم عليه الفكر الصوفي وهو : مقارنة الشهوات وملذات الدنيا ، والتطلع إلى عالم روحاني عبر الزهد ، وجهاد النفس .

ويشير المحقق في المقدمة إلى أن أسلوب الكتاب يتميز بالسهولة كما يخلو من الإشارات والرموز الغامضة التي لا يقبلها العقل ، كما أن صاحبه من أعلام الصوفية ، جاء في أعقاب أبي القاسم القشيري ، وقد عالج قضايا مهمة في كتابه ؛ منها ما يتفق عليه أتباع المذهب الصوفي ، وسماح أهل الطريقة الصوفية ، وآراؤهم في علوم الشريعة ، ودعوتهم لتحصيل العلم ، وآدابهم في الصحبة ، والسفر ، وحال المرض والموت والابتلاء والرخص ومدى إباحتها .

ويستهل السهروردي كتابه ببيان أهمية العلم بعقائد أهل الصوفية وآدابهم واصطلاحاتهم ، وبدأ بذكر مذهبهم في أصل الاعتقاد ، فذكر أن الصوفية قد اجتمعوا على أن اللَّه تعالى واحد لا شريك له وعلى جواز رؤية اللّه يوم القيامة ، وعلى الإيمان بكتاب اللَّه وسنة رسوله ، ويرون الخلافة في قريش ويؤمنون بالكتب المنزلة ، وبالأنبياء وأنهم أفضل البشر ، وأن محمدًا سيد المرسلين وأفضل البشر ، ويأتي بعده أبو بكر ،

ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي ، ثم العشرة المبشرون بالجنة ، وأباحوا الكسب والتجارة والصناعة باعتبارها تعاون على البر والتقوى ، وأجمعوا على أن الفقر من الغنى إذا كان مقرونًا بالرضا والصبر وشكر اللّٰه على كل حال ، وأجمعوا على أن خصال العباد ليست سببًا للسعادة والشقاوة وأن السعادة والشقاوة مقدرة للمرء قبل ولادته ، ويرون الرضا بالقضاء ، والصبر على البلاء ، والشكر على النعماء ، وأن الخوف والرجاء يمنعان العبد من سوء الأدب ، وأن الحب في اللّٰه والبغض في اللّٰه من أوثق دلائل الإيمان ، وأجمعوا على إباحة لبس سائر أنواع الثياب إلا ما حرمته الشريعة ، ويفضلون المرقع منها لدلالتها على التواضع ، وأحب الألوان إلى أنفسهم الأبيض والأخضر ، وأجمعوا على استحباب تحسين الصوت بالقرآن دون إخلال بالمعنى ، وسماع ما كان من الشعر في المواعظ والحكم ، وأباحوا سماع الصوت الحسن والنغمة الطيبة ، ويبين السهروردي أن الناس يتعاونون في تعبيرهم عن الإعجاب والاندماج فيه فمنهم من يظهر الفرح ، والطرب وعلامته ثلاث ؛ وهي : الرقص ، والتصفيق ، والفرح ، أو الوجد وعلاماته الغيبة وقطع أعضاء الجسم كالأذن والصرخات ، أو الخوف وعلاماته البكاء ، واللطم ، والزفرات ، وأن من شروط مكان السماع أن يكون طيب الرائحة مع الالتزام بالوقار .

ومن المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفصل الرضا Satisfaction (ص ٢١) ، والخوف Fear (ص ٢٥) والسعادة Happiness (ص ٢٤) ، والانفعالات Emotions خاصة الحب Liking (ص ٢٦) ، والقيم Values وسمات الشخصية Personality Traits ؛ ومنها : التواضع Modesty (ص ٢٧) والتفضيلات الجمالية Aesthetic Preferences فيما يتعلق بتفضيل اللونين الأبيض والأخضر (ص ٢٧) ، وإباحة سماع الصوت الحسن وردود الأفعال Reactions للسماع ومنها للنشوة Elation أو الحزن Sadness أو الخوف Fear والبيئة الفيزيقية الملائمة للسماع Physical Environment .

ويمضي السهروردي ليبين ما يجب العلم به من علوم الدين وأحكام الشريعة ، ثم يتعرض لاقاويلهم في التصوف فيوضح أن ظاهر مذهب الصوفية استعمال الأدب مع الخلق وفي رأيه أن التصوف كله أدب ، فلكل وقت أدب ولكل حال أدب ، ولكل مقام أدب ، ومن لزم الأدب بلغ مبلغ الرجال ، ويعرف أدب النفس : بأن تعرفها الخير وتحثها عليه وتعرفها الشر وتزجرها عنه ، ومن آداب أهل الدين يذكر : رياضة النفس ، وتأديب الجوارح ، وتهذيب الطباع ، وترك الشهوات ، واجتناب الشبهات ، والمسارعة في الخيرات ، ويبين أن العارفين يتفاضلون بالهمة وهي ما يبعث النفس على طلب المعالي .

ويفصل بعد ذلك خصالهم فيذكر منها : الحلم ، والوفاء ، والتواضع ، والنصيحة والإحسان ، والخدمة والكرم ، والمودة ؛ والتلطف ، والبشر، والعفو ، وتوقير الإخوان ، والوفاء والحياء .

ثم يقدم بعد ذلك فصلًا في المقامات وهي الحال التي يكون العبد عليها مع ربه ، وفصلًا تاليًا في معاملات القلوب وما يحل من الأذكار ، وفصلًا في ذكر اختلاف المسالك الموصلة للعبادة الصحيحة : ومنها لزوم العبادة ، أو رياضة النفس ، أو الخلوة والعزلة ، أو السياحة أو الخدمة وبذل الجاه للإخوان وإدخال السرور عليهم ، أو طريق العجز والانكسار ، أو طريق التعليم والمساءلة ومجالسة العلماء .

ومن المفاهيم النفسية هنا القيم Values وحسن الخلق Morals (ص ٣٩) ومراقبة الذات Self - Monitor وكبت الشهوات والرغبات Repression . والدافعية Motivation كما يتبين في الحرص على طلب المعالي (ص ٤٠) ، وهناك مفاهيم مرتبطة بسمات الشخصية Personality والتفاعل الاجتماعي مع الآخرين Social Interaction حيث يؤكد أهمية تقديم النصيحة Advice والخدمة Service والمساعدة Help والاحترام Respect والتقدير Recognition وإدخال السرور Pleasure على الإخوان ، أو الانسحاب Withdrawal إذا عجز الإنسان عن القيام بواجبات المخالطة (ص ٤٢ - ٤٦) .

وفي فصل آداب المحاورة يقدم الآداب الآتية :

١ - أن يقصد من الكلام النصح والإرشاد ونفع الكل .

٢ - كلام الناس على قدر عقولهم وعلى قدر السائل وعدم الحديث فيما لا يسأل فيه .

٣ - ألا يتكلم العبد أمام من هو أعلم منه ، وألا يتكلم في العلم قبل أوانه .

٤ - ألا يطلب الجاه والمنزلة بعلمه .

٥ - محاولة استعمال ما سمعه وتعلمه حتى يصير ذلك العلم حكمة في قلبه ولا ينساه .

وفي فصل الشطحات المحكية يفرق السهروردي بين العقل أو العلم وبين المعرفة ، فالعالم يقتدي به والعارف يهتدي به والعلم يتحدد في ضوء ما يشاهد خبرًا ، أما المعرفة فهي ما يشاهد حسًّا ويغيب العقل إذا غاب الهوى ، والفرق بين العاقل والأحمق هو أن الأحمق يقبل المحال .

وفي فصل حال البداية والفصل الذي يليه يتعرض لمناهج تأديب النفس ، وتتلخص

في معرفة النفس ومجاهدتها ومنعها عن مألوفاتها ومخالفة أهوائها ، ودفعها عن شهواتها ، وإنهاكها بكثرة الأذى ، والأوراد ، والصوم ، والصلاة ، والسهر ، وتجويعها ، والندم على المخالفات ، والعزم على التوبة ، والاجتهاد في تبديل أخلاق النفس كالكبر ، والبخل والحرص ، والأمل ، والحيرة ، والحسد ، والرياء والمنازعة ، والغيبة ، وسوء الظن بأضدادها من الأخلاق الحميدة .

وتقترب أفكار هذا الفصل من بعض المفاهيم السيكولوجية هي التواصل اللفظي Verbal Communication والطلاقة اللفظية Verbal Fluency والقدرة على الإغراء Persuasion وشروط الرسالة Message الجيدة والتي يسهل فهمها عند التخاطب بين الأشخاص ومنها مراعاة طبيعة المتلقي Receiver وقدرته على الفهم Understanding (ص ٤٨ - ٥٠) .

ومن المفاهيم أيضًا ما يتصل بدور التدريب Training والممارسة Practice واستعمال المعلومات المكتسبة في تنشيط الذاكرة Memory وتسهيل الاستدعاء Recall (ص ٤٨ - ٥٠) .

وهناك أفكار أخرى تقترب من مفهوم العقل Mind والمعرفة والتفرقة بين الخبرة الإمبيريقية Empirical أو الواقعية والإحساس Sensation كوسائل للتعلم Learning وأهمية القدرة على الحكم Judgement في الكشف عن درجة الذكاء Intelligence فقد ذكر السهروردي أن الفرق بين العاقل والأحمق هو أن الأحمق يقبل المحال (ص ٥١) .

وهناك مفاهيم أخرى مرتبطة بالذات والضبط الذاتي والتنشئة الاجتماعية Socialization وسبل تربية النفس ؛ ومنها : الكبت Repression والدوافع الأولية Primary Drives والإنهاك بكثرة العبادة والحرمان Deprivation من الرغبات والإحساس بالذنب Guilt Feeling بالإضافة إلى التمسك ببعض القيم Values وسمات الشخصية ؛ مثل : التواضع والكرم وتجنب النزاع والصراع Conflict (ص ٥٢ - ٦٠) .

ومن آداب الصحبة بين الناس يذكر : حفظ الحرمات ، وحسن العشرة ، والنصيحة ، وترك مصاحبة من ليس في طبقتهم ، وملازمة الإيثار والمعاونة في الدنيا والدين ، والتأني في اختيار الصديق ، والصبر على الإيذاء عملًا بحديث رسول الله ﷺ : « **المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم وفي الكل خير** » كما يرغب الرسول في حسن المعاشرة كما يتبين من حديثه .. لا خير

فيمن لا يألف ولا يؤلف ..

ويضيف السهروردي أن من شروط الصحبة الموافقة في الاعتقاد وفي الدين ، ويوضح أن آداب الصحبة تعتمد على قدر المصاحب ، فالصحبة مع المشايخ والكبراء تقومْ على الاحترام والخدمة والتوقير ، والصحبة مع الأقران بالبشر والانبساط والموافقة وبذل المعروف والإحسان ، ومع الأصاغر بالشفقة والإرشاد والتأديب والنصح بما ينفع ، والصحبة مع الأستاذ باتباع الأوامر والنواهي وخدمته وقبول قوله واحترامه ، والصحبة مع الخدم بالتلطف والدعاء ، ومع الغرباء بالبشر وطلاقة الوجه والصبر عليهم وخدمتهم ، ومع السلطان بالسمع والطاعة إلا في معصية والدعاء له .

ويدعو السهروردي إلى التأني في اختيار وتجنب أصدقاء السوء ؛ لأن المرء على دين خليله ، ويذكر أن هناك ثلاثة أصناف من الناس ، فمنهم صنف كالغذاء لا يستغنى عنه ، وصنف كالدواء يحتاج إليه بعض الأحيان ، وصنف كالداء ننفر منه في كل حين .

وتمر الصداقة بعدة مراحل تمضي على النحو التالي : معرفة ثم مودة ثم ألفة ثم عشرة ثم محبة ثم صحبة (وهي اتفاق البواطن) ثم أخوة . ومن آداب الصوفية إذا اجتمعوا أن يقدموا عليهم أحدًا ليكون مرجعًا لهم ، والشروط في هذا الشخص هي : رجاحة العقل ثم علو الهمة ثم علو الحال ثم العلم بالمذهب ثم كبر السن ثم حسن الخلق ثم قدم الهجرة ثم تمام الأدب ثم كونه أسبقهم بلقاء الشيخ ثم كونه أحسنهم خلقًا .

ومن المفاهيم النفسية الواردة هنا الصداقة Friendship والمهارات الاجتماعية Social Skills والتفاعل الاجتماعي Social Interaction والعلاقات بين الأشخاص Interpersonal Relations (ص ٦٢ - ٧٠) وشروطها مثل التشابه Similarity في المكانة أو المركز الاجتماعي Social Status والديانة Religion والمواءمة القيمية Value Congruence أي تشابه القيم والمعتقدات Beliefs and Values (ص ٦٤) بالإضافة إلى واجبات الصداقة ومنها الإيثار Altruism والتعاون Cooperation وتقديم النصيحة Advice والتوجيه Guidance والاحترام Respect وقد أشار السهروردي إلى تباين تلك الواجبات باختلاف طبيعة العلاقة الاجتماعية بين صديقين من نفس الجنس ، أو مع الشيخ الكبير إلى الصغير أو السلطان (ص ٦٤) .

ومن المفاهيم المتعلقة بموضوع الصداقة أيضًا مفهوم الفروق الفردية Individual Differences بين الأفراد ، وتباين الرغبة في عقد صداقة معهم تبعًا لذلك حيث أشار

السهروردي إلى أن بعض الأشخاص كالغذاء لا يمكن الاستغناء عنه ، وبعضهم كالدواء تحتاج إليه أحيانا ، والبعض الثالث كالداء يجب الاحترز منه . ومن المفاهيم السيكولوجية أيضًا ارتقاء الصداقة Development of Friendship أو النفاذ الاجتماعي Social Penetration والذي يكشف عن تقدم وتوطد الصداقة مع الوقت ، والتفاعل من التعارف السطحي Superficial Acquaintance وحتى الصداقة الحميمة Intimate Friendship (ص ٧٦) .

علاوة على مفاهيم متصلة بالقيادة Leadership أو الرئاسة Headship وشروطها الذكاء Intelligence والدافعية Motivation والخبرة Experience والعمر Age (ص ٧٧) .

ويتناول السهروردي بعد ذلك آدابهم في عدد من الأحوال والمعاملات . ففي الأسفار يبين الحالات التي يستحب فيها السفر ، وكيفية السير في السفر وما يستحب في اللباس ، ومن آدابهم عدم التكلفة أو المبالغة في الشراء ، والاقتصار على ما يستر العورة مع النظافة وتجنب لباس الشهرة وتفضيل ارتداء ثوب واحد .

ومن آداب الأكل يذكر : عدم الإسراف أو الشره والرضا بالطعام وتفضيل القليل النظيف الطيب على الكثير الرديء ، والأكل مما يعرف أصله والامتناع عن طعام الفاسقين ، ومن آداب الطعام أيضًا تصغير اللقمة وإجادة المضغ وتفضيل الاجتماع على الأكل ، وعدم الإمساك عن الطعام قبل الضيف ، ويكره انتظار الأكل وتضييع الوقت بالاشتغال بالطعام .

ومن آداب الضيافة يذكر : أن على المضيف ثلاثة واجبات ، وهي : إطعام الضيف بالحلال وحفظ أوقات الصلاة عليه ، وتقديم ما يقدر عليه من الطعام ، وعلى الضيف ثلاثة واجبات هي : أن يجلس حيث يجلس وأن يرضى بما يقدم إليه ، وألا يخرج إلا بعد الاستئذان .

ومن آداب النوم : تجنب النوم حتى الصباح ، وتجنب النوم بين جماعة متيقظين ، وعدم الإفراط في النوم للتقوية على القيام وفعل الطاعات ، ويستحب النوم وقت القيلولة للمعاونة على قيام الليل .

ثم يعود السهروردي لاستعراض آداب الاستماع على النحو الذي بيناه من قبل ، ومن آدابهم في التزويج يذكر : الرغبة في المرأة المتدينة ، وعلى الرجل كفاية حاجات البيت فإذا عجز أو طلبت الزوجة فوق الطاقة خيرها بين الوفاق في حدود المتاح

أو الطلاق ، وإذا لم يستطع الإنسان النكاح فعليه بالصوم والرياضة والجوع والسهر والسفر وبنصح بعدم المغالاة في المهور لتيسير الزواج .

ومن آداب السؤال يذكر : عدم الإلحاح في السؤال عند الضرورة والحاجة ، والأخذ بقدر الكفاية فقط ويكرهون السؤال لأنفسهم ويستحبونه للأصحاب ، ويشير إلى أن من يتعود السؤال يبتلى بالطمع والخيانة .

ومن آدابهم عند المرض : الصبر وطلب الدواء عملًا بحديث رسول الله ﷺ عن التداوي ؛ لأن الله لم يخلق داء إلا وخلق له الدواء . ومن آدابهم وقت الابتلاء الصبر وذلك لأن الابتلاء ترك الجزع والشكوى والعجز .

ومن المفاهيم الواردة في هذا الجزء التطبيع أو التنشئة الاجتماعية Socialization والتدريب Training على عادات Habits الأكل واللبس والسفر والضيافة (ص ٨٤ - ١٢٩) ، فمن آداب الأكل يذكر الرضا Satisfaction وتفضيل القليل النظيف على الكثير الرديء وإجادة المضغ وتفضيل الأكل في جماعة (ص ٩٣ - ٩٨) وفي فصل النوم يستثير الدافعية Motivation والنشاط (ص ١٠٠ - ١٠٢) وفي فصل الزواج يتعرض لطرق ضبط الدافع الجنسي ؛ ومنها : الصوم ، والرياضة ، والجوع ، أي الإنهاك Exhaustion عمومًا (ص ١١٣ - ١١٥) وفي فصل آداب السؤال (ص ١١٦ - ١١٨) تظهر مفاهيم طلب المساعدة Help وشروطه ومنها عدم الإلحاح وأن يكون لضرورة وأن يكون الأخذ بقدر الكفاية . وفي فصل الابتلاء (ص ١٢٥ - ١٢٩) تقترب أفكاره من مفهوم الاتزان الوجداني Emotional-Stability والقدرة على تحمل المشقة Stress وأحداث الحياة Life-Events وتجنب الشعور بالعجز Helplessness .

أما الفصل الأخير فيختص بذكر آدابهم في الرخص : والمبدأ الأساسي هنا هو حديث رسول الله ﷺ : « **إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه** » ، وذكر السهروردي من تلك الرخص الاشتغال بالكسب لصاحب العيال أو الوالدين ، والمزاح الذي يخلو من الكذب والغيبة والسخف دون إكثار خاصة لذوي المكانة ، والمعانقة عند اللقاء لإثبات المودة ، وحب الرياسة مع ضرورة أن يعرف العبد مقدار نفسه فلا يرفعها فوق قدرها ولا يحطها ولا يطلب ما لا يناله ، وإظهار الطاعات والعبادات إذا كان الهدف أن يقتدي بها مقتدٍ دون رياء ، وتناول الأطعمة الطيبة ولكن ليس على سبيل العادة ولكن بين فاقة سابقة ورياضة لاحقة ، ومن الرخص : الهرب من الهوان ومن تحمل

الأذى والجفاء ، واجتناب المعاداة ، والانبساط إلى الأصدقاء وزيارتهم دون استدعاء إذا كانت الزيارة تسرهم ، والمعاتبة للإخوان بهدف إزالة الخلاف وتطهير القلب من الغل والحقد ، ومن آدابهم قبول العذر ومدح الممدوح وذم المذموم ومراعاة الصدق في الحالتين دون اتباع الهوى ، ومن آدابهم البكاء عند المصيبة من غير نوح أو رفع صوت ، ومنها أيضًا نهب النشار وهو ما يفرق في الأفراح والمناسبات السعيدة دون شره لإدخال السرور على صاحبه .

ومن المفاهيم هنا الاعتدال في العمل Work والمرح Fun خاصة لذوي المكانة الاجتماعية المرتفعة High Social Status حرصًا على احترام الآخرين لهم (ص ١٣٤ ، ١٣٥) .

ومن المفاهيم أيضًا التعبير عن الحب Expression of Love (ص ١٣٦) وحب القيادة Leadership أو الرئاسة Headship (ص ١٣٦) واحترام الذات Self-Respect واعتدال في مستوى الطموح Level of Aspiration من خلال عدم التطلع إلى ما لا ينال (ص ١٣٦) ، وكذلك أهمية التعليم بالعبرة Vicarious Learning أو التعليم بالمشاهدة Observational Learning (ص ١٣٧) وهو تعلم ناشئ من مشاهدة شخص آخر يسمى القدوة Model يصدر الاستجابة المرغوبة مما يغري الشخص الذي يجرى تعليمه بإصدار نفس الاستجابة المرغوبة ، ومن المفاهيم السيكولوجية أيضًا تجنب النزاع والصراع Conflict والحث على التفاعل الاجتماعي Social Interaction والاتصال ومودة الأصدقاء Friends وفاعلية العتاب وشروطه كأسلوب لحل الصراع Conflict Resolution بين الأصدقاء (ص ١٤٠) ، وأخيرًا تقترب أفكار هذا الجزء من الصدق Truth والموضوعية Objectivity وتجنب الذاتية Subjectivity في الحكم على الأمور من خلال حثه على مدح الممدوح وذم المذموم دون اتباع الهوى (ص ١٤١) ، وكذلك التعبير المعتدل على الحزن عند المصبية كوسيلة للتفريغ الانفعالي والتخفيف النفسي Psychological Relief لتفادي الاضطراب النفسي الناجم عن كبت الانفعالات (ص ١٤٤) ، ثم مفهوم المشاركة الاجتماعية والمجاملة Courtesy في الأفراح والمناسبات السعيدة لإدخال السرور على الآخرين (ص ١٤٨ ، ١٤٩) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس .

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس الاجتماعي .

* * *

ابن ظفر الصقلي ، أبو عبد الله (ت ٥٦٥هـ)
السلوانات في مسامرة الخلفاء والسادات (١)

عرض : د. إبراهيم شوقي عبد الحميد

التعريف بالمؤلف :

هو ابن ظفر الصقلي المنعوت بحجة الدين أحد الأدباء الفضلاء ، عاش في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي ، وتوفي عام (٥٦٥هـ) .

عرض الكتاب :

- يندرج هذا الكتاب ضمن كتب سياسة المجتمعات .

- ألف هذا الكتاب على صورتين ، الأولى عام (٥٤٥هـ) ، والثانية عام (٥٥٤هـ) . وهو موجه من كاتبه إلى محمد بن أبي القاسم علي القرشي (القائد الصقلي) .

- طبع الكتاب بالقاهرة ١٢٧٨هـ ، وبتونس ١٢٧٩هـ ، وبيروت ١٣٠٠هـ ، وترجم إلى الإنجليزية ١٨٥١م في مجلدين ، وترجم أيضًا إلى اللغة التركية بواسطة قرة خليل زاده . وطبعت الترجمة في إستانبول ١٢٨٥هـ .

- يضم الكتاب خمس سلوانات تمثل خمسة أبواب ؛ هي :

١ - التفويض .

٢ - التأسي .

٣ - الصبر .

(١) حرره وراجعه وقدم له أبو نهلة أحمد بن عبد المجيد . (الرياض) : أسعد طرابزوني الحسيني ، ١٩٧٨م .

٤ - الرضا .

٥ - الزهد .

ويعرض لكل سلوانة بعض الأشعار والأخبار النبوية والحكايات الواقعية والخيالية ، والتي تخرج عن نطاق هدفنا من التقرير الحالي .

السلوانة الأولى : سلوانة التفويض :

ويقصد به التسليم لأحكام اللّه تعالى وأمره . ويبعث على التفويض الاعتقاد أن لا يكون من الخير والشر إلا ما أراد اللّه تعالى .

وأما ثمار التفويض فهي الوقاية ، قال تعالى : ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ [غافر : ٤٥] ويتصل مفهوم التفويض بمفهوم فلسفي وهو القدرية Fatalism والحتمية Determinism (انظر ص ١٨ - ٢٣) .

ويشير في موضع آخر (٢٩ - ٣٠) أن التدبير يفسده ثلاثة أسباب ؛ هي :

١ - أن يكثر الشركاء فيه .

٢ - أن يكون الشركاء في التدبير متحاسدين متنافسين ، فيدخل الهوى والبغي فيفسد .

٣ - أن يملك التدبير من غاب عن الأمر المدبر دون من باشره وشاهده . يتصل ما ورد بشأن ذلك السلوك الجماعي Group Behavior ومناظرته بالسلوك الفردي Individual Behavior من حيث التعاون Cooperation والمنافسة Competition .

ويتحدث الكاتب عن الرأي Opinion في (صفحة ٣١ وما بعدها) ومما ذكره أن (الرأي مرآة العقل فمن أردت أن ترى صورة عقله فاستشره) ، وإن (كل رأي لم تتمحص فيه الفكرة ليلة كاملة فهو مولود لغير تمام) (انظر ص ٣٧ ، ٣٨) .

ويشير الكاتب في موضوع آخر (ص ٣٩) إلى أنواع الحب أو الرق وهو ما يتصل بمفهوم الوجدان Affection والخضوع Submission ، والتبعية Dependence .

وهذه الأنواع كالتالي :

١ - رق الاختراع (رق اللّه صانع الأشياء ومخترعها) .

٢ - رق الاصطناع (رق المنعم عليه للمنعم) .

٣ - رق الاتباع وهو نوعان :

(أ) رق الحب (وهو أقربها إلى رق الاختراع) .

(ب) ورق الرعية لراعيها ورق العبيد لساداتها .

ويذكر الكاتب في مواضع متفرقة ما يشير إلى دور الحالة الانفعالية (كشهوة أو غضب) في إفساد الرأي ، وهو ما يشير إلى دور الجوانب المزاجية والنفسية في التأثير على الرأي (انظر ص ٤٢ ، ٤٦ ، ٥٤ ، ٥٥) .

وفي صفحة (٤٣) نجد إشارة إلى دور التخيل Imagination في التأثير على الرأي Opinion والتفكير Thinking حيث يذكر (من قوى فكره فهو سلطان الرأي غالب ، ومن ضعف فكره فهو سلطان الهوى غالب) .

السلوانة الثانية : سلوانة التأسي :

يعرض لآيات قرآنية تختص بالتأسي ، ثم يعرض نقدًا لمعنى التأسي عند الأئمة ، وهو أن تنظر إلى أسى غيرك ، أي حزنه ، وأنه مثل أساك – أي حزنك – فتصبر ، والأسى هو الحزن . ويذكر أن التأسي هو التطيب والتداوي بالصبر ، أسوت الجرح ، أي داويته . (انظر ص ٤٨) .

ويشير الكاتب في (ص ٥٩ ، ٦٠) إلى أن هناك صراعًا دائمًا بين العقل Mind والنفس Self فإذا سيطر العقل على النفس صلح حال الإنسان (أي يقترب من السواء Normality أما إذا سيطرت النفس على العقل ، كان سعيها فاسدًا وميولها مذمومة (أي يقترب من الشذوذ Abnormality) . ويلاحظ هذا التصور الدينامي للصراع النفسي Psycho Conflict وعدم التوافق الشخصي Personal maladjustment .

السلوانة الثالثة : سلوانة الصبر :

يعتبر الصبر ثمرة التأسي ، وهو يعنى الثبات والحبس والإمساك . والصبر يكون بالثبات على ما قد يتحلى به الإنسان من صفات طيبة ، كما يشير إلى أن من يتصف بأطيب الصفات ويفتقر إلى الصبر فهو كمن لم يتصف بها (انظر ص ٧٥) ويرتبط أحد معاني الصبر وهو الصبر على موقف أو رأي معين بمفهوم المثابرة Persistence في علم النفس .

وفي موضوع آخر (ص ٧٩) يشير مفهوم الشره حيث يذكر أن (الشره أعرق الخصائل في اللؤم ، فالحرص أبوه الذي يولده ، والبغي ابنه الذي يلده ، والطمع شقيقه والذل رفيقه) . كما يذكر أنه : (كان يقال من شره وقع فيما كره . وإن الشره شدة

ينتجها طبع ويهيجها طمع) .

السلوانة الرابعة : سلوانة الرضا :

يشير الكاتب في هذا الفصل إلى قول الرسول ﷺ : « **اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء** » ، أي أن الرضا لا يتحقق إلا بعد حصول القضاء (انظر ص ١٠١) .

وعن تعريف الرضا ، أورد الكاتب ما كتبه عمر بن الخطاب ﷺ إلى أبي موسى الأشعري ، وهذا نصه : « أما بعد فإن الخير كله في الرضا ، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر . اعلم - رحمك الله - أن الرضا هو إطراح الاقتراح على العالم بالإصلاح ، إذا كان القدر حقًّا ، كان سخطه حمقًا ، من رضي حظي ، ومن ترك الاقتراح أفلح واستراح ، كن بالرضا عاملًا قبل أن تكون معمولًا ، وسر إليه عادلًا وإلا صرت إليه معدولًا » (انظر ص ١٠٢) ويتصل هذا المفهوم (الرضا) Satisfaction بالتوافق النفسي Psychological Adjustment .

ويشير الكاتب (في صفحة ١١٨) إلى أن « أصل المؤدبين سعيًا من رام من المتأدب أن يعاونه على نفي طبعه عنه ، وكيف وطبعه أولى به وأقرب إليه ، ولآثر عنده من مؤدبه ، ولكن المؤدب الماهر من طالب المتأدب بستر المذموم من طباعه وتعميمه والتورية عنه » ، ويتصل هذا المعنى بأحد المفاهيم الأساسية في علم النفس الاجتماعي وهو التنشئة الاجتماعية Socialization وتعديل السلوك Behavior Modification .

السلوانة الخامسة : سلوانة الزهد :

ويعرض الكاتب لأشعار ، وخبر نبوي ، ومنثورات عن الزهد في الدنيا ومتاعها الفاني ، وهو ما يتصل بقمع الدوافع الفطرية الأولية Suppression of Innate Motives أو قمع الغرائز Suppression of Instincts .

* * *

ابن طفيل (ت ٥٧١هـ)
حي بن يقظان [1] : قصة تربوية فلسفية

عرض : د. شعبان جاب الله رضوان

التعريف بالمؤلف [2] :

ولد أبو بكر عبد اللّه بن طفيل في « قادس » من إقليم « غرناطة » ، درس الطب والرياضيات والتنجيم والفلسفة ، عمل حاجبًا لحاكم « غرناطة » ، ثم انتقل إلى « مراكش » في عهد دولة الموحدين وقدمه « ابن رشد » إلى الخليفة « أبي يعقوب يوسف » فأصبح وزيرًا وطبيبًا له . وتوفي بمراكش عام (٥٧١هـ) .

عرض الكتاب :

يبدأ المؤلف هذا الكتاب ببيان الباعث على تأليف الرسالة ، ورأيه في عدد من الفلاسفة ؛ وهم : ابن ماجه ، والفارابي ، وابن سينا ، والغزالي ، ثم يعرض لقصة حي بن يقظان ، فيشير إلى أن حي بن يقظان قد نشأ في جزيرة من جزائر الهند التي تقع تحت الاستواء ، وهي الجزيرة التي يتولد بها الإنسان من غير أم ولا أب ، وهي أعدل بقاع الأرض هواء ، وقد نما حي وتربى بين الظبية التي تكفلت به وألفها ، وشرب لبنها ، إلى أن تم الحولان ، كما كانت ترفق به وتطعمه وتحمله إلى مواضع فيها شجر مثمر ، وظل الطفل مع هذه الظباء على تلك الحال يحاكي نغمتها بصوته حتى لا يكاد يفرق بينهما ، وأكثر ما كانت محاكاته لأصوات الظباء في الاستصراخ والاستئلاف والاستدعاء

---

(١) تحقيق عبد الأمير شمس الدين . ط. ٢ : بيروت : دار اقرأ ، ١٩٨٦م (ص ١٠٠) .
(٢) تاريخ الفكر الفلسفي ، د. محمد علي أبو ريان ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ، (١٩٨٠م) .

والاستدماغ ؛ إذ للحيوانات في هذه الأحوال المختلفة أصوات مختلفة .

ويتصل هذا المعنى بمفهوم المحاكاة أو التقليد Imitation ، ص ٨٨ ، ويندرج مفهوم المحاكاة تحت موضوع التعليم Learning في علم النفس العام .

وتميزت حياة حي بين الظبيان بالميل نحو التجربة ومعرفة ما يحيط به من أشياء ، والتفكير والنظر فيها ، فعندما ماتت الظبية نظر إلى جميع أعضائها الظاهرة فلم ير فيها آفة ظاهرة ، وعندئذ وقع في خاطره أن الآفة التي نزلت بها إنما هي في عضو غائب عن العيان ، مستكن في باطن الجسد ، وأن ذلك العضو لا يغنى عنه في فعله شيء من هذه الأعضاء الظاهرة فلما نزلت به الآفة عمت المضرة ، وطمع لو أنه عثر على ذلك العضو وأزال عنه ما نزل به لكي تعود الأفعال إلى ما كانت عليه .

وظل يفكر في موضع هذا العضو من الجسد حتى جزم الحكم أنه في الصدر ، فأجمع على البحث عنه لعله يظفر به ويزيل الآفة ، وعزم على شق صدر هذه الظبية وتفتيش ما فيه ، واتخذ من كسور الأحجار الصلدة آلة كالسكينة وشق بها ما بين أضلاعها ، فما زال يفتش في وسط الصدر حتى وجد القلب وهو مجلل بغشاء قوي ، فجرده ليبحث عن الآفة التي به ، وظل « حي » يتتبع ذلك كله بتشريح الحيوانات الأحياء والأموات ، ولم يزل يمعن النظر فيها ويجيد الفكرة حتى بلغ في ذلك كله مبلغ كبار الطبيعيين ، فتبين له أن كل حيوان ، وإن كان كثيرًا بأعضائه وتفنن حواسه وحركاته فإنه واحد بذلك الروح الذي مبدؤه من قرار واحد ، وانقسامه في سائر الأعضاء منبعث منه ، وأن جميع الأعضاء إنما هي من خادمة له أو مؤدية عنه ، فالروح الحيواني واحد ، وإذا عمل بآلة العين كان فعله إبصارًا ، وإذا عمل بآلة الأذن كان فعله سمعًا ، وإذا عمل بآلة الأنف كان فعله شمًا وإذا عمل بآلة اللسان كان فعله ذوقًا وإذا عمل بالجلد واللحم ، كان فعله لمسًا ، وإذا عمل بالعضد كان فعله حركة ، وإذا عمل بالكبد كان فعله غذاءً واغتذاءً ولكل واحد من هذه أعضاء تخدمه ، ولا يتم لشيء من هذه إلا بما يصل إليها من ذلك الروح ، عن الطريق التي تسمى عصبًا ، ومتى انقطعت تلك الطرق أو انسدت تعطل فعل ذلك العضو ، وهذه الأعصاب إنما تستمد الروح من بطون الدماغ ، والدماغ فيه أرواح كثيرة ، لأنه موضع تتوزع فيه أقسام كثيرة .

وتتصل هذه الإشارة عن الأعصاب والدماغ بفرع علم النفس الفسيولوجي (ص ٩٩) Physiological Psychology .

وقد بلغ « حي : من العمر في هذه المرحلة واحدًا وعشرين عامًا ، وقد اهتدى في هذه المدة إلى استعمال الآلات ، فاكتسى بجلود الحيوانات التي كان يشرحها واحتذى بها ، كما اهتدى إلى البناء وعدد كبير من الحيل والمهارات التي استطاع من خلالها أن يتكيف مع بيئته ؛ وذلك بفضل التأمل والتفكير والنظر ، والملاحظة لعناصر ومكونات هذه البيئة من حيوان ونبات وجماد وهواء وماء ونار وغيرها ، وأدرك أوجه الشبه والاختلاف بينها .

وقد خلص إلى أن حقيقة الروح الحيواني مركبة من معنى الجسمية ، ومعنى آخر زائد على الجسمية يعبر عنه بالنفس ، كما أنه علم أن السماء وما فيها من الكواكب أجسام ؛ لأنها ممتدة الأقطار الثلاثة : الطول والعرض والعمق ، لا ينفك شيء منها عن هذه الصفة ، وكل ما لا ينفك عن هذه الصفة فهو جسم فهي إذًا كلها أجسام ، وأن كل جسم متناهٍ ومحدود بحدود لا تنقطع عندها ولا يمكن أن يكون وراؤها شيء من الامتداد .

وبالإضافة إلى الملاحظات السابقة ، نظر حي إلى الشمس والقمر وسائر الكواكب فرآها تطلع من جهة المشرق وتغرب من جهة المغرب ، فتبين له أن الفلك على شكل الكرة ، وقوّى ذلك في اعتقاده ، ما رآه من رجوع الشمس والقمر وسائر الكواكب إلى المشرق بعد مغيبها بالمغرب ، وما رآه أيضًا من أنها تظهر لبصره على قدر واحد من العظم في حال طلوعها وتوسطها وغروبها ، وأنها لو كانت حركتها على غير شكل الكرة لكانت لا محالة في بعض الأوقات أقرب إلى بصره منها في وقت آخر ، ولو كانت كذلك لكانت مقاديرها وأعظامها تختلف عند بصره ، فيراها في حال القرب أعظم مما يراها في حال البعد لاختلاف أبعدها عن مركزه حينئذ بخلافها عن الأول ، فلما لم يكن شيء من ذلك ، تحقيق عنده كروية الشكل .

وأخذ يتساءل أيضًا عن العالم بجملته : هل هو حديث أم قديم ؟ وذلك لعدة سنين ، فتتعارض عنده الحجج ولا يتراجح عنده أحد الاعتقادين على الآخر ، ولكنه مع هذا التشكك في قدم العالم أو حدوثه ، صح له على الوجهين جميعًا وجود فاعل غير جسم ولا متصل ولا منفصل بجسم عنه ولا داخل فيه ولا خارج عنه ، حيث إن الاتصال والانفصال والدخول والخروج هي كلها من صفات الأجسام وهو منزه عنها ، وتفتقر الموجودات في وجودها إلى هذا الفاعل ، وإنه لا قيام لشيء منها إلا به فهو إذًا علة لها ، وهي معلولة له ، وهو ﷻ يتسم بصفات الكمال والجمال ولا سبيل إلى إدراج الموجود

الواجب الوجود (الله) إلا بشيء ليس بجسم وهو الذات ، فحقيقة الذات هي الشيء الذي يدرك الموجود المطلق الواجب الوجود وهذه الذات لا يمكن أن تبيد أو تفسد أو تضمحل .

ويشير ابن طفيل في هذا السياق إلى أن الذات الحقيقية التي تعرفت بهذا الموجود الواجب الوجود ، وعلمت ما هو عليه من الكمال والعظمة والقدرة ، وذلك قبل مفارقتها للبدن ، فإنها تبقى بعد مفارقة البدن في لذة لا نهاية لها ، وغبطة وسرور ، وأما من يعرض عن هذا ويتبع هواه حتى توافيه المنية وهو على ذلك الحال فيحرم المشاهدة ، وتبقى في عذاب طويل وآلام لا نهاية لها .

كما يشير ابن طفيل إلى أنه عندما تبين لحي بن يقظان أن كمال ذاته ولذتها إنما هو بمشاهدة ذلك الموجود الواجب الوجود على الدوام ، مشاهدة بالفعل أبدًا ، أخذ يتفكر كيف يتأتى له دوام هذه المشاهدة بالفعل ، فجعل يتصفح أنواع الحيوانات كلها وينظر أفعالها وما تسعى فيه ، لعله يتفطن في بعضها أنها شعرت بهذا الموجود وجعلت نحوه فيتعلم منها ما يكون سبب نجاته ، فرآها كلها إنما تسعى في تحصيل غذائها ومقتضى شهواتها من المطعوم والمشروب والمنكوح إلى حين مماتها ، فبات له بذلك أنها لم تشعر بذلك الموجود ، وعلم أن هذا الحكم على النبات أولى ؛ إذ ليس له من الإدراكات إلا بعض ما للحيوان . ولكنه رأى أن الأجسام السماوية تختلف عن ذلك ، فهي تعرف ذلك الموجود لواجب الوجود وتشاهده على الدوام بالفعل ؛ لأن العوائق التي قطعته عن دوام المشاهدة من العوارض المحسوسة لا يوجد مثلها للأجسام السماوية . ولما كان قد اعتبر أحوال الحيوان ، ولم ير فيها ما يظن بها أنها شعرت بالموجود الواجب الوجود ، وقد علم من ذاته أنها قد شعرت به ، قطع بذلك على أنه هو الحيوان المعتدل الروح ، الشبيه بالأجسام السماوية ، وتبين له أنه من نوع مباين لسائر الحيوان ، وإنه إنما خلق لغاية أخرى وأعد لأمر عظيم ، وأدرك حي من خلال هذا التفكر أنه بجزئه الأشرف الذي عرف به الموجود الواجب الوجود ، فيه شبه ما منه من حيث هو منزه عن صفات الأجسام ، كما أنه الواجب الوجود منزه عنها ، فرأى أنه يجب عليه أن يسعى في تحصيل صفاته لنفسه من أي وجه أمكن ، وأن يتخلق بأخلاقه ويقتدي بأفعاله ويجد في تنفيذ إرادته ، ويسلم الأمر له ، ويرضى بجميع حكمه ، رضًا من قلبه ظاهرًا وباطنًا ، بحيث يسر به وإن كان مؤلما لجسمه ، وضارًا به ومتلفًا لبدنه بالجملة .

وكذلك رأى أيضًا أن فيه شبهًا من سائر أنواع الحيوان بجزئه الخسيس الذي هو من

عالم الكون والفساد ، وهو البدن المظلم الكثيف الذي يطالبه بأنواع المحسوسات من المشروب والمنكوح ، كما رأى أن ذلك البدن لم يخلق عبثًا ولا قرن به لأمر باطل ، وأنه يجب عليه أن يتفقده ويصلح من شأنه ، وهذا التفقد لا يكون منه إلا بفعل يشبه أفعال سائر الحيوان ، فاتجهت عنده الأعمال التي يجب عليه أن يفعلها نحو ثلاثة أغراض :

١ - إما عمل يتشبه به بالحيوان غير الناطق .

٢ - وإما عمل يتشبه به بالأجسام السماوية .

٣ - وإما عمل يتشبه به بالموجود الواجب الوجود .

وكان حي قد وقف على أن سعادته وفوزه من الشقاء إنما هي في دوام المشاهدة لهذا الموجود الواجب الوجود ، حتى يكون بحيث لا يعرض عنه طرفة عين ، ثم إنه نظر في الوجه الذي يتأتى له به هذا الدوام ، فأخرج له النظر أنه يجب عليه الاعتماد في هذه الأقسام الثلاثة من التشبهات .

فالتشبه الأول : لا يحصل له به شيء من هذه المشاهدة ؛ لأنه يختص بالأمور الحسية ، وأما الثاني : فيحصل له به حظ عظيم من المشاهدة على الدوام ، لكنها مشاهدة يخالطها شوب ، وفيما يتعلق بالتشبه الثالث : فتحصل به المشاهدة الصرفة والاستغراق المحض الذي لا التفات فيه بوجه من الوجوه إلا إلى الموجود الواجب الوجود ، والذي يشاهد هذه المشاهد قد غلبت عنه ذات نفسه وفنيت وتلاشت وكذلك سائر الذوات ، كثيرة كانت أو قليلة ، إلا ذات الواحد الحق الواجب الوجود ، جل تعالى وعز .

ويشير ابن طفيل في هذا السياق إلى ما شاهده « حي بن يقظان » في مقام أولي الصدق ، فيذكر أنه بعد الاستغراق المحض والفناء التام وحقيقة الوصول ، شاهد الفلك الأعلى الذي لا جسم له ورأى ذاتًا بريئة عن المادة ، ليست هي ذات الواحد الحق ولا هي نفس الفلك ولا هي غيرهما ، كأنها صورة الشمس التي تظهر في مرآة من المرائي الصقيلة ، فإنها ليست هي الشمس ولا المرآة ولا هي غيرهما . ورأى لذات ذلك الفلك المفارقة من الكمال والبهاء والحسن ، ما يعظم من اللذة والسرور والغبطة والفرح بمشاهدة ذات الحق ﷻ .

وظل يشاهد لكل فلك ذاتًا مفارقة بريئة عن المادة ، ليست هي شيئًا من الذوات التي قبلها ولا غيرها ، وكأنها صورة الشمس التي تنعكس من مرآة على مرآة ، على رتب مرتبة بحسب ترتيب الأفلاك . وشاهد لكل ذات من هذه الذوات من الحسن والبهاء

واللذة والفرح ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، إلى أن انتهى إلى عالم الكون والفساد .

وهناك مشاهد أخرى يعرضها ابن طفيل في هذا السياق .

وظل « حي بن يقظان » يشتاق العودة إلى هذا المقام الكريم ، حتى وصل إليه بأيسر من المرة الأولى وكان دوامه فيها أطول ، ثم عاد إلى عالم الحس ، وتكلف الوصول إلى مقامه بعد ذلك فكان أيسر عليه من الأولى والثانية وكان دوامه أطول .

وظل على هذا النحو ، حتى صار بحيث يصل إليه متى شاء ، وحينئذ بلغ عمره خمسين عامًا ، وقد اتفقت له صحبة « أسال » الذي نشأ في جزيرة قريبة من تلك التي نشأ بها حي بن يقظان ، وقد انتقلت إليها ملة من الملل الصحيحة المأخوذة عن بعض الأنبياء المتقدمين صلوات اللّه عليهم ونشأ مع « أسال » فتى آخر يسمى « سلامان » وقد قَبلا تلك الملة أحسن قبول ، وأخذا على أنفسهما بالتزام جميع شرائعها والمواظبة على أعمالها ، واصطحبا على ذلك . ولكن « أسال » كان أشد غوصًا في الباطن وأطمع في التأويل وكان « سلامان » أكثر احتفاظا بالظاهر وأشد بُعدًا عن التأويل . وتعلق « أسال » بطلب العزلة ، وفضل « سلامان » ملازمة الجماعة ؛ حيث كانت ملازمة الجماعة عنده مما يدرأ الوسواس ويزيل الظنون المعترضة ، وكان اختلافهما في هذا الرأي سبب افتراقهما ، وجدير بالذكر أن هذه الإشارة إلى أن وجود الفرد في ظل جماعة يدرأ الوسواس ، تتصل بمفهوم الوسواس Obsession (ص ١٥٥) في علم النفس الإكلينيكي Clinical Psychology .

ويشير ابن طفيل بعد ذلك إلى أن « أسال » قد سمع عن الجزيرة التي نشأ بها « حي ابن يقظان » وما تتمتع به من خصب وهواء معتدل ، وأن الانفراد بها يتأتى لملتمسه ، فعزم أن ينتقل إليها ويعتزل الناس بها بقية عمره ، فودع صاحبه « سلامان » وركب متن البحر حتى وصل إلى تلك الجزيرة وبقي بها يعبد اللّه ﷻ حتى قابل « حي بن يقظان » فهرب منه خيفة أن يشغله عن العبادة ، لكن « حي بن يقظان » ظل يتبعه حتى قرب منه ، وسمعه يقرأ ويسبح بصوت وحروف منظمة لم يعهد مثلها من الذوات العارفة بالحق ، فتشوق إليه وأراد أن يرى ما عنده وما الذي أوجب بكاءه وتضرعه ، فدنا منه وظل يتقرب إليه حتى سكن جأش « أسال » وعلم أنه لا يريد به سوءًا ، فأخذ « أسال » يسائله عن شأنه ، وحي بن يقظان في ذلك كله يتعجب مما يسمع ولا يدري ما هو ،

غير أنه يظهر له البشر والقبول فاستغرب كل واحد من أمر صاحبه ، وشرع « أسال » يعلمه الكلام بأن يشير له إلى أعيان الموجودات وينطق بأسمائها ، ويكرر ذلك عليه ويحمله على النطق بها مقترنًا بالإشارة ، حتى علمه الأسماء كلها ، ودرجه قليلًا قليلًا حتى تكلم في أقرب مدة ، فجعل « أسال » يسأله عن شأنه ومن أين صار إلى تلك الجزيرة ، فأعلمه « حي بن يقظان » أنه لا يدري لنفسه ابتداءً ولا أبًا ولا أمًّا أكثر من الظبية التي ربته ، ووصف له شأنه كله وكيف ترقى بالمعرفة حتى انتهى إلى درجة الوصول .

وتجدر الإشارة إلى أن ما ذكره ابن طفيل حول كيفية تعلم « حي بن يقظان » للكلام بموضوع التعلم Learning (ص ١٥٧) في علم النفس العام .

وفي نهاية هذه القصة ، يشير ابن طفيل إلى أنه لا تعارض بين ما ورد في الشريعة من وصف العلم الإلهي ، والجنة والنار ، والبعث والنشور ، والحشر والحساب ، والميزان والصراط ، وبين ما شاهده « حي بن يقظان » في مقامه الكريم « أي بين حقائق الدين وحقائق المشاهدة .

* * *

ابن رشد ، أبو الوليد (ت ٥٩٥هـ)
فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة [١] والحكمة من الاتصال

عرض : د. معتز سيد عبد اللّه

التعريف بالمؤلف :

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد ولد في قرطبة (في الأندلس) (٥٢٠هـ – ١١٥٦م) في بيت اشتهر بالعلم والفقه : فكان جده من أشهر زمانه تضلعًا في الفقه ، وقد ولي منصب قاضي القضاة في الأندلس ، وكان والده قاضي قرطبة .

وقد درس ابن رشد العقيدة على الطريقة الأشعرية ، والفقه على المذهب المالكي ، ثم درس الطب والرياضيات والحكمة ، وفي عام (٥٤٧هـ/١١٥٣م) دعاه عبد المؤمن ، أول الملوك الموحدين ، إلى مراكش ليعاونه على إنشاء معاهد العلم هناك . ثم اتصل بأبناء زهر ، من مشاهر الأطباء ، ووضع ابن رشد كتابًا في الطب اسمه « الكليات » . وفي مراكش اتصل عن طريق ابن طفيل بالخليفة أبي يعقوب يوسف عبد المؤمن ، الذي كان ذا ثقافة واسعة ومحبًا للعلم وأهله ، وكان هذا الخليفة قد أظهر رغبة أمام ابن طفيل ، في أن تفسر كتب أرسطو وتلخص لدفع الشك الذي كان يحوم حولها . ولما كانا ابن طفيل متقدمًا في السن طلب من ابن رشد أن يقوم بهذه المهمة ، فأكب على دراسة أرسطو بكل جهد ، وكان له علم سابق بفلسفته .

وفي عام (٥٦٤هـ/١١٦٩م) عينه الخليفة قاضيًا في أشبيلية ، فلخص ابن رشد في هذه السنة « كتاب الحيوان » لأرسطو . وفي عام (٥٦٦هـ/١١٧١م) عينه أبو يعقوب

---

(١) قدم له وعلق عليه : ألبير نصري نادر ط. ٥ بيروت : دار المشرق ، ١٩٨٦م . (ص ٦٧) .

قاضيًا في قرطبة ، وبقي في هذا المنصب مدة تزيد على العشر سنوات ، شرح فيها كتاب « ما بعد الطبيعة » لأرسطو وعدة كتب أخرى . وفي عام (٥٧٧هـ/١١٨٢م) استدعاه الخليفة إلى مراكش وجعله طبيبه الخاص ، ثم عاد إلى قرطبة بوظيفة قاضي القضاة .

وبعد وفاة أبي يعقوب خلفه أبو يوسف الملقب بالمنصور (٥٧٩هـ/١١٨٤م) فلقي ابن رشد في بادئ الأمر ، ما لقي على يدي والده من حظوة وإكرام ، وأصبح في ذلك الزمان « سلطان العقول والأفكار » لا رأي إلا رأيه ولا قول إلا قوله ، الأمر الذي أثار حسد الفقهاء والملتزمين وحقدهم الذين رموه بالكفر والزندقة فتمكنوا من قلب الخليفة عليه ، وانتهى الأمر إلى نفيه إلى قرية تدعى اليسانة قرب قرطبة .

إن نقمة الخليفة على ابن رشد كانت إرضاء « لخصومه » ، وذلك أن هذه النقمة اقتصرت على النفي دون الإعدام . وبعدما عاد الخليفة إلى مراكش وتحرر من ضغط علماء الأندلس ، عفا عن ابن رشد ، واستقدمه إليه وأعاده إلى سالف نعمته ، وكأن هذه النكبة كانت قد أثرت تأثيرًا عميقًا في ابن رشد . فلم يعمر طويلًا بعد العفو عنه ؛ إذ توفي في مراكش عام (٥٩٥هـ/١١٩٨م) ، (أي بعد بضعة أشهر من العفو) ودفن في مدافن عائلته بقرطبة .

ويذكر ابن أبي أصيبعة أن مؤلفات ابن رشد بلغت خمسين كتابًا ، ولكن رينان يقول - معتمدًا على مخطوط محفوظ في خزانة السكوريال - : إنها تمثل ثمانية وسبعون كتابًا ورسالة ، المطبوع منها قليل ، ولا يزال القسم الأكبر منها مخطوطًا ، ومنها ما ضاع أصله العربي ، ولم يصل إلينا إلا في ترجمة عبرية أو لاتينية ، وتنقسم هذه المؤلفات إلى قسمين كبيرين :

١ - شروحات لكتب الأقدمين ، ولا سيما كتب أرسطو وأفلاطون والأفروديي ، وبعض كتب فلاسفة الإسلام ؛ مثل : الفارابي وابن سينا والغزالي ، وأهمها شرح ما بعد الطبيعة ، وشرح كتاب النفس ، وتلخيص كل من كتب الأخلاق ، وكتاب السماع الطبيعي ، وكتاب الكون والفساد ، والبرهان وكلها لأرسطو .

٢ - كتب من تأليفه ؛ ومنها : الكتاب الحالي « فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » ، كتاب « الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة وتعريف ما وقع فيها بحسب التأويل من الشبه المزيفة والبدع المضلة » في علم الكلام و « تهافت التهافت » وهو نقض لكتاب الغزالي « تهافت الفلاسفة » .

مصدر الترجمة : كتاب فصل المقال لابن رشد ، ترجمة المحقق ألبير نصري نادر

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٦٧ صفحة من القطع المتوسط ، يدور مضمونها حول بعض القضايا والمسائل الخاصة والمنطق والشريعة . وينهي المحقق الكتاب بتقديم فهرس مفصل لموضوعات الكتاب .

وقد استهل ابن رشد كتابه بسؤال : هل الشرع يبيح البحث الفلسفي أو يأمر به أم يحظره ؟ ويجيب على هذا السؤال مستشهدًا بعدد من الآيات القرآنية التي تحث على البحث المنطقي ؛ مثل ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [الحشر : ٢] . وعلى هذا الأساس اعتبر ابن رشد البحث الفلسفي مشروعًا وواجبًا على أهل البرهان . ولما كان التفكير الفلسفي يقوم على المنطق ، وللمنطق أقسامه وقواعده ، كان علينا أن ندرسها أولًا حتى نحسن استخدام المنطق وأهم أقسام المنطق البرهان والقياس ، ولكل منها أنواع وشروط ولا يعتبر استخدام القياس العقلي (المنطق) بدعة . ومن الضروري على مستخدم القياس العقلي أن يبحث عن أنواعه وقواعده عند من سبقه في هذا المجال ؛ إذ يستحيل على شخص واحد أن ينشئ علمًا كاملًا بمفرده . وهذا واضح جلي من جميع العلوم . فهل يستطيع شخص واحد بمفرده أن ينشئ مثلًا علم الهندسة والفلك ويقدر المسافة بين القمر والأرض ؟ وعلينا أن نرجع إلى كتب من سبقنا ، وبحث في المنطق فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم وسررنا به ، وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه ، وحذرنا منها وعذرناهم .

ويلاحظ أن المنطق آلة يمكن أن نحسن استخدامها ، فيفيدنا حينئذ ، أو نسيء استخدامها فيضرنا ، تمامًا مثل من لا يحسن شرب الماء فيختنق به ، لا لأن الماء مميت في ذاته ، ولكن لسوء استخدام الإنسان له أصبح الماء مميتًا . ولكن هل يستطيع جميع الناس أن يستعملوا المنطق ؟ كلا ؛ إذ إن فطر الناس متفاوتة ، فمنهم من يصدق بالبرهان ، ومنهم من يصدق بالجدل ، ومنهم من يصدق بالأقاويل الخطابية ؛ لذلك جاء الشرع ليرضي هذه الفئات الثلاث من الناس : فمنهم من يأخذ الشرع على ظاهره ، ومنهم من يحاول فهمه ، ومنهم من يبحث عن معناه الباطن . وواجب على هذه الفئة الثالثة ألا تأخذ الشرع على ظاهره لما لها من استعداد للنظر فيه ، كما وإنه واجب على الفئة الأولى أن تأخذ الشرع على ظاهره ؛ لأنها لا تستطيع خلاف ذلك ، غير أن الشرع

لا يجب أن يؤول كله ، كما وإنه لا يجب أن يؤخذ كله على ظاهره ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها الجزء السابق من الكتاب هي : التفكير Thought (ص ٢٨) والقياس Measurement وبوجه خاص القياس العقلي (ص ٢٨ - ٣٢) والإدراك الحسي Perception (ص ٣٢ ، ٣٣) . والمعرفة Knowledge (ص ٣٣ - ٣٥) ، والفروق الفردية Individual Differences (ص ٣٦) .

ولما كانت فطر الناس متباينة ، وجاء الشرع وفيه الظاهر والباطن ، فقد ثبت حق التأويل لأهل البرهان ، فكيف يقطع إذًا الغزالي بتكفير الفارابي وابن سينا في كتاب « التهافت » وفي ثلاث مسائل اجتهدوا فيها ، وهي قولهم بقدم العالم ، وبأن اللّٰه لا يعلم الجزئيات ، وتأويلهم مسألة حشر الأجساد وأحوال المعاد ؟ يلاحظ ابن رشد أن تكفير الغزالي للفارابي وابن سينا لم يكن قطعًا ؛ لأن الغزالي صرح في كتاب « التفرقة » أن التكفير بخرق الإجماع فيه احتمال وبعد أن أثبت ابن رشد حق الفلاسفة في التأويل ، قام باستعراض المسائل التي كفر بها الغزالي في كتاب « التهافت » ، وحلل كلًّا منها تحليلًا منطقيًّا ، وأهم المفاهيم السيكولوجية في هذا الجزء : العلم : (ص ٣٩ ، ٤٠) ، والفروق الفردية (ص ٤٦ ، ٤٧) .

وينتقل ابن رشد بعد ذلك إلى مقصود الشرع ، فيقول : إن هذا المقصود هو تعليم العلم والحق والعمل الحق ، أما العلم الحق فإنه ينحصر في معرفة الموجودات على حقيقتها ، ومعرفة السعادة الأخروية والشقاء الأخروي ، والعمل الحق هو عمل ما يفيد السعادة ويجنب ما يفيد الشقاء . والعمل ينقسم إلى أفعال ظاهرة ، هي موضوع الفقه ، وإلى أفعال نفسانية ؛ مثل : الشكر والصبر ، وهي موضوع الزهد . فيستعرض ابن رشد طرق التعليم ويردها إلى قسمين : التصور والتصديق . والتصديق يكون إما بالبرهان ، وإما بالجدل ، وإما بالخطابة ، والتصور إما أن يكون بتصور الشيء وإما مثاله . ولما كان الناس يختلفون بطباعهم ؛ لذلك جاء الشرع مشتملًا على جميع أنحاء طرق التعليم هذه ، حتى يجد كل واحد ما يلائم طبعه واستعداده .

ويلاحظ ابن رشد أن أكثر الناس يصدقون بالخطابة والجدل ، والقليل جدًّا منهم يصدقون بالبرهان ؛ لذلك جاء الشرع متفقًا مع الأغلبية ، أي أن في ظاهره ما يرضي هذه الفئة الغالبة في الناس . وهذا لا يعني أن الشرع يؤخذ كله على ظاهره ، بل على الخواص أن يؤولوه حتى يدركوا حقيقته التي تتناسب واستعدادهم .

ولما كان الناس على ثلاثة أصناف : خطابيين ، وجدليين ، وبرهانيين ، يجب أن يحفظ التأويل في نطاق رجال البرهان ، وفي مؤلفاتهم ، مخالفة أن يؤدي التصريح به لمن هو ليس أهلًا إلى الكفر . فالمصرح بالتأويل كافر لذلك . ويأسف ابن رشد لما صرحت به بعض الفرق الإسلامية ، من المعتزلة والأشاعرة ، من تأويلات وكان بعضها يكفر البعض الآخر ، حتى إنهم أوقعوا الناس في حيرة من أمر الشارع ، وكانوا سببًا في تمزيق المؤمنين إلى فرق ؛ وفي ختام هذا الكتاب يوجز ابن رشد ما جاء فيه وهو ليرجع إلى الكتاب العزيز (أعني القرآن) ، وألا يؤول منه إلا ما يحتاج إلى التأويل ، وألا يقوم بهذا التأويل إلا من هو أهل البرهان ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الجزء الأخير من الكتاب ؛ هي : العلم (ص ٤٩ ، ٥٠) والمعرفة Knowledge (ص ٤٩) والمنهج العلمي Scientific Method (ص ٥٠ - ٥٢) والإدراك الحسي Perception (ص ٥٢) ، والفروق الفردية Individual Differences (ص ٥٢ ، ٥٣) ، وبنية الجسم Constitution (ص ٥٤ ، ٥٥) والشك Suspiciousness (ص ٥٩ - ٦٢) .

* * *

تلخيص كتاب النفس [1]

عرض : د. طريف شوقي

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٨٧ صفحة من القطع المتوسط ، فيه يبين المؤلف أن كتاب النفس الذي بين أيدينا بعيد عن كتاب النفس لأرسطو ، حيث إن ابن رشد يحذف بعض الأجزاء ، ويأخذ عن المفسرين ويرجح بعضهم على بعضهم الآخر ، ويناقش آراء فلاسفة المسلمين ، ثم يعرض آخر الأمر رأيه الخاص .

يبدأ ابن رشد كتابه ببيان جوهر النفس من واقع كتابات أرسطو ولكنه يناقشها مناقشة نقدية ، ويقسم النفس إلى خمسة أقسام مرتبة زمنيًا من الأقدم إلى الأحدث حين يقول :

« وأولها في التقدم بالزمان ، وهو التقدم الهيولاني : النفس النباتية ثم الحساسة ثم المتخيلة ، ثم الناطقة ، ثم النزوعية » (ص ١٣) . ويعرف في الفقرات التالية كل منها على حدة على النحو التالي :

١ - القول في القوة الغاذية :

حيث يشرح طبيعة القوة الغاذية وكيف تتم عملية التغذية وأهدافها (الحفظ ، التعويض ، والنمو ، وتزويد الجسم بالطاقة) (ص ١٣ - ١٨) .

---

(١) الطبعة الأولى القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، (١٩٥٠م) .

٢ – القول في القوة الحساسة :

والنفس الحساسة تتكون من الحواس الخمس أقدمها اللمس وبعدها الذوق ، ثم الشم فالسمع والإبصار ، وهي لا توجد مجتمعة في كل الكائنات (٢٥ ، ٢٦) ، ويذكر أن المحسوسات تدرك على نحو مختلف عما هي عليه في الخارج وفي هذا إشارة إلى الفرق بين عملية الإحساس والإدراك perception ، وعن دور العوامل الذاتية في التأثير في عملية الإدراك ، يقول : « وأما قوة الحس فليس الأمر فيها كذلك ، فإنه ليس وجود اللون مثلًا في هذه القوة هو بعينه وجوده خارج النفس » (ص ٣٤) ، ويمضي قدمًا في شرحه للحواس الخمسة على نحو من التفصيل حيث يعرف كل حاسة على حدة ، وشروط عملية الإحساس التي تقوم بها والكيفية التي تحدث بها هذه العلمية (ص ٢٩ – ٤٥) .

٣ – القول في التخيل :

يوضح الفرق بين التخيل والقوى الحساسة بقوله : « أما إن هذه القوى مغايرة للقوة الحسية فذلك يظهر عن قريب ؛ ذلك لأنهما وإن اتفقا في أنهما يدركان المحسوس ، فهما يختلفان في أن هذه القوة ، تحكم على المحسوسات بعد غيبتها » (ص ٥٩) ويمكننا أن نركب بهذه القوة أمور لم تحس بعد ، وفيما يتصل بالمحرك لقوة التخيل يقول :

« فالمحسوسات تحرك الحس المشترك ، والآثار الحاصلة عنها في الحس المشترك تحرك هذه القوة ، أعني قوة التخيل » (ص ٦٤) .

٤ – القول في النفس الناطقة :

يعرفها بأنها : « قوة يدرك بها الإنسان المعاني المجردة من الهيولي ، ويركب بعضها إلى بعض ، ويستنبط بعضها من بعض ، حتى يلتئم عن ذلك صنائع كثيرة هي نافعة في وجودي وهذه المعقولات العملية ، إنما تحصل بالتجربة ، والتجربة إنما تكون بالإحساس أولًا ، والتخيل ثانيًا (ص ٦٨ – ٦٩) ويشير إلى مفهوم التجريد Abstraction بقوله :

« وذلك أن التصور بالعقل إنما هو تجريد الصور من الهيولي (ص ٧٦) ، ويفرد جزءًا من هذا الكتاب للحديث عن عملية تحصيل المدركات والمعارف ويطرح بعض التصورات عن التعلم Learning يدحض فيها رأي أفلاطون القائل بأن التعليم تذكر » (ص ٧٧ – ٨٧) . ويرى أن القوة الناطقة تنقسم إلى قسمين : العقل العملي ، والعقل النظري .

٥ – القول في القوة النزوعية :

وتتقدمها كل من القوة الحاسة ، والمتخيلة ، والناطقة ، فليس يمكن أن تنزع دون

التخيل والحس ، بل قد توجد القوة الناطقة أيضًا متقدمة لها في المعارف النظرية ؛ وذلك أنه لا بد أنه قد ننزع (نسلك) عن التصور الذي يكون بالعقل ، وقد ننزع أيضًا عن الصور المتخيلة بالفكر والرؤية ، وذلك من الأمور العقلية (ص ٩٦) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام .

* * *

رسالة الاتصال [1]

عرض : د. طريف شوقي

عرض المقالة :

يناقش ابن رشد هذه المسألة ويشير إلى أنه يمكن بيانها بثلاثة طرق ، أولها الذي بينه الإسكندر في مقالة في العقل حيث شبه الأمر في العقل بالأمر في الحس . فكما أن في الحس ثلاثة أشياء : قوة قابلة وهي القوة الحاسة (يقابلها العقل الهيولاني) ، وشيء آخر يحصل في هذه القوة ، وهو نظير المعنى الذي يحصل في القوة الحسية من الشيء المحسوس ، وهذا هو العقل النظري وهو العقل الذي بالملكة (ص ١٢٠) . وشيء ثالث خارج النفس بالفعل وهو الذي يتنزل من هذا الإدراك العقلي منزلة المحسوس من الإدراك الحسي ، حتى يكون ذلك الإدراك الذي للعقل الهيولاني إنما هو لذلك العقل الذي هو نظير المحسوس (ص ١٢٠) . وهذا الشيء خارج النفس الذي ينظر إليه العقل الهيولاني هو العقل الفعال (ص ١٢١) .

ويلاحظ أن الكتاب يميز بوضوح بين الإحساس Sensation والإدراك Perception (الذي ينطوي على إضفاء معنى على المحسوس) ، والطريق الثاني يعتمد على ما ورد في كتاب النفس ؛ حيث أشار إلى وجود ثلاثة عقول : عقل بالقوة ، وعقل بالملكة ، وعقل فعال وهو الذي يتصل بالإنسان وهو الذي يعقل المعقولات . والطريق الثالث وهو مأخوذ من القوة والفعل (ص ١٢١ ، ١٢٢) .

---

(١) الطبعة الأولى القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٠م (ص ١٨٧) .

ابن الصائغ ، أبو بكر (ت ٥٩٧هـ)
رسالة الاتصال [١]

عرض : د. طريف شوقي

التعريف بالمؤلف :

هو أبو الفتح أحمد بن أبي الوفاء بن عبد الرحمن بن عبد الصمد البغدادي ، الحنبلي ، الإمام المفتي ، عرف بغلام أبي الخطاب ؛ لأنه خدمه ، واشتغل عليه ، ولد (٤٩٠هـ) ، وتوفي (٥٩٧هـ) .

عرض الرسالة :

يبدأ ابن الصائغ رسالته بتعريف مفهوم الواحد ، وكيف أن فقدان الواحد لبعض خصائصه لا ينفي عنه أنه واحد « كما أنه حين تُقطع يد إنسان أو رجلاه ، أو انْتزعت عيناه ، وبالجملة فانتُزعت جميع أعضائه التي ليس بها قوام الحياة ، قيل : إنه واحد بعينه (ص ١٠٤) ، ويشير إلى استحالة القول بالتناسخ ، وإلى حالات الإنسان أو مراحل ارتقائه Stages of Development بقوله : « حين يكون في الرحم ، وحين يكون وليدًا ، ثم حين يحدث له القوة الفكرية إنما حصلت المعقولات ، فبحصول المعقولات تحدث الشهوة المحركة إلى الفكر ، وما يكون عنه » (ص ١٠٦) ، وهذا التصور مما يدخل في مبحث مراحل الارتقاء النفسي في مجال علم النفس الارتقائي Developmental Psychology . وينوه إلى أن العقل هو المحرك الأول الإنساني ، ثم يشرح كيفية اتصال (تحصيل) الإنسان بالمعقولات « فالجمهور ومن يشاركهم إنما يشعرون بالصور الروحانية (المعقولات) من أجل أنها إدراكات لموضوعات هي أجسام محسوسة إلا من حيث لها هذا الوجود » (ص ١١١) ، ويعتقد أن الناس تقع في مراتب ثلاث في تحصيلها لتلك المعقولات .

(١) نشرت هذه الرسالة كملحق رقم (١) لكتاب النفس لابن رشد .

أبو الفرج ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)[(١)]
صيد الخاطر

عرض : د. الحسين محمد عبد المنعم

التعريف بالمؤلف :

هو جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي القرشي ، التيمي ، البكري ، البغدادي ، الفقيه الحنبلي ، الحافظ ، المفسر ، الواعظ ، المؤرخ ، الأديب المعروف بابن الجوزي ، ولد ببغداد ، سنة ثمانٍ أو عشر وخمسمائة . حرم نعمة ورعاية أبيه ، لكنه نعم في حنان أمه وعمه ، كانت عائلته إلى جانب من الثراء . كان لا يخالط أحدًا ، ولا يأكل ما فيه شبه ، ولا يخرج من بيته إلا للجمعة ، وكان يلعب مع الصبيان ، اعتنى به خاله وأسمعه الحديث ، وحفظ القرآن الكريم على جماعة من أئمة القراء ، وسمع بنفسه الكثير وعني بالكتب ، واتصف بالطموح وسعة الاطلاع ، فترجم لشيوخه في كتابه « مشيخة ابن الجوزي » وعددهم ست وثمانون شيخًا وثلاث نسوة .

له العديد من المؤلفات ؛ منها : الأذكياء وأخبارهم ، وروح الأرواح ، والمدهش ، وشذوذ العقود في تاريخ العهود ، وصولة العقل على الهوى ، وهو في الأخلاق ، والناسخ والمنسوخ في الحديث ، وتلبيس إبليس ، وفنون الأفنان في علوم القرآن ، وعجائب البدائع ، ومناقب عمر بن الخطاب ، ومناقب أحمد بن حنبل ، وغريب الحديث ، والمقتبس ، وبر الوالدين . توفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، ودفن بباب حرب بالقرب من مدفن أحمد بن حنبل ، وترك من الأولاد ثلاثة ذكور وثلاث إناث .

---

(١) بيروت : دار الكتب العلمية ، (د.ت) (ص ٤٩٥) .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٤٩٥ صفحة من القطع المتوسط شاملة ترجمة المؤلف ، والفهرس ويحتوي الكتاب على ٣٦٢ فكرة خطرت في فكر ابن الجوزي ؛ حيث أراد حفظ ما يخطر لكيلا ينسى وسنعرض لهذه الأفكار بترتيب ورودها في الكتاب « صيد الخاطر » .

قد يعرض عند سماع المواعظ للسامع يقظة ، فإذا انفصل عن مجلس الذكر عادت القسوة والغفلة ، وهذه حالة تعم الخلق ، إلا أن أرباب اليقظة يتفاوتون في بقاء الأثر .

جواذب الطبع إلى الدنيا كثيرة ، ثم هي من داخل ، وذكر الآخرة أمر خارج عن الطبع ، ثم هي غيب .

من عاين بعين بصيرته تناهي الأمور في بداياتها فقد نال خيرها ، ونجا من شرها ، من تفكر في عواقب الدنيا ، أخذ الحذر ، ومن أيقن بطول الطريق تأهب للسفر . من قارب الفتنة بعدت عنه السلامة . ومن ادعى الصبر وكل إلى نفسه . ورب نظرة لم تناظر ، وأحق الأشياء بالضبط اللسان والعين . ويرتبط الحديث هنا بمفهوم ضبط النفس في علم النفس الاجتماعي (ص ١٤) .

أعظم المعاقبة أن لا يحس المعاقب بالعقوبة ، وأشد من ذلك أن يقع السرور بما هو عقوبة ، كالفرح بالمال الحرام ، والتمكن من الذنوب .

من علامة كمال العقل علو الهمة ! والراضي بالدون دنيء !!

سبحان من سبقت محبته لأحبابه فمدحهم على ما وهب لهم ، واشترى منهم ما أعطاهم ، وقدم المتأخر من أوصافهم ، لموضع إيثارهم ، فباهى بهم في صومهم ، وأحب خلوف أفواههم .

الواجب على العاقل أخذ العدة لرحيله ، فإنه لا يعلم متى يفجؤه أمر ربه ، ولا يدري متى يستدعى ؟

يقول ابن الجوزي : رأيت كثيرًا من الناس وجودهم كالعدم ، لا يتصفحون أدلة الوحدانية ، ولا ينظرون في أوامر اللّٰه تعالى ونواهيه ، بل يجرون – على عاداتهم – كالبهائم .

تأملت التحاسد بين العلماء ، فرأيت منشأه من حب الدنيا ، فإن علماء الآخرة يتوادون ولا يتحاسدون ، والأمر الفارق بين الفئتين : أن علماء الدنيا ، ينظرون إلى

الرياسة ويحبون كثرة الجمع والثناء ، وعلماء الآخرة بمعزل من إيثار ذلك . ويرتبط هذا الحديث بمفهوم القيم الدينية والقيم المادية (ص ١٧) .

مَن أحب تصفية الأحوال ، فالاجتهاد في تصفية الأعمال ، قال ﷻ : ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ [الجن : ١٦] .

تفكرت يوما في التكليف ، فرأيته ينقسم إلى سهل وصعب ، فأما السهل ، فهو من أعمال الجوارح ؛ كالوضوء ، والصلاة ، والصوم ، والزكاة ، وأما الصعب فمنه النظر والاستدلال الموصلان إلى معرفة الخالق وغلبة الهوى وقهر النفوس . ويرتبط الحديث هنا بسيكولوجية التفكير (ص ١٩) وضبط النفس (ص ٩) .

ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه ، وقدر وقته ، فلا يضيع منه لحظة في غير قربه . رأيت من أعظم حيل الشيطان ومكره ، أن يحيط أرباب الأموال بالآمال والتشاغل بالذات القاطعة عن الآخرة وأعمالها . والواجب على العاقل أن يحفظ ما معه ، وأن يجتهد في الكسب ليربح مدارة ظالم أو مداهنة جاهل (ص ٢١ ، ٢٢) .

تأملت أحوال الفضلاء فوجدتهم - في الأغلب - قد نجوا من حظوظ الدنيا ، ورأيت الدنيا - غالبًا - في أيدي أهل النقائص ؛ فنظرت في الفضلاء ، فإذا هم يتأسفون على ما فاتهم مما ناله أولو النقائص ، وأوضحت لهم خطأهم . ويرتبط الحديث هنا بالقيم الدينية ، وتأثيره في سلوك الأفراد الذي يتسم بضبط النفس عن الشهوات ، وبالقيم المادية وتأثيره في سلوك الأفراد الذي يتسم بالإقبال على ملذات الدنيا وشهواتها (ص ٢٣) .

تأملت إقدام العلماء على شهوات النفس المنهي عنها ، فرأيتها مرتبة تزاحم الكفر ، لولا تلوح معنى : هو أن الناس عند مواقعة المحظور ينقسمون ، فمنهم جاهل بالمحظور ، ومنهم من يظن المحظور مكروهًا لا محرمًا ، ومنهم من يتأول فيغلط ، ومنهم من يعلم التحريم ، ومنهم من يعلم الحظر ويذكره . ويرتبط الحديث بمفهوم الدوافع ، والشهوات ، والأهواء ، وتأثيرها في تعطيل التفكير (ص ٢٤) .

من تأمل أفعال الباري سبحانه ، رآها على قانون العدل ، وشاهد الجزاء مرصدًا ، ولو بعد حين فلا ينبغي أن يغتر مسامح فالجزاء قد يتأخر .

تأمل ابن الجوزي أحوال الصوفية والزهاد ، فوجد أكثرها منحرفًا عن الشريعة بين جهل بالشرع ، وابتداع بالرأي ، ودلل على ذلك بمواقف كثيرة .

النفس تخرج بعد الموت إلى نعيم أو عذاب ، وأنها تجد ذلك يوم القيامة ، فإذا كانت القيامة ، أعيدت إلى الجسد ليتكامل لها التنعيم بالوسائط وقوله : في حواصل طير خضر - دليل على أن النفوس لا تنال اللذة إلا بواسطة ، وهي لذة المطعم والمشرب ، أما لذة المعارف والعلوم فيجوز أن تنالها بذاتها ، مع عدم الوسائط .

يشقى أصحاب العقول باستقصائهم لكل فنون المعرفة ، ويقول ابن الجوزي : الزمان لا يسع ، والعمر أضيق ، والشوق أقوى ، والعجز يظهر فيبقى وقوف بعض المطلوبات حسرات .

تأملت أمر الدنيا والآخرة ، فوجدت حوادث الدنيا حسية طبيعية ، وحوادث الآخرة إيمانية يقينية ، والحسيات أقوى جذبًا لمن لم يقو علمه ويقينه . ويرتبط الحديث هنا بوجود مكونين أو جانبين في شخصية الإنسان ، المكون المادي وهو يميل إلى الملذات الحسية ، والمكون الروحي وهو يميل إلى الملذات الروحية ، والفكرية ، والعلمية (ص ٤٠) .

تأملت حرص النفس على ما منعت منه ، فرأيت حرصها يزيد على قدرة قوة المنع . ويرتبط الحديث هنا بالدافعية ، وبتأثر المنع والحرمان في تقوية الدافع (ص ٤٠ - ٤١) .

ينبغي أن تكون العزلة عن الشر لا عن الخير ، والعزلة عن الشر واجبة على كل حال ، وأما تعليم الطالبين ، وهداية المريدين ، فإنه عبادة للعالم .

تأملت المراد من الخلق فإذا هو الذل ، واعتقاد التقصير والعجز .

تأملت قوله تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة : ٥٤] فإذا النفس تأبى إثبات محبة للخالق ، وتوجب قلقًا وقالت : إن محبته طاعته ، فتدبرت ذلك فإذا بها قد جهلت ذلك لغلبة الحس .

أن اللَّه ﷻ قد بنى الأجسام متقنة على قانون الحكمة ، فدل بذلك المصنوع على كمال قدرته ، ولطف حكمته .

تأملت في فوائد النكاح ومعانيه وموضوعه ، فرأيت أن الأصل الأكبر في وصفه وجود النسل وجعلت الشهوة تحث عليه ليحصل المقصود . ويرتبط الحديث هنا بسيكولوجية الجنس والدوافع في علم النفس العام (ص ٤٦) .

المعصية بعد المعصية عقاب المعصية ، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة .

نظرت في الأدلة على الحق ﷻ ، فوجدتها أكثر من الرمل ورأيت من أعجبها أن الإنسان قد يخفي مالا يرضاه اللَّه ﷻ ، فيظهره اللَّه سبحانه عليه ولو بعد حين ، وينطق

الألسنة به وإن لم يشاهده الناس .

تأملت الأرض ومن عليها بعين فكري ، فرأيت خرابها أكثر من عمرانها ، ثم نظرت في المعمور منها ، فوجدت الكفار مستولين على أكثره ، ووجدت أهل الإسلام في الأرض قليلًا بالإضافة إلى الكفار ، أي أن هناك شرًّا طافحًا وخيرًا قليلًا .

رأيت ميل النفس إلى الشهوات زائد في المقدار ، حتى إنها إذا مالت بالقلب والعقل والذهن ، فلا يكاد المرء ينتفع بشيء من النصح .

النفس متيقظة والقلب عارف ، غير أن القواطع كثيرة ، والفكر الذي ينبغي استعماله في معرفة اللَّه ﷻ قد كَلَّ مما يستعمل في اجتلاب الدنيا ، وتحصيل حوائج النفوس ، والقلب منغمس في ذلك ، والبدن أسير مستخدم .

تفكرت فرأيت أن حفظ المال من المتعين ، وما يسميه جهلة المتزهدين توكلًا من إخراج ما في اليد ليس بالمشروع - وهذا من أخطاء الصوفية .

تأملت في شهوات الدنيا فرأيتها مصائد هلاك ، وفخوخ تلف فمن قوي على طبعه وحكم عليه يسلم ، ومن غلب طبعه فيا سرعة هلكته .

يرى ابن الجوزي أن زهد الصوفية زهد مغشوش .

تأملت جهاد النفس ، فرأيته أعظم الجهاد ؛ ورأيت خلقًا من العلماء والزهاد لا يفهمون معناه ؛ لأن فيهم من منعها حظوظها على الإطلاق ، وذلك غلط من وجهين : أحدهما : أنه رب مانع لشهوة أعطاها بالمنع أدنى منها والثاني : أننا قد كلفنا حفظها ، ومن أسباب حفظها ميلها إلى الأشياء التي تقيمها ، فلا بد من إعطائها ما يقيمها .

المؤمن يدعو فلا يجاب ، فيكرر الدعاء فتطول المدة ولا يرى أثر للإجابة ، فينبغي له أن يعلم أن هذا من البلاء الذي يحتاج إلى الصبر .

من نزلت به بلية ، فأراد تمحيقها ، فليتصورها أكثر مما هي تهن ، وليتخيل ثوابها ، وليتوهم نزول أعظم منها ، ير الربح في الاقتصار عليها .

حدثنا ابن الجوزي عن خطر العلم مع قلة العمل .

مما يزيد العلم فضلًا ، أن قومًا تشاغلوا بالتعبد عن العلم ، فوقفوا عن الوصول إلى حقائق الطلب .

لماذا يزعم البعض أن اللَّه فضل الملائكة على البشر - ألهم مرتبة يحبهم بها ،

أو فضيلة يباهي بهم غيرهم ؟ وكيف دار الأمر فقد سجدوا لنا ؛ وهو صريح في تفضيلنا عليهم .

رأيت كثيرًا من الخلق وعالماً من العلماء ، لا ينتهون عن البحث عن أصول الأشياء التي أمروا بجهل علمها وترك البحث عن حقائقها .

رأيت أكثر الخلق في وجودهم كالمعدومين ، فمنهم من لا يعرف الخالق ، ومنهم من يثبته على مقتضى حسه ، ومنهم من لا يفهم المقصود من التكليف .

دعا إلى التعلق بالله وحده ، والتبتل إلى الله .

الحذر ، الحذر من فساد التأويل ، فإن الله تعالى لا يخادع . ولا ينال ما عنده بمصيبة .

رأيت نفسي كلما صفا فكرها ، أو تعطلت بدراج ، أو وارت قبور الصالحين ، تتحرك همتها في طلب العزلة ، والإقبال على معاملة الله تعالى .

عجبت من أقوام يدعون العلم ، ويميلون إلى التشبيه بحملهم الأحاديث على ظواهرها ، فلو أنهم أمروها كما جاءت سلموا ؛ لأن من أمَّر ما جاء ومر من غير اعتراض ، فما قال شيئًا لا له ولا عليه . ويرتبط هذا الحديث بمفهوم التفكير العيانى ، أو المحسوس في سيكولوجية التفكير (ص ٨٣) .

الحذر الحذر من أفعال أقوام وقعوا فمرقوا عن الأوضاع الدينية ، وظنوا أن كمال الدين بالخروج عن الطباع ، والمخالفة للأوضاع .

حدثنا ابن الجوزي أيضًا عن ضرورة النظافة وعن الجمال .

لا خير في لذة تعقب ألماً . وليس في التكليف أصعب من الصبر على القضاء ، ولا فيه أفضل من الرضا به ، فأما الصبر : فهو فرض . وأما الرضا فهو فضل .

إن الرضا من جملة ثمرات المعرفة ، فإذا عرفته رضيت بقضائه ، وقد يجري في ضمن القضاء بعض طعمها الراضي ، وأما العارف فتقل عنه المرارات لقوة حلاوة المعرفة .

ما زال جماعة من المتزهدين يزرون على كثير من العلماء إذا انبسطوا في مباحات ، والذي يحملهم على هذا الجهل ، فلو كان عندهم فضل علم ما عابوهم .

ليس في الوجود شيء أشرف من العلم ، كيف لا وهو الدليل ، فإذا عدم وقع الضلال .

رأيت الإنسان قد حمل من التكليف أمورًا صعبة ، ومن أثقل ما حمل مداراة نفسه ، وتكليفها الصبر عما تحب وعلى ما تكره .

تأملت أشياء تجرى في مجالس الوعظ ، يعتقد العوام قربة ، وهي تعكر ، وذلك أن المقرئ يطرب ويخرج الألحان إلى الغناء ، وهو ما يوجب طربًا للنفوس ونشوة ، والتعرض لما يوجب النفس غلط عظيم .

من أضر الأشياء على العوام كلام المتأولين ، والنفاة للصفات والإضافات .

حدثته نفسه بحاستي السمع والبصر وعلاقتهما بالإدراك والقلب . ويرتبط الحديث بسيكولوجية الإدراك (ص ١٠٤) .

في العشق : إن طباع المتيقظين تترقى فلا تقف مع شخص مستحسن ، وسبب ترقيها التفكير في نقص ذلك الشخص وعيوبه ، أو في طلب ما هو أهم منه .

الاعتراف في التقصير أنجح في الحوائج .

الإشارة إلى تدبير اللَّه ﷻ في خلقه .

حدثنا عن ثمرة الحياة التي جنى بها أدلة الوحدانية ، وارتقى عن حضيض التقليد ، إلى يفاع البصيرة واطلع على علوم زاد بها قدره .

قلوب العارفين يغار عليها من الأسباب وإن كانت لا تساكنها ؛ لأنها لما انفردت لمعرفته انفراد لها بتولي أمورها .

المؤمن لا يبالغ في الذنوب ، وإنما يقوى الهوى وتتوقد نيران الشهوة فينحدر ، وله من إيمانه ما يبغض إليه الإثم فلا يعزم على مواقعته ، ولا على العود بعد فراغه . ويرتبط بمفهوم الإحساس بالذنب في علم النفس الاجتماعي (ص ١١١) .

أفضل الأشياء التزيد من العلم ، فإنه من اقتصر على ما يعلمه فظنه كافيًا استبد برأيه ، وصار تعظيمه لنفسه مانعًا في الاستفادة .

لما وهبت لهم العقول فتدبروا عيب الأصنام ، وعلموا أنها لا تصلح للعبادة ، فوجهوا العبادة إلى من فطر الأشياء .

الآفة تدخل من المبتدعين في الدين ، أو الجهال .

حدثنا عن تقلب الليالي فتارة فقر ، وتارة غنى ، وتارة عز ، وتارة ذل ، وتارة يفرح الموالي ، وتارة يشمت الأعادي .

كما حدثنا عن انهيال الابتلاء على المؤمن . وعرض صورة اللذات عليه مع قدرته على نيلها .

وحدثنا أيضًا عن إجابة المضطر إذا دعا . وحكمة الغرائز في الأبدان ، وهي إبقاء الجنس ودفع الفضلة المحتقنة المؤذي احتقانها ، ويرتبط هذا الحديث بمفهوم الدافعية ، وبدور الدوافع في توافق الإنسان وصحته البدنية والنفسية (ص ١٢٤) .

من تأمل عواقب المعاصي رآها قبيحة .

ينبغي للعاقل أن يلازم باب مولاه على كل حال ، وأن يتعلق بذيل فضله إن عصى وإن أطاع .

ينبغي لمن تظاهرت نعم اللّه ﷻ عليه ، أن يظهر منها ما يبين أثرها ، ولا يكشف جملتها ، وهذا من أعظم لذات الدنيا التي يأمر الحزم بتركها فإن العين حق .

كما حدثنا ابن الجوزي عن ثمرة التقوى . ويرتبط الحديث هنا بتأثير الإيمان باللّه في التخلص من القلق والهم (ص ١٢٨) .

وقيل : لا ينال لذة المعاصي إلا سكران بالغفلة .

يكرر ابن الجوزي هجومه على الزهاد ، ويقدم مثالًا لزهد يهدم الدين والدنيا .

ينبغي لكل ذي لب وفطنة أن يحذر عواقب المعاصي . فإنه ليس بين الآدميين وبين اللّه تعالى قرابة ولا رحم ، وإنما هو قائم بالقسط ، حاكم بالعدل .

كثير من الناس يتسامحون في أمور يظنونها قريبة ، وهي تقدح في الأصول ؛ كاستعارة طلاب العلم جزء لا يردونه .

رأيت من نفسي عجبًا ، تسأل اللّه ﷻ حاجاتها ، وتنسى جناياتها (ص ١٣٤) .

من عاش مع اللّه ﷻ طيب النفس في زمن السلام ، لا يوصف بالبطولة إلا إذا خفت عليه ألوان التقلب في زمن البلاء ، فهناك المحك .

ليس في الدنيا ولا في الآخرة أطيب عيشًا من العارفين باللّه ﷻ ، فإن العارف به مستأنس به في خلوته .

كما حدثنا المؤلف عن حلاوة الكفاح في سبيل الحق ، وأسرار الحكمة وسياسة النفس . وحدثنا أيضًا عن إضاعة الوقت . وتفاوت العلماء في العلم .

من أظرف الأشياء إفاقة المحتضر عند موته ، فإنه ينتبه انتباهًا لا يوصف ، ويقلق قلقًا لا يحد ويتلهف على زمانه الماضي .

ربما أخذ المتيقظ بيت شعر فأخذ منه إشارة فانتفع بها .

حدثنا عن الحذر مهما كبرنا وعلت مناصبنا فإن العقوبة بالمرصاد .

اجتهاد العاقل فيما يصلحه لازم له بمقتضى العقل والشرع .

من أفكار ابن الجوزي أيضًا : أنه للبلايا نهايات معلومة الوقت عند اللَّه ﷻ ، فلا بد للمبتلى من الصبر إلى أن ينقضي أوان البلاء .

وليس في الوجود شيء أصعب من الصبر ، إما على المحبوب ، أو على المكروهات .

وينبغي لمن وقع في شدة ثم دعا أن لا يختلج في قلبه أمر من تأخير الإجابة أو عدمها (ص ١٥٦) .

كما حدثنا عن أقرب الخلق من اللَّه العلماء ، وليس العلم بمجرد صورته وهو النافع بل معناه ، وإنما ينال معناه من تعلمه للعمل به .

من أعمل فكره الصافي دله على طلب أشرف المقامات ، ونهاه عن الرضا بالنقص في كل حال .

ليس في الدنيا أنفع للعلماء من جمع المال للاستغناء عن الناس ، فإذا ضم إلى العلم حيز الكمال .

أعظم دليل على فضيلة الشيء النظر إلى ثمرته . ومن تأمل ثمرة الفقه علم أنه أفضل العلوم .

وحدثنا المؤلف أيضًا عن نقائض سببها استمكان الهوى كالإكثار من الصدقة وعدم المبالاة بمعاملات الربا .

ومن أعظم الغلط الثقة بالناس والاسترسال إلى الأصدقاء . ويرتبط بالعلاقات الإنسانية (ص ١٦٤) .

كما حدثنا عن سقطات بعض أهل العلم . وسعة الثقافة ونفاذ البصيرة .

إن للخلوة تأثيرات تبين في الجلوة ، وكم من مؤمن باللَّه ﷻ يحترمه عند الخلوات فيترك ما يشتهي حذرًا من عقابه ، أو رجاءً لثوابه .

ومن عرف جريان الأقدار ثبت لها . وسبحان المتصرف في خلقه بالاغتراب والإذلال ليبلو صبرهم ويظهر جوارحهم في الابتلاء .

والحذر الحذر من فعل يمنع منه الشرع أو من ارتكاب ما يظن عزيمة وهو خطيئة ، أو من إظهار ما لا يقوى عليه المظهر فيرجع القهقرى .

وأجهل الجهال من آثر عاجلًا على آجل لا يأمن سوء مغبته .

اللذات كلها بين حسي وعقلي ، فنهاية اللذات الحسية وأعلاها النكاح ، وغاية اللذات العقلية العلم ، فمن حصلت له الغايتان في الدنيا فقد نال النهاية . ويرتبط هذا الحديث بالدوافع البيولوجية والدوافع العقلية ، وما يصاحب إشباعها من لذة وتوافق (ص ١٧٥) .

اعلم أن المتعلم يفتقر إلى دوام الدراسة ، ومن الغلط الانهماك في الإعادة ليلًا ونهارًا ، فإنه لا يلبث صاحب هذه الحال إلا أيامًا ثم يفتر ويمرض .

من أراد دوام العافية والسلامة فليتق الله ﷻ ، فإنه ما من عبد أطلق نفسه في شيء ينافيه التقوى وإن قل ، إلا وجد عقوبته عاجلة أو آجلة .

أعظم البلايا أن يعطيك همة عالية ويمنعك من العمل بمقتضاها ، فيكون من تأثير همتك الأنفة من قبول إرفاق الخلق استثقالًا لحمل منهم ، ثم يبتليك بالفقر فتأخذ منهم .

من خاف العقوبة ترك المشتهى ، ومن رام القرب استعمل الورع ، وللصبر حلاوة تبين في العواقب .

حدثنا أيضًا ابن الجوزي عن الهزيمة أمام الشهوة ، وحرب الشيطان ، والحذر من الوقوع وقال : إن للذنوب تأثيرات قبيحة ، مرارتها تزيد على حلاوتها أضعافًا مضاعفة .

والتعلق بالله فوز ، كما قدم لنا حكمة الإبطاء في إجابة الدعاء ، ودعانا إلى الاستعداد دائمًا للموت ، وحذرنا من المعاصي فإن عواقبها سيئة ، وبقدر إجلالك لله يجلك الله ، أما جزاء العصيان فقد يطول ، والواجب على العاقل أن يحذر مغبة المعاصي ، فإن نارها تحت الرماد . وأن يتقي الله في كل الأحوال .

وحدثنا أيضًا عن جزاء الاستعفاف لوجه الله ، وذهاب العاجلة ، وحلاوة الطاعة ، وحقوق المنعم ، وأن سكرة الهوى حجاب .

ودعانا ابن الجوزي إلى استغلال الوقت في الأنفسَ من العلوم ، وإذا صح قصد العالم استراح من كلف التكلف .

كما ضرب لنا أمثلة وحكمة في الحرمان وقال : الغنى عافية للعلماء .

يقول ابن الجوزي أيضًا : تأملت وقوع المعاصي من العصاة فوجدتهم لا يقصدون العصيان ، وإنما يقصدون موافقة هواهم ، فوقع العصيان تبعًا .

يقول ابن الجوزي أيضًا : عفة العالم من تمام دينه ، والعقل أصل الدين ، وثمرة العقل

فهم الخطاب . والواجب على العاقل فهم الخطاب . والواجب على العاقل أن يتبع الدليل ثم لا ينظر فيما لا يجني من مكروه . والعاقل من يزن بين الأمرين . ويرتبط الحديث هنا بالقدرة على الفهم كأحد القدرات العقلية (ص ٢١١) .

يقول أيضًا : العلم النظري لا يكاد يكفي في صلاح القلب ، إلا أن يمزج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالحين .

وقيل : الورع أحوط .

كما حدثنا ابن الجوزي عن اللذات المشوبة ، وكيف نناجي الحق ﷻ ، والسعيد من ذل اللَّه وسأل العافية لتغلب على جمهور أحواله ، فيقرب الصبر على يسير البلاء .

ويكرر ما قاله عن الصوفية بأنهم ينحرفون عن الجادة وعن العلم . وحذرنا من صحبة البطالين . ودعا إلى الاشتغال بالتأليف واغتنام العمر .

يقول أيضًا : انبعاث الناس عن العادات لا عن الأمان .

ويقول : ما أعرف للعالم قط لذة ولا عزًّا ولا شرفًا ولا راحة ولا سلامة أفضل من العزلة . وحدثنا ابن الجوزي عن حياته .

يقول أيضًا في اللذة : أصلحها التوسط ، وهو اختيار ما تميل النفس إليه ولا يرتقي إلى مقام العشق ، فإن العاشق في عذاب . وإنما يتخايل الفارغ من العشق تلذذ العاشق وليس كذلك . ويرى أن الناس يتفاوتون في الهمم والآمال . وينصحنا بالترويح عن النفس بين الحين والآخر . ويرتبط الحديث هنا بمفهومي الفروق الفردية ، ومستوى الطموح في علم النفس الحديث (ص ٢٣٨) .

كما حدثنا عن حسن التدبير ، والحفاظ على المرأة المدبرة . والويل كل الويل للمفرط في ماله أو معاشه . كما حدثنا عن بعض هواجسه المقلقة .

ثم انتقل بنا إلى الحديث عن الأشياء البديهية التي وضعها فينا الخالق ﷻ ؛ مثل : أن المصنوع لا بد له من صانع ، وأن الاثنين أكثر من واحد .

ثم حدثنا بعد ذلك عن الإيقاظ والغافلين وقال : صلاح الأخيار النظر ، وسبب فساد الأشرار إهمال النظر .

ثم حدثنا عن همته وقال : لي همة عالية تطلب الغايات . ويرتبط هذا بمفهوم مستوى الطموح (ص ٢٥٠) .

ثم انتقل بنا للحديث عن فساد التصوف ، ودلل على ذلك بمواقف كثيرة .

ثم حدثنا عن القدر السابق ، فالله ﷻ إذا أراد شخصًا رباه من طفولته وهداه إلى الصواب .

وكذلك حدثنا عن الأدلة على وجود الله ؛ وأهمها النفس الناطقة المميزة المحركة للبدن على مقتضى إرادتها واكتسبت ما أمكن تحصيله من العلوم ، وهذا كله يوجب عليها أن لها مدبرًا وخالقًا .

ويعود فيحدثنا عن زهد الصوفية في العلم والقدح في المتشاغلين به .

ويقول أيضًا : العاقل من يحفظ الله ﷻ وإن غضب الخلق . كما ينبغي على العاقل أيضًا أن ينظر إلى الأصول فيمن يخالطه ويعاشره ، ويشاركه ويصادقه ، ويزوجه أو يتزوج إليه ، ثم ينظر بعد ذلك في الصور ، فإن صلاحها دليل على صلاح الباطن ، أما الأصول فإن الشيء يرجع إلى أصله ، وبعيد ممن لا أصل له أن يكون فيه معنى مستحسن .

ومن تجارب ابن الجوزي في الحياة قوله : ينبغي أن يكون شغل العاقل النظر في العواقب والتحرز مما يمكن أن يكون ، ومن الغلط الاستغراق في الحالة الحاضرة الموافقة لمعاشه ولصحة بدنه . وكذلك ينبغي النظر في لذة تفنى وتبقى تبعتها وعارها . وإيثار الكسل والدعة . وإياك أن تساكن من آذيته ، ومن الحذر إظهار العداوة للعدو . ومن أحسن التدبير التلطف بالأعداء إلى أن يمكن كسر شوكتهم . وكفى بالذهن النظر إلى العواقب والتأمل لكل ممكن متأدبًا . وكذلك أوصانا بحفظ السر وعدم إفشائه .

ثم حدثنا ابن الجوزي بعد ذلك عن طريق الاستذكار وأهمها الإعادة والتثبيت . ويرتبط هذا الحديث بسيكولوجية التعليم (ص ٢٦١) .

كما نصحنا بالعزلة واستغلالها استغلالًا نافعًا حتى نستطيع مناجاة الله ﷻ . ولم ينس ابن الجوزي المسنين ، فأسدى لهم النصح مؤكدًا على الاستعداد الدائم للقاء الله ﷻ .

كما نهانا عن الاشتغال بفلسفة الكلام . وعلى العاقل أن يكف عن التطلع إلى ما لا يطيق النظر إليه .

ويرى أن السعادة الحقة في شرف العلم وزهرة العفة وأنفة الحمية ، وعز القناعة ، وحلاوة الإفضال على الخلق . ويرى أن أصل كل محنة في العقائد قياس أمر الخالق على أحوال الخلق .

كما حدثنا عن ثمن العلياء ، ويرى أن كل شيء نفيس خطير يطول طريقه ويكثر

التعب في تحصيله ، فإن العلم لما كان أشرف الأشياء لم يحصل إلا بالتعب ، والسهر ، والتكرار ، وهجر اللذات والراحة .

ويرى أيضًا أن هناك صراعًا بين اليقين وأحداث الحياة ويقول : إنما المؤمن الكامل الإيمان ومن لا يختلج في قلبه اعتراض ، ولا يساكن نفسه فيما يجرى من وسوسة . وكلما اشتد البلاء عليه زاد إيمانه وقوي تسليمه . ونلمح الإشارة هنا إلى موضوع « الصراع » في علم النفس (ص ٢٧٠) .

كما يرى أن أضر ما على العوام المتكلمين ، فإنهم يخلطون عقائدهم بما يسمعونه منهم ، ويرى أن حقيقة الموت والرحيل هو الراحة ، وأن هذا البدن ليس بشيء ؛ لأنه مركب تفكك وفسد وسيبنى جديدًا يوم البعث ، فلا ينبغي أن يفكر في بلاه ، ولتسكن النفس إلى أن الأرواح انتقلت إلى راحة فلا يبقى كبير حزن ، وأن اللقاء للأحباب عن قرب .

ويتحدث ثانية عن الكتمان ، ويقول : ينبغي للعاقل أن لا يتكلم في الخلوة عن أحد بشيء حتى يتمثل ذلك الشيء ظاهرًا معلنًا به ثم ينظر فيما يجني .

ويتحدث أيضًا عن فقه الحكمة العليا ، ويقول الحق ﷻ هو المالك ، وللمالك الحق أن يتصرف كيف يشاء .

والسعيد من وفق لاغتنام العافية ، ثم يختار تحصيل الأفضل في زمن الاغتنام . وقيل : صلاح الدين بصلاح الدنيا . أما الإخلاص التام فهو شغل القلب بالحق .

وقال أيضًا : كل المعاصي قبيحة ، وبعضها أقبح من بعض ، أي هي مراتب .

ويرى أن الكبر من علل العلماء التي يجب التخلص منها .

كما نصحنا ابن الجوزي بمحالمة الغاضب . والعاقل يصور في نفسه كل ممكن ، ويستر ما في قلبه من البغض والود ، ويداري من يكنون له الغيظ والحقد ، هذه مشاورة العقل إن قبلت .

ومن لم يتلمح العواقب ولا يستعد لما يجوز وقوعه فليس بكامل العقل . وبقدر صعود الإنسان في الدنيا تنزل مرتبته في الآخرة ، وعلماء الآخرة ملوك . ونلمح هنا إشارة إلى مفهوم « التروي » Reflection كأحد مفاهيم علم النفس الحديث (ص ٢٨٣) .

وإذا أراد الإنسان أن يعرف قدر نفسه فليعرف الشرع كما ينبغي ، وسيعرف أن أكثر الناس على غير الجادة .

وعن كمال الظاهر والباطن قال ابن الجوزي : أول أسباب الكمال : تناسب أعضاء البدن وحسن صورة الباطن ، فصورة البدن تسمى خلقًا ، وصورة الباطن تسمى خُلقًا . ودليل كمال صورة البدن حسن السمت ، واستعمال الأدب ودليل صورة الباطن حسن الطبائع والأخلاق ، والطبائع : العفة ، والنزاهة ، والأنفة من الجهل ، ومباعدة الشره . والأخلاق : الكرم ، والإيثار ، وستر العيوب ، وابتداء المعروف ، والحلم عن الجاهل .

ونصحنا ابن الجوزي أيضًا بالصبر ، ويرى أيضًا أن الجمادات خير من علماء يعبدون المال ويرى أن أنفس الأشياء في الدنيا معرفة الحق ﷻ .

ويعود فيقول : أيها الشيوخ استعدوا للرحيل ، ويضرب مثلًا أعلى لنا بسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام . ويحذرنا في أكثر من موضع من خداع الشهوات ، وخاصة شهوات الحس (النساء) ويقترب هذا الحديث من موضوع « قمع الدوافع الأولية » (ص ٢٩٤) .

وحدثنا أيضًا عن أصناف الناس ، وسبحان من شغل كل شخص بفن لتنام العيون في الدنيا . ويتحدث المؤلف هنا عن « المهن الاجتماعية » وتدرجها (ص ٢٩٧) .

ونصحنا بعدم الغفلة عن علم الحديث « الشريعة » وقال : سبحان من حفظ هذه الشريعة بأحبار أخيار ينفون عنها تحريف الغالبين ، وانتحال المبطلين .

ويعود ثانية فيحذرنا من اتباع الشهوات البهيمية . ويتحدث هنا عن الدوافع والأهواء واللذات الحسية ، وأهمية التحكم فيها وقمعها (ص ٣٠٠) .

ويقول : العاقل من إذا فعل خطيئة بادرها بالتوبة ، فكم مغرور بإمهال العصاة لم يمهل ، وأسرع المعاصي عقوبةً ما خلا عن لذة تنسي النهي ، فإن كانت توجب اعتراضًا على الخالق أو منازعة له في عظمته ، فتلك التي لا تتلافى .

والاستغناء عن الناس دين ، فالآدمي خُلق لأمر عظيم .. وهو مطالب بمعرفة خالقه بالدليل ، ولا يكفيه التقليد .

ونصحنا بالتجمل مع الناس وقال : ما زال العقلاء يظهرون التجلد عند المصائب ، والفقر والبلاء ؛ لئلا يتحملوا مع النوائب شماتة الأعداء ، وأنها لأشد من كل نائبة ، وكان فقيرهم يظهر الغنى ، ومريضهم يظهر العافية . وقال أيضًا : الحياة مدرسة تخرج للآخرة والناس فيها معادن ومراتب .

كما أوضح لنا الحكمة من وجود اليهود والنصارى .

وعاد ابن الجوزي ونصحنا بحسن الاطلاع حيث ثبت بالدليل شرف العلم وفضله . وحسن الاطلاع يعني التجويد ، والحفظ ، والتثبيت . وقال أيضًا : ينبغي أن نحذر ظلمة الحسد ، وغيابة الكبر ، وحماقة الهوى والتي تغطي على نور العقل . ويقترب الحديث هنا من « التحصيل والعوامل الميسرة له » (ص ٣٠٩) .

وقال أيضًا : إن هناك درجات للعابدين ، ودرجات للعلماء (علماء القشور - علماء اللباب) . ودائما يقول : الآخرة خير وأبقى ، والعاقل من علم أن الدنيا لم تخلق للتنعيم ، فقنع بدفع الوقت على كل حال ، وقيل : الأعذار بالأقدار سخف .

والصراط المستقيم هي السير على الشريعة ، والشريعة هي الطريق ، وإنما تعرف شريعة رسول اللَّه ﷺ إما بأفعاله أو بأقواله .

قال ابن الجوزي أيضًا : النفس طامعة إذا أطمعتها ، وتسويف الخير حمق .

كما حدثنا عن البحث في ذات اللَّه والتعسف في فهم أفعاله . وقال : ينبغي للمؤمن باللَّه سبحانه أن لا يعترض على اللَّه سبحانه في شيء لا في باطنه ولا في ظاهره ، ولا يطلب تعليلات أفعاله كلها .

وقال أيضًا : الآخرة بما فيها من دخول الجنة ودوام الإقامة ، والنعيم المتجدد .

كما حدثنا عن عشاق الدنيا وعشاق الآخرة وقال : سبب الهموم والغموم الإعراض عن اللَّه ﷻ والإقبال على الدنيا ، وكلما فات منها شيء وقع الغم لفواته ، فأما من رزق معرفة اللَّه تعالى استراح ؛ لأنه يستغني بالرضا بالقضاء فمهما قدر اللَّه له رضي .

وقيل : راحة المؤمن في الآخرة والاعتماد على الخالق سبحانه وعلى إنعامه .

ومن تجارب ابن الجوزي في الحياة قوله : الحذر من الطمأنينة إلى أحد ، خصوصًا من عدو آذيته أو قتلت له قريبًا فربما أظهر الجميل شبكة لاصطيادك كحديث الزباء .

كما حذرنا من التقصير في الشيخوخة - وقدم لنا علاجًا شافيًا للرغبة في سن الشيخوخة - كما نصحنا بالنظر في عواقب الأمور .

ويعجب المؤلف من طلب الاطلاع على تحقيق العرفان لذات اللَّه ﷻ وصفاته وأفعاله ، وهيهات ، ليس إلا المعرفة بالجملة .

كما حدثنا ابن الجوزي أيضًا عن أسس اختيار الأصحاب . ويرى أن من رزقه اللَّه ﷻ النظر في سير السلف ، ودفعه للاقتداء بهم آثر أن يعتزل عن أكثر الخلق

ولا يخالطهم أوذي . ونصحنا بالمداراة والحلم خاصة مع الأعداء والحساد . وهنا نلمح إشارة صريحة إلى مفهوم « الصداقة الاجتماعية » وخصائصها .

كما حدثنا عن آداب الدعاء .

وحدثنا أيضًا عن صنوف أهل الجهل وصنوف أهل العلم ، وقيل : وسيلة الجنة هي العلم ، وهو الذي يدل على الطريق ويعرف ما يصلح لها ويحذر من فظاظتها .

وقيل أيضًا : كتمان العطفة حزم ، كما حذرنا من خدمة الظالمين . ويقترب الحديث من مفهوم ضبط النفس (ص ٣٤٥) .

وقدم وصية للشباب تقول : ينبغي للصبي إذا بلغ أن يحذر كثرة الجماع ليبقى جوهره فيفيده ذلك في الكبر ؛ لأنه من الجائز كبره ، والاستعداد للجائز حزم .

وحذرنا أيضًا من خبط الوعاظ . وحدثنا عن تتبع اللذائذ المباحة منها والمحظورة . وتعجب من طغيان الأهواء ، فبعد أن يسمع الإنسان المواعظ وتذكر له الآخرة ، فيبكي وينزعج على تفريطه ، ويعزم على الاستدراك ، ثم يتراخى عمله بمقتضى ما عزم عليه . وحذرنا من الآفات .

ونصحنا بالإقبال على الله ﷻ .

وحدثنا عن أناس أنار الله بصائرهم واختارهم . وتعجب من أمر أناس أعجبوا بأبدانهم ونسوا أرواحهم وهي التي عليها العمل . كما حدثنا عن فضول العيش ، والاهتمام بالدنيا حتى تتشتت همته .

وقال أيضًا : الوحدة خير من جليس السوء . وحدثنا عن أوصاف المختارين لمولاة الله وقال سبحانه لا يختار شخصًا إلا كامل الصورة ، لا عيب في صورته ولا نقص في خلقته ، فتراه حسن الوجه معتدل القامة سليمًا من آفة في بدنه ، ثم يكون كاملًا في بطنه .

كما حدثنا عن طبائع الدهماء الذين غاية همتهم حصول بغيتهم من أغراضهم ، ويقترب الحديث هنا من مفهوم « السمات » في سيكولوجية الشخصية (ص ٣٢٩) .

وقال : صدقات الظلمة لا تثاب . ونصحنا بالإخلاص لله وحده .

كما حدثنا عن بعض صفات علماء السوء وقال : قلة علمهم بسيرة السلف وما كان عليه رسول الله ﷺ .

وقال : التسليم للحكمة أولى من البحث في الذات .

وقال أيضًا : ذو العقل يشقى في النعيم ؛ لأنه متى تكامل العقل فقدت لذة الدنيا ، فتضاءل الجسم وقوي السقم ، واشتد الحزن ؛ لأن العقل كلما تلمح العواقب أعرض عن الدنيا ، والتفت إلى ما تلمع ولا لذة عنده بشيء من العاجل ، وإنما يتلذذ أهل الغفلة عن الآخرة ، ولا غفلة لكامل العقل .

كما رد على مزاعم الطبائعيين في أصل الموجودات . وقدم دلائل على الوجود الأعلى .

كما حدثنا عن التدين الفاسد . وقال أيضًا : قوام الأنفس في البدن ، الدم ، والمني ، وأشياء تتقوى بها ، فإذا فقدت الذخائر لم يبق منها شيء ذهبت ، ومن ذخائرها التقوى بالمال والجاه وما يوجب الفرح .

كما حدثنا عن رياء الزهاد ، بقولهم ما لا يفعلون .

وقيل أيضًا : تدبير العيش دين ؛ حيث ينبغي للمؤمن أن يتشاغل بمعاشه ويرفق في نفقته (ص ٣٧١) .

وقيل : الاحتراز واجب ؛ حيث ينبغي للعاقل أن يحترز غاية ما يمكنه . فإذا جرى القدر مع احترازه لم يلم .

وحذرنا من الجري وراء اللذات الحسية ، فالسعيد من اهتم لحفظ دينه ، وأخذ من ذلك بمقدار الحاجة .

ونصحنا بالفقه (الحفظ والفهم) قبل الكتابة . ويحدثنا هنا عن الحفظ والفهم كأساس لعملية التحصيل (ص ٣٧٣) ، والتثبت قبل مواجهة العقاب ، والتوسل إلى الله بالله (ص ٣٧٣ - ٣٧٧) .

وقال أيضًا : سبحان من جعل الخلق بين طرفي نقيض ، والمتوسط منهم يندر منهم من يغضب فيقتل ويضرب ، ومنهم من هو أبله بقوة الحلم لا يؤثر عنده السب وهكذا من ينفق المال بكثرة ومن يقتر . فسبحان من أعدم هؤلاء العقول والفهوم ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلًا ، وتساءل أين الخل الوفي والذي تتوافر فيه شروط الصداقة والأخوة ؟

وقال أيضًا : القناعة راحة . ونصحنا بالخشية من مقدار العلم .

وقيل : ينبغي للعاقل أن يكون على خوف من ذنوبه وإن تاب منها وبكى عليها .

كما حدثنا ثانية عن مواقف لزهاد كذبة . وقال أيضًا : إنه لا استقرار في الدنيا ، وإنما

المستقر في الآخرة .

وحذرنا من وجود العالم في حاشية الحاكم ، خوفًا من الرزق الحرام والانخراط في سلكهم .

كما حدثنا عن متاعب العيلة ووجود الأولاد بكثرة خوفًا من مد اليد إلى الحرام .

ونصحنا بالجمع بين الاستغفار ، والتوبة من الذنوب ، والصبر على القضاء ، وسؤال الفرج ، لنحصل ثلاثة فنون من العادة نثاب على كلٍّ منها .

وينصحنا دائمًا المؤلف بقمع النفس عن الشهوات . ونهانا عن سب الدهر وقال : هو خروج عن الإيمان . ويقترب الحديث هنا من مفهوم قمع الدوافع الأولية (ص ٣٩٤) .

وقال : العمر فرصة يجب اغتنامها في زيادة الثواب . وقال : الكتمان مناجاة . ونصحنا بالتسبيح والاستغفار على الحقيقة .

وقيل : العزلة دواء ، ونصحنا بالمحافظة على صفاء القلب . قال أيضًا : طالب الآخرة دائم اليقظة . ومن مظاهر الاصطفاء : كمال الصورة واعتدالها ، وكمال الأخلاق ، وزوال الأكدار ، ولا يرى في باطنه خبثًا ، ولا كدرًا ، بل قد حسن باطنه كما حسن ظاهره . ويحدثنا هنا عن سمات الشخصية (ص ٣٩٩ ، ٤٠٠) .

وقال أيضًا في وعظ السلاطين : ينبغي لمن وعظ سلطانًا أن يبالغ في التلطف ولا يواجهه بما يقتضي أنه ظالم .

كما حدثنا عن أدعياء النبوة ورسالة الإسلام ، وسفالة الإلحاد .

وقال : مخالطة المحجوبين عن اللَّه غشاوة ، وما رأيت أكثر أذًى للمؤمن من مخالطة من لا يصلح ، فإن الطبع يسرق ، فإن لم يتشبه بهم ولم يسرق منهم فتر عمله . ويقترب الحديث هنا من التطبيع الاجتماعي (ص ٤١١) .

وقال أيضًا : أنعم اللَّه لا تحصى . وحدثنا كذلك عن علماء القشور . وحقيقة الشهوات (زوال اللذة وبقاء إثمها) .

وحدثنا عن الحكمة في خلق ما يؤذي ، وقال : ربما بها نفع وشفاء من كثير من الأمراض .

وقال أيضًا : العقل ينمو بالتعليم ، والتحصيل ، والدربة ، والمران ، كالجارحة التي تكتسب المهارة من دوام العمل . ويحدثنا هنا عن موضوع « نمو القدرات العقلية وسلوك

التدريب » (ص ٤١٩) .

كما حدثنا ابن الجوزي عن ميزان الرجولة وقال هو : حفظ الحدود ، وإخلاص العمل . وحدثنا أيضًا عن حقيقة الحسد وقال : إن الإنسان لا يجب أن يرتفع عليه أحد .

وحذرنا مرارًا وتكرارًا من الإسراف الجنسي . ونصحنا بالاحتراز من كل ما يجوز أن يكون . كما حذرنا من الضجر من قدر اللّٰه تعالى .

وقال أيضًا : اللذة عملة زائفة وخدع ليست بشيء وفي ضمنها من الأقدار ما يصيرها نقصًا فتخرج عن كونها لذات .

وقال أيضًا : من وقف على موجب الحس هلك ، ومن تبع العقل سلم ؛ لأن مجرد الحس لا يرى إلا الحاضر وهو الدنيا . وأما العاقل فإنه ينظر إلى المخلوقات ، فيعلم وجود الخالق ويعلم أنه قد منح ، وأباح ، وأطلق ، وحذر .

وفسر لنا ابن الجوزي معنى رؤية الرسول ﷺ وهو أن الشخص يرى في منامه مثال الذي يعرفه الصواب وتحصل به الفائدة المطلوبة . ويرتبط هنا بموضوع « الأحلام » (ص ٤٢٨) .

وقال أيضًا بحاجة الدين إلى سلامة الجسم وصحة الدنيا . ومعرفة اللّٰه سبحانه لا تحصل إلا لكامل العقل ، صحيح المزاج ، والترقي إلى محبته .

وكذلك قال : ما رأيت أظرف من لعب الدنيا بالعقول وهي في مدة إقامتها معجونة بالنقص .

ويتساءل ابن الجوزي ثانية : أين الأصدقاء ؟ ويقول : أكثرهم حساد على النعم ، وأعداء لا يسترون زلة ، ولا يعرفون لجليس حقًّا ، ولا يواسون من مالهم صديقًا .ويرجع هذا إلى أن الحق سبحانه يغار على قلب المؤمن أن يجعل له شيئًا يأنس به ، فهو يكدر عليه الدنيا وأهلها ليكون أنسه به . ويتحدث هنا عن مفهوم الصداقة (ص ٤٥٠) .

ويعود فيحدثنا عن علماء السوء ويقول : منهم المشتغلون بصورة العلم دون فهم حقيقته ومقصوده . ونصحنا بسعة الثقافة وبتعمق .

وقال أيضًا : ما يتناهى عن طلب العلم إلا عاشق العلم . والعاشق ينبغي أن يصبر على المكاره . ومن ضرورة المتشاغل به البعد عن الكسب .

وقال : لا ينبغي للإنسان أن يحمل على بدنه ما لا يطيق ، فإن البدن كالراحلة إن

لم يرفق بها لم تصل بالراكب .

وإذا تكامل العقل قوي الذكاء والفطنة . ونصحنا بالتحلي بالصبر ، والعفة ، والعزلة . وقال أيضًا : العقل سياج الدين والدنيا . وينبغي أن يكون العمل كله للَّه ومعه ومن أجله ، وقد كفاك كل مخلوق وجلب لك كل خير . وقيل أيضًا : الإسراف شر .

ويعجب ابن الجوزي من مخالطة الأمراء ويقول : إنه بالمخالطة لهم أو العمل معهم يكون قطعًا خائفًا من عزل ، أو قتل ، أو سم ، ولا يمكنه أن يعمل إلا بمقتضى أوامرهم .

ومن الغلط العظيم أن يتكلم في حق معزول بما لا يصلح ، فإنه لا يأمن أن يلي فينتقم . وفي الجملة لا ينبغي أن يظهر العداوة لأحد أصلًا . ويقترب الحديث هنا من مفهوم القيادة التسلطية في علم النفس الاجتماعي (ص ٤٥٣) .

ومن رزقه همة عالية يعذب بمقدار علوها ، وبيان هذا : أن من علت همته طلب العلوم كلها ولم يقتصر على بعضها ، وطلب من كل علم نهايته ، وهذا لا يحتمله البدن . ويقترب الحديث هنا من مفهوم مستوى الطموح (ص ٤٥٦) .

ويقول أيضًا : المصيبة العظمى رضا الإنسان عن نفسه واقتناعه بعلمه ، وهذه محنة قد عمت أكثر الخلق .

وليعلم الإنسان أن الجزاء بالمرصاد إن كانت حسنة أو سيئة ؛ فليحاسب كل منا نفسه . ونهانا عن عداوة الأقارب بأن نتواضع لهم ونرفق بهم ، وأن نصلهم . ويقترب الحديث هنا من مفهوم العلاقات الإنسانية في علم النفس الحديث (ص ٤٦٤) .

والمؤمن العاقل لا يلتفت إلى حاسده ولا يعده شيئًا ؛ إذ هو في وادٍ وذاك في وادٍ ، ذاك يحسده على الدنيا ، وهذا همته الآخرة ، فيما بعد ما بين الواديين .

ويقول أيضًا : ينبغي لمن آمن باللَّه تعالى أن يسلم له في أفعاله ، ويعلم أنه حكيم مالك وأنه لا يعبث .

وشبه ابن الجوزي يوم العيد بيوم القيامة .

كما قدم النصيحة للعلماء ، والزهاد في أكثر من موضع في الكتاب . وبين لهم طريق العلم والعمل . وقال : إن اللَّه ﷻ جعل لأحوال الآدمي أمثلة ليعتبر بها ؛ منها : القمر ، ودودة القز .

ويعود فيقول : إنما فضل العقل بتأمل العواقب ، فأما القليل العقل فإنه يرى الحال

الحاضرة ، ولا ينظر إلى عاقبتها .

كما يحدثنا ابن الجوزي عن تفاوت الناس في الذكاء والمقدرة ، حتى العلماء يتفاوتون التفاوت الكثير في الأصول والفروع . ويقترب الحديث هنا من موضوع الفروق الفردية (ص ٤٧٥) .

ويحدثنا أيضًا عن اللذات المدخولة ، والبدع المهلكات ، وفضل الوقت .

كما قدم لنا فقرة في معاشرة النساء وقال : ينبغي للعاقل أن يتخير امرأة صالحة من بيت صالح يغلب عليه الفقر لترى ما يأتيها به كثيرًا ، وليتزوج من يقاربه في السن . ولا ينبغي للمرأة أن تقترب من زوجها كثيرًا فتمل ، ولا تبعد عنه فينساها . ويرتبط الحديث هنا بموضوع العلاقات الزوجية (ص ٤٨١) .

كما حذرنا المؤلف من المتاجرة بالدين . وقال أيضًا : من تلمح أحوال الدنيا علم أن مراد الحق سبحانه اجتنابها ، فمن مال إلى مباحها ليلتذ وجد مع كل فرحة ترحة ، وإلى جانب كل راحة تعبًا ، وآخر كل لذة نقصًا يزيد عليها . وما رفع شيء من الدنيا إلا ووضع . العاقل يدير بعقله عيشته في الدنيا ، فإن كان فقيرًا اجتهد في كسب وصناعة تكفه عن الذل للخلق ، وقلل العلائق ، واستعمل القناعة فعاش سليمًا من منن الناس عزيزًا بينهم .

وإن كان غنيًا فينبغي له أن يدبر في نفقته خوف أن يفتقر فيحتاج إلى الذل للخلق . وينبغي التوسط في الأحوال ، وكتمان ما يصلح كتمانه (ص ٤٨٥ ، ٤٨٦) وإنما التدبير حفظ المال والتوسط في الإنفاق ، وكتمان ما لا يصلح إظهاره .

* * *

الطب الروحاني (١)

عرض : د. عبد اللطيف محمد خليفة

عرض الكتاب :

يتكون الكتاب من ثلاثين بابًا ، نعرض لها على النحو الآتي :

● **الباب الأول** : في فضل العقل . فمن ثمرات العقل معرفة الخالق ﷻ ، وبه فضل الآدمي على جميع الحيوان الذي فقده ، وبه تأهيل الآدمي لخطاب اللّٰه وتكليفه .

– ويرتبط هذا الباب بأهمية القدرات العقلية Mental Abilities (ص ٥) .

● **الباب الثاني** : في ذم الهوى ، والهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه . فلا يذم هذا المقدار إذا كان المطلوب مباحًا وإنما الإفراط فيه . وتحدث عن النفس فقال : إن منها جزءًا عقليًّا فضيلته الحكمة ورذيلته الجهل ، وجزءًا غضبيًّا فضيلته الحدة ورذيلته الجبن ، وجزءًا شهوانيًّا فضيلته العفة ورذيلته إطلاق الهوى .

– ويرتبط هذا الباب بمفهوم النفس وموضوع التفكير والذكاء ، وموضوع الدوافع والانفعالات Motives and Emotions (ص ٦ ، ٧) .

● **الباب الثالث** : في الفرق بين ما يرى العقل وما يرى الهوى ، فالهوى يدعو إلى اللذة من غير فكر في عاقبته . أما العقل فإنه يراقب العواقب وينظر في المصالح .

– ويرتبط ذلك بالمقارنة بين الحالة العقلية والانفعالية وبيان أوجه الاختلاف بينهما

---

(١) دمشق : مكتبة القدس ، (١٩٢٩م) (ص ٥٤) .

كما يرتبط بكف الدوافع ومقاومتها (ص ٧ ، ٨) .

• **الباب الرابع** : في دفع العشق عن النفس ، وهو مرض أصيب به خلق كثير وتحدث عنه تفصيلًا في كتاب « ذم الهوى » عن علاجه وكيفية التخلص منه عن طريق غض البصر وكف النظر .

- ويرتبط هذا الباب بموضوع انفعال الحب (ص ٨ ، ٩) .

• **الباب الخامس** : في دفع الشره ، فالشره إذا أطلق انصرف إلى موافقة الهوى في المطاعم . وهي علة تتولد عن قوة النفس الشهوانية ، وقد يكون الشره في الأكل ، أو الجماع ، أو جمع المال . وقد يقع الشره في فنون ما يلتذ به من الأبنية المنقوشة ، والخيل المسومة ، والملابس الفاخرة . وتحدث عن علاج كل نوع من هذه الأنواع .

- ويرتبط هذا الباب بموضوع قمع الدوافع ومقاومتها (ص ١١ ، ١٢) .

• **الباب السادس** : في رفض رياسة الدنيا ، فالنفس تحب الرفعة والعلو على جنسها فتؤثر الإمارة والولاية لمكانة الأمر والنهي .

- ويرتبط هذا الباب بموضوع الدوافع Motives خاصة الدافع إلى السلطة والتملك والسيطرة . (ص ١٣) .

• **الباب السابع** : في دفع البخل . إن مجرد الإمساك للمال لا يسمى بخلًا ؛ لأن الإنسان قد يمسك فاضل المال لحاجته ، ولحوادث دهره ، ولأجل عياله وأقاربه ، وهذا كله من باب الحزم ، فلا يذم وإنما يقع اسم البخل على مانع الحق الواجب .

• **الباب الثامن** : في النهي عن التبذير . فالتبذير مما يأمر به الهوى وينهى عنه العقل ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٦] .

• **الباب التاسع** : في بيان مقدار الاكتساب والإنفاق . فينبغي العاقل أن يكتسب أكثر مما يحتاج إليه ويقتني ما يعلم أنه لو حدث به حادثة كان في المقتنى عوض عما ذهب ، ولو عرض له مانع من الاكتساب قام المقتني بحاجته بقية عمره ، وبوجه عام ينبغي أن تكون النفقة أقل من الكسب .

• **الباب العاشر** : في ذم الكذب ، فهو من العوارض التي يدعو إليها الهوى . وعلاج هذا المرض أن يعلم عقوبة اللّٰه للكاذب ، وأن يتيقن أنه مع استدامة الكذب لا بد أن يطلع على حاله فينقص نقصًا لا يتلافى ، فيربو حياؤه ، وخجله ، واحتقار الناس له ، وتكذيبهم إياه .

– ويرتبط هذا الباب بموضوع تغيير القيم والاتجاهات السلبية Negative Attitudes من خلال الإرشاد والتوجيه الديني Religious Counseling (ص ١٦) .

• **الباب الحادي عشر** : في دفع الحسد . الحسد تمني زوال نعمة المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها ، وسبب ذلك حب الميزة على الجنس وكراهته المساواة فإذا حصلت للغير نعمة تميز بها تألم هذا الإنسان لتلك الميزة أو بمساواته له فيها ، فلا يزيل ذلك الألم إلا زوال تلك النعمة عن المحسود ، والحسد يوجب طوال السهر ، وقلة الغذاء ، ورداءة اللون ، وفساد المزاج ، ودوام الكمد أو الحزن . ثم عرض المؤلف لبعض الأحاديث المتعلقة بذم الحسد .

– ويرتبط هذا الباب بانفعال الحسد ، وتأثيره في سلوك الحاسد (ص ١٧ – ١٩) .

• **الباب الثاني عشر** : في دفع الحقد ، والحقد هو بقاء أثر القبيح من المحقود . وعلاجه بالعفو والصفح ، وأن يرى الإنسان الأشياء من المقدر .

– ويرتبط هذا الباب بانفعال الكراهية والغضب والحقد (ص ٢٠) .

• **الباب الثالث عشر** : في دفع الغضب . وهو في طبع الآدمي ليحثه على دفع الأذى عنه والانتقام من المؤذى له ، والمذموم منه الإفراط فيه ، قال رسول الله ﷺ : « **ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب** » .

– ويرتبط هذا الباب بموضوع الانفعالات Emotions ، خاصة انفعال الغضب Anger ، والأضرار المترتبة على الانفعالات (ص ٢١ – ٢٣) .

• **الباب الرابع عشر** : في دفع الكبر . وهو تعظيم شأن النفس واحتقار الغير . وعلاج ذلك نوعان : جملي وتفصيلي فأما الجملي فنوعان : علمي (من خلال الأدلة السمعية والعقلية على رذائل الكبر) وعملي فصحبة المتواضعين وسماع أخبارهم . وأما التفصيلي فأن ينظر إلى رذائل النفس وأن يعلم ، أن ما يتكبر به وإن كان مالًا فهو مأخوذ منه عن قريب ، وإن كان علمًا فقد سبقه خلق كثير أعلم منه .

ويرتبط ذلك بموضوع العلاج النفسي – لمثل هذه الصفات السلبية ، من خلال الإرشاد والتوجيه ، أما من خلال الاقتداء Modeling بالنماذج الجيدة (ص ٢٣ – ٢٥) .

• **الباب الخامس عشر** : في دفع العجب . العجب ينشأ من حب النفس ، وعلاج العجب البحث عن عيوب النفس ، وسؤال الغير عن قبائحها والنظر في أحوال من سبقه .

– ويرتبط ذلك بموضوع حب النفس والزهو بها ، وهو يدخل في موضوع الانفعالات (ص ٢٥) .

• **الباب السادس عشر** : في دفع الرياء . يقع الرياء من قلة المعرفة بالله ﷻ ، وعلاجه معرفة الله سبحانه فمن عرفه أفرد القصد له ، وأقام نفسه في مقام العابد الذليل للمعبود لا في مقام معبود ممدوح .

– ويرتبط ذلك بموضوع سمات الشخصية السليمة (ص ٢٦) .

• **الباب السابع عشر** : في دفع فضول الفكر . فالفكر يراد لاستدراك فارط والنظر في مصلحة مستقبلة ، فإذا كان فيما لا يثمرهما كان ضررًا وإذا كثر أنهك البدن .

الباب الثامن عشر : في فضول الحزن . فالعاقل لا يخلو من الحزن ؛ لأنه يتفكر في سالف ذنوبه فيحزن على تفريطه .

– ويرتبط ذلك بموضوع الانفعالات خاصة الحزن (ص ٢٩ ، ٣٠) .

• **الباب التاسع عشر** : في دفع فضول الغم والهم . الغم يكون للماضي ، والهم للمستقبل ، فمن اغتنم لما مضى من ذنوبه نفعه غمه على تفريطه ؛ لأنه يثاب عليه ، ومن اهتم بعمل الخير نفعته همته . فأما إذا اغتم للمفقود من الدنيا ، فالمفقود لا يرجع والغم يؤذى ، فكأنه أضاف إلى الأذى أذًى .

– ويرتبط هذا الباب بسيكولوجية الانفعالات Emotions وكيفية مواجهتها أو التغلب عليها .

• **الباب العشرون** : في دفع فضول الخوف والحذر من الموت . الخوف والحذر إنما هما للمستقبل ، والحازم من أعد للخوف عدته قبل وقوعه ، ونفى فضول الخوف مما لا بد منه . وتحدث المؤلف قائلا : إنه لا ينبغي للعاقل أن يشتد خوفه من نزول المرض .

– ويرتبط هذا الفصل أيضًا بموضوع الانفعالات (خاصة الخوف) وبموضوع قلق الموت (ص ٣٣ – ٣٧) .

• **الباب الحادي والعشرون** : في دفع فضول الفرح ، فإذا اشتد الفرح التهب الدم ، وفي ذلك أضداد كثيرة .

فالفرح يجب أن يكون بمقدار ليعدل الحزن ، والإفراط فيه دليل على الغفلة القوية .

– ويرتبط هذا الباب بموضوع الانفعالات (الفرح أو السرور) ، وخاصة ما يسمى بالحالة

المتوسطة أو المثلى من الانفعال المؤدية إلى العمل والأداء الخلاق والمبدع (٣٧ ، ٣٨) .

• **الباب الثاني والعشرون** : في دفع الكسل . الموجب للكسل حب الراحة وإيثار البطالة وصعوبة المشاق . وعلاج الكسل تحريك الهمة بخوف فوات القصد ، وبالوقوع في عقاب اللوم أو الحصول في بيد التأسف .

• **الباب الثالث والعشرون** : في تعريف الرجل عيوب نفسه . فالنفس محبوبة وعيوب المحبوب قد تخفى على المحب ، وفي الناس من يقوي نظره وجهاده للنفس ، فينزلها منزلة العدو في المخالفة فيظهر له عيوبها ، ومن لم يعرف عيوب نفسه فهو أحمق .

• **الباب الرابع والعشرون** : في تنبيه الهمة الدنيا . فإذا كانت الهمة الدنية مكتسبة بصحبة الأدنياء أو لغلبة الطبع والهوى ، فعلاجها يكون من خلال مقاطعة أهل الدناءة ومواصلة أرباب الهمم العالية ثم التفكير بالعواقب ، ومآل الدناءة ومصير أولي الجد والاجتهاد .

- ويرتبط هذا الباب بموضوع الاقتداء Modeling والعلاج من خلال الاقتداء بالنماذج (ص ٤١ ، ٤٢) .

• **الباب الخامس والعشرون** : في رياضة النفس . فالرياضة للنفس تكون بالتلطيف والتنقل من حال إلى حال ، ويعين على الرياضة صحبة الأخيار والبعد عن الأشرار .

- ويرتبط هذا الباب بموضوع تعديل السلوك (ص ٤٣) .

• **الباب السادس والعشرون** : في ذكر رياضة الأولاد . وفيه توجيه وحث على توجيه الآباء وإرضائهم لتعليم أولادهم الرياضة والمواظبة عليها .

- ويرتبط ما ورد في هذا الباب بموضوع التنشئة الاجتماعية للأبناء في المراحل العمرية المختلفة Socialization (ص ٤٥ - ٤٧) .

• **الباب السابع والعشرون** : في رياضة الزوجة ومدارتها . وفيه يقول المؤلف : إنه من أصلح الأمور أن يتزوج الرجل البكر التي لم تعرف سواه ، وإنه ينبغي على الرجل ألا يمزح مع المرأة فتطمع فيه طمعًا يخرجها عن طاعته ، وأن أكثر العلاج في إصلاح المرأة منعها من محادثة جنسها .

- ويرتبط هذا الباب بموضوع التفاعل الاجتماعي Social Interaction بين الرجل والمرأة ، والحياة الزوجية (ص ٤٧ ، ٤٨) .

• **الباب الثامن والعشرون** : في رياضة الأهل والمماليك ومدارتهم . فالأهل إذا رأوك قد فقتهم بمالٍ أو جاهٍ حسدوك ، ومقاطعتهم محرمة فالمدارة لازمة ، وذلك بالبر لهم مع كتمان بواطن الأحوال عنهم وأما المماليك فإنهم مالكون على الحقيقة لمالكيهم ؛ لأن المطاعم والمشارب إليهم فينبغي أن يتلطف بهم لئلا يحتالوا على قتله . ويتحدث المؤلف بعد ذلك عنهم قائلًا : إن من أعظم الغلط دخول المملوك المراهق إلى البيت ، خصوصًا إن كان حسن الصورة وفي البيت نسوة فإن الشر لا يؤمن . كذلك من المخاطرات ترك الولد البالغ بين الجواري .

- ويرتبط هذا الباب بسيكولوجية مرحلة المراهقة Adolescence Stage ومظاهرها (ص ٤٩ ، ٥٠) . وبالعلاقات الاجتماعية والأسرية .

• **الباب التاسع والعشرون** : في معاشرة الناس ومدارتهم نظرًا لاختلاف طباع الناس وأحوالهم فإن مداراتهم تعتبر صعبة ؛ لذا فالعزلة عنهم راحة عظيمة . وإن ابتلى العالم بمخالطة العوام فينبغي أن يكون حذرًا .

- ويرتبط هذا الباب بسيكولوجية التفاعل بين الأفراد عام (ص ٥٠) .

• **الباب الثلاثون** : في ذكر السيرة الكاملة . علامة الكامل تربية القدوة له من الطفولة وإعطاؤه الرأي التام والعقل الوافر من الصغر كما قال اللّه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ [الأنبياء : ٥١] .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس العام وعلم النفس الاجتماعي .

* * *

ذم الهوى [1]

عرض : د. الحسين محمد عبد المنعم

عرض الكتاب :

الكتاب يقع في ٥٠٠ صفحة من القطع المتوسط ويضم الكتاب - بالإضافة إلى ترجمة المؤلف ، وخطبته - خمسين بابًا .

أما الباب الأول : ففي ذكر العقل ، وفضله ، وماهيته ؛ حيث ينقل لنا ابن الجوزي عن آخرين بأن العقل ضرب من العلوم الضرورية ، أو هو غريزة يتأتى معها إدراك العلوم ، أو هو قوة يفصل بها بين حقائق المعلومات . أما محله فقد اختلف البعض بين من يقولون محله القلب ومحله الدماغ .

ويرى أيضًا أن العقل يزين صاحبه ويزوده بالحجة الواضحة . وأن اللَّه ﷻ يميز بين الناس بالعقل ، وعدد لنا فوائده وثماره فقد دلنا العقل على وجود اللَّه وأمر بطاعته وامتثال أمره . وأثبت معجزات الرسل ، وقاوم الهوى ، وحث على الفضائل ونهى عن الرذائل وغير ذلك .

ونلمح من هذا الحديث بداية أولية مبكرة لأحد الموضوعات التي تهم الدارسين في مجال علم النفس العام وهو « الذكاء الإنساني » Human Intelligence (ص ١٣ - ١٧) .

وأما الباب الثاني ففي ذم الهوى والشهوات ؛ حيث سمي هوى ؛ لأنه يهوي

---

(١) صححه وضبطه أحمد عبد السلام عطا . ط١ ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٧م .

بصاحبه ، ويدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة ، ويخرج صاحبه من دار العقل إلى دار الجنون ، وعدد لنا سبعة أمور نأمن بها شر الهوى ، وأيد ذلك بآيات قرآنية ، وأحاديث نبوية كثيرة ، وأخبار أخرى علاوة على أشعار ذكرت في ذم الهوى . ونلمح هنا الإشارة لأحد موضوعات علم النفس العام وهو « العواطف والانفعالات » (ص ١٨ - ٣٥) .

ويتحدث الباب الثالث عن مجاهدة النفس ومحاسبتها وتوبيخها ، وهنا يؤكد ابن الجوزي على محاولة كبح جماح الشهوات ، ومحاسبة النفس في كل خطوة . ودلل على ذلك بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وأقوال الفقهاء ، والتي تدور كلها في فلك وقاية النفس من اتباع الشهوات .

ولعل حديثه عن محاسبة النفس في كل خطوة يعد سبقًا لدراسة أحد الأبعاد التي تدرس الآن في إطار علم النفس المعرفي Cognitive Psychology وهو بعد « الاندفاعية - التروي » Impulsivity-Reflectivity كأحد الأساليب المعرفية (ص ٣٦ ، ٤٧) .

ويقدم لنا ابن الجوزي في الباب الرابع علاج مخالفة النفس وترك هواها بالصبر والحث عليه وقسمه إلى قسمين : صبر عن المحبوب ، وصبر على المكروه ، كما عدد جزاء الصابرين . وهذا الموضوع يدخل ضمن موضوع سمات الشخصية وخاصة المثابرة persistence (ص ٥٢ - ٥٥) .

وتتحدث الأبواب من الخامس إلى العاشر بالترتيب عن القلب وحراسته من التعرض للشواغل والفتن ، وذلك بسد الطريق أمامه من خلال الحواس الخمس الموصلة إليه ، وشغله بالتدبر في اللّٰه وآياته ،كما بيّن لنا أن القلب يصدأ من الذنوب . وعلاج هذا الصدأ هو تلاوة القرآن بالتدبر وخلاء البطن وقيام الليل ، والتضرع إلى اللّٰه ، ومجالسة الصالحين ، وتقليب القلوب ، والرغبة إلى اللّٰه تعالى في إصلاحها ، وبصيرة القلب ، ومحاولة تفريغ القلب من كل ما يلهي عن ذكر اللّٰه تعالى .

ونلمح هنا إشارة إلى دور الحواس في استقبال التنبيهات وهو ما يدخل ضمن موضوع « الإحساس » Sensation كما نجد إشارة لموضوع الاسترخاء العضلي العميق ، والذي يعد أحد تكنيكات العلاج السلوكي في علم النفس الإكلينيكي (ص ٥٦ - ٥٩ ، ٦٩ - ٧٢) .

ثم ينتقل بنا المؤلف في الأبواب من الحادي عشر - العشرين بالترتيب إلى غض البصر ؛ لأنه صاحب خبر القلب ينقل إليه خبر المبصرات ، وينقش فيه صورها فيجول

فيها الفكر ، فيشغله بما أبصره ، ثم يذم فضول النظر ، ويحذر من شره ، حيث يصفه بأنه سهم مسموم يورث الشهوة في القلب ، وينهي نهيًا شديدًا عن النظر إلى الغلمان (المردان) وصحبتهم ومجالستهم ويعتبره أعظم أبواب الفتن ؛ حيث يعتبرهم أشد فتنة من العذارى .

ويقترب ذلك من الحديث عن موضوعات الإحساس والانتباه والإدراك في علم النفس العام ، كما يقترب موضوع التحذير من النظر إلى الغلمان من الحديث عن أحد موضوعات الطب النفسي وهو (اضطرابات الشخصية) وخاصة اضطراب « الجنسية المثلية » واللواط . (ص ٧٣ - ٧٥ ، ٩٠ - ١٠٤) .

ثم ينتقل بنا الحديث عن إثم النظر وعقوبته ، فيؤكد أنه يذهب الحسنات ويروي لنا مواقف على من عاقب نفسه على النظر ففتق عينيه ودعا الله ﷺ أن يأخذ بصره خوف الفتنة ، ويرتبط هذا الموضوع بمفهوم الشعور بالذنب Guilt Feeling في علم النفس الاجتماعي (ص ١٠٥ - ١٠٨) .

وعاد بنا ابن الجوزي ، فعدد لنا ثواب من غض بصره عن الحرام حيث وعده الله ﷻ بالجنة ، وزاده الله إيمانًا يجد حلاوته في قلبه ، وزاده في حبه . وقدم علاجًا للهم والفكر المتولد عن النظر بقطع أسبابه ، أي غض بصره ، ومراقبة الله في خطرات قلبه ، وحينئذ يسهل علاج ما حدث في القلب بتقليل الشهوة بقضاء أمره من حلاه . ونجد هنا بداية أولوية لأحد أساليب العلاج النفسي Psycho - Therapy (ص ١١٥ - ١١٩) .

ويحذرنا ابن الجوزي في الباب الحادي والعشرين من الخلوة بالأجنبية حتى ولو كان لتعليمها القرآن خشية الفتنة وانشغال القلب ،كما يحذرنا في الباب الذي يليه من فتنة النساء ؛ لأنهن مصيدة الشيطان ويؤكد حديثه بآيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة .

ثم يحدثنا في الباب الثالث والعشرين عن التخويف من الفتن ومكايد الشيطان . ويروي عن رسول الله ﷺ بأن كل إنسان يلازمه شيطان يأمره بالمعاصي وعليه مقاومته ، ويقترب هذا من الحديث عن الصراع النفسي ، وضبط النفس ، والسيطرة على أهوائها وشهواتها (ص ١٤٣ - ١٤٦) .

كما يحذرنا في الباب الرابع والعشرين من المعاصي وقبح أثرها ، وذلك بهجر ما حرم الله علينا وأداء ما فرضه علينا كما عدد ثواب من اتقى الله وأدى فرائضه واجتنب حرماته . ويرتبط هذا الموضوع بأساليب الثواب والعقاب في تعديل السلوك (ص ١٤٧ - ١٥٢) .

ثم يقدم لنا بابًا في ذم الزنى باعتباره من أكبر الذنوب . وقدم تحذيرًا لمن يرتكب هذا الذنب ، ودلل على ذلك بآيات قرآنية وأحاديث نبوية .

ويستطرد ابن الجوزي فيقدم بابا في التحذير من عمل قوم لوط ، ألا وهو مخالطة الرجال للرجال والنساء للنساء ، وعدد عقابهم في الدنيا والآخرة ، ويرتبط هذا بموضوع اضطرابات الشخصية في الطب النفسي (ص ١٦٢ - ١٦٦) .

ثم حدثنا في الباب السابع والعشرين وما يليه تفصيلًا عن عقوبة اللوطي في الدنيا والآخرة ، وأما عن عقوبتهم في الدنيا فهي الرجم بالحجارة ، والحرق ثم القتل علاوة على كفرهم . أما عن عقوبتهم في الآخرة فهي جهنم وبئس المصير .

ثم يقدم لنا ابن الجوزي بابًا في التحذير من العقوبات فيعجل بها تارة وتتأخر تارة أخرى ، وأشد العقوبات سلب الإيمان ، والمعرفة ، وموت القلوب ، ومحو لذة المناجاة ، وقوة الحرص على الذنب ونسيان القرآن ، وإهمال الاستغفار ، غالبًا ما تعمى البصيرة . ويمكن الاستفادة من هذا الموضوع في مجال الإرشاد النفسي وتعديل السلوك (١٦٩ - ١٧١) .

ويستدرك ابن الجوزي فيقدم لنا بابًا في الحث على التوبة والاستغفار ، ويسوق أدلة من القرآن الكريم والحديث الشريف تؤكد على أن باب التوبة مفتوح لمن أراد . ويمكن الاستفادة من الموضوعين السابقين في عملية تغيير الاتجاهات Attitude Change والسلوك (ص ١٧٢ - ١٧٥) .

ثم يدعونا في الباب الحادي والثلاثين إلى الافتخار بالعفاف ، وساق لنا مواقف تدل على العفة والترفع عما نهى اللّٰه واتباع أوامره . ويقابل هذا الموضوع ما نجده في الدراسات الحديثة عن التعلم عن طريق « النمذجة والمحاكاة » ، أو التعلم بالعبرة (ص ١٧٦ - ١٩١) .

كما يقدم بابًا آخر في فضل من ذكر ربه فترك ذنبه ؛ حيث يؤمنه اللّٰه يوم الفزع الأكبر ، ويحرمه على النار ، ويدخله الجنة ، ويفرج كرباته .

ثم ينتقل بنا ابن الجوزي إلى الحديث عن الحث على النكاح ، فهو كما روى في الحديث أفضل لغض البصر ، وحفظ الفرج ، ونجد في هذا الحديث أسلوبًا عمليًا ناجحًا في السيطرة على الدافع الجنسي وخفض ما يرتبط به من قلق (ص ٢٢١ - ٢٢٤) .

كما يقدم لنا بابًا في ذم من أفسدوا امرأة على زوجها ، حيث وعدهم اللّٰه بأشد العذاب ويرتبط هذا الموضوع بالقيم والتصورات الأخلاقية في علم النفس الاجتماعي (ص ٢٢٥ - ٢٢٧) .

ثم ينتقل أيضًا إلى الحديث في الأبواب من الخامس والثلاثين إلى التاسع والثلاثين إلى الحديث عن العشق .

ويذكر لنا بداية ماهية العشق وحقيقته ؛ حيث اختلف كلام الناس فيه ، والرأي الغالب أنه شدة ميل النفس إلى صورة تلائم طبعها ، فإذا قوي فكرها فيها تصورت حصولها وتمنت ذلك ، فيتجدد من شدة الفكر مرض . ويرتبط هذا التعريف بأحد موضوعات علم النفس العام ، وهو انفعال الحب وما يرتبط به من صور عقلية وخيال (ص ٢٢٨ ، ٢٢٩) .

وللعشق مراتب تبدأ بالاستحسان للشخص ، ثم يجلب إرادة القرب منه ، ثم المودة ، ثم يقوى الود فيصبح محبة ، ثم يصير خلة ، ثم يصير هوى من غير تمالك ، ثم يصير عشقًا ، ثم يصير تتيمًا ، ويميز بين الحب والعشق . ويعتبر هذا بداية لموضوع العواطف في علم النفس العام وكذلك موضوع الانفعالات (ص ٢٣٠ - ٢٣٢) .

أما عن أسباب العشق ؛ فمنها : مصادقة النفس ما يلائم طبعها ، فتستحسنه ، وتميل إليه ، ومنها أيضًا سماع الغزل والغناء ، ويتأكد العشق بإدمان النظر وكثرة اللقاء وطول الحديث .

ويرتبط هذا بموضوع الانفعالات والدوافع في علم النفس العام (ص ٢٣٣ - ٢٤٠) .

وقد اختلف الناس في العشق أيضًا ، هل هو ممدوح أو مذموم ؟ والرأي الغالب أنه مذموم ؛ وذلك بتأمل عواقبه ، فهو يضعف القلب ويعتري النفوس العاطلة والقلوب الفارغة ، وإذا كان مراد النفس الشهوانية اللذة فهي أيضًا مذمومة بما يزيد في ذم العشق . وذكر أيضًا أن العشاق قد جاوزوا حد البهائم في عدم ملكة النفس في الانقياد إلى الشهوات .

ويرتبط هذا بموضوع الدافع الجنسي كدافع أولي (ص ٢٤١ - ٢٤٣) . كما ذكر أيضًا أن للعشق ضررًا في الدين والدنيا ، فأما في الدين فإنه يشغل القلب عن الفكر فيما خلق له ، وبالتالي فهو يخسر آخرته ، فكلما قرب من هواه بعد عن مولاه . وأما عن ضرر العشق في الدنيا فإنه يورث الهم والفكر ، والوسواس والأرق ، وقلة المطعم ، وكثرة السهر ، وتنشأ الصفرة في البدن ، والرعدة في الأطراف ، واللجلجة في اللسان ، والتحول في الجسد ، وتعطيل الرأي ، وغياب القلب ، وتتابع الحسرات ، وربما يودي بصاحبه إلى الجنون . ويرتبط هذا بموضوع الاضطرابات النفسية في الطب النفسي (ص ٢٤٤ - ٢٤٨) .

ثم ينتقل بنا المؤلف إلى ذكر ثواب من عشق وعف وكتم . فقد أكد رسولنا الكريم في أكثر من موضوع على أن ثوابه الشهادة .

ثم عاد ابن الجوزي ففصل في ذكر الآفات التي تصيب العاشق فقال : إنه يورث السل والخرس والأرق ، والوسوسة ، وتحول الجسم ، والشلل ، وخراب الديار ، والجنون ، وساق لنا مواقف عددية تشهد على ذلك . وكما سبق يرتبط هذا الموضوع بالاضطرابات النفسية وأعراضها في الطب النفسي المعاصر (ص ٢٥٩ - ٢٧٦) .

كما ذكر لنا أيضًا بعض الحيل والمخاطرات بالنفوس وإلقائها في الهلاك لأجل المحبوب ، فمن العشاق من فسدت حيلته في الوصول إلى معشوقته فعقل ، ومنهم من ألقى بنفسه من مكان مرتفع فمات ، ومنهم من أدمن الخمر حتى مات . ويعتبر هذا الموضوع على صلة بموضوع « الانتحار » الذي يعد أحد اضطرابات الشخصية في الطب النفسي (ص ٢٧٧ - ٢٩٣) .

وهناك أيضًا من ضربت به الأمثال في العشق ، وقال الشعر وقيلت فيه الأشعار ، ومن أشهرهم : مجنون ليلى ، وعروة بن حزام ، والعباس بن الأحنف ، وذو الرمة ، وتوبة الخفاجي وجميل بثينة . ويرتبط هذا أيضًا بموضوع الانفعالات في علم النفس العام وكذلك الإبداع في الشعر (ص ٢٩٤ - ٣٠٦) .

ثم ينتقل بنا ابن الجوزي إلى الحديث عن من حمله العشق على الزنى بمحارمه ، ويروي لنا مواقف لأم هامت حبًّا بابنها أنجبت منه حرامًا بحيلة أو من عشق أخته فتزوجها .

ثم يستطرد أيضًا فيروي لنا مواقف لمن كفر بسبب العشق ، فمنهم من تنصر وبرئ من الإسلام حتى يحظى بمعشوقته .

ويورد أيضًا في أمر من حمله العشق على قتل الناس حتى يصل إلى معشوقته ، انتقامًا أو غيرة عليها .

ومنهم من قتل معشوقته انتقامًا ممن تزوجها ، أو قتلها بسبب عشقها لآخر ، أو قتلها بسبب إفراطه في الشراب ، أو قتلها شكا في علاقة بينها وبين جاريتها ، وعدد لنا ابن الجوزي مواقف تشهد على ذلك .

كما يروى لنا أخبار من قُتِل من العشاق بسبب العشق فمنهم من قتلته زوجته ، ومنهم من قتل رجلًا عشق زوجته .

واستطرد فروى لنا عمن مات بسبب العشق ، فمنهم من اصفر لونه ونحل جسمه وامتنع عن الطعام والشراب حتى مات حزنًا على فراق معشوقته . ومنهم من مات لشدة شجنه على محبوبته حتى لو عادت إليه . وربما يموت من شدة الفرح بلقاء معشوقته .

ويصف لنا مواقف وصلت إلى حد قطع أجزاء من جسد العاشق فلا يحس بالألم ما دام يسمع حديث معشوقته . وكلها مواقف تدل على علة أصابته من جراء حبه وعشقه .

ووصل الأمر ببعض العشاق على قتل أنفسهم بسبب عشقهم . ويرتبط هذا بموضوع الاضطرابات النفسية في الطب النفسي كما يرتبط بموضوع شدة الانفعالات في علم النفس العام (ص ٣٤٩ - ٤٣٦) .

ثم يقدم لنا ابن الجوزي ما ذُكر في أدوية العشق ، وذلك بعد أن عرفنا أسباب المرض . فيكرر لنا بداية أن أمراض العشق تختلف ؛ ولذلك يختلف علاجها . وعلاج من في بداية المرض ليس كعلاج من انتهى به المرض نهايته ؛ لأنه إذا بلغ المضر غايته أحدث الجنون والذهول ، وتلك حالة لا تقبل العلاج ، والحالة الأخيرة يمكن التغلب عليها بتحذير الشخص من الأسباب التي تزيده قوة .

ومن الأسباب التي تضعف العشق وتوهنه : طول النظر إلى المعشوق فيزول التخيل والتوهم فيبرد قلب المحب لزوال التوهم ، وربما يؤدي تكرار النظر إلى عكس ذلك وهذا هو العشق المتمكن .

ومن علاجات العشق أيضًا غض البصر والتحذير من شره ، والعزم القوي على البعد عن المحبوب وتوطين النفس على اليأس منه ، والنظر فيما تقدم من ذم الهوى . وأهم شيء التحلي بالحياء والتفكير في آيات الله وعقابه حين العرض عليه ، وتذكر النار وتصور نفاذ اللذة وبقاء العار والعذاب .

أما علاج القلق الناجم عن الهجر ، فباللجوء إلى الله ﷻ في تسهيله ، وليعامله بالصبر على ما نهى عنه فربما عجل الله له مراده . وساق لنا ابن الجوزي مواقف لجماعة حصلوا على مرادهم فتزوجوا النساء المحبوبات وملكوا الجواري ، وذلك بالصبر، والصلاة ، والخضوع إلى الله ﷻ .

وقدم علاجًا لمن عشق ولا سبيل إلى تحصيله كذات الزوج والمحرمات ، والعلاج يكون بالعزم الجازم على هجر المحبوب ، واللجوء إلى الله ﷻ ، والإكثار من الدعاء ، ثم التعالج ، فإن الأسباب لا تنافى التوكل والدعاء .

كما قدم علاجًا للجوانب الظاهرة :

مثلًا : تحول الجسد يكون باستعمال المرطبات كشم البنفسج ، ودخول الحمام للاستحمام والنوم الطويل ، والتغذي بالأغذية الرطبة ، والفظر إلى الماء الصافي ،

والتحدث بالنوادر المضحكة .

ومن ذلك أيضًا البعد عن ما يشغل القلب بالعمل والصناعة . وأيضًا باستعراض النساء للتزويج والجواري للتسري . وكذلك يكون العلاج بعيادة المرضى وتشييع الجنائز وزيارة القبور ، والنظر إلى الموتى ، والتفكير في الموت وما بعده ، ومجالسة الزهاد ، وسماع أخبار الصالحين والمواعظ .

أما عن معالجة الباطن : فيكون بقوة العزم على قهر الهوى ، واليأس والهمة الأبية ، وأن يعلم أن زوجته المحبوبة إن مات عنها مالت إلى غيره ونسيته أسرع شيء لأنه لا وفاء للنساء .

ومن الممكن أن تكون مخالطة المعشوق والوقوف على عيوبه الآدمية أيضًا علاج . ومما يداوي به الباطن تصوير فقد المحبوب ، إما بموته أو بفراق يحدث عن غير اختيار ، وأن يعلم أن الابتلاء والصبر عليه خير ، وأن يتحلى بصفات أرباب الفطنة وأن يعشق الفضائل .

ومن أدوية النفس أيضًا أنفة النفس الأبية أن تكون مقهورة .

ومن أدوية الباطن أيضًا إعمال الفكر في قبح هذا الحال ، والإصغاء إلى سماع العظة من واعظ القلب . وأخيرًا فالصبر خير علاج .

وفي النهاية يحدثنا ابن الجوزي في الباب الخمسين عن وصايا ومواعظ وزواجر . وتتلخص في : أن يعلم الفرد أن من زرع شرًّا فيوشك أن يحصد ندامة . وأن يجعل الدنيا كصيام يوم عن الشهوات ، وأن يعلم أن رأس ماله قلبه ووقته فمن خسرهما خسر رأس ماله ، وأن يعلم تمام العلم أن اللّٰه ساخط على المعصية والغفلة ، وأن يعلم أن الدنيا حلم ، والآخرة يقظة ، والمتوسط بينهما الموت ونحن في أضغاث أحلام .

ويعتبر هذا الحديث إشارة واضحة لبعض أنماط العلاجات النفسية المختلفة . وبخاصة : العلاج بالعمل ، العلاج الاجتماعي ، العلاج عن طريق التعلم بالعبرة ، العلاج الديني في إطار الطب النفسي وعلم النفس الإكلينيكي (ص ٤٣٧ - ٥٠٠) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام .

* * *

الأذكياء [1]

عرض : د. الحسين محمد عبد المنعم

عرض الكتاب :

الكتاب يقع في ٢٩٥ صفحة من القطع المتوسط ، ويضم الكتاب بالإضافة إلى ترجمة المؤلف ومؤلفاته ، ثلاثة وثلاثين بابًا .

والباب الأول ، في فضل العقل وفيه أوضح المؤلف قيمة العقل مدللًا بالأحاديث القدسية والأحاديث النبوية ، وأن العقل يلي الإيمان في المرتبة ، فبه لا يستطيع الشيطان أن يكابد المؤمن العاقل ، وأن المؤمن يتلذذ في الجنة بقدر عقله .

أما الباب الثاني فبعنوان ماهية العقل ومحله ، حيث يروي لنا المؤلف عن آخرين أنه نور ، وأنه قوة يفصل بها بين حقائق المعلومات ، أو أنه نوع من العلوم الضرورية ، وفي سياق آخر قيل : إنه غريزة أو إنه لب اغتنم بالتجريب ، وأما اشتقاق الاسم فأصله من الامتناع ، يقال : عقلت الناقة إذا منعتها من السير ، وقيل : محل العقل الدماغ . ولعل التعريفات التي وردت للعقل تعد سبقًا لدراسة أهم الموضوعات التي تدرس الآن في إطار علم النفس العام ، وهو موضوع « سيكولوجية التفكير » و « الذكاء الإنساني » أما الحديث عن محل العقل فيعد سبقًا حقيقيًا لما يدرس الآن في إطار أحد فروع علم النفس الأساسية وهو علم النفس الفسيولوجي (ص ٢٩ - ٣١) .

---

(١) حققه وقدم له أسامة عبد الكريم الرفاعي . دمشق : مكتبة الغزالي ؛ بيروت : مؤسسة مناهل العرفان ، ١٩٨٥م .

وموضوع الباب الثالث عن معنى الذهن ، والفهم ، والذكاء ؛ حيث يرى أن الذهن قوة للنفس تشمل الحواس الظاهرة والباطنة المستعدة لاكتساب الآراء ، والفهم جودة تتهيأ لهذه القوة وهو العلم بمعنى القول عند سماعه ، أما الذكاء فهو جودة حدس من هذه القوة تقع في زمن قصير جدًّا ، وقال البعض : حد الذكاء سرعة الفهم وحدته ، وذكر أن الذكاء في اللغة هو تمام الشيء وبذلك يكون الذكاء في الفهم هو أن يكون فهمًا تامًّا سريع القبول . ونلمح أيضًا في هذا الموضوع بداية أولية مبكرة لأحد الموضوعات التي تهم الدارسين في مجال علم النفس المعرفي ، وعلم النفس العام والقياس النفسي وهو « الذكاء وماهيته » (ص ٣٢ ، ٣٣) .

وينتقل بنا ابن الجوزي ليحدثنا في الموضوع الرابع عن العلامات التي يستدل بها على عقل العقلاء وذكاء الأذكياء ، ويقسمها إلى قسمين ، أحدهما من حيث الصورة ، والثاني من حيث المعنى ، والأحوال ، والأفعال . أما القسم الأول فيرى أن الخلق المعتدل ، والبنية المتناسبة دليل على قوة العقل وجودة الفطنة ، ومن ناحية الاستدلال على عقل العاقل بالأفعال والأحوال فيذكر أنه بالسكون والسكوت ، وخفض البصر ، والحركات اللائقة ، ومراقبة العواقب ، والخوف من الضرر . ونلمح أيضًا في هذا الموضع بداية لأحد النقاط الفرعية لأحد الموضوعات التي تدرس في إطار علم النفس العام وهو « خصائص السلوك الذكي » ويمكن أن يستفيد بها الدارس في مجال علم النفس الإكلينيكي عند تعرضه لدراسة القدرات العقلية (ص ٣٤ ، ٣٥) .

أما الموضوع الخامس فيبدأ المؤلف في ذكر مواقف للأنبياء المتقدمين مما يدل على الفطنة والذكاء أمثال إبراهيم عليه السلام ، وسليمان عليه السلام ، وعيسى عليه السلام ، وكلها مواقف تدل على الردود الصائبة وحل المشكلات بمقدرة فائقة ، وبأفكار تتميز بالندرة والطرافة .

وهنا نلمح إشارة مبدئية إلى أحد الموضوعات التي تدرس في إطار علم النفس الاجتماعي والمعرفي وهو سيكولوجية الإبداع وخاصة أحد جوانب السلوك الإبداعي ، وهو الأصالة Originality وتعني أن يأتي الفرد بأفكار تتميز بالجدة والندرة والطرافة (ص ٣٦ ، ٣٧) .

وينقل لنا الجوزي في الموضع السادس ما نقل في وصف السلوك الذكي عن الأمم السابقة ، وكلها قصص نخرج منها بأن أصحابها يتميزون بالحكمة والحنكة وتدبر الأمور .

وينقل لنا ابن الجوزي في الموضوع السابع عن ما نُقل عن نبينا ﷺ من مواقف تدل

على القدرة على الاستدلال والتجريد وحل المشكلات بمهارة فائقة . ثم ينتقل بنا الموضوع الثامن إلى ما نقُل عن الصحابة ﷺ أجمعين ، ومنها مواقف تدل على حسن التصرف في الأمور والحيل الذكية ، والذكاء الواضح ، والفراسة والطلاقة في التعبير ، وحل المشكلات بمهارة فائقة علاوة على الخدع الذكية أثناء الحروب ، ويدلل على ذلك بمواقف وأحاديث شريفة تعرض لها الصحابة الذين ورد ذكرهم .

ثم ينقل أيضًا عن الخلفاء ﷺ ، حيث يروي لنا مواقف تدل على الفطنة والقدرة على تجنب الوقوع في الخطأ ، وتدبر الأمور بكفاءة عالية ، وبقدرة فائقة على حل المشكلات ، كما يذكر مواقف تدل على حسن الحيلة ، والقدرة على الاستدلال .

ونخرج من كل هذه المواقف التي ذكرت من الباب السادس إلى التاسع بوصف للسلوك الذكي ، وجوانب للعمليات العقلية مما يصلح مرجعًا يهم الدارسين في مجال القياس النفسي ، وخاصة عند البحث عن مواقف تساعد في تصميم مقاييس للذكاء ، كما يفيد أيضًا الدارسين في مجال علم النفس العام وخاصة في موضوعي الذكاء Intelligence والشخصية الإنسانية Human Personality (ص ٣٨ - ٤٢) .
واستكمالًا للحديث السابق يحدثنا في الموضوعات من العاشر إلى الثالث عشر فيما نُقل عن الوزراء والسلاطين والأمراء ، والحجاب والشرطة ، والقضاة حيث يروي لنا مواقف لهؤلاء تدل على المهارة في كشف المجرمين ، والقدرة على الاستدلال لمعرفة الجاني ، وكيفية الخلاص من المعتدين ، والمقدرة الفائقة على سبر أغوار الآخرين ومعرفة ما بداخلهم من خلال استبطانهم ، وحل المشكلات أيضًا والقدرة على التجريد من خلال المحاكاة ، والقدرة على الفهم ، وإجراء ملاحظات دقيقة ، والحيلة الذكية ، وسرعة البديهة . وهذه الموضوعات في مجملها تدخل أيضًا في إطار موضوع الذكاء في علم النفس العام . كما تعد مرجعًا في أحد فروع علم النفس التطبيقية وهو علم النفس الجنائي Criminal Psychology (ص ٧٠ - ٩٨) .

ويستمر ابن الجوزي في ذكر مواقف لعلماء الأمة وفقهائها في الموضوع الثالث عشر ، كل هذه المواقف تؤكد أيضًا على الأفكار المبدعة لهؤلاء العلماء ؛ حيث نجد في مواقفهم الأفكار الأصلية التي تتميز بالندرة والطرافة ، والطلاقة في التعبير ، كما نجد اللغة الحاضرة أيضًا والمهارة في حل المشكلات ، والخطوات المتبعة في حلها .

ويعد أيضًا هذا الموضوع سبقًا لدراسة التفكير التغييري أو العملية الإبداعية

Divergent Thinking or Creative Process (ص ٩٩ - ١١٣) .

ويستمر ابن الجوزي أيضًا في سرد مواقف لعلماء العربية من خلال الموضوع الخامس عشر ، كما سرد لنا موقفين للزهاد في الفصل الذي يسبقه ، حيث تتميز مواقفهم بالطلاقة اللغوية والاستدلال للوصول إلى الحقيقة ، والمهارة في استخدام الألفاظ والدهاء والقدرة على حل المشكلات وحل الألغاز ، والقدرة على فهم المفردات ، وحسن الردود والسرعة في الإجابة ، والمرونة العقلية عند حل بعض الألغاز . ونلمح في هذا الفصل إشارة إلى اعتباره مرجعًا في أحد موضوعات سيكولوجية اللغة وهو « اللغة والمعنى » كما يعد مرجعًا في سيكولوجية الإبداع والقياس النفسي حيث يعد بداية لسرد جوانب السلوك الذكي بشقيه التقريري Convergent والتغييري Divergent مما يساعد الدارسين في تصميم مقاييس لهذا الغرض .

ثم ينتقل بنا إلى ذكر بعض الحيل الذكية لبلوغ الأهداف من خلال الموضوع السادس عشر (ص ١١٥ - ١٢٤) ، ومن أهم المواقف التي ذكرها قدرة الشخص على الإيحاء للآخرين بتخيل مواقف معينة لبلوغ هدف معين ، ويعد هذا الموضوع أحد موضوعات علم النفس الحديث داخل ما يسمى بسمات الشخصية خاصة ما يعرف بالقابلية للإيحاء Suggestibility (ص ١٢٥ - ١٣٨) .

أما موضوعي الباب السابع عشر والثامن عشر فيركزان أيضًا على ذكر مواقف تدل على فطنة وذكاء واضح للتغلب على موقف معين ، أو الهروب منه والمدقق في هذه المواقف يخرج بأفكار مبدعة وأصيلة ، وتدل على استبصار واضح بالمشكلات مما يعد مرجعًا في سيكولوجية الإبداع (ص ١٣٩ - ١٥٦) .

ونجد في الموضوع التاسع عشر إشارة واضحة إلى مهارة في استخدام الألفاظ في مواضع مختلفة ، وإلى طلاقة لفظية وتعبيرية ، وأفكار تتميز بالندرة (ص ١٥٧ - ١٦٢) .

كما يشير الموضوع العشرون إلى الانتصار على الخصم بالمناظرة بالجواب المسكت ؛ حيث نرى مواقف كلها تدل على حسن الردود والرأي الصائب وسرعة البديهة وحضورها ، والإجابات الجادة والطريفة في نفس الوقت ، ويعد هذان الموضوعان مرجعًا في وصف جوانب العملية الإبداعية أيضًا (ص ١٦٣ - ١٧٢) .

ونخرج من خلال الفصلين الحادي والعشرين والثاني والعشرين بمواقف تدل على غلبة العوام بذكائهم كبار الرؤساء ، وأيضًا أفعال صدرت من أوساط الناس وعوامهم

تدل على قوة الذكاء ونلمح من خلالها إشارة إلى وصف آخر مماثل لجوانب العملية الإبداعية من : طلاقة تعبيرية وطلاقة تفكيرية ، ومرونة تلقائية ، وفراسة ، ومهارة في تفسير الرؤى ، وفطنة وجودة خاطر ، ولباقة في الرد وسرعة فيه ، مما يعد أيضًا وصفًا لجوانب العملية الإبداعية (ص ١٧٣ - ١٨٦) .

ثم ينتقل بنا المؤلف من خلال الفصل الثالث والعشرين إلى سرد عدد من طرائف الأذكياء ، وكلها تدل على حسن الحيلة خشية الوقوع في مأزق .

ومن خلال الفصل الرابع والعشرين نلمح إشارة إلى المهارة اللغوية وحسن استخدام الألفاظ من جانب الشعراء والمداحين ، مما يعد مرجعًا في أحد موضوعات علم النفس الحديث « وهو علم نفس اللغة » ومادة خصبة لدراسة الإبداع في الشعر (ص ١٩٠ - ١٩٥) .

أما الموضوع الخامس والعشرون فيتحدث عن حيل المحاربين ، وخططهم للوقيعة بين الأعداء وحيلهم لبث الرعب فيهم وبعض الحيل للقصاص من الأعداء ، وذكاء القادة وفطنتهم . وللمدقق في هذه المواقف أن يجد مادة يستفيد منها من خلال دراسته لأحد فروع علم النفس التطبيقية وهو علم النفس الحربي (ص ١٩٦ - ٢١٧) .

أما الفصل السادس والعشرون فيتحدث عن فطن المتطببين ، فنجد فطنة الأطباء وحسن تصرفهم في الأمور عند علاج المرضى ووصف العلاج ، كما نلمح بداية لعلاج أحد الأمراض النفسية « وهو الهستريا التحولية » مما يعد مرجعًا في الطب النفسي المعاصر ، وعلم النفس الإكلينيكي (ص ٢٠٨ - ٢١٧) .

ويتحدث الموضوع السابع والعشرون وما يليه عن فطن المتطفلين والمتلصصين ، وكلها مواقف تدور حول ذكاء البعض منهم ، وحسن حيلهم لبلوغ الهدف وحسن التصرف ، وكيفية التخلص من المواقف المحرجة ، وإشباع الرغبات ، واحتيال اللصوص على بعضهم البعض ، ووضع الخطط المحكمة التي تدل على الذكاء والفطنة .

ويدور الموضوع التاسع والعشرون حول فطن الصبيان ، فيتحدث عن فراستهم وجرأتهم وسرعتهم في الرد ، وحسن استخدامهم للألفاظ ، وحضور البديهة ، وحسن إدراكهم للأمور .

ثم يتحدث المؤلف أيضًا في الموضوع الثلاثين عن فطن عقلاء المجانين ، ويذكر مواقف تدل على قدرتهم على الإجابات المقنعة وحسن الردود ، وبعض الحيل الطريفة التي تدل على قدر من الحكمة والذكاء ، ويرتبط هذا بموضوع العبقرية والجنون ، والذي

يعتبر أحد موضوعات علم النفس الحديث (ص ٢٤٧ - ٢٥٠) .

كما يتحدث الموضوع الحادي والثلاثون عن أخبار النساء المتفطنات ، وتدل مواقفهن على مقدرتهن على الاستدلال ، وحسن التصرف في الأمور ، وحسن استخدام الألفاظ وحضور البديهة ، والحيلة لبلوغ هدف معين ، وحسن تفسيرهن للمشكلات ، ويذكر لنا مواقف كثيرة تؤكد هذه الجوانب ، وكل هذه المواقف تصف جوانب السلوك الذكي ، والتفكير المبدع بما يعد بحق مرجعًا في علم النفس العام وسيكولوجية الإبداع (ص ٢٥١ - ٢٧٧) .

أما الموضوعان الأخيران فيتحدثان عن ما ذكر على لسان الحيوان مما يدل على الذكاء ، ويعدد المؤلف مواقف تدل على ذكاء القرد ، والكلب ، والفأر ، والدب ، والسمك ، والهدهد ، والعصافير ، والثعلب ، والظبي ، والنسر ، والعقاب . ومن المواقف التي تدل على ذكاء الكلب على سبيل المثال تفانيه في خدمة صاحبه ومحاولته الثأر له . وكذلك روى لنا حكاية الفأرة التي حاولت إنقاذ فأرة أخرى .

ويرتبط هذا الحديث بأحد فروع علم النفس الحديث وهو علم نفس الحيوان Animal Psychology حتى إن ثورانديك أحد أعلام علم النفس الحديث له كتاب بعنوان Animal Intelligence (ص ٢٧٨ - ٢٩٥) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في علم النفس العام .

* * *

بر الوالدين [1]

عرض : د. الحسين محمد عبد المنعم

عرض الكتاب :

المقدمة : وهو بعنوان حرص القرآن والسنة على تأكيد بر الوالدين . وتتضمن الحديث عن الزواج والحث عليه ، فهو السكن النفسي والهدوء ، واستجماع الشتات ، وإسكان صرخات الجسد على صورة مطمئنة لا يزعجها الخوف . ثم عرض لصلة الرحم ، فالمودة والرحمة بين الزوجين من مقاصد الزواج الرئيسية ، ومن الرحمة تكون الرحم وهي القرابة في الآباء والأمهات . وقطيعة صلة الرحم معصية كبيرة حيث قال رسول الله ﷺ : « **لا يدخل الجنة قاطع رحم** » . كما شملت المقدمة الحديث عن حقوق الوالدين وبرهما ، فإذا تأكد حق القرابة والرحم ، فأخص الأرحام وأمسها الولادة ، فيتضاعف تأكد الحق فيها . فطاعة الوالدين من أوجب الواجبات وأفضل القربات ، وعقوقهما من أكبر الكبائر وأعظم الذنوب . كما تناولت المقدمة : حقوق الأبناء على الآباء فقد حرص الإسلام على ألا يتسبب الآباء فيما يعكر صفو الحب والبر من الولد لأبيه ، فحد حدودًا تضمن صفاء الحب والود بين الأصل وفروعه .

فهناك واجب على الوالدين يتمثل في : الرعاية ، والتربية الدينية ، وتهيئة الولد لاستقبال الحياة ، والعدل بين إخوته . ويتضمن هذا الكتاب الموضوعات التالية :

ذكر المعقول في بر الوالدين وصلة الرحم : فمن الأمور التي يدركها كل عاقل أنه لا

---

(١) تحقيق محمد عبد القادر عطا – ط١٠ ، بيروت : مؤسسة الكتب الثقافية ، ١٩٨٨م (١٠٤٠ ص) .

منعم بعد الحق ﷻ على الإنسان كالوالدين ، فقد تحملا الكثير في تربية الأبناء . وأنه مهما بذل الأبناء في بر الوالدين فلن يفوا بشكرهما .

ويرتبط ذلك مباشرة بمفهوم التربية وعمليات التنشئة الاجتماعية للأبناء Socialization ، وقيمة الاعتراف بحقوق الوالدين ، وهي من القيم الأخلاقية المهمة Moral Values في تنشئة الأبناء (ص ٢٧ ، ٢٨) .

ذكر ما أمر اللّه به من بر الوالدين وصلة الرحم : قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] فقد جعل اللّه ﷻ بعد عبادته مباشرة الإحسان والبر بالوالدين . مما يدل على عظمة قدرهما . فيجب على الأبناء احترام الآباء والتحدث معهم بلطف وحسن . ومن بيان حق الوالدين أيضًا قوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ [لقمان : ١٤] . فقد قرن ﷻ شكره بشكرهما .

ويقترب هذا الموضوع من بعض المفاهيم السيكولوجية ، مثل : التفاعل الاجتماعي Social Interaction ، والتخاطب اللفظي وغير اللفظي Verbal & Non Verbal Communication بين الآباء والأبناء والقواعد التي يجب على الأبناء اتباعها في ذلك ، فالتخاطب اللفظي يقترب من قوله وتعالى : ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ [الإسراء : ٢٣] ، وكذلك قوله : ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ أما التخاطب غير اللفظي فيقترب من قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ [الإسراء : ٢٣] (ص ٢٩ ، ٣٠) .

هذا فيما يتعلق بذكر ما أمر به اللّه من بر الوالدين وصلة الرحم . أما ذكر ما أمرت به السنة من بر الوالدين ، فنعرض له على النحو الآتي :

ذكر ما أمرت به السنة من بر الوالدين : ويندرج تحت هذا العنوان عدد من الأحاديث النبوية الشريفة ، التي تحث على طاعة الوالدين ، وعدم معصيتهما ، والبر بهما ، وهناك من الأحاديث ما يشير إلى تقديم بر الوالدين على الجهاد والهجرة ، وأن أحب الأعمال إلى اللّه بر الوالدين ، ومن ثمرات البر على المرء أنه يطيل العمر ؛ حيث قال رسول اللّه ﷺ : « **من بر والديه طوبى له وزاد اللّه في عمره** » ، كما قال ﷺ : « **من أحب أن يمد اللّه في عمره ؛ ويزيد في رزقه ؛ فليبر والديه وليصل رحمه** » .

أما عن كيفية بر الوالدين : فيكون بطاعتهما فيما يأمران به ما لم يكن بمحظور ، وتقديم أمرهما على فعل النافلة ، والاجتناب لما نهيا عنه ، والإنفاق عليهما ، والمبالغة في خدمتهما ، واستعمال الأدب والهيبة لهما ، فلا يرفع صوته ، ولا يحدق إليهما ، ولا

يدعوهما باسمهما ، ويصبر على ما يكره مما يصدر منهما .

– **تقديم الأم في البر** : فهناك من الأحاديث النبوية الشريفة ما يشير إلى وجوب تقديم الأم في البر ، فعن أبي هريرة ﷺ ، قال : قال رجلٍ يا رسول اللّه ، أي الناس أحق مني بحسن الصحبة ؟ قال : « **أمك** » ، قال : ثم مَن ؟ قال : « **أمك** » ؛ قال : ثم مَن ؟ قال : « **أمك** » قال : ثم مَن ؟ قال : « **أبوك** » .

– **ما يجزي به الولد والديه** : حيث قال رسول اللّه ﷺ : « **لا يجزي ولد والديه إلا أن يجدهما مملوكين فيشتريهما فيعتقهما** » .

– **ثواب بر الوالدين** : حيث عرض المؤلف لمجموعة من الأحاديث النبوية التي تشير إلى أن ثواب بر الوالدين دخول الجنة والتمتع بنعيمها .

– **من كان يبالغ في بر الوالدين** : فهناك من الأحاديث والأقوال التي تؤكد الحرص على معاملة الوالدين بأرق وأفضل ما يمكن ، سواء عند الحديث معهم ، أو تناول الطعام ، أو المشي معهم ، أو عند التحية ، أو عند النوم .... إلخ .

– **إثم عقوق الوالدين** : تشير الأحاديث في ذلك إلى عقوق الوالدين من أكبر الكبائر ، فلا يدخل الجنة عاق ، ولا مدمن خمر ، ولا من يكذب بالقدر ، وقال رسول اللّه ﷺ : « **ثلاثة لا ينظر اللّه إليهم يوم القيامة ؛ العاق لوالديه ، ومدمن الخمر ، والمنان بما أعطى** » . كما قال رسول اللّه ﷺ : « **كل الذنوب يؤخر منها ما شاء اللّه إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فإنه يعجله لصاحبه في الحياة الدنيا** » .

ويستدل من ذلك أن العاق لوالديه يعاقبه اللّه ﷻ في دنياه وآخرته .ونصح بعض الحكماء بعدم إقامة علاقات صداقة مع العاقين للوالدين .

– **أما شؤم العاق لوالديه** : فيتمثل في عدم رضا اللّه ﷻ عليه ، وكذلك في غضب الوالدين منه .

أما كيفية العقوق فتتضمن عددًا من العلاقات والإرشادات منها مثلًا :

المشي بين يدي الأب ، دفع يد الأب عند ضرب الابن ، شدة النظر إليهما ، وإيجاب الحجة على الوالدين عقوق ، وعدم طاعتهما .

– **أما إجابة دعوة الوالدين على الولد** : فهذا صحيح كما ورد في الأحاديث النبوية الشريفة ؛ حيث قال رسول اللّه ﷺ : « **ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهم : دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالدين على ولدهما** » .

- **ثم الحديث بعد ذلك حول من تبرأ من والديه أو ولده :** وتشير مضامين الأحاديث النبوية الشريفة في ذلك إلى أن من تبرأ من والديه لا يكلمه اللّٰه يوم القيامة ولا ينظر إليه . أما إثم من تسبب في شتم الأبوين ، فهو من أكبر الكبائر . وعن صلة الوالدين بعد موتهما ، تشير الأحاديث إلا أنه من الضروري أن يدعو الابن لوالديه بعد موتهما ، فقد نصح الرسول ﷺ بالدعاء لهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم ... كما قال رسول اللّٰه ﷺ : « **هدية الأحياء إلى الأموات الاستغفار لهم ، وأن اللّٰه يدخل على أهل القبور من أهل الدور مثل الجبال** » .

- ثم تحدث المؤلف بعد ذلك عن ضرورة صلة أقارب الوالدين وأصدقائهما بعد موتهما وذلك في ضوء ما ورد من الأحاديث النبوية الشريفة ، وكذلك زيارة قبور الوالدين بعد موتهما وقراءة القرآن لهما . ثم عرض بعد ذلك لثواب صلة الرحم وعقوبة قطعه . فالرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم كما قال « أبو أوفى » ، وكما قال رسول اللّٰه ﷺ : « **من أحب أن يمد اللّٰه في عمره ، ويزاد له في رزقه ، فليتق اللّٰه وليصل رحمه** » .

ويرتبط هذا الموضوع (ذكر ما أمرت به السنة من بر الوالدين) بعدد من المفاهيم والموضوعات في مجال علم النفس :

١ - التخاطب اللفظي Verbal & Non-Verbal Communication فالإشارة إلى التخاطب اللفظي واضحة في الأحاديث التي تناولت طريقة وأسلوب الحديث والكلام مع الوالدين (ص ٣١ - ٨٨) .

أما التخاطب غير اللفظي فيتمثل في أسلوب التعامل مع الوالدين ، سواء في شكل النظرة إليهما مثلًا يعتبر من العقوق ، كما يجب أن لا يحدق إليهما .

٢ - المسافة الاجتماعية Social Distance فهناك - كما أوضحت الأحاديث النبوية الشريفة - عدد من العلامات التي يستوجب على الأبناء اتباعها ، منها ما يتعلق بالمشي مع الوالدين ، فيجب ألا تمشي بين يدي الأب ، ولكن خلفه أو عن يمينه ... إلخ (ص ٣١ - ٨٨) .

٣ - القيم الأخلاقية Moral Values وهي الطاعة ، واحترام الوالدين ، والصداقة . فهناك مثلًا إشارة إلى عدم تكوين صداقة مع العاقين لوالديهم (ص ٣١ - ٨٨) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس الاجتماعي .

* * *

روح الأرواح [1]

عرض : د. عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالكتاب :

ويتضمن ثمانية عشر فصلًا نعرض لها على النحو التالي :

الفصل الأول : ويتوجه فيه المؤلف بالحمد والشكر إلى اللَّه ﷻ ، وعن قدرته وحكمته وعظمته وما إلى ذلك من الصفات . كما أن به إشارة لأهمية الدعاء إلى اللَّه ﷻ والتوجه إليه في كل شيء .

الفصل الثاني : ويتحدث فيه المؤلف عن أولياء اللَّه الذين عرفوه بنعوت الجلال فوافقهم بالأنس ، وبذكره لهم ذكروه يباهى بأحوالهم الملائكة ، وقد أحبهم اللَّه وأحبوه . ومن صفات هؤلاء الأولياء الصالحين أنهم خافوا الفضيحة يوم الحساب فحفظوا الأمانة فيما ائتمنوه .

وهناك إشارة بهذا الفصل لموضوع الانفعالات Emotions (خاصة انفعال الحزن) (ص ١٨) ، كذلك (ص ١٩) . فهناك ذكر لأبيات من الشعر تكشف عن ذلك ؛ مثل :

سلام على قلب تعرض للهوى   سلام عليه أحرقته شجون
وعذبه هم يهيج حزنه   فللهم والأحزان فيه فنون

الفصل الثالث : ويتحدث فيه المؤلف عن قدرة اللَّه وحكمته وتنزهه في كمال عن

---

(١) ط١ - القاهرة : المطبعة العلمية ، (١٩٨٢م) (٩٦ ص) .

التشبيه والتمثيل والمثال ، وتوحد وحدانيته عن المؤانس والمؤازر ، وتغير الحال ، وتعاظم قدرته عن الصاحب والصاحبة ، وتفرد أزليته ... إلخ .

الفصل الرابع : ويرتبط ما جاء به بموضوع الانفعالات والزهد « حب اللّه ﷻ » والبعد عن الدوافع والشهوات الدنيوية (٢٧ - ٣٢) .

الفصل الخامس : ويتحدث فيه عن مغفرة اللّه ﷻ عن عباده . وتقرب العبد إلى ربه لدرجة تأثره في انفعالاته ومشاعره ووصوله إلى ما يسمى بالحب الإلهي وهو أرقى أنواع الحب وأسماها .

الفصل السادس : ويتحدث فيه عن الموت والجنازة وما يصاحب ذلك من تغيرات انفعالية (كالبكاء والحزن) . ويرتبط هذا الفصل بموضوع الانفعالات (ص ٤٠) .

الفصل السابع : وبه عدد من الحكايات التي ترتبط بموضوع سيكولوجية الأحلام (ص ٤٣) . فهناك حكاية : حيث ذكر عن عمرو بن مالك عن أبيه قال : كان بيني وبين علي بن السامري مواخاة فلما مات رحمه الله كنت أتمنى رؤيته في المنام فرأيته في هيئة حسنة .

الفصل الثامن : ويرتبط ما ورد به بموضوع سيكولوجية الجماعة الصوفية والعلاقة بين أفرادها (ص ٤٨) .

الفصل التاسع : ويرتبط بموضوع الوعظ والإرشاد والتوجيه الديني Religious Counselling (ص ٥٠ - ٥٤) .

الفصل العاشر : ويتحدث فيه عن عزلة الجاهل وعزلة العالم . ويرتبط بموضوع الصداقة والعلاقات بين الأفراد (ص ٥٦ ، ٥٧) .

الفصل الحادي عشر : ويتحدث فيه عن الدنيا وما بها من متاع قد يدفع البعض إلى الاستمتاع به ونسيان المتع والجزاء في الآخرة والعمل لها .

الفصل الثاني عشر : ويوضح فيه المؤلف إلى ضرورة التوجه إلى اللّه والتفكير فيه وذكره والعمل للآخرة . كما أشار إلى ضرورة الاقتصار في تفكير العبد على ذكر ملذات ومحاسن الدنيا .

الفصل الثالث عشر : وفيه إشارة واضحة لمغفرة اللّه ﷻ عن عباده الذين تابوا عما فعلوا من أخطاء ، وما وقعوا فيه من إثم وذنوب .

الفصل الرابع عشر : ويتحدث فيه عن مجموعة من الحكايات التي توضح التوبة والرجوع إلى الله ﷻ .

الفصل الخامس عشر : ويرتبط ما جاء به بموضوع الانفعالات وخاصة انفعال الندم والقلق (ص ٨٢) ، ففي أحد الحكايات التي أوردها المؤلف يذكر « ... لو رفعت إلى عالم المعاني في ركب الفكر لرأيت أعلام المعرفة في أقرب مدة يا حبيبي ، خوف السابقة شق قلوب السابقين حتى قلقل القلق قلوبهم بذكر المحبوب لولا نسيم السحر ينم لهم بنفحات الاستغفار ...) .

الفصل السادس عشر : ويتحدث فيه المؤلف عن سبل الهداية والبعد عن الشهوات .

الفصل السابع عشر : ويتحدث فيه عن عبادة اللّٰه ﷻ والوصول إلى حالة الزهد في محبته ﷺ . وذلك من خلال ذكره لعدد من الروايات الموضحة لذلك .

الفصل الثامن عشر : ويتحدث فيه عن يوم القيامة وصفات أهل الجنة ، وأهل النار .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس العام .

* * *

أخبار الظرفاء والمتماجنين [1]

عرض : د. إبراهيم شوقي عبد الحميد

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٣٠٤ صفحة من القطع المتوسط ، ويضم تعريف ابن الجوزي ومقدمة المؤلف ، ثم فصول الكتاب وأبوابه وأقسامه ، وأخيرًا المراجع ، ومجموعة الفهارس ، ومنها الأعلام ، والأماكن ، والكتب والأيام والآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والشعر ، والفهرس العام .

يعتبر هذا الكتاب أحد الفنون الأدبية التي تتضمن خصائص معينة تختلف في بعض جوانبها عن خصائص الفنون الأدبية الأخرى . ولابن الجوزي نفسه من هذا النوع من الأدب بعض الكتب كالأذكياء ، وأخبار الحمقى ، والمغفلين .

يعرض الكتاب الحالي لروايات تتسم بروح الفكاهة والطرافة . والتي تنم عن فطنة قائليها كما تحتاج أيضًا لقدر عالٍ من الفهم والذكاء من قبل من يسمعها . بمعنى أنه يعرض لأشكال من التواصل Communication الخصب الذي يتطلب العديد من القدرات اللفظية Verbal Abilities وقدرات عقلية أولها القدرة على التجريد Abstraction ، ويتبع المحقق بعض الأخبار ببعض التعليقات حسبما تيسر له . ويذكر أنه قام بذلك دون محاولة إلى تتبع كل خبر بالمعارضة والتعليق ؛ لأن ذلك أمر يطول ويحتاج إلى وقت طويل . وقد استخدم المحقق أسلوب المقارنة بين الروايات الواردة

---

(١) ضبطه وحققه وقدم له محمد أنيس مهران . دمشق ؛ بيروت : دار الحكمة ، ١٩٨٧م (٣٠٣ ص) .

في الكتاب الأصلي والروايات في الكتب الأخرى . ويثبت الفرق إن كان له أهميته . وحرص المحقق على تعريف جميع الأعلام التي وردت في الكتاب ، كما تناول بالشرح الكلمات القرآنية مشيرًا إلى مصادره ، معتمدًا على أهم المعاجم العامة وبعض المراجع الخاصة .

ويختتم الكتاب بعدد من الفهارس الفنية ؛ منها : فهرس الأعلام ، والقبائل ، والجماعات ، والفرق والأماكن ، والبلدان ، والكتب ، والأحاديث ، وكذلك فهرس الأشعار والأمثال والأقوال .

ويبدأ المؤلف الكتاب بفصل عن معنى الظرف والمجون . ويشير إلى أن الظرف يكون في صباحة الوجه ، ورشاقة القد ، وبلاغة اللسان ، وعذوبة المنطق ، وطيب الرائحة ، وخفة الحركة ، وقوة الذهن وملاحة الفكاهة والمزاح . والظريف : من لديه بعض هذه الخصال (ص ٤٥) .

أما عن المجون : فهو صرف اللفظ عن حقيقته إلى معنى آخر ، وهو بذلك نوع من خلط الجد بالهزل . مما يدل على قوة الفطنة (ص ٤٤) .

بعد هذا الفصل يعرض الكتاب لروايات وحكايات عن الظرف والمجون وفقًا لمن يذكرها أو يرويها ، وتم ذلك على النحو الآتي :

- **الباب الأول** : فيما ذكر عن الرجال .
  - القسم الأول : فيما يروى عن الأنبياء عليهم السلام .
  - القسم الثاني : فيما يروى عن الصحابة .
  - القسم الثالث : فيما يروى عن العلماء .
  - القسم الرابع : فيما يروى عن العرب .
  - القسم الخامس : فيما يروى عن العوام .
- **الباب الثاني** : فيما يذكر عن النساء .
- **الباب الثالث** : فيما يذكر عن الصبيان .

ثم المراجع ، يليها الفهارس كما أسلفنا القول .

– وتجدر الإشارة إلى أن الكتاب يضم العديد من الروايات والأخبار التي تمس الظرف والمجون بشكل عام ولا يمكن حصرها أو حصر أنماطها ، وإنما يمكننا ذكر بعضها

على سبيل المثال :

فمن الطرائف : بكت عجوز على ميت فقيل لها : بما استحق هذا منك ؟ فقالت : جاورنا وما فينا إلا من تحل له الصدقة ، ومات وما فينا إلا من تجب عليه الزكاة (ص ٢٣١) .

ومن أمثلة المجون : قال محمد بن القاسم : سئل بعض المجان فقيل له : كيف أنت في دينك ؟ قال : أخرقه بالمعاصي وأرقعه بالاستغفار (ص ١٤٦) .

– وإذا نظرنا إلى أخبار الظرف والمجون بصرف النظر عن قائليها ، يمكننا أن نطالع عددًا من الدلالات النفسية .

فمما لا شك فيه أن الفكاهة ، والمزاح ، وخلط الجد بالهزل ، يدل على قوة الذكاء ، وسماع تلك الملح والطرائف يشحذ الذهن ، وينبه القدرة على الفهم Comprehension Ability . وعند التعرض لأشكال من الطرائف والمجون نجدها تعتمد على درجة عالية من الرمزية والتجريد في إنتاجها . وهي بذلك تحتاج لمهارات وقدرات لفظية مرتفعة لدى قائلها . وكذلك تتطلب من المستمع أن يفك هذه الشفرة أو الرموز بعد أن يركز انتباهه لسامعها وإدراكها ثم فهم معناها .

وحيث أن الطرافة والدعابة تعتمد على علاقة غير مباشرة بين الرمز Symbol والمرجع Reference فلا يمكن استنتاج هذه العلاقة إلا من خلال التفكير العقلي الذي يعتمد على التجريد Abstraction أو على القدرة على تكوين تصور عام ومفهوم ، ويندرج هذا ضمن اهتمامات النظرية العقلية التي تهتم بدراسة المعنى Meaning Theory في مجال علم النفس اللغوي Psycholinguistics .

وتعتمد كذلك الطرافة والدعابة على فكرة المعنى السياقي Contextual Meaning التي تؤكد أن معاني الكلمات تتشكل بواسطة السياق الذي ترد فيه ، وأن الكلمة قد تتخذ معاني مختلفة باختلاف سياقات الحديث ، وأن محاولة استخدام الكلمة ونقلها من سياق إلى سياق مختلف أمر يثير استجابة الفكاهة لدى المستمع .

وبذلك يشتمل كل من المجون والظرف على عناصر معرفية وانفعالية (وجدانية) وسلوكية Cognitive Emotional & Behavioural Elements وهي تقابل حالات النفس الثلاث : النزوع ، والوجدان ، والإرادة . والقصد منها جميعًا إيجاد حالة من التكيف مع الذات Personal Adjustment أو مع البيئة الاجتماعية Social Adjustment والطرائف بهذا المعنى : ظواهر إنسانية اخترعها الإنسان ليواجه حالات اليأس ، والحزن ، والقلق .

بمعنى أن الضحك : ظاهرة بشرية تميز الإنسان دون سواه من المخلوقات . وله وظيفة نفسية مهمة وهي التكامل النفسي والاجتماعي Personal & Social Integration بذلك يرتبط هذا الكتاب بسيكولوجية الضحك ضمن إطار موضوع الانفعالات Emotions . ووفقًا لنظرية جيمس لانج في الانفعالات نجد أنها تؤكد أننا لا نضحك لأننا مسرورون بل نحن مسرورون لأننا نضحك ، بمعنى أن الظواهر العضوية لانفعال السرور هي العلة الحقيقية . وهو نفس ما استخلصه العالم النفسي مكدوجال .

بذلك فسماع تلك الطرائف والمجون أمر يجلب السرور والتحرر من شتى مظاهر العناء والمعاناة ، وهو أيضًا لب قضية الضحك عند كثير من علماء النفس الذين يرونه على أنه نوع من تفريغ الطاقة . بل إن الضحك عند إيزنك نوع سام من أنواع التكيف فأسماه التكيف السامي . على اعتبار أنه انفعال نفسي يهدف إلى التوازن مع الذات ومع الآخرين .

ويشبه فرويد « عالم التحليل النفسي » النكتة بالأحلام ؛ لأنها تفتقد الواقعية رغم ما تتضمنه من تورية ، وتلميح ، واستعارة ، وكناية . ففيها يتحرر الإنسان من جدية الواقع ، ويحرر نفسه من أعباء الحياة والقيود الاجتماعية ، وكذلك قيود العقل والمنطق .

وبذلك فالظرف والمجون نوع من الصحة النفسية بجانب أنه أحد الفنون الأدبية التي تحتاج إلى قدرات خاصة أشرنا إليها .

* * *

أخبار الحمقى والمغفلين من المفسرين والرواة (١)

عرض : د. إبراهيم شوقي عبد الحميد

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٢٨ صفحة من القطع المتوسط ، ويتكون من ٢٤ بابًا مضمونها حول أخبار الحمقى والمغفلين . وفيما يلي نعرض لتفصيل ذلك :

● **الباب الأول** : في ذكر الحماقة ومعناها :

وفيه يعرض المؤلف للمقصود بمفهوم الحماقة ، ثم يعرض للتفرقة بين هذا المفهوم ومفهوم الجنون أو ما يطلق عليه اسم المرض العقلي Mental Illness في علم النفس الحديث . باعتبار أن الحمق والتغفيل هو خطأ في الوسيلة والطريق إلى المطلوب مع صحة المقصود ، بخلاف الجنون ، فإنه عبارة عن الخلل في الوسيلة والمقصود جميعًا (ص ٢٢) .

● **الباب الثاني** : في أن الحمق غريزة :

ويذكر في هذا الباب أن سلوك الأخرق غريزة لا ينفعه التأديب . وفي هذا إشارة إلى ما يؤكده علم النفس الحديث من أن التأخر العقلي حالة من التأخر في النمو العقلي أثناء فترة الارتقاء العقلي ، وهي بذلك حالة لا تكتسب وإنما تبدأ مع مولد الطفل وربما يولد بها لعيوب خلقية في مخه قد يزيدها عوائق بيئية تحول دون نموه في حدود إمكاناته الوراثية .

(١) تحقيق لجنة إحياء التراث العربي . ط٥ مصححة – بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٨٣م .

كذلك يشير في هذا الباب إلى المآل Prognosis للمتأخرين بأنها حالة لا تشفى وهو بذلك حالة وليس مرضًا (ص ٢٣ ، ٢٤) .

● **الباب الثالث** : في ذكر اختلاف الناس في الحمق :

يرى أنه ليس هناك إنسان تام الذكاء ويخلو من أي نقص أو حمق . وإن الأفراد يختلفون في مقدار حماقتهم وكذلك ذكائهم .

وفي هذا إشارة إلى ظاهرة الفروق الفردية Individual Differences التي نجدها في كل القدرات والسمات البشرية والتي تتخذ في الغالب توزيعًا سويًّا يعبر عنه بفكر « المنحنى الاعتدالي » ، والتي تؤكد أن معظم الناس يمتلكون قدرات متوسطة في حين أن قلة منهم متطرفة في اتجاه تزايد هذه القدرة ، يقابلها قلة متطرفة أيضًا في اتجاه النقص في هذه القدرة . وبجانب تلك الفروق الفردية بين الأفراد في كل قدرة ، ثمة فروق بين القدرات وبعضها داخل الفرد نفسه (ص ٢٥ ، ٢٦) .

● **الباب الرابع** : في ذكر أسماء الحمقى : ويعرض فيه مسميات من تراثنا العربي للحمق والحمقى ، وتصنيفات لهما (ص ٢٧) .

● **الباب الخامس** : في ذكر صفات الحمقى :

ويعرض فيه لأقوال الحكماء والشعراء في موضوع خصائص الحمقى .

وهي تعكس ما يشير إليه علم النفس في هذا المضمار ، ومؤداه أن خصائص المتأخرين عقليًّا يمكن تصنيفها على النحو الآتي :

١ - **خصائص جسمية** : صغر حجم الدماغ ، وعدم التناسب بين أجزاء الجسم .

٢ - **خصائص شخصية** : منها اللامبالاة ، ونقص الدافعية للتعلم ، وعدم الضبط الانفعالي .

٣ - **خصائص سلوكية** : كالتأخر الدراسي ، كثرة الكلام ،أو عدم القدرة على الكلام ، الاندفاعية Impulsivity ، الإفراط في الضحك ، أو السؤال بإلحاح ... إلخ (ص ٢٨ - ٣٥) .

● **الباب السادس** : في التحذير من صحبة الحمقى :

وفيه يعرض لأقوال تحذر من صحبة الأحمق . فهي تجلب الأذى سواء النفسي أو الاجتماعي للشخص المصاحب . بل ربما تحدث نوعًا من الأذى العقلي متمثلًا في نوع من الارتداد Regression أو التدهور العقلي Menal Deterioration نتيجة الاحتكاك

بالحمقى ، وذلك لعدم توفر مناخ مثير عقليًا ويفتقر إلى الخبرة أثناء صحبتهم خاصة إذا طالت .

وفي مجال علم النفس يزخر تراثه بعديد من حالات المتخلفين عقليًا عاشوا في بيئات محرومة Deprived Environment تفتقر إلى الخصوبة المعرفية (تربوا في غابة ، أو بدروم مظلم أو بصحبة أم بكماء عمياء) (ص ٣٦ - ٣٨) .

● **الباب السابع** : في ضرب للمثل بمن عرف حمقه :

وفيه استخدام أنماط السلوك الفطري لدى الحيوان والطير في ضرب الأمثلة بالحمقى . مثل : أحمق من نعامة .

وكذلك استخدام أسماء بعض الحمقى في تلك الأمثلة ؛ مثل : أحمق من جحا (ص ٣٩ ، ٤٠) .

● **الباب الثامن** : في ذكر أخبار من ضرب المثل بحمقه وتغفيله :

ويعرض لأخبار عن خصال الحمقى وسلوكياتهم . منها ما يشير إلى عيانية تفكيرهم Concreteness والسلوك الشاذ Bizarre behaviour وعدم التوافق الاجتماعي Lack of Social Skills (ص ٤١ - ٦٠) .

● **الباب التاسع** : في ذكر أخبار جماعة من العقلاء صدرت عنهم أفعال الحمقى ، وأصروا عليها مستصوبين لها فصاروا بذلك الإصرار حمقى ومغفلين .

وفيها يعرض لنماذج شخصيات تتسم بالجمود والتصلب في الفكر والسلوك Rigidity أو التعصب Prejudice مثل رفض إبليس السجود لآدم وإصراره على ذلك . وموقف النصارى من عيسى عليه السلام ، ونماذج أخرى من الخلفاء والأمراء والأئمة (ص ٦١ - ٧١) .

● **الباب العاشر** : في ذكر المغفلين من القراء المصحفين :

ويعرض فيها عن أخطاء في القراءة وتبديل الكلمات ، وأخطاء في تشكيل الحروف وهو أمر يهم دارسي اضطرابات اللغة وأخطائها ، باعتبار أن اللغة وسيلة اتصال بين المتحدث (المرسل) والمستمع (المستقبل) وإذا اختلت هذه الوسيلة لا تفهم الرسالة .

● **الباب الحادي عشر** : في ذكر المغفلين من رواة الحديث الصحفيين :

ويعرض لأخطاء كالتي عرض لها في الباب السابق . بجانب أخطاء في رواية الأحاديث وفي نسبها لأصحابها .

• **الباب الثاني عشر** : في ذكر المغفلين من الأمراء والولاة :

ويعرض لأخبار عن أخطاء في الحكم ، وفي تقدير الأمور ، وفي السلوك اللفظي ، أو الفعلي لدى الأمراء والولاة .

• **الباب الثالث عشر** : في ذكر المغفلين من القضاة .

• **الباب الرابع عشر** : في ذكر المغفلين من الكتاب والحجاب .

ويعرض لطرائف عن أخطاء في المراسلات .

• **الباب الخامس عشر** : في ذكر المغفلين من المؤذنين .

• **الباب السادس عشر** : في ذكر المغفلين من الأئمة .

• **الباب السابع عشر** : في ذكر المغفلين من الأعراب .

• **الباب الثامن عشر** : في ذكر المغفلين من المتحذلقين .

ويهتم بمخاطبة الناس بما لا يفهمون وإن كان صوابًا تظاهرًا بالبراعة ؛ (مثل مخاطبة العامة بالنحو والبلاغة) .

• **الباب التاسع عشر** : في ذكر من قال شعرًا من المغفلين :

ويعرض لأخطاء الوزن والقافية وأخطاء في المدح وغيره .

• **الباب العشرون** : في ذكر المغفلين من القصاص .

• **الباب الحادي والعشرون** : في ذكر المغفلين من المتزهدين .

ويعرض لأخطاء يرتكبها المتزهدون في أفعالهم ، وفي أدعيتهم ، وفي استخدامهم لآيات قرآنية في غير مواقفها ، وفي عدم تقدير بعضهم للأنبياء .

• **الباب الثاني والعشرون** : في ذكر المغفلين من المعلمين :

ويعرض فيه لأخبار عن الحمقى من المعلمين الذين تزداد حماقتهم من كثرة احتكاكهم بالصبية وقليلي الخبرة والعامة .

• **الباب الثالث والعشرون** : في ذكر المغفلين من الحاكة .

• **الباب الرابع والعشرون** : في ذكر المغفلين على الإطلاق :

ويعرض لأخبار الحمقى من رجال ونساء وشيوخ من عامة الناس : منهم جحا ، وأقاصيص يرويها عدد من الأئمة ، والولاة ، والفقهاء .

أوجه الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الباب في مجال سيكولوجية الشخصية والتأخر العقلي .

* * *

تلبيس إبليس [1]

عرض : د. معتز سيد عبد اللَّه

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٣٩٧ صفحة من القطع الكبير ، ويتكون من ثلاثة عشر بابًا يدور مضمونها حول التحذير من فتنة إبليس ، والتخويف من محنه ، والكشف عن مستوره ، وذلك حتى ينكشف تلبيسه ، ويتبين للفطن تدليسه ، فمن انتهض عزمه للعمل بها ضج منه إبليس . وهو ما نعرض لتفاصيله على النحو التالي :

● **الباب الأول** : الأمر بلزوم السنة والجماعة :

عن ابن عمر بن الخطاب ﵁ أنه خطب بالجابية فقال : قام فينا رسول اللَّه ﷺ فقال : « **من أراد منكم بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة ، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد** » . وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب ؛ هي : المجاراة Conformity (ص ٨ – ١٢) ، والجماعة Group (ص ٨ – ١٠) ، والوسواس Obsession (ص ٨ – ١٢) .

● **الباب الثاني** : في ذم البدع والمبتدعين :

عن عائشة ﵂ قالت : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد** » . وعن عبد اللَّه بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : « **من رغب عن سنتي فليس مني** » . وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب هي : المجاراة Conformity (ص ١٤ ، ١٥) والتوجيه والإرشاد Counseling (ص ١٤) ، والوسواس Obsession

---

(١) دار القلم ، بيروت ، ط. ١ ، (١٩٨٢م) .

(ص ١٨ - ٢١) ، والجماعة Group (ص ١٩ - ٢١) ، والخوف Fear (ص ١٥ ، ١٦ ، ٢٤) ، والثواب Reward (ص ١٥ - ٢٤) ، والعقاب (ص ٢١ - ٢٤) .

● **الباب الثالث** : في التحذير من فتن إبليس ومكايده :

قال الشيخ أبو الفرج رحمة اللّٰه عليه : اعلم أن الآدمي لما خلق ركب فيه الهوى والشهوة ليجتلب بذلك ما ينفعه . ووضع فيه الغضب ليدفع به ما يؤذيه . وأعطي العقل كالمؤدب يأمره بالعدل فيما يجتلب ويجتنب ، وخلق الشيطان محرضًا على الإسراف في اجتلابه واجتنابه ، فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذي قد أبان عدوانه من زمن آدم عليه الصلاة والسلام وقد بذل عمره ونفسه في فساد أحوال بني آدم . وقد أمر اللّٰه تعالى بالحذر منه فقال ﷺ : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٨ ، ١٦٩] .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب ؛ هي : الوساوس Obsessions (ص ٢٤ - ٣٧) ، والعدوان Aggression (ص ٢٤ ، ٢٥) ، والنفس Psychic (ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٧) ، والدوافع البيولوجية (ص ٢٤ ، ٢٥) ، والخوف Fear (ص ٢٧ - ٢٩) ، والغضب Anger (ص ٢٤ ، ٣١ ، ٣٣) .

● **الباب الرابع** : في معنى التلبيس والغرور :

قال المصنف : التلبيس إظهار الباطل في صورة الحق ، والغرور نوع جهل يوجب اعتقاد الفاسد صحيحًا والرديء جيدًا : وسببه وجود شبهة أوجبت ذلك ، وإنما يدخل إبليس على الناس بقدر ما يمكنه ويزيد تمكنه منهم ، ويقل على مقدار يقظتهم وغفلتهم وجهلهم وعلمهم ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب ؛ هي : الوسواس Obsession (ص ٣٨ ، ٣٩) ، والصراع النفسي Self-Conflict .

● **الباب الخامس** : في ذكر تلبيسه في العقائد والديانات :

ويشمل ذلك ذكر تلبيس إبليس على كل من السوفسطائية ، والدهرية ، والطبائعيين ، والثنوية ، والفلاسفة وتابعيهم ، وأصحاب الهياكل ، وعبّاد الأصنام ، والجاهلية ، وعابدي النار ، والشمس والقمر ، وجاحدي البعث ، والقائلين بالتناسخ ، وكذلك تلبيسه على أمتنا في العقائد والديانات ، والخوارج ، والرافضة ، والباطنية ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب ؛ هي : الوساوس Obsessions (ص ٣٩ - ١٠٩) ، والاعتقاد (معتقد Belief) (ص ٣٩ - ١٠٩) ، والشك Suspiciousness (ص ٤٠ ، ٤٢ ، ٦٥ ، ٧٥ ، ٨٣) ، والإحساس Sensation

(ص ٤٠ ، ٤٢ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ٩١) . كما يتضمن هذا الباب أيضًا كيف تؤثر الدوافع والشهوات في كل من الإدراك الحسي والتفكير مما يسبب أخطاءهما ، وهذا هو مما يستعين به إبليس في التلبيس على الناس .

• **الباب السادس** : في ذكر تلبيس إبليس على العلماء في فنون العلم :

ويشمل ذكر تلبيس إبليس على أصحاب الحديث ، والفقهاء ، والوعاظ والقصاص ، وأهل اللغة والأدب ، والشعراء ، والكاملين من العلماء . وذلك في سائر الجوانب والقضايا الخاصة بعلمهم . وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب هي الوساوس Obsessions (ص ١٠٩ – ١٢٨) . والنية أو المقصد Intention (ص ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٧) . وأخطاء كل من الإدراك الحسي والتفكير تحت تأثير الدوافع والشهوات والانفعالات التي يستعين بها إبليس في التلبيس على الناس .

• **الباب السابع** : في تلبيس إبليس على الولاة والسلاطين :

ويشتمل تلبيس إبليس على الولاة والسلاطين في وجوه كثيرة ؛ منها : أنه يريهم أن الله ﷻ يحبهم ولولا ذلك ما ولاهم سلطانه ، وأنه يقول لهم أن الولاية تفتقر إلى هيبة فيتكبرون عن طلب العلم ومجالسة العلماء ، وأنه يخوفهم الأعداء ويأمرهم بتشديد الحجاب . فلا يصل إليهم أهل المظالم ، وأنه يحسن لهم العمل برأيهم فيقطعون من لا يجوز قطعه ، ويقتلون من لا يحل قتله . هذا بالإضافة إلى جوانب أخرى عديدة يتم تلبيسها للولاة والسلاطين . وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب هي : الوساوس Obsessions (ص ١٢٨ – ١٣٠) .

• **الباب الثامن** : ذكر تلبيس إبليس على العباد في العبادات :

إن الباب الأعظم الذي يدخل منه إبليس على الناس هو الجهل . فهو يدخل منه على الجهال بأمان . وأما العالم فلا يدخل عليه إلا مسارقة . وفي ضوء ذلك يتمكن إبليس من التلبيس على قليلي العلم في فنون التعبد . ويشمل ذلك الاستطابة والحدث ، والوضوء ، والأذان ، والصلاة ، وقراءة القرآن ، والصوم ، والحج ، وعلى الغزاة وعلى الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب هي : الوساوس Obsessions (ص ١٣٠ – ١٤٥) ، والمقصد أو النية Intention (ص ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤١) ، والجماعة Group (ص ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٤١) ، والخوف Fear (ص ١٣٥) .

● **الباب التاسع** : في ذكر تلبيس إبليس على الزهاد والعبّاد :

ويشتمل ذلك على تلبيسه لهم في جوانب عديدة ؛ منها إعراضهم عن العلم شغلاً بالزهد ، وإيهامهم أن الزهد يعني ترك المباحات ، وأن الزهد هو القناعة بالدون من المطعم والملبس فحسب . وأكثر ما يلبس به على العبّاد والزهاد خفي الرياء . أما الظاهر من الرياء فلا يدخل في التلبيس مثل إظهار النحول ، وصفار الوجه ، وشعث الشعر ، ليستدل به على الزهد .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب هي : الوساوس Obsessions (ص ١٤٥ - ١٥٥) ، والعزلة Isolation (ص ١٤٥ - ١٥٥) .

● **الباب العاشر** : في ذكر تلبيسه على الصوفية في جملة الزهاد :

ذكرنا في الفصل التاسع تلبيس إبليس على الزهاد ، إلا أن الصوفية انفردوا عن الزهاد بصفات وأحوال وتوسموا بسمات تطلبت إفرادهم بالذكر . ومن ثم شمل تلبس إبليس الصوفية في جوانب متعددة ؛ منها الطهارة ، والصلاة ، والمساكن ، والخروج عن الأموال والتجرد عنها ، واللباس ، ومطاعمهم ومشاربهم ، وفي السماع والرقص والوجد ، وفي ادعاء التوكل وقطع الأسباب وترك الاحتراز في الأموال ، وفي ترك التداوي ، وفي ترك الجمعة والجماعة بالوحدة والعزلة ، وفي ترك النكاح ، وفي الأسفار والسياحة ، وفي دخول الفلايا بغير زاد ، وإذا قدموا من السفر ، وإذا مات لهم ميت ، وفي ترك التشاغل بالعلم ، وفي إنكارهم على من تشاغل بالعلم ، وفي كلامهم في العلم ، وفي الشطح والدعاوى .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب ؛ هي : الوساوس Obsessions (ص ١٤٥ - ١٥٥) والعزلة Isolation (ص ١٤٥ - ١٥٥) ، والجماعة Group (ص ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٣١٥) ، والمجاراة Conformity (ص ٢٨٠ - ٢٨١) . والدافع الجنسي Sex Motive (ص ٢٨٤ - ٢٨٧) ، والشطط Circumestantiality (ص ٣٣٠ - ٣٣٨) ، والاختلاق Fabrication (ص ٣٣٠ - ٣٣٨) ، وأنماط الشخصية الأربعة (السودوي والصفراوي ، والبلغمي ، والدموي) (ص ٢٠٦) ، والرغبة Desire (ص ٢٠٠ - ٢١١) ، والاعتقاد (المعتقد Belief) (ص ١٦٤ - ١٦٨) واعتقاد خاطئ Misbelief (ص ١٦٤ - ١٦٨) ، وسوء فهم Misunderstanding (ص ١٧٢ ، ٢٥٤ ، ٣٢٤ ، ٣٣٠) .

● **الباب الحادي عشر** : في ذكر تلبيس إبليس على المتدينين بما يشبه الكرامات :

بينا فيما تقدم أن إبليس يتمكن من الإنسان على قدر قلة علمه ، فكلما قل علم

الإنسان كثر تمكن إبليس منه ، وكلما كثر العلم قل تمكنه منه ، ومن العبّاد من يرى ضوءًا أو نورًا في السماء ، فإن كان رمضان قال : رأيت ليلة القدر وإن كان في غيره قال : فُتحت لي أبواب السماء . وقد يتفق له الشيء الذي يطلبه فيظن ذلك كرامة وربما كان ، اتفاقًا وربما كان من خدع إبليس . والعاقل لا يساكن شيئًا من هذا ولو كان كرامة .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب هي : الوساوس Obsessions (ص ٣٦٥ - ٣٧٥) .

• **الباب الثاني عشر** : في ذكر تلبيس إبليس على العوام :

قد افتن إبليس فيما يفتن به العوام ، وحصر ما فتنهم ولبس عليهم فيه ما لا يمكن ذكره لكثرته ، وإنما تذكر من الأمهات ما يستدل به على جنسه . فمن ذلك أنه يأتي إلى العامي فيحمله على التفكير في ذات اللّه ﷻ وصفاته فيتشكك . ومن العوام من يرضى عن العقل نفسه ، فلا يبالي بمخالفة العلماء ، فمتى خالفَتْ فتواهم غرضه أخذ يرد عليهم ويقدح فيهم ، ومن تلبيسه عليهم كذلك تقديمهم المتزهدين على العلماء ، وقدحهم في العلماء بتناول المباحات وذلك من أقبح الجهل ، وإطلاقهم أنفسهم في المعاصي فإذا وبخوا تكلموا كلام الزنادقة ... إلخ .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب ؛ هي : الوساوس Obsessions (ص ٣٧٥ - ٣٨٩) .

• **الباب الثالث عشر** : في ذكر تلبيس إبليس على جميع الناس بطول الأمل :

كم قد خطر على قلب يهودي ونصراني حب الإسلام ، فلا يزال إبليس يثبطه ويقول : لا تعجل وتمهل في النظر فيسوفه حتى يموت على كفره . وكذلك يسوف العاصي بالتوبة ، فيجعل له غرضه من الشهوات ويمنيه الإنابة . وكم من عازم على الجد سوَّفه ، وكم ساعٍ إلى فضيلة ثبطه ... إلخ .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب ؛ هي : الوساوس Obsessions (ص ٣٨٩ ، ٣٩٠) ، والرغبة Desire (ص ٣٨٩) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس العام وعلم النفس الاجتماعي .

* * *

فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)
لباب الإشارات [(١)]

عرض : د. عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف :

هو الإمام الجليل محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي ، ويكنى بأبي عبد الله وأبي المعالي ، وأبي الفضل واشتهر بين الناس بابن الخطيب ويلقب بفخر الدين ، وبشيخ الإسلام ، وأكثر المؤرخين ينسبونه إلى أبي بكر الصديق ﷺ . وقد ولد في مدينة الري وموقعها الآن شرقي طهران عاصمة الجمهورية الإسلامية الإيرانية في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة . وهي توافق سنة ألف ومائة وتسع وأربعين من الميلاد ، ويقول القفطي : إنه انتقل إلى الدار الآخرة في ذي الحجة من سنة ست وستمائة من الهجرة . وكثيرون يقولون : إنه انتقل إلى الدار الآخرة في غرة شوال من سنة ست وستمائة في مدينة هراة .

وقد أثنى العديد من العلماء عليه ، فيقول صاحب الوافي بالوفيات ، عن الإمام فخر الدين : اجتمع له خمسة أشياء ما جمعها الله في غيره - فيما علمته من أمثاله - وهي : سعة العبارة في القدرة على الكلام ، وصحة الذهن ، والاطلاع الذي ما عليه من مزيد ، والحافظة المستوعبة ، والذاكرة التي تعينه على ما يريده في تقرير الأدلة والبراهين ، ويقول صاحب طبقات الشافعية : إنه إمام المتكلمين .

---

(١) تصحيح محمد بدر الدين النسائي الحلبي - ط. ١ . القاهرة : مصطفى أفندي المكاوي ، محمد أمين الخانجي ، (١٩٠٨) ، (ص ١٣٦) .

ومن مؤلفات الإمام فخر الدين الرازي ما يأتي :

١ - التفسير الكبير .

٢ - الأربعين في أصول الدين .

٣ - أساس التقديس .

٤ - محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين .

٥ - شرح عيون الحكمة لابن سينا .

٦ - اعتقادات فرق المسلمين والمشركين .

وقد عدت له كتب كثيرة على أنها مستقلة ، وتبين أنها أبواب أو أجزاء من كتبه الكبيرة ؛ مثل : كتاب النبوات ، فإنه جزء من المطالب العالية . ومثل كتاب النفس ، فإنه الجزء السابع من المطالب ، ومثل القضاء والقدر ، وهو الجزء التاسع من المطالب [(١)] .

عرض الكتاب :

ويضم الكتاب الموضوعات التالية :

أولًا : في الجهات وأجسامها الأولى والثانية ، والكلام مرتب على قسمين :

القسم الأول : في الفلكيات وفيه مسائل :

المسألة الأولى : وهي في إثبات الفلك . **والثانية** : في أحكام كلية الأجسام . **والثالثة** : في صفات الفلك . **والرابعة** : في أحكام الميل ، **والخامسة** : في ذكر بقية صفات الفلك .

القسم الثاني : في العنصريات وفيه مسألتان :

المسألة الأولى : الأجسام العنصرية تجد فيها قوى مهيأة نحو الفعل ، لكن إذا فتشنا وجدناها قد تعرى عن جميع القوى الفعالة إلا الحرارة والبرودة ، والمتوسط التي يستبرد بالقياس إلى الحار ويستحر بالقياس إلى البارد .

المسألة الثانية : في صفات هذه العناصر .

ثانيًا : في النفس الأرضية والسماوية ، والكلام فيها على أقسام :

القسم الأول : في البحث عن ماهية جوهر النفس .

---

(١) المصدر : كتاب المطالب العالية من العلم الإلهي - للإمام فخر الدين الرازي . تحقيق : د. أحمد حجازي السقا ، بيروت - دار الكتاب العربي ١٩٨٧م .

ويرتبط هذا القسم بمفهوم النفس والمزاج (ص ٧١ - ٧٣) .

القسم الثاني : فيما يتعلق بالقوة المدركة التي للنفس ، فالإدراك عبارة عن حضور صورة المشعور به في الشاعر ، ويمكن أن يكون الإدراك جزئيًا أو كليًا .

وتحدث عن أن النفس الإنسانية لها قوتان : عامة : وهي القوة التي باعتبارها يدبر البدن ، وعاقلة : ولها مراتب : فأولها : كونها مستعدة لقبول الصور العقلية ، وهذه المرتبة مسماة بالعقل الهيولاني . وثانيها : أن تحصل فيها التصورات والتصديقات البديهية وهي العقل بالملكة ، وثالثها : أن يحصل الانتقال من تلك المبادئ إلى المطالب الفكرية البرهانية ، ورابعها : أن تكون تلك الصور العقلية حاضرة بالفعل ينظر إليها صاحبها وهي المسماة بالعقل المستفاد .

ويرتبط ما ورد بالقسم الثاني بالإدراك العقلي (ص ٧٤ - ٨٤) .

القسم الثالث : في البحث عما يتعلق بالقوة المتحركة النفسانية . ويتحدث فيه عن حركات حفظ البدن ، والحركات الاختيارية ، والإرادة الكلية .

ويرتبط هذا الجزء بالأنشطة الفسيولوجية والحركية التي تقوم بها أعضاء الجسم وعضلاته المختلفة كما يرتبط بمفهوم الإدارة (ص ٨٢ - ٨٤) .

ثالثًا : في الوجود وعلله .

فمن الناس من ظن أن ما لا يكون محسوسًا مشارًا إليه لم يكن معقولًا، وهذا خطأ ؛ لأن القدر المشترك من الإنسانية بين الأشخاص المختلفة لا يكون محسوسًا ولا مشارًا إليه مع أنه معقول وأيضًا فأكثر الأحوال النفسانية كالعشق ، والخجل ، وغيرها من علائق الأمور المحسوسة غير محسوس بل الحس غير محسوس والوهم غير متوهم .

في العلم الإلهي :

ويتحدث فيه المؤلف عن الصنع والإبداع ، والغايات ومبادئها ، والنفس الناطقة . ويرتبط هذا الجزء بالقدرات العقلية Mental Abilities خاصة ما أسماه المؤلف بالتعقل الانفعالي (ص ١١٩) وهو أن تستفاد الصور العقلية من الصور الخارجية ، كما يرتبط بموضوع الإدراك الحسي والعقلي (ص ١١٦ - ١٢٢) .

كما تحدث أيضًا المؤلف عن البهجة والسعادة . وقارن بين اللذات الحسية النفسية والعقلية ، وقال : إن اللذات النفسية والعقلية أعظم من اللذات الحسية (ص ١٢٣) . وذكر أن « اللذة هي إدراك لما هو خير عند المدرك ، والألم إدراك لما هو شر عند المدرك ،

وقد يختلف الخير والشر بحسب القياس ، فالشر الذي هو عند الشهوة خير هو المطعم الملائم والملبس الملائم ، والذي عند الغضب خير فهو الغلبة . والذي هو عند العقل خير فبعد المفارقة باعتبار القوة النظرية هو الحق ، وقبل المفارقة باعتبار القوة العملية هو الجميل .. » (ص ١٢٣ ، ١٢٤) . وذهب إلى أن الإدراك العقلي أشرف من الإدراك الحسي ، وأن اللذة العقلية (التي تتمثل في جلبة الحق) أفضل وأعظم من اللذة الحسية (ص ١٢٤ ، ١٢٥) .

ويرتبط هذا الجزء بموضوع الإدراك الحسي ، والإدراك العقلي ، وكذلك بمفهوم اللذة والألم ، والانفعالات (ص ١٢٣ - ١٢٧) .

ثم تحدث بعد ذلك عن مقامات العارفين وأهم ما يتسمون به ويميزهم . ويرتبط هذا الجزء بسيكولوجية الجماعات المتصوفة (ص ١٢٧ - ١٣٠) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس العام ، وعلم النفس الاجتماعي .

* * *

الفراسة [1]

عرض : د. معتز سيد عبد الله

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٢٨ صفحة من القطع المتوسط ، ويتكون من ثلاث مقالات ، يشتمل كل منها على مجموعة من الفصول أو الأبواب . ويدور مضمون الكتاب بوجه عام حول الفراسة وكيفية معرفة أخلاق الناس وطبائعهم بسهولة . وينهي المحقق كتابه بعرض فهرس مفصل للموضوعات الخاصة بكل مقال . وهو ما نعرض لتفاصيله على النحو التالي :

المقالة الأولى :

وفيها يعرفنا المؤلف بالفراسة والمزاج ويبين فضيلة هذا العلم في القرآن والسنة والعقل ، موضحًا أقسام هذا العلم وذلك على النحو التالي :

الفصل الأول : في الفراسة والمزاج :

وفيه يعرف الفراسة بأنها عبارة عن « الاستدلال بالأحوال الظاهرة على الأخلاق الباطنة » . وتقرير هذا الكلام : أن المزاج إما أن يكون هو النفس ، وإما أن يكون آلة للنفس في أفعالها .

---

(١) دليلك إلى معرفة أخلاق الناس وطبائعهم وكأنهم كتاب مفتوح / محمد الرازي فخر الدين . القاهرة : مكتبة القرآن ، ١٩٨٧م .

الفصل الثاني : في بيان فضيلة هذا العلم :

وفي هذا الفصل يدلل المؤلف على فضيلة هذا العمل من خلال بعض الآيات والأحاديث الشريفة وبعض الدلائل العقلية .

الفصل الثالث : أقسام هذا العلم :

وهما قسمان ؛ أحدهما : أن يحصل خاطر في القلب أن هذا الإنسان من حاله وخلقه كذا وكذا من غير أن يحصل هناك علامة جسمانية ، ولا أمارة محسوسة ، والثاني : هو الاستدلال بالأحوال الظاهرة على الأخلاق الباطنة . فهو علم يقيني الأصول ظني الفروع .

الفصل الرابع : في تعديل الأمور التي لا بد من معرفتها في هذا العلم :

إن الاستدلال على حصول الشيء تارة : بما يكون علة له . وثانيًا : بما يكون معلولًا له . وثالثًا : بما يكون معلولًا لعلته ، وهذا هو المسمى « بالاستدلال بأحد المعلولين على المعلول الثاني . فهنا أيضًا الأمر الذي يتوصل إلى معرفة الأخلاق الباطنة التي في الإنسان تارة : يكون بعلته الموجبة له وهو المزاج البدني . وتارة : بمعلوله وأثره وهو الأفعال الصادرة عن الإنسان . وثالثًا : بسائر الأحوال التي كالمعلومات للمزاج الأصلي الإنساني .

الفصل الخامس : في الفرق بينه وبين العلوم القريبة منه :

إن هذا العلم يقرب منه أنواع أخرى كثيرة ؛ منها : النوع الأول : أمور لا يمكن ردها إلى الأصول العلمية ، بل لا يمكن الرجوع فيها إلى التجارب المروية عن المتقدمين ، وهي مثل ما يوجد في أبدان الناس من الشامات والخيلان ، وما يعرض في الأعين من اختلاج والضربات ... إلخ ، والنوع الثاني : الاستدلال بالخطوط الموجودة في الأكف والأقدام ، وهي التي تسمى أسرارًا ثم إنه يوجد لها في التقاطع ، والتباين ، والطول ، والقصر ، وفيما يوجد فيها من الفرج المتسعة تارة ، والمتضايقة أخرى أشكال مختلفة ، ويأخذ منها أصحاب علم الفراسة دلالات مختلفة . والنوع الثالث : هو النظر في أكتاف الضأن والماعز . والنوع الرابع : صناعة القيافة ومنها قيافة الأثر وقيافة البشر .

الفصل السادس : الطرق التي يمكن بها معرفة أخلاق الناس :

وهي ستة ؛ الأول : بحسب الشكل والهيئة ، والثاني : بحسب الأصوات ، والثالث : إذا رأينا إنسانًا يشابه حيوانًا في أمر من الأحوال الظاهرة فحينئذ نستدل بتلك المشابهة في الخلق الباطن استدلالًا بحصول أحد المعلولين على حصول المعلول الثاني . والرابع : أن

نقول : لا شك أن الإنسان نوع تحته أصناف ، وهم الأمم الكبار الأربع : وهم الفرس ، والروم ، والهند ، والترك ، ولكل واحد من هذه الأصناف خلق مخصوص في الظاهر وخلق مخصوص في الباطن ، وإذا رأينا الشكل الخاص ببعض الأصناف حاصلًا في إنسان ، حكمنا بأنه حصل الخلق الملائم لذلك الشكل فيه . والخامس : اعتبار حال الذكور والإناث . والسادس : إنا إذا عرضنا بشيء من الطرق المذكورة حصول خلق مخصوص في الباطن ، فقد يمكننا أن نستدل بحصول ذلك الخلق على حصول خلق آخر .

الفصل السابع : الأمور التي يجب رعايتها عند الرجوع إلى هذه الطرق :

وهي أمور ثلاثة ؛ الأول : أن كل واحد من هذه الدلائل ليس يقينا ، بل دليلًا يفيد الظن الضعيف ، فكلما كانت الدلائل المتطابقة على المدلول الواحد أكثر كانت في إفادة عدم الظن أقوى . والأمر الثاني : أن التعويل في هذا الباب على معرفة الصور الظاهرة . والأمر الثالث : أن هذه الدلائل إذا تعارضت فإنه لا بد من المصير إلى الترجيح وهو من وجوه ؛ الأول : أن الدلائل على حصول الخلق إن كانت حاصلة في العضو ، وهو المحك لذلك الخلق ، فهي أقوى من الدلائل الحاصلة في عضو آخر مثله . والثاني : أن هذه الدلائل إذا تعارضت ، فتعادلت في الكمية ، والكيفية وجب التوقف . أما إذا حصل الترجيح ، إما بحسب الكمية أو بحسب الكيفية أو بحسب ما يترك منهما ، فوجب الترجيح . والثالث : أن أقوى الأقسام دلالة على أن الأحوال الباطنة الاستدلال بأحوال الأخلاق والقوى والأجناس . والرابع : أن هذه الدلائل قد تكون مشتركة بين الأخلاق المختلفة .

أما أهم المفاهيم السيكولوجية التي اشتملت عليها هذه المقالة فهي :

المزاج Temperament (والأمزجة الأربعة) (من ص ٢٧ - ٤٩) والشكل الخارجي للجسم Morphology (كأحد سمات الشخصية) (من ص ٤٦ - ٤٨) الفرق بين الجنسين (الذكور والإناث) في سمات الشخصية (من ص ٥٢ - ٥٤) .

المقالة الثانية :

وفيها يعدد المؤلف علامات الأمزجة الكاملة حتى يتوصل بمعرفتها إلى المعرفة ، وذلك على النحو التالي :

- **الباب الأول** : في علامات الأمزجة الكاملة :

وفيه يقدم المؤلف وصفًا شاملًا لكل نمطٍ من أنماط الأمزجة . فيعرض في الفصل

الأول لعلامات المزاج الحار ، وعلامات المزاج البارد ، وعلامات المزاج الرطب ، وعلامات المزاج اليابس ، وعلامات المزاج الحار اليابس ، وعلامات المزاج الحار الرطب ، وعلامات المزاج البارد اليابس والبارد الرطب . وفي الفصل الثاني : يعرض المؤلف لعلامات المزاج المعتدل ، وعلامات المزاج غير المعتدل . وفي الفصل الثالث : يعرض لعلامات أمزجة الدماغ ، وهي من عدة وجوه : الأول : ما يتعلق بالقوة المصورة ، وخاصة شكل الرأس والنوع الثاني : من دلائل الدماغ ما يتعلق بأحوال فروعه وتوابعه ، وتلك الأعضاء هي العين ، واللسان ، والوجه ، ومجارى اللهاة ، والرقبة والأعصاب . وفي الفصل الرابع : يعرض المؤلف لعلامات أمزجة العين . وفي الفصل الخامس : يعرض لأحوال اللسان . وفي الفصل السادس : يعرض لأحوال الصوت . وفي الفصل السابع : يعرض لأحوال القلب .

- **الباب الثاني** : في مقتضيات الأسنان الأربعة :

ويعنى المؤلف بذلك :

١ - سن النمو .

٢ - الوقوف .

٣ - الكهولة .

٤ - الشيخوخة .

وفي كل مرحلة من هذه المراحل يقدم المؤلف وصفًا شاملًا لخصائصها وصفاتها .

- **الباب الثالث** : في مقتضيات سائر الأحوال :

وفيه يقول المؤلف : إن أرباب النسب الشريف راغبون جدًّا في الكرامة ، ومتشبهون بأوائلهم لكنهم لا يتحملون متاعب العلم ، ومن ثم لا تبقى هذه الآثار الفاضلة فيهم لذلك يبقون في الآخرة عاجزين محتاجين . أما أخلاق الأغنياء فأمور : الأول : من عاداتهم التسلط على الناس والاستخفاف بهم . والثاني : أنهم يحكمون على كل من سواهم كونهم حاسدين لهم ، لما اعتقدوا في أنفسهم الكمال . والثالث : أن الذين صاروا أغنياء في قديم الزمان فهم أكثر مثالية من الذين صاروا أغنياء . والرابع : أن الأغنياء يكونون في الأكثر مجاهرين بالظلم .

- **الباب الرابع** : في الأخلاق الحاصلة بسبب البلدان والمساكن :

وفيها يقدم أوصافًا لأخلاق البلدان والمساكن الحارة والمساكن الباردة ، والمساكن اللاحامية ، والمساكن اليابسة ، والمساكن الحجرية ، والمساكن الشمالية ، والمساكن الجنوبية ، والمساكن الشرقية ، والمساكن الغربية .

أما أهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذه المقالة فهي :

المزاج Temperament (من ص ٦٣ - ٧٤) ، وأنماط الشخصية Personality (من ص ٦٣ - ٧٧) ، والانفعالات Emotions (من ص ٧٨ ، ٧٩) ، ومراحل الارتقاء Developmental Stage (من ص ٨٠ - ٨٥) ، مرحلة النمو الأولى (من ص ٨٠ ، ٨١) و مرحلة الوقوف (ص ٨٢) ، ومرحلة الكهولة (ص ٨٥) ، ومرحلة الشيخوخة (من ص ٨٢ - ٨٥) ، والتسلطية Authoritarianism (من ص ٨٦ ، ٨٧) والقيم الأخلاقية Moral Values (من ص ٨٩ ، ٩٠) .

المقالة الثالثة :

وفيها يتناول المؤلف دلالة الأعضاء الجزئية على الأحوال النفسية ، ويستوفي ذلك في سبعة عشر فصلًا على النحو التالي : الفصل الأول : في دلائل الجبهة . والفصل الثاني : في دلائل الحاجب . والفصل الثالث : في دلائل العين . والفصل الرابع : في دلائل الأنف . والفصل الخامس : في دلائل الفم والشفة واللسان . والفصل السادس : في دلائل الوجه . والفصل السابع : في دلائل الضحك . والفصل الثامن : في دلائل الأذن . والفصل التاسع : في دلائل العنق . والفصل العاشر : في دلائل الصوت والنفس والكلام . والفصل الحادي عشر : في دلائل السنان . والفصل الثاني عشر : في الصلب . والفصل الثالث عشر : في دلائل الحركات . والفصل الرابع عشر : في دلائل البطن . والفصل الخامس عشر : في دلائل الظهر . والفصل السادس عشر : في دلائل الذراع والكف . والفصل السابع عشر : في دلائل الصدور والورك والساق والقدم .

أما أهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذه المقالة فهي :

الانفعالات Emotions (من خلال علامات الوجه) (ص ٩٥ ، ٩٦) ، وبعض أشكال الانفعالات النوعية ؛ مثل : الحزن Sadness (ص ٩٨) ، والغضب Anger (ص ٩٧) والسرور (ص ١٠٨) ، والعلامات Signs (من ص ٩٣ - ٩٧) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام .

المطالب العالية من العلم الإلهي [1]

عرض : د. عبد اللطيف محمد خليفة

عرض الكتاب :

ويشتمل الكتاب على مقدمة وتسعة أجزاء ونعرض لها على النحو التالي :

موضوع « المطالب العالية » هو الكلام في ذات اللّٰه تعالى وصفاته .

مقدمة الكتاب :

(وتشتمل على أربعة فصول نعرض لها على النحو الآتي) :

الفصل الأول :

في بيان أن هذا العلم أشرف العلوم على الإطلاق ، وذلك من عدة وجوه ؛ الأول : شرف الأمر المبحوث عنه في ذلك العلم ، وهو ذات اللّٰه تعالى وصفاته ، وهو أشرف الموجودات على الإطلاق ، فهو غني عن الفاعل والقابل وغير محتاج إليه ، كما أنه فرد مطلق ، وأنه الواجب لذاته ، وكل ما سواه فهو ممكن لذاته محتاج إلى المؤثر ، وكل ما سواه فهو محتاج إليه . الوجه الثاني : في بيان شرف العلم الإلهي : إن الأمر المقصود بالذات هو الفوز بالسعادة والخلاص من الشقاوة . أما الوجه الثالث : أن الإنسان الكامل يجد من نفسه أنه كلما تعمق في هذه المعارف كان انجذابه إليها أفضل ، وانقطاعه عما سواها أوفى ، وكان ابتهاجه بذاته أفضل ، وقوة روحه أكمل . الوجه الرابع والأخير :

---

(١) تحقيق أحمد حجازي السقا . (ص ١) - بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٩٨٧م (٩/٥) .

أن المصالح إما خاصة بالمعاش أو المعاد . ومصالح المعاد لا يتم منها إلا بمعرفة اللّه تعالى وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر .

ويرتبط هذا الفصل بموضوع الانفعالات Emotions (كالسعادة والبهجة) (ص ٣٧ - ٤٠) .

الفصل الثاني :

في أنه هل للعقول البشرية سبيل إلى تحصيل الجزم واليقين في هذا العلم ؛ حيث قال العديد من الفلاسفة : إن العناية القصوى في هذا الباب الأخذ (بالأولى والأخلق) ، والتمسك بالجانب الأفضل والأكمل ، وأما الجزم المانع من النقيض فقد لا يمكن تحصيله في بعض المباحث . وحجتهم في ذلك أن أظهر المعلومات لجميع العقلاء هو علم الإنسان بذاته المخصوصة ومعرفته بنفسه . ثم إن هذا العلم مع أنه أظهر العلوم وأجل المعارف ، قد بلغ في الصعوبة والخفاء إلى حيث عجزت العقول عن الوصول إليه ، وإذا كان الحال في أظهر المعلومات كذلك ، فالحال في أبعد الأشياء عن مناسبة الأمور المعلومة للخلق كيف يكون ؟

ومن المفاهيم السيكولوجية التي يرتبط بها هذا الفصل مفهوم صورة الذات Self Image ومعرفة الفرد بذاته وتصوره عنها (ص ٤١) ، ومفهوم القدرة على الاستدلال Reasoning (ص ٥١) .

الفصل الثالث :

في أن تحصيل هذه المعارف المقدسة . هل الطريق إليه واحد أم أكثر من واحد ؟ فقد انكشف لأرباب البصائر أن الطريق إليه من وجهين :

الأول : وهو طريق الحكماء الإلهيين ، فهو الاستدلال بأحوال الممكنات على إثبات موجود واجب لذاته

الثاني : وهو طريق أصحاب الرياضة ، فهو عجيب أكيد قاهر ، فإن الإنسان إذا اشتغل بتصفية قلبه عن ذكر غير اللّه ودوامه بلسان جسده ، ولسان روحه على ذكر اللّه ، وقع في قلبه نور وضوء وحالة قاهرة وقوة عالية .

يتضمن هذا النص الإشارة إلى وجود مصدرين للمعرفة الإنسانية باللّه تعالى ؛ المصدر الأول : هو النظر في الكون وما فيه من كائنات ، أي استخدام الحواس والعقل في النظر إلى الوقائع الحسية والاستدلال منها إلى وجود اللّه تعالى . والمصدر الثاني : هو طريق

الإلهام والكشف عن طريق الرياضة ، وتصفية القلب عن مشاغل الحياة ، فيحصل للإنسان المعرفة عن طريق نور يقدمه اللّٰه تعالى في قلبه ، إن هذين المصدرين للمعرفة ، عن طريق الحواس والعقل ، وعن طريق الإلهام الإلهي قد تناولها كثير من المفكرين المسلمين عند تعرضهم لنظرية المعرفة .

الفصل الرابع :

في ضبط معاقد هذا العلم . فالإنسان له ثلاثة أحوال ؛ هي : الماضي والحاضر والمستقبل . ويتحدث فيه المؤلف عن معرفة الماضي ، والذات ، والصفات والأدلة المؤيدة لذلك .

● الجزء الأول : في الدلائل الدالة على إثبات الإله لهذا العالم المحسوس وإثبات كونه واجب الوجود لذاته .

- القسم الأول : من الجزء الأول من علوم هذا الكتاب في ذكر الدلائل القطعية اليقينية .

الفصل الأول : في مراتب مقدمات هذه الدلائل على الوجه المشهور عند الحكماء . ويعرض فيه المؤلف لإثبات وجود اللّٰه ، فثبت أنه لا بد من الاعتراف بوجود موجود ثابت ، وثبت أن كل موجود إما موجود واجب الوجود لذاته ، وإما موجود لذاته ممكن لذاته . وذكر بعد ذلك المقدمات التي تقف خلف هذه الأدلة .

الفصل الثاني : في بيان أن الممكن لا يترجح أحد طرفيه على الآخر إلا لمرجح . وللعقلاء في هذا الموقف قولان : الأول : أن هذه المقدمة بديهية . الثاني : أنها برهانية . ثم عرض بعد ذلك لعدد من الأسئلة والأدلة المؤيدة والمعارضة لهذين الجانبين .

يتضمن هذا الفصل التفكير الاستقرائي الذي يبدأ من المدركات الحسية وينتهي إلى مبانٍ كلية ، والتفكير الاستدلالي الذي يبدأ من مقدمات وينتهي إلى نتائج .

الفصل الثالث : في تقرير قول من يقول : هذه المقدمة استدلالية ، حيث يدعي أن أبا علي (ابن سينا) مضطرب القول في هذا الموضوع - إقامة البرهان على صحة ذلك . ثم يذكر تقسيمات طويلة خارجة عن المقصود ، ثم إذا انتهى إلى هذا القسم الذي هو المطلوب فإنه يدعي فيه البديهة .

الفصل الرابع : في حكاية شبهات القائلين بأن رجحان الممكن ، لا يتوقف على المرجح .

الشبهة الأولى : لو افتقر الممكن إلى المؤثر لافتقر الباقي حال بقائه إلى المؤثر ، وهذا باطل ، فذاك باطل . الشبهة الثانية : أن تأثير المؤثر في الأثر إما أن يكون حال وجود الأثر أو حال عدمه ، والقسمان باطلان . الشبهة الثالثة : حيث القول بالافتقار والاحتياج - وهما باطلان . كما أن القول بثبوت الافتقار والاحتياج باطلان أيضًا . الشبهة الرابعة : المفتقر إلى المؤثر يمتنع أن يكون هو الماهية ويمتنع أن يكون هو الوجود ، ويمتنع أن يكون هو موصوفية الماهية بالوجود . الشبهة الخامسة : المحكوم عليه بالافتقار والحاجة : إما أن يكون بسيطًا أو مركبًا ، والقسمان باطلان . الشبهة السادسة : لو أثر شيء في شيء لكان تأثير ذلك المؤثر في ذلك أثر : إما أن يكون نفس ذات المؤثر أو ذات الأثر ، أو يكون مفهومًا مغايرًا لهما ، والأقسام كلها باطلة . الشبهة السابعة : وهي في نفى التأثير والتأثر . الشبهة الثامنة : لو افتقر الممكن إلى المرجح لما كان الإنسان مختارًا في أفعاله وهذا باطل فذاك باطل وغير ذلك من الشبهات .

الفصل الخامس : في تقرير الجواب عن هذه الشبهات . ويرد المؤلف فيه على الشبهات المذكورة في الفصل الأول مؤيدًا بطلانها بالأدلة والحجج والبراهين .

الفصل السادس : في إيراد نوعين آخرين من السؤال على قولنا : الممكن لا بد له من مرجح . أحدهما : أن يكون قبول الماهية للوجود والعدم على السوية من غير تفاوت . والثاني : أن يكون قابلًا لهما ، إلا أن أحد الطرفين يكون أولى بتلك الماهية من الطرف الآخر .

الفصل السابع : وهو في بيان أن هذا البرهان المذكور في إثبات معرفة واجب الوجود لا يتم على أصول الحكماء إلا بعد إثبات إقامة الدلالة على أن العلة واجبة الحصول حال حصول المعلول . فلو لم يجب كون العلة المؤثرة موجودة حال وجود المعلول ، لم يمتنع أن يكون هذا الممكن إنما وجد لأجل شيء كان موجودًا قبله ، ولم يبق معه ، ولو جاز ذلك لجاز أن يقال : إن كل ممكن فإنه مستند إلى ممكن آخر قبله ، لا إلى أول ، والتسلسل على هذا الوجه ليس باطلًا عند الحكماء بل هو حق .

الفصل الثامن : في بيان إيراده هذا البرهان على وجه آخر . ويظن أن إيراده على ذلك الوجه ، يوجب سقوط أكثر هذه الأسئلة عنه ، وبيان أن ذلك الظن خطأ من الناس .

الفصل التاسع : في إقامة البرهان على أن القول بالدور باطل . حيث احتجوا على فساد القول بالدور بأن قالوا : ثبت أن العلة متقدمة على المعلول ، فلو كان كل واحد

منهما علة للآخر ، لكان كل واحد منهما متقدمًا على الآخر .

الفصل العاشر : في إبطال التسلسل ، خاصة فيما يتعلق بدليل العلة والمعلول ، والسبب ، والمسبب إلى ما لا نهاية

الفصل الحادي عشر : وهو في إبطال التسلسل سوى ما تقرر ذكره . ويقول فيه المؤلف : إنه افتقر إلى إبطال التسلسل في الفصل المتقدم ؛ لأنا جوزنا أن تكون علة وجود الممكن ممكنًا آخر ، فلما جوزنا هذا في الجملة افتقرنا إلى إبطال التسلسل ، ومن الناس من يقول : إن ما كان ممكن الوجود لذاته ، فإنه لا يصلح للعلية والتأثير ، واحتجوا على صحة هذه المقولة بعدة وجوه .

الفصل الثاني عشر : من إيراد سؤال على القائل المذكور في إثبات واجب الوجود لذاته ، وتحقق الجواب الحق عنه . وذلك في ضوء صحة مقدمات خمس ؛ أحدها : أن الممكن لا بد له من مرجح . وثانيها : أن العلة المؤثرة لا بد وأن تكون موجودة حال وجود المعلول . وثالثها : أن علة الموجود يجب أن تكون شيئًا موجودًا . رابعها : أن الدور باطل . وخامسها : أن التسلسل باطل .

الفصل الثالث عشر : ويتحدث فيه عن حكاية شبهات من يقدح في إثبات واجب الوجود لذاته .

الفصل الرابع عشر : في بيان أن العالم المحسوس ليس واجب الوجود لذاته . وقدم فيه عددًا من الحجج المؤيدة لذلك ؛ منها : أن كل جسم مركب من الهيولي والصورة ، والحجة الثانية : للفلاسفة في إثبات كون الأجسام ممكنة الوجود لذاتها والثالثة : في بيان أن الأجسام ممكنة الوجود لذاتها ، فواجب الوجود يجب أن يكون واحدًا ، والأجسام ليست واحدة فواجب الوجود لا يمكن أن يكون جسمًا ، فالجسم لا يمكن أن يكون واجب الوجود .

الفصل الخامس عشر : في إثبات إله العالم ﷻ بناءً على التمسك بإمكان الصفات .

الفصل السادس عشر : في بيان كيفية الاستدلال بإمكان الصفات على وجود الإله القادر . وتقرير هذه الطريقة أن يقال : الأجسام متساوية في الجسمية ومختلفة في الكيفيات والأحياز ، والمقادير ، فاختصاص كل واحد منها بحالته المعينة ، إما أن يكون لأمر أو لا لأمر . والقسم الثاني باطل ؛ لأن الأجسام لما كانت متساوية في تمام الماهية ، فكل ما صح على بعضها وجب أن يصح على الباقي .

الفصل السابع عشر : في تقدير الدلائل المستنبطة من إمكانية الصفات . وقد استعملها العلماء في الأجرام الفلكية والكوكبية الأخرى ، وأخرى في الأجرام العنصرية .

الفصل الثامن عشر : في إثبات العلم بوجود الإله - تعالى - بناءً على التمسك بحدوث الذوات . وجمهور المتكلمين لا يعولون إلا على هذا الطريق ؛ وذلك لأنهم يقيمون الدلالة على كون الأجسام محدثة : وحينئذ يقولون : كل جسم محدث ، وكل محدث فله علة وصانع . ينتج أن كل جسم له فاعل وصانع .

الفصل التاسع عشر : في تقرير طريقة للحدوث لا يحتاج فيها إلى ضم الإمكان . فاتفق جمهور المتكلمين على أن مجرد الحدوث يكفي في صحة الاستدلالات به على وجود الفاعل .

الفصل العشرون : في تقرير قول من يقول : الاستدلال بالحدوث على الفاعل لا يتم إلا بدليل منفصل . وهو مذهب : أبي علي ، وأبي هاشم وأصحابهم من المعتزلة .

الفصل الحادي والعشرون : وهو في إثبات العلم بالصانع بطريقة حدوث الصفات . والتي لا يقدر البشر عليها ؛ كالأفلاك والكواكب .

الفصل الثاني والعشرون : في الاستدلال على وجود الإله الحكيم الرحيم بكيفية تولد الإنسان من النطفة .

ويرتبط هذا الفصل بالنمو الجسمي للجنين وهو ما يدخل في مجال علم الأجنة وعلم نفس النمو والارتقاء Developmental Psychology .

الفصل الثالث والعشرون : في إقامة الدلالة على وجود إله العالم بناءً على حدوث الصفات من طريق آخر . وهو عالم الأفلاك وهو العالم الأعلى ، والاستدلال بوجود الإله من خلاله أوضح وأقوى . وقد اعتمد عليه قدماء الفلاسفة .

الفصل الرابع والعشرون : تقرير طريقة أخرى في إثبات الإله تعالى لهذا الخلق . وذلك من خلال العجائب التي أودعها اللّه تعالى في بدن الإنسان ، ونفس الإنسان ، وعجائب أحوال الحيوانات ، والنباتات ، والمعادن ، والأفلاك والكواكب وغير ذلك .

ويرتبط هذا الفصل في بعض النواحي من موضوع الدوافع Motives وخاصة صراع الدوافع Conflicts الدوافع الفسيولوجية والنفسية (ص ٢٥٦ ، ٢٥٧) .

- القسم الثاني : من الجزء الأول : في تفصيل الدلائل الدالة على وجود الإله القديم الدلائل الموجودة في عالم الأفلاك والعناصر .

الفصل الأول : في بيان الاستكثار من هذه الدلائل . حيث يعد ذلك من الأشياء المهمة ، فتقديم العديد من الأدلة الإقناعية قد ينتهي إلى إفادة القطع ؛ وذلك لأن الدليل الإقناعي الواحد قد يفيد الظن .

ويرتبط هذا الفصل بموضوع الإقناع Persuasion وتغيير الاتجاهات Attitude Change (ص ٢٣٩) .

الفصل الثاني : في حكاية كلمات منقولة عن أكابر الناس في هذا الباب . في ذكر لبعض الأحاديث النبوية الشريفة ، والأقوال التي تثبت وحدانية اللّه ﷻ .

الفصل الثالث : في تعديد الدلائل التي تذكرها أصناف طوائف العالم . فأصناف العلوم وأقسامها كثيرة ، ولكل واحد من أصناف العلماء طريق يختص به في إثبات معرفة اللّه . الطائفة الأولى : العلماء الباحثون عن تواريخ أهل الدنيا . ومعرفة الأحوال الماضية من أحوال هذا العالم . أما الطائفة الثانية ، فهم أصحاب الرياضيات وأرباب المكاشفات .

- القسم الثالث : من الجزء الأول : في الكلام في الوجوب والوجود ، والإرادات والتعين والماهية وما يشبهها من المطالب والمباحث .

المسألة الأولى : وفيها البحث عن معنى أنه واجب الوجود لذاته . ويمكن تفسيره بأمور ثلاثة : إحداها : أنه الذي يستحق الوجود من ذاته ، وهو مفهوم ثبوتي ، ويفيد كون ذاته علية لوجود نفسه . ثانيها : هو الذي لا يقبل العدم من حيث هو هو . وأما ثالثها : فهو الذي لا يكون وجوده معللاً لسبب منفصل (ص ٢٨١)

المسألة الثانية : أن واجب الوجود : هل هو مفهوم ثبوتي أم لا ؟ فمن الناس من قال : إن هذا المفهوم مفهوم وجودي محصل ؛ في حين احتج البعض على ذلك . ولكل جماعة منهم الأدلة والبراهين المؤيدة لوجهة نظرهم .

المسألة الثالثة : في أن وجود اللّه - تعالى - نفس ماهيته أو صفة زائدة على ماهيته .

المسألة الرابعة : في تحقيق القول في بيان أن المبدأ الأول هل هو تلك الحقيقة المخصوصة . فإذا قلنا إن الماهية الفلانية من حيث هي هي ، لا موجودة ولا معدومة ، فهذا الكلام يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون المراد أن الماهية الفلانية من حيث إنها هي ، عبارة مغايرة لكونها موجودة أو معدومة .

الثاني : أن يكون المراد أن الماهية الفلانية خالية عن الوجود وعن العدم والمفهوم الأول حق ، والمفهوم الثاني باطل .

المسألة الخامسة : وهي في بيان أنه سبحانه - يخالف جملة الممكنات ؛ لذاته المخصوصة ، لا لصفة زائدة على الذات .

المسألة السادسة : وهي في بيان كونه - تعالى - قديمًا أزليًا .

المسألة السابعة : وترتبط بالمسألة السادسة ؛ حيث استقصاء الكلام في حقيقة الأزل والأبد .

- **الجزء الثاني من الكتاب :**

- القسم الأول : في بيان كونه ﷻ منزهًا عن التحيز والجهة .

الفصل الأول : في بيان أن إثبات موجود ليس بجسم ولا حال في الجسم : ليس بممتنع الوجود في بديهة العقل . فالجمهور الأعظم من العقلاء اتفقوا على أن إثبات موجود ليس بمتحيز ، ولا حال في المتحيز ، وليس في العالم ، ولا في خارج العالم : ليس معلوم الامتناع في بديهة العقل ، بل الأمر في إثباته ونفيه موقوف على الدليل . فإن دل الدليل على إثباته وجب القضاء به ، وإلا وجب التوقف في إثباته ونفيه . وهذا القول هو الذي نذهب إليه ونقول به .

الفصل الثاني : وهو في بيان أنه لا يجب أن يكون لكل موجود نظير وشبيه . وأنه ليس يلتزم من نفي النظير والشبيه نفي ذلك الشيء .

الفصل الثالث : في إقامة الدلائل على أنه ﷻ يمتنع أن يكون جسمًا . فهناك قولان : الجمهور الأعظم اتفق على تنزيه اللّه تعالى عن الجسمية ، والحصول في الحيز ، والباقون قالوا : إنه متحيز ، وحاصل في الحيز وهؤلاء هم المجسمة .

الفصل الرابع : في إقامة الدليل على أنه يمتنع كونه جوهرًا .

الفصل الخامس : في بيان أنه يمتنع أن يكون واجب الوجود مختصًا بمكان وحيز .

أما الفصل السادس : فيتضمن عرضًا لحكاية شبهات مثبتي الجسمية والمكان . أما الجواب عن تلك الشبهات فهو ما اشتمل عليه الفصل السابع .

الفصل الثامن : في أنه يمتنع أن يكون إله العالم هو هذا الفضاء الذي لا نهاية له .

وفي **الفصل التاسع** من الكتاب يعرض المؤلف لتفسير القول : بأن الإله تعالى غير متناه .

فهو منزه عن المقدار والحجمية والوضع والحيز فهو ذات غير متناهية وفق هذا التفسير .

الفصل العاشر : في أنه هل يصح أن نرى واجب الوجود لذاته ؟ فهناك القائلون بأنه تمتنع رؤية اللَّه تعالى ، ومن حججهم في ذلك : أنه لو صحت رؤيته لوجب أن نراه الآن ، والثاني : باطل بالمتقدم باطل . وهناك من يثبت الرؤية للَّه ﷻ ، وقالوا : إن اللَّه تعالى موجود ، وكل موجود تصح رؤيته .

يرتبط هذا الفصل بموضوع الإدراك الحسي Sensory Perception معناه وطبيعته (ص ٨١ ، ٨٢) .

الفصل الحادي عشر : في أن هذه الحياة . هل نعرف ذات اللَّه تعالى من حيث إنها هي : أعنى تلك الحقيقة المخصوصة . وبتقدير أن لا نعرفها . فهل يمكن حصول تلك المعرفة لأحد من الخلق ، أو لكلهم ، أم لا ؟ والإجابة أن هذه المعرفة غير حاصلة ، ويدل على ذلك عدة وجوه ؛ منها : أن المعلوم عندنا من الحق سبحانه ، إما الوجود ، أو كيفية ذلك الوجود أو الإضافات أو السلوب . والعلم بهذه المعلومات ليس نفس العلم بذات اللَّه المخصوصة ، ولا أيضًا هذه العلوم توجب العلم بتلك الذات المخصوصة ، فوجب أن يقال : إنا لا نعرف تلك الحقيقة المخصوصة .

الفصل الثاني عشر : وهو في تنزيه اللَّه تعالى عن الكيفيات .

الفصل الثالث عشر : ويتضمن إثبات أنه يمتنع كونه تعالى حالًا في غيره .

الفصل الرابع عشر : في نفي الاتحاد . فالقول بالاتحاد في حق اللَّه تعالى محال ؛ لأن ذلك إنما يعقل إذا زال عنه الوجود القائم به ، وحصل لمجموع حقيقته مع حقيقة أخرى صفة الوجود (ص ١٠٥) .

الفصل الخامس عشر : في بيان أنه يمتنع كونه تعالى محلًّا لغيره . وعرض فيه المؤلف رأي الكرامية ، والمعتزلة ، والفلاسفة .

الفصل السادس عشر : في بيان أن الألم واللذة محالان على اللَّه تعالى ، أما الألم فقد اتفقوا على أنه محال على الله ، وأما اللذة فقسمان : لذة جسمانية ، ولذة روحانية .

أما اللذة الجسمانية : فقد اتفقوا على أنها محال على اللَّه ، وذلك من عدة وجوه

أما اللذة العقلية : فيرى الفلاسفة إثباتها في حق اللَّه تعالى . وهي مثل الالتذاذ بحصول صفات الكمال والجلال له .

ويرتبط هذا الفصل بموضوع الانفعالات Emotions (ص ١١٢ - ١١٤) .

الفصل السابع عشر : في أنه هل يصلح إطلاق لفظ الجوهر على اللّه تعالى أم لا ؟ وعرض فيه لمعاني الجوهر .. منها أنه المتحيز الذي لا يقبل القسمة ، ومنها أن الجوهر هو الذات القابلة لتوارد الصفات المتضادة عليه . وهنا خلاف في إطلاق لفظ الجوهر على اللّه تعالى ، فهناك من يثبت ذلك ، وهناك من ينفيه .

- **القسم الثاني : في بيان أنه ﷻ منزه عن الضد والند .**

ويتضمن الفصول الثلاثة الآتية :

الفصل الأول : ويعرض المؤلف فيه الدلائل على وحدانية اللّه تعالى وأنه واجب الوجود لذاته .

الفصل الثاني : في حكاية دلائل المتكلمين على أن الإله واحد .

الفصل الثالث : في أن وحدة اللّه تعالى هل هي عين الذات أو صفة قائمة بالذات ؟ فهناك من يقول : لو كانت الوحدة صفة ، لكانت تلك الصفة واحدة ، فيلزم أن يكون للوحدة وحدة أخرى إلى غير النهاية . وأنه محال .

ولقائل آخر أن يقول : الوحدة لا بد وأن تكون صفة زائدة على الذات ، وذلك من عدة وجوه .

- **الجزء الثالث : من كتاب المطالب العالية : (للإمام فخر الدين الرازي) .**

الصفات الإيجابية :

وهي كونه سبحانه : قادرًا ، عالمًا ، حيًا ، سميعًا ، بصيرًا ، متكلمًا ، باقيًا ، حكيمًا .

- **الباب الأول** : في أحكام الدواعي والصوارف :

الفصل الأول : في حد القادر . وأوضح فيه المؤلف أن ترك الفعل ليس عبارة عن الإتيان بفعل آخر ، بل هو عبارة عن البقاء على العلم الأصلي المستمر . ويبين أن إسناد العدم المستمر إلى القادر والفاعل محال ، فيثبت أن القادر لا قدرة له ألبتة على الترك ، وإذا كان الأمر كذلك كان القول بأن القادر هو الذي يصح منه الفعل والترك بحسب الدواعي المختلفة : قولًا باطلًا .

يفسر المؤلف الدواعي تفسيرًا يقرب جدًّا من مفهوم دوافع السلوك Motives في علم النفس الحديث على أساس ما يتوقعه الإنسان من منفعة أو ضرر . فإذا توقع منفعة دعاه

ذلك إلى القيام بالفعل ، وإذا توقع ضررًا دعاه ذلك إلى تجنب الفعل . كما يتضمن علاقة الاعتقاد بالسلوك (ص ٩ - ١٢) .

الفصل الثاني : وهو في إثبات تحقيق القول في الدواعي والصوارف للقيام بأفعال معينة أو عدم القيام بها .

ويرتبط هذا الفصل بأسباب السلوك ودوافعه ، وعلاقة الاعتقادات بالسلوك وخاصة درجات الاعتقاد أو الظن (ص ١٣ - ١٦) .

الفصل الثالث : وهو في بيان أنه لا تأثير لغير الاعتقاد والظن في الدعاء إلى العقل . ويوضح فيه أهمية الاعتقادات كدوافع لسلوك وتصرفات الأفراد . فالاعتقاد بفائدة ما يترتب عليه القيام به ، والعكس صحيح ويرتبط هذا الفصل بالمعتقدات Beliefs وعلاقتها بالسلوك ومترتبات هذا السلوك (ص ١٧ - ٢٠) .

الفصل الرابع : في بيان تحقيق الكلام في المنفعة والمضرة ، والخير والشر والمصلحة والمفسدة .

ويرتبط بموضوع المعتقدات Beliefs (ص ٢١ - ٣٢) .

الفصل الخامس : في بقية الكلام في هذا الباب . ويتحدث فيه المؤلف عن أن الفعل لا يكون نفعًا من كل الوجوه ، ولا ضررًا من كل الوجوه .

الفصل السادس : في أن صدور الفعل هل يتوقف على الداعي أم لا ؟ وعرض فيه لوجهات النظر المختلفة بخصوص ذلك .

وهو هنا يربط بين الدواعي والدوافع Motives أو البواعث Incentives (ص ٣٧ - ٤٣) .

الفصل السابع : في تقرير دلائل القائلين بأن الفعل لا يصدر عن القادر إلا عند حصول الداعي .

الفصل الثامن : ويوضح فيه أن حصول الداعي يجب صدور الفعل بالضرورة ، ولا يبقى الجواز ألبتة . فمن الناس من قال : إنه عند حصول الداعي يصير الفعل أولى بالوقوع ، لكنه لا ينهي تلك الأولوية إلى حد الوجوب . وهذا القول باطل من عدة وجوه .

الفصل التاسع : في تقسيم الدواعي . التقسيم الأول : أن الدواعي التي تقع في القلوب على قسمين : منها ما يحصل في القلب بإيقاع العبد ، ومنها ما يحصل فيه

ابتداء بتخليق اللّه تعالى . التقسيم الثاني للدواعي : إلى كلية وجزئية .

ويتضمن هذا الفصل الكلام عن دوافع وبواعث السلوك (ص ٦١ - ٦٤) .

الفصل العاشر : في تحقيق الكلام في تقسيم الدواعي إلى ما يكون داعية الحاجة . وإلى ما يكون داعية الإحسان . وهو رأي المعتزلة الذين أقاموا عليه الكثير من مباحثهم في علوم الإلهيات .

ويتضمن هذا الفصل الكلام عن تقسيم الدوافع والبواعث إلى نوع يدفع إلى القيام بالسلوك للحصول على إشباع حاجات فيها تقع للإنسان . وإلى نوع يدفع إلى السلوك للحصول على أشياء حسنة ؛ لأنها حسنة ، أو يتجنب أشياء لأنها قبيحة . وبمعنى آخر هي دوافع السلوك الخلقي ، أو القيم الخلقية (ص ٦٥ - ٧٢) .

الفصل الحادي عشر : في شرح أن العبد كيف يكون فاعلًا ؟ ويذهب المؤلف إلى القول بأن مجموع القدرة مع الداعية مستلزم لحصول الفعل .

● **الباب الثاني** : في البحث عن الفرق بين القادر وبين الموجب واستقصاء الكلام فيه . قالت الفلاسفة : القول بإثبات مؤثر يكون تأثيره على سبيل الصحة لا على سبيل الوجوب : قول مشكل من عدة وجوه .

أما الفلاسفة فقولهم في هذا المقام قولان : منهم من سلم أن الرجحان بدون المرجح محال . ومنهم من قال : إن الرجحان بدون المرجح في حق القادر غير ممتنع ، وضربوا لذلك بعض الأمثلة منها المخير بين شرب القدحين ، أو أكل الرغيفين .

وقال أهل الملل والنحل : المؤثر إما أن يقع مع جواز أن لا يؤثر وهو القادر ، أو يؤثر لا مع جواز أن لا يؤثر ، وهو الموجب ، وهذا التقسيم يدل على أن كل مؤثر ، فهو إما قادر وإما موجب .

فأرباب الملل والأديان اتفقوا على أنه تعالى كان عالمًا قادرًا في الأزل ، وكونه عالمًا قادرًا عين الذات المخصوصة ، كان القول بإثبات القدماء لازمًا عليهم .

● **الباب الثالث** : في كونه تعالى عالمًا :

ويتكون هذا الباب من سبعة فصول نعرضها كالآتي :

الفصل الأول : في تحقيق الكلام في حقيقة العلم والإدراك . وقد عرض المؤلف لذلك أيضًا في بداية الجزء الأول من الكتاب .

الفصل الثاني : ويعرض فيه لدلائل المتكلمين في كونه تعالى عالماً . وعرض فيه لطريقة الإتقان والأحكام .

الفصل الثالث : وفيه تقرير لطريقة أخرى سوى طريقة الإتقان والأحكام تدل على كونه تعالى عالماً بناء على كونه تعالى فاعلًا بالاختيار لا موجبًا بالذات .

الفصل الرابع : في تقرير الوجوه التي استدل بها الشيخ الرئيس أبو على بن سينا في سائر كتبه على كونه تعالى عالماً بالمعلومات . وهي ثلاثة وجوه : الأول : بين فيه كونه تعالى عالماً بذاته ، وأن علمه بذاته يوجب كونه عالماً بما سواه . الثاني : بين فيه كونه تعالى عالماً بغيره ، ثم بين أنه متى كان عالماً بما سواه ، فإنه يكون عالماً بذاته . الثالث : يذكر فيه أن الجوهر المجرد إذا اتحد بالصورة المجردة وحصل التعقل . فالذي يكون مجردًا لذاته أولى أن يكون عقلًا ومعقولًا وعاقلًا .

الفصل الخامس : وعرض فيه المؤلف للمسائل المفرعة على إثبات كونه تعالى عالماً .

الفصل السادس : في البحث عن كونه تعالى عالماً بالجزئيات . فمن الناس من يحكى عن الفلاسفة أنهم يقولون : إنه تعالى غير عالم بالجزيئات . وهذه الحكاية كما يرى المؤلف فيها نظر ؛ وذلك لأن المخصوصية ذات معينة وهو عالم بتلك الذات المعينة .

الفصل السابع : في بيان كونه تعالى عالماً بالمعدومات . فالقائلون بكونه تعالى عالماً بالجزئيات اختلفوا فمنهم من قال : إنه تعالى لا يعلم الجزئيات إلا عند دخولها في الوجود . والأكثرون اتفقوا على أنه تعالى عالم بهذه الجزئيات قبل دخولها في الوجود .

• **الباب الرابع** : في كونه تعالى مريدًا :

ويتكون هذا الباب من فصلين ونعرضهما كالآتي :

الفصل الأول : ويعرض فيه لمعاني الإرادة المختلفة ؛ منها : أنها صفة تقضي ترجيح أحد طرفي الممكن على الآخر من غير وجوب ومن غير تكوين . وقد اعترض على ذلك الفلاسفة من عدة وجوه .

الفصل الثاني : في اللذة والألم . وتحدث فيه عن أنواع اللذة ؛ منها : اللذة الجسمانية وهي خاصة بالبشر ، أما اللذة الروحانية فقد أطبقت الفلاسفة على إثباتها لواجب الوجود .

ويرتبط هذا الفصل بموضوع الانفعالات Emotions (ص ١٨٣ ، ١٨٤) .

• **الباب الخامس** : في كونه تعالى سميعًا بصيرًا :

وينقسم هذا الباب إلى ثلاثة أقسام أساسية : الأول : في البحث عن ماهية السمع والبصر . والثاني : ويختص بالبحث عن الدلائل الدالة على إثبات تلك الصفة للّه ﷻ . الثالث : البحث عن دلائل من ينكر ثبوتها للّه تعالى .

ويرتبط ما ورد في هذا الباب بموضوع سيكولوجية الإحساس والإدراك Psychology of Sensation & Perception (ص ١٨٥ - ١٩٧) .

• **الباب السادس** : في كونه تعالى متكلمًا :

ويتكون هذا الباب من مسألتين نعرضها كالآتي :

المسألة الأولى : في البحث عن حقيقة الكلام وأصوله .

المسألة الثانية : في إثبات كونه تعالى متكلمًا . وذلك على أساس كونه تعالى فاعلًا مختارًا ، وعلى كونه تعالى عالمًا بالجزئيات .

ويرتبط هذا الباب بموضوع سيكولوجية اللغة (ص ٢٠١ - ٢٠٧) .

• **الباب السابع** : في كونه تعالى قديمًا باقيًا :

فمن الناس من يقول : إن كونه قديمًا باقيًا عين الذات المخصوصة ، ومنهم من يقول : هما صفتان قائمتان بذات اللّه تعالى ، ولكل منهم براهينه المؤيدة لوجهة نظره .

• **الباب الثامن** : في كونه حيًّا :

ويقضى بكونه تعالى حيًّا : أنه يصح أن يعلم ويقدر ، ولما ثبت بالدليل كونه قادرًا عالمًا ، وكل ما كان موجودًا امتنع أن يكون ممتنع الوجود ، يثبت أنه تعالى يصح أن يعلم ويقدر .

• **الباب التاسع** : كلمات في الصفات :

ويشتمل على أحد عشر فصلًا هي كالآتي :

الفصل الأول : في حصر صفات اللّه تعالى . فقد حصر المتكلمون الصفات في هذه الثمانية : وهي كونه : حيًّا ، عالمًا ، مريدًا ، سميعًا ، بصيرًا ، متكلمًا ، قديمًا ، باقيًا .

الفصل الثاني : في أنه تعالى عالمًا لذاته أو لمعنى . فمن المتكلمين من زعم أن العلم صفة قائمة بذات العالم ولها تعلق بالمعلوم ، ومنهم من زعم أن العلم صفة توجب العالمية . وأما المؤلف فيقول : « وأما نحن فلا نثبت إلا أمرين : الذات والنسبة ، والمسماة بالعالمية ، وندعي أن هذه النسبة ليست نفس الذات ، بلى هي أمر زائد على الذات ، موجود في

الذات . وهذا هو البحث عن المعقول الصرف » .

الفصل الثالث : في إحصاء صفات اللّه تعالى . أطبقت الفلاسفة على أن صفات اللّه تعالى إما سلوب (كأن نقول : إنه ليس بجسم ، ولا بجوهر ، ولا بمتحيز) ، وإما إضافات (كأن نقول إنه جواد موجد ، مفضل) . وأشار المؤلف أنه لا سبيل إلى إثبات ذلك الحصر إلا على سبيل الأولى والأخلق .

الفصل الرابع : في أن تكوين الشيء هل هو نفسه ، نفس المكون أو غيره ؟ وعرض فيه لوجهة النظر المؤيدة لذلك ، والأخرى المعارضة لذلك .

الفصل الخامس : في تقسيم أسماء اللّه تعالى على أساس عدة وجوه :

١ - الاسم الدال على الذات .

٢ - الاسم الذي يفيد جزء الماهية . فنقول في هذا حق واجب الوجود محال ؛ لأنه فرد منزه عن جهات الكثرة والتركيب .

٣ - الاسم الذي يفيد صفة خارجة عن الماهية . فنقول : هذا الاسم إما أن يدل على حقيقة عرية عن الإضافة أو يدل على إضافة فقط ، أو على سلب فقط ، أو على صفة حقيقية مع إضافة ، أو على صفة حقيقية مع سلب (ص ٢٣٩ ، ٢٤٠) .

الفصل السادس : في إثبات كونه تعالى حكيمًا . وللفلاسفة في ذلك طريق ، وللمعتزلة طريق آخر . أما طريق الفلاسفة ، فهو أنهم قالوا : إن العقل يحكم بأن الموجد إما أن يكون خيرًا محضًا ، وإما أن يكون مشتملًا على الخير والشر ، إلا أن الخير غالب ، وإما أن يكونا متساويين ، وإما أن يكون الخير مغلوبًا ، وإما أن يكون شرًّا محضًا ، ولكن بديل من هذه البدائل تبريره الخاص لدى هؤلاء الفلاسفة .

أما طريق المعتزلة : فقالوا ثبت بالدليل : أن الحسن (إنما يحسن) لوجوه عائدة إليه ، وأن القبيح يصح لوجوه عائدة إليه . وإذا ثبتت هذه الأصول : أنه تعالى غنى عن كل الحاجات ، وأنه تعالى عالم بكل المعلومات . وإذا ثبتت هذه الأصول الثلاثة فإنه يتولد من مجموعها مقدمة واحدة هي أنه تعالى عالم بقبح القبيح ، وعالم بكونه غنيًّا عنه (ص ٢٧٩ - ٢٨٧) .

الفصل السابع : في أن تحسين العقل وتقبيحه هل هو معتبر أم لا ؟ أطبقت المعتزلة والكرامية على إثبات تحسين العقل وتقبيحه . وأطبقت الفلاسفة والجبرية على إنكاره ، والمختار عندنا : أن تحسين العقل وتقبيحه بالنسبة إلى العباد معتبر ، وأما بالنسبة إلى اللّه

تعالى فهو باطل .

الفصل الثامن : في إثبات أن التكليف بما لا يطاق واقع ، وأنه متى كان الأمر كذلك امتنع أن يقال إنه تعالى يراعي مصالح العباد .

الفصل التاسع : في ذكر أنواع أُخر من الدلائل على فساد القول بتحسين العقل وتقبيحه في أفعال اللّٰه وفي أحكامه .

الفصل العاشر : في حكاية كلمات المعتزلة في القول بتحسين العقل وتقبيحه . ولهم في ذلك نوعان من الكلام : الأول : ادعاء الضرورة في ثبوت الحسن والقبح في الشاهد . ثم بعد ذلك يزعمون : أنه لما ثبت ذلك في الشاهد وجب ثبوته في الغائب .

الثاني : إثبات أن الحسن يحسن لوجوه عائدة إليه . وأن القبح يقبح لوجوه عائدة إليه ، بالحجة والدليل .

الفصل الحادي عشر والأخير من الجزء الثالث : فيرد فيه المؤلف على هذه الوجوه التي قدمها المعتزلة في تحسين العقل وتقبيحه .

● الجزء السابع : من كتاب المطالب العالية في الأرواح العالية والسالفة (النفس) .

– المقالة الأولى : في المقدمات :

وتشتمل على أربعة فصول :

الفصل الأول : في تفاصيل مذاهب الناس فيها . فالموجود : إما يكون واجبًا لذاته وإما أن يكون ممكنًا لذاته . أما الواجب لذاته : فهو اللّٰه ﷻ . وأطبق المحققون على أنه يجب أن يكون لا متحيزًا ولا حالًّا، وأما الممكن لذاته : فإما أن يكون قائمًا بالنفس ، وإما أن يكون قائمًا بالغير . والقائم بالنفس : إما أن يكون متحيزًا ، وإما أن لا يكون . والقائم بالغير : إما أن يكون قائمًا بالمتحيز ، وإما أن يكون قائمًا بغير المتحيز . وهذه أقسام أربعة .

ويعرض هذا الفصل لمفهوم النفس Psychic ، كما يرتبط بموضوع اعتقادات الناس (ص ٧ – ١١) .

الفصل الثاني : وهو في ذكر شرح آخر في تقسيم الأرواح . فالروحيات لها مراتب :

الأولى : وهي أعلاها رتبة : الذين يكونون مستغرقين في نور جلال اللّٰه تعالى .

الثانية : النفس المدبرة للكرسي . وذلك كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

الثالثة : الأرواح المدبرة لفلك « زحل » وسائر أطباق السموات ، وأجرام الكواكب . ثم بعد هذه المراتب : الأرواح المدبرة لكرة الأثير ، ثم لكرة الهواء ، ثم الأرواح المدبرة لأقسام هذا العالم .

الفصل الثالث : ويعرض فيه لحكاية شبهات المنكرين للموجودات الروحانية والجواب عنها .

الفصل الرابع : في ذكر الدلائل على ثبوت هذا القسم من الموجودات على سبيل الإجمال . فثبت بالبرهان وجود موجودات مجردة في الأعيان ، وهي التي كان يقول بها أفلاطون ، وكان يسميها بالمثل المجردة .

– **المقالة الثانية** : في بيان أن النفس الإنسانية هل هي جوهر مجرد عن الحجمية والحلول في الحجمية أم لا ؟

وتشتمل على سبعة فصول :

الفصل الأول : في تفاصيل مذاهب الناس فيه .

الفصل الثاني : في حكاية دلائل القائلين بأن النفس يجب أن تكون جوهرًا جسمانيًا .

الفصل الثالث : في حكاية الحجة التي هي أقوى الوجوه في إثبات تجرد النفس .

الفصل الرابع : في حكاية الدلائل التي عول عليها الشيخ في إثبات أن النفس الناطقة مجردة .

الفصل الخامس : في حكاية الدلائل الإقناعية التي ذكروها في أن النفس الناطقة مجردة عن الجسمية .

ويرتبط هذا الفصل بمفهوم الذات ، والقدرات العقلية Mental Abilities .وسمات الشخصية Personality Traits وكذلك بموضوع العلاقة بين تقدم العمر Age ، وتدهور القدرات العقلية ، وسمات الشخصية (ص ٩١ – ٩٩) .

الفصل السادس : في الدلائل القوية المعتبرة في إثبات النفس . ومن الحجج المذكورة في ذلك : أن هذا الجسد أجزاؤه واقعة في التبدل . والمشار إليه لكل أحد ، بقوله : « أنا » : غير واقع في التبدل . ينتج : أن هذا الجسد ليس هو الشيء المشار إليه بقوله « أنا » .

الفصل السابع : في الدلائل السمعية على أن النفس غير البدن . فهناك ما يؤيد ذلك في الكتاب والسنة . فالقرآن دل أن السعداء أحياء بعد الموت ، والأشقياء أحياء بعد الموت . وذلك يدل على أن النفس غير البدن ، وعلى أنها باقية بعد موت البدن .

– **المقالة الثالثة** : في صفات النفوس البشرية :

وتشتمل على ثلاثة وعشرين فصلًا :

الفصل الأول : في أن النفوس هل هي متحدة في الحقيقة والماهية أم لا ؟ وعرض فيه لوجهة نظر قدماء الفلاسفة ، والشيخ الرئيس « أبي علي بن سينا » وغير ذلك من الآراء .

ويرتبط هذا الفصل والفصول التالية بمفهوم النفس Psychic والفروق الفردية بين الأفراد في طباعهم ، وسمات شخصيتهم وأخلاقهم (ص ١٤١ – ١٤٨) .

الفصل الثاني : في بيان ذكر جملة الأسباب الموجبة لاختلاف النفوس في الصفات . وهي نوعان : الأول : اختلاف النفوس في الماهيات والذوات . والثاني : الأمور الخارجة عن الذات والجوهر ، ويرتبط بأحوال الكواكب ، وأمزجة الأعضاء ، وظروف الطقس والبيئة .

ويرتبط هذا الفصل : بموضوع سيكولوجية الشخصية Personality واختلاف أنماط الشخصية باختلاف حالة الجسم والبيئة التي يعيش فيها الفرد .

كما يرتبط أيضًا بموضوع الفروق الفردية في التعلم Learning ، والذاكرة Memory والفهم Understanding .

وكذلك بالأسس العصبية والفسيولوجية للسلوك . فتحدث أن الدماغ تنقسم إلى ثلاثة تجويفات ؛ أحدها خاص بالتخيل Imagination والثاني خاص بالتفكير Thinking والثالث للذاكرة Memory . كما يرتبط بالانفعالات Emotions وعلاقتها بالحالة الجسمية والنفسية للفرد (ص ١٤٩ – ١٥٧) .

الفصل الثالث : في بيان أن النفوس واحدة . ذهب أرسطاطاليس وأصحابه إلى أن النفس واحدة ، وتنبعث عنها قوى مختلفة كثيرة بحسب الأفعال المختلفة . وقال جالينوس : النفوس ثلاث هي النطقية ، ومتعلقها الدماغ ، والنفس الغضبية ومتعلقها القلب ، والنفس الشهوانية ومتعلقها الكبد . ويرى المؤلف أن الرأي الأول هو الصواب ، فلكل إنسان نفس واحدة .

ويرتبط هذا الفصل بمفهوم النفس Psychic وأقسامها (ص ١٥٩ – ١٦٢) .

الفصل الرابع : في بيان أن المتعلق الأول للنفس هو القلب ، وأن العضو الرئيسي المطلق هو القلب .

الفصل الخامس : في حكايات شبهات « جالينوس » على مذهبه والجواب عنها .

ويرتبط هذا الفصل بالأساس العصبي للسلوك ، وموضوع الإدراك والإحساس (١٧٥ - ١٨٤) .

الفصل السادس : في تلخيص مذهب أصحاب « أرسطاطاليس » في كيفية الأرواح القلبية والدماغية .

الفصل السابع : في أن النفوس الناطقة محدثة أو قديمة .

الفصل الثامن : وتحدث فيه عن التناسخ . وأن هناك من يثبته ، وهناك من ينفيه . فهناك من يقول : إنه يجوز انتقال النفوس البشرية إلى أبدان البهائم وبالضد . أما انتقالها إلى أجسام النبات والمعادن فاختلفوا فيه .

الفصل التاسع : في بيان أن النفس باقية بعد موت الجسد .

الفصل العاشر : في تقرير الوجوه الإقناعية في بيان أن النفس باقية بعد موت الجسد . أجمع الأولياء ، والأنبياء ، والحكماء الإلهيون ، على أن النفس باقية بعد موت البدن ؛ وذلك لأن هؤلاء الفرق الثلاث حرفتهم وطريقتهم : الإعراض عن الدنيا ، والإقبال على عالم الآخرة .

الفصل الحادي عشر : في بيان أن النفس لا تقبل الهلاك والعدم . ومن الحجج التي قدمها المؤلف في ذلك قوله : لو كانت النفس الناطقة قابلة للفساد لكانت مركبة من المادة والصورة . وهذا مجال فذاك محال .

الفصل الثاني عشر : في أنه هل يعقل وجود نفس واحدة تكون متصرفة في بدنين ؟ ووجود نفسين يكونان متصرفين في بدن واحد ؟ وعرض المؤلف لوجهات النظر المختلفة في ذلك أو أن الاحتمالين جائزان بشروط معينة .

الفصل الثالث عشر : في بيان أن النفوس الناطقة مدركة للكليات والجزئيات معًا ، وأنها هي المباشرة لجميع الأفعال بنفسها ، وإن كانت تلك المباشرة موقوفة على استعمال الآلات .

ويرتبط هذا الفصل بسيكولوجية الإحساس والإدراك - وخاصة إدراك الكل والجزء (ص ٢٤٧ - ٢٥٤) . كما يرتبط بالأساس الفسيولوجي للسلوك .

الفصل الرابع عشر : في إقامة الدلالة على أن الموصوف بجميع أقسام الإدراكات والمباشر لجميع التحريكات والتدبيرات لهذا البدن هو النفس .

ويرتبط هذا الفصل بسيكولوجية الإحساس والإدراك (ص ٢٢٥ - ٢٥٩) .

الفصل الخامس عشر : في بيان أن النفس بعد مفارقة البدن تبقى عالمة مدركة بالجزئيات .

الفصل السادس عشر : في البحث عن علل النفوس الناطقة .

الفصل السابع عشر : في بيان أن اشتغال النفوس البشرية بالدعاء والتضرع هل يعقل أن يكون فيه فائدة أم لا ؟ فهناك من أنكر هذه التأثيرات ، واحتج على صحة ذلك الإنكار بوجوده . وهناك المعترفون بأن الاشتغال بالدعاء طريق نافع ، ومنهج مستقيم .

الفصل الثامن عشر : في بيان كيفية الانتفاع بزيارة الموتى والقبور .

الفصل التاسع عشر : في مراتب النفوس في المعارف والعلوم .

التقسيم الأول في ذلك على أساس المراتب :

١ - العقول الهيولانية .

٢ - العقل بالملكة .

٣ - العقل بالفعل .

٤ - أن تكون تلك العلوم حاضرة بالفعل .

التقسيم الثاني : الإدراكات للجزئيات والكليات .

التقسيم الثالث : أن يتوقف الإبصار على شرائط ، وتفكير .

ويرتبط هذا الفصل بموضوع الإدراك الحسي (ص ٢٧٩ - ٢٨٤) . والتفكير .

الفصل العشرون : ويتحدث فيه عن نسبة الأعضاء والقوى إلى جوهر النفس .

الفصل الحادي والعشرون : في تعديد خواص النفس الإنسانية ، ومنها : النطق ، والقدرة على استنباط الصنائع العجيبة ، والحكم بحسن بعض الأشياء وقبح بعضها ، وتذكر الأمور الماضية ، والفكر والروية .

ويرتبط هذا الفصل بالعمليات المعرفية ؛ كالتذكر والتفكير ، وبالقيم الخلقية .

الفصل الثاني والعشرون : في بيان أن اللذات العقلية أشرف وأكمل من اللذات الحسية .

ويرتبط هذا الفصل بموضوع ارتقاء الدوافع الإنسانية The Development of Human Motives (ص ٢٩٧ - ٣٠٢) .

الفصل الثالث والعشرون : في البحث عن نفوس سائر الحيوانات - اتفق الفلاسفة المتأخرون على أنها قوى جسمانية . وليس لأحد أن يقول : لو كانت نفوسها مجردة لوجب كونها مساوية للنفوس البشرية في تمام الماهية ، ويلزم وقوع الاستواء في العلوم والأخلاق ، وهذا محال .

ويرتبط هذا الفصل بعلم النفس الحيواني Animal Psychology فهناك إشارة لأحوال النمل ورئاسته ، وذكاء النمل أيضًا في تدبير غذائه في فصل الصيف وقبل نزول المطر وهبوب الرياح (ص ٣٠٣ - ٣١١) .

- **المقالة الرابعة** :

في البحث عن أحوال الأرواح السفلية المسماة بالجن والشياطين .

وتشتمل على ثلاثة فصول نعرض لها على النحو الآتي :

الفصل الأول : في أن القول بالجن والشياطين هل هو ممكن أم لا ؟

ذهب جمهور أرباب الملل والنحل إلى أن فرق العقلاء المكلفين أربعة : الملائكة ، والبشر ، والجن ، والشياطين . واختلفوا في أنه هل الجن نوع والشياطين نوع آخر ؟ فقال قوم : الأمر كذلك . وقال آخرون : الجن هم الأرواح الطاهرة الخيرة ، والشياطين هم الأرواح المؤذية الشريرة (ص ٣١٥) .

الفصل الثاني : في الطرق الدالة على إثبات الجن والشياطين .

أوضح المؤلف أنه لا يوجد دليل يدل على نفيها وفساد القول بها . كما لا يوجد دليل عقلي يوجب الجزم بوجودهم .

الفصل الثالث : في البحث عن حقيقة الإلهام ، والوسوسة ، واستقصاء القول فيها .

ويرتبط هذا الفصل بمصدر المعرفة الذي يحصل عن طريق الإلهام ، كما يرتبط أيضًا بموضوع الوساوس Obsessions وأسبابها (ص ٣٢٩ - ٣٣١) .

- **المقالة الخامسة** : في تفاصيل الكلام في الأرواح العالية الفلكية :

وتشتمل على تسعة فصول نعرض لها على النحو التالي :

الفصل الأول : في إقامة الدلالة على أن الأفلاك والكواكب أحياء ناطقة .

الفصل الثاني : في بيان صفة النفس الفلكية .

الفصل الثالث : في تعديد مذاهب الناس في السبب الموجب لكون الفلك متحركًا بالاستدارة .

الفصل الرابع : في تتبع هذه المذاهب .

الفصل الخامس : في تعديد الطرق المذكورة في إثبات العقول الفلكية .

الفصل السادس : في البحث عن فروع القول بهذه العقول والنفوس .

الفصل السابع : في نقل كلمات أصحاب الطلسمات في صفات الأرواح الفلكية العالية .

الفصل الثامن : ويتضمن شرحًا لصفات الملائكة - حسب ما وردت في القرآن : فهم رسل اللّه ، وقريبون منه ، ومطيعون ، ويخافون ربهم ويخشونه ... إلخ .

الفصل التاسع : في المقارنة بين أفضلية الملائكة أم البشر .

● الجزء الثامن : من كتاب المطالب العالية في النبوات وما يتعلق بها .

- **القسم الأول من كتاب النبوات** : في تقرير القول بالنبوة عن طريق المعجزات : ويشتمل على خمسة عشر فصلًا نعرض لها على النحو الآتي :

الفصل الأول : في شرح مذاهب الناس في هذا الباب . فالمنكرون للنبوات فرق ، إحداها : الذين قالوا : إله العالم موجب بالذات لا فاعل بالاختيار . والثانية : الذين سلموا أن إله العالم فاعل مختار ولكنهم أنكروا الأمر والنهي والتكليف . والثالثة : الذين سلموا أن إله العالم أحل لعبادة أشياء ونهاهم عن أشياء . إلا أنهم قالوا : العقول وحدها كافية في معرفة تلك التكاليف .

الفصل الثاني : في حكاية شبهات من أنكر النبوات بناءً على نفي التكاليف . وتناول فيه أنواع المنكرين وحججهم في هذا الصدد .

الفصل الثالث : في تقرير شبهات من ينكر التكليف لا بالبناء على مسألة الجبر ، فقالوا: إن هذه التكاليف إما أن تكون مشتملة على فائدة ومصلحة ، وإما أن لا تكون . والقسمان باطلان . كما أنه مع بيان القول بتحسين العقل وتقبيحه وجب أن يكون التكليف قبيحًا .

الفصل الرابع : وهو في تقرير شبهات المنكرين للنبوات بالبناء على أن العقل كافٍ

في معرفة التكليف . وذلك يوجب سقوط القول بالبعثة والرسالة .

الفصل الخامس : في حكاية شبهات من يقول : القول بخرق العادات محال .

الفصل السادس : في شبهات القائلين بأن المعجزات لا يمكن أن يعلم أنها حدثت بفعل اللَّه وبتكليفه . وبيان أنه متى تعذر العلم بذلك ، امتنع الاستدلال بما هي على صدق المدعي .

الفصل السابع : ويعرض فيه المؤلف لحكاية شبهات القائلين بأن على تقدير أن يثبت أن خالق المعجزات هو اللَّه ﷺ إلا أن ذلك لا يدل على أنه تعالى إنما خلقها لأجل تصديق المدعي للرسالة .

الفصل الثامن : في حكاية دلائل من استدل بظهور المعجز على صدق المدعي .

الفصل التاسع : وهو في تقرير نوع آخر من الشبهات في بيان أن ظهور الفعل الخارق للعادة الموافق للدعوى مع عدم المعارضة : لا يدل على صدق المدعي .

الفصل العاشر : في أنه بتقدير أن يكون المعجز قائمًا مقام ما إذا صدقه اللَّه تعالى على سبيل التصريح . فهل يلزم من هذا كون المدعي صادقًا ؟

الفصل الحادي عشر : في الطعن في التواتر . حيث زعمت بعض الجماعات أنهم شاهدوا المعجزات . ويرى المؤلف أنه لا يوجد دليل يجعلنا نسلم بذلك على سبيل اليقين التام ، فاليهود والنصارى أطبقوا على صلب عيسى عليه السلام وقتله . والمسلمون أطبقوا على تكذيبهم فيه . وهذا أيضًا طعن في التواتر . كما أنهم يدعون إلى التثليث ، والمسلمون يكذبونهم فيه ، وهذا أيضًا طعن في التواتر .

الفصل الثاني عشر : في تقرير شبهة من يقول : إن اللَّه تعالى لو أرسل رسولًا إلى الخلق لوجب أن يكون ذلك الرسول من الملائكة . وهذه الشبهة قد ذكرها اللَّه تعالى في القرآن قال تعالى : ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة : ٨٧] .

الفصل الثالث عشر : في البحث عن الطريق الذي يعرف الرسول كونه رسولًا من عند اللَّه عز وجل .

الفصل الرابع عشر : في الشبهات المبنية على أنه ظهر على الأنبياء أعمال تقدح في صحة نبوتهم .

الفصل الخامس عشر : في الإشارة إلى أجوبة هذه الشبهات ، فإذا عرف العاقل

أصولًا ثلاثة زالت عنه هذه الشبهات بأسرها : وذلك من كمال الله تعالى على العباد ؛ حيث هداهم إلى هذه الأصول الثلاثة . الأول منها : أن نقول : لا شكَّ أن القول بإثبات النبوات ، فرع على القول بإثبات الفاعل المختار ، فمن نازع في ذلك الأصل فإنه لا يجوز له الخوض في إثبات النبوات ألبتة ؛ بل يجب عليه الشروع في تلك المسألة .

- **القسم الثاني** : في تقرير القول بالنبوة عن طريق آخر ، وهو قدرة النبي على تكميل الناقص : ويشتمل على سبعة فصول . نتناولها على النحو التالي :

الفصل الأول : في تمييز هذا الطريق عن الطريق المتقدم . فالقائلون بالنبوات فريقان : أحدهما الذين يقولون : إن ظهور المعجزات على يده ، يدل على صدقه ، ثم إنا نستدل بقوله على تحقيق الحق ، وإبطال الباطل . وهذا القول هو الطريق الأول ، وعليه أرباب الملل والنحل . القول الثاني : أن نقول : إنا نعرف أولًا أن القول في الاعتقادات ما هو ؟ وأن الصواب في الأعمال ما هو ؟ فإذا عرفنا ذلك . ثم رأينا إنسانًا يدعو الخلق إلى الدين الحق ، عرفنا أنه نبي صادق واجب الاتباع ، وهذا الطريق أقرب إلى العقل ، والشبهات فيه أقل .

الفصل الثاني : في أن القرآن العظيم يدل على أن هذا الطريق هو الطريق الأكمل والأفضل في إثبات النبوة ، فالإقرار بالإلهيات يتبعه مباشرة الإقرار بالنبوات . وكمال حال الأنبياء يتمثل في حصول أمور أربعة ؛ هي : كمال القوة النظرية ، والقوة العملية ، قدرته على تكميل القوة النظرية لغيره ، قدرته على تكميل القوة العملية التي لغيره .

الفصل الثالث : في صفة هذه الدعوة إلى الله تعالى .

الفصل الرابع : وهو في بيان أن محمدًا عليه الصلاة والسلام أفضل من جميع الأنبياء والرسل .

الفصل الخامس : في بيان أن إثبات النبوة بهذا الطريق أقوى وأكمل من إثباتها بالمعجزات .

الفصل السادس : في تقرير طريقة الفلاسفة في كيفية ظهور المعجزات على الأنبياء عليهم السلام .

ويرتبط هذا الفصل بسيكولوجية الإحساس Psychology of Sensation والأحلام Dreams (ص ١٢٧ - ١٣٦) .

الفصل السابع : ويعرض فيه المؤلف لقول الفلاسفة في السبب الذي لأجله يقدر

الأولياء والأنبياء على الإتيان بالمعجزات والكرامات .

- القسم الثالث : في الكلام في السحر وأقسامه :

الفصل الأول : في بيان أنواع السحر ، وهي عشرة أنواع ؛ منها : السحر المبني على مقتضيات أحكام النجوم وهو أشدها تأثيرًا وأعظمها قوةً ، والسحر المبني على قوة الوهم وتصفية النفس ، والسحر المبني على خواص الأدوية المعدنية والنباتية ، والسحر المبني على العزائم والرقى ، والسحر المبني على الاستعانة بالأرواح الفلكية ، والسحر المرتب على علم الهندسة .

ثم تحدث المؤلف بعد ذلك عن تقرير الأصول الكلية المعتبرة في السحر المبني على طريق النجوم . وفيه تناول الفصول التالية :

الفصل الأول : في الطلاسم ، وهو كما يقول الفلاسفة والصابئة : عبارة عن تمزيج القوى الفعالة السماوية ، بالقوى المنفعلة الأرضية ، لإحداث ما يخالف العادة ، أو للمنع مما يوافق العادة .

الفصل الثاني : في بيان أن الوقوف على أصول هذا العلم عسر جدًّا .

الفصل الثالث : في الطريق الذي حصل به الوقوف على طبائع الأجرام الفلكية ؛ وهي ثلاثة أمور : القياس ، والتجربة ، والوحي .

الفصل الرابع : وتحدث فيه عن الشرائط الكلية المعتبرة في دعاية هذا النوع .

الفصل الخامس : في تلخيص الأصول المعتبرة في هذا الباب . وتحدث فيه عن أحوال المؤثرات العلوية : (أنواع الكواكب ، النقط الفلكية المؤثرة ومعرفة طبيعة الفلك) . كما تحدث عن الأمور التي يجب معرفتها عن الأجسام القابلة السفلية .

أما الفصل السادس والأخير من هذا الجزء : فهو في التنبيه على أصول أخرى يجب مراعاتها في هذه الأعمال . وهذه الأصول إما أن تكون معتبرة في الكواكب أو في البروج .

* * *

الطب الروحاني [1]

عرض : د. عبد اللطيف محمد خليفة

عرض الكتاب :

يشتمل الكتاب على عشرين فصلًا نعرض لها على النحو التالي :

الفصل الأول : في فضل العقل ومدحه : ويتلخص مضمونه : في أن اللَّه قد ميز الإنسان عن سائر الكائنات بالعقل ، والذي من خلاله ندرك جميع ما يرفعنا ، ويطيب عيشنا ، ونصل إلى بغيتنا وقرارنا ، فمن خلاله ندرك مثلًا صناعة السفن ، والطب ، وسائر الصناعات ، ولولاه لكانت حالتنا مثل البهائم ، والأطفال ، والمجانين . ومن خلاله يمكن تصور أفعالنا العقلية قبل ظهورها للحس

ويرتبط هذا بمفاهيم : الإحساس Sensation ، والإدراك Perception والذكاء Intelligence ، والمرض النفسي Mental Illness .

الفصل الثاني : في قمع الهوى وردعه وجملة من رأي أفلاطون الحكيم . ويدور حول قمع الهوى ومخالفة ما يدعو إليه الطباع . وتمرين النفس على ذلك بشكل تدريجي . فأهم ما يتميز به الإنسان عن الحيوان ملكة الإرادة ، وإطلاق العقل بعد الروية ؛ فالهوى والطباع يدعوان إلى اتباع اللذات الحاضرة دون فكر ولا تدبر في عاقبة .

---

(١) فخر الدين الرازي ؛ ضبطه وقدم له سليمان سليم البواب . دمشق ؛ بيروت : دار الحكمة ، (١٩٨٦م) ، (ص ١٢٦) .

ويعرض المؤلف للفرق بين الشعور باللذة لدى الإنسان والحيوان ، فالشعور باللذة لدى الحيوان قصير الأمد ويمكن بلوغه بسهولة ، أما الإنسان فطويل الأمد ويصعب تحققه بسرعة ، فالإنسان يتشوق ويتطلع دائمًا إلى المزيد . ويقسم أفلاطون الإنسان إلى ثلاث أنفس ؛ هي : النفس الناطقة ، والإلهية ، والنفس الغضبية والحيوانية ، والنفس النباتية والنامية والشهوانية . والتقصير في فعل النفس النباتية أن لا تغدو ولا تنمو بالكمية والكيفية المحتاجة إليها جملة الجسد ، حتى يغرق في اللذات والشهوات ، وتقصير فعل النفس الغضبية أن لا يكون عندها من الحمية والأنفة ما يمكنها أن تقهر النفس الشهوانية . أما تقصير فعل النفس الناطقة أن لا يخطر ببالها استغراب هذا العالم واستكباره ، والفكر فيه والتعجب منه ، والتشوق إلى معرفة جميع ما فيه .

ويرتبط هذا النص بالدوافع ، والغرائز ، وقمع الدوافع والسيطرة عليها . كذلك يرتبط بكلٍّ من : المرض العقلي Mental Illness ، والانفعالات Emotions (مثل السعادة Happiness) (ص ٤٧ - ٥٧) .

الفصل الثالث : جملة قُدِّمت قبل ذكر عوارض النفس الردية على انفرادها ، ويعرض فيه لما سبق الحديث عنه في الفصل السابق ، عن الأسباب التي نستقي منها جميع وجوه التلطف لإصلاح خلق ما ردى ، وتقديم لما سيأتي في الفصل الرابع عن معرفة الإنسان لعيوبه .

الفصل الرابع : في تعرف الرجل عيوب نفسه . ويتحدث عن معرفة الفرد لعيوبه وأخطائه من خلال الاستعانة بالآخرين من العقلاء أو المشرفين ، فيعرض عليهم عيوبه . ويطلب منهم النصيحة دون مجاملة . وألا يسخر أو يستهزئ به . وأن يصغي إليه جيدًا . وإن رأى المشرف الشخص قد كتم عنه شيئًا أخبره بأن ذلك غير صحيح ، وأنه يجب التصريح مباشرة بكل ما لديه ، وأن يتعاطف مع مشاكله وعيوبه .

يقترب هذا الفصل بما يسمى بالإرشاد Counseling ، وخاصة الإرشاد غير الموجه Non-Directive Psychotherapy . وهو أحد أساليب العلاج النفسي الذي قدمه ، كارل روجرز Rogers (ص ٥٩ ، ٦٠) .

الفصل الخامس : في العشق والإلف وجملة الكلام في اللذة . فاللذة بشيء سوى إعادة ما أخرجه المؤذي عن حالته إلى حالته التي كان عليها . ويعرف الفلاسفة الطبيعيون حد اللذة بأنها رجوع إلى الطبيعة ، فبمقدار أذى الجوع والعطش يكون

الالتذاذ بالطعام والشراب . ويخطئ من يتصور اللذة على أنها بعيدة من الألم والأذى ، كما هو الحال لدى العشاق ومن كلف بشيء وأغرم به ؛ فهم يحزنون من حيث يظنون أنهم يلذون ؛ وذلك لأنهم لا ينالون من ملاذهم شيئًا إلا بعد أن يمسهم الهم والجهد ، والكثير منهم يصل إلى حالة فقد الغذاء والجنون ، والوساوس . ويؤيد وجهة النظرة المعارضة لرأي الفلاسفة في العشق الذين يرون أنه شيء نبيل وسامٍ ، وأنه مظهر رقة الطبع ولطافة الذهن . ويقول المؤلف : إن اليونانيين على الرغم من أنهم من أرق الأمم إلا أننا نجد أن العشق عندهم أقل مما في جملة سائر الأمم . أما الإلف فهو ما يحدث في النفس عن طول الصحبة من كراهة مفارقة المصحوب .

يقترب هذا الفصل من : الانفعالات Emotion (مثل الشعور باللذة ، والفرح ، والألم ، والحب Love) ، والمرض النفسي Mental Illness والوساوس Obsessions كما يرتبط بالواقعية وما يصاحبها من حالات وجدانية (ص ٦١ - ٧٠) .

الفصل السادس : « في الحب » . ويتحدث فيه عن محبة الإنسان وإعجابه بنفسه ، فيكون استحسانه للحسن منها فوق حقه ، واستقباحه للقبيح منها دون حقه .فإذا كان للإنسان أدنى فضيلة عظمت عند نفسه ، وأحب أن يمدح عليها . وإذا تأكدت فيه هذه الحالة صار عجبًا . ومما يدفع به العجب أن يكل الرجل اعتبار مساويه ومحاسنه إلى غيره .

ويرتبط هذا الفصل بموضوع الانفعالات ؛ إذ إن العجب بالنفس حالة انفعالية . كما يرتبط بموضوع الحيل العقلية ؛ إذ إن العجب بالنفس كثيرًا ما يكون وسيلة دفاعية ضد الشعور بالنقص . (ص ٧١ ، ٧٢) .

الفصل السابع : في الحسد . ويذكر فيه إن الحسد يتولد من اجتماع البخل والشره في النفس والحسد أشرُّ من البخل ؛ لأن البخيل إنما لا يحب أن ينال أحد شيئًا مما يملكه ، والحسود يحب أن لا ينال أحد غيره ولو مما لا يملكه ، والحسد داء من أدواء النفس عظيم الأذى لها . وعرض المؤلف لوجود اختلاف بين الحسد والعداوة أو الكراهية بين الناس ، والحسد مضر بالنفس والجسد . أما بالنفس : فلأنه يذلها ، ويعذب فكرها ، ويسبب طول الحزن . وأما بالجسد فلأنه يسبب طول السهر وسوء الاغتذاء ، ورداءة اللون وسوء السحنة ، أو الهيئة وفساد المزاج . ويرى أنه يمكن الإقلاع عن الحسد عن طريق أن يتأمل العاقل أحوال الناس في ترقيهم في المراتب ووصوله إلى الطلب .

ويرتبط هذا الفصل بموضوع الانفعالات ؛ مثل : انفعال الحسد والحزن ، والسيرة

على انفعال الحسد ، والغضب Anger ، والكراهية أو العداوة Hostility ، والمزاج Mood ، والاقتداء Modeling ، أي وجود نموذج يمثل قدرة (ص ٧٣ - ٧٨) .

الفصل الثامن : في دفع الغضب . ويتناول فيه أضرار الغضب على الإنسان ، والتي تصل إلى أن يفقد معه العقل . ويرى أنه يمكن أن يتخلص الإنسان من غضبه عن طريق : تذكر الظروف التي أدت إلى غضبه ، وتصور نفسه في حالة الغضب . وينبغي أن يكون الفرد في وقت المعاقبة بعيدًا عن أربع خصال : الكبر ، والبغض للمعاقب ، ومن ضدي هذين ؛ فإذا زاد عنهما أو قل كان الضرر . وينبغي أن يكون بباله هذه المعاني حتى يكون غضبه بمقدار عدله .

ويرتبط هذا الفصل بموضوع الانفعالات وبخاصة انفعال الغضب ، وكيفية التحكم أو السيطرة على الانفعالات (ص ٧٩ ، ٨٠) .

الفصل التاسع : في اطراح الكذب ، وهو أحد الأعراض السيئة للهوى ، فهو يجلب من بعده ندمًا وهمًا وألمًا ، كما يسبب احتقار الناس واستصغارهم له وعدم ثقتهم به . والإخبار بغير الحق نوعان : نوع يقصد به المخبر إلى أمر جميل مستحسن ، ولا يترتب عليه فضيحة ولا ندامة بل شكر وثناء وجميل . أما النوع الثاني العديم الغرض ففي تكشفه الفضيحة والمذمة ويترتب عليه الضرر .

ويقترب هذا الفصل من « مفهوم الكذب » كما يستخدم في مجال علم النفس الإكلينيكي والانحرافات السيكوباتية . وخاصة الكذب بالمعنى الثاني والذي يستخدم كمؤشر للاضطرابات النفسية Mental Disorders (ص ٨١ - ٨٣) .

الفصل العاشر : في البخل ، وتحدث فيه بأن البخل ليس من أعراض الهوى إذا قصد به التمسك والتحفظ بما لدى الأفراد خوفًا من الفقر ، واستعدادًا للنكبات والمصائب . وأن هناك صعوبة في تحديد البخلاء لأسباب بخلهم .

الفصل الحادي عشر : في دفع الفضل الضار من الفكر والهم . فنظرًا لاختلاف طبائع الأفراد وعاداتهم تختلف مقادير احتمال الفكر والهم فيهم . وينبغي أن يكون ذلك استخدمًا للهوى والسرور ، واللذة استخدامًا إيجابيًا ، أي لكي نقوى من خلال ذلك على مواجهة العدو والوصول إلى أهدافنا ، وأن ذلك ينبغي أن يكون بدرجة معتدلة ، فالإفراط والتقصير كلاهما سيئ ؛ فالاعتدال في فكرنا وهمومنا يؤدي بنا إلى بلوغ مطالبنا .

المفاهيم والمجالات : يقترب من مفهوم الانفعالات وخاصة ما يسمى بالحد الأمثل من الانفعالات أو التوتر ، والذي يؤدي إلى الأداء والإنجاز بمستوى عالٍ من الكفاءة (ص ٨٧ - ٨٨) .

الفصل الثاني عشر : في دفع الغم . الغم : هو عرض عقلي أو هوائي ، يكدر الفكر والعقل ويؤذي النفس والجسد . ويتولد الغم غالبًا نتيجة فقد المحبوبات . ويجب على الشخص أن يتخيل دائمًا أنه يمكن أن يفقد محبوباته لأن ذلك من وقوع المصيبة ودرجة الغم الواقع ، وذكر أن الحياة متغيرة ولا ثبات فيها لشيء إطلاقًا ، ونصح بضرورة أن يعي الإنسان أسباب غمه حتى يمكنه إزالتها .

المفاهيم : التخيل Imagination ، والاكتئاب Depression (ص ٨٩ - ٩٣) .

الفصل الثالث عشر : في الشره والنهم ضرب من اتباع الهوى . ويتولد عن قوة النفس الشهوانية ، إذا ساعدها عمى النفس الناطقة ، أي قلة الحياء كان مع ذلك ظاهرًا مكشوفًا ، وهو من الأعراض الرديئة التي يترتب عليها الألم والضرر ، كسوء الهضم ، وتعريض النفس للألم والسقم .

المفاهيم : يقترب من حديث الأطباء عن الإضطرابات النفسية وخاصة إضطرابات تناول الطعام (ص ٩٥ - ٩٧) .

الفصل الرابع عشر : في السكر . يترتب على إدمان المسكرات عدد من الأعراض والأمراض السيئة ؛ كالسكتة والاختناق ، وانفجار شرايين الدماغ ، والحمى ، والأورام الدموية ، والصفراوية في الأحشاء ، وفقد العقل ، وإظهار السر . وذكر أن الإدمان والمثابرة على اللذات يسقط الالتذاذ بها ، ويجعله كالشيء الاضطراري في بقاء الحياة ، والسكر أشد ضراوة من الشره . ومن أسباب دفع الهم والانبساط .

المفاهيم : يقترب من موضوع الإدمان وتعاطي المخدرات ، والأضرار الناجمة من تعاطيها مثل فقدان الوعي ، واضطراب الذاكرة Memory وأسباب تعاطي المخدرات (ص ٩٩ ، ١٠٠) .

الفصل الخامس عشر : في الجماع . من الأعراض الرديئة التي يدعو إليها الهوى . والإكثار منه يضعف البصر ، ويهد البدن ، ويسرع بالشيخوخة ، والهرم ، ويضر بالدماغ ، والأعصاب ، ويسبب الكثير من الأمراض . أما الإقلال منه ، والإمساك عنه ، فيحفظ على الجسد قوته الأصلية للأعضاء ، فتطول مدة النماء ، وتبطئ الشيخوخة ،

والجفاف والهرم ، وتضيق أوعية المني فيقل تولد المني فيها ، ويتقلص الذكر وتسقط الشهوة . وفي نهاية الفصل يرى المؤلف أنه على العاقل أن يزم نفسه عن كثرة الجماع ، ويجاهدها على ذلك ليأمن عواقبه الرديئة .

المفاهيم : يرتبط هذا الفصل بالاضطرابات الجنسية Sexual Disorders وبعض المفاهيم مثل الباعث Incentive ، الدافع الجنسي (ص ١٠١ - ١٠٣) .

الفصل السادس عشر : في الولع والعبث والمذهب . ويتلخص في التوعية بترك الولع ، والعبث ، وبالاستحياء والبعد عنهما وذلك من خلال تذكر النفس لأوقات العبث والولع . فالتذكر والتيقظ من وسائل مقاومة ذلك . أما المذهب فهو عرض هوائي لا عقلي . وتحدث عن النظافة والطهارة وإدراكها بالحواس لا بالقياس ، وأن الحواس لا تعطي لصاحب المذهب شيء يحتج به .

المفاهيم : يقترب هذا من بعض المفاهيم ؛ مثل : بعض سمات الشخصية مثل الميل إلى اللهو والمرح والعبث . ومقاومة ذلك عن طريق التذكر ، واليقظة Vigilance ، وكذلك مفاهيم الإحساس Sensation ، والاستدلال Reasoning (ص ١٠٥ - ١٠٧) .

الفصل السابع عشر : في الاكتساب ، والاقتناء ، والإنفاق . فالاكتساب له طرفان أو حدان ، هما : الإفراط والتقصير ، وكلاهما غير مرغوب ، وضار . ويقصد به المقدار الموازي لمقدار الإنفاق وزيادة فضله تقتنى وتدخر للنوائب والحوادث المانعة من الاكتساب . أما الاقتناء والادخار فهو أحد الأسباب الاضطرارية في حسن العيش ، وينبغي الاعتدال فيه مثل الاكتساب ، فالتقصير في أيٍّ منهما يؤدي إلى عدمه مع الحاجة إليه ، والإفراط يؤدي إلى دوام الكد والتعب ، أما الاعتدال في الاقتناء فهو أن يكون لدى الإنسان من المقتنيات بمقدار ما يقيم به حالته . أما الإنفاق فينبغي أن يكون أقل من مقدار الاكتساب .

المفاهيم : مفهوم الحاجة Need ومفهوم الدافع Motive ، ومفهوم الشعور بالأمن Feeling of Security (ص ١٠٩ - ١١٢) .

الفصل الثامن عشر : في طلب الرتب والمنازل الدنيوية . ويتلخص في أن الفرد في حاجة مستمرة إلى التغيير والتنقل من الحالة التي يوجد عليها ، ويتم ذلك من خلال الجهد ، والحمل على النفس وإجهادها في الطلب . والعقل ، هو الذي يختار ويرى ويؤثر الشيء الأفضل عند العواقب . أما الهوى ، فإنه بالضد من هذا المعنى ؛ حيث يتم الاختيار ودون النظر فيهما يأتي من عواقب ؛ ولذا ينصح باتباع العقل دائمًا ، والبعد عن

الهوى في تقدير الرتب والمنازل .

المفاهيم : يقترب هذا الفصل من ارتقاء الدوافع والحاجات Development of Needs & Motives ، أو ما يسميه البعض بالتدرج لارتقاء الحاجات . (ص ١١٣ - ١١٨) .

الفصل التاسع عشر : في السيرة الفاضلة . ويدور حول أن الإنسان إذا لزم العدل ، والعفة ، وأقلَّ من مجادلة الناس سلم منهم . وإذا أضاف إلى ذلك الإفضال عليهم ، والنصيحة ، والرحمة لهم أوتي منهم المحبة . وهاتان الخصلتان هما ثمرتا السيرة الفاضلة .

المفاهيم : يقترب من مفهوم القيم الأخلاقية Moral Values ، والتفاعل بين الأفراد (ص ١١٩ ، ١٢٠) .

الفصل العشرون : في الخوف من الموت . ويحاول فيه إقناع من يعتقد أن النفس تفسد بفساد الجسد . ويبين أنه ليس للخوف من الموت - على رأي من لم يجعل للإنسان حالة وعاقبة يصير إليها بعد موته - وجه . كما يجب أيضًا في الرأي الآخر - وهو الذي يجعل لمن مات حالة وعاقبة يصير إليها بعد الموت - أن لا يخاف من الموت الإنسان الخير الفاضل المكمل لأداء ما فرضت عليه الشريعة المحقة ؛ لأنها قد وعدته بالفوز ، والراحة ، والوصول إلى النعيم الدائم .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام والإرشاد النفسي .

* * *

شرح الإشارات [1]

عرض : د. معتز سيد عبد الله

عرض الكتاب :

يتكون الكتاب من جزأين ، يعرض المؤلف فيهما لشرح كتاب الإشارات والتنبيهات للشيخ الرئيس ابن سينا . وهو ما نعرض لتفاصيله على النحو التالي :

الجزء الأول :

ويقع في ٢٤٣ صفحة من القطع الكبير . ويتكون من خمسة أنماط ، يشتمل كل منها على مجموعة من المسائل ، التي تتكون بدورها من مجموعة من الفصول . وفي كل نمط من هذه الأنماط يقوم المؤلف بشرح بعض الإشارات والتنبيهات ، وذلك كما يلي :

النمط الأول : في تجوهر الأجسام :

ويشتمل على اثنتي عشرة مسألة قام المؤلف بشرح ما تشتمل عليه كل منها من إشارات وتنبيهات .

المسألة الأولى : في إبطال الجزء الذي لا يتجزأ ، والثانية : في بعض تفاريع نفي الجزء ، والثالثة : في إثبات الهيولي ، والرابعة : في أن الهيولي قابلة للمقادير المختلفة ، والخامسة : في استحالة خلو الصورة الجسمية عن الهيولي ، والسادسة : في استحالة خلو الهيولي عن الجسمية ، والسابعة : في استحالة خلو الهيولي عن الصورة النوعية ، والثامنة : في كيفية

---

(١) فخر الدين الرازي ط١ - (القاهرة) : السيد عمر حسين الخشاب ، (١٣٢٥هـ) ٢مج .

تعلق كلٍّ واحدةٍ من الهيولي والصورة بالأخرى ، والتاسعة : في أحكام المقادير ، والعاشرة : في امتناع تداخل المقادير ، والحادية عشرة : في امتناع الخلاء ، والثانية عشرة : في إثبات الجهة ، وقد ارتبط شرح الإشارات والتنبيهات التي وردت في كلٍّ مسألةٍ من المسائل السابقة ببعض المفاهيم السيكولوجية ؛ هي : بنية الجسم (ص ٥ - ٦٩) ، والوهم (ص ٧) ، والرأي (ص ٧) ، والصورة العقلية (ص ٣٩ - ٦٨) .

النمط الثاني : في الجهات وأجسامها الأول والثاني :

والكلام في هذا النمط على قسمين ؛ أحدهما : الكلام على الأفلاك والثاني : الكلام على العناصر ، **والقسم الأول** : الكلام على الأفلاك فيه سبع مسائل ؛ الأولى : في أن الجهات لا تتحدد إلا بأجسام كبرى ، والثانية : في أن الجسم المحدد للجهات لا تصح عليه الحركة المستقيمة ، والثالثة : في بيان أن المحدد هو الفلك الأعظم أو غيره ، والرابعة : في شرح أمور تعم الأجسام كلها ، والخامسة : في أن الجسم المحدد للجهات متحرك على الاستدارة ، والسادسة : في كيفية الحركة المستديرة للفلك المحدد ، والسابعة : في امتناع الكون والفساد على الفلك .

أما القسم الثاني من الكلام في الأجسام العنصرية ففيه ثمان مسائل : الأولى : في عدد الأسطقسات ، والثانية : في سبب ترتيب العناصر في أمكنتها ، والثالثة : في بيان جواز الكون والفساد على العناصر الأربعة ، والرابعة : في أن الأسطقسات والأركان ليست إلا الأربعة المذكورة ، والخامسة : في كيفية تولد المركبات عن هذه الأربعة ، والسادسة : في إثبات الاستحالة ، والسابعة : في أحكام النار ، والثامنة : في ذكر حكمة اللّه تعالى في خلق العناصر . ويرتبط مضمون الجزء السابق ببعض المفاهيم السيكولوجية منها إدراك الحركة (ص ٦٩ - ٩٦) .

النمط الثالث : في النفس الأرضية والسمائية :

والكلام في هذا النمط على أقسام ثلاثة ، ويشتمل كل قسمٍ على مسائل :

القسم الأول : في بيان النفس ليست عبارة عن البدن ، ولا عن المزاج وأنها واحدة . وفيه ثلاث مسائل : الأولى : في بيان أنها ليست عبارة عن هذا البدن ، والثانية : في بيان أن النفس ليست بمزاج ، والثالثة : في وحدة النفس وكيفية تأثر البدن عنها .

أما القسم الثاني : (في أحكام الإدراك) ففيه ثمان مسائل : الأولى : في ماهية الإدراك ، والثانية : في بيان درجات الإدراكات في التجرد ، والثالثة : في الحواس

الباطنة ، والرابعة : في درجات النفس الإنسانية ، والخامسة : في الفرق بين الحدس والفكر ، والسادسة : في إثبات القوة القدسية ، والسابعة : في أن النفس الناطقة ليست بجسم ولا بجسماني ، والثامنة : في أن كل مجرد فهو عقل وعاقل ومعقول .

أما القسم الثالث : (في أحكام القوة المحركة من قوى النفس) ففيه أربع مسائل : الأولى : في أقسام القوى النباتية ، والثانية : في القوى المحركة الاختيارية ، والثالثة : في أن الفلك متحرك بالإرادة ، والرابعة : في إثبات النفوس الفلكية ، ويرتبط مضمون الجزء السابق بمجموعة من المفاهيم السيكولوجية ؛ هي : النفس (ص ١٢٠ - ١٨٩) ، وبنية الجسم (ص ١٢٠ - ١٨٩) ، والمزاج Temperament (ص ١٢٠ - ١٨٩) ، والإحساس (الحواس) (ص ١٢٠ - ١٨٩) ، واللذة (ص ١٢٠ - ١٨٩) ، والعلاقة بين النفس والجسم (ص ١٢٠ - ١٨٩) ، والصور العقلية (ص ١٢٠- ١٨٩) ، والتجريد (ص ١٢٠ - ١٨٩) ، والإرادة (ص ١٢٠ - ١٨٩) .

النمط الرابع : في الوجود وعلله :

ويشتمل على ثمان مسائل ؛ الأولى : في الرد على من زعم أن ما لا يكون محسوسًا لا يكون معلومًا ولا متصورًا . والثانية : في تفصيل القول في العلل الأربعة التي هي العلة المادية والصورة ، والفاعلية والغائية . والثالثة : في إثبات واجب الوجود . والرابعة : في وحدة واجب الوجود . والخامسة : في تنزيه واجب الوجود تعالى عن الكثرة . والسادسة : في نفي الضد والند عنه تعالى ، والسابعة : في أنه تعالى عالم بالأشياء . والثامنة : في أن الطريق الذي سلكه الشيخ ابن سينا في هذا الكتاب في معرفة ذات اللّٰه تعالى أجل من سائر الطرق ، ويرتبط مضمون الجزء السابق ببعض المفاهيم السيكولوجية ؛ هي : مفهوم العلية Causality (ص ١٨٩ - ٢١٤) ، والإحساس (ص ١٨٩ - ٢١٤) .

النمط الخامس : في الصنع والإبداع :

ويشتمل على عشر مسائل ؛ الأولى : في أن علة الحاجة إلى المؤثر هي الإمكان ، وأن الشيء حال بقائه لا يستغني عن السبب . والثانية : في أن كل حادث مسبوق بزمان . والثالثة : في بيان أن الزمان هو مقدار الحركة . والرابعة : في أن كل محدث مسبوق بمادة . والخامسة : في أن كل ممكن محدث بالذات ، والسادسة : في أن العلة متى كانت مستجمعة جميع الأمور المعتبرة في عليتها فإنه يستحيل تخلف المعلول عنها . والسابعة : في تفسير لفظ الإبداع . والثامنة : في أن أحد طرفي الممكن لا يترجح على

الآخر إلا بعلة وأن حصوله واجب عند حصول العلة . والتاسعة : في أن الواحد حقًّا لا يصدر عنه إلا المعلول الواحد . والعاشرة : في مذاهب أهل العلم في إمكان العلم وحدوثه . ويرتبط مضمون الجزء السابق ببعض المفاهيم السيكولوجية ؛ أهمها : مفهوم الإبداع Creativity (ص ٢١٤ - ٢٤٣) .

الجزء الثاني :

ويقع في ١٤٦ صفحة من القطع الكبير . ويتكون من خمسة أنماط يشتمل كل منها على مجموعة من المسائل ، التي تتكون بدورها من مجموعة من الفصول . وفي كل فصل من هذه الفصول يقوم المؤلف بشرح بعض الإشارات والتنبيهات ، وذلك كما يلي :

النمط السادس : في الغايات ومبادئها وفي الترتيب :

بدأ المؤلف بتوضيح أن غاية الشيء ما إليه يتحرك ، ومتى وصل إليه وقف ، أما المبدأ فهو المؤثر . ثم بين أن هذا النمط يشتمل على ثلاث مسائل : الأولى : في أن كل من فعل بالقصد والاختيار فإنه لا بد وأن يكون مستكملًا . والثانية : في الطرق الدالة على إثبات العقول المجردة والثالثة : في بيان كيفية ترتيب الوجود . ويرتبط مضمون هذا الجزء السابق ببعض المفاهيم السيكولوجية ؛ هي : المقصد السلوكي Intention (ص ٣٦ - ٥٦) ، والرغبة Desire (ص ٣٦ - ٥٦) والانفعالات (٣٦ - ٥٦) ، وبنية الجسم (ص ٣٦ - ٥٦) ، والعقل (ص ٣٦ - ٥٦) ، والعلية (ص ٣٦ - ٥٦) .

النمط السابع : في التجريد :

وفيه ثمان مسائل : الأولى : في كيفية مراتب الموجودات . والثانية : في أن النفس الناطقة غنية في ذاتها وفي تعقلاتها عن هذا البدل . والثالثة : في الاتحاد وتعاريفه والرابعة : في أحكام العقلات وأحكامها . والخامسة : في كيفية علم اللّٰه بذاته وبالكليات . والسادسة : في كيفية علم اللّٰه تعالى بالجزئيات . والسابعة : في شرح عنايته تعالى . والثامنة : في كيفية دخول الشر في القضاء الإلهي . ويرتبط مضمون الجزء السابق ببعض المفاهيم السيكولوجية ؛ هي : التجريد Abstraction (ص ٥٦ - ٨٥) ، النفس (ص ٥٦ - ٨٥) ، وبنية الجسم (ص ٥٦ - ٨٥) ، والصور العقلية (ص ٥٦ - ٨٥) ، والعقل (ص ٥٦ - ٨٥) ، والانفعالات (ص ٥٦ - ٨٥) ، والاعتقادات الخاطئة (ص ٨٢) .

النمط الثامن : في البهجة والسعادة :

وفيه مجموعة من المسائل ؛ الأولى : في أن اللذات الباطنة أقوى وأشرف من اللذات الحسية . والثانية : في بيان ماهية اللذة . والثالثة : في إثبات اللذة العقلية . والرابعة : في كيفية مراتب الموجودات المجردة في الابتهاج واللذة . ويرتبط مضمون الجزء السابق ببعض المفاهيم السيكولوجية ، هي : الانفعالات (الابتهاج والسرور ... إلخ) ، (ص ٨٦ - ١٠٠) ، والنفس (ص ٨٦ - ١٠٠) ، الإدراك الحسي (ص ٨٦ - ١٠٠) ، وبنية الجسم (ص ٨٦ - ١٠٠) ، والعلاقة بين النفس والجسم (ص ٨٦ - ١٠٠) ، واللذة (ص ٨٦ - ١٠٠) ، والمحبة Liking (ص ٩٩ ، ١٠٠) .

النمط التاسع : في مقامات العارفين :

وهو مرتب على ثلاثة أقسام ؛ القسم الأول : في كليات هذا الباب ، ويشتمل على خمس مسائل ؛ هي : الأولى : في بيان فضيلة العارفين على الإجمالي . والثانية : في بيان ماهية الزاهد ، والعابد ، والعارف . والثالثة : في غرض العارف من الزهد والعبادة . والرابعة : في أنه لا بد من وجود النبي . والخامسة : في أن العارف يريد اللّٰه للّٰه تعالى لا لشيء غيره . أما القسم الثاني ، فهو في كيفية درجات العارفين . بينما يتناول القسم الثالث : شرح أحوالهم . ويرتبط مضمون الجزء السابق ببعض المفاهيم السيكولوجية ؛ هي : العقل (ص ١٠٠ - ١٢٤) ، والإدراك الحسي (ص ١٠٠ - ١٢٤) .

النمط العاشر : في أسرار الآيات :

والغرض من هذا النمط هو ذكر أسباب الخوارق في أمور أربعة هي المسائل التي يتكون منها هذا النمط :

فالمسألة الأولى : في سبب التمكن من ترك الغذاء مدة مديدة . والثانية : في سبب التمكن من الأفعال الشاقة . والثالثة : في سبب التمكن من الإخبار عن الغيوب . والرابعة : في سبب التمكن من التصرف في العناصر . ويرتبط مضمون هذا الجزء ببعض المفاهيم السيكولوجية ؛ هي : الانفعالات Emotions (ص ١٢٤ - ١٤٦) ، والنفس (ص ١٢٤ - ١٤٦) ، والعقل (ص ١٢٤ - ١٤٦) ، والرغبة (ص ١٢٤ - ١٤٦) .

* * *

عجائب القرآن [1]

عرض : د. جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٧٦ صفحة من القطع المتوسط ، ويضم سبعة فصول وفهرسًا لموضوعات الكتاب .

والفصل الأول من الكتاب عن : أسرار كلمة لا إله إلا اللَّه . قال اللَّه ﷻ : ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ ﴾ [محمد : ١٩] ، وقد قدم اللَّه تعالى الأمر بمعرفة التوحيد على الأمر بالاستغفار ؛ لأن معرفة التوحيد إشارة إلى علم الأصول ، والاشتغال بالاستغفار إشارة إلى علم الفروع ، والأصل يجب تقدمه على الفرع (ص ٧) .

وهناك وجوه كثيرة لإثبات ذلك وتأكيده كلها مستمدة من آيات الذكر الحكيم (ص ٨ – ١٥) . ومن خلال الوجه الأول للبرهنة على ذلك يقدم المؤلف كلامًا حول نمو الإنسان وتطور خلقه قبل الولادة ثم بعدها حتى يصل إلى أشرف المراتب ، وهو كلام نجد له صدًى لدى المهتمين بعلم النفس الارتقائي (ص ٩) .

يرى المؤلف في ثنايا براهينه التي يقدمها أن الترتيب الحسن المفيد في التعليم : أن يقع الابتداء في التعليم من الأظهر مرتقيًا إلى الأخص فالأخص ؛ وذلك أنه ﷻ قال : ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ﴾ [البقرة : ٢١] فجعل استدلال كل عامل بنفسه مقدمًا على

(١) فخر الدين بن عمر بن الحسين الرازي . ط١ . بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٤م .

جميع الاستدلالات ؛ لأن اطلاع كل واحد على أحوال نفسه أتم من اطلاعه على أحوال غيره ، فسيجد بالضرورة من نفسه أنه يكون مريضًا ، وتارة يكون صحيحًا ، وتارة ملتذًا ، وتارة متألمًا ، وتارة شابًّا ، وتارة شيخًا .

ونجد في ذلك مقدمات مهمة لدى علماء النفس ؛ مثل : صياغة بعض مبادئ التعلم وتحقيقها في ميدان التعليم أو التربية Education كذلك صورة الذات معرفة الفرد بنفسه وأحواله (ص ١٠ ، ١١) .

الفصل الثاني من فصول الكتاب : في فوائد كلمة لا إله إلا اللّه ، ولها فضائل عديدة :

الفضيلة الأولى ؛ منها : أن هذا الذكر أفضل الأذكار ؛ لذا فزع إليه العدو لما جاءته المحنة (فرعون عند الغرق) والولي لما جاءته المحنة فزع إليه (يونس والحوت) (ص ٣٢) .

والفضيلة الثانية لهذه الكلمة : أن اللّه تعالى أمرنا بطاعات كثيرة ، من الصلاة والصيام والحج ويستحيل أن يوافقنا اللّه في شيء منها ثم أمرنا أن نقول : لا إله إلا اللّه ثم إن اللّه يوافقنا فيها فقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِالْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

وبالتالي كان لا بد لنا من المواظبة عليها طوال العمر ، حتى نفوز بالنجاة والسلامة (ص ٣٤ ، ٣٥) .

الفضيلة الثالثة لهذه الكلمة : أن كل طاعة يصعد بها الملك ، أما قول لا إله إلا اللّه فإنه يصعد بنفسه .

والفضيلة الرابعة : أن يوم القيامة يتجلى نور كلمة لا إله إلا اللّه فينمحق في ذلك النور نور الشمس والقمر ؛ لأن تلك الأنوار مجازية ونور لا إله إلا اللّه ذاتي واجب الوجود لذاته والمجاز يبطل في مقابلة الحقيقة (ص ٣٧) .

والفضيلة الخامسة : أن جميع الطاعات تزول يوم القيامة ؛ مثل : الصلاة ، والصيام ، والحج ، فإن التكاليف الظاهرة تزول في عالم الغيب ، أما طاعة التهليل والتحميد فلا تزول عنهم ، وكيف يمكن زوالها عنهم والقرآن يدل على أنهم مواظبون على الحمد ، والمواظبة على الحمد تدل على المواظبة على الذكر والتوحيد (ص ٣٨) .

والفضيلة السادسة : ما روي في الآثار أنه قال : إذا قال العبد : لا إله إلا اللّه فإنه تعالى يعطيه من الثواب بعدد كل كافر وكافرة على وجه الأرض (ص ٣٨) .

والفضيلة السابعة : أن اللّه لا يعذب في النار من قال : لا إله إلا اللّه (ص ٣٩) .

والفضيلة الثامنة : إذا كان آخر الزمان فليس لشيء من الطاعات فضل كفضل لا إله إلا الله (ص ٣٩) .

والفضيلة التاسعة : الأحاديث الكثيرة التي وردت في فضل هذه الكلمة .

الفصل الثالث : في أسماء كلمة التوحيد :

الأول : كلمة التوحيد تدل على نفي الشرك على الإطلاق ، وهي سبب لعمارة العالم وعمارة القلب الذي هو محل الوحدانية ، ولعمارة اللسان الذي هو محل ذكر الوحدانية ، وذلك يناسب عفو الله عن أهل التوحيد (ص ٤٤ ، ٤٥) ، والاسم الثاني : أن هذه الكلمة تسمى كلمة الإخلاص . ولا شك أن كل من أتى بفعل اختياري فلا بد له في ذلك الفعل من غرض ، فمتى كان الغرض في الفعل واحدًا سمى هذا الفعل إخلاصًا (ص ٤٥) .

ويتحدث المؤلف بعد ذلك وتحت هذا الاسم عن الباعث على الفعل ، ويرى أنه إما أن يكون روحانيًا فقط وهو الإخلاص ، أو شيطانيًا فقط وهو الرياء ، أو مركبًا منهما وهو ثلاثة أقسام : إما متساويان ، أو يكون الروحاني أقوى ، أو النفساني أقوى .

والحديث عن الباعث على الفعل يشابه حديث علماء النفس عن دوافع Motives أو حوافز السلوك Incentives وتمييزهم بينها ونظرياتهم فيها وذلك في علم النفس العام (ص ٤٦) .

الاسم الثالث لهذه الكلمة « كلمة الإحسان » ويدل على صحة هذه التسمية القرآن ، والخبر والمعقول ، ومن القرآن : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠] ، ومن الخبر ما رواه أبو موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦] للذين قالوا : لا إله إلا الله الحسنى وهي الجنة والزيادة وهي النظر إلى وجهه الكريم » . وأما المعقول فهو أنه كلما كان الفعل حسنًا كان فاعله أكثر إحسانًا ، ولا شك أن أحسن الأذكار لا إله إلا الله ، وأحسن المعارف لا إله إلا الله (ص ٤٨ - ٥٠) .

الاسم الرابع : دعوة الحق ، ودعوة الحق تارة تكون من الحق ، للخلق إلى الحق وتارة تكون من الخلق للخلق إلى الحق (ص ٥٠ ، ٥١) .

والاسم الخامس : « كلمة العدل » ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل: ٩٠] ويقدم المؤلف وجوهًا للتدليل على سبب هذه التسمية والأول منها : أن العدل في كل

شيء : تحصيل ما هو سبب اعتداله وكمال حاله . ومن المعلوم أن كمال القوى الحساسة في إدراك المحسوسات ، وكمال القوى الشهوانية في طلب الأشياء النافعة الجسمانية ، وكمال القوى الغضبية في دفع الأشياء الجسمانية المنافية ، وأما القوى العقلية وكمال حالها وغاية سعادتها ، فبأن ترسم فيها صور الحقائق وأشباه المعقولات كما هي حتى تصير القوى العقلية كالمرآة التي تتجلى فيها صور الوجود بتمامها .

ونرى فيما سبق من حديث التقسيم لقوى النفس ووظائفها ، وكلها مقابلات لما يدرس في علم النفس الآن كالإحساس Sensation والإدراك الحسي Sensory Perception ، والدوافع خاصة الدوافع الفطرية ، والانفعالات Emotions (خاصة انفعال الغضب) ، والذكاء والتفكير والعمليات المعرفية وكلها من موضوعات علم النفس العام (٥٢ ، ٥٣) .

والاسم السادس : « الطيب من القول » قال اللّه تعالى في سورة الحج : ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [الحج : ٢٤] ، وأي كلمة توجد أطهر وأطيب من هذه الكلمة ؟! (ص ٥٤) .

والاسم السابع : « الكلمة الطيبة » قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [إبراهيم : ٢٤] (ص ٥٥) .

والاسم الثامن : « القول الثابت » قال اللّه تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] (ص ٥٨) .

والاسم التاسع : « كلمة التقوى » (ص ٥٩) .

والاسم العاشر : « الكلمة الباقية » (ص ٦٠) ، والاسم الحادي عشر : « كلمة اللّه العليا » (ص ٦١) ، والاسم الثاني عشر : « المثل الأعلى » (ص ٨٢) ، والاسم الثالث عشر : « كلمة سواء » ، والاسم الرابع عشر : « كلمة النجاة » (ص ٦٣) ، والاسم الخامس عشر : « العهد » (ص ٦٥) ، والاسم السادس عشر : « كلمة الاستقامة » (ص ٦٧) ، والاسم السابع عشر : « مقاليد السماء والأرض » (ص ٦٨) ، والاسم الثامن عشر : « السديد » والاسم التاسع عشر : « البر » (ص ٦٣) ، والاسم العشرون : « الدين » ، والاسم الحادي والعشرون : « الصراط » (ص ٧٠) ، والاسم الثاني والعشرون : « كلمة الحق » ، والاسم الثالث والعشرون : « العروة الوثقى » (ص ٧١) ، والاسم الرابع والعشرون : « كلمة الصدق » (ص ٧٢) . فهذا جملة الكلام في لا إله إلا اللّه .

الفصل الرابع في الأشياء التي شبه اللّٰه تعالى بها كلمة التوحيد :

والأول : هو النار فاللّٰه تعالى شبه الإيمان بالنار : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ [البقرة : ١٧] .

والثاني : النور ، فاللّٰه شبه الإيمان بالنور فقال تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ [النور : ٣٥] وعلى ذلك أدلة كثيرة من آيات الذكر الحكيم (ص ٧٣) . ويستمر المؤلف بعد ذلك في تفسير هذه الآية والمقارنة بين الشمس وبين المعرفة ، ويقدم لذلك وجوهًا كثيرة (ص ٧٤ - ٨٢) .

والنوع الثالث : التراب : فمن الأمور التي شبه اللّٰه تعالى الإيمان بها « التراب » قال تعالى : ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ [الأعراف : ٥٨] ، ووجه المشابهة أن التراب ذو أمانة ، من أودع فيه شيئًا سلم إليه أضعافًا ، وكذا المؤمن إذا عمل عملًا سلم إليه أضعاف ذلك العمل يوم القيامة (ص ٨٢ - ٨٣) .

والنوع الرابع : الماء : من الأشياء التي شبه اللّٰه تعالى بها الإيمان والقرآن : الماء فقال تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد : ١٧] .

وإذا كان الماء يزيل النجاسة عن الثوب ، فكذلك الإيمان يزيل نجاسة الفكر ، وإذا كان اللّٰه سمى الماء المنزل من السماء رحمة ، فقد سمى القرآن رحمة ، والماء مباركًا ، والقرآن مباركًا . وإذا كان الماء شفاءً للنفوس فالقرآن شفاء للقلوب (ص ٨٣ - ٨٦) .

والنوع الخامس : الحبل : من الأشياء التي شبه اللّٰه بها الإيمان الحبل قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] وهناك وجوه للمشابهة ؛ منها : أن التمسك بالحبل يحمي من الانزلاق لمن يريد الصعود إلى أعلى وكذلك الإيمان (ص ٨٦ ، ٨٧) .

والنوع السادس : شجرة الزيتون ، قال تعالى : ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٢٠] ؛ وذلك لأن هذه الشجرة تنبت في الأمكنة المطهرة وكذلك المعرفة لا تستقر إلا في القلوب المطهرة (ص ٨٧) .

ويختم المؤلف هذا الفصل بحديث عن تكريم المؤمنين ، ويذكر أن اللّٰه وعد المؤمنين بعشر كرامات ؛ وهي : المغفرة ، والأمن ، والهداية ، والزيادة ، والفلاح ، والثبات ، والشفاعة ، وإصلاح الأعمال ، والبشرى ، وكلام اللّٰه تعالى ، ورؤيته يوم القيامة (ص ٨٧ ، ٨٨) .

والفصل الخامس : في شرح المباحث المتعلقة بكلمة لا إله إلا اللّه ، وهي وجوه :

ويبدأ المؤلف في تقسيم كلامه هنا إلى بحوث ، ويناقش في البحث الأول : الخلاف مع النحويين حول كلمة لا إله إلا اللّه ويفند ادعاءاتهم ، ويبدأ بتفنيد قولهم بوجود حذف وإضمار في لا إله إلا اللّه .

والبحث الثاني : في قولهم : إن قولنا لا إله إلا اللّه ارتفع ؛ لأنه بدل من موضع « لا » مع الاسم .

والبحث الثالث : في اتفاق النحويين على أن محل « إلا » في هذه الكلمة محل « غير » أي لا إله غير اللّه .

وفي البحث الرابع : يناقش قول جماعة من الأصوليين : الاستثناء من النفي لا يكون إثباتًا . ويستمر في مناقشة هذه القضايا النحوية الجدلية في البحوث الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر (ص ٨٩ - ١٠٠) .

والفصل السادس : في فضل المؤمن ، فاللّه سمى المؤمنين ثالث نفسه في عشرة مواضع :

والمقام الأول : وهو في المراقبة ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] (ص ١٠١) ، والمقام الثاني : الولاية ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [المائدة : ٥٥] . والمقام الثالث : الموالاة ، قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التحريم : ٤] . والمقام الرابع : الصلاة ، قال اللّه تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] . فجعل المؤمنين ثالث نفسه في الصلاة على الرسول عليه الصلاة والسلام (ص ١٠٥) . والمقام الخامس : العزة ، قال اللّه تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] (ص ١٠٦) . والمقام السادس : الطاعة ، قال اللّه تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] (ص ١٠٨) . والمقام السابع : المشاقة ، قال اللّه تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : ١١٥] (ص ١٠٨) . والمقام الثامن : في الأذى ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ۝٥٧ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا

ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾ [الأحزاب : ٥٧ ، ٥٨] فالله نهى عن إيذاء المؤمنين كما نهى عن إيذاء رسوله ﷺ (ص ١٠٩) . والمقام التاسع : الالتجاء ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ ﴾ [التوبة : ١٦] (ص ١١٠) . والمقام العاشر : في الشهادة على التوحيد (ص ١١١) .

والفصل السابع : في الأحكام الفقهية المتفرعة على قولنا : لا إله إلا الله .

فالإيمان لا بد له من أمرين ؛ أحدهما : هو أن الأصل حصول المعرفة بالقلب ، وثانيهما : الإقرار باللسان وبالتوحيد . وللإيمان أحكام بعضها يتعلق بالباطن وبعضها بالظاهر ، وما يتعلق بالباطن هو أحكام الآخرة ، وذلك متفرع عن العلم الذي هو باطن عن الخلق ، وما يتعلق بالظاهر هو أحكام الدنيا (ص ١١٦) .

وبعد أن فرغ المؤلف من الفصل السابع ، وهو فصل قصير ، بدأ في التعرض لبعض الموضوعات المتفرقة ، أحيانًا يبدأها بكلمة فصل دون عنوان ، وأحيانًا يضع للفصل عنوانًا . وأحيانًا ثالثة يتعرض لبعض الموضوعات دون أن يسبقها بكلمة فصل أو باب . وأحد هذه الفصول ، يدور حول حديث الرسول ﷺ القائل : « **ما من نفس تموت فتشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، يرجع ذلك إلى قلب مؤمن ، إلا غفر الله له** » (ص ١٢٠) . وقوله عليه الصلاة والسلام : « **من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، مخلصًا بها روحه ، مصدقًا بها قلبه ولسانه ، فتقت له السموات فتقًا ، حتى ينظر الرب إلى قائلها من أهل الدنيا** » (ص ١٢١) .

وفصل آخر يدور حول قول جعفر بن محمد الصادق : عجبت لمن ابتلي بأربع كيف يغفل عن أربع : عجبت لمن أعجب بأمر كيف لا يقول : ﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ [الكهف : ٣٩] ، وعجبت لمن خاف قومًا كيف لا يقول : ﴿ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣] ، وعجبت لمن مُكِر به كيف لا يقول : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [غافر : ٤٤] ، وعجبت لمن أصابه هم أو كرب لا يقول : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] (ص ١٢٣) .

ونجد هنا إشارات إلى ما يمكن – إذا استخدمناه – أن يعين في تحقيق الصحة النفسية Mental Health وتحقيق التوافق النفسي Adjustment والتخلص من المشقة Stress ألا وهو الاستعانة بالقرآن والحديث في علاج الهموم وكشف الكروب .

فصل ثالث في أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة الله تعالى ، ولما كان كل ما تتصور

النفس فاللَّه بخلافه ، فلم يتمكن العقل والنفس من الإشارة إلى حقيقة معلومة بأن حقيقة الإله هي هذه الحقيقة .

ويروى عن سهل بن عبد اللَّه أنه سئل عن ذات اللَّه تعالى فقال : ذات اللَّه موصوفة بالعلم ، غير مدركة بالإحاطة ، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه بآياته ، والقلوب تعرفه ، والعقول لا تدركه ، ينظر إليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطة ، ولا إدراك نهاية (ص ١٢٤) .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن طلب الآخرة ، وترك التزيد من الدنيا فيحثنا على التعهد بأسباب الآخرة ، وتعريض القلب لذلك ، وصيانته من أسباب الدنيا ، ومن ذكر يجر إلى الحرص والرغبة . ومخرج الحرص والرغبة من الطمع ، وبناء الأنفس على قواعد الطمع . أما الطمع في الدنيا فيستعمل أداة الطمع في طلب الزيادة من أعمال الآخرين بالحرص عليها والرغبة فيها (ص ١٢٧) . وقال حكيم : إن آلة الطمع وجماع آفاته الشره والحرص ، وهيجان الرغبة ، فعلى أيها أوقعت طمعها أحضرت ذاتها وجمعت آلتها ، وجدت في طلبها ، فإذا قهرت صاحبها على موافقة هواها استعبدته ، فأذهلته ، وأذلته ، وأدهشته ، وأتعبته ، وطيشت عقله ، ودنست عرضه ، وأخلقت مروءته ، وفتنته عن دينه ، وإن كان عالمًا لبيبًا عاملًا كيسًا فطنًا مضحيًا حكيمًا فقيهًا لوثته وأسقطته ، وفضحته ، فاحتمل لها ذلك كله وهو الأريب العالم الأديب ، فصيرته بعد العلم جاهلًا سفيهًا أحمق خفيفًا (ص ١٢٨) .

ونلمح من حديثه عن الطمع ، مشابهًا لبعض ما يتحدث عنه علماء النفس المحدثون ؛ حيث يشيرون إلى الطمع أو الرجاء باعتبارهما من التنبيهات العقلية أو الذهنية أو النفسية Psychic or Mental or Intellectual Stimuli وهي تنبيهات داخلية ، وهو ما يدرس في علم النفس العام ، كما يشير هذا الحديث عن الحاجات ، أو الرغبات ، أو الشهوات ، وقهرها إلى حديث علماء النفس المحدثين عن الدوافع والحاجات وإشباعها وهو ما يدرسه الباحثون في علم النفس العام أيضًا (ص ١٢٧ - ١٢٩) .

والموضع الثاني الذي يتطرق إليه المؤلف هو الخوف ، والحزن ، وينصح بشغل القلب بالهم ، وإلزامه الفكر في أمر المعاد ؛ لأن خراب القلب إنما يكون من الخوف اللازم والحزن الدائم ، وعلى أي حال فالخوف والحزن من الانفعالات Emotions التي أولاها علماء النفس عنايتهم فدرسوها دراسة علمية للإحاطة بكافة جوانبها (ص ١٣٠ - ١٣١) .

وينتقل بنا المؤلف بعد ذلك لموضوع آخر ، وهو مراقبة القلب ؛ حيث يروي عن بعض الحكماء أنه قال : إن من أشرف المقامات وأفضلها المراقبة لله ، ومن أحسن المراقبة أن يكون العبد مراقبًا بالشكر للنعم والاعتراف بالإساءة ، والتعرض للعفو عن إساءته ، فيكون قلبه لازمًا لهذا المقام في كل أعماله ، فمتى ما غفل ، رده إلى هذا بإذن الله .

ومن أعمال القلوب التي يزكو بها ، ولا يستغنى عنها ؛ الإخلاص ، والثقة ، والشكر والتواضع ، والاستسلام ، والنصيحة ، والحب في الله تعالى ، والبغض فيه ، وهذه الخصال الطيبة من خصال الشخصية التي كانت موضوع عناية علماء النفس باعتبارها سمات Traits إيجابية ، ومن ناحية أخرى باعتبارها من السمات التي تحدد اختيار الأصدقاء . وموضوع الصداقة وسمات الأصدقاء من موضوعات علم النفس الاجتماعي ، ومن ناحية ثالثة بها إشارة إلى موضوع الحب وهو من بين الانفعالات التي يعنى بها علماء النفس (ص ١٣٢) .

ويعطف على ذلك موضوعًا آخر هو : العدل والفضل ، والعدل عدلان : عدل ظاهر فيما بينك وبين الناس ، وعدل باطن فيما بينك وبين الله ، وطريق العدل : الاستقامة ، وطريق الفضل : طلب الزيادة (ص ١٣٦) .

وينتقل بنا بعد ذلك إلى الحديث عن التطهير والعمل ، والتطهير هو الانتقال عن الشر إلى الأساس الذي يبنى عليه الخير (ص ١٢٩) ، ومن الخصال التي يطلب منها الخير هي الصواب والصدق ، والشكر ، والرجاء (ص ١٤٠ - ١٤٢) . والرجاء - كما سبقت الإشارة - أحد أنواع التنبيهات النفسية التي تنتمي إلى التنبيهات الداخلية كما Internal Stimuli يدرسها علماء النفس المحدثون ، وأخيرًا الخوف (ص ١٤٣) .

ويزلف المؤلف بنا للحديث عن البلوى والاختبار والدنيا كلها ، كثيرها وقليلها ، حُلوها ومُرها ، أولها وآخرها وكل شيء من أمرها : بلوى من الله تعالى للعبد واختبار ، وبلواها وإن كثرت وتشعبت واختلفت ، فهو كله مجموع في خلتين : في الشكر والصبر . فإما أن يشكر على نعمه ، أو يصبر على مصيبته (ص ١٤٤ ، ١٤٥) . والبلاء والأحداث الشاقة يمكن أن تدرج فيما يدرسه علماء النفس المحدثون تحت اسم مثيرات المشقة Stressors وأحداث الحياة Life Events وعلاقتها بكثير من المتغيرات النفسية .

وفي نهاية هذا الكتاب يعالج المؤلف ثلاثة موضوعات باختصار ؛ هي : التوبة ، وحسن الظن بالنفس (وربما يقابل حسن الظن بالنفس عند علماء النفس الثقة بالنفس Self Confidence

وهو من مكونات صورة الفرد عن ذاته Self Image (ص ١٥٥ - ١٥٩) ، وينتقل إلى المدح والذم ، ثم يختتم كتابه باليقين والعزة ، واليقين يكون عند العمل والصدق فيه ومشاهدة الثواب والعقاب . ومفهوم الثواب (أو التدعيم والمكافأة) والعقاب من المفاهيم التي شاع استخدامها في علم النفس خاصة في موضوع التعلم Learning ونظرياته المختلفة (ص ١٦٧) . وحب العز أصل ومنه مخرج حب الرئاسة والجاه عند الناس (حب الرئاسة أو السيطرة من الدوافع الثانوية التي يهتم بها علماء النفس ص ١٦٧) ؛ ومنه : الكبر ، والفخر ، ومنه الغضب ، والحسد ، ومنه الحقد والحمية ، والعصبية .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس العام .

* * *

المقدسي ، ابن قدامة (ت ٦٢٠هـ)
كتاب التوابين (١)

عرض : د. الحسين محمد عبد المنعم

التعريف بالمؤلف :

هو الشيخ الإمام القدوة العلامة المجتهد شيخ الإسلام موفق الدين أبو محمد عبد اللّٰه ابن أحمد بن محمد بن أحمد بن قدامة بن مقدام بن نصر المقدسي الجماعيلى ثم الدمشقي الصالحي الحنبلي صاحب « المغني » ، مولده بجماعيل من عمل نابلس سنة إحدى وأربعين وخمسمائة في شعبان .

هاجر مع أهل بيته وأقاربه ، وله عشر سنين ، وحفظ القرآن ، ولزم الاشتغال منذ صغره ، وكتب الخط المليح ، وكان من بحور العلم وأذكياء العالم . ورحل هو وابن خالته الحافظ عبد الغني في أول سنة إحدى وستين في طلب العلم إلى بغداد فأدركا نحو أربعين يومًا من حياة الشيخ عبد القادر ، فنزلا عنده بالمدرسة ، واشتغلا عليه تلك الأيام ، وسمعا منه ومن وهبة اللّٰه بن الحسن الدقاق ، وأبي الفتح بن البطي ، وأبي زرعة ابن طاهر ، وأحمد بن المقرب ، وعلي بن تاج القراء ومعمر بن فاخر ، وأحمد بن محمد الرحبي ، وحيدرة بن عمر العلوي وغيرهم . وسمع بدمشق من أبي المكارم بن هلال ، وعدة ، وبالموصل من خطيبها أبي الفضل الطوسي . وبمكة من المبارك بن الطباخ ، وتوفي سنة عشرين وستمائة .

ومن مصنفاته « المغني » عشر مجلدات و « الكافي » أربعة ، و « المقنع » مجلدًا ،

(١) حقق نصوصه وعلق عليه عبد القادر الأرناؤوط – ط٣ بيروت : دار الإيمان ، دار البيان ؛ ١٩٨٦م (ص ٣٣٥) .

و « العمدة » ، و « القنعة » و « الروضة » ، و « التوابين » ، و « نسب قريش » ، و « نسب الأنصار » ، و « مختصر الهداية » ، و « القدر » ، و « مسألة العلو » ، و « المتحابين » ، و « الاعتقاد » ، و « البرهان » ، و « ذم التأويل » ، و « فضائل الصحابة » ، وغيرها . ومن مصادر ترجمته « سير أعلام النبلاء » ، و « معجم البلدان » ، و « التقييد » ، لابن نقطة و « مرآة الزمان » ، و « تكملة » المنذري ، و « ذيل الروضتين » لأبي شامة ، و « تاريخ الإسلام » للذهبي ، وغيرها .

عرض الكتاب :

يستعرض المؤلف في الكتاب أخبار التائبين ، وقصص المنيبين ممن كانوا في مختلف العصور القديمة والحديثة ، من عهد آدم عليه السلام إلى أوائل القرن السابع الهجري الذي كان فيه المؤلف رحمه الله . وافتتحه المؤلف :

١ - بذكر توبة الملائكة عليهم السلام :

وسرد قصة هاروت وماروت على أنهما ملكان ، وهي ترتبط بموضوع تعاطي المسكرات Alcoholism وآثارها السيئة على القدرات العقلية (ص ١٩ - ٢٣) .

٢ - ذكر التوابين من الأنبياء عليهم السلام :

وتتضمن توبة آدم ، وتوبة نوح ، وتوبة موسى ، وتوبة داوود ، وتوبة سليمان ، وتوبة يونس عليهم السلام .

٣ - ذكر التوابين من ملوك الأمم الماضية :

وتتضمن توبة طالوت ، وابن ملك من ملوك بني إسرائيل ، وتوبة صاحب الخورنق ، وتوبة النعمان بن امرئ القيس الأكبر ، وامرئ القيس ، وملك من ملوك اليمن ، وملك من ملوك بني إسرائيل ، وتوبة رجل من بني إسرائيل كان يعبد الأصنام ، وتوبة الملك كنعان عن ظلمه وطغيانه .

٤ - ذكر التوابين من الأمم :

وتتضمن توبة قوم موسى عليه السلام ، وقوم يونس عليه السلام .

٥ - ذكر التوابين من آحاد الأمم الماضية :

وتشتمل على توبة أصحاب الفساد ، وتوبة الكفل من بني إسرائيل عن ذنوبه وأخطائه ، وتوبة العابد والمرأة البغي ، وتوبة راهب من بني إسرائيل ، وتوبة ذي الرجل ،

وتوبة برج العابد ، وتوبة العبد العاصي ، وتوبة شاب مسرف على نفسه ، وتوبة الخارج من القرية الطاغية ، وتوبة من قتل مائة نفس ، وتوبة لص من بني إسرائيل ، وتوبة ثلاث بنات من البغايا .

٦ - أخبار التائبين من أصحاب رسول اللّٰه ﷺ :

ومنهم توبة كعب بن مالك ﷺ ، وتوبة أبي حبشمة ، وتوبة أبي لبابة ﷺ ، وتوبة أبي هريرة عن فتواه في امرأة زانية ، وتوبة ثعلبة بن عبد الرحمن ، وتوبة مالك الرؤاس ، وتوبة أبي سفيان بن الحارث ، وتوبة عبد اللّٰه الزبعري الشاعر ، وتوبة هبار بن الأسود ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام ، وأبي حجمة الثقفي ، وطلحة بن خويلد .

٧ - ذكر التوابين من ملوك الأمة :

ومنها التلاع ، توبة أمير وتاجر ، وتوبة ملك من ملوك البصرة وجاريته ، وتوبة أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان ، وهشام بن عبد الملك ، وتوبة الأمير حميد بن جابر ، وإبراهيم ابن أدهم ، وتوبة شقيق البلخي ، وعبد اللّٰه بن مرزوق ، وجعفر بن حرب ، وهارون الرشيد ، وابن هارون الرشيد ، وتوبة المأمون ، وموسى بن محمد بن سليمان الهاشمي ، وجعفر البرمكي ، وتوبة جارية من بنات الكبار على يد أبي شعيب الرائي ، وتوبة الواثق باللّٰه .

٨ - ذكر سبب توبة جماعة من الأمة رحمة اللّٰه عليهم :

وتتضمن توبة مالك بن دينار عن تعاطي المسكرات ، وهي ترتبط بموضوع تعاطي المخدرات وآثارها السيئة من هلاوس Hallucinations سمعية أو بصرية (ص ٢١٨ - ٢٢٠) وتوبة داوود الطائي ، والفضيل بن عياض ، وعلي بن الفضيل بن عياض ، وبشر ابن الحارث الحافي ، وتوبة تاجر من تجار بغداد من الوقيعة في الناس ، وتوبة أبي عبد ربه ، وتوبة العفي عن تعاطي النبيذ ، وهي ترتبط بتعاطي المسكرات (ص ٢٣٥ - ٢٣٧) ، وتوبة عكبر الكردي ، وتوبة صدقة بن سليمان الجعفري ، وتوبة ذي النون المصري عن اللعب واللهو ، وتوبة سكران ، وتوبة المرتعش ، وتوبة عبد الرحمن العش ، وتوبة أبي الحارث الألوسي ، وتوبة أبي الفضل محمد بن ناصر السلامي عن اعتقاد المبتدعة ، وتوبة أبي الحسن الهرفاني عن مذهب المتكلمين .

٩ - أخبار جماعة من التوابين :

وتشتمل على توبة مازل بن لاحق ، وتوبة امرأة من دومة الجندل عن عمل السحر ،

وتوبة شاب عن اللهو واللعب ، وتوبة شاب من الانهماك في الدنيا ، و توبة جندي عن الغناء والملاهي ، وتوبة رجل من أعوان السلطان عن الفواحش ، وتوبة امرأة وهي تطوف حول الكعبة ، وتوبة ملهي أهل المدينة عن اللهو على يد والدته ، وتوبة دينار العيار عن المعاصي ، وتوبة رجل عن حب مغنية شغلته عن اللّه ، وتوبة شاب وامرأته على يد سرى السقطي ، وتوبة امرأة بارعة الجمال أرادت أن تفتن الربيع بن خيثم ، وتوبة جار لأحمد ابن حنبل ، وتوبة أبي عمر بن علوان عن نظره إلى امرأة ، وتوبة فتى شاب وجارية جميلة أحب كل منهما الآخر ، ويقترب ذلك من الحديث عن موضوع الجاذبية الاجتماعية Social Attractiveness (ص ٢٨١ - ٢٨٤) وتوبة رجل عن الشراب والعود بسماع آيات من القرآن ، وترتبط بموضوع تعاطي المسكرات (ص ٢٨٤ - ٢٨٦) وتوبة شيخ مهلبي وجاريته عن الشراب والضرب بالعود ، وتوبة أعرابي لسماع آية من القرآن ، وتوبة لبيب العابد عن قتل الحياة ، وتوبة المعتصم ورجوعه عن قتل تميم ابن حميل ، وتوبة يوسف بن أسباط على يد شاب كان يعمل نباشًا ، وتوبة نباشين عن نبش القبور ، وتوبة شاب مسرف على نفسه على يد إبراهيم بن أدهم ، وتوبة عاصي في جوف الليل وموته لسماع آية من القرآن فيها ذكر النار ، وتوبة امرأة عن الغناء ، وتوبة مولاها على يدها .

١٠ - ذكر خبر جماعة من أسلم :

ومنها توبة أبي إسماعيل النصراني وإسلامه ، وتوبة شاب نصراني وإسلامه ، وتوبة عابد صنم وإسلامه ، وتوبة مجوسي وإسلامه ، وتوبة طبيب نصراني وإسلامه .

ويرتبط موضوع هذا الكتاب بصفة عامة ، بموضوع الشعور بالذنب وما يسببه من قلق وآلام نفسية وخوف من عذاب اللّه تعالى ، ويوضح أسلوب العلاج لهذا الشعور بالذنب عن طريق التوبة إلى اللّه تعالى .

* * *

ذم الموسوسين [1]

عرض : د. معتز سيد عبد الله

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٤٨ صفحة من القطع المتوسط ، ويتكون من ستة فصول مضمونها حول ما يقوم به الشيطان من وسوسة للإنسان في كل جوانب حياته ، بشكل يجعله يبتعد عن الصراط المستقيم ؛ لذلك حذرنا الله ﷻ ، ورسوله الكريم من اتباعه ، وأمرنا بمخالفته وعداوته ، واتباع ما جاء بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وينهي المحقق الكتاب بتقديم فهرس للآيات القرآنية التي وردت في المتن ، وفهرس ثانٍ للأحاديث المرفوعة وفهرس ثالث للآثار الموقوفة ، وفهرس رابع وأخير لموضوعات الكتاب . وهو ما نعرض له على النحو التالي :

الفصل الأول : في النية في الطهارة والصلاة :

ويتلخص في أن الموسوسين يتشككون دائمًا في نيتهم ، سواء عند قيامهم للوضوء أو للصلاة بشكل يجعلهم يتبعون الشيطان ، ويتركون الصراط المستقيم ، فالنية : هي القصد والعزم على فعل الشيء ، ومحلها القلب ، لا تعلق لها باللسان ، كذلك لم ينقل عن النبي ﷺ ولا أصحابه في النية لفظ بحال ، ولا سمعنا عنهم ذكر ذلك ؛ فكل عازم على شيء فهو ناويه ، وكل قاصد لشيء فهو ناويه ، لا يتصور انفكاك ذلك ؛ لأنه

---

(١) تحقيق أبي الأشبال الزهيري حسن بن آل مندوه . ط١ – القاهرة : الفاروق الحديثة ، مكتبة التوعية الإسلامية (١٩٨٦م) .

حقيقتها ، فلا يتصور عدمها في حال وجودها .

ومن قعد ليتوضأ ، فقد نوى الوضوء ، ومن قام ليصلي فقد نوى الصلاة . ولا يكاد العاقل يفعل شيئًا من عباداته ولا غيرها دون نية .

ومن المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الفصل النية أو المقصد (١٥ - ١٨) Intention ، والوساوس (١٥ - ١٨) Obsessions والتشكك (١٥ - ١٨) Suspiciousness ، والمرض العقلي (الذهان) (١٥ - ١٨) Psychosis .

الفصل الثاني : في ترديد كلمات من الفاتحة أو التشهد أو التكبير ، أو تكرير حرف ، أو الجمع بين قراءتين ونحو ذلك :

ويتلخص في أن أحد مظاهر الوسوسة التي يعتقد الموسوسون في جدواها وضرورتها هي التوسوس في ترديد وتكرير الحروف والكلمات ؛ مثل : تكرير بعض الكلمات كقولك في التحيات أت أت التحى ، وفي السلام أس أس السلام . ومثل تكرير الحرف في الكلمة بحيث يخرجها عن موضوعها كقوله في التكبير : أكبر وفي إياك : إياكك . فهذا تكرير الكلمات غير ما في القراءة ، وإخراج اللفظ عن موضعه من غير ضرورة . فالظاهر بطلان الصلاة به .

فقد أفضت طاعة الشيطان إلى فساد صلاته ، واللكنة والعي . وربما كان إمامًا فأفسد صلاة المأمومين ، وصار إثمهم في عنقه ، وصارت الصلاة التي هي أقرب الطاعات ، أكثر تبعيدًا له من اللَّه تعالى من الكبائر . وما كان من ذلك لا يبطل الصلاة فهو مكروه .

ومن المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الفصل الوساوس (١٩) Obsessions ، والترديد اللاإرادي للكلمات (١٩) Echolalia والقابلية لتشتت الانتباه (١٩) Distractibility .

الفصل الثالث : في الإسراف في ماء الوضوء والغسل :

ويتلخص في اعتقاد الموسوسين في ضرورة الإكثار من استخدام الماء ، سواء في الوضوء أو الغسل بصورة مبالغ فيها تصل في كثير من الأحيان إلى إعادة الوضوء والغسل مرارًا وتكرارًا ، لتشككهم في عدم إزالة الجنابة ، وهذا نهى رسول اللَّه ﷺ عنه ، فقد روى الترمذي عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « **إن للوضوء شيطانًا يقال له الولهان فاتقوا وسواس الماء** » . وهذه سنة النبي ﷺ وأصحابه والأئمة بعدهم ؛ فما في العدول عنهم فضل ، ولا لذي دين عنهم رغبة ، فإنهم كانوا على الصراط المستقيم ،

فمن أراد النجاة فليتبعهم يسعد ، ولا يفارق طريقتهم يتعد .

ومن المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الفصل التشكك (٢٠ - ٢٣) Suspiciousnes والوساوس (٢٠ - ٢٣) Obsessions ، والقوالب النمطية (٢٠ - ٢٣) Stereotypes والتصورات الخاطئة Misconceptions من (٢٠ - ٢٣) .

الفصل الرابع : في الزيادات على الغسلات الثلاث :

ويتخلص في اعتقاد الموسوسين أن الغسلات الثلاث لا تكفي للطهارة والنظافة ، ومن ثم يفضل أن يزيد الشخص عنها كيفما يشاء ، حتى يتأكد من وصوله إلى مستوى الطهارة والنظافة الذي يرضيه ؛ وقد نهانا رسول الله ﷺ عن ذلك ، فقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلًا أتي النبي ﷺ فقال : يا رسول الله كيف الطهور ؟ فوصف له الطهور ثلاثًا ثلاثًا إلى أن قال : « **هكذا الوضوء فما زاد على هذا فقد أساء وظلم** » . وتسمية رسول الله ﷺ الزائد على الثلاث مسيئًا ظالمًا يلزم أن لا يكون ممن أحسن وضوءه ، فلا يدخل في من له ثواب من أحسن وضوءه . وهو خليق ألا ينال بركة الوضوء ؛ لغلوه في الدين ومخالفته سنة سيد المرسلين .

ومن المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الفصل التشكك (٢٤ - ٢٦) Suspiciousnes والوساوس (٢٤ - ٢٦) Obsessions والقوالب النمطية (٢٤ - ٢٦) Stereotypes والنموذج الاجتماعي (٢٤ - ٢٦) Social Model والتصورات الخاطئة (٢٤ - ٢٦) Misconceptions .

الفصل الخامس : في الوسوسة من انتقاض الوضوء بخروج خارج منه :

ويتلخص في اعتقاد الموسوسين في انتقاض الوضوء بخروج أي خارج منه ، وهنا روى أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « **إذا كان أحدكم في المسجد فوجد ريحًا بين أليتيه فلا ينصرف حتى يسمع صوتًا أو يجد ريحًا** » .

وأكثر الفقهاء على أن من كان على طهارة فشك هل أحدث أو لا ، فهو على يقين الطهارة - وإن غلب على ظنه الحدث - وأنه لا يزول عن يقين إلا بيقين .

ومن المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الفصل التشكك (٢٧ ، ٢٨) Suspiciousness والوساوس (٢٧ - ٢٨) Obsessions والقوالب النمطية (٢٧ - ٢٨) Stereotypes والتصورات الخاطئة (٢٧ ، ٢٨) Misconceptions .

الفصل السادس : في أشياء سهّل الشرع فيها ، وشدد هؤلاء فيها :

ويتلخص في تشديد الموسوسين لبعض الأشياء التي سهل الشرع فيها : ومن ذلك المشي حافيًا والصلاة من غير غسل قدميه . ومن ذلك الصلاة في الخفين والنعلين . ومن ذلك أن النبي ﷺ كان يصلى حيثما كان . وكان يصلي في مرابض الغنم ويأمر بذلك . ومن ذلك أن النبي ﷺ كان يلبس الثياب التي نسجها المشركون ، ويصلي فيها . ومن ذلك أن النبي ﷺ كان يجيب من دعاه فيأكل من طعامه . وأضافه يهودي بخبز شعير . وكان المسلمون يأكلون من طعام أهل الكتاب .

وفيما ذكرناه كفاية إن شاء اللّه تعالى في الدلالة على مخالفة الموسوسين في كثير من الأمور التي تشددوا فيها ، على الرغم من تساهل الشرع بخصوصها . وهذا يتنافى مع طاعة اللّه تعالى ، ورسوله الكريم ﷺ .

ومن المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الفصل التشكك (٢٩ - ٤٢) Suspiciousness والوساوس (٢٩ - ٤٢) Obsessions والنموذج الاجتماعي (٢٩ - ٤٢) Social Model والاقتداء (٢٩ - ٤٢) Modeling والتصورات الخاطئة (٢٩- ٤٢) Misconceptions .

* * *

عِلْمُ النَّفْسِ

فِي التُّرَاثِ الإِسْلَامِي

الجُزْءُ الثَّالِثُ

د. إبراهيم شوقي عبد الحميد
د. أسامة سعد أبو سريع
د. الحسين محمد عبد المنعم
د. جمعة سيد يوسف
د. شعبان جاب الله رضوان
د. طريف شوقي محمد
د. عبد اللطيف محمد خليفة
د. عبد المنعم شحاتة محمود
د. محمد أحمد شابي
د. محمد نجيب الصبوة
د. معتز سيد عبد الله

إشراف وتقديم

أ. د. محمد عثمان نجاتي
أ. د. عبد الحليم محمود السيد

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى
لدار السلام
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

علم النفس في التراث الإسلامي / إبراهيم شوقي عبد الحميد ... [وآخ] ؛ إشراف وتقديم / محمد عثمان نجاتي ، عبد الحليم محمود السيد . ط١ . - القاهرة ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ؛ المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ٢٠٠٨م .
٣ مج ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٥ ٦٥٠ ٣٤٢ ٩٧٧
١ - علم النفس الإسلامي .

٢١٠,١٩

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فهرس محتويات الجزء الثالث

الموضوع | **الصفحة**

* * *

محمد بن علي بن محمد
ابن عربي أبو بكر الحاتمي
(ت ٦٣٨هـ)
تهذيب الأخلاق [(١)]

عرض : د . الحسين محمد عبد المنعم

التعريف بالمؤلف :

محمد بن علي بن عربي ، أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي ، المعروف بمحيي الدين ابن عربي ، والشيخ الأكبر ، وابن أفلاطون ، فيلسوف من أئمة المتكلمين في كل علم . ولد في مدينة مرسية في ١٧ رمضان ٥٦٠ هـ الموافق ٢٨ يوليو ١١٦٥م ، في عهد خلافة المستنجد في المشرق ، وكان يحكم مرسية وبلنسية في ذلك الوقت ابنُ مردنيسن ، وكان أميرًا مستقلًّا بإمارته عن سلطان الموحدين الذين تولى سلطانهم الثالث أبو يعقوب يوسف ، الملك بعد أبيه عبد المؤمن الذي امتد سلطانه على سائر إسبانيا . ولكن بعد أن خضعت مرسية (وهي من أعمال الأندلس) لحكم الموحدين ، انتقل ابن عربي مع أهله إلى إشبيلية ، وكان في الثامنة من عمره .

وكان ابن عربي من أسرة نبيلة غنية ، وافرة التقوى ، فقد ذكر ابن عربي نفسه عن كلا أبويه أخبارًا تدل على شدة التقوى ، وكان له خالان سلكا طريق الزهد ، أحدهما يحيى بن يغان في تلمسان ، وأبو مسلم الخولاني الذي كان يقضي الليل في مجاهدات شديدة ويضرب نفسه بقسوة حتى لا ينام .

في هذا الوسط العامر بالزهد والتصوف قضى ابن عربي سنين طفولته ، وتلقى تربية أدبية ودينية كاملة ، فقد أشار في كتبه مرارًا عديدة إلى شيوخه في القراءات والتاريخ والشعر والحديث . ولقد رُوي أنه كان في صغره ومطلع شبابه شغوفًا بالأدب والصيد

(١) تحقيق : عبد الرحمن حسن محمود ، ط . القاهرة ، عالم الفكر (١٩٨٦م) ، (ص٧٠) .

منصرفًا عن اللَّه . وهو يذكر في شيخوخته سنوات طفولته ومطلع شبابه التي أضاعها في رحلات الصيد في حقول قرمونة وبلمة ومعه الخيل والخدم .

ولعل نصائح زوجته والقدوة التي شاهدها فيها قد حملت ابن عربي على أن يغيِّر مجرى حياته ، تواكب هذا دعوات أمه التقية ، وساعد على هذا كله مرض شديد أصيب به ، كان هذا المرض حمى مصحوبة بهذيان شديد من عذاب الجحيم . ويقال : إنه نجا منه بفضل دعاء أبيه الذي كان ساهرًا عند رأسه ، يقرأ سورة يس . وكان لوفاة أبيه الأثر والفيصل الحاسم في حل أزمته الروحية إلى اللَّه بكليته نهائيًا . وذلك عام (٥٨٠هـ ، ١١٨٤م) ، وكان ذلك في الحادية والعشرين من عمره ، وهو الذي صرَّح بذلك [١] .

وفي سن السادسة والعشرين من عمره بدأ بعض المتصوفين المشاهير يذهبون إليه للتلقي عنه ، مثال ذلك : موسى البيدراني الذي كان صوفيًا شهيرًا ، قام برحلة إلى إشبيلية بقصد الاتصال بابن عربي والإفادة من تعاليمه .

وقد تلقى ابن عربي عن موسى بن عمران الميرتلي ، كيف يتلقى الإلهامات الإلهية ، وكذلك تلقى عن أبي الحجاج يوسف الشيربلي ، ويوسف الكومي وأبي عبد اللَّه بن المجاهد وأبي عبد اللَّه بن قيود بإشبيلية ، وكذلك عبد اللَّه المغاري وأبي العباس العريني ويوسف الإستجي . ومن النساء ياسمين الصالحة وهي صوفية من مرشانة الزيتون ، وفاطمة القرطبية أو هي فاطمة بنت المثنى من أهل قرطبة ، وكانت عارفة بهم من غير تلبيس .

قام ابن عربي برحلة ، فزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز . وأنكر عليه أهل الديار المصرية « شطحات » صدرت عنه ، فعمل بعضهم على إراقة دمه ، كما أريق دم الحلاج وأشباهه . وحبس ، فسعى في خلاصه علي بن فتح البجائي (من أهل يجاية) فنجا . واستقر في دمشق ، فتوفي فيها . وهو كما يقول الذهبي ، قدوة القائلين بوحدة الوجود . له نحو أربعمائة كتاب ورسالة ، منها : الفتوحات المكية – ط عشر مجلدات ، في التصوف وعلم النفس ، ومحاضرة الأبرار ومسامرة الأخبار – ط : في الأدب ، مجلدان ، وديوان شعر – ط : أكثره في التصوف ، وفصوص الحكم – ط ، ومفاتيح الغيب – ط ، والتعريفات – ط ، وعنقاء مغرب – ط ، تصوف ، والإسرا إلى مقام الأسرى – خ ، والتوقعات – خ ، وأيام الشان – خ ، ومشاهد الأسرار .. والأسرار القدسية – خ ، وإنشاء الدوائر – ط ، والحق – خ ، القطب والنقاء – خ ، وكنه ما لابد

---

(١) أسين بلاثيوس (١٩٦٥م) ، (ص ١١) .

للمريد منه – ط ، والوعاء المختوم – خ ، ومراتب العلم الموهوب – خ ، والعظمة – خ ، والإمام المبين – خ ، ومواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم – ط ، ومرآة المعاني – خ ، والتجليات الإلهية – خ ، وروح القدس – ط ، والسر الخفي – خ ، والأحدية – خ ، والأنوار – ط : في أسرار الخلوة ، وشجرة الكون – ط ، وشجون المسجون – خ ، منه نسخة متقنة من الرباط (٢٩٣ أوقات) ، وفتح الذخائر والأغلاق شرح ترجمان الأشواق – ط ، ومنهاج التراجم – خ ، وعقلة المستوخز – ط ، ومقام القربى – خ ، وشرح أسماء اللّٰه الحسنى – خ ، وشرح الألفاظ التي اصطلحت عليها الصوفية – خ : ، ومعه رسالتان من تأليفه أيضًا ، وهما لبس الخرقة ، وجلية الأبدال : وهذه في خمس ورقات أنشأها في الطائف ، قال : .... « استخرت اللّٰه في ليلة الاثنين الثاني عشر من جمادى الأول سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، بمنزل آل مية بالطائف .... إلخ » وأوراد الأيام والليالي – خ ، واللمعة النورانية – خ ، والقربة – خ ، وشق الحبيب – خ ، والتجليات – ط ، والشواهد – خ ، وتحرير البيان في تقرير شعب الإيمان – خ ، ومراتب التقوى – خ ، والصحف الناموسية – خ ، ومئة حديث وواحد قدسية – خ ، وتصوير آدم على صورة الكمال – خ ، وفهرست مؤلفاته – خ ، واليقين – خ ، والأصول والضوابط – خ ، وتلقيح الأذهان – خ ، والحجب – خ ، ومرآة العارفين – خ ، والمَعَوَّل عليه – خ ، والتدبيرات الإلهية في المملكة الإنسانية – ط ، والأربعون صحيفة من الأحاديث القدسية – ط .....

وكتب عنه كثيرون قدحًا ومدحًا ، فقد كتب طه عبد الباقي سرور كتابًا يسمى « محيي الدين بن عربي – ط » في سيرته . وكتب المستشرق اليوناني أسين بلاثيوس « ابن عربي حياته ومذهبه » ترجمه إلى العربية عن الأسبانية عبد الرحمن بدوي ، ونشر عام (١٩٦٥م) بالقاهرة . وفي مكتبة المتحف العراقي مجموعة من رسائله بخطه ، وهناك أسماء لمؤلفاته في مجلة المجمع العلمي العربي ٣٠ : ٢٦٨ ، ٣٩٥ .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٦٩ صفحة من القطع الصغير ، ويضم الكتاب بالإضافة إلى تقديم المحقق ومقدمة المؤلف ثمانية فصول على النحو الآتي : فصل في الأخلاق المذمومة ، فصل في الأخلاق المحمودة ، فصل في النفس الشهوانية ، فصل في النفس الغضبية ، فصل في النفس الناطقة ، فصل في أنواع الأخلاق وأقسامها ، فصل في طريق الارتباط

بالأخلاق ، وفصل في أوصاف الإنسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق .

في البداية يوضح المؤلف في المقدمة أهمية الكتاب ، وهو الاسترشاد بما جاء فيه من الأخلاق الحميدة للتحلي بها ، وتجنب الأخلاق السيئة .

ويتحدث في الفصل الأول عن الأخلاق المذمومة ، ويرى أنها موجودة في كثير من الناس ؛ كالبخل ، والجبن ، والظلم ، والشر ، ولكن بدرجات متفاوتة ، وهم غالبية ؛ لأن الشر غالب على طبيعة الإنسان ؛ وذلك لأن الإنسان إذا استرسل في طبعه ، ولم يستعمل الفكر ، ولا التمييز ، ولا الحياء ولا التحفظ ، كان الغالب عليه أخلاق البهائم مشاركًا لها في عاداتها ، والشهوات مستولية عليه ، والحياء غائب عنه ، والغضب يستفزه ، والسكينة غير حاضرة له ، والشر لا يفارقه .

ويقرر بأن الأخلاق المكروهة في طباع الناس ، إلّا أن منهم من يتظاهر بها ومنهم من يأنف منها ، ومنهم من رغب في العدول عنها ، وتعذر عليه ذلك ، وهذه الطائفة تحتاج إلى ترشيد وتدريب للعمل بالعادات المحمودة ، ومنهم أيضًا من لا تسمح نفسه بمفارقتها بل يؤثر الإصرار عليها مع علمه برداءتها ، وهذه طائفة ليس إلى تهذيبها طريق بالقهر والتخويف والعقوبة إن لم يردعها الترهيب .

ونلمح في هذا الفصل إشارة أولية إلى عدد من موضوعات علم النفس الحديث ، أهمها : الدوافع Motives ، والانفعالات Emotions ، وأساليب الثواب والعقاب المشتقة من نظريات التعلم ، (ص ١٣ ، ١٤) .

كما يتحدث المؤلف في الفصل الثاني عن الأخلاق المحمودة ، ويرى أنها توجد في بعض الناس ، وأما البعض الآخر فيمكن أن يصيروا إليها بالتدريب والرياضة .

ويرى أيضًا أن علة اختلاف الأخلاق هي « النفس » وللنفس ثلاث قوى أو نفوس : النفس الشهوانية ، النفس الغضبية ، والنفس الناطقة . وجميع الأخلاق تصدر عن هذه القوى ، فمنها ما يختص بإحداهن ، ومنها ما يشرك فيه قوتان ، ومنها ما يشرك فيه القوى الثلاث . ومن هذه القوى ما يكون للإنسان وغيره من الحيوان ، ومنها ما يختص به الإنسان فقط .

ونجد هنا أيضًا إشارة واضحة إلى « دوافع السلوك » أو محركات السلوك الإنساني وهو أحد موضوعات علم النفس الحديث (ص ١٥) .

وفيه تقسيم للوظائف النفسية إلى دافعية (شهوانية) وانفعالية (غضبية) و إدراكية

(النفس الناطقة) ، (وحينما ينسب الإدراك إلى النفس الناطقة فإنه يعني الإدراك العقلي) .

ويبدأ ابن عربي بالحديث عن النفس الشهوانية في الفصل الثالث ، وهي التي يكون بها جميع اللذات والشهوات الجسمانية ، كالإقدام على المأكل والمشرب والجنس . وهذه النفس قوية جدًّا إذا تمكنت من الإنسان صارت أغراضه ومطلوباته مصروفة إلى الشهوات واللذات فقط – ومن يكون بهذه الصفة ، يقل حياؤه ، ويكثر خرفه ، ويميل إلى الخلوات ، ويبغض أهل العلم ، ويود أصحاب الفجور ، ويحب الفواحش ويكثر ذكرها ، ويلذ له استماعها ويُسر بمعاشرة السفهاء ... وربما دعته محبة اللذات إلى اكتساب الأموال من أقبح وجوهها – وتحمله نفسه إلى الغضب ، والتلصص ، والخيانة .

ويجب على أولي الأمر ومتولي السياسات – في هذه الحالة – قمعهم وتأديبهم ، وإبعادهم حتى لا يختلطوا بالناس ويضروهم ، وخاصة الأحداث (صغار السن) ؛ لأن الحث سريع التأثر بهم ، خاصة وأن نفسه مجبولة على الميل إلى الشهوات ، فإذا شاهد غيره مرتكبًا لها مال هو أيضًا إلى الاقتداء به ، وإلى مساعدة لذته .

وأما من ملك نفسه الشهوانية وقهرها كان ضابطًا لنفسه ، عفيفًا في شهوته ، متحشمًا عن الفواحش ، محمود الطريقة في جميع ما يتعلق باللذات .

إذن العلة الموجبة لاختلاف عادات الناس في شهواتهم ولذاتهم ، وعفة بعضهم وفجور بعضهم ، وهو اختلاف أحوال النفس الشهوانية . ومن أجل ذلك وجب على الإنسان أن يؤدب نفسه الشهوانية ويذبها حتى تصير منقادة له ، ويكون هو مالكها .

ويرتبط هذا الفصل أيضًا ببعض موضوعات علم النفس الحديث مثل :

الدوافع (دافع الجنس) – العلاقة بين الدافع والانفعال – التقليد الاجتماعي – السيطرة على الدوافع (ص ١٦ ، ١٧) .

ثم يحدثنا في الفصل الرابع عن النفس الغضبية ، ويشترك فيها الإنسان وسائر الحيوان ، وهي التي بها : الغضب ، والجرأة ومحبة الغلبة – وهي أقوى من النفس الشهوانية ، وأضر بصاحبها إذا ملكته وانقاد لها . ومن انقاد لها كثر غضبه ، وظهر خرفه ، واشتد حقده ، وعدم حلمه ووقاره ، وربما أقدم على القتل وإيذاء النفس .

وأما من ساس نفسه الغضبية وأدبها : كان رجلًا حليمًا ، وقورًا عادلًا ، محمود الطريقة . والعلة الموجبة لاختلاف عادات الناس في غيظهم وسفاهة بعضهم ، وهو

اختلاف أحوال النفس الغضبية .

ويرتبط هذا الفصل بأحد موضوعات علم النفس العام وهو الانفعالات ، وخاصة « انفعال الغضب » – وكيفية التغلب عليه . (ص ١٨ – ٢٠) .

كما يحدثنا الفصل الخامس عن النفس الناطقة ، وهي التي تميِّز الإنسان من جميع الحيوان . وهي التي يكون بها الذكر والتمييز والفهم – وبها يستحسن المحاسن ويستقبح القبائح – وبها يمكن للإنسان أن يهذب قوتيه الباقيتين وهما الشهوانية والغضبية ، وبها يفكر في عواقب الأمور .

ولهذه النفس أيضًا فضائل ورذائل – أما فضائلها فباكتساب العلوم والآداب ، كف صاحبها عن الرذائل والفواحش ، وقهر النفسين الآخرين وتأديبهما ، وحث صاحبها على : فعل الخير ، والتودد ، والرقة ، وسلامة النية ، والحلم ، والحياء ، والنسك ، والرفعة ، وطلب الرياسة من الوجوه الجميلة . وأما رذائلها ، فالخبث ، والحيلة ، والخديعة ، والملق ، والمكر ، والحسد ، والشر ، والرياء .

ومن الناس من تغلب عليه فضائلها ، فيستحسنها ويستعملها ، ومنهم من تغلب عليه رذائلها ويستمر عليها ، ومنهم من يجتمع فيه بعض الفضائل وبعض الرذائل .

والعلة الموجبة لاختلاف الناس في سياساتهم وفضائلهم ، وغلبة الخير والشر عليهم ، هو اختلاف قوة النفس الناطقة فيهم . ومن أجل ذلك وجب على الإنسان أن يفكر ، ويميز أخلاقه ، ويختار منها ما كان جيدًا مستحسنًا جميلًا ، وينفي منها ما كان مستنكرًا قبيحًا ، ويحمل نفسه على التشبه بالأخيار ؛ ويتجنب عادات الأشرار .

ونلمح في هذا الفصل إشارة إلى أحد موضوعات علم النفس الحديث وهو « سيكولوجية التفكير Thinking » (ص٢١ – ٢٣) كما يرتبط بسمات الشخصية والفروق الفردية ، والقيم الخلقية .

ثم يقدم ابن عربي فصلًا في أنواع الأخلاق وأقسامها ، ويقسمها إلى قسمين رئيسين هما :

أ – الفضائل : المستحبة والمستحسنة .

ب – النقائص : المستقبحة والمكروهة .

والتي تعد فضائل منها : العفة ، القناعة ، التصون ، الحلم ، الوَقار ، الحياء ، الود ، الرحمة ، الوفاء ، أداء الأمانة ، كتمان السر ، التواضع ، البِشْر ، صدق اللهجة ، سلامة

النية ، السخاء ، الشجاعة ، المنافسة ، الصبر عند الشدة ، عظمة الهمة ، العدل .

أما الأخلاق الردية التي تعد نقائص ومعايب فمنها : الفجور ، الشره ، التبذل ، السفه ، الخرق ، القحة ، العشق ، القسارة ، الغدر ، الخيانة ، إفشاء السر ، النميمة ، الكبر ، العبوس ، الكذب ، الخبث ، الحقد ، البخل ، الجبن ، الحسد ، الجزع عند الشدة ، صغر الهمة ، الجور .

ويرتبط هذا الجزء بالقيم الخلقية Moral Values

وهناك نوع من الأخلاق تعتبر عند بعض الناس فضيلة وعند البعض الآخر رذيلة ، ومنها :

أ - **حب الكرامة** : مستحب لدى الأحداث والصبيان ، لأن محبة الكرامة تحثهم على اكتساب الفضائل . غير مستحب لدى الأفاضل من الناس ؛ لأن الإنسان إنما يمدح على الفضيلة إذا كانت مستغربة منه ، خاصة وأن حب الكرامة يعني أن يسر الإنسان بالتعظيم والتبجيل والمدح .

ب - **حب الزينة** : مستحب من الملوك والعظماء ، والأحداث والظرفاء والمتنعمين والنساء . غير مستحب من الرهبان والشيوخ وأهل العلم ، خاصة الخطباء والواعظين ورؤساء الدين .

جـ - المجازاة على المدح :

- مستحب من الملوك والرؤساء .
- غير مستحب من أصاغر الناس .

د - الزهد :

- مستحب من العلماء والرهبان ورؤساء الدين والخطباء والواعظين .
- غير مستحب من الملوك والعظماء .

هذه هي أخلاق جميع الناس ، أما المحمود منها ، المعدوم فضائل ، قلما تجمع كلها في إنسان واحد . وأما المذموم منها ، والمعدود نقائص قلما يوجد إنسان يخلو من جميعها . وعلى الإنسان أن يتفقد أخلاقة ويتأمل عيوبه ، ويجتهد في إصلاحها ، وينفيها عن نفسه ، ويتبع الأخلاق المحمودة ، ويحمل نفسه على اعتيادها والتخلق بها .

ونلمح هنا إشارة مبكرة إلى سيكولوجية الشخصية وخاصة موضوع « السمات » Traits (ص ٢٤ - ٤٣) .

ثم يقدم لنا المؤلف فصلًا في طريقة الارتياض بالأخلاق والتعمل لاعتيادها ، فربما استحسن الإنسان خلقًا محمودًا لا يجده لنفسه ، وآثر التخلق به ، ولم تستحب له عاداته ، ولم يصل إلى مراده ؛ ولذا يرى ابن عربي أن يرسم للراغبين في السياسة المحمودة طرقًا يتدربون بها ، ويتدرجون فيها ، حتى ينتهوا إلى مرادهم من اعتياد الأخلاق الجميلة .

ويرتبط بهذا الجزء موضوع تعديل السلوك Behavior Modification

وكما ذكرنا من قبل أن ، ملاك الأخلاق : هو تذليل النفس الشهوانية والغضبية ، ويميز عادات النفس الناطقة واستعمال المحمود من أفعالها .

فأما النفس الشهوانية فالطريق إلى قمعها أن يتذكر الإنسان وقت شهواته أنه يريد تذليل نفسه الشهوانية ، فيعدل عندما قامت نفسه إليه من الشهوة المردية إلى ما هو مستحسن من جنس تلك الشهوة .

وينبغي لمن أراد قمع الشهوانية :

١ - أن يكثر من مجالسة الزهاد والرهبان والنساك وأهل الورع والواعظين وأهل العلم .

٢ - أن يديم النظر في كتب الأخلاق والسياسة وأخبار الزهاد والرهبان .

٣ - أن يجتنب السكر .

٤ - أن يقل من استماع السماع ، وخاصة النسوان والشابات منهن ، والمتصنعات .

٥ - أن يتوسط في أنواع المأكل .

٦ - أن يكون متيقظًا ، ذاكرًا لما يلحق الفاجر والنهم والشَّره والمتهتك من الفضيحة والعار .

وأما النفس الغضبية فإن الطريق إلى قمعها وتذليلها هو :

١ - أن يتفقد أحوال السفهاء حتى يأنف من مشاهدتهم فتنكسر حدة غضبه .

٢ - أن يذكر أوقات غضبه على من يؤذيه ، أو يبني عليه .

٣ - أن يتجنب حمل السلاح ، حضور مواضع الحروب ، ومقامات الفتن ، ومجالس الأشرار ، ومعاشرة السفهاء ، ومخالطة الشرط ؛ لأن هذه المواضع تكسب القلب قساوة وغلظة .

٤ – أن يكثر من مجالسة أهل العلم ، وذوي الوقار ، الشيوخ والرؤساء ، والأفاضل .

٥ – أن يتجنب المسكر من الشراب .

٦ – أن يستعمل في جميع ما يفعله الفكر ، ولا يقدم على شيء إلّا بعد أن يتروى فيه .

أما ملاك الأمر في « تهذيب الأخلاق » وضبط النفس الشهوانية والنفس الغضبية هو تقوية النفس الناطقة ، وهذه النفس إذا قويت أمكن لصاحبها :

أ – أن يسوس بها قوتية الباقيتين .

ب – أن يكف نفسه عن جميع القبائح .

جـ – أن يتبع مكارم الأخلاق .

وإذا كانت هذه النفس مقهورة فعلى صاحبها أن يقويها ويروضها عن طريق :

١ – النظر في العلوم العقلية وكتب الأخلاق والسياسة .

٢ – مجالسة أهل العلم ، ومخالطتهم والاقتداء بأخلاقهم وعاداتهم .

٣ – تذليل قوة الشهوة الغضبية .

٤ – أن يجعل غرضه من كل فضيلة غايتها ونهايتها ، ولا يقنع منها بما دون الغاية .

وهذا هو طريق الارتباط بمكارم الأخلاق ، ومنهج التدريج في محمود العادات .

ويرتبط هذا الفصل ببعض مفاهيم علم النفس الحديث مثل : التدريب Training ، الإدمان A'ddiction والنمذجة والمحاكاة Simulation & Modeling ، السيطرة على الانفعالات . (ص ٤٤ – ٥٣) . ويقترب ما يوجهه ابن عربي من نصائح للتغلب على عيوب النفس من المهمة التي يقوم بها حديثًا المرشدون النفسيون ، والمعالجون السلوكيون .

وفي النهاية يقدم لنا فصلًا في « أوصاف الإنسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق وطريقته التي يصل بها إلى التام » .

والتمام وإن كان عزيزًا بعيد التناول – فإنه ممكن وهو غاية ما ينتهي إليه الإنسان .

وأما أوصاف الإنسان التام ، فهي :

أولًا : أن يكون متفقدًا لجميع أخلاقه ، متيقظًا لجميع معايبه ، عاشقًا لصورة الكمال . وأما الطريقة التي توصله إلى التمام فهي : أن تصرف غايته إلى النظر في العلوم الحقيقية ، والإحاطة بماهيات الأمور ، وقراءة كتب الأخلاق والسير والسياسات ، ومجالس أهل العلم والحكمة . وخص الملوك والرؤساء بمجالسة المعروفين بالخير والسداد

الموصوفين بالأدب والوقار وقراءة سير الملوك والأخيار وعاداتهم .

ثانيًا : أن يجعل لشهواته ولذاته قانونًا ، يقصد فيه الاعتدال ، ويتجنب الإسراف والإفراط . ويصل إلى هذا بقصر شهواته على المأكل والمشرب المقرون بالمكرم للأهل والأصحاب وأهل الفقر والمسكنة .

ثالثًا : أن يستهين بالمال ويحتقره ، وينظر إليه بالعين التي يستحقها .

رابعًا : ينبغي أن يُشْعِر نفسه أن الغضبان بمنزلة البهائم والسباع : يفعل ما يفعله من غير علم ولا روية . وطريق الحليم الوقور دائمًا هو ضبط النفس الغضبية وزمها .

خامسًا : ينبغي أن يعوِّد نفسه على محبة الناس ، التودد بهم ، التحنن عليهم ، والرأفة والرحمة بهم .

سادسًا : ينبغي أن يجعل همته فعل الخير مع جميع الناس ، وإيقاف ما يفضل من ماله فيما يبقى له الذكر الجميل بعد موته ، ويتحرر من فعل الشر .

سابعًا : أن يعتقد أنه ليس شيء من العيوب والقبائح خافيًا عن الناس ، فلا يطمع نفسه في ارتكاب فعل قبيح يظن أنه ينكتم عن الناس .

– وهذه الرتبة غاية تمام الإنسانية ، ونهاية الفضيلة البشرية ، وواجب على كل إنسان الاجتهاد في بلوغها .

ويقترب هذا الفصل من بعض مفاهيم سيكولوجية التعلم الاجتماعي مثل : « التفاعل الاجتماعي » Social Interaction .

أوجه الاستفادة من هذا الكتاب في مجالات علم النفس العام ، وعلم النفس الاجتماعي والإرشاد النفسي .

* * *

تاج الرسائل ومناهج الوسائل [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

هذه المجموعة من الرسائل (ثمانية رسائل) للشيخ الأكبر محيي بن عربي تقع ضمن مجموعة أخرى من الرسائل لمفكرين آخرين كالشيخ الرئيس ابن سينا والغزالي ، والجورجاني وغيرهم . وقد جمعت هذه المجموعة من الرسائل في كتاب ضخم (ينقسم إلى قسمين متتالين) عدد صفحاته ٦٣٥ صفحة من القطع الصغير . وللشيخ ابن عربي في هذه المجموعة أيضًا رسالة تهذيب الأخلاق (وقد سبق عرضها من قبل) وتحتل هذه المجموعة من الرسائل وهي بعنوان « تاج الرسائل ومنهاج الوسائل » آخر هذه المجموعة (ص ٥٥٣ - ٦٢٥) متصلة .

وتضم رسائل الرسائل الإلهية والرسالة القدسية ، والرسالة الاتحادية ، والرسالة السريانية ، والرسالة المشهدية ، والرسالة الفردوسية ، والرسالة العذرية ، والرسالة الوجودية .

يضم هذا الكتاب عدة رسائل ، كما سبق أن ذكرنا - يبدأها المؤلف بالتعريف بالكتاب فيقول : هذا الكتاب تاج الرسائل ومنهاج الوسائل في إيضاح المعاني الإلهية المودعة في المعاني الروحانية مما جرى بيني وبين الكعبة المعظمة عند طوافي بباب المكاشفة والمطالبة ، ثم يثني على الله ﷻ ويصلي على نبيه ﷺ .

---

(١) تحقيق : محيي الدين صبري الكردي ، القاهرة ، [د . ت] [ص ٨١] .

كما يتناول موضوعات فلسفية عندما يتحدث عن التوحيد والوجود والمعرفة ودرجاتها والمعلومات وراتبها ، كما يتناول موضوعات لغوية عندما يصف مراتب الحروف - إذ الحروف جامعة لكل المعاني - وطبقاتها وحركتها في الأفلاك ، وكيفية تكوين الكلمات منها ، ودور الحركات (أو الحروف الصغرى) في هذا التكوين .

ومع ذلك ، فالكتاب أساسًا كتاب عن التصوف وموجه إلى المريدين ، ويصف مقامات المتصوفة وأحوالهم ومنازلهم وسلوكهم ، وانفعالاتهم وأفعالهم ، وقد حصل ابن عربي على مضمونه عن طريق الكشف الإلهي ، كما ذكر لنا ، فهو « يتلقى من اللّٰه بلا واسطة » في واقعة رأيت الحق فيها يخاطبني .... وسماني باسم ما سمعت به قط إلا منه تعالى .... فسألته تعالى .... فقال : ظهرت إلى خلقي بصورة آدم . (٢ : ٣٢١) .

ويرى ابن تيمية (١٩٥١ : ٥٤) أن هذا الطريق مخالف للإسلام ولسنة نبيه ﷺ وأن البعض - كالغزالي وابن عربي - لجأ إليه لإدراكه ما في طريق المتكلمين والمتفلسفة من اضطراب ، ولقلة علمه بطريقة أهل الحديث الموروث عن الرسول ﷺ ، ويؤكد ابن تيمية أن ما يذكره هؤلاء عن طريق الكشف ليس إلا أكاذيب مؤكدًا أن حساب الجمل قد استخرجه ابن عربي من حروف المعجم الذي ورثه عن اليهود ، ومن حركات الكواكب الذي ورثه عن الصابئة (ص ٦٨) ، ويؤكد ابن خلدون في مقدمته ، أن البعض - ومنهم ابن عربي - ينتحل الكشف عن الغيب لنشر أفكار غريبة كالوحدة والتجسيم .... إلخ . (النواوي ١٩٨٠ : ١٦) .

وكتاب « الفتوحات » مليء بمثل الأفكار الغريبة عن الاتحاد والتوحيد والولاية والقطب والأوتاد والأبدال ... إلخ ، ومعظم هذه الأفكار يرجع إلى قياس مغلوط ، مثال ذلك : قول ابن عربي : (إن محمدًا ﷺ) ليس خاتم الأنبياء ، فهناك نبوة مكتسبة ، أي وجود نبي من التابعين لمحمد ، فقد ثبت من الأحاديث أن « عيسى » عليه السلام سينزل آخر الزمان ليقيم شرع اللّٰه ، ويحكم الأرض بالعدل ، وقد ثبت أن « عيسى » نبي ، فيمكن أن يكون هناك نبي آخر يتبع شرع محمد ﷺ (انظر ٢ ، ٣) مثال آخر في تفسيره للآية الكريمة : ﴿ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [فاطر: ١٥] (٢ : ١٦) مثال ثالث في قصة « الخضر » مع « موسى » عليه السلام (٢٢/٢) وغيرها من القياس المغلوط الذي يصل ابن عربي من خلاله إلى الكثير من الأفكار الغريبة .

مصدر آخر يتبعه ابن عربي وهو الكشف . وقد وصف ابن عربي الظروف التي يتم فيها الكشف بأنه اضطجاع لا حركة فيه ولا كلام ولا طعام ولا نوم ولا أنام ، فهناك عزلة

تامة مع صمت مع سهر مع جوع مما يؤدي إلى عدم تمييز المكان ولا الزمان ولا الحاجة ، أي تحدث رتابة حسية تؤدي إلي غياب الوعي عما يحدث في الخارج ، ويستعيض العقل عن ذلك بحياة خاصة به ومتخلية فيحادث أشخاصًا يتخيلهم ، ويتعامل معهم ، يسمعهم ويسمعونه ، يبصرهم ويبصرونه ... إلخ ، وقد يكون هذا تفسير الذي يقول به المتصوفة ، وهو تفسير لا يجزم بصحته .

وعلى الرغم من كل هذا ، فإن الكتاب مليء بالإرهاصات لعلوم حديثة ، فعندما يشير إلى مخارج الحروف (١ : ٥٦ - ٧٧) فهو يقدم إرهاصًا بعلم الصوتيات ، وعندما يقدم تصنيفًا للعلوم (١ : ١٦١) فإنه يضمنها علم مشاهدة الذات وعلم تحريك النفوس وعلم الميل وعلم الأحوال وعلم الهوى وعلم النفس الأمارة ، وبمجرد النظر إلى هذه الألفاظ نجدها تدخل ضمن اهتمامات علم النفس المعاصر ، فهناك بحوث تركز على إدراك الذات Self Perception وأخرى على الاهتمام أو الميل Interest وثالثة على العواطف والانفعالات المتبادلة ومنها الحب Love والتفضيل Liking وما شابه .

ويشير ابن عربي إلى عملية الإدراك ، والتي ينظر إليها - كما ينظر إليها علم النفس المعاصر - على أنها عملية إضفاء المعنى على المحسوسات ؛ إذ يقول : « المعلومات منحصرة من حيث ما تدرك به في حس ظاهر وباطن وهو الإدراك النفسي وبديهة وما تركب من ذلك عقلًا ، إن كان معنًى ، وخيالًا إن كان صورة (١ : ٤٥ ، كذلك انظر مراتب المعلومات في ٢ : ٦٦) ، لذلك يرى أن خطأ المعلومة لا يرجع إلى خطأ في العضو الحاس ، وإنما إلى خطأ في عملية إضفاء المعنى هذه : (فالحواس لا تخطئ وإنما الخطأ من العقل » (١ : ٢١٤) ، وهذا الخطأ قد يرجع إلى تأثير المسافة التي تفصل العضو الحاس عن الموضوع المحسوس (١ : ٩٧) أو إلى ظاهرة الفروق الفردية بين الأفراد في هذه العملية (١ : ٢١٣) أو في درجة فهم ما تنقله الحواس ، فـ : « من لم يفهم لم يوصل إليه شيء » (٤ : ٢٥) وكل هذه الاحتمالات أثبتت صحتها بحوث علم النفس المعاصر .

وكان ابن عربي على وعي بظاهرة الفروق الفردية في فهم الأمثال التي يضربها القرآن للناس وفي تأويلها ، وفي أحوالهم وأمزجتهم ، وفي تقدير ما يصلح لهم من أعمال ، وذلك لتفاوت عقولهم - على حد قوله - واختلاف فطرتهم ، وتفاضلهما (انظر : ١: ١١٣ ، ٢٠٩ ، ٢٨٧ ، ٦١١ ، انظر : ٢ : ٦٦ ، ٨٦ ، ١٩٠ ، انظر : ٣ : ٢٥١ ، انظر : ٤ : ٢٥) والفروق الفردية مبدأ نفسي أساسي في فهم الظواهر الإنسانية .

يشير ابن عربي إلى النية على أنها قصد الفصل (١ : ٢٠٩) متفقًا في ذلك مع الإمام الغزالي وغيره ، ويعتبرها سببًا للأعمال - صالحة أو طالحة أو متفقًا في ذلك مع بعض علماء النفس الذين يعتبرون النية محددًا مباشرًا للسلوك والأفعال .

يشير ابن عربي إلى مراتب الحب ، فإما طبيعي ، أي حب العوام ، وغايته الاتحاد في الروح الحيواني ، فتكون روح كل منهما روحًا لصاحبه بطريق الالتذاذ وإثارة الشهوة ، ونهايته من الفعل النكاح ، أو حب روحاني نفسي وغايته التشبه بالمحبوب مع القيام بحق المحبوب ومعرفة قدره ، أو حب اللّه للعبد لربه ، ونهايته أن يشاهد العبد كونه مظهرًا للحق (انظر : ١١١ ، ٤ : ٣٦ ، ٣٧) ، ويرى أن الحب - بأنواعه - يؤثر في حياة الفرد تأثيرًا يتفوق على تأثير العقل « الحب أملك للنفوس من العقل » (١٢ : ٢) .

يشير ابن عربي إلى دور العادة وإدراك مترتبات الفعل على السلوك (٢ : ١٣٢) ويتفق في ذلك مع نتائج البحوث النفسية الحديثة التي تبيِّن أن لكل من الخبرة السابقة والعادات وإدراك مترتبات أداء الفعل والاتجاهات وغيرها ، دورها في تحديد السلوك بحيث يمكن التنبؤ بالفعل بناء على هذه المتغيرات .

يشير ابن عربي إلى دور « الإيحاء » في العلاج النفسي ، فيقول - عند حديثه عن « علم العلل والأدوية » : « ويحتاج إليه من يربي من الشيوخ ، ولا تنفع هذه الأدوية إلا فيمن يقبل استعمالها » (٢ : ٣١٣) ، ويتفق هذا مع ما يراه المعالجون النفسيون من دور أساسي لرغبة المريض في العلاج ، ويقدم ابن عربي تصنيفًا للعل (انظر : ٢ : ٣١٣- ٣١٦) حيث يقسمها إلى علل أجسام - علل عقول (أمراض الاعتقادات) - علل نفوس (مرض في القول أو في الفعل أو في الحال) ، ويعد فصله للمرض العقلي الذي يجعله ذا طبيعة معرفية ، عن المرض النفسي الذي يتعلق - في رأيه - بالعلاقات الاجتماعية فصلًا مقبولًا من الناحية المنهجية ، كما يأتي تصنيفه لفئة خاصة من الأمراض هي : أمراض العقول أو الاعتقادات متفقًا مع أحد الأساليب العلاجية الحديثة جدًّا وهو ما يسمى أسلوب العلاج العقلاني Rational Therapy الذي يقوم على أساس افتراض أن التفكير هو أهم الأسباب التي تؤدي إلى الانفعال الإنساني ويتحكم فيه ، وأن الاضطرابات النفسية أساسها غير منطقية .

يصنف ابن عربي (٣ : ٢٣٧ ، ٢٦٣) النفوس إلى ثلاث مجموعات فطرية (النفس النباتية والحيوانية أو الشهوانية) - اجتماعية (النفس الغضبية) - النفس الناطقة .

ويذكر ابن عربي (٣ : ٢٥١) : (أن الإنسان مرآة أخيه ، فيرى منه ما لا يراه الشخص في نفسه إلّا بواسطة مثله ، فإن الإنسان محجوب بهواه متعشق به ، فإذا رأى تلك الصفة من غيره وهي صفته أبصر عيب نفسه في غيره .... واعلم أن المرائي مختلفة الأشكال ، فإنها تُصَيِّر المرئيَّ عند الرائي بحسب شكلها من طول وعرض واستواء وعوج واستدارة وزيادة وتعدد ، وكل شيء يعطيه شكل تلك المرآة .

وفي هذه العباراة تشير إلى دور هوى الفرد وميوله في إدراكه للأشياء كما يشير إلى مبدأ نفسي معاصر يتمثل في نظرية العزو Attribution نقطة أخيرة يشير إليها ابن عربي (٤ : ٤٦٥ - ٤٦٦) تتعلق بسيكولوجية العلاقات المتبادلة Interpersonal Relations (عندما يتحدث عن الصحبة والجوار) وهي مبحث نفسي حديث جدًّا .

* * *

الوصايا [1]

عرض : د : جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٢٦٥ صفحة من القطع المتوسط ، ويشتمل على مقدمة بقلم المحقق ، وبعد ذلك مجموعة الوصايا ، وقد بدأ سردها بذكر كلمة « وصية » في بداية كل فقرة فيذكرها ، ثم يشرحها ويوضحها ، ويذكر بعضها مباشرة ، والبعض الآخر من خلال الحكايات والأمثال والروايات . وفي نهاية الوصايا بدأ يذكرها تحت عناوين رئيسية مثل « وصايا نبوية » و « من وصايا الصالحين » و « وصايا نبوية محمدية » ولغة الوصايا هي النثر ، ومع ذلك فهو يستعين بالشعر في بعض الأحيان ، وهي في مجملها مستمدة من الآيات القرآنية ، وأحاديث الرسول ﷺ ، وبعض روايات الأنبياء والصالحين والحكماء . ويختم الكتاب بخاتمة وضعها الناشر لبيان عقيدة المؤلف ومذهبه .

وأول الوصايا التي يوصينا بها ابن عربي ألا نعصي اللّٰه في موضع حتى نعمل فيه طاعة فـ ﴿ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤] . وأن نحسن الظن باللّٰه في كل الأحوال ، وأن نذكره في السر والعلن وفي النفس وبين الناس . وأن نثابر على إتيان جميع الأعمال الصالحة في كل الأحوال (ص ٧) (ومفهوم المثابرة Persistence من المفاهيم التي تدرس في علم النفس الحديث كسمة من سمات الشخصية) وأن نلزم أنفسنا بالحديث بعمل الخير وإن لم نفعله . وأن نثابر على لا إله إلا اللّٰه فهي كلمة

(١) (ط ١) القاهرة : دار الغد العربي (١٩٨٨م) ، (٢٦٥ص) .

الإسلام ، وألَّا نعادي أهلها ؛ لأن لهم من اللَّه الولاية العامة .

وعلينا باتباع ما افترضه اللَّه علينا ، على الوجه الذي أمرنا به ، وأن نراعي أقوالنا كما نراعى أعمالنا ، فالأقوال من جملة الأعمال . كما ينهانا عن تصوير التماثيل على شاكلة الأشياء التي لها روح (ولعل هذه النقطة قد تبدو مسألة خلافية بين ابن عربي وبعض علماء النفس المحدثين ، الذين يهتمون بدراسة عملية الإبداع Creativity من جوانب عدة ، وفي مختلف أشكال الإبداع ، سواء كانت قصصًا قصيرة أو روايات أو مسرحيات ، أو أشعار ، أو تصوير وغيرها ، باعتبارها من المنجزات الإنسانية ، وإن كانوا لا يهتمون هم أنفسهم بعملها) . (ص ١٧) .

ويواصل ابن عربي سلسلة وصاياه القيمة فيأمرنا بضرورة عيادة المريض لما فيها من الاعتبار والذكر من ناحية ، وإظهار للعطف والتراحم والتواصل من ناحية أخرى . وينهانا عن ظلم العباد ؛ لأن « **الظلم ظلمات يوم القيامة** » كما ينهانا عن النوم إلَّا على وِتر ؛ لأن الإنسان إذا نام قبض اللَّه روحه إليه في الصورة التي يرى نفسه فيها . ويأمرنا بمراقبة اللَّه ﷻ فيما أعطانا ، وفيما أخذ منَّا ، وأن نؤدي الأوجب من حق اللَّه ، وهو ألَّا نشرك باللَّه شيئًا من الشرك الخفي وهو الاعتماد على الأسباب الموضوعية . وينصحنا بالتواضع ، والاغتسال في كل يوم جمعة ، وأن يكون قبل الذهاب للصلاة ، وأن نبتعد عن المراء في الدين (أي البعد عن الجدال) . ويحضنا على حسن الأخلاق وإتيان مكارمها ، وتجنب السيئ منها .

ويعطي ابن عربي للعلم قيمة كبيرة ، فيحضنا على استعماله في جميع الحركات والسكنات ، وينصحنا بالتودد لعباد اللَّه من المؤمنين وذلك بإفشاء السلام ، وإطعام الطعام ، والسعي في قضاء حواجهم (ص ٣٩) ، (وهو هنا يضع الأسس للتواصل Communication ، والتفاعل الاجتماعي Social interaction)

ويدعونا إلى عدم الاكتراث بما قدَّره اللَّه لنا من المصائب سواء كان في المال أو في الأهل والأصدقاء (ص ٤٠) ، (ونجد في هذه الوصية إشارة غير مباشرة لأحد موضوعات علم النفس الحديث وهو موضوع أحداث الحياة Lif Events كأحد مثيرات المشقة Stressors والتي تسبِّب سوء التوافق Maladjustment) . والوصية التالية يوصينا فيها بتلاوة القرآن ، والنظر إلى ما فيه من الصفات التي وصف اللَّه بها عباده ممن أحبهم فتمسك بها ، وإلى الصفات المذمومة فنبتعد عنها . ويوصينا أيضًا بمجالسة من ننتفع

بمجالسته في ديننا ، من علم نستفيد منه ، أو عمل مما يكون فيه ، أو خلق حسن يكون عليه (ص ٤٢) ، (وهو هنا يبصرنا بكيفية انتقاء أصدقائنا مما يمكن أن يدخل في باب الصداقة Friendship كأحد عناصر المهارات الاجتماعية Social Skills وهو ما يدرس - بصفة عامة - في علم النفس الاجتماعي) . ويذكرنا - كذلك - بوجوب إقامة حدود اللَّه في أنفسنا وفيمن نملك ، ويحثنا على الصدق لما له من فضل . و أن نتصدى للجهاد الأكبر ، وهو جهاد الهوى (وهو يريدنا أن نتصف بعدد من الخصال كضبط النفس Self Control ، والصبر أو المثابرة Persistence وهي من سمات الشخصية التي تدرس في علم النفس) .

ويتدفق سيل الوصايا التي يقدمها ابن عربي ، وكلها قيّمة وهامة ، فيوصينا بمراعاة كل مسلم من حيث هو مسلم (مبدأ المساواة) ، والاقتداء بالصالحين ، ويخص منهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بما يميز به من صفات طيبة وأخلاق كريمة (ص ٥٠) والتأسي بالصالحين يقابل أسلوب التعليم بالاقتداء Modeling ويستخدم في التعلم الاجتماعي Social Learning ويحثنا على حفظ حق الجار ، وأن نقدِّم الأقرب ، وأن ننعم عليهم بما أفاض اللَّه علينا (وهو من مبادىء التكامل الاجتماعي) .

وأن ننصر إخواننا ظالمين كانوا أم مظلومين ، لنبعد عنهم وسوسة الشيطان من خلال النصح (ويقابل الإرشاد النفسي أحد فروع علم النفس الحديث) ، (ص ٣٥) . كما يذكرنا بعدد من الخصال الكريمة التي ينبغي أن نتحلى بها ، وهي : الصدق في الحديث ، أداء الأمانة ، والوفاء بالوعد ، واجتناب الكذب والخيانة وخلف الوعد ، وعدم الفجور في المخاصمة (ص ٥٦ - ٨٥) . (وهو هنا يلفت الأنظار إلى هذه الصفات ، لنتحلى بها من ناحية ، ومن ناحية أخرى يرسي مبادىء التنشئة الاجتماعية Socialization التي ينبغي أن نتبعها مع أطفالنا) .

ويعلِّمنا ابن عربي عددًا آخر من الوصايا والأخلاق النبيلة التي تعود علينا بالنفع في الدنيا والآخرة ، فيوصينا بالحياء ؛ لأن « **الحياء من الإيمان** » ، وأن نقدِّم النصح للآخرين فالدين النصيحة (ص ٥٨ - ٦٢) ، (وقد سبق أن أشرنا إلى أن ذلك يقابل ما يدرس في علم النفس تحت مسمى الإرشاد النفسي Counseling) . ويدعو إلى المحافظة على الصلاة ومراعاة الحال بين الصلوات . ويأمرنا بالورع في النطق كما نتورع في المأكل والشرب ، و ألا نخلف وعدنا مع اللَّه ، وأن نصل الرحم ، ونحافظ على نظافتنا باستعمال الطيب والسلوك . كما يعلِّمنا بعض الآداب العامة مثل كظم التثاؤب ،

الإحسان لمن استطعنا ، والاستئذان ثلاث مرات قبل الدخول على الناس ، وحفظ الجوارح ، والإصلاح بين الناس ، والقضاء بين الناس بالحق ، وعدم اتباع الهوى (ص ٧٦) ، (وهي صفة ينبغي أن يتحلَّى بها العلماء وتسمى بالموضوعية Objectivity وهي التي تجنبهم التحيزات الشخصية) . كما ينهانا عن الأنانية فيوصينا بألَّا نخص أنفسنا بالدعاء إذا كنا أئمة ، ويحذرنا من أن نكفر أحدًا من المؤمنين ، أو أن نكون من شرار الناس بأن نسلط ألسنتنا عليهم .

ويحاول ابن عربي أن يعلِّمنا الصدق والالتزام فيوصينا بأن نعمل الخير ، وننصح أنفسنا به إذا قلناه أو وصلنا إليه ، وألا نعمل بخلاف ما وصلنا إليه من دليل ، وألا نقلد الآخرين إذا أمكننا الحصول على الدليل بأنفسنا (وهو هنا يشجع الاجتهاد وأعمال الفكر ، وتقديم المثل ، وعدم الاتباعية « أواستقلال » . ويلفت الأنظار إلى أن تكون الغيرة للَّه تعالى ، ويحذر من الغيرة الطبيعية الحيوانية التي تستفز الفرد فتفقده صوابه (وهو بهذا يأمرنا بضبط النفس ، وعدم المسارعة في الغضب (ص ١٠٩ ، ١١٠) وهذه الصفة تعتبر من سمات الشخصية التي تقع على بُعد العصابية Neuroticism) .

ويواصل ابن عربي المسيرة الإرشادية فيقدم عددًا من الوصايا التي يتركز معظمها على علاقة العباد بخالقهم ، فيوصينا بإتيان الطاعة وترك المعصية ، وكثرة السجود والالتزام بالجماعة ، وكثرة الاستغفار ، والحفاظ على الصوم بألا نقترف فيه ذنوبًا . كما ينظم علاقتنا بإخواننا فيأمرنا بالدفاع عن أعراض المسلمين ما استطعنا ، وألَّا يتناجى اثنان دون الثالث ، حفاظًا على مشاعره ، وأن نعطي لكل ذي مكانة مكانته ومقامه .

وتحت عنوان رئيسي « وصايا نبوية » يستكمل سلسلة وصاياه ، وذلك من خلال حديث طويل بين الرسول ﷺ وابن عمه علي بن أبي طالب ﷺ . وهذه الإرشادات والنصائح تتعلق بالعبادات ، والمعاملات ، والعقائد ، وأشكال السلوك من الطعام والشراب ومختلف جوانب الحياة . وهي نصائح غالية وقيمة ، وبعضها ورد في الوصايا السابقة .

كما يقدم تحت عنوان آخر « من وصايا الصالحين » وصايا غير منسوبة لأحد ، ووصايا أخرى للمسيح عليه السلام ، ووصايا يطلق عليها (وصايا نبوية روحية) وأخرى بتنبيه أو بنصيحة ، أو حكمية ويختمها بتذكرة عن المسيح عليه السلام .

والعنوان الأخير في هذا الكتاب ، والذي يستأنف ابن عربي حديثه في الوصايا تحته هو « وصايا نبوية محمدية » . ويستقيها من أحاديثه عليه السلام ، وخاصة حديثه الطويل

إلى أبي هريرة نصائح خاصة بالوضوء ، الطعام ، والنوم والجماع ، الغسل ، والإحسان إلى النساء ، ومساعدة الناس (ص ١٦٤ - ١٧٢) ، (وسلوك المساعدة Helping Behaviour أحد الموضوعات التي تدرس في علم النفس الاجتماعي الحديث) والعدل ، واجتناب الكبائر وغيرها كثير . كما يوصينا بمحاسبة النفس ، وعدم الادعاء في المعرفة والإكثار من مساءلة الحكماء خاصة فيما يتصل بالعقل (ص ١٧٢ - ١٧٤) ، (وموضوع العقل من الموضوعات التي تجد عناية فائقة في علم النفس تحت مسميات الذكاء ، والتفكير والوظائف المعرفية والعمليات الإبداعية وغير ذلك) ويبرر ذلك بأن جميع الأشياء تدرك بالعقل (ونجد أيضًا أن التطرق لموضوع الإدراك يعتبر سبقًا لأحد الموضوعات المهمة في علم الحديث ، وإن لم يفصل فيه القول في هذا الموضوع) . كما يوصينا بالتواضع ، والبُعد عن النفاق ، والذل في غير مسكنة ، ومخالطة أهل الفقه والحكمة . ويؤكد لنا أن أصدق الوصايا وأنفعها ما ورد في القرآن الكريم . وأخيرًا يقدِّم لنا علاجًا ناجحًا لقلقنا ومخاوفنا وهي الثقة بالمقادير ؛ لأنها تجلب الراحة .

وفي نهاية الكتاب يقدم الناشر خاتمة يوضح فيها للقراء عقيدة الشيخ محيي الدين بن عربي كما ذكرها في الجزء الأول من كتابه « الفتوحات المكية » .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجالي علم النفس الاجتماعي ، والإرشاد النفسي .

* * *

فلسفة الأخلاق [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

يشتمل الكتاب على الفصول التالية :

فصل في الأخلاق المذمومة :

وهي موجودة في كثير من الناس ؛ كالبخل والجبن والظلم والشر . أما من يتسمون بالأخلاق الجميلة فقليلون جدًّا ؛ وذلك لأن الغالب على طبيعة الناس هو الشر ، فالإنسان إذا لم يستعمل الفكر ولا التمييز ولا الحياء كان الغالب عليه أخلاق البهائم .

ويرتبط ما جاء في هذا الفصل بالسلوك الأخلاقي Moral behavior (ص ٧ ، ٨) .

فصل في الأخلاق المحمودة :

فإنها وإن كانت في بعض الناس فليست في جميعهم ، وأن الباقين يمكن أن يصيروا إليها بالتدريب والرياضة ويترقوا إليها بالاعتياد والألفة . ثم تحدث المؤلف عن العلة الموجبة لاختلاف الأخلاق وهي النفس ، وقسمها إلى ثلاث قوى : النفس الشهوانية والغضبية ، الناطقة ، وجميع الأخلاق تصدر عن هذه القوى .

ويرتبط هذا الفصل بالسلوك الأخلاقي واكتسابه ، وعلاقته بسمات الشخصية (ص ٩) . كما يرتبط بالدافعة Motivation (النفس الشهوانية) وانفعالات (النفس الغضبية والعمليات العقلية (النفس الناطقة) .

---

(١) القاهرة : محمد عطية الكبتي ، [د . ت] (ص ٦٤) .

فصل في النفس الشهوانية :

وبها جميع اللذات والشهوات الجسمانية ، وهذه النفس قوية جدًّا ما لم يقهرها الإنسان ويهذبها ، ويرتبط ذلك بموضوع الدوافع Motives خاصة فيما يتعلق بالسيطرة على الدوافع أو الرغبات (ص ١٠ ، ١١) .

فصل في النفس الغضبية :

ويشترك فيها الإنسان والحيوان ، وهي التي يكون بها الغضب والجراءة ومحبة الغلبة . وهي أقوى من النفس الشهوانية وأضر بصاحبها إذا ملكته وانقاد لها .

ويرتبط ذلك الفصل بموضوع الانفعالات (خاصة انفعال الغضب) وكذلك بموضوع الدوافع (الدوافع إلى التملك والسيطرة) ، (ص ١٢ - ١٤) .

فصل في النفس الناطقة :

وهي التي يتميز بها الإنسان عن الحيوان ، وبها يمكن للإنسان التمييز والفهم والتذكير ، ومعرفة ما هو حسن وما هو قبيح ، ومن خلالها يمكن للإنسان أن يهذب قوتيه : الشهوانية والغضبية . ويرتبط هذا الفصل بموضوع القدرات العقلية Mental Abilities ، وكذلك بعملية الاقتداء Modeling بالنماذج . وخصائص هذه النماذج (ص ١٤ - ١٧) .

فصل في أنواع الأخلاق وأقسامها :

وهنا تحدث المؤلف عن المستحسن والمستحب من الأخلاق ويعد فضائل ، والمستقبح منها والمكروه ويعد نقائص أو معائب . **أما التي تعد فضائل فمنها** : العفة ، وهي ضبط النفس عن الشهوات والاعتدال في الشهوات . ومنها : القناعة : وهي الاقتصار على ما سنح من العيش ، والرضا بما يسهل من المعاش ، وترك الحرص على اكتساب الأموال وطلب المراتب العالية في جميع ذلك وإيثاره والميل إليه وقهر النفس على ذلك . وكذلك التصون والتحفظ من الهزل ومخالطة أهله وضبط اللسان من الفحش . أما الحلم وهو ترك الانتقام عند شدة الغضب مع القدرة على ذلك ، وهو بالرؤساء والملوك ؛ لأنهم أقدر على الانتقام من مغضبيهم .

ومنها الود وهي المحبة المعتدلة من غير اتباع الشهوة ، والود مستحسن من الإنسان إذا كان وده لأهل الفضل والنبل وذوي الوقار . ومنها الرحمة وهي خلق مركب من الود والجزع .

وهي لا تكون إلَّا لمن ظهر منه لراحمه خلة مكروهة . ومنها الوفاء وهو الصبر على

ما يبذله الإنسان من نفسه . ومنها أداء الأمانة ، وكتمان السر ، ومنها التواضع ، وكذلك صدق اللهجة ، وهو الإخبار عن الشيء على ما هو به ، ومنها سلامة النية ، والسخاء ، والشجاعة ، والمنازعة ، والصبر ، وعظمة الهمة ، والعدل .

وأما الأخلاق الردية التي تعد نقائص ومعايب فإن منها :

الفجور ، وهو الانهماك في الشهوات وارتكاب الفواحش والمجاهرة بها . والتبذل ، وهو إطراح الحشمة وترك التحفظ عن الهزل ومخالطة السفهاء ، والسفه ، وهو ضد الحلم وهو قمة الغضب والطيش من يسير الأمور . ومنها الخرق ، وهو كثرة الكلام وشدة الضحك والمبادرة إلى الأمور من غير توقف وسرعة الجواب . ومنها أيضًا القساوة ، وهو خلق مركب من البغض والشجاعة والقساوة ، وهو التهاون بما يلحق الغير من الألم والأذى . ومنها الغدر ، وهو الرجوع عما يبذله الإنسان من نفسه ويضمن الوفاء به . ومنها إفشاء السر ، والكبر ، والعبوس ، والكذب ، والبخل ، والحسد ، وصغر الهمة .

ومن الأخلاق ما هو في بعض الناس فضيلة وفي بعضهم رذيلة ومنها : حب الكرامة والتبجيل والمقابلة بالمديح والثناء الجميل ، وهو خلق محمود في الأحداث والصبيان ؛ وذلك لأن الصبي إذا مدح على فضيلة ترى فيه كان ذلك داعيًا له من الازدياد من الفضائل .

وأما الأفاضل من الناس فإن ذلك يعد منهم نقيضة ؛ لأن الإنسان يمدح على الفضيلة إذا كانت مستغربة منه . ومنها أيضًا حب الزينة ، وهو مستحسن من الملوك والعظماء . ومنها الزهد ، وهو قلة الرغبة في الأموال والادخار ، وإيثار القناعة . وهذا الخلق مستحسن من العلماء والرهبان ورؤساء الدين والخطباء والواعظين ، وغير مستحسن من الملوك .

ويرتبط ما سبق بموضوع القيم الأخلاقية Moral Values ، وسمات الشخصية Personality Traits وكذلك بموضوع الانفعالات Emotions والحالة المزاجية ، وأنماط الانفعالات (ص ١٧ - ٣٥) كما أن هناك إشارة واضحة لعمليات التشجيع والتدعيم Reinforcement في اكتساب القيم الأخلاقية (ص ٣١) .

فصل في طريق الارتياض بالأخلاق :

ويتحدث فيه المؤلف عن سبب اختلاف الأخلاق في الناس ، وأنه يرجع إلى

اختلاف قوى النفس الثلاث فيهم ، وهي الشهوانية والغضبية والناطقة . وأن ملاك الأخلاق هو تذليل الشهوانية منها والغضبية وتمييز عادات النفس الناطقة واستعمال المحمود من أفعالها وطريق التدرج لاستعمال العادات الجميلة والعدول عن العادات المستقبحة .

ويرتبط هذا الفصل بموضوع الدوافع (خاصة قمع الدوافع والتحكم فيها) من خلال ما يسمى بالنفس الناطقة (أو العقل) وهو ما يمكن أن يدخل في موضوع تغيير الاتجاهات Attítudes Change ، وبرامج الإرشاد والتوجيه النفسي Guidance and Counseling (ص ٣٦ - ٤٦) . كما يرتبط بموضوع الفروق الفردية كما يشير إلى أحد الأساليب المهمة في تعديل السلوك وهو التدرج في تعلم العادات الحسنة ، وفي التخلي عن العادات السيئة .

فصل في أوصاف الإنسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق :

وهو الإنسان الذي لم تفتنه فضيلة ، ولم تشنه رذيلة . وهذا الحد قلما ينتهي إليه إنسان ، وإذا انتهى الإنسان إلى هذا الحد كان بالملائكة أشبه منه بالناس .

فصل لمن طالب الساسية التامة :

أن يستهن بالمال ويحتقره وينظر إليه بالعين التي يستحقها . فالمال إما يراد بغيره وليس مطلوبًا فهو في نفسه غير نافع ، وإنما الانتفاع بالأغراض التي تناول به . ثم تحدث بعد ذلك عن محبي الكمال بأن يجب عليهم أن يعلموا بأنه لا شيء من العيوب والقبائح خافيًا على الناس ، وأن الحسن واضح ويجب التميز بينهما عند التعامل مع الآخرين .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجالي علم النفس العام وعلم النفس الاجتماعي .

* * *

الفتوحات المكية [1]

عرض : د . عبد المنعم شحاتة

عرض الكتاب :

يقع هذا الكتاب في أربع مجلدات من القطع الكبير ، المجلد الأول عدد صفحاته ٧٨٠ صفحة ، والثاني ٧٠٤ صفحة ، والثالث ٥٧٦ صفحة ، والرابع ٥٧١ صفحة ، بالتالي يكون إجمالي صفحاته ٢٦٣١ صفحة وبكل جزء فهرس مستقل .

يصف ابن عربي « الفتوحات المكية » بأنه كتاب في علم المعاني ، ويستهدف به المريد ، موضحًا له طريق التصوف ، وما يجب على التصوف من معارف ومعاملات وأحوال ينبغي أن يكون عليها ؛ ولذلك لا يقتصر الكتاب على وصف أحوال المتصوفة وطرائقهم وتعاملاتهم ، وإنما يتناول تفسير بعض الآيات القرآنية كتوضيحه لمراتب الأسماء الحسنى ، ومعنى « بسم الله الرحمن الرحيم » وفاتحة القرآن الكريم ، وقوله جل وعلا : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] و ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] و ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي .... ﴾ [آل عمران : ٣١] و ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [البقرة : ١٦٣] وغيرها . كما يتناول الفقه ، فيحدث عن الشهادتين وأسرار الطهارة وموجباتها وكيفيتها ، وموضحًا الاختلافات الفقهية في تفاصيل هذه الكيفية ، وبنفس الطريقة يتحدث عن الصلاة والزكاة والحج والدعاء ... وغيرها من العبادات مركزًا على ما يجب على المتصوف أن يسلكه للعبادة الحقة .

---

(١) القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، [د . ت] ، مج .

والرسالة الأولى في هذه المجموعة :

هي الرسالة الإلهية ، ويوجهها إلى من يطلق عليها « كعبة الحسن ، وروضة المزن » . وهي رسالة بليغة رشيقة الأسلوب ، يمس فيها موضوعات شتى ، يبث الكعبة من خلالها شوقه وحبه .

– من خلال حديثه يشير إلى ضرورة تنبه الحواس لتلقي النصح (وهو يشير هنا إلى المبادئ المهمة التي توصل إليها علم النفس الحديث هو الانتباه Attention ، وعلاقته بالتحصيل الجيد ص ٥٥٩) . ثم يذكر الإشارة والتلويح في مقابل التصريح (وهي ضمن ما يدرسه علماء النفس في موضوع التخاطب Communication أو في باب الإشارات الاجتماعية ص ٥٥٩ ، ٥٦٢) .

– يتعرض أيضًا للحب ودرجاته ، ومراحله (وهو يقابل الحب كأحد الانفعالات مما يدرس في علم النفس العام ص ٥٥٩ ، ٥٦٤) .

– ويذكر كذلك عملية تعثر النطق (وهو بغض النظر عن أسبابه وما يعنيه به المؤلف من عيوب الكلام أو الاضطرابات الكلامية التي تلقى العناية من علماء النفس ص ٥٦٠) .

– ويعود مرة أخرى ليذكر بعض عناصر التخاطب وهي : « رسائل ووسائل واستماع » (ومن المعروف الآن أن المهتمين بالتخاطب يدرسون عناصره وهي المرسل وخصاله والمستقبل (أو المستمع) وخصاله ، والرسائل (مضمونها) والوسائل التي تنتقل من خلالها (كاللغة المنطوقة ، أو الإشارات أو غير ذلك ص ٥٦٥) .

– ويقول ابن عربي في موضع آخر من هذه الرسالة : « كم من لسان عجمي قلبه عربي ، وكم من لسان عربي قلبه عجمي » .

ومن أقواله كذلك : « فديت يا كعبة الحسن قلبًا يفهم إشاراتي إليك ، وإيمائي ومقاصدي و إيحائي ، ويبيِّن رمزها ، ويفك معماها ويحل لغزها ، طلسمات سيمياوية وتنبيهات كيماوية » . والجزء الأول من هذه العبارة يدخل كما سبق أن قلنا في باب التخاطب ، بل إن تعريف التخاطب في بعض القواميس الأجنبية الحديثة يتشابه إلى حد كبير مع ما ورد في هذا السياق ، مع التسليم بأن الموقف هنا موقف مجازي حيث المخاطب هو الكعبة المشرفة .

الرسالة الثانية : (الرسالة القدسية) :

ويمضي فيها كما في سابقها ، فيتعرض أولًا للحب والعشق (وهي من الانفعالات

كما قلنا) كما يذكر العلاقة بين الإحساس بالألم ، والتخدير (مجازًا) ونحن نعلم أن للعوامل النفسية دورًا مهمًّا في مدى الإحساس بالألم (ص ٥٦٩) .

- ويعرض بعد ذلك للعقل وما يصيبه من حالات العشق والهيام (ص ٥٧٠) .

- ثم يعود مرة أخرى ليذكر الإشارات ، ثم يضيف لها الإدراكات والإحاطات (وهي من الموضوعات ذات الصلة بعلم النفس ص ٥٧٢) .

- ويذكر كذلك أن هناك معنى يربط بين العقل والنفس ، ولكنه لا يفصح عنه (ومجرد الإشارة هنا تنطوي على الكثير بالنسبة لدارسي علم النفس ومحاولاتهم التفرقة أو التمييز بين ما هو عقلي وما هو نفسي كما هو الحال في الأمراض على سبيل المثال ص ٥٧٢) .

الرسالة الثالثة : (الرسالة الاتحادية) :

- يتعرض في هذه الرسالة لتعريف الروح فيقول : « فإن روح الحيرة بخار لطيف له سريان شريف ، ينحل من رطوبة الدم ، وينتشر في جميع أعضاء الجسم ، به تكون الحيرة في الأشباح وهو المعبر عنه بالأرواح ، ومادته من الاستنشاق الهوائي بالقوة الشمية لترويج الحرارة التي في القلب الغريزية » .

وقدم ابن عربي كذلك بعض ما يصيب النفس من الرزايا ، والمنايا ، والبلايا (ص ٥٨٢) .

- ويرى ابن عربي كما يرى ابن سينا والغزالي - أن النفس لها ثلاث قوى :

الأولى : القوة الناطقة حضرتها الدماغ (أي مكانها) ولها فيه منازل على عدد النوازل يحفظها في اللفظ ، الخيال في مقدمة الدماغ ليلقى المحسوسات ، والفكر في وسط الدماغ للتمييز والترجيح في القضايا والحكومات والحفظ لصون ما حكم به الفكر في القضيات . فالفكر حاكم محقق ، والخيال شاهد مصدق ، والحفظ أمين موثق . فهذه القوة الناطقة بكمالها قد تميزت وفي صدر مركبها قد تبرزت . أما القوة الثانية : فهي القوة الغضبية وحضرتها القلب . وأما القوة الثالثة : فهي القوة الشهوية وحضرتها الكبد ، ولهذا لها تدبير الجسد (وهذا الكلام الأخير يدخل في صميم علم النفس مع بعض التحفظات التي تختلف فيها مع ابن عربي) فتقسيم النفس (أو الإنسان) إلى قوى (أو قدرات) كالتفكير والخيال والحفظ ، ثم محاولة تحديد مواضعها في الجسم (بينما يحاول علماء النفس تحديد مواضعها في الدماغ أو المخ Brain) نجد لكل ذلك

صدى في دراسات علم النفس الحديث وعلم النفس العام وعلم النفس الفسيولوجي وعلم النفس العصبي ص ٥٨٣) .

الرسالة الرابعة : (الرسالة السريانية) :

– يعود ابن عربي مرة أخرى ليردد بعض ما سبق والذي نجد له دلالة في الدراسات النفسية كما سبق أن أشرنا مثل الإشارات الصريحة والضمنية (ص ٥٨٨) وكذلك التذكر (ص ٥٨٨) .

– كما يربط في موضوع تال بين العقل ، ومرتبة العلم (وإذا عاملنا العقل باعتباره الذكاء مثلًا ، والعلم « بتحصيل المعرفة » فإن لذلك مماثلًا في دراسات علم النفس ، حيث ندرس العلاقات بين الذكاء والتحصيل Achievement ص ٥٩٢) .

الرسالة الخامسة : (الرسالة المشهدية) :

– كما حدث في الرسائل السابقة نجد حديثًا عذبًا عن الحب العشق وماهيته (وهو ما يدخل في باب الانفعالات كما سبق أن قلنا ص ٦٠٤) . كما يتحدث عن تعدد اللغات وأثر ذلك في التخاطب (ص ٦٠٥) . كما يقرن في موضع آخر بين الذكاء والهمة (أو لنقل الربط بين الذكاء والإيجاز ص ٦٠٦) .

– ويتعرض للوسواس ، وكيف يعالج بالتمائم والرقى (ونحن نتفق معه حول الوسواس باعتباره مرضًا يجب التداوي منه (ص ٦٠٦) ويقوم علماء النفس المحدثون بعلاج الوساوس بوسائل وأساليب حديثة تختلف عن الوسائل والأساليب التي كانت متبعة في الماضي .

الرسالة السادسة : (الرسالة الفردوسية) :

– مما ورد في هذه الرسالة عبارات يذكر منها الإحساس والحواس ، والتمييز بين اللذة الحسية ، والسرور العقلي والنعيم العلمي (ص ٦١٠) ، كما يحض على رفع الالتباس بصحيح القياس (ص ٦١١) .

– ويربط كذلك في موضع آخر بين الفهم والإدراك (وهي قضية أثيرت ونوقشت في بعض كتابات علم النفس الحديث ص ٦١٤) .

الرسالة السابعة : (الرسالة العذرية) :

ويمضي ابن عربي بنفس طريقته في الرسائل السابقة ، يبث أشواقه وهمومه ودعاءه

إلى كعبة الحسن . ولم نقف على شيء يمكن الإفادة منه في دراسات علم النفس بشكل مباشر أو غير مباشر .

الرسالة الثامنة والأخيرة : (الرسالة الوجودية) :

ويبدأ هذه الرسالة بتوضيح شرف العلم ، ويرى أن أشرف العلوم مرتبة وأعظم المعارف منزلة معرفة النفس ، والرب (ص ٦٢٦) .

* * *

المنذري (ت ٦٥٦هـ)
كفاية التعبد وتحفة التزهد [1]

عرض : د . معتز سيد عبد الله

التعريف بالمؤلف :

هو الإمام المحدث والشيخ الحافظ المتقن عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله بن سلامة بن سعد : الحافظ الكبير ، والورع الزاهد ، شيخ الإسلام ، زكي الدين أبو محمد المنذري الشامي ثم المصري ، ولي الله ، المحدث عن رسول الله ﷺ ، والثبت الحجة الذي أنفق حياته في طلب العلم وتعليمه ، وشرح حديث رسول الله ﷺ وتخريجه ، والذي بين صحيحه وحسنه ، ومرسله وضعيفه ، وأفاد العالم بذكر رواة الحديث ، واتقى ربه فأثمر علمه ، وأخلص في عمله فأينعت تعاليمه ، وجاهد في الله حق جهاده فبارك الله في تلاميذه ، وكان لنا مثلًا أعلى وقدوة تحتذى .

كتب عنه وتحدث علماء أجلاء أذكر منهم : صاحب تذكرة الحفاظ في الجزء الرابع من كتابه ، والسيوطي في الجزء الأول من حسن المحاضرة ، والعماد الأصفهاني في الجزء الخامس من شذرات الذهب ، والسيوطي في طبقات الحفاظ ، وصاحب البداية والنهاية في الجزء الخامس عشر ، وصاحب فوات الوفيات في الجزء الأول ، وصاحب النجوم الزاهرة في الجزء السابع .... إلخ .

ويحدد أبو المحاسن في النجوم الزاهرة تاريخ وفاته في سنة (٦٥٦هـ) ، ويسميه الإمام

---

(١) تحقيق : يسري عبد الغني عبد الله ، بيروت ، دار الكتب العلمية (١٩٨٧م) ، (١١٢ص) .

الحافظ ، الحجة ويذكر اسمه كاملًا : (أبو محمد زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي ابن عبد اللَّه بن سلامة) ولكن في نسخة أخرى من النجوم الزاهرة نجد أن جده الأخير : (عبد السلام) ولكن بالرجوع لتذكرة الحفاظ ، والمنهل الصافي ، وفوات الوفيات ، وشذرات الذهب نعرف أن جده الأخير هو (سلامة) وليس (عبد السلام) .

ويواصل أبو المحاسن التعريف بالمنذري فيقول : (عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد اللَّه ابن سعد بن سعيد المنذري) ، وأما ميلاده فكان في (٥٥١هـ) . وهو دمشقي الأصل ، إلَّا أن ميلاده كان بالقاهرة ، كذلك إقامته ووفاته .

وقد رحل المنذري إلى مكة المكرمة وسمع الحديث النبوي من أبي عبد اللَّه بن البناء وطبقته ، ثم ذهب إلى دمشق السورية وسمع من عمر بن طردذ ، ومحمد بن وهب بن الشريف ، والخضر بن كامل وأبي اليمن الكندي ، وخلق ، ثم سمع بـ (حران) والرهاد والإسكندرية وغيرها من بلاد المعمورة الإسلامية .

ومن مؤلفاته : شرح على التنبيه (فقه) ، ومختصر سنن أبي داود وحواشيه (كتاب مفيد يسطع ضوؤه لكل مسلم) ، ومختصر صحيح مسلم ، ومعجم المنذري ، وكتاب الجامع في الترغيب والترهيب ، وكتاب الخلافيات (ذكره الذهبي) ، وكتاب مذاهب الفلاسفة (ذكره الذهبي) .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٧١ صفحة من القطع المتوسط ، ويتكون من أربعة أبواب يدور مضمونها حول فضائل بعض العبادات هي الصلاة ، والصوم ، والصدقة ، والدعاء ، والذكر . وينتهي الكتاب بفهرس مفصل للموضوعات . وهو ما نعرض له على النحو التالي :

الباب الأول : في الصلاة :

وفيه يعرض المؤلف لفضل الصلاة وقيمتها بالنسبة لحياة المسلم . ومن ضمن ما جاء في فضل الصلاة أن روى أبو هريرة ﵁ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن ما لم يغش الكبائر** » .

وعن فضل الصلاة لأول وقتها روى عبد اللَّه بن مسعود ﵁ قال :

سألت النبي ﷺ : أي العمل أحب إلى اللَّه ﷿ ؟ قال : « **الصلاة على وقتها** » .

قلت : ثم أي ؟ قال : « **بر الوالدين** » . قلت : ثم أي ؟ قال : « **الجهاد في سبيل الله** » ، قال : حدثني بهن ولو استزدته لزادني ، متفق عليه .

وعن ما جاء في فضل الجماعة روى أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « **صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمسة وعشرين جزءًا** » متفق عليه .

وعن ما جاء في ركعتي الفجر روى سعيد بن هشام عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « **ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها** » انفرد به مسلم .

وعن ما جاء في فضل المحافظة على الفجر والعصر روى أبو بكر بن عمارة بن رؤيبة عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لن يلج النار أحدٌ صلَّى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها** » يعني الفجر والعصر . انفرد به مسلم .

وعن ما جاء في صلاة الضحى روى أبو الدرداء ﷺ قال : « **أوصاني حبيبي بثلاث أن لا أدعهن ما عشت : بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وصلاة الضحى ، وبأن لا أنام حتى أوتر** » . انفرد به مسلم .

وعن ما جاء في عدد ركعات الضحى ، قد تقدم أنها ركعتان وروت معاذة عن عائشة قالت : « كان رسول الله ﷺ يصلي الضحى أربعًا ويزيد ما شاء الله » انفرد به مسلم .

وعن ما جاء في صلاة قبل الظهر وبعدها روت أم حبيبة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من حافظ على أربع ركعات قبل الظهر وأربع بعدها حرَّمه الله على النار** » .

وعن ما جاء فيمن صلى في يوم اثنتي عشرة ركعة روت أم حبيبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **ما من عبد مسلم يصلي لله – تعالى – اثنتي عشرة ركعة تطوعًا من غير الفريضة إلَّا بنى الله له بيتًا في الجنة** » انفرد به مسلم .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي يشتمل عليها هذا الباب هي المقصد أو النية Intention (ص ١٥) ، والالتزام الديني Religious Commitment (ص ١٦ ، ١٧) .

الباب الثاني : في الصيام (أحكامه وفضائله) :

وفيه يعرض المؤلف لأحكام الصيام وفضائله بالنسبة لحياة المسلم فقد روى أبو هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **قال الله عز وجل : كل عمل ابن آدم له إلَّا**

الصيام فإنه لي وأنا أجزي به . فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل : إني صائم ، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله – تعالى – يوم القيامة من ريح المسك ، وللصائم فرحتان يفرحهما ؛ إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقي ربه فرح بصومه » متفق عليه .

وعن ما جاء في صوم المحرم روى أبو هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر المحرم** » انفرد به مسلم .

وعن ما جاء في صيام عاشوراء روى أبو قتادة الأنصاري ﷺ أن رسول الله ﷺ سئل عن صومه فذكر الحديث إلى قوله : وسئل عن صوم يوم عاشوراء ، فقال : « **يكفر السنة الماضية** » انفرد به مسلم .

وعن ما جاء في صوم شعبان روت عائشة رضي الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول : لا يفطر ، ويفطر حتى نقول : لا يصوم ، وما رأيت رسول الله ﷺ استكمل صيام شهر قط إلّا رمضان ، وما رأيته في شهر أكثر منه صيامًا في شعبان » متفق عليه .

وهناك دلائل أخرى مماثلة عن فضائل صيام ستة أيام من شوال ، وعشر من ذي الحجة ، ويوم عرفة وثلاثة أيام من كل شهر ويوم الاثنين .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي يشتمل عليها هذا الباب هي : ضبط النفس Self Control (من ص ٣٢ إلى ٤٠) .

الباب الثالث : (باب الصدقة) :

وفيه يعرض المؤلف لفضل وقيمة الصدقة بالنسبة للمسلم مهما صغر حجمها أو مقدارها .

فقد روى أبو هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما من يوم يصبح العباد فيه إلّا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللّهم أعط منفقًا خلفًا ، ويقول الآخر : اللّهم أعط ممسكًا تلفًا** » متفق عليه .

وروى عدي بن حاتم ﷺ عن رسول الله ﷺ : أنه ذكر النار فتعوذ منها وأشاح بوجهه ثلاث مرات ، ثم قال : « **اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا فكلمة طيبة** » متفق عليه .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي يشتمل عليها هذا الباب هي : الغيرية Altruism

(ص ٤١ - ٤٩) ، والتعاون Co-operation (ص ٤١ - ٤٩) ، والثواب Reward (ص ٤٩) .

الباب الرابع (في الدعاء والذكر) :

وفيه يعرض المؤلف لفضل الدعاء والذكر بالنسبة للمسلم . فقد روى النعمان ابن بشير ﷺ عن النبي ﷺ قال : « **الدعاء هو العبادة** » ثم قرأ ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] .

وهناك أدعية عديدة تناسب كل الأوقات والمناسبات ، كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - يذكرها ؛ فمنها ما يقال عند الاستيقاظ من النوم ، ومنها ما يقال عند دخول الخلاء ، ومنها ما يقال بعد الفراغ من الوضوء ، ومنها ما يقال عند الصباح ، ومنها ما يقال عند سماع الأذان ، ومنها ما يقال بعد التسليم من الصلاة ، وما يسبح به في الأيام وفضل التسبيح ، ومنها ما يقال عند القيام من المجلس ، ومنها ما يقال عند المساء .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي يشتمل عليها هذا الباب هي :

التوقيع Expectation والتمني والرجاء (من ص ٥٠ - ٦٧) .

* * *

ابن العديم الحلبي (ت ٦٦٠هـ)
تذكرة الآباء - تسلية الأبناء
المسمى : الذراري في ذكرى الداري [1]

عرض : د . معتز سيد عبد الله

التعريف بالمؤلف :

هو الإمام كمال الدين أبو حفص (أو) أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة اللَّه الشهير بابن العديم الحلبي ، والمعروف بابن أبي جرادة ، من أعيان أهل حلب وفضلائهم ، وبيت أبي جرادة بيت مشهور من أهل حلب ، وأدباء ، وشعراء ، وفقهاء ، يتوارثون الفضل كابرًا عن كابر ، وتاليًا عن غابر .

وُلِد بحلب في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، ورحل إلى دمشق ، ثم فلسطين ، ثم الحجاز ، ثم العراق ، ثم استقر في القاهرة حتى توفي .

سمع من أبيه ومن عمه ومن جماعة كثيرة بدمشق وحلب والقدس والحجاز والعراق ، انتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة . وكان محدثًا فاضلا ، حافظًا مؤرخًا ، كاتبًا بارعًا ، شاعرًا مجيدًا ، وكان إمامًا في فنون كثيرة . كان قد قدم مصر لما جفل الناس من التتر ، ثم عاد بعد خراب حلب ، ثم عاد إلى القاهرة ومات بها سنة (٦٦٠ هـ) ودُفن بالقرافة .

له تصنيفات رائقة ؛ منها : بغية الطالب في تاريخ حلب – مخطوط وهو كبير جدًّا وقد اختصره في كتاب آخر سماه : زبدة الحلب في تاريخ حلب ، ومنها كذلك : سوق الفاضل ووصف الطيب ، والأخبار في ذكر بني جرادة ، ودفع الظلم والتجري عن

---

(١) تحقيق : علاء عبد الوهاب محمد ، ط ١ ، مكتبة التوعية الإسلامية (١٩٨٤م) ، (٩٤ص) .

أبي العلاء المعري ، والتذكرة . ومن مصادر ترجمته معجم الوفيات ، وفوات الوفيات ، وإرشاد الأريب ، والجواهر المضيئة ، وأعلام النبلاء ، ومجلة المجمع العلمي العربي ، والفهرس التمهيدي ، والنجوم الزاهرة .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٩٤ صفحة من القطع المتوسط ، ويتكون من ثلاثة عشر بابًا ، يدور مضمونها حول تقديم مجموعة من النصائح والتوصيات التي يجب أن يلتزم بها الآباء في تربيتهم لأبنائهم ، وما يعود عليهم من نفع أو ضرر لإنجابهم الأولاد ، وخصائص النجباء والحمقى منهم ، وحقوق الأبناء على الآباء ، وواجب الأبناء نحو آبائهم .... إلخ . وينتهي الكتاب بعرض فهرس تفصيلي للمراجع وآخر للموضوعات .

وهو ما نعرض له على النحو التالي :

الباب الأول : في اكتساب الأولاد والحث عليه :

ويتلخص في أنه دعوة إلى التناسل والإكثار من إنجاب الذرية الصالحة التي تسبح بحمد اللّه تعالى . فقد قال رسول اللّه ﷺ : « **تناسلوا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة** » .

وقال عمر رضي الله عنه : « إني لأكره نفسي على الجماع رجاء أن يخرج اللّه نسمة تسبحه وتذكره » . وذهب أبو حنيفة رضي الله عنه إلى أن الاشتغال بالنكاح أفضل من التخلي لنفل العبادة من حيث إنه يفضي إلى الولد الذي به بقاء العالم إلى الأمد الموعود ، وعود مصلحة الولد إلى الوالد حيًّا وميتًا بنصره لوالده في حال حياته ، والنفقة عليه على تقدير الحاجة إليه وإمداده إياه بأنواع الثواب بعد وفاته من الدعاء والصدقة والترحم عليه بسببه .

ومن المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الباب مفهوما الدافع الجنسي Sex Motive (وهو دافع بيولوجي المنشأ) ، والدافع إلى الأبوة (وهو دافع اجتماعي المنشأ) . وهما على علاقة ببعضهما البعض .

الباب الثاني : في المنع من اكتسابهم والتحذير منهم :

ويتلخص في أنه دعوة إلى المنع من اكتساب الأولاد منهم حتى لا يكون ذلك الشغل الشاغل للإنسان يبتعد به عن عبادة اللّه تعالى . وهذه الدعوة تقابل تلك التي عرضنا لها

في الباب الأول ، وهي الدعوة إلى اكتساب الأولاد والحث عليه ، فقد قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن : ١٤] . وقال النبي ﷺ : « **لا يكن أكثر شغلك بأهلك وولدك ، فإن يكن أهلك وولدك أولياء الله فإن الله لا يضيع أولياءه ، وإن يكونوا أعداء الله فهمك وشغلك بأعداء الله** » .

وسئل فيلسوف : لما لا تطلب الولد ؟ فقال : من محبتي للولد . وقيل لآخر : لو تزوجت فكان لك ولد تذكر به ، فقال : و الله ما رضيت الدنيا لنفسي فأرضاها لغيري . وقيل لبعض الأعراب : لما لا تتزوج ؟ فقال : مكابدة العزوبة أصلح من الاحتيال لمصلحة العيال .

ومن المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها الباب الخوف Fear والقلق Anxiety والعداوة Hostility (ص ١٨ - ٢٠) .

الباب الثالث : في مدح الأولاد وذكر النعمة بهم :

ويتلخص في أنه دعوة إلى مدح الأولاد وذكر النعمة بهم ، فهم من نعم الدنيا التي أنعم بها الله تعالى : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف : ٤٦] ، وقال النبي ﷺ : « **الولد ثمرة القلوب** » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « **الولد ريحان من الجنة** » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « **البنات حسنات ، والبنون أنعم ، والنعم مسؤول عنها** » .

وقال الفضيل : ريح الولد من الجنة . وكان يقال : ابنك ريحانتك سبعًا ، ثم خادمك سبعًا ، ثم عدو أو صديق . وقال الحجاج لابن القرية : أي الثمار أشهى ؟ قال الولد : وهو في نخل الجنة .

ومن المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الباب القيم المادية ، (ص ٢١ - ٢٤) ، والقيم الأسرية Family Values (ص ٢١ - ٢٤) ، والتعاطف Empathy (ص ٢١ - ٢٤) ، والمودة Intimacy (ص ٢١ - ٢٤) .

الباب الرابع : في ذمهم وما يلحق الآباء من التعب بسببهم :

ويتخلص في أنه دعوة إلى التحذير من الأبناء لما يمكن أن يسببوه من مكروه ومتاعب في الدنيا لآباءهم . ويقابل هذا الفصل في السابق ، والخاص مدح الأولاد وذكر النعمة بهم . فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ [التغابن : ١٤] . وقال النبي ﷺ : « **الولد مبخلة مجبنة مجهلة** » ويروى محزنة ، وقال عليه الصلاة والسلام لولد فاطمة رضي الله عنها : « **إنكم لتجبنون ، وإنكم لتبخلون ، وإنكم لمن ريحان الجنة** » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « **من علامات الساعة أنِ يكون الولد غيظًا ، والمطر قيظًا ، وتفيض الأشرار فيضًا** » .

ومن المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الفصل العداوة Hostility (ص ٢ - ٢٨) ، والكراهية Hate (ص ٢٥ - ٢٨) والخوف Fear (ص ٢٥ - ٢٨) ، والنفور Intolerance (ص ٢٥ - ٢٨) .

الباب الخامس : في ذكر النجباء من الأولاد :

ويتلخص في ذكر بعض محاسن نجائب الأولاد وأفضلهم خلقًا وعقلًا . فقد قال رسول اللّه ﷺ : « **من سعادة الرجل أن يشبه أباه** » . وقال بعض الحكماء : الحياء في الصبي خير من الخوف ؛ لأن الحياء يدل على العقل ، والخوف يدل على الجبن . قال ابن عباس ﷺ : عَرَامة الصبي زيادة في عقله . وقالت ماوية بنت النعمان بن كعب لزوجها لؤي بن غالب : أي أولادك أحب إليك ؟ قال : الذي لا يرد بسطة يده بخلٌ ، ولا يلوي لسانه عمًى ، ولا يغيِّر طبعه سفه ، يعني كعب بن لؤي .

سئلت أعرابية عن ابنها فقالت : أنفع من غيث ، وأشجع من ليث ، يحمي العشيرة ، ويبيح الذخيرة ، ويحسن السريرة .

ومن المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الباب العقل Mind ، أو الذكاء بالمعنى العلمي (ص ٢٩ - ٣٩) ، والخوف Fear (ص ٢٩ - ٣٩) ، والخجل Shame (ص ٢٩ - ٣٩) ، والأخلاق Morals (ص ٢٩ - ٣٩) ، والسعادة Happiness (ص ٢٩ - ٣٩) .

الباب السادس : في ذكر الحمقى منهم :

ويتلخص في ذكر بعض سمات الأبناء الحمقى ، ومن ثم فمضمون هذا الفصل يقابل الفصل السابق ، والذي عرضنا فيه لبعض ملامح الأبناء النجباء . قيل إن الحمق يتولد غريزة ولا يتغير . وأما الرعونة فإنها تحدث من مخالطة النساء وتزول . ومعنى ذلك : أنه من السهل علاج الأبدان ، مقارنة بعلاج العقول . ومن أمثلة هؤلاء الحمقى أن رجلًا وجه ابنه ليشتري له حبلًا طوله عشرون ذراعًا ، فعاد من بعض الطريق ، وقال : يا أبي ، في عرض كم ؟ فقال : في عرض مصيبتي بك .

وفي المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الباب في مجموعة مفهوم التخلف العقلي Mental Retardation (ص ٤٠ - ٤٢) .

الباب السابع : في محبة الآباء للأبناء :

ويتلخص في أنه نموذجًا لمقدار ما يكنه الآباء من مشاعر ومودة لأبنائهم ، وشكل التعبير عن مشاعرهم الفياضة نحو أبنائهم وخوفهم عليهم من أن يصيبهم مكروه .

ومن الدلائل على ذلك أن الإمام علي - كرم اللَّه وجهه - رأى الحسن يتسرع إلى الحرب ، فقال : املكوا عني هذا الغلام لا يهدني فإني أنفس بهذين (أي الحسن والحسين) على الموت ؛ لئلا ينقطع بهما نسل رسول اللَّه ﷺ .

ومن المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الفصل الانفعالات Emotions (وخاصة الحب والخوف : ص ٤٣ - ٤٧) .

الباب الثامن : فيما يجب لهم على الآباء :

ويتلخص في تحديد ما يجب على الآباء من أدوار ومسؤوليات نحو أبنائهم . ومنها أنه ينبغي للوالد أن لا يسهو عن تأديب ولده ، ويحسِّن عنده الحسن ، ويقبِّح عنده القبيح ، ويحثه على المكارم وعلى تعلم العلم والأدب ويضربه على ذلك . كما أنه يجب على الوالد أن يحسن اختيار أم ولده واسمه ، وأن يتتبع مراحل تربيته ومعيشته ليتأكد من أنها تسير على ما يرام ، فقد قال رسول اللَّه ﷺ : « **من حق الولد على والده أن يحسن اسمه ، ويحسن موضعه ، ويحسن أدبه** » .

ومن المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الباب التنشئة الاجتماعية Socialization (ص ٤٨ - ٥٥) ، والنموذج الاجتماعي Social Model (ص ٤٨- ٥٥) ، أو القدرة Abiltiy (ص ٤٨ - ٥٥) ، والعقاب البدني Physical Punishment (ص ٤٨ - ٥٥) ، والتدعيم Reinforcement (ص ٤٨ - ٥٥) .

الباب التاسع : في توصية الآباء معلمي أولادهم بهم :

ويتلخص في تقديم بعض النصائح والوصايا للآباء عند تربية أبنائهم . وأول هذه الوصايا أن يبدأ الآباء بإصلاح نفوسهم والتخلص من عيوبهم ؛ لأن الأبناء يتعلمون من آبائهم ، فإن كانوا حسنى الخلق تأثر بهم أولادهم ، وإذا كانوا سيئي الخلق تأثروا بهم كذلك . ويلي ذلك ضرورة أن يعلموا أبناءهم كتاب اللَّه تعالى والالتزام بتعاليم الدين ، وأن يحببوهم فيه ، وأن يعلموهم إتقان العلوم علمًا علمًا ، وأن يطلبوا منهم تجنب محادثة النساء ، وأن يرووا لهم سير الحكماء ، وأن يعلموهم الصدق والشرف والأمانة ،

وأن يجنبوهم الشغلة والحشم ، وأن يهتموا بغذائهم حتى تصح عقولهم ، وتشتد قلوبهم .

ومن المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الباب التنشئة الاجتماعية Socialization (ص ٥٦ - ٦٠) ، والنموذج الاجتماعي Social Model (ص ٥٦ - ٦٠) ، والقيم الأخلاقية (مثل الصدق والتدين والأمانة) ، (ص ٥٦ - ٦٠) ، وجماعة الأقران Peer Group (ص ٥٦ - ٦٠) ، والتفاعل الاجتماعي Social Interaction (ص ٥٦ - ٦٠) ، والقدرات العقلية Mental Abilities (ص ٥٦ - ٦٠) .

الباب العاشر : في ذكر كلام الصبيان :

ويتخلص في أنه يجب الاستماع إلى كلام الأطفال الصغار في ردهم على بعض المواقف التي يتعرضون لها . ففي كثير من الأحيان تكون هذه الردود منطقية وممتعة ، وتعبِّر عن وعي واضح بالمواقف التي يتعرض لها هؤلاء الأطفال . ومن أمثلة هذه المواقف . أن أعرابيًا عاتب ابنه وذكره حقه ، فقال : يا أبة ! إن عظيم حقك علي لا يبطل صغير حقي عليك .

ومن المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الباب سعة الأفق Broadmindedness (ص ٦١ - ٧٨) ، والخيال Imagination (ص ٦١ - ٧٨) .

الباب الحادي عشر : في ذكر الخوف عليهم والشفقة والرأفة :

ويتلخص في أن الآباء يخافون على أولادهم ، ويشعرون بالرأفة والشفقة نحوهم ، وخاصة إذا تعرضوا لبعض المخاطر والصعوبات والعقبات في حياتهم .

وهنا يقال : إذا ترعرع الولد تزعزع الوالد . ومن أمثلة ذلك : أن عبد الملك بن مروان أخذ أحد لصوص العرب فأمر بقطع يده ، فجاءت أمه ، فقالت : يا أمير المؤمنين ولدي وكاسبي ، قال : بئس الولد ولدك وبئس الكاسب كاسبك ، هذا حد من حدود اللّٰه تعالى لا أعطله ، قالت : أجعله من الذنوب التي تستغفر اللّٰه منها ، فعفا عنه .

ومن المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الباب الانفعالات Emotions (وخاصة الخوف والشفقة والرأفة) (ص ٧٨ - ٨١) .

الباب الثاني عشر : في إيثار بعضهم على بعض :

ويتلخص في أن بعض الآباء يميزون بين أبنائهم في المعاملة أثناء تربيتهم ، فيفضلون واحدًا على الآخر ، أو يحبون بعضهم دون البعض الآخر ، أو يعطون لواحد منهم أموالًا

أو امتيازات لم يحصل عليها باقي الأفراد ، وهذا ما نهى عنه رسول الله ﷺ حين قال : « **اعدلوا بين أولادكم** » . فالمساواة والعدل بين الأولاد من شأنها أن تزيد المحبة بينهم ولا تجعل الأحقاد تنشأ .

ومن المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الباب التمييز Discrimination (ص ٨٢ - ٨٤) ، وقيمة المساواة Equality Value (ص ٨٢ - ٨٤) ، وقيمة العدالة Justice Value (ص ٨٢ - ٨٤) .

الباب الثالث عشر : في ذكر من تمنى الحياة وكره الموت لأجل الولد :

ويتلخص في أن بعض الأشخاص ربما يتمنون أن تستمر حياتهم ويكرهون مواجهة الموت من أجل حبهم الشديد لأبنائهم ؛ والمثال : حينما أتى ملك الموت لإبراهيم عليه السلام ، فطلب منه أن يودع ابنه إسماعيل ، فوافق وتركه ، فتعلق إسماعيل بأبيه إبراهيم وجعل يتقطع عليه من البكاء .

ومن المفاهيم السيكولوجية التي اشتمل عليها هذا الباب مفهوم الانفعالات Emotions (وخاصة البكاء) والحب (حب الأولاد) ، والكراهية (كراهية الموت) ، (ص ٨٥ - ٨٨) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام وعلم النفس الاجتماعي .

* * *

ابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨)
عيون الأنباء في طبقات الأطباء [1]

عرض : عبد المنعم شحاتة

التعريف بالمؤلف [2] :

موفق الدين أبو العباس أحمد بن قاسم بن أبي أصيبعة السعدي الخزرجي ، من أطباء العرب المعروفين ، كان والده أمهر الكحالين (أطباء العيون) في دمشق . ولد موفق الدين في دمشق عام (٦٠٠هـ) ، وانتقل إلى القاهرة في عهد الدولة الأيوبية ، وخدم في المارستان الناصري - الذي أنشأه الناصر صلاح الدين - واشتهر بحسن مداواته للعيون ، ثم انتقل إلى « صرخد » (في حوران) ومكث بها حتى توفي عام (٦٦٨هـ) .

عرض الكتاب :

يبدأ الكتاب بتوضيح بداية الطب ، أي الكيفية التي بدأ بها ، ويعرض الآراء التي تتناول هذه النقطة ، والتي تنقسم إلى آراء تقول بقدمه ، وأخرى تقول بحدوثه بعد خلق الإنسان وذلك عن طريق الوحي والإلهام ، أو الاتفاق والمصادفة ، أو بملاحظة الحيوان .

أما من أول من ظهرت فيهم صناعة الطب ، فالبعض يرى أنهم قدماء اليونان ، وآخرون يرون أنهم الكلدانيون ، وفريق ثالث يرى أنهم أهل الهند ، ورابع يرى أنهم أهل سيناء .

ثم يعرض الكتاب لترجمة لكبار الأطباء (أكثر من ٤٠٠ طبيب) زمن الإغريق

---

(١) تحقيق : نزار رضا ، بيروت ؛ دار مكتبة الحياة ، [د . ت] . (٧٩١ص) .

(٢) المصدر : عيون الأنباء في طبقات الآباء ، (ص٥) .

(أو اليونان) والرومان والهنود والعرب والعجم وأطباء - كل قطر على حدة - العراق والجزيرة وديار بكر والهند وبلاد المغرب ومصر والشام . فيذكر لكل طبيب منهم ، من تتلمذ لهم (شيوخه) ومن علمهم (تلاميذه) ، وأهم ما ألفه أو نقله إلى العربية من السريانية أو اليونانية ...... أو غيرها ، ويذكر لبعضهم بعضًا من آرائه أو نوادره .

ولأن الكتاب هدفه الترجمة لحياة أطباء آخرين ، فالإشارات النفسية فيه قليلة ، إلا أنها موجودة ، وسوف نشير إليها أولًا ، ثم إلى قائمة من الكتب التي وردت في المتن ، وتشير عناوينها إلى مضمونها النفسي أي تتناول موضوعات تدخل في اهتمام علم النفس المعاصر .

في صفحة (١٢ ، ٦٣) ترد إشارة لاستخدام قدماء اليونان ، وكذلك « فيثاغورس » الألحان والإيقاعات لعلاج آلام النفس ، وكثير من أساليب العلاج النفسي الحديث تعتمد على الاسترخاء في معالجتها ، فالمحلل النفسي - يجعل مريضه يسترخي على أريكة مستعينًا بموسيقى هادئة وإضاءة خافتة ، وتلاحقنا الأنباء عن أبحاث حول تأثير الموسيقى في الإنسان والحيوان والنبات .

في صفحة (١٥) نجد أن القدماء يشخصون بعض الحالات المرضية بأنها « كرب » أي حزن بالنفس ، « قلق » وهذه أعراض الاكتئاب Depression وكانوا يعالجونه - انظر (ص ٣٦) بوضع إكليل من شجر (الغار) على الرأس .

ويقدم (ص ٣٦) تعريفًا لمرض « الصرع » بأنه علة تمنع الأعضاء النفسانية عن أفعالها منعًا غير تام بسبب سدة بعض بطون الدماغ ، وفي مجاري الأعصاب المحركة من خلط غليظ أو لزج كثير ، فتمنع الروح عن السلوك فيها سلوكًا طبيعيًا فتتشنج الأعضاء ، ويعالجونه (ص ٢٥) بنبات (الخريق) .

ونقل (ص ٤٦) من وصايا « أبقراط » للطبيب « أن يكون مشاركًا للعليل ، مشفقًا عليه » ، وينقل (ص ٤٢٠) عن أبي بكر محمد بن زكريا الرازي قوله : « ينبغي للطبيب أن يوهم المريض أبدًا الصحة ، ويرجيه بها و إن كان غير واثق من ذلك ، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس » يقترب هذا الأسلوب من طريقة « روجرز » Rogers التي سماها العلاج المتمركز حول العميل Client Centered Therapy التي تعتمد على تعاطف المعالج وتقبله التام للمريض ، ومشاركته آلامه وأحزانه ، وبث الأمل فيه عن طريق الود والدفء .

كما يشير قول الرازي إلى تأثير الحالة النفسية في الصحة ، وهو تأثير - سواء كان إيجابيًا أو سلبيًا - يعترف به الأطباء على اختلاف تخصصاتهم وكثير من الأمراض الجسمية تعد مظهرًا لمشاعر نفسية سلبية ، وقد أورد ابن أبي أصيبعة الحسن بن زيرك مع ابن طولون (ص ٥٤١ ، ٥٤٨) كدليل على ذلك ، وقال تعقيبًا عليها : (واستولى الغم عليه ، فخلط ، وكان يهذي .... حتى مات ، وكان السبب في ذلك أن الأوهام والأحداث النفسانية تؤثر في البدن أثرًا قويًّا ......) .

كما ذكر (ص ٤٦) تعريفًا للوسواس « حديث النفس والشيطان ما لا نفع ولا خير » ومظهره (ص١٩٧) خلط في الذهن نتيجة غلبة السوداء . والوسواس القهري مرض نفسي شهير ينشأ عن خاطر يلح على الذهن إلحاحًا مبالغًا فيه .

كما يصف (ص ١٨٨) حالة (شلل هستيري) لجارية الرشد ، وكيفية علاجه .

ويذكر (ص ١٠٢) ، (ص ٤٦٠) آثار تعاطي الخمور على العقل ؛ إذ يفسد الفهم .

ويقدم (ص ٣٠٣) طريقة وصفها أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة لعلاج الغضب والغيظ .

وينقل (ص ٤٢١) عن أبي بكر الرازي قوله : « باختلاف البلدان تختلف المزاجات والأخلاق والعادات وطباع الأدوية والأغذية ...... » .

يورد ابن أصيبعة حديثًا جيدًا عن كيفية المخاطبة ، فينقل عن أفلاطون (ص ٨٣) قوله : « إذا خاطبت من هو أعلم منك فجرد له المعاني ...... وإذا خاطبت من هو دونك فابسط كلامك » ، أي يجب على المخاطب وضع خصال متلقيه في الاعتبار ، وينقل عن موفق الدين عبد اللطيف البغدادي (ص ٦٩٣) قوله : « إياك والغلظة في الخطابة ، والجفاء في المنظارة » ويقدم في (ص ٥٦٣) مقارنة علي بن رضوان (توفي ٤٤٧هـ) بين العلم والطب وعن طريق الكتب ، وتعلمه على أيدي المعلم شفاهة ، والفرق بينهما في درجة الفهم وفي المشتتات الأخرى التي تشتت الانتباه أثناء التعلم .

وأخيرًا يذكر أن هناك آثارًا فسيولوجية (مثل : نبض القلب .....) للعشق (الانفعال) ، (ص ٥٩٥) وهو ما تؤكده الأبحاث الحديثة ، فالانفعال يؤدي إلى زيادة نبض القلب .

الإسهام الحقيقي لهذا الكتاب ، ليس في الإشارات النفسية المذكورة آنفًا ، ولكن في

قائمة المؤلفات التي ذكرها لكل من يترجم له ، وأغلبها يدخل في نطاق التخصصات الطبية المختلفة ، إلا أننا سننتقي - هنا - ما تشير عناوينها إلى موضوعات يهتم بها علم النفس المعاصر :

« الجنون » لـ : (أبقراط) مقالة في الصرع ، مقالة في تربية الأطفال لـ : « روفس » معاقبة النفس لـ : « سقراط » مقالة في النفس لـ : « أفلاطون » في النفس ، في الحس والمحسوس لـ « أرسطو » كتاب في قوى النفس تابعة لمزاج البدن لـ : « جالينوس » رسالة في الفرق بين الجنون العارض من مس الشياطين وبين ما يكون من فساد الأخلاط ، رسالة في الحيلة لدفع الأحزان (وقد سبق تناولها في كتاب رسالة فلسفية للكندي والفارابي وابن باجه وابن عدي : تحقيق د . عبد الرحمن بدوي) ، ورسالة في اللثغة للأخرس .

والثلاث لـ : « الكندي » رسالة في علة النوم والرؤيا وما يرمز به النفس لـ : « الكندي » رسالة في النفس وأفعالها لـ : « أبي يوحنا بن ماسويه » كتاب في ماهية النوم واليقظة ، كتاب في العقل ، وكتاب في الفأل ، والثلاثة لـ : « أحمد بن الطيب السرخسي » كتاب في الرد على من قال إن النفس مزاج ، كتاب في سوء المزاج المختلف ، الاثنان لـ : « أبي الحسن بن ثابت بن قرة » مقالة في النظر في أمر النفس « لأبي الحسن بن ثابت بن قرة » مقالة في الأحلام وتفسير الصحيح منها من السقيم على مذهب الفلسفة لـ : « أبي الفرج عبد اللّٰه بن الطيب » كتاب في الفرق بين النفس والروح ، كتاب في النوم والرؤيا ، لـ « قسطا بن لوقا البعلبكي » كتاب في الصرع ، كتاب في الماليخوليا ، كتاب في النوم واليقظة ، والثلاثة لـ « أبي جعفر أحمد بن محمد بن أبي الأشعث » ولأبي بكر محمد ابن زكريا الرازي كتاب « الطب الروحي » (ويعرف أيضًا بطب النفوس وغرضه فيها إصلاح أخلاق النفس) ، وله كتاب « في اللذة » وكتاب في الفرق بين الرؤيا المنذرة وبين سائر ضروب الرؤيا ، وله مقالة في العادة ، وكتاب في الأوهام والحركات النفسانية .

ولأبي علي ابن سينا كتاب المبدأ والمعاد في النفس ، فصول في النفس ، تأويل الرؤيا ، كتاب في القوى الإنسانية وإدراكها ، وقول في تبين ما الحزن وما أسبابه .

ولأبي علي أحمد بن عبد الرحمن بن مندويه الأصفهاني رسالة في وصف مسكر الشراب ومنافعه ومضاره ، وأخرى في نعت النبيذ ووصف أفعاله ومضاره ، وثالثة في النفس والروح على رأي اليونانيين .

للإمام فخر الدين أبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الرازي رسالة في النفس ولـ : « كنكه » الهندي كتاب في التوهم ولـ : « صنجهال » الهندي كتاب التوهم في الأمراض والعلل ولـ : « إسحاق بن عمران » (عاش ببلاد المغرب) كتاب نزهة النفس ، وكتاب في داء « الماليخوليا » ولابن الجزار أبي جعفر بن إبراهيم بن أبي خالد (من أهل القيروان) كتاب في النوم واليقظة - ولابن باجه أبي بكر بن محمد بن يحيى بن الصائغ كتاب اتصال العقل بالإنسان ، وكتاب النفس قول على القوى النزوعية ، كلام في الفحص على النفس النزوعية وكيف هي ولم تنزع وبماذا تنزع ، وكلام في المزاج بما هو طبي .

ولابن الوليد محمد بن محمد بن رشيد (ولد بقرطبة) شرح النفس لأرسطو ، تلخيص كتاب المزاج لجالينوس ، مقالة في المزاج .

ولأبي الحسن بن الهيثم مقالة في طبيعتي الألم واللذة ، مقالة في طبائع اللذات الثلاث الحسية والنطقية والمعادلة ، مقالة في اتفاق الحيوان الناطق على الصواب مع اختلافهم في المقاصد والأغراض ، رسالة في تلخيص جوهر النفس الكلية ، رسالة في تأثيرات اللحون الموسيقية في النفوس الحيوانية .

ولعلي بن رضوان (المتوفَّى عام ٤٤٧هـ . بالجيزة / مصر ، وولد بها) كتاب « النافع في كيفية تعليم صناعة الطب » ، « مقالة في الفرق بين فاصل بين الناس والسديد والعطب » .

ولأبي نصر الفارابي « رسالة » في التنبيه على أسباب السعادة ، « كتاب تحصيل السعادة » ، « وقد سبق عرضها في هذا المشروع » ، « كلام في الرؤيا » ، كلام فيما يصح أن يذم المؤدب ، « رسالة في ماهية النفس » .

ولموفق الدين عبد اللطيف البغدادي « مقالة وجيزة في النفس » ، « مقالة في العادات » ، « مقالة في المزاج » ، « مقالة في الحواس » ، « كتاب الحس والمحسوس » ، « كتاب النفس » .

ولصدفة بن منجا السامري « كتاب النفس » .

ولبدر الدين بن قاض بعلبك كتاب « مفرج النفوس » استقصى فيه ذكر الأدوية والأشياء القلبية على اختلافها وتنوعها .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس الإكلينيكي .

ابن سبعين أبو محمد عبد الحق
ابن سبعين المرسي الأندلسي (ت ٦٦٩هـ)
رسائل ابن سبعين [1]

عرض : د . الحسين محمد عبد المنعم

التعريف بالمؤلف :

ولد ابن سبعين في مرسية بالأندلس سنة (٦١٣هـ) من أسرة نبيلة وافرة الغنى هي أسرة ابن سبعين التي تذكر بعض المصادر أنها تصعد في نسبها إلى النبي ﷺ . وقضى مطلع شبابه في الأندلس حيث تعلم العربية والأدب ونظر في العلوم العقلية ، والتصوف . وقد قضى الفترة الخصيبة من حياته الروحية في المغرب ، وفيها ألَّف معظم رسائله ، وقد انتقل إليها وهو دون العشرين ، فأقام أولًا في سبتة هو وجمع من أصحابه وأتباعه الذين قد بدأوا يلتفون حوله وهو لا يزال في الأندلس وشاعت شهرته بالزهد والعلم ، فأعجبت به سيدة غنية من أهل سبتة وطلبت إليه التزوج منها ، فتزوجها وأقامت له بيتها زاوية للعبادة .

وقد ارتحل ابن سبعين عن المغرب ولجأ إلي المشرق ، ومرَّ بمصر وأقام بها مدة قصيرة فيما يبدو ؛ لأن هدفه الأول كان الحج ، فقصد مكة وهناك لقي من شريفها عطفًا ورعاية وشاع صيته بين أهل مكة بسبب سخائه . وظل بمكة حتى توفي في شوال سنة (٦٦٩هـ) .

مؤلفاته : له مؤلفات كثيرة منها : بُد العارف - الرسالة الفقيرية - الإحاطة - الكلام على المسائل الصقلية .

---

(١) تحقيق : عبد الرحمن بدوي . القاهرة ، المؤسسة العربية للتأليف والنشر ، [د . ت] ، (٣٧٤ص) .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٣٧٤ صفحة من القطع المتوسط بما فيها الفهرس ومقدمة المحقق الدكتور / عبد الرحمن بدوي ويضم حوالي عشرين أثرًا لابن سبعين ما بين رسالة ووصية .

ويتحدث في الرسالة الأولى - الرسالة الفقيرية :

عن الفقر وتعريفه ، واشتقاق اللفظ اللغوي . ثم يعرض لنا آراء الفقهاء في الفقر ، أي من حيث الأحكام الشرعية ، ثم القول على الفقر من حيث المجرى الصناعي والنظر في ماهيته مجردة بحذف امتحان الألفاظ الدالة ومطابقتها وتخليصها وتلخيصها وتحريرها بالجملة ، ثم القول على الفقر من حيث الطريق ، وهو آخر الأقسام أو المراد .

ويقول ابن سبعين : إن الفقر هو الصبر على المكروه ، وشكر المنعم الحكيم ، ثم يقدِّم لنا ابن سبعين خمسًا وعشرين حكمة عن الفقر ، ومنها :

أن الفقر ترك الرغبة إلَّا في السعادة وأسبابها والعبادة وأحكامها وتدبير العادة وأحوالها ، وأن الفقر هو الجامع المانع ، وحكمة أخرى تقول أن الفقر هو التجرد عن المواد والاتصال بالذوات المجردة المرسوم عليها في موضوعات الشرائع والمعبر بها في اصطلاحهم بالملائكة وعالمَ الأمر .

أما الرسالة الثانية فبعنوان : كتاب فيه حكم ومواعظ :

وفيها يقدِّم ابن سبعين مجموعة من الحكم والمواعظ منها :

- إلى اللَّه أشكو أنسي وسروري ، خذ نفسك يا صاحبنا بالتشبيه بالجليل ، ولا تتصف بصفة معلل التعليل وسبحان اللَّه وما شاء اللَّه كان .

- خذ نفسك اليوم بتحسين أخبارها ، واجتمع في ذاتك بالكلية ، ويصلك فتح اللَّه المشخص .

- اللَّه فقط يا هُمام بماهية همتك هو همك الأول .

- بحياتك لا تلتفت إلى الموتى ، وبعيشك لا تتحدث إلَّا في عيش الآخرة ، وبحق الحق لا تسأل عن أهل الباطل .

- اللَّه فقط يا قرة العين في الغالب أو بالقوة ، باللَّه عليك اعتدل واملأ صدرك من اللَّه .

ثم قسم ذلك النصيب الشريف على جملة قواك الروحانية والجسمانية .

والرسالة الثالثة بعنوان : (الرسالة القوسية) :

ويلخصها ابن سبعين في أولها وآخرها بقوله : أصدق كلمة قالها القائل : « **ألا كل شيء ما خلا اللّه باطل** » وعند تدقيق النظر في هذه الرسالة نجد وجهة نظر فلسفية لابن سبعين .

وتتحدث الرسالة الرابعة عن عهد ابن سبعين لتلاميذه : وهي عبارة عن مجموعة مواعظ يوصيها ابن سبعين لتلاميذه ، فيقول : اعلم أن مطالك مطال ومحالك محال ، والواصل رحمه مهما دعا اللّه رحمه ، والعلم للعلو والسلم للعدو سلامة ، والصلح مع جملتك صلاح ، والدعاء بالإخلاص سلاح ، وإياك من الأمل المهدوم ، ومن العمل المعدوم ، ومن الأمور التي تفسد حكمة العادة وأصول السعادة ، ومن الود مع الملل ، والسعيد هو المصلح لأعماله ، المطرح للّه ماله ، ولا تخالط إلا من قامت به الأوصاف المذكورة قُبل - إن استطعت - وإلّا الأمثل فالأمثل .

وترتبط الحكمة القائلة : « إياك من الأمل المهدوم » بمفهوم « مستوى الطموح » Level of Aspiration . أما « إياك من العمل المعدوم » فنجد إشارة إلى مفهوم « التدعيم » وضروريته عند أداء العمل . أما عندما يقول : « لا تخالط إلّا من قامت به الأوصاف المذكورة » فيشير إشارة واضحة إلى مفهوم الصداقة Friendship في علم النفس الاجتماعي (ص ٤٣ ، ٤٤) .

والرسالة الخامسة بعنوان الإحاطة :

حيث يشرح ابن سبعين في كتابه « الإحاطة » المعارج التي يرتفع فيها السالك حتى يصل إلى معاناة هذه الوحدة المطلقة . وبالجملة ما يقول المحقق : يطرح المنطق العقلي المشائي ويجعل من هذا الإهمال للمنطق المشائي مقدمة ، ثم يجعل من التوحيد الذي لا يصح معه توحيد بل يكفر به من لا يعلمه مقدمة أخرى ، والحد الأوسط هنا خير الأمور ، والأصغر الوقار والأبر التفريد ، والنتيجة هي الضبطة الروحية . وهذا النوع من القياس هو استخارة . والبرهان هنا معناه انتظار الفتح من اللّه .

ولا عليه أن يصيبه جنون في هذه اللحظات ؛ لأنه في عالم أكمل شرطه الأساسي هو الجهل بالعلم الذي ليس إياه ، وذلك هو طريق النفوس القوية المفطورة على التصوف . أما النفوس العادية فلها طريق آخر تبدأ بتصفح أحوال الملة وأحوال وضعها . وهناك إشارة واضحة إلى ظاهرة الفروق الفردية Individual Differences بين الناس

كأحد مفاهيم علم النفس الحديث (ص ١٣٠ - ١٥٠) .

الرسالة السادسة بعنوان : (النصيحة أو النورية) :

وتضم هذه الرسالة ذكر المقامات والأحوال في مفهوم الذكر وأحكامها في الذكر ، وذكر الذكر ونوره وتصرفه في مقامات التقوى ، وذكر فضيلة الذكر في باب الورع ، وفضيلة الذكر في مقام الزهد .

والرسالة السابعة بعنوان (رسالة) :

وفيها يتحدث ابن سبعين عن الذات الإلهية وصفاتها ، ويذكر منها الكمال والجلال والنور المطلق والخالي من المادة . ونجد هنا سيطرة المنحى الفلسفي في عرض ابن سبعين للموقف .

والرسالة الثامنة بعنوان (رسالة في أنوار النبي) :

وفي هذه الرسالة يتحدث عن أنواع أنوار النبي ﷺ ، ويذكر للرسول الكريم ثلاثة وثلاثين نورًا هي : نور العزة ، والغاية الإنسانية ، والإدراك ، النبوة ، النشأة ، السابقة ، التشريف ، التدلل ، التركيب ، المولد ، الخلقة ، التربية ، الانتقال ، النهاية ، التضمن ، العادة ، التسخير ، الاتباع ، اللواحق ، الجاه ، الخطابة ، المقايسة ، التفضيل ، الإحاطة ، الحصر ، الكشف ، التزكية ، المكانة الكبرى ، الانفراد ، الذكر والعلامة ، العلانية ، الخصوصية ، الخير المحض ، اللواء ، العبودية . و يقترب هذا الحديث من موضوع خصائص أو سمات الشخصية Personality Traits (ص ٢٠١ - ٢١٠) .

والرسالة التاسعة بعنوان (خطاب اللّٰه بلسان نوره) :

وهي عبارة عن رسالة من اللّٰه عز وجل وعلا إلى عباده ، وفيها بعض من الحديث عن الذات الإلهية وصفاتها ، وعطاياه لعباده وما ينتظره منهم من حمد وشكر وثناء .

والعاشرة بعنوان (ملاحظات على بُدِّ العارف) :

وهي رسالة يوجهها ابن سبعين لمريديه حتى يسلكوا الطريق القويم ومنها التدبر في آيات اللّٰه والحذر من العمل ونسيان الشكر والعبادة ، ويحضهم على الأمانة وفعل الخير ، وغض البصر عن غير اللّٰه ، والتحلي بالحكمة ، وكتمان السر .

ويقدم ابن سبعين مجموعة من النصائح لتلاميذه في الرسالة الحادية عشرة والثانية عشرة :

ويبدؤها بالشكر على النعمة ، والتحلي بمكارم الأخلاق ، والكف عن المهلكات

بالجملة ، وذلك بقطع شهوة البطن والفرج ومتعلقات الحواس الخمس الجسمانية والأربع الروحانية ، وكذلك الدعاء للّه والرحمة وغيرها . وهنا نلمح إشارة إلى أحد مفاهيم علم النفس الحديث وهو : ضبط النفس Self - Control (ص ٢٦٣) .

أما الرسالة الثالثة عشرة فعنوانها : الألواح المباركة :

وتدور حول معنى اللذة ، فيقول ابن سبعين : تُقال مع الأُنس بترادف وقد لا ، وقد تُقال معه بتقديم أو تأخير وقد لا ، وقد تقال معه بتشكيك وقد لا . والمستحسن والموفق والملذوذ ، وكل ذلك من أجزاء ماهية اللذة ، وهي تمتد على جملة مراتب لا في حدها ، وتطلق على أنحاء من جهة الأقل والأكثر والأقوى والأضعف والأكملِ والأنقص .

وتعتبر من جهة مضافها الرئيس والخسيس ، فإن كان جليلًا قيل فيها : جليلة ، وإن كان خسيسًا قيل فيها : خسيسة . ويقول أيضًا فيها : تدور على الحب ويدور عليها وتجذبها الإدارة بوجه ما خفي وجلي ، وقرارها في عين الرضا وهي قربها ، وهي نقطة مكن أجلها هي دائرة المباحث والمطالب . ويرتبط هذا الحديث بمفهوم اللذة وبأصل الدوافع باعتبارها المسؤولة عن المطالب والحاجات Motives (ص ٢٨٠) .

والرسالة الرابعة عشرة بعنوان (رسالة) وكذلك الخامسة عشرة والسادسة عشرة :

والرسائل الثلاث تقدم عددًا من النصائح والتعليمات التي يذكرها ابن سبعين لتلاميذه مرة أخرى ، وتتضمن هذه النصائح ما يجب عليهم أن يقرأوه من كتب ومعارف ، وفي أي الأوقات يجب ذلك . كما يوصيهم بالتقوى والطهارة ، والاشتغال بكتاب اللّه وبسنة رسوله ﷺ وبالعلوم ولواحقها ، وسماع النصح من ذوي السيرة الحسنة فقط ، ومخالطة الزهاد والاعتدال في كل شيء . كما يحذرنا من مجالسة الغاضبين وصاحب الوجهين والمنافقين .

ويوصينا بأخلاق السفر ، والتحلي بمكارم الأخلاق جميعها ...... وهذه الرسائل أشبه ببرنامج يضعه ابن سبعين لمريديه حتى يصلوا إلى طريق الحق . والمدقق في هذه الرسائل يجد أنه يتحدث عن خصائص الشخصية السوية وسماتها (ص ٢٩٨ - ٣١١) .

والرسالة السابعة عشرة أيضًا بعنوان (وصايا ابن سبعين) :

وهي أيضًا وصايا من ابن سبعين لمريديه مثل : حافظوا على الصلوات وجاهدوا النفس في اتباع الشهوات واستعينوا على الخيرات بمكارم الأخلاق . ومن استقام في بدايته وحصلها على وجهها وظفر بشروطها في عمله وقوله وفعله وحاله ، وفعل فيها ما ينبغي

على ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي ، ومن طلب ظفر ، ومن ظفر ربح ، ومن ربح تأنس ، ومن تأنس نشط . ونجد هنا إشارة أيضًا إلى مفهوم ضبط النفس Self - Control والحد من الدوافع Motives (ص ٣١٢ - ٣١٥) .

والرسالة الثامنة عشرة بعنوان الرسالة الرضوانية :

ويتحدث في هذه الرسالة عن التوبة بكل أنواعها وأقسامها ، فيقول : يتوب الكافر من كفره ، والمؤمن من معصيته ، والسالك السعيد من غفلته ، وأن التوبة فريضة تلزم كل مسلم ، والغافل عنها يتوب من أجلها . والتوبة ليست للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار ، والسعيد هو الذي يجعل التوبة ممتدة مع نفسه ونفسه ، ويأخذ نفسه بمنادمتها ، فإنها عجيبة محافظة لمقاماتها الشريفة ومقومة لشأنه كله .

ويعود ابن سبعين مرة أخرى ليقدم نصائح وإرشادات لمريديه في الرسالة التاسعة عشرة :

ويؤكد على ضرورة معرفة النفس والقرب من اللّه والناس وعدم الغرور ، والاعتراف بالشكر للّه وفعل الحسنات على الدوام والتوبة دائمًا للّه ، وعدم طاعة النفس ومخالفتها إذا كانت في اتباع الشهوات ، والدعاء والتضرع دائمًا للّه . يرتبط هذا الحديث أيضًا بمحاولة ضبط النفس Self - Control (ص ٣٥٧ - ٣٦١) .

أما الرسالة العشرين فبعنوان (رسالة في عرفة) :

وفيها يتحدث ابن سبعين عن يوم عرفة ، وكذلك عن مناسك الحج وما يجب على المسلم اتباعه مستعينًا في ذلك بالأحاديث النبوية وما جاء من أحاديث حول الحج ووقفة عرفة .

* * *

النووي (ت ٦٧٦هـ)
آداب العالم والمتعلم والمفتي والمستفتي وفضل طالب العلم [١]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف :

هو الإمام الحافظ الفقيه المحدث ، ناصر السنة ، وقامع البدعة ، محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزم النووي الدمشقي .

ولد في نوى - قاعدة الجولان من أرض حوران من أعمال دمشق - في العشر الأواسط من شهر المحرم ٦٣١ هجرية . وقد رآه بعض أهل الفضل في بلده وهو صبي فتفرس فيه النجابة ، واجتمع بأبيه شرف ووصاه به ، وحضه على حفظ القرآن والعلم ، وحفظ القرآن وقد ناهز الاحتلام ، ولما بلغ تسعة عشرة سنة قدم به والده إلى دمشق لطلب العلم ، فسكن المدرسة الرواحية (سنة ٦٤٩هـ) وحفظ « التنبيه » ، وقرأ « المهذب » للشيرازي ، وفي سنة (٦٥١هـ) حج مع أبيه ، ثم ارتحل وأقام بالمدينة المنورة ، ومرض في طريقه وأصابته حمى من حين توجه من بلده نوى مع والده ولم تفارقه إلى يوم عرفة ، وبعد إتمام الحج عاد إلى نوى ، ثم رجع إلى دمشق ، وصار في وقت قصير حافظًا للحديث وفنونه ، عالمًا بالفقه وأصوله ، وأصبح رأسًا في معرفة مذهب الإمام « الشافعي » . وتولى مشيخة دار الحديث الأشرفية والتدريس بها دون أن يأخذ من معلومها شيئًا حتى توفاه اللَّه في ليلة الأربعاء لست بقين من شهر رجب

---

(١) طنطا : مكتبة الصحابة (١٩٨٧م) ، (٨٦ص) .

سنة ٦٧٦ هجرية ودفن ببلده ، وقبره مشهور بها .

ومن شيوخه : الرضي بن البرهان ، وعبد العزيز بن محمد الأنصاري ، وزين الدين ابن عبد الدائم ، وأبي إسحاق إبراهيم بن عيسى المراوي الأندلسي وغيرهم كثيرون . ومن تلامذته : الخطيب صدر الدين سليمان الجعفري ، وشهاب الدين الأربدي ، وشهاب الدين بن جعوان .

ومن تصانيفه : شرح صحيح مسلم ، والمجموع ، ورياض الصالحين ، والأذكار ، والأربعين النووية ، والإرشاد ، والتقريب في علوم الحديث ، وتهذيب الأسماء واللغات ، وبستان العارفين ، وخلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام ، وروضة الطالبين ، وعمدة المفتين ، وشرح المهذب .

(استمدت هذه الترجمة من كتاب الأذكار النووية للإمام النواوي بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط) .

عرض الكتاب :

يمثل هذا الكتيب مقدمة كتاب المجموع ، وقد فصلت وطبعت منفردة . ويقع في ٨٦ صفحة من القطع المتوسط ويشتمل على مقدمة الناشر ، ثم موضوعات الكتاب وهو مقسم إلى فصول ، وأحيانًا إلى أبواب تضم فصولًا متفاوتة الحجم وعدد الأبواب خمسة . وأخيرًا فهرس الكتاب .

يبدأ الإمام النووي هذا الكتاب بفصل عن الإخلاص والصدق وإحضار النية في جميع الأعمال البارزة والخفية ، وذلك باستعراض عدد من الآيات القرآنية الكريمة : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] ، والأحاديث النبوية الشريفة : « **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى .....** » ومن كلام العارفين ، وهي كثيرة ومتعددة .

ويخلص من ذلك إلى معناه ، وهو أن الصادق يدور مع الحق حيث دار ، فإذا كان الفضل الشرعي في الصلاة – مثلًا – صلى ، وإذا كان في مجالسة العلماء والصالحين والضيفان والعيال ، وقضاء حاجة مسلم ، وجبر ذلك فعل ذلك الأفضل وترك عادته .

وكذلك الصوم والقراءة والذكر والأكل والشرب والجد والمزج والاختلاط والاعتزال والتنعيم والابتذال ونحوها ، فحيث رأى الفضيلة الشرعية في شيء من هذا فعله ، ولا يرتبط بعادة ولا بعبادة مخصوصة كما يفعله المرائي (والحديث ينتمي هنا بشكل غير مباشر

لأحد موضوعات علم النفس الاجتماعي ، ألا وهو القيم Values (ص ٦ - ١٠) .

ويبدأ بعد ذلك بابًا جديدًا بعنوان **« فضيلة الاشتغال بالعلم وتصنيفه وتعليمه والحث عليه والإرشاد إلى طرقه »** ويرى أن الآيات تكاثرت والأخبار والآثار تواترت ، وتطابقت الدلائل الصريحة وتوافقت على فضيلة العلم والحث على تحصيله ، والاجتهاد في اقتباسه وتعليمه ، ويسرد عددًا غير قليل من الآيات والأحاديث والأقوال المأثورة عن العلماء والصالحين ، كلها تحبذ العلم وتوقر العلماء والتفكر فيه وتحصي فوائده (ولعل الحديث عن العلم وضرورة التعلم يقودنا إلي البحث عن أفضل طرق التعلم ، وموضوع التعلم عمومًا من الموضوعات التي تلقى عناية من علماء النفس (ص ١١ - ١٥) .
ويتبع هذا الباب بعدة فصول تؤكد المعاني السابقة وتوضحها ، و أحدها في ترجيح الاشتعال بالعلم على الصلاة والصيام وغيرهما من العبادات القاصرة على فاعلها (ص ١٥ - ١٨) والثاني فيما أنشدوه في فضل طلب العلم ، وقدمه شعرًا (ص ١٨ ، ١٩) والثالث في ذم من أراد بعلمه (أو فعله) غير اللّٰه تعالى (ص ١٩- ٢١) . والرابع في النهي الأكيد والوعيد الشديد لمن يؤذي أو ينتقص الفقهاء والمتفقهين ، والحث على إكرامهم وتعظيم حرماتهم (ص ٢١ ، ٢٢) وهي كلها وصايا ترفع من شأن العلم والعلماء .

وفي الباب الثاني من هذا الكتاب يقوم بتقسيم العلم الشرعي إلى أقسام ، ويرى أنها ثلاثة :

أولها : فرض عين :

وهو تعلم المكلف ما لا يتأدى الواجب الذي تعين عليه فعله إلا به ، ومن الأسانيد من هذا حديث الرسول ﷺ : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة** » ومن أمثلته تعلم الوضوء، والصلاة ، والحرام ، والحلال من المأكل والمشرب والملبس .

أما القسم الثاني فهو فرض الكفاية :

وهو تحصيل ما لابد للناس منه في إقامة دينهم من العلوم الشرعية ؛ كحفظ القرآن والأحاديث وعلومها ، والأصول والفقه والنحو واللغة والتصريف ومعرفة رواة الحديث والإجماع والخلاف ، وأما ما ليس علمًا شرعيًا ويحتاج إليه في قوام أمر الدنيا كالطب والحساب ففرض كفاية أيضًا (ص ٢٦ ، ٢٧) .

والقسم الثالث هو النفل :

ومنه التبحر في أصول الأدلة والإمعان فيما وراء القدر الذي يحصل به فرض كفاية وكتعلم العامي نوافل العبادات بغرض العمل (ص ٢٨) وبعد أن ينتهي من ذكر أقسام العلم الشرعي ، يتحدث عن العلوم الخارجة عنه ومنها ما هو محرم أو مكروه ومباح ، فالمحرم كتعلم السحر ، والفلسفة والشعوذة والتنجيم وعلوم الطبائعيين .

والمكروه كأشعار المولدين التي فيها الغزل والبطالة . والمباح كأشعار المولدين التي ليس فيها سخف ولا شيء مما يكره ولا ما ينشط إلى الشر ولا ما يثبط عن الخير ولا ما يحث على خير أو يستعان به عليه (ص ٢٨) . ويختتم هذا الباب بفصل في تعليم الطالبين وإفتاء المستفين ويرى أنه فرض كفاية (ص ٢٨) .

ونأتي لأحد أهم أبواب هذا الكتاب وهو آداب المعلم ويبدأها بأدبه في نفسه وتعدد الأمور التي تكشف عن ذلك ، فيرى أنه ينبغي أن يقصد بتعليمه وجه اللَّه – تعالى – لا لغرض دنيوي ، ولا يشينه بشيء من الطمع ، وأن يتخلق بالمحاسن التي أمر بها الشرع وحث عليها كالتزهد في الدنيا ، وعدم المبالاة بغواتها ، والسخاء ، ومكارم الأخلاق ، والحلم والصبر ، والتواضع والخضوع وغيرها (وبعضها يمكن أن تدرس تحت سمات الشخصية ص ٢٩ ، ٣٠) ، ومنها الحذر من الحسد والرياء والإعجاب واحتقار الناس وهي خصال مذمومة يعتبرها المؤلف أمراضًا يبتلى بها الناس ، وهو يصف كيفية التخلص منها . وهو يعالج الحسد بأن يعلم الإنسان الحاسد أن كلمة اللَّه – تعالى – اقتضت جعل هذا الفضل في هذا الإنسان ، فلا ينبغي أن يعترض .

وهو يعالج الرياء بأن يعلم الإنسان أن الخلق لا ينفعونه ولا يضرونه ، فلا ينشغل بمراعاتهم .

ويعالج الإعجاب بأن يعلم الإنسان أن العلم فضل من اللَّه ، فلا يجب أن يعجب بشيء لم يخترعه وليس مالكًا له ..... وهنا يقترب المؤلف من أحد أساليب العلاج النفسي الحديث وهو أسلوب العلاج السلوكي (ص ٣) .

ومن الأساليب التي يستخدمها أيضًا استعماله أحاديث التسبيح والتهليل وسائر الآداب الشرعية ، ومنها دوام مراقبته للَّه – تعالى – في علانيته وسره وآداب العبادات ومنها ألَّا يزل العالم ، ومنها أنه إذا فعل صحيحًا جائزًا في نفس الأمر ولكن ظاهره أنه حرام أو مكروه أو مخل المروءة ، فينبغي أن يخبر أصحابه ومن يراه يفعل ذلك بحقيقة

الفعل لينتفعوا ، ولئلَّا يأثموا بظنهم الباطل (ص ٣١) .

ومن آدابه أيضًا أدبه في درسه واشتغاله فينبغي أن يزال مجتهدًا في الاشتغال بالعلم قراءة وإقراء ومطالعة وتعليقًا ومباحثة ومذاكرة وتصنيفًا (وكأنه هنا يحدد بدقة مهام الباحث العالم) ولا يستنكف من العلم ممن هو دونه في سن أو نسب أو شهرة أو دين أو في علم آخر (وهنا يرسي جسور التعاون بين الباحثين على اختلاف تخصصاتهم والتي بدأت تثمر فروعًا من فروع المعرفة لم تكن من قبل مثل سيكولجية اللغة التي نتجت عن الاتصال بين علماء النفس وعلماء اللغة) ، ولا يستحي من السؤال عما لم يعلم . كما يؤكد أيضًا عدم الخلط بين التخصصات ، وأن يحترم كل صاحب تخصص التخصصات الأخرى ، فإذا أراد معرفة شيء عنها فليكن من أصحابها ، كما يأمر بضرورة المراجعة والتدقيق فيما خرجه الباحثون ، ويوصي بالعناية بالعبارة وإيجازها .

ومن آدابه كذلك آداب تعلمه ، فالتعلم هو الأصل الذي به قوام الدين ، وبه يؤمن إمحاق العلم ، فهو من أهم أمور الدين ، وأعظم العبادات . ومن واجبات المعلم في هذا الجانب ألَّا يمتنع من تعليم أحد لكونه غير صحيح النية ، وأن يؤدب المتعلم على التدريج بالآداب السنية والشيم المرضية (وهو هنا يرسي مبدأ مهمًّا من مبادئ التعلم وهو التدرج وهو من المبادئ المعروفة في دروس المتعلم ص ٣٤) ، وينبغي أن يرغبه في العلم ويذكره بفضائله وفضائل العلماء (أي إيجاد باعث أو حافز لتحقيق أعلى درجة من التعليم وهو هنا يشير - بشكل غير مباشر - للدافعية Motivation أحد موضوعات علم النفس العام ص ٣٤) .

وينبغي أن يحنو عليه ويعتني بمصالحه ، وأن يحب له ما يحب لنفسه من الخير ، ويكره له ما يكره لنفسه من الشر ، وينبغي أن يكون سمحًا يبذل ما حصله من العلم ، مع رفق ونصيحة وإرشاد إلى المهمات وتحريض على الحفظ (والإرشاد التربوي أحد الموضوعات التي يعنى بها علماء النفس ، وكذلك التحريض على الحفظ فهو يقابل الدافعية التي سبقت الإشارة إليها ص ٣٥) .

وينبغي عليه كذلك ألا يدخر عن المتعلمين شيئًا من أنواع العلم ، وألَّا يلقي - في الوقت نفسه - إليهم بشيء لم يتأهلوا له (وهو هنا يلفت النظر إلى ضرورة مراعاة العلاقة بين موضوعات التعلم وما وصل إليه المتعلم من نضج وارتقاء معرفي Cognitive Development (ص ٣٥) وينبغي ألا يتعظم على المتعلمين ، بل يلين لهم ، وأن يكون حريصًا على

تعليمهم ، وأن يتفقدهم ويسأل عمن غاب منهم ، وأن يبذل وسعه في تفهيمهم وتقريب الفائدة إلى أذهانهم ، ويفهم كل واحد بحسب فهمه وحفظه (ولعل هذه النقطة - أعني تقسيم المتعلمين بناء على قدرتهم على الفهم أو بالأحرى الذكاء - هي التي كانت السبب في ظهور أول مقياس للذكاء علي يد بينيه Binnet . كما يشير إلي ضرورة حسن التخاطب وقد سبقت الإشارة إليه ، ويقدم بعض مبادئ التعلم والتذكر ص ٣٦ - ٤١) . وينبغي للمعلم أن يطرح على أصحابه ما يراه من مستفاد المسائل ، ويختبر بذلك أفهامهم ، ويظهر فضل العاقل ويثني عليه ذلك ؛ ترغيبًا له وللباقين في الاشتغال والفكر في العلم وليتدربوا بذلك ويعتادوه ولا يعنف من غلط منهم في كل ذلك ، إلا أن يرى تعنيفه مصلحة له . ولعل مسألة إعادة المادة المتعلمة بعد الحفظ تعد من مبادئ تحسين التذكر ص ٤٣) .

وبعد أن انتهي الإمام النووي من هذه الآداب العظيمة والشاملة انتقل إلى المتعلم Learner ليوضح لنا دوره وما ينبغي عليه أن يفعله ويتصف به . ويرى أن آدابه في نفسه ودرسه كآداب المعلم التي سبق الحديث عنها ، ثم يضيف إليها عددًا آخر من الآداب ومنها أن يطهر قلبه من الأدناس ليصلح لقبول العلم وحفظه واستثماره ، وأن يقطع العلائق الشاغلة عن كمال الاجتهاد في التحصيل ، وأن يتواضع للعلم والمعلم ، وألَّا يأخذ العلم إلَّا ممن كملت أهليته ، وظهرت ديانته ، وأن ينظر لمعلمه بعين الاحترام ، وأن يتحرى رضا المعلم وإن خالف رأي نفسه ولا يغتاب عنده ، ولا يفشي له سرًّا ، وألَّا يدخل عليه بغير إذن ، وأن يدخل كامل الهيبة ، فارغ القلب من الشواغل ، ويسلم على الحاضرين ولا يتخطى رقابهم ، ولا يقيم أحدًا من مجلسه (ص ٤٥ - ٤٧) وينبغي عليه أن يتلطف في سؤاله ، ويحسن خطابه ولا يستحي من السؤال عما أشكل عليه (وحسن التخاطب أحد موضوعات علم النفس الاجتماعي وقد سبقت الإشارة لذلك ص ٤٨) ، وينبغي أن يكون حريصًا علي التعلم مواظبًا عليه في جميع أوقاته ، مع الاستراحة القصيرة لإزالة الملل (ولعل الإمام النووي بذلك سبق كثيرًا من منظري العلم مثل كلارك هل Hull وحديثه عن الكف Inhibition وكيفية تبديده والمعادلات التي صاغها في ذلك ص ٤٩) . ومن آدابه أيضًا الحلم والأناة ، وعلو الهمة (وهي من سمات الشخصية ، ومن محددات الأداء بصفة عامة ص ٥٠) .

وينبغي أن يغتنم التحصيل في الوقت الفراغ والنشاط وحال الشباب وقوة البدن ، ونباهة الخاطر وقلة الشواغل . ويعتني بتصحيح درسه الذي حفظه تصحيحًا متقنًا ، ويداوم على تكرار محفوظاته ، ولا يحفظ ابتداء من الكتب استقلالًا ، بل يصحح على

الشيخ ، وليذاكر بمحفوظاته ، وليدم الفكر فيها ، ويعتني بما يصل فيها من الفوائد ، وينبغي أن يبدأ دروسه على المشايخ ، وفي الحفظ والتكرار والمطالعة بالأهم فالأهم (من إستراتيجيات التعليم ص ٥١) وينبغي أن يرشد رفقته وغيرهم من الطلبة إلى مواطن الاشتغال والفائدة ، ويذكر لهم ما استفاده على جهة النصيحة والمذاكرة ، ولا يحسد أحدًا ولا يحتقره ، ولا يعجب بفهمه .... فإذا فعل هذا وغيره مما سبقت الإشارة إليه ، وتكاملت أهليته ، واشتهرت فضيلته ، اشتغل بالتصنيف ، وجد في الجمع والتأليف ، محققًا كل ما يذكره ، متثبتًا في نقله واستنباطه ، متحريًا إيضاح العبارات ، وبيان المشكلات ، مجتنبًا العبارات والأدلة الواهية ، مستوعبًا معظم أحكام ذلك الفن غير مخل بشيء من أصوله ، منبهًا على القواعد ، فبذلك تظهر له الحقائق ، وتنكشف المشكلات ، ويطلع على الغوامض وجل المعضلات ، ويعرف مذاهب العلماء ، والراجح من المرجوح ، ويرتفع على الجمود وعلى محض التقليد (وفي الفقرة الأخيرة يقدِّم عددًا من أهم أسس مناهج البحث العلمي التي ينبغي أن يأخذها الباحث في اعتباره ، ليس في علم النفس فحسب ، وإنما في مختلف العلوم ص ٥٢ ، ٥٣) .

والباب الأخير في هذا الكتاب في آداب الفتوى والمفتي والمستفتي ، وفيه يبيِّن قيمة الإفتاء وعظم شأنه ، وشروط من يصلح للفتوى ، وأقسام المفتين ، وأحكام المفتين ، وآداب الفتوى ، وآداب المستفتي وصفته وأحكامه (و إذا كان هذا الجزء مخصوصًا للفتوى في أمور الدين ، فإنه بالقياس عليه نجد أنه يمكن أن يقابل اهتمام بعض علماء النفس بموضوع الإرشاد Counseling والعلاقة التي تحكم التفاعل بين المرشد وطالب الخدمة ، ومؤهلات المرشد ، ومتى يقدم الإرشاد وكيفية تقديمه ، ومتى تنتهي العلاقة الإرشادية وغير ذلك ص ٥٥ - ٨٤) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس التربوي .

* * *

ابن النفيس (ت ٦٨٧هـ)
الموجز في الطب [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف :

هو العلامة علاء الدين علي بن أبي الحزم بن النفيس القرشي شيخ الطب بالديار المصرية .

وأحد من انتهت إليه معرفة الطب مع الذكاء المفرط والذهن الحاذق ، ولد في دمشق حوالي (٦٠٧هـ) وتوفي في ١١ من ذي القعدة (٦٨٧هـ) .

خلف ابن النفيس ثروة واسعة ، ووقف داره وأملاكه وكتبه على البيمارستان المنصوري .

صنف كتاب الشامل ، وشرح القانون لابن سينا في عدة مجلدات ، وصنف أيضًا مختصرًا في الطب يسمى الموجز ، وكتاب « المهذب في الكحل » . وشرح كتب أبقراط كلها ، ولأكثرها شرحان مطول ومختصر ، وشرح الإشارات . وله أيضًا كتب أخرى تنسب إليه مثل كتاب المختار من الأغذية ، وشرح تقديمات المعرفة ، وتعليق على كتاب الأوبئة لأبقراط ، وشرح مسائل حنين بن إسحاق ، وشرح مفردات القانون ، وتفاسير العلل وأسباب المرض ، وكتاب شرح تشريح القانون ، والرسالة الكاملية في السيرة النبوية ، ومختصر في علم أصول الحديث .

---

(١) تحقيق : عبد الكريم الغرباوي . مراجعة : أحمد عمار . القاهرة : وزارة الأوقاف . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (١٩٨٦م) ، (٣٤٩ص) .

وعلى كل حال فإن ابن النفيس كان إمامًا عظيمًا ، وعالمًا جليلًا ، وكان يقال : هو ابن سينا الثاني [١] .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٣٤٩ صفحة من القطع الكبير . ويشتمل على تقديم لجنة إحياء التراث ، ومقدمة التحقيق ، وترجمة ابن النفيس ، وكتاب الموجز مرتبًا بفنونه . والفن الأول في قواعد جزأي الطب ، العلمي والعملي . والفن الثاني في الأدوية والأغذية المفردة والمركبة ، والفن الثالث في الأمراض المختصة بعضو وأسبابها وعلاماتها ومعالجتها . والفن الرابع في الأمراض التي لا تختص بعضو دون عضو آخر وأسبابها وعلاماتها ومعالجتها . وتقسيم كل فن ما بين جمل وأبواب . كما توجد في نهاية الكتاب قائمة بالكتب التي تم الرجوع إليها في تحقيق الكتاب ، وفهرس بالمواد والنباتات مرتبة أبجديًّا . وأخيرًا فهرس بموضوعات الكتاب .

ونظرًا لأن هذا الكتاب ، كتاب طبي جملة وتفصيلًا ، ونظرًا لكثرة التفاصيل التي به ، وكذلك للارتباط الوثيق بين بعض فروع علم النفس ، والطب ، فإننا سننتقي من بين أبواب الكتاب ما كان متصلًا بعلم النفس ودراساته وتقدمه . (وهو الأمر الذي سلكناه في عرضنا لكتاب القانون في الطب لابن سينا من قبل) .

الجزء الأول من الفن الأول عن الأمور الطبيعية ، وفيه يتحدث عن القوى ومنها : القوى النفسانية ، وهي محركة ، ومدركة . والمحركة منها باعثة على الحركة وهي الشوقية وتخدمها الشهوانية والغضبية ، ومنها فاعلة للحركة بأن تشنج العضو فينجذب الوتر فينقبض العضو ، أو ترخي العضل فيمتد الوتر فينبسط العضو . وأما المدركة ، فهي إما مدركة في الظاهر أو مدركة في الباطن ، أما المدركة في الظاهر فهي خمس : البصر ومن شأنها إدراك الألوان والأضواء والأشكال ، وموضعها التقاطع الصليبي بين العصبتين الآتيتين إلى العينين .

وقوة السمع ومن شأنها إدراك الأصوات ، وقوة الشم وموضعها العصبتان الزائدتان الشبيهتان بحلمتي الثدي ، ومن شأنها إدراك الرائحة ، وقوة الذوق ، ومن شأنها إدراك الطعم ، وموضعها العصب الذي في اللسان ، وقوة اللمس ، وموضعها الجلد وأكثر اللحم ومن شأنها إدراك الملموسات .

---

(١) (استمدت هذه الترجمة مما ورد في مقدمة الكتاب الحالي) .

وأما المدركة في الباطن فمنها مدركة للصور المحسوسة بإدراك الظاهرة ، وهي الحس المشترك وموضعه مقدم البطن المقدم من الدماغ ، وخزانة الخيال ، وموضعه مؤخر البطن المقدم . ومنها مدركة للمعاني القائمة بتلك الصور ، ومنها متصرفة وتسمى باعتبار استخدام النفس الناطقة لها مفكرة ، وباعتبار استخدام الوهم لها في الصور والمعاني الجزئية متخيلة .

وفي هذا الجزء نجد عددًا من الموضوعات التي تنتمي بشكل أو بآخر لعلم النفس مثل الحديث عن الإحساس والحواس الخمس ، والإدراك الحسي ، والدافعية Motivation ، والسلوك الحركي Psychomotor Behaviour ، وتحديد مواضع الوظائف الحسية والمعرفية في المخ والتي تعني الدارسين في علم النفس العصبي والفسيولوجي (ص ٣٦) .

ومن القوى أيضًا للقوى الحيوانية وهي القوة التي تعد الأعضاء لقبول القوى النفسانية .

ثم تأتي بعد ذلك الأفعال فمنها مفردة ، ومنها مركبة (أو بمعنى آخر أشكال السلوك المختلفة) ، (ونود أن نلفت النظر هنا إلى أن هذا الحديث نجده في عديد من المؤلفات التي عرضناها من قبل مثل كتابي النفس ، والقانون في الطب لابن سينا ، ومعارج القدس في مدارج معرفة النفس للغزالي ، ورسالة في العقل للفارابي) .

وفي الجزء الرابع من هذا الفن الذي يتحدث فيه عن علامات الأمراض ، يشير إلى الانفعالات النفسانية من حيث كيفية الانفعال ، باعتبارها من علامات الأمزجة (والانفعالات كما سبق أن ذكرنا في مواضع كثيرة من الموضوعات المهمة في دراسات علم النفس العام ص ٤٨) . ويذكر أيضًا في علامات أمراض التركيب ، الحركة ، من حيث كيفية قرع الحركة (قوي أو ضعيف أو متوسط) وزمان الحركة (سريع أو بطيء أو متوسط) والمعروف أن السلوك الحركي أو السلوك النفسي الحركي Psychomotor Behaviour حال سوائه واضطرابه من الموضوعات التي تلقى عناية علماء النفس (ص ٥٠) .

وقد أفرد ابن النفيس الفن الثاني للأدوية والأغذية المفردة والمركبة . ونحن نرى أن الحديث في الأدوية والعقاقير يتصل بعلم النفس ، وخاصة علم النفس الإكلينيكي من زاويتين الأولى : يهتم فيها علماء النفس الإكلينيكيون بالأدوية والعقاقير التي يتعاطاها المرضى النفسيون في محاولة لتقويم آثارها على الوظائف النفسية المختلفة ، وما تؤدي إليه من تحسن ، أو من تشوش في بعض هذه الوظائف ؛ لذلك يضعونها في حسابهم عند قياس هذه الوظائف لدى المرضى النفسيين بغرض الفحص والتشخيص . والزاوية الثانية

هي التعاطي غير الطبي Non- Medical Use لبعض العقاقير والأدوية النفسية المؤثرة في الأعصاب أو المواد المخدرة ، وما تحدثه هذه المواد من آثار ضارة في الوظائف النفسية . (وقد ذكر ابن النفيس الخشخاش كدواء مخدر منوم ص ١١٨ . ويعتبر الخشخاش هو المصدر الذي يستخرج منه مادة الأفيون ومشتقاتها كالمورفين الذي يستخدم كمسكن للآلام بعد العمليات الجراحية ، والهيروين تلك المادة القاتلة) .

أما في الفن الثالث فيتحدث عن الأمراض الخاصة بعضو عضو ، وأسبابها ، وعلاماتها ، ومعالجتها ، ويبدأ هذه الأمراض بالصداع (ص ١٢٩ - ١٣٦) . ومن المعروف أن الصداع في بعض الأحيان يكون عرضًا لمرض نفسي ، أو عرضًا لبعض الإصابات العضوية في المخ كالأورام Tumors ، وهو في هذه الحالة يجد اهتمامًا من علماء النفس الإكلينيكيين ، والمهتمين بعلم النفس العصبي Neuropsychology ويذكر من الأمراض أيضًا النسيان ويعرفه بنقصان أو بطلان لقوة الذكر ، ويقسمه إلى نوعين ما يحفظ القديم فقط ، وما يحفظ الوقتي (أو القريب) ، (ص ١٣٩) . والتذكر والنسيان من الموضوعات التي حظيت بعناية علماء النفس منذ أواخر القرن الماضي ، سواء في علم النفس العام ، أو في علم النفس التجريبي ، أو في علم النفس الإكلينيكي ؛ للتعرف على مظاهر اضطراب الذاكرة عند فئات مختلفة من المرضى النفسيين ، وقد قسم علماء النفس المحدثون الذاكرة إلى ثلاثة مستويات : المباشرة Immediate وقريبة المدى Short -Term ، وطويلة المدى Long - term ووضعوا لكل مستوى عددًا من الاختبارات السمعية والبصرية واللمسية .

ومن الأمراض التي تعرض لها ابن النفيس « المانيا » ويعرفه بأنه جنون سَبُعيٌّ عن سوداء محترقة عن دم أو صفراء أو سوداء ، يكون مع اضطراب وتوثب ، ويكون السكوت والخوف والجفاف في السوداء والصفراوية أقل ، ويمكن إسكاته أو في السوداوية يتغافل إذا كُلم ، فإذا ثار لم يمكن إسكاته ولا الخلاص منه (ص ١٣٩) ، (وهذا الاسم يطلق الآن على أحد الأمراض العقلية وهو الهوس أو المرح Mania أو « المانيا » والذي قد يأتي منفردًا أو دوريًا بالتبادل مع الاكتئاب فيما يعرف بذهان الهوس - الاكتئابي Manic Depressive Psychosis ويهتم علماء النفس بدراسة أشكال الاضطراب التي تلحق بالوظائف النفسية المختلفة لدى هؤلاء المرضى) . كما يضيف إلى المانيا مرضًا آخر هو « الماليخوليا » وهو تشوش الفكر والظنون إلى الفساد والخوف ، ويبتدئ بسرعة غضب ، وحب الخلوة ، وخوف مما لا يخاف منه عادة ، فإذا

استحكمت قويت هذه الأعراض ، والمستعد له من قلبه حار ، كثير شعر الصدر والبدن ، ودماغه رطب ، غليظ الشفتين ، ألثغ ، وعروضه للرجال أكثر وللنساء أفحش (ص ١٣٩) . هذا الوصف يشبه أغراض مرض الاكتئاب الذي سبق ذكره ، والذي قد يكون نفسيًّا Reactive Depression أو عقليًّا Endogenous Depression والأخير قد يأتي منفردًا ، أو دوريًّا مع الهوس . واهتمام علماء النفس هو نفس اهتمامهم بمرض الهوس وبقية الأمراض النفسية والعصبية . ويذكر كذلك الصرع Epilepsy ويعرفه بأنه سدة دماغية غير تامة ، تتشنج بها جميع الأعصاب لانقباض مبدئها وتمتنع الحس ، والحركة ، والانتصاب (ص ١٤٥) ، ويضيف أيضًا الفالج (الشلل) وهو استرخاء أي عضو كان (ص ١٤٩) ، وهما من الأمراض التي يعنى بها علماء النفس أيضًا .

وإذا تركنا الأمراض التي يمكن تصنيفها كأمراض نفسية أو عصبية ، نجد أن ابن النفيس يتحدث عن أمراض اللسان كارتخاء اللسان ، والتمتمة والفأفأة (ص ١٧٥) وأمراض الأذن (ص ١٧٦ - ١٧٩) ، وأمراض الحلق ، كبحة الصوت (ص ١٨٤) .

وهذه الزملة من الأمراض تجد عناية من علماء النفس الذين يدرسون اللغة أما من حيث ارتقاؤها وما يؤثر في هذا الارتقاء فيؤخره أو يشوهه . في محاولة للتعرف على عيوب النطق والكلام وفهم وإدراك اللغة ، وتشخيصها ثم وضع البرامج لعلاجها وتقويمها . كما يجد عناية من المهتمين بالتخاطب Communication ، والدارسين لسيكولوجية اللغة Psycholinguistics ، ذلك الفرع الذي يشهد نموًّا وتطورًا كبيرًا في الوقت الحاضر .

ويختتم ابن النفيس كتابه النفيس بباب في السموم والاحتراز منها ، فيذكر أنها ثلاثة أنواع : المعدنية ، والنباتية ، والحيوانية (ص ٣١٨) . والاهتمام بالسموم يأتي لتأثيرها على وظائف الجسم ، ومنها الوظائف العقلية ، وما تسببه من اختلال في هذه الوظائف ، بل إن بعضها قد يؤدي إلى أعراض مرضية تشبه الأعراض الذهانية (العقلية) كما في التسمم الكحولي ....

أوجه الاستفادة من هذا الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في علم النفس العصبي ، وعلم النفس الفسيولوجي Physiological Psychology .

* * *

ابن كمونة (ت ٦٨٣هـ)
الجديد في الحكمة

عرض : د . معتز سيد عبد اللّٰه

التعريف بالمؤلف :

هو سعد بن منصور بن سعد بن الحسن بن هبة اللّٰه بن كمونة الإسرائيلي ، ويلقب بعز الدولة ، ولم تذكر المصادر شيئًا عن تاريخ ميلاده ، ولكنها ذكرت أنه توفي عام ٦٧٦هـ - ١٢٧٧م ، والأصح أنه توفي عام ٦٨٣هـ . كما صرح بذلك ابن الفوطي ، وقد ظهر من مخطوط (أ) للجديد في الحكمة أنه عاش ببغداد ، وأن له صلة ببعض الأمراء ، حيث يذكر أن الذي التمس من تأليف هذا الكتاب هو : دولة شاه بن الأمير الكبير سيف الدولة سنجر الصحابي .

إن المعلومات القليلة عن ابن كمونة لا تكفي لرسم معالم شخصيته رسمًا كاملًا دقيقًا ، لكنها رغم ذلك قد تنفع في إلقاء بعض الضوء عليه ، نوعًا ما . فقد وصف بأنه : يهودي المذهب ، وكيميائي ، وأديب ، وحكيم منطقي . كما تورد بعض المراجع حادث تهجم العامة عليه التي وردت لدى ابن الفوطي .

ولعل تحقيق كتاب « الجديد في الحكمة » لابن كمونة يضيف تعريفًا لهذا الفليسوف الذي تعرض فكره الفلسفي للإهمال ، وتوراى في بطون المخطوطات .

ونرجح أن هذا كان بسبب عقيدته اليهودية . إلى جانب أن له مؤلفات ربما أتمها قبل أن يسلم بدليل أنه في بعض هذه المؤلفات مثل « تنقيح الأبحاث » يبالغ في مناصرة اليهودية على حساب النيل من سائر الأديان التي يخالفها ، ومنها الإسلام .

وقد نسبت المصادر التي تعرضت لابن كمونة بعض المؤلفات مثل « تذكرة في الكيمياء » كما تذكر أن له شروحًا على الإشارات والتنبيهات لابن سينا ، وشرحًا آخر على تلويحات السهرودي . كذلك تروي المصادر أن له كتاب « تنقيح الأبحاث في البحث عن الملل الثلاث » وهي اليهودية والمسيحية والإسلام . ويبدو أن هذه الكتب مفقودة أو مطمورة في بعض المكتبات الخاصة .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٦٣٧ صفحة من القطع المتوسط ، ويتكون من سبعة أبواب ، يشمل كل باب منها سبعة فصول ، ويهدف مضمون الكتاب إلى توضيح كيفية تحصيل السعادة الأبدية بواسطة الإيمان المؤسس على الحكمة . وينتهي محقق الكتاب بعرض فهرس للموضوعات النوعية التي يشتمل عليها ، وذلك على النحو التالي ذكره .

• الباب الأول : في آلة النظر ، والمسماة بالمنطق :

وهو بمثابة المنهج الذي يرتكز عليه الفكر الفلسفي للمؤلف ، ويتكون من سبعة فصول .

تناول المؤلف في الفصل الأول الحديث عن ماهية المنطق ومنفعته . وفي الفصل الثاني تحدث عن الطريقة التي تكتسب بها التصورات . وفي الفصل الثالث تناول القضايا وأقسامها . وفي الفصل الرابع تحدث عن لوازم كل قضية منطقية . وفي الفصل الخامس بحث موضوع القياس البسيط .. ، وفي الفصل السادس تكلم على لواحق الأقيسة وتوابعها . وفي الفصل السابع تكلم عن الصنائع الخمس ، وهي : البرهان والجدل والخطابة والشعر والمغالطة . وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب هي : التصورات Conceptions (من ص ١٥٧ - ١٦٠) ، والصور العقلية Mental Images (من ص ١٥٧ - ١٦٠) .

• الباب الثاني : في الأمور العامة للمفهومات كلها :

ويتكون من سبعة فصول ، تناول المؤلف في الفصل الأول الحديث عن الوجود والعدم وأقسامها وأحكامها ، وتحدث في الفصل الثاني عن الماهية وتشخيصها وما تنقسم إليه . وتحدث في الفصل الثالث عن الوحدة والكثرة ولواحقها . وتكلم في الفصل الرابع عن الوجوب والإمكان والامتناع ومتعلقات كل منها . وتحدث في الفصل

الخامس عن مفهوم كل من القدم والحدوث بمعنييهما ، أعني الزماني والمكاني . وتناول في الفصل السادس العلة والمعلول ومباحثهما . وتكلم في الفصل السابع عن الجوهر والعرض وأحوالهما ومباحثهما الكلية . وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب هي : الهوية Identity (من ص ٢١٩ - ٢٢٥) وإدراك الزمان والمكان (من ص ٢٣٨ - ٤٢١) ، والعلاقة العلية (السببية) Causal Relationship (من ص ٢٤٣ - ٢٥٤) .

- **الباب الثالث : في أقسام الأعراض الوجودية والاعتبارية :**

ويتكون من سبعة فصول ، تناول المؤلف في الفصل الأول مسألة المقادير والأعداد التي يعمها جميعها كونها قارة الذات ، وتناول في الفصل الثاني الزمان باعتباره كمية غير قارة . وتحدث في الفصل الثالث عما لايعتبر فيه من الكيفيات أنه كمال الجوهر ، وهو ما يختص وما يعتبر فيه أنه استعداد فحسب . وتحدث في الفصل الرابع عن الكيفيات المحسوسة بالحواس الظاهرة . وتحدث في الفصل الخامس عما ليس من شأنه أن يحس بالحس الظاهر من أنواع الكيف . وبحث في الفصل السادس موضوع الإضافة .

وعرض في الفصل السابع لماهية الحركة . وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب ، هي إدراك الزمان (من ص ٢٧١ - ٢٧٧) ، والكيفية Quality (من ص ٢٧٩ - ٣١٠) ، والإحساس Sensation (من ص ٢٨٥ - ٣١٠) ، والإدراك الحسي Perception (من ص ٢٩٥ - ٣١٠) ، والقدرة Ability (من ص ٣٠٧ ، ٣٠٨) ، والسرعة النفسية الحركية Psychomotor Speed (من ص ٣١٧ - ٣٣٠) ، والشعور Feelings (من ص ٢٩٥ - ٣١٠) ، والتصور Conception (من ص ٢٩٥ -٣١٠) ، والانفعالات Emotions (من ص ٣٠٦ ، ٣٠٧) .

- **الباب الرابع : في الأجسام الطبيعية ومقوماتها وأحكامها :**

ويتكون من سبعة فصول ، عرض المؤلف في الفصل الأول لمقومات الجسم الطبيعي وأحكامه العامة دون ما يختص بجسم جسم ، وتكلم في الفصل الثاني عن العناصر وأحوالها باعتبار الانفراد . وعرض في الفصل الثالث لحالة هذه العناصر امتزاجها وتركيبها . وتكلم في الفصل الرابع عن الكائنات التي حدوثها من العناصر بغير تركيب . وتناول في الفصل الخامس ما يتكون عن العناصر بتركيب منها وهو لمواليد الثلاثة : المعدن والحيوان والنبات . وتناول في الفصل السادس كيفية إثبات المحدد

للجهات وذكر لوازمه . وعرض في الفصل السابع لسائر الأفلاك والكواكب وذكر جملة من أحوالها .

• الباب الخامس : في النفوس وصفاتها وآثارها :

ويتكون من سبعة فصول ، عرض المؤلف في الفصل الأول لإثبات وجود النفس ، وبيان أن معقولاتها لا يمكن حصولها في آلة بدنية . وأنها مستغنية في التعقل الذي هو كمالها الذاتي عن البدن . وتناول في الفصل الثاني ما يظهر عن النفس من التقوى النباتية ، وهي التي لايشك في أنه يشترك فيها الإنسان والحيوان الأعجم والنبات . وعرض في الفصل الثالث لقوى الحس والحركة الإرادية ، وهي التي تصدر عن نفس الإنسان ، ولا يشك في أنها حاصلة لباقي الحيوانات . وعرض في الفصل الرابع للقوى التي لا نعلمها حاصلة لغير الإنسان من الحيوانات الأخرى . وعرض في الفصل الخامس للمنامات والوحي والإلهام والمعجزات والكرامات والآثار الغريبة الصادرة عن النفس ودرجات العارفين ومقاماتهم وكيفية ارتياضهم . وتكلم في الفصل السادس عن أبدية النفس وأحوالها بعد خراب البدن . وتكلم في الفصل السابع عن إثبات النفوس السمائية وكيفية تصوراتها وتحركاتها . وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب هي : النفس Psychic (من ص ٤٠٧ - ٤٧٨) ، وبنية الجسم Constitution (من ص ٤٠٩ - ٤١٧) ، (من ص ٤٦٣ - ٤٧٤) ، والإدراك Perception (من ص ٤٠٩- ٤١٧) ، (من ص ٤٢٥ - ٤٦٢) ، (من ص ٤٧٥ - ٤٧٨) ، والمزاج Temperament (من ص ٤٠٩ - ٤١٧) ، والإحساس Sensation (من ص ٤٢٥- ٤٣٧) ، والإلهام (من ص ٤٤٥ - ٤٦٢) ، والصور العقلية Mental Images (من ص ٤٤٥ - ٤٦٢) ، والعلاقة بين النفس والجسم (من ص ٤٦٣ - ٤٧٤) ، والتصور (من ص ٤٧٥ - ٤٧٨) .

• الباب السادس : في العقول وآثارها في العاملين الجسماني والروحاني :

ويتكون من سبعة فصول ، أوضح المؤلف في الفصل الأول أن العقل هو مصدر وجود النفوس كلها . وأوضح في الفصل الثاني أنه لولا العقل لما خرجت النفوس إلى تعقلاتها من القوة إلى الفعل ، وأن إليه يستند كمالها الذاتي . وعرض في الفصل الثالث لبيان إسناد مالا يتناهى من الحركات والحوادث إلى العقل . وأوضح في الفصل الرابع

كيفية كون العقل مصدرًا للأجسام . وبيَّن في الفصل الخامس أن التشبه بالعقل هو غاية الحركات السماوية . وتناول في الفصل السادس بيان أن العقل يجب أن يكون حيًّا مدركًا لذاته ولغيره ، وفي كيفية ذلك الإدراك . وعرض في الفصل السابع لبيان كثرة العقول ، وجملة من الأحكام المتعلقة بها . وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب . هي : العقل Mind (من ص ٤٨١ - ٥٢٤) ، والنفس Psychic (من ص ٤٨١ - ٥٢٤) ، والاتصال (من ص ٤٨٩ - ٤٩٢) ، والإدراك (من ص ٤٨٧ - ٤٩٢) ، (من ص ٥١٣ - ٥٢٤) ، والصور العقلية (من ص ٥٠١ - ٥٠٦) .

• **الباب السابع : في واجب الوجود ووحدانية ونعوت جلاله وكيفية فعله وعنايته :**

ويتكون من سبعة فصول ، يعرض المؤلف في الفصل الأول كيفية إثبات واجب الوجود لذاته . ويبين في الفصل الثاني أن واجب الوجود واحد لا يقال على كثرة بوجه . ويعرض في الفصل الثالث لتنزيه واجب الوجود عما يجب تنزيهه عنه . و يبين في الفصل الرابع ما ينعت به واجب الوجود من نعوت الجلال والإكرام . وتناول في الفصل الخامس تبيين كون صفات الواجب لذاته لا توجب كثرة لا بحسب تقوم ذاته ولا بحسب ما يتقرر فيها . وعرض في الفصل السادس كيفية فعل واجب الوجود وترتيب الممكنات عنه . وتناول في الفصل السابع عناية واجب الوجود بمخلوقاته ورحمته لهم وحكمته في إيجادهم .

* * *

ابن الصباغ
محمد بن أبي القاسم الحميدي
ابن الصباغ (ت ٧٠٠هـ)
درة الأسرار [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

يقع هذا الكتاب في ٢٥٤ صفحة من القطع المتوسط ، ويبدأ بما وضعه المحقق في تعريف بالمدرسة الشاذلية التي أسسها أبو الحسن علي بن عبد الجبار الشاذلي . ويسبقها بتعريف للمدرسة الخلوية التي أسسها كمدرسة متكاملة سيدي مصطفى بن كمال الدين البكري الصديقي ، والتي تبدأ سلوكها من النفس اللوامة فتُلزم المريدَ بمجاهدتها ومقاومة شهواتها ، والحد من رغباتها ، وقتل حركتها نحو المباح والمحظور جميعًا .

ويتخذ الصراع مع النفس في المدرسة الخلوية ، خطوات إيجابية وأخرى سلبية هي :

١ - عدم التعلق بشيء من مظاهر الحياة ، مع دوام الذكر والأوراد بعد العبادات المفروضة .

٢ - عدم التعلق بالمواجيد والأحوال الواردة على قلبه في الذكر والناشئة من نتائج العلم والعبادة .

٣ - الاتصال الروحي ، والقرب الجسدي من الشيخ المرشد ، واعتباره عاملًا موصلًا إلى نهاية الطريق .

٤ - بعد الوصول إلى عالم النفس اللوامة يسير على نفس المنهاج حتى يصل إلى

---

(١) تحقيق : عبد القادر أحمد عطا . ط ١ : القاهرة [د . ن] ، (١٩٨٧م) ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، (٢٥٤ص) .

ما بعدها من المراتب ، ثم إلى مرتبة الحب بادئًا من حب النبي ﷺ ، ثم إلى حب اللّٰه ﷻ .

وهذا الكلام الصوفي ورغم عموميته يحمل مضامين وإرهاصات نجد لها واقعًا في علم النفس الحديث مثل مجاهدة النفس اللوامة (إشباع الدوافع ، وضبط النفس ص ٣) والصراع مع النفس (ص ٤) الحب ودرجاته (وهو ما يدخل تحت باب الانفعالات Emotions في علم النفس الحديث ص ٤) ووجود الشيخ المرشد (والإرشاد بصفة عامة من فروع علم النفس الحديث Counseling ص ٤) .

أما المدرسة الشاذلية فهي تسلك عكس المدرسة الخلوتية وتتلخص خطواتها في :

١ - إسقاط التدبير ، وهي مسألة تتعلق بالعقل واستعماله في تدبير الشؤون ، والعقل عندهم وضعه اللّٰه في العبد لتدبير شؤون العبادة لا غير (والعقل كمفهوم مما يدرس في علم النفس الآن ص ٥ - ٧) .

٢ - التجريد الباطني وهو من لواحق المسلك الأول ، ويمتاز بأنه عامل مثبت له مؤسس لبنائه على أسس قوية ، ويشمل التجرد عندهم من حب المكان ، والتجرد من حب الأصدقاء والمعارف (وهي دعوة تبدو غير مألوفة) ويستثنى من الأصدقاء نوع قريب من اللّٰه يعرف بخصاله ، والتجرد من الأملاك ، والتجرد من المواجيد .

٣ - الحب ، والحب الإلهي للعباد عام وخاص ، والعام لكل الخلق ، والخاص لطائفة معينة وللحب معاني كثيرة من بينها : النصح للمسلمين وغيرهم (والحب يدخل كما قلنا في باب الانفعالات ، والنصيحة تدخل في باب الإرشاد النفسي (ص ١١ - ١٢) .

٤ - العودة إلى الخلق وهو معاملة الخلق بالرحمة والهدى والحب ، ثم يعطينا المؤلف بعد ذلك فكرة عن المدرسة الدرقاوية التي أسسها العارف الكبير الشيخ العربي بن أحمد الدرقاوي نزيل فاس ، وقامت هذه المدرسة على أساس التجريد الظاهري مع التجريد الباطني كدليل على صدق النية والإرادة للّٰه وحده .

وهي لا تختلف عن مدرسة أبي الحسن إلَّا في تحقيق التجريد . ومن أساليب الدرقاوية في سياستها النفسية لمواجهة البلايا ، تدريب النفس على حمل البلايا دون منازعة (وهو مبدأ سلوكي مهم نجد له مقابلًا في دراسات المشقة Stress وعلاقتها بالتوافق Adjustment في دراسات علم النفس الحديث (ص ١٩) .

وإذا انتقلنا إلى الكتاب الأصلي ، نجده يبدأ بالفصل الأول : في التعريف بالشيخ أبي الحسن وهو علي بن عبد اللّٰه بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصي بن يوسف

ابن يوشع بن ورد بن بطال بن محمد بن أحمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن علي ابن أبي طالب ﷺ . وكان مولده بغمارة ، ودخل مدينة تونس وهو صبي صغير ، وتوجه إلى الديار المصرية ، وحج حجات كثيرة ، ودخل العراق .

ويدور الفصل كله عن حياة الشيخ ورحلاته من خلال الحكايات والقصص . ويلاحظ القارئ للكتاب أن المؤلف لم يفرد فصلًا لمكاتبات الشيخ إلى أصحابه بإفريقيا (**وهو الفصل الثاني كما جاء في مقدمة المؤلف**) وإنما يذكره في ثنايا الفصل الأول ، وتحوي هذه المكتبات بعض الوصايا والنصائح ذات صبغة صوفية .

أما الفصل الثالث ، فهو مخصص لدعواته وأذكاره وتوجيهاته . ويبدأها بما يسميه حزب الفتح أو حزب الأنوار ، ثم الحزب الكريم والحجاب العظيم (وهو الحزب الكبير أو حزب البر) ، وبعد ذلك الدعاء المبارك المعروف بحزب البحر . ويستمر بعد ذلك في ذكر ما ورد عنده من أذكار ، وهي كثيرة متنوعة تغطي معظم أوقات اليوم ، ولكل منها وقت وغرض . وله أيضًا كلام في تمجيد الباري ﷻ ، وأوراد للصلاة والسلام على النبي ﷺ .

والفصل الرابع في مرائيه ووصاياه ، وكلامه في التصوف وفي غير ذلك من العلوم . ويبدأه بتحديد أربعة أوصاف للصوفي وهي : التخلق بأخلاق اللّه ، والمجاورة لأوامر اللّه ، وترك الانتصار للنفس حياء من اللّه ، وملازمة البسيط بصدق الفناء مع اللّه .

ويرى أن الدليل ينقسم على ثلاثة أقسام : من طريق العقل ، ومن طريق الكرامة ، ومن طريق السر (وما يختص العقل له مقابل في دراسات علم النفس الحديث ص ١١٤) .

كما حدثنا بعد ذلك عن بعض مصطلحات الصوفية كاليقين والمعرفة (والمعرفة كمصطلح من المفاهيم التي يهتم بها علماء النفس Cognition لكنها تختلف عن المعرفة كما يقصدها المتصوفون ص ١١٤) كما يتحدث عن علامات القطب ، والعلم الحقيقي والطريق .

وبعد ذلك يفرد فصلًا قصيرًا للحديث عن آداب العزلة ، وأسماء النصرة عن الدخول في العزلة ، وكذلك يخصص فصلًا لرد وساوس الشيطان (والوسواس - بغض النظر عن معناه في هذا السياق - أحد مفاهيم الطب النفسي التي تلقى عناية أيضًا من المتخصصين - في علم النفس الإكلينيكي Clinical Psychology ص ١٢٠ ، ١٢١) .

ثم يعود مرة أخرى للحديث عن آداب العزلة ، وثمرتها . وينتقل منها إلى المراقبة ويقدم في إطارها أربعة آداب هي : أدب التحقيق ، وأدب التعريس ، وأدب التوكل ، وأدب الدعاء (وهي مفاهيم صوفية خالصة) ، كما يقدم لنا أيضًا عدة فصول في القبض والبسط ، والعقد والوجد .

ويخص المؤلف من سيرة أبي الحسن الشاذلي ما ورد عنه في المحبة ، فيفرد لها فصلًا ، ويحدثنا عن فوائدها ، ويخص محبة اللّٰه بالحديث ، وهو حديث تغلب عليه النزعة الصوفية كما في باقي الكتاب (والحب أو المحبة بالمعنى العام أحد الموضوعات التي تلقى العناية على يد علماء النفس المحدثين تحت ما يسمى بالانفعالات Emotions وهو من أبواب علم النفس العام ص ١٦٤ ، ١٦٥) .

وبقية هذا الفصل يذكر فيه بعض مشاهد أبي العباس المرسي وبعض أشعاره ، وأذكاره ، وكذلك شعر الشيخ الصالح أبي محمد عبد اللّٰه المزدوري .

والفصل الخامس في وفاته ، وما جرى له في ذلك من خرق العادات واستخلافه لسيدي أبي العباس المرسي ، ويذكر أنه توفي في سنة ست وخمسين وستمائة وهو ابن ثلاث وستين سنة أو نحوها .

والجزء المتبقي من الكتاب يحتوي على ٥٩ مصطلحًا من مصطلحات الصوفية لكل منها تعريفه وحقيقته ، وغايته . ومن هذه المفاهيم اليقظة (وهي من المفاهيم قريبة الصلة بدراسات علم النفس ص ٢٣٧) والتقوى ، والمثوبة ، والأوبة ، والإنابة ، والفكرة (وهي إعمال النظر في كيفية تحصيل مطلوب غلب على الظن حصوله ، والفكرة أو التفكير من المصطلحات التي تدرس في علم النفس بأشكال عدة ص ٢٣٨) . والتذكر (وهو من المفاهيم القديمة الحديثة في علم النفس حيث بدأت دراسته من أيام أبنجهاوس في أواخر القرن الماضي ص ٢٣٨) والاعتصام ، والفرار ، والرياضة ، والسماع وكذلك الحزن والخوف (وهما مما يدرس تحت باب الانفعالات في علم النفس العام ص ٢٤٠) والإشفاق والخشوع ، والإخبات ، والزهد ، والورع ، والتبتل ، والرجاء (ويذكر بعض علماء النفس أن الرجاء من المنبهات Stimuli النفسية الداخلية ص ٢٤٢) والرغبة (وهي تدرس أيضًا في علم النفس وإن كانت بمسميات مختلفة – كالحاجات Needs والبواعث Incentives ص ٢٤٢) .

والرعاية ، والمراقبة ، والحرمة ، والإخلاص والتهذيب ، والتوكل ، والتفويض والثقة

(ومن الموضوعات التي تدرس في باب الشخصية Personality كأحد سماتها النوعية هو ما يسمى بالثقة بالنفس Self - Confidence ص ٢٢٤) والتسليم ، والصبر ، والرضا (ويدرس أيضًا في علم النفس الصناعي Industrial Psychology تحت مسمى الرضا عن العمل Job Satisfaction ص ٢٤٥) ومن المصطلحات التي وردت أيضًا الحياء ، والإيثار (والإيثار من المفاهيم الحديثة في علم النفس وهي مقابل للكلمة الإنجليزية Altruism وإن كان البعض يترجمها الغيرية ، والإيثار أدق وأشمل ص ٢٤٦) وكذلك الخلق ، والتواضع والفتوة ، والانبساط (وهو من مصطلحات علم النفس الشهيرة Extraversion ويقابل الانطواء ، وهو من أبعاد الشخصية الرئيسية عند إيزيك ، وإن كان استخدامه لدى الصوفية مختلفًا ص ٢٤٧) . ومن هذه المفاهيم القصد ، والعزم ، والإرادة ، والأدب واليقين ، والأنس ، والذكر ، والمراد والفقر ، والغنى ، والإحسان ، والعلم ، والحكمة ، والبصيرة والفراسة ، والتعظيم ، والإلهام (والإلهام من المصطلحات التي تناولها علماء النفس بالمناقشة إبان دراستهم لسيكولوجية الإبداع Creativity ص ٢٥٣) ، وأخيرًا السكينة والطمأنينة .

* * *

ابن عطاء الله السكندري (ت ٧٠٩هـ)
تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس [(١)]

عرض : د . أسامة سعد أبو سريع

التعريف بالمؤلف [(٢)] :

هو أحمد بن محمد بن عبد الكريم ، أبو الفضل تاج الدين (وهي ربما من ألقابه) ابن عطاء اللَّه السكندري ، متصوف شاذلي من العلماء ، كان من أشد خصوم شيخ الإسلام ابن تيمية .

له تصانيف كثيرة ؛ منها : « الحكم العطائية » في التصوف ، ولطائف المنن في مناقب المرسي وأبي الحسن ، وينسب إليه كتاب مفتاح الفلاح ، وليس من تأليفه ، والدرر الكامنة ، والرحلة العباسية ، وكشف الظنون ، والكتابين اللذين نحن بصددهما : تاج العروس ، والتنوير في إسقاط التدبير .

توفي بالقاهرة في (٧٠٩هـ ، ١٣٠٩م) وورد في كتابه كشف الظنون أنه توفي (٧٠٧هـ) .

عرض الكتاب :

يتكون الكتاب من اثنتين وستين صفحة من القطع الصغيرة دون تحقيق أو تقسيم إلى فصول داخلية ولا يحوي أية عناوين ، وفيه يسترسل ابن عطاء اللَّه السكندري ويقدم

(١) القاهرة : مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، [د . ت] ، (٦٢ص) .
(٢) الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء لخير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين : ببيروت ، المجلد الأول .

عديدًا من المواعظ ترمي إلى نبذ الدنيا والزهد فيها والعمل للآخرة .

وفيما يلي نلخص الأفكار التي وردت في الكتاب وبعد العرض نبيِّن مدى علاقتها بالمفاهيم السيكولوجية :

في مستهل الكتاب حث ابن عطاء اللّه السكندري الإنسان على طلب التوبة في كل وقت عملًا بالآية الكريمة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] . ويشرح طريق التوبة بأنه التفكير الدائم فيما عمله الإنسان ، ثم شكر اللّه إن كان العمل صالحًا أو توبيخ النفس إن كان العمل غير صالح . ويحرص ابن عطاء اللّه على أن تكون التوبة صادقة والندم حقيقيًا ، فينصح بأن يصحب توبيخ النفس الحزن والانكسار والذلة أمام اللّه - تعالى - أملًا في أن يقبل اللّه التوبة فيبدل الحزن فرحًا .

ويوصي بعد ذلك بأن يكون عمل العبد كله للّه وأن يحرص العبد على الاقتداء واتباع رسول اللّه ويبيِّن أن لهذا الاتباع سبيلين ، أولهما جلي وواضح كالصلاة والصيام والزكاة والجهاد وغير ذلك من الفرائض ، وثانيهما خفي وهو عمل قلبي يتمثل في الخشوع في الصلاة وتدبر القراءة ، وهو يرى أن من يعجز عن هذا التفكير والتدبير تشوبه خصلة من كبر أو عجب ، وهنا يستشهد بالآية الكريمة : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ١٤٦] ، ويشبه ابن عطاء اللّه ذلك الشخص الذي يظهر الاتباع الجلي دون الاتباع الخفي بالشخص المصاب بالحمى فتتحول حلاوة السكر في فمه إلى مرارة .

ويؤكد ابن عطاء اللّه أهمية الطاعة القلبية حتى يفضل المعصية مع الذل على الطاعة مع الغرور والاستكبار . ويفسر أهمية الاتباع في أنه يجعل التابع جزءًا من المتبوع ، حتى وإن كان التابع أجنبيًا ، ويستشهد بقول رسول اللّه ﷺ عن سلمان الفارسي : « **سلمان منَّا أهل البيت** » ، ثم يفصل طريق الاتباع القويم في أنه ترك الظلم وتجنب الغيبة وقذف الأعراض .

ويعرض ابن عطاء اللّه بعد ذلك مظاهر العصيان الظاهرة ، فيذكر أن المعصية تتضمن نقض العهد وفعل ما لا يرضاه اللّه والتجرد من الحياء ، بالإضافة إلى التكاسل عن طاعة اللّه والجري وراء الشهوات ، أما المظاهر الباطنة فتشمل القسوة والعناد وفقدان حلاوة الطاعة والغفلة عن حساب الآخرة . ويتبع ذلك بشرح طريق البُعد عن المعصية ، ويفسره

بأنه اللجوء إلى اللّٰه والتضرع إليه وزيارة ضرائح أولياء اللّٰه الصالحين مع ذكر اللّٰه وقراءة القرآن والسعي في الخيرات .

ويحث ابن عطاء اللّٰه على الصبر والمثابرة في الجهاد وعدم التسرع ، فيشير إلى أن العبد لا يشعر بحلاوة التوبة والقبول وقت المجاهدة ، وإنما يشعر بها بعد أن يطهر نفسه ويثبت على طريق الصلاح .

ويحذر ابن عطاء اللّٰه من التهوين من شأن الذنوب الصغيرة ، ويرى أن في هذا خطرًا عظيمًا ؛ لأن الكبائر يدركها الإنسان فيتوب منها ، أما الذنوب الصغيرة فيغفل عنها حتى يصدق عليه قول اللّٰه تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١٥] .

ويعود ابن عطاء اللّٰه فيؤكد أهمية خشوع القلب وصدق الضمير عند رجاء التوبة والبُعد عن المعاصي ، ويفسر ذلك بأن القلب إذا تجمد وإذا تبلدت المشاعر ، تكاسل العبد عن الصلاة والصيام واستصغر ذنوبه ، وصار مثله مثل الميت لا يؤلمه حد السيف . ويوصي الإنسان بأن يذكر اللّٰه طول الوقت ، ويتفكر في عذابه ، ويتنبه إلى أن الدنيا متاع « زائل » . ويبدي ابن عطاء اللّٰه تعجبه من مباسطة ومؤانسة الناس للعاصين ، ويرى أن الأولى هو الإعراض عنهم حتى يتجنبوا المعاصي . أما إذا عصى المؤمن فينبغي الإعراض عنه في الظاهر مع الحفاظ على مشاعر الرحمة في الباطن وطلب الرحمة له .

ويفسّر ابن عطاء اللّٰه أسباب الجري وراء ملذات الدنيا في أنها النظر وحسد الآخرين على ما أعطوا ، وتهيئ النعمة مثلهم ، وتبيّن حماقة ذلك الموقف ؛ لأن الشخص يشغل نفسه هنا بما ليس في يده .

ويفرّق ابن عطاء اللّٰه بين سلوك أهل السعادة من الصالحين المؤمنين وبين سلوك أهل الشقاوة العاصين ، فيذكر أن المؤمن إذا رأى عاصيًا أنكر تصرفه علانية ودعا له في الباطن بالإصلاح ، أما غير المؤمن فيتشفى في العاصي ويفضحه . ويعرض اختبارًا يقاس به مدى صلاح الشخص ، ومفاده أن تذكر أمامه شخصًا آخر ، فإذا اغتابه وذكره بسوء كان ذلك برهانًا على فساد نفسه ، أما إذا ذكره بخير والتمس له الأعذار دل ذلك على صلاح سريرته .

ويوصي ابن عطاء اللّٰه المؤمن بأن يتدارك ما مضى من عمره في معصية سها فيها عن الصلاة والصيام ، ويرى أن السبيل إلى ذلك هو الصلاة على رسول اللّٰه ﷺ ، بأن صلاة العبد طول عمره لا تكافئ صلاة اللّٰه عليه مرة واحدة ، كما يوصي بحضور

مجالس الذكر في المساجد حتى يكون سبيلًا لتنوير العقل وإطالة العمر بالخشوع والإيمان والخضوع .

ثم ينبّه بعد ذلك إلى خطورة الكبر والتكبر ويعرف الشخص المتكبر بأنه الذي يحقر الناس وينكر الحق ، ولا يقتصر الكبر على ذوي المكانة المرموقة فقط بل يتخلل كل الطبقات فيشمل الغني والفقير . ويمضي ابن عطاء اللّه موضحًا طريق التقرب إلى اللّه فيوضح أنه يبدأ بكف شهوتي البطن والفرج وعيادة المرضى ، والتصدق على المحتاج وارتياد مجالس الذكر ، والاقتداء بالأولياء الصالحين ، والقيام بالنوافل ، والاستغفار . ويدعو ابن عطاء اللّه إلى إحسان العمل ويصف العمل بأنه الخلّ الذي يبقى ويتبع صاحبه وقت الحساب ، ويذكر أن للإنسان ثلاثة أخلاء : أولها المال ويفقده الإنسان عند موته ، ثم العيال وهم يتركونه عند القبر ، والعمل الذي لا يفارقه .

ويكشف ابن عطاء اللّه ميل النفس إلى الرياء والتصنع وإظهار العمل أمام الناس ، ويضرب الأمثلة على ذلك ، ومنها الشخص الذي يسعى للحج يُرى أمام الناس ، وسهر الإنسان طول الليل لطلب العلم الدنيوي مع الكسل عن الصدقة ؛ لأنها لا تُرى ، مع التثاقل عن صلاة ركعتين للّه في جُنح الليل . وهنا يدعو العبد إلى إتيان الأعمال الصالحة مع الحفاظ عليها سرًّا بين العبد وخالقه .

وفي مجال الشخصية Personality يؤكد ابن عطاء اللّه ضرورة أن يستمد الشخص سعادته Happiness من قلبه ومن رضا اللّه عنه ، وليس من رضا الخلق (ص ١٨ ، ٢١، ٢٤ ، ٢٩ ، ٤٣) . وهنا تبرز المفاهيم النفسية الآتية الانفعالات Emotions ، والرضا Satisfaction ، والتدعيم Reinforcement ومركز التحكم في التدعيم Locus of Control وتسير كلها في اتجاه مفاده أن الشخص يستمد رضاه وسعادته ومدعماته من داخل ذاته وليس من خارجها .

ويستمر ابن عطاء في الوعظ والوصايا محذرًا الإنسان من اللهفة على الدنيا ونسيان الآخرة ، ويشبه المهموم بأمر الدنيا بإنسان يهاجمه سبع يريد أن يفترسه ، ثم وقفت ذبابة على هذا الشخص فإذا به يهتم بذب الذبابة وينسى دفع الأسد ، كذلك من يهمه الدنيا وهي كالذبابة ، وينسى الآخرة بكل ضراوتها .

ويمضي ابن عطاء اللّه فيوضح أن ما يصلح القلب أربعة أمور وهي : كثرة الذكر ، ولزوم الصمت ، والخلوة ، وقلة الطعام والشراب . ثم يبيِّن أهمية أن تنقاد النفس للقلب

وألَّا ينقاد القلب للنفس ، فيشبه من يسلم قلبه إلى نفسه إلى غريق فيغرق كلاهما ، أو كمثل البصير يترك نفسه لأعمى ، ومثل من يسلم نفسه إلى قلبه كمثل من يسلم نفسه إلى سباح قوي يقوده إلى السلامة . ثم يحث على مجالسة الصالحين الصادقين فيشير إلى أنه من السهل على الإنسان أن يجد ما لا يحصى من القراء والأطباء والفقهاء ، ولكن من الصعب أن يجد من يدله على اللَّه ويعرفه بعيوب نفسه . ويدعو ابن عطاء اللَّه إلى الخلوة والأنس باللَّه ؛ لأن حب الخلق لا يخلو من الأغراض والطمع ، ويذكر أن كثيرًا من السلف كانوا يقاومون الرغبة في الخروج للخلق ويشغلون أنفسهم بطاعة اللَّه ، كما يدعو إلى إحسان العمل مع قلته بدلًا من إكثار العمل مع عدم إحسانه .

وفي مجال العلاقات الاجتماعية يبرز عدد من المفاهيم النفسية منها الميل إلى العزلة والوحدة Loneliness ، والانسحاب Withdrawal من العلاقات الاجتماعية Social Relations والحد من التخاطب اللفظي Verbal Communication أو الإفصاح عن الذات Self - Disclosure والتفاعل الاجتماعي Social Interaction (ص ٢١ ، ٢٧، ٢٩ ، ٣٣ ، ٤٢) . وإن كانت تلك الدعوة تتعارض مع بعض الاتجاهات النفسية الحديثة التي تشجع على المشاركة الاجتماعية والاتصال بالآخرين . ويمكن القول : إن الميل إلى الانسحاب أو المشاركة يتوقف على الغاية التي يهدف الشخص إليها ، وعلى طبيعة شخصيته ، وعمومًا فإن ابن عطاء اللَّه لم يحث على الانسحاب المطلق ، وإنما دعا إلى مخالطة الصالحين والبعد عن العاصين (ص ١٨) .

وأخيرًا يتناول ابن عطاء اللَّه التدبير ويقسمه إلى تدبير مذموم وتدبير محمود . فالتدبير المذموم هو التفكير والإعداد والانشغال بكل ما فيه عصيان للَّه أو ابتغاء الرياء ، وهو تدبير يوجب العقاب أو الذم . أما التدبير المحمود فهو التدبير الذي يقرب العبد إلى اللَّه ، ومنه رد الحقوق إلى أصحابها وإخلاص التوبة إلى اللَّه وكف الشهوات وهو تدبير محمود بشهادة رسول اللَّه إذ يقول : « **فكر ساعة خير من عبادة سبعين** » . ويقسم التدبير للدنيا إلى قسمين : تدبير الدنيا للدنيا ، ويُميزه الافتخار والاستنكار والشره ، وتدبير الدنيا للآخرة ومنه السعي للرزق الحلال أو للتصدق به ، ويميز هذا التدبيرَ الادخارُ والإيثار والاعتدال . ويمثل هذا النوع من التدبير طلبًا غير مذموم للدنيا ، وينتهي من ذلك إلى تأكيد قول أبي العباس المرسي : إن العارف لا دنيا له ولا آخرة له ؛ لأن دنياه لآخرته وآخرته لربه ، ويبينِّ كيف كان هذا الاعتقاد في قلوب صحابة رسول اللَّه فوضعوا الدنيا في أيديهم وأنفقوا منها ابتغاء مرضاة اللَّه ، ويضرب أمثلة لذلك الإنفاق

منها : خروج عمر بن الخطاب عن نصف ماله ، وخروج أبي بكر الصديق عن ماله كله في سبيل الله .

ومما سبق نجد أن هناك عددًا من الأفكار تقترب من عدد من المفاهيم النفسية ، وإن كانت الصلة بينهما وبين تلك المفاهيم صلة غير مباشرة في بعض الحالات ، ففي حديث ابن عطاء اللّه عن الزهد ونبذ الدنيا بكل ملذاتها (ص ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٧) تبرز المفاهيم الآتية : الكبت Repression وكف الدوافع الأولية Primary Motives كالجوع والعطش والجنس Sex .

* * *

التنوير في إسقاط التدبير [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٣٢ صفحة من القطع الصغير ، ويحتوي على موضوع الكتاب فقط ، ولم يلتزم فيه المؤلف بتصنيف معين ، وإنما يضع عناوين جانبية ؛ مثل « فائدة » أو « بيان وإعلام » أو « تنبيه واعتبار » أو فصل « ترتيب وبيان » أو « انعطاف » وغير ذلك مما يروق له من عناوين جانبية .

يبدأ المؤلف كتابه بمقدمة تشبه الخطبة يعظم فيها اللَّه ﷻ ويقدسه ، ويوجِّه كلامه بعد إلى من يخاطبهم بكرمه ، ويدعوهم إلى ترك التدبير ومنازعة المقادير ، ويبيِّن سبب تصنيف هذا الكتاب ، وسبب اختيار اسم التنوير في إسقاط التدبير للكتاب ، ويورد عددًا من الآيات والأحاديث النبوية الشريفة الدالة على ضرورة ترك التدبير ومنازعة المقادير ، ويستعين أيضًا ببعض أقوالِ الصالحين ، ويوضح أن حقيقة الإيمان لا تحصل إلَّا بالامتثال لأمر اللَّه تعالى ، والاستسلام لقهره ، والإيمان برسوله ﷺ .

وتحت عنوان « فائدة » يعلمنا بأن الحق ﷻ إذا أراد أن يقوي عبدًا على ما يريد أن يورده من وجود حكمه ألبسه من أنوار وصفه ، وكساه من وجود نعمته ، فتنزل الأقدار وقد سبقت إليه الأنوار ، فكان بربه لا بنفسه فقوى إعبائها وصبر عليها ، ثم يذكر عشرة أسباب توجب صبر العبد وثبوته لأحكام سيده وقوته عند ورودها ثم يفصل القول في

(١) القاهرة : مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده (١٩٧٠م) ، (١٣٢ص) .

كل واحد منها . **فالأول** : إنما يعينهم على حمل الأقدار وورود الأنوار ؛ لأنها تكشف للعبد عن قرب الحق ﷻ .

والثاني : إنما يعينهم على حمل الأحكام فتح باب الإفهام ، والله هو الذي يفتح باب الفهم ، فيجعل العبد يتوكل على الله - وكل الأسباب ترجع إلى الفهم (نلاحظ أن مصطلح الفهم - أيا كان معناه لدى المؤلف - من المفاهيم الشائعة في علم النفس ، سواء في الذكاء Intelligence أو سيكولوجية اللغة Psycholinguistics ص ٧) .

والثالث : إنما يعينهم على حمل البلايا وإرادات العطايا ؛ وذلك لأن واردات العطايا السابقة من الله إلى العبد تذكره بما يعينه على حمل أحكام الله (وتحمل البلايا يقابله التوافق مع عناصر المشقة Stress وهو من موضوعات علم النفس العام ص ٨) .

والرابع وهو : إنما يقويهم على حمل أقداره شهود حُسن اختياره ، وذلك أن العبد إذا شهد حُسن اختيار الله - تعالى - له على أن الحق ﷻ لا يقصد ألم عبده ؛ لأنه به رحيم .

والخامس هو : أنه إنما صبرهم على وجود حكمه علمهم بوجود علمه ، وذلك أن علم العبد بأن الحق سبحانه مطلع عليه فيما أبلاه يخفف عنه البلايا .

والسادس : إنما صبرهم على فعاله ظهوره عليهم بوجود جماله ، وذلك أن الحق ﷻ إذا تجلى على عبد في حين ملاقاته لمن غلبته البلايا حمل حرارتها عنه .

والسابع : إنما صبرهم على القضاء علمهم بأن الصبر يورث الرضا ، وذلك أن من صبر على أحكام الله ، أورثه ذلك رضًا من الله ، فتحملوا حرارتها طلبًا لرضاه .

والثامن : إنما صبرهم على الأقدار كشف الحجب والأستار ، وذلك أن الحق ﷻ إذا أراد أن يحمل عنه عبده ما يورده عليه كشف الحجاب عن بصيرة قلبه فأراه منه ، فغيبه أنس القرب عن إدراك المؤلفات (وإدراك الألم Pain Sensation من موضوعات علم النفس ص٩) .

والتاسع : إنما قواهم على حمل أثقال التكليف وورود أسرار التصريف ؛ وذلك لأن التكاليف شاقة على العباد ، ويدخل في ذلك امتثال الأوامر والانكفاف عن الزواجر والصبر على الأحكام والشكر عند وجود الإنعام .

والعاشر : إنما صبرهم على أقداره علمهم بما أودع فيها من لطفه ، وذلك أن المكاره أودع الحق - تعالى - فيها وجود الألطاف .

وفي موضع آخر يضع عنوان « فصل » يعلمنا فيه أن الذي يحملنا على إسقاط التدبير مع الله والاختيار أمور : **الأول** : العلم بسابق تدبير الله فينا ، وذلك أن الله كان لنا قبل

أن نكون لأنفسنا ، وكما كان مدبرًا قبل أن نكون ، فهو مدبر لنا بعد الوجود .

والثاني : أن نعلم أن التدبير منَّا لأنفسنا جهل منا بحسن النظر ؛ فالمؤمن قد علم أنه إذا ترك التدبير مع اللَّه كان له بحسن التدبير فيه ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق : ٣] .

والثالث : علمنا بأن القدر لا يجري على حسن تدبيرنا ، بل أكثر ما يكون ما لا ندبره ، وأقل ما يكون نحن له مدبرون ، والعاقل لا يبني بناء على غير قرار .

والرابع : العلم بأن اللَّه تعالى هو المتولي لتدبير مملكته عاليها وسافلها ، غيبها وشهادتها ، وكما سلمنا له تدبيره في عرشه وكرسيه وسمواته وأرضه ، نسلم له تدبيره في وجودنا .

والخامس : علمنا بأننا ملك للَّه ، وليس لنا تدبير ما هو لغيرنا ، فما ليس لنا ملكه ليس لنا تدبيره .

والسادس : علمنا بأننا في ضيافة اللَّه ؛ لأن الدنيا دار اللَّه ، ونحن نازلون فيها عليه ومن حق الضيف أن لا يعول همًّا مع رب المنزل .

والسابع : نظر العبد إلى قيومية اللَّه تعالى في كل شيء .

والثامن : اشتغال العبد بوظائف العبودية التي هي غاية العمر .

والتاسع : أن العبد مربوب ، وحق العبد أن لا يعول همًّا مع سيده مع اتصافه بالاتصال وعدم الإهمال .

والعاشر : عدم العلم بعواقب الأمور ، فربما دبر العبد أمرًا ظن أنه له وكان عليه ، وربما أتت الفوائد من وجوه الشدائد والعكس .

ويذكر ابن عطاء اللَّه السكندري فائدة أخرى يقول فيها : اعلم أن التدبير والاختيار وباله عظيم ، وخطره جسيم ، وأن آدم عليه السلام إنما حمله على أكل الشجرة تدبيره لنفسه ؛ لذلك كان أجلُّ مقام أقيم العبد فيه مقام العبودية ، وكل المقامات إنما هي كالخدمة لهذا المقام .

ويمضي المؤلف بعد ذلك في سرد القصص والحكايات التي تؤكد وجهة نظره ؛ مثل : قصة بني إسرائيل ، وابن نوح ، وينبهنا إلى أن المؤمن قد ترد عليه خواطر التدبير لكن اللَّه تعالى لا يدعه لذلك ولا يتركه له . ويذكر في سياق الحديث الآية الكريمة :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠١] .

ويستخرج منها عشرة فوائد توضح معناها وتحلل ألفاظها ليؤكد ما يقول .

وتحت عنوان رئيسي « **تقرير وبيان الذكر قواعد التدبير ومنازعة المقادير** » يبدأ بسرد عدد من الآيات القرآنية التي وردت في فضل الإسلام وأنه الدين الخاتم ، وينتهي من ذلك إلى أن الإسلام وتكرار ذكره تنويه لقدره وتفخيم لأمره والذي يعني فيما يعنيه عدم المنازعة ، والاستسلام والذي يعني أيضًا الاستسلام لحكم اللّه والاكتفاء بتدبيره ؛ وبعد ذلك ينبهنا إلى أن التدبير على قسمين : تدبير محمود ، وتدبير مذموم ؛ فالتدبير المذموم هو كل تدبير ينعطف على النفس بوجود حظها لا للّه قيامًا بحقه كالتدبير في تحصيل المعصية (ص ٤٥) . أما الفكرة فيما يؤدي إلى قمع الهوى المردي والشيطان المغوي وكل ذلك محمود .

والتدبير للدنيا على قسمين : تدبير الدنيا للدنيا ، وتدبير الدنيا للآخرة ؛ فتدبير الدنيا للدنيا هو أن يدبر في أسباب جمعها افتخارًا واستكثارًا وكلما زيد فيها شيئًا ازداد غفلة واغترارًا وإمارة . وتدبير الدنيا للآخرة كمن تدبر المتاجرة والمكاسب ليأكل منها حلالًا طيبًا . كما أن التدبير المذموم هو ما يشغل عن اللّه ويعطل عن القيام بخدمته ، والصد عن معاملته ، والتدبير المحمود هو ما ليس كذلك .

ثم يوجه انتباهنا إلى أن إسقاط التدبير ليس هو الخروج الكامل عن الأسباب ، ولا هو بالتجريد ؛ فالمتسبب ، والمتجرد ليسا في نفس المرتبة ؛ فرغم أن الاثنين مطلوبان في الحياة ، إلا أن اللّه قد فضل من تفرغ لعبادته ، وشغل أوقاته به عن شغل نفسه بالتدبير المذموم (أو البحث في الأسباب) .

ويؤكد أن النفس من شأنها التشبه والمحاكاة والتزين بصفات من قارنها ، كما أن صحبة الغافلين معونة لها على وجود الغفلة (ونجد هنا مقابلًا لبعض ما ذكره مثل التقليد Imitation ، والمحاكاة Simulation ، والاقتداء Modeling ، وهي من أساليب التعلم ، وكذلك اختيار الأصدقاء ص ٥٣) .

واستمرارًا في تأكيد ترك التدبير للّه يقول : إن التدبير مع اللّه ﷻ عند أولي البصائر إنما هو مخاصمة للربوبية ؛ وذلك لأنه إذا نزل بالعبد أمر يريد رفعه أو رُفع عنه أمر يريد وضعه ، أو هم بأمر أنه متكفل به وقائم به له كان ذلك منازعة للربوبية وخروجًا عن حقيقة العبودية . كما أن التدبير إنما يكون من النفس لوجود الحجاب فيها ، ولو سلم القلب من مجاورتها ، وصين من محادثتها لم تطرقه طوارق التدبير .

ويمضي ابن عطاء اللَّه السكندري بعد ذلك في بيان أمور تتصل بالتدبير ؛ كالانشغال بالرزق والاهتمام به ، مع أن اللَّه تكفل برزق عباده . ويحثنا - برغم ذلك - على ضرورة طلب الرزق مع الإجمال في الطلب ، ويبين عشرة وجوه للإجمال .

كما تعرض أيضًا للإيثار وأنواعه « ونجد له مقابلًا في دراسات علم النفس الاجتماعي الحديث وهو سلوك المساعدة ص ١١٥ » .

ويختم الكتاب بدعاء اللَّه تعالى يناسب موضوع الكتاب .

* * *

الحكم العطائية [1]

عرض : د . إبراهيم شوقي عبد الحميد

عرض الكتاب :

يبدأ المحقق بتقديم فيه لمعنى الزهد وأنواعه ودرجاته ويشير فيه إلى أن الزهد يكون في سبعة أشياء (المطعم والملبس والمسكن وأثاثه والمنكح والمال والحلية) . ثم يعرض لمؤلفاته في الزهد ، ثم يلي ذلك عرض لحديث عن كتاب الزهد والرقائق ووصفه للنسخة الأصلية يليه عرض ترجمات لكُتّاب .

أما الكتاب نفسه فينقسم إلى شقين هما :

الشق الأول : كتاب الزهد لابن المبارك برواية المرزوي :

ويضم أحد عشر جزءًا وبكل جزء عدد من الأبواب تمثل موضوعات وردت بشأنها آيات قرآنية وأحاديث نبوية وأقوال عن بعض الصحابة والصالحين ، وهذه الأجزاء كالتالي :

الجزء الأول : ويتضمن باب « التحضيض على طاعة اللّه ﷻ » ثم باب « من طلب العلم لعرض من الدنيا » يليه باب « ما جاء في تخويف عواقب الذنوب » وباب « ما جاء في فضل العبادة » ثم باب « ما جاء في الحزن والبكاء » وفيه يحث الكاتب على التفكير الذي يولد الحزن والبكاء على الخطيئة ؛ ولذا فهو يتعلق بمفهوم الانفعال

---

(١) القاهرة : مركز الأهرام للترجمة والنشر (ط ١) ، (١٩٨٨م) ، (٣٠٣ص) .

Emotion (ص ٤٠ - ٤٥) . ثم يرد باب « العمل والذكر الخفي » ويحث على حسن العمل والتفكر الخفي وهما من السمات الإيجابية لشخصية المسلم (ص ٤٥ - ٥٠) . ثم يعرض في نهاية هذا الجزء باب « في الخشوع والخوف » ويحث فيه على أن يتحلى المسلم بالورع والخوف من الله ؛ ولذا فهو من الأبواب المتعلقة بانفعال الخوف Fear (ص ٥٠ - ٥٨) .

الجزء الثاني : ويتضمن باب « الاجتهاد في العبادة » وفيه يحث الكاتب على تنمية دوافع المسلم في العبادة ، ومن ثم فهو يتصل بمفهوم الدافعية Motivation وكذلك مفهوم الشخصية Personality (ص ٥٩ - ٦٢) يلي ذلك باب « الإخلاص والنية » ويتعلق بمفهوم الاتجاهات Attitudes (ص ٦٢ - ٧٠) . ثم باب تعظيم ذكر الله ﷻ وباب « التفكير في اتباع الجنائز » وباب « النهي عن طول الأمل » ، ثم باب « ذكر الموت » ، يليه باب « الذي يجزع من الموت لمفارقة أنواع العبادة » ويتعلق بمفهوم قلق الموت Death Anxiety . ثم باب « الاعتبار والتفكر » يليه باب « الهرب من الخطايا والذنوب » وباب « صلاح أهل البيت عند استقامة الرجل » ويتعلق بمفهوم التعلم الاجتماعي Social Learning ، والقدوة Modeling ، ثم يختتم الكاتب هذا الجزء بباب « فخر الأرض بعضها على بعض » .

الجزء الثالث : ويبدأ بباب « جليس الصدق » ، ثم باب « حفظ اللسان » ويتعلقان بالسلوك الأخلاقي Moral Behavior (ص ١٢٥ - ١٣١) . ثم باب « التواضع » ، وفيه يحث على تحقيق المساواة بين الأفراد في الحقوق والواجبات ؛ ولذا فهو يتعلق بقيمة المساواة Equality Value ، والعدالة Justice ، وكذلك صورة الذات Self Image (ص ١٣٢ - ١٣٦) .

يلي ذلك باب « في فضل المشي إلى الصلاة والجلوس في المسجد » وباب « ما جاء في التوكل » ، ويعد التوكل أسلوبًا توافقيًا مع مشكلات الحياة التي لا صلة للإنسان فيها ؛ ولذا يتعلق هذا الباب بالصحة النفسية Mental Health ، والإرشاد النفسي Psychological Counseling (ص ١٤٣ - ١٤٨) . يلي ذلك باب « بشرى المؤمن عند الموت وغير ذلك » ؛ ثم باب « ذم الرياء العجب وغير ذلك » ؛ وفيه يعرض لأقوال وروايات الأولين عن مظاهر الرياء والعجب وآثارهما على الفرد والجماعة ، وكذلك يعرض لجزء المرائين في الآخرة ، ويتعلق هذا الباب بسمات الشخصية غير المرغوبة وهو ما يشار إليها بمفهوم اضطرابات الشخصية Personality Disorders ، أو مفهوم السلوك

غير الأخلاقي Immoral Behavior (ص ١٥١ - ١٦١) . ثم يختتم هذا الجزء بباب « توبة داود وذكر الأنبياء صلوات الله عليهم » .

الجزء الرابع : ويبدأ بباب « التقلل من الدنيا » ، ثم باب « هوان الدنيا على الله ﷻ » ، ثم باب « التوكل والتواضع » ، ويتعلق التوكل بمفهوم الصحة النفسية ، والتواضع بمفهوم القيم Values (ص ١٩٤ - ١٩٦) ، كما سبق أن أشرنا ، يلي ذلك باب « القناعة والرضا » ويرتبط بمفهوم الرضا Satisfaction ، وهو أحد مؤشرات التوافق النفسي والاجتماعي Psycho- Social Adjustment ، ثم يرد بعد ذلك باب « ما جاء في الفقر » ، ثم باب « في طلب الحلال » ، ويتناول فيه أحد مظاهر السلوك الأخلاقي Moral behavior (ص ١١٦ - ٢٠٩) .

الجزء الخامس : ويبدأ بباب « الصدقة » ثم باب « ما جاء في الإحسان إلى اليتيم » وباب « ما جاء في الشح » وتتعلق هذه الأبواب بمفهوم السلوك الأخلاقي Moral behavior ، حيث نجد فيها الحث على مساعدة المحتاجين وحسن معاملتهم كما نجد الحث على تقبل الآخرين دون الإفراط في حبهم أو بغضهم (ص٢٣٣) كما تتصل هذه الموضوعات بمفهوم سلوك المساعدة Helping Behavior ، والتعاون Co - Operation ، والعلاقات بين الأشخاص Interpersonal Relationships .

ثم يورد الكاتب باب « النية مع قلة العمل وسلامة القلب » ثم باب « من كذب في حديثه ليضحك به القوم » ؛ وفيه يذم الكذب أيًا كان هدفه ، وهو ما يتعلق بمفهوم اضطرابات الشخصية Personality Disorders التي تضم عددًا من الاضطرابات ؛ منها الكذب Lie وهو أيضًا أحد مظاهر السلوك غير الأخلاقي Immoral Behavior (ص ٢٥٤ ، ٢٥٥) .

ثم يختتم المؤلف هذا الجزء بباب « إصلاح ذات البين » ، وفيه يحث على تقويم وعلاج بعض الصفات والأفعال المذمومة ؛ كالبغض والنميمة والغضب والبخل . ويتصل هذا الباب بمجال تعديل السلوك Behavior Modification ، والإرشاد النفسي Psychological Counseling ، والتربية Education (ص ٢٥٦ - ٢٦١) .

الجزء السادس : ويستهل هذا الجزء بباب « ما جاء في ذم التنعم في الدنيا » ثم باب « ما جاء في قبض العلم » يلي ذلك باب في « الخلال المذمومة » وفيه يعرض لأشكال من الصفات البشرية غير المرغوبة ، ولذا فهو يتعلق بباب اضطرابات الشخصية

Personality Disorders (ص ٢٨٥ - ٢٨٧) ، ثم بباب « التواضع » ويتصل ، كما أشرنا سلفًا بقيمتي المساواة والعدل Values of Equality & Justice (ص ٢٨٧ - ٢٩٢) . ثم يعرض لباب « ما جاء في ذكر أويس والصنابحي ﷺ » ، ثم باب « ما جاء في ذكر عامر بن عبد قيس وصلة بن أشيم ﷺ » .

الجزء السابع : ويضم أبوابًا عن « أخبار إلى ريحانة وغيره » و « أخبار عمر بن عبد العزيز ﷺ » ، ثم باب « ذكر رحمة اللَّه تبارك وتعالى » ، يلي ذلك « فضل ذكر اللَّه ﷻ » . ثم يعرض بعد لعدد من الأجزاء دون أن تُقسم لأبواب وهي : الجزء الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر ، وتضم هذه الأجزاء أحاديث نبوية ، ونصوصًا قرآنية ، وروايات وأقاويل للصحابة والصالحين في الحث على الزهد والعمل للآخرة والتحلي بمكارم الأخلاق .

الشق الثاني : إضافات عن الزهد (نعيم بن حماد) (١) :

ويضم هذا الجزء أحاديث نبوية وأقوالًا وأخبارًا للصحابة والصالحين في عدد من الموضوعات صنفت في صورة أبواب أولها باب في : « المشي للمسجد » ثم باب في « العزلة » وتحت عنوان الجزء الرابع يعرض لباب « المزاح » ثم باب « من ترك شيئًا للَّه » ثم باب « في الورع » وباب « استماع اللهو » وباب في « إعجاب المرء بنفسه » ويتعلق بمفهوم صورة الذات (Self Image) ، يلي ذلك باب في « المداحين » وباب في « الرياء » ، وهو ما يتصل بموضوع السلوك الأخلاقي Moral Behavior ثم باب « حسن السريرة » ويتعلق بمفهوم النية Intention . يلي ذلك باب في « التقوى » ثم باب في « الصدقة من المال الحرام » ، ثم باب في « تأخر الإجابة للدعاء » وباب « في الإخلاص للدعاء » ، وباب في « لزوم السنة » ثم باب « في جهد المقل في الصدقة » وباب « في الساهي في الصلاة » ثم باب « ما يجب للصائم من الصمت في الصبر على البلاء » . ثم يعرض بعد ذلك لباب « في ثواب المعزى » و « الصبر على المصيبة » ، ثم باب « في الرضا بالقضاء » ، ويورد فيهما أقوالًا وروايات للحث على الصبر والتحمل والشكر ، الأمر الذي يتعلق ببعض المفاهيم النفسية ؛ مثل : المثابرة Persistence ، والرضا Satisfaction ، والتوافق مع أحداث الحياة Adjustment with life events . يلي ذلك باب « في التوكل على اللَّه » ويتعلق بعلاج القلق Treatment of Anxiety ،

---

(١) يمثل هذا إضافات متناثرة عن الزهد رواها نعيم بن حماد في نسخته زائدًا على ما رواه المرزوي عن ابن المبارك .

والإرشاد النفسي Counseling ، ثم باب « في خوف اللّٰه واجتناب معاصيه » وباب « في ذكر الموت » وباب « في قول عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص عند الموت » وباب « ما يسر به الميت عند الموت وثناء الملكين عليه » ، يلي ذلك باب « في أرواح المؤمنين » وباب « في عرض عمل الأحياء على الأموات » ثم باب « كراهية البنيان » ثم « الندم على الخطيئة » وكذلك باب « في محو الحسنات السيئات » .

ثم يعرض بعد ذلك تحت عنوان أول السادس باب « في خشوع سليمان ﷺ » ثم باب « طعام يحيى بن زكريا » ، ثم باب « في أيوب النبي ﷺ » يلي ذلك باب « في الصبر والشكر » ويتعلق بمفهوم المثابرة Persistence ، والرضا Satisfaction ، ثم باب « في الحرص على جمع المال والشرف » ، ثم باب « التهليل والحمد والاستغفار والاسترجاع » ، يلي ذلك باب « في الاستهانة بنعمة اللّٰه » ، ثم باب « في التواضع » ويتعلق بموضوع القيم Values ، وصورة الذات Self - Image (كما أشرنا سلفًا) . يلي هذا باب « تعظيم المنافق » ثم باب « كراهية مشية المطيطاء » ثم باب « التواضع وكراهية الكبر » ثم باب « في كراهة البنيان » ، يلي هذا باب « في الرضا بالدون من العيش » ويتعلق بعملية كف أو التحكم في الدوافع الأولية Primary Motives ثم باب « في الذب عن عرض المؤمن » .

وتحت عنوان أول الثاني عشر يعرض « لصفة الجنة وما أعد اللّٰه فيها » ثم باب « الحشر والجنة والنار » ، تحت عنوان الجزء السادس عشر .

إجمالًا نجد أن موضوعات الكتاب تتصل بالزهد وذم الاهتمام بنعم الدنيا الفانية ، وإغفال الآخرة الحياة الأبقى ، وفيها نجد الحث على أن يأخذ الإنسان من الدنيا قدر الزاد وأن يقمع من شهواته ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل ويتصل هذا الموضوع بصفة عامة بعملية كف الدوافع الأولية أو البيولوجية الفطرية (Primary Motives) or (Biological Innate Motives)

* * *

ابن تيمية
تقي الدين أحمد بن تيمية (٧٢٨هـ)
أمراض القلوب وشفاؤها [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف [2] :

هو الشيخ العالم الإمام أحمد تقي الدين أبو العباس ابن الشيخ شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم ابن الشيخ مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن أبي محمد عبد اللَّه بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن علي بن عبد اللَّه ، وتعرف هذه الأسرة بأسرة « ابن تيمية » عاش في الفترة من (٦٦١ - ٧٢٨هـ) .

ولد شيخ الإسلام في العاشر من شهر ربيع الأول عام (٦٦١هـ) بمدينة حران ، ونشأ في أسرة متدينة امتازت بقوة البيان ، وحبست نفسها على العلم ، وحفظ الغلام القرآن والحديث صغيرًا ، وتعرف على الأحكام الفقهية .

حارب ابن تيمية التتار عام (٧٠٢هـ) في الشام ، وتعرَّض الشيخ لمحن كثيرة سجن فيها وعذب وتعرض تلاميذه للأذى والسجن من أجله ، وله دور بارز في إزالة البدع والمنكرات بكتاباته وفتاويه .

وتوفي الشيخ في العشرين من شوال عام (٨٢٧هـ) في دمشق .

---

(١) تحقيق : محمود مطرجي (ط ١) . بيروت : دار القلم (١٩٨٦م) ، (١٣٦ص) مع : التحفة العراقية في الأعمال القلبية - تقي الدين أحمد بن تيمية .

(٢) المصدر : تراجم الأعلام : خير الدين الزركلي - دار العلم للملايين - لبنان .

عرض الكتاب :

يضم هذا الكتاب - في حقيقة الأمر - كتابين ، لكل منهما فهرسًا مستقلًّا ويقع في ثمانين صفحة من القطع المتوسط ، يحتل كتاب أمراض القلوب وشفاؤها ٣٤ صفحة ، ويقع كتاب التحفة العراقية في بقية صفحات الكتاب . والكتاب مقسم إلى فصول سنعرض لها فيما يلي ، ونلاحظ أن بعض هذه الفصول لها عناوين وبعضها قدم بلا عنوان .

والفصل الأول : في أمراض القلوب وشفاؤها : ويبدأ الحديث فيه عن أمراض القلوب والصدور ، ويحاول أن يجمع البراهين على ذلك بسرد عدد من آيات الذكر الحكيم من القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول صلوات اللّٰه وسلامه عليه . وبعد ذلك يعرف « مرض البدن » بأنه عكس صحته وصلاحه ؛ وهو فساد يكون فيه يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية . ويحدد اضطراب الإدراك بأنه إما أن يكون في ذهابه تمامًا ؛ كالعمي ، الصمم . أو أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه . وكما يخيل إليه أشياء لا حقيقة لها في الخارج . وهو هنا يقترب من حديث يقف على الحدود بين الطب النفسي وعلم النفس الإكلينيكي ، حول اضطرابات الإدراك (كالخداعات Illusions والهلاوس Hallucinations) .

كما يحدثنا بعد ذلك عن مرض القلب ، وهو نوع فساد يصيبه به تصوره وإرادته ثم يقارن بين الصحة والمرض بصفة عامة ، ويورد آلام القلب وما يؤديه كالغيظ والشك والجهل ؛ والقلب كما يمرض فإنه يموت بموت الجهل المطلق أو بنوع من الجهل ، فالقلب عند ابن تيمية - له موت ومرض ، وحياة وشفاء ، وحياته وموته ، ومرضه وشفاؤه أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفائه ؛ ويرى أن شفاء القلب في القرآن الذي يميز به بين الحق والباطل ، وفي الزكاة والصدقة ، وترك الفواحش ، والعدل والعمل . والأصل في صلاح القلب ، وهو حياته واستنارته ؛ فالقلب الحي هو القلب المنور ، وبما فيه من النور يسمع ويبصر ويعقل .

ومع كل هذا ، وبرغم أن الإنسان أقر بأن محمدًا رسول اللّٰه ، وأن القرآن حق ، وبه أكثر ما يحتاج إليه من العلم بما ينفعه ويضره ، وما أُمِر به وما نُهِيَ عنه ، في تفاصيل الأمور وجزئياتها ، فلم يَعْرِفْه ، وأن عرفه فكثير منه لم يعمل به ، والمسلمون قد تنازعوا فيما شاء اللّٰه من الأمور الخيرية ، والعلمية الاعتقادية ، مع أنهم كلهم متفقون على أن محمدًا حق ، وأن القرآن حق . ويلفت ابن تيمية أنظارنا إلى أن حياة القلب وحياة غيره

ليست مجرد الحس والحركة الإرادية ، أو مجرد العلم ، والقدرة كما يعتمد في ذلك طائفة من المتأملين في علم اللّٰه وقدرته ؛ فالحياة صفة تتوقف على الموصوف ، وهي شرط في العلم والإرادة والقدرة على الأفعال الاختيارية .

وبعد ذلك يفرد ابن تيمية ، فصلًا خاصًّا عن الحسد كمرض من أمراض القلوب ، ويعرفه بأنه أذى يلحق الفرد بسبب العلم بحسن حال الأغنياء ؛ لذا لا يجوز للكريم والفاضل أن يكون حسودًا . ويورد تعريفًا آخر ذكره البعض وهو : أن الحسد تمني زوال النعمة عن المحسود ، وإن لم يصر للحاسد مثلها ، وذلك عكس الغبطة ، فإنه تمني مثل النعمة من غير حب زوالها عن المغبوط . والحسد نوعان أحدهما : كراهة للنعمة التي عند المنعم عليه مطلقًا ، وهو حسد مذموم ؛ لأنه يكون في قلبه يجعله يتلذذ بزوال النعمة عنه وإن لم يحصل له نفع بزوالها . والنوع الثاني : أن يكره فضل الشخص صاحب النعمة عليه ، ويرى أنه يجب أن يكون مثله أو أفضل منه ؛ والأفضل من هذا الحسد هو الغبطة كما سبق أن ذكرنا . ولعل تسميته بالحسد أُخذت من أحاديث الرسول ﷺ . وهو محصور في أمرين : حسدٍ لرجل أتاه اللّٰه الحكمة ، أو حفظ القرآن ، وحسد لرجل أتاه اللّٰه مالًا فهو ينفق منه في الخيرَ . وتجنبًا لسوء الفهم ؛ ويذكرنا ابن تيمية بأن التنافس غير مذموم ، وهو محمود في الخير ، أي : ما دام تنافسًا شريفًا لا تشوبه شائبة ، ويلخص رؤيته في الحسد ؛ فيرى أنه من أمراض النفس ، وغالبًا لا يخلص منه إلَّا القليل من الناس ؛ لذا قيل ما خلا جسد من حسد ، لكن اللئيم يبديه والكريم يخفيه ويقاومه . ويضيف ابن تيمية إلى هذه الأمراض الشح والبخل ، وإن كان يرى أن الحسد أكثر شرًّا منهما ، وأن الحسد يقترن دائمًا بالحقد والغضب . وبعد ذلك ؛ يستفيض في الحديث عن مرض الشهوة والعشق ، ويُعَرِّفُه بأنه حب النفس لما يضرها ، وقد يقترن به بغضها لما ينفعها . والعشق مرض نفساني وإذا قوي أثر في البدن ؛ فصار مرضًا في الجسم : إما من أمراض الدماغ كالماليخوليا ، ولذلك قيل فيه إنه مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا . وأما من أمراض البدن كالضعف والنحول (ونلمح - كما سبق أن ذكرنا - أنه الحديث مباشرة عن أمراض النفس وهو - وإن اختلفت رؤيته لأمراض النفس الإكلينيكي Psychology Clinical أو الطب النفسي Psychiatry ص ١٤ - ٢٣) ويحدد كذلك متى يكون الحب مرضًا من أمراض القلب ، وكيف أنه يتطلب الاعتدال والتوسط ، وغير أن الحب للّٰه ليس له حدود ، ولا ينبغي أن تكون (ص ٢٣ ، ٢٤) .

وأخيرًا ، يضع أهم علاج لأمراض القلوب ، وهي التقوى ، وهي الاحتماء عما يضره

بفعل ما ينفعه ؛ لأن الاحتماء عن الضار يستلزم استعمال النافع ، فصحة القلب تحفظ باستعمال أمثال ما فيها ، وهو ما يقوي العلم والإيمان من الذكر والتفكير والعبادات المشروعة .

فائدة الكتاب :

الكتاب في جملته يمكن اعتباره كتابًا من كتب الأمراض النفسية ، حاول مؤلفه حصر أنواع الأدواء التي تصيب القلوب والنفوس ، وكيف يمكن علاجها والتخلص منها .

* * *

التحفة العراقية في الأعمال القلبية [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

طُبع هذا الكتاب مع كتاب آخر هو أمراض القلوب وشفاؤها ، ويشمل هذا الكتاب ٤٦ صفحة من بين ثمانين صفحة هي إجمالي الكتاب .

وبعد أن حدثنا ابن تيمية في كتابه السابق عن أمراض القلوب وشفائها يحدثنا في هذا الكتاب عن أعمال القلوب ، والتي يسميها : « المقامات والأحوال » ويرى أنها من أصول الإيمان وقواعد الدين ؛ مثل : محبة اللَّه ورسوله ، والتوكل على اللَّه ، والإخلاص له ، والشكر له ، والصبر على حكمه والخوف منه ، والرجاء له وكل ما يتبع ذلك من أعمال ، ويذكر أن هذه الأعمال واجبة على جميع الخلق الذين بلغوا التكليف ، ويقسم الناس - بناء على قيامهم بهذه الأعمال - إلى ثلاث درجات : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات ؛ والصفتان الأخيرتان لأولياء اللَّه الذين ذكرهم في كتابه .

وبعد ذلك يستفيض شيخ الإسلام في تفصيل صفات أولئك الخلق ؛ فيذكر أن الصدق والتصديق لابد أن يكون في الأعمال والأقوال ، وهو يميز الصادق عن المنافق ؛ لأن الأخير يكون كاذبًا في عمله . أما الإخلاص فهو جوهر الإسلام ؛ لأن الإسلام هو الاستسلام للَّه لا لغيره ، ومن لم يستسلم له فقد استكبر ، ومن استسلم لغيره أشرك .

لذا يؤكد أن الأمور الباطنة هي أصل الدين ، ولا تنفع الأمور الظاهرة دونها ،

(١) (ط ١) : بيروت : دار القلم (١٩٨٦م) ، (١٣٦ ص) مع : أمراض القلوب وشفائها ، ابن تيمية .

ويضرب أمثلة لهذه الأعمال الباطنة ؛ كمحبة اللَّه والإخلاص له ، والتوكل عليه ، والرضا عنه وغير ذلك ، وهي مفروضة على الخاصة والعامة ، لا يكون تركها محمودًا على الإطلاق .

ثم ينتقل ابن تيمية بعد هذا ليحدثنا حديثًا مفصلًا في شرح الأمر والنهي ، والقدر ويناقش قضية « **إن كل إنسان ميسَّر لما خلق له** » . ويحاول إلقاء الضوء على ابتلاء اللَّه لعباده . فيرى أن ما يصيب العباد من الشر سواء بخرق العادة أو بغيرها أو بالضراء ليس من أجل كرامة العبد على ربه ، ولا هوانه عليه . بل هي اختبار قد يسعد به أقوام إذا أطاعوا اللَّه في ذلك ، ويشقي بها أقوام آخرون إذا عصوا ربهم في ذلك ؛ ولذلك فهو يقسِّم الناس في ذلك إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ترتفع درجاتهم بخرق العادة إذا استعملوها في الطاعة .

والقسم الثاني : يتعرض فيه لعذاب اللَّه إذا استعملوها في معصية اللَّه .

والقسم الأخير : قوم تكون في حقهم بمنزلة الأمور المباحة .

وبعد ذلك يناقش انقسام الناس حول الأمر والنهي والعبادة والطاعة ، ويصنف الخلق تجاهها إلى أربعة أصناف :

١ - قوم ينظرون إليها شاهدين بأُلوهية اللَّه ﷻ ، الذي أُمِروا أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، ولا ينظروا إلى جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة .

٢ - قوم يشهدون بربوبية الحق وافتقارهم إليه ، ويستعينون بها على أهوائهم وأذواقهم غير ناظرين إلى حقيقة أمره ونهيه ، ورضاه وغضبه ومحبته .

٣ - قوم أعرضوا عن عبادة اللَّه والاستعانة به ، وهم استعانوا به ، وهم شر الأقوام .

٤ - والصنف الأخير : هم الصنف المحمود الذين استعانوا باللَّه على طاعته ، وشهدوا أنه ربهم الذي لا يجوز لهم أن يعبدوا إلَّا إيَّاه ، وطاعة رسوله ﷺ ، أنه ربهم الذي ليس لهم من دونه ولي شفيع .

ويلفت ابن تيمية أنظارنا إلى أحد شواهد الإيمان والتسليم للَّه ، وهو الصبر ، يرى أنه ينبغي على الإنسان أن يصبر ويثبت إذا ابتلي بشيءيكرهه ، وعليه ألَّا يَكِلُ حتى يكون من المؤمنين القائمين بالوجبات ؛ ولذا كان الصبر واجبًا - باتفاق المسلمين - على أداء الواجبات وترك المحظورات ؛ والناس في الصبر أربعة أقسام : منهم من يكون فيه الصبر بقسوة ، ومنهم من يكون فيه رحمة بجزع ، ومنهم من يكون فيه القسوة والجزع ،

والمؤمن المحمود الذي يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس .

وبعد ذلك يفرد ابن تيمية فصلًا للحديث عن محبة اللَّه ورسوله ، ويرى أنها أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأجلُّ قواعده ؛ بل هي كل عمل من أعمال الإيمان والدين ، كما أن التصديق أصل قول كل أقوال الإيمان والدين ؛ أما أصل العمل الديني فهو إخلاص الدين للَّه وحده . وينتقل بعد ذلك لمناقشة الاتحاد بين المحبوب والمحب في الحب المرضي المأمور به ، والحب المكروه المنهي عنه ، مناقشة مستفيضة مستشهدًا بأقوال النسَّاك ، والفلاسفة ، وأصحاب الملل الأخرى .

وبعد الحديث عن المحبة كأصل لكل عمل ديني ، يفرد فصلًا للحديث عن توابع المحبة ؛ فالخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها ، فالراجي الطامع إنما فيما يحبه لا فيما يبغضه ويكرهه ، والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب . ثم يشرح لنا معنى الجنة ، باعتبارها مطمع المؤمنين ، ويعود بعد ذلك للحديث عن محبة الرب لعبده ، وشوق العبد للنظر إلى وجه ربه الكريم ؛ ولذلك يرى أن لفظ العبادة ، والذي يجب للرب على العبد ، يتضمن المحبة مع الذل ؛ لهذا كانت القلوب للبشر طبقات : أحدهما العلاقة - وهو القلب بالمحبوب - ثم الصبابة - وهو إنصاب القلب إليه - ثم الغرام - وهو الحب اللازم - ثم العشق ، وآخر المراتب هو التتيم - وهو التعبد للمحبوب . ويختم حديثه بالإشارة إلى أفضل الأعمال ، وهي الرجوع إلى اللَّه والإنابة إليه ، والاستغفار بالليل والنهار ؛ لأن الاستغفار يزيل ما يُعلق بالقلوب ؛ لذا فقد شرع في خواتيم الأعمال .

وفي حديثه عن كل ما عرضنا له ، يتميز ابن تيمية بنزعة صوفية فلسفية لمفكر ذي بصيرة على علم بالكتاب والسنة .

وهذا الكتاب وإن بدا مصبوغًا بصيغة دينية ، تُناقش أصول الإيمان وقواعد الدين من الأعمال الصالحة ، وشرح الأمر والنهي والقدر والقضاء والطاعة والمعصية - فإنه عند الحديث عن « المحبة » بأنواعها ومراتبها ، يقدم فصلًا مبكرًا في الحديث عن الانفعالات بوجه عام ، وانفعال الحب بوجه خاص وهو ما يدرس الآن في علم النفس الحديث تحت اسم الانفعالات (ص ٥٨ - ٨٧) .

* * *

عبد الرازق القاشاني (ت ٧٣٠هـ)
شرح فصوص الحكم [1]

عرض : د . معتز سيد عبد الله

التعريف بالمؤلف :

عبد الرازق (جمال الدين) بن أحمد (كمال الدين) ابن أبي الغنائم محمد الكاشي (أو الكاشاني أو القاشاني) :

صوفي مفسر ، من العلماء ، له كتب ؛ منها : « كشف الوجوه الغر- ط » في شرح تائية الفارض ، و « اصطلاحات الصوفية - خ » فيلم عنه في دمشق ، يسمى : « لطائف الأعلام في إشارات أهل الأفهام » وله « شرح منازل السائرين - ط » ، للهروي الحنبلي و « السراج الوهاج » في تفسير القرآن ، و « شرح فصوص الحكم لابن عربي - ط » و « تأويلات القرآن - خ » الأول منه ، في الرياض (الرقم ٢٤٣٧) و « رسالة في القضاء والقدر - ط » و « رشح الزلال في شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأذواق والأحوال » .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٣٦٧ صفحة من القطع المتوسط (ورق كوارتو) ومكتوب بطريقة مكثفة على نصف مسافة بين كل سطرين . وينقسم من داخله إلى مقدمة وسبعة وعشرين فصلًا ، يتحدث كل فصل منها عن حكمة تسمية معينة وردت داخل اسم

(١) القاهرة : مكتبة مصطفى البابي الحلبي (١٩٨٧م) ، (٣٤٧ ص) ، (ط ٣) . مع : حل المواضع الخفية من شرح بالي أفندي .

معين . وهناك فرق في عدد الصفحات التي يستغرقها شرح كل حكمة منها على حدة . فهناك حكمة يستغرق شرحها أربع صفحات ، وأخرى يستغرق شرحها ما يزيد على العشرين صفحة ، وهذا أمر مقبول تفرضه طبيعة الموضوع الذي تتحدث عنه الحكمة . أما عن الفصوص التي وردت خلالها هذه الحكم ، فيشير المؤلف إلى أن كلمة فص تمثل جزءًا أو عنصرًا من العناصر التي يتكون منها العالم في نظر المؤلف كالخاتم الذي يتكون من مجموعة من الحلقات أو الفصوص ، وكل حلقة أو فص يمثل جزءًا من موجودات العالم ، والحق ﷻ بحسب أسمائه وصفاته وأفعاله يدبر أمر الوجود كله .

بدأ المؤلف الكتاب بمقدمة وخطبة الشارح حمد اللّه فيها وأثنى عليه وصلّى على الرسول ﷺ ، ثم حاول أن يشرح ويبيِّن معنى الحكمة وهي العلم بحقائق الأشياء وأوصافها وأحكامها على ما هي عليه بالأقوال والأفعال الإرادية . وبيَّن كذلك حكمة خلق اللّه للإنسان في هذا الكون . ويبيِّن كذلك سبب إخراج هذا الكتاب إلى حيز الوجود استنادًا إلى الرؤية التي رآها محيي الدين بن عربي في منامه مع رسول اللّه ﷺ ، وأنه أعطى له كل مضمون هذا الكتاب ، وأمره أن يصرف همته إلى إخراجه على هذا النحو لينتفع به الخلق .

أما من حيث المفاهيم والمصطلحات السيكولوجية التي وردت في المقدمة والخطبة ، فقد ورد في (ص ٤) لفظ الإرادة وهو يرادف مفهوم النزوع القديم في علم النفس ، وفي دراسات الشخصية الإنسانية . وورد في (ص ٥٩) مفهوم الذات ، ويشيع هذا المفهوم في دراسات علم النفس الحديث ، وبصفة خاصة نظريات الشخصية الإنسانية ، فهناك مجموعة من النظريات تدور حول مفهوم الذات لدى كارل روجرز وكيرت ليفين K. Levin وغيرهما من الباحثين المصريين ، وهناك دراسات كثيرة في مجالي الشخصية وعلم النفس الاجتماعي أُجريت في إطار موضوعات ؛ مثل : تقدير الذات ، وتوكيد الذات ، والثقة بالنفس .... إلخ ، ويشير هذا المفهوم إلى مكونات النفس البشرية وما تنتجه من سلوكيات متباينة ومختلفة .

والحديث عن المعاني الكلية والحقائق المجردة التي وردت في (ص ٧) يرادف الحديث عن أحد أدوات التفكير الإنساني في علم النفس المعرفي وعلم النفس العام وهي المفاهيم .

والمفهوم Concept : اسم أو لفظ عام يشتق أو يُستقرأ من بين مجموعة من الجزيئات

تشيع بينها صفة مشتركة ، أو خاصية مشتركة بين مجموعة من العناصر أو الجزيئات ؛ كما أن الحديث عن الاستعدادات Aptitude الشخصية الذي ورد في (ص ٨) يرادف الكلام عن القدرات الكامنة والموروثة أو الاستعدادات في علم النفس ، والاستعداد يعني تلك الإمكانية Potentiality الفطرية الموروثة التي يولد بها المرء .

وفيما يلي عرض للفصوص التي وردت بالكتاب :

١ - فص حكمة إلهية في كلمة آدمية :

يقع حكمة هذا النص ما بين (ص ١١ : ٣٣) . ويرى ابن عربي في هذا الفص أن حكمة اللَّه اقتضت ضرورة خلق آدم باعتباره أبًا لكل البشرية ؛ ولأن الإنسان جمع بين الجسد والروح اللذين بالتقائهما تولدت النفس الإنسانية التي تجمع مراتب الوجود كله التي وهبها اللَّه لها ؛ ولأن الكائن الحي الوحيد الذي يعلم قدر اللَّه ، ويعرف الأسماء كلها والحكمة من إيجادها له ، ووجودها فاستحق أن يكون خليفة اللَّه في الأرض ، وأن يخلق حاملًا لسر الألوهية التي سخرت له كل الكون وما فيه من عوالم وكائنات وأسباب ؛ ولهذا يقول ابن عربي في (ص ١٨) : « فظهر جميع ما في الصورة الإلهية من الأسماء في هذه النشأة الإنسانية فحارب رتبة الإحاطة والجمع بهذا الوجود وبه قامت الحجة للَّه تعالى على الملائكة فتحفظ ، فقد وعظك اللَّه بغيرك وانظر من أين أتى على من أتى عليه » أي حج من حج وبكت من بكت ظاهر وأصل أتى عليه أي أهلكه ، ويستعمل في كل مكروه .

وفَرَق المؤلف بين الملائكة والإنسان من ناحية ، ثم بيَّن الإنسان والحكمة من خلقه وسائر الكائنات الدنيا الأخرى بدءًا من الحيوان إلى الجماد ، بهدف التدليل على الحكمة من خلق الإنسان ؛ وهي ضرورة حمله الأمانة ، وعمارة الأرض ، وعبادة اللَّه ، وإبراز سر الألوهية الذي لا يمكن أن يبرزه سوى بنو آدم ، وإظهار فعل صفات اللَّه وأسمائه في مواجهة كل ما يفعله الإنسان ؛ فإذا أذنب مثلًا لابد أن يتوب ويستغفر اللَّه ؛ فسيجد اللَّه غفورًا رحيمًا توابًا ، كما اقتضت حكمة اللَّه ذلك . فلو كان الإنسان مثل الملائكة لا يخطئ لما استطعنا أن نقف على صفات اللَّه التي وصف وسمى نفسه بها . ولم يرد في هذا الفص إلَّا الحديث عن مفهوم الكليات والمعاني المجردة وقلنا : إنها ترادف مصطلح المفاهيم التي هي إحدى أدوات التفكير الإنساني وجوهره وهذا مما يدخل ضمن موضوعات علم النفس المعرفي وعلم النفس العام .

المفاهيم والمصطلحات السيكولوجية :

إن حديث الشارح والمؤلف الذي ورد في (ص ٣٠) عن الحقائق المعقولة ؛ وهي الحقائق الكلية في مقابل الموجودات العينية يرادف بُعدًا سيكولوجيًا تحدث عنه جولدشتاين ، وشيرو في مجال علم النفس الإكلينيكي يسمى بُعد dimension التفكير التجريدي في مقابل التفكير العياني (المحسوس) / Abstract Thinhing V. S Concrete Thinking .

٢ - فص حكمة نفثية في كلمة شيثية :

يقع شرح هذا الفص ما بين صفحتي (٣٣ : ٥٤) . وفي هذا الفص يرى ابن عربي وشارحه الشيخ عبد الرازق القاشاني أن هذه الحكمة سميت شيثية نسبة إلى شيث ابن آدام عليه السلام ؛ لأن الحق تعالى باعتبار تعينه الذاتي الجامع للتعينات كلها هو الذي علمه بذاته ، وله أحدية الجمع المخصوصة بالإنسان الحقيقي المعبر عنه بآدم ؛ لأن صورته الوالد الأكبر الأول ، فلزم أن يكون المولود الأول من مربية المفيضة التي تليه ، فهو الايجاد المسمى بالنفث الرحماني ، والنفث بث النفس الواحد . وذكر ابن عربي كذلك أن معنى لفظ « شيث » عطاء اللّه ، ولما كان حصول الوجود في الأشياء يكون بالايجاد الذي هو انبثاث النفس الرحماني – سميت حكمته حكمة نفثية ، وهو العلم بالأعطية الحاصلة بالنفث ؛ والعطايا قسمان : عطايا ذاتية مرتبطة بذات اللّه ، وعطايا أسمائية مرتبطة بأسماء اللّه الحسنى ، ومنها ما هو عياني ، ومنها ما هو معنوي . وكل ما لم يكن بينه وبين ذات اللّه واسطة كانت العطايا ذاتية ، وكلما كان بينه وبين الذات واسطة كانت العطايا أسمائية ، وهناك عطايا يحصل عليها الفرد بالسؤال ، وآخر يحصل عليها دون سؤال ؛ لعلم اللّه السابق أن هناك عطايا لا يمكن الحصول عليها إلّا بالسؤال وأخرى غير ذلك .

أما من حيث المفاهيم والمصطلحات السيكولوجية : ورد في (ص ٣٥) حديث عن الباعث Incentive على سؤال اللّه العطايا ، ويرادف هذا المفهوم الدافع الذي يشتمل على مفاهيم أخرى من قبيل الحافز والباعث والحاجة والرغبة في علم النفس العام عمومًا ، ونظرية الدافعية خصوصًا ؛ والباعث : شيء باطني داخلي يزيد من قوة الدافع لدى الإنسان للوصول إلى هدف معين . أما الحافز Drive فهو : شيء خارجي (مادي غالبًا) يزيد من قوة الدافع لدى الكائن الحي (كالحوافز في مجال الإنتاج في علم النفس الصناعي مثلًا) .

كذلك ما ورد في (ص ٤١) من حديث حول مرآة النفس أو رؤية الشخص لذاته وتقديره لها يرادف مفهوم صورة الذات ؛ أي : فكرة الشخص عن نفسه أو صورته لدى الآخرين ، أي : فكرة الآخرين عن فلان من الناس . وهذا موضوع يشيع في دراسات علم النفس الاجتماعي وفي بحوث الشخصية الإنسانية تحت عنوان Self - Image (فالذات الإلهية مرآة عين العبد ، والعبد مرآة الحق باعتبار أسمائه) .

والحديث في (ص ٤٤) عن تمثيل كل حقيقة بصورة تناسبها يرادف مصطلح التمثيل العقلي Mental Representation في علم النفس المعرفي ، ومعناه إيجاد صورة عقلية لموجود مادي ؛ كما أن التقسيم الذي ورد في (ص ٥٤) للنفس البشرية يرادف عدد كبير من التصانيف والتقسيمات التي وردت في نظريات الشخصية الإنسانية ، وبصفة خاصة في نظريات السمات Traits لدى أيزنك ، وجيلفورد ، ومن قبلهما أبقراط ، وجالينوس ، وكارل يونج .

٣ - فص حكمة سبوحية في كلمة نوحية :

استغرق شرح هذا الفص من (ص٥٤ : ٧٣) . وتشير حكمة سبوحية إلى أن السبوح هو اللّٰه المنزه عن كل نقص وآفة ، ويرى الشارح « أنه لما كان شيث عليه السلام مظهر الفيض الإلهي الرحماني ؛ والفيض لا يكون إلّا بالأسماء الداخلية تحت اسم الرحمن ، وتقتضي الرحمانية الاستواء على العرش ؛ لأن الفيض كما يكون بالأسماء ، فلا يمكن أن يكون إلّا على القوابل ؛ فحكمة العطايا والوهب اقتضت التعدد الأسمائية ووجود المحل الموهوب له ، وأصل القابلية للطبيعة الجسمانية ، فغلب على قومه حكم التعدد والقوابل ، حتى إذا بَعُد عهد النبوة وتطاول زمان الفترة اتخذوا الأصنام على صورة الأسماء وحسبوا الأسماء أجسامًا وأشخاصًا ، والمعاد جسمانيًا محضًا لاقتضاء دعوته ذلك ، فأوجب حالهم أن يُدْعوا إلى التنزيه وينهوا على التوحيد والتجريد ، ويذكروا الأرواح المقدسة والعاد الروحاني المقدسة ، فبعث نوح عليه السلام بالحكمة السبوحية والدعوة إلى التنزيه ودفع التشبيه ، فنسبته عليه السلام في الدعوة إلى الباطل إلى شيث عليه السلام نسبة سيدنا عيسى إلى موسى عليهما السلام » ، (ص ٥٤ ، ٥٥) .

ويبرز الشارح ضرورة إرسال اللّٰه سيدنا نوح عليه السلام إلى قومه بالذات ؛ فيرى أن هؤلاء الناس قد بالغوا في تشبيه الخالق بالمخلوق ولم ينزهوه ، وكان سيدنا نوح يبالغ في التنزيه دون تشبيه ويدعوهم ليلًا (بالباطن) ونهارًا (بالظاهر) ، ومع ذلك لم يحيبوه ، ويرى

أنه لو اتبع أسلوب الجمع بين التشبيه والتنزيه كما فعل سيدنا محمد ﷺ لا ستجابوا له ؛ ولكن لأن حكمة اللَّه اقتضت إرساله ، فمن ثم اشتمل اسمه (نوح) على سر التسبيح والتنزيه .

وتحدث الشارح عن علة دعاء سيدنا نوح عليه السلام على قومه بالهلاك بعد استنفاذ كل الجهود في دعوتهم إلى اللَّه ، وتتلخص هذه العلَّة في سترهم بالموت ، وستر فسادهم بالهلاك حتى لا ينشروه على وجه الأرض ولا يفسدوا إيمان من آمنوا بتنزيه اللَّه عن النقص وعن كل نقص « فمن أراد أن يقف على أسرار نوح عليه السلام فعليه بالترقي في فلك نوح عليه السلام ؛ وهو في التنزلات الموصلة إلينا أكثر أسرار الكلمة النوحية من الحكم والمعارف والمشاهدات لا تنكشف إلَّا لمن يترقى بروحه إلى فلك الشمس ، ونوع اسم الشمس ؛ لأنه المكان العلي الذي هو منشأ القطب ومنشأ تنزله ، ومن نور روحانيتها إمداده ، والتنزلات الموصلية كتاب من تصانيفه رفيع القدر ، ذكر فيه الأسرار النوحية والتنزلات الروحية لسائر الأنبياء والأولياء » ، (ص ٧٣) .

أما من حيث المفاهيم والمصطلحات السيكولوجية : رغم أن الغالب على شرح هذا الفص أنه لم يرد فيه عدد من المفاهيم السيكولوجية ، إلَّا أنه لا مانع من استقراء بعضها ولو بطريقة غير مباشرة . فقد رود في (ص ٥٦ ، ٥٧) حديث عن الفهم الظاهر والباطن لكلام اللَّه تبارك وتعالى ، وأن هناك اختلافًا بين الناس في ذلك .

ويرادف ذلك الحديث عن الفروق الفردية Individual Differences في علم النفس العام ، وهي فروق بين الأفراد في كل شيء سواء في البنية الجسمية أو في المزاج أو الاستعدادات والقدرات والقيم والمعتقدات والميول . ويشيع كل ذلك في كتب القياس النفسي .

٤ - فص حكمة قدوسية في كلمة إدريسية :

استغرق شرح هذا الفص من (ص ٧٣ : ٨٦) يقول الشارح : إن اللَّه اختص اسم سيدنا إدريس عليه السلام بالحكمة القدوسية ، ورغم أن التقديس أبلغ من التسبيح ورغم أن إدريس عليه السلام متقدم على نوح عليه السلام في سلك النبيين ؛ فإن ابن عربي آثر تأخير التقديس وجعله بعد التسبيح ؛ لأنه يرى أن الأبلغ والأفضل أولى بالتأخير ؛ وذلك لأنه يتضمن ويشمل عليه . وهو يرى أن اسم سيدنا إدريس يتضمن في باطنه دلالات التقديس ، فاقتضت حكمة تسميته التقديس ، فقد بالغ واتصل بروحانيات الأفلاك وترقى إلى عالم

القدس ، وأقام على ذلك ستة عشر عامًا لم ينم ولم يُطعم شيئًا ، فتنزيه ذوقي وجداني تأصل في نفسه حتى خرق العادة . أما تنزيه نوح عليه السلام فهو عقلي ؛ لأنه كان أول المرسلين فلم يتجاوز في التنزيه مبالغة فهوم الأمة ؛ أما أدريس عليه السلام فقد سقطت عنه الشهوة ، وتروحت طبيعته ، وتبدلت أحكامها بالأحكام الروحية ، وانقلبت بكثرة الرياضة وصار عقلًا مجردًا ، ورفع مكانًا عاليًا وعليًا في السماء الرابعة ؛ وذلك لأنه عالم كبير ومن كان أعلم بالصفة النفسية الذاتية لا بالتبعية ، اللَّه أعلى بذاته ، وقد قدَّسه ورفَعَّه سيدنا إدريس بجميع أنواع الرفعة والعلو ، فهو سبحانه علي في ذاته وبذاته وبصفاته وبمكانته ، فإن له أعلى المكانات والمراتب وأعلى الأماكن ، وإن كان المكان في حقه مجازًا كالعرش ؛ وأما علوه بالذات والصفات فظاهر للإنسان الكامل أوفر نصيب منها إدريس عليه السلام في شرف ذاته وعلوها وكمال علمه ومكانة نبوته ومكانه ، وهذا مجمل ما أراد أن يقوله ابن عربي في هذا الفص من فصوص الحكمة .

ولم يرد في هذا الفص أية مفاهيم سيكولوجية يمكن التحدث عنها في هذا السياق .

٥ - فص حكمة مهيمية في كلمة إبراهيمية :

استغرق هذا الفصل الصفحات من (ص ٨٦ : ٩٨) . وفيه يبرز ابن عربي اشتمال كلمة إبراهيم ﷺ على معنى المهيمن ، وحكمة ذلك : أن التهيم من الهميان وهو شدة الوله الذي هو العشق بأن تجلى الحق بجلال جماله ، أي بكمال الذات الأحدية بجميع الصفات مع بقاء حجاب أنيته ، فهام إبراهيم بقوة انحيازه إلى المحبوب من كل وجه . وهي أيضًا معنى الخلة الدالة على تخلل المحبوب محبة وتخلق المحب بأخلاقه ، كما يتخلل اللون المتلون ؛ ويرى أن إبراهيم خليل اللَّه كان أول من كوشف بالذات ، ولولا بقية قابليته لا رتفع عنه الهيمان الموجب لتركه أباه وولده وماله ، ولتحقق بالأحدية الموهوبة لسيدنا محمد حبيب اللَّه ﷺ وسر ذلك أن كل واحد من النبيين له مقام الجمعية الإلهية ، وهو مقام قاب قوسين ، أي جميع الصفات المبدئية والمعادية ، وامتاز سيدنا محمد ﷺ بالتحقق بالأحدية المشار إليه بـ **أو أدنى** ، لاستواء حكم الظاهر والباطن فيه فختمه بالأحدية ، وقد غلب على إبراهيم حكم الباطن فهام ، كما غلب على موسى حكم الظاهر فملك وعلا وقهر (إنما سمي الخليل خليلًا لتخلله وحصره جميع ما اتصف به الذات الإلهية) .

وأيضًا لم ترد مفاهيم سيكولوجية يمكن التحدث عنها في هذا الفص .

٦ - فص حكمة حقية في كلمة إسحاقية (ص ٩٨ : ١١٣) :

يرى محيي الدين بن عربي أن كلمة إسحاقية المنسوبة إلى سيدنا إسحاق بن إبراهيم الخليل تتضمن فيما تتضمنه من حكم ومعانٍ ودلالات الحكمة الحقية ؛ لأن رؤيا أبيه في حقه قد تحققت ، فيقول : « إن المعنى العلمي الكلي ينزل من أم الكتاب إلى عالم اللوح المحفوظ ، وهو بمثابة القلب للعالم ، ومنه إلى عالم المثال فيتجسد فيه ، ثم إلى عالم الحس فيتحقق في الشاهد وهو المرتبة الرابعة من الوجود النازل من العالم السفلي ، ومن الباطن إلى الظاهر ، ومن العلم إلى الكون » ... ولما رشح اللّٰه تعالى إبراهيم عليه السلام لمقام النبوة ؛ فكان جميع ما رآه في المنام من قبيل ما لا يحتاج إلى التعبير ، كما هو الحال في باقي الرؤي الأخرى ، فلذلك جزم بذبح الولد وعزم عليه . فالرؤيا هنا تحتاج إلى تعبير ؛ لأنها وحي من اللّٰه سواء كان ذلك في منام أم في يقظة ، والوحي في حاجة إلى تأويل أما الرؤيا فهي في حاجة إلى تعبير ، فضلًا عن أن الرؤيا الخاصة بالأنبياء حق ، وكذلك الوحي حق ، ومن ثم صح أن تشتمل كلمة إسحاقية على حكمة الحق المبين ؛ ولنا في رؤيا يوسف عبرة حسنة ، فقد تحقيق تأويله في الواقع ﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ [يوسف : ١٠٠] . ولما كان القربان واجبًا على إبراهيم عن ولده لإسلام النفس للّٰه ، أو عن نفسه لإسلامه إياها للّٰه ، والولد صورة سر إسلامه ، لقوله – عليه الصلاة والسلام – : « **الولد سر أبيه** » صُورت القوة المتصرفة بصورته .

يتعرض المؤلف في (ص ٩٨) إلى التمييز بين أضغاث الأحلام والرؤيا الصادقة ؛ فهو يقول : إن للخيال الإنساني وجهًا إلى الجهة العلوية أو إلى عالم المثل ، ووجهًا إلى البدن والنفس أو إلى الجهة السفلية ؛ فإذا انطبعت في الخيال صورة من الجهة العلوية أي من عالم المثال فهي الرؤيا الصادقة . أما إذا انطبعت فيه صورة من الجهة السفلية أي من حالة البدن المزاجية كان ذلك من أضغاث الأحلام ، وتقابل أضغاث الأحلام ما يدرسه علماء النفس من أنواع الأحلام المختلفة ، أما الرؤيا الصادقة فلا يتعرض لها علماء النفس .

ونلاحظ هنا أن هناك تكرارًا لمفاهيم ورد ذكرها مسبقًا لا داعي لإعادتها ؛ مثل الإحساس والوهم والفكر .

٧ - فص حكمة علية في كلمة إسماعيلية :

يقع شرح هذه الحكمة في الصفحات من (ص ١١٣ : ١٢٤) . وتشير هذه الحكمة إلى أن كلمة إسماعيلية المنسوبة إلى سيدنا إسماعيل بن إبراهيم تنطوي على

معنى الرفعة والعلو والرضى ؛ لأن العلو صفة الأحدية والتكثير ، حيث تكثر الأحدية بالنسب الاسمائية بسبب أعيان العالم التي لها القابلية المحضة ، وقد وصف اللّٰه تعالى إسماعيل في كلامه بالصفتين الدالتين على كماله بهما ؛ أي العلو وكونه مرضيًّا ، فلكونه مرضيًّا عنه من قبل الخالق فقد رفعه مقامًا عليًّا . ولهذا اقتضت حكمة الخالق بسابق علمه الأزلي أن يكون ابن سيدنا إبراهيم الخليل اسمه إسماعيل .

أما عن المفاهيم السيكولوجية في هذا الفص فقد وردت قبل ذلك ؛ مثل : المعرفة ، والاستدلال ؛ وهِو نوع من أنواع التفكير التجريدي ، والانفعالات والضمير ؛ كالخوف والغضب ، والسرور ، والغيرة ، والرجاء ، وورد في (ص ١٢٣) : « ثم إذا تعودوا بالعذاب بعد مُضي الأحقاب ألفوه ولم يتعذبوا بشدته بعد طول مدته ولم يتألموا به وإنه عظيم » ، ويرادف هذا المفهوم مصطلح التكيف الحسي Sensory Adaptation وهو يعني زيادة ضعف الإحساس مع استمرار التنبيه (سواء كان بصريًّا أو سمعيًّا أو شَميًّا ..... إلخ) على وتيرة واحدة ، والعكس صحيح .

٨ - فص حكمة روحية في كلمة يعقوبية :

استغرق شرح هذه الحكمة الصفحات من (ص ١٢٤ : ١٣٣) . وانتهى فيه ابن عربي إلى أن كلمة يعقوبية قد خصها اللّٰه بالحكمة الروحية لغلبة الروحانية على سيدنا يعقوب بن إسحاق ، ولذلك بُني الكلام في هذا الفص على الدين ؛ فإن الدين الأصل القيم حسبما يغلب على الروح الإنساني من إسلام الوجه للّٰه وتوحيده وفقًا للفطرة السليمة ؛ كما قال : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠] . وذكر القرآن أن يعقوب وصى أبناءه بهذا الدين ، فقال على لسانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢] ، وقال أيضًا : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣] .

أما عن المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفص ؛ مثل : الحديث عن الثواب والعقاب تعد من قبيل مفاهيم التدعيم والتعلم الاجتماعي أو من أساليب التنشئة الاجتماعية Socialization ، كما تشيع في كتب علم النفس الاجتماعي (ص ١٢٩) . والحديث عن العادة يُرادف أحد مفاهيم التعلم في علم النفس الحديث (نفس الصفحة) .

٩ - فص حكمة نورية في كلمة يوسفية :

استغرق شرح هذه الحكمة الصفحات من (ص ١٣٣ : ١٤٩) . وفي هذا الفص يثبت ابن عربي أن كلمة يوسف قد خصها اللّٰه بحكمة النور ؛ لأن النور هو الذي يُدرك ويُدرك به ، فهو ظاهر في ذاته مُظهِر لغيره ، وقد أعطى اللّٰه سيدنا يوسف النور التام وهو نور علمي معنوي استطاع يوسف أن يكشف به حقيقة الصور المختلفة في المنام ، أي ما تحقق في عالم المثل والمثال وصار مشاهدًا في عالم الحس ، وتغيرت صورته في الخيال وأصبحت واقعًا متحققًا ؛ والمراد بحقيقة الصورة الخيالية ما يتحقق منها في الخارج ﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

أما عن المفاهيم السيكولوجية ، التي وردت في هذا الفص ، فقد ورد في (ص ١٣٦) الحديث عن المحسوسات ؛ وهي ترادف الحديث في علم النفس العام مصطلح سيكولوجية الإحساس ، والمحسوسات ؛ هي المنبهات أو المثيرات Stimuli التي تمارس تأثيرًا على أعضاء الحس المختلفة .

١٠ - فص حكمة أحدية في كلمة هودية :

استغرق شرح هذه الحكمة الصفحات (ص ١٤٩ - ١٦٦) . ويرى ابن عربي أن كلمة هود عليه السلام كان لابد أن تطلق عليه كاسم ؛ لأنه أثبت للّٰه أحديته رغم كثرة الأسماء والأفعال الإلهية المنسوبة إلى الأحدية الإلهية ؛ ويرى ابن عربي أن الوحدة الإلهية ثلاث مراتب : وحدة الذات بلا اعتبار كثرة ما ؛ وهي الأحدية الذاتية المطلقة ، ووحدة الأسماء مع كثرة الصفات وهي أحدية الألوهية ؛ و اللّٰه بهذا الاعتبار الأول أحد ، والثالثة أحدية الربوبية المذكورة المختصة بهود عليه السلام ، لقوله تعالى حكاية عنه : ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٦] ، والصراط المستقيم هو طريق الوحدة التي هي أقرب الطرق إلى اللّٰه الواحد الأحد ؛ وذلك أن لكل اسم من الأسماء الإلهية عبدًا هو ربه وذلك العبد عبده ، فهو على طريقه المستقيم المنسوب إليه .

أما عن المفاهيم السيكولوجية فقد شاع في شرح هذا الفص الحديث بصفة عامة عن الأفعال والتصرفات ، وما هي إلَّا ردود أفعال Reactions تسمى في علم النفس الحديث السلوك الإنساني Human Behavior ، وهي أي نشاط يصدر عن الفرد ردًّا على منبه خارجي أو داخلي ، والحديث (في ص ١٥٢) عن الفروق في القدرات العقلية Mental Abilities اللازمة لتحصيل العلوم الكونية في مقابل العلوم الشرعية ، يرادف

الحديث في علم النفس الحديث ، الكلام عن الفروق بين الأفراد في القدرات ، وهذا المفهوم يشيع في مراجع القياس النفسي والتربوي .

١١ - فص حكمة فتوحية في كلمة صالحية :

استغرق شرح هذه الحكمة الصفحات من (ص ١٦٦ - ١٧٣) . وانتهى فيها محيي الدين ابن عربي إلى أن كلمة صالح ﷺ تتضمن في باطنها حكمة الفتوح ؛ فهو بإذن اللّٰه الفاتح والفتاح والموجد ، وهذه الأسماء الثلاثة من أسماء اللّٰه الحسنى ، وهي كلها مفاتيح الغيب .

وقد خص اللّٰه صالحاً بفتح باب الغيب عن آيته بفتح الجبل عن الناقة ؛ وهي كخلق آدم من التراب وفتحه على إيمان من أمكن به بسبب هذه المعجزة واحترامهم لها على وفق ما أمروا به ، وبإهلاك من كفر لهذه النعمة منهم وعقروا الناقة ، وهذه حكمة منسوبة إلى اسم اللّٰه الفاتح .

ولم يرد في هذا الفص ما يشير إلى أي مفهوم من المفاهيم السيكولوجية بشكل مباشر أو غير مباشر .

١٢ - فص حكمة قلبية في كلمة شُعيبية :

واستغرق شرح هذه الحكمة الصفحات من (ص ١٧٣ : ١٨٨) . وهنا يُشير المؤلف إلى أن كلمة شُعيب اختصها اللّٰه بالحكمة القلبية ، ذلك أن القلب ميزان العدل ؛ ولأن الغالب على سيدنا شُعيب ﷺ الصفات القلبية ؛ فهو يأمر بالعدل ويفي الكيل والميزان بالقسط ؛ ولذا لزم أن يكون اسمه شعيب .

ويمكن الاستفادة من هذا الفص في تربية الوجدانات والاستعدادات التقية النقية لدى الأفراد والجماعات . ومن ثَم تتجلى فائدة مثل هذا الكتاب في إيجاد قواعد ومبادئ سيكولوجية تنطلق من الأسس الدينية على غرار قواعد الإرشاد النفسي في علم النفس الحديث ، مع إجراء وإدخال بعض التعديلات العلمية النفسية عليها . كذلك يمكن بها تصحيح كثير من الاعتقادات الخاطئة . هذا عن المفاهيم السيكولوجية الواردة في هذا الفص .

١٣ - فص حكمة مُلكية في كلمة لوطية :

يقع شرح هذه الحكمة في عدد من الصفحات يبدأ من (ص ١٨٨ : ١٩٥) . وفي هذا الفص يقول ابن عربي : إن كلمة أو اسم لوط قد خصه اللّٰه بالحكمة الملكية ؛ لأن الملك هو القوة والشدة ، والغالب على لوط وقومه هو الشدة والقوة ، ويستشهد على

ذلك من القرآن بقوله تعالى : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود: ٨٠] – فالتجأ من الشدة التي كان يُقاسيها من قومه إلى الركن الشديد الذي هو اللّٰه ﷻ ، فاستأصلهم بشدة العذاب جزاءً وفاقًا .

فائدة مرجوة من هذا الكتاب وهذا الفص بصفة خاصة : لهذا الكتاب فائدة جمة في تربية القدرة على الاستدلال Reasoning والاستنتاج العقلي (المنطقي) الذي يتسم ببطانة وجدانية ، وفي تربية القدرة على الإقناع والتسلح بالعلم الحقيقي ، وهذه لا شك أسس نفتقدها في هذا الزمان .

١٤ - فص حكمة قدرية في كلمة عزيرية :

استغرق شرح هذا الفص الصفحات من (ص ١٩٥ : ٢٠٧) . وفيه يقول المؤلف : إن اللّٰه اختص اسم سيدنا عزير بالحكمة القدرية ؛ لأنه علم أزلًا أنه سينكب على طلب المعرفة بصفة عامة ، ومعرفة سر القدر بما يقتضيه العلم من صورة القدر المقدور بصفة خاصة ؛ ولأنه كسائر النبيين فتى في اللّٰه بقدر ما قُدر له من كمالات صفاته وأسماءئه وأخبر عن اللّٰه بقدر ما رزق من معرفة به .

١٥ - فص حكمة نبوية في كلمة عيسوية :

يقع شرح هذا الفص في عدد من الصفحات يبدأ من (ص ٢٠٧) وينتهي في منتصف (ص ٢٣٠) . ويرى المؤلف أن اللّٰه قد خص اسم سيدنا عيسى عليه السلام بالحكمة النبوية ؛ ذلك لأن نبوته فطرية غالبة على حاله وهذا هو ما يفرقها عن حكم النبيين الآخرين ؛ ولأنه قد أنبأ عن اللّٰه وهو لازال في بطن أمه السيدة مريم العذراء بقوله : ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [مريم: ٢٤] ، وأنبأ عن اللّٰه وهو في المهد بقوله : ﴿ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٣٠] ؛ ولأنه نفس طاهرة وروح خالص منبأة من عند اللّٰه بما يكون عنها في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ ﴾ [آل عمران: ٤٥] ، فهو الكلمة الإلهية التي أنبأ اللّٰه أمه ، وجبريل هو الواسطة الذي وقع على لسانه إلى أمه وأداه إلى قلبها كسائر الأنباء التي ألقاها إلى الأنبياء .

وتكررت نفس المفاهيم السيكولوجية في نفس الفص من حيث الحديث عن الصورة الحسية العقلية والخيالية التي وردت في فصوص الحكم السابقة .

١٦ - فص حكمة رحمانية في كلمة سليمانية :

وهذا الفص الذي استغرق شرحه الصفحات من (ص ٢٣٠ – ٢٤٤) ، خص اللّٰه

اسم سيدنا سليمان بالحكمة الرحمانية لاختصاصه ﷺ من عند اللّه جميع أنواع الرحمة العامة والخاصة ؛ فإن الرحمة إما ذاتية أو صفاتية ، وكل واحدة منها إما عامة أو خاصة ، وقد خصه اللّه تعالى بالوجود التام على أكمل الوجوه والاستعداد الكامل للولاية والنبوة من الرحمة الذاتية الخاصة والعامة ، وبالمواهب الظاهرة والباطنة ، وأسبغ عليه نعمه الصورية والمعنوية ، وسخر له العالم السفلي بما فيه من العناصر والمعادن والنبات والحيوان ، والعالم العلوي بالإمدادات النورية والقهرية واللطفية من الرحمة الصفاتية الخاصة والعامة ؛ كالسلطنة الكاملة والملك العام بالتصرفات الشاملة في الأرض والتبوء منها ما شاء ، والماء بالغوص والريح بالجري بأمره حيث شاء ، والنار بتسخير الشياطين النارية ، كما قال رب العزة على لسانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ ﴾ [النمل: ١٦ ، ١٧] ، ولو لم يسخر اللّه العالم العلوي حتى يؤيده لما أطاعه الكون والشيطان ، ولا دان له الإنس والجن .

وما ورد في هذا الفص من مفاهيم سيكولوجية ؛ كالإحساس والإدراك والتغيرات التي تطرأ على النفس البشرية ورد في الفصوص السابقة .

١٧ - فص حكمة وجودية في كلمة داودية :

في هذه الحكمة التي استغرق شرحها الصفحات من (ص ٢٤٤ : ٢٥٤) ، يرى ابن عربي أن اللّه اختص اسم سيدنا داود بالحكمة الوجودية ؛ لأن الوجود إنما تم بالخلافة الإلهية في الصورة الإنسانية ، وأول من ظهر فيه الخلافة في هذا النوع كان آدم ، وأول من كمل فيه الخلافة بالتسخير داود ؛ حيث سخر اللّه له الجبال والطير في ترجِّيع التسبيح معه كما قال : ﴿ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾ [ص: ١٨ ، ١٩] إذ قال سبحانه : ﴿ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٠] ، فبلغ الوجود بوجود كماله في الظهور ، وهذا هو السر في اقتران الحكمة الداودية بالحكمة السليمانية ، وتقديم السليمانية على الداودية للمزية الظاهرة به بخصوصيته .

أما عن المفاهيم السيكولوجية الواردة في هذا الفص ، ففي (ص ٢٥١ : ٢٥٣) وردت مفاهيم الغضب والسرور وتصنيف للنفوس حسب قسوتها ولينها ، وهذا مما يدخل ضمن موضوع الانفعالات في علم النفس الحديث ، وهو موضوع يدخل ضمن

منهج علم النفس العام . وقد ورد الحديث عنها في الفصوص السابقة .

١٨ - فص حكمة نفسية في كلمة يونسية :

يقع شرح هذا الفص في الصفحات من (ص ٢٥٤ : ٢٥٩) ، ويرى المؤلف أن اللَّه اختص سيدنا يونس ﷺ بالحكمة النفسية ؛ لأن اللَّه أخرجه من كَرْبه بنفسه الرحماني ، تلك الكُروب التي لحقت به من جهة قومه وأولاده وأهله ، أو لما دهمه في بطن الحوت ، أو من جهة أنه كان من المدحضين ، أو من جميع تلك الأمور حيث سبح واعترف واستغفر وأناب ؛ ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فنفس اللَّه عنه كَرْبه ووهبه الصحة والأهل ومثلهم معهم ، قال تعالى : ﴿ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٨] . وقيل : نفسية بسكون الفاء ؛ لأنه ظهر بالنفس وفارقهم من غير إذن اللَّه فابتلاه اللَّه بالحوت ، أي بالتعلق البدني والتدبير الذي يلزم النفس عند استيلاء الطبيعة عليها ؛ وخصوصًا عند البقاء في بطن الأم ، ولهذا وصف بكونه عليمًا .

ويمكن أن نستفيد من هذا الفص بصفة عامة من الناحية النفسية ، في استنباط بعض الأصول العلمية التي تعيد للنفس توافقها وتكيفها مع الواقع السوي ، كما هو الحال في القواعد التي تدرس في الإرشاد النفسي والتربوي ؛ مثال ذلك : محاولة التوفيق بين متطلبات الجسد والروح مما يسبِّب اعتدال النفس على الدوام وعدم إصابتها بالاضطراب والقلق والأرق والاكتئاب .

١٩ - فص حكمة غيبية في كلمة أيوبية :

يقع شرح هذا الفص في الصفحات من (ص ٢٥٩ : ٢٦٧) ، ويرى ابن عربي أن اللَّه خص اسم سيدنا أيوب ﷺ بالحكمة الغيبية ؛ لكون أحواله ﷺ بأسرها من ابتداء حاله وزمان ابتدائه ، وبعد كشف إلى انتهاء كلامه كلها أمور غيبية ؛ لأن اللَّه تعالى أعطاه من الغيب بلا كسب ما لم يُعط أحدًا من المال والبنين والزرع والخَوْل والعبيد ، ثم ابتلاه من الغيبب ببلايا نفسه وماله وولده ولم يُبتل بمثلها أحدًا ، ورزقه اللَّه صبرًا جميلًا وافرًا بلا شكوى إلى أحد في مدة لم يرزق مثله أحدًا ، ولما بلغ الابتلاء غايته وتناهى الصبر نهايته ولم يجزع قط ولم يَشكُ إلى أحد ، ولم يترك من أعماله وطاعته وأذكاره وأنواع شكره شيئًا ، نادى ربه أني مسني الضر بنصب وعذاب ، فكشف عنه ما به من

ضُر ، ووهب له أهله ، ومثلهم معهم رحمة من عنده ومن خزانة غيبه ، وأظهر له من غيب الأرض مُغتسلًا باردًا وشرابًا ، وكل ذلك من قوة إيمانه بالغيب ، وثقته بما ادخر اللَّه له في الغيب ، فكان أمره كله من الغيب .

أما المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الفص ، فنشير إلى ما ورد في (ص ٢٥٩ ، ٢٦٠) من حديث عن صبر سيدنا أيوب ، وهو مفهوم يُرادف في علم النفس العام الحديث مفهوم التحمل Tolerance ، ومفهوم المثابرة Persistence جزئيًا ، فكلا المفهومين الصبر والمثابرة له بطانة وجدانية تطيل أمد الصبر أو المثابرة أو تقضي عليه . وهذه سمة من سمات الشخصية الإنسانية السوية ، ولا يمكن إنجاز أي شيء بحال من الأحوال إلَّا بتوفير هذه السمة .

٢٠ - فص حكمة جلالية في كلمة يحياوية :

يقع شرح هذا الفص في الصفحات من (ص ٢٦٧ : ٢٦٩) . وانتهى ابن عربى فيه إلى أن اللَّه اختص اسم سيدنا يحيى بن زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ بالحكمة الجلالية ؛ لأن الغالب على حاله أحكام الجلال من القبض والخشية والحزن والجد والجهد في العمل ، والهيبة والرقة والخشوع النابع من القلب ؛ فمشربه من حضرة ذي الجلال فكان دائمًا تحت القهر ، وقد خدت الدموع في خده أخاديد من كثرة البكاء ، وكان لا يضحك إلَّا ما شاء اللَّه ، وكل ذلك من مقتضيات حضرة الجلال والقيام بحقها ، وذلك قتل في سبيل اللَّه ، وقتل في دمه سبعون ألفًا حتى سكن دمه من فوارنه ، ولقد جمع اللَّه له الوصف والعلم ؛ فهو اسم يحيى به ذكر اللَّه والذاكر نفسه ، وهذا أمر خارق للعادة ، لم يجعل اللَّه له من قبل سميًا .

أما من ناحية ما ورد في هذا الفص من مفاهيم سيكولوجية ، فليس هناك من جديد يمكن إضافته .

٢١ - فص حكمة مالكية في كلمة زكرياوية :

وقع شرح هذا الفص في الصفحات من (ص ٢٧٠ : ٢٧٦) . ويرى ابن عربي أن سيدنا زكريا قد خص اللَّه اسمه عَلَيْهِ السَّلَامُ بالحكمة المالكية ؛ لأن الغالب على حاله حكم الاسم المالك ، والمليك هو الشديد ، وقد خصَّه اللَّه بالشدة وأيَّده بالقوة حتى سرت في همته وتوجيهه وأثمرت إجابة رعاية ، وأثمرت في زوجته حيث قال تعالى : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُۥٓ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] ، ولولا إمداد الله بقوة ربانية وتخصيصه بمعونة

ملكوتية ما صلحت زوجه بعد الكبر ، وسن اليأس مع كونها عاقرًا في شبابها للحمل والولادة ، فظهرت بعد ذلك بالتصرفات الإلهية المالكية ، ولهذا كان يشدِّد على نفسه في الاجتهاد ، وظهرت عليه آثاره وأثار الشدة والقهر حتى نُشر بالمنشار وقُدَّ نصفين .

ولم ترد في هذا الفص مفاهيم سيكولوجية جديدة ، أو يمكن أن نستنتج منها مفاهيم سيكولوجية يعالجها علم النفس الحديث بطريقة مباشرة أو حتى غير مباشرة .

٢٢ - فص حكمة إيناسية في كلمة إلياسية :

وقع شرح هذا الفص في الصفحات من (ص ٢٧٦ : ٢٨٧) ، وانتهى فيه ابن عربي إلى سيدنا إلياس قد خص الله اسمه عليه السلام بالحكمة الإيناسية ؛ لأنه عليه السلام قد غلب عليه الروحانية التي تمتلئ بالأنس والقوة الملكوتية حتى ناسب بها الملائكة وأنس بهم ، وقد آنسه الله بغلبة النور الذي يمتلكه بالطائفتين الملائكة والإنس ، وخالط الفريقين ، وكان له منهما رفقاء يأنس بهم ، وبلغ من كمال الروحانية مبلغًا لا يؤثر فيه الموت ؛ كالخضر وعيسى عليهما السلام ؛ وإلياس هو إدريس عليه السلام ، وكان نبيًّا قبل نوح ورفعه الله مكانًا عليًّا ، أرسل إلى قرية بعلبك بلبنان ، وكان كثير الرياضة مغلبًا لقواه الروحانية مبالغًا في التنزيه كما ذكر في قصته .

وبالنسبة للمفاهيم السيكولوجية : فقد ورد في (ص ٢٨٠ ، ٢٨١) كلام يمكن أن نستقرئ منه مفاهيم تشيع في علم النفس الحديث ؛ مثل الوهم أو الزيف Artifact وهو مغاير الحقيقة ، والإدراك والمعرفة والتخيلات والمعاني الكلية ؛ مثل : المبادئ Principles ، والمفاهيم Concepts ، والفئات Categories في التفكير التجريدي ، والمحسوسات في موضوع الإحساس ، والصور الخيالية والصور العقلية التي ترادف الذكاء العام ، كما يشيع في مراجع القياس النفسي وعلم النفس العام .

٢٣ - فص حكمة إحسانية في كلمة لقمانية :

وقع شرح هذا الفص في الصفحات من (ص ٢٨٧ : ٢٩٤) . ويرى ابن عربي في خلاصة هذا الفص أن الله خص اسم سيدنا لقمان الحكيم بحكمة الإحسان ؛ لأن الغالب على حاله عليه السلام الإحسان بالشهود العلمي والحكمة والتوحيد والإسلام في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [لقمان : ٢٢] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ [لقمان : ١٢] والإحسان والحكمة أخوان ؛ لأن الإحسان فعل ما ينبغي ، والحكمة وضع الشيء في موضعه ؛ وفي وصيته لابنه :

﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ [لقمان : ١٣] ، وأول مراتب الإحسان المعاملة مع الحق بمحض التوحيد ، ثم الشهود في الطاعة والعبادة ، يقول تعالى : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ ﴾ [لقمان : ١٦] ، ثم في معاملة الخلق ؛ كالإحسان بالوالدين ، فجميع وصاياه لابنه من باب الإحسان .

وفي مجال علم النفس بصفة عامة ، والصحة النفسية بصفة خاصة ، تُعد وصايا لقمان الحكيم من أبلغ القواعد والأصول النفسية والتربوية التي يمكن الاستفادة منها في مجال تربية الناشئة ، وفي عمليات التنشئة الاجتماعية ، والأخلاقيات في كل المجالات ، سواء في المنزل أو في الشارع العام أو في المدرسة أو في العمل ، فهي قواعد وأصول عملية وأخلاقية جامعة مانعة ذات بطانة وجدانية لها تأثير بالغ لمن يسلك على أساسها أو انطلاقًا منها . باختصار هي منهاج متكامل في التربية والتعليم ؛ مثال ذلك : السكوت في مواضع محددة ، والتحدث في مواضع وسياقات أخرى ، الصبر عند اللزوم ، خفض الصوت ، التواضع وعدم الكبر ، خفض الجناح وعدم الغرور .... هذه وغيرها كلها مؤشرات ودلالات الحكمة ، وكذلك التمسك بالله وإحسان المعاملة للوالدين ولو كانا كافرين ...... إلخ .

٢٤ - فص حكمة إمامية في كلمة هارونية :

وقع شرح هذا الفص في الصفحات من (ص ٢٩٤ : ٣٠٣) . وفيه انتهى ابن عربي إلى أن اسم سيدنا هارون عليه السلام قد خصه الله ﷻ بالحكمة الإمامية ؛ لأن هارون عليه السلام كان إمام أئمة الأحبار ، وقد استخلفه موسى عليه السلام على قومه بقوله : ﴿ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ ﴾ [الأعراف : ١٤٢] ، والإمام لقب من ألقاب الخلافة .

وقد صرح هارون بذلك في قوله : ﴿ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴾ [طه : ٩٠] . وقد بقيت الخلافة التي هي الإمامة في نسله إلى الآن ، وهي الخلافة المقيدة في نظر محيي الدين بن عربي بالوساطة ؛ كما كانت لخلفاء رسول الله ﷺ ، وله الإمامة المطلقة لكونه نبيًّا مبعوثًا بالسيف كإمامة المهدي عليه السلام ، والمراد بالمطلقة التي لا واسطة بين صاحبها وبين الله وله رتبة التقدم والتحكم في الوجود ، وهي التي قال فيها لخليله ، إني جاعلك للناس إمامًا ، فله الإمامة المطلقة والمقيدة .

أما من ناحية علم النفس ومفاهيمه السيكولوجية فنشير إلى ما ورد في (ص ٢٩٤ ، ٢٩٥)

عن العلاقة بين موسى وهارون عليهما السلام من ناحية ، ثم بيَّن كل منهما وقومهما من ناحية أخرى ، فيمكن أن نستقرئ منه ما ورد في علم النفس الاجتماعي من مفاهيم التفاعل الاجتماعي Social Interaction ، وما ورد في علم ديناميات الجماعة Group Dynamics من حديث عن مبادئ وقيم ومعايير تلتزم بها الجماعات الصغيرة لكي تظل متماسكة وقوية ، وإرساء عدد من مفاهيم ومبادئ التربية والتعليم الإنساني .

٢٥ - فص حكمة علوية في كلمة موسوية :

وقع شرح هذا الفص في الصفحات من (ص ٣٠٣ : ٣٢٤) ، وانتهي ابن عربي في هذا الفص إلى أن اللَّه تعالى قد خص اسم سيدنا موسى كليم الرحمن بالحكمة العلوية ، لعلوه على من ادعى الألوهية والربوبية والأعلوية ، فقال : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٤] ، فكذبه اللَّه بقوله لموسى : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [طه : ٦٨] ، أعلى من فرعون مصر ، إنه كان عاليًا من المسرفين ؛ ولعلو درجته ومكانته في النبوة ، فقد كتب اللَّه له التوراة بيده تعالى ، ويقترب مقامه من مقام سيدنا محمد ﷺ ؛ حيث قال سبحانه : ﴿ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [الأعراف : ١٤٥] ؛ وذلك لكثرة أمته ، كما أخبر النبي ﷺ ؛ ولكثرة معجزاته ولكلامه اللَّه دون واسطة .

ومن حيث المفاهيم السيكولوجية ، فقد ورد في (ص ٣٠٧) حديث عن القوة النظرية الفكرية والقوة الحسية الخيالية ، وذلك يرادف الحديث في علم النفس عن الفهم والإدراك والتخيل ، وكلها موضوعات تشيع في كتابات علم النفس العام وفي القياس النفسي .

٢٦ - فص حكمة صمدية في كلمة خالدية :

وقع شرح هذا الفص في الصفحات من (ص ٣٢٤ ، ٣٢٥) . وبيَّن ابن عربي أن اسم خالد بن سنان يحتوي الحكمة الصمدية ؛ لأن دعوته كانت لوجه الأحد الصمد ، فإنه أظهر بدعواه النبوة البرزخية ، وهجيره في ذكره كان مؤداه الأحد الصمد ، وكان في قومه مظهر الصمدية يصمدون إليه في المهمات ، ومشهده الصمدية ، ويقصدونه في الملمات ؛ فيكشف اللَّه عنهم بدعائه البليات .

وخالد بن سنان لم يكن نبيًّا مرسلًا ؛ لأنه من الصالحين الذين لم يؤمروا بالتبليغ ؛ لقول النبي ﷺ : « **إني أولى الناس بعيسى ابن مريم فإنه ليس بيني وبينه نبي** » ولكنه تشرف بقرب البرزخية من نبوة سيدنا محمد ﷺ .

وكان من قصته – عليه السلام – أنه كان قوي الهمة ، وكان هو وقومه يسكنون بلاد عدن فظهرت بينهم نار عظيمة خرجت من مغارة ؛ فأهلكت الزرع والضرع فصمد إليه قومه على ما اعتادوا منه في دفع الملمات حتى يدفع عنهم أذى تلك النار وكانوا مؤمنين به ، فأخذ خالد يضرب تلك النار بعصاه من خلفها ، ويقول : بدًّا بدًّا حتى بردت النار فرجعت هاربة منه إلى المغارة التي خرجت منها ، وهو يسوقها حتى أدخلها ؛ ثم قال لأولاده وقومه : إني أدخل المغارة خلف النار حتى أطفئها ، فأمرهم أن يدعوه بعد ثلاثة أيام تامة فإنهم إن نادوه قبل انقضائها فهو يخرج ويموت ، وإن صبروا يخرج سالمًا وقد دفع عنهم مضرة النار ، فلما دخل صبروا يومين واستفزهم الشيطان فلم يصبروا تمام ثلاثة فارتابوا أنه هلك فصاحوا به فرجع – عليه السلام – من المغارة ، ويداه على رأسه من الألم الذي أصابه من صاحبهم ، فقال لهم : ضيعتموني وأضعتم قولي وعهدي ، وأخبرهم بموته وأمرهم أن يقبروه ويرقبوه أربعين يومًا ، فإنه يأتيهم قطيع من الغنم يقدمها حمار أبتر مقطوع الذنب ، فإذا حاذى قبره ووقف فلينبشوا عليه قبره فإنه يقوم ويخبرهم بجلية الأمر بعد الموت عن شهود ورؤية ؛ فيحصل للخلق كلهم عين اليقين بما أخبرت به الرسل عليهم السلام .

ولكن أكبر أبنائه رفضوا نبش قبره بعد مماته خوفًا من العار ؛ وبعد بعثة النبي ﷺ جاءته بنت خالد ، فقال لها الرسول ﷺ : « **مرحبًا يا ابنة نبي أضاعه قومه** » . هذه هي قصة خالد بن سنان ، ولم يرد خلالها شيء يمكن أن يستقرأ ضمن مفاهيم علم النفس .

٢٧ - فص حكمة فردية في كلمة محمدية :

استغرق شرح هذا الفص الصفحات من (ص ٣٢٦ : ٣٤٧) (نهاية الكتاب) .

وذلك مسك الختام سيدنا محمد ﷺ ، هو الذي ذُكر في الأولين والآخرين ؛ فقد خص الله اسمه ﷺ بالحكمة الفردية ؛ لأنه ﷺ أول التعينات الذي تعين به الذات الأحدية قبل كل تعين فظهر به من التعينات غير المتناهية ، فهو يشمل جميع التعينات ، فهو واحد فرد في الوجود لا نظير له إذا لا يتعين من يساويه في المرتبة ليس فوقه إلَّا الذات الأحدية المطلقة المتنزهة عن كل تعين ، وصفة واسم ورسم وحد ونعت فله الفردية مطلقًا ، فقد تفرَّد وتميز على كل الخلق بما فيهم الرسل والنبيين جميعًا في كل شيء ؛ ولذلك جاء في حقه وحق أمته قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] ، وجاء أيضًا :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨] . ولقد كان ﷺ نبيًّا وآدم بين الماء والطين ، ولقد أوتي جوامع الكلم ، واختص بالشفاعة الكبرى يوم القيامة .

ومن المعلوم أن الكلمات الإلهية وإن كانت لا تنفد فإنها لا تتناهى لكنها تنحصر مع لا تناهيها في أمهات ثلاث :

أولها : الحقائق والأعيان الفعلية الوجودية الإلهية .

والثانية : الحقائق الانفعالية الكونية المربوبية .

والثالثة : الحقائق الجمعية الكمالية الإنسانية وكلها اجتمعت للنبي ﷺ في اسمه الهادي المهدي فهو دليل لنفسه على نفسه .

* * *

ابن جماعة (ت ٧٣٣هـ)
تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم [1]

عرض : د . معتز سيد عبد الله

التعريف بالمؤلف [2] :

هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي ، بدر الدين أبو عبد الله : قاض ، من العلماء بالحديث ، وسائر علوم الدين . ولد في حماة عام (٦٣٩هـ ، ١٢٤١م) . وولي الحكم والخطابة بالقدس ، ثم القضاء بمصر ، فقضاء الشام ، ثم قضاء مصر إلى أن شاخ وعمي ، كان من خيار القضاة ، وتوفي بمصر عام (٧٣٣هـ ، ١٣٣٣م) . له تصانيف منها : « المنهل الروي في الحديث النبوي – خ » في طوبقبو ، و « كشف المعاني في المتشابه من المثاني – خ » ، و « غرة التبيان لمن يُسم في القرآن – خ » ، و « تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم – ط » ، و « غرر البيان لمبهمات القرآن – خ » و « تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام – خ » و « مختصر في السيرة النبوية – خ » و « مستند الأجناد في آلات الجهاد » وأراجيز في « قضاة مصر – خ » و « قضاء دمشق – خ » و « الخلفاء – خ » و « رسالة في الأسطرلاب » و « الفوائد الغزيرة من حديث بريرة – خ » قطعة منه في المكتبة العربية بدمشق .

عرض الكتاب :

يعرض المؤلف في كتابه لمجموعة من التوجيهات للمعلمين والمتعلمين . وهي

---

(١) تحقيق وجمع الدكتور / هشام نشابة – بيروت : دار الكتب العلمية ، (د . ت) ، (٣٣٦ ص) .
(٢) المصدر : تراجم الأعلام : للزركلي ، (٢٩٧/٥ ، ٢٩٨) .

توجيهات تربوية أو أخلاقية عامة ، قدمها المؤلف في خمسة أبواب نعرض لها على النحو التالي :

• **الباب الأول : في فضل العلم والعلماء وفضل تعلمه وتعلميه :**

وفيه يوضح المؤلف قيمة العلم بالنسبة للإنسان ، وفضله عليه ، مستشهدًا بالعديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التي نصت على ذلك ؛ ومنها قول اللَّه تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] ، وقول اللَّه تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] ، كما قال رسول اللَّه ﷺ : « **من يرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين** » ، وقوله ﷺ : « **العلماء ورثة الأنبياء** » .

ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم القيم العلمية Scientific Values ، ومفهوم القيم الخلقية Moral Values (ص ١٠٠ - ١٠٦) .

• **الباب الثاني : في أدب العالم في نفسه ومراعاة طالبه درسه ، وفيه ثلاثة فصول :**

عرض المؤلف في **الفصل الأول** لآدب العالم في نفسه وهي اثنا عشر نوعًا .

الأول : في دوام مراقبة اللَّه تعالى في السر والعلانية ، والمحافظة على خوفه في جميع حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله فإنه أمين على ما أودع من العلوم ، وما منح من الحواس والفهوم . **والثاني** : أن يصون العلم كما صانه علماء السلف ، ويقوم له بما جعل اللَّه له من العزة والشرف ، فلا يذله بذهابه ومشيه إلى غير أهله من أبناء الدنيا من غير ضرورة أو حاجة ، أو إلى من يتعلمه منهم وإن عظم شأنه وكبر قدره . **والثالث** : أن يتخلق بالزهد في الدنيا والتقليل منها بقدر الإمكان الذي لا يضر بنفسه أو بعياله . **والرابع** : أن ينزه علمه عن جعله سُلما يتوصل به إلى الأغراض الدنيوية من جاه أو مال أو سمعة أوشهرة أو خدمة أو تقدم على أقرانه . **والخامس** : أن يتنزه عن دنَّئ المكاسب ورذيلها ، عن مكروهها عادة وشرعًا ؛ كالحجامة والدباغة والصرف والصياغة . **والسادس** : أن يحافظ على القيام بشعائر الإسلام وظواهر الأحكام ، **والسابع** : أن يحافظ على المندوبات الشرعية القولية والفعلية ؛ فيلازم تلاوه القرآن وذكر اللَّه تعالى بالقلب واللسان . **والثامن**: معاملة الناس بمكارم الأخلاق ، **والتاسع** : أن يُطهر باطنه وظاهره من الأخلاق الرديئة ويغمره بالأخلاق المرضية . **والعاشر** : دوام الحرص على الازدياد بملازمة الجد والاجتهاد والمواظبة على وظائف الأوراد من العباد . **والحادي عشر** : أن لا يستكنف أن يستفيد ما لا يعلمه ممن هو دونه منصبًا أو نسبًا أو سنًا ، بل يكون

حريصًا على الفائدة حيث كانت . **والثاني عشر** : الاشتغال بالتصنيف والجمع والتأليف مع تمام الفضيلة ، وكمال الأهلية . ويرتبط مضمون الفصل السابق بمفهوم الإرشاد والتوجيه النفسي (ص ١٠٧- ١١٩) ، ومفهوم القيم الخلقية للعالم (١٠٧ - ١١٩) ، ومفهوم الإعجاب بالذات Seilf - Admiration (ص ١١٢ - ١١٧) .

وفي الفصل الثاني : عرض المؤلف لآداب العالم في درسه ، وهي اثنا عشر نوعًا .

الأول : إذا عزم على مجلس التدريس تطهر من الحَدَث والخبث وتنظف وتطيب ولبس أحسن الثياب ، **والثاني** : إذا خرج من بيته دعا بالدعاء الصحيح عن النبي ﷺ . **الثالث** : أن يجلس بارزًا لجميع الحاضرين ويوقر أفاضلهم بالعلم والسن والصلاح والشرف ويرفعهم على حسب تقديمهم في الإمامة . **والرابع** : أن يُقدم على الشروع في البحث والتدريس قراءة شيء من كتاب اللّٰه تعالى تبركًا وتيمنًا . **والخامس** : إذا تعددت الدروس قدم الأشراف ، والأهم فالأهم ، **والسادس** : أن لا يرفع صوته زائدًا على قدر الحاجة إليه ، ولا يخفضه خفضًا لا يحصل معه كمال الفائدة . **والسابع** : أن يصون مجلسه عن اللغط . **والثامن** : أن يزجر من تعدى في بحثه أو ظهر منه لدد في بحثه ، أو سوء أدب . **والتاسع** : أن يلازم الإنصاف في بحثه وخطابه ، ويسمع السؤال من مورده على وجه ، وإن كان صغيرًا . **والعاشر** : أن يتودد لغريب حضر عنده ، وينبسط له لينشرح صدره فإن للقادم دهشة . **والحادي عشر** : جرت العادة أن يقول المدرس عند ختم كل درس و اللّٰه أعلم . **والثاني عشر** : أن لا ينتصب للتدريس إذا لم يكن أهلًا له . ويرتبط مضمون هذا الفصل بمفهوم القيم الخلقية Moral values (ص ١١٩ - ١٢٧) ، وبالإرشاد والتوجيه النفسي (ص ١١٩ - ١٢٧) ، وبالتخاطب Communication (ص ١١٩ - ١٢٧) .

وفي الفصل الثالث : عرض المؤلف لآدب العالم مع طلبته مطلقًا في حلقته وهو أربعة عشر نوعًا : **الأول** : أن يقصد بتعليمهم وتهذيبهم وجه اللّٰه تعالى ، ونشر العلم ، وإحياء الشرع ، ودوام ظهور الحق ، وخمول الباطل . **والثاني** : أن لا يمنع من تعليم الطالب لعدم خُلوص نيته ، فإن حسن النية مرجو له ببركة العلم ، **والثالث** : أن يرغبه في العلم ، والرابع : أن يُحب لطالبه ما يحب لنفسه ، ويكره ما يكره لنفسه . **والخامس** : أن يسمح له بسهولة الإلقاء في تعليمه ، وحسن التلطف في تفهيمه ؛ ولاسيما إذا كان أهلًا لذلك لحسن أدبه وجودة طلبه . **والسادس** : أن يحرص على تعليمه وتفهيمه ببذل جهده ؛ وتقريب المعنى له من غير إكثار لا يحتمله ذهنه ، أو بسط لا يضبطه حفظُه .

والسابع : طرح مسائل تتعلق بالدرس بعد انتهائه ؛ لامتحان فهم الطلبة وضبطهم لما شرح لهم . **والثامن** : أن يطالب في بعض الأوقات بإعادة المحفوظات ، ويمتحن ضبطهم لما قدم لهم من القواعد المهمة والمسائل الغريبة . **والتاسع** : إذا سلك الطالب في التحصيل فوق ما يقتضية حاله أو تحملة طاقته ، وخاف الشيخ ضجره ، أوصاه بالرفق بنفسه . **والعاشر** : أن يذكر للطلبة قواعد الفن التي لا تنخرم إما مطلقًا ؛ كتقديم المباشرة على السبب في الضمان ، أو غالبًا كاليمين على المدعى عليه إذا لم تكن بينه إلا في القسامة . **والحادي عشر** : أن لا يظهر للطلبة تفضيل بعضهم على بعض عنده في أي شيء . **والثاني عشر** : أن يراقب أحوال الطلبة وأخلاقهم ، باطنًا وظاهرًا . **والثالث عشر** : أن يسعى في مصالح الطلبة ، وجمع قلوبهم ومساعدتهم بما تيسر عليه من جاه ومال عند قدرته على ذلك . **والرابع عشر** : أن يتواضع مع الطلاب . ويرتبط مضمون هذا الفصل بمفهوم النية Intention (ص ١٢٨) ، بمفهوم العلاقات بين الأشخاص Interpersonal Relationships وبخاصة علاقة الأستاذ بطلابه ، وضرورة أن يمثل نموذجًا بالنسبة لهم (ص ١٢٨ - ١٣٨) .

● **الباب الثالث : في أدب المتعلم ، وفيه ثلاثة فصول :**

عرض المؤلف **في الفصل الأول** لأدب المتعلم في نفسه وهو عشرة أنواع :

الأول : أن يطهر قلبه من كل غش ودنس وغل وحسد ، وسوء عقيدة وخلق ؛ ليصلح بذلك لقبول العلم وحفظه . **والثاني** : حسن النية في طلب العلم . **والثالث** : أن يبادر شبابه وأوقات عمره إلى التحصيل ، ولا يفتر بخدع التسويف والتأمل فإن كل ساعة تمضي من عمره لا يدركها ولا عوض عنها . **والرابع** : أن يقنع من القوت بما تيسر . **والخامس** : أن يقسم أوقات ليله ونهاره ، ويغتنم ما بقى من عمره . **والسادس** : من أعظم الأسباب المعينة على الاشتغال والفهم وعدم الملال أكل القدر اليسير من الحلال . **والسابع** : أن يأخذ نفسه بالورع في جميع شأنه ، ويتحرى الحلال في كل شيء . **والثامن** : أن يقلل من استعمال المطاعم التي هي من أسباب البلادة وضعف الحواس . **والتاسع** : أن يقلل نومه ما لم يلحقه ضرر في بدنه وذهنه . **والعاشر** : أن يترك العشرة فإن تركها من أهم ما ينبغي لطالب العلم ؛ ولا سيما لغير الجنس . ويرتبط مضمون هذا الفصل بمفهوم القيم الخلقية Moral Values (ص ١٣٩ : ١٤٦) ، وبمفهوم التوجيه والإرشاد النفسي (١٣٩ - ١٤٦) .

وفي الفصل الثاني : عرض المؤلف لآدابه مع شيخه وقدرته وما يجب عليه من عظم حُرمته ، وهو ثلاثة عشر نوعًا . **الأول** : أنه ينبغي للطالب أن يقدّم النظر ويستخير اللّٰه فيمن يأخذ العلم عنه ، ويكتسب حسن الأخلاق والآداب منه . **والثاني** : أن ينقاد لشيخه في أموره ، ويخرج عن رأيه وتدبيره . **والثالث** : أن ينظره بعين الإجلال ، ويعتقد فيه درجه الكمال ، فإن ذلك أقرب إلى نفعه به . **والرابع** : أن يعرف له حقه ، ولا ينسى له فضله . **والخامس** : أن يصبر على جفوة تصدر من شيخه ، أو سوء خلق ، ولا يصده ذلك عن ملازمته . **والسادس** :.أن يشكر الشيخ على توفيقه على ما فيه فضيلة وعلى توبيخه على ما فيه نقيصة . **والسابع** : أن لا يدخل على الشيخ في غير المجلس العام إلَّا باستئذان ؛ سواء كان الشيخ وحده أم كان معه غيره . **والثامن** : أن يجلس بين يدي الشيخ جلسة الأدب . **التاسع** : أن يحسن خطابه مع الشيخ بقدر الإمكان . **والعاشر** : إذا سمع شيخه يذكر شيئا هو يحفظه فعليه أن يُصغي إليه . **والحادي عشر** : أن لا يسبق الشيخ إلى شرح مسألة أو جواب سؤال منه أو من غيره ، ولا يساوقه فيه ، ولا يظهر معرفته به ، وإدراكه له قبل الشيخ . **والثاني عشر** : إذا ناوله الشيخ تناوله باليمين ، إذا ناوله باليمين . **والثالث عشر** : إذا مشى مع الشيخ فليكن أمامه بالليل ووراءه بالنهار إلَّا أن يقتضي الحال خلاف ذلك لزحمة أو غيره .

ويرتبط مضمون هذا الفصل بمفهوم القدرة Modelling (ص ١٤٦ – ١٥٩) ، وبالقيم الخلقية (ص ١٤٦ – ١٥٩) ، وبالإرشاد والتوجيه النفسي (ص ١٤٦ – ١٥٩) ، وبالعلاقات بين الأشخاص ، وبخاصة علاقة الطالب بأستاذه (ص ١٤٦ – ١٥٩) .

وفي الفصل الثالث : يعرض المؤلف لآدابه في دروسه ، وقراءته في الحلقة ، وما يعتقده فيها مع الشيخ والرفقة ، وهو ثلاثة عشر نوعًا : **الأول** : أن يبتدئ أولا بكتاب اللّٰه العزيز ؛ فيتقنه حفظًا وتفسيرًا . **والثاني** : أن يحذر في ابتداء أمره من الاشتغال في الاختلاف بين العلماء أو بين الناس مطلقًا في العقليات والسمعيات ؛ فإنه يحير الذهن ويدهش العقل **والثالث** : أن يصحح ما يقرؤه قبل حفظه تصحيحًا متقنًا إما على الشيخ أو على غيره ممن يعينه . **والرابع** : أن يبكر في سماع الحديث ولا يهمل الاشتغال به . **والخامس** : إذا شرح محفوظاته المختصرات ، وضبط ما فيها من الإشكالات والفوائد المهمات ؛ انتقل إلى بحث المبسوطات مع المطالعة الدائمة ، وتعليق ما يمر به أو يسمعه من الفوائد النفسية والمسائل الدقيقة ، والفروع الغريبة . **والسادس** : أن يلزم حلقة شيخه في التدريس

التدريس والإقراء ، بل وجميع مجالسه إذا أمكن . **والسابع** : إذا حضر مجلس الشيخ سلم على الحاضرين بصوت يسمع جميعهم ويخص الشيخ بزيادة تحية وإكرام وكذلك يسلم إذ انصرف . **والثامن** : أن يتأدب مع حاضري مجلس الشيخ فإنه أدب معه واحترام لمجلسه وهم رفقاؤه . **والتاسع** : أن لا يستحي من سؤال ما أشكل عليه ، ما لم يتعقله بتلطف وحسن خطاب . **والعاشر** : مراعاة نوبته فلا يتقدم عليه بغير رضا ممن هي له . **الحادي عشر** : أن يكون مجلسه بين يدي الشيخ . **والثاني عشر** : إذا حضرت نوبته استأذن الشيخ كما ذكرنا ، فإن أذن له استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم يسمي الله تعالى ويحمده ويصلي على النبي ﷺ وعلى آله وصحبه ، ثم يدعو للشيخ ولوالديه ولمشايخه ولنفسه ولسائر المسلمين ، وكذلك يفعل كلما شرع في قراءة درس أو تكراره أو مطالعته أو مقابلته في حضور الشيخ أو في غيبته ، إلا أنه يخص الشيخ بذكره في الدعاء عند قراءته عليه ، ويترحم على مصنف الكتاب عند قراءته . **والثالث عشر** : أن يُرغب بقية الطلبة في التحصيل ؛ ويدلهم على مظانه ، ويصرف عنهم الهموم المشغلة عنه ، ويهون عليهم مؤونته ، ويذكرهم بما حصله من الفوائد والقواعد والغرائب . ويرتبط مضمون هذا الفصل بمفهوم القيم الخلقية Moral Values (ص ١٥٩ - ١٦٩) ، وبمفهوم القدرة Modelling (ص ١٥٩ - ١٦٩) .

• الباب الرابع : في الأدب مع الكتب التي هي آلة العلم وما يتعلق بتصحيحها وضبطها وحملها ووضعها وشرائها وعاريتها ونسخها وغير ذلك ، وفيه أحد عشر نوعًا :

النوع الأول : ينبغي لطالب العلم أن يعتني بتحصيل الكتب المحتاج إليها ما أمكنه شراءً ، وإلَّا فإجارة أو عارية ؛ لأنها آله التحصيل . **والثاني** : تُستحبُّ إعارة الكتب لمن لا ضرر عليه فيها ، عن من لا ضرر منه بها ، كره قوم عاريتها . **والثالث** : إذا نسخ من الكتاب أو طالعه فلا يضعه على الأرض مفروشًا منشورًا ، بل يجعله بين كتابين أو شيئين أو كرسي الكتب المعروف كي لا يسرع تقطيع حبكه . **والرابع** : إذا استعار كتابًا فينبغي له أن يتفقده عند إرادة أخذه وردِّه . **والخامس** : إذا نسخ شيئًا من كتب العلوم الشرعية ؛ فينبغي أن يكون على طهارة ، مستقبل القبلة ، طاهر البدن والثياب ، بحبر ، ويبتدئ كل كتاب بكتابة « بسم الله الرحمن الرحيم » . **والسادس** : ينبغي أن يتجنب الكتابة الدقيقة في النسخ فإن الخط علامة ، فأبينه أحسنُه . **والسابع** : إذا صحح الكتاب بالمقابلة على أصله الصحيح أو على الشيخ فينبغي له أن يُشكل المُشْكل ، ويعجم المستعجم ،

ويضبط المُلتبس ، ويتفقد مواضع التصحيف . **والثامن** : إذا أراد شيء في الحاشية ، وتسمى اللحق نفخ الحاء ، علم له في موضعه بخط منعطف قليلًا إلى جهة التخريج ، جهة اليمين أولى إن أمكن ، ثم يكتب التخريج في محاذاة العلامة صاعدًا إلى أعلى الورقة لا نازلًا إلى أسفلها لاحتمال تخريج آخر بعده ، ويجعل رؤس الحروف إلى جهة اليمين سواء كان في جهة اليمين الكتابة أو يسارها . **والتاسع** : لا بأس بكتابة الحواشي والفوائد والتنبيهات المهمة على حواشي كتاب يملكه ، ولا يكتب في آخره « صح » فرقًا بينه وبين التخريج . **والعاشر** : لا بأس بكتابة الأبواب والتراجم والفصول بالحمرة ، فإنه أظهر في البيان ، وفي فواصل الكلام . **والحادي عشر** : قالوا الضربُ أولى من الحكّ لا سيما في كتب الحديث ؛ لأن فيه تهمة وجهالة فيما كان أو كتب ، ولأن زمانه أكثر فيضيع ، فعله أخطر ؛ فربما ثقب الورقة وأفسد ما ينفذ إليه فأضعفها ، فإن كان إزالة نقطة أو شكلة ، ونحو ذلك فالحك أولى . ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم القيم العلمية Scientific Values (ص ١٧٠ - ١٧٨) .

● **الباب الخامس : في آداب سكنى المدارس والطلاب لأنها مساكنهم في الغالب ، وهو أحد عشر نوعًا :**

النوع الأول : أن ينتخب لنفسه من المدارس ، بقدر الإمكان ، ما كان واقفه أقرب إلى الورع وأبعد عن البدع ؛ وبحيث يغلب على ظنه أن المدرسة ووقفها من جهة حلال ، وأن معلومها ، إن تناوله ، من طيب المال . **والثاني** : أن يكون المدرس بها ذا رياسة وفضل وديانة وعقل ومهابة وجلالة وناموس .... ألخ . **والثالث** : أن يعرف بشروطها ليقوم بحقوقها ، ومهما أمكنه التنزه عن معلوم المدرس فهو أولى . **والرابع** : إذا حضر الواقف سُكنى المدرسة على المربين بها دون غيرهم لم يسكن فيها غيرهم ، فإن فعل كان عاصيًا ظالمًا بذلك ، وإن لم يحصر الواقف ذلك ، فلا بأس إذا كان الساكن أهلًا لها . **والخامس** : أن لا يشتغل بالمعاشرة والصحبة ، ولا يرضى من سكنها بالسكة والخطبة ؛ بل يقبل على شأنه وتحصيله ، وما بنيت المدارس له . **والسادس** : أن يكرم أهل المدرسة التي يسكنها ؛ بإفشاء السلام ، وإظهار المودة والاحترام ؛ ويرعى لهم الجيرة والصحبة والأخوة في الدين والحرفة ؛ لأنهم أهل العلم وحملته وطلابه . **والسابع** : أن يختار بجواره إن أمكن أصلحهم حالًا ، وأكثرهم اشتغالًا ، وأجودهم طبعًا ، وأصونهم عرضًا ؛ ليكون معينًا له ما هو بصدده . **والثامن** : إذا كان سكنه في مسجد المدرسة في

مكان الاجتماع ومروره على حصيره وفرشه ؛ فليتحفظ عند صعوده إليه من سقوط شيء من نعليه . **والتاسع** : أن لا يتخذ باب المدرسة مجلسًا ، بل لا يجلس فيه إذا أمكن إلَّا لحاجة أو في ندوة لقبض أو ضيق صدر . **والعاشر** : أن لا ينظر في بيت أحد في مروره من شقوق الباب ونحوه ، ولا يلتفت إليه إذا كان مفتوحًا . **والحادي عشر** : أن لا يتقدم على المدرس في حضور موضع الدرس ، ولا يتأخر إلى بعد جلوسه وجلوس الجماعة ؛ فيكلفهم المعتاد من القيام ، ورد السلام . ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم القيم الخلقية وبخاصة آداب الجوار (ص ١٧٩ - ١٨٦) ، وبمفهوم العلاقات بين الأشخاص (ص ١٧٩ - ١٨٦) .

* * *

شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ)
كتاب الكبائر [1]

عرض : د . الحسين محمد عبد المنعم

التعريف بالمؤلف :

هو شمس الدين محمد بن عثمان بن قايماز التركماني ، الفارقي الدمشقي الشافعي ، الشهير بالذهبي ، أصل أسرته من « ميافارقين » . ولد في دمشق سنة (٦٧٣هـ - ١٢٧٤م) ، وتلقى العلم عن شيوخ الشام ومصر والحجاز ، ونبغ في كثير من العلوم ، وبخاصة في قراءات القرآن ، والحديث وضرب بحفظه المثل ونُعت « بإمام الوجود حفظًا ، وبشيخ الجرح والتعديل ، ورجل الرجال في كل سبيل » ، وذاع صيته في الآفاق ، وقصده طلاب العلم من كل صوب .

تولى « الذهبي » عدة وظائف علمية في دمشق ، ولما كُفَّ بصره في سنه (٧٤١هـ) انقطع عن التأليف ، واكتفى بالتدريس إلى أن وفاه الأجل في اليوم الثالث من شهر ذي القعدة سنة (٧٤٨هـ - ١٣٤٨م) . ودفن في مقبرة الباب الصغير بدمشق .

ترك « الذهبي » ثروة علمية ضخمة أودعها في مؤلفاته التي وصلت إلى سبعين مؤلفًا في الحديث والتاريخ والتراجم وغيرها ، أعظمها تاريخه الكبير (تاريخ الإسلام) ، وكتاب « سير أعلام النبلاء » « وميزان الاعتدال » ، و « المشتبه في أسماء الرجال » ، « وتجريد الأصول في أحاديث الرسول » ، وغيره .

---

(١) بيروت دار الهجرة للطباعة والنشر (١٩٨٧م) . ط ١ ، (٢٤٣ ص) .

وقد تحدث عن مؤلفات الذهبي الكثير من المؤلفين القدامي والمحدثين وكُتب عدة دراسات عنه في رسائل ومجلات عربية وأجنبية ، وكلها أشادت بعلمه وفضله ، ونوهت بما خلف من آثار علمية انتفع بها أبناء عصره ، ومن خلفهم من أبناء العصور التالية حتى اليوم .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٢٤٣ صفحة من القطع المتوسط ويشتمل على مجموعة من الكبائر والمحرمات ، والمنهيات ؛ والكبائر هي ما نهى اللّه ورسوله عنها في الكتاب والسنة والأثر عن السلف الصالحين ، وقد ضمن اللّه تعالى في كتابه العزيز لمن اجتنب الكبائر والمحرمات أن يكفر عنه الصغائر من السيئات . ونعرض فيما يلي هذه الكبائر :

١ – **الشرك باللّه** : وهو من أكبر الكبائر ؛ وينقسم إلى نوعين : **أحدهما** أن يجعل للّه ندًّا ويعبد غيره من حجر أو شجر أو شمس أو قمر أو نبي أو شيخ أو غير ذلك .

وهذا هو الشرك الأكبر الذي ذكره اللّه ﷻ . **والنوع الثاني** من الشرك : الرياء بالأعمال ؛ وهذا هو الشرك الأصغر .

٢ – **قتل النفس** : وقد نهى عن ذلك اللّه ورسوله ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] . وقد ورد في هذا الباب ذكر بعض المفاهيم السيكولوجية : مثل العداوة Hostility ، والتعصب Prejudice (ص ١٣٠) .

٣ – **في السحر** : فالساحر لابد وأن يكفر ، ما للشيطان الملعون غرض في تعليمه الإنسان السحر إلا ليشرك به . وحد السحر القتل ؛ لأنه كفر باللّه أو مضارع الكفر ، وقال رسول اللّه ﷺ : « **ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن خمر ، وقاطع رحم ، ومصدق بالسحر** » . ويرتبط هذا الموضوع بالمعتقدات الخرافية أو اللاعقلانية Irrational Beliefs ، أي التي لا يمكن تقديم الأدلة والحجج لإثباتها (ص ١٤ – ١٦) .

٤ – **في ترك الصلاة** : ولا يقصد به تركها كلية ، ولكن تأخيرها عن أوقاتها المحددة ، فمن مات وهو مُصرّ على هذه الحالة ولم يتب فعقابه شديد عند اللّه ؛ فقد وعد اللّه هؤلاء بويل ، ويقال : هو واد في جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لذابت من شدة حره أو هو مسكن من يتهاون بالصلاة ويؤخرها عن وقتها إلَّا أن يتوب للّه تعالى ويندم على ما فرط . وهنا إشارة متى يؤمر الصبي بالصلاة ، قال الرسول الكريم ﷺ : « **مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين ، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها** » .

ويرتبط ذلك بالتوجيه والإرشاد النفسي للأبناء ، وتعليمات التربية والتنشئة الاجتماعية Socialization للأبناء (ص ٢١) .

٥ – **منع الزكاة** : وقد نهى عن ذلك الله ﷻ ورسوله ﷺ ، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [فصلت : ٧] ، وقد وعدهم الله ﷻ بالعذاب الأليم في الآخرة .

٦ – **إفطار يوم في رمضان بلا عذر** : قال رسول الله ﷺ « **من أفطر يومًا في رمضان بلا عذر لم يقضه صيام الدهر وإن صامه** » .

٧ – **في ترك الحج مع القدرة عليه** : فقد أمر الله ﷻ بأداء هذه الفريضة طالما يستطيع الإنسان ولديه ما يمكنه من ذلك .

٨ – **عقوق الوالدين** : فقد أمرنا الله ورسوله بحسن معاملة الوالدين ، والعاق لوالديه عقابه شديد ؛ قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

ويرتبط ذلك بعمليات التفاعل الاجتماعي Social Interaction بين الآباء والأبناء (ص ٣٩ – ٤٦) .

٩ – **هجر الأقارب** : فقد أمرنا الله ورسوله بصلة الأرحام ، لما فيها من تقوية الروابط والعرقات بين الناس ؛ قال رسول الله ﷺ : « **لا يدخل الجنة قاطع رحم** » .

١٠ – **الزنى** : قال الله ﷻ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] ، وقد أوضح الله لنا عقاب الزاني والزانية في الدنيا والآخرة .

١١– **اللواط** : وقد نهانا الله ورسوله عن عمل قوم لوط ، ولعن من فعل فعلهم ، وقد أجمع المسلمون على أن التلوط من الكبائر التي حرمها الله ﷻ .

ويقترب ذلك من حديث علماء الطب النفسي عن الاضطرابات الجنسية Sexual Disorders وما يسمى بالجنسية المثلية (اللواط) Homosexuality (ص ٥٥٦١) .

١٢ – **الربا** : وهو من الكبائر التي نهى الله ورسوله عنها ، وعقابه شديد يوم القيامة وقد أوضح رسول الله ﷺ أنه ما ظهر في قوم الربا إلَّا ظهر فيهم الجنون .

١٣ – **أكل مال اليتيم وظلمه** : قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ

أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ، كما قال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ [النساء: ١٠] .

١٤ - **الكذب على الله** ﷻ **وعلى رسوله** ﷺ : وقد نهى عنه الله ورسوله ﷺ ؛ قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر: ٦٠] .

ويرتبط هذا الموضوع بما يسمى بالانحرافات الأخلاقية Moral deviançes التي تشمل على الكذب وغير ذلك (ص ٧٠) .

١٥ - **الفرار من الزحف** : وهو كما أوضح الرسول ﷺ من السبع الموبقات التي نهى عنها وحذر منها .

١٦ - **غش الإمام الرعية وظلمه لهم** : ويرتبط هذا الجانب بموضوع القيادة Leadership والصفات التي يجب أن يتسم بها القائد ، وكيف يعامل الآخرين (ص ٧٢ - ٧٦) .

١٧ - **الكبر** : وقد نهى عنه الله ﷻ في قوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ [النحل: ٢٣] ، فمن استكبر على الحق لم ينفعه إيمانه كما فعل إبليس .

١٨ - **شهادة الزور** : قال تعالى : ﴿ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ [الحج: ٣٠] ؛ وذلك لما فيه من آثار خطيرة على العلاقات بين الأفراد ، وما يترتب عليه من نتائج سلبية .

١٩ - **شرب الخمر** : وهناك بيان واضح في القرآن والسنة بأن تعاطي المسكرات - المخدرات عمومًا - من المحرمات والكبائر ، فمدمن الخمر كما أوضح الرسول ﷺ كعابد وثن ، وإذا مات ولم يتب لا يدخل الجنة ، ولا يقبل الله منه حسنة ، وأنه لا يكون مؤمنًا حين يشربها ، وأنه يحل التداوي بها ، وهناك أيضًا إشارة لخطورة وتحريم تعاطي الحشيش (القنب) ، ويرتبط بموضوع تعاطي المسكرات والمخدرات Addiction of drugs وهو أحد الموضوعات الأساسية في علم النفس الإكلينيكي (ص ٨٠ - ٨٨) .

٢٠ - **القمار** : والقمار هو « الميسر » كما ورد ذكره في القرآن الكريم ، وهناك إجماع على تحريمه في حالة ما إذا كان اللعب على رهن ، أما إذا كان دون رهن ولا يشغل عن صلاة أو عبادة أو عمل ، فهناك خلاف حوله .

٢١ - **قذف المحصنات** : وعقاب ذلك كما جاء في القرآن الجلد ثمانين جلدة .

٢٢ - **الغلول من الغنيمة** : وهي من بيت المال ومن الزكاة ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران: ١٦١] .

٢٣ - **السرقة** : وعقابها قطع اليد .

٢٤ - **قطع الطريق** : قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٣] .

٢٥ - **اليمين الغموس** : قال رسول اللَّه ﷺ « **من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم لَقِيَ اللَّه - تعالى - وهو عليه غضبان** » ، وهناك نهي عن الحلف بغير اللَّه ﷻ .

٢٦ - **الظلم** : بأكل أموال الناس وأخذها ظلمًا وظلم الناس بالضرب والشتم والتعدي والاستطالة على الضعفاء ، وقد وعد اللَّه ورسوله الظالمين بالعذاب الأليم ، كما حذرنا اللَّه ﷻ من الدخول على الظلمة و مخالطتم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هود : ١١٣] .

٢٧ - **المكاس** : وهو من أكبر أعوان الظَّلمة بل هو من الظلمة أنفسهم فإنه يأخذ ما لا يستحق ويعطيه لمن لا يستحق ؛ لهذا قال الرسول ﷺ « **المكَّاس لا يدخل الجنة** » .

٢٨ - **أكل الحرام وتناوله على أي وجه كان** : قال اللَّه ﷻ : ﴿ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ [البقرة : ١٨٨] ، أي لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل ، يعني باليمين الباطلة الكاذبة .

٢٩ - **القتل أو قتل النفس** : قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴾ [النساء : ٢٩] ، أي : لا يقتل بعضكم بعضًا لأنكم أهل دين واحد ، فأنتم كنفس واحدة .

٣٠ - **الكذب في أغلب أحواله** : فالكذَّاب من الملعونين الذين وعدهم اللَّه ﷻ بالعذاب ، فالصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة . وينبغي على المسلم أن يحفظ لسانه عن الكلام إلا كلامًا ظهرت فيه المصلحة .

٣١ - **القاضي السوء** : وهو الذي يحكم ظلمًا بين الناس ؛ ولا يحكم بما أنزل اللَّه ﷻ ، قال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٤٧] .

٣٢ – **أخذ الرشوة في الحكم** : وقد نهى اللّه ورسوله عنها ، قال رسول اللّه ﷺ « **لعن اللّه الراشي والمرتشي في الحكم** » .

٣٣ – تشبه النساء بالرجال وتشبه الرجال بالنساء : وقد لعنهم اللّه ﷻ ورسوله ﷺ ويقترب ذلك بما يسمى في الطب النفسي بالانحرافات والاضطرابات الجنسية Sexual disorders (ص ١٣٤ - ١٣٦) .

٣٤ – **الديوث** : المستحسن على أهله والقوّاد الساعي بين الاثنين بالفساد ، والديوث الذي يقر الخبث في أهله ، ويعني : يستحسنه على أهله .

٣٥ – **المحلل والمحلل له** : وقد لعنهما اللّه ﷻ كما قال رسول اللّه ﷺ : « **لعن اللّه المحلل والمحلل له** » .

٣٦ – **عدم التنزه من البول** : وهو سعار النصارى ، فعدم التطهر من البول غير مقبول ويجعل صلاة المرء غير مقبولة .

٣٧ – **الرياء** : وهو النفاق ، وهو كما أوضح رسول اللّه ﷺ من الشرك الأصغر .

٣٨ – **التعليم للدنيا وكتمان العلم** : وفيه تقدير للعلماء باللّه ﷻ ، إشارة إلى خطورة كتمان العلم وعدم قيام العلماء بتوضيح ما أنزل اللّه ﷻ .

٣٩ – **الخيانة** : وفيه حث على الأمانة والصدق والوفاء بالوعد ، فالخيانة قبيحة في كل شيء أو بعضها شر من بعض .

٤٠ – **المنان** : وهو الذي يَمُنُّ بما أعطى ، قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] .

٤١ – **التكذيب بالقدر** : أجمع الفقهاء على أن السنة التي توفي عليها رسول اللّه ﷺ أولها : الرضا بقضاء اللّه وقدره والتسليم لأمره ، والصبر تحت حكمه ، والإيمان بالقدر خيره وشره ، والنهي عما نهى اللّه عنه ، وإخلاص العمل للّه ، وترك المراء والجدال والخصومات في الدين ، والمسح على الخفين ، والجهاد مع كل خليفة ، والصلاة على من مات من أهل القبلة .

٤٢ – **التسمع على الناس وما يسرون** : وقد نهى اللّه ورسوله عن التجسس والتحسس على الآخرين .

٤٣ – **النمام** : وهو من ينقل الحديث بين الناس على جهة الإفساد بينهم . وحكمه : أنه حرام بإجماع المسلمين .

٤٤ – **اللعان** : وقال عنه الرسول ﷺ : « **لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة** » ، فالمؤمن ليس بطعَّان ولا بلعَّان ، ولَعْنُ المسلم المصون حرام بإجماع المسلمين ، ويجوز لعن أصحاب الأوصاف المذمومة ، كقولك : لعن اللَّه الظالمين ، لعن اللَّه الكافرين : اليهود والنصارى ، والفاسقين ، ونحو ذلك .

٤٥ – **العذر وعدم الوفاء بالعهد** : قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٤] .

٤٦ – **تصديق الكاهن والمنجم** : فعالم الغيب هو اللَّه ﷻ ؛ لذا يجب عدم تصديق الكاهن والمنجم ؛ لأن ذلك كما قال الرسول ﷺ من الكفر .

٤٧ – **نشوز المرأة على زوجها** : والنشوز هنا هو معصية الزوج والترفع عليه بالخلاف ، وقد نهى اللَّه ورسوله عن ذلك ، فواجب على المرأة أن تطلب رضا زوجها وتتجنب سخطه ولا تمتنع منه متى أرادها طالما لا يوجد عذر أو مرض لديها .

٤٨ – **التصوير في الثياب والحيطان والحجر والدراهم وسائر الأشياء** : وفيه نهي عن صنع الصور ، سواء كانت لأشخاص ، أو منقوشة في سقف أو جدار أو منسوجة في ثوب أو مكان .

٤٩ – **اللطم والنياحة وشق الثوب وحلق الرأس والدعاء بالويل والثبور عند المصيبة** : قال رسول اللَّه ﷺ : « **ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية** » .

٥٠ – **البغي** : وقد نهى عنه اللَّه ورسوله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى : ٤٢] .

٥١ – **الاستطالة على الضعيف والمملوك والجارية والزوجة والدابة** : وقد نهانا اللَّه ﷻ عن ذلك ؛ لما فيه من ظلم وآثار سيئة على تماسك الأفراد ، وضعف الروابط .

٥٢ – **أذى الجار** : قال رسول اللَّه ﷺ : « **من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فلا يؤذ جاره** » . والجيران ثلاثة : جار مسلم قريب له حق الجوار وحق الإسلام وحق القرابة ، وجار مسلم له حق الجوار وحق الإسلام ، والجار الكافر له حق الجوار .

٥٣ – **أذى المسلمين وشتمهم** : قال رسول اللَّه ﷺ : « **المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ، ولا يحقره ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم** » ، فيجب أن يحسن المرء معاملة إخوانه المسلمين وأن يتسامح نحوهم ولا يتسبب في إيذائهم .

٥٤ – **إسبال الإزار والثوب واللباس هزرًا أو عجبًا أو فخرًا أو خيلاء** : فيجب أن

لا يختال المرء في مشيه ، وأن لا يلبس لبسًا غير ساتر لعورته .

٥٥ – **لُبس الحرير والذهب للرجال** : قال رسول اللّه ﷺ : « **حرام لُبْس الحرير والذهب على ذكور أمتي** » .

٥٦ – **إباق العبد** : وهو من الأشياء المنهي عنها ، فقال رسول اللّه ﷺ : « **وإذا أبق العبد لم تقبل له الصلاة** » .

٥٧ – **الذبح لغير اللّه** ﷻ : كأن يقول الفرد : باسم الشيطان ، أو : الصنم ، أو : باسم الشيخ فلان ... إلخ ، وهي من الأمور التي نهانا اللّه ورسوله عنها .

٥٨ – **فيمن ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم** : قال رسول اللّه ﷺ : « **لا ترغبوا عن آبائكم ، فمن رغب عن أبيه فهو كافر** » .

٥٩ – **الجدال والمراء** : فالجدال والمناقشة يجب أن تكون دون تعصب ، وأن ترتبط فيما هو خير وصلاح لأمر المسلمين .

ويرتبط هذا الموضوع بـ « سيكولوجية التخاطب أو الاتصال بين الأفراد ، وتغيير الاتجاهات » :

Communication & Attitude Change (ص ٢٢٠ – ٢٢٤) .

٦٠ – **منع فضل الماء** : قال النبي ﷺ : « **لا تمنعوا فضل الماء لتمنعوا به الكلأ** » .

٦١ – **نقص الكيل والزرع وما أشبه ذلك** : وقد وعدهم اللّه بالعذاب الأليم في الآخرة .

٦٢ – **الأمن من مكر اللّه** : قال الحسن : من وسع اللّه عليه فلم ير أنه يُمْكَرُ به فلا رَأْيَ له ، ومن فتر عليه فلم ير أنه ينظر إليه فلا رَأيَ له.

٦٣ – **أذية أولياء اللّه** .

٦٤ – **تارك الجماعة فيصلي وحده من غير عذر** .

٦٥ – **الإصرار على ترك صلاة الجمعة والجماعة من غير عذر** : فقد أوصانا رسول اللّه ﷺ بالصلاة في الجماعة لما لها من ثواب عظيم عند اللّه ﷻ .

٦٦ – **الإضرار في الوصية** : فيجب أن لا تضر الوصية أحد الورثة ، فكما قال رسول اللّه ﷺ : « **إن اللّه قد أعطى كل ذي حق حقه ؛ فلا وصية لوارث** » .

٦٧ – **المكر والخديعة** : قال اللّه ﷻ : ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر : ٤٣] . قال النبي ﷺ : « **المكر والخديعة في النار** » .

٦٨ – **من جس على المسلمين أو دل على عورتهم :** فالنميمة إذا كانت من أكبر المحرمات ؛ فنميمة الجاسوس أكبر وأعظم .

٦٩ – **سب أحد من الصحابة رضوان اللَّه عليهم :** وفيه نهي عن معاداة أو سب أصحاب الرسول ﷺ ، فمن طعن فيهم وسبهم فقد خرج من الدين ومن ملة المسلمين وثبت في الصحيحين أن رسول اللَّه ﷺ قال : « **يقول اللَّه** ﷻ : **من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب** » .

* * *

الطب النبوي [1]

عرض : د . محمد شلبي

عرض الكتاب :

يذكر الذهبي في مقدمة كتابه أن الطب ينقسم إلى جزء علمي وجزء عملي ، فالعلمي أجزاؤه أربعة :

أولًا : العلمي :

١ - العلم بالأمور الطبيعية .
٢ - العلم بأحوال بدن الإنسان .
٣ - العلم بالأسباب .
٤ - العلم بالعلامات .

١ - بالنسبة للأمور الواردة في البند الأول فإنها تنقسم إلى سبع نقاط :

أ - الأركان : وهي أربعة : النار والهواء والماء والأرض .

ب - المزاج : حار وبارد ورطب ويابس وكذلك أخلاطها مثل حار يابس ، وحار رطب ، وبارد يابس ، وبارد رطب .

ج - الأخلاط : الدم والبلغم والصفراء والسوداء .

(وهي تقسيمات منقولة عن الأنماط المزاجية للإغريق ولا زال علماء النفس يستقون منها تقسيماتهم حتى الآن) .

٢ - وبالنسبة للعلم بأحوال البدن فهي ثلاثة : الصحة والمرض ، وحالة لا صحة

---

(١) القاهرة : مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، (١٩٦١م) ، (١٦٥ ص) .

ولا مرض ، الناقة والشيخ ، فالصحة هيئة بدنية تكون الأفعال معها سليمة (ص ٦) .

٣ – في العلم بالأسباب :

الأسباب ستة ، **أولها** : الهواء النقي ، **والثاني** : ما يؤكل ويشرب ، **والثالث** : حركة وسكون البدن ، **والرابع** : الحركة والسكون النفسانيان كما في القبض والفرح والهم والغم ، والخجل ، **والخامس** : النوم واليقظة ، **والسادس** : الاستفراغ والاحتباس ، فالمعدل منها نافع حافظ للصحة .

٤ – في العلامات :

فسواد الشعر والبدن دالان على الحرارة ، وضد ذلك البرودة ، وكثرة اللحم دال على الحرارة والرطوبة ، ورؤية الألوان : الصفر والحمر ، والنيران في الأحلام تدل على الحرارة بالضد .

ثانيًا : وبالنسبة للقواعد العلمية (ص٩) للطب فإنها تنقسم إلى : حفظ الصحة ، ومداواة المرض .

ومن أسباب حفظ الصحة أخذ الغذاء وقت الحاجة ، وينبغي تجنب الشره ، قال الرسول ﷺ : « **ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لِنَفَسِه** » .

وكتب الذهبي فصلًا في الجماع (ص ٨ – ٢٠) من أراد الوطء فليمسك مدة عن الجماع ثم يطأ في أول الظهر بعد طول ملاعبة ، قال رسول اللَّه ﷺ في حديث جابر : « **نهى رسول اللَّه ﷺ عن الوقاع قبل الملاعبة** » .

أفضل النكاح بعد هضم الغذاء ، وينبغي تجنبه عقب التَّعب والهمِّ والغمِّ وعقب استعمال الدواء ، والنكاح المعتدل ؛ ينعش الحرارة ، ويفرح النفس ، ويهيىء البدن للاغتذاء ، ويزيل الفكر الرديء ، والوساوس السودائي ، وربما وقع تارك الجماع في أمراض ، والإفراط منه يورث الرعشة والفالج ، ويضعف القوة والبصر .

يذكر الذهبي (ص ٢٠) أن الجماع يستوعب مدة الشبق ، المُغمِّي على العقل ، المكدِّر بصر البصيرة ، الساد (المغلق) على الفكر بابه ، القاطع على الرأي طريقه ، وعلى الدين أسلوبه ؛ لذلك تسميه الأطباء جنونًا ، ولَعَمْرُ اللَّه هو أشد من الجنون .

ويكتب الذهبي فصلًا في الأعراض النفسانية (ص ٢٣) ؛ فالبدن يتغير من جهة

الأعراض النفسانية وهي : الغضب والفرح والهم والغم والخجل .

أما الغضب : فإنه يسخن البدن ويجففه ، وينبغي أن يريض الفرد نفسه ؛ حتى لا يغلبه الغضب فيفعل بموجبه (قارن ذلك بمفهوم التعديل السلوكي الذاتي) .

أما الفرح : فمن شأنه تقوية النفس والحرارة ، ومتى أسرف قتل بتحليله الروح (ص ٢٤٩) .

أما الهم والغم : فيحدثان الحميات اليومية ، وسقم البدن ، فالهم لأمر يُنتظر وقوعه أو ذهابه ، والغم لأمر واقع لخير فات . وينبغي لمن كثر همه أن يتشاغل بما ينسيه ذلك ، رُوي عن النبي ﷺ أنه قال : « **ما على أحدكم أنه إذا ألح به هم أن يتقلد قوسه** » وهو ما يطلق عليه علماء النفس المعاصرون اسم « العلاج بالعمل Work Therapy » .

أما الخجل : فهو فعل ما يستحيا منه ، وإذا تصفحنا أي مرجع عن مفهوم الانفعالات فلا بد أن تواجهنا مفاهيم مثل : الانفعالات الأولية (السعادة ، والحزن ، والخوف ، والغضب) وهو ما تضمنه الجزء السابق .

ويشير الذهبي في فصل « مراعاة العادة » (ص ٢٥) ، أن العادة طبيعة ثابتة ، وهي إشارة واضحة لقوة العادات في تكوين شخصية الفرد ، ويمثل مفهوم العادة أحد أهم المفاهيم في النظرية السلوكية ، فالعادة تتكون من مجموعة واسعة من الروابط من المنبه - الاستجابة S - R التي يتعلمها الفرد ، وكذلك العلاقات بين هذه العادات .

ويتعلق الجزء الثاني من الجزء العملي بمعالجة المرض (ص ٢٦) بأحكام الأدوية والأغذية ، وقد رتب الذهبي الأدوية والأغذية أبجديًا من حرف الألف (ص٢٩) حتى حرف الياء (ص٩٦) ، ثم يعرض لقوانين تركيب الأدوية (٩٧) ، واختلاف أوزان الأدوية (ص ٩٩) .

يذكر الذهبي (ص ١١٢) أن أبا نعيم قال : إن الفراسة هي استدلال بالأحوال الظاهرة على الكامنة ، وقيل : هي خاطر يهجم على القلب فينفي ما يضاده ، وله على القلب استيلاء كاستيلاء الأسد على فريسته ، فهو مشتق من ذلك ، وفراسة الشخص بحسب ما عنده من العقل والعلم بأصول الفراسة ، وتتضمن الفقرة السابقة مفهومًا سيكولوجيًا هو الاستدلال .

يذكر الذهبي (ص ١٥٨) أن السماع للموسيقى والطرب إنما هو طيب للأنفس ، وراحة للقلوب ، وغذاء للأرواح ، وهو من أجل الطب الروحاني ، وسبب السرور حتى

لبعض الحيوانات ، والسرور المعتدل يزكي الحرارة ، ويقوي أفعال القوى ، ويبطئ الهِرَم ، ويدفع أمراضًا ، ويحسن ويخصب البدن ، كما أن من كثر همه كثر سقمه .

تزداد فوائد السماع بفهم معاني المسموع ، وعن أبي هريرة : « ما أذن اللّه لشيء كاذنه لنبي أن يتغنى بالقرآن يجهر به » وقال رسول اللّه ﷺ : « **زينوا القرآن بأصواتكم** » وقال أفلاطون : لذات الدنيا أربع الطعام والشراب والجماع والسماع .

وحكى أن أعرابيًا كان له عبد طيب الصوت فحدا له إبلًا وهي مثقلة فقطعت مسيرة ثلاثة أيام في يوم واحد ، فلما وصلت تبطحت وماتت ، فهذه الإبل أثر فيها الصوت الطيب دون فهم المعاني ، فما ظنك في الصوت الشجي بمعان رائعة يسمعه أهل الذوق والمعرفة ؟!!

إذا ذكرنا أن الجزء السابق هو صفحة من فصل معاصر عن العلاج بالموسيقى ، هل نعتبر ذلك مبالغة ؟

لقد كان للأقدمين تصوراتهم ومناهج البحث المعاصرة التي تتوفر للمحدثين .

* * *

ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)
مِفْتاح دار السعادة
ومنشور ولاية العلم والإرادة [1]

عرض : د . إبراهيم شوقي عبد الحميد

التعريف بالمؤلف :

هو عبد اللّه شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقي ، والمعروف بابن قيم الجوزية ، وقد ولد في صفر سنة ٦٩١هـ . وتوفي في رجب سنة ٧٥١هـ .

ويتميز ابن القيم بجراءة اللسان وفصاحة البيان ، كما كان عالمًا فقيهًا ومفسرًا ومحدثًا ونحويًّا أصوليًّا ، وشهد له العلماء بالفضل والسبق في خدمة الدين والعلم .

وقد تعرض ابن القيم لمحن في حياته نتيجة لآرائه الجديدة ، حيث اعتقل في القلعة بعد أن اضطهد وأهين ولم يفرج عنه إلا بعد وفاة شيخه .

ونشأ ابن القيم في عصر ازدهر فيه العلم ، وكثر العلماء ؛ ولذلك كان غزير المعرفة ، واسع الثقافة ، قد درس العلوم الشرعية ، والعربية ، وعلم الكلام ، والتصوف ، والتاريخ ، والسير ، وعلم الاجتماع .

ومن شيوخه : ابن عبد الدائم ، عيسى المطعم ، والقاضي تقي الدين ابن سليمان .

وقد قرأ العربية على ابن أبي الفتح والمجد والتونسي ، وقرأ الأصول على الصفي الهندي ، والفقة على المجد الحراني وتقي الدين ابن تيمية الذي نهج وأخذ منه معظم علمه ولازمه حتى مات .

---

(١) القاهرة : مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح ، (د . ت) ، ٢ مجلد .

وأما تلاميذه : فمنهم الحافظ زين الدين عبد الرحمن بن رجب صاحب طبقات الحنابلة ، وشمس الدين محمد بن عبد القادر النابلسي وابن كثير .

ولابن القيم مؤلفات كثيرة نذكر منها :

١ - إعلام الموقعين عن رب العالمين .

٢ - روضة المحبين ونزهة المشتاقين .

٣ - أخبار النساء .

٤ - إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان والسكران .

٥ - التبيان في أقسام القرآن .

٦ - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح .

٧ - زاد المعاد في هدي خير العباد .

٨ - الصلاة وحكم تاركها .

٩ - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين .

١٠ - الكلم الطيب .

١١ - الفوائد .

عرض الكتاب :

يتكون هذا الجزء من عدد من الفصول تزيد عن مائة وأربعين فصلًا ، يهتم بعضها بتفسير بعض الآيات القرآنية المتصلة بالترغيب والترهيب ، كما يهتم معظمها بالدعوة إلى التأمل وتوضيح حكمة خلق اللّه تعالى لمختلف المخلوقات الحية وغير الحية ، كما يعرض بالتعريف للقلب السليم ، والعلم ، والإرادة ، ومسائل معنوية أخرى . ولا يسمح المقام الحالي بعرض تلك العناصر نظرًا لكثرتها ، وقد يكتفي بالإشارة إلى أنها واردة بفهرس الكتاب الذي يتكون من خمس صفحات ؛ ولذا سنعرض لأهم الجوانب المعنوية ذات الصلة بعلم النفس ، وذلك على النحو التالي :

ثمة عدد من الفصول (ص ٣٢ - ٦٤) تتناول بالتفسير عددًا من الآيات القرآنية مثل : ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨] ، ومثل : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه : ١٢٤] . ولهذه الفصول مغزى سيكولوجي يتمثل في شقين هما :

١ – إثارة الدافع للطاعة والسلوك الأخلاقي بالترغيب والترهيب أي الترغيب في إثابة ما Rewarding ، والترهيب من عقاب ما Punishment ؛ فالإنسان يميل بطبعه إلى السلوك الذي يجلب له النجاح أو النفع ، ويجنبه الفشل أو العقاب ، وتؤكد مختلف الدراسات النفسية أن الإنسان يسهل عليه تعلم الأفعال التي تحقق له الإثابة ، وتجنب الأفعال التي تلحق به الأذى .

٢ – تقديم الوقاية والعلاج من شقاء الدنيا ومن مترتباته على الإنسان كالخوف Fear والاكتئاب Depression والقلق Anxiety ؛ حيث يتمثل العلاج والوقاية في أن يلتزم الإنسان بهدي خالقه تعالى فتسكن نفسه ، ويحظى برضا خالقه ، فيرضى عن نفسه ، مما يزيد من تكيفه مع نفسه ومجتمعه .

وبالفعل هناك من القائمين بالعلاج النفسي من يتبعون هذا المنهج في علاج وإرشاد بعض الحالات النفسية التي ترد إليهم طلبًا للعلاج أو الإرشاد .

في (ص ١١٧) يورد الكاتب تقسيمًا للعقل على النحو التالي :

أ – عقل غريزة وهو أب العلم ومربيه ومثمره ويُقصد به حديثًا الذكاء الفطري Innate Intelligence .

ب – عقل مكتسب مستفاد وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته ، ويشار له حديثًا بالذكاء المكتسب أو المتعلم Acquired Intelligence ويعرض الكتاب لآثار نقص أحدهما أو كلاهما على الإنسان وسلوكه .

وفي فصل العلم والإرادة ومكانهما من السعادة (ص ٤٦) ، يذكر المؤلف أن مصدر السعادة لدى الإنسان هو العلم والإرادة ويشير ذلك إلى أن التوافق النفسي Psychological Adjustment ، والتوافق الاجتماعي Social Adjustment يكون محصلة لذكاء مرتفع (بالعلم والمعرفة) ، وشخصية سوية (الإرادة) .

وعند عرضه لفضل أولي العلم وشرفهم (٤٨ – ١٢٨) يعرض المؤلف مفسرًا لمختلف الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمواقف التاريخية التي تدل على مراتب أولي العلم وفضلهم ، وعلى أثر العلم والمعرفة على نضج الشخصية الذي ينعكس على التوافق والنضج Adjustment & Maturity فمثلًا يشير (ص ١١٦) إلى أن شجرة الجهل تثمر الكفر ، والفساد ، والشرك ، والظلم ، والبغي ، والعدوان ، والجزع ، والهلع ، والعجلة ، والطيش ، والحدة ، والفحش ، والشح ، والبخل ، كما يشير في (ص ١٣٠) إلى أن

العلم يرتبط بذم الشره في جمع المال والحرص عليه .

ثم يقارن ابن القيم بين أولي العلم ، وأولي المال (١٢٨ - ١٨٧) ، مؤكدًا على فضل العلم في التفكر في الدين ، وتصحيح العبادة ، والتمييز بين الخير والشر ، والكشف عن حقائق الأمور ، ويتصل هذا الموضوع بمفهوم سيكولوجي هو الاهتمامات Interests ومنها اهتمامات عملية وأخرى مادية ، وكذلك القيم Values .

وفي صفحة (١٣١ - ١٣٦) يقارن بين اللذة الناجمة عن العلم ، واللذة الناجمة عن المال ؛ فيشير إلى أن اللذات الناجمة عن الطعام والشراب ليست خيرات ولا سعادات ؛ لأن تحصيلها تعب ومؤقتة ، وتترك آثارًا ضارة بعدها ، ويتصل هذا بمفهوم اللذة pleasure ، والذي يغير إحدى الإثابات المباشرة أفعال مرضية ومن ثَمَّ يزداد معدل تكرارها وتعلمها ، وهو ما نجده في إشارة المؤلف لدور اللذة في تحصيل العلم (ص ١٤٢) بقوله : « إن العلم صناعة القلب وشغله فما لم تتفرغ لصناعته وشغله لم تنالها ، وله وجهة واحدة ، فإذا وجهت وجهته إلى اللذات والشهوات انصرفت عن العلم ، ومن لم تغلب لذة إدراكه العلم ، وشهوته على لذة جسمه وشهوة نفسه لم ينل درجة العلم أبدًا ، فإذا صارت شهوته في العلم ولذته في كل إدراكه رجى له أن يكون من جملة أهله » ، وفي ذلك أيضًا إشارة إلى دور الدافعية Motivation في عملية التعلم Learning Process ، وكذلك ما أشار إليه في (ص ١٨٤) « كلما قويت محبة الإنسان للفكر ، ازداد هذا الفكر وقوي حتى يستغرق أجزاء القلب فلا يتبقى فيه فضل لغيره » .

وفي مجال الإدراك الحسي Perception ، والارتقاء العقلي Mental Development يشير ابن القيم إلى أن العلم يدرك بالحواس ، وأن للإدراك مراتب ، أولها : الشعور Feeling ، ثم الفهم Comprehension ، ثم المعرفة Knowledge ، ثم العقل Mind (انظر ص ١٢٥) ، كما يعرض لفسيولوجية الحواس وعملية الإحساس في علاقاتهما الفسيولوجية بعملية الإدراك (انظر ١٩٤ ، ١٩٥) .

وفي (ص ١٤١) يعرض لأثر الحالة الانفعالية Eomtions على الإدراك مشيرًا إلى أن الناظر بعين العداوة يرى المحاسن مساوئ عكس الناظر بعين المحبة ، ويتصل هذا الكلام بما يشار إليه في علم النفس حديثًا بالذاتية Subjectivity ، أو التحيز Bias .

كما يعرض المؤلف لحكمة خلق الحواس وأهميتها في إدراك المحسوسات كل حسب نوعه (وذلك في فصل خاص ٢٦٤ ، ٢٦٥) .

وفي مجال علم النفس المعرفي Cognitive Psychology يعرض الكاتب لثمرات اليقين وأهمها : الزهد في الدنيا ، والعمل للآخرة (ص ١٤٨) ، وفي (ص ١٥٥) يقول ما معناه : إن من ثمرات العلم اليقين ، ومن ثمرات اليقين الرضا Satisfaction ؛ فمثلًا علم الإنسان بأن المصيبة التي أصابته بقضاء اللّٰه يجعله يرضى بها ؛ وفي ذلك إشارة لدور الذكاء والعلم في التوافق الشخصي والاجتماعي Adjustment .

وفي مجال الرضا والشكر يشير المؤلف بأنه يعتمد على ثلاثة أركان مجتمعة هي : الإقرار بالنعمة وإضافتها إلى المنعم بها ، وصرفها في مرضاته ، والعمل فيها بما يجب (ص ١٧٤) .

وفي مجال ارتقاء التعلم Learning Development يشير ابن القيم (ص ١٦٩ ، ١٧٠) إلى مراتب العلم وهي :

١ - حسن السؤال .

٢ - حسن الإنصات والاستماع .

٣ - حسن الفهم .

٤ - الحفظ .

٥ - التعليم .

٦ - العمل به .

كما يشير المؤلف إلى معوقات التعليم في كل مرتبة ، وهو ما يتصل بمجال علم النفس التربوي Educational Psychology خاصة في اهتمامه بالكشف عن أسباب التأخر الدراسي Scholastic Retardation .

وثمة إشارة إلى أهمية التعليم الاجتماعي Social Learning أو التعليم بالقدوة Modeling حيث يذكر قول بعض السلف التالي : « احذروا فتنة العالم والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ، فإن الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعبادهم ، فإذا كان العلماء فجرة والعباد جهلة عمت المصيبة بهما وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة » (انظر ص ١٦٠) .

وفي (ص ١٨٣) تعريف لأحد المصطلحات النفسية (الاستبصار Insight) بأنه استفعال من التبصر وهو تبين الأمر وانكشافه وتجليه للبصيرة .

وفيما يتصل بموضوع الذاكرة Memory ، والتفكير Thinking ، يفرق المؤلف بين التذكر والتفكير ، بقوله : إن التذكر يفيد تكرار القلب على ما علمه وعرفه ليرسخ فيه ويثبت ، وإن التفكير يفيد تكثير العلم واستجلاب ما ليس حاصلًا عند القلب ؛ فالتفكر يحصله ، والتذكر يحفظه (ص ١٨٣) ، كما يشير في (ص ٢١٣) إلى أن التبصرة هي التعقل ، والتذكرة هي التذكر ، والفكر باب ذلك ومدخله ، فإذا فكر يبصر ، وإذا تبصر تذكر ، يتصل بذلك إشارته في (ص ٢١٤) (بأن التذكر مقصود التفكر وثمرته تذكر عاد بتذكره على تفكره فاستخرج ما لم يكن حاصلًا عنده ، فهو لا يزال بتفكره على تذكره وبتذكره على تفكره ما دام عاقلًا) ، وبذلك القول نجد العلاقة المتبادلة الدينامية بين التذكر والتفكر التي أقرتها نتائج الدراسات في موضوعي التذكر والتفكر ، وهما قطبا السعادة - كما يرى ابن القيم - في قوله : إنهما أصل الهدى والفلاح (ص ٢١٣) .

ويجدر بالذكر أنه كما للتذكر فضل في توافق الإنسان فللنسيان فضل أيضًا في هذا الجانب .

ويشير المؤلف إلى هذا المعنى في (ص ٢٧٧) بما معناه أن النسيان وسيلة لانقضاء الحسرة ، والحزن ، والحقد ؛ ولولاه لما تمتع بشجاعة من متاع الدنيا مع تذكر الآفات ، ولا رجا غفوة عدو ..... إلخ .

وفي مجال العاطفة Affection ، والانفعال Emotion اهتم المؤلف بتوضيح درجات الحب Love في علاقته بالفكر (خاصة في مجال حب الإنسان لخالقه تعالى) (ص ١٨٤ - ١٨٧) ، وفي رؤيته للعلاقة الدينامية بين الفكر والحب يشير ابن القيم إلى أنَّ من شأن التفكير في المحبوب (التفكير في جماله وأوصافه أو في أفعاله وصفاته) أنْ يزيد من الحب وصلاح القلب ؛ ولذا يحث على التفكر في القرآن ، وفي خلق اللَّه ، وهو الذي كرس من أجله بقية الكتاب .

وفي فصل عن تأمل أحوال العقاقير ، والأدوية النباتية (ص ٢٣٣) يعرض ابن القيم لمختلف آثار واستخدامات العقاقير في شفاء الأمراض العضوية والنفسية ؛ فبعضها يفرح القلب ، ويعدل المزاج .... إلخ ، كما يشير لنباتات تسكن الهياج ، والقلق ، وأخرى تجلب النوم أو تبعده ، ويتصل هذا الجانب بمجال علم النفس الطبي Medical Psychology وعلم النفس الفسيولوجي Physiological Psychology .

وفي مجال ارتقاء الإنسان من لحظة الحمل ، فالولادة ، فالرضاعة ، وما بعدها يعرض

المؤلف فصلًا في هذا الشأن (ص ٢٥٦ ، ٢٥٧) وفيه يشير إلى أن الارتقاء العقلي Mental Development يتم بالتدريج لتحقيق النضج حيث يذكر أن « من رحمته بك أنك على ضعفك لا تحتمل العقل ، والفهم ، والمعرفة ؛ بل جعل ذلك ينتقل فيك بالتدريج شيئًا فشيئًا فلا يصادفك ذلك وهلة واحدة ؛ بل يصادفك يسيرًا يسيرًا حتى يتكامل فيك » .

وعن الأهمية التوافقية للفروق الفردية Individual Differences يشير المؤلف في (ص ٢٦٧) إلى أن الناس مختلفة صورهم وخلقهم ، فلا يكاد اثنان منهم يجمعان في صفة واحدة ، وخلقة واحدة ؛ بل ولا صوت واحد ، وحنجرة واحدة ..... ، ثم يعرض للحكمة من ذلك وهي تيسير التعاملات ، والتفاعلات الاجتماعية Social Interactions حيث يضيف « فلولا الفروق والاختلافات في الصور لفسدت أحوالهم ، وتشتت نظامهم ، ولم يعرف الشاهد من المشهود عليه ولا المدين من رَبِّ الدَّيْن .... » .

وفي موضوع الحاجات Needs ، وإشباعاتها Satisfactions يشير ابن القيم إلى أن الحاجة تحدث ألمًا من شأنها أن تدفع الفرد لأنْ يشبعها بما يستلذ به ؛ ليدفع باللذة ما يقابلها من آلام ؛ فالآلام الناتجة عن الحاجة إلى الأكل عند الجوع ، وإلى الشراب عند الظمأ هي لوازم النشأة الإنسانية (ص ٢٧٤) وإذا فكرت في الأكل ، والشرب ، واللباس ، والجماع ، والراحة ، وسائر ما يستلذ به رأيته يدفع بها ما قابله من الآلام والبليات (ص ٢٧٥) .

وعن علاقة أحداث الحياة Life events بصورة الذات Self image يشير المؤلف (في ص ٢٩٠) إلى أنه « متى شهد العبد صلاحه واستقامته شمخ بأنفه ، وتعاظمت نفسه وظن أنه وأنه : أي عظيم ، فإذا ابتلى بالذنب تصاغرت إليه نفسه ، وذل ، وخضع ، ويظن أنه وأنه : أي عبد ذليلٌ » .

ويتصل بما سبق إشارةُ الكاتب إلى أن منبع الشر يتمثل في الجهل والظلم (ص ٢٩٠) ، وهو ما يتصل بتفسير أشكال من السلوك الانحرافي Deviant Behavior وعزوها إلى الجهل ، وعدم الخبرة ، والتشدد في التنشئة ، والمعاملة Socialization .

كما يشير ابن القيم (ص ٢٩٧) إلى أن معينات الانحراف هي القوة الشهوية ، والغضبية بقوله : (إن هاتين القوتين لا تدعان العبد حتى ينيلانه منازل الأبرار أو يضعانه تحت أقدام الأشرار) ، ويشار إلى هاتين القوتين حديثًا بالدوافع الفطرية motives Innate ، والانفعالات Emotions (أو الغضب Anger بصفة خاصة) .

الجزء الثاني :

يضم هذا الجزء ما يزيد عن أربعين فصلًا يتناول أهمية الشريعة ، وحاجة الناس إليها ، ومنطق الشريعة ، وفضل العبادات ، وفوائدها ، ومنطق التحليل والتحريم ، ويناقش القدريين والجبريين لدحض أفكارهم ، كما يناقش ادعاءات المنجمين ، ومن يؤمن بالفأل والطيرة من خلال منطق التشريع ، وبصيرة العقل .

وفي ثنايا تلك المناقشات نجد عددًا من الإشارات ذات الدلالة النفسية التي يمكن عرضها على النحو التالي :

يقسم ابن القيم (ص ١٥) الأعمال نوعين : أعمال لها مصلحة خالصة وأعمال لها مفسدة خالصة أي إلى سلوك مرغوب Desirable يحقق التوافق الفعال للفرد وسلوك غير مرغوب أو غير توافقي Undesirable or Unadaptive behavior .

ويشير المؤلف إلى الصراع Conflict في (ص ١٧) بأنه سلوك تتساوى فيه المصلحة والمفسدة ، واللذة والألم . ويعرض بعد ذلك لأحكام شرعية تتصل بهذا المجال حتى (ص ٣٤) .

وفي مناقشة لآراء مختلف المذاهب حول الحكم على أفعال العباد بالحسن والقبح ، وجزاء كل منهما قبل بعثة الرسل وبعدها (ص ٤٠ - ٤٥) إشارة إلى دور العقيدة في التقويم السلوكي Behavioral Evaluation .

كما يناقش المؤلف قضية القدرية Fatalism ، والجبرية Determinism ، وموقفهما من حرية الإنسان في اختيار أفعاله ومدى مسؤوليته عنها ، وبالتالي هل يحاسب عليها أم لا يحاسب ؟ (ص ٤٧ - ١٢٥) ، وهو يرى أن كلا المذهبين يعتقدان في نقص كمال اللّه وحكمته .

كما يناقش محكات تقييم السلوك بالحسن والقبح لتحديد مدى استلزامه للثواب Rewarding ، أو العقاب Punishment وهما من أهم أساليب التعليم والضبط السلوكي Behavioral Control .

كما يعرض المؤلف لماهية الصدق والكذب ، ودور العقل والحواس في إدراكهما ، وما يقتضيه كل من الصدق والكذب من حسن أو قبح (ص ٦٧ - ٦٩) ، ويرجع أهمية هذه الإشارة إلى أنها تتصل بالسلوك الانحرافي Deviant Behavior الذي يتخذ أشكالًا متعددة منها الكذب .

كما يعرض لدوافع السلوك المنحرف عندما يشير إلى دور العقل في تقبيح الكذب ، والظلم ، والفواحش ، وأنه لا يختلف حكمه بذلك في حق نفسه ، ولا غيره ؛ بل يعلم أن كل عقل يستقبحها ، وإن كان يرتكبها لحاجته أو جهله (٧٣) ، أي : أن السلوك المنحرف يرتكب إما لدافع معين (أو حاجة Need) ، أو الجهل وعدم الإدراك الواعي لطبيعة السلوك ومترتباته Misperception .

وبدءًا من (ص ١٣٢ - ٢٤٦) يدحض ابن القيم الاعتقاد بأثر الكواكب والروحانيات على العلم السفلي ، وأن في اتصالها سعودًا ونحوسًا ، ويناقش أقوالهم بالحجة ، والدليل ، والعقل مسترشدًا بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، ويخلص من ذلك إلى أن الطالع وغيره من المعتقدات الخرافية ، وما يدعيه المنجمون كذب ، وبهتان ، وافتراء ، والاعتقاد فيها كفر وضلال ؛ ويتصل هذا الموضوع بمفهوم في علم النفس الاجتماعي وهو المعتقدات الخرافية Superstitious Beliefs .

ثم يعرض المؤلف لموضوع الاعتقاد بالطيرة والفأل (ص ٢٤٦ - ٢٨٦) ، يفرق بينهما من حيث اعتبارات أهمها : أن الأول ضار والآخر نافع (ص ٢٥٩) ؛ ويعرض لدوافع الطيرة كالخوف والوهم والجهل (الشرك باللّه) ، ويؤكد بالحجة واليقين فساد الطيرة ، وضرورة التخلص منها : بسبل منها الطمأنينة ، والإيمان بوحدانية اللّه ، يتصل هذا الموضوع بالتفاؤل Optimism ، والتشاؤم Pessimism ، وهما يندرجان ضمن موضوع أهم وهو الشخصية Personality .

وفي مجال Motivation والإرادة Wllingness يذكر المؤلف (ص ١٢٨) أن عمل الإنسان عمل اختياري تابع لإرادة العبد ، ولكل إرادة مرادًا ، إما مراد لنفسه وإما مراد لغيره ينتهي إلى المراد لنفسه .

وفي مجال الإرشاد النفسي Counseling ، والعلاج النفسي Psycho - Therapy يشير ابن القيم إلى أن كمال النفس يتم بتعديل الشهوة أي : (الغرائز أو الدوافع الفطرية Innate motives) ، والغضب أي : (انفعال الغضب Anger) (ص ١٢٩) .

كما يضيف ابن القيم أن كمال النفس في العلم والإرادة لا في مجرد العلم ، فإن مجرد العلم ليس بكمال النفس ما لم تكن مريدة محبة لمن لا سعادة لها إلا بإرادته ومحبته (ص ١٢٩) ، وفي ذلك إشارة إلى دور الجوانب العقلية كالذكاء Intelligence ، والقدرات Abilities ، والوجدان Affection في تحقيق التوافق النفسي .

وفي حالات عدم التوافق يشير ابن القيم إلى دور الوهم Suspicion أو Making believe ففي (ص ٧٤) يقول : « لا ننكر أن للوهم تأثيرًا في الحب والبغض ؛ بل هو غالب على أكثر النفوس في كثير من الأحوال » ، ثم يشير إلى علاج الوهم بقوله : « ولكن إذا سلط عليه العقل الصريح تبين غلطه ، وأن ما حكم به إنما هو موهوم لا معقول » . انظر (ص ٧٢ - ٧٤) ، ويفرق الكاتب في هذا الموضوع بين حكم العقل وحكم الوهم على الأفعال من حيث حسنها أو قبحها ، ويتصل حكم العقل بمفهوم موضوعية الإدراك Objectivity ، في حين يتصل الوهم Illusion والذي يؤثر سلبًا في تقييم الإنسان لسلوكه ، أو في اتخاذه لقرار ما Decision Making .

كما يعرض المؤلف لجوانب عملية عامة لازالت تلقى تأييدًا من العلم الحديث مثل :

- إمكانية مواقعة النساء أثناء فترة الإرضاع (ص ٢٨٥ - ٢٨٧) .
- إمكانية حدوث الحمل حتى مع استخدام أسلوب العزل (ص ٢٨٦ ، ٢٨٧) .
- تجنب مخالطة مرضى الجذام (ص ٢٨٧ ، ٢٨٨) .

وفي ثنايا الأخير المتعلق بمرضى الجذام ، يشير المؤلف إلى أن من مقويات الخوف لدى الإنسان هو الشرك ، وأن علاجه التوكل على اللَّه (ص ٢٨٨) ، ولا شك في فاعلية هذا العلاج النفسي Psycho - Therapy لمرضى الخوف وكذلك القلق النفسي ، خاصّة إذا فهم المريض ووعى تمامًا المعنى الصحيح لمفهوم التوكل على اللَّه ، وهي مهمة تحتاج لعون كل من المعالج النفسي ورجل الدين .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجالات علم النفس العام ، وعلم النفس الاجتماعي ، وعلم النفس الإكلينيكي .

* * *

إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان [١]

عرض : د . عبد المنعم شحاتة محمود

عرض الكتاب :

يبدأ ابن القيم كتابه بالتمييز بين القلوب ؛ فمنها ما هو سليم متجه دائمًا إلى اللَّه ﷻ ، عرف الحق واتبعه ، ومنها ما هو ميت سلَّم وجهته للشيطان ؛ فحببه في الدنيا ، وأنساه الآخرة ، ومنا ما هو مريض يتناوبه الإيمان والمعصية .

ويركز ابن القيم على القلب المريض ، موضحًا أن أمراضه كلها تنشأ من جانب النفس الأمارة بالسوء (فللنفس صفات ثلاث : مطمئنة – لوامة – أمارة بالسوء) ، وأن مداواتها – لهذا السبب – تكون بأدوية إيمانية كحب اللَّه وتوحيد ربوبيته وألوهيته ، وتطهير القلب من المعاصي بغض النظر (البصر) عن المحرمات موضحًا ما في المعاصي والمحرمات (مثل : الزنى – اللواط – سماع الغناء .... إلخ) من خَبَثٍ يملأ القلب ، ويطفح على البدن ، ويُوصل إلى الشرك باللَّه والابتداع في دينه الحنيف ، وكلاهما انتقاص للنفس ؛ ومصدر الانتقاص هو الشيطان الذي يستعين بغضب النفس ، وحبها للشهوات على غواية الإنسان وإضلاله ؛ فيزين له السوء .

ويضرب ابن القيم أمثلة كثيرة جدًّا (تتعلق بالغسل ، والوضوء ، والصلاة ، وقراءة القرآن ، والنكاح ، والطلاق ، وسماع الغناء .... ، وغير ذلك) توضح مكايد

(١) تحقيق وتصحيح وتعليق محمد حامد الفقي ، بيروت : دار المعرفة ، [د . ت] ، (٢ مجلد) .

الشيطان لابن آدم ومداخله إلى القلب ، فيبدأ الشيطان بمعرفة : هل القلب أميل إلى الإقدام على الالتزام بما أمره اللَّه ، فيفتنه بالغلو في ذلك ، أم أنه أكثر ميلًا إلى الإحجام عن هذا الالتزام ، فيفتنه بالتفريط ، ويفتح له باب الاحتياج بإظهار الخير مع إبطال خلافه ، وهذا هو النفاق بعينه ؛ لأنه يؤدي إلى تحليل ما حرم اللَّه ، وإسقاط ما فرضه ، ومضادته في أمره ونهيه .

ويضرب ابن القيم الأمثلة لهذا الاحتيال ، مثل قصة أهل الجنة - الآيات (١٧ - ٣٢) من سورة القلم - وقصة أهل السبت من اليهود - الآيات (١٦٣ - ١٦٧) من سورة الأعراف - وتحليل اليهود (ومسلمي هذا العصر) للربا ، والخمر ، واللهو بتسميتها بغير اسمها ؛ ومصدر كل هذا هو التأويلات الفاسدة من ملوك ظَلَمَة ، وعلماء سوء ، وعُبَّاد جاهلين ، والتي لا تغني عنهم من اللَّه شيئًا ، فالأعمال بالنيات ، كما أن المحرمات قد حرمها اللَّه لفساد جوهرها ، وحقيقتها وليس لأصل أسمائها وصورها ؛ لذلك فالخبث في تحليلها أشد .

ويميز ابن القيم بين هذه الحيل المذمومة التي أنكرها السلف الصالح ، وبين حيل محمودة أقرها السلف ؛ **فالأولى** : يقصد بها الظلم وإسقاط حق الغير ، وتحليل المحرمات ، وإسقاط الواجبات ، **أما الثانية** : فيتوصل بها إلى فعل ما أمر اللَّه تعالى به ، وترك ما نهى عنه .

ويضرب ابن القيم أمثلة (تربو على الثمانين مثالًا) للحيل المحمودة المقصود بها التخلص من مكر الغير ، ومعارضة المحتالين ، ونصر المظلومين على ألا يقصد بها محرمًا في ذاته سواء ظهر أو خفي ، ولا تكون وسائلها محرمة .

ثم يفرد ابن القيم عدة صفحات لحب اللَّه ورسوله ﷺ بفعل ما أمر ، وترك ما نهى ، والذي هو غاية النفس ، وكمال الإيمان ؛ فالعبادة تتضمن كل الحب بتمام الذل ، وهذا الحب ضروري للنفس يحميها من الشك ومن التخبط بين العلل والغايات .

والقلب مفطور على حب اللَّه ، الذي هو الحب الحق ، والذي لا يكون بغير علم ، أي : بمعرفة ما ينفع فيعمله ، وما يضر فيجتنبه ، وهذه المعرفة إما أن تكون عن طريق الفطرة والعقل أو عن طريق السمع عن رسول اللَّه ﷺ ، وهذا أصدق طريق .

والمحبة إما نافعة كحب اللَّه وحب ما يعين على طاعته كحب الزوج ، وإما ضارة ناتجة عن إفساد الشيطان للفطرة كحب ما يشغل عن حب اللَّه ، وحب ما يبغضه - جل وعلا .

وبين ابن القيم كيف فتن الشيطان بعض المتصوفة في ذلك ، وكيف أدت هذه الفتنة إلى الشرك ، ضاربًا الأمثلة لهذه الفتنة التي تظهر أهميتها في التمييز بين المؤمن الحق والمنافق أو بين الطيب والخبيث ، مميزًا بين نوعين من الفتنة : **الأولى** : يتعلق بالشبهات وينتج عن الجهل واتباع الهوى ، ومسألة الكفر والنفاق والابتداع ، **والثاني** : يتعلق بفسق الأعمال وما يزينه الشيطان الذي كاد لنفسه فطُرد من رحمة اللّه ، ولآدم وحواء فخرجا من الجنة ، ولابنهما فقتل أخاه ، ولأمة فأنكروا البعث ، وأقاموا للصالحين منهم تماثيل يعبدونها من دون اللّه .

ويستطرد ابن القيم موضحًا كيف نشأت عبادة الأصنام مؤرخًا لكل صنم منها ، وكيف عرفه العرب ؟ ثم يبين الأصول التاريخية للفرق المختلفة التي اقتدت إما بالمجوس أو بفلاسفة اليونان الذين تلاعب بهم الشيطان فكثرت تأويلاتهم التي أخرجتهم عن ديانات الأنبياء ، وعطلوا العالم عن الحق الذي خُلق له وبه .

ويحصي ابن القيم صورة العبادة التي فيها الشرك ؛ كعبادة الكواكب ، والنار ، والماء والحيوان (كالبقر) ، والملائكة ، والقبور ..... إلخ .

ثم يذكر كيف تلاعب الشيطان بالنصارى فبث بينهم الخلاف الشديد فتلاعنوا ، وعبدوا الصليب ، وارتكبوا محذورَيْن لا يقبلهما العقل وهما : الغلو في المخلوق ، وتنقيص الخالق .

ثم يذكر كيف تلاعب الشيطان باليهود ، وجعلهم يعبدون العجل من دون اللّه ، وقتلوا الأنبياء ، وبدلوا دين اللّه بالقول وبالفعل ، ضاربًا الأمثلة لتحريفهم التوراة نصًّا وتأويلًا .

يندرج ما يتناوله كتاب « إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان » في علم الفقه دون غيره من العلوم ، ومع ذلك فلمؤلفه إشارات تعتبر إرهاصات واضحة لنظريات ومبادئ نفسية معاصرة ، من ذلك :

أولًا : أنه يعتبر - في (ص ١٨) من الجزء الأول - الشك والارتياب من أمراضُ القلب ، وأمراضُ القلب كلها تنشأ من جانب النفس ، كما ذكر في (ص ٧٤) من الجزء الأول ، (أي : نفسية المنشأ) ، وتعتبر المغالاة في الشك أحد أعراض الاضطراب النفسي المسمى « العصاب القهري الوسواس » Compulsive neurosis ، كما أن التزايد في الفعل (مثل : الوضوء) كما أشار إليه ابن القيم في الصفحات (١٢٦ ، ١٢٧)

من الجزء الأول ، عَرَضٌ آخر لهذا الاضطراب ويسمى Rituals ، وهو أكثر أعراض الوسواس شيوعًا .

ثانيًا : يذكر ابن القيم في (ص ١٨) من الجزء الأول أن : أمراض القلب إما تزول بأدوية طبيعية تزيل أسبابها ، أو بأدوية إيمانية نبوية تضاد هذه الأسباب ، ويتسق هذا مع الأساليب الحديثة في علاج الاضطرابات النفسية ، فقد أصبح استخدام العقاقير (أي أدوية طبيعية كمضادات الاكتئاب وغيرها) من أكثر أساليب العلاج انتشارًا داخل المصحات ؛ وذلك بسبب أن العوامل العضوية تلعب دورًا مهمًّا في مَنْشَأة (أي : أسبابها) هذه الاضطرابات .

وتعتبر إشادة ابن القيم بدور الأدوية الإيمانية النبوية (انظر : ص ١٩ من الجزء الأول) إرهاصًا بأحدث أساليب العلاج النفسي ، والمسمى العلاج عن طريق الدفع المتعقل Rational - Emotive Therapy الذي ينظر إلى الاضطراب النفسي - أو السوء Normality كدالة لمجموعة المعتقدات وأساليب التفكير والحجج التي يتبناها الفرد لذاته ذاته وبيئته (فيزيقية واجتماعية) فإذا كانت خاطئة كان الاضطرابُ وسوءُ التوافق ، وإن كانت صحيحة وملائمة كان حسنُ التوافق .

ويعد سعي ابن القيم للكشف عن أسباب أمراض القلب ، وتوضيح كيفية إزالتها متفقًا مع المبدأ الأول والأساس للعلاج النفسي الحديث وهو فهم دقيق ونوعي لأسباب السلوك المضطرب .

ثالثًا : يقول ابن القيم في (ص ١٨) من الجزء الأول : « كما أن القلب يتألم بما يتألم به البدن ، كذلك البدن يتألم كثيرًا بما يتألم به القلب » ، ويشير الشق الأول من العبارة إلى أهم مجالات أحدث فروع علم النفس وهو « علم نفس الصحة » Health psychology ، أي : الاستجابة الانفعالية المترتبة على الإصابة بمرض جسمي وتشخيصه وعلاجه وماله .

أما شقها الثاني ، فيشير إلى فئة الاضطرابات النفسجسمية التي لا يخلو منها دليل كتشخيص الاضطرابات النفسية .

رابعًا : يعرف ابن القيم في (ص ١٣٦) من الجزء الأول النية بأنها : « القصد والعزم على فعل الشيء » وتكشف البحوث النفسية المعاصرة أهمية النية Intention للسلوك أو الفعل ، وكيفية تكوينها .

خامسًا : يقول ابن القيم في (ص ٥٥) من الجزء الأول وعند تفسيره للآية ٤١ من

سورة المائدة : إن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفًا للحق عن مواضعه ، ويتفق هذا مع ما يسميه علماء النفس بالعادة Habit ودورها في تكوين السلوك .

سادسًا : يقول ابن القيم في (ص ١٩٣) من الجزء الثاني : « الإنسان مدني بالطبع لابد له أن يعيش مع الناس ، والناس لهم إرادات واعتقادات فيطلبون منه أن يوافقهم عليها ، فإن لم يوافقهم أذوه » ، ويتفق هنا مع أبي نصر الفارابي (تحصيل السعادة ، ص ٦١) ، ومع نتائج البحوث النفسية المعاصرة التي تؤكد ميل الأفراد إلى الانتظام في جماعات .

كما يشير قول ابن القيم « فيطلبون منه أن يوافقهم عليها » إلى الضغوط التي تمارسها الجماعة على الفرد ، واستجابته لهذه الضغوط بتغيير سلوكه وآرائه حتى يصبح أكثر تشابهًا مع أفرادها ، وهذا هو ما يشير إليه بمفهوم المجاراة أو الاتباعية Conformity .

سابعًا : ويشير ابن القيم في (ص ٣٤٦) من الجزء الثاني إلى قول محمد بن زكريا الرازي بأن مكان إبليس في النفس « وهذا يتسق مع جعله - في (ص ١٢٧) من الجزء الأول - الوسواس من الشيطان ، والوسواس أحد أمراض القلب التي منشأها النفس ، ويرى بعض الفلاسفة أن الشيطان - على الرغم من تصريح القرآن الكريم بأنه موجود يتمثل لابن آدم في معتقداته الخاطئة ، وتأويلاته الفاسدة ، ومعاصيه ؛ فالإنسان لا يرى الشيطان ؛ وإنما يستنتج أنه اتبعه بعد أن يكشف خطأه في قول أو فعل ، ويعد ما أفرده ابن القيم من أمثلة لمكائد الشيطان وتحايله - التي وردت في الصفحات (١٠٧ - ١٢٦، ٣٣٨ - ٣٦١) من الجزء الأول ، (١٥٦ ، ٢٠٠ - ٣٦٥) من الجزء الثاني - دليلًا على ذلك ، فالشيطان إما يزيد ابن آدم غلوًا وإفراطًا في التزامه بالدين ، وإما يزيده تفريطًا وإسقاطًا بواجباته نحو خالقه وعشيرته ونفسه ، وكل هذا يتم من خلال سوء فهم الإنسان لدينه ، أو اتباعه أساليب خاطئة في التفكير والاستنتاج والتبرير ، وكل هذا عمليات نفسية يوجهها الهوى أو القصد أو الاتجاه الذي يتبناه الفرد .

* * *

الفوائد [1]

عرض : د . شعبان جاب الله رضوان

عرض الكتاب :

يتكون كتاب الفوائد لابن القيم من ١٣٦ مقطعًا تحت عنوان فائدة أو فصل أو قاعدة أو تنبيه ، وهذه المقاطع عبارة عن أجزاء منفصلة لا تخضع لنظام معين ، ولكن يتنوع محتواها بشكل لا يمكن من التلخيص في فئات كبرى ؛ فالمقطع الواحد قد يحتوي على تفسير آية قرآنية أو حديث ، أو سرد متلاحق لعدد من الحكم أو النصائح أو الخواطر ، وقد يحتوي على كل هذا مجتمعًا ؛ لذلك سوف ينصب اهتمامنا في هذا العرض الموجز على المواضع ذات الدلالة النفسية ، وبيان صلتها بعلم النفس الحديث سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، والمواضع ذات الأهمية على وجه العموم ، وتمثل هدفًا أساسيًا لهذا الكتاب .

في بداية الكتاب ، يتعرض ابن القيم في قاعدة من القواعد لشرح كيفية الانتفاع بالقرآن الكريم أثناء تلاوته وسماعه ، حيث يشير إلى أن تمام التأثير يتوقف على مؤثر ، ومحل قابل للتأثر ، وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه ، فإذا حصل المؤثر وهو القرآن ، والمحل القابل وهو القلب الحي ، ووجد الشرط وهو الإصغاء ، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر .

---

(١) القاهرة : دار الحديث ، (١٩٨٨م) . (١٥٨ص) .

كما قرر في موضع آخر أن قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده ، وكما تنطبق هذه القاعدة على الذوات والأعيان تنطبق أيضًا على الاعتقادات والإرادات .

وتنطوي هذه القاعدة بشكل غير مباشر على سيكولوجية التواصل Communication ، ومفهوم الرسالة Message ، وخصائص المستقبل Receiver ، على الرغم من أن هذا التواصل يحدث في اتجاه واحد ؛ فالشخص المستمع للقرآن يعد مستقبلًا فقط وليس مرسلًا ، ويقع ذلك في إطار علم النفس الاجتماعي Social Psychology (ص ٣ ، ٤) .

وفي تنبيه آخر ، يذكر ابن القيم عددًا من الحِكَمْ والنصائح منها : دَافع الخَطْرَة ، فإن لم تفعل صارت فكرة ؛ فدافع الفكرة فإن لم تفعل صارت شهوة ، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة ، فإن لم تفعل صارت فعلًا ، فإن لم تتداركه بضده صار عادة فيصعب عليك الانتقال عنها .

وتحتوي هذه النصيحة على عدد من المفاهيم النفسية تمثل مراحل تَكَوُّن العادة Habit ، ويقع مفهوم العادة في إطار موضوع التعليم Learning (علم النفس العام) ، وهذه المفاهيم هي : الخطورة والفكرة والشهوة والعزيمة والفعل .

وتشير هذه النصيحة إلى أسلوب مفيد من تمكن العادات السيئة في الإنسان ؛ فأول ما يحدث للإنسان هو خاطر ، يتحول إلى فكرة ، ثم إلى شهوة . ومن الضروري أن يحارب الإنسان هذه الشهوة ، ويتغلب عليها قبل أن تتحول إلى عزيمة ثم إلى فعل ، وربما يكون من الأفضل أن يتغلب الإنسان العاقل الحكيم على الخاطر ، أو على الفكرة قبل أن يتحولا إلى شهوة . فإذا لم يتغلب الإنسان على شهوته ، فتحولت إلى عزيمة وفعل ، فإن ذلك يمهد لتكوين العادة التي قد يصعب التغلب عليها فيما بعد (ص ٢٤) .

ويتصل بهذا أيضًا ما يذكره ابن القيم من أن مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار ، وهي توجب التصورات التي تدعو إلى الإرادات ، وهي تقتضي وقوع الفعل ، وكثرة تكرار الفعل تؤدي إلى العادة ، فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار وفسادها بفسادها . ويلاحظ هنا أيضًا اتصال ذلك بمفهوم العادة Habit في سيكولوجية التعليم (علم النفس العام) (ص ٢٤) .

وبعد ذلك يتحدث ابن القيم في إحدى الفوائد عن موضوع الغيرة ، وأنواعها ، وهي إما تكون غيرة المحبوب ، أو غيرة من المزاحم في حبه ، وذلك عندما يكون المحبوب ممن لايحب المشاركة في حبه كالمخلوق ، ولكنها لا تكون غيرة عندما يكون المحبوب ممن

يحسن المشاركة في حبه كالرسول ﷺ والعالم ، والحبيب القريب ﷺ ، بل يعتبر ذلك حسدًا .

والغيرة المحمودة في جانب اللَّه ﷻ تقتضي أن تكون أحوال المحب للَّه – وكذلك أعماله وأفعاله – كلها لوجهه سبحانه ؛ ومفهوم الغيرة والحب ذو صلة بموضوع الانفعالات Emotions (علم النفس العام) (ص ٢٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ص ١٠٣ ، ١١٧ ، ١١٨) .

ويشير ابن القيم في فائدة أخرى إلى المحبة وأن اللذة تابعة لها ، فتقوى بقوتها ، وتضعف بضعفها ؛ فكلما كانت الرغبة في المحبوب والشوق إليه أقوى ، كانت اللذة بالوصول إليه أتم ، والمحبة والشوق تابع لمعرفة المحب وعمله بالمحبوب . وهذا الحديث عن الحب يدخل في إطار موضوع الانفعالات وبخاصة انفعال الحب في إطار علم النفس العام .

كما يشير في أحد الفصول إلى أن اجتماع الإخوان قسمان : أحدهما اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت ، وهذا مضرته أرجح من منفعته ، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت . أما الثاني : فهو الاجتماع على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر ، وذلك من أعظم الغنيمة وأنفعها .

ويتصل هذا الحديث عن (اجتماع الإخوان) بسيكولوجية العلاقات الاجتماعية Social Relationships ، وبخاصة سيكولوجية الصداقة Friendship ، ويقع ذلك في إطار علم النفس الاجتماعي Social Psychology (ص ٣٧) .

كذلك يتناول أحد الفصول بعض أقوال ابن مسعود ومنها : (أن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ، ولا يجب أن يَعدَ الرجل صبيه شيئًا ثم لا ينجزه) ، ويستطرد القول في معاملة الآباء لأبنائهم ، وكيف يكون ذلك ، وهو ما يتصل بموضوع التنشئة الاجتماعية Socialization في علم النفس الاجتماعي أو موضوع القدوة ودورها في التعلم (ص ١٠٧) .

ويتعرض ابن القيم في إحدى الفوائد لشرح حديث رسول اللَّه ﷺ : « **ما أصاب عبدًا هم ولا حزن ، فقال : اللَّهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ في حكمك ، عدلٌ في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته على أحد من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي ، إلا أذهب اللَّه همه وغمه وأبدل**

مكانه فرحًا » ، قالوا : يا رسول اللَّه أفلا نتعلمهن ، قال : « **بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن »** .

ويتصل مفهوم الهم والغم والحزن بمصطلحي الاكتئاب Depression ، والقلق Anxiety في علم النفس الإكلينيكي Clinical Psychology ؛ وفي هذا الدعاء علاج نفسي للقلق والحزن والاكتئاب (ص ٦٦ - ٦٩) .

ويذكر ابن القيم في إحدى القواعد أن الإنسان مضطر إلى نوعين من الحياة :

حياة بدنه ، وحياة قلبه وروحه ؛ فيدرك بحياة البدن النافع والضار ، ويُؤْثِرُ ما ينفعه على ما يضره ، ومتى نقصت هذه الحياة ناله من الألم والضعف بحسب ذلك ؛ ولهذا فإن حياة المريض والمحزون ، وصاحب الهم والغم والخوف والفقر والذل دون حياة من هو معافى من ذلك .

ويتضمن هذا المعنى إشارة إلى أثر الاكتئاب والخوف على الجسم ، ويتصل ذلك بالأمراض النفسية الجسمية أي : الأمراض الجسمية ذات المنشأ النفسي ، ويطلق عليها الأمراض السيكوفسيولوجية Psycho - Physiology Disorders ويقع هذا الموضوع مباشرة في الطب النفسي Psychitry ، ولكنه يتصل بعلم النفس الإكلينيكي Clinical Psychology بصورة غير مباشرة . (ص ٦٦) .

ويقرر ابن القيم في أحد الفصول أن الأخلاق حدًّا متى جاوزته صارت عدوانًا ومتى قصرت عنه كان نقصًا ومهانة ، فالغضب - مثلًا - له حد وهو الشجاعة المحمودة ، والأنفة من الرذائل والنقائض وهذا كماله ؛ فإذا جاوز حده تعدى صاحبه وجاره ، وإن نقص عنه جبن ولم يأنف من الرذائل .

وقد أورد في هذا الصدد عددًا من الصفحات مثل الحرص والشهوة والحسد والجود والشجاعة والغيرة والعدل .

ومفهوم الحد (للأخلاق) يشير إلى التوسط والاعتدال وليس التطرف إيجابًا أو سلبًا ، وهو ما يتصل بمصطلح التطرف Extremeness ، والاعتدال في الاستجابة . وقد تشير مفاهيم : الحرص والجود والشجاعة إلى خصائص شخصية Personality (ص ١٠٣ ، ١٠٤) ، كما يتصل مفهوم الغضب بموضوع الانفعالات Emotions (انفعال الغضب) ، وكذلك يرتبط مفهوم الشهوة بموضوع الدوافع Motives (في علم النفس العام) (ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١١٧ ، ١١٨) .

أما مفهوم العدل فيتصل بموضوع القيم Values هناك قيمة العدل والمساواة تقع داخل الأنساق القيمية التي تبحث في علم النفس الاجتماعي (ص١٠٤) .

كذلك يتناول ابن القيم الصفات السلبية للنفس البشرية ؛ فيقرر أن النفس بها كبر إبليس ، وحسد قابيل ، وعتو وطغيان ثمود ، وجرأة نمروذ ، واستطالة فرعون ، وبغي قارون إلى غير ذلك من الصفات السلبية النفس . ولا يُذهب ذلك إلا الرياضة والمجاهدة فيصبح من التائبين العابدين ، ويقترب هذا الحديث من سيكولوجية الشخصية Personality ، كما يشير إلى أسلوب العلاج الديني لهذه الانحرافات الشخصية عن طريق التوبة والتقرب من اللّٰه تعالى بالعبادات (ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٤٢) .

كما يشير ابن القيم أيضًا إلى دخول الناس النار يكون بسبب الشبهة التي تورث الشك في الدين ، وأن أصول الخطايا ثلاثة هي : الكبر والحرص والحسد وهذه الصفات تعد سمات وخصائص شخصية أيضًا .

ويرى أن أصل الأخلاق المذمومة هو الكبر والمهانة والدناءة ، وهي تابعة للنار والمخلوق منها ، كما أن أصل الأخلاق المحمودة كلها الخشوع ، وعلو الهمة ، وهي تابعة للأرض والمخلوق منها ، فمن علت همته ، وخشعت نفسه اتصفت بكل خلق جميل ، ومن دنت همته ، وطغت نفسه اتصفت بكل خلق رذيل ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن مصطلح الأخلاق Morality يعد أحد مباحث علم النفس الاجتماعي (ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦) .

وفي إحدى الفوائد ، يشير ابن القيم إلى أن من يطلب الفوز برضا اللّٰه ويرجو الآخرة ؛ بل من يطلب أي علم أو صناعة يجب أن يتصف بعدد من الصفات منها أن يكون شجاعًا مقدامًا ، حاكمًا على وهمه ، غير مقهور تحت سلطان تخيله ، زاهدًا في كل ما سوى مطلوبه ، عاشقًا لما توجه إليه ، عارفًا بطريق الوصول إليه والطرق القواطع عنه ، مقدام الهمة ، ثابت الجأش ، لا يثنيه عن مطلوبه لوم لائم ، كثير السكون ، غير مائل مع لذة المدح ، ولا ألم الذم ، شعاره الصبر ، وراحته التعب ، وغير ذلك .

وتنطوي هذه الفائدة على عدد من خصائص الشخصية ، تشير وبخاصة إلى سمة المثابرة Persistence ، والتي تعني استمرار السعي نحو الهدف رغم العقبات التي تعترضه ، ويدخل ذلك تحت سمات الشخصية Traits Personality (ص ١٤٢) .

ويرى أيضًا أن من خلق فيه قوة واستعداد لشيء كانت لذته في استعمال تلك القوة

فيه ، فمن خلقت فيه قوة واستعداد للجماع أو الغضب أو الأكل أو الشرب أو العلم أو المعرفة أو لحب اللَّه والإنابة إليه ، فلذته في استعمال هذه القوة في ذلك .

ويتصل هذا الحديث بموضوع الدوافع Motives ، وإشباعها ؛ فالجماع إشباع لدافع الجنس ، والماء لدافع العطش ، وتحصيل العلم إشباع لدافع الإنجاز العلمي وهكذا .

وأما مفهوم الغضب - كما أشرنا من قبل - فهو بموضوع الانفعالات وبخاصة (انفعال الغضب) ، تقع الدوافع والانفعالات في إطار علم النفس العام (ص ١١٧ ، ١١٨) .

وأخيرًا يذكر ابن القيم أن اللَّه سبحانه قد خلق أفراد النوع الإنساني متفاوتين في الاستعداد والقبول للنعمة من حيث معرفة قدرها وخطرها وشكرها وشكر المنعم بها والثناء عليه وتعظيمه ، وكذلك المعرفة بأنها من محض الجود ، وتشير هذه الفكرة إلى مفهوم أساسي في علم النفس الحديث وهو مفهوم الفروق الفردية Individual Differences ، والذي يعني أن هناك تسليمًا بوجود فروق بين الأفراد فيما يمتلكونه من الاستعدات والقدرات العقلية والسمات المزاجية (سمات الشخصية) نتيجة لعدد من العوامل (ص ١٥٢) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس الاجتماعي ، وعلم النفس العام .

* * *

مدارج السالكين
بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١)

عرض : د . معتز سيد عبد الله

ثانيًا : عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ثلاثة أجزاء ، يتكون الجزء الأول من (٥٤٠ص) والجزء الثاني من (٥٢٠ص) ، والجزء الثالث من (٥٣٤ص) وجميعها من القطع الكبير ، ويدور مضمون الكتاب (بأجزائه الثلاثة) حول قيمة الالتزام بكتاب اللَّه وسنة رسول ﷺ في تحديد الطريق القويم لحياة الإنسان من خلال حصر منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] .

فلما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع ، والعمل الصالح وهما : الهدى ، ودين الحق ، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين ، كما قال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر : ١- ٣] . أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمَّل قوته العلمية بالإيمان ، وقوته العملية بالعمل الصالح ، وكمَّل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه ؛ فالحق هو الإيمان والعمل ، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما ، والتواصي بهما – كان حقيقًا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره ؛ بل أنفاسه فيما ينال به المطالب العالية ، ويخلص به من الخسران المبين ، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن ، وتفهمه ، وتدبره ، واستخراج كنوزه ، وآثاره ودفائنه ، وصرف العناية إليه ، والعكوف بالهمة عليه ، فإنه الكفيل

(١) تحقيق : محمد حامد الفقي ، الدار البيضاء : دار الرشاد الحديثة ، (د . ت) ٣ مجلد .

مصالح العباد في المعاش والمعاد ، والموصل لهم إلى سبيل الرشاد ؛ فالحقيقة والطريقة ، والأذواق والمواجيد الصحيحة ، كلها لا تقتبس إلا من مشكاته ولا تستثمر إلا من شجراته .

وفي هذا الكتاب ينبه المؤلف على فاتحة الكتاب وأم القرآن ، وعلى بعض ما تضمنته هذه السورة من مطالب ، وما تضمنته من منازل السائرين ، ومقامات العارفين ، والفرق بين وسائلها ، وغاياتها ، ومواهبها ، وكسبياتها ، وبيان أنه لا يقوم غير هذه السورة مقامها ، ولا يسد مسامها ؛ لذلك لم ينزل اللَّه في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها .

فهذه السورة اشتملت على التعريف بالمعبود - تبارك وتعالى - بثلاثة أسماء ، ومرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها ، ومدارها عليها ، وهي : « اللَّه ، الرب ، الرحمن » وبنيت السورة على الإلهية ، والربوبية ، والرحمة ، فـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، مبني على الإلهية ، و ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، على الربوبية ، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة ، والحمد يتضمن الأمور الثلاثة .

فهو المحمود في إلهيته وربوبيته ورحمته ، والثناء والمجد كمالان مجده . وتضمنت إثبات المعاد ، وجزاء العباد بأعمالهم ، حسنها وسيئها ، وتفرد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق ، وكون حكمه بالعدل وكل هذا تحت قوله : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة : ٤] .

وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة ...... إلخ من معاني ودلالات سوف نتعرف عليها من خلال الأجزاء الثلاثة كما يلي :

الجزء الأول :

يبدأ المؤلف هذا الجزء بعرض إثبات النبوات من جوانب عديدة اشتملت عليها فاتحة الكتاب ، وإسناد النعمة للَّه دون الغضب ، وسؤال اللَّه الهداية إلى الصراط المستقيم ، وأنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل - صلوات اللَّه وسلامه عليهم - ثم تناول مراتب الهداية الخاصة والعامة وهي عشر مراتب : مرتبة تكليم اللَّه ﷻ لعبده يقظة بلا واسطة ؛ بل منه إليه ، ومرتبة الوحي المختص بالأنبياء ، ومرتبة إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري فيوحي إليه عن اللَّه ما أمره أن يوصله إليه ، ومرتبة التحديث ، ومرتبة الإفهام ، ومرتبة البيان العام ، ومرتبة البيان الخاص ، ومرتبة الإسماع ومرتبة الإلهام ؛ والمرتبة العاشرة هي الرؤيا الصادقة ، وبعد ذلك بيان اشتمال الفاتحة على

الشفائين : شفاء القلوب ، وشفاء الأبدان ، وردها إلى الجهمية معطلة الصفات ، والجبرية ، ومنكري تَعَلُّق عمله تعالى بالجزئيات ، والقائلين بالموجب بالذات دون الاختيار والمشيئة وبيان أنه سبحانه فاعل مختار ، ومنكر النبوات ومن قال بقدم العالم والرافضة ، ثم يعرض المؤلف لاشتمال الفاتحة على معاني القرآن والعباد والاستعانة ، وأن العبد لا يكون متحققًا و ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] ، إلا بأصلين عظيمين أحدهما : متابعة الرسول ﷺ . والثاني : الإخلاص للمعبود فهذا تحقيق ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، على أربع قواعد : التحقيق بما يحبه الله ورسوله و يرضاه ، من قول اللسان والقلب وعمل القلب والجوارح .

أما بالنسبة لمنازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ التي ينتقل فيها القلب منزلة منزلة في حال سيره إلى الله فقد أكثر الناس في صفتها وعددها ؛ فمنهم من جعلها ألفًا ، ومنهم من جعلها مائة ، ومنهم من زاد أو نقص فكَلٌّ وصفها بحسب سيره وسلوكه ، فأولها : اليقظة ، ثانيها : العزم ، وثالثها : الفكرة ، ورابعها : البصيرة ، هي ثلاث درجات : البصيرة في الأسماء والصفات ، البصيرة في الأمر والنهي ، والبصيرة في الوعد والوعيد ، وبعد ذلك يعرض المؤلف لبعض منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ .

فمن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ منزلة القصد ، وهي ثلاث درجات : قصد يبعث على الارتياض ، ويخلص من التردد ويدعو إلى مجانبة الأغراض ، وقصد لا يلقي سببًا إلا قطعه ، ولا حائلًا إلا منعه ولا تحاملًا إلا سهله ، وقصد الاستلام لتهذيب العلم ، وقصد إجابة داعي الحكم ، وقصد اقتحام بحر الفناء .

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ التي لا يكون العبد من أهلها حتى ينزل منازلها : اليقظة والبصيرة ، والفكرة والعزم ، وهذه المنازل الأربعة لسائر المنازل كالأساس للبنيان ، وعليها مدار منازل السفر إلى الله ولا يتصور السفر إليه دون نزولها ألبته .

ومن هذه المنازل « منزلة المحاسبة » ؛ ولها ثلاثة أركان هي : أن تقيس بين نعمته وجنايتك ، وأن تميز ما للحق عليك من وجوب العبودية والتزام الطاعة ، واجتناب المعصية ، وبين ما لك وما عليك ، فالذي لك : هو المباح الشرعي . فعليك حق ولك حق ، فأد ما عليك يؤتك مالك . والثالث : أن تعرف أن كل طاعة رضيتها منك فهي عليك ، وكل معصية عَيرتَ بها أخاك فهي إليك .

ومن هذه المنازل « منزلة التوبة » ؛ فمن نزل في منزل « التوبة » ، وقام في مقامها نزل

في جميع منازل الإسلام ، فإن التوبة الكاملة متضمنة لها ، وهي مندرجة فيها ، ومن استقرت قدمه في منزلة التوبة ، نزل بعده منزل الإنابة ، والإنابة إنابتان : إنابة لربوبيته ، وإنابة أوليائه وهي : إنابة لإلهيته . ثم ينزل القلب منزل « التذكر » وهو قرين الإنابة .

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] ، منزلة الفرار : وهو الهرب مما يكن إلى من لم يكن إلى من لم يزل ، وهو على ثلاث درجات : فرار العامة من الجهل إلى العلم عقدًا وسَعْيًا ، ومن الكسل إلى التشمير جدًّا وعزمًا ، ومن الضيق إلى السعة ثقة ورجاء ، وفرار الخاصة من الخير إلى الشهود ، ومن الرسوم إلى الأصول ، ومن الحظوظ إلى التجريد ، وفرار خاصة الخاصة مما دون الحق إلى الحق ، ثم شهود الفرار إلى الحق ، ثم الفرار من شهود الفرار .

ومن هذه المنازل « منزلة الرياضة » وهي تمرين النفس على الصدق والإخلاص ، وهي على ثلاث درجات : رياضة العامة ، وهي تهذيب الأخلاق والعلم ، وتصفية الأعمال بالإخلاص ، وتوفير الحقوق في المعاملة ، ورياضة الخاصة : حسم التفرق ، وقطع الالتفات إلى المقام الذي جاوزه ، وإبقاء العلم يجري مجراه ، ورياضة خاصة الخاصة : تجريد الشهود ، والصعود إلى الجمع ، ورفض المعارضات ، وقطع المعارضات .

ومن هذه المنازل « منزلة السماع » ؛ فالسماع رسول الإيمان إلى القلب وداعيه ومعمله . وهو ثلاثة أنواع : السماع الذي مدحه اللّه في كتابه وأثنى على أصحابه ، وذم المعرضين عنه وجعلهم أضل من الأنعام سبيلًا ، وهو سماع آياته المتلوة التي أنزلها على رسوله ﷺ وهم القائلون في النار . والنوع الثاني : وهو ما يبغضه اللّه ويكرهه ويمدح المعرض عنه وهو سماع كل ما يضر العبد في قلبه ودينه . والثالث : مسموع مباح مأذون فيه ، ولا يحبه ولا يبغضه ، ولا مدح صاحبه ولا ذمه ، فحكمه حكم سائر المباحات من المناظر والمشام والمطعومات والملبوسات المباحة ، والسماع على ثلاث درجات : سماع العامة ؛ وهو ثلاثة أشياء : إجابة زجر الوعيد رغبة ، وإجابة دعوة الوعد جهدًا ، وبلوغ مشاهدة المنة استبصارًا .

وسماع الخاصة ؛ ثلاثة أشياء : شهود المقصود في كل رمز ، والوقوف على الغاية في كل حين ، والخلاص من التلذذ بالتفرق .

وسماع خاصة الخاصة : سماع ينفي العلل عن الكشف ، ويصل الأبد إلى الأزل ، ويرد النهايات إلى الأول .

ومن هذه المنازل « منزلة الحزن » وليست من المنازل المطلوبة ، ولا المأمور بنزولها ، وإن كان لا بد للسالك من نزولها ، ولم يأت الحزن في القرآن إلا منهيًا عنه أو منفيًا .

وللحزن ثلاث درجات : حزن العامة ، وهو حزن على التفريط في الخدمة ، وعلى التورط في الجفاء وعلى ضياع الأيام ، وحزن أهل الإرادة ، وهو : حزن على تعلق القلب بالتفرقة ، وعلى اشتغال النفس عن الشهود وعلى التسلي عن الحزن ، أما الدرجة الثالثة فهي : التحزن للمعارضات دون الخواطر ، ومعارضات القصود واعتراضات الأحكام .

ومن هذه المنازل « منزلة الخوف » ، وهي من أجل منازل الطريق وأنفعها للقلب وهي فرض على كل واحد ، وهو على ثلاث درجات : الخوف من العقوبة ، وهو الخوف الذي يصح به الإيمان ، وهو خوف العامة ، وهو يتولد من تصديق الوعيد ، وذكر الجناية ، ومراقبة العاقبة وخوف المكر في جريان الأنفاس المستغرقة في اليقظة ، والمشوبة بالحلاوة ، أما الدرجة الثالثة فهي درجة الخاصة وليس في مقام أهل الخصوص من وحشة الخوف ، إلا هيبة الجلال ، وهي أقصى درجة يشار إليها في غاية الخوف .

ومن هذه المنازل « منزلة الإشفاق » وهو دوام الحذر مقرونًا بالترحم وهو على ثلاث درجات : إشفاق على النفس أن تجمح إلى العناد ، وإشفاق على الوقت أن يشوبه تفرق ، وإشفاق يصون سعيه عن العجب ، ويكف صاحبه عن مخاصمة الخلق ، ويحمل المريد على حفظ الجد .

ومن هذه المنازل « منزلة الخشوع » وهو على ثلاث درجات : التذلل للأمر ، والاستلام للحكم ، والاتضاع لنظر الحق ، وترقب آفات النفس والعمل ، ورؤية فضل كل ذي فضل عليك ، وتنسم نسيم الفناء ، وحفظ الحرمة عند المكاشفة ، وتصفية الوقت من مراءاة الخلق ، وتجريد رؤية الفضل .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في الجزء الأول هي : الغضب Anger (ص ١٢ ، ١٣) والسعادة Happiness (ص ١٤) والإلهام Inspiration (ص ٤٤ ، ٤٥) والانفعالات Emotions (ص ٥٢ - ٥٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٢٢- ١٢٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧، ٤٥١ - ٤٦٠) ، وبنية الجسم Constitution (ص ٥٢ - ٥٨) والأمراض النفسية Mental Illness (ص ٥٣ - ٥٨) والشفاء (ص٥٢ - ٥٩) قيمة الإخلاص (ص ٨٤ ، ٨٥ ، ٤٧٥ - ٤٧٧) والإيثار Alturism (ص ٨٥ - ٩٠) والاستبصار Insight (١٢٢ - ١٣١) والقصد أو النية Intention (١٣١ - ١٥٩) والخضوع Submission (ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٩٨ ، ٥٢٠ -

٥٣٠) والسلوك Behaviour (ص ٢٤٤ - ٢٤٧) والمحبة Liking (ص٢٥١ - ٢٥٥) والكراهية Hate (٢٥٣ - ٢٥٥) والعدوان Aggression (ص ٦٨ - ٣٧١) والتذكر Memory (ص ٤٤٠ - ٤٤٥) والتجريد Abstraction (ص ٤٧٣ - ٤٧٥) وقيمة الصدق (ص ٤٧٥ - ٤٧٧) والحزن Sadness (ص ٥٠٥ - ٥١١) والخوف Fear (ص ٥١١ - ٥٢٠) والإشفاق (ص ٥١٧ - ٥٢٠) .

الجزء الثاني :

وفي هذا الجزء يستكمل المؤلف استعراض منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] ، ومن هذه المنازل « منزلة الإخبات » ، وهو على ثلاث درجات : أن تستغرق العصمة الشهوة ، وتستدرك الإرادة الغفلة ، ويستهوى الطلب السلوة ، وأن لا ينقص إرادته سبب ولا يوحش قلبه عارض ، ولا يقطع عليه الطريق فتنة ، وأن يستوي عنده المدح والذم ، وتدوم لائمته لنفسه ويعمَى عن نقصان الخلق في درجته .

ومن هذه المنازل « منزلة الزهد » وهو على ثلاث درجات : الزهد في الشبهة بعد ترك الحرام بالحذر من المَعْتبة والأَنفَةِ من المنقصة ، وكراهية مشاركة الفساق ، والزهد في الفصول ، وهو : ما زاد على المُسكة والبلاغ من القوت باغتنام التفرغ إلى عمارة الوقت وحسم الجأش والتحلي بحلية الأنبياء والصديقين ؛ والزهد في الزهد وهو بثلاثة أشياء : استحقار ما زُهِدَ فيه ، واستواء الحالات فيه عندك ، والذهاب عن شهود الاكتساب ، ناظرًا إلى وادي الحقائق .

ومن هذه المنازل « منزلة الورع » وهو آخر مقام الزهد للعامة ، وأول مقام الزهد للمريد ، وهو على ثلاث درجات : تجنب القبائح لصون النفس ، وتوفير الحسنات ، وصيانة الإيمان ، وحفظ الحدود عند ما لا بأس به ، إبقاء على الصيانة والتقوى وصعودًا عن الدناءة وتخلصًا من اقتحام الحدود ، والتورع عن كل داعية تدعو إلى شتات الوقت والتعليق بالتفرق وعارض يعارض حال الجمع .

ومن هذه المنازل « منزلة التبتل » أي : الانقطاع إلى الله بالكلية ، وهو على ثلاث درجات : تجريد الانقطاع عن الحظوظ ، واللحوظ إلى العالم خوفًا أو رجاء ، أو مبالاة بحال ، وتجريد الانقطاع عن التعريج على النفس بمجانبة الهوى ، وتنسم رَوح الأنس وشيم برق الكشف ، وتجريد الانقطاع إلى السبق بتصحيح الاستقامه والاستغراق في الوصول والنظر إلى أوائل الجمع .

ومن هذه المنازل « منزلة الرجاء » ، والرجاء ثلاثة أنواع : نوعان محمودان ، ونوع

غرور مذموم ؛ فالأولان : رجاء رجل عمل بطاعة اللَّه على نور اللَّه ؛ فهو راج لثوابه ، ورجل أذنب ذنوبًا ؛ ثم تاب منها ؛ فهو راج لمغفرة اللَّه تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه ، والثالث : رجل متمادٍ في التفريط والخطايا يرجو رحمة اللَّه بلا عمل ؛ فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب .

ومن هذه المنازل « منزلة الرغبة » ، والفرق بين الرغبة والرجاء أن الرجاءَ طمع ، والرغبة طلب ؛ فهي ثمرة الرجاء ، والرغبة على ثلاث درجات : رغبة أهل الخير تتولد من العلم ، فتبعث على الاجتهاد المنوط بالشهود ، وتصون السالك عن وهن الفَتْرة وتمنع صاحبها من الرجوع إلى غثاثة الرُّخص ، ورغبةُ أرباب الحال وهي رغبة لا تبقى من الجهود مبذولًا ولا تدع للهمة ذبولًا ، ولا تترك غير القصد مأمولًا ، ورغبة أهل الشهود وهي تشرق بصحبة تقية ، تحمله عليها همة نقية لا تبقى معه من التفرق بقية .

ومن هذه المنازل « منزلة الرعاية » ، وهي مراعاة العلم ، وحفظه بالعمل ، ومراعاة العمل بالإحسان والإخلاص وحفظه من المفسدات ، ومراعاة الحال بالموافقة وحفظه بقطع التفريق ؛ فالرعاية صيانة وحفظ وهي ثلاث درجات : رعاية الأعمال ، ورعاية الأحوال ، ورعاية الأوقاف .

ومن هذه المنازل « منزلة المراقبة » ، وهي دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق ﷻ على ظاهره وباطنه ، وهي على ثلاث درجات :

مراقبة الحق - تعالى - في السير إليه على الدوام بين تعظيم مُذهِل ومداناة حامله وسرور باعث ، ومراقبة نظر الحق برفض المعارضة ، بالإعراض عن الاعتراض ، ونقص رعونة التعرض ، ومراقبة الأزل بمطالعة عين السبق ، استقبالًا لعلم التوحيد ومراقبة إشارات الأزل على أحايين الأبد ، مراقبة الإخلاص من ورطة المراقبة .

ومن هذه المنازل « منزلة تعظيم حرمات اللَّه ﷻ » وهي على ثلاث درجات : تعظيم الأمر والنهي لا خوفًا من العقوبة ، فتكون خصومة النفس ، ولا طلبًا للمثوبة فيكون مستشرقًا للأجرة ، ولا مشاهدًا لأحد فيكون متزينًا بالمراءاة ؛ فإن هذه الأوصاف كلها من شعب عبادة النفس ، وإجراء الخبر على ظاهره ، وهو أن تبقى أعلام توحيد العامة الخبرية على ظواهرها ، ولا يتحمل البحث عنها تعسفًا ، ولا يتكلف لها تأويلًا ، ولا يتجاوز ظواهرها تمثيلًا ، ولا يدعى عليها إدراكًا أو توهمًا ، وصيانة الانبساط : أن تشوبه جرأة ، وصيانة السرور : أن يداخله أمن ، وصيانة الشهود : أن يعارضه سبب .

ومن هذه المنازل « منزلة الإخلاص » وهو على ثلاث درجات : إخراج رؤية العمل عن العمل . والخلاص من طلب العوض على العمل . والنزول عن الرضا بالعمل ، والخجل من العمل مع بذل المجهود وتوفير الجهد بالاحتماء من الشهود ورؤية العمل في نور التوفيق من عين الجود ، وإخلاص العمل بالخلاص من العمل ، تدعه يسير سير العلم ، وتسير أنت مشاهدًا للحكم ، حرًّا من رق الرسم .

ومن هذه المنازل « منزلة التهذيب والتصفية » ، وهو على ثلاث درجات : تهذيب الخدمة ، أن لا يخالجها جهالة ، ولا يشوبها عادة ، ولا يقف عندها همة ، وتهذيب الحال وهو أن لا يجنح إلى حظ ، وتهذيب القصد هو تصفيته من ذل الإكرام ، وتحفظه من مرض الفتور ونصرته على منازعات العلم .

ومن هذه المنازل « منزلة الاستقامة » ، وهي على ثلاث درجات : الاستقامة على الاجتهاد في الاقتصاد ، ولا عاديا رسمًا ولا متجاوزًا حد الإخلاص ولا مخالفًا نهج السنة ، واستقامة الأحوال ، وهي شهود الحقيقة لا كسبًا ورفض الدعوى لا علمًا ، والبقاء مع نور اليقظة لا تحفظًا ، واستقامة بترك رؤية الاستقامة وبالغيبة عن تطلب الاستقامة بشهود إقامة وتقويمة الحق .

ومن هذه المنازل « منزلة التوكل » ، وهو على ثلاث درجات كلها تسير مسير العامة : التوكل مع الطلب ، ومعاطاة السبب على نية شغل النفس بالسبب مخافة ، ونفع الخلق وترك الدعوى ، والتوكل مع إسقاط الطلب وغض العين عن السبب واجتهادًا لتصحيح التوكل وقمعًا لشرف النفس وتفرغًا إلى حفظ الواجبات ، والتوكل مع معرفة التوكل ، النازعة إلى الخلاص من علة التوكل .

ومن هذه المنازل « منزلة التفويض » وهو ألطف إشارة وأوسع معنى من التوكل ؛ فإن التوكل بعد وقوع السبب ، والتفويض قبل وقوعه وبعده وهو عين الاستسلام ، والتوكل شعبة منه ، وهو على ثلاث درجات : أن يعلم أن العبد لا يملك قبل عمله استطاعة ؛ فلا يأمن من مكر ، ولا ييأس من معونة ، ولا يعول على نية ومعاينة الاضطرار فلا يرى عملًا منجيًا ولا دنيًا مهلكًا ولا سببًا حاملًا ، وشهود انفراد الحق بملك الحركة والسكون والقبض والبسط وعرفته بتصرف التفرقة والجمع .

ومن هذه المنازل « منزلة الثقة باللَّه تعالى » ، وهي على ثلاث درجات : درجة الإياس ، ودرجة الأمن ، ودرجة معاينة أزلية الحق .

ومن هذه المنازل « منزلة التسليم » وهو على ثلاث درجات : تسليم ما يزاحم العقول مما سبق على الأوهام من الغيب ، والإذعان أمل يغالب القياس من سير الدول والقسم ، والإجابة لما يفزع المريد من ركوب الأحوال ، وتسليم العلم إلى الحال ، والقصد إلى الكشف ، والرسم إلى الحقيقة ، وتسليم ما دون الحق إلى الحق مع السلامة من رؤية التسليم بمعاينة تسليم الحق إياك إليه .

ومن هذه المنازل « منزلة الصبر » ، وهو على ثلاث أنواع : صبر باللَّه وصبر للَّه وصبر مع اللَّه ، وهو على ثلاث درجات : الصبر عن المعصية ، والصبر على الطاعة ، والصبر في البلاء .

ومن هذه المنازل « منزلة الرضا » ، وهو على ثلاث درجات : رضا العامة ، وهو الرضا باللَّه ربًّا وتسخط عبادة دونه ؛ وهذه قطب رحى الإسلام ، وهو يطهر من السلوك الأكبر ، والرضا عن اللَّه ؛ وبهذا نطقت آيات التنزيل وهو الرضا عنه في كل ما قضى وقدر وهذه من أوائل مسالك أهل الخصوص ، والرضا برضا اللَّه ؛ فلا يرى العبد لنفسه سخطًا ولا رضا فيبعثه على ترك التحكم وحسم الاختيار وإسقاط التمييز ولو أدخل النار .

ومن هذه المنازل « منزلة الشكر » ، وهي من أعلى المنازل ، وهي فوق منزلة الرضا وزيادة ؛ فالرضا مندرج في الشكر ، وهو على ثلاث درجات : الشكر على المحاب ، والشكر في المكاره ، وأن لا يشهد العبد إلا المنعم ، فإذا شهد المنعم عبودية استعظم منه النعمة وشهده حيًا : استحلى منه الشدة وإذا شهده تفريدًا لم يشهد منه نعمة ولا شدة .

ومن هذه المنازل « منزلة الحياء » ، وهو على ثلاث درجات : حياء يتولد من علم العبد بنظر الحق إليه فيجذبه إلى تحمل هذه المجاهدة ويحمله على استقباح الجناية ويسكته عن الشكوى ، وحياء يتولد من النظر في علم القرب فيدعو إلى ركوب المحبة . ويربطه بروح الأنس ويُكره إليه ملابسة الحق ، وحياء يتولد من شهود الحضرة ، وهي التي لا تشوبها هيبة ، ولا تقاربها تفرقة ولا يوقف لها غاية .

ومن المنازل « منزلة الصدق» وهو على ثلاث درجات : صدق القصد ، وأن لا يتمنى الحياة إلا للحق ، ولا يشهد من نفسه إلا أثر النقصان ، ولا يلتفت إلى ترفيه الرُّخص ، والصدق في معرفة الصدق .

ومن هذه المنازل « منزلة الإيثار » وهو على ثلاث درجات : أن تؤثر الخلق على نفسك فيما لا يحرم عليك دينًا ، ولا يقطع عليك طريقًا ، ولا يفسد عليك وقتًا ، وإيثار

رضا اللَّه على رضا غيره وإن عظمت فيه المحن وثقلت فيه المؤن وضعف عنه الطول والبدن ، وإيثار اللَّه فإن الخوض في الإيثار للَّه دعوى في الملك ، ثم ترك شهود رؤيتك إيثار اللَّه ، ثم غيبتك عن الترك .

ومن هذه المنازل « منزلة الخُلُقِ » وهو على ثلاث درجات : أن تعرف مقام الخَلْقِ ، وأنهم بأقدارهم مربطون وفي طاقتهم محبوسون وعلى الحكم موقفون ، فتستفيد بهذه المعرفة ثلاثة أشياء : أمن الخلق منك حتى الكلب ، ومحبة الخلق إياك ، ونجاة الخلق بك ، وتحسين خلقك مع الناس وتحسينه منك : أن تعلم أن كل ما يأتي منك يوجب عذرًا ، وأن كل ما يأتي من الحق يوجب شكرًا وأن لا ترى له من الوفاء بدًّا والتخلق بتصفية الخُلُقِ ، ثم الصعود عن تفرقة التخلق ثم التخلق بمجاورة الأخلاق .

ومن هذه المنازل « منزلة التواضع » وهو على ثلاث درجات :

التواضع للدين ، وهو أن لا يعارِض بمعقول منقولًا ولا يتهم لدين دليلًا ولا يرى إلى الخلاف سبيلًا ، وأن ترضى الحق به لنفسه عبدًا من المسلمين أخًا ، وأن لا ترد على عدوك حقًّا وأن تقبل من المتعذر معاذيره ، وأن تتضع للحق فتنزل عن رأيك وعن عوائدك في الخدمة ورؤية حقك في الصحبة وعن رسمك في المشاهدة .

ومن هذه المنازل « منزلة الفتوة » ، وهي ثلاث درجات : ترك الخصومة والتغافل عن الزلة ونسيان الأذية .

وأنْ تقرب من يقصيك وتكرم من يؤذيك و تعتذر إلى من يجني عليك ، سماحة لا كظمًا ومودة لا مصابرة ، وأن لا تتعلق في السير بدليل ولا تشرف إجابتك بعوض ، ولا تقف في شهودك على رسم .

ومن هذه المنازل « منزلة المروءة » ، وهي على ثلاثة درجات : مروءة المرء مع نفسه ، والمروءة مع الخلق ، والمروءة مع الحق ﷺ . ومن هذه المنازل « منزلة البسط والتخلي عن القبض » وهو على ثلاث درجات : الأولى مع الناس (الانبساط مع الخلق) والثانية والثالثة مع اللَّه (الانبساط مع الحق) .

ومن هذه المنازل « منزلة العزم » وهو على ثلاث درجات : إباء الحال على العلم لشيم برق الكشف ، واستدامة نور الأنس ، والإجابة لإماتة الهوى ، والاستغراق في لوائح المشاهدة ، واستنارة ضياء الطريق ، واستجماع قوى الاستقامة ، ومعرفة علة العزم على التخلص من العزم ، ثم الخلاص من تكاليف ترك العزم ؛ فإن العزائم لم تورث أربابها

ميراثًا أكرم من وقوفهم على علل العزائم .

ومن هذه المنازل « منزلة الإدارة » ، وهي على ثلاث درجات : ذهاب عن العادات بصحة العلم ، والتعلق بأنفاس السالكين مع صدق القصد ، وخلع كل شاغل من الإخوان ومشتت من الأوطان ، وتقطع بصحبة الحال وترويح الأنس والسير بين القبض والبسط ، وذهول مع صحبة الاستقامة ، وملازمة على تهذيب الأدب .

ومن هذه المنازل « منزلة الأدب » وهو على ثلاث درجات : منع الخوف أن لا يتعدى إلى اليأس وحبس الرجاء أن يخرج إلى الأمن ، وضبط السرور أن يضاهي الجرأة ، والخروج عن الخوف إلى ميدان القبض والصعود من الرجاء إلى ميدان البسط ، ثم الترقي من السرور إلى ميدان المشاهدة ، ومعرفة الأدب ، ثم الفناء عن التأديب بتأديب الحق ، ثم الخلاص من شهود أعباء الأدب .

ومن هذه المنازل « منزلة اليقين » وهو على ثلاث درجات : علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين .

ومن هذه المنازل « منزلة الأنس بالله » وهو على ثلاث درجات : الأنس بالشواهد وهو استعلاء الذكر و التغذي والسماع والوقوف على الإشارات ، والأنس بنور الكشف وهو أنس شاخص عن الأنس الأول تشوبه صولة الهيمان ، ويضربه موج الفناء وهو الذي غلب قومًا على عقولهم ، وسلب قومًا طاقة الاصطبار ، وحل عنهم قيود العلم ؛ وفي هذا ورد الخبر بهذا الدعاء « أسالك شوقًا إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة » ، وأنس اضمحلال في شهود الحضرة لا يعبر عن غيبة ، ولا يشارك إلى حده ولا يوقف على كنه .

ومن هذه المنازل « منزلة الذكر » وهو على ثلاث درجات : الذكر الظاهر : ثناء أو دعاء أو رعاية ، والذكر الخفي : وهو الخلاص من القيود والبقاء مع الشهود ولزوم المسامرة والذكر الحقيقة : وهو شهود ذكر الحق إياك والتخلص من شهود ذكرها ، ومعرفة افتراء الذكر في بقائه مع الذكر .

ومن هذه المنازل « منزلة الفقر » وهو على ثلاث درجات : فقر الزهاد ، والرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل والاضطرار .

ومن هذه المنازل « الغني العالي » وهو على ثلاث درجات : غنى القلب وغنى النفس والغنى بالحق .

ومن هذه المنازل « منزلة المراد » وهو على ثلاث درجات : أن يعصم العبد وأن يضع عن العبد عوارض النقص واجتباء الحق عبده واستخلاص إياه بخالصته .

ومن هذه المنازل « منزلة الإحسان » وهو على ثلاث درجات : الإحسان في القصد بتهذيبه علمًا ، وإبرامه عزمًا ، وتصفيته حالًا ، والإحساس في الأحوال : وهو أن تراعيها غيرة ، وتسترها تطرفًا ، وتصحححها تحقيقًا ، والإحسان في الوقت : وهو أن لا تزايل المشاهدة أبدًا ، ولا تخلط بهمتك أحدًا ، وتجعل هجرتك إلى اللحق سرمدًا . ومن هذه المنازل « منزلة العلم » وهو على ثلاث درجات : علم جلي به يقع العيان واستفاضة صحيحة أو صحة تجربة قديمة ، وعلم خفي ؛ ينبت في الأسرار الطاهرة من الأبدان الزاكية بماء الرياضة الخالصة ويظهر في الأنفاس الصادقة لأهل الهمة العالية ، في الأحايين الخالية والأسماع الصاخبة وهو علم يظهر الغائب ، ويغيب الشاهد ، ويشير إلى الجمع ، وعلم لدني إسناده وجوده وإدراكه عيانه ونعته حكمه ، ليس بينه وبين الغيب حجاب .

ومن هذه المنازل « منزلة الحكمة » وهو على ثلاث درجات : أن تعطي كل شيء حقه ، ولا تعديه حده ، ولا تعجله عن وقته ، ولا تؤخره عنه ، وأن تشهد نظر اللّٰه في وعده ، وتعرف عدله في حكمه ، وتلحظ بره في منعه ، وأن تبلغ في استدلالاتك البصرية وفي إرشادك الحقيقة وفي إشارتك الغاية .

ومن هذه المنازل منزلة الفراسة ، ومنزلة التعظيم ، ومنزلة السكينة ، ومنزلة الطمأنينة .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في الجزء الثاني هي : Psychic (ص ٦٧) ، والعزلة Isolation (ص ٨ - ١٢) ، والتجنب Avoidance (ص ٢٠ - ٢٨) ، والرجاء ، والتمني (ص ٣٥ - ٥٥) ، والرغبة Desir (ص ٥٥ - ٦٤) ، والمراقبة الذاتية Self Monitoring (من ص ٦٥ - ٧٤) ، وقيمة الإخلاص (ص ٨٩ - ٩٧) ، والقيم الأخلاقية (ص ١٠٣ - ١١٢ ، ٣٠٤ - ٣٣٧ ، ٣٤٠ - ٣٥٤ ، ٣٧٥ - ٣٩٧) ، والاعتماد Dependnce (ص ١١٢ - ١٤٢) ، والثقة Confidance (ص ١٤٧ - ١٥٠) ، والوهم والخيال (ص ١٤٧ ، ١٤٨) ، والمثابرة Persistence ، ومواصلة الاتجاه Maintaining Direction (ص ١٥٢ - ١٧٠) ، الإشباع (الرضا) Satisfaction (ص ١٧١ - ٢٤٢) ، والاعتراف بالتفضل (ص ٢٤٢ - ٢٥٨) ، والإيثار Alturism (ص ٢٩١ - ٣٠٤) ، والتواضع (ص ٣٢٧ - ٣٤٠) ، والانبساط Extraversion (٣٥٤ - ٣٥٩) ، والمقصد أو النية Intention

(ص ٣٥٩ - ٣٦٤) ، والتذكر Memory (ص ٤٢٣ - ٤٣٧) ، والنسيان Forgetting (ص ٤٣٤) ، والقيم العلمية (ص ٤٦٤ - ٤٧٧) ، والعقلانية Rationality (ص ٤٧٨ - ٤٨٢) ، والإلهام (ص ٤٨٣ - ٤٩٥) ، والاستقرار الانفعالي (ص ٥٠٢ - ٥٢٠) .

الجزء الثالث :

وفي هذا الجزء يستكمل المؤلف استعرض منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] ، ومن هذه المنازل « منزلة الهمة » ، ولها ثلاث درجات هي : همة تصون القلب عن وحشة الرغبة في الفاني ، وتحمله على الرغبة في الباقي ، وتصفيه من كدر التواني ، وهمة تورث أنفة من المبالاة بالعلل والنزول عن العمل والثقة بالأمل ، وهمة تتصاعد عن الأحوال والمعاملات ، وتزرع بالأعمال والدرجات ، تنحو عن النعوت نحو الذات .

ومن هذه المنازل « منزلة المحبة » ، وفيها يعرض المؤلف لشعر وكلام في المحبة ، وفيمن يستحقها ، وأسباب المحبة ، ومحبة العبد لربه ، والرب لعبده ، وأسرار المحبة ولوازمها وهي روح الإسلام ، ومراتب المحبة العشر وأسماؤها ومعانيها .

ومن هذه المنازل « منزلة الغيرة » وفيها يعرض المؤلف للأحاديث التي تناولتها وتعريفها ودرجتها الثلاث وهي : غيرة العابد وغيره المريد وغيرة العارف .

ومن هذه المنازل « منزلة الشوق » ، وفيها يعرض المؤلف لتعريفه ودرجاته الثلاث وهي : الشوق إلى الجنة ، والشوق إلى اللّه ، وشوق المحب الخالص إلى اللقاء .

ومن هذه المنازل « منزلة القلق » وله ثلاث درجات : وهى قلق يضيق ويلذذ الموت ، وقلق يغالب العقل ، ويحكي السمع ، ويطاول الطاقة ، وقلق لا يرحم أبدًا ولا يقبل أمدًا ولا يبقى أحدًا .

ومن هذه المنازل « منزلة العطش » ، ولها ثلاث درجات هي : عطش المريد إلى شاهد يرويه ، أو إشارة تشفيه ، أو عطفة تؤويه ، وعطش السالك إلى أجل يطويه ، ويوم يريه ما يغنيه ، ومنزل يستريح فيه ، وعطش المحب إلى جلوة ما دونها سحاب علة ، ولا يغطيها حجاب تفرقة ، ولا يعرج دونها على انتظار .

ومن هذه المنازل « منزلة الوجد » ولها ثلاث درجات هي : وجد عارض يستضيف له شاهد السمع ، أوشاهد البصر ، أو شاهد الفكر أبقى على صاحبه أثرًا أو لم يبعد ، ووجد تستفيق له الروح بلمع نور أزلي أو سماع نداء أولى أو جذب حقيقي ؛ إن أبقى

على صاحبه لباسه وإلا أبقى عليه نوره ، ووجد يخطف العبد من يد الكونين ويمحص ، معناه من درن الحظ ، ويسلبه من رق الماء والطين ؛ إن سلبه أنساه اسمه وإن لم يسلبه أعاره اسمه .

ومن هذه المنازل « منزلة الدهشة » ، ولها ثلاث درجات هي : دهشة المريد عن صولة الحال على علمه ، والوجد على طاقته ، والكشف عن همته ، ودهشة السالك عند صولة الجمع على رسمه ، والسبق على وقته ، والمشاهدة على روحه ، ودهشة المحب عند صولة الاتصال على لطف العطية ، وصولة نور القرب على نور العطف ، وصولة شوق العيان على شوق الخبر .

و « منزلة الهيمان » ولها درجات هي : هيمان في شيم أوائل برق اللطف عند قصد الطريق ، ومع ملاحظة خسة قدره ، وسفالة منزلته ، وتفاهة قيمته ، وهيمان عند الوقوع في عين القِدَم ، ومعاينة سلطان الأزل ، والغرق في بحر الكشف ، وهيمان عند تلاطم أمواج التحقيق عند ظهور براهينه ، وتواصل عجائبه ، ولوامع أنواره .

ومن هذه المنازل « منزلة البرق » ، ولها ثلاث درجات هي : برق يلمع من جانب العدة في عين الرجاء ؛ فيستكثر فيه العبد القليل من العطاء ، ويستقل فيه الكثير من الإعياء ، ويستحلى فيه مرارة القضاء ، وبرق يلمع من جانب الوعد في عين الحذر ؛ فيستقصر فيه العبدُ الطويلَ من الأمل ، ويزهد في الخلق على القرب ، ويرغب في تطهير السر ، وبرق يلمع من جانب اللطف في عين الافتقار ؛ فينشئ سحاب السرور ، ويمطر مطر الطرب ، ويجرى من نهر الافتخار .

ومن هذه المنازل « منزلة الذوق » ؛ ولها درجات هي : ذوق التصديق : طعم العدة ؛ فلا يعقله ظن ولا يقطعه أمل ولا تعوقه أمنية ، وذوق الإرادة : طعم الأنس ؛ فلا يعلق به شاغل ولا يفسده عارض ولا تكدره تفرقة ، وذوق الانقطاع : طعم الاتصال ، وذوق الهمة : طعم الجمع ، وذوق المسامرة : طعم العيان .

ومن هذه المنازل « منزلة اللحظ » وهو على ثلاث درجات هي : ملاحظة الفضل سابقًا : وهي تقطع طريق السؤال إلا ما استحقته الربوبية من إظهار التذلل له ، وتنبت السرور إلا ما يشوبه من حذر المكر ، وتبعث على الشكر إلا ما قام به الحق ﷻ من حق الصفة ، وملاحظة نور الكشف : وهي تسبل لباس التوالي وتذيق طعم التجلي ، وتعصم من عوار التسلي ، وملاحظة عين الجمع : وهي توقظ استهانة المجاهدات ، وتخلص من

رعونة المعارضات ، وتفيد مطالعة البدايات .

ومن هذه المنازل « منزلة الوقت » وله ثلاث معانٍ ، الأول : حين وجد صادق ، والثاني : اسم لطريق سالك ، والمعنى الثالث قالوا : الوقت الحق ، أرادوا به استغراق رسم الوقت في وجود الحق .

ومن هذه المنازل « منزلة الصفاء » وهو على ثلاث درجات هي : صفاء علم يهذب لسلوك الطريق ، ويبصر غاية الجد ، ويصحح همة القاصد ، وصفاء حال يشاهد به شواهد التحقيق ، ويذاق به حلاوة المناجاة ، وينسى به الكون ، وصفاء اتصال يدرج حظ العبودية في حق الربوبية ، ويغرق نهايات الخير في بدايات العيان ، ويطوي خسة التكاليف في عين الأزل .

ومن هذه المنازل « منزلة السرور » وهو على ثلاث درجات هي : سرور ذوق ذهبت بثلاثة أحزان : حزن أورثه خوف الانقطاع ، وحزن هاجته ظلمة الجهل ، وحزن بعثته وحشة التفرق ، وسرور شهود كشف حجاب العلم ، وفك رق التكليف ، ونفي صغار الاختيار ، وسرور سماع الإجابة : وهو سرور يمحو آثار الوحشة ، ويقرع باب المشاهد ، ويضحك الروح .

ومن هذه المنازل « منزله السر » ، وأصحابها على ثلاث طبقات هي : طائفة علت هممهم ، وصفت قصورهم ، وصح سلوكهم ، ولم يوقف لهم على رسم ، ولم ينسبوا إلى اسم ولم يشر إليهم بالأصابع ؛ أولئك كانوا ، وطائفة أشاروا عن منزل وهم في غيره ، ووروا بأمر وهم ، ونادوا على شأن وهم على غيره ؛ فهم بين غيره عليهم تسترهم ، وأدب فهم يصونهم ، وظرف يهذبهم ، وطائفة أسرهم الحق عنهم فلاح لهم لائح أذهلهم عن إدراك ما هم فيه ، وهَّيمهم عن شهود ما هم له ، وضمن بحالهم عن علمهم ما هم به ؛ فاستتروا عنهم مع شواهد تشيد لهم بصحة مقامهم ، عن قصد صادق يهيجه غيب وحب صادق يخفى عليهم عمله ، ووجد غريب لا ينكشف له موقده ؛ وهذا من أدق مقامات أهل الولاية .

ومن هذه المنازل « منزلة النفس » ، وهي على ثلاث درجات : وهي تشابه درجات الوقت ، ووجه الشبه بينهما أن الأوقات تعد بالأنفاس كدرجتها ، وهي : الأول : نفس في حين استتار مملوء من الكظم متعلق بالعلم إن تنفس بالأسف ، وإن نطق نطق بالحزن ، وعند (المؤلف) : هو متولد من وحشة الاستتار ، وهي الظلمة التي قالوا : إنها

مقام ، والثاني : نفس حين التجلي ، وهو نفس شاخص عن مقام السرور إلى روح المعاينة ، مملوء من نور الوجود ، شاخص إلى منقطع الإشارة ، والثالث : نفس مطهر بماء القدس ، قائم بإشارات الأزل ، وهو النفس الذي يسمى بصدق النور .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في الجزء الثالث هي : الدافعية Motivation (ص ٣ - ٦ ، ٢٦٣ - ٢٦٥) ، والمحبة Liking (ص ٦ - ٤٢) ، والشوق (ص ٥١- ٦٧) ، والانفعالات Emotions (ص ٦٨ - ٨٢) ، والغيرة (ص ٤٢ - ٥١) ، والاستقرار الانفعالي Emotioal Stability (ص ١٤١ - ١٥٦) ، والسرور Happiness (ص ١٥٦ - ١٦٩) ، (وص ١٩٠ - ١٩٢ ، ١٦٦ - ٢٧٤) ، والمقصد أو النية Intention (ص ١٧١ ، ١٧٢) ، والسلوك Behaviour (ص ١٧١ - ١٧٧) ، والحزن Sadness (ص ٨٧ - ١٨٨) ، والاغتراب Alienation (ص ١٩٤ - ٢٠٥) ، والتمكن (الكفاءة) Competence (ص ٢١٥ - ٢٢١) ، والإشارة Signal (ص ٢٣١ - ٢٥٨ ، ص ٤٨٥ - ٤٩٤) والقيم الأخلاقية Moral Values (ص ٢٦٥ ، ٢٦٦) ، والنفس Psyche (ص ٣١٩ - ٣٢٨) ، والمعرفة Knowledge (ص ٣٣٤ - ٣٦٨ ، ٤١٦) ، والعلم (ص ٣٣٥ - ٣٦٨ ، ٤١٦) ، علاقة العلم بالمعرفة (ص ٣٣٥- ٣٦٨) ، والوساوس Odsessions (ص ٣٩٢ - ٤١٠) ، والتجريد Abstraction (ص ٤١٨ - ٤٢٣) ، والإعلام Information (ص ٤٤٥) ، والخبر (ص٤٤٥) .

* * *

عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين [1]

عرض : د . إبراهيم شوقي عبد الحميد

عرض الكتاب :

يشتمل الكتاب على ستة وعشرين بابًا نعرض لها على النحو الآتي :

يتناول هذا الكتاب أهم جوانب السلوك الأخلاقي Moral Behavior وهما : الصبر والشكر .

فنجد **الباب الأول** يعرض لمعنى الصبر وهو المنع والحبس ، أي : حبس النفس عن الجزع ، واللسان عن التشكي ، والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب ونحوهما (ص ١٢، ١٣) .

ويشير هذا التعريف إلى ظاهرة قمع ، أو كف الدوافع الفطرية أي : كف الدفعات الغريزية الفطرية Inhibition of Constitutional Instinctional Impulses .

وممن اهتم بهذا الموضوع عالم التحليل النفسي سيجموند فرويد في إطار اهتمامه بميكانزمات التوافق النفسي Psychological Adjustment ، وخاصة الإعلاء أو التسامي Sublimation ، وهو الترفع بالغرائز إلى مستوى أرقى ، قد يتمثل في عمل رفيع أو هواية تحظى بالتقبل الاجتماعي ، وبذلك يمكن للفرد التعبير عن دوافعه الجنسية والعدوانية بطريقة رمزية غير مستهجنة اجتماعيًا .

كذلك يقترب مفهوم الصبر من تصور فرويد عن الشخصية الإنسانية ؛ حيث يمثل

---

(١) تحقيق : نعيم زرزور - ط ١ . بيروت : دار الكتب العلمية ، (١٩٨٣م) ، (٢٩١ ص) .

(الْهُوَ) أحد مكونات الشخصية (أو اللاشعور الذي يشتمل على رغبات غريزية جنسية وعدوانية) (قوى النفس والهوى والشيطان) ، والذي يواجه صراعًا مع (الأنا) و (الأنا الأعلى) أو الضمير ؛ اللذين يقومان بتوجيه الهو وكف نشاطه وفقًا لمقتضيات الدين والواقع .

والباب الثاني : في حقيقة الصبر وكلام الناس فيه ، ويذكر فيه أن الصبر خلق فاضل من أخلاق النفس ، وأنه قوة من قوي النفس التي بها يصلح شأنها ، ويذكر أيضًا أن الصبر يقابل الجزع فهما ضدان ، وأن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر ، وأن الصبر يكون على مشقة الطاعة وعلى مشقة مقاومة الهوى والشهوة (ص ١٤ - ١٦) .

الباب الثالث : في بيان أسماء الصبر بالإضافة إلى متعلقه ، وفيه يبين أن جميع مقامات الدين ترتبط بالصبر ، فالعفة صبر عن شهوة الفرج ، والشرف وشبع النفس صبر عن شهوة البطن ، والزهد صبر عن فضول العين .... إلخ (ص ١٧) .

الباب الرابع : يعرض في الفرق بين الصبر والتصبر ، والاصطبار والمصابرة (ص ١٨ ، ١٩) .

الباب الخامس : يعرض لأنواع الصبر حسب محله ؛ وهو بدني ونفسي ، وكل منهما نوعان : اختياري واضطراري .

- الصبر البدني الاختياري : كتحمل الأعمال الشاقة على البدن اختيارًا وإرادة .
- الصبر البدني الاضطراري : كالصبر على ألم الضرب والمرض ، البرد والحر وغير ذلك .
- الصبر النفسي الاختياري : كصبر النفس عن فعل ما لا يحسن فعله شرعًا ولا عقلًا .
- الصبر النفسي الاضطراري : كصبر النفس عن محبوبها قهرًا (ص ٢٠ ، ٢١) .

وفي هذا الموضوع تجدر الإشارة إلى أن الصبر يمثل أيضًا أحد أشكال المثابرة Persistence ، وتتصل المثابرة بموضوع الشخصية ؛ وهي مدى تحمل الإنسان لمشقة معينة ، و هي نوعان : مثابرة عقلية ومثابرة بدنية (وهذا التقسيم من تقسيم ابن قيم الجوزية) .

الباب السادس : أنواع الصبر حسب شدته وقوته .

ويذكر المؤلف في هذا الباب أنه إما أن تكون الغلبة لداعي الدين فيهزم الهوى أو أن تكون الغلبة لداعي الهوى فينتصر الدين (وهو ما يتصل بمفهوم الصراع النفسي Psychologicol Conflict) .

- كما يذكر أن بعض الناس قد تجمع بين هذا وذاك في أثناء حياتهم ، وأن الأفراد يتفاوتون في مدى صبرهم (انظر : ٢٢ - ٢٥) ، وهو ما يتصل بمفهوم أو ظاهرة الفروق الفردية Individual Differences .

الباب السابع : في ذكر أقسام الصبر باعتبار متعلقة

وفيه يقسم الصبر إلى ثلاثة أقسام هي :

أ - صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها .

ب - صبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها .

ج - صبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها .

كما يذكر في هذا الباب أن الصبر مصارعة باعث العقل والدين لباعث الهوى والنفس .

وهو ما يشير إلى الصراع النفسي Psychologicol Conflict (ص ٢٦) .

الباب الثامن : الصبر في انقسامه باعتبار تعلق الأحكام الخمسة به وفيه يقسم الصبر إلى :

١ - الصبر الواجب : ويضم ثلاثة أنواع :

أ - الصبر عن المحرمات .

ب - الصبر على أداء الواجبات .

ج - الصبر على المصائب .

٢ - والصبر المندوب : وهو الصبر عن المكروهات وعلى المستحبات .

٣ - والصبر المحظور : وهو كالصبر عن الطعام والشراب حتى يموت .

٤ - والصبر على ما قد يؤذي الإنسان .

٥ - ثم الصبر المكروه والصبر المباح . (انظر ص ٣٠ ، ٣١) .

الباب التاسع : وفيه بيان تفاوت درجات الصبر .

ويتحدث فيه عن صبر أولى العزم الذين صبروا لحكمة اختيارًا ؛ وهذا أكثر درجات الصبر ، ويشير إلى أنه كما تتفاوت درجات الصبر بين الأفراد وفقًا لمنازلهم ، تتفاوت أيضًا وفقًا لنوعه ؛ فالصبر المتعلق بالتكليف - وهو الأمر والنهي - أفضل من الصبر على

مجرد القدر ، ثم يناقش قضية المفاضلة بين الصبر على أوامر اللّه ﷻ ، والصبر عن المحارم ، وهو أمر تنازعت فيه الآراء ، ثم يشير إلى الفروق بين الأفراد في مدى صبرهم على المأمور ، وكذلك عن المحظور ، وكذلك على المقدور ، ويستخلص في النهاية أن هذه الأنواع الثلاثة متلازمة وتتفاوت شدة كل منها وفقًا لتفاوت الأفراد .

وهو ما يشير أيضًا إلى تعقد ظاهرة الفروق الفردية Individual Differences كمًّا وكيفًا (انظر : ص ٣٢ - ٣٦) .

الباب العاشر : في انقسام الصبر إلى محمود ومذموم .

ويشير في هذا الباب إلى أن الصبر عن اللّه وإرادته تعطيل كمال العبد وتفويت ما خلق له ، ويذكر أن الصبر عن اللّه مذموم ، وأن الصبر على اللّه محمود (ص ٤٤ ، ٤٥) .

ثم يورد بعد ذلك فصلًا يعرض لقضية أي الصبر أكمل ، الصبر للّه أم الصبر باللّه أم الصبر مع اللّه (ص ٤٥ - ٥١) .

الباب الحادي عشر : في الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام .

ويشير فيه إلى أن الكريم يصبر اختيارًا لعلمه بحسن عاقبة الصبر ويحمد الصبر ويذم الجزع ، وأن اللئيم يصبر اضطرارًا بعد ما يجد أن الجزع لم يَغْد يجدي ، وهو يصبر في طاعة الشيطان وفي طاعة أهواء نفسه . (ص ٥٢ ، ٥٣) .

الباب الثاني عشر : في الأسباب التي تعين على الصبر .

يشير في هذا الفصل إلى أنه يمكن تحقيق الصبر عن طريق :

أ - إدراك ما في المأمور من الخير واللذة ، والكمال ، وإدراك ما في المحظور من الشر والضر والنقص .

ب - العزيمة الصادقة والهمة العالية والنخوة والمروءة الإنسانية (ص ٤٥) ، ويشير هذا القول إلى دور كل من العقل والدافعية (أو الإرادة) في تحقيق الصبر ، ويشير الكاتب إلى ذلك عند الحديث عن أساليب مقاومة شهوة الوقاع المحرم وهى أساليب لكف الدافع الجنسي (ص ٥٣ - ٦٣)

Sexual Inhibition or Sexual Control .

الباب الثالث عشر : في بيان أن الإنسان لا يستغنى عن الصبر في حال من

الأحوال ، ويتناول في هذا الباب موضوع ملازمة الصبر للإنسان إلى الممات في جميع الأحوال السراء قبل الضراء مشيرًا إلى أن الصبر على البلاء ليس فيه مشقة مثل الصبر على السراء؛ لأن الصبر على البلاء اضطرارًا والصبر على السراء مقرون بالقدوة (ص ٦٤ - ٦٦) ، ثم يعرض تقسيمًا لأقسام الصبر وهو كالتالي :

١ - الصبر على ما يدخل تحت اختيار الإنسان .

أ - الصبر على الطاعات .

ب - الصبر عن المعاصي .

٢ - الصبر على ما لا يدخل تحت الاختيار .

أ - الصبر على ما لا صنع للعبد فيه .

ب - الصبر على ما أصابه من آدمي مثله .

٣ - الصبر على ما يكون وروده باختيار الإنسان فإذا تمكن لم يكن له اختيار ولا حيلة في دفعه ، مثل العشق والتعرض لأسباب الأمراض والآلام (ص ٦٨ - ٧٠) .

وفي ثنايا هذا الباب (ص ٦٨) يعرض المؤلف لمواقف الناس مما يصيبهم ؛ وهي الجزع ثم السخط ثم الصبر إما لله أو للمروءة الإنسانية ثم الرضا ثم الشكر ثم العفو ..... إلخ .

نجد في ذلك إشارة مبكرة إلى فكرة سائدة في علم النفس وهي فكرة المتصل Continiuum ، أو البعد Dimension الذي تحتل عليه كثير من السمات والقدرات (كل سمة على حدة) مواضع مختلفة وفقًا لدرجة كل منها ، كذلك تشير مستويات الصبر إلى بعض الانفعالات السارة وغير السارة (Emotions) .

الباب الرابع عشر : في بيان أشق الصبر على النفوس :

ويعرض فيه تفاوت مستويات الصبر وفقًا لقوة الداعي إلى الفعل ونوعه (أي الدافع Motive بلغة علم النفس) ؛ فالصبر عن القتل أيسر من صبر السلطان على الظلم ، وصبر الشاب عن الفاحشة ؛ لأنهما أصعب أنواع الصبر لشدة الداعي إليها وسهولتها (ص ٧١ - ٧٣) .

ويتعلق هذا الموضوع بصعوبة ضبط بعض أشكال السلوك ذات الصلة بالدوافع الفطرية .

الباب الخامس عشر : في ذكر ما ورد في الصبر من نصوص الكتاب العزيز (ص ٧٤ - ٧٩) .

الباب السادس عشر : في ذكر ما ورد في الصبر من نصوص السنة .
(ص ٨٠ - ٩٦) .

الباب السابع عشر : في الآثار الواردة عن الصحابة ومن بعدهم في فضيلة الصبر ، وفيه يعرض لروايات عن الصابرين والساخطين ، ويذكر ثواب الصابرين وجزاء الساخطين (ص ٩٧ - ١٠١) .

الباب الثامن عشر : في ذكر أمور تتعلق بالمصيبة من البكاء والندب وشق الثياب ودعوى الجاهلية ونحوها .

ويبدأ بفصل البكاء على الميت وحكمه قبل الموت وبعده (ص ١٠٢ - ١٠٤) ، ثم فصل عن الندب والنياحة وتحريمها ، ثم يعرض لآراء من يبيحها مع كراهتهم لهما (ص ١٠٤ - ١٠٧) ، ويلي ذلك فصل عن أن الميت يتألم و يتعذب - وليس يعاقب - لبكاء أهله عليه بكاء الجاهلية (ص ١٠٧ - ١٠٩) .

الباب التاسع عشر : في أن الصبر نصف الإيمان :

وفيه يحدد موضوع الصبر من الإيمان ؛ حيث يمثل نصفه ، والنصف الآخر الشكر ، وأن الصبر حبس النفس عن إجابة داعي الشهوة والغضب (ص ١١٠ - ١١٢) .

الباب العشرون : في بيان تنازع الناس في الأفضل من الصبر والشكر .

وفيه يعرض الكاتب لمختلف الآراء مع ذكر مبررات وأسانيد كل رأي مستعينًا بما ورد في الكتاب الكريم ، والأحاديث النبوية ، والسير ، والروايات .

ويعرض للشكر وفضله مستعينًا بأقوال وأحاديث نبوية عن وجوب الشكر للَّه ﷻ على نعمه التي لا تُحصى (ص ١١٣ - ١٤٨) .

الباب الحادي والعشرون : في الحكم بين الفريقين ، والفصل بين الطائفتين .

وفيه يشير أولًا على أن الشكر يعتمد على ثلاثة أركان هي :

١ - اعتراف العبد بنعمة اللَّه عليه .

٢ - الثناء عليه بها .

٣ - الاستعانة بها على مرضاته . (ص ١٤٩ - ١٥١) .

وهنا نلاحظ أن مفهوم الشكر أقرب إلى مفهوم الرضا عن الحياة Satisfaction Life ، والصحة النفسية Mental Health ، ثم يعرض لمعاني الشكر وأقسامه ، وتداخل الصبر

والشكر ، وأنه يعبر عن أحدهما وفقًا للجانب الأغلب عليه والأظهر منه (ص ١٥١) .

وفي المفاضلة بين صبر الفقير ، وشكر الغني يشير إلى أنه لا يصح التفضيل بينهما إلا وفقًا للتقوى في شكره أو صبره ، ثم يعرض لأحاديث عن الشكر والصبر من منظور نقدي (ص ١٥١ - ١٦٠) .

فصل : في ابتلاء الخلق بالغنى والفقر لامتحان الشكر والصبر (ص ١٦١ - ١٧١) .

فصل : في الدنيا والمفاخرة بمتاعها من مال أو جاه أو قوة أو علم أو زهد (ص ١٧١، ١٧٢) .

فصل : في انشغال الناس بالتكاثر - سواء في الأولاد أو المال أو العلم أو الجاه - عن ذكر اللَّه (ص ١٧٢) .

كذلك يعرض لفصل يذكر فيه أن مصير الدنيا الزوال باعتبار أنها مَعْبَر إلى الجنة أو النار حسب إيمان العبد وطاعته في هذه الدار الزائلة .

ثم فصل : في دعوة العباد إلى مرضاة اللَّه ، وأن الصبر والشكر مطيتان للإيمان لا يحمل إلا عليهما ، ولابد لكل مؤمن منهما ، وكل منهما في موضوعه أفضل ولا تصح المفاضلة بينهما ، إلا إذا جرد أحدهما عن الآخر .

الباب الثاني والعشرون : في اختلاف الناس في الغني الشاكر والفقير الصابر أيهما أفضل ؟

وما هو الصواب في ذلك ؟

ثم يعرض فصلًا عن تنازع المتأخرين في الفقير الصابر والغني الشاكر (ص ١٨١ ، ١٨٢) .

الباب الثالث والعشرون : في ذكر ما احتجت به الفقراء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار بعرض لذكر الغنى والمال في القرآن الكريم من مختلف الأوجة (الذم ، البلاء ......) (ص ١٨٣ - ١٨٦) ، ثم يعرض تفسيرًا لسورة التكاثر حيث تحذر المتكاثرين في طلب أسباب الحياة من الانشغال عن طلب الآخرة (ص ١٦٧ - ١٩٧) يتبعه عرض لنماذج من الصابرين على شدة العيش وأسباب تفضيل الصبر على الفقر عن الشكر على الغنى (ص ١٩٧ - ٢١٩) .

وإجمالًا يختص هذا الباب بالحث على الزهد في الدنيا وطلب الآخرة .

الباب الرابع والعشرون : في ذكر ما احتجت به الأغنياء من الكتاب والآثار والاعتبار ، ويتناول حجج الأغنياء التي تشير إلى أهمية الغني ومحاسنه (الزكاة والإنفاق في وجوه البر والجهاد في سبيل اللّه وفك الرقاب) (ص ٢٥٣ - ٢٦٨) ، ويعرض لآيات قرآنية ، وأحاديث ، وروايات ؛ تشير إلى أفضلية الأغنياء المنفعية على الفقراء الصابرين .

يلي ذلك فصل يذكر فيه كمال صفات الرسول ﷺ ، مشيرًا إلى أن شخصيته كانت تجمع بين متناقضات حسنة (ص ٢٦٨ - ٢٧١) .

ويستخلص في ختام الفصل أن ليس للفقراء الصابرين أفضلية على الأغنياء الشاكرين ، وأن أفضل الناس هو أعلمهم وأتقاهم .

الباب الخامس والعشرون : في بيان الأمور المضادة للصبر والمنافية له والقادحة فيه ، ومن هذه الأمور الشكوى لغير اللّه ما لم تكن لغرض الاستشفاء أو طلب الإرشاد (٢٧٢) ، وفي ذلك إشارة صريحة إلى أن طلب الخدمة النفسية والطبية لا يتنافى مع فضيلة الصبر ، ويبرر ذلك إشارة ابن القيم بأن الأنين - كشكوى - مكروه ، أما أنين الاستراحة والتفريغ فهو جائز (ص ٢٧٣) ، ثم يعرض الكاتب إلى أن ما ينافي الصبر شق الثياب عند المصيبة ، ولطم الوجه ، والضرب بإحدى اليدين على الأخرى وحلق الشعر والدعاء بالويل (٢٧٣) ، ونلاحظ أن في ذلك إشارة إلى المظاهر السلوكية لانفعال الأسى (Sorrow) التي يجب عدم إظهارها تحقيقًا لمستوى أفضل من التوافق الشخصي والاجتماعي مع أحداث الحياة .

Personal and Social Adjustment with life events .

ويتضح أهمية ذلك في حث الكاتب على كتمان المصيبة ؛ لأنه رأس الصبر ؛ فالهلع والجزع عند ورود المصيبة يضاد الصبر ، ويدل على صغر النفس ودنائتها (انظر : ص ٢٧٥ ، ٢٧٦) ، أي : يحث الكاتب على التحلي بالصبر الذي يفصح عن نفسه في عملية الضبط الانفعالي Emotional Control الذي ينم عن النضج النفسي والاجتماعي ، ويتجلى في أشكال من السلوك التي تعين على التحكم في الشهوة والانفعال (انظر مثلًا : ص ٢٧٥، ٢٧٦) عند ضرورة كتمان المصيبة ، و (ص ٥٤ - ٦٣) عند حديث الكاتب عن طرق مقاومة شهوة الوقاع المحرم .

الباب السادس والعشرون : في بيان دخول الصبر والشكر في صفات الرب ﷻ

وتسميته بالصبور والشكور ، ولو لم يكن للصبر والشكر من الفضيلة إلا ذلك لكفى به (ص ٢٧٧ ، ٢٧٨) .

ويعرض في هذا الباب مظاهر من صبر اللّٰه تعالى على عباده وأفعالهم (ص ٢٧٨ - ٢٨١) ومظاهر لشكر عباده علي حسن طاعتهم (ص ٢٨١ - ٢٨٤) كذلك يعرض للفرق بين الصبر والحلم ؛ فالصبر ثمرة الحلم وموجبه على قدر حلم العبد يكون صبره ؛ بمعنى أن الحليم من الصفات والصبور من الأفعال .

* * *

طريق الهجرتين وباب السعادتين [1]

عرض : د . أسامة سعد أبو سريع

عرض الكتاب :

يبين ابن قيم الجوزية في كتابه كيف تكون الهجرة الأولى إلى الله ، والهجرة الثانية إلى رسول الله ، ويقع الكتاب في ٥٢٦ صفحة وينقسم إلى عدد كبير من الفصول يركز فيها على شرح معنى الفقر والغنى والحمد والجنة والنار والقضاء والقدر والمعصية والذنب وتقسيم الناس من حيث القوة العملية ومراتب المكلفين من الإنس والجن في الدار الآخرة . وسوف نولي عناية أكبر في هذا العرض للفصول التي تتضمن دلالات ومفاهيم نفسية تفيد المتخصص أو المهتم بالدراسة النفسية للسلوك .

في أول فصل وهو بعنوان : « **إن الله هو الغني المطلق والخلق فقراء محتاجون إليه** »

يذكر أن الله غني بذاته وأن المخلوق فقير بذاته وأن الفقر نوعان : فقر عام يشمل البر والفاجر ، وفقر اختياري ناتج عن معرفة العبد بعظمة ربه ومعرفته بضعف نفسه ، وهذا فقر الزهاد وهو عين الغنى وهو نفض اليدين من الدنيا وإسكات اللسان عنها ؛ أي الإعراض عنها بالعقل والقلب واللسان . والفقر هو توجه العبد في جميع أحواله إلى الله وبذلك يتحقق له الأمان بوجود سند يعتمد عليه ويطمئن قلبه به وقرب العبد من ربه من لوازم المحبة فالمحب يجد حبيبه بجواره رغم ما بينهما من مسافات ، وفي أعلى درجات الحب بين العبد وبين الرب يحسن العبد اللجوء إلى الله ، وتسليم إرادته ويوقن أن الخير من الله

(١) تحقيق عبد المنعم العاتي . بيروت : دار مكتبة الحياة (١٩٨٠م) ، (٥٢٦ ص) .

وأنه وحده هو القادر على دفع السيئات (ص ٢٢ ، ص ٣٠ ، ص ٤٢ ، ص ٤٩) .

ويوضح ابن القيم أن أفقر الناس إلى ربه هو أغناهم ويقسم الغنى إلى سافل وعال ، فالغنى السافل هو الغنى بمتاع الدنيا من نساء وبنين وذهب وفضة .... إلخ . وهو معرض للزوال ؛ أما الغنى العالي فهو غنى القلب وسلامته من السبب أي الاتكال على الأسباب دون التوجه إلى المسبب وهو اللّٰه تعالى ولا يعني ذلك التكاسل أو الامتناع عن دفع الأخطار والأمراض والجوع والعطش والبرد بل ينبغي على العبد أن يفعل ما بوسعه ويبذل جهده ثم يطمئن إلى قضاء اللّٰه هذا هو غنى القلب ، أما غنى النفس فهو الاستقامة والخلاص من الرياء والتصنع وانتظار الجزاء من الخلق ، وأعلى درجات الفقر هي الفقر إلى الحق وهو الغنى باللّٰه عن كل ما سواه ، ويذكر ابن قيم الجوزية أن من خصال العبد الفقير إلى اللّٰه والغنى به الزهد في الدنيا والتوكل على اللّٰه وعدم الأسف على المفقود من الدنيا والاستغناء عن الناس وتحمل أذاهم والإخلاص في النصح لهم وعدم البخل بما عنده ، والتحلي بالصدق والإيثار والتوضيح والحلم والاحتمال وحفظ اللسان . ورغم إقرار ابن القيم بالتباين بين منفعة الحق ومنفعة الخلق إذ يريد اللّٰه النفع لعبده دون الإضرار به أما الخلق فيريدون نفعهم حتى لو أضروا بالعبد إلَّا أنه يدعو إلى الإحسان إلى الناس ليس طلبًا لرضائهم وإنما ابتغاء مرضاة اللّٰه (ص ٥٢ ، ٥٣ ، ص ٥٤ - ٧٠ ، ص ٨٨ - ٩٠) .

ومما سبق نستشف بعض مقومات الصحة النفسية للفرد ، وذلك كما يلي :

أ - الاستغناء عن الناس وخفض توقعات Expectations الشخص لما ينتظره منهم من نفع أو معرفة ، مما يعطيه الشعور بالقوة Power وبالاعتماد على النفس Self Dependence ويقلل مشاعر الإحباط Frustration في تعامله معهم إذا لم يقدموا له ما يطمح إليه (ص ٧٥) .

ب - الحفاظ على العلاقات الاجتماعية Social Relationships الجيدة مع الآخرين - رغم الاستغناء عنهم - وتتمثل السبل إلى تلك العلاقات الاجتماعية في تحمل الأذى والحلم والتواضع والاحترام وضبط أي شكل من أشكال العدوان اللفظي وذلك بكف اللسان عنهم وتقديم النصيحة Advice والمساعدة Help بكافة أشكالها لهم (ص ٧٥) .

وفي فصل « **الجمع بين الآراء المتقدمة** » يوضح ابن قيم الجوزية أن كل إنسان ميسر لما خلق له وأن نصيب العبد من السعادة أو الشقاوة مقدر قبل خروجه إلى الدنيا ويقدم الأحاديث والأقوال المأثورة التي تدعم رأيه ؛ ومنها قول رسول اللّٰه ﷺ وهو يمدح أشج

عبد القيس : « **إن فيك لخلقين يحبهما الله : الحلم والأناة** » فلما سأله : يا رسول الله خلقين تخلقت بهما أم جبلت عليهما ؟ قال : « **بل جبلت عليهما** » ؛ فرد قائلًا : الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله (ص ١٠٣ - ١٠٧) .

ويتناول ابن القيم بعد ذلك وجوب الإيمان بالقضاء والقدر ويعرض قصصًا تبين مدى إيمان بعض الأشخاص بالقضاء وإن بدت قصصًا غريبة ومتطرفة ؛ ومنها قصة الرجل الذي رأى رجلًا آخر يفجر بزوجته فصرخ في زوجته : ما هذا ؟ فقالت زوجته : هذا قضاء الله وقدره فعلق الزوج قائلًا : الخيرة فيما قضى الله (ص ١١٥) .

ويستعرض ابن قيم الجوزية بعد ذلك تفسير الفلاسفة لدخول الشر من آلام وأمراض في القضاء الإلهي ، فمنهم من قال إنها للاعتبار بالنسبة للمتألم نفسه أو لغيره ممن لم ينلهم الضرر ، ويحث على تحمل الكروب والعثرات ويصف العبد الذي يتحمل الشدائد بأنه عبد « سعيد » لأن الشدة مهما طالت فلا دوام ويعقبها العوض عنها وأفضله تذكر العبد لربه والإنابة إليه . (ص ٨٩ - ٢٠٨) .

ويرتبط الجزء السابق كذلك ببعض مقومات الصحة النفسية وهي تنمية الشعور بالرضا Satisfaction والإيمان بالقضاء والقدر حلوه ومره ، وذلك بعد أن يحسن الشخص التفكير في الأسباب ويجتهد فيها ، ويحمي هذا الشعور بالرضا الشخصي من أضرار الانفعالات Emotions الحادة بألغة الشدة ويخفف شعوره بالحزن Sadness إذا صادف أحداثًا Events غير سعيدة في حياته ، وهنا حث ابن قيم الجوزية على تحمل الشدائد والصبر عليها مبينًا أن دوام الشدة - مهما كانت قاسية - قصيرة . (ص ١٥٥ ، ٢٠٨) .

وشرح ابن قيم الجوزية بعد ذلك الطريق الموصل إلى الاستقامة ولخصه في أنه حراسة الخواطر وحفظها وعدم الانغماس فيها قبل أن تصير عزيمة أو إرادة ، فدفع الخواطر أيسر من دفع الإرادة ، وبين أن الطريق إلى حفظ الخواطر هو العلم باطلاع الرب على أحوال العبد والحياة والخشية منه ومعرفة أضرار الخواطر وتنافيها مع الإيمان : (ص ٢٢١ ، ٢٢٢) .

ويرتبط الجزء السابق ببعض المفاهيم السيكولوجية وهي الزهد وعدم الإفراط في إشباع الشهوات والدوافع الأولية Primary Drives كالجوع والعطش وخفض مستوى الطموح فيما يتعلق باحتياجات العبد من الممتلكات والثروات مما يحقق له قدرًا أكبر من الشعور بالأمن . ويبعده عن التوتر Tension الزائد والصراع Conflict مع الآخرين بغية

الاستئثار بمتاع الدنيا (ص ٣٠ ، ٢٢١) .

وفي فصل تقسيم الناس من حيث القدرة العلمية والعملية : يشير ابن قيم الجوزية إلى أن من الناس من تغلب القوة العلمية فيعرفون حقائق الأمور ولكنهم يكسلون عن العمل أي أنهم لا يعملون بعلمهم ، وهناك صنف آخر من الناس تغلب عليهم القوة العملية فتقوى إرادتهم على العمل ويسيرون في طريق السعادة والزهد ولكنهم يجهلون العقائد وأوجه الشبهات في الأعمال والأقوال وتكون عبادتهم مجاراة لعبادة قومهم وأصحابهم دون علم صحيح بالدين وبالشريعة .

ويحتاج العبد إلى التوازن بين القوتين حتى يحسن عمله وتستقيم عبادته . (ص ٢٣٢ ، ٢٣٣) .

ويرتبط الجزء السابق ببعض المفاهيم السيكولوجية وهي الإيمان بالله وقوة المعتقدات الدينية وأداء الفرائض والعبادات والتوازن بين العلم بالدين والعمل به (ص ٢٣٢ ، ٢٣٣) والتيقن من وجود سند قوي يعتمد عليه العبد ويؤمن بأنه لا يملك النفع ولا يدفع الضر إلَّا هو ، مما يخفف من شعوره بالمشقة Stress التي يواجهها في تفاعلاته Interactions .

وتناول ابن قيم الجوزية بعد ذلك أهمية أن يتحلى العبد بالإرادة والزهد والتوكل والصبر والاستبشار والخوف والرجاء والشكر والمحبة والشوق حتى تحسن عبادته .

فالإرادة هي تجريد القصد وجزم النية والجد في الطلب (ص ١٧٦) أي تجرد المحب عن الإرادة حتى تصير إرادة محبوبه هي إرادته هو ؛ فالحب هو موافقة المحبوب في إرادته .

وتكون الإرادة كاملة عندما يكون مرادها شريفًا وعندما يكون السبيل إليها نافعًا . ويزيد في شرف الإرادة أنها لا تسبب ضررًا كما لا تشغل عما هو أنفع منها ؛ أما الزهد فيعرفه ابن قيم الجوزية بأنه حبس النفس عن الملذات وإمساكها عن فضول الشهوات ومخالفة الهوى (ص ٢٨٣) . وهنا بين أن المؤمن يبتلى على قدر دينه ، فإن كان في دينه صلابة اشتد عليه البلاء ؛ وأشد أنواع البلاء هو ما يقتضي مخالفة دواعي النفس والطبع ، وهو على يدل شدة الورع ؛ ومن أمثلته سيدنا يوسف بامرأة العزيز رغم جمالها الوافر ويتساوى هذا الابتلاء مع ابتلاء سيدنا إبراهيم بذبح ولده سيدنا إسماعيل ، علاوة على هذا يعد الإيثار دليلًا على الحب ، ولا يمكن تصور وجود الإيثار دون رغبة ونوازع

إلى غير المحبوب يقاومها المحب ، ويوضح أن الخضوع للشهوة يكون بسبب الجهل بمترتباتها أو ضعف عن مقاومتها ، وهنا يميز بين النفس الأمارة والنفس المطمئنة ؛ فالنفس الأمارة هي التي تستجيب لدواعي الشهوة ، أما النفس المطمئنة فلا تجد الشهوة إليها سبيلًا (ص ٢٨٤ - ٢٨٩) .

أما التوكل فهو تفويض كل الأمور إلى اللَّه واللجوء إليه لتدبير الأمر وكفاية الهم (ص ٣١٧) . والتوكل متعلق بقوة الإيمان ، فكلما قوى الإيمان قوى التوكل على اللَّه . ولا يعني التوكل إغفال الأسباب مطلقًا ، ولكن ينبغي ألَّا يصرفنا التفكير في الأسباب عن التفكير في المسبب مع وجوب السكون والرضا بالقضاء والقدر بعد إحسان العمل (ص ٣٢٣) .

أما الصبر فهو حبس النفس على المكروه وعقل اللسان عن الشكوى والتحمل وانتظار الفرج والاستبشار باختيار اللَّه ؛ فالإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر ، والمؤمن الحق هو من يشكر اللَّه على النعماء ويصبر على البأساء (ص ٣٢٩ - ٣٤٥) .

والحزن هو انخلاع السرور وملازمة الكآبة أسفًا على ما فات أو توجعًا على ممتنع ، وهو من منازل العوام ؛ لأن فيه نسيان فضل اللَّه وهو ليس من الإيمان ، ومن دعاء الرسول : « **اللَّهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدَّين وغلبة الرجل** » ، فالحزن هو الألم على أمر مضى ، والهم هو الخوف من أمر آت (ص ٣٤٥ ، ٣٤٦) . وذلك لأن شدة الحزن تضعف العزيمة والأوْلَى أن يجتهد الإنسان كي يعوض ما فاته .

أما الخوف فهو : « الانخلاع عن طمأنينة الأمن والتيقظ لنداء الوعيد والحذر من سوء العقاب » (ص ٣٤٨) والخوف من أركان الإيمان الثلاثة وهي : الخوف والرجاء والمحبة ، وينشأ الخوف من ثلاثة أمور وهي :

١ - المعرفة بقبح الجناية .

٢ - تصديق الوعيد الذي فرضه اللَّه على المعصية .

٣ - الخوف من إقفال باب التوبة (ص ٣٥١) .

أما الحب فهو إيثار المحبوب على النفس دون انتظار تعويض أو متاجرة ؛ فالإيثار هو دليل المحبة الصادقة ، ومن شروط الإيثار احتياج المؤثر إلى الشيء فإن لم يكن محتاجًا إليه يسمى العطاء هنا بالكرم والسخاء ، ولا يجوز الإيثار في كل الأمور ، ففي الطاعات

ينبغي التسابق والمنافسة ويكون الإيثار في الأمور التي تضيق عن الاشتراك والمزاحمة عليها كالطعام والشراب واللباس (ص ٣٦٧ - ٣٧٠) .

ويفرق ابن القيم بين الحب والخوف ؛ فيوضح أن الخوف متعلق بالأفعال وسببه جناية العبد ولذا يزول في الجنة ، أما الحب فمتعلق بالذات ولهذا ، يزداد والخوف سببه توقي المكروه والمترتب على الأفعال أما الحب فسببه الكمال (ص ٣٥٣) .

ويقترن حب العبد لربه بالخضوع والمهابة والعبودية ولا يجوز ذلك في الحب بين المخلوقين ؛ ويذكر ابن قيم الجوزية أن الحب بين الناس ثلاثة أنواع :

١ - محبة طبيعية مشتركة كحب الجائع للطعام .

٢ - محبة رحمة وإشفاق كحب الوالد لولده .

٣ - محبة أنس وألفة كحب المشاركين في صناعة أو علم أو تجارة أو سفر لبعضهم البعض . وكلها تستلزم التعظيم والخضوع (ص ٣٦٥ ، ٣٦٦) .

ويضيف ابن قيم الجوزية إلى تعريفات الحب ؛ أنه بذل الجهد في معرفة المحبوب أو هو هيجان القلب عند ذكر المحبوب وهو حفظ الحدود وهو رضا من المحبوب لا يمكن الانصراف عنه وهو السخاء بالنفس للمحبوب والاجتهاد في خدمته (ص ٣٨٢) .

ويعرف الشوق بأنه : « هبوب القلب إلى الغائب وإعواز الصبر عن فقده وارتياح السر إلى طلبه » والشوق أثر من آثار المحبة ، فالمحبة هي الأصل والشوق فرعها (ص ٤٠٢) .

ومن فروع المحبة بالإضافة إلى الشوق حمد المحبوب والرضا عنه وشكره وخوفه ورجاؤه والتنعم بتذكره والسكون إليه والأنس به (ص ٤٠٢) . ويذكر البعض أن الشوق يزول باللقاء ؛ لأنه طلب فإذا وقع المطلوب زال الطلب ، ويقول البعض الآخر : إن الشوق يزيد باللقاء ؛ لأن الشوق من آثار الحب ولوازمه ، ويرجع ابن قيم الجوزية أن الشوق منقسم إلى قسمين ، الأول : شوق إلى اللقاء وهو يزول بحدوث اللقاء وشوق في حال اللقاء وهو المتعلق بالمحبوب هو شوق لا يزول ؛ لأن النفس في شوق دائم إلى هذا التعليق (ص ٤٠٨ ، ٤٠٩) .

وفي الجزء السابق قدم ابن قيم الجوزية تعريفات لعدد من الانفعالات وبين مظاهرها والفروق بينها ؛ ومن تلك الانفعالات الحب Liking والحزن Sadness والخوف Fear (ص ٢٧٧ - ٤٢٨) .

فعندما تحدث عن الحب بين العبد وربه قدم عدة تعريفات يمكن اعتبارها مظاهر

للحب ينسحب بعضها على حب المخلوقين ومن تلك التعريفات :

١ - موافقة Agreement المحبوب في إرادته حتى تصير إرادة المحبوب هي إرادة المحب (ص ٢٧٧) .

٢ - إيثار المحبوب على النفس دون توقع للتعويض Compensation أو المبادلة Exchange ، وقد وضح ابن قيم الجوزية أن الإيثار Altruism هو دليل الحب ، وعرفه بأنه تنازل المحب عن الشيء المرغوب لمحبوبه رغم احتياجه إليه (ص ٢٦٨) .

٣ - بذل الجهد في معرفة المحبوب ومرضاته وهيجان القلب عند ذكره وهو بذلك يدرك الجوانب العقلية Intellectual (والممثلة في معرفة المحبوب) والسلوكية Behavioral (والممثلة في محاولة إرضائه) والانفعالية Emotional (والممثلة في هيجان القلب أي ردود الأفعال الحشوية والجسمية والمترتبة على ذكر المحبوب ولو رمز) (ص ٣٨١ - ٣٨٢) .

علاوة على هذا يبين ابن قيم الجوزية أن للحب مقومات ومظاهر أخرى ؛ منها الشوق إلى المحبوب والرضا عنه وشكره (ص ٤٠٢) ، وأن له ظروفًا تيسره كمشاعر الإشفاق والمشاركة Participation والرفقة (ص ٣٦٥ ، ٣٦٦) .

بالإضافة إلى الحب عرف ابن القيم الحزن بأنه انخلاع السرور Pleasure ودوام الاكتئاب Depression إما على أمر فائت أو ممتنع وصعب المنال وبين أن للاكتئاب تأثيرًا مهبطًا للطاقة Energy والنشاط Activity والإرادة Will (ص ٣٤٥ - ٣٤٧) ، أما الخوف فقد عرفه بأنه توقع مكروه مترتب على الأفعال Actions والحذر من سوء العقاب Punishment (ص ٣٤٨ - ٣٥٣) .

وفي الجزء الأخير من الكتاب يعرض مراتب المكلفين في الدار الآخرة وطبقاتهم فيها مبينًا أنهم يتدرجون في ثمان عشر طبقة في أعلاها الرسل والأنبياء وأئمة العدل والمجاهدون في سبيل الله وفي أسفلها طبقة الجهال واتباع الكفرة ثم طبقة الجن ومنهم المؤمن والكافر (ص ٤٢٩ - ٢٧٥) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام .

* * *

روضة المحبين ونزهة المشتاقين [1]

عرض : د . شعبان جاب الله رضوان

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٤٨٨ صفحة من القطع الكبير ، ويتكون من تسعة وعشرين بابًا نعرض لها على النحو التالي :

الباب الأول : في أسماء المحبة :

ويتناول الأسماء المختلفة في الحب ويذكر منها خمسين ؛ مثل : العلاقة والهوى والصبوة والعشق والحزن والاكتئاب والأرق والهيام والود وهذه الأسماء تتصل بموضوع الانفعالات في علم النفس العام (انفعال الحب) وتشير إلى معاني الحب ومظاهره وآثاره النفسية على الإنسان (ص ١٦) .

الباب الثاني : في اشتقاق هذه الأسماء ومعانيها :

ويدور حول الأصول والاشتقاقات والمعاني اللغوية لأسماء المحبة التي ذكرت في الباب الأول . فالمحبة مثلًا أصلها الصفاء ؛ لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها حبب الأسنان ، والهوى ميل النفس إلى الشيء ، والصبابة هي رقة الشوق وحرارته ، والوجد هو الحب الذي يتبعه الحزن ، والجوى هو الرقة وشدة الوجد من عشق أو حزن ، والشجو هو حب يتبعه هم أو حزن ، والشوق هو سفر القلب إلى المحبوب وكل هذه المعاني تتصل أيضًا بموضوع الانفعالات ومستوياتها .

---

(١) بيروت : دار الكتب العلمية (١٩٨٣م) (٥٢٦ ص) .

ويتضمن هذا الباب إشارة لمصطلح « الاكتئاب » فيعرفه المؤلف بأنه : « افتعال من الكآبة وهي سوء الحال والانكسار والحزن » وتنتج من حصول الحب وفوت المحبوب .

ويتصل مصطلح الاكتئاب Depression بعلم النفس الإكلينيكي (ص ١٧ - ٥٣) .

الباب الثالث : في نسبة هذه الأسماء بعضها إلى بعض هل هي بالترادف أو التباين :

ويتناول قضية الترادف والتباين بين الأسماء عمومًا ، وينتهي إلى أن الأسماء الواردة للمحبة هي أسماء متباينة في المعنى ، ولكنها تشير إلى مسمى واحد هو المحبة (ص ٥٤) .

الباب الرابع : في أن العالم العلوي والسفلي إنما وجدا بالمحبة ولأجلها ، وأن حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم وحركات الملائكة والحيوانات وحركة كل متحرك إنما وجدت بسبب المحبة : ويتناول تقسيم الحركات إلى ثلاثة أنواع هي : حركة إرادية وحركة طبيعية وحركة قسرية ، ويتصل هذا المعنى بتصنيف السلوك إلى سلوك إرادي وآخر غير إرادي في علم النفس الفسيولوجي Physiological Psychology . ثم يشير المؤلف إلى أن حركة الأفلاك وما حوته من حركات العالم العلوي والسفلي تابعة للحركة الإرادية المستلزمة للمحبة .

فالمحبة والإرادة أصل كل فعل ومبدأه ، فلا يكون الفعل إلَّا عن محبة وإرادة .

كما أن الحركة الاختيارية أصلها الإرادة ، والحركتان القسرية والطبيعية تابعتان لها (ص ٥٥ - ٦٥) .

الباب الخامس : في دواعي المحبة ومتعلقها :

ويهتم بالأسباب والصفات التي تؤدي إلى وجود علاقة حب بين طرفين ، والمشاعر التي تتولد لدى المحب لوجود هذه الصفات في المحبوب ؛ فتتأثر المحبة بوصف المحبوب وجماله ، وشعور المحب به ، والعلاقة والملائمة بينهما ، فإذا قويت هذه الجوانب قويت المحبة والعكس أيضًا تستدعى مشاكلة ومناسبة بين المحب والمحبوب ، ويشير إلى علاقة الحب بالجماع ، من حيث هل يقوى الجماع بالحب أم يضعفه ويفسده . ويرتبط هذا الباب بمفهوم الانفعالات (وبخاصة الحب ، والدافع الجنسي) . (ص ٦٦ - ٩١) .

الباب السادس : في أحكام النظر وغائلته وما يجني على صاحبه :

ويتناول حكم الدين في النظرة إلى المحبوب ، وضرورة غض البصر ؛ لأن ذلك أصل لحفظ الفرج ، وهناك أنواع من النظرات منها نظرة الفجأة غير المتعمدة وهي غير المحرمة ، والنظرة الثانية المقصودة وهي المحرمة . ومن فوائد غض البصر تخليص القلب من ألم الحسرة ويورث القلب نورًا ، ويفتح طريق العلم وأبوابه ويسهل عليه أسبابه .

الباب السابع : في ذكر مناظرة بين القلب والعين ولوم كل منها صاحبه والحكم بينهما :

هذا الباب عبارة عن محاورة بين الذي يعتقد أنه مركز العواطف والانفعالات ، والعين باعتبارها جهاز الإبصار ، وهي مناظرة رمزية يتبادلان فيها الاتهامات مِنْ حيث مِنْ منهما الأساس والسبب المباشر في وجود انفعال الحب ومن ثم في المعصية ، وينتهي المؤلف من هذه المناظرة إلى أنهما شريكان في ذلك .

الباب الثامن : في ذكر الشُبه التي احتج بها من أباح النظر إلى من لا يحل له الاستمتاع به وأباح عشقه : وهنا يسوق الكتاب الحجج والأدلة التي استند إليها من أباح النظر إلى من لا يحل له الاستمتاع به وأباح عشقه ، وقد فند هذه الأدلة ورد عليها بعد ذلك .

الباب التاسع : في الجواب عما احتجت به هذه الطائفة وما لها وما عليها في هذا الاحتجاج :

يتناول هذا الباب الردود المفصلة على الحجج والأدلة الواردة في الباب السابق والتي استند إليها من أباح النظر والعشق إلى من لا يحل له الاستمتاع به ، ويفندها في ثلاثة أقسام : أحدها صحيحة لا حجة لهم فيها ، والثاني أدلة كاذبة عمن نسبت إليه من وضع الفساق والفجار ، والقسم الثالث أدلة مجملة محتملة لخلاف ما ذهبوا إليه . ويتناول أيضًا مسألة جواز الاستمناء مخافة الزنى ، وجواز وطء الزوجة في رمضان عند الضرورة .

الباب العاشر : في ذكر حقيقة العشق وأوصافه وكلام الناس فيه :

هناك تفسيرات متعددة للعشق ، فيذهب الأطباء قاطبة إلى أنه مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا ، يجلبه المرء لنفسه من خلال تسليط فكره على استحسان بعض الصور والشمائل ؛ وسببه النفساني الاستحسان والفكر ، وسببه البدني ارتفاع بخار رديء إلى الدماغ عن مني محتقن . ويذهب بعض الفلاسفة إلى أن العشق طمع يتولد في القلب ويتحرك وينمى ، وكلما قوى ازداد صاحبه في الاهتمام والتمادى في الطمع حتى يؤديه ذلك إلى الغم والقلق ثم إلى الجنون . وذكر أفلاطون أن العشق حركة النفس الفارغة . وفي نهاية هذا الباب يشير المؤلف إلى أن من مظاهر العشق الضعف في الرأي واللجلجة في الكلام والزلل والعثار والرعدة في الأطراف .

وهنا إشارة لبعض المفاهيم التي تتصل بعلم النفس الإكلينكي ؛ مثل : الوسواس ،

والجنون والقلق (ص ١٣٧ - ١٤١) .

الباب الحادي عشر : في العشق هل هو اضطراري خارج عن الاختيار أو أمر اختياري واختلاف الناس في ذلك وذكر الصواب فيه :

انقسم الناس في هذا إلى فريقين أحدهما يقول بأنه أمر اضطراري وهو بمنزلة محبة الظمآن للماء البارد والجائع للطعام ، أما الفريق الآخر فيذهب إلى أن العشق اختياري تابع للهوى وإرادة النفس . وفصل النزاع بين الفريقين أن مبادئ العشق وأسبابه اختيارية ؛ فالنظر والتفكر أمر اختياري ، فإذا أتى بالأسباب كان ترتب المسبب عليها بغير اختياره .

الباب الثاني عشر : في سكرة العشاق :

ويتناول تعريف السكر وأسبابه ؛ فالسكر هو لذة يغيب معها العقل ، وبهذا يتضمن السكر معنيين : وجود لذة حسية وعدم تميز بين الخطأ والصواب في الأمور ؛ ومن أسباب السكر سماع الأصوات المطربة التي توجب اللذة ، وتحرك النفس نحو محبوبها ؛ فيحصل بتلك الحركة الشوق والطلب من التخيل للمحبوب (ص ١٤٢ - ١٤٨) .

الباب الثالث عشر : في أن اللذة تابعة للمحبة في الكمال والنقصان :

يتضمن هذا الباب إشارة إلى أن هناك علاقة بين المحبة واللذة ، فكلما قويت المحبة قويت اللذة بإدراك المحبوب ؛ فاللذة تنشأ عن إدراك الملائم كما أن الألم ينشأ عن إدراك المنافي ، واللذة أمر وجداني ، كما أن كل حي له علم وإحساس وله عمل وإرادة .

وهناك ثلاثة أنواع من الأسماء متقاربة المعاني وهي أمور متلازمة عند حصول المراد المحبوب :

النوع الأول : الشهوة والإرادة والميل والطلب والمحبة والرغبة .

النوع الثاني : الذوق والجد والوصول والظفر والإدراك والحصول والنيل .

النوع الثالث : اللذة والفرح والنعيم والسرور وطيب النفس وقرة العين .

وبعض هذه المفاهيم ذات صلة بموضوع الانفعالات في علم النفس العام .

وهناك ثلاثة أقسام للذة هي :

١ - **اللذة الجسمانية** : (لذة الأكل والشراب والجماع) .

٢ - **اللذة الخيالية** : الرئاسة والتعاظم على الخلق .

٣ - **اللذة العقلية الروحية** : لذة العلم والمعرفة والاتصاف بصفات الكمال من الكرم

الإنسان . ويقترب هذا المعنى من مفهوم ضبط الذات Self - Control في علم النفس (ص ٣١٦ - ٣٥١) .

الباب الرابع والعشرون : في ارتكاب سبل الحرام وما يفضي إليه من المفاسد والآلام :

ويتناول سبل الحرام وعواقبها على الإنسان ومن أسوأها الزنى ؛ لأنه يجمع خلال الشر كلها من قلة الدين وذهاب الورع وفساد المروءة وقلة الغيرة ، ومن موجباته غضب الرب والكآبة على الوجه وظلمة القلب ويسلب فاعله العفة و البر و العدالة . أما السبيل الآخر فهو اللواط نسبة إلى قوم لوط حيث كان الرجل منهم يأتي الرجل . ومن الفواحش أيضًا إتيان ذي رحم محرم . واللواط يتصل بالاضطرابات الجنسية كما ذكرنا آنفًا (ص ٣٥٢ - ٣٧٩) .

الباب الخامس والعشرون : في رحمة المحبين والشفاعة لهم إلى أحبائهم في الوصال الذي يبيحه الدين :

وتعني الشفاعة إعانة الغير ومساعدته على أمر يعجز عن فعله مستقبلًا بمفرده ؛ مثل : إعانة شخص على الزواج من محبوبه ، فكل من أعان غيره على أمر بقوله أو فعله صار شفيعًا له ، ومن أفضل أنواع الشفاعات وأعظمها أجرًا عند اللَّه تلك الشفاعة التي تتضمن اجتماع محبوبين على ما يحبه اللَّه ورسوله .

ويتصل مفهوم الشفاعة بمعنى (المساعدة) بموضوع العلاقات الشخصية المتبادلة Interpersonal Relationahips في علم النفس الاجتماعي (ص ٣٧٧ - ٣٩٣) .

الباب السادس والعشرون : في ترك المحبين أدنى المحبوبين رغبة في أعلاهما :

يتناول هذا الباب النفوس الفاضلة والأبية التي لا ترضى بالدون أو الذل لمحبوب غير اللَّه ، ذلك أن ملاك الأمر كله الرغبة في اللَّه وإرادة وجهه والتقرب إليه ، وينقسم الراغبون إلى ثلاثة أنواع :

١ - راغب في اللَّه . ٢ - راغب فيما عند اللَّه . ٣ - راغب عن اللَّه .

فالمحب راغب فيه ، والعامل راغب فيما عنده ، والراضي بالدنيا من الآخرة راغب عنه .

الباب السابع والعشرون : فيمن ترك محبوبه حرامًا فبذل له حلالًا أو أعاضه اللَّه خيرًا منه :

يتناول هذا الباب مبدأ « **أن من ترك للَّه شيئًا عوضه اللَّه خيرًا منه** » فلو اتقى السارق اللَّه وترك سرقة المال المعصوم للَّه لآتاه اللَّه مثله حلالًا ، وإذا ترك الزاني ركوب ذلك

الفرج حرامًا للَّه لأثابه بركوبه أو ركوب ما هو خير منه حلالًا .

الباب الثامن والعشرون : فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام على لذة الوصال الحرام : يدور هذا الباب حول نوعين من الرجال : أحدهما آمن إيمانًا راسخًا بالآخرة وما أعده اللَّه فيها من ثواب لمن أطاعه ، ومن عقاب لمن عصاه فاختار أسهل العقوبتين (عقوبة الدنيا) ، والثاني : رجل غلب عقله على هواه فعلم ما في الفاحشة من الفاسد وما في العدول عنها من المصالح فآثر الأعلى على الأدنى ؛ وعاقبة ذلك المسرة التامة في الدنيا وإن هلك فالفوز العظيم ؛ لأن اللَّه تعالى لا يضيع ما تحمل عبده لأجله .

الباب التاسع والعشرون : في ذم الهوى وفي مخالفته من نيل المنى :

يتناول هذا الباب الأخير من الكتاب مفهوم الهوى ، والذي يعني ميل الطبع إلى ما يلائمه ، وهذا الميل خلق في الإنسان لضرورة بقائه ، فلولا ميله إلى الطعام والشراب والنكاح ما أكل ولا شرب ولا نكح . ولا ينبغي ذم الهوى مطلقًا أو مدحه مطلقًا ، وإنما المفرط من النوعين وهو زاد على جلب المنافع ودفع المضار . ويمكن للإنسان أن يتمرن على دفع الهوى ذي العواقب المؤذية من خلال عدة أمور منها : العزيمة والصبر وقوة النفس وإدراك عاقبة طاعة الهوى ، وعاقبة كف الهوى ، وإيثار لذة العفة على لذة المعصية ، والعلم بأن مخالفة الهوى تورث العبد قوة في بدنه وقلبه ولسانه ، وأن الهوى داء ودواؤه مخالفته ، وأن اتباع الهوى يحل العزائم ويضعفها ، وهو أصل العداوة والشر والحسد الواقع بين الناس ، كما أن مخالفة الهوى توجب شرف الدنيا وشرف الآخرة ، وعز الظاهر وعز الباطن .

يتصل مفهوم الهوى بمصطلح الدوافع الفطرية في علم النفس العام ، وبخاصة الدافع الجنسي Sexual Motive كما أن الطرق والوسائل التي ذكرت آنفًا للتدريب على دفع الهوى ترتبط بالإرشاد النفسي Counseling Psychology (ص ٤٦٩ - ٤٨٦) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام General Psychology .

* * *

تحفة المودود بأحكام المولود [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٢٥٦ صفحة من القطع المتوسط ، ويشتمل على مقدمة بقلم المحقق ثم ترجمة للمؤلف ، وتحقيق نسبة الكتاب إليه ، ثم مقدمة صغيرة للمؤلف .

وبعد ذلك أبواب الكتاب وهي ١٧ بابًا ؛ يحتوي معظمها على فصول فرعية تعالج مسائل نوعية ، وفي نهاية الكتاب فهرس أطراف الأحاديث لكتاب تحفة الودود بأحكام المولود ، ثم تصحيح الأخطاء المطبعية ، وأخيرًا فهرسًا لموضوعات الكتاب بشيء من التفصيل .

ويتألف الكتاب من سبعة عشر بابًا سنعرض لها بترتيبها في الكتاب .

والباب الأول : في استحباب طلب الأولاد حيث ورد ذلك صراحة في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ، وذلك حكمة من اللَّه ﷻ ؛ فالولد الذي يخرج من صلب ابن آدم ، ويعبد اللَّه ولا يشرك به شيئًا ، يستغفر لأبويه ويدعو لهم من بعدهم ؛ فترتفع منزلتهم ، بل إنه قد يكون السبب في دخول أبويه الجنة كما ورد في أحاديث الرسول ﷺ .

أما الباب الثاني : فهو في كراهية تسخط البنات ، فاللَّه ﷻ قسم حال الزوجين إلى أربعة أقسام اشتمل عليها الوجود ، وأخبر أن ما قدره بينهما من الولد قد وهبهما إياه .

---

(١) تحقيق : عبد الغفار سليمان ، ط القاهرة : المكتب الثقافي للنشر والتوزيع (١٩٨٦م) ، (٢٥٦ ص) .

وحري بالعبد ألّا يتسخط مما وهبه اللّه له ، فالتسخط بالإناث من أخلاق الجاهلية ، التي ذمها اللّه ﷻ في كتابه الكريم . ورفعًا لمنزلة الإناث : ورد عن رسول اللّه ﷺ أن من يعول جاريتين يأتي يوم القيامة مع الرسول الكريم ؛ كما أن البنات ستر لأبويهم من النار ، ويدخلون أبويهم الجنة بإذن اللّه ، وهكذا يكون للعبد في بناته خير في الدنيا والآخرة .

وفي الباب الثالث : يحدثنا ابن قيم الجوزية عن استحباب بشارة من ولد له ولد وتهنئته ؛ لأن البشارة تسر العبد وتفرحه ؛ ولذا استحب للمسلم أن يبادر إلى مسرة أخيه وإعلامه بما يفرحه ، وأن يهنأه سواء كان المولود له ولدًا أم بنتًا ؛ وفي ذلك حرص من الإسلام على توطيد أواصر المحبة والترابط بين المسلمين ، وتدعيم للعلاقات الاجتماعية الطيبة ، والتفاعل الاجتماعي السليم .

ثم يزلف بنا ابن قيم الجوزية إلى **الباب الرابع** ، ليعلمنا بعضًا من آداب الإسلام وسننه فيما يجب أن نعامل به أبنائنا الذين يولدون لنا ؛ فيناقش مسألة استحباب أن يؤذن في أذن الطفل اليمنى ، والإقامة في أذنه اليسرى تأسيًا برسول اللّه ﷺ ، ويسرد الأحاديث والسير التي تدل على أنه فعل ذلك مع حفيده الحسن بن علي رضي الله عنهما .

ولعل السر في ذلك يكمن في أن أول ما ينبغي أن يقرع أذن الطفل الكلمات التي تدل على كبرياء وعظمة من خلقه وأوجده ، وأول ما يدخل به الإسلام ؛ كما أن ذلك يبعد عنه وسوسة الشيطان .

ويذكرنا ابن القيم في **الأبواب الخامس ، والسادس ، والسابع** : بعدد من السنن التي غفلنا عنها ، ويناقشها باستفاضة ، ويورد في ذلك الآراء المؤيدة لاستحبابها ، والآراء المخالفة لذلك ؛ ليخلص في النهاية إلى الرأي الذي يجد له في نفسه قبولًا .

ففي الباب الخامس : يحدثنا عن استحباب تحنيك الطفل ، والتحنيك ، مضغ شيء ما (تمر في الغالب) ووضعه في فم الصبي ، وقد روى في بعض السير أن الرسول فعل ذلك .

وفي الباب السادس : يحدثنا حديثًا مستفيضًا عن العقيقة وأحكامها ، وهذا الباب يتألف من ٢٢ فصلًا . والعقيقة من السنن المأخودة عن رسول اللّه ﷺ ، وإن كان حولها بعض الخلاف ؛ لأنها من فعل أهل الكتاب ، ويرى ابن القيم أن الرسول ﷺ عدل عن اسمها ولم يعدل عن فعلها ، ويورد لنا الأدلة والأسانيد التي تؤيد استحبابها والأدلة التي تثبت عكس ذلك . ويذكر لنا أصل العقيقة في اللغة (وأصلها الشعر الذي

يكون على رأس الصبي حين يولد) . ويستحب أن يسمى المولود يوم السابع ويعق عنه ؛ والعقيقة أفضل من التصدق بثمنها ولو زاد ، وتكون للذكر والأنثى ويجوز الاقتراض لتقديمها ، لما لها من فوائد ، كما يستحب طبخها دون إخراج لحمها نيئًا ، وهي تؤكل ويهدى منها .

وعلى ذكر العقيقة ، يحدثنا في **الباب السابع** عن حلق رأس المولود والتصدق بوزن شعره ، لما ورد عن الرسول وآل بيته من أنهم فعلوا ذلك ؛ كما يعلمنا أيضًا كيف يكون الحلق ، وينهانا عن القزع حتى لا نتشبه بالأمم السابقة .

والباب الثامن : في ذكر تسميته وأحكامها ووقتها ويتألف من عشرة فصول :

والثابت أن المولود يسمى في اليوم الثالث في بعض الآراء ، وفي السابع في البعض الآخر ، وهي الفترة التي يتضح فيها إن كان المولود سيبقى على قيد الحياة أم لا . وقد أجاز البعض تسميته يوم وجوده والأمر فيه بعض الاختلاف ، وقد أوصانا الرسول ﷺ بحسن اختيار أسماء أبنائنا ؛ لأنهم يدعون بها يوم القيامة ، ويوصينا بخير الأسماء وهي ما عُبِّد وما حُمِّد ، ويذكر الأسماء التي تحرم التسمية لأسباب مختلفة ؛ ومنها ملك الموت ، وسلطان السلاطين ، وشاهنشاه ، كما تحرم التسمية بأسماء الشياطين والفراعنة والجبابرة ، وأسماء الملائكة ، والأسماء ذات المعاني التي تكرهها النفس ؛ مثل : « حرب ومرة » وأسماء اللَّه سبحانه كالصمد والأحد ، هذا ويجوز تغيير الاسم لمصلحة ، كما يجوز تكنية المولود بأبي فلان ، كما يجوز التسمية بأكثر من اسم ، ويستحب التسمية بأسماء الرسول ﷺ دون التكنية بكنيته .

ويخصص **الباب التاسع** لموضوع الختان وأحكامه ، ويشتمل على أربعة عشر فصلًا :

ويتحدث فيه عن معنى الختان ، ويذكر لنا أن أول من اختتن إبراهيم أبو الأنبياء . والختان سنة للرجال ، مكرمة للنساء ؛ لذا فحكمه يعم الذكر والأنثى ، مع اختلاف التسمية في حالة الذكور عنه حالة الإناث . كما يحدد لنا وقته وحكمته وفوائده ، من الطهارة والنظافة والتزيين وتحسين الخلقة وتعديل الشهوة ، ويبين لنا القدر الذي يؤخذ في الختان ، وهي من الأمور التي لا يراعيها الكثيرون ، فينتج عن إهمالها الكثير من المشكلات خاصة في حالة الإناث .

والباب العاشر : يناقش فيه مسألة ثقب أذن الصبي والبنت ، وخلص إلى أنه يجوز للبنت باعتباره من مظاهر التزين ، وهو مكروه للصبي ؛ لأنه مدعاة للتخنث .

أما الأبواب الحادي عشر والثاني عشر ، والثالث عشر : فهي مخصصة لموضوعات تتعلق بالتعامل مع الأطفال وعلاقة ذلك بأداء الفرائض ، خاصة الصلاة ، **فالباب الحادي عشر** في حكم بول الغلام والجارية قبل أن يأكلا الطعام ، وتتفق الآراء على أن بول الغلام الرضيع ينضح بالماء ، أما بول الجارية فَيُوجِبُ غسل الثياب ما لم يطعما ، فإذا طعما وجب الغسل لكليهما . وقياسًا على البول يناقش حكم ريقه ولعابه **في الباب الثاني عشر** . ويرى أن الشارع الحكيم لم يأمر بغسل ثياب من يربي الأطفال ؛ لأنهم في حياتهم المبكرة يكونون كثيري القيء ، وبالتالي تجوز الصلاة بالملابس التي لحقها لعاب الطفل .

ثم يعرض **في الباب الثالث عشر** لجواز حمل الأطفال في الصلاة ، وإن لم يُعلم حال ثيابهم ، فقد كان الرسول ﷺ يصلي وهو حامل أبناء بناته ، وهو سلوك يدل على الرحمة بالأطفال ، وتعليم التواضع ، ومكارم الأخلاق . **أما الباب الرابع عشر** : فهو عن استحباب تقبيل الأطفال ، وقد حث الرسول ﷺ على تقبيل الأطفال دليل الرحمة بهم والشفقة عليهم وكان هو نفسه يفعل ذلك .

ونأتي إلى أهم ثلاثة أبواب في الكتاب من وجهة نظر علم النفس الحديث ، وهي : **الباب الخامس عشر ، والسادس عشر والسابع عشر** :

فالباب الخامس عشر في وجوب تأديب الأولاد وتعليمهم والعدل بينهم ، وهو باب في علم النفس التربوي Educational Psychology فالقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة تحض على تربية الأولاد وحسن رعايتهم ، وسد حوائجهم وإشباع دوافعهم لمنع الانحراف (١٧٨ - ١٨٠) (وإشباع الدوافع من الموضوعات التي تدرس في علم النفس العام) ومن حقوق الأولاد أيضًا العدل بينهم في العطاء والمنع ؛ لأن التمييز يؤدي إلى بعض مظاهر السلوك العدواني ، والإحباط .

(والعطاء والمنع تقابل الإثابة والعقاب طرق التدعيم Reinforcement ، وهو مبدأ يستخدم في تجارب التعليم Learning كما يستخدم كوسيلة مساعدة لإكساب الأطفال بعض أشكال السلوك والمهارات) (ص ١٨٠ ، ١٨١) . وقد كانت وصية اللَّه للآباء بأولادهم سابقة على وصية الأولاد بآبائهم ، فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى ، فقد أساء إليه غاية الإساءة ، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم لهم وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه ، فأضاعوهم صغارًا فلم ينتفعوا بأنفسهم ، ولم ينفعوا آباءهم كبارًا (ص ١٨٢) . ومن هنا فإن كثيرًا من نظريات الطب النفسي والصحة

الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (١)

عرض : د . عبد المنعم شحاتة

عرض الكتاب :

وضع ابن القيم هذا الكتاب ردًّا على السؤال عن الحيلة في دفع بلية ابتلي بها رجل ؛ لذلك بدأ بتوضيح ما بيَّنه رسول اللَّه ﷺ من أن لكل داءٍ دواء (ص ٩) ، وأنفع الأدواء هو الدعاء الصادق (ص ١٢) ، والإلحاح فيه دون استعجال ، ثم بين شروط الدعاء المستجاب (ص ١٦) ، مقدمًا نماذج من الأدعية المأثورة عن رسول اللَّه ﷺ وعن صحابته (ص ١٦ – ٢٠) ، كما بين علاقة الدعاء بما قدره اللَّه ﷻ ، موضحًا ضرورة معرفة الأسباب واتخاذها وسيلة – مع الدعاء الصادق ، للعمل الصالح ، ثم بين معنى حُسن الظن باللَّه كما ورد في الأحاديث الشريفة (ص ٢٠) ، موضحًا الفرق بين حسن الظن والغرور من خلال سرد أمثلة لكل منها (ص ٤٢ – ٤٥) ، ثم معنى الرجاء وشروطه (ص ٤٥) ، ثم ينتقل إلى تبيين الضرر الناتج عن ارتكاب المعاصي ؛ ومنه : الغفلة – القلق – والخوف – ذهاب الحياء – الوحشة – الجهل – الذل – انتشار الفساد في الأرض – زوال النعم – الدخول في لعنة اللَّه ورسوله ﷺ – مَحْق بركة العمر والرزق والعلم والعمل (ص ٤٨ – ٩٦) .

ويبين – في الصفحات (٩٨ : ١٢٠) مداخل الشيطان إلى قلب العبد ، وكيف يزين له الباطل ويبرز له المعاصي ، فينطقه بالباطل ويسكت عن الحق ، وجنوده في ذلك

(١) تحقيق : عبد اللطيف آل محمد الفواعير . عمان : دار الفكر للنشر والتوزيع (١٩٨٦م) ، (٣٤٥ ص) .

هم الغفلة وحب الشهوات والغضب ، ويبين أن على المرء محاربة الشيطان ، وسد مداخله التي يدخل منها ، ويتعظ من هذه الأضرار التي تلحقها الذنوب بقلبه وبدنه ، فإذا لم يتعظ - كانت هناك عقوبات شرعية (ص ١٢٠) رادعة رتبها اللَّه ﷻ على الذنوب ، ووجب على الوالي اتباعها لدرء حدود اللَّه وكف الظالم ونصرة المظلوم .

وفي الصفحات من (١٢٣ - ١٨٨) يفصل ابن قيم الجوزية الحديث عن هذه العقوبات ويصنفها (حد - كفارة - تعذير) طبقًا لتصنيف الذنوب (كبائر وصغائر) ، فلكل ذنب عقوبة تناسبه في الشدة والأثر ، وبعد هذا العرض ، يعود ابن القيم إلى حيث بدأ كتابه ، فيرى - في صفحات (١٨٨ : ٢١٣) أن الدواء الشامل هو حب اللَّه الذي يورث القلب أنسًا باللَّه ، وثباتًا ، ونورًا يميز بين الحق والباطل ، ويسد على الشيطان مداخله .

ويبدأ الحديث عن الحب بتوضيح معناه ومراتبه (العلاقة - الصبابة - الغرام - العشق - التتيم - الخلة) وأنواعه (محبة اللَّه - محبة ما يحبه اللَّه - الحب للَّه وفيه - الحب مع اللَّه) رافضًا النوع الأخير فلا يجتمع حب اللَّه في القلب مع حب ما دونه من خلائقه ، وإذا حدث كان مشركًا وهو أكبر الكبائر ؛ ولأن العبد لا يترك ما يحبه ، ولكن يترك الأضعف محبة إلى الأقوى محبة ، وذلك إذا تمتع بقوة الإدراك وشجاعة القلب ، فإن عليه أن يترك محبة ما دون اللَّه إلى محبة اللَّه ﷻ .

ويختتم ابن القيم كتابه من (ص ٢١٤ - ٢٤٣) بتبيين أضرار ومفاسد عشق مادون اللَّه - كالنساء والفتيان .... إلخ - العاجلة منها والآجلة ؛ مثل : الاشتغال بحب المخلوق عن حب اللَّه ، وعن مصالح الدين والدنيا ، وإذا تمكن هذا العشق من القلب ، كان فساد الذهن والحواس ، ويسرد ابن قيم الجوزية قصصًا عدة لعشاق أفسدهم العشق .

وأخيرًا يشير ابن القيم - في الصفحات (٢٤٣ : ٢٥٠) إلى مشروعية عشق الزوجة ، ويعتبره من كمال الحب .

ونشير إلى أن مفهوم الحب أو العشق أحد المفاهيم النفسية التي تشير إلى الانفعالات ، وهي أحد موضوعات علم النفس العام ، والانحراف في العشق كعشق الفتيان ، أحد موضوعات علم النفس الإكلينيكي ، وثانيه العشق في السلوك وفي التفكير وفي العلاقات المتبادلة بين الأفراد ، أحد موضوعات علم النفس الاجتماعي .

يقدم ابن قيم الجوزية تفسيرًا لعلاقة الانفعال بالسلوك ؛ فالانفعال تنبيه نفسي داخلي

يوجه السلوك ؛ وأمثلة هذا التنبيه كما ورد عند ابن القيم كثيرة ، أولها الرجاء وحتى يوجه الرجاء السلوك التوجيه المطلوب استلزم - في رأي ابن القيم - ثلاثة أمور : محبة ما يرجوه الفرد خوفه من فواته ، سعيه في تحصيله (ص ٤٥) . وثانيها : المحبة ، والتي ينظر إليها ابن القيم Attitude نظرة تجعلها تقوم بدور الاتجاه في المعرفة النفسية المعاصرة ، فهذه المحبة أساس الاختيار (ص ٣٠٧) وأساس كل عمل من حق وباطل (ص ٢٠١) ، وأصل كل حركة في العالم العلوي والسفلي (ص ٢٠٦) وأصل كل دين سواء أكان حقًّا أو باطلًا (ص ٢١١) .

والمحبة أو التفضيل Liking هي المكون الرئيسي في مفهوم الاتجاه وتعطيه الشدة والوقع والقدرة التوجيهية للسلوك ، فإذا كنا نحب شيئًا ما - تبّينا اعتقادات معينة عنه ، ونتصرف بطريقة معينة نحوه ، فالحب أو التفضيل هو الموجه للمعتقدات وللسلوك والدين ليس إلَّا معتقدات أصلها محبة اللَّه ورسوله ﷺ .

ويواصل ابن القيم تفسيره للعلاقة المتبادلة بين السلوك والانفعال ، ومحددًا دور العادة في هذه العلاقة « فلا يزال العبد يرتكب الذنب حتى يهون عليه ويصغر قلبه » (ص ٦٨) و « يصير له عادة ، فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له ولا كلامهم فيه » (ص ٦٧) وهكذا يؤدي تعود الفرد المنكر إلى التهوين من أثره ؛ وهذا التهوين يماثل عملية « التبرير » التي بها يستعاد التوازن المعرفي بين ما يعتقد الفرد بضرورة عدم فعله وبين إتيانه له ، ومع تكرار إصدار الفعل المستهجن يقل استهجان الفرد له ، ويزداد تقبله ، ويقل اهتمامه برأي الناس فيه وفي فعله .

ويقدم ابن القيم مفاهيم ثلاثة هي : الخطرات - اللفظات - الخطوات (انظر ص ١٦٢ - ١٦٩) يتبين منها وعيه بعلاقة الاتجاه بكل من المعتقد والرأي ؛ فالخاطر عنده استدلال يتحمل الصحة أو الخطأ (ص ١٦٣) أو الحكم على شيء ما ، وهذا الحكم قد ينفع المرء فيقربه من اللَّه ، وقد لا ينفعه ، فيرديه في المعاصي ، ويجب على المؤمن « استعمال العقل والفقه والمعرفة » لتمييز ما ينفع واتباعه ، وأما اللفظات فهي التعبير عن الحكم (المُعْتَقَدِ) السابق الوصول إليه ، أما الخطوات فهي التصرف في ضوء كل من الحكم والتعبير السابقين .

كما نجد إشارات لابن القيم إلى ظاهرة الفروق الفردية بين الناس (ص ١٠٤) ، بل وبين حالات الفرد الواحد من وقت إلى آخر (ص ٢١٥) ، ونجد إشارة إلى تأثير

الاهتمامات في الإدراك حينما يقول : « والرغبات تستر العيوب ، فالراغب في الشيء لا يرى عيوبه » (ص ٢٢٠) والعكس صحيح ؛ فالغضبان يرى من عيوب خصمه ما لا يراه في حالة هدوئه .

يقول ابن القيم في (ص ٦٦) : « إن المعاصي تزرع أمثالها ، ويولد أمثالها ، ويولد بعضها بعضًا ، حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها ..... حتى إن كثيرًا من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها ، ولا داعية لها ، وإلَّا لما يجد من الألم بمفارقتها » ، ويستدل بقول الحسن بن هانئ :

وكأس شربت على لذة ... وأخرى تداويت بها

ويقول آخر :

وكانت دوائي وهي دائي بعينه ... كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

ويشير هذا المعني إلى حجر الزاوية في مفهوم الاعتماد Dependence على المواد المؤثرة في الأعصاب أو الحالة النفسية (مثل الكحوليات والمخدرات الطبيعية والمصنعة) وهو أن تعاطي هذه المواد (مواقعة المعاصي بأسلوب ابن القيم) يتم نتيجة تكيف عصبي يتمثل في :

– أعراض الانسحاب Withdrawal أي أن يُحْدِثَ الامتناع عن التعاطي أثارًا منفرة تجبر الفرد على معاودة التعاطي ويكون التعاطي بهدف تحاشي هذه الآثار ، أو كما يقول الشاعر : « وأخرى تداويت منها بها » و « كما يتداوى شارب الخمر بالخمر » .

* * *

رسالة في أمراض القلوب [1]

عرض : د عبد اللطيف محمد خليفة

عرض الكتاب :

يشمل الكتاب على ثلاثة عشر بابًا نعرض لها على النحو التالي :

الباب الأول : في انقسام القلوب إلى صحيح وسقيم وميت :

ويتحدث فيه عن القلب السليم ومعناه : أنه الذي سلم من كل شهوة تخالف أمر اللَّه ونهيه ، ومن كل شبهة تعارض خبره ، وهو الذي سلم من أن يكون لغير اللَّه فيه شرك بوجه ما ، بل قد خلصت عبوديته للَّه تعالى ؛ أما القلب الثاني فهو القلب الميت الذي لا حياة فيه ، فهو لا يعرف ربه ولا يعبده بأمر وما يحبه و يرضاه ، بل هو واقع مع شهواته ولذاته ، ولو كان فيه سخط ربه وغضبه ؛ فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه ، رضي ربه أم سخط ، فهو لغير اللَّه ، ثم تناول المؤلف بعد ذلك القلب الثالث وهو القلب المريض : قلب له حياة وبه علة ، تمده هذه مرة وهذه أخرى ، وهو لما غلب عليه منهما ، ففيه من محبة اللَّه تعالى والإيمان به ، والإخلاص له ، والتوكل عليه ما هو مادة حياته ، وفيه من حب الشهوات ، والحسد والكبر والعجب ، وحب العلو والفساد في الأرض بالرياسة ما هو مادة هلاكه وعطبه .

ويرتبط هذه الباب بموضوع الدوافع Motives ، وخاصة الدوافع الأولية أو البيولوجية ، كما يرتبط بموضوع الانفعالات Emotions (ص ٧ - ١٣) .

---

(١) تحقيق : محمد حامد الفقي ، الرياض ، دار طيبة للنشر ، (١٤٠٣هـ) ، (٢٢٣ ص) .

الباب الثاني : في ذكر حقيقة مرض القلب :

ويتضمن حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها : قلب يفتتن به كفرًا وجحودًا ، وقلب يزداد به إيمانًا وتصديقًا ، وقلب يتيقنه ، فيقوم عليه به الحجة ، وقلب يوجب له حيرة وعمى ، فلا يدري ما يراد به ، كما يتضمن هذا الباب الحديث عن أسباب ومشخصات مرض البدن والقلب ؛ فمرض البدن خلاف صحته وصلاحه ، وهو خروجه عن اعتداله الطبيعي فساد يعرض له ، ويفسد به إدراكه وحركته الطبيعية ، فإما أن يذهب إدراكه بالكلية ، كالعمى والشلل ، وأما أن ينقص إدراكه لضعف في آلات الإدراك مع استقامه إدراكه ، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه .

وأما فساد حركته الطبيعية ؛ فمثل أن تضعف الهاضمة أو الماسكة أو الدافعة ، فيحصل له من الألم بحسب خروجه عن الاعتدال ، ولكن مع ذلك لم يصل إلى حد الموت والهلاك بل فيه نوع قوة على الإدراك والحركة ؛ وسبب هذا الخروج عن الاعتدال إما فساد في الكمية أو الكيفية ، ويفسر مرض القلب تارة بالشك والريب ، وتارة بشهوة الزنى .

ويرتبط ما جاء في هذا الباب بموضوع الإدراك Perception ، وكذلك بموضوع الدوافع الأولية ، وخاصة الدافع الجنسي : Sexual Motive (ص ١٧ ، ١٨) .

الباب الثالث : في انقسام أدوية أمراض القلب إلى قسمين : طبيعية وشرعية .
ويتحدث فيه المؤلف عن نوعين من أمراض القلب : الأول : نوع لا يتألم به صاحبه في الحال ؛ كمرض الجهل ، ومرض الشبهات والشكوك ، ومرض الشهوات ، وهذا النوع هو من أعظم النوعين ألمًا ولكن لفساد القلب لا يحس بألم ؛ أما النوع الثاني : مرض مؤلم له في الحال ؛ كالهم والغم والحزن والغيظ ، وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية .
أما النوع الأول فعلاجه بالأدوية الإيمانية النبوية .

ويرتبط هذا الباب بموضوع الانفعالات Emotions ، وكذلك بموضوع الأمراض النفسية والجسمية Psychosomatic Disorders (ص ١٨ - ٢٠) .

الباب الرابع : في أن حياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه ، وموته وظلمته مادة كل شر فيه :

فالقلب الصحيح الحي إذا عرضت عليه القبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ، ولم يلتفت إليها ؛ بخلاف القلب الميت ؛ فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح .

أما الباب الخامس : فيتحدث فيه عن أن حياة القلب وصحته لا تحصل إلّا بأن يكون

مدركًا للحق ، ومريدًا ، ومؤثرًا له على غيره ؛ ففي القلب قوتان : قوة العلم والتمييز ، وقوة الإرادة والحب .

ويرتبط هذا الباب بمفهوم الإرادة Will ، وكذلك بموضوع الانفعالات Emotions (ص ٢٤ ، ٢٥) .

الباب السادس : في أنه لا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح إلَّا بأن يكون اللَّه هو إلهه وفاطره وحده وهو معبوده وغاية مطلوبه ، وأحب إليه من كل ما سواه : ويتحدث فيه عن أنه لابد للقلب من معرفة المحبوب الذي ينتفع ويلتذ بإدراكه والطريق الموصل إليه ، وكذلك عن معنى الإلهية والربوبية وما جاء من الآيات القرآنية فيها ، وأن اللَّه تعالى خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته وحبه ، ثم تحدث بعد ذلك عن الاستشارة والاستخارة ، وتوحيد الإلهية ، وأن العبادة غذاء قلب المؤمن ونعيمه ، ولذة النظر إلى وجه اللَّه وأنها تابعة لتلذذ القلب بمعرفة اللَّه ومحبته في الدنيا . وتحدث أيضًا في هذا الباب عن عذاب أهل الدنيا بحبها ، وتعذيب من أحب غير اللَّه ؛ وأن اللَّه محسن إلى العبد دائمًا ، ثم اختتم المؤلف هذا الباب بالحديث عن أنواع الإرادات :

ما هو مراد لنفسه ، وما هو مراد لغيره ، كذلك قسم المستعان قسمان : أحدهما مستعان بنفسه ، والثاني : ما هو تبع له وآله .

ويرتبط هذا الباب بموضوع الدوافع Motives ، سواء الدوافع الأولية أو الدوافع الاجتماعية ، كما يرتبط بموضوع الانفعالات :Emotions (ص ٢٦ - ٤٣) .

الباب السابع : في أن القرآن متضمن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه : فجماع أمراض القلب هي أمراض الشباب والشهوات . والقرآن شفاء للنوعين ، ففيه من البيانات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل ؛ وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة ، والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب ، والتزهيد في الدنيا ، والترغيب في الآخرة ، والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار ، ويتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما ينميه ويقويه .

يرتبط ما جاء في هذا الباب بموضوع تغير الاتجاهات Attitude Change وموضوع التعلم الاجتماعي Social Learning (ص ٤٤ - ٤٦) . كما يرتبط بالعلاج النفسي الديني .

الباب الثامن : في زكاة القلب :

ويوضح فيه معنى الزكاة من الناحية اللغوية بأنها هي النماء والزيادة في الصلاح ،

وكمال الشيء ، ويتحدث عن زكاة القلب ونمائه وطهارته من الفواحش والمعاصي ، وعن غض البصر عن المحارم وما في ذلك من فوائد حيث نور القلب وصحة فراسته وقوته ، وعرض لعدد من الآيات القرآنية في تزكية القلب وطهارته : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلى : ١٤] ، وكذلك قوله ﷻ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩] وغير ذلك .

الباب التاسع : في طهارة القلب من أدرانه وأنجاسه :

ويتحدث فيه المؤلف عن سماع الباطل ، وأن ذلك مما يكسب القلب حبًّا لتحريف الحق ، وأن القلب الطاهر لا يشبع من القرآن .

كما تحدث عما في الشرك والزنى واللواطة من النجاسة والخبث ، وأن الخبث القلبي قد يقوى حتى يظهر على البدن ، ويرتبط هذا الجانب بما يسمى في علم النفس بالأمراض النفسية الجسمية (ص ٦٠) . وتحدث عن أن الشرك مبني على سوء الظن باللَّه تعالى ، وأن البدعة قرينة الشرك في كتاب اللَّه تعالى .

وتناول أيضًا الحديث عن نجاسة الذنوب والمعاصي ؛ فذكر أنها لا تستلزم تنقيص الربوبية ، ولا سوء الظن باللَّه ﷻ ، وذكر أن العشق والشرك متلازمين ، فكلما قوي شرك العبد بُلِيَ بعشق الصدر ، وكلما قوي توحيده صُرف ذلك عنه . وأن الزنى واللواطة كمال لذّاتهما إنما يكون مع العشق ولا يخلو صاحبهما منه ، وليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين ، وتضمن هذا الباب ذكر عدد من الآيات القرآنية التي تحرم الزنى وتبين مضاره .

ويرتبط ما جاء في هذا الباب بموضوعين هما : موضوع الانفعالات Emotions ، وموضوع الاضطرابات الجنسية Sexual Disorders (ص ٤٤ - ٦٧) .

الباب العاشر : في علامات مرض القلب وصحته :

ويوضح فيه أن مرض القلب معناه : أن يتعذر عليه ما خُلق له من معرفة اللَّه ومحبته والشوق إلى لقائه ، والإنابة إليه ، وإيثار ذلك على كل شهوة . وتحدث عن لزوم الجماعة والمراد به لزوم الحق واتباعه ، وأهمية الالتزام بالسنة النبوية الشريفة ؛ وأن من علامات القلب وصحته أن يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة ويحل فيها ، حتى يبقى كأنه من أهلها وأبنائها ، وأن لا يفتُر عن ذكر ربه ، ولا يسأم من خدمته ، ولا يأنس بغيره إلَّا بمن يدله عليه ويذكره به .

ويرتبط ما جاء في هذا الباب بمفهوم المرض Illness (ص ٦٨) وكذلك بموضوع

الدوافع Motives الأولية أو البيولوجية ، وخاصة قمع هذه الدوافع والتسامي والارتقاء بها نحو المستوى الأرقى والأسمى (ص ٦٩ - ٧٣) .

الباب الحادي عشر : في علاج مرض القلب من استيلاء النفس عليه :

ويوضح فيه المؤلف عن النفس ؛ وأنها تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا والرب يدعو عبده إلى خوفه ، ونهى النفس عن الهوى ، والقلب بين الداعيين يميل إلى هذا الداعي مرة وإلى هذا مرة ، وهذا موضع المحنة والابتلاء ؛ وقد وصف سبحانه النفس في القرآن بثلاث صفات : المطمئنة والأمارة بالسوء واللوامة ، وأوضح أن النفس واحدة باعتبار ذاتها ، وثلاث باعتبار صفاتها .

ويرتبط هذا بمفهوم النفس Psyche (ص ٧٤ - ٧٧) . وأما النفس اللوامة فهي تعني لدى البعض : النفس اللؤوم ، ولدى البعض الآخر : التي تندم على ما فات وتلوم عليه ، وقال قتادة : « هي الفاجرة » وقال عكرمة : « تلوم على الخير والشر » .... إلخ وأما النفس المطمئنة : فهي التي سكنت إلى ربها وطاعته وأمره وذكره ومحبته وعبوديته واطمأنت إلى أمره ونهيه وخيره وإلى لقائه ووعده .... إلخ . وأما النفس الأمارة بالسوء : فهي التي تأمر صاحبها بما تهواه من شهوات الغَي واتباع الباطل .

كما تحدث المؤلف في هذا الباب عن محاسبة النفس ، وأنها نوعان :

النوع الأول : قبل العمل : وهو أن يقف عند أول همه وإرادته ، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه .

النوع الثاني : محاسبة النفس بعد العمل : وفي محاسبة النفس عدة فوائد أو مصالح ؛ منها الاطلاع على عيوبها وإصلاح ما بها من سلبيات .

ويرتبط ما جاء في هذا الباب بمفهوم النفس ، وبموضوع الدوافع ، وكذلك بموضوع الإرشاد والتوجيه النفسي Counselling (ص ٧٤ - ٨٩) .

الباب الثاني عشر : في علاج مرض القلب بالشيطان :

ويتضمن الاستعاذة من الشيطان عند قراءة القرآن ، وأن القرآن فيه شفاء لما في الصدور يذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة ، وهو مادة الهدى والعلم والخير في القلب ، وأن الاستعاذة تطرد الشيطان لتحضر الملائكة ، وإرشاد القرآن إلى الاستعاذة من المجادلين في آيات اللّه بغير سلطان .

ويرتبط هذا بالعلاج النفسي الديني (ص ٩١ - ٩٧) .

الباب الثالث عشر : في مكايد الشيطان التي يكيد بها آدم :

ويتضمن تفسير قوله ﷻ : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ إلى قوله ﴿ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧] ، وأن الشيطان يمني الإنسان الغرور ، وكل مولود يولد على الفطرة ، وفي هذا قال رسول الله ﷺ : « **ما من مولود إلَّا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ....إلخ** » .

ويرتبط هذا بموضوع التنشئة الاجتماعية Socialization (ص ١٠٦) ، وأن الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، وأنه يزين للإنسان السوء ثم يتبرأ منه ، كما أنه يخوف المؤمنين من جنده وأووليائه ، وأول مكايد الشيطان لآدم وحواء .

ويرتبط ما جاء في هذا الجزء بموضوع الوساوس Obsessions (ص ١١١) .

ومن كيد الشيطان العجيب : أنه يُشَامُّ النفس حتى يعلم أن القوتين تغلب عليهما قوة الإقدام والشجاعة ، أم قوة الانكفاف والإحجام والمهانة ، فإن رأى الغالب على النفس المهانة والإحجام أخذ في إضعاف همته وإرادته عن المأمور به ، وإن رأى الغالب عليه قوة الإقدام أخذ يقلل عنده المأمور له ، يوهمه أنه لا يكفيه .

ومن حيل الشيطان ومكايده أيضًا : الكلام الباطل ، والآراء المتهافتة ، والخيالات المتناقضة .... إلخ ، وما ألقاه إلى جُهال المتصوفة من الشطح والطامات ، فأوقعهم في أنواع الأباطيل ؛ ومن مكايده : أنه يأمرك أن تلقى المساكين وذوي الحاجات بوجه عبوس ، ويأمرك بإعزاز نفسك وصونها حيث يكون رضا الرب تعالى في إذلالها وابتذالها ؛ كجهاد الكفار والمنافقين ، وأمر الفجار والظلمة بالمعروف ونهيهم عن المنكر . ومن كيده أيضًا للإنسان أنه يأمره بالانقطاع عن المساجد .... إلخ ، كما تضمن هذا الباب الإشارة إلى أنه لا قيمة لما يخطر على القلب حتى يكون موافقًا للكتاب والسنة ، ومن كيده للمتصوفة الالتزام بزي واحد وشيخ معين يتعصبون له .

ويرتبط هذا الجانب بالتعصب Prejudice ، وخاصة التعصب الديني (ص ١٢٥) .

كما تضمن هذا الباب الأخير من الكتاب مكايد الشيطان بالوسوسة في الطهارة ونية الصلاة ، وبعض شبه الموسوسين والرد عليها ، وقول الشيخ أبو محمد المقدسي في ذم الموسوسين ، وما يلقاه الموسوس من الأذى ، وعلاج الوساوس باتباع السنة ، وحقيقة النية في الطهارة وما أحدث المبتدعون فيها من مخالفات ، وأن من الوساوس ما يفسد

الصلاة ، والصلاة في النعل سنة رسول الله ﷺ ، وما جاء في المذي يصيب الثوب ، والاستجمار بالأحجار ، والصلاة مع يسير الدم ، وأن الماء لا ينجس إلَّا بالتغير بنجاسة ، وحلف اليمين ، والعمل بالقرعة في الطلاق ، والشك في الوضوء ، واشتباه القبلة والشك في الصلاة ، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد ، والنهي عن الصلاة فيها وعندها ، وشرعية زيارة القبور لتذكرة الآخرة والإحسان إلى الميت والاستغفار له ، وبدع عُبَّاد القبور ، والأمور التي أوقعتهم في الفتن وهي : الجهل بالدين ، وأحاديث مكذوبة ، وحكايات مختلفة ، ومراتب المبتدعات عند القبور ، والفرق بين زيارة الموحدين للقبور وزيارة المشركين ؛ فزيارة الموحدين ، مقصودها ثلاثة أشياء هي : تذكر الآخرة ، والاعتبار ، والاتعاظ ، والإحسان إلى الميت - وإحسان الزائر إلى نفسه باتباع السنة . وأما الزيارة الشركية : فأصلها مأخوذ من عبادة الأصنام . وغير ذلك من الموضوعات التي اشتمل هذا الباب الثالث عشر والأخير من الكتاب .

وبوجه عام يرتبط هذا الباب بموضوع الوساوس Obsessions ، من حيث أسبابها ومضارها وعلاجها (ص ١٠٢ - ٢٢٣) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس العام وعلم النفس الإكلينيكي .

* * *

ابن أبي حجلة التلمساني (ت ٧٧٦هـ)
ديوان الصبابة [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف [2] :

هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد المغربي مولدًا ، الدمشقي منشأً ، نزيل القاهرة الشهير بابن أبي حجلة ، مولده بالمغرب سنة خمس وعشرين وسبعمائة بزاوية جده الشيخ الصالح الزاهد أبي حجلة عبد الواحد قدَّس اللَّه روحه ونوَّر ضريحه ، وكني جده بذلك لصلاح حاله وتعلقه بالحجل والوحوش ، وزاوية جدة بالمغرب مشهورة وأحاديث بركته مأثورة يؤخذ منها التراب لطلب الدواء والتماس الشفاء . وقدم من المغرب مع أبويه وإخوته فبلغوا السوي بزيارة الرسول ﷺ ثم تنقلت به بعد موتهم الأحوال .

له أكثر من ثمانين مصنفًا في الحديث والفقه والنحو والأدب ، وله شعر ونثر سيأتي شيء منه أثناء عرضنا لديوانه « الصبابة » .

عرض الكتاب :

(هذا الكتاب منشور على حاشية كتاب : تزين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق) .

يحتوي هذا الكتاب – كما يقول المؤلف في مقدمته – على أخبار من قتل الهوى وسار بهم في الحب في كل مذهب ويشتمل الكتاب على مقدمة وثلاثين باب وخاتمة .

---

(١) القاهرة : (د . ن) ، (١٨٧٤م) ، ٢ مجلد .

(٢) (مصدر الترجمة : كتاب ديوان الصبابة) .

نعرض لها على النحو الآتي :

مقدمة الكتاب :

أما مقدمة الكتاب فهي في ذكر حد العشق واشتقاقه وما قيل فيه وَسْمه ورَسْمه وأسبابه وعلاماته ومراتبه وأسمائه ومدحه وذمه ، واختلاف الناس فيه هل هو اختياري أم اضطراري ونحو ذلك ، ويشمل ذلك على خمسة فصول :

الفصل الأول : في وَسْم العشق وما قيل في اسمه :

فالعشق طمع يتولد في القلب ويتحرك وينحو ، وكلما قوي زاد صاحبه في الاهتياج والتمادي في الطمع والفكر والأماني والحرص على الطلب حتى يؤدي ذلك إلى الغم المغلق ، وسواد الفكر المؤدي إلى زوال العقل ، والجنون .

- ويرتبط ذلك بالآثار المصاحبة لانفعال الحب ، وما يترتب عليه من اضطرابات نفسية وعقلية (ص ١٠ ، ١١) .

الفصل الثاني : في أسباب العشق وعلاماته :

فسبب العشق النفسي هو الاستحسان والفكر ؛ وسببه البدني ارتفاع بخار رديء إلى الدماغ عن مني محتقن .

- ويرتبط ذلك بالنظريات المفسرة للانفعال (ص ١٣) .

الفصل الثالث : في مراتب العشق وأسمائه :

فالحب أول مراتبه الهوى وهو ميل النفس ، ثم العلاقة وهي الحب اللازم للقلب وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب ، ثم الكلف وهو شدة الحب وأصله من الكلفة وهي المشقة ، ثم العشق وهو اسم لما فضل عن المقدار الذي اسمه الحب (وهو جملة أنواع المالنيخوليا « ص ١٧ ») أي تغير الظنون من المجري الطبيعي إلى الفساد ، ثم الشَّغف وهو غلاف القلب ، ثم الشَّعف وهو إحراق الحب القلب ، ثم الجوى وهو الهوى الباطن ، ويعني شدة الوجد من عشق أو حزن ثم التتيم وهو أن يستعبده الحب ، ثم التبتل وهو أن يسقمه الهوى ، ثم التَّدلُّه وهو ذهاب العقل من الهوى ، ثم الهيام وهو أن يذهب على وجهه لغلبة الهوى عليه .

- ويرتبط هذا الفصل ارتباطًا واضحًا بانفعال الحب ودرجاته ومستوياته المختلفة .

الفصل الرابع : في مدحه وذمه :

ويتحدث فيه المؤلف عن آثاره الطيبة المحمودة من حسن الإشارات والتعبيرات والتخاطب ، وذمه في حالة شدته وعدم اعتداله ، أو تطرفه .

- ويرتبط بالآثار المترتبة على انفعال الحب (ص ٢٣ - ٢٨) .

الفصل الخامس : في اختلاف الناس فيه :

حيث يرى البعض أنه اختياري ، ويرى البعض الآخر أنه اضطراري ولا دخل للمرء فيه .

مضمون الكتاب :

يحتوي الكتاب على الأبواب التالية :

الباب الأول : ويتحدث فيه عن الحسن والجمال وما قيل فيهما من تفصيل وإجمال .

- ويرتبط هذا الباب بالقيم الجمالية ، كما يرتبط بالتخاطب غير اللفظي (ص ٣٤- ٤٣) .

الباب الثاني : ويتحدث فيه عن المحبين الظرفاء ومن الملوك والخلفاء .

الباب الثالث : في ذكر من عشق على السماع ووقع من النزوع إلى الحبيب في النزاع ؛ حيث العشق قبل الرؤية المباشرة .

الباب الرابع : في ذكر من نظر أول نظرة فاحترق من خد الحبيب بجمرة .

- ويرتبط هذا الجزء أيضًا بسيكولوجية انفعال الحب والتخاطب بين الأفراد (ص ٥٩ - ٦٣) .

- كما أن به إشارة لسحر الجفون ولغة العيون ، وهو ما يدخل في التخاطب غير اللفظي Non Verbal Communication (ص ٦٤) .

الباب الخامس : في ذكر تغير الألوان عند العيان من صفرة وَجَل وحمرة خَجَل وما في معنى ذلك من عقد اللسان وسحر البيان :

ويتحدث فيه المؤلف عن التغيرات المصاحبة لانفعال الحب ؛ حيث اصفرار المحب واحمرار المحبوب ، وما يصاحب ذلك من تغيرات فسيولوجية (خفقان القلب) ويليه طيران العقل .

- يرتبط ما جاء في هذا الجزء بسيكولوجية انفعال الحب وما يصاحبه من انفعالات الخوف والخجل ، وما يصاحب ذلك من تغيرات فسيولوجية ونفسية وعقلية (ص ٦٧ - ٧٢) ، (ص ٧٤ ، ٧٥) .

وكذلك تحدث المؤلف في الباب عن التفضيل بين البيض والسود والسمر ذات النهود .

- ويرتبط هذا الجزء بموضوع الاتجاهات التعصبية (بين البيض والسود مثلًا) كما يرتبط بموضوع الإدراك الاجتماعي Social Perception والتفاعل بين الأفراد (ص ٧٢ - ٧٤) .

الباب السادس : في ذكر الغيرة وما فيها من الخير وقرع سن ديك الجن :

ويتحدث فيه عن غيرة المحب على المحبوب حتى من نفسه وأبناء جنسه .

- ويرتبط ذلك بموضوع انفعال الغيرة وما يصاحبها من تغيرات نفسية وعقلية وفسيولوجية (ص ٧٣ - ٧٦) .

الباب السابع : في إفشاء السر والكتمان عند عدم الإمكان ؛ إذ للمحبين فيهما مذهبان فمنهم من أباح إباحته ورأى في إفشائه راحته ، ومنهم من رأى كتمانه .

- ويرتبط ذلك بالعلاقات بين الأفراد ودرجة التفاعل بينهم (ص ٨٣) .

الباب الثامن : في مغالطة الحبيب واستعطافه وتلافي غيظه وانحرافه .

- ويرتبط هذا الباب أيضًا بانفعال الحب والعلاقات بين الأفراد (ص ٨٩ - ٩٢) .

الباب التاسع : في الرسل والرسائل والتلطف في الوسائل .

- ويرتبط بالتخاطب والتواصل بين الأفراد ذوي العلاقات الوطيدة (ص ٩٣ - ٩٨) .

الباب العاشر : في الاحتيال على طيف الخيال وغير ذلك مما قيل فيه على اختلاف معانيه :

ويتحدث فيه المؤلف عن أمثلة لعدد من المكثرين في وصف الخيال والمجيدين فيه مثل البحتري .

ويرتبط الموضوع بوجه عام بسيكولوجية الخيال Imagination (ص ٩٨ - ١٠٥) .

الباب الحادي عشر : في قصر الليل وطوله وخضاب شفقه ونصوله وما في معنى ذلك .

- ويرتبط هذا الباب بموضوع الأرق Insomnia كنتيجة مترتبة على الفراق بين الأحباء أو العشاق (١٠٥) .

الباب الثاني عشر : في قلة عقل العذول وما عنده من كثرة الفضول .

- ويرتبط ما ورد في هذا الباب بسيكولوجية العلاقات بين الأفراد (١١٤ - ١٣١) .

الباب الثالث عشر : في ذكر الإشارة إلى الوصول والزيارة : وعقده المؤلف لذكر الزائر والمزور ، وما قيل فيهما من منظوم ومنثور ، وغير ذلك من عيادة الحبيب .

الباب الرابع عشر : وهو في الرقيب التمام والواشي الكثير الكلام .

الباب الخامس عشر : في العتاب عند اجتماع الأحباب وما في معنى ذلك من الرضا والعفو عن ما مضى .

الباب السادس عشر : في إغاثة العاشق المسكين :

وعقده المؤلف لذكر أكثر الناس فتوة وأعزرهم مرّوة وأرقهم وأحسنهم مَرْبىَ ممن أصبح بين المحبين قديم هجر وهجرة .

الباب السابع عشر : قي ذكر دواء علة الجوى :

ويتحدث فيه عن دواء الحب الذي أعجز أهل الطب ، فقد أجمعوا أنه لا شفاء من هذا الداء إلا بطيب الوصال ؛ مثل غمز النهدين ، وقرع الشفتين ، والتصاق البدنين .

- ويرتبط هذا الباب بسيكولوجية انفعال الحب وعلاجه (ص ١٧٤ - ١٨٩) وكذلك الدافع الجنسي (ص ١٨٠) .

الجزء الثاني : من تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق .

الباب الثامن عشر : في تعنت المعشوق على الصب المشوق وغير ذلك من أقسام الهجر .

- ويرتبط بالعلاقات بين الجنسين وانفعال الحب (ص ٢ - ٥) .

الباب التاسع عشر : في الدعاء على المحبوب وما فيه من الفقه المقلوب .

الباب العشرون : ويتحدث فيه عن الخضوع وانسكاب الدموع .

الباب الحادي والعشرون : في الوعد والأماني وما فيهما من راحة المعاني .

الباب الثاني والعشرون : في الرضا من المحبوب بأيسر مطلوب :

وهو عن المحب المطبوع والعاشق القنوع ممن يقنع من الحبيب بالنظر ويرضى منه بالسلام ولو مرة في العام .

- ويرتبط هذا الباب بالتفاعل بين الأفراد والتخاطب غير اللفظي Non Verbal Communication (ص ١٧) .

الباب الثالث والعشرون : في اختلاط الأشباح اختلاط بالماء بالراح :

وهو عمن أفرط في العناق إذا التفت الساق ؛ بالساق فأصبح هو ومحبوبه كالشيء الواحد في رأي العين حتى عند الأحول الذي يرى الشيء شيئين لفرط المحبة التي لا يشتفي قلب صاحبها بالوصال ، ولا تنقطع حبال دموعه بالاتصال .

الباب الرابع والعشرون : في عُود المحب كالخِلال وطيف الخيال وما في معنى ذلك من رقة خَصْر الحبيب وتشبيه الرَّدْف بالكثيب .

الباب الخامس والعشرون : في ذكر ما يكابده الأحباب من الأمور الصعاب وغير ذلك مما يقاسونه من تحمل المشاق وألم الفراق .

– ويرتبط بالنتائج المترتبة والآثار النفسية للانفعالات (خاصة انفعال الحب) (ص ٢٥ – ٢٧) .

الباب السادس والعشرون : في طرف يسير من المقاطع الرائقة والأغزال مما اشتمل على ورود الخدود ورمان النهود وغير ذلك .

الباب السابع والعشرون : في ذكر طرف يسير من أخبار المطربين المجيدين من الرجال وذوات الجمال . ويتحدث فيه عمن استراح من الغناء بسماع الغناء من كل محب .

الباب الثامن والعشرون : في ذكر من ابتلي من أهل الزمان بحب النساء والغلمان .

الباب التاسع والعشرون : في ذكر من اتصف بالعفاف وبأحسن الأوصاف : ويتحدث فيه عن أكثر المحبين ميلًا وأظهرهم دليلًا ، وأحسنهم سيرة ، وأزكاهم سريرة ، وأعفهم مع القدرة .

* * *

ابن رضوان الخزرجي (ت ٧٨٣هـ)
الشهب اللامعة في السياسة النافعة [1]

عرض : د . إبراهيم شوقي عبد الحميد

التعريف بالمؤلف :

هو أبو القاسم عبد اللّه بن يوسف بن رضوان البخاري الخزرجي ، ولد عام (٧١٨هـ) في مدينة مالقة بالأندلس ، ينتسب إلى الخزرج ، قبيلة الأنصار المشهورة في مطلع الإسلام ، وهو ابن القائد الفقيه يوسف بن الفقيه القاضي الخطيب رضوان البخاري الخزرجي المالقي المعروف بابن رضوان ؛ درس علوم اللغة العربية وعلوم القرآن من قراءات وتفسير وحديث ، كما درس الفقه وأصوله ، وأخيرًا التصوف على يد ابن منظور قاضي مالقة ، عمل المؤلف في شبابه قاضيًا عدلًا في مدينة مالقة ، عرف بالتدين والخلق الحسن ، ويذكر المحقق أنه من الأفراد القلائل في ذلك العصر المضطرب القائم المليء بالدسائس ، توفي في مدينة أزمور أو مدينة آنفا ، وهو الأرجح (وهي التي تعرف الآن بالدار البيضاء) وذلك عام (٧٨٣هـ) .

وعن مؤلفاته ، يشير المحقق أنه لم تبق لنا من أعماله العلمية والأدبية إلّا ما يلي :

١ - مجموعة من الأشعار وردت بعضها في الإحاطة لابن الخطيب ، وكذلك الكتيبة الكاملة ، وفي نثر الجمال لابن الأحمر ، واختصت أشعاره بالمدح والرثاء والوصف ثم الزهد والورع .

---

(١) تحقيق : د .علي سامي النشار ، ط ١ - الدار البيضاء : دار الثقافة (١٩٨٤م) (٤٦٣ ص) .

٢ - مجموعة من رسائله لابن الخطيب ولابن الأحمر ، مستخدمًا أسلوب السجع والذي كان سائدًا في عصره .

٣ - فهرسة له عن شيوخه : تفرد بذكرها صاحب فهرس الفهارس ولم يعثر المحقق على هذه الفهرسة .

٤ - الشهب اللامعة في السياسة النافعة ، وهو الكتاب الحالي .

عرض الكتاب :

يشتمل الكتاب على خمسة وعشرين بابًا ، نعرض لها على النحو التالي :

الباب الأول : في فضل الخلافة وحكمتها وثواب من قام بها ووجوب طاعة الإمام ونصحه وتعظيم حقه وذكر ما يلزمه من أمور الأمة :-

- يتحدث عن دور الخلافة أو الإمامة في تحقيق العدالة بين الرعية وفي حفظ الحقوق ، وفي تقوية أحوالهم الدينية والاقتصادية ، ويتصل هذا الباب بموضوع نفسي اجتماعي وهو القيادة Leadership .

- ويتصل الحديث عن طاعة الملك بمفهوم الطاعة Obedience (ص ٦٥ - ٦٨) .

- ويشير في فصل (فيما يلزم الإمام من أمور الإمامة) إلى خصال القائد الناجح Leader Characteristics ومنها حفظ الدين ، تنفيذ الأحكام بالعدل ، تقدير العطاء استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء (انظر تفصيلًا ص ٧٤ ، ٧٥) .

الباب الثاني : في ذكر سير الملوك في سماع المواعظ ، وتعظيم أهل الخير وتسليم أحوال الصالحين إليهم .

يعرض لحكايات تشير إلى سماع الملوك للمواعظ وتقديرهم لأهل التقوى الصالحين .

الباب الثالث : في ذكر العدل وفضله وما جاء في ذلك من الآثار والأخبار :

ويعرض لروايات وأقوال عن عدل الحاكم ومترتباته الإيجابية في استقرار الحكم وكسب قلوب الرعية ، ويعرض لتعريف أرسطاطاليس للعدالة وتقسيماتها (ص ١٠٠) وهو الإنصاف ورفع الجور ، وصحة الوزن وسوية الكيل ، وهو اسم جامع لخلال المروءة وخصال الكرم والعدل وينقسم أقسامًا ؛ فعدل يجب فيه الحكم عند الحكام ، وعدل يلزم الإنسان في محاسبة نفسه بينه وبين الخالق سبحانه ، وعدل فيما بينك وبين الناس على قدر الحالات .

وعن ذلك يمكن الإشارة إلى أن هذا المفهوم يتصل بمفهوم نفسي أعم وهو القيادة ذات التوجه نحو الأشخاص Person Oriented Leadership .

الباب الرابع : في فضل الحلم وكظم الغيظ :

ويعرض لإيجابيات الحلم وسلبيات الغضب ، وعلى سبيل المثال يشير ابن المعتز : الغضب يصدئ القلب حتى لا يرى صاحبه حسنًا فيفعله ، ولا قبحًا فيجتنبه (ص ١٠٢) .

– وبذلك يتصل هذا الباب بموضوع الانفعالات Emotions بصفة عامة ، والغضب Anger بصفة خاصة .

– وفيه دعوة إلى ضرورة التحكم في الغضب وقمعه وهو ما يشار إليه بمفهوم الضبط الانفعالي Emotional Control .

– وعن أثر الغضب في عملية اتخاذ القرار Anger and Decision Making Process كتب أبرويز لابنه : يا ابني إن كلمة منك تسفك دمًا وكلمة تحقن دمًا وأمرك نافذ وكلامك ظاهر ؛ فاحترس في غضبك ومن قولك أن يخطئ ، ومن لونك أن يتغير ومن جسدك أن يجف ، فإن الملوك تعاقب قدرةً وتعفو حلمًا (ص ١٠٣) .

وفي هذا الشأن يشير لأقوال عن وجوب عدم ممارسة العقاب أثناء الغضب ؛ حتى لا يتجاوز حد العقوبة (ص ١١٤) .

– إلى جانب ذلك يعرض فصل : « في ذكر ما يسكن به الغضب » لوسائل ضبط الغضب ؛ ومنها ذكر اللّٰه وتغيير وضع الجسد لتغيير الحالة الانفعالية ، والاطلاع على القبور ، والاعتبار بالنشور (ص ١١٠ – ١١٣) .

الباب الخامس : في مجلس الملك وظهوره ، وخفائه وذكر الوفود وذكر السلام وتقبيل اليد وذكر الحجاب والحاجب وما يلحق بذلك :

– ويعرض لأنماط السلوك المرغوب الواجب على الملك اكتسابها ؛ كقلة الضحك والاعتدال في الجلوس والمشية .... إلخ بما لا يذهب الوقار والهيبة ، ثم يتحدث عن السلوك اليومي الواجب على الملوك اتباعه ؛ كتقسيم الوقت بين القراءة ، ومجالسة العامة ، ومجالسة الخاصة ، ومجالسة زوجاته وأولاده .

ويشير هذا إلى ما يتصل بالخصائص السلوكية للقائد (ص ١١٨ – ١٢٤١) Behaviour Characteristics of Leader .

ثم يعرض فصلًا لآداب الدخول ، والسلام على الملك ، والاستئذان للداخلين (ص ١٣١ - ١٤٠) .

الباب السادس : في ذكر الجلساء والنصحاء ، وذكر النصيحة والرجوع إلى الحق عند وضوحه :

- ويعرض لوجوب مجالسة الملك لأهل العقل وذوي الرأي والحسب والتجارب والعبر ؛ للاستفادة بخبرتهم ، ووجوب تجنب ذوي الطباع المرذولة حتى لا يفسدونه وتضطرب الأمور .

- وتتصل مادة هذا الباب بعدد من المفاهيم النفسية كالتعلم Learning ، والاكتساب Acquisition ، والانفتاح على الخبرة Openness to Experience ، والتعلم الاجتماعي Social LeaRning - التعلم من خلال المواقف الاجتماعية (انظر ١٤١ - ١٤٥) .

الباب السابع : في التدبير والرأي والمشاورة والمذاكرة وما يلحق بذلك :

- ويختص بعرض أهمية مشاورة العقلاء ، وتصفح أفعال الغير والاقتداء بأحسنها في تحقيق التدبير الصائب وهو ما يشار إليه في علم النفس الحديث بالمشاورة Consultation وهي إحدى عناصر القيادة الديمقراطية Democratic Leadership (١٤٩ - ١٦٣) .

- ويعرض كذلك للأمور التي يحتاج فيها القائد للمشاورة ؛ كتقصيره عن معرفته التدبير ، وخوفه من الخطأ ، والتماسه للموضوعية ، وعدم تدخل الجوانب الذاتية (١٥٢ ، ١٥٣) .

- ثم يعرض لخصال الأفراد الواجب مشاورتهم ؛ كأن يكونوا من أعمار مختلفة ، وذوي الدين والمروءة والعقل والرشاد ، وأن يكونوا محبين مصافين ، وألَّا يكونوا حاسدين (١٥٣- ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦١) .

الباب الثامن : في سيرة الملك مع خواصه وبطانته :

ويعرض لأقوال وحكايات تعكس أشكال السلوك المرغوبة وغير المرغوبة للملك مع خواصه وهو ما يتصل بمفهوم السلوك القيادي Leader's Behaviour .

الباب التاسع : في تغافل الملك وحيائه ومروءته ووقاره وتثبته في الأقوال والأفعال وتأنيه وصبره :

- ويعرض أيضًا لسلوكيات القائد ؛ كإكرام الرعية والإحسان إليهم ، وقضاء حوائجهم والتودد إليهم ، والحكم بالعدل بينهم (١٨١ - ١٩٧) .

- ويؤكد ابن رضوان على أهمية خاصية التروي والتأني لإحراز الصواب في الأقوال والأفعال ، ويحذر من العجلة لأضرارها ، ويتصل هذا الموضوع بمفهوم الاندفاعية Impulsivity (١٩٣ - ١٩٧) .

- وفي فصل الصبر (١٩٧ - ٢٠٣) يشير إلى أن للصبر ثلاث قوى : هي قوة الحلم وثمرتها العفو (والتسامح Permissiveness) وقوة الكلاءة والحفظ وثمرتها عمارة المملكة ، وقوة الشجاعة وثمرتها في الملوك الثبات ؛ وأما ثمرتها في حماة المملكة المقاتلة بالإقدام .

ويحث على تحلي الملوك - أو القادة - بالصبر ؛ فهو مطية النجاح ، وقد يشار إلى الصبر في بعض الحالات بمفهوم المثابرة Persistense ، وضبط الدوافع الفطرية Control of Innate Motives .

الباب العاشر : في ذكر الوزارة والوزراء :

ويعرض لأهمية دور الوزير ومكانته في السياسة ، ثم الخصال الأخلاقية والسلوكية الواجب توافرها للوزير .

الباب الحادي عشر : في ذكر الِكتابة والكُتَّاب :

ويختص بعرض آداب وشروط الكتابة وخصال لازمة للكُتَّاب ؛ كالذكاء ، وسلامة الحواس والأمانة ، وصدق اللسان ، وحسن الخلق .

الباب الثاني عشر : في تشييد المفاخر وتخليد المآثر وإحياء الخبرات وإثبات رسوم القربات وعمارة الأرض وإصلاح المملكة واقتناء الذخائر :

ومن اسم الباب نجده يختص بواجبات الملك ، ومسؤلياته بجانب ذكر حكايات ، وأقوال في هذا الصدد .

الباب الثالث عشر : في الجود والسخاء ومكارم الأخلاق والمكافأة على السوابق والوفاء بالعهود وذكر التهادي وبذل المعروف والمكرمات :

ويختص هذا الباب - بفصوله الخمسة - بالسلوك الأخلاقي للقادة Leader's Moral Behaviours ومنها السخاء (٢٣٤ - ٢٣٧) والوفاء بالعهود ، والحرص على العلم ، والحرص على الدين (٢٣٧ - ٢٤١) وفعل المعروف ، وقضاء حاجات الناس (٢٤١ ، ٢٤٢) . وإثابة الأتباع إذا أحسنوا التصرف (٢٤٣ - ٢٤٦) وهو ما يتصل بمفهوم الإثابة Rewarding أو التدعيم Reinforcement لتقوية احتمال صدور سلوك مرغوب .

وكذلك صدق الوعود وهو من أهم الأخلاق اللازمة للقادة (٢٤٦ - ٢٤٩) يضاف إلى ذلك ضرورة تقديم الهدايا وتقبلها ، فالتهادي مصدر للمحبة (انظر ٢٥٠ - ٢٥٢) .

الباب الرابع عشر : في إكرام أهل الوفاء ورعاية العهود واحتمال قول الحق ولو كان مرًّا :

- ويعرض لأخلاق القادة Morals of Leaders كإكرام أهل الوفاء وبرهم والاستقامة إليهم والثقة بهم .

- وفي إطار ذلك يعرض لحكايات عن سعة صدر الملوك في تقبل الحق وإن كان مرًّا ، وهو ما يشير إلى خاصية المرونة Flexibility التي تساعد على تقبل وجهات النظر الأخرى المعارضة ؛ كما تشير أيضًا إلى مفهوم الموضوعية Objectivity لمقاومة النزعات الشخصية ، وتقبل الحقائق وإن خالف هذه الأهواء . كما يعد أيضًا سعة الملوك في تحمل قول الحق وإن كان مؤشرًا للنضج الاجتماعي Social Maturity (٢٥٣ - ٢٦٠) .

الباب الخامس عشر : في تودد الملك إلى رعيته وتبسطه وتواضعه في علوه وذم الكبر :

- ويؤكد هذا الباب علي التودد الاجتماعي للقائد (التودد إلى الناس) وهو ما يشار إليه بمفهوم العلاقات الإنسانية Human Relation أو القيادة المتوجهة نحو الأشخاص Person - Orieted Leadership (٢٦١ - ٢٦٦) .

- وفي فصل التواضع (٢٦٦ - ٢٦٨) يحث ابن رضوان الملوك على التواضع وترك الكبر والإعجاب ؛ لأنهما يورثان المقت ، ويرتبط هذا الحديث بالقيم الأخلاقية .

الباب السادس عشر : في الحزم والدهاء وكتم السر والقوة وما يلحق بذلك :

- يعرض المؤلف لمعنى الحزم ، وهو يعني لدى المرادي مثلا النظر في الأمور قبل نزولها وتوقي المهالك قبل الوقوع فيها وتدبير الأمور على أحسن ما يكون ، كما يعرض لأقوال الحكماء والساسة حول الحزم وأقسامه ، ويضاده العجز . والحزم بمفهوم نفسي هو الحساسية للمشكلات (انظر ٢٦٩ - ٢٨١) .

- وفي فصل الدهاء : يقدم تعريفات له ؛ ومنه إظهار الغفلة مع شدة الحذر ، والتباله مع إحصاء دقائق الأمور ، ثم يعرض لحكايات سياسية عن الدهاء (٢٨١ - ٢٩١) .

الباب السابع عشر : في التيقظ والتلطف في الوصول إلى المقاصد :

ويعرض لحكايات عن بعض أشكال السلوك التي تنم عن فطنة وتيقظ بهدف الخلاص

من مأزق أو حل مشكلة ما ، وهو ما يتصل ببعض المفاهيم النفسية مثل :

- الذكاء الاجتماعي Social Intelligence .
- المرونة التكيفية Adaptive Flexibility .
- القدرة على حل المشكلات Problem Solving Ability .

الباب الثامن عشر : في الرفق بالرعية وسياستها وتأمين السبل وما يلحق بذلك :

- ويعرض لواجبات القائد Duties of Leader كالاهتمام بمصالح الأتباع ، والعدل بينهم والرفق بهم ..... إلخ ويورد حكايات تدور حول هذا الموضوع (٣١١ - ٣١٦) .

- ثم يعرض فصلًا لأقسام الناس وما تقابل به طبقاتهم ؛ وفيه يقسم الناس إلى ثلاثة : كريم فاضل ، ولئيم سافل ، ومتوسط بينهما ، ويتصل هذا بمفهوم الشخصية Personality (٣١٨ - ٣٢١) .

الباب التاسع عشر : في تولية الخطط الدينية والعلمية وما يلحق بذلك :

ويختص هذا الباب بتحديد الخصال الواجب توافرها في كل من الإمام والقاضي ، ووالي المظالم ، ووالي الحسبة ، ووالي الشرطة ، وصاحب البريد ، وعمال الزكاة والشعراء ، كما يعرض لأهم المهام المنوطة بكل منهم .

- وهو بذلك يقدم لنا ما يعرف في علم النفس الحديث بخصائص الأفراد Personal Characteristics وخصائص العمل Job Characteristics ويضاهي بينهما من أجل وضع الشخص المناسب في العمل المناسب وهو هدف الاختيار الوظيفي Vocational Selectivity أو الاختيار المهني Occupational Selectivity .

- وكما يتصل ما أشار إليه المؤلف من مهام كل عمل بمفهوم متطلبات العمل Job Demands والأدوار المهنية Vocational Roles وتندرج كل المفاهيم ذات الصلة بما ورد في الباب ضمن اهتمام علم النفس المهني Occupational Psychology (٣٢٢ - ٣٤٦) .

الباب العشرون : في مراتب العقوبات ودرء الحدود بالشبهات والاقتصار عن التسرع إلى العقاب وقبول الشفاعات :

- ويختص هذا الفصل بممارسة العقاب Punishment بحيث إن يتلاءم مع شدة الجرم مع طبيعة المذنب ، وقدر منزلته وألَّا يتم باندفاع يحركه انفعال كالغضب أو الكبر (٣٤٧ - ٣٥٥) .

- وفي فصل الشفاعة ؛ يعرض لحكايات عن وجوب قبول الشفاعة ؛ لأنها شرعية وثوابها عظيم ، ويلاحظ أنها تقترب من مفهوم نفسي وهو التسامح Permissiveness (٣٥٥ - ٣٥٨) .

الباب الحادي والعشرون : ذكر السجون وأحوالها وتفقد أهلها وما يلحق بذلك : ويختص بالإشارة إلى دور الخدمة النفسية والاجتماعية للمسجونين ، وتحسين ظروفهم (٣٥٩) وضرورة الفصل بين المسجونين لذنوب مختلفة (٣٦٠) .

الباب الثاني والعشرون : في ذكر بيت المال والعطاء والمنع وسياسة الجنود :

ويختص بعرض قوانين لسياسات بيوت المال في العطاء والمنع وأثر كل منهما على قوة المملكة وقوة الجند وقوة الملك نفسه .

- يعرض لحكايات وأقوال عن السخاء والبخل والتبذير ؛ وهو ما يتصل بمفهوم الإثابة Rewarding وسلوك المساعدة Helping Behaviour (٣٦٥ - ٣٨١) ، (٣٨٥ - ٣٨٨) .

- وفي فصل (في ذكر قواد الأجناد) يعرض لخصال من يصلحون لقيادة الجيوش ؛ كالتواضع والشهرة بالنجدة ، والخبرة بالحروب .... إلخ وهو ما يتصل بمفهوم الاختيار المهني Vocational Selectivity الذي أشرنا إليه في التعليق على الباب التاسع عشر .

الباب الثالث والعشرون : في سياسة الحروب وتدبيرها :

- وفيه يعرض لطبيعة الحرب وأساليبها والحيل اللازمة لها ، كما يشير إلى أهمية التهيؤ للحرب والاستعداد لها ، كما يعرض لأخلاقيات الحرب ؛ كعدم الجبن وعدم قتل الأطفال والنساء .

- ويؤكد أيضًا على التوحد وعدم الفرقة ؛ حيث يذكر أن كدر الجماعة خير من صفوة الفرقة ، وأن اجتماع الضعيفين قوة تدفع عنهما وافتراق القويين ضعف يمكن منهما . ويتصل هذا الجانب بمفهوم تماسك الجماعة Group Cohesiveness (٣٩٢) .

الباب الرابع والعشرون : في ذكر الخصال التي فيها فساد الدول ونفور القلوب عن الملوك وذكر طرف من استدفاع الشدائد :

ومن الخصال التي فيها فساد الدول ونفور القلوب عن الملوك ؛ إيثار الشهوات والإقبال على اللذات ، وارتكاب المعاصي ، وتجاهل أحوال الرعية وعدم العدل بينهم .

الباب الخامس والعشرون : في كلمات جامعة في السياسة وذكر وصايا صادرة عن الخلفاء والملوك .

وهو يختص بنصائح وتوصيات عن كيفية إدارة زمام البلاد ، وقيادة الأتباع ، وتفقد أحوال ومصالح الرعية .

أوجه الاستفاد من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجالي علم النفس الاجتماعي وعلم النفس العام .

* * *

الشاذلي
جمال الدين أبو المواهب (ت ٨٠٠ هـ)
قوانين حكم الإشراق إلى كافة الصوفية بجمع الآفاق [(١)]

عرض : د . معتز سيد عبد الله

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ١٢٦ صفحة من القطع المتوسط ، ويتكون من أربعة عشر قانونًا في حكم الإشراق ، عرضها المؤلف في صورة حكم ، ثم اختتم هذه القوانين بكتاب جامع لأنواع الحكم ، ثم بوصية ناصح تكون خاتمة لأنواع الإشارات ، ثم بتضرع فيه تذلل بلذيذ الرغبة والمناجاة ، واختتم المحقق الكتاب بعرض فهرس لموضوعات الكتاب ، وهو ما نعرض لتفاصيله على النحو التالي :

القانون الأول : (قانون التأييد ، بمقامات التوحيد) :

فقد قال اللَّه تعالى : ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد : ١٩] . فأحدية الذات غيب في الأزل ووحدانيتها ظهور في الأبد ، والواحد القديم ما لا أول له ولا آخر .

القانون الثاني : (قانون التوبة ، بمعنى الأَوْبَة) :

قال تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١] . وشروط التوبة عند الجماعة بالإجماع ، دون أهل الابتداع : الندم على ما فعله العبد من المخالفات ، والإقلاع في الوقت فورًا بلا تأنٍ ولا التفات ، والعزم على أن لا يعود لفعله فيما يستقبله من الأوقات ، وردُّ ما أخذه من الأعراض ، والاستحلال من الوقوع في الأعراض .

---

(١) القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية (١٩٦١م) .

القانون الثالث : (قانون الإخلاص) :

قال اللّه تعالى : ﴿ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [غافر : ١٤] . ومن علامات المخلص أنه إن قام قام باللّه ، وإن قعد قعد مع اللّه ، وإن تحرك لا يقصد إلا اللّه ، وإن سكن اطمأن باللّه ، وإن سأل سأل من اللّه ، وإن عمل عمل للّه ، وإن أعطى أخذ من يد اللّه ، جميع شؤونه من اللّه وإلى اللّه وفي اللّه ، ويرتبط مضمون هذا القانون بقيمة الإخلاص (ص ٢٤ ، ٢٥) .

القانون الرابع : (قانون الصدق) :

قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] . فإذا ملك السالك الحال صار صاحب مقام ؛ يتعرف به على الدوام ، والصادق في الحال عند أهل الصدق ، ويرتبط مضمون هذا القانون بمفهوم قيمة الصدق (ص ٢٦ ، ٢٧) .

القانون الخامس : (قانون المراقبة) :

قال اللّه تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٥٢] . وقال الشاعر :

ولما تلاقينا وغاب رقيبنا ورمت التشكي في خفاء وفي ستر

بدا نور بدر فافترقنا لضوئه فيا من رأى بدرًا رقيبًا على بدر

ويرتبط مضمون هذا القانون بمفهوم الانفعالات وبخاصة الحب (ص ٢٨ ، ٢٩) .

القانون السادس : (قانون المحبة) :

قال اللّه تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة : ٥٤] . وحقيقة المحب كتمان سر المحبوب ، فيما تجلى على المحب من مشاهدة الغيوب ، وأعظم المحبة ما يسكن القلب أول وهلة ، وتنزعج منه جميع الخواطر بلا مهلة . و يرتبط مضمون هذا القانون بمفهوم الانفعالات وخاصة الحب (ص ٢٩ - ٣٥) .

القانون السابع : (قانون الزهد) :

قال اللّه تعالى : ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [هود : ٨٦] . فإذا لن تزهد في الدنيا ، فأنت بعيد عن خير الآخرة العلية ؛ والزهد على قسمين : زهد في الدنيا ، وزهد في الآخرة ، والأول للسعداء ، والثاني للأشقياء . وقد يكون الزهد في الآخرة لمن لا رغبة له فيها شغلًا باللّه عما سواه ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام : ٩١] . ويرتبط مضمون هذا القانون بمفهوم ضبط النفس والسيطرة على الدوافع والميول والأهواء (ص ٣٦ - ٣٨) .

القانون الثامن : (قانون الفقر) :

قال اللّٰه تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [فاطر : ١٥] . وحقيقة الفقر في ظاهر الطريقة غير ما هو في باطل الحقيقة ؛ فالظاهر فقر الزهاد من الأعراض الدنيوية ، والباطن فقر الأفراد من الأغراض الأخروية شغلًا باللّٰه عما سواه ؛ لمن شهد ذلك ورآه . ويرتبط مضمون هذا القانون بمفهوم ضبط النفس والسيطرة على الدوافع وبخاصة دافع التملك (ص ٤١ - ٤٩) .

القانون التاسع : (قانون الرياء) :

قال اللّٰه تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف : ١١٠] . فشرك الرياء يدب دبيب النمل في إنسان إلَّا من عصمه اللّٰه تعالى بالأمان .

القانون العاشر : (قانون المعرفة) :

قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة : ٨٣] . وحقيقة المعرفة : انكشاف يوجب رفع الغطاء ، عما استتر وتغطى ؛ وهو يكون بحسب كل خطوة ومثول ، ومقام استعداد وقبول . ويرتبط مضمون هذا القانون بمفهوم القيم العلمية (ص ٤٩ - ٥٧) .

القانون الحادي عشر : (قانون الفناء) :

قال اللّٰه تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن : ٢٦، ٢٧] . وحقيقة الفناء محو واضمحلال ، وذهاب عنك وزوال ، وإن شئت قلت : فناء المريد طهارة النفس من التدنيس . وفناء المراد تخلقه بأوصاف التقديس ، وإن شئت قلت : فناء السالك عن السكون إلى الأنوار . وفناء العارف عن شهود لمحة الأغيار ، وإن شئت قلت : الفناء محو النية ، وذهاب الأنية ، وإن شئت قلت : الفناء التخلي لنور التجلي .

القانون الثاني عشر : (قانون البقاء) :

قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه : ٧٣] . والبقاء مقام يملك حقيقة الشهود ، على بساط الأدب مع الشهود ، وبقاء البقاء أكمل من البقاء ، وصاحبه هادٍ مهتد بكمال التقى .

القانون الثالث عشر : (قانون الولاية العامة) :

قال اللّٰه تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣] . وحقيقة الولاية العامة التي يتولى بها العبد رعاية حقوق الله ﷻ صفة جامعة لما يحبه الرب ويرضاه - مانعة لما يسخطه ويأباه .

القانون الرابع عشر (قانون الولاية الخاصة) :

قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] . وتشير بعض فقرات هذا القانون إلى مفهوم القيم الخلقية Moral Values (ص ٧٠) .

الكتاب الجامع لأنواع الحكم :

وقام المؤلف في هذا الكتاب بجمع أنواع الحكم المختلفة التي يمكن أن تكون مفيدة وموجهة لكافة الصوفية بوجه عام . ويرتبط مضمون هذا الكتاب ببعض المفاهيم السيكولوجية منها : الانفعالات (وخاصة الحب) (ص ٨٠ : ٨١) ، والمقصد أو النية (ص ١٠٠) والطاعة Obedience (ص ١٠٤) ، والعقل (ص ١٠٨) ، والوهم (ص ١٠٨) .

* * *

عبد الكريم الجيلي (ت ٨٣٢هـ)
الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل [1]

عرض : د . معتز سيد عبد الله

التعريف بالمؤلف [2] :

عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي ، وابن سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني (٧٦٧ - ٨٣٢هـ / ١٣٦٥ - ١٤٢٨م) ، من علماء المتصوفين ، له كتب كثيرة ، منها : « الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل - ط » في اصطلاح الصوفية ، و « الكهف والرقيم في شرح بسم الله الرحمن الرحيم - ط » « المناظر الإلهية - خ » ورسالة « السفر القريب - خ » و « حقيقة اليقين - خ » ، و « مراتب الوجود - خ » و « شرح مشكلات الفتوحات المكية - خ » ، و « الكمالات الإلهية في الصفات المحمدية - خ » فرغ من كتابته سنه ٨٠٥هـ ، (والناموس الأعظم والقاموس الأقدم) أربعون جزءًا بقى بعضها مخطوطًا ، و « قاب قوسين وملتقى الناموسين - خ » وهو الجزء العاشر من كتابه المتقدم ، (انظر المجموعة ١٣١٤ كتاني) في خزانه الرباط ، و « آداب السياسة بالعدل - خ » بدار الكتب المصرية ، وأخذت عنه نموذج خطه ، و « لوامع البرق الموهن ، في معنى ما وسعتني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن - خ » في المجموعة الآنف ذكرها .

---

(١) القاهرة : مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي (١٩٨١م) ٢٢ مجلد .
(٢) المصدر : الأعلام للزركلي : (٤/ ٥٠ ، ٥١) .

عرض الكتاب :

يتكون الكتاب من جزءين نعرض لهما على النحو التالي :

الجزء الأول :

ويقع في ١٥٢ صفحة من القطع الصغير ، ويتكون من ٤١ بابًا يدور مضمونها حول بيان أن كمال الإنسان يتبدىء في العلم بالله وفضله على جنسه بقدر ما اكتسب من فحواه .

ويتناول الباب الأول : الحديث عن ذات الله ﷻ وصفاتها :

وذات الله ﷻ عبارة عن نفسه التي هو بها موجود ؛ لأنه قائم بنفسه ، وهو الشيء الذي استحق الأسماء والصفات بهويته فيتصور بكل صورة يقتضيها منه كل معنى فيه : أعني اتصف بكل وصف يطلبه كل نعت ، واستحق لوجوده كل اسم دل على مفهوم يقتضيه الكمال ، ومن جملة الكمالات عدم الانتهاء ونفي الإدراك ، فحكم بأنها لا تدرك وأنها مدركة لاستحالة الجهل عليه فاعلم (ص ٢١) .

وفي الباب الثاني : في الاسم مطلقًا :

أوضح المؤلف أن الاسم ما يعين المسمى في الفهم ويصوره في الخيال ، ويحشره في الوهم ، ويدبره في الفكر ، ويحفظه في الذكر ، ويوجده في العقل ، سواء كان المسمى موجودًا أو معدومًا حاضرًا أو غائبًا ؛ فأول كمال تعرف المسمى نفسه إلى من يجهله بالاسم ، فنسبته من المسمى نسبة الظاهر من الباطن ، فهو بهذا الاعتبار عن المسمى ، ومن المسميات ما تكون معدومة في نفسها ، موجودة في أسماء ؛ كعنقاء مغرب في الاصطلاح ، فإنها لا وجود لها إلَّا في الاسم ، وهو الذي أكسبها هذا الوجود ، ومنه أعلمت صفاتها التي تقتضيها الذات هذا الاسم ، وهو أعنى الاسم غير المسمى ، باعتبار أن مفهوم عنقاء مغرب في الاصطلاح : وهو الشيء الذي يغرب عن العقول والأفكار . وكان بنقشه على هيئة مخصوصة غير موجودة المثال لعظمها ، وليس هذا الاسم بنفسه على هذا الحكم ، فكأنه ما وضع على هذا المعنى إلَّا وضعًا كليًا على عقول معنى ليحفظ رتبته في الوجود كيلا ينعدم ، فتحسب أن الوجود في ذاته ما هو بهذا الحكم ، فهو السبيل إلى معرفة مسماه ، ومنه يصل الكفر إلى تعقل معناه ، فألف الألف الكلام ، واستخراج الورد من الكمام ، وعنقاء مغرب في الخلق مضاد لاسم الله تعالى في الحق ، فكما أن مسمى عنقاء في نفسه عدم محض ، فكذلك مسمى الله تعالى في نفسه وجود

محض ، فهو مقابل لاسم اللَّه باعتبار أن لا وصول إلى مسماه إلَّا به ، فهو أي عنقاء مغرب بهذا الاعتبار موجود ، فكذلك الحق ﷻ لا سبيل إلى معرفته إلَّا عن طريق أسمائه وصفاته ، إذ كل من الأسماء والصفات تحت هذا الاسم ، ولا يمكن الوصول إليه إلاَّ بذريعة أسمائه وصفاته ؛ فحصل من هذا أن لا سبيل إلى الوصول إلى اللَّه إلَّا عن طريق الاسم (ص ١٥ ، ١٦) .

واعلم أن هذا الاسم هو الذي اكتسب الوجود بحقيقته ، وبه اتضحت له سبيل طريقته ، فكان ختمًا على المعنى الكامل في الإنسان ؛ وبه اتصل المرحوم بالرحمن ؛ فمن نقش الختم فهو مع اللَّه تعالى بالاسم ، ومن عبر المنقوشات فهو مع اللَّه تعالى بالصفات ، ومن فك الختم فقد جاوز الوصف والاسم ، فهو اللَّه تعالى بذاته غير محجوب عن صفاته ، فإن أقام الجدار الذي يريد أن ينقض ، وأحكم الختم الذي يريد أن يفض ، وبلغ يتيمي حقه وخلقه أشدهما واستخرجا كنزهما (ص ٢٦) .

واعلم أن الحق ﷻ جعل هذا الاسم مرة للإنسان ؛ فإذا نظر بوجهه فيها علم حقيقة « كان اللَّه ولا شيء معه » وكشف حينئذ أن سمعه سمع اللَّه ، وبصره بصر اللَّه ، وكلامه كلام اللَّه ، وحياته حياة اللَّه ، وعلمه علم اللَّه ، وإرادته إرادة اللَّه وقدرة اللَّه تعالى ، كل ذلك بطريق الأصالة ، ويعلم حينئذ أن جميع ذلك إنما منسوبًا إليه بطريق العارية والمجاز ، وهي للَّه بطريق الملك والتحقيق (ص ٢٦) .

وفي الباب الثالث : في الصفة مطلقًا :

أوضح المؤلف أن الصفة ما تبلغك حالة الموصوف ؛ أي : ما توصل إلى فهمك معرفة حاله ، وتكيفه عندك وتجمعه في وهمك وتوضحه في فكرك وتقربه من عقلك ، فتذوق حالة الموصوف بصفته ، ولو قسته بك ووزنته في نفسك ؛ فحينئذ إما أن يميل الطبع إليه لوجود الملائم ، وإما أن ينفرد لذوق المخالف ، فافهمه وتأمله وذقه ليختم في سمعك بطابع رحمن جمعك ، ولا يمنعك هذا القسر فهو على القلب حجاب وعلى الوجه نقاب ، ثم إن الصفة تابعة للموصوف ؛ أي : لا تتصف بصفات غيرك ولا بصفات نفسك ولا بنعتك ، ولا تكن منه على شيء إلَّا إذا علمت أنك عين ذلك الموصوف وتحققت أنك العلم ، فحينئذ العلم تابع ضرورة لا تحتاج فيه إلى زيادة تأكيد ؛ لأن الصفة متعلقة بالموصوف تابعة له ، توجد بوجود الموصوف وتفقد بانعدامه .

وبعد ذلك بين المؤلف أن المحققين عرضوا لأسماء الحق في قسمين : الأول : هي

الذاتية ؛ كالأحد والواحد والفرد والصمد ، والعظيم والحي والعزيز والكبير والمتعال ، وأشباه ذلك . والقسم الثاني : هي الصفاتية ؛ كالعلم والقدرة ، ولو كانت من الأوصاف النفسية ؛ كالمعطي والخلاف ، ولو كانت من الأفعالية ، وأصل الوصف في الصفات الإلهية اسمه الرحمن فإنه مقابل لاسم الله في الحيطة والشمول ، والفرق بينهما أن الرحمن مع جمعه وعمومه مظهر للوصفية ، والله مظهر للاسمية (٣٢ ، ٣٣) .

ويلى ذلك مجموعة من الأبواب يدور مضمونها حول الألوهية والأحدية ، والواحدية ، والرحمانية ، والربوبية ، و العماء ، والتنزيه والتشبيه .

ويلي ذلك مجموعة من الأبواب مضمونها حول تجلي الأفعال ، وتجلي الأسماء ، وتجلي الصفات ، وتجلي الذات . ويرتبط مضمون الأبواب السابقة بمجموعة من المفاهيم السيكولوجية هي الفعل Action (ص ٥٦ - ٥٨) ، والقدرة Ability (ص ٥٦ - ٥٨) ، والذات (ص ٧١ - ٧٣) .

ويلي ذلك مجموعة من الأبواب يدور مضمونها حول الحياة ، العلم والإرادة ، والقدرة . ويرتبط مضمون هذه الأبواب بمجموعة من المفاهيم السيكولوجية هي القيمة العلمية (ص ٧٦ - ٧٩) ، والإرادة (ص ٧٩ : ٨١) ، والقدرة Ability (ص ٨٢ ، ٨٣) .

ويلي ذلك مجموعة من الأبواب يدور مضمونها حول الكلام ، والسمع ، والبصر ، والجمال .

ويلي ذلك مجموعة أخرى من الأبواب يدور مضمونها حول جلال الله تعالى ؛ وكماله ، وهوية الحق ، والأنية .

ويلي ذلك مجموعة أخرى من الأبواب يدور مضمونها حول الأزل ، والأبد ، والقدم ، وأيام الله تعالى ، و صلصلة الجرس ، وكذلك أم الكتاب ، والقرآن ، والفرقان ، والتوراة ، والزبور ، والإنجيل ، وفي نزول الحق ﷻ إلى سماء الدنيا في الثلث الأخير من كل ليلة ، وفي فاتحة الكتاب ، وكذلك باب أخير في ﴿ وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ﴾ [الطور : ١-٦] .

الجزء الثاني :

ويقع في ١٥٠ صفحة من القطع الصغير ، ويتكون من ٢٢ بابًا ، يحتوي بعضها على فصول نوعية ، وهذا الجزء بمثابة تكملة للجزء الأول الذي سبق عرضه .

ويبدأ بالباب الثاني والأربعين ، والذي يدور حول الرفرف الأعلى : وهو عبارة عن المكانة الإلهية من الموجودات ومن الأمور الذاتية التي اقتضتها الألوهية بنفسها ، ثم هي ليست بنوع واحد ، بل أنواع كثيرة ، لكن نوع منها يسمى رفرفًا أعلى ، وكل رفرف فهو عبارة عن المكانة الإلهية ولو اختلف مقتضاها ، فإنها من حيث شأنها الذاتي ، عين المكانة ، ولا تفضيل في بعضها على بعض .

ويلي ذلك باب في السرير والتاج ، وباب في القدمين والنعلين ؛ والقدمان عبارة عن حكمين ذاتيين متضادين ، وهما من جملة الذات بل هما عين الذات ، وهذان الحكمان ، هما ما ترتبت الذات عليهما ؛ كالحدوث والقدم والحقية والخلقية والوجود والعدم والتناهي وعدم التناهي والتشبيه والتنزيه ، وأمثال ذلك .

– ويلي ذلك مجموعة من الأبواب يدور مضمونها حول العرش ، والعرش على التحقيق مظهر العظمة ومكان التجلي وخصوصية الذات ، والكرسي ، وهو عبارة عن تجلي جملة الصفات الفعلية ؛ فهو مظهر الاقتدار الإلهي ، ومحل نفوذ الأمر والنهي ، والقلم الأعلى ، وهو عبارة عن أول معينات الحق في المظاهر الخلقية على التمييز ، واللوح المحفوظ ، وهو عبارة عن نور إلهي حقي متجلٍّ في مشهد خلقي ، وانطبعت الموجودات فيه انطباعًا أصليًّا .

ويلي ذلك مجموعة من الأبواب الأخرى يدور مضمونها حول سدرة المنتهى ، وهي نهاية المكانة التي يبلغها المخلوق في سيره إلى اللَّه تعالى ، وما بعدها إلَّا المكانة المختصة بالحق تعالى وحده ، وليس لمخلوق هناك ، ولا يمكن البلوغ إلى ما بعد سدرة المنتهى ؛ لأن المخلوق هناك مسحوق ممحوق ومدموس مطموس ملحق بالعدم المحض ، وحول روح القدس ، وهو روح الأرواح ، وهو المنزه عن الدخول تحت حيطة كن ، فلا يجوز أن يقال فيه إنه مخلوق ؛ لأنه وجه خاص من وجوده الحق قام الوجود بذلك الوجه .

ويلي ذلك مجموعة من الأبواب الأخرى يدور مضمونها حول الملك المسمى بالروح ، والقلب وأنه محتد إسرافيل عليه السلام من محمد ﷺ وكرم وعظم ومجد . ثم باب في العقل وأنه محتد جبريل عليه السلام من محمد ﷺ . ويتضمن هذا الباب السابق بعض الإشارات التي تتعلق بمفهوم العقل الإنساني Mind (ص ٢٧ – ٣٠) .

ويلي ذلك مجموعة من الأبواب الأخرى يدور مضمونها حول الوهم ، وأنه محتد عزرائيل عليه السلام من محمد ﷺ . ويرتبط السابق بمفهوم النفس (٣٠ ، ٣٤) .

ومفهوم بنية الجسم من Constitution (ص ٣٠ - ٣٤) ، ومفهوم العلاقة بين النفس والجسم من (٣٠ - ٣٤) ، ثم باب في إلهمة وأنها محتد ميكائيل من محمد ﷺ . ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم الدافعية Motivation (ص ٣٤- ٣٧) .

ويلي ذلك مجموعة من الأبواب الأخرى يدور مضمونها حول الفكر وأنه محتد باق الملائكة من محمد ﷺ . ويرتبط مضمون هذا الفصل بمفهوم التفكر Thought (ص ٣٨ - ٤٠) ، ثم باب في الخيال وأنه هيولي جميع العوامل . ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم الخيال Imagination (ص ٤٠ - ٤٦) ، ثم باب في الصورة المحمدية ؛ وأنها النور الذي خلق اللّٰه منه الجنة والجحيم ، والمحتد الذي وجد منه العذاب والنعيم .

ويلي ذلك مجموعة من الأبواب الأخرى يدور مضمونها حول النفس ؛ وأنها محتد إبليس ، ومن تبعه من الشياطين من أهل التلبيس . ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم النفس Psyche (ص ٥٨ - ٧١) ، والوساوس Obsessions (ص ٥٨ - ٧١) ، والمقصد أو النية Intention (ص ٦٦) ، ثم باب الإنسان الكامل ، وأنه محمد ﷺ وأنه مقابل للحق والخلق . ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم سمات الشخصية من (ص ٧١ - ٧٨) ثم باب في أشراط الساعة وذكر الموت والبرزخ والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار والأعراف والكثيب الذي يخرج أهل الجنة إليه ، وباب آخر في السبع السماوات وما فوقها والسبع الأرضين وما تحتها ، والسبع البحار ؛ وما فيها من العجائب والغرائب من أنواع المخلوقات . وينتهي الكتاب بالباب الثالث والستين ، وهو في سائر الأديان والعبادات ونكتة جميع الأحوال والمقامات .

* * *

أبو الحسن الباهلي (ت ٨٣٩هـ)
الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق [1]

عرض : د . معتز سيد عبد الله

التعريف بالمؤلف [2] :

سلام بن عبد اللّٰه بن سلام ، أبو الحسن الإشبيلي الباهلي : أديب أندلسي الأصل ، من أشبيلية ، صنف (الذخائر والأعلاق في أدب النفوس ومكارم الأخلاق – ط) فرغ من تصنفيه في ذي القعدة (٨٣٩هـ) . توفي سنة (٨٣٩هـ – ١٤٣٥م) ، وغير معروف تاريخ مولده .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٢٤٠ صفحة ، من القطع المتوسط ، ويتكون من أربعة عشر بابًا يدور مضمونها حول مجموعة من مبادئ آداب النفوس ومكارم الأخلاق ، وذلك بالشكل الذي نعرض لتفاصيله على النحو التالي :

الباب الأول : في ترجيح العقل ، وخصائصه ، وتجويح الهوى ، ونقائصه :

ويشتمل على مجموعة من الفصول تتناول تسمية العقل وماهيته ومحله ، وأسمائه واشتقاقاتها ، ومحل العقل ، والأمور التي شبهوا بها العقل ، وأقسامه وما يحتاج إليه من الأدب والتجربة ، وما يجب أن يكون في الإنسان من العقل حتى يستحق اسم

---

(١) القاهرة : مطبعة مصطفى وهبى [١٢٩٨هـ – ١٨٨٠م] ، ٢٣٠ صفحة .
(٢) المصدر : الأعلام للزركلي (١٠٦/٣) .

الإنسانية ، وكذلك ذكر ما ركبت منه النفس من القوى ، وأقسام حالات الإنسان ، ودرجات العقل ، وأقسام إرادة النفس ، وشرف العقل وفضله على جميع الأوضاع ، وتوضيح أن من ثمرات العقل المعرفة بالله والاستدلال عليه ، وبيان أن جهاد النفس أرفع درجات المؤمن . ويرتبط مضمون هذا الباب بمجموعة من المفاهيم السيكولوجية هي العقل Mind (ص ٤ - ٢١) ، والوظائف النفسية المختلفة (وهو ما يقابل قوى النفس) ، والإرادة ، وضبط النفس (وهو ما يقابل جهاد النفس) (ص ٤ - ٢١) .

الباب الثاني : في اكتساب العلم ، وفضائله ، واجتناب الجهل وحامله :

ويشتمل على مجموعة من الفصول تتناول الإشارة إلى أن علم الأنبياء لا يدرك بطلب ولا حيلة ؛ إنما هو اختصاص من الله تعالى ، وكذلك وجوب طلب العلم على كل مسلم ، وشروط العلم ، وأنواع العلوم والمعارف وأشرفها ، وبيان عزة نفس حامل العلم ، وأنه من الواجب على من عري من الأدب والمعرفة أن يلتزم الصمت . ويرتبط هذا الباب بمفهوم القيمة العلمية Scientific Value (ص ٢٢ - ٣٧) .

الباب الثالث : في استصحاب الطاعة بكمالها ، واستجناب المعاصي وما لها :

ويشتمل على مجموعة من الفصول توضح أن الإيمان نوعان ، وأن العبد لن يستطيع استكمال طاعة ربه إلّا برفض الدنيا ، والعمل على جهاد النفس تدريجيًا ، وبيان الشروط التي تنتهي عليها الطاعة ، وأسبابها ، ووجوبها . ومن المفاهيم السيكولوجية التي ترتبط بمضمون هذا الباب مفهوم Obedience (ص ٣٩ - ٥٤) ، وضبط النفس Self- Control والسيطرة على أهوائها (ص ٣٩ - ٥٤) .

الباب الرابع : في حسن الصبر ، وعواقبه ، وقبح الجزع ، و معايبه :

ويشتمل على مجموعة من الفصول توضح حسن الصبر وعواقبه وقبح الجزع ومعايبه ، وأن الله تعالى أثنى على عباده بالصبر وضاعف لهم الأجر ؛ وأن الصبر أصل لفروع البر والإحسان وأصل لقواعد الطاعة والإيمان ، وبيان أقسام الصبر ، وأفضل أنواعه . ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم الصبر Patience كإحدى السمات المهمة في شخصية المؤمن (ص ٥٥ - ٦٤) .

الباب الخامس : في إيثار الزهد والورع ، والاقتصار عن الرغبة والجشع :

ويشتمل على مجموعة من الفصول تتناول الفرق بين الزهد والورع ، وبيان أرفع

درجات الزهد ، وقيمة القناعة في جميع الأحوال . ويرتبط مضمون هذا الباب بمجموعة من المفاهيم السيكولوجية ؛ منها العزلة Isolation (ص ٦٨ - ٧٧) والرضا Satisfaction (ص ٧٧ ، ٧٨) وضبط النفس Self- Control ، والسيطرة على أهوائها (ص ٧٧ ، ٧٨) .

الباب السادس : في حب العدل ، وفضله ، وبغض الجور وأهله :

ويشتمل على فصلين يتناولان حقيقة العدل ، وأنه بالعدل استقام الدين وتألفت النفوس وعمرت البلاد وتمهدت الأحوال ... إلخ . ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم قيمة المساواة وسيادة العدل كأساس لقيام المجتمع السليم ، وتجنب الظلم والعدوان (ص ٧٨ ، ٧٩) .

الباب السابع : في استجلاب الحلم ، ومصالحه ، وإطراح السفه ، ومقابحه :

ويوضح فيه المؤلف أن الحلم من أكرم الخلال وأتم الخصال ، وأفضل شمائل الرجال ، وأعلى مراتب الكمال ، وأسنى مواهب اللّٰه الكبير المتعال . ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم ضبط النفس Self - Control (ص ٨٩ - ١٠١) .

الباب الثامن : في إظهار الصدق ، ومنافعه ، وإنكار الكذب ، ومصارعه :

ويشتمل على فصلين ، يشير الأول إلى أنه لا جنة أوقى من الصدق ، وفي الثاني يبين المؤلف دواعي الكذب وما فيه من العار . ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم قيمة الصدق (ص ١٠١ - ١٠٧) .

الباب التاسع : في مدح الكرم ، وأربابه ، وذم البخل ، وأسبابه ، وحقيقة كلٍّ منهما :

ويشتمل على مجموعة من الفصول تعرض لقيمة الكرم وأهميته وأنه قلما يفارق الكرم حسن الصورة ، ووجوه الكرم وأسبابه الباعثة عليه ، وبيان أن الإيثار على النفس مع الحاجة أعلى مراتب الجود ، وبيان رذائل البخل وبعض الحكايات التي تتعلق بذلك .

ويرتبط مضمون هذا الباب بمفهوم الغيرية Altruism (ص ١٠٨ - ١٢٧) ، وبالقيم الخلقية Moral Values (١٠٨ - ١٢٧) ، وسمات الشخصية (ص ١٠٨ - ١٢٧) .

الباب العاشر : في الوفاء بالعهد ، والأمانة ، والانتقاء عن النكث ، والخيانة ، وحد كلٌ منها :

ويؤكد هذا الباب أهمية الأمانة والوفاء بالعهد ، ويحذر من الخيانة ، ويرتبط ذلك بمفهوم قيمة الأمانة (ص ١٢٨ - ١٣٣) ، وبالقيم الخلقية Moral Values (ص ١٢٨ - ١٣٣) .

الباب الحادي عشر : ويشتمل على خمسة فصول متعلقة بالأفعال الشرعية ، مؤدية إلى الأحوال المرضية :

وهذه الأفعال هي : الحياء والمروءة ، وحسن الخلق ، وصلة الرحم ، وكتمان السر . ويرتبط مضمون هذا الباب ببعض المفاهيم السيكولوجية ؛ منها الخجل Shame (ص ١٣٣ - ١٣٥) ، والقيم الخلقية Moral Values (ص ١٣٣ - ١٣٩) ، وسمات الشخصية (من ص ١٣٣ - ١٣٩) .

الباب الثاني عشر : ويشتمل على خمسة فصول لا يرتضيها الشرع وقد ورد المنع منها :

وهذه الأشياء هي : الحسد ، والغيبة ، والنميمة ، والرياء ، والعُجب . ويرتبط مضمون هذه الفصول بوجه عام بمفهوم الكراهية Hate (ص ١٤٢ - ١٥٠) ، وسمات الشخصية (ص ١٤٦) ، والغرور (ص ١٥٠) .

الباب الثالث عشر : ويشتمل على فنون الآداب ، وضروب من النظم ، والنثر من كل باب :

ويتناول الأحوال التي تجمع خيري الدنيا والآخرة ، والخلافة ، وشروطها ، وآدابها ، والقضاء وشروطه ، والوزارة وشروطها ، والكتابة وآدابها ، وطلب الاستخارة ، والاستعانة بالاستشارة ، واحتياج النفس إلى الاستراحة ، وطلب القصد والاعتدال في جميع الأحوال ، وحسن الصحبة ، وكذلك حسن الظن ومكارم الأخلاق .... إلخ . ويرتبط مضمون هذا الباب ببعض المفاهيم السيكولوجية ؛ منها القيادة Leadership (ص ١٥٣ ، ١٥٤) ، والقيادة الديمقراطية (ص ١٥٦ ، ١٥٧) ، والراحة النفسية (ص ١٥٨) ، والاعتدال Moderation في مقابل التطرف (ص ١٥٩) ، والعلاقات بين الأشخاص Interpersonal Relations (ص ١٦٠ ، ١٦١) ، والمودة Intimacy

(ص ١٦٣ ، ١٦٤) ، والقيم الخلقية (ص ١٦٥ - ١٦٧) ، والقيم الدينية (ص ١٦٥ - ١٦٧) .

الباب الرابع عشر : يختص بلمعٍ من كلام رسول الله ﷺ ، وأخباره ، وغرر من مآثره الحميدة ، وآثاره .

* * *

الأبشيهي (ت ٨٥٠هـ)
المستطرف في كل فن مستظرف [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف [2] :

لم ترد تراجم محددة للأبشيهي ، والثابت أنه لم يكن موضع اهتمام مؤرخي عصره ، فضلًا عن أنه لم يعرف بنفسه على طريقة المؤلفين القدماء ، والمنقب عن حياة الأبشيهي يقع على عدة مصادر تتضارب بينها حول اسمه ، فحاجي خليفة في كشف الظنون يقول : هو الشيخ الإمام محمد بن أحمد الخطيب الأبشيهي ، بينما تثبت دائرة المعارف اللبنانية أنه شهاب الدين أحمد بن محمد ، أو محمد بن أحمد بن منصور أحمد ابن عيسى المحلي الشافعي ، ويذكره المنجد باسم بهاء الدين الأبشيهي ، بينما يذكره الزركلي في الأعلام بالأبشيهي دون أن يترجم له ، في حين نجد على طبعات كتابه نعوتًا وألقابًا كثيرة تتقدم اسمه .

والأقرب للدقة أنه أحمد بن محمد ، وأن شهاب الدين ، أو بهاء الدين ؛ إنما هي ألقاب خلعت عليه أن أضحى مرجعًا دينيًا ، والأبشيهي فهي إما نسبة إلى قرية أبشويه من أعمال مديرية الغربية ، أو إلى أبشيه من قرى الفيوم ، والأقرب للدقة أيضًا أنه ولد عام (٧٩٠هـ - ١٣٨٨م) وأدى فريضة الحج (٨١٤هـ) ، وتوفى في الحادي عشر من ذي الحجة سنة (٨٥٠هـ - ١٤٤٦م) وكان بذلك معاصرًا لعبد الرحمن بن خلدون .

---

(١) بيروت : دار القلم (١٩٨١م) ٥١٩ صفحة .

(٢) المصدر : كتاب المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٥٢٠ صفحة من القطع الكبير ، ويشتمل على فهرست لموضوعات الكتاب وفقًا لحروف المعجم ، ثم فهرست مفصل لموضوعات الكتاب بعد تقسيمها إلى أبواب وفصول ، ويضم الكتاب ٨٤ بابًا يضم كل منها عددًا من الفصول المتفاوتة . وبعد ذلك المقدمة التي كتبها المحقق عن المؤلف والكتاب ، ثم مقدمة المؤلف ، وأخيرًا تفاصيل الكتاب ، والجزء الأول من الكتاب يضم ٤٢ بابًا ، كما يضم الجزء الثاني الأبواب الاثنين والأربعين الباقية .

ونظرًا لضخامة الكتاب وتعدد أبوابه ؛ فإننا سنقدم في البداية فهرسًا تلخيصيًّا لكل أبواب الكتاب وما يتناوله كل منها ، ثم نعود لننتقي الأبواب التي نجد لها صلة مباشرة أو غير مباشرة بعلم النفس لنعرض للمفاهيم التي تتضمنها .

الباب الأول في مباني الإسلام وأركانه ويضم خمسة فصول ، والباب الثاني في العقل ، والذكاء ، والحمق والذم ، والباب الثالث في القرآن العظيم وفضله ، وحرمته ، وما أعد اللَّه تعالى لقارئه من الثواب العظيم والأجر الجسيم ، والباب الرابع في العلم والأدب ، وفضل العالم والمتعلم ، والباب الخامس في الآداب والحكم وغيرها ، والباب السادس في الأمثال السائرة ، والباب السابع في البيان والبلاغة والفصاحة ، وذكر الفصحاء من الرجال والنساء .

والباب الثامن في الأجوبة المسكتة والمستحسنة ، ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك ، والباب التاسع في ذكر الخطب ، والخطباء والشعراء ، وسرقاتهم وكبوات الجياد ، وهفوات الأمجاد ، والباب العاشر في التوكل على اللَّه تعالى والرضا بما قسم ، والقناعة ، وذم الحرص ، والطمع وما أشبه ذلك ، والباب الحادي عشر في المشاورة والنصيحة والتجارب ، والنظر في العواقب ، والباب الثاني عشر في الوصايا الحسنة ، والمواعظ المستحسنة وما شابه ذلك ، والباب الثالث عشر في الصمت ، وصون اللسان والنهي عن الغيبة والسعي بالنميمة ، ومدح العزلة ، وذم الشهرة ، والباب الرابع عشر في الملك والسلطان ، وطاعة ولاة أمور الإسلام ، وما يجب للسلطان على الرعية ، وما يجب لهم عليه ، والباب الخامس عشر فيما يجب على من صاحب السلطان ، والتحذير من صحبته ، والباب السادس عشر في الوزراء وصفاتهم وأحوالهم ، والباب السابع عشر في ذكر الحجاب والولاية وما فيها من الضرر والخطر ، والباب الثامن عشر فيما جاء في القضاء

وذكر القضاء ، وقبول الرشوة والهدية على الحكم ، وما يتعلق بالديون ، وذكر القصاص ، والتصوف ، والباب التاسع عشر في العدل والإحسان والإنصاف وغير ذلك ، والباب العشرون في الظلم وشؤمه وسوء عواقبه ، وذكر الظلمة وأحوالهم ، والباب الحادي والعشرون في بيان الشروط التي تؤخذ على العمال ، وسيرة السلطان في استجباء الخراج ، وأحكام أهل الذمة ، والباب الثاني والعشرون في اصطناع المعروف وإغاثة الملهوف ، وقضاء حوائج المسلمين وإدخال السرور عليهم ، والباب الثالث والعشرون في محاسن الأخلاق ومساوئها ، والباب الرابع والعشرون في حسن المعاشرة والمودة والأخوة والزيارة ، والباب الخامس والعشرون في الشفقة على خلق اللّه تعالى ، والرحمة بهم ، وفضل الشفاعة ، وإصلاح ذات البين ، والباب السادس والعشرون في الحياء ، والتواضع ، ولين الجانب ، وخفض الجناح ، والباب السابع والعشرون في العجب والكبر والخيلاء ، والباب الثامن والعشرون في الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت ، والباب التاسع والعشرون في الشرف والسؤدد ، وعلو الهمة ، والباب الثلاثون في الخير والصلاح ، وذكر السادة الصحابة ، وذكر الأولياء والصالحين ، والباب الحادي والثلاثون في مناقب الصالحين ، وكرامة الأولياء ، والباب الثاني والثلاثون في ذكر الأشرار والفجار وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة ، والباب الثالث والثلاثون في الجود والسخاء ، والكرم ، ومكارم الأخلاق ، واصطناع المعروف ، وذكر الأمجاد وأحاديث الأجواد . والباب الرابع والثلاثون في البخل والشح ، وذكر البخلاء وأخبارهم و ما جاء عنهم ، و الباب الخامس والثلاثون في الطعام وآدابه والضيافة ، وآداب المضيف والضيف ، وأخبار الأكلة وما جاء عنهم ، والباب السادس والثلاثون في العفو والحلم والصفح وكظم الغيظ والاعتذار وقبول المعذرة والعتاب ، والباب السابع والثلاثون : في الوفاء بالوعد ، وحسن العهد ، ورعاية الذمم ، والباب الثامن والثلاثون في كتمان السر وتحصينه وذم إفشائه ، والباب التاسع والثلاثون في الغدر والخيانة والسرقة ، والعداوة ، والبغضاء ، والحسد ، والباب الأربعين في الشجاعة وثمرتها والحروب وتدبيرها ، وفضل الجهاد وشدة البأس ، والتحريض على القتال ، والباب الحادي والأربعون في ذكر أسماء الشجعان ، وذكر الأبطال وطبقاتهم ، وأخبارهم ، وذكر الجبناء وذم الجبن ، والباب الثاني والأربعون في المدح والثناء وشكر النعمة ، والمكافأة . والباب الثالث والأربعون (وهو بداية الجزء الثاني) في الهجاء ومقدماته ، والباب الرابع والأربعون في الصدق والكذب ، والباب الخامس والأربعون في بر الوالدين ، وذم العقوق ، وذكر الأولاد ، ما يجب لهم وعليهم ، وصلة الرحم

والقرابات ، وذكر الأنساب ، والباب السادس والأربعون في الخلق وصفاتهم ، وأحوالهم وذكر الحسن والقبح ، والطول والقصر والألوان ، واللباس ، والباب السابع والأربعون في ذكر الحلي ، والمصوغ والطيب والتطيب ، وما جاء في التختم ، والباب الثامن والأربعون في الشباب والشيب والصحة ، والعافية ، وأخبار المعمرين ، والباب التاسع والأربعون في الأسماء والكنى والألقاب ، وما استحسن منها ، والباب الخمسون في الأسفار والاغتراب ، وما قيل في الوداع والفراق ، والحث على ترك الإقامة بدار الهوان ، وحب الوطن ، والحنين إلى الأوطان ، والباب الحادي والخمسون في ذكر الغنى ، وحب المال ، والافتخار بجمعه ، والباب الثاني والخمسون في ذكر الفقر ومدحه ، والباب الثالث والخمسون في ذكر التلطف في السؤال ، وذكر من سُئل فجاد ، والباب الرابع والخمسون في ذكر الهدايا ، والتحف ، والباب الخامس والخمسون في العمل والكسب والصناعات ، والحرب ، والعجز ، والتواني ، والباب السادس والخمسون في شكوى الزمان ، وانقلابه بأهله ، والصبر على المكاره ، والتسلي عن نوائب الدهر ، والباب السابع والخمسون ، فيما جاء في اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة ، والسرور بعد الحزن ، والباب الثامن والخمسون ، في ذكر العبيد والإماء ، والخدم ، والباب التاسع والخمسون في أخبار العرب ، وذكر غرائب من عوائدهم ، وعجائب أمرهم ، والباب الستون في الكهانة ، والقيافة والزجر ، والعرافة ، والفأل ، والطيرة والفراسة ، والنوم والرؤيا ، والباب الحادي والستون في الحيل ، والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد والتيقظ ، والتبصر ، والباب الثاني والستون في ذكر الدواب ، والوحوش ، والطير ، والهوام ، والحشرات ، ومرتبًا على حروف المعجم ، والباب الثالث والستون في ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم ، والباب الرابع والستون في خلق الجان وصفاتهم ، والباب الخامس والستون في ذكر البحار وما فيها من العجائب ، وذكر الأنهار ، والآبار ، والباب السادس والستون في ذكر عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البنيات ، والباب السابع والستون في ذكر المعادن ، والأحجار ، وخواصها ، والباب الثامن والستون في ذكر الأصول ، والألحان ، وذكر الغناء ، واختلاف الناس ، ومن كرهه ومن استحسنه ، والباب التاسع والستون في ذكر المغنيين والمطربين وأخبارهم ، ونوادر الجلساء في مجالس الخلفاء ، والباب السبعون في ذكر القينات ، والأغاني ، والباب الحادي والسبعون في ذكر العشق ومن بلي به ، والافتخار به ، والعفاف ، وأخبار من مات بالعشق ، وما في معنى ذلك ، والباب الثاني والسبعون في ذكر رقائق الشعر ، والمواليا ، والدوبيت وكان وكان ، والموشحات ، والزجل ، والقومه ،

والألغاز ، ومدح الأسماء والصفات ، والباب الثالث والسبعون في ذكر النساء وصفاتهن ، ونكاحهن ، وطلاقهن ، وما يمدح وما يذم من عشرتهم ، والباب الرابع والسبعون في ذم الخمر وتحريمها ، والنهي عنها ، والباب الخامس والسبعون في المزاج ، والنهي عنه ، وما جاء في الترخيص فيه ، والبسط ، والتنعم ، والباب السادس والسبعون في النوادر ، والحكايات ، والباب السابع والسبعون في الدعاء وآدابه ، وشروطه ، والباب الثامن والسبعون في القضاء والقدر ، وأحكامهما ، والتوكل على اللّه تعالى ، والباب التاسع والسبعون في التوبة وشروطها ، والندم والاستغفار ، والباب الثمانون في ذكر الأمراض والعلل ، والطب والدواء ، ومن السنة ، والعيادة وثوابها ، والباب الحادي والثمانون في ذكر الموت ، وما يتصل به من القبر وأحواله ، والباب الثاني والثمانون في الصبر ، والتأسي ، والتعازي ، والمراثي ، والباب الثالث والثمانون في ذكر الدنيا ، وأحوالها ، وتقلبها بأهلها والزهد فيها . والباب الرابع والثمانون وهو آخر الأبواب ويدور حول الصلاة على النبي ﷺ ....

ومن الأبواب التي لها صلة بعلم النفس **الباب الثاني** : والذي تحدث فيه المؤلف عن العقل وأهميته وفضله وما ورد في القرآن والحديث الشريف يعضد ذلك ، وكذلك آراء أهل العلم . ويقسم العقل إلى قسمين الأول لا يقبل الزيادة والنقصان وهو العقل الغريزي ، والثاني يقبلهما وهو العقل التجريبي وهو مكتسب ويزيد بكثرة التجارب والوقائع ، ثم يتحدث عن موضوع العقل وهل في الدماغ أم في القلب ، ويذكر الذكاء ومظاهره والحمق ومضاره ، ومن هنا نجد من موضوع ينتمي لعلم النفس ؛ مثل العقل ، والذكاء ، وهل هو مكتسب أم فطري (علم النفس العام) وكذلك محاولة تحديد موضوع العقل (علم النفس الفسيولوجي وعلم النفس العصبي) والتجربة وهي من الأسس التي قام عليها علم النفس الحديث (علم النفس التجريبي) (ص ٤٠ - ٤٤) .

وفي **الباب الرابع** : يتحدث عن العلم والأدب وفضل العالم والمتعلم ، ويستدل على ذلك مما ورد في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، ويسرد فوائد العلم والتعلم ، والتحذير من ترك العلم ، وخصال العالم ووقت التعلم ، وأن العلم قرين العقل والحكمة والفهم ، وفضلًا عن قيمة العلم و ما ينبغي أن يتحلى به العلماء في كل زمان ومكان فإن الحديث عن التعلم ووقته ينتمي إلى أحد الفروع في علم النفس العام وهو سيكولوجية التعليم (ص ٤٦ - ٥١) .

أما الباب الخامس : فهو مخصص للآداب والحلم ، ومن استعراض هذه الآداب نجد عددًا غير قليل من المفاهيم التي تنتمي لعلم النفس الحديث بشكل أو بآخر ؛ فهو يذكر

الفرح والسرور ، والحب ، والغضب وهي تدرس تحت موضوع الانفعالات في علم النفس العام .

ويتحدث عن الصداقة واختيار الأصدقاء (موضوع المهارات الاجتماعية Social Skills في علم النفس الاجتماعي ، وكذلك سلوك المساعدة Helping Behavior ، والاقتداء Modeling (سيكولوجية التعلم) والدوافع الأولية (أو الشهوة) وهي من موضوعات علم النفس العام ، ويذكر أيضًا الصحة النفسية Mental Health ، وبعض محددات الأسلوب المعرفي Cognitive ؛ كالاندفاعية - والتروي Impulsivity ، والسرعة والدقة Speed - Accuracy وهي خصائص للأداء بصفة عامة (المعرفي ، والحركي ، والإدراكي) . ويذكر بعض خصال الشخصية وأبعادها ؛ كالانبساط - الانطواء ، والطاعة ، والصبر (المثابرة) ومستوى الطموح ، ويتحدث عن الاستشارة والموعظة (وتدخل في باب الإرشاد النفسي Counseling) ، ثم الفهم وينتمي إلى سيكولوجية اللغة أو الذكاء ، وأخيرًا يؤكد قيمة التجربة (أو الاعتبار) (ص ٥١ - ٥٤) .

وفي **الباب السابع** : يتحدث عن البيان والبلاغة والفصاحة وتعريف كل منها ، وأمثلة من الفصحاء رجالًا ونساء (وحديثه هنا ينتمي بشكل مباشر - في بعض أجزائه - إلى سيكولوجية اللغة (ص ٦٦ - ٨٣) .

وكذلك حديثه عن الخطب والخطباء في **الباب التاسع** والذي يمكن أن يدخل في موضوع التخاطب Communication (أحد موضوعات علم النفس الاجتماعي) أو في سيكولوجية اللغة (ص ٨٥ - ٩٠) .

والباب العاشر : في التوكل على اللّٰه تعالى والرضا بما قسم ، والقناعة ، وذم الحرص والطمع ؛ ويقسمه إلى عدة فصول أحدها للتوكل على اللّٰه ، والثاني للقناعة والرضا ، والثالث في ذم الحرص والطمع وطول الأمل ، والحديث في هذا الباب بصفة عامة يمكن أن يدخل بشكل غير مباشر إما في إشباع الدوافع (أحد موضوعات علم النفس العام) أو علم النفس الصناعي (خاصة مفهوم الرضا عن العمل) وأخيرًا سمات الشخصية وخصالها (ص ٩١ - ٩٩) .

ومن الأبواب المهمة في هذا الكتاب **الباب الحادي عشر** : وهو في المشاورة والنصيحة والتجارب والنظر في العواقب (ص ٩٩ - ١٠٣) ويمكن أن نضم إليه أيضًا الباب الثاني عشر وهو في الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة (ص ١٠٣ - ١٠٧) . ومما أورده في

هذين البابين يمكن أن نستشف حديثًا ينتمي إلى موضوع رئيسي ؛ فالجزء الخاص بالمشاورة والنصيحة ، والوصايا الحسنة ، والمواعظ المستحسنة يدخل في إطار الإرشاد النفسي أحد الفروع المستقلة لعلم النفس الحديث .

والباب الرابع عشر : في الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام وما يجب للسلطان على الرعية وما يجب لهم عليه (ص ١١٢ ، ١١٣) .

والباب الخامس عشر : فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته (ص ١١٣ - ١١٥) .

والباب السادس عشر : في ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم (ص ١١٥ ، ١١٦) . والحديث في هذه الفصول يدور حول تنظيم العلاقة بين الحكام والمحكومين ، وخصال الحكام وما لهم وما عليهم ، ومن وجهة نظر علم النفس فإن هذا الموضوع يدرس تحت عنوان القيادة Leadership (وهو من موضوعات علم النفس الاجتماعي) .

وفي عدد من الفصول التالية يدور الحديث عما يمكن اعتباره من خصال الشخصية وسماتها ؛ كالعدل والإحسان والإنصاف (ص ١٢٤ - ١٢٧) وسمات أخرى سيئة كالظلم (ص ١٢٧ - ١٣١) .

أما الباب الثاني والعشرون : فهو يدور حول إغاثة الملهوف ، وقضاء حوائج المسلمين وإدخال السرور عليهم ، ويمكن اعتبار هذا الحديث ينتمي إلى موضوعي التفاعل الاجتماعي Social Interaction وسلوك المساعدة (وهما من موضوعات علم النفس الاجتماعي ص ١٣٤ - ١٣٦) .

كما يحدثنا في **الباب الثالث والعشرين** عن محاسن الأخلاق ومساوئها (ص ١٣٦ - ١٣٩) . ويعود بعد ذلك في الفصول التالية ليفصل هذه الأخلاق ، فيتحدث عن حسن المعاشرة والمودة والأُخوة والزيارة (والأُخوة تدخل ضمن باب الصداقة Friendship ص ١٤٠ - ١٤٥) . كما يحدثنا عن الشفقة ، والرحمة وإصلاح ذات البين (ص ١٤٦، ١٤٧) ، وعن الحياء والتواضع ، ولين الجانب ، وخفض الجناح (ص ١٤٧ ، ١٤٨) ، وعن الجود والسخاء والكرم ، ومكارم الأخلاق وصنع المعروف (ص ١٢٧ - ١٨٤) ، وعن العفو والحلم والصفح وكظم الغيظ ، والاعتذار ، والعقاب (ص ١٩٧ - ٢٠٦) ، والوفاء بالوعد ، وحفظ العهد ورعاية الذمم (ص ٢٠٦ - ٢١٣) ، وكتمان السر وتحصينه (ص ٢١٣ - ٢١٥) ، وعن المدح والثناء والشكر

الفرح والسرور ، والحب ، والغضب وهي تدرس تحت موضوع الانفعالات في علم النفس العام .

ويتحدث عن الصداقة واختيار الأصدقاء (موضوع المهارات الاجتماعية Social Skills في علم النفس الاجتماعي ، وكذلك سلوك المساعدة Helping Behavior ، والاقتداء Modeling (سيكولوجية التعلم) والدوافع الأولية (أو الشهوة) وهي من موضوعات علم النفس العام ، ويذكر أيضًا الصحة النفسية Mental Health ، وبعض محددات الأسلوب المعرفي Cognitive ؛ كالاندفاعية - والتروي Impulsivity ، والسرعة والدقة Speed - Accuracy وهي خصائص للأداء بصفة عامة (المعرفي ، والحركي ، والإدراكي) . ويذكر بعض خصال الشخصية وأبعادها ؛ كالانبساط - الانطواء ، والطاعة ، والصبر (المثابرة) ومستوى الطموح ، ويتحدث عن الاستشارة والموعظة (وتدخل في باب الإرشاد النفسي Counseling) ، ثم الفهم وينتمي إلى سيكولوجية اللغة أو الذكاء ، وأخيرًا يؤكد قيمة التجربة (أو الاعتبار) (ص ٥١ - ٥٤) .

وفي **الباب السابع** : يتحدث عن البيان والبلاغة والفصاحة وتعريف كل منها ، وأمثلة من الفصحاء رجالًا ونساء (وحديثه هنا ينتمي بشكل مباشر - في بعض أجزائه - إلى سيكولوجية اللغة (ص ٦٦ - ٨٣) .

وكذلك حديثه عن الخطب والخطباء في **الباب التاسع** والذي يمكن أن يدخل في موضوع التخاطب Communication (أحد موضوعات علم النفس الاجتماعي) أو في سيكولوجية اللغة (ص ٨٥ - ٩٠) .

والباب العاشر : في التوكل على اللَّه تعالى والرضا بما قسم ، والقناعة ، وذم الحرص والطمع ؛ ويقسمه إلى عدة فصول أحدها للتوكل على اللَّه ، والثاني للقناعة والرضا ، والثالث في ذم الحرص والطمع وطول الأمل ، والحديث في هذا الباب بصفة عامة يمكن أن يدخل بشكل غير مباشر إما في إشباع الدوافع (أحد موضوعات علم النفس العام) أو علم النفس الصناعي (خاصة مفهوم الرضا عن العمل) وأخيرًا سمات الشخصية وخصالها (ص ٩١ - ٩٩) .

ومن الأبواب المهمة في هذا الكتاب **الباب الحادي عشر** : وهو في المشاورة والنصيحة والتجارب والنظر في العواقب (ص ٩٩ - ١٠٣) ويمكن أن نضم إليه أيضًا الباب الثاني عشر وهو في الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة (ص ١٠٣ - ١٠٧) . ومما أورده في

هذين البابين يمكن أن نستشف حديثًا ينتمي إلى موضوع رئيسي ؛ فالجزء الخاص بالمشاورة والنصيحة ، والوصايا الحسنة ، والمواعظ المستحسنة يدخل في إطار الإرشاد النفسي أحد الفروع المستقلة لعلم النفس الحديث .

والباب الرابع عشر : في الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام وما يجب للسلطان على الرعية وما يجب لهم عليه (ص ١١٢ ، ١١٣) .

والباب الخامس عشر : فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته (ص ١١٣ - ١١٥) .

والباب السادس عشر : في ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم (ص ١١٥ ، ١١٦) . والحديث في هذه الفصول يدور حول تنظيم العلاقة بين الحكام والمحكومين ، وخصال الحكام وما لهم وما عليهم ، ومن وجهة نظر علم النفس فإن هذا الموضوع يدرس تحت عنوان القيادة Leadership (وهو من موضوعات علم النفس الاجتماعي) .

وفي عدد من الفصول التالية يدور الحديث عما يمكن اعتباره من خصال الشخصية وسماتها ؛ كالعدل والإحسان والإنصاف (ص ١٢٤ - ١٢٧) وسمات أخرى سيئة كالظلم (ص ١٢٧ - ١٣١) .

أما الباب الثاني والعشرون : فهو يدور حول إغاثة الملهوف ، وقضاء حوائج المسلمين وإدخال السرور عليهم ، ويمكن اعتبار هذا الحديث ينتمي إلى موضوعي التفاعل الاجتماعي Social Interaction وسلوك المساعدة (وهما من موضوعات علم النفس الاجتماعي ص ١٣٤ - ١٣٦) .

كما يحدثنا في **الباب الثالث والعشرين** عن محاسن الأخلاق ومساوئها (ص ١٣٦ - ١٣٩) . ويعود بعد ذلك في الفصول التالية ليفصل هذه الأخلاق ، فيتحدث عن حسن المعاشرة والمودة والأُخوة والزيارة (والأُخوة تدخل ضمن باب الصداقة Friendship ص ١٤٠ - ١٤٥) . كما يحدثنا عن الشفقة ، والرحمة وإصلاح ذات البين (ص ١٤٦، ١٤٧) ، وعن الحياء والتواضع ، ولين الجانب ، وخفض الجناح (ص ١٤٧ ، ١٤٨) ، وعن الجود والسخاء والكرم ، ومكارم الأخلاق وصنع المعروف (ص ١٢٧ - ١٨٤) ، وعن العفو والحلم والصفح وكظم الغيظ ، والاعتذار ، والعقاب (ص ١٩٧ - ٢٠٦) ، والوفاء بالوعد ، وحفظ العهد ورعاية الذمم (ص ٢٠٦ - ٢١٣) ، وكتمان السر وتحصينه (ص ٢١٣ - ٢١٥) ، وعن المدح والثناء والشكر

والنعمة والمكافأة (ص ٢٣٣ - ٢٤٦) . وكل ما تقدم يمثل بعض خصال الشخصية الطيبة التي وجب التحلي بها واكتسابها (وسنجد العديد من بينها قد درس بالفعل في إطار الشخصية أحد التخصصات الدقيقة لعلم النفس) كما يمكن أن تدخل في تخصصات أخرى ؛ كالعقل والذكاء (الحلم) والتعلم (المكافأة) والصداقة وسلوك المساعدة ، وبالإضافة إلى هذه الخصال الحميدة يوجد عدد آخر من الخصال الذميمة التي وجب التخلي عنها ؛ ومنها العجب والكبر والخيلاء (ص ١٣٨ - ١٤٩) ، والبخل والشح (ص ١٨٤ - ١٨٩) ، والغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد (ص ٢١٥ - ٢٢١) .

وفي أبواب أخرى ينطوي حديثة على متضمنات سيكولوجية حديثة ، فهو يرسي أحد المبادئ المهمة التي يعني بها علماء النفس ؛ وهو مبدأ الفروق الفردية Individual Differènces (أحد المبادئ المهمة في القياس النفسي Psychometry ص ١٤٩ - ١٥٣) . **وفي الباب الثلاثين ، والحادي والثلاثين** : يتحدث عن ذكر الصحابة والأولياء الصالحين ومناقبهم وكرامتهم ؛ وكأنه يعطي مقدمات مبكرة للتعلم بالاقتداء Modeling (أحد أساليب التعلم الاجتماعي ص ١٥٥ - ١٧٣) .

أما في الباب الثاني والثلاثين : فيتحدث عن الأشرار والفجار وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة (ص ١٧٠ - ١٧٢) ويمكن أن نستفيد من ذلك الحديث في دراسة موضوع الصداقة ، واختيار الأصدقاء ، والبعد عن الأشرار منهم .

ومن الموضوعات التي يثيرها في هذا الجزء من الكتاب وبالتحديد في الباب الخامس والثلاثين الحديث عن الطعام وآدابه ؛ وهو هنا يتحدث بشكل غير مباشر عن أحد الدوافع الأولية أو البيولوجية (دافع الجوع) وكيفية إشباعه (وهو من موضوعات علم النفس العام ص ١٨٩ - ١٩٧) .

ويستأنف الأبشيهي حديثه في الجزء الثاني من الكتاب بذكر عدد آخر من الخصال الطيبة والخصال الرديئة .

ففي الباب الرابع والأربعين : يتحدث عن الصدق والكذب ، وفوائد الصدق وعلاماته ، ومضار الكذب وجزائه في الدنيا والآخرة (موضوع القيم Values ص ٢٥٤ - ٢٥٦) .

أما في الباب الخامس والأربعين : فيحدثنا عن بر الوالدين ، وذم العقوق ، وذكر الأولاد وما يجب لهم وعليهم ، وصلة الرحم ، والقرابات وذكر الإنسان ، وهو باب جيد في

تنظيم العلاقة بين أفراد الأسرة (ويمكن الإفادة منه في دراسة التنشئة الاجتماعية Socializatation إحدى موضوعات علم النفس الاجتماعي ص ٢٥٦) . كما أن هذا الباب ينطوي على كلام في ذكر النجباء والأذكياء ، والبلدان (ونلاحظ هنا أنه يمس واحدًا من أهم موضوعات علم النفس وهو الذكاء Intelligence ص ٢٥٧ - ٢٥٩) .

أما الباب السادس والأربعون : فهو في الخلق وصفاتهم وأحوالهم وذكر الحسن والقبح والطول والقصر وغير ذلك (ويمكن أن نستشف من هذا الباب حديثًا غير مباشر عن صفات يمكن أن تدخل في دراسات الشخصية ، بالإضافة إلى عدد من الخصائص التي يمكن أن نطلق عليها الخصائص الجسمية ، والتي تكون موضوع اعتبار في بعض الدراسات النفسية ص ٢٦٠ - ٢٧٥) .

ومن الأبواب المهمة في هذا الكتاب الباب الثامن والأربعين : والذي يتحدث فيه عن الشباب والشيب والصحة والعافية وأخبار المعمرين ، وهذا الحديث نجد له تضمينات في علم النفس الحديث ؛ منها ما يدخل في علم النفس الحديث ، ومنها ما يدخل في علم النفس الارتقائي Developmental Psychology ، ومنها ما يدخل في علم النفس الإكلينيكي والصحة النفسية (وإن كان حديثه يتعلق بالصحة بشكل عام ومجمل) (ص ٢٧٧ - ٢٨٠) .

ويخصص الباب السادس والخمسين : للحديث عن شكوى الزمان وانقلابه بأهله ، والصبر على المكاره ، والتسلي عن نوائب الدهر . (وكأن الحديث هنا يشير إلى ما يطلق عليه علماء النفس المحدثون مثيرات المشقة Stressors خاصة أحداث الحياة وتغيراتها Life Events ، وكيفية التغلب عليها وتحقيق التوافق ص ٣٠٦ - ٣١٦) .

وكذلك الباب السابع والخمسون : الذي يتحدث فيه عن اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة وهو امتداد للحديث السابق ، وتماثل من وجهة نظرنا النتائج التي يجنيها الفرد من جراء اتباعه لأساليب التوافق الإيجابية والتغلب على الإحباط Frustration ومسبباته . كما يتحدث أيضًا عن الفرح والسرور الذي يحسه المرء بعد انقضاء العسرة . وهو جانب من الانفعالات التي يشعر بها الإنسان ، والتي تدرس في علم النفس الحديث تحت باب الانفعالات Emotions (ص ٣١٦ - ٣٢١) .

ويتحدث في الباب الستين : عن الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراسة والنوم والرؤية . وقيافة البشرة هي الاستدلال بصفات أعضاء الإنسان . وتشبهها

الفراسة وقال عنها علي ﷺ ما أضمر أحد شيئًا إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه . ولعل هذا الجزء يماثل مرحلة تاريخية من مراحل تطور علم النفس ، وهي مرحلة مبكرة ثم تجاوزها تمامًا ، وحل محلها الدراسة العلمية الكمية لخصال الإنسان النفسية والعقلية اعتمادًا على مقاييس واختبارات موضوعية ، سواء في مجال دراسات الشخصية ، أو الجانب العقلي والانفعالي . أما الحديث عن النوم والرؤية وما يحدث خلالهما فهو موضع عناية المختصين في عام النفس الفسيولوجي (ص ٣٢٦ - ٣٣٣) .

ولعل **الحديث في الباب الحادي والستين** : عن الحيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد والتيقظ والتبصر ينتمي إلى الجانب العقلي في الإنسان من قبيل الذكاء والتفكير ، والقدرات الإبداعية (رغم أنه حديث غير مباشر) .

أما التيقظ فله تضمينات في دراسات الانتباه Attention أحد موضوعات علم النفس العام (ص ٣٣٣ - ٣٣٨) .

ويمكن اعتبار ما جاء **بالباب الحادي والسبعين** عن العشق ومن بلي به ينتمي مباشرة إلى دراسات الانفعال باعتباره من درجات الحب (وهو من موضوعات علم النفس العام ص ٣٩٣ - ٤٠٣) .

ويتصل به كذلك حديثه في **الباب الثالث والسبعين** عن النساء وصفاتهن ونكاحهن وطلاقهن وما يحمد وما يذم من عشرتهن ، والحديث في الجزء الأول من هذا الباب يدخل في إطار دراسة الدوافع الأولية أو البيولوجية ؛ ومنها الدافع الجنسي (ص ٤٦٠ - ٤٦٥) .

والباب الرابع والسبعون : مخصص للحديث عن تحريم الخمر وذمها والنهي عنها وآثارها . والكحوليات (أو الخمور) بصفة عامة أحد أنواع المواد النفسية المؤثرة في الأعصاب ، والتي تلقى عناية خاصة من علماء النفس في الوقت الراهن وبخاصة في علم النفس المرضي (ص ٤٧١ - ٤٧٣) .

وإذا ما تجاوزنا عدة أبواب ووصلنا **للباب الثمانين** الذي خصصه الإبشيهي للأمراض والعلل والطب والدواء وما جاء في السنة من العيادة ، سنجد أحد جوانب اهتمام علماء النفس الإكلينيكيين الذين يهتمون بالأمراض النفسية والعقلية وتشخيصها وأعراضها وطرق علاجها ، وكذلك الأمراض العصبية والتي ذكر منها في هذا الباب الفالج (الشلل) (مع ملاحظة الفارق في أنواع الأدوية التي تحدث عنها المؤلف والمعروفة في

أيامنا الحالية) (ص ٤٩٤ - ٤٩٨) .

وأخيرًا نجد في **الباب الثاني والثمانين** حديثًا عن الصبر والتأسي والتعازي والمرائي ، وهو يتصل بأحداث الحياة ومثيرات المشقة وما يترتب عليها وكيفية التغلب عليها وهو يمكن أن يندرج تحت دراسة التوافق Adjustment (ص ٥٠١ - ٥٠٥) .

* * *

جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)
الأرج في الفرج [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف [2] :

هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي ، جلال الدين ، إمام حافظ مؤرخ أديب له نحو ٦٠٠ مصنف ، منها الكتاب الكبير ، والرسالة الصغيرة .

نشأ في القاهرة يتيمًا (مات والده وعمره خمس سنوات) ، ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس ، وخلا بنفسه في روضة المقياس ، على النيل ، منزويًا عن أصحابه جميعًا ؛ كأنه لا يعرف أحدًا منهم ، فألف أكثر كتبه ، وكان الأغنياء والأمراء يزورونه ، ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها ، وطلبه السلطان مرارًا فلم يحضر إليه ، وأرسل إليه هدايا فردها .

وبقى على ذلك إلى أن توفى ، وقرأت في كتابه : « المنح البارية – خ » أنه كان يلقب بابن الكتاب ؛ لأن أباه طلب من أمه أن تأتيه بكتاب ، ففاجأها المخاض ، فولدته وهي بين الكتب .

ومن كتبه :

١ – الإتقان في علوم القرآن – ط .

(١) تحقيق : أبو هاجر السعيد بن بسيوني زغلول – ط١ . القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية (١٩٨٦م) (٨٨ ص) .
(٢) الأعلام ، الزركلي ، مج ٣ .

٢ - إتمام الدراية لقراءة النقاية .
٣ - الأحاديث المنيفة .
٤ - الأرج في الفرج .
٥ - الأذكار في ما عقده الشعراء من الآثار .
٦ - إسعاف المبطأ في رجال الموطأ .
٧ - الأشباه والنظائر .
٨ - الاقتراح .
٩ - الإكليل في استنباط التنزيل .
١٠ - الألفية في مصطلح الحديث .
١١ - الألفية في النحو .
١٢ - انتباه الأذكياء لحياة الأنبياء .
١٣ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة .
١٤ - تاريخ الخلفاء .
١٥ - التحبير لعلم التفسير .
١٦ - تحفة المجالس ونزهة المجالس .
١٧ - تحفة الناسك .
١٨ - تدريب الراوي .
١٩ - تفسير الجلالين .
٢٠ - الجامع الصغير .
٢١ - الخصائص والمعجزات النبوية .
٢٢ - ديوان الحيوان .
٢٣ - شرح شواهد المغنى .
٢٤ - طبقات المفسرين .
٢٥ - عقود الجمان في المعاني والبيان .
٢٦ - المحاضرات والمحاورات .

٢٧ - مشتهى العقول في منتهى النقول .

وغير ذلك من الكتب .

عرض الكتاب :

الكتاب الذي نعرض له الآن : « الأرج في الفرج » هو تلخيص لكتاب الفرج بعد الشدة لأبي بكر بن أبي الدنيا مع إضافة بعض التعديلات والزيادات التي قام بها السيوطي شيخ الإسلام والمسلمين في عصره .

وفي بدايته يعرض المؤلف لعدد من الأحاديث النبوية الشريفة التي تشير إلى الفرج من اللّه بعد الشدة والعسر أو الضيق ؛ ومن هذه الأحاديث : -

قول رسول اللّه ﷺ : « **انتظار الفرج من اللّه عبادة** » كما قال رسول اللّه ﷺ : « **سلوا اللّه من فضله فإن اللّه يحب أن يُسأل من فضله وأفضل العبادة انتظار الفرج** » .

وأوضح أن استغفار العبد للّه من كل هم أو ضيق يفرج عنه اللّه ويرزقه من حيث لا يدري ، وأن كلمات الفرج تتمثل في قول رسول اللّه ﷺ : « **لا إله إلّا اللّه الحليم الكريم ، لا إله إلّا اللّه العلي العظيم ، لا إله إلّا اللّه رب السموات السبع ورب العرش الكريم** » .

وعرض المؤلف لعدد من المواقف التي توضح أهمية دعاء الصحابة عندما يتعرضوا للأوقات وظروف الشدة ؛ فيفرج اللّه عنهم ويسهل أمرهم ، ويستجيب لدعائهم .

ثم استدل على ذلك أيضًا بعدد من الأبيات الشعرية التي تشير إلى الفرج بعد الشدة والعسر ؛ ومنها قول البعض :

يا صاحب الهم إن الهم منقطع لا تيأسن كأن قد فرج اللّه

وقال آخر :

مفتاح باب الفرج الصبر وكل عسر معه يسر
والدهر لا يبقى على حاله والأمر يأتي بعده الأمر
والكرب تفنيه الليالي يفنى عليها الخير والشر

ثم روى بعض القصص والحكايات التي تشير إلى نفس المعنى ، فهناك مثلًا قصة من أُسر عشرين سنة ، ويأس من الأسر والبعد عن الأهل ثم دعا اللّه ﷻ ففرج عنه من الأسر . كما عرض لقصة الأعرابي الذي شكا إلى علي بن أبي طالب شدة لحقته وضيقًا

في الحال ، وكثرة العيال ؛ فقال له : عليك بالاستغفار فإن الله ﷻ يقول : ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴾ [نوح: ١٠-١٢] .

كما روى البعض أنه لما اجتمعت اليهود على عيسى عليه السلام ليقتلوه أتاه جبريل عليه السلام فقال له : « **قل : اللّٰهم إني أسألك باسمك الواحد الأحد ، أدعوك اللّٰهم باسمك الصمد ، أدعوك اللّٰهم باسمك العظيم الوتر الذي ملأ الأركان كلها إلّا ما فرجت عني ما أمسيت فيه وما أصبحت فيه ، دعا بها عيسى فأوحى ﷻ إلى جبريل أن ارفع إلي عبدي** » .

ثم عرض المؤلف لعدد من المواقف التي تشير إلى صحة الصلاة ركعتين في حالة ما إذا أراد الفرد من اللّٰه ﷻ أن يزيل كربه أو شدته أو مشكلة تواجهه ، ثم يدعو اللّٰه بعد الصلاة ؛ فيقول مثلًا : اللّٰهم اجعل لي من كل هم يهمني فرجًا ومخرجًا ، وارزقني من حيث لا أحتسب .

ثم تلا ذلك ذكر عدد من الأبيات الشعرية التي توضح أنه مع الصبر يأتي الفرج ومن ذلك مثلًا :-

قال جعفر بن ورقاء الشيباني :

الحمد للّٰه على ما قضى ... في المال لما حفظ المهجة
ولم تكن من ضيقة هكذا ... إلّا وكانت بعدها فرجة

وقال آخر :

إذا ما رماك الدهر منه بنكبة ... فهيئ لها صبرًا وأوسع لها صدرًا
فإن تصاريف الزمان عجيبة ... فيومًا ترى عسرًا ويومًا ترى يسرًا

وقال ابن حبيب :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذرعًا وعند اللّٰه منها المخرجُ
عظمت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكان يظنها لا تفرج

أما فيما يتعلق بارتباط الكتاب بعلم النفس فتتمثل في الآتي :-

يعالج الكتاب موضوع الفرج بعد الشدة والأزمات التي تواجه المرء ؛ ولهذا فهو يقترب بوجه عام بالموضوعات والمفاهيم السيكولوجية التالية : -

أ - مفهوم الشدة Stress أو الانعصاب والضغوط التي تواجه الفرد .

ب - موضوع سمات الشخصية Personality Traits وخاصة سمة الصبر ، إحدى الصفات التي يتسم بها الفرد ، والتي أشار المؤلف إلى وجوب تحلي الفرد بها عند الوقوع في الأزمات .

ج - موضوع الانفعالات Emotions وخاصة أثناء عرض المؤلف في جميع صفحات الكتاب لحالات : الحزن والقلق والغضب المصاحبة للأزمات وظروف الشدة ، وحالات السرور والسعادة بعد الفرج واليسر وانقضاء الحاجة .

د - كما يرتبط موضوع الكتاب بالعلاج النفسي الديني لحالات القلق والحزن والهم بصفة عامة عن طريق الالتجاء إلى اللّٰه تعالى بالدعاء . وفي الكتاب ما يدل على نجاح هذا الأسلوب من العلاج النفسي الديني .

وهذه الجوانب مشار إليها في ثنايا عرض المؤلف لمعظم صفحات الكتاب (ص ٧ - ٧٥) فهي لا ترتبط بصفحة دون أخرى .

* * *

حسن السمت في الصمت [1]

عرض : د . معتز سيد عبد الله

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٦٤ صفحة من القطع المتوسط ، ويدور في مجموعه حول أهمية الصمت ودلالاته الأخلاقية في حياتنا ، وما يؤدي إليه من تهذيب للنفوس وتجنب للوقوع في المعاصي .

والكتاب يتكون من : (١٢٠ حديث شريف ، وقول مأثور ، وقصيدة شعرية معروضة) بتسلسل رقمي دون توزيع على فصول أو أبواب ، وينهي المؤلف كتابه بعرض فهرس مفصل للأحاديث الشريفة والآثار ، وآخر للأقوال ، وثالث للأشعار . وفيما يلي نعرض لبعض نماذج من الأحاديث الشريفة والآثار والأقوال والأشعار التي تحدثت عن الصمت بالشكل الذي يمكن أن نستنتج منه بعض المفاهيم والموضوعات السيكولوجية :

١ – عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « **من صمت نجا** » . ويتفق ذلك مع مفهوم ضبط النفس Self Control (ص ٥ – ٥٠) .

٢ – عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : « **ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان ؟** » قلت : بلى ، يا رسول الله قال : « **هو الصمت ، وحسن الخلق ، وترك ما لا يعنيك** » .

---

(١) تحقيق : أبو هاجر السعيد بن بسيوني زغلول – ط ١ . بيروت : دار الكتب العلمية (١٩٨٧م) ، (٦٤ ص) .

٣ – عن أنس ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **الصمت سيد الأخلاق** » .

ويتفق ما سبق مع بعض المفاهيم السيكولوجية هي آداب السلوك الاجتماعي والقيم الخلقية Moral Values (ص ٧ ، ٩ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠) .

٤ – عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **الحكمة عشرة أجزاء : تسعة منها في العزلة ، وواحدة في الصمت** » . ويتفق ذلك مع مفهوم العزلة Isolation (ص ١٣ ، ١٤ ، ٢٥ ، ٣٢ ، ٣٧) .

٥ – عن ابن سعيد الخدري ﷺ ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **عليك بتقوى اللّه فإنها جماع كل خير ، واخزن لسانك إلّا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان** » . ويتفق ذلك مع مفهوم الوساوس Obsessions (ص ١٤ ، ١٥) والقيم الخلقية والدينية ، وضبط النفس .

٦ – عن ابن مسعود ﷺ قال : أتى رسول اللّه ﷺ آت ، فقال : يا رسول اللّه ، إني مطاع في قومي فما آمرهم (به) ؟ فقال : « **مرهم بإفشاء السلام ، وقلة الكلام إلّا فيما يعنيهم** » ويتفق ذلك مع مفهوم المودة Intimacy والمحبة Liking (ص ١٨ ، ٢٣ ، ٢٨) والقيم الخلقية ، وضبط النفس .

٧ – عن موسى بن علي قال : قال ربيط بني إسرائيل: زين المرأة الحياء ، وزين الحكيم الصمت . ويتفق ذلك مع بعض المفاهيم السيكولوجية هي الخجل Shame (ص ٢٦) – كما يشير بصفة عامة إلى سمات الشخصية والفروق الفردية (ص ٢٦) .

٨ – عن بشر بن الحارث ﷺ قال : الصبر هو الصمت ، والصمت هو الصبر ولا يكون المتكلم أورع من الصبر إلّا رجل عالم يتكلم في موضعه ويسكت في موضعه ويتفق ذلك مع مفهوم التروي Reflectivity في مقابل الاندفاعية Impulsivity (ص ٣١ ، ٤١ ، ٤٢) .

٩ – عن سهل بن عبد اللّه قال : يصح الأدب بكماله في هذه الخصال الأربع : التوبة ، ومنع النفس من الشهوات ، والصمت ، والخلوة . ويقرب مفهوم التوبة من مفهوم الشعور بالذنب Guilt Feeling مع العزم Will على عدم ارتكاب الذنب مرة أخرى ، وضبط النفس Self Control والعزلة Isolation (ص ٣٢ – ٣٥) .

١٠ – قال عبد اللّه بن المبارك (رحمه اللّه تعالى) :

أدبت نفسي فما وجدت لها   من بعد تقوى الإله من أدب

في كل حالالتها وإن قصرت أفضل من صمتها عن الكذب
وغيبة الناس إن غيبتهم حرمها ذو الجلال في الكتب
قلت لها طائعًا وأكرهها الحلم والعلم زين ذي الحسن
إن كان من فضة كلامك يا نفس فإن السكوت من ذهب

ويتفق ما سبق مع بعض المفاهيم السيكولوجية هي : القيم الدينية والأخلاقية Religious and Moral Values ، والكذب Lie (ص ٣٢) ، وضبط النفس Self Control (ص ٤٢ ، ٤٣) ، وسمات الشخصية Personality Traits (ص ٤٣ ، ٤٤) .

* * *

المغراوي (ت ٩٢٠هـ)
جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان [1]

عرض : د . معتز سيد عبد الله

التعريف بالمؤلف [2] :

هو أحمد بن أبي جمعة المغراوي ، عاش في القرن التاسع وأول القرن العاشر ، وتوفي سنة (٩٢٠هـ/١٥١٤م) ، وتتلمذ على الإمام محمد بن يوسف السنوسي المتوفى سنة (٨٨٥هـ/١٤٨١م) وعلى غيره من علماء تلمسان ، كما أخذ عن شيوخ تونس حسبما يفهم من كتابه هذا .

وقد ذكرنا في آخر كتابه أنه أَتم تأليفه في ١٤ ذي الحجة من عام ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م - ١٤٩٣م . أما تاريخ نسخه فقد حدد من المخطوط بتاريخ ١٦ ذي القعدة من عام ١١٤٨هـ/١٧٣٥م - ١٧٣٦م .

ويذكر محققا الكتاب أنهما حاولا أن يجدا ترجمة كافية للمؤلف في مختلف المراجع التي عادا إليها ، فلم يتيسر لهما ذلك .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٦٩ صفحة من القطع المتوسط ، ويغطي مجموعة من المباحث التي تدور حول تربية الصغار ، وأحكام المعلمين وآبائهم ، ودرس فيه الحقوق والواجبات التي

---

(١) تحقيق : أحمد جلولي البدوي ، رابح بونار . الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (١٩٧٩م) ، (٦٩ ص) .

(٢) جامع جوامع الاختصار ... ، ت : أحمد جلولي ، رابح بونار .

تتصل بالفريقين ، كما فصل أحكام « الحذقة » وأجرة الشهور ، والأعوام والحذاق وسائر العوائد اللازمة في المواسم الإسلامية ، وهكذا فالمؤلف قد حدد خطة كتابه بالمباحث التي لها علاقة بالجانب الفقهي في مجال التعليم ولكنه رغم هذا فقد ناقش بعض الآراء التربوية المهمة ، واستعان على ذلك بكتب من سبقه ؛ كالقابسي ، ومحمد بن سحنون والشوشاوي وغيرهم . وأنهى المحققان الكتاب بعرض مجموعة من الفهارس للأعلام والأحاديث والآيات والأشعار ، وأهم التعاليق ، وأسماء الكتب ، والأماكن ، وأخيرًا الموضوعات . وتفصيل ذلك هو :

باب حكم الحذقة وما موضعها من القرآن :

وفي هذا الجزء تناول أحكام الحذقة ، وعنى بأحكامها ؛ والحذقة هي : - كما عرضها القابسي قبله - حفظ القرآن وقراءاته ، مع اعتبار حسن الخط ، وإذا ثبت تقصير التلميذ وتخلفه عن الكمال فيها فلمعلمه من الحذقة بقدر ما تعلم ، ثم ذكر بعد ذلك خلافًا بين الفقهاء في الموضع . وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت هذا المبحث هي : التنشئة الاجتماعية Socialization (ص ١٧ - ٢٤) ، والقيم الدينية (ص ١٧- ٢٤) ، والتربية (ص ١٧ - ٢٤) ، وتعليم الصغار (ص ١٧ - ٢٤) .

شروط المعلم :

ذكر المؤلف أن معلم القرآن والقراءة والكتابة لابد أن تتوافر فيه بعض الشروط الأساسية وإلَّا فإنه لا يكون أهلًا لمباشرة هذه المهنة ، ولا يكون لحذقته أي اعتبار . ومن ذلك أنه إذا كان هذا المعلم لا يعرف الصفات الأساسية للتجويد والكتابة ؛ كالإظهار ، والإدغام ، والإهمال والإعجام ، والتفخيم والترقيق ، وأحكام القرآن فلا يجوز له أن ينتصب للتعليم .

وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا المبحث هي : التنشئة الاجتماعية (ص ٢٤ ، ٢٥) ، والنموذج الاجتماعي Social Model (ص ٢٤ - ٢٥) والتربية من (ص ٢٤ ، ٢٥) .

باب حكم الإجارة على تعليم القرآن :

ذكر المؤلف أن الإجارة على تعليم القرآن أجازها الإمام مالك ، ومنعها الإمام أبو حنيفة ، واعتمد مالك في حكمه هذا على ما جاء في حديث النبي ﷺ إذ قال : « **أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله** » . وقد ذكر المؤلف عدة أنواع للإجارة ؛ منها :

المشاهرة ، وهناك المسانهة ، وهناك الحذاق (احفظ القرآن كله أو جزء منه) وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا المبحث هي : التعلم Learning (ص ٢٧- ٣٥) ، والتربية Education (ص ٢٧ - ٣٥) .

سلوك المعلم مع الصبيان وتربية التلاميذ :

ذكر المؤلف أن المعلم في علاقته بتلاميذه يجب عليه أن يتصف بالجد والمهابة ، كما يجب عليه أن يزجر المتخاذل من التلاميذ في حفظه بالوعيد والتقريع ، وأن يتجنب الشتم والكلام البذيء ، وأنه ينبغي له أن يؤدب تلاميذه على قول الكذب والسب والهروب من المساجد والحلف بالطلاق والحرام ، وأنه ينبغي أن يستعمل الحكمة واللطف والإيحاء لتعويد تلاميذه على ضروب الصفات الفاضلة ؛ فيمدح لهم الكرم والشجاعة والأمانة ونحوها من الصفات ، ويذم لهم أضدادها من صفات النقص حتى يتجنبوها . وعليه أن يتولى بنفسه الفصل بينهم في خصوماتهم ولا يسلط بعضهم على بعض ؛ لأن ذلك يؤدي إلى فساد تربيتهم ، وتأريث نار العداوة والبغضاء بينهم . وأخيرًا أورد وصية ابن حبيب لمعلم ولده . وأهم المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا المبحث هي : التعلم Learning (ص ٣٥ - ٣٩) ومبادئ التعلم وأهمها الإثابة Reward والعقاب Punishment (ص ٣٥ - ٣٩) ، والخصال التي يجب أن تتوفر في العلم ، وسمات الشخصية التي يجب أن يغرسها المعلم في الصبيان (ص ٣٥ - ٣٩) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس التربوي .

* * *

أبو عبد الله زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦هـ) اللؤلؤ النظيم في التعلم والتعليم [1]

عرض : د . معتز سيد عبد الله

عرض الكتاب :

يعرض المؤلف في الرسالة الحالية إلى بيان شروط تعليم العلوم وتعلمها المسطرة ، ثم حصر أنواعها (وبيان حدودها) وفوائدها المشتهرة المحررة .

وقد حدد شروط تعليم العلوم في اثنتي عشرة على النحو التالي :

أحدها : أن يقصد به ما وضع ذلك المعلم له ، فلا يقصد به غير ذلك ، كاكتساب مال أو جاه أو مغالبة خصم أو مكاثرة .

ثانيها : أن يقصد العلم الذي تقبله طباعه ، إذ ليس كل أحد يصلح لتعلم العلوم ، ولا كل من يصلح لتعلمها يصلح لجميعها ، بل كل ميسر لما خلق له .

ثالثها : أن يعلم غاية ذلك العلم ، ليكون على ثقة من أمره .

رابعها : أن يستوعب ذلك العلم من أوله إلى آخره تصورًا وتصديقًا .

خامسها : أن يقصد فيه الكتب الجيدة المستوعبة لجملة الفن .

سادسها : أن يقرأ على شيخ مرشد أمين ناصح ، ولا يستند بنفسه وذكائه .

سابعها : أن يذاكر به الأقران والأنظار طلبًا للتحقيق (لا للمغالبة) بل للمعاونة على الإفادة والاستفادة .

---

(١) تحقيق : هشام نشابه . ط ١ . بيروت : دار العلم للملايين (١٩٨٨م) ، (١٤ ص) .

ثامنها : أنه إذا حصل ذلك العلم لا يضيعه بإهماله ، ولا يمنعه في مستحقه لخبر « **من علم علمًا نافعًا وكتمه ألجمه الله تعالى يوم القيامة بلجام من نار** » ولا يؤتيه غير مستحقه لما جاء في كلام النبوة « لا تعلقوا الدُّر في رقاب الخنازير » أي لا تؤتوا العلوم غير أهلها .

ويثبت ما استنبطه بفكره مما لم يُسبق إليه لمن أتى بعده ، كما فعل مَنْ قبله ، فمواهب الله لا تقف عند حد .

تاسعها : أن لا يعتقد في علمٍ أنه حصل منه مقدارًا لا تمكن الزيادة عليه ، فذلك نقص وحرمان .

عاشرها : أن يعلم أن لكل علم حدًّا فلا يتجاوزه ولا ينقص عنه .

حادي عشرها : أن لايُدخل علمًا في علم آخر ، لا في تعلمٍ ولا في مناظرة ؛ لأن ذلك يشوش الفكر .

ثاني عشرها : أن يراعي كل من المتعلم والمُعلم الآخر ، خصوصًا الأول ؛ لأن معلمه كالأب بل أعظم ؛ لأن أباه أخرجه إلى دار الفناء ومعلمه دلَّه على دار البقاء .

ويرتبط الجزء السابق بمفهوم شروط التعلم Learning Conditions (ص ٢٠٣ - ٢٠٥) ، ومفهوم القيم العلمية (ص ٢٠٣ - ٢٠٥) .

وبين المؤلف بعد ذلك أن للاشتغال بالعلم آفات كثيرة عدمها في الحقيقة شروط له ، فمنها الوثوق بالزمن المستقبل فيترك التعلم حالًا إذ اليوم في التعليم والتعلم أفضل من غده ، وأفضل من أمسه ، والإنسان كلما كبر كثرت عوائقه ؛ ومنها الوثوق بالذكاء ، فكثير من فاته العلم بركونه على ذكائه وتسويفه أيام الاشتغال ؛ ومنها التنقل من علم قبل انتقاله إلى علم آخر أو من شيخ إلى آخر قبل إتقانه ما بدأ به عليه ، فإنه هدم لما قد بنى ؛ ومنها طلب الدنيا والتردد إلى أهلها ، والوقوف على أبوابهم . ومنها ولاية المناصب فإنها شاغلة مانعة ، كما أن ضيق الحال أيضًا مانع . وهذا يقترب إلى حد كبير من مفهوم الظروف المثلى لحدوث التعلم (ص ٢٠٥ ، ٢٠٦) . وكذلك مفهوم القيم العلمية (ص ٢٠٥ ، ٢٠٦) .

وبعد ذلك حصر المؤلف أنواع العلوم في أنها شرعية وأدبية ورياضية وعقلية . والشرعية ثلاثة : الفقه والتفسير والحديث ؛ وأما الأدبية فهي أربعة عشر علمًا : علم اللغة وعلم الاشتقاق ، وعلم التصريف ، وعلم النحو ، وعلم المعاني ، وعلم البيان ، وعلم البديع ، وعلم العروض ، وعلم القوافي ، وعلم قرض الشعر ، وعلم إنشاء النثر ، وعلم

الكتابة ، وعلم القراءات ، وعلم المحاضرات ومنه التاريخ ؛ وأما الرياضية فهي عشرة : علم التصوف ، وعلم الهندسة ، وعلم الهيئة ، والعلم التعليمي ، وعلم الحساب ، وعلم الجبر ، وعلم الموسيقى ، وعلم السياسة ، وعلم الأخلاق ، وعلم تدبير المنزل ؛ وأما العقلية فهي ما عدا ذلك ؛ كالمنطق والجدل وأصول الفقه ، وأصول الدين ، والعلم الإلهي ، والعلم الطبيعي ، والطب ، وعلم الميقات ، وعلم النواميس ، والفلسفة ، والكيمياء .

وبعد ذلك بين المؤلف حدود كل علم من هذه العلوم وفائدته .

* * *

ابن حجر الهيثمي (ت ٩٧٣هـ)
الزواجر عن اقتراف الكبائر [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف :

هو أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيثمي السعدي الأنصاري ، شهاب الدين ، شيخ الإسلام أبو العباس : فقيه باحث مصري ، مولده في محلة أبي الهيثم (من إقليم الغربية بمصر) وإليها نسبته ، والسعدي نسبته إلى بني سعد من عرب الشرقية (بمصر) تلقى العلم في الأزهر ، مات بمكة ، له تصانيف كثيرة ؛ منها : « مبلغ الأرب في فضائل العرب » و « الجوهر المنظم » و « الصواعق المحرقة عن أهل البدع والضلال والزندقة » و « تحفة المحتاج لشرح المنهاج » و « الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة » و « الفتاوي الهيثمية » و « شرح مشكاة المصابيح للتبريزي » و « الإيعاب في شرح العباب » و « الإمداد في شرح الإرشاد للمقري » و « شرح الأربعين النووية » و « نصيحة الملوك » و « تحرير المقال في آداب وأحكام يحتاج إليها مؤدبو الأطفال » و « أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل » و « خلاصة مناقب الأئمة الأربعة » و « المنح المكية » و « المنهج القويم في مسائل التعليم » و « الدرر الزاهرة في كشف بيان الآخرة » و « كف الرعاع عن استماع آلات السماع » و « تحذير الثقات من أكل الكفتة والقات » .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في جزأين ، الأول يحتوي على ٢٨٢ صفحة بالإضافة إلى ١٢ صفحة

---

(١) (د . م : د . ن ، ١٩٧٢م) ٢مج .

(فهرس الكتاب ويقع في المقدمة) من القطع الكبير ، ويحتوي الجزء الثاني على ٢٨٦ صفحة بالإضافة إلى ١٠ صفحات (هي فهرس الجزء الثاني من الكتاب وتأتي في المقدمة أيضًا) من القطع الكبير وبذلك يكون إجمالي عدد صفحات الكتاب ٥٩٠ صفحة . والكتاب مقسم إلى أبواب ثم إلى كتب وبكل من الأبواب والكتب عدد كبير من الكبائر يصل إلى ٤٦٧ كبيرة كما يحصيها فهرس الكتاب بجزأيه ، ثم خاتمة في ذكر أمور أربعة بعضها ينقسم إلى فصول .

يبدأ المؤلف كتابه بالمقدمة وهي تعريف الكبيرة والخلاف بين الناس في الصغائر والكبائر وآرائهم في ذلك ، ونجد في حد الكبيرة - رغم الاختلاف - حوالي ثمانية وجوه ؛ ومن بين أوجه التعريف التي أخذ بها البعض هو تعريفها بالعد من غير ضبطها بحد (ويرى بعضهم كابن عباس أنها قد تصل إلى سبعمائة لا سبع) وفي نهاية هذه المقدمة يقدم المؤلف خاتمة في التحذير من جملة المعاصي صغيرها وكبيرها ، ويحدثنا في ثنايا هذا التحذير في الخوف والحزن ، وكثرة البكاء ، وهي من باب الانفعالات الذي يدرس في علم النفس العام (ص ١٥ - ٢١) ، وكذلك عن الذكر والفكر أو إن شئت قلت التذكر والتفكر وهما من موضوعات علم النفس العام ، وعلم النفس الإكلينيكي في حالة اضطرابها (ص ٢٢) ، وعن الشهوة واللذة أو الدوافع Motives (ص ٢٢) .

وينتقل بعد ذلك إلى **الباب الأول** : في الكبائر الباطنة وما يتبعها ، وبدأ بها المؤلف لأنها أخطر ، ومرتكبها أذل العصاة وأحقر ؛ ولأن معظمها أعم وقوعًا وأسهل ارتكابًا ، والكبيرة الأولى هي الشرك الأكبر (نعوذ بالله منه) ، والكبيرة الثانية هي الشرك الأصغر وهو الرياء ، أحد الصفات المذمومة ، والأخلاق الكريهة ، وقد شهد بتحريمه الكتاب والسنة وانعقد عليه إجماع الأمة . ويتعرض في ثنايا الحديث لمبدأ الثواب والعقاب وهو من المبادئ التي تستخدم في نظريات التعلم Learning Theories الحديث (ص ٤٦) . ثم يقدم بعد ذلك خاتمة في الإخلاص (ويعرض فيها لمسألة ارتقاء الطفل خاصة العقل ، بشكل غير مباشر ص ٥١) .

أما الكبيرة الثالثة فهي الغضب بالباطل والحقد والحسد (وهذه الثلاثة بينها تلازم وترتيب إذ الحسد من نتائج الحقد ، والحقد من نتائج الغضب) (ويمكن النظر إليها من الناحية النفسية إما على أنها سمات الشخصية السيئة ، أو أنها من الانفعالات التي تدرس في علم النفس العام ص ٥٣ - ٦٩) . وكذلك الكبيرة الرابعة وهي الكبر والعجب والخيلاء ، وهي أخلاق سيئة في النفس ، ينبغي التخلي عنها . (يمكن النظر

إليها إما باعتبارها من سمات الشخصية أو من الانفعالات ، أو أنها من الصفات التي تؤخذ في الاعتبار عند التعرض لموضوع الصداقة Friendship وهو أحد موضوعات علم النفس الاجتماعي ويدرس في إطار موضوع أعم هو المهارات الاجتماعية Social Skills ص ٦٩ - ٨١) .

وبعد ذلك يستمر في سرد الكبائر التالية من الخامسة وحتى الثامنة والثلاثين وهي : الغش ، والنفاق ، والبغي ، والإعراض عن الخلق استكبارًا واحتقارًا لهم ، والخوض فيما لا يعني ، والطمع ، وخوف الفقر ، وسخط المقدور ، والنظر إلى الأغنياء وتعظيمهم لغناهم ، والاستهزاء بالفقراء لفقرهم ، والحرص ، والتنافس في الدنيا والمباهاة بها ، والتزين للمخلوقين بما يحرم التزين به ، والمداهنة ، وحب المدح بما لا يفعله ، والاشتغال بعيوب الخلق عن عيوب النفس ، نسيان النعمة ، والحمية لغير دين اللّٰه ، وترك الشكر ، وعدم الرضا بالقضاء ، وهوان حقوق اللّٰه تعالى وأوامره على الإنسان ، وسخريته بعباد اللّٰه تعالى وازدراؤه لهم واحتقاره إياهم ، واتباع الهوى والإعراض عن الحق ، والمكر والخداع ، وإرادة الحياة الدنيا ، ومعاندة الحق ، وسوء الظن بالمسلم ، وعدم قبول الحق إذا جاء بما لا تهواه النفس أو جاء على يد من تكرهه وتبغضه (وهي تقابل الموضوعية Objectivity في العلم كما يؤكدها علماء النفس) وفرح العبد بالمعصية ، والإصرار على المعصية ، ومحبة أن يحمد بما يفعله من الطاعات ، والرضا بالحياة الدنيا والطمأنينة إليها ، ونسيان اللّٰه تعالى في الدار الآخرة ، والغضب للنفس والانتصار لها بالباطل (وهي كما نرى مما يمكن أن يدخل كسمات في دراستنا لسمات الشخصية أو كصفات وخصال نقيم على أساسها الأصدقاء ، مما يدخل في موضوع الصداقة ص ٨١ ، ٨٢) . ويرتبط معظم ما جاء في هذا القسم بسمات الشخصية ، والقيم الأخلاقية والدينية ، وتأثير الميول والأهواء في الإدراك والتفكير .

ويستمر المؤلف بعد ذلك في استكمال الكبائر الباطنة فيذكر من بينها تعلم العلم للدنيا (ورغم أنه ينظر إليه ككبيرة إلَّا أن التعلم في حد ذاته من الموضوعات التي حظيت بعناية علماء النفس واهتمامهم وفيه نظريات متعددة ما بين كلاسيكية وحديثة ص٩٤) ويذكر كذلك كتم العلم ، وعدم العمل بالعلم (وهي من الخصائص التي يجب على العلماء التنزه عنها ، وعليهم أن يكونوا بمثابة النماذج Models ، التي يقتدي بها التلاميذ والباحثون) ويؤكد ذلك حين يذكر أن إضاعة حق العلماء والاستخفاف بهم من الكبائر ويختتم عنايته بالعلم والعلماء بسرد أحاديث صحيحة أو حسنة تتعلق بالعلم .

ثم يعود مرة أخرى ليعدد بعض الكبائر التي تعكس صفات وخصائص سيئة وجب التخلص منها ؛ كالكذب على اللّٰه ورسوله ، وترك السنة ، والتكذيب بالقدر ، وعدم الوفاء بالعهد ، ومحبة الظلمة أو الفسقة وبغض الصالحين ، وأذية أولياء اللّٰه الصالحين ، وسب الدهر ، وكفران نعمة المحسن ، وقسوة القلب ، والرضا بكبيرة من الكبائر والإعانة عليها ، وملازمة الشر والفحش . ويرتبط هذا القسم بالقيم الدينية والأخلاقية والعلاقات الاجتماعية .

ثم يصل بعد ذلك إلى **الباب الثاني** : وهو في الكبائر الظاهرة ، ويبدأه بكتاب الطهارة وهو بدوره يشتمل على أبواب ، كباب الآنية والرأي في الأكل أو الشرب في آنية الذهب والفضة ، وباب الإحداث ويدور حول التبديل أو التحريف في القرآن أو الدين ، ثم باب قضاء الحاجة (وهو من أنواع السلوك التي يهتم بها علماء النفس في سنوات الطفولة المبكرة وخاصة من يتبنون التحليل النفسي Psychoanalysis ، من حيث ضبطه والتحكم فيه ودلالة ذلك على الصحة والمرض ص١٢٩) . ويلي ذلك باب الوضوء ، وباب الغسل وما يحتويه من كبائر ، وآخره باب الحيض والنهي عن وطء الحائض (وما يهم علماء النفس الإكلينيكي والأطباء النفسيون هو اضطراب الطمث أو انقطاعه كعرض لبعض الأمراض النفسية) .

والكتاب الثاني في هذا الباب هو كتاب الصلاة ، وبه أربع كبائر ؛ كتعمد ترك الصلاة ، وتعمد تأخيرها عن وقتها ، أو ترك بعض واجباتها . وبعد ذلك يتحدث في باب شروط الصلاة عن عدد آخر من الكبائر وهي أعمال لا تتصل بالصلاة مباشرة ؛ ومنها الوصل والوشم ، ووشر الأسنان ، والتنميص ، والمرور بين المصلي إذا صلى لسترة ، وينتقل بعد ذلك لباب صلاة الجماعة ، وبها إحدى عشرة كبيرة ؛ كإجماع أهل البلد على ترك صلاة الجماعة ، وإمامة الإنسان لقوم وهم له كارهون (ونجد هنا وجهًا عظيمًا من أوجه الاستفادة لعلماء النفس الاجتماعي المعنيين بسلوك الجماعات وخاصة القيادة Leadership ، وخصال القائد وعلاقته بمن معه ص ١٥١) . وبعد ذلك باب السفر وبه ثلاث كبائر ، ثم باب صلاة الجمعة وبه ثلاث كبائر أيضًا ، ويليه باب اللباس ؛ ومن كبائره : تشبه الرجال بالنساء فيما يتخصص به عرفًا غالبًا من لباس أو كلام أو حركة أو نحوها وعكسه (وقد تناول علماء النفس هذه المنطقة بالبحث فيما يسمى بالدور الجنسي Role Sex أو الدور المخصص لكل جنس والفروق الارتقائية بين الجنسين ، ودور التنشئة الاجتماعية Socialization ، والتنميط الحضاري في رسم الدور الملائم لكل

جنس ص١٦١) . ويلي ذلك باب الاستسقاء وبه كبيرة واحدة ، ثم باب الجنائز وهو آخر الأبواب في كتاب الصلاة .

ونأتي بعد ذلك لكتاب الزكاة وبه كبائر عديدة ؛ منها شح الدائن على مدينه المعسر مع علمه بإعساره بالملازمة أو الحبس (وهذا السلوك ينافي سلوك الإيثار أو الغيرية Altruism ، أو سلوك المساعدة Helping Behavior ، وهما من أنماط السلوك التي درسها علماء النفس الاجتماعي) ، ويشبه ذلك كبيرة منع الإنسان لقريبه أو مولاه مما سأله فيه لاضطراره إليه مع قدرة المانع عليه وعدم وجود عذر له في المنع .

ويلي ذلك كتاب الصوم ويشتمل على كبائر ، ترك صوم يوم من أيام رمضان والإفطار فيه من غير عذر ، وتأخير قضاء ما تعدى بفطره من رمضان ، وصوم المرأة غير ما وجب وزوجها حاضر بغير رضاه ، وصوم العيدين وأيام التشريق ، ثم خاتمة سرد أحاديث صحيحة أو حسنة تتعلق بالصوم ، ويلحق كتاب الصوم - كتاب الاعتكاف وبه ثلاث كبائر .

وبعد كتاب الاعتكاف ينتقل المؤلف لكتاب الحج ومن كبائره ترك الحج مع المقدرة عليه إلى الموت ، وقتل المحرم صيدًا مأكولًا ، وإحرام الحليلة بتطوع أو عمرة من غير إذن الحليل وإن لم تخرج من بيتها ، واستحلال البيت الحرام ، والإلحاد في حرم مكة ، وإضافة أهل المدينة المنورة وإحداث إثم فيها أو قطع شجرها أو حشيشها ، ثم خاتمة في سرد أحاديث أكثرها صحيح وبعضها حسن في فضل المدينة المنورة ، ويلحق بكتاب الحج كتاب الأضحية وبه كبيرتان أولاهما : ترك الأضحية مع المقدرة عند من قال بوجوبها ، والثانية : بيع جلد الأضحية . ثم يلي ذلك كتاب الصيد والذبائح ، وكتاب العقيقة ، وكتاب الأطعمة (ويتعرض فيه لأكل المسكر كالحشيش والأفيون والشيكران والعنبر والزعفران وجوزة الطيب ، وبعض هذه المواد يحظى بعناية علماء النفس الحديث في الوقت الراهن ، والمهتمين بالمواد النفسية المؤثرة في الأعصاب Psychotropic وما لها من آثار قصيرة المدى أو طويلة المدى على السلوك وكذلك العوامل النفسية الاجتماعية المرتبطة بتعاطي هذه المواد ص ٢٢٢) .

ونصل بعد ذلك لكتاب البيع ؛ ومن كبائره : بيع الحر ، وأكل الربا وإطعامه وكتابته وشهادته والسعي فيه والإعانة عليه ، والحيل في الربا وغيره . ويلي ذلك كتاب المناهي من البيوع ؛ ومن كبائر : أكل المال بالبيوعات الفاسدة ، والكسب المحرم ، والاحتكار ، وبيع الخمر والحشيشة والأفيون لمن يستعملها ، والبيع على بيع الغير ، والغش في البيع ،

والمكر والخديعة ، وبخس الكيل والميزان ، وبهذا الكتاب عدة أبواب ؛ منها باب القرض ، وباب التفليس وباب الحجر ، ثم باب الصلح ؛ ومن كبائره : إيذاء الجار ولو ذميًا كان يشرف على حرمة أو يبني ما يؤذيه مما لا يسوغ له شرعًا ، والبناء فوق الحاجة للخيلاء ، وإضلال الأعمى ، والتصرف في الطريق بغير إذن أهله ، والتصرف في الشارع بما يضر المارة . ثم يلي ذلك باب الضمان ، وباب الشركة والوكالة (وكبيرته خيانة أحد الشريكين لشريكه أو الوكيل لموكله) وباب الإقرار (باب العارية ، وباب الغضب ، وباب الإجارة) ومنها أجرة الأجير أو منعه منها بعد فراغ عمله ، وباب إحياء الموات ، وباب الوقف ، باب اللقطة ، باب اللقيط (واللقطة واللقيط من أبواب المعاملات المادية والبيوع ، وقد مر عليهما المؤلف مرورًا عابرًا لم يوضح معناهما كما ينبغي رفعًا للبس والغموض) ، وبعد ذلك باب الوصية وباب الوديعة .

ويرتبط بهذا القسم موضوع انفعالات الغضب والخيلاء والعجب بالنفس والعلاقات الاجتماعية .

وبهذا الباب ينتهي الجزء الأول من كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر .

الجزء الثاني :

ويبدأ هذا الجزء بكتاب النكاح ؛ ومن كبائر هذا الكتاب : ترك الزواج ، ونظر الأجنبية بشهوة مع خوف الفتنة ولمسها ، وكذلك الخلوة بها ، وفعل هذه الأشياء مع الأمرد الجميل مع الشهوة وخوف الفتنة ، وكذلك الغيبة والسكوت عليها رضا وتقديرا ، والتنابز بالألقاب المكروهة ، والسخرية ، والاستهزاء بالمسلم ، والنميمة ، والبهت وعضل الولي موليته عن النكاح ، والخطبة على الخطبة الجائزة الصريحة ، وإفساد الزوج على زوجته والعكس ، وعقد الرجل على محرمة بنسب أو رضاع أو مصاهرة وإن لم يطأ ، ورضا المطلق بالتحليل وطواعية المرأة المطلقة عليها ورضا الزوج المحلل به ، وإفشاء الزوجة سر زوجها بذكر ما يقع بينهما من تفاصيل الجماع ونحوها مما يخفى ، وإتيان الزوجة في دبرها ، ومجامعة الزوجة بحضور امرأة أجنبية أو رجل أجنبي (والسلوك الجنسي Sexual behavior من أنماط السلوك التي حظيت باهتمام وعناية علماء النفس ، بل إن بعضهم قد عول عليه تعويلًا كبيرًا مثل نظريات التحليل النفسي . ويدرس علماء النفس السلوك الجنسي ضمن دراستهم للدوافع البيولوجية أو الأولية وإشباعها ، كما يحاولون دراسته للتعرف على القوانين الحاكمة له ، والضوابط المنظمة

جنس ص١٦١) . ويلي ذلك باب الاستسقاء وبه كبيرة واحدة ، ثم باب الجنائز وهو آخر الأبواب في كتاب الصلاة .

ونأتي بعد ذلك لكتاب الزكاة وبه كبائر عديدة ؛ منها شح الدائن على مدينه المعسر مع علمه بإعساره بالملازمة أو الحبس (وهذا السلوك ينافي سلوك الإيثار أو الغيرية Altruism ، أو سلوك المساعدة Helping Behavior ، وهما من أنماط السلوك التي درسها علماء النفس الاجتماعي) ، ويشبه ذلك كبيرة منع الإنسان لقريبه أو مولاه مما سأله فيه لاضطراره إليه مع قدرة المانع عليه وعدم وجود عذر له في المنع .

ويلي ذلك كتاب الصوم ويشتمل على كبائر ، ترك صوم يوم من أيام رمضان والإفطار فيه من غير عذر ، وتأخير قضاء ما تعدى بفطره من رمضان ، وصوم المرأة غير ما وجب وزوجها حاضر بغير رضاه ، وصوم العيدين وأيام التشريق ، ثم خاتمة سرد أحاديث صحيحة أو حسنة تتعلق بالصوم ، ويلحق كتاب الصوم - كتاب الاعتكاف وبه ثلاث كبائر .

وبعد كتاب الاعتكاف ينتقل المؤلف لكتاب الحج ومن كبائره ترك الحج مع المقدرة عليه إلى الموت ، وقتل المحرم صيدًا مأكولًا ، وإحرام الحليلة بتطوع أو عمرة من غير إذن الحليل وإن لم تخرج من بيتها ، واستحلال البيت الحرام ، والإلحاد في حرم مكة ، وإضافة أهل المدينة المنورة وإحداث إثم فيها أو قطع شجرها أو حشيشها ، ثم خاتمة في سرد أحاديث أكثرها صحيح وبعضها حسن في فضل المدينة المنورة ، ويلحق بكتاب الحج كتاب الأضحية وبه كبيرتان أولاهما : ترك الأضحية مع المقدرة عند من قال بوجوبها ، والثانية : بيع جلد الأضحية . ثم يلي ذلك كتاب الصيد والذبائح ، وكتاب العقيقة ، وكتاب الأطعمة (ويتعرض فيه لأكل المسكر كالحشيش والأفيون والشيكران والعنبر والزعفران وجوزة الطيب ، وبعض هذه المواد يحظى بعناية علماء النفس الحديث في الوقت الراهن ، والمهتمين بالمواد النفسية المؤثرة في الأعصاب Psychotropic وما لها من آثار قصيرة المدى أو طويلة المدى على السلوك وكذلك العوامل النفسية الاجتماعية المرتبطة بتعاطي هذه المواد ص ٢٢٢) .

ونصل بعد ذلك لكتاب البيع ؛ ومن كبائره : بيع الحر ، وأكل الربا وإطعامه وكتابته وشهادته والسعي فيه والإعانة عليه ، والحيل في الربا وغيره . ويلي ذلك كتاب المناهي من البيوع ؛ ومن كبائر : أكل المال بالبيوعات الفاسدة ، والكسب المحرم ، والاحتكار ، وبيع الخمر والحشيشة والأفيون لمن يستعملها ، والبيع على بيع الغير ، والغش في البيع ،

والمكر والخديعة ، وبخس الكيل والميزان ، وبهذا الكتاب عدة أبواب ؛ منها باب القرض ، وباب التفليس وباب الحجر ، ثم باب الصلح ؛ ومن كبائره : إيذاء الجار ولو ذميًّا كان يشرف على حرمة أو يبني ما يؤذيه مما لا يسوغ له شرعًا ، والبناء فوق الحاجة للخيلاء ، وإضلال الأعمى ، والتصرف في الطريق بغير إذن أهله ، والتصرف في الشارع بما يضر المارة . ثم يلي ذلك باب الضمان ، وباب الشركة والوكالة (وكبيرته خيانة أحد الشريكين لشريكه أو الوكيل لموكله) وباب الإقرار (باب العارية ، وباب الغصب ، وباب الإجارة) ومنها أجرة الأجير أو منعه منها بعد فراغ عمله ، وباب إحياء الموات ، وباب الوقف ، باب اللقطة ، باب اللقيط (واللقطة واللقيط من أبواب المعاملات المادية والبيوع ، وقد مر عليهما المؤلف مرورًا عابرًا لم يوضح معناهما كما ينبغي رفعًا للبس والغموض) ، وبعد ذلك باب الوصية وباب الوديعة .

ويرتبط بهذا القسم موضوع انفعالات الغضب والخيلاء والعجب بالنفس والعلاقات الاجتماعية .

وبهذا الباب ينتهي الجزء الأول من كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر .

الجزء الثاني :

ويبدأ هذا الجزء بكتاب النكاح ؛ ومن كبائر هذا الكتاب : ترك الزواج ، ونظر الأجنبية بشهوة مع خوف الفتنة ولمسها ، وكذلك الخلوة بها ، وفعل هذه الأشياء مع الأمرد الجميل مع الشهوة وخوف الفتنة ، وكذلك الغيبة والسكوت عليها رضا وتقديرا ، والتنابز بالألقاب المكروهة ، والسخرية ، والاستهزاء بالمسلم ، والنميمة ، والبهت وعضل الولي موليته عن النكاح ، والخطبة على الخطبة الجائزة الصريحة ، وإفساد الزوج على زوجته والعكس ، وعقد الرجل على محرمة بنسب أو رضاع أو مصاهرة وإن لم يطأ ، ورضا المطلق بالتحليل وطواعية المرأة المطلقة عليها ورضا الزوج المحلل به ، وإفشاء الزوجة سر زوجها بذكر ما يقع بينهما من تفاصيل الجماع ونحوها مما يخفى ، وإتيان الزوجة في دبرها ، ومجامعة الزوجة بحضور امرأة أجنبية أو رجل أجنبي (والسلوك الجنسي Sexual behavior من أنماط السلوك التي حظيت باهتمام وعناية علماء النفس ، بل إن بعضهم قد عول عليه تعويلًا كبيرًا مثل نظريات التحليل النفسي . ويدرس علماء النفس السلوك الجنسي ضمن دراستهم للدوافع البيولوجية أو الأولية وإشباعها ، كما يحاولون دراسته للتعرف على القوانين الحاكمة له ، والضوابط المنظمة

له ، ويدرسه علماء النفس الإكلينيكيون عندما يصير أو يتحول إلى اضطراب ، وله صور عدة كالعنة أو فقد الرغبة الجنسية وسرعة القذف لدى الرجل نتيجة لبعض الأمراض النفسية ؛ كالقلق ، والبرود الجنسي عند المرأة كما في بعض حالات الهستريا ، وكذلك آلام الجماع ذات الطابع النفسي ، والجنسية المثلية Homosexuality (أو اللواط) ، والتعلق الجنسي بموضوعات أو أشياء غير معتادة . كذلك يدرس علماء النفس الارتقائي خصائص الارتقاء الجنسي والمراحل التي يمر بها الفرد ، خاصة مراحل المراهقة والرشد ، وما يتبعه من تغيرات فسيولوجية ونفسية) .

وفي كتاب الزواج أبواب أخرى باب الصداق ، وباب الوليمة ، وباب عشرة النساء ؛ كالعدل بين الزوجات ، ومنع حقوق الزوجة ، وخروج المرأة من بيتها متعطرة متزينة ، وكذلك خروجها بغير إذن زوجها ، ويلي ذلك باب الطلاق (وقد بدأ بعض علماء النفس المحدثين الاتجاه بالدراسة نحو الطلاق والمرأة المطلقة ، تحت ما يسمى بسيكولوجية المرأة المطلقة باعتبار أن المرأة التي مرت بخبرة التطليق تعاني من مشاعر خاصة ، كما أن الرجال قد يكونون تجاهها اتجاهات سلبية ، مما يؤدي بها إلى سوء التوافق) .

- ويلي باب الطلاق ، باب الرجعة ، باب الإيلاء ، وباب الظهار ، وباب اللعان . ويبدأ بعد ذلك كتاب العدة ؛ ومن كبائره الخيانة في انقضاء العدة ، وخروج المعتدة من المسكن الذي يلزمها ملازمته إلى انقضاء العدة بغير عذر شرعي ، وعدم احتداد المتوفى عنها زوجها ، ووطء الأمة قبل استبرائها ، ويتبع هذا الكتاب مباشرة بكتاب النفقات على الزوجات والأقارب والمماليك من الرقيق والدواب وما يتعلق بذلك ؛ ومن كبائره : إضاعة عياله كأولاده الصغار ، وذكر فائدة فيما ورد من الحث على الإحسان إلى الزوجة والعيال سيما البنات (وإذا نظرنا إلى هذا الكلام نظرة تتصف بالشمول سنجد أنها ذات فائدة كبيرة وتتفق مع بعض توجيهات علماء النفس سواء الباحثين في التنشئة الاجتماعية Socislization أو في التربية (Education) أو الباحثين في اضطرابات الطفولة وأمراضها ، وأسباب انحراف النشء ، ودور الأسرة في حماية الأطفال والحفاظ عليهم) ؛ ومن الكبائر في هذا الكتاب أيضًا عقوق الوالدين ، وقطع الرحم وتولي الإنسان غير مواليه .

ويصل بعد ذلك إلى كتاب الجنايات ؛ ومن كبائره قتل المسلم أو الذمي المعصوم عمدًا أو شبه عمد ، وقتل الإنسان لنفسه أي الانتحار (ويعتبر الانتحار من الأعراض المهمة التي تصحب بعض الأمراض العقلية كالاكتئاب الذهاني Endogenous Depression ، والتي

يعني بها من بعض النواحي علماء النفس الإكلينيكيون) ، ومن الكبائر أيضًا الإعانة على القتل المحرم أو مقدماته وحضوره مع القدرة على دفعه فلم يدفعه ، وضرب المسلم أو الذمي بغير مسوغ شرعي ، وترويع المسلم والإشارة إليه بسلاح أو غيره ، والسحر وتعليمه وتعلمه وطلب عمله ، والكهانة والعرافة ، والطيرة ، والطرق والتنجيم ، والعيافة وإتيان أهلها والمتخصصين فيها (ويميل بعض علماء النفس الذين يعنون بتصنيف فروع علم النفس إلى أن يضعوا بين الفروع التطبيقية ما يسمى بعلم النفس الجنائي ، ويستعين بعض القضاة ورجال العدل بعلماء النفس ، وخاصة في بعض الجنايات التي يشك فيها القاضي بأن المجرم يعاني من اختلال في قواه العقلية . كما يهتم علماء النفس بدراسة سلوك المجرمين ويبحثون في أسباب انحرافهم والعوامل النفسية والاجتماعية المرتبطة بهذا الانحراف) .

ويلي ذلك باب البغاة ؛ ومن كبائره : الخروج على الإمام ولو جائرًا بلا تأويل أو مع تأويل يقطع ببطلانه ، ونكث بيعة الإمام لفوات غرض دنيوي ، ويلي ذلك باب الإمامة العظمى ؛ ومن كبائر : تولي الإمامة أو الإمارة مع عمله بخيانة نفسه أو عزمه عليها ، وتولية جائر أو فاسق أمرًا من أمور المسلمين ، وعزل الصالح وتولية من هو دونه ، وجور الإمام أو الأمير أو القاضي وغشه لرعيته واحتجابه عن قضاء حوائجهم المهمة المضرين إليها بنفسه أو نائبه ، وظلم السلاطين والأمراء والقضاة وغيرهم مسلمًا أو ذميًا ، وخذلان المظلوم مع القدرة على نصرته (ويدخل تحت ما يسمى بسلوك المساعدة في علم النفس الاجتماعي) والدخول على الظلمة مع الرضا بظلمهم وإعانتهم على الظلم والسعاية إليهم بباطل (الحديث في هذا الباب يقابل اهتمام علماء النفس بموضوع القيادة Leadership ، وخصال القائد ، والعلاقة بين القادة وأعضاء الجماعة التي يتولون قيادتها) .

وينتقل بعد إلى كتاب الردة ، ثم كتاب الحدود ؛ ومن كبائره : الشفاعة في حد من حدود اللَّه ، وهتك المسلم وتتبع عوراته ، وانتهاك المحارم ، والمداهنة في إقامة حد من الحدود ، والزنى ، واللواط ، وإتيان البهيمة (وهي من الاضطرابات الجنسية التي سبقت الإشارة إليها) وإتيان المرأة في دبرها ، ومساحقة النساء ، ثم السرقة وقطع الطريق ، وشرب الخمر والمسكر من غيرها (وقد سبق أن بينا اهتمام علماء النفس بهذا السلوك) . ويلي ذلك كتاب العيال ، ويرتبط بموضوع السلوك الجنسي وما يصيبه من انحرافات ، وإدمان الخمر .

وينتقل بعد ذلك إلى كتاب الجهاد ؛ ومن كبائره : ترك الجهاد ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع المقدرة ، وترك رد السلام ، ومحبة الإنسان أن يقوم له

الناس افتخارًا أو تعظيمًا ، والفرار من الزحف ، والفرار من الطاعون ، والغلول من الغنيمة والستر عليها .

ويلي ذلك باب الإيمان ، وباب المسابقة والمناضلة ، ثم كتاب الإيمان وبه أبواب النذر ، والقضاء ، والقسمة .

– ثم يتحدث المؤلف بعد ذلك في كتاب الشهادة ؛ ومن كبائره : شهادة الزور وقبولها وكتم الشهادة بلا عذر ، والكذب الذي فيه ضرر ، والجلوس مع شربة الخمر وغيرهم من الفساق (وكأنه يلفت الأنظار إلى التدقيق في اختيار الأصدقاء ويحدد أصول الصداقة وهي من موضوعات علم النفس الاجتماعي) ومجالسة القراء والفقهاء والفسقة ، ولعب القمار ، والنرد ، وضرب وتر واستماعه وكذلك المزمار ، والتشبب بغلام ولو بدون تحديد أو بأمرأة أجنبية معينة وإن لم يذكرها بفحش أو بامرأة متهمة مع ذكرها بالفحش ، والشعر المشتمل على هجاء المسلم ولو بصدق ، وكذلك الشعر المشتمل على فحش أو كذب فاحش وإنشاء الهجاء وإذاعته .

وينتهي هذا الجزء بكتابين هما : كتاب الدعاوى ، وكتاب العتق ، ثم خاتمة في ذكر أمور أربعة ، الأول ما جاء في فضائل التوبة ومتعلقاتها ، والثاني في ذكر الحشر والحساب والشفاعة والصراط ومتعلقاتها وبه أربعة فصول ، والأمر الثالث في ذكر النار وما يتعلق بها ، والأمر الرابع والأخير في الجنة ونعيمها وما يتعلق بذلك ..

* * *

تحرير المقال في آداب وأحكام يحتاج إليها مؤدبو الأطفال [1]

عرض : د . معتز سيد عبد الله

عرض الكتاب :

يعرض المؤلف في الكتاب لمجموعة من الآداب والأحكام والفوائد التي يحتاج إليها مؤدب الأطفال وقد رتبها على سبعة مقاصد وخاتمة هي على هذا النحو التالي :

المقصد الأول : في الأحاديث الدالة على شرف أهل القرآن :

ومن هذه الأحاديث الشريفة قول رسول اللّه ﷺ « **آل القرآن آل اللّه** » . وقوله ﷺ كذلك : « **إذا ختم العبد القرآن صلى عليه عند ختمه ستون ألف ملك** » . ويرتبط مضمون أحاديث هذا المقصد بمفهوم القيم الدينية Religious Values (ص ٢٢٢ - ٢٢٤) .

المقصد الثاني : في بعض الأحاديث الواردة في فضائل معلمي القرآن ومتعلميه :

ومن هذه الأحاديث الشريفة قول رسول اللّه ﷺ : « **خيركم من تعلم القرآن وعلمه** » . وقوله ﷺ كذلك : « **خيركم من قرأ القرآن وأقرأه** » . ويرتبط مضمون أحاديث هذا المقصد بمفهوم القيم الدينية (ص ٢٢٤ - ٢٣٠) ، وعملية تعلم وتعليم القرآن الكريم (ص ٢٢٤ - ٢٣٠) .

المقصد الثالث : في الأحاديث الدالة على جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن والرقية ونحوهما :

وروى أبو داود عن خارجة بن الصلت التميمي قال : أقبلنا من عند رسول اللّه ﷺ

---

(١) تحقيق هشام نشابه . - ط ١ . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٨ ، (٢٧ ص) .

فأتينا على حي من العرب ، فقالوا : إنكم قد جئتم من عند هذا الرجل بخير ، فهل عندكم من دواء أو من رقية ؟ فإن عندنا معتوهًا من القيود . قال : قلنا ، نعم . فجاءوا بمعتوه من القيود ، فقرأت عليه فاتحة الكتاب ثلاثة أيام غدوة وعشية ، وأجمع بزاقي ثم أتفل . قال : فكأنما نشط من عقال ؛ فأعطوني جعلًا ؛ فقلت : لا ، حتى أسأل رسول اللَّه ﷺ . فقال : « **كل لعمري من أكل من رقية باطل ، لقد أكلت برقية حق** » . ويرتبط مضمون أحاديث هذا المقصد بمفهوم المكافأة Reward في علم النفس وبوجه خاص المكافأة المادية (ص ٢٣٠ - ٢٣٢) .

المقصد الرابع : في الأحاديث الدالة عن امتناع أخذ الأجرة على تعليم القرآن :

عن محمد بن جحادة عن أبي بن كعب ﷺ أنه علم رجلًا سورة من القرآن فأهدى إليه ثوبه ، أوقال قميصه ، قال فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « **إن أخذته أُلبستَ ثوبًا من نار** » .

المقصد الخامس : في بيان اختلاف العلماء بالأخذ من الأحاديث السابقة :

وبين في هذا المقصد طبيعة الاختلاف بين العلماء في الأخذ ببعض الأحاديث التي تجيز أخذ الأجرة على تعليم القرآن والرقية ونحوهما ، والأحاديث الأخرى التي تحرم أو لا تجيز ذلك .

المقصد السادس : في تحذير المعلم من نظر المرد الذين يعلمهم وفي بيان حد نظر المعلم إلى الأمرد المتعلم لحاجة التعليم من غير شهوة ولا خوف فتنة :

وفي هذا المقصد عرض المؤلف لمجموعة من الأحاديث التي تحذر من النظر ، فقد قال رسول اللَّه ﷺ : « **العينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام واليدان زناهما البطش ، والرجلان زناهما الخُطا ، والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه** » . كما قال رسول اللَّه ﷺ : « **كل عين باكية يوم القيامة إلَّا عين غضت عن محارم اللَّه ، وعين سهرت في سبيل اللَّه ، وعين خرج منها مثل رأس الذباب من خشية اللَّه تعالى** » . ويرتبط مضمون هذا المقصد بمفهوم الاتصال بالأعين Eye-Contact (ص ٢٤١ - ٢٤٤) ، والعينان كإحدى الحواس التي تتلقى التنبهات الخارجية ، وما يترتب على ذلك من استجابات انفعالية (ص ٢٤١ - ٢٤٤) .

المقصد السابع : في الأسئلة والأجوبة التي هي السبب في هذا التأليف :

وفي هذا المقصد عرض المؤلف لبعض الأسئلة والأجوبة عن بعض الجوانب التي تفيد المعلمين والمرشدين وهم بصدد تعليم الأطفال وإرشادهم ؛ مثل هل للمعلم أن يضرب

من شرد من التلاميذ أو أخذ شيئًا من الغير أو ضربه أو سبه ؟ ويجيب المؤلف على ذلك بأنه إن قلت قد جوز للمعلم الضرب من غير تقدير وإن زاد على الثلاث بل العشر وقدر وجه رد القائل بالعشر فما وجهه ؟ رد القائل بأنه لا يجوز للمعلم الزيادة في ضرب الولد على الثلاث . ويرتبط مضمون هذا الجزء بمفهوم العقاب Punishment ، وبخاصة العقاب البدني (ص ٢٥١ - ٢٥٣) .

وهناك أسئلة مهمة حدد المؤلف إجابات لها تدخل ضمن أساليب التربية في التنشئة الاجتماعية Socialization ؛ مثل هل يجوز للمعلم أن يرسل بعض التلاميذ لإحضار من يغيب وهرب منهم ؟ وإذا قلت : لا يلزمه الإرسال ، فهل يلزمه إعلام الناظر بمن غاب منهم ؟ وإن علم بأن إعلامه لا يحمله على إحضارهم ، بل يحمله على إخراجهم وتقرير غيرهم ، أو لا ؟ وهل للأم دخل في الإذن للفقيه في استخدامهم لقضاء حاجة تتعلق بالفقيه أو ببعض الأيتام ، أو القاضي هو الذي يأذن في ذلك ؟ وهل له إلزام حاذقهم بإقراء أو تعليم بليدهم ؛ لأن في ذلك مصلحة للحاذق بترسيخه ما حفظه عنده فيأمن من تشتته عنه أم لا ؟ وهل التصرف في معلوم الشاردين للفقيه ، فيصرفه حتى لنفسه ؟ أو للناظر فيصرفه في البقية أو يعيده إلى أصل الوقف ؟ ولو أذن الناظر للفقيه في معلوم من غاب حتى يأخذ لنفسه فهل يعمل الفقيه بهذا الإذن أو لا ؟ ... إلخ من أسئلة وأجوبة ترتبط بمفهومي التنشئة الاجتماعية والتربية Education (ص ٢٤٤ - ٢٦٤) .

* * *

الشعراني (ت ٩٧٣هـ)
اليواقيت والجواهر
في بيان عقائد الأكابر [١]

عرض : د . طريف شوقي فرج

التعريف بالمؤلف [٢] :

هو عبد اللّه بن أحمد بن علي الحنفي نسبة إلى محمد ابن الحنفية ، الشعراني أبو محمد ، من علماء المتصوفين ، ولد في قلقشندة (بمصر) ونشأ بساقية أبي شعرة (من قرى المنوفية) وإليها نسبته (الشعراني ويقال الشعراوي) وتوفي بالقاهرة .

له تصانيف ؛ منها : - (الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية) ، (أدب القضاة) ، (إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العالمين) و (والأنوار القدسية في معرفة آداب العبودية) و (البحر المورود في المواثيق والعهود) ، و (البدر المنير) و (بهجة الفتوى والأسماع والأحداق فيما تميز به القوم من الآداب والأخلاق) و (تنبيه المغترين في آداب الدين) و (تنبيه المغترين في القرن العاشر عما خالفوا فيه سلفهم الطاهر) و (الجواهر والدرر الكبرى) و (الجواهر والدرر الوسطى) ، (حقوق أخوة الإسلام) و (الدرر المنثورة في زبد العلوم المشهورة) ، (درر الغواص) ، و (القواعد الكشفية) ، و (الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر) و (لطائف المنن) و (لواقح الأنوار في طبقات الأخيار أو الطبقات الكبرى) و (مختصر تذكرة السويدي) في الطب ، (ومختصر تذكرة القرطبي) و (مشارق الأنوار) و (المنح السنية) و (الميزان) (والطبقات الكبرى) (واليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر) .

---

(١) القاهرة : مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي (١٩٥٩م) ، (٢ في ١ مج) .
(٢) المصدر : الأعلام للزركلي .

عرض الكتاب :

يتكون هذا الكتاب من جزأين فيما يلي وصفًا موجزًا لمحتوياتهما .

أولًا : الجزء الأول

ويستهل مقدمة هذا الجزء يقول - شارحًا هدف ومحتوى الكتاب - « ألفت هذا الكتاب في بيان عقائد الأكابر ، وحاولت فيه المطابقة بين عقائد أهل الكشف وعقائد أهل النظر » (ص ٢) . وخير نموذج لأهل الكشف لديه هو الشيخ محيي الدين ابن عربي والذي اعتمد على كتبه ، وخاصة الفتوحات المكية ، في تأليف هذا الكتاب بالإضافة إلى كتابات لكُتَّاب آخرين ، ويعرض في بداية كتابه لأحد الأسس المنهجية الذي يمكن أن يتم في ضوئه التقويم والحكم على اجتهادات أئمة المسلمين في مجال العلوم الشرعية حيث ينقل قول شيخ الإسلام - في عصره - زكريا الأنصاري : « لا يخلو كلام الأئمة عن ثلاثة أحوال ؛ لأنه إما أن يوافق الكتاب والسنة فهذا يجب اعتقاده جزمًا ، وإما أن يخالف صريح الكتاب والسنة فهذا يحرم اعتقاده جزمًا ، إما أن لا يظهر لنا موافقته ولا مخالفته فأحسن أحواله الوقف » (ص ٣) .

ثم ينتقل بعد ذلك لبيان عقائد الشيخ ابن عربي وبيان أن ما وجد في كتبه مخالفًا لظاهر كلام العلماء مدسوس عليه أو مؤول أو أُسيء فهمه ، وكيف أن إنكار بعض العلماء على الصوفية يعزى إلى عدم التبحر في أمور كثيرة ؛ مثل مجازات العرب واستعاراتها ، ومعجزات الرسل ، وشرائط التفسير والتأويل ، ومنها - وهو أهمها - عدم معرفة اصطلاح القوم فيما عبروا عنه من التجلي والذات والظهور وعلم الماهية والهوية وغير ذلك ؛ « فمن لم يعرف مرادهم كيف يحل كلامهم أو ينكر عليهم مما ليس من مرادهم » (ص ١٢) .

ويذكر بعض مظاهر الابتلاء التي واجهها الأولياء والصالحون والعلماء العاملون كابن حنبل والإمام مالك ، والجنيد والتستري .

ويبين علة استخدام الصوفية لبعض العبارات والمفاهيم الرمزية المغلقة دون غيرهم من خلال قول ابن عربي : « اعلم أن أهل اللّه لم يضعوا الإشارات التي اصطلحوا عليها فيما بينهم لأنفسهم فإنهم يعلمون الحق الصريح في ذلك وإنما وضعوها منها للدخيل بينهم حتى لا يعرف ما هم فيه شفقة عليه أن يسمع شيئًا لم يصل إليه فينكره على أهل اللّه فيعاقب على حرمانه فلا يناله بعد ذلك أبدًا » (ص ١٥) .

وعن العلاقة بين الشريعة والتصوف يقدم تصورًا كفيلًا بإماطة اللثام عن كثير من

التصورات الشائعة وغير الصحيحة والتي تعد أساسًا لسوء الفهم المتبادل بين الجانبين حيث يقول : « إن إرساء أسس الشريعة ركيزة لأهل التصوف ، فلولا قواعد الشريعة التي مهدها المجتهدون ما عرف أحد موازين الأعمال الظاهرة والباطنة » (ص ١٨) .

ويشير إلى أن جملة العلوم ثلاثة : علم العقل وشرطه الدليل ، وعلم الأحوال فلا سبيل إليه إلَّا بالذوق كالعلم بحلاوة العسل ، وعلم الأسرار ويحصل عن طريق الإلهام (ص ١٦ - ٢٠) .

وعن خصال أهل اللَّه ينقل قولًا لابن عربي مفاده : « أنهم لا يجرحون عقائد أحد من المسلمين ؛ إنما شأنهم البحث عن منازع الاعتقادات ليعرفوا من أين انتحلها أهلها وما الذي تجلى لها حتى اعتقدت ما اعتقدت وهل يؤثر ذلك في سعادتها أم لا (ص ٢٣) . وهي دعوة صريحة للبحث في موضوع تكوين الاعتقادات Beliefs Formation ، وتأثيرها على من يتبنونها والذي يعد أحد المباحث المهمة في علم النفس الاجتماعي .

وعن علم الكلام وضرورة توخي الحيطة والحذر وتوفر شروط معينة في من يخوض فيه (وهي مسألة أفاض الإمام الغزالي في تمحيصها ووضع ضوابط لها) ينقل قول الشيخ سعد الدين التفتازاني : « إن النظر في ذلك على طريق المتكلمين من تحديد الأدلة وتدقيقها ودفع الشكوك والشبه عنها فرض كفاية في حق المتأهلين له فيكفي قيام بعضهم فيه ، وأما غير المتأهلين ممن يخشى عليه من الخوض فيه الوقوع في الشبه المضلة فليس له الخوض فيه » (ص ٢٤) . وكيف أنه لا امتياز لأهل التصوف ولا سقوط لأحكام عنهم فهم مؤاخذون بحدود الشرع وتكاليفه (ص ٢٥) .

وعن الكشف والشرع يقول ابن عربي : « فالكشف الصحيح يأتي قط إلَّا موافقًا لظاهر الشريعة فمن قدم كشفه على النص فقد خرج عن الانتظام في سلك أهل الحق ولحق بالأخسرين أعمالًا » (ص ٢٦) .

وعن الانفتاح العقلي أو الذهن Open - Minded ، يقول ابن عربي : « إياك أن تبادر إلى إنكار مسألة قالها فليسوف أو معتزلي مثلًا ، وتقول هذا مذهب الفلاسفة أو المعتزلة فإن هذا قول من لا تحصيل له ؛ إذ ليس كل ما قاله الفيلسوف مثلًا يكون باطلًا فعسى أن تكون تلك المسألة مما عنده من الحق » (ص ٢٧) .

وتترأى مباحث الكتاب المتنوعة ، فتخال الشيخ عبد الوهاب الشعراني يتحدث عن التوحيد ويسوق عددًا من الأدلة العقلية عليه ، ويعرف حقيقته ويتطرق إلى مسألة العلاقة

بين الكفر والشرك ، والحق والصدق (ص ٢٨ - ٣٦) . ويُدْلي دَلْوه في ذلك الخلاف الحاد بين أهل السنة والفلاسفة حول قضية حدوث العالم أو قدمه (ص ٣٧ - ٤١) .

ووجوب معرفة اللّه على كل عبد و كيف أن هذه المعرفة تتوقف على خصال العبد ، وما هي شروط وحدود هذه المعرفة ، ووسائلها ، وطرقها ، وصفات العارف باللّه (ص ٣٢ - ٤٧) ، ويشير إلى مقولة لابن عربي عن النفس والمعرفة : « معرفة اللّه ليس لها طريق إلّا المعرفة بالنفس ، فمن عرف إعجاز خلق نفسه وضعفها وحاجتها إلى اللّه عرف قدر اللّه » (ص ٤٦) . وعن حقيقة اللّه وضرورة اعتقاد أنها مخالفة لسائر الحقائق المعلومة في الدنيا فهو ﷻ ليس كمثله شيء ، وكيف أن طريق التمثيل والتشبيه لا يعبر عن حقيقة بل يقربها إلى أذهان عباده فقط ، على سبيل المجاز والحقيقة ، وعن العقل كوسيلة المعرفة ، وعن الحجب التي تحول بين العبد وبين رؤية ربه (ص ٤٨ - ٥٨) ، وأن اللّه غني عن العالمين ، وأنه لا حلول ولا اتحاد بين اللّه ومخلوقاته ، وأن اللّه لا يحويه مكان ولا يحده زمان ، وأنه معنا حيثما كنا ، وأقرب إلينا من حبل الوريد (ص ٥٩ - ٧٠) ، وأنه علم الأشياء قبل وجودها في عالم الشهادة ، ثم أوجدها على حد ما علمها ، وأنه أبدع العالم على غير مثال مسبق ، ويناقش الخلاف بين المعتزلة وأهل التصوف في طبيعة صفات اللّه ، وأسمائه ويقدم شرحًا لبعض تلك الأسماء (ص ٧١ - ٨٢) .

وينتقل للحديث عن القضاء والقدر ، والإرادة والمشيئة ، والإرادة والشهوة ، والختم على القلب ، وعن كيفية وقوع بعض ألوان العذاب على بعض الطوائف في الدنيا والآخرة ويتطرق في هذا الصدد للإشارة إلى مفهوم الألم النفسي بقوله : « فإن القائلين بإنفاذ الوعيد مصيبون وإن أطلقوا محل إنفاذه ولم يقيدوا حيث يعينه اللّه تعالى في الدنيا أو في الآخرة ، فإذا أنفذه في الدنيا بمرض أو ألم نفسي أو حسي كان ذلك كفاية في صدق العقوبة » (ص ٩٣) . ويلاحظ أنه يفرق بين الألم النفسي Psychological Pain ، والألم الحسي Physical Pain ، وثمة لطيفة هنا نود التنويه عليها وهي تفسير ابن عربي الظاهر ببكاء المولود حال ولادته حيث يقول : « فأول الألم في الدنيا استهلال المولود حين ولادته ، فإنه يخرج صارخًا لما يجده من الألم عند مفارقة الرحم وسخونته فيضربه الهواء عند خروجه من الرحم فيحس بالألم فيبكي » (ص ٩٣) .

ويتناول التفسيرات المتنوعة في معنى الاستواء على العرش ، والصفات (ص ٩٤ - ١١٠) . ويوضح معنى بعض المفاهيم التي ورد ذكرها في القرآن ؛ كاللوح ، والكرسي ، والقلم ، والميثاق (ص ١٠ - ١١٧) . ويتحدث عن ظاهرة التجاذب بين

الرجل والمرأة وذلك في ضوء مسألة خلق حواء من آدم ، وعن الرؤيا والمعنى الرمزي لبعض المفاهيم المجردة فيها ؛ كتمثيل الكفر بالظلمة ، والضلال بالعمى (ص ١٢٠) . والفرق بين الرؤيا والحلم ويذكر بعض أمثلة من رؤيا الأنبياء (ص ١٢٠ - ١٣٤) . وعن الجن وخصائصهم وطبيعة علاقتهم بالإنس (ص ١٣٤ - ١١٩) . ويناقش قضية خلق الله لأفعال العبد ، كمدخل لمسألة الجبر والاختيار (ص ١٤٠ - ١٤٨) . والقضاء والقدر واستحالة سقوط التكليف عن الأولياء طالما لم يوجد مانع شرعي ، وعن الرزق ، والمعجزات والكرامات ، والسحر والشعوذة والفروق بين كل منها .

ثانيًا : الجزء الثاني :

ويستهل هذا الجزء بالحديث عن عصمة الأنبياء ، ويعرض للتفسيرات المختلفة لأهل الفرق لها ، ويشير إلى ما دُس فيها على المفسرين من إسرائيليات . ويتحدث عن التوبة ، وعقوبة العازف حين يذنب وعقوبة الجاهل ، وعن الاستغفار وفضله ، والزهد وقيمته (ص ١ - ١٧) .

ويتطرق للحديث عن الرسالات ، والعلاقات بين الرسالات وعن الفرق بين النبوة والرسالة ، والرسول والنبي ، ومقامات الأنبياء ، وعن الأحوال البدنية لسيدنا محمد ﷺ أثناء نزول الوحي عليه (ص ١٨ - ٣٠) . ثم يذكر تفسيرًا للشيخ ابن عربي في مسألة القابلية للإقناع Persuasionability ، والتأثر بالمُخاطب وكيف أنها تتوقف - جزئيًا - على طبيعة المتلقي Receiver وعلاقته بالمصدر Source (المُخاطب) حيث يقول : « من سمع واعظًا ولم يؤثر فيه القول فالعيب منه لا من الواعظ ؛ إذ صاحب العقل السليم يؤثر فيه الكلام الحق على يد أي من جاء به من الناس » ، وبيان ذلك أن ننظر في حال المدعو فإن رأيته في حال سماعه يسمع من الواعظ كلامًا ولم يؤثر فيه ثم أنه يسمع من واعظ آخر لعينه فيؤثر فيه ؛ فاعلم أن ذلك التأثير لم يكن من حيث قبول الحق وإنما هو من حيث وجود شبه بينه وبين الواعظ الثاني من اعتقاد فيه أو نحو ذلك ، فما أثر في السامع سوى نفسه (ص ٣٢) .

ثم ينتقل ليروي قصة الإسراء ، وما شاهده فيها الرسول من عجائب ومعجزات (ص ٣٣ - ٣٧) . ويشير إلى إغلاقِ باب الوحي من بعد وفتح باب الاجتهاد ، وبعض خواص بعثته ﷺ ، ونبذة عن آداب التلقي عنه واتباعه . ويناقش علل بعض الأحكام الشرعية ، وقواعد الاجتهاد في تلك الأحكام وحدوده (ص ٣٩ - ٤٦) . ويعرض

لمراتب الأنبياء والمرسلين عند الحق وعند الخلق (ص ٤٦ - ٤٩) . والملائكة وما ورد عنهم في الكتاب والسنة (ص ٤٩ - ٥٦) . ووجوب البر بالأنبياء جميعهم وتوقيرهم ، وطبيعة وظائف الرسل وأهدافهم (ص ٥٧ - ٦١) . ويتحدث عن أحكام الطهارة (ص ٦٠ - ٧١) ، وعن مرتبة الولاية وفضل الأولياء ، وعن الكف عن التعليق عما شجر بين الصحابة من خلاف ووجوب اعتقاد أنهم مجتهدون (ص ٧٢ - ٧٨) . ويعرّف بعض المفاهيم الشائعة في الثقافة الصوفية ؛ مثل : القطب ، والبدل ، والإلهام ، وكيف أنه ما يكون متلقى بالخيال ، أو معنى يجده المُلهم في نفسه ، والرؤيا الصادقة وشروط وعلامات أنها من اللّٰه وليست من الشيطان (ص ٧٦ - ٨٨) . وكيف أن العلماء والأولياء ورثة الأنبياء ؛ فالأولياء حفاظ الأحوال والأحكام الباطنة التي تدق عن الأفهام ، والعلماء حفاظ الأحكام الظاهرة التي تفهم ببادي الرأي ، وقد يرث هؤلاء أيضًا الأنبياء في الأحوال الباطنة كما كان عليه السلف الصالح ؛ حيث كانوا أولياء علماء (ص ٨٨) ويعرف مفهوم الصوفي ويصف مجاهداته للترقي ونيل القرب من اللّٰه (ص ٨٩ - ٩٤) . ومكانة الأئمة المجتهدين وبعض مواقف ومواطن اجتهاداتهم (ص ٩٥ - ١٠١). ونماذج من كرامات الأنبياء والصحابة والأولياء (ص ١٠١ - ١٠٦) . وعرف كلًّا من الإسلام والإيمان والعلاقة بينهما (ص ١٢ - ١٠٦) . والإحسان ، والإخلاص ، والاستغفار ، والتوبة وأحكامها ، وحكم المنتحر (ص ١١٣ - ١٢٠) . ويشير إلى الخواطر التي ترد على القلب وأحوالها وضرورة وزنها بميزان الشرع لمعرفة موقفها منه (ص ١٢١ - ١٢٣) . وضرورة عدم التوسع والتسرع في رمي الآخرين بتهمة الكفر ووجوب التحوط الشديد في هذا المجال (ص ١٢٣ - ١٢٦) . وضرورة وجود الإمام والشروط الواجب توافرها فيه وموجبات طاعته وموجبات الخروج عليه (ص ١٢٧ - ١٣٢) . والأجل ، وخلود النفس ، وأمر الروح ، ونعيم القبر وعذابه (ص ١٣٣ - ١٤٢) .

وينتقل للحديث عن أشراط الساعة ، والبعث ، والنشور ، والحوض ، والميزان ، والشفاعة وأحوال العباد سواء كانوا من أهل طاعة اللّٰه أو من أهل معصيته ويصف الجنة والنار وجزاء كل فيهما .

* * *

تنبيه المغترين أواخر القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر [1]

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٢٢٩ صفحة من القطع المتوسط وفيه ينتقد الكاتب الأخلاق التي سادت بعد وفاة الشيوخ الذين كانوا في النصف الأول من القرن العاشر الهجري والذين عرفوا بالزهد والورع ويعرض لأخلاق السلف الصالح من الشيوخ والأئمة .

ويختص الكتاب بعرض جوانب السلوك الأخلاق Moral Behavior ، والتوجهات القيمة Value Orientations للشيوخ والأئمة الصالحين وسنتعرض لأهم هذه الجوانب فيما يلي :-

١ - الصبر على جور الحكام (ص ٢٣ ، ٢٤) ، والصبر على أذى الزوجات (ص ٤٤) والزهد متمثلًا في تحمل الجوع (ص ٧٩) ، وترك متع الدنيا (ص ٨١) ، واختيار الشدة والبلاء على النعمة والرخاء (ص ٨٣) ، وكره الدنيا ؛ لأنها تشغل عن كمال العبادة (ص ٨٤) ، وعدم التغالي في الثياب (ص ٨٥) ، وعدم الإسراف في الحلال (ص ٨٦) ، وكثرة الصبر على البلايا والنوازل (ص ١١٥ - ١١٩) ، واجتناب الشبع الموجب لقساوة القلب في الطاعات (ص ١٠٥) ، وترك الشهوات وكثرة العبادات (ص ١٧٠ - ١٧٣) ، ثم الزهد في الدنيا وذمهم لكل من طلبها (ص ١١٨) .

وتشير هذه الجوانب من السلوك الأخلاقي إلى دور القيمة الدينية Religious Value

---

(١) القاهرة : مصطفى البابي الحلبي (١٩٨٧م) ، (٢٢٩ ص) .

في تشكيل القدرة على كف الدوافع الفطرية Suppression of Innate Motives والقدرة على التحمل والمثابرة Persistance والضبط الانفعالي Emotional Control .

٢ - قلة الضحك وعدم الفرح بشيء من الدنيا بل الانقباض بكل شيء حصل لهم من ملابسها ومراكبها ومناكحها ومناصبها (ص ٢٥ ، ٢٦) ، وذم الضحك ؛ لأنه غفلة عن الموت (ص ٢٦) ، وكثرة الحزن والهم كلما تذكروا الموت (ص ٢٨) ، وكثرة الحزن على ارتكاب المعاصي (ص ١١٤) ، وعلى تفريطهم في حقوق اللّٰه (ص ١٩٩) ، ورقَّة قلوبهم وكثرة بكائهم على تفريطهم في حقوق اللّٰه تعالى (ص ٦٧) . وتشير هذه الجوانب إلى أحد انفعالات Emotions السلوك الأخلاقي لدى الأئمة والشيوخ الصالحين وهو الحزن Sadness .

٣ - كثرة الخوف من اللّٰه تعالى (ص ٢٨ - ٣٣) وشدة خوفهم من اللّٰه تعالى أن يختم لهم بسوء (ص ٤٩) وكثرة الاعتبار والبكاء والاهتمام بأمر الموت إذا رأوا جنازة (ص ٣٧) ، وعدم الإجابة إلى طعام من في ماله شبهة (ص ١٤٦ ، ١٤٧) وكثرة التوبة والاستغفار (ص ١٥٩ - ١٦٢) ومحاسبة أنفسهم وتوبيخها إذا ما قصرت أو أخطأت (ص ٦٨) .

تشير هذه الجوانب إلى انفعال آخر يسود السلوك الأخلاقي وهو الخوف Fear ، والشعور بالذنب Feeling of Guilt وتأنيب الضمير .

٤ - كثرة العفو والصفح عن كل من أذاهم (ص ٤٣) وكثرة الشفقة على المسلمين الطائع والعاصي (ص ٧٢ ، ٧٥) وكثرة الحلم على من جنى عليهم وكظم الغيظ .

وتشير هذه الجوانب من السلوك الأخلاقي إلى فضيلة التسامح Permissiveness والضبط الانفعالي Emotional Control .

٥ - القناعة بالموجود وعدم طلب المزيد (ص ٧٥ - ٧٨) وكثرة شكر اللّٰه على نعمه عليهم (ص ١١٩) والورع بمظاهره المختلفة ؛ ومنها ترك الشبهات وترك الزعامة لمخالفة اللّٰه في السر والعلن (ص ١٢١ - ١٢٣) وسرورهم بالفقر وضيق المعيشة وغمهم بالغنى (ص ١٩٧) .

وتعكس هذه المظاهر من السلوك الأخلاقي حالة من الرضا Satisfaction والتوافق Adjustment مع الشدة والعسر .

٦ - احترام المعلم وتقديره والتودد إليه (ص ٥٨) وكثرة الوصايا من بعضهم البعض وقبولهم المواعظ وشكرهم الواعظ (ص ٨٨) وكثرة سؤالهم عن أحوال أصاحبهم من أجل مساعدتهم بما يحتاجونه (ص ١٠١) وعدم الحسد لأحد من المسلمين وبذل النصيحة لكل مسلم (ص ١٢٦) ، وسد باب الغيبة في الناس وهم في مجالسهم (ص ١٢٩) ، وكتمان الأسرار والانشغال بعيوب النفس عن عيوب الناس (ص ١٣٣) ، وحسن الخلق والفتوة والمروءة (ص ١٣٥ ، ١٣٦) ، وكثرة السخاء والجود وبذل المال ومواساة الإخوان في حال سفرهم (ص ١٣٦ - ١٦٧) ، وشدة محبتهم لعمل المعروف وإدخال السرور على إخوانهم (ص ١٤٠) ، وإكرام الضيف وخدمته (ص ١٤٥) ، وكثرة الصدقة بكل ما فضل عن حاجتهم ليلًا ونهارًا وجهرًا (ص ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٩٥ ، ١٩٦) وحب المساكين والتواضع لهم (ص ١٩٢ - ١٩٤) ، وترك معاداتهم للناس ، وكثرة مداراتهم لهم ، وعدم مقابلتهم أحدًا بسوء فالناس يعادونهم ولا يعادون أحدًا (ص ١٥١ ، ١٥٢) .

تشير هذه الجوانب إلى العلاقات الاجتماعية Social Relations لدى الأئمة والشيوخ الصالحين ، بما تتضمنه من سلوك المساعدة Helping Behavior والتعاطف Sympathy واحترام الآخر Respect of Other .

٧ - عدم الإفراط في مخالطة الناس (ص ١٥٣ - ١٥٦) والصمت والنطق بالحكمة (ص ١٢٤) ويتصل هذان الجانبان بتكوين الشخصية Personality حيث الميل إلى التوسط والاعتدال في مخالطة الناس . ويتضح ذلك في إشارة لأكثم بن صيفي يقول فيها : (إن الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة والانبساط إليهم مجلبة لقرين السوء ؛ فكن بين المنقبض والمنبسط) انظر : (ص ١٢٤) .

٨ - التواضع عن رفعة (ص ١٥٦ - ١٥٨) وكتمانهم عن أهل عصرهم كل ما لديهم من الكرامات (ص ٩٨) .

ويتصل هذا الجانب أيضًا بالشخصية خاصة صورة الذات Self Image يضاف إلى ذلك إشارة مهمة أوردها المؤلف بشأن الوسوسة Obsession ؛ حيث يمدح ذوي الخلق الحسن من الشيوخ والأئمة عدم وسوستهم في الوضوء والعبادات (ص ١٣٢) مشيرًا إلى أصل الوسوسة وهو ظلمة القلب ؛ وأن ظلمة القلب من ظلمة الأعمال ، وأن ظلمة الأعمال من أكل الحرام والشبهات فمن أحكم أكل الحلال فليس لإبليس عليه سبيل مطلقًا . ولا شك

في أن هذا التفسير النفسي لمرض الوسواس القهري Compulsive Obsession له ثقل جوهري في علم النفس الإكلينيكي .

* * *

كشف الغمة عن جميع الأمة [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

يقع هذا الكتاب في جزأين : الأول يتكون من ٤٠٥ صفحة من القطع المتوسط ، والجزء الثاني يقع في ٣٨٩ صفحة يتبعه فهرس يقع في ١٩ صفحة ، من القطع المتوسط . هذا الفهرس خاص بالجزء الثاني ، ومجموع صفحاته ٨١٣ صفحة . وكل جزء مقسم كتب (مثل كتاب الصلاة ، أو كتاب الزكاة) وتضم بعض الكتب أبوابًا كما تضم بعض الأبواب فصولًا ، وتضم بعض الفصول فروعًا . وفيما يلي عرض لكل جزء من أجزاء الكتاب .

الجزء الأول :

يبدأ هذا الجزء من الكتاب بحمد اللّه والثناء عليه ، والصلاة والسلام على رسول اللّه محمد ﷺ ، ثم تعرض لشكوى بعض الفقراء المتعبدين لما حل بهم من كثرة الغم لانتصار كل صاحب مذهب لمذهبه ، وانصراف بعض العلماء للاشتغال بفهم تراكيب كلام بعضهم بعضًا (ص ٣) .

كما يوضح لنا كيفية حدوث التخاطب أو التواصل Communication عند النقاش في أمور الشريعة ، ومضمون الكلام يدل على وجود خلل في عملية التخاطب هذه ، بحيث إن بعض المستمعين لا يفهمون ما يقوله المتحدثون (ص ٤) .

---

(١) القاهرة : [د . ن ، ١٩٨١م] ، (٣٠٠ ص) .

وبعد ذلك يعطينا نبذه عن بنية الكتاب ، وما جاء به من موضوعات ، وسوف نعرض لأبوابه وفصوله ونقف عندما كان منها متصلًا بدراسات علم النفس بشكل مباشر أو غير مباشر .

وأول هذه الأبواب كان في كيفية بدء الوحي على رسول الله ﷺ ، ويليه باب في الإخلاص والصدق والنية الصالحة . (والإخلاص والصدق والنية الصالحة يمكن اعتبارها من سمات الشخصية الطيبة أو من بين سمات الشخصية التي يعني بها علماء النفس الحديث ص ١٧ ، ١٨) . والصدق يعتبر قيمة تدرس ضمن موضوع القيم Values .

ويتحدث بعد ذلك عما جاء فيمن لا يعبأ بما بلغه من الحديث إذا خالف قوله إمامه (وهو هنا يدعونا بشكل غير مباشر إلى الموضوعية - بصفة عامة Objectivity أي التخلي عن التحيزات الشخصية عند تحصيل العلم أو إجراء الدراسات العلمية حتى لو جاءت مخالفة لتوقعاتنا أو لآراء أساتذتنا . والموضوعية أحد دعائم الدراسة العلمية بصفة عامة وفي علم النفس بوجه خاص ص ١٨) . ثم يتحدث بعد ذلك عن إثم من تعلم العلم لغير الله تعالى ، ويتبعه بباب فيما جاء في الجدال والمراء (وهي دعوة إلى إقامة الدليل والبرهان على ما نأتي من الأقوال بدلًا من الجدل دون دليل ، وهو ما يلتزم به العلماء كافة بما فيهم علماء النفس ص ٢٠) ويؤيد ذلك ما جاء في الباب التالي والخاص بالنهي عن ادعاء العلم والقرآن .

ويلي ذلك باب إثم من علم ولم يعمل وقال ولم يفعل (وهي دعوة تتضمن أن يكون القدوة متسقًا مع نفسه حتى يكون نموذجًا طيبًا لمن يتعلم منه ، ويعتبر التعلم بالاقتداء أو التمذجة Modeling أحد أشكال التعلم الاجتماعي التي تعني علماء النفس ص ٢٠ ، ٢١) . ويأتي الباب التالي فيما جاء في فضل العلم والعلماء والمعلمين (ولا أحد ينكر فضل العلم والعلماء سواء كان العلم دينيًا أو دنيويًا . كما أن الحديث عن التعلم والمتعلمين له تضمينات سيكولوجية عديدة فتعلم العلم أو التعلم بصفة عامة من الموضوعات التي يعنى بها علماء النفس ، كما توضح أن العلم مكتسب يتفق وما انتهى إليه علماء النفس . ولما ذكره المؤلف في هذا الموضع فوائد عديدة للعاملين في ميدان التربية Education وكذلك علماء النفس التربوي ص ٢١ - ٢٣) . وبعد ذلك باب في فضل سماع الحديث وتبليغه ونسخه وفضل مجالسة العلماء وإكرامهم ، وإجلالهم وتوقيرهم ، وبعده باب فيما جاء في نشر العلم والدلالة على الخير ، وكيف يحب الله ﷻ إغاثة اللهفان (وهو كلام يقابل ما نعرفه في دراسات علم النفس الاجتماعي

الحديث بسلوك المساعدة Helping Behavior أو الإيثار Altruism ص ٢٦) ويعطف على هذا الباب بابًا فيما جاء في الرياء والسمعة والنهي عنهما .

ويبدأ بعد ذلك في الحديث تحت عنوان « **كتاب الإيمان والإسلام** » وفيه فصل في حقيقة الإيمان والإسلام ، وفيه ما روي عن رسول اللّه من أن الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن (وكأنه يدلنا على علاج بعض الأعراض النفسية التي يطلق عليها أحيانًا الاكتئاب Depression رغم أن كثيرًا من العلماء المحدثين يغفلون هذا العلاج ، ويشير إليه البعض كأسلوب من أساليب التغلب على المشقة Stress عندما ينصحون بالتحكم في الأفكار المأسوية ص ٢٩) . ويتبع الفصل السابق بفصل المجاز ويذكر فيه بعض الأقوال المتفرقة (والمجاز أحد أشكال البلاغة التي تعني علماء اللغة ، ولكنها في الوقت الحاضر تجد طريقًا لعلماء نفس اللغة عندما يربطونه بالفكر Thought ، أو عندما يدرسونه باعتباره يسبب سوء فهم اللغة ص ٢٩ - ٣١) . ويفرد لأحكام الإيمان والإسلام ، وفصلًا لمبايعته ﷺ الوفود ، ويتحدث بعد ذلك في باب الاعتصام بالكتاب والسنة .

ومن الأبواب الموجودة في هذا الجزء أيضًا باب الاقتصاد في العمل ؛ حيث كان رسول اللّه ﷺ يحث على الاقتصاد في الأمور كلها (ص ٣٦ ، ٣٧) وبعد ذلك يأتي باب التوبة .

ومن الأبواب المهمة ؛ باب آداب النوم والانتباه (أي اليقظة) وهي آداب عظيمة ، وهي متبوعة بفصل في أذكار تقال عند النوم (ص ٣٨ ، ٣٩) ، ويتبع ذلك بفصل في المني ودم الحيض ، وفصل في حكم الكلب وغيره من الحيوانات ، وفصل في جلود الميتة والمذكي ، وباب في الاستنجاء وبيان آداب دخول الخلاء والخروج منه . ومما جاء فيه نهي رسول اللّه عن البول في الماء الدائم أو الجاري ، ثم الاغتسال فيه ؛ لأن عامة الوسواس منه (وهناك حالات كثيرة يكون الوسواس فيها مرتبطًا بالطهارة ، والوسواس كمرض يعد من الأمراض النفسية التي يعنى بها علم النفس الإكلينيكي ص ٤٧) . ويتبع هذا الباب بباب سنن الفطرة والنظافة ، وباب في حكم الأواني ، باب في فضل الوضوء وبيان صفته ، وباب في سنن الوضوء ، باب في بيان الأحداث الناقضة للوضوء ، وبعده فصل في لمس المرأة والفرج ، وفصل في النوم والإغماء والغشي . وينتقل بعد ذلك ليتحدث عن الغسل ، وفرائض الغسل وسننه ، والغسل للجماع ، ودخول الحمام ، وغسل الحائض والنفساء ، وغسل الجمعة والعيدين ، والغسل من غسل الميت ، وبعد

ذلك التيمم ، باب الحيض وأحكامه .

وينتقل بعد ذلك إلى الصلاة فيتحدث فيه عن المواقيت ، والقضاء والأداء ، وقضاء الفوائت وترتيبها ، وينتقل بعده إلى باب الأذان وفضله وبيان كيفيته وسبب مشروعيته ، وصفات المؤذن ، وباب أحكام المساجد وآدبها وكنسها وتبخيرها واتخاذ المصابيح فيها وغير ذلك ، وباب شروط الصلاة قبل الدخول فيها وفيه فصول .

ويعود مرة أخرى للصلاة ؛ فيخصص بابًا لآداب الصلاة وبيان ما نهى عنه فيها وما يباح (ويتعرض في هذا السياق للوسوسة في الصلاة وقد سبق أن أثرناها في موضوع سابق) وباب السترة أمام المصلي وحكم المرور دونها ، وباب صفة الصلاة ، وفصل في الاستعاذة ، وقراءة البسملة وفصل في الركوع ، وفصل في الجلوس بين السجدتين ، وباب في صلاة التطوع . ويتحدث بعد ذلك في باب منفصل عن بيان الأوقات المنهي عن الصلاة فيها ، وباب سجود التلاوة ، والشكر ، وباب سجود السهو ، وباب صلاة الجماعة وفيه حث وتأكيد على ضرورة الصلاة في جماعة (أي في المسجد) ، (ص ١٨١ - ١٨٨) .

ومن الأبواب التي تلي ذلك ، باب الإمامة وصفة الأئمة ، ثم موقف الإمام والمأموم وأحكام الصفوف (لما كان الإمام بالنسبة للمصلين بمثابة القائد بالنسبة للجمهور أو الجيش في الحروب ، فإن وجب أن يتميز بصفات تؤهله للقيادة ، ومن هنا كان موضوع القائد Leader والقيادة Leadership ، وعلاقة القائد بمن يتبعه من الناس أيًا كانت الجماعة ، من الموضوعات الرئيسية في علم النفس الاجتماعي أو التنظيمي ، أو ديناميات الجماعة Group Dynamics ، ويمكن للدارسين أن يستفيدوا من الشروط التي وجب التحلي بها للتقدم للإمامة ص ١٨٨ - ١٩٧) .

وتأتي بعد ذلك عدة أبواب في الصلاة ؛ مثل صلاة المعذور ، وصلاة المسافر ، والجمع بين الصلاتين ، باب صلاة الجمعة ، وفيه فصل في النهي عن الكلام والإمام يخطب (ص ٢١٣) .

وبعد أن انتهى المؤلف من باب الصلاة بدأ في كتاب الجنائز ، ويبدأه بعيادة المريض ، ثم الغسل ، والدفن ، وزيارة القبور ، وينتقل بعد ذلك إلى كتاب أحكام الزكاة بأنواعها ، وباب ما جاء في الحث على التعفف وترك المسألة ، وبعد كتاب الصيام ، وباب ما يبطل الصوم وما يستحب وما يكره فيه ، وباب ما يبيح الفطر وأحكام القضاء ،

وباب في صوم التطوع ، وبعد ذلك يأتي كتاب الاعتكاف ، ثم كتاب الحج والعمرة وفيه باب لمواقيت الحج ، وباب كيفية الإحرام وآدابه ، وباب محرمات الإحرام ، وباب ما يتعلق بدخول المحرم مكة ، وباب الأضحية وما جاء في فضلها ، وباب استحباب الذبح عن المولود إماطة للأذى عنه .

ومن الكتب التي جاء ذكرها في هذا الجزء أيضًا كتاب الصيد والذبائح ، وكتاب الأطعمة ، وكتاب الأشربة (وأهم ما في هذا الكتاب هو الاستفاضة في الحديث عن الخمر ص ٣٥٧ - ٣٦٠) . ويتحدث بعد ذلك عن باب آداب الأكل وبيان عيش النبي ﷺ وإيثاره على نفسه ، وتقلله من الدنيا (ص ٣٦٠ - ٣٦٩) . وبعد ذلك يأتي باب في آداب الشراب .

والكتاب التالي هو كتاب الطب ؛ ويروي فيه ما ورد عن رسول الله ﷺ وكيف كان يعالج الأمراض (وهو الموضوع الذي كتب فيه بعض المفكرين باسم الطب النبوي ؛ ومن الأمراض التي يذكر أن الرسول ﷺ عالجها ، الصرع ، والصداع ، والجنون وهي من الأمراض التي يعتني بها علماء النفس في الوقت الحاضر مع اختلاف في أسمائها وطرق علاجها) وبعد ذلك يأتي باب الرقي التمائم ، وباب في الطيرة والفأل والشؤم والعدوى والطاعون ، وباب ما جاء في النهي عن إتيان الكهانة ، والباب الأخير في هذا الجزء ، باب جامع لفضائل الذكر .. وبهذا ينتهي هذا الجزء من الكتاب الأخير .

الجزء الثاني من كتاب « كشف الغمة عن جميع الأمة » :

ويبدأ هذا الجزء بكتاب البيوع ، وبه عدة أبواب وفصول ، فمن فصوله الاقتصاد في طلب الرزق وطلب الحلال ، والورع ، والسماحة في البيع والشراء ، وتحريم الغش ، والدين وثقله ، وحث التاجر وغيره على الصدق ، والتسعير وتحريم الاحتكار وكذلك هناك عدد من الصفات الطيبة كالسماحة والصدق (ص ٤ - ٦) . ومن أبواب هذا الكتاب أيضًا ، باب ما لا يجوز بيعه وتحريم الحيلة ، وما لا يجوز فعله في البيع ، والخيار في البيع والربا ، وأحكام البيوع ، واختلاف المتبايعين ، وبيع أصول الثمار .

ومنها أيضًا باب الصلح وأحكام الجوار ، والنهي عن البناء فوق الحاجة (ولما كان الصلح والجوار مما يدخل في أبواب التفاعل الاجتماعي Social Interaction بين الناس كان لنا أن نستدل على فائدته لعلماء النفس الذين يدرسون مشكلات التفاعل

الاجتماعي ص ٢٦) . ومن الأبواب التي نجدها ملائمة أيضًا باب الغضب وما جاء فيه (والغضب من الموضوعات التي تدرس تحت باب الانفعالات Emotions في علم النفس العام ص ٢٩) . وهناك عدد من الأبواب تتصل بالزروع ، والودائع وأرزاق العمال وغيرها .

ويأتي بعد ذلك كتاب الوصايا وبه فصل نكاح المريض ، ووصية من لا يعيش مثله ، وبعده كتاب الفرائض وفيه فصول كذلك ، منها فصل في سقوط ولد الأب بالأخوة من الأبوين ، والأخوة مع البنات عصبة ، وفصل في ميراث الجدة ، وفصل في ذوي الأرحام والموالي ، وميراث المطلقة وميراث الحامل ، وميراث الخنثى وغير ذلك .

ونصل بعد ذلك في هذا الجزء إلى كتاب النكاح ، وفيه أبواب وأقسام وفصول ، ومنها باب في جملة من خصائص رسول اللّه ﷺ وهو ثمانية أقسام ، وبعده باب مقدمات النكاح وما جاء في الأمر به للقادر المحتاج إليه وبه عدة فصول (اثنان وثلاثون فصلًا) ما نلتمسه فيها من معانٍ هو ما جاء في شأن غير أولي الأربة ، وما يحمله من مضامين أهمها فكرة البلوغ وعلاماتها وتغير الأدوار وهي تعني علماء النفس الارتقائيين (ص ٨٣) . وكذلك كفاءة النكاح ، واستحباب الخطبة للنكاح ، وتوكيل الزوجين واحدًا في العقد ، وباب رد المنكوحة بالعيب ونكاح من فقد زوجها ، وفصول أخرى كثيرة .

وبعد ذلك كتاب الصداق ، وجواز التزويج على القليل والكثير ، واستحباب القصد فيه ، وبه عدة فصول . وبعده باب ما جاء في وليمة العروس والختان والدعوة لهما ، وباب ما جاء في استعمال الدف واللهو في النكاح وقدوم الغائب ، وباب البناء على النساء وما يكره لهن التزين به وما لا يكره في ليلة الدخول أو بعدها . وفيه فصل في آداب الجماع وما جاء في العزل ، وفصل في الاستمناء (ص ١١٣) .

كما ورد في بعض الأحاديث عن الرسول ﷺ وعن سيرة صحابته رضوان اللّه عليهم ما يدخل في باب التربية والتنشئة وإحسان الأدب (وهو مفيد لعلماء النفس المهتمين بالتربية ص ١١٦ – ١١٩) . ونهاية هذا الكتاب خاتمة في بيان نبذة من أخلاقه ﷺ خاصة مع نسائه رضي اللّه عنهن أجمعين .

وبعد ذلك يتحدث في كتاب الخلع ، ثم كتاب الطلاق (وقد وردت في ثناياه إشارات غير مباشرة عن الحب والكراهية والعلاقة بين المرأة و الرجل والحب والكراهيه

درست في علم النفس تحت باب الانفعالات في علم النفس العام ، كما اعتبرها بعض علماء النفس الاجتماعي من الأبعاد المفسرة للعلاقات بين الأفراد بالإضافة إلى بُعد السيطرة - الخضوع) .

ويلي كتاب الطلاق ، كتاب الإيلاء ، وكتاب الظهار ، وكتاب اللعان والقذف ، وكتاب العُدد ، وكتاب الرضاع وبيان الرضاعات المحرمة وما يثبت به الرضاع وبيان الرضاعات يفيد علماء النفس ويهمهم في ثنايا اهتمامهم بالمراحل الارتقائية وتقسم مراحل العمر (ص ١٦٠) .

ومن الموضوعات التي تحدث عنها المؤلف النفقات ، وبيان ما جاء في فضل الإنفاق على العيال والأولاد والأرقاء والبهائهم . ويليه باب الحضانة ومن أحق بكفالة الطفل (وينطبق عليه ما سبق أن ذكرناه آنفًا من أن له بعض التضمينات السيكولوجية لدى علماء النفس الارتقائي ص ١٦٧) . ومن بعد ذلك كتاب الجراح ، وبه فصل في حكم المجنون والسكران إذا قتل أحدًا (ونحن نرى هذه الأيام الاستعانة بخيرة علماء النفس والأطباء النفسيين في تحديد مدى مسؤولية الشخص المتهم بجريمة عن جريمته ، وهل ما به من مرض نفسي أم ادعاء ص ١٧٣) . وهناك في هذا الباب فصول عديدة متنوعة .

ويلي ذلك كتاب مهم من الناحية الإسلامية وهو كتاب الحدود وفيه أبواب وفصول ، عن الزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر (وقد قدمنا سالفًا وجه اهتمام علماء النفس بالخمور في دراساتهم ص ٢٠٢) . والسحر ، والحرابة ، وقطع الطريق ، وباب الإمامة العظمى والصبر على جور الأئمة ، وترك قتالهم ، والكف عن إقامة السيف (وفيه كلام عن خصال وصفات الأئمة وعلاقاتهم بالمحكومين وما بينهم من حب وبغض ، ولين وغضب) . وهو حديث يمكن أن نجد له مقابلاً في دراسات علم النفس الحديث سواء في علم النفس العام في باب الانفعالات أو في علم النفس الاجتماعي تحت باب القيادة ، أو فيما يسمى علم النفس التنظيمي (ص ٢١٠) .

ويلي كتاب الإمامة ، كتاب أحكام الردة عن الإسلام ، ثم كتاب السير وأحكام الجهاد وفيه عدة فصول ، وكتاب السبق والرمي وما يجوز المسابقة عليه بعوض ، وبه فصول عديدة ، ثم باب قسم الفيء والغنيمة ، وباب تحريم القمار واللعب بالنرد وغيره ، ويليه كتاب الإيمان ، وكتاب النذور ، وكتاب العتق وبه باب التدبير ، وباب الكتابة ، وباب أمهات الأولاد ، ثم كتاب الأقضية والشهادات .

وأخيرًا يأتي الحديث في باب جامع لجملة الأبواب النافعة في الدين ؛ وفيه فصل في وجوب بر الوالدين وصلتهما ، وفصل في عقوق الوالدين ، وفصل في صلة الرحم (وكلها أبواب تتعلق بالتفاعل الاجتماعي و تنظيمه وشروطه ، وهي من هذه الناحية يمكن أن تقابل بعض اهتمامات علماء النفس الاجتماعي وديناميات الجماعة) . وكذلك فصل فيما جاء في عورات المسلمين ، وفصل فيما جاء في تأكيد الجار ، وفصل فيما جاء في قضاء حوائج المسلمين (وهو يشبه ما سبق أن ذكرناه عن سلوك المساعدة ، أو عن الإيثار وهما من الموضوعات الحديثة لعلم النفس الاجتماعي ص٣١٣ - ٣١٥) ويلي ذلك فصل في الإصلاح بين الناس ، وفصل في زيادة الإخوان الصالحين (ويمكن أن نجد لذلك مقابلًا في موضوع الصداقة Friendship وهو أيضًا من موضوعات علم النفس الاجتماعي ص ٣١٩) ويلي ذلك فصل في الاستئذان وآدابه ، وفصل في الأمر بالسلام ، وفصل في آداب المجالسة والمجلس ، وفصل في الاحترام والتوقير والعطاس وفيه فرع في التحابب والتواد (وله صلة بما تدرس في باب الانفعالات في علم النفس العام ص ٣٣٤) . وفصل في الشفاعة والتعاضد ، وفصل في ذم ذي الوجهين ، وفصل في عيادة المريض ، وفصل في التهاجر والتشاحن ، وفصل في تحريم احتقار الناس ، وفصل في إماطة الأذى عن طريق المسلمين ، وفصل في تحريم الحسد ، وفصل في الأمر بالتواضع ، وفصل في فضل الأخذ بيد الأعمى ، وفصل في الإنفاق في وجوه الخير ، وفصل في الترغيب في إطعام الطعام ، وفصل في شكر المعروف وإن قل ، وفصل في جملة من مواعظة . ولما كانت هذه الفصول تدور حول تنظيم العلاقة بين الناس ورعاية شؤون حياتهم الدنيوية ، وسلوكياتهم اليومية ، كان لها علاقة بدراسات علم النفس وإن كانت مباشرة .

وبقية فصول هذا الكتاب (أعني كتاب الأبواب النافعة في الدين) تتعلق بالآخرة والقبر والساعة والحساب والجنة والنار .

* * *

الطبقات الكبرى [1]

عرض : د . محمد أحمد شلبي

عرض الكتاب :

يتكون الكتاب من جزأين ، **الأول** في ١٧٧ صفحة ، **والثاني** في ١٧٣ صفحة ، ويذكر الشعراني أن هدف الكتاب هو تلخيص لحياة وسير المتصوفين الذين يقتدى بهم من بداية الدعوة وحتى بداية القرن العاشر الهجري .

ويدافع الشعراني عن عقيدة الصوفية لمن يتوهم أنهم رفضوا شيئًا من الشريعة الإسلامية .

ويوثق الشعراني كتابه متبعًا منهج علماء الحديث ؛ فيقول : سلكت في هذه الطبقات نحو مسلك المحدِّثين ؛ وهو أن ما كان من الحكايات والأقوال في الكتب المسندة كرسالة القشيري ، والحلية لأبي نعيم ، وصرح صاحبه بصحة سنده أذكره بصيغة الجزم ؛ وكذلك ما ذكره بعض المشايخ المكملين في سياق الاستدلال على أحكام الطريق أذكره بصيغة الجزم ؛ لأن استدلاله به دليل على صحة سنده عنده ، وما خلا عن هاتين الطريقتين فاذكره بصيغة التمريض كيحكى ويروى ، ثم لا يخفى أن حكم ما في كتب القوم كعوارف المعارف ونحوه حكم صحيح السند ؛ فأذكره بصيغة الجزم كما يقول العلماء قال في شرح المهذب كذا ، قال في شرح الروضة كذا ونحو ذلك (انظر ١/٣) وأحيانًا يذكر النصوص كما هي (انظر ١/١٠) .

---

(١) القاهرة : مكتبة محمد علي صبيح وأولاده ، (د . ت) ٢ ج في ١ مج (٢٥ ص) - مع : الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية .

ويذكر الشعراني في مقدمته (ص ٤ - ١٥) أن طريق المتصوفة مشيدة بالكتاب والسنة ؛ وأنها غير مذمومة إلَّا إذا خالفت صريح القرآن أو السنة أو الإجماع لا غير ، وأما إذا لم تخالف ؛ فغاية الكلام أنه فهم أوتيه رجل مسلم فمن شاء فليعمل به ، ومن شاء تركه (١/٤) .

ويذكر أن الصوفية إنما تأخذ علمها من طريق الإلهام الصحيح كما أخذ الخضر عليه السلام ، فلا علم إلَّا ما كان من كشف وشهود لا عن نظر وفكر وظن وتخمين ، وكان الشيخ البسطامي يقول لعلماء عصره أخذتم علمكم من علماء الرسوم ميتًا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت (١/٤) .

وينتقد الشعراني تعصب ابن تيمية ضد الصوفية وإنكاره لمذهبهم « فاحذر يا أخي ممن كان هذا وصفه وفر من مجالسه فرارك من السبع الضاري » (١/٦) .

ويشير إلى المجاهدات والمصاعب التي يواجهها المتصوفة من المشايخ التقليديين والحكام ؛ من أمثال : ذي النون المصري ، وسحنون ، والبسطامي ، وعبد اللّه بن حمزة ، والحلاج ، والغزالي ، وأبو الحسن الشاذلي ، وأحمد الرفاعي (١ / ١٣ - ١٥) .

ويسرد الشعراني بعد ذلك سير وأخبار المتصوفة بدءًا بالخلفاء الراشدين وصحابة الرسول ؛ مثل أبي بكر الصديق (ص ١٥) ، وعمر (ص ١٦) ، وعثمان وعلي (ص ١٧) ، والحسين والحسن (ص ٢٢) ، والأئمة الأربعة الشافعي وأنس والنعمان وابن حنبل (ص ٤٣ - ٤٧) ، والجنيد (ص ٧٢) ، وعبد القادر الجيلي (ص ١٠٨) ، والسهروردي (ص ١٢٠) ، وأحمد الرفاعي (ص ١٢١) ، وعبد الرحيم القناوي (ص ١٣٥) ، وأبو الحجاج الأقصري (ص ١٣٦) ، وأبو الحسن السكندري (ص ١٣٩) ، وإبراهيم الدسوقي (ص ١٤٣) ، وأحمد البدوي (ص ١٥٨) ، ومحيي الدين بن عربي (ص ١٦٣) ، وعبد الجبار النفري (ص ١٧٥) .

ويصنف الشعراني بعض المضطربين عقليًا وانفعاليًا ضمن تصنيفات فيذكر (١ / ٥٨) عن أخبار سعدون المجنون وبهلول المجنون ، فقد كان سعدون يجن ستة أشهر ويفيق ستة أشهر ، وكان إذا هاج صعد السقف ونادى بالليل بصوت رفيع : يا نيام انتبهوا من رقدة الغفلة قبل انقطاع المهلة .

ويسرد الشعراني في **الجزء الثاني** : لكثير من أصحاب الطريق ؛ مثل : الشاذلي (ص ٤) ، وأبي العباس المرسي (ص ١٢) ، وياقوت العرشي (ص ١٨) ، وابن عطاء

السكندري (ص ١٩) ، ومحمد الفرغل (٢ / ٩٥) .

وأهم ما يميز الجزء الثاني هو الاضطراب الفكري وعدم القدرة على التمييز بين المتصوفة والمضطربين عقليًا أو انفعاليًا . ويبدو ذلك في كثرة من اتصفوا بالجنون ؛ من أمثال : بهاء الدين المجذوب (ص ١٢٤) ، وحبيب وفرح المجذوب وإبراهيم المجذوب (ص ١٢٨) وعبد الرحمن (ص ١٢٧) ، وأحمد المجذوب (ص ١٢٨) ، ومسعود المجذوب (ص ١٣٠) ، والشريف الأميري (ص ١٣٥) ، وشعبان (ص ١٦٧) ، وعبد العال وخليل (ص ١٦٨) ، وعامر وعمر (١٦٩/٢) .

كما عرض لبعض كراماتهم التي تتعلق بالجنس ، وبعضها يتعلق باللواط (ص ٧٧ ، ٧٨) .

كما كان بعضهم يظهر الاضطراب وإن لم ينسب لاسم ؛ مثل الشيخ محمد الخضري كان يتكلم بالغرائب والعجائب من دقائق العلوم والمعارف ما دام صاحيًا فإذا قوي عليه الحال تكلم بألفاظ لا يطيق أحد سماعها في حق الأنبياء وغيرهم ، وقد صعد المنبر يوم جمعة للخطبة وحمد اللّٰه وأثنى عليه ، ثم قال : وأشهد لا إله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام ، فقال الناس : كفر ، فسل السيف ونزل فهرب الناس ، وجلس عند المنبر إلى أذان العصر (٩٧/٢) ، كان السلطان قايتباي إذا رآه قاصدًا له تحول ودخل البيت خوفًا من أن يبطش به في حضرة الناس ، وكان إذا أمسك أحدًا يمسكه من لحيته ويصير يبصق في وجهه ويصفعه .

والشيخ عبد الرحمن المجذوب كان يتكلم ثلاثة أشهر ويسكت ثلاثة أشهر ، ثم يتكلم بالسرياني (١٢٨/٢) .

والشيخ حبيب المجذوب كان حية رقطاء خلقه اللّٰه أذى صرفًا وليس له كرامة إلّا في أذى الناس (١٢٨/٢) .

والشيخ فرج كان يدفن النقود بجوار الحائط ويذهب ، فيأخذها الناس (١٢٨/٢) .

والشيخ إبراهيم كان يعطي كل فلوسه للمطبلين ويقول : طبلوا لي زمروا لي ... وكان كل قميص لبسه يخيطه ويخرقه على رقبته فإن ضيقه جدًّا حصل للناس شدة عظيمة (ص ١٢٨) . والشيخ إبراهيم أبو لحاف كان من أوسع الناس خلقًا لا يكاد أحد قط يغضبه ولو فعل معه ما فعل (ص ١٣٤) .

والشيخ علي وحسين من مجاذيب النحارية ، ويذكر الشعراني أنه اجتمع به في خط

« بين القصرين » ، ويقول عنه : « كان إذا رأى شيخ بلد أو غيره ينزله من على الحمارة ، ويقول له : امسك رأسها لي حتى أفعل فيها ... وكانت له أفعال غريبة » .

ويذكر الشعراني أن الشيخ محمد بن عنان قال له تعقيبًا على ذلك : إن هؤلاء يخيلون للناس هذه الأفعال وليس لها حقيقة (١٣٥/٢) .

والشيخ شعبان كان يقرأ سورًا غير السور التي في القرآن على كراسي المساجد يوم الجمعة وغيرها فلا ينكر عليه أحد ، وكان العامي يظن أنها من القرآن لشبهها بالآيات في الفواصل ... وكان يرضى اللّه عنه عريانًا يغطي قبله ودبره فقط .

ويذكر الشعراني عن الشيخ على الخواص البرلسي أن له طبًّا غريبًا يداوي به الأمراض وكان يقول : يجب على الفقير أن يذكر لشيخه أمراضه الباطنة وإن كانت قبيحة ليدله على طريق شفائها منها ، وإن لم يفعل وترك ذلك حياء طبع ، فربما مات بدائه ؛ لأن حياء الطبع مذموم ؛ لأن الإفصاح عن المرض فيه زوال رياستها (١٣٩/٢) .

* * *

الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية [1]

عرض الرسالة :

يقسم الشعراني رسالته إلى ثلاث أبواب وخاتمة :

الأول : في آداب العبودية على الإطلاق .

الثاني : في آداب العلم النافع .

الثالث : في آداب الفقراء والمساكين .

الخاتمة : في بيان جملة من المقامات الساقطة عند العبيد الخلص .

يبدأ الباب الأول من هامش (ص ١٥ - ٤٣) ، والثاني من هامش (ص ٤٤ - ١١٩) ، والثالث من ص١١٩ (الجزء الأول) إلى ص ٦٧ (الجزء الثاني) ، والخاتمة (ص ٧٩ : ١٧١) .

يعرض الشعراني في **الباب الأول** لآداب العبودية ؛ فالعبودية امتثال الأمر واجتناب النهي إجلالًا للَّه تعالى لا طمعًا في شيء ، هذا هو اللائق بالأدب ؛ لأن العبد إنما يعمل لنفسه فكيف يطلب أجرًا على ما عمله لها (هامش ص ١٧) .

قال بعض العارفين نهاية الفقيه مبدأ الفقير ؛ لأن أعلى أحوال الفقيه أن يخلص في علمه وعمله للَّه تعالى ، ويشهد إخلاصه ولا يطلب عليه ثوابًا لا يذوق غير هذا ، وهذا أول دخول المريد في الطريق ، ثم يترقى إلى مقامات وأحوال بحسب حظه ونصيبه (٢٢/١) .

---

(١) القاهرة : مكتبة محمد علي صبيح ، [د . ت] . (٢٥ ص) .

ومن شأن العبد أن يرى عبادته وطاعته ناقصة لولا عفو اللَّه (ص ٣٢ ، ٣٣) .

ويعرض الشعراني في **الباب الثاني** لشأن طالب العلم وأن عليه أن ينظف باطنه من الخصال المهلكة ؛ كالكبر والحرص ، ودعوى العلم ، ومحبة الدنيا ؛ لأن أهل البر والمساعدة قد انقرضوا فلا أقل من رفع الهمة عن الطمع فيما يأيدي الخلق البخلاء ، فمن طمع في دنيا تصيبه من أجل علمه فقد طمع وباع دينه بلا شيء (٤٤/١) .

ويناقش الاختلافات بين الفقيه والولي : « واعلم أن الفقراء ثابتون على قواعد الشريعة ؛ وإنما أنكر ذلك القاصر من الفقهاء على القاصر من الفقراء ، وأما الكاملون في كل طريق واحد » (٤٧/١) .

ويذكر الشعراني أن التكلم على حصر مراد الغير في معنًى واحد غالبه خطأ قطعًا ؛ إذ لا يتحد اثنان في ذوق واحد ومرتبة لوضع الطرق ؛ لأنها بعدد أنفس الخلائق ، فكل صاحب نفس له طريق تخصه (٨٧/١) .

ويذكر الشعراني في **الباب الثالث** أدب الفقراء والمشايخ من السلف الصالح عن كثرة المدعين في زمانه (العاشر الهجري) وأن الولاية مرتبة عظيمة حتى إن من جملتها أن يعرف ولايته أهل السموات والأرض والحيوان والنبات ويحبه الخلق أجمعون (١٢٠/١) .

وظهور الكرامات ليس شرطًا للولاية (١٤٥/١) .

كما يحذر المتصوف من التعريض بحاجته للمال في حضرة الأغنياء ، وعلى المتصوف أن يحصل على المال من الأغنياء لمساعدة الفقراء ومعاونة الآخرين (١٢/٢) .

وعلى المريد أن يتأمل أحوال العارفين الغالب عليهم البكاء والخوف ، فقد قال أبو بكر ﷺ : ليتني كنت طائرًا أو تبنة ، وقال عمر ﷺ : يا ليت أمي لم تلدني ، وقالت عائشة ﵂ : يا ليتني كنت نسيًا منسيًا (٢٥/٢) .

ويذكر الشعراني (٦٧/٢) أن إحالته الكلام في هذا الباب لعلمه أن جميع الدعاوى الفاضحة والدسائس تطرق أهل هذه الطريقة ولذلك فقد وضع أسس العبودية .

ويعرض في خاتمة رسالته عن مقامات السالكين ، وأن الطريق إلى اللَّه أقرب من باب العبودية ؛ لأنه محض ذل وخضوع وإن حصل الاعتزاز والتكبر فهو على خلاف الأصل (ص ٨٢) .

وأن على المتصوف أن يعرف محدودية قدراته ، واعْلَمْ أنه لم يسلم أحد من التفكير

في ذات الله ، وأن التفكير هو وسيلة واحدة من عدة وسائل للوصول إلى معرفة الخالق (ص ٩٧ - ١٠٠) .

وبالكتاب إشارات نفسية عديدة : -

يشير الشعراني في كتابه « **الأنوار القدسية** » إلى تمايز الرتب ، وأن الله تعالى قال : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] ، ويذكر أن الفقيه إذا لم يكن له إلمام بطرق القوم وملاحظهم واصطلاحهم ومؤاخذتهم فهو جاف (١/ ٤١) .

ويذكر الشعراني في كتاب « الأنوار القدسية » ، (٢/ ٣٨) أن الأرواح جنود مجندة ؛ فالمقوت لا يجتمع إلا بالمقوت ، والمحبوب لا يجتمع إلا بالمحبوب فلا يجتمع اثنان قط على صحبة إلَّا وبينهما رابطة المشاكلة في الباطن ، ويكّاد يتطابق ذلك القول مع نظرية « التوازن المعرفي » والتي تتضمن بعض الافتراضات التي تمثل حالات التلاقي بين الأفراد ؛ فعندما يتشابه الشخص (أ مع ب) فإنه يميل لأن يحبه ، وإذا لم يتشابها فإنه يميل لكراهيته ، ولا يقتصر ذلك على التشابه في اللون أوالأفكار أو الطول أو المزاج ؛ إنما يتضمن أيضًا مجالات الاتصال والألفة والملكية والمعتقدات والنفع .

ويذكر الشعراني في كتاب « الطبقات الكبرى » ، (١/ ٣٨) أن النفس المذمومة روح حياتها النفس الشهوانية التي هي مظهر الروح الحيواني ، وهو عرض لجانب واحد من أنواع النفوس ، وهي هنا أقرب إلى مفهوم الهو والغريزة كما وردتا في نظرية التحليل النفس « لفرويد » .

ويذكر « الشعراني » في كتابه « الأنوار القدسية » ، (٢/ ٤٠) أن الشيخ أحمد الرفاعي ﷺ كان يقول لتلاميذه : « كونوا دائمًا ذَنَبًا ولا تكونوا رأسًا فإن الضربة أول ما تقع في الرأس ، فكم طيرت طقطقة النعال حول الرجال من رأس وأذهبت من دين » وهذه إشارة إلى المريدين لتنمية دافعي الانقياد Defence وتجنب الأذى Harm Avoidance .

يفرق الشيخ الشعراني بين أحوال الخلق ، (٢/ ٤٩ ، ٥٠) فالناس أهويتهم شتى ؛ فواحد هواه عذبته ، وواحد هواه تركها إيهامًا للخلق أنه يكره الشهوة ؛ فهو في حظ نفسه لم يبرح ، وواحد هواه جبته البيضاء النقية ، وواحد هواه تركها ، وليس الجبة الدنسة ، وواحد هواه الجلوس على السجادة في حلقة حزبه ووِرده ويشق عليه تركها ،

وواحد هواه تركها ، وواحد هواه إطراق الرأس والعزلة ويشق عليه تركهما ، وواحد هواه تركهما ، وواحد هواه حلقة الذكر واجتماع الناس عنده ، والتواضع له ، واتخاذه صنمًا يتمسح به ، وواحد هواه ترك ذلك .... إلخ .

* * *

الكبريت الأحمر
في بيان علوم الشيخ الأكبر [1]

عرض : د . طريف شوقي

عرض الكتاب :

يقع هذا الكتاب في ٣٧٦ صفحة من القطع الكبير ، وبهامشه كتاب الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر ، والكتاب من جزأين الأول عدد صفحاته ١٦٨ صفحة ، والثاني ٢٠٤ صفحة بالإضافة إلى فهرس الموضوعات .

يقول الشعراني عن هذا الكتاب : هذا الكتاب نفيس انتخبته من كتابي المسمى « لواقح الأنوار القدسية » الذي كنت اختصرته من الفتوحات المكية ، قد اشتمل على علوم وأسرار ومعارف لا يكاد يخطر على قلب الناظر فيه قبل رؤيتها فيه ، (ص ٢) ، واعلم يا أخي أنني قد طالعت من كتب القوم ما لا أحصيه وما وجدت كتابًا أجمع لكلام أهل الطريق من كتاب الفتوحات المكية لا سيما ما تكلم فيه عن أسرار الشريعة وبيان منازع المجتهدين التي استنبطوا منها أقوالهم ، فإن نظر فيه مجتهد في الشريعة ازداد علمًا إلى علمه واطلع على أسرار في وجوه الاستنباط وعلى تعليلات صحيحة لم تكن عنده ، وكان مصدره في ذلك الإلهام والكشف والفتح الذي يجريه اللّٰه على بصيرته (ص ٣) .

ثم يبدأ الشعراني في سرد بعض تفسيرات الشيخ ابن عربي لبعض آيات الكتاب مثل تفسير الآية الكريمة : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] ، أي : تفصيل ما أجمل من

---

(١) القاهرة : مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي (١٩٥٩ م) ، ٢مج . اسم الكتاب : اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر .

المعاني في التوحيد والأحكام لا زدني أحكامًا كما توهمه بعضهم (ص ٦) ، وينقل كلامًا له عن ترتيب خلق الموجودات ، وعن خلق الجن ، وآدم ، وبعض المحاولات الاحتمالية لتحديد تاريخ بناء الأهرام بناءً على بعض الحسابات المتاحة لديه (ص ٧ - ١٠) .

وعن أخطاء العقل وكيف أدت إلى وقوع بعض الفلاسفة في المزالق يقول : ما دخل التلبيس على السوفسطائية إلَّا من تشكيك إبليس لهم في الحواس وإدخال الخلط عليهم وهي التي يستند إليها أهل النظر في صحة أدلتهم ، وأما نحن فقد حفظنا اللَّه من ذلك فلم نجعل للحس غلطًا جملة واحدة ؛ وإنما الحاكم على الحس هو الذي يغلط كصاحب المرة الصفراء يجد طعم العسل مرًّا وليس هو بمُر في نفسه بدليل ذوق غيره للعسل ووجدانه الحلاوة ، ولو أن صاحب المرة أصاب لعرف العلة فلم يحكم على السكر بالمرارة وعرف أن الحس الذي هو الشاهد مصيب على كل حال وأن القاضي على الحس يخطئ ويصيب (ص١١ ، ١٢) وهو كلام قيم في مجال مناهج البحث في العلم ، ونخال ابن عربي يفرق فيه بين الوقائع والتفسيرات وكيف أن الخلط في الوصول إلى النتائج يعزي إلى خلل في عملية التفسير وليس في شأن الوقائع ذاتها .

وفي الآية القائلة : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [آل عمران : ١٣] ، يقول : هو من العبور لا من الاعتبار فمعنى الآية لا تقفوا على ظاهر الصور بل اعتبروا من ظاهر تلك الصورة إلى باطنها المراد منها كما أن الذي يراه الإنسان في حال نومه ما هو مراد لنفسه وإنما هو مراد لغيره (المعنى الرمزي للحلم) فيعبر من تلك الصورة المرئية في حال إلى معناها المراد بها في عالم اليقظة إذا استيقظ من نومه (ص ١٦) .

وينتقل للحديث عن السحر وقصة إيمان سحرة فرعون (ص ١٨ - ٢٠) وعن أدب تلاوة القرآن وتدبر معانيه وتمثلها والعيش في رحابها ، ويشرح حديث : « استفت قلبك » شرحًا نفهم منه دور كل من مفهوم التقويم الذاتي ، والتوجيه الذاتي (ص ٢١ - ٢٣) . وهما كما نعلم من المفاهيم الأساسية التي تركن إليها العملية التعليمية الحديثة وتعد من أبرز أهدافها .

ويفسر قوله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] ، على نحو يميط الغموض عن ذلك التراث العريض من إساءة وتفسير ذلك النص عبر عصور الاستبداد السياسي والجدب الفكري ، ويلقي ببعض تأملاته حول بدء سور القرآن بالبسملة (ص ٢٣ - ٢٦) .

ويشير إلى وسائل السلوك في طريق أهل التصوف وهي : الجوع ، والسهر ، والصمت ، والعزلة ، والصدق ، والصبر ، والتوكل ، والعزيمة ، واليقين (ص ٢٧ ، ٢٨) . وترتبط وسائل السلوك هذه بموضوع ضبط النفس ، والسيطرة على أهوائها وتوازنها كما ترتبط أيضًا بموضوع تعديل السلوك .

ويتطرق إلى تعريف مفهوم الزمان وكيف أنه نسبي بقوله : وقد اختلف الناس في معقول لفظة الزمان ومدلولها فأكثر الحكماء على أنه مدة متوهمة تقطعها حركات الأفلاك ، والمتكلمون على أنه مقارنة حادث يسأل عنه بمتى ، والعرب يريدون الليل والنهار (ص ٣٠) ، ويتحدث عن الورع والزهد والفرق بينهما وعن المدلول الزمزي لبعض الطقوس العبادية مثل رمي الجمرات ، والاستنشاق بالماء في الأنف في الوضوء ، ومسح الرأس (ص ٣١ - ٣٤) .

ويورد إشارة إلى ضرورة استعمال العقل في دفع الخواطر غير المنطقية بقوله : وإذا وقع في القلب خاطر غريب يقدح في الشرع وجب على الإنسان أن يجرد النظر في ذلك بالعقل ودون الاستدلال بالشرع (ص ٣٥) ، ويرتبط ذلك بموضوع علاج الوساوس .

ويعود للحديث عن علل بعض الشعائر ؛ مثل : التيمم ، وحجاب المرأة في الصلاة ، والنية ، ومعنى قوله : اللّٰه أكبر ، واستجماع الجوارح كلها في الصلاة (ص ٣٦ - ٤٨) ، وبعض أسرار فاتحة الكتاب ، وفضل صلاة الجمعة ، وفضل العالم على الجاهل ، وقضاء الفوائت ، وجبر السهو في الصلاة بالسجود (ص ٤٩ - ٧١) . وكيف أن المسجد بيت كل تقي ، وعن الفرق بين الميت والشهيد ، وما يترتب على ذلك من اختلافات في بعض الأحكام الخاصة بكل منهما ، ويذكر بعض اجتهاداته في عدد من الأحكام كالصلاة على المنتحر ، وتفضيل الوالي على الوالي في الصلاة على الميت (ص ٧٢ - ٨٢) وعن بعض أسرار فريضة الزكاة ، ويذكر مقولة تبرز التعليم والحث على نشر العلم وبذله من قبل المتعلمين لطالبي العلم حين يقول : إن زكاة العلم تعليمه فمن جاءه طالب صادق متعطش فسأله عن مسأله هو بها جاهل وجب عليه تعليمه كوجوب الزكاة بكمال الحول والنصاب (ص ٨٧) .

ويتحدث عن أسرار الصوم ، ثواب ومقامات الصائمين وعن آداب الخلوة ، وأسرار الحج وعلة بعض أحكامه (ص ٨٨ - ١٠٣) وعن منزلة حامل العلم اللدني ، وعن شرائط الولاية (ص ١٠٤ - ١٠٨) .

ويرتبط كلامه عن أسرار الصوم وآداب الخلوة ببعض الأساليب الدينية لتعديل

السلوك والتربية الشخصية ، ويرتبط كلامه عن العلم اللدني بموضوع مصدر المعرفة الإنسانية ، وأنه ليس مصدرها الحواس فقط ، وإنما هناك مصدر آخر مهم للمعرفة الإنسانية هو الإلهام الإلهي والوحي وهو موضوع يغفله علم النفس الحديث .

وينتقل للحديث عن مفهوم شائع في علم النفس العام وهو الخداع الإدراكي حين يقول : واعلم أن البياض على نوعين أحدهما يكون نوعًا في ظاهر العين فقط كسواد الجبال البيض على البعد ، فإذا جئتها رأيتها بيضاء وقد كنت تحكم عليها بالسواد غلطًا ، وبهذه المثابة أيضًا زرقة السماء إنما هو نظر العين وإن كانت في نفسها على لون مخالف لون الزرقة (ص ١٠٨) ، ويشير إلى التفاضل بين الشهور القمرية ، والفرق بين الإرادة والشهوة ، والقناعة والفتنة (ص ١١٠ - ١١٤) ، والفراسة وأنواعها (ص ١١٧) . يكمن أهمية مفهوم الفراسة في أنه يمكن أن يشكل أحد المحددات المهمة في تكوين الانطباع الأولي First Impression عن الشخص الآخر والذي يواجه سلوك الفرد حياله فيما بعد .

ويرتبط كلامه عن الإرادة والشهود بمفهوم الدافعية ، ويهيب بالوعاظ أن يتجنبوا الاعتماد على الإسرائيليات في تفسير بعض آيات القرآن لما تؤدي إليه من بلبلة في عقول العامة ، وما تزود به في قلبه من حجج للطعن على أنبياء اللّٰه واستمرار الإقامة على المعصية ، ويشير إلى ضرورة وعظ النفس قبل وعظ الناس (ص ١١٧ - ١٢٥) .

ويذكر طرفًا من كرامات الأولياء سواء كانت حسية للعامة أو معنوية للخاصة ؛ مثل :

الكلام على الخاطر (التخاطر Telepathy) والإخبار بالمغيبات الماضية والكائنة (ص ١٢٧) ، وهي ظواهر تدخل ضمن اهتمام أحد الفروع المستحدثة في علم النفس وهو ما وراء علم النفس .

ويطرح بعض تفسيرات لظواهر كونية ؛ مثل : السحاب ، والمطر ، والبرق ، والرعد ، والصواعق ، والرياح ، وبخار الماء ، ودورة العناصر الطبيعية في الكون (ص ١٣٣ - ١٤٢) ، ويتحدث عن الندم ، والعلم والشريعة والحقيقة ، ومفهوم الأحدية ، وعلة تشريع الطلاق (ص ١٤٣ - ١٦٢) . ويختتم الجزء الأول بمقولة عن الشكوى للآخرين ودورها في التفريغ الانفعالي للفرد وتخففه من التوتر ، لا حرج على المريض شكواه لأخيه ما به من المرض كما يستعين بأخيه ، وإذا تفرد الإنسان بهمه عظم عليه (المشاركة الوجدانية) وإذا وجد من يقاسمه فيه ولو بالتوجع خف عليه التألم واستراح (ص ١٦٢) .

الجزء الثاني :

ويفسر في بدايته بعض الظواهر الكونية حيث يشير إلى أن القمر ليس مضيئًا وإنما هو يعكس آشعة الشمس الساقطة عليه ؛ فالقمر مجلي الشمس وليس فيه من نورها شيء (ص ٤) ، ويتحدث عن الصدقة ، ومقام الخلفاء الراشدين ، وعن الزهد ، وعن مراتب رجال اللّٰه وهم : عباد وصوفية ، وملامتية وهم أعلاهم رتبة (ص ١٢ ، ١٣) ، وعن قوة الإنسان وقوة الملك ، والفرق بين النوم والموت حيث يقول :

إن الموت إعراض الروح عن الجسم بالكلية فتزول بذلك جميع القوى ، وأما النوم فليس بإعراض بالكلية عن الجسم إنما هو حجب أبخرة تحول بين القوى (العمليات العقلية الإرادية العليا) وبين مدركاتها الحسية (أي يكون هناك إحساس دون إدراك) وموضوع النوم يبحثه علم النفس الفسيولوجي الحديث ، وعلامات معرفة الشيطان وكيفية الاحتراس منه ، وعن فضل القرآن ، والتفرقة بين القضاء والقدر ، وعن الهوى ، وعن أن العسل فيه شفاء للناس (ص ١٨ - ٣١) ، وعن الفرق بين ما ومن (ص ٣٢ ، ٣٣) . وكيف أن القوى الروحانية (الخيال ، والفكر ، والحفظ ، والتصوير ، والوهم) مفتقرة إلى الحواس والتي تأتيها بالإحساسات ، فهي التي تهب القوى الروحانية ما تصرف فيه وبه تكون حياتها (ص ٣٤) .

ويرتبط هذا الكلام بموضوع العمليات العقلية المعرفية وعن أدب العارف مع ربه : وبعض مشاهدته ومكاشافاته مع ربه ، وعن الرؤية وبعض أحوال الجنة والنار ، وعن العلم اللدني والعلم العقلي (ص٣٥ ، ٣٦) وعن النذر ، والنفل ، وظاهرة التوحم عند المرأة الحامل (ص ٦٧ - ٧٥) ، وعن العلم والعمل ، والعبادة والكشف ، والصبر عند الابتلاء ، وحسن الظن بالناس ، والتماس الأعذار لهم ، والعفو (ص ٧٦ - ٨٧) .

ويرتبط موضوع الرؤية بمفهوم الأحلام كما يرتبط موضوع العلم اللدني والعلم العقلي بمصدري المعرفة الإنسانية : الحواس والإلهام الإلهي ، ويرتبط موضوع حسن الظن بالناس والتماس الأعذار لهم والعفو بموضوع التفاعل الاجتماعي في علم النفس الاجتماعي .

وعن العلم والفهم والمعرفة والعلاقات بينهما (ص ٨٨ - ٩٢) . وعن السكينة ، وبعض آداب العلاقة بين الشيخ والمريد ، وكيف أن الإسلام عمل والإيمان تصديق والإحسان رؤية أو كالرؤية ؛ فشرط الإسلام الانقياد ، وشرط الإيمان الاعتقاد وشرط الإحسان الإشهاد (ص١٠٠) ، وكيف أن مقامات الصوفية ليست بالوراثة ، وكيف أن عبادة الفرض عبادة

اضطرار وعبادة النفل عبادة اختيار (ص ١٠٤) ، وعن بعض أحوال المسيح عليه السلام .

وعن الصدقة الجارية ، والصمت والمعصية وجزاء مدعي الألوهية (ص ١٠٥ – ١١٦) ، وبعض قضايا التوحيد كالتنزيه والتشبيه والعلة والمعلول ، وعلوم النظر وعلوم الإلهام ، والاعتدال ، ومقامات الموحدين (ص ١١٧ – ١٣٠) ، وعن الفرق بين السلطان والقرآن ، وعن الشوق إلى اللّه ، والرد على القائلين بالاتحاد والحلول (ص ١٣١ – ١٤٨) ، والعلاقة بين العقل والتكليف ، وكيف أن اللّه أدب الأمة بتأديب رسولها ؛ لأن من علم الخبير تأديب الصغير بالكبير (ص ١٥) وأنه على قدر دعوى الإيمان يكون الامتحان (ص ٢٥٦) .

وعن المشاورة ، والقياس ، والتأويل ، وعن المقربين وقيمهم بقول : خزائن اللّه تعالى صدور المقربين ، وأبواب تلك الخزائن ألسنتهم ، فإذا نطقوا أغنوا السامعين إن كانت أعين أفهامهم غير مطموسة (ص ١٦٣) ، وإن مرتبتك عند اللّه في التعظيم على قدر تعظيمه في قلبك وحياتك منه (ص ١٧١) ، وإن ضعف الجماعة في افتراقها . وماهية علامات معرفة مكانة العبد عند ربه ، وضرورة استواء السر والعلانية لدى العارف والبُعد عن الاغترار بالمكانة من اللّه فإنها ماحقة للعمل ، وتعريف الشرك الخفي (ص ١٧٢ – ٨١٤) ، وضرورة ترك الجدال ، وفضل الذكر في إحياء موات القلوب ، وبعض أوجه قصور العقل في عملية الاستدلال (ص ١٨٤ – ١٨٦) . ويختتم الكتاب بذكر جملة من أحوال يوم القيامة ، والبعث والنشور ، والحساب ، والمآل ، سواء كان في درجة من درجات الجنة أو درك من دركات النار ، وأن عباد اللّه يطمعون في كل الحالات أن يحاسبهم اللّه برحمته لا بعدله لنيل درجة القربى .

وقد وردت في ثنايا الكتاب بعض إشارات لعدد من المفاهيم النفسية والعلمية مثل : مناهج البحث في العلم ، والوقائع ، والتفسير ، والمعنى الرمزي لمحتوى الحلم ، والتقويم الذاتي ، والتوجيه الذاتي ، وبعض العوامل المسهمة في تكوين الانطباعات كالفراسة ، والخداع الإدراكي ، والتخاطر وما وراء علم النفس ، والمشاركة الوجدانية ، وضبط النفس ، وتعديل السلوك ، والوساوس ، والدافعية ، وفسيولوجية النوم ، والعمليات العقلية ، والتفاعل الاجتماعي .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في علم النفس الإكلينيكي والإرشاد النفسي .

العلموي (ت ٩٨١ هـ)
المعيد في أدب المفيد والمستفيد [1]

عرض : د . محمد نجيب الصبوة

التعريف بالمؤلف :

« عبد الباسط العلموي » وهو عبد الباسط بن موسى بن محمد العلموي ولد بدمشق سنة (٩٠٧هـ - ١٥٧٣م) كان أبوه خطيب جامع الحاجب ، « وسوق ساروقة » دمشق خطب عبد الباسط في الجامع في الرابعة عشرة من عمره وترك دمشق إلى القرعون ، ثم رجع إلى بلده الأصلي وتولى رئاسة المؤذنين في جامع دمشق الأموي سنة (٩٣٨هـ) وكان يعظ فيه في مناسبات دينية ، فهو فقيه دمشق الأكبر ، وواعظ ذو شهرة وقدرات ، ومن المعروف حتى اليوم أنه لم يدرس بعد ، وبحسب قول أحمد عبيد فإنه وضع مختصرًا لكتاب تنبيه الطالب وإرشاد الدارس لأحوال مواضع الفائدة في دمشق ، وله كتاب « المعيد في آداب المستفيد » الذي نحن بصدده .

ويقول الناشر عبيد : إنه رأى تعليقات وجيزة بخط العلموي على مختصر طبقات الحنابلة الذي اختصره الشمس الشمس النابلسي وكتب في آخره ما يدل على أنه لخص هذا المختصر أيضًا كما له تعليقات أخرى على ذيل طبقات الحنابلة للحافظ بن رجب ، ليس له مؤلفات معروفة ولا كثيرة ...

أما كتابه المعيد فهو تلخيص بحت ، وعن طريقه يمكن معرفة قدر صاحب الكتاب الموسع الذي يحمل اسم : « الدر النضيد للبدر الغزي » .

---

(١) ط١ ، بيروت : دار اقرأ (١٩٨٦م) ، (٢٠٠ ص) . مع : الفكر التربوي عند العلموي ، شفيق محمد زيعور .

عرض الكتاب :

هذا الكتاب « المعيد في أدب المفيد والمستفيد » يقع في ١٩٥ صفحة مكتوبًا على مسافة واحدة ، ينقسم إلى ٨ أجزاء كعادة كتب التراث التي كتبها المسلمون الأولون ، بدأ الكتاب بمقدمة يستعرض الكتاب فيه من حيث التأكيد على مبدأ الإخلاص والصدق ، وإحضار النية مستعرضًا في ذلك الآيات القرآنية التي تستشهد بقيمة الصدق والإخلاص وأعمال النية في جميع الأحوال ، وأحاديث الرسول ﷺ بالإضافة إلى الأقوال والمأثورات التي أتى بها بعض العلماء المسلمين في ذلك الأمر مثل الإمام الشافعي والإمام القشيري والإمام الجنيد ، حيث يقدم في ذلك العلموي الفكر التربوي رسالة للتشديد على النية المخلصة الخالصة والتي دونها لا تتحقق عملية طلب العلم في جانبيها الإفادة والاستفادة . فالغالب بالتالي على هذا الكتاب ، كما يظهر من خلال هذه المقدمة روح تعليمية ووعظية ، وصبغة إرشادية تقريرية وكما سيظهر خلال ثنايا هذا الكتاب مؤكدًا في العملية التربوية أو الإفادة والاستفادة « التعليم والطلب والتحصيل » وهو ما يعنيه العلم ونقله بواسطة المعلم وتلقيه عند المتعلم ومن الواضح أن هذا الكتاب يحتوي على كثير من المفاهيم السيكولوجية التي تندرج ضمن مجالات علم النفس التربوي الذي يعد أحد فروع علم النفس التطبيقي وموضوعه الأساسي العملية التربوية من المنظور النفسي بمكوناتها العلمية والمنهجية والإرشادية .

فيما يلي عرض مختصر لأبواب الكتاب الستة :

الباب الأول : استغرق الباب (١١) صفحة وجاء بعنوان « **في فضيلة الاشتغال بالعلم وتعلمه وتعليمه** » وقد جاء فيه فصول (ص ٦١ - ٧٢) ، ويبدأ العلموي بالتأكيد على قيمة المشتغل بالعلم وقيمة المشتغل بالعبادات فالأول يعم نفعه والثاني ينتفع وحده بالشعائر التي يؤديها مستشهدًا في إطار ذلك ببعض الآيات القرآنية التي تؤكد رأيه المسبق في أهمية العلم ، في الحث على التعلم وحضور مجالس العلم ، بالإضافة إلى بعض المأثورات القولية والسلوكية وبعض الأشعار التي تشيد بفضل العلم مشيرًا في طيات ذلك إلى المعنى العام للعلم وآدابه وتقيده بالأخلاق والابتعاد عن الرياء والكبر والحض على إكرام وتكريم العلماء .

الباب الثاني : بعنوان « **في أقسام العلم الشرعي** » ، (ص ٧٥ - ٨٦) وهو حول العلوم التي تخدم المجتمع مؤكدًا ضرورة الإحاطة بها حيث قسمها إلى قسمين الأول

ويضم أقسام العلم الشرعي وهي التفسير والحديث والفقه ويطرح مراتب عملية تنقسم إلى فروض منها فرض الكفاية ، القسم الثاني وهو العلوم غير الشرعية وهنا ينبهنا العلموي إلى عدم رفض علم خارج عن نطاق الدين إلا أنه يصنفها وفقًا لمعايير الدين والمعنى الأخلاقي والاجتماعي محرمًا في ذلك السحر والفلسفة حيث يضعهما مع التنجيم والشعوذة وعلم الطبائعيين ويكره الشعر الذي يحوي الغزل ويعلم البطالة ولكنه يبيح ما يبتعد عن السخف ويحض على الخير وينبذ الشر والفساد ومن جهة أخرى تخدم اللغة ، فالمقياس كما نرى أخلاقي تعليمي يرفض كل ما لا يكون في خدمة الخير والعامة .

الباب الثالث : يستغرق الصفحات (ص ٨٩ - ١٥٣) وهو بعنوان « في آدب المعلم والمتعلم » القسم الأول : ويورد العلموي في هذا القسم الآداب والخصال التي تحكم المعلم والمتعلم والقواعد المشتركة للسلوك المثالي والمتطلبة من قطبي العملية التربوية وهي في مجملها سرد للمحمودات والمرذولات من السلوك ، إذن فهو الدين والعودة إلى التفكير في حكمة اللّه ونعمته فالدين يهذب ويبعد عن تلك الرذائل ، بالإضافة إلى تقديم الأسانيد القائمة على الآيات والأحاديث والأشعار والأقوال المأثورة بالإضافة إلى التأكيد على بعض المهارات المعرفية التي تساعد على إنجاز العملية التعليمية على أكمل وجه من جانب المعلم والمتعلم .

هذا وبخصوص ربط ما يدور في هذا القسم بالتخصصات الدقيقة في مجال علم النفس فما ورد من حديث في الأقسام الثلاثة من هذا الباب وخصوصًا في البابين الأول والثاني يعبر عن الخصال الأساسية لكل من المعلم والمتعلم وهو ما يدخل في مجال علم النفس التربوي ودراسات الشخصية وما يرتبط أيضًا بموضوع السمات الشخصية وما يذكر على سبيل المثال الاتزان الوجداني وقوة الشكيمة والمثابرة ، وذلك في قوله : كف الغيظ ، مجانبة الإكثار من الضحك والمزاح فإنه يقلل الهيبة ، والتلطف والتحبب إلى الجيران (ص ٩١) ، هذا بالإضافة إلى تأكيد الكاتب بعض القدرات المعرفية الواجب توافرها خلال العملية التربوية لدى كل من المعلم والمتعلم مثل القدرة على الفهم والاحتفاظ والتذكر وذلك في إطار الحث على بعض الإرشادات التي تؤدي إلى التذكر الجيد ؛ مثل : تناول أطعمة أو حفظ بعض الأدعية ، وفي ذلك ترادفًا كبيرًا مع ما قد ذكر في باب علم النفس العام في موضوع الذاكرة بأقسامها الثلاثة المباشرة وقصيرة المدى ، وأكد العلموي على أهمية قانون التكرار في إحداث مزيد من التثبيت والحفظ في الذاكرة ونعني بالذاكرة استحضار الشخص للخبرات الماضية التي مرت به واستعادته للمعلومات والمعارف التي سبق وتعلمها ويعد قانون التكرار أحد المبادئ الأساسية في

التعلم (ص ١١٧ ، ١١٨) .

ويتحدث العلموي أيضًا عن آداب المعلم مع تلاميذه حيث يذكر مجموعة الواجبات خلال عملية التدريب والتعلم وانتهى إلى أنه ينبغي أن يشجع تلميذه ويخصه (ص ١٠٧) بالأقوال والأفعال وبمختلف الوسائل مؤكدًا على مبدأ الثواب والعقاب في الوقت المناسب ، وهنا نجد أحد المفاهيم السيكولوجية وهي المكفأة أو التدعيم ، والعقاب وهو ما يدخل ضمن موضوعات علم النفس العام وبالأخص سيكولوجية التعلم فالتعلم « هو زيادة معدل صدور الاستجابة المرغوبة » أما العقاب فيعني به الحدث الذي يؤدي إلى إضعاف وكبت مؤقت للاستجابة الغير مرغوبة وهو ما ورد بالنص (ص ١٠٧) كما يؤكد أيضًا أهمية طرائق التعليم ، ومن أهم الطرق التي يراها مناسبة في هذا الصدد هي التدرج بالطلاب في العلم حيث لا يلقي لهم شيئًا لم يتأهلوا له ، وأن يكون حريصًا على مصالحهم وأن يخاطب كلًّا منهم على حسب قدراته مع إعطاء الأمثلة والتكرار . وهو هنا يتعامل مع أحد المبادئ الخاصة بالعملية التعليمية في مجال سيكولوجية التعلم ، وهو مبدأ التقريب المتتابع الذي يعبر عن التدرج في تعلم أي مهارة أو استجابة معينة عن طريق تقسيمها وتجزئتها إلى عناصرها الأولية الأساسية .

القسم الثالث : وهو يتعامل مع آداب المعلم في درسه ، وهو هنا يؤكد على الخصال الشخصية الواجب الالتزام بها من قبل المعلم ، مثال ذلك : النواحي الشكلية كالنظافة والهندام والتطيب وتلاوة بعض الأدعية وأن لا يكون الدرس طويلًا جدًّا أو قصيرًا ، وأن يكون المجلس منضبطًا ، وفي باب الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها المتعلم حث العلموي على ضرورة التحلي بالإخلاص وتطهير القلب والمثابرة ، والتكرس للعلم ، بالإضافة إلى آداب الود والأخلاق والذوق السليم وإظهار التواضع والتقدير للمعلم (ص ١١٧) .

ومن الواضح هنا أننا نعرض لمجموعة من المعاني المرتبطة بموضوع سيكولوجية العلاقات الاجتماعية الذي يدخل في موضوعات علم النفس الاجتماعي الخاصة بالتخاطب اللفظي وغير اللفظي . ويعرض العلموي تطوير العلم والانتقال للمرحلة العلمية حيث يؤكد على مجموعة من الإرشادات المنهجية التي ترتبط بأسلوب الكتابة والقواعد التنظيمية للتفكير والصياغة السليمة مؤكدًا على إيضاح العبارة بحيث لا تكون ركيكة من جهة ولا خالية من المعنى أو غامضة من جهة أخرى وأكد على تجنب الأدلة الواهية والضعيفة .

ويتعرض أيضًا إلى التأليف وقواعده مؤكدًا على ضرورة الخلق والابتكار وذلك في إطار اتباع المنهجية في التأليف والكتابة ومن حيث المفاهيم السيكولوجية ، لقد ورد في هذا النص الحديث عن المفهوم « الابتكار » وهو ما يترادف مع مفهوم التفكير الافتراقي والتغييري الذي يعد أحد موضوعات علم النفس المعرفي وعلم النفس العام أساسًا (ص ١٤٥) .

الباب الرابع : ويدور حول مبدأ تربوي يمكن الاستفادة منه في الفكر وهما بعنوان « **الإفتاء والاجتهاد** » ، (ص ١٥٧ - ١٩٢) وهو في الوعي الإسلامي حيث يتعامل مع أمور الفتوى والاستفتاء وهما نوعان من التعليم ويؤكد العلموي في ذلك على أن المفتي ما هو إلَّا معلم وقاض وقسم العلموي جماعة الفتوى إلى عدة أنماط ، فهناك المفتي المستقل والمفتي المنتسب ويعرض لمجموعة من الصفات والخصال المثالية للمفتي وآداب الفتوى المنهجيْة بالإضافة إلى اتباع المنهج في تقديم الفتوى مع عدم التسرع في إعطاء الحكم وهو هنا يؤكد على الخصال الشخصية التي يجب للمستفتي أن يتحلى بها ؛ مثل عدم الاندفاعية كأسلوب الاستجابة المعرفية وذلك في قوله : « عدم التسرع في إعطاء الحكم » وهم ما يدخل في باب سيكولوجية الشخصية ، وأساليب الاستجابة المعرفية (ص ١٧٢ ، ١٧٣) .

الباب الخامس : وقد جاء بعنوان « في شروط المناظرة وآدابها وإفادتها » وفيه فصلان .

وقد استغرقت صفحاته (١٩٥ إلى ٢١٤) ، وفي هذا الباب يورد العلموي معلومات حول قواعد المناظرة ، وذلك من قبيل حاجة المسلمين لمناظرة بين الفقهاء والعلماء لإثراء حركة العلم ويستطرد العلموي في بيان شروطها من حيث الخصال الواجب توافرها في المناظر وذلك مثل ألَّا يشتغل به ما لم يتفرغ عن فرض العين فذلك العلم فرض كفاية ، وليس مطلوبًا من كل المؤمنين وأن لا يرى فرض كفاية آخر أهم من المناظرة ، وأن يكون مجتهدًا يفتي برأيه لا بمذهب آخر ، وأن يناظر في موقعة مهمة ، أن تكون المناظرة أحب إليه في الخلوة منها في المحفل ، وألا يمنع المناظر رفيقه أو نده من الانتقال من دليل إلى آخر ، وأن يناظر مع من هو مستقل بالعلم ليستفيد منه .

أما عن آفات المناظرة فهي الحسد والتكبر على الناس ، والحقد والغيبة ، وتزكية النفس والتجسس والفرح بما يسوء الناس والغم بسرورهم ، والنفاق والاستكبار عن الحق

والرياء ، ويورد العلموي حالات مناظرة مثالية جرت أحدها بين الشافعي ومالك ، وكلها حالات تجسد المبادئ التي يجب أن تتحكم في ذلك الفن الذي هو غايته بلوغ الحقيقة واكتشافها حيث يدعو في ذلك المؤلف إلى ضرورة الاقتداء لتلك الأمثلة من المناظرات .

ونجد أن هناك ترادفًا بين ما ورد خلال هذا النص وأحد المفاهيم السيكولوجية التي تدخل ضمن موضوعات علم النفس الاجتماعي ألا وهو التعلم الاجتماعي أو الاقتداء ، وقد ورد ذلك (ص ٢٥٠ وص ٢١٤) .

الباب السادس : كان بعنوان « أدوات التربية والتعليم » الكتب (التعامل بها) وهو يستغرق الصفحات (ص ٢١٧ إلى ص ٢٢٧) ويورد فيه أن الكتاب نقطة أساسية في العملية التربوية حيث يؤكد على الاعتناء بتوفير الكتب النافعة ، ويضع شروطًا واضحة لعملية جمع الكتب من حيث إعاراتها وتصليحها وترتيبها بالإضافة إلى شروط النسخ وآدابه والمحافظة على الانسجام والوحدة عبر الأمكنة والأزمنة ، ويحض على ضرورة احترام السلف ومحبة اللغة والتمسك بتقاليد المجتمع والمحافظة عليها .

أما من حيث علاقة هذا بعلم النفس فهذه كلها مبادئ تدخل ضمن أحد موضوعات علم أصول التربية وهو التنشئة الاجتماعية التي تحدث داخل الجماعات في مؤسساتنا التعليمية كالمدرسة والنادي والجامعة وهو هنا يعرض أحد المفاهيم السيكولوجية الخاصة بأحد مقومات الشخصية التي يتم التعبير من خلالها عن مجموعة الخصال والسمات المميزة لطبيعة قومية معينة ، بالإضافة إلى السياق الذي ورد فيه التمسك بالتقاليد والمحافظة على عرفها الذي يرادفه مفهوم التحفظ والصرامة ، وهو أحد خصال الشخصية الأكثر دراسة داخل نطاق علم النفس الاجتماعي .

وانتهى من عرضه لهذه القواعد وشرحها إلى خلاصة مؤداها أن هذه المناظرات شديدة الأهمية لإثراء حركة العلم وخلق الدافع لدى البشر للإقبال عليه ، واشتراط لذلك أن تعقد هذه المناظرات بين الفقهاء والعلماء تحت ضوابط خاصة . أما عن ما ورد خلال ذلك النص (ص ٢١٧) بالمفاهيم السيكولوجية سنرى أن هذا الحديث يدخل تحت مفهوم الدافعية Motivation والدوافع Motives .

* * *

بدر الدين الغزي (ت ٩٨٤هـ)
المُراح في المُزاح [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف [2] :

هو الإمام العلامة الشيخ محمد بن محمد بن محمد الغزي العامري الدمشقي أبو البركات بدر الدين بن رضي الدين : فقيه شافعي ، عالم بالأصول والتفسير والحديث ، ولد سنة (٩٠٤هـ) بدمشق ، وتوفي سنة (٩٨٤هـ) عن ثمانين عامًا ، وقد بلغت مصنفاته نحو مائة وعشرين كتابًا . وقد كان العلماء يقصدونه ، وطلاب العلم فكان لا يرد طالبًا ولا يوصد بابه أمام أحد .

وفي أخريات عمره وفي بعض الروايات في أواسط عمره اعتزل الناس واحتجب عنهم ، لكن بره وإحسانه وعطفه على الكثير من الناس جعلهم يسعون إليه ، ويتجهون إلى صومعته فلم يرد سائلًا ؛ بل كان يجزل لهم البذل ويكثر لهم العطاء ولا يعرف الفضل من الناس إلّا ذوو الفضل .

وقد ترك ذكرى طيبة بعد وفاته كانت أعبق وأضوع نَشْرًا من روضة .

عرض الكتاب :

يتضمن الكتاب العناصر أو الجوانب الآتية :-

أولًا : المزاح بين المدح والذم :

---

(١) تحقيق : السيد الجميلي ، ط ١ ، مكتبة الثقافة الدينية (١٩٨٦م) ، (٥٦ ص) .
(٢) المصدر : المراح في المُزاح ، ت : السيد الجميلي ، (ص ٥) .

ويتحدث عن المزاح : المرح ، وما يكره منه وما يباح ، فهو محبب بين الإخوان والأصدقاء والخلان لما فيه من ترويح القلوب ، بشرط ألَّا يكون قذف ولا غيبة ، ولا انهماك يسقط الحشمة ويقلل الهيبة ولا فحش يورث الضغينة ويحرك الحقود الكمينة ، ويؤيد ذلك بقول رسول اللَّه ﷺ : « **المزاح استدراج من الشيطان واختداع من الهوى** » ، وقوله ﷺ : « **لا تُمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدًا فتخلفه** » ، كما يستعين المؤلف بقول البعض : اتقوا المزاح فإنه حمقة تورث ضغينة ، وقال : إنما المزاح سبابٌ إلَّا أن صاحبه يضحك ، وقيل : إنما سمي مزاحًا ؛ لأنه مزيحٌ عن الحق ، وقال بعض الحكماء : خير المزاح لا ينال وشره لا يقال .

أما ما ورد في مدح المزاح ، فإنه قل ما يعرى من المزاح من كان سهلًا ؛ فالعاقل يتوخى بمزحه إحدى حالتين : إما إيناس المصاحبين ، والتودد إلى المخاطبين ، وهذا يكون بما أُنس من جميل القول وبسط من مستحسن العقل .

ويرتبط هذا الجزء بموضوع سيكولوجية الانفعالات Emotions ، وتأثير الانفعالية على مستوى تفكير الفرد ، وعلى علاقاته بالآخرين وتفاعله معهم (ص ٧ - ١١) .

ثانيًا : مزاح النبي هو الحق :

قال رسول اللَّه ﷺ : « **إني لأمزح ولا أقول إلا الحق** » ، وفي رواية : إلَّا حقًّا .

ثالثًا : نماذج من مزاحه ﷺ :

ويعرض المؤلف هنا لعدد من المواقف مع زوجات رسول اللَّه ﷺ ، ومواقف الرسول مع أصحابه والتي تشير إلى مزاحه و مرحه في تعامله .

رابعًا : رأي علي بن أبي طالب في المزاح :

قال علي بن أبي طالب ﵁ : لا بأس بالمفاكهة يخرج بها الرجل عن حد العبوس ، وعن بكر بن أبي محمد قال : أهدى المجوس لعلي بن أبي طالب فالوذجًا ، فقال علي : ما هذا ؟ فقيل له : اليوم النيروز ، فقال علي : ليكن كل يوم نيروزًا ، وأكل .

وفي رواية قيل له : اليوم المهرجان . فقال : مَهْرِجونا كل يوم هكذا .

خامسًا : أبو سفيان يمازح رسول اللَّه ﷺ :

ويعرض المؤلف هنا لعدد من الروايات والمواقف التي تبين المزاح بين أبي سفيان ورسول اللَّه ﷺ .

سادسًا : دراسة في مقتضيات المزاح :

فالعاقل يربأ بنفسه عن سفاف الأمور وعن مخالطة السفلة ومزاحهم مطلقًا ، وكذلك عن مزاح من هو أكبر منه ، ولا بأس به بين الإخوان بما لا أذى فيه ولا ضرر ولا غيبة ولا شين في عرض أو دين ، قاصدًا به حسن العشرة والتواضع للإخوان والانبساط معهم ودفع الحشمة بينهم من غير استهتار أو إخلال بمروءة أو نحوه استنقاص بأحد منهم .

سابعًا : المزاح وحسن الخلق والهيبة :

وعن آداب النكاح وما يتعين على الزوجين استعماله من كرم الأخلاق ومحاسن الشيم وغير ذلك ، قال الغزالي : ينبغي أن لا ينبسط الرجل في الدعابة وحسن الخلق والموافقة باتباع هواهن إلى حد يُفسد خلقهن ويسقط هيبته بالكلية ، بل يراعي الاعتدال في ذلك فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكرًا ولا يفتح باب المساعدات على المنكرات ألبتة ، بل مهما رأى أن يخالف الشرع والمروءة تنمر وامتنع . قال الحسن : واللّه ما أصبح رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا كبه اللّه في النار .

ويرتبط هذا الجزء باتجاهات الرجال نحو النساء ونظرة الرجال إلى النساء والتعامل معهن (ص ٥٣ ، ٥٤) .

* * *

الشرنوبي (ت ٩٩٤هـ)
تائية السلوك إلى ملك الملوك [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

التعريف بالمؤلف :

أحمد بن عثمان بن أحمد بن علي الشرنوبي المصري : فاضل من المتصوفة له شعر ، رحل إلى بلاد الروم رحلتين وتوفي في ثانيهما ، أملى على تلميذ له – اسمه محمد البلقيني – رسالة في مناقب بعض الأولياء ؛ سميت « طبقات الشيخ أحمد الشرنوبي » ، ومن نظمه « تائية السلوك إلى ملك الملوك » في التصوف ، وشرحها عبد المجيد الشرنوبي المتوفى سنة (١٣٤٨هـ) بكتاب « شرح تائية الشرنوبي » .

عرض الكتاب [المنظومة مع شرحها] :

ويشتمل على ما يأتي :

يبدأ الشارح حديثه بتوضيح معنى البسملة ، وأنها بدئت بالباء إشارة إلى أنه لا يتقدم إلى حضرته تعالى إلَّا أهل الانكسار ، وقد طولوا الباء في بسم اللَّه تعظيمًا للحرف الذي بدء كتاب اللَّه وإشادة إلى من تواضع للَّه رفعه ، ولفظ الجلالة علم على الذات الواجب الوجود والواسع الكرم والجود ، وهو اسم اللَّه الأعظم عند الجمهور ، ثم تحدث بعد ذلك عن أهميتها في الدعاء ، وتناول بعد ذلك الحديث عن أسماء اللَّه الحسنى ، قال رسول اللَّه ﷺ : « **إن للَّه تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة** » .

---

(١) تحقيق : عبد المجيد الشرنوبي الأزهري . القاهرة : مكتبة القاهرة (١٩٨٠م) . (٢٠٩ ص) .

ويرتبط ما ورد في هذا الجزء بموضوع الانفعالات Emotions وخاصة حالات الهيبة والخشوع عند ذكر الله ﷻ .

– في حدود علم التصوف وموضوعه وفائدته ، فهو علم يعرف كيفية تصفية الباطن من عيوب النفس وصفاتها المذمومة ؛ كالحقد والحسد والغش والغل وحب الثناء والكبر والرياء والغضب ؛ فالتصوف هو التخلي عن الرذائل والتحلي بأنواع الفضائل ، وهو علم مبني على التمسك بآداب الشريعة والتباعد عن الشبهات ، وحفظ الحواس وعد الأنفاس للتحرز من الغفلات . وموضوعه أفعال القلب والحواس من حيث التزكية والتصفية . وفائدته إصلاح الإنسان ظاهرًا وباطنًا ، والصوفية مقتدون في الزهد في الدنيا والانقطاع للعبادة .

ويقترب ما ورد في هذا الجزء من موضوع سيكولوجية الجماعات ، والجماعة المقصودة هنا « جماعة الصوفية » كجماعة لها سماتها وقيمتها وديناميتها الخاصة ، وهو يدخل في إطار ديناميات وبحوث الجماعات Group Dynamics (ص ٨ – ١٠) كما يرتبط أيضًا بموضوع تعديل السلوك والعلاج السلوكي ، وذلك حينما يتكلم عن قضية الباطن من عيوب النفس ، والتخلي عن الرذائل والتحلي بأنواع الفضائل .

ثم تحدث الناظم والشارح بعد ذلك عن أصول طريق الصوفية ، وهو طريق الأبرار وطريق الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها .

ويرتبط هذا الجزء من موضوع الانفعالات Emotions خاصة حالات الشوق : الذي تحدث عنه المؤلف على أنه انجذاب القلب إلى مشاهدة المحبوب (ص ٢٣) ، والقيم الدينية .

ثم تحدث الناظم والشارح بعد ذلك عن القناعة وأنها من أصول الطريق ولها أهمية كبيرة بالنسبة لصاحبها فهي تجعله أقل حزنًا وأطيب نفسًا وأقر عينًا كما قال البعض ، وذكر عدد الأحاديث النبوية الشريفة والأبيات الشعرية الموضحة لمعنى القناعة ومظاهرها وأهميتها .

وعرض الشارح بعد ذلك لعدد من النصائح النبوية موضحًا أهمية القناعة والزهد ، فالدنيا تراد لثلاثة العز والغنى والراحة فمن زهد فيها عز ، ومن ترك الانهماك فيها استراح .

ثم عرض الناظم والشارح بعد ذلك للطائف التدبير ، وأنه يجب حسن التوكل ،

وهو الثقة بما عند الله فمن توكل عليه كفاه ومن انقطع إليه آواه ، وقال تعالى : ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق : ٣] ، وللمتوكل ثلاث درجات هي التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض ؛ فالمتوكل يسكن إلى وعده وصاحب التسليم يكفى بعلمه وصاحب التفويض يرضى بحكمه .

ويرتبط هذا الجزء بموضوع الانفعالات Emotions خاصة انفعال الخشوع (معناها ومظاهره) ، (ص ٤١) وكذلك الخوف من خشية الله ﷻ (ص ٤١ - ٤٢) .

وتناول الناظم والشارح بعد ذلك وصف المتقين ، وهم الذين منطقهم الصواب وملبسهم الاقتصاد ومشيهم التواضع ، وغضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم ، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع .. إلخ . ويرتبط هذا الجزء بموضوع القيم الدينية .

ومن الأركان الأساسية لطريق الصوفية السهد ؛ والسهاد نقيض الرقاد ويعني أن يكون المريد من الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا أي تتباعد جنوبهم عن مواضع الاضطجاع للنوم قيامًا بحقه تعالى من العبادة ، ومن شروط الطريق أيضًا الإيثار ، أي تقديم الغير على النفس ليكون المريد من الذين قال الله فيهم : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] .

ويرتبط ذلك بسمة من السمات الشخصية أو قيمة من القيم Trait value وهي الغيرية Altruism (معناها) ، (ص ٦٥) . كذلك يرتبط بموضوع الانفعالات - خاصة انفعال الحب ودرجاته المختلفة (ص ٦٧ ، ٦٨) .

ثم تحدث الناظم والشارح بعد ذلك عن المراقبة ومقامها ، وأنها شرط في طريق المقربين ، وهي دوام استحضار القلب إحاطة علم الله بحركاته وسكناته .

أما ما يجب على المريد فيتلخص في أنه يجب عليه قبل الاشتغال بالذكر والرياضة أن يحصل من علم التوحيد ما يصح به اعتقاده على مذهب أهل السنة والجماعة وما يتحرز عن شبه المبتدعة .

ثم عرضا لوصف العارف ، وأنه يجب أن يكون قد محا حظوظ النفس الأمارة بالسوء من شهواتها القتالة بالعلم الذي أفاضه الله عليه ، والتقى الذي قربه به إليه ، وأنه يجب أن يكون على حكمة ومعرفة بالطب الروحاني ، وأن يكون من أهل البصيرة .

ويجب على الطالب لطريق المقربية وهو المريد أن يكون مؤدبًا بآداب أهل الطريق أي عند شيخه ليحصل له نتيجة ما يلقيه إليه في كل وقت ، كما يجب على المريد أن يكون

ملازمًا للذل وهو إظهار المسكنة ؛ لينال من الله بذلك العز الأبدي ، كما يجب عليه أن يدخل ما يختاره من الأمور في مراد شيخه .

كذلك من أركان الطريق أن يعتزل المريد الخلق الذين لا خير فيهم جميعهم ويترك فعلهم خصوصًا ولاة الأمر تولوا شيئًا من أمور الدنيا الدنية ، وينبغي أن تكون العزلة بعد التحقق بالعلم والزهد فإنها بغير عين العلم زلة ، وبدون الزهد علة ، ويجب على المريد أن يقدر كبار السن ، وأن يعظم أبناء الطريق الواصلين المتصفين بمكارم الأخلاق .

ثم تحدث الشارح (ص ١٤٧) بعد ذلك عن الغناء والرقص في الذكر ، فقد حرم البعض منهم سماع الغناء بالألحان المطربة عند الذكر ، وأباحه البعض الآخر ، ويرى المؤلف أنه لا بأس من سماع الإنشاد المحرك للأحوال السنية .

أما اللقيط في الطريق فهو من لم يكن له شيخ من عمره الذي عاشه غير رسمه فقط .

ثم تضمن الكتاب بعد ذلك ترجمة للمؤلف ، وقصيدة الأباصيري التي يرشد فيها المريد إلى سلوك سبيل الرشاد .

أوجه الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس العام وعلم النفس الاجتماعي .

* * *

إبراهيم بن إسماعيل (ت ١٠٠٠هـ تقريبًا)
شرح تعليم المتعلم [١]

عرض : د. محمد أحمد شلبي

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في ٤٨ صفحة من القطع الكبير ، وفيه يعرض المؤلف إلى أركان عملية التعليم ، وذلك على النحو التالي :

١ - دوافع التعلم :

أ – **النية في حال التعلم** : لابد من النية في زمان تعلم العلم ، والنية هي الأصل في جميع الأحوال (ص ١٠) .

ب – **الجد والمواظبة والهمة** : بقدر الكد تكتسب المعالي ، فمن طلب العلا سهر الليالي (ص ٢٠ ، ٢١) .

ج – **الهمة العالية ضرورية للجد** : (ص ٢٤) . الجد والهمة هما الرأس في تحصيل العلم ، وكلاهما ضروري للآخر ، فمن كانت له همة عالية ولم يكن له جد ، أو كان له جد ولم يكن له همة عالية لا يحصل له إلا علم قليل ، وذكر الشيخ النيسابوري في كتاب مكارم الآخرين ، أن ذا القرنين لما أراد أن يسافر ليستولي على المشرق والمغرب شاور الحكماء ، وقال : كيف أسافر لهذا القدر من الملك ؟ فإن الدنيا قليلة فانية ، وملك الدنيا أمر حقير فليس هذا من علو الهمة ، فقال الحكماء : سافر لتحصل على ملك

---

(١) القاهرة : مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، [د . ت] ، (٤٨ ص) . مع : تعليم المتعلم طريق التعلم الزرنوجي .

الدنيا والآخرة ، وقال رسول الله ﷺ : « **إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها** » .

د – **الانشغال بأمور العلم** : لابد لطالب العلم أن يقلّل من علاقته بالدنيا قدر استطاعته ؛ ولذا اختاروا الغربة ، والعلم له لذة تفوق سائر اللذات ، ولا ينبغي لطالب العلم أن يشغل نفسه بشيء آخر غير العلم .

هـ – **التركيز** : ينبغي ألا يكون لطالب العلم فترة خمول وتحير فإنها آفة (ص ٣٤) .

٢ - صفات طالب العلم :

أ – **التواضع** : وهذا لا ينفي التقدير ، قال أبو حنيفة لأصحابه : عظموا عمائمكم ووسعوا أكمامكم ، وقال ذلك لئلا يستخف بالعلم وأهله (ص ١٣) .

ب – **التشاور** : ينبغي لطالب العلم أن يشاور رفاقه في أموره ، وقيل ما هلك امرؤ عن مشورة ، وطلب العلم من أعلى الأمور وأصعبها ؛ لذا فإن المشاورة فيها واجبة (ص ١٣ ، ١٤) .

ج – **اختيار الأستاذ** : تردد على أستاذك مدة شهرين وشاور وتريث حتى لا تحتاج لتركه والإعراض عنه ، واعلم أن الصبر والثبات أصل كبير في جميع الأمور (ص ١٤) .

د – **الحداثة** : اغتنام فترة الشباب في بذل الجهد (ص ٢٣) .

هـ – **الثبات** : ينبغي لطالب العلم أن يثبت ويصبر على أستاذ وعلى كتاب حتى لا يتركه أبتر ، وعلى فن حتى لا يشغل بفن آخر قبل أن يتقن الأول ، وعلى بلد حتى لا ينتقل إلى بلد آخر من غير ضرورة فإن ذلك يفرق الأمور ويشغل القلب ويضيع الأوقات ويؤذي المعلم (ص ١٥) .

و – **اختيار القرين** : قيل عن المرء لا تسل وسل عن القرين ، فإن القرين بالمقارن يقتدي ، فإن كان ذا شر فجنبه سرعة ، وإن كان ذا خير فقارنه تهتدي ، ولا تصحب الكسلان في حالاته ، كم صالح بفساد آخر يفسد ، عدوى البليد إلى الجليد سريعة ، كالجمر يوضع في الرماد فيخمد (ص ١٥ ، ١٦) .

٣ - تعظيم الأستاذ :

ينبغي توقير المعلم ، ومن توقير المعلم أن لا يمشي أمامه ولا يجلس مكانه ولا يبتدئ الكلام عنده إلا بإذنه ، ولا يكثر الكلام عنده ، ويراعي الوقت ، ولا يدق الباب بل يصبر حتى يخرج ، ويطلب رضاه ويتجنب سخطه (ص ١٧) .

٤ - طرق التعلم :

أ – **التكرار** : لابد لطالب العلم من المواظبة على الدرس والتكرار في أول الليل وآخره ، فإن ما بين العشاءين ووقت السحر وقت مبارك (ص ٢٢) ، والتكرار من مبادئ التعلم التي يقول بها علماء النفس المحدثون .

ب – **التأني في طلب العلم** : الرفق أصل عظيم في كل الأشياء ، قال رسول الله ﷺ : « **ألا إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ، فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى** » ، (ص ٢٣) .

ج – **التدرج في التعلم** : ينبغي أن يكون قدر السبق للمبتدئ قدر ما يكون ضبطه بالإعادة مرتين ، ويزيد كل يوم كلمة حتى إنه وإن طال وكثر يمكن ضبطه بالإعادة مرتين ، ويزيد بالرفق والتدرج .

وينبغي أن يبتدئ شيء يكون أقرب إلى فهم الطالب ، فإذا كتب الطالب شيئًا لا يفهمه فإن ذلك يورثه كلالة الطبع ويذهب الفطنة ويضيع الأوقات ، وينبغي أن يجتهد في الفهم من الأستاذ أو بالتأمل والتفكر وكثرة التكرار ، فإنه إذا قل السبق وكثر التكرار والتأمل يدرك ويفهم (ص ٢٨ ، ٢٩) .

د – **المناظرة والمطارحة** : لابد لطالب العلم من المذاكرة والمناظرة والمطارحة فينبغي أن يكون بالإنصاف والتأني والتأمل ويتحرز عن الشغب ، فإن المناظرة والمذاكرة مشاورة ، والمشاورة إنما تكون لاستخراج الصواب ، ويحصل ذلك بالتأمل والتأني والإنصاف ، ولا يحصل بالغضب والشغب ، فإن كانت نيته من المباحثة إلزام الخصم وقهره لا يحل ذلك ، وإنما يحل ذلك لإظهار الحق ، والتمرية والحيلة لا تجوز فيها ، إلا إذا كان الخصم متعنتًا ، لا طالبًا للحق . لكن إذا كانت مع منصف سليم الطبع ، وإياك والمذاكرة مع متعنت غير مستقيم الطبع ، فإن الطبيعة مسرقة والأخلاق متعدية ، والمجاورة مؤثرة (ص ٢٩ ، ٣٠) .

هـ – **التأمل** : تدرك الدقائق بالتأمل ، قيل تأمل تدرك (قارن ذلك بمفهوم التفكير في علم النفس المعاصر) ، ولابد من التأمل قبل الكلام حتى يكون صوابًا ، فإن الكلام كالسهم لابد من تقويمه بالتأمل ، وهذا أصل كبير من أصول الفقه (ص ٣٠) .

٥ - ظروف الموقف :

أوصيك في نظم الكلام بخمسة إن كنت للموصي الشفيق مطيعًا لا تغفلن :

١ - سبب الكلام .

٢ - وقت الكلام .

٣ - كيفية الكلام .

٤ - كم الكلام .

٥ - مكان الكلام (ص ٣١) .

فائدة الكلام في ميادين علم النفس :

يمكن الاستفادة من الكتاب في مجال علم النفس العام وبخاصة سيكولوجية التعلم .

* * *

داود الأنطاكي (ت ١٠٠٨ هـ)
تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق [(١)]

عرض : د. محمد أحمد شلبي

التعريف بالمؤلف [(٢)] :

هو داود بن عمر البصير الأنطاكي نزيل القاهرة الحكيم الطيب ورئيس الأطباء في زمانه شيخ العلوم الحكيمة وأعجوبة الدهر وقد أطال توصيفه أبو المعالي الطالومي ، ثم قال : وقد سألته عن مسقط رأسه ومشتعل نبراسه ، فقال : إن مولدي بأنطاكية وولدت بعارض ريح تحكم في الأعصاب يمنع قوائمي من حركة الانتصاب ، وكان والدي رئيس قرية سيدي حبيب النجار ، له كرم وشيم وطيب نجار ، فاتخذ قرب مزار سيدي حبيب رباطًا للواردين فيه حجرات للفقراء والمجاورين ، ورتب له رواتب ، وكنت أحمل كل يوم إلى صحن الرباط حتى حفظت القرآن ولقنت مقدمات تثقيف اللسان ، جئت إلى مصر واسترحت فيها . وكان إذا سئل عن شيء من الفنون الحكيمة والطبيعة والرياضية أملى على السامع ما يبلغ الكراسة والكراستين ، وقد سأله رجل عن حقيقة النفس الإنسانية فأملى عليه رسالة عظيمة في ذلك .

وله كثير من التآليف الكبيرة والرسائل كالتذكرة وكتاب البهجة والدرة المنتجة فيما صح من الأدوية المجربة وله رسالة في الحمام ألفها باسم الأستاذ البكري ، وشرح قصيدة النفس المشهورة للشيخ ابن سينا ، وله غاية المرام في تحرير المنظوم من الكلام ، ونزهة

---

(١) القاهرة : [د . ن] ، (١٨٧٤م) ، ٢ مج . مع : ديوان الصبابة / لشهاب الدين أحمد بن أبي حجلة .
(٢) المصدر : تزيين الأسواق بتفصيل ... للأنطاكي .

الأذهان في إصلاح الأبدان ، وألفية في الطب ، كان له حجرة بالمدرسة اتخذها لاجتماعه بالناس ومداومة أصحاب البأس .

عرض الكتاب :

يشتمل هذا الكتاب على مقدمة وجزأين نعرض لهما على النحو التالي :

مقدمة الكتاب :

فيما جاء في العشق من الأحاديث والآثار وفي حده ومراتبه ، وترتبط هذه المقدمة بموضوع سيكولوجية الحب ، والحالة المزاجية Mood ، والعلاقات بين الجنسين (ص ٥- ١٢) .

فصل في الترغيب في العشق والحث عليه ، وفصل في رسومه وحدوده ؛ حيث يعتري الجهل العشاق عند تزايد الحب فيوجب الحيرة في الأمر ، وعكسه عند انفصاله عن المخيلة والهزل مباديه والجدة تمكنه .

ويرى البعض أن العشق جليس ممتع وأليف مؤنس ، إلَّا أن مذاهبه غامضة ، وأحكامه ملك الأبدان وأرواحها والقول وخواطرها والعيون ونواظرها والعقول وآراءها . ويرتبط ذلك بموضوع سيكولوجية انفعال الحب والآثار السيكولوجية المترتبة عليها (ص ١٢ - ١٤) .

فصل في بيان مراتبه وما ورد في كيفية ترقبه حتى يستولي على الحواس النفسية ويستغرق القوى الحسية ويملك العقل والبدن ويورث الذل والمحن ويسهل الوقوع في المهالك ، ويرتبط أيضًا بالآثار على الحب ، سواء في عمليات التذكر أو الإدراك أو الإحساس والرؤية ... إلخ (ص ١٤ - ١٩) .

أما ما يرتبط بالعشق من علامات فمنها تغير الألوان والعينين وتوتر البعض ، والخفقات وفساد الذهن وغير ذلك ، وهي جوانب ترتبط بحديث علماء النفس عن الآثار أو المظاهر الجسمية المصاحبة لانفعال الحب (ص٢٠ ، ٢١) .

- **الجزء الأول :**

الباب الأول : فيمن استشهد من المحبين شوقًا إلى حضرة رب العالمين . ويتحدث فيه المؤلف عن الحب في أسمى صوره ومعانيه ، والحب والنقاء للّه ﷻ ، حال المحبين من هذا النوع الراقي ، ويرتبط هذا الجزء بموضوع حب اللّه تعالى وهو أسمى أنواع الحب (ص ٢١ - ٣٠) ويتحدث ضمن هذا الباب عن ذكر ما فارقته روحه من الأحباب .

أما الباب الثاني : فهو في أحوال عشاق الجواري والكواعب وذكر ما صدر لهم من العجائب فيه خمسة أقسام .

القسم الأول : فيمن اشتهرت سيرته وظهرت في الحب سريرته ، وفيه عروة بن قيس (ويرتبط ما ورد هنا بالآثار المرتبطة بالعشق والحب ، حيث الامتناع عن الطعام والاضطراب النفسي) ، (ص ٣٦) ، وأخبار جميل وصاحبته بثينة وأخبار كثير عزة ، ويرتبط ذلك أيضًا بموضوع الحب والعلاقات بين الجنسين من خلال التخاطب غير اللفظي (الإشارات والعلاقات والرموز) ، (ص ٤٧ - ٥٢) ، ثم أخبار قيس ولبنى ، وأخبار المجنون وصاحبته ليلى ترتبط هذه القصة بالآثار العقلية والنفسية المترتبة على شدة الحب والعشق وما يؤديان إليه من اضطراب وسوء توافق (ص ٨٢ ، ٨٣) .

ويلي ذلك الحديث عن أخبار عروة بن حزام وصاحبته عفراء ، وأخبار عبد الله ابن عجلان وصاحبته هند ، وأخبار ذي الرمة وصاحبته مي ، وأخبار مالك وصاحبته جنون ، وأخبار عبد الله بن علقمة وصاحبته حبيش ، وأخبار نصيب وصاحبته زينب ، وأخبار المرقش وصاحبته أسماء ، وأخبار عتبة بن الحباب وصاحبته ريا ، وأخبار الصمة وصاحبته ريا ، وأخبار كعب وصاحبته ميلاء .

القسم الثاني : فيمن جهل اسمه أو اسم محبوبته أو شيء من سيرته أو مآل حقيقته ، فمنهم سامة بن لؤي بن غالب القرشي مشهور ، وعمرو بن عوف الشهير بالأشتر وجيداء ، ومسعدة بن وائل الصارمي ، وزرعة بن خالد العذري ، ومنهم توبة بن حمير ابن أسد الخفاجي ، وعامر بن سعيد بن راشد وغيرهم .

ثم تحدث المؤلف بعد ذلك عمن أناخ به الحب ثقله حتى أذهب عقله ، ويرتبط هذا الجزء بالأضرار العقلية المترتبة على الحالات الشديدة من الحب (ص ١٣١ - ١٤٠) .

القسم الثالث : فيمن خالسته عيون الإماء فأسلمته إلى الفناء وكادت أن تقضي عليه لولا المداركة بالوفاء .

أما القسم الرابع : فهو في ذكر من حظي بالتلاق بعد تخرج كأس الفراق . وهما صنفان :

الأول : عبد الله بن أبي بكر الصديق ، والثاني : ما حكي عن علي ﷺ .

القسم الخامس : وهو في ذكر من وسموا بالفساق من العشاق وهو أصناف :

الأول : في ذكر ما حمله هواه على أذية من يهواه وهؤلاء إما نساء أو رجال وكل من القسمين إما بالغ مناه أو مكفوف أذاه ويقابل ذلك مفهوم السادية Sadism في التحليل النفسي .

الصنف الثاني : وهو في ذكر من اشتدت به الغيرة إلى أن خامرته الحيرة .

الصنف الثالث : في ذكر من عانده الزمان في مطلوبه حتى شورك في محبوبه فصنع من الحيل ما أفضى إلى قتله وقتل من شاركه .

الصنف الرابع : في ذكر من عوقب بالفسق ولم يشتهر بالعشق .

القسم السادس : في ذكر من حل عقد المحبة وخالف سنن الأحبة ، وفيه ثلاثة أصناف :

الأول : في ذكر من تاب عن الخلاف ورجع إلى حسن الائتلاف .

الثاني : في ذكر من تمادى على نقص العهد ومات على إخلاف الوعد .

الثالث : في ذكر من أشبه العشاق في محبته وشاكلهم في مودته ، ومنه صخر بن عمرو وهو أخو الخنساء.

ويرتبط ما جاء في هذا القسم بوجه عام ، بموضوع العلاقات بين الجنسين (ص ١٧٩ - ١٨٤) .

● **الجزء الثاني :**

يتضمن الجزء الثاني من الكتاب ما يأتي :

الباب الثالث : في ذكر عشاق الغلمان وأحوال من عدل إلى الذكور عن النسوان وتفصيل ما جرى عليهم من تصاريف الزمان ، وقد نشأ هذا أصلًا في قوم لوط زينه لهم الشيطان فأخرجهم به إلى العدوان . وحكى بعضهم أن أصل ذلك من يأجوج ونقله بعض المفسرين في قوله ﷻ : ﴿ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الكهف : ٩٤] ، فيجب على كل ذي نفس شريفة الزجر والردع عن هذه الفعلة الخبيثة التي ضَّجت الملائكة إلى اللّه منها ، ويرتبط ذلك بالشذوذ الجنسي ، وبخاصة المثلية (ص ١٣) .

القسم الأول : فيمن استلب الهوى والعشق نفسه حتى أسلمه رمسه وهو نوعان :

النوع الأول : فيمن عرف اسمه واشتهر في العشاق رسمه (أخبار محمد بن داود وصاحبه محمد الصيدلاني ، وأخبار أحمد بن كليب وصاحبه أسلم ، وأخبار مدرك وصاحبه عمرو) .

أما النوغ الثاني : فهو في ذكر من جهل حاله وكان إلى الموت في الحب مآله ويرتبط هذا القسم أيضًا بالشذوذ الجنسي (ص ٣ - ١٩) .

القسم الثاني : فيمن اشتهر في العشاق حاله ولم يدر مآله .

القسم الثالث : في ذكر من ساعده الزمان في المراد حتى بلغ ما أراد (ومنهم الشيخ مهذب الدين منير الطرابلسي ، وقصيدته في مملوكة تتر) .

أما القسم الرابع : فهو في ذكر من منعه الزهد والعبادة أن يقضي من محبوبه مراده ، وهو نوعان :

النوع الأول : فيمن سلم من القضاء الجاري فعصم عن الجواري .

النوع الثاني : في ذكر من بلغه زهده الأمان فعصمه من الغلمان .

الباب الرابع : وهو في ذكر ما سوى البشر وما لقوا من العبر ، وهو نوعان :

النوع الأول : في الجنَّة وما لقوا من المحنة .

النوع الثاني : في ذكر من كلف وهو غير مكلف وهو خمسة أصناف :

الصنف الأول : في الطيور .

الصنف الثاني : في ذكر بعض ما وقع للحيوان من أمور العشق في اختلاف الأزمان .

الصنف الثالث : وهو في ذكر ما جرى من القوة العاشقية والمعشوقية بين الأنفس النباتية .

الصنف الرابع : فيما بث من الأسرار بين أصناف الأحجار .

الصنف الخامس : فيما بث من الأسرار الملكية بين الأجسام والأجرام الفلكية .

الباب الخامس : في تتمات يفتقر إليها الناظر في هذا الكتاب ويحسن موقعها عند أولي الألباب . ويشمل على الفصول التالية :

فصل في تحقيق الحسن والجمال ، وما استلطف في ذلك من الأقوال ، وفصل في خفقات القلب والتلوين عند اجتماع المحبين – ويرتبط بموضوع الانفعالات وخاصة ما يتعلق بالآثار الفسيولوجية المرتبطة بانفعال الحب (ص ٤٠ ، ٤٢) .

فصل في مراتب الغيرة وما توقعه بالحب من الحيرة ، وترتبط بانفعال الغيرة (ص ٤٣، ٤٤) ، وفصل في أحكام أسرار المحبة وما فيها من اختلاف آراء الأحبة ويرتبط بانفعال الحب (ص ٤٤ – ٤٦) .

وفصل في ذكر المغالطة والاستعطاف باستدراك ما صدر عن المحبوب من الانحراف ويرتبط بسيكولوجية العلاقات بين المحبين (ص ٤٧) ، وفصل في ذكر الرسائل

وتلطيف الأحباب بالوسائل ، وفصل في ذكر الاحتيال على طيف الخيال ، وفصل في أحكام الليل والنهار وذم قصرهما عند الوصول وطولهما عند الهجر وتمني طول زمني الوصل والرضا .

وفصل عن لوم العزول وسوء عقله الذي أوقعة في الفضول وكيف أوكل نفسه بين الأحباب حتى انتقمت منه أهل الآداب ، وفصل في أحكام الزيارة وما جاء في فضلها من البراعة والعبارة وتفنن العشاق في فضل زيارة الحبيب وإيثار أنفاسه على نفائس الطبيب ، وفصل مما يلحق بالعتاب ويصلح أن يكون معه ، كما تضمن هذا الباب الحديث عن الهجر ، فقسمه المؤلف - كما جاء عند أهل المحبة إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : هجر الدلال ، وهو الممدوح الصفات المقصود بالذات وسببه علم المحبوب مكانته عند المحب ، وأنه يتلذذ بالإساءة كما يتلذذ بالحسنة .

القسم الثاني : هجر الملال ، هجر منشؤه الملازمة مع اختلاف الخصال وتكون المحبة فيه غير عريقة بل منشوءها علة مع الحقيقة وسببه ما ذكر من اختلاف وتحري النفس طلب الاعتفاف .

القسم الثالث : الهجر المعروف بهجر الجزاء والمعاقبة ، وسببه وقوع في ذنب ولو خطأ .

القسم الرابع : الهجر الخلقي ، وسماه بعض الصوفية الأزلي .

ثم تلي ذلك فصل في نفي كدر الهم والصدود باستجلاب الأماني والوعود والطمع في التهاني ، وفصل في ذكر مكابدة الأمور الصعاب عند طلب الأحباب وخوض الأهوال واستهلال قضاء الآجال فضلًا عن بذل الأمور ليحصل من محبوبه على مطلوبه ويرضى باليسير كما سلف ولو كان ذلك يؤدي إلى التلف .

ثم خاتمة على لطائف متفرقة تروق بالسامع وتزين بها المجامع .

* * *

النابلسي ، عبد الغني (ت ١١٤٣هـ)
تعطير الأنام في تعبير المنام [1]

عرض : د. محمد أحمد شلبي

التعريف بالمؤلف :

هو الشيخ عبد الغني بن إسماعيل عبد الغني النابلسي ، الحنفي مذهبًا ، القادري مشربًا ، النقشبندي طريقة ، شاعر ، عالم بالدين والأدب ، مكثر من التصنيف ، متصوف ، ولد ونشأ في دمشق ، ورحل إلى بغداد ، وعاد إلى سورية ، متنقل في فلسطين ولبنان ، وسافر إلى مصر والحجاز ، واستقر في دمشق ، وتوفي بها .

له مصنفات كثيرة جدًّا ؛ منها : (الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية – ط) ، و (تعطير الأنام في تعبير المنام – ط) ، و (ذخائر المواريث في الدلالة على مواضع الأحاديث – ط) ، وهو فهرس لكتب الحديث الستة ، (عَلَم الملاحة في عِلْم الفلاحة – ط) ، و (نفحات الأزهار على نسمات الأسحار – ط) ، (وإيضاح الدلالات في سماع الآلات – ط) و (ذيل نفحة الريحانة – خ) ، و (حلة الذهب الإبريز في الرحلة إلى بعلبك وبقاع العزيز – خ) ، و (الحقيقة والمجاز في رحلة الشام ومصر والحجاز – ط) ، و (قلائد المرجان في عقائد أهل الإيمان – خ) : رسالة و (جواهر النصوص – ط) : جزآن ، في شرح فصوص الحكم لابن عربي ، (شرح أنوار التنزيل للبيضاوي – خ) ، و (كفاية المستفيد في علم التجويد – خ) ، و (الاقتصاد في النطق بالضاد – خ) ،

---

(١) القاهرة : دار الفكر للطباعة والنشر ، د . ت . ١ مج ؛ مع : منتخب الكلام في تفسير الأحلام / محمد ابن سيرين .

وتجويد و (مناجاة الحكيم ومحاكاة القديم – خ) تصوف و (خمرة الحان – ط) : شرح رسالة الشيخ رسلان ، و (خمرة بابل وغناء البلابل – خ) : من شعره في الظاهرية ، وديوان الحقائق – ط : من شعره و (الرحلة الحجازية والرياض الأنسية ط) ، و (كنز الحق المبين في حديث سيد المرسلين – خ) ، و (الصلح بين الإخوان في الحكم إباحة الدخان – ط) ، و (شرح المقدمة السنوسية – خ) ، و (رشحات الأقلام في شرح كفاية الغلام – ط) : في فقه الحنفية و (ديوان الدواوين – خ) : مجموع شعره و (كشف الستر عن فرضية الوتر – ط) : رسالة ، و (لمعات أو لمعان ؟) (الأنوار في المقطوع لهم بالجنة والمقطوع لهم بالنار – ط) : رسالة ، وخمس مجموعات – خ : فيها ٣٢ رسالة ، ذكر الزيات أسماءها في « خزائن الكتب » .

عرض الكتاب :

يقع كتاب الشيخ عبد الغني النابلسي « تعطير الأنام في تعبير المنام » في جزأين ، استغرق الجزء الأول ٣٢٨ صفحة ، بينما استغرق الجزء الثاني ٣٦٨ ، وكلاهما كانت صفحاته من القطع الكبير ، واشتمل الجزء الأول في هامشه على شرح لكتاب محمد بن سيرين المعروف باسم منتخب الكلام في تفسير الأحلام الذي سبق أن عرضناه ولخصنا مختصره ، بينما يشتمل الجزء الثاني في هامشه على عرض لكتاب خليل بن شاهين الظاهري المعروف باسم : كتاب الإشارات في علم العبارات ، الذي اعتمد في تصنيفه على كتاب المتقدمين وأقوال المشايخ المعتبرين .

وكعادة كل المؤلفين المسلمين : بدأ النابلسي كتابه بخطبة ، ثم مقدمة بيَّن من خلالها السند الشرعي للرؤيا الصالحة والفرق بينها وبين كل من الحلم وأضغاث الأحلام ووساوس الشيطان وما يحدث في المنام نتيجة لطبائع النفس الإنسانية (ص ٣) ، ثم أورد تعبيره للرؤى مصنَّفًا وفقًا لترتيب حروف الهجاء العربية ، ويستغرق الجزء الأول الحروف من الألف إلى السين ويبدأ الجزء الثاني من حرف الصاد إلى حرف الياء .

وفي مقدمة الكتاب بيَّن المؤلف طبيعة الرؤيا الشيطانية وحديث النفس الإنسانية (ص ٣) وكذلك ما يفعله سحرة الإنس والجن ورؤيا الطبائع (ص ٤) ، ثم بين أقسام الرؤيا التي تخضع للتعبير وهي خمسة أقسام ؛ الأول الرؤيا الصادقة الظاهرة وهي جزء من النبوة ، والثاني الرؤيا الصريحة الصالحة وهي بشرى من اللَّه أو يزجرك اللَّه بها .

والثالث ما يريكه اللَّه أو ملك الرؤيا واسمه صديقون على حسب ما علمه اللَّه تعالى

من نسخة أم الكتاب وألهمه من ضرب أمثال الحكمة لكل شيء من الأشياء مثلًا معلومًا ، والرؤيا المرموزة ، وتمثل القسم الرابع ، والخامس الرؤيا التي تصح بالشاهد ويغلب الشاهد عليه فيجعل الشر خيرًا والخير شرًّا كمن يرى أنه يضرب الطنبور في المسجد فإنه يتوب إلى اللّه تعالى من الفحشاء والمنكر ويفشو ذكره ، وكمن يرى أنه يقرأ القرآن في الحمام أو يرقص فإنه يشتهر في أمر فاحش ؛ لأن الحمام موضع كشف العورات ولا تدخله الملائكة كما أن الشيطان لا يدخل المسجد .

وذكر المؤلف (في ص ٥) أن أصدق الرؤيا تكون بالنهار في وقت القيلولة ، وذكر أن الرؤيا يراها الإنسان بالروح ويفهمها بالعقل ومستقر الروح نقطات دم في وسط القلب ومستقر القلب في رسوم الدماغ والروح معلق بالنفس ، فإذا نام الإنسان امتد روحه مثل السراج أو الشمس فيرى بنور اللّه وضيائه ، ورجوعه إلى النفس مثل الشمس إذا غطاها السحاب وانكشف عنها ، فإذا عادت الحواس باستيقاظها إلى أفعالها ذكر الروح ما رآه ملك الرؤيا وخيل له ، وقال بعض المعبرين (في نفس الصفحة ٥) إن الحس الروحاني أشرف من الجنس الجسماني ؛ لأن الروحاني دال على ما هو كائن والجسماني دال على ما هو موجود .

فإذا أردنا أن نقابل ذلك بما يمكن استنباطه من مفاهيم سيكولوجية ، ونشير أولًا إلى أن تفسير الرؤى لدى المسلمين من العرب والموالي وضعت له قواعد دقيقة وصادقة . فضلًا عن ربط القواعد الشرعية والقوانين الإلهية وبالعلوم القرآنية .

أضفنا إلى ذلك ضرورة أن يكون المعبر تقيًا خالصًا عالمًا حتى يستطيع التعبير .

فإذا ما قارنا ذلك بما ساقه سيجموند فرويد من أساليب لتفسير الأحلام سنجد البون شاسعًا وهو بون في صالح شيوخ المسلمين ، وأجدني كمتخصص في علم النفس الإكلينيكي أقرر أن منهج فرويد في تفسير الأحلام بغرض شفاء المرضى النفسيين فشل فشلًا ذريعًا في ذلك لافتقاده لوجود قواعد وقوانين علمية يمكن التحقق منها علميًّا ، كما أنه يعتمد على قوة حدس المفسر ، وإذا كان الحدس نوعًا من الإلهام الروحي أو العقلي أو الإلهي ، فليس كل مشتغل بعلم النفس الإكلينيكي له قدرة على تطويع الحدس ، والعلم الذي ينفع به بداية لابد له من قواعد وأصول يمكن أن يكتسبها كل امرئ ويعمل بها في مجال التطبيقات ، وهذا ما يفتقد إليه منهج فرويد في التحليل النفسي ، وهذا ما أثبتته دراسات وبحوث علم النفس الإكلينيكي المنطلقة من نظرية

فرويد في التحليل النفسي .. أثبتت العجز التام لهذه النظرية في مجرد تحسن المرضى النفسيين ، ناهيك عن جلب الشفاء لهم (ص ٣ - ٥) .

وحدثنا المؤلف بعد ذلك عن تعبير رؤيا الكتب السماوية والأنبياء والملائكة ولم يرد فيها جميعًا ما يمكن استنباطه من مفاهيم سيكولوجية أخرى ، اللَّهم إلَّا الحديث الذي ورد في (ص ١٣) عن الغل والحقد والحسد والألفة والمحبة وكلها تشير إلى أنواع من الانفعالات Emotions التي تعد إحدى موضوعات علم النفس العام من منظور علم النفس الحديث . كذلك الحديث الذي ورد في (ص ١٥) حاسة الشم والأنف وسرعة الإدراك واضح بذاته ؛ لأنه يدخل الإحساس والإدراك الحسي ، والحديث عن ضيق النفس في (ص ١٦) يدخل الحديث عن القلق والمخاوف المرضية والاكتئاب في علم النفس الإكلينيكي ، والحديث عن السمع والأذن وغيرها من أعضاء الحس المختلفة في (ص ١٦ - ١٨) يدخل ضمن دراستنا للحواس وأعضاء الحس في علم النفس العام .

وما ورد في (ص ٢٨) عن أحوال النفس وتأثيرها بالرؤيا ، من انقباض وانشراح فهذا يرادف حديثنا عن الانفعالات من ناحية ، وعن بعض سمات أو حالات النفس الإنسانية مثل حالة الاكتئاب التي تقابل الانقباض ، وحالة المرح التي تقابل الانشراح .

وفي **باب الباء** حيث الحديث عن تعبير رؤيا قراءة البسملة وبيت المقدس والبرق والبراق .. وكل الأشياء والأحداث والوقائع التي تبدأ بحرف الباء لم يرد ما يمكن لنا استشفافه من مفاهيم سيكولوجية سوى ما يمكن أن يدخل تحت ما ذكرناه مسبقًا .

كذلك لم يرد في **باب التاء** الذي عبر فيه المؤلف عن رؤيا كل الأمور التي تبدأ بحرف التاء مثل التوراة والتسبيح والتكبير والتهليل والتوكل على اللَّه ... إلخ ما يمكن الوقوف عليه كمفاهيم سيكولوجية ، وإن كانت الرموز التي ترد في الرؤى كوسيلة من وسائل تعبيرها تعد في نظر علم النفس إحدى أدوات التفكير الإنساني ، وهي تعني ، أي الرموز Symbols ، أي إشارة تحل محل شيء مادي وهي بالطبع إشارة عقلية ... ومن الطبيعي أن تشيع هذه الرموز على طول هذا الكتاب بجزئيه ، ولا خير في ذلك ، فهو كتاب لتعبير الرؤى والأحلام .

ويسير الكتاب ومؤلفه على وتيرة واحدة في تعبيره للرؤى التي يراها الإنسان في منامه ؛ فيستخدم الرموز في ذلك ، ولكنه حين الاستخدام يلتزم بقواعد الرؤيا التي سبق الحديث عنها ولا يستطيع تجاوزها وإلا سيعتبر في نظر الدين الإسلامي كذابًا ، بل ومارس

الكذب على رسول الله ، ومن ثم سوف يتبوأ مقعده من النار ، من منطلق أن الرؤيا الصادقة الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة ، ومن كذب في الرؤيا فكأنه كذب على رسول الله ، ومن تقوّل أو كذب على رسول الله فليتبوأ مقعده في النار . ونظرًا لخوفنا من تكرار نفس المفاهيم والمصطلحات السيكولوجية التي ترد في طيات أبواب الكتاب الباقية ، سنحاول فيما يلي من صفحات أن نشير إلى الصفحات التي ترد من خلالها مفاهيم سيكولوجية جديدة ، دون تقيد بأي باب من أبواب الحروف الهجائية .

وبتحليل مضمون ما ورد في الجزء الأول من أبواب تبدأ بحرف الألف وتنتهي بحرف السين ، وذلك بهدف الوقوف على الجديد من الأقوال التي يمكن الوقوف منها على مصطلحات وموضوعات تشغل حيزًا في علم النفس الحديث لم نجد إلَّا مفاهيم سيكولوجية مرادفة لما سبق ذكره ، وهي كلها تندرج تحت التأويل والفهم وهما مرادفان للإدراك ، وكذلك الانفعالات من فرح وسرور وهم وغم وضيق وفرح وغيرة وحب وكراهية وإيمان وكفر .. إلخ وسمات الشخصية ، والرموز التي يتم تعبير الرؤيا من خلالها ، والحس والإحساس ، والتذكير والرؤية والصور الذهنية ، والدوافع (ص ١١٧) كالجوع والعطش والجنس والطعام والشراب وهي كلها من الدوافع البيولوجية أو الأولية من منظور علم النفس الحديث ؛ والجنون في (ص ١١٦ ، ١١٧) هو المرض العقلي الذي يصيب الإنسان من قبيل الفصام والاكتئاب الذهاني Psychotic Depression ، والضلالات في (صفحة ١٢٣) هي من منظور علم النفس الحديث عبارة عن المعتقدات الخاطئة التي تشيع لدى مرضى الفصام والاكتئاب الذهاني (العقلي) والوسواس القهري ، والحديث عن المعتقدات في (ص ١٣٢) يرادف الحديث عن القيم والاتجاهات والمعتقدات في علم النفس الاجتماعي وفي دراسات الشخصية الإنسانية . ولم نجد غير ذلك في الجزء الأول من كتابنا هذا ، والآن سنعرض للجزء الثاني وما ورد فيه من مفاهيم سيكولوجية .

يبدأ الجزء الثاني وفقًا للتصنيف الذي اتبعه المؤلف بحروف الهجاء التي تبدأ بحرف الشين وينتهي بحرف الياء ، واستخدم الرموز في التعبير عن الرؤى ومحاولة تأويلها وفقًا لنفس القواعد السابقة الخاصة بالرؤيا ذاتها وبالشخص الذي يقوم بالتأويل أيضًا . ولا حاجة بنا هنا أيضًا لعرض ما ورد من تأويل وتعبير للرؤى ، ولكننا سنواصل ما بدأناه في الجزء الأول من هذا الكتاب ، بحثًا عن المفاهيم السيكولوجية التي يمكن استنباطها وربطها بما ورد من مرادفات لها في فروع علم النفس الحديث .

بدأ **حرف الشين** بتأويل رؤيا سيدنا (شعيب) في المنام ، فإن من يراه يرى نعمة

وسرورًا وأولادًا وحياة طيبة ، ورؤيا سيدنا شعيب عليه السلام في المنام معناها أنك بينك وبين قوم يبخسون الكيل والميزان معاملة ويبخسونك فيها ويؤذونك وينتهي باب حرف الشين برؤيا الشقيق ، فالذي يراه في المنام يدل على النار لحرمته أو التعبير أو الخد المورد والشامة السوداء فيه وربما دل على مرض الشقيقة أو الأخ الشقيق ، بينما رؤية « الشيرج » في المنام تدل على الجمع بين الدنيا والآخرة ، والذي يرى « الشنق » في المنام فهو له شماتة وشهرة وربما كان علو قدر ، وإذا لم تتغير حالته في المنام إلى حالة رديئة ربما دل على التهمة والقذف في العرض إلَّا أن يكون حرًّا فإنه يكون دليلًا على قضاء الدين .

أما من ناحية المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب ، فأولها ، كما هو الحال في الجزء الأول ، القدرة على الاستدلال المعرفي والمنطقي وفقًا لقواعد وأصول تعبير الرؤيا .

وهذا المفهوم السيكولوجي يستنبط استباطًا بطريقة غير مباشرة ومن المفاهيم السيكولوجية التي تتكرر وتشيع في طول هذا الجزء مفهوم الانفعالات فقد وردت حالات للرائي تدل عليه من قبيل الهم والغم والقلق والخوف والكرب في صفحة (٦) ، وورد في ص ٨ كلام عن الوساوس وهي تقابل الهلاوس Hallucination في علم النفس ، وهي استجابات أو ردود أفعال تصدر عن الفرد دون وجود منبهات أو مثيرات خارجية . وورد في (ص ١٢) كلام يدور حول الصديق وصفاته من وفاء وصدق ونصح في الخير وأمانة ، وكلها مما يدخل ضمن دراسات علم النفس الاجتماعي ، وفقًا لموضوعات العلاقات الشخصية الاحتماعية المتبادلة وبحوث الصداقة .

– **باب الصاد** : بدأ باب الصاد بتعبير رؤيا « الصحف » فمن رأى في منامه صحفًا فهي شهود أو أئمة يهتدي بهم ، أو هي دالة على العلم والهداية وعلى الأخبار الصحيحة . و « الصحفة » في المنام رزق للإنسان فمن رأى أثر يلق صحفة فإن رزقه قد نفد وأجله حضر ، ومن رأى الملك « صديقون » عليه السلام وهو الملك الموكل بالرؤيا وضرب الأمثال من اللوح المحفوظ تبدل رؤية في المنام على البشارة والأفراح وإنجاز الوعد والموت . وانتهى هذا الباب برؤيا « الصدا » فهو في المنام رجل مرائي يظهر الخشوع والنسك بالنهار ويفجر بالليل من السرقة والأذى للناس . وتعبير رؤيا « الصوف » فهو في المنام لمن رأى أنه لبسه مال مجموع كثير شريف يصيبه وربما كان نقرة من الفضة لشرف الضأن الذي يخرج منها لكثرة منافعه للخلق فلا نوع من الثياب أجود من الصوف ، ومن رأى أنه نام على الصوف نال مالًا عظيمًا من جهة امرأته ونومه بمنزلة الفراش امرأة ....

ولم يرد فيه جديد من المفاهيم السيكولوجية غير التي وردت مسبقًا .

– **باب الضاد** : بدأ بتعبير رؤيا « الضوء » في المنام فهو دليل على رسول أو علم وربما دل على التمكن من فعل ما يريد في الضوء ، و « الضباب » رؤيته في المنام التباس على الرائي فيما هو فيه من أمر دين أو دنيا ، ومن رأى ضبابًا يُصب عليه فإنه يريد الباطل فليتق اللّه تعالى ويدع ما هو فيه . ومن رأى « ضمان » في منامه دال على الالتزام بما دل المضمون عليه فإن كان المضمون خيرًا كصدقة يضمنها عن غير أو قضاء حاجة أو إغاثة .. وانتهى هذا الباب بتعبير رؤيا الضفدع ، فهو في المنام رجل عابد مجتهد في طاعة اللّه تعالى ، ومن رأى أنه مع الضفادع حسنت صحبته لأقاربه وجيرانه ، ومن رأى أنه يأكل لحم ضفدع نال منفعة قليلة من أقربائه وجيرانه ، وربما تدل الضفادع على أرباب الحرص على أبواب السلاطين أو أرباب القراءة وأهل التسبيح من الفقراء والمتزهدين ، تدل على أصحاب الغوغاء من مكان إلى مكان ، ومن رأى أنه يخالط ضفدعًا أو أصابه فإنه يخالط رجلًا صالحًا فاضلًا .

– **باب الطاء** : بدأ هذا الباب بتعبير رؤيا « الطواف » في المنام ، فهو إن كان عبدًا أُعتق ، أو كان عصيًّا عتق من النار ، وإن كان أعزب تزوج وطاف على زوجته كما ينبغي ، وإن كان أهلًا للتقدم تقدم ونال مرتبة رفيعة وربما دل ذلك على الوفاء بالنذر . ومن رأى (طعان) بالرمح في المنام دل على النازلة ومدافعتها بالمال والرجال ... (الطلاق) في المنام هو للأعزاب فراقه لما هو عليه خيرًا أو شرًا ، طلاق المتزوج بطلان معيشته أو موته خصوصًا إذا كان مريضًا ... وانتهى هذا الباب بتعبير رؤيا (الطاحون) وهو دار الرحى فالطاحون الذي يطحن فيها البُر في المنام دالة على دار العلم التي يفصل فيها الحق من الباطل وعلى دار الحاكم لما فيها من الدخول والخروج والكيل والميزان والعدل والإنصاف ، وتدل على الرزق والفائدة لما فيها من الزكاة في الطحن وتدل على الأزواج لارتكاب الحجرين بعضهما فوق بعض .. أما عن المفاهيم السيكولوجية فلم يرد شيء يزيد عما ذكرناه سابقًا .

– **باب الظاء** : بدأ هذا الباب بتعبير رؤيا (ظهور) فمن ظهر له في المنام ما كان عنه مكتومًا دل على الأنس بعد الوحشة والفائدة بعد المغرم ... و « ظهار » المرأة في المنام يدل على ظهور الأسرار الموجبة للإنكاد ، وربما دل الظهار على اليمين ، وربما دل الظهار على الولوغ بالأدبار والتولي يوم الزحف ... ويدل (الظفر) في المنام على الظفر بالأعداء وربما دل على السعة في الرزق .... ويدل (الظلم) في المنام ، وخاصة من

ذوي الأقدار ، على تعجيل الدمار وتخريب الديار ... وانتهى هذا الباب بتعبير رؤيا (ظليم) وهو في المنام رجل بدوي أو خادم ، فمن رأى أنه ذبحه من قفاه يلوط بخادم ومن رأى أنه وجد ظليمًا من الأمام نال منه حكمًا وقضاءً .

– **باب العين** : بدأ بتعبير رؤيا الذي رأى عرش اللّٰه الأعظم في المنام كان بشارة له بسلامة معتقده ، ومن رأى العرش واللّٰه ﷻ مستو عليه دل على صحة يقينه وحسن دينه ... ومن رأى سيدنا عيسى في منامه يكون رجلًا مباركًا كثير الخير كثير السفر في رضاء اللّٰه تعالى ، وقيل لا يصيبه مكروه في تلك السنة ... ومن رأى (عزير) عليه السلام في المنام أصاب رياسة بعلمه وكتابته وحكمه ، ومن رأى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المنام يكون طويل العمر محمود الفعل قوالًا بالحق وربما رزق الاعتمار إلى بيت اللّٰه الحرام ، ومن رأى أنه يصافحه نال دينًا واسعًا وورعًا شافيًا وفراشة وصيانة ؛ لأن له من الفضل ما يستغني بشهرته عن ذكره وانتهى هذا الباب بتعبير رؤيا « العروة » فهي في المنام الدين فمن تمسك بها فقد تمسَّك بالدين ، ومن تعلق بعروة وأدخل يده فيها فإن كان كافرًا أسلم واستمسك بالعروة الوثقى ، وإن استيقظ ويده فيها مات على الإسلام والعروة والزر يدلان على امرأة الرجل ... ومن رأى (عيال الإنسان) في المنام غنى لمن رآهم ، وتدل رؤية (العرب) في المنام على تسهيل الأمور الصعبة ، وتدل رؤية العجم في المنام على الأمور الشاقة ، ومن رأى أنه صار أعجميًا نال ذلًا وإهانة .

– **باب الغين** : بدأ بتعبير رؤيا (غفران الذنب) فمن رأى ذلك في المنام دل ذلك على الصدقة أو الكفارة (وغض البصر) في المنام دليل على المحافظة على أوامر اللّٰه ونواهيه ، ومن رأى (الغسل) في المنام بماء طهور من جنابة أو الجمعة دل على التوبة من الذنوب وقضاء الواجب من بر الوالدين أو الأصحاب .... وانتهى بتعبير (طائر الغداف) فهو يدل على الولد أو المملوك ، ومن رأى أنه أصاب غدافًا أو ملكه فإنه ينال ولاية وسلطانًا ، فإن لم يكن أهلًا لذلك فإنه يأتي بحق لا يقبل منه ويكذب...ومن رأى (غضابة) فهي في المنام يدل رؤيتها على التلبيس وأخلاق الأشرار .

– **باب الفاء** : بدأ بتعبير رؤيا (فاطمة) في المنام فهي بنت رسول اللّٰه ﷺ ، ورؤيتها تدل على فقد الأزواج والآباء والأمهات ... بينما تدل رؤية (الفقيه) على الذكاء والفطنة والعلم ، وإن كان الرائي عاصيًا تاب ... وانتهى برؤيا (فسقية الماء) فهي في المنام ما يتوقاه الإنسان من الفسق فإن قيل فيها بركة فهي كربة وربما دل الفسقية على

المرأة الجليلة إن كان فيها ماء فهي ذات مال وإن كان حولها أملاك وعقارات فهي ذات مال وخدم وأولاد ...

- **باب القاف** : القرآن في المنام يدل عند قراءته من مصحف على الأمر والنهي والشرف والسرور والنصر ... وتدل رؤيا (القارئ) على المقابر على النصح والإرشاد ، والقيامة في المنام نذير وتحذير لمن آراها ... والقلق في المنام ندم واستغفار فمن رأى أنه قلق في المنام فهو نادم مستغفر يوبخ نفسه ويلومها على ما صدر منه من الذنب ، وانتهى هذا الباب بتاويل رؤيا (القمين) ، فمن رأى قمينًا في المنام دل ذلك على الهموم والأنكاد والشبهات .

- وعن المفاهيم السيكولوجية ورد في (ص ١٦٩) حديث عن القلق وهو شعور دفين بالانقباض وهو موضوع الساعة في علم النفس الإكلينيكي هذه الأيام وهو يصنف ضمن مجموعة الأمراض العصابية (أي النفسية وليس الأمراض العقلية) .

- **باب الكاف** : (كوثر) ، من رأى في المنام أنه يشرب من نهر الكوثر الذي في الجنة نال علمًا ويقينًا حسنًا واتباعًا لسنة النبي ﷺ ، وإذا كان كافرًا أسلم أو عاصيًا تاب ... ومن رأى (الكعبة) في المنام أصبح خليفة أو وزيرًا أو رئيسًا ... وانتهى هذا الباب بتعبير رؤيا (الكهف) فهو في المنام يدل على من يأوي الإنسان إليه من سيد وإمام ووالد وأستاذ وزوجة وصناعة ، وربما دل الكهف على ستر الأمور لمن يريد سترها ، ويدل للبطال على الخدمة والقرب من الملوك والخلاص من الشدائد وإن كان الرائي مريضًا أو مسجونًا خلص من ذلك كله وربما طال وكثر خيره وذلك قياسًا على قصة أهل الكهف .

- **باب اللام** : تدل رؤية سيدنا (لوط) في المنام على الأنكاد والهموم من قومه وزوجته ، وربما انتصر الرائي على أعدائه ورأى فيهم المقت من الله تعالى ، وتدل رؤيته على المقت والطمس والخسف والهلاك إن كان الناس على ما كان عليه قومه ... وتدل رؤية (اللوح) المحفوظ على الستر للأعمال و على البشارة لمن هو في شدة والعافية لمن هو مريض ؛ لأنه منزه عن النقائص ... وانتهى هذا الباب بتعبير رؤيا (لبؤة) فمن رآها في المنام فهي امرأه شريرة عزيزة الولد ، واللبوة ابنة مالك ، ومن رأى أنه يجامع لبوة فإنه ينجو من شدة عظيمة ويعلو أمره ويظفر بأعدائه ، وإن كان في حرب ظفر ببلاد كثيرة ومن شرب لبن لبوة أصاب مالاً من سلطان وظفر بعدوه ... ومن رأى (لقلق) فهو في المنام يدل

على أناس يحبون الاجتماع والمشاركة فإذا رأى اللقالق مجتمعة في الشتاء دلت على لصوص وقطاع طرق وأعداء محاربين وعلى برد واضطراب في الهواء فإن رآها متفرقة فإنها دليل خير لمن أراد سفرًا وكان مسافرًا ، وربما تدل على أن المسافر يقدم من سفره .

– **بدأ باب الميم** : بتعبير رؤيا سيدنا محمد ﷺ في المنام ، فمن رآه في المنام فقد رآه حقًّا فإن الشيطان لا يتمثل به ، ومن رأى سيدنا موسى عليه السلام في المنام فإن اللّه يهلك على يديه جبارًا وينال من بعده عزًّا ونصرًا ويكون فيه حدة ولا يذل ولا يخذل ، وتدل كذلك على قرة أصحاب الحق وقهر أصحاب الباطل ... ومن رأى أنه يكتب (مصحفًا) بيده فإنه يجمع الدين والعلم والعمل وينفع الناس ... وانتهى هذا الباب بتأويل رؤيا (الموت) فالموت في المنام نقص في الدين وفساد فيه وعلو شرف في الدنيا إذا كان معه بكاء وصراخ وحمل على أعناق الرجال على سرير أو نعش ما لم يدفن في التراب فإذا دفن في التراب لم يرج منه صلاح بل تستحوذ عليه دنياه ويكون أتباعه في سلطانه بقدر ما تبعه في جنازته وعلى كل حال يقهر الرجال ويركب أعناقهم ...

– **باب النون** : بدأ بتعبير رؤيا سيدنا (نوح عليه السلام) في المنام ، فمن رآه في منامه فإنه يعيش عيشًا طويلًا وتصيبه شدة عظيمة وأذى من الناس ، ثم يظفر بهم ويرزق أولادًا من زوجة رديئة ويكون شكورًا . قيل من رأى نوحًا عليه السلام فإنه يكون رجلًا عالمًا مجتهدًا في طاعة اللّه تعالى حليمًا ذا أعداء كثيرة وينصر عليهم وينال ولاية عظيمة ولا يطيعه فيها أصحابه ، ثم يظفر بهم بإذن اللّه تعالى ... (والنار) في المنام بشارة وإنذار وحرب وعذاب وسلطان وحبس وخسارة وذنوب وبركة حسب أحوال الرائي ومن رأى (الندى) في منامه دل على بشارة وكذلك لفظ الوابل والطل ... وانتهى هذا الباب بتعبير رؤيا (النساء) فرؤيتهم في المنام تدل على زينة الدنيا ... ورؤية (النقصان) في المنام تدل على النقصان في المال والنعمة ، وتدل رؤية (النجاسة) في المنام أن المرء به نجاسة أو كان عنده وديعة وأمانة أو شهادة أو عليه دين أو غير ذلك مما إذا لم يردها كان آثمًا ... ولم يرد في هذا الباب شيء يدخل في نطاق مفاهيم وموضوعات علم النفس الحديث .

– **باب الهاء** : بدأ هذا الباب بتعبير رؤية سيدنا (هود عليه السلام) ، فمن رآه في المنام فإنه يسلط عليه قوم سفهاء جهال ، ثم يظفر بهم وينجو من شدة عظيمة ، أو يرى رشدًا وخيرًا وينجو قوم على يديه .. ومن رأى سيدنا هارون في المنام صار إمامًا وإذا كانت له حاجة قضيت ، ومن رأى موسى وهارون عليهما السلام فإنه يهلك على يديه جبار عظيم ظالم ... ومن رأى (هابيل) في المنام فإنه يحسد ويصيب من عدوه نكاية وربما قتل

بغير جرم فإنه بظلمه في نفسه ظالم ، ومن رأى قابيل في نومه فإنه يطيع ربه ويناله شدة وضعف بسبب امرأة أو أذى قرابة فيه رضا لله ... وانتهى هذا الباب بتعبير رؤيا (هديل) فهو في المنام رجال فقيه حسيب أديب بار لطيف قليل المال كثير الأتباع . ويدل (هدب العين) في المنام على وقاية الدين وربما كان صلاح العين من مال أو ولد أو علم ، ومن رأى أنه قعد في ظل هدب عين فإن كان صاحب دين وعلم فإنه يعيش بظل دينه وعلمه ، وإن كان صاحب دنيا فإنه يأخذ أموال الناس ويتوارى ، ومن رأى أنه ليس لعينيه هدف فإنه لا يحفظ شرائع الله والدين ...

- **باب الواو** : بدأ بتعبير رؤيا (الوحي) فمن رأى في المنام أنه يوحى إليه دل على ستة أوجه ، أن يكون من يخبر به حقًا أو يفوض إليه أمره وعلو شأن أو زيادة في العلم أو يكون قد مضى من عمره أربعون سنة أو كرامة من الله تعالى وعصمة . ومن رأى في منامه أنه (توضأ) على وضوئه بما يجوز به الوضوء فإنه نور على نور ، وربما دل الوضوء على قضاء الحوائج عند أرباب الصدور . (والوكالة) في المنام ذنوب تجمع على من رأى أنه صار وكيلًا ، وتدل الوكالة على الغنى والتحكم فيما يملكه غيره وما ينضم إليه ، فإذا كان الموكل مريضًا شفي أو صحيحًا مرض ؛ لأن الوكالة استنابة في التصرف وإن كان يرجو منصبًا حصل له .

وانتهى هذا الباب بتعبير رؤيا (الوالي) فهو في المنام دال على الهموم والأنكاد وشرب الخمور واللهو .. ومن رأى أنه (وكيل) في منامه فهو رجل يكتب لنفسه ذنوبًا ، ومن رأى في منامه (وقاد النار) فهذا دليل خير وراحة وقضاء حاجة وقرب من الأكابر ، وتدل رؤية الوقاد على العلم ...

- **باب الياء** : وهو مسك الختام ، فقد بدأ بتعبير رؤيا (يعقوب عليه السلام) فمن رآه في المنام رزق قوة ونعمة ظاهرة وأزواجًا وأولادًا أقوياء ونال من قبل أحدهم حزنًا ، ثم يفرج عنه ويُسر وتقر عينه بما أحب .. ومن رأى سيدنا (يحيى عليه السلام) في منامه فإنه يؤتى ورعًا وتقوى ... و (اليد) في المنام إحسان الرجل وظهره وسنده ... وانتهى هذا الباب بتعبير رؤيا الرجل (اليهودي) فهو في المنام عدو سواء كان شيخًا أو شابًا ... ومن رأى (يربوع) فهو في المنام رجل حلاف كذاب كذلك وهو في المنام حفار أو نباش أو بحاث ، ومن رأى في منامه (يعسوب) فهو رجل مخصب نفاع مبارك عظيم الخطر مؤمن زاهد دين لا يؤذي أحدًا فمن نال منه شيئًا نال حلالًا مع صحة جسم ومن ملك كثيرًا منه فإنه يلي على قوم أغنياء .

ومن ناحية المفاهيم السيكولوجية التي وردت في هذا الباب الأخير لم نجد غير ما ورد من مفاهيم في كل الأبواب السابقة . وفي النهاية عرض المؤلف لخاتمة الكتاب أورد فيها الطريقة التي صنف على أساسها وقد ذكرناها في المقدمة ، وأورد عددًا من المصادر التي اعتمد عليها في تأليفه هذا الكتاب ، واستغرقت هذه الخاتمة من (ص ٣٤٩) حتى النهاية في (ص ٣٦٢) .

* * *

الإشارات في علم العبارات (١)

عرض : د . محمد نجيب الصبوة

عرض الكتاب :

هذا الكتاب يضمه هامش الجزء الثاني من كتاب الشيخ عبد الغني النابلسي « تعطير الأنام في تعبير المنام » ، واستغرقت هوامشه (٣٥٠ صفحة) من القطع الكبير ، تم تصنيفها إلى ثمانين بابًا وَفقًا لأنواع الرؤى المختلفة ، وكانت المسافة أيضًا بين كل سطرين لا تزيد على مسافة واحدة بلغة أهل الاختصاص في مجال الطباعة .

ويقول الشيخ خليل بن شاهين الظاهري المعروف بأنه مؤلف هذا الكتاب : إنه اعتمد في تأليفه وتصنيفه لهذا الكتاب على كتب المتقدمين وأقوال المشايخ المعتبرين مثلًا كتاب : « الأصول » لدانيال الحكيم ، وكتاب « التقسيم » لجعفر الصادق ، وكتاب « الجوامع » لمحمد ابن سيرين ، وكتاب « الدستور » لإبراهيم الكرماني ، وكتاب « الإرشاد » لجابر المغربي ، وكتاب « التعبير » لمؤلفه إسماعيل بن الأشعث ، وكتاب « بيان التعبير » لعبدوس ، وكتاب « جمل الدلائل » ، وكتاب « مبادئ التعبير » ، وكتاب « كافي الرؤيا » ، وكتاب « التعبير » للطاموسي ، وكتاب « مقر الرؤيا » ، وكتاب « تحفة الملوك » ، وكتاب « منهاج التعبير » لخالد الأصفهاني ، وكتاب « مقدمة التعبير » ، وكتاب « حقائق الرؤيا » ، وكتاب « الوجيز » لمحمد ابن شامويه ، وكتاب « التعبير » لأبي سعيد الواعظ ، وكتاب « كامل التعبير » للشيخ أبو الفضل حبيش بن إبراهيم بن محمد النقيشي وكتاب « الإشارات إلى علم العبارات »

---

(١) تأليف : ابن شاهين . (المطبوع على هامش الجزء الثاني من تعطير الأنام) .

لأبي عبد اللَّه بن أحمد بن عامر السالمي ، وكتاب « الدر المنظم في الشر المعظم » لمحمد القرشي النصيبي ، وغير ذلك مثل : الشيخ أوحد الدين عبد اللطيف الدمياطي ، والشيخ عبد القادر الأشموني ، والشيخ يوسف الكربوني السكندري ، والشيخ محمد الفرعوني ، والشيخ حسن الرملي ، والشيخ نور الدين الكوخي الغزاوي ، والشيخ تقي الدين القدسي وغيرهم كثيرون .

ويقول الشيخ خليل بن شاهين الظاهري مؤلف الكتاب : إنه أضاف إلى ما سبق عند تصنيفه للكتاب ، ما اتفق له ولغيره من الرؤيا الصحيحة التي ظهرت كفلق الصبح ، فما اتفقوا عليه بَيَّنَهُ بقول واحد ، وما اختلفوا فيه بين تعبير كل واحد على حدة ، وما ظهر معناه أوله بدليل أو معنى واضح ، وأشار في عرضه له بقوله : قال بعض المعبرين أو قال بعضهم .

ويرى صاحب هذا الكتاب أن علم الرؤيا له أصل في الشريعة منها قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ ﴾ [يوسف : ٢١] ، وأيضًا قال تعالى : ﴿ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾ [يونس : ٦٤] ، حيث ذكر بعض المفسرين أن البشرى هنا هي الرؤيا الصالحة .

كذلك ورد في سنة النبي ﷺ بعض الأحاديث الدالة على أن علم الرؤيا له أصل في الشريعة ، منها قوله ﷺ : « **مَنْ لم يؤمن بالرؤيا الصالحة لم يؤمن باللَّه واليوم الآخر** » ، وقوله ﷺ : « **لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، وهي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له** » ، ومنها قوله عليه الصلاة والسلام : « **أصدقكم حديثًا أصدقكم رؤيا وإذا اقترب الزمان لم تكد تكذب رؤيا المؤمن ولا ينبغي لأحد أن يكذب في رؤياه يزعم أنه غير ما رأى فإن الرؤيا وحي يوحيه اللَّه له في المنام** » ، ومنها قوله ﷺ في صحيح البخاري : « **إن من تحلكم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ولم يفعل** » . ومعنى الحلم هو معنى الرؤيا لكن غلب استعمال الرؤيا في المحبوبة والحلم في المكروهة .

بعد ذلك اتبع المؤلف نفس طريقة ابن سيرين والشيخ عبد الغني النابلسي في عرضه للرؤيا وتأويلها ، وبنفس الأسلوب فَرَقَ منذ البداية بين الحلم والرؤيا وأضعاث الأحلام ، وحدد صفات المعبر ، والأصول التي ينبغي الاستناد إليها عند التعبير ، والقواعد العلمية التي ينبغي له هضمها حتى يأتي تعبيرًا سليمًا (ص ٤ – ٦) .

وكل الاختلاف الذي يميز كتابه عن كتاب ابن سيرين وكتاب الشيخ عبد الغني النابلسي أنه رتب وصنف أبواب كتابه وَفقًا لموضوعات الرؤيا ، وليس وَفقًا لحروف الهجاء .

* * *

أبو ذر النراقي (ت ١٢٠٩هـ)
جامع السعادات [1]

عرض : د . إبراهيم شوقي عبد الحميد

التعريف بالمؤلف :

– هو الشيخ الجليل المولى محمد مهدي بن أبي ذر النراقي ، أحد أعلام المجتهدين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الهجرة ، ولد بنراق بإيران عام (١١٢٨م) تقريبًا وتوفي (١٢٠٩هـ) ، والمؤلف هو أبو المولى أحمد النراقي صاحب (مستند الشيعة) المشهور في الفقه ، وصاحب التأليفات الثمينة ، درس على يد خيرة علماء عصره ، منهم الولي إسماعيل الخاجوئي بأصفهان ، والشيخ محمد الحكيم العالم الحاج محمد زمان ، والشيخ محمد مهدي الهرندي وكذلك على يد الوحيد البهبهاني ، والشيخ يوسف البحراني ، والشيخ مهدي الفتوني ، درس الفلسفة ، ويظهر أثر تضلعه في الفلسفة في هذا الكتاب ، لم يقتصر على دراسة الفقه والأصول ، فقد شارك في العلوم الرياضية كالهندسة والحساب والهيئة ، وله مؤلفات فيها .

عرض الكتاب :

يتكون الكتاب من ثلاثة مجلدات ، يقع كل منها في حوالي أربعمائة صفحة .

وفيما يلي نعرض لتفاصيل المجلدات الثلاثة وما يشتمل عليه كل منها من دلالات ومفاهيم نفسية :

---

(١) تحقيق : السيد محمد كلانتر ، تقديم محمد رضا المظهر ، (ط٤) ، (بيروت) : مؤسسة الأعلى للمطبوعات ، (د . ت) .

المجلد الأول :

ويشتمل على مجموعة من الفصول هي :

تأثير المزاج على الأخلاق (ص ٥٣) ويشير إلى دور الانفعالات على السلوك الأخلاقي ، ويضاف إلى ذلك إشارة المؤلف إلى الفروق الفردية Individual Differences في المزاج Temperament .

تأثير التربية على الأخلاق (ص ٥٥) ويتصل هذا الموضوع بالتنشئة الاجتماعية Socialization ، وفيه يعرض لإمكانية تغيير الأخلاق ، أي تعديل قوتي الغضب Anger والشهوة (الغرائز Instincts) في اتجاه الوسط ، لا الإفراط ولا التفريط .

النفس وأسماؤها وقواها الأربع (ص ٦١) وفيه يشير إلى أن النفس تسمى روحًا لتوقف حياة البدن عليها ، وعقلًا لإدراكه المعقولات ، وقلبًا لتقلبه في الخواطر .

وللنفس قوى أربع : عقلية ملكية ، وشهوية بهيمية ، وغضبية سبعية ، ووهمية شيطانية .

ويتصل هذا الموضوع بالتكوين النفسي للإنسان بما يشتمل عليه من قدرات وانفعالات ودوافع وسلوك Abilities, Emotions, Motives, & Behaviour .

السعادة (ص ٦٩) ويعرض فيه لمفهوم السعادة وتقسيماتها وعلاقتها بالنفس والبدن ويتصل هذا الموضوع بالتوافق النفسي Psychological Adjustment ، والصحة النفسية .

غرائز كل قوة من قوى النفس (العقل ، والغضب والشهوة) ، (ص ٧٥) ويعرض في هذا الموضوع للذات والآم كل منهما في حالتي الإشباع والحرمان وتندرج اللذات (الانبساط والفرح) Pleasures ، والآلام (الانقباض والحزن) ضمن موضوع الانفعالات Emotions .

كما يشير كل من الإشباع والحرمان إلى الحاجات والدوافع الفطرية والاجتماعية ، ثم يعرض لدور العقل في ضبط الغرائز والشهوات والانفعالات (أي الضبط السلوكي) Behavioural Control .

تقييم آخر لقوى النفس (ص ٨٤) حيث يرى أن للنفس قوتين هما قوة الإدراك Perception وهي إحدى الوظائف العقلية العليا وتنقسم إلى العقل النظري والعقل العملي ، وقوى التحريك وهي :

أ - قوة الغضب وهي مبدأ دفع غير الملائم .

ب - قوة الشهوة وهي مبدأ جلب الملائم ويقابل ذلك في علم النفس الحديث الانفعالات Emotions ، والدافعية Motivation وما يتضمنه كل منهما من سلوك Behavior .

إشارة إلى أن العقل النظري هو المدرك للفضائل والرذائل (ص ٩١) وتتصل بسيكولوجية الإدراك .

وفي الحديث عن العلاقات المتبادلة بين قوى النفس (ص ٨٥ - ٨٦) يشير إلى أنه إذا تسالمت قوى النفس وخضعت العاملة والشهوية والغضبية للقوة العاقلة ، حصلت فضائل ثلاث هي الحكمة والعفة والشجاعة ، في حين أن العدالة تحدث بكمال القوى الأربع وتمامها ، والشجاعة تحدث بإطاعة القوة الغضبية للعاقلة ، والعفة في انقياد الشهوية للعاملة : ويتصل هذا الموضوع بالقيم Values ويتسق مع ذلك فصل الفرق بين الفضيلة والرزيلة (ص ١٠٨) ، وفصل العدالة أشرف الفضائل (ص ١١٢) .

فصل تحقيق الوسط والأطراف (ص ٩٤) ويشير هذا الفصل إلى أن لكل فضيلة رذيلة تضادها ، وأن لكل فضيلة حدًّا معينًا ، ويؤدي التجاوز عنه بالإفراط والتفريط إلى الرذيلة ، فالفضائل تمثل الأوساط والرذائل بمثابة الأطراف . ويتصل هذا الفصل بفكرة المتصل أو البُعد Continuum or Dimension وكذلك بمفهوم التطرف Extremeness والاعتدال Normality .

أجناس الرذائل وأنواعها (ص ٩٩) حيث يعرض لرذائل كل قوة من قوى النفس بأن يعرض لكل صفة في تطرفها بالإيجاب (بالزيادة) وبالسلب (بالنقصان) كالتهور - الجبن ويتوسطها الشجاعة ، والشره - الخمود ويتوسطها العفة .

ويتصل هذا الموضوع بالمشكلات والاضطرابات السلوكية والانفعالية والعقلية Behavioural, Emotional & Mental Problrems .

طريق معرفة الأمراض النفسانية (ص ١٣١) ويشير إلى أن المرض النفسي انحراف كمي بالزيادة أو النقصان ، وكيفي في إحدى أو بعض قوى النفس (التمييز ، الغضب والشهوة) ويعرض لمظاهر هذه الأمراض المتصلة بكل قوة من قوى النفس ، ومن هذه الأمراض ما يتصل بالذكاء Intelligenec كالمكر والدهاء والضعف العقلي Mental Retardation والإفراط والتفريط في الانفعالات وفي الشهوة .

أسباب الأمراض النفسية (ص ١٣٢) والمعالجات الكلية لمرض النفس (ص ١٣٣) .

ويشير النراقي إلى أن الأسباب قد تكون نفسية داخلية أو جسمية أو نتيجة مزاولة النفس للأعمال الردية ، ونجد في هذه الإشارة إلماحه إلى الأمراض النفسجسمية Psychosomatic Illness ويعرض أيضًا للعلاجات التي تناسب الأسباب ، فإذا كان السبب جسمي يوصي بالعلاج الطبي .

بعد ذلك يعرض المؤلف لأربعة مقامات كالتالي :

المقام الأول : في معالجة الرذائل المتعلقة بالقوة العاقلة :

وفيه يعرض لعدد من الاضطرابات المعرفية Cognitive Disorders وعلاجاتها التي تتمثل في ذكر ضارها ، سوء خاتمتها ، ويذكر قول القرآن الكريم والأحاديث النبوية بشأنها .

وكذلك الاستبصار بقبح الرذيلة ، والعمل على مقاومتها بالرياضة والمجاهدة (علاج سلوكي Behaviour Therapy) ، (وعلاج معرفي Cognitive Therapy) ومن هذه الاضطرابات أو الرذائل :

الجزيرة ١٣٦ ، الجهل البسيط (ص ١٣٦ ، ١٣٧) ، الجهل المركب (ص ١٥٢ ، ١٥٣) ، الشك والحيرة (ص ١٥٣ ، ١٥٤) ، والشرك (ص ١٦٣) ، والوساوس (ص ١٨٦ - ١٩٤) ، المكر والحيل (ص ٢٣٧ - ٢٣٩) ، ويتصل موضوع الشك والوساوس ببعض أعراض الاضطرابات النفسية .

فصل آداب التعلم والتعليم (ص ١٤١) ويتصل بالتربية Education وعلم النفس التربوي Educational Psychology .

فصل في حديث النفس (ص ١٩٤) ويتصل بموضوع التفكير Thinking .

المقام الثاني : في معالجة الرذائل المتعلقة بالقوة الغضبية :

فصل في التهور (ص ٢٤٢) ويتصل بمفهوم الاندفاعية Impulsivity أو العجلة (ص ٣١٠) ويضادها الأناة (ص ٣١٥) .

الخوف Fear وأنواعه (ص٢٤٥) وهو أحد الانفعالات غير السارة .

الاطمئنان أو الأمن Security (ص ٢٧٩) وهو أحد الحاجات النفسية Needs . تلازم الخوف والرجاء (ص ٢٨٠) .

ويضاف إلى ذلك عدد من الموضوعات وهي :

صغر النفس (ص ٢٩٦) ، كبر النفس (ص ٢٩٧) ، العجب (ص ٣٥٧ -

٣٦٢) ، (ص ٣٩٤ - ٣٩٨) ، الكبر (ص ٣٨٠ - ٣٨٧) ، علاج العجب (ص ٣٦٢ - ٣٧٨) ، علاج الكبر (ص ٣٨٧ ، ٣٨٨) ، (ص ٣٩٠ - ٣٩٤) ، انكسار النفس (ص ٣٧٩) ، الذلة (ص ٣٩٨) .

وتتصل هذه الموضوعات سالفة الذكر بالشخصية Personality ، وصورة الذات أو مفهوم الذات Self- Image والاتجاه نحو الذات Attitude toward self .

ويشير انكسار النفس إلى خصلة تدل على التواضع وعدم التكبر ، وهي خصلة مفيدة .

« فكل من بلغ مرتبة عظيمة فإنما بلغ بهذه الصفة ... » ، (ص ٣٧٩) .

فصل دناءة الهمة (ص ٢٩٩) ، وهي قصور النفس عن طلب معالي الأمور ، وقناعتها بأدانيها ، ويتصل هذا الفصل بمستوى الطموح Level of Aspiration .

وفي فصل الغيرة على الدين والحريم والأولاد ، يتعرض المؤلف للعلاقة الاجتماعية بين الوالد والأبناء ولأساليب التنشئة الاجتماعية Socialization التي تتلائم مع مراحل نمو الابن (ص ٣٠٥ - ٣٠٩) .

فصل الغضب (ص ٣٢١) ، وسوء الخلق (ص ٣٤٢) ، ودرجات الغضب (ص ٣٢٢) ، وهي فصول تهتم بالغضب كانفعال إنساني غير سار Emotion وفيها يعرض لتعريفه وأسبابه ومظاهره ومترتباته على الحكم والسلوك ويعرض لأساليب لعلاج الغضب (ص ٣٢٦) ، (ص ٣٤٣ - ٣٤٧) .

أما فصل الحلم وكظم الغيظ (ص ٣٣١) فهو يتصل بالضبط الانفعالي Emotional Control .

فصل العفو (ص ٣٣٧) ويتصل بمفهوم التسامح Permissiveness ويضاده التشدد Restrictiveness ونجد إشارات له في فصل الانتقام (ص ٢٣٥) .

فصل العنف (ص ٣٣٨) ، الرفق (ص ٣٣٩) ويرتبطان بالسلوك العدواني Aggression .

فصل الحقد (ص ٢٣٧) ، والقساوة (ص ٤٠٥ ، ٤٠٦) ويرتبطان بمفهوم العداوة Hostility فالحقد يعرف بأنه إضمار العداوة في القلب وهو من نتاج الغضب .

فصل البغي (وهو صعوبة الانقياد من يجب الانقياد له) ، (ص ٤٠٠ ، ٤٠١)

يتصل بمفهوم القيادة Leadership والعصيان Disobedience .

فصل العصبية (ص ٤٠٢ ، ٤٠٣) يتصل بمفهوم التعصب Prejudice والاتجاهات الاجتماعية Social Attitudes .

المجلد الثاني :

- المقام الثالث : القوة الشهوية ، فضائلها ، ورذائلها ، وطرق علاجها :

ومن أهم فصول هذا المقام وثيقة الصلة بعلم النفس :

فصل الشره (ص ٤ - ٩) ، الشهوة الجنسية (ص ٩ - ١٣) ويتصل كل منهما بمفهوم الشره أو النهم Obesity ، والغرائز Instincts ، والدوافع الفطرية Innate Motives ، والحاجات البيولوجية Biological Needs .

فصل العفة (ص ١٦ ، ١٧) وتضاد الشره - بجانب فصل الزهد (ص ٥٧ - ٧٧) وهو انقياد قوة الشهوة للعقل ، وتتصل بعملية قمع الغرائز Suppression of instincts .

فصل حب المال (ص ٤٦ - ٥٧) ويتصل بمفهوم الإثابات المادية Material Rewards .

فصل القناعة (١٠٤ - ١٠٦) وهي الاكتفاء بقدر الحاجة من دون سعي وتعب في طلب الزائد منه ، ويتصل هذا المفهوم بمفهوم الرضا Satisfaction والتقبل Acceptance .

وثمة فصول أخرى عن الاضطرابات السلوكية في مجال الشهوة كالبخل (ص ١١٢ - ١١٦) ، والغدر ، والخيانة ، والفجور بأنواعه كالزنى ، واللواط ، وشرب الخمر ، والخوض في الباطل (ص ١٨٦ - ١٩٤) .

المقام الرابع : فيما يتعلق بالقوى الثلاث من العاقلة وقوتي الغضب والشهوة أو باثنتين منهما من الرذائل والفضائل :

ويختص بعدد من الخصائص الأخلاقية ؛ كالحسد ، والظلم ، والعدل ، والتهاون ، والمداهنة ، وستر العيوب ، وإفشاء السر ، والنميمة ، والسعاية ، والإفساد بين الناس ، والإصلاح ، والشماتة ، والمراء ، والسحر ، والمزاح ، والغيبة ، والبهتان ، والمدح ، والكذب ، والصدق ، والصمت ، وحب الجاه ، وحب الخمول ، وحب المدح ، والرياء ، والإخلاص ، والنفاق ، (ص ١٩٨ - ٤٢٥) .

وعلى وجه التخصيص ثمة عدد من الفصول لها أهميتها في علم النفس الحديث مثل :

فصل الهجرة والتباعد (ص ٢٥٩) ، والتزاور والتآلف (ص ٢٦٠) ، وقطع الرحم

(ص ٢٦٤) ، وحق الجوار (ص ٢٧٦) وتتعلق جميعها بالسلوك الاجتماعي Social Behaviour والعلاقات الاجتماعية Social Relations .

المجلد الثالث :

فصول متعددة عن الغرور (ص ٣ - ٣١) ، وهو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ، ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان .

ويتصل هذا الموضوع بمفهوم المعتقدات Beliefs ، والتحيز Bias ، وعدم الموضوعية Unobjectivity ، وفي ثنايا الحديث عن طوائف المغرورين ، يذكر غرور أهل العبادة والعمل ، وفيه يشير إلى الوسواس القهري Compulsive Obsession ، وبالتحديد وسواس النظافة (ص ٢٣ ، ٢٤) ، حيث المبالغة في الوضوء بدون داعي إلى ذلك .

فصل طول الأمل (ص ٣٢) ، وقصر الأمل (ص ٣٥) يرتبطان بمستوى الطموح Level of Aspiration .

ويرتبط فصل اختلاف الناس في طول الأمل (ص ٣٦) بالفروق الفردية في مستوى الطموح Individual Differences .

فصل العصيان (ص ٤٥) ويتصل مضمونه بمفهوم سلوكي ، وهو العصيان Disobedience في مجال التنشئة الاجتماعية .

أما فصل الوقاحة (ص ٤٥) ، وهي عدم مبالاة النفس ، وعدم انفعالها من ارتكاب المحرمات الشرعية ، والعقلية ، أو العرفية ، يشير إلى مفهوم عدم المبالاة Indifference ، والتبلد الانفعالي Emotional Blunting .

وثمة عدد من الفصول عن التوبة (ص ٤٩ - ٧٣) ، وفيه يعرض لمراحل التوبة ، حيث تبدأ بعلم العبد أن ما صدر عنه من الذنوب تحول بينه وبين محبه (ويتصل هذا بمفهوم الإدراك Perception ، والمعرفة Cognition) ، وبالعلم يثار الندم والشعور بالذنب Feeling of Guilt ، وهي روح التوبة (انفعال Emotion) ، وإذا غلب الندم على القلب انبعثت منه حالة أخرى تسمى إرادة أو قصد Will, Intention يتبعها الرجوع إلى الطاعة (سلوك Behaviour) .

- فصل المحاسبة والمراقبة (ص ٨٩) وهما من وظائف الضمير Conscience ، وفي هذا الفصل يعرض لمقامات مرابطة العقل للنفس وهما :

١ – المشارطة أن يعاهد نفسه بعدم ارتكاب المعاصي .
٢ – المراقبة أن يلاحظ ظاهره وباطنه حتى لا يقدم على المعصية .
٣ – المحاسبة أن يحاسب نفسه إذا جاوز الطاعة .
٤ – معاتبة النفس ومعاقبتها على تقصيرها .

وتتصل هذه المستويات المتصلة بمقامات مرابطة العقل للنفس بمستويات الضمير والارتقاء الأخلاقي Moral Development .

فصل الغفلة (وضدها النية) ، (ص ١٠٥ – ١٠٨) ، وفصل تأثير النية على الأعمال (١٠٩/٣) ، وفصل النية روح الأعمال ، والجزاء بحسبها (ص ١١١) .

وفيها يشير إلى دور النية Intention والإرادة Will باعتبارها واسطتين بين العلم والعمل .

فالأعضاء لا تتحرك بالفعل Behaviour إلا بالقدرة Ability ، والقدرة تنتظر النية ، والنية تنتظر الدافع Drive ، (أو الشوق) والشوق ينتظر العلم ، أو الظن بأن ما يفعل يوافقه .

كما يرتبط مفهوم النية بمفهوم الرغبة Desire ، وكذلك مفهوم الميل Tendency .

وفي فصل معرفة اللّٰه أقوى سائر اللذات (ص ١٥٦ – ١٦٠) ، وفصل تحقيق رؤية اللّٰه في الآخرة ولذة لقائه (ص ١٦١ – ١٦٨) نجد إشارات لمفهوم الإحساس Sensation ، والإدراك Perception ، واللذات Pleasures الحسية وغير الحسية .

فصل العزلة (ص ١٩٤ – ١٩٩) ويعرض للعزلة والمخالطة من حيث فوائد ومضار كل منهما ، وبذلك فهو يتصل بالسلوك الاجتماعي Social Behaviour والاستقلال Independence .

فصل السخط (ص ١٩٩ – ٢٠١) ويضاده الرضا (فصل الرضا ٢٠٢ ، ٢٠٣) ويتصل موضوع كل منهما بالرضا عن الحياة Life Satisfaction والأرجاع الانفعالية Emotional Reactions .

فصل الحزن (ص ٢١٣ – ٢١٧) ، ويتصل بموضوع الانفعال .
فصل التوكل (ص ٢١٨) وهو اعتماد القلب في جميع الأمور على اللّٰه .
وفصل السعي لا ينافي التوكل (ص ٢٢٥) .
وفصل الأسباب التي لا ينافي السعي إليها التوكل .

تتصل هذه الفصول الثلاثة بالتوافق النفسي Psychological Adjustment ، والصحة النفسية Psychological Well Being .

أما فصل أقسام النعم واللذات (ص ٢٤٨ - ٢٥٣) فيتصل بمفهوم السعادة Happiness ، واللذة Pleasure ، والبواعث Incentives ، حيث يعرض المؤلف لأقسام النعم واللذات على النحو التالي :

أ - الفضائل النفسية : كالعلم ، والعفة ، والشجاعة ، والعدالة .

ب - الفضائل البدنية : الصحة ، والقوة ، وطول العمر ، والجمال .

ج - النعم الخارجة المضيفة بالبدن : المال ، والجاه ، والأهل ، وكرم العشيرة .

د - النعم التوفيقية : وهي هداية اللّٰه ، ورشده ، وتسديده ، وتأييده .

فصل الأكل (ص ٢٥٥) وفيه إشارات إلى مفهوم الإحساس Sensation ، والإدراك Perception ، وكذلك التعلم بالارتباط الشرطي Learing by Conditioning والذي نجده في الفقرة التالية :

إذا أكلت شيئًا أصفر - مثلًا - فوجدته مرًّا مخالفًا لك فتركته ، فإذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مر ما لم تذقه لولا الحس المشترك ؛ إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة ، والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة ، فلابد من حاكم يجتمع عند الصفرة والمرارة جميعًا ، حتى إذا أدرك الصفرة حكم بأنه مر فيمتنع عن تناوله ثانيًا .

فصل الجزع (ص ٢٧٨) وهو إطلاق دواعي الهوى من الاسترسال في رفع الصوت ، وضرب الخدود ، وشق الجيوب ، أو ضيق الصدر ، والتبرم ، والتضجر .

وفصل الصبر (ص ٢٨٠) ، وهو ثبات النفس ، وعدم اضطرابها في الشدائد والمصائب .

ويتصل هذان الفصلان بالضبط Emotional Control .

أما فصل طرق تحصيل الصبر (ص ٢٩٩) يعرض لعلاج نفسي وروحي يساعد على تنمية الضبط الانفعالي ، وهو باعث الدين ، وإضعاف باعث الهوى ، وتذكر فضل الصبر ، وحسن عاقبته ، والعلم يقبح الجزع ومضاره .

فصول عن انفعالي الحب والكراهية Like & Dislike Emotions (ص ١٢٣ - ١٢٦) وهو فصل الكراهة وفصل الشوق يتبعه فصل عن الحب وتعلقه بجميع القوى (أنواع

الحب)، (ص ١٣٢ - ١٣٤) ثم فصل عن أقسام انفعال الحب (ص ١٣٤- ١٤١) .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجال علم النفس العام وسيكولوجية الشخصية .

* * *

أبو بكر بن عبد الله بناني (ت ١٢٤٨هـ)
مدارج السلوك إلى مالك الملوك [(١)]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

التعريف بالمؤلف :

هو أبو بكر بن عبد اللّه بناني الفاسي الرباطي . متصوف فاضل ، مولده ووفاته في رباط الفتح ، أصله من فاس ، تصوف وعلت له شهرة ، له في التصوف أكثر من ستين كتابًا منها رسائله المسماة « مدارج السلوك إلى مالك الملوك » التي نحن بصددها ، و (الغيث المُسْجَم في شرح الحكم العطائية) ، و (بلوغ الأمنية في شرح حديث إنما الأعمال بالنية) ، و (بغية السالك) ، و (الفتوحات القدسية في شرح القصيدة النقشبندية) ، و (تحفة الممالك لشرح ألفية ابن مالك) ، و (الفتوحات الغيبية (في التصوف) وعقد الدرر واللآلئ) ، و (تفسير القرآن العظيم) ، و (حديقة الأزهار في نتائج الصمت وعلومه وما فيه من الأسرار) ، و (حكمة العجمية وهي وصايا ونصائح) ، و (طبقات مشايخه) .

توفي سنة (١٢٨٤هـ ، ١٨٦٧م) .

عرض الكتاب :

يقع الكتاب في (١٧٥ صفحة) من القطع الكبير بالإضافة إلى أربع صفحات في المقدمة بيّنَ أصل القبيلة وبعض مزاياهم وفضائلهم ، وثماني صفحات في آخر

---

(١) تصحيح : أحمد بن الحاج الرباطي - (ط ١) ، القاهرة : طبع بمطبعة الجمالية ، (١٩١١م) ، (ص ١٧٥) .

الكتاب بها فهرسة وجدول بالأخطاء المطبعية .

ويضم الكتاب خطبة الكتاب ، ثم ثمان وأربعين رسالة ويلي هذا الكتاب كتاب « الفتوحات الغيبية في شرح الصلاة المشيشية » مع شرح أبيات تطهر بماء الغيب إن كنت ذا شر ، وبهامشهما كتاب عقد الدرر واللآلئ في فضل الفقر والفقراء وبيان حكم السؤال لنجل المؤلف (فتح الله بن بكر بناني) .

يبدأ الكتاب بمقدمة للمؤلف يوضح فيها سبب كتابته لهذه الرسائل والفوائد التي تعود من قراءتها ، ثم يبدأ **بالرسالة الأولى** وتضم عدة مباحث وأولها رد على أحد الشيوخ ينكر الصوفية ، ويوضح له أن من يفعل ذلك ينبغي أن يكون محصلاً لعلوم المذاهب الثلاثة .

ثم يتعرض لمسألة حب الرياسة والتسلطية ، وليس المرقعات ، والسؤال ، والتخلص من الأوصاف النفسانية ، والترغيب في ترك الترف في اللباس مع المقدرة ، وحمل المسبحة ، والمشي بالحفا ، والاجتماع للذكر وهي مسائل تخص الصوفية ، ويرتبط ذلك بمفهوم ضبط النفس والسيطرة على أهوائها .

وفي **الرسالة الثانية** يوجه عدة نصائح ، يوصي فيها بحسن الأدب مع جميع الموجودات ، المحسن منها والمسيء ، ويحذر من الحس ؛ لأنه ضد المعنى ، ولا يجتمع الضدان في رجل واحد ، ويوصي أيضًا برفع الهمة عما سوى الله لتحقق العبودية . وفي **الرسالة الثالثة** يناقش موضوع واحد هو الهدف من الخلق ، ويجمله في أنه معرفة الله . وتدور **الرسالة الرابعة** حول ابتلاء الله لعباده ، ويرى أن الولي هو أعظم الناس ابتلاءً في دنياه ، لحكمة يريدها الله . وفي **الرسالة الخامسة** نجد وصية من الشيخ بالعزلة عن العلم إلا للضرورات ، وينبغي أن نصحب من نشاء بقدر الحاجة (وكأنه هنا يحدد شروط الصداقة Friendship ص ١٩) كما يوصي أيضًا بالصمت عن الوجود وعدم الإنصات إلى ذمه أو مدحه ويوصي بضرورة عدم الإسراف وتقليل الطعام وما في ذلك من الفوائد ، ويحض على ملازمة الأدب والتعظيم وأن المراد بالأدب المتابعة لرسول الله ﷺ ، ويوصي بالتعاون على البر والتقوى و أشكال التعاون ويرتبط ذلك بمفهوم سلوك المساعدة ، وبالقيم الدينية .

والرسالة السادسة تدور حول التحذير من الجلوس مع الذي يقول : « ما ثم إلا الله » ويسترسل مع الهوى ؛ لأن ذلك هو الزندقة المحضة ، ثم يوضح ما يعنيه العارفون بالله

عندما يذكرون مثل هذا القول ، ويتكلم بعد ذلك عن طريقته وهي طريقة التجريد ومعناها الجلوس على بساط الفقر حسًّا ومعنى ؛ إذ التجريد عند أهل اللَّه هو عبارة عن التحقق بأوصاف العبودية والقيام بوظائف الربوبية ، ويرتبط ذلك بمفهوم ضبط النفس والتحكم في أهوائها .

والرسالة السابعة في الكتاب اشتملت على ما يسميه مذاكرة نورانية في الرضا بحكم اللَّه والخضوع لقضائه . وتدور **الرسالة الثامنة** حول التحريض على المحافظة على حدود الشريعة ، وبها وصية بعدم الالتفات إلى إنكار الوجود ولإقراره ، ثم تفصيل الكلام في ذلك ، ويؤكد أن من التزم طريقة شيخ معين يلزمه السير والهدي بهديه ، ويبين أن الأخذ بأصول طريقة الشيخ واجب على كل الناس القوي منهم والضعيف ، ويرتبط ذلك بالقيم الدينية .

وتتناول **الرسالة التاسعة** عدم التمييز عند من أخلص وتخصص بين الأمور العلوية والسفلية سواء مال إلى التقشف أو إلى الرفاهية ، فإنه لا أثر للأحوال فيه وإنما الأحوال به تسمو ومنه تستمد ، ويستمر بعد ذلك ليوضح مذاهب بعض الشيوخ والعارفين في ذلك . وأما **الرسالة العاشرة** فتدور حول التحريض على أسباب النجاح وكيف أن فضل اللَّه عام في كل زمان وأوان وأن للرزق أسبابًا معنوية ، ثم يوصي بالأدب مع الأخوان ؛ لأنهم السبب في الربح في الحس والمعنى . وأما **الرسالة الحادية عشرة** فهي في التحريض على مكارم الأخلاق ومخالفة الهوى والإقبال على اللَّه .

ويرتبط ذلك بالقيم الأخلاقية والدينية ، كما يحذرنا من خدعة الشيطان وتلبيسه وروسوسته . **والرسالة الثانية عشرة** تدور حول التحريض على علو الهمة ، وبيان أن علوها هو السبب في امتلاك الدنيا والآخرة ، ثم يردف إلى تحذيرنا من العجب بالطاعة . وينتقل بعد ذلك إلى **الرسالة الثالثة عشرة** وهي مخصصة للحديث عن أن الإنسان مجبول بالفطرة على اجتماع الأضداد كالقوة والضعف ، كما يشرح ويوضح أصول الطريق كما يقول أهل التربية ، وهي ثلاثة : الاجتماع والاستماع والاتباع .

ويذكر عددًا من الوصايا وأهمها المحافظة على مكارم الأخلاق كالعفو والصفح والحلم (وكأنها تقابل ضبط النفس أحد سمات الاتزان الوجداني وهو بُعد من أبعاد الشخصية ص ٣٩) ، والإيثار والمبرة (ولعلها تقابل سلوك المساعدة Helping Behavior أحد موضوعات علم النفس الاجتماعي ص ٣٩) والمودة والمحبة

(أحد الانفعالات ص ٣٩) .

واستكمالًا لهذه الرسالة يوصي في **الرسالة الرابعة عشرة** بالتحريض على الصدق والإخلاص في العمل ، باعتبارهما من مقومات النجاح في الحياة . **والرسالة الخامسة عشرة** في أن مراد اللّه بتبادل الجلال بالجمال معرفته تبارك وتعالى ، وأن ما ينزله الحق بالوجود من أنواع المحن فيه تعريف لصاحب الشعور .

والرسالة السادسة عشرة مخصصة للحض على جمع القلوب على اللّه وما في ذلك من تحصيل للفوائد . ويبين لنا في **الرسالة السابعة عشرة** أنه لا بأس بتعاطي البسط (الترفيه) في بعض الأوقات ترويحًا للنفس ليكون ذلك عونًا لها على الحق (ولعلنا نجد في ظاهرة الكف Inhibition التي تنشأ نتيجة لممارسة مهمة معينة لفترة زمنية متصلة ، والحاجة إلى الراحة لتبديد هذا الكف والعودة من جديد لممارسة هذا النشاط ، مقابلًا لهذه المقولة التي يسوقها المؤلف مع الفارق في القياس ص ٥٠) . وفي **الرسالة الثامنة عشرة** يتحدث عن أن عون اللّه للمرء يأتي بحسب نيته (إنما الأعمال بالنيات) ويذكر أقوال بعض العارفين في ضرورة التخلي عن الدنيا . **والرسالة التاسعة عشرة** عبارة عن وصية من الشيخ بملازمة التقوى والمحافظة على الصلاة ، ودوام ذكر اللّه تعالى لما في ذلك من فوائد عميمة وخير وفير ويرتبط ذلك بالقيم الدينية .

ويتعرض المؤلف في **الرسالة العشرين** لموضوع السعادة ، ويرى أن سعادة الإنسان هي في الإقبال على اللّه وما يتعلق بذلك من الإقبال على اللّه برفض الهوى ومحبة المولى وملازمة العبودية ، ويوضح ذلك أسلوب تحقيق الصحة النفسية من وجهة نظر إسلامية . وفي **الرسالة الحادية والعشرين** يحض على خرق العوائد التي أقبل الوجود عليها بمقتضى نظره وأن الرسل بعثوا لذلك . وتأتي **الرسالة الثانية والعشرون** لتحض على تلخيص الباطن من التعلق بالوجود ، وما في ذلك من الفوائد ، ويلفت النظر إلى ضرورة حضور القلب وانتباهه عند الذكر والمذاكرة حتى ينتفع بهما . **والرسالة الثالثة والعشرون** في التحضيض على مراعاة الحدود الشرعية والسير بسير القوانين الإلهية ، كما يوضح فيها مسألة الزيارة لأولياء اللّه تعالى أحياءً وأمواتًا وما قيل في ذلك فقهًا وتصوفًا ، ويذكر أيضًا أن الناس قديمًا وحديثًا يتبركون بقبور الصالحين وبيان جواز ذلك .

والرسالة الرابعة والعشرون تتعرض لمسائل طبية كتشخيص مرض بالعين لأحد العارفين ، ثم يوضح فيها أن المرض هو مرض القلب وأن الصحة صحته ، وما خلافها فليس بأمراض .

والرسالة الخامسة والعشرون في أن مبنى طريق أهل اللّٰه على ثلاثة أصول هي الاجتماع والاستماع والاتباع ثم يفسر ذلك ويشرحه . **والرسالة السادسة والعشرون** في الحث على عدم الاشتغال بما يظهر في الوجود من تلوين أحواله ؛ لأن ذلك يقطع عن اللّٰه ، ويبعد عن مودته .

أما الرسالة السابعة والعشرون فهي مخصصة للحث على أنه ينبغي للفقير (وهو يقصد هنا الإشارة إلى المتصوفين) أن تكون حياته في الكون للّٰه وباللّٰه ، لا بنفسه أولنفسه ، وما يجلبه ذلك من فوائد ، ويوصينا الشيخ في ثنايا هذه الرسالة بالصمت وحفظ اللسان وما ينشأ عن ذلك من الأسرار . **أما الرسالة الثامنة والعشرون** فهي مذكرات نورانية وعلوم عرفانية .

والرسالة التاسعة والعشرون في التأكيد على المداومة على ذكر اللّٰه تعالى والمحافظة على الشريعة ، والتحذير من رخص العلم ؛ لأنها وبال ، ويرتبط ذلك بالقيم الدينية ، ثم يوصي بمقابلة الفقراء بالحلم لا بالعلم ؛ لأن العلم يوحش والحلم والرفق يؤنس ، كما يحذر من التصدي للإجابة على كل المسائل دون علم ، ومن يفعل ذلك فهو جاهل . **والرسالة الثلاثون** في الحض على آداب مرضية وأخلاق سنية ، كالاعتدال في أمور الشريعة دون إفراط أو تفريط والحفاظ على الصلاة ، والحفاظ على القوت ويرتبط ذلك بالقيم الدينية . **والرسالة الحادية والثلاثون** في أن اللّٰه إذا أكرم عبدًا أسعده بملاقاة ولي من أوليائه الذي هو عين من عيون اللّٰه ، ويحض على ضرورة الأدب مع الشيخ ، وأن المريد متى عدم الأدب مع شيخه عطبت راحلته ، ثم يذكر عددًا من الآداب التي تلزم المريد مع أستاذه وغيره .

وإذا وصلنا **للرسالة الثانية والثلاثين** نجدها تدور في الوصية على الحفاظ على العهود والوقوف عند الحدود فهي من أخلاق المسلمين الموحدين ، وقد أوصانا اللّٰه ورسوله بضرورة حفظ العهد ، ويستكمل وصاياه ونصائحه في **الرسالة الثالثة والثلاثين** ، وهي مما سبق أن ذكره في رسائل سابقة . **أما الرسالة الرابعة والثلاثون** في الحض على اتباع السنة ومجانبة البدعة وغير ذلك من الفوائد . ويحض في **الرسالة الخامسة والثلاثين** على الاشتغال باللّٰه وذكره والتفكير في خلقه وعظمته والإعراض عن كل ما سواه . ثم يؤكد في **الرسالة السادسة والثلاثين** على التقوى ويحذر من فتن الدنيا وشرورها ويدعونا إلى التسليم للّٰه وأن ندع التدبير له ، وهو موضوع **الرسالة السابعة والثلاثين** . وفي **الرسالة الثامنة والثلاثين** يحضنا على تطهير أنفسنا من رذائل الدنيا ، واتباع كتاب اللّٰه

وسنة نبيه ﷺ . وفي **الرسالة التاسعة والثلاثين** يوجهنا إلى أن الدنيا ليست دار إقامة ولا لعاقل فيها راحة ولا سلامة والآخرة هي دار القرار ، ويدعونا إلى التقليل من شأنها ، وأن نستعد بها للآخرة ويوصينا بضرورة مراقبة الله ومراعاة حقوقه في جميع الأوقات ، ويرتبط ذلك بضبط النفس والتحكم في أهوائها والقيم الدينية .

وفي **الرسالة الأربعين** يحث على الرضا بقضاء الله وأن نحمده على كل عطاءاته وأن نجتنب حب الدنيا وحب أهلها والركون إليهم . ويوضح في **الرسالة الحادية والأربعين** أنه لا كرامة في الوجود تضاهي كرامة الحق لأوليائه ، وهي القيام بتكاليف العبودية ، والجلد والاجتهاد فيها ، كما يبين أن شروط الداعي إلى الله هي الاستقامة ، ويدلل على ذلك ، ثم يعود فيحذر من الاشتغال بأمور المعيشة عن أمور الآخرة . ويتناول بالشرح في **الرسالة الثانية والأربعين** الآية الكريمة : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] ، وأن رسول الله ﷺ هو متمم هذا الكمال وبعثُهُ علامة اكتمال ، وأن باب النبوة والرسالة قد سُد بعده ، ولم يعد مفتوحًا إلا باب الولاية ، ثم يعقد مناظرة بين مفهومي الشريعة والحقيقة . وينتقل بعد ذلك إلى **الرسالة الثالثة والأربعين** ويناقش فيها عدة مسائل ، الأولى يوضح فيها أن طريقته ، الجامعة لطرق من قبله هي الصدق مع الله في الأقوال والأفعال والأحوال ، والثانية يحض فيها على أكل الحلال والابتعاد عما فيه شبهة ، والثالثة يؤكد فيها المحافظة على الوقت حتى لا يضيع في غير طاعة الله ، ويوضح ما في فواته من خسران .

ويخصص **الرسالة الرابعة والأربعين** لمناقشة مراد الله ﷻ من بعث الأنبياء والرسل ، ويفسر خلالها الآية الكريمة : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] . أما **الرسالة الخامسة والأربعون** فهو يجيب فيها عن سؤال ورد إليه مؤداه هل ذات الحق تبارك وتعالى حسية أو معنوية ، وهو يستنكر إثارة مثل هذا السؤال ، ويستشهد بما قاله العلماء في هذا الشأن ، ويبين في ثناياه المقصود بالحس والمعنى من حيث الوضع . وفي **الرسالة السادسة والأربعين** يعيد بعض ما سبق أن ذكره من قبل في أن الله ﷻ ما أقدر أهل ولايته على خدمته حتى كنس باطنهم من رائحة الوجود ، وبعد ذلك يسوق بعضًا من حكم فاطمة الولادية باعتبارها من شيوخ المؤلف ، ويذكر ترجمتها وبعض مآثرها ومناقبها ، ويتبع ذلك ببعض حكم للعارف الكبير المهدي السباعي وهو من أشياخ المؤلف أيضًا ، ويذكر ترجمته وشيئًا من مناقبه . ويكرر أيضًا في **الرسالة السابعة والأربعين** بعض ما قال من علوم عرفانية وأسرار ربانية .

ويختتم المؤلف كتابه **بالرسالة الثامنة والأربعين** وتحتوي على سبع وعشرين مسألة عرضت للمؤلف من الشيخ الإدريسي الحسني، وتدور حول آيات قرآنية وأحاديث نبوية وغيرها .

أوجه الاستفادة من الكتاب في علم النفس :

يعتبر هذا الكتاب مصدرًا للمهتمين بموضوع القيم بـ (Values) في إطار علم النفس الاجتماعي .

* * *

ابن شطا الدمياطي
أبو بكر المعروف بالسيد بكري المكي
ابن السيد محمد شطا الدمياطي البكري الشافعي
كفاية الأتقياء ومنهاج الأصفياء [1]

عرض : د . جمعة سيد يوسف

عرض الكتاب :

يقع هذا الكتاب في (١٣٦ صفحة) من القطع الكبيرة ويتكون من متن ، وهامش ، والمتن به كتاب كفاية الأتقياء ومنهاج الأصفياء ، والهامش به كتاب الفضلاء للشيخ محمد نووي على المنظومة المسماة بهداية الأذكياء إلى طريق الأولياء للإمام زين الدين المليباري والكتاب مقسم إلى مطالب تتخللها فوائد وتنبيهات ، وتتمات (أو خواتيم) وفي نهاية الكتاب فهرس لما به من هذه المطالب .

يبدأ المؤلف كتابه بحمد اللّه والثناء عليه ، والصلاة والسلام على نبيه ومصطفاه ، ثم يوضح ما أحاط بالكتاب وتسميته ، ثم يبدأ بعد ذلك مباشرة في الحديث عن البسملة (بسم اللّه الرحمن الرحيم) ويعتبر أن ذلك واجب على كل شارع في فن ، بما يتناسب مع الفن المشروع فيه ، ولما كان الشروع - هنا - في التصوف ، فقد وضح حده وموضوعه وبقية المبادئ الخاصة به ، ثم تحدث عن البسملة .

وحد التصوف أنه علم يعرف به أحوال النفس وصفاتها الذميمة والحميدة ، أما موضوعه فهو النفس من حيث ما يعرض لها من الأحوال والصفات (ونلاحظ أن النفس التي استخدمها هنا هي ما ينسب إليه علمنا ، أعني علم النفس ، وربما كان هذا الحديث متفقًا مع تعريف علم النفس في فترات مبكرة من تاريخه ، أما الآن فإن الأقرب إلى

---

(١) القاهرة : المطبعة الخيرية ، [١٣٠٣هـ] ، (١٣٦ ص) ، سلالم الفضلاء .

الاصطلاح أنه علم السلوك ، وذلك تجنبًا لغموض مصطلح النفس وتداخله مع مصطلحات أخرى كالروح) . وأما ثمرته فهي التوصيل به إلى تخلية القلب عن الأغيار وتحليته بمشاهدة الملك الغفار ، وأما حكمه فهو الوجوب العيني على كل مكلف ؛ وذلك لأنه كما يجب تعلم ما يصلح الظاهر يجب تعلم ما يصلح الباطن ، وأما فضله فهو تميزه على سائر العلوم ، وهو أصل كل العلوم ، وواضعوه هم الأئمة العارفون بربهم ، وأما استمداده فهو من كلام اللَّه وكلام رسوله ﷺ ، وأما مسائله فهي قضاياه .

وبعد هذه المقدمة يوضح ما يتعلق بالبسملة من معانٍ ، وأن الافتتاح بها بركة عظيمة ونعمة جسيمة واقتداء بالكتب المنزلة ، كما يتحدث بعد ذلك عن الحمدلة ، ووجوب الحمد للَّه ﷻ حمدًا يوافي نعمه ويكافئ فضله ، وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الصلاة والسلام على النبي ﷺ امتثالًا لأمر اللَّه تعالى لقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] ، ولقوله ﷺ : « **من سره أن يلقى اللَّه وهو عنه راضٍ فليكثر من الصلاة عليَّ** » ، وغير ذلك من الأحاديث .

ويبدأ بعد ذلك في تتبع مطالبه (كما يسميها) ، فيتحدث عن التقوى (ونلاحظ أن كل مطلب أو كل موضوع يطرقه يلي عنوان بيت من بيوت الشعر كما هو وارد في المنظومة المشار إليها في عنوان الكتاب) والتقوى عبارة عن امتثال أوامر اللَّه واجتناب نواهيه ظاهرًا وباطنًا مع استشعار التعظيم للَّه والهيبة والخشية والرهبة من اللَّه تعالى ، وهناك معاني كثيرة للتقوى ، وينتقل بعد ذلك لتناول مصطلح « التقوى » من الناحية اللغوية والإعرابية ، ثم يوضح الطريق الموصل إلى الآخرة وأنه شريعة وطريقة وحقيقة ، ويتناول كل مفهوم من هذه المفاهيم الثلاثة من ناحية المعنى ، والأصل اللغوي ، والإعراب .

وينتقل بعد ذلك إلى ذكر عدد من الوصايا ، التي تؤدي بمن تبعها إلى طريق الأولياء ، ومن هذه الوصايا التوبة ، وهي أهم قواعد الدين ، وأول منازل السالكين وأصل مقامات الطالبين ، ومعناها الرجوع عما كان مذمومًا في الشرع إلى ما هو محمود فيه ، وقد جاء في التوبة آيات كثيرة وأحاديث شهيرة ، ومن شروط التوبة الندم على ما حصل من العبد من اقتراب الذنب والعزم على عدم العودة ، ومن الوصايا أيضًا حفظ الأعضاء السبعة في الجسم ، كحفظ العين عن النظر إلى المحرمات ، وحفظ اللسان من الكذب ، وحفظه من الاستهزاء بالمسلم والسخرية به والضحك عليه استخفافًا واحتقارًا ، وحفظ السمع عن التحسس وغير ذلك .

ولما كانت التوبة مفتاح الطاعات وأساس الخيرات كان على العبد محاسبة نفسه من حين لآخر .

ومن هذه الوصايا أيضًا القناعة وهي الرضا باليسير من العطاء (وهي أيضًا من العوامل التي تقلل من الإحباط وما يترتب عليه من مشقة ؛ نظرًا لتطلع الإنسان وانهماكه في البحث عن ملذات الدنيا) ، (ص ١٨) ، ومن الوصايا أيضًا الزهد وهو مخالفة الرغبة فيما يرغب فيه ، والزاهد من أعقل الناس ، والزهد أفضل المناصب بعد تقوى اللَّه وهو سبب محبة اللَّه تعالى (ويشبه محب الدنيا كالسكران الذي يهتدي إلى الطريق وقياسًا عليه فإن من يتعاطى المواد المسكرة أو المخدرة يتعرض لبعض تشويهات الإدراك في الحجم والمسافة ، وهي مما يدخل في اهتمامات علم النفس) ، (ص ٢١) . ومن الوصايا كذلك تعلم العلم الشرعي ، والمحافظة على السنن (أي نجعل الرسول ﷺ قدوتنا في الحياة ، ومن هذه النقطة يمكن أن يستفيد علماء النفس في دراسة التعلم بالمحاكاة أو النمذجة أو الاقتداء Modeling باعتبار أن الرسول ﷺ هو القدوة العظمى) ، وبعد ذلك يعرج المؤلف ليقدم لنا فائدة في معنى التصوف ، ومطلب طريق كل مشايخ قيدت بكتاب اللَّه وحديث رسول اللَّه ﷺ ، وينبه إلى أنه لا يجوز لأحد التصدي لتربية المريدين إلا بعد تبحره في علم الشريعة .

ومن الوصايا التي يسوقها « التوكل » وأحد معانيه اعتماد القلب على الوكيل الحق وحده ، ومن هذه الوصايا أيضًا الإخلاص وهو الركن الأعظم من أعمال القلب الذي عليه مدار العبادات ، ومنها العزلة وهي التفرد عن الخلق ، والذين يشغلون عن اللَّه تعالى ويقعون في الشر والهلاك ، وعلى الإنسان ألا يصاحب من كان متأهلًا للبطالة والتساهل في الدين ؛ لأن صحبة من كان كذلك بلاء محض ومصيبة عظمى ؛ إذ الطبع يسرق من الطبع ، والنفس مجبولة على الاقتداء بمن تستحسن حاله (وهذا الكلام يمس واحدًا من موضوعات علم النفس الاجتماعي الحديث وهو موضوع الصداقة ، وخصال الأصدقاء ، ويدخل ضمن باب أوسع هو باب المهارات الاجتماعية Social skills) ، (ص ٣٧ - ٤٠) . ورغم ذلك يحدد الأوقات التي تصلح فيها العزلة والأوقات التي تصلح فيها المخالطة ، ومن فوائد المخالطة كما يحددها الإمام الغزالي التعليم والتعلم (والتعلم Learning من الموضوعات الكبرى في علم النفس الحديث وله نظرياته القديمة والحديثة وأساليبه المختلفة ص ٤٠) والنفع للناس بمال أو بدن (وهو ما يمكن أن يدخل في إطار سلوك المساعدة Helping Behavior كأحد موضوعات علم النفس الاجتماعي

ص ٤٠) والتأديب بأن يروض غيره ، والاستئناس والإيناس ، ونيل الثواب ، والتواضع ، والتجارب التي تستفاد من المخالطة للخلق ومجاري أحوالهم والعقل الغريزي ليس كافيًا في تفهم مصالح الدين وإنما تفيدها التجربة والممارسة ، ويتعرض في ثناياها للعقل وهذا أيضًا من موضوعات علم النفس تحت مسميات الذكاء ، والتفكير ، والقدرات المعرفية ويدرس في حالتي السواء والمرض ص ٤٠) .

وتمام الوصايا السابقة حفظ الأوقات أي صرفها في الطاعات ، وعدم إضاعتها سدى (ويذكر في ثنايا حديثه إشباع الدوافع البيولوجية والتوسط فيها كالأكل والجماع والنوم وهي من موضوعات علم النفس العام ص ٤٢) ، كما يحض أيضًا على الفكر ؛ لأنه أشرف العبادات ؛ لأن فيه ذكر اللّه تعالى ، وهو مفتاح المعرفة والكشف ، وهو المؤدي لزيادة المحبة (والفكر Thought والمعرفة Cognition من مصطلحات علم النفس ص ٤٧) . وبعد ذلك يحدد دواء القلب ويرى أنه في خمسة أمور هي : تلاوة القرآن ، وإخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع وقت السحر ، ومجالسة الصالحين (والأخير يمس موضوع الصداقة الذي سبقت الإشارة إليه ص ٤٩) . ويضيف لما تقدم ما ينبغي لقارئ القرآن أن يتخلق به ويتصف به حال القراءة ، ومنها الزهادة في الدنيا وترك المبالاة بها وبأهلها والسخاء والجود ويفرق بينهما فيرى أن الأول أي السخاء غريزي وهو هنا يستخدم أحد المصطلحات التي شاعت في فترة مبكرة من تاريخ علم النفس وهو مصطلح الغريزة ويقابل الغريزي في مصطلحات علم النفس الحديثة الفطرية أو البيولوجي ص ٥١) . ويستمر بعد ذلك فيذكر صفات أخرى كمكارم الأخلاق ، أي التوكل على اللّه وحسن الظن به والخوف والرضا والإنصاف في المعاملة والرفق في المجادلة والجدل في الأحكام والإحسان في السرد والإيثار في العسر واحتمال الأذى (والإيثار Altruism أو كما يسميه بعض علماء النفس « الغيرية » من أشكال السلوك التي تلقى عناية من علماء النفس في الوقت الراهن ص ٥٢) . ومن الشيم الحميدة كذلك الحلم أي ترك العجلة والتأني في الأمور وسعه الصدر (وبعد الاندفاعية – التروي Impulsivity - Reflectiveness من خصائص الأداء بصفة عامة ، والأسلوب المعرفي Cognitive Style بوجه خاص ، وقد درس في علم النفس تحت هذا المسمى أو تحت مسمى العلاقة بين السرعة والدقة Speed - Accuracy Relationship (ص ٥٢) ، كما أن الصبر أو حبس النفس عن الغضب يقابل سمة ضبط النفس Self Control إحدى خصائص بعد الاتزان الانفعالي (ص ٤٢) ومن هذه الخصال والشيم الحميدة أيضًا ملازمة السكينة ، والورع والخشوع والتواضع هذا بالإضافة إلى بعض الخصائص الجسمية كالطهارة والتزين وغير ذلك .

ومن المطالب التي يحدثنا عنها بعد ذلك الاشتغال بالعلم أو بالمعيشة ، مع اختيار الأفضل ، ثم يخصص جزءًا (مطلبًا) لفضل العالم أي من غلب اشتغاله بالعلم على اشتغاله بالعمل وفضله عظيم يفوق فضل العابد ، ويخصص جزءًا لفضائل العلم كذلك . ويحدد علامات علماء الآخرة ، ويذكر أحوال الأئمة كالشافعي وخصالهم في العلم ، كالزهد والصلاح والعبادة والعلم بعلوم نافعات والتفقه في مصالح الخلق في الدنيا ، و إرادة وجه اللّه بتفقههم . ولما أنهى الكلام على بيان فضيلة العلم وعلامات عالم الآخرة حث على تعلم العلم (وكما سبقت الإشارة يعتبر موضوع التعلم - بصفة عامة - من الموضوعات الكبرى في علم النفس الحديث) . وبدأ بعد ذلك في ذكر بعض آداب لابد منها للمتعلم وبعض آداب مشتركة بينه وبين المعلم ، فمن آداب الأول تعظيم المعلم ، وعدم مجادلته والاعتقاد في أهليته ورجحانه ، ويحث المتعلم على ضرورة حضور العقل أثناء التعلم (وإن شئت قلت الانتباه Attention بمصطلحات علم النفس الحديث) ، ثم يعلمه كيف يتعامل مع شيخه (أو معلمه) أثناء الدرس ، ويحثه كذلك على الاشتغال بالأهم فالمهم ، كما يوصي بضرورة مطالعة كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي .

ولا تقتصر وصاياه على أمور العلم الخالصة فقط بل يتعرض لآداب الأكل ، ويذكر الآفات التي تترتب على الإسراف في الأكل ، ويحث أيضًا على القيلولة وصلاة الظهر في الجماعة ، ويحدد آداب النوم ، ومن بسط الفراش ، وذكر اللّه تعالى ، وقراءة بعض آيات القرآن . وينتقل بعد ذلك للحث على التهجد وقيام الليل لما ورد في القرآن الكريم من آيات ، وما روي عن الرسول ﷺ في ذلك ويحدد الأسباب التي تشغل الإنسان عن التهجد ، ويضيف لها في مقابل ذلك العوامل التي تعين على التهجد ، ويدعو إلى المواظبة على القيام بتلك الواجبات بنفس الترتيب التي أوردها به ، ويقدم تذكرة متضمنة النصح لمن ليس له شغل بالدنيا .

وبعد أن أنهى الكلام عن بيان فضل العبادات شرع في ذكر المجاهدات ؛ لأنها الركن الأعظم في حصول المقصود ونيل المطالب العلية التي منها المشاهدة ، ثم يتعرض بعد ذلك للحديث عن طلب المعرفة الحقيقية المخصوصة العلية ، التي لا تحصل في الغالب من غير هذه المجاهدة ، وحصولها من غيرها فهو ممكن لكنه نادر .

وجوهر هذا الفرع هو البحث في العمليات والوظائف المعرفية (أو العقلية) ، ثم يتحدث بعد ذلك عن مجاهدة النفس ، أي تزكيتها من رذائلها أي من الأوصاف

الذميمة كالعجب والكبر والرياء والحسد والغضب وشهوة البطن والفرج والبخل وحب الجاه وحب المال والغرور وطول الأمل ، وتحليتها بنور الفضائل أي بالأوصاف الحميدة كالتوبة والصبر والشكر والرجاء والخوف والفقر والتواضع والزهد والورع والتوكل والنية والإخلاص والصدق والمحبة والشوق والأنس والرضا وقصر الأمل (وكثير من المفاهيم التي وردت هنا هي : مما يدخل في تناول علماء النفس إما في باب سمات الشخصية ، أو باب الانفعالات ، أو باب الدوافع ص ١١٣) .

ويختتم المؤلف كتابه الشارح بمطالب عن المشاهدة ، وفوائد الصلاة والسلام على النبي بالإضافة إلى ما ذكره في هذا الصدد في أول الكتاب ، والحث على الإكثار من قول : « لا حول ولا قوة إلا بالله » وأخيرًا المناجاة والدعوات لله ﷺ .

* * *

أبو بكر الزصامي (ت ١٣٥٠هـ تقريبًا)
نهي الناهين [1]

عرض : د . عبد اللطيف محمد خليفة

عرض الكتاب :

الكتاب الذي نعرض له يدخل في إطار تحذير عامة المسلمين من مبطلات الأعمال الصالحة - أعاذنا اللّٰه وإياكم - وقد حدد الكاتب في كتابه سبع نقاط وعدَّها من مبطلات الأعمال الصالحة ، بدأها بالآتي :-

الأول : **(من مبطلات الأعمال الصالحة)** : حب الدنيا ؛ لأن من كان في قلبه حب الدنيا لا ينفعه وعظ الواعظين ولا يسمع أمر الآمرين ، ولا ينهاه نهي الناهين عن حب الدنيا الذي كان في قلبه . ومن كان حب الدنيا لم ينفعه حب ، فكل السكر في الدنيا سبعة ، ويفوق كلها سكر حب الدنيا : أولها سكر الخمر ، وثانيها سكر النوم ، وثالثها سكر الشبع ، والرابع سكر المال ، والخامس سكر الهوى ، والسادس سكر الفقر ، والسابع سكر الموت الذي فرضه اللّٰه تعالى .

ويرتبط هذا بموضوع الدوافع Motives : خاصة أنواعها ؛ كالدافع إلى الطعام والشراب والدافع إلى التملك وجمع المال (ص ٩) .

ثم عرض المؤلف بعد ذلك للمداخل التي يأتي الشيطان من قلبها ؛ وهي : الشهوة والغضب ، والهوى ؛ فالشهوة بهيمية ، والغضب سبعية ، والهوى شيطانية .

ويرتبط هذا بموضوع الانفعالات Emotions والدوافع (ص ١١) . وعرض بعد

---

(١) جمع : يعقوب محمد المختار (ط ١) ، نيجيريا (١٩٤٨م) ، (٤٧ ص) .

ذلك لأنواع الظلم كما ذكر الشيخ فخر الدين الرازي عن رسول الله ﷺ ثلاثة أنواع : ظلم لا يغفر ، وظلم لا يترك ، وظلم عسى الله أن يتركه ؛ فالظلم الذي لا يغفر هو الشرك بالله ، والظلم الذي لا يترك : هو ظلم العباد بعضهم بعضًا ، والظلم الذي عسى الله أن يتركه : وهو ظلم الإنسان نفسه .

ويرى الشيخ فخر الدين الرازي أن الحرص والبخل نتيجة الشهوة ، والعجب والكبر نتيجة الغضب ، والكفر والبدعة نتيجة الهوى .

ويرتبط ذلك بموضوع سيكولوجية الدوافع والانفعالات Emotions ، خاصةً النتائج المترتبة على الدوافع والانفعالات ؛ فالشهوة يترتب عليها البخل والحرص ، والغضب ينشأ عن العجب والكبر ، والهوى يترتب عليه الكفر والبدعة .

الثاني : (**من مبطلات الأعمال الصالحة**) وهو النفاق ؛ فالنفاق قسمان : كبير : لا يعلمه إلَّا الله ، والصغير : قوله كقول الرجل الصالح ، وفعله كفعل الرجل الصالح . وعرض المؤلف لمظاهر النفاق ونتائجه السلبية على العباد الذين يتصفون به .

ويرتبط ذلك بموضوع سمات الشخصيه Personality (ص ١٥ ، ١٦) .

الثالث : (**من مبطلات الأعمال الصالحة**) وهو الحسد ؛ فالحسود في قلبه حب الدنيا أكثر من طاعة الله ، وأن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وذكر أن ثلاثة من الناس لا يستجيب الله دعاءهم : آكل الربا ، ومكثر الغيبة ، وحاسد المسلمين . وحقيقة الحسد أن يكره المرء نعمة الله تعالى على أخيه ، فيحب زوالها عنه ، وهو من قبيح الخصال ؛ ولا يمكن قطع مادته من الباطن بالكلية إلَّا بسلوك طريق التصوف . ومن مترتبات الحسد على صاحبه ، أو العقوبات التي تقع على الحسد ، فهي غم لا ينقطع ، ومعصية لا يؤجر عليها ، ومذمة لا يحمد بها ، وأن يسخط عليه الرب ، وأن يغلق عليه باب التوفيق .

ويرتبط هذا الجانب بموضوع الانفعالات ، خاصة النتائج المترتبة على عملية الحسد والحقد (ص ١٧ ، ١٨) .

الرابع : **الكذب** : فالكذب كما وصفه رسول الله ﷺ ، هو الذي يحدث الحديث يضحك به القوم فيكذب ، وهو شخص غير محمود ، من سوف ينال عقابه من الله ﷻ . وعن النبي ﷺ أنه قال : « **الكذب لا يصلح إلَّا في ثلاث : في الحرب ؛ لأن الحرب خدعة ، والرجل يصلح بين اثنين ، والرجل يصلح به بينه وبين امرأته** » فالصدق زين الأولياء والكذب علامة الأشقياء ؛ وقيل الكذوب متهم وإن صدقت لهجته ووضحت حجته ، وقد بيَّن

اللّٰه تعالى ما للصادق ، وما على الكاذب في كتابه العزيز بقوله : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٩] . وقد ذم اللّٰه تعالى الكاذبين ولعنهم ؛ والكذب يعني إخبار بالشيء على خلاف ما هو عليه . ويرتبط هذا الموضوع بالقيم الأخلاقية Moral Values خاصة الصدق وهو الوجه المقابل للكذب (ص ١٩ ، ٢٠) .

الخامس : العجب . وهو تكبر يحصل في الباطن من تخيل كمال في علم أو عمل ، وفسر أيضًا بأنه استعظام النعمة والركون عليها مع نسيان إضافتها إلى اللّٰه تعالى ، وقد نهى اللّٰه ورسوله عنه .

ويرتبط هذا الجانب بموضوع سمات الشخصية Personality Traits خاصة سمة التكبر والتعالي . وكذلك بموضوع الانفعالات وخاصة انفعال العجب بالنفس .

السادس : قطيعة الرحم . وقاطع الرحم بعيد من رحمة اللّٰه تعالى ؛ وفي وصل الأرحام عشر خصال :

١ - رضا اللّٰه تعالى .

٢ - إدخال السرور عليهم .

٣ - فيه فرح لقلوبهم .

٤ - فيه حسن الثناء من المسلمين .

٥ - فيه غم وإرغام على إبليس .

٦ - فيه زيادة في العمر .

٧ - يزيد البركة في الرزق .

٨ - فيه سرور الأموات .

٩ - زيادة المروءة .

١٠ - فيه زيادة في الأجر بعد الموت .

ثم تحدث بعد ذلك عن موضوع قطيعة الرحم من خلال ذكره لعدد من الآيات القرآنية الكريمة ، وبعض الأحاديث النبوية الشريفة . موضحًا من خلال ذكره هذه الأضرار المترتبة على قطيعة الرحم في الدنيا والآخرة ، وأهم ما يمكن أن تؤدي إليه صلة الأقارب من نتائج إيجابية .

ويرتبط هذا الموضوع بوجه عام بموضوع : التفاعلات والعلاقات الاجتماعية بين الأشخاص Interpersonal Relationships (ص ٢٤ - ٣٤) . وخاصة العلاقات بين الأقارب والعلاقات الأسرية .

السابع : الكبر : وهو تعاظم ينشأ عن رؤية الشخص نفسه فوق غيره ، قال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ١٤٦] . وقال رسول الله ﷺ : « **لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر** » .

ويرتبط هذا الجانب بموضوع سمات الشخصية ، خاصة سمة الكبر والتعالي (ص ٣٤ - ٣٧) .

ثم بعد ذلك يأتي كتابان : لأبي عبد الرحيم :

أولًا : نبذة في إهداء ثواب الأعمال الصالحة للأموات (ملخصة من كتاب : **تحبيب المسلمين بكلام رب العالمين** . أثر أبي عبد الرحيم محمد كمال الدين بن محمد عبد القادر بن علي الحسيني الأدهمي رحمه الله تعالى) .

فللإنسان أن يجعل ثواب عمله لغيره من صلاة أو صوم أو صدقة أو حج ، أو قراءة القرآن ، أو غير ذلك من جميع أعمال البر ، ويصل ثواب ذلك إلى الميت وينفعه بشرط أن لا يكون بإعطاء أُجرة عليه ؛ لأن قراءة القرآن بأُجرة لا يحصل ثوابها ، إذ لا ثواب لها ، وقال الإمام مالك والشافعي : يجوز للإنسان أن يجعل ثواب عمله من الصدقة والزكاة والحج مما هو عبادة مالية ولا يجوز في غيره من الطاعات ؛ كالصلاة والصوم وقراءة القرآن وغيرها . وذهب الإمام أحمد بن حنبل وجماعة من العلماء ومن أصحاب الإمام الشافعي إلى أنها تصل . وقالت المعتزلة : ليس كذلك ، ولا يصل إليه ، لقوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ [النجم : ٣٩ ، ٤٠] .

ثانيًا : بيان بدع الاجتماعات في الأفراح والمآتم :

« ملخص من كتاب : **أصول في البدع والسنن** للشيخ محمد أحمد العدوي الأزهري » .

ومنها بدع القبور والأضرحة من الجهالة التي لا تصل بالإسلام في قليل ولا كثير بُعدًا وغلو الغالين بمقدار ما تطلبه حالة العصر ؛ ومنها بدع الأفراح والمآتم التي منيت بها الأمة في مالها وثروتها تنفق فيها الأموال بلا حساب في سبيل الرياء فيبعثرون فيها ثروتهم .

ثم تحدث بعد ذلك عن رفع صوت المشيعين بنحو قرآن أو ذكر قصيدة البردة

أو اليمانية ، وأن ذلك مكروه لاسيما على الوجه الذي يفعل في هذا الزمان ، ولم يكن شيء موجودًا في زمن النبي ﷺ ، ولا في زمن الصحابة التابعين وغيرهم من السلف الصالح .

ويرتبط هذا بموضوع الأعراف والتقاليد الاجتماعية Sociol Traditions التي تنتقل من جيل لآخر ، دون وجود أصول تستند إليها (ص ٤٤ - ٤٧) .

* * *

أبو العلا عفيفي
الملامتية والصوفية وأهل الفتوة [1]

عرض : د . الحسين محمد عبد المنعم

عرض الكتاب :

تقع الرسالة في (١٢٥ صفحة) من القطع الصغيرة وتضم تصديرًا ، ثم القسم الأول وهو عن مذهب الملامتية ، والقسم الثاني وهو عن رسالة الملامتية ومؤلفها ، وأهم المراجع .

يذكر لنا المؤلف في البداية أن أهل الملامة ليست لهم كتب مصنفة ، ولا حكايات مؤلفة . وإنما هي أخلاق وشمائل ورياضات .

كما يوضح لنا أن أرباب العلوم والأحوال على طبقات ثلاث :

١ - طبقة انتدبوا إلى علوم الأحكام والاشتغال على جمعها ومنعها ، وبذلها وعطائها - وهم علماء الظاهر وأرباب الاختلافات والمسائل التي بها يحفظون أساس الشريعة وأصول الدين ، وهم علماء الشرع وأئمة الدين .

٢ - والطبقة الثانية منهم الخواص الذين خصهم اللّٰه تعالى بمعرفته - وقطعهم عما فيه الخلق من جميع الأشغال والإرادات - فشغلهم اللّٰه وإرادتهم له ، وهم خواص الخواص الذين خصهم اللّٰه بأنواع الكرامات وقطع أسرارهم عن المكنونات ، وهذا بعد أن أحكموا طريق المعاملات ، وحفظوا على أنفسهم ألسن المجاهدات ، لا يخالف ظاهرهم شيئًا من سنن الشرع ، ولا يغيب باطنهم عن ملاحظة الغيب .

٣ - والطبقة الثالثة هم الذين لقبوا بالملامتية : وهم الذين زين اللّٰه تعالى بواطنهم

---

(١) القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية (١٩٤٥م) ، (١٢٥ص) .

بأنواع الكرامات من القربة والزلفة والاتصال وإذا صحبهم المريدون ودلوهم على ما يظهرون لهم من الإقبال على الطاعة واستعمال السنن في جميع الأوقات وملازمة الآداب ظاهرًا وباطنًا في كل الأحوال . ولا يمكنونهم من الدعاوي والإخبار عن آية أو كرامة ولا الاستناد إليه ، بل يدلونهم على تصحيح المعاملات وإدامة المجاهدات فيأخذ المريد في طريقهم ويتأدب بآدابهم .

وإذا رأوا منه تعظيمًا لشيء من أفعاله وأحواله بينوا له عيوبه ودلوه على إزالة ذلك العيب ؛ لئلا يستحسنوا شيئًا من أفعالهم ولا يعتمدوها .

ومتى ادعى المريد لنفسه أو حاله مقامًا ، صغروا ذلك في عينه إلى أن يتحقق صدق إرادته ؛ فيدلونه على ما هم من سر الأحوال وإظهار الآداب من الأوامر والنواهي ، فيكون تصحيح المقامات كلها عليه في حال الإرادة .

وعن تعريف الملامتية يسوق لنا المؤلف آراء كبار مشايخهم أمثال : أبي حفص ، وحمدون القطار ، وعبد اللّه بن المبارك ، وإسماعيل بن نجيد السلمي ، ويحيى بن معاذ ، وعبد اللّه الخياط .

ويقول أبو حفص بأنهم قوم قاموا مع اللّه تعالى على حفظ أوقاتهم ومراعاة أسرارهم ، فلاموا أنفسهم على جميع ما أظهروا من أنواع القُرب والعبادات ، وأظهروا للخلق قبائح ما هم فيه ، وكتموا عنهم محاسنهم فلامهم الخلق على ظواهرهم ، ولاموا أنفسهم على ما يعرفونه من بواطنهم ؛ فأكرمهم اللّه بكشف الأسرار والاطلاع على أنواع الغيوب وتصحيح الفراسة في الخلق وإظهار الكرامات عليهم .

وعن تعريفهم « للفتوة » فقالوا : إنها اسم أطلق على مجموعة من الفضائل أخصها الكرم والسخاء والمروءة والشجاعة تميز المتصف بها عن غيره من الناس – والحديث هنا عن تعريف « الملامتية » ومجموعة الفضائل التي يتصف بها أصحاب الفتوة من موضوع سمات الشخصية وأنماطها Personality Traits (ص ٨٩ – ٩٢) .

وعن رأي أهل الملامة في السفر ، فكانوا يكرهونه من غير فرض حج أو غزو أو رؤية شيخ أو طلب علم .

وعن رأيهم في الكسب ، فقد حضوا عليه كثيرًا .

وعن رأيهم في الخشوع فقالوا : إنه اطلاع اللّه على الأسرار فتتخشع فتتأدب الظواهر بذلك الاطلاع .

وقالوا أفضل مصحوب الإنسان العلم ؛ لأنه اقتداء .

وعندهم أن الكامل في أفعاله من يبقى ظاهره للمريدين على آداب العبودية للاقتداء والأخذ عنه ، ويبقى سره وحاله لمن يقصده إلى سياسات الأحوال وآداب المشاهدة ، فيكون السر مشاهدًا للحق في جميع الأوقات .

ونلمح من هذا الحديث إشارة إلى أحد أنواع التعلم الاجتماعي وهو التعلم عن طريق « القدوة » ، (ص ٩٥ ، ٩٦) .

وعن سؤالهم عن ذلة النفس وتحقيرها ولومها قالوا : لأن النفس مهانة من ماء مهين ومن حمأ مسنون ، فأورثت فيها مخاطبة معها عزًّا ، فتعززت بذلك ، ولم تعلم أن العزيز فيها ما (هو) ملحق مستودع (بها) لا ما هي مجبولة عليه ، فإن تركت النفس في تعززها ترعنت ، وخرجت عن حدها ، ورسخت في طبعها . فالموافق من العبد من أراها من قيمتها ، فأعلمها أن جميع ما يتصل بها من أعمالها وأحوالها مذموم .

ويرتبط هذا الحديث بمفهوم « تأنيب الضمير » وقمع الدوافع الأولية في علم النفس الحديث (ص ٩٦ ، ٩٧) .

ومن أصول أهل الملامة كما ذكرها السلمي :

١ - أنهم رأوا التزين بشيء من العبادات في الظواهر شركًا ، والتزين بشيء من الأموال ارتدادًا .

٢ - ومن أصولهم ألَّا يقبلوا ما يفتح عليهم بعز ويسألوا بذل - ويقول أحدهم : في السؤال ذل وفي الفتوح عز ، وإنا لا نأكل إلَّا بذلك ؛ لأنه ليس في العبودية تعزز .

٣ - ومن أصولهم قضاء الحقوق وترك اقتضاء الحقوق .

٤ - ومن أصولهم أنهم يحبون أن تخرج الأشياء منهم بالجهد ، وإن كانوا يحبون إخراجها بغير جهد ، ليسقطوا بذلك حظ النفس في أن ترى الأشياء وهي تبذل ، أو أن يستحي صاحبها من أن تخرج منه كرهًا .

٥ - ومن أصولهم أن الغفلة هي التي أطلقت للخلق النظر في أفعالهم وأحوالهم ، ولو عاينوا أمانًا من الخلق لاستحقروا ما يبدو منهم في جميع الأحوال ، واستصغروا ما لهم في جنب ما عليهم .

٦ - ومن أصولهم معاملة من يجفوهم بالحلم ، والاحتمال والخضوع والاعتذار

والإحسان دون مقابلتهم بمثل ذلك . ويرتبط هذا الحديث بمفهوم ضبط النفس والسيطرة عليها Self Control في علم النفس الحديث (ص ١٠٠) .

٧ - ومن أصولهم إتمام النفس في جميع الأحوال ، أقبلت أم أدبرت ، أطاعت أم عصيت ، وقلة الرضا عنها والميل إليها بحال .

وترتبط هذه الفكرة بمفهوم « تأنيب الضمير » في علم النفس (ص ١٠٠) .

٨ - ومن أصولهم محاربة الرياء ، ويجب أن لانفهم الرياء الملامتي بالمعنى الضيق المألوف : أي إظهار غير ما يبطنه الإنسان بل الرياء عند الملامتي هو إظهار غير الحقيقة ، والحقيقة عنده معناها أن كل عمل فهو للَّه ، وكل إرادة فهي للَّه ، وإذن فادعاء الإنسان لنفسه عملًا أو إرادة رياء محض . ويرتبط هذا الحديث بمفهوم « الصدق » كأحد سمات الشخصيات الإنسانية ، والاتساق مع اللذات (ص ١٠٠ - ١٠٤) .

٩ - ومن أصولهم أن الأذكار أربعة : ذكر اللسان ، وذكر بالقلب ، وذكر بالسر ، وذكر بالروح ولكل واحد من هذه الأذكار عندهم آفة .

١٠ - ومن أصولهم مخالفة لذة الطاعات ، فإن لها سمومًا قاتلة . وترتبط هذه الفكرة بمفهوم قمع الدوافع في علم النفس الحديث (ص ١٠٥) .

١١ - ومن أصولهم تعظيم ما عندهم من جميع الوجوه ، وتصغير ما يبدو منهم من الموافقات والطاعات وملازمة حدهم مع اللَّه من غير قصد .

١٢ - ومن أصولهم أنهم باعوا أنفسهم ، واشتروا بها الجنة .

١٣ - ومن أصولهم أيضًا ما قاله الجرجاني ؛ بأن حسن الظن باللَّه غاية المعرفة ، وسوء الظن بالنفس أصل المعرفة بها .

١٤ - ومن أصولهم التأدب بإمام من أئمة القوم ، والرجوع في جميع ما يقع لهم من العلوم والأحوال إليه . ويرتبط هذا الأصل بأحد مفاهيم التعليم وخاصة مفهوم « التعلم عن طريق النمذجة والمحاكاة » في نظرية التعلم الاجتماعي (ص ١٠٨ - ١١٠) .

١٥ - ومن أصولهم أن كل عمل وطاعة وقعت عليه رؤيتك واستحسنته من نفسك فذلك باطل .

١٦ - ومن أصولهم رؤية أنفسهم ورؤية عذر الخلق فيما هم فيه .

١٧ - ومن أصولهم حفظ القلب مع اللَّه بحسن المشاهدة ، وحفظ الوقت مع الخلق

بحسن الأدب ، وكتمان ما يظهر عليه من الموافقات إلّا ما لابد من إظهاره .

١٨ – ومن أصولهم أن أصل العبودية شيئان : حسن الافتقار إلى اللّٰه ﷻ ، وهذا عن باطن الأحوال ، وحسن القدوة برسول اللّٰه ﷺ ، وعلم الذي ليس فيه للنفس نفس ولا راحة . وترتبط هذه الفكرة بالتعلم عن طريق « القدوة » ، (ص ١١١) .

١٩ – ومن أصولهم أن الإنسان يجب أن يكون خصمًا على نفسه ، وغير راض بحال من الأحوال. ونلمح هنا إشارة إلى مفهوم ضبط النفس Self Control في علم النفس الحديث (ص ١١١) .

٢٠ – ومن أصولهم أن النظر إلى العمل والعجب به من قلة العقل ورعونة الطبع .

٢١ – ومن أصولهم ترك الكلام في العلم والمباهاة به ، وإظهار أسرار اللّٰه منه عند غير أهله . ونلمح هنا إشارة سمة التواضع كإحدى سمات الشخصية (ص ١١٢) .

٢٢ – ومن أصولهم أن السماع إذا عمل فيمن يتحقق فيه ، أن هيبته تمنع الحركة والصياح لتمام هيبته عليهم .

٢٣ – ومن أصولهم أن الفقر سر اللّٰه عنده ؛ فإذا ظهر فقره منه فقد خرج عن حد الأمناء وأصبح محتاجًا .

٢٤ – ومن أصولهم ترك تغيير اللباس ، والكون مع الخلق على ظاهر عليه ، والاجتهاد في إصلاح السر . ويرتبط هذا الحديث بمفهوم الاتساق مع الذات (ص ١١٣) .

٢٥ – ومن أصولهم ترك الاشتغال بعيوب الناس شغلًا بما يلزمهم من عيوب أنفسهم ، ومحاذرة شرها ودوام تهمتها ، والإقامة على إصلاحها ومكنون عذرها وخفاء سرها .

٢٦ – ومن أصولهم أن المعطي يجب عليه ألّا يرى عطاءه شيئًا ؛ لأنه يعطي ما للّٰه عنده ، ويوصل الحقوق إلى مستحقيها ، فإذا أعطى حق الغير كيف يعظم ذلك عنده ؟

٢٧ – ومن أصولهم أن أقل العبيد معرفة بربه عبد ظن أن فعله وطاعته تستجلب عطاءه ، وأن عطاءه يقابل فضله ، ولا يصبح للعبد عندهم شيء من تمام المعرفة حتى يعلم أن كل ما يرد عليه من ربه من جميع الوجوه فضل غير استحقاق .

٢٨ – ومن أصولهم ألّا يبصر الإنسان عيب أخيه إلّا أن يكون معيبًا .

٢٩ - ومن أصولهم كراهة الدعاء إلا للمضطرين : والمضطر عندهم من لا يجد لنفسه وجهًا ولا متاعًا ولا مقالًا عند اللَّه تعالى ولا عند الخلق ؛ فيكون رجوعه إلى ربه بانكسار وضعف دون أن يقدم أحواله وأفعاله ، ويكون رجوعه إلى ربه على حد الإفلاس والتخلي من كل شيء ؛ فيكون الدعاء مباحًا في ذلك الحال ، ويرجى لدعائه الإجابة .

٣٠ - ومن أصولهم أن الغفلة - التي هي رحمة اللَّه - هي على من استوفى أوقاته في المجاهدة والمعاملة ، فإذا أراد اللَّه به رفقًا رفاهية أورد عليه غفلة يستريح فيها لذلك . ويرتبط هذا الحديث بمفهوم الاسترخاء العضلي في العلاج السلوكي Behaviour Therapy (ص ١١٥) .

٣١ - ومن أصولهم أن كثرة الحركة في الأسباب من علامات الشقاوة ، وأن التفويض والسكون تحت مجاري الأقدار من علامات السعادة .

٣٢ - ومن أصولهم أنهم كرهوا أن يُخدموا أو يُعظَموا أو يُقصَدوا ، ويقولون : ما للعبد وهذه المطالبات ؟ ونلمح هنا إشارة إلى سمة التواضع كأحد سمات الشخصية (ص ١١٥) .

٣٣ - ومن أصولهم في الفراسة أن الإنسان يجب أن يتقي من فراسته ، والمؤمن لا يدعي فراسته لنفسه .

٣٤ - ومن أصولهم أن الإنسان يجب أن يكون عونا لإخوانه في أشغالهم وما يحتاجون إليه . ونلمح هنا إشارة إلى مفهوم « التفاعل الاجتماعي » كأحد مفاهيم علم النفس الاجتماعي .

٣٥ - ومن أصولهم أيضًا أن من كثر علمه استقل كثير عمله ؛ لعلمه بتقصيره فيه ، ومن قل علمه أستكر قليل عمله ؛ لقلة رؤية التقصير فيه والعيب .

ويرتبط هذا الحديث بمستوى طموح الفرد ؛ كإحدى سمات شخصيته Level of Aspiration (ص ١١٦) .

٣٦ - ومن أصولهم أن سماع الأذن يجب ألَّا يغلب مشاهدة البصر ، والمعنى ألَّا يغلبه سماع ما سمعه في نفسه من الثناء بالظن بما يتحققه هو من آفات نفسه ومشاهدته . وترتبط هذه الفكرة بمفهوم « صورة الذات » في علم النفس (ص ١١٦) .

٣٧ - ومن أصولهم ترك الكلام في دقائق العلوم والإشارات ، وقلة الخوض فيها ، والرجوع إلى حد الأمر والنهي .

٣٨ - ومن أصولهم التوكل على اللّه .

٣٩ - ومن أصولهم كتمان الآيات والكرامات ، والنظر إليها بعين الاستدراج ، والبُعد عن سبيل الحق .

٤٠ - ومن أصولهم ترك البكاء عند السماع والذكر والعلم وغير ذلك ، وملازمة الكمد ، فإنه أحمد للبدن .

٤١ - ومن أصولهم أنهم قالو : يجب أن يكون الواعظ منك يوم موتك بيتك لا أن تظهر الفقر طول حياتك ، فإذا مت كان بيتك كأحد بيوت من سلف من أرباب الفقر .

٤٢ - ومن أصولهم ترك الرجوع إلى أحد المخلوقين والاستعانة بهم ، فإنك لا تستعين إلّا بمحتاج أو مضطر ؛ ولعله أشد حاجة واضطرارًا منك .

٤٣ - ومن أصولهم إذا رأوا لأنفسهم إجابة دعوة حزنوا واستوحشوا ، وقالوا هذا مكر واستدراج . ويرتبط هذا الحديث بشكل غير مباشر بمفهوم التروي في الاستجابة ، كما يرتبط بموضوع الانفعالات Emotions (ص ١١٨) .

٤٤ - ومن أصولهم قبول الرزق إذا كان فيه ذل ، ورده إذا كان فيه عزة نفس وشره طبع .

٤٥ - ومن أصولهم ما قيل في الصحبة ؛ حيث قالوا : حسن الصحبة ظاهرة أن توسع على أخيك من مال نفسك ولا تطمع في ماله ، وتنصفه ولا تطلب منه الإنصاف وتكون تبعًا له ولا يكون تبعًا لك ، وتتحمل منه الجفوة ، ولا تجفوه ، وتستكثر قليل بره وتستقل ما منك إليه .

أوجه الاستفادة من هذا الكتاب في علم النفس :

يمكن الاستفادة من هذا الكتاب في مجالي :

١ - سيكولوجية التعلم .

٢ - علم النفس العام .

* * *

فهرس المصطلحات

[أ]

[ب]

[ر]

[س]

[ش]

[ص]

[ض]

[ط]

[غ]

[ف]

[ك]

[هـ]

[و]

[ي]

* * *

رقم الإيداع
١٣٠٠٩ / ٢٠٠٨
الترقيم الدولي I.S.B.N
977-342-650-5

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم . . السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته . .

نشكر لك اقتناءك كتابنا : « علم النفس في التراث الإسلامي » ورغبة منا في تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيك مهمٌّ بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائمًا بملاحظاتك ؛ لكي ندفع بمسيرتنا سويًا إلى الأمام .

*** فهيَّا مارس دورك في توجيه دفة النشر باستيفائك للبيانات التالية :-**

الاسم كاملاً : .... **الوظيفة :** ....

المؤهل الدراسي : .... **السن :** .... الدولة : ....

المدينة : .... حي : .... شارع : .... ص.ب : ....

هاتف : ☐☐☐☐☐☐☐ / ☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐ : e-mail

- من أين عرفت هذا الكتاب ؟

☐ أثناء زيارة المكتبة ☐ ترشيح من صديق ☐ مقرر ☐ إعلان ☐ معرض

- من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : .... المدينة : .... العنوان : ....

- ما رأيك في الكتاب ؟

☐ ممتاز ☐ جيد ☐ عادي (لطفًا وضح لِمَ) ....

- ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ متميز (لطفًا وضح لِمَ) ....

- ما رأيك في سعر الكتاب ؟ ☐ رخيص ☐ معقول ☐ مرتفع

(لطفًا اذكر سعر الشراء) .... العملة ....

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة . . . فلا تتوانَ ودَوِّن ما يجول في خاطرك : -

....

....

....

....

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسة منها خاصة - وكذلك كتب الأطفال .

عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على **e-mail:info@dar-alsalam.com**

أو **ص.ب ١٦١ الغورية - القاهرة - جمهورية مصر العربية**

لنراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا

(من أجل تواصل بنّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم :

نشكرك على اقتنائك كتابنا هذا ، الذي بذلنا فيه جهدًا نحسبه ممتازًا ، كي نخرجه على الصورة التي نرضاها لكتبنا ، فدائمًا نحاول جهدنا في إخراج كتبنا بنهج دقيق متقن ، وفي مراجعة الكتاب مراجعة دقيقة على ثلاث مراجعات قبل دفعه للطباعة ، ويشاء العلي القدير الكامل أن يثبت للإنسان عجزه وضعفه أمام قدرته مهما أوتي الإنسان من العلم والخبرة والدقة تصديقًا لقوله تعالى :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء : ٢٨)

فأخي العزيز إن ظهر لك خطأ طباعي أثناء قراءتك للكتاب فلا تتوان في أن تسجله في هذا النموذج وترسله لنا فنتداركه في الطبعات اللاحقة ، وبهذا تكون قد شاركت معنا بجهد مشكور يتضافر مع جهدنا جميعًا في سيرنا نحو الأفضل .

الخطأ	رقم الصفحة	السطر

شاكرين لكم حسن تعاونكم . . ،